

فرمين فحمد الله

سلسلة "رهق للرماد حياة"

Des : Delicate Butterfly

من يحميك

حقوق من يحميك

من يعيد قوس قزح؟

من يعيد

قوس قزح؟

بقلم:-

نرمين نحمد الله

نرمين نحمد الله

تصميم:-

غلاف:-

Delicate Butterfly

داخلي:-

Delicate Butterfly

تنسيق و رابط إلكتروني:-

روان النمكي

****تمهيد****

يقولون إن "من في القاع لا يخشى السقوط"...

فما الذي قد تخشاه مثلي!؟

ناريّة عاصفة متفجرة...

فلا تلمني سيدي...

أنا لست إلا تائهة...

وجدت على جسر كسير طريقها...

فامدد إليّ يدك أو دعني أقع...

فليس أسوأ من الموت إلا انتظار الحياة!

(أحمر...يسرا)

=====

أحكي التصويب فاتتني ...
فالسهم إن لم ينفذ لقلبي رددته إليكِ عشراً!
بيني وبينك ما بين المشرق والمغرب لكن ...
منذ متى تعترف جياذ الحب بمسافات؟!
(إبراهيم)



لما لقيتك كنت أعلم أن الحب ضعف...

والغدر سيفٌ لا يضل طريقه...

فكيف تحت مقصلة عشقك تركت عنقي يتكسر!؟

وكيف يعتق الحب من عاش عمراً به يكفر!؟

(برتقالي... طيف)



فليشهد العمر أني ما اخترت الطريق ...
وليشهد البحر أني ما اخترت الغرق...
ولتشهدي يا -توأم الروح- أني ...
قد عشت -مثلك- بلهب ماضٍ أحترق...
بالوزر موصوم...فلتغفري ..

لو عصفت الريح فما ذنب الورق!؟

(يحيى)



وأقسم أنك بعد العمر عمر ...
وبعد الحياة حياة...
لم يزل ما بيننا أسطورة...
معجزة...كفارة...ونجاة...
نجم بعيد لم ينتظر أمنيته..
بل سقط في حجري ...
ما كان أبعدہ ...والآن...ما أدناه!
(أصفر...روى)



طالما عشقتها امرأة بنكهة الليمون...

لاذعة... قابضة... لكنها منعشة!

تضرب القلب كإعصار...

ثم تهدده.. كنسيم...

تجتاحني كالصيف...

تغويني كالربيع...

تخرقني كشتاء...

وكالخريف تملؤني بالشجن!

فكيف من عشق كهذا براء؟!؟

(راغب)

=====

على حافة "المنتصف" السخيفة دوماً أقف...

لا يمين يجذبني ولا يسار يغريني...

الأصفر المجنون يدفعني...

والأزرق الخواف يبقيني..

وبينهما "خضراء" أنا أتأرجح...

فأي عشقٍ يداويني!؟

(أخضر... عزة)



كالقارب الورقي في يد طفل ..

فُقدت لديك إرادتي..

ما عدت أعرف فاصلاً في هواك...

ما بين عقلي وحماسي..

لكن قلبي لازال يدرك أنني ..

ادركت معك سعادتي..

وبأن عرائس الأحلام بعدك لن تفارق جنتي

(إيهاب)



بيني وبينك في الحب أغرب قضية..

تحتاجني ..كغيمة...

وأحتاجك...كمطر...

تحتاجني ..كشمس..

وأحتاجك...كقمر...

تحتاجني وطناً...

وأحتاجك هوية...

وفي محكمة الحب...

العاشق مدانٌ حتى يثبت -بالجنون- براءته !

(أزرق...جنة)



آه من وهج بندقها لما تعانقه الجفون ...
من سحر أزرقها لما تصافحه العيون...
تتساءلين بمكر إلى متى؟!
وتعلمين الجواب..
فهواكِ قدرٌ لو أتى ...ما غاب!
وهواكِ عندي هويةٌ ...دونه لا أكون...
حتى تزهق آخر أنفاسي...
لا أفارق ولا أخون ...
(فهد)



لو تأذن لي أن أبكي الآن على كتفك...

لو تأذن لي ..

فأمزق أشرطة حياتي...

وأسابق عمري في عينيك...

لو تأذن فأفقد خطك ..

وأعيد كتابة تاريخي

بكلام الحب على شفقتك..

(نيلي...زهرة)

=====

القلب يعزف ألف لحن للوجع...

الفارس المشهود فوق جواده... وقع!

وأنا المذبوح بين أمسي وغدي ...

أترنج... فardاً يدي...

أدور خلف الطائفين حول صنم الوهم مدعياً

خشوعي..

لكن قبس النور لازال ييزغ من ضلوعي...

عودي إليّ حقيقتي فكم مللت خداع المرايا!

(جهاد)

=====

دم...بحر...دم...بحر...

أحمر...أزرق...

بنفسجي!

هذه الأرجوانية أنا !

فاحذرنى يا "قذاف الحطب"!

عينك تلقي أحطابها في نار قلبي فتزيدها...

ما بين لهب انتقامي...ونار عشقي...

أحترق!

كن لي -بربك- عاشقاً ...

أو لا تكن...

فمصيرنا -سويًا- واحدٌ قد كُتِب!

(بنفسجي...ديمة)

=====

ناعمة أنت...كثيرة جنة..

قاسية...كجحيم!

دافئة كعناق العشق...

باردة كتلوج الموت...

حارقة كسياط الندم ...

حاقدة كدموع التكلى...

أي حب قد يوحد دربنا؟!!

أي صفحٍ قد يداري ذنبنا؟!!

خنجري المسموم خلف ظهري ..

وخلف ظهرك خنجرك...

متى تعانقتنا...حتماً نموت!

(حسام)

=====

يا حبنا أقسم لنا أن الربيع مهما تأخر ...

يوماً يعود...

يا حبنا اغفر لنا ...

جدد - على الصفح - الوعود ...

يا حبنا ما كان كان...

والأمل فيك وفي غدي..

يا حبنا شد الوثاق ...

ولا تسرب من يدي!

(أبيض...ماسة)



شمس أنتِ...

عادت أفلاكها لتسكن سمائي ولا تغيب !

(عاصي)



تعرفونه ذاك المراوغ المشاكس الحلو

الشهي... الخدّاع!؟

ذاك الذي يختفي حيناً بين الغيمات...

يتراقص منتشياً بعد حفلة مطر...

يغمزك بخفية لعوب... يسرق نظراتك ليلونها

بألوانه!؟

أحمر... برتقالي... أصفر... أخضر... أزرق... نيلى... بنف

سجي..

يالروعتك قوس قزح!

خذنا إليك فقد مللنا زئير الرياح وسواد الوحل وعبثية

الحلم!

اصنع لنا قارباً من طيفك نعبر به بحر آثام تلاطمت

أمواجه...

مزق دفاتر حزننا...
أوقد مشاعل شغفنا...
ابتسم لنا... دغدغنا...
أو حتى شدّ آذاننا عتاباً لكن عد لنا...
عد لنا يا "نورس" الفرحة المهاجر...
عد لنا قوس قزح!
نرمين نحمد الله



****أحمر**

انتهت يسرا من مصافحة تلك السيدة بعبارتها

التقليدية: (البقاء لله)

لتصطحبها بحركاتها الرشيقة حتى غادرت باب

الفيللا...

أغلقت الباب خلفها ببعض العنف قبل أن ترسم على

شفتيها المكتنزتين ابتسامة ساخرة لم تلبث أن تحولت

لضحكة مختنقة وهي تعود لصورته التي علقت على

الحائط...

والتي زينها الآن شريط أسود مائل...

رحلت يا سيادة اللواء؟! رحلت للأبد؟! عساني
أبكيك كذباً أم أبوح بالحقيقة التي لن تعود قادراً على
سماعها؟!

غمغت بها بنفس السخرية المريرة لتتلفت حولها
للفيلا التي خلت الآن إلا منها ومن والدتها النائمة
بالأعلى ...

عبث!!

كل هذا عبث!!

رفعت الصباحي...

الرجل "العظيم" الذي يواسونها الآن لفقده مات
بقلبها وعينيها منذ زمن بعيد ...

وما يحدث الآن أنهم فقط قد واروه التراب!

تهدت عند خاطر الأخير ثم عادت ترمق الصورة

بنظرة حملت نزيف مشاعرها ...

قبل أن تتحرك لتصعد الدرج نحو غرفتها بالأعلى ...

ثلاث سنوات تقريباً قد مرت عليها وهي غائبة عن

هذه الغرفة ...

وهذا البيت ... بل هذا البلد !

كانت بمنفى صنعوه لها وزينوه بالزهور ...

والزهور قصيرة العمر لو تعلمون !!

ثلاث سنوات بدت لها كحياة أخرى كاملة ...

حياة انتهت بنزيف وجع لا يزال يجد مكانه بين

ضلوعها !

قدماها تحملانها نحو خزانة ملابسها التي فتحتها

لتنحني نحو صندوق صغير هناك ...

شريط الأقراص "الساحرة" يناديها باغواء كما كل

مرة ...

فتمتد أناملها نحوه بتردد يزداد يقينه رويداً رويداً

حتى اختطفته أخيراً بحركة عنيفة لترفعه أمام

عينها ...

_"ماما" ...

صوت "الصغير" يأتي لها من بعيد ...

من بعيد جداً ... فتشتعل معه بالذكري ...

تذكره بمنامته البيضاء التي تلطخت بدمه ...

شعره الأشقر الناعم الذي ورثه عنها ... والذي تواري

خلف ضمادة بيضاء كبيرة ...

شفتيه المكتنزتين اللتين شحبتا وقتها كثيراً ...

وعينيه الخضراوين اللتين غاب عنهما بعدها بريق

الحياة للأبد !

_قتلتِ ابنك يا "مجرمة"!

الصفعة التي تلقتها على وجهها منه بعد عبارته كانت

أقل وجعاً بكثير من جلد ضميرها ...

الصفعة التي تلتها أخرى وأخرى حتى سقطت تحت

قدميه ...

كما سقط معها كل شيء!

دموعها تنهمر أخيراً على وجنتيها تعانق أنينها

المتصل...

والذي تحول الآن لآهات متوجعة لينزلق ذراعاها

جوارها فيسقط شريط الأقراص ..

تدهسه قدماها بقوة ...

مرة تلو مرة... تلو مرة...

حتى تنهار أخيراً وهي تجلس مكانها على

الأرض ...

وشريط ذكرياتها الأسود يعاود احتلال ذهنها

بضراوة...

تدفن وجهها بين راحتها وهي لا تدري ما الذي

تبكيه...

ومن الذي تبكيه!؟

كل ما في حياتها خسارة تتمخض عن خسارة...

والم لا يلد سوى ألم!

لكن القدر رحمها من التلطي بنيران جحيمها أكثر

عندما رن هاتفها ...

ربما كانت لتجاهله في وقت آخر لكن المكالمة المهمة التي تنتظرها جعلتها تتحرك لتفتح الاتصال بصوت لم تفارقه رنة بكائه:

جاهزة؟!

ويبدو أن الإجابة من الطرف الآخر كانت بالإيجاب فقد ارتخت ملامحها لتتظر للساعة في هاتفها قبل أن تعيده لأذنها مع قولها المقتضب :
_سأقابلك في (...).

قالتها وهي تذكر لمحدثتها العنوان قبل أن تغلق الاتصال لتمسح ببقايا دموعها ...

نفس عميق تسمح له أخيراً بالدخول لصدرها وعيناها تزيغان لبقايا الشريط الذي انسحق على الأرض...

فانحظ بقليل من العبت!

همست بها لنفسها بسخرية مريرة وهي تتوجه نحو
مرآتها ...

وكأنما تلبستها روح امرأة أخرى غير هذه التي كانت
تبكي بانهيار منذ قليل ...

تخلع عنها ثوبها الأسود الذي ترتديه لاستقبال
التعازي في الفريد "الغالي" ...

لتتناول ثوباً آخر أحمر اللون وترتديه ببطء متلذذ
وهي تتابع صورة نفسها في المرآة بعينين
لامعتين ...

تمشط شعرها بعناية ثم تحاول مداراة أثر بكائها
برتوش زينتها المتكلفة ...

طلاء شفاه أحمر لامع يكمل جراءة إطلالتها ...

لينتهي المشهد بقبلة لصورتها في الهواء مع قولها

بنفس النبرة العابثة:

_مضى زمن السجن ... لن تضيعي من عمرك ساعة

واحدة بعد الآن !

قالتها ثم تناولت حقيبتها لتغادر الغرفة نحو غرفة
والدتها التي فتحت بابها بحرص تتيقن من نومها قبل

أن تعاود إغلاقه...

تغادر الفيلا بعدها مصطمة بنظرات الحراس
الفضولية الجائعة والتي قابلتها هي بنظرة رادعة...

استقلت سيارتها لتشغل موسيقا أجنبية صاخبة

تمايلت معها برأسها قليلاً وهي تجوب الشوارع

بلا هدف ...

حتى حان موعدها فانتظرت " غنيمتها " في ذاك

الشارع المظلم ...

التمعت عيناها بلهفة وهي تراها تقترب منها من

بعيد ...

ممتاز!

لم تكن تحلم بأكثر من هذا!

لهذا ارتسمت على شفيتها ابتسامة ظافرة وهي

تراقب المرأة التي اقتربت أكثر لتستقل السيارة

جوارها ...

والتي غمغت بتحية مقتضبة بصوت مهتز لم تكلف

نفسها عناء الرد عليها وهي تقول لها بينما عيناها

متشبهتان بوجهها:

_____ مادتِ قد وافقتِ فلن أسمح بالتراجع ... مفهوم؟!!

رمقتها المرأة بنظرة خائفة وهي تتعجب من هيئتها
الفجة مقارنة بوضع امرأة مات والدها لتوه...
لكن يبدو أن هؤلاء "الأكابر" يعتبرون المشاعر هذه
نوعاً من الترف الذي لا يمارسونه طواعية!
لهذا ازدردت ريقها بتوتر وهي تمنحها إيماءة طاعة
فأشارت لها يسرا برأسها قائلة:

_ اخلعي حجابك هذا...أريد رؤية شعرك.

تلفتت المرأة حولها ثم نزعت عنها حجاب رأسها
لتفرد شعرها على كتفيها فابتسمت يسرا برضا وهي
تخبط على المقود بأناملها لتعاود أمرها:

_ وقميصك أيضاً!

ترددت المرأة بحرج وهي تعاود التلفت حولها ثم فكت
أزرار قميصها بأنامل مرتجفة لتخلعه عنها تحت
نظرات يسرا المتفحصة...

والتي قالت أخيراً:

_ ستحتاجين لـ "حمية" خاصة سريعاً... أريدك أن
تفقدني بضعة كيلوجرامات .

عادت المرأة تومئ برأسها وهي تعاود ارتداء
قميصها بسرعة بينما قالت يسرا بتعابير صارمة:
_ ما بيننا لن يعرفه أحد... أي أحد ... أظنك تعرفين من
أكون وما الذي يمكنني فعله.

قالتها وهي تشير بسبابتها نحو عنقها إشارة ذات
مغزى فارتجف جسد المرأة لا إرادياً لتمنحها نظرة
خائفة أرضتها ...

فَعَادَت بِبَصَرِهَا لِلْأَمَامِ وَهِيَ تَهْمَسُ لِنَفْسِهَا بِمِرَارَةٍ

سَاخِرَةٌ:

هَذِهِ مِيزَةٌ مِنْ مِيزَاتِ الْمَالِ وَالسُّلْطَةِ يَا ابْنَةَ

أَبِيكَ... هَاهُنَا يُمْكِنُ شُرَاؤُ أَيِّ شَيْءٍ... أَيِّ شَيْءٍ.

=====

****برتقالي...***



(ستدرك انك كبرت ...

عندما تتوقف عن الانبهار باي شخص وباي شئ...)

عندما تتحول حياتك كلها لنكته سخيفة سمعتها من

قبل الاف المرات...

لكنك فقط كنت طفلا احمق يضحك عليها كل مرة

وكأنها المرة الاولى!!)

كتبتها طيف على حسابها الشخصي لتحصد المزيد

من

الإعجابات التي راقبتها عيناها بسرعة قبل أن تغلق

حاسوبها المحمول ببعض العنف...

تهيدة حارقة انفلتت من شفيتها وهي تتناول هاتفها

لتتفحصه...

بضع مكالمات فائتة من "عاصي الرفاعي"!

سمعتها لكنها لم تستطع الرد عليها ...

لماذا؟!!

لأنها تكره شعورها السخيف بالضعف عندما يحدثها

بهذه القوة الحنون التي تبغضها...و...

تحتاجها!

أجل...هي ليست غنية عن بضاعته الرائجة التي

يشتاقها سوق مشاعرها الكاسد ...

لكنها تكره الاعتراف بفقرها إليه ...

تكره وهن احتياجها الذي ينخر كالسوس في عصا

قوتها التي طالما أسندتها ...

إن كان هو "عاصي الرفاعي" فهي "طيف الصالح"

التي رفضت و -لاتزال- ترفض نسب أبيه!

لكن شعورها هذا لم يمنعها من تفحص صور

الاستوديو بهاتفها لتملاً عينيها من صور صغيريه...

نور و ضياء!

مَلَكَان يشبهان أمهما كثيراً ولن تعترف بأن لهما من

أبيهما نصيباً !

كم تعشقهما رغم أنها لم ترهما إلا في الصور!

لكنها تعشق كلمة "عمتو" التي يخصانها بها عندما

يجعلهما أبوهما يحدثانها على الهاتف !

تعشقها وهي تشعرها أنها -وإن أبت- لها عائلة!

عائلة؟!!!

ياالله!!!

هذا الشعور الذي لم تعرفه في حياتها قط !
منذ وعت على هذه الدنيا لتجد نفسها تعمل مع أمها
خادمة في البيوت ...
ينادونها "بنت حرام" ...
يعاملونها كـ "بنت حرام" ...
ينتظرون منها فحشاً يليق بـ "بنت حرام" ...
ويلفظونها خارجاً كـ "بنت حرام" !
وعند خاطر الأخير دمعت عيناها وهي تتذكر آخر
لقاء لها بـ "حسام القاضي" ...

أنا... أحبيتك... حقاً!

**أنتِ الشيء الوحيد في حياتي الذي بقي يذكرني بأن
لي قلباً... والآن...**

وكأنما تسمعها الآن منه بصوته الكسير في آخر لقاء

بينهما ...

ولو صدقت نفسها لقاتت أنها مثله ...

هو الشيء الوحيد في حياتها الذي بقي يذكرها بأن

لها قلباً...

ربما لهذا سحقته بكل قسوة ...

مالها هي وحديث القلوب؟!!

هي كفرت به من زمن!!!

لهذا أخذت نفساً عميقاً تتمالك به نفسها ثم تناولت

لغافة تبغ من جوارها لتشعلها وتنفث دخانها ببطء ...

قبل أن تتلاعب أناملها على شاشة هاتفها لتتبين

حسابه الشخصي على "الفيس بوك" ...

المغرور لا يزال يضع صورة لنفسه وهو يمسك

مسدسه !

عيناه الصقرتان لاتزالان تلتمعان بوجهما القديم ...

لكنها وحدها من تدرك أي جرح سكنهما ...

جرح صنعته هي ... وليست نادمة !

لم تنتبه أن رماد السيجارة قد سقط على ذراعها

لتشعر بلسعة خفيفة جعلتها تنفضه عنها بقوة ...

قبل أن تعاود سحب نفس عميق منها لتنفثه من جديد

أمام صورته على هاتفها

اكتفت بهذا القدر من ماضيها لتلقي الهاتف جانباً كي

تنهض من فراشها وتتوجه نحو نافذة غرفتها التي

فتحتها لتتطلع نحو الشارع القريب المظلم ...

"ليلة عيد" أخرى باردة تنتظرها هنا ...

لكن...مهلاً!

منذ متى عرفت هي طعماً لليالي الدافئة؟!!

ارتسمت على شفثيها ابتسامة ساخرة وهي تعاود

نفت دخان سيجارتها قبل أن تتعلق عيناها بنافذة

الشقة المجاورة المقابلة لنافذتها ..

لتتحول ابتسامتها الساخرة لأخرى حنون وهي تراقب

الطفلة التي جلست على كرسيها تراقب الطريق مثلها

بشجن غريب على طفلة بعمرها ...

منذ متى تسكن هذه "الحلوة" هنا؟!!

كانت تبدو في العاشرة من عمرها تقريباً بشعر أسود

كشعرها لكنها كانت تفوقها جمالاً بكثير بعينيها

الواسعتين وفمها المكتنز الصغير وخديها الممتلئين

بحمرة محببة...

لا تدري لماذا خطفت هذه الطفلة بالذات قلبها ...

كم تود لو تزعم أنها تشبهها في طفولتها ...

لكن التشبيه مجحف -للصغيرة- قطعاً ...

فالأولى تبدو كقطعة من القمر بينما هي تعلم أن حظها

في الجمال فقير !

ولم تمضِ بضع دقائق حتى علمت لماذا يسكن الحزن

عيني الصغيرة هكذا ...

فقد تقدمت منها امرأة ما لتسحب كرسيها -الذي

تبينت ماهيته - نحو الداخل!

انعقد حاجباها بقوة وهي تشعر نحوها بالإشفاق ...

لطالما كان الأطفال نقطة ضعفها الكبرى ...

ربما لأنهم يذكرونها بضعفها الذي تحاول دوماً

تناسيه ...

وربما لأنها توقن أن عمرها الذي ينفرط من بين
يديها بسرعة البرق لن يتوقف بها قطاره أمام محطة
أمومة !

هنا عادت تتهد بحرارة وهي تتبته لنفاد سيجارتها
التي ألفت بقاياها بإهمال جانباً دونما اكترات بنظافة
المكان ...

علامَ تتقاضى الخادمة راتبها الباهظ ذاك إذن؟!
رحم الله تلك الأيام التي كان ظهرها يكاد ينحني فيها
وجعاً مقابل وجبة عشاء من رغيف وقطعة جبن!
وكأنما عادت ذكرياتها البائسة ترسم قسوة قناعها من
جديد ...

فعدت نحو فراشها لتستلقي عليه وهي تداعب
شعرها بأناملها ثم تناولت حاسوبها لتعاود كتاباتها
المتطرفة:

(تظنين الحزن يقتلنا يا حمقاء!؟)

ليته يفعل!!

إنه فقط وحش سادي يكتفي بتعذيبنا مع "توأمة
اللطيف" الذي يسمونه الأمل... كلاهما يجعلك تقفين
في طابور انتظار طويل يلتهم عمرك بتلذذ صامت ...

والحل!؟

لا حل يا بئسة سوى التغافل... هو بضاعة

(الخاسرين!)

كتبتّها ثم زفرت بسخط لتتناول مفكرتها تحاول

استكمال روايتها الحالية...

الكتابة هي متفلسها الوحيد وسط هذا العالم الخانق...
تمنحها هي عمرها وطاقتها لتعطيها في المقابل حياة
أخرى تعيشها في الخيال...

أبطال ترسم هي حيواتهم ومصائرهم بالعدل الذي تراه
عينها ...

تمنحهم العيش الرغيد الذي لم تتله هي...
تعيش أحزانهم الخاصة لعلها تتناسى أحزانها هي...
الكتابة هي عمرها...حياتها...عائلتها الكبيرة التي
تزداد فرداً يوماً بعد يوم...

الكتابة هي "ابنها البار" الذي لن تناله يوماً على
أرض الواقع لكنها تتعم بقبلاته وعناقه بين
السطور...

هي "زوجها المحب" الذي لن تنعم بلمساته يوماً
لكنها تتنفس حبه على الورق...
الكتابة هي عالمها الموازي الذي لن يعيرها بنسب
ولن يلفظها كـ "بنت حرام"...
بل يرفعها ملكة كما كانت تحلم دوماً!
لهذا ظلت تكتب وتكتب غافلة عن الوقت الذي سرقتها
لتجد الليل قد انتصف...
شعرت بالعطش فقامت لتتوجه نحو المطبخ القريب
ولم تكد ترفع الزجاجاة لشفيتها حتى اصطدمت عيناها
بذاك المشهد من النافذة المظلة على نافذة جارها...
فهناك كانت تلك الطفلة على كرسيها المتحرك تنظر
بفرع نحوها...
لا لم تكن تنظر نحوها هي...

بل نحو ذاك الرجل الذي تعلق بالنافذة نفسها من

الخارج ليقحمها نحو الداخل !

لص!!!

شهقت بفرع وهي تختفي بجسدها قليلاً خشية أن

يراهها ...

قبل أن تعود ببصرها نحو نافذة الجيران التي اقتحمها

هذا " اللص " ليدخل تحت نظرات الطفلة المرتعبة...

ولم يكذب يفعل حتى اقترب من الصغيرة مهدئاً بكفيه

قبل أن يبدأ في خلع قميصه!!

كتمت صرختها بكفها وهي ترى جذعه العاري ينحني

نحو الصغيرة ليحملها ويختفي بها بعيداً عن مجال

رؤيتها ...

الغريب أن الفتاة لم تكن تصرخ ..

تراها خرساء أيضاً؟!
ياالله...ماذا تراه يفعل بها الآن؟!
هل يختطفها...
أم...
لا لا لا....
يغتصبها!

***أخضر

وهذا هو شكله النهائي بعد خروجه من الفرن!
قالتها عزة بابتسامتها الرقيقة أمام الكاميرا وهي
تعديل وضع وشاحها الأخضر على عنقها والذي
اشتهرت به شهرة واسعة...

"حورية المطبخ الخضراء" كما يسمونها صارت من
أمهر الطهاة على الشاشة ...

مجهود أكثر من ثلاث سنوات لم يضع سدى وها هي
ذي تحقق ذاتها في المجال الذي أحبته ...

كل عام وأنتم بخير... مستعدة لتلقي اتصالاتكم

الآن .

قالتها بنفس الابتسامة لتأتيها بعدها العديد من

الاتصالات التي أجابتها بلباقتها الحذرة ...

والتي انتهت بهذا الاتصال:

_ كنت أريد منك وصفة لكعك العيد بالمانجو.

اتسعت ابتسامتها وهي تميز صوته الحنون المشاكس

الذي تعرفه رغم أنه قد غير اسمه كما وصلها من

"الكنترول" ...

لكنها ردت بتحفظ:

_ كعك العيد بالمانجو؟! ألا ترى هذا غريباً؟!!

_ ألم يصنعوا كنافة بالمانجو؟! هل الغرابة الآن في

الكعك؟!!

كتمت ضحكتها وهي تدرك الفخ الذي يدفعها نحوه

لتجيبه بلباقة وهي تنظر للكاميرا عالمةً أنه ينظر

الآن إليها:

_ لا أحب "التميع"... مأكولاتنا الشرقية لها مذاقها
ومكوناتها التي تجعل لها سحرها الخاص... ولا أحب
أن تختلط عليها مكونات أخرى .

هيئ إليها أنها ترى عينيه الطيبتين تلتمعان بمرحهما
المعهود مع رده :

_ "ألف شكر" يا نجمتنا... رغم أنك تهربت من
الوصفة .

ضحكت ضحكة حقيقية وهي تغلق معه الاتصال
لتستقبل غيره ...

حتى انتهت من إذاعة الحلقة فغادرت موقعها في

الاستوديو لتتوجه نحو غرفتها ...

تناولت حقيبتها التي التقطت منها الهاتف لتتصل به:

_ أُن تكف عن "مقالبك" هذه؟!!

هتفت بها بعتاب مرح ليصلها صوته الودود:

_ إجازتي بدأت اليوم ولم أجد ما أشغل به وقتي سوى

مشاكستك.

ابتسمت بعاطفة لا تتركها نحوه ...

وإن كانت لا تعلم لها مسمى!

لا ... ليس حباً... ولا رغبة في زواج!

ولعل هذا ما يوجع ضميرها لأنها توقن من مشاعره

هو العميقة نحوها رغم أنه لم يبح لها بشيء

مباشراً...

منذ عرفته وبالتحديد منذ لقائهما في ذاك المطعم وهو

يحاول دوماً التواجد في محيطها ...

وبينما كانت هي تقترب بحذر كان هو يندفع

بجنون ...

جنون تعشقه...وتخافه ...

لأنها لا تعلم حتى الآن ما الذي تريده منه بالضبط !

_ نلتقي في نفس المطعم بعد ساعة !؟

قاطع بها أفكارها فابتسمت وهي تجيبه ببساطة تشبه

مشاعرنا نحوه:

_ الليلة ليلة العيد... هل تظن أننا سنجد مكاناً

بسهولة!؟!

_ ليس معي يا "ماما"... أنا زبون مثالي وأي مطعم

يتمناني!

ضحكت بانطلاق وهي تتخيل رجلاً بحجمه يقول لها

"ماما" هذه ...

بينما صمت هو لبضع ثوانٍ ليردف :

_أمي جوارى تقول "وأى عروس تتمناني

أيضاً"!!... "منورة يا حاجة"!

كتمت ضحكتها وهي تشعر بالخرج لوجود أمه

جواره ...

رغم البيئة- المنفتحة- التي صارت الآن تنتمي إليها

لكن نشأتها -المتحفظة- تدرك أن حديثها معه في

بعض الأوساط لا يزال غير مستساغ ...

لهذا تتحننت بخرج لتغلق الاتصال بقولها:

_حسناً يا إيهاب... أراك بعد ساعة !

قالتها ثم أعادت الهاتف لحقيبتها قبل أن تحين منها

نظرة عابرة لمرآتها ...

ملامحها البسيطة بجمال مصري هادئ ...

بشرة قمحية ناعمة ... حاجبين غليظين سمر اوين
يظللان عينين وديعتين واسعتين بلمعة عابثة...
وجنتين ممتلئتين تناقضان نحول جسدها الشديد الذي
يستدعي سخرية متوقعة مع مهنتها المعروفة ...
وشفتين رفيفتين تكملان بساطة ظلتها الهادئة ...
هاتين اللتين زينتهما الآن بطلاء نحاسي مميز
منحهما مظهراً أشهى.

عدلت وضع حجابها بلونه الكريمي المشابه للون
قميصها والذي صنع مع خضرة وشاحها مزيجاً
تحبه ...

منحت نفسها نظرة راضية وهي تشعر بسعادة لا
تدري سببها ...

لكنها كالعادة "مغلقة" بخوف ما عاد يفارق

حناياها...

غادرت الاستوديو لتستقل سيارتها الفارهة بطرازها

الجديد ...

رفعت إسورة قميصها قليلاً كي تبدو منه ساعتها

المميزة بماركة شهيرة...

كادت تنطلق بها لولا أن استرعى انتباهها الصراخ

القادم من السيارة المجاورة...

التفتت ببصرها في فضول لتجد زوجين يتشاجران

وخلفهما ابنهما يراقبهما بمزيج من خوف وأسى...

خاصةً عندما فقد الرجل أعصابه ناسياً الزمان

والمكان ليصفع زوجته !

انتفضت مكانها وهي تشعر وكأنما الصفة قد نالتها

هي !

قبل أن تعود ببصرها للصغير الذي غطى وجهه بكفيه

فزفرت بسخط وهي تشغل السيارة لتتطلق بها بسرعة

مغادرة المكان ...

_أغبياء!! لماذا يتزوجون طالما سينجبون للعالم

بؤساء مثلهم !؟

تمتت بها باستنكار ساخط وهي تحاول التركيز في

القيادة ...

تسترجع حياتها البائسة منذ بضع سنوات فقط ...

عندما كانت مجرد كرة تتقاذفها الأيدي دونما اكتراث

بإرادتها ...

والآن ... الآن ماذا صارت !؟

هنا أخذت نفساً عميقاً وهي تشعر بالانتشاء الذي

يقارب الغرور ...

كل ما وصلت إليه ... وصلت إليه وحدها ...

لو كانت الآن نجمة تهفو إليها العيون فهي التي

رسمت لنفسها السماء !

ولن تسمح لنفسها أن تتراجع عن هذه القمة مهما

كان الثمن !

ظلت تجوب السيارة في الشوارع مستمتعة بزحام

العيد المتوقع ...

هذا الزحام الذي تعشقه عندما ترى العيون المحدقة

نحوها بانبهار ...

الأكف التي تلوح لها عندما تتعرف عليها ...

حركات شفاههم باسمها "عزة الأنصاري" والتي
تقرأها عيناها بفخر من بدأ من الصفر ليدرك هذه
المكانة بفضل موهبته فحسب....

لهذا كانت تلوح لهم بدورها بكفها بحركة مدروسة
تعلمتها من سنوات عملها في برنامجها الشهير على
التلفاز ...

وفي عينيها العابثتين بلمحة حزن غامضة كانت
ترتسم تلك النظرة الجذابة التي طالما وصفوها بها ...
نظرت في ساعتها لتجد موعدهما قد اقترب ...
ورغم أنها كانت تشتاق ثرثرتها معه لكنها تعمدت
التأخر عليه قليلاً...

أجل...ربما كان هذا أحد عيوبها التي اكتسبتها
مؤخراً ...

لمحة الغرور التي صارت تصبغ الكثير من أفعالها ...
رأته هناك جالساً على المائدة فانقبض قلبها كعادتها
كلما تراه ...

يقولون إن هناك أناساً نعشق سماعهم دون
رؤيتهم ...

وهذا ما تشعره معه حرفياً!

عندما تستمع إليه تدرك أن بداخله أعماقاً رائعة...
ثقافته...حنانه...مرحه...خفة ظله...حكمته الشديدة
التي تعتبرها أثنى في صداقتها ...

لكنها عندما تراه لا تصطدم إلا بمظهره البعيد تماماً
عن الفكرة التقليدية لفارس الأحلام رشيق الجسد
ممشوق القوام ...

خاصةً أنها تشعر أنه لا يبالي كثيراً بقصة وزنه

هذه...

وكأنه لا ينظر أبداً في مرآة !

لهذا تنهدت بضيق وهي ترمقه مكانه بنظرة آسفة قبل

أن تقترب منه بخطواتها الرشيقة المدروسة لتصافحه

بنعومة قائلة :

_تأخرت عليك !

_كعادتك!

قالها بعتاب من يفهم هذا الجزء في شخصيتها

لتجلس أمامه ملاحظة كأس "المثلجات" الكبير الذي

طلبه لتبتسم وهي تهز رأسها بقولها:

_لم تضيع وقتك في انتظاري... صحيح؟!!

ضحك ضحكته الرائقة وهو يبدأ في تناوله قائلاً:

_علاقتي بالطعام أقوى من علاقتي بالبشر... وفاؤنا
لبعضنا غير قابل للجدل... أنا أعطيه مالي وهو
يعطيني السعادة... هكذا ببساطة دون وجع رأس... هل
سمعتِ مثلاً عن بيتزا غضبت من أحدهم لأنه فضل
"المسقة" عليها؟! عن دجاجة مشوية طلبها أحدهم
فتمنعت عليه؟!!

ضحكت بمرح خالطه بعض الضيق وهي تتطلع
لملامحه الوسيمة بأسف...
فقط لو يتخلى عن نهمة هذا بالطعام ويفقد الكثير من
وزنه...

ربما ساعتها يمكنها ...
يمكنها ماذا؟!!

لا... لا... هي تدرك أن هذا العيب الشكلي البسيط ليس

فقط ما يقف بينهما ...

لكنه خوفها هي من الارتباط...

من الوقوع في قبضة رجل من جديد بعدما وصلت لكل

هذا الذي وصلت إليه ...

_ ماذا ستأكلين!؟

قالها وهو يمسح فمه فأشاحت بوجهها لتتظر نحو

نافذة المطعم المظلة على الطريق المزدهم بالمارة

قائلة بشرود:

_ لا شهية لدي.

رمقها بنظرة متفحصة ثم قال مشبكاً كفيه ببعضهما:

_ ممم... يؤس ليلة العيد ككل عام!

عادت إليه ببصرها للحظات قبل أن تطرق برأسها

مغممة:

_ أجمل ما في صداقتنا أنك تفهمني.

تنهد بعمق ثم عاد بظهره للوراء قائلاً :

_ يبدو أن لديك أخباراً جديدة .

_ هيام شقيقتي هاتفني بالأمس لتحدثني في نفس

الموضوع...

_ الزواج!؟!

سألها بحذر لتلوح بذراعيها هاتفة :

_ بالطبع... تخيل بعد قطيعتها لي لعامين تعاود التقرب

إليّ لأجل هذا الأمر فقط... هي لا تريد تزويجي

لأجلي .. هي فقط لا تريد أن نكون أنا وهي الفريق

الخاسر أمام شقيق زوجها الذي طلقني... تريد التباهي

بأنه خسرنى وأنها ستزوجنى "سيد سيدة" كما تزعم
دوماً .

_ ولماذا لا تقولين إنها خائفة عليك من وحدتك؟! من
طمع الناس فى امرأة بوضعك؟!!

_ هراء!! هي فقط تريد فرض سلطتها عليّ... وهو
الذي لن أسمح لأي مخلوق بعد الآن بفعله... حتى
ولو عادت لقطيعتي من جديد وحتى لو عشت بقية
عمرى وحدي.

هتفت بها بحدة احمر لها وجهها فابتسم وهو يشير
لها مهدئاً قبل أن يقول لها بنبرته الودود:

_ تعرفين "بروكرست"؟!!

_ من هذا ال...برو...برو...ماذا؟!!

سألته معقودة الحاجبين وهي عاجزة عن تكرار

الاسم...

لتتسع ابتسامته وهو يقول لها وكأنما يحدث طفلاً:
_ هذا يا سيدتي كان حداداً في الثقافة اليونانية... كان
يملك سريراً حديدياً خاصاً وكان يقوم بدعوة اي
مسافر مار ليحسن ضيافته ويدعوه إلى النوم في هذا
السرير، وكان بروكرست مهووساً باهمية ان يناسب
طول الضيف السرير، فاذا كان الضيف أطول من
السرير قام بروكرست بقطع ارجله ليتناسب مع
السرير، واذا كان أقصر من السرير مط جسم الضحية
حتى تتكسر مفاصله حتى يساوي جسمه السرير
بالضبط.. وأستمر بروكرست بجرائمه المروعة حتى
لقى القبض عليه ثيسوس واخضعه لنفس ماأخضع

له ضحايا، حيث انامه على سريره وقطع راسه
ليتلائم مع السرير.

ابتسمت لظرافة القصة وقد نجحت في تهدئة
انفعالاتها لتعاود سؤاله بدهشة:

_ وما دخل هذا في ما كنت أقوله؟!

_ من أخينا "بروكرست" هذا ظهر مفهوم

"البروكرستية" وهو مفهوم ليّ الحقائق وتشويه
المعطيات لكي تناسب معتقداتنا المسبقة.

اتسعت ابتسامتها وهي تشعر معه بذاك الشعور الذي
كان ينتابها نحو معلمها ...

شعور بالاحترام الممتزج بالفخر ...

ربما في موقف آخر كانت لتتهم أي شخص دونه

بالتحذلق لكنها معه هو بالذات توطن أنه لا يستعرض

معلوماته ...

هو ببساطة - رجل مثقف يعرف كيف يغلف

معلوماته برداء واقعي ليجعلك تتلقاها بنهم يشبه

نهمه بطعامه ...

تماماً كما الآن وهو يستطرد ملوحاً بكفيه :

هكذا تتعاملين أنتِ مع الناس ... القالب الوحيد

المتاح لديك أنهم جميعاً يريدون إعادتك لسجن

رغباتهم بعدما نلتِ

تحريك! ... شقيقتك .. أصدقاؤك .. زملاؤك في

العمل .. لهذا تتحفزين ضد الجميع ولا تمنحي الفرصة

لأحدهم كي يقترب .

تهدت بحرارة وابتسامتها تتلاشى تدريجياً لتعاود

إطرافتها قائلة بصوت مرتجف:

_ قد يكون ما تقوله صحيحاً... لكنني لا أستطيع فعل

العكس... أنت تعلم ما الذي واجهته... عندما تعيش

لسنوات من عمرك وأنت مجرد عبد لأفكار غيرك ثم

تصبح فجأة سيد نفسك فمن الطبيعي أن تقاتل لآخر

نفس كي لا تعود لتلك العبودية .

_ التطرف عزيزتي هو آفة كل المشاعر...بينما

التوازن هو سنة الكون... أنت لا تزالين تترنحين

بدوار من انخفاض ضغطه فجأة عندما قام من جلسته

وغير وضعه... هكذا أنت... وأنا أنتظر بفارغ الصبر

هذه اللحظة التي أدرك فيها أنك توازنتِ وصرتِ

مستعدة لإكمال الطريق.

قالها بنبرته المميزة بين تعقلها وحنانها فعادت ترفع

عينيها إليه بقولها:

_ لا تعرف إلى أي درجة يريحني حديثي معك هذا.

_ ولا تعرفين لأي درجة يجوعني حديثي معك هذا!

قالها بمرحة المعهود وهو ينادي النادل ليطلب منه

الطعام لهما معاً...

هذه المهمة التي تتركها هي دوماً له موقنة من

كفاءته فيها ...

فاستندت بوجنتها على راحتها تنظر نحوه بينما التفت

هو إليها فجأة لتلتمع عيناه بعاطفته التي لا

تتجاوزهما أبداً لكلماته...

ربما لأنه يخشى النبذ من جديد ...



أجل... مع ماضٍ ك-ماضيه- الذي حكاها لها يوماً هي
تستوعب كثيراً كتمانها لمشاعره نحوها والتي يخفيها
دوماً خلف قناع الصداقة...

هذا القناع الذي ترتضيه هي كثيراً ولم لا؟!
وهي الأخرى تحتاجه لتخفي تردداتها بشأنه...
لكنها لا تنكر أنها -بنوع من الأنانية- تستغل مشاعره
هذه...

تستغلها لتشعرها بأنوثتها التي طالما اضطهدت...
الآن توفن أن في هذه الحياة من يحبها ويصبر
عليها...

ويكفيها هذا منه الآن!

لهذا تعمدت سؤاها الماكر التالي:

هل أفهم من حديثك السابق أنك تشجني على

الارتباط بالعريس الذي ترشحه هيام؟!

فالتوت شفتاه بابتسامة واهنة وكأنما فهم لعبتها

ليجيبها بمكر مشابه:

_ شقيقتك تريد مصلحتك... المهم... ماذا تريدن أنت؟!

قالها وعيناه الطيبتان تشعان بهذا الطيف الذي تشعر

وكانما يلون حياتها بسحره...

طيف هو مزيج من تفهمه وعتابه وحزم حنانه...

وكانما بلا كلمات يخبرها:

(أنا أفهمك فلا تتذكري عليّ)!

فضحكت ضحكة تشبه ضحكته هو في صفائها

للتجاهل سؤاله بقولها :

_ أين ستقضي العيد؟!

_ تعلمين طقوسي ككل عام... لكنني أفكر في السفر
هذه المرة مع أصدقائي.

_ إلى أين؟!!

_ أحدهم استأجر لنا مكاناً في "مارينا"... هم الذين
تولوا الأمر كاملاً... لا أدري سر شغفهم بصديق
متواكل مثلي... ملول ولا يعجبه العجب كما يقولون.
قالها ساخراً من نفسه كعادته فابتسمت لتقول له
صادقة:

_ كلنا محظوظون بصداقتك يا إيهاب... أنت أفضل رجل
عرفته.

عادت عيناه تشعان بذاك الطيف الذي يأسرها لكنها
تشاغلت عنه بالطريق عمداً من جديد كي تهرب من
أن يأخذ الحديث منحني آخر ...

فارتسمت على شفثيه ابتسامه راضيه مكتفياً

بمراقبتها ...

حتى عاد النادل بالطعام ليتناولاه سوياً...

وما كادا يغادران المطعم حتى قال لها بنبرة غامضة:

_ هل من الممكن أن تصطحبيني لسيارتي؟!!

ابتسمت وهي تسير معه نحو سيارته التي فتح

حقيبتها الخلفية فجأة ...

لتشهق بسعادة وهي تجد دباً قطنياً بشكل "الباندا"

المميز بلونيه الأبيض والأسود وبحجم كبير يقارب

نصف حجمها ...

ضحكت وهي تتناولاه منه لتقول له بدلال :

_ هذه عيدتي من صديقي؟!!

لكنه سحبه منها ليضعه جوار وجهه قائلاً بمزاحه

المعهود:

_ لا هذه مسابقة... استخرجي خمسة فروق بين

الصورتين!

قالها بسخريته المعهودة فانفجرت بالضحك وهي
تتبين الآن فقط أنه يرتدي قميصاً أبيض مع سروال

أسود !!

ومع تشبيهه لنفسه بـ"الباندا" تجد نفسها عاجزة

عن التوقف عن الضحك!!

_ أعجبتك؟! هه؟!!

قالها بغضب مصطنع وهو يخطبها بالدب في وجهها

بحركة مازحة فاستمرت بالضحك للحظات قبل أن

تنتبه لنظرات الناس حولهما...

هذا الذي جعلها تتجمد فجأة في مكانها لتقول له

بحرج:

_إيهاب... لا يصح هذا...نحن في الشارع.

فتلفت حوله بدوره ثم عاد إليها بعينه ليقول بنبرة
فقدت مزاحها مع كل هذا العمق الذي احتضن حروفه:

_ كل عام وأنت بخير...يا صديقتي!

كانت تعلم أنه يضغط حروف كلمته الأخيرة عامداً
لكنها ردت له بضاعته بمثلهما:

_وأنت بخير يا صديقي.

قالتها وهي تتناول البطاقة التي كان الدب يحتضنها
بذراعيه والتي كتب عليها

(تعلمين لماذا تحبين الأخضر...)

لأنه مزيج من جنون الأصفر وسكينة الأزرق

وهكذا أنتِ جنيةٌ تمنحني السكينة)

اتسعت ابتسامتها وهي تعيد قراءتها لبضع مرات قبل

أن تتجاهل كل المشاعر الحائرة التي تنتابها الآن

لتقول له بعتاب مصطنع:

_ أنا جنيةٌ؟!!

كانت تتوقع منه مشاكسة ساخرة كالعادة لكنه صمت

لحظة ليقول بنبرة دافئة:

_ تمنحني السكينة.

احمرت وجنتاها خجلاً لكنها تماكنت نفسها لتبتعد عنه

خطوة بحركة موحية...

ثم احتضنته الدب بأحد ذراعيها لتلوح له بالآخر بينما

تعطيه ظهرها:

_ أراك على خير ... اعتنِ بحالك... وأرسل لي صور

المصيف.

راقبها بحنان بينما تبتعد لتستقل سيارتها ..

بينما تغيم عيناه بنظرة متوجعة من ماضٍ بعيد...

قبل أن يتهد بحرارة ليستقل هو الآخر سيارته التي

انحسر فيها جسده الضخم مبتعداً بها ...

وهناك ... خلف أحد الجدران كان هناك زوجٌ من

العيون يرقبهما بحقد مشتعل...

الدم يلون حدقتيهما بذكرى تأبى أن تفارقهما إلا بعدما

تنالان حقهما...

قريباً... قريباً جداً...

يذوق كل امرئ ما جنته يداه!

=====

***أزرق....



_ هل عدتما؟!_

هتف بها فهد بلهفة وهو معلق على سلم خشبي في
غرفة الصغيرة التي اندفعت نحوه لتهتف بشقاوتها
المعهودة وبحروفها المتلعثمة:

_ أو...ستان...إيد...فجأة!

ضحك فهد وهو يشير لجنة بأصابعه هاتفاً بمرح:

_ الترجمة من فضك !!_

فاستسلمت جنة لضحكاتها للحظات قبل أن تقول

مفسرة:

_ فستان العيد...مفاجأة!!_

قهقه ضاحكاً وهو يعود لما يفعله مع قوله:

_تأخرتما كثيراً!

فزفرت جنة لتقول بارهاق:

_صغيرتك متعبة مثلك... لا يعجبها شيء... أكاد أجزم

أنا ذهبنا لجميع المحلات في المنطقة... كلما اخترت

لها ثوباً تهز رأسها نفيماً باعتراض حتى أعجبها هذا!

قالتها وهي ترفع الثوب الذي اختارته الصغيرة أمام

عينيه ...

ثوب فيروزي يميل للزرقة بعدة طبقات من قماش

الشفيفون المنفوش ...

ضيق الصدر مع حمالتين رفيعتين... وقد زين خصره

بحزام عريض من نفس اللون مع نقط صغيرة باللون

الفضي... رمقه هو بنظرة إعجاب متفحصة قبل أن

يقول بمرح:

لقد أفسدت ذوق الفتاة...صارت مهووسة بالأزرق

مثلك!

فابتسمت جنة وهي تجلس بإرهاق على طرف فراش

الصغيرة التي صفقت بكفيها وهي ترى ما يفعله

أبوها...

كان قد علق لها البالونات في سقف غرفتها بشكل

رائع مزج اللونين الفضي والأزرق...

والآن كان يثبت لها الكثير من النجوم في سقف

الغرفة ...

قبل أن يقول لها بحنان:

حبيبة أبيها تطفئ النور لترى المفاجأة!!!

جرت ملك بمرح لتطفئ الأنوار ثم شهقت بسعادة

وهي ترى النجوم التي تضيء في الظلام وقد ملأت

سقف الغرفة وصنعت مع البالونات عالماً مثالياً لطفلة

في عمرها ...

بينما هتف فهد بمرح:

كي لا تخافي من النوم في الظلام بعد الآن...ونتجنب

الشجار مع "الأستاذة" التي ترى من المفيد للطفل ألا

ينام والأنوار مفتوحة!

ضحكت جنة بمرح وهي تراقب جو الغرفة الساحر

حولها بفرح...

لكن الصغيرة عادت تفتح النور وهي تشير بأصابعها

نحو فهد بكلمات متلعثمة فهمها هو هذه المرة...

فنزل من على السلم الخشبي ثم توجه نحوها ليخرج

من درج قريب زجاجة طلاء أظافر نبيذية اللون...

رفعها في وجه الصغيرة ليقول بمرح:

_ هيا لنلون أظافر أميرتنا!

ملأت ضحكات ملك المكان وهي تجلس على طرف

الفراش فاردة له ظاهر كفيها بترقب طفولي...

فجلس على ركبتيه أمامها وهو يفتح الزجاجاة ليبدأ

في طلاء أظافرها بحرص مع قوله:

_ أريدك أن تكوني أجمل فتاة عندما نذهب لصلاة

العيد .

فضحكت جنة وهي تراقبهما بحنان قائلة :

_ لا تحمل همّ صلاة العيد... بل زيارة أختك

وطفليها... ضياء الرفاعي يعير ابنتك بأنها أقل جمالاً

من شقيقته فضية العينين!!

أطلق فهد صيحة استنكار وهو يراقب ملامح الصغيرة

التي بدت وكأنها تفهم هذا وإن عجزت عن التعبير...

ليقول بحمية أب غيور:

_ من هذا الذي يقلل من شأن ملك الصاوي؟! أنا

سأؤدب ابن الرفاعي بشعره المشعث هذا عندما

أراه !!!

ضحكت ملك بسعادة وهي تكرر بكلماتها المتلعثمة ما

يوازي (ضياء شعره مشعث) وكأنما أسعدتها

الجملة !!!!

بينما انتهى فهد مما يفعله ثم تناول أناملها الصغيرة

لينفخ أمامها بقوة مجففاً الطلاء قبل أن يقبل وجنتي

ملك هامساً بنبرة حازمة:

_ والآن تنامين مبكراً حتى ندرك صلاة العيد!

أومأت الصغيرة برأسها وهي تتوجه نحو جنة التي

حملتها لتبديل لها ملابسها وتعدّها للنوم...

فيما تتأهب فهد ليقول بنبرة متعبة:

_وأنا أيضاً سأذهب للنوم...تصبحين على خير!

قالها وهو يحمل السلم الخشبي ليغادر الغرفة...

ولم تكذ الصغيرة تستسلم للنوم حتى لحقت به جنة

إلى غرفتهما...

حيث فوجئت به قد أخذ وضع النوم وبدأ في ضبط

منبه هاتفه ثم وضعه جواره ليستلقي على جانبه...

مطت شفيتها باستياء ثم خلعت حجابها لتمشط شعرها

الذي تركته حراً على ظهرها...

ثم تخيرت أحد قمصانها الحريرية بلون سماوي جذاب

زاد من فتنتها الطبيعية خاصةً مع عطرها المفضل

بمزيج من رائحة الصندل والفانيللا...

قبل أن تستلقي جواره لتكزه بسبابتها في كتفه هامة

بدلال :

_فهد؟! هل ستنام حقاً؟!

رمقها بعين نصف مغمضة وهو يهمهم بإجابة مفادها

الإيجاب..

لكنه وكزته بعنف أكثر وهي تقول باعتراض:

_لا تمزح... لا أحد ينام ليلة العيد!!

لكنه تتأعب من جديد ثم جذب الوسادة ليضعها على

رأسه قائلاً:

_نحن نفعل... من تقاليد عائلتنا أن ينام الرجل ليلة

العيد!!

_فهد!!

هتفت بها بنبرة زاجرة وهي ترفع الوسادة عنه

لتردف بصرامة مصطنعة:

_ لن تنام وهذا آخر كلام!

زفر بضيق مصطنع وهو يقوم من مكانه ليسألها

السؤال المفخخ:

_ وكيف سنقضي ليلتنا؟!!

ردت له بضاعة "خبثه" بمثلها عندما قامت لتقف

وهي تعقد ساعديها أمام صدرها قائلةً بمكر:

_ نشاهد مسلسلي الأجنبي المفضل... جرائم معقدة

وكيف تصل الشرطة للحل!

ظهرت الخيبة على وجهه لكنه واراها بسرعة وهو

يهب واقفاً ليقول باستحسان مبالغ فيه:

_ فتحت شهيتي للسهر حقاً... إلا مسلسلات الجرائم

هذه... أعشقها!!!!

قالها وهو يلاعب حاجبيه مشاكساً بينما يقترب منها

وعيناه تلتمعان بشقاوتهما المعهودة...

فلكرته في كتفه وهي تقول بعتاب ممتزج بالمرح:

_ تريد شيئاً؟!

دارت عيناه عليها بتفحص حار للحظات... ثم اقترب

منها ببطء وعيناه تعانقان شفتيها بحب...

قبل أن يميل عليها ليهمس في أذنها فجأة:

_ قهوة!

_ ماذا؟!

هتفت بها باستنكار فجلجت ضحكته في أذنيها
للحظات قبل أن يخبطها بسبابته على أنفها قائلاً

بمرح:

_ سأنتظركِ حتى تعدينها أمام التلفاز بالخارج...كي

نشاهد مسلسك المفضل!!

قالها وهو يغمزها بخفة ثم غادر الغرفة تاركاً إياها

خلفه وقد غلبتها ابتسامتها...

لتعود إليه بعد قليل وقد وجدته قد فتح التلفاز حقاً

على مسلسلها المفضل...

وضعت صينية القهوة جانباً وهي تهم بالجلوس

جواره لكنه سحبها ليجلسها على ساقيه ثم همس

وهو يزيح خصلات شعرها عن وجهها:

_ لا تريدين طلاء أظافر مثل لوكا؟!

فأسبلت جفنيها وهي تزم شفيتها بدلال لتهمس:

_ظننتك نسيت!

_أبدأ يا أستاذة!

همس بها بعاطفة أذابتها وهو يقربها منه أكثر ليمدد
ساقها أمامه...

ثم تناول زجاجة الطلاء من جواره ليقول بمرح:

_سنبدأ بقدميك لأجل خاطر دلالهما المميز هذه الليلة!

قالها وهو يشير لتلك الاكسسوارات من "العقل"

المعدنية التي تلونت بالذهبي والفضي والنحاسي

والتي زينت بها أصابع قدميها في غفلة منه ...

أو هكذا كانت تظن!!!!

فتهدت بحرارة وهي تسند رأسها على كتفه فيما

تهمس له وهو يباشر ما يعمله بسعادة:

_ كم أحبك!

عاد ببصره إليها للحظات لتلتقي عيونهما في نظرة
طويلة...

ثم رفع قدمها ليقبل ظاهرها بعمق قبل أن تستمر
قبلاته في خطها الطويل حتى وصلت لجبينها ...
ليهمس أمام عينيها:

_ لم أقل لك يوماً "أحبك" ولن أفعل أبداً!
فابتسمت وهي تلامس شفثيه بشفتيها لتهمس
بدلال :

_ لازلت تراني امرأة لا يليق بها كلام مكرر؟!
_ بل لا يليق بها كل الكلام... مهما عظم!

همس بها بيقين ثم ترك ما بيده ليضمها إليه بقوة
وأنامله تتوه بين خصلات شعرها الثرية مع استطراده
وهو يذوب أكثر في وهج البندق خاصتها:
_ عمري قبلك كان قبضة تعصر رقبتى...ظاهره حياة
وباطنه موت...حتى أهداني القدر معك بعثاً
وحياة...فليقولوا ما يشاءون عن الحب...لكنني وحدي
أدرك أنه من لم يعشقتك أنتِ فلم يحب!!
تعلقت بذراعيها في عنقه وشفتهاها تدلان ملامحه بما
يليق...

حتى توقفتا أمام ندبة ذقنه فرفعت إليه عينيها وهي
تتذكر تلك الليلة التي جمعتهما لأول مرة...لتهمس

بشروء:

_ من كان يقول أن تكون أشد لحظاتي ياساً هي التي

ستفتح لي باب حب عظيم كهذا!

بادلها نظراتها العاشقة بمثلها وهو يضمها إليه أكثر

قبل أن تشعر بقبضتيه تضربانها ببعض القوة مع

همسه العاتب في أذنها وهو الآخر يسترجع أفسى

ذكرياته معها أيام أوهمته بموتها :

_ قلت لك سأظل أضربك طوال عمري كلما تذكرت ما

فعلته بي... صدقيني نديتك هذه على وجهي لا تساوي

شيئاً أمام ندبة قلبي من حينها... لازلت أستيقظ بعض

الليالي خائفاً من أن تكوني وملك مجرد حلم !!

التمعت عيناها بشعور ذنب قديم وهي تخفي وجهها

في عنقه وقد آثرت الصمت عن أي تبرير ...

عندما ضمها إليه أكثر وأكثر حتى كاد يعتصرها بين
ضلوعه...

قبل أن تشتعل عاطفتها أكثر ليستجيبا لها بجنون...
جنون انقطع مع رنين هاتفه الذي أصر على تجاهله
لولا إصرار الطرف الآخر بدوره...

فزفر بقوة وهو يبعتها مع هاتفه :

_ هي ليلة منحوسة وأنا كنت أنوي النوم... أنتِ التي
أيقظتني!

فضحكت بشماتة وهي تخرج له لسانها بينما تناول
هو هاتفه ليطلع اسم المتصل قبل أن يفتحه بسرعة
مع هاتفه بمزيج من قلق ولهفة:

_ حسام!

=====

*** أصفر



الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر...

لا إله إلا الله...

الله أكبر... الله أكبر... والله الحمد...

انطلقت تكبيرات العيد من المذيع في صالة منزلها

تردها الصغيرة ربي بصوتها الطفولي وهي تهز

رأسها معها بتناغم عذب...

فابتسم راغب وهو يضمها إليه بقوة ثم تملك خصرها

بكفيه ليقول بحنان رغم خشونة صوته المميزة:

كل عام وأنت بخير.

فقبلته الصغيرة على وجنته لتسأله بمرح :

_ هل سنذهب للملاهي في العيد؟!

داعب أنفها الصغير بأنفه بخفة ثم رفعها فجأة
للأعلى محرراً جسدها من ذراعيه قبل أن يعاود
التقاطها هاتفاً بحماس:

_ فلنبدأ بهذه!

ضحكت الصغيرة بانطلاق وهو يعاود فعلته مرة بعد
مرة لتملاً ضحكاتنا الشبيهة بالصرخات المكان ...
حتى ضمها لصدره أخيراً وهو يلهث لتهتف هي
باعتراض:

_ هل تعبت؟! وأنا الذي ظننتك بطلاً ك"سوبر مان"!
فضحك وهو يقرص وجنتها ليقول وهو يغلظ صوته
أكثر مشيراً لشخصية كارتونية شهيرة:

_ سأتحول الآن لـ "سلوفان" المرعب لو لم تتوقفي

عن طلباتك المزعجة.

لكنها عادت تضحك وهي تحيط وجنتيه بكفيها لتقول

بشقاوتها الطفولية:

_ ساعتها سأتحول لـ "بو" ...يا "قطي" !!

فضحك من قلبه ضحكة عالية وهو يتعجب من ذكائها

الفطري الذي يفوق سنها الصغير بمراحل ...

ليقبل وجنتها بعمق ثم تنهد ليهمس بشرود:

_ كم تشبهين والدتك في هذا... هي أيضاً تجيد ترويض

غضبي متى شاءت.

فرفعت ربي رأسها نحوه وهي تقول بحماس:

_ أيقظ أمي كي لا نتأخر عن صلاة العيد... وأنا سأنيم

عرأسي كي لا تفتقدني عندما نغادر.

عاد يضحك باستمتاع وهو يتبين خيالها الخصب الذي
جعلها تهزول نحو دماها القماشية لترصها جوار
بعضها وتغطيها برفق قبل أن تجلس وسطهن تربت
عليهن بحنان ...

ظل يراقبها مستمتعاً للحظات ثم عاد ببصره نحو
غرفته مع رؤى يراقب بابها المغلق بأسف...
هو يعلم أنها ليست نائمة... لكنها ببساطة غاضبة!!
لقد خرجا معاً بالأمس للتسوق وتركها بضع دقائق في
محل خاص بالمشتريات النسائية ...
لكنه عاد ليجدها واقفة تنتظره وخلفها رجلٌ يتفحصها
ببصره بوقاحة بنظرات لا يفهمها إلا رجل مثله ...

فلم يملك نفسه وهو يندفع نحوه ليكيل له لكمة قوية
تطورت لشجار كبير لم يفضه إلا رجال الأمن في ذاك
السوق التجاري الشهير!

ومن وقتها وهي معتصمة بصمتها وكذلك هو أخذته
العزة بالإثم فجازاها بصمتها صمتاً...

لكنه لن يحتمل هذا كثيراً!!

لهذا توجه نحو الباب المغلق ليفتحه قبل أن تحمله
قدماه لفراشهما الذي استلقت هي عليه وقد أعطت
ظهرها له...

فجلس على طرف الفراش صامتاً للحظات ثم تتحنح
بخشونة...

قبل أن يميل عليها ليحتضنها بساعده هامساً في
أذنها:

_ هل ستبقيين غاضبة هكذا في أول يوم للعيد؟!
لم ترد عليه للحظات قبل أن يصله همسها الخفيض:
_ سأقوم كي نذهب للصلاة!

قالتها وهي تحاول دفع ساعده عنها لتنهض لكنه
تشبث بها أكثر وهو يزيح خصلات شعرها الثائرة عن
وجنتها ليثمها بعمق قبل أن يعاود همسه المشاكس:

_ وهل ستقبل صلاتك وزوجك غاضب عليك؟!
فالتفتت نحوه بعينيها بحدة لتهمس باستنكار عاتب:
_ أنت الغاضب؟!!

فتغزلت أنامله ببشرتها وصولاً إلى شق ذقنها
الأثير الذي استقرت عليه شفتاه للحظات قبل أن
يهمس أمام عينيها بحزم رقيق:
_ دعينا نلحق بالصلاة أولاً وبعدها نتفاهم.

أومات برأسها في طاعة ثم ترددت قليلاً قبل أن تقبل
جبينه قبلة خاطفة مع همسها المقتضب:

_ كل عام وأنت بخير!

فكتم ابتسامته وهو يراها تزم شفيتها بعدها كابنتها
عندما تغضب قبل أن تقوم لتغادر الفراش نحو غرفة
الصغيرة ...

راقبها ببصره بحنان للحظات قبل أن يلحق بها لتتسع
عيناه وهو يراها تلبس الصغيرة ما تتوي أن
تخرجها به ...

وعلى جثته أن تفعل!!!!

فابنته كانت واقفةً أمامه ترتدي سروالاً ضيقاً شديد
القصر من خامة الجينز بالكاد يغطي مؤخرتها ...

تعلوه "بلوزة" وردية عارية الظهر تعلقت بعنقها

بحمالة رفيعة !!

فانعقد حاجباه بضيق وهو يهتف باعتراض :

_ ما هذا؟!!

أشاحت رؤى بوجهها في استسلام وقد بدت وكأنها

كانت تتوقع استيائه... فيما رفعت الصغيرة لواء

الثورة وهي تهتف بسعادة:

_ "هوت شورت"!!!

أطلق راغب صيحة استنكار عالية جعلت رؤى تكتم

ضحكتها بشفتيها عندما هتف مكرراً خلفها:

_ "هوت شورت"!!؟! يا فرحة أمك بك؟!!

لكن الصغيرة زادت الطين بلة عندما أحاطت خصرها
بكفيها وهي تتراقص في وقفها لتقول بحماس
طفولي:

سأشبه "هانا مونتانا"...الفتيات سيحسدني عليه!!
فهتف راغب بضيق مخاطباً رؤى وهو يقترب منهما:
لقد أكل التلفاز عقل ابنتك...لهذا كنت تخفين ثياب
العيد عني!؟

أطرقت رؤى برأسها دون رد عندما جثا هو على
ركبتيه أمام الصغيرة ليهمس لها مقتعاً:
ثيابك هذه رائعة...تجعلك في غاية الجمال...لهذا لن
ترتيديها إلا داخل بيتنا فقط.
عقدت ربي حاجبيها بغضب وهي تنظر لأمها طالبة
الدعم ...

لكن راغب أحاط وجنتيها براحتيه ليردف بنبرة

حنون:

_ حبيبتى الصغيرة تطيع أباهـا ..صحيح؟!_

ظلت الصغيرة على انعقاد حاجبيها دون رد فضحك
وهو يقوم ليستخرج لها من خزانها ثوباً طويلاً شديد
الأناقة يصلح للارتداء في المناسبات ...

أبيض اللون بزهور وردية صغيرة على صدره الذي
تم تطريزه باللؤلؤ الأبيض ...

وما إن رآته الصغيرة حتى التمعت عيناها بحماسة
فيما هتف هو برضا:

_ هذا سيجعلك تبدين كدميتك الجديدة... عروساً أنيقة!!_

نجحت حيلته في إقناع الصغيرة التي كادت تخلع ثيابها
بنفسها لولا أن تذكرت شيئاً جعلها تهتف باعتراض
طفولي:

_ اخرج أولاً فلن أغير ثيابي أمامك!
فابتسم أخيراً وهو يرمقها بنظرة راضية فيما قالت
رؤى وهي تنظر لصغيرتها بنبرة مؤنبة:
_ لا تحزني يا صغيرتي...لنا الله من غيره ذاك
الرجل...لو كان الأمر بيده لما أخرجنا من بيته!
ضحك ضحكة قصيرة وهو يعطيها ظهره ليغادر
قائلاً لابنته -على طريقة الكلام لك يا جارة-:
_ يا صغيرتي...رجلٌ لا يغار ليس برجلٍ أصلاً...لا
أتمنى سوى أن يطيل الله في عمري لأراك في عصمة
من يغار عليك مثلي!

فراقبت رؤى ظهره المنصرف للحظات بنظرات
عاشقة...

ثم احتضنت صغيرتها لتهمس في أذنها بهيام:
_ لا تصدقي غضبي منه... أنا الأخرى لا أتمنى لك
أفضل منه...

ثم عادت لتهمس أمام عيني الصغيرة بابتسامة
مشرقة:

_ أبوك أعظم رجل في العالم ...

ثم تلفتت حولها لتعود إليها بهمسها وهي تشير
بسبابتها على شفيتها:

_ لكن لا تخبريه أنني قلت هذا ... هذا سر بيننا!
فأومات الصغيرة برأسها لتهمس هي في أذن رؤى
هذه المرة:

_ هو أيضاً أخبرني أنك أفضل امرأة في الدنيا... وطلب

مني أيضاً ألا أخبرك لأنه سر!

فشهقت رؤى بدهشة قبل أن تبتمس وهي تقرص أذن

ربي لتهمس لها بعتاب:

_ عيب... لا يصح أن نفضح الأسرار!

قالتها ثم بدأت في خلع ملابس الصغيرة لتلبسها

الثوب الذي انتقاه الوالد الغيور...

قبل أن تدفعها لتخرج معها إليه قائلةً باقتضاب وكأنها

تتشبث بأسوار خصامها له:

_ اعتنِ بها حتى أنتهي من ارتداء ثيابي!

فرمقها بنظرة عاتبة لكنها لم تلتفت نحوه وهي تتوجه

نحو الحمام القريب الذي غادرته بعد دقائق لتبدل

ثيابها في غرفتهما...

وقفت أمام خزانة ملابسها تتخير ما سترتيديه عندما
سمعت صوت باب الغرفة يفتح فتحفرت وهي تراه
يقترب منها قائلاً وكأنه يجرها للشجار:

_ لم أعد أثق في نراهة اختياراتك...أريني أولاً ما
سترتيديه!

اختلفت نظرة جانبية نحوه ثم مدت أناملها تلتقط
عباءة رقيقة بلون أبيض مدخن زينت أطرافها
بالقليل من الرسوم لزهور دوار الشمس المميزة
بلونها الأصفر والذي كان لون وشاح العباءة!
فهز رأسه برفض وهو يقول بنبرة متحدية:
_ الأصفر لون ملفت وسط الزحام...ستجذبين
الأنظار...تخيري غيره!

كانت تعلم أنه يستفزها لكنها لم تستجب لدعوته...

فتمادت في تجاهلها له وهي تستخرج عباءة أخرى
بلون بني قاتم لكن تطريزها ووشاحها كانا بلون
الفسق...
الفسق...

فرجع حاجبه ليقول متمادياً في عناده هو الآخر:
_الأصفر ملفت والأخضر ليس كذلك مثلاً؟!!!
كان قد نجح في استفزازها تماماً هذه المرة فزفرت
بقوة ثم تناولت عباءة سوداء بوشاح أسود هاتفةً
بضيق:

_هل يرضيك هذا؟!
فتفحص ملامحها الضائقة بابتسامة حانية غفلت
عنها عيناها المتجاهلتان له بتعمد ...
ليهمس أخيراً وكأنه يمحو بغزله سابق مشاكسته:
_ يبدو أن العيب ليس في اللون ... بل فيك أنت!

ورغم أن عبارته دغدغت قلبها بعاطفتها نحوه لكنها

احتمت خلف أسوار دلالتها وهي تطرق برأسها دون

رد ...

فضحك وهو يرفع ذقتها نحوه ليقول بنبرة عابثة:

تعلمين إن بعضهم قال يوماً عن مارلين مونرو أنها

لا تساوي شيئاً دون ثيابها التي هي سر

جمالها؟!!!..فما كان منها إلا أن ارتدت "جوال

بطاطس" وجعلتهم يلتقطون لها صورة نالت

الإعجاب بجنون...فقط كي تثبت أن الملابس لا تشكل

فارقاً!

فانفلتت منها ابتسامة رغماً عنها وهي تسبل جفينيها

لتهمس بدلال عاتب:

لم أكن أعرف قبلاً أنك معجبٌ ب"مارلين مونرو"!

هنا حطت شفتاه على جبينها بقبلة عميقة قبل أن

يهمس بمكر جوار أذنها:

_ من قال إني معجب بها؟! أنا كل إعجابي لواحدة

تشبهها في نفس الموقف.

رفعت عينيها إليه بسهام دلالها العاتب فابتسم وهو

يهمس بحب:

_ مشكلة!!!... أنتِ مشكلة...!!!..شمس تلفت الأنظار

أينما كانت وكيفما كانت!

فأخفت ابتسامتها الراضية في كتفه وهي تحاول

تصنع الغضب بهمسها العاتب:

_ أنت هكذا تصالحي؟!!

لكنه ابتعد بجسده ليتمكن من النظر لعينيها ملتقطاً

نظراتها بحنان ناقض عبارته المشاكسة:

_ لا يا "ليمونية"... المصالحة عندما نعود!
شهقت بعنف وعبارته تنتهي بدغدة مفاجئة لجانب
خصرها جعلتها تقفز مكانها قبل أن تنفلت منها
ضحكة عالية...

عندما جلجت ضحكته هو الآخر حتى تمالكها
أخيراً... ثم أشار بسبابته على شفثيه هامساً:
_ ششششش... ستفضحيننا... هل هذا مظهر امرأة
صالحة تنهياً للصلاة!؟

ثم تنحج ليقول بخشونة مصطنعة:
_ ارتدي ملابسك وكفاك ميوعة... سأنتظرك بالخارج
مع ربي!

قالها ثم غمزها بخفة فابتسمت وهي تعطيه ظهرها
في محاولة أخيرة للتمسك بخصامها الواهي له...

قبل أن تنتهد بحرارة وهي تبدأ في تبديل ثيابها ...
وبعدها بقليل كانت تسير معه وربى نحو الساحة
الفسيحة في حيهما حيث تقام صلاة العيد...
ولم يكد هو يشعر بشدة الزحام حتى فوجئت به يدفعها
لتسير أمامه وقد صنع من ذراعيه حولها ما يشبه
سوراً يمنع عنها احتكاكها بالمارة!!
ورغم بساطة -حركته- لكنها مست قلبها بشكل
عجيب...

ومن مثلها يمكنها تمييز الأمان متى وجدته؟!!!!
أجل... رغم كل ما كان بينهما ...تبقى حركة بسيطة
كهذه ذات معنى عظيم لامرأة في نفس الموقف!
لهذا تزينت شفتاها بابتسامة سعادة حقيقية وهي
تتشبث بالصغيرة في كفها بقوة حتى وصلا إلى مكان

مصلى النساء فالتفتت نحوه بنظرة امتنان عاشقة

لتقول برقة:

_ لا تقلق علينا... سننتظرك هنا بعد الصلاة!

أوماً برأسه ثم تركهما مودعاً بنظرة قلق لم يخفها قبل

أن يبتلعه الزحام وتهاني أهل الحي التي ابتلعت

تركيزه كاملاً بعدها ...

حتى انتهت الصلاة التي تلتها الخطبة ...

فعاد إليهما مسرعاً لتبتدره ربي بهتافها:

_ أريد بالونة!

ضحك بمرح وهو يحملها بذراع واحد ليحيط رؤى

بذراعه الآخر قائلاً بحنان:

_ بالونة واحدة؟! عشر بالونات كاملة!!!

صفت الصغيرة بكفها بمرح عندما اقترب هو من
بائع البالونات ليطلب منه عشر بالونات ربطها معاً
برباط واحد ليعطيها لها وسط ضحكاتها المرححة...
فابتسمت رؤى وهي تراقبهما بحنان عندما فوجئت به
يطلب من البائع بالوناً آخر كبيراً أصفر اللون بشكل
"سبونج بوب" الشهير ...

ناوله لها ليهمس في أذنها:

وهذا لعاشقة "الأصفر"!

خفق قلبها بقوة وهي تتناوله منه بسعادة غريبة...

يقولون إن الأنثى مهما كبرت تبقى بداخلها مجرد

طفلة تبتهج بأبسط الأشياء ...

وهذا بالضبط كان شعورها وهي تحمل بالونها جوار

صغيرتها وتسير جواره ...

كلتاهما في هذه اللحظة حملتا نفس الابتسامة...

نفس الفرحة...

نفس الشعور بالأمان ...

ونفس الإحساس لنفس الرجل...

إحساسٌ بأنه السند الذي تلجئ إليه كلتاهما إليه!!

إحساسٌ بالأبوة!!

ولما عادا إلى مدخل البيت وأغلق الباب خلفه سألته

باهتمام:

لماذا لم تذهب أمي لصلاة العيد؟! هل هي مريضة؟!

فتنهده ليقول بأسف:

صحتها لم تعد تحتمل المشي .

تهدت بدورها بأسف عندما فتح باب البيت من جديد
ليدخل منها أخو راغب وهيام مع أبنائهما الذين جذبوا
ربي من يدها ليصعدوا نحو الجدة بجلبة شديدة...
فيما قال راغب لأخيه وهو يصافحه:

_ لماذا سبقتمونا؟! كان من الأفضل لو ذهبنا سوياً
للصلاة!

فاختلس أخوه نظرة واضحة المعنى لهيام التي قالت
بنبرة عدائية :

_ بل من الأفضل أن يذهب كل منا في طريقه وحده!
أطرقت رؤى برأسها دون رد وهي تفهم سبب تصرف
هيام بهذه الطريقة...

منذ طلاق عزة من راغب وابتعادها عن البيت لتسكن
وحدها وهي تعاملها بعداء أشد...

لكنها تعذرها على أي حال!!

لهذا حافظت على صمتها مكتفيةً بإيماءة رأس عندما
توجه أخوه نحوها بتهنئة فاترة بالعيد قبل أن يصعد
ليلحق بزوجته التي تركتهم وصعدت دون مزيد من
كلام!!!

راغب هو الآخر اكتفى بصمته وهو يحتضن كفها
ليصعدا لكنه عندما لمحها تهم بالدخول لشقة والدته
كي تهنئها بالعيد غمزها بخفة ليهمس في أذنها:
_ لا تدخلي إليها الآن مادامت هيام معها...سنذهب
إليها معاً فيما بعد!

صادف قوله هوىً في نفسها وقد آثرت الابتعاد عن
هيام بسموم لسانها التي اعتادتها ...

حتى صعدا معاً لشقتهما فألقت بالونها جانباً ثم
توجهت لغرفتهما حيث لحقها لتبتدره هي بقولها
الأسف:

_ هيام لن تنسى لي فعلتي أبداً!

لكنه ابتسم بمرارة وهو يهمس لها بأسف مشابه:

_ هي ليست فعلتك أنت بل فعلتي أنا!

ثم استغفر الله بخفوت ليقول بعدها بشرود:

_ يعلم الله أنني لم أكن أنتوي ظلمها يوماً.. لكن القدر

حكم بحكمه بيننا جميعاً!

فربتت على كتفه وهي تقول بتعقل:

_ سبحان من يدبر الأمر بحكمته... ويكتب لكل منا

دوره في حياة الآخر... كل خطوة محسوبة

بمقدارها...لولا زواجك من عزة...لما وصلنا إلى ما
نحن عليه...ولما وصلت هي إلى مكانتها الآن.
هز رأسه موافقاً ثم تنهد بحرارة قبل أن يتفحصها
ببصره ليهمس أخيراً بنبرة دافئة:

دعك من هذا الآن...فلدينا مهمة عاجلة!

عقدت حاجبيها بتساؤل عندما اقترب منها أكثر
ليطوق خصرها بكفيه مع همسه الذائب بعاطفته:

لدينا فاتنة "ليمونية" غاضبة تحتاج لمن

يصالحها!!!

ابتسمت وهي تتعلق بذراعيها في عنقه لتحتضن
عينيه بنظراتها العاشقة رغم همسها العاتب له:

لقد أخرجتني كثيراً بالأمس... هذا المكان كان
المفضل لي في الشراء وبعد ما حدث فلن أتمكن من
دخوله ثانية ...

ثم ازدردت ريقها ببطء وهي تغمض عينيها وقد بدت
أشباح "ذنبها القديم" وكأنها تجوس على
ملامحها من جديد لتردف:

في كل مرة تتصرف فيها بهذه الطريقة تجعلني
أشعر وكأننا عدنا لنقطة البداية... وكأن...
قاطع عبارتها بسرعة بشفتيه اللتين عانقتا شفثيها
بحرارة للحظات...

قبل أن يهمس لها بحزم وكأنه يغرس كلماته غرساً
في كيائها:

_ عن أي نقطة بداية تتحدثين؟! أنا لا أعرف لنا إلا
بداية واحدة... عندما افتديت شرفي بروحك وبعدها
سرى دمي في عروقك لنمتزج سوياً للأبد .
دمعت عيناها وهي تتذكر ما يحكي عنه ...
بينما أحكم هو وثاقه على خصرها ليقربها منه أكثر
حتى لاصقها وهو يهمس بنفس الحزم:
_ لا تورقي نفسك بما نسيناه من زمن... غيرتي لا
علاقة لها بأي شيء سوى بكونك أنتِ أنتِ!
تزينت شفتاها بابتسامة واهنة تألقت رويداً رويداً مع
همسه هو بعدها بنبرة أرق:
_ ولو كنت تلقفتكِ طفلة عقب ولادتك لأربيكِ بنفسي
هنا في هذا البيت... بل في هذه الغرفة... فلم تغادريها
أبداً... لم تكن غيرتي هذه لتقلّ ولو مثقال ذرة!!!

تهدت بحرارة وهي تخفي وجهها في صدره ليصلها

همسه بعدها:

_ مصيبي الحقيقية أنني أتخيل الجميع يرونك كما

أراك... فلا أظنهم إلا يهيمون بك مثلي!!!

رفعت إليه عينين دامعتين تأثراً قبلهما هو بقوة

عاطفته قبل أن يعاود همسه الصادق لها:

_ لهذا لا تلوميني على غيرتي... لومي نفسك لأنها

بهذا القدر من السحر الذي لا أكاد أملك عقلي معه!

رمقته بنظرة طويلة صامتة وهي لا تجد ما ترد به...

كل حروفها الآن فقيرة... بل معدمة... أمام هذا الطوفان

من عاطفته!؟

هل هناك امرأة عاقلة يمكنها الغضب من رجل مثله -

مهما فعل - بعد هذا الكلام!؟!!!

بالتأكيد لا...ولو وجدت فإنها ليست -هي- بالتأكيد!!!

هي التي كانت تضحك الآن ضحكة مشرقة وهي

تهمس بمرح عاشقة :

_حسناً...قد عفونا عنك!

لكنه هز رأسه ليقول باعتراض وهو الآخر يضحك:

_أبداً...حتى أصالحك بطريقتي!!!

قالها ثم انهالت شفتاه على وجهها بمطر عشق نقي

روى وديانها حتى أينعت حقولاً من عشق لم تعرفه

إلا له...

قبل أن تبادله عاطفته بسيل مشابه لا يقل عنه غزارة

وعنفاً...

لدقائق مرت بهما صاحبة بصمت مشتعل...

قطعه هو أخيراً بهمسه :

_ كل عام وأنت عيدي!

فابتسمت وهي تخفي وجهها في صدره من جديد
هامسة:

_ وأنت عيدي!

لكنه رفع ذقتها نحوه ليهمس بمكر:

_ فلنخلع هذه العباءة إذن!

اتسعت عيناها للحظة ثم وكزته في كتفه بمشاكسة
خجول ...

بينما ضحك هو ليرفع سبابته في وجهها هاتفاً بنفس
المكر:

_ لا تسيئي فهمي... أنا فقط أريد منحك "عيديتك"!!!!

أمالت رأسها بتساؤل فجذبها من كفها نحو فراشهما
ثم جثا على ركبتيه ليستخرج من تحته كيساً ضخماً
ناولها قائلاً بارتياح:

_ حمداً لله ...تمت المهمة!!

ضحكت بلهفة وهي تتناوله منه لتفض محتوياته بينما
أردف هو بنفس النبرة المرححة:

_ كل ما كنت أخشاه أن تجده الجنية الصغيرة ابنتك
قبل أن أفاجئك به!!

أطلقت صيحة فرحة وهي تستخرج أول محتويات
الكيس، والذي كان ثوباً أصفر شديد القصر كناري
اللون بحمالتين رفيعتين بذاك التصميم الذي يضيق
عند الصدر والخصر ويتسع بعدهما بالكثير من الكسر

التي منحته مظهراً طفولياً لكنه يناسب جسدها

النحيل...

احتضنته بين ذراعيها بقوة لتهتف بانفعال:

_ آه يا راغب... منذ طفولتي وأنا أحلم بثوب

مثله... كنت أسميه "ثوب بابي" !!!

فضحك لعبارتها ثم أشار برأسه نحو الكيس ليقول

بمرح:

_ بقية العيديّة!!!

التمعت عيناها بفضول وهي تضع الثوب جانباً برفق

قبل أن تستخرج ما بقي في الكيس والذي كان

"وسادة" صغيرة!!!

_ وسادة؟!!!

همست بها بشك وهي تقلبها بين كفيها فابتسم وهو

يقول لها :

_اجذبي ذاك السحاب في خلفيتها وانظري ما الذي

تحويه وسادتك!!

أطلقت صيحة فرحة وهي تتذكر أنها رأت ما يشبهها

منذ أيام عبر شبكة الانترنت...

لتكتمل سعادتها وهي تجذب سحابها لتستخرج منه

العديد من قطع الشيكولاتة والتي غلفت كل منها

بورقة نقدية جديدة!!!

كانت ضحكاتهما تتابع كلما امتدت أناملها لتسحب

قطعة جديدة من الشيكولاتة لتضعها على الفراش قبل

أن تعود لتفعل المثل...

حتى استخرجتها جميعاً فجلست على الفراش وسطها

تأملها بسعادة طفولية ...

بينما جلس هو جوارها متفحصاً فرحتها برضا ...

قبل أن يلمح دموعها التي سألت على وجنتيها

أخيراً ...

فضمها إليه برفق هامساً بجزع:

_ حبيبتي... هل تبكين حقاً؟! _

عجزت عن منع دموعها للحظات وجسدها يرتجف

بين ذراعيه ...

فضمها إليه أكثر وهو يتفهم مشاعرهما قبل أن يقول

ممازحاً:

_ ياربي!! نكد...نكد...حتى في يوم العيد!! _

ضحكت وسط دموعها فبدت كحمقاء ...

لكنه كان يشعر بما يعترئها فتهد بعمق وهو يهددها
بين ذراعيه للحظات كما يفعل مع ابنته ...
بينما رفعت هي إليه عينئها أخيراً لتهمس بانفعال:
_ هل تعرف الآن بماذا أشعر؟! هل تعرف متى كانت
آخر مرة عاملني فيها أحدهم بهذه الطريقة؟! منذ وفاة
والدي وأنا فقدت هذا الشعور...كم من عيد مر عليّ
دون "عيدية"...دون ثوب جديد...دون حتى أي
فرحة...والآن...الآن...

تهدج صوتها بدموعها التي غلبتها من جديد
فاعتصرها بين ذراعيه ليهمس لها بحنان:
_ شششش...انتهئنا...كل هذا قد انتهى...ليتنئ فعلتها
قبل هذا العام...للأسف لم يلهمني عقلي بهذه الفكرة
قبل عهد قريب...

ثم احتضن وجنتيها ليمسح دموعها بأنامله هامساً

بنبرة الوعد:

_ عهدٌ عليّ في كل عام أن يكون لكِ مثل هذا !

ضمته إليها بكل قوتها ثم قبلت وجنته بقوة قبل أن

تقول بتردد:

_ هل لي في طلب آخر؟!

فرفع حاجبه ليقول باعتراض مصطنع:

_ طلباتك كثرت!

ضحكت وهي تمسح ما بقي من دموعها لتهمس له

أخيراً برجاء:

_ دعني أناديك "بابا" مثل ربي... اشتقت لقولها ولن

أتمكن من هذا إلا معك!

ارتفع حاجباه بتأثر للحظة وهو يدرك قيمة هذا لديها

هي بالذات...

ثم أطرق برأسه دون رد...

فعدت تهتف بالحاح:

_ أرجوك يا راغب...الكثيرات من صديقاتي

يفعلنها... أرجوك... أرجوك!

فرفع وجهه نحوها أخيراً ليهمس باحتواء رجولي:

_ مع أنك لا تحتاجين لقولها لكن لا بأس...إن كان هذا

سيرضيك فافعلي!

ابتسمت بامتنان وهي تفتح زر عباءتها الأول لتتلمس

قلادته كعادتها كلما تشعر بالانفعال ثم همست بشرود:

_ لو كنت أعلم أنك ستنتظرنني في نهاية الطريق لما

بكيت من أشواك أول خطواته.

فابتسم بدوره وهو يمد أنامله ليتلمس القلادة هو

الآخر قبل أن يسألها بتردد:

_ ألا تضيقين بهذه القلادة لثقلها وقدم طرازها !؟

فكرت لو تريدان أن نستبدلها بأخرى تكون...

_ نستبدلها!؟!

همست بها باستتكار قبل أن تتعلق بعنقه لتردف أمام

عينيه بنظراتها الحارة:

_ أنت لا تعلم قيمتها عندي... منذ ارتديتها أول مرة

لتربط اسمي باسمك وأنا تمنيت ألا أخلعها أبداً!!!!

قالتها ثم ألقت رأسها على صدره بهيام وقد سكن

جسدها لدقائق شعر هو بها ثقيلة...

فتتحنح ثم قال بمرح :

_ رؤى... هل نمت!؟!

رفعت عينيها إليه بنظرة عابثة فتطلع لساعته ثم

قال وهو يحل أزرار قميصه:

_ كان بودي والله لو نجلس ونستعيد معاً المزيد من
الذكريات ... لكن هذه فرصة مثالية والجنية الصغيرة
بالأسفل مع الأطفال...

قالها ثم مد أنامله ليزيح قطع الشيكولاتة وما جاورها

من أشياء من على الفراش ليخليه تماماً...

فضحكت بدلال وهي تشيح بوجهها ... عندما جذبها

نحوه ليهمس بحرارة :

_ أنا الآخر أريد عيدتي!!



**أبيض

ملعقة أخرى يا أمي...!

همس بها ضياء الصغير بنبرة أمرة وهما يقفان معاً
في مطبخ شقة رحمة التي جاءوا إليها ليحتفلوا معها
بالعيد...

كان الصغير يشير إلى علبة السكر الذي يعشق تناوله
هكذا بالملعقة...

لكن ماسة تلفتت حولها لتهمس له مؤنبة:

والدك حذرنا من زيادة تناولك للسكر.

فأحاطها ضياء ساقياها بذراعيه الصغيرين ليوسعهما
تقبيلاً قبل أن تتحول نبرته الأمرة إلى أخرى راجية:

واحدة فقط يا ماستي!

ابتسمت بحنان وهي تجده يناديها كأبيه...

هذا الصغير مشكلة!!

يجيد استغلال ثغراتها كما ينبغي...

لقد ورث قوة شكيمة "أبيه" ودهاء

"خاله"... ويعرف مع سنه الصغير هذا كيف يوازن

بينهما... كما الآن!!!

لهذا لم تستطع مقاومة منحه ملعقةً أخرى فامتدت

أناملها للعبة تستخرج منها ملعقة مليئة بالسكر لكنها

ما كادت توجهها لقمه حتى انتفضت مكانها مع صيحة

عاصي الغاضبة:

_____ ماسة!!

شهقت بعنف والمعلقة ترتجف بيدها ليسقط ما بها

على عنقها وملابسها ...

فيما التفت الصغير نحوه ثم تقدم إليه ليقول برجولة

مبكرة على سنه الصغير:

_ لا تحاسبها هي...أنا المسئول!

فتوهجت شموسه الزيتونية بعاطفة إعجاب لم تخطئها

عينا ماسة الخبيرتين لكن قوله كان صارماً :

_ اذهب والعب مع شقيقتك ...كفاك ما تناولته من

حلى اليوم!

أوما الصغير له برأسه في طاعة قبل أن يختلس نظرة

أسف نحو ماسة ليغادر بعدها المطبخ الذي أغلق

عاصي بابيه خلفه برفق...

قبل أن يقترب منها بنظرات عاتبة فرفعت كفيها

باستسلام قائلة :

_ ضعفت أمامه ككل مرة ...

ثم تعلقت بذراعيها في عنقه وهي تغازل غاباته

الزيتونية بهمسها:

_ ما كان له أن يرث عينيك... أمامها تذوب مقاومتي.

التوت شفتاه بابتسامة حانية وهو يحتضن خصرها

بكفيه ليهمس :

_ هو يشكو من تسوس أسنانه في هذا السن

الصغير... لا ينبغي أن نجاريه في ما يطلبه .

أومات برأسها موافقةً وهي تعذره في شدة خوفه

على صغيريه...

رغم أنهما تجاوزا معاً صعوبات ماضيهما

المعقدة... لكنه هو بالذات لا يزال يحمل رواسب من

ذنب تعكر عليه صفو فرحته...

ربما يحاول مداراة هذا عنها لكنها تشعر به جلياً في
شدة حرصه على ابنيهما وكأنما علقت روحه بهما...
بينما اتسعت ابتسامته وهو يلحظ حبيبات السكر التي
علقت ببشرتها ...

فاقترب بوجهه منها لتعانق شفتاه جانب عنقها
وجيدها بمذاق "السكر" للحظات ...
قبل أن يعيد مغالته للجانب الآخر "النظيف" ...
ثم توهجت شموسه الزيتونية لتسطع على بحار
فضتها مع همسه بصوته المميز الذي امتزجت قوته
بحنانه:

ظننته سيصنع فارقاً!!! لم يضيف السكر الجديد
لمذاقك.

فضحكت ضحكة رائقة وهي ترفع عينيها إليه

بهمسها :

_ عندما يقولها صاحب غابات الزيتون فهذا وحده

مبرر لغروري!

ثم أخفت وجهها في صدره لتردف:

_ من يراك وصرختك تكاد توقف قلبي من قليل لا

يصدق دفء عناك هذا!

هنا ضمها إليه أكثر دون رد وأنامله تعرف طريقها

لمنابت شعرها تحت حجابها المتهوي الذي كان قد

أزاحه برفق...

في حركة أثيرة بدت وكأنها شفرتهما الخاصة ...

لترفع هي إليه سهامها الفضية هامية بنبرة عاشقة:

_ سيد الأضداد أنت بلا منازع!

ابتسم ابتسامته الرصينة وهو يتناول محرمة ورقية
بلها بالماء ثم مسح عنقها وجيدها لينظفهما جيداً
أمام نظراتها الحانية...

قبل أن يبتعد عنها ليقول بحزمه الرفيق:

_ هيا لنخرج... لا يليق أن نتركهم وحدهم بالخارج
ونغلق الباب علينا هنا .

قالها ثم أعطها ظهره لينصرف لكنها جذبت مرفقه
لتهمس له بامتنان :

_ شكراً لأنك جعلتنا نقضي اليوم مع أمي...فهد هو
الآخر سيمر علينا هنا .

عقد حاجبيه بدهشة ناسبت سؤاله:

_ هنا؟!!

أومات برأسها إيجاباً ثم همست بحنان:

_ هو لم ينسَ لرحمة صنيعها معي طوال هذه
السنوات.. لهذا يحاول دوماً شكرها بكل الطرق...
هز رأسه بتفهم عندما ضحكت هي لتردف بمرح:
_ لا أطيق صبراً على اجتماع ملك مع ضياء
ونور... وميادة.. سيكونون نموذجاً مصغراً لحديقة
حيوانات هنا.

ابتسم بسعادة لسعادتها ثم ربت على وجنتها ليقول
برفق:

_ رحمة تستحق فرحة كهذه بعد كل ما عانتها في
حياتها... البيت الصغير امتلأ عليها بأحبابها .
رمقته بنظرة حانية وهي تعود بذهنها للوراء ...

هذا هو البيت الذي شهد طفولتها ومراهقتها التي
تخضبت بحب "هش" داسته أقدام الحياة وظلم البشر
فظنتها هي النهاية...

والآن تعود إليه رافعةً رأسها مع زوج يحسدها
الجميع عليه وطفلين هما قطعة من القمر...
نفس عيون أهل الحي التي كانت ترمقها بنظرات
زاهدة ما بين شفقة واحتقار... هي التي كانت تنظر
إليها بإجلال وهي تغادر سيارتها مع عاصي ومع
الصغيرين منذ قليل...

فسبحان من يرزق من لا حيلة له حتى يتعجب
أصحاب الحيل!!!
أجل... فرحتها اليوم لا توصف وهي تعيش أجواء
العيد من جديد مع رحمة ...

حتى خوفها الطفيف الذي كان يورقها من غيرة
عاصي أو ميادة بسبب وجودها هنا مع عزيز عاونها
عليها القدر فصار رماداً تذروه الرياح ...
وكأنما أرادت لها السماء أخيراً أن تنهل من بئر حب
لا تشوبه شائبة!!!

انقطعت أفكارها عندما سمعت صوت رنين الجرس
بالخارج معلناً عن وصول فهد وجنة...
فتحرك عاصي ليغادر المطبخ لكنها عادت تجذبه من
جديد لتهمس له بعتاب:

لقد قاربنا وقت الظهيرة... وأنت لم تقل لي بعد كل
عام وأنت بخير!

فارتفع حاجباه للحظة ثم ابتسم ليهمس لها بمكر:

أحقاً لم أفعل؟! ممممم... خطأ عظيم!

مطت شفيتها باستياء مصطنع فاتسعت ابتسامته وهو
يحتل نظراتها بغزوه الزيتوني من جديد ليهمس لها
ببطء :

_ كل ... عام... وأنتِ... ماسة...

ثم صمت لحظة ليردف:

_ ماستي!

فغلبتها ابتسامتها وهي تشيح بوجهها عنه لكنه
احتضن وجنتها ليدير وجهها نحوه هامساً بنفس
النبرة الماكرة:

_ قلتها لكِ على الأرض!

عقدت حاجبها بدهشة متسائلة عما يعنيه ...

عندما اتسعت ابتسامته الماكرة وهو يستخرج تذكرتي
سفر من جيبه بينما تلتمع عيناها أكثر بإدراك مع
استطراده:

_أربع ساعات وأقولها لك في الجو...ومثلهن بعدها
لأقولها لك في البحر.

ثم اقترب منها خطوة ليردف :

_لن تغرب شمس العيد إلا وقد قلتها لك في الأرض
والجو والبحر.

شهقت بفرحة عارمة وهي تهتف بانبهار:

_سنسافر؟! لماذا لم تخبرني كي أعد الأطفال!

لكنه هز رأسه ليقول لها بنبرته المتسلطة بمذاق

حنانه:

_وحدنا!

اتسعت عيناها وهي تنظر إليه غير مصدقة ...
عاصي لم يترك صغيريه منذ ولدا ...وكأنما أبت عيناها
اللتان استردتا بصرهما بقدمهما إلا أن تبقيا
متعلقتين بهما ...

لكنه أجهض دهشتها بتفسيره:

_اتفقت مع رحمة أن يبقى الصغيران معها...هي تريد
أن تشبع من صحبتها...كما أنك تحتاجين لهذه
الإجازة القصيرة...لا تظنيني غافلاً عن مجهودك
الشاق معهما طوال اليوم.

أطلقت صيحة فرحة وهي تعاود تعلقها بعنقه لتشبع
وجهه تقبيلاً لكنه ابتسم وهو يقرص وجنتها مداعباً
مع قوله :

هيا لنستقبل شقيقك... أمامك ساعة واحدة تقضيها

معه قبل ذهابنا إلى المطار.

فأومات برأسها لتغادر معه المطبخ نحو غرفة

الجلوس القديمة في بيت رحمة حيث كان الجميع

يتحدثون بصخب...

بينما صوت لعب الأطفال معاً يحدث جلباً

هائلة... لكنها ممتعة...

خاصةً لقلب "تلك المرأة" التي دمعت عيناها وهي

جالسةً على أريكتها الأثيرة تراقبهم بفرح...

أجل... رحمة التي كانت ولا تزال "كل الرحمة"...

ما أجمل حصاد عمر عندما تتقن زرع بذورك في

أوله...

وهي فعلتها... فنعم الحصاد!

قلبها الذي ضج يوماً بآلامه يرقص الآن بين ضلوعها

منتشياً وهي تراهم كلهم هنا حولها...

هي التي ظنت نفسها ستعيش وتموت وحيدة بعد

هروب زوجها بابنها الوحيد... الآن تجد لها عائلة

تزداد فرداً يوماً بعد يوم...

فما أجود الكريم في عطائه!!!

هنا توقفت عيناها أمام عيني عزيز الذي شعر بما

تعانيه أمه فقام ليجلس جوارها ثم قبل كفها بحنان

ليهمس في أذنها :

_ لا دموع اليوم يا رحمة!_

فابتسمت وهي تقبل جبينه قبل أن يقطع جلبه

الأطفال هذه صوت فهد المرح عندما رأى ماسة:

_ حبيبة أخيك... أين كنتِ هاربةً من طفليك؟!_

فانسلت ماسة من كنف عاصي نحوه لتضمه بقوة ثم

قالت بمرح:

_بضع دقائق فقط...كنت ألتقط فيها أنفاسي.

فضحك فهد ضحكة عالية ثم مال على أذنها ليهمس

بخبث:

_أعرف أنا التقاط الأنفاس الذي يكون في المطبخ

المغلق مع السيد عاصي...فعالاً حقاً!!!

فعضت على شفتها بخجل وهي تلكزه في كتفه لترد له

همسه بمثله:

_قليل الأدب!

هنا اقترب منهما عاصي ليصافح فهد ...

ثم سأله بلهجته الرصينة والتي حملت الكثير من

الود:

_ ماذا قلت لها لتخجلها هكذا؟!!

فعاد فهد يضحك للحظات وهو يراقب وجه ماسة الذي

كان محمراً بشدة ...

ثم قال بمواربة:

_ كنت أوصيها بالمطبخ... خاصةً يوم العيد!

كتمت ماسة ضحكتها بكفها لينقل عاصي بصره

بينهما بشك...

لكن فهد تجاوز عن هذا عندما تحرك ليجذب ضياء

الصغير فيرفعه من ملابسه ليكون في مستواهم ... ثم

قال له بحزم مصنع:

_ أنت يا عقلة الإصبع ... يا ذا الشعر المشعث ... تعير

ابنتي لأن شقيقتك فضية العينين؟!!

ضحك الجميع بمرح بينما يحرك ضياء الصغير ساقيه
في الهواء محاولاً التملص من قبضتي
خاله الذي أردف بنفس الحزم مازحاً:
_ سأعلقك على مسمار على هذا الحائط حتى تعترف
بخطئك.

لكن ضياء الصغير ورغم فشل محاولاته في تخليص
نفسه هتف بنفس نبرة أبيه المتسلطة:
_ ضياء الرفاعي يقول ما يريد لمن يريد !
عادت ضحكات الجميع تدوي في المكان من جديد
إعجاباً بالصغير الذي أردف مكابراً:
_ ابنتك جميلة لكن شقيقتي أجمل...إنها حتى لا تجيد
الكلام مثلنا.

هتفت ماسة بكلمات مؤنبة له وهي تلاحظ ضيق ملك

بما يقول ...

لكن فهد أصدر هممة تهديد طويلة ثم قال له وهو

يقرب عينيه من عيني الصغير الزيتونيتين:

_ هل تذكر البندقية التي وعدتك بها؟!!

التمعت عينا الصغير بنهم طفولي عندما أشار فهد

بعينه لتلك الفائف المغلفة بورق لامع والتي

أحضرها معه ... قبل أن يقول له بنفس الحزم:

_ انسها إذن!

هنا صمت الصغير للحظات وكأنه يفكر ثم تعلق بعنق

فهد فجأة ليقبل وجنته هاتفاً :

_ خالي الحبيب... وهل هناك أجمل من "لوكا"؟!!

انفجرت ماسة بالضحك وهي تنقل بصرها بين فهد
الذي بدا الانتصار على وجهه وعاصي الذي التمعت
عيناه بحنان ...

لتقول مخاطبة فهد :

_إنه نصاب مثلك...كنت أفكر منذ قليل أنه ربما ورث
قوة أبيه لكنك أستاذة في الشقاوة والاحتيال!
هنا تدخلت ميادة في الحديث لتقول لضياء بنبرة
مرحة:

_وماذا عن ميادة يا ضياء!؟

فالتفت ضياء نحو الصغيرة وكأنه يقارن ..ثم قال
لأمها:

_هو أحضر بندقية ..ماذا ستحضرين أنتِ!؟

عاد الجميع يضحكون بمرح على ذكاء الصغير
السابق لسنة ...

بينما ضمه فهد برفق ليسير به نحو اللقائف التي
فض إحداها ليستخرج له منها بندقيّة فخمة الشكل
ناولها له وهو يعلمه طريقة إمساكها قائلاً:
_تضع يدك هنا ... نعم ... هكذا... وإصبعك...

_لا!

والهتاف هذه المرة شق المكان بدويّه ليسود الصمت
بعدها ...!!!!

أجل... كان عاصي الذي توترت ملامحه وهو يقبض
كفيه جواره وقد بدت على وجهه أمارات صراع
قديم...

صراع لم تشعر به سوى ماسة التي تحركت لتقترب
منه أكثر حتى كادت تلامسه قبل أن تنقذ الموقف
بقولها الذي تكلفت مرحة:

_ عاصي لا يحب الألعاب العنيفة

للصغيرين... خصوصاً في هذا السن.

فالتمعت عينا فهد بإدراك وهو يلتقط الموقف

بذكاء ...

ثم تتحنح ليخاطب الصغير محاولاً امتصاص تدمره

بقوله :

_ معها حق... دعك من هذه اللعبة المملة... وانظر ماذا

جلبت لك أيضاً!!

هنا اشتعل وجه الصغير بحماس ليلقي بندقيته جانباً
وهو يفض مع فهد محتويات بقية اللفائف التي حوت
المزيد من الألعاب التي شغلته بحق...

قبل أن ينضم إليهما بقية فريق الأطفال ليقلبوا اللعب
بفضول وسط ضحكاتهم الحماسية...

تنهدت ماسة بارتياح وهي تلتفت نحو جانب وجه
عاصي الذي غاب في شروده وهي تكاد تقسم على ما
جرته إليه أفكاره الآن...

عندما تقا تل أربعين عاماً من عمرك فأنت لا تواجه
خصماً سهلاً...

وهو الآن لا يجاهد ماضيه فحسب... بل خوفه من غده
كذلك ...

كل لحظة يقضيها مع طفليه تذكره بما مضى وتخوفه
مما هو قادم...

ولولا شعوره بعفو السماء عندما ردت له بصره مع
طفليه... لاستسلم لخوفه هذا للأبد!!

لهذا انسحب من رفقتهم نحو الشرفة الخارجية لتلحق
به ماسته التي احترمت صمته لدقائق شاركته فيها
بقلبها دون حديثها وهما يستندان على سور الشرفة
متجاورين...

قبل أن تلتفت نحوه لتقول بابتسامة مشرقة:

_تعرف ما أجمل ما في هذا البيت!؟!

التفت نحوها ليعانق حنان عينيها بنظراته منتظراً

تتمة عبارتها ...

فاتسعت ابتسامتها وهي تجيب سؤالها بنفسها :

_ أنه الآن شاهد على أن رحمة السماء سبقت
عدلها...رحمة...عزيز...ميادة...فهد...جنة...أنت...و
حتى أنا...كلنا غلبتنا شياطيننا يوماً وإن اختلفت
الدرجات...لكننا يوم عدنا لطريق الحق وجدنا الفرحة
تفتح ذراعيها لنا .

هز رأسها يفكر في كلامها الذي كان يربت على
جروح روحه القديمة كعهدا...
بينما أردفت هي بيقين :

_ ابن عاصي الرفاعي سيتعلم حمل البندقية كما
سيتعلم الرسم بالفرشاة...لكنك أنت ..أنت ستجعله
يفهم متى يستخدم كلاً منهما...أنت الوحيد القادر على
غرس هذا فيه ليدرك متى يحتاج لقوته...ومتى يحتاج
لإحساسه...

ثم صمتت لحظة لتردف بنبرة أكثر حرارة ملؤها

الإيمان:

_ لا تخف على ابننا... أنت ستكون سنده كما هو

سندك... ستكون ملء قلبه كما هو ملء قلبك... سيرث

حنانك كما ورث قوتك... وسيعرف كيف يوازن بينهما!

هنا انشقت شفتاه عن ابتسامة واهنة وهو يلتفت

نحوها بجسده كله ليهمس أمام ماسيّيها:

_ كعهدك صغيرتي... تدركين تماماً ما أحتاج

سماعه... ومتى أحتاج سماعه !

فابتسمت بدورها وهي تهمس له بحب احتل كيائها

كله:

_ لقد أحسن الأستاذ تعليم تلميذته... فما بالك لو كانت

عاشقته؟!!

هنا تحولت ابتسامته الواهنة لأخرى مشرقة ثم تطلع

لساعته ليقول بهدوء:

_ هيا ندرك ما بقي من وقتنا قبل موعد الطائرة.

وفي صبيحة اليوم التالي كانت تقف معه على متن

أحد "القوارب الزجاجية" كما يسمونها ...

"Glass boats"

تلك المميّزة بتصميمها الذي يجعل طابقها السفلي

شديد الشفافية بما يسمح بمراقبة قاع البحر...

بينما يمكنك الطابق العلوي بمتابعة سطح البحر

المعتاد...

حيث بدأت رحلتها من شاطئ تلك المدينة الساحلية

على البحر الأحمر لتأخذهم في عرض البحر قليلاً قبل

أن يتعمق أكثر ليتمكن من رؤية أعماقه...

كانت واقفةً جواره تستند بكفيها إلى سياج القارب

وتتأمل ألوان البحر حولها بانبهار ناسب همسها:

_ سبحان الله...يختلف تماماً عن شكل البحر أمام

بيتنا...وكان لكل منهما سحره وهويته !

فابتسم وهو يقول لها بنبرته الرصينة:

_ هذا هو سر البحر يا عاشقة البحر...أنه مرآة ما

بداخلك...هو الغريب القريب...والضاحك الباكي.

ضحكت باستمتاع وهي تدور بعينيها فيما حولها

لتعود إليه ببصرها مع تساؤلها:

_ أناملك تشتاق الرسم أمام منظر كهذا!؟!

لكنه هز رأسه نفيًا وهو يضم كتفيها إليه بذراعه

قائلًا:

_ تعمدت ألا يشغلني عنك شيء في هذه الرحلة...

ثم تنهد بحرارة ليقول بشرود:

منذ التقينا ولم تتح لنا فرصة عزلة كهذه...دوماً كان
هناك ما يقف بيننا ..لهذا أردت أن أعوضك بشيء
بسيط كهذا.

ابتسمت وهي تقول بحرج:

هل تصدقني لو قلت لك إنني كنت على وشك أن
أطلبها منك لولا خوفي من ترك الطفلين
وحدهما...كنت أحتاجها حقاً...
ولم تكذ تتم عبارتها حتى رن هاتفها في حقيبتها
القريبة ...

فتناولته لتقول بلهفة:

إنها أمي!

كسا وجهه قلق مفاجيء وهو يراقب انفعالات وجهها
وهي تستمع لرحمة حتى لانت أخيراً مع ضحكاتهما
المرتفعة فابتسم وهو يسمعها تقول لها بلهجة
اعتذار:

_حسناً... لا بأس... سنعيد طلاءه عندما نعود!
قالتها ثم ودعتها بكلمات تقليدية قبل أن تغلق
الاتصال لتتفجر في الضحك مع قولها له مفسرة:
_فهد أحضر لهما فرشاة وألوان... نور حبيبة أمها
زينت لأمي زجاج النافذة بألوان
رقيقة... لكن... ضياء... شبيه أبيه... ماذا فعل؟!
ضحك ضحكة متحمسة وهو يرقبها بلهفة لم يفضحها
لسانه...

عندما استطردت هي وسط ضحكاتهما:

استيقظوا من النوم ليجدوا الجدران كلها ملطخة
بالألوان... وعندما عاتبته رحمة.. قال إنه فنان حر لا
يحب تقييد إبداعه... ألا يذكرك هذا بأحد؟!
ابتسم بحنان مطرقاً برأسه وهو يجد الصغير يستخدم
نفس عباراته مقلداً إياه...

رباه!!!

ما أجمل هذا الشعور!!!

قطعة منك تحمل بعض ملامحك.. تكبر أمامك يوماً
بيوم.. تحاكيك في أقوالك وأفعالك.. وتنتظر بفارغ
الصبر أن يأتي اليوم الذي تكون لها فيه شخصيتها
المستقلة.. لتتحول من مجرد تابع مقلد إلى صديق
ونداً..

يسمونها "أبوة" .. ويسمونها "حياة"!!!!

حياة لا يدرك قيمتها إلا من حُرِمَ منها طويلاً مثله!!

لهذا اعتصرت قبضة باردة قلبه بمذاق اشتياقه

إليهما ...

عندما صادف سؤاها شعوره :

_ افتقدتهما؟!!

_ جداً!!!

همس بها بحرارة متلهفة بعيدة عن طبعه الرصين

فابتسمت وهي تقرأ خبيئته بغابات زيتونه لتقول

بنبرة مرح ماكرة:

_ ممم... عاصي الرفاعي صار لديه نقطة ضعف... بل

اثنتان!

فجذبها من ساعدها نحوه لتلتمع عيناه بعاطفة

مشتعلة ناقضت همسه المقتضب:

_ثلاث!

ارتجف جسدها تأثراً كعادتها كلما تلمست وهج
عاطفته في عينين كهاتين...ومن قلب كهذا...عينين لم
تريا سواها في عالم الحب...وقلب لم يعشق إلا هي
من بين نساء العالمين!!!

لهذا بادلتها ماسيتها نظرة بنظرة...وأناملها لمسة
بلمسة...وشفتاها ابتساماً بابتسام...

لكن رنين هاتفه هو الآخر قطع عليهما سحر
اللحظة...

فتناوله لينظر لاسم المتصل الذي اكتفى برنة
قصيرة...ثم غمغم بأسف:

_إنها طيف!

أومات برأسها في تفهم وهي تدرك طبيعتها معاً...

عاصي لم يكف عن الاتصال بها منذ
الأمس ليعايدها... لكنها لم تكن ترد على
اتصاله... طبيعتها العنيدة المتمردة غلبتها كعادتها ...
والآن يبدو أن بعضاً من مشاعرهما يحاول الطفو
للسطح بهذه "الرنة القصيرة" التي تفضح ترددتها ...
طيف الصالح معضلة كأخيها!!!
وإن كانت قشرة عاصي الصلبة قد تصدعت يوم
عشقها هي...

فهل تأذن الأيام لطيف العنيدة بتصدع "الذيذ" كهذا؟!
انقطعت أفكار ماسة عندما وجدته يعيد
الاتصال بها... لينتظر طويلاً قبل أن يأتيه ردها

البارد:

ماذا كنت تريد؟!

كان صوت طيف المتغطرس يصل ماسة بوضوح
وهي تقف جواره... تماماً كما كان يصلها شعورها
الذي تحاول مداراته خلف نبرتها الثلجية هذه...
كانت تثق أن طيف تنتظر هذا الاتصال لكنها تكابر
كعهدها بزعمها أنها لا تحتاج لعاطفة أحد...
لهذا لم تتعجب صبر عاصي وهو يقول لها بصوته
الرزين الذي تغلف بدفء حنون :

_ كل عام وأنت بخير!

ظل الصمت جوابها للحظات قبل أن يصله صوتها
المختنق بغصته مع تجاهلها لرد معايدته لتقول بنفس

البرود:

_ كيف حال الصغيرين!؟!

_ بخير... ألا تودين رؤيتهما!؟!

قالها عاصي بحذر وهو يعرف يقيناً أنها سترفض
عرضه عليها بالحضور ككل مرة لهذا لم يتعجب ردها
المتعجرف:

_ أرسل لي صورهما عبر البريد الإلكتروني... سلامي
لماسة!

قالتها ثم أغلقت الاتصال بسرعة قد يراها البعض
سخافة لكنه يدرك جيداً ما خلفها ...
إنه هروب!!!

هروب من ماضٍ قد يجر قدميها معه للقاء وهي التي
ذاقت الويل كي تطفو على السطح...
لهذا زفر بقوة ثم ألقى هاتفه جانباً ليقول بضيق:

_ لا فائدة!

فابتسمت ماسة وهي تعانق كفه بكفيها لتقول بحنان:

من قال هذا؟! أنا أعرف طيف جيداً بحكم سابق
علاقتنا... صدقتي لو لم تكن تشتاق حديثك لما نلت
هذا الاتصال...

ثم ضحكت وهي تتذكر نوادرها معها في "أبو ظبي"
لتردف بمرح:

طيف الصالح لا تبالي بذوقيات تعامل ولا تعرف
شيئاً عن المجاملات... وردّها على اتصالك ذو قيمة
كبيرة من امرأة مثلها... لو لم تكن راغبة في الحديث
معك لما فعلتها!

رفع رأسه للسماء للحظات ثم قال بشرود:

فقط لو يمكنني تعويضها عما كان!

فرفعت كفه نحو صدرها لتقول بثقة:

أنت تفعل... هي الآن تثق أن لها أخاً يمكنها اللجوء
إليه متى شاءت... دعها تبتعد كما يحلو لها... لكنها
عندما تحتاجك ستأتيك بعمق يقينها أنك لن تخذلها.
لكنه عاد إليها بغابات زيتونه التي تمايلت أغصانها
بين أسف وندم ليهمس :

لا أريدها أن تأتي لأنها تحتاج... بل لأنها ترغب!

ستفعل يوماً ما... صدقني!

همست بها بنبرة مطمئنة نثرت عبير سكينه في
روحه القلقة حتى هدأتها...

قبل أن يشعرها معاً بتوقف القارب في المنطقة المتفق
عليها لكي يتمكننا من رؤية ما في الأعماق...

فتلفت حولها بترقب عندما جذبها من معصمها نحو
الغرفة السفلية للقارب... والتي حوت نوافذ زجاجية
عديدة تسمح برؤية الشعاب المرجانية وحركة
الأسماك في القاع ...

كان قد استأجر القارب بأكمله لهما وحدهما بالطبع
ليضمن خصوصية أكبر خاصةً عندما أغلق الباب
خلفه ...

إضاءة المكان كانت شديدة الخفوت إلا من ضوء
الشمس المنعكس على الزجاج من قاع البحر لكي
تمكن الجالس من مشاهدة ما بداخل الأعماق
بوضوح...

ولما جلس جوارها على أحد الكراسي المخصصة
لمشاهدة العالم الرائع خلف زجاج القارب وجدها
تهمس بانبهار:

_يالروعة! هل رأيت الشعاب المرجانية بألوانها
هذه؟! وهذه الأسماك...أوه...!!

انقطعت أنفاسها المبهورة وهي تراقب الأسماك
الملونة التي سارت كل منها في جماعاتها ...
والشعاب المرجانية التي تباينت أشكالها وكثافتها...
بينما بدا قاع البحر وكأنه رملٌ أبيض...
لتتلاحق أنفاسها باستمتاع فتشعر وكأنها حقاً قد
صارت جزءاً من هذا العالم...

بينما كان هو يراقب انفعالاتها برضا قبل أن يجذبها
نحوه ليحتويها بين ذراعيه هامساً بصوته الأسر:

كنت أعلم أنك ستبهرين هكذا...

ثم رفع ذقنها نحوه ليردف بنبرة أكثر دفئاً:

هل تذكرين أول أغنية خصصتني بكلماتها!؟!

خفق قلبها بجنون والذكرى تلفها بدوامه شهية من

حنين عذب...

لتهمس بانفعال حار:

كنت بين ذراعيك... على سطح القصر... ساعة

الشروق... يومها غنيتها لك... لم أشأ الاعتراف وقتها

أنني أعنيك أنت بكلماتها.

فمال على شفيتها بقبلة ناعمة قبل أن يهمس :

طالما كنت قادراً على انتزاع اعترافاتك حتى دون

كلمات.

ابتسمت وهي تتذكر الغنوة لتهمس بشرود :

_"أنا بعشق البحر"!

أوما برأسه إيجاباً لينتزعها من شرودها بغزوه

المحتل لشفتيها ...

غزو يليق برجل مثله في مزيج حنانه وقوته...دفعه

وجبروته...احتوائه وهيمنته...

ذاك المزيج الذي تكاد تقسم ألا رجل في هذا العالم

قادرٌ على التوشح به إلا هو...

حتى ولو لم ينطق بكلمة واحدة!!!!

لهذا لم يكن عجباً أن ذابت خلاياها بين ذراعيه

تجزيه عن اشتعاله اشتعالاً...

عن انصهاره انصهاراً...

عن مطر عاطفته طوفاناً!!!!

حتى ابتعد عنها أخيراً ليحتضن وجنتيها براحتيه مع

همسه:

_ لهذا تعمدت أن أحضرك هنا... كي تسبري أغواره

بعينيك... كما فعلت بي !!

فتمالكت أنفاسها اللاهثة لتهمس بصوت متهدج:

_ أنا أعشق البحر... وأعشقتك أنت أكثر!

توهجت شموسه الزيتونية بعاطفتها وهو يعيد غرس

رأسها على صدره مع همسه الأجلش:

_ افتقدت غنائك على صدري.

أخذت نفساً عميقاً ثم طوقت خاصرته بذراعيها لتسند

رأسها على صدره..

ثم هامت ببصرها تراقب أعماق البحر أمامها بانبهار

حالم....

كم كانت صادقة يوم شبهته بالبحر...
سطحه الظاهر مهما هاج بأواجه أو أبهج
بألوانه... كل هذا لا يساوي شيئاً أمام جمال باطنه هذا
الذي تراه...

تماماً... كعاصي الرفاعي...
ذاك الذي تداري واجهته الصلبة فضاءً شاسعاً من
حنان وحب!!!

لهذا تتحننت بخفوت ثم رفعت أحد كفيها لتبسطه
على صدره في حركة تدرك كم يعشقها... وكأنها
تستقريء بها دقائق قلبه لتفصح مكنونه...
قبل أن تلامس شفتاها صدره في موضع قلبه تماماً
لتهمس له بخفوت:

شكراً لقلبٍ لم يخذلني كما فعل بي الآخرون يوماً!

أغمض عينيه وهو يحتويها بضمة رفيقة عندما بدأت

هي تدندن بلحنها الأثير ...

قبل أن تهمس بتلك الكلمات التي طوقت بعذوبتها

قلبيهما معاً...

أنا بعشق البحر...

زيك يا حبيبي حنون...

وساعات زيك مجنون...

ومهاجر... ومسافر...

وعشان زيك زعلان...

وساعات زيك فرحان...

وساعات مليان بالصبر...

أنا بعشق البحر....



****نيلي...****



طلّ وسألني إذا نيسان دقّ الباب
خبّيت وجّي وطار البيت فيّي وغاب
حبّيت إفتحلو وعالحب إشرحلو
طلّيت ما لقيت غير الورد عند الباب

بعدك على بالي

يا قمر الحلوين

يا سهر بتشرين

يا ذهب الغالي

بعدك على بالي

يا حلو يا مغرور

يا حبق ومنتور

على سطح العالي

بعدك على بالي

يا قمر الحلوين!

فاشلة!!

هتفت بها حسناء بغيظ وهي تدخل عليها غرفتها
لتجدها شاردة مع فيروز في غنوتها فالتفتت نحوها
زهرة لتقول بشرود:

ماذا قلت!؟

أغلقت حسناء شاشة الحاسوب المحمول من حيث
انبعثت الأنغام التي أخرجتها هي تماماً وهي تعاود
هتافها المغناظ:

_ أقول إنك فاشلة !!! قرابة الثلاثة أعوام مرت عليك منذ اتخذت علاقتكما شكلها الجديد وأنت عاجزة عن الحصول على دبلته في إصبعك ... لو كنت مكانك لكنت أحمل منه طفلاً على ذراعي الآن!
احمر وجه زهرة خجلاً وهي تخطبها في كتفها لتقول
بارتباك:

_ ماذا تنتظرين مني أن أفعل؟!
فمصمت زهرة شفيتها وهي تشد أذنها لتقول
باستنكار:

_ أي شيء أفضل من الاستماع لفيروز قبلها
بابتسامة حمقاء... بينما الرجل يلف ويدور على راحته
في أوروبا!

تأوهت زهرة بضعف وهي تحاول تخلص أذنّها منها

لتقول مدافعة:

_ هو لا يتسكع هناك... هو مسافر لأجل عمله!

فتأففت حسناء وهي تقول لها بضيق مشوب

بالإشفاق:

_ عمرك يضيع يا زهرة... أخاف أن تكوني تلهثين

خلف سراب... لماذا لا تحاولين الضغط عليه بأساليب

أكثر... ممممم... أنثوية!؟!

أرفقت كلمتها الأخيرة بغمزة مأكرة لكن زهرة هزت

رأسها بحركة رافضة وهي تشبك أصابعها لتقول

بحسم:

لم أعد تلك المخبولة التي تلاحقه طمعاً في حبه... أنا
أنتظره لأتني الآن أفهمه... أفهم خوفه الطبيعي من
الفقد والذي يدفعه للخوف من
الارتباط... أشعر بخطواته المترددة نحوي والتي
تسعدني رغم بطئها...

ثم ابتسمت لتردف بشرود حالم:

أستمتع بمحاولاته الجادة لاستكشافي والتي تثار لي
من طول عهدي معه بهذا... أعشق نظرة عينيه التي
يودعني بها كل مرة قبل سفره تكاد تتوسلني أن
أمنحه وعداً لكنني أبخل به عليه... نعم... أنا أنتظره
لأتني أحب انتظاره... وأعلم أن ما أرجوه منه يستحق
الانتظار!

تهدت حناء بحرارة ثم ربتت على كتفها وهي

تسألها :

_كثرة أسفاره هذه تقلقتي...ماذا لو ذهب مرة ولم
يعد؟!...ماذا لو عاد مرة مع امرأة أخرى؟! هو حتى
لم يعترف لك بمشاعره...ولم يمنحك أية وعود!!
لكن زهرة عادت برأسها للخلف لتستند على ظهر
فراشها قائلة بنبرة عاشقة:

_صدقيني ليس لي خيار...لن أمنع قلبي من حبه
مادامت كرامتي مصونة لا تمس...هو يقترب لكن
ببطء وأنا واقفة مكاني...أنتظره!

عادت حناء تتهد بيأس من مجادلة هذه المتيمّة
التي رن هاتفها الآن باسمه...

فضحكت بلهفة وهي ترفعه في وجهها لتردف بهيام:

_ها هو ذا يتصل!!

زفرت حسناء بقوة وهي تدفعها بعنف لتقول

بسخرية:

_يا لفرحتي بخيبتك!! أضيعي عمرك في السماع

لفيروز وتناول الشاي الأخضر حتى تخطفه منك امرأة

حقيقية تعرف كيف تدير رأسه ...

ثم أردفت بنبرة أمرة:

_أنهي مكالمتك سريعاً حتى نخرج للتسوق!

لوحث لها زهرة بكفها في استخفاف قبل أن تتحنح

بخفة لتفتح الاتصال بقولها:

_أهلاً دكتور جهاد... كيف حالك؟!

صمت للحظات قبل أن يصلها همسه الدافئ:

_افتقدتك يا "نيليّة"!!

احمرت وجنتاها بخجل وهي تسمعه يهمس بها لأول

مرة ...

فعدت تتحنح لتهمس بارتباك:

_ نيلية؟! !!

ضحك ضحكة آسرة وهو يجيئها بنفس النبرة الدافئة:

_ بالأمس خطرتِ على بالي... وجدتني رغماً عني

أراكِ تشبهين نيل بلادك... هادئاً رقيقاً يسري بلا

صخب .. لكنه خلاب ينبض بالحياة...

ثم صمت لحظة ليردف بنبرة أكثر دفئاً:

_ ويقولون إن من يشرب منه مرة فلا بد أن يعود إليه!

كانت وجنتاها الآن قد وصلت حد الاحتراق بينما قلبها

يخفق بجنون ...

ورغم أن هذه لم تكن أقوى كلمات غزل سمعتها لكن

قلبها يكاد يقسم الآن أنها كذلك ..

كفاها أنها منه هو !!

ماذا يطلب كي يعيدها على مسامعها من جديد !!؟

ولماذا لم تشغل خاصية تسجيل المكالمة قبل الرد

عليه !!؟

لكن لا بأس !!

ستبقى كلماته محفورة في عقلها كأنها تسمعها بنفس

الدفء ونفس العذوبة!!

لكن بقايا من تعقلها -المستحدث- جعلها تتجاهل الرد

على إطرانه لتقول له بجدية تصنعها:

متى ستعود من سفرك؟! هل كان موفقاً؟!

تجاهل الشق الأول من سؤالها ليجيب الثاني بقوله

الضائق:

_ مشاكل معتادة لكن لا بأس...

ثم صمت لحظة ليردف بحزن مسها:

_ عندما ينتزعون منا أوطاننا فكل البلاد لنا منفي!

غامت عيناها بنظرة حزينة وهي تتبين سر حزنه مع

الأخبار الأخيرة عن القدس المحتلة ...

بينما كانت حسناء تشير لها نحو إصبعها وكأنها

تذكرها بخطة اقترحتها عليها بالأمس ...

أن تكذب عليه بزعمها أن أحدهم قد تقدم لخطبتها كي

تري ردة فعله!!

لكنها هزت رأسها نفياً برفض قبل أن تقول له بنفس

الجدية وإن امتزجت بحنانها الفطري هذه المرة:

_تقبل قدرك يا دكتور وسِرْ طريقك بنجاح كما

تعودت !

هنا مصممت حسناء شفيتها باستياء فاضطرت

زهرة لإنهاء المكالمة بقولها:

_نراك بخير يا دكتور...عذراً ورائي عملٌ مهم!

كتمت حسناء ضحكتها وهي تميل رأسها متفادية

الوسادة الطائرة التي قذفتها بها زهرة والتي كانت قد

أغلقت الاتصال لتقف الآن على الفراش هاتفة بغيظ

طفولي:

_هل استرحتِ الآن؟! أفسدتِ المكالمة الهاتفية التي

أنتظرها بفارغ الصبر ...

ثم رفعت رأسها للسقف رافعةً ذراعيها بوضع الدعاء

مع هاتفها الطفولي :

_ كشفت رأسي ودعوت عليك يا حسناء... حسناء؟!؟!!

أنتِ حسناء؟!؟! أنتِ حمقاء!!

بينما ضحكت حسناء بانطلاق وهي تقول لها بتخابث:

_ هكذا أفضل... العبي دور "صعبة المنال" قليلاً لعل

صنمك هذا ينطق!!

هنا قفرت زهرة من على الفراش لتتوجه نحوها

بخطوات مندفعة ثم أحاطت كتفيها بذراعها لتقول لها

بهدوء مصطنع:

_ حسناء حبيبتي... نصائح كتاب "كيف تصطادين

عريساً" هذه لا تعجبني...

ثم التفتت نحوها فجأة بوجهها لتخبط جبينها بجبهتها

بقوة مردفة بصوت أعلى:

_ وفريها لنفسك!!

تأوهت حسناء بخفوت وهي تبتعد عنها لتشتتها
بمرح قبل أن تحرك حاجبها مغيظة إياها بقولها:
_ كما تشائين أيتها "العانس البليدة"... بدلي ملابسك
وهيا لنخرج... لقد تأخرنا!!

وبعدها بقليل كانا يتوجهان معاً نحو أحد المولات
للتسوق ...

عندما ابتعدت حسناء عنها لتقيس أحد الأثواب
فانشغلت بتفحص بقيتها حتى توقفت عيناها أمام ثوب
نيليّ فاتح...

فابتسمت رغماً عنها وهي تتذكر ما وصفها به ...
وقلبها يخبرها بحدسه أن عودته هذه المرة قد تحمل
لها بشارة العشق التي تنتظرها منذ سنوات اصطبغت
بحبها الصامت له...

انقطعت أفكارها عندما عادت إليها حسناء أخيراً

بوجه مبتهج وهي تقول لها ببشاشة:

_المقاس ممتاز... سأخذه!

ثم جذبتها من كفها نحو ركن آخر من المحل اصطفت

فيه أثواب زفاف لتهدف بها بمرح:

_تعالى يا "منحوسة"... تعالى وشاهدي هذه لعلك

تسمعين نصائحي!

فابتسمت زهرة بخرج وهي تشعر بأنظار رواد المحل

تتوجه نحوهما لتهمس لها معنفة:

_ستفضحيننا يا "مجنونة"... أخفضي صوتك!

لكن حسناء بدت متحمسة حقاً وهي تقلب الثياب

واحداً تلو الآخر حتى استقرت على أحدها لترفعه أمام

وجهها هاتفة بانبهار:

_ انظري لهذا... يستحق كل ما ادخرناه هذا

العام... تحفة!

لكن زهرة هزت رأسها وهي تقول بعناد:

_ هو رائع حقاً... لكنك لن تقنعيني بهذا لاتباع أساليبك

الملتوية!

فضحكت حسناء وهي تدفعها نحو غرفة القياس عنوة

ولازالت تحمل الثوب لتهتف بها برجاء:

_ جربيه فقط... أريد رؤيته عليك...

ثم مدت أناملها تمسح دمعة وهمية لتستطرد بأداء

تمثيلي:

_ أريد أن أراك عروساً قبل أن أموت!

ضحكت زهرة بدورها وهي تتناوله منها مدعية

الخنوع بقولها:



أشفقت عليك...حسناً...انتظري هنا حتى أجربه!
ولم تكدي تسدل الستار خلفها حتى خفق قلبها بشعور
غريب وعيناها تطاردان تفاصيل الثوب الساحرة
بنظرات هائمة...

طوال هذه السنوات التي قضتها عاشقة لصاحب
العينين الزرقاوين لم تجرؤ على الحلم به كزوج
ترتدي له الأبيض...

كل أحلامها كانت تقف عند أن يشعر بها فقط!!!
أن يراها كما تراه!!!

لكنها الآن وهي تمسك هذا الثوب الرائع بين يديها
تجد نفسها تتمنى هذا بحق ...

تتمناه بكل جوارحها!

لهذا نزعنا عنها ملابسها بحماس لترتدي الثوب
البسيط الذي انسدل على جسدها بنعومة لا مبالغة
فيها ...

لم يكن واسعاً منتفشاً كما اتفق بل كان انسيابي
التصميم ...

يلتصق بنصفها العلوي حتى أسفل خصرها ثم يتسع
بعدها قليلاً لتتخلل بياضه أشعة من خيوط فضية
لامعة...

وهناك على صدره كانت حبيبات منمنمة من أحجار
الفيروز الصغيرة التي زينت جانباً من ياقته وامتدت
متناثرة برقة على أحد ذراعيه...
وقفت تتأمل نفسها في المرآة بعينين دامعتين ولسانها
يلهج بدعوة واحدة...

أن يأتي اليوم الذي ترتديه له !!
سمعت صوت حسناء بالخارج تستعجلها فتحنحت
وهي تزيح الستار ...

لكن الوجه الذي طالعها لم يكن وجه حسناء ...
بل وجهه هو!!!

أجل جهاد!!!

جهاد الذي كان يرتدي قميصاً بلون ثوبها على بنطال
من الجينز بينما يضع "شاله" المميز بلونيه الأبيض
والأسود على كتفيه كعاداته...

شهقت بعنف وهي تداري جسدها بذراعيها ...
رغم أن الثوب لم يكن عارياً لكنها شعرت به وكأنه
يفضح عشقها له!!

يقولون إن "الصبّ تفضحه عيونه" ...

وكل ذرة في جسدها الآن كانت فضيحة وحدها!!!!
بينما ضحك هو ضحكته الساحرة وهو يتقدم منها
خطوتين ليكون معها في غرفة القياس ...
عيناه تدوران على جسدها بنظرات إعجاب لم يخطئ
قلبها تأويلها ...

قبل أن يهمس لها بلكنته المميزة:

_ ساحرة أنتِ يا "نيليّة"!

ارتجف جسدها بقوة وقد احمرت وجنتاها مع همسها
المصدوم:

_ جهاد... أقصد... دكتور جهاد... متى عدت؟! كيف...!

لكنه عاد يضحك بعذوبة ولا زالت عيناه تعانقان

عينها بمشاعر دافئة مع قوله:

_ كانت خطتي السرية مع حسناء... أنا دبرتها وهي

وافقتني...

ثم اكتسبت ضحكته نوعاً من الشقاوة الغريبة على

طبعه الوقور مع استطراده العابث:

_ وأرى النتيجة تستحق!

حسناً؟!؟!

نظرت للخارج لعلها تراها لكن -الماكرة- كانت قد

اختفت تماماً!!

ستمزقها إرباً عندما تراها!!!

كيف تضعها في هذا الموقف؟!؟!

كيف...؟!?!

انقطعت أفكارها عندما شعرت به يقترب منها أكثر
فتراجعت للخلف بصورة تلقائية وهي تحاول استعادة
تماسكها بقولها:

_ولماذا فعلت هذا؟! لا أفهم.

هنا التمعت بحوره الزرقاء بنظرة غريبة لم تعهدها
فيهما قبلاً...

نظرة "ثرية" عوضت "فقر" أحلامها به...

نظرة بألف وعد !!

فارتجفت شفتاها أكثر وهي تشعر أنها على وشك

فقدان وعيها انفعالاً...

بينما نزع هو عنه "شاله" ببطء لتفاجأ به يضعه

فوق كتفها وهو يهمس لها بأعذب نبرة سمعتها منه

يوماً:

_ طلي بالأبيض طلي...يا زهرة نيسان!
انفلتت من شفيتها صيحة خافتة وهي تتلفت برأسها
يميناً ويساراً بينما تهمس بارتباك أثار إشفاقه:

_ ماذا تقول؟! ماذا تعني؟! آآ...ماذا ت...
لكنه قطع عبارتها عندما رفع ذقنها نحوه ليهمس
أمام عينيها بمزيج من حب وتخابث:

_ لا تعلمين ما يعنيه رجلٌ مثلي عندما يضع شالته
الذي يقده على كتفي امرأة؟!؟!
ثم صمت لحظة ليردف وعيناه تدوران على ثوبها
بافتتان:

_ امرأة ترتدي الأبيض له..له وحده؟!
عضت على شفيتها وهي تكاد تبكي من فرط انفعالها
لتسول لها نفسها الكذب بهمسها:

_ لم أكن أرثديه لك .. ولا لأي أحد...كنت فقط أجربه!

لكنه عاد يضحك ضحكة خافتة رافقت همسه:

_ لا تجيدين الكذب يا "نيلية"!

هنا غلبتها دمعة حارة سقطت من طرف عينيها وهي

تبتعد عنه بوجهها لتهمس بانفعال:

_ توقف... أرجوك...

ازداد إشفاقه على ارتباكها المتزايد فابتعد عنها

خطوة وهو يتحنح ليقول بحنان:

_ حسناً... أعيدي لي شالي وسأخرج لنكمل كلامنا بعيداً

عن هنا.

ازدردت ريقها بتوتر وهي تنزع شاله عن كتفها

بأنامل مرتجفة لتعطيه له...

لكنه عقد ساعديه أمام صدره وهو يصدر هممة
اعتراض من شفتيه متجاهلاً أناملها الممدودة مع
قوله:

_ أعيديه لي بنفس الطريقة التي أعطيتك إياها بها!
رفعت عينيها الدامعتين إليه بتردد مشوب بفرحة
شعت وسط نظراتها العاشقة...

ثم تماكنت نفسها لتهز رأسها باعتراض ...
قبل أن تهمس له بعزم يناقض خجلها المشتعل هذا:
_ ليس الآن... ليس قبل أن أفهم!

_ حقك يا "نيلية"!

همس بها بغمزة مأكرة قبل أن يتناول منها شاله
ليضعه بنفسه على كتفيه ثم خرج ليقول لها بحزم
مرح:

_ ترفقي بالثوب بينما تخلعينه هذه المرة... وأنا

سأتولى شأن المرة القادمة!

شهقت بخجل وهي تسدل الستار بحركة سريعة بينما
قلبها يكاد يتوقف من فرط خفقانه لتعود ببصرها نحو
المرآة حيث وجهها المحترق بخجله لتهمس لنفسها

بعدم تصديق:

_ جهاد... كان هنا...

ثم لظمت وجهها المحتقن بخفة لتردف بصدمة:

_ هل قال هذا حقاً؟!...!!! هل قال إنه سيخلع عني

الثوب المرة القادمة؟! الوقح... الوقح... ال... آآه... ال...

انتهت عبارتها بتتهيدة حارة بينما أناملها تمتد لتجذب

سحاب ثوبها مع همسها العاشق:

_ الحلو المغرور!

لم تدرِ كيف مرت بها الدقائق بعدها حتى وجدت
نفسها معه في نفس الممتزه الذي يلتقيان فيه كل
مرة...

لكن الفارق في هذه اللحظة أن "الثوب العزيز" كان
معها...

عيناها تختلسان النظر إليه بينما هي عاجزة تماماً
عن مواجهة عينيه حتى مع سؤاله العابث:
_ألن تقولي شيئاً؟!

صمتت قليلاً تحاول الموازنة بين ارتباكها الخجول
واعتمادها المستحدث بنفسها ...
لترفع إليه عينيها أخيراً بينما تشبك أناملها لتحكم
ارتجافتهما مع قولها:

_ أنا لم أنتظر طوال هذه السنوات لأقول أنا... لو كان

لديك ما تقوله فافعل!

ابتسم بإعجاب واضح ثم مد أنامله يحتضن كفيها

المتشابكين ليقول لها بنبرته الدافئة:

_ أنا لن أسألك لماذا انتظرتِ كل هذه السنوات...

فالجواب في عينيك أقوى من أن أتجاهله... لكنني

سأسألك إلى متى كنتِ ستنتظرين!؟

أسبلت جفنيها دون رد للحظات قبل أن تهمس بصوت

متهدج:

_ بقدر ما تنتظر أنت الرجوع لوطنك حراً!

ارتفع حاجباه بتأثر للحظات قبل أن يقول لها بشروء:

_ ثلاث سنوات وأنا أحاول الاقتراب منك لكن شيئاً ما

كان يصدني... من الصعب على رجلٍ مثلي شاهد

بعينه مصرع أحبابه أن يقدم على خطوة كهذه... أنا لا

أخجل من الاعتراف أنني أرهب التعلق

بأحدهم... لأنني...

تخاف الفقد!

أكملت له عبارته بهمسها المتفهم لتخرجه من شرود

أفكاره ...

فابتسم وهو يمنحها أكثر نظراته امتناناً مع همسه:

بالضبط.. لهذا كنت أطيل أسفاري... كنت أتعمد أن

أغرق قلبي في متاهات من أحاسيس وأمكنة مختلفة

حتى أبتعد به عن الانتماء لمكان أو شخص واحد!

وما الذي تغير؟!!

همست بها بتساؤل وهي تنزع كفيها منه ...

لكنه تشبث بهما أكثر وهو يقول لها باقتضاب:

تعبت!

رمقته بنظرة متفهمة و عيناها تعانقان أمواجه

الزرقاء بينما يردف هو بنبرة أكثر حرارة:

تعلمين شعور من يصعد ضد الجاذبية؟! هكذا كان

إحساسي معك...كنت أبتعد وأدور في مدارات مختلفة

لكنك بقيت مركزها...في كل مرة كنت تمنحيني عشقاً

غير مشروط...في كل مرة كنت تعطيني وعداً غير

منطوق...في كل مرة كنت تمطرينني حنان أم وعشق

امرأة ودعم صديق.

أطرقت برأسها وهي تشعر برغبة عارمة في

البكاء... لا تدري فرحاً أم تأثراً...

لا تكاد تصدق أن كل هذا حقيقي!!

عندما همس هو أخيراً:

_ لن أقول لكِ إني أحبك ... لكنني سأقول إنك تسكنيني

كما أسكنك... هل تعلمين معنى السكن لرجل مثلي

عاش عمراً يعاني غربته؟!!

ابتسمت وسط دموعها ثم ضحكت ضحكة خجول وهي

تسحب كفها لتغطي به ارتجافة شفيتها مع همسها

بسعادة:

_ يا ربي!! كم مرة حلمت باعترافك هذا... لكنني لم

أتخيله بهذه الروعة.

ضحك بدوره وهو يمد أنامله في جيبه ليستخرج منها

علبة صغيرة فتحها ليستخرج منها دبلة أنيقة رفعها

أمام عينيها ليهمس لها :

_ كم أود لو ألبسها لك الآن... لكنني سأنتظر حتى

نسافر معاً لوالديك ...

ثم غمزها مردفاً بمرح:

سأخطب "النيلية" من وطنها... هذه هي الأصول!
لكنها تنهدت بحرارة وهي ترمق الدبلة في إصبعه
بنظرة غريبة...

نظرة من عاش عمره يعدو... والآن فقط يعلنون
فوزه...

فيتوقف ليستريح!!

قبل أن تفاجئه بأن تناولت حقيبتها لتستخرج منها
حافظتها الصغيرة والتي فتحت سحابها لتتناول منها
ما جعله يرفع حاجبيه بدهشة...

لقد كانت دبلة فضية عريضة عادية لكنها كانت بألوان
علم بلاده!!!

ابتسم وهو ينقل بصره بينها وبين الدبلة بين أناملها
بنظرة متسائلة...

فابتسمت بدورها وهي تتأمل الدبلة الملونة لتقول له
بيقين امرأة عاشقة:

_ منذ سنوات وهي ترقد في حافظتي تنتظر اعترافك
هذا... هلا قرأت ما هو محفور عليها!؟

تناولها منها بحذر لتلتمع عيناه بمزيج من حب وفخر
وهو يقرأ ما نقش بداخلها ...

(أنت - بدربك - في جهاد... وأنا - بحُبِّك - في جهاد)

فاتسعت ابتسامته وهو يرفع الدبلة لشفتيه يقبلها
بتقديس....

قبل أن تموج بحاره الزرقاء بمشاعر دافئة أغرقتها
أكثر وأكثر...

بينما يهمس لها أخيراً باعتزاز:
_أجل...وأخيراً التقى "دربي" بـ"حبك" يا
"نيلية"!!



****بنفسجي...***



(ان شاء ان شاء الله نعوضك تعب السنين ياوطننا

راجعين)

راجعين ياوطننا راجعين نعوضك تعب السنين راجعين

يلي مانلقى حزن يشبه حنانك

ومنو بالدنيا ترى يعوض مكانك

ياعراق الصابرين راجعين

يا ابو الناس الطيبين راجعين

وقفت تدندن بها مع أحنائها التي انبعثت من هاتفها

الموضوع جوارها على طاولة المطبخ ...

وقد استبدلت كلمة (العراق) ب(سوريا) وخط الدموع

يرسم على وجنتها مذبحة من ذكريات ...

أناملها تتسابق لإعداد الطعام في المطبخ قبل

استيقاظه لعلها تفلت من بطشه...

انتهت من تقطيع الخضروات لتهرع نحو المقلاة التي

وضعتها على الموقد ...

ربع ملعقة صغيرة فقط من السمن كي لا ينفد سريعاً

فيعاقبها كما المرة السابقة ...

قطعة السمن تنصهر على النار ببطء فتنتظرها

قليلاً ...

تضرب البيضتين ببعضهما لينزلق محتواهما

هاهنا ...

تقلبهما بشرود وهي تضيف الملح مع "الزعتر" ...

رائحته تعيدها ل"مذبحة الذكريات" من جديد ...

راجعلكم يا اصحابي يا أعز واغلى احبابي

ارد اغني احلى نشيد .. للي عايش بالوريد..

زجاج غطاء الموقد العاكس أمامها يمنحها صورة

واضحة لوجهها في ذاك الوقت من الصباح ...

شعرها الناري الناعم الذي انسدل على كتفيها بلونه

المميز الذي يتراقص بين الأحمر والبرتقالي...

عيناها الواسعتان غزيرتا الرموش بزرقتهما

القائمة ...

بشرتها البيضاء التي رسم عليها النمش خريطته ...

وعنقها الطويل المستقر على جسد صارخ

بالأنوثة... وبالوجع!

وجع لم تعد تدري عمره...

هل يماثل عمرها الذي تجاوز العشرين بعام أو

اثنين!؟!

أم يماثل عمر "قلبها" الكهل الذي تغضنت ملامحه !؟
أذنها اليمنى التي تحلت بقرط بينما بقيت شقيقتها
اليسرى خالية !

قرط رخيص بحجر زجاجي بلون البنفسج ارتدت هي
إحدى فرديته ...

والأخرى ...

الأخرى.....!!!

_حرقَتِ الأكلِ يا بنت ال (...).!!

شهقت برعب والرائحة تصل أنفها فجأة مع صراخه
الغاضب وهو يطفئ الموقد بسرعة مع سيل شتائمه
الذي انهمر على أذنيها :

_فيمَا كنتِ شاردة يا (...).!؟! في تلك الغنوة السخيفة
!؟ أم في تأمل جمالك !؟

الذعر يجمدها مكانها وهي ترمقه بعينين متسعيتين

تراقب حركته...

ماذا سيفعل!؟!

تسارعت خفقاتها وهي تراه يتناول الهاتف بغلظة

ليضعه في جيبه بحركة عصبية مع صياحه الذي يكاد

يصم أذنيها:

_ هذا خطئي أنا لأنني أهدر نقودي على مثلك... لا

هواتف بعد اليوم .

دموعها تسيل على وجنتيها برهبة وهي تراه يقترب

منها لتطلق صرخة عالية وهي تراه يجذب شعرها

الطويل ليعتصره بين قبضتيه :

_ فرحانةً بجمالك!؟! شاردة فيه!؟! سأجعلك تكرهين

شكل وجهك إذن !

ظلت تردد رجاءات حارة متوسلة وهو يسحبها خلفه

ليخرج بها من المطبخ نحو غرفتهما ...

الألم في رأسها يكاد يفقدها و عيها وهو يشد شعرها

وراءه بكل قوته ...

حتى اتسعت عيناها بذعر وهي تراه يسحب مقصاً

كبيراً ليرفعه أمام وجهها هاتفاً بتلذذ سادي وسط

نبرته العاصفة:

_خمني...ماذا سنفعل الآن!

انحنت على كفه بسرعة محاولة تقبيله برجاء أن

يسامحها لكن حركتها جعلته يشد شعرها بقوة أكبر

ليرفع وجهها نحوه مع استطراده:

_كنت أعلم أن جمالك هذا لن يكون إلا وبالاً عليّ ...لم

أنفق يوماً نقودي في صفقة خاسرة إلا معك أنت!

صرخت برعب وهي تشعر بالمقص يقترب من

وجها فأغمضت عينيها بقوة...

صوته يدوي بالقرب من أذنيها وهو يجتث خصلات

شعرها ...

يدوي بعنف...

بقسوة...كدوي ذاك القصف ليلتها ...

_أسرعي يا ديمة...هاتي يدك يا ابنتي...لو وقعتُ

أكملي دوني...القارب هناك !

بصوت أمها تسمعها لتكون -آخر- عهدا بها ...

لون الدم يلون مقلتيها ...يليه لون البحر ...

أحمر...أزرق...أحمر...أزرق ...

يمتزجان معاً في لون بنفسجي قائم غلف حياتها كلها

بعدها ...

_ ما رأيك؟! هكذا أفضل؟!!

فتحت عينيها أخيراً وهي تراه يدفعها بقسوة نحو
المرآة القريبة ...

ليتحول رعبها لصقيع قاسٍ سرى في أوصالها وهي
تري كيف صار شكلها بعدما جز شعرها جزاً ...

_ لا تنقصك سوى هذه ... لتتعلمي الأدب!

انتهت عبارته بلكمة عنيفة لجانب وجهها فصرخت
بألم لتسقط مكانها على الأرض ...

بينما صراخه الهادر لا يزال يصم أذنيها:

_ أنا غازي خضر... أكبر أعيان الصعيد أدفع مالي في

دمية مشردة مثلك؟! أين كان عقلي؟!!

والقهر الممتزج بالألم منحها بعض الشجاعة لتتناسى

ألمها هاتفة برجاء:

_إذن... طلقني ودعني لحالي!

_ أطلقك؟! هه... أطلقك وأخسر المزيد؟!!

صرخ بها باستتكار وهو ينحني عليها فانكملت على
نفسها تحتضن جسدها بذراعيها تحسباً لبطشه ...
لكنه جذبها ليوقفها أمامه مردفاً بنبرته الجنونية التي
تخيفها:

_ الآن تقولين طلقني؟! ألم أكن حلمك؟! ألم أكن أباكِ

وحبيبك وعائلتك؟! ألم تكوني تقولين هكذا؟!!

صرخ بعبارة الأخيرة بنبرة أعلى جعلت الدم يتجمد

في عروقها وهي تومئ برأسها إيجاباً ...

فصمت للحظة يسترد أنفاسه ليعاود سؤالها بنفس

النبرة المخيفة:

_ كنت تخذ عيني؟! كنت تريدن فقط الإيقاع بزواج

مثلي؟!!

هزت رأسها نفيًا مدافعةً بخوف فصفعها على وجهها

ليصرخ بها :

_ لم أتزوج خرساء... قولها... قولي أنك تحبينني!

_ أحبك... أحبك غازي... أحبك!

هتفت بها كاذبة بقهر بين دموعها وهي تكاد تسقط

فاقدة و عيها من فرط الألم والخوف ...

ليصرخ بها من جديد:

_ كاذبة! لو كنت تحبينني لما أضعت مالي الذي أشقى

لجمعه... لما تحولت لكتلة بائسة من

البرود... لمنحتني الطفل الذي طالما حلمت به !

_ ليس ذنبي... ليس بيدي!

هتفت بها برجاء متوسل وهي تبتعد بظهرها خوفاً
لكنه جذبها فجأة لصدره بعنف صارخاً بنفس الجنون:
_ ماذا تقصدين بأنه ليس ذنبك؟! أن العيب مني أنا؟!
أنني لست رجلاً بما يكفي لأحصل من ساقطة مثلك
على طفل؟!!

اتسعت عيناها برعب وهي تدرك إلى أي حد ستصل
هذه المحادثة كسابقاتها ...

ربااه...

ليس الآن ...

ستفقد وعيها حقاً لو فعلها الآن...

جسدها لم يعد يحتمل ...

آه!

صرخت بألم وما توقعته يأتيها عاصفاً ككل مرة ...

لم تدرِ كيف صارت فجأة على فراشهما ولا كيف

تساقطت عنها ثيابها ...

الألم النابض في خلاياها جعلها كالمنومة...

لو تفقد الآن وعيها لتستريح ولو دقائق!!

بل... لو تفقد حياتها كلها... وتستريح للأبد!!

جسدها كان يئن وأنفاسها تتثاقل ...

تعلم أنها لو لم تتجاوب معه فسيكون عقابه أكبر ...

لكنها لا تستطيع ...

ذراعاها يتخاذلان والمرئيات في عينيها تتشوش ...

لا يا ديمة... تماسكي...

سيظنك تدعين هذا لتهربي منه...

المزيد من القوة...

أرجوك لا تخذليني يا نفس... كما خذلني الجميع!

لكن يبدو أن جسدها هو الآخر خذلها فقد كان هذا آخر
ما وعته قبل أن يغيب عنها إدراكها لوقت لم تعلمه...
فقط عندما فتحت عينيها من جديد كانت ثيابها
تسترها ...

والأهم... هو لم يكن هناك !

تنفست الصعداء لإدراكها الأخير وهي تتذكر من
ضبابات الساعات السابقة رائحة عطر نفاذة وبضع
شتائم بصوته ...

إذن فقد تركها وخرج ككل مرة !

سمعت صوت الجرس فحاولت النهوض لكنها تأوهت
بألم وهي تعود لرقادها ...

لماذا يؤلمها جسدها هكذا هذه المرة !؟

ربما لأنها لم تتناول سوى النذر اليسير من الطعام

منذ أيام ...

لكنها يجب أن تقوم ...

لعلة غازي قد نسي مفاتيحه !

لو تأخرت فلن تسلم من بطش جديد !

لهذا تحاملت على نفسها لتنهض وسط تأوهات

ألمها ...

سارت بساقين مرتجفتين نحو الباب لتتناول وشاحاً

قريباً غطت به وجهها ...

قبل أن تفتح الباب لتري الطارق ...

عيناه تتسعان بجزع وهو يرى أثر الضرب على

محياتها ...

تترنح في وقفها لتتفلت منها آهة رغماً عنها فيتقدم

نحوها خطوة ...

لكنه لم يزد عليها!

فقط مد ذراعه ليحاوط جسدها دون أن يمسهامع

قوله بصوته الصارم الذي يناقض حديث عينيه :

_ السيد ... أرسلني... ليطمئن .

مقتضب الحديث كعهدها به ... خادمٌ وفي لسيده وإن

كانت تستشعر أن خلف نظراته الخائعة قوة غريبة لا

تدري مصدرها ...

_ دعه يطمئن يا أديم... كل شيء على ما يرام.

غمغمت بها بصوت واهن فازدرد ريقه بتوتر وصلتها

ذبذباته مع سؤاله التالي:

_ تحتاجين شيئاً؟!!

_ أن أستريح!

تمت بها بصوت متهاك أقرب للدعاء وهي تريح
جبهتها لحافة الباب فتحرك ذراعه بسرعة ليقرب
منها وكأنه توقع أن تسقط في أي لحظة...

هنا رفعت عينيها القاتمتين نحوه لتلتقي بعينه اللتين
تشبهان عيني سيده في قوتهما ...

لكنهما الآن كانتا تفيضان بحنان فائض ناقض لهجة
عبارته الجافة:

_ هل أخبر سيدي ليستدعي طبيباً؟!

_ افعلوا ما تشاءون ... فقط دعوني أستريح!

انعقد حاجباه بشدة وهو يشعر أن عبارتها ليست
موجهة له وحده ...

لكنها لم تمنحه المزيد من الوقت عندما أغلقت الباب

لتستند عليه بظهرها ...

عيناها تصطدمان بمرآة قريبة فتتسعان برعب أولاً

وهي لا تكاد تميز ملامحها التي تعرفها ...

وجها منتفخ وإحدى عينيها شبه مغلقة من فرط

تورمها ...

أناملها تزيح وشاحها لترى كيف تحول شعرها لبقايا

مشعثة غير متساوية الطول ...

القهر والألم بداخلها يتمخضان عن غضب هادر ...

صرخت وصرخت وصرخت حتى بح صوتها ...

أخفضي صوتك ديمة ...

لو سمعك أحد وأبلغه... فسيبطش بك من جديد !

جسدها يرتجف ببكاء صامت إلا من أنين لم تملك

كبحه...

خطواتها تقودها نحو المطبخ ...

وبالتحديد أمام تلك الخزانة السفلية الجانبية التي لا
يقربها هو- أنفةً من رائحتها الكريهة بفعل الرطوبة -

رغم أنه يفتش المطبخ كل يوم مع بقية البيت باحثاً

عما يمكن أن تخفيه وراء ظهره...

شكه مبالغ فيه... صحيح!؟

في الواقع لا...

هي حقاً لديها ما تخفيه عنه ...

هذا الذي امتدت له أناملها الآن لتخرجه من كيس

صغير بدا وكأنه مجرد سائل تنظيف...

لكنها وحدها كانت تعلم محتواه...

تماماً كما كانت تعلم أن فيه خلاصها من كل هذا
العذاب...

وبمنتهى العزم رفعته أمام عينيها لتهمس في نفسها:
_ ليس حراماً... ما أعيشه هنا هو الحرام!



الطيف الأول



لماذا تصرخين هكذا!؟!

تهتف بها عاصي بقلق وهو يندفع نحو غرفة
الصغيرين حيث كانت نور تصرخ بغضب غريب على
طبيعتها الهادئة فيما وقف ضياء جوارها عاقداً
ساعديه أمام صدره بينما الصغيرة تهتف بقهر

طفولي:

ضياء أفسد لوحتي... وألقى علبة ألواني من
النافذة.

عقد عاصي حاجبيه وهو يرى اللوحة التي رسمتها
ابنته قد مزقت إلى نصفين فالتفت نحو ابنه بنظرة
متسائلة ليهدف الأخير بطبيعته المسيطرة:
_ طلبت منها اللعب معي فرفضت ...الآن لن يشغلها
عني شيء .

عنفه عاصي بكلمات زاجرة وقد توعدده بعقاب صارم
فخرج الصغير عدواً من الغرفة ...
بينما تقدم عاصي من ابنته ليحملها ويضمها إليه ثم
جمع نصفي اللوحة ليضعهما متجاورين قائلاً
باعتزاز:

_ كم تجيدين الرسم!
ابتسمت الصغيرة لهذا الإطراء وقد بدت وكأنها نسيت
أن اللوحة مقطوعة فمسحت دموعها لتحتضنه

بدورها عندما سمعا صوت ماسة خلفهما تقول

بحنان:

_خطوطها قوية كأبيها ...

_وألوانها دافئة كأمها !

قالها عاصي وهو يلتفت نحوها ولازال يحمل

صغيرته ...

غابات الزيتون في عينيه تتوهج بحنان عاطفته...مع

معنى جديد غاب كثيراً عن

عالمه...معنى "الرضا"!

ابتسمت ماسة وهي تداعب شعر الصغيرة لتقول لها

مواسية:

_ضياء يغار عليك... أنتِ صديقتة الوحيدة هنا... لهذا

يجن جنونه عندما يراك مشغولةً عنه ...

ثم رمقت عاصي بنظرة جانبية ذات مغزى لتردف:
_ستكبرين وتدركين أن هناك نوعاً خاصاً من قلوب
الرجال يعشق التملك ولا يقبلون في قلوب أحبّتهم
شركاء!

فابتسم عاصي ابتسامته الرصينة وهو يفهم ما ترمي
إليه ليقول لماسة ببطء ضاعطاً على حروف كلماته:
_ربما لهذا السبب بالذات لن أعاقبه...إذا الحب تملك
قلوب الرجال فمن ذا الذي يرضى بالشريك؟!
اتسعت ابتسامته ماسة وهي تتذكر آخر مرة زارها فهد
هنا...لم تكن قد رأته منذ وقت بعيد لهذا ما كاد يلقاها
بعبارته الأثيرة "حبيبة أخيك" حتى وجدت نفسها
ترتمي بين ذراعيه كي تشبع نفسها من عاطفة
افتقدتها طويلاً ...

هذا الذي لم يتفهمه عاصي وقتها وغابات الزيتون
في عينيه تشتعل بحرقه غير أن وجدت روحها ملاذاً
على صدر غيره !

لقد قضت بعدها بضعة أيام تسترضيه حتى أنها
عاهدت نفسها ألا تفعلها أمامه مرة أخرى .
لهذا مالت على كتفه بشفتيها بقبلة عميقة قبل أن
ترفع عينيها إليه هامسة :

_ عندما يعشق سيد الأضداد فلا مجال لمنطق ولا
جدوى لتقييم... كل ما في حبه شديد التطرف... كأنه
عالم بكر لم تطؤه قبلي قدم بشر!

نقلت الصغيرة بصرها بينهما وهي لا تفهم شيئاً من
همسهما هذا .. لتقول أخيراً بطيبتها المعهودة :
_ أين ضياء؟!!

_ في وكره السري المعتاد الذي يختبئ فيه عندما يريد

اعتزال العالم... تحت طاولة الطعام .

قالتها ماسة ضاحكة فابتسم عاصي وهو يقبل جبين

ابنته بينما يزيح خصلات شعرها خلف أذنها هامساً

بحنان:

_ لن أصالحه حتى يصالحك .

قبلت الصغيرة وجنته فتحرك بها ليضعها في فراشها

ثم رفع عليها غطاءها قائلاً:

_ قد أن ميعاد نومك ... لا تحزني ... غداً أعد لك مفاجأة

ترضيك.

ابتسمت نور برضا وهي تغمض عينيها ثم فتحتهما

لتسأله ببراءة:

_ وضياء؟! ألن ينام؟!!

لكن عاصي قال بحزم:

_دعیه وحده حتى يدرك خطاه ويصلحه .

ظهر الأسف على وجه الصغيرة لكنها أطاعته كعادتها

لتستسلم للنوم بينما خرج عاصي وماسة من الغرفة

نحو غرفتهما حيث تمدد هو على فراشه ...

بينما وقفت ماسة خلف الباب الموارب تراقب الصغير

لدقائق طالت نوعاً ثم ابتسمت وهي تغلق الباب أخيراً

لتتوجه نحو عاصي قائلة :

_تدري ماذا فعل ابنك!؟!

التمعت عيناه وهو يشبك ذراعيه خلف رأسه قائلاً

بثقة:

_دعيني أضمن... غادر مخبأه عقب شعوره بأننا

هنا... ثم توجه لغرفتهما ووضع لشقيقته علبة ألوانه

هو الخاصة عوضاً عن علبتها التي ألقاها من النافذة
ثم احتضنها وقبلها قبل أن ينام .

ضحكت ضحكة رائقة وهي تتمدد جواره على الفراش
لتلقي برأسها على صدره قائلة:

_ يبدو أنك تفهم ابنك جيداً حقاً...مع إضافة
بسيطة...لقد لصق لها نصفي اللوحة كي تعود كاملة !

_ حقاً فعلها؟! هذه إضافة قيمة لفكرتي عنه !
قالها بفخر حانٍ وهو يضمها نحوه فرفعت عينيها إليه
لتهمس بعاطفتها المتقدة:

_ كم يشبهك! لم أكن أظنني محظوظة حدّ أن أملك

نسخة أخرى منك...ذكاؤه...قوة

شخصيته...تملكه...عنيف عقابه...مع حبه وحنانه

ودفاعه الحمائي عن شقيقته أمام الجميع...ربما لا

تكون جميعها خصلاً حسنة لكن هذا المزيج من

الصفات يجعله فريداً مثلك .

التوت شفتاه بابتسامة حانية وهو يداعب منابت

شعرها بتلك الحركة التي تعشقها ... ثم غامت عيناه

بنظرة أسي مع قوله :

_ربما لهذا السبب أخاف أن أفقد السيطرة

عليه... أحياناً أود لو لا أطلق أسره من بين

ذراعي... لو أمنحه كل ذرة حنان حرمت أنا منها

يوماً... لو أقضي ما بقي لي من عمر فقط كي أرسم

على وجهه ووجه شقيقته ابتسامة لا تموت ... لكنني

أخاف من تدليله... طبيعة شخصيته المسيطرة في هذا

السن الصغير تجعلني أضطر لبعض الشدة كي لا

أفسده...

ثم التفت نحوها بعينه سائلاً:

تظنينه يحبني؟!!

ابتسمت وهي تدرك قيمة هذا السؤال لرجل بتاريخه
مع أبيه فرفعت رأسها لتطبع قبلة رقيقة على ذقنه
هامسة:

لا أظن... بل أثق تماماً... أنت زوج رائع وأب أروع!
قبل جبينها بعمق وهو يضمها إليه أكثر فتساءبت
لتهمس بصوت متناقل:

كان يوماً مجهداً... تصبح على خير!
قالتها ليتناقل رأسها على صدره مستسلمة لنعاس
سريع فظل يرمقها بنظرة حنون دافئة حتى استسلم
للنوم هو الآخر ...

كابوسه "الجديد" يعاود مرادته ولا يفهم معناه ...

يرى نفسه نائماً على ظهره بينما شئ ثقيل غير مرئي

يجثم على صدره ...

ومن العدم تظهر يدٌ صغيرة شديدة السواد يسيل منها

الدم ...

تقترب منه رويداً رويداً لتخمش صدره بأظافرها

المنمنمة ...

يريد الصراخ لكن صوته يبقى حبيس حلقه حتى

يستيقظ من نومه فزعاً والعرق يملأ جبينه !

صدره يعلو ويهبط بانفعال من أثر الكابوس فيضم

ماسة النائمة إليه أكثر قبل أن يزيح رأسها جانباً

برفق ليقوم ويتناول كأساً من الماء !

عيناہ تضيقان بتفكير عميق وهو لا يدري تفسيراً
لهذه "اليد الصغيرة السوداء" التي صارت تورق
مضجعه ...

هل هو شعوره بالذنب نحو ابنه الذي مات؟!
أم هو خوفه من شخصية ضياء التي تزداد صعوبة
مراسها يوماً بعد يوم؟!
أم هو -شيء آخر- لا يزال عالقاً بين ثايا عقله الباطن
ولا يدركه؟!

تنهد بحرارة عند الخاطر الأخير ليشعر بأناملها على
كتفه مع صوتها الناعس:

لماذا استيقظت؟!

ربت على أناملها برفق ثم قال وهو يغادر الفراش :

_ طار النوم من عيني...أظنها فرصة ملائمة لبدء
لوحتي التي لا أجد لها وقتاً بينما الصغيران
نائمانعودي أنتِ الأخرى لنومك .
أصدرت هممة ناعسة قبل أن تعود لنومها فتوجه
هو نحو الحمام الذي ما ولجه حتى تعجب من الكرسي
الصغير الذي وجدته -للغرابة - تحت المرآة قبل أن
تتسع عيناه بدهشة وهو يطالع المرآة نفسها !
فهنالك على سطح المرآة الأملس كان قد كُتب
ب"معجون الأسنان" ما يصلح بعد ترجمته لخطوط
ابنه التي لا تزال مبدئة متعثرة:
_ "أحبك أبي" !

اضطربت جوانحه بانفعال وهو يزيح الكرسي الصغير
جانباً ليقرب من المرآة وابتسامة صغيرة تزهو ببطء
على شفثيه ...

قبل أن تظهر ماسة خلفه لتفاجأ مثله بالوضع فاقتربت
منه لتحتضن ذراعه بذراعيها هامسة بفخر أمومي:
_ ابنك يصالحك كما صالح شقيقته !

أوما برأسه صامتاً لكنها وحدها كانت تفهم ما يجيش
بصدره من انفعالات ...

مهما بلغت قوة ظاهره لكن تبقى نقطة ضعفه حيال
مشاعر صغيريه أكبر من أن يتجاهلها !

لهذا احترمت صمته القصير بعدها حتى التفت أخيراً
نحوها متسائلاً:

_ لماذا لم تكلمي نومك؟!

فالتمعت عيناها ببريق حماسة ناسب عبارتها:

إِغراء اللوحة كان لديّ أكبر من مقاومته... لم

أشاهدك ترسم منذ وقت طويل !

فابتسم وهو يعانقها بقوة وعيناها تنتقلان برضا بين

المرأة بـ "كلمتيها" عظيمني الأثر على قلبه وبين

رأسها المغروس على صدره...

عجباً!

لقد ظن يوماً أن حياته قد آلت إلى منتهاها ولم يتبقّ

له منها إلا سداد دين ظلمه القديم ...

ليفاجئه القدر ببداية جديدة... وعمر جديد... وحب

جديد !

والآن حين ينظر لماضيه يشعر وكأنما كان... لغيره !

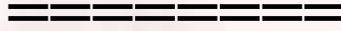
أجل... كأنه انسلخ من جلده ليبيعت من جديد بروح

أخرى وقلب آخر !

فما أجمل أقدارنا عندما تتجاهل حساب الزمن وتمنحنا

السعادة في وقتٍ ظنناه "بدل ضائع" ...

و(العمر لحظة لو تعلمون)!



يسير عاصي جوارها متشابكي الأيدي نحو غرفة

الرسم خاصته ليغلق الباب خلفهما قبل أن يرفع

الغطاء عن لوحته التي لا تزال بيضاء تماماً ...

لتسأله ماسة باهتمام :

كنت أود سؤالك عن مصدر إلهامك؟! ما الذي

يدفعك لبدء خطوط أول اللوحة حتى تكملها?!



فابتسم وهو يجلس ليجلسها على ساقيه بينما تمتد
أنامله لتسحب فرشاته... ثم شدد ضغط ذراعه الحر
على خصرها ليجيها :

كل انسان يصرخ بطريقة... الفن عموماً هو طريقة
راقية لصراخ أرواح لا تجيد

الكلام... الشاعر يصرخ بقصيدته... والروائي يصرخ

بصراع أبطاله... والرسام يصرخ بخطوط

لوحته... الصرخة قد تكون صرخة

حزن... رعب... فرح... حب... وقد تكون مزيجاً من كل

هذا ...

ثم أسند رأسه على رأسها المزروع على صدره

ليردف وفرشاته تتحسس طريقها عبر اللوحة

البيضاء:

_ عندما أرسم فأنا أصرخ بما عجزت عنه
كلماتي ...ومن يفهم هذا الصراخ هو فقط من تعجبه
اللوحة !

تململت في جلستها وقد هبت للقيام كي تراقبه من
بعيد كعادتها لكنه تشبث بها ليهمس لها بحنان دافئ:
_ طالما وددت لو أرسم لوحة وأنتِ مني بهذا
القرب... عندما تمتزج أنفاسنا كيف سيكون
الأثر على فرشاتي؟!!

ابتسمت وهي تعود لتستقر بين ذراعيه تتابع أصابعه
المسافرة في رحلتها بجنون لا يفتقر للجرأة...
أحياناً تتباطأ بألوان دافئة تملأ روحها سكوناً ...
وأحياناً تنطلق بأخرى صاخبة مع ازدياد وتيرة دقات
قلبه تحت أذنيها فتدرك أنه يتذكر شيئاً يورقه ...

حقاً... إنه يصرخ... يصرخ بطريقة !
وأخيراً بدأت معالم الصورة تتضح ...
جسراً رمادي قديم بين شاطئين أحدهما أسود شديد
القتامة والآخر أخضر مبهج ...
وبأسفل الجسر نهرٌ ساكنٌ تترقرق مياهه تحت ضوء
القمر ...

لكن ما روعها حقاً هي تلك "اليد السوداء الصغيرة"
التي ظهرت في خلفية الصورة وكأنها طفت فوق
النهر ترفع أناملها نحو القمر وقد لوث سوادها خيط
أحمر كأنما يسيل منه الدم !

عقدت حاجبها برهبة وهي ترفع عينيها إليه

متسائلة:

ما هذه ؟!

قالتها وهي تشير نحوها فزفر بقوة وهو يهز رأسه

قائلاً:

_ لا أدري...

ثم التوت شفتاه بشبه ابتسامة مع استطراده:

_ ربما لا أفهم صراخي هذه المرة !

ازداد انعقاد حاجبيها وهي تعاود النظر للوحة بحيرة

زادت من انقباض قلبها ... لكنه وقف ليوقفها معه

قائلاً :

_ فلنكتفِ بهذا القدر اليوم... فلديّ مهمة عاجلة قبل أن

يستيقظ الصغيران .

رمقته بنظرة متسائلة فربت على وجنتيها ليقول

بغموض:

_ مفاجأة لنور... ولماستي كذلك !



=====

_ أين أبي؟!!

سألها الصغيرة بينما تدخل عليها المطبخ فابتسمت

ماسة قائلة :

_ على الشاطيء يقول إنه يعد لك مفاجأة !

_ وأنا؟! الأزال غاضباً مني؟!!

هتف بها ضياء بتمر وهو يدخل هو الآخر فقرصت

ماسة أذنه لتقول مازحة:

_ أنت تصالح أباك ب"معجون الأسنان" وأنا أقضي

ساعة في تنظيف المراة !!!

_ هل أعجبته؟!!

قالها الصغير بلهفة فضحكت ماسة قائلة:

_ ستعجبه أكثر لو توقفت عن مضايقة شقيقتك!



_ أنا لم أعد غاضبة.

قالتها نور وهي تحتضنه فابتسمت ماسة لطيبتها قبل

أن تنظر للساعة قائلة :

_ هو قال ساعتين فقط ...أظننا نستطيع الخروج إليه

الآن!

خرجت من البيت معهما نحو الشاطئ حيث جرى

الصغيرين نحوه لتطلق الصغيرة صيحة مرحة وهي

تري ما صنعه لها ...

صندوق خشبي صغير لونه بألوان مشرقة وقد صمم

لغطائه حلية تشبه نجمة كبيرة .

ابتسمت ماسة بحنان وهي تراه يضع ما بيده من

أدوات جانباً ليجذب الصغيرة فيجلسها في حجره قائلاً

بصوته الذي مزج قوته بحنانه:

_ هذا سنسميه "صندوق الأحلام"... لا تفرطي فيه أبداً

مهما كبرت... سواء كنت معك أو لا ...

عقدت الصغيرة حاجبها مع عبارته الأخيرة لكنه

ابتسم لها مطمئناً ليشير لحلية الصندوق مع

استطراذه :

_ ارسمي كل حلم ترتجينه في لوحة وضعيها

هنا... هذه النجمة ستحمل حلمك للسماء كل ليلة... لو

تحقق الحلم فاعلمي أن اللوحة كاملة... ولو لم يتحقق

فابحثي عما ينقصها ...

كان يحدث الصغيرة بأسلوب بسيط يتناسب وسنّها

لكن ماسة كانت تفهم ما يختفي خلف عبارته ...

تفهم كيف يحثها على السعي خلف أمانها دون

يأس...

تماماً كما كانت تفهم غيرة ضياء الذي وقف صامتاً

يراقبهما بتبرم ...

فالتفت نحوه عاصي ليجلسه هو الآخر في حجره

قائلاً :

_ مادمت قد صالحت شقيقتك فانظرا ما بداخل

الصندوق.

جذب ضياء الصندوق ليفتحه ثم شهق بفرحة طفولية

وهو يرى سيارة بلاستيكية صغيرة بموديل خاص

كان قد طلبها من أبيه منذ زمن ...

أخرجها ليقبها بين يديه قائلاً بانبهار:

_ هكذا أكملت المجموعة التي عندي...شكراً يا

أبي .. سأذهب لأجري السباق .

قالها وهو يقبل جبين أبيه بسرعة ليهرع نحو الداخل

بينما نور تعدو خلفه هاتفة بلهفة:

_ دعني أَلعب معك بها ... وسأجعلك تلعب بدميتي.

ضحكت ماسة بسعادة وهما يختفيان عن ناظريها

داخل البيت بينما وقف عاصي لتلتفت نحوه قائلة:

_ أعجبتني طريقتك في إخراج سيارته من صندوقها

هي ... كذلك يتعلم أن سعادة شقيقته مرتبطة

بسعادته .

أوما برأسه موافقاً ثم انحنى ليحضر لها مفاجأتها

قائلاً :

_ وهذه لك!

ابتسمت وهي ترى "الطائرة الورقية" التي صنعها
بينما قلبه يخفق بقوة وهي تتذكر شبيبتها التي
جمعتها به يوماً على سطح بيته القديم ...
فرفعت إليه عينيها لتقول بشرود :

الازلت تذكر !؟

اقترب منها خطوة لتستريح نظراته على بحار فضتها
التي تألقت بعاطفتها بينما أنامله تداعب وجنتها برقة
هامساً:

_كانت المرة الأولى التي يغزوني فيها صوت
غنائك... وقتها قلت لك إن صوتك يشبهك ... رقيق
دافئ حنون ... لكنه كسير ... وقتها شعرت أن طائرتك
الورقية هي حلم روحك البعيد ..

والآن بعد كل هذه السنوات ..لم يعد صوتك
كسيراً...صار قوياً مثلك...وها هي ذي طائرتك
الجديدة...خذيها...وطاردي معها الحلم الجديد .
لم تشعر بنفسها وهي تتعلق بعنقه بقوة لتدفن وجهها
في صدره هامسة :

_ أي حلم؟! وهل تجوز الأحلام لمن يسكن الجنة؟!
ثم رفعت عينيها إليه لتردف:

_ أنت كل حلم...وكل حقيقة...معك فهمت معنى أن
يقسو العالم فلا أهتم...مادامت عيناك تحنوان.
توهجت عيناه بدفء عاطفته وهو يهمس لها بنبرته
الأسرة:

_ شمس أنتِ...عاندت أفلاكها لتسكن سمائي ولا
تغيب .

_بل نجمٌ وارته الغيوم... آواه ليك حتى أضاء.
همست بها وأاملها تشتبك بأامله الحرة قبل أن
تتناول منه طائرتها لتقول بمرح :

_يبدو أن السباق لن يكون لسيارات ضياء
فحسب... تسابقتي!؟

قالتها وهي تخلع عنها خفها المنزلي بسرعة لتعدو
حافية القدمين بطائرتها الورقية على الشاطئ وصوت
ضحكاتها يدوي في أذنيه كأعذب لحن ...
قبل أن يعدو خلفها وقد بدت في عينيه كعروس من
عرائس الأساطير تحلق برشاقة فوق غيمات
العشق ...

خطواته تتباطأ عمداً كي يسمح لها بالمزيد من العدو
والانطلاق...

وخطواتها هي الأخرى تتباطأ عمداً وقد اشتاقت لحاقه

بها ...

ذراعاه يطوقان خصرها أخيراً ليسقطها معه أرضاً

على الرمال ...

ضحكاتها تنافس لمعة عينيها في بريقها الخاطف ...

بينما يقترب منها بوجهه هامساً بين أنفاسه اللاهثة :

_ لم أركِ منطلقة هكذا منذ وقت طويل!

فتهدت بحرارة ثم استلقت على ظهرها تماماً على

الرمال بينما أناملها تمسد بطنها مع همسها الحذر:

_ ربما ستكون هذه آخر مرة تسمح لي فيها بهذا !

تجمدت ملامحه للحظة وعيناه تنتقلان بين بطنها

وعينيها ...

قبل أن يهمس بذهول:

_ أنتِ...؟!!

أومات برأسها إيجاباً فظلت ملامحه على جمودها
للحظات ...

قلبه يخفق بجنون والخبر على بساطته يزلزله !!
لقد ظن أنه قد نال من القدر أقصى حدود كرمه ...
لكن الآن...الآن ...

_ عاصي...هل...؟!!

قالتها بقلق وهي ترى عينيه تلتمعان ببريق
حقيقي...بريق دموع!

فقامت لتستند على مرفقيها بينما رفع هو رأسه
للسماء بما بدا كالدعاء ...

قبل أن يجذبها فجأة بين ذراعيه لتستقر أنفاسه
الصاخبة بين حنايا عنقها وصمته

اللاهت يدوي في أذنيها كأبلغ حديث ...
تشبثت به بدورها وهي تشعر بوقع خبر كهذا على
نفسه ثم ربتت على ظهره وهي تهمس له بحنان:
_ أعلم أنه ليس على الأرض الآن من هو أسعد منك
لكنك لا تزال عالقاً بالخوف من ماضيك... أرجوك يا
عاصي... أطلق العنان لفرحتك... لكلماتك... أو حتى
لدموعك... افرح ودعني أفرح معك .
لم تكذ تتم عبارتها حتى رفع إليها عينيه... شموسه
الزيتونية تتوهج ببريق دافئ ... شفثاه ترتجفان
بانفعال كانت تدرك جيداً مدى عظمته ...
قبل أن تستقرا على جبينها مع همسه المتهدج:
_ طالما ظننتك معجزتي الأخيرة في زمان يزعمون أنه
بلا معجزات!

فابتسمت وهي تسأله بلهفة:

_ تريد ذكراً أم أنثى!؟

_ أريد دليلاً يا ماسة... أريد دليلاً!

همس بها بتأثر وهو يعاود اعتصارها بين ذراعيه

مردفاً:

_ أريد دليلاً على عفو السماء... أريد فرحة بطول ما

بقي من عمر... أريد حباً بعمق ما افتقده الأمس... أريد

قطعة منك تبرق

كالماس وسط ظلام روعي... وليكن بعدها ما يكون .

دمعت عيناها بتأثر من بوحه الحار الذي ندر أن يغادر

صدره بهذه الشفافية لترفع عينيها إليه هامسة:

_ الأزلت تبحث عن دليل!؟ بعد هذه السنوات!؟!

فتهد بحرارة وهو يتذكر كابوسه الجديد... تلك "اليد

السوداء" الصغيرة... ليقول لها بشرود:

_ ثمة شيء ما ناقص... ربما ...

قطع عبارته وعيناه تغيان بنظرة لم تفهما ثم هز

رأسه بابتسامة واهنة وهو يقوم ليجذبها برفق معه

قائلاً:

_ هل أخبرتِ الصغيرين!؟

_ لم أخبر أحداً قبلك!

قالتها وهي تتأبط ذراعه لتسير جواره على مهل نحو

البيت فأشرق ملامحه وهو يقول بحماس غريب على

طبعه الرصين:

_ حسناً فعلتِ... أريد أن نفاجئهما بهذا الآن معاً .

أشرقت ضحكتها وهي تمتزج بضحكته ليسرعا
الخطى نحو البيت وقد امتزج صوتا نداءاتهما
للصغيرين مع هدير الموج هناك ...
وعلى رمال الشاطئ استقرت طائرة ورقية اهتزت مع
الريح كأنما تتراقص فرحاً كشاهدة على "الحلم
الجديد" ...

السماء هي الأخرى تشقق غمامها عن أمطار
تراقصت لتعكس ألوان قوس قزح ...
أجل...مهما اختلفى لابد أن يظهر من جديد داعياً معه
عراس البشرى...

ها قد عدت يا قوس قزح!!

=====

حسام..قذاف الحطب!

=====

_ أسمعني؟! أسمعني يا ابني؟!!

صوت أمه يكاد يخنقه جزعه جواره لكنه لا يملك إلا

الاستجابة لهذه الدوامة التي تبتلعه ..

ظلام .. ظلام .. ظلام !

ظلام تضيئه أخيراً "نارٌ" وليس "نوراً"!

نارٌ لا تزال يُلقى فيها الحطب فوق الحطب !!

_ أنا يسرا الصباحي! لماذا أرضى بـ"نصف

رجل"؟!!

يسمعها بصوت يسرا كجلدة سوط فوق ظهر

كبريائه !

نصف رجل ! نصف رجل !!

قدماه تركضان وسط هذا الظلام ..تدوران حول حلقة

النار التي تتسع ..

المزيد من الحطب فوق الحطب!!

_أنا! أنا طيف الصالح اخت عاصي الرفاعي كاتبة

ناجحة وامرأة يتمناها اي رجل ..أنت؟! أنت حسام

القاضي ..ضابط فاشل باع ضميره لينتهي به الامر بلا

عمل ..عملك الذي كنت تتكبر به علي الناس

وعليّ ..عاجز عن الإنجاب لفظتك أولى

نسائك ..ولحقت بها الثانية هربا من جحيمك ..هل

أكمل أم نكتفي بهذا القدر؟!

المزيد من الحطب فوق الحطب !!

_طيف! أنتِ الشئ الوحيد في حياتي الذي بقي

يذكرني أن لي قلبا !

_ أنت لم تحب يوماً إلا نفسك .. حسناتك لك وذنوبك
تلقيا علي غيرك ومثلك لن يعرف الحب ابدا حتي
يحترق بعذاب آثامه .. ربما - وأقول "ربما" - بعدها
تكون للرماد حياة !

المزيد من الركن حول حلقة النار التي تتسع
وتتسع ..

المزيد من الحطب فوق الحطب ..

دعاء ب "عينها المفقودة" .. نظرتها

الكسيرة .. وكلماتها له في آخر لقاء ..

_ لا تحقد على طيف كثيراً فهي ليست هائلة .. كلاهما

مسخ شوهه انتقامه !

وأخيراً يسقط أمام حلقة النار .. يلهث بعنف ولفحها

يكاد يحرق بشرته ..

ولايزال المزيد من الحطب يُلقى فوق الحطب!!
صوت طلقات نار ! امرأة تسقط صريعة مع ابنها
الذي تحمله في بطنها !

سيارة تتحرك بسرعة هائلة لتسقط من أعلى
المرتفع !!

عاصي الرفاعي يفقد زوجته وطفله ..وبصره!!
حلقة النار تتسع أكثر فيشعر بلهبها يشوي جسده ..
يحاول كتم ألمه كما اعتاد لكنه يعجز عن فعلها !
صرخاته تتحرر أخيراً واحدة تلو الأخرى فيتردد
صداها كسظايا تنفجر داخله !

_حسام ! اهدأ ! تماسك!

الهتاف بصوت فهد يخترق أذنه فيشعر بقبضتي
الأخير تشتدان فوق ساعديه تثبتانه مكانه لكنه يعجز

عن السيطرة على انتفاضة جسده .. يسمع صوت بكاء
أمه ونداءاتها المتضرعة باسمه فتهدأ ارتجافته رويداً
رويداً ..

يفتح عينيه أخيراً ليشعر بضوء المصباح كخنجر حاد
ينغرس في حدقتيه فيعاود
إغلاقهما بسرعة ..

_ الحمد لله ! أفاق ! فتح عينيه ! أنا رأيته !
صوت أمه المحتقن بكائها يجبره أن يعيد المحاولة
من جديد فتستقبله نظرة فهد الداعمة هذه المرة وهو
يربت على كتفه

قائلاً بودّ لم يخلُ من قلق:

_ حمداً لله على سلامتك يا صاحبي !

_ ماذا حدث؟!!

يهمس بها بصعوبة عبر حلقة الجاف وهو يشعر
بعناق أمه الدافئ لتهتف الأخيرة بين دموعها :
_ستقتلني يوماً ما خوفاً عليك ! لن تكف عن القيادة
بهذه السرعة ؟!

_قيادة ؟!

يهمس بها بتشتت وهو يستعيد آخر ما يذكره عن تلك
الليلة ..

احتفال "ليلة العيد" المعهود مع أصدقائه بتلك
السجائر "المحشوة" .. لم تكن مرته
الأولى بطبيعة الحال لكنه يعترف أنه أسرف كثيراً
هذه المرة .

_سأنادي الطبيب ليتفحصك !

تهتف بها أمه بلهفة وهي تنهض عنه لتغادر الغرفة
فيما يرمقه فهد بنظرة عاتبة دون حديث تجعله هو
يهمس بانفعال وقد استعاد بعض وعيه :

_ بالله عليك لا تبدأ حديث المواعظ ! حادثة ومرّت!
يقولها بينما يشيح بوجهه فيتهد فهد بحرارة ليجلس
على الكرسي أمامه مكرراً باستنكار مشفق:

_ حادثة ومرّت؟! عمرك كله يمر بلا جدوى يا
حسام ! إلى متى ستظل تدور في هذه الحلقة السوداء
الضيقة؟!

يصمت طويلاً وكأنه هو الآخر يبحث عن جواب
للسؤال .. يستعيد أحداث كابوسه السابق فيبتسم
ابتسامة شاحبة مع جوابه :

_ حتى تخنقتي!

يهم فهد بالرد وهو يشعر بالمزيد من الإشفاق نحوه
لكن دخول الطبيب يقطع محاولته .. الطبيب الذي تقدم
ليتحققه باهتمام ..

_ الحالة مستقرة .. صورة

"الأشعة" مطمئنة .. كدمات ورضوض

بسيطة .. ستبقى معنا قليلاً فقط ريثما نطمئن على

الحالة تماماً وبعدها يمكنك الانصراف يا "سيادة

الرائد"!

_ سيادة الرائد !!

يهمس بها حسام بسخرية مريرة تجعل الرجل يلتفت

نحو الأم بارتباك قائلاً ببعض المرح:

_ والدتك أخبرتني أنك ..

_ كنت!

يهتف بها بحسم مقاطعاً قول الطبيب الذي يرمقه
بنظرة متعجبة قبل أن يتجاوز عن كل هذا بقوله :
_حمداً لله على سلامتك ..ضاعت منك أجازة العيد هنا
لكن لا بأس ..المهم أنك نجوت .

_نجوت !

يتمتم بها حسام بشرود فيتحنح الطبيب ليخاطب الأم
بقوله :

_أحتاجك لتوقيع بعض الأوراق يا سيدتي ..تفضلي
معي .

تربت المرأة على كتف حسام بحنان ثم تغادر الغرفة
ولم تكد تفعل حتى تحرك فهد ليجلس على طرف
فراش صديقه ..

العيون تحكي حديثاً يغنيها عن حكايا اللسان ..صمتٌ
قصير يقطعه حسام بقوله الذي مزج مرارته بتهكمه :
_نجوت! هذه المرة أيضاً نجوت !! هل من المفترض
أن أكون سعيداً!؟!

يتهد فهد بحرارة وهو يطرق برأسه مدركاً مشاعر
صديقه الذي استطرد بضحكة مختنقة :

_تعلم!؟ في كل مرة أشعر أنني نجوت من عقاب
أدرك أن ما ينتظرني أشد ! صدقني لم أعد أعيش إلا
لأترقب النهاية كيف ستكون .

_عن أي نهاية تتحدث!؟ ارمِ كل أفكارك المحبطة
هذه خلف ظهرك ! حياتك كلها لا تزال بين يديك ..أنت
الذي تصر أن تضيعها ! لقد مر أكثر من ثلاثة أعوام
على نكبتك هذه وأنت لا تفعل شيئاً إلا جلد نفسك سراً

فيما تتفنن في إظهار استهتارك ولا مبالاةك
للناس .. أفق يا صاحبي ! أفق ! إن لم يكن
لأجل نفسك فلأجل أمك التي تراك كل ما بقي لها .
يطلق حسام زفرة قصيرة وهو يحاول التخلص من
بقايا كابوسه .. يدور ببصره في المكان ثم ينهض
ببعض العسر .. يشعر ببعض التتميل في ساقيه مع
صداع لعين يكاد يفتك برأسه لكنه يتحامل على نفسه
ليتوجه نحو المرآة القريبة فيتحص مظهره باهتمام
بدا مريضاً:

_متى طالت لحيتي هكذا؟! لن أغادر نحو بيتي بهذا
الشكل .. بل لن أبقى دقيقة واحدة هكذا .. أحضر لي
ماكينة حلاقة يا فهد .

يبتسم فهد بتفهم وهو يقترب منه ليربت على كتفه

قائلاً :

كنت أعلم أن هذا أول ما ستطلبه ! لا تقلق ..ماكينه

الحلاقة ، عطرك الخاص ، طاقم ملابس و حذاء ..كل

هذا ستجده في الخزانة ..أنا مررت على بيتك صباحاً

قبل حضوري إلى هنا .

يقولها مشيراً للمفتاح الاحتياطي لبيت حسام في جيبه

والذي يتركه معه الأخير دوماً مع كل ما يحمله هذا

من معانٍ لكليهما !

سلطانة !!

يهتف بها حسام بجزع وكأنه تذكر فجأة فيضحك فهد

وهو يتناول كرسيّاً قريباً يضعه له أمام المرآة ثم

يجلسه وهو يربت على كتفه مهدناً بقوله :

_ لا تقلق! وضعت لها الطعام والشراب .. لكن يبدو

أنها تفتقدك .. لم تكف عن النباح .

يطلق حسام ضحكة قصيرة بدت متكلفة كثيراً مع هذه

اللمعة الحقيقية في عينيه .. والتي جعلت فهد يرمقه

بنظرة مشفقة ناقضت خشونة نبرته :

_ لنا حديث آخر عندما تستعيد كامل عافيتك .. لن

أتركك لحماقاتك هذه كثيراً .

_ تنسى دوماً أنني أكبرك سناً يا ولد !

يقولها حسام بمرح مصطنع وهو يراقب فهد يتوجه

نحو الخزانة ليستخرج بغيته فيضحك الأخير قائلاً:

_ تتحدث مثل الأستاذة ! متى سأقنعكما أن العمر ليس

بالسن إنما بالخبرة .. بالتجارب!

_ احرص يا "أرسطو"! أريد التركيز كي لا أرح
ذقي .

يهتف بها حسام بنبرة لا تزال تعاني إعياءها وهو
يحاول حلق لحيته النامية أمام المرأة فيغمزه فهد
مغمماً بنبرة عابثة :

_ ولماذا تتعب نفسك؟! أنت رجل منهك وخرجت لتوك
من حادث! دعني أنادي إحدى الممرضات لتتولى
الأمر .

_ هذا هو فهد صديقي القديم قبل أن يفسده الزواج!
أخبرني .. ذوقهم جيد في الممرضات في المستشفى
هنا؟!!

_ لا بأس به!

يغمزه بها فهد بمرح فيتشاركان ضحكة قصيرة
يقطعها دخول الأم التي تهلتت أساريرها وهي ترى
حسام يجلس أمام المرأة :

ما شاء الله لا قوة إلا بالله ! الحمد لله رب العالمين !
حمداً لله على سلامتكَ يا حبيبي.

تهتف بها وهي تتحني لتطوق جسده فيرفع رأسه
نحوها بنظرة أسف طويلة لم تجد ما يوازيها على
لسانه ..

أمه .. فهد .. سلطنة .. عمله .. وبضعة من رفاق السوء
يزورهم من آنٍ لآخر عندما يضيق برتابه حياته
المملة ..

هذا كل ما صارت حياته تدور حوله !

ينهي حلاقة ذقنه بمساعدة فهد ثم ينهض ليبدل
ثيابه .. يفرط كعده في استخدام عطره الباذخ .. يمشط
شعره باهتمام ..

ساعتي؟!

يهتف بها بتساؤل فتستخرجها امه من درج قريب ثم
تلبسه إياها بنفسها ..

نظرة راضية يتشاركها وهو يعاود النظر لنفسه في
المرآة ..

الوسامة المفرطة .. الأناقة الباذخة .. نزيف القسوة
والخوف الغريب في العينين الصقريتين .. ابتسامة
واثقة على الشفاه المرتجفة ..

منتهى الكمال يا "سيادة الرائد"!

منتهى الكمال !

لولا هذا الشحوب الطبيعي فوق ملامحك ..والذي

يشبه نظيره فوق قلبك !

_ هاتفي؟!!

يناوله فهد إياه فيرفعه ليلتقط لنفسه صورة في وضع

استعراضى ثم يرسلها على حساب "الفيسبوك"

ليكتب تحتها العبارة الشهيرة :

_ تأتي الرياح كما تبغي سفينتنا ..نحن الرياح ونحن

البحر والسفن .

يتأكد من نشرها فترتسم على شفثيه شبه ابتسامة

وهو يراقب تعليقات الأصدقاء من زملائه القدامى في

جهاز الشرطة ..ومن بعض الفتيات العابثات اللاتي

يتابعن حسابه باهتمام دون معرفة حقيقية بينهم ..

كلها تعليقات تشيد بوسامته وتتمنى له

السلامة بعد الحادث البسيط الذي لم يؤثر عليها كما

يبدو !

النظرة الراضية في عينيه تزداد تخمة .. لكنها تصطدم

بهذا الخبر الذي قرأه لتوه ..

وفاة رفعت الصباحي ..والد يسرا !

يتابع الخبر باهتمام وهو يطالع صورتها ..

متى عادت هذه للوطن !؟

بالتأكيد بعد وفاة ابنها !!

شماتة خفية ترفع رايتها فوق أرضه !

هي عيرته يوماً بأنه "نصف رجل"!

رفضته لأجل طفل كهذا الذي مات !!

لكن الشماتة تختفي رويداً رويداً ليحل محلها شعورٌ

عارم بالفراغ..

بالضياع!

دعاء كذلك - التي يتابع أخبارها من بعيد- صارت لها
ابنة جميلة تشبهها ..تستحق هذه السعادة التي
تعيشها بعيدة عنه ..

وحدها طيف لا تزال تشاركه وحدة روحها ..
فهل يزعم أنه يشعر بالشماتة نحوها كذلك؟!
وكيف تمتزج الشماتة مع هذه الحسرة التي تكوي
ضلوعه؟!!

المزيد من "الحطب" لا يزال يزكي نيران الصدر لكن
يكفيه أنه يحترق به وحده دون أن يراه أحد!

=====

عسى أن تعجبك المفاجأة يا أستاذة!

قالها فهد وهو يغلق علبة الصغيرة التي حوت خاتماً
أنيقاً بفص كريستالي سماوي قبل أن يضعها في
جيبه .

كان واقفاً بسيارته أمام البناية التي تضم مكتبها
البسيط والذي عرض عليها تغيير مكانه بما يتناسب
مع وضعهما الجديد ...

لكنها رفضت رفضاً قاطعاً متشبثةً بهذا المكان الذي
بدأت به حياتها العملية !

ابتسم ابتسامة عابثة وهو يتناول هاتفه ليتصل بها
وما إن فتحت الاتصال حتى شعر بارتباك صوتها مع
قولها ببعض التحفظ:

لا يزال أمامي الكثير من العمل ... يمكنك أن تسبقني
إلى البيت .

فاتسعت ابتسامته وهو يخرج من السيارة ليقول

مراوغاً:

_ أنا أيضاً متعب... سأنتظرك هناك!

قالها ثم أغلق الاتصال بسرعة وهو يردف في نفسه:

_ لنجعل المفاجأة كاملة يا أستاذة!

تقدم نحو البناية ليصعد الدرج نحو مكتبها الذي يعلم

أنها لا تستقبل فيه أي زبائن في هذه الساعة مكتفية

بمراجعة قضاياها ...

استقبله مساعداً بترحاب لكنه أشار له

بالصمت وهو يتوجه نحو مكتبها المغلق لكن الرجل

أدركه ليقول باعتذار ودود:

_ هناك زبون بالداخل... عذراً لكنه حالة استثنائية!

رفع فهد حاجبيه بدهشة وهو يقول بصوت خفيض:

_ لا ريب أنه حقاً كذلك...حتى تغير الأستاذة قوانين

المكتب لأجله .

دعاه الرجل للجلوس ثم قال موافقاً:

_ الأستاذة تولى قضيته اهتماماً خاصاً...والحقيقة أنه

يستحق...شباب مجتهد...مكافح...أين تجد هذا وسط

شباب هذه الأيام الذين

غاب عنه تركيزه في كلمات الرجل وهو يرى باب

مكتبها يفتح ليخرج منه الرجل الذي ألقى عليهما

سلاماً عابراً قبل أن يغادر ...

غافلاً عن القنبلة التي ألقاها في صدر فهد وهو يتبين

ملامحه بوضوح لن يخطئ فيه مثله ...

لقد كان...حسن!

=====

تهدت بحرارة وهي تتقلب في فراشها عاجزة عن

النوم ...

وكيف تفعل؟!!

وهي المرة الأولى التي يهجر فيها فهد فراشهما

ليبيت وحده في الغرفة المجاورة!

حتى ملك الصغيرة تعجبت فعلته وهي تسأله بحروفها

المتلعثمة عن السبب ، لكنه تهرب منها بإجابة

مراوغة قبل أن ينفذ ما برأسه العنيد !

هي تعذره في موقفه لكن ما حيلتها هنا؟!!

فقط لو يفهم .. لو يقدر ما الذي كان يعنيه حسن في

حياتها ...

ولا يزال!!!

حسن لم يكن مجرد حبيب توفي عنها بعد عقد

قراهما !

حسن منحها حياته!

دفع روحه ليمنحها هي الحياة!!

غص حلقها بدموعها في هذه اللحظة فنهضت من

رقادها لترتدي منزرها فوق قميص نومها قبل أن

تغادر غرفتها إلى غرفته ...

هي لم تكن يوماً جبانة أمام المواجهات فما بالها بهذه

المواجهة التي تخص أعلى من في حياتها!؟

لهذا أخذت نفساً عميقاً وهي تفتح باب الغرفة المظلمة

إلا من إضاءة خافتة عبر زجاج النافذة لتتوجه نحو

فراشه الذي توقفت جواره تراقبه وقد استلقى على

ظهره ،وملامح وجهه العابسة التي لم تفاجأ بها بدت
وكأنه كان ينتظرها!

التقت عيناها في حديث مضطرب قبل أن يصرف
بصره عنها ليحدق في السقف فازدردت ريقها الجاف
لتهمس بنبرة قوية:

_أذكر واحداً اعتقلني بين ذراعيه ليلة كاملة رافضاً
أن يتركني لحظة واحدة عندما شعر بالخوف من أن
يفقدني... أين ذهب؟! أم أن الحب يبهت بعد الزواج
حقاً كما يقولون... آآه...

انقطعت عبارتها بأهتها المندهشة عندما جذبها من
يدها نحوه فجأة لتسقط على صدره قبل أن يعتصرها
بين ذراعيه بقوة أمتها قليلاً مع همسه من بين
أسنانه:

_تجيدين قلب الأديوار ..لكن ليس هذه المرة!
تلاحقت أنفاسها بقوة وهي تبسط كفيها على صدره
ووهج البندق في عينيها يزداد تألقاً مع همسها
اللاهت:

_هذا ما كنت أحتاجه بالضبط منذ ما حدث في
المكتب ...أنا لم أعشق فتىً طائشاً يخاصمني عندما
تعرضنا مشكلة كهذه ...أنا أحببت رجلاً عاقلاً
التحمت حياته بحياتي منذ عرفته .

ازداد انعقاد حاجبيه مع ذاك الغضب الصارخ في
عينيهِ وهو يعتصرها بين ذراعيه أكثر مع همسه:
_حقاً؟! وهل تذكرتِ هذا وأنتِ تخفين عني أمراً بهذه
الأهمية!؟!

دمعت عيناها رغماً عنها لكنها تشبثت بقوتها وهي

تقول بمكابرة:

_ ومنذ متى أطلعك على أسرار عملي وموكلتي؟!!

_ لا تلعب بالنار يا أستاذة... أنا بالكاد أتمالك غضبي

فلا تستفزني أكثر!

هتف بها بحدة مكتومة فارتجفت شفتاها وهي تتشبث

بنظراته مع قولها:

_ هذا بالضبط ما جعلني أخفي

الأمر عنك... هل تدري ما الذي أفقده الآن في

علاقتنا؟!!

ظلت نظراته على غضبها الهادر فتهدت بحرارة

لتخفي وجهها في صدره مجيبةً عن تساؤلها بنفسها:

_ صداقتنا!... أرجوك يا فهد... كن صديقي هذه
الليلة... أحتاج هذا حقاً... أعرف أن الأمر صعب لكنني
لن أجد من يفهمني مثلك!

ظل متجمداً على وضعه لدقائق طالت وكأنه لم
يسمعها قبل أن تشعر بضغط ذراعيه يخف قليلاً مع
همسه المقتضب:

_ أسمعك!

رفعت إليه عينيه مترددتين فأدار جسدها ليرقدها
جواره محتفظاً بها بين ذراعيه ليردف بنبرة عاتبة:
_ لو كذبت.. أو أخفيت شيئاً.. سأعرف!

انفرجت شفثيها وهي على وشك الحديث لكنه هتف
بسرعة:

_ولو أفرطتِ في شرح مشاعرك عندما

رأيتِه ...سأقتلك!

ابتسمت رغماً عنها ثم طبعت شفتاها هدية ناعمة

على ندبة ذقنه تسترضيه قبل أن تهمس بخفوت:

_إبراهيم توأم حسن سافر عقب موته هرباً من ترصد

البعض له ...أنت تعلم ظروف مقتل حسن وظروف

البلد كلها وقتها ...لم أره من ساعتها ...لكنني فوجئت

بزيارته منذ أسبوعين يطلب مني المساعدة في قضية

إرث تخص عائلته !

ضاقت عيناه وهو يتفحص ملامحها مدركاً أن القادم

هو الأصعب وقد صدق ظنه عندما أغمضت عينيها

وكأنها تخفي عنه نظراتها لتردف:

_ لا أخفيك قولاً... عندما دخل عليّ المكتب أول
مرة... كانت من أصعب اللحظات التي مرت
عليّ... نظراته العاتبة رغم
تفهمها... جعلتني... جعلتني أشعر وكأن...
قطعت عبارتها عاجزة عن إكمالها ليكملها هو:
_ وكان حسن هو من أمامك... يلومك على خيانتك!
فتحت عينيها فجأة تنظر إليه نظرة واحدة...
لتطالعها عيناها الدامعتان من فرط الغضب...
مما جعلها تجهش في البكاء فجأة مع قولها:
_ آخر مرة رأيت فيها إبراهيم قبل سفره كانت ذاك
اليوم الذي دفنا فيه حسن... نظرات والديه المصدومة
كانت تحمل بعض اللوم لي وأعذرهما في هذا لكنه هو
وحده لم أر في عينيهِ هذه النظرة... بل

قال لي يومها : لا تشعري بالذنب... لو كنت مكانه

لفعلت مثله!

_ هذا الذي تريدني أن أقبل بعملك معه؟!!

كاد يهتف بها ووحش غيرته ينهش صدره لكنه حكم

عقله في اللحظة الأخيرة ليبتلع كلماته بينما مسحت

هي دموعها لتردف:

_ لكنني رأيتها في عينيه عندما زارني في مكثبي بعد

عودته... رأيت الحسرة الائمة في نظراته وهو يطالع

صورتنا أنا وأنت وملك على مكثبي... لم

ينطقها... لكنني سمعتها .

_ ربما لا يلومك... ربما هو فقط يتحسر على شقيقه!

يعلم الله كم جاهد نفسه لينطقها بكل هذا الهدوء الذي

شجعها لتقول :

_ لهذا لا يمكنني التوقف عن مساعدته... هو دين في

رقبتي طوال عمري!

_ لن تفعلي!

قالها قاطعة فانعقد حاجباها بغضب بينما هو يردف

بحسم:

_ لازلت أقوم بدور الصديق بالمناسبة... للزوج معك

حسابٌ آخر... وبعقل الصديق أقول لك إن تعاملك مع

هذا الرجل لن يجرك إلا للمزيد من الإرهاق

النفسي... أنت لستِ أمهر محامية في

المدينة... يمكنني تسليم قضيتك لمن هو أفضل منك مع

توصية مناسبة لكن ليس أنت!

_ هو لن يقبل! أنت لا تعرف عزة نفسه!

هتفت بها باعتراض أجج غضبه أكثر ليردف:

_ وأنتِ لا تعرفين كم أجاهد كي لا أفعل بك ما أندم
عليه... طوال هذه الأيام وأنت تخفين عني شيئاً بهذه
الأهمية!! لن يكون ما يجري في عروقي دماً لو
سمحت لك برؤية هذا الرجل مرة واحدة بعد الآن!!
شهقت بعنف لتهتف بحدة مشابهة:

_ لست أول امرأة تساعد شقيق زوجها الراحل!

_ أنتِ لم تتزوجي غيري!

صرخ بها بجنون أجفلها وهو يميل فوقها لتكتسحها
عاطفته بعنف حقيقي ...

قبلاته ولمساته الخشنة تكاد تחדش بشرتها وأشيء
بغضبه ...

غضبه الذي كاد يدفعها للرد بمثله لكن شعور
"أمومتها" نحوه غلب "كبرياء العاشقة" بداخلها ...

جعلها تحتوي هذا الغضب برقة أنوثتها التي احتوت
هدير عاطفته حتى حولتها بذكائها لما منح كليهما ما
يحتاجه في هذه اللحظة...

مزيج من لذة الصخب وسكينة الأمان!
قبل أن تستكين أخيراً على صدره وهي تهمس بين
أنفاسها اللاهثة:

_ لماذا لا تفهمني هذه المرة!؟

_ ولماذا لا تفهميني أنت!؟

همس بها بعتاب رقق نبرته وهو يردف:

_ هل تفهمين شعوري وأنا أفاجأ به يخرج من مكتبك

غافلاً عن حقيقة شخصيته!؟ هل تفهمين شعوري

وأنا أشعر أنني كنت مغفلاً طوال هذه الأيام وزوجتي

تلقتني نسخة من حبيبها القديم دون علمي!؟ هل

تفهمين شعوري وأنا أراك ترفضين أمراً بديهاً بقطع

علاقتك به !؟

أغمضت عينيها في يأس من مجادلته وهي تدفن

وجهها في صدره ...

طالما بدا لها هذا أكثر الأماكن أماناً منه عندما

يغضب!

_فكري لدقيقة واحدة ... ماذا كنتِ ستفعلين لو كنتِ

مكاني ... وأنا سأرضى بحكمك يا أستاذة!

همس بها في أذنها وذراعاه يعاودان اعتصارهما

التملكي لها فاستجابت لرغبته ...

والدقيقة تحولت لخمس دقائق كاملة تحملها هو

صابراً رغم الغضب الذي كان يتنامى في صدره مع

كل ثانية تزداد من صمتها ...

قبل أن تجد نفسها تهمس :

_ سأخبره غداً بأنني سأحول القضية لمحامٍ آخر!
ارتخت ملامحه ببعض الارتفاع وإن لم تخلُ من عتاب
،بينما رفعت هي إليه عينيها لتهمس :

_ ولو أنني كنت أتمنى لو تثق بي وبحبنا أكثر من
هذا!

_ الأمر لا علاقة له بالشك... بل بالغيرة يا
أستاذة... أظنك تعرفين الفارق بينهما!
همس بها مؤنباً فعانقت نظراته بعينيها للحظات حتى
أمطرت سحب العشق بينهما ما أخذ نيران
الغضب ...

لتبتسم أخيراً وهي تهمس له بدلال:
_ لا تخجل من الاعتراف بأنك تغار!!

فالتمعت نجوم ليله الأسود في عينيه وهو يلصق

جبينه بجبينها هامساً:

_أغار...وأغار..وأغار...لست أحقق لأنكرها...ولا

خجلاً لأصرخ بها...حقُّ على من عشق مثلك أن

يغار!

اتسعت ابتسامتها وهي تتنعم بدفء عناقه للحظات...

قبل أن ترفع إليه عينها بهمسها:

_لن تكف عن جعلي أرضخ لك في كل مرة نختلف

فيها!

_لأتني دوماً على حق!

همس بها بمكابرة وهو يقرص وجنتها مداعباً قبل أن

يقول بجدية تامة هذه المرة:

_ستكون هذه آخر مرة تخفين فيها عني شيئاً.

أومات برأسها في طاعة فرمقها بنظرة طويلة دافئة

قبل أن يغمزها هامساً :

_ هيا!

_ هيا ماذا!؟!

همست بها بترقب فرقع حاجبيه ليهمس بغرور

مصطنع:

_ صالحيني!

أطلقت صيحة مستكرة لتهتف متعجبة:

_ وماذا كنا نفعل منذ قليل!؟!

مد أنامله برفق يللمم خصلات شعرها المشعثة ليضعه

كله خلف أحد جانبي رأسها هامساً بنبرته اللعوب

التي تعشقها:

_ لا... هذا كان عقابي... أريدك أنت أن تصالحيني ...

ثم طبع قبلة عميقة على عنقها ليردف:

بضمير!

ضحكت بمزيج من خجل ودلال وهي تضمه إليها
بحنان لتغرقه في فيض عاطفتها من جديد هامسة:

بمنتهى الضمير!

=====

*ابراهيم "الدرويش"!

=====

خير الناس من فكّ كفيه .. وكفّ فكيه ! من منكم

يفهمها؟!!

يسأل إبراهيم الصبية الذين تحلقوا حوله في المسجد

وعيناه تدوران بينهم بذكاء مرح ليهدف أحدهم

ببراءة :



_أمي لا تحب "الفكّة"! تقول إنها تقلل بركة

النقود!

فبيتسم "ابتسامته المنقوصة" وهو يراقب آخر يهتف

متذاكياً مخاطباً صاحبه الأول:

_أحمق! ليست هذه "الفكّة" التي يقصدها..ربما

يقصد الهرب السريع.. رأيت البطل يقولها في مسلسل

الأمس: "خد ديله في سنانه ويا فكك"!!

يبتسم من جديد وهو يراقب تناطحهم

الصبياني..وبقدر شعوره بالأسف لأن الدراما

التلفزيونية غير المنضبطة تشكل جزءاً كبيراً من

وعي هذا الجيل لكنه كان يشعر بقيمة هذه الدروس

المجانية التي يمنحها لهم في مسجد الحي كل جمعة.

دروسه لم تكن وعظية جافة المحتوى كغالبية الشيوخ
هنا لكنه كان يحرص أن يطعمها بالفكاهة وجو
التسابق كي يشد عزيمة هؤلاء الصبية ويحبب
إليهم دينهم ولغتهم .

الدين كان قدسه الأول ..والوطن قدسه الثاني !

_ أقول يا "شيخ"؟!!

يهتف بها أحدهم فتلتع عينا إبراهيم وهو يخبطه
بخفة على رأسه قائلاً :

_ لا أحب أن يدعوني أحدكم بها ! لست أهلاً

للمشيخة .. ألم نتفق أننا إخوة؟!!

_ أمي تعنفني عندما تعلم أننا ندعوك باسمك مجرداً .

_ قل لها أنها رغبتني أنا ..والآن أجب على السؤال .

يتردد الصبي الذي يبدو أذكاهم فيشجعه إبراهيم

بإيماءة رأس لينطلق الصبي في جوابه :

_ فك كفيه ..من العطاء ..أظنها تعني الكرم ..كف

فكّيه ..من إمساك اللسان ..أظنها تعني ألا ينطق بما

هو حرام .

_ الله!

يهتف بها إبراهيم باستحسان وهو يربت على كتف

الصبي الذي احمرت أذناه بخجل قبل أن يستخرج

الأول من جيبه ورقة نقدية بقيمة متوسطة منحها إياه

مردفاً باعتزاز:

_ تستحقها !

_ ولماذا هو بالذات؟! نحن أيضاً نريد !

يهتف بها أحدهم بتتمر صبياني فيرد إبراهيم بصبر :

_ حفظتم السورة التي درسناها الجمعة الماضية؟!

_ نعم!

يجيبون في نفس اللحظة فيبتسم لهم بقوله :

_ عظيم! نختبر حفظكم وبعدها لكم الخيار ..إما النقود

أو مباراة كرة قدم .

_ مباراة ! بالطبع مباراة !!

يهتفون بها جميعاً بذات اللفظة فيضحك وهو يشير

لهم بالهدوء قائلاً بلطف حازم :

_ ألا نلتزم بالهدوء في بيت الله؟!

يومئنون برؤوسهم في طاعة قبل أن يشرع هو في

اختبار حفظهم للآيات ..يصحح لهم أخطاء التجويد

بصبر ومستمتعاً بصوت

تلاوتهم الذي يشبه كثيراً صوت تلاوته هو الذي
يجيده بحكم دراسته الأزهرية .

_ أحسنتم ! تعلمون أن الماهر بالقرآن مع السفارة
الكرام البررة !؟

_ نعم يا إبراهيم ..هيا بنا للساحة الخلفية ..من
سيحضر الكرة !؟

يهتفون بها وهم ينهضون تباعاً بلهفة فيبتسم وهو
ينهض بدوره ليسير وسطهم راضياً .

يغادرون المسجد نحو قطعة أرض مجاورة خالية
رفعت فوقها يافطة بأنها ملك مستشار شهير وليست

للبيع !

هذه التي رمقها إبراهيم بنظرة استهانة موجوعة قبل
أن ينخرط بدوره في اللعب مع الصبية كأنه واحد
منهم .

_ ثلاثة واحد !

_ هذا غش ! كسبتم لأن إبراهيم يلعب معكم .

_ هو لعب معكم الشوط الأول ومعنا الثاني .

_ ششششش ! لا تتجادلوا وإلا لن نعيدها الجمعة
القادمة .

يهتف بها مهدناً إياهم ب"ابتسامته المنقوصة" وهو
يتلقى السيناريو المعهود لنهاية مباراة كهذه في كل
أسبوع .

يلوح لهم مودعاً لكنهم يصرون أن يصافحوه واحداً
واحداً .. عيونهم البريئة -التي لم تختبر قسوة الحياة

بعد- كانت تمنحه نظرة يفقدها وسط عالمه الرمادي

الكئيب ..

نظرة ود ..اعتزاز ..وعد بأن القادم أجمل!

ينصرفون جميعاً عدا الصبي الذكي الذي أجاب سؤاله

في المسجد والذي بقي واقفاً مكانه للحظات بتردد

فاقترب منه إبراهيم لينحني نحوه متسائلاً :

_ ماذا تريد !؟!

يتردد الصبي قليلاً ثم يسأله ببراعة:

_ لماذا لا تضحك !؟ تكفي دوماً بابتسامة كهذه ..

يقولها مقلداً ابتسامة ابراهيم "المنقوصة" والتي

ارتسمت على شفثيه بعدها عفويًا ليردف الصبي

بفضول :

هل مات أخوك شهيداً حقاً كما يزعمون؟! ألهدا أنت
دوماً حزين؟! ألهدا سافرت؟! ولماذا عدت؟!
تشحب ملامحه فجأة كأنما غيضت من وجهه
دماؤه ..الغضب يرسم بين حاجبيه ألف
شيطان ..والحزن يغرس في عينيه ألف غابة من
نيران ..نيران خبت فجأة كما اشتعلت فجأة ..
ليغلب وجعه غضبه !

يتذكر ذاك اليوم الذي وصله فيه خبر موت أخيه في
تلك المظاهرة المنددة بنظام الحكم السابق ..
يومها كان من المفترض أن يخرج هو الآخر معه لكن
أصابته حمى أقعدته في الفراش ليفيق من رقدته على
الخبر الذي ترك ندبته في قلبه إلى الأبد !

حسن لم يكن أخاه التوأم فحسب بل كان رفيق روحه

في مشوار حياتهما منذ الصغر ..

ورغم أنهما كانا يتندان أنه هو من كان يكبر حسن

ببضع دقائق لكنه كان يشعر دوماً

بالعكس ..

حسن كان ينتزع ب"كاريزمته" المهيبه المكانة العليا

دوماً ..

كان قدوته ومعلمه قبل أن يكون أخاه وصديقه !!

لهذا دمعت عيناه رغماً عنه وهو يسأل الصبي

بشروء :

هل تذكر حسن؟! ..

أذكره بالطبع .. كان يشبهك كثيراً .

جيدٌ أنك لم تنسه كما فعل غيرك .

يقولها وهو يستقيم بجسده أخيراً ليدور ببصره في
المكان مقاوماً عبراته .. قبل أن يغمغم بصوت

متحشرج :

_ علمونا أن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان

جائر .. أحسبه شهيداً والحكم لله .

يبتسم له الصبي بمواساة وقد شعر بالخجل أن يعيد
أسئلته ثم يقبض كفه بحركة ذات مغزى ليرفع إبراهيم
قبضته بدوره فتلتقيان في حركة متتابعة تجعل الصبي
يضحك وهو يشير له بيده مودعاً .

يتهد إبراهيم بحرارة وهو يحاول تجاوز مرارة
ذكرياته .. يمر بالمحلات الصغيرة المتجاورة التي
تميز حيّه البسيط فيلقي على أصحابها السلام ليردوه
بحفاوة ..

يصعد تلك البناية متوسطة العمر نحو شقة أبيه التي

يسكنها معه بعد وفاة أمه ..

يزعمون أنها ماتت بأزمة قلبية لكنه وحده يعلم أن

حزنها على حسن قتلها !

يفتح الباب فيصطدم بالمنزل الخالي ليعلو صوته

بالنداء:

_"مستر ربيع" ! صاحب الجلالة ! أين "سموك"؟!!

لا يزال يهتف بها بنبرة مازحة باحثاً عن

والده حتى يقع بصره على تلك الورقة على المائدة :

_ أنا مع "الحرافيش" على السطح ..نشوي

الحم ..جهّز أنفك واشحذ أسنانك وتعال!

يبتسم ابتسامته المنقوصة وهو يضع الورقة

جانباً ..يتوجه نحو الحمام القريب ليغتسل بسرعة من

عرق اللعب مع الصبية .. ثم يصعد نحو سطح بنايتهم
البسيط الذي تم فرشته بأرائك عربية بسيطة من
الطراز القديم كانت لجده الراحل وقد ظلها سقف
خشبي بثقوب واسعة مربعة أضفى عليها طابعاً
كلاسيكياً يحبه !

يتوقف مكانه للحظة يراقب أباه بحب مشوب
بالاعتزاز وهو يرى تحلق أبناء عمومته
حوله .. الحرافيش كما يصر والده أن يسميهم سخطاً
على تصرفاتهم الطائشة في المعتاد !
ربيع العدل !

أو كما يشتهر في حيهم بـ "مستر ربيع" لعمله
الطويل في مدرسة لغات تجريبية كمعلم لمادة التاريخ
قبل أن يحال للمعاش !

الرجل الذي علمه منذ صغره كيف يعشق تراب هذا
البلد العظيم ..حكاياته له ولشقيقه قبل النوم في
طفولتهما لم تكن سوى عن تاريخ مصر
وحكامهاوالذي أصر أن يبقى على "فرن الخبز"
الذي كان ملكاً لأبيه - رغم بساطة حاله -كي يحافظ
على أثره في أهل الحي ..الرجل الذي يعتبره أهل
الحي كلهم معلمهم وكبيرهم ..الرجل الذي فقد ابنه في
ريعان شبابه فلم يزدده هذا إلا صبراً واحتساباً ..
**لا تقولوا أن حسن قد مات ..لا تقولوها أبداً ..حسن
سبقنا إلى الجنة .**

لايزال يذكر ارتجافة شفثيه بها في تلك
الأيام التي تلت موت شقيقه ..لايزال يذكر ركعات الليل
الطويلة التي كان يبث فيها شكواه لربه ..لايزال يذكر

ما كان يردده بإيمان لأمه عندما كانت تتحسر على

ابنها الذي كان قد عقد قرانه لتوه :

_ عريس في الجنة يا "أم حسن" ..اصبري

واحتسبي!

يبتلع غصة حلقة بصعوبة وهو يتذكر كيف كانت كنية

أمه دوماً "أم ابراهيم" بحكم كونه الأكبر ببضع

دقائق ..حتى مات حسن فصارت كنيته باسم الغالي

الراحل!

_ "الدرويش" حضر ! أبوك يجوعنا برائحة الطعام

ويرفض أن نأكل دونك .

يهتف بها أحد أبناء عمومته بمرح فيرد ربيع

بحمائية :

_ حرافيش! حقاً حرافيش! إنه يوم أجازته الوحيد بعد

شقاء الأسبوع كله .. وأنتم لا تكتفون بالتطفل

علينا .. بل تريدون سبقه إلى الطعام كذلك!؟!

_ نحن ضعفاء نحتاج لتغذية .. لكنه هو .. انظر إلى

بنيته .. جدار صلب اللهم بارك !

يهتف بها آخر وهو يخطف قطعة لحم من أمام الرجل

الذي جذبه من ياقة قميصه هاتفاً :

_ تحسد ابني أمامي ! يبدو أنك افتقدت عصاي

القديمة !

يبتسم ابراهيم من مناوشاتهم المعهودة خاصة وابن

عمه يهتف بمسكنة مصطنعة :

_ تقسو عليّ لأنني يتيم .. رحمك الله يا أبي!

_ ليته أنجب "دكر بط"! كان أكثر فائدة منك!!

يهتف بها ربيع بسخط مصطنع وهو يدفع ابن شقيقه
الذي خطف قطعة لحم أخرى ليلوكها في فمه بسرعة
هاتفاً بمشاكسة:

_ طبيخك تقدم يا "مستر ربيع"!

_ اخرس يا حرفوش!

يهتف بها الرجل وهو يلکمه في كتفه ليبتسم إبراهيم
وهو يسحب المفروش الكبير فيبسطه على الأرض كي
يجلسوا عليه جميعاً يتشاركون الطعام .. لقد اعتاد هذه
المشاكسات بين والده وأبناء عمه الذين يعتبرون أباه
والدهم .. ويعتبرونه هو "الدرويش" الزاهد فيما
يروونه هم ملذات شبابهم .

لكن ما لا يعلمونه أن زهده ليس خيار نبل بل قناع

استسلام!

هو لم يعد يرى شعاع النور وسط ظلمة القنوط التي

تستوطن روحه !

حياته صارت كالماء .. لا لون ولا طعم ولا رائحة !

موت حسن - رغم مضي هذه السنوات - بقي رمحاً

مغروساً في خاصرته ..

حاجزاً عجز جواده عن تخطيه فكبا به أمامه !

_ سأصنع الشاي!

يهتف بها هارباً بفيض مشاعره الخائق من أمامهم ..

ينهض نحو المنضدة البعيدة نسبياً عنهم في ركن

السطح ليصب الماء في الغلاية الكهربائية ..

يبتلعه شرود طويل قطعه والده :

_ صب هذا الماء واغلي غيره .. لقد برد .. ما الذي

يشغل بال "الدرويش" ؟!

يضغط الأب حروف كلمته الأخيرة بنبرة ذات مغزى
كأنما يتعجب من حاله مع علمه ب- زهده- المستحدث
في كل شيء!

يتهد إبراهيم بحرارة مطرقاً برأسه ليتفحصه أبوه
بنظرة طويلة ثم يصدر همهمة إدراك ناسبت قوله:
_ ممممم! غاضب لأن جنة حولت القضية لمحام
آخر!

الغضب يسطع في عينيه للحظة .. لحظة واحدة ! قبل
أن يختفي لتعود ملامحه لركودها ..
_ أمر عادي! نسيت كما ينسى الجميع !
يقولها بمرارة تسربت عبر كلماته وصوت ضحكات
أولاد عمه من بعيد تصله مكانه صاخبة ..
فيتهد أبوه بحرارة لينكس رأسه بقوله :

_ربما منعها زوجها ..ربما احترمت غيرته ..الحي

أبقى من ال..ال ..الميت !

يتحشرج صوت العجوز بالكلمة الأخيرة كأنما يأبى

لسانه نطقها فيهتف ابنه باستنكار:

_زوجها! زوجها ابن جاسم الصاوي!! جاسم

الصاوي الذي ..

_ابراهيم!!

يهدر بها والده فجأة مقاطعاً ثورته التي أوشكت على

الاندلاع ليردف بنبرة حازمة :

_ما بيننا وبينها قد انتهى ..لم أكن مرتاحاً من البداية

لأن تتولى هي هذه القضية لكنني كنت أفهم

مقصدك ..

يشيح بوجهه في أسي فيقترب أبوه منه ليربت على

كتفه بقوله :

_جنة لم تعد رائحة حسن المفقودة ..لم تعد

تخصه ..صارت لها حياتها ..زوجها وابنتها ..إنها

سنة الحياة .

_سنة الحياة أن ننسى من ضحوا بحياتهم

لأجلنا؟!!

_بل أن نمضي في طريقنا فنجتاز اختبارنا كما

اجتازوه هم قبلنا!

يقولها العجوز بصوت خنقته غصته وفضحت زيف

تماسكه !

العيون الدامعة تلتقي للحظة يتشابه فيها الوجع

الأخرس للحظات ..

قبل أن ينهي الأب الحديث بقوله :

_دعنا نشرب الشاي بسرعة ..كي أسرع

بالعودة للفرن .. لا أحب تركه طويلاً .

يشاركهم شرب الشاي بعدها ب"ابتسامته

المنقوصة" كعهده قبل أن ينفذ الجمع ..

الحرافيش يعودون لشقتهم السفلية فيما يتوجه ربيع

إلى الفرن القريب ليبقى هو وحده على السطح ..

يرفع هاتفه أمام عينيه لتتلاعب أنامله على الشاشة ..

رقم جنة لايزال يحمل صورتها مع حسن منذ سجله

من عهد بعيد ..

يعلم أنه لم يعد لائقاً أن يحتفظ به هكذا لكنه لا يريد أن

يمسح الصورة ..

ربما لأنه يخشى إن فعلها أن يصدق أن حسن حقاً قد

رحل ..

أن ينسأه كما نسوه !!

ينسأه !! هل من الممكن حقاً أن ينسأه !!؟

عيناه تحيدان نحو صبّة اسمنتية قريبة ثبت فوقها

طبق إرسال لاسلكي "دش" .. هذه التي بقي فوقها

أثر طبعة قدم .. قدم حسن !

لا يزال يذكر هذا اليوم الذي اشترى له فيه حسن هذا

بماله الخاص لعلمه عن هوسه هو بمباريات كرة

القدم التي لا يمكنه مشاهدتها في القنوات

العادية .. جعلها له مفاجأة بل وسأهم بنفسه في

تركيبه هنا ..

تدمع عيناه وهو يتحرك نحو هناك .. يتلمس أثر القدم

بأنامله ..

_كأنك تعمدت أن تتركها هنا يا "أخي" ..
ثم يقبض كفه ليخبط به على صدره مردفاً :

_وهنا !

=====

*جهد....."حنظلة"!



_تعجبنى هذه الميدالية التي تحملها دوماً يا
"أنكل" ..من هذا الصبي؟! ولماذا يعطينا ظهره؟!
يهتف بها أحد أبناء صديقه ريان بينما يجلسان في
منزل الأخير الذي دعاه للغداء في منزله بما أسماه
"حفلة توديع العزوبية" ..

ليرد جهد بابتسامة طوقها الحنين وأامله تتلاعب
بالميدالية بين أصابعه :

_اسمه حنظلة ..أشهر الشخصيات التي رسمها فنان
فلسطيني مشهور يدعى ناجي العلي في
كاريكاتيراته ..يمثل صبياً في العاشرة من عمره كسنته
حين أجبر على ترك فلسطين ولن يزيد عمره حتى

يستطيع العودة إلى هناك .. يعطينا ظهره ويعقد كفيه

كرمز للرفض للحلول الخارجية .. يلبس

الملابس المرقعة ويظهر حافي القدمين كرمز

للفقر .. ويظهر أحياناً يرمي الحجارة تجسيداً لأطفال

الانتفاضة .

_ ستصيب الولد بالصداع كالعادة بهذا الحديث ..

يهتف بها ريان مازحاً ليردف مخاطباً ابنه :

_ قاعدة رقم واحد .. عندما تحدث "انكل" جهاد لا

تسأله عن أي شيء .. لأن الجواب سيلف ويدور

ويتمحور ويتركز عند شيء واحد ..

_ فلسطين!

يهتف بها ابنه بضحكة إدراك فيضحك ريان بدوره

وهو يربت على كتفه هاتفاً بفخر:

_ ذكي .. كأبيك !

_ ولماذا ليس كأمه ؟!

تهتف بها فدوى بلغتها العربية التي لا تزال متأثرة
بنشأتها الأجنبية بينما تتقدم نحوها تحمل طبقاً من
الطعام وضعت له لتوها وعيناها تحملان نظرة متمرة
تجعل ريان يرفع راحتيه أمام وجهه هاتفاً بمهادنة :
_ لا لا ! ذكاء أمه ليس له مثيل ! أمه كلها ليس لها

مثيل !

_ السخرية تكاد تقفز من كلماتك!

تهتف بها بمرح امتزج بمرارة خفية استشعرها جهاد
بعينيه المراقبتين للزوجين بقلق ..

لكن ريان بدا غافلاً عن هذا وهو يعطيها ظهره هاتفاً
بنفس المرح :

_بدأنا حلقة النكد اليومية .. لكنني لن أسمح لك بإفساد
حفل صديقي .. لا تكرّيه في الزواج .. أنا بالكاد
أقنعتة .

يقطع حديثه رنين هاتفه الذي يرفعه أمام وجهه ثم
يهتف بعجلة :

_مكالمة عمل ضرورية .. سأذهب إلى الشرفة .
يقرن قوله بفعله وهو يهرول نحو الشرفة القريبة
تلاحقه نظرات فدوى التي التفتت أخيراً لجهاد لتقول
بنفس المرارة الخفية :

_أنا أكرّهك في الزواج حقاً!؟

فيبتسم بود حقيقي وهو يتابع أولادهم الذين ابتعدوا
للعب في الجوار قائلاً :

_تمرحين!! أنا أدعو الله ليل نهار أن يرزقني بأسرة

جميلة كأسرتك .

تمتلئ عيناها بدموع لا تسقط فيرمقها بنظرة قلقة :

_ماذا بك يا فدوى!؟!

_لا شيء! أنا بألف خير .

تقولها بتماسك لم يخذعه فعقد حاجبيه بالمزيد من

القلق وهو يشعر بغرابتها هذه المرة ..

يعلم أنها شديدة الغيرة على ريان وهذا ما يسبب لهما

المزيد من المشاكل في المعتاد ..

لكنه لم يرَها يوماً بهذا الانطفاء!

_إياك أن تتم زفافك في مصر قبل حضورنا ..ريان

يجهز لنزولنا في إجازة قريبة .

تهتف بها بنبرة عادت إليها نبرة تسلطها الذي يعرفه

فابتسم ببعض الارتياح وهو يرد بـودّ:

كيف أفعها؟! وهل بقي لي سواكم؟! أنتم أهلي!

ترتجف ابتسامتها وعيناها تختلسان نظرة جانبية نحو

الشرفة التي عاد منها ريان ليتهتف بمرحه المعهود:

جوّ عناك يا "حنظلة"!

ثم يبسط ذراعه على كتفي زوجته مردفاً:

لكن النتيجة تستحق.. فدوى رائقة المزاج هذه

الأيام.. وهذا يعني أعلى مستويات المهارة في

الطبخ.

يبتسم جهاد ببعض العجب وهو يشعر أن حديث

صديقه يناقض حدسه الداخلي نحو فدوى..

حدسه الذي لم يكذبه يوماً تجاه من يحبهم..

منذ سنوات وهذه الأسرة الصغيرة هي كل عائلته ..

عائلته التي توجت الآن بزهرة !!

ابتسامة عاشقة تحلق فوق شفثيه وتشرق لها روحه

كلها مع تذكره إياها ..

افتقدها !؟

كثيراً جداً في الواقع !!

رغم أنها لم تغادر إلى مصر سوى منذ يومين كي

تمهد لعائلتها أمر خطبتها !

_ لا بأس يا صديقي! هي تبدأ هكذا ! شرود فابتسامة

فتتهيدة .. وبعدها تجد نفسك فجأة قد اصطدمت

بالحائط ! نحن السابقون وأنتم اللاحقون !

يهتف بها ريان بمرحه المعهود وهو يضع طبق
الطعام أمام جهاد الذي ابتسم وهو يختلس نظرة
جانبية نحو فدوى التي بدت له غريبة حقاً ..
في موقف كهذا كانت لتواجه زوجها بتسلطها
المعهود لكنها الآن تكتفي بابتسامة مريرة ودمعة
مختنقة في عينيها ..

لهذا وجد نفسه يهتف بحمائية :

_ أي حائط يا مغفل! هل كنت تحلم بواحدة مثل

فدوى!؟!

_ من يشهد للعروسة!؟!

يهتف بها ريان بفم مليئاً بالطعام وباستخفاف أثار

ضيق جهاد نفسه قبل فدوى التي تجاوزت عن هذا

لنتكلف ضحكة قصيرة مع قولها :

_ أبقاك الله لي يا جهاد ! سأفتقدك كثيراً .
_ أُمي تحب "أنكل" جهاد كثيراً .. طبخت له
الأكل الفلسطيني الذي يحبه .
يهتف بها أحد الأولاد ببراعة لتبتسم فدوى بود
وعيناها ترمقان جهاد بنظرة غريبة شاردة :
_ هو الذي اختار لي اسمي ..سماني على اسم صديقه
التي ماتت صغيرة برصاصة غدر إسرائيلية.
_ اختار لك اسمك؟! كيف؟! هو لا يكبرك بهذا العمر!
يهتف بها أكبرهم بذكاء فيتبادل جهاد وريان نظرات
غامضة قبل أن يهتف الأخير مخاطباً ابنه :
_ كل ودع كلام الكبار للكبار ..
يقولها ثم يلتفت نحو زوجته مردفاً بنفس السخرية :
_ هل أنهينا فقرة النكد ودخلنا فقرة الذكريات!؟

لم يكد ينتهي منها حتى هبت فدوى واقفة فجأة لتخبط
المنضدة براحتها بقوة عصبية كادت تسكب محتوى
الأطباق ..

عيناها تصرخان بغضب جنوني احمر له وجهها
كله ..

شفتاها تنفرجان كأنها على وشك الصراخ لكنها
تغلقهما في اللحظة الأخيرة ..

فدوى!

يقولها جهاد بقلق فيما يقف ريان ليضم زوجته إليه
مهدناً بقوله :

ما الأمر يا حبيبتى؟! كنت فقط أمزح!

يقولها ثم يقبل رأسها فتخرط فجأة في بكاء عنيف
ليزيد من قوة ضمه لها مردفاً باعتذار جاد :

_ياالله! ظننتك اعتدتِ طبعي بعد كل هذه السنوات !!

_اعتدته !! اعتدته !!

تكررها بنبرة غريبة وسط بكائها فيقوم

الأولاد من مكانهم ليتحلقوا حولهما يربتون بأكفهم

الصغيرة على ظهرها فيرمقهم جهاد بالمزيد من

القلق ..

ما الذي يحدث هنا ؟!

فدوى ليست طبيعية على الإطلاق !!

_سأنصرف الآن لأجهز بعض حاجياتي للسفر .

يقولها ببعض الحرج شاعراً أن الزوجين يحتاجان

لمساحة من الخصوصية الآن .. لكن ريان يهتف به

معتزلاً:

_لا طبعاً! ليس قبل أن تكمل طعامك .

شِبت!

_اجلس يا جهاد .. بالله عليك لا ترحل الآن .. أنا آسفة
لأنني انفعلت .. أنا ..

تهتف بها فدوى بنبرتها الغريبة بين تسلط عصبيتها
المعهود ووهنها المستحدث الذي
لا يفهم سببه ..

لكنه يبتسم بلطف مقاطعاً حديثها :

_صدقيني أنا انتهيت .. كما أن وقتي ضيق كما
تعلمين .

يحاولان استبقاءه عبثاً مع إصراره الشديد .. يوصله
ريان إلى الباب ولم يكد جهاد يشعر أنهما وحدهما
حتى همس جوار أذنه:

_فدوى ليست في حالتها الطبيعية .

_ على العكس ! هو طبعها المعتاد .. أنا سأمت كأبتها

هذه !

يهمس بها بتضجر ملوحاً بكفه ليمط جهاد شفثيه

هامساً بعتاب:

_ إنها فدوى ! فدوى يا ريان ! نسيت ما فعلته لأجلك .

_ لم أنسه !

يطلق معها زفرة قصيرة وأنامله تتلاعب بخصلات

شعره التي بدأ المشيب غزوها على استحياء فيرمقه

جهاد بنظرة عاتبة تجعله يردف بنبرة أكثر حدة :

_ لم تعد تفهمني .. لم تعد تحتوي هذه الضغوطات التي

تحيطنا من كل جانب .. ترى كيف صارت الآن؟! أين

هي من حبيبتي القديمة المتوهجة التي كانت تغار

منها نجوم السماء!؟!

_أحمق! النساء أوطاننا لا نهجرها متى استوحشنا بل
نبقى ونجملها ..وهي لم تكن لك وطناً فحسب بل
عالمأً بأكمله .

_دوماً تأخذ صفها في نزاعاتنا .

_لأنها تشبهني ! تركت وطنها قسراً وهاجرت إليك
وحدك ..ويعز عليّ ألا تجد منك بعدها سوى الخذلان .
يهمس بها برجاء عاتب فيزفر ريان بقوة ثم يهرب
بعينيه من صديقه للحظات سبقت همسه :

_لا تقلق! لا تجعلني أشعر أننا نقدم لك أسوأ عرض
دعاية للزواج يا عريس !

يربت بها على كتفه فيرمقه جهاد بنظرة راجية أخرى
يقابلها هو بنظرة مطمئنة تجد أثرها في نفس الأخير

الذي يودعه بابتسامة ..وبعبارة المعهودة له بلكنته

الفلسطينية :

_ "روق يا ضاوي" .

يضحك ريان وهو يميز معنى العبارة التي تعني "اهدأ

يا مجنون" والتي يخصه بها جهاد دوماً في آخر كل

محادثة بينهما عن نزاعه مع زوجته .

فيما يغادر جهاد ولم يكديستقل سيارته حتى تناول

هاتفه ليجد رسالة من "زهرة":

_ افتقدتني!؟

_ لن أخبرك حتى تراني عيناك فتشهدان .

يهياً إليه أنه يسمع صدى تهديتها الساحرة كعدها

كلما سمعت منه حديث الغزل ..

فتتحول ابتسامته لضحكة رائقة وهو يضغط زر

الاتصال بها ..

لكنه يعود ليغلق الاتصال متذكراً رغبته في ألا يتصل

بها قبل أن تمهد لأهلها أمر الخطبة .

_أما أنا فلم أفقدك ..كيف يفقدك من يعيش بك ولك

؟! سنوات مرت وأنا أستنشق حبك عبر أنفاسي..كل

تفاصيلك تحيطني كجنة تعزلي عن الدنيا

بأسرها ..أنت معي ..حولي ..داخلي ..

أنت أنا وإن اختلف المكان ..أنت أنا وإن تغير

الزمان ..أنت أنا !

تتلاحق أنفاسه وهو يكاد يسمع كلماتها بصوتها

العذب الذي لايزال يرن في أذنيه ..

لم تكن أجمل امرأة قابلها .. ولا أكثرهن أنوثة .. بل إنه
يتعجب كيف كانت جواره لأيام طويلة ولم يكن يشعر

بها من

الأساس ..

لكنه الآن يحس وكأنما احتلته هذا الاحتلال الشرعي

الذي لم يملك معه أي مقاومة !

هي سمرأوه النيلية التي أنبتت ريحانها وسط بيدائه

فلا جذب بعدُ ولا ظمأ !

تعلمين؟! حرّمت "الشاي الأخضر" على نفسي منذ

سافرت .. أذوب اشتياقاً لأول كوب أشربه معك من

جديد .

أما أنا فأشربه كل يوم .. أستحضر معه رائحتك .. حتى

وإن غادرتني تفاصيلك الدقيقة لا تفعل .

_تغلبيني يا "نيلية"!

يكتبها لها ضاحكاً وهو يعدل وضع شاله الفلسطيني

المميز فوق كتفيه ..فتصله رسالتها :

_ طالما غلبتني ! أنت بدربك في جهاد ..وأنا بحبك في

جهاد .

يبتسم لعبارتها المعهودة التي تلقي دوماً سهمها

الصائب في قلبه ..

هو لا يذكر عن نفسه قبلها سوى أنه كان مجرد عابر

ثقل الخطا ..معها فقط نبتت له أجنحة !!

لهذا تلمست أنامله شاشة هاتفه أخيراً باشتياق حلق

حراً فوق صورتها ..قبل أن يكتب :

_حسبي من الحب سمراء نيلية ..هي القمر ونساء
العالمين نجوم ..إذا حضر ماء عشقها بطل بما سواه
التيمن !

=====

*إيهاب....."الفاجومي"!

=====

_هل أعجبتك مارينا إلى هذا الحد؟! صرت تقضي كل
إجازة هناك!؟

تهتف بها عزة عبر الهاتف فيبتسم مكانه في مطعم
الفندق الذي يقيم فيه مع رده :

_في البداية كنت آتي مضطراً استجابةً لرغبة
أصدقائي لكن الآن لا أخفيك قولاً ..صرت أحب عزلتي
هنا ..المكان هنا رائع ..

ثم يصمت مردفاً بتلذذ :

_والطعام أروع! عثرت على مطعم "مشاوي" هنا

ممتاز!! خلطة سحرية تجعلك تتسین مذاق الطعام

الذي عرفته في حياتك كلها!

_ألم تقل لي أنك ستسير على نظام "الكيتو"

الغذائي؟!!

تقولها بنفس النبرة العاتبة ليرد بسرعة :

_قلت سأنظر فيه! وبصراحة وجدته نظاماً رائعاً..لم

أقتنع به!

_جرب نظام "قاراطاي" إذن..أو "الصيام

المتقطع" ..مادمت جربت "اللقيمات" من قبل ولم

يعجبك!

تهتف بها بإصرار ليقول بنبرة هادئة:

_ أنا متصالح مع نفسي جداً في موضوع الوزن هذا !

أعرف أنني على قدر من البدانة لكن هذا لا

يسوؤني ..وبمنتهى الصراحة ..أنا "فاجومي" قديم

ولن أغير طبعي!

يقولها وهو يغرس الشوكة في طبق سلطة الفواكه

الذي وضعه النادل أمامه لتوه ..لتهتف هي باستنكار:

_ وما "فاجومي" هذه أيضاً؟!

_ لو كنت تهتمين بي لعرفتِ وحدك ! إنه لقبى الذي

وضعته ل"مدونة" أفكارى العبقرية ! لا بأس ..لا

بأس ..الاهتمام لا يُطلب!

يقولها بمسكنة مصطنعة فتصله ضحكتها القصيرة

المعتذرة تليق بجوابها :

_تعلم أني لا أحب القراءة ..أفضل أن أسمع كلامك

منك مباشرة ..هيا أخبرني ..ماذا تعني فاجومي!؟

يلوك الطعام في فمه بتلذذ للحظة ثم يجيها :

_الفاجومي هذا لقب الراحل الشهير أحمد فؤاد

نجم ..والكلمة صارت بعده رمزاً

للإنسان الذي لا يفعل إلا ما يمليه عليه شعوره دون

تفكير ..دون حسابات ..بعضهم يسميها همجية ..ثورة

عاطفية ..فوضى

خلاقة ..لكنني أحسها رمز الصراحة وعدم مبالاة

الشخص برأي الآخرين فيه مادام هو راضياً عن

نفسه متصالحاً معها ..العمر أقصر من أن نضيعه في

حسابات بلا طائل ..أو في تقصي صورتنا في عيون

الآخرين ..

ثم يصمت لحظة ملتقطاً أنفاسه ليردف بنبرة أكثر

مرحاً:

أنا "فاجومي" قلباً وقالباً!! فاجومي وأفتخر!!

كلماته تمسها كعهدا وهي تشعر بأفكاره تناقض

طبيعتها هي ..

ليتها كانت مثله تعتق هذا المذهب "الفاجومي" ..

تعيش حياتها كما يحلو لها دون قيود ..

هي التي كانت -ولا تزال- أسيرة نظرات الناس لاهثة

خلف صورتها المزينة في عيونهم !

كانت تجلس فوق فراشها شاعرةً بألم متوسط في

جانب بطنها والذي بدأ منذ قليل ..

لكنها تجاهلته وهي تحتضن "دب الباندا" الكبير الذي

أحضره لها .. تستعيد ملامح له رسمتها في خيالها ..

لكنها -العجب- لا تشبهه كثيراً ..

أجل ! لهذا لا تحب رؤيته ..ربما لأنها تصدمها ببعده

هو عن "صورة الخيال" التي تعيش فيها ..

صورة شديدة المثالية الشكلية ..الجسد

الرياضي ..القوام الممشوق ..

الأناقة المفرطة .

صورة تليق بمكانتها الحالية ..لا تخجل من الظهور

معها أمام الناس ..تكمل قالب النموذجي الذي

ترتجيه بعد كل ما عانته في حياتها !!

لهذا جاءت كلماتها مندفعة خاصة وهذا الألم في

بطنها يزداد أثراً :

أنت تستسهل!! تهمل!! وتدعي أنها حرية!! لن

أقول لك فكر في شكك ..إنما في صحتك !

ما بها صحتي؟! كالف حصان!! أرجوك لا تسوئي
سمعتي وأنا لازلت شاباً في ريعان شبابه ينتظر "بنت
الحلال" التي سيختطفها فوق جواده .. احم!
لا .. لا .. دعك من الجواد لن يحتملني .. فلنقل فوق
جمله.

نبرته المرححة تخفي الكثير من مشاعره التي لا يزال
يعجز عن البوح بها ..

كم يتمنى الآن لو ينتهج مبدأ "الفاجومي" هذا الذي
يومن به فيعترف لها صراحة بحبه دون تفكير .. دون
حسابات ..

لكنه معها هي بالذات يخشى من فعلها !!
ربما لأن خوفه من فقدتها يغلب طبيعته التي يحبها !!

لكنها لم تضحك من مرحة هذه المرة بل جاءت

كلماتها مندفعة متقطعة ربما بفعل

الألم:

_ حسناً .. كما ترغب يا "فاجومي"! سأغلق

الاتصال الآن كي أنام .

_ أنتِ بخير!؟!

يقولها بقلق وهو يشعر بتغير لهجتها لتغتصب ضحكة

مفتعلة وهي ترد بسرعة :

_ اقلق على نفسك .. صدقتي أنت الأولى بفعلها !

سلام!

تغلق الاتصال بعدها دون انتظار رده لتحرر صرختها

القصيرة وهي تمسد بطنها بأناملها ..

لقد انتابتها اليوم بالذات رغبة في تناول أقراص
"الطعمية" التي لم تأكلها منذ زمن بعيد ..
اشتيتها وقد شمت رائحتها في طريقها فتوقفت أمام
ذلك المحل البسيط مدارية وجهها بنظارة شمس
كبيرة كي لا تفتضح !

ها هي ذي مرة واحدة اتبعت مبدأ "الفاجومي" الذي
يحكي عنه وفعلت ما اشتتهته دون محاذير ..
والنتيجة .. هذا المغص الذي يكاد يمزق أحشاءها!!
تقوم من الفراش بمزاج متعكر لتبحث عن قرص
هاضم أو مسكن عندما أعلن هاتفها عن وصول
رسالة ..

افرحي بوجهك وجسمك الجميلين جيداً قبل أن
أشوهما لك!

تشحب ملامحها وهي تحرر صرخة قصيرة ..
لم تكن المرة الأولى التي تتلقى فيها مثل هذه الرسائل
ضمن معاكسات كثيرة لا تنتهي .. إما للفت الانتباه أو
لتكدير صفو حياتها من منافسيها في مجال عملها ..
أجل! كانت هذه واحدة من سوءات عملها هذا
للأسف!!

لكن تزامنها هذه المرة مع هذا الألم الذي ازداد كثيراً
في بطنها جعلها تجهش فجأة في البكاء عندما رن
هاتفها من جديد باسم إيهاب ..

تجاهلته مرة تلو مرة لكنه بقي مصراً على
الاتصال .. فاستجابت أخيراً:

عزة ! أنت لست بخير .. ماذا بك!؟!

يهتف بها بقلق فتخونها نبرتها الباكية وهي تهتف

بين دموعها :

_ ألم فظيع في بطني .

_ أنت وحدك !؟

_ كالعادة !

_ أغلقي الاتصال الآن .. أنا قادم لأصطحبك

لأي مشفى! لا تذهبي لأي مكان وحدك !

_ قادم!؟ أأست ..!؟

لكنه يغلق الاتصال بسرعة فتظل تحرق في شاشة

الهاتف بدهشة لم تغادرها لوقت طويل بعدها ..

الألم يخدر تفكيرها حتى تتلقى اتصاله التالي ..

_ الطريق ليس مزدحماً .. سأصل إليك قريباً .. لو كان

الكلام يتعبك فلا تتحدثي .. فقط لا تغلقي

الاتصال .. ابقِ معي!

كان يحدثها في طريقه بسيارته إليها ونبرته

المتحشجة تفضح قلقة قبل عاطفته ..

هذا الذي دغدغ مشاعرها بإحساس غريب غلب

إحساسها بالألم ..

كانت كلماتها -ظاهراً- تتهمه بالمبالغة وترجوه ألا

يقطع سفره لأجل أمر تافه كهذا ..

لكن بداخلها كانت "طفلة" تشتاق هذا الدلال .. بل

تكاد تتوسله !!

_ أنا تحت البيت!

يقولها أخيراً فترتدي حجابها على عجل لتهبط
إليه .. نظراته تتفحصها وهي تستقل السيارة جواره
بهذه الطريقة التي تشعرها بأمان عجيب ..
لكنها كانت تهتف وسط شهقات أنينها :
_ لم يكن الأمر يستحق كل هذا !
_ اسكتي واستريحي حتى نصل .. أنا كلمت أحد
أصدقائي الأطباء في مشفى (....) وهو ينتظرنا .
ترمقه بنظرة ضائقة لكنها كانت تمتزج بامتنانها في
تجانس عجيب ..

تطيل النظر لجانب وجهه المجاور لها وهي تشعر
بنفس النفور الذي ينتابها كلما تراه ..
كيف يمكن أن تكن له هذه الأحاسيس الدافقة عبر
البعد وتتبخر تماماً عندما تناظره عيناها؟!!!

الألم يغلبها حقاً هذه المرة فيطمس أفكارها حتى يصل

بها إلى المشفى ..

صديقه يتولى أمرها بمنتهى الاهتمام خاصة عندما

يتعرف على شخصيتها ..

وأخيراً ينتهي الألم بحقنة سريعة المفعول!

_ لا داعي للقلق لكننا سنجري بعض الفحوص

للاطمئنان ..

يقولها صديقه الطبيب بلطف ليردف بابتسامة ساحرة

وهو ينظر في عينيها :

_ الشاشة تظلمك! عزة الأنصاري على الطبيعة أكثر

تألقاً بكثير !

تدمع عيناها بقهر وهي تقارن وسامته الظاهرة
وبنيته الرياضية بإيهاب الذي بدا جواره كـ"جوال
قطن"!!

خيالها يصوره لها الآن أكثر ضخامة من أي مرة
عرفته فيها!!

تبا!! تبا!!

لماذا لا يتبادلان الأجساد!!؟

فتكون هذه النظرة العاشقة والقلب الحنون والعقل

الراجح لهذا الجسد المتناسق المثالي!!؟

بل لماذا لا يفقد هذا الأحمق بعضاً من وزنه!!؟

لماذا لا يهتم بهذا الأمر كما تفعل هي!!؟

شكراً! أتعبتك!

يقولها إيهاب بمرح مخاطباً صديقه وهو يحاول قمع
شعور غيرته بعدما رآه من نظرات صديقه نحوها ..
والذي كان ينقل الآن بصره بينهما ليقول بمرح لم
يخف ترقبه:

_ لم أكن أعلم أنك تعرف مشاهير! أنتما...؟!
يقطع سؤاله بحذر متسائل عن طبيعة
العلاقة بينهما لترد عزة بسرعة :

_ صديقان!

_ بالضبط .. صديقان!

يكررها إيهاب خلفها بابتسامة مصطنعة وهو يراقب
بضيق نظرة الارتياح التي طفت فوق وجه صديقه ..
والذي شكرته عزة بحرارة قبل أن تغادر المشفى مع
إيهاب !

ظلت ترمق جانب وجهه طوال الطريق بنظرة
متفحصة وجلة وصمتها الصاخب يكاد يشعل
خفقاتها ..

لم تعد منه هذا الصمت لكنها كانت عاجزة عن
دعوته للكلام ..

هل تبالغ لو زعمت أنها تخاف أن يلتفت ..

أن يفسد صورة خيالها عنه !؟

ربما لهذا أفلحت علاقتهما طوال هذه السنوات ..
لأن لقاءاتهما كانت قصيرة متباعدة بحكم ظروف
عمله !!

فليبتعد إذن !

وليتركها هي لخيالاتها !!

وصلت سيارته أخيراً لبيتها فأطرقت برأسها وهي

تقول بنبرة مشتتة :

_شكراً يا إيهاب! أنت صديق رائع!

_طوال عمري!

يقولها بفخر مصطنع وعيناه الدافئتان تطوقانها

بعاطفتها فتهرب منهما وهي تضع كفها على مقود

الباب :

_تصبح على خير .

لكنها تفاجأ به يميل نحوها ليبسط كفه فوق

كفها .. يحتضنه بقوة غريبة على طبيعته الحذرة

معها ..

لا تفعلها من جديد ! لا تجعليني أجرب هذا الشعور
بأنك تعانين وحدك بينما أنا بعيد عاجز ! لا تجعليني
أبحث عن صفة تتيح لي حمايتك ..
تتسع عيناها بصدمة و صدرها يعلو ويهبط بسرعة
جنونية ..

همساته شديدة الدفاع بدت وكأنها تغادر قلبه نحو
قلبها دون محاذير ..
تسرقها من أرضها الثابتة "الجافة" وتحلق بها فوق
غيمة ممطرة ..

تعانق هذه "الطفلة عاشقة الدلال"
داخلها .. تهدهدها .. تلبسها ثوب عيد !!
تود لو يبقى كفاها أسير كفه للأبد !

لو يبقى صدی خفقاته يدوي في أذنيها هكذا بلا

نهاية !

لو تبقي أنفاسهما هكذا يؤنس بعضها بعضاً دون

هواجس من خوف أو قلق !

لكنها تغلق عينيها فجأة هاربة من صورته

"الضخمة" في عينيها !!

ليس هذا!! ليس هذا!!

ليس بعد كل ماعاته !!

فليبق بعيداً .. بعيداً!!

أو فلتهرب هي!!

حلقها يجف وهي تشعر بالصراع المحتدم داخلها

يصيبها بالدوار ..

لكن هذا لم يكن شيئاً عندما ألقى "الفاجومي" قبيلته

فجأة :

_تزوجيني يا عزة !

=====

_لا أصدق أن هذا الهراء يتصدر الأعلى مبيعا! ونفس

دار النشر الخاصة بي !!

تتمتع بها طيف من بين أسنانها بغيظ وهي تقلب ذاك

الكتاب بين كفيها بعنوانه المريب:

_ "لماذا تخون المرأة؟! لأنها امرأة!"

تتأفف بضيق وهي تكمل قراءة بعض الصفحات حتى

تصل لهذه العبارة :

_ كل امرأة هي أرملة عنكبوتية سوداء تنتظر الفرصة

كي ترقص على جثة رجل انتهت منفعتها منه ..تماما

كما تحكي الأساطير الهندية عن المعبودة كالي التي
تتلذذ بتعذيب المعبود شيفا وتظهرها الصور وهي
تدوس على صدره ..وكما تفتنت معظم
الأساطير في إظهار الطبيعة السادية للمرأة خلف
قناعها الرقيق المتصنع ..كلهن قنابل موقوتة للخيانة
تنتظر فقط من يشد الفتيل!
_ لقد تجاوز حدوده حقا!
تهتف بها بحدة وهي تقذف الكتاب جانبا بعنف لتتصل
بمدير دار النشر خاصتها:
_ مهزلة! كتاب يحيى العراقي هذا مهزلة ! كيف
تسمح بنشر هذه السخافات؟! ألا تخشى أن تتهم
دارك بالعنصرية!؟

_ غريب أن تقولي أنت بالذات هذا! عنصرية! ألم

نفلها من قبل يا عزيزتي!؟

يقولها الرجل بهدوء ماكر مشيرا لكتاباتها هي

المشابهة إنما في الاتجاه المضاد ..

لتزيد ثورتها وهي تهتف:

_ وضعي مختلف! أنا لا أقصد شخصا بعينه .. لكنه

هو يقصدني .. الجميع يعلم أن لقب الأرملة السوداء

هذا يلقبني البعض به .

_ لا تكوني شديدة الحساسية هكذا! إنه مجرد

مصطلح عام ولا أظنه يعنيك .

_ لماذا تتحمس له هكذا؟! إنه كتابه الأول ولم يسمع

أحد به من قبل .

_ لماذا؟! تسألين لماذا؟! كتابه الأول هذا حطم

المبيعات في شهر واحد .

يهتف بها الرجل باستنكار يوازي حماسه لتهتف هي

بمكابرة :

_ مسروق! افكاره مقتبسة من أعمال مشهورة ولا

يملك سوى التلاعب اللغوي بالألفاظ مع عنوان مثير

للجدل .

_ ربما! لكنه ماهر فيما يفعله .

تكز على أسنانها بغيظ يصل منتهاه والرجل يتتحنح

ليقول بتردد:

_ مقدمتك هذه لا تشجني على ما أريد الحديث معك

بشأنه .

_ قل!

تهتف بها بغيظ مكتوم يجعله يطلق ضحكة مكتومة

ليقول بنبرة عملية :

_ ندوة ثقافية لمناقشة أعمالكما.

_ أعمالنا؟! أعمالنا!!! إنه مجرد عمل واحد كتبه ذاك

الأحمق!

_ عمل واحد تخطى عدد طبعاته عدد طبعاتك انت

لكتبك مجتمعة !

يقولها الرجل بحسم فتكاد تحطم أسنانها غيظا ..

ليردف هو بحماس وكأنها لم تقاطعه :

_ ندوة تجمعكما معا! عدوة الرجل وعدو المرأة !

تتصورين حجم الإقبال و الحضور ..

_ ماذا؟! هل تمزح؟!

تصرخ بها بغضب ليحرر الرجل ضحكته هذه المرة مع

رده:

_ لم أحدثك بعد عن إمكانية كتابة عمل مشترك

بينكما !

_ ماذا؟!!

تهتف بها باستنكار تقابله ضحكة الرجل المكتومة مع

رده البارد :

_ تعلمين كم مرة قلت "ماذا" هذه من أول المكالمة؟!!

عبارته تثير المزيد من غيظها لتهتف ثائرة :

_ انس هذا الأمر ولو على جثتي .

_ راجعي عقدنا يا أستاذة طيف ..أظن أمر الندوة هذا

على الأقل من حقي .

يقولها ببعض الصرامة فتغلق الاتصال بعصبية فجأة !

تشعل سيجارة فتسحب منها نفسا طويلا ثم تنفثه في

الهواء هاتفة بحنق :

_فليذهب هو وعقده للجحيم ..وخلفهما نقود الشرط

الجزائي .

وكأنما الرجل يقرأ أفكارها فقد وصلتها رسالته للتو :

_ليس الشرط الجزائي فحسب ..نحن بدأنا إعلانات

الندوة المشتركة بالفعل ..انسحابك الآن سيكون

اعترافا منك أمام الجميع أنك غير قادرة على

مناطحته أفكاره .

يحمر وجهها بالمزيد من الانفعال الذي تترجمه

سرعة انهاؤها لسيجارتها قبل أن تسحق ما بقي منها

في مطفأة قريبة ..

لا بأس!

ستناظره في الندوة هذه!

إنها طيف الصالح التي شقت طريقها وسط الصخور

حتى استوت فوق الغمام نجمة تجاور القمر ..

هل يستعصي عليها مجابهة فتى مثل هذا؟!!

فتى؟!!

بالتأكيد فتى مخنث من هؤلاء الذين يسقطون

سراويلهم ويمشطون شعرهم بهذه الطريقة التي تشبه

عرف الديك !

لاريب أن "سوسو" خاتته أو "لولو" باعته ..أو

"توتو" فضلت عليه "فورمة ساحل" !

زفرة ساخطة تغادر حلقها وهي تتناول هاتفها لترى

كيف يبدو هذا الـ "يحيى" المستفز !

تبحث عن حسابها الالكتروني لتدخل فتصطدم بصورته
الأنيقة التي تلقي عليها الظلال ستارا يخفي نصفها ..
ليس فتى! بل رجلا ثلاثينيا يبدو ناضجا..رياضي
القوام بهذه السترة الأنيقة والوقفة الواثقة ..
وسيم إنما ليس بهذه الطريقة التي ظنتها بل هذه
الوسامة الماكرة الخطرة التي أجفلتها قليلا ..
ابتسامته وقحة فظة مثل كتاباته كأنما تقول لمن
يراها : أنا أفهم أكثر منك فلا تجادل!

عيناه!

شيء ما بعينيه يحملها لبعيد ..بعيد جدااا ..

كأنها قد رآته من قبل !!

ربما لأنهما بلا سبب تذكرانها ب..حسام!

نفس النظرة الواثقة ..والغرور الذي -ستكون منصفة

فتعترف- أن له ما يبرره !

ذكرى حسام تثير المزيد من حفيظتها فتغمض عينيها

بقوة كأنما تحاول دفع الذكرى عنها ..

قبل أن تعاود فتحهما لتتسعا بقوة مع هذا الهاجس

الذي انتابها ..

لقد رأيت يحيى هذا من قبل!

ملامحه ليست غريبة عنها ..

الاسم كذلك مألوف!

هو ..

هو ؟؟؟؟

معقول ؟!!!

هو!!!

تشهق بحدة وهي تلتفت جانبا نحو باب شقتها لتكز

على أسنانها بقوة هامسة بمزيج من غيظ وحنق:

_إنه هو !

لن تنسى تلك الليلة التي طلبت له فيها الشرطة بعدما

رأته يقتحم النافذة ..

الأحمق كان يقتحم نافذة بيته !!

_هاهو ذا ! هاهو اللص! الطفلة !! أين الطفلة ؟!

أنقذوها أولاً إنها مقعدة لا تستطيع الحركة !

كانت تصرخ بها بجنون وهي تقف خلف الضابط الذي

جاء مع رففته بسرعة فائقة عقب إبلاغها عما

رأته ..

ميزة جيدة حقاً في البلد هنا !!

ليهدف هو بنبرة حادة فظة بينما ينظر إليها شذراً:

_ من هذه المختلة؟! وبماذا تهذي?!

_ مختلة؟! أنا المختلة أيها اللص مغتصب

الأطفال؟! تفتح الباب بنفسك أيضاً كأنك صاحب

البيت؟!!!

_ أنا فعلاً صاحب البيت!! ما هذا الجنون الذي يحدث

هنا؟!!

الصدمة تكسو ملامحها للحظات فتخرسها ليتحنح

الضابط قائلاً بحيرة:

_ السيدة اتصلت بنا تطلب الدعم.. تقول إنها رأتك

تقتحم النافذة ثم شرعت في خلع

ملابسك لتغتصب طفلة!!

يقولها مشيراً ليحيى الذي كان لا يزال عاري الجذع
فارتفع حاجبا الأخير بإدراك لتنفرج شفتاه وهو على
وشك الرد لكن ..

_بابا! ما الذي يحدث!؟!

تخرج بصوت الطفلة التي تقدمت منها بكرسيها
الذي كان يقوده أحدهم ..

لتشعب ملامح طيف فيما تتمم :

_بابا!!!

يهزول يحيى نحو الطفلة فيجتو على ركبتيه أمام

كرسيها .. وبلهجته العراقية يقول بلطف حان:

_لا تخافي ! لا تخافي ! هم أصدقاء .

_سيأخذونك .. سيأخذونك مثله !

تهتف بها بهلع وهي تتشبث بذراعيها في عنقه بكل قوتها ليربت يحيى على ظهرها بحنان للحظات .. قبل أن يهتف لها بحزم:

_ حبيبة "بابا"! انظري إليّ ! الآن .. الآن يا مجد !
ترفض الطفلة في البداية ليعاود قولها بحزم أكبر
فترفع عينيها الدامعتين نحوه بتردد ليقول لها بصوت متحشرج :

_ أنا لن أتركك .. لن أتركك أبداً .. أبداً !
يقولها ثم يقبل جبينها بعمق تحت نظرات الجميع
المحدقة ليهتف الضابط بضيق لم يخلُ من حرج:
_ ما الذي يحدث ..

_ من فضلك اسكت الآن!

يقاطعه بها يحيى بنبرة مهذبة لكنها فاضت بهذه
الهيئة الفطرية التي تحيط بهالته الخاصة ..
أجل برغم عدد الحضور الكثير لكنه بدا وكأنه قد
احتكر المشهد وحده ..

_ خذها لغرفتها يا نزار .

يخاطب بها يحيى الرجل الذي كان يدفع كرسيها
فتهتف الصغيرة معترضة بعبارات متلعثمة لكنه يعاود
تهدئتها بقوله :

_ كل شيء سيكون بخير !

_ "قيمر"؟!!

تقولها وهي تبسط كفها على صدره فيبتسم وهو

يعاود تقبيل جبينها :

_ "قيمر" يا حبيبة "بابا".

_ عندما ينصرفون ستنام جوارى وتحكي لي حكايتين

بدلاً من واحدة !

_ تدلي!

يقولها لها بحنان يجد صداه في قلب تلك "المتقنفة"

التي وقفت تراقب الموقف من بعيد بترقب ..

"حنان الرجل"!

شيء يشبه الجان الذين نسمع عنهم ولا نراهم !

أسطورة وهمية يهونون بها "ليل الخذلان" الطويل!

طالما ظنت أن الإنسان قد خلق من طين .. تراب

وماء!

.. لكن طين الرجل يختلف عن طين المرأة .. المرأة

يغلب على طينها الماء .. "ماء عاطفتها" !

والرجل يغلب على طينه التراب .. "تراب قسوته"!

هذه أوراقى ! سليمة كلها!

ينتزعها بها من شرودها وهو يخاطب الشرطي فتنتبه

لغياب الطفلة

بالداخل .. وتنتبه أكثر لموقفها المخزي هنا !!

يلتفت نحوها الضابط بنظرة متهمة فتهتف بتتمرها

المعهود :

سل هذا المعتوه لماذا كان يقتحم النافذة

ليلاً؟! ولماذا خلع قميصه بعد دخوله .

أنا المعتوه أم أنتِ المضطربة نفسياً؟! سرقة

واغتصاب !! أي عقل مريض تملكينه؟! أي مستنقع

قذر هذا الذي ..

يهتف بها بفضاظة حادة ليقاطعه الضابط

قائلاً :

_ اهدأ يا سيد يحيى!

_ عقل مريض ومستتقع قدر!! أنا؟! أم أنت بأفكارك

الشاذة أيها المختل!؟!

تصرخ بها طيف بحدة وهي تشعر بكلماته تلطمها
على وجهها ..تردها لأيام الإهانة الطويلة التي كادت
تنساها !!

لهذا انساب لسانها بشتائم طويلة كطلقات مدفع
متتابعة رغم محاولات الضابط تهدئتها والذي صرخ
أخيراً بحدة :

_ اهدئي يا سيدتي وإلا سأذهب بك لمركز الشرطة في
هذه اللحظة بتهمة بلاغ كاذب .

احمر وجهها بغضب وهي تزم شفيتها قسراً ليرمقها
يحيى بنظرة مزدرية ردتها له بمثلها ..

قبل أن يخاطب الضابط بنبرة مهذبة :

_ابنتي مقعدة كما ترى ..نحن حديثو العهد بالانتقال

إلى هنا وهي لا تتكيف مع الأماكن الجديدة

بسهولة ..مهووسة ب"سبايدر مان" وتسلقه

للجدران والنوافذ ..لهذا فكرت في فعل هذا لأضفي

على أمسياتها بعض المرح !!

يقولها مشيراً لقميصه المخلوع هناك والذي كان

بلون بدلة "سبايدر مان" المميزة بلونيهما الأزرق

والأحمر ..والتي كان لايزال يرتدي سروالها ..

شعرت طيف وكأن دلواً من الماء البارد سقط على

وجهها خاصة وهو يشير نحوها هاتفاً بنبرة تحولت

من التهذيب للفظاظة ب"قدرة قادر":

_ لم أكن أعلم أن هناك مريضة نفسية تراقبني !!
مريضة نفسية لا تعرف شكل أشهر شخصية كارتونية
وتكتفي بإطلاق العنان لخيالها الملوث!!
_ أنا المريضة؟! تتسلق نافذة من هذا
الارتفاع فقط لترضي طفلة وتتعتني أنا بالمختلة؟!
_ وما شأنك أنت؟! ما شأنك أنت؟!
يصرخ بها في وجهها بغيظ لتصرخ بدورها :
_ ظننتك لصاً وأشفقت على الطفلة يا "...!!"
تتبع قولها بسببة ما تجعله يهّم برد سيل شتائمها هذه
لكن الضابط يقف بينهما هاتفاً بصرامة :
_ اهدئا أنتما الاثنان وإلا فستمضيان الليلة محجوزين
عندي في المركز .

تزفر طيف بقوة وقد تحول وجهها لجمرة من
نار.. فيما بدا يحيى أكثر ثباتاً وسيطرة على أعصابه
وهو يواجه الضابط بقوله :

لقد رأيت أوراقي وتبينت موقفي .. أرجوك أن تنهي
الموقف بسرعة فالطفلة مذعورة
بالداخل .

يعاود الضابط التطلع للأوراق في يده والتي بدت
سليمة تماماً بما فيها أوراق إقامته وعقد إيجاره
للشقة وشهادة ميلاد الفتاة ..

مجد يحيى العراقي !
يلتفت نحوه أخيراً بنظرة معتذرة قائلاً :
_جواز سفرك يشي بكثرة الأسفار .. نعتذر على
إزعاجك .. بارك الله لك في ابنتك .

_ لا عليك .. إنه واجبك .. مشكور !

يقولها يحيى مبتسماً له ابتسامة وقور زادت من هذه

الهالة المهيبة التي تحيطه ..

من يراه هكذا لا يصدق أنه نفس الرجل الذي كان

يتسلق النافذة بملابس هزلية !!

ابتسامة انتقلت للضابط الذي رمقه بنظرة إعجاب

ناسبت قوله :

_ كم من مصائب جرّها لنا هؤلاء الصغار!

_ المصائب يجرّها الكبار أيضاً!

يقولها يحيى من بين أسنانه وهو يحدج طيف بنظرة

ساخطة ردتها لها هي بمثلها ..

ليتنح الضابط محاولاً تخفيف الوضع بقوله :

_ ما سر كلمة "قيمر" هذه؟! لقد هدأت فور ما سمعتها! أخبرني ربما استخدمتها مع أولادي كذلك! يستجيب يحيى لمحاولته تلطيفه الأجواء فيبتسم

بقوله :

_ "القيمر" لدينا في العراق هي قشطة لبن الجاموس ..أنا تركت العراق منذ زمن طويل لكنني أحب أن أربط بعض ذكرياتي هناك بتربتي لابنتي ..ابنتي تخاف الناس ولا تطمئن بسهولة لهذا جعلنا بيننا "كلمة سر " تفيد الاطمئنان ..فاخترت لها هذه .."قيمر"!

يضحك الضابط ضحكة قصيرة وهو يعيد له أوراقه فيما ترمقه طيف بنفس النظرة الساخطة التي تخللها شعور غريب ..

عراقي..مغترب كثير الأسفار ..يعتز ببقايا وطنه

فيه ..يحب طفلته إلى هذا الحد ...

نظرتها السوداوية للرجال تخبرها أن هذه الصفات

لاريب تخفي كارثة !!

ماذا عن أم الطفلة؟! زوجته؟! أين هي ؟!

تساؤلاتها تنقطع عندما يلتفت نحوها الضابط بنظرة

ضائقة فتسحب للخلف مرردة بكلمات مبهمة وقد

استتكتف أن تعتذر ..

يغادرهما الضابط مع رفقته ولم يكد يفعل حتى

اختلست هي نظرة نحو ذاك المستفز ..

نظرة قابلها هو بنظرة ساخطة سبقت إغلاقه للباب

بقوة في وجهها ..

تنتفض مكانها عائدة لواقعها وكأنها تشعر بالباب

يصفع وجهها من جديد !!

لقد كادت تنسى تلك الواقعة وسط خضم مشاغلها ..

خاصة وهي لم تلتقِ به بعدها ولو مصادفة !

صحيح أنها بقيت تسترق النظر لـ "مجد" عبر النافذة

كلما حانت لها الفرصة بفضول لم تعرف سببه ..

لكن جزءاً عنيداً بداخلها كان يصر أن يطمس ذكرى

هذا الرجل للأبد !

لماذا ؟!

ربما لأنه أخرجها كما لم يفعل أحدهم منذ عهد بعيد ..

أهانها كما لم يفعل أحدهم منذ عهد بعيد ..

جذبها كما لم يفعل أحدهم منذ عهد بعيد ..

أجل !

هو اخترق "صومعتها" الحامية التي كانت تفر إليها

من كل أذى!

والآن يزيد الطين بلة بهذه الندوة التي يصرون أن

تواجهه فيها !!

ينعقد حاجباها بشدة مع الخاطر الأخير لكنها تشعل

سيجارة أخرى لتأخذ منها نفساً عميقاً ..

التدخين لديها أكثر من مجرد عادة .. إنه صوت

صرختها المتمردة على عاداتها القديمة ..

لهذا تشعر بقوة غامرة تملأها عندما تنفث دخانه ..

تماماً كما يحدث الآن وعيناها تضيقان بنبرة

متوعدة :

سنرى أيها "اليحيى العراقي"! من الأفضل أن تبدأ

من الآن البحث عن "قطع غيار" لكرامتك!

=====



*يحيى....."السندباد"!

=====

لا تزال تهوى هذا العبت؟!!

يهتف بها نزار وهو يدخل عليه غرفته بينما يراه
يلون إحدى الأصداف .. هذه التي سقطت بين قدمي
يحيى فأطلق سبة عابرة وهو ينحني ليلتقطها هاتفاً :

كم مرة أخبرتك ألا تدخل الغرفة دون أن تطرق

الباب؟!!

وهل بيننا أسرار يا "سندباد"؟!!

يقولها بمرحة المعهود وهو يغمزه بخفة بهذا اللقب
الذي يخصه به .. رغم كثرة أسفارهما معاً لكن يحيى
بقي بناظره سندباد العراق ..

فيتفحص يحيى الصدفه بعينه الخيرتين قبل أن يعود

ليعالجها بألوانه قائلاً :

__ سليمة ! لو كان نالها كسر أو تلطخت ألوانها كنت

لأوسعك ضرباً .

__ يا خسارة هذا الرأس العبقري في مثل هذا العبث؟!!

لا أزال لا أدري سر شغفك بأن تجمع من كل بلد

نزوره صدفه تلونها مع حفنة مع رماله ! بل إنك

وفرت لها حقيبة مميزة صنعتها خصيصاً لزجاجاتك

العجيبة هذه !!

يقولها مشيراً لهذه الحقيبة القطيفية الكبيرة التي

فتحها يحيى أمامه .. والتي صممت داخلها أماكن

مخصصة لهذه الزجاجات المميزة بسداداتها

المطاطية والتي حوى بعضها حفنة صغيرة من الرمال
مع صدفة ملونة .. وبقي البعض الآخر خالياً ..
يبتسم يحيى بغموضه المعهود وهو يعاود تلوين
صدفته بحرص .. هذه المرة يختار لها اللونين الأحمر
والأصفر .. الأحمر لون الجنون .. والأصفر لون
الحياة ..

لكن فرشاته تخونه لتتلون منطقة وسطى بينهما
ب"البرتقالي" .. هذا اللون الذي يمقته كما يمقت كل
الألوان الفرعية ..

هو لا يحب من الألوان إلا صريحها .. أما هذه الألوان
"المركبة" فتشعره بالخداع ..

وهو لا يمقت في حياته قدر أن يخدعه أحدهم !!

لهذا تأفف بضيق وهو يرمق الصدفة بين أنامله

هاتفاً:

_ لأول مرة تخونني فرشاتي !

_ بسيطة! ارمها وأحضر لنفسك تذكراً آخر من هنا !

_ لا! لم أفعلها يوماً ! مادام القدر وضعها في طريقي

فهي تذكاري الذي سأحمله من هنا ..ربما كانت هذه

فقط إشارة أن ما سيحدث في هذا البلد لن يروقتني!

_ معقد كعهدك ! أنا مثلك آخذ تذكاراتي من كل بلد

نزورها ..لكن تذكاراتي أكثر حرارة ..أكثر

ليونة ..أكثر حياة !

يقولها نزار وهو يرسم بكفيه في الهواء معالم جسد

أنثى ليضحك يحيى باستهانة هاتفاً :

_ معك حق! النساء لا يصلحن إلا لأغراض كهذه!
لكنني لا أحب تذكاراتي مدنسة .. أحبها نقية لم
تسبقني إليها يد .. لهذا أفضل الصدف على
النساء .. وإن كانا سوياً يشتركان في كونهما مجرد
تذكار عابر لن يدوم !

فيخبط نزار كفيه ببعضهما هاتفاً:

_ أنا أعرف أن يحب الناس

البحر .. السماء .. النسيم .. أما أن يكونوا مهووسين

بالرمال مثلك فهذا عجيب!!

يتنهد يحيى بحرارة وعيناه تسافران لبعيد .. بعيد

جداً ..

كأنما حلقت روحه نفسها خارج الزمان والمكان ..

_البحر قد يخون .. السماء قد تغدر .. والنسيم قد

يبخل .. وحده الرمل يبقى على

حاله .. يحتفظ بأثر قدمك الثابت عليه .. يمنحك بكرم

حبيباته كي تبني بها قصرًا من خيال .. وحتى عندما

يهدمه الموج يحتفظ لك برائحة الحلم .. الرمال لا

تخون يا صديقي .. لا تبخل ولا تخون !

يرمقه نزار بنظرة متفهمة وهو يدرك إلى أي حد

سحبته أفكاره الآن ..

يحترم صمته لدقيقة كاملة قبل أن يفيق يحيى من

شروده ليضع صدفته جانباً كي تجف ألوانها ..

_مجد تقرأ؟!!

_كعهدا ! دودة قراءة!! لا أدري من أين أتت

"البنت" بحب الثقافة هذا! أنا صعلوك وأنت ...!

يهتف بها نزار ضاحكاً ليقاطعه يحيى بقوله :
_ احرص يا صعلوك! من تستهزئ به هذا صاحب
أعلى الكتب مبيعاً !

يقولها يحيى بفخر مصطنع فيلكنه نزار في كتفه
هاتفاً :

_ حظوظ!

_ بل هذا!! هنا ألماس وليس خلايا مخ!!
يهتف بها يحيى باعتزاز مشيراً لجانب رأسه فيضحك
نزار هاتفاً :

_ كنت أتمنى وصفك بالغرور .. لكنك بأس مثلي !
افرح يا صاحبي بإنجازك والعقبى للبقية !
يغمزها بها بمكر فيبتسم يحيى وعيناه تلتمعان بلمعة
عابثة تناقض طلته المهيبة ..

_ "ز عوط!"!

يهتف بها يحيى بلهجته العراقية وهو يرى نزار
يختطف الصدفة فجأة ليركض بها خارج
الغرفة .. فيركض خلفه ليلحق به ويطوق ظهره
بذراعيه .. يحاول نزار التملص منه لكن يحيى
يختطفها منه مكرراً سبته التي يخصه
بها .. "ز عوط!"!

_ ما "ز عوط" هذه؟!!

تقولها الخادمة بعربيته الكسيرة بدهشة وضحكة
عابرة تطوق شفيتها فتعود ليحيى هالة وقاره
الغامضة وهو يستقيم بجسده مجيباً إياها:
_ لفظة عراقية تعني قليل الشأن .. أحقق كما
تسمونها!

_قولي الصدق! هل هذا مظهر "زعطوط"؟!
يقولها نزار بنبرته الرخيمة وهو يقترب منها بعينين
ماكرتين فتتلعثم هاتفة بحرج:

_سأعود ل"مجد" كي لا أتركها وحدها في الغرفة!
يضحك نزار ضحكة عالية وهو يميز أثره عليها فيما
تتوقف هي قليلاً لتستخرج من جيبها ما عادت به
نحوهما..والذي رفعته أمام وجه يحيى قائلة بارتباك
زادته لكنتها العربية الكسيحة :

_أحد معارفي عاد من العراق قريباً..أحضر لي
فواحة العطر هذه من حي "المنصور" ببغداد..يقول
إنه أرقى حي هناك..رأيت أنه قد يعجبك.

شحبت ملامح يحيى فجأة وعيناه تشتعلان بوهج
مخيف .. جسده ينتفض فجأة كأنما مسه صاعق وهو
يكز على أسنانه بقوة ..

فيما رمقه نزار بنظرة وجلة قبل أن يتدرك الموقف
ليتناول منها هديتها هاتفاً بنبرته العابثة :
_ مقبولة! سلم "المنصور" وما جاء منه !!
تحمر وجنتاها بخجل وقد شغلتها نظرات نزار الوقحة
عن الانتباه ليحيى الذي بدا كتمثال من صخر ..
تمثال عادت له الحركة أخيراً وهو يغادرهما نحو
الغرفة التي أغلق بابها خلفه ..

المنصور ..!

حيّه الراقي ببغداد والذي نشأ فيه مرفهاً

كالمك بين أقرانه ..معالم الحي تتشكل أمام ناظريه

ملونة بطيف الحنين ..

تمثال أبي جعفر المنصور ..برج بغداد ..بدالة

المأمون ..مطاعم الساعة ونيوي .."أسواق النجاة"

الذي يعد أقدم أسواق بغداد ..جامع دراغ ..بيوت

أصدقائه القدامى وقصر أبيه الفخم ..

أبيه !!

دمعة مريرة تمتزج ببسمة ساخرة فوق شفثيه !!

دمعة تنسف كل أبراج الحنين لتذرها هباء منثوراً !!

يرفع كفه الذي يحوي الصدفة الملونة نحو عينيه

بنظرة غامضة غريبة ..كأنه يهرب من شيء ..يبحث

عن شيء ..يحتمي بشيء !!

تهيدة حارقة تغادر صدره قبل أن يتوجه نحو الحقيبة

القطيفية ..

يضع الصدفة في القنينة الزجاجية المستعرضة والتي

حوت بعضاً من رمال هذا البلد ..

يغلق القنينة بسدادتها ثم يضعها مكانها جوار

رفيقاتها ..

سندباد هو يجوب بحاراً لا يأنس إليها إنما يجد

سكينته فوق رمالها ..

سندباد كتب على نفسه الشتات في الأرض لأنه كفر

بأي مسمى للوطن ..

سندباد أحرقوا قلبه .. وأجبروه أن يتنشق

رماده .. فاستعذب الرائحة .. وأدمنها!

وما أقسى أن يُسجن وسط الرماد .. سندباد!

=====

الطيف الثاني

=====

أحمر

=====

لعبة!

مقامرة!

هكذا قررت أن تكون حياتي !

اشتقت اللعب ! اشتقته يا أمي !

لا .. ليس اللهو الخبيث الذي طالما تدنست به

روحي .. إنما ذاك المغامر الشهوي الذي يجعلني لا

أحملهما !!

وهل لمثلي ألا تحمل يوماً هما؟!!!

تظنينني سأضحك من جديد يا أمي؟!!

لا .. ليست تلك الضحكة التي تغتسل بالخداع ويجففها

الوجع !

إنما تلك التي تشبه طفلك القديمة بعفويتها وبراعتها!

تراك ستشعرين يا أمي!؟!

هذه الدقائق القليلة التي تفيقن فيها -بالكاد- لتميزي

ما حولك ..

هل ستدركين الفارق بيني و"بينها"؟!

هل سيرشدك "قلب أم"؟!

قلب أم!

صرت مثلك يا أمي! صار لي "قلب أم" يعذبني بقلدة

كبدي!!

لكن الفارق بيننا أن وجعك بي قد ينتهي

فلازلت فوق التراب ..

إنما وجعي به سيبقى جحيمي وهو تحت التراب !

أنا قتلته يا أمي ! قتلته !!

لا يزال صوته يدوي في أذني بكلمته التي لم يكذب ينطق

سواها.. "ماما" !

لا تعاتبيني إذن في الهروب فلم أعد أملك سواه !!

كل سجاني رحلوا يا أمي .. وصار باب قفصي

مفتوحاً ..

فلا تلوميني أن بعث سجني لغيري !!

لعبة! دعيني أعبها يا أمي !

وحدي هذه المرة !

تتهميني بالجحود؟!!

تركك في مرضك كي أحلق بعد طول حبس!

أنا لا أحلق ! أنا أسقط !

أسقط في كل لحظة أراك فيها بهذا الحال و"يد

الفراق" تكاد تلوح بيننا !

لا تذكريني بل ولا تكادين تذكرين أي شيء!

أسقط في كل لحظة أتذكر فيها منامة ابني وقد تلطخت

بدمائه !

أسقط في كل لحظة أشفق فيها على نفسي وأنا أراقب

محطات "الراحتين" ..

لأدرك أنني ما كنت فيها سوى عابر ثقيل الظل لفظوه

خلف ظهورهم ولفظتهم أنا كذلك!!

حفنة تراب على جانب الطريق لا يهم الرائي إن كانت

مكدسة أو منشورة .. هكذا أنا!!

فلا تلوميني إن بعثرت بقية العمر في لعبة !!

لعبة تثير حواسي وانت تعلمين اني فقدت هذا الشغف

منذ زمن !!

اسمها "سمرا"!

التقيتها هنا في محل بيع ملابس الأطفال هذا !

يومها كنت في أشد حالاتي انهياراً فقد كان يوافق يوم

ميلاد ابني !

خرجت كالمجنونة أجوب الشوارع في سيارتي ..

توقفت أمام المحل ودخلت لأختار له منامة

جديدة ..منامة لا تلوثها الدماء!

توقفت أمام الواحدة تلو الأخرى لكنها كلها بقيت في

عيني ملوثة بالدم !!

هل صرخت وقتها؟! لا أدري !!

أنا لم أكن أسمع سوى كلمة "ماما" بصوته !!

هل بكيت؟! هل سقطت؟! هل أغشي عليّ؟!!

لا أدري! لا أنكر!!

فقط عندما عاد إليّ إدراكي وجدتها أمامي!!

تشبهني كثيراً.. أنفها كان أكبر حجماً.. شفاتها أكثر

اكتنازاً.. شعرها أقل شقرة.. وجسدها أكثر

امتلاءً.. لهذا لم أتعجب عندما هتفت لي باستغراب

أنها هي الأخرى تشعر بالعجب من هذا التشابه بيننا!

تذكرين تلك العبارة التي ظل "فادي" يكررها لي

عقب زواجنا؟!!

(ليت هذا الوجه الجميل لروح أخرى غير روحك

الخربة!)

لم يسعني وقتها سوى تذكر عبارته.. وتمنيت!

تمنيت مقايضتها!!

تمنيت شراء حياتها البسيطة هذه وتمزيق ورقة

حياتي أنا ألف قطعة كي ألقها خلفي!!

لكن كيف؟! و شبح رفعت الصباحي كان لا يزال

يفزعني!!

والآن رحل ! فلماذا لا ألعب؟!

معي ماله وبقايا من نفوذ سلطاته .. فلماذا لا أشتري

بهما لعبة مادام هو لم يشتري لي اللعب يوماً؟!

اشتريت بديلة !!

القصة المضحكة التي طالما رأيتها كوميدية في أفلام

التلفاز صارت واقعي ..

مجنونة !

ربما !!

قلتها لنفسي وأنا أتوجه مع تلك الفتاة كي أجري لها

جراحة تجميلية لأجعلها نسخة مني !

قلتها لنفسي وأنا أمرها بهذه الحمية الخاصة كي تفقد

بعض وزنها فتصير تماماً مثلي!

قلتها وأنا أدربها على حركاتي ..أزرعها بيدي في

بيتنا كي تكون مجرد صورة مني !

صورة تصلح لتلقي التعازي في الفقيد ..لثثرة

رفيقات النادي وشماتتهن ..لآداء واجباتي التي لا

أطيقها ..ولعيش حياتي التي لا أحبها!!

مجنونة باعت حياة واشترت أخرى بهذه البساطة !!

لكنني أتلذذ بكل لحظة أعيشها في هذا الجنون!!

كأنني فجأة ولدت من جديد وتركت ماضيّ خلفي!!

شعور رائع يا أمي!!

رائع!! رائع!!

لا تنغصه سوى تلك اللحظات التي تجتاحني فيها

ذكريات الماضي لتفجر شظاياها في روعي!!

تعلمين كم أغبطك في هذه اللحظة على مرضك الذي

ينعم عليك بالنسيان!!

ليتني لا أذكر.. لا أعي.. أي شيء.. وكل شيء!

كيف أنساني يا أمي!؟

كيف أنساني!؟!!

_سمرا! شاردة كالعادة!! وتبكين أيضاً!! لو رآك

صاحب المحل سيخرب بيتنا!

تهتف بها زميلتها في العمل فتنتبه لحالتها متجاوزة

حديث نفسها الصاخب!

تغلق هاتفها على صورة أمها ثم تمسح دموعها
بسرعة فتتهد زميلتها بحرارة وهي تجلس جوارها
لتربت على كتفها قائلة بإشفاق:
_ لو تخبريني فقط ما الذي تغير فيك منذ تلك الفترة
التي انقطعت فيها عن العمل هنا ! لقد تبدلت أحوالك
تماماً كأنك صرتِ أخرى!! أشعر أن ملامحك نفسها قد
تغيرت !

_ ربما لأنني فقدت الكثير من وزني فحسب!
تقولها بتماسك هش لترمقها رفيقتها بنظرة طويلة
قائلة :

_ ليست
اللامح فقط .. طبيعتك .. روحك .. بل .. وصوتك!!

_ أخبرتكِ أنني تعرضت لحادث كان السبب في انقطاعي عن العمل .. وهو السبب كذلك في تغير

صوتي!

ترمقها رفيقتها بنظرة متشككة لكنها تهز كتفيها

أخيراً لتعاود سؤالها باهتمام :

_ ولماذا صرتِ تبكين كثيراً؟! هل عاد ذاك الوغد

يتحرش بكِ!؟!

كانت تعلم عن تحدث فقد أخبرتها "سمرا" بكل

تفاصيل حياتها .. لكنها قبلت المغامرة على كل

حال!!

أي شيء سيكون أكثر بريقاً من حياتها الباهتة !!

لهذا اغتصبت ابتهامة شاحبة وهي تقول باقتضاب:

_ لا تقلقي .. أنا بخير .



تتهد رفيقتها باستسلام وهي تعاود التريبت على
كتفها قبل أن تتلق عيناها بالمرأة التي دخلت المحل
لتوها فتقف مكانها تغمغم بلهفة :

_ أول زبونة من أول اليوم .. لعها تشتري ولا تكتفي
بالمشاهدة والاستمتاع ب" التكييف" !!

تبتسم يسرا وهي تقف مكانها بدورها .. تتوجه نحو

المرأة لكن عينيها تتعلقان بالطفل معها !!

أعظم ميزة تجدها في العمل هاهنا !!

تلاعبه بلطف تاركة مهمة اختيار ثيابه

لأمه .. تضمه بقوة لصدرها وهي تشم رائحة شعره

بهذه الطريقة التي كانت تفعلها مع ابنها الراحل !!

لحظات مختلصة من المتعة تنتهي سريعا لتعاود

الجلوس مكانها بعد رحيلهما ..

تتهد بعمق ثم تأخذ نفساً عميقاً كأنما تلفظ حياة
وتستقبل أخرى ..

تتأكد من مغادرة رفيقتها وبقائها وحدها فتتناول
هاتفها لتجري اتصالها بصوت عاد إليه تسلطه :
_ التزمي بالبرنامج الذي وضعتك لك .. أنتِ تحت
عيني .. سأزور أمي الليلة .. سأكلمكِ وقتها لندير
الأمر .

تتلقى موافقة "بديلتها" برضا ثم تغلق الاتصال
شاعرة بالانتشاء!

هي ليست لعبة مغامرة فحسب ..

بل تحكم !!

طالما جربت تحكم الآخرين في حياتها والآن تجرب

العكس !!

فمرحباً بمتعة كهذه !!

و "العبة" كهذه !!

=====

_ ليس الأصفر! ستبدو شاحبة به ..جربي الأحمر أو
الوردي سيكون عليها أفضل .

تقولها يسرا بحنان صادق لكن أم الطفلة ترمقها
بنظرة شذرة وهي تنتزع منها القطعة الصفراء هاتفة
بفضاظة :

_ هل يمنحونك راتبك كي تلبسي أطفال غيرك على
ذوقك الخاص ؟ نصيحة ! اعنتي بحالك يا
فتاة ..وانظري لنفسك فلا تغتري بجمال الدمى هذا !
تلتمع عينا يسرا بشراسة فطرية جبلت عليها فتود لو
ترد على الأم بما تنتقم منه لكبريائها ..

لكن الابتسامة النقية على وجه الطفلة تذكرها

ب"ابتسامة شبيهة" ..فقدتها للأبد !

تتكسب الدموع في عينيها وهي تأخذ نفسا عميقا

لتشيع بوجهها فيما تسحب الأم طفلتها نحو الغرفة

الجانبية للقياس في المحل ..

قبل أن تخرج بالطفلة وقد ارتدت

الأصفر ..الطفلة التي هرعت إليها هي لتهتف

بفضول طفولي:

هل هو سيئ حقا؟

فلا تشعر بنفسها وهي ترفعها لتضمها بقوة مغمضة

عينيها ومستشعرة قيمة عناق كهذا حرمت منه منذ

عهد بعيد ..

تشم رائحة شعرها بهذه الحركة المعهودة لها حاملة

معها عبق الغالي الراحل :

بل أنت جميلة حقا .. في كل لون وكل حال !

ترمقها الأم بنظرة متشككة ونبرتها شديدة العاطفية لا

تتسق مع مجرد بائعة في محل

ملابس ..

هل تخطط لخطف طفلتها ؟

هل ينسقون لجرائمهم بهذه الطريقة ؟!

من يدري ؟ ربما ..

لهذا انتزعت طفلتها منها ببعض العنف قبل أن تتحرك

نحو "الكاشير" كي تدفع ثمن الثوب و.. ترحل !

ترحل ..

ترحل ..

الكلمة تدوي في أذنيها بطنين رهيب وهي تراقب كل طفل يدخل بعدها ل"تسرق" منه عناقا ..فتقبل أمه أو ترفض ..لكنه في النهاية يرحل ..

ك"من رحل"!

ينتهي يوم عملها بمزيج بؤسه وهنائه المعهود فتتناول هاتفها لتطلب سيارة أجرة عبر تطبيق "أوبر" الشهير ..

لم تفقد طباعها الأرسقراطية على أي حال .. السيارة المنشودة تتوقف على بعد خطوات منها فتستقلها لترمق السائق بنظرة عابرة ..

وسيم ؟

ومالها هي ؟

هي جربت مزيج الوسامة والقوة عندما يمتزج

بالنفوذ والسلطة في زيجاتها
الثلاث السابقة .. فزهدت كل هذا !
لكن هذا لم يمنعها من تفحص
ملامحه الجانبية .. سمرة بشرته الجذابة مع لحيته
المهذبة .. حاجبيه شديدا الكثافة والمنعقدان بوجع
اعتادته في وجوه الناس هنا ..

شفتاه المزمومتان بقوة كأنه يكتم بهما انفعالا
صاخبا ..

وأخيرا عيناه اللتان اصطدمتا بعينيها عبر مرآة
السيارة ..

سوداوان كليل بلا قمر ..
واسعتان كبحر بلا شطآن ..
موجوعتان كغريق بلا أمل ..

وخطيرتان كحافة بئر لا تحتاج سوى ل"زلة قدم"

كي تسقط فيه بلا رجوع !

تتنحج وهي تلعن نفسها على هذا خاطر الغريب

الذي جمعها برجل لن تلتقيه سوى مرة

واحدة ..ويرحل !

يرحل ..

يرحل ..

الكلمة اللعينة من جديد

تصفعها ..تطعنها ..تجلدها ..و ..تقتلها !

قطرات عرق خفيفة تتكاثف فوق جبينها الوضاء

وهي تستعيد ذكرى بعينها تجعل جسدها يرتجف

مكانه ..

المنامة الملوثة بالدم!

حركة السيارة تتباطأ وقد مرت ب"زفة عروس"
فتلثفت لسيارة العرس تتأمل العروس بنظرة شاردة ..
كم مرة ارتدت هي فيها ثوب الزفاف !؟

ثلاث مرات!!

ثلاث حفلات أسطورية الفخامة تليق بابنة رفعت
الصباحي!!

اثنتان هنا في مصر وأخرى في لبنان !
لون الثوب الأبيض في كل مرة كان أشد نصاعة عن
سابقتها !!

كل رجل كان أكثر بريقاً عن قبله!!
وحده قلبها كان يزداد ذبولاً ..

"قوس قزح" باهت بقي يلوح لها وسط سيل
المطر .. قبل أن يختفي تماماً .. و.. يرحل!!

يرحل!!

آهة خافتة تفلت منها رغما عنها وهي تمسح جبهتها

بألم فاق احتمالها ..

ليصلها صوته هو غارقا في الجدية رغم لطف

عرضه :

ـ أشغل "المكيف"؟

يقولها وأنامله تتحرك نحو ما يحكي عنه لتمنحه

أيماة موافقة بينما تراقب هذه الدبلة بألوان "علم

مصر" في يده ..

فتبتسم بشحوب وهي تفكر أنها حقا تليق به ..

كل ما فيه مصري حتى النخاع .. ملامحه .. شعره

المجدد بخفة محببة .. ملبسه البسيطة بطرازها

متواضع الأناقة .. وهذا المزيج الساحر من الجاذبية

والوجع في عينيه ..

مزيج صار يحمل اسم مصر في

عينها .. الجاذبية .. والوجع !

رنين هاتفه يقاطع أفكارها فتلتفت نحوه بفضول وهي

تراه يغلق الاتصال دون أن يرد والضيق على ملامحه

يزداد حرقاً ..

تختلس نظرة لشاشة الهاتف فتروعها الصورة التي

جعلها للمتصل ..

او على الأدق .. المتصلة !

إنها هي ..

لاتزال تذكرها رغم مرور هذه السنوات ..

وكيف لا تفعل وهي التي كادت تقتلها يوما حقدا

وغيرة ..

إنها هي ..حبيبة فهد الصاوي ..زوجته و..أم طفلته ..

جنة الرشيدي !

هي التي حظيت بكل ما حرمت هي منه !

ما علاقتها بهذا السائق حتى يضع لها صورة وهي

معه !

اللمحة الخاطفة لصورتها معه كانت تضحك فيها

بحب!!

هي تعلم أن جنة الرشيدي لا إخوة لها من الذكور!!

فمن هذا إذن؟!!

هل تخون فهد؟!!

معقول؟!!

تخون فهد الصاوي مع هذا !؟

تعاود تفحص السائق الذي عرفت اسمه من تطبيق
الهاتف بنظرة أكثر جرأة هذه المرة شاعرة بنشوة
المغامرة ..

"ابراهيم"!

جزء بداخلها يستصرخها أن تهرب من كل ما يمكن
أن يحيى رماد ماضيها ..

لكنها تبتسم بتحدٍ .. لماذا لا ألعب !؟

اسمك ابراهيم؟

تسأله مباشرة فينعدد حاجباه بضيق وهو يختلس

نظرة لملامحها عبر المرآة ..

جمالها الصارخ يدق ناقوس خطر برأسه .. هو لم يقم

علاقة عاطفية واحدة مع أي امرأة في حياته !

إنه حتى كان يتعجب كيف وقع حسن في غرام جنة

قبل أن يخطبها !!

طالما كان يظن أن مزلاج القلب لا يفتح إلا

ب"الحلال"!

ربما لهذا كان يهرب دوماً من أي باب قد يفتحه له

شيطان غواية !

لهذا أجاب سؤالها باقتضاب:

_ نعم.

_ أنا .. سمرا .

كادت تخطئ باسمها الحقيقي لتتقذ نفسها في اللحظة

الأخيرة فيما ازداد انعقاد حاجبيه وهو يفكر أن الاسم

لا يليق بها بتاتاً ..

_أمي من حي بسيط ..تعلم كيف يخافون من الحسد في هذه المناطق ..كانت تقول إنها عندما رأتي في المهد شقراء هكذا أرادت أن "تخزي العين" فأطلقت عليّ هذا الاسم .

تقولها كما سمعتها من "سمرا الحقيقية" بنبرة تعمدتها عفوية بريئة لكنه بقي صامتاً لا يرد وهو يشعر بناقوس الخطر داخله يزداد دقاً !!
يجاهد نفسه بصعوبة كي لا يختلس نظرة أخرى نحوها بهذا الجمال الكارثي الذي وجد أثره في نفسه !

يستغفر الله سراً وهو يحاول التشاغل بأفكاره بعيداً عنها لكنها تعاود غزوها الناعم :

_تبدو طيباً و"ابن حلال"! هل يمكن أن آخذ رقمك
كي تقلني في مشاويري بعيداً عن خدمة "أوبر"؟!
_ لا للأسف! لا وقت لدي هذه الأيام .

لم يستغرق ثانية واحدة للرد بها وهو يود لو ينتهي
هذا "المشوار" الثقيل على قلبه ..
فيما انعقد حاجباها هي ببعض الدهشة وهي تستشعر
بحدسها الأنثوي نفوره منها ..

النفور الذي لم تستشعره يوماً إلا من فهد الصاوي..
فجمالها كان دوماً سهماً نافذاً نحو قلوب الرجال!!
هل هو أثر جنة الرشيدي؟!

هل تسكن قلوب عاشقيها إلى هذا الحد فلا يرون
سواها؟!!!

غضبٌ غير منطقي يسري بين أوردتها مع خاطر

الأخير وهي تسيئُ تأويل أفعاله !

إنه حتى لم يرفع عينيه إليها بعدها بفضاظة غير

مبررة !!

عيناها تشتعلان بالمزيد من الضيق وهي تميز قرب

وصولها للحي البسيط الذي تسكنه ك"سمر"!!

يجب أن تفكر في حل بسرعة !!

لن تخسر "هذه اللعبة" الشيقة!!

تبتسم بخبث والفكرة تختمر في رأسها .. تلتقط هاتفها

تتأكد من وجود صورة واضحة لها في "الجاليري"

الخاص به ..

تلتقط خفية صورة واضحة لـ "بطاقة المحل" الذي
تعمل به برقم هاتفه ..تمسح بعض البيانات التي لا
تريدها أن تظهر لأحدهم ..

ثم تلقيه تحت قدميها بحرص خفي!!

هنا؟!

يسألها بجدية دون أن ينظر إليها وقد وصل بها
للمكان المنشود فتبتسم وهي تمد له يدها
بالنقود ..

تلتقي عيناها للحظة فيشعر وكأن مسأ قد أصابه!
عمله هذا -كسائق يلتقي يومياً بجميع صنوف البشر-
أكسبه خبرة في قراءة الناس ..

لكنه يعجز عن قراءة هذه المرأة بالذات!!

جراتها مع شكلها الخارجي جعلته يضعها في خانة

ما ..

لكن هذه النظرة الموجهة في عينيها تضعها في

خانة مغايرة تماماً ..

هو عايش الوجد لسنوات ويمكنه تمييزه في عيون

الناس ..

ووجد هذه المرأة ليس عادياً بل يبدو وكأنه نقش

على حدقتها !!

من جديد يستغفر الله سراً وهو يشيح بوجهه بينما

تترجل هي من السيارة لتغادرها فينطلق هو مبتعداً

بسرعة كأنه يهرب ..

تري ماذا سيحدث بيننا يا إبراهيم؟! هل ستتوقف

"اللعبة" هاهنا أم ستحلو أكثر؟!

تحدث بها نفسها بمزيج اليأس والجنون الخطر قبل
أن تأخذ طريقها نحو بيت سمرا البسيط هناك ..
فيما ظل هو يجوب الشوارع بعدها بحثاً عن عميل
جديد لكن القدر جعلها آخر وجه يراه لهذه الليلة ..
ربما لهذا لم تغادر ذهنه طويلاً بعدها حتى انتهى به
المقام في شارعهِ حيث "الجراج" الذي أدخل فيه
سيارته ..

هاتفه يرن برقم أبيه فيتناوله ليرد بابتسامته
"المنقوصة":

_"مستر" ربيع! أنا في "الجراج" تحت البيت .. تريد
طلبات خاصة للعشاء!

تسأل بعدما صرت تحت البيت يا "وغد"!!
اطلع! اطلع!!

صوت العجوز المستنكر بعتاب مرح يغرس فوق
شفتيه شبه ابتسامة لم تلبث أن اكتست ببعض الضيق
وهو يسمع أباه يستطرد :

_جنة اتصلت بي ..تقول إنك لا ترد على
اتصالاتها ..هي حولت القضية لمحامٍ ماهر
تعرفه ..وتريد إعطاءك التفاصيل ..كلمها غداً .
_كما تريد .

_ما بالك تقولها هكذا من تحت ضرسك؟! قلها جيداً يا
"ولد"!

_كما تريد يا "مستر ربيع" ..يا فاهم كل المواضيع !
يقولها بمرح كنشيد قديم اعتاد هو وحسن قوله
للعجوز الذي ضحك وهو يسبه مازحاً ..

للتسع ابتسامة إبراهيم وهو يغادر السيارة ليغلق

الاتصال ..

يدور حولها بخفة لتتوقف عيناه أمام ذاك الهاتف في

دواسة السيارة الخلفية والذي كان يضيئ بوميض

منتظم منبأً عن وصول اتصال!

ينعقد حاجباه بدهشة وهو يعاود فتح السيارة ..

ليلتقط "الدرويش" الهاتف .. و"الطعم"!





برتقالي



_ هاهو ذا موعدنا مع الندوة المرتقبة بين ضيفينا...
يقولها مدير دار النشر والذي يترأس الندوة التي
عقدت في إحدى القاعات المغلقة في مدينة أبو
ظبي ..

تتحفز طيف مكانها وهي تختلس نظرات جانبية نحو
ذاك المستفز الذي أتى بكامل أناقته كأنما تنقصه
الوسامة !

شعره البني الداكن المصفف بعناية تمنحه مظهراً
لامعاً .. عيناه البنيتان المميزتان بلمعة ماكرة نافذة
ومخرقة !



لم يكن حليق الوجه تماماً ولا ذا لحية ظاهرة
كثيفة..بل احتفظ بهذا الشكل الوسطي بينهما والذي
منحه مظهراً أكثر رجولة وجاذبية ..
كل هذا يمنحه المزيد من نقاط القوة وهي خير من
تفهم كيف تفكر "غالبية" بنات جنسها!
تعلم أن هذا سلاح نافذ له لمجابهة سطحيات العقل
ممن يحضرن الندوة واللائي لن يباليين كثيراً بفكره
المتطرف ضد المرأة بقدر ما ستنسج كل منهن حلمها
بحل عقدة ذاك الوسيم وجذبه لشباكها !!
لكنها ستحرص أن يخرج من هذا المكان مجرداً من
كبريائه !

_الأستاذة ..طيف الصالح.. غنية عن التعريف

بالطبع .. تربعت فوق عرش الكتابة منذ سنوات
بموهبة فطرية عظيمة .. حبكات مبتكرة .. تجديد في
لغة الحوار بين العامية والفصحى .. لقبها بعض من
جمهورها بالأرملة السوداء

لاستشعارهم عدائيتها نحو الرجال .. لكنني أظن أن لها
تفسيراً آخر لأفكارها في رواياتها .. ستكشف لنا اليوم
بعضاً من أسرارها !

تضج القاعة بالتصفيق والرجل يشير نحو طيف
الجالسة عن يمينه فتبتسم الأخيرة بثقة وهي ترفع
أنفها بكبرياء ..

لم تكن حديثة العهد بندوة كهذه .. لقد حضرت منها
الكثير ومستعدة دوماً للرد على أي سؤال يخص

أفكارها التي تلاقي رواجاً كبيراً في سوق النساء
المعاصرات بطبيعة الحال !
لهذا وضعت إحدى ساقها فوق الأخرى وظهرها
ينتصب في جلستها بوضع ملكي تدربت عليه كثيراً ..
فيما يستطرد الرجل مشيراً ليحيى على يساره :
_الأستاذ يحيى العراقي ..الكاتب الذي صعد بسرعة
الصاروخ ليكتسح كتابه الأسواق ويكتب له أسرع
نجاح عرفه كُتّاب هذا العام..يتميز بسرده
الفخم ..عباراته القوية ..هو كاتب وليس روائياً ..لكنه
أثبت لنفسه مكانة عظيمة وظني أنه سيكتسح مجال
الرواية لو أراد كما أجاد طرح أفكاره في كتابه ..لقبه
بعض القراء ب"عدو المرأة" لشرحه بعض الدواخل

النفسية شديدة الحساسية للمرأة ومبرراتها للخيانة
في كتابه "الأخير" ..

الوحيد!

تقاطعها بها طيف بعض الفظاظة المستهينة وهي
تلوح بسبابتها فتطلق بعض الضحكات في القاعة ..
ضحكات تزيد من اتساع ابتسامتها الواثقة وهي ترى
نفسها تحرز أول نقطة ضد ذاك المستفز!

طيف: واحد .

يحيى: صفر!

لكن مدير الدار يلتفت نحوها بنظرة عاتبة ثم يبتسم
ليقول بنبرة دبلوماسية :

أعلم أن المناقشة ستكون حامية الوطيس
هاهنا .. لكن أرجو من كليهما أن يلتزم بآداب الندوة
وإلا يتحدث إلا في دوره ..
تبتسم ساخرة بفضافة تزيد من ظلها الواثقة فيختلس
يحيى نحوها نظرة واحدة..
نظرة واحدة تكفيه !!
يشبك أنامله مع تحريكها في بطء رتيب ..
هذه الحركة مع انعقاد حاجبيه الطفيف ووسامته
الفطرية تجعله أقرب لحكيم أسطوري !
عقله شديد الذكاء يعمل بسرعة كعهدها لا تخذله !
طيف! أي طينة من النساء تلك؟!!

لقد ظن أنه جمع عنها من المعلومات ما يكفي
لسحقها تماماً في هذه الندوة .. لكن نظرت له بهذا
القرب تخبره أنها لن تكون خصماً سهلاً ..
سمراء نحيفة تفتقر لمقومات الجمال والإغراء
المعهودة .. ربما لهذا تظهر بطلات رواياتها دوماً
رائعات الجمال متفجرات الأنوثة بمنحنيات بارزة !

لا فائدة !

عهده دوماً ب

"الأدب النسائي" أنهم يفرغن فيه كبت صدورهن !
لكنه يعترف أنها تناقض فكرته الأخيرة هذه في
مواضع كثيرة ..

فكتاباتها تتميز ببعض العمق خاصة في وصف

الحنين .. الغدر .. الألم .. والحب !

ليس حب المرأة والرجل فحسب بل الحب عموماً !
خبرته الحياتية مع ما جمعه عنها من معلومات تفيد
أنها امرأة متمردة ..متسلطة ..لا تهاب أحداً ولا
شيئاً ..افتقدت الحنان في حياتها وربما تعرضت
لتجربة حب فاشلة أقنعت نفسها -كعهدهن- أنها فيها
ضحية حتى صدقت نفسها فصارت تملأ الدنيا ضجيجاً
عن حقوق المرأة الغائبة وجحود الرجل !
ربما الميزة الوحيدة التي وجدها في وجهها الذي يراه
قبيحاً حد النفور هو خلوه من

الأصباغ!!

لا يطبق "مكونات الخداع التجميلية" هذه !!
المرأة المتبرجة في عينيه مهما تضاءلت زينتها
مجرد "بلياتشو" ..أقرب للهزلية منها للغواية !!

شعرها الناعم ميزة شكلية لا تعنيه كثيراً ..
قرطها المتوهج بأحجاره البرتقالية يثير المزيد من
نفوره ..

يذكره بلون صدفته التي احتفظ بها تذكراً من هذا
البلد فيزعجه هذا أكثر..

عيناها متوهجتان بشراسة شهية قد تكون جاذبة
لعيني أي رجل ..سواه هو !

هو لم تعد تجذبه أي شارة حُسن في وجوه النساء منذ
زمن بعيد ..

كلهن دميمات الروح مهما تجمل منهن وجه أو
جسد !

وهذه "القنفذ" أمامه صورة حية لما يؤمن به ..
غير أنها -مشكورة- لم تتكلف تجميل قبح مظهرها!

_ نبدأ الحوار بالأستاذة طيف ..لقد قرأتِ كتاب
الأستاذ يحيى بالطبع ..فما انطباعك عنه ؟!
يسألها مدير الدار بدبلوماسية وعيناه تحملان نظرة
محذرة تتجاهلها عامدة وهي ترد بسخرية فظة:
_ ذكرني بالفيلم القديم ل"رشدي أباطة" عن عدو
المرأة ..أفكار شاذة متطرفة ..مع عبارات بليغة جداً
لكنني قرأتها من قبل ..ليست جديدة أو مبتكرة .
ينال جوابها بعض التصفيق من الفريق المؤيد لها
فتتسع ابتسامتها بانتصار وهي تسجل هدفاً آخر ..

طيف :اتنين

يحيى : صفر .

لكن الرجل يلتفت نحو يحيى الذي ظل يبدو كحكيم
أسطوري مكانه رابط الجأش مكتفياً بابتسامة هادئة

ليسأله نفس السؤال بالمقابل عنها فيصمت يحيى
للحظة ترتفع فيها دقات قلبها هي ترقباً غير قادرة

على منع تحفز جلستها ..

لكنه يرد أخيراً بنبرة مهذبة :

_ كتابات الأستاذة جيدة جداً ..

تتسع عينا طيف ببعض الصدمة فلم تتوقع إطراء

كهذا !

لكنه بدا وكأنه يصفعها بتكملة عبارته :

_ مقارنة بامرأة غير متعلمة !

طيف : اتنين

يحيى : واحد!

تكز على أسنانها بقوة تكاد تحطمها بينما هو مستمر
في حديثه بنفس النبرة المهدبة التي تتضح سخرية
قاسية :

_ لا يمكنني أن أقسو كثيراً على فكرها "الأعوج"
"فهي مشكورة على أي حال بالنسبة لكونها لم
تحصل في حياتها على شهادة تعليم واحدة !
همهمات تعجب تجتاح الحضور وتجعلها تشعر
بالحرج لأول مرة من ذكر هذا الأمر !
لقد كانت تتباهى دوماً بمكانتها التي وصلت إليها
كتابياً دون أن تتحرج من نشأتها وظروفها ..
لكن الآن وهو يقولها بهذه الطريقة - مع علمها أنه
هو قد أكمل جانباً من تعليمه في إحدى الدول

الأجنبية لينال شهادة رفيعة المستوى - فهي تشعر

بمرارة قاسية في حلقها ..

ومن جديد تبرز صورة حسام القاضي أمامها بنفس

الصورة التي كانت تراه فيها أول

علاقتها ..

هضبة عالية تنظر إليها هي كنملة !

لا!!لا!!لا!!

أفيقي يا طيف!!

لم تعودى نملة ! بل صرت هضبة أخرى تفوقه

علواً !!

تباً لك أيها ال "يحيى" !!

لماذا تعود لتنتثر ما استكان من "رماد" روحى؟!

لن أسمح لك!!

سأريك كيف تكون القوة .. الشجاعة ..

سأوقد كل مشاعل سوءاتي التي قد يظنونني أخفيها

في الظلام!

لم أخجل يوماً من الاعتراف بهذا الأمر .. ولا من ذكر

أي شيء يتعلق بتفاصيل حياتي .. أنا .. طيف الصالح

كما يعرف الجميع .. نشأت فقيرة معدمة .. بل وعملت

خادمة في البيوت .. بل وسأذكر شيئاً أيضاً ربما لا

يعلمه الكثير هنا الآن .. أنا ابنة غير شرعية .. "بنت

حرام" كما يسمونها عندنا في مصر !

تضج القاعة بصخب مرتفع فور تصريحها الذي جعل

مدير الدار يفغر فاه بصدمة وهو يحدق فيها ..

لكنها كانت تحدق بيحيى !!

عيناها بقيتا ملتصقتين بوجهه كأنما تختبر فيه أثر

كلماتها !!

فضيحة!!

منذ متى تعنيها الفضيحة !!

هي تعلمت بالطريقة الأقسى أن تواجه أعظم مخاوفها

ولا تهرب منها !!

أن تقرع فوق جرحها بشدة فيما شفاء وإما موت !

لكنه للعجب لم يغير جلسته ولا هذه الطريقة الرتيبة

التي يحرك بها أنامله المتشابكة ..

بل إنه حتى لم ينظر إليها !!

فقط عيناها كانتا شاردتين ..مغلقتين ككهف مظلم !!

وعضلة فكه متشنجة كأنه يكز على أسنانه خفية !!

هل تذكر شيئاً من ماضيه ؟!

هل خاتته زوجته؟! أم مجد؟!
هذا هو التفسير المنطقي لعيش الطفلة وحيدة معه
ولكرهه المتطرف هذا لخيانة النساء!!
لعلها أصابت سهماً في جرحه! لا بأس فلتستمر في
هجومها.. فالهجوم خير وسيلة للدفاع كما علموها:
_ لكنني لم أهتم لماضي لم يكن لي دخل فيه! تعبت
وتعبت وتعبت حتى وصلت لما أنا فيه
الآن.. علمت نفسي بنفسي.. قرأت من الكتب
العشرات.. المئات بل والآلاف.. تعلمت
الانجليزية وصرت أجيد القراءة بل والكتابة
بها.. عشت شغفي في الكتابة كما تمنيت وحصلت
فيها على جوائز عدة.. حفرت في الصخر حتى صارت

لي حياتي الخاصة ..نجاحي الخاص ..ولا أظن هذا

ينقص قدري بل ..يعليه !

تصفيق الحضور يعلو حد الصخب فتمدع عيناها

بفرحة انتصار وهي ترى مدير الندوة يرمقها بنظرة

إعجاب راضية ..

لكن عينيها بقيتا ملتصقتين به ..بهذه التقاسيم

الغامضة حد البرود والتي لم تحمل أي أثر لكلماتها

وكأنه لم يسمعها ..

أو ربما لم يهتم !

نظراته بقيت نافرة منها ..لا يختلس نحوها ولو

نظرة !!

لكن النتيجة ترضيها ..

طيب :ثلاثة

يحيى: واحد!

عظيم يا أستاذة! نعود لأستاذ يحيى.. ألم تشعر
بالتخوف من طرح أفكارك الغريبة والمنتقدة ضد

النساء في أول كتاب لك!؟

يسأله مدير الندوة ليرد بابتسامته الغامضة وبنبرته
شديدة التهذيب.. شديدة الثقة:

لو كانت أفكاري غريبة وخاطئة لما حظي كتابي بكل
هذا النجاح.. أنا فقط تناولت "المسكوت عنه"!

دخلت دون وجل لهذه المنطقة المحظورة التي
يخشأها غيري.. أغلب الرجال لا يحبون الاعتراف

بخيانة نساءهم لأنهم يرون في هذا انتقاصاً
لرجولتهم.. لكنهم لا يعلمون أن العيب ليس فيهم.. بل
في تركيب المرأة الميالة للملل والتغيير

بطبيعتها .. والتي لا تحب تسمية الأشياء
بأسمائها .. الكذب لديهن مجاملة .. والتبرج
زينة .. الغزل ممن يردن لطفاً وممن لا يردن
تحرشاً .. والخيانة في عرفهن مجرد تمرد وصفعة
إفافة للرجل! بينما الإخلاص في عرفهن ضعف
ورجعية وتبعية لرجل لا يستحقهن .. صدقتي كلهن
يفكرن بهذه الطريقة مهما اختلفت الطبقات
والأعمار .. ثوب الضحية جاهز دوماً لتلقي بقع
الخيانة .. ولمَ لا؟! مادام سهل الغسل والكي بعدها كي
ترتديه من جديد!؟!

كلماته لم تكن متشنجة عصبية بل كانت هادئة مقنعة
بشكل غريب خاصة مع هذه الهالة المهيبة المحيطة
به ..

ربما لهذا نال حديثه الكثير من صفقات التقدير من
أغلب الرجال الذين حضروا .. بل -وللعجب- بعض
النساء!

خاصة عندما أردف بنفس الابتسامة الواثقة :
_ عندما تخون المرأة فإنها لا ترى نفسها خائنة .. بل
منتقمة .. منتقمة من إهمال الرجل ربما .. من خيانتته
هو قبلها .. وربما من عدم تقديره .. بل أحيانا تسول
لها نفسها الانتقام منه لأنه لم يرتق لمستوى
طموحها .. وهكذا تجد دوماً مبرراً للخيانة بدعوى
الانتقام .. والرجل

أولاً وأخيراً في ظنها هو السبب .. لهذا لا أتعجب فخر
الكثيرات منهن بخيانتتهن بدلاً من الشعور بالعار ! لا
تندهشوا ! بداخل كل امرأة مهما أنكرت هذه البذرة

الشيطنية التي تبرر الخيانة يوماً ..ربما هناك
صالحات لا تزال بذورهن مضمورة تحت تراب
الرضا ..لكن صدقوني في أول لحظة تهب فيها رياح
السخط فإنها تكون على أتم استعداد لري بذرتها هذه
والتباهي برويتها تنمو .
يسود الصمت المهيّب في المكان وكأنما أقنعتهم هالته
الجازبة قبل حديثه ..

فترتجف أعماقها هي شاعرة بالخطر ..
خاصة عندما أشار لها كفه فجأة مع سؤاله بنبرته
الواثقة ..ودون أن ينظر إليها أيضاً:
_تتكرين أنك لم تفكري بهذه الطريقة يوماً؟!
تكتنم شهقة دهشتها بقوة تحسد عليها وهي تشعر به
من جديد يدفعها نحو حافة الهاوية !!

هاوية الماضي التي تجاوزتها بكل عسر نحو سهول

أمانها !!

من جديد ينثر الرماد المستكين بروحها ويرسم لها

صورة من حسام !!

تكرين؟!

يكررها بثقة تزايدت مع صمتها الغريب على طبيعتها

المتمردة ..

_لم تخوني أحدهم؟! لم تخدعيه؟! لم تبرري ذلك في

ساعتها بدعوى الانتقام!?

تفريق من سكرة ماضيها فتكاد تهم بالرد نافية لكنها

تتذكر صورة مشابهة لما يحكي عنه ..

ليس فقط ما فعلته بحسام .. بل وبعاصي أخيها!

هل يمكنها الاعتراف الآن أنها خدعتها معاً بدعوى

الانتقام!

أنها ربما لم تكن خيانة بالمعنى المشهور.. لكنها

تبقى.. خيانة!

طيف: ثلاثة.

يحيى: اثنان!

تزم شفيتها بقوة وهي تفكر في الكذب كي تنقذ ماء

وجهها أمام الجمع.. لكنها لم تفعلها!!

الكذب هاهنا سيكون أقوى اعتراف منها أمام نفسها

أنه هزمها.. وهي لن تفعلها أبداً!!

لهذا رمقته بنظرة حاقدة طويلة لم يرها وقد ترفعت

عيناه عن النظر إليها كعهده لكنه كان يشعر بها

تخرقه!!

تلتوي شفتاه بابتسامة ظاهرها التهذيب وباطنها

السخرية :

_عظيم ! أظن هذا اعتراف منك بآني على حق.

تكز على أسنانها بقوة وهي تود لو تخرق قواعد

الندوة فتشعل واحدة من سجائرهما لتأخذ منها نفساً

عميقاً ثم تطفئها في أنفه المغرور هذا !!

لكنها تتمالك نفسها بشق الأنفس وهي تتخيل مشهداً

برأسها أنها تنفرد به في مصعد العمارة حيث يسكن

معها فتضغط زر تعليقه ثم تكيل له لكلماتها وصفعاتها

وسيل شتائمها الذي لن يكفيها وقتها كي تشفي

غليلها منه !

هذا التخيل الذي أرضاها مؤقتاً لتعود لوجهها

دماؤه .. ولذنها صحوته ..

لهذا تتهرب من الرد وهي تضرب بكرتها في مرمى
آخر بسرعة :

_ هل يرضيك ان تقرأ ابنتك هذا الهراء الذي تكتبه عن
خيانة المرأة؟! ألن تظنه رسالة خفية لأمها؟!
تقولها مبتسمة بخبت وهي تواجه نظرتة الداكنة
بعينيها الماكرتين ليطرق برأسه للحظة فيسود بعض
الهرج في المكان ..

لكن رئيس الندوة يطلب منهم الصمت ..
ليرفع يحيى رأسه .. كالعادة لم ينظر إليها كأنها دنس
يكره تلويث عينيه به ..

_ ابنة؟! ليست لدي واحدة ! أنا أعزب كما يعلم
الجميع .. لم أتزوج ولن أفعل .. معلوماتك ليست دقيقة
ياسيديتي كعهدي مع كل كتاباتك .

تشتعل وجنتاها بغضب من كذبه البين فتهم بالحديث

لولا تدخل رئيس الندوة بحرج:

_ السيد يحيى محق .. هو أعزب لم يسبق له

الزواج .. أنا واثق من ذلك.

تشحب ملامحها كأنما فقد وجهها كل دمائه وهي

تشعر بنظرات الحضور ترجمها بسخريتها .. فتهتف

بصوت متحشرج :

_ كاذب .. أنا رأيتها عندما ..

تبتلع بقية كلماتها قسرا .. وقهرا !

هل يمكنها سرد موقف كهذا علانية ؟!

هل ستسمح له بالسخرية منها من جديد ؟!

مجد ! ليست ابنته !!

مجد يحيى العراقي !!

هي تذكر قراءة الضابط لاسمها !!

المتلاعب !!

ما الذي يحدث ؟!

_ عندما ماذا؟! أنتظر بقية عبارتك سيدتي!

يقولها بنفس المهذبة المغيظة والتي حلقت فوقها

ابتسامته الساخرة كسوط فوق ظهر كرامتها!

طيف: ثلاثة .

يحيى: ثلاثة .

النتيجة الأخيرة تشعرها بالمزيد من الغضب فتهتف

بانفعال يجعل كلماتها تبدو حمقاء:

_ أنت جاري في نفس البناية .. وأنا واثقة أن لك ابنة

أراها كثيراً من نافذة شقتي ! لماذا تكذب؟!

إذن نضيف لهواية الكتابة التي لا تجدينها
تماماً.. هواية التلصص على الجيران والتي يبدو أنك
لا تجدينها أيضاً!

يقولها ببرود ساخر كذلك دون أن ينظر إليها فتمتلئ
القاعة بالضجيج الذي تخللته بعض الضحكات ..
يكتم مدير الندوة ابتسامته وهو يشعر ببعض التشفي
من طيف التي طالما سلخته بلسانها .. لكن شعوره
الأكبر كان

بالحماس فالندوة تلقي بثمارها أكثر مما
توقع .. والنزال بين هذين صار على أشده .. لهذا
تتحنج بحرج وهو يشعر من وجه طيف المحتقن
بدماء غضبه أنها على وشك الانفجار لهذا قال مهدناً:

_ الندوة ليست لمناقشة أمور شخصية .. دعونا نتحدث

عن أعمالكما فحسب .. عن نظرة كل منكما المتطرفة

إلى الجنس الآخر ..سؤالي

للأستاذة طيف ..ألا تؤمنين بالحب!؟

_ أوّمن بالحب لكنني لا أوّمن بوجود رجل يستحقه في

هذا الزمان !

تقولها من بين أسنانها وهي لاتزال تشعر

بالتخبط والارتباك لكن التصفيق الحار الذي صاحب

عبارتها منحها بعض الثقة ..

فيما أعاد الرجل نفس السؤال على يحيى ليرد بثقة :

_ لا أوّمن بالحب كما يصورونه في الروايات

والأفلام ..أظنه أشبه بستره واسعة مهلهلة يلقيها

البعض لتناسب أي جسد يرتديها ! أي

علاقة جسدية .. أي متعة عابرة .. أي انجذاب
شكلي .. أي تسلية تقتل الملل .. كل هذه تصلح
لارتداء السترة المهلهلة .. حتى القرآن الكريم لم يعبر
عن علاقة الزوجين بالحب بل وصفها
بالمودة والرحمة .. والموضع الوحيد الذي ذكر فيه
الحب في القرآن بين رجل وامرأة كان لوصف شهوة
امرأة العزيز المذمومة فقال تعالى (قد شغفها حباً) !
تعقد طيف حاجبها بقوة وهي تشعر أنها تواجه كياناً
غريباً !

أفكاره تزلزل أرضها الثابتة رغماً عنها وتجعلها

تشعر بالمزيد من الارتباك ..

لكنها تمسكت بقوة جدالها :

لا أحب إقحام الدين في هذه الأمور .. لكنني سأحدثك
بلسانك .. النبي صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن
أحب الناس لقلبه قال عائشة .. ولم يقل لهم لا وجود
للحب!!

من جديد تضج القاعة بالتصفيق فتبتسم بظفر وهي
تعود لحساب النتيجة ..

طيف :أربعة.

يحيى:ثلاثة

ومن من الرجال الآن كالنبي؟! ومن من النساء
كعائشة!؟

لا تخلط الأمور ..أنا أتحدث عن المبدأ .

أنت تناقضين نفسك ! لو كنتِ تؤمنين بالحب كما
تزعمين لما جزمتِ بعدم وجود رجل يليق به ..أنت

تخافين الاعتراف بأنك لا تؤمنين بالحب كي لا
تخسري تعاطف معجبيك الذين يتهافتون على حبات
رواياتك الرومانسية.. تدفعين بهم في بحر العاطفة
وتجبنين أن تدليهم على مكان الشاطئ مكتفية بصوت
انتشائهم وسط أمواجك .. هذا هو نجاحك الذي
تزعمين وجوده وتكرهين

الاعتراف أنك تناقضين نفسك لأجله !
من جديد تشعر وكأنه يقتحم كل حصونها دون
رحمة !!

رغم أنه لم ينظر إليها مرة واحدة منذ بدأ اللقاء لكنه
بدا وكأنه يمتلك عيناً خفية تخترق خبيثتها فتقرأها
بسهولة ..

لم تعد تهتم بحساب النتيجة هذه المرة ..

ولا بالهمهمات المتحمسة التي ازداد صخبها حولها ..

فقد كانت تشعر بشعور آخر يوازي إحساسها

بالغضب بل يفوقه !

شعور بالعري !!

كأنه جردها من كل سترة تداري بها وهن أنوثتها!
خاصة وعيناها عاجزتان عن منع التصاق نظراتهما
به بينما يحرك أنامله المتشابكة بذات الوضع الرتيب
مع استطراده :

_ هذا هو ما أحكي عنه بالضبط .. قدرة النساء على
تضليل أنفسهن قبل أي أحد .. مهارتهن في تزيين
الكذب ليبدو حقيقة .. براعتهن في صنع المرايا
الخادعة ثم تصديقهن لصورها .. لا توجد امرأة في
هذا الكون تعترف أنها مخطئة ولو سراً .. كلهن يجدن

اختلاق الأعذار لملائكتهن البريئة مهما تشيطنت

أفعالهن !

تعود القاعة لتضج بصخب بين مؤيد ومعارض ليطلب

منهم رئيس الندوة الصمت ..

قبل أن تقرر طيف تسلم زمام المبادرة فتهتف بحدة لم

تملكها:

_ تزعم أن الحكمة العاطفية هي سر نجاح

رواياتي ..أنا على استعداد لتحديك وكتابة رواية

كاملة بعيدة عن الرومانسية و لا تتحدث عن الحب .

تلتمع عينا مدير الدار بظفر وهو يكاد يقسم على

نجاح هذه الرواية قبل حتى أن تكتب ..لو كانت مجرد

بضع وريقات بيضاء فسيهرع القراء لشرائها بعد هذا

التحدي السافر والدعاية الغريبة!

لو فعلها يحيى العراقي وأعلن هو الآخر الآن عن كتابه القادم فستكون ضربة مزدوجة ..
لكن يحيى قام من مكانه ليواجه الحضور بابتسامته المهدبة وهو يعلق زر بدلته كأنه يعلن انتهاء المقابلة بقوله :

_خطوة جريئة يا سيدتي لكن يؤسفني أنني لا أهتم .
يشعر مدير الدار ببعض الحرج وهو يقف مكانه ليسأله بابتسامة مرتبكة :

_هي فرصة جيدة لتعلن أنت أيضاً عن كتابك القادم ..أو مجرد إعطائنا فكرة عنه حصرياً لهذا الحضور !

فاتسعت ابتسامة يحيى وهو يدور ببصره بينهم بهذه النظرات النفاذة ليقول بنبرته الواثقة كملك مهيمن :

لا كتاب قادم ! أنا لست كاتباً ولم أدع الموهبة ! أنا فقط عرضت أفكارى التي أنا مؤمن بها ولا رغبة لى فى تكرار التجربة ..سعدت كثيراً بهذا الحضور ..ولا مانع عندى من الرد على تساؤلاتكم على البريد الإلكتروني الخاص بى .

تبدو الصدمة على وجه مدير الدار وهو يرمقه بنظرة مصعوقة بينما تتخشب طيف مكانها للحظة شاعرة أن موقفه الأخير هذا بمثابة صفة على وجهها!! هل تفرح مدعية أنها هزمته فى هذه الندوة وجعلته يعتزل الكتابة !

يمكنها الآن طرق الحديد وهو ساخن وكسر أنفه

المغرور هذا !!

لكنها لم تقو على فعلها !

ليس وهي تشعر بداخلها أنه هو من هزمها !!
تراقبه بعينين مشتعلتين وهو يلوح للحضور مودعاً
قبل أن يصافح مدير الدار معتذراً عن البقاء لمدة
أطول ..

تنتظر أن ينظر إليها لكنه تجاهلها تماماً وهو يمر من
أمامها ليغادر القاعة بهذه المشية الواثقة .
لا تعرف كيف دبر مدير الدار نهاية الندوة بكلمات
دبلوماسية سريعة .. ولا كيف أنهتها هي بدورها
بسرعة بكلمات مقتضبة مما اعتادت قوله في
شبهات الندوات ..

كل ما كانت تعرفه أنها تريد الآن .. التدخين !!

لهذا اندفعت شبه راکضة لتخرج من القاعة
فاصطدمت عيناها به وهو يقف في مدخلها كأنه
ينتظر أحدهم ..

توقفت خطواتها فجأة وهي ترمقه بنظرة مشتعلة
عاجزة عن وصف هذه الفوضى التي تضطرم داخلها
نحوه ..

تفتح حقيبتها لتستخرج منها سيجارة تشعلها بأنامل
مرتجفة وهي لاتزال تقف خلفه ..

تسحب منها نفساً سريعاً لعلها تطفئ بها حريق
روحها وهي تتساءل عما ينتظره ..

بينما وقف هو منشغلاً بهاتفه للحظات قبل أن يرفع
عينية نحو السيارة التي توقفت لتوها أمامه ..

انعقد حاجباها بشدة وهي تميز الرجل الذي كان

يقودها ..ماذا كان اسمه ؟!

نزار ..نعم ..إنه من كان يقود كرسي الصغيرة عندما

رأته !

وها هي ذي مجد في المقعد الخلفي!!

_بابا!

تهتف بها بسعادة وهي تفتح له ذراعيها من داخل

السيارة ..فيهرع إليها ليفتح الباب الخلفي ويضمها

نحوه بقوة ..

هنا فقط يبدو وكأنه انتبه ل"طيف" التي تحركت

لتقترب منهم بغيظ وعيناها تكادان تصرخان ..

الكاذب!! المتلاعب!!

_حبيبة بابا!

يتعمد أن يعلو صوته بها وهو يعاود الاستقامة بجسده
بينما يبسط ذراعه بطوله فوق باب السيارة بوقفة
مهيمنة كأنما يريد إذكاء غيظ تلك الـ "قنفذ" أمامه ..

ليس هذا فحسب!

بل إنه سمح لعينيها أخيراً أن تلتقيا!

و...صعقتها النظرة !

صعقتها وهي تشعر بها تنفذ داخلها كسهم غادر ..
بل وتطوقها بعنف لتدور بها كإعصار هادر لا يرحم ..
منذ دقائق فقط كانت غاضبة لأنه يتجاهل النظر
نحوها ..

والآن ستكون ممتنة بحق لو لم ينظر إليها بعد

الآن ..أبدأ!!

ليس بهذه الطريقة التي تشعر بها وكأنه غرس لون
عينيه فوق حدقتها فلن تتساهما بعدها يوماً!
تحاول الطفو فوق سطح مشاعرها الهائجة التي لم
تهدر منذ زمن بعيد بهذا الجنون ..

تحاول التماسك كي لا تهرب من لقاء عينيه كأي
حمقاء ضعيفة وهي تأخذ نفساً آخر من سيجارتها
لتنفثه في الهواء صوبه بتحدٍ ظاهر كأنها لا تهتم ..
تحاول قراءة هذه النظرة التي لم تحد في عينيه
عنها .. لكنها كانت .. نظرة موصدة !!

مقفولة بمغاليق غامضة تشبه روحه !!
لأول مرة تجد نفسها عاجزة عن قراءة نظرة أحدهم
رغم أنها تسمرت فوقها لما يقارب دقيقة كاملة !!

_بابا!

تهتف بها مجد من داخل السيارة وهي تحاول
الالتفات لما ينظر إليه فيما يهتف نزار من المقعد
الأمامي بنبرته العابثة :

_ ما النظام يا "سندباد"؟!!

فيحيد ببصره عنها أخيراً وهو يغلق باب السيارة
الخلفي بقوة أجفلت طيف مكانها قبل أن يحتل المقعد
الأمامي منها جوار نزار الذي انطلق
بالسيارة بسرعة عالية ..

_ قرصتك؟!!

يقولها نزار بالانجليزية كي لا تفهمه مجد التي تستقل
المقعد الخلفي ليطلق يحيى هممة خافتة متسائلة
وهو يراقب بقايا صورتها في مرآة السيارة الجانبية
تبتعد وتبتعد ..

فيضحك نزار مكرراً بنفس النبرة العابثة :

_ أعني أنك لا تبدو بخير ! "الأرملة السوداء" هذه

قرصتك؟!!

تهتز شفتا يحيى بابتسامة غريبة وهو يرى صورتها

تختفي تماماً من مجال رؤيته ليقول بغرور عبر

كلماته الشاردة :

_ بل أظنني أنا من منحتها اليوم ذكرى لن تنساها

أبداً !

=====

_ سلطنة !

يغمغم بها حسام بحنان حقيقي وهو يجلس على

ركبتيه في حديقة منزله بالعاصمة..

يمسد ظهر الكلبة التي فتحت فمها ليتدلى لسانها
خارجة .. كذلك ذيلها تدلى في وضع
الاسترخاء قبل أن يرتفع إلى الأعلى ليتحرك بشكل
موجي ..

يبتسم برضا وهو يشعر أنه قد صار يفهم لغتها
تماماً ..

يتبأ بحركتها التالية وهو يرى أذنيها ترتفعان
لأعلى مع اتساع حدقتيها فيدرك أنها تدعوه للعب!!
يضحك ضحكة حقيقية لم يعد يعرفها إلا قليلاً وهو
يدلك جسدها بحركات خفيفة فيراها تنزلق بساقيها
الأماميتين وهي تتخفض برأسها لأسفل مع رفعها
لقدميها الخلفيتين بوضع متقوس .. هذا الذي يشير
لسعادتها بما تفعله ..

تدور حوله عدة دورات مكررة هذا الوضع الذي
يسمونه "انحناءة اللعب" ..ثم تعود لتستقر أمامه
فيضحك بالمزيد من الرضا ..

الرضا الحقيقي الذي يجعله يتناسى اللحظات- هوسه
بالمظاهر وهو يضمها إليه مغمضاً عينيه بقوة ..
لحظة نادرة من هذه اللحظات القليلة التي يشعر فيها
بهذا الصفاء مع "كيان" يحبه هو ..هو لشخصه
وليس لأي اعتبار آخر ..

وكم يحتاج لهذا الشعور بالذات كي يمنحه بعض

التوازن !

أحبك !

يرتجف جفناه المغمضان وهو يذكرها بصوت
طيف .. قبل أن تتداخل الأصوات .. كثيرات قلنها له
بعدها لكنهن كن عابثات ..

ربما كانت المرة الوحيدة الصادقة التي سمعها فيها
كانت لها هي .. قبل أن يثقب " هو " السفينة وتحرق
" هي " شراعها فتغرق للأبد !!

يفتح عينيه فجأة كأنما يجبر نفسه أن يفيق من هذا
الماضي .. يعاود تدليكه الناعم لظهر سلطانة ثم يقرب
منها طعامها .. يراقبها بحنان وهي تأكل ثم تغلبه
طبيعته المهووسة ..

فيتناول هاتفه ليلتقط عدة صور لهما ثم يرسلها عبر
حساباته على مواقع التواصل ..

يراقب التعليقات بعدها بنهم ..يرد على بعضها
ويتجاهل الأخرى ..يبتسم برضا "زائف" هذه المرة
وهو يغادر الحديقة نحو البيت الذي دخله ليتفحصه
باهتمام ..

يتوجه نحو تلك الأرجوحة التي اشتراها لتوه والتي
وضعها في الشرفة الخارجية المظلة على الحديقة ..
يحرك هذه الشجرة الاصطناعية التي تستخدم
للإنارة فيضعها جوارها ..يحضر لنفسه كوباً من
العصير مع عشاء خفيف يضعه أمام هذه الطاولة أمام
الأرجوحة ..ثم يلتقط لنفسه المزيد من الصور ..

عشاء خفيف بعد اللعب مع سلطانة !
يكتبها ملحقة مع الصور كأنما يصور له هوسه أن
الناس يتحرقون شوقاً لمعرفة أخباره !!!

المزيد من شارات

الإعجاب .. التعليقات المبهورة .. طلبات الصداقة
والمتابعة ..

"كنزه الزائف" الذي يجمعه بولع يوماً بعد يوم!!
صوت رنين جرس يقطع أفكاره فينعقد حاجباه وهو
يتوجه نحو مرآة قريبة يطمئن لسلامة مظهره قبل أن
يفتح الباب ليبتسم ببعض التحفظ :

_دينا! كنت أعلم أنه أنت!

تبتسم بارتباك وهي تحافظ على مكانها أمام الباب ..
ملاحظتها رقيقة الجمال بهذه الهشاشة التي تخشى
معها التحدث إليها خشية كسرها ..

عيناها واسعتان بلا رموش تقريباً كذلك شعرها
خفيف لهذا تعوض الأولى ب"ماسكارا" ثقيلة

والثاني بتصفيقة الشعر هذه التي تثيره فيها حول
وجهها كخيوط شقراء لونت بعضها لتضفي عليه
بعض الجاذبية ..

ثوبها قصير بالكاد يغطي ركبتيها وكتفيها لكنها تعلم
أنه لا يجب أن تزوره هنا بثياب أكثر عرياً .. بل لا
يجب أن تزوره إطلاقاً!

_ حمداً لله على سلامتك .. علمت بأمر الحادث
مصادفة .. لماذا لم تخبرني!؟!

تقولها بقلق يستقبله هو بابتسامة مصطنعة زاهداً في
الرد ولا يزال يقف مكانه دون دعوتها للدخول ..
فتتنحج لتقول بالمزيد من الارتباك :

_ والدتك هنا!؟!

_ عادت للصعيد .

يقولها باقتضاب وهو يهز رأسه نفيًا فتعاود قولها

بنبرة شبه راجية :

_أدخل!؟!

_دينا!

يقولها بنبرة محذرة فتحمر وجنتاها الرقيقتان وهي

تهتف بانفعال:

_لا تبدأ في هذا الكلام الذي أحفظه عن ظهر

قلب .. أرجوك دعني أدخل .. الليلة فقط .

يرمقها بنظرة قاسية رافضة لكنها تقترب منه خطوة

لتهمس بالمزيد من الرجاء:

_لا تعلم كم كنت قلقة عليك عندما علمت

الخبر .. دعني فقط أشعر الليلة أنك بخير .. معي .

يشرد ببصره للحظات كأنما سحبته عوالم مجهولة

قبل أن يشير لها بالدخول ليغلق الباب خلفها ..

تبتسم بحنان وهي تتأمل ملامحه الوسيمة لكنه

يتجاهل نظراتها ليسألها :

_ تناولتِ عشاءك !؟

_ سأتناوله معك لو أردت .

تقولها بمزيج من لهفة ورجاء فتزداد سحابة الضيق

فوق ملامحه تكاثفاً لكنها تردف بسرعة :

_ أنا على عهدنا لا تقلق .

بدت عبارتها وكأنما منحته بعض الاطمئنان فتفحص

ملامحها باهتمام متسائلاً:

_ تبدين شاحبة هزيلة ! هل ...!؟

يقطع تساؤله بشك متهم فتهتف بسرعة :

_ لا ورب العزة ! أبدأ! أخبرتك أنني على عهدنا .
يتفحصها بنظره لثوانٍ قبل أن يباغتها باختطاف
حقيبتها ..يفتحها بسرعة ليلتقط منها هاتفها ..يقطب
الأرقام بسرعة ثم يلتقط لها "سكرين شوت" يرسلها
لهاتفه هو ..

_ تعلمين أنه يمكنني معرفة الأصحاب الحقيقيين لهذه
الأرقام .

_ تغار؟!

تقولها بنبرة غريبة بين مرح وترقب فيعود ليرمقها
بنظرة قاسية تناسب قوله :

_ لو بقيت تتحدثين بهذه الطريقة فمن الأفضل أن
تغادري!

تتهد بأسف وهي تتحرك نحو المطبخ الذي تعرف

مكانه قائلة :

_ سأعد لك المكرونة كما تحبها .. انتظرنى في

الشرفة .

يتحرك ليبدو وكأنه يتجه حقاً للشرفة لكنه يعود بحذر

ليراقبها خلسة من خلف أحد الأعمدة ..

يقرأ ملامحها بخبرته فلا يزيده هذا إلا أسفاً !

متى التقى بها أول مرة ؟!

عام ؟! .. عامان ؟! هو لا يذكر بالضبط ..

حياته كلها صارت متشابهة الأيام ولولا عمله لما

انتبه لمرورها !!

يرتاح إلى هذه "الفتاة" ربما لأنها من القلائل الذين

لا يرمون المزيد من "الحطب" فوق نيرانه ..

بل إنه يشعر بها - أحياناً - تتجح في إخماد بعضها !
فتاة !! تحلو له تسميتها هكذا.. يجب أن يراها بهذه
العين البريئة..

هذه العين التي - ربما - يود لو يراه الناس - هو - بها !!
يشفق عليها من ماضيها .. لكن عزاءه أنها وجدت
اليوم والغد !!

من يدري؟!

ربما كانت تخدعه هي الأخرى !!

كما يخدع هو الناس بمظهره !

كلاهما مثقل بأوزار ماضيه لكنه يظهر للناس محلقاً
في عليائه !!

يراها أو شكت على الانتهاء مما فعله .. تمسح دمعة
تفر من عينها غادرة فيبتسم بسخرية مريرة وهو
يدرك سبب بكائها ..

ليته كان يستطيع منحها ما تريده منه!
يبقى مكانه مختبئاً وهو يراها تتقدم بطبقي الطعام
فيكتم أنفاسه ..

يظهر لها فجأة فتشقق بعنف ليسقط الطبقان من يدها
بمحتوياتهما !!

_أسفة! أنت أفر عتني! سأنظف هذه الفوضى وأعد
غيره ..

تهتف بها بتلعثم لكنه يقطعها وهو يمسك معصمها
بعنف ليهمس أمام عينيها بنظراته القاسية :

_ رأيت كيف يكون شعورك عندما تتعبدن في صنع
شيء ويسقط منك في اللحظة الأخيرة؟! تذكرني هذا
الشعور جيداً قبل أن تفكري في عمل شيء يجعلني
أحس أن ما فعلته معك راح هدرًا!

تدمع عيناها بمزيج من رهبة وعاطفة وهي تومئ
برأسها فيرمقها بهذه النظرة التي تكاد تجمد الدماء
في عروقها للحظات ..

قبل أن يحرر معصمها ليعطيها ظهره قائلاً بنبرة
منهكة تناقض تماماً نبرته السابقة كأنه بدل جلده في
ثوانٍ :

_ انتهى من التنظيف والحقي بي هناك .. لا تعدي
طعاماً آخر .. لست جائعاً ولا أظنك كذلك !

تتمالك خفقاتها بشق الأنفس وهي -بالكاد- تمنع

نفسها من معانقة ظهره المواجه لها ..

لا عناق رغبة بل عناق احتواء!!

طالما شعرت به خلف هذه الواجهة المرعبة مجرد

طفل مدلل انتزعوا منه دميته ورموه في عرض

الطريق!!

ربما لهذا سقطت رغماً عنها في بحر عاطفتها

-اللامسماة - هذه نحوه !!

ربما لأنه الرجل الوحيد الذي نظر فيها لما يفوق

جسدها !!

وربما لأنها تتمنى لو ترد له صنيعه فتكون المرأة

التي تنقذه من شتات نفسه ..

فقط لو يسمح لها !!

تراه يتحرك ليبعد فتتحرك بدورها لتحضر ما تنظف

به المكان ..

تنتهي مما فعله فتلحق به إلى الشرفة ..

_تركت لك الأرجوحة ..أظنها ستعجبك!

يقولها وقد جلس على الكرسي الوحيد في الشرفة

وقد انشغلت أنامله بجهاز ما سرعان ما انبعث منه

هذه الأنغام الأجنبية الصاخبة التي لا تفهمها لكنها

تثير خوفها ..

تثير خوفها وتحبها في مزيج عجيب يشبه شعورها

نحوه !!

تتحى أفكارها جانباً وهي تتحرك لتعتلي

الأرجوحة المعلقة ..

تضحك ضحكة مكتومة وهي تحرك قدميها في الهواء

شاكرة له هذه المتعة القصيرة ..

لكن متعتها بالأرجوحة تتضاءل أمام متعة رؤيته وهو

يغمض عينيه ليرفع وجهه نحو السماء المظلمة إلا

من قمر مذعور يختبئ خلف غيومه ..

يبدو وكأنه توحد تماماً بحركة رأسه الراقصة مع

الأنغام المنبعثة حوله حتى نسيها هي ..

بينما تبدو هي وكأنما توحدت بهذا السحر الخاص

الذي يشع منه ..

تنتهي الأنغام أخيراً فيفتح عينيه لينظر إليها فجأة

بتعجب كأنه قد تذكر وجودها فجأة..

_ احكي لي عن آخر أخبارك .. كيف تبلى في حياتك

الجديدة !؟

_ لا أريد الحديث عني هذه المرة .

_ إذن .. لماذا أنتِ هنا؟!!

_ أخبرتك أنني جئت كي أطمئن عليك .. أنت بخير؟!!

تسأله ولا تنتظر الجواب ..

فقط تستمتع بالمزيد من هذا السحر الرجولي المنبعث
منه..

عيناها تلتمعان ببريق إعجاب احتل خلاياها كلها وهي

ترمقه في جلسته المهيمنة كملك متوج...

شعره المصفف بعناية كما يجب أن يكون...

جبينه الوضاء الذي تجعد مع انعقاد حاجبين

ظلاً عينين صقريتين تتوهجان كشهابين من نار...

أنفه الذي يحكي بشموخه ألف قصة من غرور...

شفتيه اللتين ناقضتا كل هذا بابتسامة جليدية قبل أن
تمتد أنامله ليشعل لفافة تبغ أخذ منها نفساً عميقاً قبل
أن ينفثه ببطء ...

خطواتها تتجذب نحوه دونما وعي حتى تقف أمامه
قبل أن تتحني على ركبتها وهي تعقد ساعديها على
ساقيه لتتمتع عيناها بصورة أقرب وهي ترفع وجهها
إليه لتهمس بصوت مغوٍ:

لن تقنعني ببرودك هذا... تحت الرماد نار أكاد أحسها
تلفحني بلهبها.

فتتسع ابتسامته القاسية موازية لصرخة دهشتها
وهي تراه يغرس "سيجارته" المشتعلة في معصمه
لتتجمد ملامحه بألم بدا وكأنه اعتاده ...

قبل أن يتصبب جبينه بعرق خفيف وهو يتناول مطفأة
سجائره من جواره ينفخ بقايا رمادها في وجهها
متجاهلاً سعالها ...

قبل أن تتبع هي بنظراتها تلك الندوب على ذراعه
والتي تعرف - الآن - سببها!!

ليقول أخيراً خلف عينين تموجان ألماً وقسوة وهو
يتذكر آخر عبارة لـ "طيفه" الغادر :

حمقاء! وهل للرماد حياة!؟!

تشحب ملامحها بمزيج من إشفاق وخوف ..

ترفع ذراعيها ببطء تتوق لعناق واحد ..

عناق واحد تحتوي فيه هذا الوجع الذي يسكنه لكنه

يقف مكانه فجأة فيختل توازنها وهي تسقط للخلف ..

تستند على راحتيها لتقف أمامه لكنه لا ينظر إليها ..

عيناه يبتلعهما العالم الأسود الذي طالما يختطفه

منها ..

_ من الأفضل أن ترحلي .. لن تجدي بغيتك هنا .

_ بغيتي أن أراك .

_ لا أحد يراني يا حمقاء .. لا أحد يراني !

يهمس بها بقسوة معذبة وهو يتحرك مبتعداً عنها

فتهم بالاقتراب لكنه يشير لها بكفه قائلاً بصرامة :

_ لو كنتِ تريدين البقاء فابتلعي لسانكِ حتى يشرق

الصباح .. ساعتها سأنام أنا وترحلين دون كلمة

واحدة .. وإلا وفري وقتك وارجلي الآن .

تومئ برأسها في طاعة وهي تدرك أن هذا أفضل ما

ستناله منه ..

تعود لمكانها فوق الأرجوحة تراقبه بصمت ..

فيما يظل هو يراقب السماء المظلمة بشرود قبل أن
ينحني ليتمدد مكانه على الأرض ضاماً ذراعيه
لصدره كأنه يحمي نفسه ..

تزدرد ريقها بانفعال صامت وهي تراه يغمض عينيه
للحظات قبل أن يعود ليفتحهما ناظراً للسماء من
جديد ..

شفتاه تتحركان بتمتمة لا تسمعها لكنها تكاد تشعر
بها !

يبقيان على هذا الحال لدقائق طالت لم تدرِ عددها
حتى يتبين أخيراً الخيط الأبيض من الخيط الأسود في
السماء ..

هنا فقط .. تشعر أنه وجد الأمان ليغلق جفنيه تماماً
مستسلماً للنوم ..

تنهض من مكانها لتتحرك نحوه ببطء حذر ..
تتردد في إيقاظه خوفاً عليه من نومة غير مريحة
كهذه لكنها تؤثر تركه وقد شعرت أن النوم "العزيز"
هذا لا يأتيه بسهولة ..

ترمقه بنظرة مودعة أخيرة وهي تمنع نفسها
بالكاد من تقبيل جبينه قبل أن تتحرك بخفة لتغادر ..
فتسمعه يتمتم في نومه مكرراً :
_ لا أحد يراني .. لا أحد يراني ..



بنفسجي



_ أين جمالك يا "ياسمينة الشام"؟! من يراك الآن

يظن أن وجهك قد داسه قطار!

تهتف بها زوجة غازي بشماتة وحروفها تقطر غلاً
أمام ديمة في مدخل بيت غازي الذي تسكن فيه ديمة

الطابق الأرضي فيما تسكن ضرثها الطابق الذي

يعلوه ..

كانت ديمة قد خرجت لتوها كي تتنشق بعض الهواء

النقي في مدخل البيت بعيداً عن جو البيت الداخلي

الخائق ..

لكن لا فائدة .. غازي لوث هواء الدنيا كلها!!

تجاهل حديث المرأة الشامت كعهدا وقد قررت
العودة للداخل تجنباً للمشاكل لكن المرأة البدينة وافرة
الصحة - والتي تفوقها حجماً وعمراً بمقدار الضعف
وأكثر- تسد طريقها لتعتصر ذراعيها بين قبضتيها
وهي تجول بعينيها الحاقتين فوق وجه ديمة
المكدوم .. عينيها المتورمتين .. وشفتيها
المجروحتين .. وأخيراً شعرها المقصوص
ببشاعة .. لتقول بالمزيد من الشاماتة :
_ هل رأيت عاقبة من تخطف رجلاً من زوجته؟!
دخلتِ بقدميكِ للنعيم يا حبيبتى؟!!! اشبعي به !!
تمتلئ عيناها بالدموع لكن ملامحها تبقى على
جمودها مما يستفز المرأة لتردف بالمزيد من الغيظ :

_ أي مصيبة قذفت بكِ إلينا؟! نحس .. باردة .. ثقيلة

الظل .. لا أدري ما الذي يعجبه فيكِ؟!!

تقولها وهي تبسط راحتها المفرودة في وجهها دافعةً

ديمة بعيداً لتكتم الأخيرة تأوها ثم تقول وعيناها

تلتمعان بوميض غريب غامض :

_ لا بأس ! قريباً نرتاح كلنا !

لكن المرأة تسيئُ تأويل عبارتها فتخبط صدرها بكفها

هاتفة باستنكار:

_ تهدديني يا(....)!

لسانها يسترسل بقبيح الشتائم وهي تدفع ديمة أرضاً

لتجثم فوق جسدها الضئيل بجسدها هي الضخم .. تشد

شعرها متجاهلة صرخاتها وهي تكيل لها صفعات

غيظها ..

فتغض ديمة عينيها وقد توقفت حتى عن المقاومة ..

ليتها تقتلها فينتهي هذا الألم ..ينتهي للأبد !!

_يتزوج عليّ واحدة مثلك لا تساوي في سوق النساء

ربع جنيه ! لماذا؟! كي ينجب !! هانتذا لم تتجبي

كذلك !! العيب منه ذاك ال...!!

تنقطع كلمات المرأة بصرخة قوية وهي تشعر بغازي

خلفها فجأة يجرها من شعرها ليبعداها عن ديمة

فتشحب ملامحها بارتياح موقنة من أنه قد سمعها ..

_متى عدت؟! لم أقصد ..هي التي استفزتني .. آه ..

صرخات المرأة تتواصل وهو يسحبها خلفه نحو

الطابق العلوي من شعرها وقد بدا من ملامحه أنها

ستنال ما يفوق الضرب المبرح !

فيما بقيت ديمة ممددة على ظهرها على الأرض

زاهدة في مجرد الحركة ..

شعور الخيبة لديها الآن يفوق شعور الألم!

لماذا جاء غازي الآن؟!!

ربما لو كان قد تأخر قليلاً لقتلتها المرأة غلاً!

لكفاها وكفى نفسه ما تعده هي له!!

لا بأس .. غداً ينتهي كل هذا ..

غداً تستريح .. ويُسْتراح منها!!

تسمع صرخات المرأة قادمة من الأعلى فيرتجف

جسدها بالألم كأنها هي من تتلقى الضربات .. بل و"ما

يليه"!!

الوجع يخدر جسدها هي حتى تسكن صرخات المرأة
أخيراً فيرتعد جسدها هي برهبة وهي توقن أن دورها
هي قادم ..

تحاول النهوض فتتفلت منها آهة توجع رغماً عنها ..
لكنها تتحامل على نفسها لتقف أخيراً قبل أن يروعها
هذا الصوت المعدني لشيء ما يسقط ..

تشهق بجزع وهي تتحسس أذنها ثم تتحني لتلتقط
"فردة الحلق البنفسجية" والتي كانت قد كسرت!!
هنا فقط تعود لها كل مشاعرها المفقودة ويتشقق
القناع الجليدي عن وجهها فتبكي بحرقة وهي تهتف
بين شهقاتها :

إلا أنت ! لا تنكسري!! لا تنكسري أبداً!! اصبري
قليلاً .. لم يبقَ إلا القليل .. واجعلهم يدفنونك معي !!

تقولها وهي تقبض كفيها على البقايا المكسورة
تقربها من صدرها تارة .. ثم تقبلها بشفتيها تارة
أخرى لتتمتم بين دموعها :

_ أنتِ غاضبة مني يا هالة؟! غاضبة لأنني لم أعد
أزورك!! تعلمين أنه رغباً عني!! لو كان الأمر
بيدي لما تركت قبرك أبداً حتى يجدوا لي مكاناً
جوارك!!

_ ماذا تحملين في يدك أنتِ الأخرى؟!
يهتف بها غازي خلفها فتنتفض مكانها بخوف قبل أن
تبسط له كفيها كي يرى ما فيهما ..

هنا تبدو الاستهانة الساخرة على وجهه العبوس
لتهدأ بعض ثورته وإن حافظت لهجته على فظاظتها :
_ لعنها الله ! بسببها ابتليت بك!

يقولها ثم ينتزع منها البقايا المكسورة فتصرخ

بهلع :

_ لا! لا أرجوك .. أرجوك .. دعها لي!

_ اخرسي!

يهتف بها بخشونة فتتهار في بكائها من جديد لكنه

يدفعها نحو الداخل مردفاً :

_ ادخلي واستري نفسك .

تتردد قليلاً في أن تقبل يديه كي يترك لها البقايا

المكسورة لكنها كانت تعلم أنه لن يفيدها ..

لهذا عندما دفعها بخشونة من جديد نحو البيت عادت

دونما مقاومة تجر خلفها أذيال خيبتها ..

_ أديم!!

يصرخ بها غازي بصوته الغليظ فتختبئ هي خلف
النافذة لتراه وهو يلقي البقايا المكسورة بعيداً ..
تشعر وكأنما ألقى ما بقي من روحها معها .. لكنه لم
يكن يهتم وهو يلقي ببعض أوامره لحارسه !
_ لا بأس! لا بأس! اقترب الخلاص يا بنية !
تقولها لنفسها وهي تتوجه بخطوات متثاقلة نحو
المطبخ القريب .. تعد له الطعام ب"إضافتها الخاصة"
التي تواظب عليها منذ أيام ..
هذه المأساة ستنتهي قريباً ..
ربما كانت سعيدة الحظ لتتجو بفعاليتها ..
وربما كان حبل المشنقة أقرب للخلاص الذي تريده !!
لا يهم!! لا يهم!!
فلينته كل هذا فحسب!! فلتسترح .. فلتسترح!!

تحمل الأطباق نحو المائدة لترصها أمامه ..
كالعادة لم يدعها لمشاركته الطعام وليته يفعل !
ليت كل هذا ينتهي دفعة واحدة !!
تراه وهو يتناول الطعام بنهم بينما هي شاردة في
ملامحه كأنما تبحث فيها عن طيف قديم عشقته ..
لكنها لا تتعثر سوى بالشوك يدمي قدميها !!

"خاطفة رجال" !!

هل هي حقاً كذلك؟!

هل يعاقبها الله لأجل هذا؟!

يشهد الله أنها لم تحسبها هكذا !!

بل إنها لم تحسبها أصلاً!!

حمقاء كانت !

مجرد كرة يدار بها بين الأقدام فلا تعلم أي قدم

داستها !

لكن .. قريباً .. قريباً ينتهي كل هذا .. قريباً تنتقم

لنفسها ..

وربما منها !

أناملها تتحسس أذننها حيث فردة القرط المفقودة

فيفيض نهر الذكرى:

_ هالة! خذي واحدة وسألبيس الأخرى! أعلم أنه

رخيص ولا يليق بمقامك لكنني أحب هذا اللون منذ

صغري.. غداً عندما أملك المال سأشتري لنا تذكراً

أفضل منه !

_ لا تكوني سخيفة ! إنه جميل حقاً! يكفيني شعورك

هذا .

_أعجبك حقاً؟! دعيني إذن ألبسك إياه!

تقولها وهي تقرن قولها بفعلها فتضحك هالة وهي

تستسلم تماماً لما تفعله قبل أن تفعل معها

المثل ..لتقول لها أخيراً بعاطفة حقيقية :

_أنت أجمل هدية منحها لي الزمن منذ عهد

بعيد ..كأن القدر جاء بك من بلدك إلى هنا كي تكوني

أختي التي لم تلدها أُمي .

_وماذا أقول أنا إذن؟! أنتِ صديقتي وأختي

وأُمي ..عوض القدر عن كل من فقدتهم من أهلي .

_ ما هذا الطعم؟!!

صوت غازي الفظ ينتزعها من شرود ذكرياتها

فتشحب ملامحها بخوف :

_أي طعم؟!!

_ الطعام مذاقه غريب .. كأن ..

تزداد خفقاتها جنوناً ولامحها تشحب حد الموت

واشية بجرمها ..

لكنه يردف بغضب:

_ كأن ملحه زائد! ليس اليوم فحسب بل منذ بضعة

أيام !

تتنفس الصعداء وهي تحاول التقاط أنفاسها لترد

بسرعة :

_ سأنتبه في المرة القادمة .

يزفر بسخط وهو يخبط المائدة بكفه صارخاً:

_ لا فائدة ! الإسراف في دمك!! مال سائب هو!؟!

تتكمش على نفسها وهي تتوقع بطشه لكنه يدور

ببصره فوق ملامحها وقد بدا عليه بعض



الاستياء من إيذاء زوجته الأخرى لها :
_ لن تمسك ثانية ! لقد ضربتها ضرباً سيقدتها في
السريير ليومين على الأقل .. أين كان عقلي وأنا أرمي
بنفسي للتهلكة مرتين ؟! ظننت السورية تختلف عن
المصرية ! كل النساء طينة واحدة ! خميرة نكد !!
يهتف بها بفضاظة وهو يلوك الطعام في فمه فيزداد
انكماشها على نفسها وهي تراقب
ملامحه بمزيج من رعب وترقب ..
متى سيؤتي فعلها ثماره ؟!
متى ستراه يسقط أمامها لتسقط هي بعده وينتهي كل
شيء ؟!
أو تتجو ويكون لها بعث جديد وميلاد جديد ؟!
يا لله !! مجرد التفكير الأخير معجزة ..

معجزة تعلم أنها لا تستحقها!

_أنا انتهيت! أعدي لي الشاي ولا تزيدي السكر!

وإياك أن تزيدي الملح في الطعام مرة أخرى!

يهتف بها بقسوته المخيفة التي تمتزج كعهدا ببخله

الشديد فتومئ برأسها في طاعة وهي تنظر للأطباق

التي فرغ محتواها بمزيج من خوف وأمل ..

تعد له الشاي ثم تراقبه برعب يزداد لحظة بعد

لحظة ..

يشرب الشاي ثم يتجشأ بمشهد مقرر أمام التلفاز قديم

الطراز فوق المنضدة ..

البيت كله قديم الطراز وقد منعه بخله من تجديده رغم

أنه قد صار كبير هذه البلدة خاصة بعد رحيل عاصي

الرفاعي بعيداً ..

تتلون ملامحها بألم غامض واسم عاصي الرفاعي

يغزو خاطرها ..

لكنها تنفض كل هذا عن ذهنها وهي تعود لمراقبة هذا

"الغول" أمامها ..

يشرب الشاي .. رشفة رشفة ..

فيخفق قلبها بجنون وكأنه لا يرتشف من كوبه بل مما

بقي من عمرها .. من عمريهما معاً!

يسعل فجأة فتنتفض مكانها برعب وهي ترجع للخلف

تلتصق بالحائط ..

لكنه يقف أخيراً ليهتف وهو لا يميز شيئاً من

انفعالاتها :

_ سأخرج لبعض شأني ! إياك أن تنامي قبل أن
أرجع .. وانظري في حل لوجهك المشوه هذا .. النساء
يفهمن في هذه

الأمور .. لكن من أين تدركين أنتِ خبايا النساء وأنت
مجرد حمقاء بلا خبرة !؟

يتبع كلماته بلعناته التي اعتادتها وهو يلكمها في
كتفها بعنف غير مبرر كي يزيحها من طريقه ليخرج
صافقاً الباب خلفه ..

فتنهار جالسة مكانها على الأرض وهي تنشج بصوت
خافت :

_ لبيتك لا ترجع .. لبيتك لا ترجع !

=====
*أديم (طائر الظلام)



_توقف بالعربية هنا ..أحب رؤية هذه الأنقاض!
يقولها غازي بتلذذ سادي مخاطباً أديم الذي نفذ
رغبته فوراً ..بل إنه توقع منه هذا الأمر كعهده كلما
مر ب"أطلال" بيت عاصي الرفاعي الذي هدمه
بنفسه منذ سنوات وتركه هكذا على حاله قبل أن
يهجر البلدة كلها !!

_هل تذكر عاصي هذا يا ولد ؟!
يسأله بنبرة فاح منها حقه ليرد أديم باقتضاب:
_لم أكن وصلت لهذه البلدة بعد ! أنت أول من أعمل
لديه هنا !

_من حسن حظك أنك لم تدرك ذاك الطاغية ! عليه
اللعنة أينما حل!! لو أدري فقط من أين يأتي بحظه



الناريّ هذا؟! يسقط من فوق الجبل فلا يموت ..يفقد
بصره ثم يعود إليه ..يعيش كل هذه السنوات بلا طفل
ثم يُرزق باثنين! اثنين!! وأنا ..

يبتر عبارته قسراً وقد سوّد الغل وجهه فيصمت أديم
وقد تعلم مع بطش سيده متى يصمت ومتى يتكلم ..

_خذنا للمكان الذي تعرفه ..أريد أن أحسن مزاجي .
يقولها غازي أخيراً وهو يشير له بملل فيعاود التحرك
بالعربة نحو ذاك المكان القصي في أطراف المدينة
حيث اعتاد سيده العزلة ..

صوت الريح يصدر صفيراً خافتاً يتردد صداه بين
المرتفعات حوله فيأخذ حذره وهو يوقف العربة
ليترجل منها ..

يشعل بعض الأحطاب ثم يفرش سجادة صوفية خشنة
أمامها قبل أن يعد لسيدة ما اعتاد به تحسين مزاجه ..
يجلس غازي على الأرض مستمتعاً بهذه الأنفاس
ساحرة التأثير من الشيشة أمامه ..

يتلذذ بهذا الصمت الكئيب حوله فهو لا يحب الناس
كما لا يحبونه .. ولا يعنيه أن يحبوه ! المهم أن
يخافوه !

لهذا كانت وحدته هنا في هذا المكان بمثابة مكافأة له
في نهاية كل يوم طويل ..

ولولا حاجته للحراسة بعد حالة الانتشاء التي يصل
إليها بعد كل جلسة كهذه لما أراد صحبة أديم ..
_تعرف يا ولد ؟! لماذا أفضلك على البقية ؟!

يسأله وقد بدأ أثر النشوة يلعب برأسه فيومئ أديم
برأسه بخنوعه المعهود منتظراً الرد ...
_لأنك لم تخيب ظني في أي شيء طلبته منك ..تبدو
لي كطائر جيد اختراق
الظلام حتى يصل لبغيته ..جناحك يبدو ان صغيري
الحجم لكنهما قويان كحد السيف ..قليل الكلام وهذه
ميزة لرجل ملول مثلي ..والأهم أنك لا تطمع في ..لا
تطلب الكثير بل لا تطلب أصلاً ..لا أخفيك قولاً أنني
خفت من سواد بشرتك الذي يشبه الجان هذا عندما
رأيتك أول مرة ..لكنني وجدتها ميزة كي أتمكن على
أهل بيتي .

يقولها ببعض التخبط وهو يراقب الأدخنة الكثيفة التي بدأت تتكون حوله فيدرك أديم أنه قد بدأ يفقد إدراكه بفعل ما يتناوله ..

وأنه سيهذي بخباياه ككل ليلة بعد انتشائه المذموم ..
_ لا تعيني "البقرة" الكبيرة .. فلا أظن أحدهم يهتم بكتلة الشحم هذه .. لكن الغزالة الصغيرة هي المشكلة .. هل تدرك صعوبة أن يتزوج رجل بكتلة من الفتنة مثلها !؟

تشتعل جوارح أديم رغم صمته وهو يدرك أين سيقود الحوار والرجل يزداد هذيانه :

_ لا يغرنك وجهها الشاحب هذا .. أنت لا تعلم أي فتنة يخفيها جسدها .. عندما رأيتهأ أول مرة شعرت وكأنني لم أرَ امرأة قبلها .. زهرة نادرة الجمال كنت أول من

يقطفها .. لن يملأ عينيها إلا رجل مثلي يعرف كيف
يرضيها .. عندما تكون بين ذراعي تتهد بهذه
الطريقة التي ..

يكز أديم على أسنانه بقوة وهو يكاد يرجوه التوقف
بينما الخسيس مستمر في بذاءاته ..
يصف له بكل فجور تفاصيل جسدها بل
وعلاقتها الخاصة !!

يشعر بالدماء تفور في عروقه فيهمم بإخراس لسانه
ولو بقذف أكبر حجر في هذا المكان فوق رأسه ..
لكنه يعود ليذكر نفسه بالصبر .. الصبر !!

هذا الصنف لم يعد كالسابق .. أضف المزيد يا ولد !
رأسي لم يصل لتمام الضبط .. أريدها ليلة كاملة
معها .. تحلف بها!

الوغد مستمر ببذاعاته وهو لا يعي ما يقول ..

لكنه يحاول صرفه للحديث عن شيء آخر :

_ هل ستسافر للعاصمة؟! ستحتاجني معك؟!!

_ أسافر؟! لا أفكر الآن إلا في السفر بين

ذراعيها ..تعرف ما الذي يفعله العنف في الفراش يا

ولد؟! تبدو قليل الخبرة خائب الرجا ..دعني أخبرك!

هنا يعقد حاجبيه بقوة وهو يستمع منه لتفاصيل ما

ينتوي فعله بها فلا يملك نفسه وهو يزيد له جرعة

هذا السم الذي يتناوله ..

ليته يزيدها حد القتل فيستريح وتستريح هي منه ..

لكنه يعلم أنه لايزال يحتاجه !!

لهذا زاده فقط بهذا الحد الذي ذهب بوعيه تماماً بعد

دقائق ..

ليتركه في وادٍ آخر عاجزاً عن المزيد من الثرثرة ..أو

حتى الوقوف!!

لا بأس!

هو كفاها أذاه هذه الليلة وليته يملك فعل المزيد !!

ربما لو تصبر قليلاً ..قليلاً فحسب ..

فيخلصها من هذا الجحيم الذي تعيشه هنا!!

يسمع صوت شخيره يعلو فيبصق على وجهه ثم

يطفى النار وهو يود لو يحرق بها أطراف ذاك الوغد

واحداً واحداً ..

يرفعه ببعض العسر وقد تثاقل جسده كخرتيت ليعيده

بخطواته المترنحة إلى العربة التي يقودها بحرص

مبتعداً عن الطرق المعمورة كي لا يرى الناس

"كبيرهم" بهذا الحال!!

_أديم!

تفتح له الباب بدهشة وهي تثبت وشاحها فوق رأسها
فيطرق برأسه وهو يسند ذراع سيده فوق كتفه دون

رد ..

لتهتف هي بلهفة:

_مات؟!!

كلمتها الغريبة بهذه اللفظة تثير مشاعره الجامحة

نحوها وهي تشعره أن هذا قد صار منتهى أملها !!

_هو بخير ..ربما زادت فقط جرعة هذه

الليلة ..سأذهب به للفراش .

تكتسي ملامحها بمزيج من خيبة وارتياح وهي تشير

له نحو الداخل ..

تراقبه بشرود وهو يعود أخيراً مطرق الرأس غاضاً
بصره عنها ليخرج بسرعة فتخرج خلفه لتناديه
هامسة فيلتفت نحوها دون أن يرفع إليها بصره كأنه
يخشى وهنه نحوها ...

_ هل سيفيق قريباً ؟!

تسأله بوجل فيهز رأسه نفيماً بجوابه :

_ لا أظنه سيفيق حتى الصباح .

_ إذن سأطلب منك شيئاً .. لكن لا تخبر سيدك عنه .

يهز رأسه وهو يتمنى لو كان ما تطلبه في يده فتعاود

رجاءها الخافت :

_ أريد زيارة المقابر .

_ الآن ؟! في هذا الليل ؟!

يقولها بخشونة صوته التي تخيفها أحياناً فترد بنفس

النبرة الراجية :

_ هو لا يسمح لي بالخروج نهائياً .. وربما لن تسنح

لي فرصة كهذه مرة أخرى!

كل ملامحه تنطق بالرفض وهو يشيح بوجهه حتى

أنها لم تفكر بعدها في تكرار رجائها ..

فقط تقبلت خيبتها كعهدها وهي تكاد تعطيه ظهرها

لكنه التفت فجأة لتلتقي عيناها عبر هذا الضوء

الخافت القادم من مدخل البيت ..

كانت المرة الأولى التي يسمح فيها لنفسه

بالغرق هكذا في زرقة عينيها القاتمة ..

دون محاذير .. دون قيود .. دون أي حسابات ..

لؤلؤة فقدت محارتها !

هكذا كان يراها دوماً منذ وقعت عينه عليها !
فتمنى لو يكون لها دفاء محارة تغلق عليها فلا
تمسها بعده أنامل بشر !!
النمش فوق بشرتها بدا له وكأنه ندوب العمر
تستصرخه أن يمحوها ..
وهذه الشعيرات الغادرة التي تفلتت من حجابها عبر
وشاحها بلونها الأحمر المتوهج تبدو له كجسيم
تصطلي به وحدها ..
وهاتان الشفتان المتورمتان بجرح جانبي ترتجفان
كطفلتين ترتعدان بين ظلمة وبرد !
فمن يكون هو كي يرفض لها بعد كل هذا رجاء؟!
يحرك رأسه موافقاً ثم يشير لها كي تتقدمه فتشرق
ملامحها قليلاً وهي تتحرك بحذر ..

يسير بها في طريق مختصر نحو المقابر القريبة دون

أن يسألها عن تود زيارته ..

هو يعلم .. يحيط بكل تفاصيلها خيراً!!

يتوقفان أمام حارس المقابر الذي كان لا يظن ساهراً

يرمقهما بدهشة ..

لكن أديم يرمقه بنظرة صارمة تخرسه وهو يشير له

بالصمت قبل أن يدس يده في جيبه ليستخرج منه

ورقة نقدية وضعها صامتاً في كف الحارس كإشارة لا

تحتاج تأويل !

لكن ديمة كانت غافلة عن كل هذا وهي تتركهما خلفها

للتقدم نحو الداخل وقلبها يرتجف بين ضلوعها ..

رائحة الموت لم تعد تقبض قلبها بل صارت تجد فيها

أنسها ..

أحباؤها تحت الأرض أكثر بكثير من أحبائها فوقها ..

غداً تلقاهم ويكتمل الجمع!!

ربما لهذا لم تكن تشعر بالرهبة بل ..بالراحة !

قبر هالة هناك يكاد يناديها فتهرع إليه لتجتو على

ركبتها أمامه !!

بضع ذكريات متفرقة لهما معاً تجتاحها فدمع عيناها

بحنين ..

حنين انفرطت حبات عقده لتحمل معها المزيد من

ذكريات بلدها كذلك ..

أمها .. أبوها .. أهلها .. بيتها الجميل ولعبها الطفولي

في مدخله ..

لكن الصور كلها تتلطح أخيراً بمزيج من زرقة البحر

وحمرة الدم ..

وأخيراً هذا اللون البنفسجي الذي صار أيقونة روحها

النازفة !!

_تذكرين حديثنا عن الحب يا هالة؟! كلتانا أهلكها

الحب ..كلتانا اختارت الرجل الخطأ ..وقريباً كلتانا

تموت بسببه !

تهمس بها بخفوت بصوت لا يسمع لكنها كان يدوي

بين ضلوعها كطلقات رصاص ..

_ربما ..لو أنصفتي الحظ وانتقمت لنفسي ..سأعيش

لأنتقم لك!

هنا تلتمع عيناها بقسوة جريح ..وليس أشد من قسوة

الجريح لو تعلمون!

هذه التي شوهدت براءة ملامحها للحظات قبل أن تعود

لتذوي خلف وجع الخيبة !!

شعلة بقيت متوهجة يوارىها الرماد تنتظر الفرصة

كي ينثره أحدهم فتضطرم لتحرق

الأخضر واليابس!!

تسمع صوته يتحنح خلفها من بعيد فتنهض من

مكانها ..

ترفع كفيها بالدعاء لكنها تشعر أنهما مدنسان فتعاود

خفضهما ..

هالة تستحق من هي أفضل منها كي تطلب لها

الرحمة ..

هي هنا فقط كي تخبرها أنها لم تنسَ .. ولن تفعل!!

تعود معه وهي تشعر بخيبة المشوار تطبق

كالجاثوم فوق صدرها وهي التي ظنت نفسها

سترتاح ..

لا بأس! يبدو أن عمرها القصير لن يحمل لها طعم

الراحة!

يصلان لمدخل البيت فتلتفت نحوه كي تشكره ..

لكنها تصطدم بهذه النظرة المشفقة في عينيه!

عزت عليها نفسها فابتسمت ابتسامة مريرة ناسبت

قولها الشارد:

_لاريب أنك تتعجب من المجنونة التي تزور القبور

ليلاً.. تعلم؟! في بلدي كنت طبيعية.. أخاف من

الليل.. من السكون.. من الأشباح.. لكن الآن..

تنقطع عبارتها بدمعة خائنة تمسحها بسرعة لتردف:

_الآن لم أعد أخاف من الأشباح.. بصرت منهم!

يقبض كفيه جواره بقوة وهو يشعر أنه يحتاج ما
يفوق ما يفوق قدرة البشر كي يمنع نفسه عنها في
هذه اللحظة ..

الهواء يحرك ثوبها بحفيف يقع فوق قلبه
كالسياط وهو يتذكر حديث ذاك الفاجر عنها ..
فيرتجف جسده رجفة تشمله كاملاً وهو يغمض عينيه
بقوة ليعطيها ظهره ..
لكنه دس يده في جيبه لتفاجأ به من خلف ظهره يمد
لها كفه بما يحمله ..

اتسعت عيناها بصدمة وهي ترى فردة القرط في
يده ..وقد أصلحت!!

أنت فعلتها!؟

تطلق صيحة فرحة قصيرة يود لو يرى معها

ملاحها بهذا الرضا النادر لكنه لا يزال يعصمها
ويعصم نفسه ..

_"الله يسلم إيديك .. يعطيك العافية .. عن جد ما بعرف
شو بدي قلّك"

بلهجتها السورية تنطقها متتابعة دون فواصل واشية
بانفعالها كأنه رد إليها بعض روحها ..

لتنتهي كلماتها الفرحة ببكاء خافت كأنما لم تكن
سعادتها القصيرة سوى فرحة مختلصة من حساب
الزمن!

يزداد تشنج جسده وهو لا يزال يعطيها ظهره ولو
صدق نفسه لأدرك أنها أبداً ليست خلفه .. بل هي

هنا ..

داخله !!

حلقة يجف وهو لا يقوى حتى على رد شكرها ..
يشعر بها تبعد راکضة كطفلة حافية في واد لا تخشى
له شوکاً ولا زلقاً ..

فیسمح لنفسه أخيراً بتهيئة راحة ..
كفاه أنه الليلة منحها بعض الفرح الذي تستحقه !
هنا یرتخي جسده لیجلس مكانه جوار أحد
الأعمدة ممسداً صدره بكفه ومستعيداً شعوره بها
تسير جواره .. خلفه تارة .. وأمامه تارة أخرى .. إنما
تبقى حواسه أسيرة عبق عطرها ..

حقیقة أجمل من الحلم !
وفي غرفتها كانت هي تقف أمام مرآتها تثبت فردة
القرط في أذنها باشتياق ..

تتهد بارتياح يتلاشى وهي تتأمل ملامحها التي
شوهها الضرب والألم .. ولا تبالغ لو اعترفت أن
روحها كذلك مثلها قد تشوهت ..

تنظر عبر المرآة لجسد غازي المسجي على
الفراش .. تراقبه بمزيج من حقد وخوف قبل أن تنتبه
لما جعل خفقاتها تتقاذف بجنون ..

تهرع إليه لتبسط كفها فوق صدره .. تتحسس نبض
عنقه .. تحرك أناملها أمام أنفه .. ترفع ذراعه ثم تتركه
ليسقط حراً ..

تشعر بطنين غريب في أذنيها وبتميل يشل أطرافها
كاملة ..

قبل أن تنطلق صرختها :

قتلته ! أنا قتلته !

=====

الطيف الثالث

=====

بنفسجي

=====

قتلته ! قتلته !

تهتف بها ديمة بصوت عالٍ ينخفض رويداً رويداً
وهي تحرق في ملامحه الشاحبة ..
تنظر للمرأة البعيدة .. حيث وجهها الذي شوهته آثار
طغيانه ..

حيث شعرها الذي اضطرت لقص أطرافه حتى كاد
يلامس عنقها على استحياء كي تصلح ما أفسده ..
حيث عيناها اللتان فضحتا انطفاء روحها ..
هذه ..!



هذه كيف تصلحها!؟

تعيد النظر إليه برهبة ..

ثم تحل أزرار عباؤها ببطء وأناملها ترتعد ..

تنظر لجسدها الذي انكشف لتوه ..

لهذه العلامات متفاوتة الألوان التي لطخت بياضه

الناصع ..

هنا فقط .. ترتفع أناملها ببطء شديد نحو وجهه ..

لتصفعه !

تشهق بخوف وهي تعيد كفها جوارها بسرعة كأنها

تخشى أن يفيق فيبطش بها .. لكنه يبقى على حاله !

فترفع كفها من جديد بصفعة أقوى .. ثم أخريات أقوى

وأقوى ..

دموعها تغرق وجهها وهي تكتم صرخاتها القصيرة
لكنها تعجز تماماً عن السيطرة على حركة يديها وهي
تكيل له صفعاتها ..

حتى تشعر بتميل يديها ..

وأخيراً تجد نفسها تسقط على صدره ..

تتشبث بخاصرته وهي تكاد تدفن وجهها بين

ضلوعه ..

_ لا ترحل .. لا ترحل .. ليس لي أحد سواك .. أنا

أحببتك .. لم أكذب يوم قلتها يوماً .. هل تذكر !؟

تهمس بها بما بدا كالهذيان وهي تمرغ وجهها في

صدره ..

رائحته النفاذة طالما كانت تدوخها بهذا العبق الكريه

الذي طالما أثار نفورها ..

لكنها الآن لا تشم سوى رائحة هذا المزيج المعهود

الذي يتخلل كل ذرة في كيانها ..

البحر .. والدم !

_تذكر عندما رأيتك أول مرة؟! يومها كنت أجلس مع

هالة في حديقة بيت أبيها .. تعلقت نظراتك

بوجهي .. وتعلقت نظراتي بهذه الشعيرات البيضاء

وسط سواد شعرك .. رأيت في فتنة امرأة ورأيت فيك

أمان أب .. هالة حذرتني منك .. أخبرتني أنك متزوج

وأنهم يتندرون ببخلك .. لكنني كنت زاهدة في كل

شيء وأي شيء إلا شعوري بأن لي بيتاً ورجلاً .. بيتاً

يخصني ولا أقيم فيه كمتسولة .. ورجلاً يحميني طمع

الأنذال ..

هنا ترفع رأسها لتعيد النظر لملامحه الجامدة فتضحك

وسط دموعها لتبدو كالمخاييل ..

_وهاقد صار لي بيت ورجل ..بيت أعيش فيه كجارية

ورجل يستحل جسدي كحيوان لا يعرف إلا لغة

الضرب ..أنا كرهتك يا غازي ..كرهتك بقدر ما أحببتك

يوما ..وبقدر ما زهدت عمري

بعدك ..كرهتك ..كرهتك !

تكرر صرختها الأخيرة بصوت أعلى فكأنما تلفظها

بروحها لا بلسانها ..

أناملها المرتجفة تتشبث بقميصه تشده بكل قوتها

لتصرخ بالمزيد من الجنون:

_قم ..قم ولا تتصنع الموت ..مثلك لا يرحل بهذه

الطريقة السهلة ..ليس قبل أن تتعذب كما

عذبتني .. ليس قبل أن أجعلك تصرخ كما
صرخت .. ليس قبل أن أوجعك .. أحرق قلبك كما
حرقت قلبي .. قم .. قم .. قم ولا تضيع ما بقي من
عمرى كما ضيعت ما سبقه !
صراخها ينتهي ببكائها المذبوح وقد بح صوتها ..
لكن عينيها تتسعان فجأة وهي تنظر برعب
لملامحه ..

فتقلت قميصه من بين أناملها لتعيد غلق عباءتها
بسرعة ثم تحيط جسدها الضئيل بذراعيها في وضع
حمائي هامسة بخوف هستيري:

_ لا! إياك أن تعود .. ارحل ودعني لشأني .. لن أعدم
بذنبك .. سأعيش .. لن يعلم أحد .. سيظنونك مت ميتة
طبيعية .. لن يعلم أحد .. لن يعلم أحد .. الله

سيسترني ..سيسترني ..سيسترني وهو يعلم عن
عذابي معك ..سيسترني ..أليس كذلك يا هالة؟!
أناملها تتلمس موضع قرط أذنها بفردته الواحدة ..
الحجرة حولها تختفي معالمها فلا تكاد تتبين سوى
ثلاثة أشباح ..

شبح غازي منزوياً أسود اللون بسواد قلبه ..
شبح هالة يقترب منها مواسياً نورانياً يشع ببياض
يشبه بياض قلبها ..

وشبحها هي بلونه الأرجواني بين حمرة دم
الفقد ..وزرقة بحر الضياع!
شبح هالة يقترب أكثر فتشعر بهذه القشعريرة تدب
في أوصالها ..

لا قشعريرة برد ولا قشعريرة خوف ..

بل قشعريرة من ذاق الدفاء لأول لحظة ويخشى

فقدته !

نفس الشعور الذي ملأها عندما رأت هالة أول مرة !

متى كانت !؟

منذ سنوات ...

حبات عقد الذكريات تنفرط واحدة تلو

الأخرى ..

ترى نفسها تعدو خلف أمها لذاك القارب .. يطاردها
الخوف والقلق من المجهول .. أمها تسقط .. تخطفها يد
الموت كما فعلت بأبيها قبلها ..

القارب ينتظرها .. يفتح لها ذراعين غريبين واعداً
بجنة بعيدة في بلد غريب .. رائحة البحر تملأها

بالوحشة وهي تجد نفسها وحدها وسط عيون

مذعورة تهرب من مخالب الموت ..

القارب يرسو لكنها هي لا تفعل!

البر يبدو بعيداً !

بعيداً وهي تركض هاربة لا تحمل من أوراقها سوى

هويتها الشخصية ..

مطاردة بدعوى "هجرة غير شرعية" ..

كأنما هذا فقط هو غير الشرعي في هذا العالم!!

تركض وتختبئ ..

وتختبئ وتركض ..

فلا تعود تذكر من هذه الأيام سوى سقوطها أمام

السيارة التي تركبها هالة !

_ أنا لست من أهل الاسكندرية .. أنا من
الصعيد .. لكنني جئت هنا مع أهلي لبعض مصالحنا
كأنما شاء الله أن تلتقي أقدارنا!
والتقت أقدارهما حقاً!
هالة التي كانت قد فقدت زوجها وتعيش لتربي ابنها
وجدت فيها رفيقة روح خاصة وقد تعلق بها الولد
تعلقاً شديداً فما كاد
ثلاثتهم يفترقون ..
شهور من السعادة اختلستها من الزمن هنا في هذه
البلدة قبل أن تتزوج هالة من عاصي الرفاعي ..
وتتزوج هي من غازي!

غازي الذي بدا لها وقتها كطوق نجاة وهو يظهر لها
بدور المنقذ الذي دبر لها أمر أوراق إقامتها هنا في
مصر بعد أن طلبها للزواج!

_ لا تبتئسي هكذا .. نحن سنتزوج في نفس
البلدة .. يمكننا التزاور متى شئنا .

تتذكر قولها لهالة بأمل قبل زواج كليهما .. أمل يبدو
لها الآن ساخراً ..

لترد الأخيرة بأسى:

_ لست مرتاحة لزيجتي ولا زيجتك ..

_ لا تشغلي بالكِ بي .. أنا أحببت غازي .. أحببت قوته

التي تحميني وعاطفته التي تعوضني عن غياب

أهلي .. وأنتِ أيضاً ستحبين عاصي يوماً ما !

_ قلبي ليس ملكي كما تعلمين .

لكنه تزوج من تلك الفتاة الجميلة بعدما طلق زوجته الأولى .. تذكرين عندما رأيناها بالأمس في الطريق؟! كان يبدو هائماً بها .. أعلم أنني أصغركِ سناً بكثير

من

الأعوام .. لكن هذه النصيحة لا تحتاج لخبرة .. لا تعلقي قلبك بمن ليس له !

ربما تكونين على حق .. عاصي الرفاعي لم يعد خياراً بل قدراً .. كل أبناء عمومتنا يسعون لهذه الزيجة .. هل تصدقين أن يتشابه قدرنا إلى هذا الحد فتكون كل منا زوجة ثانية؟!

تتوقف ذكرياتها عند هذا الحد فتبتسم بمرارة وهي ترفع عينيها نحو شبح هالة

الأبيض الذي لا يزال يقترب .. لكنه لا يمسه أبداً ..

_ تشابه قدرنا كثيراً لكنه انتهى بكِ مقتولة .. وانتهى

بي قاتلة !

هنا يختفي شبح هالة فجأة فتصرخ باسمها وهي

تشعر بالخوف يعاود مراودتها ..

شبح غازي الأسود ينهض من مكانه ليقترب منها

فتصرخ ..

_ أفيقي يا ديمة .. غازي مات .. مات .. لن يؤذيك بعد

اليوم .. تماسكي ولا تدعي أحداً يشك في

أمرك .. انعمي بما بقي من حياتك .. هو نال ما

يستحقه !

تغمغم بها لصورة مرآتها وهي تهز رأسها بعنف

بينما تتحرك بجسدها مبتعدة عن الجسد المسجى على

الفراش ..

لو سألوكِ قولي لا أعلم .. لا أحد سيكتشف
أمرك .. أنتِ بريئة .. هو المجرم .. هي فرصتك
لتعيشي .. أنتِ انتقمتِ لنفسك وبقي أن تنتقمي
لهالة .. افتحي النافذة .. اصرخي وأعلمني الخبر ..
تركض نحو النافذة لتفتحها فيتلقفها نسيم بارد لكنها
تشعر به كعاصفة ..

رائحة الفجر تحمل لها عبير الخلاص فتتنشقها لكن
"عظن الإثم" يزكم أنفها ..

تتفرج شفتاها لتصرخ مدعية البراءة لكنها وجدت
نفسها بدلاً من هذا تصرخ دون وعي .. كأنما تنتقم
لكل لحظة صمت مقهور ذاقتها :

قتلته ! قتلت غازي ! صرت حرة ! صرت حرة !

=====

من يعيد قوس قزح ؟



555

نرمين نحمد الله

نيلي



_ أسميتك "الرفيق" رغم طول "الفراق" ..وبين

"رفقة" و"فرقة" تظل أنت أجمل قدر !

تكتبها له زهرة في رسالتها ليصلها رده :

_ أما أنا فأسميتك "السكنى" ..وليس أغلى على

الشريد من سكناه !

تتنهد بهيام وهي تضم الهاتف لصدرها لكن رسالته

التالية تخر صدرها :

_ سأصل مصر غداً ! هل أخبرتِ عائلتك !؟

تدمع عيناها بعجز وهي تنظر نحو باب غرفتها

المغلق لكنها تكتب له بسرعة :

_ لم تواتني فرصة مناسبة بعد !



_ هل تخفين عني شيئاً؟!

يعز عليها هذا الخوف الذي يلفحها بين حروف رسالته .. خاصة وهو في هذه اللحظة يتجاهل طلبها بالأيهاتها فيصدق هاتفها برنة فيروز الخاصة به :

_ ما الأمر يا زهرة؟! أقسمي لي أنك بخير!

تزداد كثافة الدموع في عينيها لكنها تبتلع غصة حلقها وهي تدرك أن "فوبيا الفقد" خاصته لاتزال تنشب مخالبتها في صدره ..

فترد هامسة بعاطفة هادرة لا تدعيها :

_ كيف أقسم أنني بخير وأنا بعيدة عنك؟! لا تقلق .. كل

الأمر ستكون كما خططنا لها .. امنحني فقط بعض

الوقت .

_ لكِ العمر كله !

يقولها بهذه النبرة التي أذابتها مكانها لتتنهد بحرارة

هامسة :

_ولك العمر وما بعد العمر .

_دوماً تغلبيني يا نيلية !

يهمس بها ضاحكاً فتطوقها ضحكته كغلالة من أمان

تنسيها ما يورقها مؤقتاً لتهمس له بخفوت :

_أين ستقيم !؟

_صديقي "عزيز" عندكم في مصر يلح عليّ في

البقاء معه ليومين على الأقل قبل أن أتدبر أمري .

قبسٌ من الغيرة يمسها وهي تذكر صلة ماسة بعزيز

وإعجاب جهاد القديم بها ..

لكنها تعود لتذكر أن ماسة صارت تقيم مع زوجها في
مدينة ساحلية بعيدة .. كما أنها لم تكن لجهاد سوى
طيف من هوسه المعهود ببلده ..

صوت طرقات على غرفتها يجعلها تشهق بعنف
لتهمس له بسرعة :

_ أسفة .. سأغلق الاتصال الآن !

تغلق الاتصال مجبورة دون انتظار رده
ليُفتح الباب وتدخل منه أمها حاملة صينية من
الطعام ..

_ لم تتناولي غداءك يا ابنتي!

_ ليست لدي شهية !

تقولها بحزن حقيقي سمحت له أخيراً
بالطفو على سطح مشاعرها وهي تتأمل

ملاح غرفتها الخائقة ..

سريرها الخشبي قديم الطراز الذي طالما احتضنت
دموعها وسادته ..

نافذتها الضيقة التي طالما كانت رفيقتها في الحلم
للخروج من هذا البيت ..

البلاط القديم للأرض والذي لاتزال تذكر برودة ليال
طويلة قضتها فوقه ..

وأخيراً دولاب ملابسها الذي انخلع بابه فلم يهتم
أحدهم أن يصلحه لتبدو ملابسها فيه مكشوفة .. تماماً
كما تشعر بنفسها الآن !

تضع أمها صينية الطعام جانباً ثم تربت على كتفها
مواسية بنبرتها التي لا تقل عنها حزناً :

_ ما الجديد هذه المرة يا ابنتي؟! تعلمين أن أباك لا

يوافق على أي عريس يأتيك!

_ لكن هذا ليس أي أحد.. أنا أحبه يا أمي.. أحبه

وأنظره منذ سنوات.

تهتف بها زهرة بحرقة لتتسع عينها بارتياع وقد

ساءها هاجس ما:

_ أصدقيني يا ابنتي.. هل كان بينكما...؟!!

تقطع سؤالاتها بما بدا مفهوماً لتشهق زهرة باستنكار

هاتفة:

_ بماذا تفكرين يا أمي؟! بالطبع لا! ابنتك عصمت

نفسها طوال هذه السنوات وهي تعيش وحدها في

الغربة.. وليس عدلاً بعدها أن يرفض أبي الرجل

الوحيد الذي أريده!

تدمع عينا المرأة بالمزيد من العجز وهي تبسط

راحتيها باستسلام لتقول بنبرة مهتزة :

_أبوكِ معه حق .. هو فلسطيني ..ماذا يجبرنا على

رجل لا نعرف له أهلا ولا بلداً؟!!

هنا تصرخ زهرة بقهر وهي تنتفض واقفة مكانها :

_تعلمين أن هذا ليس السبب ! ولو كان غير فلسطيني

لرفضه كما رفض من قبله .. هو لا يريد تزويجي كي لا

يفقد الدجاجة التي تبيض له البيضة الذهبية ..نقود

عملي التي أرسلها له أولاً بأول!

_ماذا تقولين يا (...)?!

تشهق زهرة بذعر وهي تلتفت لمصدر الصوت حيث

الرجل الذي ظهر لتوه فجأة والذي لم يحمل من الأبوة

سوى اللقب!!!

_ بالله عليك لا تؤذها! هي لا تقصد!!

تهتف بها أمها وهي تندفع نحو الرجل الذي بدا
مترنحاً في غير تمام وعيه بفعل الخمر الذي لعب
برأسه والذي دفع أمها بقوة ليسقطها أرضاً فيتعالى
صوت صرخاتها وهي تحاول الوقوف من جديد كي
تذود عن ابنتها التي اندفع نحوها الرجل ليشدها من
شعرها صارخاً بغضب مجنون:

_ نقودك هذه حقي! حقي وليست منة منك! أنا الذي

تعبت وربيت وكبرت ..أنا الذي سمحت لك

بالسفر ..كلمة واحدة زائدة وسأحبسك في غرفة

خالتك السفلية لعنها الله مكان ما راحت حتى تتعفني

حياة .. تفهمين!؟!

تكتم زهرة صرختها بقهر وهي تومئ برأسها في
طاعة قسرية لتحاول أمها أن تبعده عنها لكنه يدفع
كلاهما معاً لتسقطا فوق الفراش فيما يتناول هو
حقيبة زهرة ليستخرج منها حافظتها ويفرغها من
نقودها ثم يلقيها في وجهها هاتفاً بازدياء:
_أجازة وسفر وإنفاق نقود في كلام فارغ!
لأجل عرض زواج فاشل كهذا؟! بنات قليلة الحياء!
أي زواج هذا الذي تتعجلينه؟! لا تزالين صغيرة لماذا
تريدين حمل الهم باكراً؟!
ترمقه بنظرة مقهورة وهي تحتضن حافظتها ليهتف
هو بنفس النبرة المترنحة مخاطباً أمها:
_حضري لي "القمة" ..

يقطع عبارته وهو يرى صينية الطعام التي كانت قد

أحضرتها لزهرة فيتناولها ليخرج بها هاتفاً :

__ "السنيرة" لم تأكل .. "نفسها مسدودة" .. لتبقى

مسدودة أكثر وأكثر!!

تنقطع عباراته التي تفهم كلماتها بصعوبة من أثر

الخمير وهو يختفي من أمام ناظريهما فتحتضنها أمها

بقوة لتهمس لها بخفوت بين دموعها :

__ لماذا عدتِ يا زهرة؟! أنا أحمد الله ليل نهار أن

وجدتِ عملك ذاك بعيداً عنا!! تظنين غربتك سهلة

علي؟! لا والله! يعلم ربي كم يمزقني غيابك .. لكن ما

يصبرني أنك بعيدة عن بطشه .

__ عدتِ لأنني تعبت من العيش وحدي .. لأنني ظننت أنه

من حقي أن أتزوج رجلاً أحبه ويحبني ككل البنات!

تهمس بها زهرة بين دموعها لتهمس أمها محاولة
تخفيف الأمر عنها :

_ لا تهولي الأمور ! لو كان هذا الرجل يحبك فاطلبي
منه أن ينتظر .

_ ماذا سينتظر؟! وإلى متى؟! تعلمين أن أبي لن
يوافق .. لقد ظننت أنني عندما أعرض عليه أن أبقى

أرسل له راتبي بعد زواجي سيوافق على

الزيجة .. لكنه رفض .. كأنه يخاف أن أجد ظهراً

يسندني وينصرني عليه !

تهز أمها رأسها بمزيج من عجز وخيبة ولا تزال

تحاول التخفيف عنها :

_ أبوك كبير ويحتاجك .. ليس عيباً أن تساعديه بمالك!

_ وأين أثر مالي عليكم هذا يا أمي؟! البيت لا يزال

على حاله بل زاد سوءاً!

تعض المرأة شفتها بخزي فتهمس زهرة بارتياح:

_ عاد للعب القمار؟!!

تشيح أمها بوجهها في جواب غير منطوق لتهمس

زهرة بالمزيد من القهر:

_ والله حرام! أنا أشقى وأتعب في الغربة كي أرسل

المال الذي ينفقه فوق طاولات القمار.. وعندما أطلب

أبسط حقوقي في الزواج من رجل أحبه يهددني

بأيذائك .

_ لا تحملي همي .. أنا تعودت على طبعه .. المهم أن

تأمني أنتِ أذاه .. لو ..

تقطع عبارتها بشهقة زعر وهي تسمعه يناديها
بصوته الكريه من الخارج فتنتفض مكانها لتهرع إليه
بخطوات راکضة ..

فيما ترمقها زهرة بنظرة قهر طويلة ثم تفتح حافظتها
لتستخرج منها دبلتها بألوان علم فلسطين وعبارتها
التي حفرتها عليها من الداخل:

(أنت بدربك في جهاد .. وأنا بحبك في جهاد)

فتتهمر دموعها صامته ..

سيصل غداً !

لا تدري بماذا ترد عليه ولا كيف تشرح له ظروفها ..

هل تطلب منه ألا يأتي؟! أم تخبره الحقيقة وتتقبل

قراره؟!!

لقد ظنت أنها يمكنها ترقيق قلب أبيها أو حتى إشباع
طمعه بترك راتبها له مستقبلاً لكنه يصر أن يسمم
حياتها للأبد !

تتسلل من الغرفة وهي تشعر بالاختناق لتغادر البيت
نحو الغرفة السفلية التي طالما يهددها بها ..
تدفع بابها المغلق لتجلس على طرف فراش الغالية
الراحلة والتي لم تكن

خالتها فحسب .. بل أمها الثانية !

أمها الثانية التي عاشت لحظات ذبولها بذاك المرض
اللعين لحظة بلحظة حتى رحمتها يد الموت .

كان هذا أول طريقة لشبح الفقد على بابها ولهذا تعذر
جهاد في خوفه المعهود من هذا ..

جهاد؟! جهاد!!

ماذا بعد؟!

وماذا سيحمل لها القدر من فصول لقصتهما؟!
تشعر بوخزة حقيقية في صدرها فتتأوه بخفوت وهي
تمسد موضع الألم بأحد كفيها..بينما تتلمس أناملها
الحررة طرف الفراش..

والسؤال الحائر يخنق كل أمل تحاول به مواساة
نفسها..

ماذا بعد؟!

=====

أصفر

كنت تضحك لها !

تهتف بها رؤى بانفعال وهي تلوح بذراعيها فيكتم
ابتسامته وهو يحاول احتواءها بين ذراعيه لكنها
تتملص منه مردفة بصوتٍ أعلى:

أنا رأيتكما بعيني في الورشة ! ماذا أعجبك فيها ؟!
طولها الفارع كنخلة معوجة ؟! شعرها المصبوغ
كأسلاك نحاس صدئة ؟! صوتها الذي يشبه أنين فأر
يحتضر ؟!

هنا يعجز عن كتم ضحكته وهو يراها بهذه الحالة
الجنونية من غيرتها الغريبة على طبيعتها الهادئة ..
فتستفزه ضحكتهما لتهتف بالمزيد من

الانفعال:

_ لا تضحك وإلا أقسم بالله ..

تقطع عبارتها دامعة العينين وهي تبحث عن وعيد

مناسب ..

لكنه ما كاد يلمح هذه اللعة الحقيقية في عينيها حتى

ضمها بقوة لصدره ليغمرها بين ذراعيه بهذا الفيض

الذي يكفيها لتغرس قدمها فوق أرض ثابتة ..

يشعر بتشنج جسدها المنفعل فتساب

قبلاته نهراً من عسل فوق وجنتها وجانب عنقها

بينما يشدد ضمته لها أكثر ..

_ تغارين يا ليمونية !؟

يهمس بها بخشونة صوته المحببة التي تمزج سحر
رجولته بدفء حنانه فيهدأ جسدها بين ذراعيه رويداً
رويداً ..

يرفع وجهها نحوه فتستقر شفثيه فوق مرفأها الأثير
عند "شق ذقنها" الحبيب للحظات .. قبل أن يشبك
أنامله بأناملها ليرفع كفيهما معاً نحو شفثيه ..
يقبل باطن كفها ليهمس أخيراً بعتاب:

_ العين التي لم ترَ من النساء قبلك لن تفعلها بعدك ..
ترتجف شفثاها بانفعال وهي تسبل جفنيها ليردف
بنفس النبرة المتأرجحة بين عشق وعتاب:
_ سَلِّمَ اللهُ قلبك من نار الغيرة يا "ست

الحسن" ! أشفق عليكِ منها وأنا المكتوي بها !

حروفه تنزل برداً وسلاماً على نيرانها فتطفئها لتسأله

بدلالها العاتب:

_ من كانت تلك المرأة؟!!

_ زبونة!

_ ولماذا كنت تضحك لها؟!!

_ كنت أبتسم لها كما أبتسم لأي ذكر ذي شارب

ولحية!

_ لا! كنت تضحك! ولولا أنني جئت قدراً

لأراكما لما ...

تقطع عبارتها الانفعالية بأهة تأوه خافتة وهي تراه

يشد أذنها برفق هاتفاً ببعض الغلظة:

_ دعك من كل هذا الكلام الفارغ ودعينا نتناقش في

"قدراً" هذه!! منذ متى تخرجين دون إذني?!!

ترفع إليه عينين معذرتين وهي لاتزال تتأوه بدلال

قائلة:

_ كنت أحضر لك مفاجأة!

_ ولماذا لم تخبريني!؟

_ وكيف تكون مفاجأة لو أخبرتك!؟

تهتف بها باستنكار فيشدد من ضغطه على أذنها وهو

يقترب بوجهه منها هامساً بضيق حقيقي:

_ أعرف أن عيد ميلادي غداً.. وأعرف أنك خرجت

لتشتري لي هدية.. تماماً كما تعرفين أنتِ أنني لا

أكثر بكل هذا الهراء! لا أحب أن أبدو كطفل صغير

يحضرون له الهدايا ويضعون له "الطرطور" فوق

رأسه!

_ شجار كل عام!

تقولها بدلالها العاتب فيزفر زفرة خافتة وهو يفلت
أذنها لتبسط هي راحتها فوق صدره مردفة بحب:
_ منذ عرفتك وأنت تطوقني بهذا الحب الذي يجعلني لا
أسير على الأرض بل أطلق فوق غيوم السماء .. تحيط
بكل تفاصيلي الصغيرة .. تحقق لي كل أمنيّ قبل حتى
أن أفكر في طلبها .. لهذا أحتاج أنا الأخرى أن أشعر
أنني أسعدك بصورة استثنائية ولو مرة في العام!
_ تعلمين أنك كي تسعدينني لا تحتاجين سوى لأن
تكوني جواري .. جواري فحسب!

يهمس بها صادقاً بهذه العاطفة التي لاتزال تزلزلها
رغم مرور هذه السنوات ..

فتبتسم وهي ترفع كفه لتقبل ظاهره ثم تبسطه على
وجنتها هامسة :

_ أعلم.. لكن لا تحرمني لذة الشعور بأنني أمنحك

القليل مما يستحق رجل عظيم مثلك !

_ رجل عظيم! سبحان الله! منذ دقائق فقط كنت و غداً

يضاحك النساء!

يمط بها شفثيه مستكراً وهو يعطيها ظهره ..

فينعقد حاجباها فجأة كأنما تذكرت لتدير ظهره نحوها

فتواجهه بقولها المنفعل:

_ لا تظنني قد نسيت! أو أن سابق كلامنا قد شفع لك!

إياك أن تضحك بهذه الطريقة ثانيةً مع أي زبونة !

_ وماذا لو فعلت!؟!

يقولها وهو يرفع أحد حاجبيه بمكر فتتفرج شفثاها

وهي تبحث عن عقاب مناسب ..

ليهز رأسه بالمزيد من المكر وهو يحرك سبابته في

وضع دائري كأنه يحثها على

الكلام ..

لكنها تبتسم وهي تقرب وجهها منه حد انصهار

أنفاسهما لتهمس بغنج:

_ قلبي سيشعر .. وسيحزن .. يهون عليك قلبي؟!!

يضحك ضحكة عالية وهو يضمها إليه بشدة هامساً

بخشونة صوته العذبة :

_ صرتِ خطيرة يا ليمونية ! لكن ماذا عساي أفعل فيكِ

؟! بل في قلبي الذي أنصفكِ عليّ منذ وقعت عيني

عليكِ!

_ سلم لي قلبك وعينك !

تهمس بها ذائبة بفيض غرامها وهي تقبل موضع
قلبه أمامها لترفع رأسها مردفة بنبرة أكثر مرحاً:

_ لا تريد أن ترى هديتي!؟!

يبسط لها راحتيه باستسلام فتضحك ضحكة طفولية
وهي تركض نحو درج الكومود المجاور لتستخرج
منه هذه اللعبة التي فتحتها أمامه ..

تتسع عيناه قليلاً وهو يستخرج منها هذه الميدالية
الفضية التي كانت تحمل صورة

ثلاثية لهم مع ربي ..

_ أنتِ تركتِ صورتك مع رجل كي يصنع لنا هذه!؟!
يهتف بها بغضب لكنها تدرك الموقف هاتفة بسرعة:

_ امرأة! أرسلت لها الصورة عبر الانترنت ولم أرها
إلا اليوم عندما خرجت .

_وما يدريك أنها امرأة حقاً وليست رجلاً متكرراً؟!
وحتى لو كانت امرأة ما يدريك أن الصورة لن تقع في
يد رجل غريب؟!!

يهتف بها بغضبه الذي صارت تتفهمه لتبتسم له
مهدئة بقولها:

_إنها صديقة صديقتي .. أعرفها منذ سنوات!
_أي صديقة؟! منذ تزوجنا لم أعرف لك إلا صديقة
واحدة كانت تدعى جنة!

كلماته تجذبها نحو ماضٍ بعيد يبدو لها الآن وكأنه قد
كان لأخرى!!

أجل .. لا تصدق أن الحياة التي ظنتها انتهت بعد
خطيئتها مع فهد الصاوي ستبدأ من جديد أروع
بداية!

أن القدر الذي أغلق لها باباً ضيقاً قد فتح لها الباب

الأوسع!

صحيحٌ أنها قد خسرت صديقة رائعة كجنة بعدما كان

بطبيعة الحال وقد صارت علاقتهما متباعدة بمجرد

عبارات قصيرة عبر مواقع التواصل.. لكنها تعلم أن

أياً منهما لو احتاجت الأخرى فلن تفرقهما حدود .

والواقع أن المرأة التي كانت تعمل بهذه

الأشغال اليدوية كانت صديقة جنة حقاً لهذا وثقت

بها!

_ هي صديقة جنة فعلاً! وهذا يكفيني

لأمنحها ثقتي! ولو كان عندي ذرة واحدة من شك

لما فعلتها!

تزار ملامحه بعدم الاقتناع لكنها تعاود تبسمها له
وهي تعقد حاجبيها بمشاكسة مصطنعة هاتفة:

_ هل هذه "شكراً يا ليمونية" التي أنتظرها؟! ألم

تعجبك الفكرة؟!!

_ لا!

يقولها بعبوس مصطنع فتهتف مستكرة:

_ لماذا؟!!

_ حمقاء أنت؟! تظنين أنني سأحمل ميدالية عليها

صورتك يراها كل من هب ودب؟!!

يهتف بها باستنكار وهو يخبط جبينه بجبينها بخفة

فتأوه وهي تمسد جبينها

بدلال هامسة :

الصورة مغطاة بحاجز سهل الحركة ..لن يراه إلا من

يزيحه !

ولو!

يقولها بعناد مردفاً :

هأنذا قلتها! سهل الحركة !

إذن لم تعجبك!؟!

تقولها بخيبة فيبتسم وهو يربت على وجنتها قائلاً:

أعجبتني وهي منك ..وأعجبتني وهي تحمل صورتك

مع رُبي..لكنها لن تغادر هذا البيت ..سأحتفظ بها هنا

لنسخة مفاتيحي الاحتياطية !

يقولها ثم يقبل جبينها بعمق فتنتهد

باستسلام لطبيعته التي يعرفها ..

قبل أن يعاود هو القول بنبرة أكثر حزمًا :

_ لا تكرري الخروج دون علمي .

تهز له رأسها موافقة فيبتسم وهو يعانق عينيها

الحبيبتين بنظراته متسائلاً :

_ أين ربي؟!!

_ تلعب مع أولاد عمها كالعادة .

_ إذن هي فرصة لعشاء مميز!

يقولها وهو يقرص خصرها بهذه الحركة التي تجعلها

تنتفض مكانها فتتهف ضاحكة :

_ أفكر في حرمانك من العشاء والتحلية أيضاً بسبب

ضحكك مع تلك المرأة .. لكن لا بأس .. قلبي طيب!

_ سنعد العشاء سوياً هذه الليلة .. سأصالحك بطعام

تحبيته !

يقولها بحنان دافق وهو يقبل وجنتها مردفاً:

_ البلح المحشو بالشيكولاتة !

_ لاتزال تذكر!

تهمس بها بتأثر وهي تتذكر عندما أخبرته يوماً أنها

لم تكن تحب البلح وهي صغيرة فكان أبوها الراحل

يحشوه لها بالشيكولاتة كي يرغبها فيه ..

_ كل تفاصيلك عشقي يا ليمونية ..كلها!

يهمس بها وشفتهاه تدلان شفتيها في لقاء قصير ..

فيتشبث ذراعها بخصره بكل قوتها وهي تشعر معه

كعهدا أنها تعانق معه أمان العمر كله ..

يتحركان بعدها سوياً نحو المطبخ القريب كي يعدا

العشاء معاً ..

ولم يكادا يرصان الأطباق فوق المائدة حتى فوجئاً

برنين جرس الباب ..

_ لماذا تبكين؟!_

يهتف بها راغب بجزع بعدما فتح الباب وهو ينحني

ليحمل ابنته التي كانت تهتف بغضب طفولي:

_ انشغلوا عني عندما أتت تلك الضيفة

لأمهم .. لن أعب معهم ثانية .

فيضحك وهو يقبل وجنتيها تباعاً بينما يغلق الباب

بقدمه ليدخل بها نحو رؤى هاتفاً بمشاكسة:

_ لا تكوني غيور كأمك.

_ أمها الغيور !!؟_

تهتف بها باستتكار وهي تحمل الصغيرة منه لتضمها

إليها فيضحك وهو يربت على ظهريهما معاً ..

بينما تحاول رؤى تهدئة الصغيرة الباكية بقولها :

_ لا تبكي .. سيأتون حالاً لمصالحتك .

لكن الصغيرة تهتف بغضب طفولي:
_ لن يفعلوا .. إنهم مشغولون بتلك الضيفة التي
حضرت .. الجميلة التي تطبخ في التلفاز ..
ينعقد حاجبا رؤى ببعض الدهشة لتتبادل مع راغب
نظرة ذات مغزى .. قبل أن تعاود سؤال الصغيرة
باهتمام:

_ من هذه ؟!

لتجيب ابنتها مؤكدة استنتاجهما :

_ خالتهما .. تلك ال "عزة" !

=====

أخضر



_خطوة عزيزة! ما الذي ذكرك بنا اليوم؟!
تهتف بها هيام شقيقتها بتهكمها الفظ كعهدا فتطرق
عزة برأسها دون رد ..

لتقوم هيام من مكانها فتجلس جوارها وهي تبسط
ذراعها على كتفيها مردفة بأمل:

_قولي أن الأمر يخص عريساً منتظراً .. فرّحي قلبي

كي نكيد

الأعادي!

ترمقها عزة بنظرة طويلة وهي لا تدري بماذا ترد ..

هل تخبرها حقاً لماذا جاءت إلى هذا البيت



بالذات بعد طول هذه الشهور التي تجنبت فيها

زيارتها؟!

هل تخبرها أنها جاءت اليوم لهذا المكان كي لا تنسى!

كي لا تضعف!!

الوهن الذي يتخلل روحها بعد عرض إيهاب

الأخير للزواج منها يكاد يفقدها صوابها ..

يكاد ينسيها ما الذي عاشته في حياتها قبله ..

تنازل تلو تنازل ..

تنازلها الأول كان في قبولها لذاك البلطجي الذي قبلت

خطبته فقط كي تنال لقب زوجة ..

ثم تنازلها وهي تتقبل معاملته السيئة لها خوفاً من أن

يتركها ..

وحتى عندما تجرات لتفسخ الخطبة عادت للتنازل
وهي تقبل عرض راغب كزوجة ثانية ..
زوجة ثانية استتكتف زوجها أن يمسه وفاء
للأولى لكنها بقيت تقبل التنازل لترضى بتلك العيشة
خوفاً من العودة للعيش وحيدة ..

ماذا تنسى؟!!

بل ماذا تذكر؟!!

تحرشات خطيبها الأول التي كانت تصدها بخوف
وهي ترى نفسها ضعيفة أمامه؟!!
نظرات راغب التي كانت تصرخ بها -دون صوت-
أنها مجرد وزر ثقيل على كتف سهامته؟!!
نظرات هيام شقيقتها التي كانت تغرس فيها المزيد
من الخوف والرغبة في التنازل؟!!

لن تنسى قط تلك الليلة التي تهجم فيها عليها خطيبها
الأول ليعتدي عليها هنا في هذا البيت ولولا شجاعة
رؤى لكان قد نال منها ...

تماماً كما لن تنسى تلك الليلة التي ظهرت فيها لأول
مرة على شاشة التلفاز ..

بإحساس الأولى بين وهن وذل .. وإحساس الثانية بين
فخر وعوض!

وعلى حافة المنتصف السخيفة بينهما لا تزال هي
تقف ..

تخشى أول خطوة تنازل تدفعها للخلف لتسقط من
فوق قمتها !!

_قولي يا "بنت" ..ماذا بك؟!

تهتف بها هيام بحنانها الفظ لتردف بالمزيد من

الاستنكار:

_ لا تظنين العمر سيتوقف بك أمام هذا

السن ..ستسرقك الأيام لتجدي نفسك فجأة وحدك ..لا

تغتري بشهرتك الآن ..لن تدوم ..فرصك ليست جيدة

كما تظنين ..أنت يتيمة ومطلقة و...

_ كفى!

تهتف بها عزة في وجهها بحدة وهي تنتفض واقفة

لتجفل هيام مكانها فيما تستطرد

الأولى بانفعال احمر له وجهها:

_ تسألين لماذا جئت؟! جئت لأسمع منك هذا الكلام !

لأذكر نفسي بكل لحظة ذل رأيتها في حياتي ! لأجل الأ

أقبل التنازل من جديد ! أنا أستحق الأفضل بعد صبر

كل هذه السنوات ! أستحق رجلاً يشار له كما يشار لي .. رجل يرفعني جواره لا يهبط بي لتلك المنزلة من جديد .. عزة الأنصاري التي خرجت من هذا البيت شبه جارية لن ...

تنقطع عبارتها وعيناها تصطدمان بعيني رؤى التي دخلت تحمل ربي لتوها وقد سمعت رغماً عنها جانباً من هذا الحوار ..

لتبتلع عزة بقية كلماتها وهي تشعر أنها تفقد توازنها من جديد ..

هل يعجبك هذا؟! أختي أصابتها عقدة من الزواج بسببك!! لكن الله سيعوضها!

تهتف بها هيام بغلّ مخاطبة رؤى وحقدتها يتسرب بين حروفها لكن عزة تهرع نحو رؤى لتصافحها بود ..

ترتجف حروفها وهي تغتصب ضحكة مفتعلة قائلة :
_ لا تعتبري لكلماتها .. لا أصدق أنها لا تزال تذكر هذا
بعد هذه السنوات .. لو كان هناك ما أذكره فهو
مساعدتك لي كي أصل لما أنا فيه الآن .. أنتِ وراغب
بالطبع !

تغمغم هيام بكلمات ساخطة وهي تغادرهما نحو
الداخل فيما تترك رؤى صغيرتها لتلعب مع الأولاد
بالداخل ..

قبل أن تقترب من عزة لتتفحص ملامحها باهتمام
قائلة برقتها المعهودة :

_ كنت أظننا نطمئن عليك من هذه الصورة المتألقة لك
على شاشة التلفاز .. لكن الآن أشعر حقاً بالقلق .. هل

تضايقتك هيام؟! لهذا ما عدت تزوريننا؟! الأزلت
تشرين بالخرج من الوضع القديم؟!
ورغم يقينها من سلامة نية رؤى تماماً لكن شعورها
الخانق جعلها تتحسس "بطحة رأسها" وهي ترفع
أنفها لتقول بفخر مصطنع:
_لم يعد أحد بقادر على مضايقتي.. تعلمين ماذا صار
إليه حالي .

ترمقها رؤى بنظرة مشفقة وهي تشعر أن قناع
الغرور الذي ترسمه هذا يداري حزناً ما لا تفهم
سببه ..

لهذا تهم بسؤالها عن المزيد لكن عزة تغتصب ضحكة
انفعالية أخرى وهي تربت على كتف رؤى هاتفة
بنفس النبرة المصطنعة :

_ أنتِ طيبة القلب حقاً ..من يرانا هكذا لا يصدق أنني

كنت يوماً ما ضرتك !

تغمض روى عينيها بقوة وهي تحاول نفض ذكرى

تلك الأيام الثقيلة عن خاطرها ..

لكنها تعاود فتحهما بدهشة وهي تسمع عزة تودع

هيام دون انتظار رد الأخيرة التي كانت قد اختفت

بالداخل:

_ أنا راحلة .. تريدن شيئاً؟!!

_ أريدك عاقلة ! هدى الله رأسك الغبي!

تهتف بها هيام بفظاظتها المعهودة من الداخل دون

أن تخرج إليهما ..فتبتسم عزة لروى ابتساماً مرتجفة

قبل أن تغادر بدورها تكاد تركض فوق درجات

السلم ..

تتلاحق أنفاسها بسرعة وهي تصل لمدخل البيت ..
تدور ببصرها في المكان حولها ..تستعيد كل ذكرى
خيبتها ها هنا ..

ملامحها تتلون ب"خضرة" مشاعرها المعهود بين
"أزرق" الخوف و"أصفر" الانطلاق!

تغلق الباب أخيراً خلفها وهي تشعر أن هذه الزيارة قد
آتت ثمارها حقاً ..فتهمس من بين أسنانها :
_تذكري ! تذكري جيداً! عزة الأنصاري ولدت يوم
خرجت من هذا المكان ..فلا تعيدها بتنازلك لسجن
يشبهه !

تتحرك نحو سيارتها التي تجمع حولها بعض الأطفال
يلعبون فتنهرهم بحدة غريبة على طيبتها المعهودة ..

تستقل السيارة وهي تشعر بنظرات أهل الحي تطوقها
بين فضول وحسد ..

هذه النظرات التي تتجاهلها في العادة لكنها الآن كانت
تتعمد مطاردتها في عيونهم ..

_ لا تنسي .. لا تنسي .. كم دفعتِ ثمناً لهذه النظرات !

تقود سيارتها بسرعة عالية وهي تغادر الحي كأنها

تهرب من صورة ماضيها التي تكاد تخنقها ..

هاتفها يرن برقم مخرج برنامجها فتتهد بارتياح

وهي تشعر بعودتها لهذا العالم تنسيها كآبة الساعات

السابقة ..

ترد بعفويتها المعهودة لكنها تلاحظ أن نبرته معها

مؤخراً صارت أكثر عاطفية .. أو ربما هي التي صارت

أكثر هشاشة ..

لكن المكالمة حقاً لم يكن لها سبب منطقي ..

_ اعنتي بنفسك .. أراك شاحبة هذه الأيام .

يقولها بصوته الرجولي الرخيم فتشعر بهذه الوخزة

في قلبها ..

لهذا تغلق الاتصال بسرعة متذرة بحجة وهمية ثم

تخبط رأسها في مسند السيارة الخلفي بعنف!

منذ تلك الليلة التي عرض عليها فيها إيهاب الزواج

لتطلب منه مهلة للتفكير في الأمر وهي غارقة في هذا

الحال من الفوضى ..

الفوضى التي يزيدها شعورها بافتقاده !

هو الذي احترم رغبتها في هذه المهلة وقد فضل أن

يبتعد كي لا يؤثر على قرارها ..

لكنه فقط يذكرها برسالة على هاتفها كل ليلة ..

رسالة كهذه التي وصلتها الآن :

_ أنتِ بخير؟!!

تدمع عيناها بعجز وهي تضم الهاتف لصدرها ..

ماذا لو اتصلت به الآن؟! لو أخبرته أنها توافق!

أنها حقاً تأنس لصحبته ..تشعر بالأمان في وجوده ..

لكن هل هذا يكفي لتدخل بقدميها سجنأً جديداً لا تدري

عواقبه؟!!

لتقبل رجلاً لا ترتضي شكله؟!!

لتضع رهانها الأخير على جواد أعرج لا تدري كيف

سيمكنه عبور كل هذه الحواجز التي يبنيها لها خوفها

!؟

ماذا لو أخبرته أنها لا توافق؟!!

لو رحل عنها للأبد تاركاً لها هذا الفراغ الذي ما عاد

يملاه غيره؟!!

تنقطع أفكارها وهي تسمع صوت وصول رسالة ..

أغنية عاطفية مسجلة؟!!

ينعقد حاجباها وهي تجدها من مخرج برنامجها!

ماذا يعني بها؟! ولماذا يخرج الآن عن حدود علاقته

المهنية بها؟!!

هل يريد التسلية؟! أم عساه..؟!!

تنقطع أفكارها وهي تتذكر إحدى زميلاتها في القناة

وقد تزوجت ثرياً عربياً.. وأخرى اقترنت بلاعب كرة

شهير.. والأخيرة التي خطبها أكبر رجل أعمال في

مصر!

فتتخيل المخرج الوسيم بطلته الجاذبة للعيون يسير
جوارها .. لترتسم على شفثيها ابتسامة راضية !
ابتسامة تقتلها هي في مهدها وهي تنفض الخاطر
عن رأسها ..

ما كل هذه الفوضى!؟

ألن ترسو على بر!؟

تتهد بتعب حقيقي وهي توقف السيارة أمام بيتها ..
لا تريد الصعود .. لا تريد العودة للتفكير وحدها ..
_ لا تسيري وحدك .. الشارع خطير لامرأة ضعيفة
مثلك .

تشحب ملامحها بخوف وهي تقرأ الرسالة على
هاتفها ..

لم تكن المرة الأولى التي تصلها فيها رسالة
كهذه .. لكن شعورها الداخلي الآن يجعلها ترتعد حقاً
هذه المرة وهي تشعر بالوحدة ..
تنظر لمدخل البناية حيث رجل الأمن فتشعر ببعض
الأمان ..

تغادر السيارة بسرعة لتهرول نحو الداخل ..
الخوف الأسود يغلف خفقاتها حتى تصل لشقتها
فتغلق بابها خلفها بسرعة ثم تستند عليه لاهثة !
لو كانت الأمور تسير بطبيعتها لاتصلت بإيهاب
الآن .. لقصت عليه تفاصيل زيارتها لهيام .. شكها في
نوايا المخرج .. تخبط مشاعرها هذا .. بل وخوفها
المستحدث هذا من تلك الرسائل الغريبة ..

لكنها الآن لا تملك سوى أن ترفع الهاتف أمام

وجهها ..

عيناها تتسمران أمام رسالته الأخيرة بصيغتها

الوحيدة التي تتكرر كل يوم ..

وبصورته التي تجاورها والتي تعمدت فيها قص

وجهه عن بقية جسده ..

لتهمس له كأنه يسمعها ..

لماذا كشفت عن مشاعرك؟! لماذا أفسدت ما بيننا؟!!

لماذا؟!!

=====

حمداً لله على سلامتك يا "حاجة"! أقلتني كل

مرة!

يهتف بها إيهاب بمزيج من حنانه وخوفه بعد نوبة
من ارتفاع ضغط أمه لترد الأخيرة المستلقية على
فراشها بمرح مصطنع:

_ لا تخف! لن أموت قبل أن أزوجك وأرى
أولادك!

عيناه تتلونان بالأمل وهو يستحضر صورة عزة في
خياله ..

_ تفهمين في تفسير الأحلام يا "خوخة"؟!
يسألها مداعباً بلفظته التحببية فتضح المرأة وهي
تربت على كفه هاتفة :

_ قل يا قلب "خوخة"! خيراً بإذن الله!
_ حلمت أنني أطارد حورية خضراء .. ظللت أعدو
خلفها حتى سقطت بين ذراعي!

فقط؟!

تقولها أمه بخبت فيقهقه ضاحكاً ثم يقرص وجنتها
مداعباً بقوله :

"شقاوتك يا خوخة"! اعتبري أن الرقابة حذفت
بقية الحلم!

تضحك المرأة بدورها ثم تتهد بعرق لتسأله :

حوريتك الخضراء هذه ستتعبك .. قلبي ليس مرتاحاً
لهذه الزيجة ! ما الذي يجبرك أن تتزوج امرأة مطلقة
!؟ كما أنها تعمل بهذا الوسط الذي نسمع الكثير عن
إشاعاته !

تقولين هذا لأنك لم تقابليها ! اجلسي معها ربع
ساعة فقط وستقسمين أنك لا تتمنين لي خيراً منها !
تمط المرأة شفيتها بعدم اقتناع لتسأله ساخرة:

_ومتى سننال شرف هذه المقابلة؟! لازالت الحورية

تفكر!

_ لا داعي للهجة الحموات هذه يا خوخة!

يقولها مازحاً وهو يميل على وجنتها بقبلة حنون ثم

يستقيم بجسده مردفاً بجديّة:

_ أنا أعذرهما في خوفها من الزواج..التجارب التي

مرت بها ليست هينة.

_وما الذي يجبرك على الزواج بوحدة تجاربها ليست

هينة..هل عدت الفتيات

اللاتي هن بلا تجارب؟!!

تهتف بها بنفس النبرة المستنكرة فتغيم عيناه

الدافئتان بنظرة حاملة وهو يرد:

_ أحببتها!

هنا تصمت أمه قليلاً وهي ترمقه بنظرة متفحصة وقد

ظهر بعض التردد على وجهها ..

فيعود ببصره نحوها ليسألها بمزيج حنانه ومرحه :

_ أعر ف هذه النظره يا "ست الناظره"! ما الذي

تترددين في قوله !؟

ترتجف ابتسامه الأم وقد بدا على محياها حزن

غامض بينما تمد ذراعيها لتضم رأسه لصدرها قائلة

بشروء :

_ "أحببتها" ! يوماً ما ظننت أنك لن تقول هذه الكلمة

ثانية أبداً ! ربما لهذا يجب أن أنظر بعين أخرى لعزة

هذه !

يتخشب جسده بين ذراعيها وكلماتها تسحبه لذكرى

بعيدة ظن أنه قد نسيها ..

صدمة باردة تجتاحه لتقذفه على شاطئ وجع لا يظنه

سييراً أبدأ!

بعض الماضي نصالاً لا تقتل ..يبقى ألمها العمر كله

قابلاً بين الضلوع!

يتعرق جبينه قليلاً بمزيج من شعور الألم والذنب وهو

يزدرد ريقه محاولاً تجاوز هذه الغصة في حلقه ..

ليرفع وجهه نحوها أخيراً قائلاً بمرح مصطنع:

_ عين الرضا يا "خوخة"! انظري لها بعين الرضا

لأجل خاطر ابنك المسكين !

تبتسم ببعض الأسى وهي تدرك ما يختفي حول مرحة

المصطنع هذا ..

لكنها تتجاهل الذكرى كما يتجاهلها هو قائلة :

_ تبدو واثقاً من موافقتها !

يهز رأسه واثقاً ثم يتناول مفكرتها من على
الكومود .. تلك التي تستعين بها في ضبط مواعيدها
فيفتحها ليضع إصبعه على التاريخ قائلاً :
_ سجلي هنا .. أسبوع واحد وتبلغني بموافقها .. بعدها
بشهر .. نقيم حفل الزفاف .. واحسبي بعدها تسعة
أشهر

بالضبط واستعدي لتلقف وليّ عهد ب "خدود"

ممتلئة يشبهني!

كان يتحدث بمرح وهو يقلب الأوراق بسرعة محرراً
أصابعه فوق التواريخ المذكورة بثقة .. لتضحك المرأة
هاتفة :

_ "مغسل وضامن جنة"!

_ بل بصيرة المؤمن يا حاجة ! ادعي لي فقط

وستتيسر الأمور !

يقولها وهو يضع ما بيده جانباً ليرفع كفيه في وضع

الدعاء فتتهد وهي تربت على صدره قائلة:

_ أسعد الله قلبك يا ابني ونال قلبك ما يتمناه !

_ تبدين ناعسة !

يقولها وهو ينهض من جوارها فتضحك قائلة :

_ العب غيرها ! أنا "ست الناظرة" يا ولد! تريد تركي

لتتحدث إلى حوريتك!

_ بريء يا "بيه"! حوريتي تضعني موضع الحظر

حالياً حتى تمنحني قرارها!

يقولها باسماً راحتيه باستسلام فتضحك لتقول

مطمئنة :

_ستوافق!

_ستوافق!

يقولها هو الآخر بيقين وهو ينحني ليقبل جبين المرأة

التي هتفت به :

_افتح التلفاز وهات "الريموت" جوارى واذهب

لتتناول عشاءك لاريب أنك جائع !

_جداً !

_كالعادة !

تهتف بها مازحة وهي تتناول نظارتها من الجوار

لترتيديها فيهتف مشاكساً بدوره:

_شكراً يا "أمومة"! راح زمان الأم التي كانت تترك

ما بيديها لتطعم ابنها عندما يجوع .

_ساعتها لن أغانر المطبخ !

يقهقه ضاحكاً من عبارتها ليهتف مغيظاً إياها وهو

يتحرك ليغادر:

_ سأطعم نفسي بنفسي .. غداً أتزوج عزة وتحضر لي

كل الطعام الذي أحب وقتما أحب .

فتطلق ضحكة مكتومة مستهزئة وهي تضبط التلفاز

على قناة المسلسل الذي تنتظره :

_ بمستوى لهفتك هذا أظنك أنت من ستحضر الطعام

لكليكما!

_ لا بأس ! سيكون على قلبي كالعسل!

يقولها بنفس النبرة المغيظة وهو يمسد صدره

براحته المفرودة فتمط شفيتها باستياء مصطنع

هاتفة :

_ امش ولا ترفع ضغطي من جديد ! رجال آخر

الزمان!

يعود ليقبل رأسها وهو يلقي بنفسه فوقها ليعانقها

بقوة فيرتج السرير تحت ثقل جسده ..

_ السرير سينكسر يا ولد !

تهتف بها مازحة لتمتزوج ضحكاتهما للحظات قبل أن

يستقيم بجسده ليلوح لها بيده مبتعداً وهو يتحرك نحو

الخارج ..

_ إيهاب!

تستوقفه بندائها فجأة عند الباب فيلتفت نحوها لتتردد

قليلاً ثم تعض شفتها السفلى وهي تسأله :

_ لا أخبار عن إياد !؟

تتجمد ملامحه فجأة و عيناه تغيمان بنظرة ألم ثم يهز
رأسه نفيًا فتدمع عيناها وهي تقول بشرود عبر
ملامحها الموجوعة :

_ في كل مرة تصيبني نوبة كهذه لا أكاد أفكر إلا
فيه ..تظني سأموت قبل أن أراه من جديد !؟
يختلج قلبه بعنف لمجرد خاطر فيهدف بها بجزع:

_ لا تعيدها ثانية يا أمي بالله عليك !

_ حاول معه من جديد ..اعثر عليه يا ابني .

تقولها وهي تغمض عينيها بقوة بينما تغلق التلفاز
فيهدف بها بقلق وهو يعاود الاقتراب منها:

_ أنتِ بخير!؟!

_ لا تقلق..أنا فقط غيرت رأيي ..سأنام ..أطفئ النور !

تقولها وهي تندس تحت غطائها فيمتثل لرغبتها ثم
يقف مكانه صامتاً وهو يراقب اهتزاز جسدها تحت
الغطاء واشياً ببكائها الصامت ..

يكاد يمد أنامله نحوها مواسياً لكنه يعود ليقبض كفه
جواره وهو يشعر أن يده -الملوثة بإثمه هذه- لن
تواسي!

يغادر الغرفة بخطوات يثقلها خاطر الأخير ليتوجه
نحو غرفته هو ..

يتناول هاتفه ليبحث عن رسالة من عزة
فلا يجد ..

ينقبض قلبه بخوف يناقض كل الثقة التي كان يتحدث
بها منذ قليل مع أمه ..

ليكتسحه طوفان من ذكريات الماضي ..

فيقف أمام مرآته والسؤال الخائق يعتصر قلبه ..
هل يستحق السعادة التي ينتظرها مع عزة حقاً؟!
=====

برتقالي

__ طيف الصالح تسحق عدو المرأة في الندوة التي

أقيمت وتجبره على اعتزال الكتابة .

__ طيف الصالح تكتسح قائمة عشر نساء مبدعات في

الوطن العربي بعد تصريحاتها

الأخيرة عن قصة حياتها .

__ هل تتحول قصة حياة طيف الصالح لفيلم سينمائي؟!؟

من الممثلة المرشحة للبطولة؟!؟

__ هل تنفذ طيف الصالح وعدّها برواية قادمة خالية

من الحبكات العاطفية المعتادة؟!؟

__ ما سر الصمت المفاجئ ليحيى العراقي وابتعاده عن

مواقع التواصل؟!؟

ينعقد حاجباها وهي تتابع هذه الأخبار -التي انتشرت
على مواقع التواصل- على شاشة هاتفها حيث تجلس
في هذا المقهى القريب المجاور لبنايتها ..
تتمنى لو تستجيب لهذا الزهو المزيف بهذا
الانتصار الذي يحكون عنه ..

لكن هذه الغصة في حلقها تمنعها!

هو الذي هزمها!

لن تنكر هذه الحقيقة التي تبرز كالشمس بين
ضلوعها وهي لا تكاد تذكره سوى بمشهده يقف مغلقاً
زر سترته ومعلنأ المغادرة وترك كل هذا خلفه كأنه
عبث لا يهتم به !

تماماً كما لا يمكنها إغفال هذه الـ "خفقة الغادرة"
لقلبها مع نظرتة التي أصابتها كصاعقة !

ماذا دهاك يا طيف؟!

أي جرح أيقظه فيك هذا الرجل؟!

بل .. أي إحساس؟!!

يزداد انعقاد حاجبيها بانفعال وهي تتلفت حولها كأنها

تتأكد ألا أحد يراها قبل أن تتساب أناملها فوق شاشة

هاتفها تبحث عن حسابيه .. لكنه كان قد أغلقه !

تزفر بخيبة وهي تعاود التلفت حولها كلصّة قبل أن

تواتيها فكرة ما ..

_ لا لا لا! "شغل المراهقات" هذا انسيه !! لن

أفعلها !!

تهمس بها لنفسها زاجرة لكن أناملها بدت وكأنها

تتحرك بإرادة مستقلة لتنفذ فكرتها المجنونة ..

وها هي ذي تنشئ لنفسها حساباً الكترونياً مزيفاً
تراسله به على بريده الالكتروني الذي زعم في الندوة
أنه سيبقيه مفتوحاً للرد على استفساراتهم ..
سترسل رسالة تعلم أنها قد تتوه في زحام البريد الذي
يصله ..

لكنها كانت تريد أن تقتص منه !
ستتسلى كثيراً بروية هذا ال "يحيى" الغامض كيف
يكون عندما يختلي بامرأة خلف شاشة !
هل سيحتفظ وقتها بأفكاره ؟!
ستكون متعتها في الأيام القادمة أن تضحك من
حماقته وهي تلاعبه من خلف الستار ..
تتردد قليلاً فيما ستكتبه لكنها تتخيله مشهداً في إحدى
رواياتها ..

سيكون هو "البطل" الذي ستختار له مصيره كما

اعتادت !

تفكر قليلاً في معطيات شخصيته كما تعرفها .. ثم

تبتسم وذكاؤها يلهمها الرسالة المناسبة لاختراق

رجل مثله :

_ كتاباتك مميزة حقاً حتى أنها أقنعتني رغم ظاهر

مهاجمتها للمرأة .. لكن ينقصها شيء ما .. كلعبة

"بازل" تنتظر القطعة الأخيرة لتكتمل!

تعاود التلفت حولها خلسة من جديد ثم تبتسم بخبث

وهي تضغط زر الإرسال ..

تعلم أن رجلاً مغروراً مثله لن يطيق صبراً على

السؤال عن ماهية هذا الذي ينقصه !

لو صدق ظنها فسيكون رده على رسالتها هو ..

_وبرأيك ما هي القطعة الأخيرة التي ستكملها هذه ؟!

تتسع ابتسامتها والرد يصلها بأسرع مما

توقعت ..وكما توقعت !

تقف مكانها بنظرات ظافرة وهي تغلق هاتفها لتتناول

حقيبتها وترحل ..

لا! لن ترد الآن بالطبع!

ستتركه يحترق بفضوله !

تشعر بمتعة خفية تكسب أيامها الباهتة بعض البريق

لهذا كانت خطواتها منتعشة وهي تعبر الطريق نحو

بنايتها المقابلة ..

تشتري بضعة أشياء من متجر قريب ثم تتجه نحو

مدخل البناية حيث يستقبلها ناطور العمارة "البواب"

ليحمل منها الأكياس ثم يضغط زر المصعد الذي

توقف لتوه لتفاجأ به داخله ..

يحيى!

_أستاذ يحيى هل ستخرج!؟!

يسأله الناظر بنبرة مهذبة وهو يلاحظ توقفه مكانه

ليرد يحيى بنبرته المحايدة :

_بل سأصعد ثانية ..نسيت شيئاً !

يضع الرجل الأكياس بالداخل فتشكره طيف بعبارات

مبهمة وهي تصرفه بورقة نقدية تعمدت جعلها عالية

القيمة !

يغلق عليهما باب المصعد فتتحفز خلاياها بشعور

غريب وهي تعجز عن السيطرة على خفقات قلبها ..

تتذكر ذاك المشهد التخيلي الذي تمنته يوماً أن تختلي
به في مكان كهذا ثم تكيل له شتائمها وضرباتها ..
لكنها الآن تشعر أنها عاجزة حتى عن رفع رأسها
نحوه !

تشيخ بوجهها عنه فيما يبدو كاحتقار لكنها وحدها
كانت تعلم أنه هروب!

غريباً أثر هذا الرجل عليها !!

كل ذرة من عقلها تناشدها الابتعاد عن كل ما
يخصه ..

لكن مغناطيساً خفياً يجذب كل أقفال روحها نحوه .. بل
ويهدد بفتحها !!

هل يشبه حسام القاضي إلى هذا الحد ؟!

لا .. كلاهما وسيم إنما بطريقته ..

كلاهما مغرور إنما بطريقته ..

كلاهما مستفز إنما بطريقته ..

وكلاهما ترك هذه البصمة النادرة في قلبها .. إنما

بطريقته !

تحاول السيطرة على خفقاتها وهي تتذكر انتصارها

المعلن بفوزها في الندوة ..

وانتصارها الخفي بسرداب الظلام الذي فتحته بينهما

عبر حسابها السري ..

لكنها تعجز عن هذا وهي تشعر برائحة عطره التي

تملأ المكان حولها تشبهه ..

قوية .. مستفزة .. وأسرة !

أنا آسف!

هل قالها حقاً ؟!

بهذه النبرة الرخيمة التي تضي على صوته الرجولي

سحراً خاصاً؟!!

تغمض عينيها بقوة وهي تشعر بالمزيد من صوته

يخترق دفاعاتها ..

_ ما قلته في لقاء المرة السابقة لم يكن لائقاً !

تكز على أسنانها بقوة وهي تشعر بهذا الوهن الذي

يثيره صوته فيها يشعل براكين غضبها ..

فتلتفت نحوه أخيراً لتهتف بحدة :

_ ومن أخبرك أنني سأقبل اعتذار وغد مثلك .. لا

تحاول ..

تقطع عبارتها وهي تشعر أن دلو ماء مثلج سقط على

رأسها !

فقد اصطدمت عيناها لتوها بهذا الهاتف الذي يمسكه

في يده !!

لم يكن يتحدث إليها إذن!!

ابتسامة ساخرة تطوف فوق شفثيه وهو يكمل حديثه

مع الطرف الآخر للاتصال قائلاً :

_ سأحدثك في وقت

لاحق .. الشبكة هنا ..مختلة !

يقول كلمته الأخيرة بنبرة ذات مغزى فيزداد احتقان

وجهها حتى تشعر أن الدم سينبثق منه !

ينقذها وصول المصعد فتحرر أنفاسها التي انحبت

في حلقها ..

تخفض بصرها عنه بمزيج من حرج و غيظ لتفاجأ به

ينحني ليحمل أكياسها دون انتظار إذنها ليتحرك بها

نحو باب شقتها فيضعها هناك ثم يعود لشقته ليدخلها

صافقاً بابها في وجهها!!

_ لم أطلب منك شيئاً .. وفرّ تظاهرك السخيف هذا

بالذوق وأنت مجرد وغد مغرور .. كيف كنت أعلم أنك

لم تكن تحدثني؟! أنت تتعمد جعلي أبدو كالبهاء كل

مرة لتبدو أنت

الأذكي ! لكنك غبي .. غبي وساذج وإلا لما خدعتك

إحداهن لتجعلك بهذه العدائية نحو النساء كلهن !

تهتف بها أمام مرآتها بعدما أغلقت باب شقتها خلفها

لتفرغ فيها شحناتها المكبوتة ثم تحاول التقاط

أنفاسها وهي تشعر أن ضغط دمها ارتفع حقاً ..

تزفر أخيراً زفرة ساخطة وهي تدخل

الأكياس للمطبخ ..

ترفع أناملها نحو أنفها لتشم رائحة عطره تفوح

منها !!

_ الكلور!! أين الكلور!؟

تهتف بها بغیظ وهي تتجه نحو الحمام القريب .. تفرك

أناملها بقوة وهي تشعر بعينيها تدمعان غيظاً و ...!

شعور آخر تأبى الاعتراف به !!

تبدل ملابسها بمشاعر مضطربة وهي تتجه نحو

مرآتها لتمشط شعرها ..

تري كيف يراها المغرور هذا!؟

تعلم أنها ليست جميلة بالمواصفات المعروفة لكنها

كذلك تعلم أن ملامحها تحوي سحراً خاصاً ..

قالها لها بعض الرجال بطرق عدة ..

وقالها لها حسام قبلهم !

تبتسم شاردة ببعض الحنين وهي تتجذب رغماً عنها

لذكرى بعيدة .. بعيدة ..

تبدو لها الآن وكأنها لأخرى غيرها ..

أحبك .

بصوته الذي كان يحملها فوق أعالي آفاق

الحلم .. وبضغطة أنامله على كفها تنبض لها بلحن

أمان بكر لم تسمعه أذنها قبله .. وبهذه النظرة الواعدة

في عينيه والتي تشهد الآن .. كم كانت كاذبة !!

الغريب أنها في هذه اللحظة لم تكن تستحضر ملامح

حسام .. بل إنها تبدلت في عينيها فجأة إلى

ملاح .. يحيى!

"خرب بيتك!"

تهتف بها بسخط وهي تخبط صدغها براحتها

المفرودة مردفة بالمزيد من الغيظ :

_ اخرج من رأسي ! اخرج !!

تزفر بالمزيد من السخط وهي تتحرك نحو منضدتها

الأثيرة التي وضعت عليها حاسوبها المحمول ..

تصب لنفسها كأساً من المياه الغازية السوداء الغنية

بالكافيين ..

تتناول قطعة من شيكولاتة أجنبية لا تحب طعمها بقدر

ما تحب شعورها وهي تتناول شيئاً ما بهذا الثمن !

تجلس أخيراً فوق مقعدها المقابل للنافذة التي ترى

من خلالها غرفة مجد وقد أسدلت هي ستارها قاطعة

على نفسها سكة انشغالها بهذا الأمر !!

_ أنت لا تستحق الحب ..مثلك لا يعترف سوى بلغة

واحدة لغة المصلحة ..لكنني سألقنك درساً لن

تتساه ..لن تتساه في عمرك القصير !

تكتبها على لسان إحدى بطلاتها لتجد نفسها تكمل

المشهد بأن تطعن البطلة البطل في عنقه في تحول

مفاجئ وصادم لخط حبكة الدرامية !!

_ لا بأس! هكذا أفضل! النهايات غير المتوقعة مثيرة

للجدل وتضمن نجاحاً سريعاً !

تقولها لنفسها رافضة الاعتراف أن دواخلها النفسية

تتحكم في ما تكتبه ..

تشعل سيجارة لتنفث دخانها بقوة مستمتعة برائحة

التبغ ..

لتكتب ..

بعض السقوط نهاية ..وبعض السقوط

بداية ..والعبرة دوماً بأي أرض تتلقفك !

تتهاد ببعض الرضا وهي تكمل كتابة بعض المشاهد

الإضافية ..

ستكون هذه روايتها الأولى التي تتخلى فيها عن

الحبكات العاطفية المعروفة !

تمر بها الدقائق سريعة في عدوها فتتأعب بإرهاق

وهي تشعر برغبتها في النوم ..

تضع حاسوبها جانباً ثم تتأهب للعودة إلى غرفتها لكن

خاطراً ما يجعلها تعاود فتحه لتتنظر لحسابها

الالكتروني المزيف حيث رسالة يحيى الأخيرة ..

وقد ترك لها رسالة خالية إلا من بضع علامات

استفهام كأنه يحثها على الرد ..

تبتسم ببعض العبث وهي تفكر في الرد لكنها تقرر

تركه للغد ..

مت بغيظك !

تهتف بها بشماتة وهي تصفع الشاشة صفحة قوية

نسبية تكاد تسقط الجهاز فتشقق وهي تعدل وضعه

هاتفة :

خرب بيتك ! أذى !! أذى !! كلك أذى !!

تتمتم ببعض السباب وهي تتحرك مبتعدة لكن حدساً

بداخلها يجعلها تتحرك نحو النافذة المقابلة ..

تشد الستار ببطء لتتنظر خلفه لغرفة مجد التي بدت

وكان النوم قد غلبها فوق كرسيها !

تبتسم بحنان صادق وهي ترى الصغيرة تحتضن ذاك

الكتاب فوق صدرها ..

ومن جديد تذكرها بنفسها!!
تري ما علاقتها بيحيى هذا مادام ليس أباهما؟!
غداً ستسأل "الناطور"!!
أجل.. المال يفك ارتباط الألسنة ولا بد أن الرجل يعرف
عن تفاصيله الكثير مما ..
تنقطع أفكارها بشهقة مذعورة وهي تميز ستار غرفة
الصغيرة الذي كان يحترق بفعل هذه الشمعة المعطرة
التي وضعت تحته!!
_ مجد!! مجد!! استيقظي!!
تصرخ بها بخوف عبر النافذة وهي تحاول إيقاظ
الصغيرة التي بدت مستغرقة تماماً في النوم بينما
يشتعل القماش أكثر وأكثر..

فلم تجد بدأً من ارتداء مئزرها بسرعة لتركض
للخارج ثم تطرق باب شقته بعنف صارخة:
_افتح!! هناك حريق!!



_أي حريق؟! ألن ترحمينا من جنونك هذا؟!
يهتف بها يحيى بحدة لكنها تدفعه بقوة وهي تركض
نحو الداخل بان دفاع فيعدو خلفها هاتفاً بلهجته
العراقية :

_ "وين موليه؟! ما حد تارس عينج"؟!
كانت تفهم قليلاً ما يعنيه بقوله اللفظ الذي يعني "أين
تذهبين؟! لا أحد يملأ عينك!"
لكنها لم تبالِ وهي مستمرة في طريقها ..

يدركها عند الباب فيجذب ساعدها بقوة وقد بدأ يشك
في قواها العقلية لكنه يسمع صوت صرخة مجد من
الداخل فيندفع ليفتح باب الغرفة ..

_ نزاااار .. نزاااار !!

يصرخ بها بعنف وهو يحاول إطفاء الحريق الصغير
ليظهر نزار وقد بدا على وجهه أنه قد استيقظ لتوه !
ينهمكان سوياً في السيطرة على الحريق فيما لا تشعر
طيف بنفسها وهي تركض نحو مجد لتضمها بين
ذراعيها بقوة محاولة تهدئة صرخاتها ..

قلبا يخفق بجنون ومشهد النار يذكرها بأعظم

خطاياها ..

تلك الليلة التي أوهمت فيها حسام أنها أحرقت بيتها

كي يعيش عمره معذباً بذنبيها !!

ليلتها شعرت وكأنها حقاً احترقت!!
قلبها احترق..روحها احترقت..ضميرها احترق..
كلها صارت مسخاً مشوهاً لا يسعى سوى خلف
انتقامه!!

لهذا ملأت الدموع عينيها وهي تعانق الصغيرة بقوة
فلا تدري من فيهما تحتاج
الآن هذا العناق!!

متى كانت آخر مرة استمتعت بعناق كهذا أو سمحت
لأحدهم أن يقترب منها إلى هذا الحد!؟
ياالله!!

ربما منذ ما يقارب أربع سنوات..
عندما منحها عاصي الرفاعي أول عناق أخوي
بينهما..

أول .. وآخر!!

_ابتعدي .. ابنتي تخاف من الغرباء .

صوت يحيى الفظ خلفها ينتشلها من طغيان عاطفتها

الهادر فتنتفض واقفة مكانها لتحذجه بنظرة

مشتعلة ..

الوعد!

لقد أنقذته وعائلته من حريق للتو ! والآن يحدثها

بهذه الطريقة !

تندفع لتخرج من الغرفة وهي تلغنه وتلعن نفسها

وتلعن اليوم الذي سكنت فيه هذا البيت ليكون هو

جارها ..

ستنتقل من هذا البيت .. ستتركه لهذا المستفز الذي ..

_انتظري!

لم تكن لتتوقف أبداً سوى لأن الصوت خلفها كان

ل "مجد"!

ينعقد حاجباها بقوة وهي تكتف جسدها بساعديها

كأنما تقاوم انفعالاً عارماً ..

مالها وكل هذا؟! فلتعد لبيتها وتغلق بابها خلفها!!

هي فعلت الواجب وانتهى الأمر!!

_ انتظري .

تلتفت ببطء نحو الصغيرة التي كررت رجاءها وقد

بدت هي الأخرى وكأنها تقاوم صراعاً بداخلها ..

لو كانت تخاف الغرباء حقاً كما يزعم فحالها الآن

ليس بالهين!!

ترفع لها مجد كفيها ببطء حذر فتزدرد طيف ريقها

بتوتر وهي لا تدري كيف تتصرف ..

لو استجابت لنداء كبريائها الآن فالأولى أن تغادر

دون رجعة !

لكنها بدلاً من هذا وجدت قدماها تقودانها دون وعي
لتجلس على ركبتيها أمام كرسي الصغيرة التي رمقت
ملامحها بنظرة متفحصة ..

قبل أن تمتد أناملها الصغيرة لتحتضن خصلة من شعر
طيف الطويل ..

ثم خصلة من شعرها هي .. فتقربهما من بعضهما
لتغمغم أخيراً بشرود :

شعرك أسود كشعري .. لكنه ليس قصيراً
مثله .. "بابا" لا يحب الشعر الطويل .. "ماما" كان
شعرها طويلاً !

يختلج قلب طيف بعاطفة دافقة تحاول دوماً وأدماً
فترفع عينيها بنظرة مختلصة نحو يحيى الذي بدا
وكان شياطين الدنيا كلها تتصارع فوق وجهه الآن!
يبسط كفيه فوق كتفي مجد بوضع حمائي لتهتف
الأخيرة بعفوية طفولية مخاطبة طيف:

_ أنا أعرفك .. أراكِ أحياناً من هنا ..

تشير بذراعها نحو نافذة غرفتها لتعود ببصرها نحو
طيف مردفة بنفس العفوية :

_ تنفثين الدخان من فمك كالقطار !

_ قليلة الأدب كأبيك!

تتمتم بها طيف- سراً- وهي تكتم غيظها لتقول من

بين أسنانها:

_ من هذه النافذة رأيت اشتعال النار في الستار .

لكن ابتسامة الصغيرة الملائكية تبدد كل هذا وهي

تقول بامتنان:

_إذن أنتِ أنقذتني اليوم!

ثم ترفع وجهها نحو يحيى متسائلة :

_هل أقبّلها يا بابا!؟!

يحتقن وجه طيف بجرج ..و..شعور آخر قلما يصيبها

وكادت تتساه من فرط ضمور خلاياها فيها ..شعور

بالخجل!!

فيما لم يكن يحيى أحسن منها حالاً وهو يود لو

يحملها بين ذراعيه و...

يلقيها خارج الشقة !!

ضحكة نزار العالية تقطع الجو الغريب وهو يرمق

كليهما بنظرة خبيرة ليهتف مخاطباً الصغيرة :

_قبلها يا "ميجو"! واشكريها لإنقاذها حياتك.
يحدجه يحيى بنظرة صاعقة يتجاهلها وهو يكرم
ضحكته فيما تتحني مجد بجذعها لتقبل وجنة طيف
التي انتفضت مكانها لتقف بسرعة وهي تتحسس
وجنتها حيث موضع قبلة الصغيرة ..

هل تبالغ لو زعمت أنها -مثل مجد- تخاف اقتراب
الغرباء إلى هذا الحد !؟

سنوات مرت من عمرها وهي تتواصل مع الناس
خلف شاشة أو سطور كتاب ..

حتى تلك الندوات القليلة التي تحضرها لا تسمح
لأحدهم فيها أن يخترق حاجزها ويقتررب ..

لا علاقة بالجيران .. لا صداقات ..

حتى تلك الرفقة التي جمعتها منذ سنوات بمصادفة
قدرية غريبة مع ماسة ودعاء وزهرة وحسناء وجنة
تتصلت منها بسرعة بمجرد أن عرفت حقيقتهن !
بل إنها ترفض السفر لعاصي ولم ترَ طفليه
إلا في الصور!

والآن يأتي هذا المستفز وابنته ليخرقا كل قواعدها !!
_ حمداً لله على سلامتك .

كان هو الرد الأقرب للمنطقية هاهنا لكنها وجدت
نفسها بدلاً من قوله تهتف بفظاظتها المعهودة
مخاطبة مجد ومتجاهلة الرجلين تماماً:
_ من الغباء أن تنامي وفي الغرفة شمعة مشتعلة .. لو
كان أهلك لا يملكون الذكاء الكافي لاستخدام معطر جو
بدلاً من شمعة في غرفة طفلة قعيدة وحدها فكوني

أنتِ حريصة ولا تفعليها إلا لو أردتِ أن تموتي

محتركة !

_ أعود بالله من ملافذك ! هل هذا كلام يقال لطفلة؟!!

يهتف بها يحيى باستنكار وهو يربت على كتف مجد

التي امتنعت ملامحها لتهتف طيف بنفس الفظاظة

وهي تلوح بذراعيها في وجهه :

_ وهل حسبت أنتِ حساب طفلة وقد كدت تؤذيها

بإهمالك؟! ماذا كنت تفعل ساعتها لتتشغل عنها

وتتركها وحدها لهذا المصير؟! تكتب هذا الهراء عن

عداء المرأة؟!!

_ وما شأنك أنتِ بما كنت أفعله؟! ما شأنك أنتِ؟!!

يصرخ بها بغیظ وهو يلوح بذراعه في وجهها كذلك

لتصرخ بحدة مشابهة :

_صحيح ! ما شائي؟! كنت لترك بيتك يحترق بمن

فيه ! هذا هو الجزاء المناسب

لأمثالك!

_أمثالي؟! أمثالي؟! أنت تشتميني في بيتي؟!!

_بيتك؟! ما بيتك؟! بيت الأمة مثلاً؟!!

_وحدوا الله يا جماعة الخير! الموضوع لا يستحق!

يهتف بها نزار مهدناً وهو بالكاد يكتم ضحكاته بينما

يبعد يحيى مرتباً على كتفيه لتهتف طيف بنفس

الانفعال الساخر وهي تعطيهم ظهرها لتتصرف:

_تركنا لك بيتك يا سمو الملك!

_أرجوك ابق قليلاً!

تهتف بها مجد بحرارة وهي تمد كفها الصغير

لتحتضن راحة طيف فيما يكاد يحيى يجن مكانه وهو

يرى صغيرته التي تخاف الغرباء قد انسجمت معها

بهذه السهولة ..

خاصة والصغيرة ترفع وجهها نحوه هو هاتفة

برجاء:

_ كن لطيفاً معها .. هي لن تؤذيني .. قيصر!

يرتفع حاجباه بدهشة وهو يرى كلمة السر الخاصة

بينهما تستخدمها الصغيرة لأول مرة كي تمنحه هو

الشعور بالأمان بدلاً من العكس!!!

_ أرجوك يا سيدتي .. اجلسي وتناولي كوباً من العصير

على الأقل كواجب ضيافة .. تعلمين يا مجد؟! جارتنا

اللطيفة هذه تكتب الحكايات .. دعها تقص لك حكاية!

يهتف بها نزار بمرحه المعهود فيكز يحيى على

أسنانه وهو يرمقه بنظرة صاعقة يردها له نزار

بضحكة مكتومة .. لكن يحيى يتحكم في نبرته ليقول

وهو يشيح بوجهه :

_ لقد تأخر الوقت ولا يصح أن تبقى هنا في شقة

رجلين أعزبين .. لو كانت تريد البقاء مع مجد فلتأتِ

صباحاً ونحن بالخارج !

_ لا بالخارج ولا بالداخل .. أنا لن أخطو هنا مرة

أخرى !

تهتف بها طيف وهي تلاحظ أنه يتعمد أن يخاطبها

بضمير الغائب فتتزع كفاها من كف الصغيرة كارهة

لتركض خارج الغرفة بل والشقة كلها ..

تدخل شقتها لتغلق بابها خلفها وتستند عليه شاعرةً

أن خفقاتها تتجاوز حد الجنون !!

ماذا جرى لها !؟

لماذا سمحت لنفسها بهذا الوهن !؟
ستعود لصومعتها الحامية ولن تسمح
لأحدهم أن يخرقها من جديد !!
تقضي ليلتها مؤرقة شاعرة بالخطر!
هي التي لم تخش يوماً البيت وحيدة ..السفر
وحيدة ..بل والعيش وحيدة !
الآن تشعر أنها مطاردة ..
وليس أقسى من أن يكون مطاردها قابعاً داخل
ضلوعها!
ماذا كانت تعني مجد بحديثها عن أمها صاحبة الشعر
الطويل!؟
كيف حرمت منها!؟
وما سلطة يحيى عليها إن لم يكن أباه!؟

تراه أخوها؟؟!

ما قصتهما؟!

ونزار المتظارف هذا ما علاقته بهما؟!

تتلوى على جمر أفكارها حتى الصباح الذي ما كاد

يشرق حتى استدعت "الناطور" لتتقده ورقة مالية

كبيرة كانت كافية لمنحها بعض التفاصيل ..

مجد ليست أخته ولا ابنته .. لكنه يعاملها كذلك .. ونزار

صديقه المقرب الذي يعيش معهما ولا يكاد

يفارقهما .. يدير شركة تأمين هنا كمشروع استثماري

واعد بالربح ويبدو ميسور الحال كثيراً !

هذه هي المعلومات التي تمكنت من جمعها لكنها لم

تشبع فضولها ..

وما شأنك أنتِ ؟! ما شأنك أنتِ ؟!

تقولها لنفسها مقلدة صوته وهي تمط شفيتها
بحركات سخيفة قبل أن تشعر بصداع السهر يكاد
يفتك برأسها :

_ خرب بيتك!! غمة وابتليت بها!
تهتف بها بسخط وهي تهم بالدخول للمطبخ لإعداد
قهوتها لكنها تفاجأ بجرس الباب يرن فتتحرك
لتفتحه ..

وتجده أمامها!
احمرار عينيه القوي يفضح سهره هو الآخر!!
_ خيراً؟!

تهتف بها بفظاظة رغم مفاجأتها بحضوره ليشيح
بوجهه عنها كعهده ثم يقولها وكأنه يغتصبها
اغتصاباً فوق شفيتها:

_أسف!

_غريبة! لا أرى هاتفاً هذه المرة! الشبكة لم تعد

مختلة!؟

تهتف بها متحصرة بتهكم فظ فيعود ليحدها بهذه

النظرة الغريبة التي لا تفهمها ..

نفس النظرة الموصدة التي تعجز عن قراءتها لكنها

تخرقها كسهم نافذ!

_اسمعي! آخر ما يمكنني فعله هو أن أجملك بدعوى

أي رغبة مني في القرب منك أو حتى في

رؤيتك .. لكنني قد أقلب الدنيا كلها لأجل رغبة

ابنتي .. ابنتي التي تطلب رؤيتك من جديد منذ ما حدث

بالأمس .. فتفضلي واطلبي ما تشائين لأجل أن تنفذي

رغبتها!

تتسع عيناها بدهشة وهي لا تستطيع فهم حديثه لأول

وهلة!!

النبرة التي كان يتحدث بها كانت تتراقص تراقصاً

غريباً بين وقاحة ورجاء !!

مزيج متناقض عجيب لا يليق إلا برجل مثله !!

لكنها تفيق من دهشتها لتستعيد طبيعتها الحادة وهي

تهتف بغلظة :

اقلب الدنيا بعيداً عني! ابنتك هذه لم أنجبها وأنسها!

تقولها وهي تكاد تغلق الباب في وجهه لكنه يمسكه

بقوة ليمنعها في آخر لحظة ..

عيناها النافذتان تكتسحانها بنظرته الآسرة وهو يكرز

على أسنانه بقوة ..

لكنها لم تكن تشعر بالخوف .. بل بالحسد!!

أو بالأدق .. الغبطة !!

الآن ! في هذه اللحظة بالذات تغبط مجد على أب كهذا
ينظر لأحدهم هذه النظرة فقط لأنه يريد شيئاً لابنته !
هذا حاله وهو ليس أباه الحقيقي ..فماذا لو كان؟!
تدمع عيناها رغماً عنها بقهر وهي تذكر المرة
الوحيدة التي رأت فيها حماد الرفاعي أباه وهو
يطردها وأمها خارج البيت!

_ اسمعي! المرتان اللتان اقتحمتِ فيهما بيتي بتلك
الصورة المندفعة كانتا لأجل مجد .. وهذا يدل على أنه
داخلك نقطة ضعف تجاه الأطفال .. وربما تجاهها هي
لأجل ظروفها الخاصة .. ولو صدقت نظرتي فيكِ بعيداً
عن أي تحفظات بيننا فأنا أوقن أنك لن ترفضني
طلبها .

يقولها بنبرته المهيمنة التي تذكرها بجبروت عاصي
الرفاعي .. لكنها كانت تمتزج بنفحة رجاء فواحة
تنشقتها بحدسها ..

لهذا أشاحت بوجهها وهي تهتف ببرود فظ :
_ سَأفكر .

هنا يخفض هو يده عن الباب ليتراجع خطوة قائلًا
باقتضاب:

_ حَقِّك .

يقولها ثم يرمقها بهذه النظرة الغامضة لكنها تصفق
الباب هذه المرة في وجهه كما فعلها من قبل ..
فترتسم على شفثيه ابتسامة متسلية دون أن يبرح
مكانه !

هذه الابتسامة التي رأتها هي عبر العين السحرية
من خلف الباب ليخفق قلبها بجنون وهي تراه يمد
سبابته ليسد بها العين السحرية من الخارج كأنما
يعلم أنها تراقبه خلفها!!

تكتم شهقتها وهي تعطي ظهرها للباب كأنما ضبطها
متلبسة بجرم لتلتمع عيناها بوميض افتقدته منذ عهد
بعيد ..

وميض مغامرة !

هل قالت له أنها ستفكر!؟

حسناً !

لقد اتخذت قرارها!!

=====

*.....(الكوبرا)!



سكون الليل في المكان يبدو خادعاً قبل أن ينشق
سطح الماء في حوض السباحة البالغ الضخامة عن
ذراعي الرجل ..
ذراعه الأيمن لم يكن مميزاً سوى بكثافة شعر جلده ..
بينما ذراعه الأيسر بدا قابضاً بهذا الوشم الذي ارتسم
على طولته ..

وشم بصورة كوبرا تاهبت برأسها وقد فتحت فمها
ليبدو منه ناباها برائحة الموت!

الذراع القوي يضرب الماء بقوة وقد بقي صاحبه
برأسه تحت الماء لتبدو وكأن الكوبرا هي من تشق
طريقها نحو حافة الحوض !



يصل أخيراً للحافة فيرفع رأسه ليأخذ نفساً عميقاً ثم

يزفره ببطء ..

عيناه تلتمعان ببريق قاسٍ وهو يميز اقتراب أحد

رجاله ..

_ أرجو أن يكون الخبر الذي تحمله يستحق مقاطعتي

في وقت استجمامي .. وإلا ..

يقولها بصوته البارد الذي يثير الرجفة في القلوب

ليمتقع وجه الرجل الذي ثبت مكانه ليقول بصوت

متحرج :

_ غازي خضرمات .

يرتفع حاجباه ببعض الرضا وهو يطلق هممة خافتة

ليصعد مغادراً حوض السباحة ..

يجفف جسده ببطء وعيناه تلتمعان بهذا البريق

الغامض ..

ثم يستلقي ممدداً قدميه على ذاك الكرسي الطويل

ليشعل سيجاراً ضخماً ..

ثم يلوح بكفه ليصرف الرجل الذي هرول بسرعة نحو

الخارج كأنه يهرب ..

فيما يبتسم "الكوبرا" ابتسامة قاسية وهو ينفث

دخان سيجاره في الهواء ..

لاتزال خيوط اللعبة كلها في يده ..

ولن يسمح لأحدها أن ينفلت منه أبداً ..

هو الذي يجيد نفث سمه في عيون الجميع فلا يستمتع

بالقتل قدر ما يتلذذ بأن يصيب عدوه بالعمى ..

"الكوبرا" سيد اللعبة .. هذا هو القانون الذي وضعه

لنفسه ..

ولن يسمح لأحد أن يخرقه .. أبداً !



(الطيف الرابع)



_يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ..أصلح لي شأني

كله ولا تكني إلى نفسي طرفة عين .

يتمم بها إبراهيم بخشوع وهو ينهي

تلاوة أذكار الصباح في المسجد .

كعهده يمكث في مصلاه بعد الفجر حتى الشروق تالياً

ورده وأذكاره قبل أن يصلي ركعتي الضحى ..

لكنه يزيدهما هذا اليوم بركعتين لقضاء الحاجة وهو

يشعر بانقباض صدره دون أن يدري ما السبب ..

أو لعله يدري ولا يريد الاعتراف!

هذه "الكارثة" البشرية التي وقع هاتفها في سيارته

والتي تريد أن تلقاه كي يعيده لها !



أمر بسيط لا يستوجب كل هذا القلق فلماذا يشعر قلبه

إذن أنه مشرفٌ على مصيبة؟!!

يعلم أن المرأة فاتنة .. لكن أيدعو هذا لكل هذا الخوف

من لقائها؟!!

ليس شكلها فحسب ..

صوتها الذي سمعه على الهاتف ليلتها كان أشد فتكاً

من صورتها ..

لكن منذ متى يبالي "الدرويش" بفتن الدنيا؟!!

هو زهدا كلها منذ زمن!

_ اللهم اعصمني من الزلل .. واكفني شر نفسي يا

عزيز يا حكيم .

يردها بخشوع وهو ساجد حتى يقع في قلبه أن

دعاه قد قُبِلَ فيتم صلاته ثم يغادر المسجد ليعانق

ضوء الصباح الذي يعشقه في هذا الوقت من كل

يوم .

يسير في الطريق المعهود نحو البيت ليرمق قطعة

الأرض إياها باسم "المستشار الشهير" بنظرة

متحسرة ثم يحوّل سراً وهو يمضي في طريقه نحو

البيت ..

"مستر ربيع" سبقه بعدما أدى صلاة الفجر وقد شعر

بألم في ظهره منعه من إتمام طقوسهما اليومية سوياً

كعهدهما ..

_ صباح الخير يا إبراهيم ..طبق فول "اكسترا"

لعيون "مستر ربيع" ..لماذا أغلقتم الفرن بالأمس!؟!

اضطرت لشراء ذاك الخبز المغلف والزبائن لا

يحبونه .

يقولها العجوز الذي وقف على عربة "الفول" على
جانب الطريق ليبتسم له إبراهيم مجيباً بأسف:
_أحد الرجلين اللذين يعملان مع أبي مرض واضطر
لأخذ إجازة ..والآخر ترك العمل ..وأنت تعلم أن صحة
أبي لم تعد

كالسابق ..لكن لا بأس ..سأقف معه في الفرن مؤقتاً
حتى يوفر عمالاً آخرين .

ينساب لسان الرجل بدعوات صادقة له ولأبيه ثم
يناوله طبق الفول فيأخذه إبراهيم شاكراً ثم يستمر في
طريقه ..

والده يحتاجه هذه الأيام ..

ربما هذه إحدى ميزات العمل كسائق في خدمة
"أوبر" ولهذا اختاره راغباً كي لا يلتزم بمواقف
عمل محددة ..

لكنها ليست الميزة الوحيدة ..
هو يحب اختلاطه بأهل هذا البلد .. يحب هذه الأحاديث
العفوية التي تدور بينه وبينهم ..

يوماً ما عندما رحل من مصر عقب موت حسن ظن
أنه لن يعود لهذا البلد أبداً ..

ربما لهذا يريد الآن أن يمرغ وجهه في صدر هذه
الأرض ..

أن يملأ عينيه من كل هذه الوجوه التي تشبهه ..
دوماً تشبهه .. مهما تختلف الملامح !

يصعد الدرج نحو البيت الذي فتح بابه ليجد أباه واقفاً
في المطبخ فيبتسم بارتياح وهو يتوجه نحوه هاتفاً :
_ لماذا تقف عندك؟! مادمت متعباً ساعد أنا الإفطار!
_ صرتُ بخير .. أعددت لك "الباذنجان المقلي" الذي
تحبه !

_ سلمت يداك .. وأنا أحضرت الفول .. بقيت البطاطس
المقلية .. ساعدها أنا !

_ أنا سأقشرها ! أنت تنتزع نصفها مع القشر ! رحم
الله والدتك .. لو كانت رأّت هذا المنظر لماتت كمدأ!
يهتف بها العجوز بمرح وهو يتناول ثمرة بطاطس
كبيرة يقشرها بحرص فيبتسم إبراهيم ابتسامته
المنقوصة وهو يتذكر

الأيام الخوالي التي كانت تجمع العائلة كلها هنا ..

_ولو رأيت أنك ترمي الزيت بعد القلي كل مرة..ماذا

كانت ستفعل!؟

يخاطب بها أباه مازحاً ليردف وهو ينحني ليفتح باب

الفرن :

_رحم الله "المقلاة العتيقة" المليئة بزيتها والتي

كانت مستقرة دوماً هاهنا !

يضحك ربيع بانطلاق ثم تدمع عيناه بحنين يقاومه

بدوره مع هتافه المرح وهو منهمك فيما يفعله :

_هذه نقرة وتلك نقرة أخرى ..قلي الزيت أكثر من

مرة مضرّ ..لكن قشر البطاطس الذي يذهب بنصفها

هذا إسراف ..أفكر في شراء مقلاة كهربية ..تستخدم

القليل من الزيت ..موفرة وصحية .

_كما تريد يا "مستر ربيع" ..يا فاهم كل المواضيع!

يقولها بمرح شارد وهو يشعل الموقد ليضع فوقه

المقلاة مع الزيت ..

_تعلم ماذا وجدت "أم علي" وهي تنظف المكتبة

القديمة بالأمس!؟!

يهتف بها ربيع بحماس فيلتفت نحوه إبراهيم بنظرة

متسائلة ليرد أبوه بمرح :

_تذكر "بأي حرف تبدئين؟"؟!

يرتفع حاجبا إبراهيم بدهشة للحظات لتتسع ابتسامته

المنقوصة بحنين وهو يتذكر ما يحكي أبوه عنه ..

_وضعتها لك فوق مكتبك .. اذهب وتفقد لها لعلها تكون

كاملة .. اذهب .. هيا .. لا أحب وقوفك معي في

المطبخ .. تعيق حركتي!

يهتف بها الرجل زاجراً بحنانه المعهود فيتقدم إبراهيم
نحوه ليقبل رأسه قبلة عميقة قبل أن يغادر المطبخ
نحو غرفته ..

فوق مكتبه كانت هناك ..

بضعة أوراق قديمة كان قد قام بشبكها معاً بطريقة
يدوية .. وقد رسم لها غلافاً لتبدو ككتاب حقيقي كتب
له شقيقه حسن عنوانه بخطه الزخرفي المميز :

"بأي حرف تبدئين؟!"

وحش الحنين ينشب مخالبه في صدره وهو يمد
أنامله نحو الأوراق التي كتبها منذ سنوات طويلة ..
وبالتحديد في بداية مراهقته ..

مجرد رسائل قصيرة لحبيبة "وهمية" لا يعرف
اسمها فاختر لكل حرف رسالة ..

حبيبي ألف ..

أميرة أنتِ ..صنعتُ لها تاجها من أيام العمر ونسجت
لها ثوبها من خيوط العشق ..فما بقي إلا أن تختارني
أميرها .

حبيبي باء ..

بدرُ بعينيكِ بدد ظلمتي ..بابٌ من النور حرامٌ على من
فتحه أن يغلقه .

حبيبي تاء ..

ترنيمه العشق في قلبي تتلوها خفقاته ..فترفقي بمن
نسي فيكِ حروف الكلام .

حبيبي ثاء ..

ثوبٌ من الفتنة نسجه لكِ القدر وأبى ألا ترتديه
سواك .

حبيبي جيم ..

جمرة خلف جمرة تشعلين بها الروح ولعاً .. فأدعو الله
ألا تنطفئ.

حبيبي حاء ..

حورية سقطت من أعالي الفردوس فحار في وصف
جمالها البشر .

حبيبي خاء ..

خمر حلال سكرته .. وفريضة على شاربها الغرام ..

حبيبي دال ..

درّة تشتهيها تيجان الغرام .. ويسجد لفتنتها موج
البحر والشيطان ..

حبيبي ذال ..

ذهبيّة عينيكِ طاغيةٌ لا يردُّ له حكم .. فلا تلومي من

تعثر بنظراتك !

حبيبي راء ..

رسالة أحسن القلب تأويلها فرددت خفقاته : لبيك

مولاتي حبا!

حبيبي زاي:

زمانٌ بعد الزمان .. تهدين لمن أضع العمر ألف

عمر .. وليتهم جميعاً يكفونك عشقاً !

حبيبي سين ..

ساحرةٌ أقت عليّ تعاويد عشقها .. أنا المأسور بها

فنعم الأسر والأسر!

تزيغ عيناه بشرود عند الرسالة الأخيرة فيتوقف عن

إكمال القراءة ..

حرف السين يحمله لاسمها كما عرفه ..

"سمرا"!

شعورٌ غريب يكتنفه وملامحها الفاتنة تفرض

سطوتها على تفكيره ..

لم يكن يتذكرها كاملة بدقّة لكنه علق بهذه النظرة في

عينها ..

نظرة "وجع فاقد" تشبه خاصتها في عينيه !!

_ الفطور جاهز!

يهتف بها أبوه وهو يبسط راحته على ظهره من

الخلف فيلتفت نحوه شاعراً ببعض الإثم ..

نفس الشعور الذي كان يجتاحه صغيراً عندما يفعل ما

يشين!!

لكن الرجل لم يبدُ منتبهاً لكل هذا وهو يشير بإصبعه

نحو الأوراق قائلاً بمرح:

أخفِ هذه فلو رآها "الحرافيش"

لأشبعوك سخرية ! لا أعلم أين اختفى ابني العاطفي

الذي كان يكتب هذا الكلام .. عندما وجدتها المرأة

صدفة قلت لعلها "بشرى خير" .. عسى الله أن يقسم

لك

ب"بنت الحلال" التي تستحق

كلاماً كهذا ..

يطرق إبراهيم برأسه دون رد ليردف الرجل بنفس

المرح:

عساها فقط تقتنع أنك لم تعشق فتيات بعدد حروف
الأبجدية .. وأن ابني الخلق ادخر الحب في قلبه لمن

ستملكه

بالحلال!

يرفع عينيه لأبيه بهذه الابتسامة المنقوصة التي تبدو
وكأنها لن تكتمل أبداً ..

فيسأله أبوه باهتمام وهو يقلب أوراقه

ملاحظاً أنه قد توقف برسائله عند حرف الواو ولم

يكتب الياء :

لا يزال حرف الياء ناقصاً من وقتها؟! ظننتك

أكملته!

حرف ثقيل جداً لم أجد له ما يصلح للكتابة!

يهتف بها إبراهيم مغالباً خجله من ظهور هذه
الأوراق الآن ليضحك أبوه وهو يسحبه معه للخارج
هاتفاً :

_ ادعُ الله إذن ألا تكون صاحبة النصيب بحرف
الياء ! ومن يدري؟! ربما عندما تظهر تصبح الياء
"الثقيلة هذه" كالعسل على قلبك !
_ تعلم أنني لا أفكر في هذا الأمر الآن .
يقولها إبراهيم بتثاقل ليخبطه أبوه على مؤخرة رأسه
بخفة هاتفاً باستنكار :

_ ولماذا لا تفكر فيه؟! شقتك جاهزة ..وأمرنا
ميسورة والله الحمد .
_ أرجوك يا أبي ..دعنا لا نتحدث في هذا الأمر ..

يمط أبوه شفّتيه باستياء وهو يتخذ مجلسه على مائدة

الطعام ليناوله إبراهيم رغيماً من جواره قائلاً :

_ سأذهب معك للفرن اليوم حتى ندبر أمرنا .

_ وعملك؟!!

_ سأخذ اليوم إجازة .. لكنني سأذهب مساء لمشوار

بسيط .. زبونة نسيت هاتفها المحمول في سيارتي

سأرده لها وأعود بسرعة .

يقولها ببساطة يتمنى لو تكون بمثل حجم شعوره

الخفي بالخطر الذي لا يفهمه .. لكنه يهابه !

=====

أحمر



_ أنا أنتظرِكَ خارجَ المحلِّ .. هل يمكنك أن تقلّني للبيت

بعدها ؟!

تهتف بها يسراً عبر الهاتف الذي يمسكه هو في يده

فيرد بتحفظ :

_ سأعطيكِ الهاتفِ فحسب .. عفواً .. لا أملك الوقت

لمشاوير أخرى.

يقولها ثم يغلق الاتصال قاطعاً على نفسه طريق

التراجع ..

يبعد الهاتف قليلاً فيوسوس له شيطانه أن يتفحص

الصور كي يعلم المزيد عنها ..

أو حتى يسجل رقمها فربما يحتاجه ..



لكنه يستعيد بالله من هذا خاطر ثم يضع الهاتف
جواره بحزم ليتخذ طريقه إليها متجاهلاً ذبذبة هذا
الحدس بداخله أنها لن تكون آخر مرة يراها فيها !
وفي مكانها خارج المحل وقفت هي تراقب الطريق
بلمعة عين حماسية ..

اللعبة على وشك البدء .. والأروع أنها بلا قواعد !!

ارتجاليتها سر شغفها بها !!

هي فقط ستلقي النرد لأول مرة ..

وبعدها ستترك نفسها لنشوة المقامرة !!

تستخرج مرآتها من حقيبتها تطمئن

لحسن مظهرها ..

تحرك وشاح رأسها كي ينحسر عن

خصلات شعرها الذهبية أكثر ..

طلاء شفتيها بحمرته المغوية ..

كحل عينيها الذي تعدته مفرطاً ليظهر لونها ..

رائحة عطرها الآسرة التي تعدتها فواحة ..

كل هذا تضيف إليه اللمسة الأخيرة وهي تشمر كمّي

قميصها حتى مرفقيها كي يبدو بياض بشرتها

الناصح !

تري سيارته تقترب من بعيد فتشعر بدفقة الأدرينالين

في عروقها تمنحها أثراً يشبه ذاك المخدر الذي كانت

تتعاطاه قديماً!!

تمتلئ عيناها بدموع حقيقية مع خاطر الأخير لكنها

تستغلها لصالح "العبة" ..

لهذا ما كاد يتوقف بسيارته أمامها حتى استقلتها

قائلة بصوت تعدته واهناً مرتجفاً :

_ أرجوك اقلني للبيت .. أنا أشعر بالدوار وأخشى أن

أسقط في الطريق!

يعقد حاجبيه بضيق من مظهرها الذي بدا شديد

التبرج حد الاشمزاز بالنسبة لرجل مثله ..

حتى أنه أشاح بوجهه يهم بالرفض لكن حميته

الرجولية جعلته يسألها دون أن ينظر إليها :

_ تحبين الذهاب لأي مشفى أفضل؟!!

تهز رأسها نفيًا متظاهرة بالمزيد من الوهن لترد

بخفوت:

_ بيتي .. فقط بيتي هو ما أحтаجه .. أنت تعرف

العنوان !

يزداد انعقاد حاجبيه وحدثه الداخلي ينبئه بالمزيد من

الخطر ..

لقد ظن أنه سيسلمها هاتفها ويرحل فحسب ..

لكن لا بأس !!

دقائق إضافية لن تضر !!

يشغل سيارته ليمضي بها وشعور الخطر داخله يزداد

ضراوة ..

إنما يتخلله الآن شعورٌ آخر مناسف وهو يسمع أُناتها

الخفيضة خلفه ..

شعور بالشفقة !!

بماذا تشعرين؟!

يسألها بتحفظ متحاشياً النظر نحوها فتتظاهر بكتمان

توجعها هامسة بخفوت:

لا تشغل بالك ! سأكون بخير ..

تقطع عبارتها بأهة مصطنعة أخرى فيختلج قلبه
بالمزيد من التعاطف نحوها بينما تردف هي بصوت
متقطع:

_ أعلم أنك مشغول ولم تكن تريد توصيلي .. آسفة .. لم
أستطع ..

_ لا بأس .. خيراً إن شاء الله .
يقاطعها بتحفظ ظاهره الخشونة وباطنه هذا الإشفاق
الغريزي نحوها ..

فتتفحص جانب وجهه المعرض عنها ببعض
الغرابة ..

إنه مع طغيان زينتها القاهر هذا لم يلتفت نحوها ..

بل إنه يبدو مجبوراً على صحبتها !!

هل يعشق جنة الرشيدي إلى هذا الحد !؟

حد أنه حتى لا يبصر امرأة غيرها ولو في غيابها؟!!

لماذا؟!!

أي امرأة تلك؟! بل أي رجل هذا؟!!

غضبها يدفعها للمزيد من التظاهر الناجح بالألم وهي

تتلوى مكانها ..

فيختلس نظرة واحدة مشفقة نحوها لكن فتنها التي

يزيدها تبرجها إغواءً تدفعه للمزيد من النفور ..

يزيد من سرعة السيارة دون وعي كأنه فقط يريد

التخلص منها ومن كل ما تثيره داخله من فوضى..

لكنها تكاد تشعر بهذا النفور فيزداد عزمها على

مواصلة اللعبة ..

يبدو لها شارعها من بعيد فتتوقد عيناها بحماسة

وهي تستعد للخطوة التالية ..

لأن تلقي هي النرد من جديد إنما بيد أخرى هذه

المرّة !!

_ لا داعي لأن تدخل الشارع .. سأنزل ..

تقطع عبارتها بصرخة قصيرة مصطنعة فيزدرد ريقه

بارتباك وهو يقول بنفس التحفظ الظاهر:

_ سأدخل الشارع .. أخبريني فقط أي بيت.

_ لا .. لا .. الشارع ضيق وغير ممهد .. كفاك هذا !

تقولها ثم تمنحه أجرته فيوقف السيارة ليناولها

هاتفها بسرعة كأنما يريد أن ينتهي كل هذا على

عجل !!

يختلس نظرة أخرى نحوها وهي تغادر السيارة

بإعياء لتترنح مكانها فتتحفز

خلاياه وهو يقاوم المزيد من شعوره



بالشفقة نحوها ..

لكنه يراها تتماسك وهي تسير بضع خطوات مبتعدة ..
يشغل السيارة وهو يهم بالرحيل لكن حميته الرجولية
تجعله ينتظر قليلاً مراقباً إياها خاصةً وقد خلا الشارع
المظلم من المارة ..

تتسع عيناه قليلاً بتفحص وهو يرى من بعيد ذاك
الرجل الضخم يقترب منها بنظرات قمينة تفضح سوء
نواياه .. فلا يفكر للحظة وهو يغادر السيارة ليتوجه
بسرعة نحوها ..

وفي مكانها كانت هي ترقب الرجل الذي يتقدم نحوها
بعينين زائغتين ..

تتذكر كيف حكّت لها سمرا أنه بلطجي يتحرش بها
هنا مستغلاً وحدتها بلا أهل يردون عنها بطشه ..

وتتذكر كيف التقت هي به بالأمس ها هنا لتغويه

متظاهرةً بقبول عرضه الرخيص ..

وكيف طلبت منه أن يلتقيها عقب عودتها من العمل

لتنفذ له كل ما يريد !!

وهاهي ذي خطتها تسير كما أرادت ..

تتوقف مكانها وهي ترى عيني الرجل الجائعتين

تتمهلان فوقها بشراسة وهو يغمزها متمتماً بوقاحة :

_ الليلة ليلتك يا حلوة .

فيرتعد جسدها بخوف للحظة لكنها تعود لتذكر ..

هي لعبة !!

وليس عليها سوى إلقاء النرد من جديد !!

ترى ذاك الظل قادماً من بعيد فتشتعل

خلاياها بالمزيد من الإثارة..

المواجهة قادمة ..

لكن لمَ لا تجعلها أكثر سخونة!؟

تنتظر أن يقترب منها الرجل حتى يكاد

يلاصقها فتصرخ به هاتفة:

_ابتعد أيها الحقيير!

تتبع قولها بصفعة قوية له تعلم أنها تستفزه بها

أكثر ..

بينما ترى الظل المنقذ يقترب أكثر وأكثر ..

فيشتعل جسدها بالمزيد من نشوة المغامرة لكنها تلمح

لمعان ذاك النصل في الهواء قبل أن تسمع سبة الرجل

البذيئة التي قذفها في وجهها وهو يطوقها بين

ذراعيه هامساً في أذنيها بما بدا كالفحيح:

_ تلعبين بي أيتها ال (...)!؟ سأعلمك إذن كيف يكون

اللعب!

تصرخ صرخة حقيقية هذه المرة وهي تحاول دفعه

بينما يصلها صوت إبراهيم هادراً بعنف :

_ ابتعد عنها .

تشعر بالمزيد من متعة المغامرة وهي تحاول إلقاء

النرد مرة أخرى..

تدفع الرجل بأقصى قوتها وهي تصرخ من جديد لكنها

تفاجأ بالنصل الحاد يقترب منها بسرعة

خاطفة .. ليشق بطنها!

=====

_ يسرا!

تهتف بها أمها وهي تنتفض من نومتها فجأة لتمسد

صدرها وهي تدور بعينيها في المكان حولها ..

_ ابنتي! ابنتي!

تصرخ بها بفزع وهي لا تكاد تذكر أي شيء مما

حولها ..

ليفتح باب الغرفة فتدخل منه سمرا التي تهرع إليها

هاتفة بقلق:

_ "ماما" .. أنت بخير؟!

_ ماما؟!

تردها المرأة بحيرة وهي لا تزال تدور بعينيها في

المكان حولها لتزدرد سمرا ريقها بتوتر .. تربت على

كتفها لتضمها إليها قائلة :

_ أنا هنا .. أنا جوارك ولن أتركك !

_ من أنتِ؟!!

تسألها المرأة بنفس الحيرة وعيناها الزائغتان
تطوفان فوق ملامحها بتشتت لترد سمرا بارتباك:

_ أنا يسرا ..ابنتك!

_ يسرا ..ابنتي! ابنتي ليست بخير!

تتمتم بها المرأة بذعر وهي تقبض بكفها على
قميصها فوق موضع خافقها لتشتعل ملامح سمرا
بالقلق وهي تحاول تهدئتها هاتفة:

_ أنا بخير أمامك ..لا تخافي ..لا ..

تنقطع عبارتها والمرأة تدفعها بقوة هاتفة بالمزيد من

الذعر:

_ ابتعدي ..أريد ابنتي ..أريد ابنتي ..

تحاول سمرا السيطرة على حالتها الغريبة هذه والتي

تراها لأول مرة منذ دخلت هذا البيت ..

صحيح أن المرأة هي الوحيدة التي لم تخدع فيها

كالباقيين ..

لكن نفورها منها كان دوماً صامتاً متحفظاً وليس

بحدة هذه المرة !!

_ عفواً يا يسرا "هانم" ! أظنها تحتاج حقنة مهدئة !

تهتف بها الخادمة وهي تدخل عليهما الغرفة مع

المرضة الخاصة بالمرأة والتي تطورت حالة هياجها

لما يقارب العدوانية .. وتلعثمت منها الحروف ..

تراجع سمرا للخلف سامحة لهما

بالسيطرة عليها ..

تدمع عيناها بانفعال وهي تسمع صراخ المرأة باسم

ابنتها والذي تسمعه هكذا

لأول مرة بعدما أفقدها المرض قدرتها على تذكر

الناس والأشياء !!

تعض شفتها بالمزيد من التوتر وهي تحيط جسدها

بذراعيها حتى تشعر بأن جسد المرأة يسكن أخيراً

لتعود لنومتها..

فتعود هي لغرفتها لتغلق بابها خلفها ..

تتأمل صورتها في المرآة فلا تجد سوى دمية سمحت

لغيرها أن يحركها بأنامله كيف يشاء .. بل وسلمته

الخيوط !

لكن .. كيف كانت تملك أن ترفض فرصة كهذه ؟!

وبظروف كظروفها !!

يكفيها أنها تخلصت مؤخراً من مطاردات ذاك الوغد

الذي كان يتحرش بها ..

يكفيها أنها الآن آمنة .. لا تخشى قرصة جوع ولا

بطش ظالم !

لهذا تدعو الله ليل نهار ألا تفيق يسرا هذه من نوبة

جنونها فتعود لتسترد حياتها !

صوت طرقات خافتة على الباب يقاطع أفكارها

فتتحرك لتفتحه ..

يسرا "هانم" يجب أن تعلم بحالة والدتها هذه !

تهمس بها الخادمة كبيرة السن بخفوت وقد كانت

الوحيدة التي تعلم حقيقة سمرا هنا ..

أجل! يسرا جعلتها عينها هنا في غيابها !!

كما تريدين يا "أبله كوثر" !

تهمس بها سمرا بخنوع اعتادته لتهمس كوثر بحدة

أكبر :

_ وهل أنتظر إذنك؟! أنا هاتفتها وهي لا ترد !!

_ الوقت متأخر ..ربما هي نائمة !

تهمس بها سمرا بارتباك من لا يدري ما يفعله لتزفر

كوثر بقوة وهي تتلفت حولها بعجز هامسة بنفس

الخفوت:

_ لست راضية عن كل هذا العبث! يعلم ربي أنني

طاوعتها على جنونها لأتني كنت أعرف حالتها بعد

موت ابنها و

طلاقها من "فادي بيه" ..لكنني لن أسامح نفسي لو

حدث لأمها مكروه دون أن تراها ..

ثم تصمت لحظة لتردف بالمزيد من السخط :

_ تراها هي .. وليست صورتها

الاصطناعية !

تبسط سمرا راحتيا باستسلام حقيقي وعيناها
تتوهجان بهذا الخوف من أن تفقد مكانها هنا فتعود

لحظيرتها الخربة ليتلقفها ذاك الغراب هناك !!

_ سأتصل بها مرة أخرى .. وحاولي أنتِ أيضاً .. سلّم

الله العواقب !!

تهمس بها كوثر بتوتر وهي تتحرك لتفتح الباب ..

ثم تعاود الالتفات نحو سمرا وقد غلبها حنانها

الأمومي لتردف :

_ سأعد لك طعاماً .. أنتِ لم تتناولي غداءك .

_ سأعده بنفسني .. فقط .. شاركيني فيه ..

لو أردتِ !

تقولها سمرا بتلعم فترتسم ابتسامة واهنة على

شفتي المرأة وهي ترقب

ملامحها بدهشة تأبى مغادرتها رغم مرور الوقت ..

لا تكاد تصدق أن نفس الملامح قد تحملها امرأة نارية

كيسرا ..

وأخرى وديعة كهذه!

لكن القلق يعاود اكتساح ملامحها وهي تشعر أن

اختفاء يسرا هذه الليلة وعدم ردها على هاتفها لا

يعني خيراً ..

ورغم غيظها من جنون تلك النارية لكن وخزة حقيقية

أصابت من قلبها وهي تدعو الله أن يخيب ظنها !

==
_ماما !

تسمعها بصوت الصغير كعدها فتبحث عنه بعينها
حولها لكنها لا تجده ..

_ماما!

الصوت يأتيها أقوى فترفع عينها هناك لتراه ..
واقفاً فوق سور شرفة غرفتها مع فادي ..
يرفع ذراعيه حوله كأنه طائر يحلق ..

_لا ! لا !!

تصرخ بها بجنون وهي تعدو نحوه رافعة رأسها وقد
فردت ذراعيها كأنها تتلقفه ..

تراه يهوي إليها فتطلق صرخة تلو أخرى ..
لكنها هي الأخرى تهوي ..
يسقط و.. تسقط ..

فلا هو يصل إليها فتلقفه .. ولا هي تكف عن السقوط

كأنه ليس هناك قاع !!

_ أفاقت ! أنت قريبا؟!

تسمع الصوت الغريب جوارها ينتزعها من كابوسها

فتفتح عينيها لتمييز حضوره ..

هو .. "رجل المغامرة" !!

إلى أين عساها سارت اللعبة؟! ومن سيلقي النرد

هذه المرة؟!

_ أنا سأتكفل بكل شيء .. أخبريني فقط هل هي بخير؟!

ستعيش؟!

تسمع صوته يتحشرج ببحة ألم من عاش رهبة

الموت ويخشى أن يتكرر هذا الشعور ..

عيناها تميزان هذا الدم الذي لوث قميصه فتدرك أنه

دمها هي !

آثار الضرب على وجهه خفيفة ..

عجباً .. هل هزم ذاك الديناصور وحده ؟!

_بالطبع ستعيش! تبدو قليل الخبرة !

الإصابة سطحية لحسن الحظ .. لكنها ستبقى معنا هنا

بضعة أيام .. كي نطمئن !

تقولها الطبيبة بنبرتها العملية وهي تغادرهما فيلتفت

هو نحوها لتتسع عيناه وهو يحدق في عينيها

المفتوحتين !

عيناه اللتان تغافلانه وهما تتلكان فوق

ملامحها التي بدت له خالية من تبرجها السابق أكثر

براءة .. وفتكاً !!

بين أهدابها تغتسل ألف نجمة ..
وعلى ثغرها ينادي منادٍ أن هنيئاً بليل هي فيه
القمر ..

أخاديد ألم حُفرت على وجنتيها ..
وفوق غصن عينيها يصدح عندليب ..
عندليبٌ أخرس!

حلقه يجف وهو يشعر أنه يفقد سيطرته المعهودة
على نفسه لكنه يسألها بنفس الصوت المتحشرج:

_ أنتِ بخير؟!!

_ ماذا حدث؟!!

تهمس بها بوهن لا تدعيه هذه المرة فيسحب كرسيّاً
ليجلس جوار فراشها وقد عاد يغض بصره عنها مع
جوابه :

_ رأيت ذاك الوغد يتربص بك .. لكنني لم أستطع

الوصول قبل أن يفعل فعلته .

_ هل ضربك؟!!

يتحسس موضع اللكمة جوار عينه تلقائياً ليرد بنبرته

المتحفظه :

_ من حسن الحظ أن طبيعة عملي تجعلني دوماً أحتفظ

بما أَدافع به عن نفسي .. هو الآن في قبضة

الشرطة .. لا تخافي .. حقك لن يضيع ..

_ حقيبتني بها حافظة نقود .. خذ منها ما دفعته .

تهمس بها عبر عينيها المغمضتين ليصلها قوله غير

مدّع :

_ النقود آخر مشاكلك الآن .. أخبريني بمن أتصل من

أهلك كي يأتي إليك!

_ أنا أعيش وحدي .. لا أهل ولا سند .

تهمس بها عبر جفنيها المسبلين دون حاجة لادعاء
الوهن فينعدد حاجباه بقوة وهو يشعر بالمزيد من
الانجذاب المشفق نحوها ..

_ لا أحد؟! لا أقارب؟! لا جيران؟! لا أصحاب؟!!

يعاود سؤاها ببعض الانفعال وهو يدرك -لتوه-
المأزق الذي وقع فيه لتجدها فرصتها في "إلقاء
النرد" من جديد :

_ لو كان لي سند لما تجرأ ذاك البلطجي عليّ!

تتهي عبارتها بخيطين من الدموع كان من السهل

عليها ذرفهما الآن بصدق ولو كذبت النوايا!!

يختلج قلبه بعنف وهو يجرب هذا الشعور "البكر"

لأول مرة !!

شعور انجذاب فطري نحو امرأة !!
لا .. ليست فتنتها ولا هذا الجمال الكارثي الذي يخيفه
بأكثر مما يعجبه ..
إنما هو شعوره برغبته أن يحتوي هذا الوهن الذي
يغلفها حتى ولو يكن بقادر!!
ينتبه لطول تحديقه فيها فيستغفر الله سرّاً وهو ينهض
من مكانه فجأة مقاوماً صراعه الداخلي هذا ..
ما هذا الذي يهذي به ؟!
وأي شعور هذا قد يحمله لامرأة لم يلتقِ بها سوى
مرتين ولا يعرف عنها أي شيء؟!
إنها حتى بلا أهل كما تزعم!!
لا أصل ولا فصل كما يقولون!!
_ سترحل!؟!

تهمس بها بخفوت وهي تفتح عينيها لتوها فيكاد
يجيبها بالقطع أن "نعم"!!!
لكنه يجد لسانه يتلعثم وهو لا يعرف بماذا يرد ..
_ أرجوك لا تتركني وحدي هنا في هذا الحال ..أنا
ارتحت إليك منذ أول مرة رأيتك فيها ..وزاد يقيني في
شهامتك بعدما دافعت عني ..أتمّ صنيعك
لآخره ..أرجوك .

يزم شفّتيه بقوة وهو يصارع نفسه ليغض البصر
عنها من جديد ..

فيصلها صوته المتحفظ أخيراً :
_ لا تحملي هماً ..استريحي فحسب.
يقولها ثم يغادر الغرفة تاركاً إياها خلفه وقد التمعت
عيناها المتعبتان بوهج المغامرة من جديد ..

لا تزال اللعبة مستمرة .. وهذا هو المهم !

لو بقي معها فهذا يعني أن تنتقل

ل "المستوى " التالي ..

هذا الذي سيكون أكثر إثارة بالتأكيد!!

هنا تسمح لنفسها أخيراً بأن تغمض عينيها مستسلمة

لراحة مؤقتة .. فقط لو ترحمها كوابيسها!!

وفي مكانه خلف الباب المغلق يقف هو ليأخذ نفساً

عميقاً ثم يزفره ببطء شاعراً أنه قد خرج لتوه من

معركة ..

بل وماضٍ في الدخول لما بعدها!!

ماذا سيفعل في هذه الورطة؟!

يتردد قليلاً لكنه يحسم أمره ليهاتف أباه الذي بادره

بهاتفه القلق:

_ أين أنت؟! لماذا تأخرت هكذا؟!

فيخبط براحته المفرودة على رأسه بخفة وهو يحكي

له عن الأمر ..

ليهدف أبوه أخيراً :

_ أنا قادم إليك .

_ لا تتعب نفسك .. أنا ..

لكن والده يغلق الاتصال بسرعة مقاطعاً عبارته فيزفر

هو بقوة وهو ينظر نحو الباب المغلق بينه وبينها

بتشتت هامساً لنفسه :

_ أنا أضيع يا "مستر ربيع"!

=====

برتقالي



_ اسمك حلو .. ما معناه ؟!

تهتف بها مجد وقد جلست كعهدا فوق كرسيها
المتحرك في صالة بيت طيف التي تربعت في جلستها
على الأرض أمامها لتجيبها بابتسامة شاردة :

_ يعني ذاك الشيء الخيالي الذي يمر

بالناس .. لا يرونه وإنما يشعرون به ..

ثم صمتت لحظة لتردف بنفس النبرة الشاردة :

_ ليس دوماً .. أحياناً لا يحسون به كذلك !

_ أنا أشعر بك ..

تقولها مجد برقتها الطفولية وهي تمد أناملها لتلمس
شعر طيف الذي بدا هوسها مؤخراً .. ثم تردف
بابتسامة :

_ طيبة .. مثل عمي نزار وأبي ..
_ وأنا؟!!

تهتف بها الخادمة التي لا تكاد تفارق الصغيرة نهاراً
فتهتف لها مجد ببعض الخجل:
_ وأنتِ!

_ هل أعد لكما شيئاً؟!!

تسألها الخادمة فتلتفت نحوها طيف قائلة بأنف
مرفوع:

_ خادمتي بالداخل .. انضمي إليها ودعيني هنا مع
مجد .

تتردد الخادمة قليلاً لكن طيف تشير نحو هذه الكاميرا

بالجوار لتردف بفظاظتها المعهودة :

والدها يتابعنا صوتاً وصورة .. لا تخافي لن أكلها !

تعذر الخادمة بكلمات متلعثمة وهي تخطو نحو

الداخل فترمق طيف الكاميرا بنظرة ساخطة تتخيله

فيها أمامها ..

قبل أن تزفر محاولة تماك أعصابها !

لقد وافقت على الجلوس مع مجد اليوم لكنها اشترطت

أن يكون هذا في بيتها هي .. وأن تكون الطفلة

وحدها!

فإذا به يشترط بدوره أن يكون لقاؤهما مراقباً من

قبّله فهو لن يترك لها ابنته هكذا دون أن يعلم ما الذي

يدور بينهما !

لا تدري لماذا توافق على هذا العبث!!

هل هي شفقتها على مجد؟!

أم هو فضولها الغريب نحوه هو؟!

هو الذي بدا لها صباحاً وهو يسلمها الصغيرة كأنما

يسلمها روحه !

لهذا لا تظنه سيكررها ..وهل تريده حقاً أن يكررها؟!

_ هل تؤلفين القصص حقاً؟!

تنتزعها بها مجد من شرودها فتلتفت نحوها لتتحول

نظرتها الساخطة لأخرى حنون دافئة وهي تتناول كف

الصغيرة بين راحتها قائلة :

_ نعم.. تريدان أن أحكي لك حكاية؟!

تشرّد مجد قليلاً في ملامح طيف كأنما تختبرها ..

ثم تسبل جفنيها لتهمس بصوت معذب غريب على
طفلة بهذا العمر:

_ بل .. أريدك .. أن تكتبي لي حكاية .. حكايتي !
تتسع عينا طيف بفضول عجزت عن إخفائه وهي
تشعر أن الفرصة وانتهت لتكشف الغموض حول ذاك
الرجل ..

_ اكتبي حكاية طفلة رحلت أمها وتركتها .. وأخذ
الغرباء أباهما .. ولا يمكنها أن تسير على قدميها كي
تبحث عن أحدهما ..

تتكسب الدموع في عيني طيف وهي تنسى كل ما
حولها إلا شعورها بهذه الطفلة ..

لم تعد تريد معرفة المزيد ..!

لم تعد تريد للصغيرة اجترار مثل هذا

الألم الذي شعرت يوماً بمثله !

_ اكتب لي نهاية سعيدة .. اجعلي أُمي وأبي

يعودان .. واجعليني أمشي على قدمي .

تبتلع طيف غصة حلقها وهي ترفع كف الصغيرة بين

راحتها لتقبله قبلة خفيفة ثم تهمس لها وهي تغرس

نظراتها في عينيها :

_ سأعلمك شيئاً لا تتسینه... النهاية السعيدة ليست

دوماً في ما نتمناه .. بل ربما كانت في هدايا بديلة

تمنحها لنا

الأيام صدفة .. قد لا يعود والداك .. وقد لا تمشين على

قدميك .. لكنك ستجدين السعادة وقتها في بديل آخر .

تطرق مجد برأسها في أسى لكن طيف تردف بنبرة

أكثر قوة :

_ عندما كنت في عمرك ..كنت أتخيل لنفسي قصصاً

كثيرة تنتهي بالنهايات السعيدة التي كنت أتمناها .

_ وتحققت!؟!

تسألها الصغيرة وهي ترفع رأسها نحوها بلهفة

لتبتسم طيف ابتسامة مريرة وهي ترد :

_ تحقق بعضها وتاه الباقي في زحام الحياة .

_ أنتِ الآن سعيدة!؟!

تهتف بها مجد بأمل فتتفرج شفتا طيف وهي على

وشك نطق شيء ما لكنها تحسم أمرها لتستبدله

بآخر :

_ أنا الآن نجمة ..تشير إليها الأصابع فتتنظر إليهم من

علو .

تقرن قولها برفعة أنفها بغطرسة وقد تذكرت أنه -

هو-الآن يراها ..

فضحكت مجد وهي تميل رأسها لتقول برفقتها الأسرة:

_إذن اكتب لي قصة واجعليني نجمة مثلك ..

ثم عادت تضحك لتردف ببراءة:

_ واجعلي شعري طويلاً ..إنه الطلب الوحيد الذي

يرفضه بابا لي!

تمط طيف شفيتها باستياء وهي تعود لتواجه الكاميرا

بنظرتها الساخطة بينما تداعب الصغيرة خصلات

شعرها الطويل هي بافتتان قائلة :

_تدرين لماذا لم أخف منك كالغرباء!؟!

سؤالها يجذب انتباه طيف التي تلتفت نحوها بفضول

مع جواب الصغيرة العفوي:

_ لأنني كنت أراك من النافذة ..وحيدة مثلي ..ليس

مثلي تماماً ..فلديّ بابا وعمي نزار ..يمكنني أن

أعيرك أحدهما ..لكن ليس لوقت طويل!

_ لا شكراً ..احتفظي بهما لنفسك !

تهتف بها بفضافة ساخرة لكن الصغيرة تستطرد

ببراءة:

_ عمي نزار سيضحكك ويلاعبك ..بابا سيحتضنك

ويدلك ويمنحك كل ما تحتاجينه .

تتسع عينا طيف قليلاً وهي تشعر بهذه الوخزة في

صدرها ..

تشيخ بوجهها عن الكاميرا بما أرادته كاستهانة لكنها

كانت توقن داخلها أنه ..خجل!!

خجل!!

خجل تتفتح له أوراق أنوثتها باشتياق البراعم

للشمس وهي تتخيله يحتضنها حقاً !!

يدلها .. يدلها هي !!

_ أعود بالله من الشيطان الرجيم !

تتمتم بها سراً وهي تهز رأسها بقوة نافضة خاطر

عن رأسها ..

ثم تلتمع عيناها بوميض المغامرة وهي تسأل

الصغيرة ببراءة مصطنعة :

_ لماذا لا تدعين نزار "بابا" ك .. الآخر؟!!

تقولها وقد استتكتفت عن ذكر اسم يحيى لكن الصغيرة

تدرك ما تعنيه فتضحك لتجيب ببراءة :

_ لأنه ليس يحيى العراقي .. بابا يحيى العراقي .

تهز طيف رأسها بغباء وهي لا تفهم فتهم بسؤالها
عن المزيد لكن الخادمة تقاطع حديثهما وهي تدخل
بكوبين من العصير فتتهف بها طيف بحدة :

_ لم أطلب منك شيئاً .. لا تأتي دون إذني .

تجفل الخادمة فتراجع خطوة للخلف تتعثر معها
قدمها فتسقط منها الصينية بما تحمله ..

_ آسفة يا سيدتي .. لم أقصد ..

تردد اعتذارها بعريبتها الكسيرة وقد بدا على وجهها
الحرص لتنتفض طيف واقفة مكانها مع هتافها الحاد :

_ أنت عمياء؟! تعرفين ثمن هذه الكؤوس التي

كسرتها؟! ثمن السجادة التي كدت تفسدينها!؟!

يحمر وجه الخادمة انفعالاً وهي تردد اعتذاراتها بينما
تهرول نحو الداخل لتحضر ما تنظف به هذه
الفوضى ..

فيما تتجمد طيف مكانها وهي تشعر ب..الندم!
لماذا قست عليها هكذا وهي بالذات عاشت هذا
الموقف من قبل عندما كانت خادمة في البيوت؟!
هل نسيت!؟

أم تراها تتناسى الآن بالذات هذا وهي في حضرة ذاك
الرجل !!

حضرته التي تهز كل جبالها الثابتة وتذررها تتخبط في
واديان تيهها الشاسعة !!

حضرته التي تربيكها وتجعلها تتخبط كطير أغلقوا
عليه الجدران !

حضرته التي لا تحتاج لرؤية جسد .. وإنما تكفيها

استحضار روحه !

_ خرب بيتك!

تهمس بها في نفسها سرّاً وهي تواجه الكاميرا

اللعينة بسخط للحظات..

ليس عدلاً أن تشعر أنه يراها ولا تراه ..

ليس وهي تشعر أنها تحت مجهره واضحة كالشمس

فيما يبقى هو ملثماً بغموضه!

في المرة القادمة لن تسمح له بوضع هذه الكاميرا

أبداً !

تري الخادمة وقد أتت لتجلس على ركبتها .. تلم

البقايا المكسورة .. وتنظف

الأرض ..

فتحسم هي أمرها أخيراً لتفعل ما يبدو
الآن غريباً وهي تجلس جوار الخادمة على الأرض
و..تساعدها!

ترمقها الخادمة بنظرة مندهشة تتجاهلها هي وهي
مستمرة في عملها ..
تعلم أن شكلها الآن قد يحط من قدرها في عينيه وهو
يراقبها ..

لكنها لهذا السبب تفعلها!!
عناداً فيه وفي نفسها قبله!!
ما يعنيها من ظنه فيها؟!
هو يكره النساء كلهن على أي حال!
لا تتعبي نفسك يا سيدتي..سأ...
تهتف بها الخادمة لتقاطعها هي بفظاظتها المعهودة :

_ اُخرسي ونظفي !

_ أنتِ متواضعة كثيراً رغم أنك تبدين عصبية !

تقولها لها مجد بعدما عادت الخادمة للداخل وعادت

هي لتجلس أمام الصغيرة على الأرض ..

_ لست عصبية .. هم من يستفزونني!

تقولها بنزقها المعهود لتضحك مجد ببراعة فتتنهد

طيف بارتياح حقيقي وهي تشعر بضحكة الصغيرة

تمطر !

أجل .. تهطل بهذا الغيث الكريم الذي تحتاجه بيداؤها

منذ عهد بعيد ..

فلا تدري هل تفرح برقصة المطر أم تخاف جفاف

أرضها بعده !!

_ ماذا تحبين أن تلعبى؟!!

تسأل الصغيرة بخشونة صوتها التي توشحت بحنان

فطري لترد مجد بفخر :

_أجيد ألعاب كثيرة ..بابا يشتريها لي من كل مكان

نذهب إليه .

_تعرفين "بنك الحظ"؟!!

_ ما هذا؟!!

تسألها مجد بفضول فتشرح لها اللعبة لتهتف

الصغيرة بإدراك :

monopoly _تقصدين

_نعم! نسميه في مصر بنك الحظ ..ما رأيك لو نصنعه

نحن بأيدينا؟!!

تقولها طيف مبتسمة بحماس تفتقده منذ زمن بعيد

وهي تقوم من جلستها هاتفة :

_جربي أن تصني سعادتك بنفسك هذه المرة !
تقولها وهي تتحرك نحو أحد الأدراج لتستخرج منها
عدة ألواح من الورق المقوى والأقلام الملونة ..
ثم تعود لجلستها أمام الصغيرة التي كانت تراقبها
بحماس مشابه بينما تشرح لها كيفية صنعه واللعب
به ..

وفي مكانه في شقته كان يحيى يراقبهما بحاجبين
منعدين وهو يشعر بخفقات قلبه تتصاعد وتيرتها
بانفعال يكرهه !

يكرهه كما يكره تقاربهما هذا لكنه يعجز عن رفض
طلب مجد خاصة وقد بدت له شارة جيدة في
حالتها .. هي التي تخشى الغرباء!

لكن ماذا لو تعلق بها أكثر!؟

هو لا ينتوي البقاء طويلاً هنا !
السندباد الذي كتب على نفسه الشتات في الأرض لن
يمنح نفسه وهم الوطن من جديد !!
تزيغ عيناه رغماً عنه بشرود وهو يتفحص ملامح
طيف التي بدت له في هذه اللحظة بعفويتها وانطلاقها
مع الصغيرة كأنها امرأة أخرى!

امرأة؟!

لا.. هما تبدوان الآن معاً كطفلتين لا تختلف أيهما عن

الأخرى!!

هل تمثل؟!

تتظاهر بهذا الدور لتخدعه وهي تعلم أنه يراقبها؟!

لا!

ليس أقدر منه على تمييز الخداع في العيون ..خاصة

النساء!!

يبتلع غصة حلقه بمرارة عند هذا خاطر وهو يعاود

تفحص طيف أكثر ..

تصرفها عندما قست على الخادمة ووبختها ملائم

تماماً ل"محدثة نعمة" كما يصنفها ..

لكنها صدمته عندما انحنت بعدها على

الأرض تساعدها !

أي امرأة هذه !؟

تضييق عيناه بالمزيد من الحيرة وهو يرى طريقته

في اللعب مع مجد ..

في حثها على صنع سعادتها بنفسها كما تزعم ..

حنانها الغريب معها والذي لا يشبه ميوعة النساء بل
هو بفظاظته الخشنة يبدو كفطرة أم همجية لم تهذبها

حضارة !

يأخذ نفساً عميقاً وهو يتأمل هيئتها التي تفتقد

للأنوثة !

فعدا شعرها الطويل لا يمكنه التفرقة بينها وبين نزار

مثلاً!

ثيابها لا تفتقد الأناقة ولا الذوق بل إنها تبدو له

باهظة القيمة لكنها لا تكفي لمنحها فتنة مثيرة !

ما سر حبها للون البرتقالي !؟

قرطها مرة .. وشاحها مرة ..

والآن يلون حزام سروالها حول خصرها النحيف!

من جديد يذكر صدفته التي اختل لونها رغباً عنه

فبيتسم ببعض السخرية !

هذه المرأة تصلح لتمثال امرأة دميمة ..خلقاً وخلقة !

فقط عيناها!

عيناها تحملان ألقاً خاصاً يتحرش بهذا الجدار الباهت

داخله !!

عيناها الضيقتان عندما تتوهجان بهذه الصورة

المشعة عندما تتفعل فتبدو وكأن رموشها قد سجت

"قرص شمس"!

يزم شفتيه بتفكير عميق وهو يعود ليذكر مناظرتها

يوم الندوة ..

فيجد نفسه يتساءل أي امرأة هذه ؟!

امراة تكره الرجال هذا الحد الذي تزعمه لكنها لم
تتردد لحظة وهي تقتحم بيته كي تنقذ ابنته !
امراة تملك كل هذا المال وكل هذه الشهرة لكنها تؤثر
العيش وحدها فوق جزيرة منعزلة !
امراة تملك من الجراة ما يجعلها تهتف دون خوف
بأصل نشأتها وسط الجموع ولا تبالي !!
امراة ربما تملك من الشجاعة ما لا تملكه سواها من
النساء ..

بل .. والرجال !!

يغمض عينيه بقوة عند خاطر الأخير وهو يشعر
بطوفان الماضي يكتسحه ..

ثلاث صور لنساء تتعاقبن في مخيلته كشريط
سينمائي تالف لا يكاد يتوقف عن الدوران ..

لكنه يوقفه قسراً وهو يعود ليفتح عينيه بشراسة !

_ لا بأس بها!

هتاف نزار المرح جواره ينتزعه من شروده فيلتفت

نحوه ببعض الحدة وهو يراه يراقب طيف بدوره

مردفاً :

_ بها شيء جاذب .. لكن أنثى العنكبوت هذه لا تبدو

من الطراز الملائم للعبث !

_ كلهن كذلك! لا تتخدع بالمظاهر!

يقولها يحيى بخشونة وهو يعاود المراقبة بدوره

محاولاً تركيز نظراته فوق مجد التي بدت شديدة

الحيوية وهي تلعب معها ..

_ مجد تبدو سعيدة معها .. أظنها كسرت حاجز خوفها

من الغرباء .. وهذا وحده شيء جيد !

يقولها نزار وهو يرفع علبة معدنية من المياه الغازية

نحو شفثيه يتجرع منها رشفة كبيرة ..

ثم يردف بنبرة عابثة وهو يشير بعينيه لخادمة طيف

التي ظهرت في الصورة :

_لكن هذا ليس عدلاً! خادمتها أجمل من

خادمتنا .. اعرض عليها المبادلة !

يقولها ثم يلكز يحيى في كتفه بحركة خاطفة فيبتسم

الأخير وهو يغمغم بلفظه المعهود الذي يختصه به :

_زعطوط!

يضحك نزار ضحكة عالية ثم يرتشف رشفة أخرى

من مشروبه وهو يبسط ذراعه فوق كتفي صاحبه

لينظر نحو الشاشة التي تنقل لهما المشهد حياً .. ثم

يسأل يحيى باستخفاف:

_تظنها ستقبل أن تكرر مجد الزيارة ؟

_ليتها لا تفعل ..أنا غير راضٍ عن هذا كله ! إنها

امرأة معقدة ..ما يدريني أي سم ستفتته في رأس

ابنتي؟!!

يهتف بها يحيى بضيق ليرد نزار بضحكة أخرى

ناسبت قوله المستهجن :

_انظروا من الذي يتكلم ! هي معقدة وأنت -والشهادة

لله- كعكة بسكر!

يلكمه يحيى في كتفه ببعض القوة وهو يستدير نحوه

فيتأوه بمبالغة وهو يبعد علبة المشروب المعدنية

هاتفاً :

_اهدأ ..اهدأ ..لا تطلق عفاريتك عليّ ..بقي من

الساعة القليل وستعود مجد ويعود معها عقلك !

يزفر يحيى بسخط وهو يعود لمراقبة حديث طيف مع

مجد فيسأله نزار باهتمام :

_ هل حاولت هي استدراج مجد لجمع معلومات عنك

!؟

_ ليس بالضبط ! هي تعلم أنني أسمعها .. كما أنني

لقد كنت مجد الدرس جيداً ولا أظنها ستخالف

تعليماتي .. لن تحكي لأحد قصتها !

يقولها يحيى بضيق تتصاعد ذروته وهو يراها قد

انسجمتا تماماً ..

فلا يدري هل يشعر بالرضا لأن ابنته تجاوزت حد

خوفها من الناس ..

أم يشعر بالسخط وهو يراها لم تنتقِ سوى هذه

”القفذ“ كي تمنحها ثقتها!!

تقطع أفكاره وهو يرى مجد تتحني فجأة لتعانق طيف

أمامها عناقاً حاراً ثم تحيط وجنتيها براحتيها هي

الصغيرتين لتقبّل جبينها بهذه الطريقة القدسية التي

تخص بها القريبين من حياتها فحسب!

هنا ينتفض واقفاً مكانه بما بدا كغيرة غير منطقية

ليهرع نحو باب الشقة فيهدف به نزار ضاحكاً :

_ إلى أين؟! الساعة لم تنته! احذر قرصة العنكبوت!

لكن يحيى لا يبالي وهو يندفع نحو باب شقتها هي

ليطرق الباب ببعض العنف فتفتحه هي لتقول بسماجة

كأنها لم تفاجأ به :

_ خيراً!

_ أريد ابنتي!

يقولها من بين أسنانه فتهدف مجد من خلفها :

_ لا يا بابا ..دعني قليلاً .

لكن طيف تلتفت نحوها لتشير لها بكفها فتسكتها
بإشارة فظة ..

ثم تلتفت نحوه هو لتقول بنفس البرود السمج:
_تظنه بيت السيد الوالد؟! تدخل متى تشاء وتخرج
متى تشاء! أنت طلبت مني خدمة وأنا امليت عليك
شروطي ! عندما تنتهي الساعة يمكنك أن تطرق
الباب وتأخذ ابنتك وتمشي غير مطرود ..أما الآن..
يكز على أسنانه بقوة وهو يراها تكمل عبارتها بأن
تصفق الباب في وجهه بعنف مدوّ !!
يضم قبضته جواره وهو يهم بطرق الباب من جديد
لكنه يعود ليتراجع في آخر لحظة ..

صوت صفير نزار الذي يستند بكتفه على باب شقتها
يصدح خلفه فيلتفت نحوه بغیظ ترايدت حدته وهو
یرى نزار يحرك أصابعه بما يشبه وضع "القرص"
مشيراً لشقة طيف !

_ ألم أحذرك من قرصة العنكبوت؟!
يتمتم بها نزار بخفوت وهو يجاور يحيى في وقفته
أمام الباب ليعقد الأخير حاجبيه بغضب ..
فيما يبتسم نزار وهو يربت على كتفه مهدئاً ليردف
بجدية أكبر:

_ دعك من كل هذا كي نفيق لعلنا ! أنت لم تذهب منذ
يومين .. الشركة تحتاج مجهوداً أكبر مما
تخيلته .. لكن الأرباح تستحق التعب !

يقولها ثم يملئ عليه بعض تفاصيل عملها ليومئ

يحيى برأسه بتشتت وهو يهم

بالرد عليه أخيراً لولا أن فتح الباب فجأة لتظهر منه

مجد وخادمتها خلفها تدفع كرسيها ..

_ انظر ماذا صنعنا! سنكمله غداً عندما تحضرنى هنا

من جديد.. أحببت اسم بنك الحظ هذا أكثر من

"مونوبولي"!

تهتف بها مجد بنبرة حيوية ترضي هذا الجانب

الأبوي داخله وهي تشير نحو أوراق اللعب بالداخل

لكنه لا يملك هذا الشعور بالضيق وهو يرى ابنته

تشير لزيارة الغد!

_ ستسمح لي بالعودة غداً يا "بابا"؟!!

تهتف بها مجد بترقب فتتطرق كل

ملامحه بالرفض لتتحفز طيف مكانها وهي الأخرى
تنتظر جوابه ..

لكنه يغمض عينيه بقوة كأنه يقاوم
انفعالاً ما بداخله قبل أن يعاود فتحهما لينحني فيقبل
وجنة الصغيرة قائلاً لفظته التحببية المعهودة :

_ تدللي!

خمسة حروف فقط فعلت في طيف
الأفاعيل!

قشعريرة باردة تسري بين جنباتها وهي تشعر
بالكلمة السحرية كعهدا تخرقها و .. تهدهدها !
مزيج غريب قاهر لكنها تقاومه بكل ما أوتيت من

عنفوان !

_ عودي بها لغرفتها!

يهتف بها يحيى مخاطباً الخادمة التي دفعت كرسيها
نحو شقته فيما استطال نزار بقدميه محاولاً تبين
خادمة طيف خلفها مع هتافه العابث:
_ ونحن .. أليس لنا نصيب في اللعب؟!
لكن طيف تبدو متحكمة في انفعالاتها وهي تمط
شفتيها بحركة سمجة في مواجهته متجاهلة يحيى
تماماً ..

ثم تلقي الكاميرا في وجهه فيتلقها نزار برشاقة وهو
يضحك لكنها تصفق الباب في وجههما بنفس الدوي!
_ عنيفة جداً الأخت طيف هذه !

يهتف بها نزار وحاجباه يتراقصان بمشاكسة بينما
يتجاوزه يحيى بدفعة قوية نسبية وهو يعود لشقته
ليصفق بابها بدوره بدوي مرتفع!

وخلف باب شقتها المغلق كانت طيف ترمق الأوراق

التي تركتها مجد خلفها للعب بنظرة غريبة ..

هي مزيج من حنين و...شبع!!

لازالت تذكر هذه اللعبة التي كانت ترى

الأطفال في سنها يلعبونها مجتمعين ..

فيما تقف هي -منبوذة- ترقبهم من بعيد ..

لتدرك منذ تلك السن المبكرة أنها لا تصلح للعب

جماعي .. أو عيش جماعي .. أنها لن تعيش عمرها إلا

وحدها !

ربما لهذا حرصت أن تصنع اللعبة هذه اليوم لتلعبها

مع مجد ..

تستعذب هذا الشعور بأن الصغيرة اختارتها طواعية

لتمنحها ثقتها وعاطفتها !!

جائعة ..جائعة ..جائعة لهذا الشعور العفوي أن يحبها

أحدهم دون شرط ..دون قيد ..دون خذلان ..

ودون أن يطلب منها ورقة هوية ليحدد هل ينظر إليها

باحترام أم باحتقار!!

نفس الشعور الذي يمنحه لها قراؤها من بعيد ..لكنها

الآن تستشعره بهذا القرب!!

لهذا تتحرك نحو الأوراق لتجتو على ركبتيها

تجمعها ..

لم تخطئ عندما قالت للصغيرة أن متعة صنع اللعبة

تفوق كثيراً الاستمتاع بها ..

ها هي ذي صنعت "العبة حياتها" بنفسها كما تمننت ..

لكن هل تستمتع حقاً بالسعادة!؟

تتناول هاتفها من الجوار وهي تشعر بحاجتها لتفقد

صور الصغيرين ضياء ونور ..

فترتجف ابتسامة شاحبة فوق شفثيها .. لكنها تندها

في مهدها !

ماذا دهاك يا طيف؟!!

من أي شقّ تسرب إليك هذا هذا الوهن؟!!

ولماذا في هذا التوقيت بالذات؟!!

بل لماذا هذا الرجل يشعل كل براكينك الخامدة؟!!

والجواب لا يسعفها به كبرياؤها ..

فتجاهله بحزم وهي تدور بعينيها في المكان حولها

كعهدا بنظرات لصة ..

قبل أن تفتح حسابها الايكتروني المزيف لترسل له

رسالة تهدم بها المزيد من الجدران بينهما ..

تخدع نفسها بدعواها أنها تتلذذ

بالسخرية منه خلف ستار ..

ولو صدقتها لأدركت أنها تهوي بقدميها في الفخ

الذي طالما نجت منه خطواتها !

فخ الحب!



بنفسجي

بعض الوجد أثقل من أن تحمله جناحات

أبجدية ..الصمت به أولى!

في زنزانها المظلمة تجلس متكورة على

نفسها ..تضم ساقيها لصدرها بذراعيها وتخفي

رأسها بينهم ..

ثرثرة النسوة حولها تبدو لها آتية من بعيد كأنها

ترثيها الرثاء الأخير !

لماذا فعلتها؟!

لماذا فضحت نفسها واعترفت؟!

هل هو خجلها من "شبح هالة الأبيض"؟! خشيتها

من أن يهجر زيارتها ويرحل كما رحل غيره؟!

هل هي فرحتها أنها انتقمت لنفسها كفرحة قطة
ناعمة تجرب خدش مهاجمها لأول مرة؟!
أم هي بقايا فطرتها التي دنسها غازي استصرختها
أن تنقذ الرmq الأخير؟!
لا يهم! كل هذا لم يعد يهم!!
خطوات بسيطة تفصلها عن محطة النهاية..
وقد آن للقطار أن يبلغ محله!
_ هالة!

ترى شبحها الأبيض يقترب في مخيلتها فتضم نفسها
أكثر كأنها تحبسه داخلها كي لا يخرج..
_ صرت مجرمة.. في عيون الجميع مجرمة.. رأيت
كيف كان الناس ينظرون إليّ وأنا أصرخ أنني قتلته؟!
رأيت كيف ضربتني زوجته الأولى فلم تخلصني منها

إلا قبضة الشرطة؟! رأيت كيف أقموني في
سيارتهم ذات القضبان؟! قضبان!! قضبان!! كأنني
لم أكتف من القضبان يا هالة؟! ويح قلبي! متى
تدركه رحابة السماء؟! ربما عندما يلفون حبل
المشنقة حول عنقي محققين عدالتهم
المزعومة.. ساعتها تتحرر روعي من ثقل
وزرها.. ساعتها سأعانق رحمة السماء التي بخلت
بها قلوب الأرض.. ساعتها ألقاك يا شقيقة
الروح.. ألقاك بريئة من جديد.. مثلك.. فسامحيني
حتى الملتقى.. سامحيني!
الشبح الأبيض يختفي..
فينقبض قلبها بشعور النهاية..

هذا الذي يزداد رسوخاً وهي تسمع ثرثرة النسوة
حولها تخرس فجأة مع انفتاح باب الزنزانة ..
صوتٌ غليظ ينادي باسمها فترفع رأسها ببطء وجل ..

تعالِي!

حروفه الغليظة ترسم لها حبل المشنقة يلتف حول
عنقها فتزدرد ريقها الجاف بصعوبة ..

تنظر للنسوة حولها كأنها تستجدي أي عطف ..
أي نظرة تضعها على قيد الانسانية ..

تخبرها أن عمرها القصير كان يستحق ولو نظرة
شفقة قبل أن ينتهي!

تنهض مكانها ببطء متثاقل فوق قدمين لا تكادان
تحملان جسدها الواهن ..

تعد خطواتها عدداً كأنما تحسب ما بقي من النهاية ..

أين سيذهبون بها ؟!
هل سيعدمونها الآن ؟!
بهذه السرعة ؟!
ولماذا يتباطئون مادامت قد اعترفت ؟!
تشعر به يمسك مرفقها بهذا العنف الذي قد تستشعره
أي امرأة سواها ..
لكنها وقد ذاقت من عذاب غازي أقساه بدت لها
حركته كتربيطة كف حانية !!
تسير معه عبر رواق طويل لتزيغ نظراتها وهي لا
تدري أين يأخذها ..
هل غادرا المبنى ؟! هل أخذها لآخر ؟!
رحلة مظلمة لا تتبين مداراتها .. لكنها توقن أنها
تقربها للنهاية !

درجٌ طويل تصعده معه خطوة خطوة ..
ثم رواق آخر ينتهي هو الآخر بدرج ..
الخطوات تتشابه .. الوجوه المحدقة فيها تتشابه ..
فقط عبر نافذة جانبية كان هناك شعاع شمس يعانقها
مودعاً ..

فابتسمت له ابتسامة خلاص!
تراه يتوقف بها أمام هذه الغرفة فترتعد خلاياها رغباً
عن كل ما ادعته من شجاعة ..

لا! لا! لا!!

ليس عدلاً!!

ليس عدلاً أن كان يقتلها في اليوم ألف مرة فلا

يعاقب ..

ويجازونها هي على قتلة واحدة !!

ليس عدلاً أن يسرق منها ماضيها وغداها؟!
أن يكون هو المجرم خلف الستار وتكون هي

المجرمة في العنن!

ليس عدلاً.. ليس عدلاً!!

تنفلت منها صرخة طويلة تبدو وكأنها تشق صدرها
شقاً..

تتشبث قدماها في الأرض باستماتة ترفض الحركة
فيزجرها الرجل وهو يفتح باب الغرفة ليجرها جراً..
يدخلها قسراً ليدفعها فيصله الهتاف الصارم من داخل
الغرفة :

لا تمد عليها يدك.. دعها واخرج!

تشعر بالرجل يخرج فتتجمد خلاياها وهي تحيط
جسدها بذراعيها مثبتة عينيها في الأرض..

هذا الصوت!!

هذا الصوت!!

ما الذي جاء به إلى هنا!؟

_ ديمة .

يهمس بها بصرامة صوته التي تعرفها إنما تتخلها

الآن هذه الرقة التي تكاد تجعلها تبكي ..

ترفع عينيها إليه ببطء من يخشى التصديق ليفاجئها

شكله الذي تعرفه ..

إنما بهيئة أكثر أناقة .. وهيبة !!

تتفرس ملامح وجهه شديد السمرة مصعوقة وهي

تراه يقترب منها بعينيها النافذتين ..

فأضتي الحديث دوماً .. دوماً .. فأضتين بحديث لا تفقه

تأويله ..!

تتفرج شفتاها بذهول وهي تدور بعينيها في المكان

تتأكد مما تراه ..

من هذا المكتب الذي كان جالساَ فوقه ..

ومن هذه الهيئة الصارمة المهيبة التي تبدل إليها

حاله ..

لتهمس وسط حروفها الضائعة :

_أديم!

=====

(الطيف الخامس)

=====

بنفسجي

=====

_أديم !

الأرض تدور بها وهي تتفرس

ملامحه للحظات قبل أن تهتز المرئيات في عينيها

لتشعر بنفسها تسقط ..

لكنه يتلقفها بين ذراعيه وعيناه النافذتان بقوتها

المعهودة تشتعلان بعاطفة طالما أنكرتها ..

فهل لها بعد الآن نكران!؟

_ ديمة ! تماسكي ! أرجوك ! أنا والله اكتفيت من قلقي

عليك !

يهمس بها بحرقة وهو يضم جسدها النحيل إليه عبر

صوته الذي يمزج صرامته بحنانه ..

يغمض عينيه بقوة مقاوماً شعوره العاصف بها الآن

بين ذراعيه ..

حبيبته صارت حرة ..

لكنه هو لا يزال مقيداً !!

مقيداً بهذا الوزر الثقيل على كتفيه !!

قلبه يهدر بعنف وهو يشعر بخفقاتها تجاور خفقاته ..

إنما بطيئة واهنة مثلها لا هائجة مدوية مثله !!

يجلسها برفق فوق المقعد القريب ليربت بكفه برفق
على وجنتها بينما أنامله الحرة تمسد معصمها متفقداً
نبضها ..

يراها تفتح عينيها من جديد باستماتة كأنما تحمل
جبلين فوق جفنيها ..

فيزدرد ريقه بتوتر وهو يقترب بوجهه من وجهها
هامساً :

_ لا تخافي ! لن أسمح لأحدهم أن يؤذيك بعد
اليوم .. فقط تماسكي !

ترتجف شفثاها بتمتمة هي أقرب للهديان فيتناول
كوباً من العصير يقربه من شفثيها الجافتين وهو
ينحني نحوها مع همسه :

_ اشربي ولو قليلاً .

تعاود إغماض عينيها باستسلام وهي تشعر بالقطرات
سكرية الطعم تناقض كل هذه المرارة داخلها ..
ألف سؤال وسؤال يملؤها لكن الخوف الذي يكتسحها
يجعلها لا ترغب سوى في أن تبقى مغمضة العينين
هكذا ..

مستسلمة لهذا الأمان المؤقت الذي يعدها به !
لم تنتبه أنها انتهت من شرب كوبها كاملاً إلا عندما
شعرت به يبعده عن شفيتها ..

لتكتشف الآن فقط كم كانت ظمأى !!
ظمأى ليس فقط لشرابه بل لهذه النظرة
"الآدمية" التي يرمقها بها !!
النظرة التي افتقدت مثلها منذ عهد بعيد !

ربما منذ فقدت هالة وبدأت عهد عبوديتها مع

غازي!!

لهذا تعاود فتح عينيه لترتشف المزيد منها من عينين

بهذا السخاء ..

ثم تتفجر الدموع من عينيها فجأة وهي تغطي وجهها

بكفيها وصوتها الواهن لا يسعف صراخها :

_ ماذا يحدث؟! هل أصابني الجنون؟! هل هو كابوس

آخر؟! اقتلوني ولينته الأمر .. اقتلوني كما قتلته !

_ لم تقتليه يا حمقاء!

تزيح كفيها عن وجهها ببطء وهي تشعر

بالصدمة ..

ليس فقط من لهجة هتافه الصارمة هذه والتي

يحدثها بها لأول مرة هكذا ..

إنما مما تلاها :

_ لم أكن لأتركك تؤذينه وتؤذي نفسك .. أنا راقبتك ذاك

اليوم الذي خرجت فيه لتشتري تلك المادة

خلسة .. عرفت محتواها وبدلتها في نفس اليوم

ب"ملح طعام" عادي .

_ ملح طعام!؟!

تتمتم بها مصعوقة وهي ترمق ملامحه السمراء

بذهول تتذكر أن غازي كان حقاً يصف الطعام بأنه

ازداد ملوحة !

بينما يزفر زفرة قصيرة وهو يشيح بوجهه ليستقيم

بجسده واقفاً مع قوله :

_ غازي لم يمت مسموماً .. مات مختنقاً .. أحدهم
استغل غيابي معك ليلتها ليقتحم البيت ويخنقه وهو
نائم كالثور! تعب كل هذه الشهور ضاع هدراً!
كانت حروفه تقطر غضباً جعلها ترتجف مكانها
بخوف خاصة وهي تراه بوقفته الشامخة وقد أشرف
عليها من علوّ بطوله الفارع وهيئته المهيبة الغريبة
عنها كـ "شبح" جديد يسكن مدينة أشباحها التي ما
عاد لها سواها مقاماً!

خوف طغا على ذهولها وصدمتها بما يقول!!

_ من أنت؟!!

تهمس بها بصوت بالكاد يسمع ليخفض بصره نحوها
فتلتقي عيناه بزرقة عينيها القاتمة والتي توشحت
الآن بدموعها ..

نظراته تذوب في سحر ملامحها لكنها لا تزال مختبئة

خلف قضبان غموضه ..

الصمت ينسج غزله المتين بينهما للحظات فترتجف

شفتاها بالمزيد من الخوف وهي تشعر بنفسها تجاهد

للطفو فوق سطح انفعالاتها ..

لتفاجأ به ينحني من جديد إنما ليجلس على أحد

ركبتيه أمامها مسنداً أحد ذراعيه فوق فخذه بينما يمد

كفه الآخر ليمسك به كفها هامساً بنفس النبرة

الصارمة التي لانت قليلاً:

_ فلأبق بعينيك أديم الذي عرفته .. غير أنني من اليوم

سأكون حارسك أنت .

تناظره بنفس العينين المصدومتين جداً .. الخائفتين

جداً .. والمهلكتين جداً ..

فيضغط كفها في راحته أكثر وهو يقاوم ضمها إلى
صدره محتوياً كل هذا الوهن الذي يوقن أنها غارقة
فيه !

لكن شفيتها تنفرجان عن آهة انفعال خافتة لم تملكها
وهي تسحب كفها جوارها بسرعة لتغطي وجهها
بيديها !

_ ديمة!

يهمس بها من بين أسنانه بانفعال مكتوم وهو يراها
تعود تلك الطفلة الخائفة التي عهدا دوماً .. والتي كاد
خوفها يسلمها لجريمة !!

لهذا يزيح كفها عن وجهها ببعض العنف ليحتكر
نظراتها بعينيه النافذتين مردفاً بحزم :

_ من هذا اليوم .. بل من هذه الساعة .. لن تهربي .. لن

تخافي .. أنتِ كنتِ مأسورة

لأقدر رجل عرفته في حياتي .. وأصعب مهمة عمل

تسلمتها ولازلت عاجزاً عن إتمامها .. لكنك أخيراً

صرتِ حرة .. ارمي كل هذا خلف ظهرك .. اطو هذه

الصفحة

للأبد !

_ حرة .. حرة ..

تكررها بصوت يزداد انفعاله حتى يصل حد الصراخ

وهي تدفعه بعيداً لتهرع نحو نافذة الغرفة ..

تتشبث بكفيها في سياجها وهي تخرج أكثر من نصف

جسدها عبرها فينقبض قلبه بذعر وهو يلحق بها

ليدركها فيشد على كتفيها بقبضتيه لكنها تصرخ
بصوتها المبحوح :

_صرت حرة ..صرت حرة يا أبي ..صرت حرة يا
أمي ..صرت حرة يا هالة ..صرت حرة !
ورغم كل ما مر به في حياته العملية من مواقف لكنه
الآن وهو يديرها نحوه ليجدها مستمرة في الصراخ
وقد نفرت عروق جبينها واحمر وجهها بنمشه ليبدو
له كبركان فاضت حممه ..

الآن تدمع عيناه بعجز وهو يراها تضحك بهستيرية
وسط دموعها :

_لم أقتله ..لم أقتله ..

يزدرد ريقه الجاف بصعوبة وقبضتاه تشتدان و عي
على كتفيها يحاول باستماتة الحفاظ على هذه المسافة
المناسبة بينهما متجاهلاً خفقات قلبه تستصرخه أن
يضمها نحوه ..

لكنها تبدو في وادٍ غير واديه وعيناها تزيغان خلف
مطر دموعها بينما تهمس كأنما فقدت عقلها :

_ أفرح؟! أفرح لأتني لن أحمل وزره؟!!

لأتني سأسترد عمري بعده؟! أم أغضب

لأتني .. لأتني عجزت عن نيل انتقامي؟! لأتني

سأعيش العمر كله مكتوية بنيران ظلم لم أستطع رده

عن نفسي؟!!

_ ديمة!

يهمس بها بتأثر وهو يهز كتفيها محاولاً جعلها تفيق
من هذا الهديان .. لكنه يشعر أن ملامحها البريئة
تتبدل لأخرى أكثر شراسة وهي تنفض ذراعيه عنها
هاتفة وهي تضرب بقبضتها على صدرها :

كيف أحمد هذه النيران هنا؟! كيف أهناً وأنا أعلم أنه
مات بهذه البساطة على فراشه؟! مات دون أن
يتعذب؟! دون أن يتألم؟! دون أن يذوق المر الذي
طالما سقاه لي؟!!

فيزفر زفرة ساخطة وهو يهتف بنفس
الانفعال:

ليس على الأرض من هو أكثر حنقاً على موته بهذه
الطريقة مني أنا!! كل هذا التعب والتخفي لأجل كشف
من ورائه ضاع هدراً في أول مرة غفلت فيها عيناى

عنه ! هو كان الخيط الأهم الذي سيوصلني لذاك

"الكوبرا"!

_كوبرا؟!!

تهز رأسها بعدم فهم فيشبح بوجهه للحظة محاولاً

كظم انفعالاته ثم يعود إليها ببصره ليقول بهدوء

مصطنع :

_سنتحدث طويلاً ..لكن ليس الآن ..وليس هنا !

ترمقه بنظرة مشتتة ثم تدور بعينيها في المكان

بضياح طفل نسيه أبواه وسط

الظلام ..

يمد أنامله ببطء ليربت على رأسها لكنها تتراجع

بذعر وهي تحمي وجهها بكفيها وكأنها ظنته

سيضربها كما كان يفعل غازي !!

هذا الذي قبض قلبه بعنف وهو يعيد تكوير قبضته
بين وجهيهما بينما يقترب منها هامساً أمام عينيها
بحزم دافئ:

_ دعينا نتدبر أمر مغادرتك هذا المكان
أولاً .. لن يعود هناك ما يربطك بهذه القضية سوى ما
سيكون بيننا .. أنا سأتولى شأن التحقيق الذي سيرئك
لا محالة .. وبعدها سأوفر لك سكناً مناسباً هنا في
العاصمة بعيداً عن كل ما كان يربطك بتلك البلدة .
نظراتها تتأرجح بـ "خطورة" بين ضياع طفلة و
شراسة امرأة ..

بين زرقه بحر .. وحمرة دم ..

شبح أرجواني تشعر به يستبيح روحها ليعرّب بين
جنباتها نافثاً سموم وجعه .. وحقده !

عن يمينه يقبع شبح هالة يعطيها ظهره بإعراض

عاتب ..

وعن يساره يتلوى شبح غازي الأسود معيرا إياها

بثقل خيبتها ..

لم تعد تخاف الأشباح!

قالتها يوماً ساخرة لكنها الآن توقن فيها ..

لم تعد تخاف الأشباح .. فقد صارت منهم !



أحمر



على فراشها في المشفى تتمدد شاردة في سقف
الغرفة ..

تستعيد ذكرياتها مع كل المرات المشابهة التي
اضطرت فيها للوقوع تحت سطوة
الأسرة البيضاء ..

ذاك الحادث الذي تعمدته بسيارتها يوماً مع فهد
الصاوي بعدما رفض إعطاءها ذاك المخدر ..
تلك المرة التي تناولت فيها جرعة زائدة من المخدر
لتكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة
لولا تدخل أمها في الوقت المناسب ..
ذاك اليوم الذي التوى فيه كاحلها في إحدى نزهاتها
في بيروت مع أمها بعد سفرهما هناك لتذهب بها لذاك
المشفى فتلتقي بفادي صدفة ..

وأخيراً ذاك اليوم الذي حملت فيها صغيرها ينزف بين
ذراعيها نحو المشفى القريب لبيتهما في بيروت رغم
يقينها من موته !

لكنها كانت تتشبث ببقايا أمل أن يكون لا يزال على
قيد الحياة ..

وتكون هي على قيد الانسانية !

_ماما !

من جديد تسمعها بصوته فتذبحها صورة منامته

ملوثة بالدم !

_قتلتِ ابنك يا مجرمة !

تتحسس وجنتها لا إرادياً كأنما يصفعها فادي لتوه

كتلك الليلة ..

تتجر الدموع في عينيها وهي تقتص من نفسها
فتعيد تكرار شريط الذكرى مرة تلو مرة ..
حتى ترحمها عيناها أخيراً فتذرفان دمعهما كأنما
تتحرران معه من بعض الوجع ..

وهيهات!!

طرقات خافتة على باب الغرفة تقاطع شرودها فتتحفز
حواسها وهي تستشعر نشوة المغامرة من جديد تبت
الحياة في روحها الميتة ..

ها هي ذي "العبة" تدعوها لإلقاء النرد من جديد ..

_السلام عليكم !

تتسع عيناها ببعض الدهشة وهي تميز الرجل العجوز
الذي دخل لتوه مع إبراهيم ..

تفحصه برهبة خفية وهي تشعر بعينيه الثاقبتين

تفحصانها بالمثل ..

كان يشبه ابنه كثيراً غير أنه أقصر قامة وأكثر

بدانة ..

ثيابه بسيطة إنما مهندمة ..

شارب بسيط ولحية مهذبة غزاها الشيب الأبيض ..

وله هذه الهالة التي تميز الآباء في أفلام السينما

القديمة والتي عاشت عمرها تدرك أنها خادعة ..

حنان الأب .. أمان الأب .. حب الأب ..

كلها شعارات براقية لم تعرف يوماً عنها شيئاً !!

فيما يتفحصها ربيع بنظره الثاقب ليشعر بعدم ارتياح

غير منطقي !

رغم جمالها الصارخ وهيئتها الداعية للشفقة لكن

حديساً ما بداخله يخبره أن حولها ما يفوق تلك

التفاصيل البسيطة التي حكاها له إبراهيم ..

_حمداً لله على سلامتك يا "ابنتي"!

يقولها بطيبة ممتزجة بالحذر فتزرد ريقها الجاف

ببعض العسر وهي ترفع عينيها نحو إبراهيم الذي

تتحنح بحرج قائلاً بصوته الرجولي الخشن الذي

تخلله خجل محبب:

_أبي .. "مستر ربيع"!

ترتجف شفتاها بابتسامة شاحبة وهي تهرب بعينيها

من نظرات الرجل النافذة التي بعثت في جسدها

القشعريرة وهي تتذكر نظرات رفعت الصباحي التي

طالما أثارت رعبها !

ترد بكلمات مبهما تقليدية تتهيها بقولها :
_ابنك أنقذ حياتي ..لا أدري كيف أشكره على
صنيعه ..وكنت أرجو لو ..

تقطع عبارتها بدموع لم يكن من الصعب تصنعها الآن
وهي في هذه الحالة النفسية والجسدية ..

ليشعر إبراهيم بأن دموع هذه المرأة أشد فتكاً من
فتنتها !

ولا يدري لماذا رآها في هذه اللحظة كأنها رامية
سهام !!

"رامية قرمزية الثوب" تجيد تصويب سهمها نحو
هدفه !!

منذ رآها أول مرة وهو يشعر أن الأمور تصب دوماً
في مجرى ما تريده هي ..

أرادت لقاءه ثانية.. ففعلتها ..

أرادته أن يوصلها لبيتها تلك الليلة ..ففعلها ..

وهاهي ذي تدفعه للمزيد من التقارب الخطير

بينهما ..

ويبدو أنهما سيفعلان!

يرفع الأب نظره نحو إبراهيم يتفحصه بدوره ليشعر

بجدسه أن ابنه متأثر بهذه المرأة لحدّ ما !

"الدرويش" علقت قدماه في فتنة اشتتها أخيراً

روحه الزاهدة !!

لهذا يعقد حاجبيه مفكراً للحظات قبل أن يعاود النظر

إليها قائلاً بحنانه الوقور:

_وحي الله يا ابنتي ..الكريم لا ينسى عباده ..لا

تقلقي ..نحن معك.

تمسح دموعها بأاملها وهي تتأرجح بين شعورها
بالخطر من هذا العجوز .. وفرحتها بالظفر في هذه

الجولة !

اللعبة تزداد إثارة رغم انضمام المزيد من اللاعبين !!
لهذا تلتمع عيناها بلهفة حقيقية وهي تهتف بصوتها

الواهن:

_ ستساعدونني!؟

يرمقها ربيع بنظرة أخرى متفحصة ثم يرفع بصره

نحو ابنه قائلاً بحزم أبوي:

_ اخرج ودعنا وحدنا .

يتردد إبراهيم للحظة وهو يراها ترمقه بنظرة راجية
أن يبقى لكنه يؤثر طاعة أبيه فيهب رأسه هزة خفيفة
ثم يتحرك ليغادر الغرفة مبتعداً .

تعاود يسرا النظر لربيع بنفس النظرة الوجلة وعيناه
النافذتان تمنحانها شعور من يقف أمام ممتحنه !
نحن الآن وحدنا ..وأعدك أن ما ستخبريني به لن
يعرفه أحد سوانا ..أنا رجل يعرف كيف أن صنائع
المعروف تقي مصارع السوء ..وأشهد أن الله قد
أكرمني من واسع فضله لهذا كان واجباً عليّ أن
أساعد غيري ..واجباً عليّ وليس منّة مني!
يقولها بنبرته المهيبة التي تمزج حنانه الفطري
بحزمه فتعتدل رغماً عنها في جلستها وهي تشعر

بالمزيد من الخطورة التي تزيد إثارة اللعبة ..خاصة

وهو يردف بنفس النبرة :

_ لهذا لا مانع عندي في أن نساعدك أنا وابني ..إنما

بشرط واحد !

_ أي شرط؟!!

_ أن تخبريني حقيقتك دون كذب !

ترتجف حدقتهاها رغماً عنها مع ازدياد وتيرة الحزم

في نبرته لكنها تعود فتذكر نفسها أن كل هذا ..مجرد

لعبة !

لعبة ستخرج منها ظافرة بنشوة المغامرة !

لهذا تمسح بقايا دموعها بحركة استعطاف ثم تقول

عبر صوتها الواهن :

ولماذا أكذب؟! ما مصلحتي؟! أنا امرأة وحيدة بلا
أهل أعيش في ذاك الحي البسيط.. ذاك البلطجي
يترصدني منذ فترة طامعاً فيّ.. لن أستطيع العودة
لبيتي ولا لعملي خوفاً من بطشه بعدما كان ! وليس
لي الآن سوى الطمع في مساعدتكما !
يرمقها ربيع بنظرة نافذة أخرى وحدثُ بداخله يخبره
أنها تكذب !

أو على الأقل.. لا تبوح بحقيقتها كاملة !!
لكن هذا الوجد الحقيقي في عينيها لا تدعيه !!
هو خير من يميز هذا "الجرح الطازج" في العيون !
وهي حقاً تحتاج مساعدة حتى ولو لم تكن لهذه
الأسباب التي تظهرها !!

نظراته تتجه نحو كفيها فتلتوي شفتاه

ب"شبه" ابتسامة ماكرة ..

يقولون إن يد المرأة تفضح نشأتها !

وهذان الكفان شديدا النعومة بهذه

الأظافر المقلمة لن يكونا أبداً لامرأة فقيرة تعيش

وحدها وتخدم نفسها !

كذلك لكنتها في الحديث تخدعها أحياناً لتخرج

أروستقراطية المخارج .. خاصةً مع رفعة أنفها الأشم

بهذه الحركة لامرأة اعتادت تسلط الحديث رغم

ادعائها الخنوع!!

ولأول مرة في عمره الطويل يشعر بهذه الحيرة في

تفرس أحدهم !

هذه المرأة تكذب!

لكنها لا تدعي هذا الوجع الذي يكاد يصرخ في

عينها !

ربما تملك روحاً مراوغة .. لكنها كذلك معذبة!

فماذا عساه يصنع!؟

انجذاب "الدرويش" نحوها يبدو واضحاً لقلب الأب..

لكنه لم يميز في نظراتها نحوه انجذاباً مشابهاً!

فهل من الحكمة أن يقربها ويضع البنزين جوار النار

!؟

يستغفر الله سراً وهو يغمض عينيه بدعاء خفي

اعتاده منذ سنوات طويلة ..

(دبر لي أمري يا وكيل ..فإني لا أحسن التدبير)!

يكررها حتى يشعر بصداها النوراني في قلبه فيعاود

فتح عينيه ليصله صوت أذان الفجر من مكان قريب ..

يكرره خلف المؤذن بصوت خافت فتعود لترمقه
بنظرة وجلة مترقبة وهي تشعر أنها لم تواجه نموذجاً
كهذا الرجل في حياتها كلها ..
نموذجاً يثير داخلها عواطف فوضوية لم تعرفها لرجل
من قبل ..

لئن كانت لعبتها الأولى هي إبراهيم وجنة ..

فليكن "قلب أبيه" لعبتها الثانية!

واللعبة الثانية هذا بالذات ستكون أكثر خطورة

ومتعة !!

قلبها يخفق بجنون وهي تراه ينهض من مكانه
فتنتظر كلمته لكنه يبتسم لها ابتسامة أبوية قائلاً:

_ سأخرج لأؤدي صلاة الفجر في المسجد

القريب .. وعندما أعود سأبلغك بما أنتويه .

تهز رأسها بخنوع مصطنع فيعطيها ظهره ليتوجه
نحو الباب كي يفتحه لكنه يعود ليلتفت نحوها قائلاً
بنفس النبرة المهيبة بين حزم وحنان:
_ فقط تذكرني أنني لن أحاسبك على ما كان من
ماضيكَ .. لكن لو كذبتِ عليّ فيما سيكون، فلا عهد لكِ
عندي ولا وعد !

=====

أبيض

=====

_ سمك! كل مرة ! تتكاسلين عن الطبخ يا "حبيبة

أخيك!!"

يهتف بها فهد بمرح بينما يجلسون جميعاً على مائدة

الطعام في بيت عاصي الساحلي ليبتم الأخير

ابتسامة رصينة وهو ينظر نحو جانب وجه ماسة

التي تهتف مدافعة :

_ كل وأنت ساكت! المرة القادمة سأحضر لك قائمة

الطعام قبل زيارتك لتختار منها ما تود "سيادتك"

تناوله !

يضحك فهد وهو يقطع شريحة من سمكة كبيرة ليضع

منها قطعة في فم ملك ابنته قائلاً :

_ سا .. ما .. كا ..

ينطق كلمة (سمكة) مقطعة وهو يضغط مخارج

حروفه فتكررها الصغيرة خلفه ليعيدها ثلاثاً ..

فتهتف جنة مفسرة :

_ آخر نصائح جلسات التخاطب التي تحضرها في

المركز بالعاصمة أن ننطق لها كلمات البيئة المحيطة

بصورة مستمرة كي يساعدها هذا على تحسين

النطق .

_ أشعر أنها تحسنت كثيراً في شأن الكلام هذا !

تقولها ماسة مطمئنة لتهدئ جنة رأسها قائلة :

_ و"الحضانة" أيضاً تساعدنا .. خلطتها مع

الأطفال ولعبها معهم يجعلها أكثر رغبة في

الكلام .. مركز التخاطب الذي ذهبنا إليه مؤخراً ممتاز

حقاً ..

ثم تلتفت نحو عاصي مردفة :

_شكراً ..كانت نصيحتك به في محلها !

يغمض عاصي عينيه بألم تستشعره ماسة جلياً وهي
تدرك من أين عرف عاصي هذا المركز الذي يتحدثون
عنه !!

بينما يسترجع هو ذكرى كابوسه بتلك "اليد

السوداء" الصغيرة فيه ..

هل يمكنه الآن زعم أنه قد أحسن تأويله ؟!

أنها يد ابن هالة من زوجها قبله والذي فقد قدرته

على الكلام تماماً منذ وفاة أمه في ذاك الحادث !!

تلك "اليد الصغيرة السوداء" التي ستبقى تقض

مضجعه حتى يستعيد ذاك الصغير عافيته ..

ربما وقته خفف هذا من شعوره بالذنب نحوه ونحو

أمه التي ماتت دون جريرة

إلا لكونها زوجته وأم طفله الذي مات بطنها!!

شعورٌ عارم بالغضب يكتسحه كطوفان وهو يتذكر ذاك

اليوم الذي أخذه فيه أعداؤه على غرة ليقتلوا زوجته

الحامل وابنه في بطنها ويلقوه هو بسيارته من فوق

ذاك الجبل فيفقد بصره !

ربما لو تدخلت الشرطة في الوقت المناسب ..

ربما لو لم يقف حسام القاضي هذا مكانه مكتفياً

بالمراقبة ومتشكياً فيه ظناً منه أنه ينتقم لـ "طيف" ..

ربما لو لم تخنه حورية مع ذاك الرجل الذي قتله مما

دفع أخاه لنيل الثأر منه هو ومن هالة ..

بل ..ربما لو لم يكن هو عاصي الرفاعي بجبروته

القديم لما تأدت هالة وابنها ..بل ابنيها ..بسببه !

_ "لوكا" صارت تتكلم !

يهتف بها ضياء مقاطعاً أفكاره بفرحة طفولية وهو

يرى تقدم الصغيرة في

الكلام لتلتفت نحوه ملك بضحكة قصيرة وهي تحاول

تكرار جملته بصورة متقطعة ..فيبتسم عاصي

ابتسامة وجلة وهو يشعر بالخوف يعاود نثر بذوره

في صدره من جديد ..

هل مات الماضي حقاً؟!!

هل يشرع لمن مثله أن يفرح باليوم والغد متجاهلاً

خطايا أمسه؟!!

بينما يهتف فهد بمرح مخاطباً ابن أخته :

_ نعم يا ذا الشعر الأشعث و "النصف لسان" ! غداً

أجعلها تقتص منك !

_ غداً تكون ملك مغنية شهيرة !

تهتف بها نور ببراءة وهي تميل بجسدها لتقبل وجنة

ملك فيهتف بها ضياء بصرامة أبيه :

_ لا تقبلها بقم مليئ بالطعام .. القبلات بعد الأكل وإلا

ستحرمين من الغداء!

يضحكون جميعاً من تصرفات الصغير بتسلطه

المعهد الموروث عن عائلة الرفاعي ..

بينما تتعلق نظرات ماسة بشرود عاصي وهي تكاد

تقسم على ما جرفته إليه خواطره في هذه اللحظة ..

لهذا ما كادوا ينهون تناول الطعام لتختلي بجنة في
مطبخ البيت حتى هتفت لها بقلق بينما تجلي

الصحون :

_أحوال عاصي لا تروقتي مؤخراً ..في البداية كنت
أحب مقامنا هنا بعيداً عن أشباح الماضي ..لكنني الآن
أشعر أن رغبته في الانعزال بنا هنا صارت
هاجساً ..من المفترض أن نقدم أوراق ضياء ونور
للمدرسة في العاصمة وننتقل للسكنى هناك ..لكنه
يماطل في

الأمر رغم يقينه من ضرورته كأنه يخشى أن يترك
سكينته في هذا المكان فتطارده أشباح الماضي!
تتهد جنة بحرارة وهي تربت على كتفها قائلة :

_ أنتِ أكثر من تعلمين ما الذي واجهه في
ماضيه .. هو لا يزال يستعيد توازنه .

_ أعلم لكنني أتمنى لو نسكن العاصمة ..صحة رحمة
لم تعد

كالسابق وأريد أن أكون جوارها ..وجواركم .
تقولها ماسة بضيق فتعاود جنة التريبت على كتفها
قائلة بمواساة :

_ لا تتعجلي الأمور ..دعي عاصي لا يشعر بالضغط
وهو يأخذ قراره ..

تقولها ثم تغير الموضوع بسؤالها:

_ تعلمين من رأيت في مركز التخاطب الذي رشحه لي
!؟

تضيق عينا ماسة بنظرة متسائلة فتجيبها :

_سند! ابن زوجته الراحلة .

حزن حقيقي يغشي ملامح ماسة وهي تتذكر مأساة

ذاك الطفل فتقول بشروء :

_لا يزال هذا المسكين عقدة ذنب لعاصي ..تعلمين أننا

حاولنا ضمه إلينا لنعيش هنا وسطنا لكن الولد لا يحب

عاصي ..تنتابه حالة من البكاء الهستيرى كلما

يراه ..رغم أن سنه كان صغيراً عندما توفيت والدته

لكنه يربط اختفاءها بظهور عاصي في حياتهما

خاصة مع عمر زواجهما القصير ..ومع ظروفه

النفسية وفقده للنطق تماماً بعد حادث أمه فقد أثر

طبيبه النفسي المعالج "دكتور كنان" أن يتجنب رؤية

عاصي وأن يبقى في كنف خالته التي ترعاه من
وقتها في الصعيد .

_ عاصي لم يقصر في رعايته ويتفقد أخباره أولاً بأول
رغم البعد .

تقولها جنة وهي تزيحها جانباً لتأخذ نصيبها من جلي
الأطباق فتحاول ماسة منعها لكنها تصر بشدة وهي
تأخذ مكانها أمام الحوض ..

فتجفف ماسة كفيها وهي تتحرك لتعد الشاي هاتفة :

_ ومن يفتع عاصي بهذا؟! عاصي الذي يبدو وكأنه

يأبى إلا أن يحمل ذنوب الدنيا كلها فوق كتفيه !

_ لا بأس! قدرنا أن نتحمل رجلين كعاصي وفهد نال

الماضي منهما بسواده ما نال!

_ ما له فهد ؟! ما له ؟! فتى الشاشة الأول وحلم بنات

مصر كلهن !

تسمعاتها بصوت فهد المرح عند الباب فتضحك ماسة

بحب هاتفه :

_ أشهد!

بينما تجفف جنة كفيها بسرعة لتهرع إليه فتستطيل

على أطراف أصابعها لتشد أذنه بمرح هاتفه :

_ جُنحة رقم واحد :التجسس على كلامنا ..جُنحة رقم

اثنين :المزاح بدلاً من مساعدتنا ..جُنحة رقم

ثلاثة :التفاخر بنفسك وجمع اسمك مع البنات في

جملة واحدة ..لا أعذار ..سأطبق أقصى عقوبة على

المتهم .

تقطع عبارتها بأهة خافتة وهي تراه يكبل كفيها فجأة
خلف ظهرها بقبضته ثم يلصقها به بقوة هامساً أمام
عينها:

_أقصى عقوباتي أطبقها منذ زمن ..سجيناً لسحر
"وهج البندق" هذا ..حتى آخر العمر .

ترمقه بنظرة عاشقة لم تخلُ من حرج وهي تحاول
التملص من بين ذراعيه بكلمات مستنكرة تقطعها
ضحكات ماسة وهي تقترب منهما هاتفة :

_ادخرا غرامياتكما المشتعلة هذه لبيتكما ..هذا مطبخ

السيد عاصي الرفاعي الطاهر!

_وسيبقى طوال العمر طاهراً!

يهتف بها فهد رافعاً سبابته بتهكم حماسي ثم يخبطها
على مؤخرة رأسها مردفاً بمرح:

_قولي أنك تغارين من زوجتي لأنني أدللها بكل
الطرق بينما أقصى طموحاتك أنتِ أن يقول لك السيد
عاصي هذا بصوته الرصين: ماستي!
يقولها مقلداً لهجة عاصي الثقيلة فتفجر جنة في
الضحك بينما تشهق ماسة هاتفة باستنكار مصطنع:
_ هذا احترامك لأختك الكبيرة!؟

_ نكرها كالعادة! انظري لطولك وطولي يا "ماما"
وبعدها تبجحي!

يهتف بها وهو يبسط ذراعه على كتفي ماسة ليضمها
إليه قسراً كي يبدو فارق الطول بينهما لتقول بسخط
مصطنع:

_ لم أكن أعرف أن طول الجسد يتناسب طردياً مع
طول "اللسان"!

_ هانتذا قد عرفتِ يا "حبيبة أخيك"!

يقولها وهو يخبط جبينه بجبينها برفق فتبتسم رغماً
عنها وهي تبسط راحتها على صدره قائلة :

_ حبيب أختك!

_ سأترككما لمشاكساتكما هذه وأذهب لملك .. أسمع
صوتها تستغيث من ضياء .

تهتف بها جنة بمرح وهي تتحرك لتغادر ليهتف فهد
بدوره:

_ لا أدري ممن ورث هذا الصغير طبعه هذا .. لا ريب
أنه من أبيه !

_ بل من خاله طبعاً !

تهتف بها كلتاهما في نفس اللحظة وهما تشيران
نحوه بسبابتيهما فيرتفع حاجباه بدهشة مصطنعة مع
قوله:

_ هذا حكم بالإجماع إذن !

تغادرهما جنة ضاحكة فيما يعاود هو النظر إلى ماسة
التي عادت تتهمك في صنع الشاي:

_ تجرب "نكهة الفانيليا" مع الشاي؟! عاصي صار
يعشقها !

يومئ برأسه إيجاباً وهو يقترب منها ليسألها بحنان :

_ كيف حالك؟! تبدين وكأنك حامل في "ليمونة"

ببطنك المسطح هذا ! ألا تأكلين!؟!

ترفع إليه عينين ممتنتين لهذه العاطفة الصادقة
والدعم غير المشروط الذي طالما منحه لها .. لكنه
يتنهد ليردف بنبرة أكثر جدية :

_ عاصي تلقى لتوه اتصالاً هاتفياً يبدو أنه
أزعجه .. لكنك تعلمين طبع زوجك شديد الكتمان .. لا
أريد التدخل في شئونكما لكنك تعلمين القاعدة : أنا
دوماً معك .. معكما!

ينعقد حاجباها بقلق لكنه يعاود ضمها نحوه مستطرداً
بحنانه القوي:

_ دعك من الشاي الآن .. أنا أعرف طبع عاصي
جيداً .. لن يتحدث في شأنٍ يزعجه أمامنا .. لهذا أفضل
أن ننصرف بسرعة ..
ثم يصمت لحظة ليردف:

_ كوني جواره وسأكون جوارك !

تغضب ابتسامة قلقة على شفيتها وهي تراه ينحني

ليقبل رأسها قبل أن يتحركاً سوياً ليغادر المطبخ ..

ولم يكد يغادر مع زوجته وابنته حتى وجدت عاصي

يلحقهما ليغادر البيت بدوره كي يجلس على

الشاطئ ..

تصرف الصغيرين نحو غرفتهما قبل أن تتحرك لتلحق

بعاصي الذي جلس منكس الرأس كأنما يحمل فوق

كتفيه هموم الدنيا كلها ..

_ عاصي!

تهمس بها بقلق وهي تتحني نحوه ليمد ذراعيه

نحوها فيجلسها فوق ساقيه كعهده .. يضمها إليه بقوة

احتياج تعرفها مخفياً رأسه في حنايا عنقها ..

تحتل صمته كما اعتادت مكتفية بتربيته أناملها على
ظهره ليصلها صوته المهيب أخيراً مختنقاً بغصته :

_ سأضطر للعودة!

_ العودة؟! إلى أين؟!

تسأله بتوجس فيرفع عينيه نحوها لتعود غابات

زيتونه لاشتعالها الهادر بين حزن وغضب ..

فتشعر أن كلمته البسيطة تحتل ما يفوق معناها !!

لكن شفثيه لا تمنحانها سوى جوابه المقتضب:

_ الصعيد ! خالة سند توفيت في حادث !

تشهق بارتياح وهي تلطم خدها رغماً عنها هاتفة :

_ ياربي! رحمها الله !! كانت شديدة الطيبة !! لكن ..

تقطع عبارتها وهي تخبط برأسها على صدرها

مردفة :

ياالمصيبة!! ياالمصيبة!! الولد!! كيف سيحتمل
هذا؟! إنه لم يكن يطمئن لسواها!! لا حول ولا قوة
إلا بالله!!

تنتهي عبارتها بفيض دموعها المختنقة فيضمها إليه
للحظات قبل أن يقف ليوقفها معه ثم يقول بنبرة
مختنقة:

سندھب معاً..جهزي الصغيرين!
يقولها ليغادرها بخطوات متثاقلة فتعود دموعها
للانهيار بغزارة وهي ترفع رأسها للسماء بدعاء
خاشع ولا يملأ خاطرها سوى ذاك الصغير المسكين..

سند!

إلام سيؤول مصيره؟!

نيلي

سألتك حبيبي لوين رايعين
خلينا خلينا وتسبقنا سنين
إذا كنا ع طول ..التقينا ع طول ..
ليش بنتلقت خايفين ..
موعدنا بكره ..وشو تأخر بكره..
قولك مش جاي حبيبي ..
عم شوفك بالساعة ..بتكات الساعة ..

من المدى جاي يا حبيبي ..

ويا دنيي شتي ياسمين ..

ع اللي تلاقو ومش عارفين ..

ومن مين خايفين !؟

ومن مين خايفين !؟

الكلمات بلحنها الشجي وبصوت فيروز الحبيب تصلها

على هاتفها فتغمض عينيها على دموعها وهي

تحتضن دبله جهاد بألوانها وقد جلست وحدها على

فراش خالتها الراحلة هاربةً بنفسها من الجحيم

المشتعل بالأعلى ..

أبوها يلعب القمار مع رفقة السوء خاصته ينفق

أموال تعبها هي في الغربية ..

تفتح عينيها ببطء لتصطدم نظراتها بصورة خالتها

المعلقة على الحائط ..

ملامحها التي تشبهها وتشبه أمها ..

ذاك الجمال الهادئ غير الملحوظ الذي لا يلفت الانتباه

لأول وهلة إنما يستشعر عذوبته من يقترب بما

يكفي ..

شعرها الكثيف الأسود بنعومته الشديدة والذي يشبه

شعرها هي كان أجمل ما فيها ..

هذا الذي عاشت هي لترقب تساقطه يوماً بعد يوم !!

كم تلوم نفسها لأنها عادت إلى هنا تجتر ذكريات

ماضيها الموجعة ..

وترقب غدها وهو يتسرب من بين يديها !!

لماذا لم تبقَ في غربتها ؟!

ماذا بقي لها في هذا الوطن!؟

وصلت!

تصلها مكتوبة على هاتفها من رقم جهاد فتكفكف

دمعها وهي لا تزال غارقة في حيرتها ..

بماذا ترد عليه!؟

ماذا لو ...!؟

لو تزوجته سراً دون علم أبيها!؟

لو أخبرته بحقيقة وضعها وأنها مجبورة على فعل

هذا !!

وبقدر ما تبدو الفكرة براقية وهي تلوح لها بأمل بعيد

بقدر ما تبدو لها مخزية !!

يعز عليها أن تكون هذه صورتها في عينيه بعد كل

هذه السنوات !!

_حمداً لله على سلامتك .

تكتبها له محاولة التوقف عن التفكير الذي يكاد
يدفعها للجنون فيصلها رده :

_متى سأراكِ!؟!

اللهفة تكاد تفيض من بين حروفه فتعود دموعها
للجريان ..

لم يكن غريباً عليها أن تفتقده ..

منذ تملكها سحر عشقه ليجري منها مجرى الدم وهي
تكاد تتنفس هذا الشعور معه ..

حبهما الغريب يبدو لها كطائر مراوغ كلما مدت
أناملها تتلمسه حلق مبتعداً ليذرها بحسرتها متشحة !

_سأخبركِ عندما أستطيع .. قريباً بإذن الله .

_أريد أن أسمع صوتك .

تهز رأسها بعجز وهي تعلم أن نبرتها ستفضحها في

أول مكالمة بينهما فتؤثر السلامة لترسل له :

_ لا أستطيع الآن .. سأحدثك في وقت لاحق .

ترسلها له ثم تتبعها بمقطع من أغاني فيروز التي

يحبها فيرسل لها :

_ ليس أسعد عليّ من يوم تكونين فيه

حلالي!

فيزداد انهمار دموعها وهي ترفع عينيها نحو سقف

الغرفة الفاصل بين الغرفة والشقة العلوية ..

هاتفها يرن برقم أمها فتعلم أنها تستدعيها كي

تؤنسها بالأعلى ..

تنهض من مكانها لترمق الغرفة بصورة الخالة بنظرة

أخيرة قبل أن تتحرك نحو الطابق العلوي ..

ضحكات أبيها العالية مع رففته بسبابهم البذيئ
تخدش أذنيها فيعتصر الألم صدرها أكثر وهي تشعر
بنفس الوخزة التي تنتابها مؤخراً تزداد ضراوة !
تدلف إلى الداخل منكسة الرأس تتوجه لغرفة أمها
بخطوات مسرعة فيستوقفها أبوها بندائه الخشن :

ألن تسلمي على ضيوفي؟!

تشحب ملامحها لأول وهلة شاعرة بالخوف وهي

تميز تتاقل حروفه بفعل الخمر ..

تخشى أن يضربها هنا أمامهم !!

فتلقي سلاماً عابراً وهي تسبل جفنيها هاربة من

نظراتهم ..

ليهدف هو بتهكم فظ وهو يشير نحوها بملء ذراعه :

_ ابنتي "الشملولة"! التي أحضرت الذئب من

ذيله !!

ضحكاتهم الساخرة تشعر بها وكأنها تصفعا فوق
ظهر كرامتها فتدمع عيناها بقهر وهي تعاود التوجه
لغرفة أمها لكنه يستوقفها بقوله :

_ إلى أين أيتها ال (...)!؟! اذهبي وأحضري لنا بعض

الفاكهة من الداخل !

تمسح دموعها خلسة وهي تتوجه نحو المطبخ

القريب لتحضر صينية الفاكهة التي تجيئ بها ..

تدمع عيناها بمزيد من القهر وهي تراه يلقي النقود

على المائدة ليستمر في اللعب ..

فتتشوش المرئيات في عينيها وتسقط الصينية منها

رغماً عنها !!

تسمعه يسبها وهو ينهض من مكانه ليهم بضربها
مترنحاً فيمنعه رفاقؤه عنها وهم يأمرونها بالدخول
للغرفة !

_ اهدأ يا أبا زهرة ! الليل لا يزال في أوله ! لا تفسد
السهرة !

يقولها أحدهم وصوته المتناقل يفضح سكرته ليطلق
أبوها سبة أخرى وهو يرى نفسه قد خسر المزيد من
المال ..

مرة تلو مرة ..

حتى يخسر ماله كله!!

_ نكمل؟!

يهتف بها أحدهم بخبث فيرد أبوها بوجه احمر
غضباً:

_ لم يعد لدي مال .

_ دور واحد أخير .. لو كسبته سنعيد لك

مالك الذي خسرتة اليوم كله !

يقولها صاحبه بنفس الخبث وعيناه تدوران بين

رفاقه فيهتف أبوها بالمزيد من الغضب:

_ قلت لك لم يعد لدي مال!

_ لديك كنوز أثن من المال يا رجل!

يقولها الوغد أمامه بنفس الخبث وهو يشير بعينيه

للغرفة التي اختفت فيها زهرة وأمها ..

لتشتعل عينا أبوها بنخوة للحظة ..

قبل أن تموت في مهدها!!

خاطر شيطاني يجتاحه وهو في هذه الحالة من السكر

ورغبته في الفوز بهذا المال ..

ماذا لو منح صاحبه ما يريد !؟

ألا يضمن له هذا ألا تفكر زهرة في الزواج بعد اليوم

قط؟!

أن تبقى طوع أمره عمرها كله كسيرة العين لا

تنطق!!

لهذا ترتجف أنامله الممسكة بأوراق اللعب وهو

يتناول كأس خمر آخر ليعطي كلمة الموافقة !

دقائق تمر بهم محمومة ومنافستهم على أشدها ..

قبل أن تنتهي اللعبة بفوز أحدهم !!

يطلق الفائز صيحة انتصار عالية وهو يقف مكانه

ليصرف بقية الرفقة هاتفاً بوقاحة قدرة :

_ المولد انفض! ما بقي سأناله وحدي!

ضحكاتهم القميئة تصاحب رحلة مغادرتهم للمكان
بينما يتوجه هو نحو أبيها الذي وقف مترنحاً يسود
وجهه غضبه لفقد المال أكثر من غضبه مما ينتوي
هذا الوغد أمامه ..

_ تولّ أمر امرأتك .. أنا سأكتفي بزهرة !

بقايا من نخوة رجولية تجعله يلکم الرجل في فكه لكن
الأخير يتناول زجاجة الخمر ليكسرها فوق المائدة ثم
يقرب قاعدتها من عنقه هو مزجراً بشراسة :

_ هل ستراجع الآن؟! تعلم عقوبة ذلك!؟!

يرمقه أبوها بنظرة مشوشة قبل أن يتخاذل جفناه
ووقفته تترنح من جديد ..

يتراجع بظهره نحو الغرفة فيتعثر بأحد الكراسي

ليحدث دويًا مرتفعاً ..

باب الغرفة يُفْتَح ليطل منه وجه الأم هاتفة بذعر:

_ ماذا يحدث؟!_

يفرغ زوجها غله فيها وهو يسحبها نحوه ليصفعها

بقوة فتصرخ زهرة مكانها وهي تتقدم منهما تحاول

الذود عنها لكن الرجل الآخر يجذبها نحوه ليطوقها

بذراعيه ..

وقد عزم أن ينال غنيمته !

=====

بنفسجي



تقف ديمة أمام مرآتها في شقتها الجديدة التي وفرها
لها أديم عقب خروجها من السجن ..

تراقب شعرها الأحمر القصير الذي ضبطت شكله عند
"الكوافير" بـ "قصة" حديثة الطراز ..

ملامحها التي زينتها بتبرج خفيف أظهر جمالها الذي
كادت تنساه ..

فردة القرط البنفسجية في أذنها بشكلها بسيط القيمة
تناقض أناقة الثوب الأسود الذي أهداها إياه أديم
بالأمس مع ما يشبهه من أثواب ..

أناملها المرتجفة تمتد نحو إصبع طلاء الشفاه فتحدد
به شفتيها المغريتين ..

تضع زخة من عطر (بلو ليدي) الذي يذكرها بأيامها

الأولى في

سوريا ..

هذا العطر الشهير هناك والذي لا تكاد امرأة بينهم لا

تعرفه !

ترمق صورتها في المرآة بنظرة راضية قبل أن تزيغ

عينها وهي تشعر أنها ترى عبر المرآة طيف شبح

هالة الأبيض يعطيها ظهره مدبراً ..

وطيف شبح غازي الأسود يرمقها بنظرة ساخرة

متوعدة!

تسبل جفنيها بألم وهي تتراجع بظهرها كأنما تهرب

من صورة المرآة

ثم تعاود فتحهما لتتناول حقيبتها من الجوار وتغادر

البيت ..

تقف أمام مدخل البناية ترفع عينيها نحو أشعة

الشمس التي افتقدتها ..

فتشعر أنها تعانقها ..

تذكرها بأيام طفولتها وصبابها !

تغمض عينيها وتسالها .. ترى كيف حال سوريا

الآن؟!!

كيف هن نساؤها الطاهرات بأوشحتهن البيضاء

الأنيقة متقنة الكي؟!!

كيف هم رجالها الذين كانوا يتعلمون أبجدية الحب قبل

حروف الكلام؟!!

كيف هي شوارعها التي كانت تفوح بعبق الياسمين

!؟

بيوتها التي كانت تعرف الرضا في أبسط الأشياء ..

القهوة مع الفواكه مع الأرجيلة ..مثلت سعادة !

صحون اللوز المثلجة وبقايا الجزر لامعة اللون..

رائحة الحبهان وورق الغار والسماق والزعتر..

وفوق كل هذا ابتسامة من القلب يضخها حية قبل أن

ترقص فوق الشفاه الطيبة !

ترى كيف حالك الآن يا سوريا!؟

لهفي عليك متى تضمني من جديد سماؤك وتقلني

أرضك ويلفني هواؤك بألوان علمك الثلاث الذي سرق

من الفضاء نجمتين وقع ضوءهما في قلب كل من

انتمى إليه !!

لم تنتبه أنها عادت تبكي في وقفها إلا عندما شعرت
بتوقف بعض المارة يرمقونها بنظراتهم الفضولية ..
فكفكت دمعها وهي تشير نحو سيارة أجرة قريبة ..
تستقلها لتعطي السائق العنوان الذي تقصده ..
ثم تعود لتراقب وجوه الناس في الطريق بنظرات
زائغة !

تصل للبناية الفخمة فترفع بصرها تبحث عن لافتة
بعينها ..

ولم تكد تلمح الاسم حتى توجهت للداخل لتستقل
المصعد نحو شقة المحامي الذي تقصده ..
تشعر ببعض الرهبة وهي تجد المكتب مزدحماً برواده
فتتخير مقعداً بعيداً تجلس فيه حامية نفسها من
النظرات الجائعة ..

_تفضلي!

يهتف بها أخيراً مساعده وهو يشير لها نحو المكتب
فتتهض لتتوجه نحوه بخطوات وجلة ..

_ أهلاً بكِ سيدتي ..تفضلي بالحديث!

يقولها المحامي بنبرة مهذبة وعيناه اللتان غضهما
عنها تمنحها بعض

الاطمئنان فتتردد لتقول بنبرتها الخانعة وبلهجتها
السورية :

**_ زوجي ..مات ..أقصد قُتِل ..زوجته الثانية وأهلها
زوروا أوراقاً كي يحرموني إرثه ..هي ليست الثانية
بالضبط ..أنا ..أنا ..الثانية ..هي الأولى ..أريد حقي .**

حروفها تتلثم بهذه البراعة التي تزيدها لهجتها
خطورة فيبتسم لها الرجل ابتسامة متحفظة تناسب
قوله :

_اهدئي فقط وتمالكي نفسك كي تمنحيني التفاصيل .
تومئ برأسها في طاعة وهي تعاود سرد قولها
بصورة أكثر شمولية ..

فيهز رأسه وهو يتناول منها ما استطاعت جمعه من
أوراق تخصصها ليعقد حاجبيه بتفحص متسائلاً:

_زوجك من الصعيد !؟

_نعم !

يزداد انعقاد حاجبيه وهو ينهمك أكثر في تفحص
أوراقها قبل أن يرفع إليها عينيه قائلاً بحزم :

_ اتركي لي الملف وسأرد عليك في خلال بضعة أيام .. لا أظنها ستكون قضية صعبة .

ترتجف شفتاها بابتسامة مختنقة وهي تقف مكانها لتقول بنبرتها الخانعة ودموعها تعاود التكس في عينيها :

_ إنه آخر ما بقي من حقي في ذاك الرجل .. لا أريدهم أن يجبروني على التفريط فيه .
يرمقها بنظرة داعمة وهو يقف بدوره ليصافحها مع قوله المطمئن:

_ لا تقلقي ! حقك سيعود لك !
تتردد قليلاً أمام كفه الممدود وهي تسبل جفنيها بقوة كأنما تقاوم انفعالاً هادراً قبل أن تمد أناملها لتصافحه بدورها قائلة :

_أملِي فيك كبير ..يقولون إنك ماهر في عملك !
يطمئنها بعدة كلمات عملية لتهدر رأسها شاكرة وهي
تعطيه ظهرها لتتصرف قبل أن تغادر البناية ..
ولم تكذ تفعل حتى عادت ترفع رأسها لنفس اللافتة
التي تحمل اسم المحامي الذي التفته بالأعلى فتتحول
نظرتها الوديعة الخائعة إلى أخرى أكثر شراسة !!
(حسام القاضي)!

هاقد بدأت قصة انتقامي معك فاستعد ..

لن تنتهي إلا بموت أحدنا!

وإن كنت قد عجزت عن نيل ثأري ..

فلن أفرط في ثأر هالة !!

ستكون ميداليتي الذهبية الأولى في دولاب

انتصاراتي ..

وسأكون آخر خيبتك .. وخاتمة هزائمك !

=====

دم...بحر...دم...بحر...

أحمر...أزرق...

بنفسجي!

هذه الأرجوانية أنا !

فاحذرنى يا "قذاف الحطب"!

عينك تلقي أحطابها في نار قلبي فتزيدها...

ما بين لهب انتقامي...ونار عشقي...

أحترق!

كن لي -بربك- عاشقاً ...

أو لا تكن...

فمسيرنا -سويًا- واحدٌ قد كُتِب!

(بنفسجي...ديمة)

=====

أخضر

=====

على حافة "المنتصف" السخيفة دوماً أقف...

لا يمين يجذبني ولا يسار يغريني...

الأصفر المجنون يدفعني...

والأزرق الخواف يبقيني..

وبينهما "خضراء" أنا أتأرجح...

فأي عشقٍ يداويني؟!
(أخضر... عزة)



_ وهذه كانت آخر فقراتنا في برنامجنا "أكلتين
وعافية" .. كانت معكم عزة
الأنصاري.

تقولها بابتسامتها الساحرة بعفويتها أمام الكاميرا
فيقوم المخرج بتركيز الكاميرا على وجهها ثم على
وشاحها الأخضر حول عنقها والذي صار أيقونتها
بعد تلقيها ب"حورية المطبخ الخضراء"
_ كنتِ رائعة!

يقولها له بنبرته التي ازدادت حميمية في الفترة
الأخيرة لترتجف شفتاها بابتسامة مجاملة وهي
تلاحظ تحديق بعض العيون الفضولية فيهما من فريق
العمل ..

_شكراً ..الفضل لك ..أنت المخرج !

تقولها وهي تتلفت حولها فتراه يقترب منها أكثر
ليتفحصها بنظراته المتشحة بعاطفته فتكتف جسدها
بساعديها وهي تشعر أن الليلة ستبلغ بها ذروة
الصراع الذي تريد حسمه بشأن حياتها القادمة ..

إيهاب لا يزال ينتظر رأيها وقد عاد

بالأمس في إجازته ..

لم يعد هناك مبرر لتأجيل الأمر..

فلتقل لا ..ويرحل ..

أو لتقل نعم .. ويبقى !

_ كنت أريد التحدث معك في أمر ما ..

يقولها المخرج بنبرته الدافئة ثم يتحنح ليردف

بابتسامة ساحرة:

_ بل أمرين في الواقع!

ابتسامتها تزداد ارتجافاً وهي تضم ذراعيها حولها

أكثر تهم بالاستفسار لولا أن علا صوت أحدهم من

الجوار ..

_ مفاجأة صاعقة ! تعلمون (....) بمن أعلن زواجه

!؟

تلتفت عفويًا للقائل باهتمام حقيقي وهي تراه يذكر

اسم مذيع شهير جداً فتنتظر الجواب كالجميع الذين

تحلقوا حول الرجل ..

فيضحك الأخير بتهكم وهو يذكر اسم ممثلة مبتدئة

تتسم ببدانتها الشديدة !

_ معقول؟! يتزوج بهذه؟!!

_ لابد أنها سحرت له !

_ هكذا النساء ، قليلات الجمال منهن تكنّ وفيرات

الحظ !

_ هل فقد عقله؟! النساء يتهافتن عليه وهو يختار

هذه !

_ يبدو أنه لديه عقدة نقص! اختارها أقل منه كي

يتجبر عليها!

الهتافات السابقة تنتشر حولها بمزيد من سخرية

ودهشة فتشعب ملامحها وهي تتخيل نفسها في ذات

الوضع المعكوس!



تراهم يتضحكون بتخابت بعدها وهم يتندرون على
العروس البدينة فلا تملك نفسها وهي تصرخ فيهم
بانفعال:

هكذا؟! هل صارت أعراض الناس هكذا مباحة
هكذا؟! ما شأننا نحن بمن تزوج؟! المهم أنه راض
وزوجته راضية!

الصمت يسود المكان بعد عبارتها وانفعالها الذي بدا
لهم غريباً على طبيعتها الهادئة ..
ليتبادلوا النظرات بدهشة قبل أن تهتف إحداهن
بحدة :

هل ستربطين أسننتنا؟! إن لم يكن يعجبك المكان
فارحلي!

ورغم أنها لم تكن هجومية في المعتاد لكنها وجدت

نفسها تندفع نحو المرأة لترد عليها بعنف هاتفة :

_ أبسط أصول الأخلاق ألا تتحدثوا عن الرجل في

غيابه وأن تحفظوا عرضه !

_ تقصدين أننا بلا أخلاق!

الحوار يتطور لمشادة كلامية عنيفة تشعر بنفسها

فيها وحدها لولا تدخل المخرج الذي هتف بكلمات

مهدئة ليصرفهم جميعاً ..

قبل أن يلتفت نحوها ليقول بحزم:

_ دعينا نغادر .. أريد التحدث معك .. تقبلين دعوتي

على العشاء!؟!

تشعر بالانفعال يرفع ضغط دمها ..

كما أنها تنتوي لقاء إيهاب هذه الليلة كي تخبره

بقرارها !

قرارها الذي -العجب- لم تتخذه بعد !!

لكنها ستترك نفسها لاختيار اللحظة

الأخيرة وهو الذي يكاد يصيب امرأة -مثلها-

بالجنون!

لهذا زفرت زفرة قصيرة وهي تشيح بوجهها قائلة :

_أسفة ! لست في مزاج جيد اليوم .

_ لا بأس .. سأوصلك للبيت .. و نتحدث في طريقنا!

يقولها بنفس الحزم الذي يضيف على شخصيته

جاذبية خاصة لامرأة بطبيعتها المذبذبة فتتحرك

لتسير جواره ..

تشعر بالعيون ترقبهما فتقرأ عيناها نظراتهم

بجوع !!

فضول .. إعجاب .. ترقب ..

حتى هذه التي اتسمت بالحسد !

كلها نظرات ترضيها ..

ترفعها فوق هذه القمة التي اشتاقتها !!

تصل معه لسيارته الفارحة فتستقلها جواره شاعرة

بالمزيد من الفخر ..

تراه يشغل موسيقا أجنبية كلاسيكية لا تفهمها لكنها

ارتبطت في ذهنها بسلوك الطبقات الراقية فتسترخي

أكثر في مقعدها وهي تشعر بالمزيد من الفخامة !

لن تسأليني عن الموضوعين اللذين كنت أريد

التحدث معك بشأنهما !؟

يقولها بصوته الرخيم فتختلس نظرة
لملامحه الوسيمة ثم تشيح بوجهها وهي تتحنح
بارتباك :

_ ما هما !؟

_ أخبريني أولاً .. لماذا كنتِ شديدة

الانفعال هكذا في داخل الاستوديو ؟! إنها المرة الأولى

التي أراكِ فيها بهذا الحال!

_ أنا .. مضغوطة هذه الأيام .. أمورٌ كثيرة صرت أشعر

بها حملاً على ظهري.

تقولها بنبرة متعبة لا تدعيها فيصلها صوته بنبرة

أكثر رفقاً :

_ الحمل الثقيل يخف لو حمله اثنان بدلاً من واحد .

تعض شفتها بالمزيد من الارتباك فيضحك ضحكة
قصيرة وهو يتفحص ملامحها مردفاً :
_ غريبة أنتِ حقاً ! الطبيعي أن يملك الناس جرأة في
الطبيعة تقل أمام الكاميرا .. أما أنتِ فتتهجين
العكس .. نسرُّ أمام الكاميرات ومجرد عصفور وديع
على الطبيعة !

ضحكته تنتقل إليها فتخفف بعض توترها وهي ترد
دون أن تنظر إليه :

_ ربما لأن الكاميرا هي التي تمنحني قوتي وليس
العكس .. عزة الأنصاري لم تولد حقيقة إلا أمام
الكاميرا !

يبتسم ابتسامة إعجاب لم ترها وهو يعود ليرمق
جانب وجهها بنظرة متفحصة ..

بينما تتجاوز هي هذا الحديث بسؤالها وهي تعاود

النظر إليه :

_ فيمَ كنت تريد التحدث إليّ!؟!

_ الأمر الأول ..بخصوص هذا الرقم الذي تصلك منه

رسائل التهديد وطلبتِ مني تعقبه !

_ عرفت صاحبه!؟!

تهتف بها بلهفة فيتنحج بحرج وهو يرد :

_ صاحبتَه .

_ من!؟!

يعاود التنحج بحرج وهو يمنحها ورقة مطوية ولم

تكد تقرأ الاسم حتى شعرت وكأنما خنجر سام قد

انغرس في صدرها !

_ لماذا؟! لماذا؟!!

تتمتع بها بألم وهي عاجزة عن السيطرة على فيض
دموعها فيمد أنامله الحرة ليحتضن كفها قائلاً :
_ أنا أقدر صدمتك .. وربما هذا ليس الوقت المناسب
للحديث عن الأمر الثاني .. لكنني سأخاطر بعرضه .
لأنني أشعر أنكِ تحتاجين وجودي في حياتك كما
أحتاجك أنا .

تسحب كفها منه بسرعة لتقبضه جوارها وهي
تستذكر موقف إيهاب المشابه ..

الغريب أنها وقتها لم تسحب كفها منه كما فعلت
الآن !!

رغم أن رضاها عن هذا العرض الذي تتاله الآن أكبر

بكثير!!

عرض؟! أي عرض!؟

هو لم يلقِ سوى بتلميح !!

لكنه بدا وكأنه يقرأ أفكارها عندما توقف بالسيارة
فجأة على جانب الطريق .. قبل أن يلتفت نحوها ليقول

ببطء واثق:

_ أنا أعرض عليك الزواج ..صراحة دون
مواربة ..وقلبي يخبرني أنك ستوافقين!

=====

_ حورية المطبخ الخضراء ..ستكونين أسيرة جنتي

للأبد !

يقولها إيهاب لنفسه أمام المرأة وهو يفرد أحد
ذراعيه في مشهد تخيلي للقائه المنتظر بها ..

لكنه يعود ليهز رأسه بعدم اقتناع:

_ لا! لا! قديمة جداً وأداء مبالغ فيه !



يقولها ثم يمد يده ليتناول علبه قطيفية حوت خاتماً
أنيقاً قبل أن ينحني جالساً على أحد ركبتيه أمام
المرآة يتصورها أمامه .. فيمد أنامله بالعلبة ثم يفتحها
بحركة خاطفة هاتفاً:

_ كوني لي .. كما سأكون طوال العمر لك .

لكنه يعود ليhez رأسه بعدم اقتناع قائلاً :

_ هذه أيضاً قديمة ! ماذا جرى لك يا "فاجومي"؟!!

دع ما تقوله لارتجالية اللحظة .. دع قلبك يتكلم دون

محاذير .. دون خطط .. ساعتها سيقول ..

_ عوّضني عوض الصابرين يا رب! هل فقدت عقلك

تماماً؟!!

تهتف بها أمه وهي تقف عند الباب وقد وضعت أحد

قبضتيها جوار خصرها فيلتفت نحوها بضحكة

محرجة وهو يضم العلبة لصدره قائلاً بخجل:

_أفرعتني يا "خوخة"!

_تكلم نفسك أمام المرأة يا "باشمهندس"؟! لم يبقَ

إلا أن ترتدي بدلة مشفى المجانين بـ"المقلوب"!

تهتف بها بسخرية غلفت حنانها المعهود وهي تقترب

منه فيضحك ضحكة عالية يداري بها انفعاله وهو يمد

لها كفه هاتفاً:

_ساعديني للنهوض أولاً!

تمد لها كفها كي تساعده لكنه يتشبث بجلسته عمداً

وهو يهتف لها مشاكساً:

_صحتك لم تعد كالسابق يا "ست الناظرة"!

_صحتي أنا التي ليست كالسابق؟! أم أنك الذي صرت

ك"الخرتيت"؟!!

تقولها لاهثة وهي تحاول جذبه لكنه لايزال يتشبث

عامداً بجلسته وهو يرد بضحكة مرحة :

_سمّ الله ! لا يحسد المال إلا أصحابه !

يقولها ثم يجذب كفها نحوه عنوة فتسقط جواره على

الأرض لتطلق صرخة قصيرة لكنه يضمها إليه برفق

للتعالى ضحكاتهما معاً وهي تهتف بعتاب مصطنع:

_ألن تكف عن حركاتك هذه؟! تريدها أن تقبل بك

عريساً وأنت لا تزال تتصرف كطفل أحمق!

يقهقه ضاحكاً وهو ينهض من جلسته ليضع اللعبة
القطيفية جانباً ثم يمد لها كفيه ليساعدها في النهوض
هاتفاً:

_ هيا ! لا وقت للدلع! ساعديني في اختيار القميص
الذي سأرتديه !

_ ومنذ متى تعتمد على ذوقي؟! آخر مرة فعلتها كنت
في المرحلة الاعدادية !!

تهتف بها بتبرم وهي تتوجه نحو خزانة
ملابسه فيضحك وهو يلحق بها هاتفاً بنفس الانفعال
المرح:

_ أريدك أن تكوني راضية عني تماماً هذه الليلة قبل
ذهابي لموعدي معها ..لن أجازف بأي نسبة مخاطرة
أن تفسد الليلة لأي سبب...

يقولها ثم يتناول كفيها بين راحتيه ليردف بأداء

تمثيلي وهو يعني مميلاً رأسه يمنة ويسرة :

_ (يا ماما ..يا امّه يامّاتي ..سلاماتي احتراماتي

قبلاتي)!

تضحك وهي تسحب كفيها منه لتلكمه في كتفه

هاتفة :

_ هذا ما آخذه منك!

_ من قال هذا؟! أعدك أنها لو أبلغتني بموافقته الليلة

-وستفعلها!- أن أحضر لك أجمل أكلة "كباب وكفتة"

تستحق فمك الحلو هذا!

يهتف بها بفرحة واثقة فتتلجج ابتسامتها على

شفتيها وهي ترمقه بنظرة طويلة لتقول أخيراً بنبرة

جادة لم تخل من إشفاق:

_ لا أريد إفساد فرحتك .. لكن ضع احتمال عدم موافقتها في حسابك .

تزيغ عيناه بنظرة شاردة للحظة قبل أن يعود إليها ببصره ليقول ابتسامة هادئة:

_ تعرفين لماذا أحببتها يا "خوخة"؟!!

ترمقه بنظرة متسائلة فيستد بكفه على باب دولاب ملابسه ليجيب بشرود :

_ ليس لأنها صاحبة أجمل ابتسامة قابلتها في حياتي .. ولا ألطف طريقة نطق لاسمي .. ليس لأنها ناجحة وشهيرة .. ليس لأنها تجيد الكلام .. بل لأنني أنا أجيد قراءة صمتها .. أجيد ترتيب تلك الفوضى التي تعيث فساداً بدواخلها .. أجيد إكمال هذا الشطر الناقص الذي تبحث عنه .. أحببتها لأنني أخيراً وجدت المرأة

التي أشعر بقيمتي في حياتها .. لأنني أجيد "التنقيب"

عن آبار قوتها .. "تكرير" شوائب ضعفها ..

يقطع حديثه الجاد فجأة ليبتسم ابتسامة عريضة

مردفاً :

_ لا بأس بالعبارة الأخيرة .. "المهنة تحكم" !

لكنها لا تبتسم لدعابته هذه المرة بل تمد أناملها

لتربت على كتفه قائلة :

_ لا تفرط في ثقتك في فهمها إلى هذا الحد ! الزمن

أستاذ في تخيب توقعاتنا .. كل الذين تعرضوا

للخدلان كانوا يظنون أنهم أكثر ذكاء من أن

يُخدعوا !

_ لا تقلقيني يا خوخة ! أنا واثق أنها ستوافق !

اختاري القميص بسرعة كي لا أتأخر عن مواعيدي !

يقولها مازحاً وهو يدير كتفيها نحو باب الخزانة

فتختار له قميصاً أنيقاً بلون أسود لكنه يهتف

باعتراض:

_ هل أنا ذاهب لأداء واجب التعزية؟! انتقي لونا

فاتحاً.. ماله الأبيض؟!!

_ الأبيض يظهر وزنك الزائد.. الألوان الداكنة "تلمّ

الجسم"!

تقولها بصرامة حنون لكنه يتشبث

بالقميص الأبيض وهو يراقصها بحاجبيه مشاكساً:

_ ومن يريد أن "يلم جسمه"؟! أنا أعجبني هكذا!

بشحومي ودهوني وشكلي الذي يوحي ب"العز وأكل

الوزّ"!

يقولها وهو يداعب خديه الممتلئين بأنامله بحركة
سريعة متعاقبة فتضحك رغماً عنها وهي تدفعه في
صدره هاتفة :

_ لا فائدة ! لن أغلبك في الكلام أبداً! بدأت حديثك
ب" اختاري لي القميص " وفي النهاية تفعل ما
برأسك !

_ حبيبتي يا "خوخة"! إنها سياسة أبي رحمه الله
التي علمها لي ..

قال لي : (المهارة يا ابني أن تجعل المرأة تفعل ما
تريده أنت وهي مقتنعة أن هذا ما تريده هي!)
يقولها وهو يبسط ذراعه على كتفها مقلداً لهجة أبيه
الراحل فتضحك وهي تعاود دفعه في صدره هاتفة :
_ كن ولو بمثل نصف عقله إذن يا "خائب الرجا"!

ضحكاتها تتعالى وهي تغادر الغرفة لتغلق بابها
خلفها فيشرع هو في تبديل
ملابسه ليرقب صورة مرآته أخيراً بنظرة راضية ..
وهو يشعر أن هذه الليلة ستكون فارقة في مصيره ..
ولو اطلع على الغيب لأدرك أنها -للأسف- ستكون
كذلك!



_ لماذا يا هيام؟! لماذا!؟!
تصرخ بها عزة بهياج هستيري على الهاتف وهي
تخاطب شقيقتها عقب رجوعها إلى البيت ..
لا تكاد تستوعب هذه المفاجأة أنها هي !!

هي شقيقتها..من كانت ترسل لها هذه التهديدات عبر

الهاتف وتسبب لها كل هذا الذعر !

_لأنني أريد مصلحتك يا غبية ! أردتك أن تشعري

بخطورة العيش وحدك كي تسرعي بالزواج!! قطار

العمر ..

_كفى!

تصرخ بها بنفس الهياج مقاطعة عبارتها لتردف

بصوت هادر:

_دبة قتلت صاحبها ! هكذا أنتِ طوال عمري ! أنتِ

التي ورطتني في خطبتي لذاك البلطجي ..وأنتِ من

دفعتني لأكون زوجة ثانية لراغب ..والآن عندما بدأت

أخذ مكائتي ووضعني تريدين أن تعيديني لسجن آخر!

_ وهل الزواج سجن؟! تعين أنك ستبقيين هكذا عازبة
طوال العمر؟! وتعجبين مما فعلته؟! أمثالك لا
يحسنون التفكير ويجب لغيرهم أن يفكر عنهم .
تهتف بها هيام بصوتها الجهوري وقد أخذتها العزة
بالإثم لتصمت عزة للحظات فتشعر الأولى بالخطر من
سكوتها المفاجئ هذا لتهتف بقلق:

_ عزة ! أنتِ بخير؟!

فتمالكت عزة نفسها لتقول أخيراً بقسوة باردة :
_ أنا بخير ..وسأكون دوماً بخير ..ووحدي ..من اليوم
انسي تماماً أن لكِ أختاً !

تقولها ثم تغلق الاتصال بعنف قبل أن تضع رقمها
على قائمة الحظر من

الاتصال!!

هنا فقط تنهار باكية على الكرسي القريب وهي تشعر

في هذه اللحظة كم هي وحيدة !!

إلى هذه الدرجة هانت في عين شقيقتها لتتصرف

معها بهذه الطريقة !؟

لتجعلها تعيش كل هذا الرعب في الأيام السابقة فقط

كي تحقق لها رغبتها في الزواج !؟!!

تسمع هاتفها يرن برقم إيهاب فتتذكر موعدها معه

لتعاود دموعها الانهيار بغزارة وهي تتذكر عرض

المخرج الذي تلقتة لتوها والذي لن ترفضه امرأة

عاقلة ..

لكنها ستفعل!!

أجل ..سترفضه !!

كما سترفض عرض إيهاب!!

_ لن أتزوج يا هيام!! لن أتزوج!!

تصرخ بها هادرة كأنما تسمعها لتغلبها زخة أخرى
من دموعها قبل أن تمسحها بأناملها وهي تراه يعاود
الاتصال مرة تلو مرة ..

تفتح الاتصال بأنامل مرتجفة وهي تتنوي الاعتذار
عن الحضور لكن صوته الحنون الذي يجيد هدهدة
مخاوفها يأتيها مرحاً كعهده :

_ لا اعتذارات ! افتقدتك يا "جنيتي" ! أنا تحت البيت
وجائع جداً .. تعلمين خطورة رجل مثلي عندما يكون
جائعاً؟!

تبتسم رغماً عنها وهي تكتم شهقة بكائها !!

كيف تخبره ؟!

كيف تصف هذه الفوضى بداخلها ؟!

كيف تشرح أنها .. هي نفسها .. هي نفسها لا تعرف

ماذا تريد !!

تريد الزواج من ذاك المخرج فتحصد فخر النظرات

بزوج وسيم شهير ..

أم تريد الزواج منه هو فتحصد سعادة القلب برجل

يأنس إليه ..

أم لا تريد الزواج أصلاً كي لا تعود لسجن لا تدري

كيف سيكون حالها فيه مع سجانها !؟

لكنه لم يمهلها المزيد من الوقت وهو يهتف بنفس

المرح:

إن لم أجدك أمامي في خلال خمس دقائق فسأصعد

إليك وأشن غارة على

ثلاجتك .. وقد أعذر من أنذر!

تمنحه كلمة موافقة لا تدري كيف خرجت منها ثم
تغلق الاتصال وهي لا تزال غارقة في حيرتها ..
نفسها تحدثها ألا تبذل ملابسها خاصة وهي بهذا
المزاج السوداوي ..

لكنها تتهد بحرارة وهي تهمس لنفسها بحزم:
_إن كان هو اللقاء الأخير فاتركي له ذكرى طيبة
بأجمل صورة عندك !

وفي مكانه بالسيارة كان هو يرقب مدخل بنايتها
بنظرات ملؤها الاشتياق ..

قلبه يتقاذف بين ضلوعه بجنون وهو يترقب
حضورها ..

هذا بالضبط ما لم يستطع قوله لأمه عندما سألته لماذا
أحبها !!

أحبها لأنها أعادت له الشعور بجدوى أيامه ..بمذاق

عمره!!

لأنها أعادت له شعوره بالفرح الحقيقي بعدما ظنه

سيبقى العمر مجرد مدينة منسية على خارطته !

أحبها لأنه تعلم لديها من جديد أن يحب نفسه في

عينيها !!

_ اعتبر أن ما بيننا قد انتهى!

_ ماذا تقولين ؟! ماذا تقولين أنتِ؟! ماذا عن الحب

الذي كان بيننا؟!!

_ كنت واهمة ! ظننت أنه يمكنني احتمال رجل بعيوبك

لكنني كنت مخطئة .

_ رجل بعيوبي؟! ومن تكونين أنتِ ؟!

_ أنت تعلم من أكون ! أنا المرأة التي ستبقى العمر

كله تحلم بها ولن تنالها !

_ من تظنين نفسك ؟! اعلمي أن اللحظة التي

ستخرجين فيها من حياتي ستدخل من هي أفضل

منك !

ضحكتها الساخرة بعدها لا تزال تدوي في أذنه إلى

الآن رغم مرور كل هذه السنوات !!

أقسى الناس أثراً من يرحلون .. ولا يرحلون !!

تبقى ندبتهم في جدار القلب عاهة مستديمة لا تبرا!

حبه الأول .. هزيمته الأولى .. وخيبته التي -للأسف- لم

يدفع ثمنها وحده !!

ذكرياته تتوقف عندما يلمحها أخيراً تتقدم نحوه
بثوبها الأنيق المحتشم بلون الفستق الهادئ مع
وشاح أبيض اللون أضفى على وجهها سحراً خاصاً !
عيناه تلتمعان بوهج عاطفته وهو يحاول قراءة
نظراتها ..

اشتاقتة !

يكاد يقسم عليها !

اشتاقتة كما اشتاقها!!

_كيف حالك ؟!

تقولها بنبرة متعبّة وهي تتحاشى نظراته بعدما
استقلت السيارة فيقول لها بمرحه الذي يخفي
عاطفته :

_ وما بالكِ تقولينها هكذا دون أن تنظري إليّ؟! هل

ازددت قبحاً إلى هذا الحد؟!!

تطرق بوجهها دون رد فيردف بنفس النبرة المرححة :

_ العمل في الموقع الجديد زادني سمرة .. "خوخة "

لم تكذ تعرفني عندما فتحت لي الباب عقب عودتي .

تبتسم ابتسامة واهنة وهي ترفع إليه عينيها فتلتقي

نظراتهما للحظات يتسرب فيها القلق إلى نفسه فيشعر

أن ثقته تهتز..

_ كنتِ تبكين!

تهز رأسها نفيماً للحظات لكنها تجد نفسها تنخرط فجأة

في بكاء خافت فيعقد حاجبيه بشدة وهو يسألها بقلق

أكبر:

_ ماذا حدث؟!!



_الكثير! الكثير! رسائل تهديد..خوف..قلق..وفي
النهاية أكتشف أنها هيام! هيام من فعلت بي هذا!
عرض زواج! مخرج البرنامج! صارحني اليوم!
أنت..أنت ابتعدت..أنا..

كلماتها تأتيه متلعثمة متخبطة بين فيض دموعها
وهي تغطي وجهها بين كفيها..

لم يكن يميز بعض كلماتها لكنه يهتف بها مهدناً
ومحاولاً احتواء حزنها كما يظن- أنه يجيد :

_فقط كفي عن البكاء واهدئي! سنتدبر كل شيء سوياً
كالمعتاد .

يقولها ثم يعيد تشغيل السيارة لينطلق بها قبل أن
يضغط زر تشغيل الموسيقى فتنبعث أغنية قديمة لعبد
الحليم..كانت تحبها صغيرة..

على أد الشوق اللي في عيوني يا جميل سلم ..
ده أنا ياما عيوني عليك سألوني وياما بتألم ..

_ لا تظنني بارداً لأتني أشغل الأغنية بينما
تبكين .. التصرف المثالي لا يمكنني فعله الآن ..
يقولها ببعض المرح مغالباً قلقه ورغبته الحقيقية في
أن يضمها لصدره الآن محتويماً كل أوجاعها هذه بين
ذراعيه ..

فترفع عينيها إليه وقد عزمت أن تلقي قرارها في
وجهه الآن وليكن ما يكون !

_ إيهاب .. أنا ...

يلتفت نحوها بهذه النظرة التي تشعرها أنها أئمن
كنوزه ..

وأنه - رغم تشتتها - أثنى كنوزها كذلك !

فتجد كلماتها تغير مسارها لتصب في مجرى آخر :

_ أنا .. افتقدتك !

ابتسامته التي بدت وكأنها احتكرت سعادة الدنيا كلها

تجزئها عن قولها خير الجزاء فتعاود إغماض عينيها

وهي تلعن نفسها !!

جبانة !

مشتتة !

مترددة !

كعدها تفضل الوقوف على حافة المنتصف

السخيفة !!

_ لا تتحدثي الآن .. انتظري حتى نستقر في المطعم

الذي اخترته .. لا أريد تفويت النظر إليك بينما

تتكلمين .. لا تعلمين كم انتظرت هذه اللحظة منذ

تركك آخر مرة .

يقولها بمرحة المختلط بعاطفته في مزيج دافئ عجيب

لا يليق إلا برجل مثله ..

فتعاود هز رأسها بعجز وهي لا تدري كيف ستفسد

فرحته هذه !

_ لماذا تسير في هذا الطريق !؟

تغير الموضوع مشيرة للطريق المقفر -نسبياً- الذي

اختاره فيجيبها بنفس المرح:

_ لا تخافي .. لن أختطفك ولو أن الفكرة اليوم بالذات

تبدو مغرية !

ترفع عينيها إليه بنفس النظرة التي تفضح عمق

احتياجها وتشتتها ..

لكنه يردف بنفس المرح :

_مطعم رائع رشحه لي أحد أصدقائي على الطريق
الصحراوي ..يقلد البيئة البدوية وطعامها ..تخلي لي لو
ترتدين الزي البدوي وتجلسين معي تحت ضوء القمر
على الرمال فتكون الذكرى الأولى الأبدية لنا طوال
العمر !

عاطفته الحاملة تطفى على مرحة في كلماته الأخيرة

لتجد نفسها دون وعي تنفر من الصورة !!

تتخيل المشهد الذي يحكي عنه فتتذكر سخرية

زملائها من موقف شبيه منذ ساعات ..

ورغماً عنها يستبدل عقلها صورته بصورة المخرج

فتجد المشهد المختلّ قد ..ضُبط!!

يا لله !!

أما لهذه الحيرة من آخر؟!

أما كانت قد اتخذت قرارها بأن ترفض شأن الزواج

هذا بكليته؟!!!

تنقطع أفكارها وهي تشعر بسيارته تُصدم من الخلف

فتشهق وهي تشعر بجسدها يندفع فجأة للأمام

لتصرخ هاتفة :

ماذا يحدث؟!

لكنه هو الآخر لم يكن يعلم ما يحدث وهو يرى

السيارة التي دفعتة من الخلف تتجاوزه لتقف أمامه

مجبرةً إياه على التوقف!!

يعقد حاجبيه وهو يمد أنامله بسرعة نحو "تابلوه"

السيارة كي يحضر منها ما يمكنه الدفاع به عنهما..

لكنه يفاجأ بترجل أربعة رجال من السيارة يندفعون
نحوهما بسرعة البرق ليخرجاها قسراً من
السيارة ..

صرخات عزة تكاد تفقده صوابه وهو يلکم أحد
الرجلين اللذين يطوقانه لكن
الأخير يضربه بهراوته الثقيلة على رأسه فيفقد
توازنه ليسقط أرضاً ..

_تذكريني أيتها ال (...)! أم نسيّتي؟!
ترفع عينيها بذعر لذاك الرجل الذي بدا قائدهم فيرتعد
جسدها ..

ملامحه تعيدها لماضٍ قديم كانت قد ألقتة كاملاً خلف
ظهرها !!
إنه هو .. شقيقه !!



شقيق ذاك البلطجي -خطيبها الأول-!!

تعلم أنه كان خارج البلاد منذ فترة بعيدة هارباً من

أحكام قضائية ..

لماذا يظهر الآن ؟!

لماذا ؟!

_تظنين أن شقيقي سيموت في السجن بسببك بينما

تتمتعين أنتِ بحياتك وتتزوجين غيره ؟! على جثتي!!

يصرخ بها بصوته المرعب وهو يقترب منها

ليصفعها على وجنتها فتصرخ برعب ليتحامل إيهاب

على نفسه محاولاً النهوض رغم شعوره بالألم

الرهيب في رأسه وعدم التوازن فيلكم أقرب الرجلين

له لكمة مفاجئة ..

لكن زعيمهم يقفز نحوه كي يلكمه في فكه بقوة فيلقي

إيهاب جسده بثقله فوقه ليسقطاً أرضاً معاً ..

يشعر إيهاب بطنين قوي في أذنيه لكن صرخات عزة

التي تبدو له كصدى بعيد تضخ الأدرينالين في دمه

فتدفعه للمزيد من المقاومة ..

يكيل لذاك الباطجي عدة لكلمات مستفيداً من ثقل وزنه

الضاغط عليه لكنه يشعر بذاك الوغد يباغته بأن

يطعنه بمديته في فخذه !!

يطلق صرخة ألم عالية وهو يعود برأسه للخلف لكنه

يشعر بضربة من الهراوة الثقيلة تهوي على رأسه

فيفقد وعيه تماماً هذه المرة !!

صرخات عزة المذعورة لا تنقطع حتى تكاد أنفاسها

تتقطع وهي ترى الدم يسيل منه بينما يسحبون جسده

للخلف كي يبعده عن زعيمهم الذي نهض متثاقلاً

لا هت الأنفاس وهو يطلق عدة أفاظ نابية ..

_ هكذا سأفعل بكل رجل تفكرين في الزواج منه أيتها

ال(...)!!

يهتف بها بغلّ وهو يهوي بقبضته على ما يطاله من

وجهها حتى تسقط فاقدة وعيها ..

=====

تفيق بعد وقت لا تعلمه ليروعها اللون

الأبيض للمشفى الذي استقرت فوق أحد أسرّته ..

_ أستاذة عزة ! حمداً لله على سلامتكَ .. لا أصدق أنني

أراكِ .. أنا من متابعات برنامجك المخلصات !

تهتف بها الممرضة الثرثرة بعفوية فتتلفت حولها

وهي تسألها بقلق ولا يزال ذهنها مشوشاً:

_ ماذا حدث !؟

تتهي سؤالها بأهة توجع وهي تشعر بألم يكتسح

رأسها كله ..

لتهتف الممرضة بأسف:

_ يبدو أن بضعة لصوص هاجموا سيارتكما لغرض

السرقة .. لكنك سعيدة الحظ حقاً فقد رآكما أحدهم

وطلب

الإسعاف والشرطة !

_ إيهاب! أين هو؟! ماذا جرى له!؟!

تهتف بها بلوعة وهي تشعر بحلقها يكاد يحترق

لتشيع الممرضة بوجهها في أسي ..

فلا يسعها صوتها الواهن وهي تهتف بها بحدة :

_ انظري !

_ نرف الجرح في فخذة كان شديداً

للأسف .. لم يستطع الطبيب التحكم في إيقافه عندما

وصل إلى هنا .. فاضطر ل..

تقطع الممرضة عبارتها مشفقة من إكمالها فتتسع

عينا عزة بذعر وهي تصرخ صرخة قصيرة بينما

تتحامل على نفسها لتحاول النهوض من فراشها

هاتفة :

_ اضطرّ لفعل ماذا!؟! قولي!

ترمقها الممرضة بنظرة مشفقة أخرى قبل أن تفجر

قنبلتها :

_ اضطر لبتز الساق!

=====

(الطيف السادس)

=====

أخضر

=====

_ليس صحيحاً ! ليس صحيحاً!

كانت تهتف بها بما يبدو كالهذيان وهي تغادر غرفتها

نحو غرفته في المشفى شبه راکضة ..

دموعها تشوش رؤيتها فتتعثر حركتها عدة مرات

لكنها لا تبالي ..

صورة في مرآة قريبة تخبرها كم تشوه وجهها بأثر

الضربات لكنها لم تكن ترى..



تسمع بعض الهمهمات الفضولية حولها باسم عزة

الأنصاري لكنها -ربما- لأول مرة لا تنتشي بهذا

الفخر .. بل تلعنه!

تنتهي خطواتها أمام غرفته فتقف برهبة مكانها

تخشى الدخول ..

_ ليس صحيحاً .. ليس صحيحاً!

تعاود التلطف بها كأنما تحيلها من رجاء لواقع!!

كأنما تكفي وحدها لطمس الحقيقة!!

_ لا تدخل!

تلتفت مجفلة نحو مصدر الصوت فتقترب منها المرأة

الباكية لتردف بصرامة رغم انهيارها:

_ هو لم يسترد وعيه بعد!

_ هل .. هل .. صحيح؟!

تتلثم حروفها وهي تتبين شخصية أمه فقد أراها
إيهاب يوماً بعض الصور لهما ..فتخرط المرأة في
بكاء حارق للحظات تجد نفسها تشاركها فيه وهي تمد
أناملها نحو كتفيها لكن أمه تنفض ذراعيها عنها
لتهتف بحرقة :

_ أنا مؤمنة بقضاء الله وقدره ! لكن ..بلطجة
واعتداء !! ابني لم يعرف هذه الأشياء طوال عمره ..
طالما كان مسالماً يحب الناس ويحبونه ولا يميل
للمشاكل ..والآن تناله هذه المصيبة بسببك !!
تغمض عزة عينيها بألم وهي تترنح مكانها للحظة
فتستند على الحائط المجاور لها تتشبث فيه بكفيها ..
إذن ..فالخير صحيح !!
_ يا ويلي! يا ويلي!!

تتمم بها بصرخات خافتة وكفاها يزدادان تشبثاً
بالجدار خلفها فيما تردف أمه بين شهقات نشيجها
الباكي:

_ابني ضاع! سيعيش طوال عمره بهذا الشكل!
سيخسر عمله الذي طالما أحبه وتفاخر به ! ابني
الذي طالما تباهى أنه لا يبالي برأي الناس في
شكله .. هل سيقوى الآن على قولها؟!

_يا ويلي! يا ويلي!!
لا تزال تتمم بها مغمضة العينين وهي تكاد تفقد
وعينا ..

ليس هو فقط من سيعيش بعاهته طوال عمره ..
هي كذلك ستعيش بذنبه طوال عمرها !!
ليتهم آذوها هي وتركوه !

ليتها لم تقبل مقابلته في تلك الليلة !!
بل ليتها لم تعرفه يوماً ولم يعرفها !!!
أفكارها تنقطع وهي تسمع صوت الغرفة يفتح لتخرج
منه الممرضة هاتفة :

_أفاق!

تندفع أمه راكضة نحو الداخل فيما تشعر هي أن
قدميها عاجزتان عن حملها ..

_ياويلي!! ياويلي!!

تهمس بها وهي تلطم خديها ببعض العنف شاعرة
بظهرها يكاد يهوي ملتصقاً

بالحائط خلفها لكن الممرضة تمسك ذراعيها بقوة
تسندها لترفعها هاتفة بإشفاق:

_تماسكي كي تستطيعي معاونته .. هو يحتاجكم جميعاً

الآن أقوياء جواره .

تهز رأسها مصدومة وهي تشعر بالمرضة تدفعها

برفق نحو الداخل ..

ترى أمه منكبة فوقه بجسدها تقبل كفه وسط دموعها

فيما يبدو هو مذهولاً ولا يزال وجهه يحمل أمارات

الصدمة ..

تلتقي عيناه بعينيها لأول لحظة فتترنح مكانها لتراه

يحاول النهوض برأسه كأنه سيسندها!!

حتى وهو في هذا الحال!!

_من تكونان له!؟

يسأل الطبيب المعالج بنبرة عميقة فترد أمه بسرعة
مجيبة إياه ليلتفت الطبيب نحوها هي بنظرة متسائلة
لكنها كانت تنظر لإيهاب كالمغيبة ..
عيناها لا تكادان تحيدان عن عينيه ..
تقترب منه إنما تشعر أنها تبتعد .. وتبتعد ..
بينما لسانها يبدو وكأنه يتحرك بإرادة خاصة ليفرض
عليها الجواب فرضاً :

_خطيبته !

=====

نيلي



قطعة مميزة ..ذهب إماراتي ..لماذا تريدون بيعها؟!
يقولها الصائغ بود مصطنع وهو يقلب السوار الذهبي
بين أنامله بينما نظراته نحوها تفضح شكاً واضحاً
خاصة وهي تتلفت خلفها خارج المحل بذعر لتجيبه
زهرة بصوت مختنق:

_ظروف!

_خسارة! تبدو وكأنها جديدة لم تستعمل..تبدون
سريعة الملل!

يقولها بتظارف حذر وهو يعود ليتفحصها بنظراته
فتكتم دموعها بشق الأنفوس وهي تعود تجيبه بنفس
الاقتضاب:



_ كم تساوي؟!_

يبخسها ثمنها بمنتهى الظلم لكنها لم تكن تملك
رفاهية التردد وهي تتناول منه النقود بسرعة لتغادر
المحل ولا تزال تتلفت خلفها بنفس الذعر ..
تشير نحو سيارة أجرة بسرعة تستقلها فيسألها
السائق عفويًا:

_ إلى أين؟!_

ترمقه بنظرة مشدوهة للحظات وكأنما لا تعرف جواب
السؤال ..

بل إنها حقاً لم تكن تعلمه !!

المزيد من زخم الدموع يغشي عينيها وهي تحاول
التركيز عبثاً ..

أفكارها تبدو لها مبعثرة مرتجفة موجوعة كجسدها ..

لكنها وسط كل هذه الفوضى يبرز لها اسم فندق
بسيط الحال كانت تعرفه قبل سفرها للإمارات منذ
سنوات .. فتذكره له بحروف متلعثمة ..

يهياً إليها أن روحها تتسلخ منها .. تتسحب لتلك
"البقعة الآمنة" التي اعتادت الهروب إليها ..

منذ كانت طفلة تختبئ تحت المائدة هاربة من صوت
حزام سروال أبيها المخيف وهو يدور به في الهواء
مهدداً إياها ..

منذ كانت مراهقة تختبئ خلف باب غرفتها هاربة من
صراخه الهادر بها والمنذر بعاصفة من الضربات
تليه ..

أيامها كانت تختلق لنفسها جنة من الخيال تهرب
إليها ..

والآن تحاول أن تفعل المثل ..

تغمض عينيها تتخيل أن العالم قد خلا إلا منها ومن

جهاد !

تراه يفتح لها ذراعيه فتهرع إليه لتخفي وجهها في

صدره !

تسمعه يهمس لها بصوته الحبيب أنها وطنه الثاني ..

فيغص حلقها وهي تلملم ثوبها عفويًا لتحتضن

جسدها بذراعيها ولا تزال صدمتها تفقدها القدرة على

التركيز ..

هل كُتِبَ عليه أن يُنتَهَكَ كل وطن اختاره للسكنى !؟

أم كُتِبَ عليها هي أن تبقى جنتها في الخيال فحسب

تهيم فيها روحها فيما يبقى جسدها معذباً بجحيم

الواقع !؟

تحين منها نظرة لمرآة السيارة الجانبية فتروعها هذه

الكدمة جوار فمها ..

تطبق شفيتها على صرخة كادت تغادرهما وأنياب

الحقيقة تنتزعها قسراً من جنة الخيال التي تحاول

عبثاً الهروب إليها ..

لم يكن كابوساً إذن!!

لم يكن كابوساً!

_ اهرب يا زهرة ! اهرب!!

تكاد تسمعها بصوت أمها الواهن .. بنظرة عينيها

المرتعبة .. بوجهها الشاحب الذي تناثرت عليه قطرات

الدم ..

لم يكن كابوساً !

_ هنا؟!!

ينتزعها بها السائق من شرودها فتلتفت نحوه بتشتت

ثم تعود ببصرها للفندق بسيط الحال ..

لم تدر كيف غادرت السيارة ولا كيف توجهت نحو

مكتب الاستقبال الذي تناسب بساطة حاله المكان

حولها ..

لكنها عندما استقرت أخيراً في هذه الغرفة التي تفوح

منها رائحة "بخور" قديمة ذكرتها بأيام طفولتها ..

عندما استند ظهرها للباب المغلق لتجد نفسها أخيراً

آمنة بين أربعة جدران ..

عندما واجهتها صورتها في مرآة مقابلة لتبصر فيها

امرأة تشبهها إنما مفزوعة

الملامح شاحبة الوجه كأنها جثة ..

ساعتها فقط تفجرت كل دموعها التي حبستها لتغرق
وجها كالطوفان بينما يسقط جسدها لتهوي على
الأرض فيعود إليها إدراكها وتعود معه جلدات الذكرى
البشعة التي لن تنساها ما عاشت ..

صرخة خلف صرخة تكتمها بكفها مع كل ومضة
تجتاحها من الذكرى ..

_ أنقذ ابنتك ! حرام عليك !

صوت أمها يدوي كالقصف في أذنها بينما تخوض
هي معركتها الخاصة مع ذاك الثور صديقه ..

صدمتها الأولى بما يحدث تجعلها لا تستوعب هذه

الصاعقة !!

لكنها ما إن شعرت بأنامل الرجل تدنس جسدها حتى

انتفضت كعنقاء وكل ما

يملاً رأسها أنها لن تسمح لوطن جهاد أن يغتصب

مرتين!

لا تدري من أين أتتها هذه القوة وهي تقاوم الرجل

صارخة باسم أبيها حتى يأست منه لكنها لم تيأس من

المقاومة!!

ولو تخلت عنها الدنيا كلها كانت ستبقى

تقاوم..تنتفض..

لم تكن لتستسلم..لم تكن لتغتصب!!

صرخات أمها تتضافر مع صرخاتها قبل أن تسمع
صوت ارتطام مدوّ يجعلها تلتفت خلفها لتروعاها
صورة أبيها وقد سقط أرضاً والدم ينزف من رأسه ..

دعها!

تصرخ بها أمها بشراسة غريبة على طبعها الخانع
وهي تمد أناملها بطرف الزجاجاة المكسور الذي
لا يزال ملطخاً بدم زوجها نحو ذاك الوغد الذي دارت
عيناه حول محجريهما وهو يدرك وسط فوران سكرته
مع رؤية جسد صديقه النازف أي مازق هو فيه فيفر
هارباً من المكان ..

أمي! ماذا حدث لأبي!؟!

تصرخ بها وهي تتحني فوق جسد أبيها تحاول
تفحصه لكن أمها تدفعها عنه هاتفة بشراسة قطة
تدافع صغيرتها :

_ ليس أباك! من يفعل هذا ليس بأب! لكن لماذا أعاتبه
وأنا كدت أضيعك مثله بجبني وضعفي طوال هذه
السنوات؟! اهربي يا زهرة من هنا ..انسينا وارمي
كل هذا خلف ظهرك ..سافري وابتعدي ..تزوجي من
اختاره قلبك ..

ثم يرتعد صوتها ببكائها وهي تردف :
_ عيشي يا ابنتي وافرحي ..ربما ساعتها فقط أسامح
نفسي على تقصيري في حقك طوال هذه السنوات !

تسمعان صوت أبيها يتمم ببضع كلمات ساخطة وهو
يتحسس رأسه وسط تأوهاتة فتهتف بها أمها وهي
تدفعها نحو غرفتها :

_ غادري قبل أن يفيق لن تسلمي من بطشه !
_ وأنت؟!!

_ لا تحملي همي ..أنا اعتدت طبعه .

_ تعالي معي إذن ..نسافر سوياً !

تهتف بها برجاء وهي تتشبث بها لكن

الأم تقاطعها هاتفة بقوتها المستحدثة :

_ لن أكون بعد الآن حملاً فوق كتفيك ..سأبقى هنا

جواره كي أكفيك بطشه .

ترمقها بنظرة مصدومة وهي تشعر أنها ترى الآن

امراة غير التي عرفتها طوال عمرها أمأ ..

أمها الخانعة الضعيفة المستسلمة دوماً دونما

مقاومة !!

_كنتِ ستضيعين!

هل قالتها أمها مفسرة ؟!

معتذرة؟! متحسرة؟! ساخطة؟! راجية؟! مبتهلة

!؟

ربما هو كل هذا !!

لهذا عندما عانقتها زهرة بعدها وسط عاصفة الدموع

التي اجتاحتها سوياً شعرت أنها لن تعيش معها

لحظة أمومة أصدق من هذه !!

_اهربي يا زهرة .. اهربي!

تهتف بها أمها وهي ترى زوجها يسترد المزيد من
وعيه فتطيعها شاعرةً أن سلطان خوفها منه يغلب
سلطان خوفها عليها !!

_أمي فعلت هذا؟! بل ..أبي ..أبي فعل هذا؟!!
تهمس بها لنفسها مصعوقة وقد عاد إليها إدراكها
بينما تتلفت حولها أخيراً في أرجاء الغرفة الغريبة
عنها ..

ورغم أنها اعتادت العيش في جلباب وحدتها لسنوات
في غربتها الطويلة لكنها في هذه اللحظة كانت تشعر
أن الوحدة لم تعد جلباباً بل ..كفناً !!
ترفع ساقيها لتحتضن جسدها المنهك وهي لاتزال
ترفض تصديق الحقيقة ..

هل رضي أبوها أن يبيعها في مقامرة ؟!

هل استباح شرفها وشرفه ؟!

ماذا سيكون مصيرها أمها الآن ؟!

وكيف ستتصل بها دون أن تضمن أن يتعقبها هو ؟!

تشهق بحدة عند خاطر الأخير وهي تتناول حقيبتها

الملقاة جوارها لتلتقط منها هاتفها فتتزع منه

شريحته القديمة بعدما احتفظت بأرقامها قبل أن

ترميها لتضع الأخرى الجديدة التي اشترتها .

جهاد!

اسمه الحبيب يغزو خاطرها فتعود لتجهش في البكاء

من جديد ..

لم تكن تظن يوماً أنها ستلُف من وطنها مثله لتعيش

عمرها في منفى الغربية ..

لم تكن تظن أنها ستشاركه المصير كما شاركته

الوجع والحب !

لم تكن تظن وهي تعد عدتها لتكون له "عروس"

الحب..

و

"أم" القلب أن تصير

"طفلة" هائمة شريدة تترقب المأوى!

لم تكن تظن أنها ستعيش هذا الكابوس بكل

تفاصيله ..

لا .. لم يكن كابوساً ..

وليته كان !

=====

برتقالي



_أستغفر الله العظيم!

تهتف بها وهي تنتفض من نومها فجأة لتتحسس

شفتيها قبل أن تطلق زفرة قصيرة وهي تحيط

وجنتيها براحتيها تستعيد تفاصيل حلمها

"الكارثي":

كانت ترتدي ثوباً بلون "السيمون" الهادئ وبتصميم

أنثوي رقيق برزت منه مفاتها -على غير حقيقتها-

ليبدو لها جسدها أكثر جمالاً وهي تجلس فوق كرسي

مجد لكنه كان مزين الذراعين بالزهور الملونة ..

والأجمل أنه هو .. هو ذاك المستفز من كان يدفعها!

يدفعها بهذه السرعة الرشيقة وسط حقل من الزهور
فتتعالى ضحكاتنا التي لم تسمعها هكذا عالية منذ
زمن بعيد .. بعيد جداً ..

ترفع إليه عينيها فتلتقي بنظراته الخطيرة التي لا
تدري من أين تستمد قوتها القاهرة هذه والتي لا تملك
معها حق الفرار ..

يبتسم لها هذه الابتسامة الحنون التي لم ترها سوى
لمجد فيخفق قلبها وعيناها تتسمران فوق شفثيه
تلاحقان هذه الابتسامة كأنما تود لو تسجنها في
حدقتيها للأبد ..

تشعر به يوقف كرسيها فجأة فتضطرب خفقاتها أكثر
بترقب مجنون وهي تراه ينحني نحوها بوجهه ببطء
مثير لتلتقي الشفاه لقاء شوق يزداد عصفه

بجسديهما معاً قبل أن تشعر به يطوقها بذراعه

ليوقفها فيشدها إليه أكثر ..

_أستغفر الله العظيم ! أستغفر الله العظيم !

تعاود ترديدها بمزيد من حنق وخجل وهي تحاول

التخلص من أثر الحلم فتتفرض عنها غطاءها لتغادر

الفراش نحو الحمام القريب ..

تغتسل وجسدها يرتجف بهذه الفوضى الجديدة عليها

كلياً ..

فتزيد حرارة الماء للدرجة القصوى كأنها بهذا تذيب

هذه اليد الخفية التي تشعر بها تعيث فساداً في

شرايينها !

ما الذي يفعله بها قربها من هذا الرجل الذي يزداد

خطورة يوماً بعد يوم !؟

إنها لم تجرب طغيان المشاعر القاهر هذا حتى مع

حسام القاضي!!

ربما لأنه يلعب على أكثر أوتارها وهناً وهو يلعب

أمامها دور الأب الذي طالما افتقدته عروض

مسارحها !

لم تغادر شلال الماء إلا عندما رأت حمرة بشرتها بأثر

سخونته واستشعرت هذا

الألم الطفيف فأغلقت الصنبور لتجفف جسدها فتلفه

بمنشفة ثم تتحرك نحو خزانة ملابسها كي تنتقي

لنفسها منامة مناسبة ..

لكنها بدلاً من هذا وجدت أناملها تخونها لهذا الدرج

السري .. والسحري!!

الدرج الذي تخجل من نفسها أحياناً لما تعلمه عن
محتوياته لكن عزاءها أنه سرها الخاص!!
تفتحه بأنامل مترددة تراقب محتوياته ورغم يقينها
أنها وحدها تماماً لكنها تلفتت حولها بحركة عفوية
قبل أن تفتح الدرج أكثر لتستخرج محتوياته وتفردتها
أمامها ..

قمصان نوم ناعمة شديدة الأنثوية تحمل أسماء
ماركات شهيرة ..

وبكل الألوان التي يمكن تخيلها !
هل يمكنها الآن الاعتراف أنها مهووسة بشراء مثل
هذه الأشياء!؟

لا .. ليست فقط قيمتها العالية التي تعيد شحن ذاكرتها

بواقعها الجديد كي تطمس الماضي ..

إنما هي عاداتها الخفية في ارتدائها وحدها أمام

مرآتها !

كم من مشهد عاطفي كتبته تخيلت فيه نفسها مكان

البطلة ترتدي مثل هذا وترنو إلى نظرة إعجاب في

عين عاشق!

كم من حوار خطته يدها في رواية وتمنت لو تكون

كلماته منها ولها!

كم من عناق .. قبلة .. لمسة حب كتبته روحها العطشى

قبل أناملها !

ربما لهذا لم تكتب نهاية سعيدة واحدة

لأي من رواياتها العديدة ..

هل هو عدم إيمانها بالحب نفسه؟! أم هو كفرها بلقياها

لامرأة بوضعها!؟

تخونها عيناها ببادرة دمع لكنها تتدها في مهدها ..

إن كانت طيف الصالح لا تبكي فطيف الرفاعي أجدر

ألا تفعلها!!

لهذا تهز رأسها بقوة كأنما تنفض عنها هذا الوهن

المستحدث ثم تعيد إغلاق الدرج بسرعة كأنما تهرب

من مارد !!

تتناول ثوباً صيفياً بألوان مشرقة عاري الذراعين

ترتديه على عجل ثم تمشط شعرها الطويل لتسدله

على ظهرها فتتذكر مقولة مجد ..

يحيى لا يحب الشعر طويلاً ..

ربما لأنه يذكره بأمر مجد !!

من هي؟!

تراها كانت معشوقته؟!

لكن هل هو من النبل أن يربي ابنة امرأة كان يعشقها

؟!

وأين هي؟! ولماذا تركت له ابنتها؟!

عقلها يرسم آلاف القصص بما يناسب عقل امرأة

خصبة الخيال مثلها لكنها تهتف لنفسها أخيراً :

_ خرب بيتك! اخرج من رأسي !

تقولها ثم تردف لنفسها بهذه الطريقة التي اعتادت

بها تجاوز أزماتها:

_ اسمعي يا طيف! لا تكبري الموضوع! هو مجرد

رجل عادي لكنك تظنين نفسك قد تعلقت به ..ربما

لأنك تتمنين حباً يشبه حبه لمجد .. ليس أكثر ! هل
تذكرين نصيحتك لزهرة يوماً عندما أخبرتك عن حبها
لذاك الطيب ..

(لا تمنحي رجلاً نظرة قبل أن يمنحك هو عيناه .. لا
تقتربي منه خطوة قبل أن تسمعي لهاث هرولته
إليك .. لا تسمعيه صوت دقاتك حتى يهبك قلبه
كاملاً .. لا تهديه عشقاً قبل أن يلقي حياته تحت
قدميك .. ما عدا ذلك فستنتهين مجرد متسولة على
أرصفة الهوى !)

تأخذ نفساً عميقاً وكأنما منحتها نصيحتها الأخيرة
لنفسها بعض القوة فتبتسم ابتسامة حماسية وهي
تتحرك لتصنع لنفسها كوباً من القهوة .. لا ليست تلك

العالمية غالية الثمن التي تكرهها ..إنما اختارت هذه
العادية التي تعشق مذاقها فحسب!
تفتح الشرفة لتعانق ضوء الصباح فتتسع ابتسامتها
وهي تتأمل جمال المكان حولها ..جمالاً يليق بوضعها
الجديد وبمكانة طيف الصالح العظيمة !
تجلس على المنضدة فتفتح حاسوبها ..
تتردد قليلاً وهي تلمح رسالة منه على بريدها المزيف
الذي كان حلقة الوصل بينهما لأيام سابقة ..
لم يساعدها حوارها معه على فهم أي شيء عن
طبيعته الغامضة فقد كان مناوراً بارعاً ..لكنه أكد لها
أنه لا يملك طبيعة عابثة خلف واجهته
المتحفظة ..كرهه للنساء حقيقة وليس ادعاء !

بل ربما ما دفعه لإكمال حوار ه معها بشخصيتها
المزيفة هذه أنها ادعت إيمانها بأفكاره وانتحلت له
قصة زائفة عن كرهها لطبيعتها الخائنة !!
ماذا عساه كتب لها؟! لماذا تشعر بهذا الخوف من
فتح رسالته؟! كأنها في كل مرة تفعلها تفتح لنفسها
باباً آخر يقودها لشبكة جديدة من شباكه التي
تطوقها ..

ربما لهذا تجاهلت قراءة الرسالة عامدة لتشغل نفسها
بكتابة تغريدتها الصباحية على تويتر .. ثم تتبعها
بشبهاتها على بقية مواقع التواصل ..
تقرأ آخر "الريفيوهات" التي حصدتها روايتها
الأخيرة على موقع "جود ريدز" فتشعر بالمزيد من

الفخر الذي يدفعها لمواصلة كتابة روايتها الأحدث
والتي ستفي بعهدا أنها لن تكون عاطفية ..
إذا أردت الانتصار في جميع معاركك فأطل النظر
لمراتك واعلم ساعتها أنك تنظر لأشد أعدائك
بأساً.. فإن أنت هزمته صارت هزيمتك لغيره أسهل!
تكتنفها حماسة قوية وهي تكمل كتابة مشاهدتها التي
اتسمت بالعنف والغموض فلم تشعر بمرور الوقت إلا
عندما سمعت صوت رنين الجرس ..
إنه موعد يومي الذي صار روتينهما الخاص إذ
يمررها يحيى عليها قبل ذهابه للعمل ..
تأبى الاعتراف بهذه القشعريرة التي تجتاحها وهي
تنهض من مكانها لتتوجه نحو الباب .. نفسها تسول

إليها النظر للمرأة كي تطمئن على مظهرها لكنها

ترفض الأمر ..ربما لأنها تخشى دلالة !

تفتح الباب ببعض العنف لكنها تفاجأ بنزار هذه

المرّة :

_صباح الأنوار !

نبرته العابثة تثير بعض تحفظها فترمقه بنظرة

سوداء وهي تمط شفيتها بحركة سمجة تجعله يبتسم

بمكر قبل أن تتجاهله تماماً وهي تتحني بوجهها نحو

مجد لتقبل وجنتيها بحنان حقيقي دافئ يناقض لهجتها

الجافة :

_ادخلي .

الخادمة تدخل بالصغيرة فيما يبقى نزار واقفاً مكانه

فتهتف بها هي بغلظة :

_ خيراً؟!_

_ اليوم عيد ميلاد ميغو ..لو تحبين

الانضمام إلينا في حفل ..

يقولها بنبرته التوددية لكنها تقاطعه هاتفة :

_ لا!_

تقولها بفظاظتها المعهودة وهي تغلق الباب في وجهه

فيرتد برأسه للخلف متمتماً بخفوت:

_ أعوذ بالله ! "جكمة"!

واللفظة العراقية الأخيرة تشير للمرأة قبيحة الشكل

لكنه هاهنا لم يقصد مظهرها فحسب بل دواخلها

"المتقنفة" كذلك !!

_ كان الله في عونك يا سندباد !

يتمتم بها لنفسه ضاحكاً بتهكم وهو في طريقه نحو

المصعد ليلحق بصاحبه ..

فيما تنتظر هي لمجد فيذوب برد ملامحها مع دفء

نظراتها الحقيقي وهي تتحني لتجلس على ركبتها

أمام الصغيرة قائلة :

_ كل عام وأنتِ بخير ! العقبى لمائة عام!

_ لا أريد أن أكبر .. "بابا" يقول دوماً أن العمر يسرق

منا الفرحة !

_ خرب بيتك ! بومة ! بومة بشارب ولحية !

تهمس بها لنفسها سراً وهي تستحضر صورة يحيى

لكنها تبتسم للصغيرة قائلة برفق:

_ ليس دوماً ! العمر يمنحنا الفرشاة ونحن من نرسم
اللوحة .. نحن من نختار الطريق .. نصنع السعادة أو

نستعذب الألم !

_ كلامك جميل .

تقولها مجد بابتسامة تشرق في قلب طيف التي
تضمها لصدرها بقوة فتعانقها الصغيرة بدورها

لتهمس لها برجاء:

_ إن أردت لي عاماً سعيداً فأقبلي دعوتي لحفل عيد

ميلادي!

_ لا أحب خلطة الناس والزحام .

تقولها طيف بنبرتها الجافة التي تناقض كل هذا

الحنان الذي تفضحه لغة جسدها ..

فتهتف مجد بحماس:

_ أنا كذلك لا أحب الخلطة و الزحام .. "بابا" سيقم
مساء حفلاً لنا وحدنا .. على شاطئ جزيرة (...). أنا
وهو وعمو "نزار" .. تعالي!
تزيغ عينا طيف بشرود وهي تتخيل نفسها تسير معه
على الشاطئ حافية .. يدغدغ الرمل قدميها ويغازل
الموج كعبيها فيما تتطاير
خصلات شعرها لتلامس كتفيه !!
_ أستغفر الله العظيم ! أستغفر الله العظيم !
تنتزع بها نفسها من خيالاتها قسراً وهي تشعر
بشعور غريب هو للخوف أقرب منه للضيقة ..
إنها حقاً صارت تخشى قربيه .. ولولا ارتباطها بهذه
الصغيرة وارتباطها هي بها لأغلقت في وجهه كل باب
يمكن أن يفتح بينهما !

ستأتين؟!_

تسألها مجد بالحاح وهي ترمقها بنظرة راجية لكنها

تهز رأسها نفيًا قائلة :

لن أستطيع ..

تقولها ثم تحاول صرف انتباه الصغيرة خائبة الأمل

لشيء آخر فتتحرك لتحضر لها بعض ألعابها

اليومية التي اعتادت تضيء الوقت بها ..

يحيى العراقي صار هاجسها الذي يهدد أماناً عاشت

تبنيه طوال هذه السنوات ..

ولن تسمح لأحدهم مهما كان أن يهدمه !

=====

كنت أعلم أنك ستأتين!

تهتف بها مجد خلفه وهي تصفق بكفيها بينما يفتح

يحيى باب شقته ليجد طيف أمامه ..

تتسع عيناه ببعض الدهشة من حضورها فقد أخبره

كل من نزار ومجد برفضها ..

تلتقي نظراتهما للحظة فتشبح هي بوجهها بما بدا له

كنفور جعله يلتفت نحو ابنته قائلاً بنبرته المتحفظة :

اصبري قليلاً يا "حبيبة بابا"! لعلها لن تأتي .

لكن طيف تسيئ تأويل عبارته فتهتف به بحدة :

وما دمت لا تريدني أن آتي فلماذا دعوتني؟!

يعاود التفاته نحوها ليهتف بحدة مشابهة :

_ أولاً .. أنا لم أدعكِ .. نزار ومجد فعلاها! .. ثانياً .. أنا

لم أقل أنني لا أرب في حضورك .

_ وهل سأنتظرك لتقولها؟! إنه خطئي أنا لأنني ..

_ انظري ماذا أحضرت صديقتك لك!!

يقاطعها بها نزار مخاطباً مجد ومداركاً الموقف كي

لا يتحول لشجار كالعادة بين هذين الديكين ، فتتهف

الطفلة بانبهار:

_ هذه الهدايا لي؟! كلها !

تلتقط طيف أنفاسها وهي تشيح بوجهها ..

ليصلها صوت يحيى المتحفظ يغمغم بمزيج من حرج

وضيق:

_ هذا .. كثير!

تغمض عينيها بقوة وهي تشعر أن هذه التجربة مع

مجد تستخرج كل عقدها الدفينة ..

هاهي ذي ذهبت لتشتري لها هدية فوجدت نفسها

تبتاع ما يقارب ربع المحل!!

لم تكن تشتري الهدايا لمجد وحدها .. كانت تشتريها

لنفسها!!

أجل .. كل لعبة تمنى شبيهتها في صغرها ابتاعتها

وكانها تراضي هذه الطفلة اليتيمة بداخلها !!

كانها تخبرها دون صوت .. إن كان أبوك قد رحل دون

أن يشتري لك اللعب فهاهو ذا ماله اشتري به ما

شئت !

لكن .. هل يكفيها هذا عوضاً؟! !!

_ ادخلي وافتحيهم معي .. أرجوك !

تهتف بها مجد بإلحاح لكن طيف تتراجع خطوة

للخلف قائلة بيؤس لا تدعيه :

_ يمكننا أن نفتحهم غداً عندما تأتييني

صباحاً .. استمتعي بحفلك !

تقولها وهي تعطيها ظهرها كي لا تصطم بنظرة

مجد الراجية لتتحرك نحو شقتها من جديد ..

لكن صوته يصلها وقد لحق بها :

_ انتظري.

تلتفت لتتلاحق أنفاسها رغماً عنها وهي تجده على

بعد خطوة واحدة منها ونظراته تقصفها بهذا القصف

غير الرحيم ..

_ ماذا تريد؟!!

حدثها الفظة كانت سيفها الوحيد الذي بدا لها عديم
القيمة أمام هيمنة غزوه وهو يبدو لها - رغم قوة
نظراته- حائراً مثلها ..

حيرة جعلتها تشعر ببعض التشفي وجعلته هو يصمت
للحظات قبل أن يصلها صوته القوي من جديد :
_ أنا حقاً لم أدعك للحضور لكن هأنذا أفعل .. هل
تقبلين؟!!

يا الله !

كيف يفعلها؟!!

كيف يتحدث بهذه الطريقة التي تمزج الغطرسة

بالرجاء؟!!

والتي تجد نفسها كل مرة عاجزة عن مقاومة صداها

في نفسها ..

خاصة وهو يردف :

_ لأجل مجد !

عيناها تتسع ببعض الخيبة فلا تدري هل تفرح تشفياً

برجائه غير المنطوق .. أم تصدق كل هذه الإشارات

التي يرسلها لها أنه حقاً ضائق بوجودها هذا حوله؟!!

تراه يخشاها كما تخشاه؟!!

تراها تطاردها في أحلامه كما يفعل هو؟!!

تراه يرهب تهديدها لأمانه كما تفعل هي؟!!

نظراتهما تتصادم للحظة تقرأ هي فيها رجاء "عزيز

"ويقرأ هو فيها رفض "راغبة" !

ربما لهذا تحول رجاؤه غير المنطوق لآخر صريح :

_ رجاءً ..من فضلك .

ورغم أن نسبة الغطرسة في صوته لم تقل ولو بنسبة

واحد بالمائة لكنها وجدت نفسها تستجيب لإلحاح مجد

التي تقدمت نحوهما بكرسيها !

_ أوافق . لكن بشرط ..

تقولها طيف رافعة أنفها لتضيق عينا يحيى بترقب

كأنه يدرس ردود أفعالها .. لهذا كانت دهشته كبيرة

عندما وجدها تتحني نحو مجد لتخاطبها كأنها وحدها

من تعنيها الآن:

_ أن ألبسك أنا الثوب الذي اخترته وأمشط لك شعرك .

تصفق مجد بكفيها في فرحة عارمة فيما ترفع طيف

رأسها تشير نحو يحيى ونزار بسبابتها مردفة

بفضاظة :

_وأنتما تنتظرانا هنا !

_حسناً !

يهتف بها نزار فيما يزداد انعقاد حاجبي يحيى وهو

يشعر أن مثلثه مع مجد وطيف هذه تزداد أضلاعه

ضيقاتاً وحميمية !

لقد تمنى طيلة الأيام السابقة أن يكون ارتباطها بمجد

مجرد رغبة فضولية منها في كشف أسرارهِ أو

محاولة بائسة للتقرب إليه ..

لكنه يستشعر في كل لحظة تجمعهم سوياً أن حبها
لمجد صادق حقاً .. بل إنه بقراءته لماضيها يكاد يقسم
أنها ترى فيها صورة نفسها ..
كل هذا بعيداً عن دائرته هو ..

"القنفذ" لا يزال يبرز أشواكه في وجه كل من يريد
الاقتراب من منطقة أمانه وهو ليس استثناء!

فهل يشعره هذا بالراحة أم بالضيق؟!

_ لا تقلق هكذا ! لن تأكلها !

يهتف بها نزار ملاطفاً ليلتفت نحوه هاتفاً بحدة

مكتومة :

_ إنه خطئي أنا أن سمحت لهما بهذا التقارب من
البداية .. لو تأذت مجد بسبب هذا فلن أسامح نفسي

أبداً !

_ لن تتأذى ! على العكس ..ميجو تحبها وقد صار

مزاجها أفضل كثيراً في الآونة

الأخيرة بفضلها .

_حقاً؟! وماذا لو ...؟!!

يقطع يحيى كلامه بينما يشعر بهما تعودان لتتسع

عيناه بدهشة وهو يميز ثوب الصغيرة الأسطوري

الذي التف حول جسدها كأميرة بلونه الوردي

الهادئ ..مع هذا التاج الفضي الذي وضعتَه فوق

رأسها ..و..شعرها!!!

شعرها!!!

دهشته تتحول لضيق لم يستطع إخفاءه وهو يرى

رابطة الشعر التي ثبتتها لها والتي منحت شعرها

مظهراً خادعاً بالطول بهذه الخصلات الصناعية التي

انسدلت على كتفيها وظهرها ..

_ صار شعري طويلاً يا "بابا" ! لا تغضب .. سأزيل

كل هذا عندما نعود ويرجع قصيراً كما تحبه !

تهتف بها مجد بفرحة طاغية وهي تتلمس الشعر

الصناعي على كتفيها فيزم شفثيه شاعراً ببعض

الذنب وهو يتقدم نحو الصغيرة ليقبل جبينها برقة

هامساً بابتسامة حنون:

_ تدللي!

_ ما شاء الله ! الأستاذة طيف لديها حلول لكل

المشاكل .. لا ريب أنها كاتبة عاطفية ناجحة .

يهتف بها نزار بتودد لترد طيف بفضافة سمجة :

_ لا دخل لكتاباتي بالأمر .. كل رواياتي نهاياتها

بأسة !

_ يا ستير!

يتمتع بها نزار بخفوت وهو يشيح بوجهه في نفور

فيما يصله صوت يحيى الضائق:

_ هيا بنا كي ندرك الشمس قبل الغروب!

=====

على الشاطئ الرملي يجلس أربعتهم يغنون أغنية عيد

الميلاد الشهيرة لمجد التي بدت في أقصى حالاتها

سعادة وهي تتلمس خصلات الشعر الطويلة فوق

كتفيها ..

يضع يحيى كفه فوق أناملها الصغيرة ليجعلها تمسك

بالسكين ثم تقطع الكعكة وسط ضحكاتهما الرائقة :

_ أجمل عيد ميلاد ! شكراً !

تهتف بها الطفلة وهي تترك ما بيدها لتعانق يحيى

أولاً ثم تلتفت للجانب

الآخر لتعانق طيف مردفة :

_ أنتِ جعلتِ حياتي أجمل!

تضمها طيف لصدرها بقوة مغمضة عينيها وهي

تشعر بكلمات الصغيرة على بساطتها هي أفضل ما

حصلت عليه منذ أعوام..

ربما منذ ذاك اليوم الذي عانقها فيه عاصي الرفاعي

معتزفاً بأخوة حقيقية بينهما !!

لو كان هذا مشهداً في رواية تكتبها لصاغت عشرات

الأسطر في سرد مشاعرهما لكنها الآن حقيقة لا تملك

سوى الصمت ..الصمت الصاخب بفوضى المشاعر

هذه !

تفضلي!

يهتف بها نزار وهو يعطيها طبقاً من الطعام فتفتح

عينها لترمقه بهذه النظرة المنفرة ثم تتناول منه

الطبق ببعض العنف..

فيما يناول يحيى مجد كوباً من العصير لكن الصغيرة

ترتبك قليلاً مع طيران خصلة من شعرها الاصطناعي

بفعل الهواء فيسقط العصير فوق ذراعها وذراع

طيف!!

تتسع عينا طيف بصدمة وهي ترى يحيى عفويّاً

يسحب بعض المناشف الورقية ليضعها دون تفكير

وفي نفس اللحظة على ذراع الصغيرة و..ذراعها

هي!!

يرتجف جسدها للحظة وهي ترفع عينيها نحوه

لتروعها هذه النظرة الغريبة في عينيه وكأنه مثلها قد

فوجئ بتصرفه !!

يعتذر بكلمات مبهمة وهو ينتفض مكانه واقفاً فيما

تشعر هي برجفتها تستحيل لرعدة تسري في أوصالها

وهي تستعيد شعورها بأنامله فوق بشرتها لهذه

اللحظة الخاطفة ..

لم يكن حتماً هذه المرة !!

لم يكن حتماً !!

لقد عاملها حقاً كابنته في لحظة عفوية لينتابها هذا

الشعور المعهود بالجوع !!

الجوع لهذا الحنان الممنوح دون مسمى ..دون
قيد ..دون شرط ..ودون اعتبار لماضٍ أو هوية !!

أسفة !

تهتف بها مجد بخجل لكن نزار يقف ليحمل الصغيرة
بين ذراعيه هاتفاً بمرحة المعهود :

عقابك أن ألقى في الماء!

تطلق مجد صيحات مرحة وهي تتعلق بعنقه فيما
يتحرك بها نحو الماء فيهتف به يحيى بجزع:

لا تتماد! لا تخيفها !

فيما تقف طيف بدورها تراقبهما ونزار

يلاعب الصغيرة في الماء فيصلها هتاف مجد المرح:

لو ابتل الثوب فلن تسامحنا طيف .

_مسامحة ! لكن كوني سعيدة !

تهتف بها طيف وهي تكور كفيها حول فمها شاعرةً

بانطلاق غريب على طبيعتها المنغلقة دوماً ..

ربما هو الجو الساحر حولها في هذا الوقت من

المساء وقد بدت الشمس كأم حنون دافئة تلوح

لأبنائها قبل الغروب ..

أو ربما هي نسائم الهواء اللطيفة التي تمنح شهقاتها

الحيوية وتنتزع من زفراتها شعورها المبهم

بالضيق ..

أو ربما هو شعورها المستحدث أنها هي نفسها

تتغير ..

تعيش طفولتها من جديد بعيني مجد ..

وتتنفس أنوثتها المنسية بعينه هو!!

هو الذي تشعر بنظراته تكاد تخرقها الآن في وقفها
الجانبية لكنها تتجاهلها بما يليق محاولة الانشغال
بمراقبة الصغيرة ..

تخلع عنها حذاءها بحركة سريعة لتداعب الرمال
بأصابع قدميها فتراه يفعل المثل لتزداد خفقاتها
عبثاً !!

_ لماذا تقيمين وحدك هنا؟!

_ وما شأنك أنت؟! ما شأنك أنت؟!

ترد له بضاعته مقلدة لهجته العراقية وأسلوبه
الهجومي فتلتمع عيناه هذه اللمعة الخطيرة وهو يطيل
النظر نحوها للحظات ..

ابتسامة أشد خطورة تولد ببطء على شفثيه لتصل
وسامته حد الفتك فتشعر بخفقات قلبها تتراقص على
حافة الجنون .

وبينما كانت تشيح بوجهها فيما بدا كعدم اكتراث
لتطلق ما أرادته كزفرة ساخطة كانت وحدها تعلم أنها
تهيدة تأثر!
_ خرب بيتك!

تهمس بها لنفسها سراً وهي تضبط وجنتيها في
وضع تلبس بتهمة "حمره خجل"
هذه التي شعرت بحرارتها تكاد تنبثق من كل ذرة في
وجهها لكن صوته يعود يغزوها :

_ لا بأس! كما تريد! رغم أنه من حقي أن أعرف
المزيد عنك ما دامت ابنتي تعلقت بكِ إلى هذا الحد !

_ أنا لم أفرض نفسي عليكم ..بل أنتم من فعلها! لهذا

يحق لي أنا القلق وليس العكس!

تهتف بها بنفس الفظاظة الظاهرة وإن كانت داخلها

تشعر بالجبن من مجرد النظر إليه لكنه هو يتحرك

ليقف قبالتها مجبراً إياها على النظر إليه :

_ لو كنت شعرتُ للحظة أنك لست راضية لما سمحت

لكما بهذا التقارب ..ظننت

علاقتكما تبادلية ..هي تحتاجك كما تحتاجينها ..لكن

لو كنت تسمين الأمر ب"أنا نفرض نفسنا عليك"

فأعدك أن تكون هذه آخر مرة ترينها فيها !

يقولها باعتداده المغيظ ثم يعطيها ظهره ليقترب أكثر

من الماء ملوحاً لابنته من بعيد بكفه فتشعر هي

ببعض الندم على ما تفوهت به ..

_ أنا أحبها !

تخرج منها أخيراً متثاقلة بما يبدو له كاعتذار خاصة

وهي تردف بنفس التثاقل الفظ:

_ لست شخصية اجتماعية .. ولا أجيد المجاملات .. بل

لا أكاد أسمح لأحدهم أن يخترق حدود

خصوصيتي .. لكنني فعلتها لأجلها هي .

يبقى صامتاً للحظات قبل أن يصلها صوته القوي دون

أن ينظر إليها :

_ مجد كذلك لا تتقبل الغرباء بسهولة .. أمها تخلت

عنها منذ علمت عن إعاقتها لترميها خلفها لأبيها

وتتزوج غيره كي تتجب أطفالاً أصحاء بزعمها .. أبو
مجد كان هو كل حياتها حتى كانت تلك الليلة التي
اقتحمت فيها الشرطة بيتهم لتعتقل أباهما في تهمة
سياسية ويموت بعدها في السجن ..
تتفلت منها شهقة عنيفة تكتمها بكفها لكنه يردف
دون أن ينظر إليها :

_ لكن أحداً لم يخبرها .. لا تزال تنتظر عودته .. كما
تنتظر عودة أمها الجاحدة .. ولا تعلم أن أيا منهما لن
يعود !

_ ومن تكون أنت لها؟!
تسأله بتشتت وهي تقاوم غصة حلقها ودموعها
بانعقاد حاجبيها فيجيبها دون أن يغير وضعه :

_أنا ونزار ويحيى أصدقاء منذ عدة سنوات ..بل إن صداقتنا تطورت لما يقارب الأخوة ..اسمه يحيى العراقي مثلي ..كان تشابه الأسماء هذا ما دفعنا للتعرف أول مرة والنادل في المطعم ينادي الاسم فيتوجه

كلانا نحوه ..يزعمون أن هناك أرواحاً نألفها منذ أول لقاء ..ويحيى لم يشبهني في اسمي فحسب ..بل .. يقطع عبارته فجأة دون أن يكملها كأنه شعر أنه على حافة الوقوع في بئر المزيد من البوح .. لكنها -وللعجب- كانت تشعر أنها مثله لا تريد معرفة المزيد !

لا تريد المزيد من الغرق في بحر لا تأمن أمواجه .. فليبقَ ملثماً بغموضه خيراً له ..ولها!!

لا تتحدثي مع مجد عن شيء من هذا .. أنا أحذرها
دوماً من ذكر قصتها للآخرين ولا أريدها أن تكسر
هذا الحاجز .

يقولها وهو يلتفت نحوها أخيراً لتتسع عيناه وهو
يميز لون عينيها البراقتين في ضوء الشمس ..
طالما ظن أن رموشها تحتجز شمساً صغيرة ..
لكنه الآن يشعر أنها ليست شمساً فقط بل سديماً
بأكمله !

نظراته تتلأ فوق ذراعيها السمرأوين وثوبها الأصفر
الذي أحب أخيراً "صراحة" لونه ..
للتوقف رحلته عند خصلات شعرها
الأسود الطويل الذي يكره أشباهه !!

فيما كانت هي غافلة عن كل هذا ،شاردة فيما رواه
وشفقتها على مجد تغلب شعورها بأي شيء آخر ..
لا تتصور أن تكون أمها بهذا الجحود فترمي طفلتها
المعاقاة لتستكمل حياتها !

لا ريب أنه يشعر بهذا الحنق نحو النساء ولو أنها لا
تظنها تجربته الوحيدة !!

تفريق من شرودها لتدرك تحديقه فيها فيعود جسدها
لارتجافة خوفه و..تأثره !

لم تسع يوماً لمعرفة رأي أحدهم في جمالها الفقير
وزينتها الباهظة ..

لكنها أمام هاتين العينين -ذاتي القضبان - تود لو تعلم
كيف يراها !

نظراته الموصدة دوماً ..

الغامضة دوماً ..

تبدو لها سجينة وسجانة ..

مأسورة وأسرة ..

متعبة ومتعبة !

_ مساء الأنوار!

يقطع بها نزار حديث نظراتهما بنبرته العابثة وهو
يصل أخيراً حاملاً مجد فتشيع طيف بوجهها فيما
يتناول يحيى منشفة قريبة بسرعة ليجفف ما ابتل من
جسد الصغيرة ..

_ ماذا تفعل أنت؟! ستحتاج لتبديل الثوب!

تقولها طيف مخاطبة يحيى بفظاظتها المعهودة
ومخفية شعورها الحقيقي وهي تتحني لتبحث بين
حاجياتهم عن الثوب الاحتياطي الذي أحضرته معها ..

_ أين يمكنني فعلها !؟

تسأل نزار هاربة من الحديث مع يحيى ليتحرك معها
نزار وهو يدفع كرسي مجد نحو الجوار قبل أن يعود
وحده ليحيى فيرمقه بنظرة مآكرة مع غمزته :

_ لا يبدو عليك أثر "القرص" ! يبدو أن السيدة

"عنكبوت" راضية هذه المرة !

_ "زعطوط"!!

يهتف بها يحيى موبخاً كعهده وهو يلكمه في كتفه
بخفة فيضحك نزار وهو يجلس مكانه ليتناول قطعة
من الكعكة فيأكلها بشهية ..

فيما ينحني يحيى ليجلس على الرمال متربعاً وعيناه
ترنوان إلى الشمس التي أوشكت على المغيب ..

ثم إلى البحر الذي تلاطمت أمواجه البعيدة فيما بقيت
أمواجه القريبة هادئة خادعة ..

ثم إلى السماء التي تموهت ألوانها بين بشرى نور
ونذير ظلمة ..

فتمتد أنامله لترسم على الرمال دائرة مغلقة قبل أن
يهمس لنفسه بعبارته الماثورة وكأنه يذكر نفسه
بعهده القديم :

تذكر أيها السندباد .. وحدها الرمال لا تغدر .. لا تغدر
ولا تخون .

=====

_نوّرت مصر يا ابني!
تهتف بها رحمة بحنانها الأصيل مخاطبة جهاد
الجالس في صالة بيتها والذي كان يشعر ببعض
الخرج من بقائه هنا لولا إصرار عزيز الذي هتف به
بحفاوة :

_الحمد لله أن عروسه من هنا .. هكذا نضمن ألا
ينقطع حبل الود بيننا !
يبتسم له جهاد بامتنان من ترحيبه الودود لتتعلق
عيناه للحظة بصورة ماسة المعلقة على الجدار مع
زوجها ..

تتسع ابتسامته ببعض العجب وهو يتذكر مشاعره

المذبذبة التي عاشها يوماً نحوها ..

هذه التي اكتشف زيفها وهو يقارنها الآن بشعوره

العاصف نحو زهرة ..

والتي صار يدرك أنها لم تكن يوماً إلا لكونها كانت

تشبه فدوى صديقتة الطفلة التي ماتت برصاصة

اسرائيلية غادرة .

خاطر مزعج ينتابه وهو يتذكر فدوى

"الأخرى" التي تركها خلفه في "أبو ظبي" !!

تلك التي تبدلت أحوالها فجأة مع ريان في الآونة

الأخيرة ولا يزال يجهل السبب!!

لماذا تبدو شاردًا؟!

يسأله عزيز باهتمام بعد انصراف رحمة إلى الداخل
فيلتفت نحوه ليتهد بحرارة وقد تذكر همه الحقيقي :
_ لا أدري ..زهرة تبدو مختلفة منذ عادت إلى هنا .

مختلفة؟!

يسأله عزيز باهتمام ليرد ملوحاً بكفه :
_متباعدة ..متحفظة ..كتوم ..كانها واحدة أخرى غير
التي عرفتها هناك .

_ربما هناك ما يقلقها بشأن أهلها ! ربما لديهم
تحفظاتهم بشأن ارتباطكما العاطفي هناك ..تعلم أن
الأمور هذه ليست منفتحة تماماً في كل البيئات .

_ربما !

يقولها بعدم اقتناع فيعتذر منه عزيز ليلحق برحمة
وهو يشعر، برغبة صديقه في الاتصال بخطيبته -
باعتبار ما سيكون -

وهو ما فعله جهاد حقاً لكن لم يصله منها رد !!
رسالة خلف رسالة يرسلها لها إنما لا يعود بجواب
سوى انتظاره !!

يتهد بقلق وهو يشرد ببصره للحظات قبل أن يرن
هاتفه في يده فيرفعه لأذنه هاتفاً بسرعة :

زهرة .. أين أنتِ؟!

أنا فدوى يا جهاد !

يعقد حاجبيه بمزيج من ضيق وخيبة وهو يعاود
النظر لشاشة هاتفه مدركاً ما فعلته به لهفته ليغتصب
ضحكة مصطنعة وهو يرد بمرح:

_ لا بأس! اعذري مستجداً في أمور العاشقين! الحمد
لله أن الأمر لم يكن معكوساً.. كانت لتكون مأساة!
يشعر أن ضحكتها هي الأخرى مختنقة مع ردها
بعريبتها الكسيرة:

_ كفاك الله شر المآسي! زهرة عاقلة وتدرك جيداً أنك
في مكانة أخي.

_ ماذا بك يا فدوى؟! أنت بخير؟! ريان
والأولاد بخير!؟!

يهتف بها بقلق لتصله ضحكتها مختنقة من جديد
بحروفها متصنعة التماسك:

_ لا تقلق.. أنا فقط أريد العودة!

_ العودة لماذا!؟!

يسألها بدهشة قلقة ليجدها تتخرط فجأة في بكاء

هستيري مع جوابها :

_ لكل شيء يا جهاد ! لكل شيء !

_ حسناً ! اهدي فقط وأخبريني..

يقطع عبارته وهو يسمع الاتصال قد أغلق فجأة

فيعاود هو الاتصال لكنه يجد الهاتف قد أغلق تماماً !!

كعهدها تأتي مشاركة حزنها مع أي أحد سوى

ريان !!

لماذا هاتفه هو إذن؟! وماذا تعني بشأن العودة هذا

!؟

لهذا اتصل بصديقه ليصله صوته المرح :

_ عريسنا! ما أخبارك!؟!

يعقد حاجبيه بدهشة وهو يرى صوته المرح يناقض

حالة فدوى فيسأله بارتباك:

_ أنت لست في البيت!؟!

_ لا ! أنا منتدب في مؤتمر طبي في لندن ..لماذا

تسأل!؟!

_ فدوى! أظنها ليست بخير!

_ هي صارت دوماً كذلك ..لا تشغل بالك ! ناقصات

عقل ودين ! مهما اختلف المنشأ والتعليم

والبيئة ..كلهن يبحثن عن الغم بمِلقاط!

يقولها ريان في استخفاف يزيد من ضيق جهاد الذي

يهتف به محذراً:

_ لا تتماد في الضغط عليها ..هي هاتفتي من قليل

وتبدو لي في أسوأ حالاتها !

_ هل أخبرتك عن السبب!؟!

القلق الذي يتحدث به صاحبه ينبئه أنه يخفي عنه

شيئاً فيسأله بجزع:

_ ماذا فعلت!؟!

زفرة ساخطة تكاد تصله حرقتها عبر الهاتف ليرد

ريان باقتضاب:

_ لم أفعل بعد!

_ ريان!!

يهتف بها جهاد بانفعال لينتفض مكانه واقفاً بينما

يردف بعصية:

_ إياك أن تجعلني أشعر بالذنب لأتني من جمع

بينكما.. لا تحتاج لأن أذكرك بأي شيء ضحت فدوى

لأجلك!

_ لا تحتاج لأن تذكرني فعلاً لأنها هي تفعل في كل

ساعة .. بل في كل لحظة .. خنقتني !

يجفل جهاد من نبرة صديقه العصبية الغريبة على

طبيعته الهادئة فيهتف به بقلق:

_ اهدأ وأخبرني ما الذي يحدث بالضبط!! طالما كنت

صديقك وكاتم سرّك !

يصمت ريان للحظات ثم يجيبه بنبرة عاد إليها برود

اقتضابها :

_ لا تقلق .. سأعود غداً وأسترضيها .. تعلم أنني أجيد

ذلك دوماً .

_ لا تراهن يا صديقي! هناك دوماً مرة أولى لكل

شيء!

يقولها جهاد محذراً فلا يقابله سوى صمت صاحبه

قبل أن يغلق الاتصال !!

يتهد بحرارة وهو يتذكر كيف عرف فدوى لأول

مرة ..

كيف لم يتصور وقتها أن النفور الذي غزاه من لقاءها

الأول سيتحول لهذه

الأخوة الوثيقة بينهما!

نفور؟!!

أجل .. منذ التقاها في ذاك المؤتمر الطبي العالمي باسم

"يولاند" طبيبة فرنسية من أصل يهودي!!

هذا الذي كان دافعه ليتجنبها طوال أيام المؤتمر رغم

وجود رفقة جمعتهما .. فلم يكن وقتها قادراً بعد على

التفرقة بين اليهودية والصهيونية ولاتزال آثار

ماضيه ملوثة بلون الدم !

الصدفة تلعب لعبتها فيلتقيها ثانية في مؤتمر آخر قبل

أن يجمعهما عمل قصير

الأجل في إحدى مستشفيات باريس الشهيرة لتفاجئه

وقتها بتصريحها بإيمانها بالقضية الفلسطينية ضد

الفكر الصهيوني ..

ربما هذا ما خفف حدة نفوره منها خاصة وهو يلمس

في تعاملاتها العفوية معه ومع زملائهما روحها

القوية المشبعة

بالرقة والعطاء ..

لقد ظن وقتها بعد انتهاء عمله القصير معها في

فرنسا أنه سيكون لقاءهما

الأخير لكنه التقاها بعد بضعة أشهر في إحدى رحلاته
للندن ..

وهذه المرة لم يكن وحده ..ريان صديقه كان معه !!

لا ينكر أنه لم يكن مرتاحاً في البداية لهذا الانجذاب
الشديد بينها وبين صديقه والذي امتد عقب عودته
معه إلى "أبو ظبي" من خلال محادثاته الطويلة معها
عبر

الانترنت ليفاجأ بريان يخبره ذات يوم أنها قررا

الزواج وأنها ستستقر معه في الإمارات بعدما

أشهرت إسلامها !!

فرحته وقتها بها كانت تشبه فرحته بمولود جديد ..

كان يشعر نحوها بنوع من المسؤولية ربما لأنه كان
سبب معرفتها بصديقه الذي قلب حياتها رأساً على
عقب ..

"يولاند" اليهودية تحولت إلى "فدوى" المسلمة
التي اختار لها هو اسمها بعدما هجرت وطنها وأهلها
فلم تعد تعرف لها هوية سوى حب ريان الذي ازداد
نسيجه قوة بإنجابهما لثلاثة أبناء !
طوال هذه السنوات وهما مضرب الأمثال في السعادة
باستثناء غيرتها المنطقية عليه وهي تراه عالمها
كله ..

فما الذي جد عليهما !؟
ربما لو كان رجلاً آخر غير ريان لظن أن الأمر يخص
غزو امرأة جديدة لحياته ..

لكنه يعرف صديقه جيداً ..يعرف أنه لا يخون !

_ أنهيت مكالماتك !؟

يقاطع بها عزيز سيل أفكاره فيلتفت نحوه لتتشح
نظرته بالمزيد من العاطفة وهو يراه يحمل طفله
ميادة فيتناولها منه ليلاعبها بلفظته التحببية التي
اعتادت بها جدته قديماً وصف الصغيرات الجميلات
المتبخترات بدلال طفولي في شوارع القدس القديمة :

_ "غندورة"!

_ عيناك زرقاوان كالبحر .

تهتف بها الصغيرة بانبهار طفولي وهي

تلاعب شاله المميز بلونيه الأبيض

والأسود بأناملها الصغيرة ..

فيضحك جهاد وهو يستمر بملاعبتها لتسقط منه
ميداليته التي يلتقطها بخفة بينما يهتف به عزيز
ضاحكاً :

_ لا تزال تحتفظ بها !

_ لا أفرط فيها أبداً!

يقولها باعتزاز وهو يرمق ميداليته بمجسم " الطفل
حنظلة" - بما يحويه من رمزية انتمائه- بنظرة فخر
ثم يقبله ليمس به جبينه للحظة في حركة ذات
مغزى ..

صوت رنين جرس الباب يصدح ليتوجه عزيز
لفتحه ..

تشحب ملامحه للحظة وهو يستدير نحو جهاد عفويًا

بحرج قبل أن يعود ببصره نحو ماسة التي وقف

خلفها عاصي فيقول أخيراً بارتباك:

مرحباً.. ما هذه المفاجأة؟!

يقولها ثم يصافح عاصي ببعض التحفظ مردفاً:

البقاء لله!

لم تكن المرة الأولى التي يقدم له فيها واجب التعزية

في ابنة عمه- خالة سند- لكنها فرضت نفسها على

لسانه الآن وهو يرى الصغير نفسه معهما جوار نور

وضياء..

دموعه الصامته تملأ عينيه وتسيل على وجنتيه فيما

ينكمش ذعراً بين ذراعي ماسة!

أين أمي؟!

تهتف بها ماسة بلهفة وهي تدلف إلى الداخل تجذب
الصغير نحوها لتتجمد نظراتها للحظة مصدومة وهي
تلمح جهاد الذي وقف يحدق فيها بدوره ..
تشعب ملامحها بقلق وهي تدعو الله ألا يذكر عاصي
شأن تلك الصورة التي أرته إياها يوماً على الهاتف ..
لكنها تلتفت نحوه في هولها اشتعال غابات الزيتون في

عينيه !

لقد تذكر!!

=====

الطيب السابع



_عاصي!

تهتف بها ماسة برهبة وهي ترى للحظة وجهه القديم

يعود إليه !!

لا تدري كيف صار فجأة أمام جهاد الذي فوجئ به

يقبض على عنقه بكفيه ليصقه بالحائط خلفه ..

_اهدأ .. إنه ضيفي!

يهتف بها عزيز بصوت عالٍ وهو يحاول إبعاد عاصي

عن جهاد عبثاً ..

جهاد الذي أمسك بكتفي عاصي هاتفاً بحدة :

_ماذا تفعل يا رجل !؟

_ ما الذي فعله أنت هنا؟!!

يهتف بها عاصي بنبرته القديمة التي تفوح منها
رائحة عدوانيته بينما يزداد ضغط كفيه على عنق
جهد وهو يخبط رأسه في الحائط خلفه ..

شياطين غضبه تتصارع فوق ملامحه وهو يغمض
عينيه ..

يتذكر تلك الصورة التي أرتها إياه ماسة يوماً لها مع
هذا الرجل ..

_ افرح يا عاصي ! قلب ماستك اختار غيرك! آسفة

لأنني أفسدت حفلك !

_ أنت لم تفسدي حفلاً .. أنتِ سلبتني ما بقي من

عمر .. أنتِ كسرتني!!!

مطارق الذكرى تهوى فوق رأسه فيتذكر ذاك اليوم
الذي سافر إليها فيه ليخبرها عن حمل هالة بابنه !!
فرحته يومها وهو يشعر أنه عاصي الرفاعي الذي لن
يقهره شيء!!

وانكساره بين ذراعيها وهو يراها تصرح له -كذباً -
أنها -مثله- اختارت طريقاً آخر!!

_على الأقل! أفلتت إحدى نسائي من أسري حية !!
المزيد من مطارق الذكريات ..

أخو عدنان يوقف سيارته ليقتل هالة وابنه ..
سقوط السيارة به من فوق المنحدر وفقدانه لبصره ..
خسارة تلتها خسارة .. وفقد خلف فقد ..

والبداية كانت صورة هذا الرجل مع ماسة !!

ماسة التي ظنت نفسها تستطيع الوقوف كعهدها في
وجه إعصار غضبه وهي تفلت سند من بين ذراعيها
لتهرع إليهما هاتفة باسم عاصي الذي بدا وكأن
ضغوط الأيام السابقة كلها قد أعادته لبحر طغيانه
القديم ..

خاصة وجهاد يدافع عن نفسه أمام عدوانه الغاشم
فيضربه برأسه ليرتد عاصي ردة خفيفة للخلف لكنه
يعود ليضغط عنق جهاد أكثر وهو يخبطه بعنف في
الحائط خلفه ..

نداء رحمة المندهشة .. تدخّل عزيز الغاضب .. صياح
ماسة الراجي .. كل هذا لم ينجح في إطفاء جحيم
الغضب التي اشتعلت وسط غابات زيتونه ..
وأخيراً .. صرخة!!

صرخة طويلة ..طويلة جداً بدت وكأنها لن تنقطع !!
هي وحدها ما جعلت أنامل عاصي تتجمد وكأنما
سكبت ثلوجها فوق نيرانه !!
صرخة سند !!

_ لا تفزع الطفل يا عاصي .. أرجوك .. أرجوك !!
تهتف بها ماسة بحرقة وهي تدرك أن تماسكه الزائف
منذ ذهبها إلى الصعيد انهار تحت وطأة أول ضغط
إضافي..

بينما يلتفت هو أخيراً نحو سند الذي وقف منحنيماً
على نفسه مغطياً وجهه بكفيه وصرخاته العالية
الرفيعة لا تكاد تنقطع ..

للتسع عينا عاصي بانفعال ودقات قلبه تكاد تعوي بين

ضلوعه !!

ورغم أن طفليه لم يكونا أفضل حالاً بكثير من سند

لكنه ولأول مرة يشعر بأولوية تسبقهما !!

يترك جهاد ليهرع نحو الصغير محاولاً تهدئته شاعراً

بوزر جديد يضاف لقائمة أوزاره ..

لكن الصغير كان ينتفض كمن أصابه مس !!

تحاول ماسة تهدئته بدورها أو حتى إزاحة كفيه عن

وجهه لكنه كان متشنجاً يصرخ بهياج وهو يتلوى

محاولاً التخلص منهم جميعاً ..

قبل أن يبجّ صوته ليتحول صراخه إلى نسيج مكتوم ..

ثم يعود بعدها لصمته الطويل الذي اعتاده إنما غارقاً

بفيض دموعه هذه المرة !

=====
بنفسجي
=====

تقف ديمة أمام مرآة "أشباحها" كالعادة بين شبح
هالة الأبيض معرضاً عنها عاتباً وشبح غازي الأسود
يُنَظَرُها بغلّ شامت ..

وشبّحها هي الأرجواني بين زرقة بحر .. وحمرة دم !
تمتد أناملها نحو أدوات زينتها لكنها تتراجع ..
ما حاجتها للزينة في لقاء أديم وهو الذي رآها في
أبشع صورها !؟

صفعة !

ثم لكمة !

مذاق الدم لا يزال في فمها !!

تصرخ وهي تكتف ساعديها في وضع حمائي والشبح
الأسود في المرأة يحرقها بنظراته فتتناول زجاجة
عطرها لتلقيها في وجهه !!

تتكسر المرأة فيختفي شبحان ويبقى واحد!!
هذا الأرجواني الذي يعربد بين جنبات روحها يهزها
أن :

أفيقي من هذا الوهن ! تعلمين متى ستتخلصين من
شبح غازي؟! عندما تنتقمين ! مات؟! توأم جرحه
لا يزال حياً في صورته ! خذي ثأرك منه ساعتها
يختفي شبحك الأسود !

تتكسد الدموع في عينيها وهي ترفع أناملها نحو
فردة القرط البنفسجية ..

تسمع صوت هالة .. بريئاً .. حالماً .. وعاشقاً .. كما كان
يومها تماماً ..

قبل أن تجتاحها دوامة زواجها من عاصي الرفاعي:

_حسام هذا حب عمري يا ديمة ! أحببته منذ وقعت
عيناى عليه .. كان أوسم رجل رأيتة فى حياتى .. أذكر
تلك المرة التى تعثرت فيها خطواتى أمامه رغماً عني
ليلتفت وقتها نحوى فأرى عينيه بهذا القرب .. عينين
مشبعتين بحنان مختبئ خلف نظرة عابثة .. عينين
عشقت مراقبتهما من بعيد كلما حانت لى فرصة
رؤيته عبر أسفاره المتعددة .. لكنه للأسف لم يكن
يرانى! اختار زوجته الأولى

لأقضي أسوأ ليلة في حياتي وأنا أرى حلمي به
يتمزق ..فاتنة كانت ! أنيقة كبنات العاصمة ..لهذا
أدركت أن مقارنتي معها خاسرة خاصة وقد كنت لديه
مجرد طيف مجهول لا يعرف عنه شيئاً ! تتخيلين
قسوة أن تمنحي مشاعرك
وأحلامك لشخص لا يعرف حتى اسمك؟! حماقة
مراهقات؟! ربما ! هذا ما حاولت أن أقنع نفسي به
وأنا أوافق على زوجي -رحمه الله - ويشهد الله أنني
جاهدت نفسي طيلة مدة زواجنا القصيرة ألا أخونه
ولو في خيالي ..لكنني بقيت أشعر أن قلبي مكبل بقيد
خفي ..زوجي كان قاسي القلب غليظ الطباع ..كلما
كنت أنفر منه كنت أجد نفسي رغباً عني أهرب لجنة
من خيالي ..لحلم مراهقتي

الأول بحسام .. لكنني كنت أعود فأستغفر ربي
وأدعوه أن يؤلف بين قلبي وقلب زوجي .. لكن القدر
كان له رأي آخر .. توفي زوجي بعدما ترك بذرتة في
أحشائي .. وعلمت أن حسام كذلك طلق زوجته
الأولى .. ساعتها تجدد أمني فيه .. تعلمين شعور
السجين عندما يفتحون له باب القفص لأول مرة !؟
هكذا كنت أفتح باب قلبي على مصراعيه
لأمني الجديد فيه .. كنت أحاول لقاءه في كل مكان
يمكن أن يجمعنا .. لكنه كعهده كان يبدو وكأنه لا
يراني .. هل تصدقيني لو أخبرتك أن زواجه الأول هذا
قد كسر شيئاً فيه !؟ أحسستها يا ديمة ! رآها قلبي
قبل عيني ! الحنان العابث في عينيه انقلب لقسوة
باردة .. قسوة تمنيت لو أذيبها أنا بكل ذرة حب أحملها

له .. لكنه -دون قصد - أعادني لسجن يأسى
منه .. تزوج مرة أخرى ! بل ومن بلدتنا ! أعرف ما
يدور ببالك لكنه ليس صحيحاً ! والله ما حقدت عليه !
على العكس .. تمنيت له السعادة التي لم أحصل أنا
عليها .

لم تشعر أن الدموع أغرقت وجهها إلا عندما تلاحقت
أنفاسها حد شعورها
بالاختناق ..

_الحقير تركك تموتين بابنك في بطنك أمام عينيه
وهو واقف يتفرج ! الحقير الذي طالما تغنيت بحنان
عينيه لم يكن سوى جحيم من قسوة ! الحقير لا يزال
يعيش حياته طويلاً وعرضاً بينما أنت تحت التراب !

الحقير لا يحمل وزرك ووزر ابنك من عاصي الرفاعي
فحسب بل ووزر سند الذي فقد قدرته على النطق
بعدهما فقدك ..

تصرخ بها بغیظ وأناملها تكاد تحطم فردة القرط
البنفسجية في أذنها من فرط ضغطها عليها ..
لتنتفض مكانها وهي تسمع رنين هاتفها ..
برقم "الحقير" !!

تشتعل عيناها بحقد أسود وهي تلتقط نفساً عميقاً
لتضع الهاتف على أذنها ذات القرط ..
قبل أن تنتفض بعنف وهي تنقله للأذن
الأخرى كأنما تستنكف أن يمس صوته المدنس قرط
هالة !

تفتح الاتصال متصنة رقة صوتها بدلال لهجتها

الخانع..والخادع:

_كيف حالك؟! لماذا تأخرت في الرد؟! هل القضية

صعبة إلى هذا الحد؟!!

لكنه لم يبدُ متأثراً بغنج صوتها وهو يرد بنبرة

عملية :

_على العكس.. لا داعي

لأن تقلقي..أحتاج فقط لقاءك لأجل بعض الأوراق

والتفاصيل..مري عليّ في المكتب غداً لو كان

يناسبك .

_بالتأكيد يناسبني! لا تعلم كم أريد أن ينتهي هذا

الكابوس !

عبارتها -مزدوجة المعنى- تشعل عينيها

بالمزيد من الحقد خاصة وهي تشعر أنه لم يلتقط
طعمها بعد مع هذه النبرة العملية التي يخاطبها بها :
_حسناً ..موعدنا غداً !

تغلق معه الاتصال لتبقي الهاتف على أذنها لبعض
الوقت قبل ترفع أناملها أمام وجهها تتذكر مصافحتها
له ذاك اليوم فتهتف بتوعد :

_لن أقسم لك بحق هالة فأنت أحقر من هذا
القسم ..إنما أقسم لك بحق تفرزي من لمستك لكفي أن
أجعلك تتمنى الموت حياً ..أن أمتص روحك قطرة
قطرة فلا أدعك إلا رماداً تذروه الرياح !
هاتفها يصدح من جديد إنما برقم أديم هذه المرة
فتفتح الاتصال لتجيبه بنبرة مترنحة :
_جاهزة ..سأتي في موعدنا!

وفي مكانه بالمطعم القريب حيث سيكون لقاؤهما

يغلق هو الاتصال ليزفر زفرة مشتعلة وهو يترك

خلايا جسده

لاسترخاء يود لو يجده معها ..

ولو أنه يشك في هذا !!

ديمة معركة وحدها !!

لازالت تتخبط بين فتاة مراهقة توقفت فطرتها البريئة

على أول درجات سلمها مع غازي ..

وبين أنثى مغدورة منتهكة لن تقرأ عينها

إلا لو رأت لحقها رداً!

وهو يود لو يحتوي كليهما بما يليق حتى يمنحها

روحاً ثالثة لامرأة تولد من جديد بين ذراعيه !

يراهما تتقدم نحوه فينعد حجاباه بضيق وهو يراها قد

خلعت حجابها الذي اعتاد رؤيتها به ..

خصلات شعرها النحاسية قصيرة بالكاد

تلامس عنقها في قصة أنيقة .. لكنها تبدو له منفرة

ربما لأنه يدرك ما خلفها !

ثوبها أرجواني هو من انتقاه لها وقد استنتج عشقها

لهذا اللون لكنه لم يتصورها ترتديه هكذا في الطريق

لتراهما كل العيون والثوب يحتضن حناياها باغواء

ساحق ..

تقترب أكثر فتعلق عيناه بحبيبات النمش على وجهها

ومن جديد يهيا إليه أنها حمم بركانها الداخلي ضاقت

بها روحها ففاضت على بشرتها ..

تقترب أكثر وأكثر فيشم رائحة هذا العطر الذي فاح
منها كدعوة صريحة لكل من يقترب محيطها بخطورة
سحرها ..

يطلق زفرة أخرى وهو يشيح بوجهه فيما تجلس هي
على الكرسي أمامه في تلك "الكابينة" الزجاجية
المغلقة التي تمنحها خصوصية منعزلة عن باقي
المكان ..

تلمح إعراضه عنها فتقول بنبرتها الصقيعية :
_ ماذا بك ؟! لا يعجبك شكلي ؟! أليس أنت من اختار
الثوب ؟!

_ اخترته لتلبسيه وحدك وليس لتكوني مشاعاً
للعيون !

_ لألبسه لي وحدي أم لألبسه لك وحدك ؟!

يلتفت نحوها بحدة ليصطدم بنظراتها الزائغة كأنها لا

تميز وجوده بل ولا وجودها كذلك !!

ولاتزال نبرتها الصقيعية تضرب سهامها الطائشة :

_ قلتَ في نفسك "صيد سهل"! وحيدة غريبة

مدمرة .. لا زوج ولا أهل ولا معارف .. يمكنك ..

_ انظري لي!

يهتف بها فجأة بحدة مقاطعاً سيل سخافاتهما فيجفلها ..

ليختفي شرودها الزائغ فجأة بينما تنظر إليه بنظرة

مرتعبة وكأنها في لحظة واحدة تستحضر ملامح

غازي ..

هذه النظرة التي ذبحته ليهمّ بإمساك كفها مطمئناً

لكنها سحبته بسرعة لتغطي وجهها في وضع حمائي

بهذه الحركة التي تثير جنونه وهو يدرك ما خلفها !!

ديمة ..ديمة ..ديمة !!

يكررها لعدة مرات بعجز غاضب وهو يقبض كفه
بقوة كأنما يلفظ معها كل هذا الفيض من مشاعره !
يحاول كظم غيظه بشقّ الأنف وهو يخشى على
امرأة بماضيها أي بادرة عنف منه ..
أي حركة ..أي لفظ ..يوقن أن هشاشتها لن تتحمل !!
يعاود النطق باسمها بنبرة أكثر رقة تتخللها أخيراً
زفراته الملتهبة وهو يراها تنهار في بكاء خافت
مخفية وجهها بين كفيها ..

فيختلج قلبه بعنف لهذا التطرف الصريح في

مشاعرها :

انظري إليّ أرجوك ! أعلم سر هذا التخبط الذي

تعيشينه .. أعلم بماذا تشعرين الآن وأنت ..

لكنه كان دورها هي لتقاطعه وهي ترفع كفيها عن

وجهها هاتفة :

_تعلم؟! ماذا تعلم؟! ماذا تعرف أنت عما أعيشه الآن

؟! تظن نفسك أنقذتني حقاً عندما بدلت لي السم؟!!

تظن القدر منحني حياة جديدة حقاً عندما مات

غازي؟! أنا ميتة ..ميتة تسير على قدمين ..ميتة

تعيش وسط أشباحها وقد صارت منهم !

_أنتِ تملكين من القوة ما يمكنك من تجاوز كل

هذا ..لن تكوني وحدك ..سأكون معك .

يقولها بنبرته القوية التي امتزجت بحنانه لتلتقي

عيناها بعينيه في نظرة طويلة ..

إنما مشتتة ..زائغة ..حيرى!

_ماذا تريد مني يا أديم؟!!

_ ماذا تريدن أنتِ مني؟!!

يتهدج صوته القوي بعاطفته لكنه لا يخترق هذه

الأنقاض التي دُفن تحت

أطلالها قلبها ..

_ أياً كان ما تريدنه .. كل ما تريدنه لكِ !

كل حرف من كلامه يساوي ألف وعد لكن أبجدية

الحب صارت غريبة على لغتها الجديدة !!

لهذا تعود نظرتها الزائغة لتجرب عنه حديث نفسها

الحقيقي بينما لسانها لا يزال يترنج بحروفه :

_ لا أريد منك شيئاً كما لن أستطيع منحك أي

شيء ! كل هذا الخراب بداخلي لم يعد يليق

بأحدهم .. ربما يوماً ما .. عندما أجد عمري

المفقود .. عندما تغادرني أشباحي وتعود لي روعي
الضائعة .

_ سأنتظر.. وإلى ذاك اليوم أنا معك .

يقولها واعدأ بعينين لامعتين لكنها تواجهه بلامحها
المنظفة دون أن تمنحه رداً ..

الموسيقا المنبعثة في المكان شديدة الرومنسية لكنها
لا تؤتي ثمارها وسط نعيق الغربان الذي يتردد صداه
في غابات روحها الخربة ..

فيتنهد هو بحرارة ليحاول صرفها عن الحديث لآخر:

_ أعلم أن فردة القرط هذه تحمل ذكرى خاصة

لديك .. ربما يمكنك إخباري عنها !

_ كانت .. لهالة !

تهمس بها بصوت مرتعش لتردف بابتسامة بمذاق

الدموع:

_أذكر أنك أصلحتها لي يوماً.. ليت كل مكسور قابلٌ

للإصلاح!

_الزمن كفيل بهذا فقط لو منحه الفرصة .

يقولها بنبرة ذات مغزى فتهمز رأسها بيأس بينما

تتلفت حولها هاربة من نظراته ..قبل أن تقول

بصوتها المرتعش:

_ربما أضطر للسفر غداً!

_إلى أين؟!!

يسألها بتوجس يثير حفيظتها فتلتفت نحوه هاتفة

بانفعال مفاجئ:

_ ليس من شأنك .. أنت لن تكون وصياً على

أفعالي .. أنا فقط أخبرك بما أنتويه .

يصمت للحظة متفهماً تقلب انفعالاتها الصادم والذي

صار يعتاده .. قبل أن تضيق عيناه بسؤاله :

_ وهل تخبريني حقاً بكل ما تتوينه؟!؟

_ ماذا تقصد؟!؟

تهتف بها بنفس الانفعال ليصمت للحظة قبل أن

يباغتها بسؤاله:

_ حسام القاضي!

تشحب ملامحها للحظة قبل أن تعود الدماء لوجهها

فيحمر انفعالاً مع استطراده وهو يغرس نظراته

القوية في عينيها:

_ ماذا كنتِ تفعلين في مكتبه؟! ولا تكذبي زاعمة أنكِ

لم تجدي محامياً غيره ليتولى شأن قضيتك!!

الشراسة الغاضبة تقف على زرقة عينيها القاتمة

قبل أن تهب واقفة مكانها مع هتافها الحاد :

_ انت تراقبني؟!!

لكنه يمسك معصمها بقوة وهو يقف بدوره هاتفاً

بحدة مماثلة :

_ أنا وقيتكِ شر نفسك ذاك اليوم عندما أردتِ إيذاء

غازي .. وسأفعلها كل مرة ما دام في جسدي عرق

ينبض!

_ أنت تهددني؟!!

تهتف بها بما بدا كالصراخ وهي تنفض ذراعها منه

ليتحرك هو فيقترب منها..

نظراته معلقة بعينيها لعله ينقذها من درك الجحيم هذا

الذي تسقط فيه ..

_ أنا أحميك !

ومن جديد ترتد سهام عاطفته خائبة فوق درعها

الصلب وهي تكز على أسنانها لتتهف بأنفاس لاهثة :

_ اسمع إذن ما لديّ ! من هذا اليوم .. بل من هذه

اللحظة لا شأن لك بي ! أنا لم أسألك لماذا كنت تراقب

غازي ؟! ولا ماذا كنت تفعل في بيته ؟! وما قصة

الكوبرا هذا الذي تسعى خلفه ؟!.. لا يعنيني ماذا فعلت

ولا ماذا ستفعل .. أنا أعيش فقط لغاية

واحدة .. وسأناها !

_ ستضيعين نفسك أيتها الغبية ! تذكرى كيف كان

حالك عندما كنتِ تتوهمين أنكِ قتلتِ غازي!!

يهتف بها بسخط وذراعاها يتحركان حولها دون أن

يمسها بعجز يشبه عجزه هو الآن..

لترتد هي بظهرها للخلف خطوة مبتعدة عنه مع

هتافها الشرس:

_ لا تخف! لقد تعلمت الدرس ..لن تكون هذه المرة

كشبيحتها!

يتراقص الخوف في عينيه القويتين وهو يقترب منها

الخطوة التي ابتعدتها ونبرته تتراقص بين خوف

وغضب:

_ ماذا تقصدين!؟

_ لا شأن لك .. لا شأن لك ..

تهتف بها وهي تتراجع للخلف أكثر فتتعرثر بأحد
الكراسي لتسقط مكانها فيمد كفه لها كي يساعدها
على النهوض ..

لكن الرؤى تتشوش في عينيها ..
تراه غازي يمد كفه نحوها كي يصفعها ..
تراه يرفع الكرسي ليحطمه فوق ظهرها ..
تراه يجثم فوقها بثقل جسده حتى تختنق أنفاسها ..
تصرخ وتصرخ وهي تتحيط وجهها بذراعيها في ذاك
الوضع الحمائي :

_ لا تؤذيني .. لا تؤذيني!

_ سيدي!

يهتف بها أحد العاملين في المكان بدهشة فضولية
وهو يفتح الباب بعدما رأى المنظر من خلف الكابينة

الزجاجية لكن مديره يبعده بحركة صارمة وهو يهز
رأسه لأديم بحرج قبل أن ينصرف ..

لكن الأخير بدا غارقاً بكل ما فيه مع هذه التي وقفت
تترنح مكانها وهي ترمقه بنظرة طويلة ..

خائفة .. ثم مندهشة .. ثم غاضبة !

قبل أن تفتح الباب من جديد لتركض مبتعدة !

_ ديمة !

يهتف بها منادياً إياها وهو يركض خلفها نحو الخارج
ليستوقفها خارج المكان ثم يهتف بغضب بين أنفاسه
اللاهثة :

_ ابتعدي عن حسام القاضي! لو كنتِ تظنين أنني

سأسمح لكِ بإيذاء نفسك من جديد فأنتِ واهمة !

_ولو كنت تظن أن أحدهم سيقهرني من جديد فأنت
الواهم ! غازي مات ولن يتحكم فيّ بعده أحد ..أي
أحد !!

تهتف بها بنبرتها الزائغة ..المترنحة بين قوة
ووهن ..

لتردف وهي تعطيه ظهرها:

_لا أريد أن أراك بعد اليوم ..لم يعد بيننا ما يقال!
تلقيا في وجهه بهذه الشراسة الخادعة التي يوقن
أي خوف يختبئ تحت
غلاتها لتعود فتركض هاربة ..

تاركة إياه خلفها يكاد يحترق بنيران عجزه وخوفه
عليها ..ومنها!



_ لا تتأخر ! "لوكا" تنتظرك بالهدية ! لا تدع ثرثرة
حسام الفارغة تلهيك .

يصله صوت جنة المتعجل على الهاتف فيهدف فهد
باستتكار مرح وهو يغمز حسام الذي كان يركب
السيارة جواره ويصله صوت جنة بوضوح:

_ ثرثرة حسام الفارغة؟! حسام القاضي أمهر محامي
في مصر تتهمينه بالثرثرة

الفارغة؟! قولي إنها غيرة من منافس قوي لك في
العمل يا أستاذة !

فيما يبتسم حسام بتسامح وهو يهتف متهكماً وبصوت
عالٍ كي تسمعه هي

الأخرى:

_أجل! ثرثرتي فارغة! حتى أن القضاة يملون
سماعي ويضطرون لقبول مرافعتي كي يتخلصوا
مني! لهذا لم أخسر قضية واحدة توليتها منذ بدأت
عملي!

يضحك فهد وهو يسمع تعليق جنة المستشارة على
الجانب الآخر من

الاتصال:

_دعه لا يتبجح هكذا وأنا التي أحول إليه بعض
قضاياي كي "يأكل عيش!"
_هي قضية واحدة يا أستاذة ولا تدعيني أذكرك لماذا
حولتها إليه!

يهتف بها فهد بنفس النبرة المرححة التي تخللها ضيق
خفي وهو يعلم أنها تتحدث عن قضية إبراهيم
ربيع..لتهتف جنة بسخط مصطنع:

_ أنت معي أم معه !؟!

_ أنا "مع السلامة" حالياً لأن هناك شرطياً يقترب
ولن تنقذيني من مخالفة استعمال الهاتف أثناء

القيادة ..سلام !

يهتف بها بمرح وهو يغلق الاتصال ليضع الهاتف
جانباً ثم يلتفت نحو حسام -الذي شرد ببصره في
الطريق- هاتفاً بعفوية :

_ لوكا تنتظرني بالهدية ..بالأمس تمكنت من نطق
جملة كاملة بحروف الجر ..تتحسن كثيراً ..الحمد

لله .. لا تتصور سعادتي بها وهي تنطق كلمة "بابا"
في جملة كاملة .. الأطفال أكبر نعمة ..
يقطع عبارته وهو يلعن نفسه إذ لم ينتبه لخطورة ما
يتفوه به إلا عندما رأى رد فعل حسام الخفي وعضلة
فكه تتشنج بينما يشيح بوجهه ..

يعقد حاجبيه بضيق للحظة وهو يحاول التركيز في
القيادة ثم يربت بكفه الحر على ركة حسام هاتفاً
بمرح مصطنع:

_ولد! ولد! لا تجعلني أتحسس من كلامي معك ! تعلم
أنني أتعامل معك على طبيعتي ولا أفكر قبل أن
أتحدث!

فيلتفت نحوه حسام بابتسامة شاحبة وهو يطلق سبة

عابرة مما اعتادا التقاذف بها مردفاً:

_دعك من هذه السخافات وأخبرني كيف يسير

عملك !

_لا بأس! ربما هذه كانت إحدى فضائل جاسم

الصاوي في تربيته ..سقاني خبايا السوق

مبكراً ..الشركة تبلي بلاء حسناً رغم بعض

العراقيل ..تعلم صعوبة المشي على الخط المستقيم في

مجال التجارة .

ينهي عبارته ليتوقف بالسيارة أمام محل لعب الأطفال

فيترجل منه ليلحق به حسام فيدلفا إلى الداخل ..

ينشغل فهد في اختيار ما يناسب ملاكه الصغير فيما

يشعر حسام بغصة في حلقه وهو يبتعد قليلاً محاولاً

التلهي بمحتويات المكان لكن عينيه كانتا تتعلقان
رغماً عنه بهذه "الكفوف الصغيرة" التي تعانق
كفوف آبائها ..

**_ نصف رجل! نصف رجل! لماذا أرضى بنصف
رجل!؟!**

بصوت يسرا المشبع بازدرائها يتردد صداها داخله
فيقذف المزيد من الحطب فوق نيرانه ..

ينفض رأسه بعنف كأنه يدفع عنه هذا الهاجس ليفاجأ
بهذا الكف الصغير يتعلق بكفه ..

_ بابا!

للحظة يهياً إليه أن قلبه يتوقف عن النبض وعيناه
تنخفضان نحو الأسفل تتعلقان بنظرة الصغير
المندهشة .. عينيه الواسعتين .. شفثيه المنفرجتين ..
وأصابعه المنمنمة التي عادت تترك كفه ببطء ليعود
معها قلبه للخفقان ..

عفواً .. لقد ظنك أنا .. نرتدي نفس الثياب تقريباً !
يهتف بها والد الطفل الحقيقي بنبرة معذرة فيهز
حسام له رأسه بتشتت وعيناه تهربان من النظر
للصغير ثانية ..

يتحرك مبتعداً لجانب قصي وهو يشعر بأنفاسه
تتلاحق ..

يهياً إليه أن العيون كلها تحديق فيه تعيره بنقصه ..

نصف رجل!

بابا!

تتوالى في أذنيه تباعاً تارة بصوت يسرا وأخرى
بصوت الصغير الذي عاد هو يبحث عنه في المكان
حوله ليجده أخيراً يغادر المحل ..

كفه الصغير الذي لايزال يذكر "لمسته الطازجة"
يعانق كف أبيه الحقيقي !

ترتجف شفاته بوهن يكرهه في نفسه فتبادر أنامله
إلى هاتفه الذي يتناوله بسرعة ليلتقط لنفسه لصورة
وهو يمسك بلعبة بشكل مدفع رشاش ينشرها عبر
حسابه ويضع معها إحدى صورته وهو صغير يمسك
لعبة بشكل مسدس ثم يكتب التعليق (حنين لأيام
الطفولة) يتبعها بوجه ضاحك ..

كالعادة تنهمر التعليقات عليه معجبة بوسامته رجلاً
وظفلاً ..

فبيتسم لها بفخر لكن هذا التعليق العفوي من أحد
معارفه بعيدي الصلة يأتيه كطعنة غادرة ..

_ غداً نفرح بزواجك وصورة كهذه لابنك !

_ نصف رجل .. نصف رجل !!

من جديد يدوي قصفها في أذنيه فيغلق هاتفه بسرعة

ثم يخفيه في جيبه مقاوماً خيبته وغصة حلقه !

_ تأخرت عليك ! ما رأيك !؟ هذه أم هذه !؟

يقاطع بها فهد جحيم أفكاره فيضع ما بيده جانباً وهو

يلتفت نحو الدميتين في يدي صاحبه ..

فبيتسم وهو يتناول منه إحداهما قائلاً :

_ الاثنتان ! واحدة منك ..واحدة مني ..بشرط أن
تجعلها تهاتفني وتتطق اسمي في جملة ..لست أفضل
مني !

_ ولماذا لا تأتي معي وترى وتسمع بنفسك؟!
يهتف بها فهد وهو يتحرك معه نحو "الكاشير"
القريب فيرد بنبرة متعبة لا يدعيها:
_ اليوم كان مرهقاً وأنا بحاجة للراحة ..لولا إلحاحك
عليّ للخروج معك بعد موعد المكتب لكنت الآن في
فراشي !

_ لا تمزح! أعلم أنك لا تنام قبل الفجر !
_ وما علاقة الفراش بالنوم أيها المتحذلق؟!
انتظر ..سأحضر هذه لسطانة !

يقولها ثم يندفع نحو ركن قريب خاص بألعاب
الحيوانات لتمتد أنامله نحو هذا الكيس من الأقراص
الطائرة وكرات المضغ الخاصة بالكلاب ..

_ ستفرح بهم كثيراً !

ابتسامة "حقيقية" ترسم على شفثيه ويجيد فهد
تمييزها فيبتسم هو الآخر برضا وهو يشير لاهتزاز
هاتفه في جيبه هاتفاً بمرح :

_ الأستاذة تتعجلني ! غرامة التأخير اليوم مضاعفة !

=====

_ سلطنة !

يهتف بها بعاطفة حقيقية وهو يتلقى نباح الكلبة
المرحب عقب عودته إلى حديقة بيته ..

يهرع إليها ليضمها نحوه بحنان ثم يمسد عنقها

هامساً :

_ترين ماذا أحضرت لكِ!؟!

تتبع الكلبة بسعادة وهو يفتح الأكياس ليستخرج

كرات المضغ والأقراص الطائرة بألوانها المبهجة ..

ورغم إجهاده الذي كان يحكي عنه لفهد لكنه وجد

النشاط يدب في جسده وهو

يلاعبها لوقت طويل لم يحسبه ..

حتى يغلبه إعياءه أخيراً فيتهاوى جالساً جواره يلتقط

أنفاسه وضحكة "حقيقيةة" تغزو شفثيه ..

وربما لكونها "حقيقية" بخل هو بها على مواقع
التواصل ليكتفي بتهيدة رضا وهو يعاود ضمها إلى
صدره ليهمس لها كأنها تفهمه :
_أحب وجهي معك يا سلطنة ..تعلمين كم وجهاً أسود
أملك؟! الكثير! ولا أظن العمر كله يكفيني
لتبييضها!

يتهد ثانية وهو يربت على رأسها ثم يتحرك ليحضر
لها الطعام الذي يضعه أمامها ..
فتحنى برأسها لتتناوله ..
ورغماً عنه تستحضر عيناه صورة "الكف الصغير"
وكلمته القاتلة :

_بابا!
دمعة عجز تترنج في عينيه ..

هل يمكن أن يجتاح المرء كل هذا الحنين لشعور لم

يجريه أبداً؟!!

هل يمكن أن ينتفض القلب بكل هذا الجوع لعاطفة لم

تطرق بابه ولو للحظة؟!!

هل هو مجرد سوطٌ على كبرياء رجولته؟!!

أم هو ظمأ حقيقي لهذا الإحساس الذي كُتِبَ عليه ألا

يعرف مثله يوماً؟!!

المزيد من "الخطب" تقذفه به كآبة هذا اليوم

المضاعفة لتشعل النيران داخله أكثر..

ما حيلته؟!! وجحيمه الحقيقي بين ضلوعه!!!

يشعر بتربيته ناعمة على كتفه فيلتفت جانباً بحدة

لتتلقفه ابتسامتها الحانية :

_ عندما أرى الباب الخارجي مفتوحاً أعرف أنك نسيت

نفسك في اللعب مع سلطانة !

يزفر زفرة قصيرة وهو يعود ببصره نحو الكلبة قائلاً

بنبرة منهكة :

_ ديناً! أنا متعبٌ جداً اليوم .. لا طاقة لي بجidal أو حتى

مجرد حديث .

_ ومنذ متى أتعبك في حديث ؟! يكفيني وجودك معي

ولو صامتاً !

تقولها بعاطفتها -اللا مسماة- نحوه وهي تتحرك

لتقف قبالة قائلة :

_ أريدك أن تفرح معي ..أنا وجدت المكان الذي يصلح

ليكون ال "ستوديو" الخاص بي ! أخيراً سأحقق

حلمي!

_ من أين أتيت بالمال !؟

يهتف بها بشك وعيناه الصقرتان تكتسحان ملامحها
في اختبار سريع لتبسط راحتها في وجهه مطمئنة
بقولها السريع :

_ كنت أدخر من راتبي !

نظرة الشك في عينيه تزداد ضراوة فتطرق برأسها
قائلة :

_ أنا جئت لأفرح معك لا لأفتح دفاتر قديمة .. ظننتك
أول من يستحق أن يحصد معي ثمار هذا الطريق
الجديد .

جدار القسوة على ملامحه يتفتت رويداً رويداً لتلين
نظراته وهو يقول أخيراً باقتضاب:
_ مبارك .

تبقى مطرقة الرأس قليلاً وكأنما يثقلها ذنبها فيتهد
بحرارة مردفاً :

_ أعرِف كيف تبدو حلاوة مذاق الحلم عندما
يتحقق .. تماماً كما أعرِف مرارة مذاقه عندما يتحول
لكابوس .. حافظي على مذاق حلمك يا دينا .
ترفع إليه عينين دامعتين بمزيج من فرحة .. تأثر .. مع
شبح طفيف من عتاب .. لكنه يتجاهل كل هذا وهو
يسمعها تهتف بلهفة بينما ترفع الكيس الضخم الذي
تحمله :

_ دعنا إذن نحتفل .
_ أنا مُتَعَب ! صدقيني !
_ لن تنام قبل الفجر كعهديك .. دعني أبقى معك .. بكل
مرة !

تقولها برجاء فتزيغ عيناه بشرود وهو يفكر ..
ربما كان وجود دينا هو ما يحتاجه هذه الليلة كذلك ..

لو كان يملك المزيد من الجرأة لأخبرها -مثل سلطنة
- أنه يحب وجهه معها كذلك !!

لهذا تحرك معها إلى داخل البيت في موافقة غير
منطوقة وهو يستمع شارداً لثرثرتها حول الستوديو
الجديد ..

يعلم أن هوايتها التي شغفتها حباً هي
التصوير.. ويعترف أن لها مهارة وذوقاً خاصاً في هذا
الشان ..

ربما لهذا يدرك قيمة فرحتها بقرب تحقيق حلم كهذا
بعد ماضيها الذي يعرفه !

نجلس في الشرفة؟!

تهتف بها وهي تناوله طبقاً من الحلوى التي
أحضرتها فيهب رأسه نفيماً وهو يتحرك نحو غرفة
مكتبه القريبة :

رأسي يكاد ينفلق من الصداع ..العمل في هذه الحالة
هو علاجي الوحيد .

تبتسم والعبارة لا تدهشها مع ما تعلمه من صفاته
فتتبعه لتجلس على الأريكة الجلدية المقابلة لمكتبه
وهي تتناول من حلواها هاتفة :

لماذا اخترت العمل بالمحاماة؟! تملك من المال
الكثير ..كان يمكنك فتح مشروعك الخاص أو حتى
مشاركة صديقك ابن جاسم الصاوي !

فترسم على شفثيه ابتسامة جانبية وهو يتخذ مقعده
خلف مكتبه لينزلق بجسده قليلاً في محاولة بئسة
للاسترخاء..

جفناه ينسدلان ببطء يناسب ثقل حروفه :
_متعة القبض على مجرم توازي متعة رد حق
مظلوم ..ربما عندما تحين النهاية ..أجد في حياتي ما
كان يستحق العيش لأجله !

_بل هو حظي الجيد كي أقع في طريقك .
تقولها بامتنان واضح ليرد بنفس النبرة التي تبدو
وكأنها ثقل جبال العالم كله :

_ لا أظن أحدهم جيد الحظ بوقوعه في طريقي!
_تبدو لي غريباً الليلة .

_الليلة فقط؟! أنا دوماً غريب!

يقولها عبر جفنيه المنسدلين بصوته المنهك حتى

تظنه سيستسلم للنوم ..

لكنه يفتح عينيه أخيراً ليعتدل في جلسته ويشاركها

تناول الحلوى حتى ينتهيا ..

فتقف هي لتتناول الطبق الفارغ من جواره قائلة

بامتنان:

_شكراً على كل شيء .. من البداية وحتى مشاركتي

لحظة كهذه .

يهز لها رأسه دون رد هارباً من فيوض عاطفتها التي

تمد جسورها بين عينيها ..

_لن أعطك .. امض في عمك .

تقولها وهي تتحرك لتغادر فيراقب ظهرها المنصرف

بعينين شاردتين ..

يعلم أنها ستكتفي بالجلوس صامتة كل مرة لكنه لا
يعلم لماذا لا تياس منه رغم كل الأبواب التي يغلقها
في وجهها ..

يطلق أخيراً زفرة طويلة وهو يتناول أحد ملفات
قضاياه الأخيرة ..

"ديمة ضرغام" !

تتوقف عيناه قليلاً أمام صورتها في قسيمة زواجها
التي ألحقها بملف قضيتها ليقارنها عفويًا بصورة
المرأة التي زارته في مكتبه !

يا الله ! كم بينهما !!؟

كيف يمكن لبضع سنوات فحسب أن تحول براءة وجه
طفولي الملامح كذاك إلى هذه النسخة المنطفئة
الذابطة !!؟

غازي خضر!

يعرف الكثير - منذ كان في بلدته- عن ذاك الرجل

وتندرهم ببخله وقسوة طباعه !

لكن كيف وصلت هذه "البريئة" لبرائته؟!!

ينعقد حاجباه بضيق وهو يشعر بهذه القضية بالذات

تثير انفعاله !

ربما لانتمائها لبلدته في الصعيد وهو الذي قرر أن

يلقي كل ماضيه خلف ظهره ..

وربما لشيء ما يخص تلك المرأة ..

هل هو جمالها الاستثنائي؟!!

ومنذ متى يقع هو في شرك فتنة امرأة؟!!

لا .. لا ..

ربما لأنها تذكره بصورة "دعاء" !

يرى فيها ذنبه القديم؟!
يريد أن يرد لها مظلمتها لعله يرى فيها هي الأخرى
"وجهاً" جديداً لنفسه..وجهاً يحبه!!
ينغمس بذهنه في تفاصيل ملفها البسيطة والتي لا
يظنها ستكون قضية معقدة..
حقها في إرث زوجها لن يضيعه "تزوير" خائب كهذا
الذي ابتدعه أهل زوجته
الأولى ولم يكونوا ليجروا عليه لولا يقينهم من
ضعفها ووحدتها هنا دون أهل ولا سند!
يكتب بعض النقاط الخاصة بها على حاسوبه ثم ينتبه
لغياب دينا فيخرج باحثاً عنها..
يبتسم ابتسامة واهنة وهو يراقبها من بعيد تلاعب
"سلطانة" ..

"وجهان" له يحب رؤية نفسه فيهما ..

لعله يخفف عن كاهله سواد بقية "وجوهه"!!



_عاصي!

تهمس بها ماسة بوجل وأاملها تحط على كتفيه من

الخلف وقد جلس في المرسم الخاص به في بيتها

الساحلي مطرق الرأس أمام لوحته الأخيرة ذات "اليد

السوداء" الصغيرة ..

_دعيني وحدي .. لا أريد الكلام!

صوته بالكاد يغادر شفثيه لكنها تدرك أي صراع

يخوضه الآن مع نفسه بعد ما صار !



_ومنذ متى أحتاج لكلامك؟! ماستك تجيد قراءة

صمتك!

يرفع إليها عينيه ليروعها هذا الفراغ الزيتوني

الرهيب الذي غرق في بحار مرارته ..

تتخذ مجلسها فوق ساقيه وهي تحيط وجنتيه

براحتها للحظات قبل أن تريح رأسه على صدرها ..

تشعر بتشنج جسده الراض لكنها تتشبث به بكل

قوتها ..

تعلم أن إعصار الماضي القاهر كان أقوى منه هذه

المرّة وهو يواجه ركام "هيكل ذنبه" الأسود من

جديد ..

رأتها في عينيه وهو يمر أمام حطام بيته القديم ..

وهو يواجه نظرات أهله بهذه القوة الهشة

المتصدعة ..

وهو يتلقى نفور سند منه منذ اللحظة

الأولى وحتى انهيار الصغير التام في بيت رحمة
الذي اختارت الذهاب إليه عقب عودتهما من الصعيد
لعلهما يستمدان منه بعض السكينة ..

لم تكن تعلم أن لقاءهما القدرى بجهد هناك سيكون
القشة الأخيرة التي ستهدم تماسك عاصي ليدفع

الصغير سند المزيد من الثمن !!

أجل .. ما فعله بجهد لم يكن مجرد غيرة رجل خاصة
وقد أخبرته هي منذ سنوات عن الحقيقة ..

إنما كان القطرة الأخيرة التي فاض بها كأس احتماله

وهو يرى شريط ماضيه يمر أمامه !

تذكر يوم قلت لي: "لا تهيلي التراب فوق الجمر
المشتعلة.. أطفئيه أولاً"؟! الآن أقولها أنا لك ..جمرك
لا يزال مشتعلاً يا عاصي ..هروبك ليس حلاً ..جنتنا
الآمنة هنا ستصير سجنًا لو بقيت تقسو على نفسك
بهذه الصورة وتحرمها حق الصبح ..أنت لم تقصر
في حق سند طوال هذه السنوات ..ولن تفعلها
يوماً ..كل ما حدث كان خارجاً عن إرادتك !
الصمت الطويل يسودهما لدقائق قبل أن يرفع رأسه
لترى عينيه تحيدان نحو اليد السوداء فوق لوحته
فتدمع عيناها بعجز هاتفة كأنها تطمئنه :
سند نام أخيراً بعد تناوله دوائه الذي كتبه دكتور

كنان .

و عندما يستيقظ؟! هل سنبقيه نائماً طوال العمر؟!!

يصرخ بها أخيراً بحدة مشتعلة وهو يبعدها عنه ليقف

مكانه مردفاً بنفس العجز:

ماذا أفعل وأنا لم أعد أئتمن عليه الآن أحداً سواي

بينما هو يكاد يموت رعباً كلما يراني؟! هل ألقيه

لواحد من عائلته الطامعين في ماله وهو بهذه الحالة

التي لن يتمكن فيها حتى من الشكوى لو أساء إليه؟!!

أم أتركه هنا معنا يزوي أمام عيني يوماً بعد يوم؟!!

تمسح دموعها خلسة وهي مثله تشعر

بالعجز!!

الصغير بعد وفاة أمه لم يكن يأنس سوى لكنف خالته

الراحلة..

وحالته بعد موقف عاصي الأخير في بيت رحمة

ازدادت سوءاً!

لقد ظنت أن عودتهما هنا بالصغير في المكان الخلاب
وسط الرمال والبحر ومع طفليها سيغير بعض
شأنه ..

لكنه لا يزال على رهبته ودموعه التي لا تتوقف بل
وصراخه كلما رأى عاصي!!
_عاصي!

تهمس بها أخيراً بحسم وهي تعاود اقترابها منه
لتردف بقوة أرائدها أن تنتقل منها إليه :
_ربّ رحيم منحك حياة جديدة بعد كل ما لاقيته لن
يبخل علينا اليوم بخلاص ..تثبت بيقينك في هذا ولا
تقنط !

يغمض عينيه بقوة وهو يرفع رأسه لأعلى في وضع
الدعاء ليقطع رنين الجرس صوت أفكاره ..

_ من سيزورنا دون موعد؟!!

يهتف بها عاصي بتوجس وهو يتحرك نحو الباب
ليفتحه بينما تسحب ماسة وشاحاً قريباً تغطي به
رأسها لتلحق به ..

وما كادت تقترب من الباب حتى اندهشت من مرأى
هذه الصهباء الفاتنة التي وقفت دامعة العينين تغمغم
بصوت مختلق:

_ أريد رؤية سند !

=====

ينعقد حاجبا عاصي بشدة وهو يتفرس في ملامحها
قليلاً قبل أن يشير بسبابته نحوها قائلاً :

_ أنا رأيتك من قبل ! أنتِ ...؟!!

_ صديقة هالة .

تقطع بها حيرته بنفس النبرة المرتجفة فيزداد انعقاد

حاجبيه وهو يغمغم كأنه يتذكر المزيد :

_السورية ..زوجة غازي خضر .

_أرملته !

تصححها له مطرقة الرأس فيرتفع حاجباه للحظة قبل

أن يشير لها بكفه نحو الداخل بغير ترحيب حقيقي ..

آخر ما يريده الآن أن يصطدم بالمزيد من نتوءات

ماضيه التي يزداد بروزها يوماً بعد يوم ..

تحببها ماسة ببعض التحفظ وهي لا تشعر بارتياح

نحوها ..

ربما هي بقايا غيرة طبيعية من صديقة امرأة كانت

يوماً ضررتها ..

وربما هو شعورها أن عاصي الآن بالذات لا يحتاج

المزيد من الضغوط ..

وربما هو قلقها على سند نفسه لو رأى هذه المرأة !!

فيما تجلس ديمة مكانها وهي ترمق ماسة بنظرة

حسرة لم تستطع إخفاءها ..

هاهو ذا عاصي الرفاعي أكمل حياته كما ينبغي

ليتزوج وينجب ..

وهاهو ذا حسام القاضي أكمل طريقه وغير مهنته

ليصير محامياً ناجحاً ..

الخصمان وجد كل منهما بداية جديدة وحياة سعيدة

ووحدها هالة وابنيها سقطوا بينهما !!

فأي ظلم هذا؟! أي ظلم !!

_ اسمح لي بروية سند .. لم أره منذ زمن
طويل .. غازي لم يكن يسمح لي بزيارته .
تغمغم بها بنبرة راجية لكن عاصي يهتف بها بحسم :
_ الولد مريض .. لا يمكنني السماح لك بهذا دون
استشارة طبيبه !

_ أرجوك يا سيد عاصي .. لا تحرمني هذا ...
تهتف بها بالمزيد من الرجاء لكنه يقطعها هاتفاً:
_ عاصي الرفاعي لا يكرر كلمته مرتين .. أخبرتك
أنه ..

عبارته الغاضبة تقطعها صرخة الصغير الطويلة التي
فوجئ جميعهم بها وهو يقف خلفهم قبل أن يغطي
وجهه بكفيه ..

ليهتف بها عاصي بحنق بينما يلوح بذراعه :

_ رأيتِ بنفسك؟! انصرفي الآن .

تنتفض ديمة مكانها بجزع وهي تمد ذراعيها نحو

الصغير..

تقترب منه بخفة لتستخرج من حقيبتها دمية

بلاستيكية قديمة بشكل "بطة صفراء" تشوهت

ملامحها بما بدا كشخايط طفل!

هذه التي رفعتها أمام وجه الصغير وهي تزيح كفيه

عنه لتتجمد نظرات الصغير للحظات فوق دميته.. ثم

يخرج من جيبه لعبته التي لا تفارقه أبداً.. دمية تشبه

خاصتها تماماً إنما أصغر حجماً..

قبل أن يفاجأهم جميعاً وهو يندفع نحوها ليطوقها

بذراعيه دافئاً وجهها في حنايا ثوبها وقد توقف عن

الصراخ!!

يرتفع حاجبا ماسة بصدمة وهي تتبادل مع عاصي
نظرات مندهشة لكن هذا لم يكن شيئاً أمام الموقف
التالي وهي ترى ديمة تجثو على ركبتها تحتضن
وجه الصغير براحتها هاتفة بين فيض دموعها :
_ أنت تذكرتي ؟! تذكرتي يا سند ؟! تذكرت لعبنا
سويّاً بها منذ سنوات ؟!

تقولها وهي تتذكر أن هالة من ابتاعت لهما هاتين
الدميتين ليتشاركا بها اللعب .. هالة التي لم تكن
تعتبرها صديقتها وأختها فحسب بل وابنتها
كذلك .. تماماً مثل سند !!

بينما يمنحها الصغير إجابة وافية وهو ينطق بأول
كلمة له منذ عهد بعيد :
_ ماما!

شهقات بكائها تمتزج بقبلاتها التي أمطرت بها وجهه
وهي تضمه إليها بقوة كأنها تعانق فيه الغالية
الراحلة ..

تعانق فيه روحاً وحيدة تشبهها ..

تعانق فيه وجعاً كوجعها ليس له براء!!

تدمع عينا ماسة بتأثر وهي تقترب من عاصي

لتحتضن كفه بكفها وهي تشعر أنها ترى معجزة !!

نفس الشعور الذي اكتنفه هو الآخر وهو يرى

الصغير يأنس بين ذراعيها غير نافر كعهده ..

لولا أنه سمعه ينطق كلمة "ماما" هذه لظن نفسه

يحلم !!

_ أرجوك يا سيد عاصي ..دعه معي ..أنا

الآن أعيش وحدي في العاصمة .. لن يكون لي شاغلٌ

غيره !

تهتف بها ديمة بحرقه راجية وهي تضم سند نحوها

ليتمالك عاصي نفسه وعيناه معلقتان بالصغير الذي

تشبث بها تشبثه بأمه ..

يتبادل مع ماسة نظرة خاصة ثم يشرده ببصره قليلاً

مفكراً ...

قبل أن يقول أخيراً :

يمكنك البقاء معنا اليوم حتى نستشير طبيبه .. وغداً

أخبرك بما أنتويه !

=====

أحمر

صرت بخير يا "كوثر" ..كان مجرد حادث بسيط!
تغمغم بها يسرا بخفوت عبر الهاتف مخاطبة خادماتها
المخلصة في بيت أمها لتردف بلهفة قلقة :

_أمي بخير!؟!

تتردد كوثر في إخبارها بما حدث لأمها تلك الليلة
بعدها سمعته من أمر ذاك الحادث الذي تعرضت له
وقد أشفقت عليها من ذكر المزيد من المنغصات

خاصة والأم قد عادت لسابق حالتها من السكون

الهادئ بعدها ..

_ لا تقلقي .. نحن معها .. سمرا ترعاها على أفضل

وجه .. وعندما تستردين عافيتك تماماً تعالي واطمئني

بنفسك .

_ ضعي سمرا هذه تحت عينيك طوال الوقت .. لا

تمنحها ثقتك .

تغمغم بها محذرة لتهتف كوثر بعتاب حان:

_ وما دمت لا تثقين بها تمام الثقة فلماذا زرعتها هنا

بيننا؟!!

_ هل تحاسبيني؟!!

تصرخ بها يسرا بانفعال يجعلها تتأوه وهي تتحسس

موضع جرحها لتهتف كوثر بسرعة :

_ اهدئي يا ابنتي ..أنا لا أملك حق محاسبتك..أنا فقط أريدك أن تكفي عن هذا العبث ..سمرا طيبة و"بنت حلال" لكن هذا الوضع الغريب سيثير المشاكل .

_ أي مشاكل؟! تظنين أحدهم سيلحظ الفارق؟!
تغمغم بها يسرا بسخرية مريرة وهي تغمض عينيها لتردف بغضبها الكسير:

_ تعلمين؟! وددت حقاً لو تتكشف اللعبة ! لو يلاحظ أحد -أي أحد!- أنها ليست أنا ..لو يكون هناك حقاً من يميز في يسرا الصباحي أكثر من وجهها وجسدها وثيابها!..لأي حياة إذن تريدني أن أعود؟!
تتنهد كوثر بيأس من مجادلتها وهي في هذا الحال لتستطرد يسرا بألم أطلقتته حراً هذه المرة دون قيد :

_ اعنتي بأمي حتى أسترد عافيتي وآتيها .. لا أريدها
أن تراني الآن ..حتى وهي في هذا الحال ستميز
ألمي ..قلب الأم لو نسي الدنيا كلها فلن يغفل عن ذرة
وجع تصيب ابنه .

يتهدج صوتها في عبارتها الأخيرة لتسيل معها
دموعها الصامتة فتدمع عينا كوثر بدورها وهي تدرك
معاناة ماضيها لتقول لها بحنان مشفق:

_ وحدي الله يا ابنتي! ربك كريم ! لا تحملي هما ..أنا
هنا مكانك.

تغلق معها الاتصال وهي تطلق زفرة مشتعلة بينما
عيناها تدوران في الغرفة الغريبة حولها لتمسح
دموعها بأناملها ..

الغرفة التي صارت لها في هذه الشقة الصغيرة -بل
نصف شقة في الواقع- فوق سطح بيت قديم حيث
اصطحبها والد إبراهيم عقب خروجها من المشفى في
حيهما البسيط ..

البيت القديم الذي يعلو القرن الذي هو صاحبه والذي
يقابل بيته هو !!
لا بأس ..

"اللعبة" لا تزال تسير كما تريد هي .. و"النرد"
المراوغ لا يزال طوع أناملها !!
هاهي ذي تقترب أكثر من إبراهيم وأبيه لتتجاوز
المزيد من الدوائر نحو مركز كل منهما !!
تسمع صوت طرقات خافتة على باب الغرفة فتتذكر
صاحبة الشقة الحقيقية التي قبلت استضافتها ..

_ ادخلي يا هبة !

تدلف الفتاة الشابة إلى الداخل لتتفحصها يسرا

ببصرها ..

جميلة الملامح مميزة ببساطتها .. صحيح أنها لا

تقارن بفتنتها هي إنما يبقى في وجهها شيء يجعلها

هي تشعر بالغيرة ..

البراءة!!

هذه النظرة "العذراء" في عينيها لامرأة لم تعرف

من وجع الحياة إلا قشوره .. والممتزجة بتحفظ مهذب

خلف زجاج نظارتها السميقة وحجابها الذي لا تخلعه

حتى وهما هنا ليس معهما أحد ..

بل إنها لا تظنها تخلعه حتى وهي وحدها!!

تبدو لها النسخة المضادة منها لكن لا بأس ..

لا تزال اللعبة تحلو أكثر بالمزيد من
اللاعبين ..

_خالي ربيع بالخارج مع إبراهيم ..يريدان الاطمئنان
عليك !

تقولها هبة بلكنتها القروية فتضيق عينا يسرا بالمزيد
من التفحص وهي تتذكر ما أخبرها به ربيع عن كون
الفتاة ذات صلة قرابة بعيدة به ..توفي والداها بعدما
قدا بها من قريتها إلى القاهرة لتكمل دراستها في
كلية الدراسات الإسلامية التي صارت معيدة
فيها ..ربما لهذا تناديه "خالي ربيع" وليس "مستر
ربيع"
كالآخرين!

لماذا تشعر بالخطر من هذه الفتاة رغم طيبتها

الظاهرة !؟

تجاهل خاطر الأخير وهي تعتدل في جلستها فوق

الفراق قائلة :

_حسناً ..يمكنهما الدخول!؟!

_الدخول إلى أين !؟ هل تمزحين!؟!

تهتف بها هبة بصرامة وهي تعدل وضع حجابها فوق

رأسها مردفة :

_هما ليسا من محارمك كي يدخل عليك خاصة وأنتِ

مستلقية هكذا في الفراش!

_محارمي!؟!

تهتف بها يسرا مستغربة وقع الكلمة الغريب على

أذنيها لتهتف هبة بنفس النبيرة :

_ أعلم أنك لست محجبة .. لكن هذا لا
علاقة له بالأمر .. هما ينتظران
بالخارج .. لو كنتِ بخير يمكنكِ الخروج إليهما .. وإلا
ابقي مستريحة مكانك وأنا سأطمئنهما!
ينعقد حاجبا يسرا بغضب من هذه اللهجة الصارمة
التي تتحدث بها إليها فتفرج شفتاها وهي تهم برد
عنيف لكنها تعاود إطباقهما وقد أدركت وضعها
الحقيقي هنا ..

لو كانت تريد البقاء هنا فلا بد أن تشتري ود هذه
الفتاة ..

لا بأس!!

كل هذا فداء ل"اللعبة" المثيرة!!

_ سأخرج إليهما!

تقولها بخنوع مصطنع وهي تنهض من فراشها

لتتقدم هبة نحوها قائلة بنبرة أرق:

لازلتِ تشعرين بألم؟!

_قليلاً!

تقولها يسرا باقتضاب وهي تلقي على نفسها نظرة

عابرة في مرآة قريبة ..

وجهها الشاحب خالٍ من الأصباغ لكن لا بأس ..فتنتها

الطبيعية تكفيها!

_صباح الخير يا ابنتي! أردنا أن نطمئن عليك قبل أن

أذهب أنا إلى الفرن وينشغل إبراهيم بعمله.

يهتف بها ربيع بحنانه المعهود وهو يتفحص

ملامحها بخبرته لتبتسم له هاتفة :

_ لا أدري كيف أشكرك يا "أنكل" .. آآ ..يا مستر

ربيع!

ترتّبك كلماتها رغباً عنها وهي تخطئ نطق الكلمة

الانجليزية فيبتسم ربيع بمكر وهو يتأكد من صدق

ظنونه بشأنها ..

ثم يختلس نظرة نحو إبراهيم الذي وقف مطرقاً برأسه

مكتفياً ساعديه إنما قدمه كانت تخبط الأرض بوقع

رتيب بطيئ كعهده عندما يتوتر ..

"الدرويش" متأثر بهذه المرأة حقاً ..

ولو ترفع بجوارحه عن حرام النظر إليها !

_ وأنت كذلك يا إبراهيم تستحق كل الشكر .. لقد كتبت

لي عمر جديد على يدك !

تقولها يسرا بصوتها المغناج فيشيخ إبراهيم بوجهه

قائلاً بتحفظ:

_الشكر لله ..المهم أن تعني بحالك وتفكري فيما

ستفعلينه الأيام القادمة .

_سأعمل مع مستر ربيع في الفرن !!

تهتف بها بسرعة وقد واتتها الفكرة الجريئة لتوها!!

لقد سمعت هبة تتحدث عن احتياج الرجل لمن يعمل

معه فلماذا لا تستغل الفرصة للمزيد من

الاقتراب..خاصة وإبراهيم هذا يغلق كل أبوابه في

وجهها..إنه حتى لا يكاد ينظر إليها!!

_ماذا تقولين؟! أي فرن؟! بالطبع لا!!

يهتف بها إبراهيم بحدة ظاهرها الاستهجان ..وباطنها

الغيرة!!

الغيرة التي لا يريد الاعتراف بها وهو يرى أهل الحي

البسيط لا حديث لهم منذ حضورها إلا عن الشقراء

الفاطنة !!

الغيرة التي لا يجدها منطقية ويفسرها بمجرد الحمية

الرجولية على امرأة بوضعها!!

وحده ربيع كان يشعر بابنه وابتسامته الماكرة تتسع

مع قوله :

_ولماذا لا؟! أنا أحتاج فعلاً لمن يساعدني!

_لكن ..

يهتف بها إبراهيم باعتراض يقطعه وهو يعاود

الإشاحة بوجهه لكن هبة تبدو وكأنها توأزره في

اعتراضه:

_إبراهيم معه حق ..سمرًا جمالها ملفت وسيجلب

المشاكل .

_سأتحجب!

تهتف بها يسرا بعناد تغلبها به طبيعتها النارية قبل

أن تردف بخنوعها المصطنع موجهةً سهامها كلها

للعجوز الذي بدا أقربهم لها وودتها:

_أرجوك يا مستر ربيع ..أنا أحتاج العمل وأنت تعلم

ظروفي ..سأكون آمنة معك .

_لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ..

يقولها ربيع وهو يصدر همهمة تفكير قصيرة بينما

يطرق برأسه فيزدرد إبراهيم ريقه بتوتر وهو يفكر ..

"الرامية القرمزية" لا تزال تجيد إطلاق سهامها

الصائبة نحو الهدف !

هذه المرأة تثير جنونه من عنف هذه الفوضى التي

تثيرها داخله !!

شيء بها يناديه .. يستعطفه .. يرجوه أن يقترب ..

وشيء به هو يستصرخه أن ينتبه .. أن يحذر .. أن

يبتعد !!

لا يزال "العنديل الأخرس" في عينيها يصدح!

يصدح بلحنه الذي تصمّ عنه أذنه إنما تسمعه

روحه !!

_ أوافق لكن بشروط ..

يقطع بها أبوه سيل أفكاره فينعقد حاجباه هو بالمزيد

من الضيق بينما تهتف يسرا بلهفة :

_ أوافق على كل الشروط .

_ اسمعها أولاً .. شرطي الأول هو ما ذكرته
بنفسك .. أن تتحجبي وتغطي جسدك بثياب
محتشمة .. أعلم أنه ليس من سلطتي أن أفرض عليك
شيئاً كهذا لكنني لا أريد مشاكل .. وشرطي الثاني أن
يكون الأمر مؤقتاً حتى نجد لك عملاً غيره يمكنني
الاطمئنان عليك فيه .. أما شرطي الثالث فهو
بخصوص راتبك .. سأمنحك نصفه فقط والنصف
الثاني سأدخره لك معي حتى إذا أردت مغادرة المكان
هنا في أي وقت تجدين ما يمكنك الاعتماد عليه .
يقولها بحسم فتبتسم وهي تجد الشروط أكثر من
عادلة لتتهف بظفر:

_ موافقة .. موافقة بكل تأكيد !

يتبادل إبراهيم مع هبة نظرة ضائقة فيما يبتسم ربيع
بدوره وهو يهز رأسه قائلاً:

_ على بركة الله .. استريحى بضعة أيام حتى يستعيد
جسدك تمام عافيته وبعدها يسر الله الحال .. تريدین
شيئاً؟!

يسألها وهو يتأبط ذراع إبراهيم متأهباً للمغادرة
فتهتف يسرا بامتتان مبالغ فيه :

_ سلامتك! شكراً .. شكراً .. أنا لم أر في حياتي من هو
أكثر طيبة منك!

_ اعتنى بها يا هبة .. أعلم أنك لا تحتاجين

توصيتي .. "فيك الخير"!

يخاطب بها قريبته التي تبتسم له بطيبة هاتفة بلكنتها
القروية :

_ في عيني يا "خال" .. لا تقلق!

_ السلام عليكم !

يقولها وهو يتحرك مع إبراهيم مغادراً ليستوقفهما

نداء يسرا :

_ إبراهيم !

يختلج قلب إبراهيم بعنف وهو يجرب لذة هذا الشعور

الفطري لأول مرة ..

أن يسمع اسمه منها بهذه اللفظة فترتجف كل خلية

في جسده كأنما لم يسمع صوت امرأة من قبل ..

يلتفت نحوها غاضباً بصره ليشعر بها تقترب

فتضطرب جوارحه أكثر :

_أحتاج أن أجمع بعض أشياء المهمة من المحل
والبيت ..أخاف أن أذهب وحدي ..تعال معي من
فضلك .

يهز لها رأسه موافقاً فتمنحه ابتسامة توقن أنه لن
يرأها مع إطراقة رأسه هذه ..

لكنه حقاً رأها ..رأها بقلبه دون عينيه لتزهر في
غابات روحه التي ظنها صارت حفنة من رماد ..
فهل للرماد حياة !؟

_الحمد لله أنها ستتجيب ! "الحرافيش" كانوا
ليأكلونها !! أتوقع أن يرابطوا عندي في الفرن بعدما
كانوا يتهربون من مساعدتي فيه !

يقولها ربيع مازحاً بعدما ابتعدا تماماً وهو يهبط معه
الدرج نحو الأسفل ..فيهدف إبراهيم بحمية مشتتلة :

فليقترب منها أحدهم وسأخلع عينه !

يضحك الأب عالياً وهو يشعر برضا خفي عن عودة

"الدرويش" للحياة !!

ربما لا يزال لا يعلم الكثير عن خفايا سمرا هذه إنما

يكفيه هذه الشعلة الحية التي عادت تنبض في عيني

ابنه ..

ابنه الذي ظن أنه دفن نفسه حياً في قبر توأمه

الراحل !

فيما تتحرك يسرا فوق سطح البيت لتقترب من حافة

سوره فتتفحص المنطقة حولها .. تبدو لها عتيقة

كشوارع مصر القديمة التي كانت تراها صدفة على

شاشة التلفاز فتجذبها بسحر خاص لا تنكر أثره في

روحها ..

تراهما من أعلى يسيران متجاورين وقد تعانق

ذراعاهما فتغيم عيناها بنظرة حزن كسيرة ..

تتذكر كيف هرع ربيع نحو ابنه -الذكر- وهو في هذا

العمر ليكون معه ليلة كانت في المشفى ..

بينما عاش رفعت الصباحي طول حياته يعاملها هي

ك"كم مهمل" لا يتذكره إلا وقت المصلحة !!

آه ! لو كانت كل الأشياء تُشترى لابتاعت أباً مثل ربيع

يمنحها لحظة حنان دافئة كهذه ولو دفعت ثمنها

عمرها كله !

=====

برتقالي

_ ابنة عمك توفيت في حادث !

على فراشها بغرفتها تنظر طيف عقب استيقاظها

للمرسالة على هاتفها برقم عاصي..

فتغيم عيناها بهذه السحابة الداكنة ..

ابنة عمك ؟!

ابنة عمك!!

يقولها وكأنه يؤكد لها أن لها عائلة !!

كأنه بهذا سيمنحها بعض الشرعية !!
كأنه سيمحو عنها دنس كل هذا العمر الذي عاشته
ك" بنت حرام" !!
أعد " عملتك القديمة" الجيبك يا سيد عاصي .. ما عاد
"سوقي الراج" يعترف بها !!
تجاهل رسالته لكنها لا يمكنها تجاهل هذه الوخزة في
صدرها وهي تستعيد مذاق عناقه الأخوي اللاذع
ب"ماضيه" ..
ثم مذاق عناق مجد الشهي بوعده "غده" ..
فتشعر بالمزيد من الجوع
لأشباههما.. الجوع الذي يلتهمها يوماً بعد يوم !!
تزفر زفرة مشتعلة وهي تقلب في هاتفها بحثاً عما
يثير انتباهها ..

المزيد من إعجابات القراء المنبهرة..

المزيد من انتقاداتهم اللاذعة ..

وبينهما جدلٌ عريض يسرها أن تكون دوماً محوره !

لكنه لم يعد يكفيها ليسد هذه الفجوة التي تتسع

بروحها ولا تعلم ما سببها ..

بل تعلم ! للأسف تعلم !!

يحيى!

تمرر أصابعها في خصلات شعرها السوداء الثرية

وعيناها تخوناتها بنظرة حاملة نحو ذراعها الذي

حطت عليه لمستته ذاك اليوم ..

فيدور في ذهنها مشهد رومنسي ناعم لبطل "لا

يشبهه" وبطلة "لا تشبهها" إنما تتشابه الظروف ..

لا ! هو لم يلهمها إياه !! بالتأكيد - بالتأكيد - لم يلهمها

إياه !!

تخاف أن تتسرب منها تفاصيل المشهد فتكتبه بسرعة

على ملف خاص بالهاتف ..

أنامل تتلامس ..

شفاه صامته ترفعت بغرور من يدري نفائس كلامه ..

على عكسها عيون متمرده لا تكف عن البوح ..

أنفاس تعاند البعد فتمترج باقتراب خطير ..

ثم عناق طويل .. طويل .. بطول احتياج كل منهما

لصاحبه !

تكتبه ثم تقول على لسان بطلتها الوهمية التي لا

تشبهها ..

بالتأكيد - بالتأكيد - لا تشبهها :

يتحدثون عن تقلب الحب بين سحر البداية وفتور
الوسط ولوعة النهاية..دعني إذن أبدأ معك قصتنا كل
مرة كأنها أول مرة ،دعني أحبك كل يوم من جديد في
بداية لا تعرف وسطاً ولا نهاية ..بداية لا تمل من
تكرار البداية ..بداية تختصر الحكاية ..بل تحتكر
الحكاية !

تكتبها ثم تحفظ ما خطته أناملها في ملف "منسي"
ربما تعود إليه يوماً لتصوغ من هذا المشهد حكاية ..
لكنها لن تترك نفسها الآن ل"نداهة" حباتها
الرومانسية ..ستفي بعهدا لنفسها وتحديها له ..
روايتها القادمة لن تكون رومانسية !
أناملها تخونها فتتسلل عبر حسابها الزائف تراجع كل
رسائلها المكتوبة ..

تتخيل شكله وهو يقول هذا الكلام ..

ملامحه التي لا تتذكرها ..

بالتأكيد -بالتأكيد- لا تتذكرها ..

عيناه "ذاتا القضبان" بلونهما الذي يمزج مرارة

القهوة بحلاوة الشيكولاتة ..

أنفه الأشم المغيظ الذي يبدو وكأنه سيواصل ارتفاعه

حتى يصل للسماء ..

شعره البني الكثيف الذي تكاد شعيراته الناعمة

تهتف : لن تقاوم إغراء ملامستي .

شفتاه المسلحتان بأخطر ابتسامة بين "وعد"

و"وعيد" ..

اشتاقتة ؟!

بالتأكيد -بالتأكيد- لم تشتق!

فكرة مجنونة تطراً بخاطرها فتعمد لتنفيذها بسرعة
وهي تكتب له ..

_ لو كنت مستيقظاً .. فلدي اعتراف أود البوح به .

_ تفضلي!

تكتم أنفاسها للحظة وهي تتلقى رده السريع ..

إذن هو مستيقظ مثلها ..!

لعله الآن على فراشه يقلب في رسائلها مثلها ..!

يشعر بالحيرة .. بالترقب .. بالإثارة .. مثلها !!

لكنها لا تهتم ..

بالتأكيد - بالتأكيد - لا تهتم !!

_ أنا رجل ولست امرأة !

تكتبها له بسرعة ثم تكتم ضحكة عابثة تعجبت من

انطلاقها عفوية بهذا الشكل ..

ويحها!! كأنها عادت طفلة!!

لماذا فعلتها!؟

ربما لأنها تريد استفزازة!

وربما لأنها تريد اختباره!

وربما لأنها تريد تجربة صداقة - بريئة - مع أفكاره

دون التقيد بحساسية رجل وامرأة!!

ترى كيف سيكون حاله مع هذه المفاجأة!؟

لكن المفاجأة كانت من نصيبها هي ورده يصلها

بنفس السرعة :

كنت أعرف!

تتسع عيناها بصدمة للحظة ورسالته التالية تلحقها:

أفكارك المستتيرة هذه لن تكون لامرأة أبداً!

_ خرب بيتك!

تهتف بها بصوت مسموع ووجهها يحمر غيظاً بينما

أناملها تكاد تخونها فتكشف له الحقيقة وتضرب

بغروره هذا عرض الحائط!!

لكنها تعود لتأخذ نفساً عميقاً وهي تتمالك غضبها

لتكتب له :

_ أرجو ألا تكون غاضباً مني ..كنت فقط أريد اختبار

أفكارك الحقيقية ..تعلم أن كثيراً من الكتاب يدعون

عداوة المرأة ليحصدوا الثمار في الطريق العكسي!

_ أولاً ..أنا لست كاتباً يا صديقي -واسمح لي بمناداتك

صديقي هكذا ببساطة - ..ثانياً ..أنا أشعر براحة أكبر

لكونك رجلاً ..الأمر هكذا أكثر منطقية حقاً!

_ أذكى إخوتك ! ما شاء الله !!

تهتف بها بغیظ من بین أسنانها لكنها تكتب:

معك حق! شكراً لسعة صدرك.. وأفتخر

بصداقتك.. ما رأيك في موضوع (...). المنتشر هذه

الأيام!؟

تطلق زفرة قصيرة وهي تتلقى رده الحصيف

كعهده.. بكلماته البسيطة التي توحى بثقافة حقيقية لا

ادعاء..

لا ليست معجبة بطريقته هذه في الكلام! بالتأكيد -

بالتأكيد - ليست معجبة!!

تغلق حاسوبها فجأة دون تعليق كأنما تعتبر هذا عقاباً

له!

لا بأس! غداً ستجعل "صديقه الرجل" يعتذر له عن

عدم الرد!

تشعر ببعض الدوار الطبيعي الذي صار ينتابها هذه
الأيام فتلتفت بوجهها نحو م ظروف تحاليلها الطبية
الذي حصلت عليه بالأمس!

"الأنيميا" اللعينة تأتي أن تفارقها كصديق وفي !!
نسبة الهيموجلوبين مرعبة وستحتاج لحقن
"الحديد" السخيفة هذه التي لا تمقت في حياتها
مثلها ..

يبدو أن دمها لا يزال يصر أن يذكرها ب"فقره" مهما
ادعت حسابات البنوك غير هذا!!

تغادر الفراش بعناد وهي تحاول تجاهل دوارها لكنها
تترنح مكانها وهي تشعر بنفسها تكاد تسقط فتتشبث

بحافة الكومود جوارها ..

لا بأس! لن تنتظر!

ستتوجه الآن للمشفى القريب وترى ما ينبغي فعله !!
تبدل ملابسها بتثاقل وهي تقاوم هذا السيناريو
المخيف الذي يجتاح ذهنها من آن لآخر ..

أن تسقط وحدها هنا فتموت دون أن يشعر بها أحد !!
ربما هذا الخوف البدائي هو ما جعلها تقاوم بالمزيد
من البسالة هذا الدوار وهي تحمل م ظروف تحاليلها
وحقيبتها لتتحرك نحو باب شقتها ..

لكنها تتذكر مجد فجأة !

ماذا لو أتت في موعدها اليومي فلم تجدها ؟!

فلتخبرها إذن قبلها!

هل تتصنع الأعذار لرؤيته ؟!

بالتأكيد -بالتأكيد- لا تفعل!!

تفتح باب شقتها وهي تهم بالتوجه لشقته هو لكنها

تفاجأ بهم أمامها ..

مجد وخادمتها .. وهو!!

هل جاءوا مبكراً اليوم أم أن تعبها جعلها لا تدرك

الوقت ؟!

_صباح الخير يا طيف ! ترينَ ماذا أحضرت لنا اليوم

كي نلعب به ؟!

تهتف بها مجد بمرح وهي ترفع لها الكيس الضخم

الذي تضعه على ساقها ..

فيعز عليها خذلانها لكنها تتمالك نفسها وهي تتشبث

بسياج الباب شاعرة بالمزيد من الدوار:

_لن أستطيع مجالستك اليوم .. أنا في طريقي

للخروج .

لم تنتبه أن نبرة صوتها خذلتها بهذا الوهن إلا عندما

سمعت صوته يسألها :

_ أنتِ مريضة؟!!

تجاهلت رائحة القلق في صوته والتي لم تتمنّ أن

تكون حقيقية ..

بالتأكيد - بالتأكد - لم تتمنّها !

لتهتف بغلظة متعمدة هزمت وهن صوتها :

_ الناس تقولها (أنتِ بخير؟!!) وليس (أنتِ

مريضة؟!!) .. وعموماً هذا ليس من شأنك ..

صوتها ينخفض في أذنيها تدريجياً وهي لا تدري ماذا

يحدث ..

دوار .. دوار .. دوار ..

هل تترنح؟!!

هي فقط تسمع صرخة مجد تأتي من بعيد كأنها

صدى ..

مع هتاف خادمتها الجزع قبل أن تشعر بذراعين
قويتين تضمان جسدها .. فلا ترى بعدها سوى ظلام !

=====

ينقر أديم بأصابعه فوق مقود سيارته التي توقف بها

في تلك المنطقة المنعزلة البعيدة عن العمران ..

ينتظر مواعده مع تلك المرأة بفارغ الصبر ..

يكاد يستشيط غضباً وهو يتذكر كيف ضاع جهده مع

غازي خضر طوال هذه

الأشهر دون أن يصل منه لشيء ..

لا تيأس .. لا يزال لدينا خيطان ضعيفان قد يقودانا

لذاك "الكوبرا" .. أحدهما تلك العاهرة المقتعة التي

ستكشف لنا حقيقة حسام القاضي ..لسنا واثقين من

تورطه مع الكوبرا لكن شبهات عديدة تربطهما

معاً ..سأترك لك شأن تلك العاهرة كي تتعامل

معها ..هي تعلم ما الذي ينبغي عليها فعله ..

يزفر بسخط وهو يتذكر كلمات زميله الذي يتولى معه

هذه القضية التي تزداد صعوبة يوماً بعد يوم ..

والتي تتعلق بأكبر تنظيم لتهريب السلاح والمخدرات

داخل البلاد بزعامة ذلك الوغد الذي يطلقون عليه

لقب الكوبرا ..

ذاك الذي استطاع غرس أسطوره في نفوس تابعيه

كرجل لا يقهر !!

تغميم عيناه بنظرة غامضة وهو يحاول تجميع بعض

الخيوط في رأسه ..

الكوبرا .. غازي .. حسام القاضي .. ديمة !!
حاجباه ينعدان أكثر مع الاسم الأخير !!
هذه الحمقاء التي لا يدري هل يشفق عليها أم يريد
عقابها !!

ما أشبهها بقارورة مكسورة تؤذي كل من تسول له
نفسه الاقتراب !!

لا بأس ! لن يسمح لها بما تفكر فيه !
حتى وهي تكره قربه سيبقى يحميها من بعيد !!
لا .. ليس هو الرجل الذي يفرض نفسه على امرأة
يعشقها ..

لكنها ليست في كامل وعيها ..
تترنج كطير مصاب بين جدران يأسه !!

ينظر في ساعته أخيراً ببعض الغضب وهو يتبين
تأخر تلك اللعينة ..
لكنه يلتفت جانباً ليجدها تتقدم نحوه ..
يعقد حاجبيه بتفحص وهو يقرأ لغة جسدها ..
خائفة .. مترددة .. وهذه الطريقة التي تضم بها هذا
الوشاح فوق جيدها وصدرها تنبئه أنها تخفي ما لن
تبوح به بسهولة !!

تقترب أكثر لتتسع عيناه ببعض الدهشة من
ملامحها ..

هذا الجمال البريئ الذي لا يليق أبداً بعاهرة !!
يراجع معلوماته عنها والتي قرأها في ملفها ..

فيهمس لنفسه :

_ لا تعجب! هذا سر نجاح مثلها في مهنتهن!

_ أديم "بيه"؟!!

تهمس بها بوجل وهي تتحني برأسها عبر النافذة
فيتفحص ملامحها بهذا القرب ..

شعرها الأشقر الخفيف .. عيناها الواسعتان .. ملامحها
الشاحبة التي بخلت عليها بتبرج .. جسدها النحيل
الذي يجعلها أقرب لطالبة في المرحلة الثانوية !
كم هي المظاهر خادعة !

_ اركبي!

يهتف بها بصرامة وهو يفتح لها باب السيارة جواره
لتتخذ مجلسها جواره ..

_ من اليوم .. أنا المسئول عنك في هذه القضية .

تزدرد ريقها بتوتر وهي تغمغم عبر صوتها المبحوح:

_ أنا .. أنا أنفذ كل ما تطلبونه .

وستفعلين هذا دوماً ..تعلمين لماذا!؟

يهتف بها بنفس الصرامة الباردة فتهاز رأسها بخوف
دمعت له عيناها بما رآه هو "دموع تماسيح" ..لهذا
لم تتأثر نبرته الصارمة وهو يكتسح عينيها بنظراته
قائلاً:

حسناً يا "دينا"! سأخبرك الآن بما ستفعلينه!



الطيب الثامن



برتقالي



_ حمداً لله على سلامتكَ !

تهتف بها حسناء بودّ مرح وهي ترى طيف تفتح
عينها لتدور الأخيرة ببصرها في المكان محاولة فهم
ما حدث بينما حسناء مستمرة في ثرثرتها :
_ لم أرك منذ زمن طويل .. لكن زهرة لا تكف عن
الحديث عنك ! تعلمين أنها عادت إلى مصر لتتزوج
جهاد؟! أسطورة "النحس" خاصتنا تنهدم .. لم يبقَ
في شلتنا سواي أنا وأنت!



تقولها بشقاوتها المعهودة وهي تتذكر تلك الصدفة
الغريبة التي جمعت الستة هنا في "أبو ظبي" منذ ما

يزيد عن

الثلاث سنوات ..

حسنا ، زهرة ، طيف ، دعاء ، ماسة ، جنة (أيام كانت

مريم !)

_ كلهن عُن إلى الوطن برجل

يملاً العين .. العقبى لنا!

تهتف بها حسنا وهي ترفع كفيها في وضع الدعاء

لترد طيف بفظاظتها المعهودة التي غلبت وهن

صوتها :

_ اخرسي! عودي أنتِ برجل أو حتى خنفساء لكن لا

شأن لكِ بي! فليذهب رجال العالم كلهم للجحيم !

تضحك حسناء ضحكة عالية وهي تعدل لها وضع
وسادتها لتساعدھا في النهوض هاتفة بمكر :
_صحيح؟! لم أصدق أذني عندما أخبرتني زميلتي في
مكتب الاستقبال أن طيف الصالح وصلت المشفى
محمولة بين ذراعي رجل!
_ماذا؟!!

صرختها الحادة تجفل حسناء للحظة قبل أن تنفجر
ضاحكة من مظهرها بينما تكون طيف في وادٍ آخر
تحاول تذكر ما كان قبل سقوطها ..ولاتزال حسناء
مستمرة في ثرثرتها :

_وليس أي رجل! صاروخ أرض جو! زلزال بقوة
خمسين ريختر ..بل مائة ريختر..أوه ! قلبي!

_ اُخرسي! اُخرسي! أي مصيبة أُلقت بك في طريقي

اليوم؟! هل عدم المشفى ممرضاته لتكوني أنتِ

قدري؟!!

تهتف بها طيف بحدة ساخطة فتمالك حسناء

ضحكتها وهي تطمئن لوضع المحلول الذي يسري

عبر عروق صاحبته المستلقية بوهن يناقض كل هذه

الفضاظة التي تتضح منها ..

_ العفو! لا شكر على واجب! نحن صديقتان!

تهتف بها حسناء مغيظة إياها وحاجباها يتراقصان

بمشاكسة لتهتف طيف بوجه مشتعل:

_ اذهب من وجهي.. شياطين الدنيا كلها تتراقص في

عيني الآن!

_ صحيح؟! فلنستدع إذن الملاك الذي سيصرفهم!

تقولها حسناء بهيام مصطنع وهي تضم كفيها نحو
صدرها لتعاود الضحك وهي تسمع سيل السباب الذي
غادر فم طيف كطلقات مدفع رشاش ..
تراجع بظهرها نحو الباب الذي فتحتة لتخرج وتغلقه
خلفها مع ضحكاتهما الماكرة ..
فيما تغطي طيف فمها بكفها وهي تكاد تنفجر
غيظاً .. وخجلاً!
هو حملها بين ذراعيه !!
ماذا عساه يظن فيها الآن؟!
في بلدتها بالصعيد كانوا يعدون مرض المرأة عيباً
يعيرونها به !

هي بالذات كبرت وهي ترى أمها تعتبر مرضها

فضيحة تخفيها كي لا يحرمونها من العمل في

البيوت !

كبرت وهي تراها دوماً تدعي العافية ..حتى كان ذاك

اليوم الذي سمحت لنفسها فيه بالسقوط تعباً .. فلم تقم

بعده أبداً!!

"الدمع العزيز" يتكدس في عينيها وهي تتذكر يوم

وفاة أمها ..

وقوفها هي ذاهلة شاخصة البصر وقد أدركت لأول

مرة في حياتها معنى أن تواجه سهام النصيب

وحدها .. دون درع يقي أو ظهر يحمي !

لهذا تهاب المرض .. ربما بأكثر مما تهاب الموت!!

_ ادخل!

تهتف بها بصوت مبجوح وهي تمسح عينيها بسرعة
مع سماعها لصوت الطرقات الخافتة على الباب
لتجدها خادمة مجد !

صرت بخير؟!

تقولها ب"عربيتها الكسيرة" فتتنحح طيف بخشونة
وهي تشير لها بكفها أن تقترب ..

ولم تكد الخادمة تجاور فراشها حتى ازدرت هي
ريقتها لتسألها بتوجس:

ما الذي حدث لي بالضبط بعدما فقدت وعيي؟!
تهم الخادمة بالتحدث لتقاطعها طيف بصرامتها وهي
تلوح بسبابتها في وجهها:

بالتفصيل!

تبتسم لها الخادمة وهي تجيبها:

لقد فوجئنا بك تسقطين ..مجد كانت تصرخ
بهلع ..والسيد يحيى كان قلقاً للغاية ..لما فشلت
محاولاته في إفاقتك حملك هنا للمشفى ..السيد يحيى
كان قلقاً للغاية ومجد أحت بإصرار أن
تصطحبه ..السيد يحيى كان قلقاً للغاية لكنهم هنا
يؤكدون أن الأمر لا يستحق القلق!
"السيد يحيى كان قلقاً للغاية" !

هل كانت الخادمة من تكررها وسط كلماتها عفويًا ؟!
أم أن عقلها هو ما كان يستحضرها جلية بين كل فكرة
وأخرى !!

لماذا كان قلقاً ؟!

هل هو خوفه من مسئوليته عنها وهو يقف بابنته
أمام بيتها ؟!

أم هو خوفه على مجد نفسها من أن تتأثر بمصائبها

هي مع قوة العلاقة المستحدثة بينهما؟!!

أم..ماذا؟! ماذا؟! ماذا?!!

لا تفسير آخر يا طيف!! لا تبقي رأسك لمزيد من

التخاريف!!!

الخاطر الأخير تنهر به نفسها مانعةً إياها من

الانجراف لهذا الشعور "الذيذ" الذي يجتاحها الآن

بضراوة ..

خفقات قلبها تعزف أكثر الألحان صخباً وهي تتخيل

مشهدا بين ذراعيه ..

_ خرب بيتك! خرب بيتك! خرب بيتك!!!

لا تدري كم مرة همست بها سراً وهي تغطي وجهها
براحتها فلا تعلم هل تخفي ضعفها ..خجلها ..أم هذا
الشعور الذي يكتسحها كشمس عنيدة تأبى إلا أن تتم
نورها رغم أنف الظلام!

تنتفض مكانها فجأة وهي تسمع صوت الطرقات من
جديد على الباب مع هتاف الخادمة :

_ مجد المسكينة تكاد تموت رعباً !! السيد يحيى
يستأذنك في الدخول معها!

_ يستأذن في الدخول؟! لم أرَ في حسن أخلاقه !
تهتف بها لنفسها بسخط وهي تشعر بأن لسانها قد
التصق بسقف حلقها ..

ترى الباب يفتح ليدخل هو منه فتتعلق عيناها
بنظرته ..

عيناه "ذاتا القضبان" لا تزالان على عهد غموضهما

المغيظ..

وإن تفلتت بعض مشاعرهما من الحبس!

قلقٌ حقيقي فيهما تشربته روحها العطشى لمثل هذا

الاهتمام منذ زمن بعيد !!

وبالذات من رجل بحنانه !!

حنانه الذي فاض في صوته وهو يخاطب مجد بقوله :

_ لا تخافي "حبيبة بابا"! كل شيء على ما يرام..ها

هي ذي بصحة جيدة توشك أن تتقافز كالقرد !!

_ من هذه القرد؟!!

تهتف بها بحدة فيكتم ابتسامته وهو يرفع إليها عينيه
الغامضتين جداً .. الدافئتين جداً .. والخطيرتين جداً
جداً ..

هذا الذي استفزها لتهتف بحدة والصداع اللعين يكاد
يفتك برأسها فتغفل عن وجود مجد :

_ كيف تسمح لنفسك أن تحملني؟! كنت من بقية
أهلي!؟!

فيرتفع حاجباه بدهشة ثم ينعقدان بغضب يناسب
قوله :

_ كنت تفضلين أن أتركك حتى تتعفني ساقطة أمام
الباب!؟!

_ أتعفن!؟ قلت أتعفن!؟! اخرج .. اخرج من هنا ..

تهتف بها بحدة ساخطة وهي تلوح له بكفها فيكز
على أسنانه بقوة وهو يهم
بالخروج لكن مجد تتشبث بكفه بقوة وهي تخاطبها
هي بقولها الذي اختنق بدموعه :

خفتُ عليك!

تغمض طيف عينيها بقوة وهي لا تدري أيهم أشد فتكاً
عليها الآن ..

صداع رأسها!؟

رهبة خجلها وخوفها من ذاك المجهول الذي يكتسح
مدينتها كإعصار!؟

أم دفء شعورها بهذه العاطفة البريئة التي تمطرها
بها مجد ..

مجد التي تحركت بكرسيها نحوها ليتها يحيى
مضطراً وهو يطرق بوجهه بنفس الغضب ..
لمسة مجد لكفها تكاد تصعقها وهي تتذكر أنها منذ
ثوانٍ فقط كانت تمس كفها هو !!
فتنتفض مكانها بحدة وهي تشعر بكل هذا الذي يحدث
يكاد يفقدها صوابها ..
فليعيدوها لصومعتها !!
لعزلتها خلف شاشتها حيث تجيد
الاختباء والتخطيط قبل الكلام أو حتى تختار عدم
الرد !!
_أنا بخير!
تغمغم بها كاذبة وهي ترفع كف الصغيرة نحو فمها
لتقبله برقة تناقض فظاظة لهجتها المعهودة .

_ كيف حالك الآن ؟! "عيني عليك باردة"!
كانت هذه حسناء التي دخلت الغرفة لتوها لتنقل
بصرها بين يحيى وطيف التي كادت تقتلها بنظراتها
لكنها لم تكثرث وهي تقترب منها مبتسمة لتتزع إبرة
"الكانيولا" من كفها ثم تظهر مكانها هاتفة بخبث:
_ لا بأس! هو هكذا "يدوخ"!

_ ما هو ؟!

تهتف بها طيف بحدة وهي تكاد تأكلها بنظراتها لترد
حسناً ببراءة مصطنعة :

_ الهيموجلوبين! نقصه يسبب الدوخة ! لكن لا

تخافي .. علاجنا عالٍ .. عالٍ .. عالٍ!

ترمقها طيف بنظرة نارية وهي تود لو كان يمكنها أن
تقفز مكانها فتلكم هذه المتظارفة في أنفها ..

مساء الأنوار!

التهاتف عند الباب - بصوت نزار الذي قدم لتوه - يجعل
طيف تطلق زفرة ساخطة مع تمتها المستكرة :

الحظيرة كان ينقصها المزيد من الغنم !!

سلامتك ! ألف سلامة !

يقولها بلهجته العابثة مفرطة الود فترمقه طيف بهذه
النظرة السمجة فيما تتعلق عيناه هو بحسنا التي
تفحصته بدورها ..

أستاذة طيف! اسمحي لي أن أعترف! كنت أظن أن
حظك في الخاديات رائع ..حتى رأيت حظك في

المرضات !

يهتف بها نزار بنفس النبرة فتخبط طيف رأسها في
ظهر فراشها بسخط وهي ترفع عينيها لأعلى فيما

تبتسم حسناء بدلال بينما هو يردف بنفس النبرة

العابثة :

_ ناريّ يا "أفندم" ! ناريّ !!

تتصنع حسناء الضيق وهي تعبس

بملاحها لتخاطب طيف بسؤالها :

_ تحتاجين شيئاً؟!

ترمقها طيف بنظرة نارية فتكتم ابتسامتها وهي

تخرج من الغرفة متجاهلة نظرات نزار التي تبعثها

بتفحص ..

_ تريدين بعض المثلجات يا "مجد"؟!

_ مثلجات هنا في المشفى؟!

يسأله يحيى باستنكار ضائق ليغمزه بقوله :

_ نسأل ! ومن يسأل لا يتوه !!

يقولها وهو يكتنف كرسي مجد بقبضتيه ليتحرك بها
خارج الغرفة ومعهما خادمتها فينعدد حاجبا طيف
بترقب وهي تتوقع أن يتبعه يحيى ..

لكنها تفاجأ به يقترب منها بخطواته الثقيلة ليجلس
على الكرسي جوار فراشها ..

تتعلق عينيها بعينيه رغماً عنها وهي تشعر بهوة
نظراته تسحبها لقاعها من جديد ..

قبل أن ينحني هو بجذعه مستنداً بمرفقيه على ركبتيه
للتناقص المسافة بين وجهيهما .. بل وروحيهما!!
خفقات قلبها تعزف لحناً صاخباً يرسم الفراشات في
حنايا روحها ..

لكن فظاظتها تخذلها كعهدا وهي تجد نفسها تهتف
به بغلظة :

_ ماذا تريد !؟

نظراته لم تحد عنها بهذه القوة التي تثير

رهبتها ..خجلها ..وما هو أكثر!

لتأتيها كلماته بعدها فتقذفها في بئر ماضي الوجد من

جديد :

_ اضطرت لأخذ بعض أوراقك من حقيبتك قبل

دخولنا إلى هنا ..شعرت ببعض الدهشة من الاسم

المكتوب فيها ..طيف الصالح ليس اسمك في الأوراق

الرسمية .

_ أنا اخترته ..كما اخترت كل ما أمكنني اختياره في

حياتي ..ونجحت !

يشعر بغصة قوية في حلقه تمتلكه وهو يسمعها

تتحدث بهذه الطريقة بين عنفوان ومرارة ..

يتذكر جراتها ذاك اليوم في الندوة وهي تصرح أمام
الجميع أنها ليست ابنة شرعية ..
لا يدري هل يصفها بالجرأة أم الحماسة ..
لكن ما يثق به الآن أن روحه ترفع لها قبعة احترام!
خاصة وهي تستطرد بقوة هو خير من يدرك الآن أنها
قناع روحها الهشة :

_هم منحوني اسماً سورياً في بطاقة هويتي .. وأخي
عرض عليّ أن يعترف بي لأحمل اسم أبي
الحقيقي .. لكنني ترفعت عن هذا وذاك .. أنا طيف
الصالح .. صلح اسمي وصلحت سيرتي وصلح
عملي .. ولن أسمح لكل هذا بعوج !
يتهدج صوتها في عبارتها الأخيرة فيدرك كم تتكلف
من تماسك لتتطق مثل هذه الكلمات ..

بينما كانت هي تشعر هي بالضيق من نفسها ..
لماذا صرحت له عن رغبة أخيها بدعمها ؟!
هل هي محاولتها لتجميل ما تشوه من وجهها ؟!
هل هي رغبته في الظهور أفضل أمامه ؟!
أم هو شعورها أنه ليس بعيداً إلى هذا الحد .. أنها
تريده أقرب !!

تباً له من رجل ! بل تباً لها هي ولخيالاتها المريضة
به !!
_ آسف!

تتفرج شفتاها بذهول واعتذاره يصلها قوياً
مثله .. ومنهكاً مثلها !!

لم يقلها مطرق الرأس أو زائغ النظرات بل زرعها
صريحة في حدقتيها بعنفوان يليق بكليهما !

أسف لما قلته يوم الندوة بشأن ظروف
تعليمك ..أسف لأنني جعلتك وقتها تبوحين بما
تكرهين ..وأسف أكثر لأن اعتذاري هذا قد تأخر!
تفتح عينيها قدر استطاعتها وهي تتمنى لو ينبت لها
في هذه اللحظة جناحان يلاحقان فيض حروفه هذه فلا
ينفلت منها لها أثر ..أي أثر!!
بينما يبدو هو وكأنما أزاح حملاً ثقیلاً عن
كاهله ..ووضع آخر!!
ينهض من مكانه ولا تزال عيناه "ذاتا القضبان"
تطوقها بهذه النظرة الآسرة ..
بينما يبدو له "سديم" عينيها أكثر ضبابية ..أكثر
لمعاناً ..أكثر تيهاً !

_ سأنتظر بالخارج حتى يمكنكِ المغادرة كي أقلِّكِ
للبيت .

يقولها بهذه الحمية الرجولية التي "تهدهد" هذه
الطفلة و"تدغدغ" هذه المراهقة و"تدلل" هذه
الأنثى ..كلهن داخلها !!

لكن طبيعتها تلجم لسانها فلا تقوى حتى على شكر !
تراقب ظهره المنصرف وقلبها يقرع صدرها بمطارق
من نار ..

هذا الشعور داخلها الآن كيف تصفه !؟
يحسدونها على موهبة الكتابة والآن تدرك كم هي
فقيرة الحروف حين تقف في مواجهة سلطان العاطفة
فتجتو على ركبتيها صاغرة !!

لا تدري كيف مرت بها الدقائق التالية ..كيف ودعتها
حسنا بنظراتها الماكرة ..كيف تشبث بها كف مجد
بقوة من يخشى الفقد ..كيف استقلت السيارة التي
كان يقودها هو لتتلاقى عيونهما عبر المرآة الأمامية
بينما تحتل هي المقعد الخلفي جوار مجد ..
ليبدو كلاهما في هذه اللحظة كنمرين يدور كل منهما
حول صاحبه بتوجس في برد ليل قارص ..كلاهما
يخشى مخالب صاحبه إنما يرجو دفء قربه !!
تتبعث هذه الألحان من مشغل الموسيقى بسيارته بهذا
الحن لموال عراقي لكلمات لم تفهم معظمها إنما
أحست هذا الشجن المنبعث فيها مع ذكر الغربية
وفراق الأحباب ..
تري ما حكايتك أيها "اليحيى العراقي" ؟!

وأي أنثى سممت دم الحب في عروقك فلم تذر بعدها

لسواها مكاناً؟!!

تنقطع أفكارها والسيارة تصل بهم أخيراً للبيت

فتترجل منها بتماسك قبل أن يتخذوا رحلة الصعود ..

_ يمكنني أن أبيت معكِ الليلة ! كي أطمئن !

تهتف بها مجد بالبحاح فترفض هي بإصرار هاتفة :

_ صرت بخير .. لا تخافي .

_ يمكنني أن أبيت أنا معكِ !

تهتف بها خادمة مجد لكن طيف تهتف بفظاظتها

المعهودة :

_ ليست حفلة هي! قلت أنني صرت بخير ! طوال هذا

العمر أعيش وحدي ولا أحتاج أن يبيت أحدهم معي!

يطلق نزار ضحكة مستمتعة يكتمها إزاء نظرتها

الصاعقة التي حدجته بها ..

بينما يرمقها يحيى بنفس النظرة العجيبة التي

تجاهلها وهي تتحني لتقبّل مجد قبل أن تدخل شقتها

لتصفق بابها بعنف!

_المادة الخام ل"قلة الذوق" دون أي إضافات!

يقولها نزار بخفوت وهو يميل على أذن يحيى ثم يزم

شفتيه ببعض الاستياء قبل أن تعود له ضحكته

باستطراده :

_ولو أنني لا أنكر أن مجرد مشاهدتها متعة توازي

متعة متابعة "ناشيونال جيوغرافيك" مثلاً !

_زعطوط!

يلكزه بها يحيى في خاصرته بينما يغلق باب شقتهم

خلفهم فتهتف به مجد بقلق:

_ هي ستكون بخير "بابا"؟!!

تغم عيناه بنظرة غريبة قبل أن ينحني على ركبتيه

أمامها ليقول بجدية لم يفارقها حنانه المعهود :

_ لا تخافي حبيبة "بابا"! هي ستكون بخير ..إنما

أريدك أن تتعلمي شيئاً .. لا تسرفي في التعلق بأي

شخص .. لأن هذا ما جعلنا نتألم .

_ حبي لها لا يؤلمني.

_ لكن فراقها سيؤلمك .

يقولها بحسم تسربت عبره مرارة طاغية جعلت نزار

يتدخل بمرحه المعهود :

_ من "ناشيونال جيوغرافيك" ل "روتانا دراما" !

ياحظي!

يرفع إليه يحيى عينيه بنظرة استياء فيردف بتهكم:

_ دع لي ميغو وادخل أنت غرفتك بأفكارك السوداوية

هذه ! ابحت لك عن صدفة لتلونها بالأسود أو عن فأر

لتخنقه أو عن قارورة لتكسرها .. أخبرك بالأفضل!؟!

اشنق نفسك برابطة عنقك !

وفي مكانها بغرفتها تستلقي طيف على فراشها

مغمضةً عينيها ..

أناملها تتلمس ذراعها الذي مسّه هو يوماً قبل أن

تتحسس ما طالته من جسدها ..

هو حملها !

حملها كما يفعل بمجد !!

نظرة القلق الحاني في عينيه كانت لها هي هذه

المرّة !!

هو اعتذر!!

ليس ذاك الاعتذار البارد المتعجرف إنما هذا الدافئ

الوجل!!

لأول مرة منذ زمن بعيد .. بعيد جداً ..

تجرب معنى أن يعتني بها أحدهم !!

أن يحمل مسئوليتها !!

أن تركن بظهر "أنوثتها" الواهن إلى جدار

"رجولة" صلب فلا يسقط بها !!

لم تشكره !!

لسانها العصيّ أبي إنما كل جوارحها

استجابت .. فاضت شكراً وامتناناً و...



وما هو أكثر!!

_ لا لا لا ! أنتِ صرتِ خطرة على نفسك ! ما جو

"المراهقة المتأخرة" هذا؟!!

تهتف بها لنفسها بسخط وهي تفتح حاسوبها

المحمول ..

حيث عالمها "الآمن" الذي يمكنها فيه الاختباء فلا

تؤدي ولا تؤذى!

لكن ها هو ذا يخترق عالمها الآمن كذلك !!

رسالته على حسابها المجهول منذ ساعات ..

(صباح الخير يا صديقي ..كيف أنت اليوم؟)

تزفر زفرة مشحونة وهي تراه قد أرفق سؤاله برابط

لمباراة كرة قدم لإحدى الفرق التي كذبت بزعمها له

أنها تتابعها كي تقنعه بعالمها الذكوري!

__ كانت مباراة رائعة !

تكتبها له ليتأخر رده قليلاً قبل أن يصلها :

__ لا أحب الكرة .. لكنني تذكرتك عندما رأيت رابط

المباراة .

__ ماذا تحب إذن !؟

تكتبها له بسرعة وهي تشعر بالترقب ..

لكن رده يتأخر هذه المرة أيضاً .. يتأخر كثيراً حتى

تظنه لن يرد ..

فتعاود إلقاء حجر جديد في المياه الراكدة :

__ رجلٌ بأفكارك يبدو وكأنه عانى كثيراً وتعلم

الأكثر .. دعني أتعرف عليك أكثر !

__ لا تقترب كثيراً يا صديقي .. كلنا في البعد نبذو

أفضل!

ينعقد حاجباها أخيراً بقوة مع رده الذي تكاد تسمعه
مفعماً بمرارته ..

أي جرحٍ أوجعه لهذا الحد الذي كره لأجله كل
النساء؟!!

أي حياة يعيشها في غربته عن وطنه وأهله؟!
وهل اختار هذا أم أجبر عليه؟!!

كان من المفترض أن تشعر بالضيق من كل هذا
الغموض الذي يصر أن يحيط نفسه به ..

لكنها الآن كانت تغوص غوصاً في
ملامحه التي استحضرتها ..

في وجهه الذي رسمته مخيلتها ..

تراه يقترب .. يقترب .. فيرتفع معه ذراعاها لتضمه

بحنوٍ لصدرها!!!

ربما هي المرة الأولى التي تتخيل فيها نفسها تعطي

الحنان .. لا تطلبه !!



أخضر



_وفي نهاية الحلقة أشكر كل الرسائل التي وصلتني

على الإيميل وصفحة البرنامج تظمن على

سلامتي ..وسلامة (خطيبي)!



ابتسامتها المرتجفة تشبه أناملها التي كانت تتشبث

بوشاحها الأخضر الذي صار أيقونتها منذ زمن

بعيد .. كأنما تطارد هاهنا ما بقي من "قدس

كمالها" !!

تدمع عيناها مع ضحكة مصطنعة نجحت في غرضها

وهي تختم الحلقة بقولها :

_ كانت معكم عزة الأنصاري .. برنامج (أكلتين

وعافية)!

_ شاحبة .. مصطنعة .. مذبذبة !!

يهتف بها مخرج برنامجها باستياء وهو يتوجه

نحوها بعد انتهاء الحلقة لتأخذ نفساً عميقاً وهي

تشيح بوجهها بينما يقترب هو أكثر ليزفر بسخط وهو

ينتحي بها جانباً ليردف بنبرته العملية :

_أعرف ما يدور الآن ببالك ..أنا أعبر عن رأيي في
آدائك بصراحة ولا أعاقبك لأنك رفقتِ عرضي
بالزواج مقابل عرض خطيبك ..لأنني ببساطة أفهم
سبب قبولك !

_ماذا تقصد !؟

تهتف بها بحدة وهي ترفع إليه عينين دامعتين غضباً
ويأساً !

_ليس هناك أي مبرر يدفع امرأة مثلك للزواج من
رجل مثله إلا شعور الشفقة ! يمكنني تقدير هذا بل
والرثاء لك ..لا أعرف ما الذي كان يمكنني فعله لو
كنت مكانك ..لهذا لا أدري هل أصفك بالبطولة أم
بالحمافة ..لكن دعينا نتجاوز أمورنا الشخصية
لنكتفي بالعمل ..آداؤك لم يعد كالسابق ..ولو لا اهتمام

المتابعين المتعاطف معك بعد الحادث لسقطت نسبة

مشاهدات البرنامج حد الفشل !

يقولها بنفس النبرة العملية التي تكاد تكون خالية من

المشاعر ..

ألف رد يولد ويموت على شفيتها في نفس اللحظة !!

هو محق ..

بل هو مخطئ!!

تبالهوة "المنتصف" السحيقة التي تزل فيها قدمها

أكثر وأكثر!!

_شركة (...)صاحبة الماركة الشهيرة لزيت الزيتون

تطلب أن تكوني واجهتها

الإعلانية .. أعرف أنك ترفضين هذه الأمور لكن الآن

الوضع مختلف .. أنصحك كصديق .. أسهمك في

هبوط ! تحتاجين انتعاشة !

تهز رأسها لأول وهلة رافضة العرض

كالعادة .. قديماً كانت لا تحب التورط في مثل هذه

الإعلانات رغم مكسبها الوافر .. كانت تراها تقييداً

لروحها التي أرادت حرة ..

لكن الآن ... !!

تنازل خلف تنازل !!

لا بأس من المزيد من التنازلات !!

لهذا كان مشهدها هزلياً ورأسها يهتز برفض بينما

لسانها يبدو وكأنه ذو إرادة حرة :

موافقة!

ربما لهذا كان لنظرته المشفقة نحوها ما يبررها وهو

يصمت طويلاً متفحصاً

ملامحها الشاردة .. كأنها لا تزال تعيش صدمة

إنكارها ..

_ عزة! أنتِ لستِ بخير .. بعيداً عن علاقة العمل التي

تجمعنا اسمحي لي بنصيحة .. موافقتك على هذه

الخطبة بدافع الشفقة ظلم لنفسك وله هو قبلك ..

_ لن يعرف .. لن يعرف أبداً .. لن يعرف ..

تتمتم بها بخفوت ذاهل وعبراتها تسيل دون وعي

على وجنتيها فيعقد حاجبيه عاجزاً عن سماع ما تقول

وقد بدت له في هذه اللحظة كالمخابيل ..

خاصة وهي تغتصب ابتسامة واسعة تناقض خط
دموعها الرفيع هذا بينما تتناول هاتفها من الجوار
لتفتح له الصور ..

_انظر! انظر كم هو سعيد !! راضٍ!! متقبل لمصابه
بهذه الروح التي طالما عهدتها فيه !! "الفاجومي"
لا يبالي برأي الناس ! متصالح مع كل عيوبه ولا
يعرف كيف يعبس في وجه الدنيا حتى ولو أصابه
وجعها !! تراه كيف يضحك؟! تراه!؟!

يرتعش صوتها في كلماتها الأخيرة التي امتزجت
بشهقات بكائها المكتوم ليطرق برأسه دون رد بينما
هي تستطرد بنفس الشرود الذاهل:

_أي ثمن زهيد أمام ضحكة رضاه هذه ! أي تنازل
سأقبله !

_وهل يصلح الزواج بالتنازلات؟! أنتِ

بالذات ظننتكِ لن تكرريها أبداً!!

كلماته تسكب الملح فوق جرحها الطازج فتراجع عنه

بظهرها كأنها تهرب من حقيقتها في عينيه!!

تتوجه نحو غرفتها بخطوات شبه راکضة لتتناول

حقيبتها ..

تعلم أن بكاءها قد أفسد زينتها وأنها الآن أشبه بدمية

ملطخة خاصةً أنها تستخدم الكثير من مساحيق

التجميل الآن كي تخفي ما تبقى من أثر كدمات تلك

الليلة الكارثية ..

تعلم أن دموعها تركت بقعها فوق "وشاحها

المقدس" ..

تعلم أنها في طريقها الآن للخروج حيث ستتلقفها

نظرات الناس ..

لكن .. لا بأس .. لا بأس!

تنازلٌ خلف تنازل!!

تستقل سيارتها لتغطي عينيها بنظارة شمس كبيرة ..

ساعتها ذات الماركة الشهيرة كانت قد سقطت منها

بالأمس لينكسر زجاجها لكنها بقيت ترتديها هكذا ..

ترى السائس يمسح لها زجاج سيارتها بإهمال بهذه

الفوطة المتسخة فلا تعنفه كالعادة ..

تسمع رنين هاتفها برقم ضابط الشرطة الذي يتابع

التحقيق بشأن ذاك البلطجي :

لم نتوصل لشيء! واثقة أنك لا تعرفين هوية من

هاجمك؟! سنضطر لتقييد الحادث ضد مجهول!

_ لا .. لا أعرفه !!

بالكاد تلفظها مع خيط الدموع الرفيع الذي يتدفق
متجدداً فوق خديها ..

لن تقول شيئاً ! لن تتهم أحداً !! بل إنها طلبت من
إيهاب أن يوازرها في هذا فاستجاب!

هل هو خوفها من ذاك المجرم !؟

أم هو خوفها من أن يتحدث الناس أنها كانت مخطوبة
لبلطجي يلاحقها شقيقه !؟

الناس !! هل عاد هناك ما تتركه لكلام الناس !؟

هاهي ذي لا تزال تهوي في بحر

التنازلات !!

اتصالاً آخر يجعلها تمسح خيط دموعها وهي تفتحه

لتهتف بتماسك مصطنع:

_ أنا بخير يا رؤى! لا .. لن أرد على هيام .. ولو

ضغطتم عليّ فسأحظر رقمك أنتِ

الأخرى .. اطمئني .. اطمئنوا جميعاً .. أخبريها أنني في

طريقي للزواج كما كانت ترغب لأكون في كنف رجل

يحميني .. فقط عندما يستعيد المزيد من عافيته !

تلقيا متتابعة دون فواصل كواجب ثقيل تزيحه من

على كتفيها لكنها تفاجأ بالصوت الرجولي الخشن :

_ أنا راغب يا عزة!

الصوت المألوف يلهب صدرها بسياط الذكرى ..

يدفعها لأن تهوي وتهوي أكثر ..

تتذكر قبلته اليتيمة لها ليلة زفافهما .. تتذكر قميصها

الأبيض الذي بقيت تنتظره به في غرفتهما بينما كان

هو قد فر ليلحق بامرأة قلبه ..

تتذكر اعترافه الذي سمعته لرؤى في المشفى أنه لن
يظلمها وإن بقيت وزراً
ثقيلاً على كاهله ..

تتذكر زيجة مع إيقاف التنفيذ لن تنسى مرارتها ما
عاشت !!

_ أنا حاولت اللحاق بذاك الوغد كي آخذ حقك لكن
الجبان سافر وفرّ بفعلته ! لماذا لم تخبري الشرطة
بحقيقته !؟

_ لا تتدخل في الأمر ! لم أعد تلك الضعيفة التي تبحث
عن ركن تأوي إليه .. تلك التي تزوجتها أنت يوماً
بدافع المروءة والشهامة .. الآن صرت أستطيع تولي
أموري وحدي .

تحدث ببرود آلي يناقض هذا السيل من الدموع الذي
أغرق وجهها وهي تغلق الاتصال دون انتظار رده ..
تستند بوجهها على مقود السيارة وهي تخلع نظارتها
لتحاول استجماع قوتها قبل أن تذهب في رحلتها
اليومية لبیت إيهاب حيث تطمئن على أدائه لبرنامج
إعادة التأهيل البدني الضروري له بعد الحادث ..
هذا الذي خضع له بعد أيام قليلة من الجراحة بدايةً
ببعض التمارين البسيطة التي يمكنه بها الاستلقاء أو
الجلوس .. مروراً بتشجيعه على التحرك باستخدام
كرسي متحرك .. تمهيداً لاستخدام طرف اصطناعي في
الأسابيع القادمة .

ترفع رأسها أخيراً لتعاود ارتداء نظارتها فتصطمم
عيناها بمظهرها الرهيب في مرآة السيارة ..

هل هذه أنا ؟!

لا تريد الانخراط في مأساة جواب السؤال !
المزيد من الهويّ في بحر تنازلات تراه يبتلعها أكثر
وأكثر!!

تتحرك بسيارتها نحو بيته ..تتوقف لتبتاع له بعض
الهدايا ..قميصاً بلون أبيض تعلم أنه ذوقه ..سماعات
أذن بلا أسلاك عالية الجودة تظنه يحتاجها ..وبعض
المكسرات التي تعلم أنه يحبها مع شيكولاتة "دارك"
منخفضة السعرات ! ما يناسب نظام الحمية الذي
خضع له اضطرارياً بعد الحادث كي يتحرك بصورة
أفضل!

ترن جرس البيت لتفتح لها خديجة - أمه - بهذه النظرة
التي لا تفارقها نحوها بين توجس وامتنان .. كأنما
تدرك أن هلاك ابنها ونجاته يرتبط بهذه المرأة !
يتبادلان تحية تقليدية لتغلق عزة الباب خلفها متهيئة
لارتداء قناعها اليومي أمامه ..

لكن خديجة تنتحي بها جانباً لتهمس لها بنبرتها
الصارمة التي اكتسبتها من عملها ك-مديرة مدرسة-
والتي يتخللها الآن طيف رجاء:

لو انسحبتِ الآن فلن يلومك أحد .. إنما لو تركته

بعدما منحته الأمل فستقتلينه حياً .. اصدقيني

القول .. هل تريدان الاستمرار حقاً ؟!

تغمض عينيها بألم وابتسامة ساخرة تعصف

بروحها !!

هل لديها فعلاً حق الاختيار!!

هو اشتراها بأعلى ثمن يمكن أن يدفعه فبأي حق

تعود هي في البيعة!؟

_خطيبك!؟ هل تعينها حقاً يا عزة!؟ أم أنكِ تظنين

نفسكِ مدينةً لي بعدما كان!؟

_سأبقى مدينةً لك طوال عمري يا إيهاب، لكن لا

علاقة لهذا بقبولي الزواج منك.. ليلة الحادث كنت

سأخبرك بقراري..كنت سأخبرك أنني أحبك..وأريد

الزواج منك! والآن لا أريد الزواج منك فقط لأنني

أحبك..بل لكي تحميني..أنا التي أحتاجك الآن وليس

العكس!

تتذكر كذبتها تلك والتي واجهته بها ذاك اليوم في

المشفى لتعيش بها ولها طوال

الأيام السابقة ..

والتي ستبقى تعيش بها معه !

لا خيار!!

هو طوقها بهذا القيد الذي لن يمكنها الخلاص منه

العمر كله !!

لماذا أنتِ صامتة؟! لو أردتِ الانسحاب اخرجي الآن

وأنا سأتولى شأن ابني ..لن أسمح لك أن ترتبني به

فقط بداعي الشفقة !

أنا ..أحبه !!

تقولها بنفس "الآلية" التي برمجت بها نفسها طوال

الأيام السابقة ..فتعاود خديجة سؤالها :

_ واثقة ؟!

_ بلا شك !

تتنهد الأم بحرارة وهي ترفع رأسها لأعلى في وجه
الدعاء قبل أن تتوجه معها نحو غرفة إيهاب .. تطرق
الباب لتدخل ..

_ خوخة !!

يهتف بها إيهاب بمرحه الظاهر وهو يفتح لها ذراعيه
فتغمض عينيها الدامعتين وقلب الأم داخلها يتمنى لو
كانت مكانه وسلم هو ..

بينما يردف هو بنفس المرح مخاطباً عزة :

_ حبيبتي! في موعدك ككل يوم !

تغتصب عزة ضحكتها "الآلية" وهي تتوجه نحوه
لتصافحه فتشعر بكفيه يتشبثان بها بهذه الطريقة التي
كانت لتشعرها بالدفء في أي موضع آخر ..
لكنها الآن تشعر بهما قيلاً فوق قيد !!
_ ساعد لك العصير .

تهتف بها الأم مخاطبة عزة بهذا التوجس الراجي
ليتهف إيهاب بمرحه المعهود :

_ عذبوا "المسكين" المحروم من هذه
الأشياء! ليس هكذا! ارحموا عزيز قوم "خسّ"!
يقول عبارته الأخيرة مشيراً لفقدانه وزنه فتهتف عزة
بسرعة :

_ سأشربه دون سكر .. مثلك .. تعلم أنني أحبه كذلك .

يرمقها بنظرة غريبة وشفتهاه تنفرجان كأنه على وشك

قول شئى تراجع عنه ..

بينما ترمقهما الأم بنفس النظرة الوجلة قبل أن

تتحرك لتغادر ..

_ انظر ماذا أحضرت لك!؟

تهتف بها عزة بنفس المرح الآلي وهي تسحب كرسيّاً

لتجلس جواره رافعة أكياسها .. لكنه يضعها جانباً قبل

أن يقترب منها بجذعه .. أنامله تتحسس وجهها برقة

وعيناه "المقتعتان" بمرحه الظاهر تتفحصان

ملامحها ..

_ لم يزل أثر الكدمات تماماً ..

تهمس بها هي بارتباك هاربةً من لقاء عينيه لكنه
يتحاشى الحديث عن الأمر .. تماماً كما يتحاشى ذكر
ليلة الحادث تماماً ..

_ كنتِ تبكين!؟

_ لا!

_ عزة!

يهمس بها عاتباً بحنوّ بهذه النبرة الخبيرة لصديق
قديم صارت حقاً تفتقده وسط الحرب الباردة التي
تعيشها هذه ..

فتتهار مقاومتها وهي تخفي وجهها بين كفيها لتشعر
به يضمها بذراعه نحوه ..

منذ أعلنت له موافقتها على خطبتهما وهي تشعر بأنه
يجب ضمها بهذه الطريقة القوية .. يجب مصافحتها

بهذا التشبث الغريب .. كأنه يخشى أن تنفلت من بين

ذراعيه !

عناقه لها كان ليبدو لها أكثر حميمية في وقت آخر

لكنها الآن صارت تراه سجنأً من نار !!

_ ماذا يورقك؟! أنا؟!!

يهمس بها بحنوٍ مشيراً لصدره لترفع إليه عينيها

فيردف بنفس المرح الظاهر:

_ أنا بألف خير .. الجرح اقترب من التماثل

للشفاء .. هأنذا في طريقي للعمل على برنامج تمارين

مع أخصائي العلاج الطبيعي في صالة الألعاب

الرياضية لمساعدتي على الحفاظ على حركتي وقوتي

العضلية .. فقدت بعض الوزن وأتھياً للمزيد .. وقريباً

أستخدم ساقاً اصطناعية فلا أشعر بفارق .. ربما

سأحتاج بعض الوقت للتأقلم لكن لا بأس ..حتى عملي
الذي خسرتة في الشركة سأعوضه ..صديق لي في
إحدى شركات قطاع العام أخبرني أنه يمكنني تسلم
بعض الأعمال الإدارية .

تتسع عيناها ببعض الدهشة من هذه البساطة التي
يتحدث بها عن الأمر ..

لقد كانت تخشى عليه هذه الفترة الاكتئابية التي
يحكون عنها عقب ظروف كهذه ..

لكنه يخالف كل ظنونها بهذه البساطة المرححة التي
يتقبل بها الأمر ..

بل إنه يتجاهل الحديث عن تلك الليلة المشنومة تماماً
مكتفياً بمزاحه المعهود ..

تراه يتعمد هذا كي لا يثير المزيد من شجون أمه

وشجونها ؟!

كي لا يشعرها بالمزيد من الذنب ؟!

أم أنه لا يزال في مرحلة إنكاره للصدمة !!

أم هي طبيعته المتجاهلة لعيوبه والمتصالحة مع ذاته

!؟

لو تعلمين كم أحب عينيكِ عندما تتسعان بهذه

الطريقة .. تبدين لي كطفلة لازالت تخشى عبور

الطريق وحدها وتنتظر يدي كي تمنحها الأمان !

يهمس بها بعمق عاطفته وهو يرفع كفها نحو شفثيه

بقبلات متتابعة فتسحبه منه بسرعة لتغير الموضوع

هاتفة بمرحها

"الآلي":

_ أنظر ماذا أحضرت لك؟! قميصاً بلونك المفضل ..

تقولها وهي تفرده له فوق صدره ..

ثم تستخرج سماعات الأذن وتلوح له بها بخفة قبل

أن تستخرج كيس المكسرات لتردف بنفس النبرة :

_ "الكاجو" الذي تحبه ! طبيبك سمح به في نظام

الحمية خاصتك .

_ شيكولاتة (dark) طعمها يعلم الفضيلة!

يهتف بها باشمئزاز فتهتف بنفس النبرة الآلية :

_ ستعتادها ! غداً يمكنك تناول كل ما تريده !

_ أنتِ كل ما أريد !

يهتف بها بنبرة امتزجت عاطفتها بمرحها فتغنيها عن

كل معاني شكره وامتنانه . لتغتصب نفس الضحكة

الآلية وهي تردّها له :

_ وأنت كل ما أريد !

_ تحبيني!

لم يكن يسأل بل كان يقولها بنبرة تقرير من لا يحتمل

الشك !!

_ أحبك!

تقولها بنبرتها الآلية التي وطنت نفسها عليها طيلة

الأيام السابقة ..

ويبدو أنها ستفعل لأيام طوال قادمة .. وربما لعمر

كامل !!

أنامله تمتد لتحتضن كفها البارد وهو يريح رأسها

على كتفه هامساً :

_ احكي لي كيف كان يومك !

تفرج شفتاها كأنما هي على وشك البوح كالسابق

لكنها تجد نفسها تبتلع كلماتها ..

هو فقد دوره القديم ك"صديق" منذ ليلة الحادث !!

لم يعد له الآن سوى دور الحبيب المزيف الذي

اختارته الظروف ورضيت هي به !

تنساب شفتاها بثرثرة "آلية" تروي له تفاصيل

عادية تكاد تتشابه كل يوم ..

فيما تتشبث أناملها الحرة بوشاح "قدس كمالها"

فوق صدرها ..

لتراه بعين خيالها ملطخاً بالبقع!

=====

_أراك غداً .

تهتف بها عزة بابتسامتها المرتجفة وهي تودعه لدى
الباب فيرمقها بنظرة طويلة غريبة قبل أن يطرق
بوجهه ..

وعلى عكس مرحة المعتاد تتسرب كلماته هذه المرة
متناقلة كأنه يعدها عدأً :

_ في كل مرة أودعك فيها خلف هذا الباب أخشى يوماً
لا تعودين فيه !

تعض شفتها السفلى بألم وهي تغمض عينيها على
دموعها الحبيسة ..

ثم تعاود فتحهما لتتحني على ركبتيها أمامه ..
تتناول كفه بين راحتيها .. تراه يرفع إليها عينيها
فتهرب منهما هامسة :

_ لن يأتي هذا اليوم أبداً .. ليس وفي صدري نفسٌ
يتردد .. ما بيننا لم يعد صداقة ولا حتى حباً .. كلانا
صار للآخر قدراً .. والمرء لا يهرب من قدره .

_ أنتِ أجمل أقداري!

يهمس بها وعيناه تشردان عنها في فراغ كبير لا يود
الاستسلام له ..

لكنها لا تعينه على مراده وهي تغتصب ابتسامة كبيرة
ألقتها على شفيتها مع قولها بمرح يشبه مرحة :
_ أرجو من سيادتك التعجيل بعقد القران .. سمعتي
صارت على المحك .

_ تريدن ذلك حقاً؟!!

يسألها بنفس النبرة المتثاقلة وكلاهما يهرب من لقاء
عيني الآخر لتتهف هي بنبرتها الآلية :

_بالطبع ! لماذا نتباطأ؟! بعد كل هذه السنوات لم تعد

مشاعرنا تحتاج لتأكيد !

هنا فقط يسمح لنظراته أن تعانق عينيها ..

أن تتلقف كل هذا الوجد الذي ينبض فيهما فيسأل

نفسه ..

هل هو له أم منه؟! أم تراهما معاً؟!!

_كن بخير! أنا فخورة بك لأن "الفاجومي" أثبت

للجميع أنه أقوى من كل شيء .

تقولها وهي تعاود الاستقامة بجسدها فتشعر بكفه

يتشبث بها بهذه الطريقة التي تثير شجونها .. لهذا لا

تسحب كفها منه قبل أن يقرر هو تركه ..

ابتسامته المرححة بظاهاها تودعها قبل أن يغلق الباب

بينهما ..

فيطلق أخيراً زفرة حارقة سامحاً لقناعه بالتشقق!!
يتحرك بكرسيه المتحرك نحو غرفة أمه المجاورة
فيراها عبر شق الباب -شبه المغلق- تؤدي صلاتها
وقد أطالت في سجودها ليدرك من اهتزاز جسدها
المرتجف أنها تبكي !

يعلم أنها عاداتها اليومية في الصلاة في هذا الوقت
والتي تطيلها لما يزيد عن الساعة فيدرك أنها فرصته
هو الآخر

للاختلاء بنفسه ..

يبتلع غصة حلقه وهو يعاود التحرك بكرسيه نحو
غرفته ..

يغلقها خلفه ثم يطرق برأسه ..

أنامله تمتد لطرف سرواله في موضع ساقه المبتورة
ليغمض عينيه على دمعة متحجرة قبل أن يعاود
فتحهما ليركزهما على تلك الخزانة السفلية هناك ..
يهز رأسه بقوة كأنه ينفذ عنه ثقل أفكار لا يحتملها
قبل أن يتوجه إليها ليفتحها ..

مجموعة من "شرائط الكاسيت" تراصت فوق
بعضها ..

بعضها قديم وبعضها حديث ..

كلها بصوته !!

_"استرجل" يا ولد ! تسجل لي "شرائط كاسيت"؟!!"

ماذا تركت للفتيات المائعات يا إيهاب؟!!"

بصوت إياد العاتب -دوماً- يسمعها كذاك

اليوم ..فتجتاحه الذكرى:

قل الصدق ! لم تعجبك الفكرة يا إياد ؟! لم تؤنسك
في ليالي الخدمة الطويلة في "الجيش"؟!
ابتسامه إياد الصامته -دوماً- تحمل له امتنانه الكتوم
حتى وهو يهتف بخشونة نبرته المعهودة :
لا تكرر ها! جعلتني سخرية زملاء في الكتيبة !
لكنه كان يعلم أنها دعوة صامته له أن يكررها .. أن
يرسل له بصوته كل أخبار العائلة التي تفوته ..
شجارات "ست الناظرة" في المدرسة مع المعلمين
والطالبات ..

مكافحة أبيه للتدخين كي لا تتأثر رئتاه أكثر مع
مرضه الأخير الذي كان سبب موته بعدها .. آخر
مغامرات إيهاب العاطفية مع زميلة دراسته ..

وأخيراً ما يعلم أنه يهّمه بشكل خاص .. ابنة عمه-هو-

"ورد"!

لهذا كان يكررها حتى صارت علامة فارقة في
تاريخهما الأخويّ الذي كتب له القدر أن يكون متأخراً
بحكم كونهما أخين غير شقيقين ..

_تراه ذنبك يا إياد؟! رده لي القدر في مصابي؟!!

تراك لم تغفر لي بعد كل هذه السنوات؟!!

يقولها بخفوت بصوته الذي غاب عنه الآن كل أثر

للمرح المصطنع بعدما وضع أحد

الأشرطة الفارغة في مكانه بهذا الجهاز القديم

ليسجل له شريطاً جديداً لا يعلم متى سيسمعه ..

لكنه يود متى عاد أن يخبره بتلك التفاصيل التي

فاتته ..

أن يشعره أنه لم ينسَ ولن يفعل !
أن يطلب منه سماحاً لا يثق أنه يستحقه رغم مرور
كل هذه السنوات !!
_ ماذا أقول ؟! تراني أخفي عنك كما أفعل مع الجميع
هنا ؟! لا .. لن أفعل .. ربما لأنني أستحق أن أنزف
وجعي أمامك لعلك تصفح .. وربما لأنني - رغم ما كل
ما كان بيننا - لازلت أعتبرك قدوتي وصديقي لا أخي
الأكبر فحسب! .. لعنتك لا تزال تطاردني يا أخي .. كنت
أشعر أن القدر العادل لن يمنحني سعادة بحبٍ حرمتك
أنا منه .. هاقد صرت رجلاً عاجزاً لا يستجلب إلا
مشاعر الشفقة ممن حوله ! فهل يكفيك هذا كي
تصفح ؟! كي تعود ؟!

دمعة وجع يحتجزها جفناه وهو يستعيد ملامح أخاه

الغائب ..

والذي يستحضر صورته كل مرة بهذه الطريقة ..

يعلم أن شرائط الكاسيت الفارغة هذه قد بطلت

"موضتها" لكنه يشعر أن مدلولها بينهما لم ولن

يزول أثره ..

أو هكذا يظن!!

_ ماذا تريد أن تعرف؟! عن أمي؟! لا تزال خديجة

"الصلبة" - كما كان يحلو لك تسميتها- وخوخة

"الحنون" - كما كنت أفضل أنا أن أصفها- .. تتعامل

مع مصابي بلوعة "أم" و حزم "قائدة" .. تظهر

انخداعها بهذا المرح الذي أدعيه لكنها

تشعر ..كعدها تشعر بنا ..لا تظنها تحبني أكثر منك
كما كنتَ دوماً تزعم ..رحيلك فجع قلبها ..وأخشى أن
يزيد مصابي ثقل الحمل على كتفيها ..أن يهدم ما
تبقى من جدار تماسكها ..لهذا سأبقى أظاهر رغم
يقيني أنها لا تصدق ..

الدمعة المحتجزة تتحرر أخيراً لتبلل وجنته فيمسحها
بسرعة وأنامله تتلمس موضع ساقه المبتورة فوق
سرواله ..بينما يستطرد بنفس الخفوت:

عزة؟! هل ستصفني بالأنانية -كما اتهمتني في آخر
لقاء بيننا منذ سنوات- لو علمت أنني رضيت ببقائها
معي؟! هل سيدور في بالك أنني أريد احتجازها في
سجني ثمناً لما فقدته لأجلها؟! هل تظنها تبقى معي

فقط امتناناً وشفقة؟! لا ..! هي تحبني .. تحبني ولو

لم تكن تعلم ! تحبني لأنها لا يمكنها ألا تفعل!!

يزداد صوته انفعالاً في كلماته الأخيرة قبل أن تخنقه

غصته وهو يستطرد بنفس الحرارة :

_ أنت لن تفهم! لن تفهم ما لم تجرب ما أنا فيه !! أنا

عرضت عليها أن ترحل .. أن تتركني لمصيري .. لكنها

تشبثت بي .. كيف أبعداها؟! كيف وأنا أكثر من يعلم

أنها تحتاجني كما أحتاجها .. أنها تحبني كما

أحبها .. أنها خلف كل هذا الضباب الذي يشوش

تفكيرها لن تجد أمانها إلا معي .. ليس شفقة يا

إياد .. حب .. حب .. حب!!

يعلو بها صوته أكثر كأنه يغرسها في أرض يقينه

أكثر وأكثر!!

كيف بعد كل هذا أتركها؟! لمن؟! لمن؟! من أحق
بها مني؟! من سيحبها مثلي؟! لييتي كنت بمثل قوتك
عندما قررت أن تترك كل شيء خلفك وتسافر! لييتي
كنت أقوى على إبعادها وهي تتشبث بي بهذه

القوة.. هي نفسها لا تعلم كم تحبني.. تسجن نفسها
داخل فكرة الخوف من الارتباط.. كما عشت أنا نفسي
طوال هذا العمر بعد رحيلك.. فلماذا لا يكون كلانا حلاً
لرباط صاحبه من هذه الفكرة!؟!

يصمت قليلاً وعقله يغيب في شروذ قصير.. لا يفكر
قبل أن يتحدث.. ولا يعنيه أن تكون جملة
مترابطة.. ما يعنيه أن تكون صادقة كي يشعر بها
أخوه عندما يعود.. حتماً سيعود!!

لن أفكر! لا أريد أن أفكر! "الفاجومي" الذي يعرفه
الناس سيبقى كما هو ..لن أتذكر الحادث ..لن أتذكر
ما فقدت وما سأفقد ..لن أكثرث لنظرات تنقص من
شأني ..أنا لازلت أنا ..لم يتغير شيء ..لم يتغير
شيء ..يجب أن أقتنع أنا كي أقنعهم ..يجب أن
أحتمل ..

يقطع عبارته بأهة ألم وهو يصمت للحظة ليردف:
_ شيء واحد لن أحتمله ..نظرة شماتة في
عينيك ..أنت بالذات ..لا تفعلها بي يا أخي! لا تفعلها
وإن كنت أستحقها !!
حروفه تنقطع بخيط رفيع من الدمع سال على وجنته
وهو يوقف التسجيل عند هذا الحد ..

يضع الشريط مكانه مع أشباهه ثم يغلق الخزانة
ليتحرك بكرسيه نحو الجوار حيث هدية عزة ..
القميص الأبيض الذي دارت عليه أنامله وهو يهمس
لها كأنها تسمعه :

_سامحيني إن جعلتك رهاني الأخير ولو لم أكن
رهانك الأفضل .. ما في قلبينا يستحق المقامرة !
وخلف الباب المغلق كانت خديجة تقف تسترق السمع
ووجهها غارق في بحر من الدموع ..
يحسبها غافلة عما يفعله كل يوم وقلبها
الأعلم بعذاب ابنها - بل ابنيها - يكاد يئن بثقل وزره ..
لا تدري هل ستكون عزة هذه مكافأة القدر له .. أم

عقابه !!

=====

أحمر



يسرا الصباحي تبيع خبز وترتدي ثياب الفلاحات !
بسخرية مريرة متمرة تنطقها وهي تتفقد شكلها أمام
مرآة غرفتها التي تتشاركها مع هبة .. هبة التي
غادرتها منذ دقائق فقط لتلحق بموعدها في
الجامعة .. فيما تبقى هي هنا لتعمل في "فرن"!
أي هراء هذا الذي تلقين نفسك فيه يا امرأة ؟!
بل أي لعبة ؟!

تفتقد عملها بالمحل حيث ترى
الأطفال .. تلبسهم ثيابهم .. تشم رائحتهم عن
قرب .. قبل أن يرحلوا !
لماذا تخلت عن هذا ؟!

لماذا حادت عن قواعد اللعبة؟!؟

تراها سعيدة حقاً بهذه الارتجالية؟!؟

افتقدت أمها!!

افتقدت نظرتها الحانية وهي تذكرها .. لا هذه المشتتة

الزائغة وهي لا تميز حضورها!!

تبا! لماذا تبدأ يومها بهذه السلبية؟!؟

كل شيء سيكون على مايرام .. اللعبة تتخذ منحني

أغرب فمرحباً بالمزيد من التشويق .

تتفقد صورتها للمرة الأخيرة في المرآة .. قميصها

الأحمر المحتشم بكمية الطويلين واتساعه الذي يعجز

عن مداراة مفاتها ..

تنورتها الطويلة من الجينز الرخيص .. صندل قدميها

الذي تبدو منه بشرتها الناعمة ..

وأخيراً وشاح رأسها بلونه الكحلي القاتم الذي يتحدى
نصاعة بشرتها الصافية ويحدد ملامح وجهها الخالي
من الأصباغ .

الغريب أنها في هذه اللحظة لم ترَ نفسها تشبه
سمرا .. ولا حتى يسرا ..

كانت تشعر وكأنها امرأة أخرى ولدت من جديد عندما
دخلت هذا الحي!
(مستر ربيع)!

تبتسم عفويًا وهي تذكر ملامح الرجل الطيبة .. كلماته
التي تمزج حنانه بحزمه .. مسبحته البيضاء التي
تنافس شيب لحيته .. وعناقه - لإبراهيم- الذي تود لو
تجرب مذاقه !

_مخبولة! لم أعرفك يوماً تميلين للعجائز!

تتهر بها نفسها سراً وهي تضبط حالها بهذه اللفظة
للقاء ربيع ..ربما بأكثر من لهفتها لإتمام لعبتها مع

إبراهيم !!

تغادر الشقة لتغلق بابها خلفها فيداعب عينيها ضوء
الصباح ..

تتهد باستمتاع حقيقي وهي تشعر بحميمية ضوء
الشمس هنا تختلف تماماً عن قسوة صفعه إياها
عندما كانت تستيقظ وهي "يسرا"!!

ربما لهذا كانت تعشق الليل أكثر ..كانت تراه يليق
بسواد باطنها ..يالله ! لا تريد أن تتذكر ..فلتسن!
فلتسن!!

تبتسم ابتسامة حقيقية وهي تتفحص السطح النظيف
حولها والذي جعلته هبة رائعاً بهذه الزهور التي

زرعتها في أوص متجاوزة بألوان متباينة
زهري .. أحمر .. برتقالي .. أصفر .. سماوي .. بنفسجي ..
أبيض .. كأنها قوس قزح !

تمد أناملها فوقها بخفة تتحسس نعومة بتلاتها لتتسع
ابتسامتها وهي تذكر ملمساً مشابهاً ..

وجنة ابنها الممتلئة التي كان يحلو لها تقبيلها !!
ابتسامتها تستحيل لدمعة كبيرة تغمض عليها عينيها
لكنها تعاود فتحهما وهي تتحرك نحو السور ترقب
الشارع القديم من أعلى ..

تلك المباني الأثرية التي بدت لها من بعيد لتمنحها
شعوراً بالعراقة ..

والتي امتزجت ببعض البيوت حديثة الطراز التي لم
تحب تدخلها في هذه اللوحة العتيقة !!

ترى من مكانها ربيع وقد وقف خارج الفرن الذي هو
أسفل بيتها مباشرة فتشقق بلهفة وهي تكاد تركض
لتهبط الدرج نحو الأسفل حيث الفرن ..

_ صباح الخير يا (مستر ربيع)!

تقولها بود لا تدعيه وهي تتوجه نحو الرجل الذي
تفحصها بنظراته الخبيثة ليرد بنبرته الحنون :

_ صباح الخير يا ابنتي! كيف حالك اليوم؟!!

_ بألف خير!

تقولها بدلال تجيده فيبتسم وهو يشير لها نحو الداخل
كي تتبعه ..

تجفل لأول لحظة وهي تشعر بحرارة المكان من

الداخل تكاد تصفعا لأول وهلة ..

فتهتف باستنكار:



_ لا "مكيف هواء" هنا؟!!

لكنه يضحك باستمتاع وهو يتخذ مقعده فوق الكرسي

العالي في ركن المحل ليقول بمكر:

_ ظننتك من الكادحين الذين يعتبرون حرارة الجو

أهون مشاكلهم!

_ أنا كذلك! فقط.. اعتدت.. المحل الذي كنت أعمل فيه

كان دوماً مكيفاً.. تعلم أن الواحد يتأقلم مع ظروف

المكان الذي هو فيه!

تقولها ببعض الارتباك الذي تحاول مداراته

بابتسامتها قبل أن تدور ببصرها في المكان الذي بدا

لها شديد التواضع.. شديد الحر.. شديد القدم..

فتشعر ببعض الضيق لكن لا بأس! اللعبة تستحق!!

_ ماذا سأعمل هنا؟!!

_ تتناولين "صاجات" الخبز من العمال بالداخل
تباعاً ..تنتظرين حتى يبرد ..ثم تعبئينه في
الأكياس ..وتبيعينه للزبائن .

_ كل هذا وحدي؟!!

_ كل هذا ..وبسرعة ..كي لا ينتظر الزبائن طويلاً!
استنكارها يقابل حزمه الذي لان قليلاً وهو يردف:
_ للأسف نعاني نقصاً في العمالة ..إبراهيم كان يقوم
بهذا طيلة الأيام السابقة لكنه هو الآخر له عمله ولا
أريد أن أعطله !

تهز رأسها بطاعة ظاهرة وهي تحاول تجاهل
شعورها بالحر الشديد بينما تدلف للداخل قليلاً ..
تتناول "الصاج" الأول للخبز فيكاد يسقط منها لكنها
تتشبث به ف..ينكسر ظفرها!!!

تزفر بسخط وهي تضعه مكانه ..تحاول لمس الخبز
فتلسعها حرارته ..العرق الغزير تشعر به يغرق
ظهرها ويسري مدغداً تحت ملابسها ..
تسمع الزبائن وقد بدأوا يتوافدون فتعبي الخبز الذي
برد قليلاً بسرعة في
الأكياس محاولة تنفيذ طلباتهم بسرعة ..
تتحرك كالنحلة التي لا تكل وهي تشعر أن الأمر ليس
بهذه السهولة التي كانت تتوقعها ..
تباً ! ظفر آخر ينكسر!!
لو بقي الحال هكذا فستفقد أظافرها كلها!!
_بجنيه واحد يا "روبانزل"
تهتف بها تلك الفتاة التي بدت في الثامنة عشرة من
عمرها تقربياً وهي تمد لها بالنقود ..

كانت حركة البيع قد هدأت نسبياً لتبتسم يسراً عفويّاً

ببعض الارتياح وهي تسألها:

_ روبانزل؟!!

_ لا تعرفين روبانزل؟! لا تشاهدين الـ"كارتون"؟!!

إنها تلك الطفلة ذات الشعر الأشقر الطويل التي هربت

من بيتها لتستكشف العالم .

_ وكيف عرفتِ أن شعري أشقر؟!!

تسألها بتعجب فتشير الفتاة بعينيها نحو وشاح يسراً

الذي تهاوى لتظهر خلفه

خصلات شعرها مشعثة متعركة وقد التصقت بجبينها

كما رأتها في مرآة قريبة ..بل جزء من مرآة مكسورة

لو صح التعبير كانت معلقة على الحائط الذي تلوث

أعلاه بـ"هَبَابِ الفَرْنِ" !

_ياالقرف! يالقرف!!

تهتف بها لنفسها وحاجباها ينعقدان لوهلة باشمنزاز
من كل هذا الوضع الذي تحياه ..تود الآن لو تزيح هذا
الوشاح بل تخلع ملابسها كاملة لتغتسل ..بل لا ..لن
يكفيها مجرد اغتسال ..هي تحتاج الذهاب إلى (spa)
حيث تترك جسدها لبخار "الساونا" وأنامل

"ماساج" خبيرة تزيح عن جسدها هذا تعب ..

_عندما ترتدين حجابك فاربطيه جيداً بدبوس مثلي
كي لا يتهاوى ..هذا لو كنتِ ترتدينه عن اقتناع كما

كان يعلمنا إبراهيم في الدرس!

ذكر إبراهيم يدفعها للاهتمام قليلاً فتحكم ربط وشاحها
مدارية خصلات شعرها وهي تسأل الفتاة باهتمام :

_هل يعطي إبراهيم دروس؟!!

تلقت بنظرة مختلصة نحو ربيع الذي بدا منهمكاً مع
العمال بالداخل قبل أن تصلها إجابة الفتاة العفوية:
كل جمعة ! يعطي "الصبيان" دروساً في المسجد
ونسلمها نحن الفتيات من خلف الستار ..نحن نحبه
لأنه يفهمنا الأمور ببساطة دون تعقيد ..يكافئنا لو
أحسننا ولا يقسو علينا لو قصرنا ..

ينعقد حاجبا يسرا باهتمام وهي تشعر أن ثمة شيئاً ما
خطأ في حساباتها ..

لو كان إبراهيم بهذه التقوى وحسن العبادة فكيف
يرتبط بامرأة متزوجة ويضع لها هذه الصورة وقد

وقفنا متعانقين بنظرة حب !؟

تراه يخدعهم !؟

وما العجب ألم تفعلها هي مثله !؟

كلاهما إذن مراوغ يختفي خلف واجهة خادعة أو كما

يقولون :

"مفیش حد أحسن من حدّ"!

أفكارها المشتتة تتركز تماماً وهي ترى الطفل الصغير

الذي وقف جوار الفتاة يتعلق بجلابها فتناوله رغيفاً

يأكله بنهم وهو يرمق يسرا بعينيه الواسعتين ..

في ظروف أخرى لربما كانت تشعر

بالمزيد من الاشمئزاز من ثياب الطفل البالية .. شعره

الأشعث .. ووجهه الذي تفترشه قسوة الفقر قبل

الحزن ..

لكنها الآن لم تكن تبصر سوى عينين بسعة

السماء .. ذكرتها بالغالي الراحل ..

_أخي سامي..ليس لأحدنا سوى الآخر بعدما توفي
أبوانا ..أنا صاحبة هذا "الكشك" على
الناصية .."مستر ربيع" جزاه الله خيراً ساعدنا في
فتحه .."نفعينا" واشتري منّا ..صباحك "عنب"!

تهتف بها الفتاة وهي تتحدث بهذه الطريقة السريعة
بينما ظلت عينا يسرا على تعلقهما بعيني الصغير ..
فلم تشعر بنفسها إلا وهي ترفعه بين ذراعيها أمام
ذاك الحوض هناك ..تغسل له وجهه وشعره
ويديه ..ثم تحضر له المزيد من الطعام ..تعانقه
بقوة ..تغمض عينيها تتشمم رائحة شعره ..الرائحة
التي تتشابه مهما اختلفت الوجوه ..رائحة البراءة
النقية التي صارت أبعد ما تكون عن عالمها !

يعجبك سامي؟! البنت "سندس" أكلت "دماغك"؟!
يقولها ربيع وعيناه الخبيرتان تتفحصانها بتمعن
يناقض هذا المرح الحنون الذي كان يتحدث به ..
أبدأ والله يا "مستر ربيع"! هي التي حملته من
نفسها! الولد سامي هذا محظوظ! رزقه في القبول!
لا يراه أحد

إلا يحبه!! ربنا كريم عالم بحالنا!
كفي عن الثرثرة ودعيها لعملها!
يهتف بها ربيع بحزمه الرؤوف وهو يتناول سامي
الصغير من بين ذراعي يسرا التي بدت له في هذه
اللحظة كأنها أسيرة عالم آخر.. والحقيقة أنها كانت
حقاً كذلك!!

يشعر بذراعيها يتشبثان بالصغير قليلاً كأنها لا تريد
إفلاته لكنها تعود لو عيها فتبتسم ابتسامة مصطنعة
وهي تواجه الفتاة بقولها :

لطيفة "سندس"!

ستريني هنا كل يوم! وسأنتظرِكَ في "الكشك" ..لا

داعي لأن تأتي بنفسك ، أرسلني أحدهم بما

تريدين .. شيكولاتة .. عصير .. بسكويت .. عندي أيضاً

مستحضرات تجميل سعرها "مهاود" .. لو تحبين

المستورد لديّ زبدة كاكاو "رائعة تستحق شفطيكِ

الحلوتين هاتين !!

تهتف بها الفتاة بنفس الطريقة السريعة وهي تحمل

أخاها لتخرج به من المحل بينما بقيت عينا يسرا

معلقتين به وهي تتحرك خلفهما كالمسحورة تراقب

سندس وهي تضع الصغير على كرسي جوار الكشك
البسيط قبل أن تلوح لها بكفها ..

_سبحان من هذا قضاؤه ! أبوها كان يتمنى طوال
عمره أن يكون له ولد وعندما رزقه الله بالولد توفي
مع أمهما وتركاه لسندس .. تخيلي مراهقة في
السادسة عشرة من عمرها تضطر لتحمل هم طفل
رضيع هو كل من تبقى لها من عائلتها ..كلنا وقفنا
معها لكن تبقى مرارة اليتيم لا تمحوها حلاوة بعدها !
يزداد تكاثف الدموع في عينيها وهي تود لو تصرخ
به أنها جربتها ..

جربت مرارة اليتيم هذه حتى عندما كان أبوها على قيد
الحياة ..

جربتها في كل موقف احتاجته فيه فلم تجد سوى

خوفها من قسوته يحول بينهما!

جربتها في كل مرة قالت له فيها "نعم" وهي تقصد

"لا" .. فلم يفهما!!

جربتها في كل ألم كانت تخفيه كي لا يحملها

مسئوليته !!

أجل! يتيمة الأب عاشت هي منذ سنوات توازي

عمرها فلم تشكل "شهادة وفاته" أي فارق ..

بل إنها تعترف .. أراحتها!!

_ الحرافيش وصلوا ! هذا ما كنت أخشاه !

يتمتم بها ربيع لنفسه ببعض المكر وهو يرى أبناء

أخيه يدخلون تباعا عبر مدخل "الفرن" ..

فيهدف بهم بغلظة :

_ لماذا استيقظتم مبكرا؟! لا تصحون في العادة قبل

العصر وعندما تكل يدي من الطرق على بابكم !

_ لم ننم أصلا!

يقولها أحدهم وعيناه معلقتان بيسرا التي تجاهلت

نظراته وهي تجد نفسها تقترب عفويا من ربيع كأنها

تنشد أمانا معه ..

_ سمرا!

يقولها ربيع معرفا أياها ليهتف كبيرهم بلهفة عابثة :

_ وهل يخفى القمر؟!!

ثم يشير نحو صدره وأخويه تباعا ليكمل التعارف:

_ قيس .. عنتر .. روميو !

تكنم ضحكها بكفها تفاعلا مع اسمائهم الغريبة بينما
يزفر ربيع بسخط وهو يسمع ابن أخيه يستطرد
بنبرته العابثة:

_أبي كان شديد الرومانسية لهذا اختار لنا هذه
الأسماء ..الحب في عائلتنا وراثه .. يجري في دمنا ..
لم يكد يتم عبارته حتى تأوه بقوة وهو يفاجأ بقبضة
ابراهيم تهوي على مؤخرة رأسه من الخلف ليبدو
وكأنه ظهر فجأة من العدم :

_ لا داعي لسيرة "الدم" هذه! تفتح شهيتي لأشياء
كثيرة لن ترضيك !

تحرر يسرا ضحكها هذه المرة وهي تشعر بارتباك
غريب من ظهوره ..ارتباك لا تدري مبعثه الأمان أم
الخوف!

ارتباك يجعلها لا إرادياً تقترب من ربيع الذي كان
يضحك هاتفاً بخشونة مصطنعة:

ستحولون "الفرن" إلى سيرك؟! ماذا تريدون؟!
يقولوها مشيراً لقيس -كبير الحرافيش- الذي كان
لا يزال يتحسس مؤخرة عنقه موضع ضربة إبراهيم
الذي بقي واقفاً مكانه ..

عيناه تهجران النظر نحو "الرامية القرمزية" ..إنما
يشعر أن قلبه بأكمله يطيل النظر!!
نريد خبزاً طازجاً! جوعى! يرضيك يا عمي أن
نبقى جوعى!؟!

يهتف بها قيس بنبرته العابثة لتصله زمجرة إبراهيم
المهددة فيردف بسرعة :

_ ثلاثون رغيماً فقط ونرحل!

_ ثلاثون رغيماً؟! ستفطرون بثلاثين رغيماً؟!

يهتف بها ربيع باستنكار ليرد عنتر هذه المرة بلهفة:

_ لو لم تكن الكمية جاهزة نجلس هنا ننتظر!

_ ستجلسون هنا فعلاً!

_ حقاً يا عمي؟!

_ نعم! ثلاثكم ستجلسون هنا معي تساعدونني ريثما

تعود سمرا من مشوارها مع إبراهيم!

الصدمة الخائبة تظل وجوه ثلاثهم فيما يبتسم

إبراهيم ابتسامته "المنقوصة" التي وقعت في قلب

يسرا موقعاً ليس بهين!

ابتسامته التي تجلت لها كنجم شارد فقد قمره فبدا

وسط ظلمة الليل غريباً!!

وعلى عكسه هو وقفت هي تتفحص
ملامحه بجرأة لا تنقصها ..
حسناً .. لا تزال هناك فرصة في أن تختلي به في
"مستوى" أعلى من اللعبة ..
اللعبة التي تحلو أكثر وأكثر!!



أبيض



الأمور مشوشة يا رحمة!

تقولها ماسة بخفوت وهي تخاطبها عبر الهاتف بينما
تراقب عاصي عبر نافذة البيت وقد جلس على رمال
الشاطئ مستقبلاً شمس الشروق.. لتردف بنبرة أكثر
قلقاً:

ظهور هذه المرأة الآن قد يكون منحة وقد يكون
لعنة.. لا تتصوري كم تعلق بها سند منذ رآها.. طبيبه
-دكتور كنان- طلب مقابلتها فذهبنا إليه.. اختلى بها
مع الصغير ساعة كاملة ثم أوصى مبدئياً أن يبتعد
الولد عن عاصي هذه الفترة ويبقى معها هي مادام
هذا ممكناً.

وهل وافق عاصي!؟!

تسألها رحمة بقلق مشابه لتتهد ماسة بحرارة وهي
لاتزال تراقب عاصي الذي وقف على قدميه أخيراً
ليسير مبتعداً ..

_ منذ عدنا إلى هنا مع تلك المرأة وهو صامت .. لا
أدري ماذا سيفعل! أخبريني عن جهاد! ماذا صنع؟!
_ ترك البيت بالطبع رغم أن عزيز كاد يرجوه أن
يبقى! لم يكن يعرف شيئاً عن أمر الصورة هذا!
بالتأكيد يشعر بالكثير من الحرج الآن!

_ اعتذري له يا أمي! رباه! لا أدري أي صدفة
وضعتنا في هذا الموقف وبعد كل هذه السنوات!
_ دعك من هذا الآن واهتمي بعاصي! لا تعاتبه ولا
تجادليه في أي قرار يتخذه الآن مهما بدا لك

مخطئاً.. هو الآن يحتاج الخروج من شرنقته ولو
لطريق مبهم.. المهم أن يخرج!
تتهي مكالمتها مع رحمة بطلبها منها بركة الدعاء
كالعادة ثم تتوجه لغرفة الصغيرين تطمئن
لنومهما.. قبل أن تتوجه للغرفة الأخرى التي تشغلها
ديمة مع سند فتقف أمام بابها بتردد..
لن يصح أن يبقى الوضع هكذا شرعاً ولا عرفاً!!
ترى ما يكمن خلف ديمة هذه؟! وما قصتها؟!
هل يمكن أن تحب صديقتها إلى هذا الحد فتعلن
مسئوليتها عن ابنها؟!
هاجسٌ من قلق يدفعها لأن تفتح باب الغرفة ببطء
حذر لتتسع عيناها بدهشة قبل أن يغلبها التأثر وهي

ترى الجسدين النائمين والمتعانقين بتشبث لا يميز

أيهما أكثر احتياجاً لصاحبه !

تغلق الباب ثانية ببطء بحذر ثم تأخذ طريقها نحو

الخارج حيث عاصي الذي لحقت به ..

تشبك أناملها بأنامله محافظةً على سيرها البطيء

جواره على الشاطئ فيسودهما صمت قصير تقطعه

بقولها:

_نحن والشروق! قصة لن يفهما سوانا!

يتوقف عن السير فجأة وكأنما منحته كلماتها البسيطة

ذات المغزى ما كان يحتاجه ..

فيلتفت نحوها لتلتمع شموسه الزيتونية بألق عاطفته

للحظات ..

يمد أنامله ليتحسس بطنها قبل أن يقول بنبرة

غامضة :

_ كنت أتمنى لو يولد كل أولادي هنا .. في هذا المكان !

ترمقه بنظرة متسائلة لكنه يتجاوزها وهو يعيد

الالتفات نحو البحر الذي

تلاطمت أمواجه :

_ ديمة ضرغام .. أرملة غازي خضر .. الرجل الذي أخذ

مكاني عرفياً في زعامة البلدة .. الرجل الذي كان

يكرهني كما كنت أكرهه .. والذي أعرف عن ماضيه

الأسود ما يكفي لملء مجلدات!

تعقد حاجبيها وقد شعرت بانقباض صدرها من سيرة

الرجل لكنها كعهدا تفضل الصمت مقابل استرسال

عاصي ببوحه النادر عن ماضيه :

لقد سألت عن تلك المرأة .. علمت أنه لم يكن معها
استثنائياً عما عهدته من غلظة طباعه .. علمت أنه
اختارها زوجة ثانية ليكون جحيمها الثاني في غربة
كانت جحيمها الأول .. ما يتناقله الناس عن إهاناته لها
في العن ينبيء ببساطة عن أي نار كانت تحترق بها
معه خلف الأبواب المغلقة !

مسكينة !

تتمتع بها ماسة بإشفاق ليلتفت نحوها بهممة
غامضة سبقت قوله :

ليس تماماً .. هذه "المسكينة" ادعت أنها
قتلته .. لكن تحقيق النيابة برأها .. ادعت انها كانت
تضع له السم الذي اتضح أنه مجرد ملح طعام !
غريب !

_ فعلاً غريب! إما أنها مختلة أو ..

يقطع عبارته دون أن يكملها فتسأله بتوجس وأأملها

تشتد حول أنامله :

_ أو ماذا !؟

_ الحكم سابقاً لأوانه !

يقولها باقتضاب وقد عاد يتوارى خلف أسوار كتمانها

فتزدرد ريقها بتوتر هامسة :

_ الولد متعلق بها ولا يمكننا إبقائها هنا معنا !

_ سنجد حلاً!

يقولها بنفس الاقتضاب وغابات زيتونه تشتعل بهذه

المرارة العاجزة التي تعرفها فينتابها هاجسٌ ما

يجعلها تسأله فجأة :

_ هل تفكر أن تتزوجها !؟

يلتفت نحوها فجأة مع انعقاد حاجبيه فتدرف وعيناها
تغيمن في نظرة بعيدة .. كأنما عادت هي الأخرى
لسجون ماضيها:

_ هذه المرة أيضاً ستجد المبرر .. كما كان منذ
سنوات .. هل تفكر أن هذا هو الحل الوحيد كي تبقىها
وسند معنا .. كي تريح ضميرك و..

تقطع عبارتها وهي تشعر بأنامله تحتضن وجهها
فجأة لتقربه منه حد امتزاج أنفاسهما ..

أمواج فضتها تزار بغضب مكتوم ربما لا يزال حياً
حتى بعد هذه السنوات ..

لكن السد ينزاح أخيراً عن فيض كتمانته مع كلماته
التي وصلتها بحرارة باطنه مشتعلة حارقة :

بم تهدين أنت؟! لن أطعنك بهذا النصل من جديد ولو
احتمل ظهري في المقابل ألف طعنة ! ماستي خط
أحمر قد أقبل خلفه أي تضحية لكنني أبداً .. أبداً لن
أتجاوزه !!

تطلق زفرة قصيرة وهي تشعر بنظرته العاتبة تهزم
كل مخاوفها فتريح رأسها على كتفه قائلة :
_ آسفة! يبدو أن الحمل والضغط جعلوني غير
متوازنة .

يربت على ظهرها برفق فتبسط أناملها على صدره ثم
تقبل موضع خافقه بهذه الطريقة التي تعلم كم
يعشقها :

_ سيد الأضداد لا يزال قادراً على زرع زهور عشقه
وسط شوك غضبه !



_وماستي لا تزال تجيد التوهج رغم كثرة الخدوش .
يهمس بها بصوته الذي يجيد مزج هيمنته بحنانه
لكنه لا يزال متشحاً بهذا القلق الغامض وكأنه يشعر
أن القدر لا يزال يدخر له المزيد من الاختبارات ..
_أرجوك يا عاصي! أخبرني ماذا يدور برأسك !
تهمس بها وهي تتفقد نبض قلبه أمام شفيتها يتقافز
بهذه الوتيرة العالية التي تثير قلقها ..
ليرمق المكان حوله بنظرة طويلة قبل أن يلتفت
نحوها قائلاً :

_لو لم نكن قادرين على إبقائها هي هنا ..فسنذهب
نحن معها ..
تتهلل أساريرها بلهفة مع هتافها:
_تعني أننا ..!؟!

فيجيبها وهو يشعر أنه يفتح على نفسه أبواب جحيم
غير مرئية :

_ كما كنتِ ترغبين .. سننتقل للسكنى في العاصمة .



الطيف التاسع

أحمر

_ لا تخافي! سأكون معك خطوة بخطوة !

يقولها إبراهيم بحميته المعهودة وهو يستقل سيارته

معها وقد وصل بها إلى الحي الذي كانت تسكنه

ك"سمر" ..

لم تكن تحتاج حقاً لشيء من هنا لكنها وجدتتها

فرصتها لتختلي به !

الفرصة التي لم تجدها بهذا الحجم وهو يصير على
صمته المتحفظ طوال الطريق مهما حاولت جره
للكلام ..

لهذا تطلق زفرة ضيق حقيقية وهي تغادر السيارة
لتصعد نحو الأعلى حيث بيتها المفترض هاتفه :
_ لن أتأخر!

تجمع بعض الملابس والأشياء التي لا تهتم لها حقاً
قبل أن تتناول هاتفها لتجري اتصالاً :
_ أنا قادمة الآن يا "كوثر" لرؤية أمي .. تدبري الأمر
مع "سمرا" كالمعتاد !

تتهي الاتصال لتتأهب للمغادرة لكنها تلمح هذه
"البلاطة المكسورة" في أرض الغرفة والتي بدا

كسرها غير طبيعي فتتحني لتزيحها كي تستخرج ما
تحتها ...

وفي مكانه بالسيارة كان يبدو شديد القلق وهو يدور
ببصره في المكان حوله ..

يود لو يمر الوقت بسرعة فيعود بها لأمّنه في حيّه
هو !

يغمض عينيه بتعب وهو يشعر أن مقاومته لها تخفت
يوماً بعد يوم ..

"الدرويش" وقع في فخ التعلق!!

ليته يبقى مجرد تعلق فحسب!!

يلمحها قادمة فيتندأ أخيراً بارتياح وهو يعيد تشغيل
السيارة التي استقلت مقعدها الخلفي لينطلق بها ولم
يكذ يفعل حتى هتفت به برجاء:

_ مشوار واحد فقط ..أحتاجه أيضاً!

_ أي مشوار!؟!

يسألها بضيق لترد كاذبة :

_ إحدى معارفي تعمل في بيت أحد

الأثرياء ..ستقرضني بعض المال .

_ وهل بخلنا عليكِ بشيء!؟!

يهتف بها بحميته المعهودة لترد بابتسامة امتنان

حقيقية :

_ أبدأ ! لكنها مدينة لي!

_ تقترضين منها أم مدينة لك!؟!

يسألها بشك لترد بسرعة :

_ تعلم كم تتداخل هذه الأمور أحياناً فلا تدري من

بدأ.. أرجوك ..أحتاج زيارتها .

يتردد قليلاً لكنه يهز رأسه أخيراً بطاعة فتشبح
بوجهها وهي تشعر ببعض الارتياح ..
لا تدري كيف ستتمكن من زيارة أمها في الفترة
القادمة وبأي حجة تغادر الحي وقد أخبرتهم أنها لا
أهل لها ولا معارف..
لكن لا بأس ..فلتستمر اللعبة ..
ألم تعلن مراراً أن ارتجاليتها سر شغفها بها؟!
تعطيه العنوان فيتوجه إليه ليتوقف
بالقرب من البوابة فينعدد حاجباه وهو يميز البيت
الفخم الذي بدا له كالقصر ..واللافتة التي علقت على
بابه ..

_ اللواء رفعت الصباحي؟!_

يهتف بها وقد انعقد حاجباه بشدة لتلتفت نحوه

بملاح شاحبة :

_تعرفه ؟!

يكز على أسنانه بقوة ثم يشيخ بوجهه قائلاً :

_ليست معرفة شخصية .. لكنه أحد

الأسماء المشبوهة والمتورطة في قتل المتظاهرين!

يزداد شحوب ملامحها وهي تسمع منه

الأمر لأول مرة ..

لكنها تؤثر الهروب فتقول بسرعة :

_وما شأننا به ؟! سأرى المرأة ونغادر! لن أتأخر!

يهز رأسه دون رد قبل أن يلتفت ليراقبها وهي تدخل

البيت شاعراً

بالخوف عليها ..

طالما تبدو له البيوت بهذا الشكل مجرد مصيدة فاخرة

المنظر ..

وبالذات لو كانت لو احد مثل رفعت الصباحي ذاك !!

يغمض عينيه بألم وهو يشعر بصورة حسن تجتاحه ..

ابتسامته السمحة .. وعيناه اللتان كانتا تشاظرانه

أحلامه .. طموحاته .. جنون شغفه ..

قبل ان تنطفئا فينطفئ معهما كل هذا !!

=====

_تأخرت؟!!

تهتف بها وهي تعاود استقلال السيارة معه من جديد

فتتعلق عيناه رغماً عنه - عبر المرآة الأمامية - بعينيها

المحمرتين الواشيتين ببكائها .. قبل أن يهتف بقلق:

_ماذا حدث؟!!

_ لا شيء! أعطتني المال !

تقولها بابتسامة مصطنعة ليرد بقلق أكبر:

_ كنتِ تبكين؟! هل ضايقتِ أحدهم !؟!

تغمض عينيها بامتنان حقيقي لهذه الحمية التي تعلم

أنه لا يدعيها .. لترد عبر جفنيها المغمضين:

_ تذكرت حالي فقط وأنا أحكي للمرأة

بالداخل عما حدث لي .

_ لا تحملي هما! الله الذي يسمع دبيب النملة السوداء

على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء لن يعجزه

تدبير أمرك .. فقط توكلي واحتسبي!

ترمقه بنظرة غريبة كعهدا كلما سمعته يتحدث بهذه

الطريقة ..

كأنه يتحدث بلغة غير التي تفهمها ..

لغة قد لا تتبين مرادفاتهما إنما تمسها بصدق شعوره

هو بها !!

هل هو حقاً بهذا التدين؟!

ما سر جنة الرشيدي إذن؟!

_ فلنغادر هذا المكان ..يصيني بالغيثان !

يقولها بضيق مقاطعاً أفكارها لتحاول جره للحديث

بسؤالها:

_ كل هذا لأجل المتظاهرين؟! أنت من المهتمين

بالسياسة؟!

_ السياسة؟!

يقولها باستنكار مرير وهو ينطلق بالسيارة مردفاً :

_ تعرفين المقولة الشهيرة (السياسيون

كالقروء ..إذا تعاركوا أفسدوا الزرع وإذا تصالحوا
أكلوا المحصول) ..لا ..لم أعد مهتماً بالسياسة ..لها
ناسها ولست منهم ..إنما هو الوطن ..الناس ..الوجوه
الكادحة التي تستحق راحة لا تجدها قبل
الموت ..الدين الذي غابت حقيقته وهم يلبسون ثوبه
لمن تهواه أمزجتهم

ضالين ومضلين ! الدماء التي هي حرمتها عند الله
أكبر من هدم الكعبة حجراً حجراً ! كل هذا لا يسمى
سياسة ..اسمه حياة ! مسئولية ! أمانة سنحاسب
عليها أمام خالقنا عندما يسألنا عن عمرنا فيما
أفنيناه !!

لايزال يتحدث بهذه اللغة التي لا تفهمها فتغض
عينيها على دموعها الحبيسة ولايزال منظر أمها

المستلقية على فراشها لا تذكرها بل ولا تذكر أي
شيء يرميها في ظلمات يأسها أكثر وأكثر ..
كل هذا لأجل سيرة رفعت الصباحي؟! تكرهه إلى هذا
الحد؟!!

لقد أفضى إلى ما قدم .. عند الله تجتمع الخصوم !
يقولها بضيق لم يستطع كتمه لتتهد بحرارة ثم تغير
الموضوع قائلة :

تعلمت ألا أعتز بالمظاهر ! لا تعلم كم هي قاسية
أحياناً حياة هؤلاء الناس ..
الأثرياء!

يختلس نظرة جديدة نحوها عبر المرآة وهو يحاول
التركيز في الطريق بينما تغوص هي في مقعدها أكثر
مغمضةً عينيها ..

تربت على أحد كفيها المتشابكين في حجرها بالآخر
كأنما تمنح نفسها طمأنينة ..

صورة أمها التي عانقتها منذ قليل وهي لا تكاد
تعرفها تسحبها للمزيد من الغرق في بحار الماضي ..
_ أعرف منهم واحدة .. كان الناس يسمونها
"كاملة"

الأوصاف " .. الجمال .. المال .. النسب .. النفوذ .. لكن
أباها لم يكن يتعامل معها إلا كسلعة رائجة .. اختار لها
المرّة الأولى الرجل المناسب الذي ظنّه سيكون
خليفته في عمله .. لم تكن راضية عن هذه الزيجة
لهذا لم تكد تعلم أن زوجها لا يمكنه
الإجاب حتى انتزعت حريتها منه .. المرّة الثانية
اختار لها أيضاً ما يتوافق مع طموحه .. الغريب أنها

كانت راضية تماماً بالأمر وقد ظنت الدنيا ستضحك
لها أخيراً .. لكنها فوجئت أن الزوج الثاني لا يراها
لأنه يحب غيرها .. واستردت حررتها من جديد .. إنما
عادت لتنعس في ظلماتها .. ظلمة خلف
ظلمة .. أسلمتها للإدمان ..

يختلس نظرة أخرى جانبية لها وهو يشعر أنها
انفصلت عن العالم مع حكايتها هذه ..
والحقيقة أنها كانت كذلك !!

_ حتى قتلت ابنها !

_ ماذا؟! !

يهتف بها باستنكار وانفعاله يكاد يجعله يصطدم
بالسيارة التي أمامه لولا أن سيطر على سيارته هو
في اللحظة

الأخيرة ..

لكنها بدت غافلة تماماً عن كل هذا ولا يزال أحد كفيها

يربت بهذه الحركة الرتيبة فوق الآخر:

_ابنها من زوجها الثالث .. تركته يوماً وحده لتذهب

كي تحضر ذاك المخدر .. لم تكن تميز شيئاً وقتها

سوى المادة السحرية التي كانت تبقياها فوق غمام

سعادة الوهم .. كان بالكاد قد تجاوز عامه الأول .. لعله

افتقدها .. لعله ناداها فلم ترد .. لعله ذهب للشرفة

يبحث عنها .. لعله صعد لذاك الكرسي كي يلوح

لها .. لعله أسقط أحد ألعابه فرمى نفسه خلفها .. لا

تعلم .. ولن تعلم أبداً .. هي عادت لتجد جسده الساكن

ملطخاً بدمه .. حملته لتجري به نحو المشفى القريب

رغم يقينها من موته .. لكنها كانت تطارد بقايا

أمل .. مات الصغير .

يستغفر الله بصوت مسموع وهو يعاود النظر نحوها

متسائلاً:

_ وهي!؟!

تفتح عينيها المغمضتين لتلتقي عيناها أخيراً

بجوابها :

_ ماتت بعده !

ينعقد حاجباه بقوة للحظة وهو يرى "العندليب

الأخرس" في عينيها يكاد يصرخ وجعاً ..

بينما تشعر هي أنها نزفت المزيد من دماء جرحها

التي ظنتها قد جفت ..

لماذا حكت له ؟!

لماذا تذكر نفسها ؟!

ألم ترهن ما بقي من عمرها للعب ؟!

للّهُو ؟!

لماذا عادت "الماريونيت" تشبك خيوطها بنفسها ؟!

أما اكتفت من قيود الماضي ؟!!

_تعرفينها ؟!

سؤاله المشفق ينتزعها من شرودها لترد بفتور:

_كانت صديقتي!

تقولها وهي تتمالك نفسها أخيراً لتغتصب ابتسامه

مصطنعة مع قولها :

_أعتذر لو ضايقتك .. أثقلت عليك كثيراً اليوم !

_ لا بأس! أدرك جيداً مرارة شعور الفقد هذا .. لكن
الأشد مرارة هو محاولة تجاوزها .. أنا أيضاً فقدت
شقيقي .. توأمي .. ربما استطعت تقبل حقيقة رحيله
لكنني لم أتقبل بعد كيف نساها الناس بعدها .. حتى
أقرب من كانوا إليه !

يهتف بها بمرارة فينعقد حاجباها لتتمتم بدهشة :

_ توأمك؟! تعني أنكما متشابهان !؟

تسأله وقد بدأت الحقيقة تسطع في ذهنها فجأة وهي
تتذكر ما تعلمه عن جنة الرشيدي ..

كانت مرتبطة قبل فهد .. خطيبها قد مات !!

بينما يهز هو رأسه بإيجاب ليردف بنفس المرارة :

_ خطيبته تزوجت بعده .. تزوجت واحداً ممن قامت

الثورة ضد أشباهه !!

تتسع عيناها وهي تشعر بالحقيقة تصدمها!!

إذن هذه الصورة لم تكن لجنة مع إبراهيم ..

كانت مع شقيقه الراحل!!

فسدت اللعبة إذن !!

هل ستعود للمستوى الأول!!؟

الخبية تخرسها طوال الطريق لكن الدفاع الحقيقي

الذي ملأ قلبها لدى دخولها للحي يمنحها بعض

العوض ..

ماذا لو فسدت اللعبة!!؟

فلتبحث عن أخرى .. هاهنا حياة بأكملها !!

لن تشتري اليوم "النعناع" يا إبراهيم!!؟

تهتف بها المرأة بسيطة الحال والتي دفعت بحزمة

من النعناع الآخر عبر زجاج السيارة التي توقف بها

إبراهيم أمام الحي والذي نقدها المال مضاعفاً لتدعو

له بالبركة قبل أن يستمر في طريقه ..

يبتسم هو ابتسامته المنقوصة وهو يقول مفسراً لها :

_"مستر ربيع" لديه ارتباط شرطي بين النعناع

والسعادة .. ولا يعترف به مجففاً أبداً .. عندما كنا

صغاراً كان يضع لنا النعناع في الشاي كمكافأة زاعماً

أن هذه الوريقات هدايا الأرض لمن صلح من أبنائها

وعلامة طهرهم .. كبر وكبرنا لتبقى رائحة النعناع

علامة حقاً .. إنما لنقاء ذاك الرجل الطيب !

ابتسامته تنتقل عفويًا إليها رغم مزيج الألم والخيبة

الذي يملأها:

__ يبدو أنك تحبه كثيراً!

__ هو أبي وصديقي وشيخي .. عمري كله فداء له !

يقولها بحرارة تخز قلبها وهي تراه لأول مرة يتحدث
بعيداً عن قناع تحفظه المعهود ..

تود لو تطيل الجلوس معه أكثر لكنهما يصلان أخيراً
فيترجلا من السيارة ..

_حمداً لله على السلامة !

يهتف بها ربيع بود وهو يستقبلها بينما يراقب
إبراهيم الذي حمل حقيبتها التي عادت بها من بيتها
القديم ليذهب بها

للأعلى ..

بينما تتقدم هي لداخل الفرن وهي تشعر أنها تعود
لتستقبل عزيزاً ..

الغريب أنها لم تشعر بحرارة الجو كما كان صباحاً بل
شعرت أنها تريد الانغماس في العمل أكثر ..

_ كيف تشربين الشاي!؟

يسألها ربيع باهتمام وهو يتناول الصينية من صبي
القهوة المجاورة فتجيبه وهي تنظر للكوب ببعض

التوجس:

_ دون سكر .

يضحك ربيع وهو يقلب الشاي في الكوب هاتفاً ببعض

المكر:

_ لا تحملي هم نظافة الأكواب! "الولد" يغسلهم

جيداً .. تحبين أن أوصيهم بكوب بلاستيكي لك!؟

_ سيكون هذا أفضل!

تقولها باستحسان وعيناها تقعان على سامي الصغير

الذي جلس في مكانه جوار كشك سندس التي كانت

تلوح لها بود ..



لتستند على الطاولة وهي ترمقهما من بعيد بنظرة

فاضت بعاطفتها ..

نظرة شاردة بهذا الحزن الذي تصدعت معه جدران

روحها ..

نظرة تخضبت بهذه الدمعة المذنبة المشنوقة بحبلها

بين صورتين ..

أمها .. وابنها !

ماما!

قتلتِ ابنك يا مجرمة !

صفعة فادي من جديد كأنها تهوي فوق قلبها فينتفض

جسدها بقوة لكنها تفاجأ بهذه الورقة الخضراء

الصغيرة تسقط في كوبها ..

ورقة نعناع!!

ترفع عينيها نحوه ببعض الدهشة فلم تنتبه لعودته
من أعلى ليصلها صوت ابراهيم الذي تسرب حنانه
عبر أسوار تحفظه :

_ هكذا تجدين المذاق أفضل.. لا تبكي..

يهمس بها بخفوت ثم يغادرها بخفة ليفعل المثل بكوب
أبيه الذي ابتسم بحذر وهو ينقل بصره بينهما لكن
إبراهيم يتحرك ليغادر مستقلاً سيارته التي انطلق بها
نحو عمله يلاحقه زوجان من العيون ..
أبوه الذي كان يشعر بمزيج من حذر ولهفة وهو يتأكد
من صدق حدسه بخصوصهما ..
وهي التي رفعت الكوب لغمها متناسية
ملاحظتها بشأن الكوب الزجاجي ..

مذاق النعناع الطازج في فمها يجعلها تغض عينيها
باستمتاع يشبه شعورها بهمس حنانه ..
لم يكن يكذب .. هكذا حقاً تجد المذاق أفضل!



برتقالي



أمام مرآتها تقف طيف تتفحص مظهرها



الأنيق .. ثوبها الكريمي بهذه الزهور الرقيقة متناهية
الصغر باللونين البرتقالي والأصفر على حافة صدره
وكمّيه القصيرين .. مع حزام خصر عريض بلون
أصفر .. قرط وعقد من الأحجار بلون برتقالي .. حذاء
بكعبٍ عالٍ جداً بلونٍ كريمي وحقيبة يد صغيرة بلون
برتقالي لامع ..

كعهدا لا تحب أدوات التجميل لكنها تعشق بهوس
أناقة ثيابها بهذه الماركات العالمية الشهيرة ..
تمشط شعرها الناعم فترفع أحد جانبيه بحلية بسيطة
ليبدو قرط أذنها أوضح ..
تعود خطوة للوراء تتفحص شكلها ثم خطوة للأمام ..
قبل أن تنتهد بحرارة ..

(أمشي في السكة أشوف نفسي)

كده حلوة وروحي عاجباني

وأتمنى أقابله ولو صدفة ..

ويشوف تسريحتي وفتاني ..)

لا تدري من أين طفت كلمات هذه الغنوة اللعينة

لذاكرتها !!

تطلق سبة عابرة وهي تتجاهل خواطرها بينما تتحرك

لتغادر شقتها ..

لابد أن تخرج !

منذ دخول مجد في حياتها وقد صار يومها بأكمله

محتلاً ب"هذا الرجل" أو بكل ما يتعلق به ..

مجد لا تكف عن الحديث عنه .. كأنها تحكي لها تقريراً

مفصلاً عن يومه ..

متى جاء ..ماذا أكل ..ماذا شرب ..كيف قضى بقية

يومه معها بعد انتهاء عمله ..

والغريب أنها لا تمنع الصغيرة من فعلها كل يوم ..

بل ..تبدو وكأنها تنتظر هذه التفاصيل لتكمل لوحته

الغامضة في ذهنها ..

ورغم أنها لم تره منذ ذاك اليوم الذي حملها فيه

للمشفى لكنها تشعر أنه حقاً صار يعيش معها ..

إن لم يكن في تفاصيل مجد اليومية ..

ففي حديثها معه عبر "حسابها المزيف" !

عندما سألها يوماً عن اسمها -كرجل- وجدت نفسها

رغماً عنها تختار اسم "ضياء" !

ابن عاصي!!

ربما لأنها برغم ظاهر تمردها تتمنى بداخلها لو

تتتمي لـ "عائلة"!

هكذا صار يحيى صديق "ضياء"!

يتبادلان الحوارات اليومية لمدة قصيرة لا تتجاوز

بضع دقائق قبل أن يعتذر أحدهما ..إما هو انشغالاً

وإما هي هروباً!

مجد أخبرتها أنه في رحلة سفر قصيرة لكنها لا تعرف

تفاصيل ..

ربما لهذا تشعر ببعض الضيق كأنما فقد عالمها بعض

توازنه !!

هل صارت مهووسة به حقاً إلى هذا الحد؟!!

ما الذي فعلته بنفسها؟!!

تضغط زر المصعد لتنتظره فتفاجأ به يغلق باب شقته

ليتوجه نحوها ..

هل عاد ؟!

اللهفة المجنونة في عينيها تناقض حركتها وهي

تشيخ بوجهها بينما تتجاهل حتى إلقاء

السلام ..فيردها لها بمثلها!

المصعد يبدو لها شديد الضيق ..شديد الضيق حقاً

وهو يحتوي كليهما حتى أنها تشعر بتلاحق أنفاسها

مع رائحة عطره التي تكتسحها كإعصار ..

لكنه كذلك يبدو لها شديد الاتساع ..شديد الاتساع حقاً

وهو ينبت لها جناحين كي تحلق بهما في سماء بعيدة

افتقدتها منذ زمن ..

سماء اسمها "الأمل"!

ذبذبات التوتر بينهما تملأ المكان حتى يصل المصعد
أخيراً للأسفل لتشعر به يتجاوزها بخطوات سريعة
حتى يختفي عن ناظرها فتعقد حاجبها بخيبة لم
تكرها وهي تتمنى ..

ماذا؟! ماذا تتمنى؟!!

تتجاهل جواب السؤال وهي حائرة في وجهتها ..
التسوق؟! ربما قبل أن تلتقيه الآن كانت لديها
شهية !!

أما الآن .. فهي تشعر أنها تود لو تعود لتختبئ في
بيتها .. خلف شاشة حاسوبها .. تحيك مصائر أبطالها
وتتغمس في حيواتهم لعلها تنسى حياتها هي!
إذن تمسك العصا من المنتصف كما يقولون ..

ستذهب لمقهاها المفضل بالجوار كي تشرب
قهوتها ..تراقب بعض الوجوه لعلها تستلهم منها
قصصاً كعهدا ..ثم تعود لصومعتها ..
لكن المفاجأة كانت من نصيبها أيضاً هذه المرة وهي
تدخل المقهى الفاخر لتجده جالساً !!
ورغم أنه كان يعطيها ظهره لكنها لن تجهل
تفاصيله !!

يرتعد قلبها بلهفة لم تعرفها منذ زمن "حسام
القاضي" ..كأنما السنين تعاود منحها هذه اللذة
المراهقة لرجفة الحب الأول ..
عقلها العصي يحذرهما أمراً إياها بالتراجع نحو
صومعتها الآمنة لكنها تسير كالمغيبة نحوه ..
تقترب بخطوات بطيئة متمهلة مستغلة غفلته عنها ..

تراه يفتح حاسوبه المحمول فتتسع عيناها بلهفة
تحولت لغيرة غير منطقية وهي ترى الصورة الكبيرة
التي كان يحدق فيها عبر الشاشة وقد شبك أصابعه
ليستند عليها بذقنه أمامها ..

صورة امرأة فاتنة .. بل اثنتين !!

تكز على أسنانها بقوة تكاد تحطمها وهي تتجاوزه
بسرعة لتتخذ مقعدها أمامه ..

أجل أمامه !! بهذه الصورة المتحدية له ولنفسها

قبله !!

تستخرج من حقيبتها سيجارة لتشعلها ..

تلتقي نظراتهما وقد انتبه لها أخيراً فتنفت دخانها

نحوه قبل أن تشيح بوجهها ..

اهدئي يا طيف! اهدئي !!

هو ليس من هذا النوع اللعوب وأنت تأكدتِ بنفسك!!

فكري!!

ربما هاتين هما سبب عقده!!

رجلٌ كهذا لن يكره النساء هكذا من العدم!!

ماذا عساها قصتهما؟!

اثنتان!! اثنتان!!

تنقطع أفكارها فجأة وهي تراه يحتل الكرسي المقابل

لها على مائدتها فجأة فينعدد حاجباها بغضب يناقض

حمره الخجل التي تخضبت بها وجنتاها!!

_ من أذن لك بالجلوس؟!

تهتف بها بفضاظة بدت هزلية حقاً في موقفها هذا
وكل خفقة من خفقاتها تكاد تجن لهفة لهذا الاقتحام
"الذيذ"!!

أنت!

يقولها بنبرته الواثقة التي اصطدمت بصيحتها
الاستكارية لكنه يبتسم هذه

الابتسامة المغيظة وهو يرد بنفس النبرة الواثقة :
أنتِ رأيتي بالتأكيد عندما دخلتِ وتعمدتِ الجلوس
أمامي ..كان يمكنكِ المغادرة أو الجلوس في مكان
آخر لو لم تكوني راغبة في استفزازي لمجالستك!
منطقه يخرسها للحظة وهي تثق بصدق كل كلمة
قالها لكنها تهتف بالمزيد من المكابرة بينما تنفث
المزيد من دخانها في وجهه :

_ لا شأن لي بتهيؤاتك وهلوساتك ..أنا حرة في

الجلوس أينما شئت ووقتما شئت!

عيناه "ذاتا القضبان" ترمقانها بهذه النظرة النافذة

التي تشعر أنها تصيبها بالقشعريرة!!

تخترق دواخلها بهذه الخبرة الواثقة لتلقيها في وادي

التيه الذي يبعثر تماسكها!!

_ لا أستسيغ الجلوس مع امرأة مدخنة .

يقولها ببطء كأنه لم يكثرث بما قالتة ..

ضاغطاً كل حرف من حروف كلماته وعيناه لا

تحيدان عن عينيها مثقال ذرة ..

فتشعر بهذا الوهن الذي يدفعها للمزيد من الشراسة :

__ هذه المرأة المدخنة لم تطلب منك الجلوس معها
أصلاً!

__ أطفئها وسأعتبرها دعوة منك!
بنفس النبرة الواثقة التي تخللها الآن جذلٌ مستمتع لم
يستطع إخفاء جذوته في عينيه ..

لكنها تعاود نفث دخانها في وجهه بإشارة صريحة لم
يتجاهلها وهو يقف مكانه فجأة متأهباً للمغادرة ..
هنا لم تشعر هي بنفسها وهي تفاجأ -قبله- بأناملها
تطفئ السيجارة !!

__ خرب بيتك !! بل خرب بيتي أنا!! ما هذا الذي
أصابني؟! ما الذي أصابني؟!
تهتف بها لنفسها في سخط وهي تشعر بقطرات عرق
خفيفة ترقيق المزيد من دماء كرامتها فوق جبينها ..

حرجاً .. ارتباكاً.. وخجلاً !!

لكن ابتسامته الحقيقية -التي حملت الكثير من رضا-

جزتها خير الجزاء عن كل هذا وهو يعيد الجلوس

بينما عيناه "ذاتا القضببان" تعاودان غزوهما

الصامت لها ..

تقبلته !

تهتف بها وهي ترفع أنفها بكبرياء فيعقد حاجبيه

بتساؤل عما تعنيه لتردف وهي تتراجع بظهرها لتضع

أحد ساقيها فوق

الأخرى:

اعتذارك الذي قدمته لي في المشفى!

تتسع ابتسامته بإعجاب طفيف وهو يراها تقلب

الأمر بعدما كان من حركة إطفائها السيجارة ..

كانها تجيد التلاعب دوماً بـ "المربعات الملونة" كي
تضع مربعها هي في المكان الذي تريده بالضبط!!
المكان الأعلى!!

لهذا ترك لها التمتع بلعبتها وهو يرى نظراتها
الظافرة تذكره باعتذاره ..

يرى النادل يتقدم ليسألها عما يشربان .. فتطلب هي
قهوتها غالية الثمن عامدة فيما يطلب
هو .. مثلجات !!

يبدو أنك أخطأت "الطلب" ! ظننت مجد هنا؟!
تقولها بتهكم تداري به تأثرها ليرد بثقة وهو يقترب
بجذعه ليسند ذراعيه على المائدة وقد استند بذقنه
على كفيه المتشابكين :

_ لم أخطئ الطلب!

_ إذن فالكاتب العظيم صاحب الكتاب

الأعلى مبيعاً ورجل الأعمال صاحب الشركة الكبيره

لا يخجل من تناول المثلجات أمام العامة؟!!

تقولها بالمزيد من التهكم الظاهر لتشعر بعينيه

تحتكران نظراتها أكثر وهو يرد :

_ هذا هو الفارق بيننا .. أنتِ تطلبين القهوة غالية

الثمن .. تنقدين البواب أمامي ورقة مالية بقيمة

كبيرة .. ترتدين هذه الملابس ذات الماركات

العالمية .. كل هذه الأفعال التي تفضح رغبتك في

التمرد على ماضيك كأنما تستمدين نظرتك لنفسك من

نظرات الناس ..أما أنا فلم يعد يعنيني هذا
الأمر ..صرت أعيش لنفسي ولمن أحبهم ..فحسب!
لا تدري لماذا تكدست الدموع في عينيها فجأة قبل أن
تشيخ بوجهها عنه !

هل هو اقترابه شديد الخطورة كعهده من مقدسات
ماضيها؟!!

هل هو يقينها الخجول من صحة ما يقول؟!!
أم هي المرارة المتوجعة التي نضحت من كلماته هو
رغم ما يحاول تغليفها به من ثقة غير مبالية؟!!
أجل! لأول مرة بينهما تشعر أنها ليست خجلة من
ماضيها أمامه بل تشاطره نفس الألم !!
_ مجد تقول إنكم كثيرو الأسفار !

تغير بها الموضوع وهي ترى النادل قد عاد بما

طلباه ..

ترتشف رشفة من قهوتها ليصلها جوابه :

_ لا أحب البقاء في مكان واحد لمدة طويلة .. أكبر ذنب

يقترفه المرء في حق نفسه أن يقع في فخ

"التعلق"!

كلماته تصيب وتراً خاصاً في نفسها وهي تشعر أنها

تقترب من حدود مأساته .. ترفع عينيها نحوه لتصدم

بمظهره وهو يقرب ملعقة الثلجات من فمه ..

تتخيلها وهي تذوب بين شفثيه !!

خيالاتها المهووسة تسحبها لمشهد آخر بعيد .. فتراه

يجلسها فوق ساقيه مثل مجد .. تطلب منه أن يطعمها

الثلجات .. فيهمس لها بحنانه

الأسر "تدلي" ..

يطعمها إياها بنفسه ثم يضم رأسها لصدره فلا تدري
أيهما أذ .. مذاق الثلجات أم حنان عناقه ؟!

أفكارها الخطرة تنقطع وهي تلاحظ انتباهه لتحديقها
فيه فتخفض عينيها بسرعة وهي تود الآن - رغم
السعادة الخفية التي تركض في حقولها الآن- أن
تهرب بعيداً لصومعتها الأمانة من جديد !!
بينما يشعر هو أنه يقرأها ككتاب مفتوح !!
حمرة خجلها هذه تناقض تحديقها الواضح فيه .. لكنه
يتفهم كليهما !!

تبدو له كقطة برية متوحشة اعتادت الخمش بأظافرها
لكنها تفتقد من يربت على ظهرها لتموء بنعومة بين
ذراعيه !

لا ! لا تشبه أي امرأة قابلها من قبل !!
ربما لأنها لم تكتشف أسرار أنوثتها بعد !!
أجل هي فقط ترتدي عباءة امرأة متحررة لكنها تخفي
تحتها طفلة منبوذة تخشى الغرباء كما يخشونها !!
_ تعني أنك لن تمكثوا هنا طويلاً؟!

سؤالها يقاطع أفكاره فتلتقي نظراتهما ..
"سديم " عينيها بفوضاه الضبابية يتمخض واعداءً
بألف نجمة وليدة ..

بينما تبقى عيناه "ذاتا القضببان" منطوية على ما
فيها ..

يتصارع فيها أمل وألم!!

_ لا أدري!!

يقولها أخيراً وهو يلوح بكفه الذي اصطدم عفويّاً
بكأس الثلجات فكاد يسقطه ليمتد كفاهما معاً في
نفس اللحظة كي يمنعا هذا ..

تتلامس أطراف أناملهما للحظة لكنها كانت كافية
لتشعل هذه الشرارة داخلهما معاً!!
تراجع مكانها بحركة نافرة وهي تشعر بوجنتيها
تكادان تحترقان ..

ليرمق هو ارتباكها بنظرة متفحصة كأنه يقرأ
خباياها ..

مظهرها .. ملابسها .. أسلوبها .. كل هذا يضعها في خانة
امرأة متحررة جريئة ..

فلو أضاف لهذا سكتها وحدها لجمح خياله في ربوع

سوء الظن بها لا محالة ..

لكن هذا الخجل الغريب الذي يوقن أنها لا تدعيه مع
ففاظتها البرية يجعله يضعها في خانة مغايرة تماماً!!

_أبلغني فقط قبل نيتكم بالسفر بمدة مناسبة ..أنا لا

أحب المفاجآت ولا أنكر أني تعلقت بابنتك .

تقولها بصوت مرتجف رغم ما تحاول ادعاءه من

ففاظة وهي ترتشف رشفة من قهوتها ..

ليرد ولا يزال يغزو حصونها باقتدار:

_أحب عندما تدعيها "ابنتي" وليس باسمها

المجرد !

_تستحقها!

تقولها مسبلة جفنيها لتردف بمرارة خفية :

_ الأبوة ليست اسماً في شهادة ميلاد ..

الأبوة مسئولية ..حنان ..قوة تعرف متى تتحرك

لتكون تارة في ظهرك وتارة تحمي صدرك وتارة

تدور حولك ..ربما لم أجرب هذا الشعور

لكنني ..أقدره !

يعقد حاجبيه بقوة وقد بدت له في هذه اللحظة أشد

هشاشة مما قد يدور بباله ..

أم هو الذي كذلك وهي تضرب بعفويتها على أكثر

مناطق جرحه وجعاً؟!!

الأبوة!؟

ما الذي يمكنه هو قوله عن هذه الكلمة التي ذبحت

ماضيه وستبقى تذبح يومه وغده لآخر يوم في عمره

!؟

"القضبان" في عينيه تتلاشى أمام هذا الغضب الذي
أشعلته الذكرى..

صوت زجاجة العطر لايزال يدوي في أذنه كيومها
وهي تسقط من يده لتتحطم ..

لونها الأحمر يصبغ كل شيء حوله ..

المقبض الذي اشتدت عليه أنامله ..

الباب الذي تهاوى عليه ظهره ..

لن يبالغ لو زعم أنه إلى الآن لايزال يهوي!!

جرحٌ كهذا يبقى طوال العمر جمره بين الضلوع!!

ترفع عينها فجأة ليروعها هذا الغضب

الأسود الذي سكنهما لتدرك بحدسها أنها أصابت

حجراً في مياهه الراكدة ..

لكن "القضبان" تعود لتحتجز نظراته خلف عينين

عادتا لجمودهما !!

تراه يقف فجأة كأنه يهرب من شبح يطارده .. لهجته

الواثقة تهتز نوعاً مع قوله :

_ بما أنك ذكرت الأمر .. فسأخبرك كما

رغبت .. سنسافر مع مجد غداً.

_ أين ؟!

تسأله بتوجس وهي تشعر بانقباض قلبها ليرد

باقتضاب وعيناه تحيدان نحو حاسوبه الذي تركه

هناك على المنضدة

الأخرى:

_ بغداد!

_ ستعودون؟!

تلتقي عيناها للحظة فينثر الخوف بذوره في عينيها

بالتساوي .. كأنها يتشاطرانه بالعدل!

هي التي كانت تشعر أنها على وشك فقد جزء من

نفسها لن تسترده بسهولة ..

وهو الذي كان يشعر أن سفره هذا سيفتح عليه أبواب

جسيم ظن أنه قد أغلقها

للأبد !

إنما .. لا مفر!!

_ ثلاثة أيام فقط!

يقولها بنفس الاقتضاب فتتهد بارتياح لم تخفه وهي

تشيح بوجهها .. بينما يصلها صوته :

_ مجد ستودعك بالتأكيد قبل سفرها وأظنها سترغب

أن تكون أول من تزور عند عودتنا .. شكراً لوقتك .

يقولها وهو يهم بالمغادرة لكنها تستوقفه بهتافها:

_انتظر.

يلتفت نحوها لتشيح بوجهها هاتفة بفظاظتها التي

حاولت تخفيفها قليلاً:

_ لا أجد عبارات الشكر ومثل هذه

الأمر .. لكن .. وقوفك جوارى يوم المشفى أنت

وصاحبك "فرقع لوز" ذاك حينها كان .. كان موقفاً

جيداً .. يبدو أن الدنيا لاتزال بخير كما يزعمون !

تقولها ثم تعاود الالتفات نحوه بحذر كأنها تختبر وقع

كلماتها عليه ليرمقها بنظرة طويلة سبقت قوله :

_ لا داعي للشكر .. كما أنه لا داعي لهذه الحرب
الباردة بيننا .. أعرف أن تفكيرنا مختلف وشخصياتنا
متناقضة .. لكن لنحاول التكيف معاً .. لأجل مجد .

_ ستسمح لها بالاتصال بي؟!!

سؤالها يتأرجح بين أمر فظ ورجاء خفي لكنه يتقبل
كليهما وهو يبتسم ابتسامة واهنة ليهز رأسه هزة
خفيفة قبل أن يغادرها ليرحل ..

تاركاً إياها خلفه تراقب بقايا الثلجات التي انصهرت
تماماً في كأسه ..

خاطر غريبٍ يجتاح رأسها وأناملها تمتد لتلامس
الملعقة فتقلب بها مزيج الثلجات الذي تداخلت
ألوانه ..

لو كان لهذا الكيان الكريمي أن ينطق فبما يصف
شعوره وقد جرب لذة دفئه قبل أن يتركه هكذا دون أن
يكمله .. ويرحل!؟!

بغداد !

معشوقته التي سيبقى يبكيها العمر دما بدل الدموع !!
العتيقة المتجددة .. العروس متفضنة

الملامح ..

الطفلة المذعورة والأم الحنون ..

الصاخبة حد الاشتعال .. والصامته حد الموت ..

الصابرة التي لا تزيدها ضربات الأيام إلا عزة !

كل الهواء هواء إلا هواءها ...حياة!

كل التراب تراب إلا ترابها ..سكن!

كل الناس ناس إلا ناسها ..أهل!

كل البلاد بلاد إلا هي ..جنة!

جنة لُفِظَ منها بخطيئة ليست خطيئته إنما بقي ثمنها

في عنقه وحده !!

_ هل ستبقى شاردًا هكذا؟! لهذا لم أكن راغباً في

العودة إلى هنا!

يهتف بها نزار بجديّة غريبة على طبعه العابث وكأنه

هو الآخر يزرح تحت عبء العودة للوطن ..

ورغم كونه "نصف مصري ..نصف عراقي" لكن
العراق بقي وطنه الذي عاش فيه أغلب سنوات عمره
فغلب له انتماؤه .

يلتفت نحوه يحيى من شروده وهو يقف في نافذة
غرفة الفندق الفخم في بغداد ..

فيقترب منه نزار أكثر ليربت على كتفه قائلاً :
_ لا داعي لهذه الزيارة ! أنت رميت كل الماضي
خلفك؟!!

_ هل تظن هذا حقاً؟!!

يهتف بها بمزيج من غضب وألم ليطرق نزار برأسه
بينما يردف يحيى الذي بدا كوحش سجين وهو يلوح
بذراعيه بعجز:

تعلم منذ متى انتظرت هذه اللحظة؟! أن أقف في
وجهه ..أضع عيني في عينيه ..أخبره ..أنني ..كنت
أعلم..أنني لست مغفلاً كالذي ..!
يقطع عبارته قهراً وهو يشعر بهذه الغصة التي
استحكمت حلقة ..

يلقي برأسه فوق كتف نزار لكن الأخير يهزه بقوة
وهو يمسك بعضديه هاتفاً بقوة غريبة على طبيعته
العابثة :

إياك أن تخفض رأسك في موضع كهذا
أبدأ..أبدأ ..حتى ولو أمامي أنا ..ارفع رأسك يا
يحيى ..ارفعه !

لكن يحيى يشيح بوجهه قليلاً مخفياً هذه الدمعة
العجوز !

اجل ..عجوزُ هرمة ولدت منذ سنوات وتزداد

تجاعيدها القبيحة كلما أخفاها !

ويخشى أن يأتي هذا اليوم الذي تسقط فيه عجوزه

الهرمة فيسقط معها ما بقي من كبريائه !

ولا يدري لماذا الآن في هذا الموضع

بالذات تذكرها هي ..

طيف!

هل يمكنه الاعتراف أنها -وبرغم كل هشاشتها-

تمنحه قبساً من قوة !؟

_اعتنِ بمجد حتى أعود ..لن أتأخر!

يقولها أخيراً وهو يربت على كتف نزار الذي منحه

نظرة مؤازرة قبل أن يلقي نظرة أخيرة على المرأة ..

هل هو هو !؟

هو يحيى الذي غادر بغداد منذ سنوات مطعوناً بخنجر

غدر؟!

ومتى؟! في اليوم الذي ظنه وقتها أسعد أيام حياته

!؟

نعم .. هو !

عاد ليرتشف أخيراً كأس انتقامه !!

خواطره لا ترحمه طوال الطريق ..

تصفعه بهذا الكف القاسي الذي عهده طوال هذه

السنوات ..

الجهل رحمة ! رحمة لم تكن من نصيبه

للأسف!!

تتوقف بها السيارة التي استأجرها أمام مبنى السجن
الذي تعلق عيناه بلافتته للحظات قبل أن تستمر
خطواته عبر الطرق المفترضة ويده تشتد حول
تصريح الزيارة الذي حصل عليه ..
هاهو ذا أخيراً يقف أمام الرجل الذي تقدم خافضاً
جبينه بخزي ..

عيناها تتشابهان شكلاً إنما تتناقضان في هذا
الإحساس الذي سكن حدقتيهما ..
غضب الأول إزاء دهشة الثاني ..
تشفي الأول إزاء خزي الثاني ..
قوة الأول إزاء وهن الثاني ..
وإن تشارك كلاهما في مرارة من أدرك نهاية السباق
خاسراً !

أجل .. رغم كل شيء لم يستطع يحيى منع شعوره
بالخسارة ..

من الحروب ما هي مَغْنَمها كمَغْرَمها ..
كلاهما هزيمة !!

_ يحيى؟! أين كنت؟! أخيراً عدت !
يهتف بها الرجل الذي بدت على ملامحه أمارات
عزيز قوم ذلّ ..

لتقسو ملامح يحيى وهو يجيبه ببرود :

_ لم أعد .. ولن أفعل .. جئت فقط كي أراك !

_ هل علمتَ ما حدث؟!!

يهتف بها الرجل بخزي ليرد يحيى بابتسامة تهكم

مريرة :

_ بل أنا ... أنا دبّرت ما حدث !

تتسع عينا الرجل بصدمة وهو يتراجع خطوة للخلف

هاتفاً باستنكار:

ماذا ؟!

لكن يحيى يقول بنفس النبرة التي يصطرع على

أرصفتها خصمان متساويان من غضب وألم :

أنا دبرت هذا ..أنا ابتعدت كل هذه السنوات كي

أستطيع التخطيط لما فعلته ..الآن أذيقك مرارة السجن

الذي ستحياه لبضع سنوات من عمرك ..قصاصٌ ليس

بعادل مقابل السجن الذي وضعتني أنت فيه طوال

عمري ..ما سبق وما لحق!

تشتعل ملامح الرجل بغضب أهوج وهو يهتف به

بانفعال:

_بماذا تهذي أيها الأحمق؟! هل فقدت عقلك؟! عن

أي شيء تتحدث؟!!

_عن الحقيقة! ليست حقيقة أعمالك المشبوهة التي

أجدت إخفاءها بخبرة مجرم طوال هذه السنوات ..إنما

الحقيقة الأخرى التي تخصني ..أنا!

تزيغ عينا الرجل بينما تتلاحق أنفاسه وهو يرمقه

بنظرة فأر مذعور سقط لتوه في مصيدة ..

لكن يحيى يرمقه بنظرة طويلة استباحتها "دمعته

العجوز" رفيقة سنواته الأخيرة ..

هذه النظرة التي لم يحتملها الرجل وهو يلوح بسبابته

المرتجفة في وجهه هاتفاً بحدة :

_ اخرج .. اخرج من هنا ولا تعد .. لا أريد رؤيتك من

جديد أبداً .. هل عدت بعد هذه السنوات لتلقي في

وجهي هذه

الافتراءات والألغاز !؟

لكن يحيى يبتلع غصة حلقه ليتفحص

ملامح الرجل كأنما يريد أن يطفئ بها بعضاً من هذه

النيران التي تضطرم في حناياه ..

ثم يردف أخيراً بنبرة "مهزوم منتصر":

_ بل جئت لأراك للمرة الأخيرة قبل أن أختفي

ثانية .. لكن ليس قبل أن أذيقك سمّ اعترافي .. أنا من

يقف خلف سجنك هنا ! أنا ..

ثم يصمت لحظة ليلقي سهم حقيقته

الأخير والذي جعل ملامح الرجل تشحب حد الموت:

_ أنا يا .. "أبي" !

=====

(ما رأيت وحشاً أشد فتكاً من الاشتياق عندما يغرس
مخالبه في صدورنا ! ألا رفقاً بنا أيها الحنين ! يبقى

الورد مجرد

بتلات ناعمة مهما توارى خلف قسوة أشواكه !!)

تكتبها صباحاً عقب استيقاظها من النوم على لسان

إحدى بطلاتها في مشهد تبقية "في الدرج" - كما

يسمونه- مع أشباهه ينتظر أن تكتمل له حكاية .. لكنها

وحدها تعلم أنه الآن "كل" الحكاية !

اليوم الثالث لرحيلهم .. تغادر فراشها لتتحرك نحو

النافذة القريبة .. تراقب نافذة مجد من مكانها رغم

يقينها من ظلمة غيابها !!

هل جربت مذاق هذا "الغياب" الذي يجعلك تتساءل

كيف كانت الحياة قبل "الحضور"؟!!

هذا المذاق الذي يفتقد المذاق!! كأن حواسك كلها

تنتظر العصا السحرية التي ستعيد لها الحياة !!

هذا بالضبط ما كانت تشعر به منذ رحيلهم والذي

تفاقم كثيراً هذا الصباح وهي تستعيد كل كلمة دارت

بينهما في آخر لقاء ..

تقارن دون وعي بين مشاعرهما معه ومشاعرهما مع

حسام القاضي ..

يشاركان في روعة السحر الأول ..إنما يختلفان في
أثره ..

عندما أحبت حسام كانت تبدو كطفلة تتعلق بجلباب
هذا العشق كي لا تتوه وسط زحام الطريق ..
لكنها مع يحيى تشعر أنها عجوز تنظر في مرآة هذا
الحب لتمنحها التعويذة السحرية التي تعيد لها
شبابها ..

فكم بينهما؟!!

مهلاً! هل تعترف إذن أنها أحبت يحيى حقاً؟!
_ لا لا لا ! انسي! ليس قبل أن يعترف هو أولاً ..
تهمس بها لنفسها بحزم وهي تغلق ستار نافذتها ثم
تتوجه نحو مرآتها لتبتسم وهي تغمغم بشرود :
_ قريباً .. سيفعل ..

لا تدري من أين أتتها هذه الثقة ؟!

حدس أم أمل ؟!

لا تدري ! لكن ما هي واثقة منه أنها مست قفلاً عنيداً

ل "قضبان عينيه" !

تتهد بحرارة عند خاطر الأخير وهي تتوجه نحو
المطبخ .. تعد قهوتها "الرخيصة" التي تحب مذاقها
متجاهلةً تلك غالية الثمن كأنما وعت درسها الأخير
في آخر لقاء لها معه ..

تشم رائحتها باستمتاع وهي تضغط بأطراف أناملها
على الفنجان الذي تذكرها نقوشه بنقش فنجان قديم
كان لسيدة ما ممن عملت لديهن أمها وقد أعلنت
الأخيرة يومها إعجابها به .. اشترته كأنما هو هديتها
لها .. ولو بعد موتها !!

لكن ضغطة أناملها على الفنجان تذكرها الآن كذلك

بموقف آخر ..

تماس أناملها معه هو !!

ترتشف رشفة أخرى مستمتعة وهي تعود لغرفتها

نحو حاسوبها ..

منذ سفره وقد انقطع عن التحدث لها كـ "ضياء" ..

إنما وجدته قد شارك بهذه القصيدة لـ "كريم العراقي"

الشاعر المعروف :

يا لروحي التي دمرتني .. تسألين وما وجدتِ جوابا ..

إن تحنّي إلي الديار فابكي .. قد غُصبنا علي الرحيل

اغتصابا ..

لا حبيبتي معي ولا بلادي .. ضائع كم طرقت باباً

فبابا ..

واحتراقي أيستمر لأنني خيط شمع لطول ما ضاء

ذابا ..

فرجوعي هو الدمار لنفسي .. وهروبي أشد عذابا ..

كان لي فيها ذات يوم حبيب .. مثلما تذهب الطفولة

غابا ..

كاذب إن نسيت أو أتناسى .. كيف ينسى سرب الحمام

القبابا ..

أيها المقهورون يا أصدقائي .. كم كتبنا للزمان

خطابا ..

هل لنا من بعض الأمانني نصيب .. أم سنقضي هذه

الحياة اغترابا

تدمع عيناها بتأثر وهي تتخيل الكلمات

بصوته .. بلهجته العراقية ..

الآن فقط تدرك أن كليهما منغمسٌ في دوامة غربته ..

وإن كانت هي اختارتها بإرادتها .. فيبدو أنه قد غُصب

عليها !!

تنتفض مكانها فجأة وهي تسمع رنين جرس الباب

فتهرع إليه بلهفة ..

هل عادت مجد ؟!

تطلق صيحة فرحة لم تستطع إخفاءها وهي ترى

الصغيرة أمامها تفتح لها ذراعيها فتحنى لتضمها

إليها بقوة ..

تكتم تأوهات انفعالها وأناملها تغوص بين خصلات
شعر الصغيرة القصير تغرس رأسها في صدرها هي
أكثر وأكثر ..

_افتقدتكِ جداً ! وصلنا لتوننا ! طلبت من "بابا" أن
أزوركِ قبل حتى أن أعود للبيت !

تهتف بها مجد بعمق عاطفتها العفوية فيما يعجز
لسان طيف عن الحديث لأول وهلة قبل أن تقبل
وجنتها لتهمس أمام عينيها :

_لا بأس .. اذهبي واستريحي .. وعودي متى تشائين .
ترفع الصغيرة بصرها نحو نزار "المبتسم دوماً"
ويحيى الذي بدا متجهماً مطرق الرأس ثم تعود
ببصرها نحو طيف قائلة :

_ هل يمكن أن نعود كلنا لنحتفل بعيد

ميلادك كما فعلتِ معي!؟!

_ عيد ميلادي!؟ من أخبرك عن عيد

ميلادي!؟!

تهتف بها طيف بخرابة وهي تسمح لنفسها أخيراً
بالنظر ليحيى لكنه بقي محافظاً على إطراقة وجهه
بمظهر بائس غريب عن طبيعته المعهودة ..

_ "أنكل نزار"!!

تهتف بها مجد بعفوية فيشير نزار لصدره ببعض
الفخر قبل أن يقول بخبت:

_ فرقع لوز!

تزم طيف شفيتها بحرج وهي ترمق يحيى بنظرة
عاتبة .. إذن فقد أخبره !!

بينما تردف مجد بنفس العفوية :

_ هو تابع حسابك على "الفيسبوك" وعلم منه تاريخ مولدك ..وأنا أصررت أن نعود اليوم صباحاً كي نحتفل معاً به .

_ لا أحتفل بهذا اليوم !

تقولها طيف بفضافة وهي تشعر بمزيج من سعادة خفية وترقب خطر ..

لكن مجد تهتف بها برجاء :

_ لأجل خاطري ! أنا افتقدتك وأريد

الاحتفال!

_ لا تضغطي عليها يا مجد ! يمكنك زيارتها غداً أو في

أي يوم !

يقولها يحيى أخيراً وقد انفكت عقدة لسانه .. لتشعر

بقلبها ينقبض مع هذه

اللهجة المنهكة التي احتضنت حروفه ..

ما الذي أطفاً هذه الجذوة المشتعلة دوماً خلف

"قضبان عينيه"!!؟!

ما سبب سفره لبغداد؟! ولماذا عاد منها بهذه الصورة

!؟

يزداد انعقاد حاجبيها وهي ترى نظرة الخيبة التي

ظلت ملامح مجد التي تحركت بكرسيها مبتعدة

ليلحقها نزار ويحيى ..

فوقفت مكانها مترددة للحظات قبل أن تهتف لها

أخيراً:

حسناً! موافقة! استريح فقط من تعب السفر.

=====
حول المائدة في صالة بيتها يغنون أغنية عيد الميلاد
الشهيرة ..

مجد وخادمتها ونزار

الأكثر حماسة .. فيما أطبق يحيى شفثيه مكتفياً
بنظرته الغامضة نحوها ..

بينما دمعت عيناها هي بعاطفة لم تستطع التحكم
فيها ..

عيناها معلقتان بالشموع كأنها ترى فيها سنوات
العمر الفائتة ..

شمعة .. ترى فيها أمها بجلباب قديم وقد انحنى
ظهرها تعباً ..

شمعة .. ترى فيها زيارتها لقصر الرفاعي وصراخ
حماد المرعب المدوي في أذنيها يسبق طرده لهما ..
شمعة .. ترى فيها صورتها هي وقد ورثت خطيئة
أمها بل وعملها أيضاً ..

شمعة .. ترى فيها صورة حسام وقد اختطف منها
كتابها فوق سطح بيته لتلمع في عينه أول نظرة
حب ..

شمعة .. ترى فيها صورتها وقد أبعدها أمه عن العمل
في بيتها بعدما شعرت به من عاطفة بينهما ..
شمعة .. ترى فيها صورته وقد تزوج ابنة الرجل
العظيم .. الفاتنة ذات الحسب والنسب .. وتركها هي
خلفه هباء منثوراً ..

شمعة .. ترى فيها عودة عاصي بعرضه الهزيل بنقود
أبيها دون اسمه ..

شمعة .. ترى فيها تلاعبها هي بكليهما وهي تفر من
مصر بالنقود تاركةً لحسام شعلة انتقامها ..

شمعة .. ثم شمعة .. ثم شمعة .. ترى فيها تباعاً صور
عمرها المسكوب هنا في هذا البلد .. في غربة تدعي
أنها اختارتها .. وكم من مغصوب زعم أن كان له
اختيار!!

_ هيا .. أطفئي الشموع!

هتاف مجد المرح ينتزعها من شرودها فتهز رأسها
بما حمل معنى الرفض ..

ليتها حقاً تستطيع إطفاء كل هذه الشموع!!

_ هديتك .. كل عام وأنت بخير!

تقولها مجد وهي تقدم لها هذه الكريستالة المربعة
التي بدت لها شديدة اللعان والتي تحتجز داخلها
رسماً لطائر "فلامنجو" أبيض تلون ريشه بالبرتقالي
وقد وقف رافعاً رأسه ..

أحسك - مثلي - كلانا نشبه "الفلامنجو" ! بابا يقول
أنه يجيد الوقوف على قدم واحدة .. وأنا قد أستطيع
يوماً الوقوف دون قدمين !

تقولها مجد ببراءتها البائسة فتزداد كثافة الدمع
العصي في عيني طيف التي عادت تتأمل المربع
الكريستالي بشجن ..

"فلامنجو" يقف على قدم واحدة .. وقد انثنت
الأخرى .. انثنت وجعاً وقهراً !

_ وهذه هدية متواضعة لا تليق بمقامك الرفيع! كل

عام وأنت بخير!

يقولها نزار بنبرته العابثة وهو يقدم لها علبة مغلقة
تناولتها هي بعدم اكتراث لتضعها جانباً فتحنج بحرج

هاتفاً:

_ أستاذة طيف! لماذا أشعر أنك لا تطيقيني؟!!

_ تشعر؟! وماذا ينقصك كي تتأكد؟!!

تهتف بها بفظاظتها المعهودة دون أن تتكلف

المجاملة ليرتفع حاجبا نزار بدهشة للحظة قبل أن

يتمتم بخفوت :

_ "جكمة"! والله ما كذبت!!!

تقدم لها الخادمة هديتها كذلك ..بأقة زهر رقيقة
فتقبلها دون شكر وقد فقد لسانها كلماته مع هذه
الفوضى التي تعيثُ فساداً بجوانبها ..
ترى الخادمة تناولهم أطباقهم من الحلوى وقد
انغمست مجد في مشاهدة فيديو صاحب مع
نزار ..بينما انتحى يحيى جانباً وقد بدا هو الآخر
منشغلاً بمكالمة هاتفية ..

هنا شعرت بعجزها عن التحكم في المزيد من
انفعالاتها فتحركت مبتعدة نحو الشرفة القريبة لتعطي
ظهرها لكل هذا !!

ترقب السماء التي خلت من نجومها عدا واحداً كان
يومض من بعيد ببطء متثاقل ..
فيشبه هذه الخفقة "الموجعة" في صدرها !!

الدمع العصي يوشك أن يخون فيسيل دون رادع !!
كأنها هاهنا فقط تدرك أنها كانت في سباق
طويل .. طويل جداً .. يوشك أن ينتهي فلا يعنيها فوز أو
خسارة ..

إنما .. هل كان المضمار حقاً لها ؟!
هل تستحق الجائزة كل هذا التعب ؟!!
ولا تدري لماذا الآن تذكر عناق عاصي الرفاعي ؟!!!
ربما .. ربما لأنه كان إحدى الحقائق القليلة في عالم
مليء بالضلالات !!

آآه !

تطلقها صاحبة ساكتة !!
ومن مثلها أقدر على فعلها ؟!!!
هو .. خلفها !!

تشعر به قبل أن تشم عطره !!

قبل أن يصلها صوته الذي تستبيحه هذه المرارة

المنهكة :

_لم تحتفلي بيوم ميلادك من قبل ؟!

لا تلتفت نحوه .. بل تبقى عيناها معلقتين بالنجم

البعيد ..

وفي خلفية الصورة يقف طائر فلامنجو أبيض على

قدم واحدة !

ربما لهذا يأتي الجواب سريعاً كأنما يلفظه صدرها بعد

طول تحمل ..

_مرة واحدة .. مع .. حبيب قديم !!

حماقة ؟!

شجاعة ؟!

أم هو فقط السد الذي انزاح فجأة لينهر من خلفه

فيض البوح ؟!!!

تلتفت نحوه مع جوابها لتلمح ما لم ترد تصديقه !!

ضيقٌ يلتحف بغيرة ويفترش العينين ذاتي القضبان !!

_ هو سبب كراهيتك للرجال ؟!

نبرته لا تزال منهكة مختنقة بينما تكتسي نبرتها

بقسوة حقيقية وهي تعود للشرود في النجم البعيد :

_ ربما! لكن لا تضعني في إطار الضحية

المظلومة .. أنت لا تدري ماذا فعلت به !

يزداد انعقاد حاجبيه مع هذا الفخر الظاهر الذي ظلل

قسوتها وهي تحكي له عن .. حسام !!

القصة كاملة !!

الدهشة تصيب سهما في قلبه وهو يراها تفضي بكل
هذا دون تحفظ ..

لكنه كان يعلم أنها الآن ليست في حالتها الطبيعية ..
هذه الليلة مست شيئاً بداخلها ..

ألقت كرة الثلج الصغيرة من فوق الجبل لتكبر شيئاً
فشيئاً حتى صارت تدمر كل ما في طريقها !!
تصمت أخيراً ولا تزال تراقب النجم البعيد ..
ربما إلى الآن لا تدرك أنها تكلمت .. تكلمت بصوت

عالٍ!

بينما كان هو خلفها يشعر أنه بحاجة أن يقترب
أكثر ..

ورجلٌ مثله لا يبرح حتى يبلغ !!

يقترب حتى يكاد يلاصقها ..

خصلات شعرها الأسود الطويلة تتطاير مع الهواء
فيشعر بها تصفع صدره .. قبل أن يستقر بعضها فوق
كتفيه طالباً حق اللجوء!!

ربما لهذا يكره الشعر الطويل .. يبدو له كحبائل تجيد
نصب الفخاخ ..

وهو لن يرضى لنفسه يوماً بالمزيد من الخديعة !!
إنما هذه المرأة تبدو مختلفة ..

امرأة لا تتخفى خلف قناع تبرج أو غنج ..

لا تخجل من الاعتراف بماضٍ أو خطأ ..

لا تستحي من البوح بحقيقة فتجملها ..

إنما تصعد الدرج بخطوات ثابتة رامية كل شيء

خلفها كأنها لا تبصر سوى القمة !!

قسوة انتقامها الذي عرفه عن ماضيها تبدو له

مخيفة ..

لكن ..ماذا عنه هو !؟

هل كان انتقامه أقل قسوة !؟!

الآن فقط يدرك كم كان صادقاً شعوره وهو يصفها

بأنها "توأم روحه" ..

توأم الجرح ..توأم الماضي ..توأم القسوة !!

تلتفت نحوه فجأة من شرودها لتتسع عيناها بدهشة

للحظة وكأنما أفاقت لتوها من حلم غريب ..

هل باحت له حقاً بكل هذا!؟!

وبكل هذه الشفافية !؟!

أي لعنة ألقاها عليها حتى تفعلها !؟!

لكن لا بأس!!

فليبقَ رأسها مرفوعاً!!

هي لا تخجل من شيء من ماضيها .. أي شيء!!
الحمية الفائرة التي تسري الآن في عروقها تنسيها
اقترابه الخطر ..

كأنه في هذه اللحظة في مكانه الطبيعي الذي وضعته
روحها داخلها منذ حين ..

بهذا القرب .. وبهذه الخطورة .. فما العجب!!?
"القضبان" في عينيه تتهاوى ببطء ..

و"السديم" في عينيها يزداد لمعاناً .. وفوضوية!!
الصمت الصاخب يشتعل في هذه السنتيمترات القليلة
التي تفصل بينهما ..

الوجهان ما عادا وجهين ... بل انعكاسي مرآة
متطابقين!

أنامله تمتد ليستقر كل كف فوق جيب من جيبي

سترته ..

الأيسر يحوي هذا الخاتم الماسي الفخم الذي يدرك أنه

سيرضي شغفها بهذه

الأشياء عالية القيمة ..

والأيمن الذي يحوي هذه الهدية الأخرى التي لا يدري

بأي سخفٍ صنعها ..

الهدية الرخيصة جداً..والغالية جداً ..

أرخص -ربما- من أن تنال رضاها ..

وأغلى -ربما- من أن تستحقها ..

فماذا عساه يختار!؟

هديتك!

يقولها أخيراً وقد حسم اختياره باقتضاب يناقض كل
هذه الثرثرة الصامته في عينين تهاوت قضبانها ..
لتتسع عيناها المحتلتين بهذا "الدمع العصي" الذي
شوش رؤيتها للحظات ..

فبين أنامله كانت سلسلة تعلقت في

دلالتها صدفة ..

صدفة صغيرة تشبه هذه التي ترتديها مجد دوماً وقد
أخبرتها يوماً أنه هو من صنعها لها ..

صدفة مجد لم تكن ملونة كأنه تركها لجمال فطرتها ..
إنما هذه في يديه حملت اللون البرتقالي ..

تراه خمن أنه لونها المفضل !؟

"الدمع العصي" ينذر بالمزيد من الخيانة فتسبل

جفنيها وهي تتنبه أخيراً لتقاربهما هذا فتبتعد

للخلف ..

_تشبه سلسلة مجد؟!!

تهمس بها بصوت متحشرج وقلبها يخفق بجنون ..

ليصلها صوته بكبريائه الرصين إنما مختنقاً بهذه

النبرة المنهكة :

_أن أهديك إياها يعني أنني أمنحك ما لم أمنحه لامرأة

منذ عهد بعيد ..

ترفع إليه عينيها بترقب وهي تشعر بهذه الرعدة في

جسدها ليردف باقتضاب:

_احترامي!

تغمض عينيها للحظة برهبة وهي تضغط شفثيها قبل
أن تمتد أناملها لتسحب منه السلسلة ببعض العنف
الذي تفرضه طبيعتها !

تقبض أناملها على السلسلة بقوة دون أن تنطق
بكلمة شكر لتشيع بوجهها بعدها دون رد ..
فيتراجع ليعطيها ظهره قائلاً :

_سنرحل الآن ..مجد لم تسترح تماماً من تعب السفر!

تراقب ظهره المغادر للحظات بفورة عاطفتها قبل أن
تهتف فجأة :

_انتظر!

يلتفت نحوها بترقب لتقترب منه هاتفة بفظاظتها
المعهودة :

_ كنت أريد شيئاً !

ينعقد حاجباه مع هذا التردد الذي أخرسها للحظة

كأنها تخشى الرفض ..

قبل أن تقول بما بدا كرجاء لولا خشونة لهجتها

الفطرية :

_ دع مجد تبيت معي هذه الليلة .. افتقدتها !

صمتٌ قصير يسود بينهما ينذرهما

بالرفض ..

لكن الجواب الذي يأتيها يستحق

الانتظار ..

والكلمة الآسرة تخصها هي هذه المرة :

_ تدللي!

=====

الطيف العاشر

=====

برتقالي

=====

_تدلي!

الكلمة السحرية تدوي في أذنيها بطنين لذيذ ..مريح

ومتعب!!

خمسة حروف فقط تجتاحها بما يشبه "القصف" ..

فتتلقاه بما يشبه "السكنى"!

كيف يمكن هكذا أن يتجلى معنى

"الاستيطان" في قلبٍ سأم أن تلفظه كل البلدان !؟

هل قالها حقاً أم أنها توهمتها من فرط ما تمنيتها !؟!!

"القضبان" تعود لترتفع في عينيه العنيدتين فيزداد
"سديم" عينيها فوضوية ..ولمعاناً !!
شفتاها تنفرجان مع تعلق نظراتها بعينيه اللتين
أغمضهما بسرعة كأنه هو الآخر يتعجب كيف خرجت
منه الكلمة "العادية" بهذه الحميمية "غير
العادية" !

يراها تتجاوزه لتغادر الشرفة مبتعدة بسرعة واهمة
بفظاظتها المعهودة..

لكنه كان يقرأ -بخبرته- ما يعنيه تشبث أناملها -
المتشنج- بسلسلته !

_ مجد ستبيت معي ! انصرفوا الآن كي تستريح!
تهتف بها بخشونة لا تتكلف المجاملة فيرتفع حاجبا
نزار بهتافه المرح كعهده :

_مستحيل! "السندباد" وافق!؟!

تتعجب لوهلة من وقع الاسم على أذنيها لكن شعورها
بالخجل مما خلف سؤاله يغلبها فتترجمه طبيعتها
لعبارتها الخشنة :

_عندما أكرر كلامي مرتين فالثانية كالعادة لا تكون
جيدة الأثر على الآخرين!

تكتم الخادمة ضحكتها فيما يزم نزار شفتيه وهو
يتخسر ليهتف مدارياً حرجه :

_أتمنى أن تعجبك هديتي !

لا تدري لماذا شعرت بطيف من التوعد في كلماته
لكنها لم تبالِ على أي حال ..

خاصةً و"السندباد" -بزعمه- ينحني على ركبتيه
أمام الصغيرة قائلاً بنبرته المنهكة :

_ ستبيتين هنا الليلة .

لم يبذُ وكأنه يسألها عن رأيها خاصةً مع هذه السعادة
التي كانت تتقافز على وجهها ..

والتي تراجع مع مسحة خوف طفيفة ناسبت قولها
وهي تتعلق بذراعيها في عنقه :

_ ستكون أول مرة أبيت فيها بعيدة عنك.

_ لو لم تكوني راغبة ..

يقولها وهو يربت على ظهرها مطمئناً لكنها تقاطعه
بالتفاتها نحو طيف هاتفة ببراعة:

_ ألا يمكن أن يبيت "بابا" معنا؟!!

ضحكة نزار العالية تزيد من حمرة وجنتي طيف التي
رمقته بنظرة أجبرته أن يبتلع بقية ضحكاته ..

نظرة صارمة ناقضت قرع الطبول الذي كان يدوي

بين ضلوعها ..

الصغيرة مرتاعةً من أول ليلة تببت فيها بعيداً عنه ..

وهي مرتاعة من أول ليلة تببت فيها مع أحد !!

أجل .. لقد اعتادت وحدتها حتى ألفتها وصار ما دونها

غربة !!

تراقبه وهو يعانق مجد بهذه الطريقة التي تكاد تذيب

أوصالها ..

ورغماً عنها تجد نفسها تقارنه بحسام من جديد ..

الغريب أنها في علاقتها بحسام لم تكن مهتمة بهذا

الجانب المادي الملموس من العاطفة ..

كانت تتأفف حتى من مجرد مصافحة باليد بينهما ..

كانت -ببساطة- تخاف!

تخاف أن تتجرف لتلك الهاوية التي سقطت فيها أمها

يوماً!!

لكنها لا تدري لماذا مع يحيى تتوق لعناق يشبه هذا

الذي يمنحه لمجد ..

تتوق للمسة أنامله الحانية كما يفعل بوجنتيها ..

تتوق لهذا الحنان الذي تترجمه أفعال لا أقوال ..

ربما هو ليس تَوْق امرأة لرجل إنما .. تَوْق طفلة لأب!

الدمع العصي من جديد في عينيها ينذر بخيانة فتطرق

برأسها ..

_قيمر!

تبتسم ابتسامة بمذاق الدموع وهي تسمع الكلمة

تتطلق من يحيى ومجد في نفس اللحظة !!

كأن كليهما وصل من الالتحام بالآخر ما جعله يشعر
بخوفه ويرغب في طمأنته في ذات اللحظة ..وبنفس

الطريقة !!

آه!

كم تشعر الآن أن لغة "الكاتبة" -الثرية التي طالما
افتخرت بها- فقيرة بل معدمة !

وكيف لا وهي تخلو من كلمة بمعنى "قيمر" هذه ؟!
بكل ما تحويه من احتواء ..حب ..وأمان!

ترفع عينيها فجأة لتصطدم بنظراته هو نحوها ..

ياالله!!

لم تتصور يوماً أن تصرخ عيان بتناقض كهذا الذي
يضطرم الآن في أحطاب نظراته ..

رجاء .. غضب .. حزن .. يأس .. وعيد .. اعتذار .. والكث

ير.. بل الكثير جداً من الوجد !

تدرك أنها لتوها فتحت قفلاً عنيداً في قضبان عينيه

لكن هل يكفي؟!!

يستقيم في وقفته أخيراً ليعطيها ظهره دون سلام في

تصرف فظ كان سيغضبها في أي موقف سوى هذا ..

بل إنها لا تبالغ لو زعمت أن خروجه هكذا يستحق

الشكر ..

تخاف أن يخذلها وهنأ معها أكثر!!

تغلق الباب خلفهم وهي تتمنى لو كانت -بهذه

السهولة- تستطيع غلق كل أبوابها المفتوحة ..

تشعر ببعض الألم في كفها فتنتبه لانغراز سلسلته في

لحم أصابعها ..

هل يقترن الألم باللذة ؟!

نعم..الآن يمكنها الحلف بهذا غير حائثة !!
ترفع السلسلة نحو عينيها الغائمتين بذات الدمع
العصي الذي ازداد كثافة بتعليق مجد :
_ "بابا" من صنعها ! تشبه خاصتي! ارتديها
بسرعة ..أريد رؤيتها عليك .
تزدرد غصة حلقها وهي تشعر بنفسها في حلم
غريب ..

تقترب من الصغيرة لتجتو على ركبتيها أمامها ..
_ ألبسيني إياها !

لا تدري بأي صوت خرجت منها !!

هي لم تشعر سوى بأنامل الصغيرة -التي حملت مذاق
لمسته منذ لحظات- تدغدغ عنقها بهذه القشعريرة
الدافئة ..

لم تشعر سوى برائحة عطره التي علقت بها تكتسح
حواسها ..

لم تشعر سوى بالصدفة "الباردة" تتدلى على
صدرها "المشتعل" .. تتأرجح فوق قلبها يمنة ويسرة
فيرقبها كطفل يمد لها ذراعيه اشتياقاً متقافزاً بنشوة
لم تعرفها من قبل بهذه الضراوة ..

**أن أهديك إياها يعني أنني أمنحك ما لم أمنحه لامرأة
منذ زمن بعيد .. احترامي!**

تكاد تسمعها بصوته الذي يتردد صداه بلا ملل بين
جدران روحها الشاسعة .. والخربة !

احترامي؟!

احترامي!!

ربما لو كان قال (إعجابي) أو حتى (حبي) ..لما

زلزلتها كما فعلت هذه الكلمة ..

هذه الكلمة التي تعني الكثير ل"امرأة"

بتاريخها..ومن "رجل" مثله !

_ ماذا أحضر لك "أنكل" نزار؟!

تنتزعها بها مجد من طوفان عاطفتها فتتكلف ابتهامة

وهي تنهض من مكانها لتتوجه نحو الجوار ..

تفض غلاف هديته لينتابها بعض الفضول نحو

الصندوق المربع ..

تحاول فتحه بصعوبة وهي تصب عليه لعناتها سراً

ولولا وجود مجد لجهرت بها ..

قبل أن تشهق أخيراً ببعض الذعر!!
فقد انفتح الصندوق أخيراً لتخرج منه لعبة زبركية
سوداء بشعة المظهر وقد كتب جوارها داخل
الصندوق (مع تحياتي ..فرقع لوز!)
ضحكات مجد العالية جوارها تمتزج بانعقاد جبينها
هي الساخط والذي يتحول رويداً رويداً لابتسامة
تتسع شيئاً فشيئاً ..
ابتسامة تتحول لضحكة قصيرة خافتة..
ثم طويلة عالية ..
ثم تصطدم بنظرتها في مرآة قريبة لهذه الدلاية في
عنقها ..
هنا فقط ينتصر ..ينتصر الدمع العصي!!

تجهش فجأة في بكاء خافت وهي تركض نحو مجد

المندهشة ..

تجتو على ركبتيها أمام كرسيها تعانقها بقوة ..

بقوة توازي حرمان العمر الطويل !!

العالم يدور بها ..

يدور، ويدور ..

فلا تبصر سوى طفلة حافية القدمين تمسك بقطعة

خبز جافة تجوب الطرقات متعلقة بجلباب أمها ..

طفلة تبكي .. والآن ..

الآن تضحك !!

هل أزعتك هدية "أنكل" نزار إلى هذا الحد؟!

سأخاصمه ! سأشكوه لـ "بابا" !! لا

تبكي .. أرجوك .. لا تبكي !!

براءة مجد الطفولية تبدو وكأنها تسكب المزيد من

الملح فوق جراحها ..

كيف تخبر هذه الطفلة أنها فعلت بها ما لم يقدر عليه

أحد قبلها ..

أخرجتها من صومعتها الحامية لتواجه العالم من

جديد ..

لا كطيف الرفاعي .. ولا حتى طيف الصالح ..

بل طيف .. طيف فحسب دون أية حسابات!

طيف بكل احتياجها .. حرمانها .. رغباتها .. أحلامها

التي دفنتها بين سطور الورق !!

_ أنا بخير! فقط .. لم أشعر هكذا بالسعادة قبل عهد

بعيد !

دون محاذير ..

دون كذب ..

دون مبالغة ..

تقولها وهي تكاد تعتصر الصغيرة بين ذراعيها ..
الصغيرة التي مدت أناملها لتمسح دموعها فتناولت

هي أناملها الصغيرة لتغرقها بقبلاتها ..

لم تمنح هذه العاطفة منذ زمن طويل ..

طويل جداً لا تعلمه ..

كأنما أقفال قلبها الصدئة انكسرت فجأة لتندفع كل

مشاعرها من سجونها متمرده طاغية .

_ سأنام في حضنك!

تهتف بها مجد بضحكتها الطفولية لتهز طيف رأسها

قائلة بشرود :

_طوال هذه السنوات بعد وفاة أمي لم أنم جوار
أحدهم ..

ثم تلتفت نحوها لتقبّل خدّها الممتلئ مردفة:

_لكنك استثناء!

ضحكات مجد تتزامن مع طرقات الباب الذي عادت
طيف تفتحه لتجد الخادمة تحمل لها ثياب النوم لمجد
مع حاجياتها الضرورية ..

تساعد الصغيرة في تبديل ثيابها ثم تحملها بين

ذراعيها لتستلقي جوارها على الفراش ..

_بابا يحب النوم على جانبه الأيسر .. أخبرته أن هذا

قد يكون محرماً فصار يستمع لي وينام على جانبه

الأيمن .. لكنه عندما يستغرق في النوم يعود للاستلقاء

على الأيسر .

تثرثر مجد بعفويتها الطفولية فتبتسم طيف بشرود

وهي تداعب خصلات شعر الصغيرة متسائلة :

_ تحبين مراقبته نائماً؟!

_ دوماً ! أحب مراقبته دوماً ! تعلمين أنه يشبهك؟! لا

يضحك كثيراً ..يشرد كثيراً ..ويحبنى كثيراً كثيراً

كثيراً ..

تفرد معها مجد ذراعيها في تصوير لكلامها فتتسع

ابتسامة طيف وهي تستعيد ملامحه البائسة لهذه

الليلة ..

نبرته المنهكة ..

وهذا الوجه المنطفئ الذي تراه منه لأول مرة ..

فتسألها بحذر:

_ هل أحببت بغداد؟! ضايقتك شيء هناك?!!

_ على العكس .. أحببتها كثيراً .. لكن "بابا" يقول إن
بغداد كالشمس .. ننعم بدفئها في البعد ولو اقتربنا
نحترق .

ينعقد حاجباها مع قسوة التشبيه للحظة لكنها تعاود
الابتسام بمرارة ..

ربما لو أرادت وصف مصر لما وجدت تشبيهاً أرق!!
آه !

كم يشبهها!!

ربما هذا سبب التجانس الغريب الذي تستشعره
نحوه !!

_ احكي لي حكاية !

تنتزعها بها مجد من شرودها فتتهد وهي تضم
رأسها لصدرها ..

ورغماً عنها تتذكر حكاية قديمة تطفو على سطح

أفكارها الآن ..

كانت أمها تحكيها لها وهما تفترشان أحد "الأجولة"

القديمة فوق فرن خارجي لأحد البيوت ..

الذكرى تبدو طازجة جداً حتى إنها تسمع صوت نقيق

الضفادع ..صرصار الحقل الذي يشكو الليل

الطويل ..تشم رائحة الطين المبلل ..تحتضن فراغ

الحقول القريبة التي تبدو في الظلمة كسماء أخرى

إنما غاب قمرها ..

ترى أعمدة الإنارة من بعيد بضوئها الهزيل الذي

التفت حوله حشرات تزاحمت ولا تدري أن في

الاقتراب هلاكها ..

تسمع صوت نهيق حمار .. ثم نباح كلب ..
هذه التي كانوا يزعمون لها في طفولتها أنها أمانة
رؤيتها لشيطان ..

لكنها -حتى في ذاك العمر الصغير- تعلمت بأقصى
طريقة أن شياطين الإنس الذين نراهم يخيفون أكثر
من شياطين الجن الذين لا نراهم ..
ربما لهذا تضم طرف الغطاء "الفخم" الذي تلتحفه
الآن بنفس الطريقة التي كانت تضم بها البطانية
"المهترئة" وقتها و التي كانت تتظاهر بأنها تمنحها
سترأ أو دفناً ..

والحقيقة أنها لم تكن تمنحها أياً منهما!!

_"كان ياما كان ..في سالف العصر والأوان ..وقبل
الزمان بزمان ..وما يحلاش الكلام إلا بذكر النبي عليه
الصلاة والسلام ..كان فيه أميرة .."
ترويه ب"العامية المصرية" كما كانت تسمعها من
أمها لتتسع ابتسامتها موازية لابتسامة مجد
المستمعة بما ترويه ..

فلا تدري أيهما تسلي الأخرى !!
تقطع حكايتها أخيراً بعد دقائق طالت وهي ترى مجد
قد استسلمت تماماً النوم ..تضمها إليها بقوة رفيقة
وهي تقبل رأسها شاعرةً كم افتقدتها للفترة
السابقة ..وخائفة من فراق أيام قادمة ..
ثم تتهد بعرق وهي تنتبه أنها تنام على جانبها
الأيسر ..

تتذكر ما روته لها مجد عن طريقة نومه فتسبل
جفنيها وهي تتردد قليلاً قبل أن تستدير بجسدها لتنام
على جانبها الأيمن تتخيل أنها تواجهه في نومه !!
شعورٌ ممتع تشعله لذة الاختلاس وهي تغمض عينيها
للحظات شاعرةً بعظم المؤامرة !!
أجل ..كلهم تأمروا عليها !!
ذكرياتها ..ماضيها ..افتقادها لمجد ..وله ..و...وهو !!
هو ..بوسامته ..بحنانه ..بنبرته
المنهكة ..بهديته ..بصوته ..
وهذه ال "تدلي" المرعبة ..الفتاكة ..التي تستحق
أن تصنف مع الأسلحة المجرمة دولياً !
وأخيراً هذه الابتسامة الخاصة ..الخاصة جداً على
وجهها والتي تقسم أنها جديدة على رمال شفتيها ..

أتى بها "سندباد" على سفينته وزرعها هنا على

ملاحها هي!

تبتسم لسحر التخيل ثم تشهق فجأة وهي تنهض من

رقبتها فجأة كأنما لدغها عقرب!!

ما هذا الذي فعله!؟

كيف تستسلم لهذا الوهن!؟

للمزيد من هذا الغرق في بحر لا تأمن أمواجه!؟!!

_ خرب بيت...!!

تقطعها دون أن تكملها هذه المرة كأنما لم يطاوعها

قلبها ..

فتكتفي بزفرة ساخطة وهي تغادر الفراش ..

تهم بتبديل ثوبها استعداداً للنوم لكنها تتسمر أمام

المرآة ..



وبالتحديد أمام صدفته التي استقرت جوار قلبها ..

ستخلعها !

لن تسمح له أن يراها وهي ترتديها ..

أبدأ ..أبدأ ..

فقط ستحتفظ بها جوار قلبها هذه الليلة ..

هذه الليلة فقط !!

فلتكمل استثنائيتها لآخرها!!

وفي غرفة مجد كان هو يقف أمام فراشها الخالي

يشعر بالغرابة ..

لماذا سمح أن تبين هذه الليلة بعيدة عنه!؟

منذ متى يأتين عليها أحدهم!؟

هل ستهزم هذه المرأة قناعاته!؟

هل ستتسلل عبر هذا الشق الضيق للباب الذي طالما

أغلقه !!؟

يغمض عينيه ثم يضغطهما بتعب حقيقي وهو يجلس

على طرف الفراش الخالي فتصطدم مخيلته بها وهي

تمد ذراعيها بلهفة تحتضن مجد بعدما فتحت لها باب

شقتها ..

المشهد يعاد ويكرر فتختلط صورتها .. ب .. صورة

أخرى !!

نفس الالهة .. نفس الشوق .. نفس الذراعين اللذين

ظن أن بينهما تثبت الف جنة فكانا له جحيم سقر !!

افتقدها ؟!

كاذب لو قال لا ..

وملعونٌ لو قال نعم!!

_ انسَ يا يحيى..انسَ!

يرفع وجهه فجأة لتصطدم نظراته بعيني نزار الواقف
أمامه وقد تخطى عن نبرة عبثه المعهودة وهو يسأله
بملاح جامدة :

_ لماذا منحتها السلسلة بدلاً من الخاتم !؟

ينعقد حاجباه بشدة مع انفراج شفثيه وكأنه يهم بالرد
لكنه استتكف ..استتكف أن يكذب على صاحبه !
هذا الذي شعر به نزار وهو يكمل أسئلته بنبرة لاتزال
على جمودها الخطير :

_ لماذا تركت مجد تبيت معها !؟ ظننتك لن تفعلها
أبداً !

يطرق برأسه دون رد فيقترب منه نزار ثم يجلس
على الأرض أمامه مربتاً على ركبته بقوله :

_ ليس لي أن أخبرك بما يجب أو لا يجب عليك
فعله .. إنما دعني فقط أسألك .. هل تنتبه أين تحملك
خطواتك !؟

يرفع رأسه ببطء وهو يعي جيداً ما يقصده صديقه
بكلماته فيشير بوجهه لكن نزار يستقيم واقفاً من
جديد ..

يربت على كتفه بحركة داعمة مكتفياً بقوله :

_ تصبح على خير يا .. يا "سندباد"!
يبتسم بمرارة وهو يدرك أن "سندباد" لم يعد
لقباً .. بل قدراً!

قدراً تصالح معه منذ عهد بعيد ..
منذ أجبروه أن يحترق بخطاياهم ويقف متنشقاً رماد
فنائه !!

لهذا يعاود الوقوف ونظراته تزداد قتامة ..
خطواته تحمله نحو النافذة القريبة فيتحرك إليها ببطء
ليزيح ستارها .. فيجدها أمامه !!
الغريب أن كليهما لم يفاجأ بصاحبه كأنما كان
ينتظره !!

العيون تلتقي على هذا البعد فتعلق نظراتها بلامحه
البائسة ..

وتتعلق نظراته بصدفته على صدرها!
هذا الذي انتبهت إليه أخيراً وهي تكز على أسنانها
فجأة قبل أن تسدل الستار بعنف وهي تلعن نفسها ..
كيف نست ؟!

كيف تركته يراها بها ؟!

الغضب الأحمق يجعلها تخلعها ببعض العنف لتلقيها
على طاولة زينتها بحدة ..

_ هي ليلة طويلة ولن أذوق النوم ! أنا أعلم !

تهتف بها بسخط وهي تجلس أمام حاسوبها تحاول
إلهاء نفسها عن غضبها بالكتابة ..

وفي مكانه ظل هو واقفاً بعد رحيلها للحظات قبل أن
تلتوي شفتاه بابتسامة غامضة ..

يسدل الستار بدوره ثم ينتزع سترته ليلقيها جانباً
فيفاجأ عليها.. بهذه !!

شعرة سوداء طويلة يعرف لمن تكون !!

تغميم عيناه بنظرة شاردة وهو يتذكر وقفها أمامه ..

شعرها الذي لاصق صدره بنعومة تناقض مظهرها

المتقنفة دوماً ..

لهذا يكره الشعر الطويل عادة ..إنما هذه ..!

هذه استثنائية ..مثلها!

يرفع الشعرة أمام عينيه ببطء لتتسع الابتسامة

الغامضة فوق شفثيه ..

يتوجه نحو حاسوبه ليفتحه ..

وفي مكانها كانت هي منهمة في كتابة مشهدها

لتفاجأ بإشعار عن وصول رسالة منه لحسابها

المزيف ..

تتسع عيناها بلهفة وهي تفتحها ..

_مستيقظ يا ضياء!؟!

_نعم ..كيف حالك!؟!

تكتبها له بسرعة وقلبها يخفق بجنون تنتظر

رسالته ..

_ شيء ما يؤرقني .. شيء يناقض طبيعتي .. ربما لو

أخبرتكم به لاتهمتني بالنفاق ..

خفقاتها تزداد فوضى وهي ترسل له مطمئنة :

_ أنا أثق بك يا صديقي .. يمكنك أنت أيضاً الوثوق

بي ..

وفي مكانه كان هو لا يزال يتأمل الشعرة السوداء

الطويلة ..

يلفها ببطء حول سبابته ثم يغمض عينيه كأنه يخشى

فوضى شعوره ..

فتحة ذراعيها لمجد .. ابتسامتها الشاردة .. صوتها

المذبوح بحكايات ماضيها .. شعرها المقابل

لصدره .. سديم عينيها الواعد بألف

نجمة .. وأخيراً .. صدفته الراقدة بنعومة على جيدها ..

صوت حاسوبه برسالة من ضياء يتعجله الرد ..

فيتهد بحرارة وهو متردد في البوح ..

قبل أن يكتب أخيراً :

_أخشى أنني ..أوشك أن أقع في فخ الحب!

=====

بنفسجي

=====

من قال إن العمر يحسب بالسنين!؟

عجوز هرمة تسكن جسد امرأة عشرينية بوجه طفلة

توقف عداد سعادتها هناك ..في سورية !

"سجينة المرايا" ..رفيقة الأشباح ..



كهذا "الأبيض" الذي وقف يواجهها الآن بعد طول

عتابه بنظرة راجية ..قائلاً:

سند !

فترد بحرقة وهي تتحسس فردة القرط البنفسجية :

لا تخافي يا هالة ..لن أتركه ..لن أتركه أبداً ..عاصي

يمهد للانتقال للسكنى هنا في العاصمة ..اختر بيتاً في

أحد التجمعات السكنية الهادئة واختار لي البيت

المقابل له تماماً كي أسكنه مع سند ..سند متعلق بي

تماماً ..يشم في رائحتك كما أشمها أنا فيه ..سأعيش

معه ..بل سأعيش له ..

يهياً إليها أن الشبح الأبيض يبتسم ..فتبتسم بدورها ..

لكن الشبح الأسود يظهر لها فجأة في المرآة بوجهه

القيح ..

تظنين أنك ستهنئين بحياة؟! مثلك لم يخلق سوى
للمهانة.. للإذلال.. لتبسين ثوب الضحية تدارين به
ضعفك.. أنا قهرتك في الماضي والآن يفعلها عاصي
الرفاعي.. يسجنك في بيت يختاره لتكوني خادمة
للولد.. ظننتك لوهلة ستنتفضين لحق
صاحبتك.. ستأخذين بثأرها من حسام القاضي
ذاك.. لكنك فضلتِ حظيرة الأرانب التي فتح بابها لك
عاصي الرفاعي.. جبانة.. مهانة.. تستحقين أن تركلك
الأقدام..

وجهها يحمر بغضبها الذي تحول لخوف شديد وهي
ترى الشبح يقترب أكثر يمد لها كفه بصفعة!!
تعود للخلف كي تتحاشاها فتتعثر بطرف سجاداتها
لتسقط..

عيناها لا تزالان متعلقتين بالمرآة ..
الشبح الأسود يقهقه ضاحكاً بشماتة وهو يعطيه
ظهرها ليختفي ..
فتصرخ كأنه يسمعها :
_ سأنتقم ! غداً أنتقم ! غداً آخذ حقي وحق
هالة .. وسند .. سند سيكون معي .. سأريه بعينه كيف
أخذت حق أمه ..
هنا يرمقها الشبح الأبيض بنظرة عاتبة ثم يعطيها
ظهره بدوره ليختفي كذلك ..
الشبح الأرجواني فقط هو ما يبقى معها ..
_ سيرى في طريقك .. لن يروي عطشك سوى كأس
الانتقام .. هو وحده من سيردك ديمة القديمة بعمرها
الذي ضاع ..

تلتمع عيناها بشراسة وهي تنهض مترنحة ..
أشباح المرأة تختفي لكنها تعلم أنها تسكن روحها
هي !!

رنين هاتفها يقطع أفكارها فتتناوله لينعقد حاجباها
بضيق وهي تميز اسم أديم ..

تأخذ نفساً عميقاً ثم تفتح الاتصال لترد ببرود ..
برود كان أبعد ما يكون عن نبرته الدافئة رغم القوة
المتأصلة فيها :

_ لن أسألك كيف حالك فأنا أعلم .

_ ما الذي تعلمه بالضبط !؟

بنفس البرود تسأل ليرد :

_ زيارة منزل عاصي لأجل رؤية سند ..ثم زيارة
طبيبه في القاهرة ..عودتك إلى هناك معهم ..ثم
رجوعك إلى هنا .

_ أضف إلى معلوماتك إذن أنني سأغادر هذا
البيت ..سأقيم في بيت مقابل لبيت عاصي لأجل أن
أرعى الصغير أمام عينيه .
تهتف بها ببعض الانفعال والغضب يتسرب لنفسها من
شعورها بأنه يحاصرها ..
يقول أنه يحبها !!؟

يظنها لا تزال تؤمن بهذه الترهات !!؟
غازي كان يقول أنه يحبها ..
وهي آمنت يوماً أنه يحبها ..
فإلى ما آل المصير !!؟

_عظيم ! قربك من سند سيبعد عن رأسك أفكارك

السوداء .

يقولها بحذر لتتهف بانفعال متزايد :

_ماذا تقصد !؟

_تعلمين ماذا أقصد ! ابتعدي عن حسام يا ديمة !

ثوب الانتقام هذا لا يناسبك !

_لا شأن لك !

_تظنين أنني سأتركك تؤذينه أو تؤذي نفسك !؟

_لماذا تكرر الكلام!؟ لماذا لا تفهم !؟! أنا امرأة

منتهية ..منتهية !!

تصرخ بها بانهيار يرجه مكانه ..

_تظنني جاحدة بالنعمة !؟ واحدة ترى رجلاً مثلك

يعرض عليها حياة جديدة وينتظر أن تقول نعم

فيتزوجان وينجبان ويعيشان عيشة طبيعية ..تظنني

أصلح فعلاً لعيشة طبيعية !؟

كلماتها السابقة لم تغادر شفيتها إنما أطبقت عليها

روحها ..

هو لا يفهم ..

هي نفسها لا تفهم ..

جزء بداخلها غاضب ..غاضب حد الجنون ..

يريد تحطيم كل شيء حولها حتى ولو تحطمت معه ..

وجزاء آخر خائف ..خائف حد الرعب ..

لا يريد سوى زاوية منسية في حائط متهاك يتكوم

فيها كي لا يؤذيه أحد ..

وبينهما ألف ألف جزء ..

ألف ألف شظية ..

كلها لا تكاد تميز أمساً من يوم من غد ..

فمن القادر على لملمة كل هذا ؟!

من؟!!!

_ ديمة .. أنا لا أراقبك تسلطاً .. أنا أخاف عليك .. قاتل

غازي لا يزال حراً طليقاً ولا ندري كيف يفكر من

خلفه .. ديمة أنا .. أنا أحبك .. امنحيني فقط الفرصة

ودعيني أقرب ..

يقولها راجياً لكنها تأخذ نفساً عميقاً لترد :

_ وأنا لا أحبك .. ولن أحب أحداً بعد اليوم سوى

نفسي .. لا تتصل بي ثانيةً .. سأغادر هذا البيت منذ

الغد .. جلسة الحكم في قضيتي اقتربت .. عندما أنال

إرثي من غازي سأرد لك كل ما دفعته لأجلي .. لم يعد

بيننا سوى هذا !

تقولها ثم تغلق الاتصال بعنف دون انتظار الرد ..
قسوتها معه تملؤها نشوة للحظات ..
لكنها تتحول لخوفها المعهود وهي تخشى رد فعله ..
تكتف ساعديها وهي تهم بالاتصال به كي تعتذر له ..
ترتعب وهي تتصوره يأتيها غاضباً فيشدها من
شعرها ثم يلقيها في إحدى الزنزانات المظلمة ..
تراه في خيالها يصفعها فتتشوش صورته وتختلط
بصورة غازي !!
هكذا صارت !!
مزيجاً غير متجانس من قسوة وخوف .. بل رعب !!
تعض شفتها بقوة تكاد تدميها وهي تكتف
ساعديها ..
صوتٌ بداخلها ينادي :

_ أديم لن يؤذيك ..

فيرد آخر :

_ كنتِ تقولينها يوماً على غازي كذلك !!

رنين هاتفها يقطعها من جديد فتنتفض مكانها بفرع

لكنها تسترخي نوعاً ما وهي ترى اسم ماسة واعداً

بالمزيد من "سند" ..

هل كنتِ تعلمين يا هالة وأنتِ تختارين له هذا الاسم

أنه يوماً ما سيكون لي سنداً !!؟

تفتح الاتصال لترد بصوت مرتجف على سؤال ماسة

عن أخبارها ..

_ سند بخير؟!!

تسألها لتعطي ماسة الهاتف للصغير الذي لا يزال لا

يتفوه سوى بكلمة واحدة منذ رآها ..

ماما!

فتسيل دموعها صامته وهي تمنحه عدة قبلات عبر

الهاتف قائلة :

خدأ آتيك ..سأعيش معك ..لن أفارقك يوماً ..كن

بخير يا سند ..

الرد يصلها من ماسة التي عادت تحدثها بقولها :

لن ننسى لك هذا المعروف أبداً ..دكتور كان يقول

أنه سيكون لك دور كبير في علاج سند .

فقط عديني ..لو استعاد عافيته ..ألا تحرموني منه

أبداً !

بالطبع!

تهتف بها ماسة بحرارة وإن كانت في قرارة نفسها

تشعر أن عاصي ليس راضياً تماماً عن ديمة ..

وأنها لا تزال في منطقتة الرمادية الغائمة فلم يمنحها

ثقتة بعد ..

لكنها -ماسة- تثق بحدسها ..

ديمة لن تؤذي سند .. بل إنها تحتاجه بأكثر مما

يحتاجها !!

لهذا عادت تقول بحنان :

_لنا حديث طويل عندما نلتقي غداً ..

_قبلي سند .. قبليه كثيراً .. افتقدت عناقه ..

تقولها بحرارة ثم تغلق الاتصال لتضم الهاتف

لصدرها بقوة ..

سند!

نسمة هادئة وسط كل هذه الأعاصير التي تغشى

حياتها !!

نسمة عكرها حسام القاضي بجريمته مع أمه ..

ولا يزال الصغير يدفع ثمنها إلى اليوم !!

الخاطر الأخير يعاود إلقاء غلالة القسوة على

ملامحها ..

الشبح الأرجواني يعربد داخل حناياها وهي تتوجه

نحو الأريكة القريبة تمارس هوسها اليومي الذي

صار عاداتها بمراقبة حساب حسام القاضي ..

عادته بتصوير مشاهد حياته جعلتها تشعر وكأنها

تعيش معه ..

تعرف شكل بيته .. شرفته .. الكلبة التي يسميها

سلطانة ..

كلبة؟! !!

المنافق يبدي كل هذا الاهتمام لكلبة !!

وهو الذي دهس هالة دهساً !!
تكز على أسنانها مع الخاطر الأخير وهي تكمل تصفح
حسابه ..

تعرف النادي الذي يذهب إليه ..

المطاعم التي تروقه ..

عجيبٌ أمره !!

رجلٌ بمهنته توقعت أن يكون مشغولاً عن هذه
التفاهات ..

لكنه يبدو مهووساً بتصوير حياته للآخرين ..

مغرور! منافق! مدّع!!

ربما كان هذا من حسن حظها هي !!

لقد كانت ماهرة جداً في دراستها ..

و" هو " صار مادتها التي ستحفظها ظهراً عن

قلب ..

يجب أن تفهم كل ثغراته كي تجيد دخول حياته ..

ثم تدميرها !!

تمر على منشوراته بدقة تراقب كل التعليقات ..

تحفظ كل الصور وتخزنها في ذاكرتها بهوس ..

الآن .. هو في النادي الراقى الذي يمارس فيه رياضته

أسبوعياً ..

فلماذا لا ...؟!!

الجواب تقدمه عملياً وهي تلقي الهاتف جانباً لتتحرك

نحو خزانة ملابسها فتفتحها ..

وتفتح معها المزيد من الأبواب معه !

=====

العرق الغزير يغمر جبينه وهو ينهي تمارينه في
صالة الألعاب الرياضية الخاصة بالنادي ..
يرى إحداهن ترمي له نظرة خاصة وهي تشاهده في
مجلسها عبر الزجاج الفاصل بين صالة الألعاب
وكافيتيريا النادي ..
فيلقي لها ابتسامة عابرة ..
تعد ولا تمنح !!
هل يزعم أنه زهد النساء؟!
لا .. ليس بالضبط!!
لا يزال على علاقاته "الطائرة" كما يسميها مع
بعضهن واللاني يقبلن شروطه ..
قاعدته الأولى والأخيرة لهن جميعاً ..
(مرة واحدة فقط لا تتكرر)!

فهو لن يقع في فخ التعلق !!

لكن له خطين أحمرين..

العمل ..والزواج !!

لا ينظر لامرأة تربطه بها علاقة عمل ..

ولا لامرأة تريد ربطه بعقد رسمي..

_أريد أن أفرح بك يا ابني قبل موتي !!

عبارة أمه الدائمة والتي يجيد إخراجها بجوابه :

_كي تجرحني مثل يسرا؟! ..أو كي أرحها أنا مثل

دعاء؟!!

فلنقل إنه زهد الزواج إذن ..وليس النساء!!!

دينا؟!!

لا ..دينا ..شأن آخر !!

صحيحٌ أنه فكر فيها يوماً بهذه الطريقة خاصة مع ما

كان يعرفه من ماضيها ..

لكنه عندما قرر مساعدتها لتغيير حياتها نقلها بمنتهى

الحزم لخانة أخرى ..حتى ولو كانت هي نفسها

ترفض هذه الخانة معه !!

يتحرك نحو الجوار ليغتسل ثم يبدل ثيابه ..

يمشط شعره باهتمام كعهده وهو يضع هذا العطر

الخاص بإجازته الأسبوعية ..

وقد اختاره خصيصاً برائحة أكثر انتعاشاً كي تمنحه

الراحة المطلوبة ..

يحب الاستمتاع بإجازته كما يحب إجادة عمله ..

يغادر صالة الألعاب نحو الكافيتيريا القريبة فيجلس
على إحدى الموائد مراقباً شمس الغروب التي مالت
تعانق سطح الماء ..

ذكرى خاطفة له مع دعاء تجتاحه ..
كان يحب السباحة .. وكانت تخافها ..

فغرق هو .. ونجت هي !!

هو ارتضى أن يكون شيطان الحكاية .. والشياطين لا
تعيش سوى محترقة في نيران جحيمها !!
ذكرى أخرى من طيف تجتاحه .. لكنه يئدها في
مهدا ..

لا يريد الاستسلام لهذا الطوفان الجارح من جديد ..
يتناول سيجارة ليشعلها ثم ينفث دخانها ..

عيناه الصقريتان تصطدمان بأحد زملائه القدامى من
ضباط الشرطة والذي غادر مكانه ليتقدم الآن نحوه ثم
يصافحه ببعض العجرفة مدعياً الود :

_ كيف حالك يا حسام؟! بارك لي ..صرت "رائد"!!
يباركه ببرود دون أن يقف مكانه أو يغير جلسته فيرد
الرجل بشماتة خفية :

_ لو كنت بقيت في الخدمة لكنت سبقتني ..خاصة أنك
ترقيت بسرعة بعد زيجتك الأولى من ابنة اللواء
رفعت الصباحي ..كنت صرت "مقدم" الآن ..لكن لا
بأس ..أرحت دماغك ..سعيداً بممارسة المحاماة؟!
_ جداً ..فوق ما تتصور!

يرد بنفس البرود المستفز مخفياً ضيق صدره ليبتسم
الرجل بالمزيد من الشماتة وهو يغادره بنظرة
سمجة ..

نظرة يبادلها إياها بنفس القوة ..

هل يشعر بالغضب من شماتته ؟!

يكذب لو قال لا .. أو نعم !!

هو راضٍ بكأس العذاب الذي يرتشفه قطرة قطرة ..
وينتظر المزيد !!

نظرته للرجل تنقطع برويتها وهو يفاجأ بها أمامه !!
ديمة !!

تبدو وكأنها لم تنتبه له بينما تتخذ مقعدها على
الكرسي البعيد ليراها بهذا الوضع الجانبي ..
هما الآن ليسا في مكان عمل !!

ربما لهذا سمح لنفسه أن يتفحصها بنظرة رجولية

خالصة ..

شعرها الأحمر القصير الذي ينافس شمس الغروب

في لمعانه واشتعاله ..

عيناها شاردتان في الغروب مثله منذ قليل ..

شفتاها منفرجتان تتحركان ببطء كأنها .. تحدث

نفسها!

ثوبها القصير عاري الذراعين أبيض اللون بزهور

أرجوانية رقيقة ..

لا يتعجب من عدم ارتدائها للأسود .. رجلٌ كزوجها لا

تحزن عليه امرأته !

تكتف ساعديها منكمشة على نفسها كأنها تشعر

بالبرد رغم حرارة الجو ..

لها الحق في هذا الخوف !
امرأة بهذا الجمال .. بهذه الوحدة .. وبهذه الظروف ..
هي مطمع للكثيرين !
يدور بعينيه حولها ليجد الأنظار التي تعلق بها مع
الغمزات واللمزات التي يفهمها رجل مثله تؤكد
نظرته ..

صوت غروره الداخلي يكاد يدفعه للتوجه إليها كي
يحدثها أمام كل هؤلاء فيعلمون أن هذه الفاتنة التي
تكاد عيونهم تأكلها تعرفه هو ..
لكنه يخرسه تماماً هذه المرة وهو ينهض من مكانه
معتزماً بالمغادرة ..

يطفي سيجارته ثم يتحرك باتجاه الخروج متجاهلاً
النظر نحوها من جديد ..

لكنه يفاجأ بنداها خلفه :

_أستاذ حسام!

يلتفت نحوها ليراها تتحرك نحوه بخطوات مندفة

تباطأت نوعاً ما عندما التقت عيناها ..

لكن قدميها انزلقتا فجأة على العشب الطيني المبلل

ليراها تسقط مكانها !!

يبتسم مشفقاً لهذا الحرج الذي ظل ملامحها وهو

يقترب منها ليمد لها كفه كي يساعدها في النهوض ..

فيشعر بارتجافة حدقتيها وهي مترددة في مد كفها

نحوه تماماً كما فعلت بمصافحتيها أول مرة ..

لكنها تحسم تردها أخيراً وهي تستند على كفه

محمرة الوجه لتنهض محاولة تنظيف ثوبها الذي

صار ببقعة الطين كارثة !!

_ أنتِ بخير؟!!

تهز رأسها بارتباك وهي ترفع إليه عينيها ليستشعر
حرجها .. فيكاد يرد بعبارة لبقة لكن لسانه يتجمد
فجأة ..

لأول مرة ينتبه للون عينيها الغريب .. كان يظنهما
زرقاوين فحسب !!

لكنه لأول مرة ينتبه لهذه الصفرة التي تتمركز وسط
زرقتهما القاتمة ..

كأنها " حلقة زعفران " ذهبية وسط غابة في وقت
السحر !!

يعجبه التشبيه فتتسع ابتسامته وهو يراها تسحب
كفها منه ببعض العنف الذي وجدته غير مبرر ..
لتهتف بارتباك عبر عينيها الزائغتين :

كنت ..أريد سؤالك عن ..القضية !
يرتفع حاجباه للحظة وهو يتفحصها بخبرته ..
ربما لو كانت امرأة أخرى لظن أنها تحاول فتح حديث
مختلق معه ..
لكنها تبدو وكأنها ..
لا يدري ..هو فقط يشعر أنها ..غير طبيعية !
يتقدم معها نحو منضدتها فيجلس قبالتها وهو يلاحظ
تشتت نظراتها ..
تنظر للمنضدة ..لكفيها ..للجوار ..للنادل الذي اقترب
بكأس العصير خاصتها ..
لكل ما حولها ومن حولها ..إلا هو!!
لا ..ليس خجلاً ..هو قادر على تمييز الخجل في وجوه
النساء!

إنه ..نفور!!

لماذا إذن دعت للجلوس!!

غريبة هذه المرأة ..غريبة حقاً!!

يبدأ في الحديث عن تطورات قضيتها بنبرة عملية لم

تمنعه من دراسة ردود أفعالها التي بدت له مثيرة

للانتباه ..

تارة تتحرك للأمام كأنها تتعمد استعراض مفاتها ..

ثم تعود للخلف بسرعة مكثفة ساعديها كأنها تستر

نفسها !!

تارة تبتسم له هذه الابتسامة شديدة التكلفة ..

وتارة تدمع عيناها ليسحبها هذا الشرود البعيد ..

غير متزنة !!

هذه المرأة غير متزنة تماماً !!

_ أنتِ بخير ؟!

سؤاله هذه المرة كان له ما يبرره وهو يرى جبينها
قد تفصد بعرق خفيف مع تلاحق أنفاسها ..
لتلتفت له من شرودها هاتفة بحماس مبالغ صحبته
ابتسامة عصبية :

_ جداً .. جداً .. أنتِ محامٍ ماهر كما

أخبروني .. حقي .. حقي ..

تتلعلم حروفها فجأة في كلمتها الأخيرة التي كانت
تكررها بشكل غريب .. لتتناقل أخيراً مع تهدج
صوتها :

_ حقي .. لن يضيع !

يرفع حاجبيه بدهشة وهو يراها تجهش بعدها في
بكاء خافت للحظات أكدت فكرته السابقة عنها ..

لم تغره يوماً دموع النساء!!

لكن هذه أمامه لم تكن تبكي ..

بل كانت تنزف روحها ببطء!!

ورغم أنها كانت تغطي وجهها كاملاً بكفيها لكنه يكاد

يقسم أن "حلقة الزعفران" في عينيها تزداد اشتعالاً

وفتنة !!

ليس حزناً .. ولا ألماً فحسب!!

بل غموضاً !!

غموضاً يغريه باكتشاف المزيد !!

تتفرج شفاته وهو على وشك التفوه بما تجيده لباقتة

في أمور كهذه ..

لكنه يفاجأ بها تنهض فجأة وقد مسحت دموعها

لتهتف بنفس التلعثم :

_ آسفة ! تذكرت موعداً مهماً! هاتفني لو كان هناك

جديد في القضية ..أو ..سأهاتفك أنا!

يقف بدوره وهو يشعر بالمزيد من غرابتها ..

لا تزال لا تنظر إليه ..

يمد إليها كفه متعمداً هذه المرة فلا يصدمه تردها

المعهود ..

بل ..هروبها شبه راقضة من جديد كأنها تفرّ من

أقسى الوحوش بطشاً!

"الحو ما يكملش!"

يقولها بالعامية المصرية بابتسامة متعجبة وهو

يلاحظ الغمزات حوله فيتنهد بعمق وهو يرى النادل

الكهل يتقدم منه من جديد قائلاً بنبرة ذات مغزى:

_ الأنسة لم تشرب العصير .

_مدام!

يقولها مصححاً ليضحك النادل قائلاً بمكر:

_ يبدو أن حسام "بيه" يعرفها جيداً .. مع أنها أول

مرة أراها هنا.

يربت على كتف الرجل بحركة ودود تناقض النظرة

المحذرة في عينيه :

_ تعرف طبعي!

يهز له الرجل رأسه فيردف حسام وهو ينقده ورقة

مالية كبيرة :

_ حسابها عندي! لا تثرثر كثيراً .. هه؟!!

يبتسم له الرجل بود فيردها له وهو يتحرك بخطواته

الثابتة نحو سيارته ..

يشغلها لينطلق بها نحو البيت وشروده في هذه

الأرجوانية يكاد يبتلعه ..

فردة قرط واحدة !!

الملحوظة تقفز فجأة لذهنه !!

كل هذه الأناقة وترتدي فردة قرط واحدة !!

رخيصة متأكسدة !!..

هل هي مختلة حقاً؟!

أم .. هي ذكرى عزيزة من شخص ما؟!!

حبيب قديم مثلاً؟!!

يزفر زفرة قصيرة وهو يشعر أن موضوعها هذا نال

منه أكثر مما يستحق ..

منذ عهد بعيد لم تشغله امرأة إلى هذا الحد !!

يصل للبيت أخيراً فتستقبله سلطنة عند الباب لينحني
فيلاعبها كعهده قبل أن يهتف لها بعفوية لا يجيدها إلا
قليلاً:

_جائع للغاية ! التمرين أهلكني!! بعد العشاء نكمل
اللعب!!

نباحها المتواصل يبدو له كاعتراض متدلل فيضحك
وهو يذلف إلى الداخل ..وبالتحديد نحو المطبخ ..
يتناول القداحة كي يشعل الموقد لكنها تسقط منه تحت
الطاولة فينحني ليلتقطها ..

لكنه لم يكد يفعل حتى تعلقت عيناه بهذا الجسم
الغريب المثبت في قاعدتها ..

تتجمد نظراته للحظات وهو ينتزعه من مكانه قبل أن
يستقيم بجسده وهو يرفعه أمام عينيه بتفحص مدركاً
ماهيته ..

جهاز تصنت!!

حاجباه ينعقدان بغضب هادر وهو يربط بعض الخيوط
في ذهنه ..

تصور ما يدفعه لفكرة غريبة ..تشعل المزيد من
غضبه !!

يكز على أسنانه أخيراً بقوة وهو يدرك من الوحيدة
التي يمكنها الوصول إلى هنا كي تفعل هذا ..

فيخبط بقبضته بعنف على الطاولة وهو يهمس من

بين أسنانه :

_دينا!!



_ألن تصلي يا ماما!؟!

يسألها ابنها الأكبر وهو يراها تقف شاردة أمام
سجادة صلاتها التي فرشتها أمامها وقد زاغت عيناها
في الفراغ ..

فراغ أسود رهيب يبتلع روحها يوماً بعد يوم ..
فترتجف شفاتها وأاملها تمتد لتعتصر قماش إسدال
الصلاة خاصتها بقوة ..

شريط طويل يمر أمام عينيها ..
من "يولاند" إلى "فدوى" .. ثم إلى هذه .. هذه التي
صارت لا تعرفها بينهما !!

نظراتها تتوجه نحو المرأة القريبة ..

خصلات من شعرها الأشقر الفاتح تبدو تحت طرحة

إسدالها التي انحسرت بفوضوية ..

بعض من بياض ذراعيها يبدو واضحاً تحت كمّي

إسدالها اللذين شمרתهما إلى مرفقيها ..

سحاب إسدالها المفتوح يظهر عنقها وبعض

صدرها ..

كأن مظهرها لا يختلف كثيراً عن باطنها المشتت

الآن ..

من هي؟!!

_ أَلن تصلي يا "ماما"؟!!

يعاود ابنها سؤالها لتلتفت نحوه بشهقة خافتة سبقت

إغماضة عينيها وهي تحاول تماك نفسها للحظات

قبل أن تنحني لتلم السجادة التي وقفت عليها قائلة :

_تذكرت أنني لست على وضوء.
تقولها لتهرع نحو غرفتها ثم تغلق بابها خلفها ..
خطواتها تحملها لهذا المصحف القريب ..
تفتحه بأنامل مرتجفة لتتطلع لبعض حروفه التي
تسري قشعريرة باردة في جسدها ثم تغلقه بسرعة
لتضعه جانباً !!
اليوم السبت !!
في مثل هذا اليوم كانت تقام الصلاة في المعبد الذي
كان يقصده والدها معها ..
ترتجف ابتسامتها مع الذكرى ..
يولاند الحسناء مع أبيها يدخلان المعبد اليهودي
"الكنيس" والذي بني متجها للقدس ...الحاخام وقد
غطى رأسه ..الحوض الخارجي للمعبد حيث يغسلون

أيديهم قبل أن يدخلوا للصلاة ..مقدمة المعبد
المستطيل بالدولاب الثابت الذي يحوي لفائف التوراة
وتزينه نجمة داوود ولوحا العهد في مقدمته ..
تزداد ابتسامتها ارتجافاً وهي تتذكر
تلاواتها ..صلواتها التي كانت تنتهي بالتبريك ..
لم تكن متدنية لكنها كانت تشعر بهذه القوة الروحية
التي تتبض في صدرها فتوجهها للصواب
والخطأ ..وتجعلها ترفع رأسها للسماء في السراء
والضراء ..

ربما لهذا عندما التقت ريان لم تشعر أنها ستتحرف
كثيراً عن المسار ..
تراها كانت واهمة !؟

تغمض عينيها بقوة وهي تعاود فتح المصحف

بحيرة ..

لماذا عادت تشعر بالغرابة ؟!

وهل ذهبت حقاً كي تعود ؟!!

ما معنى ريان ؟!

تغيم عيناها بالذكرى وهي تسترجع تاريخهما

الأول .. جوابه الذي بدا وقتها لامعاً

كعينيهِ .. وكوعوده !

الريان في اللغة هو من شرب حتى الارتواء .. لكن

له معنى خاصاً لدينا نحن المسلمين .. فهو من حديث

النبي صلى الله عليه وسلم باب في الجنة لا يدخل منه

سوى الصائمين.

ابتسامة ساخرة غارقة في مرارتها تغزو شفيتها

المرتجفتين ..

تتذكر لهفتها الأولى .. انبهارها الأول بكل ما كان

يقوله أو يحكيه ..

لم تكن تفهم الكثير عن دينه .. لم تكن تهتم سوى أن

تكون جواره .. أن ترضيه .. أن تشبهه !

وحتى عندما أشهرت إسلامها متحدية كل

شيء .. ملقية كل ماضيها وعائلتها خلف ظهرها ..

لم تفعلها سوى لأجله !!

هي ! هي الطيبة الحاذقة التي كان الجميع يحسدونها

على رجاحة عقلها .. خذلها قلبها وهو يلقيها دون

محاذير أمام بابه هو !!

ينعقد حاجباها بمزيج من حسرة و غضب عند الخاطر
الأخير فتضع المصحف مكانه ثم تخلع عنها إسدالها
بعنف لتلقيه بحدة على الأرض ..

تدفع نحو صورة زفافهما المعلقة على الجدار ..
صورة مرسومة بالزيت .. رسمها هو بنفسه .. بعدما ..

ولماذا يرسمك ذاك الرجل؟!؟!_

تغيم عيناها بالذكرى من جديد وهي تستعيد غضبه
الذي انفجر فيها في الأيام الأولى لزواجهما عندما
أرسل لها أحد زملائهما في العمل هذا الرسم ..

إنه صديقي!!_

**لا أعترف بهذا المسمى!! ولا يسعدني أن يستعيد
أحدهم ملامح امرأتي في ذهنه كي يرسمها بهذه
الدقة .. وبهذا الثوب المكشوف !**



_ لكنني ارتديت الحجاب لأجلك !

_ وهو لا يزال يتذكر ملامحك بدونك !!

غضبه المشتعل وقتها يجعله يمزق لوحة زميلهما

هذه ليلقيها تحت قدميها ثم يعتصر ذراعيها بين

قبضتيه هاتفاً بغيرة صارخة :

_ أنتِ لي !! لي !! لي وحدي !!

وقتها شعرت أنها كانت تملك الدنيا كلها بين

ذراعيها .. غيرته الشرقية المجنونة هذه عليها كانت

تشعرها بالفخر ..

لهذا ضحكت بدلال وهي تريح رأسها على صدره

قائلة :

_ وأنت ستكون لي .. لي .. لي وحدي !؟!

تقولها بعريبتها الكسيرة مكررة كلماته فيزفر نافثاً
غضبه ثم يضمها نحوه هامساً بما وجدته أغلى وعد :

_ بلا شك!

_ إذن .. ارسم لي غيرها!

تهمس بها بالمزيد من الدلال فيرفع حاجبه بمكر
قائلاً:

_ لا أجيد الرسم!

_ تعلم!

تهز بها كتفيها بنفس الدلال الذي كان يجيد
إذكاهه .. تماماً كما فعل وقتها وشفتهاه تطوفان حول
ملامحها بحب يليق برده :

_ لأجلك .. أفعها !!

بعدها بشهر واحد فقط كانت هذه اللوحة الزيتية بين

أناملها .. تتأملها بمزيج من فخر وحب ..

لقد صدقها وعده ! على الأقل فعلها ذاك اليوم !!

تتكس الدموع في عينيها مع الخاطر الأخير وهي

تعاود تلمس اللوحة بأناملها التي كانت تدور حول

وجهيهما ..

لماذا تشعر أنهما .. أنهما لم يعودا هما !!

خطواتها تحملها نحو ذاك الصندوق القديم الذي

تحتفظ به سراً في الدرج السفلي للفراش ..

تنحني لتستخرجه ثم تفتحه ..

هنا .. هنا ما بقي من ذكرياتها ك "يولاند" !!

بعض الصور لها مع عائلتها .. أصدقائها .. شهاداتها

الدراسية .. أوراق هويتها القديمة ..

دفتر مذكراتها ..

رسالة كتبتها يوماً لحبيبها القديم في الجامعة فلم

يتسلمها أبداً ..

رسالة كتبتها بالفرنسية .. وبأقصى ما كانت تحمله

روحها وقتها من عنفوان ..

(أخبروهم أن طيور قلوبنا عزيزة !

لا تطارد الفتات ولا شربة الماء العكرة في كوب

منكسر !

طيور قلوبنا حرة ..

تعرف طريقها نحو حبوب العشق الطازجة وجدول

الكبرياء الرقراق ..

لكم هزيل عطاياكم .. ولنا جزيل ما نستحق)

تنهيدة حارقة تغادر صدرها وهي تكتم شهقة بكائها ..

هل يمكنها اليوم أن تكون بنفس الكبرياء؟! بنفس

الشجاعة؟!!

أم أن السنين لم تزد لها إلا وهناً؟!!

تغلق الصندوق بحسرة ثم تعيده مكانه لتتوجه نحو

خزانة ملابسها فتفتحها ..

تلك الخزانة الجانبية التي احتفظت بها بذاك الثوب ..

الثوب الذي التقت به ريان أول مرة .. عندما كانت

"يولاند"!!!

_ "تايجر"! أحب دوماً رؤيتك فيه كأول مرة! يجعلك

تبدين كـ "نمرة" ثائرة .. وحتي أجيد ترويضها!

الثوب كان أصلاً هدية من والدها .. وهذا "البروش"

الأنيق الذي يزين صدره كان هدية أمها .. بل إن

حزامه الجلدي العريض كان هدية شقيقتها .. لهذا

كانت حريصة أن تحتفظ به ..

ربما لأنه يذكرها بأعز من في حياتها ..

وربما لأنها كانت ترى فيه "ميزاناً" لم يكن أبداً

مستوي الكفتين .. أبداً .. أبداً ..

هي اشترته هو .. وباعت الجميع !!

والآن .. هو ..؟! ..!!

تتشوش الرؤية تماماً في عينيها بأثر دموعها وهي
ترفع الثوب لصدرها .. تتشممه كأنه يحوي عبق العمر
المفقود ..

تتحرك كالمغيبة نحو الجهاز القريب لتشغله فتنبعث

منه كلمات أغنية فرنسية تذكرها بطفولتها ..

الحن والذكرى يتآمران عليها فتخلع ملابسها شبه

مغيبة ..

ترفع الثوب كي ترتديه ..

لكنه ..يرفضها !!

أجل ..جسدها الذي ازداد امتلاء يجعله يتوقف عند

حدود صدرها ..

هنا فقط ..تنهمر دموعها فجأة وهي تسقط أرضاً وقد

كتف الثوب ذراعها فبقيت ترفعهما وشهقاتها الباكية

تمزق قلبها بالمزيد من شعور العجز ..

فدوى!

يهتف بها ريان بجزع وهو يدخل الغرفة فجأة وقد

عاد من العمل ليجدها على هذا الحال ..

ملقاة أرضاً وقد رفعت ذراعيها كالمقيدة بينما الثوب
الذي تذكره يتوقف معانداً عند حدود صدرها !!

_ ماذا بكِ حبيبتي؟!_

يهتف بها وهو ينحني على ركبتيه أمامها ليضمها
نحوه فتهمز رأسها وهي تهتف بما يبدو كالهديان
وسط شهقات دموعها:

_ الفستان! الفستان لم يعد يناسبني!!_

_ ماذا؟!_

يصرخ بها باستنكار وهو يبعتها ليهزها بين ذراعيه
مردفاً بصوت مرتفع:

_ كل هذه المأساة لأنك صرتِ بدينة لا يناسبكِ ثوب
قديم!! أعود من العمل متعباً آخر اليوم كي أجديكِ



منهارة هكذا لسبب بهذه التفاهة؟! هل بلغ بك حب

النكد هذا الحد؟!!

تتجمد ملامحها للحظات يشعر هو فيها بطيف من ندم

يخالط غضبه ..

لكنها تهتف به ببرود مشتعل:

_ ساعدني أن أخلعه !

يطلق زفرة ساخطة وهو يحرق جسدها منه ببعض

الصعوبة لتنهض هي مترنحة ..

تجفف دموعها ثم تتناول الثوب لتضعه مكانه بحرص

قبل أن تنتقي واحداً آخر كي ترتديه ..

لكنها تفاجأ بأنامله على كتفها من الخلف مع همسه

المشتعل بهذه النبوة التي تعرفها :

_تعلمين كم تبدين مثيرة هكذا عندما تدارين غضبك

ببرودك المشتعل!

_كنمرة ثائرة وحدك تجيد ترويضها ..

تتمتم بها بشرود وهي تستدير بين ذراعيه فيبتسم

وشفتاه تشعلان الحرائق على ثغرها ..

"حرائق صقيعية"!

لو كان لوصف كهذا أن تحمله لغة !!

_تناولت عشاءك !؟

حروفها المغيبة ترمي السؤال ..

وحروفه المتعجلة تختصر الجواب :

_أنا الآن أفعل!

تتجمد المزيد من الدموع في عينيها وهي تتأهب

لمعركته الخاسرة ككل مرة ..

معركة يريد أن يثبت بها شغفه نحوها .. فلا يجني

كلاهما سوى خيبة الهزيمة !!

دقائق تمر بهما عاصفة الظاهر .. جليدية الباطن ..

لتلقيهما الموجة الهادرة أخيراً فوق شاطئ سكن ..

إنما .. دون اكتفاء!

لم يعد يرضيها .. ولم تعد ترضيه !!

تراه يعطيها ظهره أخيراً كأنما اكتفى بآداء واجبه

ليرفع الغطاء فوقه قائلاً بنبرة واهنة :

_ أيقظيني فجراً .. لدي مؤتمر مهم .

_ ستسافر ثانية؟!!

تسأله بنفس البرود المشتعل ليرد به مهمة ناعسة

مفادها الإيجاب ..

فتعاود القول بشروود :

_أحدهم عاكسني اليوم! ..جارنا في الشقة

السفلية ..تعمد ملامستي في المصعد .

_تهيوأت! الرجل محترم جداً ولا أظنه يقصد ..أنا

أحتمل عقدك فلا تثقلي بها على من سواي .

يقولها متهمكاً كعهده بنفس النبرة الناعسة فترمق

"اللوحة الزيتية" إياها بنظرة طويلة ذات مغزى ..

لوحة رسمها رجل ..كان يوماً يغار!!

تلتوي شفتاها بابتسامة مريرة وهي تنهض لتتكئ

على جانبها في مواجهة ظهره تمرر أناملها بين

خصلات شعره قائلة :

_طوال هذه السنوات وأنا أسأل نفسي ..هل استطعت

أنا الأخرى أن أكون الوحيدة التي تجيد ترويض نمرك

الشرس..

هممة أخرى ناعسة تكون جوابه فتشد خصلات

شعره ببعض العنف هاتفة بحدة مفاجئة:

أجب!

زمجرة غاضبة يطلقها وهو يستدير نحوها ليهتف

بحدة مفاجئة :

ماذا تريدان؟! هه؟! شجاراً كل مرة؟!!

أريد جواباً لسؤالي .

لا أحب الغازك هذه ..ألقي سؤالك مباشرة ..

هل تخونني؟!!

الصمت يكتسحهما للحظات فيعقد لسانيهما ..

الخوف في عينيها يشبه نظيره في عينيه ..

إنما الأول غارق بخيبته ..والثاني طاف بذنبه !!

يكفيك هذا كسؤال مباشر؟!!

الحروف الساخرة تتوه على شفيتها من جديد وهي
تبحث عن طوق نجاتها في ملامحه لكنه ينهض من
رقدته هاتفاً بسخط:

_ لا ! لا ! لا ! ثلاثة "لا" ! تكفيك هذه كإجابة !!
تغمض عينيها بتعب حقيقي وهي تعلم أن الجواب أبداً
لن يمنحها الراحة ..

_ سأذهب للنوم مع الأولاد في غرفتهم .. يجب أن
أستيقظ مبكراً وأنتِ صرتِ لا تطاقين ..
يهتف بها بسخط وهو يغادر الفراش مشيراً لجسدها
العاري وهو يردف:

_ لا فائدة ! رغم عودتي متعباً من العمل حاولت
إرضاءك فيكون هذا ردك ! عندما أقصر في حقك
يمكنك ساعتها أن تشكي فيّ !

تكز على أسنانها بقوة وهي تغمض عينيها ..
كعهده يعيرها بهذه الكلمات ككل مرة بعد كل علاقة
جسدية بينهما ..

كأنما بقي هذا فقط حقها لديه ..

بل .. كأنما صار هذا كل ما بينهما !!

ليته يعلم أن بضاعته كاسدة في سوقها .. كما هي

زهيدة في سوقه !!

لا بأس!

غداً تتأكد شكوكها ..

وحينها ..!!

عيناها تلتمعان بوعيد للحظة ..

قبل أن تعودا لبحر تشتتهما الزائغ !!

ماذا ستفعل لو أثبتت الحقيقة وواجهته !!؟

هل ستهجره !؟

تهجره كعدوى .. أم يولاند !؟

الغنوة الفرنسية لاتزال تتردد في الغرفة تكرر نفسها
بنفس النغم الشجي الذي يجدها بسياط الذكرى ..
فتزلق ببطء في الفراش لترفع الغطاء فوقها حتى
رأسها ..

_الثوب صار ضيقاً "بابا" .. "البروش" ناله الصدا
"ماما" .. الحزام تقشر جلده "لارا" .. أريد أن
أعود .. أخاف أن

أعود .. أريد .. أخاف .. أريد .. أخاف .. أخاف ..
تمتماتها تختفي كالهديان بين يقظة ومنام لتنتهي بين

دموعها :

_أخاف أن أكرهك ! ربما بأكثر مما أخاف أن أفقدك .

=====
نيلي
=====

_ كم ليلة قادمة !؟

يسألها موظف الفندق لتزدرد زهرة ريقها بتوتر وهي

تتظر لما تبقى من مال في حافظتها ..

فتدمع عيناها وهي تتحسس قرط أذنها الذهبي من

فوق وشاحها لترد :

_ سأخبرك عندما أعود .

يرمقها الرجل بنظرة متوجسة لكنها لا تراها وهي

تغادر الفندق بنظرات زائغة .. ستبيع قرطها الذهبي

حتى يمكنها تدبير ما بقي من إقامتها ..

أسبوعٌ كامل قضته هنا هاربة كالمذنبين ..

هاربة حتى من اتصالات جهاد المتكررة الذي يربوها
اللقاء فتخترع كل مرة كذبة ..

أمها؟!!

لقد هاتفت إحدى جاراتهم سراً لتخبرها أنها هربت !!

هربت من بطش أبيها ومن الحي كله !!

أبيها الذي علمت أنه يتوعدها هي بالقتل لو رآها من

جديد لكنها تعلم أنه يريد لها حياة كي لا يخسر بيضه

الذهبي منها !!

أين عساها ذهبت أمها؟!!

وماذا سيفعل أبوها الذي لن تأمن مكره؟!!

وكيف ستعود لعملها في "أبو ظبي" وهو يعرفه؟!!

وجهاد؟!!

جهاد ماذا ستفعل معه؟!!

_ أخبريه بالحقيقة وارتاحي! لو وافق أن يكمل طريقه
معك فهنيئاً لك بحبه ..ولو رفض فكفاك تعلقاً بحبال
واهية !

تذكرها كما قالتها لها حسناء على الهاتف عندما
أخبرتها ..

تماماً كما تذكر ردها هي:

_ لن أحتمل أن يتركني ..أو أن تتشوه صورتني في
عينه !

صوت نفير سيارة يأتيها صاخباً فتجمد مكانها
شاعرةً بالخوف قبل أن تتجاوزها السيارة وقد أطلق
سائقها الوقح سباباً ساخطاً ..

_ أفيقي يا بنت ال (...)!

تحمر وجنتاها بل تكادان تحترقان بانفعال وهي تشعر

بنظرات الناس حولها مهينة يضخمها شعورها

الداخلي ..

يسبها بأبيها !؟

يسبها بأبيها !!

وفي هذه اللحظة بالذات شعرت وكأن الجميع

يفعلون .. وسيفعلون !!

تكتف ساعديها في وضع حمائي وهي تعبر الطريق

بخطوات راکضة ..

نفس الوخزة في صدرها والتي اعتادت تكرارها طوال

الأيام السابقة تكتسحها الآن ..

لكنها تتجاهل ألمها .. لو لم يؤلمها قلبها

الآن .. فمتى !!؟

على الرصيف المطل على النيل أمام الفندق تقف ..
تأمل "الساحر المعطاء" أمامها وقد ترقرت مياهه
بضوء الشمس المهددة بالغروب وإن كانت لا تزال
في عنفوان قوتها ..

_افتقدتك يا نيلية!

تكاد تسمعها بصوته من فرط حنينها فتغمض عينيها
بقوة وشريط حياتها الطويل يمر أمام ناظريها ..
هي اختارت طريق العطاء من أوله .. فهل بيدها الآن
أن تقطعه !!؟

هل ستكون أنانية لو اختارت ترك الجميع خلفها ولم
تنظر سوى لسعادتها هي؟!!

ومن أخبرها أن جهاد سيوافق؟!!

وحتى لو وافق كيف ستظهر أمامه بهذا الخزي من

أهلها !!؟

_افتقدتك يا نيلية !

هذه المرة هي لا تتخيل !

هو حقاً خلفها!

تلتفت نحوه مشدوهة لتعانقها ابتسامته قبل عينيه ..

تراه يخلع عنه شاله العزيز ليضعه برفق فوق كتفها

فلا تعنيها نظرات المارة بقدر ما يعنيها وجوده الآن

معها ..

أي كذبة تختلقها !!؟

أي كلام قد تقوله !!؟

كل الحروف تذوب على شفيتها وبحور عينيه الزرقاء

تحمل لها عتاباً لا تطيقه ..

فتسبل أهدابها هاربة وهي تشعر أنها ممزقة بين

اشتياق وخوف!!

_ كيف عرفت أنني هنا؟!

أخيراً تجد كلماتها المفقودة لكنها لا تزال غير قادرة

على مواجهة عينيه بخفقات قلبها المذعورة ..

_ حسناء !

يقولها باقتضاب فتشعب ملامحها بخوف وهي ترفع

وجهها نحوه هاتفة :

_ ماذا أخبرتك؟!

ينعقد حاجباه بشدة مع هذا الرعب الذي كسا ملامحها

فيقترب منها خطوة حمائية وهو يرد بين ضيق

وعتاب:

_ لم تخبرني سوى بأنك تقيمين في ذاك

الفندق .. وتركت لك الباقي!

تعاود إغماض عينيها وهي تضم شاله عليها بقوة

تكاد تعتصره بأناملها ..

لا تدري هل ورطتها حسناء هذه المرة أم أنقذتها؟!!

لا يهم ! هي وضعتها على أول درجة في السلم

وتركت لها الصعود !!

ربما غداً قد تلعن حماقتها .. لكنها الآن لا تملك سوى

الاستسلام !!

_ تعالي!!

تفتح عينيها و"الخمسة أحرف" تبدو لها كجنة

تناديها .. وكسر اب تناديه !!

تتفرج شفتاها وهي لا تدري بماذا ترد لكنه يعانق
كفها بأنامله بقوة رفيقة ثم يتناول هاتفه لتتلاعب به
أنامله للحظات قبل أن يتحرك بها مشيراً نحو سيارة
أجرة قريبة توقفت أمامها ليستقلاها معاً ..

يلتفت نحوها مردفاً بابتسامة لم يختفِ عبق عتابها:
_ تطبيق "أوبر" هذا أفادني كثيراً منذ قدمت إلى
هنا .. سنذهب لذاك "المول" في وسط البلد .. عزيز
نصحني بالتسوق هناك .

_ شامي يا أستاذ!؟!

يسأله السائق وقد تبين لهجته ليرد جهاد بفخر:

_ فلسطيني!

فيبتسم السائق ابتسامة منقوصة وهو ينظر إليه عبر

المرآة قائلاً:

_ لو تعلم كم ضربت بسببكم أيام الجامعة !
يرتفع حاجبا جهاد بدهشة ليردف الرجل ولا يزال
غارقاً بشروده :

_ كنا نخرج في مظاهرات تندد بتجاوزات الاحتلال
الإسرائيلي لفلسطين.. كانوا يثبطون عزائمنا بحديثهم
عن أن الفلسطينيين غدارون باعوا أرضهم
لليهود .. وكنا ندافع بأنكم أبطال لم تبيعوا القضية كما
باعها غيركم ..

يبتسم جهاد وهو يتذكر اسم السائق كما رآه على
تطبيق الهاتف ليأخذ دوره في الشرود :

_ تعرف كيف تركت القدس يا إبراهيم؟!
يبتسم إبراهيم للود الصريح في حروفه قائلاً:
_ أنت مقدسي؟!!

فيهز جهاد رأسه بإيماءة موافقة مع رده :
_المقدسي لا يترك بلده مختاراً ..لكنهم لم يتركوا لنا
حلاً آخر .. ! أبي كان ينتمي لإحدى القرى غربي
القدس والتي أبادها الاحتلال تماماً ..لازلت أذكر
صوت الرصاص يدوي في أذني ونحن نغادر القرية
التي احترقت أشجارها ..الرعب الذي ملأني وأنا أكاد
أفقد أنفاسي من سرعة الركض لكنني كنت لا آمن
طلقة غدر تصيب ظهري لو توقفت ..أبي مات في
الطريق ..سقط أمامنا غارقاً في دمه وأنا لا أفهم ماذا
يحدث ..الموت لم يكن يوماً منا بعيداً لكنها كانت أول
مرة يغدر بنا بهذا القرب ..تدري ماذا كانت آخر
كلماته؟! كان يحمد الله أن مات في القدس فلم تخرج
روحه بسواها ..

تربت زهرة على كفه وهي تسمع منه القصة لأول
مرة بينما يكز إبراهيم على أسنانه بغضب مكتوم
ليردف جهاد بين وجع وغضب:

_بقينا فترة لدى جدي لأمي الذي كان يقيم في القدس
جوار المسجد الأقصى .. لكنهم لم يتركونا
وشأننا .. عمي كان منضماً لأحد فصائل المقاومة
وذات يوم أخفى مناظلاً لدينا في بيت جدي .. علم
اليهود فعاقبونا تدري ماذا كان العقاب !?
ينعقد حاجبا إبراهيم بالمزيد من الغضب مع استطراد
جهاد الموجه:

_هدم البيت ! ليس هم من هدموه بل أجبروا جدي أن
يفعلها بيده فيما يسمونه بقانون الهدم الذاتي .. جعلونا
نهدم بيتنا بأيدينا قبل أن يأمرنا بترحيلنا من القدس ..

ولولا أقارب لأمي كانوا مقيمين في بلدة عربية
مجاورة ساعدونا ،لعشنا مشردين ما بقي من
عمرنا ..جدي مات وفي عنقه المفتاح ..رمز عودتنا
لبيتنا بفلسطين ..المفتاح الذي ورثته والذي أوصاني
أن أورثه لأولادي مع كواشين الطابو "أوراق إثبات
ملكيتنا لبيوتنا" ..وسأفعل ! لن أنسى!
يقولها وهو يضغط كف زهرة بين راحتيه كأنه يحمل
لها الوصية هي الأخرى فيبتسم إبراهيم بفخر وهو
يكرر خلفه :

_ستفعل! لن تنسى ! كلنا لن ننسى!!

يهز له جهاد رأسه بامتنان ليردف "الدرويش"

بحماس قلما ينتابه :

يظنون أنهم سيهدون عزمنا بسياسة التهجير
القسري للمقدسين لأجل ما يسمونه بإعادة التوزيع
"الديموجرافي" للمنطقة.. أو بإقامة الجدران داخل
القدس لسلخ أحياء مقدسية كبيرة وعزلنا فيما يشبه
المخيمات.. أو إبدال الهويات المقدسية بالبطاقات
الممغنطة الجديدة لتحديد مكان سكن المقدسي وهذه
القوانين التي يجددونها كل وقت لتهويد القدس
غصباً..

تتسع ابتسامة جهاد وهو يراه يتحدث بضمير
"الجمع" كأنه منهم خاصة وهو يستطرد بنفس
الحماس:

لا يعلمون أن قضيتنا في صدورنا نتنفسها مع كل
شهيق.. القدس عربية.. كانت وستبقى لنا.

_ صدقت يا أخي والله ! حماسك هذه افتقدتها على

وجوه العرب منذ عهد بعيد .

يهتف بها جهاد وهو يربت على كتفه من الخلف

برفق ليتهاه ابراهيم بحرارة قائلاً:

_ لا ألومك ! كلنا ننتظر عودة قوس قزح مع زخة

مطر بوعد الحرية فوق أرض تشقت بجفافها !

يقولها ثم ينتبه لوصوله للمكان المنشود فيوقف

السيارة ليلتفت نحو جهاد قائلاً بود :

_ لن تدفع!

يهم جهاد بالاعتراض لكنه يبسط راحته في وجهه

مردفاً بابتسامته المنقوصة:

_ هكذا يكون عليك لي دين ..حق ضيافة ..ترده لي في

وطنك عندما تعود إليه ..قريباً ..قريباً بإذن الله !

يصمت جهاد للحظات والعزة الأبية تتراقص بين
عينيها قبل أن يبتسم وهو يهز له رأسه موافقاً ثم
يمد له كفه مصافحاً بقوله :

_دكتور جهاد الريحاني..تسعدني صداقتك يا
إبراهيم..راسلني دوماً فلن أمكث هنا كثيراً .
يقولها ثم يتبادلان البريد الالكتروني الخاص بكليهما
قبل أن يفترقا وكلاهما يشعر أنه ليس اللقاء الأخير !



فوق إحدى الموائد يجلسان في ذاك المول الكبير ..
عيناها تحاولان سبر أغوارها وعيناها لا تزالان
تهربان ..

أما اكتفيت من الهروب؟!

يسألها بنفس النبرة العاتبة فتضم شاله عليها بقوة
لترفع عينيها نحوه بوجل فيردف بابتسامة واهنة :
_طوال هذه الأيام وأنا أتصور عشرات الأسباب لما
يحدث معك منذ عدتِ إلى هنا ..عشرات الأسباب
لكنني أستبعد سبباً واحداً فأكدي لي استبعاده ..
تهز رأسها بتساؤل ليردف بعينين لائمتين:

_أنك تريدني التخلي عني!

_أنا ؟! أنا أتخلي عنك؟!!!

ضحكتها العصبية تتحول لسيل من الدموع فتدفن
وجهها بين راحتها ليضم قبضتيه بعجز للحظات قبل
أن يمد أنامله ليزيح كفيها عن وجهها قائلاً بحسم :
_أكدي لي استبعاده ..وأنا كفيل بعدها بأي سبب سواه

يقف بيننا!

تأخذ نفساً عميقاً وهي تكفكف ما بقي من دمعها

لتنفرج شفتاها بحروف مرتبة :
_ أنا ..

وصول النادل ينقذها مؤقتاً ..

كوبان من الشاي الأخضر يفصلان بينهما .. ويجمعان

بينهما!

_ تعلمين أنه أول كوب أشربه منذ وصلت إلى هنا؟

يقولها مسبلاً أهدابه على نفس النظرة العاتبة فتطرق

برأسها دون رد ..

لكنه يمد أنامله ليحتضن كفها مردفاً :

_ تعلمين كم حديثاً ادخرته لك؟! كم خيراً يفتقد أذنك

؟! لم تفرقنا يوماً مسافات فكيف يشنتنا وطنك؟!!

كلماته تهددها بهذه القوة الذائبة بين طيات حنانه

خاصة وهو يحتضن كفيها بكلا راحتيه مردفاً :

_ ماذا تخفين عني؟! قولي ولا تخافي!

تشيح بوجهها للحظة وهي لا تكاد تميزاً صواباً من

خطأ..

لكنها تحسم أمرها أخيراً..

حسناً محقة!

فليعلم.. فإما رحل للأبد.. أو بقي للأبد!!

لهذا تعود ببصرها نحوه تستمد قبساً من نور عينيه

الزرقاوين ثم تطرق برأسها لتروي له..

حجبت بعض التفاصيل التي تخرجها لكنه فهم ما

تخفيه ربما بأكثر مما صرحت به!

حتى إذا ما انتهت من حديثها شعرت أنها تعرت فجأة
أمامه فعادت تتخرط في البكاء من جديد ..
لكنه ينهض من مكانه فجأة ليجلس جوارها كأنه -في
هذه اللحظة بالذات- لا يريد أن تفصلهما مسافة !
قبضته الحنون تفرض وصايتها على كفيها
المضمومين ..

الصدمة في عينيه تتصارع مع عجزه ..
أي أب هذا الذي تحكي عنه ؟!
أي مجرم ؟! بل أي حيوان ؟!!
طاقة غضب رهيبه تتملكه في هذه اللحظة وهو
يتصور أية حياة كانت تعيشها ..
وأي جحيم واجهته !!

طاقة كانت وحدها كفيّلة أن يقوم بتحطيم المكان حوله
وهو يتصور يداً تمتد إليها بسوء وهي عاجزة
تواجهها وحدها ..

لكنه بذل مجهوداً خرافياً وهو يكظم غضبه -مراعاة
لها- ليقول أخيراً:

_ لماذا لم تخبريني من قبل!؟!

_ وهل تجد فيما رويته ما يستدعي فخر الحكاية!؟!
تهتف بها بخزي أغرق حروفها لكنه يغرس كلماته
في حدقتيها:

_ أنتِ فقط كل الحكاية يا زهرة ..كل الحكاية !

ابتسامة أمل تتراقص على شفثيها مع استطراده

بنبرة تزايدت حدة انفعالها :

_ ما قيمة ما بيننا لو تقاسمنا فرحتنا وتركنا الحزن
يأكل بواطننا وحدنا؟! أنا اخترتك
وطني ..سكناي ..عائتي ..ولا أبالي سوى بأن أكون
لكِ هذا كله !!

ابتسامتها تتسع لكنها تصطمم بهذه النظرة التي
يصرخ فيها عتابه غاضباً :
_ كل هذا تعيشينه وحدك طوال هذه الأيام دون أن
تخبريني؟! ماذا كنتِ تنتوين؟! لولا أن صديقتك ألفت
لي طرف الخيط لما علمت !!

_ بالله لا تغضب! صرتَ تدرك حساسية وضعي
وخرجه .

تغمغم بها بخجل ليرد بنفس الانفعال:

_ لا حرج ! من المفترض ألا حساسية بيننا ولا
حرج !! رأسك الأحمق هذا كان يجب أن يفهم !!
يلكزها بسبابته في صدغها فتطرق برأسها وهي
تشعر بأنها أزاحت حملاً ثقيلاً من على كتفيها ..
لكن .. هل الأمر حقاً بهذه البساطة !!؟

_ سنترك كل هذا خلفنا !

يقولها بحسم لترفع وجهها نحوه بينما يردف:
_ سنعود من حيث أتينا .. لم تعد لنا حاجة في البقاء
هنا .. كلانا اختار صاحبه ولا يعنينا ما دون ذلك .

_ وأمي؟!؟

تغمغم بها بقلق مردفة :

_ هي لا تعرف رقم هاتفي الجديد .. ولا أستطيع

الوصول إليها ..

_ هي تعرف رقم حسناء .. أثق أنها ستتصل بها عندما

تدير أمرها ..

يقولها محاولاً بث الأمل فيها وإن كان بداخله يشعر

بالخوف حقاً على تلك المرأة ..

لكن خوفه عليها هي كان يفوقه ..

رغبته في انتشالها من كل هذا والهرب بها بعيداً !!

_ لا تقلقي ! نحن معاً !!

يقولها بنفس النبرة المنفعلة وقد نفر هذا العرق

البارز في جبينه فيغلبها حنانها نحوه خاصة وهو

يردف بنفس الحدة :

_ المهم ألا تخفي عني شيئاً بعد اليوم .. لن أمررها لك!

_ "روق يا ضاوي" !

تقولها بابتسامة شاحبة مستعيرة عبارته التي طالما
يستخدمها مع ريان فيزفر بقوة وهو يشيح بوجهه
للحظات محتوياً انفعاله ..

قبل أن يعود إليها ببصره ليعدل وضع شاله فوق
كتفها هي هامساً بمزيج غريب من رجاء وغضب:
_ تعلمين ماذا صرت في حياتي .. بالله عليك .. لا
تجعلني أذوق مرارة فقد وطني مرتين !
عيناها تفيضان بامتنانها رغم كل الخوف الذي يملأها
من غد لا تملك مفاتحه ..

لكن ألا يكفيها أن يكون هو شريكها فيه !!؟

=====

_ كيف حالك يا ريان !!؟ وكيف حال فدوى !!؟

يقولها عبر الهاتف في غرفة الفندق الذي يقيم فيه
مؤقتاً حتى موعد إقلاع طائرته وقد حجز الغرفة
المجاورة لزهرة ..

ليرد صاحبه بضيق:

كما هي! لا أدري ماذا أصابها! لقد جنت حقاً! تصور
أنني عدت منذ يومين لأجدها ساقطة على الأرض
منهارة في البكاء .. وقع قلبي في قدمي لأكتشف أن
السبب أن ثوبها القديم صار ضيقاً .

ينعقد حاجبا جهاد مفكراً قبل أن يقول بشرود :

أسبابنا المعلنة لا يشترط أن تكون دوماً هي
الحقيقيةة .. أحياناً يكتم المرء الكثير ثم ينفجر فقط لما
يبدو كسبب تافه !

_ لم أعد أفهمها ! مجرد عودتي للبيت صارت

جحيماً..

يهتف بها ريان ليردف بسخط:

_ وفي النهاية يلومون الرجل الذي يتزوج على

امراته !

_ ماذا؟!!

يهتف بها جهاد باستنكار ليتلثم صاحبه قائلاً:

_ مجرد كلام !

_ إياك أن تحدثني في هذا الأمر من جديد ولو مزاحاً!

أنت لا تخون يا صاحبي .. وفدوى لا تستحق الخيانة!

يهتف بها جهاد بغضب ليزفر ريان قائلاً:

_ لهذا لا أحب الحديث معك عنها .. دوماً تأخذ صفها !

_ فدوى لم تترك دينها وبلدها وعائلتها لأجلك
فحسب .. بل وعملها كذلك! كل هذا فعلته لتتفرغ لبيتك
وأولادك .. من الطبيعي جداً الآن أن تشعر أنها ..
_ أنها ماذا؟! تعيرني بما تركته لأجلي؟! تخنقني
بغيرتها المريضة؟! أنا أشعر أنها ليست نفس المرأة
التي تزوجتها .. كأنها شعلة توهجت لأيام ثم استحالت
رماداً .

يقاطعه بها ريان بغضب ليهتف جهاد مهدئاً:
_ ولو استحالت رماداً بيدك أنت أن تحييه!
_ لا يا صاحبي! أنا لم تعد بي طاقة للمزيد من
المعافرة .. كفاني مشاكل العمل في المستشفى الخاص
بنا.
_ أي مشاكل؟!!

_ آه ! أنت تسافر كثيراً ولا تعلم نواياهم ! يريدون
إنهاء عقود البعض لتخفيض العمالة .. لا أدري ماذا
سيكون مصيري هنا .

_ لا تقلق .. خبرتنا جيدة .. حتى لو فقدنا عملنا في
المستشفى فيمكننا البحث عن آخر .

يقولها محاولاً احتواء المزيد من قلقه ليرد ريان
بتهمك مرير:

_ من السهل أن تقول هذا وأنت رجل أعزب لا تحمل
سوى هم نفسك .. لست مثلي عنقه مربوط بثلاثة

أطفال وامرأة .. امرأة تبكي هماً لأن ثوباً قد ضاق ولا
تفكير لها سوى في أن تحكم سيطرتها علي!

_ لا تعجبني طريقة تفكيرك ! تريد الحق؟! أنت الذي

تغيرت وليست هي!

يقولها جهاد منصفاً ليرد صاحبه بتهيدة حارقة:
_ لا يهم من فينا تغير .. المهم أن كلينا لم يعد يليق
بصاحبه .

_ لا أحب كلامك بهذه الطريقة يا ريان! لو كررتها
فسأكون أنا خصيمك !

يهتف بها جهاد بنفاد صبر ليهتف ريان هو الآخر:
_ حسناً ! لن أكلمك في هذا الأمر ثانيةً ! متى ستعود
!؟

_ بعد غد .

_ أراك على خير!

الاتصال يغلق بينهما بتوتر فرض نفسه على الموقف
ليطلق جهاد زفرة ساخطة وهو يخرج لشرفة غرفته
فيجدها في شرفة غرفتها المجاورة ..

وقد وقفت مكتفة ساعديها مستندة على السور ..
شاله الأثير بلونيه الأبيض والأسود يغطي كتفيها ..
تكاد لا تخلعه عنها كأنه لم يعد رمز هويته هو
فحسب .. بل هويتها هي كذلك !

خيظ من الدموع يفضح شرودها عبر الفضاء الفسيح
أمامهما فيقترب بخفة حتى آخر حدود السور بين
الشرفتين ..

ثم يمد أنامله يحتضن كفها على السور فتشبهق
متفاجئة وهي تلتفت نحوه ..

كفه الحر يقترب من وجهها ليمسح دموعها قائلاً
بحنانه العاتب:

_بكاؤك هذا يذكرني بفعلتك التي لن أسامحك
عليها .. قد أغفر لك أي شيء إلا أن تخفي عني ما

يسوؤك ..فتوقفي عن البكاء كي لا تثيري غضبي
أكثر .

_ لك طريقة غريبة في المواساة !

تهز بها رأسها بشبه ابتسامة ليرد بنفس النبرة
العاتبة :

_ ما بيننا لا يحتمل المواساة ! المرء لا يواسي

نفسه !ربما لم أحبك ذاك الحب الذي يسرق القلب من
أول لحظة كما نرى في الروايات والأفلام ..لكنه هذا
الحب الذي يتسلل خلسة ليحتل الضلوع يوماً بعد يوم
فلا ينتبه المرء إلا وقد صار جزءاً من تكوينه ..

أحببتك صفحة بيضاء أمامي أجيد قراءة سطورها
دون جهد وأنا الذي اكتفيت من تعب الحياة ..لهذا
يشقّ عليّ جداً أن تتشوش صفحتك في عيني !

تومئ برأسها فيما يشبه الاعتذار وهي تهم بسحب
كفها منه كي تعدل وضع وشاحها الذي أطاره
الهواء ..

لكنه يتشبث به بأحد كفيه بينما يعدل وضع وشاحه
هو بنفسه على كتفها ..

قبل أن يأتي بهذا الفعل الذي لم يكن بينهما من قبل ..
فقد رفع كفها لشفتيه يقبل ظاهره برقة تناقض
خشونة عتابه :

_ أنتِ صرتِ مني ! غصنٌ لا يتمرد على
جذعه .. وجذعٌ لا يتخلى عن غصنه .. هكذا نحن .. كنا ..
وسنبقى يا نيلية !

تدمع عيناها بتأثر من جمال التشبيه وهي تشعر أنها
تكاد تذوب بدفء نظراته ..

هذا الاحتواء العارم في عينيه يشعرها بالندم حقاً أنها
لم تخبره من البداية ..

وهذه العاطفة الهادرة التي تفضحها ملامحه تغزوها
بهذا الوهن اللذيذ الذي تهرب منه بتغيير الموضوع
وهي تسحب كفها منه بخجل :

_ لا تبدو غاضباً مني أنا فقط! يبدو أن هناك سبباً
آخر !

يبتسم لصدق شعورها به ثم يقول بشرود :

_ ريان وفدوى!

_ تشاجرا كالعادة !؟

_ ليس شجاراً عادياً هذه المرة .. أشعر أن ما بينهما

تصدع وقد آل للسقوط !

يقولها بأسف لتطلق صيحة دهشة مستتكرة فيما

يستطرد :

_ شيء ما بصديقي قد تغير .. ليس هو فقط .. هي

كذلك .. أنا أعرفهما منذ سنوات ليست

بالقصيرة .. وتهولني هذه الغربة التي أستشعرها الآن

نحوهما ..

_ فدوى متسلطة نوعاً ما لكنها طيبة .. صحيح أنني

في البداية كنت أشعر ببعض الغيرة منها بحكم تقاربها

معك ..

يبتسم لملاحظتها الحمقاء - كما رآها - لتردف هي

باستدراك:

_ لكنني عندما اقتربت منها أدركت أنها تحمل أعماقاً

رائعة .. ربما هي متحفظة .. غامضة أحياناً .. إنما ..

يشير لها مقاطعاً وهو يسمع صوت طرقات عنيفة

على باب غرفته فيهتف بدهشة:

_من عساه الطارق!؟!

تهز كتفها بجهل ليتركها مندفعاً نحو الداخل بينما

صوت الطرقات يزداد عنفاً ولم يكد يفتح الباب حتى

اتسعت عيناه بصدمة وهو يرى الجمع الذي تحلق

حول باب غرفته ..

والصوت الصارم الذي يأتيه قاسياً :

_دكتور جهاد الريحاني ! أنت مطلوب للتحقيق!

=====

أمام مائدة البلياردو يقف في مواجهة منافسه الذي
ابتسم وهو يعقد حاجبيه محاولاً تدقيق النظر قبل أن
يدفع العصا لتحرك الكرة التي أخذت طريقها للتوقف
قبل الثقب المرتقب بخطوة واحدة ..

فيبتسم هو بنظرة شرسة وهو ينحني بدوره لتركز
نظراته على الكرة المنشودة ..

_ هذا هو عيبك يا رجل! حركاتك تفتقد حسن
التقدير .. انظر لهذه ..

يقولها وهو يغازل الكرة بعصاه للحظات مردفاً:

_ الدنيا ليست إلا كرة كهذه تحتاج لعصا خبيرة

تغازلها .. تعرف نقاط ضعفها .. تجيد الاقتراب والابتعاد
حسبما ترتئيه .. ثم ..

يقطع عبارته وهو يدفع الكرة التي تحركت في
طريقها لكنها توقفت قليلاً تتدحرج قبيل مسافة بسيطة
من الثقب ليطلق منافسه ضحكة عالية سبقت قوله
الشامت:

_ لا تتعجل فر بما ..

لكن الرجل يقطع عبارته وهو يرى الكرة تتحرك ببطء
لتسقط أخيراً مكانها !!

هنا كان دوره هو ليطلق ضحكة ظافرة وهو يرفع
عصاه على المنضدة ليستند عليها قائلاً بنفس النظرة
الشرسة :

_ عيب! من مثلي قادر على اقتناص الدنيا كلها بين
أصابعه !!؟

يمط منافسه شفتيه باستياء وهو يضع عصاه جانباً

مع بسط راحتيه باستسلام :

_تركنا لك الكرة .. والبلياردو .. والدنيا !

_والحلوة التي بالداخل!

يغمزه بها غمزة مآكرة بلهجة حاسمة فيضحك

منافسه وهو يعاود ارتداء سترته قائلاً:

_هي لك!

يبتسم ابتسامة ظافرة وهو يراقب انصراف منافسه ثم

يفتح أزرار قميصه وهو يغادر غرفة اللعب

المخصصة في قصره ليتوجه نحو الداخل ..

المرأة الفاتنة تقترب منه بإغواء مثير مستعرضة

مفاتيها لتشتعل النظرة الشرسة في عينيه أكثر ..

تنتظر منه مغازلة لكنه يضع كفيه في جيبي سرواله

مكتفياً بجولة عينيه فوق تفاصيلها ..

تقرب وجهها منه بدلال لكنه يبتعد برأسه قائلاً

بقسوته الباردة :

_ترين هذا السلم!؟!

تنظر جانباً حيث يشير فيردف بنفس البرود القاسي :

_اصعدي ..الغرفة الثالثة على اليسار ..

_لن تأتي معي..

تسأله بغنج لكنه يقاطعها قائلاً :

_انتظريني على الفراش ..جاهزة ..تماماً ..

تتسع عيناها للحظة من اللفظ الفج لكنها تضحك

هامسة بنفس الغنج :

_ولماذا لا تصطحبني!؟!

يبتسم بهذه القسوة الشرسة وهو يقبض على بعض
خصلات شعرها باليسير من العنف ليهمس أمام
وجهها :

هكذا تعودت! لقد سعت كل هذا العمر كي أصل لهذه
المرحلة .. أن تنتظرنني لذاتي لا أن أنتظرها أنا!
تتوهج عيناها بمزيج من إعجاب ورهبة فتلتوي
شفتاه بابتسامة رضا وهو يحررها ليراقب صعودها
نحو الأعلى بنظرات مشتعلة ..

يخلع عنه قميصه ليتوجه نحو المرآة القريبة ..
نظراته تبرق بقسوة تشبه هذا الوشم على ذراعه ..

"الكوبرا"!!

يصب لنفسه كأساً من الخمر يرتشفه جرعة واحدة

قبل أن يشعر بأحد رجاله يطرق الباب

الداخلي .. فيزداد برق عينيه وميضاً بترقبه ..

_ العملية فشلت ! التفجير لم يتم .. رجلنا شعر بالخطر

من تتبع رجال الأمن له فهرب دون أن يكمل عمله .

ينعقد حاجباه وهو يلتفت نحو الرجل ليسأله :

_ عرفوه؟!!

_ لا .. كان متكراً بدقة .. تحرياتهم لم تصل بهم

لشيء .. لكنهم اشتبهوا في طبيب فلسطيني تصادف

وجوده في المول ومن قبل في عدة مناطق قريبة من

منشآت عسكرية .. وله اتصال بإحدى الجماعات

المناهضة للصهيونية والتي لها نشاط قتالي سري .

يقذف الكأس فجأة لتتناثر شظاياها بدوي رهيب في
المكان فيجفل رجله وهو يعود خطوة للخلف ..
لكن ملامحه هو بدت جامدة تماماً مناقضة لكل هذا
الغضب الذي يستعر داخله ..

_ سيدي؟!!

يغمغم بها رجله بترقب بعد دقائق صمت طالت ليلتفت
هو نحوه أخيراً قائلاً :

_ أين رجلنا الآن؟!!

_ عاد لوكرنا الآمن .

ابتسامة شرسة تقف على شفثيه وهو يقترب من
الرجل أكثر بسؤاله :

_ حياً؟

يومئ الرجل برأسه إيجاباً ليشهق بصدمة وقبضة
"الكوبرا" تطبق على عنقه مع قوله بنفس البرود
القاسي:

_ ألم يعلموك في مدرسة "الكوبرا" أن تلاميذه كلهم
ناجحون؟!.. الفاشل يموت!
_ لكن.. تاريخه معنا..

يقطع الرجل عبارته قسراً وهو يلمح النار التي
اشتعلت في عيني سيده ليسبل جفنيه قائلاً باستسلام:
_ اعتبره قد تم!

يحرر عنق الرجل ثم تشتعل عيناه بقوله:
_ اتصل برجلنا في جهاز الأمن واعرف منه
التفاصيل.. أما ذاك الطبيب الفلسطيني..
_ البريئ؟!!

يقاطعه بها مساعده ببعض الدهشة ليردف بخبث:
_ لن يبقى كذلك طويلاً ..فليكن الطعم المزيف الذي
نلقيه لهم ..افعل ما يمكنك فعله كي يناسبه ثوب
التهمة ..

يبتسم رجله وهو يهز رأسه بطاعة ليردف هو بعينين
ضاقتا وعيداً :

_ تماماً .

يقولها ثم يصرف الرجل قبل أن يعاود النظر نحو
مرآته مخاطباً نفسه :

_ هذا هو سر "الكوبرا" الذي لا يعرفونه ! أنه يجيد
دوماً تحويل هزيمته لنصر!

=====

الطيب الحادي عشر

=====

بنفسجي

=====

_ رأيتُه يا هالة ..جلست معه ..

تقولها ديمة في بيتها الجديد أمام مرآتها وهي

تتحسس فردة القرط ..

أشباحها كالعادة لا تفارقها ..

مدينة الموتى التي صارت أحد ساكنيها !

تستعيد لقاءها بحسام ويكرره ذهنها كشريط عرض

متواصل ..

_ أول مرة أراه بعيداً عن تحفظ مظهره في

مكتبه ..وسيمٌ حقاً كما كنتِ تقولين لكنه جمال الأفعى

بنعومة مظهرها وخطورة سمها .. لا أزال عاجزة عن
إطالة النظر نحوه .. وكيف وأنا أرى بعينه كل
أشباحي ؟! أنتِ وغازي وأنا؟!!! تراني لو أطفأت
بريق هاتين العينين أنجو بنفسي من هذا كله ؟!!
الشبح الأبيض يختفي ليظهر الأسود ..
يسخر من سقوطها .. بقعة الطين التي لوثت ثوبها
يومها ..

هروبها المرتبك ..

_جبانة كما عهدتك ! عن أي انتقام تتحدثين؟! أنتِ

أضعف من أن تؤذي بعوضة !!

صفعة لا تراها إنما تشعر بها على وجنتها فتحيط

وجها بكفيها ..

نعم .. هي هربت ..

ربما جبناً ..

ربما ضعفاً ..

وربما هذه "النظرة الآدمية" التي رأتها في عينيه

نحوها ..

نظرة طالما افتقدتها في عيون الناس!!

نظرة منحها إياها أديم يوماً قبل أن يغلفها شعورها

بتسلطه وتقييده لها ..

ومنحها إياها عاصي وماسة إنما كذلك مغلفة بما تراه

منفعة ..

ومنحها إياها سند .. إنما مرشوشة

بالوجع .. بالفقد .. بوهن يشبه وهنها ..

إنما نظرتة "المربكة" جعلتها تشعر أنها ..

أنها -ربما- لا تنتمي لمدينة الأشباح كما تظن ..

وأنها تصلح للرؤية !!
هل كان يشفق عليها حقاً؟!
وهل لوحش كهذا أن يعرف الشفقة؟!
أم أنه مجرد انجذاب رجولي لجمالها المشئوم الذي
هو لعنتها؟!
لا تعرف .. لا تفهم ..

كأنما هي هي .. نفس الفتاة الهاربة فوق القارب الذي
يشق عرض البحر تستقبل الموج بلا حول ولا قوة ..
لكنها وإن عجزت عن إدراك كل شيء ..
فهي عن تلك "النظرة" ليست بجاهلة ..
ربما لأنها أكثر ما افتقدته منذ رحلت عن
الوطن .. ورحلت هالة عنها !

صوت رنين الجرس يقاطع أفكارها فتنتفض مكانها ..
أشباحها تختفي فتشعر بمزيج غريب من وحدة
وراحة ..

تتحرك لتفتح الباب ..

_سند!

تفتح ذراعيها للصغير الذي يرتمي في حضنها بكلمته
اليتيمة :

_ماما .

يلوح لها ب"البطة الصفراء" بين أنامله فترتجف

ابتسامتها وهي تواجه ماسة التي تقدمت منها

لتتفحص ملامحها قائلة :

_ينقصك شيء هنا؟! عاصي أوصاني أن أسألك .

تسبل جفنيها بحقد لا تملك ردعه رغم لطف

العرض ..

_شكراً ..

تقولها ولا تعنيها ..

لكن ماسة تشعر بكدر العلاقة بينهما ولا تلومها .. فلا

يزال في صدرها منها شيء لا يريحها ..

دمية جميلة لكنها مخيفة !!

مخيفة بهذا الشحوب الذي يظل ملامحها كأنها

جثة !!

بهذا الحقد الكاره الذي يبدو غريباً وسط فضاء وجع

وضعف!

مجروحة!

تعلم أنها كذلك .. لكنها كانت مثلها يوماً فلماذا لا تشعر

أنهما متشابهتان !!

لقد بدأت تشارك عاصي شعوره بعدم الارتياح نحوها

إنما كل هذا يتلاشى عندما تراها تلاعب الصغير الذي

يندمج معها كما لا يفعل بمن سواها ..

ليس هو فحسب ..

ديمة كذلك يتقشر وجهها البلاستيكي الشاحب هذا

عندما تراه ..

فتبدو تحته ملامح طفلة تفتقد اللعب ..

تماماً كما الآن وهي تتجاوزها مع الصغير ليلعباً معاً

في الحديقة المربعة التي تفصل بيتها عن بيت

عاصي ..

تركض خلف سند الذي ينطلق بحيوية غريبة

وملامحه تعود لرونق لا يعرفه إلا معها ..

وهي كذلك لا تعرفه إلا معه !!

تراقبهما لدقائق ثم تعود لتتقدم نحوهما وقد جلسا

متعانقين على عشب الحديقة ..

فجلس جوارهما وقد لمحت ضياء ونور يقبلان

عليهما من البيت المقابل ..

الصغيران يحاولان اجتذاب سند للعب معهما لكنه

يبدو وكأنه يفضل صحبة ديمة ..

_ ما سرّك معه !؟

تقولها ماسة بلطف محاولة انتزاع ديمة من هذا

الغموض الصامت الذي يحيطها لترد الأخيرة

بشروء :

_سري .. أنه يشبهني .. أمه كانت .. كانت كأمي .

_لم يكن فرق السن كبيراً لهذا الحد .

تقولها بحذر محاولة دفعها للحديث عن المزيد لكن

ديمة ترد باقتضاب:

_أشياء كهذه لا تحسب بالسنين !

تقولها وهي تربت على رأس الصغير الذي استكان

في حضنها ..

لتضم ماسة صغيرها إليها بدورها ولا تزال تجتذبها

للحديث :

_كلميني عنها .. عن هالة .

هنا تشتعل عينا ديمة للحظة قبل أن يعود لهما

خبوهما ..

_وددت لو كان يمكنني أن أقول الجواب الطبيعي
هاهنا : (اسألني السيد عاصي) لكنني أثق أنه لم
يعرفها .. بل .. ربما لم يكن يراها .. كأنه فقط تزوجها
لتكون كبش فدائه ..

تزدرد ماسة ريقها بحرج وهي تشعر أنها تحمل وزر
عاصي هذه المرة على كتفها لتقول مدافعة :
_لماذا ألمح اتهاماً في حديثك؟! مقتلها كان
حادثاً .. عاصي نفسه كاد يموت في ..

_ماسة!

صوت عاصي يفاجئها فترفع رأسها نحوه لتصطدم
بالغضب المضطرم في غاباته الزيتونية ..

_أكملني .. أي حادث؟!!

_أبي كان سيموت؟!!

الأولى من ضياء والثانية من نور تشعرانها بمدى
انجرافها في الحديث فتنهض واقفة بارتباك وهي
تحاول احتواء الموقف بكذبة مطمئنة الصغيرين ..

_ خذيها للبيت .

يقولها عاصي بصرامة فترمقه بنظرة معتذرة وهي
تتحرك بالصغيرين تاركةً سنداً متشبثاً بديمة ..
ديمة التي وقفت بدورها وهي تشعر بهيبة حضور
عاصي كالعادة ترجفها ..

**_ لم أحبه يا ديمة ولا أظني سأفعل .. يبدو أن قلبه
لا يزال معلقاً بزوجته الأولى وأخشى أن قلبي كذلك
معلق بحبه الأول ..**

تسمعها بصوت هالة كما قالتها منذ سنوات فتكاد
تبتسم بمرارة ..

لم تحبه هالة .. ولم يحبها ..

كانها دخلت حياته لتكون قرباناً فحسب!!

_ لا أحب أن أكرر حديثي مرتين .. شرطي الوحيد الذي

كان بيننا مقابل بقائك هنا مع سند ألا تذكرني الماضي

أبدأ .. أبدأ ..

يقولها بخفوت وبنبرته القوية التي جبلت على

هيمنتها فترفع عينيها إليه بنظرة وجلة وهي تعتصر

سند بين ذراعيها أكثر وقد وصلتها كلماته

كتهديد .. فتتهف مدافعة بارتباك هش:

_ ماسة هي التي ..

لكنه يقاطعها وهو يلوح بسبابته في وجهها:

لا تعلمين الثمن الذي دفعته كي أدفن الماضي كله
وأمضي في طريقي .. ولن أسمح أن يضيع كل هذا
الآن سدى !

صوته كان شديد الخفوت كي لا يرهب الصغير لكن
وقعه عليها كان شديداً ..
جسدها الضئيل يرتجف بشدة بينما عيناها تتوعدان
بقسوة ..

المزيج العجيب بين حمرة غضب وزرقة خوف لا يزال
شفرتها الخاصة !!

صوتان يصطرخان داخلها ..
أحدهما أن تهتف به أنه هو من يحتاجها .. أن كفاه
تجبراً .. أن الصغير يحتاجها كما تحتاجه ..

والآخر يهمس بها راجياً أن اصبري .. أنت -بالكاد-
وجدت لحياتك معنى بعيداً عن مدينة أشباحك !
وبينهما وقفت هي صامته .. شاردة .. أرجوانية
كعهدها!!

يرمقها عاصي بنظرة متفحصة أخيرة ثم يربت على
رأس سند الذي كان كعهده نافراً من لمساته ..
قبل أن يعود لبيته ليراقبها من خلف زجاج النافذة
العريضة وقد عادت لتلاعب الصغير ..
عيناه تضيقان بتفحص وهو يدرس كل حركاتها معه
يسترجع كل ما عرفه عنها من معلومات ..
ليهمس أخيراً بغموض قلق:

_ لو كان ما يدور ببالي صحيحاً .. فكيف أتصرف
معك .. ترى أيهما أكثر خطورة .. قربك أم بعدك !؟



_ كيف حال العمل في الاستوديو!؟

يسألها بعينين صقريتين ضاقتا توعدا لم تره عبر

الهاتف لترد دينا بعفوية :

_ جيد جدا ..ألا تريد زيارتي فيه ؟

تلتوي شفتاه بابتسامة ماکرة ونبرته تتثاقل عن عمد

متصنعا التعب:

_ أنتوي لكن ليس اليوم ..أنا أشعر أنني لست على ما

يرام .

_ ماذا بك؟

قلقها المغالی فيه يثير المزيد من غضبه لكنه يكظم

غیظه وهو يتصنع المزيد من التعب :

_ لا بأس ..تعب بسيط ..ربما أحتاج فقط للنوم .

_ لن تنام قبل الفجر كعهديك .

_ تحفظين عاداتي!

يغمغم بها بعينين تزيدان ضيقا وتوعدا لكنها لا تنتبه

مع لهفة كلماتها :

_ سأتيك كي أطمئن عليك .

_ لا داعي ..

يقولها معترضا كعادته كي لا يثير شكوكها لكنها

تهتف برجاء :

_ أرجوك يا حسام ..أرجوك ..تعلم أنني لا يمكنني أن

أتركك وأنا أعرف أنك لست بخير .

_ أعلم .

ببرود هو وحده يوقن من سخريته يقولها لتعاود

هتافها الراجي:

_ اذن .. اسمح لي .. أرجوك ..

يغلق الاتصال دون رد وابتسامته المتوعدة تمتزج

باشتعال عينيه في مزيج مخيف ..

ينظر في ساعته ليقول بثقة:

_ عشر دقائق بالضبط وتكون هنا!

يتجه نحو شرفته ليراقب سماءه المظلمة كما يراها

دوما فيجدها قد صارت أكثر ظلمة مما عهدا ..

لا بأس .. هكذا تليق به .. كما يليق بها ..

أحمق كان عندما ظن أن فرشاة سحرية قد ترسم

وسط هذا الليل نجما أو قمر !

صوت نباح سلطنة يأتيه من الخارج يدعو له للعب

لكنه لا يستجيب ..

هو يحتاج الآن أبشع وجوهه المظلمة .. أبشعها على

الاطلاق!

يغيب بعدها في شرود قصير يقطعه سماع صوت

خطواتها من الخارج تدخل عبر الباب المفتوح ليعاود

النظر في ساعته ..

_ثمان دقائق فقط .. متعجلة للغاية يا صغيرتي!

يهمس بها بسخرية متوعدة وهو يتعمد الوقوف

مكانه قبل أن يواجهها بملامح تصنع تعبها ..

_ماذا بك؟!!

تهتف بها دينا بلوعة وهي تدخل عبر باب الشرفة

متوقعة اعتراضه ككل مرة ..

تراه يترنح مكانه فتهرع إليه لتسنده بذراعيها

هاتفة :

_ ماذا حدث؟ هل تشعر بالدوار!؟

_ قليلا..

_ هل تناولت عشاءك؟

تراه يهز رأسه نفيا ليهتف بنفس النبرة المتهاكئة:

_ لماذا جئت ؟ كنت سأتدبر الأمر ..

_ اجلس هنا واسترح .. سأطلب طبيبا .. لكن تناول

طعامك أولا ربما كان مجرد هبوط ..

تقولها وهي تتحرك به نحو الكرسي الجانبي لكنه يهز

رأسه قائلا:

_ ربما كنت محقة .. سأتي معك للمطبخ .

_ استرح هنا فقط .. أنا سأدير الأمر .. ليست المرة

الأولى .

_ بالضبط .. ليست المرة الأولى ..

يتم بها بصوت لم تسمعه وهي تغادر نحو المطبخ

المقابل بعدما رآته يستلقي بأنهاك فوق كرسيه ..

تهرع نحو المطبخ لتحضر له عشاء مناسباً خلال

دقائق لم تطل ..

تراقب المكان بحذر ثم تتحني تحت الطاولة تتأكد من

وجود الجهاز الذي زرعت له لتجده مكانه فتزفر بارتياح

لو كان لمثلها أن تعرف هذا الشعور ..

تعاود الاستقامة وهي تشعر بقيد الذنب يكاد يخنقها

لكن .. هل كان لديها خيار آخر؟

تتهد بأسى وهي تضع الأطباق فوق صينية خشبية

كبيرة ..

_ هل قطعت السلطة؟

تسمعها بصوته عند الباب لتلتفت نحوه هاتفة :

_ لماذا أتيت؟ أنا أنهيت كل شيء!

_ قطعت السلطة؟

يكررها وهو يقترب منها بنظرات أخافتها خاصة وهي

تراه بحالة جيدة مغايرة لما كان عليه منذ قليل ..

فترد باستغراب:

_ نعم ..

ثم تضحك بعفوية لتردف:

_ لم أجد سوى هذا السكين غريب الشكل هنا .. أين

ذهبت بالباقي؟



ابتسامة قاسية تحتل شفثيه وتبذر الخوف في

ملاحها ..

لكن هذا لم يكن شيئاً أمام الرعب الذي اكتسحها وهي

تراه ينتزع مسدسه من جيبه فجأة ليصوبه نحوها ..

_ حسام ! لا تمزح بهذا معي ! تعلم أنني أرتعب منه ..

_ مممم .. أعلم .. ربما كان هذا واحداً من الأشياء التي

أعلمها عنك مقابل الكثير الذي لا أعلمه .. والذي

ستخبريني به حالا ..

يقولها بقسوة مخيفة ترعدها فتهتف بانهيار:

_ ماذا تقصد ؟

_ أتخيل قضية الغد التي ستشغل الرأي العام .. عاهرة

حقيرة تستغل محامياً معروفاً قدم لها خدمة ذات

يوم .. تقتحم بيته في غيابه .. لكنه يفاجئها بحضوره

فتهاجمه محاولة طعنه بسكين لكنه يضطر للدفاع عن نفسه ف...

يقطع عبارته عامدا وهو يهز مسدسه المصوب نحوها بحركة ذات مغزى فتتهار بدموعها أكثر هاتفة :

ماذا تفعل؟!!

لكنه يكمل بنفس النبرة الباردة؛

السكين عليه بصماتك .. بالطبع لم تلاحظي ان كل من الباب الخارجي والداخلي للبيت عليهما آثار اقتحام صنعتها قبل حضورك ..

تتسع عيناها بالمزيد من الرعب وهي تتراجع لتلتصق بالحائط خلفها فيقترب أكثر منها مردفا:
سأقتلك ولن أنال فيك ساعة سجن واحدة !

_ هل جنت؟!!

تصرخ بها بخوف وهي تشعر أنها تكاد تفقد وعيها
رعبا خاصة وهو يقترب أكثر بمسدسه:

**_ المجنون هو من لا يدرك حجم من أمامه .. وأنت لم
تعرفي حجمي ولا حتى حجمك .. يكفي أن يظهر ملفك
القديم للنور وساعتها ..**

_ ملفي القديم ! ملفي القديم !! ملفي القديم!! كلكم

تهددونني بملفي القديم!!

تصرخ بها بقهر وهي تخفي وجهها بين كفيها ليهتف
هو بنفس البرود القاسي:

_ كلكم؟ "كلكم" هذه هي ما أريد معرفتها بالضبط !

من "كلنا"؟؟

تزيح كفيها عن وجهها وعيناها تحيدان رغما عنها

للطاولة حيث يختفي الجهاز ..

ليضحك ضحكة متهكمة وهو يلكر ذقتها بكعب

مسدسه قائلاً:

_ لا تترجي الحماية من صديقك الصغير .. أنا

أفسدته .. تركته هنا فقط كي أتأكد من أنك صاحبته .

_ حسام .. اسمعني .. أنا ...

تهتف بها بانها ليقاطعها بصراخه الهادر الذي كان

أقسى عليها من سلاحه:

_ أنت خائنة! أحقر خائنة رأيتها في حياتي!

تهز رأسها نفياً مدافعة لتعود لصوته برودتها

: القاسية :

_ خائنة ستموت بعد دقيقة واحدة ..قولي فيها سر
ربما عفوت..أو احتفظي به ليموت معك ..
يقولها ثم يبتعد خطوات ليصوب مسدسه نحو رأسها
مشيرا لساعة الحائط:

_ تعلمين أن صبري قليل ..وظني أن الدقيقة لن
تكفيك ..

_ اقتلني يا حسام ! أنا التي كنت مخطئة عندما ظننت
أن لواحدة مثلي أملاً !!

تنهار بها وظهرها يسقط على الحائط خلفها ببطء
حتى تتكوم في الزاوية لتخفي وجهها بنحيبها المرتفع
بين كفيها ..

ورغم أن جزءاً منه كان يريد أن يجد لها مبرراً ..
أي مبرر كي لا يفقد "وجهه الأبيض" النادر معها ..

لكنه حافظ على قسوة نبرته :

_ بقيت نصف دقيقة !

ترفع عينيها إليه وهي تهز رأسها لتقول بين

دموعها:

_ لم أكن لأفعلها مخيرة .. هم أجبروني .. ضغطوا عليّ

مستغلين ماضيّ الذي تعرفه بعدما علموا عن علاقتي

بك .

_ من هم؟!!

_ الشرطة ! يبحثون خلفك !

تتسع عيناه بصدمة مع جوابها ليخفض مسدسه

ببطء ..

_ بماذا تهدين؟! من أقنعك بهذه الحماقات؟!!

لم يخبروني بأي تفاصيل..كل ما طلبوه مني أن
أحافظ دوماً على اتصالي بك وأخبرهم بما
أعرفه ..هذا بالإضافة للجهاز الذي وجدته .
دموعها المستسلمة تروي له فلا يحتاج -بخبرته-
لسؤالها عن صدقها ..

الشرطة تسعى خلفه هو!!

لماذا!؟!

ملفه السابق ك"ضابط" كله ناصع البياض ولا يحوي
ثغرة واحدة ..

عدا حادث عاصي الرفاعي الذي نال عقابه عليه ..
لكن ..مهلاً ..!

هناك ذاك الأمر الذي كاد ينساه ..

"الكوبرا"!!!

معقول!!؟

بعد كل هذه السنوات !!

_قومي!

يهتف بها بصرامته القاسية فتتحامل على نفسها

لتقف مترنحة هاتفة بين دموعها :

_صدقني مشاعري نحوك كلها كانت حقيقية ..أنا

أسفة يا حسام ..كل ..

لكنه يقاطعها وهو يجذبها من مرفقها ليجرها للخارج

هاتفاً بنفس الصرامة القاسية :

_لا تنطقي اسمي هذا ثانية على لسانك ..هذه المرة

ستخرجين من بيتي حية لكنني لن أضمن المرة

القادمة .

_اسمعي ..فقط ..اسمعي ..

تصرخ بها برجاء وهي تقاومه بكل قوتها لكنه يجرها
عبر الحديقة ليدفعها عبر الباب الخارجي أخيراً هاتفاً
بازدراء:

كان أمامك ألف حل لو كنتِ حقاً تثقين برجل وقف
جوارك وائتمنك على بيته .. لكن هاهي ذي العدالة
القدرية .. التقطتك أول مرة من الشارع وهانذا أرميك
فيه من جديد!

تسقط أرضاً لكنها تشعر أن ليس جسدها فقط هو ما
سقط ..

روحها .. قلبها .. بقايا كرامتها التي ظنتها ستبعث بعد
عدم ..

ترى بابه يغلق في وجهها عبر تشوش وجهها
بدموعها لكنها لا تلومه ..

منذ قبلت مرغمة هذا الأمر وهي تعلم أنها ستفقدته

يوماً ما ..

هل يمكنها الآن أن تصرخ ..

تصرخ أن خسارته هي أكبر خسارة نالتها يوماً ..

ربما أكبر من خسارتها شرفها ذاك اليوم لتهوي

بعدها في ذاك البئر السحيق !

تنهض متثاقلة وهي تتوجه نحو الباب المغلق تتلمسه

بأناملها كأنما تطارد طيفه عبرها ..

تودعه لآخر مرة !

لست خائنة .. ليس بيدي .. كل السواد الذي في

حياتي لم يكن بيدي .. صدقتي .. صدقتي كما فعلت من

قبل .. إيمانك بي هو ما غيرني .. هو ما جعلني أو من

بنفسي كي أتغير .. لا تجعلني أكره نفسي لو
كرهتني .. على الأقل سامحني .. سامحني ..
تراجع بظهرها وهي تجلد نفسها بنفس السوط الذي
طالما ألهبوا ظهرها به ..

ماضيها ..

ماضيها ..

ماضيها ..

لاتزال تتراجع بظهرها بذهن مشوش وهي تشعر أنها
تفقد الخيط الوحيد الذي كان يربطها بعالم الظهر ..
صوت نفير سيارة يחדش أذنها لكنه يتوه وسط كل
هذا الضياع الذي يجتذبها في دوامته ..

تشعر بألم الارتطام ثم السقوط فتغمض عينيها
باستسلام مرحةً بشبح الموت ..

ربما هاهنا فقط .. تجد السلام ..



أزرق



بخطوات راقضة يدور فهد في ساحة الملعب الكبير

الخاص بالنادي مرتدياً زيه الرياضي الذي أبرز

تناسق جسده ...

عيناه الغاضبتان تعميانه عن رؤية نظرات بعض

النساء التي تعلقت به خاصة -تلك- التي كانت تداعب

خصلات شعرها بشرود وابتسامة عابثة تتراقص على

شفتيها بينما تجلس على أحد المقاعد الجانبية تراقبه

بمزيج من فضول وتحديّ...



ورغم برودة الجو النسبية لكنه كان يشعر بتدفق

الأدرينالين في عروقه يمنحه شعوراً بالدفء

بل...بالغليان !!

الحمقاء العنيدة لاتزال تودي بنفسها في التهلكة !!

القضية الجديدة التي أقحمت نفسها فيها بمنتهى

الرعونة كالعادة لن تنتهي على خير ...

منذ قبلتها وهو يحاول جاهداً إثناءها عنها لكن رأسها

الصلب لا يستجيب إلا لصوتها هي فحسب ...

تظن نفسها أمسكت طرف خيط سيوقع بأحد الحيتان

الكبار ولا تدري أن أنها فقط تخبط رأسها في حائط

صلب لن يهتز!

اليوم موعد جلسة النطق في القضية وكم كان يتمنى

لو يمنحها دعمه لكنه يعلم إلى أين سيؤول الأمر ...

والأسوأ أنه منحها بدلاً من الدعم شجاراً صباحياً :

_تحتاجيني وأحتاجك أكثر.

قالها معطرة بقبلتين دافئتين على وجنتيها بعدما فتح

النافذة في عادة لم تفارقه منذ عهد بعيد ...

قبل أن يمد ذراعيه ليجذب جسدها إلى صدره وهو

يردف بنبرة عاتبة بينما يخفي وجهها في صدره :

_أعلم أنك لم تنامي إلا فجراً وبعد قرصين من

المسكنات !

فرفعت إليه عينين محمرتين تعباً وهي تغمغم بصوت

متهاك:

_تعلم أن اليوم حاسم...لو نال هذا الرجل عقاباً فربما

يشي بمن خلفه .

لكنه ابتسم ساخراً ليرد وهو :

**_تظنين الأمر حقاً بهذه البساطة؟! هم أكثر نفوذاً من
أن يدعوهم يسقط وهو أكثر ذكاء من أن يعترف بشيء
حتى لو سقط!**

**_لماذا تتحدث بهذا الطريقة دوماً؟! لماذا لا تثق في
قدراتي؟!**

**هتفت بها بنبرة عصبية وهي تبعد نفسها عن مرمى
ذراعيه ليهدف هو الآخر بدوره :**

**_الأمر لا علاقة له بقدراتك... هو واقع و عليكِ تقبله
شئتِ أم أبيتِ... أنت مجرد شوكة صغيرة لن تؤذي
جلدهم السميك!**

لقد جمعت كل أدلة براءة موكلي وحشدت عدداً كبيراً
من الناس عبر وسائل الاتصال كي أجعلها قضية رأي
عام... هذه المرة مختلفة !

ورغم الحماس الذي كانت تتحدث به لكن نبرة القنوط
التي تخللت حروفها قهراً جعلته يشعر بالشفقة
عليها ...

الشفقة التي زادت غضبه وهو يهتف بها بانفعال
بينما يكزها بسبابته في صدغها :

إلى متى ستظلمين هكذا تحاربين طواحين الهواء؟!!

إلى متى ستظلمين تظنين نفسك البطلة المنقذة التي

ستحرر العالم؟!!

إلى أن أموت !

صرخت بها بعصبية نجمت عن طول إرهاق الأيام

السابقة لتتحرك مغادرة الفراش ...

لكنه لحق بها ليجذبها من ذراعها نحوه هاتفاً بحدة :

_تظنين حياتك بهذه الطريقة بطولة؟! دعيني إذن

أخبرك بما قد يسوءك ! متى كانت آخر مرة لعبت فيها

مع ملك؟! شاهدت معها أحد الأفلام الكرتونية؟!!

صفت لها شعرها أو قصصت لها حكاية؟!!

أشاحت بوجهها في اعتراف منها بالذنب ليقربها منه

أكثر بينما يردف بصوت أكثر خفوتاً:

_متى كانت آخر مرة اهتمت فيها بي بصورة خاصة

أكثر من مجرد روتين عادي لزوجين؟!!

_تتهمني بالتقصير؟!!

هتفت بها متشنجة لتردف وهي تنفض ذراعها منه :

_ أنا بالكاد أحصل على ساعتين من النوم...ربما لا
أكون أماً تقليدية ممن يهتمن بهذه الأشياء التي
ذكرتها لكنني أسعى لأن أصنع لابنتي ولغيرها الوطن
النظيف...لن يسعدني أن تكبر هي بذكري لأمس
بضفيرة وحكاية ليغتل غدها وحوش بلا ضمير...أنا
أجاهد كي أنظف لها العالم الذي أريد أن تكبر فيه .

_ لن يتركوكِ وشأنك!!

صرخ بها بغضب لتجد نفسها تصرخ دون وعي
وكانما خرجت الكلمات من تلقاء ذاتها:

_ إذن أموت بطلاً مثل حسن لا منبوذة مثل جاسم

الصاوي!

لم تكد تتفوه بها وترى أثرها الذي جعل عروق وجهه
تنفر غضباً حتى تأوهت بخفوت وهي تضع كفها على
شفتيها منتظرة رد فعله ...

لكنه لم يزد عن نظرة مشتعلة شعرت بها تخرقها قبل
أن يغادر الغرفة والبيت كله ...

ينقطع شروده في ذكرى الصباح هذه عندما يتعثر في
رباط حذائه الرياضي الذي انحل ...

لكنه يستعيد توازنه سريعاً ليقف لاهث الأنفاس وهو
ينظر في ساعته ...

_ عشرون لفة !

هتفت بها المرأة التي كانت تراقبه والتي تقدمت لتقف

قبالته تماماً مردفة بانطلاق وكأن بينهما معرفة

قديمة :

_ تبدو غاضباً حقاً وتفرغ انفعالاتك في ممارسة

الجري بهذه الطريقة !

عقد فهد حاجبيه وهو يهم بإقصائها بعباراة لاذعة ...

لا تنقصه امرأة فضولية كهذه خاصة أن جنة ستصل

الآن مع ملك في أي وقت ولا يدري بأي مزاج تكون

ولا كيف انتهت جلسة قضيتها ...

لكن شعوره بألفة هذه المرأة جعله يسألها بفضاظة لم

يملكها :

_ هل تعرفيني؟!!

_ ومن لا يعرف فهد الصاوي؟!!

قالتها بميوعة تناسبت كثيراً مع مظهرها ...زيها

الرياضي المكون من قطعة علوية بلا ذراعين تكشف

جزءاً لا بأس به من صدرها وبطنها... وقطعة سفلية
تنتهي عند حدود ركبتيها ...

وقد رفعت شعرها المموج المصبوغ بالذهبي والذي
تعرجت خصلاته عمداً خلف رباط مطاطي عريض.
فابتسم متهكماً وهو يتذكر أن لقاء يشبه هذا كان أول
معرفته بـ "الأستاذة" ... بل وربما استخدمت يومها
عبارة كهذه !!

لكنه تجاهل كل هذا ليعود لعدوه حول ساحة الملعب
فيفاجأ بعدوها هي الأخرى جواره وكأنها تشاركه
التمرين ...

كان يمكنه التوقف وزجرها ببساطة لكن طاقة الغضب
التي كانت تملأه الآن كانت موجهة للعدو فقط ...
ترى ماذا حدث في جلسة القضية !؟

هل كسبت جنة المرافعة؟!

لو فعلتها وخرج موكلها بريئاً فسيعني هذا سقوط

الرجل الآخر... و"هم" لن يمرروا لها هذا!

ولو خسرت المرافعة فسيعني هذا نجاتها من برائتهم

لكنها ستسقط في نوبة اكتئاب شديدة هو خير من

يدرك توابعها ...

"الأستاذة" لا تكتفي بالدور الذي منحته لها الحياة ...

بل تريد "بطولة" كحبيبها الراحل!!

انتبه من أفكاره عندما شعر بمرافقته تتجاوزه لتقف

قبالته وتمنعه من التقدم لتهتف بين أنفاسها اللاهثة :

يمكنني مسيرتك في العدو متى شئت لكنني أظنك

الآن تريد التوقف.

يرمقها بنظرة متسائلة لم تخلُ من ضيق لكنها تشير
بكفها نحو بوابة الملعب حيث كانت جنة التي قدمت
لتوها مع ملك تناظرهما بنظرة سوداء ...

أطرق برأسه للحظة يحاول استرداد أنفاسه قبل أن
يوجه حديثه للمرأة أمامه من جديد :

ماذا تريدان بالضبط؟! ولماذا تفرضين عليّ وجودك
بهذه الفجاجة!؟

ضحكتها الرنانة خدشت أذنيه بدويها قبل أن تميل
رأسها وهي تعقد ساعديها أمام صدرها بما جعل
مفاتها تبدو أكثر إغواء:

عبارة قاسية فظة لا تليق أبداً بتاريخك القديم!
زفر بنفاد صبر وهو يكاد يعطيها ظهره لتردف
بنبرتها التي تمزج الميوعة بالغرور:

_ هل تزعم حقاً أنك لم ترني من قبل ولا حتى على

شاشة التلفاز؟!!

هنا أطلق هممة إدراك وهو يفطن لسبب ألفته

شكلها ...

بينما التمعت عيناها هي لتقول بنبرة مغرية :

_ بالضبط... أنا ...

_ بتول الراعي!

والإجابة جاءت من جنة التي كانت الآن خلفهما تماماً

لتردف بنبرة خاوية تماماً من أي شعور:

_ مقدمة البرنامج الأكثر شعبية الآن على قناة (...).

تبتسم بتول وهي تمد لها يدها في مصافحة تلقتها

جنة ببرود ...

قبل أن تنحني لتحمل ملك الصغيرة في حركة أظهرت

مفاتها بصورة فجأة ...

لكن جنة التي بدت باردة كجثة لم تحرك ساكناً وهي

تراها تداعب الصغيرة بميوعة ...

قبل أن تضعها أرضاً من جديد بنفس الحركة

المستفزة ...

لترفع رأسها نحو فهد بقولها:

_ ما رأيك في أن تشاركني فقرة في برنامجي؟!_

المصلحة مشتركة... من ناحية ستكون دعاية لشركتك

الجديدة... ومن ناحية أخرى ستكشف لنا بعض

الخبايا عن جاسم الصاوي... تعلم أن الناس يحبون

هذا النوع من الأخبار... خاصة أن وفاة والدك رحمه

الله كانت مأساوية وفي عز تألقه السياسي ...

ثم ازدادت الحماسة في صوتها وهي تردف :
_ هل كانت وفاته طبيعية أم تعمدتها بعض الجهات
المجهولة؟! ماذا عن صندوقه الأسود الذي لم يعرف
أسراره إلا ابنه الوحيد؟ حكاية ابنته التي ظهرت
سيرتها فجأة في بعض الشائعات؟! ولماذا اختار
الابن الخروج عن عباءة أبيه السياسية ليخوض
معركة نجاحه وحده؟!!

ثم صمتت لحظة لتلتقط أنفاسها قبل أن تهتف
بحماس:

_ ستكون حلقة الموسم...أراهن أن الإعلانات ...

_ لا!

قالها فهد قاطعة وهو يعطيها ظهره ليحمل ملك على كتفه بينما يختلس نظرة قلقة نحو جنة التي لا تنبئ ملامحها بخير ...

لكن المرأة اللزجة تحركت لتخاطب جنة بقولها:
_ أقنعي أنها ستكون أفضل دعاية لشركته الجديدة .
_ تظنين فهد الصاوي يفتقر لدعاية مثل هذه !؟
_ قالتها جنة بنفس النبرة الميتة والتي حوت الآن قبساً من سخرية ...مرارة...وربما احتقار شعر هو به وهو يلتفت نحوها بنظرة متفحصة فضحت قلقه قبل أن يزفر ببطء وهو يرى المرأة تحاول إعادة إقناعه...
_ هذا هو رقمي لو غيرت رأيك .

قالتها وهي تخرج بطاقة ما من جيبها لتعطيها له لكن

جنة هي التي تناولتها منها لتضعها في حقيبتها

هي ...

فارتفع حاجبا المرأة وهي ترمق جنة بنظرة متفحصة

قبل أن تقول بمواربة :

_مظهرك يبدو غريباً تماماً عما توقعته لزوجة فهد

الصاوي .

المعنى المهين الذي يختفي خلف عبارتها كاد يدفع

فهد للرد لولا أنه وجدها فرصة كي تتخلص جنة من

لوح الثلج الذي يكسوها هذا ...

لهذا ترك لها الرد الذي لم تخذله فيه :

_أنت أيضاً مظهرك يبدو غريباً تماماً عما توقعته

لمذيعه محترمة !

طارت الجبهة !!

هكذا حدث نفسه بتهكم لاذع وهو يرى المرأة اللزجة
ترمقهما بنظرة حانقة وقد احمر وجهها حرجاً قبل أن
تغادرهما بخطوات راکضة...

_ من هذه القمر؟! اسمها بتول؟!!

تسأل ملك ببراءة ولا يزال فهد يحملها سائراً بها نحو
بوابة الخروج فيحاول نفض شعوره السلبي بآخر
إيجابي وهو يرى التطور السريع لابنته في الكلام
مؤخراً ..

ينحني ليلتقط حقيبتة التي علقها على أحد كتفيه ..
فتكرر الصغيرة سؤالها ليختلس نظرة لجنة السائرة

بوجوم :

_ نعم .

صاحبك؟!؟

بنفس البراعة تسأله ليتحنح فهد متجاهلاً سؤالها قبل
أن يقبل وجنتها قائلاً بحنان :

ما أخبار "التمرين" اليوم؟!؟

الكابتن علمني حركة جديدة... سأريك إياها عندما

نصل للبيت وسنلتقط بها صورة اليوم !

تقولها بحماسة طفولية فيبتسم وهو يعاود اختلاس

النظر نحو ملامح جنة التي تفضح بوضوح خسارتها

للقضية كما كان يتوقع ...

جنة التي ظلت صامتة مطرقة طوال رحلتها بالسيارة

بينما تولى هو مهمة الرد على ثرثرة صغيرته ...

حتى وصلوا جميعاً للشقة التي ما كاد يغلق بابها خلفه

حتى هتفت ملك بمرح:

_موعد الصورة .

ابتسم فهد بحنان وهو يرمق جنة المتجهمه بنظرة
جانبيه متذكراً ذاك اليوم الذي وعدها فيه أن يلتقط
لابنتهما كل يوم صورة حتى يمنحها ذاك "الألبوم"
بعدد أيام عمرها ...

هذا العهد الذي حافظ عليه ولايزال ...

تحركت الصغيرة لتستند بجسدها كله على كفيها بينما
ترفع قدميها للأعلى في حركة بهلوانية فابتسم وهو
يتحرك بسرعة ليلتقط الكاميرا من مكانها قبل أن
يضبط إعدادتها ويضعها في مكان مناسب ...
ثم تحرك ليقف جوارهما هي وجنة التي تكلفت
ابتسامة شاحبة...

_موعد الاستحمام !

قالتها جنة مخاطبة ملك ومتجاهلة فهد تماماً لبقية

الليلة مكتفية بالاعتناء بالصغيرة حتى آوت

لفراشها ...

ولم تكد تطمئن على استسلامها للنوم حتى عادت

لغرفتهما لتجده واقفاً في نافذة الغرفة يعطيها

ظهره ...

توقفت مكانها بتردد وهي تشعر أن جسدها كله

ينهار ...

الغرفة بأكملها تكاد تختفي من ناظرها فلا تكاد ترى

سوى صورة قاعة المحكمة...

سامحيني يا أستاذة!

تسمعها بصوت موكلها البريء الذي اعترف على
نفسه كذباً ليضعها في موقف لا تحسد عليه وهي
تري كل تعبها طوال الأيام السابقة يضيع هدراً .
لم تشعر بنفسها وهي تهرع نحو قفص الاتهام
لتعصر القضبان بأصابعها صارخة بغضب:
_ لماذا تكذب؟! بماذا هددوك؟! اعترف، ولا تخش
شيئاً !!

لكن دموع القهر التي ارتسمت في عيني الرجل لم
تمنحها أكثر من نظرة استسلام سبقت عبارته التي
تدعوها للسماح!

وفي مكانه أمام النافذة كان يستشعر ذبذبة جسدها
المتوترة خلفه ...
هل علم عما حدث؟!!

بالطبع!

هل كان ليصبر كل هذا على الإحاطة بتفاصيل ما حدث

!!؟

"الحوت الكبير " أحكم سيطرته على الوضع كالعادة

وأخرس الصوت المعارض للأبد !

لكن الرسالة وصلت فهد واضحة عبر أحد معارف

أبيه السابقين والذي يحتل مركزاً سياسياً مرموقاً...

لا تدع الأستاذة تسبح ضد التيار كي لا تغرق ...!

_ أنا... آسفة!

حروفها المختنقة تغادر حلقها بصعوبة فيسمعها بقلبه

قبل أذنيه !

عمّ تعتذر بالضبط !؟

عن إهانتها لأبيه !؟

عن ذكرها لحسن؟!

أم عن اتهامها المبطن له بخذلانها وعدم نصرتها!!؟

الحمقاء!!

تظن أنه سيحتمل أن يصيبها خدش واحد في حياته

وهو الذي عاش تجربة موتها التي لا تزال ندبتها

تشوه روحه بقسوتها!!!

لو كان الأمر بيده لأبقاها هنا حبيسة هذا البيت ...

بل هذه الغرفة لما بقي لها من عمر !

لكنه يعلم أن روحها الحقيقية لن تحلق خلف قضبان!

جنته التي أسره نعيمها لم تزهر إلا بنهر يجري بلا

قيود ...

لهذا تنهد بحرارة دون أن يغير وضعه إلا من رفعه

لرأسه دون أن ينظر إليها ...

فابتلعت غصة حلقها لتتمتم بخفوت :

_تصبح على خير!

خطواتها المتثاقلة تنتهي بها في الفراش حيث غطت

جسدها كاملاً حتى رأسها ...

قبل أن تسمح لدموعها المخذولة بالهطول وهي تشعر

بالفشل !!

هذه القضية كانت تعني لها الكثير حقاً !

هذه القضية كانت ببساطة ...حق حسن!

حق حسن الذي داسته الأقدام وتعامت عنه العيون

التي انشغلت بأطماعها !!

والآن ...كل هذا مجرد رماد تذروه الرياح !!!

شعرت بحركته جوارها على الفراش فتأهبت حواسها

وهي تترقب عناقه ككل ليلة ...

لكن الصمت المطبق أنبأها أنه لا يزال غاضباً...

وهي...

هي لا تحمل مقدار ذرة من قوة كي تفعل الآن شيئاً...

أي شيئ!!

ساعة تمضي خلف ساعة والنوم العنيد يأبى عليها

راحة...

ثم يورقها أخيراً خاطر بدا في بدايته سخيلاً قبل أن

يتحول لها جس ...

بتول الراعي!!

لقد دخلت ساحة الملعب لتجدها تعدو جوار فهد الذي

لم يبذ متضايقاً من وجودها ...

معقول!!؟

لا... لا ...

لكن... لماذا لا؟!!

ألم يشكو فتورها؟!!

تقصيرها؟!!

هي تعترف أنها مؤخراً تغافلت عن احتياجاته

كرجل ...

تراه وجدها ذريعة للعودة لضلاله القديم!!!

آه !

هذا ما كان ينقصها !!

أن يسلمها إحساسها بالفشل لشكّ كهذا!

استغفرت الله سراً قبل أن ترفع عنها الغطاء لتتنظر

إلى ظهره المواجه لها نظرة طويلة...

قبل أن تغادر الفراش لتتوجه نحو خزانة ملابسها
التي تناولت منها شيئاً ما قبل أن تغادر الغرفة كلها
نحو الخارج...

وساوس ظنونها تتراكم في ذهنها وهي تشعر بالفشل
يسلمها لنوبة متوقعة من اكتئاب...
ستقاوم!

لكن... هل ستقدر!!؟

وفي الفراش كان هو الآخر عاجزاً عن النوم يراقب
وساداتها التي بللتها دموعها بضيق...
الدقائق تمر وهي لم تعد للغرفة...
هل يبدو مبالغاً لو قال أنه افتقدها!!؟
بداخله يتصارع الحب والكبرياء...
لكن منذ متى يقهر عشقها شيئاً!!؟ أي شيئاً!!؟

لهذا نفض عنه الغطاء ليعد لها - ما ظنها تحتاجه -

قبل أن يغادر الغرفة ليفاجأ بها هناك في زاوية

الصالة...

تمارس بعض الرياضة!!!

رياضة؟!؟!

الآن؟!؟!

وبهذا الزي الذي يشبه زي ...

آه !

بتول!!!

الأستاذة تشعر بالغيرة إذن!!!

تقدم نحوها بخطوات بطيئة وعيناه المتفحصتان

تميزان في حركاتها - القوية النشيطة ظاهراً - ضعف

عينها ...

"وهج البندق" الذي طالما أثار جنونه الآن يبدو
باهتاً شاحباً خلف غمامة من يأس ...
توقفت عما فعله عندما رآته لكنه أشار لها بسبابته
أن تستمر قبل أن يتقدم أكثر ليقف قبالتها مقلداً معها
كل تمرين فعله ...

العيون الصاخبة بالحديث لم تكن أقل نشاطاً من
جسديهما اللذين تناغما في الحركات ...
حتى توقفت أخيراً لتلهث بعنف وهي تستقيم واقفة
على قدميها ...

فوقف بدوره ليلتقي نظراتها المرتجفة كجسدها ...
قبل أن ترتعش شفتاها وهي تبحث عن كلمات لكنه
وضع سبابته على شفتيه في إشارة لها بالصمت قبل

أن يسحبها من كفه نحو حمام غرقتها لتشبهق
للمفاجأة وهي ترى كيف أعده لها !
فهناك كان حوض الاستحمام مليئاً بالماء الدافئ الذي
طفت عليه "بتلات" زهور اصطناعية زرقاء تواءمت
مع الإضاءة الجانبية التي تمزج اللونين الأبيض
والأزرق في مزيج خلاب دفع بعض السكينة لنفسها
لتلتفت نحوه بابتسامة مكسورة هامسة:

_شكراً.

لكنه نقر بسبابته على شفيتها مرتين في إشارة لها
أن تصمت قبل أن يهمس لها :

_ لا أريدك أن تتحدثي الآن... استرخي فحسب .

قالها وهو يدفعها برفق نحو الحوض الذي استلقت
فيه لتتاوه بخفوت وهي تشعر بالماء الدافئ يهدد
تعب جسدها ...

توقعت أن ينضم إليها فقد صارحها مسبقاً أنه تعدد
تغييره خصيصاً ليكون ضخماً هكذا كي يشاركها
فيه ...

لكنه لم يفعل بل دار حوله فقط من الخارج ليستند
على ركبتيه أمام رأسها الذي ظهر وسط البتلات
الزرقاء وظروف الإضاءة كقمر حزين !

التفتت نحوه بعينيها وهي لا تفهم ماذا يريد لكنه جذب
رأسها للخلف كي يسنده على جدار حوض الاستحمام
المواجه له ليدفعها للاسترخاء أكثر قبل أن يبدأ في
تدليك رقبتها وما ظهر من كتفيها ...

أناتها الخفيضة تنبعث عبر عينيها المغمضتين وهي

تشعر برغبة عارمة عارمة في البكاء ...

هذا الذي كان يشعر هو به وهو يشرف على رأسها

الطافي فوق الماء من علو ليهمس لها :

_ طالما كنتِ تقولين أنكِ تفتقدين صداقتنا ... أنا أتخلى

عن دور العاشق لهذه الليلة كي أسمعك ...

ثم التوت شفثاه بابتسامة عابثة ناسبت استطراده :

_ ولتعلمي أنها تضحية عظيمة في هذا الموقف بالذات

بالمناسبة !

لكنها لم تبتسم بل شددت من إغماض عينيها في

حركة فضحت مدى هشاشتها قبل أن تهمس بنبرة

روعه ضعفها:

_إياك أن تتخلى عن دور العاشق هذا ولو
مزاحاً...حبنا هو النصر الوحيد الذي أشعر أنني
حققته في حياتي .

ظلت أنامله تلك رقبتها وكتفيها مستشعراً إرهاق
جسدها الحقيقي ولما طال صمتها دفعها للحديث
بسؤاله :

_لماذا ترتدين هذا الزي بالذات ؟!

_لأنني أشعر بالغيرة...ظننتُ هذا واضحاً!

تمتتمت بها بسخرية عبر عينيها المغمضتين لتردف
بضحكة مريرة :

_تصور! أنا التي لم أشعر يوماً بالغيرة من امرأة
كانت زوجتك بل ووقفت بكل ثقة يوماً أوكد أن قلب
فهد الصاوي لن يكون إلا لي...اليوم شعرت بالغيرة .

ولماذا اليوم بالذات؟!

يسألها بحذر وأأمله تنتقل لمنابت شعرها كي يدلكها
بلطف لتصمت للحظات قبل أن تنساب الدموع غزيرة

من عينيها:

ربما لأنني ما عدت أشعر أنني أنا جنة... أشعر
بالفشل في كل أدوارى... كمحامية... كأم... كزوجة... أنا
فعلاً أحارب طواحين الهواء كما زعمت... أستحق
الخسارة كأي أحمق ظن نفسه سيغير العالم .
مسح دموعها بأأمله وهو يشعر بالسخرية
تجتاحه !!

هذه التي تزعم ضعفها بعثت بدموعها هذه القوة بين

عروقه !!

هذه هي المحاربة العنيدة التي عشقها... كيف ظن
نفسه سيهنأ لو تركهم يستلون منها سيفها ولو لأجل
صالحها؟!؟

لهذا ربت على وجنتها ولا يزال يشرف عليها من علو
ليهمس لها بنبرته الدافئة :

_ تعلمين فيما كنت أفكر منذ قليل؟!؟

_ في أن تحبسني هنا كي لا أعرض نفسي للخطر!
تمتت بها بنفس السخرية المريرة دون أن تفتح
عينيها فارتفع حاجباه بدهشة مع سؤاله :

_ كيف عرفت؟!؟

هنا فتحت عينيها لتتهف بنفس السخرية التي خالطها
الانفعال:

_ أنت لا تفكر سوى بهذا منذ عرفتني !

فابتسم وهو يلتقط وهج البندق في عينيها والذي عاد
لبعض بريقه مع انفعالها ليقول أخيراً وأنامله تغازل
ملامحها بدورانها الرشيق حولها:

كنت مخطئاً!

فغرت فاها بدهشة لتسيئ فهم عبارته :

لأنك تخاف عليّ؟!!

فاستقام بجسده ليجلس على طرف حوض الاستحمام
ولازال يستمتع بملاحقة بريق عينيها:

بل لأنني ظننت أنني يمكنني حبس الشمس ...جنة

الرشيدي التي احتلت كل ذرة في كياني ستختفي لو

أطفأوا لها شعلتها ...لن يتبقى منها سوى شبح كسير

كهذا الذي رأته اليوم ...

ثم انحنى أكثر ليقترّب بوجهه منها مردفاً بنبرة

مزجت مرحة بعاطفته :

_ لهذا قررت أنا فهد الصاوي وأنا بكامل قواي العقلية

أن أساندها في جنونها هذا حتى الموت .

ابتسمت ابتسامة حقيقية لأول مرة منذ زمن وهي

تشعر بأن هذا بالضبط ما كانت تحتاجه...

دعمه اللامشروط وموازرتة القوية لها ...

فمال بشفتيه على شفثيها ليهمس بينهما:

_ هاقد عادت جنة بابتسامتها القادرة على قلب العالم

وإشعال ثوراته .

رفعت ذراعيها تهم بعناقه لكنه ابتعد بظهره ليقف

مكانه قبل أن يتراقص حاجباه بمشاكسة :

_ قلت أنني تخليت مؤقتاً عن دور العاشق لهذه الليلة .

فأملت رأسها لتبتسم باغواء هامسة :

حقاً؟!

لكنه هز كتفيه ليعطيها ظهره وهو يتحرك ليغادر

الحمام ...

وقبل أن يختفي عن ناظرها التفت نحوها ليقول من

خلف كتفيه :

_ستحتاجين لمجهود كبير كي تقنعيني

بالعكس .. تمنياتي بالتوفيق.

ضحكت بارتياح وهي تعاود الاسترخاء في حوض

الاستحمام ...

أناملها تداعب البتلات الزرقاء الطافية فوق السطح

بأمل عاد يسكن حناياها ...

أمل أعاد تجديد روحها لتتطلق منها تهيدة قوية قبل
أن تقف على قدميها لتخلع ملابسها وتسمح للماء
المنهمر من أعلى أن يمنحها المزيد من النشاط
وكأنها تنفض معه كل المشاعر السلبية التي تملكها
من قبل..

وقد كان !

لهذا عندما خرجت إليه لم يستطع تمالك دهشته وهو
يشعر أنه أمام امرأة أخرى ...
مبذها السماويّ يعكس رونقاً محبباً على الوجنتين
المتوردتين...

خصلات شعرها الكثيفة المبتلة تلتصق بوجهها
فتمنحها مظهراً برياً يحبه ...

وابتسامتها العابثة تتوج شفتين تتوعدان بانتقام

لذيذ !

لهذا حك رأسه بأنامله وهو يسألها ببراعة مصطنعة :

_ ما رأيك لو تساعديني في نقل مرتبة الفراش

للأرض!؟!

_ لماذا!؟!

قالتها بنفس النبرة المغوية وهي لاتزال تواصل

تقدمها البطيئ نحوه ...

ليجيبها وهو يتحرك بالفعل لينفذ اقتراحه :

_ يقولون إن القفز يبدد الشحنات السلبية .. سآدعك

تقفزين فوقها كابنتك وهذا أبسط واجباتي كصديق لما

تبقى من هذه الليلة البائسة !

ضحكت وهي تساعده في نقل مرتبة الفراش إلى

الأرض قبل أن تهتف بين أنفاسها اللاهثة :

_تعلم؟! ربما لن تكون فكرة سيئة على أي حال...

ولم تكذ تنتهي منها حتى شرعت تقفز قفزات متتابعة

على المرتبة وسط ضحكاتهما التي علا صوتها ...

فالتمعت عيناه باشتهاء والجنون تنتقل ذبذباته منها

إليه ليشاركها القفز للحظات ...

قبل يقترب منها ليعتقل خصرها بكفيه مقرباً إياها منه

بهمسه المشتعل:

_أنا كاذب!

ارتفع حاجباها بدهشة وسط أنفاسها اللاهثة ليردف

وشفتاه ترددان ترائيل عشقه على بشرتها :

قلت إنك تحتاجين لمجهود كبير كي تقنعيني بالعودة
لدور العاشق الليلة...والحقيقة أنكِ كي تثيري جنوني
لا تحتاجين سوى لأن تكوني...أنتِ!

همساته التي امتزجت بعناق شفتيه كان لها مفعول
السحر على روحها التي عادت تتفتح براعمها تحت
شمس عاطفته ...

خاصة عندما رفعها ذراعاه لتستند بكامل جسدها
عليه بينما تؤرجح قدميها بحركة تحب الشعور بها
معه ...

لتهمس هي الأخرى وأناملها تحتضن وجنتيه :
شكراً لأنك في كل مرة أتوه فيها عن نفسي ...تردني
إليها ...

ثم دفنت وجهها في عنقه لتردف :

_ أعلم أن بداخلك رجلاً غاضباً يريد تحطيم
رأسي... أعلم أنه ربما قد يكون محقاً... وأعلم أيضاً
أنني كثيراً أخاف ثورته وخذلانه... لكنني كذلك أعلم
أنه لا يزال أفضل مكان أحتمي فيه منك هو بين
ذراعيك ...

قبل أن ترفع عينيها بوهج البندق الذي تآلق بريقه
بكامل رونقه أخيراً مع استطرادها:

_ طالما كنت أزعم أن قوتي شمس بين
ضلوعي... الآن أجد الجرأة لأعترف أن نوري قبسٌ
من نورك... إن يُظلم أعتِم !

تنهد بحرارة وهو يعتصرها بين ذراعيه أكثر لتلتمع
نجوم الليل الساحر في عينيهِ مع همسه العاتب:

_ أعرف حمقاء كانت تغار! لا تدري أن النساء قبلها

عبث وبعدها عدم!

_ حمقاء تحتاج لتأديب!؟!

بهمسها شديد الإغواء تهمس بها ليحببها وهو يعيدها

أرضاً لتلامس قدمها المرتبة من جديد :

_ يزعمون أنني أجيد التأديب!

ضحكت وهي تمرغ وجهها في صدره ليتأوه بخفوت

وهو يثبت رأسها مقابل قلبه مردفاً :

_ هكذا هو مكانك بالضبط جنتي... جارة قلبي بل

لصيقته... رموشك تكاد تعانق دقاته... تظنين قلباً كهذا

قد يفارق أو يخون!؟!

_ حتى تزهق آخر أنفاسي لا أفارق ولا أخون!

من قالها!؟!

كلاهما همسا بها في نفس التوقيت بتناغم لم يعد
مستغرباً منهما فالروح تسري واحدة بين جسدين
متعانقين ...

والآن أن الأوان أن يلهبها الغرام لكن...
_ ماذا تفعلان؟!_

والهتاف كانت من ملك الصغيرة التي وقفت تمسح
عينها عند الباب لتبتعد عنه جنة بسرعة قبل أن
تهمس له من بين أسنانها:

_ كل هذا والباب مفتوح؟! وأنا الذي ظننتك أغلقته!!

_ ابنتك لديها نفس "دخلة المخبرين" الخاصة

بك... ما شاء الله .. واحدة منكما ستصيبني بنوبة قلبية

يوماً ما!

همس بها جوار أذنها بسرعة قبل أن يفتح ذراعيه

للصغيرة هاتفاً وهو يكرز على أسنانه :

_حبيبة أبيها !!! لا تتخلي سعادتي باستيقاظك

الآن !!

توجهت نحوه الصغيرة لتهتف باستغراب:

_لماذا تضعان المرتبة على الأرض!؟

تحنحت جنة بحرج وهي تضم المبذل على جسدها

ليجيب فهد بسرعة :

_فكرت أنها بديل مناسب ل"الترامبولينا"...ما رأيك

!؟

_حقاً!؟

هتفت بها ملك وقد طار النوم من عينيها تماماً لتصعد
وتتقافز بمرح فوق المرتبة قبل أن ينضم إليها فهد
وجنة يشاركها القفز والضحكات ...

_ دقيقة واحدة .. سأحضر الكاميرا!

هتف بها فهد وهو يهرول للخارج قبل أن يعود بها
ليلتقط لهم بعض الصور بينما يتقافزون ...

ثم مال على جنة وهو يريها صور الأيام السابقة :

_ تلاحظين الفارق؟! لم تضحكي هكذا منذ وقت

طويل... ضحكك تجعل صورتنا كلنا أفضل!

ابتسمت وهي تضمه بأحد ذراعيها بينما تضم

الصغيرة بالآخر ليناموا جميعاً على المرتبة التي

شهدت ليلة حافلة ...

ولم يكادا يطمئنان لاستسلام الصغيرة للنوم من جديد
حتى همس هو بجنة بينما يشبك أنامله بأناملها مسنداً
رأسه هو الآخر على صدرها:

_ أنا دوماً معك ... لن أمنعك تنفس قضية تعيشين
لأجلها ... فقط لا تفعلي شيئاً دون علمي ... بالله عليك
لا تفجعي قلبي بك كفاني ما كان !

فابتسمت وهي تقبل جبينه لتمنحه عيناها الوعد
المرجو قبل أن تنظر للصغيرة النائمة على صدرها
فتهمس بشقاوة :

_ ابنتك أفسدت الليلة!
لكنه رفع رأسه ليداعب أنفها بأنفه مع همسه
الساخر:

_ لا يا أستاذة... طالما أفسدت الليلة فهي ابنتك

أنتِ... تعلمين أن "جيناتي" لا تسمح بحدوث هذا!

_ جيناتك وقحة مثلك!

_ وجيناتك متمرة مثلك !

_ ششششششش... أنا متمرة ووقحة لأني ابنتكما

معاً... اصمتا إذن فأنا أريد النوم!

تمتت بها الصغيرة فجأة ليضع كل منهما كفه على

شفتيه بسرعة قبل أن يكتما ضحكاتهما ...

حقاً... إنها ابنتهما معاً!!

_ هل هذه التي كنا نشكي تلعثم كلامها؟! صار لسانها

أطول من لسانك !

يهمس بها فهد بخفوت بعد دقائق طويلة وهو ينهض

ليراقب وجه صغيرته النائمة بحنان ..

لتنهض جنة بدورها هامسة باستتكار امتزج بدلالها :

_ أنا؟! لساني طويل!؟!

فيغمزها هامساً بنبرته العابثة :

_ سؤالك هذا ليس له إلا إجابة نموذجية واحدة ..أجيد

الرد بها كل مرة !

تحمر وجنتاها بخجل وهي تكتم ضحكتها كي لا توظف

الصغيرة فتكتفي بلكزه في كتفه ليكتم ضحكته بدوره

وهو يضم رأسها لصدره متهداً بعمق ..

أنامله تغوص بين خصلات شعرها البندقية الثرية

التي تحيط برأسها العنيد فلا يدري أيهما تشابكاً ..

لكن كل ما يعرفه أنه سيكون دوماً معها ..

بل حولها !!

فلا يصيبها مكروه إلا ويصيبه هو قبلها !!

هو ارتضاها جنته وجحيمه ..وستبقى العمر كله

كذلك !!

=====

أحمر

=====

يقولون إن "من في القاع لا يخشى السقوط"...

فما الذي قد تخشاه مثلي !؟

نارية عاصفة متفجرة...

فلا تلمني سيدي...

أنا لست إلا تائهة...

وجدت على جسر كسير طريقها ...

فامدد إليّ يدك أو دعني أقع...



فليس أسوأ من الموت إلا انتظار الحياة !



_ لا تزالين نائمة؟! أدركي صلاة الفجر قبل

الشروق ..هيا!!

تهتف بها هبة بصرامتها الحنون وهي توقظها من

نومها فتتهتف يسرا بصوت ناعس:

_ لا أستطيع ..متعبة !

_ قومي كي تصلي ..ركعتا الفجر بالدنيا وما فيها ..لو

كان هذا ثواب السنة فماذا عن الفرض؟

تعاود هزها ببعض العنف فتنتفض يسرا مكانها لتطلق

صيحة غاضبة ناسبت هتافها :

قلت لك إني متعبة .. عمل الفرن هذا يجعلني لا
أستطيع الوقوف على قدمي بقية اليوم ..ظهري يكاد
يتمزق .

غضبها يمتزج بألم حقيقي يجعل عينيها تدمعان
فتبتسم هبة دون أن تتخلى عن صرامتها الحنون :
_ومن بيده الصحة والمرض ؟! المنح والمنع؟!
قومي وقفي بين يديه واسألي الله العون والعافية .
_ سأصلي عندما أستيقظ ..إنها ساعة واحدة فقط
بقيت على مواعيدي!

تهتف بها يسرا بمزيج من إرهاق وعناد وهي تعود
لتستلقي فوق الفراش لكن هبة تسحبها من ذراعها
هاتفة :

_ وقت صلاة الفجر ينتهي بطلوع الشمس وليس للظهر كما يظن بعض الناس .. قومي وأدركي بركتها في موعدها .

تتأفف يسرا بضجر وهي تفكر في ادعاء أنها في أيام عاداتها الشهرية كي تتهرب منها .. لكنها تدرك أنها لن تستطيع النوم مادامت قد أقلقتها بهذا الشكل .. تغادر الفراش بحركة عصبية ليجعلها ألم ظهرها تتحني على نفسها للحظات ربتت هبة فيها على كتفها قائلة بحنانها الصارم :

_ لا تفكري في مشقة العمل .. بل في عظم الأجر .. ترمقها يسرا بنظرة ساخطة وهي تفكر فيما يدفعها للاستمرار في كل هذا العبث ..

لماذا تستكمل هذه "العبة" التي عادت فيها لنقطة

البداية فلم تعد تدري لها أية قواعد ..

فلتعد كما كانت.. " سمرا " في محل الأطفال مكتفيةً

بمطاردة سرايبها في عيونهم !!

_تعلمين؟! عندما تتذوقين لذة المشقة في

العبادة ..تستشعرين تعب جسدك وراحة قلبك ..ترين

الدنيا كلها صغيرة ..بل متناهية الصغر جوار

إحساسك بالخالق العظيم الذي وسع ملكوته السماء

والأرض ..ساعتها فقط تفهمين الآية "وعجلت إليك

ربي لترضى" ..لترضى!..لترضى!! كأن غاية حياتك

فقط هو أن يرضى ..وكفى!!

قشعريرة غريبة تسري في جسدها مع كلمات هبة

التي تذكرها بحديث إبراهيم ..

لغة غريبة بمصطلحات لم تسمعها تقريباً في عمرها

كله ..

لكنها تشعر أنها تصيب روحها بسهام غير مرئية ..

لا تعرف ما هذا الذي تحكي عنه ..

إنما ..تود تجربته !!

لهذا يتحول مزيج الغضب والألم لما يشبه الاستسلام

وهي تتوجه نحو الحمام القريب الذي مكثت فيه

لدقائق ..

قبل أن تخرج لتتوضأ في الحوض الذي كان خارجه ..

_أنا أصرت أن يكون الحوض خارج الحمام ..درسنا

في الأزهر إن بعض الفقهاء يقولون بعدم جواز

الوضوء في الحمام ..صحيحٌ أن البعض الآخر يجيز

هذا لكنني دوماً آخذ بالأحوط ..ما هذا؟! ما هذا!؟!

تقطع هبة حديثها وهي ترى طريقة وضوء يسرا

العجول فتهتف بها باستنكار:

_ انتظري ! سأعلمك كيف تتوضئين ! ابدئي

بالتسمية .. بسم الله ..

تكنم يسرا زفرة غضبها وهي تراها تعلمها طريقة

الوضوء الصحيح فتجاريها في حركاتها بملل ..

لتنهي هبة وضوءها بدعائها :

_ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن

محمداً عبده ورسوله .. اللهم اجعلني من التوابين

واجعلني من المتطهرين ..

ثم تلتفت نحوها مردفة :

_ سهلة .. احفظيها .

ترمقها يسرا بنظرة غريبة وهي تشعر بصداع رأسها
مع تعب جسدها يجعلانها تهم بالصراخ فيها ..
لكنها لا تدري لماذا استسلمت للمزيد من هذا الشعور
الغريب بين رهبة وسكينة وهي تطيعها لترتدي
إسدالها ثم تهم بالصلاة ..

_ انتظري! سأصلي بك جماعة .

تهتف بها هبة وهي تجاورها لتلصق قدمها بقدمها
فتهتف يسرا باستغراب:

_ كيف تكون هذه الصلاة!؟!

_ لم تصلي في جماعة من قبل!؟!

تسألها هبة ببعض الدهشة فتزرد يسرا ريقها بتوتر
وهي تخشى أن تخبرها أنها لم تقف هكذا للصلاة منذ
سنوات طويلة ..

مرتان فقط شعرت فيهما بحاجتها للصلاة ..
الأولى .. عندما مات ابنها وعادت من مقبرته في
لبنان ..

والثانية .. عندما علمت عن مرض أمها الذي سرقها
منها ..

في المرتين كانت تشعر أنها تتخبط .. تريد تجربة أي
شيء مما يحكون عنه قد يخفف عنها ما هي فيه ..
لكنها .. وفي المرتين .. لم تفعلها !!

كانت تشعر أنها مدنسة !!

أنها بعيدة عن هذه الرحمة التي ترحوها ولا

تستحقها !!

بل إنها -وليسامحها الله على ظنها- كانت تشعر أن الله
لا يحبها فأراد عقابها وقد زادها هذا الظن عناداً
ونفوراً ..

ولولا اضطرارها للاستمرار في "لعبتها" لما هاودت
هبة على ما تريد ..

تشرح لها هبة كيفية الصلاة فتنتبه حواسها نوعاً ما
وهي تردد لنفسها ألا بأس بتجربة شيء جديد ..
_الله أكبر ..

تجهر بها هبة بصوت غير مرتفع يملؤه الخشوع
فترتعد يسراً مكانها وهي تشعر بمزيج من الرهبة
والنفور ..

لا تريد .. لا تريد ..

هي تشعر أن أبواب السماء غلقت في وجهها منذ

زمن ..

فهل هذا سيفتحها !؟

بضع حركات تقوم فيها وتقف !!؟

تسمع هبة تقرأ الفاتحة بصوتها الذي يمزج حلاوته

بخشيتها فتمدع عيناها دون وعي ..

تزداد الرهبة .. ويقل النفور ..

تسمعا تنهي الفاتحة ثم تبدأ في قراءة سورة قصيرة

لم تتبين يسرا حروفها وهي غارقة في شعورها

المتأرجح بين الرهبة والنفور ..

شيطانها يجذبها لشroud قصير فيسرق منها بركة

ركوعها ..

لكنها عندما سلمت رأسها للسجود شعرت

وكأنها .. أكثر رهبة ..

أشد خوفاً ..

وكأنها تشعر أن الدنيا كلها ستسقط فوق رأسها !!

قلبها يخفق بجنون ولولا اضطرارها للاستمرار لما

فعلتها ..

دموعها تتحول لنشيج خافت وهي تشعر أن لحظات

السجود تخنقها في قبر ذنوبها المظلم ..

لم تجرؤ على الدعاء ..

ولا حتى على رفع رأسها كأنها لو فعلتها فستصيبها

صاعقة من السماء!

المزيد والمزيد من الرهبة ..

والنفور يتحول لرعب ..

جسدها ينتفض ببكائها الذي ارتفع صوته لكن هبة
تستمر في صلاتها لتقوم للركعة الثانية ..
فتنهض هي خلفها بسرعة وهي تفتح عينيها هاربة
من هواجس ظلمتها وخوفها ..
شيطانها يسحبها لشرودها من جديد ..
لكنها تفيق على تلاوة هبة العذبة ..
_إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم
الرحمن وداً.

كانت المرة الأولى في حياتها التي تسمع فيها هذه
الآية ..

تدهش في البداية من بساطة الكلمات وقد كانت
تتصور القرآن كله صعب المعاني عزيز الفهم ..
لكنها تشعر وكأن معاني الآية الكريمة تخترقها !!

لماذا اختارتها هبة فلم تزد على سواها؟!
أم عساها هبة لم تخترها بل أجازها الله على لسانها
كي تسمعها هي؟!
هل هي رسالة لها بالاقتراب؟!
أم وعيدٌ لها بأنها لا تستحق هذا "الود" لأنها ليست
من المؤمنين!!?
شيطانها يعزز لها الخاطر الأخير فيسرق منها بركة
ركوعها من جديد ..
لكنها عندما سجدت هذه المرة لم ترى في السجدة
ظلمة قبر ..
بل شعرت أنها تطارد عبر فيض دموعها سراياً من
نور!!

بقع نورانية تومض وسط الدمع كمصايح متألئة
تزيد رجفة جسدها بهذه الانتفاضة التي تكاد توقف
قلبها ..

المزيد من الرهبة .. ويختفي النفور!!
يختفي تماماً وهي تود لو تطيل هذه السجدة ..
لا .. لن تسقط السماء فوقها !
لن تصيبها صاعقة !!

لن تسجنها ذنوبها في ظلمة قبو!!
هي تريد المزيد من مطاردة هذه المصايح
المتألئة ..

_ سبحان ربي الأعلى.
يردها قلبها هذه المرة وقد عقدت الرهبة لسانها ..
الأعلى! الأعلى!!

هذه المرة لم تستشعرها متوعدة .. بل واعدة !!
ربما لهذا بقيت تتردد داخلها حتى بعدما سلمت من

الصلاة !

جسدها لا يزال ينتفض بهذا البكاء الغريب لتشعر
بهبة تضمها بين ذراعيها لتربت على ظهرها برفق ..

لم تسألها!

ربما كان هذا من ميزات العديدة رغم صرامة
مظهرها ..

أنها تحترم خصوصية ما تخفيه !!

لم تدري كم استمر هذا العناق الدافئ والذي قرّب
بينهما لأول مرة بهذه الحميمية منذ التقتا ..

لكنها حقاً كانت تحتاجه !!

دعوت لك كثيراً في سجودي .. عسى الله أن يتقبل !

تهمس بها هبة بحناتها الوقور فترفع يسرا إليها

عينيها المحمرتين من فرط البكاء ..

لم تسمع هذه العبارة يوماً من أحدهم بعد مرض

أمها ..

وحتى مع الأخيرة لم تكن تستشعرها بهذه القوة

المكتسحة !

كل هذا الجو الروحاني غريب عليها ..

ربما لهذا لم تهدأ انتفاضة جسدها وهي تسأل هبة

بحروف مرتجفة :

_ الآية! الآية التي كنتِ تقرئينها .. لماذا ؟

أقصد .. ماذا ..؟!!

حروفها تنقطع من جديد ببكائها الخافت لكن هبة تفهم

فتتسع ابتسامتها وهي تربت على ظهرها قائلة :

_أحبها جداً ..معناها كبير في قلبي ..الآية تعني أن الله سبحانه وتعالى إذا أحب عبداً زرع حبه في قلوب عباده ..لا أخفيك قولاً أنني أكررها كثيراً في صلاتي ودعائي خاصة بعد وفاة والديّ ..ربما لأنني أشعر أن أعظم ما أحتاجه هو الحب ..والحمد لله ..بركتها تلحقتني في كل حياتي ..الله سبحانه وتعالى سخر لي حب خالي ربيع ليعاملني كابنته ..وإبراهيم ..

_ ماله إبراهيم!؟

تهتف بها يسرا فجأة بترقب لتطرق هبة برأسها
مجيبة :

_إبراهيم وأولاد عمه ..كل أهل الحي هنا ..و زملائي في الكلية ..حبهم يحاوطني في كل وقت ..يعوضني فقدان أهلي ..وكفى بها نعمة !

تشعر يسرا ببعض الغيرة وشيطانها يدفعها للمقارنة

بينها -في وضعها الحالي- وبين هبة ..

خاصة بعيني ابراهيم ..

هبة التي تبدو بصورتها العكسية ..

التزامها الديني .. وظيفتها المرموقة في الكلية ..

ولو انكشف المستور ..

ستبقى هي ابنة رجل السياسة الذي يكرهه والتي

تزوجت ثلاث مرات ..

فيما تبقى هبة الصورة النموذجية المناسبة له !

لكن ما يعنيها من إبراهيم!!؟

ألم تفقد لعبتها معه هدفها!!؟

هل هي مجرد غيرة بلا معنى!!؟

الغريب أن غيرتها لم تسلمها هذه المرة - كما كانت

مع جنة الرشيدى - لحقد ..

بل ليأس!

يأس حاوطة الحزن وحاوط هو قلبها بجدار من نار !

لهذا أطرقت هي الأخرى برأسها وهي تبتعد كأنما

انفك الترابط بينهما - لحظياً - لتمسح دموعها قائلة :

_ شكراً .. على .. تفسير الآية .

_ لو تريدون المزيد من فهم القرآن يمكنك حضور

دروس إبراهيم في المسجد يوم الجمعة .. الفتيات

يسمعه من خلف ستار .. إبراهيم أسلوبه أفضل

مني .. - أنا أسلوبى جاف ولا أجيد الشرح .. لكنه -

بارك الله له - كلماته سلسلة تدخل القلب دون تعقيد .

تقولها هبة بعفوية لتزم يسرا شفتيها هاربة من

عينيها بقولها :

_ سندس أخبرتني!

_ عظيم! إذن احضريها مع الفتيات!

_ سأرى!

تقولها وهي تكفكف ما بقي من دمعها لتنهض فتخلع

إسدال صلاتها لتطويه جانباً ..

_ ستعودين للنوم!؟

تسألها هبة لترد باقتضاب:

_ لا .. سأشرب الشاي بالخارج .. وأنتظر حتى موعد

فتح الفرن .

لكن هبة تتنأب لتتجه نحو غرفتهما المشتركة

قائلة :

_أما أنا فسأعود للنوم ..اليوم إجازة من

الكلية ..تريدين شيئاً؟!!

تهز لها رأسها بامتتان لا تدعيه ثم تتخذ خطواتها

نحو المطبخ الصغير ..

تبتسم ساخرة وهي تراه لا يستحق لقب "مطبخ"

هذا!!!

غرفة الحارس في قصر أبيها تماثله حجماً مرتين

على الأقل!

مجرد زاوية ضيقة جوار موقد متوسط الحال وثلاجة

قديمة الطراز ..

صوت المذياع جوارها والذي تضبطه هبة دوماً على

إذاعة القرآن الكريم ..

_ابتهالات الصباح بصوت الشيخ نصر الدين طوبار ..

حين يهدى الصبح اشراق سناه

يسكب الظل رحيقاً من نداءه

موقظاً بالنور أجفان الحياة

الضحى من نور من؟

الله

والندى من فيض من؟

الله

سبحت لله فى العش الطيور

ترسل الأنغام عطراً فى الزهور

تصنع العش وتسعى فى البكور

عيشها فى رزق من؟

الله

وهى ايضاً صنع من؟

الله

الرازق الله والصانع الله

الله الله الله

هو الله

لم تكن تعلم أن المذيع هكذا مسلّ !

طالما اعتبرته "موضة قديمة" لا تتواءم مع هذا
العصر بسحر سماعات الأذن والصوت الذي يصلها
نقياً واضحاً ..

لكن هذا "التشويش" في الإذاعة صار محبباً لها
خاصةً مع الفقرات التي لا تتغير يومياً ..
وابتهالات الصباح بهذه الحناجر القوية التي تزلزل
القلب بهذا الشعور المهيّب ..

متعة خاصة كغيرها من المتع التي تجربها هنا ولم

تتصور أن تعيشها يوماً في حياتها الفارحة ..

تفتح الصنبور لتفاجأ بانقطاع المياه فلا تتذمر بل

تتحني نحو القارورة الكبيرة التي ملأتها هبة بالماء

تحسباً للظروف ..

تصب منها القليل في البراد الذي تضعه على النار..

تراقب الماء وهو يغلي بشرود منتشية بصوت زقزقة

العصافير الذي يأتيها من الخارج كأنه يناديها فتلبي

النداء ..

تخرج من الشقة بكوب الشاي نحو السطح وقد بدأت

الشمس تأخذ رحلة شروقها ..

تلتفت نحو الكرسي الخشبي المكسور والذي وضعت

هبة جوار فتحة السلم لتجد حزمة النعناع الأخضر ..

ككل يوم في مكانها منذ أخبرها إبراهيم أول مرة عن

الأمر!

تراه هو من يضعها!؟

أم ربيع!؟

تراه يضعها لها هي!؟ أم لهبة!؟

تراه يعني بها شيئاً أكثر من مجرد إشفاقه عليها!؟!!

وهل يستحق هذا - أصلاً - أي أهمية!؟

تتهد بحرارة وهي لا تدري جواب أي مما سبق ..

لكنها تتقدم نحوها لتأخذ منها ورقتين تغسلهما بالقليل

من الماء الذي تبرده هبة في "قُلَّة فخارية" قريبة ..

ثم تضعهما في كوبها ..

هكذا تجدين المذاق أفضل .. لا تبكي !

تبسم ابتسامة واهنة وهي تستعيد كلماته السابقة ..

لا تدري كم مرة في حياتها سمعت "لا تبكي" هذه ..

لكنها -منه هو- كانت مختلفة تماماً ..

دافئة .. بسيطة ..حنون ..صادقة ..

ككل شيء حولها هنا!

ترفع رأسها فجأة للسماء تتذكر صلاتها منذ قليل ..

رهبة شعورها ..

"المصاييح المتلألئة" التي كانت تطاردها في

سجودها ..

الآية الكريمة .. وشرح هبة لها ..

فتجد شفيتها تتمتان دون وعي بالسؤال :

هل تحبني!؟

القشعريرة ذاتها تعاودها وهي تجرب مناجاتها هذه

لأول مرة !!

لأول مرة في هذا العمر الطويل تسأل هذا السؤال ..

وتتمنى لو تعرف الجواب !!

لكن ألم تعرفه حقاً؟!

ألم تجد صداه بين ضلوعها في هذه السكينة التي

تغشاها كزائر عزيز لأول مرة بعد وفاة ابنها !!؟

تمسح عينيها بقوة وهي تخفض بصرها لترتشف

رشفة مستمتعة من كوبها ثم تعانقه بأناملها كأنما

تعانق كل هذا الجمال الذي تعيشه هنا ..

تري الشمس تتبختر بالمزيد من ضيائها فتأخذ نفساً

عميقاً وهي تقترب من السور حيث الزهور التي

زرعتها هبة بألوانها المذهلة ..

نحلة تقف فوق إحداها !!

ربما لو كانت في موقف آخر لصرخت هاربة تخشى

قرصتها ..

لكن هذا الشعور الغريب الذي يملأها الآن بالسكينة

يجعلها تكتفي بالمشاهدة ..

تطير النحلة بعيداً أخيراً فتطاردها عيناها كأنما

تحسدها على هذا التحليق الحر دون قيود ..

ترتشف المزيد من الكوب ثم تستند على السور تراقب

الطريق ..

تكتم ضحكتها وهي تراقب "ثلاثي الرومانسية" وقد

ظهروا أول الشارع ..

"قيس وعنتر وروميو" !

ضحكاتهم الصاخبة تبدو واضحة في هذا الوقت مع

الخلو النسبي للشارع ..

كبيرهم قيس ينتبه إليها فيلكر شقيقه لكنها تشيح
بوجهها متعمدة تجاههم حتى تشعر بهم قد اختفوا
داخل بيت ربيع ..

تنظر للجانب الآخر من الشارع حيث المسجد القريب
فيرتجف قلبها بترقب كعهدا كلما تراهما يسيران
متجاورين ..

ربيع وإبراهيم!!

أناملها تزيد قوة عناقها للكوب وعيناه المتعطشتان
لهذا المنظر تكادان تلتصقان بهما ..

العجوز الذي تتأملت خطواته وقد تأبط ذراع إبراهيم
فلا تدري أيهما أكثر احتياجاً لصاحبه ..

هبة أخبرتها أنهما يجلسان في المسجد بعد صلاة
الفجر فيما يسمونه ..

"جلسة الشروق"!

آه !

كم من أشياء تتعلمها هنا عن هذا الدين الذي تحمله
في بطاقة هوية والآن تدرك أنها لم تكن تعلم حتى

قشوره !!

يقتربان أكثر فتزداد خفقاتها جنوناً وهي تود لو ..

لو "تنزع" بينهما!!

لو ينالها قبسٌ من هذا الحنان الذي يميز علاقتهما ..
تنقطع أفكارها وهي ترى إبراهيم يرفع عينيه نحوها
للحظة ..

لحظة واحدة ثم يغض بصره قبل أن ينتبه لها ربيع
كذلك فتلوح له بكفها بحرارة يبتسم هو لها ببعض

الحذر ..

خاصةً وهو يرى إبراهيم جواره قد عاود النظر إليها

نظرة غضب خاطفة مشيراً لرأسه في حركة ذات

مغزى .. ليدرك ببساطة أن ابنه .. يغار!

بينما تشهق هي مع انتباهها أنها لا ترتدي حجابها

فتراجع مبتعدة عن السور بسرعة ..

قبل أن تغلبها ابتسامة !

ابتسامة لم تفكر في معناها كثيراً وهي تتلذذ بشرب ما

بقي من كوبها باستمتاع ..

بينما هذا الشعور الغريب يعدّل التقويم في عمرها

فينزع سنوات ..

ليعيد إليها لهفة مراهقة تجرب أن ترى نفسها لأول

مرة في عيني رجل!

=====

_ نتكلم اليوم عن حب الله للعبد !

تتسع عيناها بصدمة وهي تسمع ابراهيم خلف الستار
يحدث الصبية في درسه الأسبوعي بالمسجد وقد نام
سامي في حجرها بينما جلست سندس جوارها مع
بقية الفتيات ..

كانت أكبرهن سناً وأكثرهن هماً!!

خاصةً وهي تراه يتحدث عن هذا الأمر بالذات والذي
كان يشغلها منذ حديثها مع هبة ..

_ علامات حب الله للعبد كثيرة منها أن يقذف في قلبه

هذا السؤال بالذات .. هل يحبني الله؟! لو وقع في

صدرك السؤال فهو الجواب .. مادام قد شغلك بهذا

الأمر فلن يتركك حتى يرشدك ..

تبتسم دامعة العينين وهي ترفع رأسها للأعلى كأنها

لا تصدق أنها رسالتها ..

ثم تعود لتتظر لسامي المستكين في حجرها فتداعب

شعره بأناملها وهي تتذكر نومةً لطفلها في حجرها

كهذه ..

فيزداد تكدس الدموع في عينيها ..

ولا تزال كلمات إبراهيم تأتيها بسيطة دافئة غير

متكلفة ..

ومن علامات حب الله للعبد كذلك أن يبتليه .. لعل

الابتلاء يرده إليه متضرعاً .. فليس كل ابتلاء

عقوبة .. إنما تطهير وقربى .. فمن رضي فله الرضا

ومن سخط فله السخط ..

كلماته تقع في قلبها هذا الموقع الذي لم تصله كلمات

من قبل ..

تدور عيناها في المكان ببعض الدهشة ..

أين كانت هي من كل هذا العالم !؟

أين كانت من هذا الدين !؟

لماذا لم يحرص والداها وهما يوفران لها من رغد

العيش ما وفراه أن يغرسا داخلها هذه المعاني التي

تتعرف إليها لأول مرة !؟!!

ثق دوماً أنه يحبك .. واجعل حبه غايتك .. أقبل عليه

بكل روحك يقبل عليك بكامل رحمته .. هو الودود ..

لا تزال كلمات إبراهيم تصيب سهامها النورانية وسط

ظلمتها ..

تطارد عبرها مصابيحها المتألئة التي وجدتها ذاك

اليوم في سجودها ..

"العبة" ما عادت لعبة ..

بل صارت جبلاً!!

جبلاً تريد تسلقه يوماً بيوم لعلها تجد على قمته

"قوس قزح" المفقود !!

ينتهي الدرس .. لكنها تشعر أن حكاية بقلبها بدأت ..

حكاية تساوي العمر كله !!

تخرج مع سندس حاملةً سامي الذي استيقظ لتوه

فتتركه لها بعد أن تقبله ..

قبل أن تصعد لبيتها وهي تتلفت للخلف لعلها تلمح

إبراهيم ..

لكنها تعود بخيبتها التي لم تستمر طويلاً وهبة

تستقبلها هاتفة :

_ كيف كان الدرس؟!!

_ رائع ..ككل شيء هنا!

تقولها بحرارة حقيقية فتبتسم هبة وهي تربت على

كتفها قائلة :

_ لا تخلي حجابك ..خالي ربيع قادم ..يقول إنه جاءته

"زيارة" من قرينتنا ..ويريد تقاسمها معي .

_ ماذا تعني "زيارة"؟!!

_ كل ما تتميز به القرى عن هنا ..دواجن بيتية ..خبز

الأفران هناك ..منتجات ألبان ..خضروات طازجة من

الحقول ..مثل هذه الأشياء!

تهز رأسها بعدم اهتمام فقد كان كل اهتمامها الحقيقي
بحضور هذا الرجل الذي صار فجأة بطل حياتها ..

ربيع!!

لو كان هناك ما بقي من لعبتها القديمة فهو أن تنال

نصيلاً في قلبه !!

_إبراهيم سيأتي معه؟!

تسألها بفضول لتتفحص هبة ملامحها قائلة ببعض

الضيق:

_ولماذا يأتي؟!

تهز يسرا كتفها بارتباك لتردف هبة بنفس النبرة

الضائقة:

_تعرفين ماذا صرنا نسمي إبراهيم بعد وفاة شقيقه؟!

"الدرويش" ! لأنه لم يعد يهتم بأي شيء من متع

هذه الحياة..حتى الخلطة مع الناس صار زاهداً فيها
إلا من عمله أو دروس المسجد ..هو يحب قضاء
عطلته وحده في البيت .

_ هل كان يحب شقيقه إلى هذا الحد؟!!

_ لم يكن شقيقه فحسب ..كان توأم جسده

وروحه ..أحياناً يهياً إليّ أن حسن -رحمه الله- أخذ

معه قلب إبراهيم بوفاته ..وترك لنا مجرد هيكل

فارغ .

تقولها هبة بأسى فتهمّ يسرا بسؤال آخر لولا أن

سمعت صوت ربيع من الخارج بمرحه الوقور :

_ يا أهل الدار ..طائرة "مستر ربيع" تنتظر الإذن

بالهبوط ..

تضحك يسرا بفرحة حقيقية وهي تندفع بلهفة نحو
الخارج لتتسع عيناها للمفاجأة وهي ترى إبراهيم

معه !!

كعهده يغض بصره عنها بمجرد رؤيتها فلا تدري هل
يثير هذا ضيقها أم .. احترامها !!

_إبراهيم!

تهتف بها هبة بدهشة وهي الأخرى مندهشة من
حضوره ليهتف ربيع بنفس المرح وهو يشير لما
خلف ظهره :

_إبراهيم فقط؟! "الحرافيش" أيضاً على السلم في
طريقهم إلى هنا .

_تريدنا أن نفوت حفلة "ذرة مشوية" طازجة على
الفحم؟!!

يهتف بها قيس وقد ظهر لتوه فتهتف هبة باستتكار:

_ومن الذي سيقم هذه الحفلة ؟!

_نحن!

يشير بها قيس لثلاثتهم فتهتف هبة :

_وتجعلون السطح "مقلب قمامة" ؟!

_سننظف بعدما ننتهي! أرجوك يا "دكتورة هبة" !

يهتف بها ثلاثتهم وهم يتقافزون حولها كالبهلوانات

فتنظر لخالها نظرة مستغيثة لكنه يضحك قائلاً:

_وافقي وسأجعلهم ينظفون لك السطح والبيت كله لو

أردت !

تبتسم وهي تقول باستسلام :

_حسناً! ولو أن قلبي ليس مطمئناً للأدب الزائد

و"دكتورة" هبة هذه !

_ أجمل دكتورة!

يهتفون بها بشقاوتهم المعهودة فتعدل وضع نظارتها
على أنفها هاتفة :

_ تحشموا وكفوا عن أداء القروود هذا !

_ الليل الليل ..الليل يا ميمون ..وكمان الليل وأنا أكون
ممنون!

يهتف بها روميو مقلدا المونولوج القديم لاسماعيل
ياسين وشكوكو فيجاريه أخواه في تقافزه حولها وهو
يصفق بكفيه بينما سحب قيس الكرسي الخشبي ليقلبه
ويطبل فوقه ليقوم عنتر بالرقص بكتفيه
جوارهما ..!!

فتهتف هي بنفس الحزم المستنكر:

_ خالي! لقد قلبوا السطح "كباريه"!

إنه لهوٌ مباح! أنتِ "الحنبلية"!
يهتف بها قيس مقلداً لهجتها في الحديث فتضحك
يسرا ضحكة رائقة وهي تراقبهم باستمتاع ..
ضحكة تجد مكانها في قلب إبراهيم الذي غافلته عيناه
بنظرة لعينها ..

"العندليب الأخرس" لا يزال يصدح فيهما بصراخه
الصامت رغم ما تدعيه ضحكة شفيتها ..
لعله إذ يجد غصناً أكثر أماناً يطلق فيه شذوه حينها
دون خوف!

ما بالها ضحكتها؟!
هل كل ضحكات النساء كذلك ترقص على إيقاعها
الدنيا؟!!

أم أنها هي الفريدة وسطهن؟!!

ولماذا هي؟!

لماذا ألقى على قلبه تعويذة فتنتها لتسحبه من مشوار
زهده الطويل فتلقيه أمام أبواب مدينتها تائهاً دون

دليل؟!!!

تنتبه لنظرته التي طالت هكذا لأول مرة فتبادلته النظر
وهي تشعر أن هذا "البئر العميق" في عينيه
يشدها ..

كانت تظن أنه لا يكفيها سوى زلة قدم كي تسقط فيه
للأبد ..

لكنها ها هنا تشعر أنها لا تسقط .. بل ترتقي!!

_جميل!

يقطع بها ربيع تواصلهما لينتبه إبراهيم لحاله وهو
يلتفت لأبيه قائلاً بارتباك :

_ ما الجميل؟!_

_ اقتراح "الذرة المشوية" هذا! منذ وقت طويل لم

نتجمع هكذا مع هبة كعائلة!

يقولها ربيع بغموض ماكر لتبتسم هبة وهي تناظر

خالها باحترام قائلة:

_ ممتنة لك يا خالي! أنتم كل أهلي.. أبقاكم الله لي!

يقرب منها ربيع فيعانقها بحنان ثم يقبل رأسها

لتشعر يسرا بغيرة حقيقية وهي تتمنى عناقاً كهذا..

خاصة والعجوز يفرد ذراعه فوق كتفي إبراهيم بعدها

ليتوجه به نحو الوسائد العريضة التي فرشها

الحرافيش على الأرض تمهيداً لحفل الشواء البسيط

الذي تولوه هم بعدها..

تتجه هبة نحوهم لتتخذ مجلسها وسطهم بجلسة
محتشمة فيما تبقى يسرا واقفة مكانها بتردد ..
يلاحظها إبراهيم فيود لو يناديها كي تشاركهم لكنه
يفضل أن يطرق برأسه محتوياً انفعالاته بطبيعته
الكتومة ..

_ تعالي يا ابنتي .. لماذا تقفين هكذا؟!!

يهتف بها ربيع وهو يشير لها بكفه فتتقدم منهم
بابتسامة واسعة لتهتف بعفوية بأول ما جال في
صدرها:

_ أريد الجلوس جوارك !

تتسع عينا هبة للحظة من جراتها فيما يحمر وجه
إبراهيم بانفعاله المكتوم وهو يتخلى عن مكانه لتتخذه
هي ..

بينما بدت هي غافلة عن كل هذا وهي تشعر بقربها
من العجوز يمنحها سعادة خاصة ..وعوضاً خاصاً!!
_ سعيدة معنا؟!

يسألها ربيع بحنانه المعهود الذي يخالطه وقاره لترد
دون تفكير:

_ جداً ! ليتني أبقى هنا للأبد !!

_ ليتكِ تفعلين!!

يهتف بها قيس بلهفة وهو يحرك قطعة من الكرتون
المقوى حول الفحم المشتعل فوق الصفيحة الساخنة
حيث يشوي الذرة ..

ليرمقه إبراهيم بنظرة زاجرة تجعله يبتلع بقية
كلماته ..

_ أنا أحضرت التلفاز كي تكتمل التسلية !

يقولها عنتر وهو يأتي حاملاً جهاز التلفاز القديم الذي

وضعه فوق مائدة صغيرة في مواجهةهم ليقوم

بضبطه على إحدى القنوات ..

فتهتف هبة محذرة بصرامتها المعهودة :

_ لا أغاني ولا مسلسلات ولا أفلام !

_ هاتي صبارة وادفنينا!

يهتف بها قيس ساخراً ولايزال يمارس عملية الشواء

ليمنح "كوز الذرة" الأول لربيع الذي ناوله ليسرا

الضاحكة قائلاً بحنان:

_ بسم الله !

تتناوله يسرا لتفاجأ بسخونته الشديدة فتهتف عفويًا

بالانجليزية:

_ يا إلهي! ساخن للغاية!

ترمقها هبة بنظرة مندهشة للكنتها الأرستقراطية
وانجليزيتها المتقنة التي نطقت بها ..
فيما يكتفي ربيع بنظرة غامضة ليهتف قيس مغاللاً
بنبرته العابثة :

_ قطعة بسكويت والله!

يهب إبراهيم من مكانه ليتوجه نحوه بنظرة غاضبة
وهو ينتزع منه قطعة الكرتون التي يستخدمها في
التلويح للشواء هاتفاً بصرامة :

_ سأقوم أنا بالشواء! يبدو أن حرارة النار أثرت على
دماغك!

_ جداً! الحرارة مرتفعة جداً!

يقولها قيس مشاكساً وحاجباًه يتراقصان بعث يناسب
ضحكاته وهو يبتعد ليتخذ مجلسه جوار شقيقه ..

_ انفجار في لبنان .. يارب سلم !

تهتف بها هبة بانزعاج لتلتفت يسرا بوجه ممتقع

نحو التلفاز ..

القناة الإخبارية تذيع مشاهد الدمار فتترامن في ذهنها

مع ذكرياتها هناك ..

قلبها ينتفض بلوعة مع كل مشهد فيها إليها أن ابنها

يقتل من جديد على نفس الأرض!

يا ستّ الدنيا يا بيروت...

من باع أسوارك المشغولة بالياقوت؟

من صادر خاتمك السحريّ،

وقصّ ضفائرِك الذهبية؟

من ذبح الفرخ النائم في عينيكِ الخضرواين؟

من شطبَ وجهك بالسَّكين،
وألقى ماءَ النارِ على شفَتَيْكَ الرَّائِعَتَيْنِ؟
من سمَّ ماءَ البحرِ، ورشَّ الحقدَ على الشيطانِ
الوردِيَّة؟

ها نحنُ أتينا.. معذرين.. ومعترفين
أنا أطلقنا النارَ عليكِ بروحِ قبليَّة..
فقتلنا امرأة.. كانت تُدعى (الحرِيَّة)..

قصيدة نزار قباني بكلماتها الحية تتردد على التلفاز
تزامناً مع المشاهد الموجهة فتشعر بروحها تنسحب

منها من جديد ..

إلى هناك ..

ماما !

قتلت ابنك يا مجرمة!

ألم الصفة لا يزال نابضاً فوق وجنتها الباردة يلهيها
عن تعليقاتهم جميعاً وقد سادهم الأسى والوجوم ..
تنتفض مكانها فجأة لتهتف بصوت مرتجف وبعينين

زائغتين:

سأنزل!

إلى أين؟!

يسألها ربيع بدهشة قلقة لترد بابتسامة مصطنعة :

سامي كان يقول إنه يحب الذرة .. سأعطيه واحداً!

تقولها لتغادر راکضة فيتبادل الجميع نظرات دهشة

وهم يشعرون بغرابة تصرفها ومظهرها ..

ينهض ربيع من مكانه ليتحرك نحو السور القريب

فيراقبها من أعلى ..

لهفة خطواتها الراكضة نحو كشك سندس ..
عناقها الحميمي للصغير سامي وهي تدفن وجهها في
شعره ..

ثم مسحها لدموع عينيها بسرعة بعدها ..
لم يكن عناقاً عادياً .. بل عناق أم مكلومة !
ينعقد حاجباه بشدة والخاطر الأخير يزيدہ نحوها
حذراً ..

خاصة وهو يرى ابنه يترك ما بيده ليجاوره مراقباً
إياها بدوره ..

والقلق يعتصر حروفه:

ماذا حدث؟! لا تبدو بخير!

يربت أبوه على كتفه برفق وهو يراها في طريق
عودتها إليهم لكنه لم يكذب يتفوه بكلمة حتى سمع
صرختها من الأسفل ليلتفت نحوها ..

عربة يجرها حصان أخطأ سائقها لينال سوطه من
كتفها بدلاً من حصانه !!

الناس يتجمعون حولها فيمنعونها المشاهدة ..

_ خيراً بإذن الله ..

يهتف بها ربيع ملتفتاً نحو إبراهيم الذي لم ينتظر ليتم
عبارته وهو ينطلق كالصاروخ نحو الأسفل فيتبادل
ربيع مع هبة نظرة ذات مغزى !!

وفي مكانها كانت يسرا تقف تمسك كتفها الذي ناله
سوط السائق والأخير يردد اعتذاراته وسط الجمع ..

_ أعمى؟! أنت أعمى!؟

صراخ إبراهيم يذهل أهل الحي الذين لم يروا منه هذا
الجانب "الغاضب" الغريب على طبعه الحليم من
قبل ..

بل هذا الجانب "الحي" الغريب على طبيعة الدرويش
منذ وفاة شقيقه ..

خاصة وهو يجذب السائق من تلايبه ليلوح في
وجهها بقبضته صارخاً بنفس الغضب :

كنت تعاكسها!

يحول الناس بينهما وهم يسحبون إبراهيم بصعوبة

بعيداً عن الرجل لتتهف يسرا بانفعال:

أنا بخير .. بسيطة ! اهدأ .. الأمر لا يستحق!

يلتفت نحوها بوجهها الغاضب للحظات قبل أن ينتبه
لانفعاله الذي تحرر هكذا ثائراً جامحاً كما لم يعرف
نفسه منذ زمن بعيد ..

يداه ترتعشان وهو يشعر بخفقاته الجنونية مستعرة
أهبها شعوره أنها في خطر !!
_ نذهب للمشفى؟! نطلب طبيباً!!

لا يزال صوته الهادر مرتجفاً بانفعاله ورغم صعوبة
الموقف لكنها كانت تكتم ابتسامتها بصعوبة ..
"ابتسامة أمان" تكاد تقسم أنها تولد على شفيتها
لأول مرة في عمرها كله !

ولولا تخرجها من الجمع حولهما لأطلقتها حرة فما
فارقت وجهها أبداً !!
_ إبراهيم!

يناديه بها أبوه من الأعلى وهو يشير له بحزم أن

يفض الأمر .. فيفعل!

يتحرك جوارها عائدين للبيت والصمت يلجم

لسانيهما .. إنما الصدور تعوي بخفقاتها ..

هو الذي لا يدري ماذا أصابه ..

ولا كيف تعلق بها هكذا لتصير لديه بهذه الأهمية ..

يعلم أنه لا خبرات له مع النساء .. لكن لماذا هي

بالذات !؟

هل .. هذا هو الحب الذي يحكون عنه !؟!!

وهي التي كانت تمسك كتفها بألم تحاول تجاهله ..

تفكر أن تعيد كفها جوارها كي لا تشعره بوجعها لكنها

لا تفعل!

ببساطة هي كانت تتلذذ بخوفه هذا عليها ..

أن يشعر بها أحدهم ..

بها هي !!

لقد غابت "يسرا الصباحي" عن مجتمعها المخملي

فلم يحس برحيلها أحد ..

لكنها هاهنا وجدت من يشعر بها حقاً ..

من يراها دون غلالة جاه أو نسب ..

هي هي .. فحسب!

_شكراً.

تقولها وهي تصعد الدرج معه ..

تقولها بكل ما أوتيت من صدق وسط كل هذا الزيف

الذي تصدره لهم ..

فيطرق برأسه وقد تقدمها في صعوده في عادة

وجدتها فظة بمعطيات مجتمعها القديم ..

لكنها الآن تفهم ما خلفها من رجولة ..
لو كانوا يظنون أن حياء المرأة جذاب ..
فحياء الرجل أسر!

لهذا استمرت كلماتها حارة صادقة رغم عدم رده :
_ شكراً على كل شيء .. بداية من لقائنا الأول .. وحتى
اليوم .. درس المسجد .. جلسة السطح .. وأخيراً وقوفك
جواني منذ قليل عندما ..

_ درس المسجد؟! هل كنتِ حاضرة؟!
يتوقف ليلتفت نحوها فتلحق به لتومئ برأسها إيجاباً
مع قولها :

_ كان رائعاً .. دافئاً .. صادقاً .. بكل شيء هنا!
"العندليب" الأخرس في عينيها يبدو له من جديد
وكأنه يتأرجح على غصنه متردداً في التحديق ..

لم يفهم يوماً لغة العيون ولم يهتم!
لكنه هاهنا يود أن يفهم إلى ماذا تجذبه هذه "الرامية
القرمزية" بكل ما يحيط بها من دوامات غامضة!!
ابتسامتها "العذراء" بشعورها تقابل ابتسامته
"المنقوصة" التي تبدو وكأنها -لأجلها- تريد أن
تتكمّل!

سمر!

نداء ربيع الذي لم يصبر على صعودهما إليه فهبط
هو إليهما يقطع سحر اللحظة بينهما ..
نداؤه باسمها المزيف الذي تتمنى الآن لو كان حقيقياً
ولو دفعت في مقابل هذا كل ما تملكه!!
أنتِ بخير؟!

قلق العجوز كان حقيقياً ليس فقط على صحتها إنما
على أثرها المشهود على ابنه ..
لا يدري هل يحمد لها أن أخرجت الدرويش من عباءة
زهده ..

أم يبعدها مخافة أن تجرح صدفة لؤلؤته !
هو اعتاد الثقة بحدسه .. وحدسه يخبره أن يصبر!
_ أنا بخير ! لا تقلق !

تجيبه بامتنان ليصلهم صوت قيس من الأعلى :
_ أسرع يا سمرا .. كتفك سيؤلمك على أي حال لكن
الذرة سينفذ لو لم تدركي نصيبك !

تضحك وهي تسرع الخطا نحو الأعلى بينما يتقدم
إبراهيم من أبيه الذي رمقه بنظرة ذات مغزى هرب
منها وهو يسرع الخطا بدوره لاحقاً بها ..

ولو كان بيده لهتف بها بكل ما يعتمل في صدره من

فوضى:

_ أنا أضيع ..يا "مستر ربيع"!

جلسة السطح تجمعهم من جديد إنما حاولوا جعلها

أكثر مرحاً!

هذا الذي تعمده "ثلاثي الحرافيش" وهم يشعرون

أنها -سمر- تحتاج لهذا فلم يخف عليهم حالها منذ

قليل ..

مزاحهم اللطيف لا ينجح في في انتزاع ضحكات يسرا

فحسب ..

بل وضيق هبة من هذا الاختلاط الذي لا يرونها

بطبيعة التزامها الديني ..

وغيرة إبراهيم التي لم يعد قادراً على إخفائها ..

لهذا رأى ربيع أن يكتفي بهذا القدر بعدما وجد سمرا
قد انتهت من تناول أكلها واسترد وجهها الشاحب
بعض تورده ليقول لها بحنان لم يخلُ من حذر:
_ لو كنتِ متعبة فلا تأتي غداً للفرن!

_ أنا ..

تقطع عبارتها بدهشة وهي تلتفت نحو مدخل السطح
حيث ظهر هؤلاء الرجال شديداً الهيئة فجأة ليلتفت
الجميع نحوهم فيهدف أحدهم بنبرة صارمة :

_ من منكم إبراهيم ربيع!؟

_ أنا!

يهتف بها إبراهيم وهو يتقدم نحوهم ..

_ تعال معنا !

_ إلى أين!؟

يهتف بها ربيع بحمية أبوية وهو يتقدم بدوره نحوهم

ليهتف الرجل بنبرة رسمية :

_مطلوب للتحقيق!

_أي تحقيق؟!

_ليس مصرحاً لي بقول هذا الآن ..تفضل معنا!

_لن يرحل من هنا حتى أفهم!

يهتف بها ربيع بغضب وهو يقف بين الرجل وإبراهيم

الذي هتف به مهدئاً رغم دهشته الوجلة :

_لا تخف يا أبي ..لعله سوء تفاهم ..

_لن تتحرك خطوة واحدة من هنا قبل أن أعرف سبب

استدعائك !

يهتف بها ربيع بنفس الغضب الموشوم بخوفه

وذكري حسن الراحل تقبض صدره مهددة أن

تتكرر ..

خذوه !

يهتف بها الرجل لمساعديه فيتقدموا من إبراهيم

ليشتعل الوضع في لحظات !!

ربيع الذي لم يكن يرى في هذه اللحظة سوى صورة

حسن يسقط صريعاً بهراوة غليظة تهوي فوق رأسه

في موقف مشابه فيفقد القدرة على التفرقة بين

صواب وخطأ !!

لن تأخذوه ولو على جثتي!!

تشهق يسرا بفرع وهي ترى ربيع يدفع أقربهم إليه

في تصرف عدائي غير مبرر الشدة في موقف كهذا

ليحاول إبراهيم تهدئته لكن العجوز يبدو وكأنه فقد

أعصابه وهو يرفع الكرسي المجاور له كأنه سيقوى
على استخدامه بل والدفاع به !!
الحرافيش ينضمون إليه بحمية وهم يحاولون
تخليصه من يد رجال الشرطة..
ليشتعل الموقف أكثر..!



الطيف الثاني عشر

برتقالي

_ علمتِ ما حدث لزهرة وجهاد !؟

تهتف بها حسناء بجزع عبر الهاتف لترد طيف بقلق

طغا على خشونتها المعهودة :

_ ألم يكن ينتوي خطبتها !؟ هل اكتشفت أنه نذل !؟

تقولها بأقرب ما خطر في ذهنها لتتهار حسناء في

البكاء وهي تخبرها بحقيقة إلقاء القبض عليهما معاً

بعد اشتباههما في جهاد ..

تشهق طيف بصدمة وهي تخبط بكفها على صدرها

هاتفة :

_إرهابي؟!!

_ لا ! لا مستحيل!! أنا أعرفه جيداً .. وواثقة أنه

مظلوم .

_ تعرفينه جيداً؟! هكذا هن النساء يعتقدن أنهن يفهمن

الرجال حتى يقعن في الفخ!

تهتف بها بمزيج من استنكار وضيق ..

ضيق حقيقي لأجل زهرة المسكينة التي تعلم كم تحب

ذاك الفلسطيني ..

_ أرجوكِ افعلي شيئاً! أنا أكاد أجن منذ عرفت!

تهتف بها حسناء بين شهقات نحيبها لتهتف طيف

بانفعال:

_وماذا يمكنني فعله لها وهي هناك!؟!

_أخوك!

تهتف بها حسناء ليخفق قلب طيف بلوعة والكلمة

على بساطتها تخزها بالخنجر القديم ..

_نعلم أن أخاك رجلٌ ذو شأنٍ عظيم في مصر ..ولديه

الكثير من العلاقات ..ربما يمكنه ..

_سأرى ما يمكنني فعله .

تقاطعها بها بفضافة تناقض هذه الهشاشة التي تذوي

بها روحها ..

الحمقاء تظنها قد تطلب يوماً معروفاً من عاصي

الرفاعي!؟!

فلتمت قبل أن تشعر بحاجتها إليه !!

_ أرجوكِ .. أنتِ لا تعلمين ظروف زهرة بعد مصيبة

أبيها .

تهتف بها حسناء وهي تخبرها عن حقيقة وضع

زهرة ..

ضميرها يخزها لأنها تفشي سر صديقتها لكنها كانت

تريد ترقيق قلب طيف بأية طريقة .. فلم تكن تجد لها

سنداً سواها .

_ لعنه الله هو ومن شابهه!

تهتف بها طيف بحرقة وصورة حماد الرفاعي تغزو

مخيلتها ..

لم يكن الأب السيئ الوحيد في هذا العالم على أي

حال ..

وكما يقولون في الأمثال الشعبية:

"اللي يشوف بلاوي الناس تهون عليه بلوته!"

سأتصرف!

تغلق بها الاتصال وهي تزفر بقوة قبل أن تتخذ

قرارها لتجري الاتصال ..

لا .. لم تتصل بعاصي فلم تغير مبدأها .. إنما ..

طيف! ما هذه المفاجأة؟! أنت بخير؟!

صوت ماسة الغارق بعاطفته كالعادة يدغدغها بهذا

الشعور الساحر الذي لا تريد الاستجابة إليه ..

شعور أن لها عائلة .. عائلة تنتمي لها وينتمون

إليها!

لهذا تنحنحت لتتغلب على تهدج صوتها بانفعاله ثم

ترد بفظاظتها المعتادة :

تذكرين تلك الفتاة زهرة الممرضة؟!

تعقد ماسة حاجبيها دون تعجب من أسلوب طيف
الخشن كالعادة لترد بارتباك مستعيدة ما عرفته من
رحمة :

_ بالطبع! وأعرف أن دكتور جهاد جاء إلى هنا
ليخطبها فهو صديق عزيز واستضافه في بيت رحمة
عقب وصوله !

_ "معرفة الهنا" ! استعدي إذن لزيارة قريبك في
السجن مادام على علاقة به .. الشرطة أقت القبض
على "المحروس" ! يقولون إنه إرهابي!
تكتم ماسة صرخة دهشتها لكن طيف تهتف بنفس
الخشونة :

هـاقد عرفت! قولـي لـ "زوجك" وانظري ماذا
يمكنكما فعله لأجل تلك الغبية زهرة التي يوقعها قلبها
دوماً في المشاكل !

تغلق الاتصال بعدها بسرعة وهي تلهث بقوة كأنها
استنفذت طاقتها كلها في هذه المحادثة الغريبة ..
كأنها كانت تخاف أن تدفعها ماسة للحديث مع
عاصي ..

أو أن تسمع صوت الصغيرين فيتصدع قلبها
بالاشتياق إليهما !

تهز رأسها بقوة تنفض عنها هذا الخاطر ثم تتصل
بحسناة لتقول بنفس الاقتضاب الخشن:

كلمت ماسة! أخبريني لو علمتِ جيداً وسأخبركِ
كذلك!

تشكرها حسناء بامتنان وافر لكنها تغلق الاتصال

كذلك بنفس الخوف الذي تغلفه فظاظته ..

هاهم هؤلاء يسحبونها للمنطقة المحظورة ..

الخلطة مع الناس!

وهي التي استكانت لوحدها في صومعتها!!

ألا يكفيها ما يحدث لها مع مجد وذاك

ال .. "يحيى"!!؟!!

أخشى أنني أوشك أن أقع في الحب!

تتفرج شفتاها دون وعي وهي تتذكر عبارته التي

كتبها لها كـ "ضياء" ..

تري ماذا كان يعني!؟

هي!؟!!

هل يخشى الوقوع في حبها هي!؟!!

لهذا يصر على تجاهل لقائها منذ تلك الليلة التي باتت

فيها مجد معها ..

بل إنه عندما التقاها صباح تلك الليلة ليصطحب مجد

تعمد عدم الحديث إليها ..

فقط عيناه عندما التقتا بعينيها يومها كانتا أكثر سخاء

بهذا البوح خلف القضبان ..

البوح الذي صدقه قلبها ..

وياويلها لو استجابت!

تتنهد بحرارة وهي تتحرك نحو طاولة زينتها لترتجف

شفتاها بابتسامة وهي تتلمس سلسلته بصدقها ..

منذ متى لم تتلق هدية تقع بقلبها هذا الموقع ..

والأدهى أنها لا تجرؤ على ارتدائها !

ليس فقط مخافة أن يراها إنما ..مخافة أن تستسلم لما

يعنيه هذا !!

تنقطع أفكارها وهي تسمع صوت صرخة مجد من
الخارج فينعدد حاجباها وهي تهوول نحو باب الشقة
تفتحه ولا تزال صرخات الصغيرة تتوالى مدوية ..
يُفتح باب المصعد ليخرج منه نزار ممتقع الملامح
يحاول تهدئة مجد التي كانت منهارة تماماً فوق
كرسيها ..

ماذا حدث؟! ماذا فعلت بها!؟!

تهتف بها بغلظة تناقض عناقها الرقيق لمجد التي

استمرت في صراخها الهستيري ليهتف نزار

باستنكار:

_تبحثين عن أي مصيبة لتلصقيها بي؟! لم أفعل

شيئاً!

يقولها ثم يربت على رأس مجد محاولاً تهدئتها من

جديد ليردف بضيق:

_إنه ذاك الصبي في الدور الأول .

_ذاك الوغد أخضر العينين الذي يربي كلباً يشبهه!

تهتف بها طيف بعدوانية ليبتسم نزار رغماً عنه من

فظاظتها قبل أن ينعقد حاجباه بقلق حقيقي وهو

يحاول تهدئة صرخات مجد المتتابعة ..

_ناداها ب"الكسيحة" وقد رآنا في المصعد قبل أن

يغلقه في وجهنا!

_وأنت تركته؟!!

تهتف بها بغیظ ليرد مستكراً:

_ وهل سأجاري طفلاً في سفاهته!؟

_ ابتعد .. ابتعد .. دع لي مجد ..

تهتف بها وهي تزيحه من أمام المصعد الذي دفعت

مجد بداخله ليهتف بها معترضاً:

_ انتظري! أين تذهبين!؟

لكنها تغلق المصعد لتضغط زر الهبوط نحو الطابق

الأول ولاتزال صرخات مجد الهستيرية تثير المزيد

من انفعالها ..

تضغط الجرس ليفتح لها الصبي الباب ولم تكذ تراه

حتى جذبته من ملابسه بعنف لتهتف له بغلظة :

_ اعتذر لها!

يمتقع وجهه وهو ينادي أباه الذي تقدم منهما ليهتف

مندهبشاً وهو ينقل بصره بين الجميع:

_ ماذا حدث؟!_

_ ابنك تنقصه التربية !_

تهتف بها طيف بحدة فيحاول الرجل تخلص ابنه

منها هاتفاً بانفعال :

_ اتركه سيدتي وأخبريني ماذا فعل!

_ يصفها بالكسيحة ويغلق باب المصعد في وجهها .

تهتف بها بغضب وهي تترك الصغير الذي رمق أباه

بنظرة مذنبه ليتحنح الرجل بحرج وعيناه تناظران

الصغيرة التي لم تكف عن صرخاتها فيحاول التربيت

على كتفيها مهدئاً ..

لكن طيف تبعدها عنه هاتفه بحمية :

_ قل لابنك أنها ليست الكسيحة .. بل هو كسيح

العقل .. هي لم تختار مرضها .. لكنه اختار أخلاقه .

_ اعذر لها!

يهتف بها الأب لابنه أماراً ليحمر وجه الصبي وهو
يعتذر بكلمات مرتبكة لمجد التي تحولت صرخاتها
لبكاء خافت ..

_ أنا أيضاً أعذر لكِ .. لا تبكي .

يهتف بها الرجل بحرج ليطلب منها الدخول لكن
طيف تهتف بفظاظتها المعهودة :

_ لم نأتِ للضيافة .. جئت لأجل حق ابنتي .. وأخذته !
_ ابنتك؟!!

تهمس بها مجد بمفاجأة وهي ترفع إليها عينيها
لتتجمد ملامح طيف وهي الأخرى تفاجأ بما قالته !!
تتمالك صدمتها وهي تهتف بها بنبرة قوية:

_ قبلتِ اعتذاره أم يكرره؟!!

تمسح مجد دموعها وهي تهز رأسها لكن طيف تعاود

هتافها القوي:

_تكلمي!

_قبلته.

_بصوت أعلى!

_قبلته!

تقولها مجد بنبرة قوية بدت وكأنها استعارتها من
طيف التي رمقت الصبي بنظرة زاجرة قبل أن تتحرك
بمجد لتغادر فتصطدم بنظرات نزار وناطور البناية
الذين كانا واقفين يراقبان المشهد ..

_ابقي معي قليلاً ..

تقولها مجد برجاء وقد غادروا المصعد بعدها لتتهف

: طيف

_تعالى إلى شقتى .

_لا!..أحتاج فراشى .. غطائي..أعابى ..كتبى ..

تقولها بنبرة متهدجة تخز قلب طيف وهى تدرك أن
الصغيرة تتشبث بعالمها الآمن بعيداً عن مضايقات

الآخرين ..

تتردد قليلاً فى إجابة طلبها لكنها لا تلبث أن

تستجيب ..

تدخل بالصغيرة إلى غرفتها فيحملها نزار ليضعها

فوق الفراش ثم يغطيها قائلاً بمرحه المعهود :

_تعلمى من الأستاذة فن الرد .. رأيت كيف كانت

ستأكل الولد بالأسفل!؟!

_هو لم يخطئ! قال إنى كسيحة وأنا كذلك!

تعود معها الدموع لعيني مجد فتجاورها طيف على
الفراش لتضمها لصدرها ثم ترفع ذقتها إليها هاتفة :
_ لا أحد في هذا العالم يملك حق محاسبتنا على قدر لم
نختره ..من يريد محاسبتنا فلينظر لما اقترفناه
بأيدينا ..قولها لنفسك وآمني بها كي تقذفها حجراً
في صدر كل من يريد إيذاءك ..حجراً خلف حجر تبين
به سلماً تصعدين به نحو القمة .

كلماتها توتي ثمارها لا في قلب مجد فحسب ..
بل في قلب ذاك الذي كان يقف مختبئاً خلف جدار
الغرفة يراقبهم دون أن يروه وقد عاد لتوه بعدما
أخبره الناظور بما كان ..

كلماتها ترش الملح فوق جرحه القديم ليزداد لهيب
وجعه ..

آه يا صاحبة السديم المدوّخ ..

تظنين الأحجار دوماً تبني سلماً نحو القمة ؟!

لا تعلمين أنها غالباً تجثم فوق الصدور تجتث منها

أنفاس الحياة !!

لماذا تعثرتُ بكِ ؟! لماذا تورطت فيكِ ؟!

ما كان أغناني عن كل هذا التيه في بحرك الذي ينفر

مني موجه كما تنفر منه سفينتي ..

فماذا لنا سوى الغرق ؟!!

عيناه تتعلقان بجيدها الذي خلا من سلسلته كما

توقع ..

فلا يدري هل يفرح فخراً بأنه يفهمها إلى هذا الحد ..

أم يذوب مرارةً وهو يدرك أنه لا يفهمها إلا لكونها

تشبهه .. تشبهه حد التماثل ..

علموه أن الأقطاب المتشابهة تتنافر فمن أين لها إذن

بكل هذه الجاذبية!!؟

من أين لها بكل هذه القوة التي تبعثر شتاته فلا يزيده

بعده عنها إلا قريباً!!؟

لقد حاول .. صدقاً حاول .. ولا يزال يفعل ..

_ احفظي كلامها جيداً يا ميجو!

يهتف بها نزار باستحسان مردفاً:

_ ما رأيك لو نذهب في رحلة بحرية على يخت!!؟ أفكر

في الأمر منذ مدة طويلة .

_ بابا لا يحب البحر .

تقولها مجد بضيق ليسترعي الأمر انتباه طيف فتهتف

بفضول حاولت مداراته بتهكمها:

_ لماذا!!؟ لا يجيد السباحة!!؟

من هذا؟! يحيى سباح ماهر وحصل على بطولات كثيرة.. لكن هذا صار ماضياً للأسف فقد صار يكره البحر.. بل إنه صار مصاباً بما يشبه الفوبيا منه .
ينعقد حاجبا يحيى مكانه وكلمات نزار تسحبه لتلك المنطقة المحظورة ..

خفقات قلبه تتعالى ودوامه الذكريات تسحبه للمزيد من الموج المتلاطم ..

الأنوار المتألئة .. اليخت الفخم .. زحام الحضور ..
التيوليب الأبيض حملته العروس لتلتفت فتلقيه في البحر ..

عريسها يخلع سترته ليلقي نفسه في الماء خلفه ثم يعود لها به ..

تعانقه بجنون عشق يتشاركانه فلا تأبه لابتلال فستان

زفافها ..

كما لم يأبه هو قبلها ..

كل ما كان يعنيهما وقتها أن يشهد العالم أنه سيأتيها

دوماً بما تريده مهما كانت العقبات ..

المشهد الذي طالما حلما به .. ليحققه غيره !

_ انسَ يا يحيى! انسَ!

ينتزع بها نفسه من هذا البركان الذي يوشك أن

تصهره حممه من جديد..

_ فوبيا؟! إلى هذه الدرجة؟! لماذا؟!!

تهتف بها طيف وهي تتذكر رحلتهم يوم عيد ميلاد

مجد وكيف ترك نزار يلاعب الصغيرة في الماء بينما

بقي هو واقفاً جوارها على الشاطئ !

يهم نزار بالحديث لكن دخول يحيى يقاطعه ..

_بابا!

تهتف بها مجد وهي تفتح له ذراعيها فتغمض طيف

عينيها بقوة وهي تنتفض واقفة مكانها ..

كأنما تحتاج لمجرد رؤيته استنفار كل قوتها !!

أناملها تمتد دون وعي لجيدها كأنما تتيقن أن سلسلته

ليست هنا!!

هذا الهاجس الذي ينتابها دوماً أن يشعر بما يخفيه

قلبها نحوه ..

تفتح عينيها أخيراً على المشهد المؤذي ..

المؤذي جداً .. جداً لعناقه لمجد !!

المؤذي لهذه الطفلة المحرومة بأعماقها ..

المستفز لهذه الأنثى المكبوتة داخلها ..

المتحرش بعروس غرورها التي تحاول دوماً إبراز

زينتها ..

والخادش لحياء عذراء عشق أخفتها كهوف

الخدلان !

_ علمت ما فعلوه بي؟!!

تهتف بها مجد وقد عاد لها نحيبها ليرتج جسد طيف

بالسؤال!!!

حرمانٌ رهيب يثقل على جفنيها فتطبقهما وهي تكتف

ساعديها ..

هذا السؤال!!! هذا السؤال!!!

من المخزي أن تكون في هذا العمر .. ولا تعرف

شخصاً واحداً يمكنها أن تقولها له ..

أن تلقي رأسها على كتفه فتتهف بكل ما أوتيت من

ضعف :

_ علمت ما فعلوه بي؟!!

تقولها حتى وهي توقن أن أحداً لن يرد لها حقاً ولن

يعيد لها عمراً إنما يكفيها "نعيم المشاركة"!

_ طيف .. كانت مكاني! فعلت ما كنت سأفعله بالضبط .

نطقه باسمها يزيد هذه الرعدة داخلها فتفتح عينيها

لتصطدم بقضبان عينية ..

تود لو تنفتح لها المزيد من الأقفال ..

لكنه يغمضهما هارباً وهو يربت على ظهر مجد التي

هتفت بامتنان :

_ قالت أنني ابنتها !

ينعد حاجبا يحيى بشدة مع قولها لتخلج عضلة فكه

بانفعال كتمة بصعوبة وأدركته طيف بسهولة ..

هل يغار منها على ابنته !؟

أم تراه يخشى تعلق الصغيرة بها !؟

_ أنا راحلة !

تقولها طيف بخشونتها الفطرية وهي تتجاهله ظاهرياً

كما يفعل ..

لكن مجد تهتف بها برجاء:

_ ابقني معي حتى أنام .. أنا أرى ذاك الولد في

كوابيسي .. ليست المرة الأولى التي يضايقتني فيها

عندما يراني .. أراه وهو يطلق كلبه نحوي هاتفاً أنني

كسيحة لن أستطيع الوقوف .

_ عندما تحلمين به هذه المرة فستقومين
واقفة ..تركضين نحوه ..تصفعينه وتركلين كلبه .
تهتف بها طيف بنبرتها القوية وهي تعاود الجلوس
على يمينها على الفراش بينما يحيى على يسارها ..
لتبتسم مجد وهي تمسك بأحد كفيها يد طيف وبالأخر
يد يحيى ..

_ وأنا ابن البطة السوداء؟!
يهتف بها نزار وهو يرى المشهد مدعياً ضيقه
لتضحك مجد هاتفة ببراءة:
_ لا أقصد ..ليس لي سوى كفين .
تقولها لترسل له قبلة في الهواء فيضحك وهو يتوجه
للخارج قائلاً :

_ ساداوي جراحي بنفسى ! أنا والثلاجة ! تشرين

شيئاً؟!

يخاطب بسؤاله طيف التي ترمقه بنظرة ساخطة

كالعادة دون رد فيبتسم بسماجة قائلاً :

_ العفو! لا شكر على واجب!

يقولها ثم يغادرهم لتغمض مجد عينيها وكفاها

يتشبثان بيديهما ..

_ احكي لي حكايتك كتلك الليلة .

تخاطب بها طيف التي تشعر ببعض الحرج من

وجوده ..

هاهو ذا يشهد جزءاً شديداً الخصوصية من تاريخها ..

حكايتها اليتيمة التي تذكرها بصوت أمها !

_ كان ياما كان ..

تبدأ في السرد بصوت منخفض ووجنتاها تتخضبان

بهذه الصبغة الغريبة على ألوان عالمها ..

صبغة خجل !!

بينما يغمض هو عينيه بقوة وصوتها يقبض صدره ..

يلسهه بهذا السوط القاسي ..

يقذفه من جديد في حمم بركانه الالهية وهو يستعيد

ذكرى مشابهة ..

_انسَ يا يحيى ..انسَ ..

ينتزع بها نفسه من شرود أفكاره وهو يحاول

السيطرة على جموح قلبه العاصي ..

سلطان عقله لم يخذله يوماً ..وحده تابع القلب

مخدول !

عيناه تتعلقان بملامح مجد التي عادت لسكونها ..

كيف يشكر "صاحبة السديم" على كل نجمة زرعتها

في سماوات ابنته ؟!

كيف يجزيها عن فيض عطائها بكفه المثقوب!!؟

لقد ظن قبلها أن كأس عذابه امتلاً حد النهاية وهاهو

ذا يكتشف أن كئوس العذاب كلما امتلأت عادت لتفرغ

كي يصب فيها من جديد ..

أحبها!؟!

ملعونٌ لو عاد يضع للكلمة مكاناً في قاموسه ..

حرامٌ على السندباد أن ينتمي لأرض ..

بحره حياته وعيشه وهلاكه !

_ نامت.

تهمس بها طيف بخفوت أخيراً لتلتفت نحوه فتروعها

ملامحه الذبيحة بوجع لا تفهمه ..

منذ عاد من بغداد وهي تشعر به واحداً آخر غير ذاك
المستفز المغرور الذي سقط على عالمها كلعنة ..

أخشى أنني أوشك أن أقع في الحب!

من جديد تتذكر عبارته فتساءل هل هذا هو السبب؟!!

هل كان يعنياها هي؟!!

هل يجوز لها أن تصدق؟!!

ولماذا إذن هذا الألم الذي يشق ملامحه شقاً؟!!

لا تتركي كفها .. ليس الآن .. دعها تنعم به قليلاً .. لا

تدريين ما الذي تراه في كوابيسها الآن ..

يهمس بها دون أن ينظر إليها فيرتعد قلبها وهي

تشعر بحروفه القوية منغمسة بألم يماثلها قوة ..

ولا تدري لماذا فسر قلبها كلماته أنها منه .. لها هي !

تدمع عيناها فجأة وهي تراه يتحدث بنفس النبرة

الذبيحة :

يقولون إن النوم موتتنا الصغرى .. ما أقسى قبور

النائمين وقد تلقفتهم الأنياب بين وحدتهم

وخوفهم .. لو كان الأمر بيدي لما تركت كفها لحظة

واحدة في نومها .. ماذا لو جعلوا لكل نائم كفاً يعانق

كفه .. يخبره أنه معه .. دوماً معه .. يحارب به خوف

كوابيسه .. ويهزم به انكسارات الليل الطويل!؟!

تزدرد ريقها الجاف بصعوبة وهي تشعر في هذه

اللحظة أن كليهما لا يعانق كف مجد ..

بل كف صاحبه !!

يرتعش جسدها للتخيل فتغمض عينيها بوهن

تلغنه .. وتشتاقه !!

أين حبست كل هذه المشاعر لسنوات؟!
ومن أخرج المارد من قمقمه ليعيث هكذا فساداً بين
جنباتها؟!

ألا ليت لها بالمزيد من قوة كتلك الآن تدحض بها
ضعفها المخزي هذا ..المخرج هذا ..الذي بلذة الري
بعد طول عطش!!

لماذا تخاف البحر؟!

سؤالها يخرج منها ك"قذيفة"!

قذيفة مفاجئة بفظاظة لهجتها المعهودة ..

لكن كليهما كان يدرك ما خلفه من نعومة شعور!
خاصة والهمس الخفيض بينهما خشية استيقاظ مجد
يشد الوثاق بين قلوبهما بخيوط غير مرئية ..إنما ..لا
تتقطع !

_فقدت فيه أغلى ما أملكه .

_حبيبة؟!!

همسها يزداد خفوتاً وهمسه يزداد وجعاً :

_بل ..نفسي!

تزم شفيتها بقوة وهي تكتم السؤال الذي يراودها

بعنف ..

لكنه يكتسح من جديد ك"قذيفة" ثانية :

_لماذا تكره النساء؟!!

صمته يطول هذه المرة لكن أحدهما لا يجروء على

الالتفات لصاحبه مكتفياً بجلسة البوح الغريبة هذه ..

_تظنين أنني أدين لك بسر مقابل ما بحت به لي؟!!

_أنا لا أقايض بأسراري ..ببساطة لأنني لا أملك

أسراراً ..طيف الصالح صفحة بيضاء لا يسوؤني أن

يقرأ أحدهم سطورها ..حتى بقعها السوداء عشت
العمر هذا كله أجهر بها قبل أن أعير بها .
مزيجٌ أسر من قوة ومرارة يظل حروفها ويجذبه
لدوامتها أكثر ..

كيف تعلق بها إلى هذا الحد ؟!
كيف تسربت عبر شقوق جدار قلبه الضيقة التي ظنها
ستحميه ؟!

كيف ومتى جاء اليوم الذي يعاود فيه منح الأمان
لامرأة ؟!!

_"ليس" كل الناس مثلك .. "ليت" كل الناس مثلك !
همسه الخفيض شديد الخفوت يصلها مدوياً كقرع
الطبول ..

كانت أغرب محادثة خاضها كلاهما يوماً وكل منهما لا

ينظر للآخر ..

إنما يستشعر دفئه عبر جسد وسيط !!

تريد المغادرة !

تريد الكلام!

تريد حتى أن تنظر إليه!!

أي شيء يفك سحره هذا عنها!!

لكنها كانت عاجزة عن فعل أي شيء سوى البقاء

أسيرة هذا الهمس الذبيح الذي يعيد تشكيل روحها ..

رغم وجعه .. لا يزال يمنحها النبوءة بحياة الرماد ..

بعودة قوس قزح!

لكن "الساحر" المهيمن يفك سحره بنفسه فيلتفت

نحوها أخيراً ليجبرها على النظر إليه ..

ترى قضبان عينيه قد تهاوى بعضها لتبدو خلفها
ظلمة سجنه ..

ومن بعيد يلوح لها قمر مراوغ لا يلبث أن يختفي
خلف غيومه ..

كيف لعينين أن تكونا بكل هذا الصفاء ..

وبكل هذا الغموض ..

بكل هذا الجمال ..

وبكل هذا الألم ..

يوماً ما ستخلد عينيه هاتين في رواية يعشقهما كل
من يقرأها!

الخاطر الأخير يصيبها بغيرة مضحكة .. ومبكية !!

أحقاً لن يبقى لها منه سوى ذكرى تخطها في كتاب؟! !!

تسبل جفنيها على هذا الخاطر المقبض بينما تتعلق
عيناه هو بخصلات شعرها الأسود الطويل التي
تتاثرت على كتفيها شديدة القرب منه ..
كم يود الآن لو يلامس هذه النعومة ..
لو يعتصرها بين أنامله بقوة احتياجه ..
لو يتشبث بها بقوة شعوره نحوها ..
لو ترقد فوق رمالها شفتاه فيغازل هذا الليل الأسود
الطويل الذي يبدأ من جبينها ويمتد حتى أوسط
ظهرها ..

لو ينفذها عنه بقوة رغبته في الابتعاد ..
لو يعطيها ظهره فلا يلتفت مهما خان القلب بالتفات!
تبا! أما لهذا الصراع من آخر؟!!

وكأنما تمنحه الجواب وهي تترك كف مجد أخيراً

بيطء ثم تنهض لتقف مكانها ..

فيقف بدوره مواجهاً لها ..

تتحرك نحو الباب لتغادر لكنه يسبقها بخطوة ليقف

أمامها ..

_ لن أشكرِكَ لما فعلته لأجل مجد فظني أن مكانتها

عندك لم تعد تحتل مثل هذه الرسميات .

يهمس بها بهذا الخفوت الأسر لتكبح جماح مشاعرها

بهمسها الفظ:

_ وما دمت تعلم ماذا تريد الآن؟!!

_ نزار رتب لنا رحلة في جزيرة نوراي .. مجد ستحب

حضورك .

الاعتراض يظهر جلياً على وجهها قبل أن تنطقها:

لا_!

فيرمقها بهذه النظرة الآسرة ثم تلتوي شفتاه بهذه
الابتسامة المهلكة التي تتسع ببطء وهو يدرك إلى أي

مصير ستؤول "لا" هذه !!

و-العجب- ..هي الأخرى كانت تعلم!!

ربما لهذا أطلقت زفرة ساخطة وهي تغادر متممة

ببضع كلمات لا تُسمع ..

لتختفي ابتسامته مع تنهيدة عميقة وهو يطلق بصره

نحو مجد يطمئن لاستغراقها في النوم ..

قبل أن يغادر إلى غرفته ليفتح حقيبته القطيفية حيث

ارتصت قواريره الزجاجية بأصدافها ..

تمتد أنامله نحو هذه الخالية .. أو التي بدت
خالية .. قبل أن يفتح سدادتها ليستخرج منها هذه
الشعرة السوداء الطويلة ..
والتي لفها حول إصبعه عدة مرات ببطء متلذذاً
بشعورها على بشرته ..
لفة بعد لفة بعد لفة ..
وكم من لفة بها القلوب تستقيم !!



_ أعجبتك الجزيرة؟! _

بصوت يحيى تسمعها مخاطباً مجد التي جلست على
كرسيها فوق رمال الشاطئ ..
فتشرد طيف ببصرها نحو البحر الساحر الذي تراءى
أمامها ..



_ جزيرة نوراي من أجمل الجزر هنا .. لا يمكن
الوصول إليها إلا عبر القارب أو الطائرة .. اسمها
مستمد من النور كأنها لجمالها فردوس الأرض ..
صوته الأسر يمتزج بنبرة مجد المستحسنة لما تراه
فيمنحانها شعوراً رهيباً بالاسترخاء مكانها على
كرسي الشاطئ الطويل ..

المكان هنا خلاب ..

كأنه حقاً قطعة من الجنة !!

ليس فقط نعومة الرمال .. صفاء السماء .. شاعرية
البحر .. رفاهية "الفلل" الفندقية التي ترضي شعورها
القديم - هي بالذات - بالنقص!
إنما .. كونها جزيرة منعزلة!
منعزلة عن كل هذا العالم الذي تنفر منه بالخارج ..

ماذا لو بقيت هنا طوال العمر ..

طيف فحسب!

دون "الصالح" ..ودون "الرفاعي"!

طيف بكل بساطتها وتعقيدها !!

بكل احتياجاتها التي يرضيها وجود مجد ..و ..هو!!

يحيى!!

رباه!!

لا تزال لاسمه رهبة تشبهه !!

حتى بينها وبين نفسها ..ماذا إذن لو نطقته جهراً

فتحررت حروفه من بين شفيتها!!؟!!

إلى أين تتجرفين يا امرأة!؟!

فات أوان السؤال ..بل والجواب!!

_أخشى أنني على وشك الوقوع في الحب .

تذكر رسالته من جديد فتغض عينها خلف نظارتها
الشمسية العريضة بتلك الماركة العالمية الفخمة ..
تتذكر كيف رد عليه "ضياء" تلك الليلة عقب
اعترافه المذهل :

_ معقول؟! بعد آرائك الشهيرة عن كراهية النساء؟!!

_ لهذا خشيت أن تتهمني بالنفاق .

_ لماذا هي بالذات؟!!

_ استثنائية!

_ يمكنك التوضيح أكثر .

_ لا .

_ لا تثق بي؟!!

_ بل لا أعرف الجواب .

_ ولماذا تخبرني بهذا؟!!

_ أحياناً نحتاج لشجاعة البوح لأناس لن نقابلهم سوى

خلف شاشة وربما لو كانوا أمامنا لأخرسنا جبننا.

_ تعترف بالجبن!؟!

_ في هذا الأمر .. نعم !

_ تعجبنى صراحتك .

_ ليس بيننا ما يستدعي الكذب .

_ لن تخبرني المزيد عنها ؟

سؤالها بقي معلقاً من يومها فلم يرد عليه !

تفتح حاسوبها كل يوم تنتظر رده من ساعتها إنما لا

يصل ولولا خوفها من انفضاح لهفتها لأعادته حتى

يجيب ..

هل يحبها!؟!

والسؤال الأخطر ..

هل تريده أن يحبها!؟

هل يمكنها تخيل الأمر بهذه البساطة!؟

أن يطلب يدها للزواج من ..عاصي!؟

أن تقيم حفل زفافها هناك في الصعيد!؟

أن يشهد الناس أنها هي -هي- صارت العروس

الأنيقة التي يسلمها أخوها لزوجها!؟

وهل يقبل بها هو على ماضيها الذي يعرفه!؟

هل يمكنه مواجهة عائلته بها!؟

عائلته!؟

أين عائلته!؟

هي لا تكاد تعرف شيئاً عنها -بل وعنه هو - أكثر من

قشور!!

تقطع أفكارها فجأة وهي تشعر به واقفاً أمامها
ينحني نحوها ليخلع عنها نظارتها برفق يناقض قوة
كلماته :

_استمتعي بجمال المكان دون حواجز .. لا تخافي لن
تؤذيك الشمس .

تشعر بالغضب من جرأته فتهم بردّ فظ كعادتها إنما
لقاء عينيه عبر هذا القرب يخرسها ..

قضبان عينيه لا تزال قائمة متحدية إنما تبدو لها في
ضوء الشمس الساحر هذا كأنها شرائط عسلية
موجة تحيط صندوق هدايا يناشدها فتحه لتتلقى
مفاجأتها !

ابتسامته الملونة بشجن غريب -وحزن أغرب- تعانق
عينها فتستسلم لدفء العناق بلا حول ولا قوة ..

وأمامها لم يكن هو أفضل حالاً وهو يشعر ب"سديمها

المدوّخ" يزداد فوضوية .. يزداد جاذبية .. يزداد

لمعانا..إنما كذلك يزداد وضوحاً ..

لم تكن ملامحها فقط ما خلت من زيف مستحضرات

التجميل ..

إنما عيناها كذلك خلت من زيف التصنع ..

هو الذي لم يكره يوماً شيئاً قدر أن يشعر أن أحدهم

يخدعه ..

وهاهي ذي صاحبة السديم تمنحه بغيته في عينين

سخيتين بالبوح رغم بخل اللسان ..

يقترّب بوجهه رويداً رويداً دون وعي .. وربما بكل

وعى ..

دون إرادة .. وربما بكل إرادة ..

دون خوف .. وربما بكل خوف ..

لكنه ينتبه لنفسه وهو يراها تنتفض مكانها لتقف

وهي تتلفت حولها لتتهف بنبرتها الفظة :

_ أين مجد !؟

_ نزار يسبح معها .

يجيبها باقتضاب وهو يستعيد بعض شتاته لتكتف

ساعديها وهي تنظر إليهما من بعيد ..قائلة :

_إنها الحالة الوحيدة التي لا أراك تصطحبها

فيها ..هل تخاف البحر حقاً إلى هذا الحد !؟

تقولها محاولة استدراجه ويبدو أنها قد نجحت ..

هاهو ذا يقترب منها أكثر ليجاورها وهو يشرد في

الموج المتلاطم حوله :

_خائني ..فخنته ..لم أعد آمنه ولم يعد يأمنني .

كلماته المقتضبة لا ترضي فضولها فتعاود القول :

_ ماذا؟! أصابتك عقدة عندما رأيت أحدهم يغرق؟!!

_ عندما رأيت "حلمي" يغرق .

تلتفت نحوه بالمزيد من الفضول وهي تتشرب

ملامحه الغارقة في ألمها ..

رغم قوة لهجته الفطرية التي لم تخنه حتى في موقف

كهذا ..

إنما لم يمكنها تجتهد هذا الوجد النازف في كلماته ..

تحاول تجميع خيوط قصة ما في خيالها تتناسب مع

معطياتها ..

حبيبة خائنة .. بغداد .. بحر غادر .. سندباد يعشق

الترحال ..

فقط لو تكتمل الصورة !

لماذا لا يصارحها كما صارحته؟!؟

_ سيد يحيى!

يلتفتان معاً نحو منسق الرحلة الذي اقترب منهما

ليقول بنبرة مهذبة :

_ تحبان الانضمام لبقية الفوج؟!.. لدينا فقرة ترفيهية

لمطرب شهير .

يلتفت نحوها يحيى بنظرة متسائلة فيلمح الرفض في

عينيها مؤكداً فكرته عن رفضها للاختلاط بالناس ..

يهم بالرفض هو الآخر لكنه يجدها تهتف باستدراك:

_ اسأل مجد !

يبتسم بامتنان لعاطفتها الجليلة نحو ابنته التي قدمت

لتوها محمولة بين ذراعي نزار ..

تهرول نحوها طيف لتجفف جسدها وتعرض عليها

الأمر فتتردد مجد قليلاً ثم تفاجئهم بالجواب:

موافقة.

موعدنا عند الغروب إذن ..لن يكون حفلاً بالمعنى

المعروف ..فقد حرصنا أن يكون التنسيق أكثر

حميمية .

يقولها الرجل بنفس النبرة المهذبة ليغادرهم فيما

تلتفت مجد نحو طيف لتقول بامتنان :

بفضلك لم أعد أخاف الغرباء ..ليتهم كلهم مثلك .

تبتسم لها طيف التي تعلقت بها عينا يحيى وجملة

مجد الأخيرة تظل رأسه كغيمة واعدة بالمطر ..

إنما من يدريه أنه ليس سيلاً غادراً سيغرقه !!؟

=====

ساعة وتغيب الشمس ساعة ويجينا الليل

وينراد حيل ودمع ومنين اجيب الحيل

روحي حمامة صفت وبيت اهلي الدور

اشتاقت لأمي انا ولخبرة التنور

الصوت العذب للمطرب الذي جلس وسطهم فيما يشبه

مجلساً عربياً بتلك الوسائد التي اصطفت على سجاد

أنيق افترش رمال الشاطئ ..

وقد رفع حولهم ما يشبه خيمة بستائر شفافة بيضاء

ضُمَّت أطرافها بزهور رقيقة الرائحة ..

تربت طيف على رأس مجد التي ضمتها لصدرها وقد

جلست جوارهم متخليّة عن كرسيها ..

عيناها تراقبان سندبادها الشارد بحدس لم يخذعها ..

لماذا اختلجت عضلة فكه عند هذا الشطر من الموال

(اشتقيت لأمي أنا)؟!!

نفس الاختلاجة العنيفة مع شرود ملامحه العاصف

التي راودته عندما كانا في الندوة ..

تراه ليس على وفاق مع أمه لهذا يكره النساء؟!!

ما حكاية حبيبته الغادرة إذن؟!!

حبيبة واحدة إذن أم أكثر؟!!

بديرة هلي بالطعم يختلف ..

حتى الماي وحتى الهوايم هلي يختلف ..

والله هواي

كل ليلة تسوى العمر لو قعدو اهلي وياي
ومن ايد امي الصبح محلى استكان الجاي
يا منطقتنا حلم ارجع لأصحابي
وكل ساعة صاحب يجي ويدك علي بابي
مشتاق محبوبتي الحلوة ام جفن غافي
واتمنى هسه تجي وتغفى على اكتافي

الموال يسحبها من جديد فتتوقف عند الكلمات الأخيرة
التي يغلق هو معها هو عينيه بقوة ليبدو وكأنه يقاوم
صراعاً عنيفاً بداخله ..

كل جسده يبدو متشنجاً في جلسته كأنه لم يعد يشعر
بما حوله ..

قطرات من عرق خفيف تغزو جبينه الوضاء ..

لم تعد تشك ..!

هذا رجلٌ لدغ من جحر الحب مرة .. وربما أكثر!!

مشتاق للمدرسة والجرس والساحة

واطفال نركض نركض بس نشعر براحة

شما دار بي الزمن ابقى لأهلي ميال ..

ومنين اجيب قلب يتحمل الترحال

(ومنين اجيب قلب يتحمل الترحال)

يكررها المطرب عن عمد فتشعر أنها سوط لاهب

يكوي جسد هذا السندباد جوارها ..

خاصة وهو ينتفض من مكانه فجأة ليغادر المكان

بخطوات شبه راکضة ..

تلقت نحو نزار بنظرة قلقة تناقض صوتها الفظ

بطبيعته :

_ ما به ذاك؟!!

لكن نزار ينهض بدوره ليلحق به وقد تبدلت ملامحه

العابثة لأخرى جادة ..

_ بابا!

تهتف بها مجد بتساؤل فتطمئننها بكلمات مبعثرة وهي

تراقبه عبر بياض الستائر الشفافة وقد وقف بعيداً

يراقب البحر - غريمه - مكتفياً ساعديه وجواره نزار

وقف صامتاً كأنما يؤازره دون كلمات ..

_ بابا يحبك كثيراً.

تهتف بها مجد بعفوية فتشبه طيف وهي تعود
ببصرها نحو الصغيرة بنظرة ملهوفة لتردف مجد
ببراءة:

لم يكن ليتركني هكذا سوى مع أحد يحبه ويثق به .
تزدرد طيف ريقها الجاف بصعوبة وهي تهم بالرد
لكنها تفاجأ بأحد الحضور يطلب منها أن يحتفلوا
بالصغيرة احتفالاً خاصاً فتتردد في الموافقة وهي
تعود ببصرها نحو يحيى الواقف بعيداً ..
لكن مجد تمنحهم الموافقة وهي تصفق بكفيها في
فرحة ..

تستجيب لهم طيف وهي تحمل مجد لتضعها على
كرسيها فيتعلق الجميع حولها في دائرة كبيرة وقد
انبعثت موسيقا حماسية ملهبة ..

تتقدم إحدى الحاضرات لتمسك كف مجد ثم تدور حول
كرسيها برقصة حيوية وقد فردت طرف تنورتها
ليتراقص شعرها الطويل حولها قبل أن تعود لدورها
في الحلقة لتتقدم أخرى مكررة الرقصة ..
تضحك مجد بسعادة وهي تشعر أولاً بارتباك أن تكون
هكذا مركز الحدث ..

لكنها تتخرط معهم بسرعة وعيناها معلقتان بعيني
طيف التي جاء دورها في الحلقة لتؤدي نفس
الرقصة ..

لم تكن لتفعلها أبداً !
صحيح أنها تملك العديد من "بدل الرقص" في ذاك
الدرج السري في دولابها ..

صحيحٌ أنها تشاهد سرّاً فيديوهات لراقصات شهيرات

تتعلم منهن حركاتهن ..

صحيحٌ أنها في كل رواية تكتبها لابد أن تجعل مشهداً

لرقصة إحدى بطلاتها فتتخيل نفسها فيها ..

لكن يبقى هكذا كله في إطار وحدتها !

لهذا وقفت متخشبة وهي تنظر يمنة ويسرة ولسانها

الفظ يتأهب لإلقاء قذيفة جديدة لكن مجد عادت تهتف

برجاء :

_ هيا يا طيف ..سهلة ..جربها!

تدفعها إحداهن فترمقها بنظرة زاجرة ..

سجائرهما!!

تحتاج لإحداها الآن ..

أو ربما لـ "بديل" يشبهها في إظهار تمردها على

ماضيها كله !!

بديل .. كهذا !!

تغمض عينيها بشجاعة لا تدعيها وقد اقتربت من

كرسي مجد ..

تمد ذراعها لتلامس كفها ثم تطوي طرف ثوبها

البرتقالي الداكن - بهذه الدرجة المقاربة للأحمر -

مقلدة الحركات التي حفظتها ..

تدور وتدور مغمضة العينين متعمدة نثر خصلات

شعرها الطويل حولها ..

تعلم أنه لا يراها .. فلا تدري هل تتمنى لو يفعل !؟

سبحان الله! شاهد قبل الحذف! عنكبوت يتحول إلى

فراشة !



يلكزه بها نزار في خصره وهو يقف مكانه مواجهاً
البحر فيلتفت يحيى لتتسع عيناه وهو يراقبها من
بعيد ..

فراشة برتقالية مغمضة العينين تراقص قدرها
برشاقة تمرد لا خضوع..

"الحرملة العريضة" لثوبها تغطي صدرها وأحد
كتفيها وتراقص بجاذبية مثيرة مع حركاتها ..
لم يكن جسدها مغرياً إنما -هي- كانت كذلك!
كل ذرة فيها تتضح جاذبية غير مفهومة تكاد تقتلع
جباله الراسيات من مكانها !!

غيرة عاصفة تدفعه للتقدم إلى هناك كي يوقف هذا
العرض لكنه يصل عند انتهاء دورها وعودتها
للحلقة ..

تصطدم عيناها بعينيه لتلمح فيهما هذه الشعلة التي لا

تخطئها عين راءٍ !

شعلة غيرة ..ونيران عاطفة !

ولأول مرة تجد نفسها لا تقارنه بحسام !!

هذه النظرة مختلفة !!

نظرة رجل يراها الآن الدنيا وما فيها !!

لا ..ليس غروراً منها ..

إنما ..لو لم يميز الظمان عذوبة الماء فمن يفعل؟!!

=====

عند الشروق تخرج من غرفتها لتتمشى على

الشاطئ..

ترتدي زي سباحة محتشم -نوياً ما- بماركة شهيرة

كالعادة ..

يلتصق بجسدها فقير الامكانيات الأثوية إنما تبدو

منه رشاقة ساقها الطويلتين ..

لا تجيد السباحة ولم تفكر يوماً في تعلمها ..ولماذا

تفعل وهي التي كانت أسيرة صومعة وحدثها

لسنوات ..

إنما الآن تريد أن تجرب سحر البحر الذي يحكون

عنه ..

لهذا اختارت هذا الوقت من الصباح حيث الغالبية نيام

بعد سهرة الليل الطويلة ..

تخلع خفيها لتلامس الموج البارد بأطراف أصابع

قدميها فيرتعد جسدها ارتعادة خفيفة ..

لا تعومي في الترعة ليلاً يا طيف .

بصوت أمها من الماضي تسمعها فتغض عينها

بشجن من لوعة الذكرى :

_ لا أستطيع العوم نهاراً .. "العيال" يعيروني

ويضايقونني بل ويقذفونني بالطوب !

تهتف بها باكية بقهر لتربت أمها على كتفها قائلة

بإشفاق:

_ إذن لا تعومي في الترفة لا ليلاً ولا نهاراً !

_ بل سأتركها لهم نهاراً وتكون لي وحدي ليلاً!

بعناد تقولها كأنها تتمرد على كل خضوع يفرضه

عليها الواقع لتهتف بها أمها مخوفة إياها:

_ النداهة تسير ليلاً فوق الماء تغرق من يعوم فيها !

وخافت!

حقاً خافت!!

لم تقرب التربة ولا الماء من يومها !!
النداهة لم تكن وهماً في صدور الفلاحين يتندرون به
في حكاياهم ..

النداهة كانت وحشاً كامناً في صدرها هي يخوفها من
الناس ..

يدفعها دوماً للتمرد على كل ما يذكرها بماضيها
كـ "بنت حرام" ..

يحفرها للصعود .. لانتزاع التصفيق من كفوفهم إنما
دون النظر لعيونهم ..
عيون الناس غربتها ..

وحدهما عيناه الآن تعاننها بوطن !
الدمع العزيز في عينيها يترقق خلف صورته
بالأمس عندما رآها ترقص ..

يطارد بقايا تلك النظرة في عينيه ..

لم تعد تحتاج اعترافه ..

بل ..تفعل!

تنظر حولها تتأكد من خلو المكان ثم تفتح ذراعيها

معانقة الهواء ..

بل معانقة الحياة !

تشعر أنها في سبيلها لفتح صفحة جديدة في حياتها ..

صفحة! بل كتاب!!

تتوغل أكثر داخل الماء وهي تشعر بنفسها تقهر

ذكرها القديمة ..

كلما تتوغل أكثر تقهرها أكثر وأكثر ..

لا "عيال" .. لا معايرة .. لا قذف طوب .. لا تخويف من

نداها غاشمة ..

بل موج ناعم هادئ يعانقها باحتواء ويغريها بالمزيد

من الاقتراب ..

أكثر وأكثر ..

فترد له عناقه بعناق !

وفي غرفته فتح يحيى الستار يراقب الشاطئ وقد

عجز عن النوم الليلة الماضية ..

وكيف ينام من تأمر عليه أمسه وغده !؟

بركان ماضيه يعاود استباحة ساحاته فيلهبه بحممه ..

وبقايا من أمل واعد تغريه بثمرة المستحيل !!

المستحيل بعينه أن تعشق من جديد يا يحيى!

وكانما قفزت ك"حورية بحر" من أفكاره ليراها

أمامه على الشاطئ ..

حورية برتقالية تمزج حيوية الأصفر بدفء الأحمر ..

حورية مست في قلبه ذاك الوتر المنسي الذي ظنه لن

يعود للعزف أبداً !!

كيف ومتى ولماذا سمح لنفيه بالغرق في كل هذه

الفوضى؟!!

الغرق!!

الغرق!!

ينعقد حاجباه بقلق ينقلب لرعب حقيقي وهو يراها

تصارع الموج هناك ..

الحمقاء .. ألا تجيد السباحة؟!!

لا يدري كيف غادر غرفته بملابس نومه ولا كيف

صار فجأة أمام الشاطئ ..

أنفاسه اللاهثة تعانده كما جسده وهو يشعر بالعجز !!

من يصدق أن هذا الذي يقف الآن مرتعداً أمام البحر
هو من نال كئوس بطولات السباحة في مواقف عدة
!؟

يجاهد نفسه ليأخذ خطوة أخرى وهو يتلفت حوله
بعجز باحثاً عن مساعدة قريبة لكنه يعود بخيبته ..
زهور التيوليب في الماء تلقيها العروس ليتلقفها
عريسها ..

عريس .. ليس هو ..

هو ..

زجاجة العطر المكسورة ..

سائلها الأحمر يلوث عمره كله ..

ظهره المستند على الباب يهوي ويهوي معه ..

حقيبة سفره المفتوحة كـ "جرح" سيبقى العمر

كذلك!!

العرق يغرق جسده كله رغم برودة الجو ..

يجمده مكانه وهو يرتعد بنفس الخوف القديم ..

الخوف المشوب بالذنب ..

ذنب ليس له إنما سيبقى وزره على كاهله العمر

كله !!

_انسَ يا يحيى..انسَ!

هذه المرة لا يستطيع أن ينسى !!

لا يستطيع تجاوز هذا الجبل الجاثم على صدره!!

لا يستطيع ..

لا يستطيع ..

لا يستطيع ..

بل .. لأجلها يستطيع !!

يخلع عنه قميص منامته بسرعة وهو غير واثق من
قدرته على فعلها ..

قلبه ينتفض بين ضلوعه بوجع وهو يتقدم في الماء
أكثر يكاد يشعر باختناق أنفاسه ..

هل يفعلها حقاً؟!

هل يسبح من جديد؟!

هل صالح السندباد بحره ؟!!

وفي مكانها كانت طيف تلاحق أنفاسها شاعرة

بالغدر!!

متى جرفها الموج هكذا لهذه النهاية ؟!!

هل هذه خيانة البحر التي يحكون عنها ؟!!

تحاول الصراخ لكنها لا تستطيع فتوقن من قرب

نهايتها ..

الموج الغادر يغشاها صامداً فتستسلم رغماً عنها ..

تشعر بذراعين قويتين تحيطان خصرها وتجذبانها

فتتعلق بهما دون وعي ..

المرئيات تتشوش في عينيها وهي لا تفهم ماذا

يحدث ..

حتى تفيق أخيراً وهي تجد نفسها تقترب من الشاطئ

الذي بدا لها ساكناً مرتاحاً .. كأنه لم يمنحها مذاق

الموت منذ دقائق ..

_ أنت .. أنقذت حياتي .

بين أنفاسها اللاهثة تهتف بها لا تكاد تصدق ما

فعله ..

أناملها تعانق خفقات قلبه التي تكاد تزار بانفعاله ..
فيعتصرها ذراعاه بهذه القوة التي طالما ناطحتها ..
بهذا الحنان الذي طالما تمنته ..

بهذا الدمع المختق خلف قضبان عينيه ..
وبهذه الكلمات التي بدت وكأنها تعاند شفثيه لتتطلق
قاهرة .. متمردة .. شغوفة .. تشبهه:

_بل أنا .. أنقذت .. حياتي !

لا يدري كيف قالها ولا كيف غادرت سجون شفثيه
بهذه البساطة ..

هو لم يكن يشعر في هذه اللحظة سوى بأنه يعنيها!!
يعنيها بكل حروفها!!

"صاحبة السديم" ليست امرأة في تاريخه ..

بل هي توأم روحه ..التوأم الأقوى الذي يستحق أن

يفتديه ولو كان فيها هلاكه هو!!

لهذا بقي ذراعاه يعتصرانها بكل ما أوتي من قوة

وهو يغمض عينيه بنفس الخوف كأنه لا يزال لا

يصدق أنه هزم طغيان بحرته!!

وبين ذراعيه كانت طفلة طالما اشتاقت هذا العناق ..

كانت امرأة ولدت من جديد ..

كانت عجوزاً ظلمتها تجاعيد القهر ووجدت فيه عن

شبابها عوضاً ..

لم تنطق بكلمة ..

لكن كل جوارحها كانت تهتف ..كانت تصرخ ..كانت

تبكي ..كانت تضحك ..

لم ترجُ يوماً اعترافاً بالحب كهذا الذي منحه لها !!

هو تحدى خوفه لأجلها !!
السندباد عاد يصلح بحره ..
وهي .. هي اختارت أن تبقى معه على نفس السفينة !

أخضر

أخاف اعترافي بأنني أراك
سراباً توارى وراء السنين...
وطفلاً يجاذب كم قميصي ...
فأخشى عليه اغتراب الحنين...
أخاف عليك إذا ما رحلت...
أراك بصحراء يأسٍ تهيم..

أخاف اعترافي بأنك صرت...
مجرد عقدة ذنب أليم...
وقيداً ثقيلاً يمزق، رسغي...
وأنقاض صرحٍ قديم... قديم!
وسراً يعاتب في ضميري...
ويلعن قلبي الشقي الأثيم...
يعذب نفسي حديثي عنك...
ثقيلاً كبسمة شيخ سقيم...
وحتى غناء الشوق لغدنا...
تكاسل عن نشوة الترنيم...
أخاف عتابك لو قلت عني :
"لعوبٌ تجيد اختراق الحصون"
ونظرة عينيك لن أحتملها

إذا عنفتي وقلت أخون!
أجل قلت يوماً بأني أحبك
وما كنت فيها من الكاذبين
وحبك كان تميمة حظي
ودفاء حنان له أستكين
فكيف اليوم أراك غريباً
يشد خطاي لنهر قديم؟!
نرمين نحمد الله



_ أين إيهاب؟!_

تهتف بها عزة بجزع بعدما فتحت لها خديجة الباب
للتفحص الأخيرة ملامحها للحظات قبل أن تشير لها
بالدخول في غير ترحاب حقيقي ..

لاتزال بقلبها غصة من هذه العلاقة بين ابنها وهذه
المرأة ..

غصة لا تجد لها مبرراً خاصة وعزة تبذل قصارى
جهدا -ظاهرياً! -لتسعد إيهاب ..

إيهاب الذي يجاهد بدوره كي يبدو سعيداً-ظاهرياً
كذلك! - ويقينها أن الانفجار قادم!

_ أرجوكِ أخبريني أين هو!

تهتف بها عزة بلوعة فتعود خديجة لتتفحصها
بنظرات أكثر رحمة هذه المرة ..

عينها الحمراءوين تفضحان سهرها الطويل ..

ملاحمها تخلت عن بعض تبرجها ليبدو خلفها تعبها
الحقيقي ..

شفتاها تشاركان كفيها هذه الرجفة الانفعالية ..
كفاها اللذين كانا متعلقين بوشاحها الأخضر كعدها
في عادة صارت شبه هوس!!
كانها تتمسك معه ب"قدس كمالها" الذي صارت
تعيش انتهاك حرمة!!

وبوازع من أمومتها ترد خديجة ببعض الرفق:
_ منذ قام بتركيب هذه الساق الصناعية وقد تغير حاله
قليلاً إذ يحاول التكيف مع السير بها .. لم أره منذ أخذ
قراره المفاجئ هذا بالاختفاء .. ألم يترك لك رسالة؟!
أخبرني أنه سيفعل!

تنهار عزة جالسة فوق أحد الكراسي وهي تتذكر تلك
الرسالة التي تركها لها على هاتفها قبل أن يختفي ..
_حبيبتي ..كيف حالك؟! لم أتصور يوماً أن أسألكِ
هذا السؤال وأنا حقاً لا أعرف الجواب ..ظالما كان
"حالك" هذا أوضح ما يراه قلبي قبل عيني ..والآن
صار غامضاً عن كليهما ..لا تشعري بالذنب ..لا
تشعري بالذنب ..بالله عليك لا تجعلي ما بيننا يقرب
هذه المنطقة اللعينة ..اقتربي لأجلك ..أو ابتعدي
لأجلك ..لا تحملي هم "الفاجومي" ..تعرفين كيف
يجيد فعل ما يريد وقتما يريد وأينما يريد دونما
اكتراث للناس ..إنما تبقين أنت بعينيه "كل الناس" ..
تتناقل الدموع على جفنيها مع ذكرى كلماته الأخيرة
لتستعيد ما بقي من رسالته ..

الأيام القادمة سأختفي من حياتك تماماً .. سأمنحك
الفرصة لتتحرري من ثقل الصراع الذي يخفيه لسانك
وتفضحه عينك .. سأريك أنني لست عاجزاً يستحق
شفقتك .. إنما عاشق يستحق حبك .. أعرف أن الموعد
الذي اتفقنا عليه لعقد القران قد اقترب .. لو وجدتي
قبله فهو دلالة شعور قلبك بي والتي توازي شعوري
بك .. ساعتها سنتم الأمر .. لا مجرد عقد قران بل
زواج .. زواج تكونين فيه رفيقة العمر كله .. أما لو لم
تفعلي فهو مفتاح خلاصك وخلاصي من حب لن يجر
لنا سوى الألم .. كوني بخير بي .. أو بدوني .
تنهمر دموعها صامتة وهي تتذكر كيف اكتفى بهذه
الرسالة مع بعض الصور له التي يرسلها لها كل
يوم ..

صور له في صالة الألعاب الرياضية حيث يقوم

بتمارينه ..

صورة عقد عمله الإداري الجديد الذي تسلمه بعد

فقدانه عمله الأول ..

صور له مع بعض أصدقائه الذين لا تعرفهم وقد

جلسوا يتضحكون بمرح ..

صور مقتبسة من مدونته الشخصية التي ينشر فيها

كتابات باسم "الفاجومي" ..

كأنه يخبرها أنه يعيش حياته بصورة طبيعية ولا

يحتاج شفقتها النابعة من شعورها بالذنب !!

تحيينه حقاً؟!!

سؤال خديجة يسبق تربيته كفاها الحنون على كتفها

هي لترفع إليها عينيها المشوشتين

بالدموع ..وبالمشاعر!!

تظن الجواب هكذا ..هين؟!!!

بهذه البساطة؟!!!

_اصدقيني ولا تخافي!!

تكررها خديجة بحنانها -الصارم- فتكتف عزة

ساعديها وهي تشعر في هذه اللحظة بالذات

ب"اليتيم" ..

بالوحدة ..كورقة شجر في مهب ريح !!

صرامة خديجة رغم حنانها تذكرها بتسلط هيام ..

فتلتوي شفتاها بابتسامة "تمرد" ساخرة :

_لو كنت مكاني هل كنت تملكين حق الرفض؟!!

تعقد خديجة حاجبها بقوة وكلام عزة يؤكد مخاوفها
خاصة والأخيرة تردف بين دموع تساقطت رغماً
عنها :

_إيهاب لم يمنحني هدية ولا نقوداً ولا حتى مجرد
مشاعر .. هو منحني "الهبة" التي لا يمكنني ردها
مهما فعلت .. وجودي معه لم يعد خياراً .

_بل يبقى وسيبقى كذلك !

تقولها خديجة بنفس الصرامة وهي تتخذ مجلسها
على الكرسي جوارها ..
لتهتف عزة بانفعال:

_لا تحكمني ما دمت لم تجربي .

_من أخبرك أنني لم أفعل؟! هل حكى لك إيهاب عني؟!
تهز عزة رأسها بجهل وهي لا تفهم ما تعنيه ..

لتردف خديجة وقد غابت عيناها في شرود قصير:
_ أنا تحديث العالم كله يوماً لأجل اختياري ..قلت لا
عندما كان ينبغي أن أقول "لا" ..حتى عندما كان
الثمن ..ابني!

تدمع عيناها مع ارتجافة صوتها عند خاطر الأخير
لتتسع عينا عزة وهي ترى الوجه الواهن منها لأول
مرة ..

_ أبي زوجني للمرة الأولى نازعاً مني
اختياري ..زوجني رجلاً لم يرَ منه سوى ظاهر
الخير ..عشت معه أسوأ سنين عمري ..ظُلْمَةٌ لم
تعرف سوى نور ابني الأكبر منه "إياد" ..معهُ عرفت
لأول مرة في حياتي كيف تمتد عليّ يد بالضرب ..معهُ
سمعت الشتائم التي لم تكن أذناي تسمعها سوى في

الشوارع .. المرفهة المدللة عرفت معه معنى الإهانة
العوز والاقتراض .. ومع هذا تحملت .. تحملت غيابه
بالشهور فيما كان يزعم أنه عمل ! تحملت أن ينفق
أبي عليّ وعلى ابني .. لكن الطامة الكبرى عندما
علمت أنه متزوج بالعراق حيث سافر .. طلبت الطلاق
فهددني بأن يأخذ مني ابني إياي .. ساعتها كان وقت
الاختيار ..

تزدرد عزة ريقها الجاف وهي تشعر بانفعالها
المتزايد مع كلمات خديجة التي كانت تزداد قوة
ووجعاً بينما تلوح بذراعيها:

إِما أن أستعيد حرיתי وحياتي وأدميتي وأخسر
ابني .. أو أبقى معه أسيرين لرجل كذاك !
_ واخترتِ حريتك!

تقولها عزة بنبرة تقرير وقد خفت صوتها حد الهمس

لتطرق خديجة برأسها هامسة :

_ وخسرت ابني .

_ ليس تماماً .. إيهاب أخبرني أنه عاد يسكن معكم

بعدما كبر ..

_ بعدما رماه أبوه !

تقولها خديجة مصححة وهي تعاود رفع رأسها نحوها

لتهتف بانفعال مرتجف:

_ بعد سنوات ألهمت فيها جسدي سياط الناس وهم

يلومون "الجاحدة" التي رمت ابنها كي تتزوج ثانية

وتبدأ حياتها من جديد .. سنوات قضتها أتمزق كلما

نظرت لإيهاب ووجدته يتنعم بحضني وحضن أبيه

فيما لا أعلم شيئاً عن قطعة من قلبي تركتها بعيداً

عني ..سنوات أتمنى فيها فقط رؤية إِياد الذي سافر
به أبوه للعراق وقد حُرمتُ من الحق الطبيعي لأي أم
أن تشاهد ابنها يكبر أمامها ..سنوات عجاف قضيتها
في هذا الجحيم الذي تحكين عنه .."ثمن
الاختيار" ..ثمن كلمة "لا" عندما تقال في وقتها ..لا
أزعم أن ما فعلته كان الصواب أو الخطأ لكن ما كان
يصبرني وقتها أنه كان اختياري ..قراري وحدي الذي
تقبلت نتائجه بكل تبعاتها ..هل يكفيك هذا لتدركي أنني
يوماً ما كنت مكانك !
_الوضع مختلف ..أنا ..
تقولها عزة بارتباك لتهتف خديجة مقاطعة :

_ أنا قلتها لك مرة وهأنذا أعيدها .. لا أحد سيلومك
على اختيارك المهم أن تدركي أنتِ تبعاته .. أن تتقبلي
الثمن الذي ستدفعينه لأنه لا أحد غيرك سيسدده .
تطرق عزة برأسها بين شتاتها بما حكته خديجة ولا
تزال تحكيه ..

_ تظنين أن في هذه الحياة العسل الذي لا يخلو من
شوائب تكدره؟! الورد الذي لا يخلو من شوكة؟!
الإجابة الصحيحة تماماً التي لا تحتل الخطأ؟!
اعلمي إذن يا ابنتي أن كل الأجوبة .. كلها .. تحتل
نسبة الخطأ .. والنجاح ليس في الاختيار .. النجاح في
تقبل النتيجة .. أياً ما كانت !!
_ تريدينني أن أتركه؟!!

تسألها عزة برهبة لتتهد خديجة وهي تقف مكانها

قائلة :

_ اتركه وعيشي .. أو ابق معي وعيشي .. المهم أن
تعيشي حياتك في الحالتين .. لا أن تبقي هكذا مذبذبة
متظاهرة تظنين أنك بهذا تفرحينه .. السعادة لا يمنحها
المترددون !

تغمض عزة عينيها للحظات وهي لا تدري ماذا
تقول ..

تشعر أن كلمات خديجة قد وسّعت القيد حول
رسغيها .. لكنها لم تحله تماماً ..

فلتبتعد ..

فلتقل لا .. ببساطة .. ولينته الأمر!!

بساطة؟!!

البساطة أبعد ما تكون عن هذا الوضع!!
تتهض من مكانها لتقف في مواجهة خديجة التي تبدو
لها الآن صورة مجسدة لما تعنيه مهنتها .. "ناظرة
مدرسة" ..

وهي أمامها تلميذة بليدة .. لا تعرف جواب السؤال !!
_ أين هو؟!_

تسألها برجاء من جديد هاربة من الموقف لتتهز
خديجة كتفيها هاتفة :

_ لا أعرف .. هو بخير .. يهاتفني يومياً .. وهذا هو
المهم !

_ لم يبقَ على موعد عقد القران سوى يومين .
تقولها بنفس التردد اللعين لتطلق خديجة صوتاً
ساخراً يليق بعبارتها:

_ هذا لو كان هناك عقد قران!

ترمقها عزة بنظرة غريبة لتهدف بها بحدة مفاجئة:

_ لماذا أشعر أنك لا تريد إتمام هذه الزيجة!؟

_ هل كلمك إيهاب عن ورد!؟

تسألها خديجة فجأة متجاهلةً ظاهر سؤالها لتعقد عزة

حاجبها بقوة بينما تردف الأم بنبرة ذات مغزى:

_ و... من سبقتها!؟!!

_ إيهاب صديقي قبل أن يكون خطيبي .. بالطبع

أخبرني بكل شيء!

تهدف بها عزة بصوت متهدج وهي تشعر أنها ليست

بهذه القوة التي تدعيها ..

لتقترب خديجة منها تلوح بسبابتها مع قولها :

_إذن تعلمين بالتأكيد أنني لن أسمح لابني بفشل

ثالث .

تزدرد عزة ريقها بنفس التوتر المقيت وهي تتراجع

بظهرها خطوة للخلف قبل أن تعدل وضع حقيبتها

على كتفها لتغادر ..

لكن خديجة تلحق بها عند الباب لتتهف بنفس النبرة :

_إيهاب سيتزوج هنا ..في هذا البيت .

تلتفت نحوها بدهشة للحظة ثم ينعقد حاجباها بضيق

هاتفة:

_لم نتفق على هذا ..هو يملك شقة أخرى .

_كان هذا في الماضي ..قبل إصابته ..الآن لن يأمن

قلبي أن أتركه يعيش بعيداً عني .

تقولها خديجة بنفس الصرامة لتتفرج شفتا عزة وهي
على وشك الانفجار .. لكن خديجة تقاطعها بقولها:
_ضعي هذا في حسابك وأنتِ تحسمين اختيارك!
تطبق عزة شفتيها وهي ترمقها بنظرة ضائقة لتخرج
دون كلمة زائدة فتراقب خديجة ظهرها المنصرف ..
ثم تغلق الباب برفق لتتقلب ملامحها الصارمة لأخرى
متألّمة ..

إن كان ابنها منحها مفتاح حرّيتها .. فهي الأخرى تريد
دفعها لهذا الطريق ..

قلب الأم داخلها يخبرها أن عزة بشتاتها الحالي لن
تكون لإيهاب عوناً .. بل عبئاً !

عبئاً ثقيلاً لن يحتمله ظهره الموجوع!!

تمسح دمة خائنة فرت من عينيها وهي تتوجه نحو

ذاك الدرج لتستخرج منه ألبوم صور ..

تمتزج ابتسامة شجنها بدموعها وهي تتفحصهم

واحدة تلو الأخرى ..

إيهاب المبتسم دوماً في كل الصور ..

وأياد العابس بنظرة يُتم تدرك أنها كانت من أسبابها

وتود لو كان قد منحها الفرصة لتمحوها عنه ..

إيهاب المحاظ دوماً برفقته من أصدقاء ..

وأياد الوحيد دوماً .. المنعزل دوماً .. الغريب دوماً ..

وأخيراً ..

صورة ورد وقد ارتدت ثوب خطوبتها جوار .. إيهاب!

هذه الصورة التي تود لو تحرقها ..

كما أحرقت حقيقتها قلب ابنها البكر !!

ظلمناك يا ابني! كلنا ظلمناك! أنت تظنني فضلت
إيهاب عليك كما كنت دوماً تتهمني.. قلب الأم لا يفرق
بين أولاده.. لكنه لم يكن بيدي.. والله لم يكن
بيدي.. لو كنت أعلم أنك ستترك كل شيء خلفك
وتهجرنا بعدها هكذا لكنت أول من يمنع تلك
الخطبة.. لكنها كانت تحبه هو.. ماذا كان بوسعي أن
أفعل؟! أنت باركت لأخيك ساعتها.. كتمت لوعتك في
قلبك وجعلتني أشعر أنك لا تهتم.. حضرت الحفل
بنفسك لآخره.. قبلت يدي في تلك الليلة بهذه النظرة
التي لم أفهمها إلا صبيحتها وأنا أرى البيت خالياً
منك.. إياك أن تظن أن قلبي لم ينفطر لأجلك.. قطعة
من روعي مزقت برحيلك ولن تعود إلا بك.. كأن
قدري كلما التقيت بك أن أحرم منك من جديد.. عد يا

إياد .. ارجع يا بني .. ارجع وكن سندي وسند
أخيك .. من فرقتكما رحلت ولن تعود .. إنما أنت يجب
أن تعود .. يجب أن تعود .



_ زميلة تشاركني؟! لماذا؟!
تهتف بها عزة بضيق متفاجئة بعدما أنهت تصوير
حلقة برنامجها في الاستوديو ..
ليرد المخرج بابتسامة مهدئة :

_ لصالح البرنامج بالطبع!
_ البرنامج هذا أنا أساسه ! الناس كلها تشاهد
"أكلتين وعافية" منذ سنوات لأجل "عزة
الأنصاري" ! بأي حق تريد الآن أن تحضر من
تشاركني فيه ؟!

تهتف بها باستنكار ليبسط راحتيه في وجهها بحركة
مهدئة سبقت قوله :

_ لأجل أن أحافظ لك على نجاحه هذا .. تعلمين مثلي

أن قبورك لدى الناس لم يعد كالسابق .. نسب

المشاهدات تقل يوماً عن يوم .. وأنتِ ترفضين بعض

التنازلات ال .. بسيطة؟!؟!

_ أي تنازلات؟!؟!

_ فيديوهات لك على الانستجرام بصور أكثر حميمية

مثلاً!

_ تقصد هذه المتظارفة التي أتناول فيها ما أظهو

بتلذذ مبالغ فيه ثم أتقافز كالبهلوان؟!؟!

تهتف بها باستنكار متهمك وهي تستعيد ما تفعله

بعض زميلاتنا في المهنة ..

ليرد بإيماءة رأس :

_عالم "السوشيال ميديا" له قواعده ..هذه الأيام لن
ينجح فيها إلا من يجيد الاستعراض ..الاستعراض
بالجمال ..بالأناقة ..بالرفاهية ..بخفة الدم ..نجاحك هو
عدد الأرقام التي تثبتها مشاهداتك ..المنافسة قوية
وأنت ترفضين تطوير نفسك .

_هذا ليس تطويراً ..هذا ابتذال! أنا متخصصة في
الطبخ وليس في الاستعراض!

_اتفقتا! ولهذا أحضرت من تشاركك في البرنامج!
واحدة تجيد هذا الاستعراض الذي لا تحبينه!
يقولها بنبرة من يجيد التفاوض لتدمع عيناها بقهر
وهي تعود ببصرها للخلف نحو الحائط الديكوري

أخضر اللون الذي حمل "لوجو" البرنامج والذي

ارتبط بها - وحدها - لسنوات ..

تضع كفها على شفيتها كاتمة بكاءها ثم تركض نحو

غرفتها الجانبية لتغلق الباب خلفها ..

تخونها دموعها للحظات وهي تشعر بالفشل في كل

شيء ..

حتى عملها الذي كان كنز عمرها !!

_ لا! لا! لن أفشل! لن أفشل!! يريدون المزيد من

التنازل .. فليكن !!

تمسح دموعها بسرعة وهي تتوجه نحو مرآتها لتعيد

ضبط زينتها بتبرج أكثر وضوحاً ..

أكثر .. وأكثر ..

تتوجه نحو منضدة قريبة رصت عليها بعض قطع من

الحلوى فتتناول إحداها ..

تشغل هاتفها في وضع التصوير ثم تبدأ في تقليد هذه

الفيديوهات التي تراها ..

فتتناول قطعة الحلوى ببطء مثير وهي تتمايل

بميوعة ..

تضحك لتختم الفيديو بغمزة خفيفة!

توقف التصوير ثم تعيد تشغيل الفيديو ..

تتجمد ملامحها على صورتها وهي تشعر أنها ليست

هي ..

تبتسم لضحكتها "الزائفة" في الفيديو ثم غمزتها

التي بدت لها فجة لكنها مثيرة ..

قبل أن تتحول ابتسامتها لنحيب مرتفع وأاملها تمتد

كي...

تمسح الفيديو .. لا كي تشاركه!!

كانت تعلم !!

كانت تشعر!!

كانت تخاف!!

طريق التنازلات يبدأ بخطوة ..وها هي ذي تتحدر على

الدرج لآخره !!

لم تشعر يوماً بالفشل كما هي الآن ..

بالوحدة ..باليتيم ..

نجمة تركوا لها السماء وحدها يوماً ..والآن جاء

الدور لتحترق!!

طرقات خافتة على الباب تجعلها تمسح دموعها وهي

تعيد إحكام وشاحها حول عنقها ..

وشاحها الذي لطخته دموعها وبقايا زينتها لكنها لم

تعد تهتم ..

هو لن يعود أبداً لرونقه القديم!!

تغادر غرفتها لتصطدم بالمخرج الذي لانت ملامحه

مع دموعها ليهتف بضيق:

_ عزة! الأمر لا يستحق كل هذا .. هي فقط محاولة ..

_ لن أشارك نجاحي مع أحد .. لو لم يناسبك الأمر .. ألغِ

العقد بيننا .

تقاطعها بها بصرامة بدت ساخرة مع كل هذه الدموع

الهشة التي تغرق وجنتيها ..

قبل أن تتخذ طريقها لتغادر الاستوديو نحو سيارتها ..

تستقلها لتشغلها فتنتلق بها عدة أمتار ثم توقفها

على جانب الطريق ..

لتستند برأسها على المقود ..

_ أين أذهب؟! لمن أذهب?!!!

تهتف بها بين دموعها والجواب الوحيد الذي يملأ

رأسها هو الآن ما تهرب منه ..

إيهاب!!

تهز رأسها بعجز وهي تدرك أن اليوم هو آخر مهلة

تركها لها ..

من المفترض أن يكون عقد القران غداً ..

لكنها لم تجده ..

وهل حاولت?!!!

تعود دموعها للانهمار وهي تتصل به للمرة التي لا
تدري عددها منذ اختفى لكنه كالعادة لا يجيب ..
كأنه يمنحها فرصتها كاملة للتأقلم دون وجوده ..
مكتفياً بطمأنتها بصوره !

لو تعلمين كم أحب عينيكِ عندما تتسعان بهذه
الطريقة .. تبدين لي كطفلة لازالت تخشى عبور
الطريق وحدها وتنتظر يدي كي تمنحها الأمان !
كلماته تسطع فجأة في ذهنها ..
تغرسها في هذه المنطقة الآمنة بعيداً عن موج
حيرتها ووحدتها ..

فتجد نفسها تهتف وهي تهز هاتفها بحدة راجية :
_رد!! رد!! أنا أفتقدك .. أنا أحتاجك .. أنا أحب..

تقطع كلمتها الأخيرة بأهة طويلة وهي تخشى الكذب

على نفسها كما تكذب عليه !!

هو لم يعد في حياتها رفاهية اختيار .. بل قدراً !!

قدراً يجب أن تقبله !!

=====

في غرفته بأحد الفنادق لمدينة ساحلية كان إيهاب

يقف في شرفة غرفته ..

يلتقط لنفسه صورة ضاحكة يرسلها لها ثم يعيد هاتفه

مكانه لتختفي ضحكته وهو يعاود الجلوس ..

يرفع طرف سرواله ليرمق ساقه الصناعية بهذه

النظرة الموجهة ..

صحيح أنه قد بدأ اعتياده لها لكنه كلما يراها يدرك

قيمة ما خسره ..

ليس فقط جزءاً من جسده ..

ليس فقط عمله ..

إنما .. شئ في نظرتها -هي- سقط ولن يعود !!

اليوم تنتهي آخر مهلتها ..

المهلة التي تركها لها راضياً كي يعفيها من حرج

الرفض وإن كان واثقاً أنها لن تتركه ..

هذه الثقة التي بدأت في التراجع كلما ازدادت الأيام

مروراً ..

لا .. لا ..

هي تحبني .. حتى لو لم تكن هي نفسها تعلم !!

يكررها لنفسه عدة مرات كأنه يغرسها في أرض

يقينه !

_ عفواً سيدي ! لم أنتبه أنك ..

الصوت الأنثوي لعاملة الفندق يصيبه بصدمة مقتلاً

إياه من أفكاره!!

يعيد تغطية ساقه بسر واله بسرعة لتصطدم عيناه

بهذه النظرة في عينيها ..

نظرة تقزز!

اشمئزاز أخفته خلف تعاطف مبالغ فيه وهي تكرر

اعتذارها :

_ أنت تركت البطاقة على الغرفة من الخارج تطلب

التنظيف .. وأنا طرقت الباب كثيراً .. لم أنتبه أنك هنا ..

تدمع عيناه دون وعي وهو ينتفض مكانه ليقف بقوة

كأنه يقهر شعوره بعجزه ..

يهيأ إليه أن عينيها تسخران من وقفته وقد ازداد

التقزز فيهما ..

بقايا من قناع "الفاجومي" تجعله يبتسم لها هاتفاً

بمرح:

_ لا بأس .. إنه خطئي .. صوت البحر هنا في الشرفة
يجعلني لا أسمع .. كما أنني نسيت البطاقة على الباب
في ذاك الوضع .

_ أكرر اعتذاري ! سأتي في وقت لاحق!

تقولها مغمضةً عينيها بخرج يراه بعين نقصه مزيداً
من الاشمئزاز وهي تسحب العربة التي حوت معدات
التنظيف لتهم بالمغادرة ..

لكنه يتصنع المزيد من المرح وهو يهتف بانطلاق:

_ لا .. أنا من سيغادر .. إياك أن تدعي عليّ بينما
تنظفين المكان .. أنا كائن بوهيمي يفعل ما يحلو له .
تبتسم له بلطف وهي تتراجع مكانها ..

فيتحرك ليغادر لكنه يتوقف فجأة ونفسه تسول له

بتصرف غريب ..

_ هذا التلفاز لا يقدم قنوات عربية؟!

كان يعلم الجواب لكنه انتظره منها ..

_ بل يفعل..أي قناة تريدها؟!

_ قناة (...)! "خطيبي" تذيع برنامجها فيها!

يتعمد الضغط على حروف "خطيبي" بثقل فتسأله

بفضول:

_ من خطيبك؟!

_ عزة الأنصاري!

يقولها بنفس البطء المتثاقل وهو يتشرب نظرة

العاملة التي تحولت للكثير من الانبهار ..

فتلتوي شفتاه بابتسامة مرتجفة وهو يرفع هاتفه

ليريها الصورة :

_ لا تصدقين!؟

تتسع عيناها بالمزيد من الانبهار الذي يرضي المزيد

من شعوره بالنقص فيغض عينيه بقوة وهو يسحب

هاتفه ليغادر الغرفة ..

يتوقف قليلاً مكانه وهو يشعر بالغضب من نفسه !!

منذ متى يستغل علاقته بها هذا الاستغلال المخزي!؟

منذ متى يكثرث "الفاجومي" برأي الناس!؟

ربما ..منذ لم يعد كاملاً في عيني نفسه !!

يطلق زفرة ساخطة تنقلب لتتهيدة وجع وهو يهمس

لنفسه :

_اليوم ينتهي الأمر ..توضع كل النقاط على

حروفها ..

ينظر لساعته بقتوط وهو يتحرك بهذه الطريقة

الغريبة التي لم يالفها بعد ..

افتقدها؟؟!!

كثيراً ..حد الألم!!

لكن اشتياقه هذه المرة يمتزج بمشاعر أكثر

مرارة ..أكثر تخبطاً !!

هل يلومها لو هجرت ؟!

أو لم يمنحها هو حق الاختيار؟!

يرى ذاك المصعد فيهم بركوبه كي لا يثقل على ساقه

خاصة وهو لم يعتد السير بها طويلاً بعد لكن عناداً

متمرداً يجعله يفضل هبوط الدرج ..

هو ليس عاجزاً ..

ليس عاجزاً !!

تنقطع أفكاره فجأة وهو يراها واقفة تناظره من

بعيد ..

هي !!

هي جاءت هنا؟!

عرفت مكانه وحدها !!؟

هل يحلم !!؟

يغمض عينيه بقوة للحظة ثم يعاود فتحهما كأنه يتأكد

من وجودها ..

ليراها تركض نحوه قبل أن تلقي نفسها بين

ذراعيه !!

يضمها إليه بقوة وهو يجرب شعور من أعادوا إليه

روحه في الرmq الأخير ..

يغرس رأسها بين ضلوعه وأنفاسه تنهل من رائحتها

التي اشتاقها ..

جسدها ينتفض بكاء خفيض فيربت على ظهرها

لترفع عينيها إليه هامسة بعتاب:

_إياك أن تفعلها ثانية !

_كيف وجدتي؟!!

يهمس بها عبر أنفاسه المرتجفة وهو يمسح دموعها

بأنامله لترد بهمس خفيض:

_الطفلة التي تنتظر يدك كي تعبر بها الطريق لن

يتعذر عليها أن تجدك .. أنا أحفظ تفاصيلك كما تحفظ

تفاصيلي .

تتعجب من الصدق الحار الذي نطقت به حروفها ..
تتعجب من اندفاعها المحموم نحوه عندما رأته لتعدو
إليه محتمية بعناقه ..

وتتعجب أكثر من شعورها الآن بدفء هذا العناق وقد
كانت تراه مجرد سجن ثقيل ..
هل تحبه حقاً؟!

أم لا تزال متشبثة بقناع التظاهر؟!
لا تعرف .. ولا تريد أن تعرف ..
هي سارت خلف قدرها فحسب!!
لم يعد لديها خيار!!

لكنك تأخرت !

يهمس بها أخيراً ببعض العتاب لتهز رأسها وهي
تنتبه لوقفتهما فتراجع وهي تطرق برأسها هامسة :

_المهم ..أنتي وصلت قبل فوات الأوان .

يتفحص ملامحها بخبرته المعهودة بها فيخفق قلبه

بجنون وهو يميز هذه النظرة التي افتقدها في

عينها ..

نظرة اشتياق حقيقية بعيدة عن تلك "الآلية" التي

تدثرت بها بعد الحادث ..

نظرة ود لو يغرقها تقبيلاً ثم يغرق فيها بكل ما فيه ..

جنيته عادت !!

عادت لتمنحه السكينة !!

يبتسم وهو يعانق وجنتيها براحتيه هامساً بنبرة عاد

إليها مرحها :

_تعلمين ماذا يعني حضورك اليوم ..وغداً ؟!

يغمزها بخفة فتغمض عينيها مخفيةً غيوم الخوف

التي عادت تحتل سماواتها ..

ما هذا الذي تفعله !؟

من جديد تهوي في بئر شتاتها الأخضر ..

من جديد تعود لمعركة لا تملك فيها سيفاً ولا درعاً ..

ألا هدنةً قصيرة من كل هذا الصراع أيها القدر ..

ألا رفقا بقلب يجهل شفرة دقاته !!



الطيف الثالث عشر



أحمر



_ أين كنتِ يا سمرا؟! كيف تتركيني في هذه المصيبة

وحدي؟!!

تهتف بها هبة بحدة عصبية وهي تستقبلها عقب

عودتها من الخارج لتهتف يسرا بجزع:

_ هل حدث شيء؟!!

_ ما الذي تريدينه أن يحدث أكثر مما كان؟! خالي

ربيع وإبراهيم وأولاد عمه في الحبس ولا ندري ما

الذي يحدث.. ولا متى سيخرجون !



تهز يسرا رأسها بعينين زائغتين وبوجه شاحب يجعل

لهجة هبة ترق وهي تسألها :

_ أين كنتِ؟!!

ترفع إليها عينيها الضائعتين وهي لا تدري بماذا

ترد ..

لقد كانت في بيت رفعت الصباحي!!!

أجل .. كانت قد عادت إليه بعدما حدث هاربة كأنها

تتصل من كل هذا !!!

مالها وللشرطة ولإبراهيم هذا؟!!

ما يديرها ما فعله ولماذا ألقوا القبض عليه?!!

هي لم تأتِ هنا لتحمل هماً .. هي جاءت ل.. تلعب!!!

لهذا وجدت نفسها دون وعي تعود لبيت رفعت

الصباحي ..

تفتح خزانة ملابسها تشم ثيابها ..تستعيد عطر

سطوتها القديم ..

تفتح خزانتها فتستخرج جواز سفرها الذي يمكنها من

السفر لأي بلد تشاء ..

تناظر مجوهراتها القيمة ..

خاتم زواجها من حسام ..

خاتم زواجها من فهد ..

خاتم زواجها من فادي ..

فصوصها كلها كانت تلمع لها ببريق يكاد يسلب

الأبصار إنما بعيني روحها كانت تراها كلها ..كلها

باهتة ..

زائفة ..مثلها تماماً !!

هل تصف نفسها بالحماقة لو زعمت أنها تود
مقايضتها كلها ب"ورقة نعناع"!!
ورقة نعناع واحدة خضراء تضيف المذاق لمشروبها
فقط لأنها من يد تهتم لها ..لها هي ..سمرا أو
يسرا ..لا تهم الأسماء إنما ..هي فقط ما يهم !!
هل تصف نفسها بالمزيد من الحماقة وهي ترى كوثر
وقتها تدخل عليها ..

تنصحها أن تكف عن هذا العبث وتعود لحياتها
فتصرخ فيها أن حياتها هذه لم تعد لها ..
أنها وجدت حياتها الحقيقية التي لا تريد عيش
غيرها ..

تخرج لتري أمها فيزداد قلبها لوعة وهي تراها لا
تزال على عهدا لا تذكرها ..

ولا تذكر أي شيء..

تعانقها بقوة وهي تشعر بحاجتها لهذا العناق ..

لكنه لم يعد يكفي .. لم يعد يكفي ..

هي تريد حياة !

تريد "ربيعاً" كهذا الذي منحه لها رجلٌ بنفس

الاسم ..

ربيعاً لا يسلمها لذبول "خريف" ولا يخونها بسيل

"شتاء" ولا يخذعها بسحابة "صيف"!!

ربما لهذا عادت من جديد إلى هنا ..

بارادتها ..

لا لتكمل لعبة .. بل لتستجدي حياة !!

_ لا تريدان إخباري أين كنتِ !؟

تنتزعها بها هبة من شرودها لتتنحج بارتباك هاتفة

بأقرب ما جال في خاطرها:

_ كنت أحاول البحث عن يمكن أن يساعدنا .

_ وهل تعرفين أحداً؟!

تهتف بها هبة بتشكك فتفز رأسها بسرعة نافية :

_ لا .. أبداً .. تعرفين أنني مقطوعة من شجرة كما

يقولون .. أنا فقط حاولت

الاستعانة بصاحب المحل الذي كنت أعمل فيه .. شقيقه

محامٌ وقلت ..

_ دعك من هذا ! أنا كلمت جنة وأخبرتها .. تعرفين

جنة؟! كانت زوجة حسن شقيق إبراهيم .. قالت أنهم

لم يمكنوها من معرفة شيءٍ لكنها وعدتني أنها ستكلم

زوجها فهو رجل ذو شأن .. ياربي! أمن دولة! سترك

يارب! لا أتخيل أن يكون لإبراهيم دخل في شيء من
هذا .. وعمي ربيع كذلك .. لماذا تهور هكذا؟! هذا
ليس طبعه ..

تغيب يسرا عن بقية كلماتها و ذكر "جنة" يعيدها
لخوف حقيقي ..

ماذا لو جاءت هنا ورأتها؟!

ربما لو كانت تفكر بعقليتها القديمة لرأت في هذا
المزيد من إثارة اللعبة ..

لكنها الآن تشعر برعب حقيقي ..

لم تعد لعبة .. لم تعد تريدها لعبة .. تريدها واقعاً تعيشه
العمر كله !!

سأصلي ركعتين قضاء حاجة لعل الله يفرج الكرب !

يعود لها إدراكها من جديد مع كلمات هبة التي

امتزجت بدموعها وهي تستطرد بحرقه:

_ خالي ربيع لن يتحمل "بهذلة"!

تدمع عينا يسرا وهي تراها تتحرك نحو الزاوية

القريبة ثم تفرش سجاداتها في مصلاها لتبدأ الصلاة

فيخفق قلبها بهذا الشعور الذي لم تعرفه إلا هنا ..

وسط هؤلاء الناس ..

شعور بالسكينة .. بالأمان .. بعودة مسافر بعد طريق

طويل لخيمة تؤويه !

افتقدت ربيع .. افتقدته كهذا "الوصف" الذي لم تعرفه

في عمرها كله ..

افتقدته كـ "أب"!

ربما لهذا تقرر المخاطرة وهي تدخل الغرفة لتغلق
بابها خلفها بإحكام ثم تتناول هاتفها لتضع فيه
شريحتها القديمة بتلك الأرقام التي تخصصها
ك"يسرا" ..

تتردد قليلاً وهي تبحث عن رقم بعينه ثم تحسم
أمرها ..

ربيع وإبراهيم يستحقان مخاطرة كهذه مع كراحتها
للعودة لأي شيء يذكرها بماضيها ..
لكنها لن تسمح أن تتركهما أكثر من هذا ..
لهذا تجري الاتصال الذي تعود لها فيه نبرة دلالتها
الأرستقراطية بمزيج النفوذ القديم :

_"هاي أنكل" .. أنا بخير .. نعم .. نعم .. "دادي" رحمه
الله كنت أعز أصدقائه .. بالطبع .. "مامي" بخير .. أنا
فقط أريد منك خدمة وأعرف أنك لن تتأخر .



_ إلى أين تذهبين!؟!

تسألها يسراً وهي ترى اندفاعها نحو باب الشقة بعد
شروق الشمس لترد هبة بضيق عبر ملامحها
البائسة :

_ تعلمين أن رجال الشرطة قلبوا شقة
خالي ربيع رأساً على عقب عندما كانوا
يفتشونها .. سأذهب لتنظيفها لعله فال حسن .. عساهم
يعودون قريباً !

_قريباً ..قريباً جداً !

تقولها بيقين عبر ملامحها الشاردة وهي تشعر بعمق

افتقادها للعجوز و ..ابنه !

لترمقها هبة بنظرة متفحصة فتتنحج وهي تشير

لصدرها هاتفة :

_قلبي يشعر!

تهز هبة رأسها وهي تتوجه نحو الباب لتفتحه فتلحق

بها يسرا هاتفة بلهفة :

_كنت أفكر لو نفتح الفرن ..كي يعود مستر ربيع

فيجدنا سدداً محله !

ترمقها هبة بنفس النظرة المتفحصة لتقول ببعض

الاستنكار:

_ هل هذا ما يشغلك حقاً؟! الفرن؟! نحن لا نعلم عنهم

شيئاً!

_ مستر ربيع روحه في هذا الفرن! صدقيني لن

يسعده شيء عند عودته كما سيسعده أن يراه يعمل

في غيابه كما هو في حضوره .

تهتف بها يسرا بحماسة فتعاود هبة تفحصها للحظات

قبل أن تقول باستسلام :

_ معك حق .. المفاتيح الاحتياطية مع

" عم ... " ..كوني معه .. هو يعرف ما الذي ينبغي

عمله ..

_ لا تحملي هما .. اطمئني .. سيعودون قريباً .

تهتف بها يسرا وهي تتركها لتهرول نحو الداخل
فترتدي ثيابها التي اعتادت نزول العمل بها والتي لم
تعد تضجرها

كالسابق ..

تلف حجابها بإحكام حول وجهها ثم تخرج للفرن
بالأسفل ..

تبحث عن الرجل الذي سمّته لها هبة والذي يعمل في
الفرن فتجده لتنفذ ما عزمت عليه ..

يفتحون الفرن لتتخذ مكانها المعهود منفذةً مهامها
بنشاط ..

مطمئنة ؟!

كثيراً !

فصديق أبيها الذي قصدته عبر الهاتف أخبرها أنه قد حل الأمر بوساطته وأنه سيخرجهم جميعاً في أقرب وقت خاصةً وقد تبين عدم تورطهم فيما استدعواهم لأجله ..

"إرهابي" استقل السيارة مع إبراهيم ووجدوا بريده الإلكتروني معه .. لكنهم تحققوا من عدم وجود علاقة بينهما .

_ صباح الخير!

تهتف بها سندس وقد وقفت مع سامي على طاولة الفرن الخارجية كعهدها كل صباح .. لكنها لم تطلب شيئاً .. فقط ملامحها كانت بأئسة مثقلة بهم تليق بقولها :

_ لا أخبار عن "مستر ربيع"!!؟!

لكن يسرا كعادتها لم تكن تميز في حضور سامي الصغير غيره .. لهذا مدت له ذراعيها لتحمله .. تعانقه بهذه القوة الحانية .. تشم رائحة شعره بما يشبه الهوس .. وصوتها يخفق بعاطفتها :

_ افتقدته ؟! أنا أيضاً افتقدته جداً .. لكنني أشعر أنه سيكون وسطنا قريباً .. كلهم سيعودون قريباً .
تقولها وهي تطعم سامي لتنساب سندس في ثرثرتها
المعهودة :

_ لا أدري لماذا يلقون القبض على إبراهيم ؟! هل خلت البلد من اللصوص والفاستدين فلم يجدوا سوى هذا المسكين ؟! لا أتصور أنه محبوس الآن في زنزانة ضيقة كالتي نراها على شاشات التلفاز .. لكنني

أعرف أن أكثر عذابه لن يكون في تفكيره في حاله بل

في أبيه .. وربما أنت!

_ أنا؟!_

تتمم بها يسرا بذهول والخاطر يداعب نفس الوتر
المنسي في قيثارة أنوثتها لتتهف لها سندس بحنكة :

_ لا تظنيني صغيرة .. الحي كله يلاحظ تغير إبراهيم
منذ جاء بك إلى هنا .. رأيت كيف اندفع بسرعة البرق
نحو سائق تلك العربة الذي ضربك خطأً بسوطه حتى

كاد يضربه؟! من يقول إن هذا هو إبراهيم الحليم

الهادئ الذي عرفناه؟!!!

تكتم يسرا ابتسامتها متصنعة العبوس وهي لاتزال

تطعم سامي هاتفة:

_ كفاك حماقة! هو شهم فحسب! لا تحملي الأمور

فوق ما تحتمل.

لكن سندس تشير لها بسبابتها في إشارة للاقتراب

عبر الطاولة بينهما فتتهد يسرا وهي تقترب بوجهها

منها لتهمس لها سندس بلهجة امرأة أريية:

_ اسمعي مني! الرجل يبدو كأنه وقع ولم يسمّ أحدهم

عليه! ادعي الله فقط أن يفك سجنه وبعدها لا تضيعيه

من يدك .. ألف واحدة تتمناه وبصراحة .. أنا أولهم!

تكنم يسرا ضحكتها متصنعة المزيد من العبوس وهي

تبتعد بوجهها لتهتف سندس بنفس النبرة المتذاكية

وهي تمصمص شفيتها ثم تهز كتفها:

_ تبدين ساذجة و"على نياتك"! اسمعي نصيحتي

قبل أن يفوتك القطار!

_أي قطار؟! اذهبي يا "بنت"! الكشك مفتوح قد

يسرقه أحدهم!

تهتف بها باستياء مصطنع فتحمل سندس شقيقها ثم

تتحرك لتغادر ترمقهما يسرا بهذه النظرة الطويلة

شاعرةً من جديد أنها هاهنا تحظى بميلاد آخر!!

ساذجة سندس!!

أي قطار هذا الذي تخشى أن يفوتها؟!!

لا تعلم أنها ركبته من قبل ثلاث مرات ليلقي بها كل

مرة من نافذته قبل أن تصل محطتها؟!!

تقضي ساعتين بعدها في عملها بالفرن والذي صارت

تجد في مشقته متعة ..

عيناها تخونانها بين الفينة والأخرى لكرسي ربيع

الخالي..

تراه بعين خيالها وقد جلس يراقبها بعينين اللتين
تساوى نصيبهما من الذكاء والحنان ..
بابتسامته التي تبدو كأنها احتكرت أبوة العالم كله ..
وبجسده الممتلئ على قصره لكنها توقن أن في رحاب
عناقه ألف ينبوع أمان !
تشعر بوخزة في صدرها إنما عزاؤها أنهم سيعودون
قريباً وأنها أخيراً تمكنت من منحهم شيئاً حتى ولو لم
يعلموا ..

أجل! لقد أوصت صديق والداها بكتمان
علاقتها هي بالأمر وتعلم أنه لن يفشي سرها .
تنظر نحو شرفة بيت ربيع من مكانها فتجد هبة
تنظفها لتخطر ببالها فكرة لم تقاومها ..

_ ساعة واحدة ! أساعد هبة في تنظيف شقة مستر

ربيع!

تهتف بها بنبرة استئذان لكبير العمال في الفرن ثم

تغادره لتهرع نحو البيت الذي تدخله لأول مرة ..

أكثر أناقة من بيت هبة لكنه يحمل نفس الروح

الدافئة ..

_ لماذا جئتِ؟!!

تهتف بها هبة على الباب الذي فتحته لها لترد يسرا

بسرعة:

_ كي أساعدك .

_ أنا انتهيت!

تقولها هبة وهي تمسح عرق وجهها بينما تراقب

يسرا تتفحص الشقة بنظرات فضولية لتردف :

_ بقيت فقط غرفة إبراهيم ..لن أستطيع دخولها .

_ لماذا؟!!

تسألها يسرا بدهشة لترد هبة باستنكارها المتشدد :

_ غرفة شاب أعزب! سأخجل من دخولها

بالطبع !

_ سأنظفها أنا! أنا لا أخجل !

تهتف بها يسرا بانطلاق متجاهلة نظرات هبة

الساخطة لتلتفت نحوها متسائلة :

_ أي واحدة؟!!

تشير لها هبة بكفها نحو غرفة إبراهيم فتتوجه نحوها

هاتفة :

_ اجلسي أنتِ واستريحي ..سأنظفها تماماً ..أريني

فقط أين الأدوات !

تجلس هبة على أريكة قريبة تريح جسدها وهي

تراقب ظهر يسرا وحركتها الدائبة ..

هل كانت تشعر أنها ستطلب تنظيف غرفة إبراهيم

دون خجل ؟!

ربما !

وفي غرفته توجهت يسرا لتفتح النافذة فتتسع عيناها

وهي تميز ورق "البلاب" الذي أحاط بها في منظر

بديع ..

تتحسسه برقة ثم تنظف إفريز النافذة لتستند عليه

بمرفقيها ..

النافذة كانت تطل على أرض فضاء عريضة رفعت

فوقها لافتة تعلن ملكيتها لمستشار شهير ..

الاسم ليس غريباً عليها لعله أحد أصدقاء أبيها

الراحل ..

لا بأس .. لا تريد أن تتذكر .. هي

الآن سمرا .. سمرا فقط!

تتلمس إفريز النافذة بإحساس غريب وهي تفكر أنها

الآن تقف مكانه .. ترى ما كان يشاهده .. فيجتاحها

نفس الشعور "البكر" الذي لم تعرفه من قبل ..

لقد ظنت نفسها أحبت فهد الصاوي يوماً لكنها الآن لا

تجد مجالاً للمقارنة بين شعورها أمس واليوم ..

شعورها بفهد كان يشبه رغبة تملكها لأي غرض

تشتهيه ..

إنما شعورها الآن مختلف ..

قاهر أكثر .. عميق أكثر .. دافئ أكثر ..

يكتسحها .. يبعثرها .. ثم يللمها .. ليعيد تشكيلها من

جديد ..

حبّ كهذا لا ينعش القلب فحسب .. إنما يعيد صياغة

العمر .. يكتبه من جديد!

فهاهي ذي تشعر أنها سمرا حقاً ..

فتاة لم تجرب حظها في الزواج بعد ..

لاتزال تناظر حلم الحب خلف ستائر وردية ..

لم تلطخها بقع الماضي!!

تتنهد بعمق وهي تتناول فوطة قريبة لتنظف النافذة

ثم لم تقاوم رغبتها في انتزاع ورقة من اللبلاب ..

قربتها من أنفها لتشممها بعمق ولا تدري لماذا -

رغم غرابة المقارنة- وجدت فيها عبق عناق ابنها .

دمعة حبيسة تتأرجح في غصون عينيها لكنها تكتمها
بمهارة اعتادتها وهي تخفي الورقة في جيب
تنورتها ..

تغلق النافذة ثم تعود لتتفحص الغرفة التي تشبه ذوق
صاحبها ..

طلاؤها بلونه الأبيض الناصع الذي لا يعرف تحايل
الألوان ..

إضاءتها قوية صريحة لا تدع مجالاً لضعف رؤية ..
سجاداتها بهذه النقوش الاسلامية القديمة المميزة
بأصالتها والتي فرشت مائلة بصورة ما خمنت أنها
باتجاه القبلة حيث هذه الزاوية من الغرفة ..

مرآة علت طاولة رفيعة لم تحو من العطور سوى
واحد هذا الذي تشمته بأنفها ..

أنفها الذي عرف أفخم العطور الرجالية وأغلاها لكن

هذه الرائحة هنا لا تشبهها رائحة !

كأنها خلقت لتكون له وحده !!

تنظف كل هذا ثم تنظر للخارج تطمئن أنها بعيدة عن

مجال رؤية هبة ..

قبل أن تفتح خزانة ملابسه بالمزيد من الفضول ..

تعيد الثياب التي تناثرت مكانها ثم تبتسم وهي تميز

القميص الذي رآته به أول مرة ..

ياالله!

من كان يخبرها أن المقام سينتهي بها هاهنا!؟!

تتلمسه بأناملها بالمزيد من الاشتياق ونفس الشعور

يكتسحها أكثر .. فتجد نفسها دون وعي تضمه

لصدرها مغمضة عينيها الدامعتين ..

لم تعد لعبة ..

لم تعد لعبة .. بل حلاً !

حلاً أجمل من أن تتجاهله ..

وأكبر من أن تستحقه ..

وأروع من أن يتحقق !!

تطلق روحها في تهيدة طويلة وهي تعيد القميص

مكانه ..

ترتب مناماته وبقية ملابسه فتطويها لتضعها

مكانها ..

تحمر وجنتاها بخجل طفيف وهي تميز بعض

"حاجياته الخاصة" ..

لم تفعل هذا يوماً بثياب أحدهم .. ربما ولا حتى بثيابها

هي ..

كان لديها دوماً من يقوم بفعل هذا لها ..

الوحيد الذي فعلتها له كان ابنها!

ليلة كانت ذاهبة لولادته ..

لا تزال تذكر ملمس مناماته الناعمة المنمنمة بألوانها

التي اختارتها له ..

كل حاجياته الصغيرة التي رصتها بنفسها وقتها

رافضة أي مساعدة..

لماذا يحضرها الآن نفس الشعور!؟

لماذا!؟

وكيف يمكن أن يتشابه الإحساس هكذا رغم اختلاف

الشخصين!؟

تنتبه لفردة جورب واحدة وضعت على أحد الأرفف

بحثت عن شبيهتها فلم تجدها ..

تتردد قليلاً ثم تختلس نظرة أخرى نحو الخارج قبل
أن تختطفها بسرعة لتضعها في جيب تتورتها الآخر !

فردة جورب!

فردة جورب كتذكار!!

حالتك صارت صعبة حقاً!!

الخطر الأخير يجتاحها بسخرية تتجاهلها !!

لقد جربت اقتناء أفخم التذكارات ومن دول عدة ..

لكنها هاهنا تريد تجربة تذكار أكثر بساطة .. أكثر

حميمية وأكثر دفئاً!

تنتقل ببصرها نحو الفراش فتتحرك نحوه لتعيد ترتيب

ملاءته .. ولم تكد تفعل حتى تعلقت عيناها بهذه

النقوش الطفولية عليها لشخصية كارتونية شهيرة ..

_ "تويتي"! تدري لماذا أختاره لك يوماً؟! لأنه
يشبهك باتساع عينيه ورسمه فمه .. أنا أعشقه .. إياك
أن تكبر يوماً فتعرض على اختياراتي .. البس ما
تشاء خارج البيت لكن داخل هذه الغرفة ابقَ "صغير
قلبي" الذي لا يكبر عليه أبداً .. أبداً يا "تويتي"!
تذكرها بصوتها وهي تخاطب ابنها ذات يوم بينما
تلاعبه فوق فراشه متأملَةً ملامحه التي ورثها
عنها ..

_ تظنينه يفهمك!؟

بصوت فادي المتهكم تذكرها كما كان وقتها لترد
وهي لا تزال تلاعب الصغير فتمد له سبابتها
ليحتضنها براحته كاملة وهو يصدر هذه الأصوات

الملائكية من فمه المنمنم كأنه ينصرها على أبيه

فيؤكد له أنه يفهم ..

الذكرى تنقطع ..

تتشوش ..

تتلطخ ..

فيختفي لون "تويتي" الأصفر ويحل محله اللون

الأحمر لمنامة طفل تلطخت بالدم !!

صرخة تدوي في أذنيها وحدها وهي تمد كفها نحو

وجنتها عفويًا كأنما تستعيد الصفحة مع العبارة

المزلزلة:

قتلتِ ابنك يا مجرمة !

تشهق شهقة عالية وهي تستعيد شعورها بالزمان
والمكان فتنتبه أن قبضتها تكور الملاءة التي عادت
لفوضى مظهرها ..

تتلاحق أنفاسها لكنها تحاول تنظيمها وهي تعيد
ترتيب الملاءة مكانها ..

ظفر ينكسر لكنها لم تبالِ .. لم تعد تبالي!
تنتبه لسلة قمامة صغيرة جوار الفراش قد انسكبت
محتوياتها التي لم تزد على بضعة مناديل ورقية
وورق فارغ لنوع بسكويت محلي شهير
بالشيكولاتة ..

يبدو أنه يحبه !

"بيمبو" !

تتهجى الاسم بصعوبة ثم تبتسم وهي تحفظه في

ذاكرتها بينما تستمر في التنظيف ..

عيناها تتوقفان أخيراً أمام مكتبه الذي قامت بتلميحه

بسرعة لتصطدم بصورته مع شقيقه التوأم فوقه ..

الصورة لم تخز قلبها بشعورها بوجعه فحسب ..

بل بما يخصها هي ..

ترى هل ل"يسرا" ابنة رفعت الصباحي -المتورط في

قتل المتظاهرين كما يزعمون- نصيب في قلب واحد

كإبراهيم ؟!

ومالها هي ويسرا ؟!

هي الآن سمرا !

ستعيش ما بقي لها من عمرها كسمرا ولن تسمح

لأحدهم أن يسلبها هذه الحياة مهما كان الثمن !!

تنتبه لأحد أدراج المكتب وقد ظهرت عبره جلدة دفتر
منعته أن ينغلق كاملاً فتفتحه لتستخرج الدفتر الذي
لفت انتباهها عنوانه المكتوب بخط اليد ..

(بأي حرف تبدئين؟)

تبدأ في القراءة لتستنتج فحواه بحدسها ..
هي خواطره لحبيبة لا يعرف اسمها ..
عيونها تجري على السطور بسرعة فتشعر أنها لا
تقرأها ..

بل تتحفر بروحها حفراً ..

رباه!!

لا تصدق أن إبراهيم المتحفظ الذي لا يكاد يرفع بصره

إليها هو نفسه من كتب هذا الكلام !

لكن لما العجب!؟

قلبٌ نقي كهذا يبدو وكأنه يحتجز فيوضاً من الحب
تنتظر الفرصة فقط كي تقهر سدودها وتغرق أرضاً
يابسة كأرضها ..

حبيبتى (شين)

شروق حبك بلا غروب .. فياويلي من شمس متى
سطعت لا تغيب .

حبيبتى (صاد)

صخرٌ تحطم عليه مركبي .. فوجدت في عينيك شراعي
ورحلتى ومينائي .

حبيبتى (ضاد)

ضحى عانقته على جبينك فنسيت بعده ظلمة الليل
الطويل ..

حبيبتى (طاء)

طيرٌ بعينيك مسافر .. علمني كيف يبدأ موسم الهجرة
وينتهي بين أهدابك .. فلا وطن قبلك ولا أرض بعدك .

حبيبتى (ظاء)

ظبي ناداني سحره في بيدائك .. لأهيم عشقاً بعيون
ليست كالعيون .

حبيبتى (عين)

عودٌ ومزمار وناي .. ولحنٌ بين ذراعيك
ابتداءً .. فارقصي على مسرح العمر كيف شئتِ .. مالي
معك سوى الطرب .

حبيبتى (غين)

غيمة أنتِ ظللت صحراء يأسى ذات صبح .. فأمطرت
بوادي الحب نبقاً وريحاناً .

حبيبتى (فاء)

فيروز عينيك يمنح الضال الهوية ..فقيراً من خلا كفاه
من كنوز غرامك .

حبيبتى(قاف)

قصيدة هلك شاعرها تيهاً في بيداأ أشواقه ..فعشقتها
كل من سمعها من إنسٍ وجان ..وقارب حمل الأحلام
كلها مفتخراً ..فلم يعترضه موج كتمان .

حبيبتى(كاف)

كرمةٌ غفا في أحضانها القلب منتشياً ..فاسمحي لي
أن أوقد في كهفك الآمن مشعلي لعلي من برد غربتي
أختبئ .

حبيبتى(لام)

ليلٌ هاجرت نجومه كلها عدا واحدة .. تبسمت غامزة
بعينها لي فكانت أنتِ .. وكنت عاشقك .. وكنا معاً وسط

عتمته الضيِّ!

حبيبتي (ميم)

موجٌ أبيض الكفين داعب وجنتي .. وأرخی على
شجوني سدوله .. فصرت شاطئه وصار بحري .. اثنان

للعين ظهرا واحداً !

حبيبتي (نون)

نارٌ شفاني لهيبها بعد طول السقم .. فلا يليق بعشق
الشموس إلا قرابين قلوب بجحيم الغرام اكتوت !

حبيبتي (هاء)

همسٌ تعالَى صخبه وسط جدران روح
أظلمت ..فاخترع لها الشمس وأنبت بها القمر ..هديلٌ
تمايلت حمائمهُ فكان للحب أجمل قدر .

حبيبتى(واو)

وترٌ بقيثارة سحرية ..للاعبته أنامل عاجية ..في ليلة
صيف قمرية ..فمن يملّ من سماع صداه ؟!

حبيبتى(ياء)

.....

_ أين ؟! أين ؟! أين ؟!

تهتف بها سرّاً وهي تقلب أوراق الدفتر بعصبية لكنها
تصطدم بالأوراق الخالية ..

_ لماذا؟! لماذا حرفي بالذات ؟! أردت لو أقرأه

بعينيك !

تهمس بها دامعة العينين وهي تتعجب هذه الخيبة
الرهيبة التي ملأتها وهي تجد كل الحروف عدا
حرفها ..

فتفهمها كأنها شارة أن لا مكان لها في
عالمه !!

الإحباط الذي يكسوها في هذه اللحظة يجعلها تغلق
الدفتري لتهم بإعادته مكانه ..

لكن عينيها العنيدتين تعودان لتلتمعا بتصميم وهي
ترفعه من جديد نحو وجهها لتخبط به برفق على
وجنتها للحظات ..

قبل أن تفتح زرّين من قميصها لتدس الدفتري في ثيابها
ثم تعيد إغلاقه لتخرج من الغرفة بغنيمتها !



_"لا تحزن إن الله معنا" !

بصوته المفعم بإيمانه يقولها ربيع بنصّها مقتبسةً من
القرآن وهو يربت على ركة إبراهيم في هذه الغرفة
التي احتجزوا فيها ..

ليرد الأخير مطرق الرأس:

_"ونعم بالله !

_"أنت حقاً لا تعرف ذاك الفلسطيني جهاد الريحاني؟!!

يسأله ربيع باهتمام قلق ليرد إبراهيم بنفس النبوة

المنهكة بين ضيق وغضب:

_"مجرد زبون! ولا أخفيك قولاً أنني أشعر أنه ليس

متورطاً فيما يزعمونه ..صحيح أنني لم ألتقه سوى

لدقائق لكنه بدا لي مسالماً ودوداً ..ثم إن "الإرهابي"

لن يعطي بريده الالكتروني لسائق سيارة واعداء اياه

بالمراسلة !

_سنخرج يا "مستر ربيع"؟! أم سنفني زهرة شبابنا

هنا؟! يا "ميلة بخت عيالك" يا أم قيس ! راحوا في

شربة ماء قبل أن يدخلوا "دنيا"!

يهتف بها قيس ببعض السخرية محاولاً تخفيف قلقهم

ليرد ربيع بأقصى ما استطاعه من هدوء:

_سنخرج! سيفتشون شقتنا ولن يجدوا

شيئاً.. تحرياتهم ستوصلهم لبراءة إبراهيم ..جنة

الرشيدي كذلك لن تدخر جهداً في مساعدتنا ..وفي

النهاية كلها أسباب ..يفعل الله ما يريد .

_بقيت مشكلة مقاومتنا لرجال الشرطة ! لماذا

تهورت يا مستر ربيع؟!!

يهتف بها عنتر وهو يخبط براحته المفرودة على
رأسه بينما يسند ظهره بارهاق على الحائط البارد ..
ليرد إبراهيم بحمية :

_ لم يكن في وعيه ! قدر الله وما شاء فعل !
يقولها ثم يلتفت لأبيه مردفاً بضيق لم تغادره نفحة
حنانه :

_ لا تثقل على نفسك .. هيا .. قم وصل بنا ركعتين لله
عساه يفرج الكرب !

يهز له ربيع رأسه باستحسان فينهض إبراهيم مكانه
ليمد له كفه مساعداً إياه في النهوض بدوره ..
يتقدم ربيع ليستقبل القبلة كما تراءى له ثم يشرع في
الصلاة بخشوع ..

وفي صلاته كان إبراهيم يبث ربه لواعج قلبه التي
يخفيها حتى عن أبيه كي لا يزيد همه ..
_يارب .. لا تسوعني في أبي .. لا تسوعني في أهلي ..
يدعوها كما اعتاد وقد همّ بأن يكملها ب(لا تسوعني
في نفسي)..

لكنه يجدها تلح على خاطره ..
تفرض نفسها بين "أهله" و"نفسه"!!

سمرا!

الرامية القرمزية !!

فيردد بخشوع أكبر:

_يارب! بحق هذا الكرب الذي تقدر وحدك على
تفريجه ..بحق أني أشهدك أني حفظت بصري
وجسدي وقلبي عن الحرام ..اكتبها لي في الحلال .

لم يكد ينته من دعائه ويرفع رأسه وقد انتهى من
صلاته حتى اتسعت عيناه بدهشة وهي لا يدري لماذا
الآن بالذات يذكرها في دعائه ..

يخصها هي بهذه الدعوة وهو الذي لم يفعلها أبداً من
قبل!!

بل إنه منذ حبس هنا ولا يكاد يشغل باله بعد أبيه
وأهله سواها هي ..

ماذا ستفعل دونه!؟

ومن سيكون لها في وحدتها!؟

هل تمكنت من روجه إلى هذا الحد؟!
ولماذا هي وحدها من بين كل نساء العالمين؟!
والجواب يأتيه في ذكرى "عندليب أخرس" يتأرجح
فوق غصون عينيها يعده إن تحرر صدحه بأعذب
لحن!



أزرق



_تحتاجني.. وأحتاجك أكثر.



تهمس بها جنة بعمق عاطفة لم تتبدل طوال هذه
السنوات وهي تميل على وجنتيه بقبلتين صباحيتين ..
فيغمغم فهد وهو يفتح عينيه بصعوبة بينما يضمها
إليه :

_ استيقظت قبلي وفتحتِ النافذة؟! ماذا حدث لتقلب
الأدوار اليوم!؟

تبتسم بدلال وهي تداعب خصلات شعره هامسة :
_ هل أحتاج مناسبة لأدلك!؟

يصدر همهمة مغوية وهو يشدد ضغط ذراعيه حولها
ولا يزال عاجزاً عن فتح عينيه لتمسد جفنيه بأناملها
للحظات فيفتحهما أخيراً لتهمس أمام نجوم ليله
الأسود:

_ هل أخبرتك من قبل كم أحب رؤيتك عندما تستيقظ
بين ذراعي؟! تحشرج صوتك الخشن من أثر نوم
قضيته هائناً جوارى؟! حتى شعث شعرك الناعم هذا
والذي يستفز أناملي لمداعبته؟! لمعة عينيك الفرحة
وأنت تبدأ يومك بي كما أبدأ يومي بك؟!
يضحك ضحكة رائقة وهو يبعتها ليعتدل مكانه ثم
يعاود ضمها إليه هامساً أمام ساحرتيه البندقيتين:
_ أنا لا أبدأ يومي بك..قولها صحيحة ..أنا بدأت العمر
كله بك !

تبتسم وهي تدلل ملامحه بشفتيها للحظات لكنه يرفع
ذقنها نحوه هامساً بحنانه الخبير:
_ أعرف وهج البندق عندما يسطع هكذا ! أخبريني
ماذا تخفي الأستاذة .

تتسع ابتسامتها وهي ترفع أنامله لشفيتها تقبلها

بامتنان ثم تقول برجاء:

_تعطيني الأمان!؟!

تتكرر ملامحه نوعاً وهو يشيح بوجهه للحظة قبل أن

يعاود الالتفات نحوها بقوله:

_إبراهيم!

يقولها بلهجة هي أقرب للتقرير منها للسؤال فتهتف

باندفاع:

_سيخرج اليوم من السجن!

يرتفع حاجباه بدهشة لتردف بانطلاق:

_لا أدري ماذا حدث.. لكن الموضوع بدأ وكأنه انتهى

فجأة كما بدأ فجأة.. حسام يؤكد أن الأمر يتعلق

بوساطة قوية من جهة عليا!

_حسام أخبرك قبل أن يخبرني؟! سأخرب بيته!

يهتف بها باستنكار متوعد لتهتف عاتبة :

_حسام الآن ليس صديقك ..حسام شريكي في

القضية ..ليست قضية إبراهيم فحسب بل وقضية

جهاد وزهرة !

ثم تزفر بضيق وهي ترفع وجهها لأعلى مردفة :

_ياربي! لا أصدق هذه الصدفة أن تجمع قضية واحدة

كل هؤلاء الذين أعرفهم ..أكاد أقسم أن جهاد وزهرة

بريئان من هذه التهمة !

تهتف بها ببؤس ليسألها متفحصاً :

_هل عرفتِ زهرة هذه جيداً؟!!

_بالطبع! صحيح أنني لم أمكث في "أبو ظبي" إلا

بضعة أشهر لكن ..آه ...

تقطع عبارتها بأهة توجع وهي تشعر به يلكمها بخفة
في ظهرها مع قوله :

_ أخبرتك أنني سأبقى أضربك كلما تذكرت فعلتك

هذه .. احتملي عقاب حماقاتك !

تبتسم رغماً عنها ثم تمنحه قبلة اعتذار خفيفة لتعود

ملاحها لجديتها باستطرادها:

_ هذه القضية أكبر مما نتصور .. أفضل ما فيها أنها

وحدت جهودنا كلنا .. عاصي الرفاعي تدخل بعد

وساطة ماسة لأجل عزيز الذي بعثوا في استجوابه

بعد استضافته جهاد في بيته .. وأنا تطوعت مع حسام

لأجل زهرة وإبراهيم .

_ وأنا أيضاً فعلت ما بوسعي لأجلك أنت!

يهمس بها ببعض الخشونة وهو يلكرها بسبابته في

صدغها لتهز له رأسها بامتنان ثم تقول راجية :

_ أتم صنيعك إذن ..ودعني أكون في استقبال عمي

ربيع وإبراهيم اليوم عند خروجهما .

_ لماذا؟! حدود علاقتك بهما تنتهي بكونك محامية

وحسام سيؤدي هذا الدور على أكمل وجه !

يقولها عابساً لتهتف بنفس النبرة الراجية :

_ لأجل عمي ربيع ! أرجوك يا فهد ! أنا أعلم أن

وجودي معه اليوم -أنا بالذات- سيشكل معنى كبيراً

لديه .. أرجوك .. الأمر إنساني هذه المرة وأعدك بعدها

أن أحترم غيرتك وأعود لسابق اتفاقنا!

يرمقها بنظرة طويلة ضائقة للحظات ثم يسألها :

_ ماذا ستفعلين بالضبط؟!!

_ سألني معهم إجراءات الخروج .

_ فقط؟!!

_ ماذا تقصد؟!!

_ ألا يفترض أن توصلهم للبيت كذلك؟!!

_ بلى! أمر طبيعي!

تقولها بارتباك ليتحرك مغادراً الفراش فتلحق به

لتقف قبالة هاتفه :

_ ماذا هنا؟!!

تقولها مشيرة لرأسه فتشدد ملامحه وهو يرد

باقتضاب حاسم:

_ سأتي معك!

تنفرج شفاتها عن آهة مستنكرة ليكرر كلماته

بصرامة أكثر:



_ كما سمعتِ .. سأتي معك!

_ تأتي معي؟! تظنني طفلة سيصطحبها ولي أمرها في

رحلة؟! إنه عمل! عمل يا فهد!

_ ليس عملاً وأنتِ تعلمين هذا فلا تكابري! لو كان

مجرد عمل لما طلبتِ توصيلهم للبيت .

_ واجب! هو واجب إذن! واجب نحو أناس جمعتي

بهم عشرة طيبة ولم أرَ منهم سوى كل خير!

تهتف بها ملوحةً بكفيها في مكابرة ليرد بنفس

الصرامة:

_ مادام واجباً إذن نتشاركه!!

صمتٌ قصير يسودهما بعد تناطحهما المتحدي لتكون

هي أول من تقطعه بقولها المنفعل:

_ وجودك سيزيد الأمر سوءاً .. خاصة

إبراهيم .. عمي ربيع يتفهم الأمر لكن إبراهيم يتعامل

معي وكأني خنت أخاه وبعث دمه !

يكز على أسنانه بقوة وهو يعتصر كتفيها بقبضتيه

هاتفاً :

_وجودي سيضع الأمور في نصابها الصحيح كي

يفهم كل واحد مكانه .. قد أبدو لك أنانياً متمكناً مستبداً

لكنني لن أحتمل أن أكون بعيداً عن الصورة أتخيلك

تواجهين شبيه حبيبك الراحل وحدك !

صوته يصل حد الصراخ في عبارته

الأخيرة فتتقلص ملامحها لتبدو على وشك الصراخ

كذلك ..

لكنها تتحكم في انفعالاتها مكتفيةً بهمسها:

_ أنت تؤلمني!

تقولها مشيرةً لكفيه المعتصرين لكتفياها فيزيحهما

ببطء وهو يرد بوجوم :

وَأنتِ كذلك!

تطرق برأسها بعدها فيمد أنامله لتتشابك بأناملها في

حركة ذات مغزى تجعلها تعاود رفع عينيها إليه

وسهامها البندقية تصيب قلبه :

حسناً .. تعال معي .

يبقى وجهه على وجومه رغم حركة أنامله الحانية

التي تشابكت بأناملها فتطلق زفرة قصيرة ثم تعود

لعينيها نظرة مترددة فيمط شفثيه بتساؤل:

ماذا أيضاً؟!

أنت ساعدتني في موضوع إبراهيم .. ألا يمكنك

مساعدتي بشأن جهاد وزهرة ؟!

تقولها برجاء ليهز رأسه بقوة هاتفاً :

_ لا ! انسي! الموضوع أكبر من قدراتي وقدرات
عاصي وبالتأكيد من قدراتك أنت وحسام ..لو كان
جهد هذا بريئاً بحق فهو يحتاج معجزة .

_ أعرف أن أدلة كثيرة ضده لكن هذا هو ما يؤكد
براءته ..مستحيل أن يكون بهذه السذاجة فيترك كل
هذه الثغرات خلفه !

يهز كتفيه بقلّة حيلة فتتهد بحرارة وهي ترفع وجهها
لأعلى قبل أن تسمع رنين هاتفها فتتحرك لتفتح
الاتصال ..

تتسع عيناها للحظات وهي تسمع فحوى المكالمة
فينعقد حاجباه بترقب وهو يتفحص وجهها الذي احمر
بانفعاله ..

تغلق الاتصال أخيراً ثم تواجهه بقولها :

_ لن تصدق !

_ قولي يا آخرة صبري!

يهتف بها بضيق ليسطع وهج البندق في عينيها أكثر

مع قولها بانفعال:

_ تذكر قضيتي الأخيرة؟! تلك التي كانت ضد

"الحوت"

"الكبير إياه والتي أجبروا فيها موكلي على أن يشهد

زوراً على نفسه ثم قتلوه في السجن!؟

يعقد حاجبيه بقلق تزايد مع تصاعد نبرة انفعالها :

_ من قتله كان مسجوناً في قضية سلاح .. هرب من

السجن بعدها فلم يعثروا له بعدها على أثر .

_ وما علاقة هذا بنا؟!!

يسألها بتوجس لترد بنفس الانفعال المتقد :
_اسمه ظل في بالي ولم أنسه أبداً .. المفاجأة أنه من
ضمن الأسماء التي ورد ذكرها في قضية جهاد
الريحاني .. يزعمون أنه تم رصد مقابلات سرية له
معه ومع غيره ويؤكدون بذلك التهمة عليه .. تعرف
ما الذي يعنيه هذا؟!!

يزداد انعقاد حاجبيه القلق وهو يرد بتثاقل:

_ أن جهاد هذا متورط فعلاً .. أو ..

يقطع عبارته دون أن يكملها فتفعل هي بحماس:

_ أو أن جهاد بريء والمجرم الحقيقي يلقي به كطعم

زائف مستغلاً شكوك الشرطة حوله كي يبتعد بهم عن

الوصول له .. المجرم الحقيقي الذي هو حلقة

الوصل بين القضيتين .. لو حللنا واحدة فسنصل

للأخرى .

جنة!

يقولها محذراً بقلق وهو يشعر أن حماسها يوردها

مواضع التهلكة من جديد فتمسك ذراعيه بقوة

تهزهما هاتفة :

أنت وعدتني! ستكون معي تحت أي ظرف!

يطلق زفرة مشتعلة وهو يرفع وجهه

لأعلى فتهتف به :

فهد!

مصيبة فهد! أنت مصيبة فهد وعمله

الأسود!

يهتف بها بانفعال لم يخلُ من تهكم فتبتسم وهي

تسمعه يردف بغيظ:

_ لماذا لم تكوني امرأة عادية من هؤلاء "بنات

الحلال" اللاتي يقضين أوقاتهن في أشغال التريكو

والكروشييه والرسم والموسيقا.. أو حتى هؤلاء

المهووسات بالموضة والتسوق.. لماذا أبتلى بك أنتِ

بالذات؟! امرأة لا تجد هوايتها إلا في تتبّع الخطر؟!!

_ الحق! تتبّع الحق وليس الخطر يا فهد!

تقولها مصححة وهي تبسط راحتها على صدره

فيحيط رأسها بكفيه ليهزه بقوة ثم يلصق جبينه

بجبينها هامساً:

_ أحدهما سيقتلني يوماً : حبي لكِ أو خوفي عليكِ .

لكنها تمد ذراعيها لتحتضن خصره بكل قوتها ثم
تهمس وقد اتحدت أنفاسهما كما كل ما فيهما الآن :
_ ما بيننا لا يقتل .. ما بيننا حياة .. نسيت

كلامك ؟!

ابتسامته تنافس قبلاته على شفيتها وأامله تغوص
بين خصلات شعرها الثرية ليهمس ساخراً عبر
فيوض عاطفته :

_ دوماً تغلبيني يا أستاذة ! كان يجب أن أعرف أن
دلال الصباح ذاك تمهيد لكارثة !

=====

نيلي



_ ما الذي يحدث؟! ما الذي يحدث؟!
تهمس بها زهرة لنفسها بحرقة وهي تخبط رأسها في
جدار زنزانتها ..
لا تستوعب هذا الجحيم الذي وجدت نفسها فيه فجأة
منذ عادت لمصر ..
وجهاد؟!
جهاد!!
لا تصدق هذا الذي يحكونه عنه!!
لا يعنيه في هذه اللحظة سوى أن تظمن عليه هو ..

تماماً كما تثق في هذه اللحظة أنه شعوره هو الآخر
خاصة وهو -حتماً- يحمل نفسه ذنبها !!
هو .. يحمل نفسه ذنبها بينما أبوها الذي هو من دمها
عندما استدعته قوات الأمن تبرأ منها وزعم أنه
طردها من بيته !!

بينما لا تزال أمها لا تعرف عنها شيئاً
لم تشعر يوماً أن الدنيا ضيقة في عينيها كما هي
الآن !!

_يارب!

تهمس بها بحرارة عبر دموعها وهي ترفع وجهها
للأعلى فتعاودها هذه الوخزة الحقيقية في صدرها ..
ولا تدري لماذا في هذه اللحظة اعتبرتها شارة بقرب
موتها !!

وفي مكانه بزئزائته كان قلب جهاد يشاطرها العذاب

رغم البعد ..

هو الآخر لا يفهم ما يحدث ..

يستعيد الأسئلة التي وجهوها إليه ..

_ ما سبب زيارتك لمصر!؟

_ خطبة!

_ ولماذا لم تفعل طوال هذه الأيام!؟

_!.....

_ ماذا كنت تفعل في المول!؟

_ كنت مع خطيبي .

_ ولماذا غادرت بها بعدها لتغير هي محل إقامتها لذاك

الفندق معك!؟

_!.....

_ ما سبب تواجذك قريباً من بعض المنشآت العسكرية

!؟

_ صدفة!

_ وما علاقتك بجماعة (...)!؟

_ نتواصل عبر الانترنت.

_ تقدم لهم معونات مادية .

_ نعم..أعرف أنها منظمة خيرية تقدم دعماً لأهل بلدي

من الفقراء!

_ ولا تعرف أنها جماعة ذات نشاط مناهض

للصهيونية!؟

_ مناهضة الصهيونية ليست نشاطاً ..إنها واجب ديني

وقومي على كل مسلم وعربي .

_ تعرف أن نشاطهم هذا غطاء لنشاط آخر سري

تدعمه قوى إرهابية دولية!؟

_ لا!

_ ما علاقتك بعملية تفجير المول التي لم تتم!؟

_ لا علاقة!

_ ما علاقتك ب"الكوبرا"!؟

_ ما الكوبرا هذا!؟

_ ما علاقتك بهذه الأسماء (...،....،...)

_ لا أعرفهم!

_ هم يعرفونك ويشهدون أنك معهم .

_ كذب!

_ مصرّ على أقوالك!؟

_ نعم!

زفرة مشتعلة تغادر صدره وهو يعود ليخبط جبينه في

جدار زنزانتة الباردة ..

لقد تكتم عن الإجابة عن الأسئلة التي تخص حقيقة

زهرة مع عائلتها ..

لم يستسغ فضح سرها ولو في موضع كهذا !!

لكن كل الظروف تكتلت ضده !!

الأبشع من كل هذا أنه لا يفهم !!

شعور طعنة الظهر المفاجئة هذه لا يوصف !!

زهرة ..!!

كيف تراه حالها ؟!

تراها تسيئ الظن به ؟!

يريح وجنته على الجدار البارد ..

وتريح هي وجنتها على جدار أشد برودة ..

يفرقهما واقع.. ويجمعهما حلم !!
حلم يرى فيه كل منهما صاحبه فيعدو نحو أحضانہ ..
خلفهما شمس تجاهد كي تشرق ..
وبحر يزار كي يُغرق ..
إنما بالقلب حلمٌ لا يُسرق ولا يشنق ولا يُحرق..
فهو بدربه في جهاد .. وهي بحبه في جهاد !



دینا؟! هل تسمعینتی!؟

لا يتوقع منها رداً وإن كان يتمناه بكل جوارحه !!
عيناه اللتان تجمد وجعهما تناظران جسدها المسجى
فوق الفراش بألم ..

بضعة أيام مرت بها هنا في المشفى بعد الحادث الذي
أصابها أمام بيته ولا تزال على هذا الحال ..
لا تكاد تفيق إلا بضع ثوانٍ تعود بعدها لغيوبتها كأنها
زاهدة في الحياة !!

_ أنا قسوت عليك ليلتها .. أريتكِ ذاك الوجه الأسود
الذي طالما حكيتُ لكِ عنه فلم تصدقيه .. أنا رجلٌ لا
يغفر .. لا يغفر لغيره .. بل ولا يغفر لنفسه .. رجلٌ
يعيش ليحترق حتى يفنى رماده .. علمتِ لماذا كنت
أبعدك عني كما أفعل مع كل الناس؟! لأن كل من
يقترّب مني تناله لعنتي .

يهمس بها حسام بمنتهى الخفوت فلا يكاد صوته
يغادر شفثيه إنما كل حرف كان يدوي في صدره
كقذيفة !

خسارته لها ليست بهينة على رجل بتاريخه ..
رجل رأى فيها وجهاً أبيض نادراً وسط سواد
وجوهه ..

والآن ناله -مثل بقيتها- السواد !!

_أفيقي يا دينا ..أفيقي وعودي
للاستوديو ..لحياتك النظيفة التي اخترتها ..ربما لن
أسامحك ..بل لن أسمح لنفسى أن أراك ..لكن لا
تجعلى كل ما كان بيننا يروح سدى !!

يهمس بها بنفس البرود الذبيح الذي يغشاه دمع

تحجر في عينيه ..

لتجتاحه ذكرى لقائه بها أول مرة..

ليلة عيد!!

أحضرها له أحد رفاق السوء ممن اعتاد صحبتهم

لتقضي معه بضع ساعات..

رأى في ملامحها وقتها فتنة استثنائية لكنه لم يكن

ينتوي أن يحيد عن مبدئه ..

(مرة واحدة لا تتكرر كي لا يقع في فخ التعلق)!

_تشرين؟!

_لا!

قالتها ساعتها حاسمة لتستجلب ابتسامة ساخرة على
شفتيه فيتفحص ملامحها التي تصارعت عليها براءة
طفولة مع إغواء مفترض لامرأة بوضعها ..

_ لماذا؟! حرام!؟!

سخريته الباردة لاتزال تصطدم بتماسكها الهش وهي
تطرق بوجهها قائلة :

_ لن يعجبك جوابي .

_ جربي!

يهمس بها بصوته المغوي متعمداً إثارتها وهو يقترب
أكثر ليرفع ذقتها نحوه فتدمع عيناها مناقضة ضحكة
بدت شديدة التصنع:

_ لا! لا! الليلة ستتقلب ل "غمّ" وتدعو على صاحبك
الذي أحضرني هنا ..ربما لو التقينا مرة أخرى عدا
ليلة العيد أشاركك الشراب .

تقولها وهي تتفقت من بين أصابعه في دلال تعلمت
نسج خيوطه منذ وجدت نفسها تتحدر لذاك الطريق ..
لكنها كانت تتعامل مع رجل استثنائي هذه المرة !
فهاهو ذا يعاود احتكار فكها بقبضته بقوة أكبر هذه
المرّة ليجبرها على النظر لعينيّه الصقريتين ..
ويهدم هو أسوار عينيها ليقراً نظراتها بخبرته ..
لم تبدُ له ك "فتاة ليل" عادية كهؤلاء اللاتي اعتاد
مرافقتهن في أوقات كهذه ..

نظرة "عزيز قومٍ ذلّ" كانت تتوج حدقتيها
الذهبيتين !

ربما لهذا أصر على طلبه :

_ أخبريني .. لماذا ليلة العيد بالذات ؟!

_ ولا تعتبره فالاً سيئاً؟!

من جديد تغتصب ضحكة مصطنعة وهي تحاول

التشبث بغلالة مهنتها ..

ليكتفي بانعقاد حاجبيه الصارم مشدداً ضغط قبضته

على فكها ..

فتهز كتفها لتقول بلامبالاة مفتعلة :

_ كما تحب! هل يسرك لو تعلم أنني عندما أخرج من

هنا سأوجه لزيارة المقابر .. عادة لا أقطعها كل

عيد .. ولا أحب أن أكون ثملة وقتها !

تتفرج شفتاه في دهشة حقيقية تتحول لابتسامة
ساخرة وهو يحررها من قبضته ليتناول لفافة تبغ من
الجوار فيشعلها ..

ينفث دخانها بقوة وهو يتفحص ملامحها صامتاً
للحظات ..

فتعاود هز كتفيها لتتهف بالكلمة العامية الدارجة :

_"فصلتك"! أنت من سألت.. ولا أظن أجر الليلة

يشمل الشرب!

يعاود نفث دخان سيجارته ثم يعطيها ظهره ليتوجه

نحو النافذة القريبة فيفتحها ليطلق بصره عبرها ..

_"ماذا لو جعلت أجر الليلة يشمل الثرثرة؟! تكلمي كما

تريدين .. فلن نلتقي مرة أخرى .

_"عما تريدني أن أتكلم!?"

_ لماذا سلكتِ هذا الطريق؟!!

لا يزال يعطيها ظهره فتقترب بنفس الضحكة

المفتعلة :

_ أنت مصرّ إذن؟!!

يرمقها بنظرة جانبية تتسع معها ابتسامته الساخرة

بمرارتها :

_ أحب سماع حكايات الوجد .. بشرط أن تكون صادقة.

_ وكيف ستتيقن من صدقي؟!!

_ جربي واكذبي .. وسأعرف!

النظرة الخطيرة في عينيه تلقي سهمها في صدرها

فلا تقوى على افتعال ضحكة جديدة ..

فقط تطرق برأسها وهي تتحرك عفويّاً لتخفي نفسها

خلف ظهره فيعود ببصره للأمام متفهماً ..

_ واثق أننا لن نلتقي ثانية !؟

_ نعم.

_ لهذه الدرجة لم أعجبك !؟

_ لا علاقة للإعجاب بالأمر .. هي قاعدة عندي لا

أغيرها !

_ أنت غريب جداً .. هل هي مرتك الأولى في شأن كهذا

!؟

يطلق صوتاً ساخراً وهو يلتفت نحوها لتردف

بارتباك:

_ أنا فقط لم أتوقع .. لم يحدث من قبل أن سألني أحدهم

عن ..

نظرته الخبيرة تسبر أغوارها فتقطع عبارتها وهي

تزدرد ريقها بتوتر ..

تكتف ساعديها وهي تطرق برأسها فيعاود النظر

للأمام نافثاً دخان سيجارته من جديد ..

_فرصة! اعتبريها فرصة للثرثرة! من منا لا يرغب

في البوح بكل ما بداخله لمن يسمع دون أن يحمل هم

انكشاف ستره أمامه لو التقت الوجوه من جديد!؟

_معك حق .. تبدو لي فرصة حقاً .. تعرف منذ متى لم

أتحدث عن الأمر!؟

لم يسألها ولم تنتظر الجواب فقد انساب لسانها كأنها

حقاً تنتهز الفرصة :

_أبداً! لم أتحدث عن الأمر أبداً .. قطعت الطريق ركضاً

دون توقف كأني خشيت لو وقفت أن أقع !

يصمت كما وعداها فيتحرر بوحها :

_أنا جامعية ..كلية إعلام ..لا تعجب! كنت صورة ل"بنت الأصول" التي ترغب كل أم في تزويجها لابنها ..جميلة ..رقيقة ..توفي أبي وسافر شقيقي كي يرسل لنا المال الذي يكفيننا ..تعرفت على أحدهم عبر الانترنت ..كان حبي الأول وخطبي الأول ..الكلام البريء تحول لآخر أكثر جرأة ..ثم إلى صور تدرجت في بذاعتها حتى بلغت أقصاها ..تسألني لماذا لم أتوقف؟! حاولت أكثر من مرة لكنه كان يهددني أن يفضح ما بيننا لأخي ..إلى أن طلب مني لقاءه ذات يوم في شقته ..رفضت ففوجئت باتصال من أخي يخبرني أن أحدهم قد أرسل لهم ملفاً يخصني لكنه وجدته فارغاً ..أجل! كما فهمت تماماً ..كانت رسالة تهديد استجبت لها مرغمة وأنا أدرك أن الملف في

المرّة القادمة لن يكون فارغاً .. وبدأت الحلقة .. الحلقة
التي ما إن تبدأ لا تتوقف .. الخطوة التي يتبعها تزج
عبر منحدر بلا قاع .. لم يعد وحده بل انضمت صحبته
ثم صحبة صحبته .. كذلك أنا لم أعد وحدي .. انضمت
إليّ شبيهاتي من الضحايا .. عالم غريب وجدتي
داخله فجأة .. لو كان الأمر بيدي وقتها لرضيت
بالفضيحة قرباناً كي أنجو بنفسي من كل تلك
القدارة .. لكنني كنت أخاف .. أخاف على أمي وعلى
أخي .. ربما بأكثر من خوفي منهما ..
تنهمر دموعها بعدها دون توقف لكنه لا يلتفت ..
بل ولا ينطق بكلمة كما وعداها ..
هل يبالغ لو زعم أنه قرأ حكايتها في عينيها قبل أن
تسردها؟!!

خبرته علمته كيف يميز حكايا كهذه في عيون

صاحباتها !!

لكنها هي كانت تختلف ..

كانت لها هذه "الجدوة" المشتعلة تحت الرماد تنتظر

من ينتبه لها فيعيد لها وهجها!

جدوة تنتظر انتفاضة ..صحوه ..ود لو يمنحها

إياها !!

_ لكن المحذور وقع! واحدة أرادت فضح أحدهم

فدبرت له فخاً والفضيحة صارت قضية ..طعنة في

صدري وفي ظهر أمي وأخي ..أمي سقطت ميتة لم

تحتمل الصدمة ..وأخي هدد بقتلي ثم حكم عقله فتبرأ

مني ..قضيت عقوبتي في السجن وخرجت فلم أجد

أمامي سبيلاً آخر ..ربنا يقبل التوبة لكن الناس لا

يقبلونها ..حاولت أن أعمل ..صدقتي حاولت ..لكنني
كنت أشعر كمن يحفر بحراً ..عرفت بعد فوات الأوان
أنني قد خطوت الخطوة التي لا رجوع
بعدها ..فاستسلمت لقدري .

تصمت لدقائق لكنه يمنحها فرصتها كاملة ..
ومن مثله يفهم كيف يطغى سواد الخطايا على كل
الألوان!!؟

_ سأخرج من هنا لأزور قبر أمي ..أفعلها كل
عيد ..رغم علمي أنها لن تسامحني ..يقولون أن
الموتى يتفخرون بزيارة أقاربهم لهم لكنني أعرف
أنني عارها حية وميتة ..ومع هذا لا يمكنني منع نفسي
من زيارتها كل عيد ..فقط كل عيد ..كي أمنح نفسي

أنا شعور أنني عدت طفلة تتشبث بثوب أمها .. ثوب

أمها الذي صار كفنًا !

هنا يلتفت هو نحوها معلناً وصول قطار بوحها

لمحطته الأخيرة ..

يراها تمسح دموعها بخزي وملامحها المصدومة لا

تستوعب أنها حكّت كل هذا ..

كأن شجاعته كانت فقط في مواجهة ظهره !!

_ اذهبي!

يقولها بصرامته التي حملت رفقا غريباً في أذنيها ..

تعاطفاً لم ترد تصديقه وهي تهتف مدافعة :

_ تضايقت؟! ألسنت أنت من طلب ..؟!!

لكنه يقاطعها وهو يتجاوزها بخطواته قائلاً:

_ احتفظي بالمال ..خففي عن ظهرك حمل هذه الليلة

ربما تشعرين عند زيارتك المقابر أنك أفضل .

تتسع عيناها بصدمة ..

لم تصدق ما فهمته إلا عندما وجدته يناولها حاجياتها

ثم يتحرك ليفتح لها باب الشقة في دعوة للخروج ..

_ واثق أننا لن نلتقي ثانية؟!!

ورغم أن كل خلجة من خلجاته كانت تمنحها الجواب

لكن حدساً بداخل كليهما كان يمنحهما شعوراً

بالعكس ..

والتقيا !

بعد عام ..وربما أكثر ..!!

قضية تعاطي مخدرات ودعارة طلب منه نفس

الصديق الذي جمعها به أول مرة أن يتراجع فيها فكان

رفضه المبدئي كعهده لمثل هذه القضايا .. لكنه عندما
علم أنها هي وجد نفسه مدفوعاً بقوة غير مفهومة
لمساعدتها ..

لانتشالها من بركة الوحل التي غرست قدميها فيها !!
طريق طويل بدأه معها بعدما منحته وعداها أنها
ستغير طريقها ..

طريق منحها فيه "ظهاً" ومنحته هي فيه
"وجهاً"!!

ظهاً أسند ضعفها .. ووجهاً "نادراً أبيض" له أحب
صورته في مراياها !

فلا يدري من منهما كان أكثر حاجة لصاحبه !!
_وهاهو ذا الوجه الأبيض اسودّ -كغيره- يا حسام ! ما
الجديد؟!

يهمس بها بعذاب وأنينها الخافت في غيوبتها
ينتزعها من ذكرياته ليجلده بما يشبه السياط..
يغمض عينيه بقوة على صورتها التي تشوش
حاضرها بذكرها وهو يسترخي بجسده المرهق فوق
مقعده أكثر ..

منذ متى لم ينم !؟

لا يهم ..

يبدو أن الفجر "العزيز" سيتأخر طويلاً هذه المرة ..
جفناه يتثاقلان أكثر وأكثر ..

كوابيسه المعتادة تعاود قذف الحطب فوق نيرانه
لتشعلها أكثر ..

دعاء بعينها المفقودة ..

طيف وبيتها المحترق ..

سيارة عاصي تهوي من فوق المنحدر فيفقد بصره

و..زوجته وطفله ..

وأخيراً ..دينا مضرجة بدمائها على قارعة الطريق ..

ومضة خلف ومضة يزداد معها لهيب النار ..

إنما ..

النيران تلتف فجأة لتتجمع في شعر طفلة !!

طفلة بثوب أبيض ذي زهور أرجوانية تقترب منه

فاتحة ذراعيها ..

تعانقه فيشم في شعرها احتراق الحطب ..

لكنه يضمها إليه بكل قوته ..

من قال إنه لم يجرب شعور الأبوة؟!!

هاهي ذي بين ذراعيه ..

طفلته ..

حبيبه..

ابنته !!

ترفع عينيها إليه فيميز زرقتهما القاتمة و...

حلقة الزعفران !!

هذه هي !!

تتوهج باغراء لم يستطع مقاومته !!

الطفلة ما عادت طفلة !!

تكبر بين ذراعيه فجأة ولايزال شعرها يشتعل ..

عناقها يزداد حرارة ..

يبصر خلف ظهرها خنجراً يخفيه كفها.. والغريب أنه

يشعر بخنجر مشابه خلف ظهره بكفه هو الآخر ..

شفتاها قطعة من جنة .. وجحيم ..

لا يقاوم أن يقترب لينهل المزيد من مذاقهما ..



الخنجران يرتجفان في الكفين الغادرين ..

بينما الجسدان

يتعانقان .. يلتحمان .. ينصهران .. يذوبان ..

هل سقط الخنجران !؟

بل رأسه هو ما سقط على مسند الكرسي ليستيقظ

أخيراً من نومه ..

_حلم !؟ كان حلماً!؟!

يتمتم بها بذهول وهو يتحسس شفثيه

لأول وهلة بأحد كفيه ..

كيف!؟!

لا يزال يذكر مذاق شفثيها طازجاً هاهنا !!

يرفع الكف الآخر بنفس الدهول كأنه يبحث عن

الخنجر !!

يطلق زفرة مشتعلة وهو يعود ببصره لجسد دينا الذي
لا يزال على وضعه قبل أن يخرج من الغرفة ليتوجه
نحو النافذة في الرواق حيث يمكنه إشعال سيجارة ..

ديمة !!

لماذا هذا اللحم ؟! وما تأويله ؟!

لماذا اخترقته بهذه القوة ؟!

لماذا الآن بالذات ؟!

وماذا فيها كي تجذب رجلاً بتاريخه ؟!

ولماذا الآن يكاد يجن اشتياقاً لهذا العناق الذي رمته

له في حلمه كأنه يساوي ما بقي من حياته ؟!

ماذا ؟!

ماذا يا قذاف الحطب ؟!

متى كانت آخر مرة اجتاحتك إحداهن بهذه الطريقة ؟!

تظن العمر يتسع للمزيد من القصص؟!!

سؤاله ينتهي بجوابه وهو يغرس طرف سيجارته

المشتعلة في معصمه بينما يكرز على أسنانه بقوة

كاتماً ألمه ..

بلل العرق على جبينه يناقض جفاف شفثيه

المتشقتين ..

شعورٌ خفي بأنه مراقب يجعله يلتفت للخلف فجأة

فتلتقي عيناه بهذا الرجل الذي تقدم نحوه بخطوات

رتيبة ..

ولقاء النظرات الخطر ينبئ بكارثية المواجهة

القادمة ..!!

=====

برتقالي



_بل أنا .. أنقذت حياتي !

تتذكرها أمام مرآتها صباحاً فتجتاح شفيتها ابتسامة
صارت تحمل اسمه وحده ..

لا تظنها ستنسى هذا اليوم ما عاشت !!

كيف في لحظة واحدة جربت مذاق الموت ثم الحياة !!
كيف كانت تصارع الموج غارقة لتجد أمانها فجأة بين
ذراعيه !!

الغريب أنها لم تره بعدها طيلة اليومين السابقين لهما
هنا على الجزيرة كأنه عاد يتجنبها مكتفياً باتصال
هاتفي وحيد اطمأن فيه عليها بكلمات مقتضبة ..



أجل .. عاد يهرب واليوم موعد مغادرتهم ..

ماذا عساها تصنع !؟

هل سيتراجع هذه الخطوة التي تقدمها في علاقتهما!؟

وهل ستسمح له هي بهذا !؟

هو يحبها !

بل إنه تحدى خوفه لأجلها هي ..

لو لم يكن هذا هيام مغرم فماذا يكون !؟

وهي تملك من الشجاعة ما يجعلها تعترف أنها

كذلك .. تحبه!

فلماذا يضيع المزيد من العمر!؟

نظرة تصميم واثقة تلتصع في عينيها وأاملها تمتد

لسلسلته ذات الصدفة البرتقالية أمامها ..

ترتديها وابتسامتها تتسع لتشعر أنها حقاً ازدادت

جمالاً ..

تصف شعرها لتسدله على كتفيها لكنها تتذكر شيئاً

يجعلها ترفعه لتعقسه بتصفيفة ما تعطي مظهراً

واهماً بقصره !!

تستعيد كل مرات لقائهما ..

تتذكر متى لمعت عيناه إعجاباً للون ثوب ..

فتختار هذا الأزرق المتألق عاري الكمين والذي تحلت

ياقته بهذه النقوش البرتقالية التي ناسبت حزامه

الرفيع بنفس اللون ..

الثوب كان منتفشاً بعد الخصر إلى ركبتيها بهذا

التصميم الذي يلائم جسدها النحيل فقير الأنثوية ..

كذلك كان يلائم سمرة لونها فيمنحها رونقاً محبباً ..

صوت طرقات على الباب تميز فيها حضور مجد
فتتسع ابتسامتها مع نظرة التصميم في عينيها وهي
تتوجه نحو الباب لتفتحه ..

فتصفعها خيبتها وهي ترى مجد وحدها مع نزار ..
_ شكك رائع!

تهتف بها مجد بانبهار لتردف مشيرة لشكل شعر
طيف القصير الخادع :

_ صرتِ تشبهيني!
يضحك نزار بخفة وهو يقاوم تعليقاً ساخراً يريد
إطلاقه فترمقه طيف بنظرة زاجرة تجعله يسألها
بنبرته العابثة :

_ لو أعجبتك الجزيرة يمكنك دعوة صديقتك المرة
القادمة!؟

_ أي مرة قادمة؟! وأي صديقة؟!

تسأله بفضاظتها المعهودة ليتجاهل سؤالها الأول

ويجيب الثاني:

_ تلك التي اسمها على مسمى ..حسنا!

يتبع الاسم بصفير إعجاب قصير وهو يحلق سبابته

وإبهامه في وضع تقدير ..

لتهتف مجد ببراءة وهي ترفع رأسها نحوه :

_ تلك الممرضة التي سألتها عن الثلجات في

المشفى؟!

_ "أروح لج فدوه"!

يهتف بها بالعبرة العامية العراقية الشهيرة

يعني: روعي فداك وهو يميل على رأس مجد يقبله

بحرارة لتطلق الصغيرة صيحة تذر واهية مع

هتافها :

_رأسي !

فيما تهتف له طيف بحدة :

_وما شأنك بها؟!!

_تعجبنى ! أخبريني يا طيف هل ..

_طيف!!! منذ متى تناديني باسمي مجرداً؟!!

تهتف بها بنفس الحدة الفظة تقاطع بقية عبارته

ليكتف ساعديه مع ارتفاع حاجبيه ونبرته العابثة التي

كانت ذات مغزى:

_حلال على السندباد وحرامٍ عليّ مثلاً؟!!

نظرتها النارية تكاد تشعله في مكانه لكنها لا تنتزع
منه سوى ضحكة عالية جعلتها تشيح بوجهها وقلبها
ينتفض خجلاً ..وشوقاً !

افتقدته !!

افتقدته كأنها تركته من ألف عام !!
كأنها يوم كتب لها عمراً جديداً ذاك الصباح في البحر
كتب لها معه أن يكون له ..فلا تمر ساعة ولا دقيقة
ولا حتى ثانية دون أن تصطبغ باسمه !!

آه من هذا العشق الغريب الذي يكتسحها كطوفان !!
طوفان يجعلها تقسم أنها لم تجرب الحب حقاً من
قبل !!

كأنها كان يجب أن تقترب من الشمس كي تدرك
الفارق بين ضيائها وبين الشموع !!

_ أين هو؟!

تسأله دون أن تنظر إليه فترد مجد بسرعة:

_ بابا حزم حقايبنا وسبقنا إلى القارب ..هل حزمتِ

حقائبك؟!

ترد بتشتت وشعورها أنه لا يزال يهرب منها يورثها

المزيد من الخيبة ..والتحدي!!

لا ..لن تسمح له !!

ليس بعد ما كان !!

لهذا ما كادت تستقر فوق القارب الذي سيعيدهم من

الجزيرة حتى بحثت عنه بعينها لتجده واقفاً هناك

وحده في الزاوية البعيدة للقارب يعطيها ظهره وقد

بدا وكأن البحر قد اختطفه من جديد ..

تتردد قليلاً وهي تعض شفتها السفلى بخجل مستعيدة

موقفهما الأخير ..

عناقه القوي لها الذي ذكرها - نوعاً ما - بعناق عاصي

إنما مشتعلاً بلهفة عاشق هي خير من يدركها من

فرط ما تمنيتها ..

وتلك الكلمات التي لن تنساها أبداً ..

ربما لو كان قد قال لها: (أحبك) صراحةً لما أحدث

فيها هذا الأثر المدوي!!

وبعد كل هذا يظنها ستتركه يهرب خلف أسواره من

جديد!؟

حاشاها!!

لهذا تتوجه نحوه بخطوات حاسمة لتتوقف جواره ..

لم يلتفت نحوها إنما جوارحه كلها فعلت!!

قلبه الذي ارتجف بأثر قربها ..

أنفه الذي صار يميز رائحتها ..

جسده الذي كانت خلاياه تستعيد مذاقها بين ذراعيه ..

وأخيراً عيناه اللتان تستجيبان لرجاءات روحه أخيراً

فتناظرانها ..

لا .. لم تبدُ لكليهما مجرد نظرة ..

بل بدا وكأن كل منهما يعانق الكون كله في عيني

صاحبه !!

قصصتِ شعركِ!؟

لم تكن أفضل عبارة تقال في موقف كهذا لكنها سمعت

منه -دون كلام- كل ما يريد قوله ..

الجزع الضائق في نبرته المتفاجئة - كأنه فقد عزيزاً -

يترك بصمته على جدار أنوثتها فتمتزج نظرتها

العاشقة بتحدٍ لذيذ

لهذا جاءت كلماتها مواربة :

_وما يعينك؟! ظننتك تكره الشعر الطويل.

لم يمنحها رداً في كلمات .. إنما في خطوة !

خطوة واحدة لكنها بدت لها وكأنه احتواها كاملةً بين

ذراعيه ..

فيزداد "سديم" عينيها لمعاناً وهي تتوقع خطوته

التالية ..

ربما لأنها تمننتها .. تمننتها من كل قلبها ..

فهاهو ذا يمد أنامله ليحرر شعرها من عقصته في

حركة لم تستطع وصفها .. ولن يمكنها أن تفعل!!

كأنه لم يحرر شعرها فحسب بل أطلق كل عرائس

أنوثتها التي سجنتها كل هذه السنوات ..

كأنه "الغازي" الذي اقتحم الحصون فاستقبلته

الحشود لا مقاومة إنما مرحبة !

_تدري عقاب من يتجرأ على مس شعري!؟!

ياالله!!

كيف يمكنه وصف صوتها في هذه اللحظة!؟!

كيف يمكن أن تحمل ارتجافة صوت امرأة كل هذه

القوة العاشمة!؟!

كيف يمكن أن يرتدي الخجل قناع التحدي بهذا الجمال

وبهذه الفتنة!؟!

كيف يمكن أن تشبهه كل هذا الحد!؟!

وتناقضه كل هذا الحد!؟!

وتجتاحه دون أي حد؟!؟

ربما لهذا تهاوت بعض قضبان عينيه لتبدو لها خلف
ظلمتها شمسٌ عذراء .. بدت وكأنها ولدت الآن .. لها

وحدها ..!

خطوة أخرى منه تحتكرها خلف أسوار مملكته أكثر ..

وصوته الأسر هو الآخر يجعل من كل حرف قديلاً

يضيئ ظلماتها تباعاً .. واحدة واحدة .. وهو يمنحها

الجواب بنفسه :

_ عقابه أن يفني عمره كله في سبيل ألا يفرد هذا

الشعر على كتفي رجل غيره !

هل يمكن للروح أن تترنح بينما الجسد ثابت؟!؟

هذا ما كانت تشعر به الآن تماماً وهي تغمض عينيها

للحظة .. لحظة واحدة تحاول بها استعادة توازنها ..

قبل أن تعاود فتحهما على اتساعهما كأنها تدخر هذه

اللحظة لطريق العمر الطويل ..

تتسحر بحلاوة "تمرّة" يبقى مذاقها في فمها مهما

طال نهار الصوم !

لكنها تعود لتتذكر تباعده عنها طيلة اليومين

السابقين ..

ولأنها ليست امرأة تقليدية .. ولأنه ليس رجلاً عادياً ..

لم يكن حوارهما طبيعياً على أي حال في موقف

كهذا !!

_ لماذا تهرب مني؟! _

_ ربما .. أهرب من نفسي .. من يحيى العراقي نفسه !

_ ومن يحيى العراقي هذا؟! _

سؤالها كان ليبدو غيباً في أي موقف سوى هذا ..
لكنه ها هنا هو أدكى سؤال كان يمكن أن تطمئن به
قلبها ..

أن تخترق حواجز كتمانها التي يصر أن يبقئها
بينهما ..

وجوابه يرد لها بضاعتها بمثلها ..:

تعلمين ما عقاب من تنبش قبور ماضي؟!

لكنها لم تكن تملك -مثله- الجواب ..

لهذا زاغت عيناها بمزيج من خوف فطري رغم سيف

التحدي الذي لوحث به نظراتها ..

ليشبح بوجهه من جديد نحو البحر القريب ليمنحها

الإجابة بنفسه عبر شروده القاهر:

_ أن تحترق -معي- بي!
_ ليس كل الحريق هلاكاً! أما علموك أن قبساً من
النار قد يحيي ظلمة الليل!؟
صوتها يجتاحه من جديد بهذه القوة التي تبدو وكأنها
لم تخلق لامرأة سواها ..
لا يدري متى التفت لها من جديد ..
لكنه غرق في عناق عينيها ..
صاحبة السديم دعتة .. وهو -وسط لمعة فوضاه- داخ!
صوتها لا يزال يتراقص هذه الرقصة الرشيقة بين
قوة ونعومة :
_ أما آن ل"الفلامنجو" أن يريح ساقه المرفوعة
ويقف على الاثنتين!؟!

يبتسم ابتسامة شاحبة وهو لا يدري أيهما تقصد هي

ب"الفلامنجو" هو أم هي؟!!

لكن ..ما الفارق ..أو ليس هو توأمها ..وهي توأمه؟!!

ما أدق التشبيه !

طائر فلامنجو أجبروه أن يقف على ساق واحدة ويود

لو يريحها ويقف بطبيعية على الاثنتين!!!

يمد أنامله نحوها ببطء يدعوها لمصافحة بمذاق

الوعد ..

فتدمع عيناها برهبة خفية وهي تناظر راحته

المفرودة ..

كمن ينتظر توقيماً على عقد ببيع العمر !

تعلم أنها لو فعلتها فلن تكون مجرد مصافحة ..بل

ميثاق حياة أو موت!!!

طيف الصالح لم تطفُ فوق سطح طموحها إلا عندما
تجاهلت كل أطواق النجاة المزعومة وتشبثت بقوة
ذراعيها في العوم فحسب ..
عاشت كل هذه السنوات تكافئ نفسها -وربما تعاقبها-
باستغنائها عن بني آدم جميعهم ..
ألفت وحدتها حتى صارت وطنها وملجأها ..
لهذا كان للحظة كهذه رهبة خالصة في صدرها ..
ثانية تمر خلف ثانية وعيناها معلقتان بكفه الممدود ..
لم يتعجلها .. ولم يسحبه ..
كأنه كان واثقاً من قرارها ويمنحها فرصتها في منحه
أخيراً بقوة تليق بها ..
تمد أناملها أخيراً فيتلقفها كفه بحرارة تكاد تصهرها
مكانها ..

أصابعه تعد أصابعها عداً .. واحداً واحداً .. كأنه يغرس

بينها بصمة أنامله ..

تتلكأ بين العُقل ترسمها .. ثم تطوف حول خطوط

راحتها في دوران بدا كأنه لن ينتهي ..

يشبكها بأصابعه أخيراً بقوة تكاد تؤلمها لولا ما

أحسته مما خلفها ..

ثم يرفعها لشفتيه ببطء لكنه يتوقف على بُعد

”قبلة“ !!

ترفع عينيها الصارختين بعاطفتها نحوه لترى نظراته

معلقة بسلسلته على جيدها ..

كأنه لم ينتبه لها سوى الآن !!

قضبان عينية تزداد غلظة والظلمة خلفهما تزداد

وحشة ..

لكنها كانت ترى قمرها المراوغ فيهما يداعبها من

بعيد ..

يخبرها أن مهما ذبحوا حمائم الأمس .. فسيولد لأجلها

غد جديد !

_ احكِ لي .. عن يحيى العراقي .. قبل أن يصير

السندباد !

تقولها بذات الصوت القوي ذي الارتجافة الآسرة ..

زفرة حارقة تغادر صدره وأنامله تزداد تشبثاً بكفها ..

_ ليس الآن .

_ متى؟!!

تقولها وهي تسحب كفها منه بنظرة عاتبة ليطرق

برأسه قليلاً ثم يقول بغموض اجتاحه ألمه :

_ تعلمين أنني توقفت عن الكتابة؟!!

تبتسم رغماً عنها بغیظ وهي تذكر لقاءاتهما الأولى

لتهتف بعفويتها الفظة :

_جيدٌ أنك توقفت قبل أن تنتشر أفكارك !

ابتسامته تعانق شبهتها على شفيتها وعيناه ترسمان

ملامحها التي بدت له في هذه اللحظة أشد جاذبية من

أن يقاومها ..

يقترّب أكثر وأنامله تمتد لشعرها ببطء من يتذوق

حلاوة كأسه رشفة رشفة ..

من منابته عند جبينها وإلى أطرافه التي استقرت

بحنو على راحته ..

يا لله !!

كم يود الآن لو يتلمسها بشغف شفاه تشققت من

خشونة الوجع وتتوق لهذه النعومة الواعدة !

_ يوماً ما سأعود .. برواية عنك أنتِ .

_ لا أريد رواية عني .. أريد رواية عنك أنتِ .. متى

ستخبرني عن يحيى العراقي؟!!

إلحاحها القوي يمتزج برجاء عزيز في عينيها ..

رجاء يود لو يستجيب له وليكن ما يكون ..

إنما ..!!

_ ليس الآن .

_ لماذا؟!!

_ لا أريد أن أكذب عليكِ .. أنتِ بالذات لا أريد أن أفعلها

معكِ .

المرارة المشبعة بخزي ظلل حروفه تجعل عيناها

تدمعان من جديد ..

فيكز على أسنانه بقوة مغمضاً عينيه بصوته القوي :

_إلا دموعك يا طيف! البكاء لا يليق بامرأة مثلك!

_افتح عينيك!

تهتف بها بقوتها المعهودة فيستجيب لها ثم تلوح

بسبابتها في وجهه مردفة:

_تعرف كم مرة سقطت ثم قمت من عثرتي طوال هذه

السنوات؟! تعرف ما السر؟! أنني في كل مرة كنت

أختار

الأرض الثابتة التي أقف عليها.. هذه هي أهم قواعد

طيف الصالح.. ولن أجعل لها استثناء.. حتى لأجلك

أنت!

صوتها القوي يتهدج في كلماتها الأخيرة وأشيأ

بمكانته لديها..

فتفرج شفتاه كأنه على وشك البوح بشيء ما ..
لكنه يعاود إطباقهما بقوة مشيحاً بوجهه عنها ..
فتعطيه ظهرها لتتحرك مبتعدة تاركة للسندباد حرية
الاختيار ..

إما أن يمضي في رحلته غير المتناهية ببحره ..
أو يلقي هلب سفينته فوق مرفئها فلا يبحر من جديد
إلا وهي معه !



الطيف الرابع عشر

أحمر

_ خالي ربيع خرج بالسلامة !!

هتاف هبة المنطلق بفرحتها يجتاح سمع يسرا وهي
تقف في الفرن فيخفق قلبها بسعادة حقيقية وهتافات
العمال من حولها بحمد الله تكاد تصم أذنيها ..

_ سيعود .. سيعودان .. سيعودون !

تتمتم بها يسرا باشتياق تعجبت له في نفسها !!
اشتياق لربيع .. لابراهيم .. ولأولاد عمه .. كلهم ..

كلهم افتقدتهم كأنما اختل توازن عالمها - الافتراضي -

منذ رحلوا ..

لكن فرحتها يهزمها المزيد من هتاف هبة المنفعل:

_هم في طريقهم إلى هنا الآن .. جنة أخبرتني أنها

ستوصلهم بنفسها مع زوجها .

تشعب ملامحها كثيراً وهي تتراجع خطوة لا إرادياً

للخلف ..

_هاهم قد جاءوا !!

لم تدرِ من أين أتى الهتاف لكنها وجدت أثر قصفه في

صدرها !!

تسمع الجلبة حولها فتميز لوهلة سيارة فخمة تقترب

وقد كان هذا آخر ما وعته قبل أن تغلق عينيها

بقوة ..



كالنعامة تدفن وجهها في الرمل كي لا ترى الخطر

وكان هذا كافياً كي لا يلحق بها هو!!

وبقدر لهفتها للقاء ربيع وإبراهيم لم تشعر بخطواتها

وهي تركض ركضاً عكس خطوات الجميع نحو

الأعلى ..

نحو شقة هبة تحتمي بغرفتها ..

بفراشها ..

بغطائها الذي رفعته فوقها تستمد منه حماية وعيناها

الزائغتان تراقبان باب الغرفة برعب ..

ورغماً عنها تستعيد كل لحظة خوف عاشتها في

حياتها ..

الشريط طويل .. طويل ..

يبدو بطول العمر !!

لكنها هذه المرة تملك هذا القبس من النور في

صدرها ..

هذا الطيف الواعد من "قوس قزح" يتوهج ببطء

وسط غيمات روحها ..

_ يارب ! يارب !

تهمس بها بخشية لأول وهلة ونفس الرهبة تمنعها

من رفع رأسها لأعلى كأنها تشعر أنها لا تستحقها أو

كأنها تخشى أن تصيبها صاعقة ..

لكن قلبها يأنس لها رويداً رويداً فتردها تباعاً ثم

ترفع رأسها للأعلى هامسة بين دموعها :

_ أنت تحبني .. لو كنت لا تحبني لما أوجدت لي

الطريق هنا .. لا أعرف بما أدعوك .. لا أحفظ شيئاً مما

يقولونه .. لكن .. اغفر لي ما مضى .. ولا تحرمني هذا

المكان الذي يقربني إليك .. يارب .. يارب ..

تكررها مرة خلف مرة وهي تشعر بالعجز ..

إنما - كذلك - بالقرب !!

مما وعته من كلام إبراهيم في الدرس ذاك اليوم أن
الله يجيب المضطر إذا دعاه .. وهي الآن تشعر أنها في

أشد لحظات حياتها خوفاً ..

ليس خوفاً من أن يفصح سرها فحسب ..

بل أن يجبروها أن تخرج من هنا ..

أن يخلعوا عنها عباءة "سمرا" التي لفتها بعد طول

عري وبرد ..

ويعيدوها لثوب يسرا الذي لا يدفى ولا يستر !

الدقائق تمر بها في عدوها كالساعات ولسانها يلهج

بدعوات لا تنقطع بينما نظراتها المرتعبة لاتزال

تراقب الباب بوجل ..

ولما طال انتظارها وجدت نفسها تغادر مكانها بتردد

لتخطو نحو الخارج ..

تتحرك نحو سور السطح تراقب من أعلى لعلها

تستكشف الوضع ..

دقات قلبها تتقاذف بجنون وهي لا تدري أين ذهب

الجميع ..

لكن عينيها تميزان سيارة فهد تبتعد ..

أخيراً!

_أُتيناكِ نحن ما دمتِ لا تريدين رؤيتنا!

"الصوت الحبيب" خلفها يجعلها تلتفت نحوه بكل

ذرة لهفة تحملها خلاياها ..

ثم لم تشعر بنفسها وهي تندفع نحوه لتلقي برأسها

فوق صدره قبل أن تجهش في البكاء!!

لم تفكر وقتها في أي شيء سوى حاجتها لهذا الذي

تفعله !!

هذا الذي كادت تحرم منه منذ قليل !!

المفاجأة تلجمهم جميعاً لتمط هبة شفيتها باستياء ..

بينما يكاد قلب إبراهيم يقفز من بين ضلوعه وهو

يرأها بين ذراعي والده تبكي بهذه الحرقرة ..

لقد كانت أول وجه يبحث عنه بين أهل الحي الذين

تراحموا للقائم ..

طوال هذه الدقائق وهو يكاد يحترق إليها

قلقاً ..وشوقاً !

هذا الذي تزيده وقفتها هذه اشتعالاً فلا يكاد يشعر

بأنفاسه التي تلاحقت وهو يتصورها الآن بين ذراعيه

هو ..!

يستغفر الله سراً وهو يطرق برأسه مشبكاً قبضتيه

جواره فيما يشعر ربيع بالخرج وهو يبعتها ليتفرس

في ملامحها الباكية فتنتبه أخيراً لما فعلته لتتهف بين

دموعها بوهن لا تدعيه :

_أسفة ..لم أشعر بنفسي ..أنا افتقدتك جداً ..كنت ..

تعجز عن إكمال عبارتها وهي تشعر بالحماسة !!

أي جنون هذا دفعها لما فعلته ؟! بل أي حرمان ؟!

_ الحزن لـ "مستر ربيع" فقط؟! أم لكل الذين كانوا

مسجونين معه?!!

يهتف بها روميو متظارفاً فيضحك قيس ضحكة عالية

متوقفاً رد فعل إبراهيم الذي لكم روميو في خاصرته

بقوة جعلت الأخير يتأوه بمبالغة وهو يبتعد هاتفاً :

_ يدُّ هذه أم مطرقة؟! السجن لم يؤثر على صحتك?!!

لكن ربيع يتجاهل حماقاتهم وهو يعاود تفرس ملامح

يسرا التي كفكفت دمعها ليقول بحنانه الحذر:

_ أخبروني أنك صاحبة فكرة فتح الفرن حتى في

غيابي !

_ فرحت بها?! أعجبتك?!!

لهفتها المغالية تبدو له - بل لهم جميعاً- شديدة
الطفولية ولو نظروا بداخل روحها لأبصروا حقاً
طفلة ..

طفلة كبر جسدها وبقيت روحها على فقر احتياجها !
طفلة تريد نظرة فخر في عين أب تحترمه !
يبتسم لها بنفس النظرة الحذرة وهو يختلس نظرة
نحو إبراهيم ..

رغم إطراقه ببصره كان يشعر أنه لا يرى في هذه
الدنيا كلها الآن سواها !!

الدرويش خلع عباءة زهده ولامبالاته مستجيباً
لنداءات هذه المرأة ..

عودوا لشقتكم واستريحوا .. أنا نظفتها .. سمرا
ساعدتني .. هي من نظفت غرفة إبراهيم .

تهتف بها هبة ليرفع إبراهيم بصره بلهفة لم يملكها
نحو وجه يسرا التي كانت تتأظره بنفس الالهفة ..
هي دخلت غرفته كما دخلت قلبه ..
وكلاهما كان مصادفة جبرية ..

فليت كل الصدف هكذا .. ليت كل الإجبار هكذا !!
ابتسامته "المنقوصة" تتراقص على شفثيه بلحن
خاص هذه المرة ..

لحن وجد صداه في قلبها الذي تعلق خفقاته بهذه
الابتساماة ..

آه لو كان يمكنها الاحتفاظ بها مع ما سرقتة من
تذكاراته !!

_ استريحوا حتى أعد الغداء .

تكمل بها هبة حديثها ليهتف ربيع بمرح :

_ لا! لا أريد العودة للحبس بين أربعة جدران.. تعالوا

نتناول غداءنا بالخارج .

_ عاش مستر ربيع فاهم كل المواضيع!

يهتف بها عنتر ملوحاً بقبضته في حماس ليتبعه

أخواه فيما تهتف هبة باعتراض:

_ وما الداعي للمصاريف!؟

_ اسكتي يا عدوة الفرحة ! الرجل يريد بعض المرح

بعد حبستنا السوداء تلك ! وأنت تريدنا أن نخرج

من طبيخ السجن لطبيخك !

يهتف بها قيس متهكماً بمرح لتهتف هبة باستنكار:

_ تقارن طبيخي بأكل السجن!؟

_ وأكل السجن يكسب! الحق يقال!

يهتف بها روميو مؤزراً أخاه وهو يبسط راحته في
وجهها لتطلق يسراً ضحكة كتمتها بسرعة وهبة
ترمقها بنظرة زاجرة ..

بينما يهتف ربيع بصرامة مصطنعة :

_ أنا قلت كلمتي .. هيا بنا .. هبة وسمرًا سيركبان معنا
سيارة إبراهيم وأنتم الحقوا بنا .

_ خذنا معك يا إبراهيم .. ضعنا حتى في حقيبة
السيارة !

يهتف بها روميو وهو يشبك كفيه في وضع الرجاء
ليدفعه إبراهيم براحته المفرودة التي ألصقتها بوجهه
هاتفاً بغلظة :

_ ابتعد عن إبراهيم الآن بدلاً من أن يدهسك
بالسيارة !

ضحكتها "الراقصة" تعاود بسط سلطانها على
مسارح قلبه فلا يملك هذا الوجد اللذيذ الذي يجربه
لأول مرة ..

ضحكة تعالت وتيرة عزفها طوال الدقائق التالية وهي
تستقل معهم السيارة ودعابات ربيع المرحلة
تغشاهم ..حتى تتوقف السيارة أمام المكان الذي قرر
ربيع تناول الغداء فيه ..

_ مسمط؟! سناكل "سميط"؟!!

تهتف بها يسرا بجهل ليضحك ربيع وهو يلتفت
بوجهه نحوها هاتفاً:

_ المسمط لا يبيع "سميط"!!

_ إذن ماذا يبيع؟!!

جهلها يستجلب المزيد من الحذر لابتسامته :

_ "كوارع، كرشة، لحمة راس" سمعت عنها؟!!

تتسع عيناها للحظة ثم تغمغم بارتباك:

_ بالطبع .. بالطبع .. أحبها جداً !

_ جيد .. هيا بنا! إنه أنظف وأشهر مسقط في مصر!

تجاهد باستماتة كي تخفي اشمزازها وهي تدخل

معهم لتستقر في كرسيها ..

لماذا قالت أنها تحبها ؟!

لماذا؟!!

تراقب بهلع هذه القطع غريبة الشكل التي رصت في

سائل ما ..

هل ستأكل هذا ؟!

تزم شفيتها بقوة كاتمة رغبته في التقيؤ ..

لكن ربيع يقرب طبقها منها هاتفاً :

_كلي وادعي لعمك ربيع !

_أنا أدعو لك دون هذا !

تهتف بها بعفوية وهي تعود برأسها للخلف فيقول

إبراهيم باهتمام :

_لو لم تكوني راغبة يمكننا إحضار طعام آخر لك !

_هي التي قالت أنها تحبه !

يقولها ربيع بنفس النبرة الحذرة التي اكتست بمرحه

المعهود لترد يسرا بسرعة :

_أحبه بالطبع ..هات !

تشرع في تناوله بتردد لأول الأمر لتجبر نفسها على

استساغة مذاقه ..

لم يكن بهذا السوء الذي يوحي به مظهره ..

وربما شهيتها كانت نابغة حقاً من هذه الصحبة ..

حنان ربيع ..

مرح الحرافيش ..

طيبة هبة ..

وإبراهيم الذي جمع ماسبق كله !!

لم تره يوماً بهذا المرح كما هو الآن وهو يشاكس

أبناء عمومته ..

_تعالوا نتراهن ..من منا يضحك إبراهيم ؟

_صعبة هذه !

يهتف بها قيس مخاطباً إبراهيم ليردف وهو يلوح

بذراعيه في وضع كوميدي :

_مهندس أنجب بنتين ..أسمى الأولى لوجين والثانية

(log out)

يمط إبراهيم شفثيه بسماجة فيهتف عنتر :

_دوري! ماذا تقول السلاحف عندما تقع في مصيبة

؟! يارب "نينجا" منها على خير!

تضحك يسرا بانطلاق وهي ترى فشلهم في انتزاع

ضحكة إبراهيم ليهتف روميو :

_لن يضحكه غيري! اسمع هذه! دكتور أسنان سرق

حبسوه في "سجنال"!

_يا أحبائي خفة الظل هذه نعمة.. إذا لم تكن لديكم فلا

تتظارفوا علينا!

يقولها إبراهيم مشاكساً فيلتفتون نحو هبة يدعونها

للمشاركة لكنها ترد بخشونة :

_ماذا؟! تريدونني أن أقول نكتة؟! هزلت!

_إذن قولي انت يا سمرا وأنا متطوع بالضحك للعام

القادم !

يهتف بها قيس وهو يغمز بعينه بحركة مشاكسة ..

_لا! لا! لا أعرف ! أنا ثقيلة الظل جداً في هذا

الشان !

تقولها وهي تتذكر بعض النكات قليلة الحياء اللاتي

كنّ يتدنرن بها في النادي مع رفقتها الفاسدة فتغيم

عيناها بسحابة داكنة ..

شتان بين ضحكتها الآن وضحكتها ذاك الوقت !

_أقول أنا ! والضحك إجباري!!

يهتف بها ربيع بمرحه الوقور فيصفقون صفقة

جماعية ليرد ب-نكته ما- انفجرت لها ضحكاتهم ..

_إبراهيم!

يهتف بها ربيع بعينين دامعتين ليلتفت نحوه إبراهيم

الضحك فيردف العجوز بصوت أرجفته لوعة أب:

_تعرف منذ متى لم أرك تضحك هكذا!؟

تدمع عينا يسرا بتأثر وهي ترى إبراهيم يميل ليعانق

أباه ثم يقبله في كتفه فيربت الأخير على ظهره !

تغمض عينيها بقوة على هذا المشهد كأنما تريد أن

تدخره !

ضحكته !!

ضحكته تبدو لها شبيهة بهذا العالم الذي ينتمي إليه ..

عفوية .. دافئة .. صادقة ..

صادقة .. صادقة ..

الكلمة تهوي عليها بمطارق الذنب لكنها تتجاهلها ..

لماذا يدق قلبها بهذا الجنون!؟

لماذا تشعر وكأن صورته الضاحكة هذه ستلتصق

بحدقتها طوال العمر!؟

لماذا -للمرة الألف- تود لو تحشر نفسها حشراً بينه

وبين عناق أبيه!؟

والجواب الوحيد يفرض نفسه ..

هي ولدت من جديد هاهنا لتكون امرأة جديدة..

امرأة تعشق هذا الرجل وتتمنى أبا كأبيه وحياة

كحياته ..

ولا يعنياها ماذا ستدفع في المقابل .. عمرها كله فداء!

=====

في مطبخ شقة ربيع تقف يسرا دامعة العينين ..

ليس حزناً .. إنما أثر البصل!!

تنتهي مما تفعله ثم تفتح هاتفها خلسة لتتابع الفيديو

الموضح لطريقة الطهي ..

لقد كذبت على هبة زاعمة أنها تجيد الطبخ ..

ماذا كانت لتخبرها والأخيرة تتعجب كونها كانت

تسكن وحدها لسنوات ولا تعرف شيئاً كهذا !؟

كما أنها أرادت أن يأكلوا جميعاً من صنع يدها !!

أرادت تجربة هذا الشعور وهي تقف في مطبخ شقة

ربيع تطهو لهم الطعام ..

_أنجزي عملك بسرعة .. صلاة الجمعة أوشكت على

الانتهاء .. عسى أن يعجبهم "البط بالبرتقال" الذي

تحكين عنه هذا .. من أين أتيت بهذه البدعة !؟ نحن

نسمع عن البط والرقاق .. البط والمحشي .. لكن بط

بالبرتقال ! لا يهم مادام على ضمانتك ! المهم أن

تسرعي!

تهتف بها هبة تتعجلها لتردف وهي تحمل طبقاً

بلاستيكياً كبيراً :

_ سأنشر الغسيل في الشرفة .

تهز يسرا رأسها بارتباك وهي تخفي الهاتف جانباً

ريثما تبتعد ثم تعاود النظر فيه لتستكمل ما فعله ..

تتناول البطة التي كانت قد قررت طهيها بعصير

البرتقال - كما رأت في الفيديو - لكنها تنزلق من بين

كفيها فتسقط بالطبق الزجاجي الحاوي لها ليختلط

هشيم الزجاج بها !!

تقف مكانها مصدومة وهي تراقب الكارثة التي

أحدثتها وقد سقطت زجاجة جوارها مع طبق

الخضروات كذلك لتختلط كل هذه الفوضى على

الأرض ..

_ لا ! لا !

غضبٌ عنيف يحتاحها يتحول لبقاء هستيري وهي

تضع كفيها في خصرها تراقب الوضع بيأس ..

_ فاشلة ! فاشلة !!

تتمتم بها بقتوط وهي عاجزة عن منع دموعها

ليصلها صوته بين حنان وجزع خلفها ..

_ لماذا تبكين؟!

تلتفت نحوه بخزي ودموعها تغرق ملامحها الجميلة

لكن إبراهيم يبتسم وهو ينحني ليجمع قطع الزجاج

المكسور:

_ لا بأس .. دعيني أنقذك من لسان مستر ربيع قبل أن يعود وننقذ ما يمكن إنقاذه .

_ ماله لسان مستر ربيع؟! ليت الناس كلها مثله !
تهتف بها مدافعة بين دموعها وهي تهم بالانحناء
لتساعده لكنه يهتف بصرامة :

_ لا تحني!

تعود لاستقامتها سريعاً وابتسامة عجيبة تخالط
دموعها التي مسحها بسرعة وهي تراه قد انتهى من
جمع قطع الزجاج ليلقيها بعيداً بحرص ..

يتناول البطة ليتفحصها قائلاً:

_ ترى ماذا أصابك يا بئسة؟!

ثم يردف دون أن ينظر إليها :

_ أخبريني ما مصير الطيور المسكينة التي تقع في

يدك !

تضحك رغماً عنها وهي تشعر بمرحه غريباً على

طبيعته التي اعتادتها ..فتهتف بعفوية:

_ ليس ذنبي والله .. هو انزلق من يدي ..أنا ماهرة جداً

في الطهي !

يصدر همهمة مأكرة وهو يشير بعينه لها تفها حيث

لا يزال فيديو الطهي يعمل ليقول بتهكم:

_ واضح!

تشهق بخجل وهي توقف الفيديو هاتفة برجاء:

_ لا تخبرهم .. أرجوك ..أنا أردت أن أطهو لكم الطعام

بيدي اليوم !

_ حسناً..سرك في بئر!

يقولها بنفس المرح وهو يغسل البطة من جديد تحت
السنبور شاعراً بوجودها هنا جواره يحيي به شعوراً
لم يعرفه من قبل ..

كيف يخبرها أنها كلها فتنة !!؟

دموعها فتنة ..ضحكتها فتنة ..

تلثمها فتنة ..

وحتى وقوفها هكذا مشبعة برائحة البصل و"الخزي"
فتنة !!؟

فما بالها بعبارتها (أردت أن أطهو لكم الطعام

بيدي)!!؟

فتنة ..فتنة ..فتنة !!!

جيدٌ أنني لقيتك وحدك ..تسمح لي أن أهديك شيئاً

بمناسبة عودتك بالسلامة!!؟

تقولها بخجل تتعجبه في نفسها ..

ليس هو فحسب ..

بل كل هذه المشاعر التي تغشاها في حضرته كأنها
مراهقة تتفتح براعم أنوثتها تحت شمس الحب لأول

مرة !!

يلتفت نحوها بمزيج من رهبة ولهفة وهو يضع ما
بيده جانباً بينما يراها تتناول علبة من البسكويت

تتاولة إياها :

_"بيمبو"! أليس هذا هو اسمه!؟"

ابتسامته المنقوصة تتحول لأخرى كاملة وهو

يتناولها منها ليسألها بعينين لامعتين:

_"كيف عرفتِ أنني أحبه!؟"

_"عندما كنت أنظف غرفتك!"

تهتف بها بالمزيد من التلثم وهي تتعجب حالها من

جديد !!

هل هذه يسرا الصباحي التي كانت تتيه دلالةً وكبراً في

سيرها أمام الناس ..

الآن تخجل وتتلثم؟!!

ربما لأنها .. الآن تعشق!!!

بينما يرتفع حاجباه هو بحنان وهو يتأمل العلبة في

يده ليقول بشجن :

_ كنا نحبه أنا وحسن .. بشكله القديم ذي الورقة

الكرتونية سهلة الفتح أكثر من البلاستيكية التقليدية

هذه .. كان كل واحد منا يشتري واحداً لكنه يصر أن

يقتسمه مع الآخر .. هكذا عشنا حياتنا كلها

متشاركين ..حتى روحنا تقاسمناها ..ربما لهذا ذهبت

نصف روحي معه عندما ذهب .

تعود الدموع لعينيها وهي تشعر من جديد بالحاجز

يرتفع بينهما ..

لكن ابتسامته التي وجدت "كمالها" أخيراً على

ضفتي جبينها تبدو لها وكأنها تمد لها يداً ثقيلها من

عثرتها ..

ترفعها إليه ..وما أشد حاجتها لأن ترفع إليه !

_شكراً .

يقولها وهو يضم العلبة لصدره فتشعر لوهلة أنها

تحسدها ..

تتلثم حروفها من جديد وهي تشيح بوجهها قائلة :

_تمزح؟! من بنا يفترض أن يشكر الآخر!؟!

تلتمع عيناه بهذا الألق الخاص الذي لم تره وإن كانت

قد شعرت به ..

كهالة من نور طوقتها بحنو نافضة عنها كل

هواجسها ..

صوته الحنون بخشونته المحببة ومسحة المرح

الجديدة التي تغزوه يعاود طرق أبواب أنوثتها:

_ بهذه المناسبة .. كنت أريد أن أسألكِ سؤالاً .

تلتفت نحوه بترقب فيردف :

_ دفتر ورقي كان في درج مكتبي .. رأيتَه !؟!

الرنّة الماكرة في صوته لم تبد لها مهددة بقدر ما بدت

لها بشقاوة طفولية بريئة ..

ربما لهذا هزت رأسها نفيًا دون جواب وابتسامتها

الخبول تصرخ بالكذب ..

فيمد يده في جيبه ليستخرج زراً بلاستيكياً رفعه أمام

عينيها :

_وجدت هذا في الدرج حيث اختفى الدفتر .

تتسع ابتسامتها وهي تهز كتفيها قائلة :

_وما أدراك أنه لي؟!!

_إنه زر قميصك الأحمر !

_لم أكن أعلم أن أزرار قميصي مميزة .

يخفق قلبها بجنون مع هذه السعادة الكاسحة التي

تعبث بضلوعها في هذه اللحظة وردّه يصلها واضحاً

دون مواردية :

_كل ما يعينك مميز .

ترفع عينيها إليه تنهل من جدول نظراته العذب ما

يكفيها ..



لو كان أحدهم قد أخبرها أن النظرات تسقي لما

صدقته ..

وهاهي ذي الظمأى تشهد بعذوبة "السلسبيل" في

عينيه !!

وأمامها كان الدرويش يرقب "العندليب الأخرس" في

عينها لايزال متردداً في التحليق فوق غصنه ..

ولايزال يتوق لسماع صدحه ..

_أريد دفترتي !

يقولها بنفس الصوت الرجولي الخشن المكسو بمرحه

الجديد ..

لتعاود هز كتفها قائلة بدلال ماكر:

_من يدري؟! ربما لو كنت أكملت حروفه لما ضاع

منك !

ضحكته القصيرة توازي سؤاله :

_إذن رأيتَه؟! فاشلة أنتِ في الكذب!

كلماته ترده لحقيقة وضعها فتختفي ابتسامتها لتغيب

ملامحها في خوف لم تملكه ..

خوف أساء هو تأويله ليردف :

_لا أتهمك ..فقط أسألك ..لماذا أخذته؟!!

تنهيدة حارقة تغادر صدرها فتقذف معها كل خوفها ..

لتعود لصوتها نبرة دلالة :

_لأقايضك على أن تكمل حروفه !

_هو حرف واحد ناقص!

يقولها متعجباً لتبتسم و عيناها تكملان ما لم يجسر

لسانها على قوله :

_لا يليق بك أي نقصان !

ابتسامته حديثة الكمال تعانق شبيهتها فوق شفيتها

بينما تردف بشرود :

_تعرف؟! وددت لو كنت أملك دفترأ مشابهاً ..فقط

باختلاف واحد .

عيناه تغيان بنظرة متسائلة فتسبل جفنيها هامسة :

_أنا أعرف بأي حرف يبدأ!

همسها كان شديد الخفوت لكنه بدا في أذنيه كدوي

قذيفة !!

شفتاه ترتجفان فيزدرد ريقه بارتباك وهو يود تصديق

هذا الذي تصرخ به عيناها ..

_أي حرف؟!!

سؤاله يختض بين شفتيه بنفس الفوضى التي تعيث

فساداً بين ضلوعه ..

فتكاد وجنتاها تحترقان بخجلها وهي تطرق بوجهها

هامسة :

_ألفِ ..

ثم تصمت لحظة يهياً إلى كليهما فيها أن الأرض قد

كفت عن الدوران ..

لتردف قاطعة عليه سبيل الشك :

_مكسورة !

_أنهيتِ الطبخ؟!!

تهتف بها هبة وقد دخلت لتوها قاطعة عليهما سحر

اللحظة لتردف وقد انتبهت لوجود إبراهيم:

_متى عدت؟! أين خالي ربيع؟!!

_في طريقه إلى هنا !

يقولها بارتباك لم يخلُ من ضيق فتقل هبة بصرها

بينهما بتوجس مخاطبة يسرا بقولها:

طبختِ البطة؟!!

تشعب ملامح يسرا وهي ترمق إبراهيم بنظرة راجية

ليهدف الأخير متداركاً الموقف:

أنا طلبت منها أن تنتظر.. لم تكن لدي شهية للبط

اليوم.. أبي كذلك صحته لا تسمح له بتناوله.. الأرانب

أخف!

أى شىء! المهم أن تجزيه بسرعة! لو عاد

الحرافيش ولم يجدوا طعاماً فلن يتأخروا عن التهامنا

نحن! المهم أن تطبخيها كما نعرفها.. كنتِ ستطبخين

البط بالبرتقال فكيف ستطبخين الأرانب؟!!

بالمانجو؟!!

تهتف بها هبة وهي تتوجه نحو الثلجة القريبة
لتستخرج منها كيساً مجمداً منحتها إياه ..
لترمقه يسرا بنظرة بائسة قبل أن تتبادل مع إبراهيم
نظرة ذات مغزى وكلاهما في نفس اللحظة ينظر
لهاتفها "المنقذ" !!

ضحكة إبراهيم القصيرة بعدها تصيب هبة بالدهشة
وهي لا تفهم ما يحدث ..

تنتبه لعلبة البسكويات التي يحملها فتهتف بلهفة:
_ ابن حلال! أنا جائعة ويبدو أن الغداء سيتأخر ..
هات واحداً!

لكنه يضم العلبة لصدره هاتفاً بارتباك:

_ لا!

_ غريب! لم أعهدك بخيلاً!

تقولها وهي تعاود نقل بصرها بينهما بريبة ليرد هو

بسرعة :

_ سيفسد شهيتك !

تكتم يسرا ضحكتها وهي تعطيه ظهرها فيكتفي بهذا

القدر وهو يغادر المطبخ نحو غرفته ليغلق بابها

خلفه ..

يتلمس العلبة بأنامله بشرود ثم يضعها في درج مكتبه

مكان الدفتر "المفقود" ..

يأخذ نفساً عميقاً ثم يتهيأ لصلاة استخارة ينتهي

بعدها لقراره ..

هذا الذي أبلغ به أباه ليلاً ..

_ لا أريد أن أغضب الله فيها .. أنا .. أنا أريد الزواج من

سمرا .



برتقالي



_ سأتزوج !

تكتبها طيف على هاتفها لتطلق بعدها زفرة قوية

وهي تستمر في الكتابة :

_ سأتزوج يا عاصي ! لا أريد موافقتك ولا

أحتاجها .. كما لا أريدك ولا أحتاجك .. سأتزوج وأنجب

وتكون لي عائلة .. عائلة حقيقية تفخر بي ولا



تعيرني .. عائلة لا تعنيها طيف الرفاعي ولا حتى طيف

الصالح .. بل طيف فحسب !

تأخذ نفساً عميقاً وهي تترك الرسالة مكانها..

دون إرسال!

ثم تستدير نحو حاسوبها لتبحث عن حساب آخر ..

هذا الذي خطت له رسالتها الثانية :

_ سأتزوج يا حسام ! رجلاً وسيماً مثلك وربما

أكثر .. ثرياً مثلك وربما أكثر .. ووجيهاً مثلك وربما

أكثر .. يحبني مثلما كنت تزعم وربما أكثر .. غير أنه

لن يتخلى عني مثلك ولا حتى أقل ! لا .. لم أنسك وإلا

ما كنت كتبت هذه الرسالة .. ربما نسيت حبك لكنني لم

أنسَ جرحك .. لكنني في طريقي لفعالها .. وقتها سأوقن

من كامل تعافى منك .. وليتك وقتها تكون أنت الآخر

قد تعافيت مني !

تترك الرسالة كذلك معلقة دون إرسال ثم تنقل بصرها

بين هاتفها وحاسوبها ..

الرسالتان ستبقيان معلقتين ..

لكنها سترسلهما يوماً ما ..

يوم تكون قادرة أن تكتب اسم "يحيى العراقي"

صريحاً في كل منهما !!

تدمع عيناها بأسى فتغمضهما بقوة لتعاود هز رأسها

بعنف ..

هي التي تبتعد عنه هذه المرة !

هي التي ترفض رؤيته وقد عادت لصومعتها الحامية

بعد عودتهما من الجزيرة ..

طيف الصالح لن ترضى أن تهتز الأرض تحت قدميها

حتى لو سحقت قلبها على نفس الأرض !

فليكاشفها كما كاشفته وإلا فليرحل ولا يعود !

غصة لاهبة تعصر روحها قبل حلقها في هذه اللحظة

لكن صوت رنين الجرس الصباحي المبهج ينقذها ..

مجد !

لا تزال طيفها الرائق من "قوس قزح" الذي لن

يلطخه طين الأرض ولا برودة الجو .. بل يحتضنه

صفو سماء !

تضع ما بيدها جانباً لتفتح الباب فتتسع عيناها بصدمة

وهي تميز ملامحه الحبيبة ..

يختلج قلبها بجنون وهي تميز هذه الخصلة في

شعره ..

هذه التي يتحدى بياضها سيل بُنيته الناعمة ..
طالما تمننت في كل مرة تراه أن تمسها ..
والآن تبدو لها في ظروف الإضاءة أكثر لمعانا .. أكثر
جاذبية .. أكثر تحدياً ..

قضبان عينيه يتهاوى بعضها فتوه في هذا الفراغ
الرهيب داخلهما ..

يبدو لها كحقل ورد تخشى على قدميها الحافيتين
أشواكه !

شفتاه ترتجفان هذه الرجفة الخفيفة التي لا تميزها
سوى عين متفحصة .. وعاشقة .. مثلها!
لكنها تتجاوز كل هذا بإرادة فولاذية لا تنقصها وهي
تشيح بوجهها قائلة بفظاظتها المعهودة :

_ أين مجد ؟!

زِعِلَانَة ؟!

صوته الخفيض يتجاهل سؤالها لأنه يعرف طريقه

لشقوق قلبها مهما أوصدت الأبواب ..

خاصة وهو يقترب خطوة أخرى فتشعر برائحته

تحتكر الكون حولها .. بل .. وداخلها ..

أصالحك كما أصالح مجد ؟!

لم تقوَ على الإشاحة بوجهها أكثر مع كلماته هذه ..

سديم عينيها يبدو له في هذه اللحظة أكثر لمعاناً .. أقل

فوضوية ..

كان نجومه تكاثفت في نظرة ليست كأي نظرة ..

رجاء ليس بعده رجاء ..

وقوة ليس بعدها قوة !

لمعة عينيه المرححة تبدو لها مشاكسة حنون فتذكرها
حقاً بنظرته لمجد ..

شقاوتها الطفولية الآن تناقض بياض خصلتها
الحيبية في شعره ..

يا لله ! كم وجهاً لهذا الرجل!؟!

_ لم أتناول قهوتي الصباحية .. يمكنكِ دعوتي لتناولها
معك وسأقبل !

مشاكسته هذه المرة تحمل رجاء يليق بقوته
المعهودة فتراجع خطوة للخلف لتفسح له الطريق ..
تتردد قليلاً في ترك الباب مفتوحاً تكره أن توصل له -
ولنفسها قبله - شعوراً بأنها لا تأمنه ..

لكنها تريد أن توصل له رسالتها كذلك (ستبقى غريباً
ما لم تبُح!)

لهذا تبقي الباب مفتوحاً وهي تلحق به ..

تراه يجلس على الأريكة فتقول بخشونة :

سأعد القهوة !

تقولها لتغادره نحو المطبخ القريب ..

لذة خفية تجتاحها وهي ترى نفسها تعد له شيئاً .. أي

شيئاً!

لذة يخالطها شيئاً من الكبر القديم فتتوقف عما تفعله

لتكتسي ملامحها بالعناد وهي تخرج له من جديد

هاتفة بفضافة :

هل ستجلس هكذا مرتاحاً كـ"سي السيد" بينما أعد

لك القهوة؟! .. لو كنت تريدها يمكنك أن تشاركني

إعداد...

تنقطع عبارتها وعيناها تتسعان بقوة بينما تميز لمعة

الغضب في عينيه وحاسوبها المحمول الذي تركته

مفتوحاً يرقد ببراعة مغيظة فوق ساقيه !

تبا لحماقتها!!

بل تبا لفضوله هو !!

ابتسامة ساخرة بمرارة ترسم على شفثيها وهي

تقترب أكثر لتقف على بعد خطوة واحدة منه ..

شراسة فتية تلتمع في عينيها وهي تتأكد من أنه قد

رأى رسالتها لحسام ..

لكن رد فعلها يأتيه غريباً متفرداً مثلها !!

ها هي ذي تكتف ساعديها وهي تنظر إليه من علو

لتقول بعنفوانها الذي خالطته سخرية واثقة:

ماذا؟! هل هو دوري لأرتجف رعباً وتتخبط ساقاي
بينما أبرر لك ما تراه؟! أم هو دورك لتشكّ فيّ وتثبت
صحة نظريتك في النساء أنهن كلهن مخادعات كمن
خانتك قبلي؟!!

لم تكذ تنهي عبارتها حتى تأوهت بدهشة وهي ترى
قبضته تحكم وثاقها حول معصمها تشدها نحوه
لتسقط جواره على الأريكة ..

يزيح ما على ساقيه ويستدير نحوها ..
قبضته تكاد تشعل النار في جسدها كله ..
قضبان عينيه تبدو لها وكأنما هي جحيم مستعر ..
لكنها لا تظهر خوفاً بل يتوهج السديم في عينيها بهذه
النظرة المتحدية ..

تختلج عضلة فكه واشية بانفعاله الجارف للحظات
قبل أن يغمض عينيه بقوة دون أن يفلت معصمها من
قبضته ..

ومضات تاريخه الأسود تعاود اكتساحه ..

الباب المغلق الذي يستند عليه ..

الصوت المألوف ..

زجاجة العطر التي سقطت من يده لتتهشم ..

حقيبة سفر مفتوحة ..

البحر ..

الموج ..

باقة التيوليب الأبيض تلقيها عروس ليست له ..

ولا يمكن أن تكون له !

البحر قد يخون والسماء قد تغدر والنسيم قد
يبخل .. وحدها الرمال لا تبخل .. لا تبخل ولا تخون !
لماذا ذكرته ؟!
لماذا ؟!

_ اترك يدي واخرج !
تهتف بها بحدة مقاومة انفعالها الجارف في هذه
اللحظة لكنه يعاود فتح عينيه من جديد ..
عاطفته الهادرة تزار مع حروف لا تقل عنها قوة :
_ لو كنت أشك لحظة أنك مخادعة لما كنت الآن
هنا .. لما كنت أقف هكذا في هذا الجحيم الذي أصطلي
بنيرانه ليل نهار .. لبيتك تكونين خائنة .. بل لبيتك
تشبهين الأخريات .. ربما كنت وجدت باباً أخرج منه

أو حتى نافذة أقفز منها تاركاً كل هذا خلفي .. لكن ما

حيلتي وأنتِ .. أنتِ؟!!

يرتجف صوته انفعالاً .. ويرتجف جسدها كلها تأثراً ..

الغريب أن كليهما لم ينطق بتصريح حب واحد ..

لكنه يبدو وكأنه بينهما ميثاق أغلظ من أن تحتويه

كلمة ..

أعظم من أن تستوعبه نظرة ..

وأوضح من أن يُبحث له عن دليل !

تسبل أهدابها وهي تشعر بقبضته ترق حول

معصمها ..

إبهامه يدور ببطء فوق عرقها النابض هناك فيهما

إليها أن دماءهما قد امتزجت معاً ..

أنهما في هذه اللحظة أبداً .. أبداً لم يعودا اثنين ..

بل واحداً!

_ الرسالة التي كتبتها لم تُرسل ! أنتِ كتبتها فقط
لتحدثي نفسك بصوت عالٍ .. لتشعري حالكِ أن الخيط
بيدك لو شئتِ أرخيته أو شددته .. لو شئتِ أرسلتها
تشفياً أو منعته ترفعاً ..

تتسع عيناها وهي تسمعها منه ثم تعود لتراقبه
مبهوتة ..

فتلتوي شفتاه بابتسامة شاحبة وهو يقترب بوجهه
منها أكثر مردفاً:

_ توأم روعي أنتِ! فلا تعجبي من فهمي لك بهذه
الصورة .. يتندرون كثيراً بذكائي لكنني معكِ لا
أستخدم عقلي .. ولا حتى قلبي .. بل روعي .. روعي
تهتدي دوماً بسهم بوصلتك دون خطأ .

صدرها يعلو ويهبط في انفعال وهي تشعر بأنفاسها
تتلاحق ..

وهنَّ غريب يسري في عروقها وهي تود لو تستسلم
له فتلقي برأسها على هذا الكتف تحتضن فوقه حناناً
عاشت العمر تبحث عنه ..

لكن طبيعتها تعاندها فتبتعد بوجهها وسديم عينيها
يتوهج بشهاب من نار:

_جميل! والأجمل أن يأتي يوم أفهمك فيه بهذا
الوضوح الذي تزعمه !

زفرة حارقة تغادر صدره مع قوله :

_مصرة؟!!

_لا..

تقولها حاسمة فيرفع حاجبيه بترقب لتردف وهي

تنتزع معصمها من قبضته :

_ لو لم تكن أنت مصرأً كي تشاركني ماضيك فلا

يعينني حاضرک ولا غدک .. أظني وضحت موقفي

سابقاً .

الضيقة الغاضب في وجهه يسدل ستاره بينهما فيقف

مكانه لتقف بدورها قائلة :

_ لو كنت تفهمني حقاً كما تزعم لأيقنت أنني لست

امرأة ال "بين بين" .. لا تغريني طرق غامضة مهما

بلغ جمالها .. أنا لم أدعك يوماً للاقتراب مني .. لكنني

سأدعوك للابتعاد عني لو أصررت على كتمانك .

عنفوانها الهائج يمتزج بوهن دمع عزيز في عينيها

فيمنحها بعينيه هذه الجاذبية النادرة ..

بينما ترتفع قضبانته بنظرة عاتبة تجعلها تغمض

عينها لتردف بنبرة أكثر ارتجافاً :

_أريد أن أسمع! ..أحتاج أن أسمع! ..أشتاق أن

أسمع! ..أنا عشت كل هذا العمر أسد أذني ..تعرف

هذا الشعور؟! أن تجبر نفسك أن تعيش عمرك مسدود

الأذنين فاقداً لشغف الإنصات؟! تخاف أن يخدش

سمعك صوت تحبه أو حتى تكرهه؟! يرضيك أو

يوجعك؟! تخاف مجرد أن تتأثر فتحتاج فتُخدَل؟! ما

حاجتي فيك لو وجدتك أنت الآخر تسد أذني؟!!

ترتعد خلاياه بتأثر وكفاه يرتفعان ببطء ..

تشعر بهما يحيطان أذنيها فتفتح عينها ليهمس هو

بخفوت :

_أنا مثلك ! لكنني لم أسمعك يوماً بأذني ! فاسمعيني

كما سمعتك !

ولا تدري أي حدس جعلها ترفع كفيها هي الأخرى

لتحيط بأذنيه ..

حركتها بطيئة ..مرتجفة ..ثم تزداد قوتها لتشبهها ..

كلاهما يبدو في هذه اللحظة صورة لصاحبه ..

وقد بدا كل منهما وكأنه يسد أذني الآخر فلا يسمع

سوى صدى خفقات قلبه ..

يتوقف الزمن ..

يغيب المكان ..

تغمض العيون ..

تسكت الألسنة ..

وتصم الأذان ..

وحدها خفقات القلوب تعزف سمفونيتهما ..

وهاهي ذي تسمع!!

تسمع أنين روحه .. شكوى ماضيه .. تردد

حاضره .. وخوف غده ..

تسمع ألف "أحبك" ..

وألف ألف "لا تتركيني" ..

وألف ألف ألف "لا تخذليني .. لا تخذليني حتى لو أنا

فعلتُ"!

يفتحان عينيها أخيراً فتراه يزيح كفيه عن أذنيها ..

أنامله تحتضن خصلة من خصلات شعرها ..

تتلمسها ببطء من منابتها وبطولها .. حتى يستقر

طرفها على راحته ..

يدفن فيها أنفه فيتشقق عبقها بقوة ليرتجف جسدها

كلها تأثراً .. خاصة وهو يهمس بخفوت:

_ لا تعرفين كم أكره الشعر الطويل ..

ينعقد حاجباها ليردف وعيناه تدوخان في سديمها

المغوي:

_ ولا تعرفين كم أعشق شعرك !

تسبل جفنيها وهي تبتعد عنه بوجهها لتزيح كفيها

عن أذنيه فيتهد بحرارة قائلاً :

_ سأخبرك ! سأحكي لك كل ما تريدين معرفته .

ترتسم على شفثيها ابتسامة ظافرة لكنه يبتعد خطوة

لينظر في ساعته مردفاً :

_إنما بالتأكيد ليس الآن ..نزار يتهمني بالتقصير في
عملنا ويزعم أن لدينا مشاكل كثيرة ..ووعده أن
أسوي الكثير من الأمور اليوم .

تمط شفيتها بخيبة فيبتسم ابتسامته الساحرة وهو
يغضن أنفه بحركة ما تثير ضحك مجد في العادة ..

وهكذا فعلت معها هي الآن !!

_ضحكتك ثاني أجمل شيء فيك !

يهمس لها بها وعيناه تهران بموج عاطفته لتهزم
هي خجلها وتسأله بما بدا كفضافة كان هو يدرك ما

خلفها:

_وما هو أول أجمل شيء؟!!

عيناه تدوران فوق ملامحها كأنها ترسمها ثم
تحيطانها كاملة فيشتعل جسدها بشعور غريب لم
تعرفه من قبل ..

بينما تتسع ابتسامته وهو يبتعد خطوة أخرى بقوله :

_ دعيتها لوقت لاحق!

تطلق زفرة ساخطة تثير ضحكته فيعطىها ظهره وهو

يهم بالانصراف ..

لكنه يعود لينحني نحو حاسوبها المحمول فيتناوله

ليمسح رسالتها ..

_ ماذا تفعل أنت؟! ماذا تفعل!؟!

تهتف بها بسخط وهي تنتزعه منه ليهتف هو بجدية

وهو يكزها بسبابته في صدغها ببعض العنف:

_ لو كنتِ تريدين الاحتفاظ برأسك الجميل هذا فوق
عنقك فلا تحدثي رجلاً غيري ولا حتى في خيالك !
تطلق صيحة مستنكرة تذكره بلقاءاتهما الأولى فيعارد
وكزها في صدغها بحركة أعنف هذه المرة مردفاً :

_ أنا مثلك! لا أكرر كلامي مرتين!

تكشيرتها تنقلب لشبه ابتسامة تبخل ببقيتها عليه

لكنه يكتفي بها وهو يعاود الابتسام بقوله :

_ وتذكري أنني دخلت بيتك وخرجت دون

قهوة .. "توديني البحر وترجعيني عطشان" ألا

تقولونها هكذا في مصر!؟

تعجز عن كتم ابتسامتها هذه المرة فتودعه بها

ليمنحها نظرة مطمئنة وهو يربت على شعرها-

حبيبه- برفق قبل أن يغادر لتغلق هي الباب خلفه إنما

برفق هذه المرة ..

تستند عليه بظهرها وعيناها تتحولان لنافورة قلوب

كاملة !!

بينما استقل هو المصعد ليتأمل شكله في مرآته ..

عيناها تتفحصان ابتسامته ليفرد راحته على موضع

خافقه هامساً:

_شكراً طيف .. لم أعرف ابتسامة كهذه من زمن!

يغادر المصعد والبناية ليتوجه نحو سيارته التي

يتحرك بها نحو مقر شركته ..

ولم يكد يصل ليغادرها حتى فوجئ بالصوت الأنثوي

خلفه :

_يحيى ! هذا أنت حقاً؟!!

=====
يجهز حقيبته للسفر وهو يشعر أن هذه المرة
مختلفة !

هو السندباد الذي اعتاد الترحال وتقبله قدراً ..
فلماذا هذه المرة يشعر أنه يجاهد قدميه كي تتحركاً ..
ربما لأنه ود هذه المرة بالذات لو لا يرحل!
يراقب الحقيبة بنظرات غريبة ثم يهمس لنفسه
بوجع:

_ نسيت أهم شيء يا يحيى! هذه بالذات لا تنسى!!
يتوجه نحو حقيبته القطيفية الأثيرة التي رصت فيها
قواريره الزجاجية بصدفاتها الملونة .. فيفتحها ..
يتأمل هذه الفارغة التي خلت من صدفاتها وقد منحها
ل"صاحبها" ..

يغمض عينيه بقوة على دمعة حملت صورتها ليهمس

لنفسه من جديد :

_حان الوقت ..حان الوقت ..

يستحضر طيفها الفريد في خاطره ..سديم عينيها

بفوضاه ولمعانه ..عنوانها الذي ينضح منها

كالمسك ..ومعنى "أحبك" الذي فاضت به كل خلاياها

عدا لسانها ..

يتذكر سر غضبه عندما رأى رسالتها لحسام ..

الغافلة ظننته وقتها قد ساوره الشك فيها ولا تعلم أن

ما أشعل صدره بحق هي كلمة "سأتزوج" التي

كتبتها في رسالتها ..

تظنه سيتزوجها !؟

تظن القصة بهذه البساطة الساذجة !؟

_ وعدتك أن أخبرك .. وسأفعل .. لكن ليس وأنا أنظر
في عينيك .. أنتِ قبلتِ أن تحترقي -معي- بي لكنني لن
أبقى لأشاهد رمادك يمتزج برمادي .. لا أخاف عليكِ
فمثلكِ عنقاء تجيد النهوض من تحت الرماد .. إنما
أخاف على قلبِ استودعتني إياه وياويلي لو ضيقت
وديعتك !

يقولها لنفسه مستحضراً طيفها ثم يفتح عينيه بعدها
ليبتلع غصة حلقه وهو يغلق الحقيبة ليضعها في
حقيبة سفره ثم يغلقها ..

_ هل انتهيت!؟

صوت نزار خلفه يجعله يلتفت له ليومئ برأسه إيجاباً
دون رد ..

فيتحرك نزار ليربت على كتفيه برفق قائلاً بنبرة

مؤازرة :

ما فعله هو الصواب ! عملنا في خطر ويجب أن

تتصرف .. لا لأجلنا فحسب بل لأجل مجد .. أعرف أن

لقاءك بتلك المرأة قلب موازينك لكن لعله كان

ضرورياً لتنقذ الموقف .. أعرف أنك ستجيد التصرف !

يهز له رأسه مطمئناً ليرد بنبرة متماسكة :

سأهاتفك عندما أصل بغداد !

يعاود نزار التريبت على كتفه فيغمغم له برجاء :

قبل مجد عندما تستيقظ .. أخبرها أنني اضطررت

للسفر .. اعتني بها حتى ألقاكما!

لا تخش شيئاً !

وطيف؟!!

يتمم بها بوجل ليتهد نزار قائلاً :

_ كما أوصيتني .. لا تقلق !

يتعانقان بعدها ليغادر يحيى شقته حاملاً حقيبتة ..

يرمق باب شقة طيف المقابل بنظرة عميقة ثم يرتدي

نظارته الشمسية ليستقل المصعد ..

و..يرحل !

=====

_ أوف ! أوف ! أوف !!

تتأفف بصوت عال وهي تخبط على سطح طاولتها

بعنف قبل أن تتناول واحدة من سجائرهما لتشعلها ..

تنفث دخانها مرة تلو مرة بعناد ..

كانت قد حاولت التقليل من عاداتها في التدخين خاصة

في حضوره منذ علمت عن تبرمه منه ..



لكنها الآن لا تملك التعبير عن غضبها وتمردا سوى

بهذا !!

سافر!

هكذا دون مقدمات!؟

دون أن يخبرها!؟

وبعدما وعدا بمشاركتها ماضيه .. وحياته!؟

ربما لو كان واحداً آخر غيره لظنت به سوءاً ..

لكن هو !!

لماذا فعلها!؟

لماذا!؟

تدمع عيناها وهي تحاول التشاغل بهاتفها ..

حسناً هاتفها منذ قليل ..

لا جديد عن زهرة وجهاد ..



خبر خائق!

مدير دار النشر ومكالمته ..

مبيعات كتبها تتراجع مع أزمة السوق الراهنة وهو

يطلب منها عملاً جديداً ..

تلك الرواية غير الرومنسية التي وعدت فيها بتغيير

جلدها ..

والتي بدأتها ولم تكملها ..

لا طاقة لديها ولا مزاج !

خبر خائق آخر!

تلقي هاتفها جانباً ثم تتناول حاسوبها المحمول ..

تتذكر جلسته هاهنا في نفس المكان يضعه مثلها الآن

على ساقيه فتغمض عينيها بحنين ..

حنين كانت قد قتلته في روحها من زمن ..

_ لماذا تفعل بي هذا؟! ألم تقل أنك تفهمني لأنني

أشبهك؟!!

عتابها يخنقها بالمزيد من القلق فتنتابها فكرة ما ..

ترسل له رسالة من حسابها المزيف ك"ضياء" ..

_ افتقدتك يا صديقي ..لم تحدثني منذ مدة .

تلتمع عيناها بترقب وهي تراقب رسالتها لدقائق

طالت ..

إنما .. لا رد !!

تنفث آخر أنفاس سيجارتها لتطفئها بعنف ثم تنهض

من مكانها تتلفت حولها بعجز ..

تسمع صوت المصعد من الخارج يتوقف فتهرع إلى

باب شقتها تفتحه ..

_ نزار!

تناديه وهي تتوجه نحوه بخطوات شبه راکضة ..

تنتبه لمامحه العابسة التي اختفى منها مرحة

المعهد لتسأله بحدة :

_ أين يحيى!؟!

_ ألم تخبرك مجد!؟!

يقولها مراو غاً لتهتف بالمزيد من الحدة :

_ أخبرتني أنه سافر .. وأنا أريد أن أعرف أين سافر

ولماذا وكيف يفعلها دون أن يخبرني!؟!

لم تتخرج من سؤالها الأخير كأن حقها فيه لم يعد

خافياً على أحد ..

فيطرق نزار برأسه ليقول باقتضاب موفياً بوصية

صاحبه :

_ طلب مني ألا أخبرك !

ينعقد حاجباها بغضب وشيطان وساوسها يلقيها
لأسوأ الظنون لكنها تدحضها جميعاً وهي تتخصر
لتهتف بقوتها المعهودة :

_ طلب منك ألا تخبرني؟! حسناً.. اسمع ما عندي.. إذا
كنتم تعتبرونني غريبة عنكم فأنا الأخرى سأعتبر
نفسي كذلك.. من اليوم لن أرى مجد.. سأقطع علاقتي
بكم جميعاً.. وتحمل أنت النتيجة !
يرفع وجهها إليه مصدوماً فتهتف بالمزيد من العناد :
_ سمّها ما تشاء ! قسوة .. ابتزاز .. نذالة .. لا
يعنيني .. الخيار لك .

تقولها لتعطيه ظهرها وتعود لشقتها وقلبها يخفق
بجنون ..

تعلم أنها قد لا تقوى على فعل ما تهدد به ..

لكنها حيلتها الأخيرة ..

نزار هذا يبدو ضعيف الشخصية وسيستجيب

لتهديها !

_ انتظري !

تبتسم بظفر اللحظة ثم تستدير نحوه بلامح جامدة

ليقترب منها بنفس الملامح العابسة قائلاً :

_ من فضلك ! ما فينا يكفينا ! لا تجبريني على

الإفصاح .. تعلمين أن مجد شديدة التعلق بك خاصة في

غياب يحيى .. لا ..

لكنها تقاطعه بقوة هاتفة بفضافة :

_ كم مرة أخبرتك أنني لا أكرر كلامي مرتين .. أخبرني

عما "فيكم ويكفيكم" هذا أو اتركوني لشأني دون أي

عواقب بيننا !

يبدو الصراع على ملامحه فتستدير من جديد كي

تغلق الباب في وجهه لكنه يمسكه بقوة هاتفاً :

_ يحيى سيقتلني لو شم خيراً أنني أخبرتك !

_ لن أخبره!

تقولها بنفس الفظاظة التي خالطها شبح رجاء فيتردد

قليلاً لتتهف بنفاد صبر:

_ انطق! أخبرتك أن ما تقوله سيبقى سراً بيننا .

ينعقد حاجباه بانفعال وهو يخفض صوته قائلاً:

_ نحن في ورطة ! أنا نبهته ليهتم بأمر الشركة لكنه

لم يستمع لي .. الشركة مدينة بمبلغ كبير ولا يمكننا

تغطيته .. لهذا سافر إلى بغداد كي يمكنه تدبير

وسيلة .

_ ولماذا لم يخبرني !؟

تسأله بضيق فيطرق برأسه قائلاً:

_ هناك جانب ناقص من الحقيقة لكن هذا لا يمكنني

إخبارك به .. سيفعل هو بنفسه عندما يعود .. هو

أخبرني أنه سيفعل.

_ ومتى سيعود؟!!

_ لا أعرف .. يبدو أن الأمور في بغداد لم تتيسر كما

كان يأمل .. يماطل في الرد على اتصالاتي .

يقولها بقنوط ثم يغتصب ابتسامة باهتة ليرد:

_ لا بأس .. نحن اعتدنا تقلبات السوق هذه .. يحيى

سيجيد التصرف كالعادة .. لكنني أرجو ألا تفارقي

مجد هذه الأيام .. تعرفين كيف يكون حالها في غيابه .

تهز رأسها بتثنت وهي تشعر بالضيق ..

لهذا سافر دون أن يخبرها !!

المغرور منعه عزة نفسه من أن يعترف لها بضائقته

المالية !!

وما هذا الجانب الناقص من الحقيقة الذي يرفض نزار

الإفصاح عنه ؟!

هل يتعلق بماضيه الذي وعدّها أن يكشفه لها ؟!

_ كم هذا المبلغ ؟!

تسأله باهتمام لتتسع عيناه بصدمة وهو يميز سبب

سؤالها:

_ فيما تفكرين ؟! لا يمكنني الاقتراض منك بالطبع!

_ لن يعلم !

تقولها مهدنة ليهتف بالمزيد من الاعتراض :

_ ولو! سنتدبر الأمر ..كنت أعرف أنني سأندم على

إخبارك .



يقولها وهو يبتعد برفض للفكرة لكنها تلحق به

هاتفة :

_ اسمعني! يحيى لن يعلم شيئاً.. سيكون هذا سرّاً

بيننا.. لن أقف أفرج وأنتما في ورطة!

يهز رأسه برفض فتدلف بغیظ :

_ هو أنقذ حياتي من الغرق.. اعتبرني أرد له الجميل .

يعاود هز رأسه برفض هاتفاً بينما يشير لرقبته :

_ يمكنني أنا تقبل الأمر ببساطة.. لكن يحيى! يحيى

سيقطع عنقي هذا لو علم عن الأمر .

_ هل يحوي رأسك هذا مخاً وأذنين؟! قلت لك أنه لن

يعلم!

فيرد لها فظاظتها بمثلها هاتفاً :

_ أخبريني إذن يا صاحبة المخ والأذنين والرأس
"الذكية" .. ما شاء الله .. حتى لو أخذت منك المال من
أين أخبره أنني قد حصلت عليه؟! فتحت "الحصالة"
وأخذته من مصروفي؟!
يقولها بغیظ وهو یخبط أحد كفيه بالآخر فتزفر وهو
ترفع رأسها لأعلى هاتفة :
_ أستغفر الله العظيم! حقاً الغباء لا دين له !
ثم تعاود خفض بصرها نحوه مردفة :
_ ظلمك من عينك مديراً لشركته !
_ أنا شريكه !
يهتف بها باعتراض لتهتف بحدة :

_تصرف إذن يا سيادة المدير ..يا سيادة الشريك ..يا
سيادة "الكازانوف" الذي لا يترك "تنورة" تمر دون
أن يسيل لعابه عليها ! تصرف وجد حلاً !
_ أنتِ فظيعة ! أعود بالله من لسانك هذا !
يهتف بها باستنكار لترمقه بنظرة زاجرة فيردف
بضيق:

_ انسي هذا الذي تحكين عنه ! أنا أثق أن يحيى
سيتدبر الأمر !

يقولها ثم يتحرك ليفتح باب شقته ثم يلتفت نحوها
هاتفاً بسماجة :

_تسمحين لي بفعلها هذه المرة!؟

ترمقه بنظرة متسائلة عما يعنيه فيصفق الباب في
وجهها بعنف لتشهق مكانها ثم تسبه سراً وهي تعود
أدراجها لتصفق باب شقتها بعنف بدورها!!
يوماً ما ستنقضّ هذه البناية بسبب صفق هذين
البابين!!



_ لماذا لا ترد؟! بدأت أشعر بالقلق حقاً!
تكتبها له ك"ضياء" بعد مرور يومين لم يصلها منه
رد ..
القلق ينهش رأسها وهي تتذكر حالته عندما عاد من
بغداد المرة السابقة ..
كان منطفئاً!!

بابا يقول إن بغداد كالشمس .. تدفئنا من بعيد لكننا

لو اقتربنا منها نحترق!

لماذا عدت تقترب لتحترق يا يحيى!؟

لماذا!؟

تزفر بقنوط وهي تتذكر اتفاقها السري الذي أبرمته
مع نزار والذي كاد يزهق روحها فيه حتى أقنعته بأن
تعطيه المبلغ المالي الذي يكفي شركتهم دون أن يخبر
يحيى أنها صاحبه ..

بل شريك جديد يريد الانضمام لشركتهم ..

لا تعرف هل سيبتلع يحيى الكذبة أم سيكشفها ..

نزار الفاشل هذا سيقنعه!؟

تشعل سيجارة تأخذ منها نفساً عميقاً وهي تغمض

عينها ..

تستعيد كل لحظة مرت بها معه ..

عناقه - الفريد - لها يوم أنقذها من الموت ..

لمسته لشعرها ..

قبلته لخصلاته المستريحة على راحة كفه ..

وصفه لها ..

(توأم روعي) !

كيف هي وقعها من رجل مثله !؟

تتحسس صدفته على جيدها بهيام كأنها ترجوه عبر

البعد أن يعود ..

تسمع صوت وصول إشعار على حاسوبها فتنتفض

مكانها بلهفة وابتسامة تولد على شفيتها :

_ اللهم صلّ على النبي! الصدفة هذه سرها باتع!
تتسع ابتسامتها وهي تميز رسالته على حسابها باسم
ضياء ..

تبدو لها طويلة فتأهب حواسها وهي تعد نفسها
لبوْحه ..

_ عزيزي ضياء .. افتقدتك .. أم أقول .. عزيزتي طيف
!؟

تشهق بصدمة وهي تتبين أول سطر من رسالته
لتتسع ابتسامتها ..

الماكر كان يعرف ! كان يعرف!!

_ تظنين نفسك ذكية؟! عندما تريدن التخفي فلا
تختاري اسم ابن أخيك المميز لتراسليني على البريد
الاليكتروني الذي منحته أنا للحضور يوم الندوة .. لا

تتظاهري بكونك رجلاً يحب الكرة ما دمت لا تفهمين
شيئاً عنها .. لا تحاولي اللعب مع رجل عاش عمره
كله في الخداع لتبدو له محاولتك مثيرة للضحك ..
تتجمد ابتسامتها وهي تشعر أن ثمة شيئاً ما خطأ !!
منذ متى يحدثها يحيى بهذا الأسلوب؟!
لتأتيها بقية كلماته كطعنة ..

_ أشكرك على المبلغ الكبير الذي منحته بطيب خاطر
وبنفس السذاجة لنزار .. هو جوارى يبلغك
تحياته .. تراك انتبهت أنه سافر مع مجد صبيحة
اليوم؟!!

صرخة خافتة تغادر حلقها وهي تلقي الحاسوب جانباً
لتهرع نحو باب شقتها تفتحه ..
تطرق باب الشقة المقابل بعنف صارخة :

_افتح .. افتح .. أنتم هنا .. أنتم هنا .. افتحي يا مجد .. أنا طيف .. أنا طيف يا نزار افتح .. أنا طيف يا يحيى .. أنا طيف ..

دموعها تتكدس في عينيها مع صرخاتها لكنها لا تسقط ..

كان الجرح هذه المرة أكبر من أن تريحه دموع .. تطرق الباب بعنف مرة تلو مرة رافضة التصديق .. فقط صرخاتها تعلو كالهذيان ..

_أنا طيف .. افتحوا .. أنا طيف .. أنا طيف .. أنا .. تنقطع صرخاتها وهي تهز رأسها لتصمت فجأة ..

_أنا .. من أنا؟! من أنا!؟

_سيدتي! هل هناك خطب ما!؟

يهتف بها ناظر البناية خلفها بقلق وقد غادر

المصعد لتركض نحوه صارخة :

_ أين ذهبوا؟!!

_ لا أعرف ! السيد يحيى سافر منذ أيام ..والسيد نزار

غادر صباحاً مع الطفلة وترك لي مفاتيح

الشقة ..سمعته يقول لسائق سيارة الأجرة التي حملت

حقائبهم فجراً أنه في طريقه للمطار .

شفتها تنفرجان بذهول مصدوم لتتمتم كالمخابيل

وهي تتلفت حولها :

_ لا! لا! مستحيل! أنت تمزح معي! كلكم تمزحون؟!!

هو مقلب من مقالب نزار ..يريد أن يجعل مجد

تضحك ..اضحكي يا مجد لكن أوقفوا هذه المهزلة .

يرمقها الرجل بنظرة متعاطفة وهو يراها لأول مرة

على هذا الحال ..

فيقول بإشفاق:

_ليست مزحة يا سيدتي! هم غادروا الشقة فعلاً

وتركوا مفاتيحها للمالك .

تهز رأسها برفض وهي تعود بخطوات مثقلة نحو

شقتها ..

لا تدري هل أغلقت الباب أم تركته مفتوحاً ..

لا فارق!!

لن يسترها بعد الآن باب ..!

فضيحتها سيحكيها قلبه بدمه على رصيف الخذلان!!

رصيف الخذلان الذي عادت إليه بعد طول سكونها في

قصور الاستغناء !!

فياويلها!

ياويلها!!

تعود لأريكتها لتتناول الحاسوب من جديد بأنامل

مرتجفة ..

تكمل رسالته والطعنات تأتيها واحدة تلو الأخرى ..

_أجل! كما ظننتِ تماماً! السندباد ليس أكثر من

نصاب جيد اختيار ضحايا من الساذجات المعقدات

أمثالك ..تظنين سكاني أمامك كان مصادفة؟! نشري

لذاك الكتاب في نفس دار النشر خاصتك مصادفة?!

عدو المرأة الذي ظهر فجأة في طريق عدوة الرجل

مصادفة?! أعترف أن وجود مجد أفادني

كثيراً ..خاصة لامرأة بتاريخك ..اقتحام قلعتك

الحصينة لم يكن بالصعوبة التي صورتها .. الأمر فقط

كان يحتاج لذكاء .. ولا أظنه ينقصني !!

أناملها تعصر قماش الأريكة جوارها بقوة تكاد

تمزقه ..

ألم حقيقي في صدرها يجعلها تفقد قدرتها على

التنفس الطبيعي للحظات ..

لاتزال الرسالة طويلة .. لكنها لا تجسر على قراءة

المزيد ..

فقط بضع لحظات تستعيد بعض ثباتها ..

بضع لحظات ..

آهة تلو آهة تنفلت من بين شفثيها فتكتمها مغمضة

العينين ..

الخسارة هذه المرة أكبر من أن تتجاهلها ..

وأقسى من أن تحتملها !!

إلا دموعك يا طيف! البكاء لا يليق بمثلك!

تتذكرها بصوته فتفتح عينيها بشراسة ..

كان يكذب!

كان يكذب!!

صوت ضعيف داخلها يصرخ مكذباً فتدحضه وهي

تعاود قراءة الرسالة :

الممنوع مرغوب! هذه كانت ثغرتك! تباعدي لم

يكن يزيدك إلا فضولاً .. يقولون في المثل الشهير

(الفضول قتل القط) وأنت لم تكوني سوى قطة شرسة

تحتاج لمن يروضها.. أظنك تدركين الآن كم كنت

أضحك منك سراً وأنت تروين لي عن انتقامك من

حسام ذاك ! تعلّمي إذن يا "ماكرة" كيف يكون

التخطيط !

تعض شفتها بقوة تكاد تدميها وهي تتحسس صدفته

على صدرها ..

كأنها تناشدها تكذيب كل هذا الذي يقال ..

لكنه يبدو وكأنه قد قرأ أفكارها ورسالته تعيد قذف

سهامها :

_ لا تعرفين أنتِ سر صدقاتي؟! تذكراتي من كل

النساء اللاتي خدعتهن قبلك .. أحفظ بها دوماً

لأضحك بيني وبين نفسي متباهياً بانتصاراتي .. كل

امرأة لا تساوي لديّ أكثر من صدفة متسخة ألمعها ثم

ألونها باللون الذي اختاره .. ثم أسجنها كتذكار في

قارورة زجاجية .. هذا هو كل ما يبقى لي منها ..

_حقيـر ..حقيـر ..

تهمس بها وأناملها تشد السلسلة بعنف من عنقها
فتدميه لكنها لا تشعر بألم مع طوفان الجرح الذي
يكتسحها الآن بقسوة ..

تلقيا تحتها ثم تهوي فوقها بقدمها حتى تهشمها ..
تشعر ببقاياها المهشمة تخدش باطن قدمها لكنها
تستمر في دعسها ..

قطرات من دمها تختلط بالبقايا المكسورة لكنها لا
تبالي ..

لا تزال دموعها محبوسة في عينيها ..

ولا تزال تقرأ بقية رسالته :

_لا تغضبني كثيراً يا عزيزتي بشأن المبلغ الذي

فقدته ! اعتبريه ثمن إنقاذي لحياتك ذاك

اليوم .. تخيلي لو كان أصابك مكروه قبل أن أتم

العملية كانت لتكون حسرتي كبيرة ..

سافل! سافل!

تتمم بها بألم وعيناها تجريان على ما بقي من

رسالته كأنها تريد إنهاءها فقط لتغمد الخنجر الأخير

في صدر هذا الحب :

اسمعي نصيحة خبير مثلي في شأن التعافي بعد

العلاقات الفاشلة .. في البداية ستبكين كثيراً .. تلعنيني

كثيراً كثيراً .. تكتبين عن خيانة الرجال وسوء

خصالهم .. ثم ستنسين الأمر رويداً رويداً .. لكن بالله

عليك! لا تجعليني أشعر أن الأيام التي قضيتها معك

ضاعت هدرًا! اعتني بنفسك ولا تسمح لي لرجل بعدي

بخداك .. لا تحاولي تتبعي فلن تصلي لشيء مع

محترف مثلي ..حتى هذا البريد الالكتروني لن يوصلك
لشيئ ..فلا تستجيبى من جديد لسخافات الانتقام ورد
الضربات ..خذيها كلمة منى وصدقها ..يحيى العراقي
تبخر من حياتك ولن تريه بعد اليوم أبداً !
تظل عيناها الجامدتان بدمعها مسلطتين على
الشاشة لساعة ..

ساعتين ..

ثلاث ..

وربما أكثر ..

تستعيد لحظاتها معاً إنما هذه المرة تراها بعينه ..

ساذجة ..

مخدوعة ..

مغفلة ..

طيف الصالح لم تكن سوى ..!!

لحظة !

من طيف هذه ؟!

من ؟!

من ؟!

السؤال يتردد في ذهنها بقسوة والجواب الوحيد
يفرض نفسه بنفسه فتهاز رأسها له باستسلام ..
تمسح رسالته بحسم وقد حفظتها حرفاً حرفاً ..
ثم تنهض من مكانها لتتوجه نحو نافذتها المظلة على
غرفة مجد ..

أو التي كانت !

تزيح ستارتها ..

أحقاً لن تراها من جديد؟!

أحقاً كل هذا كان مجرد سراب!؟

أحقاً كانت هي بهذه السذاجة وكان هو بهذه الحقارة

!؟

شعلة القسوة في عينيها تناقض الظلمة التي تقابلها

من النافذة المغلقة قبالتها ..

شعلة لا تساوي شيئاً أمام هذا البركان الذي تفور

حممه داخلها ..

لا بكاء .. لا حسرة .. لا ندم ..

ليست هي من تفعلها ..

ليس قبل أن تستعيد حقها ..

ها قد عرفت ماذا ستفعل!

=====

لما لقيتك كنت أعلم أن الحب ضعف...

والغدر سيفٌ لا يضل طريقه...

فكيف تحت مقصلة عشقك تركت عنقي يتكسر!؟

وكيف اعتنق الحب من عاش عمراً به يكفر!؟

(برتقالي...طيف)

فليشهد العمر أنني ما اخترت الطريق ...

وليشهد البحر أنني ما اخترت الغرق...

ولتشهدي يا -توأم الروح- أنني ...

قد عشت -مثلك- بلهب ماضٍ أحترق...

بالوزر موصوم...فلتغفري ..

لو عصفت الريح فما ذنب الورق!؟

(يحيى)

الطيف الخامس عشر

=====

أصفر

=====

_ نامت؟!_

يهمس بها راغب - عقب عودته لبيته آخر اليوم - أمام
فراش رُبي الصغيرة التي بدت كملاك صغير بلامحها
المستكينة لتشير له رؤى بسبابتها فوق فمها بحركة
موحية قبل أن تسحبه من كفه لتخرج به من غرفة
الصغيرة ..

تغلق بابها برفق ثم تلتفت نحوه بابتسامة عاشقة :

_ تأخرت اليوم !_



_ العمل في الورشة اليوم كان فوق المعتاد .

يقولها بارهاق لتقترب منه كي تعانقه لكنه يبتعد قائلاً

ببعض الحرج :

_ انتظري حتى أغتسل .. أشعر أن رائحتي لا تطاق .

لكنها تقترب أكثر لتغرس رأسها فوق صدره مطوقةً

خصره بذراعيها :

_ ليس أحب على أنفي من رائحة كهذه .. رائحة تعبك

لأجلي ولأجل ابنتنا!

تهمس بها بصدق وهي تستعيد الأيام الخوالي ..

أيام كانت تقارن بساطة حاله هو بفخامة حال فهد

الصاوي ..

تلك الأيام الأولى التي كانت تشمئز فيها من وضعه
كصاحب ورشة في مقابل اللحم القديم بفهد الثري
المعروف ..

قبل أن يدور الزمان دورته لتدرك أي هدية منحها
إياها القدر برجل مثل هذا !!

_تبدین ضائقة المزاج !

يقولها وهو يرفع ذقتها نحوه لتسبل جفنيها قائلة :
_ لا تشغل بالك .

_رؤى!

يقولها بإلحاح لتتفلت من بين ذراعيه هاتفة :

_ اغتسل وبدّل ملابسك ريثما أجهز الطعام .

تقولها وهي تندفع نحو المطبخ لتشهب بخفة مع

شعورها بقرصته على خصرها مع هتافه المرح:

_ جهزي اعترافاتك ولا تظني نفسك قد هربت!
تضحك وهي تهز رأسها بينما تتابعه ببصرها يتوجه
نحو الحمام القريب ..
لتتحول ضحكتها لتهيدة ضائقة وهي تدلف لداخل
المطبخ كي تعد له الطعام ..

_ ما هذه!؟!

يسألها وقد عاد ليأخذ مكانه فوق المائدة لترد وهي
تجلس جواره :

_ وصفة جديدة ! جربها!

يتناول منها واحدة ليلوكها في فمه ثم يغمغم

باستمتاع:

_ رائعة !

_ كفتة بالسكر المكرمل ..وصفة من وصفات عزة
رأيتها على شاشة التلفاز.

تضيق عيناه بتفحص ملاحظاً تغير نبرتها مع ذكر
اسم عزة ثم يهمهم قائلاً :

_ ماذا تخفين عني؟! هل عادت هيام تضايقت؟!
تدمع عينها دون رد فيعقد حاجبيه وهو ينتفض
مكانه واقفاً بهتافه :

_ هل عيرتك من جديد لأنك لم ترزقي بأطفال بعد
ربي؟! أم بعمل شقيقتها مقابل اكتفائك أنتِ بيتك؟!
هذه المرة لن أسكت ..لو لم يكن فهمي قادراً على
السيطرة على زوجته ..فسأعرف كيف ..
لكنها تقاطعه وهي تقف بدورها هاتفة برجاء:
_ اهدأ يا راغب ..أنا لم أقل شيئاً .

إذن قولي!

يهتف بها ببعض الحدة فتحيط كتفيه بقبضتها وهي
تعيده لمقعد هاتفة :

أكمل طعامك وسأخبرك .. فقط اهدأ!

غير معقول! امرأة واحدة تسمم دم البيت كله !!

حتى أمي وربى لم تسلما من لسانها .. لقد منعت

أولادها من اللعب معها والصغيرة لا تكاد تكف عن

البكاء .. ماذا فعلت أيضاً؟!

يهتف بها بنفاد صبر لترد روى :

هل تصدقني لو أخبرتك أنني أشفق عليها هذه المرة

!؟

يزم شفثيه بضيق مشيحاً بوجهه لتردف بإشفاق:

_ عزة قد تم عقد قرانها منذ أيام ولم نعلم سوى من
أخبار التلفاز .. وحفل زفافها بالغد ولا أظنها ستبلغنا
كذلك .. هيام تكاد تشعل الدنيا لكنني أعذرها .

_ هي التي دفعتها لهذا ! طوال عمرها وهي تتحكم
فيها كالشاة التي تسوقها حيث شاءت .. لتختم
مصائبها بهذا الذي فعلته عندما كانت تهددها برسائل
مزيفة لتقنعها بالزواج ! هيام فعلاً مريضة .. مريضة
بحب السيطرة .. ولا تصدق انفلات حبل عزة من
يدها !

يهتف بها بانفعال لترد رؤى:

_ لكنها تبقى شقيقتها .. شقيقتها التي تحبها .

يطلق هممة ساخرة وهو يعود لتناول طعامه ثم

يقول بمزيج من ضيق وإشفاق:

_ طيبة أنت! الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء
بميزان ..وأي طرف في أي شيء يشوهه ..وهي
حولت مسئوليتها عن شقيقتها لهوس بالسيطرة
عليها ..ثم إنني لا أفهم ..كانت تريدها أن تتزوج
وتزوجت ..لماذا كل هذا الغضب الذي تكاد تشعل به
الدنيا!؟

_ لا تراه يليق بها مع عاهته .

_ سبحان الله ! مخ أسود وقلب أكثر سواداً! أليست
عاهته هذه بسبب عزة التي كان يدافع عنها!؟ ثم
إنني سألت عنه والجميع يشكرون في أخلاقه
ويقولون أنه رجل لا يُعَيَّب!

يهتف بها باستنكار لترد رؤى مهدئة:

_ أنا أتفهم ..وأي عقلية سوية ستقول مثلك ..لكن
هيام لا تحسبها هكذا .

_ لا شأن لي كيف تحسبها ..أنا "رجل سوق" ..ما
أعرفه أن "واحد زائد واحد يساوي اثنين" ..الرجل
كاد يضحى بحياته من أجل شقيقتها وأبسط رد
للمعروف أن تقضي بقية عمرها معه .

_ حتى ولو لم تكن تحبه !؟!

_ ولماذا كانت تتسكع معه في الطرق المظلمة إذن
مادامت لا تحبه !؟! رؤى!! لا تشعلي الدم في عروقي
أكثر!!

_ لأول مرة أراك حاداً في الحكم هكذا !

تقولها ببعض العتاب ليستغفر الله بصوت خفيض ثم
يخبط رأسه في ظهر مقعده برفق ليقول بنبرة أكثر
ليناً:

لا أحب الحال المائل! ولا أخفيك قولاً..موضوع عزة
وهيام هذا كله لا يدخل رأسي بمليم واحد! لو كانت
لي سلطة على إحداهما لفلقت رأسها نصفين ثم أعدت
لحامهما من جديد "على نظافة"!

تبتسم لملاءمة التشبيه طبيعة عمله ثم تستدير
بجسدها نحوه لتحتضن وجنته براحتها هامسة أمام
عينيه:

كاذب! لو كانت لك سلطة على إحداهما لجعلتها تنفذ
أمرك راغبة لا راهبة..كل من يقترب من دائرتك..كل

من يرتوي بحنانك لا يمكنه إلا أن يحافظ على رضاك

كي لا يفقده ولو دفع عمره كله !

يرفع لها أحد حاجبيه وهو يضم خصرها بخشونة

تناقض هذا الحنان النابض في عينيه :

_حسناً يا ليمونية ! لا تحملي هم ربي ..أنا وجدت

حضانة قريبة يمكنها قضاء النهار فيها كي تجد رفقة

مناسبة ولا تشعر بحرمانها من أولاد عمها ..وأنتِ

ابتعدي عن "عفاريت" هيام تماماً هذه الأيام..ابقي

مع أمي ..ولو أردتِ يمكنكِ البقاء هنا في شقتك ولن

يلومك أحد .

تومئ برأسها وهي تمد أناملها لتطعمه ..

ثم تقول بتردد :

_ كنت أفكر لو أكلم أنا عزة وأقنعها أن تدعو هيام

على العرس!

_ ألم أقل أنك طيبة؟!

يقولها متهمكاً ليردف بنبرة أكثر جدية :

_ عزة تعتبر هذا انتقامها غير المنطوق من هيام ولن

تحيد عنه ولو سمعت كلاماً من الدنيا كلها !

تطرق برأسها في أسف وهي تشعر بأسى حقيقي ..

هيام تحيل البيت جحيماً بسبب غضبها من هذا الأمر

وتفرغ غيظها في الجميع صغاراً وكباراً ..

ولا تدري لماذا تشعر رغماً عنها بتعاطف معها هذه

المرّة ..

ربما لأنها تذكرها بعبد الله !!



عبد الله كذلك أخطأ يوماً عندما كان يعاملها هي بنفس

الطريقة ..

لكنه اعترف بخطئه وأصلحه ليجعلها تشعر أخيراً

بقيمتها في حياتها كأخ ..

وتتمنى لو تدرك هيام نفسها فتفعل المثل!!

_ الحمد لله ! سلمت يداك!

يقولها برضا وقد انتهى من طعامه ليقاطع شرودها ..

_ لم تأكلي!

_ أكلت مع ربي منذ قليل .

_ وتأكلين معي من جديد !

يقولها بحزم رفيق وهو يطعمها بنفسه لتهتف

باعتراض:

_ لا لا .. راغب! ملابسي كلها صارت ضيقة .

_ اشترى ملابس جديدة بمقاس أكبر .

يهتف بها بإصرار وهو يدفع بالمزيد من الطعام في

فمها لتهتف :

_ يا لله! تظن هذه هي المشكلة؟! شكلي لم يعد

يعجبني!

_ يعجبني أنا !

يقولها بنفس الإصرار ولا يزال يطعمها فتستجيب

قسراً لتهتف أخيراً :

_ كفى يا راغب! أنا أتحدث بجدية ! لا أريد أن يتم

رفضى في مقابلة عمل لأن شكلي لا يليق!

_ مقابلة ماذا؟!!

يهتف بها باستنكار لتهتف بضيق:

_مقابلة عمل ! هل سنتشاجر كل مرة بسبب هذا

الأمر؟!!

يزفر بسخط وهو يقف مكانه ثم يتخصر لينظر إليها

من علو هاتفاً :

_ لا يا حبيبتي! لن نتشاجر لأنني لن أناقش هذا

الأمر .. لا عمل لك خارج جدران بيتي ..

يقولها ثم ينحني نحوها ليقترب بوجهه منها مردفاً

بصرامة :

_ انتهى!

يقولها ليتوجه نحو الحمام القريب ليغسل يديه فتلحق

به هاتفه برجاء:

_ اسمعني! هذه المرة مختلفة .

يتصنع البرود وهو يجفف يديه في المنشفة متجاهلاً
الرد ليتوجه نحو غرفتهما فيستلقي على الفراش ..
لكنها تلحق به لتجلس جواره قائلة بنفس النبرة بين
ضيق ورجاء:

_ ضع نفسك مكاني ..حبيسة الجدران طوال
اليوم ..ربي كذلك ستذهب لحضانة صباحية ..أنا لم
أدرس طوال هذه السنوات لأبقى في البيت كقطعة
أثاث!

فيصدر صوتاً ساخراً وهو يرد :
_ لا سمح الله! أنتِ درستِ طوال هذه السنوات لتشغلي
عمالاً تتطلب منك شروطه أن تفقدي بعض وزنك
لتكوني حسنة المظهر ! ونعم الهدف!
تعقد حاجبيها بضيق ليردف بجدية صارمة :

تعلمين أن رأسي في هذا الأمر حجر صوان! زوجتي

لن تعمل لتكون عرضة للرائح والغادي!

تشتعل عيناها بالمزيد من الضيق ليهتف بحدة

ساخرة :

لو تريدن أن تفهميها أنه شعور مني بالنقص وأنتي

لا أريدك أن تعلمي كي لا تشعري أنك أفضل مني

فافعلي!

تشهق بحدة وهي تبسط أناملها على شفثيه تمنعه

المزيد ..

لتمدع عيناها ورأسها يحط على صدره بينما ذراعاها

يتشبثان بخصره بكل قوتها :

_ عن أي نقص تتحدث؟! من بنا يفترض أن يشعر
بأنه لا يستحق الآخر؟! أرجوك لا تتحدث بهذه
الطريقة ثانية !

يتهد بحرارة وهو يرفع وجهها إليه ..
شفتاه تعانقان شق ذقنها الأسر للحظات تسبق
همسه :

_ لا تقتربي من ثوابتي يا "ليمونية" .. اطلبي ما
تشائين لكن لا تعبئي بخطوطي الحمراء .. وقبل أن
يشط فكرك لا علاقة للأمر بثقة أو شك .. هكذا أنا
وهكذا أنتِ عندي .. ملكية خاصة لا أقبل فيها شراكة
ولو بنظرة عين .

تسبل جفنيها باستسلام لغيرته المفرطة التي
تعرفها .. وتعذره فيها ..

ربما لو كان واحداً غيره لما سامحها على ما كان من
ماضيها المخزي ..

لكن .. هي الأخرى يحق لها التنفس ..

تحق لها المشاركة في عالم آخر تجد فيه نفسها بعيداً
عن جدران بيته ..

_ لن نتحدث في هذا الأمر مرة أخرى!

يقولها ببعض الحزم الذي خالط عاطفته ..

تسكت .. ويعتبر سكوتها علامة رضا .. لكنه هذه المرة

كان علامة

استفهام !

علامة استفهام لم يستطع فهمها وهو يردف بنبرة

عابثة :

_ لدينا أمور أخرى أكثر أهمية تصلح للحديث !

ابتسامتهما تتعانقان قبل الروح والجسد ..
لترسو بهما الموجة الصاخبة كالعادة فوق شاطئ
السكينة ..

تنتظر لدقائق طويلة بعدها حتى تطمئن لانتظام أنفاسه
ثم تغادر الفراش بحذر لتخطو نحو الصلاة
الخارجية ..

تفتح حاسوبها المحمول لتضغط مؤشر البحث حول
صفحة بعينها ..

تتطلع نحو الشاشة بمزيج من خوف وضيق ..
ثم تنظر للخلف حيث غرفتهما لتطلق زفرة ضائقة ..
قبل أن تعود ببصرها نحو الشاشة من جديد وقد
التمعت عيناها بنظرة تصميم ..

لماذا لا...؟!!

هي لن تفعل ما يشين .. وهو ..

هو لن يعرف!

=====

_ لماذا تضربين الولد يا هيام؟!_

يهتف بها فهمي - زوجها - باعتراض وهو يحاول إنقاذ

ابنهما من يديها لكنها تدفع كليهما بكل طاقتها لتهتف

بجنون:

_ لأنه لا يفهم ! حمار ! سكب الشاي فوق السجادة !

_ لا بأس .. سأرسلها غداً للتنظيف ..

يهتف بها محاولاً تهدئة طفلها الذي فر نحو غرفته

ليغلق بابها خلفه ..

ليقترب هو منها مردفاً بخنوعه المعهود :

_ لا تحدي على الأولاد هكذا !

_ طبعاً! من السهل أن تقول كذلك وأنت خارج البيت

طوال اليوم والحمل كله فوق رأسي!

صراخها المنفر يصيب منه فيزفر وهو يغطي أذنيه

لتعاود صراخها من جديد وهي تزيح كفيه عن أذنيه:

_ ماذا؟! لم تعد تحتملني؟! هذه آخرة خدمتي لك

ولأولادك؟!

_ هيام! لا أريد الشجار!

يهتف بها بنفاد صبر وهو يتوجه نحو غرفتهما لتلحق

به وتستمر في صراخها الهائج:

_ أنت لا تريد أي شيء! قل لي ما دورك في البيت! في

حياتي .. في حياة أولادك .. في حياة أمك .. أنت بلا

قيمة .. انظر لأخيك راغب وتعلم!

يطلق صيحة غاضبة وهو يبذل ملابسه هاتفاً:

_ قلت لك لن أتشاجر! أفرغي شحنات غضبك ككل مرة

واتركيني لحالي!

تصرخ من جديد وهي تراه يستلقي على الفراش

ليرفع غطاءه فوقه :

_ لن أعد لك عشاء ..لو أردته فاصنعه لنفسك!

_ سأنام دون عشاء ..ارتحتِ!؟!

يهتف بها بسخط ثم يغمغم :

_ هداك الله !

لم يكد يتمها حتى سمع صوت تحطيمها لمزهرية ما

فعدد حاجبيه وهو يتوقع صرخاتها العاصفة بعدها:

_ ولن أنظف هذه التي كسرتها ..عساها

تجرحكم ..تجرحكم كلكم !!

يزفر بنفاد صبر وهو يشدد ضمة الغطاء عليه معلناً
نهاية الكلام ..

لتطلق هي عدة صرخات عالية تخافتت حدتها رويداً
رويداً حتى تحولت لنشيج خافت كتمته بكفها وهي
تغادر الغرفة ..

تصفق بابها خلفها بعنف لتجلس مكانها على
الأرض ..

سيل دموعها يغرق وجهها وهي تتناول هاتفها ..
تقلب فيه ..

تتابع حساب عزة الالكتروني ..

صورتها يوم عقد القران ..

التهاني التي انسابت كالمطر ..

كيف صار من حق الجميع هكذا أن يهنتها عداها هي

!!؟

هي ..شقيقتها ..

شقيقتها التي حافظت عليها طوال هذا العمر؟!!

نقطة ضعف!

لكل انسان في هذه الدنيا نقطة ضعف!

ونقطة ضعفها هي كانت عزة!!!

ابنتها التي لم تنجبها والتي وجدت نفسها مسئولة

عنها منذ وفاة والديها ..

لم يكن ذنبها عندما اختارت لها خطيبها الأول

لتكتشف أنه مجرد بلطجي مقتع!

لم يكن ذنبها وهي تختار لها رجلاً مثل راغب يصونها
ولو كزوجة ثانية لتكتشف أن قلبه لن يسع سوى
زوجته الأولى!

لم يكن ذنباً أن تحاول إرهابها بهذه الرسائل التي
كانت ترسلها إليها كي تدفعها للزواج قبل أن يجرفها
موج العمر!

هكذا حدثت نفسها والغضب يسكب المزيد من الملح
فوق جرح القلب ..

هكذا؟! هكذا يا عزة؟! بعد كل ما صنعته لأجلك؟!
تتبرئين من شقيقتك؟! تحرميني هذه الفرحة جوارك
؟! تقبلين بهذه الزيجة التي لا تليق بك؟! عاجز؟!
تتزوجين رجلاً عاجزاً وأنت التي يتمناها أفضل

الرجال؟! هل هذا هو عقلك الذي تظنينه أفضل من

عقلي؟! هل هذا هو؟!!

تعتصر الهاتف بين أناملها بقوة وعيناها الغاضبتان

تقدحان الشرر ..

لا!

لن تسمح لهذه الزيجة أن تتم!!

لن تسمح لها بالشعور أنها خرجت عن سيطرتها!!

لن تجعل راغب ورؤى يشمتان في زيجة شقيقتها

البائسة!!

وإن كانت عزة الصغيرة لا تعرف مصلحتها فهي

تفعل ..

تعقد حاجبيها بتصميم وهي تمسح بقايا دموعها

لتنهض من جلستها ..

ترمق صورة عزة بنظرة غريبة بين اشتياق عاتب

وتوعد شرس ..

والفكرة الشيطانية تتجسد كاملة في رأسها ..



_ آخر ليلة تبيتينها وحدك !

يهتف بها إيهاب بمرحه العابث عبر الهاتف لتطلق

ضحكة "آلية" وهي تتحرك ببطء نحو ثوب زفافها

المعلق على باب خزانة ملابسها ..

تتلمسه أناملها ببطء وهي تستعيد ذكرى ليلة عقد

قرانهما منذ أيام ..

تلك اللحظة التي أمسكت بها القلم لتوقع على عقد

ب"بييع" ما بقي من العمر ..



للمرة الثانية !

وإن كانت "الغفلة" منحتها بعض الفرحة في مرتها

الأولى مع راغب ..

فلا رحمة هذه المرة مع شعورها الغامر بالاختناق!

رجفة أناملها وقتها وهي تجول ببصرها حولها تبحث

عن أي أحد تعرفه ..

لتصدمها الحقيقة ..

هي لا تعرف أحداً ..

حتى نفسها !

ساعتها فقط أدركت ما خسرتة ..وما ستبقى

تخسره !!

_ يعجبك الثوب؟! لولا ضيق الوقت لاخترناه من

تصميم (....)..

صوته المرح ينتزعها من شرودها وهو يذكر لها اسم

مصمم الأزياء الشهير الذي تختاره معظم نجومات

الوسط الفني الآن .. ليردف:

_ ذكرت لي يوماً أنك تتمنين لو يصمم هو ثوب زفافك

لكنه مشغول للغاية .. لو انتظرناه فلن نتزوج قبل

عام .. من سيصبر!؟!

_ لا مشكلة !

تقولها بنفس النبرة الآلية وهي تعاود تلمس الثوب ..

رغم قماشه الناعم الرقيق ..

فصوص تطريزه تخدش أناملها فتراها ب-عين

خيالها- تنزف!

رغم أنها أغرقته بعطرها المفضل ..
لكنها تشعر أن رائحة خانقة تفوح منه تزهق أنفاسها
معه واحداً واحداً ..

رغم نضاعة بياضه ..

لكنها تراه ملطخاً ببقع غير مرئية !

ودون وعي تجد نفسها تفتح الخزانة ..

تستخرج وشاحها الأخضر المميز تدفن أنفها فيه

للحظات كأنها تودع فيه "قدس كمالها" ..

ليصلها المزيد من صوته الحنون:

لقد فاجأتني برضاكِ على أن نقيم مع "خوخة"!

لا مشكلة .

كان يمكنني أن أقنعها أن تغير أثاث البيت كاملاً

لكنك من اكتفيتِ بغرفة نوم جديدة فقط.

لا مشكلة .

للأسف لن أستطيع أن أنعم بإجازة "شهر عسل"
لأكثر من ثلاثة أيام ..لم يوافقوا على منحي سوى
هذا !

لا مشكلة .

تقولها بنفس النبرة الآلية وهي تشعر أنها مع كل "لا
مشكلة" من هذه تهبط درجة في "سلم تنازلات"
ليس له نهاية !

لو كان أحدهم أخبرها منذ شهور فقط أنها ستعود
ل"سجن الزواج" ،ومن رجل ذي عاهة ..تقيم معه
في بيت أمه ..في قاعة زفاف عادية ..بثوب
عادي ..لاتهمته بالخراف!

لكنها هاهنا تعيش أسوأ كوابيسها ..

كابوس لا تدري صدقاً هل اختارت حقاً العيش فيه ..

أم أنها جبرت عليه !؟

_ عزة .. أنتِ بخير!؟!

يسألها بقلق يوقظها من غفوتها " الآلية " لتحاول

الرد بحرارة مصطنعة :

_ بالطبع .. قلق العروس المعتاد .. رغم أنها ليست

المرّة الأولى!

تحاول صبغ عبارتها الأخيرة ببعض المرح لكنها

تخرج رغماً عنها مشبعة بمرارتها ..

ليرد بانفعال غيور:

_ وما الداعي لذكر هذا الآن !؟! كلانا كان له تجربة

سابقة لكننا تعاهدنا أن ننساها .. بالله عليك لا

تستجيبى لطبيعتك المجتررة للأحزان هذه الأيام .



تغمض عينيها بقوة وهي تعيد وشاحها مكانه ..

تربت عليه برفق ملح كأنها تودعه ..

ثم تغلق خزانة ملابسها لتستند بظهرها عليها قائلة:

معك حق .

الحفل سيبدأ الساعة (...).. سأمر عليك كي آخذك من

"الكوافير" الساعة (...). بعدها ..

يقولها شارحاً خطته للغد ليصله صوتها برضاها

المصطنع :

لا مشكلة .. لا مشكلة .. لا مشكلة ..

توطن نفسها على الرد بها على فترات متتابة شبه

غافلة عما يقوله بعدها ..

تغلق الاتصال ..

وتغلق معه عينيها كأنها لا تريد أن ترى ما بقي من

أحداث قدرها !

وفي غرفته لم يكن هو أفضل منها حالاً وهو يرفع

طرف سرواله ناظراً لطرفه الاصطناعي ..

زفرة ألم يسمح لها بالتححرر وهو لا يزال يشعر

بالغربة ..

بالإنكار!

هل هذا هو !؟

ينهض واقفاً مكانه يتأمل شكله في المرآة ..

لقد فقد الكثير من وزنه ليصير أقل بدانة ..

لكنه -العجب- لا يشعر بالرضا عن شكله !!

عين "النقص" تجعله يرى حاله ذابلاً منطفئاً !!

يزدرد ريقه بتوتر وهو يتوجه نحو خزانة ملابسه

حيث علق هو الآخر بدلة الزفاف ..

هاجس غريب يجعله يقيسها للمرة التي لا يدري

عددها منذ اشتراها ..

يُنَظَرُ شكله فيها بشك ثم يحضر كشافاً كهربياً يشغله

ليسلط ضوءه على ساقه ..

هل تبدو أنها صناعية خلف قماش السروال؟!!

_ ما شاء الله .. اللهم بارك !

تهتف بها خديجة بحنان وهي تدخل الغرفة ليغتصب

ضحكة مرحة وهو يقترب منها فardاً ذراعيه حوله :

_ نجم غلاف!

تبتسم وقلبها يخزها مع رؤيتها لما كان يفعله

بالكشاف الكهربى ..



قلب الأم يستصرخها أن تكتفي بمحاولته الباسلة

للتظاهر بأنه بخير ..

لكن عقل "ست الناظرة" يجعلها تقول بحزم:

_رؤية الناس لنا ما هي إلا انعكاس لرؤيتنا

لنفسنا .. لو رأتك عينك "نجماً" فلن يراك غيرك إلا

كذلك !

_ها! عيب يا "خوخة"! ابنك "فاجومي" قديم!

يقولها مكابراً بنفس المرح المصطنع فتتهد مطرقة

برأسها ثم تجذبه من كفه لتجلسه على طرف الفراش

وتجلس جواره ..

_ماذا؟! لا تقولي أنك ستعطيني دروس "ليلة

الدخلة"!

يهتف بها بمرح ماكر لكنها لا تستجيب لدعابته وهي
تتناول كفه لتبسط فوقه كفها فتبدو تجاعيده الغائرة :
_ انظر لهذه التجاعيد .. كل خط منها يساوي درساً من
دروس العمر .. ولعل أهم درس تعلمته .. ألا أتكلم في
موضع كتمان ولا أكتلم في موضع بوح !

كان يفهم ما تعنيه لكنه تغابى وهو لا يزال يتظاهر
بالمرح :

_ هل تخفين عني شيئاً؟! أعرف خجل البنات هذا!
اعترفي! آه .. فهمت! ابن الجيران! لم أكن مرتاحاً له
من البداية! من اليوم لا خروج في الشرفات!
_ إيهاب!

تقولها عاتبة فترتجف ابتسامته المصطنعة وهو
يشيح بوجهه ..

لكنها تحتضن وجنتيه براحتها لتتظر لعينيه قائلة :

إلى متى؟!

دمعة عاجزة تتجمع في عينيه ..

تهزم ضحكته المصطنعة ..

تفضح هشاشة خوفه ..

وتقصر ظهر كتمانها !

عيناه تهربان منها من جديد ..

إنما .. ليبيكي فوق كتفها هذه المرة !!

قلبها ينتفض بين ضلوعها بلوعة وهي تحتوي جسده

المرتجف ببكائه الخافت ..

ورغم أنها كانت تنتظر هذه اللحظة .. لكنها الآن تشعر

أن روحها تتفتت مع كل دمعة منه تسقط على كتفها !!

_إيهاب! تكلم يا ابني! تظنني لا أفهمك؟! تظنني
مخدوعة بكل هذا المرح الذي تدعيه! تظن نفسك
ترضيني بهذا؟! صدقتي.. قلبي موجوع بكتمانك أكثر
من وجعي بمصائبك.. احك لي يا ابني.. احك لي كما
كنت تفعل ولا تخف عليّ.

ارتجافة جسده لا تهدأ وهو يفقد سيطرته على
انفعالاته كله فجأة..

لتنساب كلماته دون ترتيب:

_غاضب! غاضب من الدنيا كلها.. ومن نفسي قبل
الجميع.. خائف! خائف منها أن تخذلني.. خائف من
نفسي أن أظلمها معي.. خائف أن أفقدها.. وخائف أن
أسجنها معي.. أعرف أنها تحبني.. أثق أنها

تحبني .. لا .. لا .. كاذب! أنا لم أعد أثق في أي

شيء .. كيف أثق فيها وأنا لا أثق في نفسي؟!!

تضمه إليها أكثر هامسة بلوعة أم:

_ لهذا كنت أرى تأجيل هذه الزيجة!

_ لا!

يهتف بها مستكراً وهو يرفع عينيه الدامعتين إليها

مردفاً:

_ أنا أحتاجها .. أنا .. أحتاج أن يراني الناس معها!

تتسع عيناها لخطورة المعنى الذي فضحته كلماته

ليبتعد هو بجسده مغطياً وجهه براحتيه كأنه هو

الآخر فوجئ بما قاله ..

كلاهما الآن كان يدرك مدى خسارته!

الفاجومي .. لم يعد كذلك!

تتاوه بخفوت وهي تمسد جبينها لتتساب كلماتها

المتوجعة به وله :

كنت أظن أن أعظم خساراتي يوم زفافك ألا يحضره

أخوك..لتفاجئني أنت بما قلته !

لا تسيئي فهمي ! أنا أحبها ..أحبها بجنون ..لكن ..

يغمغم بها ولايزال يخفي وجهه عنها بين كفيه ليقطع

عبارته دون أن يكملها ..

فتتهد بحرقة وهي تعاود ضمه لصدرها فلا يقاوم ..

تحترم صمته المشحون بانفعالاته للحظات ثم تغمغم

بحزمها الحنون:

قنبلة موقوتة ! ما بينكما قنبلة موقوتة وياويلكما

من انفجارها !

يرفع إليها عينيه الفائضتين بوجعهما للحظات ثم يعود

ليختبئ خلف مرحة المصطنع :

_ لا تكبري الموضوع يا خوخة ! هذا هو عيب

الأمهات ! لا ينقصني سوى أن تضربيني

ب"الخرزانة" ..

يقولها ثم ينهض ليخلع سترته فيعلقها مردفاً بنفس

النبرة :

_ياللفأل السيئ ! هذا حالي وأنا فقط أرتدي بدلة

الفرح ماذا سأصنع إذن بعد الزواج ؟! سأقطع

شراييني!!?

ينعقد لسانها وهي تشعر لأول مرة بالعجز عن العطاء

كأم!!

لو كان مرحة المصطنع هذا يذبحها بسكين تلم فوجعه
المكتوم خلفه ينسف قلبها نسفاً ..

ماذا تفعل؟!!

تمنع هذه الزيجة؟!!

فات الأوان!

فلتصبر إذن .. لعل الداء يجلب بين طياته دواء!!!

_خوخة!

همسه الراجي باسمها ينتزعها من طوفان وجعها ..

تراه وقد بدل ملابسه لينحني فيقبل كفها ثم يقول

بوجع راج:

_دعيني أنم جوارك الليلة كالأيام الخوالي .. احكي لي

حكاية "الشاطر إيهاب" التي كنت تروينها لي قبل

نومي عندما كنت صغيراً .. امدحيني كما لم تفعلي من

قبل ..أريد أن أرى صورتى اليوم فى عينيك كأجمل

مرة رأيت نفسى فيها ..أحتاج هذا حقاً !!

تدمع عيناها بقهر وهى تحتضنه بقوة ثم تجذبه من

كفه ليتوجها نحو غرفتها ..

يجلس على طرف الفراش ليرفع طرف سرواله فيخلع

ساقه الصناعية متحاشياً النظر لعينيها ..

لم تعرض عليه المساعدة مدركة أنه دوماً يحتاج

فعلها وحده ..

يستلقي أخيراً جوارها على فراشها فتتفحص ملامحه

التي تصارع فوقها ألم دفين ورضا مصطنع فتعانقه

كما كانت تفعل صغيراً ..

تروى له حكاية "البطل" أو "الشاطر إيهاب" كما

كانت تراه ..

الشهم .. الطيب .. الخلق .. القوي .. المرح .. الطموح ..
صاحب الإيثار .. الذي يحب الناس ويحبونه .. الشجاع
الذي لا تكسره المصائب ولا يعرف معنى الاستسلام ..
سنوات من العمر اختزلتها حكايتها ودموع حنينها
تمتزج بدموعه على صدرها ..

_لازلت أراك كذلك ! دوماً ستبقى بعيني كذلك !!
تقولها وهي تربت على ظهره بيقين حازم يناقض
وهن دموعها فيخفي وجهه في صدرها ..
ويخفي كذلك تمتمة وجعه :

_ليتني مثلك أبقى أرى نفسي كذلك !
تظل تربت على ظهره لدقائق ثم تعود لتتفحص
ملامحه بحرقه ..

وقلبها يخبرها أن اختبار عمره الحقيقي يبدأ الغد !



ضميني ..

وانسي الدنيا ..

ضميني ..

وانسي الناس..

كلمات الغنوة الشهيرة بلحنها ذي الشحن ينساب

حولهما وهو يراقصها فوق منصة العرس ..

لكن كليهما في هذه اللحظة كان عاجزاً عن أن

"ينسى الناس"!!

أناملها لا تكاد تلامس صدره ..

تهرب .. تتسلل خلسة نحو صدرها هي ..

تتلمس مكان وشاحها الغائب ..

ليتها كان بإمكانها ارتداؤه هذه الليلة ..



لكن .. هكذا تتضبط المعادلة ..

الليلة بالذات .. لا مكان لوشاحها !

أنامله تطوق خصرها ..

يشدها إليه

بتملك .. باحتياج .. برجاء .. بفخر .. بعجز .. وبخوف!

عينها تتحاشيان الحضور ..

ولأول مرة تخشى الكاميرا!!

الكاميرا التي كانت يوماً مصدر قوتها الآن صارت

شاهد ضعفا !!

عيناه - على العكس - كانتا تركضان فوق كل الوجوه ..

تلتقط من كل وجه نظرة !

هذه نظرة ساخرة من رقصه هكذا رغم عجزه ..

وهذه نظرة مشفقة على مصابه ..

وهذه نظرة فخورة بصموده ..

وتلك نظرة حاسدة على امرأة مثلها قبلت به رغم كل

شيء!

و"الأخيرة" بالذات كان لها الوقع الأعظم عليه ..

ربما لأنها رغم حقدتها منحت داءه بعض الدواء!

قلبها كان يخفق ببطء ..

برتابة ..

بمئل من لايزال يهبط الدرج خطوة خطوة ولا يتعجل

الوصول للقاء ..

وقلبه كان يخفق بجنون ولايزال يطارد صورته عبر

مرايا الوجوه !

وحدها أنفاسهما كانت متشابهة ..متطابقة النغم ..

متراقصة على إيقاع الخوف !

_جنيتي!

يهمس بها برقة وهو يشدها نحوه أكثر فترتجف على
ثغرها ابتسامة وهي تردد عبارته التي طالما كررها :
_ "جنية تمنحني السكينة!" ..لازلت تراني كذلك!؟!

_طوال عمري.

يهمس بها بحسم مشدداً ضغط ذراعيه حولها بما كان
يراه احتياجاً ..وتراه هي اختناقاً !!
تشكر الدمعة الواهنة التي شوشت الرؤية في عينيها
أكثر وهي تراه ينهي الرقصة بتقبيل جبينها ..
تصفيق الحضور كان يدوي في أذنيها كرعد منذر
بليلة عاصفة ..

وهي "الطفلة" التي تخشى المطر!

_يكفي هذا كي لا تتعب!

تقولها بعفوية لينعقد حاجباه بضيق ورائحة غضبه

تفتتها حروفه :

_ هل أبدو متعباً؟!!

الابتسامة المنهكة تطوف فوق شفيتها وهي تسبل

جفنيها محاولة الاعتذار لكن حلقها يجف فجأة وهي

تراه يردف بضحكة عصبية :

_ لقد أشرت لهم بالسماح لنا برقصة أخرى !

تهز رأسها بلا معنى وهي تحاول احتواء كل هذا

الخواء بروحها ..

ترفع عينيها إليه ولا تزال دمعة واهنة تشوش

رؤيتها :

_ افعل ما يحلو لك المهم أن ترضى ..أفضل ما يمكنك

منحي إياه هذه الليلة أن تكون سعيداً .

يرتفع حاجباه بتأثر من الصدق النقي الذي كان يشع

بين حروفها ..

ورغم شعوره بهذا الحاجز غير المرئي بينهما لكن

كلماتها الأخيرة نسفته وهو يشعر برغبته الضارية

في فعل هذا الآن ..

أن يحملها ويدور بها ثم يقبلها وسط كل هذا الحضور

كما حلم طوال عمره بعروسه ..

وكما حلم بها هي !!

_إيهاب!

تهتف بها متفاجئة وهي تشعر به ينحني ليحملها

فتتشبث به ..

يدور بها مرة ضاحكاً بثقة لكن خوفها يجعلها تأتي

بحركة خاطئة فيترنح بها ليعيدها أرضاً وسط

صرختها التي لم تملكها !!

تتوقف الموسيقى فجأة ليعلو صياح الحضور فتغطي

هي وجهها بحرج بينما يتمالك هو نفسه ليضحك

بعصبية وهو يشير لمنظم الحفل أن يستمر ..

_ أنتِ المخطئة! أنا تدربت على هذه الحركة كثيراً

وبأثقال تفوقك حجماً .. لو كنتِ وثقتِ بي ..

يقطع عتابه الهامس بزفرة قصيرة وهو يزيح كفيها

عن وجهها ليلتقط نظراتها الضائعة ..

فيتناسى وجعه لأجلها كالعادة :

_ لا بأس! من الجيد أنني لم أسقط بك! كان ليكون

فيديو مثيراً يتناقله الناس لأعوام !

مرحه المصطنع يصادف ابتسامة مرتعشة على
شفتيها فيرفع كفها لشفتيه يقبله هامساً :
_ لا تخافي .. أعرف أنك لاتزالين تخافين ذاك الوغد
الذي هاجمنا تلك الليلة خاصة بعد تهديده .. لي
أصدقاء من جهاز الشرطة يؤمنون المكان رغم أن
أحدهم طمأنني أنه سافر من وقتها ولم يعد .
تتسع عيناها بصدمة وهي تتذكر ما يحكي عنه !!
كانت قد نسيت ذاك الأمر تماماً في خضم ما مر بها من

أحداث!!

يا لله !!

هل كان ينقصها هذا الأمر كذلك ؟!
_ من فضلك .. أريد الجلوس .. أنا تعبت!

تقولها بإنهاك لا تدعيه فيحتضن كفا ليصطحبها نحو
المقعد المخصص لهما ..

تستقر فوقه تراقب بقية فقرات الحفل بشرود ..
تشعر به ينسحب من جوارها ليشارك أصدقاءه رقصة
فتشفق عليه من مبالغته في الجهاد للظهور بصورة
طبيعية ..

لكن .. ألا تشاركه هي هذا الجهاد !!؟
تغمض عينيها على صورتها المشوشة للحظات ثم
تفتحها لتفاجأ بها تدخل من باب القاعة ..

هيام!!

تقف مكانها عفويًا وهي تهیی نفسها لعناق أخوي
تحتاجه في هذه اللحظة أكثر مما سواها ..

رغم أنها لم تدعها للزفاف عامدة كي تشعر بخطئها
لكنها تشكر لها حضورها كي توأزرها في ليلة
كهذه ..

إنما .. ملامح هيام المنذرة بالشر تشعرها بالتوجس ..
رباه! ماذا ستفعل!؟

تشعر بإيهاب يقترب منها متحفزاً وقد تبين الخوف
في ملامحها ليسألها عن الأمر ..
لكنها تهز رأسها بتشتت مراقبة هيام التي توجهت
نحو منظم الحفل لتتناول منه الميكروفون عنوة ..
_ أنا أخت العروس!

تقولها ثم تطلق زغرودة طويلة بدت هستيرية تفرغ
فيها عصبيتها ..

ليرتجف جسد عزة مكانها وهي تشعر أن هيام لا
تنتوي خيراً ..

وقد صدق حدسها عندما علا صوت شقيقتها في
الميكروفون :

_ مبارك لشقيقتي ليلة العمر .. مبارك زفافها على
العاجز الذي تزوجته شفقة !



_ عزة! أفيقي! أفيقي حبيبتي !

هتافه القلق باسمها جوارها يخترق غيابات وعيها
وهي تشعر بلمسته على وجنتها تزامناً مع هذا العطر
النفاذ الذي اكتسح أنفها ..

تفتح عينيها أخيراً لتمييز قاعة العرس التي خلت من
المدعوين إلا قليلاً من أقرب الأقربين .

هذه خديجة ممتعة الوجه وهي تناظرها وقد انحنت

فوقها بجسدها تحاول إفاقتها ..

لون الثوب الأبيض يصيبها بالهلع !

هل كان هذا حقيقياً؟!

هل فعلتها هيام حقاً؟!!

آخر ما تعيه هو وقفها وسط الحضور مصدومة بما

قالتة شقيقتها قبل أن تتشوش المرئيات في عينيها

لتسقط فاقدة وعيها ..

_ الحمد لله أنك بخير ! لا أظن الأمر يحتاج لطبيب.

كلمات خديجة تחדش سمعها من جديد فتغمغم

بانهيار:

_ لست مسئولة عما قالتة ! إنها إنسانة مريضة !

ثم تلتفت نحو إيهاب مردفة بين دموعها التي لطخت

زينتها :

_ أنت تعرف الحقيقة ! تعرف أنني ..

لكنه يقاطعها وهو ينكب فوقها بجسده ليضم رأسها

لصدره هاتفاً :

_ أعرف حبيبي .. أعرف!

تغمض خديجة عينيها عن مشهدهما الموجه خاصة

وعزة تردف بنفس الانهيار :

_ هيام؟! فعلتها؟! أفسدت الحفل؟! فضيحة !

كلماتها متلعثمة مشتتة جافة كحال كل ما فيها الآن !!

خيوط رفيع من الدمع يسيل على وجنتها فتتلقفه شفثاه

وهو يربت على وجنتها هامساً بصوت أرجفه

انفعاله :

_ لا بأس! المهم أنك بخير!

ضوء فلاش ساطع يأتي من بعيد ينتبه له إيهاب
فيصرخ غاضباً في صاحب الكاميرا الذي يفر هارباً

بغنيمة!

خبر كهذا سيكون حديث الناس لأيام ..

فعلتها هيام!

سممت هذه الليلة في ذاكرتها للأبد !!

تغمض عينيها وكأنها ستهرب من هذا الكابوس الذي

لا يقظة منه ..

لا تدري كيف مر بها الوقت ..

كيف غادرت القاعة المشنومة نحو سيارة العرس

التي تزينت بالخيبة!

أصدقاء إيهاب الكثيرون يحاولون مواساته باقتراحهم
ب"زفة سيارات" لكنه يرفض متحججاً بأنها تحتاج
الراحة ..

تشعر بكفه يحتضن كفها داخل السيارة فلا تدري أي
كف منهما أشد برودة !!
كلاهما يتحاشى النظر لصاحبه مدركاً أن ما بقي من
هذه الليلة سيكون أشد صعوبة !

=====

تحتاجان شيئاً؟!

تقولها خديجة برفق اعتصره قلقها وهي تودعهما
عند باب غرفتهما في شقتها لترد عزة بهممة
مشتتة تثير شفقتها ..

ولولا خشيتها من الظهور بمظهر "الحماة
المتسلطة" لطلبت منها أن تبيت هذه الليلة معها
هي ..

لهذا تنهدت بحرارة وقد قررت ترك الأمر لحدس
ابنها ..

لعله جيد توجيه دفعة المركب الذي اختاره !!
يغلق هو الباب ليأخذ نفساً عميقاً مغالباً مشاعره
كعادته مؤخراً ..

فيما بعد ..

فيما بعد عندما يكون وحده سيبكي كثيراً على "ليلة
العمر" التي تشوهت !

يتوجه نحوها وقد أثار مظهرها المرتاع كل
مشاعره ..

يعلم أنها تحمل نفسها ذنب ما حدث وتخشى عليه

ربما أكثر من خشيتها على مظهرها بعد هذه

الفضيحة !!

يحتضن وجنتيها براحتيه لينظر في عمق حدقتها

الضائعتين:

_ نحن معاً!

لم ينطق سواها كأنها "الحل" ..

ولم تسمع سواها كأنها "المعضلة" !!

وإن كان هو شقياً بعجزه المستحدث ..

فهي الأشقى بتردها الدائم ..

تعرف أن "الفاجومي" لن يتأثر بحادث الليلة معلناً

أنها هي وحده من تعنيه ..

ليتها تكون مثله فتعلنها كذلك ..

أو تصرخ بالعكس أنها مقهورة من كل هذا الضغط

الذي يحيطها من كل جانب ..

لكنها لا تفعل هذا ولا ذاك ..

كالعادة.. على حافة "المنتصف" دوماً تقف!

فات أوان الكلام على أي حال!

تزدرد ريقها بتوتر وهي تهرب من عينيه شاعرة

بالاختناق..

تحس به يزيح عنها طرحتها ليلحق بها ثوبها

فتغمض عينيها بمزيج من مشاعر مختلطة أهونها

الخبجل!!

تسمعه يصرح بعاطفته التي لا تنكرها لكن أذنيها

تصمان بهذا الهدير العاصف من ذكريات قاتمة ..

خطيبها السابق وتحرشاته التي كانت تتحملها قسراً
كي لا تفسد "الزيجة اللقطة" كما كانت تدعوها
هيام ..

راغب وليلتها الأولى ..قبلته اليتيمة لها كأنه تذوق
ثمرة لم يعجبه مذاقها ..فرماها!

"سجنان" كان حظها حسناً إذ حررها القدر منهما ..
لكن هذا "الثالث" كيف منه حرية !!؟

وأمامها كان هو الآخر يصارع بقايا "قناعه" !!
لو استسلم لفجيعة الليله فربما لن يقوم من
عثرته ..

لا ..

لا ..

لن يستسلم ..

هي بين ذراعيه ..وكفى!

فلينس كل شيء الآن عداها !!

_ أنتِ معي! تعلمين كم حلمت بهذه الليلة؟! كم كتمت

رغبتني فيك طوال هذه السنوات راضياً بدور الصديق

؟! كم خفت من فقدك لأي سبب قد يخطر ببالك؟! لو

علمت لفهمت ما تعنيه هاتان الكلمتان .. "أنتِ

معي" ..أنتِ معي..

يكررها دون وعي لتسابق حروفه شفثيه في العزف

على بشرتها ..

فيرتعش صوتها وهي تدفعه عنها برفق :

_ هناك شيء لم أخبرك به بعد !

تضييق عيناه بتساؤل لتردف بصوت أكثر ارتعاشاً:

_ زوجي من راغب ..كان ..مجرد حبر على ورق .

تتسع عيناه بصدمة لوهلة قبل أن يفهم ما تعنيه

فيهزها بين ذراعيه بفرحة عصبية هاتفاً:

_ ماذا؟! تعنين أنني أول زوج حقيقي لك؟! أول رجل

يمسك؟!!

تومئ برأسها وهي تشعر بدوار يكتنفها ليهتف بها

عائباً رغم اللفظة التي تفتش حروفه:

_ ولماذا لم تخبريني من قبل؟!!

ابتسامة ساخرة تجتاح شفيتها بمرارتها لتغمض

عينها بجوابها:

_ ماذا كنت تريدني أن أخبرك؟! أنني كنت في عينه

امرأة أقل من أن يمسها؟!!

لم تكذ تتم عبارتها حتى شعرت به يضمها لصدره

بقوة قبل أن تكتسحها عاطفته كطوق من نار..

يهوي بها فوق الفراش فتغمض عينيها عاجزة عن

مبادلته عاطفته ..

تفتحها أخيراً لتراه ينتزع عنه ساقه الصناعية

فيزداد شعورها بالدوار ومنظر "الساق

المبتورة" يصيبها بغثيان لم تملكه ..

تحاول تمالك شعورها بكل ما أوتيت من قوة وهي

تراه يعاود غزوه العاطفي لها ..

تحاول التجاهل .. النسيان .. إنما .. هيهات !!

تحرشات خطيبها السابق

حياتها مع راغب ..

تفاصيل ليلة الحادث وذاك الوغد يضربها ثم يؤذي

إيهاب ..

كلام المخرج عن شعبيتها المفقودة والبديلة

المحتملة ..

ليلة الزفاف التي انتهت بفضيحة ..

وأخيراً ..منظر ساقه المبتورة الذي تراه لأول مرة

بهذا الوضوح !!

كلها تمر أمام عينيها المغمضتين كشريط من شوك !!

لمساته الشغوف رغم عاطفتها تصيبها كضرب

السياط ..

أناملها تتردد في دفعه بعيداً فتتشبث بالملاءة تحتها ..

لكنها تجد مكانها على شفثتها أخيراً وهي تدفعه بكفها

الحر ليغلبها أسوأ فعل قد يحدث الآن !!

تقيأت!

تتحني على نفسها لتفرغ ما في بطنها وشعورها

بالغثيان يزداد !!

_أسفة..أسفة..رغمأ عني..والله رغمأ عني..

كلماتها تتوه بين آهاتها وفيض دموعها وهي تحيط

رأسها بكفيها عاجزة عن المزيد من المقاومة ..

بينما تجمدت ملامحه هو لدقيقة كاملة وهو يشعر

بالعجز!!

لأول مرة يشعر بنفسه عاجزاً عن احتواء

هشاشتها !!

"عين النقص" تضخم له الموقف فيكز على أسنانه

بقوة وهو يشعر بالدماء تفور في عروقه للحظة ..

قبل أن تنسحب جميعها ليشعر ببرودة رهيبة

تجتاحه !!

قطرات عرق غزيرة تفيض على جبينه وهو يرمق

وجهها المدفون بين كفيها يرتعد كرعدة جسدها

كله ..

هل تشعر حقاً بكل هذا التقزز منه !؟

لا!

لا!

لن يستسلم لهذا الشعور كذلك!!

هي تحبه !!

هو يعلم أنها تحبه!!

هو منحها الفرصة كي تبتعد وهي عادت إليه

بقدميها !!

هي تحتاجه ..

تحتاجه كما يحتاجها !!

هو يستحق هذا الشعور ..

هو ليس بناقص !!

يزم شفتيه بقوة وهو يحاول النهوض ليحضر ما
ينظف به المكان ناسياً أنه لا يرتدي الساق الصناعية
فيترنح مكانه لتنهض هي من مكانها متشبثة به
بهتافها الباكي قبل أن تغادر الغرفة :

سأنظفه .. لا تقلق!

يحاول استعادة قناع مرحة .. فيخذه ..

يحاول الاستعانة بوجهه العاشق .. فيخذه كذلك ..

فقط عباءة عجزه تلفه فيستسلم لسترها وهو يطرق

ببصره قابضاً كفيه جواره ..

مغمضاً عينيه وطنين غريب يدوي في أذنيه ..

هل سيبقى هذا شعورها كلما مسها؟!

_ أنا انتهيت! آسفة ..

تهمس بها وقد عادت تجلس جواره بعد انتهائها من

التنظيف ..

جسدها لا يزال ينتفض بارتعادة خافتة تجاهد كي

تخفيها ..

كلماتها تحاول التربيت عليه قبل أناملها :

_ آسفة .. أرجوك لا تسيء فهم الموقف .. ربما ضغطتي

انخفض .. تعلم أنني فقدت وعيي منذ قليل

وربما .. بل .. من المؤكد أنني لست على مايرام .

ملامحه تبقى بجمودها الخادع الذي كان يخشاه بأكثر

مما تخشاه هي ..

_إيهاب ..رد عليّ ! أرجوك !!

تهتف بها وهي تلعن نفسها سرّاً !!

لماذا يحدث هذا الآن ؟!!

لماذا تصر الظروف أن تعيقها عن غايتها من هذه

الزيجة ؟!

لماذا تفشل حتى وهي تقرر الاستسلام من جديد لما

يمليه عليها قدرها ؟!

تحتضنه جانبياً بذراعيها كاتمة ما بقي من دموعها ثم

تتشبث بأناملها في عضده وهي تحيط وجنته براحتها

الحرّة لتطبع قبلة اعتذار على وجنته تبعثها بأخريات

وهي لا تدري ماذا يمكنها فعله أكثر في موقف كهذا ..

كلاهما في هذه اللحظة كان أشد ما يكون حاجة

لصاحبه ..

إنما كلاهما عاجز .. مكبل .. مستنفذ ..

فكيف يحرر أسير أسيراً؟!!

وكيف ينقذ الغريق غريقاً؟!!

شعوره بالعجز يعتصره فلا يشعر بنفسه إلا وهو
يسحبها ببعض العنف ليجتاحها طوفان عاطفته من

جديد برياح أكثر خطورة هذه المرة ..

يحاول إنهاء الليلة بأي انتصار!

أي انتصار ولو بمجرد رفع رايته فوق أرض

جسدها ..

لكن المفاجأة تلجمه والمعركة تنتهي بـ "فشل آخر"!

مرة تلو مرة تزف الخيبة لكليهما ..

و"ليلة العمر" تفر عصافيرها هاربة ليحتل غاباتها

نعيق الغربان !



_ألن تكف عن قراءة هذه الرسالة؟!
صوت نزار يأتيه عاتباً بهذا الود الذي جمعهم منذ
سنوات لكن يحيى كان في هذه اللحظة زاهداً في أي
تواصل ..

_اتركني وحدي!

صوته بالكاد يسمع وعيناه مسلطتان على شاشة
حاسوبه حيث مسودة رسالته التي كتبها لـ "طيف"
قبل أن يغلق ذاك الحساب نهائياً !
عيناه تدوران فوق الكلمات مرة تلو مرة ..
يستحضر صورة "سديم عينيها" فيراه عكراً بغبار لا
يثق حقاً أنه يمكن أن يتمخض عن نجم جديد ..
هو منحها هذا الجرح الذي يوقن أنه لن يبرأ
بسهولة ..

وإن كانت "عناقاه" ستتهض من تحت الرماد بقوتها
المعهودة فلاريب أنها ستبقى ما بقي من عمرها
تلغنه ..

أليس هذا ما أراد !؟

منذ متى تركتك وحدك؟! نحن تعاهدنا على أن نكون
سويًا منذ سنوات.. أنا وأنت ويحيى.. وإن كان الموت
اختطفه منا فلاتزال رائحته باقية في مجد.. ثلاثتنا معاً
للأبد.

يقولها نزار بحسم غريب على طبيعته العابثة ليزدرد
يحيى ريقه الجاف بصعوبة وهو يغمض عينيه
بتعب..

تعب انت هك روحه قبل جسده..

الصور!!

آه من الصور!!

الصور لا ترحمه!!

هل يمكن أن يرى المرء وهو مغمض عينيه؟!
نعم.. فقط عندما تكون الصور ملتصقة بحدقتيه..

عالقة بين جفنيه ..

يستحضرها كل شهيق ويكبلها كل زفير ..

صورته كـ "يحيى" الشاب الوسيم الثري رعيد العيش

مرموق المكانة في حي المنصور ببغداد ..

صورته كـ "يحيى" المفجوع في أحب امرأة لقلبه ..

بل أحب اثنتين !!

صورته كـ "يحيى" المغدور المطعون في ظهره

بماضيه والمطعون في صدره بغده !

صورته كـ "يحيى" الضال بعدها والذي كانت أرصفة

الطرقات أحن عليه من صدور كانت له يوماً ملجئاً !

صورته كـ "يحيى" التابع الذي ارتضى رفقة من

شابهه في الوجد ليسير معهم دربهم دون تفكير في

رجعة !

صورته كـ"يحيى" النصاب الذي ينتقم من ماضيه في

عيني كل امرأة يخدعها !

وأخيراً صورته كـ"يحيى" السندباد الذي فقد كل

انتماءه لأي أرض فبقي البحر حياته وعيشه

وهلاكه !

وبين كل هذه الصور ما عاد يعرف حقاً أي "يحيى"

هو!!

يشعر بكف نزار يربت على كتفه قبل أن يصله

صوته :

لماذا أرسلت لها الرسالة ولم تكتفِ بالاختفاء

فحسب كما كنت تفعل بالأخريات؟! لماذا كتبتها

مادمت ستذبحها وتذبح نفسك بها هكذا؟!!

فيرد بخفوت دون أن يفتح عينيه :

_تعلم أنها ليست عندي كالأخريات .. امرأة مثلها لا
تعرف منطقة وسط .. ولما لم أكن لأتركها تعيش
تحبني كان يجب أن تكرهني .

_ظننتك لن تقع في حبال امرأة أبداً ! لهذه الدرجة
أحببتها يا يحيى!؟!

شفقته تمتزج باستنكاره خاصة والصمت يبقى جواب
يحيى الوحيد للحظات ..

قبل أن يفتح الأخير عينيه لتحمل الجواب الآخر في
عينيه دمعة ..

دمعة مختنقة حبيسة .. تشبهه !!

_منذ عرفتها وأنا أحسدها ! أحسدها على هذه القوة
التي تمنيت أن أملك مثلها .. على هذه الشجاعة التي
تسربت يوماً من بين أناملي عندما وضعتني الظروف

مكانها .. هي امرأة يمكنها زرع ألف شمس وأنا رجل
يتخبط كالضربير في ظلماته .. يشهد ربي أنني حاولت
الابتعاد عنها قدر استطاعتي خاصة بعد معرفتي
بقصتها كاملة .. لكن مغناطيساً خفياً كان يجذبني
نحوها .. كل خطوة كانت تقتربها كان قلبي يجزيها
عنها عشراً .. هي أعادت لي مذاق اللحم الذي كنت قد
نسيته .. أغوتني بلمس أرض تطوؤها قدمي كوطن
بعد طول سفر .. نسيت أن مثلي كتبت عليه الغربة
أينما حلّ.

يطرق نزار برأسه وهو عاجز عن احتواء ألم
صديقه ..

لكنه يحاول التسرية عنه :

_ يوماً ما هي ستعرف أن نقودها محفوظة باسمها في

البنك وأنت لم تسرقها .

_ تظن هذا فقط ما بيننا؟!!

يقولها ساخراً بمرارة ليردف :

_ عموماً أنا لن أسمح لهذا اليوم أن يأتي قريباً .. يجب

أن تصدق حقيقتي البشعة وأبسط وجوهها فقدانها

مالها .

_ لا تبتئس هكذا ! ستساها وهي الأخرى ستساك !

يوماً ما ستساك!

_ طيف لا تنسى! هي تحب أو تكره..إنما لا تنسى!

_ إذن ..انس أنت! يجب أن نركز في حالنا أكثر ! تلك

المرأة التي قابلتك في "أبو ظبي" تعرفت عليك وكدنا

نضيع لولا ستر ربنا ! عمليتي الأخيرة بشأن شركة



التأمين هناك ضاعت نقودنا فيها ولم تتم ..وتنقلنا من
بلد لبلد طوال هذه الفترة استنفذ المزيد من المال
وأنت رفضت أن تأخذ مال طيف بطبيعة الحال ..هيا
ابحث لنا عن فكرة أخرى من رأسك الماسي
هذا ..نريد أن نعيد الأمجاد !

يهتف بها ببعض المرح الحماسي وهو يربت على
رأس يحيى الذي أطلق زفرة قوية وهو يهم بالرد لولا
أن سمع كلاهما صرخة مجد من الغرفة المجاورة !!
يهرعان إليها ليروعهما مظهرها وهي تصرخ مخفية
وجهها بين كفيها ..

مجد .. "حبيبة بابا" ماذا بك؟! لماذا تصرخين!؟!

يهتف بها يحيى بجزع وهو يحاول احتواء جسد
الصغيرة الذي كان ينتفض ببكائها على فراشها
لتهتف بين دموعها :

_ رأيت طيف في الحلم!

يتبادل مع نزار نظرة ألم لتردف الصغيرة وهي تخفي
وجهها في صدره مردفة :

_ كانت تبكي وتناديني .. لماذا تركنا بيتنا هناك يا
"بابا"؟! لماذا لم تسافر هي معنا؟! لماذا لم تجعلني
أودعها؟! لماذا لا تسمح لي بمهابتها؟! أنا
افتقدتها .. افتقدتها كثيراً ..

تصرخ بها بانفعال حار وجسدها لا يزال على
انتفاضته ليضمها يحيى إليه بقوة محتوياً رأسها في
صدره ..

صوته يختق في حلقه كما قلبه بين ضلوعه وهو
يشعر معها بالعجز عن تلبية ما تطلب .. فلا يجد سوى
كلماته :

_ عودي للنوم حبيبي .

_ لا .. لا أريد .. لا أريد النوم كي لا أراها تبكي من
جديد .. هي قالت أنني ابنتها .. لماذا تركتني كـ "بابا"
و "ماما"؟! هل كل من يقولون أنني ابنتهم يرحلون؟!
الدمعة الحبيسة في عينيه تكاد تغلي بوجع مضاعف
وهو يعتصرها بين ذراعيه أكثر قائلاً:

_ أنا لن أرحل .. دوماً سأكون معك .

_ وأنا كذلك .

يهتف بها نزار وهو يجلس جوارها على الجانب
الآخر يرفع كفها الصغير يقبله بحنان ..فتنقل بصرها
بينهما بعينيها الدامعتين ..

يعيدها نزار لرقبتها ثم يمسد جبينها برفق يروي لها
حكاية وكفها الصغير بين راحتيه ..

فيما يغيب يحيى بشروده مكتفياً باحتضان كفها
الآخر ..

يتذكر جلسة كهذه كانت طيف طرفها الثالث ..
يتذكر رجاءه إياها أن تبقى معها ممسكة كفها لعلها
تحميها كوابيسها ..

يتذكر همسهما "الساحر" وقتها وهو يتمنى لو
يضمها إليه يخفي وجهه بين خصلات ليلها الأسود

ويفرغ على صدرها آهات وجعه موقناً أن "درعها"

وحده يكفي ليحميها معاً ..

هو كره الشعر الطويل وأحب شعرها ..

هو ازدرى كيد النساء واحترم كيدها ..

هو كفر بالحب وآمن بكل خفقة ذرفها قلبه لها ..

هو كان أمام الدنيا "رجلاً" -مجرد رجل- إنما معها

هي كان "يحيى" ..يحيى الذي ضاع منه يوماً في

طرقات بغداد وعاد يجده على شواطئ عينيها !!

كيف ظن يوماً أنه قد يكون له أمل معها!؟!

كيف ظن أنها وإن كانت توأم روحه ستقبل العيش في

عالمه الملوث بخطاياها!؟!

هل كان يجب أن يلتقي بتلك المرأة من ضحاياها ذاك
اليوم ليدرك أنه لن يغسل كفيه أبداً من درن ماضيه
وأنه لا بد له من ترك طيف؟!!

هل كان لها حقاً من اسمها نصيب في حياته..دخلتها
لتبقى مجرد طيف عابر يناظره المرء من بعيد إنما لا
يطمع في أن يكون حقيقة؟!!

ولو كان هو سيصبر على قدره الذي سودته خطاياها
فهل ستصبر مجد؟!!

مزيج من شعور الذنب والعجز يخنق المزيد من
خفقاته ..

يغمض عينيه فيبتلعه جحيم "الصور" ..

يعاود فتحهما فلا يرى سوى دموع مجد ..

الدموع التي هو سببها هذه المرة ..

فأين المفر؟!

_ نامت من جديد .

يهمس بها نزار أخيراً بخفوت بعد دقائق طالت وهو
يتأمل ملامح مجد التي عادت لسكونها إلا من بقايا
دموع افترشت جفنيها ..

هذه التي مسحها يحيى بأنامل مرتجفة وهو يشيح
بوجهه هارباً قبل أن يغادر الفراش ليتوجه نحو
النافذة القريبة يطالع عبرها ظلمة الليل الذي بدا
موحشاً كقبر ..

يشعر بكف نزار على ظهره داعماً دون كلام فيهمس
دون أن ينظر إليه :

_ ذنوبنا ثقلت يا صاحبي.

_ لا تحمل الأمور فوق طاقتها ..الأطفال ينسون
بسرعة .

_ أنت الذي تقول هذا ؟!

استنكاره المشفق يجد صداه في قلب صديقه ..
يذكره ب"مأساته الخاصة" فيسبل جفنيه مخفياً
وجعه بقوله:

_ حتى لو لم تنسَ فستعلم ..ستعلم ألا تتعلق
فتُجرح ..بعض القسوة تقي القلب شر وجع
الغد ..نحن نبقىها دوماً بعيداً عن عملنا ..لم يكن ذنبنا
أن تداخلت الأمور هذه المرة باقتحام طيف
حياتها ..أعرف أنك لم تكن راضياً عن هذا لكن مجد
كانت تحتاجها حقاً كي يخف رهابها من الغرباء ..وها
قد نجحت ..انظر للجانب الإيجابي .

يلتفت نحو نزار بنظرة ساخرة بدت وكأنها تحمل
مرارة العالم كله ثم يتهد هامساً بنبرة منهكة :
_ ابق جوار مجد أنت الليلة .. لا أستطيع النوم
جوارها .. ليس وأنا أشعر أنني السبب فيما هي فيه !
يمط نزار شفثيه باستياء من هذا الوجه المحبط
لصديقه لكنه يومئ برأسه بتفهم ليهمس بخفوت :
_ لا تحمل هماً .. غداً ننزهها ونشتري لها بعض
الألعاب كي تلهيها .. الطبيعة هنا ساحرة وربما يمكننا
الاشتراك لها في نادٍ تلاعب فيه بعض
الأطفال .. ستنسى .. ستنسى!
يقولها مؤكداً كأنما الكلمات تكفي كليهما كي يكذب
على نفسه !!
إذا كان كل منهما لم ينسَ .. فهل ستنسى هي؟!

لهذا يلقي يحيى على وجه مجد نظرة أخيرة قبل أن
يتحرك ليغادر الغرفة بخطوات متثاقلة ..
يدخل غرفته هو ليغلق بابها خلفه ثم يتوجه نحو
حقيبته القطيفية بقواريرها الزجاجية والتي
استخرجها من تحت فراشه ليفتحها متطلعاً
لمحتوياتها ..

رصيده من الخداع الذي كان يشعره قديماً
بالفخر .. بالتفوق .. بنشوة الانتقام ..
الآن يورثه شعوراً بالمرارة .. بالعجز .. بثقل قيد يدرك
أنه لن يفارق معصميه إلا عندما يضمه قبره ..
وحدها القارورة الخالية بدت وكأنها تومض وحدها
بهذا البريق المؤنس ..
تدعوه باسمه .. تربت على كتفه .. تتاجيه ..

يفتحها ليستخرج "الشعرة الغالية" ..
يلفها حول إصبعه عدة لفات كعهده مغمضاً عينيه
مستحضراً عبق شعرها الذي رقدت فوقه يوماً
شفتاه ..

_ لا تسامحيني !
يهمس بها وهو يركز على أسنانه بوجع من لا يطيق
ألم جوانحه ..

ليردف وهو يتذكر حديثها عن
"الفلامنجو":

_ اكرهيني ! اكرهيني واكسبي رهاتك على
نفسك .. من مثلك يمكنه دوماً الوقوف على قدم
واحدة .. لن تلتقي خطواتنا بعد اليوم أبداً حتى ولو
كان للقلوب رأي آخر !





_دكتورة فدوى! زوجك نذل! سامحيني ..لا أجد له
وصفاً آخر!

يهتف بها أحد زملاء ريان في المشفى الذي يعمل فيه
ب "أبو ظبي" وهو يستقبل فدوى في مكتبه لتزرد
الأخيرة ريقها بتوتر وهي تدور بعينيها في المكان
تبحث عنه شاعرة بالدهشة من مبادرة زميله
الهجومية هذه ..

والتي أجمت لسانها عن الرد !



_ لا تبحتي عنه هنا ..لم يعد يستقر في غرفته هذه في

المشفى كي لا يرينا وجهه بعد فعلته .

لا يزال الرجل مستمراً في هجومه الذي دفعها لتهتف

بعنف:

_ لا تتحدث عن زوجي بهذه الطريقة ! لا أدري ماذا

فعل لكن احترم زمالته على الأقل !

_ وهل احترم هو صداقته لدكتور جهاد طوال هذه

السنوات!؟!

يهتف بها الرجل بغضب لتمتع ملامحها وهي تتراجع

خطوة للخلف هاتفة بنبرة شاحبة :

_ ماذا فعل بجهاد!؟ جهاد سافر إلى مصر وليس

هنا !

_ ألا تعلمين حقاً ماذا حدث!؟ وماذا فعل زوجك!؟!

تهز رأسها بجهل تفضحه ملامحها التي ازداد

شحوبها ..

تراجع خطوة أخرى للخلف لكنها تترنح لتتشبث

بالكرسي جوارها .. بينما الرجل يردف بنفس النبرة

الهجومية :

_ لم أتصور في حياتي أن يبيع رجل صديقه بهذه

البساطة ! وفي هذه الظروف التي يمر بها !

_ ماذا حدث لجهاد !؟!

صوتها بالكاد يغادر حلقها وهي تشعر بسحابة غدر

تظل سماءها مهددة بسيل قريب ..

هي تحاول الاتصال بجهد منذ فترة ليست بالقصيرة

لكن هاتفه دوماً مغلق ..

ريان أخبرها أنه فقط منشغل بزفافه وربما لن يعود

قريباً لكن لهجة زميله هذا تؤكد شكوكها ..

ريان يخفي عنها شيئاً .. بل أشياء!!

_ اسألني زوجك!

يهتف بها الرجل بازدياء يجعلها تتراجع خطوة أخرى

للخلف لكن صوتاً خلفها ينقذها :

_ خيراً؟! ماذا يحدث؟!

تلتفت نحو مصدر الصوت لتتنبه للطبيب الذي دخل

لتوه مرتدياً معطف المشفى المميز ..

ليزفر الرجل الأول وهو ينهض من مكانه مخاطباً

فدوى بقوله :

_ زوجك ليس هنا يا دكتورة .. ابحثي عنه واسأليه

عما بدا لك !

يقولها ليغادر الغرفة بخطوات غاضبة لتلتفت نحو

الوافد الجديد بنظرات مزجت خوفها بحرجها ..

ما الذي يحدث!؟

_ هل يمكنني خدمتك سيدتي!؟

يقولها الوافد الجديد بود وقد استشعر حرجها لتهتف

بعربيتها الكسيرة :

_ أنا دكتورة فدوى زوجة دكتور ريان الذي يعمل هنا!

تتسع عيناه للحظة بسؤاله :

_ زوجته!؟ عفواً .. أنتِ متأكدة!؟

سؤاله يقذفها بالمزيد من حمم الغضب والحرج

لتهتف بانفعال:

_ ما هذا السؤال السخيف!؟

_ أعتذر!

لكنها تفقد آخر حدود سيطرتها على نفسها وهي
تصرخ بانفعال بينما تخبط جانبي رأسها بكفيها:
_ ما الذي يحدث؟! المفترض أن هذا مكتب زوجي!
المفترض أن أجدّه هنا! فلا يستقبلني سوى واحد
يتهمه بخيانة صديقه والآخر يشكك في كوني
زوجته!! هل أبدو لك ممن يكذب في هذه الأشياء!!
_ اهدئي يا سيدتي! أنا فقط ظننت الأخرى ..
يقطع عبارته عفويّاً لتتسع عيناه منتبهاً لخطورة ما
تفوه به ..

لكنها لم تفوت كلمته وهي تهتف بارتياح:

_ أي أخرى!؟!

يزم شفّتيه بقوة وهو يضع كفيه في جيبى معطفه
بحركة عصبية كأنه يلعن الظروف التي جعلته يدخل
الغرفة في هذه اللحظة ..

_ عفواً سيدتي! ورائي عمل مهم .. يمكنك ..
لكنها لا تمهله الفرصة وهي تقف في مواجهته وقد
بدت بلامحها الخائفة شاحبة الملامح مناقضة تماماً
لهذه التي تصرخ بغضب :
_ لن ترحل من هنا قبل أن أفهم ! ماذا حدث لجهاد في
مصر؟! وماذا فعل زوجي؟! ومن .. ومن تلك
الأخرى!؟

يرتعش صوتها رغماً عنها في كلماتها الأخيرة فيشيخ
الرجل بوجهه قائلاً بحرج:

_ لا تورطيني في مشاكل مع دكتور ريان !

_ لن أرحل من هنا قبل أن أفهم !!
صراخها يعلو بهذه النبرة بين ضياع وغضب فيزفر
الرجل وهو يتحرك خطوة مبتعداً لكنها تلحق به
ليتحول صراخها لنبرة راجية فرت عبره دموعها
رغماً عنها :
_ أرجوك .

يبدو التردد على وجه الرجل لكنه يحسم أمره مع
رغبته في إنهاء الموقف ليرد باقتضاب:
_ دكتور جهاد ألقى القبض عليه في مصر بتهمة
إرهابية ..

تشهق بارتياح وهي تغطي فمها بكفها هاتفة :
_ مستحيل! لا أصدق هذا في جهاد أبداً !

_كلنا كذلك ! كلنا نعرف أن الفلسطيني الذي وهب حياته لخدمة قضية بلده لن يكون أبداً كذلك .. لكن دكتور ريان خذلنا .. لم يخذل صديقه فحسب بل خذلنا كلنا!

تهز رأسها بتساؤل مرتعب وهي تخشى ما ستسمعه ليردف الرجل بأسف:

_ رغم أن التهمة لم تثبت على جهاد بعد ولا تزال القضية مفتوحة لكن ريان أبلغ إدارة المستشفى هنا .. هناك إجراءات حالية لتخفيف العمالة وإنهاء بعض التعاقدات لهذا كانت حجتهم جاهزة وسريعة ليفسخوا تعاقدهم مع دكتور جهاد !

_ ريان! ريان فعل هذا؟!!

تتمم بها مصعوقة ليهز الرجل رأسه بأسف بينما
تغيب هي بشرودها في أوضاعه التي تزداد غرابة
منذ أيام ..

ربما لهذا جاءت اليوم للمشفى في سابقة لم تفعلها
منذ شهور طويلة كي تتفقد أحواله ..

لم تكن تعلم أنها ستكتشف هذا الوجه القبيح له !!

بل .. والأقبح ..؟؟؟

وماذا كنت تعني بالأخرى!؟

تغمغم بها بترقب وجل لكنه يشيح بوجهه قائلاً :

_اعذريني سيدتي! هذا الأمر لن يمكنني الخوض

فيه !

يقولها ليهرب من أمامها بسرعة فتركض خلفه لكن

خطواتها تتوقف فجأة ..

هل تريد حقاً أن تعرف؟!!

بل هل تجهل حقاً ما تسأل عنه؟!!

أليس هذا ما كان يورق مضجعها طوال الأيام السابقة

؟!!

المرأة لا تحتاج لدليل كي تستشعر خيانة زوجها ..

خاصة لو كانت عاشقة !

قلبها المخذول الذي تقطع الخيانة خيوط وصاله

يهوي صريعاً فلا تحتاج بعدها لعلامة تأكيد !!

ريان خان .. يخون .. وسيخون ..

وهي هانت .. وتهون ..

لكنها لن تهون !

بريق الدموع في عينيها يتحول لآخر أكثر شراسة

وهي تتوجه نحو مكتب الاستقبال ..

تتيقن من الحقيقة التي باتت واضحة ..

ريان لم يقض ليلته السابقة في مناوبة عمل كما

زعم ..

ريان لم يخن صديق عمره فحسب ..

بل يخونها هي كذلك .

والخيانة ما عادت سراً تطارده بتفحص خبير بل يبدو

أنه صار يجاهر به !!

دموعها تسبق خطواتها في ركضها لتعود نحو

بيتهما ..

أولادها يستقبلونها متعجبين حالتها فتصرخ فيهم

بغضب هائج قبل أن تندفع نحوهم لتضمهم لصدرها

بقوة !!

هم كل ما بقي لها بعد ما باعت كل شئ لأجل رجل

خائن!

تحاول التماسك بعدها فتصرفهم لغرفتهم برفق قبل أن

تتناول هاتفها لتتصل به فيرد بسرعة :

_مشغول يا حبيبي .. سأأكلك لاحقاً !

تلتمع عيناها بنظرة شرسة وهي تدور في الغرفة

كأسد جريح ..

تنتظر عودته كي تقذفه بكل هذه الحمم التي تقذفها

براكينها !

لكنه لم يعد !!

ساعة مرت خلف ساعة ولا تزال روحها تغلي على

مراجل الغضب لتأتيها أخيراً هذه المكالمة بصوت

امرأة لا تعرفها:

_ علمت أنك كنت في المشفى اليوم .. لا تتعبي نفسك
في البحث عن دليل على خيانة زوجك .. هذا هو
العنوان .. اذهبي وشاهدي بنفسك !

_ لدي أخبار جيدة .. بخصوص جهاد !
يقولها حسام عبر الهاتف لتهتف جنة بلهفة :
_ قل بسرعة !

تكتسي ملامحه بغموض غريب وهو يستعيد لقاءه
الأخير الكارثي في المشفى بذاك الذي أسمى نفسه
أديم ..

اللقاء الذي كشف الكثير من الأمور لكليهما ..

وإن بقي الأكثر معلقاً بينهما !!

لكن أهم فائدة وجدها فيه هو يقين أديم من براءة
جهاد وكون التهمة ملفقة له ثم وعده إياه أن يساعده
-وزهرة- في التخلص من هذه الورطة في مقابل ...!!

_قل يا حسام ! ماذا عندك !؟

تهتف بها جنة بالمزيد من اللفة لتنتزعه من شرود
أفكاره ليعاود القول بحسم :

_ سأخبرك عندما نلتقي ! المهم الآن أن تطمئني زهرة
وجهاد .. من حسن حظهما أن هناك ضابطاً من جهة
أمنية عليا يتولى القضية ويثق في كونها ملفقة .

_ الحمد لله ! لن أطيق صبراً على معرفة

التفاصيل .. ألك غداً !

_ ليس كل التفاصيل ! عفواً .. بعضها سري للغاية !

يقولها حازماً لتتهف باستنكار:

_ ماذا تعني؟! نحن شريكان في القضية .. لا يمكنك

إخفاء معلومات عني !

_ ما أخفيه لا يتعلق بكوني الآن محامياً !

_ إذن بماذا يتعلق؟!!

تهتف بها بانفعال يقابله صمته الطويل لتغمغم أخيراً

بإدراك:

فهمت.

يشكر لها تفهمها قبل ذكائها لينهي معها الاتصال

بقوله :

أخبري فهد ..حاولت الاتصال به لكن هاتفه مغلق .

يغلق الاتصال ليطلق تنهيدة حارقة ثم يعود ببصره

لجسد دينا الساكن على الفراش أمامه ولا تزال غارقة

في غيوبتها ..

كأنما صارت ترفض هذا العالم كما يرفضها !

يزورها كعهده كل مساء قبل عودته إلى بيته لعل

جديداً يطرأ على حالها .. لكنها تبقى كما هي ..

أحد وجوهه البيضاء النادرة التي يوشك أن يفقدها !

يرمقها بنظرة مودعة أخيرة قبل أن يتحرك ليغادر

المشفى نحو سيارته التي استقلها نحو بيته ..

شروده يبتلع المزيد من تركيزه وهو يحاول تجميع

بعض الخيوط ..

الكوبرا!

متى سمع هذا الاسم لأول مرة!؟

منذ سنوات .

قضية تسلمها بحماس عندما كان اسمه كضابط كفاء

يؤهله لتولي قضية صعبة كهذه ..

شبكة إجرامية تتوغل خيوطها في مجالات عدة

ويترجمها رجلٌ كالشبح لا يكاد أحد يعرف عنه شيئاً

سوى لقبه المرعب ..

"الكوبرا"!

يذكر أنه وقتها أحرز تقدماً كبيراً في القضية وأسقط

بعض الرؤوس في زمن قياسي قبل أن يصدر له

رفعت الصباحي - حماه السابق - أوامره بسحب

القضية منه !

رفعت أخبره وقتها أن سحب القضية لمصلحته وأنه
سيتولاها بنفسه ليفاجأ بعدها بأنها قد حفظت لأسباب

غير منطقية - كما رآها وقتها - والأغرب أن بعض

الأدلة القوية فيها كانت قد اختفت !!

كان قد نسي هذا الأمر تماماً لتبقى هذه القضية هي

الوحيدة التي لم تغلق في ملفه الوظيفي حتى فوجئ

بما حدث مع دينا !

تقطع أفكاره عندما يتوقف بالسيارة أمام بيته ..

نظرة ألم تفتersh عينيه وهما تدوران على نفس

المكان الذي سقطت فيه دينا ..

ومضات خاطفة من ماضيه تجتاحه ..

تجلده بسوط الذنب تارة .. وبسوط الجرح أخرى ..

طيف .. يسرا .. دعاء .. وأخيراً ديناً ..

المزيد من الحطب فوق الحطب يشعل النيران داخله

أكثر!!

يغمض عينيه بقوة كأنه يحبس هذا البركان بداخله ثم

يعاود فتحهما ليترجل من السيارة نحو الحديقة

الخارجية لبيته ..

سلطانة !

يفتح لها ذراعيه وهو يجثو على ركبتيه أمامها ..

يضم رأسها إليه متلقياً نباحها كأدفاً رسالة ترحيب

يتلقاها عالمه البارد ..

ثم تدمع عيناه وهو يمسد جسدها متذكراً الخبر الذي

وصله بالأمس من طبيبها البيطري:

أنتِ حامل ! قريباً تضعين صغارك هنا .. ترينهم
بعينيك .. قطعة منك يهديك إياها القدر دون حول منك
ولا قوة .. قطعة تكبر أمامك يوماً بعد يوم تمنحك
امتداد العمر ..

تأس الكلبة للمساته كأنما تفهم هذا الذي يقول ..
لتغيم عيناه بنظرة داكنة ولايزال يمسد جسدها بأنامل
ازدادت ارتجافتها ..

(نصف رجل ! نصف رجل !!)

من جديد تقذف المزيد من الحطب فوق نيرانه
فيغمض عينيه بوجع ذرفته همساته :

لا تستطيعين الكلام لكنني أفهم ..وسأفهم ! سأكون
جوارك وأنتِ تضعينهم هنا أمام عيني ..ربما ..ربما
وقتها يمكنني اقتراض تلك الفرحة في عينيك ..لو كان
لمثل فرحة كهذه أن تُقترض!!

بنفسجي

فرط الكراهية يوشك أن يتحول لتقديس!!
هاهي ذي "الأرجوانية" تستيقظ من نومها لتتناول
هاتفها بلهفة تبحث عن صوره وأخباره ..

نفس الالهة التي قضت بها ليلتها السابقة تنقب في
صوره وكلامه عبر مواقع التواصل الاجتماعي حيث
لا يبخل رجل مثله بهذه العطايا التي تكاد تكشف كل
حياته ..

أو هكذا كانت تظن !!

سلطانة حامل!

كتبها ليلة أمس على حسابه مرفقة بصورة ضاحكة
له مع كلبته ..

لينعقد حاجباها بقوة وهي تكز على أسنانها ..

الوغد وقف يتفرج على هالة تموت مع ابنها والآن

يتظاهر بفرحته لأن "كلبة" ستلد !!

أي منافق هو!!

أي ضمير يملكه وهو يعيش حياته بهذه الصورة
الباذخة المغالية في الاستمتاع غافلاً عن الجحيم الذي
تعيشه هي وسند بعد فعلته بهالة؟!
ورغماً عنها تتبدل صورته في عينيها ..
تمر بصورة كل من آذوها ..
مروراً بذاك الرجل الذي أردى أباه في سوريا ..
قائد ذاك القارب الذي هاجر بها لهنأ ..
وجوه كل أولئك الذين طاردوها في الطرقات كي ينالوا
منها كصيد سهل ..
وأخيراً غازي الذي كفت صورته القبيحة لتطغى
بسوادها على كل هؤلاء!!

صوت رنين الجرس يطغى على أفكارها فتترك هاتفها
مكانه لتهرع نحو الباب بلهفة تستقبل سند كعدها كل
صباح وقد أتت به ماسة التي ابتدرتها بسؤالها :

_ كيف حالك اليوم !؟

_ بخير.

اقتضابها المتحفظ لا يزال يقف حائلاً بينهما لكن ماسة
تحاول تخطيه بقولها الودود:

_ يبدو وكأنك استيقظتِ من النوم لتوك .. ما رأيك لو
نتناول فطورنا معاً .. أنا وأنتِ وسند .. عاصي خرج مع
نور وضياء .

تشير لها ديمة بكفها نحو الداخل بجواب مقتضب
يخلو من أي لباقة بينما تبدو وكأنها لا ترى في الدنيا

الآن سوى سند الصغير الذي تعلق بها وعيناه تكادان

تلتصقان بلامحها ..

فتجدها ماسة فرصتها لتفحص بيت ديمة من

الداخل ..

كل شيء على حاله منذ رأته أول مرة كأنها لم تكلف

نفسها عناء تغيير أي شيء فيه ..

عدا ..!!

رباه!!

المرايا !!

المرايا كلها مكسورة !!

ينقبض قلبها برهبة ممتزجة بالإشفاق وهي تعود

ببصرها نحو ديمة التي بدت لها في هذه اللحظة

مثيرة للرتاء..



لا أهل ولا أصدقاء ..

لا ريب أن ذكرياتها السوداء تخنقها في وحدتها لهذا

حطمت المرايا!!

تراها تضاحك سند بهذه الطريقة النادرة التي لا

تفعلها إلا معه ..حتى مع طفليها هي!

كأنها مع سند وحده تعود لها طبيعتها الآدمية بعيداً

عن جمود تصرفاتها مع من سواه !!

فقط لو تمنحها الفرصة لتكون صديقتها !!

لو...!!

وصول الخادمة بالإفطار يقاطع أفكارها فتري ديمة

تتشغل بإطعام الصغير دون أن تأكل ..

ثيابها المكشوفة تكشف فقدانها الكثير من الوزن!!

تصنع لها ماسة شظيرة ثم تناولها إياها فترفع إليها

ديمة عينين مندهشتين ..

حدقتها ترتعشان كأنها لا تريد تصديق هذا الود

فتغمغم بارتباك:

_ لا شهية لدي!

هنا تفاجآن معاً بسند الصغير يتناول الشظيرة من

ماسة ليطعم ديمة بنفسه !!

تتسع عينا ماسة بتأثر من هذا التواصل النادر الذي لا

يبيده الصغير إلا مع ديمة ..

بينما تزداد كثافة الدموع في عيني ديمة وهي

تستجيب له فتأكل من يده .. قبل أن تضمه إليها

بقوة !!

تربت ماسة على كتفها برفق ثم تنتظرها كي تنهي

طعامها لتسألها أخيراً مباشرة :

_ أنتِ كسرتِ المرايا؟!!

تتسع عينا ديمة برعب غير منطقي وهي تعود للنظر

حولها حيث المرايا المكسورة ..

صراعها الأبدي وسط "مدينة أشباحها" التي

تسكنها !!

لماذا كسرتها؟!!

هل رأت فيها شبح غازي الأسود يتوعدها؟!!

شبح هالة الأبيض يعاتبها؟!!

أم شبحها هي الأرجواني يستصرخها بالعجلة في

الانتقام؟!!

هي لا تذكر !!

لم تعد تذكر !!

كل لياليها صارت متشابهة ..تقذفها في دوامة

الجنون !!

لهذا تتلاعب أناملها بشعرها في حركة عصبية قبل أن

تعود ببصرها نحو ماسة لتهتف بصوت مرتجف:

_ لا! مجرد صدفة ! تعثرت ..سقطت !

كلماتها واضحة الكذب لكن ماسة تشفق عليها من

هذا الخوف المغلف بالحرص فتبتسم بلطف:

_ سأخبر عاصي .

_ بماذا ستخبرينه !؟

تهتف بها ديمة برعب لترد ماسة بسرعة مشفقة

عليها:

_ سأخبره أن يحضر من غير المرايا .. لا يجوز أن تبقى هكذا مكسورة .

تقولها لترقب ملامح ديمة التي تشتتت بين خوف وضياع وهي تضم سند إليها بقوة لتشعر بالمزيد من الإشفاق نحوها ..

الصمت يظللها لدقائق طالت حتى تشعر ديمة برأس الصغير يتثاقل على كتفها فترتجف ابتسامتها وهي تربت على رأسه :

_ تريد النوم !؟

_ لم ينل كفايته من النوم فعلاً .. وعندما استيقظ أشار نحو "بطته" الصغيرة الصفراء فعلت أنه يريدك لهذا جئت به إلى هنا .

تقولها ماسة بابتسامة لطيفة انتقلت منها لديمة التي
بقيت تربت على ظهر الصغير حتى استسلم للنوم
تماماً فرفعت رأسها لماسة قائلة :

_ أنا أيضاً لم أنل كفايتي مع النوم .. هل تسمحين لي
بالنوم معه في غرفتي!؟!

تومئ لها ماسة برأسها موافقة وهي تنهض من
مكانها لتتوجه معهما نحو غرفة ديمة التي تبعثها
وهي تحمل الصغير لتضعه على الفراش ..

_ انتبهي! هاتفك!!!

تهاتف بها ماسة وهي تراها تكاد تضع الصغير فوق
الهاتف الذي سحبته لتنظر إليه بعفوية ..

فقالت ديمة وهي ترفع الغطاء فوق الصغير متفحصة
ملامحه الساكنة :

_ لا بأس! أخفضي صوتك كي لا يقلق!
تقولها فلا يصلها رد من ماسة لترفع عينيها إليها
فتجدها تنقل بصرها بينها وبين شاشة الهاتف بشك
للحظات ..

قبل أن تسألها بضيق:
_ تعرفين حسام القاضي!؟

_ يعجبك المكان!؟

يهتف بها حسام مخاطباً أمه التي جلست أمامه في
هذا المطعم الشهير لتجيبه بحنان لم يخلُ من عتاب:
_ يعجبني أكثر أنني أجلس معك ..صرنا كالغرباء
نلتقي بين الحين والآخر ولولا مواعي غداً لدى
الطبيب لما رأيتك .

يبتسم لها معتذراً لتردف بإشفاق:

_ لازلت مصرأً أن تبتعد ؟! مضت سنوات ولم تنسَ؟!
تقولها متذكراً إصراره أن يبتعد هنا في العاصمة عن
كل ما يمكن أن يثير شجونه في بلده بالصعيد ..
منذ ذاك الحادث الذي ترك لأجله عمله وهو يتحاشى
زيارته تماماً !

مدينته لم تعد لديه سوى ماضيه بخذلان
طيف ..ومعايرة يسرا ..وذنب دعاء ..وضغينة عاصي
وذنب زوجته وابنه ..

فكيف له بعودة !؟

ورغم الألم الذي سكن عينيه لكن ملامحه حافظت
على جمودها المقنع وهو يتجاهل سؤالها ليرد :

_الأكل هنا رائع ..أعرف أنك تحبين

الأسماءك ..تريدين ..

يقطع عبارته فجأة وهو ينتبه لهذه التي دخلت المكان
لتوها ..

يخفق قلبه خفقة خاصة وهو يشعر بجفاف حلقه

فجأة ..

يستحضر حلمه الأخير بها فلا يتعجب أثرها الخطير

على نفسه هذه المرة !!

ثوبها الأسود القصير يحتضن جسدها بإحكام يثير

الغيرة ..

شعرها الأحمر القصير يحيط وجهها بهذه الفتنة

النارية ..

شفتاها ترتجفان كعهدهما بهذه التمتمة الخافتة كأنها

تحدث نفسها فتنتابه رغبة عارمة في إسكاتهما

"بطريقته"!

فردة القرط "المغيظة" تترنج على أذنها فتذكره

بفضوله لمعرفته سرها ..

وأخيراً .. عيناها!!

آه من عينيها!!

"حلقة الزعفران" تتوهج وسط زرقتهما القاتمة

كأنها تعويذة سحر تعرف طريقها لقلبه !!

تفاصيل حلمه الأخير بها تزداد تكاثفاً أمام عينيه ..

طفلته نارية الشعر تغفو بين ذراعيه ..

ثم تكبر فجأة ..

مذاق قبلتها لا يزال طازجاً فوق شفثيه !!

_حسام! من هذه !؟!

تقولها أمه بفضول قلق وهي تشعر بأثر تلك الفتاة

على ابنها الذي تعلق بصره بها منذ دخلت المكان ..

فتاة!؟!

أجل لم تزد في نظرها عن مجرد فتاة في الثامنة

عشرة على الأكثر بهيئتها هذه !!

بينما يتمالك نفسه وهو يخفض بصره قاهراً شعوره

بقوله :

_ زبونة !

_ أشعر أنني رأيتها من قبل!

تقولها بحيرة ليتذكر ما يجعله يقول مدعياً البساطة :

_ من بلدتنا! كانت زوجة رجل يدعى غازي خضر!

_ أعود بالله ! تذكرت !! تغير شكلها كثيراً لهذا لم

أعرف عليها ..فقدت الكثير من وزنها وخلعت

حجابها !

تقولها أمه بإشفاق وهي تراقب ديمة التي جلست

على منضدة بعيدة نسبياً تراقب الليل عبر الزجاج

الجانبى لواجهة المطعم ..

فيبتحنح حسام ليسألها باهتمام:

ماذا تعرفين عنها؟!

مسكينة ! لاجئة سورية جاءت إلى بلدتنا واستغلها

غازي ليتزوجها على زوجته ..

كل هذا كان يعرفه وود لو تمنحه أمه المزيد من

المعلومات ..

خاصة وهو يتذكر ذاك الذي قاله له أديم في لقاؤهما

الأخير ..

ديمة ضرغام ! ابتعد عنها ولا تسأل عن السبب !

ورغم دهشته من قوله لكن ابتسامته الساخرة ناسبت

رده باستهانة وقتها :

تظنني هذا النوع من الرجال الذي يؤمر فينفذ دون

أن يفهم ؟!

لكن أديم لم يمنحه تفسيراً .. فقط قست عيناه بقوله :

ابعد عنها لمصلحتك ومصلحتها.

لماذا قال أديم هذا ؟!

وما علاقته بها ؟!

وما ضرره أو ضررها لو اقترب منها ؟!

لهذا عاد يسأل أمه بالحاح :

ماذا تعرفين عنها أيضاً ؟!

لكن المرأة هزت كتفها قائلة :

لا شيء أكثر مما يعرفه الناس .. غير أنها ..

تقطع عبارتها وهي تهم بإخباره أنها كانت صديقة

هالة لكنها تتراجع مدركةً كم يثير هذا الأمر شجونه

فتكتفي بقولها :

مسكينة ! يقولون إن زوجة غازي الأولى وأقاربها
استغلوا ضعفها ليزوروا بعض الأوراق ويحرمونها
إرثها .. لو كنت تملك مساعدتها يا ابني فلا تتأخر !
يهز رأسه وعيناه تغافلانه بنظرة أخرى نحو تلك التي
بدت غافلة عن العالم كله في جلستها البائسة هناك ..
جسدها يتحرك بهذه الطريقة الرتيبة للأمام والخلف
وكفاها متشابكان بقوة فوق المنضدة بينما وجهها
شارد عبر زجاج المكان كأنها تفر من كل العيون التي
تعلقت بجمالها الصارخ عقب دخولها المكان !
إنها المرة الثانية التي يلتقيها صدفة !!
ومع تحذير أديم أي رجلٍ مكانه كان ليبتعد ..
لكنه لم يملك إزاء هذا الحدس في عقله ..
والخفقة المختلفة في قلبه ..

إلا أن يقترب!!

وفي مكانها كانت ديمة تشعر أنها عادت .. تنقسم!!

جزأها الأحمر .. المشبع بانتقامه و غضبه ..

وجزأها الأزرق .. المشبع بخذلانه وخوفه ..

وبينهما سحبها الأرجوانية تمطرها بسيول تغرق ولا

تثمر !

لقد جاءت إلى عندما رآته وقد نشر على حسابه موقع

المطعم بتباهٍ معلناً عن نيته بالذهاب هناك .. فلم تشعر

بنفسها إلا وهي تبدل ثيابها لتأتي إلى هنا .. خاصة

وهي تشعر بالرعب بعدما سألتها ماسة عن علاقتها

به وقد رأت صورته على هاتفها ..

لقد كذبت زاعمة أنها لا تعرفه وأنها مجرد صورة لا
تدري كيف ظهرت على هاتفها.. فهل صدقتها ماسة
!؟

لو لم تفعل وأخبرت عاصي كيف سيكون رد فعله !؟
المزيد من التوتر يسكب الدموع في عينيها وهي لا
تدري ماذا تصنع !؟

يجب أن تنتقم من حسام هذا بسرعة !!
لأجلها .. ولأجل سند !!

سند الذي ترى على وجهه حسرة تشبه حسرتها ولن
تهدا حتى تطفئ حسرتها معاً !!
وأخيراً تجد الجرأة لتلتفت إليه فتلتقي عيناها عبر
هذا البعد ..

يرتجف جسدها بهذه الرهبة التي لا تملكها كعادتها

في كل لقاء لها معه ..

هذه "النظرة الآدمية" في عينيه تسقي هذه النبتة

العطشى في جيب روحها ..

إنما لا تزال هويتها تحدد سكنها في مدينة أشباحها !!

قدماها تتحركان نحوه وهي تحاول رسم خطة ..

لو خذلها ذكاؤها .. فلعل فتنتها لا تخذلها !!

من هذه المرأة معه ؟!

مساء الخير!

تقولها بابتسامة مصطنعة وهي تقف أمامه ليقف

بدوره ثم يعرف لها أمه التي ابتسمت لها بحنان

قائلة :

أهلاً يا ابنتي .. ألا تعرفيني؟!

تتجمد ملامحها بخوف لم تخفه ملامحها !!

أمه !!

إذن هي من نفس البلدة !!

هل تعرفها !؟

ماذا تراها أخبرته عنها !؟

تهز رأسها نفيًا للسؤال فتعرفها المرأة بنفسها لتعاود

هز رأسها بجهل لا تدعيه ..

ياللحظ !!

لماذا تأتي أمه هذه الليلة !؟

تفضلني بالجلوس!

تدعوها المرأة بطيبة فترفض أول الأمر لكنها تلح

بإصرار لتشاركهما المائدة ..

لا أحب الأكل الجاهز لكن حسام يقول إن السمك هنا

رائع ..

تغيب عنها بقية تفاصيل كلام المرأة وهي تشعر

بالمزيد من الارتباك ..

فلتسحب هذه المرة ولتعاود هجومها في وقت

لاحق !!

تقف مكانها فجأة تهم بالاعتذار كي تنصرف لكنها

تصطدم بالنادل الذي أتى لتوه فتسقط منه الأطباق

بمحتوياتها !!

لم يكن الموقف كارثياً لكن ردة فعلها كانت الكارثة !

فما كاد النادل يمد يده ليتناول بقايا الطبق المكسور

حتى ظننته سيضربها !!

تتهاوى مكانها محيطة رأسها بذراعيها صارخة
باعتذارات متتالية ودموعها المنهمرة تخنق بقايا
حروفها !!

يعتذر النادل وتحاول أم حسام احتضانها بينما يقف
هو عاقداً حاجبيه بشدة وفكرته السابقة عنها تزداد
عنها يقيناً ..

ليست متزنة !!

لا يحتاج لكثير من ذكاء كي يدرك أي معاملة كانت
تنالها من زوجها الوغد ذاك لتأتي بردة الفعل هذه في
موقف بسيط كهذا !!

ابتعد عنها .. لمصلحتك ومصلحتها !

من جديد يسمعها بصوت أديم فيختلج قلبه بين
ضلوعه برفض ..

لم يتصف يوماً بركة القلب ولم يعهد نفسه بهذا
الضعف يوماً أمام دموع النساء ..
لكنه في هذه اللحظة يتمنى أي مسوغ .. أي مبرر .. أي
صفة .. تمنحه الحق في احتضانها هكذا كما تفعل أمه!
لا ليس حزن رغبة رجل في امرأة ..
بل حزن احتواء بهذا المفهوم الذي لن يعرفه يوماً
وإن تمنى الشعور به كما الآن ..
"الأبوة"!

أجل .. رغم فتنتها الأنثوية التي تدير أعتى الرؤوس ..
لم تزد في عينيه في هذه اللحظة عن طفلة خائفة
ترتجف رعباً من العالم ..
تماماً كما رآها في حلمه !
_صلي ع النبي يا ابنتي واهدئي! لم يحدث شيئاً!

تهتف بها أمه في حنان مسها لتفريق ديمة من
غيوبتها الشعورية وترفع عينيها إليها ببطء ..

"نظرة آدمية" أخرى!!

نظرة تخبرها أنها حقاً مرئية!!

أن لها هوية خارج "مدينة الأشباح"!!

_ اهدئي ولا تخافي!

وهذه الأخرى كانت منه هو!!

لايزال واقفاً مكانه بطوله الفارع يشرف عليها من

علو كجبل يوشك أن ينقض فوقها ..

أو ..

ربما .. كشجرة تعدها بالمزيد من الظل!

تغمض عينيها بقوة وهي تحيط وجهها بكفيها ..

رغبة في الفرار ..



رغبة في البقاء ..

كلتاها تتصارعان داخلها تماماً ..كصراع الأحمر

والأزرق!

لو كانت الآن أمام مراتها لسخر منها شبح غازي ..

ولعاتبها شبح هالة ..

ولخذلها شبحها هي !!

_اجلس يا حسام ..الرجل سيحضر طعاماً غيره ..وهي

ستكون بخير !

تقولها الأم بحنان وقلبها يستشعر بحدسه أن هذه

النظرة في عيني ابنها تعني الكثير ..

هي ليست نظرة حبه الغريزي لطيف ..

ولا نظرة فخره الطموح بيسرا ..

ولا نظرة تملكه المرضي لدعاء ..

هي نظرة ربما تراها لأول مرة في عينيه ..
نظرة من يود المنح ولو لم ينل في المقابل عطاء !!
لهذا تعجبت لكنها تفاعلت !!
ربما لأنها تدرك أن علة ابنها تكمن في هذه
المعضلة !!

ينتهون من تناول الطعام بعد وقت ليس بالقليل
حاولت فيه أمه احتواء ديمة بحنان لا ينقصها بينما
بقي هو صامتاً يرمقها بنظراته المتفحصة ..
لأول مرة رغم خبرته العظيمة في النساء خاصة
والبشر عامة يشعر أنه غير قادر على قراءة
أحدهم !!

أبواب مدينتها موصدة أمامه بألف مفتاح !!
مخادعة؟! نعم



صادقة؟! نعم.

بريئة؟! نعم.

مذنبه؟! نعم.

كيف يمكن أن تحمل امرأة كل هذه المتناقضات دون

أن يكون كاذباً في حدسه؟!!

وجه "الضابط" ووجه "المحامي" يتصارعان داخله

رغبة في استكشاف غموضها هذا ..

فيدين الأول .. ويدافع الثاني .. وكلاهما يعلن أخيراً

عجزه !

أفكاره تنقطع وهو يشعر بنبرة صوت أمه تتغير

ليجتاحه بعض القلق مع شعوره بتلاحق أنفاسها ..

هو يعرف هذه الأعراض جيداً !!

أنتِ بخير؟!!

يهتف بها بجزع وهو يراها تؤكد شعوره عندما
بسطت كفها على صدرها لتطلق صرخة ألم ..



_ لماذا أصرتِ على القدوم !؟

يقولها لها حسام وهو يقف جوارها أمام غرفة أمه
في المشفى لترتجف شفثاها وهي تهز رأسها دون

رد ..

لقد فقدت آية التواصل مع الناس منذ عهد بعيد ..

نسيت كيف يمكن أن تتكلم في موقف كهذا ..

فما بالها أمامه هو !؟

_ يمكنك الانصراف الآن .. سأوصلك!

يقولها ببعض الحزم ولازال يتفحص ردود فعلها

الغريبة لترفع إليه عينيها برجاء هاتفة :

_دعني قليلاً..حتى تفيق!

يتهد باستسلام وهو يدعوها للجلوس على المقعد

القريب فتجلس جواره ..

تراقب جانب وجهه لتلمح هذا الألم الذي يستعر فوق

ملامحه ..

الألم الذي يشعرها بالتشفي ويرضي هذا الجانب

"الأحمر" داخلها ..

ربما لهذا تصر على البقاء !

لكنه ينظر إليها فجأة ليربكها من جديد وهو يرمقها

بهذه "النظرة الآدمية" ..

فتحاول الهروب من ارتباكها بسؤاله :

_هل هي المرة الأولى التي تصيبها فيها نوبة كهذه

!؟

يطرق برأسه ليرد باقتضاب:

_ لا!..تصيبها كثيراً..على الأقل أنا هذه المرة معها!
ينعقد حاجباها وهي تشعر بظاهر عبارته القاسي يؤكد
فكرتها عنه..

إنما شعورها بتشنج جسده جوارها واحمرار وجهه
المنفعل يكشفان لها حقيقة إحساسه..

_ والدتك تبدو طيبة جيداً..لماذا لا تقيمان معاً!؟

تسأله بوجل ليجيب بنفس الاقتضاب:

_ هي ترفض الإقامة معي هنا في العاصمة..وأنا لا

أريد الإقامة هناك في بلدتنا.

_ لماذا!؟!

سؤالها يبقى معلقاً بينهما للحظات قبل أن يرفع إليها

عينيه الخطرتين مستكشفاً ما خلف سؤالها..

قبل أن يقرر إدارة دفعة الحديث بذكاء لا ينقصه :
_تفكرين في العودة لبلدك بعدما تكسبين القضية؟!
تتسع عيناها لوهلة بصدمة مع سؤاله كأنها لم
تتوقعه ..

بل لم تفكر فيه !!
شعورها بنفسها أنها مجرد عابرة سبيل في هذه
الحياة ..

ذبحها أمس وشلّها اليوم .. فكيف تفكر في غد؟!
_لم يعد لي هناك من أعود إليه .

تقولها مطرقة برأسها ليسول لها "شبحها
الأرجواني" استمالته بقصتها التي لا تدعي
مأساتها :

_والداي متوفيان..وما بقي من عائلتي انقطعت عني

أخبارهم بعدما كتبت علينا الفرقة بين البلاد .

لكنها ما كادت تنهي آخر كلماتها حتى توات عليها

ذكرياتها تباعاً تقصفها برصاص الفقد ..

من جديد يلون عيناها لون الدم ..

وتتهك سترهما الدموع !!

الدموع التي لم تتكلفها وهي تجد كلماتها تنساب دون

وعي:

_أمي ماتت أمامي ..ماتت وهي تدفعني نحو القارب

وقد ظنت أنها لآخر لحظة في عمرها تمنحني

النجاة ..لو كانت تعلم ما سيؤول إليه مصيري لرضت

بأن أموت جوارها ..نحن لا نموت فقط عندما تنقطع

أنفاسنا ..نحن نموت عندما تختنق أرواحنا داخل جسد

أجوف .. عندما تعجز الدموع عن منحنا
الراحة .. عندما يعجز الصراخ عن منحنا
السلوى .. عندما يعجز الزمن عن منحنا
العوض .. فيبقى الألم .. فقط الألم .. الألم الذي من
فيضه تود لو تمنحه لغيرك لعك فقط تزيح عن كاهلك
بعضه !

ينعقد حاجباه بشدة مع كل كلمة تتفوه بها ..
يكاد يقسم أنه لم يسمع يوماً وصفاً لوجع يشبه هذا !!
حتى عبارتها الأخيرة التي بدت له شديدة العدائية ..
منها هي بالذات خرجت مثيرة للشفقة !!
وجواره كانت هي تعود لصراع أشباحها من جديد ..

شبح هالة الأبيض يأتيها مواسياً هذه المرة ..يربت

على كتفها برفق ..فتمد له كفها ..

شبح غازي الأسود يأتيها ساخراً من ضعفها رافعاً

كفه ليصفعها فترفع ذراعيها مدافعة ..

شبحها هي الأرجواني ينقل بصره بينهما بتشتت ..

فتمد كفها تدفعه ..

يراقب هو بكاءها ملاحظاً حركة ذراعيها الغريبة

حولها بتفحص ليجدها تحتضن نفسها بذراعيها أخيراً

في وضع حمائي يشعل شعوره نحوها أكثر ..

لو كان التوقيت مناسباً لسألها المزيد عنها ..

أين تسكن؟! مع من تقيم؟! ولماذا تركت البلدة

للعاصمة!؟

لكنه مع حالتها هذه لم يشعر بنفسه وكفه يمتد ليربت
على كتفها برفق فتنتفض مكانها بشهقة مذعورة قبل
أن تتمالك نفسها وهي تنظر للمكان حولها بغرابة
كأنما لا تدرك حقاً أين هي !

يقف بدوره محاولاً تهدئتها لكن الممرضة تخرج من
غرفة أمه لتقول بنبرة عملية :

_ لقد صارت أفضل .

_ هل يمكنني رؤيتها؟!!

يقولها حسام وهو يتقدم نحو الغرفة لتلحقه ديمة
بعينين زائغتين ..

تراقب المرأة التي شحبت ملامحها فيروعها من جديد
شبح الموت ..

_ ستفيق بعد دقائق .

_أريد التحدث للطبيب .

يقولها حسام بقلق فتتحرك معه الممرضة نحو الغرفة

المجاورة بينما تبقى ديمة مكانها ترمق المرأة

بنظرات مشتتة ..

تقترب منها خطوة تلو خطوة ..

صراع "لونيها" يزداد داخلها ..

الأحمر يسول لها أنها فرصتها للانتقام ..

ماذا لو حرمته أمه كما حرم هو سند من أمه؟!؟

إن كانت هي قد عجزت عن قتل غازي فلن تعجز عن

فعل هذا بالمرأة الآن؟!؟

لن يخف الألم إلا لو أَلقت بعضه على غيرها كما قالت

له منذ قليل !

خطوة تلو خطوة ..

الأزرق يستصرخها الرحمة ..

المرأة لا ذنب لها فيما فعله ابنها ..

لقد عطفت عليها في هذه الدقائق القليلة التي التقتها

فيها ..

منحتها "النظرة الأدمية" التي لم يمنحها لها سوى

القليلون ..

خطوة ..

ترى شبح هالة يعاتبها بجفاء ..

خطوة ..

ترى شبح غازي يسخر من ضعفها العاجز ..

خطوة ..

ترى فيها شبحها الأرجواني يتعجلها فلم يعد هناك

وقت ..

عينها تنتقلان بسرعة نحو تلك الأسلاك الرفيعة التي

تعلق بها جسد المرأة والتي لا تفهم كيف تعمل إنما

تدرك أهميتها ..

لتمتد نحوها أصابعها بسرعة قاسية كي ..

ينتصر "الأحمر" !!

=====

الطيف السادس عشر

=====

بنفسجي

=====

_ديمة!

الهدف الحاد خلفها يجفلها فتقبض كفها بسرعة وهي
تلتفت نحوه ..

أديم!!

ما الذي جاء به إلى هنا؟!!

هو يراقبها حقاً!!

نظراته العاصفة تبدو لها كسياط تجلدها فتغطي

وجهها بذراعيها بتلك الحركة الدفاعية هاتفة

ب"وجهها الأزرق":

_ لا تؤذني! لا تؤذني! لم أكن سأفعل شيئاً.. صدقتي.

لكنه يجذبها من مرفقها ليخرج بها من الغرفة فيتحول

هتافها لنشيج خافت وهي ترتجف بين ذراعيه :

_ لم أفعل شيئاً.. لم أفعل شيئاً .

_ بالطبع لم تفعلي شيئاً! أنتِ أجبن من أن تفعلي

شيئاً!

بصوت غازي تسمعها فتتفصل المرئيات عن

عينها ..

الكون كله يتحول لسطح مرآة عريض تحتله

أشباحتها ..

ولايزال صوت غازي الساخر يصفعها :

_من تظنين نفسك؟! من مثلك قمامة خلقت لتدوسها

الأقدام! دعي الانتقام لمن يجيده !

صفعته تهوي على وجهها فتصرخ ..

تستجد بشبح هالة الأبيض لكنها لا تزال تعرض عنها

عاتبة ..

بينما شبحتها هي الأرجواني يرمقها بنظرة آسفة

مكتفياً بوقفته الصامتة ..

فيقترب شبح غازي ليصفعها من جديد ..

صفعة خلف صفعة ..

صرخة خلف صرخة !!

_ ما الذي يحدث!؟!

صوت حسام يبدو وكأنه يكسر "مرآتها" لتعود
لوعياها فجأة ..

فترمقه بهذه النظرة المرتعبة التي تجد صداها في
صدره !!

يحاول تخليصها من قبضة أديم المحكمة على مرفقها
لكن أديم يتشبث بها هاتفاً بصرامة :
_ أخبرتك أن تبعد عنها !

فيكز حسام على أسنانه بقوة وهو ينقل بصره بينهما
بتفحص ..

لكن مشهد ديمة الباكية بهذه النظرة المرتعبة لا يدع
له المزيد من التفكير فيجذبها بقوة لا تنقصه ليزيحها

خلف ظهره قبل أن يواجه أديم بنظراته الصقرية

قائلاً :

_وأنا أخبرتك أنني لست الرجل الذي يتلقى الأوامر!

يحمر وجه أديم بانفعالٍ طاغٍ وهو يكاد يفقد

أعصابه !!

كل هذا الضغط الذي عاشه طوال الأيام السابقة لا يدع

له مجالاً للراحة ..

وهاهي ذي ديمة تزيد الضغط عليه بإصرارها على

المضي في هذا الطريق !!

كيف يساعدها دون أن يفصح مخططها؟!

دون أن يهددها بخطر من نوع آخر؟!

كيف يحميها من شر نفسها وهي تصر على إبعاده؟!

وكيف يضمن أن يكون موجوداً كل مرة كي ينقذها من
ورطة كهذه التي أوشكت أن تضع نفسها فيها؟!
_ اتركها ترحل يا حسام واعتنِ بأمك .. أنا سأوصلها.

يقولها صارماً محاولاً تمالك غضبه لكن ديمة تهتف
باكية من خلف ظهر حسام :

_ لا! لن أرحل معك .

_ ديمة ! لا تجعليني أفقد صبري وإلا ..

يهتف بها أديم بحدة وقد انفلتت كل

انفعالاته من عقالها ليحاول سحبها قسراً نحوه لكن

حسام يدفعه ببعض العنف كي يبعده عنها هاتفاً ببرود

قاس:

_ ماذا تفعل هنا أصلاً؟!!

يضم أديم قبضته في وضع هجومي ومظهر ديمة
المختبئة خلف ظهر حسام يكاد يصيبه بالجنون !!
فليضح له خبيئتها ولينته كل هذا العبث !!
لكن ديمة تقرأها في عينيه ليشتعل الصراع بين
وجهيها (الأحمر والأزرق) من جديد ..
الرعب يكاد يوقف قلبها فلا تملك دموعاً يذرفها
وجهها الأزرق ..

لكن وجهها الأحمر يملك الزمام فتتهف بين دموعها:
_ لا تصدق أي كلمة يقولها .. أنا ضقت ذرعاً بملاحقته
إيائي .. منذ كنت زوجة لغازي وكان يتنكر في صورة
حارسه .. هو مثل الجميع يظنني لقمة سائغة لأتني
بلا أهل .. منذ وفاة غازي وهو يطاردني كظلي .. أنا
مثلك فوجئت به هنا !

تتسع عينا أديم بصدمة للحظة من افترائها البين بينما
يعقد حسام حاجبيه بغضب وهو يشعر بانتهيارها
الباكي خلف ظهره ..

شعور رهيب بالحمية نحوها يتملكه فلا يفكر لحظة
في تكذيبها ..

لهذا عندما عاد أديم يهتف بغضب:

بماذا تهذين!؟

لم يمنحه الفرصة لإكمال عبارته وهو يرفع قبضته
في وجهه هاتفاً بنبرته الصارمة :

_لا أجد أي مبرر لوجودك هنا .. وسأرد لك بضاعتك
فأقول لك ابتعد عنها ..

انتهى الكلام!

_افهم يا "بني آدم"! هذه المرأة ..

يهتف بها أديم بحدة ملوحاً بذراعه نحو ديمة التي
عادت تغطي وجهها بوضع حمائي ليبتتر أديم عبارته
دون أن يكملها ..

ذبذبات الغضب تشحن الجو كله حول
ثلاثتهم فيبدو المكان وكأنه سيتحول لساحة حرب
قريباً ..

لكن أديم يحكم عقله فيؤثر الانسحاب المؤقت خاصة
وقد أدرك أن أي كلام سيقوله الآن سيكون بلا
صدى ..

_ انتبه لحالك ..

يقولها مخاطباً حسام الذي قست ملامحه قبل أن
يلتفت نحو ديمة ليردف بغيظ مكتوم :

_ سأرحل .. لكن اعلمي أنك تحت عيني .. يوماً تحت عيني .

يقولها وهو يرمقها بنظرة عجيبة مزجت سخطه بإشفاقه خاصة وهو يرى انهيارها الباكي بعدما قالته والذي يوقن أنها لا تدعيه كباقي افترائها ..
_ هل تهددها!؟!

يهتف بها حسام بغضب فيلتفت نحوه
قائلاً بصرامة :

_ لنا كلام طويل فيما بعد .. ليس هذا مكانه !
يرمقه حسام بهذه النظرة الصقرية النافذة وهو يراقب
انصرافه لينعقد حاجباه بضيق مشتعل ..
هو لم يخطئ تأويل نظرة أديم العاطفية لديمة .. ألهذا
أمره بالابتعاد عنها!؟!

لكن ما أثار هلعه بحق هو هذا الشعور العاصف الذي

يكاد يقتلع جسده من مكانه ..

شعور لم يعرفه من قبل مع أي من نساءه ..

شعور ب"الغيرة"!!

شعور كارثي حقاً لشخصية مثله !!

لهذا كانت استدارته نحوها من العنف بمكان وهو

يرمقها بنظرة حادة لانته

قليلاً وهو يراها الآن كما كانت في "حلمه" تماماً ..

طفلة باكية مذعورة ..

والآن تحتمي به !!

عيناه تهبطان نحو إحدى تلك الندوب التي تركتها

سجائره على ذراعه فيغمضهما بقوة وهو يشعر

بحاجته لوجه أبيض جديد يمحو عنه بعض أوزاره ..

لكن .. هل هي كذلك فحسب!؟

خفقات قلبه الهادرة التي تعوي الآن بجنون داخل

صدره تتبئه بالجواب ..

لكنه يتجاهله وهو يربت بكفيه بخفة على كتفيها قائلاً

بنبرته التي لم تفارقها صرامتها رغم رقة محتواها:

_الطبيب طمأني .. أُمي صارت بخير .. لن تفيق قبل

الصباح .. دعيني أوصلك لبيتك .

_لا!

تهتف بها برعب وهي تخشى أن يراه عاصي معها

لكنه يكرر بنفس النبرة الصارمة :

_تعلمين كم الساعة الآن!؟ لن أتركك ترحلين وحدك

في هذا الوقت .. أنا أقدر أنك تقيمين وحدك وليس من

اللائق أن يرانا أحدهم لهذا سأتركك على مسافة
مناسبة من بيتك وأراقبك من بعيد حتى تصلي بأمان .
لم يمنحها فرصة الرفض وهو يدفعها برفق أمامه
ليغادرا المشفى قبل أن
يستقلا معاً سيارته ..

يسألها عن العنوان فتعطيه إياه بصوت مرتجف
وعيناها الزائغتان في الفراغ لا تكادان تميزان شيئاً
سوى خسارتها الجديدة هذه الليلة ..
هي عجزت عن الانتقام منه ..
كما عجزت عن الانتقام من غازي ..
هي حقاً أضعف من أن تؤذي من آذاها لهذا ستعيش
عمرها كله تدوسها الأقدام!

تسند رأسها لظهر مقعدها عاجزة عن منع دموعها
فيختلس نظرة جانبية نحوها وهو يشعر أن هذه الليلة
قاربت بينهما بأكثر مما تصور ..

كيف يمكن لبضع ساعات أن تختزل مسافات بهذا
الطول؟!!

فقط .. عندما يتدخل القلب!

القلب؟!!

هل عدت تسمع صوت القلب يا حسام؟!!

يعقد حاجبيه بقوة عند الخاطر الأخير وهو يزيد من
سرعة سيارته كأنما يريد تقصير المسافة والخلص
من كل هذا الشتات ..

لكنه يعود فيختلس نظرة أخرى نحوها تجعله يبطن
السرعة من جديد ..

فلتبقَ معه ..

فقط فلتبقَ معه دون أي حسابات !!

_ هلا كفتِ عن البكاء وأخبرتني أكثر عن أديم هذا

وعلاقتك به ؟!

نبرته الصارمة لاتزال تنجح في إخفاء شعوره خلفها

لكنه لا يتلقى منها جواباً سوى المزيد من الدموع ..

فيزفر بحنق وهو يستعيد ما أخبره به أديم في لقاءهما

تلك الليلة بمشفى دينا ..

لم يخبره أنه كان متتكرراً بصورة حارس غازي ..

ولا عن معرفته الشخصية بديمة !

لكنه لا يريد تصديق أنه حقاً بهذه البشاعة كي يطارد

امرأة مثلها!!

يتوقف بالسيارة أخيراً على مسافة مناسبة من

العنوان الذي وصفته ثم يلتفت نحوها قائلاً :

_ انظري إليّ!

يرتعد قلبه بهذه الطريقة التي يشعر فيها ببعض الندم

على طلبه بعدما تلاقت عيناها ..

" حلقة الزعفران " في عينيها تومض بهذا

الألق الخطير وسط زرقة عينيها القاتمة فتبدو له

كشاطئٍ ذهبي مغرٍ وسط موج هادر ..

لكنه يتمالك نفسه أخيراً ليتخير كلماته :

_ خذي وقتك واهدي وبعدها أخبريني بكل

شيءٍ .. أعرف أن ما مررت به يجعلك لا تمنحين ثقتك

بسهولة لأحدهم .. لكنني لا أملك سوى أن أمنحك

كلمتي "أنا معك" ..

يهياً إليه أن حلقة الزعفران في عينيها تزداد

اشتعالاً ..

الشاطئ الذهبي يزداد إغراء ..

الزرقة القائمة تبتلعه أكثر ..

فيود لو تقصر المسافة بينهما أكثر وأكثر ..

لكنه يصطدم بفردة قرطها المتأكسدة !!

ولا يدري لماذا يزداد شعوره بالنفور منها في هذه

اللحظة بالذات !!

تباً لهذا الغموض الذي يحيط بهذه المرأة !!

لابد أن يحيط بكل تفاصيلها ..لابد!!

أنا معك ولن أسمح لأحد أن يؤذيكَ ..أنا معك في كل

ما تريدين ..أنا معك في كل ما تختارين ..قريباً

تكسبين القضية ويكون لك مالك الخاص .. يمكنك بدء مشروع صغير يناسبك .. أو لعك ترينين إكمال تعليمك .. أو ربما ترغبين في العودة لبلدك .. لا تزال السبل كلها مفتوحة أمامك .. لا داعي لكل هذا الخوف والدموع .

تتحرك شفتاه بنبرته العملية محافظاً على لباقتة

المعهودة بما لم يبذُ غريباً عليه ..

لكن الغريب حقاً كان هذه الطريقة التي يتفاعل بها

قلبه مع كل تغير في

ملامحها ..!

اضطراب أنفاسها ..

تشئت نظراتها ..

هذه الطريقة التي ترفرف بها أهدابها كأنها تحتجز

ألف سرب حمام يريد الهروب من سجنه ..

هذه الرعشة المغوية لشفتيها المحمرتين بأثر

البكاء ..

هذه الاختلاجة لجسدها الذي يحتضنه ذراعاها فيود

لو يفك تشابكهما فيتولى هو هذه المهمة !

تباً!

أي سحرٍ ألقته عليه هذه الأرجوانية؟!!

وأي سر تخفيه خلف حلقة الزعفران هذه؟!!

_ ديمة .. لن تقولي شيئاً؟!!

كان يعلم أنه لن يتلقى منها جواباً مع هذه الحالة التي

بدت عليها ..

لهذا فاجأته بقولها وهي تغتصب ابتسامه مرتعشة:

شكراً .. سأتصل بك ل..ل... لأطمئن على والدتك .

يهز لها رأسه وعيناه لا تزالان عالقتين

بملاحها ثم يمد لها يده مصافحاً .. ومختبراً!

نفس ردة الفعل لكل مرة !!

التردد .. الاستسلام .. النفور .. ثم .. الهرب !!

يراها وقد غادرت السيارة لتركض في الطريق الخالي

في هذا الوقت من الليل فيلحقها بسيارته بسرعة

مناسبة حتى يراها تدخل ذاك البيت .

يدور بعينه مراقباً المكان حوله بخفة متفحصة قبل

أن يقرر المغادرة ..

موقناً هذه المرة أنه ترك شيئاً ما خلفه ..

شيئاً ..ك"قلبه"!!

=====

أحمر

شعرك جميل!

تقولها يسراً صباحاً بوجد مخاطبة هبة التي شهقت
بخجل وهي تقف أمام مرآتها لتحاول تغطية شعرها
هاتفة:

متى دخلتِ؟!!

تضحك يسراً من خجلها المبالغ فيه وهي تقترب منها
لتخبط كفيها ببعضهما هاتفة:

**ما كل هذا الخجل؟! ماذا لو كان رجلاً ما هو من دخل
؟! أنتِ حنبلية فعلاً!!**

لكن هبة تحافظ على صرامة ملامحها رغم حمرة
الخجل التي خضبتها وهي ترد بحمية :
_ يظلمون الإمام أحمد بن حنبل فيسمون أي متشدد
بالحنبلي .. رغم أن مذهبه كان يحوي تيسيراً لكثير
من أمور الدين .. لكنه فقط تمسك بأمر عقيدته فرفض
أن يقول بأن القرآن مخلوق لهذا تعرض للتعذيب في
عصره ومن هنا ظهرت تسمية كل متشبهت برأيه
بالحنبلي .. لكن الحقيقة أن الإمام أحمد ..
_ هبة! هبة! أرجوك! هذا ليس وقت استعراض
معلوماتك الأزهرية .. الصداق
ملازم رأسي منذ استيقظت .

تقاطع بها عبارتها فترمقها هبة بنظرة حنون تناقض
صرامة ملامحها قبل أن تفتح درجاً قريباً لتستخرج
منه شريط أقراص ناولته إياها ..

لكن يسرا ترمقه بنظرة شاردة وجسدها يرتجف رغباً
عنها !!

منظر الأقراص المرتصة في شريط كهذا لم يعد يحمل
لها سوى ذكرى سوداء ..

منامة صغيرها الملوثة بالدم !

لهذا تزيحه جانباً بعنف تلقيه أرضاً بما بدا كحركة
شديدة الفظاظة فترمقها هبة بنظرة مندهشة لتغضب
هي ضحكة عصبية مع قولها:

_ لا أحب الأدوية !

تعاود هبة تفحصها بنظراتها لكنها تهرب منها وهي
تحنى لتلتقط الشريط فتضعه مكانه ثم تغلق الدرج
لتلتفت نحو هبة محاولة تغيير الحديث بقولها
الممازح:

_ أكلمك عن جمال شعرك وخجلك والرجال فتكلميني
عن الإمام أحمد بن حنبل!؟

تعود هبة لتورد وجنتيها وهي تعقص شعرها على
رأسها لكن يسرا تفرده لها قسراً هاتفة :

_ دعيه يتنفس يا "شيخة"! كدت أظنك هكذا خلقتِ
بالطرحه التي لا تخلعينا عن رأسك .. أقول لك شيئاً
وتسامحينني!؟

ترمقها هبة بنظرة تساؤل متوجسة فترد يسرا وهي
تراجع خطوة للخلف:

ظننتك صلعاء أو ما شابه

تشهق هبة بعنف قبل أن تتشارك كلتاهما ضحكة

طويلة وجدت صداها في قلبيهما ..

خاصة يسرا التي كانت تشعر بدفء هذه العلاقة

بينهما يهزم جبال صقيعها ..

هبة لم تعد مجرد رفيقة أو جارة ..

بل صارت قدوة .. جبلاً تود لو تصل يوماً لقمته ..

أختاً تود لو "تشتريها" كما اشترت كل حياتها

الجديدة هنا ..

الغريب أنها لاتزال تستعمل لغة الشراء والبيع كما

اعتادت "يسرا الصباحي" أن تفعل ..

لكن مفهوم "الثمن" هو ما اختلف هنا في حياة

"سمر"!!

التمن الذي تود حقاً لو تعرفه ..

لو تملكه ..

لو تدفعه !!

لهذا يجيئ سؤالها بهذه النبرة المرتجفة بين تضرع

وشك :

_ تحبينني؟! _

فترمقها هبة بنظرة طويلة متفحصة قبل أن ترد :

_ تعودت أن أثق بقلبي .. قلب المؤمن دليله .. وأنتِ

طيبة وتستحقين الحب!

تشرق ملامح يسرا ببشر عجيب فتبدو كزهرة تتفتح

براعمها لتعانق أشعة الشمس ..

كانت تحتاج حقاً هذا التصريح ..



تحتاج هذه الصورة لنفسها في مرآة أحدهم ..

لكن هبة تردف بغيظ:

_صحيح أنك تغيظيني كثيراً بتصرفاتك وتحريك

الزائد .. لكن لا بأس ما دمت ترجعين لصوابك في

النهاية .. عندما طلب مني خالي ربيع أن تقيمي معي

كدت أرفض باستماتة فلم أعتد السكنى مع أحد .. لكنك

حقاً أنتِ وحدتي .. غريب! رغم كوننا مختلفتين بل

متناقضتين في طباعنا !

فتضحك وهي تمسك كتفي هبة لتغمزها قائلة :

_بمناسبة الحديث إذن عن الخجل والرجال والتحرر

وكوني أنتِ وحدتك وجلسة الصراحة الحلوة

هذه .. أخبريني .. هل عرفت هبة الحنبلية الحب يوماً

!؟

ترفع هبة حاجبها باستتار وهي تحرر كتفيها منها

لتعطيها ظهرها لكن يسرا تعاود سؤالها بالحاح ..

لا .. لم يكن سؤالاً بريئاً!

هي حقاً كانت تريد المعرفة .. لأنها ببساطة كانت

تخاف!

أجل !! "إبراهيم" !!

منذ صرحت له -ضمنياً- بمشاعرها في مطبخ بيته

وهو يتحاشى لقاءها ولا تعرف السبب!!

هو يحبها !!

تكاد تقسم على هذا !!

فلماذا إذن يبتعد ؟!

عقلها لم يهدأ لجواب سوى .. هبة !!

هل هي ما تقف ما بينهما ؟!

ستكون مصيبة بحق!!

هي لا تريد أن تخسر هبة!

لهذا جاء جواب هبة مريحاً نوعاً ما وهي ترد بنفي

قاطع:

_ لا! أنا أستعير جملة إبراهيم التي يقولها

دوماً: (أدخر قلبي لـ"حلاي)

_ تقصدين أن قلبك لم يغافلك يوماً ويخفق لأحدهم!؟

تعاود يسرا سؤالها بإلحاح وقد تحسست من ذكر

إبراهيم في موضع كهذا ..

فتتهد هبة بحرارة وعيناها تغيمان بنظرة شاردة :

_ تعرفين!؟ كدت أنسى لولا أن ذكرني حديثك .. مرة

واحدة فقط عرفت فيها شعوراً مختلفاً لأحدهم .

يخفق قلب يسرا مرتعداً وهي تخشى الجواب ..

لكن هبة تبدو في عالم آخر وهي ترد بنفس النظرة

الشاردة :

_ليس لي في حديث الحب وميوعة البنات هذا ..ولا

أعرف تفسيراً لما شعرت به نحوه هو بالذات ..ربما

هي مجرد شفقة نحو واحد بظروفه ..أجل ..مجرد

شفقة ..لا أظن الأمر يتعدها ..لكنني بعد مرور كل

هذه السنوات أتساءل ..هل يحفر أحدهم هذه البصمة

في القلب لمجرد الشفقة !؟

يختلج قلب يسرا بالمزيد من الرعب ..

تخشى الحديث كي لا ينقطع سيل البوح النادر الذي

فاضت به كلمات هبة المتحفظة دوماً ..

والتي بدت وكأن شرودها ابتلعها تماماً وهي

تستطرد :

_ أول مرة رأيته فيها كنا صغاراً ..خالي ربيع
اصطحبني معه للمدرسة التي كان يعمل فيها والتي
كانت تعمل فيها أمه كذلك ..

تتهد يسرا بارتياح غامر وهي ترى مخاوفها تتبدد
تماماً فتركز أكثر في تفاصيل الحكاية :

_ كان اسمه إياد ! أخوه الأصغر لعب معي في الفناء
بينما بقي هو جالساً مكانه يرقبنا بهذه النظرة
الغريبة ..نظرة من يرغب في اللعب لكنه يشعر أنه
ليس من حقه ..كان يجلس وكأنه مقيد مكانه ..لا
يحرك يداً ولا قدماً ..فقط عيناه كانتا تركضان!

تدوران حولنا ونحن نلعب كأنه يشاركنا بصمته ..كان
غريباً ربما لهذا لم أنسه ..عندما عدت مع خالي لبيته
سمعت يكلم زوجته رحمها الله عنه ..يحكي لها قصته

وكيف أن أمه تزوجت بعد طلاقها من أبيه الذي سافر
به لسنوات إلى العراق قبل أن يقرر تركه لأمه .. لم
أنس يوماً جملة زوجة خالي وهي تقول (مسكين!)
ماذا جنى في هذا العمر كي يعرف هذا الشعور أن
ترميه أمه في البداية ثم يرميه أبوه (!؟).

_وماذا بعد ؟! قابلته ثانية ؟!

تسأل يسراً بإشفاق لم يخلُ من فضول لتومئ هبة
برأسها وهي تلاعب خصلات شعرها المفرد على
كتفها بشرود :

_بعد سنوات جعلت منه شاباً مهيب الهيئة لكنها لم
تنزع من عينيه نفس النظرة .. نظرة من يرغب لكنه
يرى أنه لا يستحق .. نظرة يتم لا يحوها الزمن مهما
طال .. كان يزور أمه في نفس المدرسة وكنت أقصد

خالي كي ينجز لي أمراً ما بخصوص دراستي ..كان يرتدي ثياباً عسكرية لأنه كان يؤدي الخدمة العسكرية وقتها لكنني لم أره إلا في نفس الصورة التي عرفته بها أول مرة ..طفل منبوذ ..لهذا لم أتعجب عندما سمعت خالي ربيع بعدها يخبر زوجته عن أنه اختفى بعد خطبة أخيه دون أن يخبر أحد عن مكانه ..ساعتها شعرت بوخزة في قلبي وأنا أتصور كل الأسباب المحتملة لما فعله ..لكن ما أرقني -ولا يزال- هل هي مصادفة حقاً أن ألتقي به في المرتين فأسمع وأعرف عنه كل هذا ثم ..لا شيء؟! أم أن القدر وضعه في طريقي لسبب لا أعرفه؟! لن أكذب فأزعم أنني أفكر فيه كثيراً ..أو أن قلبي تعلق به كما يصورون في

الأفلام .. لكنني عندما أتذكره .. أشعر بشيء غريب لا

يسعني وصفه ..

تتسع عينا يسرا بدهشة وهي تشعر بالغرابة من كل

هذا الذي تسمعه ..

لم تتصور أن خلف شخصية هبة المتحفظة الصارمة

هذا الوجه الحساس شديد الهشاشة ..

خاصة والأخيرة تردف بينما تهز رأسها كأنها تتفض

عنها أفكارها:

_ شعوري به لا يجعلني أشعر بالخجل فلم أفعل ما

يشين .. إنما هو فقط شعور يشبه

الحدس .. كأنني .. كأنني ..

تتردد في قولها فتحثها يسرا بسؤالها :

_ كأنك ماذا؟! قولي .. أنا أفهمك !

_ كآني أنتظره !

تقولها بتعجب وهي تهز كتفيها لتبتسم وهي تعطي
يسرا ظهرها بينما تعود لتعقص شعرها على رأسها

مردفة :

**_ كلام فارغ! صحيح؟! واحد لم ألتق به سوى مرتين
بالمصادفة وإحداهما كان مجرد مجرد مراهق ..بل إنه**

**حتى لا يعرفني ..ومع هذا أزعم أنني أنتظره؟! لعلك
تكونين سعيدة بتخاريفي الصباحية هذه مادام حديثي**

عن الإمام أحمد يصيبك بالصداع!!

تتهي حديثها وقد أحكمت وضع حجابها على رأسها

فتبتسم يسرا وهي تتحرك لتقف قبالتها تتأمل

ملامحها بود حقيقي لتقول :

_ حديث القلوب ليس ب"تخاريف" ! لكنه يحتاج فقط
لمن يؤمن به ..ربما عمر معرفتنا قصير لكنني أثق
في قلبك الطيب ..من يدري؟! ربما حدسك يغلب
عقلك هذه المرة ..ربما تكون لكما حكاية تستحق فعلاً
الانتظار .

_ انسي!

تقولها هبة وقد عادت لها صرامتها لتردف :

_ لا تتحدثي معي في هذا

الأمر ثانية ..ساعة فضفضة وراحت لحال سبيلها .

لكن يسرا تعاود سؤالها بتردد :

_ ذكرتِ إن إبراهيم له مقولة (أدخر قلبي

لحلالي) ..تعنين أنه لم يرتبط بإحداهن من قبل؟!!

فتعاود هبة تفحصها وقد شعرت بمغزى سؤالها

لترد :

_ "الدرويش" لم يكن متفرغاً لهذه الأمور ..خالي
ربيع تعب كثيراً بعد موت حسن في إقناعه بأن يتزوج
لكنه كان يرفض

لأسباب غير منطقية ..أذكر أنه قد عرض عليه يوماً
فتاة رائعة لا يعيبها أي شيء ..تدين ومال وجمال
ونسب وأصل ..تعرفين لماذا رفضها !؟

تهز يسرا رأسها بترقب لترد هبة :

_ كانت مخطوبة قبله ومات خطيبها ..

قال إنه لن يتزوج واحدة خفق قلبها لغيره !

يسقط قلب يسرا بين قدميها ووقع الكلمات ينال منها

كالسياط ..

بينما تردف هبة غافلة عن كل هذا :

_ أنا أفهمه ..حقه أن يرغب في واحدة مثله .. عفت

قلبا قبل جسدها .. لكن

خالي ربيع وقتها كان يرى أنه يبحث فقط عن ذريعة

ليتهرب من الزواج ..كأنه يتخرج من الفرحة بعد

موت توأمه !

تشحب ملامح يسرا رغماً عنها وهي تشعر بالهوة

السحيقة بينهما تزداد عمقاً ..

ماذا لو عرف !؟

لو عرف ماذا !؟

قد تكون يسرا قد تزوجت ثلاث مرات ..

لكن مالها ويسرا !؟

هي الآن سمرا !!

سمرا التي لم تعشق سواه !!

_دورك!

تنتزعها بها هبة من أفكارها فترفع إليها عينين

شاردتين لتهد الأولى كتفيها هاتفة :

_من الصباح تتقمصين دور المحقق ..مرة معي ومرة

مع إبراهيم ..دورك لتخبريني عنك .

فتغتصب ابتسامه مرتجفة وأاملها ترفع خصلات

شعرها الشقراء عن وجهها ..

كيف يبدو الآن مذاق الكذب بكل هذه المرارة !؟

لكن ..من قال إنها تكذب !؟

هي الآن سمرا وسمرا لا تكذب!

وبهذا اليقين تنتقي كلماتها :

_ مثلكما! أنا مثلكما! لم أعرف الحب قبل أن آتي إلى

هنا!

_ وبعدها أتيت!؟!

تسألها هبة بمكر فتسبل جفنيها هاربة لكن هبة تربت

على كتفها لتقول لها بنبرة وجدتها غريبة :

_ أنا فتحت لك قلبي قبل بيتي .. ويشق عليّ كثيراً أن

أعلم أنك تخفين عني شيئاً .

_ لا شيء! أنا لا أخفي أي شيء .. حياتي كلها أبسط من

أن تحوي أي أسرار .. مجرد فتاة يتيمة بلا أهل ولا

سند وجدت فيكم ماواها .

_ وإبراهيم!؟!

_إبراهيم حلم ! إبراهيم لوأحدة مثلي حلم ! وأظن هذا

الزمان لا يحقق الأحلام !

تهمس بها مغمضة عينيها بقتوط وهي تتذكر تباعده

الغريب عنها منذ أيام ..

فتتهد هبة تنهيدة طويلة وهي تعاود التربيت على

كتفها :

_أسأل الله أن يختار لكليهما الخير .. فقط تذكرني أن ما

عند الله لا ينال بمعصيته .. احفظي حدودك معه حتى

يقضي الله بأمره بينكما .

كانت قد بدأت تفهم هذه "اللغة" الجديدة عليها

فابتسمت لها بما يشبه الوعد قبل أن تتراجع لتضع

وشاحها فوق رأسها بسرعة ..

_ هاهو ذا الدبوس كما نصحتني سندس كي لا ينزاح

من على رأسي .. افتقدتها هذه الحمقاء .. لم أرها

بالأمس والكشك كان مغلقاً ..

تقولها ببعض المرح ثم تعدل وضع قميصها الأحمر

لتردف :

_ وقت نزولي إلى الفرن .. مستر ربيع لا يحبني أن

أتأخر.

تدعو لها هبة بالبركة فتقبل جبينها بود ثم تتدفع

بخطوات راکضة نحو الفرن ..

لكنها لم تكد تغادر مدخل البيت حتى وجدت سندس

تفتح الكشك ..

عينها تبحثان عن "سامي" كعهدها لكن سندس

تشير لها من بعيد نحو الفرن كأنها فهمت سؤالها

فتعود ببصرها للفرن لتبصر المشهد الذي رج قلبها

رجا..

فهنالك كان إبراهيم يقف محتضناً سامي الصغير وقد

أغمض عينيه بينما كفه الكبير يتحرك على رأسه

وطول ظهره مع تمتمة شفثيه الخافتة بما لم تسمعه

مكانها ..

يرقيه!

تهمس بها سندس -التي جاءت لتوها- جوار أذنها

بخفوت فترمقها يسرا بنظرة متسائلة ..

لترفع سندس حاجبيها مردفة:

لا تعرفين الرقية؟! يقرأ عليه القرآن! الولد حاله

ليس على ما يرام منذ يومين وأولاد الحرام عيونهم

"تندب فيها رصاصة"! ليس من عادة إبراهيم أن

ينزل للفرن في هذا الوقت لكنني طلبت منه أن يرقيه

ففاعل!

تهمس بها بثرثرتها المعهودة فتعود يسرا ببصرها

نحوهما وخطواتها تقترب رغماً عنها أكثر وأكثر ..

عيناها مثبتتان فوق " هوس " قلبها الصغير

والكبير ..

كأنما الدنيا بأسرها قد اخترلت الآن فيهما فحسب!

نظراتها ملتصقة بأنامل إبراهيم تدور مع حركتها ..

ومن جديد تسأل .. بكم " تشتري " مثل هذا ؟!

وكم تدفع لتتساق هذه الأنامل فوق ظهرها هي ؟!

لتتال عناقاً مثل هذا دون محاذير ؟!

وتتعم بتمتمة شفاه مثل هذه تدعو لها ؟!

كم تدفع ؟!

كم تدفع؟!

كل ثمن مباح .. فقط لو تملكه !!

يفتح إبراهيم عينيه أخيراً فيصطدم بنظرتها ..

قبل أن يتوه فيها !!

راميته القرمزية لاتزال تجيد تصويب سهامها !

عندليبها الأخرس لايزال يتأرجح متردداً فوق

غصنه ..

فينبت لقلبه ذراعان يودان لو يتلقفانه .. وشفقتان

تودان لو تقبلان جناحيه .. وألف أذن تود لو تسمع

شده !!

افتقدها؟!

يظلم قلبه كثيراً بهذا الوصف وهي تكاد تصحو وتغفو

كل يوم بين جفنيه ..

لكنه منح أباه وعده منذ أخبره برغبته في الزواج

منها آخر مرة ..

لن يكلمها حتى يستفيض أبوه في السؤال عنها ثم

يعرض عليها الأمر !

_ "را...را...!"

يهتف بها سامي الصغير وقد انتبه لها فتبتسم يسرا

له وهي تسمعه يناديها هكذا كعهده .. فقط

"را..را..!"

عجباً!

كأن فطرته النقية كشفت الحُجب فاختارت المشترك

بين الاسمين "يسرا وسمرا" كي لا يكذب في نداء!!

تقترب أكثر فينتزع إبراهيم عينيه عنها انتزاعاً ثم
يتحنح وهو يضع الصغير أرضاً ليتحدث بصوت عالٍ
كأنه لا يختصها بالحديث:

_أبي يريد الراحة.. لن يأتي اليوم.. لو احتجتم شيئاً
عم "...." سيقوم بالواجب.

يقولها ثم يتحرك للخارج ليقرب منها أكثر لكنه لا
ينظر إليها..

تتحرك سندس لتداعب أباها فتتحفز يسرا مكانها
لكنه يتجاوزها بخفة ليعطيها ظهره..

_إبراهيم!

تناديه بلهفة حقيقية وهي تلحق به لتقف قبالة فيقول
بصوت متحرج دون أن ينظر إليها:

_تريدين شيئاً؟!

تدمع عيناها بخوف وهي تشعر بتباعده لتغمغم

بصوت مرتعد :

_ لماذا تبتعد؟! هل فعلت ما يسوؤك؟!!

يهز رأسه نفيًا وهو يرفع عينيه نحوها ليصطدم

بدموعها فتفرج شفاته دون وعي ..

لكنه يتذكر وعده لأبيه فيعاود إطباقهما بقوة !

_ لو كان كلامي يومها ضايقك فانسّه .. انسه تماماً

كأنني لم أقله لكن لا تغضب مني .

تهمس بها بخفوت وبخوف بدا له طفولياً بريئاً - كما

يراها بعينيه- والغريب أنها حقاً في هذه اللحظة لم

تكن تشعر بنفسها سوى كذلك ..

مجرد طفلة خائفة !!!

كل سنوات العمر تبخرت ..

كل المواقف تلاشت ..

فلم تعد تهتم سوى بوجودها هنا ..

بينهم -سمر-.

سمر التي ولدت هنا وستحرص أن تعيش العمر كله

هنا !!

مهما كان الثمن !!

وأمامها كان هو يجاهد نفسه كي لا يخلف وعده لأبيه

لكنه لم يستطع منع كلماته :

لست غاضباً.

ورغم اقتضاب كلماته لكن ابتسامته "الكاملة" التي

تلونت بها ملامحه أخيراً شقت لها نهراً من كلمات !

كلمات لم تسمعها بأذنيها إنما تلقفها قلبها كما يتلقف

الطفل قطرات مطر!!

_ الشاي !

تهتف بها سندس التي ظهرت جوارهما فجأة تحمل

صينية معدنية لتقطع سيل توصلهما غير المرئي ..

فيتتحنح إبراهيم ليقول بسرعة:

_ أنا متعجل .. لدي موعد مهم !

_ أبدأ! اشرب الشاي أولاً!

تهتف بها سندس بعفويتها التي امتزجت ببعض المكر

وهي ترقب وجهيهما الفاضحان لكل مشاعرهما ..

_ النعناع يا إبراهيم!

تهتف بها المرأة التي تجلس على الرصيف المقابل
وقد فرشت حزم النعناع الخضراء أمامها بصوت
عالٍ..

فلا يجد بدأً من التوجه نحوها ليلتقط منها حزمة
وينقدها ثمناً مضاعفاً فتدعو له بالبركة ..

_ سأغسله أنا .. ابق فقط .. قليلاً !

تقولها يسرا بنبرة راجية وهي تتناول منه النعناع
فيهم بالرفض لكنه يفاجأ بـ "الحرافيش" خلفه .

_ حلو! "الشيئ لزوم الشئ" ! "الطعمية" ساخنة

والفول "زبدة" والخبز لايزال طازجاً من

الفرن .. وبعدها "نحبس" بالشاي!

يهتف بها قيس بمرحه المعهود وهو يرفع أكياس

الطعام بيده فلا ينتظر رد إبراهيم وهو يدلف لداخل

الفرن يفرش الطعام فوق طاولة جانبية ويدعو العمال
لمشاركته ..

يتردد إبراهيم وهو يختلس نظرة جانبية نحو يسرا
التي اندفعت لتغسل النعناع ..

يشير له روميو كي يقترب بينما يطلق عنتر صفيراً
عالياً في دعوة أخرى له فلا يجد بدأً من العودة
للداخل ..

ورقة نعناع خضراء تسقط في كوبه !!

تتلوها أخرى .. وأخرى ..

كأنما تتاجيه أناملها بهذه الطريقة فيرفع إليها عينيه
وهو يشعر بجفاف حلقه ..

لكنها تتجاوزه لتفعل المثل بجميع

الأكواب فيخفق قلبه بغيرة جنونية ..

كيف سيصبر يوماً آخر بل ساعة أخرى قبل أن تصبح

حلاله فيخفيها عن كل

الأعين ويحتويها في كنفه .. هو فقط؟!!

وبعيداً في غرفته خلف نافذته نصف المغلقة كان ربيع

يراقبهم من أعلى بنظرات مزجت حذرهما بقلقها ..

يرى إبراهيم وقد تعالت ضحكاته مع أبناء عمه

بالأسفل فيرتجف قلبه برضا وهو يدرك حقيقة سر

هذه الضحكات ..

سمر!!!

لقد أرسل يسأل عنها بتمحص في حياها الذي كانت

تسكنه .. في المحل الذي كانت تعمل فيه .. وحتى في

قريتها ..

كلهم يصفونها بالطيبة

والأخلاق الحميدة !

لكن ثمة وسواس في رأسه لا يغادره ..

هو لا يشعر بكامل الارتياح نحوها وحدثه لم يكذبه

أبدأ!!

إبراهيم يتعجله الرد في أمر زواجهما ولا يجد سبباً

مقتعاً للتأجيل ..

لم يعد لديه إذن سوى الخطوة الأخيرة ..

أن يتحدث إليها هي فيصارعها برغبة ابنه في الزواج

منها ..

لعلها وقتها تزيح اللثام عن كل ما يورقه بشأنها !

=====

تصعد فدوى الدرج نحو هذه الشقة التي وصفتها لها

المرأة على الهاتف بخطوات شبه راكضة ..

تقف متقطعة الأنفاس أمام الباب المنشود ترفع

قبضتها تهم بالدق لكنها تتوقف فجأة ..

دقات قلبها تبدو لها مسموعة كأنما تصرخ ككل ما

فيها الآن ..

تهم بالطرق من جديد لكنها كذلك تتوقف ..

تخاف!

أجل ..تخاف!!

تخاف الحقيقة التي ستهدم كل أسوار قلعتها وتذررها

في العراء ..

بلا هوية !!

تنتبه لمرآة جانبية فتناظرها لتبدو لها صورتها كأشع

ما رأت نفسها يوماً ..

بدينة .. قبيحة .. مهملة !

تشيح بوجهها عن صورتها في المرآة بغضب يدفعها

للدق هذه المرة ..

فليفتح الباب .. ولتفتح معه أبواب الجحيم !!

دقة خلف دقة خلف دقة ..

ينفتح الباب أخيراً لتبدو خلفه هذه المرأة التي رمقتها

بنظرة مستفزة كأنها كانت تنتظرها ..

تدمع عيناها بقهر وهي تميز ما ترتديه ..

قميص نوم يفضح رشاقة جسدها بدت منه مفاتها

واضحة وقد عجز مئزرها الشفاف عن مداراتها ..

تتخسر المرأة بوضع استعراضى وهي تحرك رأسها
للخلف متباهية بشعرها الأسود الكثيف الطويل ..
فتتحرك عينا فدوى لتتفحص ملامحها وهي تشعر
بالنيران تشتعل في أحشائها ..

تشبهها !!

تشبهها عندما كانت "يولاند" !!

تشبهها لا تشابه ملامح .. بل تشابه روح !!
روح امرأة جميلة .. تعرف أنها جميلة .. وترأها في
عيون كل من يحبونها !!

الآن هي فدوى!

امرأة قبيحة .. مشوهة .. مهملة .. في عيون نفسها قبل

الكل !!

يا لله!

كم بينهما!!

أي سنوات فعلت بها هذا؟!

بل .. أي رجل؟!!

_ريان!

صوتها يرتعش بغضب رغماً عنها فتبتسم المرأة

بتشفيّ وهي تناديه بصوت عالٍ ..

ترتجف فدوى مكانها وهي تتشبث لآخر لحظة بأن

هناك خطأ ..

خدعة ما ..!

تشابه أسماء ..!

وشاية رخيصة ..!

لكنها تفقد آخر حدود تماسكها وهي تراه يظهر أخيراً

في الصورة بوجه ممتقع

الملاح ..

_فدوى!

يتمتم بها مصعوقاً وهو يتراجع خطوة للخلف فتتنحى
المرأة عن الكادر تاركة لهما إكمال ما بقي من مشهد
النهاية ..

تتقدم بضع خطوات بقدمين فقدت سيطرتها عليهما ..
تجول ببصرها في المكان حولها ثم تعود إليه ..
تتلمس منامته الحريرية السوداء بأناملها فتراها وقد
حُلت أزرارها ..

تعيد إغلاقها ببطء تحت نظراته الوجلة .. وأناملها
تنافس جسدها ارتجافاً ..

_قلبك يدق بجنون!

تتمم بها بعينين زائغتين وهي تبسط راحتها فوق

قلبه ..

كأنما تبحث فيه .. هنا بالذات .. عما بقي منها !!

_ من أخبرك!؟!

يغمغم بها بصوت لاهت متجاهلاً عبارتها وهو يشعر

كفار وقع في مصيدة فترتجف شفتاها بشبه ابتسامة

وهي تبسط ذراعيها حولها على اتساعها قائلة :

_ الدنيا كلها أخبرتني ..

يكز على أسنانه بغضب وهو يراها تستطرد بنفس

اللوعة المقهورة:

_ الدنيا التي أشهدتها يوماً كم أحببتك .. الدنيا التي

بعثها يوماً

لأجلك ..والدنيا التي خدعتني بوجودها بين
ذراعيك ..كيف ظننت يوماً أنها لن تفضحك؟!
تنهار بدموعها عند كلماتها الأخيرة فيقترب منها
ليطوقها بذراعيه لكنها تنفضهما عنها هاتفة :
_ابتعد ! إياك أن تمسني! طوال الأيام السابقة وما
بيننا يحتضر ..وحده الشك كان يبقيني على رصيف
الانتظار ..والآن ..يقتلنا اليقين معاً ..صرنا موتى!
تفقت منها كلماتها الأخيرة بلغتها الأم "الفرنسية"
دون أن تشعر كأنما يتمرد كل ما فيها على كل ما
يتعلق به !

_ أنا لم أفعل شيئاً خطأ ..أنا تزوجت ..ديني يبيح لي
التعدد ..ديني الذي ارتضيته أنتِ ولم أرغمك عليه .

يقولها بتخبط محاولاً الخروج من مأزقه فتلتوي
شفتاها بابتسامة ساخرة وهي تمسح دموعها هاتفة :

_صحيح؟! ودينك هذا أيضاً الذي جعلك تخون أعز

أصدقاءك وتحاربه في عمله؟!!

_من أخبرك؟!!

يهتف بها بشحوب وهو يشعر أنه يتقرم أمامها أكثر

وأكثر ..

فتهز رأسها هاتفة باحتقار:

_كيف عميت عن رؤيتك طوال هذه السنوات؟! كيف

استطعت خداعي؟!!

_لا تتحدثي بهذه الطريقة ..

يهتف بها بغضب وهو يعتصر ذراعيها بقبضتيه

هاتفاً :

كل هذا فعلته لأجلكم .. لأجلك ولأجل أولادي .. إدارة
المشفى تقوم بتصفية العمالة منذ فترة .. جهاد لا يزال
لا يحمل سوى هم نفسه لكنني أنا مربوط في عنقي
حبل أسرة بأكملها ! هو يمكنه العثور على عمل آخر
بسهولة لكنني أنا ماذا سأفعل؟!
تغمض عينيها باستهانة يسيئ تأويلها فيحسبها قد
تفهمت منطقته ..

لتلين قبضتاه حول ذراعيها وهو يضمها نحوه
ليهمس في أذنيها بخفوت:
وهذه المرأة التي تزوجتها لها علاقات مهمة
بالكثيرين هنا .. لن أعيش العمر كله مجرد طبيب
مغترب .. هي ستساعدنا كي نستثمر المبلغ الزهيد

الذي ادخرناه .. لا تكوني سطحية فكري بعقلك ماذا

يمكن أن ..

تتشوش بقية كلماته في أذنيها وهي تشعر به

يسقط ..

يسقط من عينها ..

يسقط من قلبها ..

يسقط من حساباتها ..

حتى وإن بقي واقفاً على قدميه !!

تراجع عنه بظهرها فيحاول ضمها من جديد لكنها

تتخشب مكانها قائلة بجمود :

طلقني !

يحمر وجهه بالمزيد من الانفعال وهو يربت على

رأسها قائلاً :

_ اهدئي وسنتحدث فيما بعد ..انتظريني ريثما أبدل

ملابسي وسأعود معكِ إلى البيت كي ..

_ طلقني!

تقاطع بها كلماته فيهدف بحدة :

_ تهددينني؟! تظنينني الخاسر بالطلاق؟! إلى أين

تحسبين نفسك ذاهبة بعد فراقني؟! نحن ارتبطنا

ببعضنا للأبد شئت أم أبيت !

_ طلقني!

والثالثة صحبتها صفة على وجهه !!

صفة أودعتها كل القهر والكبت

والخذلان ..

صفة ودت لو تستعيد معها ما باعته من العمر ..

صفعة ودت لو تمنحها لنفسها قبله عقاباً لها على

سوء الاختيار!!

_ ماذا فعلت؟! تضر بيني؟! هل جنت؟!!

يصرخ بها بهياج وقد أخذته العزة بالإثم وعز على

رجولته أن تعرف زوجته

الأخرى بما فعلته، فعاد يصرخ بنفس الهياج وهو

يدفعها للخارج بعنف:

_ تريدین الطلاق؟! إذن .. أنتِ طالق ..

طالق .. طالق ..

يصفع الباب خلفها بعنف ثم يخبطه بقبضته بقوة تكاد

تحطمه ..

فيما تبقى هي واقفة مكانها للحظات ..

دموعها جفت فجأة .. ككل ما فيها !!

تعود ببصرها للمرأة الجانبية كأنما تواسي صورتها

فيها !!

تهبط الدرج خطوة خطوة كأنما تودع مع كل درجة

ذكرى من ذكرياتها معه ..

تستقل سيارتها نحو بيتها ولايزال جحيم روحها

يدفعها نحو الدرك الأسفل ..

لا تدري كيف صارت أخيراً في غرفتهما ..

هذه الصورة رسمها لها يومها بيديه ..

هذا الفراش كم شهد معارك عاطفته ..

هذه المرأة حملت دوماً صورتها معاً فكيف بعد اليوم

ستقبل صورة أحدهما دون صاحبه !؟

تتوجه نحو خزانة ملابسها فتستخرج ثوبها

"التايجر" بنقشة جلد النمر ..

تصر أن ترتديه فيقطع في موضع الصدر لكنها لا

تبالي ..

شديد الضيق حد الابتذال لكنها لا تهتم !..

_ ماما! لماذا تبكين!؟!

يهتف بها ابنها الأكبر بدهشة فتلتفت نحوه قائلة

بجمود مستخدمة الفرنسية:

_ تجهز مع إخوتك .. سنغادر .

_ إلى أين!؟!

_ مفاجأة .

تحاول تقتنع جمودها ببعض المرح الذي لم يخدع

الصبي لكنه امتثل لأمرها وهو ينادي إخوته ..

تجمع بعض أوراقها المهمة فتضعها في حقيبتها ثم

تترك كل شيء خلفها ..



حتى ثيابها !!

_ماما ! ستخرجين هكذا !؟!

يهتف بها ابنها الأكبر بدهشة وهو يرى ثوبها

وشعرها المكشوف لكنها لا ترد ..

تضم أبناءها الثلاثة لصدرها ثم ترمق الشقة بنظرة

أخيرة قبل أن تستقل المصعد نحو الأسفل

_سيده فدوى!

يهتف بها ناظر البناية ببعض الدهشة وهو يلاحظ

تغير هيئتها ليفاجأ بها تصرخ به بالفرنسية :

_يولاند ..اسمي يولاند !

_بسم الله الرحمن الرحيم !

يتمتم بها الرجل سرّاً وهو يظنها قد أصابها مس من
الجان بعدما سمعها تنطق بلغتها فيبتعد عنها محصناً
نفسه بأذكاره ..

فيما تستقل هي السيارة مع أبنائها لتتطلق بها ..
إلى أين ؟!

السفارة الفرنسية !

هناك ستري كيف يمكن أن يساعدها في السفر مع
أبنائها حتى لو رفض هو !!

هناك ستستعيد كينونتها

ك"يولاند" كاملة ..

كاملة !!

ماما .. هدئي السرعة قليلاً أنا خائف!

يقاطع بها ابنها الصغير أفكارها فتلتفت نحوه بحدة

عصبية هاتفة :

_ اصمت .. هكذا نصل أسرع .

_ لماذا تتحدثين بالفرنسية ؟!

يسألها الأوساط بدهشة فتهتف بنفس

الانفعال:

_ لأنها لغتي الأصلية وستكون لغتكم كذلك !

_ إلى أين سنذهب دون بابا؟!

يهتف بها الأكبر بقلق فتصرخ فيه دون وعي:

_ تعودوا من اليوم أن تعيشوا دونه .. من اليوم ليس

لكم أب .. هل تفهمون؟!

صرختها تنقطع بصرخة أخرى مرتعبة وهي تميز

السيارة الضخمة التي لا تدري كيف لم ترها كأنما

بزغت فجأة من العدم لتفقد هي السيطرة على

سيارتها!

صرخات أولادها تدوي في أذنيها هادرة فيتوقف قلبها

بهلع وهي تشعر

بالاصطدام يقتلعها من مكانها ..

قبل أن تظلم الدنيا في عينيها فجأة ويظلم معها كل

شيء!

=====

_ هل ستبقى هكذا طوال الليل؟! مادمت مبتئساً هكذا

لماذا طلقتهما؟!!

تسأله زوجته الأخرى بغيرة وهي تميز

حالة انهياره منذ غادرت فدوى ليهتف ريان

بانفعال :

_ أنا مغادر كي لا أضايقك بحالي المبتئس!

_ ريان .. ريان!

تهتف بها خلفه لكنه يغادر الشقة صافقاً بابها خلفها

بعنف ..

يجوب الطرقات بلا هدف وهو يشعر بانقباض قلبه ..

يتناول هاتفه ليتصل بها أو بابنه الأكبر لكن الهاتفين

مغلقين !!

يستقل سيارة أجرة ليتوجه بها نحو شقتها فيستقبله

الناطور بحكايته حول ما كان !!

يجن جنونه وهو لا يدري أين يذهب الآن ولا كيف

يجدهم !!

يصعد نحو الشقة لعله يجد رسالة منها لكن الخيبة
تجرفه بسيلها ..

يتصل بكل معارفهم فلا يجني سوى الخذلان !!
أنامله تمتد دون وعي لرقم جهاد كعهده كلما واجهته
مشكلة كهذه ..

لكنه يعود ليتذكر الحقيقة فيخبط رأسه في الحائط
للحظات وهو يشعر بمزيد من الغضب ..ومن
الضياع !!

ستعود بهم ! أين عساها تذهب؟! هي لم يعد لها أحد
سواي!

يقولها مطمئناً نفسه وهو ينهار جالساً فوق أحد
الكراسي لينتفض مكانه وهو يسمع رنين هاتفه فيفتح
الاتصال بسرعة :

_ سيد ريان .

تشحب ملامحه وهو يرد شاعراً أنه سيسمع ما

يسوؤه لكن الفاجعة كانت أكبر من احتمالته :

_ زوجتك وأولادك تعرضوا لحادث كبير على

الطريق ..السيدة فدوى في قسم العناية المركزة ..

يجف حلقه وهو يشعر بروحه تتسحب منه فتملاً

الدموع عينيه لكنه يسأل بصوت متحشرج :

_ والأولاد!؟

صمت قصير يذبحه ترقباً قبل أن يصله الجواب

كالصاعقة :

_ آسف سيدي ..حاولنا بذل كل ما بوسعنا ..لكنهم

وصلوا المشفى موتى.

=====

أبيض

انظر ماذا أحضرت لك !

يقولها عاصي بحنان مخاطباً سند وقد اقترب منه
حاملاً له أحدث ألعاب أحضرها له ولولديه مثله ..
لكن الصغير يتراجع للخلف دون رد كعهده ثم ينزوي
في ركن الغرفة ليرمقه بنظرات مترقبة بينما يعتصر
"بطته الصفراء" بين أنامله كأنه يناشدها الأمان !
يحاول عاصي اجتذابه للعب كما يفعل مع ضياء لكن
الصغير يصر على وقفته المتشنجة وقد بدا على
وجهه أنه يقاوم البكاء!

يتهد عاصي بضيق وهو ينسحب بخسارته نحو

الخارج فتقول له ماسة مواسية :

_ لا تيأس ! هو يتحسن لكن بعض الرواسب لا تزال

باقية .

يهز لها رأسه ثم يتخذ مقعده فوق منضدة السفارة

متسائلاً :

_ أين الصغيران!؟

_ لا يزالان نائمين !

تقولها بهدوء وهي تتخذ مقعدها جواره لتردف :

_ لن أستطيع تناول الكثير من الطعام معك .. سأنتظر

حتى تستيقظ ديمة فنتناول الإفطار معاً .. سند لم يعد

يأكل سوى معها .

يبدو المزيد من الضيق على ملامحه وهو يتناول منها

شطيرة قد صنعتها ليقول بنبرة غامضة :

_ لا توقظيها مبكراً فهي قد تأخرت في الخارج

بالأمس .

تضطرب ملامحها وهي تشعر بالارتباك ..

كانت تعلم ما يقول لكنها خشيت أن تلفت نظره ..

تماماً كما خشيت أن تخبره عن رؤيتها لصورة حسام

على هاتفها ..

لهذا يتحشرج صوتها بالسؤال :

_ تعلم أين كانت !؟

فتلتوي شفتاه بابتسامة مسيطرة ذكرتها ب"عده

القديم" وغابات الزيتون في عينيه تضطرم فيها

نيران باردة :

_تظنين أنني سأدخل امرأة لبيتي دون أن أعلم عنها

كل شيء؟!!

ورغماً عنها تبتسم للذكرى لتسند ذقنها على كفيها

المتشابكين هامسة :

_يوماً ما قلت لي عني نفس العبارة !

فيضع ما بيده جانباً ثم يحيط كتفها بقبضته بمزيج من

تملك واحتواء لا يجيده مثله ..بينما كلماته توطر

بقوته المعهودة :

_أنتِ وأولادي وسند دائرة مقدسة لن أسمح لأحد أن

يقترّب حتى من حدودها دون أن آمنه .

_ألا تأمن ديمة؟!!

تسأله بقلق فتغيم زيتونيتاه بنظرة غامضة وهو يعود

ليتناول طعامه ببطء ..

فتتهد لتعاود سؤاله :

_عاصي! قل أي شيء! أخبرني حتى أين كانت

بالأمس .

_اسألها !

يهز بها كتفيه ثم يلوح بسبابته في وجهها مردفاً :

_لكن لا تلحي في السؤال .

_لا أحب هذه الطريقة وأنت تعلم! أخبرني ماذا يدور

في رأسك كي ..

رنين الجرس يقطع كلماتها فتنهض من مكانها

ليبتسم هو بمكر يجعلها تهتف مغتظة :

_لا تظن نفسك ستهرب من إخباري ..من السخيف

الذي يزورنا هكذا في هذا الوقت دون موعد!؟

_لا أعرف.

يقولها صادقاً وهو يقف بدوره لتهتف ببعض

الشماتة :

_ها! ها هو ذا عاصي الرفاعي العظيم لا يعرف شيئاً

أخيراً .

يبتسم لها بحب وهو يقبل رأسها بما يشبه الاعتذار ثم

يزيحها جانباً برفق ليتوجه نحو الباب فيفتحه ..

تتسع عيناه بصدمة لوهلة وهو يميز الوجه الذي لم

يره لسنوات ..

وإن حلم بلقائه كل ليلة !!

هي!

هي حقاً هنا!!

جاءت بقدميها دون إلحاح ..دون إجبار ..!!

هي .. "أخته"!

طيف!!

=====

الطيب السابع عشر



برتقالي



لقاء العيون يبدو أكثر حرارة مما توقعت وهي قادمة
إلى هنا ..

فيض نظراته السخي بعاطفة لا يدعيها - ولا تنكرها -
كان أكبر من أن تتجاهله ..

لكنها كانت تصده بعنف "درعها المعهود"!!
طيب الصالح لن تمد يدها لتتسول .. لكنها ستنتزع
حقاها انتزاعاً بأي طريقة ..

وعاصي الرفاعي الآن ليس سوى مجرد "جسر"

ستمر فوقه لبغيتها !!

طيف!

صوته القوي يأتيها مشبعاً بزخات من حنان لا تريد

تصديقه ..

فيتزاحم الدمع "العزيز" في عينيها خلف بابه

الموصد لا يعرف متى يؤذن له بحرية !

لهذا تمد يدها ببرود كي تصافحه لكنه لا يمنحها

فرصة للمزيد لتجد نفسها فجأة مغمورة بين

ذراعيه !!

لا!

لا!

تكاد تصرخ بها رافضة وهي تستعيد مذاق عناقهما

الأول منذ سنوات ..

وقتها كان أعمى!

كان مضرجاً بدماء خطاياها وكانت هي فوق قمة جبلها

تتاظره بعزة وتمنحه صفحها بإباء ، فكان عناقه

يرفعها درجة في سلمها الطويل نحو سماء لا تعرف

حدوداً !

الآن هي المضرجة بدماء جرحها وقد تعثرت في

درجات سلمها لتجد نفسها في القاع من جديد ..

لا حاجة بها لعناقه ..

لا تريده ..

لا تريده ..

لا ...

شهقة خائنة تتفلت من صدرها تقاطع نرف أفكارها

وتفتح الباب الموصل ل"الدمع العزيز"!!

شهقة يحتويها صدره وذراعاه يضمنها بقوة تليق

"به" و"بحنان يليق" بها!!

شهقة تخرجها من "هيكلها المزعوم" ..

تذيب برودها المصطنع .. تعري كل عورات ضعفها ..

تصفعها بعرض شريط العمر الأسود ..

تحكم سيطرتها على جوارحها فلا تشعر بأناملها وهي

تستجيب لحرارة عناق مثل هذا فترتفع ..

ببطء .. ببطء ..

أناملها هي ترتفع كي تتشبث به !!

بعض العناق حياة ..

بعض العناق عدم ..

بعض العناق حرية ..

وبعض العناق اعتقال ..

وعناقه هو كان مزيجاً من كل هذا !

وكيف لا؟! وهو ينقلها بسرعة البرق بين كل

عصورها فلا تدري أي طيف هي؟!!

لهذا كانت رفعة رأسها من القوة بمكان وهي تنتفض

أخيراً بتمرد هاتفة :

_ أنا أتيت كي ..

لكنه يقاطعها من جديد وهو يعاود غرس رأسها على

صدره هاتفاً بهيمنته الحنون :

_ لا يعني لماذا أتيت .. المهم أنك أتيت !

الشهقة الخائنة تتبعها أخواتها ..

الأنامل الواهنة تزداد تشبثاً ..

والدمع العزيز ما عاد يستتكف إراقته فوق صدره ..

كأن كل مقاومتها للأيام السابقة قد انهارت في هذه

اللحظة!

كأنما لم يعد عاصي الرفاعي مجرد محطة في

طريقها ..

بل صار منتهى الطريق!!

من أين له بكل هذه القوة كي يقتلعها من جذور

تمردتها بمجرد عناق!؟

بل .. ربما .. السؤال الأدق ..

من أين لها بكل هذا الوهن كي تستجيب!؟

خطأ!

خطأ!

أفيقي يا طيف!

لا تسمحى لهذا السيل أن يجرفك!!
أنتِ أتيتِ لغرض واحد فلا تسمحى بخلطة الأوراق!!
وبهذا العنفوان الطاغى تعاود رفع رأسها من جديد
لتنتزع نفسها انتزاعاً من بين ذراعيه ..
تمسح دموعها وهي ترى ماسة تقترب منها مرحبة
بحرارة معربة عن مفاجاتها لتمنحها عناقاً تستجيب
له بتشتت قبل أن تتبته لبطن ماسة البارز فيختلج
قلبها بشعور لا تريد الاستجابة إليه ..
المزيد من التمرد يرسم البرود على ملامحها

لكن ..!!!!

ـ "عمتو" .. هل أحلم؟!

ـ لا .. لا تحلمين .. أخبرتك أنها ستأتى يوماً .. و"ضياء

الرفاعى" يعرف ماذا يقول!

الأولى من نور والثانية من ضياء تجعلانها تلتفت
رغماً عنها للصغيرين اللذين استيقظا لتوهما وقد
وقفوا على باب الغرفة فتوقف أنفاسها للحظة ..

قبل أن يعاود قلبها الخفقان بجنون !!

رغم كل التحذيرات ..

رغم كل عنفوان التمرد ..

رغم كل الرعب من أن تهوي أكثر وأكثر في بئرها

السحيق ..

لكنها تفقد السيطرة على نفسها من جديد وهي تجد

قدميها تطيران نحوهما ..

تطوقهما في نفس اللحظة بين ذراعيها ..

تغمض عينيها بقوة كأنما تريد أن يتوقف العالم عند

هذا المشهد .. وكفى !!

كانت المرة الأولى التي تراهما فيها على الطبيعة
بعيداً عن جمود الصور ..

وكانت المرة الأولى التي تفرج فيها عن مشاعرهما

نحوهما بعيداً عن جمودها هي !!

رائحتهما!!

رائحتهما .. هل تشبه رائحة مجد ؟!

أم تشبه رائحتها هي ؟!

رائحتها عندما كانت بنفس العمر أو ربما أكبر

قليلاً !!

مجد !!

مجد!!

تباً لهذه النيران التي تحرقها في اليوم ألف مرة !!

ما بين اشتياق وخذلان .. ووجع!!

_ لا أصدق أنك هنا! لا تتصورين مدى سعادتي!
صوت ماسة خلفها ينقذها من دوامة أفكارها فتلتفت
نحوها بتشتت ..

قلبها يستصرخها ألا تفلت الصغيرين من بين ذراعيها
لكنها تحتمي ب"درع تمردها" من جديد ..
جسدها يستقيم بعد انحناءته لتأخذ نفساً عميقاً
وأناملها المرتجفة تمسح "فضيحة" الدمع العزيز ..
_ أستريح أولاً من تعب السفر .. وبعدها أخبركما لماذا
جئت .

تقولها بفظاظتها المعهودة لتتنقل ماسة بصرها
بتوجس بينها وبين عاصي الذي بقي واقفاً يرمقها
بنظرة متفحصة ..

هذه ليست "طيف" الطفلة البائسة المتشبهة بجلباب

أمها والتي رآها أول مرة منذ سنوات ..

ولا تلك التي عثر عليها بعد سنوات أخرى ليمنحها

إرثها فتدعه وتهرب ..

ولا حتى تلك التي أتته بعدها شامته في مصابه

ليحتويها عناقه فيبدل شماتها لعاطفة صادقة ..

بل هي أخرى جديدة ..مختلفة ..

كأنما تشكلت عجنتها من جديد بصورة أخرى!!

مجروحة !!

خبرته بالناس تكاد تصرخ بها وإن كان قلبه لا

يتمناها ..

ود لو تأتيه راغبة لا محتاجة !!

لهذا يبتلع غصة حلقه وهو يقترب منها ليبسط راحته

على ظهرها فيرتجف جسدها بمزيج من

تمرد .. واحتياج !!

مزيج لا يليق بسواها !!

تلتفت نحوه بعنف هاربة من لقاء نظراته لتبتعد

خطوة هاتفة :

_ أرني الغرفة التي يمكنني الاستراحة فيها .

_ في سريري .

_ لا في سريري أنا .

يتنافس بها الصغيران وهما يتقافزان

حولها .. يجاذبان ثيابها فتغض عينيها مقاومة كل

هذه المشاعر العاصفة التي تجيش في صدرها ..

لكن عاصي يهتف بهيمته الممتزجة بحنانه :

_ غرفتك موجودة على اسمك..تنتظرك منذ وقت

بعيد .

تبتسم ماسة بتأثر وهي تتذكر كيف أصر عاصي منذ

أسس هذا البيت أن يحتفظ بغرفة مخصصة لها

هي ..كأنه كان يعلم وينتظرها!!

بينما تبقي طيف عينيها مغمضتين كأنما لا تريد رؤية

كل هذا !!

مادامت أرضها بوراً لن تقبل المطر ..فليحيا العمى!!

تشعر بكفه على ظهرها من جديد يدفعها برفق

فتستجيب لخطوات شاردة تتوقف بها أمام إحدى

الغرف ..

_ استريحي كما تشائين .. نامي كما تشائين .. واطلبي
ما تشائين .. كوني واثقة أنك لن تخرجي من هنا خالية
الكفين .. وربما .. لن تخرجي أبداً !

يختلج قلبها كطير ذبيح مع "الوعد" الذي ترفلت به
كلماته لكن عبارته الأخيرة تجعلها تعاود رفع "درع
تمردها" في وجهه وهي تلتفت نحوه قائلة بفضافة
هزمت ارتعاشة صوتها:

_ لن أبقى هنا كثيراً على أي حال!
يرمقها بنظرة نافذة وغابات زيتونه تضطرم بنيران
باردة من قلق ..

لكنه يؤثر ترك كل شيء لوقته فيربت على ظهرها
برفق ليغادر الغرفة مغلقاً بابها خلفه !

هنا تكتف هي ساعديها بقوة لتهتف من خلف الباب

المغلق:

_ لا أريد أن يدخل عليّ أحد .. دعوني حتى أستريح .
تقولها ثم تتوجه نحو مرآة قريبة تتفحص شكلها فلا

تكاد تعرفه!!

عيناها اللتان انتفختا بأثر بكاء الدقائق السابقة ..

أنفها شديد الاحمرار ..

وأخيراً شعرها الذي قصته !!

_ لو تعلمين كم أكره الشعر الطويل .. وكم أحب

شعرك !

تسمعها بصوته فترجفها الذكرى!

أجل .. فعلتها!!

لا .. ليس نكايه فيه !!

إنما ..أبت أن تحتفظ بآثار أنامله على خصلاته !!

أنامله فحسب؟!!

تغمض عينيها بقوة وذكرى قبلته اليتيمة لخصلة

شعرها المستلقية في راحته تقصفها بلا رحمة !!

لكنها تعاود فتحهما بشراسة قبل أن تستدير بعنف

لتستلقي على الفراش دون أن تبدل ملابسها كأنما

ترفض -مؤقتاً-

الاعتراف بأن لها هنا راحة !

جفناها ينزلقان بتعب ..

يحتضانان صورة !

صورة لم تفارقهما وإن فارق صاحبها!

تستلقي على جانبها الأيمن كعادتها منذ عرفت أنه

يستلقي على الأيسر كأنما تواجهه ..

طيفه "المراوغ" مثله ..

"الحنون" مثله ..

"القاهر" مثله ..

يواجهها في نومتها فتقبض كفها بقوة لتخبط له على
صدرها هامسة له بقوة:

قسماً بمن جعل هذا يخفق لك بعد طول ركود لآتين
بك هنا .. تحت قدمي .. لأنترعن من صدرك كل أسرارهِ
قبل أن أمزقه حسرةً عليّ .. لماذا فعلت بي هذا ؟!
ستخبرني .. قسماً بأغظ الأيمان ستخبرني .. تنعم بكل
أنفاسك حتى نلتقي فبعدها والله حتى شهقاتك
سأحبسها ! وما أدراك سجن روعي كيف يكون!

=====

غرفة الرسم!

بعد منتصف الليل تقريباً!

تفتح بابها بعنفوان يليق بها لتعاود

إغلاقه خلفها ..

تضغط زر الإضاءة فيؤدي عينيها النور لهذا تغلقه !!

عاشت الظلمة !

عاشت تحمي وتستر !!

تتحسس - شيئاً ما - بجيب سروالها ثم تطلق توجه

نحو النافذة الزجاجية العريضة التي احتلت وحدها

حائطاً بأكمله فتفتحها ..

يتسلل منها ضوء القمر نافذاً مخترقاً فيضيئ الغرفة

كلها بهذه الإضاءة الخافتة ..

وعلى هذا الضي تميز آخر لوحات عاصي الرفاعي ..

ابتسامة ساخرة تغوص في مرارتها وتذبح شفيتها
الحادتين وهي تتفحص المزيد من تفاصيل اللوحة ..
هذه اليد السوداء الصغيرة التي تخترق الصورة كأنها
تطلب النجاة !

_ابن الرفاعي صار فناً! لو رآك أبوك لدفنك
مكانك .. لكنه كان سيجلدك على إحدى نخيل حديقة
قصره قبلها !

تهكمها المرير لا يمنع تأثرها الداخلي بهذه الصورة
خاصة مع ضوء القمر الذي بدا وكأنه يعاندها فيظهر
تفاصيل اللوحة حية ..

النهر .. الجسر .. القمر ..

هنا لا تشعر بنفسها وهي تمد أناملها نحو الفرشاة
القريبة لتغمسها في لون برتقالي شاحب ..

ثم ترسم بها فوق الجسر طائر "فلامنجو" يقف على

قدم واحدة بينما تنتهي الأخرى .. قهراً ووجعاً !

تدمع عيناها بمزيج من اشتياق ووعيد لكنها لم تكد

تنتبه لما فعلته حتى عادت تغمغم بسخرية :

عفواً سيد عاصي ! أفسدت لوحتك .. لكنني لا أظنك

ستفكر بهذا الأمر كثيراً بعدما أنتوي إخبارك به !

تلقى الفرشاة من يدها غير مبالية فتسقط ملطخة

الأرض لكنها لا تهتم ..

تعود نحو النافذة لتتأمل حديقة البيت التي بدت لها في

هذه اللحظة كوحوش سوداء مستترة تنتظر

الانقراض في أي لحظة ..

لماذا جاءت إلى هنا ؟!

ربما لأنها تدري أن هذه الغرفة هي عرين عاصي

الرفاعي الجديد لهذا أرادت اقتحامه ..

ثقل..ثقل..ثقل..

وجودها هنا ثقل على نفسها لكن لا بد منه !

هي اعتادت التحايل على ظروفها لتحكم قبضتها على

ما تريد ويحيى العراقي الآن هو كل ما تريد ..

يحيى الذي بدا وكأنه تبخر حقاً كما زعم !!

لقد حاولت تتبع آثاره في "أبو ظبي" فلم تصل

لشيء!!

"السندباد" لم يكن نصاباً فحسب ..بل ومزور خبير

أيضاً!!

أوراق إيجاره للشقة تختلف عن الأوراق التي قدمها
لدار النشر ..وتختلف كذلك عن أوراق شركته التي
تركها خلفه !

الآن تفهم كيف بدت أوراقه مع مجد سليمة عندما
ادعى بنوتها في نفس الوقت الذي كان يؤكد فيه
صاحب دار النشر أنه أعزب !
ليس هذا فحسب ..

بل إنها اكتشفت أن شركته هو وذاك ال "فرقع لوز"
نزار كانت بغرض النصب تحت غطاء
التأمين .. لكنهما تركا كل شيء خلفهما وسافرا !
لماذا؟!!

تراه اكتفى بغنيمته منها؟!
لا ..لم يكن المبلغ كبيراً إلى هذا الحد !!

لماذا إذن ؟!

لماذا ؟!

_ سأعرف! سيخبرني وهو جاثٍ على ركبتيه

أمامي .. أقسم!!

تهمس بها من بين أسنانها وأناملها تداعب بتلات
زهرة ناعمة حواها صندوق بلاستيكي قد زين النافذة

الزجاجية من الخارج ..

_ بل أنا .. أنقذت حياتي!

تسمعها بصوته والمشهد "المتجدد" يغزو مخيلتها

فتتلاحق أنفاسها وكأنها تعيشه من جديد ..

هي بين ذراعيه تعانق الأمان الذي طالما طاردته

كسراب ..

وهو بين ذراعيها تتعالى خفقاته بجنون وعيناه

تصرخان بحب ..

كيف يكون هذا بكذب!؟!

ما حال الصدق إذن!؟!

تصرخ صرخة خافتة وشوك الزهرة يחדش أناملها
غداً فتسحب كفها نحو صدرها لكنها تفاجأ بهذه اليد

الكبيرة الخشنة تجذب كفها فتلتفت نحوه هاتفة

بفضاظة :

_أفزعنتي! ألا تطرق الباب قبل دخولك أم أنك لم تفقد

هوايتك بترويع القلوب!؟!

كانت تعلم أنها تطرفت في قولها وأنها هي من

اقتحمت غرفته !!

لكن رؤيتها لهذه النظرة الحنون في عينيه أفزعتها !

لن تعود للتلحق في حبال ذائبة من جديد ..

هي جاءت لغرض واحد .. وستنفذه !!

_ غرّتكِ نعومتها .. فأدماكِ شوكتها!

يقولها عاصي بنبرته الخبيرة وهو يرفع كفها نحو

صدره لتضطرب خفقاتها وهي تشعر بنور القمر

يضيء على ملامحه في هذه اللحظة صبغة غير

بشرية ..

كأنه امتلك رؤية ماورائية استشفت خبيئة صدرها

خاصة وهو يردف بنفس النبرة :

_ ولولا وجعك ما استقر كفك ها هنا على صدري!

تتسع عيناها بانفعال للحظة لكنها تنتزع كفها منه

بحركة عصبية ..

لتطلق ضحكة ساخرة تليق بهتافها :

_ اخلع عباءة المستبصر يا سيد عاصي

فلا تليق برجل بماضيك .

لكنه لم يستسلم لاستفزازها بل ظل يمطرها بنظراته

المحتوية ليقول أخيراً :

_ دعك من الماضي ..نحن في الحاضر!

تطلق ضحكة عصبية أخرى وهي تشيح بوجهها

فيحترم صمتها للحظات يتفحص فيها ملامحها ليقول

أخيراً:

_ استيقظت لتوك وقد بقيت نائمة منذ

وصلت ..تشعرين بالجوع!؟!

ترتجف نظراتها للحظات يتأكد فيها من حدسه أنها

كانت تهرب من لقاء الصغيرين فلم تغادر غرفتها

حتى تيقنت من نومهما ..

لا تزال "البردانة" تخشى التعلق بدفء -تراه- لن

يدوم!!

_دعك من هذه السخافات ولا تدعنا نتعامل

كشقيقين ..أنا لم آتِ لهذا !

تهتف بها بشراسة فينعدد حاجباه بقوة وهو يسألها

بحذر :

_ولماذا أتيتِ إذن!؟!

_لأجل ما تبقى من إرث حماد الرفاعي.

تقولها بحسم وهي تناظره بعينين فاضتا بعنفوانهما

فتزداد عيناه ضيقاً وهو يحاول فهم ما تعنيه ..

هو يذكر أنه منذ سنوات منحها إرثها من مال أبيه

بالعدل بل ويزيد !!

لهذا ازدادت لهجته حذراً وهو يردد :

_ ما تبقى من إرث حماد الرفاعي!

فترفع ذقتها لتزداد نظرتها شراسة :

_ أنت!

تشتعل غابات الزيتون في عينيه بوميض خاطف وهو

يتفحصها للحظات قبل أن يتحرك مبتعداً ل..يضغط زر

الإضاءة !!

يغشي الضوء عينيها فتغمضهما للحظات لكنها عندما

تعاود فتحهما تجده أمامها ..بل حولها!!

أجل حولها!!

هكذا شعرت بالضبط وذراعاه يطوقان كتفيها كأنه

صار فجأة رجلاً بسعة العالم !!

_ وأنا كلي لك!

رعدة!!

رعدة عتية تصيب كل خلاياها وهي تسمعها من رجل

مثله بكل هذا الحسم ..وبكل هذا الحنان !

لا!

لا!

لن تصدق !

لن تهوي في هذا البئر من جديد !!

لهذا تتفض ذراعيه عنها ببعض العنف هاتفة :

_ لا تسئ فهمي يا ابن الرفاعي! أنا لم آت أتسول منك

بضع كلمات ترقع بها ثوب ضميرك الممزق ..أنا جئت

كي تمنحني حقي في نفوذك هذا الذي يحكون

عنه ..وهذه ليست منة منك عليّ ..نفوذك هذا إرثك

من أبيك وأنا أريد حقي فيه .

لم يشأ مجادلتها في ما تقول ..ربما لأنه يوقن من

صحة بعضه ..

وربما لأنه أراد احتواء غضبها وعصبيتها ..

والأهم ..فضوله لما عاد بها إليه بعد هذه السنوات !!

لهذا هز رأسه بحذر منتظراً المزيد من كلماتها ..

لتأخذ نفساً عميقاً ثم تقول بنبرتها الفظة

الأمرة :

_أريد منك أن تعثر لي على رجل بعينه .

تشتعل غابات الزيتون في عينيه فجأة فتشعر ببعض

الخوف رغماً عنها ..

لكنها تتمالك نفسها وهي تكتف ساعديها لتناظره

بتحدٍ مردفة :

_أجل ..كما سمعت ..رجل بعينه ..

سأعطيك اسمه وما أعرفه عنه ومطلوبٌ منك بعدها
أن تعثر عليه وتحضره لي هنا .. لا تظن المهمة هينة
لا تليق بمقام عاصي الرفاعي العظيم .. العثور على
رجل كهذا يشبه البحث عن إبرة في كوم قش .. ولولا
فشلي في فعلها لما لجأت إليك .. فهو عراقي كان
مقيماً في أبو ظبي وغادرها لمكان لا أعلمه .

يزداد اضطرام النيران في عينيه وهو يركز على
أسنانه بينما يقترب منها خطوة فيزداد شعورها غير
الاعتيادي بالخوف لكن هذا يدفعها للمزيد من التحدي
فتهتف بضحكة مستهزئة:

ماذا؟! ستزعم أنك لا تستطيع؟! لا يا سيد عاصي

فلديك سوابق مشرفة في هذا الشأن ! ألم تعثر

لزوجتك على من اغتصبوها؟!!

تقطع كلماتها بصرخة خافتة كتمتها بكل عنفوانها
وهي تشعر بقبضته تطوق ساعدها ..والجحيم
الزيتوني في عينيه ينذر بالأسوأ ..

_ ماذا فعل؟!_

يرتجف جسدها رغماً عنها وتاريخها البدائي مع
تقاليد كادت تنساها يجتاحها بضراوة رغم محاولتها
تهيئة نفسها لما ستحكي عنه ..

شفتاها ترتعدان بثقل "الكذبة" التي تلقيها في

وجهه :

_ اعتدى على عرضي!

لم تكذ تتفوه بها حتى شعرت بأصابعه فوق ذراعها

كسوار من نار!!

لكن عينيها الجسورتين لم تحيدا عن نظراته ..

تسمع زمجرة غضبه وأصابع يده الأخرى تمتد لعنقها
في رد فعل عفوي لم يملكه .. فتستخرج من جيب
سروالها ما كانت تخفيه ..

سكين كبير!!

هذا الذي رفعته بين وجهيهما لتهتف بملء قوتها :
لو كنت تريد إنهاء الموقف بسهولة يمكنك إلقاء
اللوم عليّ وذبحي الآن كي تغسل عارك .. لكن تذكر
أني لا أحمل الذنب وحدي .. "الشرف" الذي تغضب
له

الآن أبوك هو من لطخه في البداية عندما اغتصب
أمي ثم رماني بعدها في الشوارع كقطة جرباء يعاف
الاقتراب منها .. وأنت سرت على طريقه بعده .. ومن
يدري؟! ربما كانت هذه عدالة القدر فيك وفي أبيك

قبلك .. أن أشرب من نفس الكأس الذي سقيتماه

لغيركما!

_ اسكتي!

تشعر بها وكأنما نطقها بدمه قبل لسانه !!

دمه الذي كان يضح الدم حاراً في عروقه فيحمر

وجهه حتى شعرت به يكاد ينفجر ..

أصابعه حول عنقها تزداد ضغطاً وذرات الهواء

بينهما تستحيل لحم لاهبة ..

يرتعش السكين في يدها لكن نظراتها لعينيه لا تحيد ..

هي بدأت الطريق ولن تبرح حتى تبلغ!!

تنقطع أفكارها وهي تشعر بضغط أصابعه يخف

تدرجياً حول رقبتها قبل أن تشعر بكفه يطيح

بالسكين في يدها ليسقط أرضاً فتخفق روحها

بابتسامة ظفر !!

ابتسامة لم تظهر على شفيتها إنما فضحها عنفوان

عينيها !!

على الأقل هو لم يخذلها في موقف كهذا !

ربما عندما تستعيد عافية "قلبها" ستضع موقفاً كهذا

في رصيد حسناته !!

تراه يطوق كتفيها بقبضتيه ليهزها بين ذراعيه

صارخاً :

_ من هو؟! !

ليزداد زئير التحدي في عينيها مغالباً خوفها الطبيعي

وهي ترد :

_ لن أخبرك أي شيء عنه حتى تعطيني وعدك !
يزداد احتقان وجهه حتى تشعر أن عينيه محاطتين

ببركتين من دم !!

ترثي له !؟

ربما ..!!

لكن المؤكد أنها تشعر ببعض الشماتة !!
فليذق بعضاً من لحم أبيه الفاسد الذي تركها لها كي
تبقى عمرها كله تمضغه قسراً !!

_ أي وعد !؟

يصرخ بها بنفس النبرة المشتعلة لتشعر بمنتهى

النشوة وهي ترد :

_ أن تحضره هنا حياً ولا تمسه بسوء قبل أن أراه

أمامي .

عيناه تقذفانها بسهام من نار تتلقاها صامدة مكانها

وهي تردف :

يقولون إنك لا تخلف وعدك ! امنحني إياه وسأخبرك

بما أعلمه وإلا فاتركني أتغن بأسراري وأطخ جبينك

بالعار!

هنا تشعر بعينيه تضيقان بنظرة لم تفهما وقبضتاه

حول ذراعيها يكادان يطحنانها طحناً ..

آهة خافتة تنفقت منها رغماً عنها لكنها تكتم

شبهاتها وهي تناظره بنفس التحدي ..

لم تدرِ كم مضى من الوقت ولا متى خفّ جحيم

قبضتيه حولها لكنها تراه أخيراً يفرج عنها ليعطيها

ظهره لدقائق مرت عليها كدهور ..

قبل أن تصلها كلماته :

لـك و عدي ! لن أمسه بسوء حتى يصل هنا .. لكن ما

سيحدث بعدها هو شأني وحدي!

تلتمع عيناها ببريق لمحاه وهو يستدير نحوها أخيراً

لتزداد قتامة النظرة الغامضة في عينيه ..

لكنها لا تبالي وهي تشعر بأنها عادت ترتقي

"سلمها" ..

طيف الصالح لازالت قادرة على استغلال كل الظروف

كي تصل لمرادها ..

لا!

ليست نادمة على كذبتها ولن تفعل!!

لو كانت أخبرته أن يحيى فقط قد أخذ بعض مالها ربما

لم يكن ليهتم .. لكن ما زعمته يكفل لها أن يقلب

عاصي الدنيا شرقها وغربها كي يأتي به ..

وبعدها؟!

بعدها هي ستعرف كيف تدير دفعة المركب
ب"الجميع" كما أرادت ..وكما ستريد !!
ينساب لسانها بالبوح عما تعرفه من معلومات عن
يحيى فيما تبقى نظراتها ملتمة بشرود ..

بشغف ..

باشتياق ..

وبوعيد ..!!

هذا الذي قرأته نظرات عاصي بخبرته وهو يستمع
منها دون مقاطعة ..

معلوماتها كانت شحيحة ..تتحاشى ذكر التفاصيل ..

لكنه لم يكلف نفسه سؤالا عن كيف استباح ذاك

الرجل عرضها!

لماذا؟!!

ربما ..ل "غاية" في نفسه!!!

_ هذا كل ما أعرفه عنه !

تتهي بها كلامها فيرمقها بنظرة أخيرة قبل أن يغادر
الغرفة صامتاً دون كلمة واحدة ..

يتوجه بعدها لغرفة نومه ليحجج ماسة النائمة بنظرة
عميقة وأنامله تمسد بطنها بارتعاش لا يليق برجل
مثله ..

قبل أن ينعقد حاجباه بقوة وهو يتوجه نحو خزانة
ملابسه ليفتح آخر أدراجها ويستخرج منه ما قلبته
أصابعه بنظرة مشتتة غامضة ..

عاصي الرفاعي سيعود ليحمل السلاح ..لأجلها هي!

=====

أمام سريرها في المشفى يقف ريان بوجه محتقن وقد
عاد لتوه ..

عاد بعد دفن أولاده !!

دفن أولاده !!

العبارة تبدو عسيرة التصديق بل .. مستحيلة !!

الابن يعيش عمره مهيناً نفسه بخوف لفقد أبويه بحكم

طبيعة الكون ..

لكن الأبوين لا يفعلان ..

يظنان دوماً أنهما سيسبقانهم في الرحيل ..

ويرفضان تصديق حقيقة أن الموت لا يعرف "ترتيب

أسبقية " بل تمتد يده لتجتث أوراق العمر من غصن

الحياة بحكمة لا يعلمها إلا خالقها !

يرفع كفيه أمام وجهه بذهول ..

هو وضعهم في حفرهم الضيقة بنفسه ..

ثم وارا هم التراب ليرحل ..

غادرهم !؟

كيف غادرهم !؟

ربما يحاول إقناع نفسه أنه رحيل مؤقت ككل مرة كان

يسافر فيها لرحلة أو مؤتمر ما ..

لكنه وقتها كان يشعر أنه مطمئن .. سيعود

ليجدهم .. فدوى ترعاهم !

والآن ..

فدوى !!

يرمقها بنظرة مشفقة طويلة وعيناه تنتقلان من
جسدها الساكن الراقد تحت رحمة الأجهزة ، وبين

كفيه الملطخين بذنبه ..

هو السبب !!

هو من فعل هذا !!

هو خان صديق عمره وامراته

لأجل عائلة ..

والآن يخسر كل هذا !!

لا !! لا !! لا !!

يهتف بها بصوت مسموع كأنه يريد الطغيان بها على
صوت ضميره ..

_ لست أنا السبب .. أنا فعلت ما بوسعي

لأجلكم .. تنازلت عن مبادئى كي أضمن لكم عيشاً
أفضل .. أنا لم أحن جهاد .. يقولون "لو جاءك الطوفان
فارم ابنك تحت قدميك" .. وأنا لم أرمه تحت قدمي أنا
فقط أزحته عن طريقي كي أفي بمسئولياتي .. هو كان
ليعرف كيف يتدبر أمره وحيداً لكن أنا .. أنا لي
عائلة .. لي عائلة ..

تنقطع كلماته بتهديج صوته المرتجف وكفه المرتجفان
يخبطان على صدغيه بقوة تباعاً مرة تلو مرة :

_ كانت .. كانت .. كانت لي عائلة !

الدمع الملتهب رغم حرارته يبدو شديد البرودة عديم
القيمة وهو يسيل فوق وجنتين موصومتين بالغدر ..

ومن ثقل الوزر ..تأبين الاعتراف!!

ذنب كهذا بعظم الجبال كيف لكثف بشر أن يحمله ؟!

لست أنا السبب ..أنا لم أخنك ..أنا ..أنا فقدتك !!..

يعاود الهتاف بها أمام جسد يولاند الساكن كأنها

تسمعه فتزداد نبرة صوته حدة :

فقدتك وسط زحام الطريق ..من أنت ؟! يولاند أم

فدوى؟! أتحداك لو كنت أنت نفسك تملكين الجواب !!

أنت صرت مجرد مسخ مشوه بينهما ..فلا أنت يولاند

بسحر توهجها وتمرد لها ولا أنت فدوى بعذوبة

استسلامها وعطائها ..صرت امرأة لا تطاق ..باهتة

شاحبة مقبئة روحك تولول كل وقت كالعجائز على

الأرصفة حتى ولو بقي لك من الشباب نصيب .. فلماذا
تستكثرين عليّ البحث عنك من جديد في صورة
أخرى تشبه حبيبتي القديمة ؟! صورة أنتِ من
ضيعتها !!

يستريح عقله مؤقتاً بهذا التفسير فيهرز رأسه بانفعال
مردفاً :

_أجل .. أنتِ من ضيعتها ! أنتِ السبب !! أنتِ السبب !!
أنتِ المذنبة !! أنتِ المجرمة التي قتلت أولادي !!
صوته أخيراً يصفع إدراكها ..

يتخلل الحجب الكثيفة - الرحيمة - التي عصمتها - حتى
الآن - من مواجهة طوفان الحصاد ..

ليكون أول ما تعيه "يولاند" وهي تفتح عينيها
كلماته المشتعلة :

_ لا تفيقي .. لا تفيقي .. موتي .. موتي والحقي بهم !

=====

_ لقد ثبتت براءتك .. أعتذر لك ..

يقولها أديم وقد جلس خلف مكتبه مخاطباً جهاد الذي

بدا في أسوأ حالاته بعد سجن الأيام السابقة ..

ليردف أديم بنبرة آسفة:

_ أعتذر لك نيابة عن مصر كلها !

_ وزهرة!؟!

يهتف بها جهاد بلهفة عارمة ليمنحه أديم جوابه :

_ لا تقلق .. هي بخير .. سننهي الإجراءات لتخرجاً معاً

بأقرب وقت .

يرفع إليه جهاد عينين متوهجتين لم تنطفأ رغم

قسوة ما مر به ليقول بيقين :

_ الحمد لله ..لم أشك للحظة أن المحنة تخفي خلفها

منحة وأن الله لن يضيع حقي ..كما وثقت طوال

عمرى أنه لن يضيع حق وطني.

يرمقه أديم بنظرة حزن غامضة لم يفهمها وإن

اتشحت بالكثير من الإعجاب ليقول بشرود :

_ تؤمن كثيراً بوطنك يا دكتور!؟!

فيبتسم جهاد وهو يشير بقبضته لصدره قائلاً :

_ الوطن ليس قطعة أرض ولا ألوان علم نلقي لها

تحية ..الوطن هاهنا مهما تغربنا ..ليس لأنه أفضل

مكان ولا أرقى مكان ولا أنظف مكان ..بل لأنه هو بكل

أوجاعه قبل خيراته .. أول فضاء اتسع لصرختك

وليداً .. لضحكاتك رضيعاً ..

لقفزاتك طفلاً .. لخيالاتك مراهقاً .. ولمهامك رجلاً ! أول

قطعة قماش منحها لك القدر كي تحيك بها ثوب

كينونتك .. هذا الكلام ينطبق على أي وطن .. فما بالك

لو كان وطناً بعظمة وطني؟! وطني الذي مزج شرف

الإسلام بشرف العروبة .. فيه ولد عيسى وأسري

بمحمد عليهما السلام .. وسيبقى أرضاً لصراع الحق

والباطل حتى قيام الساعة .

ابتسامه فخر تشق طريقها على شفتي أديم الذي وقف

يصافحه قائلاً بود :

_ اعتبر أنك كسبت صديقاً مصرياً جديداً هنا ..ربما لا
يمكنني إخبارك باسمي الحقيقي لكن تأكد أنني سأكون
جوارك لو احتجتني .

يصفحه جهاد بحرارة ليسأله باهتمام:

_ هل يمكنني السؤال كيف ساعدتني؟! كيف علمت
عن براءتي؟!!

_ اسمح لي بعض المعلومات تحمل جانباً عالياً من
السرية لا يمكنني تجاوزه ..لكن ما يمكنني إخبارك به
أن الرجل الذي أسعى خلفه هو نفسه الذي ورطك في
هذه التهمة بدسّ أدلة مزيفة كان من السهل تصديقها
وقتها لولا أن أعادت تفحصها عيون خبيرة .

_ سلمت العيون الخبيرة !

يقولها جهاد بلهجته الفلسطينية مع ضحكة بشوش

هزمت شحوب ملامحه ليبتسم له أديم متسائلاً:

_ تريد شيئاً؟!

_ "شالي" الفلسطيني.. كنت أرتديه عندما أخذوني من

الفندق!

يقولها جهاد بنفس النبرة التي تمزج فخرها بعاطفتها

لتتسع ابتسامة أديم وهو يرد :

_ ستجده ينتظرك مع الحارس بالخارج نظيفاً

ومعطراً .

يهز له جهاد رأسه بتحيةة ثم يغادر الغرفة فيبقى أديم

يراقب مكانه بشرود للحظات قبل أن يعاود الجلوس ..

ورقة بيضاء كبيرة تراحمت بالأسماء ..

غازي خضر ..

ديمة ..

حسام القاضي ..

جهاد ..

جنة الرشيدى .. موكلها الذي قتل في السجن ..

وقاتله !

خيوط تتشابك وترتخي فتوصله لكثير وتمنع عنه

الأكثر ..

أسماء كثيرة .. تشعبت طرقها لكنها تشترك في شيء

واحد ..

أنها مسدودة النهاية لا توصله لشيء عدا .. حسام

القاضي!

__ عساك تقودني لخيط جديد كما وعدت .

يقولها بعينين ضاقتا انفعالاً ثم يزفر بقوة وهو يقف

ليلتقط مفاتحه ثم يغادر مكتبه ..

يستقل سيارته ليتحرك بها بلا هدف ..

"طائر الظلام"!!

هكذا كان يدعو غازه ولا يدري إلى أي حد يناسبه

هذا اللقب!!

غصة مريرة تحتكم حلقه وهو يجد السيارة تقترب من

المشفى الذي احتجرت فيه دينا حيث التقى بحسام ..

حسام !!

من جديد حسام !!

كان أهم ما في حياته الآن صار يتعلق بهذا الرجل ..

الكوبرا .. وديمة !

ينعقد حاجباه بغضب عجز عن منعه وهو يتذكر

افتراء ديمة عليه أمامه ..

غضب لأجلها قبل أن يكون منها ..

كيف يحميها من نفسها؟! كيف؟!!

كيف وهو كان شاهداً على عذابات روحها؟!!

يتوقف بالسيارة أمام المشفى دونما سبب منطقي ..

دينا..ديمة !

هل هي مصادفة أن يتشابه الاسمان إلى هذا الحد مع

اختلاف صاحبتيهما؟!!

من قمة الظهر لقمة العهر؟!!

دينا ليست كما تظن ..دعها لشأنها ..لعالمها النظيف

الذي اختارت الهرب إليه ..بعيداً عنك ..وحتى عني!

يسمعا بصوت حسام كما قالها له وقتها عندما التقاه

هنا ليشرد ببصره وهو ينقر بأصابعه على مقود

السيارة ..

يستعيد ما عرفه من حكايتها كما رواها له حسام ..

حكاية ملخصها :

خطأ واحد تزل به القدم نحو هاوية بلا قرار !

ومن مثله يمكنه فهم هذا الشعور!؟!

عندما يغرك هوان خطيئة واحدة لتتحول قطرة المطر

لكرة من الثلج تهوي من أعلى القمة لتهدم في

طريقها كل شيء!

يغمض عينيه بألم عند هذا الخاطر ثم يطلق زفرة

قصيرة وهو يغادر سيارته نحو الأعلى ..

_ سيدي!

يهتف بها طبيبها الذي التقاه على باب غرفتها وقد

تعرف إلى هويته من زيارته السابقة ليسأله أديم

بنبرة عملية :

_ كيف هي!؟

_ على حالها ..

يقولها الطبيب ببعض الحرج ليردف مدافعاً :

_ ليس تقصيراً منا .. لكن جسدها يأبى

الاستجابة لمحاولاتنا .. الحادث لم يكن هيناً .

يشعر أديم بالمزيد من الذنب ليعاود سؤاله :

_ من يتولى تكاليف إقامتها هنا!؟

_ يمكنك السؤال في "الحسابات" .. لكنني أظنه "حسام

بيه" فلا أحد يزورها غيره .. سيادتك طبعاً .

يهز أديم رأسه بسؤاله من جديد :

_ هل يمكن أن يكون لحالتها علاج أفضل في دولة

أخرى ؟!

_ ربما ! الحالة غريبة وتشخيصها غير

مفهوم .. لكنني لا أحبذ نقلها الآن على أي حال .. ليس

قبل أن تفيق من غيبوبتها !

يعاود أديم هز رأسه فيسأله الطبيب بفضول:

_ هل هي مجرمة خطيرة؟! ملامحها لا توحي بهذا على

العكس ظننتها ..

يقطع عبارته صاغراً مع هذه النظرة النارية التي

حدجه بها أديم فيعتذر بكلمات مقتضبة ثم يغادره

ليتهد أديم بحرارة وهو يفتح باب الغرفة ليدلف إلى

الداخل ..

خطواته تقترب ببطء من الجسد المستسلم لغيوبته

على الفراش ..

ملامحها التي بدت له كأول مرة رآها فيها ..

ملائكية طفولية لا تليق بتاريخها الذي عرفه ..

ريقه يجف بالمزيد من شعوره بالذنب نحوها ..

ربما لو لم يكلفها بمراقبة حسام لكانت الآن أسعد أهل

الأرض بافتتاح الاستوديو الخاص بها ..بوابتها

لعالمها النظيف !

تقبلين اعترافات رجل مهزوم !؟

يهمس بها بخفوت وهو يتخذ مجلسه أمام فراشها

وقد انحنى بجذعه للأمام مشبكاً كفيه ..

ليردف بنفس الخفوت الشديد كأنه يكلم نفسه :

تعلمين كم يحتاج المرء أحياناً للحديث لمن هو مثلك
!؟ من لا يسمع ولا يرى فلا يتهم ولا يهاجم .. تعلمين
كم يشفق رجل مثلي للكلام دون أن يقيد حروفه
الحدز؟! بل .. تعلمين كم تشبهيني؟! لا تعجبي يا
"قلبيّة الثغر" .. كلانا أجبروه يوماً أن يكون عاهراً
بطريقته !

"قلبيّة الثغر"!

لا يدري من أين قفز لذهنه هذا التشبيه وهو يناظر
شفتيها اللتين تكورت أعلاهما واحتدت السفلى لتتخذا
معاً شكل القلب الشهير !

امرأة مثلك - رأس مالها جمالها - لن يسرها قطعاً
تشبيهها برجل بلامحي .. كما أن رجلاً بمركزي لن
يرضيه تشبيهه بمن مثلك .. لكن صدقيني .. لو عبرنا

حاجز الظاهر ونظرنا لباطننا ربما ما وجدت في سوى

انعكاس مرآتك !

يصمت لحظات ليلتقط أنفاسه ثم يردف بنفس الخفوت

الحر :

_ لماذا أتيتك اليوم؟! نادماً؟! الندم لم يعد جديداً

عليّ ..منذ سنوات وهو يقات على دمي ..شاعراً

بالذنب نحوك؟! هذا هو الآخر ليس بجديد

عليّ ..تعلمين ما الجديد؟! أنني وبعد كل هذه

السنوات ..وجدت من أجرو أن أبوح له بخطاياي ..فلا

يكون قاضياً ولا جلاداً ..بل شاهداً أحرص لا تجدي

شهادته ..فقط أرتاح بالبوح له .

يطلق تهيدة طويلة تناسب مقولته ليستطرد :

_اسمي ليس أديم ..لكن ليبقَ كذلك كما يعرفه
الجميع ..طائر ظلام يعرف كيف يجد طريقه وسط
دهاليزه ..ويخشى من نور الصباح أن يفضح خبيئته .
يتهد أخيراً بحرارة وهو يعود بظهره للوراء كأنه قد
أزاح عن كاهله بعض وزره ليعود فيتحص ملامحها
بشبه ابتسامة قبل أن يقف مكانه هامساً بنفس
الخفوت :

_الونس! شكراً لأنك منحتني بعضه حتى دون
إرادة ..لو كنت مكانك لأفقت سريعاً كي أتخلص من
ثرثرة رجل بغيض مثلي .

عبارته الأخيرة حوت سخرية مريرة جعلته يطلق
ضحكة مكتومة وهو ينحني فوق رأسها مردفاً :

_تسمحين لي بجلسة اعتراف أخرى؟! ربما كان
الحديث إليك أفضل من الحديث لصورة مرآتي ..ولو
أن كليكما متشابهتان ..كلتاكما الحديث إليها ضرب

من الجنون !

يغمض عينيه بألم بعدها وهو يعاود الاستقامة بجسده
ليهمس أخيراً :

_سأعتبر أنني حصلت على موافقتك ..وداعاً شبيهتي
قلبية الثغر!

يقولها ليستعيد وجهه صرامته وهو يغادر الغرفة لكنه
لم يكذ يفعل حتى وجد الوجه المألوف أمامه ...!!

_ماذا تفعل هنا؟!!

يهتف بها حسام بغضب ليردف وهو يمسك ذراعه
بقبضته بعنف مردفاً :

_ ألم أقل لك أن تبعد عنها!؟

_ أذكر أنني قلت لك المثل عن ديمة .

يقولها أديم ببرود وهو يزيح قبضته عن ذراعه

بهدوء ليكز حسام على أسنانه قائلاً بحمية :

_ ما دخل هذه بتلك!؟ ألا تملك ذرة من رحمة في قلبك

!؟ ماذا تراك تبتغي من زيارة امرأة فاقدة لوعيها

وكننت أنت السبب في مصابها!؟

_ لا أظنني كنت وحدي السبب!

يقولها أديم مكابراً والعيون تتناطح بقسوة التحدي ..

فيتمالك حسام غضبه ليسأله ببرود :

_ ماذا تريد بالضبط!؟

_ أنا نفذت جزئي من

الاتفاق بيننا .. ساعدت جهاد وزهرة في إثبات

براءتهما .. وبقي الجزء الخاص بك .

يقولها أديم بنفس البرود ليصمت حسام للحظات ثم

يهز رأسه ببطء قائلاً :

_حسناً .. أنا عند وعدي .

_عظيم .. بقيت إذن حكاية "ديمة"! سلم قضيتها

لمحام آخر واقطع علاقتك بها تماماً .

يقولها أديم بنبرة أمرة ليبتسم حسام ساخراً وهو يعقد

ساعديه لتصرخ كل خلجة من خلجاته بالرفض ..

فتلتمع عينا أديم بوهج غامض مع استطراده :

_حسناً .. لا تقل أنني لم أحذرك .

يقولها ثم يتجاوز به خطوات واثقة لكن حسام يلحق به

ليمسك ساعده قائلاً :

ستكون هذه آخر مرة تأتي فيها إلى هنا .. لا أريد أن
تفقد دينا فتراك أمامها .. أنا سأتصل بك كي أتم
الاتفاق بيننا .

لكن أديم يرمقه بنفس النظرة المتحدية التي اختلطت
بغموض لم يفهمه ليتجاوزه دون كلمة واحدة ..
فيطلق حسام سبة ساخطة يكتمها سراً وهو يشعر أن
هذا الرجل يبدو وكأنه يخفي أسرار الكون كله خلف
ظهره !

=====

أحمر

=====

تكتف يسرا ساعديها وهي تراقب شمس الغروب
تلوح لها مبتعدة ..

واقفة في مكانها وحيدة أمام سور السطح حيث
ارتصت زهور هبة بألوانها لتشعر بنفسها "نبته
صبار" وحيدة بينها ..

_ ماذا؟! ماذا؟! لماذا كل هذا البؤس؟! لا تكبري
الأمر .. حالة وفاة عائلية اضطرت هبة للسفر مع ربيع
والحرافيش لآداء واجب العزاء .. هل حسبتِ نفسك
حقاً من العائلة ولا بد أن يأخذوك معهم؟!
تسيل دموعها بتطرف لا يستحقه موقف بسيط كهذا
لكنها حقاً كانت تشعر بالاختناق ..

كانت قد عادت منذ قليل من زيارة أمها منتهزة فرصة
غياب الجميع وقد صارت هذه الزيارة أثقل على قلبها
من كل جبال الأرض ..

جزء هزيل من فطرتها السوية يناشدها التوقف عن
كل هذا والبقاء جوار أمها في هذه اللحظات حتى ولو
لم تكن تذكرها ..

لكن بقايا روحها المهلهلة أوهن من أن تحتل المزيد
من الفقد ..

ليست أنانية .. إنما هي من فرط الهشاشة تخاف
الكسر!

سرب حمام يعود لـ"
"برجه" القريب على أحد الأسطح القريبة فتهمس
لنفسها بحسرة :

_ليتني مثلك .. أجد آخر المطاف ملجئاً يحتويني بعد

التعب!

"إبراهيم"!

خاطرٌ باسمه يبدو لها كنسمة باردة تهدد أفكارها بعد

كل هذا القيظ ..

فتبتسم !

تتذكر مشاكسته إياها في المطبخ .. فتضحك !

تتذكر "زر" قميصها الذي استقر في راحته مع

كلماته "كل ما يعينك مميز" .. فتبسط راحتها فوق قلب

تقافزت دقائقه !

لكنها تتذكر ما أخبرتها به سندس الثرثرة صباح

اليوم أنه تعرض لحادث بسيط

بالأمس .. فتعود ملامحها لعبوسها!

تعلم أن الحادث بسيط وأنه لم يتأثر سوى بجرح
بسيط في رأسه لكنها تشعر بقلق شديد عليه ..
نفس القلق الذي جعل أباه يأمره أن يستريح اليوم من
العمل ولا يسافر معهم لأداء واجب العزاء .
خاطر مجنون يدفعها للركض نحو
الأسفل وقد همت بزيارته في بيته ..
لكنها تتوقف عند الدرج !!
قليل من العقل !!
فقط قليل من العقل كي لا تفسدي على نفسك متعة
ال.. لعبة؟!
لم تعد لعبة .. بل حلاً !!
تعود بخطوات خائبة نحو سور السطح تراقب بيت
ربيع المقابل ..

لماذا لا تطل غرفة إبراهيم على هنا ؟!
تطل على تلك الأرض الواسعة التي رفعت عليها لافتة
باسم "مستشار" !

كأنما ينقصها أن تكون نافذته الوحيدة على من
يعيدونها قسراً للجانب الأسود من عالمها !!
هذه الأرض ورثتها "أم حسن" أباً عن جد .. كان من
المفترض أن يرثها إبراهيم وحسن وأولادهما من
بعدهما .. لكن ذاك المستشار وضع يده عليها قوة
واقتراراً مستغلاً بعض ثغرات القانون .. لكنني واثق
من عدل الله .. جنة سلمت القضية لمحامٍ ماهر يتولاها
وظني أن حقنا في الأرض لن يضيع!
تسمعها بصوت ربيع كما قالها لها بالأمس في
الفرن ..

فتطلق زفرة ساخطة وهي تشعر بالخوف!

هي تعرف ذاك المستشار..

"نابه أزرق" كما يقولون ولن يفرط في شيء

أراده !!

هذه الأرض ليست مجرد

مال مكتنز.. إنها ما بقي من رائحة أمي

وجدودي.. وحسن! لن أتركها تضيع من يدنا مهما

طال العمر.. لن أدع ذاك الرجل ينعم بسرقاته!

تسمعها بصوت إبراهيم الذي تدخل في الحوار وقتها

فتزفر بالمزيد من السخط..

السخط الذي داخله شيء من الرعب وهي تتذكر رد

ربيع المشتعل بعدها:

أولئك الناس لا يباليون بنا وكأننا سرب نمل تدوسه
أحذيتهم اللامعة .. ذاك المستشار وأولئك الذين على
شاكلته هم من قتلوا ابني .. أدعو الله عليهم في كل
صلاة أن يحرق قلوبهم على أبنائهم كما حرقوا قلبي
على ابني .. أدعوه وأستغفره وأنا لا أستطيع منع
نفسي من تمنى قصاص أنفذه بيدي أن أقتل لهم ابنا
كما قتلوا لي واحداً .

ينقبض قلبها بنفس اللوعة التي استشعرتها وقتها
وهي ك"المريب يكاد يقول خذوني"
كانت المرة الأولى التي تسمع فيها ربيع يتحدث بهذه
الحرقة القاسية بعيداً عن حنانه المعهود !!
ماذا لو عرف حقيقتها ؟!

**_حقيقتك؟! ماذا عن حقيقتك؟! أنت سمرا ..ستبقيين
هكذا إلى متى شئتِ ..لا تخافي ..سمرا ستعيش لتتمتع
بكل ما حرمت منه يسرا ..لا تخافي ..لا تخافي!
تقولها وأحد كفيها يربت على الآخر بهذه الحركة
"المميزة" التي صارت تلازمها مؤخراً كأنها تدعم
نفسها بنفسها ..**

**_لماذا تأخرتم؟! لماذا تركتموني وحدي؟!
تهتف بها بصوت مسموع وهي تتلفت حولها ثم تطلق
زفرة حارة وهي تستخرج هاتفها من جيب تنورتها ..
تعض شفثها بانفعال متردد بين صوت "العقل" و
"صخب" الجنون ..فينتصر الثاني!
تضغط زر الاتصال ليصلها إشعار بأن الرقم
مشغول !!..**

وفي غرفته كان إبراهيم يمسك هاتفه بانفعال ليهتف

بجنة على الجانب الآخر من الاتصال:

_حَقاً؟! جهاد ثبتت براءته ..متى سيخرج!؟!

_لا أعرف حتى الآن ..لكنه هو وزهرة سيخرجان

قريباً ..معجزة! صدقتي ما حدث له يقارب المعجزة !

_سبحان من يدبر الأمر !

يقولها بخشوع وهو يرفع وجهه للسماء فيصله

صوت جنة المتوهج بحماسة :

_ونعم بالله! الحق لا يضيع !

_أبلغيه سلامي عندما ترينه ..أريد رؤيته بعد

خروجه .

_حسناً ..سأفعل.

تقولها واعدة بود لتردف:

وبخصوص قضية الأرض لا تقلق .. أعرف أن الأمر
ليس سهلاً وخصمك ليس بالهين لكن حسام كذلك
رجل يعرف من أين تؤكل الكتف .. صدقتي هو سيكون
أفضل مني في حل هذه القضية .

يغمض عينيه بألم وهو عاجز عن شكرها ..
لا يزال بينهما سد عظيم يأبى أن يفتح أبوابه ..

سد .. اسمه حسن!!

كيف نست؟!

كيف تجاوزت؟!

كيف استمرت؟!

هو رأى نظرتها لـ "ابن الصاوي" في ذاك اليوم الذي
خرج فيه هو مع ربيع من السجن بعد احتجازهما في
تلك القضية ..

نظرة تقسم أنها تراه الدنيا وما فيها ..
نظرة كانت يوماً ملكاً لحسن .. فكيف طابت نفسها أن
تمنح ملكه لسواه !؟

_إبراهيم!

تقولها وكأنها شعرت بحدسها بما يفكر فيه فيصمت
دون رد لتردف بما يشبه الاعتذار:

_بعض الأشياء تحدث رغماً عنا .. ومن الحمق وقتها
أن نصدم رؤوسنا بحائط الواقع فلن نجني وقتها
سوى الألم .. ربما يأتي يومٌ ما وتفهم ما أعنيه .. لكن

حتى لو لم يأتِ هذا اليوم فاعلم أن لكم في عنقي ديناً
لن يحله إلا الموت .

من جديد يصمت دون رد عاجزاً عن منح تفهمه هذا
الذي تحكي عنه ..

لن يأتي هذا اليوم أبداً .. أبداً ..

_أسفة لإزعاجك على أي حال .. أردت فقط إسعادكم
بخبر براءة جهاد .. اتصلت بهاتف مستر ربيع لكنه
خارج نطاق التغطية .

_ لا بأس .

يقولها أخيراً ببعض الخشونة غير المقصودة ثم يغلق
الاتصال بزفرة قصيرة لتتسع عيناه بترقب وهو يميز
رقم سمرا التي اتصلت به أثناء المكالمة ..

ماذا حدث؟!

يهتف بها بقلق عندما فتحت الاتصال وهو يقف مكانه
بتحفظ فلم يسبق لها أن هاتفته منذ أتى بها إلى للحي
سوى لضرورة قصوى ..

ليصله صوتها بارتباك لا تدعيه :

كنت أريد أن أطمئن .. قالوا لي أنك تعرضت لحادث
بالأمس .

ابتسامته تشبه قلبه .. وقلبه يشبه ابتسامته ..
كلاهما الآن كان وهاجاً مشعاً متخماً بهذه السعادة
التي حملتها كلمات "ها" العادية .. فقط لأنها تعلقت

ب"ها" .. هي غير العادية !!

لكنه يتمالك شعوره ليرد :

أنا بخير .. أبي فقط شديد القلق بما يتعلق بشأني .

تشعر أنه سيغلق الاتصال فتحاول البحث عن فاتحة

حديث :

_ هاتفك كان مشغولاً .. هل كانوا هم؟! كلمتهم لكن

هو اتفهم جميعها خارج التغطية .

_ لا .. كانت جنة !

لو يعرف كيف شحبت ملامحها حد الموت مع ذكر

الاسم ..

خوف ..!

جعلها تعصر بقبضتها قماش قميصها فوق صدرها ..

غضب ..!!

غضب من شعورها بأنها تكاد تفقد أمانها هنا ..

غيرة ..!!

لماذا تكلمه جنة بأريحية ولا تملك هي هذا الحق؟!!

وأخيراً .. عجز !

عجز يجعل أصابعها تتحل هابطة ببطء .. كأنها تنتظر
نهاية اللعبة ..

اللعبة .. التي ما عادت لعبة !!

لماذا كانت تكلمك ؟!

لم يلتقط من أطراف مشاعرها السابقة سوى وهج
الغيرة !

ربما لأنه وضع نفسه مكانها !!

لهذا أشفق عليها من لهيب كهذا ليتهايح قائلاً:

تذكرين ذاك الطبيب الفلسطيني الذي سجنْتُ بزعم

علاقتي به ؟! كانت تتصل كي تخبرني أنه قد ثبتت

برأته وسيخرج من السجن قريباً بعدما وجدت هاتف

أبي غير متاح..فرحت جداً بهذا الخبر .

فتمالك نفسها لتسايره:

_ رغم أنك لم تره سوى مرة واحدة .

_ أجل ..لكنني أثق بحدسي الذي يخبرني أن له روح

فارس ..جنة كذلك تقول عنه هذا .

_ تتق كثيراً برأي جنة هذه في الناس؟!!

لم تخفَ عليه نبرة العدائية في " هذه " التي فضحها

بها لسانها لكنه يحسن تأويلها ..

سعيداً ب" مغزى " غيرتها لكنه يشفق عليها منها ..

لهذا تخطى الحديث عن هذا ليسألها باهتمام :

_ أنتِ بخير؟! تريدن شيئاً آخر؟!!

الصمت يغزل خيوطه ببطء بينهما ..

بينما تعزف القلوب أكثر ألحانها صخباً !!
تخاف أن يغلق الاتصال فتعود عقدة "الفقد" لتتحكم
فيها ..

لهذا تبادر بسؤال ..

_قلت في درسك الذي حضرته بالمسجد عبارة لم
أفهمها .. (اكنم عن الناس ذهبك وذهابك
ومذهبك) .. ماذا تعني!؟

_هي من أقوال الإمام ابن الجوزي .. تكتم
ذهبك .. يعني أمر

مالك .. راتبك .. مشترياتك .. لأن منهم المحروم
والحاسد والحاقد والمستهين بك لو علم عن
فقرك .. أما تكتم ذهابك يعني

خطئك .. طموحاتك .. سعيك .. كي لا يثبطك الكاره أو

يتمنى لك الفشل .. و "مذهبك" يعني عقيدتك
وأفكارك .. تعلمين أن للحديث عن النفس شهوة سواء
للسامع أو المتحدث فلا ينبغي أن يمنح الواحد منا
رأيه إلا إذا طلب منه كي لا يقع فريسة الجدل
والمهاترات بلا فائدة .

تزدرد ريقها بتوتر وقد وافق الكلام "هوى" في
نفسها لتقول بحماس:

_جميل! هذا ما أعتقده أنا أيضاً .. كلما زاد ما تكتمه
عن الناس كلما كان هذا أفضل .. صحيح!؟
_صحيح .

يقولها غافلاً عن مرادها وراضياً عن هذه الحماسة
في صوتها لتردف هي بحماس أكبر:
_ هذا أعظم كلام سمعته في هذا الشأن .. أنت ..

تقطع عبارتها بصرخة طويلة تهزه مكانها ليهتف
باسمها بقلق لكنه لا يسمع سوى صوت صرخاتها
يتعالى من جديد فلا يفكر وهو يهرع ليغادر بيته

إليها!!



صرخاتها تتوالى بخوف حقيقي وهي ترى "البرص"
الزاحف بشكله المخيف يتحرك فوق الجدار المؤدي
لشقة هبة فوق السطح ..

دموعها تسيل بخوف متطرف والهاتف يسقط من
يدها بينما تكتف ساعديها مبتعدة لكن عينيها لا
تكادان تفارقان الزاحف الذي لم يكن بهذه الضخامة
لكنه الخوف البدائي غير المبرر من كائن كهذا ..

تراقبه بوجل لا تدري كيف تقتله وتخشى أن يفلت

لداخل فلا يمكنها ملاحقته !

تفيق بعد دقائق تخشبت فيها كتمثال لتنتبه لها تفها

الذي سقط فتحنى لتلتقطه بأصابع مرتجفة لتفاجأ

بالصوت خلفها ..

_ ماذا حدث؟!!

تلتفت نحو إبراهيم كطوق نجاة لتشير بأصابعها

المرتجفة نحو "البرص" فيهدف مستكراً بحدة :

_ كنت تصرخين لأجل هذا؟!!

يشعر ببعض الندم بعدها وهو يميز خوفها الحقيقي

ودموعها التي كانت تجري فوق صفحة وجهها بين

شهقاتها المرتعدة ..حتى بعدما تقدم ليتخلص من ذاك

"الوحش" الصغير!

الخاطر الأخير يجتاحه بسخرية فيستغفر الله بصوت
مسموع وهو يعاود الالتفات لجسدها المرتجف
ووجهها الذي أشاحت به مع كلماتها:

قتلته؟! مات حقاً؟! لن يعود!!

لم يكن يعرف الكثير عن هستيرية النساء في التعامل
مع هذه الأشياء لهذا بدا له انفعالها مبالغاً فيه وإن
شعر به صادقاً!

حرامٌ عليك! تصورتك في كارثة بهذه الصرخات

التي كنت تطلقينها! إنه برص! برص! الأطفال هنا
في الحي يلعبون معه "الغميضة"!!

تبتسم وسط دموعها وشهقاتها المتلاحقة فيزداد

شعوره بها عصفاً لكنه ينتبه لخلوتهما في المكان وما

يمكن أن يثيره من شبهات فيتحرك ليبتعد قائلاً:

_ لا تخافي .. صدقيني هذه الكائنات تشعر بالخوف من

الإنسان أكثر مما يفعل هو .

ابتسامتها الممتة تزداد اتساعاً وهي تقترب منه

قائلة :

_ شكراً .

تتعلق عيناه بعينيها للحظة فيشعر أنه يبذل مجهوداً

خرافياً كي يفض الطرف عنها ..

يبتعد بجسده .. وكل ما عداه منها يقترب !!

لهذا تتلعثم كلماته :

_ لا بأس! قتل مثل هذه الزواحف لها ثواب كبير .. لو

كنت لاتزالين خائفة ابتعدي عن هنا حتى تعود هبة .

تشعر بتباعده الذي لا تفهمه رغم أن حميته المعهودة
نحوها لم تتأثر فتهز رأسها لتعدل وضع حجابها
قائلة :

_حسناً .. سأنزل ل"سندس" وسامي أجلس معهما
أمام الكشك !

_لا!

يبسط بها راحته عفويًا في وجهها مردفًا :
_ لا تجلسي في الشارع وتكوني عرضة لهذا
وذاك .. يمكنك ..

يقطع عبارته وهو يلاحظ تعلق عينيها الملتمعتين
بكفه والآهة الخافتة التي انفلتت من بين شفثيها
فينظر لراحة يده المفرودة مدركاً ما أثار انتباهها
هكذا ..!!

فهنالك كان "زرها" الصغير محشوراً بين دبلته

الملونة وجلد إصبعه !

_إبراهيم !!

تهمس بها بوله وهي تقترب أكثر ليحمر وجهه
بمزيج عاصف من شعوره في هذه اللحظة وهو يعقد

كفيه خلف ظهره كأنه بهذا سيمحو ما رآته !!

لماذا؟!

لم يكن سؤاها يحتاج لجواب وكل خلجة من خلجاته

تخبرها بالجواب لكنها ودت لو تسمعه منه ..

هو الذي بقي صامتاً مطرق الرأس كأنه ضبط بالجرم

المشهود !

ليهمس سراً في نفسه :

_ لماذا تأخرت في مفاتها يا أبي؟! أنا أضيع يا

"مستر ربيع"!

لكنها تقترب أكثر وأكثر ..

عيناها تتوهجان أكثر وأكثر ..

قلباها يخفق أكثر وأكثر ..

ترتعش كلماتها وهي تشعر بأثر حركة بسيطة كهذه

في نفسها ..

_ مادمت ترفض منحي سبباً فسأفترض أنا السبب ..

يرفع إليها عينيه بترقب لتهز كتفيها مردفة بمكر

امتزج بعاطفتها الهادرة :

_ مثلاً .. الدبلة واسعة قليلاً وكنت تريد تضيقها فلم

تجد سواه أمامك .. مثلاً .. مثلاً ..

_ مثلاً !

يبتسم رغباً عنه وهو يهز بها كتفيه مستجيباً رغباً

عنه لمزاحها ..

يا لله !!

خجله الرجولي يزلزل جبال أنوثتها الراسيات ربما

بأكثر مما وعته في حياتها من جرأة ذكورية !!

هو وحده في كفة لن تسع سواه !!

لهذا تضحك ضحكة نقية تدوي مجلجلة في صدره

فيجد نفسه يشاركها إياها دون محاذير .

_خير! اللهم اجعله خيراً!

الصوت خلفهما يجفلهما فيتجمد كلاهما مكانه وهما

يريان ربيع قد عاد مع هبة والحرافيش ..

ليردف قيس بمكر عابث:

_ "ناس هايصة وناس لايصة" ..نحن في العزاء
وسط الصراخ والعيويل وتراب السفر وأنتما هنا ت...!
يخرسه ربيع بعارة زاجرة فيما تبدو هبة أشدهم
استياء وهي ترمق إبراهيم بنظرة عاتبة تجعله يبهر
بان دفاع :

_ هي رأت "برصاً" هنا على الجدار وكنت ..أقصد ..
تتعلم كلماته رغماً عنه وهو يرى المبرر أكثر حماقة
ليهتف عنتر بنبرة عابثة :

_ برص؟! خير ..خير ..البرص في المنام نصره ..وفي
الحقيقة شر ستتخلص منه .

ينطلق روميو ضاحكاً لتمرّج ضحكات شقيقه معاً
فيما يبقى ربيع صامتاً محتقن الوجه لتهتف يسراً
مدافعة :

_ كنت أتصل به كي أطمئن عليه بعد ما علمته عن
حادث أمس .. وبينما أكلمه رأيت ذاك الكائن يزحف
على الجدار .. صرخت ولم أتمالك نفسي وهو جاء كي
يرى ما هناك ..

تخاطب بها ربيع وحده وعيناها في عينيه فلم تكن
تهتم في هذه اللحظة بأكثر من رأيه هو ..

هو الذي بقي يناظرها بعينين متفحصتين لتردف
بخوف صريح قرأه في عينيها :

_ أقسم لك هي الحقيقة .

_ لا تقسمي ! أنا أعرف ابني ..

يقولها ربيع بحسمه الوقور ليردف بنبرة أكثر بطناً :

_وأعرفك ..أو ..هكذا أظن .

تزدرد ريقها بارتباك ازداد مع هتاف هبة الساخط :

_ولو يا خالي! ماذا سيقول الناس وهم يرونه يهرع

إلى هنا في غيابنا ليلتقيها فوق السطح الذي خلا بهما

وقد أظلم الليل؟! لا أعرف كيف خانك طبعك في هذا

الموقف يا إبراهيم لم أعهدك متهوراً هكذا ! ماذا لو

سمع أحد الجيران صراخها وصعد إلى هنا ليجدك

تتضحك معها وحدكما!؟

يتبادل الحرافيش نظرات مأكرة فيما يرمق إبراهيم

أباه بنظرة عاتبة كأنه يلومه على تأخره في منحه

الرد على طلبه الزواج منها ..

_كفاك يا هبة !

يقولها ربيع بصرامته الرفيعة فتنهمر دموع يسرا
وهي تشعر بخوف هستيري و "عقدة الفقد" تعاود
خنق روحها لتهتف وهي تضم كفيها في وضع الرجاء

مخاطبة ربيع:

_ أنا أعتذر .. أعتذر عن نفسي وعنه .. أنا المخطئة
والملومة .. لا تغضب مني .. أرجوك .

فيحتقن وجه إبراهيم بغضب وحميته نحوها تجعله
يهتف بحدة :

_ لا .. لم تخطئي في شيء .. الموقف فرض نفسه وأنا
كنت في طريقي للنزول عندما ..

_ كفاك يا إبراهيم .. انتهينا!

يهتف بها ربيع ليردف وبصره معلق بدموع يسرا
المرتعدة بخوف وقد خشيت أن يدفعه الموقف
لإبعادها عنهم :

_ دعوني مع سمرا وحدنا !

_ أبي! أرجوك دعني أتحدث معك أولاً !

يهتف بها إبراهيم برجاء مشوب بالغضب لكن ربيع
يشير له بكفه قائلاً بحسم :

_ لا ! هي أولاً .

يختض جسد يسرا بخوف حقيقي فتترنح مكانها
لتتشبث بكرسي خشبي قريب فلا يملك إبراهيم خطوة
حمائية يتحركها نحوها لكنه يعود مكانه احتراماً
لأبيه ..

يتردد لحظة في البقاء لكن نظرة مطمئنة عرفت
شفرتها بين عينيهِ وعيني ربيع جعلته يرمق يسرا
بنظرة داعمة ثم يغادر .

يغادرون تباعاً وآخرهم هبة التي بدت رغم استيائها
مشفقة على يسرا لهذا ربتت على كتفها بخفة رغم

عبوس

ملامحها المعتاد قبل أن تدلف لداخل شقتها كي تترك
لها حرية الحديث ..

_اجلسي يا ابنتي.

يقولها ربيع بحنانه الصارم وهو يشير لكرسيين
خشبيين متقابلين فتعدل يسرا وضع حجابها فوق
رأسها بارتباك وهي تستجيب لرغبته ..

يجلس قبالتها لتتهفف بود لا تدعيه :

_ انت قلت يا "ابنتي" ..وهذا شعوري والله ..مادمت

قلتها فلست غاضباً مني ..صحيح!؟

لكنه يتفحصها ببصره للحظات كاد يقتلها فيه الترقب

قبل أن يلقي قنبلته :

_إبراهيم يريد الزواج منك !

=====

_صورة اليوم يا "لوكا"!

يهتف بها فهد بمرح وهو ينادي ابنته التي هرعت
إليه لتتوسطه هو وجنة فيلتقط لهما صورة بوضع
السيلفي الشهير قبل أن يقبل وجنتها بعمق لتهتف
الصغيرة :

_ واحدة فقط؟! "ماما" تأخذ اثنتين كل صباح!
تضحك جنة بمرح وهي تراه يغرق وجه ابنته
بالقبلات هاتفاً بحرارة:

_ كبرت "البنيت" وصارت تعد عليّ القبل!

تضحك ملك بشقاوة طفولية وهي تحاول التفلت من
بين ذراعيه وقد بدأ يدغها بمرح فتستغيث بجنة
التي تهز كتفيها لتهتف باستياء مصطنع:
_ لن أتدخل مادمت تحسدينني على قبلاتي.

_ماما..بابا..

تهتف بها ملك بالمزيد من الصرخات المرححة فيحملها
فهد ليرفعها ويقذفها في الهواء ثم يعود ليضمها في
حضنه بقوة وهو، يدفن وجهه في عنقها ليتهد أخيراً
هامساً برضا:

_لا حرمني الله صوت ضحكائك هذا !

_نحن هنا!

تقولها جنة بغيرة مصطنعة وهي ترى الصغيرة تخرج
لها لسانها بحركة مغيظة فيضحك فهد وهو يخبط ملك
على كتفها هاتفاً :

_عيب!

_ضياء يفعلها ونور تقلده .

تهتف بها ملك مدافعة ليضحك فهد هاتفاً ببراءة

مصطنعة :

_ هما أبوهما رجل متجبر وهم ورثوا طبعه لكنني

مسكين .

_ أشهد!

تهتف بها جنة ساخرة وهي تقرص أنفه فتضحك ملك

وهي تتفلت من بين ذراعيه هاتفة :

_ موعد الكرتون .

تقولها وهي تعدو نحو غرفة المعيشة حيث التلفاز

فترمقها جنة بنظرة راضية وهي تلاحظ تطورها في

الكلام قبل أن تشهق بعنف وهي تراه يحملها هي فجأة

ليرفعها فتهمس له بخفوت:

_ ماذا تفعل!؟!

_ أراضي الأستاذة !

يهمس بها بمكر وهو يقترب بوجهه منها مردفاً :

_ كنتِ تغارين من ابنتك لأني حملتها .

فتتعلق بذراعيها في عنقه هامسة بدلال:

_ تداركت نفسك! كنت على وشك التفكير في أقصى

عقوبة على المتهم .

يتحرك بها ولايزال يحملها نحو غرفتهما ثم يغلق

بابها خلفهما بقدمه ليهمس أمام شفيتها :

_ تذكرين كم تحبين أن أحملكِ هكذا فتقابل عيناكِ

عينيّ ؟!

لكنها تهبط بقدميها أرضاً لتقبل صدره ثم تخفي

وجهها بين ضلوعه هامسة :

_وأذكر كم تحب أن يكون هكذا دوماً مكاني على
صدرك .. عيناى حبيبتك تواجهان قلبك .. رموشهما
تكاد تعانق دقاته !

هممة حارة عاشقة تحلق خلف شفثيه وهو
يعتصرها بين ذراعيه ثم يرفع وجهها نحوه لتداعب
أنامله الحرة خصلات شعرها قائلاً بنبرة عابثة :

_أعرف هذه النظرة المخفية خلف وهج
البندق .. نظرة تقول

"اليوم إجازة فالأستاذة تحتاج الدلال" .

_لا ..

تهتف بها وهي تهز كتفيها بغنج لتبتعد خطوة وهي
تلوح بسبابتها هاتفة :

_ بل تقول "اليوم بالذات لن أستطيع لدي الكثير من

العمل وأنت كذلك!"

_ صدقيني أنا أفهم عينيك أكثر منك!

يهتف بها باعتراض وهو يعاود ضمها إليه بقوة

لكنها تضحك وهي تقبل جبينه باعتذار قائلة :

_ أعدك بتعويض مناسب ليلاً .

يخبط جبينها بجبينه برقة ثم يفلتها من بين ذراعيه

ليغمزها قائلاً:

_ أنت الخسرانة .

_ أعرف!

تقولها وهي تعاود هز كتفيها بدلال لتتحرك نحو

خزانتها كي تبديل ملابسها فيراقبها بافتتان لتشير له

بكفها هاتفة :

_ أدر ظهرك .

_ وأفوت هذا العرض!؟!

يغمزها بها بخفة فتضحك وهي تهز رأسها قائلة :

_ يوماً ما ستفسد عشرتك وقاري!

_ لا .. لا .. لا يصح! كلنا فداء وقار الأستاذة !

يهتف بها وهو يبسط راحته أمام وجهه بتهذيب

مصطنع لتبتسم وهي تتوجه نحو المرأة كي ترتدي

حجابها فيتنهد

قائلاً باستسلام :

_ أمري لله .. يبدو أنني سأضطر لتغيير

الموضوع .. حسام يبلغك سلامه .. يقول إنه لولاك لما

وصل أديم لدليل مادي يبرئ جهاد وزهرة .

يهتف بها بجدية امتزجت بفخره بها لتلتفت نحوه
وهي ترفع قبضتها المضمومة هاتفه بحماسها

المعهد :

كانت "ضربة معلم"! وصولي لمعلومة أن الرجل
الذي قتل موكلي هو نفسه الذي أرادوا توريط جهاد
معه .

أجل ..حسام يقول إن المعلومة هذه كانت طرف خيط
مهم قادتهم للكثير من الحقائق ..لا أفهم عما يتحدث
فهو متكم كثيراً فيما يتعلق بهذا الشأن .

يقولها ببعض الضيق فتعاود الالتفات للمرأة قائلة :

قل الصدق ..أنت ضائق لأنه أخبرني بهذا الشأن
قبلك ..صحيح ..يقول إن هاتفك كان مغلقاً يومها وقد

ظل هكذا طويلاً ..ما الحكاية!؟

_ معاكسات! تعرفين فتنة فهد الصاوي الطاغية!
اضطرت لإغلاق الهاتف كي أتخلص من .. آه!
يقطع عبارته ضاحكاً وهو يتفادى علبة كرتونية
صغيرة قذفته بها ..

ليعاود الاستقامة بجسده وحاجباه يتراقصان
بمشاكسة فتهتف به :

_ لا تلعب في عداد عمرك !

_ وما ذنبي إن كان سحري لا يقاوم !؟

_ فهد!

تهتف به محذرة لتردف :

_ بتول الراعي كلمتك ثانية!؟

_ ما الذي ذكرك بها !؟

يسألها متفاجئاً فتمط شفيتها قائلة :

_ لا أدري .. حدسي الأنثوي يخبرني أنها لن تتوقف

عن مطاردتك لأجل برنامجها السخيف .

_ لا .. لا .. أظنها سترتدع بإهانتك لها المرة السابقة .

يقولها بهدوء ليبتسم مردفاً :

_ ولا داعي لقلقك المتطرف هذا .. مصر كلها تشتكي

الآن من شبكات الهواتف المحمولة .. لم يعد الهاتف

المغلق يساوي كارثة .

تبتسم له وقد أتمت ارتداء حجابها لتتحرك نحوه

فتقبل وجنته بخفة قائلة :

_ هيا لتوصلنا مادمت في إجازة اليوم .

يتحرك بها نحو الخارج فيصطحب ملك معها ليوصل

الأخيرة لمركز التخاطب الذي تمارس فيه نشاطها

اليومي ويوصل جنة لمكتبها قبل أن يعود للبيت ..

يجلس قليلاً أمام حاسوبه يتصفح بعض الأخبار
الهامة عن سوق البورصة والمال ويجري بعض
اتصالاته الضرورية ..

ليفاجأ برنين جرس الباب ..

مفاجأة .. أليس كذلك؟!

يعقد حاجبيه بدهشة مشوبة بالضيق وهو يراها
أمامه ..

بتول !

هنا في بيته !!

_يالجرأتك!

يهتف بها ببعض الفظاظفة فتبتسم وهي تتلاعب

بخصلات شعرها المصبوغة قائلة :

_ زوجتك وابنتك ليستا في البيت ..ولا تسألني كيف
عرفت .

_ تراقبينني؟! أنتِ مجنونة حقاً !

يقولها بحدة امتزجت بقلقه وهو يشعر أن الأمر يفوق
مجرد حلقة تلفزيونية فتقترب منه هامسة :

_ عندما تعلم لماذا أتيت ستعرف أن الجنون آخر ما
يمكنك وصفي به .

_ لا أريد أن أعلم ..انصرفي كي لا تجبريني على فعل
تكرهينه كالمرة السابقة .

لكنها تمد يدها في حقيبتها لتستخرج منها ما رفعته
أمام عينيه قائلة :

هذه المرة ليست كالسابقة .. فقط شاهد هذا وأعدك

أنك بعدها من ستبحث عني .. لا العكس .

يزداد انعقاد حاجبيه بالمزيد من القلق وهو يراها

تلوح له بكفها مودعة بعدما وضعت ما بيدها في

كفه ..

يغلق الباب خلفها بقوة وهو يتفحص

"الفاشة" التي منحته إياها والتي ظل يرقبها

للحظات بخوف لا يدري مبعثه ..

لكنه ينفذه عنه أخيراً وهو يتحرك نحو حاسوبه

ليدخل الفلاشة مكانها ..

تتسع عيناه لأول وهلة بصدمة وهو يميز المشهد في

الإضاءة التي بدت له خافتة ..

رجل وامرأة في الفراش لا تبدو ملامحهما واضحة

وهما يمارسان ال..!

مهلاً.. هو يعرف هذا الفراش ..

هذه الغرفة !!

يتصبب جبينه بعرق غزير مع تلاحق أنفاسه وهو

يعرف بقية المشهد حتى قبل أن يراه ..

الباب يفتح ..

الرصاص ينطلق من مسدس حامله ..

المرأة تصرخ قبل أن تلقى حتفها والرجل يفر ..

حامل المسدس ينهار جالساً أمام جسد المرأة الميت ..

حامل المسدس الذي كان ... " هو " ..!

والمرأة كانت أمه !

الدم يضرب في رأسه ودموع الغضب تتكدس في

عينيه ..

من أين ظهر الفيديو؟!

من سجله ؟!

ولماذا؟!

وكيف؟!

ولماذا الآن يظهر بعد كل هذه السنوات ؟!

لماذا وقد كاد ينسى؟!

لماذا؟!

لماذا؟!

يصرخ بها أخيراً بصوت مسموع فلا يشعر بنفسه
وهو يتناول مزهرية قريبة فيقذفها في الحائط ليذوي

صوت تهشمها لكنه لا يسمعه وسط كل هذا الضجيج

داخله ..

صوت الرصاص ..

صرخات أمه ..

صرخاته هو ..

يسد أذنيه بقوة وهو يخبط رأسه في مسند الأريكة

جواره مغمضاً عينيه بغضب ..

لكنه يعاود فتحهما بعد لحظات ليعاود تشغيل

الفيديو ..

يحاول الوصول لهوية الرجل لكنه لا يستطيع فقد كان

ظهره مواجهاً للكاميرا كأن من دسها كان يتعمد

إخفاء هويته ..

لكن .. مهلاً ..

تضييق عيناه بتفحص وحاجباه يزدادان انعقاداً ..

تفصيلاً بسيطة لا يظنها تساوي شيئاً ..

أو .. لعلها تفعل!

فهناك أعلى ذراع الرجل قرب كتفه كان هناك وشم

ما ..

وشم "كوبرا" !!!



الطيف الثامن عشر

=====

بنفسجي

=====

_ أنا معك ولن أسمح لأحد أن يؤذيك .. أنا معك في كل ما تريدين .. أنا معك في كل ما تختارين .. قريباً تكسبين القضية ويكون لك مالك الخاص .. يمكنك بدء مشروع صغير يناسبك .. أو لعلك تريدين إكمال تعليمك .. أو ربما ترغبين في العودة لبلدك .. لا تزال السبل كلها مفتوحة أمامك .. لا داعي لكل هذا الخوف والدموع .

تذكرها ديمة بصوت حسام أمام مرآتها التي أصلحها

عاصي الرفاعي بعدما أخبرته ماسة ..

وليته يستطيع أن يصلح -داخلها- كل المرايا!!

تذكرها فيرتجف جسدها بخوف وهي تخشى مواجهة

شبح هالة هذه المرة ..

ربما لأن "وليد الذنب" يصرخ داخلها ..

هل توشك أن تتعاطف مع قاتلها!؟

هل تصدق ذاك الاحتواء الذي كان يقطر بين حروفه

!؟

هل احتمت خلف ظهره حقاً من أديم فأواها!؟

"أواها"!!

الكلمة العجيبة تخز صدرها كأنها تذكرها بما فقدته ..

المأوى!

ومن سواها يدرك قيمته؟!
_ها! أضيفي إذن صفة الخيانة لبقية سماتك بعد
الجبن والضعف وقلة العقل!
تصرخ صرخة خافتة وهي تسمعها بصوت شبح
غازي الأسود ..
تشعر بلسعة صفعته على وجنتها ..
والأقسى .. على صفحة قلبها !!

_أليس هذا من كنتِ تدعين رغبتك في الانتقام منه
لصديقتك؟! رفعتِ رايتك البيضاء أمام كلماته
المعسولة؟! أو ربما غرتك وسامته؟! قلتِ في نفسك
تجربين الشاب كما جربتِ الكهل؟! جسدك الرخيص
افتقد من ...

عيناها تتسعان بصدمة وسيل الكلمات البذيئة بمعناها
الفاحش يصلها بوضوح ..

بمنتهى الوضوح كأنما يقولها بحق فلا تميز واقعاً من

خيال ..!!

جسدها ينتفض برعدة حقيقية وهي تستعيد أقسى

مشاهدها معه - وكلها قاس- في الفراش!

تئن بألم مغمضة عينيها وهي تضم ثيابها فوقها بقوة

لعلها تقاوم شعورها بالعري .. بالانتهاك ..

لكن "الشبح الأسود" لا يزال منجله يحصد رؤوس

أفكارها فيلطخها بالدم ..

لست خائنة .. لست فاشلة .. لست ضعيفة .. يوماً ما

ستنتقمين .. ستنتزعين عباءة الألم هذه من فوق

كتفك فتلقينها على غيرك .. وقتها فقط ستصدقين أنك

لست بالضعيفة .. وقتها ستقتلين غازي حقاً .. ستقتلينه
داخلك وإن عجزت أن تقتليه أمام الناس .

شبحها الأرجواني يواجهها بها كأنه يمنحها بعضاً من
سند ..

فتعاود فتح عينيها ليستمر

ال "مدد الأرجواني" :

_ انتقمي .. جرحك لن يشفيه سوى القسوة .. شفاؤك

أن تؤذي .. ساعتها ربما تستعيدين نفسك ..

_ هالة .. هالة .. أين أنت؟! لماذا اختفيت!؟!

تئن بها بوجع وهي تطارد سراب أشباحها عبر

المرآة ..

شبح هالة لم يعد يأتيها عاتباً معرضاً ..

بل اختفى .. اختفى تماماً !!

_ أنا أحتاجك .. عودي .. عودي .. هالة ..

يعلو صوتها بها باستجداءٍ طاغٍ وأحد ذراعيها يمتد

أمامها كأنها تدعوها بينما كفها الآخر يتشبث بفردة

القرط في أذنها ..

كلماتها تتحول لصرخات خافتة وهي تشعر بالخوف ..

شبح غازي الأسود يقترب ..

يقترب ..

فتشهق برعب وهي تتراجع للخلف لتركض مغادرة

الغرفة ..

بل والبيت كله ..

تقف مكانها حيث قادتها خطواتها لترفع عينيها

لأعلى ..

أخيراً ضوء الشمس في الحديقة يقهر كل ظلام

مخاوفها ..

أشباحها كلها تختفي فتتهد بارتياح وهي تلتقط نفساً

تلو آخر ..

شحوب ملامحها يكتسي أخيراً بوردية خفيفة وهي

تميز سند وقد قدم راكضاً إليها من بيت عاصي

المقابل تلحقه ماسة وقد تناقلت خطواتها بأثر الحمل

تهتف باعتراض:

_اللبن أولاً .. لن تلعب مع ديمة اليوم إلا لو شربته .

هاهو ذا سند أخيراً أمامها!

تضمه لصدرها فلا تعلم أيهما أشد احتياجاً لصاحبه !!

لم تعد بها حاجة لترفع عينيها للشمس كي تقهر

أشباح ظلامها ..

شمسها الآن بين ذراعيها!

_ لا تدليله يا ديمة .. هو يرفض شرب اللبن منذ بضعة أيام .

تهتف بها ماسة بضيق وهي ترفع كوب اللبن في يدها
لكن ابتسامة شاحبة تظل ثغر ديمة التي رفعت
وجهها في مواجهة وجه الصغير لتغمغم بصوتها
الرقيق ذي الشجن:

_ حقاً ترفض شرب اللبن!؟!

ترمقها ماسة بنظرة مشفقة مع هذا الحنان الفطري
الذي تشبعت به ملامحها وهي تنزل الصغير أرضاً
لتهتف بنبرة "حيوية" نادرة على طبيعتها الكئيبة :
_ انتظر هنا لحظة .

يتعلق سند في ثيابها بكلمته "اليتيمة":

_ماما.

لكنها تقبل جبينه هامسة :

_لن أتأخر ..ستعجبك هديتي ..انتظر هنا .

تقولها لتركض نحو بيتها المقابل فتقترب ماسة من

سند لتحيطه بذراعها لكنه كعهده يبتعد عنها نافراً

فتزفر زفرة قصيرة وهي تمسد بطنها تنتظر ديمة

التي عادت بما تحمله لترفعه في وجه الصغير قائلة :

_ما رأيك!؟!

تبتسم ماسة بمزيج من تأثر وإعجاب ..و..غيرة!

غيرة طفيفة لم تشأ الاعتراف بها وهي ترى هدية

ديمة التي كانت كوباً أبيض طبعت عليه صورة ..

صورة هالة !!

هذه التي ما إن رآها سند حتى دمعت عيناه بمزيج

غريب من حزن وفرحة وكلمته اليتيمة تتردد

ك"عصفور سجين" بين شفثيه :

_ماما ..ماما ..ماما ..

يقولها وهو يقبل الكوب الفارغ تارة ..يضمه لصدره

تارة ..يمسح به جبينه تارة أخرى ..ثم يعاود النظر

إليه بعينين دامعتين وشفثاه تتحركان بتمتمة خافتة

غير مفهومة ..كأنه يناشد الغالية الراحلة أن تعود ..

يتلفت حوله أخيراً كأنه يبحث عنها ثم تعاود الدموع

غزو عينيه لكن ديمة تجلس على ركبتيها

أمامه ..تمسح وجهه بأناملها هاتفة بصوت يشبه

رجفة انفعاله :

_هالة معنا ..حولنا ..صدقني ..أنا ..أنا أراها .

ينعقد حاجبا ماسة وهي تشعر بغرابة حديث ديمة التي

كانت تردف بنبرة ظاهرة الصدق:

_أجل أراها ..تعانقتي ..تربت على كتفي ..لكنها الآن

مستاءة مني ..تعطيني ظهرها ولا تكلمني ..لا تجعلها

تتضايق منك أنت الآخر !

ترتجف شفتا الصغير وهر يبحث حوله فتشعر ماسة

بالارتباك وهي لا تدري صحة تصرف ديمة بهذا

القول في موقف كهذا ..

لكن الصغير يمنحها الجواب وهي ترى ديمة تتناول

منها الكوب لتصب اللبن في الكوب خاصتها -بصورة

هالة _ ثم تعطيه للصغير فيشرب اللبن دون اعتراض!

_جيد ! "يبدو" أنك تعرفين جيداً ما تفعلينه !

صوت عاصي المهيب يظهر في الصورة فجأة ينثر
ذبذبات نفور في قلب ديمة التي رفعت عينيها إليه
ببعض الخوف الذي لا تملكه..

يا الله !

كيف كانت هالة تتعامل مع رجل مثله؟!
بينما يتقدم عاصي أكثر ليتناول الكوب ناظراً لصورة
هالة ..

غابات زيتونه تشتعل بنيران ذنب لايزال عاجزاً عن
تكفيره ..

خاصة وسند يرمقه بهذه النظرة الغريبة ثم ينتزع
الكوب منه بقوة تناسب طفولته ليضمه لصدره ..

تريد أخذه مني هو الآخر؟! ألا يكفيك أنك حرمتني

من أمي؟!!

لم ينطقها سند لكن عاصي سمعها !!
سمعها ب"أذن" ذنبه لتتفجر شظاياها في روحه !!
لهذا عاد يرمق ديمة بنظرة غريبة غامضة ليقول
متماً جملته السابقة :

_أتمنى أن يكون هذا حالك في حياتك كلها .
ينعقد حاجبا ماسة بمزيج من الدهشة والضيق وهي
تشعر أن عاصي يخفي عنها الكثير بشأن ديمة التي
ازدادت سطوة الخوف على ملامحها :

_ماذا تقصد يا سيد عاصي؟!
يهم عاصي برد موارد لكن نظراته تعلقت بهذه التي
غادرت بيته للتو لتقترب منهم وقد تشبث نور وضياء
بطرفي ثوبها ..

طيف!

نظراتها المشتعلة تميز عينيها المتوهجتين وقد تعلقت
بديمة ..

تقترب أكثر بنفس العنفوان الهادئ الذي يحيط هالتها
كأنها لم تفجر ألغامها في حقوله الهادئة بعودتها
الكارثية ..

لينقل عاصي بصره بينها وبين ديمة للحظات بنظرة
غامضة ..

قبل أن يخاطب ديمة مشيراً لطيف بكفه :

_أختي!

=====

رغم ما أثارته كلمة "أختي" في روحها من شجن -
خاصة وهو يعرفها بهذه البساطة الظاهرة- لكن طيف

تتجاوز عن هذا وهي تتفحص ملامح ديمة التي بدت
لها شديدة الفتنة ..

جمالٌ كهذا غريب في هذا البلد لاريب أن خطواتها في
أي مكان تسبب زحاماً مرورياً معتبراً و..مبرراً !
وجه سينمائي بعينين ترويان ألف حكاية وجع ..
كأنها "بطلة" فرت من أوراق رواياتها لتتجسد لحماً
ودماً !!

لهذا دفعها الفضول لتسأل بفضاظتها المعهودة :

_ من هذه ؟!

_ ديمة ! كانت صديقة هالة والدة سند ..تقيم هنا .

تقولها ماسة ببعض التحفظ وهي تراقب ملامح سند

الذي تشبث بثوب ديمة ..

فتطلق طيف صوتاً ساخراً وهي تكتف ساعديها

هاتفة :

جامدة القلب أنتِ يا ماسة إذ تقبلين وجود قبلة فتنة

كهذه بالقرب من زوجك مع سوابقه المتعددة

بالزواج .

يحمر وجه ماسة بانفعال من سلاطة لسانها رغم

اعتيادها عليها لكنها تشعر أنها تجاوزت كل الحدود

هذه المرة ..

ربما لأنها مست هاجساً حقيقياً بداخلها ..

فيما تشحب ملامح ديمة حد الموت وهي تتشبث بسند

الصغير الذي أخفى وجهه في ثوبها ..

أشباحها تعاود فرض سطوتها على روحها
فيشمت "الأسود" ويبتعد "الأبيض" ويغضب
الأرجواني منذراً بانتقام!
لكن طيف تتماذى في فظاظتها وقد غرها حلم عاصي
لتردف مخاطبة ديمة:

_ لا أرى "الحلوة" قد تضايقت

من كلامي .. هل يروقك ما أحكي عنه؟!

وانفجر الوضع كله في لحظة!!

لم يعلم أحدهم كيف تحركت ديمة بهذه السرعة
لتخمش وجه طيف بأظافرها بحركة خاطفة هاتفة
بغضب غريب على طبيعتها "الظاهرة":

_ أنا هنا بإرادتي لأجل طفل يراني كما أراه الدنيا وما
فيها فاحتفظي بقادورات أفكارك لنفسك .

تندفع طيف نحوها لتشد شعرها وهي تهم بخمش
وجهها هي الأخرى لكن عاصي يكبل حركة ذراعيها
وهو يجذبها نحوه لتلتقي عيناها بعينيه المشتعلتين
بغضب فتكاد تقذفه بوحدة من عباراتها اللاذعة
لكن ..

بكاء سند أخرسها !!

_ عودي للداخل!

يقولها عاصي بصرامة مخاطباً طيف ليردف وهو

يميل على أذنيها بهمس خافت:

_ احفظي لسانك أمام أولادي .

تشتعل ملامح طيف وقد وخز قلبها بكاء سند الصغير

إنما تأخذها العزة بالإثم فتحرر نفسها من ذراعي

عاصي لتتهف بحدة :

_ الأمر في يدك ..حقق لي ما جئت لأجله وبعدها أعدك

أنك لن ترى وجهي ثانية .

ينعقد حاجبا ماسة بضيق حقيقي وهي تمسد بطنها

شاعرة بالاختناق من هذا الموقف كله خاصة وهي لا

تفهم ما تحكي عنه طيف ..

فيما يكز عاصي على أسنانه وهو يرى طيف تتدفع

نحو الداخل بعد عبارتها فيدخل بدوره لاحقاً بها فيما

تعطيهم ديمة ظهرها وهي تتحرك بسند نحو جانب

بعيد من الحديقة تحاول تهدئته ..

_ رأيت ماذا فعلت "طنط ديمة الحمراء"؟! أعجبتني!

ظننت "عمتو" ستأكلها لكنها كانت

قوية... "تش..تش..تش" ..

يكرر ضياء اللفظ الأخير وهو يضم قبضته في وضع

لكمات متتالية مقلداً ديمة ..

فتضحك نور لأول وهلة لكنها تعاود النظر لسند من

بعيد قائلة :

_ لكن سند خاف!

_ اسكتا وتعاليا للداخل .

تهتف بها ماسة بانفعال وهي تدفعهما أمامها للداخل

بينما تنظر للخلف تطمئن على سند في كنف ديمة ..

تدخلهما غرفتهما ثم تبحث عن عاصي لتجده واقفاً

في المرسم أمام لوحته الأخيرة منعقد الحاجبين ..

تقترب منه بخطوات متثاقلة فتلين ملامحه وهو

يهدد الخوف الفضي في حدقتها قبل أن يستدير

نحوها بكامل جسده ليحتويها بين ذراعيه صامتاً ..

تشعر بخفقات قلبه الهادرة تحت راحتها المبسوطة

على صدره فترفع إليه عينيها هامسة بقلق:

_ لماذا عادت طيف؟! الأمر لا يريحني .. أشعر أنكما

تخفيان الكثير .

يطلق زفرة مشتعلة وذراعاها يشندان لا إرادياً حولها

فتردف بالمزيد من القلق:

_ لا تقل إنك لن تخبرني .. بالله عليك لن أحتمل المزيد

من الضغوط .. كفاني كل الذي يحدث حولي .

يتهدج صوتها في كلماتها الأخيرة واشياً بقرب بكائها

فيربت على وجنتيها برفق لتغيم عيناه بنظرة قاتمة

مع رده :

_ أعرف أنك تحتملين الكثير .. لا أريد أن أزيد قلقك

لكن ظني أن الأيام القادمة ستحمل الأصعب .

عاصي!

تهمس بها بمزيج من رجاء وترقب ليشيح بوجهه
نحو اللوحة من جديد ..

يراقب رسم "الفلامنجو" الغريب على لوحته والذي
يحمل توقيع طيف بينما يحكي لماسة باقتضاب ما
قالته أخته وسبب عودتها .

لتشهق ماسة أخيراً بارتياح وهي ترتد للخلف هاتفة :
ياالمصيبة ! طيف حدث معها هذا ؟! لا أصدق!!
لا تصدقين.

يقولها بنبرة غريبة بين تقرير وسؤال وعيناه
شاردتان بنفس النظرة القاتمة لتتظر ماسة للوحته
بتشتت هاتفة :

ما الذي ستفعله في هذه الكارثة ؟!

تشدد نظراته قتامة وهو يتحرك مبتعداً نحو نافذة
المرسم المظلة على الحديقة فتلحق به ليغمغم بصمت
مقتضب:

_ ما ينبغي فعله !

_ عاصي!

تهتف بها بانفعال ضائق فيلوح بسبابته في وجهها
قائلاً:

_ دعي كل شيء لوقته .. ولا تتحدثي معها عن الأمر
فلن تصدقك قولاً .

تمسد جبينها بأناملها وهي تشعر بالصدمة تكاد
تفقد صوابها ..

لأول مرة تشعر أنها عاجزة عن قراءة رد فعل عاصي
في مصيبة كهذه ..

عاصي القديم كان ليدفن طيف حية مع ذاك الرجل

دون لحظة تفكير بعدما حدث !

لكن ..عاصي الجديد ماذا سيفعل؟!!

تنقطع أفكارها وهي ترى طيف عبر النافذة تعود

للحديقة حيث ديمة وسند فتهتف بجزع:

_يا إلهي! سيتشاجران من جديد ...

تهتف بها وهي تهم بالمغادرة كي تتوجه للحديقة لكن

عاصي يمسك ذراعها برفق قائلاً بنبرة خبيرة :

_دعيهما ..لا أظن طيف عادت لتتشاجر .

تتردد قليلاً وهي تراقب طيف من جديد عبر النافذة ..

خطواتها الفتية لا تفضح مشاعر ..

لكنها تتناقل أخيراً وهي تقف أمام سند وديمة ..

كانت تعطيها ظهرها فلم تتبين ملامحها لكن ردة فعل

ديمة لم تكن شديدة الحدة ..

_ هاتان المجنونتان! أخشى على سند بينهما!

تهتف بها ماسة بنفاد صبر لكن عاصي يراقبهما من

بعيد ليقول بنبرته الغامضة :

_ دعيهما معاً .. لا تتدخلي بينهما .. ظني أن كلا منهما

ستمح الأخرى "شيئاً" تحتاجه !



تتحفز ديمة في جلستها وهي ترى طيف تقترب

منها ..

"شبحها الأرجواني" يتخلى عنها في هذه اللحظة
لتغلبها طبيعتها "الزرقاء" فتكمش مكانها وهي
تضم سند إليها ..

فيما تقترب طيف أكثر وعيناها مسطتان على
الصغير ..

رغم أن ألم خمش أظافر ديمة لوجهها لا يزال طازجاً
على بشرتها لكنها تتجاهله وهي تتقدم نحوهما
تسوقها عاطفتها قبل عقلها ..

سند ..

مجد ..

طيف ..

ما أشبه الليلة بالبارحة !

وجوه مختلفة لأرواح متشابهة صاغها الوجد منذ

الميلاد ولا تدري بأي خاتمة سيجود القدر !

ربما لهذا جاهدت طبيعتها المتمررة بطبيعتها لتعود

إليهما !

_ لا تخف .. نسيت هذه بالداخل فأحضرتها لك .

تقولها بلهجتها الجافة الفطرية مخاطبة سند وهي

تعطيه "بطته" الصفراء البلاستيكية الصغيرة فيتردد

الصغير قليلاً وهو يتشبث بديمة أكثر ..

لكن طيف تنحني لتجلس قبالتها على عشب الحديقة

ثم تقرب البطة البلاستيكية منه قائلة بنفس النبرة

الجافة ظاهراً :

_ خذها.. ألم تفكر أنها افتقدتك عندما تركتها وحدها !؟

تتسع عينا سند بتفاعل مع كلماتها لتردف طيف وهي

تحرك البطة على صدر الصغير تمسده ببطء:

_ضمها إليك .. قل لها أنك لن تتركها ..طمئنها كما

تطمئناك .

تنفرج شفتا ديمة بدهشة مشوبة بالارتياب وهي ترى

سند يفعل مثلما قالت طيف ..

شفتاه تتمتمان بكلمات غير مسموعة وهو يغمض

عينيه ضاماً لعبته لصدره بكفيه الصغيرين وظهره

ملتصق بصدرها هي ..

تعود ببصرها نحو طيف بنفس الارتياب لترمقها

الأخيرة بنظرة طويلة صامتة قبل أن تقول بشرود :

لو كنت تهتمين لأمر الصغير حقاً فعلميه أن لذة
الحب ليست فقط في أخذه بل أحياناً تبدو ذروة اللذة
في منحه !

تقولها طيف وهي تشعر أنها أصدق ما قالتها في
عمرها كله !!

يوماً ما عندما تلتقي ب"سندبادها" ستخبره أن هذا
أعظم درس علمه لها ..

أنها عاشت عمرها كله تنتظر من يمنحها العاطفة فلم
تذق لها طعاماً أذمما وجدته في متعة منحها بكف
وأخذها بآخر !

لا .. لم تندم على ما منحته ولن تفعل حتى تفهم ..
وستفهم !

تنتبه من شرودها لنظرات ديمة المحدقة فيها فتطلق

زفرة قصيرة ..

تعترف أنها تجاوزت حدودها معها لهذا تعتذر

"بطريقتها":

لو كنتِ تقيمين هنا فقط لأجل سند فانتِ إما أكثر أهل

الدنيا طيبة أو أكثرهم حماقة !

تحجبها ديمة بنفس النظرة المتوجسة وهي تشعر

بمزيج من الخوف والارتباك ..

لكن "رماد" فطرتها النقية يترك العنان

لإحساسها لعله يمنحه بعض الحياة ..

يخبرها أن هذه أمامها ليست بهذا السوء الذي

يفضحه ظاهرها ..

والأهم ..

هذه "النظرة الأدمية" الجديدة التي لمحتها في عيني
طيف ومنتحتها هذا الشعور "النادر" الذي لم تصادفه
في حياتها بعد هالة سوى مع ..حسام!
تنفض عنها الخاطر الأخير وهي تطرق برأسها لتضم
سند إليها قائلة :

_وربما أكثرهم يأساً ..أكثرهم وحدة !

_وحدة؟! ألا تنظرين لنفسك في المرآة يا "بنت"؟!
أكاد أراهن أن عاصي الرفاعي يجعل لك حارساً خاصاً
كي يصرف عنك عيون المعجبين أينما حلتِ؟!
ففاظظتها يخالطها مرح جاف بدا كالمزيد من
الاعتذار ..

ورسم ابتسامة شاحبة على شفتي ديمة لتغمغم

ولاتزال مطرقة بوجهها :

_الجمال أحياناً نقمة ..وأنا جربت حظي في الرجال .

ينتاب طيف المزيد من الفضول فتسألها باهتمام :

_ احكي لي قصتك ..أنا أكتب الروايات ..من يدري

؟!ربما ألهمتي فكرة رواية جديدة !

_حكايتي رواية مكررة لن تستهوي أحداً ..

تقولها ديمة بنفس النبرة اليائسة وهي تضم سند

الذي تكور في حجرها وبين كفيه كوبه و"بطته" ..

لتربت على ظهره بهذا المشهد الذي مس قلب طيف

لتجد نفسها تقترب في جلستها منهما لتشاركها

التربيت على ظهر الصغير الذي رفع عينين مترقبتين

نحو طيف كأنه يختبرها قبل أن يعاود دفن وجهه بين

ذراعي ديمة ..

_جربي!

تقولها طيف بفضول وهي تمنى نفسها بحكاية تتسيها

مرور أيامها هنا حتى يأتيها عاصي

بسندبادهـا ..وظنها أن اليوم ليس ببعيد !

فتصمت ديمة لدقائق طالت يحتدم فيها صراع

أشباحتها داخلها فلا يبدو منه على ملامحها سوى

شحوب خوف ..وضياع ..

_لهجتك شامية .

تحاول بها انتزاع المزيد من كلماتها لكن ديمة تبدو

وكأنها تغوص من جديد في صراعاتها ..لتردف

بصوت متخبط :

_سورية ..جئت هنا لاجئة ..هالة من جلبتني إلى

هنا ..التقيتها صدفة لتكون صديقتي وأحن البشر

عليّ ..حتى تزوجنا ..

تعقد طيف حاجبيها وهي تتفحص

ملامح الفتاة بفراصة ..

كلماتها تتقطع وكان الحروف تمزق روحها

بخرجها ..

أي سر تخفيه هذه البائسة !؟

يزداد فضولها وهي تسألها باهتمام :

_وأين زوجك !؟

_قتلته !

تقولها ديمة دون تفكير فتشهق طيف بعنف وهي

تحيد ببصرها نحو سند تختبر رد فعله على كلامها

لكنه لحسن الحظ كان قد استسلم لغفوة بين ذراعي

الأرجوانية الشاردة ..

_ هذه هي الحكاية التقليدية التي لن تستهوي أحداً؟!!

قتلت زوجك؟! هكذا ببساطة كأنك تقولين "غسلت

الخضار!.." هل تغيرت مصر كثيراً عما تركتها؟!!

سخريتها الفظة تخفف سوداوية الموقف فتعود إليها

ديمة من شرودها كأنها لم تتب له لما حكته بينما طيف

تردف بنفس التهكم :

_ وماذا تفعلين في بيت عاصي الرفاعي؟! تتفدين

العقوبة؟!!

_ قتلته .. هنا !

تهمس بها ديمة بشحوب وهي تشير بسبابتها

المرتجفة نحو رأسها فتطلق طيف صوتاً ساخراً وهي

ترفع أحد حاجبيها بينما تحلق إبهامها مع سبابتها في

وضع استحسان قائلة :

_ أعرفه هذا "القتل"

الحلال..أمارسه كثيراً ..العالم مليئ

بالأوغاد الذين يستحقونه ..أخبريني حقاً أين زوجك

!؟

_ مات ..يقولون أن أحدهم قتله في فراشه .

_ يقولون!؟

_ لا أعرّف تفاصيل ولا أريد أن أعرّف .

تغمغم بها ديمة بصوت مرتجف وقد غابت عيناها في

شرود قصير أنبت قطرات عرق غزيرة على جبينها

لتدرك طيف بحدسها أن هذه البائسة تواجه جحيماً

بداخلها لا يعلم عنه أحد ..

لكن ما شأنها هي؟!!

مالها وللناس؟!!

فلتبقَ في صومعتها الحامية كفاها ما نالها من أذى

الخلطة !!

لهذا ردمت بئر فضولها عامدة لتغير الموضوع وهي

تعود ببصرها نحو سند ..

تأمله بنظرة غريبة لتقول:

أن يأتَمَنك طفل مثله على أمانه لشيئٍ عظيم .. قلوب

الأطفال لا تخطئ التأويل .. لا أذكر متى كانت آخر مرة

اعتذرت فيها لأحدهم وظني أنني لم أفعلها في

حياتي .. لكن لو كنتِ أنتِ هنا فقط لأجل الصغير فأنتِ

تستحقين اعتذاراً لا أعرف كيف أقدمه .

يهياً إليها أن ديمة لم تسمعها وقد عاد شرودها

يبتلعها فتتهد طيف بعمق وهي تطرق برأسها قائلة :

_ منذ عدت إلى هنا وأنا أحمل هم رؤية سند بالذات ..

_ لماذا؟!!

تسألها ديمة فتلتقي عيناها بنظرة طويلة وقد بدت

كلتاهما في هذه اللحظة - رغم التناقض الظاهري

الشاسع بينهما- تحملان نفس الرماد القابع في خراب

الروح ينتظر الريح كي تنثره لعل معجزة ترد له

الحياة ..

لهذا تمنح طيف نفسها فرصة البوح بعد تردد قصير

لتشيع بوجهها قائلة :

_حسناً..لعلها ساعة حقيقة حان وقت الاعتراف
بها..لا يمكنني نفي شعوري بالمسئولية عما أصابه
هو وأمه بسببي.

_بسببك؟! أنت؟!!

_ربما..لم أكن سبباً مباشراً..لكن..الشرطة كانت
تراقب عاصي وهالة مع ذاك المجرم حينها لكن
الضابط وقتها لم يتحرك ليمنعه.. "المغفل" ظن أنه
ينتقم من عاصي لأجلي!

_حسام القاضي؟!!

اللهفة التي امتزجت بكراهية ملحوظة في نبرة ديمة -
والتي بدت غريبة على جمودها منذ بدأ الحوار- تجعل
طيف ترمقها بنظرة متشككة قائلة :

_تعرفينه؟!!

_ لا!

ترد بها ديمة بسرعة لتطلق طيف صوتاً ساخراً وهي
تقترب بوجهها من وجه ديمة وقد التمعت نظراتها
الشرسة في ضوء الشمس هاتفة :

_ ما رأيت في حياتي "لا" تعني "نعم" كهذه ! تبدين
فاشلة في الكذب!

يمتقع وجه ديمة وهي تتلفت حولها بخوف لم يخفَ
على عيني طيف لتردد الأولى ملوحة بكفها :

_ لا أعرف أحداً.. أنا تركت الصعيد وجئت هنا لأجل
سند .. هو دين هالة في رقبتني ولن أفرط فيه .

يتململ سند بين ذراعيها منذراً بقرب استيقاظه
فتعاود ديمة التريبت على ظهره ليعود لغفوته فيما

تنهض طيف من جلستها لتنفض ثيابها وعيناها
ترسمان حول ديمة ألف علامة حمراء !!
تهرب ديمة بوجهها منها فتهدز طيف رأسها وهي
تتحرك مغادرة دون تحية فتهدف بها ديمة بلهفة :
_ انتظري .. لن تخبريني عن قصتك مع ذاك الضابط ؟!
فتطلق طيف صوتها الساخر المميز وهي تلتفت
نحوها لتكتف ساعديها بنظرة متفحصة هاتفة :
_ أنا أقبل المقايضة .. قصتك بقصتي .. لو قبلت العرض
فأنت تعرفين أين سأكون !

=====

أخضر



_ أنا فشلت يا "إياد"! عجزي لم يعد مجرد ساق
مبتورة ..

يقولها إيهاب وبيده "شريط الكاسيت" في غرفة إياد
التي أغلقها خلفه ..

عيناه الدامعتان بعجز معلقتان بدبالتها في بنصره ..
أيام زواجهما القليلة لا تثمر سوى عن فشل بعد فشل
والهوة بينهما تزداد عمقاً ..

لم يستطع مسها بعد ليلة الزفاف !

مشهدا وهي تتقياً ظل في مخيلته كجاثوم مطبق

فوق صدره ..

رغم أنه يعلم أنها تبذل ما في وسعها لتسترضيه من

وقتها لكن ..

تلك "الخيبة" في عينيها تقتله !!

_ هل هو ذنبك يا "إياد"؟! هل هو عقابي على ما

فعلته بك؟! أن أُعذب بها وهي أمام عيني محروماً

منها كما تعذبت أنت بحرمانك من ورد أمام عينيك؟!!

ليتني مثلك أملك شجاعة "الهرب"! أجل ..الهرب

أحياناً شجاعة أجدني الآن عاجزاً عنها كما عجزت

عن غيرها ..

يغمغم بها بألم وشعور الذنب يفرس رمحه في

خاصرته ..

ليس وحده ..

بل هذه أيضاً التي أسندت رأسها على باب الغرفة

الموصد من الخارج ..

لم يحك لها عن شيء -ولا عزة- لكن "قلب الأم"

المستبصر لم يكن يحتاج لدليل ..

ليلة العرس لم تكن سوى غيمة سوداء ثقيلة تهدد

بسيل لن يرحم !

كلاهما ظلم نفسه بهذه الزيجة ولا يزال يظن الثوب

المهلهل يحتمل المزيد من الرقع!

تتنهد أخيراً بحرقة وهي تشعر أن عذاب قلبها كله

يختفي الآن خلف باب هذه الغرفة ..

الوجع الذي انقسم بين "ابنيها" .. الآن يتحد في نفس

المكان !

قلب " الأم " يستصرخها أن تقتحم خلوته لتضمه
لصدرها فتمنحه من حنانها درعاً تعلم أنه لن يكفي
وحده لصد سهام الألم ..

لكن عقل " خديجة " يعلم أن جدار " رجولته "
المتشقق لن يحتمل ضربة أخرى ..

لهذا تتحرك بخطوات متثاقلة نحو المطبخ القريب
لترى عزة وقد وقفت أمام الغلاية الكهربائية شاردة
النظرات ..

ترمقها بنظرة عاتبة غلبها إشفاقها وهي تتقدم نحوها
لتربت على ظهرها قائلة :

لم تنتبهي لغليان الماء .. أدركيه قبل أن يبرد .

تتنح عزة بارتباك وهي تلتفت نحوها بنظرة
زائغة ..كالعادة يربكها حضور خديجة كطفلة مذنبه
في حضرة ناظرة مدرسة ..
لهذا تتراجع بظهرها قائلة :

_ لا بأس ..لم أعد أريد ..فقدت شهيتي .
تقولها وهي تغادر المطبخ لتتوقف أمامه للحظات ..
أين تذهب !؟

البيت على اتساعه يبدو لها كسجن كبير !؟
غرفة نومهما !؟

تكرهها وهي تذكرها بإخفاقات كل ليلة ..
برأسها المثقل بدموعها على وسادتها وهو يعطيها
ظهره يخاف تكرار الفشل ..

بشعورها الخائق الذي يمزقها أنها تهبط المزيد من
درجات سلم التنازل ..

لكن .. ألا يحتمل أن يكون العيب فيها هي؟!
هي التي عجزت أن تكون أنثى حقيقية في عينيه كما
كانت مع راغب؟!!

هل هي مصادفة أن يرفضها "جسد" كل رجل
تزوجته حتى ولو ارتضاها عقله "كراغب" أو قلبه
"كإيهاب"؟!!

تدمع عيناها بشعورها الآن بهوان نفسها ..
صارت تكره جسدها

..ملابسها ..زينتها ..حتى صورة مرآتها !!
"عزة الأنصاري" لم تكن سوى وهم أمام
الكاميرات ..

بينما هي في الواقع لا تتال سوى ظلمة الكواليس!!

تدور بعينها في الرواق بحثاً عن مكان آخر ..

غرفة إيد ..؟!

حيث يختفي إيهاب داخلها بالساعات ولا تدري ماذا

يفعل هناك !

تخاف أن تسأل ..

تخاف اعترافه أنه يهرب منها ..

أنها صارت وزراً على عاتقه كما صار هو كذلك!!

هل تخرج إذن ؟!

تترك كل هذا خلف ظهرها وتنزل لتلقي نفسها وسط

الزحام ؟!

تبحث عن "وشاحها الأخضر" في عيون الناس؟!

تباً !!

حتى هذا لم يعد يجدي .. صار يؤلم أكثر!!
غصة هائلة تستحکم حلقها فلا تجد مكاناً يؤوي
دموعها سوى الحمام !!
تهرع إليه لتسكب دموعها خلف الباب المغلق كي لا
يراها أحد !!

خديجة خلف الباب المغلق تبتسم بسخرية مريرة
للمفارقة !

ابنها وزوجته صارا أسيري الأبواب الموصدة!

لهذا انتظرت صابرة حتى خرجت عزة وقد ظنت
الأخيرة أنها أخفت آثار بكائها .. إنما ليس على قلب
أم !!

تبتسم لها خديجة ابتسامة متحفظة وهي تمسك بكفها
لتسحبها نحو الصلاة القريبة فتجلس جوارها على
الأريكة ..

تتفحص ملامحها لتقول فجأة :

_إيهاب يختبئ بحزنه خلف باب غرفة مغلقة ..تماماً
كما كنتِ تفعلين منذ قليل في مكان آخر ..تعلمين متى

ستتجح هذه الزيجة؟! عندما يكون نفس الباب

المغلق في غرفة واحدة هو ما يخفي حزنكما معاً!

تفهم مغزى عبارتها فتغمغم مدافعة رغم نبرتها

المنهكة :

_لم أغضبه في شيء! هل اشتكى لك مني؟!!

كانت تثق أن إيهاب لم يفعل لهذا لم تتعجب قول

خديجة :

_ لن يفعلها! إيها ب يعتبر وجودك الآن في حياته -بأي

صورة- أفضل معطياته .

فتغمض عزة عينيها مغممة بتعب:

_ ماذا تريدني أن أفعل!؟!

تربت خديجة على كفها لتجبرها على فتح عينيها

قائلة :

_ تعرفين ابني منذ ما يزيد عن الثلاثة أعوام صحيح

!؟!

تومئ عزة برأسها إيجاباً فتعاود خديجة قولها :

_ ماذا جذبك إليه!؟!

تصمت عزة للحظات وقد بدا السؤال لها مفاجئاً ..

تستعيد ذكرى لقاءهما الأول .. فتردد بين حنين

ووجع:

_مرحه .. عفويته .. طيبة ملامحه .. ثقافته غير

المتكلفة .. أخلاقه .

تتلعثم بعدها بارتباك لترفع خديجة حاجبها قائلة :

_ لا أظن صفات كهذه تبدو صعبة المنال لامرأة في

مكانتك وشهرتك .. لا بد أن هناك شيئاً ما مميزاً شديداً

إليه هو بالذات !

فتعض عزة شفقتها بقوة انفعالها لتطلق بوحها :

_ربما لأنه هو الوحيد الذي اقترب دون أن يضغط

عليّ ..حنانه كان يمسنني دون أن يخترق حدود

أمانني ..ذراعاه يحيطان بي دون أن تروعنني

ضمتهما ..يشعرني أنه قريب حد الحماية إنما ليس

حد الاختناق .

تهز خديجة رأسها بتفهم لتعاود سؤالها :

_وماذا عنه هو؟! لماذا اختارك أنتِ بالذات ؟!
تهز رأسها بجهل لتردف خديجة بنفس النبرة القوية :
_لأنك منحته -دون أن تقصدي- شعوره بقيمته
عندك ..إيهاب خرج من تجربتين كلتيهما أسوأ من
الأخرى ..كلتيهما منحته صورة سلبية عن
نفسه .."الفاجومي" الذي يتباهى بلقبه لا يعرف أنه
مجرد قناع لرجل يريد رؤية محاسنه في عيون
تحبه .

_أنا أحبه !

تقولها بسرعة عفوية لتغمض عينيها بعدها بقوة ..

هل تكذب؟!!

المصيبة أنها لا تعرف!!!

كل ما تثق به أنها تختنق في بعده .. تماماً كما تختنق

الآن بهذا القرب!!

كيف يمكن أن تتشوش الرؤية هكذا فتتحول سماؤه

الصافية التي طالما أسرتها صورتها ل..ضباب!

تتفحصها خديجة بنظرات عميقة وهي تقرأ حيرتها

على صفحة وجهها واضحة كالشمس ..

تختار تصديق "ظاهر" ما تبوح به فتتهد بعرق

قائلة :

_إذن .. أنقذي ما بينكما!

_كيف؟!

تسألها عزة بتشتت لترد بحاجبين منعدين:

_لو كان كلاكما ضاع من الآخر في منتصف

الطريق .. فعودا لتلتقيا حيث كانت البداية.

تعقد عزة حاجبيها بتساؤل لتبتسم لها خديجة بود
وهي تحتضن كفي عزة بين راحتها قائلة بما بدا لها

الحل :

_ عودا صديقين!

=====

_ مباركٌ زواجكما! إيهاب يبدو بمزاج جيد ..خشيت أن

يؤثر ما حدث ليلة الحفل على حالته !

تقولها قريبته التي جاءت مهنئة لهما على زواجهما

وقد جلسوا جميعاً في غرفة الصالون ببيت خديجة

التي لمحت شعور الذنب في عيني عزة ،وشعور الألم

في عيني ابنها الذي رد رغم هذا بقتاع "الفاجومي":

_ بالطبع مزاجي في أحسن حالاته ! زوجتي أفضل

امرأة في الدنيا! ما حدث ليلة الزفاف كان مجرد سوء

تصرف ..صحيح أن أختها تطرفت في رد فعلها لكن
ما يعنينا؟! أنا وعزة نعرف كم يحب كل منا الآخر!
يقولها وهو يضغط كف عزة في راحته فتفهمها
كدعوة لتأكيد ما يقول ..لتجد نفسها تغمغم بابتسامة
مصطنعة :

صحيح .

تبتسم قريبتة وهي تدعو لهما بالبركة ثم تتخرط في
الحديث مع خديجة في أمور جانبية ..
لتشعر عزة بإيهاب وقد تشبث بكفها بقوة أكبر
للحظات ..

ترفع عينيها إليه وكذلك يفعل هو ..

لقاء "نادر" قلما صار يجسر كلاهما عليه !!

لحظة واحدة .. حملت اشتياق كل منهما ل"الوجه

الحقيقي" للآخر..

قبل أن تقام السدود بينهما من جديد فيعاودان خفض

بصرهما ..

كفه يترك كفها ببطء فتتشبث به هي ..

ثم تغلبها طبيعتها المترددة فتتركه أخيراً باستسلام !!

_ سمعت إشاعات أنك ستتركين البرنامج !

تقولها قريبته لتشعب ملامح عزة وهي تدرك أن

الشائعة تداولتها الكثير من المواقع والصحف طيلة

الأيام السابقة ..

انتظرت أن يكذبها المخرج لكنه لم يفعل ..

وخشيت هي أن تسأل !

كأنما الهروب من الواقع سيغيره!

لا! عزة لن تترك البرنامج! هم يطلبون منها بعض
المواكبة لتغيرات الحال وهي تفهم هذا وستحرص
عليه .

يقولها إيهاب بنفس الابتسامة المصطنعة فترفع عزة
عينها إليه بصدمة !

لماذا يبدو وكأنه يحرصها على المزيد من التنازلات
!؟

"الفاجومي" القديم لم يكن ليقول هذا أبداً !!
تراه فقط يدافع عنها أمام قريبته !؟

تنهض قريبته لتغادر بعد أحاديث تقليدية غاب عنها
ذهنها فيودعونها لتشعر به عزة ينسحب للداخل
بخطوات مهزومة تناقض مرحه الظاهر منذ قليل..

ترمقها خديجة بنظرة ذات مغزى كأنما تذكرها
بحديثهما ثم تدخل غرفتها لتمنحهما مساحة من
الخصوصية ..

تتردد عزة قليلاً وهي لا تدري ماذا تفعل ..
لكنها تترك نفسها لنصيحة خديجة ..

فليعودا لأول الطريق .. صديقين!

تبحث عنه لتجده يتهاياً لحلق ذقنه أمام مرآة باب
الحمام المفتوح وقد أمسك أنبوبة معجون الحلاقة
ليضع منه على وجهه

حلاقة ؟!

الآن ؟!

تنتبه لحرصه المبالغ فيه على مظهره هذه الأيام
خاصة أمام الضيوف المهنيين فيخفق قلبها بالمزيد
من الشفقة نحوه ..

يراهها عبر المرآة فيخفض عينيه عنها وأنفاسه تكاد
تشتعل كعهده كلما رآها مؤخراً ..

ألف مطرقة تهوي فوق ضلوعه وهو يشعر ب"خزي
رجولته" أمامها هي بالذات !

يحاول تصنع ابتسامة لكن قناع "الفاجومي" يخذله
أمامها ..

كلاهما يتحاشى التحدث عن الأمر منذ ليلة الزفاف

ولو أنه يفكر في الأمر كل يوم ..

ربما لو نجح في طبع وشمه على جسدها لوجد حينها

أرضاً جديدة مشتركة بينهما !

الخزي .العجز ..

الغضب ..

والذنب ..

دوامة يدور فيها ولا يرسو معها على قرار !!

_ أحب رائحته .

صوتها ينتزعه من جحيم أفكاره الذي يحترق به لكنه

يعجز عن رفع عينيه إليها ..

تقترب أكثر لتتشمم معجون الحلاقة على بشرته ثم

تغمغم بعينين مغمضتين ابتلعهما شرودهما :

_ كان أبي يستعمل واحداً رائحته شبيهة بهذه

كثيراً .. لا أذكر عنه أشياء كثيرة لكنني أتذكر هذه

الرائحة ..ربما لأنها مثلت عندي رائحة الأمان الذي

فقدته بعده .. عندما رسبت لأول مرة في دراستي
واضطرت لتركها لأعرف معنى أول فشل في
حياتي .. عندما فُسخت خطبتي الأولى .. عندما شهر
بي ذاك الوغد أيامها ملطخاً سمعتي .. في كل مرة من
هذه كنت أشتري أنبوبة كهذه .. أفتح غطاءها وأشم
رائحتها كأني أطارده سراب الأمان المفقود .. تعلم؟!
عندما تزوجت راغب كان أحياناً يقوم بحلاقة ذقنه في
شقتنا .. لكن الغريب أنني لم أشم هذه الرائحة أبداً في
"معجون حلاقته" ! لا أدري هل كانت مختلفة حقاً أم
أنني كنت أذكي من مطاردة سراب لن يكون لي!
لم تكذ تنتهي من عبارتها حتى سمعت صوت الأنبوبة
تسقط من يده قبل أن تشعر بذراعيه يضمنها نحوه
بقوة ..

قوة تشد عتية لأول لحظة وتجبرها أن تفتح عينيها

مواجهة عنيه ..

عاطفة تصرخ كالشمس بين حدقتيه ..

حنان يلفها بهذه الغلالة التي طالما اشتهدت نسيجها ..

عجز تشفق عليه منه ..

و..خوف تشاركه فيه !!

لكن ذراعيه يتراخيان في النهاية حول خصرها وهو

يشيح بوجهه كأنه يخفي عنها سعيرو دواخله !

تكتم أنه خافتة كادت تهرب من شفيتها ..

كيف تخبره كم تحب عناقاً كهذا .. وكم تكرهه !!

تتجاوز عن أفكارها السلبية وهي تتناول ماكينة
الحلاقة القريبة لترتجف ابتسامة على ثغرها مع

سؤالها :

_تسمح لي؟!!

يفتح عينيه وهو ينتبه لما تقصده فيطرق ببصره وهو

يسألها بصوت مبحوح:

_واثقة أنك تشمين الرائحة الآن جيداً؟!!

تزداد ابتسامتها ارتجافاً وهي تومئ برأسها ..

تكذب؟!!

لا !

الأسوأ من أنها تكذب أنها لم تعد تميز الصدق من

الكذب!!!

الأصباغ اختلطت فتاهت الألوان !!

بينما يشعر هو أنه يتمزق بعذابه بها ..
كل ذرة تعقل داخله تأمره أن يطلق سراحها من أسره
لكنه -ببساطة- لا يستطيع!

تبدأ في حلق ذقنه بأنامل مرتعشة تشبه صوتها :
_ الأمر يبدو أسهل من بعيد .. أخاف أن أجرحك !
لكنه يحتضن أناملها الممسكة بالماكينة على وجنته
كي يمنحها بعض الدعم ..

وللأسف .. أنامله أشد ارتجافاً من أناملها ..

فتجرحه الشفرة !!

تشهق بخوف لمرأى الدم فتهرع لتحضر ما تطهر به
الجرح البسيط .. تعتذر بكلمات مرتجفة لكنه يبتسم لها

مطمئناً ويصر أن تكمل ما .. بدأته !

_ شكراً!

يهمس بها أخيراً بعدما أنهت مهمتها بعاطفة توهجت

في عينيه قبل أن يعود الخزي و.. يطفئها !

لكنها تصر أن تكمل ما انتوته فتقول له ببساطة

مصطنعة :

_ الجو رائع بالشرفة .. أريد تجربة تلك الأرجوحة التي

اشتريتها لنا هناك .

_ أشعر بالإرهاق .. دعيتها ليوم آخر.

يقولها هارباً .. وخائفاً ..

لكنها تمسك كفه هامسة :

_ أرجوك .. أنا أفتقد فيك رجلاً .. كان صديقي!

تضرعها "الحقيقي" يكشف سوءات كل ادعاءاتها

السابقة !!

نقطة بيضاء صريحة وسط زخم الألوان الذي يلطخ

لوحاتها !!

فكيف له أن يرفض!؟

خطواته تشبه خطواتها في ثقلها وهو يتوجه بها نحو

الأرجوحة العريضة التي جعلها في شرفة البيت

الكبيرة ..

يجلسها ثم يجلس جوارها وهو لا يدري أي باب

حديث يفتح ..

_ عندما اشتريتها كانت أكبر مخاوفي أنها لن تحتمل

وزني وقتها .. ظلت أستحلف البائع عشرات المرات

أنها لن تنكسر بي .. لم أكن أعلم وقتها أن فقدان عدة

كيلوجرامات سيكون أهون مشاكلي يوماً ما !

مرحه المعهود تخالطه الآن مرارة حقيقية لطخت
حروفه واستنفرت شعورها بالمزيد من الإشفاق
نحوه ..

لهذا حاولت التغلب على مرارتها الشخصية ..
هي تزوجته لتسعده .. فلتفعل!

تتحرك لتغير جلستها فتتمدد على الأريكة لتسند
رأسها على ساقيه .. تتناول كفه لتبسطه على
وجنتها ..

تحتفظ بصورة ساطعة للقمر والنجوم التي التمعت في
السماء ثم تغمض عليها عينيها !

يرتجف جسده متأثراً بها وهو يراها في ضوء القمر
هكذا بين ذراعيه كأجمل مرة رآها فيها ..

دفع أناملها على كفه يحكي سطوراً من اشتياق ..

قالت إنها تفتقده كصديق ..!

حقاً يمكنه الفرحة بشيء كهذا!؟

أنامله الحرة تداعب خصلات شعرها وصوته الحنون

يلقي مرارته جانباً مكتفياً برنة احتوائه :

_تكلمي يا "جنيتي" ..تكلمي وامنحيني السكينة !

تبقي عينيها مغمضتين على صورة لامعة لقمر

ونجوم ..

ووجه "صديق" تحبه ..

لتهمس له بخفوت :

_وتعدني أن تتكلم أنت الآخر!؟

_عمّاذاً!؟

_كل منا سيتحدث عن مخاوفه .

_حتى ولو لم يكن الآخر قادراً على منحه الحل!؟

كفانا دفاء المشاركة ! تماماً كما نفعل منذ سنوات .
همسها يبدو له شديد الوضوح بعيداً عن طبيعتها
المتذبذبة في لحظة صفو نادرة ليصمت للحظات ثم
يتهد هامساً :

اتفقتا .

همسه الخفيض يمنحها المزيد من حميمية القرب
فتنفلت منها أنه خافتة وهي تتطلق في بوح غير
منظم ..تشكو له من هيام ..تخبره أن زوجها اتصل
بها يعتذر منها عندما علم بما فعلته لتخبره عزة أنها
قطعت علاقتها بها تماماً وأنها لن تعود لتعترف بها
أخيراً ..تخبره عن خوفها من أن تفقد كينونتها في
برنامجها ..هويتها التي توشك أن تضيع ..لتنتهي
كلماتها بقولها :

_ أخاف أن تعود أختي فتؤذيني .. أخاف أن
أكرهها .. أخاف أن أفقد البرنامج .. "عزة الأنصاري"
التي بنيتها في عيون الناس .. وأخاف أن .. أفقدك .
كانت راحته تتحرك بوتيرة منتظمة على وجنتها منذ
بدأت بوحها لكنها تجمدت فجأة مع كلمتها الأخيرة ..
تفتح عينيها لتلتقي بهذه النظرة المقهورة في عينيه
قبل أن يشيخ بوجهه ..

فينقبض قلبها وهي تشعر بعجز يشبه عجزه ..
كيف تمد له يداً؟! ما أقصر ذراعيها هاهنا!!
تنهض من رقدتها فيتحفز في جلسته لكنها تميل
رأسها لتهمس بابتسامة واهنة :

_ دورك!

ابتسامتها تصيبه بـ "عدوى طفيفة" لتحمل شفتاه

مثلها .. وإن خرج همسه متوجعاً بتهكم طفيف:

_ لكنني لم أمنحك حلاً لمخاوفك!

_ اتفقنا أن كفانا دفاء المشاركة !

تتسع ابتسامته المرتجفة وأنامله تعبت بخصلات

شعره تعيده للوراء .. وليته كان يملك "صلاحية

العودة للوراء" في كل ما يريد ..!

يراهما تشير له نحو ساقياها كي يتخذ مجلسه كما كانت

تفعل فيستجيب وهو يشعر بـ "ثقل" رأسه على

ساقياها ..

كم ستحتمله ؟!

يراهما تربت على وجنته بنفسها دون أن تنتظر

مبادرته ..

يرفع عينيه نحو السماء وعلى عكسها لا يغمض
عينيه على قمر ونجوم .. بل .. شهاب يهوي محترقاً!
صمته يطول بما يناسب رجلاً اعتاد التكم خلف
قناعه ..

فتهمس متسائلة:

_ دعني أضمن .. إياد؟!!

تشعر بتشنج عضلة فكه تحت أناملها فتدرف بنفس
الخفوت :

_ أراك تختفي داخل غرفته كثيراً!

_ تعرفين ماذا كانت آخر كلماته لي؟!!

يقولها بعد صمت قصير فتصمت بدورها احتراماً

لبوحه ليردف بصوت أثقله ذنبه :

_ كتبها لي بعد موت ورد في رسالة على الهاتف من
رقم غريب لم أستطع تتبعه ..لازلت أحفظها حرفاً
حرفاً: "هل شقّ عليك كثيراً أن تتركها لي ما بقي لها
من عمرها القصير؟! هل كان من الصعب حقاً أن
تتركني أتفلس حبها بحرية قبل أن تخدم شعلته للأبد
؟! هل عجزت أن تكون أماً حقيقياً في المرة الوحيدة
التي احتجتك فيها؟! " ..

ينقبض قلبها بلوعة مع همسه الذي اندلع كالحمم من
صدر طالما كتم "رماد ذنبه" في قفر ضلوعه :
_ ثلاثة أسئلة قضيت الأيام بعدها أبحث لها عن

جواب ..لماذا فعلت به هذا؟!!

_ أنت أخبرتني أن ورد -رحمها الله- كانت تحبك أنت !

تهمس بها بخفوت محاولة التسرية عنه ليرد مغمض

العينين :

كنت خارجاً لتوي من تجربة فاشلة مع فتاة انتقصت

من قدرتي..الحب الأول وصدمة الغدر الأولى..ذاك

الشعور القميئ بالدونية وأني لا أرتقي لتطلعات

إحداهن..وفي أشد لحظات وهني تلك صارحتني ورد

بحبها..صدمتي كانت جلية وأنا الشاهد الصامت على

حب إياد لها..رفضتها أول وهلة..أخبرتها أنني لا

أراها سوى "أخت صغرى" ..لكن عمي وقتها جاءني

ليرجوني أن أقبل الزواج منها رافةً بمرضها..كان

يتمنى أن يسعدها زواجها بي فيمنحها القوة لمقاومة

آلامها وهزيمة مرضها..أخبرته أن إياد يحبها لكنه

رفض نسب "أبيه" السيئ كما أنها كانت متعلقة بي

أنا بما يشبه الهوس ..

تهز رأسها بأسى وهي لا تدري بماذا ترد ..

كانت تعرف "قشور" القصة التي رواها لها

"الفاجومي" يوماً ببساطة تليق بقناعه ..

لكنها أول مرة تسمعها بهذه التفاصيل الصغيرة

الغارقة في ألمه العظيم .. وذنبه الأعظم !!

_إياد لم يعاتبني ساعتها.. نظر لي نفس النظرة التي

قابلني بها أول مرة عندما عاد من العراق ليسكن معنا

في بيت أبي .. نظرة المنبوذ الذي يستحلون سرقة

حقه .. لم يقلها لي لكنني كنت أراها في عينيه وهو

يراني بين أبي وأمي بينما عاش هو سنوات ليست

بالقليلة محروماً من حنان أم وأب .. تربيته زوجة أبيه

التي كانت تكرهه كراهيتها لأبيه ..حتى أخوه -غير الشقيق- من أبيه علم أنه هرب بعد وقت ما فلم يعد يعرف عنه شيئاً ..كان محروماً من عائلة ..من حب ..وكنت أنا محظياً بكل هذا ..لتزداد حسرته وهو يراني أخطب الفتاة التي أحبها.. "ورد" التي كان لها من اسمها نصيب ..قصيرة العمر كانت ! ماتت بين ذراعي بعد خطبتنا بعام .."عزائي" أنها ماتت سعيدة بقربي ..و"عذابي" أنها ماتت بعيدة عنه هو.. هو الذي ترك كل شيء خلفه وهجرنا ..فلم يصلني منه خبر بعد وفاتها سوى رسالته التي أخبرتك عنها .
_ أنت منحتها سعادة -ولو زائفة - قاومت بها آلام مرضها في عمرها القصير .

تهمس بها لعلها تمنحه بعض العزاء فتلتوي شفتاه

بابتسامة مريرة :

_ومنحته هو عذاب ما تبقى من عمره ..شعور

المنبوذ الطريد الذي يبدو أنه لن ينساه !

دمعة ساخنة تترقرق على جانب عينه تمسحها

أناملها بسرعة وهي تميل بوجهها لتحتضن وجهه

بكلتا راحتيها هامسة :

_لماذا تتذكر كل هذا الآن ؟!

_سألتني عن أكبر مخاوفي .. أكبر مخاوفي أن

يعود .. ولا يعود !

يتحشرج بها صوته وهو يردف موضحاً بانفعال علت

معه نبرة صوته :

_ أن يعود إياباً ولا يعود "أخي" ..أخي الذي
عرفته ..أو أن يموت أحدنا ولا يزال ذنبي واصماً
جيني ..منذ غيابه وأنا أسجل له "شرائط الكاسيت"
التي كانت أيقونة صداقتنا يوماً ..أدخرها له لعلها
تشفع لي عندما يعود ..وكل ما أخشاه أن يفرق بيننا
الموت قبل أن يسمع مني ليدرك كم كنت أتعذب مثله
وربما أكثر!

_ ياالله! وكأني أسمع واحداً لا أعرفه ! كنت تخفي كل
هذا داخلك طوال هذه السنوات دون أن تخبرني ..وأنا
التي ظننتنا صديقين!؟

تهمس بها بعجب مشوب بالإشفاق فيفتح عينيه فجأة
كأنه يتعجب من فيض بوحه الذي اندفع هكذا دون
سدود ..!!

ينهض من جلسته ليأخذ نفساً عميقاً وهو يشيح
بوجهه عنها قائلاً بمرح مصطنع أعاد له قناع
"الفاجومي":

_خسارة هذا الجو الشاعري في جلسة بائسة كهذه !
لاريب أنك تشعرين بالنعاس .

لكنها تدير وجهه نحوها لتهمس بصدق:
_بل أشعر بأنني قريبة منك..قريبة حقيقةً لا
ادعاءً ..افتقدت هذا الشعور منذ ..ليلة الحادث !
ليلة الحادث!

وكانما فكت الجملة الأخيرة سحر لحظات الصفو التي
ظلتها طيلة الدقائق السابقة ..

ليرتفع الحاجز "غير المرئي" بينهما في لحظة
ويعود لكل منهما ثقل وزر الآخر على كتفه ..
اثان تقربهما "الصدقة" ويبعدهما التفكير فيما
بعدها ..

طريق يبدو طويلاً .. فهل يملكان الصبر لإكماله؟!
ينهض واقفاً متجاهلاً الرد على عبارتها لتجاهلها
بدورها وهي تلجأ للصمت مجبورة ..

ليتهما يبقيان هنا!

حيث مغنمها به كـ "رفيق روح"

ليتهما لا يعودان لغرفتهما التي تخنقها بنفورها من

أن يكون "رفيق جسد"!!

الغريب أن هذا كان شعوره هو الآخر!

بقدر رغبته في أن يضمها إليه ..

يلصقها به ليصهرها معه في لهيب عاطفة يكتوي بها
خافقه بين ضلوعه .. لكنه يخشى فشلاً يذبح رجولته

من جديد ..

تياً!

أما لهذا العذاب من آخر؟!

تصبحين على خير.

يقولها بخشونة لم يتعمدها وهو يعطيها ظهره ليتوجه
نحو غرفتهما فتلحق به بخطوات متثاقلة وهي تشعر
أن حديث الدقائق السابقة استنزف طاقتها كلها ..
رنين جرس الباب يقاطع أفكارها فتقف مكانها لتسأله

بقلق:

من الذي سيطرق الباب في هذه الساعة؟!

ينظر للساعة جواره والتي تجاوزت منتصف الليل
ليهرز رأسه بجهل ثم يتوجه نحو الباب ليفتحه ..
دقيقة صمت كاملة تمر به مشدوهاً وهو يطالع الوجه
الذي ذابت ملامحه بين غضب وألم ..
غيرته السنين .. وربما .. شوهه الوجع !

_إياد !

يتمتع بها مذهباً وهو لا يكاد يصدق أنه هو ..
هو هنا أمامه ..

قد عاد !!

ملامحه تكاد تصرخ بفرحة عارمة لكنه يصطدم بهذه
النظرة الحاقدة في عيني أخيه وهو ينظر خلف كتفيه

لعزة التي تجمدت مكانها .. ليهدف بكلمة واحدة متهمة

بدا وكأنه يبصقها في وجهه :

_تزوجت !؟

=====

الطيف التاسع عشر

=====

أخضر

=====

_تزوجتها!؟!

الحقد المنغمس بالحسرة .. بالاتهام .. وللعجب-

بالاشتياق يحتل ذرات الهواء بينهما .. فيختنق كلاهما

برماد غير مرئي ..

الدمع المختنق في زوج من العيون فرقت بينهما

سنوات .. والآن تجمعهما لحظة عتاب ليس كأي

عتاب!

وخلفها تقف عزة ترمق إيد بنظرة متفحصة
مصدومة وهي تراه النسخة (المثالية) من إيهاب ..
جسده الرياضي الممشوق .. ملامحه الشبيهة بلامح
إيهاب إنما بصبغة رجولية أكثر جاذبية بخشونة
خطرة ..

أناقته الملفتة للنظر وتصفيقة شعره العصرية ..
تباً !

ما هذه (الرجفة الغادرة) التي انتابتها فور ما رآته ؟!
بركان (أنوثة) حامل تندلع حممه داخلها فجأة كأنها
لأول مرة ترى رجلاً !!

ما سر هذه الجاذبية الغريبة التي تحيط بهالته ؟!
الأنها صورة إيهاب "الكاملة" التي تمنتها ؟!

تستعيز بالله سرّاً وهي ترهب هذه الهاوية التي

انجرفت إليها أفكارها.

ادخل.

يقولها إيهاب أخيراً بصوت متحشرج وهو يحاول

استيعاب المفاجأة ..

ذراعه يمس ذراع أخيه يجذبه للداخل لكن إيدان ينفض

ذراعه عنه ليدخل صافقاً الباب خلفه وهو يردد

بقسوة ذبيحة:

سأدخل!

تتكلمش عزة مكانها وهي تود في هذه اللحظة لو تملك

القوة التي تدعم بها (صديقها) !

لو تهرع إليه لتبسط راحتها على ظهره تطمئنه ..

لكن الخوف المشوب بخزي مبهم داخلها يجعلها تتخذ

وضع (المتفرج) دونما إرادة!

وفي مكانه يقف إيهاب يرمق النظرة الذبيحة في

عيني أخيه بقلب يكاد يموت ذنباً وهو يرى عيني إياد

تجوبان المكان باشتياق محروم لبضع لحظات ..

بضع لحظات رآه فيها كأول مرة وقعت عيناه فيها

عليه ..

منبوذ سلبوه حقه وأكلت الحسرة لسانه فما عاد له

سوى صمت مقهور!

لحظات كانت بمثابة السد الذي انزاح لينهمر من خلفه

الطوفان :

_ نسيت ورد؟! نسيتها وتجاوزت الأمر؟! طابت

نفسك ان تكمل حياتك ببساطة هكذا؟! طوال هذه

السنوات وأنا أصبر نفسي انك مثلي تعيش على
ذكراها؟! أنك ربما ..ربما أحببتها الحب الذي يشفع
لك في خيانة أخيك؟! وأن رحيلها هذك ..هذك كما
هدني !!

الغضب يرفف المزيد من حروفه والحسرة تقتات
على لهجة صوته المرتجفة وذكريات
ماضيه ..طفولته ..مراهقته وما بقي من عمره تتجسد
أمامه كجلد الشياطين ..:

لكنك كعهدك لا ترى أبعد من حدود نفسك ! تعودت
أن تأخذ دوماً كل شيء ولا يعينك ما ومن ستدوسه
قدمك في المقابل .. عفواً ..الآن قدمك الواحدة!
العبرة الأخيرة تذبح ثلاثهم بنفس الشفرة!!

إيهاب الذي ترنح في وقفته قليلاً وهو يرى أسوأ
كوابيسه يتحقق ..إياد عاد شامتاً لا غافراً !!
عزة التي وجدت أخيراً قوتها مع شعورها بقسوة
العبرة على إيهاب لتجد نفسها في لحظة تقف جواره
وكفها يدعم ظهره بصمت ..بينما نظرتها الغاضبة
تكاد تفلق إياد نصفين !!
واخيراً إياد الذي لم يكذب يتفوه بعبارته حتى أغمض
عينيه بقوة كأنه يقاوم إعصاراً عنيفاً بداخله ..
كيف نطقها؟!

كيف غادرت شفثيه بهذه البساطة؟!
يتجنب النظر لساق أخيه رغم يقينه أن سرواله يخفي
إعاقة لكنه كان يشعر أنه يملك عيناً ترى عجزه دون
ساتر !

فليوجعه!

فليوجعه كما توجع هو طوال هذا العمر!

فليوجعه ولا تأخذه به شفقة.. كيف يمنح ما حرموه

هم منه طوال هذه السنوات!؟

_جئت شامتاً إذن!؟

مرارة صوت إيهاب تلقي غلالاتها فوق ثلاثهم لتدمع

عينا عزة بمزيج من تأثر وغضب وهي تتذكر حديثه

عن أخيه بين ذراعيها منذ قليل..هاهو ذا أسوأ

مخاوفه يتحقق!..

تهم بالصراخ في وجه إياد لكنها تتراجع وهي ترى

على ملامحه وجعاً لا يقل عن وجع أخيه..

كأنما كلماته تذبجها معاً:

_ الشامت يفرح في المصيبة وأنت لم تترك لي مجالاً

لفرح .. أنت حرقت القلب الذي كنت أميز به

شعوري .. جعلتني أفقد الثقة في كل الناس .. إذا خان

أخي وباركت أُمي فمن بقي؟!!

يحمر وجه عزة بغضب وهي تراه متحاملاً على

إيهاب الذي وقف غارقاً في شعوره بالذنب لتهزم

طبيعتها المتذبذبة في -سابقة نادرة- وتهتف مخاطبة

أياد بانفعال:

_ ما بالك تتكلم هكذا؟! هذا هو ما أتيت لأجله بعد

معرفتك بما حدث لأخيك؟! هو لم يخطف منك حبيبتك!

هو خطبها شفقة بها لأنها كانت تحبه هو!

_ هل هذا ما أخبرك به؟!!

يهتف بها إياد ساخراً بمرارة وهو يفتح عينيه في
مواجهة ملامح إيهاب ليحترق كلاهما بالذكرى وإياد
يشير في وجه أخيه بسبابته المرتجفة هاتفاً بحدة
ساخرة:

_ صور كما وأنت تعانقها والتي كنت تنشرها عبر
مواقع التواصل كي تغيب بها حبيبك القديمة؟!
اعترافات الحب الملتهبة التي كنت تسكبها في أذنيها
ليلاً عبر الهاتف دون أن تبالي بباب غرفتي المفتوح
أمامك؟! الغرام الذي كنت تتفنن في إظهاره أمام
الجميع بمنتهى الجرأة؟! كل هذا كان شفقة؟! ماذا
فيها لو خدعت فتاة بريئة بمسمى دور بطولة تؤديه؟!
ماذا فيها لو حرقت قلب أخيك عليها مادام هو المنبوذ
الذي لا يرضون نسبه والذي ينبغي أن يرضى بالأمر

الواقع ويقبل أن يُستحل مكانه في قلب حبيبته كما
استحل مكانه من قبل في قلب أمه ؟! ماذا فيها مادمت
سترتدي قناع البطولة في نهاية الأمر مدعيًا أنك
الشهم الذي أنقذ الموقف ؟!

ينعقد حاجبا عزة وهي ترى إيهاب يطرق برأسه دون
رد ليرد إياك بمرارة أكبر :

_لم ترَ وقتها إلا نفسك ورغبتك في الثأر لرجولتك
المجروحة.. كل ما كنت ترتجيه أن تصل الأخبار
لحبيبتك القديمة فتعلم أنك قد تجاوزتها ..حتى لو كان
الثمن هو جرحي أنا ..

_ليس صحيحاً ..أنا ..

يهتف بها إيهاب مدافعاً لكن إياك يقترب منه خطوة
صارخاً فيه وهو يلوح بكفيه المرتجفين في وجهه:

_ أنت كنت الشاهد الوحيد على حبي لها .. أنا
استأمنتك سرّاً وأنت خنتني علناً .. كيف جرّوت على
فعلها ؟! كيف ؟!

آهة خافتة تنفّلت من بين شفّتي إيهاب وهو يشعر أنه
يسقط ..

يسقط وإن بقي واقفاً ..

خاصة وصراخ إياد يتتابع بقهر :

_ أنت ذهبت بها لكل مكان خطّطت أنا لصحبتها
فيه .. قلت لها كل الكلام الذي كنت أدخره لها .. حتى
الدبلة المميزة التي كنت أنتوي شراءها لها سبقتني
وطوقت بها إصبعها ..

كلاهما يناظر الآخر بحرقة عتاب تأخر لسنوات ..
والذكرى البعيدة تأتي من بعيد لتعود طازجة :

_أرني ماذا ترسم!

هتف بها إيهاب يشاكسه وقتها وهو يراه منكباً على
أوراقه التي خطفها لينهض إيد من مكانه وخجله
الذي لون عينيه يناقض غضبة صوته الخشنة:

_ لا ينقصني تظارك ! هاتها!

لكن إيهاب يضحك وهو يميز الدبلة التي رسم
تصميمها بحلقها العريضة التي استقرت فوقها حلقة
أخرى على شكل صغيرة ..

فيطلق إيهاب صفيراً قصيراً وهو يهتف بمرح:

_حالتك صارت صعبة ! ترسم لها الدبلة!؟!

لكن إيد يختطف الورقة منه ليحرق فيها بعاطفة

صنعت مع جدية صوته مزيجاً مدهشاً :

تظني سألبسها دبلة عادية كبقية الفتيات؟! سأطلب
من الصائغ أن يصنعها لها خصيصاً .. هي تستحق
شيئاً مميزاً مثلها .. أعرف أنها تحب شكل الضفيرة
ولا تحب لون الذهب الأصفر الخالص لهذا سأجعل
الضفيرة هذه بثلاثة ألوان الأصفر والفضي
والوردي .. هي كذلك تحب لمعة الفصوص الدقيقة
لهذا جعلت لها هذا الإطار على حرفي الدبلة .
فيضحك إيهاب وهو يخبط كفيه ببعضهما هاتفاً :
كل هذا ولازلت لم تصارحها حتى بحبك؟! ماذا إذن
لو كانت تبادلك الحب ووافقت على الزواج بك؟!
فتغيم عينا إِيَاد بنظرة عميقة اختصرت كل عاطفته
وعذاباته وهو يرد :

_ستكون كل دنياي وعائلي ..ستكون بيتي ..تعرف

ماذا يعني لي أنا بالذات أن يكون لي بيت ؟!

سؤاله ينكأ الجرح القديم فيربت إيهاب على كتفه

هاتفاً بمزيج من إشفاق وعتاب:

_لا تقل هذا! هل قصر أبي معاك في شيء؟!

فيهز رأسه نفيماً وهو يعتصر الورق بين أصابعه

ليشرد بصره بقوله:

_لكنه يبقى ليس ببيتي ..لن تعرف هذا الشعور مالم

تجربه ..لن تدرك قيمة أربعة جدران تؤويك وتكون

لك ..حقتك ..لا تخاف فيها أن تُذلّ أو تطرد ..بيت أجمل

ما فيه أن تزينه ورد !

ثم يتنهد وهو يضع أوراقه في درجه مردفاً:

_ عندما أنهى خدمتي العسكرية سأبحث عن عمل

بسرعة قبل أن أفتح أباها في الأمر .. قريباً جداً

ستستقر هذه الدبلة في إصبعها!

واستقرت فعلاً في إصبعها إنما ليس باسمه .. بل باسم

أخيه !!

كان إيهاب أول من يقطع شرودهما في الذكرى وهو

يغمغم بصوت متحشرج :

_ كيف تصدق أنني لم أفلها نكاية بك؟! هي رأت رسم

الدبلة دون أن تعرف من رسمها وألحت عليّ في طلب

مثلها .. أنا فقط كنت أحاول فعل ما يسعدها!

_ ويرضي غرورك ! ويجبر نقص رجولتك وقتها

بعدما رفضتك حبيبتك الأولى .. تماماً كما تفعل الآن

بعد كل هذه السنوات .. تتزوج المذيعة الشهيرة

مستغلاً شفقتها كي تتباهى بها أمام الناس وتداري

شعورك بعجزك!

الصمت يسود ثلاثتهم للحظات بمشاعر متفرقة وقد

استنزفت المواجهة القلوب على تفاوت إحساسها ..

يرتجف جسد عزة وكفها يتراخي عن ظهر إيهاب في

فعل عفوي ناقض حمائية صوتها المصطنعة:

_ اسمع يا هذا! لن أتدخل في ماضيك مع أخيك لكنني

لن أسمح لك بالتحدث عني .. أبقتي بعيدة عن

حساباتكما .

لكن إياد يرمقها بنظرة غامضة لم تفهمها ونظراته

تتأرجح بين حقد ومرارة ..

ليغمغم أخيراً وهو يشيح بوجهه :

_ لم تعد بيننا حسابات ..زوجك دوماً هو الرابع
الأكبر .. ليس اليوم فحسب بل منذ ولد لياخذ مكاني في
قلب أمي .

_ إياد! هذا أنت حقاً؟!

والهتاف هذه المرة كان لخديجة التي فتحت باب
غرفتها وقد استيقظت من نومها على أصواتهم ..
قلبها يتوقف عن النبض للحظة قبل أن يرتد لجنون
خفقاته ..

"نصف قلبها" عاد!

كبر !

كيف تغيرت ملامحه هكذا؟!

هل كتب عليها أن تبقى في حياته محطة مؤقتة

تتساقط بعدها أوراق عمره بعيداً عنها؟!

فيما تتعلق عيناه هو بها كأول مرة رآها هنا في هذا

البيت بعدما رماه أبوه ليعود إليها كبضاعة فاسدة

ردوها لمرسلها!

كبرت خديجة!

شاب شعرها الذي تمنى كثيراً لو يلف خصلة منه

حول إصبعه ليشعر أنها حقاً معه .. هذه الحركة التي

كان يفعلها صغيراً قبل أن تتركه لأبيه فلم يفعلها

بعدها قط حتى بعدما عاد إلى هنا ..

ولا يظن نفسه سيفعل يوماً!

كبرت خديجة!

تشققت شفتاها اللتين لا يزال يذكر مذاق قبلاتها

الناقص ..

دوماً ناقص ..

لا يروي هذا الظماً العتيق بداخله!

كبرت خديجة!

تهدل كتفاها اللذين ظل لسنوات يسأل نفسه كيف نسيا

مذاق عناقه؟!

كبرت خديجة.. وكبر معها إثمها في صدره!!

عناق!

عناق تبادره به وهي تعتصره بين ذراعيها

المرتجفين ..

عيناها لا تحيدان عنه لحظة واحدة كأنها تخشى لو

فعلتها أن يتبخر ..

فيما يتخشب ذراعاه هو جواره وهو يغمض عينيه

بكل طاقته كأنه يخشى لو فتحهما أن يضعف ..

أن ينسى ..

أن يصفح!

_عدت ! أخيراً عدت!

تتمتم بها شفتاها المرتجفتان وهي تهزه بضعف بين

ذراعيها ..

لكنه يرفع عينيه لأعلى هارباً من نظراتها وهو يبتعد

خطوة قابلاً بصوت مبجوح أرجفه انفعاله:

_لا .. لم أعد .. اعتبري وجودي هنا خطأ .. كما

اعتبرتني أنتِ خطأ منذ زمن طويل .

_ماذا تقول؟! يعلم الله كم كنت أدعوه أن يردك

لي .. كنت أخاف أن يدركني الموت وأنت بعيد ..

تهتف بها بلوعة لكنه يقاطع حديثها وهو يعطيها

ظهره ليتوجه نحو الباب لكن إيهاب يقف في طريقه

يمنعه هاتفاً بحسم لم يغادره شعوره بالذنب:

_ لن تغادر .. لن تضيع منا ثانية بعد كل هذه

السنوات !

لكن إياد يكرز على أسنانه وهو يغمغم بألم فاض في

صدره وترجمته طبيعته لقسوة حروفه:

_ اعتبرني قد متّ ! أنا جنّت اليوم فقط لأتخلص من

آخر رصيد بقي لك في صدري وألقي في وجهك

حقيقتك البغيضة لعلك تري نفسك كما أراك .

يقولها ليزيح إيهاب عن طريقه بعنف ثم يفتح الباب

ويخرج فتركض خديجة بثياب نومها دون تحفظ خلفه

هاتفة باسمه تباعاً وخلفها إيهاب الذي أثقلته حركة

ساقه ..

_ إياد .. إياد ..

تصرخ بها وهي تراه يركض على الدرج بسرعة
فتركض خلفه لكنه يصم أذنيه عنها ..
ليحاول إيهاب اللحاق بهما بسرعة فتخونه حركة
ساقه ليتعثر في درجات السلم ويسقط بضع درجات
فتصرخ خديجة بجزع:

_إياد ! أدرك أخاك ! أدرك أخاك يا إياد!!

يتوقف إياد مكانه فجأة وهو يلتفت للأعلى نحوهما ..
نظرة شامته تلتصق في عينيه للحظة قبل أن تحتلها
عاطفة من نار وهو يجد نفسه في ثانية واحدة يقف
أمام أخيه ل..يساعده على الوقوف !
عينا الأخوين تلتقيان في هذه اللحظة فتقبل عاطفة
وتدبر أخرى ..
طريق النسيان طويل ..

وطريق الصفح أطول!

وفي مكانها وقفت عزة ترمق إياد بنظرة غريبة وهي

تشعر بدوامة من المشاعر تجتاحها نحوه ..

غضب ، شفقة ، تعاطف ، إعجاب بموقفه الأخير ..

وأخيراً خوف .. خوف من كل هذا!

_ لا تهرب من جديد يا ابني .. أرجوك .. لا تبتعد

عني .. لم يبق في العمر مثل ما راح !

تهتف بها خديجة بحرقة وسط شهقات بكائها وهي

تراه يعود بظهره ليهبط الدرج ..

ذراعاها يتشبثان به بكل قوتها فيضم قبضتيه جواره

وأنفاسه المتلاحقة تفضح غضباً وألماً ..

ليته ما عاد!

ليته ما تذكر!

_ أرجوك يا ابني .. أرجوك!

لا تزال رجاءاتها تصب العذاب في أذنيه فيبتلع غصة
حلقه وهو يبدو كمن يكابد صراعاً عنيفاً بداخله ..
قبل أن يحسمه أخيراً فيلتقط من جيبه ورقة وقلماً
كتب فيها شيئاً ما ليعطيها لها قبل أن يقول بصوت
أجش مبجوح بانفعاله:

_ صار لدي بيت!

يقولها بنبرة ذات مغزى وعيناه تجلدان إيهاب
بالذكرى القديمة فيغمض الأخير عينيه بقوة وهو
يدرك أن أخاه أخيراً حقق حلمه ..

_ هذا هو العنوان! لو أردت أن تريني!

يهتف بها مخاطباً خديجة وهو يتحاشى النظر إليها
قبل أن يعود ليهبط الدرج بخطوات راکضة تلاحقه
نداءاتها المتضرعة ونظرات إيهاب الملتاعة ..
_ لا بأس ! الآن نحن نعرف مكانه على الاقل .. اتركه
حتى يهدأ!

يقولها إيهاب وهو يعانق أمه محاولاً التغلب على ألمه
الخاص لتهتف بين شهقات نحيبها:
_ كيف تركناه يرحل من جديد؟! كيف؟؟
_ لا تقلقي! سنذهب إليه ونسترضيه بأي طريقة!
أعدك يا أمي !

يقولها وقد هبطت إليهما عزة لتربت على كتف
حماتها وهي تشارك إيهاب في إعادتها إلى البيت

الذي أغلقت عزة بابه خلفهم وحدث يصرخ داخلها

هادراً ..

الجحيم قادم !

=====

أحمر

=====

_ إلى أين تذهبين !؟

تسألها هبة وهي تراها قد ارتدت ملابس الخروج

متأهبة لمغادرة شقتها فترد يسرا بابتسامة

مصطنعة :

_ أشتري بعض اللوازم الضرورية لي .. إبراهيم

متعجل في عقد القران والزواج .

تبتسم لها هبة بود وهي تقترب منها متسائلة :



_وأنتِ؟! ألا تريدن التمهّل؟! واثقة من مشاعرك

نحوه؟! لا تخافين سرعة ارتباطك به هكذا؟!!

فتدمع عيناها بعبرات مختنقة وهي تهز

كتفها..مرحها المصطنع يخفي مرارة حقيقية :

_حلمي وجاء بين ذراعي..أقول له: لا؟!!

تتسع ابتسامة هبة رغم شعورها بعدم ارتياح غير

مبرر لكنها تربت على كتفها لتقول بمودة :

_إبراهيم "ابن حلال"..ومفتون بكِ..حبه لكِ لا يخفى

على أحد .

_وأنا..أنا لم أحب رجلاً في حياتي غيره .

تهمس بها بحرارة "غير كاذبة" وهي تغمض عينيها

بقوة ..

شريط العمر يمر أمام ناظريها يستعرض صور كل من

سبقوه ..

حسام .. فهد .. فادي ..

فلا تجد لهم في القلب سوى ذكريات باهتة ..

وحده هو يحتكر البريق الأعظم !

_ آتي معك؟!!

تسألها هبة باهتمام لترد بسرعة :

_ لا داعي! سأشتري أغراض نسائية خاصة .. أظنك

ستخجلين من موقف كهذا !

تقولها مدركة طبيعة هبة التي احمرت وجنتاها

بسرعة وهي تشيح بوجهها متممة بارتباك :

_ معك حق! أنا فقط كنت أخاف تركك وحدك ..

تقولها ثم تندفع نحو درج جانبي تستخرج منه مبلغاً
مالياً تدسه في كف يسرا قائلة بحزمها الودود :
_ خذي هذا كي تتمكني من شراء ما تريدين .
تدمع عينا يسرا بتأثر وهي ترده لها هاتفة :
_ لا حاجة لي به .. "مستر ربيع " أعطاني ما
يكفيني .

لكن هبة تشدد قبضة يسرا على النقود قائلة بإصرار:
_ ولو! هذه هديتي لا ترديها .
تغتصب يسرا ابتسامة باهتة وهي تعانقها بقوة ..
عيناها تدوران في تفاصيل المكان حولها بنظرة
طويلة كأنها ..تودعه !
خطواتها المتثاقلة تهبط بها الدرج ..

سلمه المكسور الذي تآكل بعض طلاء جدرانه
وظهرت أسياخ الحديد من درجاته القديمة لكنه بقي

صامداً على

حاله ..

المدخل الضيق الذي بدا لها باتساع الكون ..

الشارع العزيز ..

الفرن الذي فاحت منه رائحة الخبز الطازج ..

كرسي ربيع الذي اعتاد الجلوس عليه والذي خلا منه

الآن كعهده في هذا التوقيت من اليوم ..

بيت ربيع المقابل وشرفته المغلقة في وجهها بما

ودت تصديق أنها .. مصادفة !

كشك "سندس" التي لوححت لها من بعيد لتتشغل

بعدها بزبائن ازدحموا حولها ..

سامي الصغير الذي استلقى نائماً على كرسي عريض

جوارها ..

بائعة "النعناع" تلمم ما بقي من "حزم السعادة

الخضراء" ..تعد حصيلتها من ربح اليوم وهي تقبل

باطن كفها وظاهره قبل أن تهض لتغادر ..

تزداد خطواتها هي ثقلاً ..

حتى تتوقف أخيراً مكانها !!

_ لا تذهبي .. لا تذهبي .. ابقِي هنا !

تهتف بها لنفسها في حسرة موجوعة لكنها تعود

لتهز رأسها وهي تجر خطواتها جراً ..

_ لا مفر .. لا حل آخر .

تقولها مواسية نفسها وهي تتحرك مغادرة الحي
لتشير نحو سيارة أجرة استقلتها بسرعة لتعطي
السائق عنوان بغيتها ثم تسند رأسها على ظهر
الأريكة ..

تفتح كفها على نقود هبة التي منحتها لها ثم تبسم
بمرارة وهي تفتح حقيبتها هي ..

تستخرج من جيب حافظتها السري بطاقةها الائتمانية
باسم يسرا الصباحي لتضعها جوار النقود ..
المبلغ الزهيد لهبة يكاد يساوي صفراً أمام رصيد
بطاقتها ..

لكنها الآن تشعر أن "الصففر" يخصها هي!!

إبراهيم يريد الزواج منك .

تتذكرها بصوت ربيع كما سمعتها منذ أيام لينساب

الحوار بعدها في أذنيها حياً كما كان ليلتها ..

تستعيد ردة فعلها الأولى ..

فرحة ! فرحة جعلت ذراعيها يكادان يطولان السماء !

وخوف ! خوف خسف بها سابع أرض !

_ ما رأيك !؟

سؤال ربيع على بساطته يقذفها في أشد وديانها

تيها !

رأيها؟!

رأيها!!

أي رأي!!

اللعبة تحولت لحلم .. حلم يأتيها الآن جاثياً تحت

ركبتيها .. يعدها أن يكون أجمل حقيقة !

كيف ترفضه؟!؟

_توافقين؟!؟

سؤاله يحمل خوفاً لم تفهمه إلا بعد تهيدة سبقت

قوله :

_اسمعي يا ابنتي ..قد تتعجبين سرعة عرضي عليكِ

للأمر رغم أن معرفتنا بك قصيرة العمر ..لكنكِ فعلتِ

في أيام ما عجز الجميع عنه منذ سنوات ..أنتِ

أخرجتِ ابني من قوقعة عزلته ..نزعتِ عن

"الدرويش" عباءة حزنه ..أعدتِ له ابتسامته التي

ظننتها لن تكتمل أبداً ..لماذا أنتِ بالذات؟!؟ لا

أعرف ..لو كان واحداً غير ابني لظننته مجرد انبهار

بجمالك ..لكن الدرويش لم تجذبه يوماً فتنة

امرأة ..ربما انجذب إليك لأنه شعر بحاجتك

إليه .. وربما هي فقط القلوب تتقلب حيث شاء لها ربي

فتميل لمن تحب دون أسباب !

ترتعش ابتسامتها بهذا "الفخر المخزي"!

كيف يمكن أن يتصارع الفخر مع الخزي بهذه

الضراوة في موقف كهذا فلا ينتصر أحدهما .. بل

ينبتان هذه الارتجافة المرتعدة في جسدها الذي

احتواه ذراعاها !

ليفاجئها ربيع بسؤاله :

وَأنتِ كذلك تحبينه .. لا أحتاج لدليل .. لكن .. ماذا

تخفين عنا؟!!

تتسع عيناها بخوف يؤكد صدق حدسه وذراعاها

يشتدان حول جسدها يدعمانه ..

نظرة منها نحو الجانب القريب ..

زهور هبة الملونة بألوان قوس قزح ..

صوت المذياع من الداخل لصوت تلاوة قرآنية

عذبة ..

مذاق شاي حمضي تخففه حلاوة نعناع طازج ..

كلها تستصرخها أن تقول الحقيقة ..

_ أنا لست سمرا .. أنا يسرا .. يسرا رفعت الصباحي .

الكلمات تبدو سهلة داخلها إنما تتحجر على شفيتها !!

خاصة وهي تتذكر قوله ..

(ذاك المستشار وأولئك الذين على شاكلته هم من

قتلوا ابني .. أدعو الله عليهم في كل صلاة أن يحرق

قلوبهم على أبنائهم كما حرقوا قلبي على

ابني .. أدعوه وأستغفره وأنا لا أستطيع منع نفسي من

تمني قصاص أنفذه بيدي أن أقتل لهم ابنا كما قتلوا
لي واحداً)..

سيقتلها فعلاً لو أبعدا عن هنا !!

تدمع عيناها بعجز وهي تحاول مقاومة خوفها ..

فلتقل الحقيقة وسيدعها إبراهيم ..

لكنها تتذكر قول هبة ..

(رفض خطبتها لأنها أحبت رجلاً قبله ..يقول إنه يريد

امرأة -مثله- لم يخفق قلبها إلا له !)

فتموت الصراحة على شفيتها و"خوف الفقد " يرسم

صواعق رعدة في سمائها ..ليستحل الكذب مكانه :

_ لا أخفي شيئاً .. أقسم لك .. هل علمت عني ما يشين

!؟

يرمقها ربيع بنظرة متفحصة فتهمر دموع صادقة

تمتزج بحروفها الكاذبة :

_ أنا الشريفة التي أويتموها .. الخائفة التي

أمنتموها .. اليتيمة التي وجدت فيك أباً وفي ابنك

سنداً .. لماذا تشك فيّ ؟! ماذا تظني أخفي ؟!

يعقد ربيع حاجبيه بالمزيد من الحيرة وهو يستغفر الله

بصوت مسموع ..

نظرتة تصدقها .. وتكذبها !!

لكنه يرفع رأسه للسماء أخيراً صامتاً للحظات قبل أن

يقف مكانه قائلاً :

_ حسناً .. ليدبر الله الخير .. سأخبر إبراهيم بموافقتك .

_ وصلنا !

صوت السائق ينتزعها من شروذ ذكراها فتتقده
أجرته ثم تعيد ما بيدها إلى حقيبتها ..
تغادر السيارة لتصعد البناية الفخمة حيث وجهتها ..
ساقاها ترتجفان بخوف وهما تحملانها نحو المكان
المنشود ..

تصل أخيراً لتنهض تلك المرأة من مكانها تتأملها
بنظرات فضولية للحظات قبل أن تتذكر هويتها
"الحقيقية" فتخفض بصرها باحترام قائلة :
_يسرا "هانم" ..تفضلي ..الطبيب بانتظارك وكل
شيء جاهز .

_تذكرين اتفاقنا؟! هذا الباب خلفي سيغلق على
تفاصيل كل ما سيحدث هنا ..مفهوم؟!!

صوتها يستعيد نبرته المسيطرة التي جبلت عليها
وهي تصفق باب العيادة خلفها بدوي مرتفع ..
فتزدرد المرأة ريقها بارتباك وهي تومئ برأسها
إيجاباً لتشير لها نحو الغرفة المجاورة التي رمقتها
يسرا بنظرة طويلة ..

"عملية إعادة عذرية!"

هذا هو الحل !

لا .. ليس خداعاً !!

ليس غشاً !!

هي تريد أن تكون له كما كان ينبغي لها أن تلتقيه ..

امراته الأولى كما هو رجلها الأول !

أجل .. رجلها الأول !!

ليس عدلاً أن تُزور "حسابات الجسد" فاتورة

"القلب"!!

إبراهيم رجلها الأول مهما زعموا وليس أقدر منها

على الحكم في شيء كهذا!!

ولو كان الإثبات بشيء "كهذا" الذي ستجريه فلا

بأس!

هي ستعيش سمرا.. مهما كان الثمن!

تدخل لتغلق الباب خلفها بأنامل مرتجفة..

وتغلق معه طريق التراجع!

=====

بنفسجي

=====

الحقيقية يا ديمة! لا تفرطي فيها..

تسمعها ديمة بصوت أمها في منامها .. بصورتها كما
رأتها آخر مرة قبل أن تدفعها نحو القارب .. فتردد
بأسى:

_فقدتها .. ضاعت .. ضاعت يا أمي كما ضعت أنا !
لكن المرأة تعاود الهتاف بها من بعيد :
_استعيديها ! هي ما بقي لك منا .. إياك أن
تضيعيها .. إياك !

موجٌ هادر يحول بينهما والسماء ترعد فوقهما بدوي
رهيب لتشهق ديمة بعنف وهي تستيقظ من نومها لا
تصدق أنه كان حلاً .. !!!

ملوحة الماء لا تزال عالقة فوق لسانها ..
حمرة الدم التي خضبت زرقة البحر لتمنحه أرجوانية
مخيفة ..

صوت الرعد بقسوته يناقض حنان صوت أمها ..

حلم ؟!

هل كان حقاً حلماً ؟!

تدمع عيناها بحنين وهي تدرك أنها المرة الأولى التي

تحلم فيها بأمها بعيداً عن "مدينة الأشباح" التي

صارت أحد ساكنيها ..

طيف ابتسامة يلوح على شفيتها وهي تتذكر هذه

الحقبة التي تتحدث أمها عنها ..

حقبة من قماش "البروكار" الدمشقي والذي يعد

أفخم أنواع الأقمشة ويصنع من الذهب والفضة

والحرير..جدها كان من أقدم الحرفيين بصناعته التي

كادت أن تندثر بعد الحروب الأخيرة في الشام وبسبب

قلة الإقبال عليه لغلو سعره مقارنة بالأقمشة الأخرى

التي تعتمد على الآلات .

ابتسامتها تتسع والذكرى تعانقها من بعيد ..

من بعيد جداً ..:

_ خذي هذه كي تذكّرني عندما أموت .. احتفظي بها

بحاجياتك .

_ أطال الله عمرك يا جدي ..

تهتف بها وهي تتناول منه عطيته .. حقيبة يدوية

الصنع من قماش البروكار بلون أزرق فاتح تداخل مع

الفضي والأحمر دون أن يطغى كل منها على الآخر

محتفظاً بصراحة صبغته ..

_ تعالي أعلمك كيف تتسجين على "النول" .

يقولها الجد وهو يقربها منه ليحاول تعليمها الخطوات
الأولية فتستجيب له بفضول شغوف لتتطلق ضحكته
عالية وهو يضمها إليه ..

ثم يضع فوق مفرق شعرها الأحمر زهرة ياسمين
قائلاً :

_ حين يجيئ أبوكِ سأخبره أنك أمهر منه.. سأعلمك
الحرفة التي استتكتف هو عن تعلمها .. أخبركِ
سراً .. أبوكِ شعر بالحزن عندما وضعتك أمك لتكوني
أنثى .. كان يريد ذكراً .. لكنني عندما نظرت لوجهك
والزغب الأحمر الذي ظلل رأسك شعرت أن شمساً
سقطت من السماء ووقعت في حجري .. أنا من
اخترت لك اسم "ديمة" .. عساكِ تكوني سحابة تمطر
الخير أينما حلت .

فيض الدموع الساخن يغرق وجهها وهي تستعيد

الذكرى حارة وحارقة ..

حواسها تعود للعمل فجأة بعدما قد أصابها العطب

لسنوات ..

رائحة الياسمين في أنفها ..

دغدغة لحية ضرغام العجوز ..

لمس النول بين أناملها ..

ومذاق الحنان الذي ترتشفه روحها بألف لسان !

الحقيقية ! هي كل ما بقي لك منا!

تسمعها بصوت أمها كما كان في الحلم فتنتفض

لتغادر الفراش ..

الحقيقية ؟!

أين الحقيقية ؟!

تلتفت حولها بعجز لتخبط قبضتها بقوة في الجدار

جوار الفراش ..

الحقيبة هناك في خزانة ملابسها بيت غازي كما كل

أشياءها التي تركتها هناك !!

منذ ألفت الشرطة القبض عليها بعدما صرحت بقتله

وهي لم تعد لذاك البيت ..

أديم خرج بها من السجن للشقة التي استأجرها لها ثم

جاء بها عاصي الرفاعي إلى هنا !

هل تملك الجرأة لتعود إلى هناك ؟!

تلتفت للخلف فجأة لتطالع "مرآتها" كأنما تبحث فيها

عن الجواب ..

_ من ذي التي تجسر على العودة ؟! أنت يا

"فأرة" ؟!!

شبح غازي الأسود يصفعها بها ليمنحها الشبح

الأرجواني مدده :

_نعم.. تجسرين .. اذهبي وخذي حقلك من بين أنياب

الأسد !

تهز رأسها بتثنت بينهما ..

لكن ..

شبح هالة الأبيض يقترب ..

ابتسامته باهتة لكنها تكفيها لتربت على كتف ألمها

برقة تليق بها ..

وتحسم الجدل الذي يعصف بكيانها ..

ستذهب!

=====

يا لجرأتك! جئتِ بقدميكِ ثانيةً إلى هنا؟!

تهتف بها زوجة غازي الأولى بغلّ وهي تلمح ديمة
فور ما فتحت لها باب البيت الكبير ..
فيما ترتجف ديمة كريشة في مهب الريح وهي تعجز
عن سماع سيل شتائم المرأة الذي انهمر حولها ..
عيناها تدوران في المكان بهلع ..
تستعيد كل ذكرى قاسية جلدتها هنا ..
صوت غازي يدوي حولها .. يصرخ فيها ..
قبضته تهوي على وجهها ..
جسده الثقيل يجثم فوقها ..
أصابعه تجث خصلات شعرها لتسقط تحت قدميها ..
وتسقط هي معها !

تبكين؟! تبكين يا "خطافة الرجال"؟! تدعين الحزن
وانتِ ترتدين مثل هذه الثياب وقد خلعتِ "برقع
الحيا"؟! هكذا إذن اظهري على حقيقتك!
تهتف بها المرأة بحقد أشعلته غيرتها من فتنة ديمة
التي بدت في مظهرها هذا وقد تخلص وجهها من آثار
طغيان غازي وبدت بشرتها البيضاء الناعمة من
خلف ثوبها الأنيق العصري كأميرة أسطورية ذكرتها
بشعورها أول مرة عندما دخل بها غازي عليها
ليخبرها أنه اختارها زوجة ثانية..
لهذا لم تملك نفسها وهي تجذب ديمة من شعرها
القصير لتهتف بحدة:

ليس لك شيء هنا أيتها العاهرة! ولو خطت قدمك
خطوة واحدة داخل هذا البيت فسأكسر رجلك!

لم تكذ تتم آخر حروفها حتى فوجئت بقبضة ديمة
تلكمها في جانبها لكمة قوية لم تتوقعها منها لتطلق
صرخة قوية قبل أن تدفعها ديمة بقوة لتسقطها أرضاً
ثم تدهس صدرها بقدمها بقوة غريبة على خنوعها
المعهود لتتهتف من بين أنفاسها اللاهثة :

_ لن أترك حقي! أريد حاجياتي التي تركتها
هنا .. وعن قريب آخذ إرثي كله !

لكن المرأة تجذب قدمها ليختل توازن ديمة فتسقط
أرضاً لتلقي المرأة بثقل جسدها فوقها ثم تشد شعرها
فلا تشعر ديمة بنفسها إلا وهي تلكمها بقبضتها
ليصيب خاتمها عين المرأة التي تصرخ صرخة
عالية ..

وأخيراً تتلون الدنيا في عيني ديمة بلون الدم!

=====

_ أهلاً بالحلوة! نتعرف!

تهتف بها المرأة في الزنزانة الصغيرة التي استقر

مقامها فيها ليرتجف جسد ديمة وهي تنكمش على

نفسها بخوف ..

السجن من جديد!؟

ألا يكفيها ما نالته!؟

تبكي بانهيار مصدوم وهي تحتضن جسدها بذراعيها

لتمصص المرأة شفيتها هاتفة بلووم:

_ يا "حرام"! تبدو أنها مرتك الأولى! لا تخافي يا

حبيبتي .. تعالي في حضني!

تستجيب ديمة غير واعية لعناق المرأة قبل أن تنتبه
لحقيقة ما تفعله و غرابة حركاتها المتحرشة بها
فتنتفض مكانها محاولة التملص منها لكن المرأة
تستعين برفيقاتها ليكبلن حركة ديمة التي بدت كلبوة
شرسة وهي تركل وتخمش وتصفع لكنهن تكالبن
عليها لتتعالى صرخاتها ..

_ كفى يا همج!

صرخة الحارس تبدو لها كطوق نجاة فتلهث بانهايار
تام وهي تهرع نحوه ليهتف بها بغلظة :
_ تعالي.. "الباشا" يريدك !

تتخبط خطواتها اللاهثة وهي تسير جواره تخاف من
مجرد النظر للخلف ..

تتذكر مشهداً مشابهاً أنقذها فيه أديم ..

هل يفعلها هذه المرة أيضاً؟!

يدفعها الحارس بغلظة نحو الغرفة لتتسع عيناها
بخوف وهي تميز الملامح القاسية المتوعدة للضابط
الذي هتف بها بحدة :

_ بضع ساعات فقط في الحبس وتثيرين الشغب؟!
اجلسي هنا حتى ننظر في شأنك .. ادعي ربنا أن تكون
عين المرأة بخير وإلا ستكون مصيبة تلتهم من
عمرك بضع سنوات في السجن ! من أين ..
يقطع الضابط كلماته وهو يلتفت لشيء ما خلفها
يجعله يقف ليغير نبرته هاتفاً باحترام :
_ "حسام باشا"! تفضل .

تلتفت بدورها والاسم المهيّب يهز دواخلها بما تحمله

نحوه ..

جسدها لا يكف عن الارتعاد وهي تشعر بآلام جسدها

تصرخ ..

تصرخ دون صوت !

ما الذي جاء به !؟

هو الآخر شبح !؟

فيما تبقى ملامحه هو جامدة عدا .. عينيه !

عيناه بطبيعتهما الصقرية المتفحصة تدوران فوق

ملامحها وجسدها المحمر بفعل الضربات التي تلقتها

لتوها ..

"النظرة الآدمية" تكتسي بغلالة شفافة من

إشفاق ..وغضب !

غضب منها ..ولأجلها !

_من فعل بكِ هذا؟!!

صوته الرجولي الخشن وهو يقترب منها بهذه

الخطوات المندفعة يجعلها تتراجع للخلف عاجزة عن

الكلام إلا من شهقات دموعها الباكية ..

_تعرفها؟!!

يهتف بها الضابط بارتباك ليرمقها حسام بنظرة

طويلة وهو يسحب كرسيّاً ليجلسها عليه ..

قبل أن ينتحي بالضابط جانباً ليسرّ إليه ببعض الحديث

الذي غاب عن إدراكها ..

أشباحها تعاود مهاجمتها وهي تدفن وجهها بين
كفيها ..

فلا تشعر إلا وقد خلت الغرفة أخيراً إلا من كليهما ..
لماذا فعلت هذا ؟!

يسألها حسام بصوته القوي الذي غادرته دبلوماسية
مهنته الجديدة كـ "محام" واكتسى برداء "المحقق
القديم" ..

نحن على وشك كسب القضية .. لم تستطعي الصبر
لبضعة أسابيع؟! تتهمين على المرأة في بيتها
وتضربينها ؟!

رنة الغضب في صوته تزداد تصاعداً لترفع إليه
وجهها بعينين زائغتين ونظرات مصدومة :
أنا فعلت هذا حقاً ؟!

يعقد حاجبيه بتفحص وهو يراها تتحسس حرملة
ثوبها بأنامل مرتجفة حيث تجلط أثر دم زوجة غازي
لتردف بنفس النبرة المشتتة :

_ أنا ضربتها !؟

ضحكة غريبة مختنقة تغادر شفثيها وهي تشير
لصدرها بفخر ولا تزال عينيها عالقتين في فراغ
الماضي:

_ أنا دافعت عن نفسي!؟ لم أقف ساكنة هذه المرة!؟
أنا آذيت من أذاني!؟

يزدرد ريقه بانفعال وهو يقبض كفيه جواره وربما لو
أطلق لهما العنان لما تركها إلا أسيرة صدره !!

بقدر الغضب الذي كان يملكه طوال طريقه من
العاصمة إلى هنا خاصة بعد وصوله ورؤيته لها بهذا
الوضع المزري ..

بقدر ما يشعر الآن بهذه النار في أحشائها تنتقل إليه
هو !!

"حلقة الزعفران" في عينيها تتوهج ب"فرحة قاسية
"نبتت وسط أشواك

الألم .. وهي تردد بخفوت كأنها لا تراه .. والحقيقة
أنها لم تعد تراه وقد عادت لسكنى "مدينة أشباحها":
_ سأقول لهم أنني فعلتها .. أخيراً فعلتها .. جميلٌ هذا
المذاق في فمي .. يشبه مذاق الدم القديم الصدي من
جروحي .. لكنه هذه المرة يمنحني الأمان ..

تمتمتها تتحول لهذيان لا يسمعه وهو يتفحص

ملامحها بنفس المزيج من إشفاق و غضب ..

لكن الأول يغلبه فيعاود سؤالها :

_ لماذا ذهبتِ إلى هناك !؟

_ حقيبتى !

تتمتم بها وهي على نفس الحال الغريب لتزداد

ارتجافة جسدها وهي تغمض عينيها مستعيدة أحداث

حلمها :

_ جدي صنعها لي .. كانت هديته .. أمي زارتني في

الحلم .. لأول مرة منذ سنوات .. طلبت مني أن

أستعيدها .. أنا تركت كل أشيائي في بيت غازي .. لم

يسمحوا لي بأخذها .. لكن هذه .. هذه بالذات أريدها ..

ومن جديد تتحول تمتتها لهذيان لكنه يفهمه بقلبه
قبل أذنيه هذه المرة ..

لو استطاع أن يخمد اشتعال حواسه بها كامرأة كارثية
الفتنة فكيف يغفل عن "بيت" بناه لها قلبه في
الضلوع !؟

بيت لطفلة شريفة تفتقد المأوى!

طفلة احتلته من "حلم" وأتمت استيطانها

ب"واقع"!!

طفلة لا تزال تبحث عن بقايا طفولتها ووطنها في
"حقيبة" ..

فيستكثرون عليها حتى هذا !!

ماذا فعلوا بك !؟

يهتف بها بغضب حمائي مكتوم وهو يتبين أثر
الضرب على وجهها وما ظهر من جسدها لترد
بتشوش عما حدث أمام بيت غازي وفي
الزنزانة .. ولم تكد تنتهي حتى رآته ينهض واقفاً فلم
تشعر بنفسها وهي تقف بدورها هاتفة بجزع:
_ سترحل!؟!

_ لا تخافي .. سأبذل ما بوسعي لإنهاء هذا الأمر .. لن
أتركك وحدك .

صوته لا يبدو حنوناً بقدر ما يبدو صلباً دون تعابير ..
_ ليتكم تتركونني وحدي .. ليتكم كلكم تتركونني
وحدي .

تتمتم بها بانهيار وعيناها الغارقتان في حزنهما
تعيشان صراعهما الخاص مع أشباحها ..

غازي .. هالة .. وشبوحا هي المنتقم !

_ من نحن؟!_

يسألها بتوجس لتهد رأسها دون جواب فيزفر زفرة
مشتعلة وهو يجلسها من جديد على كرسيها ثم ينحني
بوجهه أمام عينيها ..

يبحث وسط عتمة زرقتهما عن حلقة زعفرانه الأسرة
ليهمس أخيراً بنبرة مطمئنة :

_ لن يمسك أحد بسوء حتى أعود .. وبعدها نرجع معاً
للعاصمة .

تبدو وكأنها لم تفهم ما يعنيه بكل هذا التيه الذي
تشدها دواماته !

هي فقط شعرت به يخرج بـ "خوفها" ليعود بعد
ساعات بـ "أمانها" ..!

تفاصيل كثيرة لا تعيها وكلام لا تفهمه لكنها تغادر
معه قسم الشرطة أخيراً لتستقر جواره في سيارته ..
إدراكها الكامل يعود إليها رويداً رويداً وهي تشعر
بالغربة ..

هي هنا حقاً؟!

عادت لمدينة غازي؟!

لمدينة هالة؟!

_ لو كان لهذه الطرقات أن تحكي لروت عني ألف

حكاية !

تهمس بها بخفوت كأنما تحدث نفسها لكنه يسمعها

فيختلس نظرة نحو جانب وجهها دون رد ..

المزيد من الإدراك يهزم هواجسها فتتبه لما حدث ..

تلتفت نحوه لتسأله فجأة :

ماذا فعلت؟! كيف تمكنت من إخراجي من هناك؟!
لا تشغلي بالك .. عائلة زوجة غازي لها الكثير من
الثغرات الخفية التي يسهل الضغط عليهم بها كي
تتنازل هي عن المحضر .

يقولها باقتضاب يشعرها بالمزيد من
الخزي .. الضالة .. الامتتان .. والتشتت !
هل فعل هذا لأجلها؟!!

لماذا؟!!

ماذا عندها كي يطمع فيه؟!!

جسدها؟!!

لا !

غازي - لعنه الله - جعلها تعي نظرة

الاشتهاء القميئة في عيون الرجال ونظرته هو أمامها

ليست كذلك !!

إذن .. إرثها من غازي؟!!

لا تظن مثله يحتاج لمال؟!!

إذن لماذا؟!!

_ كيف عرفت؟! لماذا جئت؟!!

تقولها أخيراً بصوت مسموع ليلتفت نحوها فتلتقي

عيناها عبر هذا القرب ..

رعدة باردة تسري في حناياها وقلبها يخفق بقوة ..

كيف هكذا يمكن أن يجتمع الكره

و .. الامتتان؟!!

أناملها تتوق لصفعه .. لإيلام هذا الجسد الذي تراخي

عن مساعدة هالة ..

ونفس الأنامل تتوق لمصافحته .. لشكر هذا الدفء
الذي بعثه حضوره ..

خاصة وهو يرد بصوته القوي .. القوي كرعد يهدر
أولاً ثم يعد بعدها بصيب نافع وهو يجيب سؤاليها :
_ كيف عرفت؟! أمي أخبرتني بعدما ذاع الخبر هنا
بسهولة كما تعلمين .. لماذا جئت؟! صدقاً لا أعرف
جواباً شافياً ..

أنفاسها تتلاحق مع كلماته الأخيرة وهي تخشى
تصديق ما تبوح به نظراته ..

لكنه يعاود الإشاحة بوجهه منتبهاً للطريق :
_ لكن لنقل أنني محاميكِ وواجبي أن أكون جوارك في
موقف كهذا .

تزدرد ريقها الجاف بصعوبة وهي تعود ببصرها

للطريق ..

ضوء النهار يخبرها أنها قضت يوماً وليلة هنا ..

عجباً .. كيف مرت عليها كدھر .. دھر لا تذكر تفاصيله

وإن كانت قد اكتوت بوجعه !

_المقابر!

تهتف بها بلهفة تشير للمكان القريب لتشق الصمت

بينهما فيلتفت نحوها متسائلاً :

_ لماذا تهتمين؟! لا أظنك تريدين زيارة غازي!

_ بل ..!

تبتلع ما بقي من حروفها وهي تتحسس فردة القرط

البنفسجية في أذنها ثم تغمض عينيها بقوة كاتمة

الجواب!

الجواب الذي عاد يغرس الخنجر في صدرها ..

ماذا عساها تخبره !؟

أنها تريد زيارة هالة !؟

عاشقة الظل وضحيته في العن !؟

يتأمل سكوتها بتفحص وهو يشعر بأنها لغز كبير

يزداد غموضه يوماً بعد يوم ..

لقد ظن أنه فهم من النساء ما يكفيه شر الانجذاب

إليه ..

إنما هذه تبدو وكأنها جاءت ليصيب سهمها صدر

غروره !

صمتها الصارخ بعذابها يبدو له كحقل الغام لا يريد

الولوج فيه مكتفياً بوقفته الثابتة ..

لهذا يغير الموضوع :

_لاريب أنك جائعة وتريدين تبديل

ملابسك ..أمي تنتظرنا وتلح عليك في الحضور .

تحاول الرفض بخجل لا تدعيه لكنه يردف بنبرته

المتسلطة دون أن ينظر إليها :

_أما أنا فلن أرح ..نحن فعلياً في طريقنا إلى هناك!

تتكمش مكانها في مقعدها وهي تشعر بمزيج من

حيرة وخوف ..

بيت غريب آخر ستدخله !؟

منذ ولجت قدماها أرض مصر وهي نسيت عدد

البيوت الغريبة التي دخلتها ..

كثيرة ..كثيرة ..

لم يكن بيت هالة أولها .. ولا بيت عاصي الرفاعي
آخرها ..

إنما لا واحد منها منحها الشعور الحقيقي ب"البيت"!
_ تعرف سر شكل الأقواس ببيوت الشام؟
تتمتع بها بما بدا له كعودة لهزيان ماضيها فلا يرد
مكتفياً بحسن الاستماع لترد مغمضة العينين :

_ كان أهل الشام إذا أراد أحدهم تزويج ابنه وليس
لديه غرفة إضافية يزوجه فيها يذهب لجاره
قائلاً: أعرني كتفك ! بمعنى أن يعيره حائطاً يسمح له
ببناء قوس وغرفة فوقه للعريس بين البيتين .. هكذا
هي بيوت الشام بشكل أقواسها المميز التي بقيت دليل
حسن جوار وكرم وستر .. هذه هي البيوت التي



تستحق اسمها .. هذه هي البيوت التي افتقدتها .. وما

سواها ليس بيت .

تضطرب خفقاته لعفويتها التي امتزجت بلهجتها

الشامية وهي تتحدث بسرعة كأنما خرج البوح منها

غير مقصود .. بل كأنما خشيت أن تكتمه مع ما

تكتمه .

يعود ببصره نحوها ..

عينيها المغمضتين .. شفيتها المرتجفتين .. هذه

البرودة التي يوقن أنها تشعر بها مع هذه الرعدة في

جسدها ..

والتي تناقض هذه الحرارة المنبثقة داخله هو ..

عندما طلبت منه أمه أن يساعدها ويقف جوارها بل
ويدعوها للطعام ساعتها رفض الأخير بتعنت زاعماً
أنه لن يفتح بيت أمه لكل من "هب ودب" ..

لكنه الآن يشعر بعاديّة الموقف كأنه الوحيد المنطقي
هنا...!!!

يصل بسيارته للبيت فيرصفها ثم يصعد بها للأعلى..
خطواتها متباطئة مترددة كأنها لا تزال لا تصدق كل
هذا ..

تفتح لها أمه البيت فترمقها بنظرة أمومية مشفقة ثم
تعانقها برفق بعبارات ترحيب تقليدية ..إنما دافئة !
دافئة هذا الدفاء الذي تشفق له جليد خوفها وهي
تسمح لنفسها بالقليل من الأمان المؤقت ..
مرايا؟!

ألا يوجد مرايا هنا؟!

لا تريد النظر في إحداها ..ليتهم لا يملكون واحدة !!

_الأكل جاهز ..أعرف أن سمعة المطبخ الشامي

ممتازة ولاريب أنك "ست بيت" ماهرة ..لكن لعل

طعامي يعجبك .

تواضع المرأة يرسم ابتسامة مرتجفة على شفثيها

وهي تتمم بكلمات شكر غير مفهومة ..

لترمقها المرأة بنظرة مشفقة وهي تلمس ارتباكها

الوجل ..

عصفورة كهذه ماذا كانت تصنع في كهف غازي

المظلم ؟!

تتجنب الأم الحديث عما حدث محاولة تلطيف الوضع

بقولها :

_حمام هنا ..جهزت لكِ بعض الثياب ..مقاسنا
متقارب ..لكن ثيابي "ساترة" ربما لا تلائم ذوقك
الجديد .

عبارتها الأخيرة تمزج لطفها بعتابها لكن ديمة تبدو
خافلة عن كل هذا وهي تتحرك كالمغيبة بنفس
الخطوات المتناقلة نحو الحمام القريب الذي تغلق بابه
خلفها ..

مرآة !

من جديد مرآة !!

تشهق بعنف وأنفاسها تتلاحق !!

أشباحتها تبدو لها هنا باهتة الملامح إنما طاغية

الأثر !

سواد غازي يزداد حقداً ..

بياض هالة يزداد بعداً إنما يقل عتياً ..
خاصتها الأرجواني يزداد تسلطاً .. وألماً !
لهذا تخفض بصرها عن المرأة بسرعة هاربة وهي
تشعر أنها مستنزفة ..

تفتح الصنبور لتهيل الماء فوق وجهها وجيدها ..
الآن فقط تبدأ الشعور بوخز جروحها ..

ما الجديد !؟

جسمها اعتاد الألم فما عاد يؤرقه !!
تخلع عنها ثوبها لتبدله بثوب المرأة الذي بدا أكبر
قليلاً من مقاسها لكنها أحبته بلونه الأزرق الداكن ..
زرقة بحر خلا من لون الدم ونبذ أرجوانية المصير!
_منظرها يقطع القلب!

تهمس بها أمه له بالخارج وهي تضع اللمسات
الأخيرة لمائدة الطعام فيطرق بوجهه واختلاج عضلة
فكه يفضح انفعالاً يعصف به !
خياله الرجولي الخصب يعبث بـ "شيطانية" وهو
يرسم لها آلاف الصور بينما تخلع ثيابها بالداخل ..
لكن صورة واحدة تتسيد الموقف أخيراً ..

صورة لها كطفلة "تكبر" بين ذراعيه تماماً كما رآها
في حلمه !!

وتفرض "أبوة" مستحدثة لا يدري لماذا تعصف به
نحوها هي بالذات ؟!

لماذا هذا الشعور الآن بالذات ؟!

هل هو تقدمه بالسن ؟!

ازدياد احساسه بالنقص!؟

أم أنه هبة تخصصها وحدها!؟

تباً!!

هذا الارتباك يقتله !

هو ليس رجل التردد و"البين بين" !

فليعترف وحسب أنها ..مميزة!

بل ..إنها أشعلت قنديلاً قديماً ظنه قد احترق فتيله

للأبد !

تنقطع أفكاره وهو يراها أخيراً تخرج إليهم ..

ورغم ثوبها الساتر لكنه كان يشعر أن فتنتها لم

تنقص ملليمترًا واحداً ..

النمش المميز في بشرتها يبدو له كنجوم حمراء

متألئة شاهدة على جزيرة وجهها البيضاء ..

شعرها الأحمر القصير يحمل رسائل إغواء بعدد
شعيراته ..

شفتاها ثمرتا جنة يود لو يجد مفتاحها !
تقطع أمه أفكاره وهي تعاود الترحيب بها بحفاوة
لتجلسها على كرسيها أمام المائدة ..
_ سأحضر العصير .. تحبين "الموز باللبن" كحسام؟!
تومئ ديمة برأسها بتشتت فتضحك المرأة مردفة
بطيبة :

_ من صغره وهو يعشقه إنما يشربه أول ما
يعصر .. لو لبث بضع دقائق بعدها حتى ولو لم يتغير
لونه فمن المستحيل أن يضعه في فمه .. ابدأ بالأكل
ولا تنتظري فأننا مرتبطة بموعد الدواء .

تقولها لتغادر نحو المطبخ القريب فتطرق ديمة
بوجهها لتفاجئها حركته وهو يرفع الشوكة بما تحمله
ليضعها جوار فمها!
ترفع عينيها إليه بصدمة ليرد بصوته القوي المناقض
لخفايا نظراته:

لست طويل البال كأمي ولن أضيع وقتي في محايلتك
لتناول الطعام..كلي.

تستجيب دون وعي إن لم يكن جوعاً..فخوفاً!!
لا..ليس خوفاً منه هو..بل من هذه الدغدغة التي
شعرت بها في حناياها!!

منذ متى لم يطعمها أحدهم هكذا!؟

ربما..منذ غادرت وطنها!

رائحة ياسمين تتبعث من مكان ما لتغزو حواسها..

لنتلون الدنيا في عينيها بألوان علم سوريا ..

مذاق الطعام لذيذ ..

ومذاق الأمان الذئ !

خاصة وقد قدمت أمه تحمل العصير لتضعه أمامها

هاتفة بحنان :

_حسام يحبه دون سكر ..كيف تحبينه أنتِ ؟!

تتسع عيناها بدهشة لأول وهلة ..

كأنما نسيت تفاصيل حياتها البسيطة ..

ماذا تحب من العصائر ؟!

كم ملعقة سكر ؟!

من أوصد الأبواب في حياتها فلم يترك لها سوى

واحد يظل على "مدينة أشباح" ؟!

_أربعة .

تقولها ببعض الخجل الذي خضب وجنتيها لتلتوي

شفتا حسام بابتسامة واهنة قائلاً :

__ هكذا يكون السؤال كم تشربين العصير في كوب

السكر!

__ لا تستمعي إليه .. "السكر للسكر"!

تقولها المرأة مدللة وهي تربت على كتفها بأحد كفيها

بينما تقلب لها السكر في العصير بكفها الآخر لتمنحه

لها فتتناوله بأنامل مرتجفة قبل أن تتجرعه بنهم دفعة

واحدة دون تحفظ ليرمقها حسام بنظرة متفحصة ..

ربما لو كانت امرأة أخرى مكانها لاتهمها بعدم

اللياقة .. لكنه الآن لم يكن يرى فيما فعلته سوى

عفوية ..

عفوية أحبها !

_ "بالهنا والشفاء".

تقولها المرأة بطيبة وهي تربت على رأسها فترفع

ديمة إليها عينيها بشعور جديد ..

شعور بالذنب !

كيف تنسى أنها كادت تؤذيها يوماً؟!؟!

الخاطر الأخير يجعل عينيها تتسعان ارتياح ليعود

الخوف يسكنها من جديد ..

ما الذي تفعله هنا؟!!

كيف استجابت لدفء هذا الشعور الذي ملأها؟!!

لو كان لها أن تقترب من رجل كهذا فلأجل غاية

واحدة .. أن تؤذيه .. أن تنتقم!!!

فلتفعلها .. أو .. فلتبتعد !!!

_ عفواً .. أنا شبت .. أريد العودة .

تقولها بصوت منك أرجفته تقلبات انفعالاتها السابقة

كلها لتلح المرأة عليها في البقاء لكن حسام يقول

بحسم :

_دعيها كما تحب ..صديقي في مطار الأقصر حجز لنا

في أقرب رحلة للقاهرة .

تتوه في بقية تفاصيل اللقاء الدافئة حتى تودعها

المرأة وهي توصي حسام عليها هامسة في أذنه :

_اعتن بها ..الفتاة يتيمة وغريبة .

وكأنه يحتاج لتوصية !

ابتسامة ساخرة تطوف حول شفثيه وهو يتذكر أنه

منذ قدم إلى هنا وهو لم يهتم لرؤية حسابه

الالكتروني كي يتابع "عالمه الموازي"!

الأرجوانية شغلته!

_ سأترك سيارتي هنا ونستقل سيارة أجرة نحو

المطار .

يقولها بنبرته الحاسمة وهو يتحرك معها بضع

خطوات بعيداً عن بيته لكنه يتوقف فجأة وقد تذكر

شيئاً ليردف:

_ انتظري هنا !

تتوقف مكانها بوجل وهي تشعر بالخوف يزداد في

كيانها الهش لتراه مكانها يتوجه نحو سيارته القريبة

ليفتح حقيبتها ثم يستخرج منها ما عاد به إليها..

_ الحقيبة ! أحضرتها لك من بيت غازي ..كان هذا

ضمن الاتفاق.

يقولها بصوته القوي الذي ارتجف رغباً عنه وهو

يسمع صرخة فرحتها فور ما رأتها قبل أن تختطفها

منه لتضمها لصدرها قبل أن تنحني على نفسها كأنها

تخشى أن تفقدها من جديد !!

صرخاتها القصيرة تتوالى بين فرحة ..حنين ..ووجع

فقد !

دموعها تخلق دمعة في عينيه هو وهو يشعر أنه

يهوي في بئرها أكثر ..

فيما لم تكن هي أفضل حالاً وهي تشعر أن صورة ما

التصقت بحدقتها فلن تغادرها للأبد ..

صورة حقيبتها التي عاد بها لتستقر بين ذراعيه ..قبل

ذراعيها!

=====

_ أين كنتِ !؟

تهتف بها ماسة بقلق وهي تفتح لها باب بيت عاصي
لتتلعثم ديمة بارتباك وهي تضم حقيبة البروكار
لصدرها قائلة :

_ ذهبت للصعيد ..كنت أستعيد بعض أشياءي .

_ولماذا لم تخبريني أو تخبري عاصي؟! كنا لنحضر
في طلبها دون أن تحتاجي للسفر!؟!

تقولها ماسة بود عاتب لكنها كانت تعلم الجواب!
ديمة لن تطلب من عاصي شيئاً ..لا تزال تحمله ذنب
هالة ولو لم تقلها ..ولولا اضطرارها للبقاء لأجل سند
لما احتكت به ..بل إنها تشعر كثيراً أنها تخاف
منه ..نفس الخوف الذي يداهم من يعرف عاصي من
بعيد دون أن يقترب منه!

_ لا بأس .. أنا حصلت عليها .. أريد رؤية

سند .. افتقدته .

تفحص ماسة ملامحها لترد :

_ سند نائم الآن .. هو الآخر افتقدك .. عفواً .. ما هذه

الجروح على وجهك !؟

تخفض ديمة بصرها وهي تعانق حقيبتها بقوة أكبر

قائلة :

_ بسيطة ! .. وقعت على وجهي في الشارع .. سأنتظر

سند عندما يستيقظ .

تقولها وهي تعطيها ظهرها تهم بالانصراف لكنها

تعود لتتظر لماسة وأناملها تعتصر حقيبتها أكثر

لتردف بتردد :

_ تلك المرأة ..أخت السيد عاصي ..هل يمكنني التحدث

إليها!؟

_ ديمة ! لا داعي للمشاكل ..ابقي بعيدة عن طيف .

تقولها ماسة بقلق فتهز ديمة رأسها باستسلام لأول

وهلة وهي تعطيها ظهرها من جديد ..لكنها بطبيعتها

المتذبذبة تعود لتتظر إليها قائلة :

_ لن أسبب مشاكل ..سنتحدث ..فقط .

_ عمّاذا!؟!

تسألها ماسة بتوجس لترتجف شفتا ديمة للحظات ثم

ترد بتلعثم :

_ مجرد ثرثرة .

_ ثرثرة! وهل تجيد أي منكما الثرثرة!؟! أنا بالكاد

أستخرج منكما كلمة!!



تكاد ماسة تهتف بها باستنكار لكنها تكتمها في نفسها
وهي تشير لها نحو الداخل هاتفة :

_ تحبين الدخول لغرفتها؟! أم أسألتها كي تلحق بك في
الحديقة؟!!

_ في الحديقة .

تقولها ديمة وهي تتراجع خطوة للخلف فتهمز لها
ماسة رأسها وهي تدعو الله سراً أن تستجيب طيف
المتعجرفة لطلبها ..

والعجيب أنها استجابت !

_ نعم !

ابتدرتها بها طيف بخشونتها المعهودة وهي تجلس
جوار ديمة على عشب الحديقة لتشبك ساقيها ..

فترمقها ديمة بنظرة مترددة وهي تضم حقيبتها

لصدرها قائلة :

_كنتِ تقولين ..أقصد ..أنتِ ذكرتِ شيئاً عن

المقايضة ..قصتك مع ذاك الضابط ..و ..قصتي .

تنظر لها طيف بتفحص تلك النظرة التي تعري من

أمامها وهي ترفع أحد حاجبيها صامتة فتزرد ديمة

ريقها بارتباك مردفة :

_يمكنك سرد خطوط عريضة ..احتفظي بما شئتِ من

أسرار .

ضحكة ساخرة تغادر حلق طيف التي عادت برأسها

للوراء لتحرك خصلات شعرها كما اعتادت لكن

ملامحها تبتئس فجأة وهي تتذكر أنه ما عاد بهذا

الطول الذي يمنحها سحر حركة كهذه ..

لهذا تكتفي بأن تداعبه بأناملها قائلة بنبرتها القوية :

_ درس رقم واحد .. طيف الصالح ليس لديها

أسرار .. لا شيء أخجل من البوح به .. حتى أخطائي

أعترف بها ولا أبالي لأنه لا أحد .. لا أحد يملك حق

محاسبتي.

تتوهج زرقة عيني ديمة بوميض إعجاب وهي تتمنى

لو تكون يوماً مثلها ..

لتردف طيف بنفس النبرة :

_ درس رقم اثنين .. أنا أحب عزلتي وأكره صحبة

البشر .. داء "الاجتماعية" اللعين هذا لم يصبني ولن

يفعل .. فلا تتخيلي أننا سنصير صديقتين لأن أكثر ما

أكرهه في حياتي هو ثرثرة النساء!

_ أنا أيضاً أحب عزلتي .. ولا أحب الثرثرة .

_عظيم ..استرخي هكذا إذن في جلستك واحكي لي

قصتك أولاً ..

تقولها طيف وهي تستخرج علبة سجائرها وقداحتها

من جيب بلوزتها لتشعل إحداها ثم تنفث دخانها في

الهواء ..

فيحتقن وجه ديمة بحمرة سريعة وهي تغغم بعينين

زائغتين:

_أرجوكِ أطفئها .

_تؤدي صدرك !؟

_بل ..تذكرني به ..زوجي الراحل .

تطلق طيف همهمة إدراك وهي تطفئ سيجارتها في

عشب الحديقة لتتهف ساخرة :

_ سيكون حظك سيئاً جداً إن لو ارتبطتِ برجل
مدخن .. صدقيني لن يتوقف رجل عن التدخين لأجل
عينيكِ حتى ولو قلتِ أنها تذكرك بزواجك الراحل
بواجهة "البطة المسكينة" التي تصدرينها هذه !
والغريب أن خاطر كل منهما في هذه اللحظة توجه
لنفس الرجل ..

حسام القاضي!!

يزداد وجه ديمة احمراراً وهي تخفض حقيبتها دون
وعي تبعتها عن صدرها كأنها تنفي تهمة فتلتقط
طيف حركتها وهي تقول بخبت:

_ حقيبة لطيفة ! لا أظنه تصرفاً طبيعياً أن تجلسي في

البيت بحقيبة إلا لو كانت تحمل ذكرى ما !

_جدي صنعها لي ..كنت أدخر فيها ذكرياتي الغالية
منذ كنت في سوريا ..جئت بها اليوم فقط من بيت
غازي ..

تقولها ديمة وهي تسرد لها تفاصيل قصتها من
البداية كاملة ..تتحفظ عن ذكر حسام لكن طيف تدور
بسبابتها حول وجهها قائلة :

_لا يا حلوة..لا تتذكري عليّ ..كل ما ذكرته يمكنني
معرفة بعضه من ماسة واستنتاج بقيته بمخيلتي
الخصبة ..أنا أريد معرفة ما يعنيك من "حسام
القاضي"!

_وما يدريك أنني أهتم به !?
تسأل ديمة بتلغثم لتهم طيف بالنهوض قائلة :

_ درس رقم ثلاثة .. لا أحب اللف والدوران .. انتهى

الكلام .

_ لا .. لا .. انتظري!

تهتف بها ديمة برجاء وهي تتمسك بها فترمقها طيف

بنظرة محذرة لتردف ديمة وهي تتلفت حولها قائلة :

_ تعديني ألا تخبري أحداً ؟!

_ وكيف تضمنين أن أفي بوعدى يا "خائبة الرجا" ؟!

تهتف بها طيف ساخرة فترمقها ديمة بنظرة عجز

مستغربة تثير شفقة الأولى لتردف بنبرة أكثر ليناً :

_ من أين تسقط فوق رأسي الفتيات قليلات الحيلة

مثلك ؟! مبتلاة أنا بأشباهك ! قولي ما عندك ولا

تخافي .. لن أفشي سرى .

تزدرد ديمة ريقها بتوتر وهي تخفض بصرها لتغمغم
بطبيعتها الأرجوانية المشتتة بين حقد أحمر وخوف
أزرق :

_ أنا تقربت منه عندما علمت أنه يعمل بالمحامة
بزعم أنني أحتاج مساعدته في قضية إرث ..تقربت
منه كي ..كي أنتقم لهالة.

_ "حلاوتك"!!

تهتف بها طيف ساخرة لتتقرب بوجهها منها مردفة :
_تنتقمين منه؟! أنتِ التي تتصرفين كأي كتكوت مبتل
يحترم نفسه؟! وممن؟! من حسام القاضي؟! كتلة
الدهاء والمكر التي تمشي على قدمين؟! بالله عليك لا
ترعمي أنك ستستغلين فتنتك لتوقعيه في حبك وبعدها
تتركينه ليقطع شرايينه حزناً عليك!!

يحمر وجه ديمة بغضب من سخريتها فتنهض من

مكانها بحركة عصبية هاتفة :

_ لن أكمل الحديث مادمتِ تسخرين مني !

تركض نحو بيتها فتنهض طيف لتلحقها ثم تقف

قبالتها هاتفة بضحكات متقطعة :

_ اصبري أيتها الشرسة .. لا تغضبي هكذا .. تعودي

على طبعي .. "خلقة ربنا" !

تشيخ ديمة بوجهها هاتفة :

_ "ما بطيق حدا يحاكيني بهيك طريقة .. ما فيني

أتحمل!"

تقولها بلهجتها السورية ذات الدلال الفطري فتقترب

طيف بوجهها منها هاتفة بجدية مصطنعة :

_ هل تحدثينه بهذه الطريقة دوماً ؟!

تهز ديمة كتفيها بتساؤل فتتنحح طيف وهي تشير

نحوها هاتفة :

_وتهزين كتفيك هكذا أمامه !؟!

تعقد ديمة حاجبيها بالمزيد من الغضب وقد بدأت

تدرك مغزى أسئلتها خاصة وطيف تردف بنفس

الجدية المصطنعة :

_لا! هكذا نعيد النظر في قصة "قطع الشرايين" !

تقطع عبارتها بضحكة مكتومة وهي تبسط ذراعها

فوق كتفي ديمة تحتوي غضبتها لتتنهد بعد لحظات

قائلة :

_ذكرتني بواحدة كانت تشبهك هكذا في

سذاجتك ..كانت تحب واحداً من طرف واحد وصبرت

عليه لسنوات .. لكن الله أكرمها أخيراً واجتمعاً في

مكان واحد !

تقولها قاصدة زهرة لتسألها ديمة بتوجس :

تزوجته؟!

سُجنت معه !

تقولها طيف ساخرة لترتد ديمة بوجهها مصدومة

فتطلق طيف ضحكة حرة وهي تتنهد أخيراً لتقول

بجدية حقيقية :

_لو أردت الحق فإذا كنتِ تريدين الانتقام من حسام

فأنتِ بحاجة لتتقمني مني أنا أولاً !

ترمقها بنظرة متوجسة لتسير طيف جوارها وهي

تتأمل الشمس التي قاربت على المغيب قائلة :

_ هو دوري للبوح إذن .. اسمعي إذن عن حسام
القاضي الذي لا تعرفينه .. والذي عرفته أنا !
تقولها لتحكي لها قصتها مع حسام من
البداية .. حبهما الهش الذي لم يصمد أمام واقعية
الحكاية .. زواجه من ابنة رئيسه في العمل .. كيف
انتقمت منه بتزوير موتها .. وانتقامه من عاصي
لأجلها ..

_ لأجلك؟! فعلها لأجلك أنت؟! كان ينتقم
لحبيبته .. والضحية امرأة كانت .. كانت ..
"تحبه!"

تكملها سراً لتكتمها في نفسها مغمضة عينيها ..
التفاصيل التي روتها طيف تثير المزيد من زوابع
ارتباكها لتضم حقيبتها لصدرها بتشتت ..

هل تصرخ أن معرفتها بالحقيقة لم تغير من وضع
جرمه شيئاً وأنه وقف يتفرج ولم يمنع الأذى عن
امرأة بريئة وطفلها!؟

أم تشفق عليه لأنه كان ضحية خدعة ألقته في بئر
شعوره بالذنب فلم يجد مخرجاً سوى الانتقام!؟
هل يشبهها!؟

هل وجد خلاصه وقتها في أن يلقي عباءة الألم على
غيره!؟

لو أردت نصيحتي فدعي أفكار الخائبة
هذه .. أغلقي دفاتر ماضيك وانتبهي لحالك .. مالك أنت
والانتقام وأهله!؟

تقولها طيف باستهجان خالطه بعض الشجن لتسألها
ديمة بعدم اقتناع:

_تعنين أن الانتقام لم يشفِ غليتك؟! لم يطفئ هذه

النار داخلك؟!!

_بل فعل!

تقولها طيف لتردف بحسرة خفية :

_أطفأ ناراً ..وأشعل أخرى!

ترمقها ديمة بنظرة متوجسة لتسأل بصوت مرتجف:

_لازلتِ تحبينه؟!!

فتطلق طيف ضحكة ساخرة وهي ترفع أحد حاجبيها

هاتفة بنبرة خطيرة :

_لو كنت لازلت أحبه تظنينني أحادثك عنه هكذا بهذه

البساطة؟! درس رقم أربعة ..الرجل الذي أحبه لا

أشارك تفاصيله مع أي امرأة سواي ولو كانت من

محارمه !

تعقد ديمة حاجبها بتعب حقيقي وهي تشعر أنها تكاد
تفقد وعيها من شدة هذا الدوار الذي يعصف بها ..
الأحداث السابقة كلها استنزفتها فلم تعد تميز الواقع
من الخيال ..

_ وهو الآخر لم يعد يحبني .. لو كانت هذه المعلومة
تهمك !

تقولها طيف بخبث لتشعب ملامح ديمة وهي تتراجع
بظهرها قبل أن تركض نحو بيتها تلاحقها نظرات
طيف المتسلية ..
والمشفقة !!

الحمقاء لا تريد الانتقام من حسام نفسه ..
هي فقط تراه مجرد انعكاس لصورة كل من آذاها !

تظن الانتقام سيريحها؟!

وهل تملك هي نفسها الجواب؟!؟!

تطلق زفرة ساخطة وهي ترى الظلام قد ملأ المكان ..

تسمع رنين هاتفها فتلتقطه من جيبها لتتسع عيناها

للحظة بمودة فطرية تحاول مداراتها خلف فضاظة

ردها وهي تفتح الاتصال:

_ خيراً يا حسناء؟! الرقم يشير أنك في مصر .. عدتِ

لأجل زهرة؟! ماسة أخبرتني أنها خرجت مع "حبيب

القلب جلاب المصائب" .. تريدن شيئاً آخر؟!!

كلماتها تتوالى متتابعة كأنها تمنعها الثرثرة وتقصر

الحديث فتتوقع منها اعتراضاً مرحاً لكن صوت

حسناً يبدو بانساً وهي ترد :

_ لا أعرف لماذا اتصلت بك أنت بالذات وأنا في هذا
الحال .. لكن ظني أنك تملكين قلباً طيباً خلف لسانك

الذي يشبه سكين جزار هذا !

فتمط طيف شفيتها باستياء هاتفة :

_ انظقي بدون مقدمات ..ماذا تريدین ؟!

تسمع صوت بكائها على الجانب الآخر من الاتصال

فيرق قلبها دون كلماتها التي ازدادت فظاظة :

_ لا! اسمعي! ما بي يكفيني! لو كنتِ تريدین البكاء

فادفني وجهك في وسادتك ولا تضيعي وقتي .

_ زهرة !

تقولها حسناء بين دموعها لتعقد طيف حاجبيها وهي

تسمع منها ما جعل قلبها ينتفض بهلع وهي تواجه

"هاجسها الأعظم" !

تفقد شعورها بالزمان والمكان وهي تشعر بالهواء
يختفي من رئتيها فجأة ليغص حلقها بمرارته وهي
تردد :

_ كلام فارغ! فلنلتقِ غداً صباحاً كي نتبين هذا
الأمر ..أهذا السبب عدتِ من "أبو ظبي"؟!
_أنهوا التعاقد معي بعدما علموا عما حدث لدكتور
جهد وعلاقتي به كما أنهوا التعاقد معه أيضاً ..تهمة
كهذه لن تزول رواسبها بمجرد إثبات براءة!
تقولها حسناء بأسف لتطلق طيف زفرة ساخطة
وسباباً غير مقصود أنهت به الاتصال بعد وعدها
بلقاء الغد .

تتلفت حولها بمزيج من أسى وغضب !

تتحني لتقطف بعضاً من عشب الحديقة ثم تمزقه
بأناملها مفرغة فيه غيظها لتدمع عيناها بألم وهي
تعود لتفحص الحديقة حولها بخوف لم تملكه ..
وحوش الظلمة تتربص أكثر .. فلتعد لصومعتها
الآمنة !

تمر في طريقها على غرفة الصغيرين اللذين كانا
يلعبان بانهماك فتكتسي نظراتها بحنان غامر .. وهي
تتصور مجد معها تشاركهما اللعب!
كيف ستقوى على ترك كل هذا الدفء هنا بعدما لاقته
!؟

ستفعل!

ستترك كل هذا خلفها !!

فقط يعود لها عاصي بالسندباد فتكسر له سفينته على

رأسه بعدما تجبره أن يخلع عباءة أسرارهِ !!

تسمع صوت رنين جرس الباب الذي فتحتهِ ماسة

لتعود لها بطرد ورقي مرسل هاتفية :

_ هذا لك !

تلتمع عينا طيف بلهفة وهي تتناوله منها لتعود به

لغرفتها ..

تفضهِ بسرعة لتستخرج منه محتواه ..

النسخ الأولى التي أرسلتها لها دار النشر من روايتها

الجديدة غير الرومانسية التي وعدت بكتابتها ..

يزداد وهج عينيها الشرس وهي تفتح أولى صفحاتها
لتقرأ الإهداء قبل أن تغلقه بسرعة ووجيب قلبها
يزداد شراسة .. واشتياقاً !



_ من الذي فعل بك هذا !؟

يهتف بها يحيى بجزع وهو يفتح باب الشقة لنزار
الذي بدت على وجهه آثار كدمة ما ليدخل الأخير
مغلقاً الباب خلفه وهو يتحسس وجهه قائلاً بمرح لم
يفقده :

_ واحدة عاكستها في الطريق فضربتني بحقيبتها !
يبتسم يحيى ابتساماً واهنة وهو يخبطه على كتفه
قائلاً :

_ "زعطوط"!!

لكن نزار يخرج هاتفه من جيبه ليرفع أحد حاجبيه

هاتفاً :

_ لا! اصبر! أخوك ليس سهلاً كذلك! لم أتركها حتى

حظيت برقم هاتفها ! "ما محبة إلا بعد عداوة!"!

_ وماذا بعد؟! ستبقى تضيع وقتك في الهزل هكذا؟!!

يقولها يحيى عاتباً ليرد نزار وهو يهز كتفيه :

_ يدي على كتفك .. هل رأيت منك جداً وقلت لا؟! أنت

الذي ترفض إزالة الصدأ عن مخك الماسي بعد

مغادرتنا ل"أبو ظبي" مكتفياً باجتراح الذكريات هنا

في بغداد !

يطرق يحيى برأسه دون رد ثم يتوجه لكرسي قريب
هزاز يجلس عليه مستسلماً لحركات جسده به صعوداً
وهبوطاً فيما يقترب منه نزار ليهدف بعتاب مرح:
_تترك واجهة الشرفة المظلة على "دجلة الخير"
وتجلس بكرسيك في مواجهة الحائط الكئيب هكذا!
أحياناً أسأل نفسي كيف احتملت صاحباً مثلك طوال
هذه السنوات!؟

لكن يحيى لا يرد وهو يشرد في الحائط المقابل ..
يشعر أن حياته كلها انتهت بحائط سد تماماً كهذا الذي
أمامه !!

_أين مجد!؟
يسأله نزار باهتمام ليرد يحيى عبر نبرته الشاردة :

_ العم "مؤيد" والعمة "رياحين" طلبا مني السماح
لها باللعب مع أحفادهما .

يقولها مشيراً لجيرانهما في الطابق السفلي ليبتسم
نزار قائلاً بمرحة الذي خالطه بعض الشجن:

_ تغيرت يا يحيى! صرت تسمح لها بمخالطة
الناس ..تظنها ستجد البديل عن طيف!؟

يرتجف قلبه لوقع الاسم على أذنيه لكنه يحافظ على
حركة كرسيه الرتيبة وهو يتجاهل تلميحه قائلاً :

_ هي الأخرى تغيرت ..لم تعد تخاف الغرباء ..صارت
أكثر حذراً إنما أقل خوفاً .

_ تظنها نستها!؟

يسأله نزار بحذر ليرد يحيى مستمراً في تجاهل

الحديث عنها :

_ مجد صارت أفضل ..ربما لأجل خلطتها
بالأطفال ..ربما لأجل عودتنا لبغداد ..وربما هي
فقط ..تتظاهر أمامي بهذا كي لا تضايقتي .
يرمقه نزار بنظرة طويلة متفحصة ثم ينحني ليجلس
على ركبتيه في مواجهته قائلاً :
_ لماذا تعمدت أن نعود لبغداد ؟!
_ ألا تعرف ؟!
_ أعرف ..لكنني أريد سماعها منك !
يقولها نزار محاولاً دفعه للحديث لعله يخرج من
دوامة حزنه هذه ..
ليرد يحيى مغمض العينين بنبرته الموصدة على
ظلماتها :

_عدت لنقطة البداية كي أشحن نفسي بذات الطاقة
لمواصلة طريقنا الذي بدأناه .. الطريق الذي لا عودة
منه .

يربت نزار على كتفه فيردف يحيى دون أن يفتح
عينيه :

_افتح حاسوبي !

يطيعه نزار لينعقد حاجباه وهو يميز صور المرأتين
اللتين يعرفهما جيداً ..

صور حديثة لهما في أماكن عدة ..

ليصله صوت يحيى جامداً كأنما قُدَّ من صخر .. إنما

كان هو وحده يدرك حمم الوجد التي تتدلع بين

حروفه :

كبرت! كلتاهما كبرت..كبرت دوني..أنا الذي ظننت
في وقت ما ألا يوم يمكن أن يمر لي أو لهما وأحدنا
بعيداً عن الآخر..كبرت إنما ليستا وحدهما..كبر
معهما الجرح..والخطيئة..ووشم النار على جسد
اكتوى به دونما ذنب!

لماذا تذكرهما يا يحيى؟! أما كنت قد نسيت؟!
يقولها نزار بمزيج من عتاب وضيق ليرد يحيى
بتتهيدة حارقة غادرت صدره الملتاع وناسبت قوله :
ظننت ! ظننت أني قد نسيت !

لم يكذ يتم عبارته حتى سمع صوت رنين الجرس
فنهض من مكانه ..

يسبقه نزار ليفتح الباب ليطالعه وجه العم مؤيد

بملامحه البشوش ونظراته الطيبة :

_ كيف حالك يا ابني!؟!

يتأثر نزار كعهده كلما رأى هذا الرجل بالذات ..

منذ سكنا هذه البناية وهو يشعر بضعف خاص

تجاهه ..

ربما لأنه يشبه أباه المصري شكلاً إنما بصبغة

عراقية محببة!

_ بخير يا عمي .. كيف حالك أنت!؟! والعمة رياحين

!؟!

_ والله صارت صحتها ضعيفة .. أخاف عليها أكثر من

خوفي على نفسي .. لا أظنني أستعيز ربي من شيء

كاستعادتي من يوم لا تكون جوارى فيه !

يقولها الرجل بعاطفة صادقة لا يتكلف مداراتها

فبيتسم نزار وتأثره بالرجل يزداد ..

لتهتف مجد التي دفعت كرسيها لتدخل :

_ انظر يا "بابا" ماذا أحضرت حفيدة الشيخ من

المكتبة؟! طيف هنا! انظر لصورتها!

تشحب ملامح يحيى فجأة وهو يميز الكتاب في يد

مجد ..

يهياً إليه أن الدم انسحب كاملاً من عروقه ليعود

ويضخ كاملاً في قلبه فحسب ..

لا يدري متى ولا كيف استقر الكتاب بين يديه

المرتجفتين ..

عيناه تعلقتا بصورتها التي توهج فيها "سديم

عينها" بتحدٍ قوي لم تخذله فيه!

يجف حلقه وهو يقرأ عنوان الرواية

(فلامنجو بثلاثة أقدام!)

هل هي الرواية غير الرومنسية التي وعدت بكتابتها

!؟

أم أنها سارت على نفس النهج القديم!؟

يقينه بها يخبره أن الاحتمال الأول أقرب!

_ تعرفون الكاتبة!؟ ابنة ابنتي مغرمة بها !

يقولها الشيخ ببعض الضجر ليبتسم نزار وهو يحاول

سحب كفة الحوار لاتجاه آخر:

_ التقيناها في إحدى سفرياتنا ..بلغ العمدة رياحين

السلام وأخبرها أنني أنني أنتظر قومتها بالسلامة كي

تحضر لي أكلة "الدولمة" و"كصّ الدجاج" و"زنود

الست" التي وعدتني بها !

يبتسم له الرجل بطيبة وهو يربت على كتفه لينساب

الحوار بينهما بسلاسة حتى يغادر الرجل البيت

فتهتف مجد بفرحة شابها شجن خفي:

_ العم مؤيد طيب.. وحلوة بغداد !

فتزيغ عينا نزار بحزن غريب على طبيعته المرححة

وهو يرد :

_ بغداد عروس الدنيا .. مهما زرنا من بلاد تبقى درة

التاج !

_ لن نغادرها إذن؟! لن نسافر من جديد!؟

سؤالها يلقي المزيد من الملح على جرح الصديقين ..

لكن نزار يتمالك نفسه وهو يدفع كرسيها للداخل

هاتفاً بمرح :

_ سمعتِ عن فيلمٍ "...."؟! يقولون إنه ممتاز! تعالي

كي نراه !

يقولها وهو يبتعد بها متعمداً كي يمنح يحيى مساحته

الخاصة التي شعر بحاجته إليها .

وفي مكانه وقف يحيى كمن يمسك مصيره بين

كفيه ..

كان يعلم أن العنقاء ستتهض من رماها بسرعة لم

تخذله فيها ..

لكن .. هذه الوخزة في صدره كيف يتجاوزها؟!!

تراها حقاً كرهته؟!!

نسيته بهذه السهولة ومضت في طريقها؟!!

بكل "إيثار عاشق" يتمنى لو تفعل!

وبكل "أنانية عاشق" يتمنى لو لم تفعل!

وحدها حلبة العشق ما يتصارع فيها الإيثار والأناية
بنفس القوة فلا ينتصر أحدهما مهما طالت المباراة !
ترتعد أنامله وهو يفتح الكتاب على صفحته الأولى:

"اهداء" ..

تضيّق عيناه بتفحص وهو يميز الصفحة الخالية في
مقدمة روايتها الجديدة تحت كلمة الإهداء !..

ترتجف سبابته وهو يقلب الصفحة ..

للتسع حدقاته مع كلماتها ويزداد اشتعال النار خلف

قضبان عينيه ..

(لا .. ليست خالية !

إنما ما يليق بك لا يصح أن تفضحه حروف ..

زعمت في آخر كلماتك لي أنك تبخرت من حياتي ..

وأؤكد لك أننا سنلتقي ..

كما أوكد لك أنك وقتها لن تكون أنت كما لن أكون أنا
أنا ..

ساعتها فقط ستفهم .. لماذا تركت صفحتك خالية ..

ستفهم .. وستندم!

(طيف "الرفاعي")

يقرأها مرات ومرات ..

يسمعها بصوتها .. يراها بالتماع سديم

عينيها .. يشمها برائحة خصلة شعرها التي غفت يوماً

بين كفيه .. يلمسها بنعومة عناق زرعها يوماً فوق

صدره ..

تباً لهذا الاشتياق الذي يكوي ضلوعه !!

كم عمر يكفيه كي ينسى امرأة كهذه !؟

تؤكد له أنهما سيلتقيان !؟

تعدّه .. أم تتوعده !!؟

الغريب أنه لم يتعجب كلماتها كأنما كتبتها بعقله هو!!

مهلاً !!

هل كتبت "طيف الرفاعي"!!؟

الرفاعي!! وليس الصالح!!

هذا هو الشيء الوحيد الذي يدعو للعجب هاهنا !!

ماذا تقصد !!؟

يزداد انعقاد حاجبيه وهو يشعر أنه لأول مرة لا

يفهمها !!

صوت رنين الجرس من جديد يقاطع أفكاره فيزفر

بضيق وهو، يتوقعه العم مؤيد أو أحد أحفاده ..

يفتح الباب لتفاجئه هذه الملامح الصارمة لرجال بدت

على ملامحهم عدائية لا تخطئها عين !

_ ماذا تريدون !؟

يهتف بها بصلاية وهو يضم قبضتيه متحفزاً في
وقفته لكنه لم يكد ينتهي منها حتى شعر بأقربهم
يدفعه ليسقطه أرضاً ..

يعرقل حركته بقدمه فيسقط جواره لينادي نزار لكن
هذه الهراوة الثقيلة تسقط على جانب رأسه لتتشوش
المرئيات في عينيه وهو يقبض على كتابها بأنامله ..
قبل أن تتراخي قبضته ليفقد وعيه تماماً !



الطيب العشرون



_ اريد أن أرى أولادي!

أخيراً يسمع ريان صوتها بعد أيام طويلة من الصمت

قضتها هنا في المشفى ..

ليتحص ملامحها بقلق والحزن يخنق خشونة

صوته:

_ فدوى! ألا تدركين ما أخبرتك به؟! لا تصدقين!؟!

عيناها زجاجيتان ترمقانه بهذه النظرة الشفافة التي

تبدو وكأنها تعبره دون أن تراه ..

يزعمون أنها نجت من الحادث .. أحقاً نجت!؟!

جسدها لا يزال يصرخ بالآلام تتجاهلها ..

وروحها هي الأخرى تصرخ بآلام أشد ..
وحده لسانها لا يقوى على الصراخ !
قضت نواميس الطبيعة أن الحزين حقا لا يتكلم !
العاشق يتكلم..الغاضب يتكلم..السعيد يتكلم ..
إنما وحده الحزن يخرسنا !
كفه القبيح يمتد بحناجرنا منتزعا منا الحروف ..
يغتصب من فرشاتنا الألوان ..
ويلقينا تائهيـن أمام بوابات مدينة لا تعترف بالخرس!
الا تبا لهذا اللعين الذي يسلبنا حتى القدرة على
البوح ..
بالله دع لي حرفا او بعض حرف ..
شظايا الجرح توشك أن تنال من الصدور المغلقة !
_ هل تسمعيني؟!

تعود لترمقه بهذه النظرة الشفافة دون أن ترد ..
فقط دموعها تنهمر كأنها تتبع من بر لا يجف !
دموعها صامتة مثلها ..مصدومة مثلها ..ضعيفة
مثلها ..
وخائنة مثله!

يطلق زفرة مشتعلة وهو ينتقل جوارها على الفراش
ليقول بنفس النبرة المختنقة :
_أعرف أن الصدمة كبيرة على كلينا ..لكن ..يجب أن
تتماسكي وتستعيدي عافيتك بسرعة ..الطبيب صرح
لك بالخروج كما أن ظروفنا المادية لا تسمح ببقائك
هنا في المشفى طويلاً!

تلتفت نحوه برأسها لتفحص ملامحه عبر هذا

القرب ..

عبارته لم تصدمها وهي تفضح أكثر ما يفكر فيه !

الظروف المادية!

أنفاسه معبقة برائحة الخيانة..

مصبوغة بلون الدم ..

حامضة بمذاق الخذلان ..

قلبها يلغنه ..

روحها تلغنه ..

كل ذرة من جسد -كان يوماً له- يلغنه ..

لكن شفيتها تبقيان مطبقتين ..

حارسين أمينين على حزن لا تسعه الدنيا كلها !

فدوى ! لا تنظري إليّ هكذا ! قلبي أي شيء!

يقولها بنبرة حادة وهو يخشى الاستسلام لشعوره

بالذنب من جديد ..

لن يقوى على جلد نفسه أكثر !

تغادر الفراش كأنما تمنحه مراده ..

جسدها الواهن يترنح مكانه فيسندها لكنها تدفعه

عنها بأنامل صارت تشمئز من لمساته ..

لا يلومها !

هو الآخر صار يأنف من لمسها !

بعض المحن يؤلف بين القلوب وبعضها يبذر الشوك

في طريق العفو فلا يعود إليه سبيل !

ينادي الممرضة ليخبرها عن نيتهما في المغادرة ثم

يتركهما لتساعدها في تبديل ملابسها ..

كابوس!

كابوس يجب أن يجبر نفسه ان يفيق من تفاصيله !
كيف يمكن هكذا أن يفقد أعلى ما كان يملكه في
غمضة عين؟!!

هاتفه يرن باسم جهاد فيغمض عينيه بألم وهو يصر
على تجاهل الرنين لآخره ..
لكن رسالته تصله :

أنا قلقٌ عليك ! أنت بخير؟! فدوى والأولاد بخير؟!!
لماذا لا ترد عليّ؟! أنا خرجت من السجن وقد ثبتت
براءتي!

شعورٌ بالخسة .. بالضالة .. بالحقارة يدق عظامه!!

إذن جهاد لم يعلم بعد !

لم يعلم بفجيئته .. ولا بغدره به!!

رغبة عارمة تجتاحه الآن أن يتصل به ..

أن يسمع صوت صديقه للمرة الأخيرة ..
أن يسمح له أن يواسيه ولو لآخر مرة ..
أن يسند ظهره لجدار صداقتهما لآخر لحظة قبل أن

ينقض بهما معاً!!

لماذا خان؟!

لا!

هو لم يخن!

هو كان فقط يرمم ثقب سفينته كي لا تغرق .. لم يكن

يعلم أن الطوفان سيقلبها بمن فيها!

يشعر بها خلفه فيلتفت نحوها ليجدها قد ارتدت واحداً

من ثيابها التي أحضرها لها من البيت إنما .. دون

حجاب ..

فيتذكر ما قاله البواب عن حالتها يوم الحادث ليهتف

بحق :

_ ارتدي حجابك لعل الله يسترنا ..كفانا ما حدث يوم

الحادث!

نظرتها الزجاجية لا تزال على حالها ..

تسمعه وهو يكيل لها الاتهامات من جديد ..

يهتف لها أن ما حدث لأولادهما عقاب لها من السماء

على تفريطها في حجابها وعدم رضاها ب"شرع

الله" في التعدد !

هل هذا هو "دينه" الذي يؤمن به والذي غيرت دينها

لأجله !؟

لا ترد ..!

تسمعه ولا ترد ..!

فقط أخيراً تفتح كفها الذي حوى دبله وخاتماً ذهبين
كانت ترتديهما يوم الحادث لتعطيه إياهما قائلة
بالفرنسية :

_كي تدفع ثمن إقامتي في المشفى!

صوتها الواهن على شحوبه يبدو له كصفحة قاسية
على صفحة رجولته !!

لقد توقع منها ثورة .. انهياراً .. تمرداً يليق بشخصية
قوية مثلها ..

لكن حالها الغريب هذا يثير المزيد من حيرته ..
و.. عاطفته!

ألا يزال يحبها؟!

السؤال يفجر المزيد من شظايا روحه ..

يغمض عينيه بألم وهو يشعر بصور أولاده تمر أمام

ناظريه تباعاً ..

أصواتهم وهم يتشاكسون بمرح أو يتشاجرون على

تفاهات كانت تثير غضبه ..

الآن يود لو يفقد صوتهم هذا بعمره كله!!

ألا يزال يحبها!؟

كيف وهو لا يعلم هل يرى على وجهها نسائم الغالين

الراجلين تؤنسه!؟

أم أشباحهم تصفعه بذنبه .. لا .. بل ذنبها هي ..

هي المجرمة ..

هي وليست هو !!

لهذا يتناول منها عطيتها بحدة وكأنه يرى هذا حقاً
طبيعياً له ليتحرك معها فيدفع حساب المشفى ثم يغادر
بها المكان .

_أريد أن أرى أولادي .

صوتها لا يزال على وهنه وهي تتحرك جواره ببطء
يناسب حالتها ..فيتوقف مكانه ليهتف بها بحدة وقلبه
يكاد ينفطر على مصابه في أولاده :

_بالله عليكِ توقي! توقي!

أولادنا ماتوا ..ماتوا ..

يغص حلقه بدموع كبتها ولا يزال فيقطع عبارته

رغماً عنه لتحقق هي في حمرة عينيه

البائستين ..الغاضبتين ..والخائنتين ..

ولا يزال صوتها يزرح تحت ثقل همه :

_أعرف ..أعرف..أقصد ..ما بقي منهم .

يشيح بوجهه وكلماتها تفجر الجرح الطازج لينزف

من جديد ..

يحاول ضمها إليه لكنها تبعد نافرة رغم وهن

حركتها ..

فيمسح عينيه وهو يعاود التحرك بها نحو سيارته

التي استقلتها معه ليقول بإشفاق جاف:

_لا داعي لهذا الآن ..لم تستعيدي عافيتك كاملة

بعد ..وربما تنهارين من جديد ..

لكنها تحدق في كفيه بنفس النظرة الزجاجية

متممة :

_دفنتهم بيديك هاتين؟! ودعتهم للمرة

الأخيرة ..لماذا لم أخطأ أنا بهذا الحق؟!!

يقبض كفيه رغماً عنه بألم يذبح حناياه ..
شفقته نحوها تحشوه بالمزيد من شعور الذنب
فيقاومه بالمزيد من القسوة :
_بل أنا من يفترض أن يحسدك .. أنتِ رأيتهم
لآخر مرة وهم أحياء .. أما أنا فرأيتهم موتى!
ربما لو كان طعنها بخنجر لما كان رد فعلها أكبر !!
ملامحها تتقلص بوجع ..
جسدها ينكمش على نفسه ..
الدم يغادر وجهها كأنما امتصه كل هذا الألم في
روحها ..
أنفاسها تتلاحق كأنها تجاهد لتتنفس الهواء ..
قبل أن تسكن رويداً رويداً لتتحول لأخرى رتيبة
راكدة ..

لنذهب!

فرنسيّتها الباردة تصفّعه من جديد فيتردد بين شفّفته
عليها وخوفه على نفسه ..

لكن أنانيّته تغلبه وهو يتحرك بها نحو المقابر ..
تتوقف أخيراً أمام مدافن أولادها فتبتسم ابتسامة
شاحبة وهي تغمض عينيها ..

ذراعها المرتجفان يحتضنان جسدها المترنح في
وقفته ..

شفّتها تتمتمان بأغنية فرنسية كانت تغنيها لهما
صغاراً كي يناموا ..

فلا يملك هو دموعه وهو يشعر أنها اختزلت سنينهما
معاً بغنوتها هذه ..
ماذا حدث لهما؟!!

كيف فقدتها وفقد نفسه في زحام الطريق!؟

_ فدوى .. فدوى .. توقي .. توقي .. كفى ..

لكنها لا تتوقف ..

صوتها يعلو بالغنوة أكثر ..

ذراعاها يرتجفان أكثر ..

جسدها يترنح أكثر ..

فلا يشعر بنفسه وهو يضمها إليه بقوة متجاهلاً

نفورها وهو يستجيب للحقيقة الواحدة الثابتة الآن ..

أن مصيبتهما في هذا الوقت واحدة !!

_ هذا ما كنت أخشاه ! ماذا تفعل مع هذه المجرمة!؟

الصوت الأنثوي الحاد خلفهما يجبرهما على

الالتفات فتميز هي ملامح زوجته الأخرى التي اقتربت

منه هاتفة بحدة:

_ ألم تطلقها؟! ألم تكتفٍ من حماقاتها؟! قتلت

أولادك ..ماذا تنتظر منها بعد الآن؟!

_ دعها ترحل .

تتمتم بها يولاند بخفوت وهي تغض عينيها لكن

ريان لا يسمعها وهو يندفع نحو زوجته هاتفاً بغضب:

_ ما الذي جاء بك إلى هنا؟! هل تراقبيني؟!

_ نعم أراقبك ! لن أسمح لمختلة كهذه أن تستغل

شفقتك وحزنك على أولادك كي تعيدك إليها من

جديد ..

_ دعها ترحل ..

لا تزال يولاند تتمتم بها بخفوت ..

ولا يزالان لا يسمعاها وسط هتافهما الحاد ..

_ هل تظنيني طفلاً تشدني امرأة وتجذبني أخرى؟!

_ ألم يحدث هذا من قبل؟!

_ اخرسي .. وعودي للبيت .. هذا ليس مكاناً للحديث .

_ لن أعود إلا بك .. لن أتركك معها ..

_ دعها ترحل .. دعها ترحل .. دعها ترحل ..

صوت يولاند الخفيض يعلو رويداً رويداً ليتحول

لصراخ هائج يقطع شجارهما أخيراً فيفاجأ ريان بها

تلقى بجسدها فوق جسد زوجته لتلقيها أرضاً .. تكتنف

رأسها بين كفيها فتخبطه في الأرض مرة تلو مرة

حتى تفقد المرأة وعيها ..

_ ماذا تفعلين يا مجنونة؟! يا إلهي!! أنتِ فقدتِ عقلك

حقاً!!

يهتف بها بحنق وهو ينحني ليبعدها عنها ثم يحاول
إفافة زوجته ..

فتستقيم يولاند بجسدها لتهتف بالفرنسية بين أنفاسها
اللاهثة :

قلت لك دعها ترحل .. لا أريدها أن تدنس "فراش"
أولادي ..خذها وامش من هنا .

يرفع وجهه المحتقن نحوها ..

فتتهشم نظرتها الزجاجية أخيراً لينفذ عبرها تيار
الكراهية منذراً بانتقام :

عندما استعدت وعيي بعد الحادث كانت كلماتك أول

ما خدش أذني ..(موتي ..موتي والحقي

بهم) ..وظالما كنت لك مطيعة ..فدوى ماتت ..ماتت

ولن تعود .. لكن يولاند ستعيش .. ستعيش لتذيقك أسوأ

كوابيسك .. وسترى !

=====

أحمر

=====

أمام المرأة في غرفة هبة الصغيرة تقف تتفحص

نفسها بثوب الزفاف ..

غداً ترتديه !

غداً تبدأ سمرا حياتها التي اختارتها مع الرجل الوحيد

الذي أحبته بصدق ..

عند خاطر الأخير تفتح الدرج القريب لتستخرج منه

الهوية الشخصية التي رفعتها أمام عينيها ..

لا .. ليست هوية يسرا ولا حتى سمرا ..

بل أخرى مزورة ببيانات غير حقيقية نجحت في

الحصول عليها بطريقتها !

مزورة!

كحياتها كلها هنا !

غصة الذنب تسد حلقها لكنها تحدث نفسها في

المرأة :

ما الضرر؟! ألا يحتمل أن يكون هذا الزيف هو

الحقيقة التي ستبني العمر القادم كله؟! حرام؟! لماذا

؟! أليس الزواج قبول وإشهار؟! وهو سيتجاوزني

أنا..بماذا سيشكل الاسم فارقاً؟!!

تخدع بها نفسها وهي تعيد البطاقة للدرج بأنامل

مرتجفة ثم تغلقه ببعض العنف كأنها تغلق معه باب

التفكير في عواقب ..

تعود لتفحص شكلها في المرآة ..

رابع ثوب زفاف ترتديه !

وكم تظلمنا الأرقام حين تجبرنا على دفع فواتير لم

نستمتع بما فيها ..

فقط وزرها يبقى على عواتقنا كدين ثقل !

ثوب زفافها من حسام كان بياضه مشوباً بخيوط

فضية ..

وذاك الخاص بفهد كان مطرزاً بخيوط ذهبية ..

أما ذاك الخاص بفادي فكان مرصعاً بالماس ..

كل ثوب منها كان أسطورة في تصميمه تحدث الناس

عنه لشهور بعدها ..

لكن هذا ..

هذا يبدو أبسطها !

اختارته ناصع البياض دون تطريز ..

اختارته بسيط التصميم دون كلفة في اتساع أو

انتفاش ..

اختارته يشبه حياتها التي تتمنى لو تدوم هنا ..

فقط جعلت لطرخته تاجاً من ورق الشجر المصنوع

من القماش الأخضر الفاتح والذي يشبه ورق النعناع

الذي أدمنت مذاقه ..

هذا الذي وضعته الآن فوق رأسها وهي تحاول

هزيمة دموع الخوف والذنب في عينيها بابتسامة ..

وددت لو تكوني معي يا أمي! لو تذكرين هذا اليوم

فقط ثم تعودني للنسيان كما تشائين .. مريضة أنتِ

بالنسيان ومريضة أنا بالذكري .

_ سمرا! ارتديتِ الفستان؟! دعيني أراه!
تهتف بها هبة من خلف الباب المغلق فتتمالك يسرا
نفسها وهي تأخذ نفساً عميقاً ثم تتحرك نحو الباب
لتفتحه ..

تفرد ذراعها باستعراض لتهتف هبة بانبهار:
_ ما شاء الله لا قوة إلا بالله! تعلمين؟! "القلب
غالب" كما يقولون! كنت معترضة علي الثوب
لبساطته لكنني الآن أراه يكاد ينطق عليك!
_ حقاً؟!

تقولها بدلال فطري وهي تدور حول نفسها لتضحك
هبة وهي تضمها إليها بحنان هاتفة:
_ مبارك حبيبتني!

لم تكذ تنتهي منها حتي سمعت رنين الجرس فتوجهت
إليه تفتحه لتفاجأ بابراهيم فتغلق الباب قليلاً كي لا
يرى يسرا هاتفه بمرح متحفظ لم يخلُ من عتاب :
_رجلك اعتادت على بيتي ! غداً تتزوجها وأتخلص
من تطفلك !

ليتحنح إبراهيم بحرج وهو يرد بهدوء مرح :
_بصراحة أنا ذاهب لمشوار ما ..وأردت أن أتدرب
على طقوس الزواج فقلت أستاذن زوجتي أولاً كأي
رجل محترم .

_ونعم الرجال !
ترفع بها إبهامها ثم تردف :

لكن سمرا تقيس ثوب الزفاف ولن تستطيع أن تراها
به قبل الغد ! يقولون إنه فال سيئ ..صحيح أنني لا
أومن بهذه الأمور لكنني أحب أن تفاجأ به غداً.
تلتمع عيناه بعاطفة هادرة وهو يسمع صوت يسرا
من خلف الباب تهتف بلهفة ممتزجة بدلالها :
_يمكنني أن أطل برأسي فحسب من خلف الباب كي
أمنحك الإذن بالخروج .

تمط هبة شفيتها ببعض الاستياء وهي تدخل للبيت
لتفسح لها المجال في الظهور ..ثم تبتعد للداخل ..
بينما تتسع عينا إبراهيم بافتتان وهو يميز وجهها
الفاتن ينافس لون طرحتها في إشراقته ..ولون التاج
الأخضر يلقي ظلالة فوق عينيها فتبدو له كحورية من
الجنة ..

كان حسن النساء كلهن هجر الدنيا واستوطن

عينيها !

_ لن تقول شيئاً ككل مرة ؟!

تهمس بها بدلال امتزج بعاطفتها وبعتاب تدرك انه

ليس حقيقياً ..

ربما لو كانت "يسرا القديمة" مكانها لضاقت ذرعاً

بتحفظه هذا وصمته عن مغازلتها ..

لكن "سمرا" تفهم!

تفهم سر هذه العاطفة العذراء الملجئة في عينيه

والتي لن يطلق سراحها إلا في حلال !!

_ غداً .. غداً أخبرك بكل ما أود قوله!

صوته المتحشرج يفضح تأثره بها فتبتسم وهي تسبل

جفنيها هامسة بغنج:

_ وأنا أنتظر.

ابتسامته -مستحدثة الكمال- تعانق ابتسامتها وهو

يقول بجدية:

_ سأذهب أولاً مع أبي للطبيب وبعدها ألبى دعوة

صديق لي على العشاء .

لم تركز مع النصف الثاني من عبارته وهي تهتف

بجزع حقيقي:

_ ماله "مستر ربيع"؟!!

تتسع ابتسامته لشعوره بخوفها الصادق على أبيه

والذي اشتعل في خضرة عينيها ليرد مطمئناً:

_ لا تقلقي ..إنه موعد كشفه الدوري فحسب

_ اليوم بالذات؟! وغداً يوم حفل زفافنا؟! لا ..أنت

تخفي عني شيئاً ! بالله عليك أخبرني هو بخير

تقولها بشك ملهوف ليرد مطمئناً:

_ صدقيني هو بخير .. هو اعتاد نوبات الألم هذه عندما

يهمل في الطعام أو يقصر في شرب الماء .

_ من الطبيب؟! انتظر لأبدل ملابسي وأتي

معكما .. أعرف طبيباً شهيراً ماهراً يمكننا أن نذهب

إليه .

_ اهدئي يا سمرا ! الأمر لا يستحق كل هذا

التوتر .. صدقيني .. كما أن أبي مرتاح مع طبيبه ولا

يميل لتغييره .

القلق يكاد يذبح عينيها بصورة متطرفة وقد بدأت

شفتاها في الارتجاف لتبدو له كطفلة مرتعبة فيقترب

منها خطوة هامساً:



_ تحببته لهذا الحد!؟

_ جداً! أحبه وأحبك وأحبكم كلكم جداً جداً ..

كلماتها تخرج عفوية هستيرية منفعة مختلطة

بدموعها فيشعر بصدقها يخترقه لأبعد حد!

_ لا تبكي! صدقيني الأمر لا يستحق كل هذا القلق!

_ احلف!

_ لا أحب الحلف هكذا دون مبرر قوي .

يقولها ليضعف أمام الدموع التي انهمرت من عينيها

بغزارة فيستغفر الله بصوت مسموع ليقول أخيراً:

_ أقسم أن الأمر بسيط ولا يتجاوز حدود كل مرة .

تسكن ملامحها رويداً رويداً مع دفء نظراته خاصة

وهو يردف بحنان خالط رجولته بمزيج شهوي:

_ لا تجعليني أندم أنني جنّتك وجعلتك تبكين ليلة
زفافنا .

تبتسم وهي تمسح دموعها لتقول بركة:

_ لا .. لا .. لم اعد أبكي ..هأنذا !

يميل رأسه محاولاً رؤية المزيد من ثوبها فتتشبث

بالباب وهي تمنع في الاختباء خلفه قائلة:

_ ومن هذا الصديق الذي يدعوك علي العشاء؟!!

_ تذكرين جهاد؟! ذاك الطبيب الفلسطيني الذي سجنك

يوماً لأجله؟!!

ينعقد حاجباها بتوجس وهي تراه يردف ببساطة:

_ ثبتت براءته وخرج من السجن ..كنت قد أخبرت

جنة أنني اريد زيارته لكنني انشغلت بتراتيبي

العرس .. وجدته يتصل بي منذ قليل يدعوني على
العشاء .. يبدو أن جنة أعطته رقمي .

يقشعر بدنها لذكر جنة وأاملها تزداد تشبثاً بالباب
لتغمغم بصوت شاحب:

_ علاقتك بجنة هذه قوية لهذا الحد!؟

_ تغارين!؟

يهمس بها بحنان مشاكس وهو يجد هذا التفسير
الأقرب لامتناع ملامحها هذا ..

فتغمض عينيها بقوة لتتهتف بانفعال :

_ لا تقل إنك دعوتها لحفل زفافنا .

يصمت للحظات دون رد فتعصر قبضة باردة قلبها
وهي تتصور لو حضرت جنة بالغد وتعرفت عليها ..

ستمنعها!

ستمنعها من الحضور بأي طريقة!

حتى ولو اضطرت لإرسال من يراقبها ويقطع عليها

طريق الحضور!

لكنه يرحمها من خوفها هذا وهو يرد أخيراً بشرود

امتزج بحزنه:

_ لا! لم أدعها ولا أظنها ستأتي حتى لو فعلت.. هي

بالذات آخر من أريد رؤيته غداً.. حتى تكتمل فرحتي.

_ لهذه الدرجة تكره رؤيتها!؟!

يتنهد بحرارة وهو يطرق برأسه مجيباً:

_ سبحان الله مقلب القلوب! قديماً كنت أحب

رؤيتها.. بالأدق كنت أحب رؤية أخي في

عينيها ..عينيها اللتين بقي حسن فيهما حياً
لسنوات ..والآن عندما أنظر إليها أتأكد أنه حقاً مات .
تدمع عيناها بتأثر وهي تري صوته يتهدج
باستطراده :

_هل جربتِ هذا الشعور؟! أن يموت أحدهم في عيون
الناس لكنه حي ينبض داخلك ..تريدين الصراخ في
الجميع أنه لم يموت ..فيكذبونك ..تصرخين فيهم أكثر
فيكذبونك أكثر ..حتى تأتي هذه اللحظة التي تصدقينهم
فيها ..لتدركي أنهم هم المصيبون وأنت المخطئة ..هو
حقاً مات لكن لم يموت وحده ..أخذ معه هذا الجزء من
روحك ..هذا الجزء الذي عاش به ومات معه .

ياالله!!

كيف أمكنه هكذا أن يصف شعورها يوم مات ابنها!؟

يوم حملته للمشفى رغم يقينها أنه مات لتصرخ

بالجميع أن ينقذوه ..

أنه لا يزال حياً..

أنه لن يموت .. أنها هي لن تموت معه ..

لكنهما ماتا ..

كلاهما مات معاً!

_يا إلهي ! أنتِ تكادين تسقطين!

يهتف بها بجزع وهو يراها تتهاوى على الباب لكنها

تفيق من سكرتها لتعدل في وقفها هاتفة :

_أنا بخير ..

ثم تغتصب ضحكة قصيرة وهي تمسح دموعها قائلة:

أنت فعلاً خطر علي في يوم كهذا ! لو كانت هذه
خطتك لأمنحك إذن الخروج كل مرة فلا تستأذن بعد
اليوم !

يبتسم بعفوية وهو يعانق ملامحها بحنان هامساً:
أسف! لكنك انتِ من بدأت ! يبدو أنك تغارين
بشدة .. وستعيبيني .

أبدأ..

تهمس بها بحرارة و"العندليب الأخرس" في عينيها
يشدو بلحن حزين .. صادق .. ضارع .. وواعد :
أعدك ألا أتعبك أبداً مادام الأمر في يدي .. أعدك أن
أعيش ما بقي من عمري
لأسعدك .

يرتجف جسده تأثراً بهذه العاطفة التي ذرقتها روحها

قبل كلماتها ..

لكن هذا لم يساو شيئاً أمام رعدته وهو يسمعها

تهمس بضراعة كأنما تتسول منه ما بقي من

روحها ..

_ وأنت أيضاً عدني .

_ بماذا؟!!

_ أن تسمع حين يسد الجميع آذانه .. أن تحنو حين

يقسون .. أن ترحم عندما يترجمون .. أن تبقى .. أن تبقى

حين لا يبقى أحد .

كلماتها لم تكن مجرد حروف ..

بل سهام من نور عرف كل منها طريقه إلي قلبه !

لم يبذُ له مجرد وعد تهمس به الشفاه في لحظة

صفا ..

إنما بدا وكأنه ميثاق يخصها هي وهو فحسب !
في هذه اللحظة بالذات يشعر وكأنه خرج بها من

حدود الزمان والمكان ..

كأنهما تحررا من جسديهما فلم يبق لهما سوى

روحين تتعانقان ..

لهذا لم يحس بنفسه وهو يقترب أكثر ليكرر عهدهما

بهمس دافئ كالأمان ..

مشتعل كالحب .. وأمين كوعد لا يقبل ان يخلف:

_ أعدك.. أعدك أن أسمع حين يسد الجميع آذانهم .. أن
أحنو حين يقسون .. أن أرحم حين يرحمون .. أن
أبقى .. أن أبقى حين لا يبقى أحد ..
تغمض عينيها بارتياح كمسافر طال سعيه وهاهنا فقط
وجد واحتة !

لتسمعه يضع ل "عهدهما" إضافته:

_ وأن أحبك كما لم يحبك أحد .. أي أحد !
عيناها تغيمان بدمع بين حب وخوف وهي تشعر أنها
تكاد تفقد وعيها من فرط جنون خفقاتها الآن ..
لكنه ينتبه لنفسه فيبتعد عنها بسرعة بينما يتهد
بحرارة قائلاً:

_ تأخرت علي "مستر ربيع" ! يجب أن

أنصرف !..يالله !! لماذا يبدو الغد بعيداً هكذا ؟!

تبتسم وهي تشاركه شعوره فيعاود الميل برأسه لعله

يرى المزيد من الثوب مردفاً:

_ واثقة انتِ أنه لا يمكنني رؤيته كاملاً؟!

تهز رأسها نفيماً بدلال ليهدف بالمزيد من المشاكسة:

_ آخر كلام؟!؟! لو رأيتَه غداً ولم يعجبني فلن أجعلك

ترتدينه وستحتملين النتائج!

_ سيعجبك!

تقولها بدلال عبر هزة من كتفها فتتوهج عيناه بتأثر

فطري لهذه الفتنة المشعة منها ..

_ أنا أضيع يا مستر ربيع!

يهتف بها بصوت مسموع وهو يبسط راحته على

جانب رأسه بمرح لتعلو ضحكتها وهي تراه يبتعد

بظهره عدة خطوات ..

لكنها تهتف باسمه فجأة :

_إبراهيم .

يقفز إليها فجأة كأنه لم يحتج سوى لنداء كهذا

فتهمس له بحيرة :

_أخبرني فقط بجواب هذا السؤال ..لماذا اخترتني أنا

!؟ لماذا أنا !؟

ابتسامة على شفثيه لا تشبه أي ابتسامة رأتها من

قبل ..

ابتسامة بدت لها كمرآة انعكست لها فيها أجمل

صورها وهو يمنحها الجواب :

_لأنك أنتِ ! وكان نصيبي في الهوى كان مدخراً

بخزائنك ..منتظراً أن يقال له فوق جبينك :

كن ..ليكون !



=====

=====

برتقالي

=====

_ أنت واثق أنه هو !؟!

صوتها الذي طالما شهد قوة عنفوانه يرتجف
الآن هذه الارتجافة التي تجعله يود لو يضمها لصدره
لكن عاصي يكتفي بنظرة عميقة لملامحها بينما
تحافظ ملامحه على برود اقتضابها:

_ اسمه ليس يحيى العراقي.. اسمه الحقيقي يحيى
الأمين .. أبوه كان من أكبر رجال الأعمال في بغداد
لكنه توفي منذ سنوات وترك له إرثاً ضخماً كان يديره
عمه مع أمه .. ورغم اختفائه المفاجئ من بغداد
وقطيعة لعائلته لسنوات طالت لكن صحيفته الجنائية
نظيفة تماماً .. عائلته التي تعتبره الابن الضال
المنتظرة عودته كي يرث امبراطورية أبيه خاصة بعد
تورط عمه في قضية يزعمون أنها ملفقة لكن الأدلة
كلها كانت ضده فألقي في السجن منذ فترة ويبدو أن
هذا ما جعل الابن الضال يعود أخيراً لبغداد لزيارته
في الحبس وقتها .
تشرذ طيف ببصرها وهي تتذكر زيارة يحيى تلك
لبغداد ..

**بابا يقول إن بغداد كالشمس ضوءها يدفئنا لكن لو
اقتربنا منها نحترق ..**

تتذكرها بصوت مجد وقتها فينعقد حاجباها بشدة وهي
تتذكر حاله عقب عودته بعدها .. انطفاء ملامحه .. تهدل
كتفيه .. تلك النظرة الغريبة التي رمقها بها وقتها وهو
يراها تعانق مجد .. قربه الغريب منها هي ليلتها
واحتفال عيد ميلادها .. وقفة الشرفة .. هديته .. وأخيراً
تلك ال "تدلي" التي سقتها بماء بحر لا يروي ..

ركزي يا طيف!

أزيحي العواطف جانباً الآن!

ليس بعد !

ليس قبل أن تكسري كل قضبان عينيه وتحري كل

أسرى أفكاره !

إذن هو قد عاد وقتها من زيارة عمه في السجن ؟!

لماذا يزعم إذن أنه نصاب مادام بهذا الثراء ؟!

هل أخطأ عاصي الرجل ؟!

_ واثق أنه هو ؟!

من جديد تكرر السؤال وصوتها يزداد ارتجافاً بهذه

الدمعة التي ترقرت في عينها ليرد عاصي بنبرته

المهيمنة:

_ بل أنا من أسألك .. واثقة أنت أنه هو ؟!

يقولها وهو يستخرج هاتفه ليفتحه على صورة رفعها

أمامها لتتسع عيناها وقلبها يخفق بجنون مع ملامح

صورة الرجل أمامها ..

حلق لحيته وشاربه وصبغ شعره بالأسود ليتغير

شكله خاصة مع تصفيفته هذه التي تجعله شديد

القصر ..

"خصلتها البيضاء العزيرة" التي طالما تمت لمسها

اختفت ..

راحت مع ما راح !

_هو.

تقولها بصوت متحشرج غص به حلقها وهي تشيح

بوجهها نحو الطريق الذي كانت تنهبه السيارة بهما

نهباً ومع هذا كانت تشعر أنهما يتحركان ببطء مع كل

هذه اللفة في صدرها ..

أخيراً ستنفذ وعدا له .. ولنفسها قبله !

أخيراً ستلقاه!

_الطفلة؟!!

تسأله باقتضاب يشبه اقتضابه ليرد :

_أبوها اسمه يحيى العراقي مات في السجن بعد
القبض عليه في قضية نصب ..لكن يحيى الأمين ذاك
زور أوراقها ليسافر بها علي أنها ابنته مستغلاً وفاة
أبيها وتخلي أمها عنها وكونها بعدهما بلا أهل .

_وما علاقته بها؟!!

يرفع حاجبيه بجهل ليرد :

_قريباً يمكننا المعرفة ..هانت ..نحن في الطريق.

_هي بخير؟!!

صوتها يفضح عاطفة حقيقية تجعله يهز رأسه

مطمئناً بجوابه المقتضب:

_ثلاثتهم بخير.

_ كيف وصلت إليهم؟!

تسأله بفضول ليرد بشرود :

_ أنت لا تعلمين شيئاً عن عالمي القديم .. الدنيا كلها تبدو كقرية صغيرة تديرها أصابع معروفة .. طرقها الصغيرة متشعبة إنما تتلاقى في نقط بعينها .. هذه النقط التي أزعم أنه كانت لي فيها يوماً يد طولى .. لم يكن من السهل تتبعه خاصة وقد غادر بهوية وشكل مختلفين .. لكن لي أحد المعارف ذوي النفوذ تمكن من المساعدة.

تزدرد ريقها بتوتر رغم تعمدها الظهور بهذا المظهر

الواثق:

_ أنت تحدثت إليه؟!

يطيل النظر إليها بنظرة غامضة لم تفهما ثم يرد

بنفس النبرة المقتضبة:

_ وعدتك أن تتحدثي معه أنت أولاً ..

ثم قست نبرته أكثر باستطراده وهو يتحسس مسدسه

في جيب سترته :

_ وبعدها أسوي أنا حسابي معه دون أن تتدخلي .

يقولها مميزاً خوفاً في عينيها .. ليس على نفسها بل

على ذاك الرجل فينعقد حاجباه بالمزيد من

الغموض .. لتسحب هي بعدها فتشرد في الطريق من

جديد تعيد ترتيب أوراقها بعدما عرفتة ..

هاهو ذا السندباد عاد إليها قسراً وهاهي ذي فرصتها

لتستكشف معه أسرار سفينته .. ثم تكسرهما فوق

رأسه!

انتقام؟!!

هل تخطط حقاً للانتقام؟!!

(احذر ما تتمناه فربما عندما تصل لآخر الطريق

تكتشف أنك كنت ضالاً)

تذكر يوم قالتها في نهاية طريق انتقامها من حسام ..

فهل حقاً تعلمت الدرس؟!!

(طيف يحيي) هل تختلف عن (طيف حسام)؟!!

_وصلنا.

يقولها عاصي لينتزعها من أفكارها فتنتبه لتوقف

السيارة بهما في هذا المكان المنعزل الذي احتضن

مبنى مهجوراً بدأ أنه وجهتهما !

_ابق هنا .. سأدخل له وحدي .. أنت وعدتني.

تقولها ببعض الشراسة التي لم تفلح في إطفاء عاطفة
حقيقية شعت في محياها ..

ليرمقها عاصي بنظرة طويلة غامضة سبقت هزة
رأسه وهو يشير نحو أحد رجاله الذين يحرسون
المبنى فيقترب منه الرجل ليعطيه أوامره باصطحاب
طيف للداخل ..

يراقبها بتمعن حتى تختفي عن ناظريه فيقترب منه
رجلٌ آخر من حراسه ليهمس له الأخير :

_ كل شيء معد كما طلبت سيدي .

يصرفه عاصي بعيداً بحركة من رأسه ثم تشتعل
غابات الزيتون في عينيه ببطء وهو يتحسس مسدسه
من جديد ..

قبل أن يفتح حاسوبه المحمول لتتلاعب أنامله على

الشاشة للحظات ..

ينعقد حاجباه بتركيز وهو يرى يحيى في محبسه

ليكمل متابعة المشهد الآن "حياً" دون مجال لكذب

أو تدليس ..

اللقاء الذي ينتظره على جمر بين أخته وذاك الغريب!

=====

في محبسه يدور كوحش حبيس وهو يخبط قبضتيه

ببعضهما يحاول فهم ما يحدث ..

هؤلاء الذين اختطفوه في بغداد لم يمنحوه أي معلومة

منذ استعاد وعيه هناك سوى تهديده بمجد وأمرهم

إياه أن يطيعهم في أوامرهم بالعودة لمصر ..

ولم يكد يصل بصحبتهم حتى فوجئ بهم يحبسونه

هنا!

مجد!

ماذا عساهم فعلوا بها؟!

يقولون إنها كذلك جاءت مصر مع نزار لكنهم لم

يسمحوا له برؤية أحدهما!

ماذا يريدون؟

مالاً؟! ولماذا لم يطلبوها في بغداد؟!

انتقاماً؟! لمن؟! ولماذا مصر؟!

هو لا يذكر له عداوة بأحدهم هنا!

(طيف الرفاعي)!

الفكرة تسطع في ذهنه فجأة!

رباه!

معقول!؟

لهذا وقعت باسم (الرفاعي) وليس (الصالح) كما

اعتادت!

هل كانت رسالتها له!؟

لا..!

طيف لا تفعلها!

لن تعود لأخيها بخيبتها ترجو دعمه!

(وأؤكد لك أنك وقتها لن تكون أنت.. كما لن أكون أنا

أنا)

هل هذا ما كانت تقصده في توقيعها!؟

الباب يفتح فجأة فيلتفت نحوه بحدة وهو يهم
بالانقراض على الحارس لكنه يتوقف مكانه وهو
يراها خلفه !

النظرة الأولى خنجر!

خنجر مسموم يصب النار بين ضلوعه!!
يغمض عينيه بقوة للحظة وهو يكذب عينيه اللتين
قتلتها رؤيتها ..قتلتها وأحيتها في لحظة آلاف
المرات!

يُكذِّبُ أنفه الذي طارد رائحتها بإدمان منتشٍ أدرك أن
ليس له بسواها اكتفاء !

يُكذِّبُ كل ذرة من جسده تفاعلت معها بهذه الكيمياء

الخاصة التي لم تسبقها إليه امرأة سواها!

فليكن كل هذا كذباً!

ولتبقَ حقيقته كسندباد ضال في بحار لن تعرف

لشطانها هي سبيلاً!

_افتح عينيك!

تهدر بها بقوة تليق بكليهما فيفتح عينيه بحدة فجأة
ليدرك أن الباب قد أغلق خلفها وقد صاروا وحدهما ..

سديم عينها مشتعل بفوضى تشبهها .. وتشبهه!
لكن قضبان عينيه تزار متوعدة بالمزيد من الكتمان ..
يبتلع كل مرارته وخزيه باقتدار ليرسم على شفثيه
ابتسامة جانبية ماهرة وهو يرفع رأسه بحركة واثقة:

_قصصتِ شعرك .. تماماً كما توقعت!

لكنها تقترب أكثر ..

تتلذذ بهذا الاشتياق الذي يلمع في عينيه ويعجز عن

مداراته خلف هذه الواجهة الساخرة !

تغرس نظراتها القوية في أرض عينيه فتزلزلها ..

ترجها وترتج معها ..

تقترب أكثر وأكثر حتى لا يكاد يفصل بينهما سوى

حريق الأنفاس المنفصلة لتقول بنبرتها الفتية التي

مزجت تهكمها بمرارتها:

_ لكنك لم تتوقع أبداً أن ألبأ لعاصي الرفاعي .. لا تنكر

أنني فاجأتك.

عيناه تثبتان في مواجهتها بقوة تليق بكليهما للحظات

قبل أن يغمغم ببطء كأنه يدرس رد فعلها :

_ صحيح! لم أعرفك يوماً تلك المرأة مهیضة الجناح

التي تبحث عن أحدهم كي يعيد لها حقها .

_ ساذج! لو كنتُ تركت عاصي الرفاعي يأخذ لي حقي

- كما تزعم- لكنت أنت الآن جثة تحت التراب ..

سخريتها تمتزج بالمزيد من الشراسة وهي تردف

بينما ترفع قبضتها في وجهه:

_ حقي سأخذه بيدي .. عهدٌ علي أن أفعلها .

_ لا حاجة بك لهذا! لا حقوق لك عندي! مالك محفوظ

باسمك .

_ مال؟! وهل كان ما بيننا مجرد مال؟!!

حدثها تقابل بروده المصطنع وهو يهز كتفيه بقوله:

_ نصاب سرق مالك وأعادته!

لكنها لم تبدُ متفاجئة وكأنها كانت تتوقع شيئاً كهذا بل

امتدت قبضتها فجأة لتجذبه من قميصه نحوها هاتفة

بشراسة:

_ فلتكن نصاباً .. فلتكن لصاً .. فلتكن حتى عفريتاً
أزرق، لكن ما بيننا كان حقيقياً .. ما بيننا لم يكن
كذباً !

هتافها يصل حد الصراخ في عبارتها الأخيرة فيكز
على أسنانه بقوة تكاد تحطمها ليعود ويغمض عينيه
بقوة وهو يراها تجهض كل محاولاته في التصنع ..
كتفاه يتهدلان فجأة كأنما لم يعد يحتمل ثقل الوزر
عليهما ..

_ ماذا تريدان؟!!

_ وعدك لي آخر مرة تلاقينا فيها .. أن تخبرني عن
ماضيك !

_ وماذا يجبرني أن أفي بهذا الوعد الآن؟!!

يقولها بخفوت مراوغ دون أن يفتح عينيه لكنها
تطلق صوتاً ساخراً وهي تشير نحو الخارج هاتفة:
_ ذاك الرجل بالخارج .. عاصي الرفاعي .. تدري من

يكون وماذا بوسعه أن يفعل!؟!

يفتح عينيه بنظرة متحدية ليرد :

_ أنتِ كذلك لا تعلمين من أكون في بلدي وماذا

بوسعي أن أفعل لو أردت .

تجاهل عبارته تماماً وهي تستطرد كأن لم تسمعه:

_ تعلم ماذا أخبرت عاصي عنك!؟!

تضيق عيناه بتساؤل لتخفض صوتها وهي ترد بنفس

الغنفوان الشامت:

_ أنك اعتديت على عرضي!

يحمر وجهه بانفعالٍ طاغٍ للحظة استوعب فيها
صدمته قبل أن يلوح بكفيه في وجهها هاتفاً بغضب:
_ يا مجنونة! كيف سولت لك نفسك هذه الكذبة؟!
كيف؟!!

_ أخفض صوتك!

تقولها صارمة ثم تتوجه نحو الباب لتفتحه ،تتأكد من
خلو المكان ثم تغلقه لتعود إليه فيهتف بحدة:
_ أنت حتماً مجنونة! يمكنني إنكار كذبتك هذه ومن
السهل كشف الحقيقة لأخيك.

لكنها تلوح بسبابتها في وجهه قائلة :

_ تجراً وافعلها ..وسألقيك في السجن ..ربما تكون
نصاباً ماهراً ولا تترك دليل إدانة خلفك ..لكن تبقى

هناك مجد .. أوراق أبوتك لها مزورة .. يمكنني كذلك
إخبارها بحقيقتك القدرة وحرمانك منها طوال العمر .
يزداد انعقاد حاجبيه وهو يراها تقترب أكثر مردفة:

_ عهدي بك أنك رجل ذكي .. هيا يا سيد يحيى .. أم

تراني أشجعك فأخبرك باسمك الحقيقي !؟

يزدرد ريقه الجاف بتوتر لتضييق عيناها هي

باستطرادها :

_ يحيى الأمين .

تشحب ملامحه كأنما نسي وقع الاسم على أذنيه !

تباً!

كأنه يعيش الآن أسوأ كوابيسه!

يوماً ما كان قد انتوى أن يخبرها عن ماضيه ..

أن يقطع منه صوراً محتفظاً لنفسه بالأسوأ ..وقد ظن

هذا وقتها سهلاً ..

لكن الآن ؟!

الآن ..كيف يفعلها وهو بهذا الوهن ؟!

كيف يعري سواة ماضيه أمام امرأة عادت لتنتقم ؟!

تلتقي عيناه بعينيها في هذه اللحظة وكأنما فهمت

بحدسها ما يفكر فيه ..

تتذكر اخر لقاء بينهما قبل أن يتركها ويرحل ..

تتذكر كلماتها وقتها :

_أريد أن أسمع! ..أحتاج أن أسمع! ..أشتاق أن

أسمع! ..أنا عشت كل هذا العمر أسد أذني ..تعرف

هذا الشعور؟! أن تجبر نفسك أن تعيش عمرك مسدود
الأذنين فاقداً لشغف الإنصات؟! تخاف أن يخدش
سمعك صوت تحبه أو حتى تكرهه؟! يرضيك أو
يوجعك؟! تخاف مجرد أن تتأثر فتحتاج فتُخذل؟! ما
حاجتي فيك لو وجدتك أنت الآخر تسد أذني؟!!

_ أنا مثلك ! لكنني لم أسمعك يوماً بأذني ! فاسمعيني
كما سمعتك !

تبتسم بشحوب لمرارة الذكري وهي تتذكر يومها وقد
وقف كلاهما يسد أذني صاحبه مكتفياً بسماع همس
روحه ..

فيرتجف صوتها وهي تواجهه بنظرة عاتبة أخفضت
أسوار التحدي بينهما قليلاً :

_ أعدك ألا أسمعك باذني فقط .. كما كان بيننا آخر

مرة .

تراوده الذكرى ذاتها في نفس الوقت فيجتاحه شعوره

الكاسح نحوها ..

يشعر بذراعيه يرتفعان نحوها دون وعي كأنه سيهم

باحضانها وليكن ما يكون ..

لكنه يعود ليخفضهما قسراً ثم يعطيها ظهره

قائلاً بنبرته التي لم تفقد قوتها رغم الألم الذي تسرب

عبر شقوقها:

_ لماذا؟! لماذا تصرين على النبش في قبور ماضيّ

؟! لماذا لا تتركينني وشأني؟! لماذا لا تكرهينني

فحسب ثم تمضين في طريقك؟!!

_ أنا فعلاً أكرهك !

تقولها كاذبة لكنها تتقن الادعاء وهي تردف :
_ لا شيء يمنحك عذراً فيما جعلتني أشعر به .. لا
شيء .. فلا تظن ما ستحكيه سيغير من الأمر
شيئاً .. أنا أكرهك قبل أن أفهم وسأبقى أكرهك بعد أن
أفهم .. لكنني لن أتنازل عن حقي في أن أفهم !
_ وبعدها تتركيني وشأني مع مجد ؟!
يقولها من فوق كتفيه وهو يلتفت برأسه نحوها بعد
صمت قصير حاول فيه لملمة شتاته ..
لتومئ برأسها فيما يشبه الوعد فيتحرك مبتعداً نحو
الحائط القريب يواجهه ..
لماذا لا يبوح لها بسره لعله يزيحه قليلاً عن كاهله ؟!
لعلها تكرهه أكثر كما تزعم !
لعلها تتركه لشتات سفينته في بحر دون شيطان !..



يقترّب من الجدار أكثر يكاد يلاصقه كأنما يطارد علي

طلائه المتشقق جحيم ماضيه ..

سبابته تمتد لتلامسه .. ترسم دوائر .. دوائر .. تتسع

وتتسع ..

حتى يشعر بها تبتلعه فيفيض البوح غامراً دون

انقطاع ..

يحيى الأمين .. ابن واحد من أكبر رجال الأعمال في

بغداد .. نشأت في حي المنصور كأروع مثال لما يمكن

أن تحمله الحياة

لأحدهم .. الوسامة .. المال .. النفوذ .. الترابط

الأسري .. أب يحبني بجنون - وقد كنت وحيداً - لا يعيبه

سوي فرط انشغاله .. أم رائعة حنون مثالية لا يعيبها

سوي أنها تريد دوماً أن تكون المسيطرة على كل

الأمر .. عائلة كبيرة تعدني لأكون خليفتها .. حياتي
كلها كانت سلسلة من طلبات مجابة .. لا
مستحيل .. حتي عندما طلبت أن أكمل تعليمي بالخارج
بعد تخرجي ورغم رفض الجميع لاغترابي لكنهم
رضخوا في النهاية .. جنة حقيقية عشت فيها سنوات
عمري الأولى في بغداد .. عقل يشيد الجميع
بذكائه .. وقلب امتلأ عن آخره
بالحب .. عائلتي .. أبي .. أمي .. و .. هي ..
يتحسرج صوته رغماً عنه في الكلمة الأخيرة فتأهب
حواسها بغيرة لا تستطيع التحكم فيها ..
تقبض كفيها بقوة خشية أن ينفلتا فتخمش ظهره
بأظافرها عقاباً علي ذكره امرأة سواها ..

لكنها تزم شفيتها قسراً وهي تتركه لبوحه مكتفية
بالاستماع عبر المسافة "الآمنة" بينهما ..
_ "سراب" ابنة عمي .. حب طفولتي ومراهقتي
وشبابي .. لا أذكر أنني يوماً رأيت لنفسي امرأة
غيرها .. كانت صديقتي وابنتي وحببتي وزوجة الغد
التي لم أتصور يوماً أن تحمل هذا اللقب
سواها .. حاولت خطبتها قبل سفري لكنني
صدمت .. الفتى المدلل صدم بأول "لا" تقال له في
حياته .. رفض عمي رفضاً باتاً ومنعني من
رؤيتها .. وفي نفس الفترة توفي أبي فرأيت تأجيل كل
شيء لحين عودتي من السفر ..
ينعقد حاجباها بمزيج من ضيق وغيره وهي تتصور
السيناريو التقليدي .. عاد من السفر فوجد حبيبته

استمعت لأوامر أبيها وتزوجت غيره لهذا كره النساء

كلهن وراهن رمزاً للخديعة !

فيما كان هو غارقاً في جحيم البحر الغادر ..

صوت زجاجة العطر لايزال يدوي في أذنه كيومها

وهي تسقط من يده لتتحطم ..

لونها الأحمر يصبغ كل شيء حوله ..

المقبض الذي اشتدت عليه أنامله ..

الباب الذي تهاوى عليه ظهره ..

لن يبالغ لو زعم أنه إلى الآن لايزال يهوي !!

جرحٌ كهذا يبقى طوال العمر جمرة بين الضلوع

لا تقل إن أخبار حبيبك انقطعت فعدت من السفر

لتجدها قد تزوجت !

تقولها وقد ضاقت ذرعاً بطول سكوته ليطلق ضحكة
ساخرة قصيرة مكتومة ثم يصمت للحظات أخرى
متجاهلاً عبارتها قبل أن يعاود نزيف بوحه :
_ لم ينقطع حديثنا طوال فترة سفري .. لكن شيئاً فيها
كان قد تغيّر .. تباعدت كأنها لم تكن يوماً رفيقة
العمر .. سألتها مراراً فتهربت .. حتى أرسلت لي
رسالة يوماً أنها ضاقت بموقفنا المائع وأنها تريدني
أن أعاود محادثة عمي بشأننا .. وبالفعل عدت ..
يرتعش صوته رعشة قوية مع هذا الانفعال الذي
ارجف جسده كله وسبابته تتحرك بعصبية أكثر علي
الجدار مع ارتفاع وتيرة صوته :

_ عدت مباشرة من المطار على مكتب شركة العائلة
التي يديرها عمي منتوياً مفاجأته وإخباره أنه أول من
حرصت أن أراه عقب عودتي ..
يقطع حديثه والمشهد الذي طالما ذبحة يتراعى الآن
له طازجاً بمذاق الجرح ..:

_ عمي بالداخل !؟

قالها همساً لسكرتيرته التي هشت ملامحها برويته
لكنه أشار لها بالصمت وهو يراها تومئ برأسها
إيجاباً قبل أن يشير لها بالانصراف ..
فتح حقيبته ليستخرج منها زجاجة العطر التي
أحضرها له خصيصاً من الخارج وقد تم تركيب
عطرها الفخم المميز بهذا اللون الأحمر القاني ..

_ لعلك ترضى يا عمنا .. ووافق أنت فقط وسأغرقك

بالعطر الذي تحبه!

يهمس بها لنفسه بسذاجة -تضحكه قهراً الآن- وهو

يقترّب ببطء من الباب ليصله صوت مألوف من

الداخل ..

_ أمي أيضاً هنا ! ستكون فرصة للضغط عليه .

يقولها لنفسه بالمزيد من السذاجة وهو يهم بطرق

الباب للدخول لكنه يصطدم بقول أمه :

_ زوّج سراب بسرعة قبل عودة يحيى! لا أريد النبش

في هذا الموضوع .

انعقد حاجباه شاعراً بالغدر لكن الغدر الحقيقي كان

فيما سمعه بعدها :

_تظنينني أنا السعيد بهذا الأمر مثلاً؟! ياالله! ألم يجد
سواها من بين كل البنات؟! لكن لا تقلقي ..ابنتي في
جيبى ..أنا تقريباً أقنعتها بالموافقة على
العريس ..سنضع يحيى أمام الأمر الواقع .
_معك حق ..يحيى عنيد ولن يحل الأمر إلا بهذه
الطريقة ..أنا فقط أخاف عليه من كسرة قلبه!
_كسرة قلبه أهون من معرفته الحقيقة .
أرهف سمعه بشدة وهو يشعر بهما يخفضان
صوتيهما حد الهمس ففتح الباب برفق فتحة صغيرة
ليصله صوتها بوضوح أكبر رغم خفوته :
_كان يجب أن أبعد عنها منذ صغرهما ..كان يجب أن
أفهم ان مشاعره ناحيتها تتطور قبل فوات
الأوان ..كيف غفلت عن هذا؟! كيف تركت ذنبنا

يدنسه هو؟! أنا خائفة..مرعوبة..ماذا لو تزوجها
دون علمنا؟! كيف سنسكت عن هذا الجرم؟! هل
سيكشف سترنا بعد كل هذه السنوات؟!
توقف قلبه عن النبض للحظة وهو يحاول تكذيب ما
تبادر لذهنه..

لكن عمه لا يدع مجالاً للشك وكفه يمتد ليربت على
كف المرأة قائلاً :

_ لا تخافي! لن أسمح لهذا بالحدوث أبداً..هو ابني
وهي ابنتي..هما أخوان ولن تحيد علاقتهما عن هذا
حتى ولو لم يعرفا حقيقة كونهما هكذا فعلاً.

صرخة خائفة تشق حلق طيف وهي تستمع منه

لتفاصيل الموقف الأخير..

صرخة تكتمها بأناملها وهي عاجزة عن التصديق!

توأم روحه!

لهذا كان يدعوها توأم روحه!

هو ابن غير شرعي..مثلها !!

صمتٌ ثقيل يسود بينهما لوقت غفل كلاهما عن

عدّه ..

لا يزال يعطيها ظهره وسبابته تدور على الحائط

بنفس الحركة الرتيبة ..

إنما صارت إظفره ما ينغرس على الطلاء يزيله دون

وعي ..

لم يعد يرى حائطاً ..

لم يعد يري سوى نفس المشهد الذي ذبحه منذ

أعوام ..

فقط عندما نطق أخيراً كانت كلماته ترتعش
بغضب ..بألم ..ولأول مرة في عمرها تفهم كيف يمكن
أن تنزف الحروف!

تماماً كما فهمت! علمت الآن لماذا انجذبت إليك منذ
اعترفت بحقيقتك يوم الندوة؟! علمت لماذا كنت أقول
أنا توأمان؟! غير أنك استطعت الفرار من لعنة
اسمك أما أنا ..فلا!

خيّط من الدمع العزيز يسيل على وجنتيها ورغم
يقينها أنه لا يراها وقد أعطاها ظهره لكنها أعطته
ظهرها كذلك لتمسح وجهها بأنامل مرتجفة ..
ولو في أشد خيالاتها جموحاً لم تتوقع أن تكون هذه
الحكاية!

أمه خانت أباه مع عمه!

حبيبة عمره التي كان يعد نفسه للزواج منها ..أخته !
لكنه يبدو وكأنه انفصل في عالم آخر وهو يزيح
المزيد من جبال الذكرى ..

_ هكذا في غمضة عين ! صار الشاب المدلل الحسيب
النسيب مجرد "ابن حرام" ..صار أبي الميت ساذجاً
مخدوعاً ..صار عمي أبي وعدوي ..صارت أمي
خائنة ..وصارت حبيبتي أختي ..أختي التي هي حرام
علي أبد الدهر ! يالعبث!!

المزيد من خيوط الدمع يرسم الأخاديد فوق ملامحها
فتكتمه بقوة صامته وهي تخفي وجهها بين كفيها ..
ليصلها صوته بالمزيد من النزف :

_ وقتها سولت لي نفسي أن أفتح الباب كاملاً فأقتلها
معاً .. أنتقم ل"أبي" من .."أبي"! ياللسخرية!!

تهيدة حارقة تذبح ما بقي من حروفه وهو يردف:
_ لكنني لم أستطع ..خانتني قوتي كما خانتني وقتها كل
شيء.. لم أعد من يومها لبیت كان يوماً بيتي ! بأي
حق أعود؟! ألا يكفي أن خدعت أمي الرجل في حياته
فاكمل أنا خطيئتها وأرثه بعد موته؟! لمن أعود؟!
ومن أنا كي أعود؟! فجأة صار العمر الماضي كله
مجرد كذبة ! حتي اسمي كذبة ! قضيت الأيام بعدها
هائماً في الشوارع .."ابن العز" صار صديق
الأرصفة وقد حرمت مال العائلة علي نفسي ..حرمتهم
كلهم علي نفسي ..تجاهلت حياتي القديمة وحاولت
البحث عن عمل غير أني في كل مرة كنت أتقدم فيها
باسمي كنت أصطدم بحقيقتي الخفية فأتوقف عن
المحاولة ..هجرت الجميع ..العائلة ..الأصدقاء ..الحياة

كلها .. لكنني لم أستطع يوم زفاف سراب ألا أحضر
ولو من بعيد .. فلتكن حبيبتي .. أو فلتكن أختي .. ما
همتني وقتها صفتها .. الجرح واحد !

الأنوار

المتلألئة .. اليخت الفخم .. زحام الحضور ..
التبوليب الأبيض حملته العروس لتلتفت فتلقيه في
البحر ..

عريسها يخلع سترته ليلقي نفسه في الماء خلفه ثم
يعود لها به ..

تعانقه بجنون عشق يتشاركه فلا تأبه لابتلال فستان
زفافها ..

كما لم يأبه هو قبلها ..

كل ما كان يعنيهما وقتها أن يشهد العالم أنه سيأتيها

دوماً بما تريده مهما كانت العقبات ..

المشهد الذي طالما حلما به .. ليحققه غيره !

تغيم عيناه بالذكرى فيجف حلقه ولا يزال إظفره يحفر

في الحائط دون وعي ..

_ لم تخبر أمك من وقتها بما عرفته؟! لم تواجهها؟!!

ينتزعه صوتها المختق من جحيم أفكاره ليرد

بشروء:

_ لا! حتى عهد قريب كانوا يظنون أنني هجرت العائلة

والبلد غضباً لأنهم حرموني من سراب .. لكنني زرت

عمي - او فلنقل أبي- في السجن في بغداد منذ وقت

قريب وكشفت له علمي بالحقيقة .. وأظنه أخبرها .. لا

يهم .. لم يعد يهم ! أنا من تسببت في سجنه كما

سجنتي هو طوال العمر في كذبة .. غير ان سجنه قد
يفك وسجني سيبقي مصيري العمر كله .

_ومجد؟! ما علاقتك بها؟!!

يزفر زفرة حارقة وهو يعود للشروود في ماضيه
بكلماته :

_يحيي العراقي ..نزار ..وانا ! ثلاثة جمعهم

الصدفة ..يحيي العراقي كان محطة حياتي

الثانية ..التقيته اول مرة في شجار خضته في الشارع

بعد هجراني لعائلي ..يومها تكالب عليّ بعض السفلة

وكادوا يقتلونني لكنه أنقذني من بين أيديهم وذهب

بي لبيته البسيط ورغم هذا أكرمني واحسن

مثنوي ..وقتها رأيت مجد لأول مرة ..طفلة لم تتجاوز

عامها الثاني ..تركها أمها له بعدما علمت عن
إعاقتها وغادرت العراق مع زوجها الجديد ..معه
تعرفت على نزار لتبدأ صداقة هي للأخوة أقرب ..

صداقة وأخوة؟! أم شركاء في النصب!؟!

لسانها السليط لا يكف عن طبعه حتي مع هذه الغصة
التي استحكمت حلقتها ليصمت للحظات ثم يرد كأنه لم
يسمعها:

أول عملية تشاركنا فيها كانت عجوزا متصابية
كانت هي من بدأت بملاحقتي ..حاولت الرفض في
البداية متشبثاً بمبادئ "ابن العز" القديم لكنني رغباً
عني كنت أرى فيها ملامح أخرى ..ملامح تكررت مع
كل امرأة خدعتها ..ملامح وددت لو أملك القدرة على
معاقتها في الواقع ..أو حتى مواجهتها بما

علمته .. لكنني اكتفيت بالهرب .. بالعيش كسندباد لا
يعرف له وطناً ولا أرضاً .. سمّه أنتِ
نصباً .. احتيلاً .. أو حتى جشعاً وقلة مروءة .. لكنني لا
أرى فيه سوى قصاص ممن يشبهنها .
تهز رأسها بتعب حقيقي لكنه يستمر في بوحه دون
انقطاع :

_ ثم مات يحيى .. مات في السجن بعدما ألقى القبض
عليه في قضية نصب وليست قضية سياسية كما
أخبرتكَ .. فقررنا أنا ونزار أن نتكفل بمجد كابنتنا
طوال العمر .

_ ونعم الكفالة!

تقولها بتهكم مرير مردفة:

_ وماذا لو تم القبض عليكما أنتما الاثنان !؟

_ أنا لا أترك خلفي ما يدينني .. وأظنك جربت .. هل
تملكين مقاضاتي أو مقاضاة نزار؟! هل لديك أي دليل
يثبت أننا أخذنا منك شيئاً؟!
تطلق زفرة أخرى وهي تتخذ معه ستاراً من صمت
آخر ثقيل ..

قدماها تحملانها إليه من جديد لتقف الآن خلفه
تماماً ..

لكنه لم يلتفت إليها بل بقي على حاله ليصله صوتها
برجفة لم تملك التحكم فيها :

_ بقيت قصتي انا .. قصتك معي .. احكِ ..

تشعر بتشنج جسده أمامها فتدير كتفيه نحوها لتجبره
على مواجهتها مردفة بانفعال:

_ لا أظني عجوزاً متصابية لاحقتك .. ولا امرأة خائنة

كنت ترى فيها شبكك القديم .

_ خطأ! أنتِ كنتِ أكبر خطأ وقعت فيه ! خطأ وددت لو

دفعت العمر ولم أقترفه!

يصرخ بها بحدة كأنه يفرغ فيها انفعالاته السابقة

كلها لتعود رغماً عنها خطوة للخلف ..

خطوة يقتربها هو وهو يهدر بانفعال:

_ تلك الليلة التي اقتحمت فيها بيتي مع الشرطة

تتهميني بمجد كانت أول مرة أراك فيها .. تصرفك

يومها استفزني لأسأل عنك وأعرف المزيد عن

حياتك .. عمليتنا في أبو ظبي كانت تتعلق بشركة نزار

فحسب لكنني قلت لنفسي ما الضرر في مكسب

إضافي وكسر أنف متعجرفة مثلك .. تواصلت مع دار

النشر خاصتك ونشرت الكتاب متعمداً لفت
انتباهك .. لكنني عندما التقيتك يوم الندوة .. عندما
رأيتك تواجهين الجميع بحقيقتك دون خوف .. عندما
اصطدمت بهذه القوة الحقيقية فيك والتي تمنيت لو
أملك مثلها .. ساعتها قررت الابتعاد عنك تماماً ..
ينعقد حاجباها بشدة وهي تتذكر ما يحكي عنه ..
ليردف بنفس الانفعال الحاد :

لكن مجد دخلت في المعادلة .. لأول مرة تتدخل مجد
في حساباتنا .. تعلقت بك وهي التي كانت تعاني من
خوف الغرباء .. أنت الأخرى تعلقت بها .. ووجدتني
بينكما غير قادر على منع المزيد من القرب
منك .. حاولت .. حاولت .. حاولت .. لكن ..

كفه المرتعش كان يترنح الآن بين وجهيهما كظير
ذبيح ودقات قلبيهما تدوي هادرة كقرع الطبول ..
لم يكمل عبارته ولم تسأله أن يكملها ..
قضبان عينيه الآن كانت قد تهاوت تماماً لتبدو خلفها
صحراء موحشة إلا من قمر بعيد ..
الآن صارت تراه بوضوح ..
ربما الرجل الذي هو الآن أمامها ليس بـ"رونق"
يحيي العراقي ..
لكن أسماله البالية الحقيقية أفضل لديها من اناقة
سترته الزائفة ..
فليكن يحيي العراقي .. أو يحيي الأمين ..
ما يعنيه أنه يحيي .. يحيي فحسب!
وأمامها كان هو يشعر أنه يحترق!

البركان القديم الذي طالما أخمده الآن تتدلع حممه

هادرة لتلفحهما معاً !!

لماذا باح بسرهما لها؟!!

لماذا؟!!

_ الآن وقد عرفت كل شيء ما عاد هناك ما

يقال .. اتركيني وشأني .. انتهت الحكاية !

يقولها بين صرامة ووجع لتطلق ضحكة ساخرة

وعيناها تتوهجان ببريق غامض:

_ انتهت؟! بل بدأت ! عيبٌ على ذكائك يا سندباد!

ينعقد حاجباه بغضب وهو يهتف بها :

_ أنتِ وعدتني لو أخبرتك بالحقيقة أن ..

_ كذبت عليك !

تهز بها كتفيها مقاطعة حديثه لتردف بنبرة أكثر حدة:

واحدة بواحدة .

يزداد انعقاد حاجبيه وهو يراها تردف بشراسة ليست
غريبة علي طبعها:

تظني سأترك بهذه البساطة؟! تقول آسف فأقبل
اعتذارك بابتسامة سخيفة ويمضي كل منا في طريقه
؟! لا يا سيد يحيى ..لست أنا من تفرط في تأرها ..

"ولا في حبها!"

تكمل جملتها سرّاً بقلب يشاركه جرحه وإن كانت تعلم
أنها أبدا لن تبوح بها ..

ماذا تنتوين؟!!

يسألها بتوجس وهو يحاول دراسة رد فعلها على ما
ذكره من ماضيه لتقترب منه أكثر قائلة بخبث:

_ أخبرني أنت ! ألا تزعم أننا توأمان وأنت تفهمني !؟

بماذا كنت ستنتقم مني لو كنت مكاني !؟

وجهه يحتقن بانفعاله ونظراته تشتعل بنيران تكاد

تحرق أنفاسه ..

لترفع هي كفها في وجهه قائلة بنفس الشراسة

الساخرة:

_ لن أحيرك طويلاً في التفكير .. سأسجنك !

يكز على أسنانه بقوة تكاد تحطمها وهو يراها تردف

بنفس النبرة :

_ لا .. ليس السجن الذي ورد على خاطرك .. سجن من

نوع آخر .. سأزوجك !

صيحة قصيرة تشق حلقه وهي تلقي مفاجاتها في
وجهه قبل أن تدور حوله ببطء كأنما ترسخ له
شعوره بالحصار :

_ ليس الزواج الذي تظنه .. سأكتب في العقد أنه
يمكنني تطليق نفسي متى شئت .. حرיתי ستبقي في
يدي ولا داعي لأخبرك أنك لن تمسني .. كل الحكاية
انني سأحبسك هنا في بلدي قليلاً .. أكرس سفينة
السندباد على رأسه .. أتسلى بك كما تسليت
بي .. أشتريك بثمن بخس كأي ثوب ارتديه وأخلعه
متى شئت .. زواجنا هو الذريعة الوحيدة التي ستضمن
لي أن عاصي سيبقيك هنا تحت عينيه فلا
تفلت .. لماذا؟! لأن مجد تحتاجك جوارها .. وأنا أحتاج
مجد جوارى .. آه .. نسيت إخبارك .. مجد ستبقى معي

أنا .. سأحدثك بلغة مهنتك وأخبرك أنها نصيبي من
صفتك الخاسرة .. أو أحدثك بلغتي أنا وأخبرك أنني
لن آمن عليها اثنين مثلكما أنت وصاحبك الآخر ! لهذا
سأبقىك معنا قليلاً حتي أمهد لها رحيلك .. وفي الوقت
الذي أحدهه سأخرجك من حياتنا للأبد !

_بماذا تهذين أنتِ ؟! ها؟! بأي صفة تبقين معها؟!!

ومن هذا الذي سيرحل عنها؟! مجد

ابنتي .. ابنتي .. هل تفهمين؟! ولن أتركها أبداً مادام

في صدري نفس يتردد !

_سنري!

تقولها باستفزاز وهي تلوح بكفها في وجهه فيمسك

معصمها بقوة ليجذبها نحوه هادراً بعنف:

_ أنا رددت لك مالك وأخبرتك بكل ما تريد
معرفة .. اكتفي بهذا ودعينا نغلق صفحاتنا للأبد !
_ ليس بعد .. أنا من ستقرر متى وكيف أكتفي منك !
تقولها بشراسة من بين أسنانها ..
شراسة تتسرب منها عاطفتها الحقيقية رغماً عنها
فتشعل المزيد من نيرانه وهو لا يدري هل يعتصر
جسدها الآن حباً .. أم يعتصر عنقها غضباً ؟!
لكنها تنفض ذراعها منه بقوة لتبتعد عنه بظهرها
قائلة :

_ ليس لديك خيار آخر .. سأخبر عاصي بقراري وإياك
ان تفكر في تكذيب كلامي .. ساعتها سأفصح حقيقتك
لمجد وسأحرمك منها العمر كله !

تقولها لتفتح الباب وتغادر فيلكم الحائط بقبضته

يدميها بغضب ..

كيف ظن يوماً أنه يفهمها!؟

هاهي ذي تفاجئه بما لم يتوقعه !!

بينما تعود هي لسيارة عاصي بخطوات راکضة وهي

تحاول استيعاب كل هذا الذي سمعته ..

فيما بعد ..

فيما بعد ستسمح لنفسها بالتفكير ..

تعرفين عقاب من تنبش قبور ماضي؟! أن تحترق

معي بي؟!!

تسمعها بصوته كما كان يومها فتغمض عينيها بألم

وهي تدرك كم كان صادقاً !!

تصل إلى السيارة أخيراً ولم تكد تستقلها حتى هتفت

به بانفعال ودموعها تتحجر في عينيها:

يجب أن أتزوج هذا الرجل!

نظرته المشتعلة تزداد غضباً وهو ينقر بأنامله على

حاسوبه المغلق ليهمس ببرود مشتعل:

لماذا؟!!

أنا .. أنا أحمل طفله!

لم يبدُ متفاجئاً بكذبتها!

فقط عيناه كانتا تحلقان فوق ملامحها بمشاعر

متناقضة ..

غضب .. ثورة .. إشفاق .. أسى ..

كلها مشتعلة .. كلها حقيقية !!

أصابعه الحرة تتشنج فوق مسدسه المختبئ في جيبه

للحظة قبل أن تعود لتتراخي ببطء..

_ لماذا لا ترد؟! إياك أن تمسه بسوء! لو كنت

تريد ..

تهتف بها بحدتها المعهودة وجسدها كله يرتجف

انفعالاً لكنه يقاطعها بقوله:

_ ليس الآن! سأعطيك ردي إنما .. ليس الآن .

أنفاسه تبدو لها لاهثة مشتعلة تناقض هذا البرود

الذي يتحدث به ..

لكنها تكتفي بكل هذه الفوضى التي تعيثُ فساداً

بحناياها فتهتف بصوت متهدج رغم فظاظة لهجتها:

_ أريد رؤية مجد .. أظن هذا لا يحتاج لانتظار ردي !

يحدجها بنظرة مشتتة أخري ثم يعطي أوامره للسائق
بالانطلاق ..

فيما تسند هي رأسها لظهر المقعد مشيخة بوجهها
لتسمح أخيراً لخيط رفيع من الدمع أن يسيل مادامت
تستره الظلمة !



الطيف الحادي والعشرون

=====

برتقالي

=====

_ أين بابا؟! هل سنبقى هنا طويلاً؟!

تسأله مجد بخوف وهي تتقدم نحوه بكرسيها في ذاك
البيت الذي اختاره عاصي لإقامتهما محاطاً بحراسه
فيحاول نزار طمأنتها بقوله الكاذب:

_ سيأتي قريباً! ما رأيك في هذه المفاجأة التي

أعدناها لك؟! أعجبك البيت الجديد؟! رأيت غرفتك كم

هي جميلة؟!

تتلقت حولها برهبة رغم جمال المكان وأناقته لترد

بفتور:

_ جيد .. لكنني أفتقد بابا ..

ثم ترفع رأسها إليه بسؤالها :

_ هل هذه مصر؟! بلد طيف!؟!

ينعقد حاجباه بشدة مع سؤالها الذي يحمل له جواب

تساؤله ..

رباه!

هل تكون "الجكمة" هذه خلف اختطافهما الغريب

هذا!؟!

ولما لا!؟!

الآن يفهم سر هذا السجن الأنيق والغرفة المعدة

بألعابها وكتبها لمجد!؟!

ما الذي تخطط له العنكبوتة السوداء هذه؟!؟

وأين ستصيب قرصتها هذه المرة؟!؟

صوت الطرقات على الباب يمنحه الجواب وهو يراها

أمامه وخلفها ذاك الحارس العملاق يرمقه بنظرات

نارية ..

تتفرج شفاته بصدمة لكنها تتجاهله تماماً وهي

تركض نحو مجد تعانقها بقوة لتصرخ الأخيرة بفرحة

هاتفة باسمها ..

عناقهما يمتد لدقيقة كاملة غابت فيها كل منهما عن

الدنيا وامتزجت فيه فرحتهما فتبدوان في هذه اللحظة

بنفس الصورة .. مجرد طفلتين محرومتين!

لكن طيف تتمالك نفسها وهي تمسح وجه مجد قائلة

بحزمها الحنون :

_ لا تخافي .. ستأتين معي .. لن نفترق بعد اليوم .

_ وبابا؟!!

تسألها مجد بلهفة لتطرق طيف برأسها دون رد ..

فيهتف بها نزار بحدة وقد غلبه خوفه على صديقه

علي مراعاة وجود مجد :

_ أين يحيى؟! وما شغل العصابات هذا؟؟

تستقيم طيف بجسدها لتواجهه بنظرة ساخطة محذرة

ثم تتحرك نحوه لتهمس جوار أذنه بخفوت :

_ شغل العصابات هذا يعرفه النصابون أمثالك أنت

وصاحبك ! ابتلع لسانك أمام مجد وأعدك أن أصفي

حسابي معك أنت بالذات فيما بعد !

_ لن تأخذي مجد دون أن أعرف ماذا يحدث هنا !

على جثتي!

يهمس بها بحمائية مشتعلة غريبة على طبيعته
المرحة فتتظر طيف لمجد التي كانت ترمقهما بنظرة
قلقة لتبتسم لها مطمئنة قبل أن تعاود النظر إليه
هامسة بنفس الخفوت الحاد :

_ سأتزوج صاحبك ..جهز نفسك للعرس!
سخريتها اللاذعة تمتزج بنبرة تهديد لم تخطئها أذناه
فيزداد انعقاد حاجبيه وهو يهم بالاستفسار عما
تقصده ..

لكنها تبتعد نحو مجد لتبسط كفيها على كرسيها
بحركة موحية قائلة :

_ بابا انشغل في عمل ما وسيلحق بنا مع أنكل نزار .
تقولها وهي تسحب مجد معها نحو الخارج لكن نزار
يقطع عليها الطريق بنظرة صارمة وعيناه تتأطحان

عينيها بتهديد مشابه بينما قبضته كذلك تحط على

كرسي مجد ..

لكن طيف تميل عليه من جديد هامسة :

_ انظر لذاك العملاق عند الباب وتخيل ما الذي يمكنه

فعله بك لو تجرأت وعارضتني .

لكن قبضته تشد أكثر على كرسي مجد وهو يرمقها

بنظرة صارمة شديدة الحزم ذكرتها بنظرة صاحبه

دون أن يتحرك من مكانه خطوة واحدة كأنه

يتحداها ..

تزفر زفرة مشتعلة وهي تتذكر ما رواه يحيى لها ..

"فرقع لوز" هذا قد يكون نصاباً فعلاً لكنه يعتبر

الطفلة ابنته ولن يتخلى عنها بهذه البساطة - على

الأقل - دون أن يفهم !!

نفسها تسول لها تعذيبه بالمزيد من الغموض

والقلق ..

لكن وجود مجد وعاصي -الذي يكاد يشتعل رغم
بروده بالخارج وقد رفضت دخوله معها هنا كذلك-

يجعلانها تجنح للسلم ..

فتميل عليه لتشرح له الموقف بكلمات مقتضبة

هامسة .

تتفرج شفاته كثيراً بذهول مع تفاصيل ما تحكيه وهو

لا يتصور جرأة ما فعلته فتبتسم ساخرة من مظهره

قائلة بصوت مسموع هذه المرة :

_أغلق فمك المفتوح هذا كي لا تدخله ذبابة تنفذ

لمخك فتؤثر على ذكائك العظيم (اسم الله عليك)!

ضحكة مجد القصيرة تمنعه الرد عليها ليرمقها بنظرة
مغتاظة وهو يفكر فيما قالتة ..

قبل أن يميل عليها هامساً بنبرة تهديد :

_ سأترك لك مجد كي لا أصطدم معك أمامها ولأتني
أيضاً أعرف كم تشتاقتك ولا تعجبها الإقامة هنا في هذا
المكان .. لكن اعلمي أن هذه بلدي كما هي بلدك وأهل
أبي هنا لا يستهان بهم ..قسماً بالله لو لم تلتزمي
باتفاقك لأزينن وجهك هذا بندبة لن تزول العمر كله !

_ (اتكلم على أدك يا فرقع لوز)!

تهمس بها بسخرية خافتة ليتناطح كلاهما بنظرات
نارية لكن وجود مجد يجعلهما يخفضان رايات

الحرب ..مؤقتاً!!

ينحني نزار ليعانق مجد بحنان مغمماً بمرح

مصطنع:

__ هاقد استجيبت دعواتك و عادت صاحبتك .. ابقى معها

حتى يعود بابا .

__ وأنت؟!!

__ سألحق بكما بعد قليل .

يلاحقهما ببصره بقلق سمح له أن يظهر على وجهه

أخيراً بعد رحيل مجد قبل أن يرمقه العملاق على باب

بنظرة زاجرة وهو يغلق الباب خلفهما ..

يجلس أخيراً على أريكة قريبة وهو يشعر بمزيد من

القلق والعجز ..

لا على مجد .. فهو يثق في عناية طيف بها ..

إنما على يحيى!!

هو يثق بعقله جيداً ويدرك أنه سيخرجهما من هذا

المأزق كالعادة لكنه كذلك يخشى طيف تلك!

تبا!!

كم تخنقه هذه البلد !!

من صغره وهو يكرهها وقد كانت رمزاً لأبيه !!

ليته لا يبقى كثيراً هنا!!

ابتسامة ساخرة بمرارتها تحلق فوق شفثيه وهو

يتذكر تهديده لـ "طيف" بأهل أبيه ..

تراهم حقاً ينصرونه لو لجأ إليهم!!

أخوه غير الشقيق -من أبيه- أيعيش هنا ؟!

تراه يذكره ؟!

اسمه إياد !!

لا يزال يذكر جسده الكبير مقارنة بجسده هو عندما
كانوا صغاراً ..

لا يزال يذكر حزنه المحفور على ملامحه وبكائه الذي
لم يكن يسمعه سواه على وسادته ليلاً ..

وقتها كان يظن أن كل الكبار لا يضحكون .. كلهم
يتوجعون ويصرخون طوال

الوقت .. أبوه .. أمه .. وإياد .. لهذا كان يدعو الله ألا
يكبر أبداً .

لكنه كبر .. كبر وكبر معه الوجد والغربة .. والصراخ
الذي لا يسمعه أحد !!

إياد عاد لأمه ولا يعرف عنه شيئاً بعدها !
غريب فعلاً أن يكون لك أخ في هذا العالم ولا تعرف
عنه شيئاً!!

لكن لماذا يشغل باله الآن ..وقد اختار برغبته الهروب

من كل شيء ورمي الماضي كله خلفه !!

تدمع عيناه مع هذه الغصة في حلقه فتعصر أنامله

قماش الأريكة التي يجلس عليها مغمماً :

_عد يا يحيى!! عد لنعاود الهروب معاً كما اعتدنا !!

الهروب لمن مثلنا أمان ..الغربة لمن مثلنا وطن !



_عاصي!

تهمس بها ماسة بقلق وهي تدخل عليه غرفة الرسم
الخاصة به لتشهق بهلع وهي تراه يمسك مسدسه
يكاد يعتصره بقبضته أمام لوحته الأخيرة ..

لماذا؟! لماذا؟!

تكررها بخوف وهي تقترب منه .. تعانق أمانها
المنشود عبر غاباته الزيتونية التي كانت مشتعلة
بغضب تعرفه ..

منذ عاد مع طيف وتلك الطفلة المقعدة التي عرفتها
باسم مجد وهو عازف عن الكلام ..!
يخبط بسلاحه على اللوحة للحظات حتى يهيا إليها أنه
سيمزقها لكنه يعود ليخفضه ..
يسقطه أرضاً ليضمها إليه بذراعيه باحتياج قاهر قرأه
قلبا قبل عينيها !!

_ ماذا حدث بين طيف وذاك الرجل؟!

تسأله بتوجس وقد كانت تعلم عن لقاء طيف ويحيى

ليخبرها عاصي بكل ما سمعه ..بالإضافة لكذبتها

الأخيرة بشأن حملها !

صوته يرتجف بقوة انفعاله و غضبه الذي كتّمه بثبات

يحسد عليه طوال هذه الساعات!!

_ المجنونة!

تهمس بها سراً وهي تخشى عليها المزيد من غضبة

عاصي ..

سبحان من جعله يصبر على كل هذا!!

تراقب ملامحه المحترقة بعد صمته للحظات محاولة

استعادة صفاء ذهنها لتسأله أخيراً:

_ ماذا ستفعل؟!

يطلق زفرة مشتعلة ثم يرد :

_ سأؤكد أولاً مما قاله عن نفسه.. على الأقل.. مما
يمكن التأكد منه .

_ وبعدها؟!!

تسأله بتوجس ليطول صمته دون رد ..

فتقول بتعقل :

_ القصة شديدة التعقيد .. طيف لاتزال تحبه ..

يرمقها بنظرة ساخطة لتستطرد محاولة تهدئته :

_ لم تخبرني بشيء .. تعرف أنها كتومة .. هو

استنتاجي فحسب .. هي تعلمت من الماضي أن تروض

انتقامها كي لا تؤذي به غيرها بشراسة .. واختارت

هذا الزواج لا بقلبها فقط بل بعقلها كذلك لأجل

الطفلة ..

لا تزال غابات زيتونه تشتعل بغضبها فتتنحج لتسأله

باهتمام :

_ ماذا عن يحيى هذا ؟! ماذا تظن فيه ؟!

سؤالها الأخير يبدو وكأنه يطرق على أكثر أبواب

ماضيه ألماً ..

الغضب المشتعل على ملامحه جعلها تظن أنه

سيلعنه ..

لكنه يرد أخيراً وهو يستعيد تفاصيل حكايته .. فيغلب

ألمه غضبه :

_ أظنه .. يشبهني.

تتسع عيناها بإدراك وهي تحاول فهم ما يفكر فيه

خلف عقلية كعقليته ..

لكنها لا تتصور حلاً لمعضلة كهذه !!

رجل كىحىى هذا لن يمكنهم احتجازه قسراً هنا خاصة

بعدا علموا عن عائلته العريقة في بغداد ..

ومن الصعب كذلك قبوله كزوج بعد ماضيه الملوث

باحتياله ..

لكن ..

مجد !!

الصغيرة هذه رمانة الميزان !!

هي من ستجبر الجميع أن يتخذوا مواضعهم كي لا

يغامروا بخسارتها !!

تعود ببصرها نحو عاصي الذي بدا غاضباً خاصة

وهو يجبر نفسه على كتمان كل هذا .. فتقول له بحذر

تستشف ما يفكر فيه:

يمكنك إنهاء كل هذه المهزلة وإخبارها أنك تعرف
الحقيقة .

وأخسرها ثانية بعدما عادت إليّ بقدميها؟!
استنكاره المرير يريح بعض مخاوفها فتزيح قدمها
مسدسه جانباً بحركة ذات مغزى ..

عاصي يثبت لها في كل يوم أنه حقاً قد تغير ..
وأن الثمن الذي دفعه في ماضيه لم يذهب سدى!!
لهذا تهذاً هو اجسها نوعاً ما وهي تشاركه التفكير
للحظات قبل أن تعاود سؤاله :

إذن ستزوجها له؟!!

تظنين من السهل عليّ أن أزوجها بهذه الطريقة؟!
تلك المخبولة!! بعد كل هذه السنوات وبدلاً من أن

ترفع رأسها بزيجة مناسبة تلطخ نفسها بعار لم
ترتكبه لترتبط برجل رغماً عنه!!؟
_ يبدو أن الزواج القسري وراثه في عائلة الرفاعي لا
تختلف فيه الإناث عن الذكور !
تقولها بشبه ابتسامه وهي لا تدري هل تضحك من
طرافة الموقف أم تقلق من غموضه ..
ليطلق هو زفرة حارقة وهو يشيح بوجهه ليرد
بحسم :

_ فلنتأكد أولاً مما قاله وبعدها سألتقيه لأقرر ماذا
سأقضي بشأنهما !
ترمقه بنظرة طويلة راضية لتبسط راحتها على صدره
ثم تقبل موضع قلبه هامسة :

_ هذه لقلب عاصي الرفاعي الذي لم يخذلني
يوماً .. طيف كانت تظن أنها ستستعين بك للانتقام
منه .. لكن يقيني بك أنك ستكون طوق النجاة
لكليهما !

فيضم رأسها لصدره بحنان يطفى ما تبقى من لهيب
غضبه وهو يهمس بشروء :

_ لهذا قلت لك أنه يشبهني .. كأنني وأنا أسمع يقص
حكايته كنت أسمع صرخاتي يوماً ما إنما بصوت
آخر .

وفي غرفتها كانت طيف تعانق مجد النائمة في
حضانها على فراشها بقوة رفيقة ..
تسمح لدموعها بحرية أطلقت لها العنان وهي تستعيد
ما رواه لها ..

تنام على جنبها الأيمن كعدها تتخيل وجهه يناظره ..

تلغنه مرة ..وتغازله مرة ..

تصفعه مرة ..وتقبّله مرة ..

إنما تعشقه في كل مرة !!

تتوعده بانتقام يشفي هذا الجرح الذي تركه خلفه ..

وتعده بجيش تكون هي قائدته كي يكسب به حرب

نفسه ويعود ليصالح اسمه كما فعلت هي قبله ..

تناقض؟!!

وماذا لو كان كذلك !!

لم تكن يوماً امرأة عادية وليس هو بالرجل

التقليدي ..

فلتُقرع إذن أجراس الحب ..والحرب !

=====

_دكتور جهاد كان يريد دعوتك للطعام
بالخارج ..لكنني قلت له :لا !ضيوف الغالي
ضيوفي ..شرفت بيتنا يا ابني .

تهتف بها رحمة بطيبتها المعهودة وهي تخاطب
إبراهيم عبر مائدة الطعام البسيطة التي جمعت عزيز
وجهاد وإبراهيم الذي تعجب دعوة عزيز له أول الأمر
قبل أن يفهم علاقته الوثيقة بجهاد رغم كل ما
حدث ..فيشكر رحمة ببعض الحرج وهو يتفحص
ملامح جهاد ..

جهاد الذي بدا شارد الوجه أنامله تتلاعب بميدالية
"حنظلة" في كفه ..

الطفل ذو العشر سنوات الذي يعطي العالم ظهره ولن

يغير وضعه حتى يعترفوا بمأساته .. فهل يفعلون !؟

_ كل يا ابني وارمي حمولك على الله .. ربنا كريم .

تقولها رحمة بحنائها المعهود وهي تقرب منه الطعام

الذي تناول النذر اليسير منه مراعاةً لها بينما يقول

إبراهيم بطيبته الرجولية:

_ أنت محظوظ حقاً لأنك خرجت من قضية كهذه .. يبدو

أن حسام القاضي محامٍ ماهر كما يقولون .. شعور

السجن صعب .

_ السجن .. الظلم .. الغربة .. أيام شداد يا صاحبي نقشت

وشمها في القلب ولا أظنه سيمحي!

يغمغم بها جهاد بشروده الذابل ،يشعر إبراهيم بهذه
الحسرة الذائبة فيواسيه بعبارات مقتضبة لتهتف
رحمة بحزم أمومي حنون:

_ لا كلام مع الطعام ..كلوا أولاً وبعدها تحدثوا كما
شئتم ..

ينهون طعامهم لتنتقل جلستهم للشرفة الصغيرة في
بيت رحمة التي جاءتهم حاملة صينية كبيرة وضعتها
أمامهم لتخاطب جهاد بقولها :

_ أعددت لك الكعك المقدسي الذي تحبه ..تعلمت
طريقته من جارة لي خصيصاً لاجلك ..عساك تأكله
في فلسطين قريباً يا ابني!

يرمقها بنظرة امتنان خالجها شعوره المستحدث
بالضياع وهو يقلب ميداليته في يده مغمغماً بشرود:

فلسطين؟!؟

ثم يعود ليرمق "حنظلة" في يده مردفاً:

هل ضاعت منا فلسطين حقاً؟! هل بقي ما يدعى

بفلسطين؟! خرائط الـ"جوجل" ما عادت تدعوها

سوي بـ"اسرائيل" .. دعاوي التطبيع في بلاد العرب

بعدما كانت سلوكاً سياسياً مستهجنأً صارت -نوفاً ما-

مباركة شعبيأً بدعوى التكيف .. "العدو" الذي تربينا

العمر نعلم أنه العدو صار "الأخر الذي يجب التعايش

معه" .. دعاة الدين ما بين مفتون عالي الصوت

ومقهور ابتلع لسانه بعيداً عن وجع الدماغ .. هل

صارت قضيتنا وهماً في الصدور يحكيه العجائز

كأساطير منسية؟! أو مجرد وسيلة جذب تعاطف

تستغلها بعض الجماعات الدينية لتجمع الأتباع حولها

!؟ هل يجب علينا أن نصدق أن فلسطين حقاً ضاعت

!؟

_أبداً.. والله أبداً.. ستبقى فلسطين لنا، ولو نسى العالم
كله سيبقى من نسلنا من لن ينسى.. لن تقوم الساعة
حتى نتصر على اليهود.. سأعلمها لابني وسأجعله
يعلمها لابنه جيلاً بعد جيل .

يقولها إبراهيم بإخلاص حار تنتقل شعلته لجهاد الذي
رمقه بنظرة ممتة عميقة لم تخل من حزن قبل أن
يعود لشروده في ميدانيته للحظات قبل أن يغير
الموضوع محاولاً تجاوز غصته:

_تقول ابني!؟ أنت متزوج!؟!

فيبتسم إبراهيم وهو يرد :

_زفافي غداً بإذن الله.. يسعدني حضورك .

يطلق جهاد صيحة قصيرة وملامحه تتهلل بالبشر

فيما تهتف رحمة بانسراح:

_ بارك الله لك يا ابني .. لماذا لم تقل منذ البداية؟!

_ مبارك يا عريس .. سأحضر بالطبع .. تصدقني لو

أخبرتك أنني أشعركأي أعرفك منذ زمن بعيد .

_ نفس شعوري والله ! سبحان من جعل الأرواح جنود

مجندة ما تعارف منها ائتلف .

_ في وقتك! فرصتنا لنخرج هذا البئس من كآبته ..

يهتف بها عزيز بحماس وهو يتناول هاتفه لتتلاعب

به أنامله مردفاً وهو يشغل اللحن الشعبي المعهود :

_ ماذا كانت تسمى تلك الرقصة الفلكلورية التي

تؤدونها في بلدكم؟! آه .. "دلعونا" ! هاهي ذي!

بالمناسبة ما معنى "دلعونا" يا جهاد؟!



يبتسم جهاد بشرود حزين وهو يشعر بالحن ينساب

بين عروقه .. يعيد إليه روح الماضي القديم مع

جوابه :

_اختلفوا في أصلها .. بعضهم يحكي عن أسطورة

قديمة إنَّ شابًا شاميًّا افتتنَ بفتاة تُدعى "عناه"

وحدث أن انفصل هذان العشيقان، ليصبح ويُمسي

حبيبها هائمًا ويُنشد لربعه وأهله: "دلّوني على

عناه" ..وقد مرت مئات السنوات على تلك الأسطورة

التي حوّر الشاميون عنوانها إلى "دلّعوننا"، لتغدو فنًا

شعبيًّا فلكلوريًّا لا تخلو ذاكرة أيّ من سكان الهلال

الخصيب من حفظ بيتٍ على الأقل من ذلك الفن

الشفوي المصحوب بالحن الشهير الذي يحفظونه

حتى اليوم.. وهناك اعتقاد آخر يقول إن أهل قرية

شامية ما، كانوا يتنادون عاليًا لبعضهم "دلعوننا"،
طالبين العون لجني قمحهم أو قطف حمضياتهم أو
بناء منازلهم. حيث حرف (الدا) هو (أل) التعريف
بالسريانية، و"عوننا" أي العون والمساعدة..و على
أي حال بشأن أصل التسمية، فإن فنّ الدلعونا نجح
بالحفاظ على شكله التقليدي القديم، حيث يُناغم
الردّاد، بيرغوله أو شبابته مع المغني، فريقيهما
المكوّن من 10 من راقصي الدبكة شابكين الأيدي
على شكل دائرة..وفي بعض المناسبات تُغنى الدلعونا
دون دبكة.

الحن المميز لا يزال ينبعث من هاتف عزيز وجهاد
يردف بنبرة ازدادت فخراً:

أما موضوعات الدلعونا، فيغلب عليها الغزل
بالحبيب، إلا أن الفلسطينيين على وجه الخصوص،
أضافوا عليها الكثير من الأبيات المتأثرة بنضالهم ضد
الاحتلال، كونه جزء لا يتجزأ من معاناتهم اليومية
المستمرة..

يقولها ليدندن بصوت خفيض :

يا دمع عيني بلل خدودي *** حارس عالأقصى واحد

يهودي

وأبطال الثورة لازم تعودى *** نرفع علمنا أجمل ما

يكونا.

ابتسامته تتحول لضحكة قصيرة مكتومة تخفي دمعة

كبيرة في عينه ..

ما أفسى الحنين عندما ينشب مخالبه الوردية في
صدورنا ليذكرنا بما فقدناه ويعيرنا بأن قطار العمر
سيمضي دونه !

_ عفواً .. سأضطر للانصراف .. أبي يحتاجني .
يقولها إبراهيم بخرج وهو يقف مكانه ليقف عزيز
وجهاد الذي صافحه بقوة قائلاً بود:
_ شكراً لحضورك .. سعيد بأنني كسبت صديقاً مثلك .
_ وأنا أيضاً .. سأنتظرك غداً .. يجب أن تتعرف على
مستر ربيع "فاهم كل المواضيع"!
يهتف بها إبراهيم ضاحكاً باعتزاز ليضحك عزيز
وجهاد وهما يصافحانه بمودة ..
بينما يعلو صوت رحمة وهي تدعو له بالبركة ..

يوصله عزيز إلي الباب بينما يبقي جهاد مستنداً علي
سور الشرفة المظلة علي الحارة الضيقة قبالة يراقب
وجوه الناس بشرود ..

_مالك يا جهاد؟! لم أرك يوماً يائساً إلي هذا الحد!
أنت كنت دوماً قدوة في احتمالك والمحنة مرت
والحمد لله!

يقولها عزيز ببساطة وهو يربت علي ظهر صاحبه
ليتهد جهاد بحرارة دون أن يتخلي عن شروده:
_علمت أنهم أنهم اتعاقد معي في المشفى الذي كنت
أعمل به .. رغم براءتي من التهمة لكن "العيار اللي
مايصيبش يدوش" كما تقولون هنا في مصر.. لا أعلم
من أخبرهم عن الأمر بهذه السرعة .. ولا أدري كيف
سيمكنني البدء من جديد .. ذهني مشوش بخيارات

كثيرة .. والمشكلة أنني لا أحمل همي وحدي بل هم

زهرة أيضاً!

تبتئس ملامح عزيز بتأثر وهو يواسيه بقوله:

_ لا بأس .. أنت مهارة لا يستهان بها ولديك من

الخبرة الكثير .. ستجد فرصة أخرى قريباً .. وزهرة

يمكنها ..

_ زهرة تغيرت !

يقاطعه بها بقتوط وهو يطرق برأسه قائلاً:

_ منذ خرجنا من السجن وأنا أشعر أنها تتباعد عني

في غير عاداتها ..حتي أنها رفضت الإقامة في نفس

الفندق الذي أقيم فيه وتعلت بأنها تريد البقاء مع

صديقتها حسناء بعد عودتها هنا ..قد تراه تصرفاً

طبيعياً لكنني أحفظها جيداً .. شيء ما كُسر

بداخلها .. شيء لا تريد الاعتراف لي به .

يرمقه عزيز بنظرة مترددة للحظات ثم يقول ببطء:

اعذرها! تجربة السجن ليست بهينة علي الرجال فما

بالك بالنساء؟! وهي لا تزال صغيرة السن .

لا! ليس هذا! أنا رأيت لهفتها العاشقة في عينيها

أول ما خرجنا من السجن .. لكنها صارت تتباعد

بعدها ..

تظنها ندمت علي الارتباط بك؟! أو لعلها تصدق

تورطك؟!!

لا أدري .. ربما هي ظروف تركي لعملي .. لعلها لا

تريد أن تكون عبئاً عليّ!

يقولها بالمزيد من القنوط ليستخرج هاتفه ثم يتأمل

شاشته السوداء المغلقة باستطراده:

_ صديقي المقرب كذلك .. ريان .. أنت تعرفه .. لا يرد

على هاتفه ولا أعرف عنه شيئاً .. حاولت التواصل مع

أصدقاء مشتركين للاطمئنان عليه لكن لا أحد يرد

علي .. كأنني صرت فجأة موبوءاً يخشون عدواه ..

ثم يتهد لحظة ليردف بمرارة :

_ لحظات كهذه يا صاحبي هي التي تكشف

الحقيقة .. عندما ينفذ الجمع من حولك لتدرك

وضعك جيداً .. وحيد غريب لاجئ .

_ لا تقل هذا ! وأين أنا من حساباتك!؟!

يهتف بها عزيز بعتاب حنون ليبتسم له جهاد بمودة

وهو يربت على كتفه :

_ لن أنسى وقفتك جواري أنت و "الست رحمة" .

_ ما رأيك لو يتخلي كلانا عن وقاره بالغد ونرقص

"دبكة الدلعونا" لابراهيم ؟!

فيرتفع حاجباه بهشة :

_ وهل تجيد رقص الدبكة ؟!

_ "حكم قراقوش" ! ..ميادة أجبرتني أن أتعلمها ..كان

زفاف أحد صديقاتها واتفقن أن يرقصها الرجال معاً .

يقولها عزيز بمرح فيغتصب جهاد ضحكة قصيرة

وهو يقول باستسلام:

_ حسناً.. لنفعلها لأجل الخلق إبراهيم ..انا مدين له

على أي حال ..لكن من سيكمل الفريق ؟!

_ سأتولى الأمر ..لا تقلق ..

يقولها عزيز مطمئناً وهو يردف بحلم :

يمكنك دعوة زهرة كذلك للزفاف..ستكون فرصة

لتقريب المسافات .

يهز له جهاد رأسه موافقاً قبل أن يودعه ليخرج إلي

الشارع ..

افتقدها !!

افتقد هذا "الشط النيلي" في عينيها والذي يخبره

كلما تغرب أنه إليه ينتمي!!

الهواء البارد يصفع جبينه ووجنتيه بقسوة يتعجب

شعوره بها ..

لماذا صار شديد الحساسية هكذا ؟!

كأنه فقط ينتظر وخزة إبرة كي يصرخ بكل هذا الوجع

الذي تغلي به روحه ..

يطلق زفرة قصيرة وهو يتناول هاتفه ليتصل بها مرة

تلو مرة ..

لكنها لا ترد كعهدها مؤخراً ..

تكتفي برسالة قصيرة :

"مشغولة ببعض الأشياء مع حسناء .. سأحدثك لاحقاً!

ينعقد حاجباه بضيق بين كبرياء رجولته واشتياق

عاطفته لكن الغلبة تكون للأخير ..

فيرسل لها رسالة ..

(أردت دعوتك لزفاف صديق لي .. إبراهيم الذي

تعرفينه .. اذهبي معي لعلنا بحاجة لهذا كي ننسى ما

عشناه الأيام السابقة)

لا يصله منها رد ..

فيزفر مرة أخرى وهو يجد قدميه تسحبانه نحو
شاطئ النيل القريب الذي بدا له موجه المظلم في هذه
الساعة كليل حالك يتوعده ..لقد اعتاد أن يرى علي
صفحة مائه وجهها فأين تاه!؟

_ دعيني أثرثر معك كتابةً حتى تجدين الوقت
للكلام..افتقدت حديثنا يا نيلية ..ألم تخبركِ حسناء
شيئاً عن ريان !؟ أكاد أجن ..لماذا لا يرد علي !؟
اسألها بالله عليك فشعوري أنها تخفي عني شيئاً
بشأنه.

لايزال الرد لا يصله لكنه يستمر في مراسلتها وهو
يستند بمرفقيه على سياج "كورنيش النيل":
_ مالك!؟ لماذا تتباعدين !؟ طالما كنتِ تقولين أنني
"بدربي في جهاد وأنت بحبنا في جهاد " ..فلا تجمعي

عليّ "الجهادين" يا غالية!..حبك كان غنيمتي
الباردة وهبة القدر التي لم يطلب لها فاتورة
سداد..أنت صديقة قلبي قبل أن تكوني حبيبته..فلا
تثقلي عليّ بتباعدك..خاصة هذه الأيام..كلانا ساقه
مكسورة فليكن أحدنا لصاحبه إذن عكازه .
_ضائع يا زهرة..ضائع كما لم أكن من قبل..لم أشعر
بالغربة في حياتي كما أشعر الآن..كوني وطني كما
عهدتك يا نيلية..

_أنت زعلانة مني؟! هل فعلت ما يسوؤك؟! منذ متى
تخفين هذا عني؟! منذ متى يسبق عقابك عتابك؟!
رسائله تتوالى متعاقبات..

حروف بعض كلماتها مبعثرة بفعل سرعته في كتابتها
لكنه كان يبدو وكأنه ينفث عبر رسائله دخان
احتراقه ..

زفيره الحار يتشكل في الهواء البارد فيبدو له
كأنشطة تحلق حول عنقه تزيد اختناقاً ..
لا!

لن يستسلم!

هو اختار أن ان يكون فارساً فوق جواد الحق ولن
تروعه مشاق الطريق ..

لن يسقط من فوق جواده .. لن يفعل ..

لهذا يعاود الكتابة لها وقد نحى العتاب جانباً مكتفياً
بالشيء الوحيد الذي صار يثق فيه .. حبهما !

_أشتاق لرؤيتك في ثوب الزفاف الذي

اشتريناه ..تزوجيني يا زهرة ..تزوجيني وأنجبي لنا

عشرة أبناء يكونون أهلنا ونستغني بهم عن كل من

خذلونا ..اسكبي روحك في روعي كي تمتزجا

للأبد ..تقوي بي كما أتقوي بك ..

لا تزال رسائله معلقة دون رد لكنه يعاود الإرسال

بإصرار وقد اكتسبت كلماته بعض المرح الذي جاهد

نفسه للاحتفاظ به :

_ردي يا "بنت" ..معقول أنك مشغولة لهذه

الدرجة؟! عزيز ذكرني اليوم ب"الدلعونا

الفلستينية" وأنتِ تذكرينني بهذه الكلمات ..

مرقت من حدّي وقالت لي مرحب *** حسيت

بجسمي كأنو تكهرب

دخيلك ترحم دخلك يا أرنب *** قلبي ما تصيد غيرك

حسونا

اسقيني من دلوك يا حلوة اسقيني *** لو إني ميّت

شوفك يحييني

والله يا بنيّة لو جافيتيني *** لأظربك طلق بين

العيونا!

يعيد كتابة الكلمات الأخيرة مرتين يتخيل ضحكتها
وهي تقرأها ثم يعاود التتهد بحرارة وهو يتلفت حوله

بعجز ..

لماذا لا ترد؟!!

يرمق النيل المظلم بنظرة أخيرة والدقائق تمر ثقيلة

في انتظار ردها الذي لا يأتيه ..

لا..لن يحتمل أكثر!!

يشير نحو سيارة أجرة قريبة ليعطي السائق عنوان بيت حسناء الذي توقف تحته للحظات قبل أن يرسل

لزهرة :

_ انا تحت بيت حسناء ..يمكنني أن أراك؟! لا تكلفي نفسك بالخروج فقد تأخر الوقت ..اخرجي لأي شرفة او نافذة ..

الريح الباردة تصفع وجهه وجسده ورأسه معلق بالأعلى ينتظر رؤيتها في أي وقت ..

لكن الوقت يمر ولا يصله منها سوى رسالة تشبه الجو الصقيعي حوله :

_عدنا متعبتين وأنا الآن في الفراش شبه
نائمة.. اذهب من فضلك وغداً ألقاك في حفل زفاف
صديقك ..بيننا أمور كثيرة تحتاج أن تحسم .

=====
أحمر
=====

_ ماشاء الله لا قوة إلا بالله! لم أر يوماً عروساً أجمل
منكِ!

تهتف بها هبة بعينين دامعتين وهي تميل عليها وقد
جلست يسرا على مقعد العروس الذي تولت هبة
تزيينه ببساطة تشبهها ..
فترتجف شفتا يسرا بتأثر وهي تتأمل المكان حولها ..

إبراهيم أصر أن يفصل حضور النساء عن الرجال
فاختارت هي أن يكون سطح بيت هبة مجلس النساء
فيما أخلى الحرافيش شقتهم لتكون مجلساً للرجال ..
هذا السطح الذي اعتبرته "مهد" حياتها الجديدة ..
رائحة أسرة تغازل أنفها هي مزيج من رائحة زهور
هبة ورائحة نعناع طازج لا تدري إن كان موجوداً
حقاً أم أن خيالها ما استحضره ليتم كمال الصورة !
عيناها تجولان بين الوجوه البسيطة الضاحكة ..
أكفهم التي تصفق بحرارة مع أغنية إسلامية دون
لحن اختارتها هبة بعناية وفقاً لمعتقداتها الدينية ..
عيونهم التي كانت ترمقها بين افتتان
وتفحص .. بعض التوجس وبعض الغيرة .. بعض
الإشفاق وبعض العجب ..

اعتادت هذه النظرات في مجتمع (يسرا) القديم
فطبيعة البشر لا تتغير ..إنما هاهنا تحس بمشاعرهم
أكثر بساطة ..أكثر عفوية ..أكثر دفئاً ..
_ أنا الأخرى لم أر نفسي أجمل مني اليوم !
تهمس بها أخيراً بحرارة صادقة وهي لا تزال تقلب
بصرها بين الوجوه ..
خوفٌ غريب يلفها بعباءته وهي تخشى أن ينهدم
عالمها هذا كله في لحظة واحدة ..
أناملها تتشبث بقماش ثوبها البسيط بقوة تكاد تجعده
فترفع عينيها للسماء برهبة ينقبض قلبها بمزيج
شعورها بالذنب والخوف !
القمر يبدو لها شديد القرب ..شديد الضخامة ..حتى
تظن نفسها لو مدت كفيها فستمسكه ..لكنها لا تشعر

أنه قُرب وعد .. بل وعيد .. كأنه يوشك أنه يسقط فوق

رأسها .. حتي غيومه بدت لها صفراء شاحبة كأنها

تسخر من بياض ثوبها الناصع!

المزيد من خوف الفقد يملأ عينيها بالدموع فيتشبث

كفها الحر بكف هبة التي انحنت عليها وقد روعها

منظرها لتبتسم لها بموازرة هامسة:

_ لا تخافي .. كلنا معك .. كلنا أهلك .

_ كلكم معي .. كلكم أهلي ..

همسها متحشرج بين تقرير ورجاء كأنها تستجدي

وعداً لا يُخلف .. فتهازلها هبة رأسها تمنحها بغيتها ..

_ ادعي لي .. ادعي لي بالفرحة .. بالأمان .. أنتِ عند

الله أفضل مني .

_ لا تقولي هذا .. لا أحد يعلم من الأفضل عند الله
مقاماً .. القلوب خزائن مغلقة لا يملك مفاتها إلا
خالقها .. وظني أن قلبك جميل كوجهك .. وإلا ما كان
مال له قلب الدرويش الذي زهد الدنيا كلها
قبلك .. تستحقينه ويستحقك .

كلمات هبة تحشوها بالمزيد من شعور الذنب فيزداد
كفها بها تشبثاً ..

_ خالي قادم مع إبراهيم .

تهتف بها هبة بلهفة فرحة وهي ترى عبر سور
السطح ربيع يغادر من بيته لبيتها حاملاً الدفتر الكبير
فيختلج قلب يسرا بالمزيد من الخوف ..
زغاريد النساء حولها تعلو برايات الفرحة ..
وخفقات قلبها هي تعلو برايات القلق ..

دقائق تمر عليها ثقلاً حتى تراهما أمامها ..

ربيع بحنانه .. وإبراهيم بعشقه .. وابتسامة من كل

منهما تساوي حياة !

إبراهيم الذي بدا لها في حلة عرسه كاوسم رجل

عرفته في حياتها بل إنها في هذه اللحظة بالذات

تشعر وكأنها ما عرفت رجلاً غيره ..

عيناها تتعلقان بابتسامته "التي لأجلها هي اكتملت"

فتود لو تطير إليه تمطرها بالقبل ..

وفي مكانه كان هو يتفحصها بعينين هائمتين تطوفان

فوق تفاصيلها طواف مجذوب فقد فيها عقله قبل

قلبه ..

خاطفة .. ساحرة .. أسرة ..

كأن بين أحداقها ألف مغناطيس يشده بلا حول منه

ولا قوة!

لو كان كل رجل يشعر بعروسه كما يشعر الآن فيا

رحمة الله بكل عاشق!

_وقعي يا عروس .

صوت ربيع يحلق بينهما ونظراته العطوف تغشاهما

فترتجف أناملها بشدة والقلم يكاد يسقط من يدها ..

ترفع عينيها من جديد نحو السماء برهبة كأنها توشك

أن تصيبها بصاعقة ثم تضغط شفيتها بقوة والعرق

الخفيف يبذر حبيباته فوق جبينها ..

صورة أمها فاقدة الذاكرة ..صورة حسام ليلة

عرسهما ..صورة فهد الصاوي ..صورة فادي ..كلها

تتعاقب تباعاً تجلدها بسياط الذكرى ..

وأخيراً ..صورة ابنها يهوي من الشرفة ..يناديها

مستغيثاً ..

لم تسمعه يوماً ..لكنها الآن ..

الآن تسمعه !

_ لماذا ترتجفين هكذا؟! يا لله! تبكين!؟!

صوت إبراهيم القلق وهو يقترب منها ينتزعها من

شرودها ..هبة تربت فوق كتفها بحنان بينما

يتفحصها ربيع بخبرته التي تعجز عن إيجاد ثغرة شك

يصرخ بها حدسه ..

لكنه يقول أخيراً بمرحة الحنون وهو يشير للناس

حوله:

_ هل ستوقعين أم ندع الناس بمظهرك هذا يقولون

إنك مغصوبة!؟!

_ سمرا .. ماذا بك؟! ضايقتك شيء؟!!

همس إبراهيم بالغ العاطفة بالغ الرقة وبالغ الجزع
يجعلها ترفع إليه عينيها بنظرة مذنبية ..

_ قولي الحقيقة .. قولها الآن ولا تخدعي أناساً

كهؤلاء آمنوك على بيوتهم وقلوبهم ..

يهمس بها ضميرها واهن الصوت لترد عليه سراً :

_ أقول؟! أقول وأفقد كل هذا؟! أقول وأعود لبيت

الصباحي بغرفة الباردة!! لا والله أبداً .. فليعيش الوهم

مادام أرحم بنا من الواقع .. ربما لا تتكشف الحقيقة

أبداً .. ربما أعيش وأموت هنا بينهم (سمرا) حتى آخر

لحظة في عمري .. وربما تتكشف الحقيقة يوماً ما لكن

عزائي وقتها أنني لم أفرط في حياتي هنا برغبتني .

خاطرها الأخير يبسط سلطانه على يدها فتمتد أناملها

أخيراً ..لتوقع العقد !!

صوت الزغاريد حولها يكاد ينتزعها من مكانها ..

بل ينتزعها فعلاً لتجد نفسها تقف تراقب الوجوه

حولها بضياع..

قبل أن تستقر نظراتها فوق ملامح ربيع تسأله

بتشتت:

_ هكذا تم الأمر !؟

_ مبارك.

يقولها وهو يومئ برأسه إيجاباً فتقترب منه دون

وعي تردد بصوت مرتعش كأنها لا تزال لا تصدق:

_ هكذا تم الأمر !؟

ثم تلتفت نحو إبراهيم الذي تلون وجهه بين عاطفته
وخوفه عليها مردفة:

_صرتُ لك ..صرتَ لي ..

لهفتها المشوبة بعاطفتها تمسه خاصة وهي لا تتصنع

الخجل كعهد النساء في موقف كهذا بل تغلبها

عاطفتها الجموح التي تعجبه عفويتها ..

انفعالها يحركها دون قيود وهي تقترب من ربيع أكثر

قائلة:

_الآن يمكنني فعل هذا دون حرج!؟

يرمقها ربيع بنظرة متسائلة عما تقصده لكنها تجيبه

عملياً وهي تلقي نفسها بين ذراعيه !!

وجهاها المزروع على صدره يتنفس أخيراً "عطر

أبوة"!!

كيف يمكنها الآن أن تذكر رفعت الصباحي فلا تملك له

ذرة ود ؟!

أبوها ؟!

وهل الأبوة اسم في شهادة ميلاد ؟!

الأبوة نفحة من جنة أمان ..مذاق عطاء حلو لا تشوبه

قطرة مرارة وشهيق سكينه دافئ لا يقطعه زفير ..

هذا بالضبط الذي تعرفه الآن معه دون قيود !

وأمامهما كان إبراهيم يشعر بالاضطراب كعهده كلما

رأى تقاربها من والده لكنه الآن يملك الحق لينفذ ما

يريد ..فليفعله!!

تشهق بدهشة وهي تجد كف إبراهيم يحط على كتفها

فترفع عينيها إليه لتفاجأ به يشدها نحوه بين رفق

وتملك ل..يضمها لصدره!!

دوار!

دوارٌ لذيد يعصف بخلاياها وأنفها يطارد رائحته عبر
هذا القرب ..

كم تشبه رائحة ابنها الراحل ..

كأنهما تفيضان معاً من نفس النبع .. نبع البراعة !
لهذا لم تشعر بأناملها وهي تتشبث بقميصه بقوة
زلزلته هو مكانه !!

لا يصدق أنها أخيراً صارت له .. بين ذراعيه اللذين
اشتدا حولها لا كسجن .. بل كوطن !

لأول مرة لا يلجم شعوره نحوها بل يطلقه حراً في
عناق قوي وقبلة دافئة فائضة العذوبة حسدت عليها
جبينها وهو يهمس أمام عينيها برقة رجولية:
_ دمت لي زوجة العمر كله!

العندليب الأخرس في عينيها يتحرر للحظات .. يخلق
فوق غصن فرحته حراً بحديث تبدو أبجديته شديدة
الخصوصية بينهما .. لكنه يعود لغصن خوفه من

جديد ..

شدوه لا يزال مختقاً بلوعته !!..

زغاريد النساء حولها تنتزعها من فورة عاطفتها

فتبتسم ..

ابتسامة مرتجفة سمحت لنفسها أخيراً بها وهي
تضطر لترك دماء عناقه لكنها تتأبط ذراعه بفخر

للتحرك معه نحو شقتها في بيت ربيع ..

فخر حقيقي كأنما في هذه اللحظة قد حيزت لها الدنيا

بحذافيرها !

تهبط معه الدرج ولم يكادا يصلان للشارع حتي فوجئا

بعرض "الحرافيش" مع أصحابهم ..

(فرح اسلامي ..مش اسلامي مالناش فيه! هنفرح

بالدرويش بطريقتنا ..ياللا يابني)

هتافاتهم المرحلة تنتزع ضحكة صافية منها وهي

تراهم يسحبون إبراهيم المستاء من جوارها والذي لم

يتركه أبناء عمه قبل أن يجعلوا ضحكاته تتعالى وهو

يشاركهم الرقص علي واحدة من أغنيات

"المهرجانات" كما يدعونها ..

ضحكته تزرع ألف جنة من ورد بين ضلوعها وهي

تراه منطلقاً في الرقص معهم بعفوية لذيدة محببة ..

الأنغام شديدة الصخب بصبغتها الشعبية تتبعث حولها

لكنها على العكس تبذر داخلها سكينة بلا حدود ..

سعيدة ..!

سعيدة بهذه النظرة في عينيه -حبيبتيها- واللتين لم
تهجرانها لحظة كأنه لا يرى سواها حتى وسط هذا

الجمع ..

سعيدة به ..وله!

تشعر بذراع ربيع على كتفها فتلتفت نحوه قائلة

بانفعال عاطفي حار:

كيف أجزيك عن كل هذا الذي منحته لي؟!

ليصلها صوته بين وقاره وحنانه:

_بل كيف أجزيك أنا وقد أعدت لي ابني الذي كان قد

ضاع؟!_

تسبل جفنيها علي حدقتين صارختين بمزيج الذنب

والخوف فيردف وهو يربت على كتفها:

_ أنتِ أمانة ابني وهو كذلك أمانتك .. احفظيه وأعدكِ

أن يحفظك !

تدمع عيناها اللتان رفعتهما نحوه لتمنحه ابتسامة

بمذاق الوعد ..!

_ را ... را ...!

بصوت سامي تسمعها ولا يزال ينطق اسمها بهذه

الطريقة كأنما فطرته النقية توقفت علي القاسم

المشترك بين الاسمين (يسرا) و (سمرا) ..

فتضحك ضحكة حقيقية خالصة وهي تنحني

لتحمله .. لا تستجيب لاعتراض سندس :

_ اتركه .. الثوب قد يتسخ ..

تقبله وهي تشم رائحة شعره بقوة لتهتف بعدها

بحنان منطلق:

_ أعجبك البدلة؟!_

يهز لها الصغير رأسه بحركات تفضح تعلقه بها وهو
يستفيض في مدحها بكلماته الطفولية ..

لتخاطب سندس ربيع بقولها وهي تدور حول نفسها :

_ رأيت ثوبي يا مستر ربيع؟! سمر اشرته لي مع

بدلة سامي ..لم تتسنا وسط زحام انشغالها .

يبتسم ربيع برضا وهو ينقل بصره بينهم ليأتي

إبراهيم أخيراً وقد تخلص من الحرافيش ، يحمل عنها

سامي ليقبل رأسه ثم يعيده أرضاً ..لكن قيس يتقدم

هاتفاً بحماس وهو يرفع كاميرا خاصة :

_ موعد التصوير ..هيا ابتسما .

_ لا داعي ..تكفينا صور الاستوديو .

يقولها إبراهيم باعتراض لكن يسرا تميل عليه قائلة

برجاء:

_دعه يصور ..يصور كل شيء ..لا أريد أن تفوتني

تفصيلاً واحدة من هذه الليلة ..

ثم تلتفت نحو قيس مردفة بانفعال حار :

_صوّر ! صوّر كل الناس ..صوّر كل شيء ..كل

شيء ..هذه الليلة خلقت كي لا تُنسى!

يهز إبراهيم كتفيه باستسلام لهذه البراءة الجامحة -

كما رآها- وهو يستجيب لرغبتها فيما كانت تشعر هي

كأنها تلهث مطاردة كل هذه الفرحة ..

كف إبراهيم في يمناها ..وكف سامي الصغير في

يسراها ..

وربيع يقف كسند في ظهرها ..

وأمامها سندس ترمز لبرعم صغير تمننت لو كانت
مثله تملك المزيد من العمر ل..تتفتح !



_اعتنِ بها ..بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع
بينكما في خير .

يقولها ربيع وهو يوصلهما إلي شقتهما العلوية في
بيته لينحني إبراهيم فيقبل يده باحترام فتقلده يسرا
قبل أن تعانقه بقوة كأنها لا تصدق أن هذا صار فعلاً
من حقها !

يرمقهما ربيع بنظرة دامعة وهو يشعر أن العمر أخيراً
بعد وفاة حسن وأمه قد أذن له بفرحة !
يلوح لهما بكفه وهو يهبط الدرج نحو بيته فيغلق
إبراهيم الباب برفق ليلتفت نحوها ..

عيناها تفيضان بسيل من مطر .. وعيناها تثبتان جنان

الورد ..

يقتررب ..فتقتررب ..

يزيح عن شعرها تاجه ثم طرحته قبل أن تعرف أنامله

طريقها لخصلات شعرها الشقراء فتهيم فيها كحمام

عادت بعد طول غربة لوطنها ..

عيناها كعهدهما تبدوان لها كبر عميق لا يلزمها معه

سوى زلة قدم كي تسقط ..

لكنها ها هنا لا تسقط ..بل ترتقي!

تشعر بكل ذرة فيه تشتعل تأثراً بفتنتها لكنه مع هذا

يقول بصوت مرتجف :

فلنصل ركعتين أولاً.. هذه هي السنّة كي يبارك الله

لنا .

يرتجف جسدها وهي تجد نفسها رغباً عنها تقارن

بينه وبين من سبقه ..

في كل من زيجاتها الثلاث لم يفعل أحدهم هذا !

لا تتصور كيف يمكنه جمح رغبته الجامحة فيها هذه

-كجواد طليق -كي يصلي ما ليس بفرض!

تطيعه مأسورة بهذا الشعور الذي يغمرها من رأسها

لأخصص قدميها ..

ينتهي بها المقام خلفه لتسمع صوته وقد بدا في

الصلاة ..

رجفتها تتحول لرعدة قوية تسري بين أوصالها..

كيف يمكن أن يمتزج الوهن بالقوة في قلب كقلبها

الآن!؟

كيف يمكن أن تقارن بين حياتها قبله وبعده!؟

كيف يمكن أن تساوي بين عمر وعمر؟!
سجدة قصيرة تودع فيها دعاءها لخالقها :
_ لا تغضب عليّ .. لا ترفع سترك عني .. لا تحرمني كل
هذا النور .. دلني للطريق وسأسعى .. سامحني واجعل
عفوك أقرب إليّ من عقابك .

دعاؤها مشوش مهتز .. إنما صادق !
تتهي صلواتها خلفه ليلتفت إليها فيمد نحوها يده ليوقف
ويوقفها معه ..

يرفع أناملها ليهمس بعمق عاطفته :
_ لم ألبسك دبلك بعد .. كنت أنتظر أن نكون وحدنا !
تزدرد ريقها وهي تنتبه لما يحكي عنه .. كيف لم تنتبه
- امرأة بتاريخها- لتفصيلا كهذه ؟!
تراها فقدت كل شغفها القديم بالمظاهر ؟!

يمد يده في جيبه ليستخرج منها هذه اللعبة الصغيرة

التي حوت دبلتها البسيطة، يلبسها إياها ثم يرفع

راحتها لشفتيه، يقبل موضعها بتقديس ..

لتدركها روحها قبل أن تسمعها أذناها:

_ أنتِ أول امرأة تسكنها شفتاي!

"تسكنها شفتاي"!!

التعبير علي بساطته يأسرهما !!

يدوخها بمزيج شعورها بالفخر .. والذنب!!

لم تكن أول امرأة في حياة حسام .. ولا فهد .. ولا

فادي ..

كلهم كانت لديهم محطة متأخرة في قطار غادروه

متعجلين غير عابئين بها!!

تباً للمقارنة!!

لا .. لا .. لا ..

لن تقارن من جديد !!

هذه الليلة بالذات لن تستسلم لمقارنة !

فليكن رجلها الأول كما هي امرأته الأولى !!

_وأنت اول رجل يسكنه قلبي !

همسها الخفيض القوي يخترقه كسهم جديد من

سهامها القرمزية بينما تتلاشى أفكارها وعاطفته

تجذبها لهذه الدوامة اللذيذة بين ذراعيه ..

شفتاه تدللانها بهذا الغيث الكريم فترده له بغيث

أكرم ..

تشعر به يحملها نحو غرفتهما فتحمله هي الأخرى

لبحر هائج من أحاسيس يجربه لأول مرة ..

كانت تظن أنها ستستغل خبرتها لتمنحه كمال سعادة
في ليلة كهذه لكن الغريب أنها نست في لحظة كل ما -
ومن - قبله!

عقلها قبل قلبها وقع وثيقة استسلام للواقع الجديد ..
ما قبله عدم وما بعده له .. له وحده !!
جسدها لم يكن يدعي عذرية .. بل كان يعيشها
حقيقة .. حقيقة لا كذباً !!

القارب المجنون يقذفهما أخيراً نحو شاطئ السكينة
بعد رحلة عاصفة ليصلها صوته الدافئ مثله لا يزال
يلهج بعاطفته:

_ أنتِ بخير؟! هل آلمتِك؟!
_ أخشى أنني أنا من ستؤلمك !

نطقها كل جوارحها - عدا شفيتها - وهي تستكين بين
ذراعيه لتجهش فجأة في بكاء حارق يجعله يضمها
إليه بقوة وهو يربت على ظهرها هامساً بجزع:
_ لهذا الحد كنت ..

لكنها تقاطعه وهي ترفع إليه عينيها هامسة بانفعالها
الجموح الذي يثير إعجابه :

_ قل إنك سعيد بي كما أنا سعيدة بك .. قل إنني منحتك
ولو ذرة مما منحتني انت إياه ! قل كل الكلام الذي
ادخرته لي !

يبتسم وهو يمسح دموعها بأنامله لكنها تجذب رأسه
لصدرها تعانقه بقوة وهي تتشق عبير رائحته شبه
المهووسة بها .. فتصلها عاطفته بين همسه وقبلاته :

_ ماذا أقول؟! بل ماذا أخفي؟! أحكي لك عن رامية
قرمزية السحر أصابني سهمها من أول مرة فلم أرج
منه شفاء؟! أم أحكي لك عن درويش أرهقته الدنيا
حتى زهد الحياة فوجد فيك بعد الدنيا دنيا وبعد الحياة
حياة؟! تسألين لماذا أنت؟! وودت لو أملك جواباً
يرضي عقلي.. فقط في شأنك أنت لا يترك القلب للعقل
أي سلطان.. أنت الأولى والأخيرة.. القاهرة الجامعة
الأسرة دون سبب ولا عجب .

تضم رأسه لصدرها أكثر وكلماته تقذفها بين موج
وموج ..

كيف تخبره أنها -وهي التي سمعت من كلام الغزل
أفخمه وأدناه ، أرقاه وأفحشه- لم يؤثر فيها يوماً حديثاً
كحديثه!!?

تشعر به يرفع رأسه نحو عينيها فتعيده لصدرها
كأنها تحيط بذراعيها كنز عمرها كله .. تهتف بانفعال
هستيري لم يعد يتعجبه منها:

_أحب رائحتك.. أحبها جداً.. ابق قليلاً.. بل ابق
طويلاً.. ابق للأبد..

عبارتها لا تبدو له مثيرة لرجولته بقدر ما تبدو له
كطفلة تتسول عاطفة بخل من قبله بها عليها ..
لماذا تتصرف بهذه الطريقة كأنها محرومة !
عناقها لأبيه ثم الآن له يفضح حرماناً تعوي به
روحها في صحراء فقد موحشة !

هذا الذي يجعله يستجيب لرغبتها مكتفياً بضمته
الرقيقة لها .. أنامله تربت على ظهرها للحظات حتى
يشعر بهدوء جسدها المتشنج فيهمس لها بترقب:

_ وأنتِ لن تحكي!؟!

_ عن ماذا!؟!

شحوب صوتها يصيبه بالمزيد من سهام الشفقة

خاصة وهي تردف بصدق مس قلبه:

_ حياتي قبلك لم يكن فيها ما يستحق الحكاية ..أنا

ولدت يوم عرفتك .

_ وأنا سأجدد عهدي معك كل ليلة قبل أن ننام .

يهمس بها بحزم حنون يشبهه وأنامله ترسم خرائط

حب فوق ظهرها ..

لتجد الجرأة أخيراً فتحرر رأسه الذي رفعه نحوها

ليقبل عينيها بعمق هامساً ب"عهدهما الأثير" الذي

ختمه بإضافته :

_أعدك أن أسمع حين يسد الجميع آذانهم .. أن احنو
حين يقسون .. ان أرحم حين يرحمون .. أن أبقى حين
لا يبقي أحد .. وأن أحبك كما لم يحبك أحد .

همساته تذوب كالسكر بين شفيتها وجرم الهوي
يشتعل من جديد بنار تدفئ ولا تحرق ..

عد يا نورس الحب المهاجر .. عد يا قوس قزح !



يفيق من نومته بعد وقت لا يتبينه .. لم تنقض الليلة
بعد .. الليلة التي سقته فيها أعذب كنوس الغرام ..
يتفقد جواره وهو يتوق لأن يحكي لها عن حلمه
لكنه لا يجدها ..

يغادر الفراش ليبحث عنها خارج الغرفة فيختلج قلبه
بتأثر وهو يراها ساجدة في مكانها تصلي ..!

_ لا تعاقبني .. لا تعدني لسجني القديم .. أنا لا أقصد
خداعهم .. أنا فقط لا أريد خسارتهم .. أنت وضعتهم في
طريقي لتهديني فلا تردني لضلالي .. أنت قضيت أن
أحرم من ابني فلا تحرمني منهم ..
همساتها جمرات تلهب كيائها كله وهي تناجي الله في
خلوتها ..

لاتزال لا تتقن كلام الدعاء المنمق فتكتفي ببوح
صديق لمن لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا
في الأرض ..

مذنبه واقفة في منتصف الطريق تخشى أن يدفعها
اليأس فترجع ولا تملك الشجاعة كي تتقدم وحدها ..
(هم) سندها !

ليس إبراهيم بعشقه فحسب بل ربيع وهبة وسامي
وسندس وكل الناس هنا الذين منحوها هوية حقيقية
مهما ادعت الأوراق العكس!

تسلم من صلاتها وقد شعرت ببعض السكينة المشوبة
بالذنب لكن عينيه تتلقفانها في وقفته ليرسما على
شفتيها ابتسامة جبرية ..

يتقدم منها ليمد لها كفه ثم يحتويها بعناق دافئ سبق
همسه:

_ خفت عندما استيقظت ولم أجدك ..

ثم يلين صوته بضحكة هائلة:

_ قلت (العروس هربت).

ضحكتها تداعب أذنيه وهي ترفع إليه عينيها هامسة
بدلال أخفى بإتقان مشاعرهما الحقيقية:

_ لا تخف .. العروس "قاعدة علي قلبك" .. عساك أنت

من لا تهرب !

مرارتها الخفية لا تصله وهو يقبل وجنتيها بعمق

هامساً:

_ الحمقى فقط من يهربون من الجنة والضالون

يحرمون منها..ولست باحمق ولا ضال !

تبتسم وقد أعجبتها كلماته لتلمح هذه اللعة الحقيقية

في عينيه فتسأله باهتمام:

_ لماذا استيقظت ؟! ظننتك لن تقوم قبل الفجر ..أقلقك

صوتي؟!!

لكنه يجذبها من كفها هاتفاً بلهفة:

_ تعالي .. سأخبرك !

يزداد عجبها وهي تراه يطوق كتفيها بذراعه ليغادر

بها الشقة ويزداد أكثر وهي تراه يصعد بها نحو

السطح ..

يقربها من هذه الصبة الأسمنتية التي ارتفع فوقها

هوائي الإرسال والتي بدا فوقها أثر طبعة قدم ..!

_ هذا أثر قدم حسن .. هو من اشترى لي هذا من ماله

وقد كان يعلم عن عشقي لمشاهدة مباريات كرة

القدم .. اليوم رأيته في حلمي .. كان يقف هنا .. هنا

مكانك بالضبط ..

يهتف بها بانفعال وجسده كله يرتجف بكلماته بينما

يحركها ليوقفها في المكان المنشود مردفاً:

لم أره منذ مات بهذا الوضوح .. بهذه الضحكة
الصافية .. كان يبارك لي ثم فتح لي ذراعيه
وأعطاني .. أعطاني طفلاً وقال لي هذا حسن !
ضحكتها تمتزج بدمعة حقيقية إن لم يكن تأثيراً
بانفعاله فمشاركة له في أمنيته ..

أه لو يكتب لها القدر طفلاً منه .. يمنح كليهما

العوذ !

تراه وقد أغمض عينيه كأنه انفصل تماماً عن

الواقع ..

كأنه ما عاد يري سوى أحداث حلمه ..

شفتاه تدندان بلحن قديم تعرفه لكنها لم تركز من قبل

في معانيه ..

أه ده اللي صار

وادي اللي كان

مالكش حق ..مالكش حق تلوم عليا ..

_اغنية وطنية قديمة كان يحبها ..كان دوماً يتغني بها

هنا ..يالله! كاني أسمعها الآن بصوته ..

تلوم عليا ازاي يا سيدنا

وخير بلدنا مهوش في ايدنا

تلوم عليا ازاي يا سيدنا

وخير بلدنا مهوش في ايدنا

قولي عن اشياء تفيدنا

و بعدها بقي لوم عليا

اهو ده اللي صار

وادي اللي كان ملكش حق

ملكش حق تلوم عليا
مصر يا ام العجايب
شعبك اصيل والخصم عايب

خلي بالك من الحبايب.
دولا انصار القضية..

اهه ده اللي صار وادي اللي كان
مالكش حق ..مالكش حق تلوم عليا ..

ابتسامتها تتسع مع خيطين رفيعين من الدموع وهي
تشعر أنها حقاً تعرف معه الدنيا كلها من جديد ..

الدين ..الوطن ..والحب !!

نظراتها تزيغ وهي تتذكر- ذاك- الذي كانت تخفيه
تحت تلك البلاطة في بيت سمرا القديم والذي حرصت

ألا تتركه خلفها في بيت الصباحي مع ما تركته هناك

من يسرا !

والذي لا تزال تحتفظ به ولا تعرف ما السبب !!

_ فيما شردت؟! هل أثقلت عليك بالحديث؟!!

ينتزعها بها إبراهيم من شرودها فتهم بالرد عليه لولا

أن صدح الصوت فجأة :

_ العريس والعروس واقفان علي السطح ليلة

الدخلة .. اخس! .. عليه العوض !

تكتم ابتسامتها براحتها وهي تميز وجه قيس الذي

عاد لينحني نحو الدرج مخاطباً أخويه الواقفين

بالأسفل بقوله بنفس النبرة المتهكمة:

_قولوا لمستتر ربيع أن يطمئن ..ليس لصاً ! لكن

الحسرة أكبر ! العريس هنا يشم الهواء مع

عروسه .. آه !!!

قبضة إبراهيم تنال من كتفه فيتأوه ضاحكاً بينما

يتعالى صوت ضحكات شقيقه من الأسفل ..

فيحمر وجه إبراهيم بمزيج من خجل و غضب وهو

يهتف به :

_ولد! ولد! لا ينقصني تظارك !

تشيخ يسرا بوجهها كاتمة المزيد من ضحكاتهما وهي

تري إبراهيم يدفعه أمامه على الدرج يكاد يسقطه ..

لتختلط أصوات ضحكات الحرافيش بمزاحهم

المشاكس بالأسفل والذي لم تسمعه وإن خمنت

طبيعته ..

أذان الفجر ينبعث أخيراً فتتهد بمزيج من ارتياح
ووجل وهي ترفع عينيها للسماء ..
هل تلمح وسط الغيوم طريقاً؟!
أم أنها فقط تتوهم؟!
=====

نيلي
=====

مرغم عليك يا صبح ..مغصوب يا ليل

لا دخلتها برجليا .. ولا كان لي ميل ..

شايلىنى شيل جيت أنا للحياة ..

وبكرة هخرج منها شايلىنى شيل ..

وعجبي!

"صلاح جاهين"

الكلمات تطفو لذهنها فجأة وهي تتخذ مجلسها في ذاك
المطعم المظل على النيل صباحاً تراقب صفحته بوجه
بارد ..

هدوء موجه الساكن كم تراه يخفي في أعماقه؟!
تتنهد بحرارة وهي تعاود الترنم بكلمات جاهين وكل
حرف منها يحفر داخلها ... مقبرة!
_ صباح الخير .

صوته الحبيب بلكنته الفلسطينية يداعب أذنها فترفع

زهرة رأسها نحوه ..

يمد يده مصافحاً إياها بلهفة وعيناها تعانقان ملامحها

باشتيق عاتب فترد له تحيته بفتور ..

يجلس أمامها على المائدة ليسألها بعتاب حان مشيراً

لكتفيها :

_ أين شالك؟! لماذا لا ترتدينه؟!

_ هو شالك أنت .

تقولها بنبرة غامضة مشيرة لـ "الشال الفلسطيني"

الذي وضعه يوماً على كتفيها والذي يشبه خاصته

الذي يرتديه يوماً كرمز لهويته ..

_ ظننتنا واحداً.. أنا وأنت!

يقولها بنفس النبرة العاتبة المختنقة فترتجف
ابتسامتها وهي تطرق برأسها لتغير الموضوع
بقولها:

_ أنت غاضب مني لأنني لم أستطع حضور زفاف
صديقك بالأمس .. أخبرتك أن حسناء تعبت فجأة
واضطرت للبقاء معها .

_ ماذا تخفين عني يا زهرة؟! أخبرتك أنني لن
أسامحك أبداً لو أخفيت عني شيئاً .

يقولها بضيق عاتب وهو يكاد يختنق بكل هذا الألم
الذي تحمله روحه ..

لتنهد هي بحرارة دون رد فيعاود سؤالها بقلق:

_ هل قالت لك حسناء شيئاً عن ريان؟! بالتأكيد هي
تعلم خيراً عنه .. أخبريني ولا تخفي شيئاً .

_ الحقيقة موجعة يا جهاد ..كلنا نزرع رغبتنا في
معرفتها لكن صدقتي الجهل رحمة أحياناً.
حروفها الغارقة في مرارتها تجعله يمد كفه ليحتضن
راحتها هاتفاً :

_ هراء! أخبريني ما الأمر!
الدموع تملأ عينيها للحظات قبل أن تغلبها حروفها
الشاحبة :

_ تريد الحقيقة؟! حسناً! ريان هو من أبلغ إدارة
المشفى بشأن القضية كي ينهوا تعاقدهم معك قبل
حتى أن تثبت التهمة ..فعلها كي يحافظ على وظيفته
هو! لهذا لا يجروا على مواجعتك بخيانتته!

_ مستحيل! كذب! كذب! ريان لا يفعلها .. ريان ليس
خائناً ..

يهتف بها رافضاً باستتكار وهو يضرب بقبضتيه على
المائدة جواره فترمقه بنظرة مشفقة طويلة وهي تراه
يردف بذهول :

_ لم أكن أحمق طوال هذه السنوات التي اعتبرته فيها
صديقي المقرب بل أخي وكل أهلي .. لم أخطئ
الحكم .. لا .. لا .. لم أكن مخدوعاً ..

_ ليس وحده ! تلك الجماعة التي كنت تظنها خيرية
وتدعم وطنك واكتشفت مؤخراً أن لها نشاطاً إرهابياً
سرياً وكادت تقضي بقية عمرك في السجن بسببها!
يبدو أنك فعلاً حسن النية سهل التصديق .. ومثلك
يكون الهدف الأمثل كل مرة لاستقبال سهام الغدر .

تغمغم بها بنبرة غريبة على أذنيه وهي تشرد في
الفراغ لينعقد حاجباه بغضب وهو يهتف بها بانفعال:
_إنها المرة الأولى التي تتحدثين فيها عني بهذا
الانتقاص وكأني غرّ ساذج ينتظر كل من هب ودب
ليصفعه على مؤخرة رأسه !

تدمع عيناها بقوة وجسدها يرتجف بشدة وصلته
مكانه ..كلماتها تبدو مثله مختنقة وهي تغمغم بين
اعتذار وأسى:

_أسفة! لكنني حقاً أريدك أن تفتح عينيك ..دور
الفارس جميل لكننا لسنا على مسرح ..نحن أمام
أناس حقيقيين يصارع شرهم خيرهم ..أمام ضغوط
حقيقية لا تحتل المثاليات الفارغة .
يرمقها بنظرات مصدومة وهو يغمغم مصعوقاً:

_ لا أصدق أنك أنتِ بالذات من تقولين هذا الكلام !
أنتِ التي انتظرتني لسنوات طويلة دون أي وعد بيننا

سوى إيمانك بحبي !

فتزدرد غصة حلقها وهي تتمتم بصوت مرتعش:

_ ربما كان هذا هو السبب!؟

_ ماذا تقصدين!؟

حروفه مصبوغة بهذا الخوف الأسود وكفه يعاود
التشبث بكفها بتمك فتسحب كفها منه لتخفي وجهها
بين كفيها في نشيج خافت يجعله يشعر بالعجز مكانه
وهو لا يفهم ماذا يحدث ..

_ زهرة! أنتِ تحمليني مسؤولية سجنك!! تعلمين أن

الأمر لم يكن بيدي!

يهتف بها بزفرة مشتعلة وكفّاه يضربان وجهه بخفة

بأسى حانق ليردف بنفس النبرة المختنقة:

يَعْلَمُ اللهُ كَمْ كُنْتَ أَتَعَذَّبُ بِذَنْبِكَ فِي سَجْنِي .. لَمْ أَكُنْ

أَخْشَى عَلَى نَفْسِي بَلْ كُنْتَ أَخْشَى عَلَيْكَ أَنْتِ .

ترفع كفيها عن وجهها وعيناها ترنوان إليه بألم غير

مسبق لتهمس أخيراً:

لو كنت حقاً تخاف عليّ أكثر من نفسك .. فأحطني مما

بيننا !

طلقة غادرة!

كلماتها حقاً تبدو له كثاني طلقة غدر بعد صدمته في

صديقه!!

لهذا ظل دقيقة كاملة يحدق في ملامحها التي بدت له

غريبة كأنه لم يعرفها يوماً!!

_ لا أفهم!.. لا أريد أن أفهم!!.. زهرة!! أنتِ لا

تقصدين فعلاً ما قلته!!

يغمغم بها بصوت ذبحته الصدمة تلو الصدمة..

فيعلو صوتها بالبكاء من جديد ليخبط بكفه على

المائدة بقوة هادراً بحدة:

_ ماذا تقصدين أنت؟! ماذا تقصدين!؟

يكررها بانفعال يصرف إليهما أنظار الحضور لكن

كليهما كان غائباً عن العالم بصاحبه.. لتهتف هي

بنفس الانفعال :

_ لا تكن أنانياً! لا تجعلني أندم أنني عودتك أن أكون

دوماً الطرف المعطي في علاقتنا دون انتظار مقابل!

_ أناني؟! أنا؟!

يتمتم بها وهو يهز رأسه غير مصدق لتهتف هي
ملوحة بكفيها:

_ أنت خسرت عملك لكنني لم أخسره .. ولم يعد
بوسعي أن أخاطر بالبقاء هنا في مصر بعد مشكلتي
مع أهلي .. هل فكرت أنه لو وشى بي أحد في عملي
هناك كما حدث معك ماذا سيحدث؟! لو تناثرت الأخبار
من المشفى الخاص بك لذاك الخاص بي أنك على
علاقة بي؟!

يحمر وجهه بغضب مكتوم وعيناه تصرخان بمدى
شعوره بالامتهان:

_ هكذا؟! صرت الآن وصمة على جبينك تخافين أن
تعيري بها؟! هذا كان سبب تباعدك عني طوال الأيام
السابقة إذن ؟!

خيطا الدموع على وجنتيها يفضحان عجزاً يشبه
عجزه وهي تطرق بوجهها قائلة بوهن:
_ الثقل في قدمي يسحبني للقاع ولم يعد يحتمل
المزيد .. فليمض كل منا في طريقه وحده ومن يدري
ربما عندما ...

_ وحده؟! وحده!!!?
يصرخ بها بانفعال كانت هي أكثر من تقدر حرقة مع
علمها عن ماضيه لتتهف بتوسل حار:
_ أرجوك يا جهاد افهمني .. أنا لا أخونك ولا أتخلى
عك .. أنا فقط أنقذ ما بقي لي من نفسي .. حقي أن

أفكر في نفسي ولو مرة واحدة على الأقل في
حياتي ..طوال هذه السنوات وأنا أعمل لأرسل راتبي
وشقا غربتي لأهلي ..لم أدخر لنفسي قرشاً
واحداً ..طوال هذه السنوات وأنا أحبك وأنتظر دون أن
أطالبك بأن تتخذ أي خطوة ..لكن الآن الوضع
اختلف .

_اختلف!!

يتمتم بها بذهول لا يزال يمنعه التصديق ليردف وهو
يعتصر كفها في قبضته :

_ "أنت بدربك في جهاد وأنا بحبك في جهاد" !!! ألم

تكن هذه كلماتك؟! ألم يكن هذا عهدك!؟

_تعبت!

تهمس بها بصوت كسير وهي تغض عينيها بقوة
هاربة من جحيم نظراته عاجزة عن منع فيض
دموعها لتقف مكانها وهي تحرر كفها منه مردفة :

_ الحب وحده لم يعد يكفي ..دعني لمرة واحدة في
حياتي أتخلى عن دور "النيلية" التي وهبت نفسها
للعطاء وأجرب رؤية وجهي وحده في
المرآة ..أرجوك! طريقي وحده شاق بما يكفي فلا
تحملني مشقة طريقك هو الآخر !! هويتك تقف دوماً
عائقاً في طريقك ولن أقضي العمر معك هاربة لاجئة
تتقاذني البلاد ولا وطن لي .

تقولها وهي تمسح دموعها الجاريات دون جدوى
فيقف بدوره وهو يهتف بإصرار ذاهل:

_ لا! لن أصدق!! لن أصدق!! أنت لن تتخلي عني

بهذه البساطة!! أنت لست خائنة!! أخبريني ماذا

يحدث معك!! هل عاد الوغد والدك يهددك!؟

_ لا تشتم أبي!

تهتف بها بانفعال وهي تحرك سبابتها في وجهه

مردفة:

_ لا تجعلني أدم على البوح لك بأسراري!

تقولها وهي تجذب حقيبتها لتتحرك مغادرة لكنه يلحق

بها ليقف قبالتها وهو يبسط راحتيه في وجهها هاتفاً

بلوعة غاضبة:

_ أعتذر عن الإساءة! لكنني لن أترك هكذا!! قولي

ماذا يحدث!! بالله عليك قولي أي شيء.. لا تجعليني

أفقد إيماني بك.. لا تجعليني أفقد إيماني بالحب في هذا

العالم!!

تعود الدموع لتتكس في عينيها وشفاتها ترتجفان
بهذه الطريقة التي يود لو يفتديها بعمره كله .. فيقترب

منها خطوة مردفاً بنبرة أكثر رفقاً وبعض الأمل

ينتعش في صدره:

_ أنتِ غير جادة .. أحدهم أجبرك على فعل هذا !

تهز رأسها نفيًا فيصرخ بها بثورة :

_ أقسمي لي أنك اخترت فراقنا برغبتك !! أنك لست

مغصوبة من أي شخص!

تصمت للحظات طويلة بدت له كدهر كامل ليمنحه هذا

المزيد من الأمل لكنها تهمس أخيراً:

_ أقسم أنها رغبتى أنا ولم يجبرني أحد ..كلانا كان
الشخص الصحيح لصاحبه لكن العبرة دوماً في
التوقيت ..وكل موافقتنا تأتي دوماً متأخرة .
_ كاذبة ! كاذبة!! لا أصدق كل هذا الهراء الذي
تدعيه!! هذا مقلب من حسناء؟! نصحتك بهذا كي
نعجل بزواجنا!؟!

تهز رأسها نفيًا وإشفاقاً على هذا الوجع الذي يفيض
من ملامحه وتشاركه إياه ليعاود الهتاف وذراعه
يكادان يطولان السماء من فرط انفعاله :
_ إذن هي أمك ! ظهرت من جديد !! طلبت منك أن
تتركيني !!

_ هي فعلاً ظهرت ! رأيتها يوم خروجي من
السجن ..شبح متوارٍ خلف جدار يرمقني من بعيد
بنظرة أسف واشتياق ..جريت نحوها لكنها اختفت
فجأة ..ابتلعها الشارع الواسع بزحامه ..يبدو أنها لم
ترد أن تكون حملاً إضافياً عليّ ..وليتك تفعل مثلها!!
لم يكن للألم أن يذبح حروفها أكثر ..
ولا قلبه كذلك!!

لكن الفارس يأبى أن يسقط من على ظهر جواده لآخر
لحظة وهو ينتزع منها حقيبتها ليبحث عن حافظتها
فيفتحها ..

_ كاذبة!! كاذبة!! سأثبت لك !!
يبحث عن دبلته الملونة حيث اعتادت دوماً أن تحتفظ
بها كبرهان على حبها الأبدي .. لكنها ..

لكنها لم تكن هناك!!

هنا يرفع عينيه نحوها ليغمغم بضياح عاتب:

_ أين؟! رميتها مع ما رميته؟!!

فتهز رأسها نفيًا بجوابها :

_ بل احتفظت بها بعيداً في صندوق ذكرياتي ! لن

أنسى أبداً أن...

_ ذكريات!! هل صار ما بيننا ذكريات بهذه السرعة؟!!

بهذه البساطة؟!!

يقاطعها بها بثورة عارمة وذراعاها تقبضان على

ذراعيها دون وعي فلا ينتبه إلا لبعض الناس وقد

تجمعوا ليبعدوه عنها بصخب تعالى هديره في

المكان!!

_ دعوني!! إنها زوجتي!! حبيبتي!!

يصرخ بها بهياج وهو يشعر أنه لا يدافع عن حقه
فيها كامرأة ..بل كوطن!!
وطن حُرِم منه للمرة الثانية !!
وجهها الحبيب يختفي خلف حجب من حزن ولوعة
وقد تلون في عينيه بصبغة الغدر ..
زحام الوجوه يحول بينهما والستار يلقي سدله بين
قلبين تعاهدا يوماً أن يكملا الطريق ..!!
لا يدري كيف عاد للفندق ولا كيف الآن صار واقفاً
أمام النيل في شرفة غرفته ..كعهده يرى على صفحته
وجهها ..الآن معكراً بغدره !!
يبسط راحته على صدره وهو يشعر بقلبه يتمزق ..
دقاته تعوي ..تنوح بهذا الفقد الذي طالما تجنب الحب
لأجله ..

كأنه كان يشعر أن نهايته بسيفه !!
أنامله المرتجفة تمتد لهاتفه يتصل بريان لكنه لا
يرد ..

هل حقاً خانه كما خانت هي؟!
هل كان هو طوال هذه الفترة يؤدي دور المغفل الذي
يرتدي ثوب الفارس يظن الناس يصفقون له عجباً
بينما يضحكون عليه من خلف الستار !!?
يغمض عينيه بقوة على صورتها وذكرياتهما تتوالى
له تبعاً ..

زهرة الرقيقة التي ظنّها ستكون استثناء صحرائه
القاحلة .. لم تكن سوى نبتة صبار خادعة آذاه

شوكها!!

تخلت عنه في أول اختبار!!

صوت اتصال من الهاتف الداخلي لغرفته يقاطع
أفكاره فيتجاهله لدقائق قبل أن يضطر لإجابته ..
_دكتور جهاد .. هناك امرأة تريد لقاءك هنا !
ينعقد حاجباه وهو يسمعها بصوت موظف الاستقبال
ليهرع نحو الأسفل بلهفة لم يملكها ..
هل عادت معتذرة !؟
هل كانت مجبورة؟؟
عيناه تبحثان عنها في بهو الاستقبال فلا يميز
ملامحها ، يرمق موظف الاستقبال بنظرة متسائلة
ليشير له لامرأة شقراء تعطيها ظهرها وقد بدت
بثوبها القصير العاري وطراره أنها سائحة أجنبية ..
_ عفواً! هل تسألين عني!؟!

يقطع سؤاله بشهقة مكتومة وهي تستدير نحوه ليميز
ملامحها فيهتف باستتكار و عيناها تدوران فوقها
بمزيج من غضب وصدمة :

_فدوى!

لكن صوتها يأتيه -بالفرنسية- بارداً إنما مشتعلأ
بقسوة هادرة :

_بل يولاند يا جهاد ..يولاند !

=====

أزرق

=====

على مكتبها تجلس جنة تتابع آخر معطيات القضية
التي تشغل بالها مؤخراً بخصوص ذاك "الكوبرا"
وارتباطه ب"الحوت الكبير" الذي تريد الإيقاع به !!
الخيوط متشابكة .. تتلاقى في كثير من النقط .. لكنها
تعود لتقطع فجأة كأنه يدرك جيداً كيف يعرقل من
يسير في الطريق إليه ..

أدلة كثيرة وأسماء أكثر .. لكنها تنتهي بلا فائدة!!

ولو!

لن تيأس!!

لقد وجدت طرف خيط واهن لكنها ستتبعه !!

تطلق زفرة ساخطة وهي تزيح الأوراق بعيداً لتجمعها

ثم تفتح أحد الأدراج لتضعها فتتعرثر أناملها بصورة

حسن المقلوبة على ظهرها والتي لا تزال تحتفظ بها

هنا ..

تبتسم دون وعي وهي تدعو له بالرحمة ..تعتبر

رؤيته الآن شارة لها بالمضي في الطريق الذي رواه

هو بدمه وأقسمت أو تكمله ..

تدمع عيناها وهي تتذكر ما سمعته عن زواج إبراهيم

شقيقه ..لم يدعها للزفاف ولم تنتظر منه فعلها لكنها

علمت التفاصيل ..فتاة مسكينة بلا أهل ولا سند

تزوجها بعدما ساعدها في محنتها ..صحيح أنها

تعجبت الأمر في البداية مع ما كانت تعرفه من عزوفه

عن الزواج بل والدنيا كلها ..لكنها عادت لتقنع نفسها

أنه حتى في زيجته هذه كان بطلاً كأخيه فلم يبحث عن

حسب ولا نسب بل تزوج من رق لها قلبه كي يسندها
في وحدتها وظروفها ..

تسمع رنين هاتفها برقم فهد فتعيد الصورة مكانها
قبل أن تغطيها بالأوراق وهي تشعر أن صورة فهد
الجديدة لا تقل عنها بطولة لترد بسرعة:

حالا ! سأنزل حالا!!

تقولها ثم تقوم لتعدل ملابسها قبل ان تتحرك
لتغادر .. تلقي التحية على مساعدتها ثم تغادر المكتب
لتجده ينتظرها في سيارته ..

تبادره بقبلتين على وجنتيه يبتسم لهما بشحوب
فتغمزه هامسة بدلال:

قبلتا الصباح لك .. وقبلتا الليل لي .

طوال عمرك عادلة يا أستاذة .

مزاحه يمتزج بحزن غريب تشعر به يجتاحه منذ أيام
لكنه يرفض البوح به رغم محاولاتها العديدة ..
_ لوكا عند رحمة .. ماسة طلبت مني تركها مع ضياء
ونور وميادة هناك .. وجدت لها فرصة لأختلي بكِ .
حتى غزله يفتقر لروح المشاكسة التي تميزه ..
فتتهد بدلال وهي تتأبط ذراعه هامسة:

_ وأنا معك ! بشرط ..!

يرمقها بنظرة متسائلة فتعانق نجوم ليله الأسود في
عينيه وهي تمسد شعره بأناملها الحرة مجيبة:
_ تفتح لي قلبك فاطمن على آخر أخباره .

_ كنت سأفعلها على أي حال !

يهمس بها بغموض وهو يتحرك بالسيارة فتلقي
رأسها على كتفه وهي تحتضن ذراعه
بذراعيها ..تغمض عينيها هامسة :

_اليوم كنت أفكر فيك ..وسط كل تفاصيل العمل
الشاقة ..وسط كل انتصاراتي وإخفاقاتي ..وسط
الصراع بين الحق والباطل ..القوة والضعف ..كنت
أتشبت بصورتك ..

ثم تفتح عينيها ليتلألاً وهج البندق فيهما باستطرادها:
_أنا خباتك بين ضلوعي كنز العمر ..خيمتي الصغيرة
التي تسعني من وحشة الصحراء حولي ..وسمائي
التي لن تمل أبداً من طول تحليقي مهما شردت بي
أجنحتي .

تشعر بجسده يرتجف وهو يزدرد ريقه بتوتر وصلها

مكانها رغم مزاحه المصطنع:

_أدام الله علينا رضا الأستاذة .

تتفحصه ببصرها للحظات تؤكد شكها ثم تسأله

بفضول:

_إلى أين؟!!

_إلى المكان الذي أستطيع فيه التحدث معك!

ينقبض قلبها للنبرة المتهاكة التي يتحدث بها لكنها

تؤثر الصمت مكتفية بعناق ذراعه وهي تحط برأسها

فوق كتفه ..

تتسع عيناها بإدراك وهي تميز قربهما من المكان

المنشود ..

ياالله!!!

لا يزال يذكره بعد كل هذه السنوات !!

يرتعد جسدها للذكرى وهي تمد أناملها ببطء تتحسس
ندبة ذقنه التي أحدثتها بنفسها تلك الليلة .. في نفس
المكان .

تشعر بتوقف السيارة فترفع إليه عينيها هامسة
بحيرة :

_ لماذا يا فهد؟! ما الذي ذكرك بهذا المكان اليوم؟!
يصمت قليلاً ليهرب بعينه منها قائلاً :

_ ربما يكون من الرشد أحياناً أن نعود للبدايات كي لا
ننسى .

تحدجه بنظرة متفحصة للحظات ثم ترفع كفه لشفتيها
تقبله بعاطفة قائلة:

_تعرف ما هي أكثر القصص التي تستفزني في الأفلام والواقع؟! البطل الذي يخفي شيئاً عن حبيبه بدعوى التضحية والخوف عليه.. الحب الحقيقي شمس لا تعرف حياة الجحور.. فلنتألم معاً لنعيش معاً أو نموت معاً.

_وكانك لم تفعلني هذا يوماً؟!
يهمس بها عاتباً لترد بنفس الحماسة الفائرة :

_لم أفلتها زهداً فيك ولم أكن لأتخلى عن حقي فيك أبداً.. فعلتها لأعود أقوى.. فعلتها لأحمي ابنتنا وحبنا.. لكنني لن أناقض نفسي كي لا تتهمني بالغرور.. حسناً.. فعلتها.. والآن أجد الشجاعة لأعترف بندمي على فعلها.

يشيح بوجهه دون رد لكنها تحيط وجنته براحتها

لتجبره على النظر إليها هامة :

_ ما الأمر؟! هل ستجد الجرأة لتستمر في الكذب أمام

عيني حبيبتيك؟!!

يصمت للحظات يحسم ترده ثم يطلق زفرة استسلام

وهو يخبرها بأمر بتول وذاك الفيديو الذي أرسلته

له ..

تتسع عيناها بارتياح وهي تستمع منه لتشهق أخيراً

بصدمة وهي تتشبث بكفه بقوة ..

_ ياالله!! ياالله!!

تهمس بها بانفعال قبل أن يغلبها شعورها الأمومي

نحوه فتحتوي رأسه بين ضلوعها بكل قوتها مردفة

بألم:

_ واحتملت هذا وحدك طوال هذه الفترة؟! لماذا لم

تخبرني من يومها؟!

يبتسم لهذا الحنان الأمومي الذي يمتزج بقوتها والذي

يعشقه فيها ليرفع إليها عينيه الدامعتين :

_ صدقيني ..أنا نفسي كنت أحتاج الوقت لأستوعب أن

الأمر حقيقي ..هل تتصورين أن تلتقي يوماً بميت بعث

من قبره لتصطدمي بتشووه ملامحه وعفونة رائحته

؟! هذا بالضبط ما وجدتي أمامه ..لن تتصوري

بشاعة المنظر يا جنة ..كابوس ..كابوس!!

صوته يتحشرج بلوعته فتعاود دفن وجهه في صدرها

لتسمح له بما تعلم أنه يحتاجه في هذه اللحظة ..

البكاء على صدرها!!

البكاء الذي شاركته فيه رغماً عنها للحظات قبل أن
تستدعي كل ذرة من قوتها لترفع وجهه نحوها ..
تمسح دموعه بأناملها لتغرق وجهه بقبلاتها هامسة
بقوة :

_ضربة قوية لكنك أنت أقوى! أنت فهد الصاوي الذي
أفخر وسأبقى أفخر به ..أنت هزمت ماضيك مرة
وتقدر أن تهزمه بعدها ألف مرة مادامت ماستك لا
تزال داخلك ..وأنا معك !

قبس قوتها كعهده ينثر النور بين ضلوعه فيضمها
هو إليه هذه المرة بهذه الطريقة التي تشعرها أنها
تسكن روحه ..

_ماذا تريد تلك المرأة مقابل هذا الفيديو!
تسأله بقلق ليرد :

_ أن تتركي أنتِ القضية ..تسيتها تماماً .

ينعقد حاجباها بتفكير وهي تغمغم :

_ وإلا ستنشر الفيديو وتكون فضيحة لنا كلنا .

_ بالضبط!

_ لم تخبرك من أين حصلت عليه!؟!

_ هذا هو السؤال الذي أكاد أجن لمعرفة جوابه !! من

الذي صور هذا الفيديو!؟ ولماذا يظهر الآن!؟!

يزداد انعقاد حاجبيها للحظات ثم تهتف به :

_ كلمها الآن ..أخبرها أنك رضخت لأمرها وأنتي

سأتوقف عن متابعة القضية ..

_ وهل ستفعلين!؟!

_ نعم ..و..لا!

تقولها بمكر ووهج البندق في عينيها يزداد ألقاً

ليرمقها بنظرة متسائلة فتبادره بسؤالها :

_ أنت لم تخبر أحداً سواي عن هذا الأمر .. صحيح !؟

يومي برأسه موافقاً فترد بغموض:

_ يبدو أنك ستضطر لإخبار شخص آخر .

_ لا تقولي : عاصي الرفاعي .. لن أجرو على

مصارحته بشيء كهذا .. ولا حتى ماسة .

_ لا .. ليس هو .

يحدجها بنظرة متسائلة أخرى لكنها تنتزع هاتفه

لتناوله إياه قائلة :

_ فيما بعد .. المهم أن تطمئن تلك السافلة ومن خلفها

أننا استجبنا للتهديد .. وبعدها سنتولى نحن أمرنا ..

يطلق زفرة مشتعلة وهو يجد تفكيرها يوافق هوى في
نفسه فيتصل برقم بتول ليصله صوتها العايب مرحباً
بغنج مثير ..

_ قبلت شرطك .. سكوت جنة مقابل سكوتك
_ كنت أثق في ذكائك .. ألا يمكنني أن أطمع في مكسب
إضافي؟! حلقة برنامجي التي كنت أخبرتك عنها؟!
يغلق الاتصال في وجهها بعنف يساوي الجواب
فتطلق ضحكة طويلة مكانها وهي تعيد هاتفها
للكومود جوار الفراش الذي ترقد عليه شبه عارية ..
تستدير بجسدها نحو الرجل جوارها .. تتحسس أناملها
الوشم المميز أعلى ذراعه لتهمس بدلال :
_ كما خططت .

_ لم أكن أتصور وأنا أعد الطعم لأبيه منذ سنوات أنه
سيكون من نصيب ابنه .. أحياناً أشعر أن القدر يكافئ
مثلي على ذكائه بالمزيد من الفرص .

يقولها بصوته الخاص الذي يثير مزيجاً من الرهبة
والرغبة في أوصالها لتقترب منه أكثر هامسة بتملق:

_ من مثلك هم من يخلقون الفرص !

_ تعجيبيني!

يهمس بها باستحسان وهو يضمها إليه بعنف فتطلق
ضحكة قصيرة وهي تداعب صدره بأنفها لكنه يشرد

ببصره للحظات متمتماً بخفوت:

_ بقي شاهد واحد يجب أن يقطع لسانه .. وبعدها ينام

الكوبرا هائناً في مخبئه !



_ كيف حالك اليوم يا "قلبية الثغر"؟!!

يهمس بها أديم وهو يتخذ مجلسه المعتاد جوار

فراشها ..

يتفحص ملامحها التي غابت عن وعيها فلا يدري هل

يغبطها على هذه النعمة ..

هل يود حقاً لو لا تفيق أبدا كي تبقى صديقه الكتوم

الذي لن يفشي أبداً أسرارَه؟!!



أم على العكس يريد لها أن تفيق وتعود لحياتها النظيفة
التي اختارتها؟!!

كم مر عليه من أيام وهو يزورها ها هنا؟!!

لم يعد يذكر !!

كل ما يعرفه انه صار يقتصر الوقت الذي يمكنه فيه

القدوم إلى هنا ..

يتحدث إليها بهذا الحديث الذي لا يستطيع البوح به

لسواها ..

هو لم يعد يأمن صاحباً ولا قريباً ..

حياته كلها صارت خاوية من أي دفء بشري ..

حتى ديمة !!

لا يزال يراقبها من بعيد كي يحميها شر نفسها لكنه ما
عاد يجسر على الاقتراب الذي يشعره بنفورها ..
كأنه اقتنع أن هذا عقاب القدر ..
أن يبقى منبوذاً وحيداً فحسب!!

_اليوم ذهبت للاستوديو الخاص بك ..كان مغلقاً لكنني
رأيت الصور التي وضعتها في واجهته ..ليست لي
دراية بفن التصوير ..لكن لفت نظري هذه الوضعية
التي اتخذتها لمن تقومين بتصويره ..هذه التي
تجعلينه فيها كظل أسود لخلفية ملونة ..بحثت عبر
الانترنت وعرفت ان اسمه فن "السلويت" ..يقولون
أنه فن خاص جداً..وأنا أحببته ..ربما لأنه يلائم
شخصيتي كثيراً..يوماً ما عندما تفيقين سأطلب منك

أن تلتقي لي صورة "سيلويت" .. وربما أعلقها في
مدخل بيتي كي أذكرك بها دوماً .. فلا أظننا سنلتقي
بعدها تستعيدين وعيك .

يهمس بها بنفس الخفوت الدافئ الذي يسرها به كل
مرة ..

يراقب ملامحها بنفس المزيج من شعوره بالذنب
والشفقة نحوها ..

يهيأ إليه أن عينيها تفتحان .. شفيتها تبتسمان ..
أصابعها الرفيعة النحيلة تمتد نحوه .. تصافحه ..
فلا يدري هل يتمنى هذا حقاً أم أن الأفضل له أن تبقى
على وضعها!؟

_جاري العجوز لا يكف عن سخافاتهِ .. لا يزال يعطي
صوت مذياعهِ على آخرهِ في منتصف الليل ولو

اعترضت يصرخ في (انت كافر؟! إنه يتلو كتاب الله)
وفي النهار على أغاني فايزة أحمد ووردة ولو
اعترضت يصرخ فيّ (انت جاهل! ترفس النعمة؟! لم
يجئ ولن يجيئ صوت كفايزة ووردة!) ..
يهمس بها مقلداً صوت العجوز ثم يضحك بخفوت
كأنها تسمعه ليردف :

_اشتريت السجادة الأثرية من الجاليري الذي حكيت
لك عنه ..علقها كستار في مدخل غرفة
نومي..الصالون؟! ماذا أفعل بها في الصالون؟! لا
يزورني ضيوف في العادة ..كوبي الفخاري المفضل
تكسر بالأمس ..لا أتفاعل بكسر حاجياتي
المفضلة ..سلحفتي الصغيرة غاضبة مني ..مختبئة
داخل صدفتها ..حاولت مصالحتها لكنها تتدلل ..إحدى

سمكاتي ماتت .. هذه الذهبية التي حكيت لك عنها
المرّة الماضية .. لكنني أحضرت لرفيقاتها واحدة
أخرى .. هل حكيت لك عن هوسي بجمع الطوابع
القديمة؟! لهذا قصة أخرى .. سأحكّيها لك غداً فقد
تأخر الوقت .

يبتسم أخيراً ابتسامة رائعة وهو يشعر براحة
حقيقية ..

ينهض من مكانه ليرمق وجهها المستكين بنظرة
أخيرة ممتنة قبل أن يتحرك ليغادر ..
كانه دخل بروح مثقلة وخرج بأخرى خفيفة !!
يوماً ما سيشكرها على هذا الدور الذي قامت به ولو
دون قصد !!

يلمح حسام وقد أتى في مواعده لزيارتها فيتوارى

خلف أحد الأعمدة ..

صحيح أن بينهما حديث لم يكتمل بشأن الكوبرا لكنه

لا يريد الاصطدام به هنا من جديد ..

لأجلها هي !!

كأنه كره أن يضايقها ولو في غفوتها بشجار مع رجل

تحبه!!

يغادر مكنه أخيراً وقد اطمأن ليهبط الدرج نحو

الخارج حيث رصف سيارته ..

يستخرج مفاتيحه من جيبه فتسقط منه ولم يكد ينحني

ليلتقطها حتى فوجئ بهذه السيارة المندفعة نحوه ..

يستقيم واقفاً بسرعة ليتفادها لكن الحقيقة تبدو له

واضحة وهو يميز نية سائقها ..

يسمع صوت الاصطدام مع شعوره بجسده يطير في

الهواء قبل أن يصطدم ظهره بالأرض ..

أنوار مدخل المشفى تتلألأ في عينيه ببريق أكثر

سطوعاً للحظات ..

قبل أن تتشوش ..

تتشوش ..

ثم .. تختفي تماماً ..

=====

_تظنين أنني احببتها؟! تظنين أنني قد أعرف هذا

الشعور من جديد!؟

يتمتم بها حسام في حديقة بيته أمام سلطنة التي

التمعت عيناها في ظلمة الليل حولهما بينما أنامله

تمسد عنقها ورأسها ..

عيناها شاردتان عنها وشريط ماضيه يقذف المزيد من
الحطب فوق نيرانه ..

ملامح ديمة تتشكل أمام ناظريه وشعرها الأحمر يبدو
له امتداداً لجحيم روحه ..

جحيم تطفئه .. عيناها!

زرقتها القاتمة تبدو له كبحر هائج غامض يخيف
الناظرين إلا من حلقة الزعفران الآسرة خاصته ..
تشتعل تارة كطوق من نار .. وتسكن تارة كجزيرة
آمنة تعده بعد طول الغرق بأمان !

ليردف برجفة صوت واهنة سمح لها أن تغزوه :

_بل .. السؤال الأهم .. تظنينني أستحق؟!!

تخضع سلطنة ذيلها في إشارة لتعاطفها الحزين معه
وقد عادت أذناها للخلف مع لهاثها الخافت الذي بدا له
مواسياً فضمها لصدره برفق وهو يردف :

_ كل النساء في حياتي لعنة يا..كلهن .. فلماذا هي
بالذات أتوقع أن تكون استثناء!؟!

يطلق بعدها زفرة باشتعال روحه لتعود عيناه
وترسمان ملامح ديمة من جديد ..

_ لو رأيته كيف تبدو يا سلطنة! من أين لها بكل هذا
السحر!؟! رجلٌ مثلي لم تعد تغريه فخاخ الجمال في
عيون النساء كيف علقت قدمي هكذا معها!؟! كيف
تورطت!؟!

ينعقد حاجباه بشدة مع سؤاله الأخير ..

هو لا يعرف شيئاً عن ديمة سوى القشور !

المكان الذي تقيم فيه يبدو شديد الرقي ..من أين أنت

بالمال!؟!

ذاك المدعو أديم ..ألا يزال يساعدها!؟!

لا يظن ..إذن ..من يساعدها غيره!؟!

وكيف عرفت غازي هذا!؟!

من أتى بها من بلادها للصعيد!؟!

غريب!

كيف لم ينتبه لكل هذا سوى الآن!؟!

توتره ينتقل منه لسلطانة التي ازدادت وتيرة لهاثها

وهي تمد قدمها للأمام لكنه يربت على عنقها برفق

قبل أن ينهض من جلسته ليتناول هاتفه ..

يجب أن يعرف عنها كل شيء!؟!

يبحث عن الرقم المنشود بلهفة لتهم أنامله بضغط زر

الاتصال لكنه يتوقف في اللحظة الأخيرة ..!

لماذا تريد معرفة المزيد عنها؟!

لماذا تتجاوز بها علاقة محامٍ بموكلته؟!

لست رجل التذبذب والتهيه .. احسم أمرك ..

حتى لو كان شعورك بها حياً .. هل تقوى على

المخاطرة من جديد ؟!

هل هي من ستواجه الدنيا بها كعروس .. مشردة

لاجئة لا أهل لها ولا نسب والأدهى .. كانت متهمة

بقتل زوجها !

هل تريد "دمية معيبة" أخرى كدعاء تثبت بها فخر

رجولتك؟!

هل تستحق أنت فرصة أخرى؟!

وهي؟!!

هي هل تستحق "نصف رجل"؟!!

(نصف رجل ! نصف رجل!)

بصوت يسرا يسمعها من جديد تقذف المزيد من

الحطب فوق نيرانه ..

ملامحه تحتقن بغضب مكتوم وأنامله المرتجفة تعيد

هاتفه مكانه لجيبه ..

فلتبقي بعيداً يا حسام .. وحدثك على جزيرتك

المنعزلة .. فلا يليق بك سواها !

هنا يعود ليلتقط هاتفه ..

ضحكة مصطنعة جذابة في صورة له مع سلطانة تعمد

أن تبدي فخامة بيته .. ينشرها على حسابه ليكتب

فوقها تعليقاً مرحاً ..

عيناه تتابعان التعليقات بنهم معهود لكن الأرقام

المتصاعدة لا تمنحه اللذة المعهودة ..

الأرقام تتشوش .. تتلاشى .. تزيغ ..

فلا يكاد يبصر سوى حلقة زعفران مشعة بدفء

يفضح برودة دنياه!

نباح سلطنة يقاطع أفكاره فيلتفت نحو البوابة وقد

رن الجرس ..

يبتسم وهو يدرك هوية الطارق مادامت سلطنة قد

تعرفت عليه ..

يفتح الباب بترحاب خشن لكن ملامح الزائر الشاحبة

الصارخة بقلقها تجعله يهتف بقلق:

ما الأمر يا فهد !؟

=====

بنفسجي



_كسبنا القضية ..يمكنك المرور على مكثبي الساعة

(...) لننهي الإجراءات .

عيناها تحديقان في رسالته التي بعثها عبر الهاتف

بمزيج من دهشة وضيق ..

لماذا لم يحدثها مباشرة واكتفى بهذه الرسالة الباردة

!؟

والأهم ..ماذا ستفعل الآن معه وبأي عذر بعد اليوم

ستلتقيه!؟

ولماذا تفعل!؟

_لأنتقم!

تهمس بها بصوت مرتجف أمام مرآتها دون أن ترفع
بصرها ..

لا تريد مواجهة أشباحها الآن ..

فليبتعدوا .. وليتركوها لشأنها .. لساعات فحسب!
تقرأ الرسالة مرة تلو مرة والغصة في حلقها تزداد
مرارة ..

طيف أخبرتها بالحقيقة !

أخبرتها أنه كان ينتقم لها من بطش عاصي
الرفاعي .. لكن هالة ما كان ذنبها هي وابنها .. بل
وابنيها؟!!

كيف لم يفكر فيهما في غمرة انتقامه؟!!

كيف؟!!

تتحرك نحو خزانه ملابسها لتتناول حقيبة البروكار

بلونها الأحمر والأزرق ..

تتذكر يوم أعادها له ..

تغشى عينيها صورتها والحقيبة تستكين بين ذراعيه

قبل ذراعيها ..

تشعر بمذاق الأكل الذي أطعمها إياه الآن طازجاً

برائحة شهية كما كان يومها ..

تجتر هذه النظرة "الآدمية" التي حفرت طريقها بين

عينيها ..

فتسيل الدموع على وجنتيها وهي لا تفهم هذا الشعور

الذي يجتاحها نحوه ..

تشد أناملها فردة القرط البنفسجية في أذنها بقسوة

تدميها دون وعي منها كأنما تذكر نفسها بالحقيقة

الوحيدة التي تريد تصديقها .. هو عدوها .. عدوها

فحسب !!

_ هناك نوع من العلاقات معقد جداً بين الكره

والحب .. قرأت يوماً في كتاب أنه في إحدى الحروب

انعقدت هذه العلاقة الغريبة بين الجنود

وعدوهم .. أظنه كان روميل لو تسمعين عنه .. كانوا

يكرهونه لكنهم يعجبون به .. يعلقون صورته في

خزائنهم .. حتى أن قائدهم اضطر لاجراء علاج نفسي

لهم قبل خوض المعركة ! ولا أظن علاقتك بحسام

القاضي تختلف كثيراً!

_ تظنين أنني بحاجة لعلاج نفسي؟!!

_ لا لا .. أنا لا أظن .. أنا متأكدة !

بصوت طيف العجيب الذي يمزج سخريته بعاطفته
تسمعها كما كان منها ذات لقاء بينهما فتتهد بحرارة
وهي تمسح دموعها ..

نظرة لمرآتها تفتح عليها أبواب الجحيم !!
_مجنونة! هذه آخرتك؟! هاهي ذي آخر مرة سيلتقيك
فيها ذاك الوغد ! بماذا ستنتقمين منه؟! ظننتِ نفسك
ذكية بما يكفي لتدخلي لعبة كهذه؟! حمقاء كنتِ
ولاتزالين تدوسها الأقدام .

صوت غازي !

صفعته!

شبحه الأسود الخائق يطوف حولها يخفي عنها شبح

هالة!!

لكن مدداً من شبحها الأرجواني يصلها سريعاً ..

يرسم على ملامحها غلالة قاسية ..

ستنتقم!

لو كان هذا لقاءهما الأخير حقاً فلتلق خنجرها في

صدره !!

وأي خنجر أقسى من أن تريه صورته البشعة في

مرآة الحقيقة؟!
=====

أهلاً!

تحيته المقتضبة بلامحه المحايدة تقابل ملامحها

التي تلونت بين حزن وقسوة ..

مصافحة اعتاد فيها رجفة يدها لكن الجديد أن يده هو

الآخر كانت ترتجف !

أنت اتخذت قرارك لا تتراجع !

يهمس بها حسام لنفسه سراً وهو يترك كفها ببطء

لتحديد نظراته جوارها ..

لهذا "الصغير" الذي اصطحبته معها ..

_من!؟!

_ماما!

كلمة "سند" اليتيمة التي لا ينطق سواها وهو

يتشبث بثوبها تمتزج بسؤال حسام وهو يرمقها

بنظرة متسائلة حملت توجساً مفهوماً ..

لترد ديمة بصوت مرتعش:

_ابن صاحبتني .. ماتت وتركته .. أنا أربيه .

حنانٌ يمتزج باعجاب غريب على العينين الصقريتين

اللتين حامتا حولها للحظات قبل أن يشعر بهذا الوهن

يتملكه نحو هذا الكيان الصغير ..

الوهن الذي يكرهه رجل مثله!

_يشبهني .. ليس في ملامحي إنما في ظروفنا .. يتيم

مثلي حُرْم أبويه وأفقدته الصدمة القدرة على

النطق .. ترى كم هو جميل!؟!

ينعقد حاجباه بتفرس وهو يتعجب تراقص حروفها

بين ألم وقسوة .. قسوة ذكرته بحلمه بها وشعرها

الأحمر يمتزج بنيران أحطابه ..

لكن مشاعره تتحرك أكثر نحو الصغير الذي عرف -

لتوه - مأساته فتختلج عضلة فكه بتأثر أبي أن

يظهره ..

عيناه تفيضان بعاطفة هادرة مكتومة .. مقيدة .. قرأتها

عينها بوضوح لهذا تعجبت قوله البارد بعدها بشدة :

لا أحب الأطفال .. لا أجيد التعامل معهم .. وجودهم في
المكان يربكني .. يمكنك تركه بالخارج حتى ننهي
كلامنا .. لن نتأخر على أي حال .

تتسع عيناها بدهشة كطفل يرى أعجوبة لأول مرة!
كل كلمة صقيعية قاسية ينطقها تناقض هذا الشعور
الغامر الذي يخترق من صدره لصدرها دون
حواجز ..

لم يكن الآن مجرد كاذب .. بل مجروح .. مقيد .. أسير ..
بل إنها ظنت في هذه اللحظة أن لديه-مثلها- مرآة
أشباح؟!!!!

يتشبث سند بها أكثر فتسقط منه "بطته" الصغيرة
لينحني حسام عفويًا كي يعيدها إليه .. لكن الصغير
يبقى مترددًا في مد يده نحوه ..

فتتعلق عيناه رغماً عنه بعيني الصغير الزائغين ..

حزن سند .. في مقابل عجزه هو !

_ تريد البقاء هنا؟!!

نبرته القوية ترتعش رغماً عنه ولا تزال البطة

البلاستيكية في يده فيجيب سند عملياً وهو يتشبث

بديمة أكثر يخفي وجهه في ثوبها ..

يحاول حسام مسك كفه فيقبضه الصغير بقوة رافضة

لكن حسام يفتحه بإصرار ثم يضع لعبته فيه ليعيد

غلقه بعدها بنفسه مردفاً :

_ لا تسقط لعبتك مرة أخرى .. حافظ عليها .. ولو أنك

لم تعد صغيراً لتستمد أمانك من مجرد لعبة .

تتعجب ديمة من فظاظة عبارته الأخيرة لكن يبدو أن

فطرة الصغير النقية قرأت الموازنة بين حزم كلماته

وحنانها ليرمقه سند بنظرة متفاعلة مختلفة عن
تشتت نظراته المعهود ..

يكتفي حسام بهذا الانتصار الصغير وهو يرى الصغير
يرفع وجهه نحوه ليعاود الاستقامة بجسده وهو يشير
لديمة بالجلوس خلف مكتبه بحركة مقتضبة .. فتطيعه
لتجلس سند جوارها بينما يعود هو لكرسيه قائلاً
بنبرة عملية :

سأخبرك بأخر التفاصيل بخصوص الإرث .. يمكنك
تسلمه كاملاً مع وعد مني بالأ تعود تلك المرأة
وأقاربها لإيذائك .. أنا أنهيت الإجراءات .. لا مشكلة
بخصوص الأموال النقدية في البنوك .. أما عن
الأراضي والعقارات فسنحتاج المزيد من الوقت كي ..
تغيب عنها بقية كلماته وشرودها يبتلعها من جديد ..

هيا يا ديمة ..

ألقها في وجهه وافعلي ما جئت لأجله!

اصرخي في وجهه أن هذا الصغير هو ضحيته !

ليس هو فقط!

أمه "عاشقة الظل" وجنينها في بطنها كانت كذلك

قبله !

افضحيه وسط مكتبه الذي يظن أنه هرب إليه وترك

ماضيه خلفه ..

افتحي الباب واصرخي ..

اهتفي بها امامه وأمام الناس أن الوسيم الأنيق الذي

يدعي رد حقوق المظلومين هو الظالم الأكبر ..

هو المجرم الذي يستحق أن يلقي خلف القضبان!

افعلها أمام سند !



أمام عينيه!!

حتى إذا ما كبر شعر أنك يوماً ما منحته بعضاً من

قصاصه !

شبحها "الأرجواني" يمنحها المزيد من مدده فتفرج

شفتها لتهم بتنفيذ انتقامها ..

لكنها تجبن في آخر لحظة!

خافت على سند ..

وخافت من حسام!!

شبح غازي الأسود يصفعها فتقبل صفعاته بألم يسيل

الدموع دون إرادة على وجنتيها ..

_ لماذا تبكين؟!

تنتبه على نبرته التي تشعر بها هذه المرة مختلفة ..

مختنقة كأنه يقيدها بألف مغلاق!

تهز رأسها دون جواب فيشبح بوجهه هارباً من ..

لا .. ليس منها .. بل من نفسه !

فلتخرج من هنا ولا تعد ..

وليعد هو لحياته التي رسمها .. حيث لا أحد .. لا أحد

يراه!

_ ماذا ستفعلين بالمال؟!!

سؤاله جاف النبرة يداري قلقه العاصف عليها .. لا

تبدو له أكبر من هذا الطفل الذي تتبناه ..

لترد بتشتت وهي تمسح دموعها:

_ ماذا؟!!

ماذا ستفعلين بالمال؟! لا ريب أنك تخططين لفعل شيء ما! ستشترين بيتاً.. تتشئين مشروعاً.. أي شيء..

عصبيته التي فقد السيطرة عليها وهو يقبض كفيه جواره تقابل ضياع حروفها كأنها لم تفكر في جواب هذا السؤال.. غمغمتها تبدو كالهذيان..
عطور.. عطور.. الكثير من العطور.. أريد أن أخلص حياتي من بقايا رائحته..
يضيع هو فيها أكثر.. وتضيع هي في عذابات روحها أكثر..

تتحدث وكأنها تخاطب أحداً لا تعرفه :

تسأل عن سر هوسي بالعطور؟! لو عشت حياة
كالتى عشتها لأدركت قيمة أن تسجن بعض العمر في
زخة عطر .. أن تحبس بعض الذكرى في رائحة
تستعيدها متى شئت .. أن تلبث يوماً أو بعض يوم في
عبير يخطفك لثانية واحدة أو أقل .. لو عشت حزناً
كالذي عرفته لأيقنت أن بعضهم -مثلي- قد يقنع
شفتيه بتزييف ابتسامة ويقنع عينيه بأخفاء دمة
لكنه يقف راجياً أمام أنفه يستجديه عبق ذكرى يوقن
أنها حتماً لن تعود .

تصمت قليلاً بين ضلالاتها لتستطرد :

ورد! سأشتري الكثير من الورد .. حلوى! .. الكثير
من الحلوى .. ألعاب! .. الكثير منها كذلك .. بيت! بيت!

واحد يكفي..يكفيني وسند! .."عُمر" ! قليل منه فقط

هل يمكنني شراءه؟!؟

حسرة سؤالها الموجهة تحلق فوقهما للحظات قبل أن

تطرق برأسها أخيراً تمسح دموعها بأنامل مرتجفة ..

دمية انقطعت خيوطها وركلتها الأقدام خارج المسرح

لتلقى على قارعة الطريق..مهمشة بلا قيمة!

كيف يمكن أن تكره نفسها أكثر؟!؟

وهي تجد نفسها عاجزة عن فعل الشيء الذي جاءت

لأجله !!

فيما يفقد هو كلماته شاعراً أنه يسقط فيها أكثر ..

فيشيخ بوجهه بالمزيد من المقاومة !

تنهض أخيراً مكانها وهي تشعر بالمزيد من الخيبة

تخنقها ..

كيف يمكن هكذا أن تضيق عليها الأرض بما رحبت !

شبح غازي ينتظرها هناك بالمزيد من لعناته

وصفعاته ..

وشبح هالة لايزال معرضاً بعتاب لا تدري كيف

تسترضيه ..

وبينهما شبحها الأرجواني يحاول أن يجد لها أرضاً

وسط كل هذا الضياع !

_ أتمنى لك التوفيق .

يقولها ببرودة مصطنعة ولايزال يتحاشى النظر

نحوها فتغمغم بصوت متحشرج:

_ الأتعاب!؟!

يفكر للحظة في رفضها لكنه يتراجع!

لا يريد أن يبقى بينهم صنيع معروف يضع العلاقة في

غير محلها .. لها ولنفسه قبلها ..

محامٍ وموكلته فحسب!

_ التفاصيل مع مساعدي بالخارج .

نبرته المقتضبة لا تخدع حدسها وهي تراقب جانب

وجهه المعرض عنها بنظرة غريبة ..

هل حقاً لن تراه بعد اليوم ؟!

لن تسنح لها فرصة .. ل.. انتقام!!

هذه " النظرة الآدمية " في عينيه والتي تشعرها أنها

تتتمي لمكان آخر غير مدينة أشباحها .. هل

ستفقدها؟!

ماذا تريد بالضبط؟!

أحقاً هي بهذا التشتت؟!

تقف مكانها للحظات تنتظر منه المزيد غير هذا
الصمت البارد لكنه حتى لا ينظر نحوها فتمد كفها
أخيراً لسند كي تتحرك به نحو باب الغرفة الذي تفتحه
وهي تشعر أنها تغلق باباً آخر ودت لو كان يمكنها
فتحه كذلك!!



_دِيمَة!

صوته القوي يخترقها لتتجمد أناملها على مقبض
الباب وهي تلتفت نحوه ..
لن تنسى نظرته هذه ما عاشت!

لم تكن مجرد "نظرة آدمية" تمنحها كينونة انسانية
افتقدتها ..

بل بدت وكأنها ترسمها من جديد!

تحيي الرماد الذي طالما تناثر في خراب روحها؟!!

هل كانت هالة تحلم بنظرة مثل هذه عندما خبأت له

في قلبها كل ذاك الحب؟!!

أم هي النظرة التي "توهمتها" هي في عيني غازي

قبل أن تترك له مجداف قاربها فيكسره؟!!

هل هذه نظرة الحب التي يحكون عنها؟!!

وأمامها كان هو لا يزال يسقط..يطوف حول حلقة

زعفرانها طوافاً لا يعرف بداية ولا نهاية ..

لا يدري كيف قطعت قدماه الخطوات إليها مخالفاً كل

محاذير عقله ..

لقد ظن الأمر سهلاً لكن صورتها وهي تعطيه ظهرها
راحلة بلا عودة كادت تطير صوابه !

يغلق الباب الذي فتحته لتوها بعنف فضح ثورة
انفعالاته وعيناه تصرخان باحتياجه الجارف نحوها ..
فلتسقط كل حسابات العقل .. ولتبقَ هي فقط في
عالمه !

الصمت يصرخ بينهما لدقائق بألف لغة ..
نبرته ترتعش أخيراً بوهن غريب على رجل مثله :
_ هل بقي بيننا كلامٌ يقال؟!!

سؤاله كان لنفسه قبلها!
هل كان حقاً يناديها الجواب أم أنه كان يدرك أنها
مثله لا تعرفه؟!!

ابتسامة!

ابتسامة حقيقية ارتسمت على شفثيها وبدت غريبة

على خريطة دموعها !

ابتسامة لم يفهم معناها ولا هي كذلك!

هل هي فرحتها بالمزيد من فرص الانتقام؟؟ أم فرص

القرب!؟

هل ستجد ديمة الحقيقية لو آذته قرباناً لشبح غازي ..

أم ستجد في عينيه المزيد من النظرة الآدمية التي

ستحررها من مدينة الأشباح!؟

ابتسامة أطفأت بعض الجحيم في أعماقه وقطعت

الطريق على المزيد من الحطب!

ابتسامة لم يرد سوى تصديقها فحسب!

ابتسامة تساوي .. بداية عهد!

_ أَلغِ باقي مواعيدي لليوم ..أنا مغادر !
يهتف بها مخاطباً مساعده وهو يتحرك مغادراً بها
مكتبه ..

لم تسأله عن وجهته فقد كانت مأخوذة بكل هذه
الفوضى داخلها !

فقط عندما فتح لها باب سيارته الأمامي وجدت
صوتها لتسأله:

_ إلى أين؟!!

_ نزهة للصغير .. عوضاً له عن تخويفي إياه
بالأعلى .. لا أحب ترك ديوني معلقة!
ابتسامة ساخرة غارقة بمرارتها تذبح شفيتها مع
كلماته ..

ليتك حقاً تجيد ألا تترك ديونك معلقة !!

_ سأجلس في المقعد الخلفي مع سند ..أعذر لو بدا

هذا غير لائق!

لم تكن المرة الأولى التي يسمع فيها اللهجة السورية

ولا حتى منها ..لكنه كان يشعر بها الآن أكثر

رقة..أشد إغواء ..أو ربما هو الأقوى تعلقاً!

ربما لهذا يتخلى عن هوسه المعهود بالمظاهر فيهز

رأسه وعيناه تحيدان للصغير الذي رفع إليه عينيه

بنظرة فضول سرعان ما دفنها في ثوب ديمة ليبتسم

هو بحنان صادق وهو يشير لهما بالركوب قبل أن

يغلق الباب ويستقل السيارة التي انطلق بها بسرعة

عالية توازي صخب شعوره الآن ..

وكأنه يختطفها هارباً من الدنيا كلها !

عيناها تلتقي عبر مرآة السيارة بحديث طويل
مبعثر .. يشبه الفوضى العاتية في صدر كل منهما ..
يصلان أخيراً للمكان المنشود ..

مدينة ملاه !

_ سند لن يجيد التعامل مع هذا !

تغمغم بها بقلق لكنه يلتفت نحوها قائلاً:

_ لا تقلقي .. المكان هنا مجهز لحالات تشبهه .. صديق

لي كان يحضر ابنته هنا .

يقولها مطمئناً ثم يركن سيارته ليغادرها بهما نحو

المكان المخصص ..

تقترب منهم عاملة متخصصة تشرح لها ديمة حالة

سند بارتباك فتتعامل معه المرأة بخبرتها حتى يندمج

أخيراً في اللعب معها ببعض العسر ..

_ تعالي نجلس قريباً!

يقولها وهو يتناول كفاها ببساطة .. يتجاهل رجفة
نفورها المعتادة متشبهتاً به وهو يجلس بها على مائدة
مجاورة ..

عيناها معلقتان بالصغير وعيناه متعلقتان ب" حلقة
الزعفران"!

_ ماذا بعد؟!

سؤاله يجعلها تلتفت إليه .. تهز رأسها بحيرة لا
تدعيها .. فيتفحص ملامحها بتفرس:

**_ دعينا نتعرف من جديد .. لم يعد ما أعلمه كافياً!
صمتها المشوش مع إطراقة رأسها تثيره فيسألها
متعمداً استفزازها:**

_ هل هي المرة الأولى التي تخرجين فيها في موعد

مع رجل؟!!

وكانما لدغتها أفعى!

رجفتها تشملها من رأسها لأخمص قدميها وهي

تنتفض مكانها وقد احمر وجهها ليلتمع نمشه أكثر

كأنه بثور من نار ..

حلقة الزعفران تشتعل أكثر مع كلماتها التي هدر فيها

وهج الأحمر وغاب أزرقها تماماً:

_ موعد مع رجل؟! هذه هي صورتي في عينك؟!!

ولماذا أنتظر أن تختلف عن الجميع؟!!

حسناً .. سأجيبك .. أنا خرجت من سوريا شبه طفلة لا

تعرف شيئاً عن حب الرجال .. وعندما وصلت هنا

التقطني غازي ليكون سجاني ..وبعدما مات لم ألتقِ
سوى بأديم الذي فرض نفسه علي زاعماً أنه
يساعدني واضطرت لقبول مساعدته لأتني لم أجد
غيره واستغنيت عن خدماته عندما صرح لي بحبه
عارضاً علي سجنأً جديداً..والآن لو كنت تعتبر هذا
موعداً فاعتبره كذلك انتهى!

كانت تلهث في آخر كلماتها بعنف كأنها خاضت لتوها
معركة عنيفة ولم تكذ تنتهي منها حتى اندفعت تهم
بالمغادرة لكنه وقف ليمسك كفها فجأة قائلاً :

هل أنتِ دوماً سريعة الغضب هكذا!؟!

يرفع كفه الحر نحو صدره يهم باعتذار مقنع أنيق
يليق به لكنها كعهدا تسيئاً تاويل حركته فترفع

ذراعها تغطي به وجهها في حركة دفاعية مع شهقة

ذعر نفدت لصدره كسهم !

لم تكن أول مرة تفعلها أمامه كذلك اليوم الذي أسقطت

فيه صينية النادل!

عجباً!

من يراها تصرخ في وجهه منذ قليل بهذا العنفوان لا

يصدق هذا الوجه المذعور منها !!

لكنه يفهم!!

يفهم أي روح جامحة تحتضنها جوارحها إنما ذاك

اللعين غازي قد شوهاها بإيذائه!!

بعض الوجوه تحرق فيهم بفضول كان ليثير حفيظته

هو بالذات في موقف كهذا ..

لكنه الآن لم يكن يرى سواها!

جسدها يختص بقوة وشهقاتها تتوالى عبر وجهها
الذي يخفيه ذراعها وإن كان يري هو تفاصيله بكل
وضوح ..

لهذا تخلى عن موارد الاعتذار الأنيق الذي كان
ينتويه ليقولها صراحة ببساطة حارة :
_ آسف ..حقاً آسف!

حسام القاضي يعتذر لامرأة !
لا يذكر متى كانت آخر مرة فعلها !
لكنه يدرك أنه يحتاج هذا الآن ..ربما أكثر منها ..كي
لا ينتظره المزيد من "حطب" الندم !
_ اجلسي .

نبرته تمزج الأمر بالرجاء في خليط عجيب وكفه
يترك كفها لا زهداً بل تفهماً لحالتها الآن ..

ترفع أخيراً ذراعها عن وجهها ببطء لترمقه بنظرة
مصدومة للحظات ولو قرأ دواخلها لأدرك أنها في
بضع ثوانٍ فقط كانت تخوض حربها العتيدة في مدينة
أشباحها ..

يقترّب منها خطوة أخرى محتكراً نظراتها ليردّف :
_ هذا بالتأكيد ليس أول موعد لي مع امرأة .. ولا
يمكنني العد فقد أسقطت الذاكرة الكثيرات .. وخبرتي
هذه تجعلني أميز أي امرأة أنت .. اعذريني لو لم
أستطع التخلي عن طبيعتي المستفزة بسوالي الذي
أزعجك .. لكن مادمنّا أعدنا التعارف فاعلمي أنه أحد
أسوأ خصالي .. الاستفزاز ! خاصة في التعارف

الأول .

_ لماذا؟!!

سؤالها يبدو له شديد البراعة متسقاً مع ملامحها
ومناقضاً لثورتها منذ قليل فيبتسم بعاطفة حقيقية
وهو يعاود الإشارة لها بالجلوس:

_اجلسي وسأخبرك .

تنظر نحو سند الذي بدا مندمجاً بصورة معقولة مع
أحدى الألعاب ثم تتردد قليلاً لتتخذ قرارها وتعاود
الجلوس فيجلس بدوره قائلاً :

_يمكنني منحك بعض الدروس في العلاقات البشرية
ولغة الجسد ..الدرس الأول ..الناس يبدوون على
طبيعتهم أكثر عندما يستفزون ! تخرج منهم خبايا
صدورهم التي يغلفونها بنفاق المجاملات ..لهذا كنت
أعتمد دوماً هذه القاعدة (إذا كنت تريد معرفة من
أمامك حقاً ..استفزه)!

شبه ابتسامة واهنة تطوف على شفيتها وهي تتذكر
حديثاً مشابهاً قالته لها طيف ..

هذان الاثنان متشابهان حقاً .. لكنه تشابه كارثي!!
لا تتصور ماذا كان سيحدث لو كان قدر لهما فعلاً أن
يرتبطا ..

كانا سينجبان للعالم حفنة من التانين نافثة النيران !
تبتسم بطفولية للخاطر الأخير وهي تتذكر أحد الأفلام
الكرتونية التي كانت تشاهدها في صغرها لتلتمع
عيناها بحنين شارد ..

_ ماذا تعرفين عني!؟

_ كل شيء تقريباً!

تهمس بها سراً بمرارة ليترجمها لسانها لما يصلح

قوله:

_ ليس الكثير .

_ الناس في مدينتنا ينقلون الأخبار بسرعة ..ماذا

وصلك عني ؟!

يقولها بحذر محاولاً استكشافها لتطرق برأسها

قائلة :

_ السجناء لا تصلهم أخبار ..وبيت غازي لم يكن

سوي سجن .

_ احكي لي أكثر عنك .

_ هل هناك شيء معين تريد معرفته ؟!

تسأله بتوجس ليشير بعينه لأذنها :

_ فردة القرط الغريبة هذه !

تشحب ملامحها فجأة وهي تهرب بعينيها منه

متظاهرة بمتابعة سند ..



فيصلها قوله الواثق:

_الدرس الثاني..في لغة الجسد عندما يتحاشى من
أمامك النظر إليك هارباً بعينه فإنه غالباً يكذب أو
سيكذب..قليلون فقط من يجيدون التحديق في العيون
بينما يكذبون !

تلتفت نحوه ببطء ودقات قلبها تتقافز بجنون شاعرة
بالخطورة ..

نظراته تبدو لها مقتحمة غازية ..إنما ليس بعنف ..بل
بخبرة رفيقة ..

لهذا ازدردت ريقها بتوتر لترد وهي تنظر في عينيه :
_إنها تخص صديقتي رحمها الله ..أم سند ..كانت
تحتفظ بوحدة وتركت لي الأخرى .

_ كنت تحبينها إلى هذا الحد!؟!

_ كانت ..صديقتي وأختي وأمي ..كانت كل شيء .

صوتها المرتعش ببكاء وشيك يجعله يشعر بالمزيد

من الإشفاق نحوها ليسألها :

_ مصرية!؟!

تعض شفتها بقوة وهي تشعر بأن مجرد حديثها هنا

في مجلسها معه عن هالة خيانة ..حتى ولو زعمت

أن قربها هذا بغرض الانتقام ..

_ أرجوك ..لا أحب الحديث عن هذا الأمر .

يهز رأسه بتفهم وهو يعاود تفحصها ليسألها :

_ أخبريني إذن ..هل تفكرين في الانتقام من زوجة

غازي الأولى!؟!

_ تخاف أن أورطك في الدفاع عني من جديد!؟!

ومن قال إن دفاعي عنك ورطة؟!

يقولها بجاذبية حمائية تبدو لها آسرة فترمقه بعينين

متسعتين للحظات تعمق شعوره بطفوليتها قبل أن

يغلبها خجلها فتشبح بوجهها هاربة ليضحك ضحكة

قصيرة :

_الدرس الثالث .. ليس كل هروب عينين كذباً .. أحياناً

يكون ..

يكون ماذا؟!

تسأله بخجل مرتبك وهي تفرك كفيها بتوتر ليقتررب

بوجهه منها بجرأة هامساً:

_دعي هذا سؤالاً تشويقياً للموعد القادم .

موعد قادم؟!

حروفها المشتتة تعيدها لصراع دواخلها فتهرب منه

وهي تغير الموضوع بسؤالها :

_تظنني يجب أن أنتقم منها؟! هل سيريحني الانتقام

!؟

يصمت طويلاً مع شرود نظراته فتشعر أنها أصابت

سهماً داخله خاصة وهو يرد أخيراً:

_لن تصدقي مالم تجربي ..الانتقام يشوش

الصورة ..يبدل الخانات بسهولة خادعة فلا تدرين أين

الظالم واين المظلوم ..وفي نهاية الطريق لن تجدي

سوى بعض الرماد يحكي أنه كانت يوماً هنا حياة !

لا يزال التشابه بينه وبين طيف يربكها!

كلاهما يتحدث بنفس الطريقة !!

بل إنه مثلها يصور الأمر كدروس!

لكن الدهشة هنا يخالطها بعض ..الغيرة !

لا ..لا ..لا!

تهرب من خاطر الأخير بفرع وهي تعاود النظر نحو

سند لتفاجأ بحسام يستخرج علبة سجائره ليستخرج

منها واحدة أشعلها بعفوية ..مردفاً:

مَثَلًا ..أنت في نظرها معتدية عليها .."خاطفة

رجال" كما يقولون ! وهي تقتص منك لهذا ..وهكذا

تدورين أنت في نفس الحلقة ..من الظالم ..من

المظلوم ..من البادي ..من اللاحق ..لا أحد يمكنه

الحكم !

تلتقي عيناه بعينيها فيهز رأسه كأنه انتبه لأمر ما

جعله يطفئ سيجارته قائلاً ببعض المكر :

تتحسسين من السجائر .

_ كيف عرفت؟!

_ لاحظت هذا في لقاءاتنا الأولى .. هل كان غازي

مدخناً؟!

_ كان يشعل أي شيء في طريقه .. أي شيء .

البغض الممتزج بالوجع يعيد تشكيل ملامحها ليسألها

مباشرة :

_ لماذا تزوجته؟!

_ صدق أو لا تصدق .. ظننت أنني أحببته .

_ ولماذا تقولينها بهذا الخزي؟! لم تكوني وقتها سوى

مراهقة وحيدة غريبة عن بلدنا ترتجي الحماية

والأمان .

_ أنت محامٍ ماهر لو كنت تدافع عن جميع موكليك

بهذه الطريقة !

_ لم تعودي موكلتي .. ظننت أننا اتفقتنا على هذا بمجرد

خروجنا من مكثبي .

يقولها بنفس الجاذبية الخطرة التي امتزجت بهذه

العاطفة في عينيه ليزداد ارتباكها وهي تقف مكانها

قائلة :

_ هذا يكفي .. سند بدأ يشعر بالملل .

يقف بدوره وهو يقاوم رغبته العارمة في مس كفها

من جديد ..

في احتواء هذا الخوف الذي يكاد يخنق روحها ..

ماذا لو عانقها الآن؟! ..

لا عناق رغبة ولا اشتهااء .. بل عناق احتواء وسكن

!؟

قد يبدو الأمر وكأنها هي من تحتاجه ..

لكنه كذلك يشعر أنه بحاجة لـ "وجه أبيض" جديد له
في عينيها !

=====

_سند يبدو راضياً!

تقولها وقد التقت عيناها عبر مرآة السيارة في
طريق العودة ليبتسم لها قائلاً:

_وسيرضى أكثر بالتعرف على صديقتي المفضلة .

ترمقه بنظرة متسائلة فيشير للأمام قائلاً :

_بيتي قريب .. لا تقلقي لن أطلب منك

الدخول .. سأخرجها هي إليكما .

ترمق هاتفها في يدها بنظرة قلقة فقد استأذنت ماسة

في الخروج بسند لساعة واحدة فقط وتخشى أن

تتأخر عليها خاصة أنها لم توافق سوي بعد الحاح ..

تهم بالرفض لكنها تفاجأ بتوقف السيارة أمام البيت
الذي تحفظ تفاصيله تقريباً من فرط ما ينشره من

صور ..

لكنها تظاهرت بالعكس وهي تغادر السيارة بالصغير

عقب قوله:

_ انتظراني هنا .

يقولها ثم يميل على أذنها هامساً بخفوت:

_ هل لديه مشكلة مع الكلاب!؟

_ لا .. لا أظن .. كان يحب القطط والكلاب كثيراً .

تقولها بابتسامة شاردة وهي تتذكر أيامها مع هالة

فيهتف باستحسان :

_ عظيم .

تقف مكانها شاردة غافلة عن هاتفها الذي سقط منها
وهي تضم سند ظهرها مستتدة على السيارة تتفحص
البيت من الخارج بشعور غريب ..
كل هذا رأتها من قبل عبر الصور ..
الباب المعدني الضخم بطرازه الحديث ..
الحديقة الصغيرة ..

البيت الداخلي بطلائه الذي يمزج اللونين الأزرق
والأبيض بتخطيط أنيق ..

الأزرق .. كم افتقدت سكينه الأزرق وسط اشتعال
الحمرة في أرجوانيتها !!

تبتسم وهي تجده عائداً بالكلبة التي علا نباحها بما
يشبه الترحيب وهي تتقدم منهما ..

تنظر لسند الذي شعر بالخوف للحظة قبل أن تتهلل

أساريره وهو ينقل بصره بينها وبين الكلبة ..

يقترب حسام وهو يمسد عنق سلطانة ورأسها قائلاً :

_ هي تعرف أنك صديقي .

يلتفت سند نحو ديمة فتمنحه إيماءة رأس مشجعة

وهي تشير نحوها قائلة بعفوية :

_ العب مع سلطانة .. لا تخف .

لم تنتبه أنها ذكرت اسمها صريحاً لكنه فعل!

كيف عرفت اسمها!؟!

هو واثق أنه لم يذكره أمامها!

تمالك دهشته بسرعة تليق به وهو يناول سند بعض

الكرات المخصصة للعب قائلاً:

_ هيا .. اقدفها ودعها تحضرها لك .. ستحب هذا .

تبتسم ديمة وهي تراقب سند الذي غلب تردده وهو
ينطلق للعب مع الكلبة كأنه هو الآخر استعداد معها
بعضاً من روحه ..

يستند حسام بدوره على السيارة مجاوراً لها ولازال
أمر معرفتها لاسم الكلبة يثير تفكيره ..
ينتبه لهاتفها الواقع أرضاً فيهم بإخبارها لكنه
يتراجع ..

يرى سند وقد دخل حديقة البيت لتلحقه ديمة هاتفه :
_ تعال .. لا تبتعد ..

لكن الصغير يعدو خلف الكلبة مبتعداً لتركض هي
خلفه محاولة إعادته ..

هنا ينحني هو بخفة ليلتقط هاتفها ..
لا كلمة سر تغلقه!

غريب لكنه مناسب لفكرته عنها!
تتلاعب أنامله فوق الشاشة للحظات بسرعة خبيرة
لتتسع عيناه بصدمة وهو يجد هذا العدد الرهيب من
"السكرينات" من حسابه ..
هذه الصور له .. لبيته .. للنادي .. لأمه .. ول .. سلطنة !
عشرات . بل مئات الصور له ..
هو فقط !

لا مبرر معقول - في نظره - لهذا سوى أنها .. !!
ابتسامة تولد على شفثيه وخفق قلبه في هذه اللحظة
يعزف لحناً غريباً لم يعرفه منذ زمن بعيد ..
هي تبادله عاطفته !

تعود إليه مع سند ليسابقتها بالقول وهو يغلق الهاتف
ببساطة :

_ وقع منك .

تتناوله منه بتوجس وهي تحاول قراءة ملامحه إن
كان قد فتحه لكن ملامحه بقيت عادية ..

فقط .. عيناه كانتا ترقصان !

أو .. ربما تتوهم!

_ تأخرنا .. يجب أن نعود !

تقولها وهي تبحث في هاتفها عن اتصال من ماسة
لكنها لم تجد فتهدت بارتياح وهي تلتفت نحو سند
هاتفة:

_ هيا .. ودع سلطنة .

هنا يرفع سند وجهه بحذر نحو حسام قبل أن يأتي
بهذا الفعل الذي زلزله !

فقد مد كفه الصغير ليمسك كف حسام كي يمسد بهما

معاً عنق سلطنة كأنه خاف أن يفعلها وحده !!

مرة تلو مرة .. صعوداً وهبوطاً ..

ورجف القلب المحروم يتعالى صارخاً

باحتياج .. واجتياح ..

دمعة خفية تتجمع في طرف عينه والكلمة اللعينة

تعاود قصفها الغادر ..

(نصف رجل .. نصف رجل)

_ هيا بنا!

خشونة صوته المتحشرج تتجح في مداراة شرخ

رجولته وهو يعيد سلطنة للداخل قبل أن يغلق الباب

ليستقل السيارة جوارهما وينطلق بها ..

مرآة السيارة هذه المرة خلت من أشباحها هي

المعهودة ..

عيناه الراقصتان رقصة الوجد تحتلها ..

ياالله!

أي رجلٍ هذا الذي يحمل كل هذه التناقضات!؟

أفكارها تنقطع وهي تسمع صرير عجلات السيارة

وقد توقفت فجأة لتهم بسؤاله عن الأمر ..

لكنها انتبهت لهذه السيارة الكبيرة معتمة النوافذ التي

قطعت عليهما الطريق والذي كان خالياً إلا منهم ..

تشهق بخوف وهي ترى العملاقين اللذين ترجلا منها

قبل أن تتعرف على ملامحهما فيزداد خوفها ..

ترى حسام وقد تناول مسدسه بسرعة من الجوار

قائلاً بحذر:

_اهتمي بالصغير .

يترجل من السيارة شاهراً مسدسه في وجهيهما ..

لكن الوجه المهيب المألوف يغادر المقعد الخلفي

للسيارة السوداء ليرمق سند في سيارة حسام بنظرة

متفحصة سبقت نظرتة المخيفة لديمة ..

قبل أن يركز بصره فوق ملامح حسام قائلاً بنبرته

المسيطرة التي هدرت بقسوتها:

_اخفض سلاحك لا تخف الصغير !

ينعقد حاجبا حسام بشدة والتاريخ الأسود بينهما

يسدل أستاره على كليهما ليتمتم من بين أسنانه وهو

يخفض سلاحه ببطء :

_ عاصي الرفاعي .

فيما انكشيت ديمة مكانها وهي تضم سند إليها بقوة

تشعر أن قلبها سيسقط من فرط الرعب ..

هل حانت لحظة الحقيقة!؟



الطيف الثاني والعشرون

=====

أصفر

=====

_ أين ذهبت اليوم؟! خرجت دون علمي ثانية؟!
يهتف بها راغب بضيق وهو يدخل شقتها لترد رؤى
مدافعة :

_ خرجت؟! وهل يسمى الذهاب للمحل على أول
الشارع خروجاً؟! رُبى أرادت بعض الحلوى وخرجت
لأبتاعها لها .

_ أنا أشتري لكم كل طلبات البيت .. لم تكوني في حاجة
لهذا ! كنتِ أرسلتِ أحد أبناء عمها لشرائها !
يهتف بها بالمزيد من الضيق لترد بمكابرة :
_ بدمتك هل يستحق الأمر الشجار ؟! ثم من أخبرك
أني خرجت ؟! هيام!! ياالله!! تلك المرأة لم تكفِ
بإفساد حياة عزة فتتفت سمها في حياتي أنا الأخرى!!
ثورتها المبالغ فيها تدفعه للمزيد من الشك وهو يشعر
بتغير طباعها الطفيف في الفترة الأخيرة ..
فرغم ضيقها الدائم من تصرفات هيام الفجة لكنها
كانت دوماً تجد لها تبريراً عاطفياً يلائم طبيعتها
الوديعة .. فلماذا هذه الثورة الآن ؟!
يتأفف بضيق وهو يشيح بوجهه منتظراً ترضيتها
لكنها تهتف به :

_ أنا أتقبل كل أوامرك .. أحبس نفسي في البيت لا أكاد
أغادره إلا معك ..حتى عبد الله لم أعد أزوره وحدي
رغم تعلق ربي بابنته ورغم رجاءات صفا المتكررة
لي أن أذهب إليها ..هل ترى وضعي هذا طبيعياً؟!
_ وضعنا لم يكن أبداً طبيعياً لو تذكرين !!
يهتف بها بحدة غلبه فيها طبعه العصبي لتحمل هي
عبارته ما يفوق معناها وهي كالعادة تتحسس بطحة
رأسها القديمة هاتفة :

_ هذا هو ما كنت أنتظر سماعه! ليتك تملك نفس
الشجاعة فتخبرني بالضبط متى سيمكنني العيش
بطريقك الطبيعية كأى امرأة يثق فيها زوجها؟! متى
سأفي بديني؟! متى؟!

ثورتها الهادرة غير الاعتيادية تنتهي بفيض من
دموعها وهي تركض من أمامه نحو غرفة نومها
بما ظاهره غضب وباطنه ..هروب!!
تعرف أنها مخطئة وشعورها بالذنب يتعاضم يوماً بعد
يوم ..

المزيد بشعورها بالخوف من غضبه ..
والأدهى شعورها أنه لا يحق له الغضب وأنها تمارس
حقها الطبيعي!!

لماذا يفعل بها هذا؟!
لماذا يضطرها للكذب كي تحصل على أبسط حقوقها
!؟

هي لم تفعل ما يشين ..

شركة أعلنت عن حاجتها لمن يصمم لها منشورات
دعاية للتسويق "أونلاين" وهي شاركت في
المسابقة وربحت ..

تسلمت العمل ..وكل هذا وهي في بيتها لم تغادره ..
لكنها اضطرت لتغادر المنزل اليوم كي تتقاضى
الراتب ..خافت أن يرسلوه على حسابها فيعلم هو !!
تود لو تخبره ..

لو ترى في عينيه فخره بها كما تفخر بنفسها لكنه لا
يعطيها الفرصة ..

وشعورها أنها تكذب عليه ينغص عليها فرحتها ..
تنقطع أفكارها وهي تراه يدخل الغرفة عليها بنظرة
عاتبة طويلة قبل أن يتحرك نحو خزانة ملابسه
فيفتحها ليقول باقتضاب:

_ سأذهب لقضاء واجب العزاء في والد أحد

أصدقائي .

_ تناول طعامك أولاً.

تقولها باقتضاب مشابه وقد أخذتها العزة بالإثم لكنه

لا يرد وهو يبدل ثيابه بسرعة ليغادر البيت صافقاً

الباب خلفه ببعض العنف ..

_ بابا غاضب؟! هل تشاجرتما؟!!

تسألها ربي بدهشة طفولية وهي تركض نحوها

لتضمها رؤى إليها متصنعة ابتسامة :

_ نحن نتشاجر ونتصالح لأن أحدنا لا يصبر على

خصام الآخر.. لا تقلقي .

_ لا تُغضبي بابا ! هو يحبك !!

تهتف بها ربي ببراءة لتتهد رؤى بحرارة .. كأنما
ينقصها المزيد من مطارق الذنب ..
تسمع رنين جرس الباب فتهرع ربي لتفتحه ..
أولاد عمها يريدون اللعب معها في غرفتها ب"البلاي
ستاشن" الجديد ..

تتخذها رؤى فرصة ليشغلوا الصغيرة .. ثم تتجه نحو
مائدة السفرة حيث حاسوبها المحمول ..
تفتحه بسرعة لتتخذ مجلسها وهي تحاول إتمام
عملها ..

تنهمك تماماً فيما تفعله لكنها تنتفض مكانها وهي
تسمع صوت هيام عند الباب تهتف بحدثها

المعهودة :

_ أين أولادي؟! بالطبع ابنتك اجتذبتهم لهذا بحجة ذاك

الجهاز اللعين!

توترها يدفعها لحدة مشابهة وهي تهتف بها بانفعال:

_ ابنتي لها اسم تتادينا بها.. يكفي أنني أحتمل ثقل

أفعالك.. لماذا توقعين بيني وبين راغب؟!!

_ أفعالي أم أفعالك أنت؟! زوجك يحق له أن يعرف ما

يدور خلف ظهره.

_ اخرسي! كأنني ارتكبت جريمة! أنا خرجت..

تقطع رؤى عبارتها وهي تسمع صرخة ربي من

الداخل فتركض نحو الغرفة لتتبين ما حدث..

تهم هيام بالحقاق بها لكن عينيها تصطدمان بشاشة

الحاسوب المفتوح..

تتقدم لتفحصها ثم تتلاعب أناملها بالأزرار لتلتمع

عيناها بفهم ..

قبل أن تشتعلا بحقد ..

تبتسم ابتسامة متشفية وهي تعيد الوضع لما كان

عليه قبل أن تحيد ببصرها نحو غرفة ربي حيث

اختفت رؤى لتهمس لنفسها بتوعد :

_هاقد عرفت سرّك ! أنتِ السبب فيما آل إليه حالي

مع شقيقتي .. ولن يهدأ لي بال حتى أكرس قدمك من

هذا البيت .. وهاهو ذا غباؤك يمنحني الفرصة !

=====

بنفسجي

=====

غابات الزيتون تشتعل بغضب قديم حفر تجاعيده فوق

صفحة القلب قبل الوجه ..

غضب يشبه مثله في "العينين الصقريتين" وإن

اتشح بالذنب ..

المزيد من الحطب فوق الحطب !!

مشهد عاصي والرجال يهددونه مع زوجته الحامل

بينما هو يقف متفرجاً ينتظر قصاص مجرم من مجرم

-كما كان يظن وقتها -

يقتلونها - مع ابنها في أحشائها - ثم يحتجزون عاصي

ليلقوه بسيارته من فوق الجبل فيفقد بصره !!

يغمض حسام عينيه بقوة على نصل الذكرى يكاد

يدمي مقلته وقبضته تكاد تتخلى عن مسدسه لكنه

يتذكر ديمة وسند خلفه فيتشبت به هاتفاً بصوت

متحشرج مخاطباً عاصي :

_ لا أعرف سبب ظهورك الغريب هذا الآن ..لكن دع

المرأة والصغير خارج حساباتنا .

يقولها بمزيج من ضيق ودهشة وهو لا يدري لماذا

حضر عاصي الآن وبهذه الطريقة الغريبة ..طوال هذه

السنوات ورغم الصداقة الوثيقة بين حسام وفهد لم

يحاول الأخير طرق هذا الباب واقفاً على الحياد بينهما

مدركاً حرج الموقف ،لكن حسام كان يعلم إلام آل

مصير عاصي الرفاعي وكيف ترك الدنيا كلها خلفه

ليبدأ من جديد ..فما تفسير ظهوره هذا الآن !؟

بينما ضاقت عينا عاصي وهو يتفحص ملامحه
بتفرس قبل أن يحيد ببصره نحو ديمة التي كانت
ترتجف رعباً في السيارة ليهدف بنبرته المهيمنة :
_ اهبطا من السيارة كي يعود الرجال بسند للبيت .. لا
أريده أن يشهد هذا اللقاء .

_ لا تلقِ إليها بالأوامر ! دع حديثك معي أنا ! ما شأنك
بهما؟!!

يهدف بها حسام بحمائية ليعود عاصي إليه ببصره
قائلاً:

_ شأني بهما؟! لا تعرف حقاً شأني بهما؟!
_ أرجوك يا سيد عاصي .. سأشرح لك .. أنا ..

تهتف بها ديمة بين دموعها وقد ترجلت من السيارة
مع سند تتشبث به بكل قوتها كأنما أدركت قرب
حرماتها منه ليلتفت إليها حسام هاتفاً :

_ تعرفينه!؟!

_ تعرفني!؟!

يقولها عاصي بتهكم قاسٍ ليلتفت نحو ديمة مردفاً
بنبرة أقسى:

_ أخبريه .. هل تعرفيني!؟!

تتكمش ديمة على نفسها وهي تنقل بصرها بين
الرجلين برعب بينما تتشبث بسند أكثر وجسدها
يرتجف ببيكاء خفيض ألجم شفيتها ..
لينعقد حاجبا حسام بشدة وهو يشعر بغرابة ما
يحدث ..



لكن عاصي يلتفت نحوه هاتفاً:

_إذن أنت لا تعلم حقاً؟! غريب!!

يزداد انعقاد حاجبي حسام والدم يكاد يفور في عروق
وجهه التي برزت مكانها فيما يقترب عاصي من سند
ليربت على كتفه لكن الصغير يبتعد عنه بحركة نفور
طفيفة وهو يدفن وجهه في ثوب ديمة ..

_سند ابن زوجتي الراحلة .. أظنك .. تذكرها!!

قنبلة !!

قنبلة تنفجر شظاياها في روح حسام وهو يسمع

الحقيقة !!

رقبته تكاد تتخلع مكانها وهو يلتفت نحو سند بحدة

والحقيقة تسطع في ذهنه فجأة لثوانٍ سقط فيها

مسدسه من يده المرتجفة قبل أن يلتفت نحو ديمة

ليرفع سبابته المرتعشة نحو قرط أذنها البنفسجي
بتساؤل لم يكن حقاً يحتاج لجواب .. لكنها منحته إياه
في زخة أخرى من دموعها وهي تتشبث بسند ..
عاصي يرمقها بنظرة ذات مغزى وهو يشير للسيارة
القريبة فتحنى لتطمئن سند بابتسامة مصطنعة
مسحت معها بقايا دموعها قبل أن تسر إليه ببضع
كلمات مهدئة في أذنه لتصطحبه بعدها إلى السيارة
التي ركبها لتلوح له بيدها وهي تراه يبتعد بها
لتتلاشى صورته من أمام عينيها رويداً رويداً ..
تعود بخطوات متثاقلة إلى الرجلين حيث وقف عاصي
يرمقها بنظرة مشتعلة فيما أعطاها حسام ظهره ليبتعد
بضع خطوات محاولاً السيطرة على حرائق روحه ..
هذا الطفل هو ابن زوجة عاصي !!

صديقة ديمة التي حكّت له عنها !!

هل تعرف ما بقي من الحقيقة إذن ؟!

هل تعرف أنه وقف متفرجاً بينما ..؟!!

_ أنا كنت أراقبك طوال هذه الأيام وأعرف علاقتك

بهذا الرجل .. سمحت لك بلقائه في إطار حرّيتك

الشخصية .. لكن أن تدخلني سند في هذه العلاقة فهو

ما لن أسمح لك به أبداً !

صوت عاصي يهدر خلفه مخاطباً ديمة ليصله صوت

بكائها مكانها فيود لو يلتفت لكنه .. لا يستطيع !!

أغلال جحيمه تقيده ..

المزيد من الحطب فوق الحطب !!

بينما عاصي مستمر في هديره الغاضب:

بماذا كنت تفكرين وأنت تلجئين لهذا الرجل بالذات
كي يتولى قضيتك؟! بماذا كنت تفكرين وأنت تخرجين
بسند معه؟! هذا الرجل خذل أختي بدناءة..كسر قلبها
وأوهمها بالحب مستغلاً هشاشتها في ذاك الوقت
ومتسلياً بمشاعرها البريئة ليلفظها كالنواة بعدها كي
يلتقط فرصته مع ابنة رئيسه في العمل ..هذا الرجل
نصب نفسه قاضياً عليّ ..ليس عليّ وحدي بل على
هالة وابنها في أحشائها ..استغل سلطته وخان قسم
وظيفته ليحقق انتقاماً شخصياً ..أخبريني بماذا كنت
تفكرين!؟

يكز حسام على أسنانه بغضب مكتوم ولا يزال
يعطيها ظهره ..
ينتظر جوابها مثل عاصي تماماً ..

لو كانت حقاً تعرف كل هذا فلماذا قبلت القرب منه !؟

وفي مكانها وقفت ديمة ترتجف كريشة في مهب

الريح ..

كنملة وقفت حائرة بين جبلين لو مال أحدهما

فسيحقها ..

لا تخاف بطش عاصي الرفاعي .. لكنها تخاف أن

يحرمها من سند ..

لا تخاف انتفاضة حسام .. لكنها تخاف أن يحرمها من

هذه " النظرة الأدمية " في عينيه ..

الفضاء الفسيح حولها يتحول لمرآة عاكسة كبيرة

تتصارع فيها أشباحها ..

صفعة جديدة من شبح غازي الأسود تنال من وجنتها

فتصرخ لها روحها ..

**_ جبانة! فاشلة! ظننت أنك يمكنك الانتقام ونسيت أنك
حشرة لا يسعها إلا أن تدوسها الأقدام .. والآن
تخسرين كل شيء! احترقي بضعفك .. احترقي!
شبح هالة الأبيض يتخلى عن إعراضه العاتب فيقترب
منها مواسياً داعماً .. بنظرتها الصافية وبجملتها التي
كانت تلقنها إياها ..**

**_ استفتي قلبك يا ديمة .. قلبك النقي يعرف خريطة كنز
سكينته ..**

**وبينهما يصرخ شبحها الأرجواني بعنف :
_ قلبك ما عاد نقياً .. لن يعود إلا لو انتقم .. مرة واحدة
فقط انتصري لنفسك .. ربما وقتها تستعيدينا !!
اقهري ضعفك ولو بإيذاء غيرك ..**

لم يكن لجسدها أن ينتفض أكثر وهي تشعر بالدوار

يلفها مع أشباحها ..

تدور ويدورون معها ..

_ احترقي بضعفك .. احترقي ..

_ استفتي قلبك ..

_ اقهرى ضعفك ولو بإيذاء غيرك ..

ولأول مرة يتداخل طيف حسام وسط جحيم

خيالاتها .. لتسمع عبارته كما كانت بصوته

يومها .. وبنظرته الآدمية التي تجاهد للخروج بها من

مدينة أشباحها ..

_ أنا معك ولن أسمح لأحد أن يؤذيك .. أنا معك في كل

ما تريد .. أنا معك في كل ما تختارين ..

ذكرها "الحقيقية" تصارع هلاوس أشباحها ..

تتردد حولها كأصداء متتابعة فتطلق صرخة طويلة
وهي تسد أذنيها ..

صرخة تجذب إليها نظرات عاصي وحسام الذي التفت
نحوها أخيراً لتتساب كلماتها بين فيض دموعها دون
تفكير :

_ هو ليس سيئاً كما تظن .. قد يكون خذل طيف حقاً
لكنها اعترفت لي بما فعلته معه .. هي أوهمته أنه كان
سبب انتحارها المزعوم ليعيش بذنبها .. هي أخبرتني
أنها تحمل بعض ذنب هالة لأنه ظن وقتها أنه ينتقم
منك لأجلها هي .. قد يحمل ذنب هالة حقاً لكن هذا
الرجل ساعدني دون مقابل .. فتح لي بيت أمه رغم أنه
لا يكاد يعرف عني شيئاً .. لم يطمع فيّ رغم

ظروفي ..كان معي في كل مرة احتجته فيها وردّ لي

حقي ممن ظلموني ..

لم تكن صدمة حسام بأقل من صدمة عاصي وكلاهما

يتطلع إليها بذهول ..

لم يتصور الأول أنها -وهي بهذه الهشاشة - قد تقف

في وجه عاصي الرفاعي ..ولأجله هو ..!!

فيما كانت هي لا تزال غارقة في سكرتها وهي تهتف

بقوة تناقض سيل دموعها المنهمر :

_أخبرني يا سيد عاصي ..لماذا كان يريد أخو عدنان

يومها الانتقام منك؟! هل كنت خلف قتل أخيه حقاً كما

زعم؟! هل تلوم حسام لأنه شارك في قتل هالة

بتخاذله فيما تحمل أنت الذنب الأكبر!!؟

يحمر وجه عاصي بغضب لم يعرفه منذ زمن بعيد
وسؤالها يرده لأقسى ذكريات ماضيه ..
خيانة حورية مع عدنان الذي قتله !
السر الذي آثر دفنه مع موتها ليس فقط مداراة لجرح
رجولته .. إنما لستر خطيئتها !!
فيما يشعر حسام بشعور غريب وهو يرى في زرقة
عينيها بحراً يطفئ نيرانه ..
لا مزيد من الحطب .. على الأقل هذه المرة !!
هنا يتقدم هو ليقف بينها وبين عاصي فيكاد يخفيها
خلفه وهو يرد بنبرته الصارمة التي فاح منها شعوره
بالذنب رغماً عنه:

يمكنك ألا ترد فلا أريد التقلب في دفاتر
قديمة .. لكنني فقط أريدك أن تفهم كيف كنت أراك

وقتها .. مجرد قاتل بدم بارد .. قتل اخته لأنها طالبت
بحقها وقتل شقيق ذاك الرجل فأراد الثأر منه .. خطئي
أنني لم أحسب حساب أبرياء تورطوا معك في اللعبة
لكن رغبتني في القصاص منك وقتها غلبت كل
شيء .. الأمر تطور رغماً عني وقتها ولم أستطع
التنبؤ بما قد يحدث .. خطأ يصل لمرتبة الجريمة
ودفعت ثمنه وظيفتي .. لست بحاجة لتحاسبني فأنا
أحاسب نفسي في كل وقت .

لم ينطق عبارته الأخيرة بصوت مسموع بما يلائم
شخصية بطباعه لكن عاصي - ربما - قرأها في

عينيه !!

_إذن .. أنا الآن شيطان الحكاية؟!!

يقولها عاصي بقسوته الباردة ثم يلتفت نحو حسام

مردفاً بنفس القسوة التي امتزجت بمرارة :

_هل تعلم أن سند فقد النطق تأثراً بوفاة أمه ؟!

يرتد حسام خطوة للخلف وكأنما أصابته كلمات

عاصي كقذيفة!!

كأنما كان ينقصه المزيد من الذنب ..

المزيد من الحطب فوق الحطب!!

لو كان بوسعه أن يجلد نفسه أكثر لفعل!!

فيما يتحرك عاصي قليلاً ليواجه ديمة التي تخلت

عنها قوة "أحمرها" ليغلبها خوف "أزرقها"

للحظات .. قبل أن تعود للتأرجح في موج أرجوانيتها

لتغمغم وهي تمسح دموعها بأنامل مرتجفة :

_ لو كان لي أن أشهد بالحق ..كلاهما يحمل ذنب

سند ..وهالة !

تشتعل غابات الزيتون في عيني عاصي بهذه النظرة

المخيفة فيما يبقى حسام غارقاً في صدمته بكل هذه

المفاجآت ..

كأنما أزاح القدر اللثام عن وجه ماضيه كاملاً ليبدو له

بهذه البشاعة ..

ورغم وقفته الشامخة التي تليق برجل مثله لكنه كان

يشعر أنه يسقط ..ويسقط ..ويسقط!

الصمت الحارق يظل ثلاثتهم لدقيقة كاملة وقد خيم

الظلام على المكان كأنما تمنح الطبيعة المشهد ما

يليق ..

ليكون عاصي أول من يقطع الصمت بقوله مخاطباً

ديمة :

_ اسمعي! أخبرتك من قبل أنني دفعت ثمناً غالياً لأدفن

الماضي خلفي ولن أسمح بخطوة واحدة للخلف .. أنا

أدخلتك بيتي لأجل سند ولن أقبل أي علاقة لك بهذا

الرجل .. سميها كما تشائين .. لكنه الآن وقت

الاختيار .. إما سند .. أو هذا الرجل .

يضم حسام قبضتيه جواره بمزيج من غضب وعجز

وهو يلتفت نحوها ..

لأول مرة في حياته تخذله خبرته فلا يدري أي قرار

ستتخذه ..

حلقة الزعفران في عينيها تتوهج فيتوه فيها أكثر ..

رجفة جسدها تكاد تستصرخه أن يؤويه ..

أن يخفيه عن كل هذه العيون التي صوبت لها سهام
الألم ..

لكنه ليس غيباً ليدرك أي جبل الآن يقف بينهما !!
فيما كتفت هي ساعديها كأنها تمنح نفسها الدعم الذي
توقن أنه لن يمنحه لها سواها في موقف كهذا ..
قدماها تخوناتها فتترنح في وقفها قليلاً وهي تشعر
أن هذه المواجهة استنزفتها ..

أشباحها تنتظرها لتلعنها .. وتصمها بالضعف ..

كيف دافعت عن حسام؟!!

كيف تحدث عاصي؟!!

والآن .. كيف تخسر سند؟!!

آه !!

آهة عالية تصرخ بها روحها قبل شفيتها وهي ترفع

عينها للسماء المظلمة!!

من لها الآن بقارب كهذا الذي غادرت فيه موطنها

ذاك اليوم فيحملها بعيداً عن كل هذا!؟

تريد وطناً.. تريد بيتاً.. بيتاً دون مرايا تطاردها

أشباحها..

بيتاً لا يمكن أن يسعها وحدها..

دوماً يجب أن يكون هو فيه..

هو..!!

عينها تحيدان نحو حسام فيعقد عاصي حاجبيه بشدة

وقد قرأ في نظرتها قرارها..

فيما يخفق قلب حسام بجنون وهو يشعر أنه يقف

منتظراً نتيجة أصعب اختباراتهِ ..

زرقة عينيها تزداد قتامة ..

حلقة الزعفران تخبو وتخبو كأنها تودع "المنظرة

الآدمية" في عينيهِ ..

قبل أن يخفيها جفنان منسدلان هرب عبرهما خيط من

الدموع ..

ينتصب عاصي في وقفته وهو يشعر أنه لا يحتاج

المزيد ليفهم ..

فيعطيها ظهره ليتحرك نحو السيارة التي عادت
بسائقها وقد وقفت تنتظره ..يفتح الباب ليركب لكن
هتافها يشق الصمت ..

_ سيد عاصي ..أنا اخترت ..اخترت سند !

=====

أحمر

=====

_ أين أخفيتِه هذه المرة !؟

صوته الحبيب خلفها يداعب أذنيها وقد عاد لتوه من
درس الجمعة الذي يعطيه للصغار كل أسبوع ..بينما
تقف يسرا في مطبخ مستر ربيع تعد الغداء فتلتفت

نحوه وهي تهرع إليه لتعانقه بقوة تجعله يتأوه
ضاحكاً وهو يضمها إليه مقبلاً وجنتها .. قبل أن يردف

بمرح :

_ اعترفي .. أين أخفيتِه ؟!

_ ماذا تقصد ؟!

تسأله بدهشة ليرد :

_ هاتفك ؟! لم تشاهدي فيديو الطبخ هذه المرة ؟!

تبتسم وهي تفك حصار أحد ذراعيها حوله بينما

يتشبث به الآخر أكثر لتستخرج هاتفها من جيب

تنورتها بابتسامة مرحة ثم تعيده مكانه بسرعة لتضع

سبابتها على شفيتها في إشارة له بالسكوت قبل أن

تغمزه بخفة فيطلق ضحكة صغيرة وهو يربت وجنتها

قائلاً:

_ لا تخافي ..مستر ربيع سيتأخر قليلاً لدى أحد

الجيران ..كوني على راحتك ..نحن وحدنا .

_ افتقدتني؟!!

تهمس بها بدلال يليق بها فتلتمع عيناه بوهج عاطفته

ونظراته تمنحها الجواب قبل شفثيه اللتين حملتا لها

عشرات العطايا ..فتعاود عناقه بهذه الطريقة الغريبة

بين تملك واستجداء ..تتنفس "رائحته" بعدة شهقات

متتابعة وأناملها تغوص بين خصلات شعره ..

_ أحب رائحتك!

يهمس بها كلاهما في نفس اللحظة فيضحكان معاً

ليهدف هو بمرح عاطفي:

_ حفظتها! دوماً تقولينها مع كل عناق!!

يهياً إليه أن عينيها تدمعان .. لا يزال العندليب
الأخرس يتردد في تحليقه فوق غصنه المكسور ..

_ تضايقك؟! تظني مملة؟!!

همسها لم يكن شاكياً ولا حتى عاتباً .. بل خائفاً!
لهذا لم يملك نفسه وهو يحتضن وجهها براحتيه
ليهمس أمام عينيها :

_ على العكس .. بل أدمنتها .. بكل شيء فيك .

تسبل جفنيها على دمعة كبيرة وهمسها يغادر شفثيها
ببوح سجين :

_ لا أقولها مجاملة ولا حتى غزلاً .. أنا حقاً أحب

رائحتك .. صارت لي مرادفاً

للأمان .. للدفاء .. للحب .. لكل ما افتقده عالمي قبلك .

إبهامه يمسح هذه الدمعة الخائنة التي تسربت عبر
أهدابها المغلقة ليشعر بذراعيها يشتدان حوله من
جديد .. شهقاتها العاشقة تبدو وكأنها تبرهن على
صدق مقولتها فیربت ظهرها قائلاً بحنان لم يخلُ من
عجب :

_ لا يبدو لي عناق عاشقة بقدر ما يبدو كعناق أم .
جسدها يرتجف بعمق ذنبها وهي ترفع وجهها إليه
فجأة ..

هل تبدو كذبتها واضحة في عينيها هذا الحد ؟!
هل قرأ فيهما اشتياقها لحضن صغيرها الراحل الذي
تشم فيه عبير براءته المفقود ؟!
لكنها تخفي انفعالاتها ببراعة لا تنقصها وهي تغير
الموضوع فتقرص أذنه بخفة هامسة بحدة مصطنعة:

_وكيف عرفت الفارق؟! خبير أنت!؟!

يتأوه ضاحكاً وهو يحرر أذنه منها ليقبل أطراف
أناملها واحداً واحداً مسترضياً ثم يعاود عناق وجهها
براحتيه هامساً بصدق:

_لا تسألني عن هذا أبداً .. قلبي لم يفتح بابه لامرأة
قبلك ولن يفعلها بعدك .

المزيج الغريب ذاته من الفخر والخزي يفرقها
فتحرر منه لتغير الموضوع من جديد وهي تشعل
الموقد هاتفة :

_ماذا كنت تقول اليوم عن "الأربعة عيون "؟!؟!

سامي كان يشاكسني في الدرس فلم أسمع !
يبتسم وهو يتذكر ما كان يقوله في درس اليوم ليرد :

_ هو قول للامام مجاهد : (لكل إنسان اربع أعين،
عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لآخرته، فإن
عميت عينا رأسه، وأبصرت عينا قلبه فلم يضره
عماه شيئاً، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه
فلم ينفعه نظره شيئاً).. أعيدها!؟!

يقولها بصبر متفهماً ومقدراً لهذه الالفة التي تتلقى
بها دروسه ..ليست دروسه البسيطة فحسب بل إنها
طلبت منه ترشيدات لدروس علماء مسموعة وبعض
الكتب المقروءة التي تساعدنا لفهم دينها وتقربنا لله
أكثر ..

تهز رأسها نفيماً وهي تشير بسبابتها نحو صدغها

هاتفة بمرح :

_حفظتها!

فیربت علی ظهرها برفق ثم یساعدها بملء القدر
بالماء لیضعه فوق الموقد فتتهف وهي تضع الدجاجة

داخله :

_ اخرج الآن ..سأقطع البصل ولا أريدك أن تتذكر
رائحتي به .

لكنه یضحك وهو یضم رأسها لصدره هاتفاً :
_ أنا أيضاً أحب رائحتك ..مهما شويشتها روائح
دخيلة .

تشرذ ببصرها وهي تؤول عبارته لما يفوق
معناها ..لیته حقاً یميز رائحتها الحقيقية وسط دخان
ماضيها الخانق!

_ عصافير الحب ! ذكرتوني بما مضى !! رحمك الله يا
"أم حسن" !

يهتف بها ربيع عند الباب وقد عاد لتقفز يسرا مكانها
بعاطفة متطرفة لم يعد يتعجبها إبراهيم وهي تندفع
نحو أبيه لتلقي نفسها بين ذراعيه هاتفة بترحيب حار
استشعره العجوز ليربت على ظهرها بحب فتهتف به
باستنكار وهي تميز ملابسه:

_ الجو بارد على ثياب كهذه ! لا لا .. هذا تسبيب !
إهمال!!.. من اليوم عينت نفسي مفتشاً عاماً على
ثيابك وصحتك .

يقهقه ربيع ضاحكاً للحظات ثم يقول بمرح خالطه
بعض الشجن:

_ ألم أقل لك أنك تذكريني بأمر حسن رحمها الله؟!
_ لماذا تدعونها أم حسن؟! إبراهيم أخبرني أنه كان
الأكبر ببضع دقائق!؟

تسأل ليجيبها إبراهيم بسرعة كأن الذكري لا تزال

طازجة تضخ الدم في عروقه :

_كي لا تنسى! ..أمي رحمها الله كانت كنيته تخلصني

حتى مات حسن ..بعدها صرنا نناديها بكنيته ..أضعف

الإيمان كما يقولون أن يبقى اسمه بكنية أمه مادامنا

عجزنا أن نقتص من قاتله أو نجبر الناس ألا ينسوه

هو ومن شابهه .

تدمع عينا ربيع بقهر بينما تشحب ملامح يسرا وهي

تبتلع غصة حلقها المرة ..تبسط أحد كفيها فوق صدر

ربيع تربته بمواساة والآخر على صدر إبراهيم الذي

أردف بابتسامة شاحبة:

_على ذكر حسن ! تعرف أنني رأيت في رؤيا ليلة

زفافي!؟

يتهلل وجه ربيع بالبشر وهو يسأله عما رآه فيرد

إبراهيم :

_ كان يمنحني طفلاً .. طفلاً باسمه !

تتلون ابتسامة ربيع بشجن غامض وهو ينقل بصره

بين ابنه وزوجته ليقول باعتراض غريب على طبعه

الحليم:

_ من المبكر جداً أن تفكرا في الإنجاب الآن ! أرى أن

تؤخرا الأمر ولو قليلاً .

يقولها بدافع من حدسه الغامض الذي لا يفهمه هو

نفسه نحو سمرا ..

الفتاة لا يعيبها شيء .. وعشرتها عن قرب زادت ثقة

فيها .. لكن .. لا يزال يشعر بحاجز غير مرئي

بينهما ..حاجز لا يفهمه وإن كان يشعر به ..هو الذي
دفعه لهذه النصيحة ..

_ لماذا؟! لماذا تقول هذا؟! لماذا تتصحنا بهذا؟! أنا
أريد طفلاً من إبراهيم ..أريده اليوم قبل غد ..أريد
عائلة حقيقية ..أريد ..

تهتف بها يسرا بانفعال هستيري وكلماتها تنقطع
بفيض بكاء مفاجئ..رد الفعل المتطرف لم يعد يدهش
إبراهيم على ما يبدو ليقترب منها فيحتضنها مهدئاً
فيستغفر ربيع بصوت مسموع ثم يربت كتفها هاتفاً:
_ اهدئي يا ابنتي ..لم أقصد مضايقتك ..أنا فقط
أحسبها بالعقل ..لم تعرفا بعضكما سوى من وقت
قصير ..تمتعا بحياتكما قبل أن تنغص عليكما مسئولية
طفل!

يقولها مخفياً غرضه الحقيقي فيصدق إبراهيم على

مقولته محاولاً التأليف بينهما ..

تمسح يسراً وجهها لتهز رأسها عدة مرات ثم تهتف

وهي تتسحب نحو المطبخ وقد آثرت تغيير

الموضوع :

_ الطعام على النار!

_ دون ملح كما أمر طبيب أبي .

يهتف بها إبراهيم مذكراً إياها لتلتفت نحوه قائلة

بصوت باك:

_ وهل أنسى شيئاً كهذا!؟

يرمقها إبراهيم بنظرة مشفقة وهو يراقب ظهرها

المغادر نحو المطبخ ثم يلتفت لأبيه الذي جذبته من

ذراعه نحو الشرفة القريبة بنظرة محرجة ليقول

مدافعاً عنها:

_ سمرا حساسة جداً .. أحياناً أشعر أنها مهووسة
بنا .. تخشى أن تبتعد عنا لأي سبب .. لا أدري من أين
يأتيها هذا الخوف .. يشهد الله أنني أحاول دفع هذه
الهواجس عنها طوال الوقت لكنها دوماً تشعر
بالخطر .. أعتقد أنها تريد الطفل كي تشعر بالأمان
أكثر معنا .. وضع غريب لكنه طبيعي لامرأة
بظروفها .. صحيح؟!!

كانا قد وصلنا لسور الشرفة الذي اتكأ عليه ربيع

ليسأله باهتمام :

_ وما الغريب أيضاً في تصرفاتها؟!!

يشرد إبراهيم ببصره في الطريق ليرد :

_ لا شيء عدا حبها المبالغ فيه .. رغبته في فعل
كل ما يسعدني .. عندما تفرح تفرح بكل قوتها كأنها
ستحلّق .. عندما تحزن لأقل سبب تنكمش على نفسها
كطفلة ضالة باكية .. لكنها تعود وتعانقتي باحتواء
أم .. أعرف ان مشاعرها متطرفة لكنني اعتدت هذا
وأحبه على أي حال .. كما أنها .. هي ..
يبدو متردداً قليلاً في التصريح الأخير ليستحته أبوه
بالاستطراد فيردف :

_ عندما أقلق من نومي ليلاً أراها تصلي وتبكي .. لا
أسمع حديثها لكنني أدرك أنها تتوسل لله بأمر ما .. في
هذه اللحظة بالذات أشعر أن حبها في قلبي
يتضاعف .. كما أشعر بالتقصير

لأني عاجز عن منحها الأمان الذي يكفيها .
يتهد ربيع بحرارة وهو يجود ببصره في الشارع
أمامه يتشاغل بمراقبة المارة ..
كلام إبراهيم يطمئنه من ناحية لكنه يخوفه من
أخرى ..

ماذا وراؤك يا سمرا؟! ماذا وراؤك؟!
السؤال يبقى معلقاً في ذهنه لوقت طويل بعدها ..

يحاول ملاطفتها وقت الغداء مادحاً الطعام فتلتصق
عيناها بفرحة طفلة .. كأنها في لحظة نست ما كان !!
ينضم الحرافيش للمائدة فتتعالى ضحكاتهم مع
تعليقاتهم المرححة لكنها تبقى شاردة عنهم وابتسامة

واهنة تبدو وكأنها تصارع هذا الخوف الحزين

داخلها ..

تنهض أخيراً لتجمع بقايا الطعام فيساعدتها الشباب

لتسأل ربيع أخيراً بصوت منك :
_ تريد شيئاً؟! _

شكراً يا ابنتي .. اصعدي واستريحي في شقتك !

يقولها ربيع بحنان فتبتسم له وهي تحرك سبابتها

محذرة :
_ التزم بكلام الطبيب ! لا ممنوعات ! "المخللات

"..البطاطس" ..الملح !! سأنظف المطبخ وسأعرف
لو خالفت التعليمات !
_ ("عشنا وشفنا!" ..مستر ربيع جاله اللي ينظر

عليه !!)

يهتف بها قيس بمرح مشاكس فيزجره ربيع بسبة
عابرة لتتسع ابتسامة يسرا وهي تتحني فوق كف
العجوز تقبله ثم ترفع إليه عينيها بنظرة دافئة قبل أن
تصعد للأعلى ..

يهم إبراهيم باللاحق بها لكن عنتر يدركه ليقف قبالة
هاتفاً:

_ إلى أين؟! افتقدناك يا شيخ الشباب !

_ منذ تزوجت ولم نعد نراك !

يهتف بها قيس وهو يقف جواره ليكمل روميو الحلقة
وهو يلقي بنفسه فوقه هاتفاً بحرارة مصطنعة مقلداً

اللهجة الصعيدية:

_ حبيبي يا إبراهيم ! "الشوق قتال يا ولد عمي"!

_ ولد ! ولد ! ولد ! ابتعدوا عني !

يهتف بها إبراهيم مزجراً وهو يلکمهم تباعاً
بمشاکسة لکنهم يهتفون به راجين إياه أن يشاركهم
لعب مباراة كرة قدم في الشارع مع بعض
أصدقائهم .. فيستجيب كي يتخلص من إلحاحهم !!
يعود بعد قليل لشقتهم فيستمح بسرعة ليتخلص من
أثر اللعب ثم يخرج باحثاً عنها ليجدها في غرفتهما ..
جالسة على الفراش وقد ثنت ساقيها تحتها تقلب في
صور الزفاف في الألبوم الكبير وترتدي قميصاً أحمر
يذهب بفتنتها الطبيعية لما يفوق حدود احتمالته ..
يجلس جوارها ليضمها نحوه .. يظنها ستعاتبه على
تأخره فيسبقها بالقول :

الحرافيش ورطوني في مباراة ! بالكاد تخلصت

منهم !

لكنها تبدو شاردة عنه وهي تقلب في الصور
هامسة :

_ من اخترع الصور هذا عبقرى! كيف يمكن أن
تحتجز بعض الحياة هكذا في صورة؟! من جرب
شعور الحنين واحترق به يعرف جيداً قيمة أن يدخر
بعض الفرحة في لقطة كاميرا!
لكنه يزيح الألبوم جانباً ليحتضن وجهها براحته
فيرفعه نحوه هامساً:

_ وما حاجتي لصور وأنتِ بين ذراعي؟!
تدمع عيناها لسبب يسيئ تأويله فيقبلهما بعمق ثم
يعيد خصلات شعرها الشقراء للخلف كي يبدو له

جبينها الوضاء ناصعاً .. كصفحة بيضاء تنتظر سطور
قبلاته .. وأحلامه ..

_ غضبت من حديث أبي؟!!

_ أنا لا أغضب منه أبداً .. أنا فقط .. أريد طفلاً .. أريده
كما لم أرد شيئاً في حياتي .. أريده وإن كنت لا
أستحقه !

همساتها الباكية تجد ملاذها على صدره فيضمها بقوة
رفيقة هامساً بحنان :

_ حبيبتي تستحق الدنيا كلها ! لا تسيئي فهم أبي .. هو
لا يريد لنا إلا الخير .. لا أظنه يعني حقاً ما قاله ..
يقولها ثم يرفع ذقنها نحوه ليقبل شفيتها بنعومة
مردفاً:

_ أنا لا أوافق على أي حال ..أنا الآخر أريد طفلاً

منك ..أترقب بلهفة بشارة حسن !

ملاحها المنطفئة تتوهج فجأة كأنما سطعت فيها ألف

شمس ..كأنه في لحظة رد إليها الأمل والحلم ..

ابتسامتها تشرق في عينيه ..وابتسامته ترسم الجنة

في عينيها ..

وكانما تجدد وهج "الأحمر" في روحها لتستعيد

طبيعتها النارية :

_ لماذا تأخرت عليّ؟! لماذا تركتني وذهبت معهم رغم

علمك بحالي؟! لا تقل لي "ورطوني" ولا مثل هذه

الأشياء! أنت لن تتركني وحدي ..لن تتركني ..لن

تتركني ..

هستيريها كالعاده تثير عاطفته أكثر من دهشته .. لا

يبدو له تسلطاً متمكناً بقدر ما يبدو له استجداء

وعد ..

هذا الذي منحته قبلاته قبل كلماته وهو يهمس لها

باحتواء:

_ لن أتركك .. أبداً .. أبداً ..

_ سعيد معي!؟

سؤالها الذي أذمنه كل شيء فيها يجعله يحيط

خصرها بكفيه ليرفعها نحوه فيجلسها فوق ساقيه

هامساً بدفء عاطفته:

_ أخبريني أنتِ يا عاشقتي .. كيف تشعرين بي!؟

سعيد!؟

عيناها تطاردان هذه الفرحة العاشقة في عينيه كطفل

يسعى خلف سرب فراشات ..

فرحته كنزها ..وعذابها !!

آهة كبيرة تود لو تدفنها في صدره ..لو تملك القدرة

على البوح ..على الصراخ ..

على الاعتراف أن "عيني قلبها " قد أبصرتا أخيرا

ولن تسمح لهما بعمى ..لكن ماذا عن "عيني رأسه"

هو؟! هل سيبقى يناظرها بنفس الطريقة لو علم

الحقيقة؟! أم ستحدث المعجزة ويراها ب"عيني

قلبه"!

تنقطع أفكارها وهي تراه يمد ذراعه دون أو يفلتها

يفتح درج الكومود جوارهما ليستخرج منها "العزير

المغلف بورقته الذهبية" ملوحاً به في وجهها بحركة

مغرية فتهدف به ضاحكة :

_"بيمبو"!

تقولها مشيرة لنوع بسكويته المفضل ..تختطفه منه

بلهفة طفولية ثم تفضه لتستخرج محتواه ..تمرره

ببطء مثير فوق شفثيه هامسة بدلالها الأخاذ :

_"منذ علمت أنك تحبه وأنا أحلم بجلسة كهذه أطعمك

فيها إياه بيدي فتحتار من بنا الألد : أنا أم هو !

تتسع عيناه بعمق عاطفته الهادرة وأنفاسه تشتعل

تأثراً ..

لا تزال طريققتها في إظهار عاطفتها تبهره ..تثير كل

براكينه الخامدة ليسأل نفسه بحيرة كيف كان حقاً

يعيش العمر قبلها؟! كيف اندلعت هذه النيران فجأة

وسط أروقة روحه التي طالما ظنها باردة؟!!

تراها مجرد غريزة فطرية كانت لتشعلها أي أخرى

مكانها لو كانت بنفس فتنتها وطريقتها المغالية هذه

في التعبير عن حبها؟!!

أم هو شعور يخصها هي .. هي بالذات .. راميته

القرمزية التي أتقنت تصويب سهمها نحو قلبه

مرة .. ويبدو أنه هو الآخر أجاد تصويب سهامه لقلبها

ألف مرة ..

يقضم قطعة صغيرة من البسكويت الجاف مستجيباً

لدلالها فتتناثر بعض حبيباته فوق لحيته ، تطاردها

شفتاها بالمزيد من الدلال فتزأر عاصفة المشاعر

بينهما من جديد بجنون يستجيبان له بنهم ..

حتى إذا ما هدأت أنفاسهما واستقر القارب المجنون
فوق شط السكينة استسلمت لعناقها الهائى بين
ذراعيه ..

تراه يغمض عينيه فتسأله هامسة :

_ ستنام !؟

_ ليس قبل أن أجدد عهدنا ككل ليلة ..

هنا تمتد أناملها تتحسس وجهه كأنما ترسمه .. تحفر

أثرها فوقه .. كأنما تريد ادخار كل لحظة كهذه تسمعها

من بين شفثيه ..

_أعدك أن أسمعك حين يسد الجميع آذانهم .. أن أحنو
حين يقسون .. ان أرحم حين يرحمون .. أن أبقى حين
لا يبقى أحد .. وأن أحبك كما لم يحبك أحد .

يقولها مفتوح العينين كأنه يمنحها وعده قبل أن
يغمضهما بإنهاك ليستجيب لنوم سريع بينما تبقى هي
تطالعه بنفس النظرات المتولهة تردها بين وبين
نفسها ..

_أحبنى .. أحبنى كما لم يحبني أحد ..
تنتقل ببصرها لألبوم الصور الذي أسقطاه على
الأرض في غمرة عاطفتها المجنونة لتلتقطه
فتتفحصه من جديد بنهم قبل أن تعيده مكانه على
القومود .. لو كان بيدها أن تصور كل هذا النعيم الذي
تعيشه هنا لفلعت !

هي حقاً اشترت حياة !!

وياويلها لو انكشف المستور !!

تدمع عيناها بمزيج من خوف وذنب لتتنهد بحرارة

وهي تسند رأسها أخيراً على صدره ل..ترتاح ..

ما ضرها لو عرفوا الحقيقة ؟!

هي ستموت في أول لحظة تخرج فيها من هذا

المكان !

والميت لا يشعر بما ترك خلفه !!

تغمض عينيها مستسلمة لشجن خاطر الأخير

والمقطع الأول لغنوة حسن الراحل تداعب ذهنها

فتؤولها لمعنى يخصها ..

اهو ده اللي صار وادي اللي كان ..

مالكش حق تلوم عليا ..



أبيض



تفيق ماسة من نومها بتثاقل لتتحسس بطنها البارز
في شهر حملها الأخير ببعض الألم .. تلتفت جوارها
للفراش الذي خلا منه لتطلق زفرة ضائقة وهي تتذكر
معاناته مع كابوسه المعهود طيلة الليالي السابقة ..
"اليد السوداء الصغيرة" التي تنغص عليه فرحته !



لقد أساءت تأويلها فظنتها ترمز لـ "سند"

فحسب .. لكنها الآن تدرك أنها ما تبقى من ديون

ماضيه وأولها طيف!

"طيف"!!

الاسم وحده يكاد يصيبها بجلطة وهي تتذكر فعلتها

الأخيرة !!

سبحان من صبر عاصي الرفاعي عليها وعلى ذاك

الرجل!!

تطلق تنهيدة قلق وهي تنهض من الفراش لتتبين

الوقت فتهرع لحمام الغرفة القريب لتدرك صلاة الفجر

قبل الشروق ولم تكد تتمها حتى غادرت الغرفة باحثة

عنه ..

المرسم خالٍ منه .. وغرفة الطفلين .. غرفك سند
كذلك .. غرفة طيف مغلقة عليها وعلى مجد ولا تظنه
هناك .. الحديقة؟! ليس هنا..

إذن .. أين هو؟!!

ينعقد حاجباها بهاجس خيرة لم تملكه وبصرها يتوجه
نحو بيت ديمة المقابل..!!

تستعيز بالله من سوء ظنها ثم يزداد انعقاد حاجبيها
وهي تفكر .. لم يبق سوى مكان واحد !!

ترفع عينيها لأعلى لتتنهد بارتياح وهي تميز ظل
وجهه الجانبي غافلاً عنها بشروده وقد وقف متكئاً

على سور سطح البيت يراقب الشروق ..

ـ ماستك والشروق .. قصة لن يفهما سوانا!

تهمس بها أخيراً وقد لحقت به تعاقب ظهره لتضمه
لصدرها بقوة فيبتسم دون او يغير وقفته وهو يرفع
كفيها نحو شفثيه للحظات ..

لم تكن مجرد قبلات .. بل بدا وكأنه يجدد انتماءه
لوطن وجدده في ماستيها !

لهذا عندما استدار نحوها عادت غابات زيتونه تتمايل
بهذا الدفاء المستريح ليفيض سيل عاطفته بين
حروفه :

_ قبل مجيئك كنت أفكر أن الشروق هو المعجزة التي
لا تتغير مهما اختلفت الأماكن .. هو نفس الشعاع
القاهر الذي يهزم ظلمة الليل أينما حل فلا راد
لسلطانه!

_ وبعدهما جئت؟!!

تهمس بها بدلال حانٍ وأناملها تداعب فوديه اللذين
غزاهما المزيد من الشيب ليضمها إليه أكثر فيلصقها
به هامساً :

بعدما جئت أدركت أن الشروق معجزة تتكرر .. لكنك
أنت معجزتي التي لن تتكرر ابداً .. أبداً ..

تتسع ابتسامتها وأناملها تتحرك نحو صدره نحو
موضع خافقه قبل أن تحط شفتاها هناك فوق قلبه
بهذه الحركة التي يعشقها منها فيهمس بين آهة
خافتة وتهيدة :

عندما تقبلين قلبي هذا أشعر أنك تجددين عهد ثققتك
فيه .

أنا حقاً أفعل! قلب "عاصي الرفاعي" طالما كان لي
منصفاً عبر كل محطات الطريق .

تهمس بها بيقين وبحار فضتها تموج بهذه الرقصة
الناعمة ليرمقها بنظرة طويلة غامضة ناسبت سؤاله:

مهما حدث؟!!

نظرتها تحمل سؤالا قلماً وهي تشعر أنه يخفي شيئاً
فتزدرد ريقها بتوتر طفيف وأاملها تتشبث بقميصه
دون وعي .. لتلتوي شفتاه بابتسامة جانبية ذكرتها
بعهده القديم وغابات زيتونه تتوهج بعبارة هي مزيج
من جواب وسؤال:

لم تفتقدي منظر الشروق فوق سطح قصر الرفاعي
القديم؟!!

تتسع عيناها بمزيج من مشاعر متباينة وكلماته

تعيدها لعهد بعيد ..

قصر الرفاعي ..

كرمة العنب في حديقته ..

غرفتها الصغيرة هناك التي شهدت أصعب لحظات

حياتها ..

الساحة التي كان يتمرن فيها على إطلاق النار ..

غرفة مكتبه التي تلقت فيها عرض زواجهما

الغريب ..

غرفة نوم عاصي الرفاعي التي لم تسبقها إليها امرأة

قبلها ولا بعدها والتي تحررت فيها من كوابيس

ماضيها ..

وأخيراً سطحه الفسيح الذي اتسع فضاؤه يوماً

لطائرتها الورقية !!..

الحنين يكاد يقتلها لكل هذا .. لكنه يكتسي بالشجن

وهي تتذكر كيف قام عاصي نفسه بهدمه بعد فجيعة

بالحدث الذي فقد فيه بصره وهالة وابنهما.. فيتحول

لخوف وهي تتحسس بطنها غريزياً لتسأله :

_ أنت لا تلقي الكلام جزافاً.. أخبرني لماذا تذكر هذا

القصر الآن؟!!

قبضته تعانق كفها فوق بطنها بحركة مطمئنة وخوف

عينيها يقابل شبيهه في عينيه للحظات .. ثم يستخرج

هاتفه من جيبه لتتلاعب به أنامله للحظات قبل أن

يرفعه أمام عينيها لتشهق متفاجئة!!

_ أنت أعدت بناءه!!

صوتها المتحشرج يسابق نظراتها الملهوفة وهي

تقلب في الصور ..

لا تشعر بدموعها وهي تغرق وجهها وكل صورة

تفجر المزيد من شظايا الحنين ..

لقد أعاد بناءه بنفس الكيفية ..فقط هناك في وسط

الحديقة كانت نافورة المياه تتخذ شكل ..ماسة !!

_ لا تبكي..ماسة ..لا تبكي ..

يكررها بصوت مختنق وهو يفهم فورة عاطفتها في

هذه اللحظة والتي يشاركها إياها منذ اتخذ هذا القرار

بإعادة بنائه ..

يضمها إليه بقوة ليخفي وجهه في حنايا عنقها ليصله

همسها المنفعل:

_ آه يا عاصي!! آه!! الآن أذكر شعوري وقد عدت

لأجد القصر تهدم وأنت لست فيه!! يا الله !!

جسدها يرتجف بين ذراعيه فيربت على ظهرها برفق

مهدناً قبل أن يصلها صوته :

كنت خائفاً مثلك من قراري هذا .. أنت وحدك من
يمكنني الاعتراف لها بهذا .. أنا الذي هدمت قصر
الرفاعي الذي كان يورث جبروته لأولاده جيلاً بعد
جيل .. وأنا الذي أعدت بناءه كي يكون هديتي لأولادي
من بعدي .. كنت على حق .. ابني يجب أن يتعلم حمل
السلاح كما تعلم الرسم بالفرشاة .. يجب أن يفهم معنى
القوة التي تحمي ولا تبطش .. ابني يجب أن يتعلم
السيادة .. لا سيادة الجبروت بل سيادة
المسئولية .. يجب أن يتعلم الوفاء لجذوره بين عائلة
تطيعه طاعة حب لا طاعة خوف .. هذا هو التحدي
الحقيقي لي يا ماسة وليس هروبي بعيداً عن
الماضي .. ستكون هذه هديتي لأولادي .. ليس أولادي
فحسب بل .. أولاد طيف كذلك !

_ طيف؟!_

تهمس بها بتعجب وهي ترفع عينيها إليه لتلمح هذا
الوهج الزيتوني في عينيه يزداد بجوابه :

_ نعم .. طيف .

_ ماذا تعني؟! هل قررت ما ستفعله بشأنها وشأن ذاك
الرجل؟!_

تسأله بتوتر فيمسح بقايا دموعها بأنامله القوية
ليرد :

_ لقد تأكدت مما يمكن التأكد منه من حكايته .. ولم يبقَ
لي إلا لقاءه !

_ وما الذي تنتويه؟!_

تسأله بالمزيد من القلق ليسودهما صمت قصير سبق
جوابه المقتضب :

_دعي كل شيء لوقته !

=====

_حبيبة "بابا"!! أنا بخير .. اضطرت فقط للسفر
لشأن ضروري .. سأعود قريباً .. لا تقلقي .. أنتِ بخير
!؟

_بألف خير .. طيف معي .. شكراً لأنك سمحت لي
بالبقاء معها .

صوت مجد المتحمس يهون عليه شدة موقفه في
محبسه فيهدف بها بحرارة :

_أنا أحبك .. أنتِ ابنتي الجميلة التي أفخر بها دوماً .
_وأنا أيضاً .. أفخر بك دوماً .. عد قريباً .. لا تتأخر .

يغلق معها الاتصال لئببتلع غصة حلقه وهو يناول
الهاتف لحارسه الذي أخذه منه ليغادر الغرفة مغلقاً
بابها خلفه بعنف ..

يخبط يحيى رأسه في الحائط وهو لا يدري كيف كان
سيحتمل حبسه هذا هنا دون أن يطمئن على مجد ..
لكن هل تفعلها طيف لأجل أن تطمئنه فحسب؟!
أم أنها ترسل له رسالة تهديد خفية أن مجد صارت
معها ويمكنها فضحه أمامها وحرمانه منها في أي

وقت!!

طيف!!

كيف يصف جنونها؟!!

بل كيف تصور يوماً أنه يحيط بكل تفاصيل تلك المرأة

!؟

امرأة اصطدمت بسفينته لتغير مسارها بل ..لتجفف
البحر حولها فيتحول معها العالم لشاطئ كبير لا يتسع
سوى لها ..وله!!

ماذا عساه يصنع معها؟!
وهل يوافقها على هذا الجنون الذي تنتويه؟!
يتزوجها؟!

الدم يفور في عروقه وهو يتذكر مذاقها بين
ذراعيه ..

هل يمكنه حقاً الحلم بهذا؟!
أن يحظى بها للأبد في عالمه؟!
لكن ..بأي اسم؟! بأية هوية؟!
وماذا بعد الزواج؟!

ليس بهذا الغباء ليصدق أن طيف ستسمح له بمس

إظفرها !!

تبا!!

يزمجر بغضب عاجز وهو يلکم الجدار بقبضته شاعراً

أنه حقاً مقيد ..

لم يضعه أحدهم يوماً في هذا الموقف ..

أو ..ربما ..هو عاش عمره كله هكذا لكنه فقط كان

غافلاً عن الحقيقة التي زينها الوهم !!

صوت طرقات قوية على الباب يقاطع أفكاره فيلتفت

نحوه بلهفة وهو يتوقعها مكالمة أخرى من مجد ..

لكنه يتصلب مكانه وهو يفاجأ بالظلة المهيبه للرجل

الذي دخل لتوه بنظراته النافذة التي كادت تخترقه ..

والذي أغلق الباب خلفه بعنف ليتقدم منه بخطوات

بطيئة واثقة ..

لكن يحيى لم يتزحزح من مكانه وهو يتفحصه بدوره

وقد أخبره حدسه بمن يكون ..

_عاصي الرفاعي!

يقولها يحيى بنبرة قوية تشبه وميض نظراته ليعقد

عاصي حاجبيه بقوة وهو يفكر ..

حتى ولو لم يسمعهما بأذنيه تلك المرة ليدرك براءة

الرجل كانت ستكفيه هذه النظرة في عينيه ..

هذه أبداً ليست نظرة مذنبة !!

_يحيى الأمين.

يقولها عاصي ببروده القاسي ليغمض يحيى عينيه
بقوة لأول وهلة والاسم لا يزال يخزه بجرح
الماضي ..

لقد كان قد نسي .. لماذا يذكرونه من جديد ؟!
صوت غريب يجعله يفتح عينيه ليزداد انعقاد حاجبيه
وهو يميز المسدس في قبضة عاصي مصوباً نحوه
وصوت الأخير لا يزال متشعاً ببروده الصارم :
_ ما أخبرتني به أختي صحيح ؟! هي تحمل طفلاً

منك ؟!

طفل ؟!

هل قال "طفل" ؟!!

المخبولة !!

كيف تزعم هذا ؟!!

يكز يحيى علي أسنانه بغضب مكتوم !!
ذكاؤه يلهمه بأن يقلب المائدة فوق رأسها !!
ماذا لو أخبر أباها الثائر هذا أنها تستغفله هو؟!
أنها تستغله لتحقيق رغباتها مبتزة ذنب أبيه القديم؟!
أنه -بأبسط اختبار- يمكنه كشف كذبتها!
لكنه ..لن يفعلها !!

ليس فقط خوفه من أن تفضح حقيقته أمام مجد ..
بل ..خوفه على طيف نفسها!!
هو الذي يدرك أكثر من أي أحد معنى أن تلجأ امرأة
مثلها لكذبة كهذه وأمام عاصي الرفاعي بالذات ..
لا ..لن يخذلها من جديد !!
كفاه وجع المرة الأولى!!

لهذا يزم شفثيه بقوة والدم يكاد ينفجر من عروق
جبينه مقاوماً كل انفعالاته في هذه اللحظة ..
يقترب منه عاصي أكثر دارساً كل خلجة من خلجاته
ليردف بنفس البرود الصارم :

_تكرر!؟!

يضم يحيى قبضتيه جواره وهو يشعر بخطورة
الموقف ..

لن يلوم عاصي لو قتله في موقف كهذا !!
لكن ..

لكنه ..لن يفعلها !!

عيناه تضيقان بتفحص وهو الآخر يدرس انفعالات
عاصي في وقفته ..

لو أراد عاصي الرفاعي قتله فلم يكن لينتظر حتى

اليوم !!

ثمة شيء ما غريب هاهنا !!

_لا.

يقولها يحيى باقتضاب ووقفته الثابتة لا تفضح خوفاً

فيقترب عاصي أكثر بمسدسه :

_اعتديت عليها؟! أم برضاها؟!!

_هي لا ذنب لها ..أنا الملام .

يقولها يحيى دون تفكير وقد سبق خوفه على تلك

المخبولة خوفه على نفسه ..

ليرمقه عاصي بنفس النظرة التي تجمد الدماء في

العروق وهو يحرك مسدسه:

_تعرف من أنا وما الذي يمكنني فعله بك هنا؟!!

_أعرف ..وأعرف كذلك من أنا وما الذي يمكنني فعله

بك ..فقط لو كنت حراً !

_تهددني بنسبك!؟!

يهتف بها عاصي فجأة بحدة تناقض بروده السابق

ليصمت يحيى للحظات قبل أن يحسم أمره ليرد :

_لا داعي لهذا ..سأتزوجها !

يطلق عاصي صوتاً ساخراً مشتعلاً كعينية في هذه

اللحظة ليردف يحيى :

_سأتزوجها ونرحل من هنا مع صديقي ومجد .

_خسارة! ظننتك ذكياً!

يقولها عاصي وقد عاد لبروده القاسي ليعقد يحيى

حاجبيه بينما يستطرد عاصي بنفس النبوة :

_تعرف ما الذي تعنيه عودة طيف لي الآن!؟!

يعتصر يحيى قبضتيه جواره وهو يقرأ الجواب في
عيني عاصي المشتعلتين قبل ان يسمعه:
_تظني سأتركها لك تفعل بها ما تشاء مكتفياً بمجرد
زواجك منها؟! طيف الرفاعي ابنة حماد الرفاعي
وأخت عاصي الرفاعي ..بعدها عادت إلي فلا يسعني
إلا أن أرفع رأسها أمام الجميع ..أهلي وأهلها ..وأن
أفعل ما يضمن لي أمانها معك ..لا لعام ولا
عامين ..بل طوال العمر .

ابتسامة كبيرة تفيض بها روح يحيى رغم تصلب
شفتيه !!

رغم غيظه منها ورغبته الآن أن يفلق رأسها المختل
نصفين..لكنه يود لو كانت هنا ..لو سمعت أخاها وهو
يتحدث عنها بهذه الطريقة ..لو علمت أن الطريق



الطويل التي سارته وحدها ينتظرها الكثيرون في
آخره محملين بهدايا الحب !!
يغمض عينيه متمالكاً فوضى مشاعره للحظات قبل أن
يفتحهما من جديد بتساؤله رابط الجأش:
_ ما الذي تريده !؟

_ ستتزوج أختي .. لكن ليس هنا .. في الصعيد .. حفل
زفاف ضخم يتحدث عنه القاصي والداني .. أعترف
فيه بنسبها لحمد الرفاعي أمام الكل .. وأسلمها لك
كأي عروس أمام أهلها .
_ موافق .

_ ستعيش معها هناك في قصر الرفاعي .. اختر مجال
العمل الذي يناسبك وسأوفره لك .. أي مشروع تريد
إقامته .. بشرط .. أن يكون تحت عيني .

تتفرج شفتا يحيى باستتكار وهو يشعر أن الأمر فعلاً

يشبه السجن ليهمّ بالرفض لكنه يتذكر مجد فيزم

شفتيه بسخط وهو يشيخ بوجهه ليقول بعد صمت

قصير :

_ موافق .

_ وستكتب في العقد أنها يجوز لها تطبيق نفسها متى

شاءت .

_ موافق .

_ جيد .. بقي إذن شرطي الأخير ..

يقولها عاصي بحذر ليرمقه يحيى بنظرة مترقبة

فيردف ببطء :

_ عائلتك .

تشحب ملامح يحيى ليخفض عاصي سلاحه متعمداً

في هذه اللحظة وهو يردف:

_ لن أضع يدي في يدك أنت .. اختر لك "كبيراً" من

عائلتك أقدمه لأهلي .

يعطيه يحيى ظهره وهو يشعر بالشرط الأخير كخنجر

في صدره ..

عائلته؟!!

عائلته!!!

لقد نسيهم من زمن وظنه أنهم هم كذلك قد نسوه ..

لا يمكنه العودة ..

السندباد الذي ارتضى الترحال قدراً لن يقامر من

جديد على وهم الوطن !!

لكن .. أي عذر يمنحه لعاصي الرفاعي دون أن يكشف

سره ؟!

وفي مكانه وقف عاصي مكانه ينتظره بصبر وهو

يدرك أنه يضعه أمام التحدي الأصعب ..

لكنها عطيته له !!

هو الآن يرى فيه نفسه القديمة عندما سلّم ماضيه

الفرشاة ليرسم له لوحة سوداء حتى سطع نور ماسته

وسط ظلامها ..

والآن يمنحه هو نفس الفرصة ..

يمنعه من الهروب ويجبره على المواجهة ..

وليته لا يخيب رجاءه !!

هو يتفهمه كرجل ذبح غدرًا في نسبه ولا يمكنه حتى

الصراخ ..

لهذا سيضعه على أول الطريق ويترك له بقية

إكماله !

الدقائق الثقيلة يغزل نسجها الصمت المشتعل بينهما

للحظات ..

ليحفزه عاصي أخيراً بقوله :

_ واحد فقط !

يقولها مدركاً ثقل الوزر على كتف يحيى لكن الأخير

يلتفت نحوه أخيراً بقوله :

_ موافق .

يرمقه عاصي بنظرة غامضة لم يفهما وهو يهز

رأسه ليقول أخيراً:

_ اتفقنا .

_ مجد ونزار! متى يمكنني رؤيتهما !؟!

_ مع العرس .. قريباً .. بمجرد وصول قريبك من بغداد .

يقولها عاصي بنبرة ذات مغزى وهو يتحرك ليغادر

صافقاً الباب خلفه شاعراً ببعض الرضا ..

هكذا يمنح هذين الاثنتين فرصتهما ليرى كيف سيبلغان

فيها؟!!

وفي الغرفة وقف يحيى يشد شعره بأنامله يكاد يقتلعه

من جذوره وهو يكاد يطلق صرخة غضب ..

صرخة عجز ..

صرخة غيظ ..

مَنْ مِنْ أهله يمكنه استدعاؤه هاهنا وائتمانه على هذا

السر؟!!

من؟!!

من؟!!

والجواب يأتيه في واحد فقط ..

إلياس!

=====

*العراق..بغداد ..

تغادر سيارتها الفارهة لتتركها للحارس كي يضعها
في مكانها المخصص متجاهلة نظراته التي حملت
احتراماً كاذباً هي خير من تدركه خاصة بعد دخول
زوجها السجن ..

تغمض عينيها رافضة بشاعة الواقع الأخير لتتجه
نحو المدخل شديد الأناقة لشركة العائلة ..

"شركة الأمين"!



ترفع رأسها بخيلاء مستمتعة بالنظرات التقييمية
لجسدها الذي لم تهزمه السنين وقد بدا قوامه
المغري- رغم بدانته النسبية- داخل ثوبها الأنيق
بلونه الأرجواني الجذاب ..تتحسس شعرها المصفف
بعناية ثم تنتقل أناملها لعقدها الماسي في عنقها
بحركة رشيقة وهي تتحرك بخطوات أنثوية متمائلة
نحو المصعد الذي فتحه لها الحارس ..
تتفحص شكلها في مرآة المصعد بعناية ..
اجتماع اليوم مهم جداً ..يجب أن تثبت فيه
بصمتها ..لن تسمح لغياب زوجها في السجن أن يؤثر
على وضعهم في العائلة ..خاصة مع وجود
إلياس ..واستبرق ..

تكز على أسنانها بحقد عند الاسم الأخير لكن رنين
هاتفها يقاطع أفكارها فتبتسم بحنان أمومي وهي تميز
الاسم :

_ سراب! كيف حالك يا ابنتي!؟!

_ بخير! اتصلت لأطمئن عليك.. أعرف أنك تتوترين
في وجود العمّة "استبرق"!

_ ومن لا يفعل!؟!

تتمتم بها بخفوت يقارب الهمس ليصلها صوت سراب
عبر الهاتف بين حسرة وغضب:

_ أبي كان يكفيك كيدها.. وهاهوذا قد زجوا به في
السجن في تهمة ملفقة.. وهاهم ذا يجتمعون ليقرروا
من سيخلفه في رئاسة مجلس الإدارة.. لا تتركي

مقعه لأحدهم يا أمي .. لا عمي إلياس ولا العمه

استبرق .

تتهد المرأة بقله حيله فتردف سراب بعاطفة تسربت

عبر حروفها رغماً عنها :

_وحده يحيى يستحقها .. فقط لو يعود .

تمط أمها شفيتها باستياء قائلة:

_كفي عن الحديث عنه بهذه الطريقة ! زوجك شديد

الغيرة .

_منذ عهد بعيد لم تعد مشاعري نحوه

كالسابق .. صدقيني .. أنا فقط أشعر بالذنب .. هو ترك

العائلة والبلد كلها لأجلي .. ليته يعود لأسامح نفسي

وأتمتع بحياتي الجديدة دون منغصات .

_كفي عن هذا العبثأغلقي الاتصال الآن فقد

وصلت .

تقولها باقتضاب وقد غادرت المصعد نحو الرواق

المؤدي لقاعة الاجتماعات ..

توترها يجعل بعض العرق الخفيف يتكاثف فوق

جبينها خاصة مع المزيد من النظرات الفضولية

نحوها ..

تتعثر فجأة في طرف السجادة لكن هذا الذراع يمتد

نحوها ليسندها فتلتفت ل..صاحبه !!

استبرق!!

نظرتها الحاقدة التي لا تفهمها لم تتغير طوال هذه

السنوات ..

نظرة كراهية تمتزج بالذنب تستشعرها بحدسها

الأنثوي ولا يمكنها تفسيرها ..

استبرق دوماً هي الأجل والأذكي والأكثر

نجاحاً .. فماذا عندها هي كي تحسدها عليه؟!!

هل تلومها على ابتعاد يحيى عن العائلة بسبب

ابنتها؟!!

ربما!

لكن الغريب أنها نفسها لم تكن موافقة على هذه

الزيجة !!

فلماذا؟!!

فدوة لروحك! كالعادة ترتدين ما لا يناسبك .. منذ

متى يناسب الكعب العالي جسماً بوزنك؟!!

كعدها كلمات استبرق القاسية تناقض هذه النبيرة

الحنون التي تتحدث بها !!

طالما شعرت بها امرأة المتناقضات !!

كانها تخفي خلف بساطة مظهرها أسرار الكون كله !!

أجل .. لم تكن استبرق تحتاج لأناقة باهظة كي تخطف

الأبصار ..

تكفيها ملامح وجهها الطفولية شديدة الفتنة التي

تمنحها عمراً أصغر بكثير من سنها ..

وهذا الجسد الممشوق شديد الرشاقة الذي يناسب

فتاة عشرينية لا امرأة بسنها ..

حتى الحُلَيّ !!

لا تحتاجها استبرق بهذه البشرة العاجية الناعمة التي

تلتهم في الضوء كأف نجمة ..

وهاهي ذي ترتدي ثوباً كحلياً بسيطاً لا يظهر منها
سوى نصف ذراعيها وبعض جيدها ورقبتها..ولا
ترتدي سوى سلسلة باسم ابنها يحيى ومع هذا تبدو
كأميرة خرجت من كتب الأساطير !!

تقصدين أني بدينة؟!

تهتف بها المرأة بغيرة واضحة لترسم استبرق هذه
البسمة على شفثيها ..بسمة تشبه نظرتها بمزيج
الكره والذنب ..ولا تزال كلماتها بنبرتها الحنون
تناقض قسوة معانيها:

_حبيبتى شجون ! من يجرؤ على وصفك هذا فقأت
عينه!! أنا فقط أنصحك ألا تضعي نفسك في غير

موضعها!

_ها؟! فهمت! تقصدين رئاسة مجلس إدارة الشركة!
لا يا حبيبتي ..المنصب كان لزوجي وأنا الأحق به
بعده .

شراسة شجون المعلنة تقابل نظيرتها المستترة عند
استبرق التي ربتت على ظهرها بود ظاهر قائلة:
_وكان لزوجي قبل زوجك ..والمفترض أن يكون
لابني الآن !

_ابنك؟! وأين هو ابنك؟! ألم يهرب من سنوات
كالطفل المدلل الذي غضب لأنهم لم يعطوه لعبته ولا
يعلم أحد له طريق ..آه !

تقطع شجون عبارتها بأهة ألم وهي تشعر بقبضتي
استبرق تعتصران زنديها بقوة مؤلمة ..والشراسة
الفتية تعلن عن نفسها صريحة دون ستر هذه المرة :

_ لا تتحدثي عن يحيى بسوء .. ابني سيعود وسيأخذ

مكان أبيه .. ولو لم يفعل فأنا لها !

تحرر شجون ذراعيها منها بعنف وقد بدا الموقف

ينذر بكارثة لولا تدخل الرجل ..

الياس !!

_ ولا كلمة !! تتعاركان هكذا في منتصف الرواق دون

اعتبار لأحد .. ادخلا !

تتبادل المرأتان نظرات نارية قبل أن تستجيب شجون

أولاً بطبيعتها الجبابة بعض الشيء وتبقى استبرق

تتبادل نظرات متحدية مع إلياس تناقض رقة عباراتها

الظاهرة :

_ لآخر مرة سأقولها لك .. أنا دخلت بيت شقيقك رحمه

الله وأنت مازلت طفلاً .. طوال هذه السنوات وأنا

أعتبرك أخي الأصغر بل ابني .. أنا أعرف أن لك كلمة
مسموعة في اجتماع اليوم .. لأجل شقيقك احفظ هذا
المنصب لي .. وليحيى بعدي!

يرمقها إلياس بنظرة ضائقة وهو يميز أثر ذكر اسم

يحيى عليها ..

ليرد بخفوت:

_ وأين هو يحيى!؟!

تدمع عيناها بقهر تكتمه باقتدار وهي تتذكر ما
أخبرها به العم السجين وطلب منها أن تخفيه عن
العائلة ..

يحيى زاره !!

يحيى هو من سجنه عقاباً له!!

يحيى يعلم!!

طوال هذه السنوات وهي تشك في هذا !!
يوم كانت مع عمه في مكتبه تحدثه عما بينهما
وتعترف بخطيئتهما ..خرجت لتخبرها سكرتيرته ان
يحيى كان هناك ..رأت زجاجة العطر
المكسورة ..والحقيبة التي تركها خلفه ..
طوال هذه السنوات وهي تكذب نفسها بدعوى أنه لم
يعرف الحقيقة ..

هو اعتزلهم غضباً لأنهم حرموه من سراب ..

لا تريد تصديق غير هذا !!

لكنه عاد منتقماً من أبيه الحقيقي !!

فماذا عنها هي ؟!

هل يدخر لها هي الأخرى انتقاماً؟!

أما كفاه حرمانها منه طوال هذه السنوات؟!

ماذا لو عاد .. وفضحها؟!

بل .. ماذا لو ..

لو لم يعد !!

لو كان عقابه لها أن يجرمها منه العمر كله؟!؟!

تبكين يا استبرق؟!

يهمس بها بجزع من يراها في موضع كهذا لأول

مرة .. فتنتبه لنفسها وهي تمسح دموعها بسرعة

متلفة حولها كأنما ضبطت بالجرم المشهود ..

_لا بأس .. لكِ كلمتي .. المنصب لكِ.

يقولها داعماً بود فتعاود النظر نحوه لتتراقص

ابتسامة على شفثيها وهي تتفحص ملامحه :

_كم تشبهه! يحيى!! كأنني أراه هو أمامي !!

يوماً ما سيعود ! سيعود ليجد مؤسسة الأمين كلها
في انتظاره ..مصيبة سجن شقيقي الأخيرة هزت
اسمنا في السوق لكننا لن نسمح بالمزيد ..العائلة كلها
ستتكاتف كي نتفادى الأزمة !
تهز رأسها بتشتت غريب على طبيعتها وهي تدلف
خلفه لقاعة الاجتماعات ..
تتبادل مع شجون نظرات نارية من جديد قبل أن تتخذ
مقعداً ..

دقائق تمر بها عاصفة وهي تستمع لاقتراحات
الحضور بشأن مناقشة الوضع ..لكنها تترك زمام
الأمر لإلياس ..تعرف أنه لن يخذلها ..رغم صغر
سنه لكنها تثق في ذكائه ..كيحيى تماماً!!

_مبارك يا "استبرق" ..المنصب لكِ بغالبية

الأصوات!!

التهاتف يثلج صدرها أخيراً فترمق شجون بنظرة ظفر

قبل أن تقف مكانها مستقبلة التهاني ..

تتخلص أخيراً من الجمع حولها لتعود لمكتبها فرحة

بانتصارها لتفاجأ بالوجه الذي ينتظرها :

_العم مؤيد !

تشحب ملامحها كثيراً لمرأى الرجل العجوز فتصرف

مساعدها بارتباك لتدفعه ببعض العنف نحو غرفة

مكتبها التي أغلقتها خلفها لتهمس به بشراسة:

_هل جننت؟! تأتي للمكتب!؟

_أعتذر ! لم أستطع الاتصال بالرقم الذي تركته

لي ..والأخبار عندي خطيرة .

يقولها بوجل ليزداد شحوب ملامحها وهي تسأله

بصوت مبجوح:

_ هو يحيى؟! هو الذي تتبعته؟! أنت واثق؟!!

يهز الرجل رأسه بيقين قائلاً:

_ نعم يا سيدتي .. السيد (...) أرسلني خلفه منذ تعرف

عليه في المطار رغم أنه غير ملامحه قليلاً .. وسكنت

معه في نفس البناية.

يقولها ليبرز لها صورة يحيى بتكره الجديد على

شاشة هاتفه لتتسع عيناها حد الجحوظ للحظات

ويزداد خفقان قلبها بجنون قبل أن تتخرط فجأة في

البكاء وهي تقبل شاشة الهاتف بحرقه عدة قبلات

متتابعة ..

قبل أن تمسك مؤيد من تلايبه صارخة بلهفة أنستها

حذرها :

_ أين هو ؟!

_ هذا ما جئت لأجله يا سيدتي ..لقد اختفى هو

وصاحبه و"البنت" فجأة ! وبعض الجيران رأوا

غرباء يداهمون بيته .

_ من صاحبه؟! ومن البنت؟! هل تزوج؟!!

يهز الرجل كتفيه بجهل ليرد :

_ هذا هو كل ما أعلمه ..صدقيني ..أرجوك أن تبلغني

السيد (...) أنني لم أقصر .

_ كيف كان حاله ؟! صفه لي!!

تهتف بها بلوعة أمومية صادقة ليرد الرجل بإشفاق :

_ يشهد الله ما رأيت منه إلا خيراً .. كان يعاملني جيداً

هو وصاحبه .. وتلك الفتاة المقعدة ابنته كانت ..

_ ابنته؟! ابنته مقعدة!؟!

تردها بذهول فيزداد إشفاق الرجل وهو يعاود هز

كتفيه لتتمالك نفسها أخيراً فتمسح دموعها ..

تتناول هاتفها لتتقل صورة يحيى عليه ثم تصرف

الرجل بقولها :

_ ستجد مكافأة سخية في انتظارك .. وسأوصي بك

السيد (...) خيراً .. لكن .. إياك .. إياك أن يتسرب من

فمك حرف يخص ابني .

يهز لها الرجل رأسه بطاعة قبل خروجه وقد غلبته

شفقته عليها لتغلق الباب خلفه وتستند عليه ناظرة

لصورة يحيى على هاتفها ..

افتقدته!!

افتقدته رغم كل الخوف الذي يملؤها من عودته!!
كيف يمكن أن يتصارعها الآن شعوران .. أحدهما أنها
قد تدفع عمرها وتراه ..

والآخر أنها قد تدفعه كذلك كي .. لا يعود!!
عودته تعني .. نهايتها هي!!

ياالله!!

أي عذاب تعيشه بخطيئتها .. تحترق به طوال هذه
السنوات!!؟

_ أين عساك الآن يا يحيى؟! وما الذي فعلته بك
السنين؟! لماذا عدت الآن لبغداد؟! سجنك أباك
الحقيقي فأني انتقام تدخره لي!؟

أناملها المرتعشة تتحسس سلسلة عنقها باسمه
بشوق يمتزج بخوفها للحظات سمحت لنفسها فيها
بوهن لا تملكه غالباً ..

قبل أن تستعيد رباطة جأشها وهي تمسح وجهها
لتحدث صورته على هاتفها :

_تعلم كم أحبك؟؟ ! تعلم كم أفقدك؟؟ ! أنت

ابني .. وحيدي .. عكازي الذي ادخرته لو هن

العمر .. لكنني لن أسمح لك لو عدت أن تهدم ما عشت

العمر أبنيه .. يقولون إنك ورثت ذكاءك مني .. وأمك

دوماً تعد الخطة البديلة لأنها لا تحب المفاجآت !!

الدمع في عينيها يجف رويداً رويداً لتعود نظراتها

لتوهجها وأناملها تتلاعب بشاشة هاتفها للحظات ..

تتصل بالسيد (...) ذي النفوذ القوي كي تسأله إن كان يحيى قد غادر بغداد فيطلب منها المزيد من الوقت كي يتأكد ..

تغلق معه الاتصال لتضيق عيناها وهي تبحث عن رقم بعينه ..

أشهر الأطباء النفسيين هناك في بغداد !
تتردد قليلاً لكنها تحسم أمرها وهي تتصل به :
_ كن جاهزاً لما اتفقنا عليه لو عاد يحيى .. اطلب المبلغ الذي تريد وسأرسله دون مناقشة .. أنا سأرسل لك بعض التقارير التي كتبها أطباء آخرون تخص طفولته ومراهقته وتكفل أنت بإخراج التقرير النهائي .. ما يهمني أنه لو عاد يحيى للظهور أن يكون

في يدي ما يثبت أن له تاريخاً في الهلاوس السمعية
والبصرية ..

تصمت للحظات والكذبة الفظيعة تزلزل فطرتها
الأمومية للحظات لكنها تهزمها بقوة مردفة بصوت
متحشرج :

وأن قواه العقلية مختلفة .

=====

أخضر

=====

على فراشهما صباحاً استيقظت عزة لكنها لا تزال

تتظاهر بالنوم ..

تضع وسادتها على رأسها تاركةً لعينيها هذه المسافة

الصغيرة تراقبه وهو يتم ارتداء ملابسها استعداداً

للخروج لعمله ..

كعهده يبدل ملابسها في الحمام الصغير المرفق

بالغرفة كي لا ترى أثر عاهته تاركاً إتمام التفاصيل

أمام مرآته ..

أناقته صارت متكلفة كأنه يعاند ذوقه القديم ..حتى

تصفيفة شعره غيرها لأخرى أكثر عصرية ..

لا يزال يفقد المزيد من الوزن ..ومن نفسه !

لا تزال تذكر تلك الليلة العصبية التي زارهم فيها إياد

ليفجر براكين الماضي من جديد ..

ليلتها بكى إيهاب بين ذراعيها كما لم يفعل من
قبل .. وهي لم تخذله كـ "صديقة":

__ هذا ما كنت أخشاه .. أن يعود شامتاً بعد كل هذه
السنوات .

قالها وهو يتوسد صدرها كأنه يدفن فيه خيبته وندمه
لتسأله وهي تخشى الجواب:

__ أنت فعلت هذا حقاً؟! كل ما يحكيه عن ورد ..

صمت طويلاً كأنه مثلها يخشى الذكرى ليرد :

__ ربما كان خطئي أنني لم أصارحه وقتها بما

يحدث .. لا تعلمين كيف يشعر المرء عندما يغدر به

حبه الأول .. كنت خارجاً لتوي من تجربة

فاشلة .. أهرب من الجميع بل ومن نفسي .. أنا حقاً

خطبت ورد بأيعاز من عمي كي أدمها في فترة
مرضها الصعبة .. لكنني لا أنكر أنني أردت فعلاً أن
أجعل حبيبتي القديمة تغار وتدرك أنني
تجاوزتها .. وبين رغبتني في إسعاد ورد وإغاظة
الأخرى تماديت في أفعالي .. ونسيته هو !
_ نسيته كما نسيته أمه من قبل ؟! كأنكم اعتبرتم هذا
حقاً مكتسباً !
ودت لو تقولها وقتها لكنها كتمتها داخلها كي لا تزيد
جلده لذاته ..

بينما استطرد هو بانفعال وهو يرفع وجهه إليها :
_ من السهل أن تتهميني الآن بخيانتته .. أنا نفسي
عشت سنوات أفعالها ولازلت أفعالها .. لكنني وقتها لم
أحسبها هكذا .. حب ورد المريضة لي من

ناحية .. ورجاءات عمي من ناحية .. ورغبتني في الثأر
واستعادة نفسي من ناحية .. كنت مطوقاً مغيباً
كمجذوب بمغناطيس غير مرئي .. وحتى عندما كنت
أذكر حب إياد لها كنت أقول لنفسي هو ينبغي أن
يبحث عن سعادتها ولو مع غيره كأي عاشق مثالي
خاصة في ظروف مرضها .

تهدت بيأس من عقم الحوار وهي لا تستطيع حقاً
الفصل بينهما ..

كلُّ رأى الحكاية بطريقته فحكّم فيها لنفسه !
عطره النفاذ الذي غيّره مؤخراً مع ما غيّره ينتزعها
من شرود الذكرى فتسعل رغماً عنها وهي تضطر
للتخلي عن تظاهرها بالنوم لترفع الوسادة عنها ..
_أسف .. أيقظتك .

يقولها بحنان لا يدعيه وهو يقترب منها ليقبل
وجنتها ..فقط جبينها ووجنتها !!
نظراته تتفحصها بعاطفة وقد انفتح زراً منامتها
الأوليان فلم تنتبه لهما في نومها لتبدو له بشرتها
اللامعة تتلألأ في نور الصباح الذي دخل الغرفة من
النافذة بمشهد مثير لم تتعمده ..
محمرة الوجنتين والشفيتين بأثر دفاء
الفراش ..خلصات شعرها الناعمة متناثرة بفوضوية
حول وجهها الجذاب ..وعيناها الساحرتان تجيدان
غزل خيوطهما حول قلبه ..
حوريته الخضراء التي طالما كانت تسير بتؤدة بين
طرقات روحه فتمنحه السكينة ..

والآن تسير معه على شفرة نصل حاد يدمي قدميهما

معاً!!

نظراته تستقر أخيراً أمام شفتيها .. يتذكر عذابه بها

كل ليلة وهو يجاهد نفسه ليعطيها ظهره .. يخاف

الولوج من جديد في جحيم الفشل .. عذاب لا يدري إلى

متى سيحتمله هو .. والأدهى .. إلى متى ستحتمله هي

!؟

وإن كان هو يرتضيه ظناً منه أنه عقاب عادل لذنوب

إياد .. فما ذنبها هي!؟

عيناه تدمعان بقهر رجولي لا يدركه إلا من عاشه

فتمتد أنامله المرتجفة تلامس شفتيها ببطء وهو

يشعر بفورة عاطفته تكاد تؤدي به .. الدم يكاد يفور

في عروقه مطالباً بحقه فيها!

ماذا لو استجاب لجنونه الآن ؟!

لو ..!!

لكنه يغمض عينيه بألم وهو يشعر بجسده يخذله !!

منذ ليلة الزفاف الكارثية ولا يزال هذا الحاجز يقف

بينهما !!

صورتها وهي تتقيأ أمام مشهد ساقه المبتورة !!

وأمامه كانت هي راجية .. وخائفة ..

خجلها العذري يجعلها لا تفهم حقيقة هذه المشاعر

التي تتتابها ..

تود لو تستسلم .. لو ينجح ما بينهما ..

وتود لو تقاوم .. لو ينتهي هذا السلم الطويل من

التنازلات ..

وبينهما لا تزال تتراقص هي على حافة المنتصف

السخيفة !!

ربما لو كانت امرأة أخرى مكانها لفكرت في إغرائه ..

في دفعه لتجاوز هذا الحاجز اللعين ..

لكنها لم تكن ترى سوى فشلها هي ..

هي لا تملأ عينه كـ "أنثى" كما كان الحال مع راغب

ومع خطيبها قبله الذي اكتفى منها ببعض تحرشات

كثيرة ذاقها فلم يعجبه مذاقها ورماتها !!

الخاطر الأخير يذبحها بنصل ثلم فتجاوزه هاربة ..

تنتبه لتعلق نظراته بمنامتها فتكتم شهقة خجلها وهي

تغلق أزرارها بأنامل مرتجفة ليقبض هو كفه جواره

بمزيج من عجز وألم فتتنحج هاتفة بارتباك :

_ صباح الخير .. سأعد لك الإفطار!

تقولها وهي تنهض من على الفراش ليرد بسرعة:
_ لا تتعبي نفسك .. "خوخة" أعدته وتنتظرنني .

_ هل صارت بخير !؟

تسأله بقلق فحالة المرأة الصحية بعد زيارة إيداد قد
تدهورت نوعاً وارتفع ضغطها حد الخطر ..
لكنه يجيئها مطمئناً وهو يغالب أبواب الجحيم التي
شرعت في وجهه فجأة قائلاً:

_ الحمد لله .. الوضع مستقر منذ الأمس وأنا قست لها
"الضغط" منذ قليل وكان على ما يرام .

تتمتم بحمد الله وهي تبتسم له بينما تشبك أصابعها
في كفه قائلة:

_ إذن .. نفطر سوياً .

يبتسم لها هذه الابتسامة المرتجفة الغريبة عن
ابتسامته الأسرة التي كانت تعشقها فيه قديماً وهو
يتحرك بها ليغادرا الغرفة فتستقبلها خديجة
بابتسامة واهنة ..

_ لماذا أتعبت نفسك؟! كنت سأعد الإفطار!
تقولها عزة ببعض الحرج لترد خديجة بنبرتها القوية
التي غزاها حزن لم تستطع كتمانها :
_ لا بأس..كنت أحتاج أن أشعر أنني صرت بخير .
_ لا حرمني الله طعامك الشهي يا "خوخة"!
يهتف بها إيهاب بحنان مرح وقد اتخذ مجلسه على
المائدة مرتدياً قناع "الفاجومي" باقتدار وهو يطعم
أمه بنفسه ..يلمح سؤاها في عينيها لكنه يتجاهله
وهو يسألها باهتمام :

_ كيف أبدو؟! "عريس"؟! إنه أول يوم عمل بعد

الزفاف .

تطرق عزة برأسها وهي تشعر بالمزيد من الغرابة ..
من يقول أن إيهاب هو الذي يتحدث بهذا الاهتمام عن

المظهر؟!!

وهي .. هي التي لم تعد تهتم!!

هي تشعر فقط أنها تهبط سلم التنازلات بصمت

مقهور!!

تمنحه أمه جواباً يرضيه ليلتفت نحو عزة فيطعمها

بدوره لتبتسم له بود ثم تقول له بتردد :

_ مخرج البرنامج كلمني بالأمس يطلب

لقائي .. سأخرج بعد الظهر .

_ ماذا تظنينه يريد؟!!

يسألها باهتمام لتشيح بوجهها قائلة :

_ لا يمكنني تحديد نواياه خاصة بعدما حدث من هيام

ليلة الزفاف .. هو كان يعرض عليّ الكثير من

التنازلات في الفترة الأخيرة قبل هذا الأمر متذرعاً

بتناقص شعبيتي كما أخبرتك .. وأظنه سيعرض

الأكثر .. أو ربما أقنعهم بفسخ التعاقد معي .

كانت تظن أن نبرتها مهزومة حتى سمعت صوته

وهو يقول:

_ لا! إلا البرنامج !! تشبثي به قدر استطاعتك مهما

كانت التنازلات !!

تلتفت إليه لتلتقي عيناهما فتروعاها هذه الغرابة التي

صارت تشعر بها نحوه ..

إيهاب القديم لم يكن لينصحها أبداً بهذا ..

فيما يزم هو شفّتيه بقوة وهو يخشى الاعتراف ..
هل يحرضها على هذا لأجل الحفاظ على نجاحها الذي
صنّعه بنفسها طوال هذه السنوات !؟

أم لأجله هو !؟

لأجل أن يبقى زوج "النجمة" التي اختارته من وسط
الجميع رغم عاهته !؟

وبينهما كانت خديجة ترمقهما بهذه النظرة الملتاعة
وهي تكاد تقرأ حديث نفس كل منهما ..

لتقول أخيراً مخاطبة عزة :

_إيهاب لا يقصد بالتأكيد معنى التنازلات

المفهوم .. أنتِ وحدك من يمكنك موازنة

الأمر .. واختيار الأفضل !

تقولها محاولة دعمها ودفعتها لاتخاذ القرار بنفسها

فتهز عزة رأسها وهي تتمتم برد مناسب ..

_ آتي معك!؟!

يسألها إيهاب لترد بفتور :

_ وعملك!؟!

_ أي عمل!؟! غيابي لن يشكل فارقاً ..يمكنني الحصول

على تصريح !!

سخريته المريرة تفضح ألمه من حقيقة وضع عمله

الإداري البسيط والذي يناقض حيوية عمله السابق

فينتابها الشعور بالمزيد من الذنب وهي تربت على

ركبته قائلة :

_ لا بأس ..يمكنني تدبر الأمر وحدي .

لكنه ينتفض مكانه وأناملها تمس ساقه الاصطناعية

ليتنح قائلاً:

_ سأذهب الآن كي لا أتأخر .

_ أنا أيضاً سأخرج .

تقولها خديجة وهي تقف مكانها فيرمقها بنظرة

طويلة وهو لا يحتاج لسؤالها عن وجهتها ..

بالتأكيد إياد !!

_ هكذا قضي الأمر . لن أذهب للعمل اليوم .. سأاتي

معك .. أو انتظري للمساء كي ..

لكنها تقاطعه بقولها الحازم :

_ لا! دعني أذهب وحدي هذه المرة .

يهم بالاعتراض لكن هذه النظرة الحازمة والراجية

في عينيها تلجمه فيهز رأسه أخيراً باستسلام وهو

يعطي كليهما ظهره ..يرمق غرفة إياد المغلقة بنظرة
مختلسة وهو يشعر بحاجته في هذه اللحظة لبوح
جديد يبثه إياه عبر شريط صوتي جديد ..لكن حتى هذا
يبدو له كراحة لا يستحقها !!

يصفق الباب خلفه بعنف لا يتعمده فتطرق عزة
برأسها قليلاً محاولة التماسك قبل أن ترفع بصرها
نحو حماتها بتساؤل جنت عنه شفاتها لترد خديجة
بحسم يليق بلامحها :

_ سأصلح ما بين ابنيّ ..ليت العمر يسعفني لفعالها .

=====

_ ما هذا الذي تقوله؟! أعدده ثانية لعلني لم أفهم !

تهتف بها عزة مخاطبة المخرج الذي طلب لقاءها في
مكان التصوير وقد منحها هذا بعض الأمل في عودة
الأمر لمجاريها ..

لكن هاهو ذا يعيد حديثه الصادم :

_تعلمين أننا لا نحب الرهان على جواد

خاسر ..المنتج غاضب للغاية بعد فضيحة شقيقتك

ليلة الزفاف ..حتى اقتراح مشاركتك الفقرة مع نجمة

محبوبة كي ترفع نسب المشاهدة لم تعد مجدية

كالسابق ..

كانت تجلس معه مواجهة لحائط الديكور الذي حمل

اسمها وبرنامجها لسنوات .."أكلتين وعافية ..عزة

الأنصاري" ..بلونه الأخضر المميز وهذه الأيقونة

التي تخصصها ..تتكس الدموع في عينيها وهي
تتحسس وشاحها الأخضر الذي يحيط بعنقها ..
فيصلها صوته القوي بنبرته العملية التي اكتست
بالود :

_عزة ..نحن صنعنا مجدنا معاً ..ويعز عليّ أن أترك
هكذا في وسط الطريق ..لهذا اسمعي نصيحتي إذا
أردتِ أن تحتفظي بالبرنامج وبشعبيتك .
_أي نصيحة هذه ؟!

_اصنعي من الهزيمة نصراً ! فيديو فضيحة زفافك
هذا تعلمين كم حصل على مشاهدات في أيام قليلة ؟!
تخطى الخمسة ملايين مشاهدة!! لماذا لا تستثمرين
الوضع ؟!

ترمقه بنظرة مشوشة ليردف بحماس :

تعلمين كيف تصير الأمور هذه الأيام ..فيديو صغير
كل يوم لكِ مع زوجك على قناتك عبر "اليوتيوب" أو
الانستجرام ..يتحدث فيها كيف تحدى ظروفه
وتتحدثين أنت كيف تمسكتِ به ! الناس تحب مثل هذه
الأمور ..دعهم يشاركونك تفاصيل حياتكما
الخاصة ..مشاهد من شقتكما ..أسفاركما ..مشاهد له
في عمله ..في السيارة تتبادلان الحب ..على شاطئ
بحر ..كل التفاصيل مهما بدت لك تافهة سيحب الناس
مشاركتها معك ..يوماً فيوماً سيتعلقون بكما وينتظران
جديدكما بشغف ..لن يعود أحد ليلتفت بعدها لجودة
محتوى برنامج عزة الأنصاري ولا ماذا تقدمه لأن
عزة الأنصاري نفسها ستكون "المحتوى"!!

_ تريدني أن أروج لنفسي وزوجي كسلعة؟! تريدني
أن أبيع خصوصيتي وحياتي على المشاع؟! تريدني
أن اتاجر بعاهة زوجي الذي ضحى بنفسه لأجلي؟!
تهتف بها باستنكار حاد يستجلب نظرات الحضور
الفضولية فيعقد حاجبيه بغضب هاتفاً:

_ بل أريدك أن تحافظي علي نجاحك .. أن تقفزي من
القارب قبل أن يغرق بك! الناس أحببتك وجهاً ضاحكاً
منتصراً مشرقاً والآن احترق هذا الوجه منك .. ماذا
تنتظرين؟! انظري للتعليقات علي فيديو زفافك
الكارثي كي تقدري حجم خسارتك!!

تدمع عيناها بمزيج من عجز وقهر .. لكن العناد يرسم
الرفض فوق ملامحها فيردف وهو يهز رأسه:
_ للأسف .. بدأت من الصفر .. وستعودين إليه!!



تعدل حمالة حقيبة فوق كتفها وهي تعطيه ظهرها
لتغادر المكان لكنه يتحرك ليقف قبالتها قائلاً :
_فكري في كلامي ..لن أعتبر اتفالك هذا رداً .
تتجاوزه بخطوات سريعة لتلتفت بنظرة أخيرة نحو
حائط الديكور الأخضر هناك وقد أطفئت الأنوار
حواله ..لينقبض قلبها بلوعة كأنما فقدت ابنها !!
لم تجرب شعور الأمومة لكن هذا البرنامج لسنوات
كان صغيرها الذي يكبر بهناءة أمام عينيها
بل ..عائلتها كلها !!

والآن تفقده مع كل ما فقدته من أحلامها ..
يصطدم بها أحد الداخلين للمكان فيعتذر لكنها لا تأبه
لاعتذاره وهي تشعر بهذا الذي سقط على الأرض
تحت قدميها كأنه يمنحها شارة النهاية ..

وشاحها الأخضر !!

=====

_ أنت واثق أن هذا هو العنوان !؟

تقولها خديجة بحيرة للسائق الذي توقف بها أمام هذه
الفيلا الأنيقة على أطراف المدينة ليرد الرجل بنفاد

صبر :

_ هو المكتوب في الورقة يا حاجة ! يمكنك سؤال

الحارس هناك .

ينعقد حاجباها بشدة وقلبا ينقبض دون سبب بينما
تترجل من السيارة لتتوجه نحو حارس الفيلا فتسأله

بحرج :

_أريد السؤال عن أحدهم يقيم بالقرب من هنا ..اسمه

إياد ال..!

تقطع كلماتها التي بدت لها ساذجة وهي تميز الاسم

الصريح المكتوب على باب الفيلا ..

اسم ابنها !!

تشعر برهبة خانقة ومظاهر الترف التي تبدو من
الخارج على للمكان تثير حفيظتها ..من أين أتى إياد

بكل هذا؟!

_تريدين السيد إياد ؟!

تهز رأسها بتثنت فيسألها الحارس بنبرة مهذبة:

_أتشرف باسمك !

_أنا ..أمه !

واحدة من المرات الكثيرة التي وخرتها فيها الكلمة

وهي تقولها ..لشعورها أنها لم ترعها حق

رعايتها ..بينما تبدو الدهشة على وجه الحارس

للحظات قبل أن يفتح جهاز اللاسلكي ليبلغ

الرسالة ..فيصله أمر السماح بالدخول ..

تلج خديجة للداخل حيث المدخل الرخامي لحديقة

واسعة تتوسطها نافورة أنيقة ..يستقبلها أحد الخدم

حسنو المظهر ليشير لها نحو الداخل فتتسع عيناها

بالمزيد من الانبهار ..ويضيق قلبها بالمزيد من

الرغبة ..

لم تعرف الفقر يوماً .. بل إنها كانت تعيش مع إيهاب
بحكم وظيفته القديمة في رغد من العيش .. لكن هذا
المستوى من الترف حولها يجعلها تشعر بالغرابة
الممتزجة بالقليل من النفور .. ولا يزال السؤال يفرض
نفسه ..

من أين أتى إيد بهذا المال؟!!

شهادته الجامعية العالية مع سفره مثلاً؟!!
يشير لها الخادم بالدخول لصالة البيت المتسعة التي
حوت أثاثاً لا يقل فخامة عن بقية محتويات
المكان .. فتزدرد ريقها بتوتر وهي تتخذ مجلساً قريباً
من الباب بصورة عفوية ..

_ السيد إيد قادم .. ماذا تشرابين؟!!

تهز رأسها برفض ولا تزال عيناها تجوبان المكان
حولها بعدم ارتياح فينصرف الخادم تاركاً إياها
وحدها ..

وفي غرفته وقف إياذ يتفحص شكله بحاجبين
منعدين ..

هاقد أتت بعد أيام ..

عندما رأى لهفتها أول ما لقيته تصور أنها لن تطيق
صبراً على الحضور لرؤيته ..

ليمر الوقت بتثاقل ساخراً منه .. كالعادة تأتي خديجة
متأخرة !!

يغمض عينيه بقوة على حسرته وهو يتأمل صدره
العاري لتتعلق عيناها بأعلى ذراعه فتلتوي شفتاه
بابتسامة ساخرة ..

ماذا لو علمت !؟

لكنه يبتلع سؤاله بمرارته وهو يتناول قميصاً طویل
الأكمام ارتداه بسرعة ليغلق أزراره بشرود قبل أن
يرمق نفسه بنظرة راضية ليتحرك نحو الأسفل ..
يهبط الدرج نحوها لتقف مكانها وهي ترمقه بنظرة
غريبة ..

كأنه ليس ابنها الذي عرفته يوماً!!
بينما يتقدم هو نحوها بنفس النظرة التي كان يحدجها
بها منذ سنوات ..

نظرة عتاب مختنقة بحسرتها!!
_ عصير ليمون معصور يدويلاً لا بالخلاط ..ملعقتان
ونصف من السكر بالضبط ..كوب زجاجي وليس
كأساً ..مع نثرة بسيطة من الفانيلا .

يقولها بنبرة ذات مغزى للخادم الذي عاد لتوه ليتلقى

أمره فتدمع عينا خديجة وهي تفكر ..

لم ينسَ مشروبها المفضل الذي كانت تحبه

لسنوات .. وكان يشاطرها حبه .. إيهاب كان يأنف منه

مفضلاً غيره لكن إياد بقي يشاركها حبه كأنما سره

أن ينفرد معها بشيء دون أخيه !!

يمد لها يده مصافحاً فتبادره بعناق دافئ لكنه يحتفظ

بذراعيه جواره وهو يرفع إليها عينيه

العائبتين .. دوماً عائبتين :

_ هل كان الأمر يحتاج لكل هذا الوقت كي تأتي؟!!

_ رغباً عني .. كنت مريضة .

تقولها معتذرة بابتسامة حانية فيهز رأسه برد تقليدي

وهو يجلس جوارها ..

تحاول البحث عن فاتحة حديث لكن غرابة الموقف

تلجمها فتبدأ بالسؤال التقليدي :

_فتح الله عليك يا ابني ..من أين أتيت بكل هذا ؟!

_من عملي.

_وماذا تعمل؟!!

يبتسم ابتسامة ساخرة وهو يطرق برأسه ليجيب

بغموض:

_تظنين كل هذه السنوات يمكن اختزال جوابها في

دقائق؟!!

تتنهد بحرارة ثم تمد كفيها لتعانق كفيه قائلة:

_لهذا أتيت اليوم يا ابني ..لم يعد في العمر قدر ما

راح ..وأنا أريد أن أقضي بقيته معك وننسى ما كان .

تتسع ابتسامته الساخرة وهو يتأمل تجاعيد كفيها
الغائرة .. هذه التي أشار لها بعينه قائلاً:
_ أعشق هذه التجاعيد على كفوف العجائز .. ووددت لو
كنت معك عندما رسمتها لك الأيام واحداً واحداً .. لكنك
كعهديك تدخرين لي العربة الأخيرة في قطارك .
تخز عبارته قلبها بدلالاتها فتتهف به بصوت متهدج:
_ أنا جنّت اليوم لنصلح ما فات .. أخبرني عن الترضية
التي تريدها .. كيف أعوضك !؟
يرفع إليها عينيه بنفس النظرة العاتبة التي اكتست
بوميض غريب وهو يسألها :
_ أي ترضية !؟
تهز رأسها بما يشبه الوعد فيشبح بوجهه قائلاً :

_ لن أضيع وقتك في عتاب بلا طائل .. لكنني أقدر

رغبتك في إرضاء ضميرك .. تسألين عن ترضية

تناسبني وأجيبك .. ترضيتي .. هي أنتِ ..

تبتسم له بحنان لكنه يلتفت نحوها قائلاً بانفعال :

_ تعالي واسكني معي هنا .. في بيتي .

تتسع عيناها بصدمة للحظة .. لترد بارتباك :

_ وأخوك!؟

_ كنت أعرف أن هذا سيكون ردك !

يقولها وهو يحرر كفيه منها بإشارة ذات مغزى ليقف

مكانه مردفاً :

_ ألم أقل لك إنني دوماً العربية الأخيرة في القطار!؟

تقف بدورها وهي تحتضن ذراعيه بقبضتيها هاتفة

بلوعة :

_ أقسم بالله العظيم لو كانت ظروف أخيك طبيعية لما

ترددت في البقاء هنا معك لحظة واحدة .

_ لا يزال المدلل لا يكتفي بزوجة ترعاه ويريد أمه

كذلك !؟

تهكمه المرير لا يفضح غيره بقدر ما يفضح حرقة

قلب حرموه حقاً كهذا منذ سنوات ..

لتهتف هي بنفس اللوعة :

_ إيهاب لم يستعد توازنه بعد عقب الحادث .. وظروف

زواجه غير مستقرة .. لا آمن أن أتركه وحده مع

زوجته لهذا طلبت منهما أن يقيما معي .. لا أستطيع

تركه الآن .

يرمقها بنظرة طويلة صامتة ثم يلقي مفاجأته:

_ تعالوا كلكم وأقيموا معي هنا !

_ ماذا؟!!

الصدمة تجتاح ملامحها فيبتسم بسخريته العاتبة
قائلاً:

_ ما العجب؟! انت لا تريدان ترك ابنك وزوجته في
مصابه وأنا لن أعود للسكن في بيته ..فما البديل؟!
والبيت واسع كما ترين ويسع ألفاً من الأحبة!!
_ لكن ..إيهاب ربما لن يرضى ..

تقولها بارتباك مصدوم ليقاطعها بقوله:

_ لماذا؟! أنا أخوه الأكبر ..ثم إنها فرصتي لأرد فضل
أبيه الذي رباني في بيته ..اليوم يتسع بيتي للعائلة
كلها ..ولا أحد أفضل من أحد!

تهز رأسها بعجز من مجادلتها وهي تفهم سر طلبه

الغريب لتتهف برجاء:

_إياد! أخوك مضغوط بما يكفي وزواجه على كف

عفريت كما يقولون .. لا تزد الأمر سوءاً .

لكنه يشيح بوجهه هاتفاً بعناد :

_ ليس لدي كلام آخر .

يصل الخادم بالعصير فيضعه أمامها لينصرف ..

تنقل بصرها بينه وبين كوب العصير بتشتت وهي

تشعر بالثقل ..

ماذا تفعل!؟!

حقه أن يتنعم بحنانها ما بقي لها من عمر ..

وحق إيهاب كذلك ألا تتركه في مصابه ..

فكيف تجمع بينهما!؟!

هل سيوافق إيهاب!؟

وحتى لو وافق .. عزة لن تفعل!!

_ لا تتعبي نفسك في التفكير .. اختاري الأسهل دوماً
كما اعتدتِ .. العربة الأخيرة في القطار هي ما يسهل
دوماً انفصالها ..

يقولها بخيبة وهو يبتعد عنها لتتهتف بانفعال:

_ ليس الأمر كما تظن .. أخوك ليس ..

_ نورتِ بيتي يا خديجة "هانم" ! لو فكرتِ في

زيارتي مرة ثانية فمن الأفضل أن تتصلي بي قبلها فلا

أضمن أن أكون موجوداً .. لكنني أنصحك

بالنسيان .. اقبلي خسارتي هذه المرة كما قبلتها كل

مرة ..

يقولها ثم يلتفت لكوب الليمون مستدرِكاً بتهكم :
_ولا تشربي الليمون ..أظنه صار مرأ ..تعلمين أن
عمره قصير .

قسوة كلماته تمتزج بهذه الدمعة العصية في عينيه ..
دمعة طفل لم يكبر طوال هذه السنوات ..بقي حبيس
قفص من حرمان !!

تقف مكانها عاجزة تراقبه وهو يتحرك نحو الأعلى
صاعداً الدرج من جديد بخطوات راکضة ..
لتعود ببصرها نحو كوب الليمون ثم تمسح دموعها
التي فاضت على وجهها وهي تغادر البيت الفخم
بخطوات متثاقلة ..

بينما عاد هو لغرفته ليصفق بابها خلفه بعصية ..

سخريته القاسية تتحول لعنف جمّ وهو يكسر أول ما

نالتة يده ..

لماذا عادت مادامت سترحل من جديد؟!؟

مادامت سترميه بطول ذراعها ككل مرة؟!؟

لماذا؟!؟

لماذا؟!؟

يصرخ بها هادراً وهو مستمر في تكسير بعض

الحاجيات حوله ..

ليلهث أخيراً بعنف وهو يقف أمام مرآته ليمزق كم

قميصه بعنف كي يبدو له هذا الوشم الذي يمنحه

بعض العوض ..

وشم "الكوبرا"!!

=====

الطيف الثالث والعشرون

=====

أصفر

=====

_راغب.

يتلقفه نداء هيام على سلم البيت وقد عاد من الورشة

مبكراً على غير عادته فيقف مكانه لينظر إليها

بتوجس فتتلفت حولها ثم تقترب منه قائلة :

_ أنت تعرف كم أحترمك .. ويعز عليّ أن يحدث في

بيتك ما لا تعلمه !؟!

يكز على أسنانه كاتماً غضبه دون رد لتنفث المزيد

من سمها :

_زوجتك تحدث رجالاً من خلف ظهرك .

_اخرسي!

يهتف بها زاجراً وهو يلوح بسبابته في وجهها

ليردف بانفعال:

_ولا كلمة ! رؤى بالذات لا أقبل في حقها أي كلمة

فادخري قاذوراتك لنفسك ..ولي مع زوجك كلام آخر .

تتلعثم لترد بارتباك:

_ماذا فهمت؟! أنا لا أقصد شيئاً يمس سمعتها (لا

سمح الله) ..أنا فقط أظن أنها تعمل في مكان

ما .. رأيت بعض الصور والرسائل على حاسوبها

وعندما فتشت ..

ولماذا تفتشين في حاسوب زوجتي؟! من سمح
لك؟! اسمعي إذن ..بيتي محرم عليك دخوله بعد
اليوم ..وأنا سأبلغ فهمي بنفسي .
يقولها بعنف رادع لتشتعل عيناها بالمزيد من الحقد
لكنه يتجاوزها بسرعة ليصعد الدرج بخطوات راکضة
نحو شقته ..

ولم يكد يغلق بابها خلفه حتى استند على ظهره
ليسمح لغضبه بالظهور ..

هل تفعلها رؤى حقاً دون علمه؟!
يندفع نحو غرفة الصغيرة ليجدهما نائمتين فيرمقهما
بنظرة طويلة ضائقة قبل أن يغادر الغرفة ليبحث عن
حاسوب رؤى ..

تغلقه بكلمة سر ..لكنه يعرفها ..

هي أخبرته بها وقد جعلتها تاريخ زواجهما قائلة

يومها أنه ليس بينهما أسرار ..

فهل توجد الآن؟!؟

ينعقد حاجباه وهو يفتح الحاسوب ليتفقدته ..

ملف للصور كتبته بعنوان (تصاميم) ..

بعض المراسلات بينها وبين شركة كبيرة علم منها

أنها فعلاً تعمل لديهم ..

يحتقن وجهه بغضب وهو يعيد كل شيء لحاله قبل أن

يغلق الحاسوب بعنف!!

كل هذا كان يجري من خلف ظهره!!

كيف جرؤت على فعلها؟!؟

كيف؟!؟

ينتفض مكانه بالمزيد من الغضب وشيطان غيرته
يدفعه لإيقاظها من نومها ومواجهتها بأنه يعلم كل

شيء!!

لكن.. هل يعلم حقاً كل شيء؟!!

ما يدريه ما الذي تخفيه عنه أيضاً؟!!

شيطانه يوسوس إليه بالمزيد مشعلاً براكين الماضي

الخامدة..

فيدور في البيت كالمجنون وخيالاته تصور له جحيماً

حقيقياً..

ينتهي به المقام في غرفة نومهما الخالية منها فينهار

جالساً على الفراش مستسلماً لشياطينه..

وفي غرفة الصغيرة استيقظت رؤى على كابوس
مخيف لتستعيز بالله قبل أن تنهض من نومها ..
هل يعاقبها الله لأنها تخفي شيئاً عن زوجها؟!
تستغفر الله سراً ثم تنهض لتتوضأ فتصلي ركعتين
قبل أن تقع عيناها على دفتر مذكراتها القديم ..
تتناوله بحنين لتفتحه ..

**أحبك .. كتبتها على كل صفحاته .. كي لا تكتبي شيئاً
فيها إلا وهي أمامك .**

تذكرها بصوته فتمدع عيناها بالمزيد من شعورها
بالذنب ..

**ماذا أفعل؟! ماذا أفعل؟! لا يمكنني إخباره الآن ! لا
يمكنني ..**

تتمتم بها بحيرة وهي تنهض من مكانها لتضع ما
بيدها جانباً ثم تخلع عنها إسدال صلاتها ..
تحيد ببصرها نحو غرفتهما لتشبهق بدهشة وهي تراه
نائماً هناك ..

_راغب ..متى عدت ؟!
تقولها وهي تجلس جواره على طرف الفراش فيكظم
غضبه ليرد بفتور :
_منذ قليل .

_لماذا عدت باكراً ؟! أنت مريض ؟!
_لا ..صداع خفيف .
تربت على وجنته برفق حان ثم تمسد جبينه ليفتح
عينيه بنظرة مظلمة دون كلام ..
فتدمع عيناها وهي تهمس له :

_ أنت غاضب مني منذ ذلك اليوم الذي خرجت فيه؟!!

هل يستحق الأمر كل هذا الخصام؟!!

يزم شفتيه بالمزيد من الغضب دون رد ..

فترتجف شفتها وهي تفكر ..

كل هذا الغضب لأنها خرجت دون علمه ..ماذا سيفعل

إذن لو صارحته الآن ..فلتسكت!

_ أنا فعلت شيئاً دون علمك!

كان قلبها أجراها على لسانها مخالفاً لأفكارها!!!

فتستجيب لدعوى الأول وهي تلقي رأسها على صدره

تخفي فيه وجهها :

_ كانت مسابقة! قدمت فيها بياناتي وربحتها ..قلت

لنفسي ما العيب ما دمت في بيتي ولن أغادره ..لن

أرى أحداً ولن يراني أحد .. أنا أصمم لهم منشورات
دعائية وأرسلها فقط .. صدقتي .. لا أكثر ولا أقل ..
ترفع إليه عينيها بحذر بعد اعترافها لكن الغضب يبقى
مشتعلاً بحدقتيه فيزداد انهماز دموعها وهي تهتف
به :

يحق لك الغضب مني .. لكنني لم أتماد .. لم أستطع ان
أخفي عنك الأمر أكثر .. ظننت أنني سأفخر بنفسي
وبنجاحي لكنني أدركت أنني لن أفرح إلا وأنت
تشاركني .. سامحني أرجوك .. واعتبرني قد تركت
العمل .. صدقتي لا شيء يساوي هذه النظرة منك .
تلين نظراته مع دموعها التي عادت تذرفها على
صدره ليطلق زفرة قصيرة وهو يستغفر الله سراً
قاهراً ظنونه ..

رغم غضبه منها على فعلتها لكن اعترافها الآن يشفع
لها عنده ..

_ تعلمين أن هيام أخبرتني قبل صعودي إلى هنا؟!
تشهق بعنف وهي ترفع وجهها إليه ليردف بخشونة
عاتبة :

_ هي تفقدت حاسوبك سرّاً أيتها الذكية! تعلمين كيف
كان سيصير رد فعلي لو لم تعترفي لي بنفسك؟ لماذا
فعلتِ هذا؟!

_ آسفة !

تهتف بها بحرقة وسط نشيج بكائها وهي تحمد الله
سراً أن ألهمها مصارحته بنفسها قبل أن تجتاحه
ظنونه ..

ليتهد بحرارة وهو يربت على ظهرها ليضمها

لصدره بنفسه هذه المرة هامساً:

_ لا تعكري البئر الذي تعبنا سوياً حتي حفرناه .. أنا

أعرف أنني ربما أخنقك بغيرتي لكن عذري أنني أراك

الدنيا وما فيها .. ولا أقبل فيك شراكة ولو بنظرة

عين ..

تهز رأسها له ثم تقبل جبينه باعتذار هامسة :

_ خطأ لن يتكرر .. سأرسل لهم غدا وأخبرهم أنني

منسحبة .. والآن أعد لك الطعام .

تقولها لتنسحب من أمامه شاعرة بالمزيد من الذنب ..

تعد له الطعام بشرود لتحمل الصينية وتعود إليه لكنها

تجده جالساً أمام حاسوبها المفتوح ..

تسبل جفنيها بخزي وهي تتصوره يفتش في رسائلها
لكنه يدير الشاشة نحوها ليسألها بخشونته العاتبة:

_ أنت صنعت هذا !؟

تومئ برأسها إيجاباً وهي تراه يشير لأحد تصميماتها
الدعائية فيمط شفثيه قائلاً:

_ لا بأس به .. لكن هذا أفضل .

يقولها مشيراً لآخر فترتجف شفثاها بابتسامة واهنة
وهي تضع ما بيدها جانباً لتسمعه يردف:

_ وهذا أفضلهم على الإطلاق! كيف صنعته!؟!

تتسع ابتسامتها وهي تشرح له باقتضاب لم يلبث أن
تحول لاسترسال مرتاح وهي ترى

الاهتمام والفخر في نظراته رغم خشونة نبرته وهو
يخاطبها بقوله:

_تبدین موهوبه بهذا الشأن وأنا آخر من يعلم!
تطرق برأسها في خزي لكنه يجذبها من ذراعها
ليجلسها فوق ساقيه ..

يقرص أذنها بقوة نسبية للحظات فتأوه بخفوت لكنه
يعانق وجنتها براحته ليقرّب وجهها منه هامساً
بعتابه الحاني:

_هل يسعدك هذا العمل!؟

_لا يهم .

_أجيبني يا بنت !

يهتف بها بخشونة وهو يخطبها على مؤخرة رأسها
لتبتسم وهي تهز رأسها بإيجاب ..

فيبتسم بدوره وهو يضم رأسها لكتفه يسألها :

_هل يمكنك أن تجعلي تعاملك مع النساء فحسب!؟



_ أنا فعلاً طلبت منهم ذلك على استحياء وقالوا ألا
مشكلة .

تهتف بها بحماسة وقد تجدد الأمل في صدرها ..
لتلتمع عيناه بشقاوة عابثة وهو يخبط جبينها بجبينه
هامساً:

_ ولن يؤثر هذا على واجباتك الزوجية وتدلّيل زوجك
المصون؟!
_ أبداً.. أبداً..

تهتف بها وقد عادت إليها روحها المرححة ليمط شفثيه
قائلاً بخشونته المحببة:

_ إذن .. لا مانع لدي .

تطلق صيحة فرحة وهي تغرق وجهه بقبلاها
الشاكرة فيضحك بدوره وهو يضمها إليه بقوة ..

ليتهد أخيراً وهو يداعب شق ذقتها الحبيب هامساً

بحروف تقطر عشقاً:

_ ما حيلتي فيك يا "ست الحسن"؟! وضحكة عينيك

هاتين دوماً تهزمني؟!



برتقالي* بنفسجي



_ ثانية واحدة! إما أن سمعي معطوب أو هذا العصير

مغشوش .. أعيدي الحكاية ! ماذا قلت لعاصي

الرفاعي؟!

تهتف بها طيف بسخريتها التي فضحت ذهولها وهي
ترفع كوب العصير في يدها لتتأفف ديمة وهي تستعيد
خوفها الأزرق لتسرد عليها من جديد ما كان مع
عاصي وحسام .. فتلتع عينا طيف وهي ترتشف
رشفة أخرى من الكوب ثم تبسط يدها على صدرها
قائلة بفخر :

_ تربيّتي! والله أفلح معك تعليمي يا بنت!
تطرق ديمة بوجهها في أسى لكنها تنتبه لما تشربه
طيف فتقول بشرود :

_ موز باللبن .. حسام يحبه!
_ أعرف أن "سبع البرمبة" يحبه! وبدون سكر!
تقولها طيف بغمزة لعوب متعمدة إثارته كي تستعيد
حمرتها من جديد .. وقد كان!

فقد احمر وجه ديمة بغيرة واضحة وأنفاسها تتلاحق

مع حروفها:

_ يبدو انك لا تزالين تذكرين تفاصيله .

_ حق ربنا ! حسام القاضي لا ينسى!

تشتعل ملامح ديمة بشرود عاصف يجتاحه "الأحمر"

للحظات .. جسدها يتحرك كأنها ستهم بالانقراض

عليها ..

قبل أن يعود "الأزرق" ليلقي سدله فوقها فترجع

لجلستها الخانعة لتهمس مطرقة الرأس:

_ أنا سأنساه ..

ترمقها طيف باستهجان متشكك وهي تعتدل في

جلستها لتردف ديمة وهي تدور ببصرها في الحديقة

حولها مردفة:

_ أنا اقتربت منه لأنتقم ..والآن صرت عاجزة عن فعلها ..السيد عاصي لن يغير كلمته ..وأنا اخترت سند ..صرت أمام حائط سد .

فتطلق طيف صوتاً ساخراً ثم ترتشف رشفة أخرى من كوبها :

_ تعنين أن قصتك مع حسام مجرد انتقام؟! لماذا إذن دافعتِ عنه بهذه الشجاعة أمام عاصي الرفاعي بجلالة قدره؟!!

تهز ديمة رأسها بتشتت ثم تدفن وجهها بين كفيها كأنها تحاول البحث عن جواب ..

لتصدر طيف همهمة خافتة وهي تمنحها الجواب بنفسها :

_ لو كانت هذه قصة أكتبها فسأقول إنك فعلتها دون وعي لعدة أسباب ..الأول يخص عقابك لعاصي الرفاعي نفسه ..رغبتك في الصراخ بها في وجهه وتحميله ذنب هالة ..والثاني يخصك أنتِ ..أنتِ لست بهذا الضعف الذي توحى به أفعالك ..ومضات القوة هذه التي تسطع نادراً وسط ظلماتك ستتحول يوماً ما لشمس كبيرة تحتاجينها بشدة كي تمضي في طريقك ..أما السبب الثالث فهو يخص حسام القاضي ..

تقطع عبارتها متعمدة لترفع ديمة وجهها إليها بترقب فتمترج ابتسامتها الواثقة بشفقة غامضة :
_ أنتِ خشيت أن يفهم حسام حقيقة قربك
للانتقام ..فأردتِ تشتيته بدفاعك عنه ..لكن الحقيقة يا

غافلة أنك فعلاً لم تعودى تريننه شيطاناً

كالسابق .. أنتِ .. أحببته!!

_ لا .. لا .. لا .. لا تقوليها ..

تصرخ بها ديمة بانفعال غاضب ارتج له جسدها كله

وهي تنتفض مكانها لتقف وهي تنظر لطيف من علو

تلوح بذراعيها مردفة:

_ أنا لا أحبه .. ولا يمكن أن أحبه .. أنا كفرت بالحب

منذ زمن .. لو كنت أريد الحب لقبلت عرض

أديم .. لكنني لن أستسلم لهذا الوهم من جديد .. لا

حب .. لا حب .. لا حب .. وخاصة مع حسام هذا .. حتى

ولو لم يمنعني عنه عاصي الرفاعي .. وحتى لو

سامحته الدنيا كلها .. سأبقى أرى في ملامحه ذنب

هالة .. لا أحبه .. ولن أحبه .. ولو جمعنا القدر من جديد

فلن أراها إلا فرصتي لإيلامه .. لسداد ديون وجعي
منه .. وفيه .

كلماتها تتقطع بلهات خفيف ودموع حارقة على
وجنتيها لتزفر طيف زفرة حارة وهي تضع ما بيدها
جانبا لتقف قبالتها قائلة :

_ولماذا إذن شعرتِ بالغيرة منذ قليل عندما ذكرته
أنا؟!!

_ليست غيرة .. فقط ..

تهتف بها بارتباك غاضب لكن طيف تقاطعها
بصرامتها الفظة :

_بنت! بنت!! أنا لست ابنة البارحة! صحيح أنني لا
أؤمن بالحب هذا إلا في أضيق الحدود لكنني أستطيع
تمييزه في العيون .. وأنت تحبين ذاك الرجل .

_ لماذا تريدان إقناعي بهذا؟! دعيني

لشأني .. دعيني ..

تدفعها ديمة بقوة تكاد تسقطها أرضاً فترمقها طيف
بنظرة غاضبة لم تخلُ من شفقة وهي تراقبها تركض
عبر الحديقة نحو بيتها الذي صفت بابها خلفها ..
تسبها طيف سبة عابرة ثم تستخرج من جيب منامتها
علبة سجائرها ..

تتلفت حولها تتيقن من خلو المكان فقد طلب منها
عاصي ألا تدخن أمام الصغيرين .. صحيح أنها نهرتة
يومها وتحدثه بقولها أنها تفعل ما تشاء وقتما تشاء
لكنها الآن تطيع .. ولا تجرؤ على الاعتراف بالسبب!!
تأخذ نفساً عميقاً من سيجارتها ثم تنفثه بعمق ..

كيف بها وصل الحال هكذا من جزيرة منعزلة وسط
محيط إلى شجرة ذات جذور وأغصان تهدي الناس
بالثمر !؟

كيف وقد عاشت عمرها حبيسة سطور كتاباتها تستمد
من ماضيها وخبايا نفسها الحكايات الخيالية
الآن تجد نفسها مجبورة أن تواجه العالم الحقيقي
والناس ..!؟

ديمة .. التي تريد لها الخلاص خفاً من متهات
ماضيها ..

حسام .. الذي ما عادت تكرهه كالسابق .. بل تشعر
ببعض الذنب نحوه ..

زهرة .. التي وجدت نفسها تساعدها في مصابها بكل
ما تملك كي تقدم لها العون فيما بقي من عمرها ..

وأخيراً ..عاصي الرفاعي و"حلم العائلة" الذي يقدمه

لها على طبق من ذهب !!

تقطع أفكارها وهي تراه يتقدم نحوها كأنه قفز من

رأسها ..

_ أعدى نفسك للسفر ..سنقيم حفل الزفاف في

الصعيد .

تسقط السيجارة من يدها رغماً عنها وهي تغمض

عينها بقوة تحاول استيعاب المفاجأة فيما يعطيها هو

ظهره ليغادر دون مزيد من الكلمات تاركاً إياها غارقة

في فوضى مشاعرها لا تدري كيف تصف الغد ..

هل تولد من جديد أم ..تموت للمرة الثانية ؟!

وإلى غرفتها دخلت ديمة مكتفة ساعديها بخوف
تعطي ظهرها لمرآتها تخشى مواجهة أشباحها من

جديد ..

تندفع نحو خزانة ملابسها لتستخرج منها حقيبة
البروكار كأنها تبحث لنفسها عما بقي لها من هوية ..
تفتحها لتقلب محتوياتها على الأرض وقد جلست
أمامها متربعة ولا تزال تعطي ظهرها لمرآتها ..
مشط قديم علقت بها بعض شعيراتها مع رباط شعر ..
وشاح كان لأمها احتفظت به كذكرى ..

ساعة أبيها التي توقفت عقاربها عن الدوران كأنها
تحاكي عمرها "الحقيقي" بعده ..

مبخرة جدتها .. مسبحة جدتها ..

آخر شهادة دراسية نالتها بتفوق ..

تذكارات متفرقة من صديقات طفولتها لا تعرف هل لا
يزلن على قيد الحياة أم اختطفهن الموت مع من
اختطفه ..

شلال الذكرى ينافس شلال الدموع فوق وجهها فلا
تنتبه إلا وهي تحتضن الحقيبة الخالية بقوة تدفن فيها
وجهها ..

لكن صورته تبدو لها في إغمضة عينيها ..
صورته ذلك اليوم وهو يأتيها بالحقيبة ..
وهو يطعمها بيديه ..

وهو يعتذر لها منذ قليل بحرارة ..
وهو يصحبها لبيته مع سند ..
طيف تزعم أنها هي تحبه ..
لكنها توفن أنها لا تفعل ..

هي لا تحبه .. هي تحب هذه " النظرة الآدمية " في
عينيه والتي منحها لها دون مقابل ..
تمرغ وجهها في قماش الحقيبة لتقطع أفكارها وهي
تشعر بلمس الحقيبة الغريب ..
كأنما يخفي قماشها شيئاً معدنياً!!
ينعقد حاجباها وهي تقلبها لتفرغ محتوياتها من جديد
لكنها تراها خالية ..
تلمس الشيء المعدني الذي بدا واضحاً في انبعاجته
تحت القماش فتتردد قليلاً ثم تحسم أمرها لتمزق
بطانة الحقيبة بحرص كي تستخرجه ..
مفتاح!!
تتسع عيناها بصدمة وهي تميز المفتاح غريب الشكل
الذي استقر في راحتها ..

من أتى به لحقيبتها؟!

هي لا تعرف شيئاً عنه بل إنها أول مرة تراه!!

خوف غريب يبعث القشعريرة في جسدها وهي تتوجه

ببصرها نحو مرآتها كأنها تتهمها ..

قبل أن تعود لتهد رأسها بقوة ..

_ أنت حقيقي؟! من أين أتيت؟!

تغمغم بها فيما يبدو كالهذيان وهي تقلبه بين أناملها

عدة مرات ثم تعيد محتويات الحقيبة مكانها لتخفيها

في خزانة ملابسها ..

تعدو نحو نافذة غرفتها فتفتحها لتتردد قليلاً قبل أن

تحسم أمرها وهي تهم بإلقائه من النافذة فزعاً ..

لكن حدساً ما يجعلها تتوقف في اللحظة الأخيرة

لتطلق آهة حائرة وهي تضمه بين كفيها ..

ما حكايته هذا الآخر؟!

هل تنقصها الألغاز؟!



على كرسية الهزاز في شرفته يجلس حسام مراقباً
ظلمة الليل الحالكة حوله ..

يشعل إحدى سجائره ليأخذ منها نفساً عميقاً يزفره
بعدها بقوة ..

الدخان المتصاعد أمامه يبدو وكأنه يرسم أمامه

"حبل مشنقة"!

سند ابن زوجتي الراحلة .. أظنك .. تذكرها .

_ هل تعلم أن سند فقد القدرة على النطق بعد وفاة

أمه .

_ كلاهما يحمل ذنب هائلة وسند .

المزيد من الحطب فوق الحطب !!

صرخة خافتة يكتمها وهو يغرس السيجارة المشتعلة

في معصمه مغمضاً عينيه على سكير نيرانه ..

الآن يراها كما كان يفعل في حلمه ..

خصلات شعرها الحمراء تتثر جحيمها حوله ..

تمد له ذراعي طفلة تكبر بين ذراعيه ..

الآن يفهم ..

الآن يوقن ..

الآن .. يحترق!

_ لا أحد يراني.. لا أحد يراني ..

يهمس بها لنفسه وهو يغمض عينيه على الظلمة

الحالكة حوله ..

لكن ملامحها تسطع له كشمس واعدة ..

كانها تهمس له ..

_ أنا أراك .. أنا الآن أراك ..

الصورة أكبر من أن يتجاهلها ..

لكنها أجمل من أن يصدقها ..

وأنقى من أن يستحقها !

لهذا عاد يفتح عينيه بحدة كأنه يطردها كلها من

ذاكرته بقوة تليق برجل مثله ..

ليحاول شغل ذهنه قسراً بأمر آخر :

_ الحمد لله ! خشيت ألا تدركني !

بصوت "أديم" يذكرها كما سمعها منه تلك الليلة
بعدها طلب الأخير رؤيته ليفاجأ بحاله في المشفى وقد
صدمته سيارة مسرعة ..

_ من فعل بك هذا؟! هو؟!!

سأله بغضب ليرد الأخير بحسم رغم وهن صوته:

_ تذكر دينك لي؟! ليس هو فقط .. الاثنان الآن في

أمانتك .. الكوبرا .. و..ديمة!

تجاهل وقع اسم الأخيرة على قلبه قبل أذنيه ليرد

بغضب عاجز :

_ وماذا بوسعي أن أصنع؟! أنا تركت جهاز الشرطة

و...

لكنه يقطع عبارته وهو يرى جفني أديم يتثاقلان

مستسلماً لغيوبته ليكون هذا آخر ما يسمعه منه ..

أجل .. بعد مواجهته لعاصي وديمة ذهب إليه في
المشفى الذي كان فيه لعله يشغل عقله الذي يكاد يجن
لكنه فوجئ باختفائه دون أي معلومات عنه سوى
"دواعي أمنية مشددة"!

هل مات ؟!

تباً! إنه حتى لا يعلم من الذي أمسك القضية بعده ؟!
ماذا بوسعه أن يصنع الآن ؟!

الأمر لا يبدو عادياً يتعلق بمجرم .. بل بمنظمة
كبيرة .. والقضية لا تبدو بسيطة بل تخص الأمن
القومي ..

هذا الكوبرا يبدو كذلك وكأنه يملك العديد من الأذرع
داخل جهاز الشرطة نفسه ..

لماذا أمره رفعت الصباحي ذاك اليوم بإغلاق القضية

!؟

تراه كان متورطاً مع الكوبرا نفسه!؟

يزداد انعقاد حاجبيه للخاطر الأخير وهو يفكر ..

من حسن حظه أنه لا يزال يذكر تفاصيل تلك القضية

التي أمره رفعت الصباحي بإغلاقها جيداً ..

لا ينقصه سوى إلقاء نظرة عليها من جديد مع

الاطلاع على بعض الأحرار التي صادرها وقتها ..

وظنه أنه يمكنه الاستعانة سراً بأحد زملائه في

الجهاز .. لكن بأي صفة ..

لا بأس .. سيفعلها!!

إن لم يكن لأجل أديم فلأجل فهد الذي أطلعه على ما لم
يكن يخطر له ببال طالباً مساعدته في الوصول لهوية
ذاك الوغد الذي لطح شرف أبيه والآن يبتزه هو!!

نباح سلطنة الهادي يداعب سمعه منذراً بوصول
ضيف مألوف ..

لا يحتاج كثيراً من الذكاء ليعرفه ..
بعد غياب دينا لم يعد يزوره سواه ..

_فهد .. في وقتك !

نبرته الواجمة مختنقة على غير عادته ليهدف فهد
وهو يدخل معه :

_ماذا حدث؟! لا تبدو بخير .

يطلق حسام زفرة مشتعلة لم تخفف من احتقان
ملامحه وهو يحكي له ما كان بينه وبين عاصي
وديمة ..

_يا لله! تلك الصهباء السورية التي تسكن مع ماسة
هي موكلتك التي حكيت لي عنها؟! ما هذه المصادفة
!؟

يقولها فهد بذهول ليرد حسام بانفعال :

_ليست مصادفة ولا يمكن أن تكون .. هي تعمدت هذا
القرب مني .. لماذا؟! لماذا مادامت تعلم الحقيقة؟!
يرمقه فهد بنظرة حائرة طويلة فيكتنف حسام كتفيه
بقبضتيه ليهزه بقوة انفعاله هاتفاً:

_يجب أن أفهم .. سأجن لو لم أفعل .. أنت ستساعدني
كي اقابلها !

أمره الراجي يجد صداه في قلب صاحبه فيربت فهد
على كتفيه ليقول مهدناً:

_تعلم أني لن أدخر جهداً في مساعدتك .. لكن ..بماذا
سيفيدك أن تعرف شيئاً كهذا ؟! أنت تعرف عاصي
الرفاعي كما أعرفه ..والمرأة قالت كلمتها ووعدته أن
تقطع علاقتها بك ..فلماذا ..

_لأنني ...

يقطع بها عبارة فهد ..لكنه يقطعها هي الأخرى
ليحبس الجواب داخله ..!

الجواب الذي قرأه فهد بوضوح في عيني صاحبه
ليشيخ فهد بوجهه متمتماً بضيق:

_طوال هذه السنوات وأنا أنتظر امرأة تخرجك من
كهف ظلماتك هذا ..فلا تختار أنت سوى امرأة بكل

هذه التعقيدات؟! امرأة تحتاج هي نفسها لمن ينتشلها

من عقد ماضيها!! ماسة حكّت لي عنها..

ماذا قالت؟!

لا شيء أكثر مما أظنك تعلمه..حقارة زوجها

السابق..انهيارها بعد موته..وحالتها الغريبة غير

المتزنة..

ساعدني يا فهد..اجعني أقبالها ولو مرة

واحدة..مرة واحدة أفهم منها لماذا اقتربت مني إلى

هذا الحد..لن تفهم شعوري عندما فتحت هاتفها

لأجده متخماً بصوري..صور لي في كل الأماكن التي

أرتادها..لي وحدي..كأنها مهووسة بي..لن تفهم

كيف شعرت أنا عندما خرجت معها..عندما

اصطحبتها معي إلى هنا لترى بيتي ولو من بعيد..أنا

فتحت لها الباب الذي ظننته لن يفتح أبداً..كيف
تريدني الآن أن أقتنع أنه عاد ليوحد للأبد؟! كيف؟!
هتافه يصل حد الصراخ في كلمته الأخيرة ليربت فهد
على كتفيه مهدئاً لكنه يزيح كفيه عنه بحدة فجرها
انفعاله ثم يحيط وجهه بكفيه ليعطيه ظهره مردفاً
بمزيج حارق بين ألم وغضب :

كيف أرى فيها في لحظة بوابة صفح القدر ثم أعود
لأرتطم بحافة ذنبي؟! سأجن ..سأجن ..
يبدو أن القدر يصر ألا تغلق أبواب الماضي مع كلينا
يا صاحبي !

يقولها فهد بمرارة ساخرة وهو يرى التشابه بين
قدره وقدر صديقه ليلتفت نحوه حسام بملامح تصارع
ألمها مع غضبها للحظات ..

قبل أن يتحكم في كل هذا بإرادة من فولاذ ليغير
الموضوع وهو يحكي له ما كان بينه وبين أديم ..
فينعقد حاجبا فهد بقوله:

_تدري ما معنى هذا؟! شروع في قتل رجل بسلطته
ووظيفته؟! أي عدو نواجه؟!
_أخطر مما كنا نظن .

يقولها حسام باقتضاب حاسم ليسأله فهد :

_تفكر في التراجع؟!!

_لماذا؟! أنا منحتك ومنحت أديم وعدي ..ثم ..ماذا

بقي لدي لأخسره؟!!

_وماذا ستفعل؟!!

_سأرى .

يقولها حسام بغموض فيزفر فهد بقوة وهو يسمع

هاتفه يرن برقم جنة ليخاطبه بقوله :

_ جنة تتعجلني .. لا تقلق بشأن ديمة .. العائلة كلها

ستسافر للصعيد لأجل زفاف أخت عاصي .. سأستغل

الفرصة و ...

_ أخت عاصي؟! طيف؟! هل ستتزوج!؟!

يهتف بها حسام بتشتت وهو يشعر بذكرها مطرقة

أخرى تهوي على رأسه ليرد فهد بما يشبه الاعتذار :

_ لم أرد إخبارك من حينها .. قلت في نفسي لا داعي

للتقليب في دفاتر قديمة .

_ صدقت.

يتمتم بها حسام بخفوت وهو يتذكر مقولة ديمة ..

طيف أخبرتها الحقيقة ..

تراها نسيت حقدها بعد كل هذه السنوات؟!
حتى لو نسيت هي حقدها فكيف ينسى هو ذنبه؟!
يحرر تهيدة حارقة وهو يصطحب فهد نحو الخارج
والصمت المشتعل بالقلق يظل كليهما ..
لكنه ما كاد يتجاوز الحديقة ليصل لباب البيت
الخارجي حتى رآها واقفة تستند على مقدمة سيارته
بوقفة واثقة ..

_ طيف!

يتمم بها بنبرة مشتتة ..

كأنما تنقصه رؤيتها الآن وسط كل ما هو فيه !!

ينقل فهد بصرهما بضيق مشوب بالحرص وهو لا يفهم

سبب حضورها هنا الآن ..

لكنه يسبق حسام إليها كأنه يفضل أن يكون خط دفاع
صاحبه الأول ليخاطبها بنبرة لبقة لم تخل من تحفظ:
_ أهلاً بك يا سيدتي ..تراكِ أخطأتِ العنوان؟! هل أخبر

عاصي أنك تحتاجين مساعدة؟!!

يقولها بنبرة محذرة ذات مغزى وقد فهم بحدسه ما
ترمي إليه من زيارتها خاصة وقد تحدد ميعاد
زفافها ..

لكن طيف ترمقه بنظرة استهانة وهي تهز كتفها
قائلة بفظاظتها المعهودة :

_ أنا لا أخطئ العنوان .. اذهب وأخبر من شئت بما
شئت .

كلماتها تستفزه خاصة مع الضغط العصبي الذي يعيشه هذه الأيام فيهم بالانفجار فيها لكن حسام يتقدم ليقف بينهما مخاطباً فهد بقوله:

اذهب أنت وسأحدثك لاحقاً .

يتردد فهد قليلاً فيبقى مكانه لكن حسام يلتفت نحوه ليهز له رأسه بحركة موحية فيطلق فهد زفرة ساخطة وهو يتحرك ليغادر متمتماً في نفسه:

كيف تحتمل ماسة سماجة هذه المرأة !؟

يعود حسام ليتفرس في ملامح طيف التي عادت تستند بأريحية على مقدمة سيارته مكثفة ساعديها .. بعض البشر كُتب علينا أن ينحفر بعض عمرنا على ملامحهم .. يرحلون تاركين أماكنهم لغيرهم لكنهم يحتفظون ببقايا أيماننا على وجوههم .. فلا يمكننا الفهم

هل انفصلنا حقاً أم أنهم صاروا قطعة منا شئنا أم

أبيناً ..

وطيف الصالح معه خير مثال !

لهذا يرفع وجهه للسماء المظلمة للحظات كأنه يرحب

بالمزيد من حلقات عذابه ..

قبل أن يتقدم ليشاركها نفس الوقفة مستنداً على

سيارته مكتفاً ساعديه ..

وهو يتذكر آخر لقاء لهما ومعايرتها له بفشله ..

الصمت الأسود يظللها للحظات والهواء البارد

للشارع يكاد ينخر عظمها معاً بقسوة

الجو .. والذكرى ..

ليكون هو أول من يقطعه :

_جئت لتعيريني بفشلي من جديد بينما أنت في طريقك

للزواج !؟

يغمغم بها دون أن ينظر إليها ببروده القاسي المعهود

الذي شابه انكسار طفيف لم تكن لتلحظه سوى امرأة

بخبرتها فيه ..

لتصدر صوتاً ساخراً وهي تنظر أمامها لتقول

بشروء :

_ لا أخفيك قولاً يا "ابن الناس" .. عشت سنوات

طويلة أنتظر هذا اليوم .. بل إنني ادخرت لك رسالة

مكتوبة على حاسوبي .. أفرح فيها برجل اختارني

وقرر أن يواجه العالم كله بي دون حساب ل"أصلي

وفصلي" .. رجل أكثر ثراء منك .. أكثر وجاهة .. غير

أنه لن يتخلى عني كما فعلت .. لكن الآن وقد جاءت
اللحظة .. أجدني زاهدة في معايرتك أو حتى
إخبارك .. السعادة الحقيقية هي التي نعيشها ولا نجد
الوقت للتفاخر بها ..

تلتوي شفتاه بابتسامة مريرة وهو بالذات يدرك
حقيقة العبارة الأخيرة جيداً ..

بل إنه يعيشها كل يوم !!

لهذا يكتم آهة حارقة تهدد كبريائه ليسألها بنفس

البرود الظاهر :

ـ إذن لماذا جئت؟!ـ

ـ جئت لأغلق الباب الموارب كي أفتح آخر .. طوال

هذه السنوات بقي "ما كان حبنا" شوكة في

حلقنا .. وأظنه قد حان الوقت لننتزعها للأبد ..

هنا يلتفت نحو جانب وجهها الذي بقي غارقاً في

شروده لتردف :

_جئت أعترف بشجاعة لا تنقضي أنني تطرفت يوماً

ما في انتقامي منك .. أنني تسببت دون قصد في إيذاء

من لا ذنب لهم ..جئت أحررك من بقايا شعورك

الأسود بخذلاني ..لأنني أنا الأخرى تحررت منه ..

يغمض عينيه بمزيج غريب من ألم وراحة ..

آه لو كان الأمر بهذه البساطة!!

لو كان بوسع أحدهم أن يزيح المزيد من الحطب من

فوق نيرانه!!

_وأخيراً ..جئت لأوصيك بديمة!

يفتح عينيه بحدة لتلتفت نحوه فتدرف ببساطتها

القوية :

تلك الحمقاء تحبك حتى لو لم تكن هي نفسها
تعرف .. لو كانت هذه رواية أخطها لجعلت سند عوضاً
لك كما أنت عوض له .. هذه النهاية التي كنت
سأكتبها .. فانظر أنت أي نهاية تريد أن تكتب !
تتسع عيناه مع كلماتها كأنها حلقت به لفردوس
بعيد ..

فردوس لا يليق بشيطان مثله ..
لهذا يعاود إغماض عينيه بقوة حيث جحيمه
ينتظره ..

المزيد من الحطب فوق الحطب ..

لكنها تتحرك لتقف قبالة فيعاود فتح عينيه من

جديد ..

لتصله آخر كلماتها كمزيج من رسالة وداع .. وميثاق

صفح .. ونبوءة أمل :

_يوما ما كان بيننا " عقد فل " قد ذبل .. لكن العمر لا

يزال يتسع ل " زهر الياسمين " .. والياسمين يفوح

عطره بعد الغروب خاصة في تلك الليالي التي يكتمل

فيها القمر .. كأنه يمنحنا رسالته (إن خانت شمس

النهار فلنا في نور البدر ملجأ ومتسع).

=====

_ "عمتو"! حقاً ستتزوجين؟! سنغادر لبیت جدید!؟!

تهتف بها نور بفرحة فضولية مخاطبة طيف التي

وقفت تعد حقائبها استعداداً للمغادرة ..

ليتهتف ضياء وهو يراقب بتحفز مجد التي جلست

على كرسيها صامتة تراقبهم :

_ أبي قال ذلك و كلمة عاصي الرفاعي لا

ترد .. لكن .. هل ستبقى مجد معنا؟!!

ترفع مجد عينيها ببعض الخوف نحو طيف التي

انحنت لتقبل جبينها بعمق قائلة:

_ مجد ستبقى معي أينما حللت .. و اعلم يا شبيهه أبيك

أنت أن كلمة طيف الصالح كذلك لا ترد !

_ طيف الصالح ؟! هذا اسمك ؟! أم طيف الرفاعي ؟!

ألسـتِ أختِ أبي ؟!

يسألها ضياءً بذكاء طفولي يسبق سنوات عمره

لتشرد طيف ببصرها وهي ترى سؤال الصغير على

بساطته يوجج جرحها القديم ..

ماذا بعد ؟!

هاهو ذا عاصي الرفاعي لم يخذلها !!

أتى لها بسندبادها بل .. ويعتزم أن يزوجه إياه .. وفي

الصعيد !!

ستدخل المدينة ذاتها التي لفظتها يوماً مرفوعة

الرأس بنسبها ..

ستدخل قصر الرفاعي ظافرة .. سيدة .. عزيزة ..

تنقطع أفكارها بدخول عاصي الذي سمح لطفليه

بالخروج مع مجد ليختلي بها ..

ترفع عينيها المثقلتين نحوه فيسألها :

_الرجل أرسل في طلب عمه !

ينعقد حاجباها بمزيج من دهشة وقلق وهي تخشى

على يحيى مغبة مواجهة كهذه ليستطرد عاصي :

_أنا طلبت منه ذلك ..يجب أن تعود لي قصر الرفاعي

مرفوعة الرأس .

ورغم ضيقها مما يمكن أن يحدث لكنها رفعت إليه

عينيها بنظرة مزجت خشونتها الفطرية بامتنانها لكن

عاصي يردف :

_شروط الزواج كما أردت ..لكنكما ستقيمان معي هناك

في القصر .

يزداد انعقاد حاجبيها وهي تشعر أنها تتورط أكثر ..
لم يكن في حساباتها أن تكون معه تحت عيني عاصي
بهذا القرب ..

كذبتها ستكشف لا محالة !!

لكن لا بأس!

لن تعدم حيلة تدبر بها الأمر !!

لماذا تفعل هذا ؟!

تسأله بتردد لترتجف شفتاه بابتسامة واهنة :

وعدتك يوماً لو عدت أن تجدي قلبي مفتوحاً قبل

ذراعي.

تدمع عيناها بتأثر لا تريد أن تبديه ..

فتتظاهر بالانهماك فيما تفعله ليعطيها هو ظهره وهو

يخرج من الغرفة مردفاً بنبرة ذات مغزى :

_الرجل لم ينكر ما قلته ..بل قال أنه هو الملام .

_ هو قال هذا؟!!

_ نعم ..قالها ومسدسي في جبهته !

تلتفت نحوه بحدة لكنه يخرج صافقاً الباب خلفه وقد

منحها رسالته لتزفر بسخط وهي تجلس على طرف

الفراش ..

ابتسامة شاحبة تداعب شفيتها وهي تفكر ..

هل فعلها لأجل مجد فحسب ..ام لأجلها هي الأخرى؟!!

والجواب يأتيها في خفقة خاصة من قلبها ..

قلب السندباد صار ملكها ..وانتهى الأمر !



_ستبقى هنا حتى يصل عمك ..ونعقد القران !
يقولها عاصي بصرامة وهو يشير نحو هذه الغرفة
الواسعة في ملحق قصر الرفاعي الجديد فتشتد ملامح
يحيى وهو يواجهه بقوله:

_أريد رؤية مجد ونزار .

_صديقك لم نعد بحاجة ..تركناه ولم نعد نعرف عنه
شيئاً .

يقولها عاصي ببرود لينعقد حاجبا يحيى بقوة مفكراً
بينما عاصي يردف :

_والطفلة سأرسلها لك الآن .

يقولها عاصي ليغادر الغرفة مغلقاً بابها خلفه فيطلق
يحيى زمجرة مكتومة وهو يحدق في المرآة أمامه ..

لا يكاد يعرف نفسه!!

كيف تحول هكذا في يوم وليلة لمجرد سجين لا يملك

قراره!؟

وبيد امرأة!!

امرأة اا يدري حقاً هل يريد أن يقبل رأسها فخراً بها

كمعشوقة قلبه ..

أم يكسره !!؟

_ هذه الزيجة لن تتم ..لن تتم ..

يقولها من بين أسنانه لا يدري كحدس ..أم كرغبة ..

هو اختار مصيره كسندباد ولن يتغير هذا المصير !!

كيف يبقى ها هنا بهذه الصورة!؟

بل وكيف يواجه عائلته بعد ما كان!؟

لن يستطيع ..لن يستطيع ..

صحيح أنه أرسل في طلب عمه إلياس دون أن يخبره
بتفاصيل مكثفياً بالتشديد عليه ألا يخبر أحداً من
العائلة ..

لكنه فعلها مهادنة لعاصي الرفاعي حتى يرى ماذا
بوسعه أن يصنع ..

عاصي الذي ارتكب غلطة عمره عندما أطلق سراح
ذاك الداهية !!

نزار !!

نزار هو ورقته الأخيرة الآن .. فقط لو يجيد التصرف
بسرعة ..

يكاد يقسم أنه سيفعل!

صوت طرقات على الباب يجعله يلتفت بلهفة لتتطلق
منه صرخة فرحة ملهوفة رغباً عنه وهو يراها على
كرسيها ..

_بابا .

_حبيبة بابا .

يهتف بها بعمق عاطفته وهو يركض نحوها لينحني
فيطوقها بذراعيه .. يغرق وجهها وشعرها بقبلاته
وهو يشعر أن روحه قد ردت إليه ..

_أنت ستتزوج طيف حقاً؟!!

لهفتها الفرحة تصفعه فيرتد بوجهه عنها لتردف
وهي تحتضن وجهه بكفيها الصغيرين :

_ستكون لي "ماما" .. تعرف كم تمنيت هذا .. شكراً
لك .. هذه أعظم هدية قدمتها لي .

الانفجار العاطفي الهادر داخله يبدو في دمعة كبيرة

تملاً عينيه ..

الحلم يبدو شديد القرب .. لكنه شديد البعد ..

بل مستحيل !!

تباً لك يا طيف !!

تباً لعنادك الذي أوردنا التهلكة !!

بل تباً لي أنا الذي سمحت لنفسي بالغرق فيك ومعك

إلى هذا الحد !!

كيف يمكن هكذا أن تكوني الحلم .. والكابوس؟!!

سوار ورد أصبح حول العنق مشنقة!!!

_بابا!

تهمس بها مجد بقلق تنتزعه من فيض شعوره

ليغتصب ابتسامه باهتة وهو يسألها :

_ أنتِ بخير؟!!

_ جداً .. طيف أحضرت لي الثوب الذي سأحضر به
العرس .. وستجعل شعري يبدو طويلاً كما أحب .. هل

ستسمح لي؟!!

يصمت بقهر عاجزاً عن كسر فرحتها للحظات ثم
يحتضن كفيها بقبضتيه هامساً أمام عينيها بقوة :
_ مهما حدث .. اعلمي أنني أحبك أكثر من أي شيء
في حياتي .

يقولها ثم يتلفت حوله ليتأكد من خلو المكان ثم
يهمس جوار أذنها :

_ أبلغني طيف هذه الرسالة .. أخبريها أنني أحببتها حقاً
واطلبي منها أن تسامحني .

يهمس بها كرسالة وداع يشعر أنه سيحين وقتها ..

لكن الصغيرة تبتمس وهي تعانقه لتمنحه إيماءة
موافقة ثم تغمره هامسة بـ "كلمة الأمان " لكليهما:

قيمر .

فلا يملك نفسه وهو يعانقها من جديد بقوة مخفياً بين
خصلات شعرها هدير موجه ..

يري الخادمة قد أتت لتأخذها فيستقيم واقفاً ليتركها
لها ولا يزال يفكر في أي ثغرة يمكنه النفاذ من
خلالها ..

لكنه يفاجأ بالخادمة تغمره خلسة قبل أن تدس في كفه
هاتفاً ما لتغادر مع مجد دون كلمة واحدة ..

يتمالك صدمته وهو يعاود النظر حوله بحذر قبل أن
يغلق باب الغرفة خلفه بسرعة ..

يفتح الهاتف ليصله اتصال فيفتحه بسرعة :

_ نزار! كنت أعلم أنك ستتصرف ..كيف فعلتها؟!
يقولها بتهيدة ارتياح لتصله ضحكة صديقه على
الجانب الآخر من الاتصال بصوته المرح رغم
الأزمة :

_ عيب عليك ! أخوك "تخصص خادمت " ! لا تقلق !
ما عاش ولا كان الذي يزوجك قسراً ! أنا
سأتصرف ..افعل ما سأقوله وسنهرب معاً بمجد قبل
عقد القران ونترك كل هذه المهزلة خلفنا .
_ من أين أتيت بالمال لكل هذا ؟!
يسأله يحيى بدهشة فيهباً إليه أن نبرة صاحبه المرحه
اكتست بشجن غريب :

قصة طويلة .. سأحكىها لك فيما بعد .. المهم الآن أن
تخفي الهاتف جيداً وأن تفعل ما أخبرك به
بالتفصيل .. وسنهرب جميعاً قبل عقد القران .



عمك ينتظرك في بهو القصر .
يقولها عاصي بنبرته القوية وهو يدخل عليه غرفته
لينتفض يحيى مكانه وهو يرمقه بنظرة عاصفة ..
فيقترب عاصي منه مردفاً :

هو لا يعرف شيئاً بالتأكيد .. ولن يعرف .
نبرة التهديد في صوته لا تخطئها أذن سامع .. فينعقد
حاجبا يحيى وهو يركز على أسنانه بقوة ليستطرد
عاصي بنفس النبرة الأمرة :

_ سأتركك معه لبعض الوقت كي تتدبر أمرك ..وبعدها

ستلتقي معه بكبار العائلة قبل أن نعقد القران .

يهز يحيى رأسه بحذر فيشير له عاصي نحو الخارج

ليتقدم يحيى وهو يشعر بالحصار ..

ليس فقط حصار عاصي الرفاعي ورجاله ..

بل حصار الماضي الذي عاد يضيق الخناق حول

عنقه !!

إلياس !!

هل هو في سبيله للقاءه حقاً؟!

لقد ظن أنه لن يلقاه في حياته أبداً!!

كيف سيواجهه؟! كيف؟!

تباً لك يا طيف!!

لعنة أنت وحلت فوق رأسي!!

خطواته تتباطأ وهو يلج مدخل القصر يصعد الدرج

ببطء ليتقدم نحو الرجل الذي وقف مولياً إياه ظهره

وقد بدا من وقفته المتشددة كمّ توتره !

يقترّب ويقترّب وكل خطوة تغرس النصل أكثر في

صدره ..

لحظة من اللحظات التي يغبط فيها طيف على قوتها ..

كيف احتملت ما جبن هو عن احتماله ..كيف!؟

يشعر به إلياس ليلتفت نحوه فتتلاقى العيون ..

غضب الأول يوازي وجع الثاني ..

غضب سيطر عليه إلياس باقتدار وعيناه تلتمعان

بعاطفة زلزلت يحيى مكانه والأول يعانقه بقوة ..

يكاد يطلق آهة حنين ليس لعمه فقط ..بل لكل ما تركه

خلفه في بغداد ..

وما أفسى الحنين عندما يلطخه العار

والخزي .. والغدر !

مهما تغيرت الأيام .. تبقى عاطفة إلياس ثابتة كالصخر

لا تتغير .. دعمه اللا مشروط له .. وفخره - الذي كان -

به !

إلياس لا يكبره سوى ببضع سنوات .. عمه الأصغر

الذي تربى معه في بيت أبيه - كما كان يظن - لينشأ معاً

أقرب لأخوين !

لهذا لم يفكر بسواه يثق فيه في موقف كهذا !!

_ لو كنا وحدنا لأوسعتك ضرباً فما أبقيت فيك ضلعاً

على حاله !

يهمس بها إلياس بغضب مكتوم جوار أذن يحيى الذي

كان بالكاد يسمع وسط ضجيج باطنه ..

لكن عاصي يدرك ضرورة انسحابه فيصافح إلياس

بترفع قائلاً بنبرته المهيمنة بين توقيير وعِزة:

_نسبكم شرف لنا .

_الشرف لنا يا سيد عاصي ..ولو أني كنت أرغب أن

تحضر العائلة كلها .

يقولها إلياس بتحفظ فتلتوي شفتا عاصي بشبه

ابتسامة وهو يلتفت نحو يحيى قائلاً:

_هي رغبة السيد يحيى ..وأنا احترمتها على أي

حال ..سأترككم معاً .

ينقل إلياس بصره بينهما بالمزيد من عدم الارتياح

ولم يكده عاصي يختفي عن بصره حتى قال بحدة :

_ما الذي يحدث يا يحيى؟! تختفي كل هذه السنوات

دون خبر ..ثم تظهر هكذا فجأة في بلد غريب لتخبرني

انك ستتزوج ودون أن أخبر العائلة ..أي جنون هذا؟!
كل هذا لأن عمك رفض زواجك من سراب؟! هل
يستوجب هذا القطيعة لعائلتك وبلدك كلها؟ لم تفكر
في أمك التي تكاد تقتل نفسها قلقاً عليك ..لم تفكر في
عمك الذي رباك كابنه ..

يطرق يحيي برأسه عاجزاً عن الرد ..والكلمات تغرس
النصل في صدره اكثر واكثر ..

كم يود الآن أمام اتهام الياس ان يصرخ بالحقيقة ..
ان يهدر بها فيخرج النصل المسموم من صدره لعله
يداوي جرحه

لكنه للأسف لا يستطيع

فليغرس اكثر واكثر ..

_إلياس هل تثق بي؟!!

يقولها أخيراً وهو يواجهه لينعقد حاجبا إلياس
بالمزيد من الغضب فيقترب منه يحيى أكثر بوجهه

مردفاً:

_ أنا الآن لا أكلم عمي .. بل أكلم إلياس صديقي ورفيق
طفولتي .

تشتد ملامح إلياس للحظات ليهتف بحدة لم يملكها :

_ وهل حسبت حساباً لصداقة أو لقرابة طوال هذه

السنوات؟! .. أنا .. أنا ..

تنتهي كلماته وهو يعاود عناقه بغلظة توازي شعوره

ليردف بنبرة مرتجفة :

_ أنا افتقدتك يا غبي ..ولو احتملت أنت فراقهم
كلهم ..كيف احتملت فراقي؟! ..طوال هذه السنوات يا
يحيى ..تدري بكم أنت مدين لي من حكايات؟!
_الكثير .

يهمس بها يحيى بنبرة ذبيحة وهو يخفي وجهه في
كتف عمه ..

ياالله!!

كيف يمكن أن يشعر بالخزي أكثر؟!

بالعار أكثر؟!

وبالعجز أكثر؟!

جزء طبيعي من فطرته يناشده الاستسلام لهذا
الدفء ..لإلقاء الوزر الثقيل عن كاهله أو على الأقل
مشاركته كي يستريح ..

لكنه لا يزال مكبلاً ..

كيف يفضح الحقيقة ؟!

كيف يلصق العار بالجميع ؟!

الحي والميت ؟!

فليبق هو ملعونا بجحيم يصطلي به وحده ..

فلتعش الغربية .. ولتكن هي الوطن !

كل هذه هدنة ..

هدنة من معركة وجب عليه أن يكملها للنهاية بعيداً

عن الكل ..

لهذا عاود ارتداء قناع مراوغته وهو يخاطب عمه

بقوله :

بعد الزفاف سأخبرك بكل ما تود معرفته .

هل سأنتظر لما بعد الزفاف ؟!

يهتف بها إلياس باستتكار لكن العناد يفيض في
نظرات يحيى الذي اطبق بشفتيه في تصميم ..
ليطلق إلياس زفرة ساخطة وهو يشد بقبضتيه على
كتفي يحيى مفكراً للحظات ..

لقد جلب المعلومات عن عاصي الرفاعي قبل وصوله
لها ..

الرجل كبير هذه المنطقة وله من المال والنسب
والنفوذ ما يشبه ما لعائلة الأمين في بغداد ..
نسب لا يشين .. لكن .. لماذا بهذه الطريقة؟!
_ لماذا لا تريد إخبار العائلة؟! استبرق على الأقل!
لماذا تحرمها من فرحة كهذه؟! ألا يكفي ما فعلته بها
طوال هذه السنوات؟!
_ ما فعلته أنا؟!!

يكاد يهمس بها باستتكار ذبيح لكنها تبقى حبيسة

صدره تغرس النصل داخله أكثر وأكثر ..

_ سنخبرها معاً .. إنما بعد الزفاف .. لا داعي

للعجب .. ستفهم كل شيء في موعده .

يقولها بالمزيد من المراوغة وهو يهرب بعينيه من

عمه ليرمقه إلياس بنظرة مترددة لكنه يعاود الالتفات

إليه قائلاً برجاء حازم :

_ لا تخبر أحداً .. أنت و عدتي .

يهز له إلياس رأسه كأنه يمنحه وعده فيلمح يحيى

عاصي من بعيد وقد تاهب للعودة ليقول مخاطباً

عمه :

_ لن أطلب منك أن تسامحني .. فظني أن ما بيننا

يحتمل المزيد .. فقط ثق بي ولو لم تفهم .

رسالة الوداع الثانية التي يرسلها مواراة فيتهد

إلياس وهو يربت على كتفه ليسأله باهتمام :

_ أنت راض عن هذه الزيجة ؟!

_ تمام الرضا .

يقولها يحيى بابتسامة شاحبة وعيناه شاردتان في

الفراغ ليربت إلياس على كتفه بدعم قبل أن يصلهما

صوت عاصي مرحباً بإلياس من جديد وداعياً إياه

للاستراحة في غرفة قريبة ..

ولم يكد إلياس يستقر في غرفته حتى زفر بسخط وهو

يرفع هاتفه أمام عينيه ..

استبرق !

كيف يخفي عنها خيراً كهذا ؟!

لن تسامحه أبداً !!

فليخبرها !!

لكنه يعود ليذكر وعده ليحيى .. يحيى الذي بدا له

غريباً كأنه لم يره من قبل ..

هذه النظرة الذبيحة في عينيه كيف يتجاهلها !؟

ماذا صنعت بك الأيام يا صاحبي .. ماذا صنعت بك !؟

يتمتم بها بحسرة قلقة وأأمله تتردد على هاتفه من

جديد ..

ولا يزال حسم القرار صعباً !!

وفي غرفته التي عاد إليها يحيى في ملحق القصر

وقف الأخير يراقب الحديقة عبر النافذة وقد بدأوا

تعليق الزينة استعداداً لعقد القران وحفل الزفاف ..

المزيد من السخط ..

المزيد من العجز ..

والمزيد من الهرب ..

فلينته كل هذا العبث .. فلينته !!

_ طيف عذراء .. لم أمسها .. يمكنك التأكد وطيّ هذه

الصفحة من حياة الجميع .

يكتبها في ورقة ليطويها .. سيتأكد من أن تصل

لعاصي الرفاعي في الموعد المناسب بعد هروبه كي

لا يؤذيها ..

وبعدها ستطوى هذه الصفحة حقاً في حياة الجميع

وأن كانت ستترك ندوبها .. !!

=====

_ الست ديمة هنا في المدينة !

تهتف بها الخادمة الجديدة التي أتت بها زوجة غازي

الأولى لتخدمها بعد وفاة الأخير .. فانتفضت من

جلستها على الأريكة ليرتج جسدها السمين بمزيج

من حقد وتوعد ..

"جت لقضاها!"

تهتف بها من بين أسنانها لكن شقيقها الذي يجلس
قبالتها يصرف الخادمة بسرعة ليهتف مخاطباً إياها :

_ اهدئي ولا تتحامي ! لا نريد مشاكل مع تلك المرأة

بعد الآن !

_ لا تقل لي اهدئي !! لا تتكلم عما لا تفهمه!! تلك

البعيضة لم تسرق مني زوجي في حياته فحسب بل

شاركنتي خيره بعد موته .. لا تعرف كم احترق قلبي

وأنا أراها تتسلم إرثه .. المال الذي حرمني منه بخله

وهو على قيد الحياة .. الآن تقسمه معي فتاة "...."

كتلك!!

سبابها البذيء يخدش اذنه فيزفر بقوة ثم يقوم من مكانه ليتوجه نحوها ..يعتصر كتفيها بقبضتيه هاتفاً بعصية:

_ لا تصغرينا أمام حسام القاضي ..نحن منحناه كلمتنا في المرة السابقة أننا لن نوذيها ..

_ولماذا يدافع عنها حسام ذاك بهذه الضراوة؟! لم تسألوا أنفسكم ماذا دفعت تلك العاهرة من ثمن كي تبقى محمية في كنف رجل مثله؟!!

يحمر وجه الرجل من دلالة تلميحها فتنفت المزيد من سمها :

_ نفس الثمن الذي دفعته كي يقبل غازي بكل جاهه وماله أن يتزوجها ..بل ونفس الثمن الذي دفع عاصي الرفاعي لإيوائها في بيته دون صفة !

_ ششششششششش!! احرسي يا امرأة!!

يهتف بها الرجل زاجراً بمزيج من غضب وخوف
وهو يتلفت حوله قبل أن يكلم فم شقيقته مردفاً

بحنق:

_ إلا عاصي الرفاعي!! لا تخوضي في سيرته أبداً!!

"الحيطان لها آذان كما يقولون والرجل عاد ليسترد

مكانه القديم الذي كان زوجك قد أخذه بعده .. عاصي

الرفاعي عاد كبيرنا .. ولا أظنك بحاجة لأذكرك بعهد

القديم!!

تكز المرأة على أسنانها بغيظ ناقض هذا الخوف

الحقيقي الذي تسرب من عينيها وهي تحرر فكها منه

لتبتعد خطوة وهي تشد خصلة من شعرها بحنق بينما

تدور حوله كثور هائج:

_ ماذا تعني؟! تلك الفتاة ستبقى هنا؟! تتنعم بمال

زوجي وبحماية عاصي الرفاعي أمام عيني؟!!!

_ ياللساء!!

يغمغم بها الرجل بسخط ليشد مقدمة ثوبها مردفاً :

_ فلتبقِ أو لا تبقى .. لا شأن لنا .. لا أحد يعلم ما الذي

ينتويه عاصي الرفاعي .. لكننا كلنا نعلم من هو وماذا

بوسعه أن يفعل! فاحفظي لسانك بدلاً من أن يقص هو

ألسنتنا كلنا !!

تكاد تنفث النار من أنفها وهي تطالعه بنظرة ساخطة

صامتة للحظات قبل ان تهز رأسها بطاعة ظاهرة

وفكرة مآكرة تلتمع في رأسها تجعلها تغمغم

باستسلام :

_حسناً..الأمر لله ..قادر أن يقصف عمرها ويريني

فيها يوماً قريباً "بنت ال... " هذه!!

يرمقها أخوها بنظرة متشككة وهو يحزر ثوبها من

قبضته قائلاً:

_لا تتعجلي الأمور ..لعلها جاءت لتحضر زفاف أخت

عاصي الرفاعي وترحل من جديد ..ساعتها يكون الله

قد حلها من عنده !

تكسي وجهها مسكنة مصطنعة وهي تشيح بوجهها

لتدعو باللعنة على غازي و"مجايبه" كما قالتها

فيزفر الرجل وهو يشير حوله قائلاً:

_احمدي ربنا أنها تخلت لك عن نصيبها في هذا البيت

وتركته لك .

_كنت تريدها أن تأخذ بيت غازي أيضاً؟!!

تهتف بها باستتكار جهول فيخبط الرجل كفيه وهو
يتمتم بسخط:

_ الصبر من عندك يا رب .

يقولها ثم يعاود التلويح بسبابته في وجهها هاتفاً :

_ لن أكرر كلامي .. لا توقعينا في المشاكل .. غضبة

عاصي الرفاعي هي الجحيم بعينه !

يغادر البيت بعدها بخطوات مشتعلة بينما تتجمد هي

مكانها للحظات قبل أن تحيد ببصرها نحو الغرفة

المجاورة والتي كانت غرفة نوم ديمة مع غازي قبل

موت الأخير لتهمس بتوعد وهي تستحضر ملامح

ديمة الفاتنة :

_ سأقطع رجلك من هنا ! وربنا المعبود سأفعلها !!

ثم تتوهج عيناها ببريق شيطاني وهي تردف ساخرة

بغموض ماكر:

_حكموا على الكبار ..لكن هل سيحكمون على العيال

كذلك !؟

=====

_هيا بنا !

يهتف بها نزار بحماس داخل السيارة التي يستقلها

مخاطباً يحيى الذي هرع إليه متخفياً في زي بسيط

وقد غادر عبر الباب الخلفي للقصر ..

يطمئن لوجود مجد المتلهفة ملامحها في المقعد

الخلفي ثم يستقل السيارة بسرعة قائلاً:

_هيا بنا .

ينطلق نزار ضاحكاً بالسيارة فتتهف مجد بفرحة

طفولية:

_ أنكل نزار أخبرني أننا نعد مفاجأة لطيف ..صحيح

!؟

يطرق يحيى برأسه وهو يتجاهل سؤاها ليسأل نزار

بمواربة :

_ كيف تدبرت الأمر !؟

_ المال يا صاحبي ..المال يفتح كل الأبواب

المغلقة ..ولا تنسى سحر أخيك الفتاك .."والله ورجعنا

لأيام الشقاوة" !

_ زعطوط!

يغمغم بها يحيى باستحسان شارد وهو يراقب الطريق

الذي تنهبه السيارة بسرعة ..

لا يصدق أن الأمر قد تم بهذه البساطة ..
نزار الداهية دبر الأمر مع الخادمة وبعض الرجال
ويبدو أن انشغال عاصي بتجهيزات الحفل ولقاء
العائلة وكذلك انشغال طيف بالنساء وتجهيزات
العرس قد منحاه المزيد من المساعدة .
_ طيف سعيدة .. عانقتني عندما أبلغتها
برسالتك .. دمعت عيناها بعدها وكادت تبكي لكنها
عادت تضحك وهي تضمنني ..
تقولها مجد ببراءتها الطفولية ليشعر يحيى بغصة في
حلقه وهو يعتصر قبضتيه بقوة ..
الآن يترك لها جرحاً آخر ستلغنه عليه عمرها كله ..
ليست هي فحسب .. بل إلياس كذلك ..
لكن ربما كان هذا أفضل للجميع ..

لم يعد لديه ما يمنحه لأحدهم ..

طريقه صار بلا عودة !!

من جديد يراقب الطريق الذي مالت شمس سمائه

للغروب فيتذكر سديم عينيها بنجومه .. النجوم لا تلمع

إلا وسط ظلمة الليل .. حتى لو كان حبهما ليلاً طويلاً لا

ينتهي .. فظنه أنها من القوة دوماً أن تخلق له نجمة ..

ولو كان هو خارج الصورة !!



بنفسجي



_ نم يا صغيري .. نم ..

تربت ديمة على وجنة سند وهي ترقد في فراشه وقد
هربت به للغرفة التي خصصها له عاصي في قصر
الرفاعي بعدما رأت رهبته من الناس في تجمعهم
للحفل بالخارج..

لازرع لك بستان ورود .
وشجرة صغيرة تفريك ..
واغزلك من نور الشمس
اسورة واحطها بايديك

تهدهه بكلمات الغنوة التي كان جدها يلاطفها بها في
صغرها .. الأغنية التراثية كانت لرجل يغازل محبوبته

لكن جدها رفعها في أذنيها لمقام أعلى بنكهة
أخرى..نكهة الحب..الحب الفائض دون مقابل ..
يستجيب الصغير لعذوبة شعورها قبل صوتها ورأسه
يتثاقل فوق وسادته ..فتستمر ..

وراح اجيبك من ابعد بحر

احلى درة بلاقيها

واسرق لك من حول البدر

اجمل نجمة واخيها ..

تبتسم وسط غنائها وكلمات الغنوة تتضافر مع ذكرى
هالة هذه المرة :

ستفسدين ابني بتدليك ..لم يعد ينام سوى على هذه

الغنوة ..

أعيش و أدلل هذا الغالي ..يليق به الدلال ..

_والله لا أكاد أميز من بكما أكثر طفولية .. أنتِ أم

هو !

_لا يهم .. ما يعني أنك أمانا نحن الاثنين معاً .

ضحكات الذكرى تمتزج بشجن الحنين ولا تزال

تردد ..

واعمر لك بالعلي قصر

و عَ جناحتي بوديك

واغزل لك من نور الشمس

اسورة واحطها بايديك ..

كان الصغير قد استسلم للنوم تماماً مع كلماتها

الأخيرة فتدمع عيناها وهي تتحسس معصمها .. يوماً

ما كانت تنتهي غنوة كهذه ب"سوار ياسمين" يلفه
الجد حول معصمها ..

عجباً للزمن ..كيف يمحو سيله كل شيء وتبقى
الذكريات شامخة طازجة الرائحة تتحدى أن ينالها
النسيان ؟!

تميل علي الصغير بقبلة حانية قبل أن تغادر غرفته ..
تشعر بالغرابة في هذا القصر الكبير ..وما الجديد ؟!
عمرها كله صار غربة !!

قدمها تحملانها نحو الحديقة الكبيرة من القصر حيث
أقيم الزفاف ..

نظراتها تزيغ ومرأى الثوب الأبيض للعروس يصيبها
بالغثيان وهي تتذكر ليلة زفافها هي ..

ربما كان الثوب بطرحته البيضاء آخر ما رآته بهذا
اللون في حياتها مع غازي ..

صفعات الذكرى تتوالى .. لم تكن أبداً ليلتها الأولى ليلة

زفاف .. بل كانت ليلة اغتصاب جسد وروح !

تنتهي على نفسها كاتمة شعورها بالقهر الذي لم

تمحه الأيام ..

تزم شفيتها بقوة وهي تشعر بالعرق يتصبب من

جبينها رغم برودة الجو ..

تتحسس ثوبها رغم سواده شاعرة أنه يفضحها

بالمزيد من بقع الدم ..

أحمر .. أحمر .. أحمر ..

لم تشعر بنفسها بعدها وهي تركض هاربة من القصر

الكبير ..

تركض وتركض وخلفها وحوش الذكرى تركض

خلفها ..

فلا تتوقف سوى .. أمام قبر هالة !!

وكم من قبر ميت أصم أحن علينا من أحياء !!

تجتو على ركبتيها أمامه دافنة وجهها بين كفيها ..

هاهنا لا يبدو شبح هالة الأبيض العاتب المعرض كما

تراه في مدينة أشباحها بل تبدو لها هالة

نفسها .. بملائكية ملامحها وروحها ووجهها الذي لم

يكن يكف عن الابتسام ..

لتهمس لـ "صديقتها" بين دموعها:

_ اخترت سند يا هالة .. لا .. ابنك لم يعد اختياراً بل

صار قدرى الذي سأحميه ويحميني .. حسام؟! لم

أحبه .. لم أحبه .. لم أحبه .. لا تصدقيني حتى لو

قلتها ..أنا كفرت بالحب بعد غازي ..الثوب المهلهل ما
عاد يحتمل المزيد من الرقع ! تسألين لماذا أبكي؟!
ولماذا لا أبكي؟! كلهم يدعون أنني صرت حرة بعد
موت غازي ..أنني صرت ثرية ..وحددي أشعر أنني
لازلت سجينه فقيرة بل معدمة ..ليتك تركتني أموت
يوم قابلتني ..ليتك لم تأخذيني معك إلى هنا ..بل ليت
القارب غرق بي ذاك اليوم فلم أغار وطني أبداً .
تنهمر المزيد من دموعها حتى تشعر أن عينيها قد
جفتا أخيراً فتتوالى شهادتها طالبة المزيد من
الهواء ..

تنهض من جلستها فتأوه وهي تشعر لتوها بألم
ساقها وركبتها ..

تنتبه لنظرات حارس المقابر الغربية بين شفقة
واستهجان فتطرق برأسها وهي تغادر المكان
بخطوات متثاقلة عائدة نحو قصر الرفاعي ..
غافلةً عن " هذا " الذي يراقبها مكانه بعينين

صارختين بمزيج من عاطفة ووجع !

الطريق مظلم شبه خال وقد تجمع الناس كلهم على

ما يبدو في حفل الزفاف ..

هل تشعر بالخوف؟!!

منذ متى كان أمانها في حضرة الناس ..؟!!

هي وسطهم شبح !

يوماً ما اصطحبها أديم إلى هنا عندما كان يدعي كونه

مجرد حارس ..

أين أديم؟! لماذا لم يعد يطاردها كالسابق؟!!

هل كان حبه مجرد ادعاء كما تظن ؟!
أم أنه التصرف الطبيعي بعد ما كان بينهما في آخر
مرة عندما اتهمته زوراً أمام حسام ؟!

لا بأس !

عهدها بالبشر التخلي .. على الأقل هو معه عذره !!
_ آه !!

صرخة ألم تطلقها وهي تشعر بالحجر الذي قُذِف نحو
رأسها ..

_ لا تعودي لبلدنا يا عاهرة .. اخرجي ..

صوت الصبي الذي ألقى الحجر يتردد صداه خلفها في
الطريق الذي بدا لها موحشاً .. تتلوه أصوات رفاقه
من الصبية وهم يقذفونها بالمزيد من
الأحجار .. والإهانات ..

صرخاتها تتقطع وهي تدور حول نفسها بعجز
والأحجار تتوالى بعنف فوق مواقع متفرقة من

جسدها ورأسها ..

هل عاد غازي !؟

عاد يؤذيها !؟

_توقفوا !

لم تسمع الصرخة الهادرة التي انطلقت خلفها وأخافت
الصبية ليهربوا راكضين فقد كانت غارقة لأذنيها في
جحيمها الخاص ..

عيناها المغمضتان تحتجزان بركاناً من الألم والقهر ..
وعبرهما تتجسد مرآة لا مرئية تداهما فيها أشباحها
بضراوة .. فتكون الغلبة للشبح الأسود :

_أرأيتِ؟! أنا هنا! دوماً هنا! لن تفلتي مني أبداً!!

تقدم صرخاتها قرباناً لعله يعتقها ..

تشعر بالذراعين القويتين تضمانها فلا تميز واقعاً من

خيال ..

فقط تصرخ ..وتصرخ ..

وأمامها وقف حسام عاجزاً عن السيطرة على

انهيارها وهو يراها تكاد تسقط بين ذراعيه ..

تلوح بذراعيها يمنة ويسرة كأنما تجابه أشباحاً لا

تراها ..

تغمض عينيها بشدة فيزداد يقينه أنها حقاً لا تراه ..

كان قد تبعها عندما أخبره فهد منذ قليل أنها غادرت

القصر وحدها وأنه يمكنه لقاءها مستغلاً انشغال

الجميع هنا في العرس فلم يتباطأ للحظة ..

كان يعلم بالأمس وهو يقطع الطريق الطويل من
العاصمة للصعيد أن فرصة لقائها تكاد تكون معدومة
لكنه ..جازف ..!!

والآن يرى الأمر يستحق !!
وبين ذراعيه كانت هي تتخبط كطير ذبيح ..
الدنيا تضيق وتضيق ..بيت غازي ..غرفة
نومهما ..ثيابها تتطاير ..لا يمزقها كي لا يكلف نفسه
شراء المزيد ..لا يمزق الملابس إنما يمزقها
هي ..صرخته الهادرة تبت الرعب في أوصالها
بصوته المخيف :

_ الآن تقولينها طلقني؟! ألم أكن أباك وحبيبك
وزوجك؟! كنتِ تخذ عينني؟! قولي أنك تحبينني!!
_ أحبك !

سهم!

سهم كلمتها يصيبه وهي تصرخ بها مغمضة العينين

غير واعية لتتجمد قبضتاه فوق ذراعيها ..

قلبه يخفق بجنون بين ضلوعه كأنه يفر منه ..إليها!!

الآن فقط بعدما سمعها منها يعرف أنه سيبقى ظمآنًا

لها العمر كله !!

لكن صرخاتها تتوالى فاضحة له حقيقتها :

_أحبك يا غازي ..لكن لا تؤذني ..لا تؤذني ..لا تؤذني

يا غازي ..لا تؤذني ..

غضب الدنيا كلها يزأر في عينيه وهو يفهم سبب

حالتها هذه ليعاود هزها بعنف هاتفاً:

_ ديمة .. أفيقي .. غازي مات .. ديمة .. أنا
حسام .. افتحي عينيك .. تماسكي .. أنتِ تتزفين ويجب
إسعافك .

لكنها لم تكن تسمعه .. ذراعاها يلوحان بهذه الطريقة
الدفاعية كأنها تختنق .. يشعر بها تكاد تسقط فيضمها
إليه ولا يدري أيهما الآن أكثر ارتجافاً ..
لا يدري أي حدس يلهمه ليميل على أذنها هامساً
بصوته القوي الذي تهدج رغباً عنه :
_ أنا معك .. دوماً معك ..

وكانما أصابتها كلماته كتعويذة ..
(العبارة السحرية) تهزم أشباحها للمرة الثانية !
تشهق بعنف وهي تفتح عينيها فجأة كأنما الغريق
رفع رأسه أخيراً فوق سطح الماء ..

تراه ..الآن تراه ..

عيناها تدوران حولها بفرع لا تميز واقعاً من خيال

قبل أن تعود ببصرها إليه ..

حلقة الزعفران في عينيها تتوهج بهذا البريق الذي

اشتاقه ..

فينقلت اسمها من بين شفثيه برنين خاص ..

لكنها ترفع سبابتها المرتجفة نحوه ..وبالتحديد نحو

جانب وجهه حيث كان حاجبه ينزف ليصله صوتها

المرتعش بشحوب :

_تنزف .

تنفرج شفثاه عن آهة انفعال وهو يشعر -لتوه-

بالنزف اللزج على جبينه لاريب أنه قد أصيب دون أن

يشعر ..

يهم بالرد عليها لكنها تبدو وكأنها فقدت آخر ذرة من

طاقتها لتسقط بين ذراعيه كدمية انقطعت خيوطها

فجأة !



برتقالي



يا الله ! تبدين رائعة !

تهتف بها ماسة بحنان وهي تتأمل وجه طيف في

المرآة .. لترتجف شفقتنا الأخيرة بابتسامة واهنة..



لا تحب زينة وجهها لكن لا بأس بها في هذا اليوم

الاستثنائي ..

نظراتها شاردة بغموض وأاملها تقبض علي سلسلة

مجد التي تركتها لها على وسادتها زاعمة أنها تعد

لها مفاجأة..

سلسلة بصدفته !!

_ أخيراً أطلتِ بالأبيض! أنت بالذات توقعتك لن

تفعلها أبداً ..

تهتف بها جنة بمرح وهي تستعيد ذكرياتها مع طيف

في أبو ظبي منذ أعوام ..

لترد حسناء بمرح مشابه :

_ قلتها! والله قلتها عندما رأيت "الحليوة" يدخل

المشفى حاملاً إياها بدخلة شمس الزناتي المتفرعة

هذه .. كأنه يشهر مديّة في وجوهنا هاتفاً بصوت أحمد

عز "البنت دي تخصني يا منطقة!"

تقولها مقلدة لهجة الممثل في الفيلم الشهير ليضحكن

جميعاً فيما تدمع عينا زهرة وهي تبسط راحتها على

كتفي طيف هامسة في أذنها :

_ أدعو الله بقدر ما ساعدتني أن يمنحك فرحة هذه

الليلة .

ترفع إليها طيف عينين دامعتين فائضتين بحنان

ناقض خشونة نبرتها :

_ لا دموع هذه الليلة .. لا دموع ..

تهزل لها زهرة رأسها فتتعلق عينا طيف بدبلة جهاد

الملونة التي علقتها زهرة في سلسلة عنقها لتخفيها

عن العيون ..والآن بدت بحركتها العفوية تحت

حجابها لتبتلع غصة حلقها وهي تفكر ..

أحياناً تسلبنا الأيام قدرتنا على

الاختيار ..وتكذب زاعمة أنها منحتة ..

ربما كانت زهرة خير مثال لهذا!!

_لمتنا هذه تذكرني بجمعتنا أيام أبو ظبي ..لا تنقصنا

سوى دعاء .

تهتف بها جنة بحنين لتلك الأيام رغم صعوبتها لترد

ماسة برقة :

_ترسل إليك مباركتها ورغبتها الصادقة في الحضور

لولا ظروف السفر .

تقولها مخاطبة طيف التي كانت غائبة عنهم في وادٍ

آخر وهي تشعر بالغرابة ..

من هذه ؟!

هذه التي توشك أن تزف كعروس من قصر عاصي
الرفاعي الذي لم تكن تجرؤ يوماً على تخطي بوابته

!؟

هذه التي طالما زهدت الناس قاعة بوحدتها والآن

يلتف حولها الصديقات يزيننها للعرس !؟

بل هذه التي طالما أعلنت كراهيتها للرجال والآن

تجبره على الزواج منها !؟

كل ما فيها يتصدع ..

أو ..ربما يتفتح ..

كبر عم خجول ظل العمر محتمياً بوريقاته المغلقة

والآن يعانق بها ضوء الشمس بنهم جائع ..

أناملها تزداد تشبثاً بسلسلة مجد في قبضتها فتتكس

الدموع في عينيها ..

أي مصير ينتظرها هذه الليلة ؟!

أي مصير ؟!

عاصي يريد الدخول .. يريد صحبة طيف ليهو القصر

عند النسوة لتجلس هناك حتى يتم العقد .

ينقبض قلب طيف ببعض الخوف لكنها تتبذه عن

روحها بقوة تليق بها ..

تترك سلسلة مجد على الطاولة لترفع عينيها فتبصر

عاصي أمامها ..

هل تقرأ الغضب في ملامحه ؟

أم أنها فقط تتوهم وهي ترى فيه شبه أبيه ؟!

يتقدم منها بملاح جامدة و غابات الزيتون في عينيه

تتوهج ببريق غامض ..

يتأبط ذراعها دون أن يكلمها فتخض بصرها وهي

تشعر بقلبها يكاد يعوي بين ضلوعها ..

تتحرك معه بخطوات متباطئة نحو البهو ..

تقف على قمة الدرج فتعلو الزغاريد حولها تكاد تصم

أذنيها ..

هل هي البداية ؟!

أم هي النهاية ؟!

تزداد كثافة الدموع في عينيه لكنها تكتمها بالمزيد

من القوة ..

_ طيف .. طيف حماد الرفاعي .. أختي من أبي .. أعلنها

أمام الجميع .. ولها جميع حقوقها!

صوت عاصي المهيب يخرس النسوة ليتردد في

المكان بعنفوان يليق بهما ..

عيناها تدوران فوق أثاث القصر الفخم..حديقته التي

تبدو عبر الباب المفتوح ..وأخيراً بوابته الخارجية ..

ترى بعين خيالها يوم طردت ذات يوم من

هناك ..التراب يكاد يعفر ثوبها وثوب أمها..

الثوب ..والوجه ..والقلب!!

عاصي أعاد بناء القصر بعدما هدمه بيده ..ويبدو أنه

على وشك أن يفعل المثل بقلبها كذلك!

يعانقها!!

فتشعر بعناقه هذه المرة مختلف!!

هذه المرة لا تقاوم ..لا تتفر ..لا تنكر ..

أناملها تتشبث بقميصه بكل قوتها وجبينها يستند

على كتفه !!

يرفع ذقنها بكبرياء يليق بها وهو يلتقط نظرتها برضا

ليعاود التحرك بها نحو الأسفل فتعود الزغاريد لتدوي

حولها من جديد ..

تجلس في مجلسها وسط النسوة لترفع عينيها نحو

عاصي الذي بدا عليه المزيد من التوتر الغامض

فتسبل جفنيها باستسلام ..

قبل أن ترفع رأسها بشموخ ..

هي اختارت .. وستحمل نتيجة اختيارها كيفما

كانت !!

يتحرك عاصي نحو الغرفة الكبيرة المجاورة حيث

يفترض أن يجتمع كبار العائلة مع العريس وعمه

والمأذون كي يعقد القران ليغلق الباب خلفه فيزداد
خفق قلبها بجنون وهي تستعيد رسالته التي أرسلها
لها عبر مجد ..ثم سلسلة الأخيرة التي تركتها على
وسادتها فتبتلع غصة حلقها وهي تحاول الانشغال
بتهاني النسوة..

الدقائق تمر بها متثاقلة ..

لماذا تأخر عاصي بالداخل !؟

لماذا لم يخرج بعد !؟

وما سر هذه الحركة الغريبة لرجاله دخولاً وخروجاً

!؟

أحقاً لا تعلم !؟

_لن تخذلني ثانية يا يحيى! لن تفعلها !

لا تدري بأي لسان نطقها ولا هل غادرت شفتيها أم

قلبها ..

لكنها كانت تشعر بها مع رجفة جسدها كزلزال يهز

جبالها كلها ..

تشهق بعنف رغماً عنها وباب الغرفة المغلق يفتح

فجأة ليخرج منه عاصي وحده ..

يتوقف قلبها عن النبض للحظة وهي تغمض عينيها

كمن تلقت رصاصة غدر ..

لكنها عندما فتحتهما من جديد .. وجدته أمامها ..

هو .. يحيى!

_ خرب بيتك ! وقفت قلبي ! خرب بيتك !!

تهمس بها سراً وخفقات قلبها العاصفة تناقض هذا

التعبير الواجم على ملامحها ..

فيما لم يكن يحيى أفضل حالاً وهو يتقدم نحوها ..

لم يستطع الهرب !!

_ ارجع يا نزار ..سنعود !

هتف بها مخاطباً صاحبه ليهتف الأخير باستنكار :

_ نعم ؟! بعد كل ما فعلناه ؟! نحن بالكاد أفلتنا منهم .

_ ارجع ..

يقولها وهو يتحرك ليمسك مقود القيادة فيجبره على

التحرك في الاتجاه العكسي ليصيح نزار بفرع:

_ توقف يا مجنون ..سأعود ..لكن أخبرني ماذا يدور

في رأسك !!

السؤال الأخير بقي معلقاً بينهما حتى وصل إلى هنا

ليتسلل لغرفته خلسة كما خرج منها كي يبدل ثيابه

استعداداً للعرس ..

لماذا عاد ؟!

لأجلها هي ؟!

كي لا يضعها في مواجهة موقف كهذا ؟!

أم لأجله هو ؟!

لأنه مل من النصل الذي ينغرس أكثر وأكثر فرأى أنه

قد آن الأوان لينزعه تماماً من صدره ..

وجع ساعة ولا كل ساعة كما يقولون !!

يرى مجد تتقدم نحوهما بكرسيها فتلتمع عيناه

بابتسامة حانية قبل أن يرفع عينيه لنزار الواقف

خلفها ..

ملامحه ساخطة .. إنما -كعهده- متفهمة داعمة ..

يبتسم له يحيى ابتسامة شاحبة بما يشبه الاعتذار

فيلوح نزار بكفه بحركة ساخطة ..

_ على وعدنا يا يحيى!

يهمس بها إلياس جوار أذنه بعد مباركته لطيف وهذه
النظرة المتفحصة التي رمق بها كل منهما الآخر ..
فيزدرد يحيى ريقه بتوتر وهو يمهد نفسه لحقل
الألغام الذي يوشك أن تفجره قدماه ..

فيما يقف عاصي مكانه يراقب الموقف بنظرات خبيرة
راضية ..

لقد نجح يحيى في الاختبار للمرة الثانية ..
هو ترك له الحبل على الغارب عامداً ومنحه فرصة
الهروب لكنه عاد برغبته في آخر لحظة ..
هاهو ذا لم يخيب نظرتة فيه !!
لكن اختبار العراقي الحقيقي لم يبدأ بعد ..

اختباره الأقسى هناك في بلده كي يستعيد هويته

وشخصه ..

لكنه لن يكون وحده .. طيف -أخته- ستكون معه ..

يبتسم بارتياح للخاطر الأخير وعيناه تفيضان بعاطفته

وهو يراها تجلس بفخر رافعة رأسها بين الحضور ..

يشعر بماسة تربت على كفه برفق فيلتفت نحوها

لتوهج شموسه الزيتونية بدفء .. صغيراه يتقافزان

حوله بهناءة فترتجف ابتسامة ناقصة علي شفثيه

وهو يحيد ببصره نحو غرفة سند ..

فقط لو يكمل سداد الدين!

=====

بنفسجي

=====

_ استر يا رب! ما الذي حدث يا ابني؟!
تهتف بها أمه بجزع وهو يدخل البيت حاملاً ديمة
المغشي عليها ليهتف بها بسرعة :
_ سأخبرك .. أحضري فقط ما سأطلبه .
تحوّل المرأة وهي تندفع نحو الجوار حيث تحضر له
ما يحتاجه لإسعاف جروحها .. بينما يضعها هي على
الأريكة الجانبية برفق ليجلس جوارها متحسناً نبض
عنقها قبل أن تتسلل أنامله لوجهها ..
كيف تبدو له الآن هذه الملامح الدامية الغارقة في
هشاشتها وكأنما صارت تحتكر الكون كله ..
حتى حبيبات النمش على وجهها بدت له كأنها قمم
جبال تنتظره كي يتسلقها كلها .. كل واحد منها حلم
يدفعه لمطار دته العمر كله !

خصلات شعرها القصيرة شديدة النعومة تثير جنونه

وهي تشبهها في تراقصها الخجول على حدود

عنقها .. هذه التي أزاحتها أنامله برقة للخلف كي

يتمكن من تفحص جروحها جيداً ..

ليس فقط هذه الحديثة .. بل تلك القديمة التي بدت

ندوبها الباهتة على عنقها وكتفها عبر فتحة

ثوبها .. وظنه أن ما خفي أعظم !!

كيف تبدو له أسرة لهذا الحد وهي بكل هذه الوهن !؟

رجلٌ غيره كان ليثّهم فتننتها فيما آل إليه حاله .. لكنه

يعلم أنها لم تقتحمه اقتحام جسداً لجسد ..

بل اجتاحتها اجتياح روحاً لروح!

لماذا لم تذهب بها للمشفى؟! ومن فعل بها هذا؟!
تهتف بها أمه وقد عادت بما طلبه لتناوله إياه لكنه
يتجاهل الجواب الذي لا يعرفه حقاً عن الجزء الثاني
من السؤال ليجيب الأول باقتضاب:

جروحها سطحية .. إغماؤها انفعالي .. أنا تفحصتها
في السيارة .

يقولها مخفياً أسبابه الحقيقية في سرعة إحضارها
خفيةً لها ..

قد يزعم أنه فعلها كي لا يتسرب الخبر لعاصي
الرفاعي فينفذ تهديده ويحرمها من سند لو علم أنها
كانت معه ..

أو يزعم خوفه المهووس من تسرب شائعات عن
علاقته بامرأة مثلها ..

لكنه خير من يعلم أنه لم يفكر للحظة وهو يفعلها ..
متعة شعوره أنه يختطفها ليفر بها -ومعها- من العالم
صارت توازي متعة الحياة نفسها بالنسبة إليه !
هو أراد لقاء وداع ..والقدر منحه أفضل فرصه ..فهل
يعترض؟!!

يحكي لأمه بكلمات مقتضبة ما كان وهو يساعدها في
تطهير جروح ديمة ..
جرح في جبهتها ..وآخر على جانب شفيتها كاد يطير
صوابه وهو يتلمسه بأنامله ..

لكن ما صعقه حقاً ..كان هذا الذي في أذنها والذي
اضطره لخلع "فردة القرط عنها !!

لماذا تنظر إليه هكذا؟! حسام!! لماذا ترتعش
أناملك؟! هل تسمعي؟! أنت كذلك تنزف دعي
أسعف جرحك أنت الآخر .

تغيب عنه كلمات أمه فيتركها تتعامل مع جرحه هو
وعيناه معلقتان بفردة القرط في يده ..

الآن يفهم سرها !

هالة !

زوجة عاصي التي دفعت حياتها ثمناً لأفعال زوجها

بينما وقف هو متفرباً يمنع التدخل ..

أم سند الذي فقد النطق تأثراً بوفاتها !

وصديقتها هي .. التي تحتفظ بذكراها بكل هذا

التشبث !!

_ هي زوجة غازي سامحها الله!! سلطت الأولاد
ليفعلوها كي تبقى هي خارج الصورة ..أنا أعرف
تفكيرها !

تنتزعه بها أمه من شروده فيغمغم دون أن ينظر إليها
وقد عاد محاولاً إفاقة ديمة بعطر نفاذ يخصه:
_ أياً كان من حرص عليها سأعرفه وسينال جزاءه .
ترمقه بنظرة غريبة لتعاود سؤاله:

_ وما الذي دفع ديمة للذهاب لتلك المنطقة المقفرة ؟!
_ كانت تزور قبر صديقتها .
_ وأنت ؟! كيف التقيت بها؟!

نظرتها تزداد غرابة وحدث بصدرها يزداد يقيناً
خاصة عندما زفر بقوة دون رد منهمكاً فيما يفعله ..

لكنها تدير وجهه إليها لتتظر في عمق عينيه

هامسة :

لماذا عدت بالأمس من العاصمة دون سبب؟! هل

تلاحقها؟!!

لم يستطع الكذب .. ولا حتى المداراة ..

ربما لو كان في كامل تركيزه لاستخدم قدراته في

المراوغة لكنه الآن يشعر أنه في أضعف حالاته ..

ياربي! حسام .. أنت ت..؟!!

أفاقت .

يقطع سؤاها عامداً وهو يخبط برفق وجنة ديمة التي

بدت في سبيلها حقاً لاستعادة وعيها وهي تحرك

وجهها يمنة ويسرة .. قبل أن تفتح عينها لتلتقي

بعينيه ..

أين هي ؟! هل تحلم ؟!

_حمداً لله علي سلامتک يا ابنتي .. "الله يجازي أولاد
الحرام" ..

كلمات المرأة الحنون تدفعها من جديد للذكرى ..
قذف الحجارة يدوي من جديد في أذنها فيستعيد
جسدها رجفته وهي تتلفت حولها لتنتبه أخيراً للحقيقة
الوضع ..

تحاول الانتفاضة من مكانها لكن جسدها الواهن لا
يسعفها ..

وكذلك قبضتاه!!

قبضتاه اللتان تملكتا كتفيها برفق مسيطر وهو ينظر

لعمق عينيها قائلاً بحسم :

_لا تتحركي الآن .

_ ماذا حدث لي ؟! من فعلها ؟!
_ لا تشغلي بالك الآن .. مهما كان من فعلها فلن
يكررها .

يقولها بحمائية حاسمة لكنها تردد بانفعال أقصى ما
يشغل بالها الآن :

_ سند! السيد عاصي ! لو عرف أي هنا فلن ..
_ لن يعرف ! اطمئني .. فهد منحني كلمته .. سيتدبر
الأمر مع أخته.

كلماته كعهدا مقتضبة .. حادة .. لكنها كافية !!

_ كيف تشعرين ؟!

يسألها بنفس النبرة المختنقة التي تداري انفعالاً
رهيباً يكاد يئن تحت ثقله ليصله صوتها المرتجف

عبر عينيها المغمضتين وقد عادت دموعها تسيل
رغماً عنها :

_ لا أعرف .. لا أعرف .. ربما .. ربما أشعر بالبرد .
تتمتم أمه بكلمات مشفقة وهي تهرع نحو الغرفة
القريبة كي تحضر لها غطاء يدفئها ..

هذا الذي وضعه هو فوقها وعيناه لا تزالان مسلطتين
فوق عينيها المغمضتين ..

يسألها بعض الأسئلة التي اطمأن بها على وضعها
الصحي من واقع خبرته المعقولة أثناء عمله
القديم .. بينما تنسحب أمه لتعد لها ما تشربه وقد
شعرت أن بينهما حديثاً يستحق أن يقال وحدهما ..
_ أريد أن أفهم !

يقولها وهو يتحكم في نفسه بصعوبة محارباً كل

طباعه القاسية ..

لو كانت أخرى مكانها لكانت قبضته على فكها الآن

تجبرها على البوح بكل ما تخفيه ..

لكنه يلجم كل هذا الغضب المتشح بعاطفته بكل ما

أوتي من قوة وهو يقبض كفيه جواره مكتفياً بحصار

نظراته ..

فلا يظنها تحتمل ولو وخزة أذى إضافية !!

تفتح عينيها لتتوهج حلقة الزعفران فيهما بمزيج من

خوف واستسلام ..

هل بقي لديها ما تخسره ؟!

لماذا سعيتِ خلفي من البداية؟!

ولماذا تسعى أنت الآن خلفي؟!

سؤالها لم يكن مراوغة بقدر ما كان هروباً ..
لهذا التوت شفتاه يشبه ابتسامته وهو يميل رأسه
بقوله:

امنحيني جواباً ..وسأمنحك مثله !

لكنها تهرب بعينيها منه لتغمغم بارتباك عبر صوتها
الواهن :

_لا أعرف الكثير في هذا البلد فأنا غريبة كما
تعلم ..الناس هنا في المدينة يتحدثون عن مهارتك
ورواج مكتبك في العاصمة ..لم أعرف سواك كي
يتولى قضيتي .

ولماذا لم تطلبي مساعدة عاصي الرفاعي؟!

_علاقتي بالسيد عاصي لا تتجاوز سند ..ولا أريدها

أن تكون !

ينعقد حاجباه وهو يتفحص ملامحها ليرفع القرط أمام

عينها فتشقق بحدة وهي تمد أناملها دون وعي

لتختطفه منه لكنه يحتجزه في قبضته ليهمس لها

بحسم :

_الآن أفهم سر نفورك نحوي في مرات لقائنا

الأولى ..لكن سؤالي ..لماذا اقتربتِ إلى هذا الحد ؟!

ترتجف شفتاها بمزيد من برد وخوف وهي تسبل

جفنيها فيرفع الغطاء عليها أكثر في حركة حانية

تناقض البرودة القاسية لنبرته ..

لتزدرد ريقها بتوتر وترد

_ربما كنت أريد أن أفهم ..لماذا فعلت هذا ..طيف
أخبرتني بالحقيقة .

**_تلك الحمقاء تحبك حتى ولو لم تكن هي نفسها
تعلم ..**

يذكرها بصوت طيف فيزداد انعقاد حاجبيه وهو يراقب
ملامحها بتفحص ..

حلقة داخل حلقة ..

كل متاهة فيها تجذبه للمزيد ..

بينه وبينها ألف "لا" ..ووحده قلبه يصرخ

ب"نعم"!!

_هاته ..أرجوك ..

تهمس بها بوهن لا تدعيه فيزدرد ريقه الجاف

بصعوبة وهو يرد بنفس البرود الجاف:

_أذنك مصابة ..لن يمكنك ارتداؤه.

_أرتديه في الأخرى ..لكن ..لا أخلعه .

تصميمها الغريب على هشاشتها التي يعرفها يريق

المزيد من "لا" في طريقهما ..

المزيد من الحطب فوق الحطب ..

لكنه يدهشها وهو يلبسها إياه في أذنها السليمة ..

تحاول الاعتراض لكنها تستسلم لوهنها ..وقوته ..

لعلها إشارته لها أن الحاجز بينهما سيبقى للأبد !!..

ترفع عينيها نحوه فتتسعان بشدة وهي تميزها في

عينيها ..

دمعة حسرة ..دمعة ندم ..وربما ..دمعة فقد !

دمعة لم تتصور أبداً أن تعرفها عيان كهاتين !!

قلبها يخفق بجنون وهي تشعر بأنامله الباردة ترتجف
بشدة وهي تربت على وجنتها بحنان يناقض هذا
البرود القارص الذي غرقت فيه كلماته وهو ينهض
من جوارها :

_أمي ستعتني بك ..وفهد سيذهب بك للمشفى كي يتم
فحصك ونطمئن ثم سيعود بك لقصر
الرفاعي ..اطمئني سأجعله يتدبر الأمر كي لا يعلم أنك
كنت هنا .

عيناها تلاحقانه وهو يتحرك نحو الباب ليغادر ..هل
سيرحل حقاً بهذه البساطة؟!!

هل هو لقاء الوداع؟!!

فيمنحها الجواب وهو

يلتفت نحوها ليردف بنبرة ارتجفت رغماً عنه :

_قبلي سند نيابة عني .. علميه أن بعض الأخطاء لا
نقصدها لكننا مجبورون أن ندفع ثمنها عمرنا كله .
دموعها تنهمر رغماً عنها والكلمة الأخيرة تسبق
الباب المغلق بينهما :

_وداعاً.

=====

برتقالي

=====

باب الغرفة يغلق خلفهما بعد انتهاء حفل الزفاف
فتلتقي عيناها ..

لم تعد نظراته متوارية خلف القضبان ..

هي حطمتها كلها لتبدو لها صحاري روحه بكل ما

تحمله من سعة .. وخيبة .. ووجع ..



ولم يعد سديم عينيها فوضوياً ..

بل صارت نجومه

واضحة .. لامعة .. تعده .. وتتوعده !!

زفرته المشتعلة تسبق إطراقة رأسه وهو يتحرك نحو

النافذة القريبة فيفتحها شاعراً باختناق أنفاسه ..

أين عقلك الذي كنت تتباهى به يا يحيى!؟

ما كل هذا التشتت!؟

هل ستعود!؟

حقاً ستعود!؟

إلياس ينتظر الحقيقة ..

استبرق لن تتركك وشأنك ..

عاصي الرفاعي يحتجزك هنا ..

وهذه ال...ال...ال (عديمة الوصف) طيف ..ماذا

عساها تنتوي فعله معك!؟

تظنها تزوجتك لتدلك!؟

تباً لكل هذا!؟

زفرة أخرى ساخطة يطلقها وهو يشعر بها تتحرك

خلفه لتدخل الحمام المجاور وتغلق بابه خلفها

برفق ..

رفق!!

ألا يفترض أن تصفقه في وجهه!؟

هذا الهدوء منها لا يريحه!!

يغمض عينيه بوجع حقيقي من هذا الصداع الذي يكاد

يفتك برأسه ..

على الأقل هو منحها السلام هذه الليلة ..

أخوها اعترف بنسبها أمام الجميع وصارت لها

عائلة ..

(توأم روحه) استردت بعض روحها .. فهل يطمع هو

بخاتمة مشابهة!؟

تنقطع أفكاره وهو يسمع باب الحمام يفتح فيفتح

عينيه لتتسع عن آخرهما وهو يميز ما ترتديه ..

قميص نوم فضي قصير ناسب سمرة بشرتها وانحسر

عن ساقها ليبرز رشاقتها عبر مئزره الطويل الذي

تركته مفتوحاً ..

قدماها حافيتان بمشهد عفوي داعب قلبه ليشعره

بحميمية أكثر ..

خصلات شعرها القصيرة تتمايل بإغظة فوق كتفيها
وهي تتحرك نحوه بخطوات بطيئة حتى تتوقف أمامه
تماماً لا يكاد يفصلها عنه سوى أنفاسه ..

يرمقها بنظرة عميقة .. عميقة .. كأنه يود اختراق هذا
القناع الغامض الذي ترتديه كي ينفذ منه لروحها ..
لكنه لا يزال عاجزاً عن الفهم ..

_ لماذا لم تهرب!؟!

سؤالها يصفعه فيعقد حاجبيه بشدة وهو يتفرس
ملامحها بدهشة ليهمس:

_ كنتِ تعلمين!؟!

نظراتها لم تحد عنه لثانية .. كأنما التصقت حدقتها
بحدقتيه وهي تهمس بصوت محايد :

_ رأيت صاحبك "فرقع لوز" هذا في الحفل ..ومجد
تركت لي سلسلتها زاعمة أنها تعد لي
مفاجأة ..ثم ..هذه الرسالة التي أرسلتها لي معها كأنك
تودعني ..لا ينقصني كثير من الذكاء لأربط الخيوط
معاً فأدرك أنك كنت تعترم الهرب ..لم أكن لألومك لو
فعلتها ..لكنني أسألك ..لماذا لم تفعلها ؟!

_ لا تعلمين حقاً؟!

يهمس بها بمزيج من عنفوان أسر ووهن محبب بعد
تنهيدة حارقة وهو يقترب بوجهه منها ..ينتزع من
جيب سترته منديلاً يمسح به ما بقي من زينة وجهها
ليهمس أمام عينيها:

_ هكذا أفضل ..أحب وجهك دون أصباغ ..

ملاحها تبقى على جمودها كأنها لا تسمعه .. لكن
جسده هو ما يشتعل تأثراً بقربها فيلقي ما بيده جانباً
ليقترب منها أكثر .. فلا تبتعد ..

بل يصله همسها الشارد بنفس النبرة المحايدة :

_قلت لي يوماً إن ضحكتي ثاني أجمل شيء
في .. وعدتني ساعتها أن تخبرني بأول شيء
لاحقاً .. يمكنك إخباري الآن .

يبتسم ابتسامة حقيقية تبدو له كحلم وسط كل هذا
الخراب الذي تتوه فيه روحه ..

أنامله الدافئة تمتد لتتلمس جيدها برفق لترسم
مسارها الدائري حول موضع خافقها مع جوابه :

_ هذا !

تغمض عينيها دون رد ليستمر فيما يفعله مردفاً

بصدق حار :

_ هذا العصيّ العنيد .. البريء .. هذا القوي المتحدي

المزلزل .. الرقيق .. هذا المنتقم المتوعد

الجبار .. الحنون .. هذا الذي رسم له الحزن قناع

عجوز لكنه لا يزال يحيا بشغف طفل .. هذا .. قلبك!

لم يكد ينتهي من آخر حروفه حتى شعر بشفتيها

تلامسان شفتيه ..

كفيها يعانقان وجهه كأنما تحتجز ما بقي من

حروفه ..

كانت أول مرة يقبل فيها امرأة ..

أجل .. جسده كان بكرةً مثلها !!

لهذا كان يتخبط بشعور يجربه معها لأول مرة بكل هذا

الصخب وهو يشعر أنه يتوه فيها بكل ما فيه ..

يذوب فيها بكل ما فيه ..

لم يتصور أبداً أن تبادره هي بفعل كهذا .. لكنه لم

يمتلك الوقت ليفكر بالمزيد ..

الآن فقط يشعر كم هو ظمان لها .. كم هو جوعان

لها .. كم هو عاشق .. كم هو هائم ..

بل الآن فقط يسأل .. كيف مضى العمر دونها !؟

لا يعرف كيف يمكن أن تقبل امرأة بهذه

الطريقة .. كأنها تسكب روحها فيه كي تصهره

وتتصهر معه !

ذراعاه يطوقانها بقوة يثق أنها مؤلمة .. مؤلمة بقدر

احتياجه .. بقدر أسفه .. وبقدر حيرته ..

لكنها تحتملها صابرة وهي تغيب معه في أول موجة

ترفعهما حد السماء ..

أنامله تمتد نحو منزرها كي تزيحه لكن قبضتها

تهويان فوقها ليجدها تبتعد عنه فجأة ..!!

يرفع إليها عينيه بدهشة لترسم ابتسامة شامته على

شفتيها وهي تهمس :

_ هذا فقط كان لتدرك أي شيء ضيعته على نفسك في

ليلة كهذه !

ينعقد حاجباه بغضب لتضم هي منزرها فوقها رافعة

أنفها باستطرادها :

_ لم تكن لتعلم لو لم تذق .. صحيح؟!!

يطلق زفرة ساخطة وهو يرمقها بنظرة حانقة طويلة
شاعراً بهذه الحرائق التي أشعلتها فلم تطفئها ليهتف
بغضب:

_ ماذا تظنين في؟! طفلاً تبعدينه وتدنينه متى شئت؟!!

_ وهل يحق لك وحدك فعل المثل؟!!

عتابها الحارق يقذفه لذكراهما القاسية عندما تركها
برسالته ذاك اليوم فيزداد انعقاد حاجبيه وهو يدرك
نواياها السوداء للقادم ..

وكان القادم ينقصه السواد !!

يشيح بوجهه عنها لكنه يجدها تتحرك لتغادر الغرفة
فيلحق بها هاتفاً بضيق:

_ أين تذهبين؟!!

_ لغرفة مجد .. سأنام معها .

تقولها ممعنة في إغاظته ليهتف بها بضجر :
_ أنا الذي سأنام معها .. أنا افتقدتها طوال هذه
الليالي .

_ لا بأس! ننام كلانا معها .. السرير واسع .
تقولها ببرود وهي تتحرك نحو غرفة الصغيرة التي
خصصت لها في الطابق العلوي الذي جعله عاصي
لهما ..

يعود لغرفتهما كي يبدل ملابسه بحركات عصبية قبل
أن يتوجه نحو غرفة مجد النائمة حيث استقرت طيف
جوارها على طرف الفراش فيحتل هو الطرف
الآخر ..

أنفاسهما الساخنة تكاد تشعل النيران في الغرفة
وصمتها الصاخب يداري مجزرة ..!!
لتكون هي أول من يقطع الصمت بسؤالها الهامس كي
لا توقظ الصغيرة :

_ لماذا سافرت من أبو ظبي يوماً بهذه الطريقة
لترسل لي بعدها تلك الرسالة السخيفة؟! ما الذي جد
وقتها لتتصرف هكذا!؟

زفرته المشتعلة تبدو وكأنه لن يريحها بجواب ..
لكن همسه الخافت يصلها بعد لحظات ..
_ التقيت امرأة تعرفني ..خشيت أن ينكشف
الأمر ..أفقت للحقيقة أن قدرتي لن يتغير .
تطلق صوتاً ساخراً يزيد حنقه لتعاود سؤاله :

_ ماذا ستفعل مع إلياس؟!_

_ لا أدري .

تنهض من رقدتها لترفع رأسها إليه هامسة :

_ افعل ما تشاء لكن اعلم أن وجودك هنا معي لأجل

مجد ..زواجنا مجرد حبر على ورق لكن شأنك يعنيني

فقط لأجل الصغيرة ..لهذا أنت مجبور أن تشاركني

قرارك وإلا فاتركها لي واذهب للجحيم لو أردت .

يرمقها بنظرة ساخطة ثم يعطيها ظهره وهو بالكاد

يمنع نفسه من الأمرين ..

أن يحطم رأسها غضباً..وأن يصرعها بين ذراعيه

عشقاً..!

يمر عليه الوقت بتثاقل بين ذكرى اليوم الصاخب وما
ينتظره في الغد حتى يرى عبر النافذة شعاع الشمس
قد بدأ في الظهور ..

ليلة أرق أخرى كسابقات الليالي ..!
_ كانت ليلة لن أنساها .

صوتها الخافت الناعس في حلمها يجعله يلتفت
لينهض من رقدته فيميز ابتسامتها في نومها لتبدو له
أسرة ..

ملاحها مرتاحة هائلة كما لم يرها من قبل ..
هذه الحمقاء الشرسة ..كم يحبها !!

يميل بحذر عبر جسد مجد النائمة بينهما ليقبل وجنة
طيف برقة قبل أن يزيح خصلات شعرها القصير عن
وجهها ..

_مخطئة! كنت سأعلم حتى ولو لم أذق ..والآن وقد
ذقت فلن أنسى أبداً ..

يهمس بها بخفوت وأناملها تتحسس وجنتها ثم يتهد
بحرارة وهو يراقب كفها الذي احتضن كف مجد بتردد
للحظات ..

قبل أن تلتمع عيناه بحسم ليضع كفه فوقهما هامساً
بما يشبه الوعد :

_لأجلكما كسر السندباد سفينته ليقطع على نفسه
سكة الهروب ..فأهلاً بالمعارك !

_"ولا في الأفلام"! عدوة الرجل وعدو المرأة
يصرعهما الحب !

_زفاف أسطوري لـ "طيف الصالح" في الصعيد حيث
بلدتها الحقيقية لثري عراقي مرموق .

تطالع الخبرين المنشورين على أحد المواقع بابتسامة
واهنة صبيحة ليلة زفافها ..

تتلقي مباركات قرائها التي انهالت على صفحتها
الرسمية مصحوبة بصورة زفافها التي شاركتها
حسنا على نفس الصفحة فلا تشعر بلوم كبير لها ..
تتسع ابتسامتها وهي تستعيد أحداث ليلة البارحة
بزهو امتزج ببعض الحسرة .. فقط لو كانت ليلة زفاف
كاملة !!

لكن .. لا بأس ..

هو ثأرها الذي سيشفى غليلها منه وستمضي في
طريقه لآخره !!

تتحرك نحو خزانة ملابسها في غرفتهما لتفتحها ..
"الدرج السري" الذي طالما ادخرت فيه أحلام
أنوثتها .. الآن تسمح لنفسها بأن تستخرجها ..

تختار قميصاً بالغ الأناقة بماركة عالمية
شهيرة .. أبيض اللون متناهي القصر لا يكاد يخفي
شيئاً من ساقها الرشيقتين وقد انتفشت فتحة صدره
لتمنحه بروزاً محبباً ..

ترتديه بخجل لم تسمح بالاعتراف به لتفحص شكلها
في المرآة ..

ثم ترتدي مئزره مفتوحاً بتعمد لتضع عطراً أسراً ثم
تبدأ في تمشيط شعرها ..

_ أين مجد؟! ألم تكن نائمة..

صوته عند الباب يفاجئها وقد بدا أنه قد استيقظ لتوه
فتلقت نحوه ليقطع عبارته وهو يشعر أنه فقد أنفاسه
مبهوراً بهذه الفتنة التي ظللتها ..

بينما تكتم هي ابتسامة شماتها برودة فعله لتعاود

تمشيط شعرها بلا مبالاة قائلة :

_ أرسلتها صباحاً مع الخادمة لصاحبك "فرقع لوز" !

لا يصح أن يعلم الجميع أن العروسين كانا نائمين مع

الطفلة ليلة زفافهما .. هنا تكون مثل هذه الأمور

"فضيحة بجلاجل"!

تتبع عبارتها بضحكة ساخرة شامتة ليقرب منها

بيطاء بلامح جامدة ..

فتردف وهي تنظر إليه عبر المرآة :

_ عمك إلياس أرسل في طلبك ..

ثم تلتفت نحوه باستطرادها :

_تناول طعامك وانظر ماذا يريد..ولا تنس أنك

ستخبرني بكل ما ستقو..

تنقطع عبارتها بأهة خافتة فلا تدري كيف صارت

فجأة على صدره ..!!

كيف تحرك بها بسرعة خاطفة ليلصقها بالجدار

القريب ،أحد ذراعيه يكبل معصمها فوق رأسها

والآخر يضمها بقوة إليه ..

تحاول ركله بين ساقيه لكنه يضغط جسدها بينه وبين

الحائط أكثر ..

همسه العنيف يصلها مشتعلاً ولهجته العراقية تزيده

ثقلًا:

_هذا لتعلمي أنني أتركك بإرادتي الحرة ..من الذي

يمنعك مني الآن ؟! ها ؟! من ؟!

لكن عينيها تشتعلان بعنف مماثل وهي تحاول
التملص من قبضته دون جدوى لتهتف بين أنفاسها
اللاهثة:

قد تكون لصاً مزوراً مخادعاً .. لكنك لست
مغتصباً .. الرجل الحر لا يمس سوى امرأته
حلاله .. وأنت لست رجلي ..
يكز على أسنانه بقوة وقبضته تزداد إحكاماً فوق
معصمها ..

لتردف بنفس العنفوان الجامح :
كنت تزعم أنني توأم روحك؟! هراء!! أين أنت
مني؟! رجلي لا يترك حقه .. لا يهرب من مشكلة
ليغرس قدميه في وحل مشكلة أكبر!! رجلي لا
يرفض العار الذي لا ذنب له فيه ليلحق بنفسه عاراً

أشد من صنع يديه !! رجلي يواجه لا يهرب !! يؤتمن
ولا يخون !! لهذا وضعت شرطي على عقد زواجنا أن
أطلق نفسي متى شئت .. لو كنت أراك رجلي لما
فعلتها .. لسلمتك أمري دون قيود .. تدري ماذا فعلت
بصدفتك التي صنعتها لي!؟

عيناه تحيدان لجيدها مع سؤاها الذي أجابته بنفسها:
_ كسرتها ودست عليها حتى أدمت قدمي لكنني لم
أبال .. لم أسمح لنفسي بالبكاء حتى آخذ ثأري
منك .. وهأنذا أفعل ! هذه هي المرأة التي تدعي أنت
أنك توأمها .. فهل تراك تصلح لأن تكون رجلها!؟
غضب أسود يشعل عينيه للحظات وقبضته تكاد تدمي
معصمها من فرط ضغطه غير الواعي عليها ..

كلماتها تضغط بقسوة على جرحه ..إنما هذه القسوة

الرحيمة التي تقوم ولا تكسر !!

لهذا ترتخي قبضته تدريجياً على معصمها فتفضهما

هي بقوة وهي تواجه عينيه بتحدّ شابه قيس من

عاطفتها الجامحة وهي تميز في ملامحه المنهكة أثر

أرقه الطويل ..

_ابتعد ..

تهتف بها بحدة ليرد بحدة مشابهة امتزجت بنبرة

تهديد :

_حسناً ..لا تعودي لترتدي مثل هذه الأشياء المستفزة

مثلك ..لو رأيته من جديد بثياب كهذه فسأعتبرها

دعوة مستترة منك سأكون أكثر من متحمس

لتلبيتها !

فتطلق صوتاً ساخراً وهي تميل وجهها بحركة

مستفزة :

_ ترى بمن من نسائك قبلي تذكرك ثيابي هذه كي

توقظ براكينك !؟

فيصمت للحظات متعمداً إثارتها وعيناه تدوران حول

ملامحها ببطء قبل أن يميل على أذنها هامساً بحرارة

مشتعلة :

_ ظننتك أذكى من ألا تدركي .. أنتِ أول امرأة أمسها .

تدمع عينها لسبب لم تشأ الاعتراف به وهي تشيح

بوجهها لكنه كان يكاد يسمع خفقات قلبها الهادرة

على صدره ..

ورغم رغبته الحالية في كسر رأسها الصلب هذا لكنه

مسح دمعته الخائنة قبل أن تسقط من طرف عينها

ليحتضن وجنتها بقوة رفيقة فيدير وجهها نحوه
هامساً أمام عينيها بقوة ذكرتها بعهدهما القديم :

_ ما يصبرني عليكِ أنني مدين لك باعتذار

كبير ..اعتذار لن تقدمه كلمات ..بل عمر ..عمر بأسره
نذرت ما بقي منه لك ولمجد .

تزدرد ريقها الجاف بصعوبة وهي تسبل جفنيها
مخفية عنه حديث عينيها ..

تصدقه ؟!

بكل روحها تصدقه لكنها لن تقولها أبداً ..
ليس قبل أن يجتاز اختباره ..ليس قبل أن تذيبه مرارة
وعيدها ..

تشعر به يبتعد فتتنح بخشونة لتهتف به :

_ إلى أين ؟!

_ سأغتسل وأبدل ثيابي كي ألتقي بعمي إلياس ..
يقولها ثم يلتفت نحوها بجانب رأسه ليردف بتهكم
مشيراً لرأسه ومحاكياً قولها منذ دقائق:
_ يجب أن يكون شعري مبتلاً وأنا أقابله وإلا
كانت .. "فضيحة بجلاجل"!

تكنم ابتسامتها فتبدو له أذ من ابتسامتها الصريحة
وهي تشيح بوجهها للحظات فيعاود السير للخروج
من الغرفة ..

_ يحيى ..

نداؤها يستوقفه فيلتفت نحوها من جديد لتتقدم منه
ببطء وهي تدرك خطورة المواجهة التي هو مقبل
عليها ..

لا تريد سؤاله عما ينتويه ..

لكنها ..

_ أنا بجانبك ..

لم تبح بها شفاتها إنما هتفت بها عيناها دون رادع
وهي تهديه قبساً من قوتها تلقفته روحه مرحبة ..
لترتجف شفاتها بابتسامة مزجت عاطفته بامتتانه قبل
أن يطلق زفرة مشتعلة وهو يعاود التحرك ليغادر
الغرفة كي يستعد للقاء المهيّب !!..



تقف بتول خلفه على بعد أمتار تتأمله ظهره في وقفته
أمام النافذة بانبهار حقيقي ..
حبها لهذا الرجل أسطورة ..



الوجه الآخر للشر عندما يكون جذاباً بل ..أسراً..
وهي اختارت الوقوع في حباله راضية غير نادمة ..
تتقدم نحوه أكثر حتى تكاد تلاصقه ..
تعانق ظهره بذراعيها فتصلها هممته الراضية
كوسام شكر ..

تمسد ذراعيه ببطء مثير ..لا ترى وشم الكوبرا الذي
يخفيه قميصه إنما تستشعر قوته تثير الرجفة في
أوصالها ..

يلتفت نحوها برأسه ثم يلف ذراعه حولها ليضمها
إليه في قبلة تبدأ حانية دافئة قبل أن تزداد قسوتها
حتى تشعر بمذاق الدم في فمها ..

تكنم أنه وجعها وهي تحاول التملص من بين ذراعيه
دون جدوى لكنه يحررها أخيراً لترمقه بنظرة غريبة
مزجت خوفها بعتابها فتلتوي شفتاه بابتسامة قاسية:

المتعة والألم توأمان لا ينفصلان .. احفظي هذا

الدرس جيداً كي توفي على نفسك الكثير من مشاقّ
تعلمه .. الألم ثمن المتعة .. والمتعة جائزة الألم .. وكلما

زاد الثمن زادت الجائزة !

ترمقه بنظرة إعجاب غامرة رغم الخوف الذي دب في
أوصالها قبل أن تتناول منديلاً مسحت به بقايا الدم

على شفتيها لتسأله باهتمام :

ماذا كنت تشاهد بهذا الاهتمام!؟

تقولها مشيرة لهاتفه في يده فيعاود ضمها إليه برفق

هذه المرة ليفتح هاتفه قائلاً :

_ انظري لهذا الفيديو .. أرنبان ضعيفان هزيلان تم
تجويعهما لأيام ثم وضعوا أمامهما القليل من الطعام
الذي بالكاد يكفي أحدهما .. انظري .. ماذا يحدث ..
تتسع عيناها بانفعال يتحول لمزيج من رعب
واشمئزاز وهي ترى الأرنبين يتصارعان بضراوة
قاسية لينتهي الحال بأحدهما ممزقاً غارقاً بدمائه
بينما لم يكن الآخر أفضل حالاً لكنه انقض على الطعام
ليلتهمه بنهم ..

_ هذا هو فن استخراج القوى الدفينة .. لكل واحد منا
قوة داخلية عاصفة لا تصقلها إلا ظروف خارجية
خاصة .. قوة لن تصدقي وجودها إلا عندما تستفزين

منبعها ..والعبرية هنا هي استتباط هذا
المنبع ..وإجادة استفزازه ..وهذه لعبتي!
ترتجف ابتسامتها وهي تحاول مجاراته :
_بالتأكيد ..لكل منا منبع قوة ..ونقطة ضعف ..
ثم تعانق وجهه بكفيها مردفة:

_أم أنك لا تملك واحدة!؟

يهياً إليها أن عينيه تغيمن بنظرة إنسانية نادرة
ليغيب في شرود قصير قبل أن يتمم بخفوت:
_واحدة ..نقطة ضعف واحدة ..لكن عزائي ألا أحد
يعرفها ..لا أحد ..والقانون عندي ثابت فيها :الموت
يسبق الوصول إليها .

ورغم اعتيادها قسوته لكنها شعرت بها هذه المرة
هادرة مخيفة تفوق حدود احتمالها لهذا تتحننت

بارتباك وهي تتراجع للخلف خطوة عندما رأت أحد رجاله يتقدم نحوه ليخبره أن أحدهم يطلب الإذن للدخول فاتخذتها ذريعة لتسحب ..

_ سيدي .

يهتف بها الرجل الذي دخل لتوه ممتقع الوجه ليلتفت نحوه "الكوبرا" بنظرة مترقبة وقد تعرف إليه قائلاً:

_ هات ما عندك ..أظنه قد حان الأوان لنستعيد أمانتنا

التي سرقها ذاك الوغد غازي قبل أن ينال جزاء

خيانتته؟! الدنيا هدأت بعد موته وخاصة بعدما أرحنا

ذاك الضابط المدعو "أديم" من طريقنا .

يتلجلج الرجل وقد بدا على ملامحه الخوف للحظات

قبل أن يعاود القول بتلعثم:

_ غازي كان يخفي مفتاح باب قبو بيته المصفح حيث
"أمانتنا" في مكان ما دلني عليه رجلنا الذي دسنا
لمراقبته خفية ..

يقولها ليعاود صمته المذعور فيصرخ فيه الكوبرا
هادراً:

_ هل ستتقطني بالكلمات؟! انطق ..ماذا حدث؟!
_ المفتاح كان في بطانة حقيبة قديمة مرمية في
مخزن قديم بيته تخص زوجته الثانية
السورية ..تركناه هناك في مأمنه حتى تهدأ الأمور
كما طلبت ..لكن المفاجأة أن الحقيبة اختفت ..رجلنا
هناك بحث عنها فلم يجدها ..لكنه سأل ليكتشف أن
المرأة استعادتها ..

_ الحقيية اختفت .. وهو اكتشف أن المرأة

استعادتها ..!!؟

يقولها ببرود مستنكر قاس وهو يقترب من الرجل

الذي صرخ وقبضتا الكوبرا تعصران عنقه

باستطراده:

_ وماذا كان يفعل هو هناك إذن ؟! يشم الهواء؟!!

يصرخ الرجل باستجداء ليهمس له الكوبرا وقبضتاه

تبدوان كرسول موت قريب :

_ لا مكان عندي لغبي أو متقاعس .. تعرف كم تساوي

أمانتتا تلك عنده ؟! أنت المسئول أمامي .

_ الرحمة .. هو خطئي الأول .. أرجوك سيدي ..

_ خطوك الأول عندي هو خطوك الأخير .



يهمس بها الكوبرا بقسوة تليق بلقبه وهو يراقب
وجه الرجل الذي احتقن حد الانفجار وهو يحاول
المقاومة لكنه كان يشعر بأسلحة الحرس خلفه تحذره
من عقم المحاولة ..

يسقط صريعاً أخيراً تحت قدميه فيشير الكوبرا لرجاله
إشارة خاصة ليتقدموا فيحملوه بعيداً قبل أن يشير
لأحدهم فيتقدم نحوه ليهتف به بصرامة قاسية:
_تولّ أنت أمر ذاك الغبي الآخر هناك .. واجمع لي كل
المعلومات عن زوجته الثانية تلك .. يبدو أن لنا جولة
أخرى معها ..



الطيب الرابع والعشرون



القلب يعزف ألف لحن للوجع...

الفارس المشهود فوق جواده... وقع!

وأنا المذبوح بين أمسي وغدي ...

أترنح... فardاً يدي...

أدور خلف الطائفين حول صنم الوهم مدعياً

خشوعي..

لكن قبس النور لازال ييزغ من ضلوعي...

عودي إليّ حقيقتي فكم مللت خداع المرايا!

(جهاد)



على متن الطائرة العائدة من مصر للإمارات
وبالتحديد لـ "أبو ظبي" يتخذ مقعده ..
أنامله المشتعلة تشد على حزام أمانه وهو يدير وجهه
نحو النافذة ..

هاهو ذا يترك "النيل" خلفه ..
النيل الذي ظنه يوماً منبع الأمان والعطاء فلم يكن له
إلا فيض غدر !

ينعقد حاجباه بشدة وملامح زهرة تتشكل حتى أمام
عينيهِ المغمضتين ..

تعيّره بأنه دوماً مخدوع !
هو الذي ما عشق صورته يوماً كما عشقها في
عينيها ..

الآن .. يكرههما معاً!!

تدمع عيناه باشتياق لم يذبحه غضبه وابتسامة مريرة
تحتل شفثيه ..

كيف يطمح أن يستعيد وطنه الأعظم إذا كان وطنه
الأصغر قد خانه ؟!

كيف يؤمن بالحب من جديد وقد باعته "سيدة الحب"
في أول اختبار وبأبخس ثمن "؟!
لو جرت الأمور كما خطط لها لكانت الآن عائدة معه
عروسه وأم أولاد الغد ..

لكانت الآن جواره على الكرسي بدلاً من ...!
_ تفكر فيها؟!

صوت يولاند "المعتاد" يصله إنما "غريب" ككل
شيء صار حوله !!

لا يزال يذكر لقاءه بها ذاك اليوم في بهو الفندق
بهيئتها الغريبة على "فدوى" التي اعتادها ..:

فدوى؟!!

بل يولاند يا جهاد .. يولاند ..

صوتها بلغته الفرنسية وبثيابها المكشوفة يذكره

"ظاهراً" بيولاند التي قابلها أول مرة منذ

سنوات .. إنما دون تألقها المتوهج وقوتها الظاهرة ..

ونظرة عينيها الكسيرة "باطناً" تذكره بفدوى التي

تركها خلفه مع ريان ..

عقله يرسل إليه بالمزيد من "شرارات الخطر" لكنه

يتجاوزها وهو يسألها مصدوماً:

هل أتيت وحدك؟! أين ريان والأولاد؟!!

_قتلهم !

لوهلة هيئ إليه أنه لم يسمع !!

يقترّب منها خطوة دون وعي وهو يكرر سؤاله فتملاً

الدموع عينيها الزائغتين وابتسامة عصبية تذب

شفتيها مع كلماتها الفرنسية :

_يقولون ..يقولون إنه قتلهم ..لكنني لا

أصدقهم ..أولادي نائمون هناك ..هناك في فراشهم

تحت التراب ..أنا غنيت لهم أغنية

النوم ..وسيستيقظون عندما أعود ..

تنهار تماماً مع كلماتها الأخيرة لتتخرط في بكاء حاد

يجذب إليهما الأنظار فيكتم صرخة خافتة شقت صدره

و قلبه ينقبض بعدم تصديق لما ترويه ..

لا ..لا يمكن أن تعني هذا الذي فهمه !!!

يشير لها جانباً كي يجلس أمامها على كرسيين

متقابلين ..

يخشى أن يعيد سؤاله عن اولادها .. يسألها بصوت

مرتجف :

_ اهدئي .. اهدئي وأخبريني ماذا حدث .. كيف تركك

ريان تسافرين وحدك !؟!

_ كما ترك كل شيء خلفه ! أنا وأولاده وحتى أنت !

تقولها بعصبية وهي تمسح وجهها بأناملها المرتجفة

فيزداد انعقاد حاجبيه وهو يتمتم بالسؤال الذي لم يرد

تصديق جوابه :

_ ماذا تعنين !؟ ريان هو من أبلغ إدارة المشفى حقاً

عما حدث معي !؟!

_ نعم ..تدري لماذا فعلها؟! لأنه رأى نفسه أحق
بالوظيفة منك إذ أنه صاحب عائلة ..عائلة ضيعها
بجحوده وغدره ..

يرفع إليها عينين مصدومتين بكل هذا الذي يسمعه
فتردف بانفعال :

_صاحبك تزوج بأخرى ..وعندما واجهته قال إن دينه
يبيح له ذلك ..يبيح له رمي بطول ذراعه بعدما
زهدني ليتنعم مع غيري؟! لو كان دينه يبيع له الغدر
بزوجته فهل يبيع له الغدر بصديق عمره كذلك؟!
يشعر بالخطر وكلامها عن "دينه" يمنحه التفسير
لمظهرها العجيب فيهمّ بجدالها لكنها تردف بحرقة
وقد عادت دموعها تغرق وجهها :

كنت أشعر ..كنت شبه متأكدة ..لكن هذا لم يساو
شيئاً عندما رأيته معها بثياب النوم في
شقتها ..تحدث عن اغتصاب وطنك يا جهاد؟! عن
شعورك بالظلم وهم يطردونك منه دون ذنب؟! أضف
لهذا شعورك بالغدر وأنت لا تفهم جريمتك في كل ما
يجري ..بعدها منحت كل شيء ..كل شيء يمكن أن
تمنحه ..فيضيع منك كل شيء كذلك في غمضة عين!
تدمع عيناه بهذه الغصة في حلقه وهو يتذكر شكوكه
بشأن ريان ..

قالها يوماً إن صاحبه لا يخون ..فخان ..
تماماً كما قالها إن زهرته لن يجف عطاء نيلها في
قلبه ..فجف!
ياالله!!

لا يصدق .. ولا يريد التصديق !!

لهذا يبتلع غصته وهو يميل بجذعه للأمام ليسألها

بصوت متحشرج :

_ أين الأولاد !؟!

تشيخ بوجهها والمشهد الدامي لاصطدام سيارتها

يعاود قصف روحها فتفرج شفتاها عن أنة طويلة

كأنها تسمع صوت روحها تُذبح ..

فتشحب ملامحه وصوته يزداد ارتجافاً مكذباً كل ما

يصل لعقله :

_ الأولاد .. الأولاد يا فدوى !!

_ يولاند ! يولاند !!

تصرخ بها بانفعال نفرت له عروق رقبتها وهي

تنهض واقفة مكانها لتلوح بذراعيها مردفة :

_ أولاد فدوى ماتوا ..قتلهم صاحبك ..

يرتد مكانه مجفلاً ليرتجف صوتها وهو يخفت

تدريجياً باستدراكها الملتاع:

_ وربما قتلتهم أنا بسوء اختياري ..كنت أقود السيارة

بسرعة جنونية كي أهرب بنا معاً ..لم أكن أرى شيئاً

أمامي سوى غضبي منه ومن نفسي ..سمعت صوت

الارتطام وبعدها سكن كل شيء ..

ثم تصمت لحظة لتغمض عينيها وقد وصل صوتها حد

الهمس بقولها :

_ وبعدها ..مات كل شيء ..فدوى ماتت مع أولادها !

لم يشعر بنفسه وهو ينحني ليدفن وجهه بين كفيه في

نسيج خافت ..

ماتوا !

لم يكونوا صغار ريان فحسب بل كانوا أولاده هو

الآخر !!

عائلته الصغيرة اختفت!!

يبكي .. ويبكي .. فلا يدري هل يبكي الصغار فحسب أم

يبكي نفسه معهم ..

هكذا في غمضة عين صار وحيداً منبوذاً من جديد ..

شجرة اجثتت من فوق الأرض مالها من قرار !!

_فيما أنت شارد؟! كل هذا لأنني سألتك إذا كنت تفكر

فيها!؟

صوت يولاند ينتزعه من شرود ذكراه فيلتفت نحوها

بحدة لتبتسم بمرارة وهي تتذكر ما رواه لها عن

تخلي زهرة عنه فتقول بالفرنسية التي صارت لغتها

مغمضة العينين :

_الجرح واحد يا جهاد ..الفارق أنني أعرف طريقي
ورحلتنا هذه أول خطوة فيه ..فهل تعرفه أنت؟!
سؤالها يبقى معلقاً بينهما وصوت المذياع الداخلي
للطائرة يعلن وصولهما ..

فتشتد ملامحه بحدة قاسية وهو يحرك أنامله ليفك
حزام مقعده فتقع عيناه على "ميدالية حنظلة" ..
ولأول مرة في حياته يحركها ليخفيها في جيبه غير
قادر على النظر إليها ..
لا يدري نفوراً ..أم خزيًا!

=====

_دكتور جهاد!

يقولها حارس الأمن على بوابة المشفى الذي كان
يعمل فيه بود لأول وهلة ..لم يلبث أن تحول للكثير
من الحذر وهو يتلفت حوله ليبتسم جهاد بمرارة
قائلاً :

_ كيف حالك ؟! لديك أوامر بمنعي من الدخول ؟!

يبتسم الرجل بمزيج من حرج وإشفاق ليقرب منه
قائلاً بما يشبه الاعتذار :

_ عفوا يا دكتور ..الأقاويل كثيرة وتنتشر بسرعة كما
تعلم ..أخبروني أنه قد تم فصلك من العمل .. لم أصدق
ما زعموه ..لكن اعذرني لن أستطيع ..

_ لا عليك ..فقط أخبر دكتور ريان أنني أنتظره هناك
في الحديقة المقابلة .

يقولها جهاد بمرارة وقسوة مستحدثة حفرت أخايدها
مؤخراً على ملامحه ليرمق مبني المشفى بنظرة
مقهورة قبل أن يتحرك للحديقة المقابلة حيث كان
يلتقي ريان وأولاده كما اعتادوا في الأيام الخوالي ..
تدمع عيناه بحزن وهو يتخذ مجلسه على المائدة
المعتادة ..

طيف الأولاد الذين تربوا على يده يحلق حوله ..
يراهم بعين خياله يركضون .. يتسابقون .. يتصايحون
.. يتشاكسون .. يندفعون نحوه بعناقاتهم الدافئة ..
يا لله!

إذا كان قلبه هو يكاد ينفطر فكيف تحملت فدوى هذا

الوزر!؟

فدوي!؟

فدوى ماتت مع أولادها ..من بقيت الآن هي

يولاند ..يولاند الشريفة مثله !

تتساب عيناه لمائدة بعيدة ..

هذه التي التقى زهرة هناك عندها يوماً بعدما تركت

العمل في المشفى لآخر وقد جلست تكتب ..

ذاك اليوم الذي فضحتها فيه رنة هاتفها بنغمة

فيروز ..

كما وشى بها الوشاح الفلسطيني الذي علقته على

حبيبة يدها ..

قبل أن تكمل نظراتها الحكاية بينهما ..

كل هذا كان مجرد سحابة صيف؟

قصر رمال هدمته أول موجة عابرة؟

_جهاد !

صوت ريان المرتعش خلفه ينتزعه من أفكاره

فلا يملك الرغبة أول وهلة ليلتفت !

يقف أخيراً على ساقين مرتجفتين بالخدلان ليواجه
صديق العمر بالوجه الذي خدشته أنامل القسوة حتى
استباحته ..

_ كيف حالك يا صاحبي!؟!

تهكمه المرير ينضح بعتاب لا جدوى منه ليقترب منه
ريان الذي طالت لحيته بإهمال وقد فضحت ملامحه
هو الآخر تعباً لا حد له ..

_ لماذا جئت يا جهاد!؟ أظنك صرت تعلم ما فعلته أنا
بك!؟ جئت معاتباً!؟ أم جئت معزياً!؟ أم تراك جئت
شامتاً!؟!

نبرة ريان المنهزمة تتخضب بالغضب وقد كره أن

يقف موقف المدافع ..

ليلوح بذراعيه مردفاً بحدة :

_جئت لتحدثني عن المبادئ؟! عن المثاليات التي

كادت تلقيك خلف الشمس؟! جئت تلومني لأنني فكرت

في بيتي وأولادي قبل تفكيري فيك ..لأنني اخترت من

كان يجب أن أختارهم؟!!! أجل ..اخترت مصلحة

أولادي . ليست نهاية العالم بالنسبة لك أن تترك

المشفى ..يمكنك بسهولة العثور على عمل

آخر ..لكنني كيف كنت سأقبلها بهذه البساطة وأنا

مربوط من عنقي بحبال زوجة وأولاد؟!!

يصمت جهاد للحظات فيردف ريان وقد ظن أنه أحرز

هدفاً:

_ لا ترى الأمور بعينك بل بعيني أنا ..لن تجرب

شعوري مالم تضعك الظروف فيه .

لكن جهاد يقترب منه ليتفرس في ملامحه للحظات

صامتاً قبل أن يقول بنبرته مستحدثة القسوة :

_ تعرف فيما كنت أفكر طوال رحلة عودتي إلى هنا ؟!

كيف لم أفهمك حقاً طوال هذه السنوات ؟! كيف

تحولت بهذه السرعة لهذا المسخ الذي لا أكاد أعرفه

؟! هل كنت أنا المغفل أم كنت أنت المخادع ؟!

يشيح ريان بوجهه وهو يشعر بالمزيد من الخزي

يدفعه للمزيد من المكابرة :

_ كنت مضطراً لتحمل مسؤولية أولادي!

_ أنت لم تتحمل يوماً مسؤولية ! ليست فقط فدوى

التي ضيعتها بغدرك ولا أولادك الذين يحترق قلبي

عليهم ولا حتى مسئولية نفسك التي بعثها لامرأة
بمسمى زواج ..بل منذ سنوات طويلة عندما تخلّيت
عن شقيقتك "دينا" بدعوى الشرف وهربت بالسفر
بدلاً من أن تقف جوارها !

لم يكد يتم آخر حروف كلماته حتى شعر بقبضة ريان
تشد على قميصه ليجذبه نحوه بعنف هاتفاً بغضب:

_ هل هذا وعد الرجال؟! تعيرني بشقيقتي!؟!

عاهدتني من يومها ألا تفتح هذا الموضوع معي

أبدأ !

_ لأنني ظننتك لن تعيد الخطأ ..ظننتك حقاً نادماً ولن

تُضَيِّع من تعول ..لكن ها هو ذا التاريخ يعيد نفسه !!

يهتف بها جهاد بقسوة يدرك كم هي قاتلة لرجولة
صاحبه الذي تهدل كتفاه رغم قبضته التي لا تزال
تعتصر قميص جهاد وهو يقول من بين أسنانه :
_ ما الذي تنتويه؟! فضحي بعار أختي؟! هه؟! هل
هذا ما تريده?!

لكن جهاد يحمر نفسه منه بغلظة ليدفعه بعيداً
بهتافه :

_ لست بهذه الحقارة لأطعنك بهذه الخسة .. لكنني
سأريك .. سأريك جميعاً أنني لست الغر الساذج الذي
تظنونه .. سألتني في أول المقابلة لماذا جئت؟! وهاك
الجواب! جئت منتقماً يا ريان ! قسماً بربي سأوجعك

قدر ما أوجعتني ..سأذيقك مرارة الخيانة عندما تأتيك
من قريب .

يحتقن وجه ريان وهو يشعر أنه يقف أمام رجل آخر
غير الذي عرفه طوال عمره ليشير له بسبابة مرتجفة
هاتفاً :

_ هذا ليس كلامك ! إنها فدوى ! هي كلمتك ؟! هي من
حرضتك عليّ بهذه الطريقة ؟!

_ لا فائدة ! أخبرتك أن فدوى ماتت يا ريان ..ويولاند
تعيش فقط لتذيقك أسوأ كوابيسك !

الهتاف الفرنسي يأتيه من خلفه بصوتها فيلتفت

نحوها وهو يشعر أنه محاصر بينهما ..

يرى بعض الناس منهم وجوه مألوفة لأناس يعملون
في المشفى وقد تجمعوا يراقبون من بعيد فتأخذه
العزة بالإثم ليهتف بأول ما تبادر لذهنه:

_ أرى أنكما على وفاق ولا أظن الأمر حديث
العهد .. يبدو أنني فقط كنت مغفلاً فلم ألاحظ طيلة
زواجنا ! لماذا تلوميني إذن ؟! لم أكن وحدي
الخائن!

_ اخرس!

صفعة يولاند تأتي في نفس اللحظة التي تحرك فيها
جهد ليصفعه هو الآخر على وجهه فيرتجف جسد
ريان بالمزيد من الغضب وهو يصرخ فيهما باتهامات
لم يعد يتحكم فيها ..

تهم يولاند بصفعة من جديد لكن جهاد يبعتها ليقترب
منه بملاح جامدة هاتفاً ببرود قاس :

(روق يا ضاوي)

عبارته المعتادة -بلهجته الفلسطينية- التي كان يهدئه
بها في عهد صداقتهما القديم ..

الآن حملت تهديداً خفياً صرخ في عينين كانتا يوماً
بزرقة سماء صافية والآن تتوهجان بهدير بحر

هائج !!

يتقدم نحوهم بعض الحرس ليبعدهم ويفض الجمع
فينقل ريان بصره بين الاثنتين لتشتعل النظرات بينهم
للحظات قبل أن يتحرك جهاد ليغادر جوار يولاند ..

كلاهما كان يعطيه ظهره لكنه كان غارقاً في نظرة كل
منهما الأخيرة المتوعدة فيعلو صدره ويهبط وهو
يشعر بالأرض تميد تحت قدميه ..
ماذا يخبئان له؟! وهل بعد خسارته خسارة؟!
=====

خطواته تتناقل وهو يتوجه نحو غرفة إلياس
المغلقة ..

كأنها بركان حامل يوشك أن تتفجر نيرانه عبر فوهته
الخادعة ..

هل أن الأوان لكشف السر؟!
أم لا يزال العمر يتسع للمزيد من المواراة؟!


يتوقف يحيى أمام الباب ليرفع أنامله يهم بطرقه لكنها

تتوقف مكانها في الهواء ..

زجاجة العطر المكسورة ..

حقيبة السفر المفتوحة ..

الباب المغلق الذي سقط بظهره عليه ..

الحقيقة التي غرزت النصل الغادر في ظهره ..

فهل يملك الجرأة الآن لفعل المثل بالياس؟!!

عرق غزير يكاد يغرق جبينه فيتراجع خطوة تلو

خطوة وهو يهز رأسه نفيا كأنما يمنح نفسه

الجواب ..

لكنه يتوقف مكانه وهو يرفع رأسه لأعلى ..

لا بديل عن المواجهة يا يحيى !

السندباد كسر سفينته ..وانتهى الأمر ..

خذ رحلتك وسط الموج فأدرك الشاطئ أو اغرق

دونه ..

لا مفر .. لا مفر !!..

خطواته تزداد رسوخاً وهو يعاود التقدم ليترك الباب

بقوة هذه المرة دون أن يتردد في الدخول بعد سماعه

صوت إلياس ..

_ أهلاً بالعريس .

يقولها إلياس بود عاطفي يميز شخصيته امتزج

بالكثير من العتاب الذي لم يلمه عليه وهو يتقدم نحوه

وقد أغلق الباب خلفه ..

ليجلس جوار عمه فوق الأريكة الجانبية فيرمقه

إلياس بنظرة متفحصة وهو يردف رافعاً هاتفه :



عفواً .. اعذرنى لو انتزعتك من عروسك .. لكنك لا
تدري كم مكالمة تلقيتها من استبرق منذ مغادرتي
بغداد تتساءل عن سبب سفري المفاجئ .. المسكينة !
كان قلبها يشعر ! لكنني على وعدي لك ولم أخبرها .
ابتسامة مريرة تذب شفتي يحيى الذي رمق الهاتف
في يد إلياس بنظرة غريبة كأنه يخافه .. ويشتاقه!!
يشتاقها؟!!

كاذب لو ادعى العكس رغم كل ما كان !!
كيف يقتل هذا الحنين الذي يكاد يشطر قلبه وهو
يسمع اسمها من بين شفتي الياس ببساطة كما كان
الأمر في سنوات عمره الأولى ..

ياالله!!

كان الأيام لم تمر !!

طوال هذه السنوات وهو يكتفي بمراقبة صورها هي
وسراب ..

كبرت .. لتكبر معهما حرائق الخطيئة في صدره ..
لكنه وسط كل هذا لا يستطيع اقتلاع عاطفته الفطرية
نحوها من صدره ..

فعلها مع سراب قسراً .. فعلها مع عمه تاراً .. لكنه
توقف أمامها هي ..

بقيت كالجبل الشامخ في روحه تتحداه أن يؤذيها .. أو
حتى يكرهها ..

فاكتفى بكراهية نفسه وادعاء النسيان فحسب!؟

_ كيف هي!؟

حروفه المتحشجة تفضح شتات روحه ليحييه إلياس

بعتاب وهو يستدير نحوه بكامل جسده:

_تسأل؟! الآن تسأل؟! تعرف كم تحبك استبرق؟! أنت
لست ابنها فحسب .. أنت كنز عمرها الذي ادخرته لما
بقي من أيامها بعد وفاة أبيك رحمه الله !

(أبيك!)

الكلمة على بساطتها توجب حرائق روحه فيكز على
أسنانه بقوة تكاد تحطمها كأنه يحبس لسانه كاتماً
بوح حرائقه ..

وجهه يكاد ينفجر من فرط احتقانه فيشعر إلياس
بالشفقة نحوه ليربت على كتفه قائلاً بالمزيد من الود
العاتب :

_ليست استبرق فقط من تحتاجك .. العائلة كلها
تحتاجك .. خاصة بعد مصابنا في عمك .

يغمض يحيى عينيه بقوة ليسيئ إلياس تأويل حركته

فيردف بأسف:

_أعرف أنك حائق عليه بعدما رفض زواجك من

سراب .. لكن الأمر مر عليه سنوات .. أنت لا تعرف

ماذا حدث له ..

_بل أعرف .

يقولها بحسم من بين أسنانه لينعقد حاجبا إلياس

بسؤاله :

_تعرف أنه سجن ظلماً؟!

لكن يحيى يهز رأسه ليقف قائلاً :

_ليس ظلماً .. هو كان يعمل خلف غطاء مشبوه طوال

هذه السنوات .

يقف إلياس بدوره ليزداد انعقاد حاجبيه وهو يواجهه

بهتافه:

_ ماذا تقول؟! وكيف عرفت أنت؟!!

فيطرق يحيى بوجهه للحظات قبل أن يرفعه بجوابه :

_ لأنني أنا من تسببت في سجنه .

تتسع عينا إلياس بصدمة للحظات وقد شحب وجهه

تماماً ..

قبل أن يعود إليه الدم ليحتقن بشدة وهو يتمتم

بذهول :

_ سجنك عمك .

_ ليس عمي يا إلياس .. غيث الأمين ليس عمي ..

تشتعل عينا إلياس بغضب هادر وهو يهتف به

باستنكار :



_ تبرات من عمك !؟

فترتجف شفتا يحيى بشبه ابتسامة ساخرة .. وهو

يشيح بوجهه ..

عيناه تدمعان من فرط الثقل الذي يجثم على صدره ..

لكنه يحسم ترده ليفجر قنبلته :

_ غيث الأمين أبي .. أبي الحقيقي .. استبرق خانت أحد

شقيقك مع الآخر .

صمت رهيب يسود في الغرفة لدقيقة كاملة بعد

عبارته ..

قبل أن ينفجر الموقف كله فجأة بهذه الصفحة التي

هوى بها إلياس على وجنته قبل أن يدفعه بقوة

ليرتطم يحيى بالجدار خلفه فيغلق عينيه من جديد

وهو يشعر بقبضتي إلیاس تطوقان عنقه بقوة مع

هسيس صوته المشتعل بغضبه وصدمة :
_

اخرس ..سأقطع لسانك لو أعدتها! لیتك مت ولم

أسمعك تهذي بهذه الافتراءات ..من تتهم يا حقیر!؟!

استبرق؟! أنت تخوض في شرف أمك وشرف

شقیقی؟! أنت .. أنت ..

تنقطع كلماته وقبضتاه تعصران عنق يحيى بالمزيد

من الغضب ليحتقن وجه الأخير بألم روحه الذي فاق

بكثير ألم جسده ..

تتشرج أنفاس يحيى وهو يشعر بقرب اختناقه لكن

إلیاس يطلقه أخيراً لتتراخي قبضتاه حول عنقه

متمتماً بغضب هادر والدموع المتحجرة تملأ عينيه:

_ القتل خسارة في كلب مثلك ..حتى لو كنت تستحقه !
هل هذا انتقامك من غيث لأنه رفض تزويجك من
ابنته !؟

هنا يهتف يحيى بانفعال وهو يلوح بذراعيه :
_ ولم تسأل نفسك لماذا فعلها؟! أنا سمعتها بأذني في
غرفة مكتبه يعترفان بخيانتها وسبب رفضه لزواجي
بابنته ..سراب أختي ..أختي يا إلياس..
_ اخرس ..اخرس ..لا أريد أن أسمع ..

يكمم إلياس فمه وهتافه يلتحم بدموع الغضب
والصدمة على وجنتيه لكن يحيى يحرر وجهه منه
ليهتف به بانفعال:

_ انظر إليّ يا إلياس ..انظر ليحيى الذي تربي معك
وأخبرني ..ما الذي كان سيجبرني على ترك العائلة

والبلد كلها لو لم يكن أمراً جليلاً؟! ما الذي منعني من
اختطاف سراب التي كنت انت نفسك شاهداً على مدى
حبي لها والزواج منها رغم أنف الجميع؟ أخبرني عن
يحيى الجسور الذي تعرفه ..كيف قبل أن يحضر
زفافها هكذا باستسلام دون مقاومة قبل أن يترك كل
شيء خلفه هكذا طوال هذه السنوات؟!
يهز إلياس رأسه بغضب يتحول رويداً رويداً لصدمة
تقترب من التصديق ويحيى يضع أمامه كل التساؤلات
التي سألها هو لنفسه منذ غيابه ..

لكنه في أقصى خيالاته جموحاً لم يتصور أن يكون

الجواب ..خيانة!

خيانة بهذه البشاعة!!

_ أنت تتحدث عن استبرق .. استبرق يا
يحيى .. استبرق التي ربتي وتكاد تكون أمي كما هي
أمك !

الغضب .. الاستنكار .. الوجد .. الغدر .. الصدمة ..
نفس الخليط البشع الذي عانى منه لسنوات .. والآن
يشاركه فيه عمه ..

_ تذكر أنك أنت من طلبت الحقيقة .. لو لم أسمع بأذني
لما صدقت .. أعذرك في صدمتك .. أظنك الآن تفهم أي
جحيم عشته طوال هذه السنوات !

يرفع إليه إلياس عينين مصعوقيتين ليردف يحيى
بمرارة خزيه:

_ بقي الجزء الأخير من حكاية عاري .. ابن أخيك
سليل عائلة الأمين بكل ثروتها ونفوذها عاش هذه

السنوات يشتغل بالنصب ..الأرصفة الباردة كانت أحن
عليّ من دفء بيت قامت جدرانها على الغدر
والخداع ..فقلت لنفسي ما الفارق ..عندما ترتشف
مرار الخديعة ببطء قاس يسهل عليك أن تسقيها
لغيرك غير مهتم .

_اخرس يا يحيى ..أنا اكتفيت من سمومك لهذا

اليوم ..اخرس واطركني وحدي ..

يهتف بها إلياس بقهر وهو يعطيه ظهره فيزفر يحيى
بغضب مدركاً أنه لم يصدقه ..

_لماذا طلبت الحقيقة مادمت لن تصدقها؟! الوزر ثقيل

؟! تعجز عن تحمله ناهيك عن تصديقه؟! انظر إذن

أي جحيم عشته وحدي طوال هذه السنوات !! لو لم

تكن تصدقتي فعد من حيث أتيت ..قل لهم أن يحيى

الأمين مات وكنت تحضر عزاءه ولن ترى وجهي

بعدها أبداً !

يهتف بها بحدة انفعاله وشعوره بالقهر ليخفي إلياس

وجهه الدامع بين كفيه قبل أن ينهار جالساً على

الأريكة من جديد فيما يتحرك يحيى ليغادر الغرفة

صافقاً الباب خلفه ..

=====

أبيض

=====

طيري يا طيارة طيري ..

يا ورق وخيطان

بدي أرجع بنت صغيرة

ع سطح الجيران ..

تغمغم بها ماسة وهي تجلس داخل "التعريشة"
الجديدة في حديقة بيت عاصي الجديد وهي تصنع
طائرة ورقية ..

تبتسم بحنين جارف دمعت له عيناها وهي تستعيد
ذكرياتها هنا ..

يا الله !

كم تغير الزمان ولم يتغير عشقها لسيد الأضداد ..
وهاهي ذي تعود لنفس القصر .. لنفس المكان .. تغني
نفس الأغنية ..

لكن الجديد هنا هو :

جميلة جداً يا أمي .

أنتِ الأفضل دوماً .. ماسة !

الأولى بصوت نور الحنون والثانية بصوت ضياء
المتحمس وهو يكور قبضته ملصقاً إبهامه بسبابته
كما يفعل أبوه لتضحك بهناءة وهي تضمهما نحوها
بقوة قبل أن تتأوه ببعض الألم وهي تتحسس بطنها ..
_ حبيبة أخيك! هل أتعبك هذان!؟!

يهتف بها فهد بحنان وهو يندفع نحوهم ليتقافز
الصغيران حوله فيقبلهما بسرعة ثم يلقي
ب"كرة" كان يحملها خارج المكان هاتفاً:
_ "لوكا" تنتظر كما لتلعبا معاً .. لا تتشاجروا .

يعدو الصغيران مبتعدين ليبتسم برضا وهو يراقبهم
من بعيد قبل أن يتقدم ليجلس جوار أخته فيمسد
بطنها بحنان ثم يقبل جبينها وهو يضمها إليه هامساً
بامتنان:

_ لن انسى صنيعك بشأن ديمة .

_ وأنا لن أسامحك لأنك جعلتني أخفي الأمر عن

عاصي .. أنا كذبت عليه وأخبرته أنها وقعت في طريق

عودتها من المقابر وهذا سبب جروح وجهها ..

تهمس بها عاتبة ليتهد بقوله:

_ تعرفين حساسية وضعي بين الاثنين .. حسام

وعاصي .

تمط شفقتها باستياء وهي تشيح بوجهها لكنه يعاود

جذبه نحوه ليهمس أمام عينيها بصدق حار :

_ من فينا بلا ذنوب يا ماسة؟! أنا الشاهد الوحيد علي

عذاب صاحبي بذنبه الذي يجلد به نفسه كل يوم .. بل

كل ساعة .

_ وديمة هذه هي علاجه؟!!

تهمس بها باستتكار فيطرق برأسه دون رد لتردف

بانفعال:

_ لا تحفظ لي على المرأة لكنها بالفعل غير

متزنة .. بالكاد تتولي شأن نفسها .. هي تحتاج لمن

يعيد لها توازنها .. لا رجلاً معقداً كصاحبك .. كما أن

عاصي لن يتسامح في هذا أبداً .

_ وهل سيحبسها عاصي هنا لأجل سند للأبد!؟!

_ حتى لو لم يطلبها عاصي هي ستفعلها من

نفسها .. أنت لا تعرف كم هي متعلقة بالصغير وتعتبره

ابنها فعلاً .

يتنهد فهد بحرارة وهو يشيح بوجهه هامساً:

_ على العموم .. لا تشغلي بالك .. حسام أخبرني أنه لم

يلتقها بالأمس إلا كي يودعها .. ورغم أنني أعترض

مثلك على علاقتهما لكنني تمنيت صدقاً لو وجد قلب
صاحبي راحته .

_ هل فاتني شيء؟!!

صوت عاصي المهيب عند مدخل التعريشة يقاطع
همسهما المختلس فتغضب ماسة ابتسامة واسعة
وهي ترفع ما بيدها قائلة :

_ طائرة ورقية! تذكر؟!!

ابتسامة وقور ترسم علي شفثيه رغم جموح عاطفته
فيتنحج فهد وهو يقف قائلاً:

_ هنا يأتي دوري لأنسحب كي لا أودي دور
"العزول" في الفيلم .

تضحك ماسة وهي تخبطه بخفة على كفه بينما يكتفي
عاصي بابتسامته وهو يسمع قوله قبل أن يغادر :

_أروح أنا الآخر للأستاذة نجتر الذكريات ..ناس لها
طائرة ورقية وناس لها ندبة ذقن بمدية ! حظوظ !
تضحك ماسة من جديد لقوله بينما تلتمع بحار فضتها
وهي تراقب وجه عاصي المرتاح الذي تقدم نحوها
ليجلس جوارها ثم يضمها لكنفه فتضع ما بيدها جانباً
ثم تمرغ وجهها في صدره وهي تتنشق رائحته
هامسة:

_طوال هذه السنوات وأنا أسأل نفسي كيف تفعلها !
يرفع ذقتها إليه بنظرة متسائلة لتتظزل "زيتونيتيه"
حبيبتها مردفة:

_كيف تجعل عناقك لا يشبهه عناق؟! كيف تجعل
ضيق ذراعين يتسعان بقدر الدنيا؟! كيف تجعل من
صلابة صدر سند العمر؟! عندما تعانقتي يا عاصي

فأنت لا تحتضني فحسب بل أنت

تغلفني ..تخترقني ..تزرعني ..وتحلق بي ..لا أفهم

كيف يمكن أن يجتمع كل هذا معاً ..لكن هذا عهدي

بك ..يا سيد الأضداد !

تتسع ابتسامته وشموسه الزيتونية تلقي ظلالها فوق

بحار فضتها ..

أنامله تلامس وجنتيها بعاطفة هادرة يستشعرها قلبها

بضراوة ..

قبل أن تحط شفتاه على وجنتها بقبلة عميقة سبقت

عناقه التالي لها ..

_ لماذا تركت القصر؟! ألم تكن على موعد مع أبناء

عمومتك!؟!

تسأله ببعض الدهشة ليرد باقتضاب غامض:

_ أنا طلبت من الخدم إخلاء القصر .

_ لماذا؟!!

تسأله ببعض القلق ليرد :

_ يحيى ذهب للقاء عمه .. فأردت أن أهين لهما

مساحة من الخصوصية .. تعلمين حساسية الأمر .

تشعب ملامحها للحظة وهي تسأله بترقب:

_ تظنه سيواجهه بالحقيقة؟!!

_ سنرى.

يقولها بنفس الغموض فتتنهد بحرقة لتتمتم :

_ موقف عصيب .. تظن عمه سيصدقها؟!!

_ حتى لو صدقه .. أمر كهذا يهد أكتاف الرجال .. ليس

بهين !

يتمتم بها بوقاره الخبير فتتفحص ملامحه الغارقة في

التفكير ثم تبسّم قائلة:

_هل أنت ضائق بعودتنا إلي هنا؟! بعد طول عزلتنا

وانفصالنا عن الناس نعود إلي هنا؟! القصر مزدحم

بالناس ..ديمة وسند ..طيب وزوجها ..فهد

وجنة ..إلياس عم يحيى ..ونزار صديق يحيى

ومجد ..وحسنا وزهرة .

يغص حلقتها بمرارة خفية وهي تتذكر مصاب

الأخيرة ..بينما تراه يهز رأسه نفيًا بقوله :

_على العكس ! هكذا أشعر أنني أحيًا لأواجه لا

لأهرب ..نفس الدرس الذي وددت لو يتعلمه ذاك

العراقي .

تهز رأسها بتشتت لتقول بشرود :

_زهرة لن تمكث هنا طويلاً.. هي انتظرت فقط كي

تحضر زفاف طيف .

تدمع عيناها مع كلماتها وهي تخفي وجهها في كتفه

فيضمها إليه مقدراً حزنها ليهمس بحنانه الخبير :

_لا تجزعي ..لعل القدر أرحم بنا مما تبديه ضرباته .

ترفع رأسها للسماء فيما يبدو كتضرع دعاء بينما

يشرد هو ببصره وهو يتساءل سراً بترقب ..الإم

ستؤول مواجهة يحيى مع عمه !؟

=====

برتقالي

=====

تجوب الرواق ذهاباً وإياباً ..ورغم مظهرها البارد

لكنها كانت تشتعل ترقباً وخوفاً..



خوفا عليه ..

_ لن تخذلني يا يحيى .. لن تخذل نفسك ولن تخذلني ..

حديث نفسها ينقطع وهي تراه يظهر أمامها وقد بدا

من أنفاسه اللاهثة أنه صعد الدرج ركضا ..

تتسمر مكانها وهي تواجه ملامحه المشتعلة بنظرات

مترقبة بتساؤل لكنه يتجاهلها ليعدو كالإعصار نحو

غرفة مجد الخالية فيغلقها خلفه .. بالمفتاح!!

ينعقد حاجباها بمزيج من قلق و غضب وهي تخبط

الباب ببعض العنف :

_ افتح!

لا يصلها منه رد فتخبط الباب خبطة أخيرة أعنف من

سابقاتها وقلبا يكاد يتوقف انفعالا ..

قبل أن تستخرج من جيبها مفتاحا احتياطيا وقد
توقعت حركته هذه قبل حضوره فاستعدت لها ..
هذا الذي فتحت به الباب لتغلقه خلفها قائلة ببرود

مشتعل:

_ظننتك تعلمت الدرس! لا أبواب ستفصل بيننا متى
أردت أنا ..

لكنه يلتفت نحوها بقوة مفاجأته لتبتلع بقية كلماتها
وهي تميز مظهره الصادم ..

وجهه شديد الاحتقان .. بروز عرق جبينه .. هذه
الدموع التي تكدست في عينيه الحمر اوين كالدّم ..
وأخيرا .. هذا الأثر لأصابع على وجنته !!
يخفق قلبها بجنون عنيف وهي تشعر بالحمية نحوه
تجتاحها ..

لحظة من اللحظات القلائل التي شعرت فيها نحوه

بالأمومة ..

ولو هلة تخيلت أنها يمكنها مسك يده لتتهف به بحمية

أم :

_ أرني من فعل بك هذا وسأحطم رأسه!

لكنها عادت لواقعهما بسخرية مريرة ..

ليت الأمور بهذه البساطة !!

كلاهما ورقة شجر زهد فيها غصنها

فرماها .. وستعيش عمرها تفتقد صلابة الجذع وأمان

الجذور ..

تنقطع أفكارها وهي تراه يتقدم نحوها بمظهره

الرهيب ليعتصر زنديها بقوة مؤلمة ..

كلماته العاصفة كالرعد تدوي في أذنيها بلكنته

العراقية فلا تكاد تعي منها شيئاً ..

شوشها غضبه .. ولهفتها !!..

تشعر بالقلق أكثر وقبضتاه تزدادان اعتصارا لبشرتها

فتدمع عيناها بين خوفها عليه ..ومنه !..

شفتاه تهذيان بالمزيد من الكلمات كأنه يعنفها على

اقتحامها لخلوته ..

يعنفها بالمزيد من الالهانة وهو يرجها بين ذراعيه

فيزداد شعورها بالألم ..والغضب ..

كانت المرة الأولى في حياتها التي تقف فيها موقفا

كهذا ..

لو تصرفت بطبيعتها المعهودة فلن تهدأ بالا حتى تكيل
له المزيد من الالهانات بل ..وربما صفته عقابا على
تطاوله ..

لكنها وسط كل هذه الفوضى من
الألم ..الغضب ..الترقب ..اللهفة ..
لم تر سوى هذه النظرة الضارعة في عينيه ..
وكعهدا الذي منحته إياه ..
سمعته بقلبها ..لا بأذنيها !..
_اخرجني من هنا ..دعيني وحدي ..لا أريد أن أراك..لا
أريد ..

صراخه يكاد يزلزلها مكانها يرج الأرض تحتها بل
الدنيا كلها حولها ..

لكنها تفاجئه وهي تميل على وجنته حيث موضع

الأصابع المحمر بقبلة دافئة طويلة !!!

قبلة؟!!

قبلة جعلته يسكن أمامها بلحظة متسمرًا بصدمة كأنما

سكبت على نيران غضبه دلوا من ماء ..

قبلة بدت وكأنها نزلت فتيل تماسكه ليسيل خيطا

الدموع على وجنتيه وهو يكتم نشيجه ..

لكنها هي تضم رأسه لصدرها بقوة تخفي بين

ضلوعها القوية وهنه الذي لا يليق برجل مثله ..

لكن إن لم يظهر في موقف كهذا .. فمتى؟!!

تعض على شفثيها بقوة تكاد تدميها وهي تكتم

شهقات بكاء ودت لو تشاركه إياه لكنها تعلمت

بالطريقة الأقسى كيف تجف دموع العين عنادا في

بكاء القلب!

هو الآن يحتاج قوتها .. وهي له!

دقائق الصمت تهدر بينهما بصخب مشتعل .. أنفاسه
تكاد تنفث النيران على عنقها .. فلا ترد سوى بضميتها

التي تزداد قوة ..

لتهمس أخيرا :

ماذا حدث؟! _

يرفع إليها عينيه ..

فقط عينيه تبوحان بما عجز عنه لسانه !!

هي تفهم هذا الشعور جيداً .. شعور

القهر .. الخزي .. الخذلان !!

_ لم يصدقك!؟!

تسأله بين تقرير وضيق ليشيح بوجهه دون رد

فتهمس له بيقين :

_ سيفعل .. امنحه الوقت فالصدمة ليست سهلة .

يعاود التفاته نحوها وقد انتقل يقينها منها إليه .. ليهدأ

بعض من حريق روحه ..

فأمالت رأسها لتسأله بذكاء:

_ عندما طلب منك عاصي أن تحضر واحداً من

أهلك .. لماذا اخترته هو!؟!

سؤالها يحمل الجواب في طياته كأنما كلماتها تُربت

على جرح رجولته بكف غير مرئي لتطفئ المزيد من

نيرانه وتبعث فيه بعض الأمل ..

إلياس الذي تربي معه منذ الصغر لن يكذبه ..

سيدعمه بكل روحه كما اعتاد منه !!
صحيح أن الصدمة غادرة .. لكنه يثق بالياس كما يثق
بنفسه !

صمت قصير يسودهما للحظات احتوى جلّ غضبه ..
وقراتها في عينيه بطمأنينة أم .. قبل أمل
عاشقة .. لتهدأ روحها هي الأخرى فتغمغم أخيراً بنبرة
حيادية وقد استعادت "وجهها الخشبي" بينما تبعده
عنها:

_ أنت ساخط عليّ لأتني من ورطتك في هذا !
فيرفع إليها عينيه بحدة هاتفاً من بين أسنانه :
_ أنت لم تورطيني في شيء .. لو أردت الهروب من
كل هذا لكنت الآن في آخر العالم .. لو أردت مراوغة
إلياس كنت سأجد ألف حيلة .. لكنني اخترت

المواجهة .. صدّقتي إلياس أو لم يصدقني ..مضى

زمن الهروب .

تكتم ابتسامة رضاها بهذه الطريقة التي تثير جنونه

أكثر من ابتسامتها الكاملة ..

سديم عينيها يفضح اعتزازاً داعماً بخلت به شفاتها ..

ثم تتحرر منه لتتهض من مكانها قائلة ببرود كأن ما

سبق منذ دقائق لم يكن :

_مجد تنتظرني .. لا أريد أن أتأخر عليها .

يرمقها بنظرة طويلة حارة أرجفتها ليقف معترضاً

طريقها بنظرة ممتنة قرأها قلبها قبل عينيها ..

هذه هي المرأة التي كان يحتاجها حقاً رجل مثله ..!!

امرأة تعرف كيف تكون ملكته تارة ..وكيف تكون كل

جنده تارة أخرى !!

امرأة تجيد ترويض غضبه - كما الآن - لتزرع بين

حقوله سنابل أمان..

امرأة تجيد توجيه طاقته لتقوم .. لا لتدمر !

الغضب الهادر في عينيه يسكن رويداً رويداً ليلتحف

بسحر عاطفته ونظراته تتجول فوق ملامحها وقد

هدأت حدتها ..

كأنما انقلبت بعصا ساحر من فرط الغضب .. لفرط

السكينة ..!

فتزدرد ريقها بارتباك لم يظهر على ملامحها

الساخطة وهي تحاول تجاوز جسده ..

_المفتاح! لم تعد له فائدة .

يقولها ببطء متثاقل وهو يمنحها مفتاح الغرفة فتبتسم
ساخرة وهي تهم برد لاذع لكنها تشهق بصدمة وهي
تشعر به يطوقها فجأة ليقبل وجنتها بحرارة مشتعلة
لم تسمح لها باعتراض ..

قبل أن يفلتها من بين ذراعيه هامساً بـ "شبح
ابتساماً":

_ لا أحب ترك ديوني معلقة .. لو تقبلين "الربا"
فيمكنني أن أزيدك !

تكتم سبة ساخطة وهي تدفعه في صدره بقوة لتغادر
الغرفة شبه راکضة ..

لكنها ما كادت تفتح الباب حتى وجدت الخادمة في
وجهها تقول بارتباك :

_ السيد عاصي يريد رؤية السيد يحيى.



ينعد حاجبا يحيى بشدة وهو يميز المكان الذي
أرشدته إليه الخادمة في الساحة الخلفية للقصر
والذي يبدو كمضمار رماية ..

بل إنه حقاً كذلك !!

لماذا أتى به عاصي لهذا ؟!

كي يرهبه ؟!

تنقطع أفكاره وهو يسمع صوت رصاصة مدوية
أصابت هدفها ليمنحه أحد رجال عاصي الواقفين
سدادتي أذن تناولها بضيق ليتقدم من عاصي الذي
خفض عن أذنيه سدادتهما ليلتفت نحوه قائلاً بنبرة

محايدة :

تجيد الرماية ؟!

يشيح يحيى بوجهه وسؤال عاصي يعيده لذكرياته
العامرة في بغداد .. فردوسه المفقود ..

ليرد بفتور :

_ كنت أجيدها .

يناوله عاصي سلاحاً ثم يشير لأحد حراسه إشارة
خاصة فيتحرك الرجل لينصب هدفاً بعيداً أشار له

عاصي بقوله :

_ يمكنك المحاولة .

يرمقه يحيى بنظرة متفحصة وهو يشعر بالغرابة ..

هذا الرجل لا يبدو كارهاً له كما يفترض ..

بل إنه يلمح في عينيه بريق تقدير لا يفهمه !

لكنه ينفذ عن نفسه تساؤلاتها وهو يرفع السلاح

في مواجهة الهدف ..

لعل هذا ما يحتاجه الآن كي يفرغ انفعالاته بعد

مواجهته الأخيرة مع إلياس ..

النقطة الحمراء تبدو له واضحة مكانه فيصوب نحوها

مضيقاً عينيه بشدة .. ليطلق النار ..

فيصيبها !

ابتسامة ظافرة تشق شفثيه وهو يلتفت نحو عاصي

الذي بادره بقوله :

خطأ !

ينعقد حاجبا يحيى بتساؤل فيتحرك عاصي نحو

الهدف البعيد ليلحق به يحيى وما كادا يقتربان من

الهدف حتى انتبه يحيى لما يريد عاصي قوله قبل أن
يغادر شفتيه:

_الهدف لم يكن النقطة الحمراء..الهدف الحقيقي هو
الأسود هنا في المنتصف..اللون الفاقع شئت
انتباهك..صحيح!؟

يلتفت نحوه يحيى بنظرة متفرسة وقد شعر أن كلماته
تحمل له رسالة مبطنة خاصة باستطراد عاصي ببطء
كأنه يغرس كلماته في روحه:

_سر النجاح أن تحدد الهدف أولاً دون أن يشتت
صراخ الألوان حوله..لو أجدت تحديد الهدف فقد
اختصرت نصف الطريق.

تضييق عينا يحيى بذكاء وهو يحاول قراءة لغة جسد
عاصي لكن الأخير لم يمنحه الفرصة وهو يشيح

بوجهه عنه وقد شعر أنه أدى واجبه نحوه بتمهيد

مناسب قبل أن يلقي قبلته:

_الرجال أخبروني أن السيدة والدتك وصلت

المدينة..لن تحتاج الكثير من الوقت لتصل إلى

هنا..أظنها أمام القصر الآن .

=====

نيلي

=====

(اسمي شادية..وصوتي حلو)

أكمل على هذا المنوال ..

تقرأها زهرة كمنشور على أحد الجروبات الشهيرة
مناقشاً ارتباط الاسم بقدر الشخص فتبتسم ابتسامة

شاحبة وهي تتابع التعليقات ..

(اسمي بسمة .. وخفيفة الظل)

(اسمي جميلة .. وملاحي فاتنة)

(اسمي ريم .. وعيناى واسعتان)

فتمدع عيناها لتجد نفسها تشارك :

(اسمي زهرة .. وعمرى قصير)

تغمض عينيها بعدها وهي تغلق هاتفها لتتحسس

سلسلة عنقها بدبلته التي كذبت عليه زاعمة أنها

احتفظت بها في صندوق ذكرياتها .



طالما كانت تشعر بالحنق عندما كانت تقرأ الروايات
او تشاهد الأفلام التي ترى فيها البطلة تشوه صورتها
بنفسها في عيني البطل زاعمة أنها تضحى من
أجله ..

لكن الآن وقد وضعتها الظروف نفس الموضع لا تجد
نفسها تفعل سوى هذا !!

(أسميتك الرفيق رغم طول الفراق .. وبين "رفقة"

و"فرقة" تظل أجمل قدر !)

تهمس بها لنفسها سراً وهي تعانق طيفه عبر عينيها
المغمضتين ..

منذ علمت بمرضها عقب خروجها من السجن وهي

ترددتها بينها وبين نفسها كنبوءة ..

ربما لم يكن قدرها أن ترافقه لآخر الطريق ..

لكنها توقن أنه هو سيكون رفيقها لمنتهى طريقها
الأخير ولو لم يكن بجسده فكفاها شعورها اللا محدود
به ..

هي عاشت لسنوات تحبه دون أمل ..فماذا يضيرها لو
لفظت آخر أنفاسها وهو غائبها الحاضر ..تشتاقه
عينها وهو حي بين ضلوعها !

تشعر بكف حسناء على كتفها فترفع عينيها
إليها ..كانت جالسة على إحدى الأرائك في بيت
عاصي الرفاعي حيث حضرت لتكون جوار طيف في
حفل زفافها ..

طيف التي لم تكد تعلم بمصابها حتى ساعدتها

بمالها .. بل بكل طاقتها !!

_جهد عادل "أبو ظبي"!

تقولها حسناء بحذر وهي تتحرك لتجلس جوارها

على الأريكة فتقول زهرة بلهفة غلبت حزنها على

رحيله:

_قبلوا أن يعود للمشفى !؟

تهز حسناء رأسها نفيماً لترد :

_يتحدثون في المشفى أنه تشاجر مع ريان النذل .

تغمض زهرة عينيها بألم وهي تمسك صدرها الذي

صارت تعلم علته لتهمس بخفوت:

_كل هذا كثير عليه .. يشهد ربي أنني لم أشأ أن أكون

عبئاً جديداً عليه .. رغماً عني .

_ لماذا فعلتِ هذا يا زهرة؟! حتى لو كان مرضك

خطيراً ..كنت دعيه يبقى معك كي ..

تهتف بها حسناء بأسى لتقاطعها زهرة بقولها

المنفعل:

_ كي ماذا؟! أنا عشت كل هذا من قبل مع خالتي -

رحمها الله-!! رأيتها كيف تذبل أمام عيني يوماً بعد

يوم ..رأيت شعرها يسقط ..سمعت صوت صرخاتها

التي لا تكاد تتوقف ..كل هذا عشته لحظة لحظة فكيف

أرضى له المثل؟!!

تطرق حسناء برأسها لتسيل دموعها بصمت فتدرف

زهرة بشرود :

_ جهاد كان يخشى الحب ..كان يخاف أن يضيع منه

وطنه مرتين ..ربما تركت له جرحاً غائراً لكنه أهون

من أن يعيش جوارى يترقب موتى فى أى لحظة ..لن
تعلمى قسوة هذا الشعور ..أنا عشته من قبل ..أنا
عشته !

_بالله عليك لا تكونى بهذا اليأس ..طيب حجت لك
مكاناً بأفضل مشفى لعلاج السرطان ..ربما ..
تهتف بها حسناء محاولة زرع بعض الأمل فيها لكن
زهرة تغمض عينيها على وجعها الصامت هامة :
_حتى "ربما " هذه ستكون مؤلمة فيما بعد ..اليأس
أرحم بنا من الأمل أحياناً .

تعانقها حسناء بقوة فتتحامل زهرة على نفسها
لتسألها باهتمام :

_ماذا فعل جهاد مع ريان !؟

تزدرد حسناء ريقها بتوتر فتتفحص زهرة ملامحها

لتقول بقلق:

_ أنا أعرف هذه النظرة جيداً .. أرجوك لا تكذبي

عليّ .. جهاد بخير!؟

تتردد حسناء قليلاً ثم تحسم أمرها لتقول :

_ لا أدري إن كان من الصواب أن أخبرك أم لا .. أنتِ جعلتني أقسم على المصحف ألا أخبره بحقيقة مرضك رغم أنني لا أوافقك على ما تفعلينه .. لهذا ربما كان من الأفضل أن تعلمي ما يقولونه لعلك تغيرين رأيك ..

_ ماذا تقصدين!؟

تسألها زهرة بشحوب لتتهد حسناء وهي تهرب

بعينيها منها قائلة:

_الرفاق في المشفى يقولون أن يولاند عادت معه
وصارت ترافقه كظله ..والشائعات قوية أنه ينتظر
انقضاء عدتها ..ليتزوجها !

=====

برتقالي

=====

لم يدِرِ يحيى كيف حملته قدماه نحو بهو القصر من
جديد عندما تأكد الخبر ..

استبرق هنا !

أمه !

لعلها الحقيقة الواحدة التي بقيت ثابتة من عالمه

الأول !

استبرق أمه !

يتقدم نحوها وهو يراها تقف ببهو القصر تعطيه
ظهرها فيتوقف مكانه وهو يخشى لحظة التفاتها ..
هو لم يرها منذ ذاك اليوم الذي اكتشف فيه خطيئتها
إلا في الصور ..

حتى عندما حضر زفاف سراب تعمد ألا يلتقيها هي
وابتعد قبل أن تراه ..

تلتفت فتلتقي عيناها ليترنح مكانه للحظة لكنه يشعر
بكف عاصي في ظهره بحركة أراها الأخير أن تبدو
عفوية وهو يتقدم به نحو المرأة التي تفحصها
عاصي بدوره بنظرة خبيثة ..

النظرة الأولى لملامحها الفاتنة الطفولية كدمية - رغم
سنها- تعطي انطباعاً بالبراءة ..

لكن منذ متى انخدع عاصي الرفاعي بانطباع النظرة

الأولى؟!!

_ يحيى!

تهتف بها استبرق بلهفة حقيقية لا تدعيها وملاحمها

تصرخ بالشوق ...

عيناها تجريان فوق ملامحه التي تغيرت نسبياً منذ

آخر مرة رآته فيها كأنما كل نظرة عناق !!

جسدها يرتجف بانفعال هادر وهي تفرد له ذراعيها

فيرتعد جسده مكانه وهو يغمض عينيه بقوة !!

الآن فقط يتمنى لو تثبت لقلبه ألف يد ..

يد واحدة منها تقتلها .. تقتص منها على خطيئتها ..

والبقية؟!!

البقية كلها تعانقها !!!

أهذا هرب طوال كل هذه السنوات مفرغاً غضبه منها

هي في كل النساء!؟

الأنه أدرك أنه مقيدٌ فطرياً بحبها وأنه لن يمكنه أبداً

أن يؤذيها!؟

_ يحيى!؟

تهتف بها من جديد بصوت أقوى .. وأدفاً ..

فكأنما تعيده لعمر قديم .. وعهد قديم .. وجرح قديم !

كأنها تطفئ نيراناً وتشعل أخرى!

_ يحيى!

هذه المرة كان الصوت أقرب ما يكون وهو يشعر

بصدرها يلاصق صدره ..

ذراعاها يطوقانه قبل عطرها الذي لم تغيره طوال هذه

السنوات وإن فاح منه الآن خبث الخيانة !

لا يزال يغمض عينيه بقوة وهو يشعر بالأرض تميد

من تحته ..

قبلاتها الحارة على وجهه تذكره بلقائها العاصفة

المرحبة عندما كان يعود من أسفاره في الزمن القديم

فيجدها تنتظره والشوق في عينها يحكي ألف حكاية

والحب في عينها يحكي ألف حكاية و..الفخر في

عينها يحكي ألف حكاية ..

الفخر الذي انطفأ كقنديل قديم لا يظنه سيعود يضيئ

في شوارعه أو شوارعها!

أحد ذراعيه يخونه فيضبطه متلبساً وهو يرتفع نحو
خصرها ببطء متسلل بينما بقي الآخر متجمداً جواره
كأنه ..فارق الحياة !

وعلى أعلى الدرج وقفت طيف تراقب المشهد بمزيج
من غضب وغيرة ..

غيرة برية تليق بامرأة مثلها وهي تظن نفسها
الأولى بهذا العناق الآن من هذه "الدخيلة"!
فاتنة؟!

كثيراً في الواقع !!

ليس فقط جمالها الصارخ الذي يبدو أن ابنها ورثه
عنها بل مظهرها الذي يبدو أصغر سناً بكثير وهذه
البراءة الكاذبة التي تتضح على
ملامحها ..

لم تتعجب العداوة الكارهة التي ملأتها نحوها في هذه
اللحظة بالذات وهي تراها تحتضن يحيى بهذه
الحميمية وكأنه ابنها -هي طيف- وليس ابن تلك
"الغريبة" ..

لكنها تعجبت شعورها هي ب"الضالة" في موقف
كهذا ..

كانها محت تاريخ كل هذه السنوات التي عاشتها
تتسلق سلم مجدها درجة درجة وعادت مجرد خادمة
تمسك جلباب أمها تتسول الرزق ..

هذا الشعور الذي زرع غصة هائلة في حلقها وهي
تهبط الدرج نحوهما لتتوقف على بعد خطوات
منهما ..

لم تعرف كيف تحرك عاصي ليكون فجأة جوارها
لكنها عرفت متى تحرك كفها هي ليعانق كفه ..!
حركة خطيرة لامرأة بتاريخها لكنها الآن توقن أن
عاصي الرفاعي يستحقها ..

أن عاصي الرفاعي حقاً أخوها!!

يفتح يحيى عينيه فجأة بين ذراعي استبرق وكأنه
شعر بوجود طيف فلا يدري هل شم أنفه عطرها أم أن
قلبه كعهده سمعها قبل أذنيه ..

يستمد من سديم عينيها قبساً يحتاجه في هذه اللحظة
ليعود بظهره للخلف فيكون أول ما يلمحه من
أمه ..سلسلة عنقها باسمه ..

_ أبوك أهداني إياها بعد ولادتك .. كانت حديث النساء
كلهن في بغداد بثمنها الباهظ وقد حرص أن ترصع
كلها بالماس .. وضعها حول رقبتى فشعرت أنها -
مثلك- أمان عمري كله .. أجل يا يحيى .. لم تكن فقط
أمانى من معايرة الناس لي بعدم الإنجاب .. ولا أمان
أبيك الذي كان يخشى ألا يرى من يحمل اسمه .. لكنك
كنت أماننا معاً من انهيار زواجنا الذي كان قد بدأ
تصدعه تحت وطأة ضغوطنا .. فأتيت أنت لتتقذ كل
هذا .. لهذا لن أخلعها عن عنقي أبداً ما حييت .
يذكرها بصوتها كما سمعها منها منذ سنوات طويلة
فتشتعل حدقتاه بغضب حارق وهو يواجه عيني
استبرق بهذا القرب ..

عينيها التي تبدلت أطياها في ثوان بين اشتياق..

لذنب.. لترقب ..

ثم لبرود تام أسدل الستار على حدقتها وهي تهرب

بنظراتها منه نحو عاصي لتختاره أن يكون أول من

تحدثه بقولها :

_ عفواً سيد عاصي ..أعتذر أنني جئت دون

موعد ..لكن لهفتي للقاء يحيى بعد كل هذه السنوات

غلبت كل شيء .

_ مرحباً بك سيدتي ..السيد يحيى صار منا وما يخصه

يخصنا .

يقولها عاصي بوقاره المهيّب ولهفته المهيمنة

تتراقص بين إجلال وتهديد خفي استشعرته حاستها

الأنثوية ..

لتنقل عيناها بسرعة نحو هذه "الخطيرة" التي
استشعرت خطورتها من أول نظرة ..
تضيق عيناها بتفحص وهي تتفرس ملامح طيف
العادية محدودة الجمال .. شعرها القصير .. جسدها
النحيل فقير الأنوثة رغم رشاقته .. تقارن عفويا بينها
وبين جمال سراب .. هل صارت هذه مواصفات يحيى
في امرأته !؟

ابتسامة مريرة لم تصل شفيتها وهي تتذكر .. يحيى
الذي تعرفه لم تكن له مواصفات جمال تعنيه في
امرأة .. يحيى الذي تعرفه لم يكن يرى من النساء
سوى سراب فحسب !..

عيناها تدوران بنظرة سريعة على ملابس طيف
وطرازها شديد الأناقة بهذه الماركات العالمية التي
خالفت فكرتها عن المكان قبل حضورها خاصة وقد
جاءت فجأة دون موعد قبل أي فرصة
لتجهيز .. فتعاود رفع عينيها لوجه طيف ليقشع بدنها
برجفة خفيفة وهي تميز هذه الشرارة الخاطفة في
عينيها ..

هذه المرأة ربما ليست جميلة ..

لكنها تمتلك جاذبية خطيرة في زوج من عيني

بريتين ..

يزداد شعورها بالخطر وهي ترى هذه النظرة الخاصة

التي امتد حبلها بين ابنها وهذه المرأة لكنها تتمالك

نفسها بحنكة لتقترب من طيف بابتسامة شديدة

العذوبة زادت فتنة ملامحها لتمد لها يدها في
مصافحة استجابت لها طيف على مضض بملامح
جامدة لتعانقها استبرق بخفة مع قولها:
_مبارك يا ابنتي ..تسمحين لي بقولها!؟!
تكز طيف على أسنانها مانعة لسانها السليط بالقوة
من الحركة لكن تشنج جسدها يبدو واضحاً وقد
اضطرت لترك كف عاصي فزادها هذا عصبية ..
لكن استبرق تلتفت نحو يحيى مردفة:
_لن أسامحك أبداً على أنك ضيقت فرحتي بحضور
زفافك على امرأة .."مميزة" ..كهذه!
ثم تعاود الاستدارة نحو طيف بكامل وجهها لتستخرج
من جيب حقيبتها علبة صغيرة مخملية فتحتها امامها

ليلمع البريق الماسي للخاتم الصغير في الأضواء

وأشيا بقيمته مع قولها :

عفوا .. حضرت بسرعة فلم أتمكن سوى من إحضار

هذا .. اعتبريها هدية مؤقتة حتى نعد لكما عرساً آخر

يليق بكما في بغداد .. مرحباً بك في عائلة الأمين

يا ابنتي .

ترفع طيف عينيها إليها بحدة خاطفة تتفحص

ملامحها التي بدت لها متناقضة .. هذه البراءة على

وجهها لا علاقة لها بهذا البريق المتملك في العينين

الجبورتين .. ما الذي تنتويه هذه المرأة بالضبط !؟

تتناول منها اللعبة قسراً بشكر جاف لتغلقها بعنف

متعمد ..

ورغما عنها وجدت نفسها تقارنها بأمها .. أمها التي
عاشت عمرها تحمل وزرا لم يكن لها ذنب فيه فلم
يحمله عنها سوى القبر .. أما هذه المرأة فتبدو لها
رغم هذا اللطف الظاهر كأنها تملك جبروت حماد
الرفاعي نفسه ..

لو كانوا يطلقون عليها هي لقب (أنثى عنكبوت) فهذه
المرأة (أنثى عقرب) بلا منازع!
وفي مكانه لم يكن يحيى أفضل حالا وهو يشعر
بالتخبط كأنما يصارع موجا غير مرئي ..
كابوس آخر يود لو يستيقظ منه ليعاود الهروب مع
نزار ومجد فلا يوقفهما شاطئ ولا يحتجزهما بر..

بغداد؟

تتحدث عن العودة لبغداد ؟

هل صار الأمر وشيكا حقا إلى هذا الحد ؟!

يا لله !!

كل هذه الضربات المتتالية تكاد تفقده صوابه !!

_بل مرحبا بك أنت في بيت الرفاعي يا سيدتي .

صوت عاصي المهيب يفرض نفسه بسلطته القاهرة

فوق الجميع فتلتفت نحوه استبرق بنظرة طويلة

متفحصة ثم تقول بابتسامة :

_شكرا سيد عاصي .. لدينا المزيد من الوقت للتعارف

بالتأكيد .. لكن اسمح لي أولا أن أعتذر بالنيابة عن

يحيى لأن بقية العائلة لم تتمكن من الحضور .

_من أخبرك ؟

صوت يحيى المتحشرج يخرج أخيرا لكن عينيه بقيتا

عاجزتين عن التطلع نحوها ..

ولم تكذ تفتح فمها لتجيب حتى ظهر إلياس بصوته

المصدوم :

_ استبرق.

يرمقه يحيى بنظرة متهمة عاتبة لكن استبرق تبرئه

بقولها :

_ لا تلم عمك يا يحيى .. هو لم يخبرني عن

شيء .. لكنني سمحت لنفسي بتتبعه عندما غادر بغداد

هكذا فجأة كي أطمئن عليه ..

تقولها لتلتفت نحو يحيى مردفة :

_ تعلم أن إلياس بمكانتك عندي تماما .. وأنا لا أفرط

في شأن عائلتي .

يكز يحيى على أسنانه بغضب مكتوم ..

هذه هي استبرق التي يعرفها بقوتها وقدرتها على

التحكم في جميع الخيوط ..

كان يجب أن يعلم وهو يستدعي إلياس فجأة بهذه

الطريقة أنها لن تمرر موقفا كهذا لكنه لم يحسب

حساب تحركها بهذه السرعة ..

فيما تستمر هي بالحديث وهي تتحرك برشاقة

وذراعاها يلوحان بحركة هيمنة ارستوقراطية رقيقة

نحو عاصي لتقترب منه كثيرا بقولها:

_سيد عاصي! من جديد أطلب منك ان تعذرنا

لأن الوضع قد يبدو لك عائليا غريبا .. لكن إذا عرف

السبب بطل العجب كما يقولون .. ابني يحيى انفصل

عن العائلة منذ سنوات وترك بغداد كلها بسبب خلاف

عائلي مع عمه لأنه رفض تزويجه بابنته التي كان

يعشقها حد الجنون ..

تقول كلمتها الأخيرة وهي تختلس نظرة جانبية نحو

طيف التي بدت في وقفها كجواد هائج يقيدونه

قسرا ..

فيما تردف استبرق بنفس النبرة :

_ كان هذا في الماضي طبعاً .. تعرف نرق

الشباب .. وأظنه تجاوز هذه العثرة بدليل زواجه من

أختك .

هنا تسمح طيف لشهقتها الساخرة المعهودة الذي

تطلقه شفاتها بتميز يكاد يخصها وحدها وقد فطنت

لما تريد استبرق فعله .. فاقتربت منها لتضع علبة

الخاتم جانباً ببعض العنف قائلة بفظاظتها المستفزة :

_تبدین و كأنك تسکین الکلام دفعة واحدة كأنك تخافین
أن یقف فی حلقک .. اجلسی أولاً و التقطی أنفاسک
واطمئنی .. لن یذهب أي منا بعيداً فی وقت قریب .
تشتعل عینا استبرق بغضب للحظة .. غضب تحول
لوعید لم یظهر علی براءة ملامحها وهي تبتسم
لتجلس بحرج قائلة بصوتها الرقیق:
_شکراً لدعوتک یا ابنتی .. رحلة السفر كانت متعبة
حقاً .

_بابا! ماما !

صوت مجد الرقیق یقاطع الحدث وقد ظهرت مع نزار
الذي تقدم بکرسیها و عیناه مسلطتان فوق ملامح
یحیی بدعم صامت و تویخ خفی .. كأنه یلومه علی
سابق قراره بالبقاء ..

تقترب مجد لتمسك كف يحيى بأحد قبضتيها وكف
طيف بالآخر بينما تنظر لاستبرق ببعض الخوف
الغريزي الذي بقي لديها من الغرباء ..
فتحنى طيف لتعانقها بقوة قبل أن تمد كفيها أحدهما
لمجد والآخر ليحيى ليشكلوا معاً مثلثاً ثم تقول بخفوت
حان مع غمزة خفيفة:

_قيمر .

يختلج قلب يحيى وهو يشعر بأن هذه الكلمة لا تخص
مجد وحدها هذه المرة .. بل تعنيه هو
الآخر .. لهذا يشد على كف طيف في قبضته بقوة
ليصله صوت استبرق الحذر:

_من "الخطوة"؟! هلا يفهمني أحدكم!؟!

تقولها وهي تذكر ما قاله لها العم مؤيد سابقاً عن
الطفلة التي تلازم يحيى وصاحبه لكنها أرادت المزيد
من الفهم فادعت الجهل ..

لكنه كان دور إلياس ليتدخل مخاطباً استبرق بقوله:

_ أنا سأتولى الأمر .. سأفهمك كل شيء ..

يقولها ثم يلتفت نحو عاصي مردفاً :

_ عفواً سيد عاصي .. أعرف أن الوضع مربك

قليلاً .. لكنني أريد الاختلاء بزوجة أخي قليلاً .

تضيق عينا يحيى بغضب يائس وهو يرمق إلياس

بنظرة متفحصة .. إلياس الذي اكتفى بإشارة عاصي

له ليتجه مع استبرق نحو الغرفة التي خصصها له

عاصي ..

ليتابعه يحيى بعينين مشتعلتين لولا هذه
"الحركة" التي بدت عفوية وإلياس يكور قبضته
ليخبط بها فخذ يحيى بخفة بينما يغادر.. فيطبق يحيى
شفتيه على آهة خافتة ويغلق عينيه على دمة شقها
الوجع نصفين بين حنين وغضب!

_بابا!

هتاف مجد يمنحه بعض السكينة وهي تفتح له
ذراعيها لينحني لها معانقاً قبل أن يسمعها تسأله:
_من تلك المرأة!؟

يصمت للحظات يشعر فيها بالمزيد من الوجع يشق
روحه ليهمس لها بصوت متحشرج:

_أمي.

_حقاً!؟

تهتف بها بفرحة طفولية لكنه يستقيم واقفا شاعراً
بالاستنزاف لتقول طيف وقد شعرت بما يعانیه فأثرت
ابتعاده :

_تبدین ناعسة ..يمكنكما الصعود للأعلى والنوم
قليلاً .

يربت نزار على كتف يحيى بنظرة دعم صامته أغنته
عن الكلام قبل أن يزفر زفرة مشتعلة وهو يغادر
القصر نحو الحديقة مدركاً أن صديقه الآن يجتاح
أقصى معاركه ..

ولم تكذ طيف تشعر بخلو المكان إلا منها ومن عاصي
حتى التفتت نحوه ..تقترب منه بخطوات متناقلة

وامتتانها يدفعها دفعا لإخباره بالحقيقة .. لكنها كانت

لا تزال تخشى العواقب وسط ضبابية كل هذه

الأحداث ..

هل من الأفضل أن تخبره أن يحيى ليس سيئاً كما

أخبرته ؟!

أم من الأفضل أن تترك الأمور كما هي لعلها تحتاج

كذبتها فيما بعد ؟!

_ كنت أريدك أن تعلم شيئاً .. بخصوص .. يحيى ..

تردها الهامس يبدو غريباً على طبيعتها المعهودة

لكنه يقرأ بخبرته حيرتها في عينيها فتلتوي شفتاه

بشبه ابتسامة :

_ لا أحتاج لأن تخبريني بشيء !

ترفع إليه عينيها بحدة وهي تحاول فهم ما يعنيه لكنه

كعهده أجاد السيطرة على عينية وهو يردف :

_قولي فقط أنك راضية ومطمئنة ألا أحد يجرو أن

يمس ظفراً منك بأذى .

تدمع عيناها دون رد وكفها يمتد نحو كفه ببطء

لتقبض عليه بقوة تمنحه الجواب فتكتسي شفثاه

بابتسامة حقيقية وهو يقول بصوته المهيب الذي

يمزج هيمنته بعاطفته:

_زوجك صار من عائلة الرفاعي ..قيمته هنا من

قيمتك وقيمتي .

كل كلام الدنيا لن يمكنه وصف شعورها في هذه

اللحظة !

يحسدونها علي نعمة الكتابة وقدرتها علي وصف
المشاعر لكنها في هذه اللحظة كانت عاجزة عن
الفهم ..ناهيك عن الشرح ..

كأنه ب"جرة قلم" شطب سنوات حرمان طويلة !
ولأول مرة تجرب معنى غصة الحلق عن اكتفاء رضا
لا عن مرارة ألم !

يشير لها عاصي للأعلى إشارة ذات مغزى فتعبث
بأناملها في شعرها بحركة عصبية وهي تختلس نظرة
نحو الغرفة الجانبية حيث اختفى إلياس مع تلك
"العقربة" قبل أن تزفر بسباب خافت وهي تصعد
الدرج للأعلى ..

تفتح غرفة مجد لتجده مستلقياً جوارها على الفراش
فتتحرك مقتربة لتستلقي علي الطرف الآخر من
الفراش جوار مجد التي بدت غارقة في نعاسها ..

تصمت قليلاً ثم تسأله بغتة:

_ ما الذي كانت تعنيه هذه الحركة من عمك !؟
يبتسم رغماً عنه لذكائها وقد انتبهت لحركة إلياس
رغم تعدد الأخير إظهار عفويتها .. ليهمس بشرود
متعب عبر صوته الكسير :

_ حركة اعتدنا عليها عندما كنا صغاراً .. إلياس ليس
عمي فحسب .. إلياس أخي وصديقي ..

طالما كانت هذه حركتنا السرية التي كان يطمئنني بها
بعد كل مرة يداري فيها أخطائي السرية عن
والديّ .. عندما كنت أتهرب من دروسي .. عندما كنت
أشاهد مباريات الكرة علي التلفاز أوقات
اختباراتي .. عندما كنت أخافلهما بالسفر مع
رفقائي .. وعندما كنت أواعد سراب ..
همسه يصبح شديد الخفوت في عبارته الأخيرة
فيشتعل قلبها بين ألم غيرة استسخفته ليتحول لحرقة
كاوية وهي تحاول تصور شعوره في هذه اللحظة ..
كانت تظن نفسها عاشت مأساة حتى عرفت حكايته
هو ..
على الأقل .. هي ارتشفت كأس مرارتها ببطء حتى
اعتادته ..

لكنه هو عاش عمراً أميراً فوق قمة جبل أجبروه في

لحظة غدر أن يهوي من فوقه !

كانت هذه حركته دوماً ليخبرني أنه معي حتى لو

أخطأت ..تتصورين معنى أن يعيدها اليوم ..الآن

بالذات !؟

تبتسم رغماً عنها وهي تشعر ببعض الارتياح ..

لم تلتفت نحوه وكذلك هو ..

لم يكن أحدهما في هذه اللحظة بحاجة لرؤية صاحبه

رؤياً عين ..

فالقلوب الآن أبصر !

لماذا تظنها جاءت !؟

تسأله عن إستبرق ليرد بصوته الخافت الذي يتباعد

أكثر وأكثر ..:

_ غداً .. غداً .. غداً أستعيد صفاء ذهني ويمكنني

التفكير .. الآن .. لا أريد سوى ..

صوته يتلاشى فلا تدري هل استسلم للنوم تعباً أم

هروباً ..

ولا تلومه كثيراً في الواقع بعد ما لاقاه من هذه

الصددمات المتتابة ..

تبقى متيقظة لساعة كاملة بعدها مكتفية بعناق مجد

لكنها كانت تسمع أنينه المكتوم في نومه لتنهض من

رقدتها بحذر .. ترى العرق وقد تجمع فوق جبينه فلا

تحتاج لكثير من الذكاء كي تدرك أنه يرى كابوساً ..

تباً!

كيف يمكنها أن تقاوم!؟

تتهد بحرقة لتطلق سبة خافتة ثم تهض لتزيع مجد
جانباً برفق شديد كي لا توقظها ثم تتخذ مكانها
بينهما ..

تفرد ذراعها ببطء لتسند رأسه النائم على صدرها !
تغمض عينيها وهي تتذكر هذا العهد البعيد عندما
كانت أمها تضمها بهذه الطريقة فتتلو علي مسامعها
آيات بسيطة من القرآن ثم تحذرهما من تقبيلها بعدها
زاعمة أن القبلة تفسد الرقية !

فتدمع عيناها بفيض عاطفتها وأناملها تداعب
خصلات شعره الناعمة على صدرها مرودة تلك
الآيات .. بينما أناملها الحرة تمسد جبينه تمسح عرقه
الخفيف دون غضاضة حتى تستسلم للنوم بدورها ..

يستيقظ بعد ساعات مهدود الجسد ليرفع رأسه بأهة

توجع قبل أن ينتبه لوضعها ..

رأسه على صدرها وراحتها الدافئة تغفو بحنو قوي

يشبهها فوق وجنته فتغلبه ابتسامة عاطفته وهو

يراقب ملامحها النائمة بعشق جارف ..

يعرف كم كلفها الأمر من عناد كبريائها أن تختار

نومة كهذه لكنها كانت توقن أنه يحتاجها .. تماماً كما

يوقن الآن هو !

يتناول راحتها يقبلها بعمق ثم يعيدها لوجنته حيث

أرجع رأسه ليستقر على صدرها مستسلماً لنوم أهدأ

هذه المرة ..

يوماً ما سيشكرها على كل هذا كما يليق ..

فقط عندما يستعيد كينونته !

=====

أحمر

=====

_ "را...را" !..

يناديها إبراهيم وقد قدم لتوه بعد يوم عمل طويل
مستخدماً هذا اللقب الطفولي الذي يناديها به سامي
الصغير وقد شعر أنها تعشقه أكثر من اسمها فصار
يدلها به ..

يشعر ببعض القلق ولا رد يصله خاصة وقد اعتاد أن
يجدها في انتظاره كل يوم .. كانت تفعلها في الشرفة
لكنه نهاها عن هذا غيراً .. فصارت تنتظره هنا في
صالة شقتها بهذه اللفة المغالية التي اعتاد
مبالغتها كل شيء فيها ..

يضع ما بيده جانباً وهو يعيد نداءه ثم يتهد ببعض
الارتياح وهو يدخل غرفتهما لتقع عيناه عليها جالسة
على فراشهما تعطيه ظهرها لكن رجفة جسدها
المتتابعة تجعله يهرع إليها لتتسع عيناه بارتياح وهو
يميز وجهها الغارق في الدموع فيجلس جوارها
ليحتضنها بقوة هاتفاً :

ماذا حدث؟! لماذا تبكين هكذا!؟!

ترفع إليه كفها بما تحمله فينعقد حاجباه بشدة وهو
يميز شريط اختبار الحمل الذي أشار لخط واحد فقط
كناية عن عدم حدوث حمل .. ليهمس بخفوت ضائق
وهو يتأوله منها ليضعه جانباً:

_ لا حول ولا قوة إلا بالله .. ظننت الأمر جلاً!
تزداد رجفة بكائها بين ذراعيه وهي تهمس بألم :
_ لن تفهم ماذا يعني هذا الأمر لي .. لن تفهم ..
عاطفته نحوها تغلبه فتزداد قوة ضمه لها وهو يقبل
وجنتها هامساً بحنان :

_ والله لا أكف عن الدعاء بهذا الأمر .. لأجلك
لا لأجلي .. لكنني لا أريدك أن تدوري في هذا الفلك
وحده .. لا يزال زواجنا في أوله .. أمامنا العمر كله .
_ العمر كله!

تتمم بها بحسرة ملتاعة وهي تخفي وجهها في
كتفه ..

ماذا عساها تخبره عن هذا الرعب الذي تعيشه هنا
والذي يزداد في كل تقضيها هنا ..!؟!

كل دقيقة تساوي عمر .. وكل دقيقة تساوي الخوف
من موت سيصرعها في أول لحظة تنكشف فيه
الحقيقة!

ربما .. ربما لو حظيت منه بطفل كان هذا تذكرة عفو!
حتى ولو لم يكن .. كفأها ستحتفظ منه بجزء من
روحه يكبر معها فلا يتركها أبداً حتى ولو تركها هو!

_ حبيبتي ..

يهمس بها مدلاً بحنان وهو يربت على رأسها ..
ياالله!

حتى حنانه صار يخزها بالألم .. يحشوها بالذنب ..
لهذا تبتعد بجسدها عنه لتخفي وجهها بين كفيها
فيترك لها مساحة حزنها الخاصة وقد كان يرى ربيع
يفعل هذا مع أمه .. مكتفياً بالصمت للحظات وهو
يربت على ركبتيها ..

_ لن تكفي عن البكاء!؟!

يسألها أخيراً بحنان عاتب وهو يضمها إليه لكنها
تعجز عن منع دموعها فيميل بها فوق الفراش
بسرعة خاطفة ..

ليحرك سبابته ووسطاه تباعاً في خط سير طويل من
كعبيها مرورا بساقيها وعلى طول جسدها في دغدغة

لطيفة انتزعت ضحكاتها قسرا وهي تحاول التملص

من ذراعه المقيد لها عبثا ..

_ ابراهيم .. لا .. لا .. لا احتمل الدغدغة .. لا ..

صرخاتها الضاحكة ذات الدلال الفطري تصيب

سهامها في قلبه فتتلقفها روحه قبل أذنيه وهو

يضمها إليه بقوة وشفته مشغولتان بين ضحكات

وقبلات ..

لينتهي بها المقام فوق صدره النابض بخفقاته وقد

شرعت أنامله تمسح بقايا دموعها على وجهها ..

_ أحضرت لك هدية باسمك ..

تلتع عيناها بفرحة ملهوفة وهي تميز السلسلة التي

استخرجها من جيبه ..

فرحة تحولت لخيبة لم يفهمها وهي تشعر بحبل

خطيئتها يضيق حول عنقها أكثر ..

أي اسم ؟! أي اسم ؟!! سمر !؟ بالتأكيد سمر !

لكن خيبتها تستحيل لشعور غريب وهي تميز الاسم

الذي كان على دلالية السلسلة ..!!!!!!

للتسع عيناها بانفعال طاغ وهي ترفع نظراتها

نحوه ..

(حبيبة إبراهيم)

تضحك من قلبها وهي تود لو تشكره ألف مرة أنه لم

يحدد الاسم ..

ليتها تبقى هكذا فحسب .. فلا يعنيه اسمها هي مادامت

أولاً وأخيراً هي حبيبته .. وكفى!

_ هكذا أنتِ دوماً ..حبيبة إبراهيم ..

يقولها بحماس عاطفي وهو يضغط الدلاية الفضية
بشكل القلب قليلاً لتتزاح كاشفة عن أخري بلون
معدني وردي ..وقد نقش عليها ..

_ (الرامية القرمزية)

تنطقها بغرابة فيرفع ذقتها نحوه هامساً بشرود حان:
_ هكذا كنت أراك في الماضي ..رامية سهام قرمزية
الثوب تجيد تصويب سهامها نحو ما تشاء ومن
تشاء .

تسبل جفنيها ببعض الذنب وهي تتذكر لعبة النرد التي
بدأتها معه ..

لكنها تفيق على صوته وهو يزيح الدلاية الثانية التي
تشابكت مع شبيبتها "الذهبية" بنفس شكل
القلب .. والتي نقش عليها اسمها الثالث :

_ (أم حسن)

_ وهكذا أنتِ في غدي .. أم حسن .. عوض الله لي
ولأبي .. وفرحتك أنتِ.

يهياً إليها أنها لم تسمع صوته أكثر عذوبة مما كان
في هذه اللحظة ..

لا تستطيع أن تمنع دموعها الآن إنما ليست دموع ألم
أو خوف .. بل دموع حب وأمل !

تراه يعيد تنسيق الدلايات الثلاث لتبدو كدلاية واحدة
ظاهرها (حبيبة إبراهيم).. هذه التي تراقصت على
جيدها بعدما ألبسها إياها ..

فتضم رأسه لصدرها تتشقق عبيره بقوة ثم تردد
همسها المعهود الذي لا يمل منه كلاهما :

_ أحب رائحتك .

يضحك لها ضحكة قصيرة عاطفية وهو يقبل شفيتها
بنعومة هامساً :

_ وأنا أحبك كلك .. فقط لو تكفين عن هذه "الدراما"!
_ تراني كئيبة !؟

تهمس بها بين دلال وخزي فينثر قبلاته على وجهها
كأنه يمحو أثر دموعها ثم يهمس أمام عينيها :

_ أنا فقط أشفق عليك من كل هذا الخوف .. لا أحتاج
لطفل ليجمع بيننا .. أنت صرت حبيبتي وابنتي
وأمي .. لا تعرفين كم أعد الدقائق في غيابك كي أعود
إليك .

تبتسم أخيراً ابتسامة مرتاحة وهي تريح رأسها على
كتفه للحظات لكنه يقف ليوقفها معه هاتفاً:

_ تعالي وانظري ماذا أحضرت لك معي !
يتحرك بها نحو الخارج وبالتحديد نحو هذه اللقافة
الورقية التي أحضرها مع ليفتحها أمام عينيها اللتين
اتسعتا بتساؤل وهي تميز أقراص الحلوى بشكلها
المميز ..

_"مشبك" ! تحبينه؟! أحد الزبائن طلب مني توصيله

في مشوار خاص لدمياط ..أحضرتة من

هناك ..ف"مستر ربيع" يحبه .

يقولها بانطلاق فتبتسم وهي تفكر بشرود ..سمعت

عنه لكنها لم تذقه يوماً ..فادي طليقها الأخير كان

يحب حلوى شامية تشببه لكنها لا تذكرها تماماً كما

هي -بالكاد- تذكره ..

ياالله ..كأنما كل ما فات من ماضيها عمر رمته خلف

ظهرها كخرقة بالية وعمرها الحقيقي هو حياتها

هنا !

تضحك متفاجئة وهي تراه يقطع من قرص

"المشبك" قطعة صغيرة يقربها من شفثيها فتقضمها

بتلذذ ثم تفعل المثل معه فيسيل بعض من عسل
الحلوى علي ذقنه لتتلقفه شفتاها بشقاوة عاطفية
حارة لم يعد يتعجبها منها .. بل أدمنها بكل طريقة !
كأنما هوسها المبالغ فيه به قد عوض سابق شعوره
من قبل بالزهد في كل البشر ..

الدرويش صار أسير عشقها متى أدرك أنها هي
الأخرى صارت أسيرة قبله !

_ نحن لم نساغر بعد زواجنا كما يفعل الجميع .. ربما
هذا ما يؤثر على مزاجك خاصة وأنت لم تعود
تذهبين للفرن مع أبي كالسابق .. يمكنني حجز ليلة أو

ليلتين في أحد الفنادق بإحدى مدن الساحل..ما رأيك

!؟

تشعر بكرهة الفكرة وهي تخشى الخروج من هذا

الحي فيتعرف إليها أحدهم ..لهذا تبتم له قائلة :

_ لا ..لا أحب هذه الأماكن ..أقصى سعادتني أن أبقى

هنا معكم ..لكن ..يمكنني أن أطلب ..

تتردد قليلاً فيحفرها بنظرة عينه لتردف بتهيدة

حارة :

_ربما أحتاج فعلاً نزهة قصيرة لساعة على

الأكثر ..لو لم تكن متعباً يمكننا الخروج بسيارتك

الآن .

_تأمرين يا (أم حسن)!

اللقب يدغدغ عاطفتها خاصة بلهجته فائضة
الرجولة .. وافرّة الحنان فتعانقه بقوة وهي تتلقف كفه
الذي يربت على شعرها لتقبل ظاهره بامتنان .
تدمع عيناها وهي تفكر .. "يسرا الصباحي" لم تقبل يد
رجل من قبل ..

لم تفكر في فعلها حتى في أوج عاطفتها مع أحد من
أزواجها السابقين ..
لكن مالها ويسرا ..!؟!
هي معه سمرا التي تود لو تقبل يده كل ساعة .. بل كل
لحظة دون غضاضة ..

لا قبلة خضوع بل قبلة انتماء ..
انتماء! هذا الشعور الذي لم تعرفه حقيقة إلا هنا !

تتحرك لتبدل ملابسها ..تختارها محتشمة بعناية ثم
تخرج إليه فيبتسم لها وهو يثني لها ذراعه للتأبطه ..
يغادر معها نحو سيارته فتستقلها جواره ليقطع بها
شارعهم البسيط ..

_ أفهم من جو "الصعبانيات" الذي وجدته عندما

عدت ألا عشاء ينتظرنني بعد عودتنا!؟!

يقولها مشاكساً فتضحك وهي تشير لصدرها بفخر :

_ بالطبع لا ..أنا أعددت لك "المحشي" الذي تحبه

بطريقتك ..وصنعت نصيب مستر ربيع "ني في ني"

لأجل صحته .

_ "ني في ني"؟!؟!

_ هم يقولونها هكذا ..تعبيراً عن عدم "تسيبك"

الصلصة كي تكون خفيفة وصحية أكثر !

_ "يا سيدي"! صرت خيرة!

يقولها بين مرح واعتزاز فتضحك بفخر حقيقي وهي

تسند رأسها للمقعد لتتظر لجانب الطريق ..فتتسع

عيناها لما تراه ..

ينعقد حاجباها وهي تمد رأسها قليلاً خارج زجاج

النافذة تتأكد مما تراه قبل أن تزم شفيتها بقلق

غاضب ..

سندس!

واقفة مع أحد الشباب في شارع جانبي مظلم في هذا

الوقت!

_ ماذا بك؟!!

يسألها لتلتفت نحوه بابتسامة مصطنعة تهز رأسها ألا

شيء ..

لكن عقلها بقي مشغولاً بتلك الفتاة التي

تلاحظ غرابة تصرفاتها مؤخراً ..

لا بأس ..ستتظر في هذا الأمر غداً!

_تذكرين ركوبك معي هذه السيارة أول مرة!؟

سؤاله ينتزعها من أفكارها لتتركز مشاعرهما تماماً

معه وهي تتذكر بدورها هامسة :

_كانت أغرب ..وأجمل صدفة !

_أنا أدين لهاتفك ..لو لم يسقط هنا في سيارتي لما

دخلت حياتي .

يقولها بهدوء عفوي لتميل رأسها على كرسيها

فتكون أقرب ما تكون منه ثم تقول بتردد :

_هل أعترف لك بشيء!؟

تتسع عيناه قليلاً وهو يقرأ ملامحها ثم يضحك قائلاً

بين تعجب ومرح:

_ لا تقولي أنك تعمدت إسقاطه هنا كي تلتقيني من

جديد .

تدمع عينها باعتراف صامت فتمتزج ضحكته بضيق

خفي وهو يخفف سرعة السيارة بينما يسمعها

تغمغم :

_ ولو لم يسقط هاتفني كنت سأجد ألف طريقة أخرى

ألتقيك بها .

_ ألم أدعوك "الرامية القرمزية"؟!!

نبرة الضيق تزداد وتيرتها في كلامه رغم مرحة

فتبسط راحتها على ساعده لتسأله بوجل:

لماذا أشعر أن اعترافي هذا ضايقك !؟

فيهز رأسه ليغمغم بشرود :

لا شيء غير أني ضائق قليلاً أنك لم تخبريني إلا

الآن .. لا أحب أن يفاجئني خبر بشأن من أحبهم .. أي

خبر .. خاصة بعد شأن حسن .. أبي ربانا في بيئة

منغلقة بسيطة .. لم نعرف من الدنيا سوى العيش

بوتيرة واحدة منتظمة هادئة .. فاجعة حسن كانت أول

مفاجأة في حياتي .. أن أستيقظ فجأة لأجده غير

موجود .. حدث واحد غير حياتنا كلها .. اضطررنا

بعدها للسفر .. ثم ماتت أمي .. الوتيرة المنتظمة

صارت فجأة سلسلة من التغيرات .. وبعدها عدت إلى

هنا وجدت كل شيء تغير .. حتى الناس .. حبيبة حسن

تزوجت غيره .. الناس الذين ملأوا الميادين ثورة على

الظلم عادوا لينسوا ..بؤر الفساد التي ظننا أننا
كشفناها وأوردناها السجون عادت لتظهر بتبجح ..كل
هذه المفاجآت جعلت مني زاهداً في كل شيء ..أخاف
التعلق من فرط ما أخاف الفقد ..وأنتِ بالذات يشق
عليّ أن أعلم أن هناك ما تخفينه عني .
تتكس الدموع في عينيها والغصة هذه المرة لا تكون
في حلقها فحسب ..بل في روحها كلها ..
ليتها تستطيع مصارحته بكل شيء ..
لكن ..لو كان هذا ضيقه بشيء بسيط أخفته ..فماذا
سيصنع بها لو علم ما تخفيه ؟!
صمتها يطول وشفاتها ترتجفان بهذه الطريقة
الواشية بكتمانها البكاء فيلتفت نحوها لتغلبه عاطفته

نحوها فيضمها إليه بذراعه الحر قائلاً بابتسامة

طيبة:

_ لا بأس .. أخبريني إذن .. لماذا فعلتها ؟!

تغمض عينيها بقوة وحنانه يخزها بالمزيد من

شعورها بالذنب ليصلها صوته المشاكس:

_ حب من أول نظرة مثلاً؟!

تخفي وجهها في كتفه مخفية عنه حديث عينيها

فيضحك ضحكة متسامحة وهو يرصف سيارته قريباً

من كورنيش النيل ثم يترجل منها ليفتح لها الباب

فتغادر بدورها لتتأبط ذراعه كي يسيرا ببطء ..

تملاً صدرها بالهواء وهي ترفع عينيها نحو السماء

بضراعة ..

لم تشعر يوماً بالسعادة كما هي الآن ..

ولم تشعر يوماً بالخوف كما هي الآن ..
تشد على ذراعه بقبضتها دون وعي لكنه يربت عليه
بحنان وهو يحاول التسرية عنها بسرد بعض
المواقف التي حدثت له أثناء عمله ..
يقطع حديثه وهو يرى علبة كرتونية قطعت الطريق
فيتحرك ليضعها جانباً في صندوق القمامة ..
تبتسم له بتعجب وهي تتأبط ذراعه من جديد فيقول
ب"بساطته الفخمة":

تعرفين القصة الشهيرة لذاك الرسام الذي رسم
لوحة وتركها علي قارعة الطريق وقد كتب فوقها
(من رأى فيها عيباً فليضع عليه نقطة حمراء) .. عاد
مساءً ليجدها كلها ملطخة بالأحمر حتى أنهم أفسدوا
ملامحها كلها .. عاد لأستاذه فأشار عليه أن يعيد

رسمها ويتركها من جديد على قارعة الطريق ليكتب
عليها (من رأى فيها عيباً فليصلحه) ..فعل كما أمر
أستاذه ليعود ويجد لوحته كما هي ..أبي كان يحكي لنا
هذه القصة في صغرنا كي يعلمنا أن الناس
يستسهلون اصطيات الأخطاء لكنهم لا يسعون
لإصلاحها ..ربما لهذا نشأنا أنا وحسن على ما صرنا
عليه .

تتسع ابتسامتها وهي تشعر بالمزيد من الإكبار له
ولوآله معه ..

ولا تدري لماذا ربطت الحكاية بقصتها معه لتجد
نفسها تسأله بوجل:

وَأنت تطبق هذا في حياتك كلها؟! لا تتعجل الحكم
على الخطأ وتسعى لإصلاحه!؟

قدر استطاعتي! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها!
يقولها بعفوية فتغمض عينيها بالمزيد من الوجد
الذي تحاول التغلب عليه ببعض المرح :
تعرف .. لو كان صاحب هذه اللوحة هنا الآن وتركها
على قارعة الطريق .. لم يكن ليجدها آخر اليوم
أصلاً !

يضحك ضحكة عالية وهو يشاركها المزاح قائلاً:
صحيح! كانت ستسرق بمجرد ما يلتفت بظهره .
تشاركه الضحك والمشي للحظات ثم تتهد لتقول
بخفوت وهي تتأمل منظر النيل وقد تراقصت الأضواء
فوق مياهه المظلمة :

_ لا!..إحقااً للحق البلد ليس بهذا السوء ..تعرف؟!
أنت جعلتني أحب هذا البلد أكثر ..وأنظر إليه نظرة
أخرى ..عندما أسمعك أنت او مستر ربيع تتحدثان
عن التاريخ أشعر بفخر حقيقي بعيداً عن شعارات
الكتب والتلفاز الزائفة ..هذا البلد جميل حقاً ..جميل
بمن هو مثلك ومثل أبيك ومثل أخيك ومثل
هبة ..جميل بناسه المظلومين المتوارين في ظل
العوز والحاجة لكنهم يكافحون لأجل الأفضل .
_وجميل أيضاً بالأغنياء الذين لا يبخلون بما آتاهم الله
من فضله ..لا أحب الفكرة التقليدية لشرف الفقير
ودناءة الغني ..الفكرة التي أرادوا زرعها فينا منذ
الصغر (الغني يملك المال لكنه غير مرتاح البال
وأولاده سيئو الخلق والفقير لا يملك المال لكنه سعيد

وأولاده مهذبون!) الفكرة التي ينافيها الواقع كل
يوم.. كأنهم يريدون تخويفنا من المال! أنا رأيت
فقراء أو غاد ورأيت أغنياء كرماء.. لا أدري سر ربط
الوطنية والخلق بالفقر!

يقولها بحماس لتبتسم قائلة بإعجاب حقيقي:
_ظننتك تكره الأغنياء على المطلق.. أذكر أنك قلت
لي شيئاً كهذا بعد زيارتي تلك لبيت الصباحي.
يتحشرج صوتها رغماً عنها وهي تتذكر ذاك اليوم
لكنه لا يلحظ هذا وقد تغيرت ملامح وجهه بغضب
ناسب كلماته:

_السلطة الفاسدة وليس المال! النفوذ الذي يهيئ
للبعض الظلم والقتل بدم بارد! هذا هو ما قصده
يومها وليس مجرد الغنى.

تشحب ملامحها رغماً عنها وهي تميز الحقد الغريب
في عينيه على طبيعته المتسامحة فتؤثر تغيير
الموضوع وهي ترى المرأة التي جلست قريباً تشوي
الذرة لتقول بلهفة مصطنعة :

_أريد منه ..لم أتناوله منذ تلك المرة يوم كنا على
السطح .

تتبدل ملامحه في لحظة لحنان جارف وهو يتحرك
نحو المرأة لتردف بنبرة آمرة :

_انت لن تأكل كي لا تفسد شهيتك للطعام الذي أعدته
في البيت .

فيضحك وهو يرد :

_تذكريني بأمي كانت هكذا تقول مثلك عندما ..

يقطع عبارته وهو يسمع صوت رنين هاتفه برقم
قيس فيفتح الاتصال وقد ظنها مشاكسة من ابن عمه
كالعادة لكن وجهه يحتقن بقلق وهو يستمع ليهدف

بجزع :

_أبي !

=====

الطيف الخامس والعشرون



أخضر



_"الست عزة" ! حمداً لله على سلامتك !

يهتف بها بواب البناية حيث شقتها القديمة قبل
زواجها من إيهاب فلا تجد القدرة -ولا الرغبة-
لتتكلف ابتسامتها التقليدية قاعة ب"وجهها
المهزوم" ..

فضول الرجل يتحول لبعض الشفقة وهو يميز
حقيبتها الكبيرة التي احتلت خلفية السيارة مع صوتها
الذي سمعه لأول مرة بهذا الانكسار :



_ اصعد بها للأعلى .

يحوقل الرجل بصوت خفيض لكن صوته كان يدوي
في أذنيها بما يشبه قرع الطبول .. يعيرها بالمزيد من

الفشل ..

تتجه نحو مدخل البناية لتصعد الدرج نحو المصعد
الذي فتحت بابه لتفاجأ بإحدى جاراتها تخرج منه ..

_ عزة! مبارك زواجك ! لم تتسنّ لي فرصة تهنتك

حتى الآن .. اعذريني ..

لا تحب هذه المرأة ولا تظنها تحبها كذلك .. لهذا تصم

أذنيها عن ثرثرة المرأة مكتفية برد تقليدي عبر

إطراقة رأسها .. لكن نظرات الأخيرة تقع على الحقيقية

التي حملها البواب فتهتف لها بدهشة :

_ عدت بحقيبتك؟! لماذا؟! لم يمض على زواجك
الكثير!! وأنا التي كنت عاتبة عليك لأنك لم تدعني
إلى حفل زفافك؟! لا بأس يا حبيبي.. أنا رأيت
الفيديو المنتشر على شبكات التواصل لحفل ليلة
زفافك وما قالتة شقيقتك!! يبدو أن الأمر..ياالله!!
موقف صعب!!

شفقة المرأة الظاهرة تخفي شماتة تكاد تراها حتى
وهي مطرقة الرأس هكذا لتردف الأخيرة بنفس
النبرة :

_ سمعت كذلك أن البرنامج خاصتك قد توقف وأنهم
يعدون مذيعة بديلة لتقديمه..قلت
لنفسي:(حقاً..المصائب لا تأتي فرادى)..لكنني لم
أصدق..أين سيجدون مثلك؟! البرنامج أصلاً كان..

لكن عزة تقاطعها وهي تتقدم صامته نحو المصعد
لتضغط زر طابقها ثم تغلق الباب في وجهها بهدوء
ظاهر ولا تزال مطرقة الرأس ..
كان يمكنها الرد بلباقة لا تنقصها تعلمتها عبر سنوات
عملها لكنها كذلك زهدت التبرير .. زهدت
التظاهر .. زهدت الكذب ..
فلتعترف بالهزيمة فحسب!
تغلق باب شقتها بعد دخولها لتستند عليه مطلقه
تنهيدة ..

قبل أن تنحدر عليه لتستقر جالسة على الأرض!
كيف يمكن هكذا أن تشعر أنها عادت .. ولم تعد!؟

هذا المكان تعرفه .. هذا الأثاث تعرفه .. كل قطعة فيه
اشترتها في مناسبة ما لها معها ذكرى .. حتى الأرض
تحت قدميها .. تكاد تعرفها ..

طالما كانت تحب الجلسة على الأرض زاعمة أنها
تكفيها خوف السقوط .. فمالها الآن تشعر أنها تسقط
حتى وهي جالسة ؟

تغمض عينيها وهي تستعيد ذكرى شجارها الأخير مع
إيهاب ..

الأخير .. و-العجب- الأول!!

طوال سنوات معرفتها به لم يتحول الأمر بينهما
لصدام قطّ مهما اختلفا ..!!

كانت قد عادت من مقابلتها مع مخرج برنامجها لتجد خديجة قد أغلقت غرفتها عليها فاستسلمت لجلستها وحيدة حتى عاد إيهاب بروحه متصنعة المرح كعهده مؤخراً ..

_افتقدتك يا جنيتي !

صوته المرح لم يعد يخدعها .. بل صار يخنقها أكثر .. تندفع لتعانقه محاولةً استعادة عهد صداقتها القديم تسأله كيف أبلى في عمله الجديد لتشعر أنه يتهرب من الجواب بالمزيد من المرح المصطنع .. ليتخطى الأمر بسؤالها عما فعلته هي في لقائها فترد بقتوط :
_ لن تصدق ما طلبه مني .

يرمقها بنظرة متوجسة لتخبره بتفاصيل ما دار بينهما ثم تردف بانفعال :

تخيل أنه يريدنا أن نجعل حياتنا الخاصة مادة يومية
للدعاية ! هل تصدق أنه يريد أن يجعل من معاناتك
فرصة حقيرة لجذب انتباه الناس !؟
نظراته التي كانت يوماً لها كتاباً مفتوحاً الآن تتلون
أمامها بلون غامض لم تفهمه ..
هل ذبحها الألم للحظة أم أنها تتوهم !؟
ابتسامته المراوغة الصامتة بعدها حيرتها قبل أن
يعطيها ظهره للحظات طال فيها صمتها فتشعر
بالتخبط ..

تبسط راحتها على كتفيه من الخلف لتغمغم باعتذار
منفعل:

أسفة .. لييتي ما أخبرتك .. هذه الحماقات لا تستحق
أن نلتفت إليها مادمننا ..

_ألا ترين أنك تبالغين في الأمر قليلاً؟!

كلماته تصدمها وهو يلتفت إليها فجأة بملامح معتمة

اشتد غموضها لتتمتم باستنكار :

_أبالغ؟!

فيهز كتفيه ليهرب من عينيها بقوله الهادئ:

_لا أظن الرجل قصد الإهانة ..أنت تعملين فعلاً في

مجال يجعلك بؤرة الأنظار شئت أم أبيت ..ماذا يضيرنا

لو فعلناها؟!

_ماذا؟!

تتمتم بها بذهول وهي تتراجع خطوة للخلف ليزدرد

ريقه مردفاً بنفس الهدوء الظاهر :

_فكري فيها بزاوية أخرى ..ربما تكون تجربتنا منبع

أمل لمن مر بظروفي..دافعاً له كي يتقبل قدره

ويستمر .

_وهل تقبلته أنت ؟!

كادت تصرخ بها باستنكار لكنها كتمتها مع .."ما

صارت تكتمه" !!

فقط عيناها كانتا تصرخان بقهر ..واشتياق!!

اشتياق ل"الفاجومي" القديم الذي تحتاجه الآن أكثر

من أي وقت مضى !

_صدقيني لن نخسر شيئاً ..لن أقبل أي شيء يحرمك

النجاح الذي حققته طوال هذه السنوات .."الهورية

الخضراء" ستمنح الأمل للجميع كما منحتة لي .

يستمر في تبريره لكنها لا تقتنع بمنطقه كما لم تقتنع

بتظاهره الفاشل لتهتف باستنكار :

_ تفاصيلنا اليومية ستكون على المشاع ..مباحة

للجميع ..صباحاتنا وأمسياتنا ..خروجنا

وأسفارنا ..مشاعرنا ستكون مجرد قناع نرتديه وقت

التصوير ..قناع يكون مقياس جودته عدد

"المشاهدات" و "الإعجابات" و "المشاركات" ..أنا

رفضت هذه الطريقة يوماً وقد كان الأمر يخصني

وحدي .. فكيف أقبله الآن وهو يتعلق بنا معنا؟! لا !

لن أجعل مصابك وسيلة لكسب التعاطف !

نظرة عينيه تهتز قليلاً ثم تدمعان بانفعال طغا على

قناع هدوئه الظاهر لكنه يبدو وكأنه يبذل مجهوداً

خرافياً كي يسيطر على نفسه ليعود فيعطيهما ظهره

قائلاً:

_لازلت أراكِ تبالغين في تقدير

الموقف .. الأمر .. بسيط.

صوته يتحشرج في الكلمة الأخيرة فلا تحتمل الكتمان

أكثر لتتقدم كي تواجهه هي هذه المرة .. تكتنف كتفيه

بقبضتها هاتفة :

_لا .. ليس بسيطاً .. ليس بسيطاً .. انزع قناعك الهادئ

هذا وكلمني عما تشعر به حقاً .

_وما البديل؟! هه؟! ما البديل؟! أن تخسري تعب

هذه السنوات؟! نسيتِ فضيحة ليلة الزفاف التي

أحدثتها شقيقتك؟! لماذا لا تفكرين أن عرض ذاك

الرجل هو الذي سينسى الناس إياها؟! القشة الأخيرة
التي يجب أن تتلقي بها قبل أن تغرقى معي!
يهتف بها بانفعال سمح له أخيراً أن يشق قناع وجهه
لترتد للخلف مصدومة وهي تشعر أنها حقاً تقف أمام
واحد لا تعرفه!!

_ ماذا حدث؟!_

صوت خديجة التي خرجت من غرفتها أخيراً يحلق
بينهما فيهم إيهاب بالرد لولا أن لمح ملامح وجه أمه
التي بدت محمرة منكسرة بفعل بكائها لينسى ما كان
يتحدث عنه مع عزة متذكراً شأن إياد فيندفع نحوها
ليسألها بقلق:

_ هل ذهبت لإياد؟!_

تومئ خديجة برأسها إيجاباً.. ليزدرد ريقه بتوتر:

ماذا فعل معك !؟

**تتهد بحرقه انفعالها ثم تحكي له باختصار عما حدث
لتختم بقولها :**

يريدنا أن نذهب جميعاً للعيش معه في بيته!

ماذا!؟!

**تهتف بها عزة باستنكار حاد لتلتفت لها خديجة
بقولها المنفعل بحيرته:**

هو يرى هذا عوضاً عن تقصيري في حقه .

حقه في أمه لن أعترض عليه! ..حقه في اعتذار

أخيه كذلك لن ألومه فيه!..لكن بأي منطق يريد منا

السكن معه !؟ اذهبي انتِ و عوضي ابنك عن ذنبك

كما تشائين لكن ما شأننا نحن!؟!

تهتف بها عزة بعصبية أفقدتها التفكير في كلمات
مناسبة ليهتف بها إيهاب زاجراً وقد رأى شحوب
وجه أمه بعد كلامها:

_ عزة ! لا تتجاوزي حدودك!

**_ أنا التي أتجاوز حدودي؟! أم أنتم الذين تريدون
إقحامي في شأن لا علاقة لي به ودون أخذ رأيي؟!
تصرخ بها بالمزيد من الانفعال والغضب داخلها
يدفعها لأقصى حدود الجنون ..**

لتهتف بها خديجة مهدئة:

**_ اهديني ! لم يطلب منك أحد شيئاً .. أنا لم أوافق بعد !
_ ولماذا لا توافقين؟! إياد لن يرضى عنا سوى بهذه
الطريقة .. سوى بشعوره أننا أتيناها بأقدامنا تاركين
خلفنا كل شيء .**

يقولها إيهاب بتشتت وشعوره بالذنب نحو أخيه يقذفه

لأبعد الحدود ..

لتنقل خديجة بصرها بينه وبين عزة بالمزيد من

التردد والحسرة !

لقد سمعت حوارهما منذ قليل فصياحهما وصلها في

غرفتها ..

لم تصدق أن من يتحدث بهذا المنطق هو ابنها !!

هي وحدها تشعر بما يكابده ..

بالثمن الذي يدفعه من روحه كي يبدو بكل هذا الهدوء

المرح بينما هو بداخله يحترق !!

كيف تتركه في هذه الظروف ؟!

هي لم تفارقه يوماً منذ ولادته وقد عاش أياماً كان
فيها أغنى ما يكون عنها .. فكيف تتخلى عنه الآن
وهو أفقر ما يكون إليها ؟!
لكن إياد هو الآخر له الحق فيها ..
ظلمته كثيراً دون قصد .. فهل فعلها الآن عامدة ؟!!
_ إياد صار وفير الثروة كما تقولين لكنه لم ينس أنه
تربى بيننا هنا وقد كفل أبي - رحمه الله - تكاليف نشأته
كلها فلم يبخل عليه بشيء ولم يفرق بيننا في
شيء .. كان هذا قديماً يدعوهُ للامتنان .. لكن الآن -
وبعد ما أذنبته أنا في حقه - الأمر صار يشعره
بالانتقاص .. هو يريد الشعور بأنه قد صار له بيت
يملكه .. بيت يملكه ويسعنا كلنا .

يغمغم بها إيهاب بشرود وحروفه المتحشجة تتشقق

عن ألم قلما يظهره مؤخراً ..

لكن عزة ترمقه بنظرة غريبة وهي تشعر أنها تحيا

في كابوس ..

كابوس توشك أن تنتقل منه لآخر أكبر ..

يريدونها أن تذهب للعيش مع ذاك الرجل !!؟

رجفة خافتة تسري في جسدها تشبه رجفتها عندما

رأت إياد أول مرة ..

شعورها وقتها أنه "نسخة إيهاب المثلى"

الكمال الذي تتشده في رجل تحتاجه كصديق .. وترغبه

كأنتى!

لا! لا! لا!

تصرخ بها بانفعال والخاطر الأخير يكاد يصيبها
بالجنون فتتنفضه عن رأسها بقوة لتردف وهي تلوح
بسبابتها في وجه خديجة :

أنا تنازلت وقبلت بالبقاء معه هنا في بيتك لأجلكما
معاً ..

ثم تنظر إليه هو لتهز رأسها بقولها:
لكنني لن أكون حقيبة تحملها على ظهرك وتلقيها
أين شئت .. أنا تعبت .. تعبت !
لم تدرِ كم مرة كررتها قبل أن تهرب من أمامهما نحو
غرفتها ..

تسمع صوت باب الشقة يفتح وخديجة تنادي إيهاب
بجزع لكنه لا يرد قبل أن يصفق الباب خلفه ..
فينقبض قلبها بخوفها عليه .. وخوفها من نفسها !!

تسمع صوت بكاء خديجة قبل صوت باب غرفتها
يغلق خلفها فيترسخ شعورها بأنها غريبة في هذا
المكان ..

فلترحل .. فلترحل ..

لم تشعر بنفسها وهي تجمع بعض حاجياتها لتتخذ
قرارها بالعودة لبيتها ..

لن تنتظر حتى يسوقوها كالشاة دون إرادة ..

هل تزل قدمها أكثر في بئر التنازلات؟!!

تفريق من شرود ذكراها على رنين هاتفها باسمه

فتتردد قليلاً قبل أن تفتح الاتصال ..

صوته الملهوف يأتيها أولاً مفعماً بعاطفته:

_ أنتِ بخير؟!!

_ نعم .

يهياً إليها أن صقيع صوتها قتل الالهة في صوته

لتصب نبرته -هو- الباردة سؤاله التالي :

_ أين أنتِ؟!!

_ في شقتي ..أحتاج للبقاء هنا لبعض الوقت لترتيب

أفكاري .

لا يصلها منه رد لدقيقة كاملة فلا تدري كيف تفسر

صمته ..

هل سيعتذر منها؟!!

أم هو حائق عليها؟!!

هل يعذرها؟!!

هل يلومها؟!!

لا تعرف !! المصيبة أنها حقاً لم تعد تفهمه !!

_ إيهاب!

تتمتم بها بحذر وقد طال صمته لكنه يغلق الاتصال

دون رد !!

=====

يفتح باب الغرفة ضاعطاً زر الإضاءة ليغلقه خلفه

بهدوء كي لا يوقظ خديجة ..

يتحرك نحو الدرج القريب ليجذب منه أحد "شرائط

التسجيل" ثم يغلق زر الإضاءة قبل أن يجلس على

"كرسي اعترافه" المعهود ..

يضع ما بيده جانباً ثم ينحني ليخلع عنه "ساقه

الصناعية" التي لا يخلعها إلا في موضعين فقط : عند

النوم في غرفته ..

وهنا .. هنا في غرفة إيد القديمة !!

يخلعها في غرفته كي يستريح من ثقلها ..

ويخلعها هنا كي يجلد نفسه بروياها أمام عينيه أكثر!

عدت يا إباد! عدت شامتاً كما كنت أخشى..

يقولها وقد ضغط زر التسجيل ليرجع رأسه للوراء

يتطلع للنور الخافت الذي تسرب عبر خشب نافذة

الغرفة المظلمة..

يبدأ بوحه الملتهب بين ذنب ووجع:

لماذا أحدثك الآن بهذه الطريقة؟! أما كان من

الأولى وقد عدت أن أذهب إليك؟! أسكب حديثي أمام

ناظريك فيسمعي قلبك قبل أذنيك بدلاً من هذا الذي

يبدو كتخاريف مجنون يحدث نفسه أمام شريط

تسجيل أجوف؟! لكن الحقيقة أنك لم تعد يا أخي.. لم

تعد أبداً..

تدمع عيناه بمزيج من حنين وألم وهو يستعيد صورة
إياد القديمة يقارن بينها وبين صورة "هذا الذي عاد
" ليردف :

_ أنت الوحيد في هذا العالم الذي ما كنت لأستحي أن
أعري ضعفي أمامه .. قديماً كنت أفعالها ليقيني أنك
ظهري وسندي .. أخي الأكبر الذي لن يُعوض ولن
يستبدل .. والآن أفعالها ليقيني أنك تستحق القصاص
مني برويتي كذلك .. كل من حولي يتألمون
بسببي .. خديجة التي صرت وزر كاهلها الأكبر
والعائق الذي يمنعها منحك أمومتها الكاملة .. وعزة
التي أفقدها كل يوم أكثر في متاهات طريقنا
المتشابكة .. وأنت الذي لا أدري كيف غيرتك الأيام إلى
هذا الحد .. وأنا .. أنا الشقي بوجعكم كلكم ..

خيطان من الدموع يسيلان على وجنتيه تسترهما
ظلمة المكان ليردف بانفعال أكبر :
_ عزة تظني أذفعا للمزفد من التنازل ..ولا تدري
أنف أأافظ لها على ما بقف من هفكل نأاها قبل أن
فنهفم فوق رأسها ..كاذب؟! آآهفني بالكذب؟! آرفد
الصراخ بوجهف أنف كاذب؟! أنف أأارف أناففف
كالعادة آلف قناع الآضآفة؟! أنف فقط أرفد آرفف
آوب "نقصف" ب"نأومفآها"؟! أنف لا أرفدها
أوارف مجرد امرأة ..مجرد آببفة ..مجرد
صدفقة ..بل نأمة آأسفني العفون علفها؟!
قلها ..قلها ولن فمكنف آكذفبك ..صرتُ أصدق آقاً
أنف صرت بهذا السوء ..رفما لهذا لم أسآآر رغبآها
فف الرآفل ..لم أناشدها البقاء أكثر ..ولن أمنعها لو

اختارت أن تعطيني ظهرها .. صدقتي لو كان بوسعي

أنا أن أعطي لنفسي -الآن- ظهري لفعلت !

دموعه الصامته تتحول لنشيج خافت لم يتكلف عناء

مداراته وهو يردف باستفاضة :

_ أنا تهت من نفسي .. لم أعد أرغب بالمواجهة .. أي

مواجهة .. يكفيني قناع مرحي أمام زملائي في

العمل .. أمام أصحابي وجيراني .. أمام عزة وحتى أمام

أمي .. لكنني أشعر أنني لن أستطيع مواجعتك أنت

بهذا القناع .. أنت وحدك من يمكنه نزعته عن وجهي

بأسهل طريقة .. لهذا أخشاك بقدر ما أود القرب

منك .. لكنني لن أبتعد .. تريدني أن آتيك لأسكن معك !؟

سأفعلها .. سأفعلها لو كان هذا ما سيرضيك ويهدم

الحاجز بيننا .. لكن عدني أن تعود أنت لو عدت

أنا .. عدني أن تغفر .. ربما لو سامحتني أجد نفسي
التي ضيعتها .. أنا أحتاجك يا أخي .. أحتاجك أكثر من
أي وقت مضى .. أحتاجك وأقسى ما أعانيه أنني لا
أجسر على البوح بها طامعاً أن تقرأها
وحدك .. أحتاجك وأخشى أن أفقدك من جديد بوجع
أكبر هذه المرة ..

كلماته تنتهي لكن هذا الوخز في صدره لا يزول وهو
يغمض عينيه على حريقه الصامت ..

وخلف الباب المغلق كانت خديجة تقف كعهدا
مختبئة تكتف قبضتها أمام صدرها بألم وعجز ..
عجز صار يمزقها وهي ترى حصاد عمرها يتسرب
من بين يديها ..

فلا يترك بعده سوى الندم ..

صوت المنبه الذي ضبطته على الموعد المخصص
يوقظها من نومها المتقطع ..

تمد ذراعها دون وعي تتلمس دفء جسده جوارها
كما تفعل في العادة رغم يقينها أنه دوماً يعطيها ظهره
في نومه بما لا تدري هل هو زهد فيها هي أم خوف
من فشله هو ..

لكن أناملها تصطدم ببرد الفراش فتستعيد وعيها فجأة
وتستعيد معه مرارة واقعها ..

تنهض عزة من رقدتها لتلملم شعث شعرها بأصابع
مرتجفة وهي تتفحص جدران غرفتها الأنيقة في
شقتها شاعرةً بالغرابة ..

يا الله ..

كل الأماكن صارت لها غربة فأين عساها تجد دفاء

وطن؟!!

تتهد بحرارة وهي تغادر الفراش لتتناول هاتفها

بلهفة ..

أي اتصالات من إيهاب؟!!

لا!

خديجة؟!!

لا!

تزفر بضيق وهي تنتقل لمواقع التواصل باحثة عن
خبر يخصها لتتسع عيناها بصدمة وهي تقرأ الخبر ..

(اليوم .. حلقة استثنائية من برنامج "أكلتين وعافية")

تقدمها المتألقة "....."

تقرب الشاشة من عينيها بذهول وهي تقرأ اسم مذيعة

زميلة جوار برنامجها هي !!

الاسم الذي كان لسنوات يخصها وحدها ..الآن ينسب

إليه اسم آخر !!

عيناها تجريان فوق التعليقات على الخبر لتبرد نارها

قليلاً وهي تشاهد التعليق الذي يطالب بعودتها هي

لأن صاحبته لا تتخيل البرنامج دونها ..

تبتسم بأمل وهي تقرأ واحداً آخر بنفس المضمون ..

لكن ابتسامتها تتلاشى تدريجياً وهي ترى بقية

التعليقات التي تجاوزت الألف بقليل ترحب بالمذيعة

الجديدة !!

تدمع عيناها بمزيج من القهر والألم وهي تنظر في

ساعة هاتفها ..

خمس دقائق فقط ويبدأ وقت عرض الحلقة كما

كتبوه ..

تنتفض مكانها لتهرع نحو التلفاز فتفتحه بسرعة

على القناة وجسدها كلها يرتجف ترقباً وغضباً ..

_ لا يمكن .. مستحيل .. لن يتم استبدالي بهذه

الطريقة .. إنها فكرتي أنا .. تعبي

أنا .. سأقاضيهم .. سأ ..

هتافها العصبي ينتهي بزفرة يأس وهي تدرك أنها

لن يمكنها فعل شيء .. لا تفهم في مثل هذه الأمور

القانونية ولا تعرف إن كان مكتوباً في شروط العقد

من البداية أنه يجوز استبدالها دون الرجوع إليها أم

لا ..

هي وقعت العقد يومها بمنتهى السعادة التي منعها
التدقيق في تفاصيله .. وطوال هذه السنوات مع كل
هذا النجاح لم يدر في ذهنها أبداً أن تعيد قراءته ..
تنقطع أفكارها مع هذه القبضة المشتعلة التي
اعتصرت قلبها وهي تميز "تتر" برنامجها بلحنها
المعهود ..

بفريق عمله المعهود ..

بالمقدمة التي حملت بعض الرسوم الكرتونية والتي
اختارتها بنفسها مقتبسة من فيلم شهير ..

لكن اسمها هي .. ما عاد موجوداً!!

الدموع تملأ عينيها بالمزيد من القهر وهي ترى

الحلقة تبدأ ..

الكاميرا تدور أمام الكادر المعتاد لديكور المطبخ الذي

اختارته بلون أخضر فاتح تفضله ..

الكادر خالٍ كأنه يفتقدها .. ينتظرها ..

الموسيقا تخفت كأنها تنتظر صوتها المعتاد يفتح

الحلقة بضحكتها العفوية واعتصار أناملها

ل"وشاحها الأخضر" ..

لكن الضحكة صارت لأخرى ..

أخرى تشبهت بها وهي ترتدي "نفس الوشاح

الأخضر"!

تنهار جالسة على الأرض وهي تتابع التعليقات على

الشاشة ومداخلات المتصلين ..

تترقب في أي لحظة أي تعليق يخصها هي ..

يخص اختفاءها .. يرجو عودتها ..

لكن الجميع بدوا أكثر تعلقاً بالمذبة المتألقة الجديدة
التي لم تكن تستعرض مهارتها في الطبخ فحسب ..
بل بدت بطراز ثيابها المخالف لطرزها هي وتصفيقة
شعرها اللامع المميزة وزينة وجهها المغالية كأنها
تستعرض جمالها كذلك !

تتسع عيناها بالمزيد من الانفعال وهي تميز تزايد
عدد الاتصالات بما يساوي ثلاثة أضعاف ما كان في
حلقها الأخيرة أو ما يزيد ..

فتغلق التلفاز بعد انتهاء الحلقة ثم تغض عينيها
مستسلمة لبيائها الصامت ..

لم تشعر في حياتها بالخسارة كما هي الآن ..
زواجها .. عملها .. شقيقتها .. وإيهاب !

لا تدري كيف تفصل الأول عن الأخير كأن إيهاب ليس

نفس الشخص الذي تزوجته ..

ربما لأنها تفتقد صداقته أكثر !!

المزيد من الدموع تنعي خسارتها والأدهى أنها لا

تفهم ذنبها في كل هذا!!

هي طاوحت ضميرها وتزوجته بعد تضحيته لأجلها ..

قبلت المكوث مع أمه في نفس البيت ..

تغاضت عن فشل رجولته معها بل وحملت نفسها

السبب ..

وعندما طلبوا منها أن تستغل عاهته لأجل شهرتها

رفضت ..

فلماذا لا ينجح ما بينهما !؟

لماذا تشعر أنها تطارد سراياً كلما لاحقته ابتعد أكثر

!!؟

صوت رنين هاتفها يقاطع أفكارها فتتناوله لتجد

المتصل ..مخرج البرنامج ..تفتح الاتصال وهي

تحاول كتم دموعها كي تتحكم في نبرة صوتها لكن

الرجل يبدو خبيراً بها :

_صدقيني أنا أكثر حزناً منك في هذه الساعة ..لم تكذ

الحلقة تنتهي حتى وجدتي أكلمك ...لازلت آمل أن

تغيري رأيك ..لهذا تعمدت في إعلان الحلقة اليوم أن

أذكر كونها "استثنائية" ..البرنامج لا مذاق له

دونك .

تعجز عن كبح دموعها مع كلماته الأخيرة فيردف

بنبرة عملية :

_ عزة .. البكاء لن يفيد بشيء .. دعك من ترددك
السخيف هذا .. هذه آخر فرصة قد يمكنني منحها لك
فأنا بالكاد أقنع المنتج .. لا أضمن أن تكون لك فرص
أخرى .

لا يصله منها رد لكنه يبدو متوقفاً هذا فيتنهد ليختم
اتصاله بعبارته بين ود وتحذير :

_ اعنتي بنفسك .. وفكري جيداً.

يغلق الاتصال لتعود هي لفيض دموعها ..
هل يمكنها أن تشعر بالوحدة أكثر من هذه اللحظة؟!
رنين الجرس يفزعها بصورة مغالية حتي أنها
تنتفض مكانها لكنها تتمالك نفسها لتقف ثم تتوجه
لتفتحه ..

_ إيهاب!

لم تفكر للحظة وهي تلقي نفسها بين ذراعيه ليضمها
بقوة حانية وهو يدخل بها ليغلق الباب خلفه ..
تفرغ دموعها على صدره فيود لو يشاركها إياها وهو
يشعر أنه أشد منها وهنا في هذه اللحظة ..
لم يكد يشاهد الحلقة دون اسمها حتى شعر بالمزيد
من وخز الذنب بين ضلوعه ..

هو السبب !

لهذا اتخذ قراره قبل أن يأتي إلى هنا !!
القرار الذي لا تساعده فيه وهي تبكي بين ذراعيه
بهذه الطريقة !!

(الطفلة التي تنتظر لتأخذ بيدها كي تعبر بها الطريق
ليس بوسعها إلا أن تختارك كل مرة)

يذكرها بصوتها كما قالتها منذ وقت ما يبدو له الآن

كدهر كامل ..

والآن يود لو يصرخ بها أنه هو الآخر صار يقف

عاجزاً ينتظر من يعبر به الطريق!!

_ اهدئي .. حبيبتي .. اهدئي .. كل شيء سيكون على ما

يرام.

همسه المختق يطوقها بعجز وهو يربت على ظهرها

للحظات قبل أن يرفع وجهها نحوه ..

يمسح دموعها بأنامله وهو يتحاشى النظر لعينيها

لتهتف بانفعال:

_ الكلام شيء وأن أراها بعيني شيء آخر .. البرنامج

هذا ليس قصة نجاحي ولا مورد رزقي .. هذا البرنامج

هو ابني .. ابني الذي ولد على يدي وشاهدته يكبر

ليزداد فخري به يوماً بعد يوم ..أنا التي اخترت كل ما
يخصه ..الديكور ..التتر ..الفقرات التي كنت أتعب في
تجميعها لتكون نادرة ومميزة ..والآن يحرمونني منه
زاعمين أنني لم أعد كالسابق ..

يمكنك العودة كالسابق ..

يهمس بها بنفس النبرة المختنقة ولا يزال يمسح
دموعها فتتبه لمامحه الشاحبة مستعيدة حقيقة
خلافهما الأخير فتتهد بحرارة قائلة :

كيف !؟

ضعي عنك الحمل الثقيل الذي ورطك في كل هذا !
يهمس بها بشبه ابتسامة وهو يربت على رأسها
لكنها تبتعد بوجهها هامسة بخوف:

ماذا تقصد !؟

يزدرد ريقه بصعوبة وهو يبتعد عنها ليخلع دبلته من
إصبعه ثم يضعها في كفها قائلاً بهدوء خادع :
_ أنا أفسدت حياتك .. الآن يمكنك التفكير بصورة
أفضل ..

_ ماذا تفعل؟! ماذا تفعل؟! لا .. لا ..
حركته تكاد تخلع قلبها من مكانه وهي تهتف بها
بانفعال تحاول تلقف كفه كي تعيد له دبلته لكنه يبتعد
عنها مغلقاً قبضتيه بقوة ..

_ عزة .. عزة .. لا تضيعي المزيد من الوقت .. لم أعد
أناسبك .. لم أعد أصلح ولا حتى كصديق .. لو بقينا معاً
لأكثر من هذا فستكرهيني .. فلنفترق هكذا ولا يزال
لكل منا رصيده في قلب الآخر ..

يقولها بقتاع هدوئه الخادع الذي تشقق عن بعض
الألم وهو يراها تهز رأسها برفض ليردف بنبرة أكثر
تهدياً :

_لم أترك لك الخيار هذه المرة لأنني أثق أنك لن
تتخذييه وحدك ..لن أعلن الأمر حتى تتخيري أنت
موعد إشهاره بما يناسب وضعك ..أعيدي ترتيب
أوراقك بروح أكثر خفة هذه المرة ..أنا أثق بك
وأعرف أنك ستستعيدين كل شيء كما كان ..وأفضل .
لا تزال تهز رأسها باعتراض وكلماتها تترنح على
شفتيها وسط سيل دموعها ..
يعطيها ظهره فتتشبث بكتفيه وهي لا تدري ماذا
تفعله ..

لكنه يستدير ليتناول كفيها فيقبلهما برقة قبل أن يرفع

إليها عينين تشبهان عينيها ..

نفس التشتت .. نفس الألم .. نفس العجز .. ونفس

الدموع ..

قبل أن يفتح الباب ليخرج تاركاً إياها خلف ظهره ..

إنما أمام عينيهِ !!

يغادر بنايتها ليهم بإيقاف سيارة أجرة وقد شعر

ببعض الألم في ساقه لكنه يعاند نفسه وهو يمعن في

السير مبتعداً ..

كل طاقته التي بذلها في الساعات السابقة ليدعي

الهدوء الآن تنفجر كبراكين ثائرة داخل روحه ..

تمر في طريقه حصة فيصر أن يركلها بساقه

الصناعية كأنه يمعن في تعذيب نفسه ..

تعجبه الحركة وهي تشعره أنه "طبيعي" فيستمر
فيها لدقائق طالت غير عابئ بمرور الوقت ولا التعب
الذي أصابه وجعل أنفاسه تضيق والعرق يغمر
وجهه ..

يسرع في السير أكثر بمنتهى العناد .. تصادفه حصة
أكبر بحجم قبضة يده فيركلها بقوة لكن توازنه يختل
ليسقط ..

يشعر ببعض الخزي لأول وهلة وهو ينظر حوله لكن
الخزي يتحول لخوف هائل وهو يميز السيارة التي
تقترب منه بسرعة عالية وقد عجز صاحبها عن
السيطرة عليها مع سقوطه المفاجئ !

=====

إيهاب .. !؟

صوتها الراجي يخترق وعيه وهو يشعر بأناملها فوق
وجنته ليفتح عينيه بصعوبة فيميز الجدران البيضاء

للمشفى ..ماذا حدث!؟

آخر ما يذكره هو سقوطه أمام تلك السيارة !!

_ الحمد لله .. الحمد لله ..

صوتها يرتعش ببكائها فيهمس لها بنبرة شاحبة:

_ ماذا حدث!؟

_ لا بأس .. بعض الكدمات فقط .. من حسن حظك أن

السائق خفض من سرعة السيارة في الوقت

المناسب .. ستبقى معنا الليلة حتى نجري بعض

الفحوص وبعدها يمكنك الرحيل ..

تقولها الطبية المعالجة التي تعلقت عيناها للحظة

بساقه الصناعية الواضحة تحت رداءه الطبي ليشعر

بغصة في حلقه وهو يلمح نظرة الشفقة في عينيها

والتي ضخمها شعوره بالنقص ..

هذا الذي جعله يلتفت نحو عزة ليغمغم بضيق:

كيف علمتِ؟!!

كنت أسير خلفك بعدما تركتني ..

تقولها دون غضاضة بين دموعها ليجد نفسه يختلس

نظرة نحو الطبيبة يتأكد من أنها سمعتها .. فيشعر

ببعض الرضا وهو يسمع المرأة تقول بإعجاب:

بعدما نظمتن عليك سأزعم ان هذا من حسن

حظي .. أنا أحب الأستاذة عزة كثيراً .. فرصتي

لأستغلها وأخذ منها بعض الوصفات ..

تقولها المرأة بمرح لتردف وهي تربت على كتف

عزة بود قبل أن تغادر الغرفة :

_بارك الله لكما .

يشعر بالمزيد من الذنب وهو يرى أفكاره دوماً تسبقه
لتسحبه لنفس الدوامة ..

إياد كان محقاً .. هو فعلاً بهذه الأنانية !!

يطرق برأسه وهو يشعر بالمزيد من الغضب من
نفسه لكنه يشعر بها ترفع كفه بقوة لتعيد دبلته
مكانها فيغمغم برفض ولا يزال يشعر بالدوار :

_ماذا تفعلين؟! تظنينها لعبة؟! لن نناقش هذا الأمر

ثانية !

لكنها تهتف بانفعال وهي تحتضن كفه بين كفيها :

_ولأنها ليست لعبة فلن أسمح لك بفعلها من

جديد .. أنت لم تعد خياراً يا إيهاب .. أنت صرت قدرتي

كما أنا قدرك .

_لم تفكري هكذا وأنت تجمعين ملابسك لتتركي بيتي

مع أول خلاف بيننا !

يقولها بانفعال ضائق وهو يشعر بصدرة يكاد ينفجر

من فرط ضغوطه ..

بقدر فرحته لأنها عادت ..يشعر بأنه لا يزال يدور

معها في نفس المتاهة ..

والغريب أنها كانت تعيش نفس الشعور بتفاصيله ..

لا تنكر بعض الراحة التي شملتها عندما حررها من

قيده عقب مغادرته ..

حتى أنها بقيت لدقيقة كاملة تتأمل دبلته في راحتها

كأنها تمنحها صك حريتها ..

لكن هذا الشعور لم يدم لدقائق قبل أن تجد نفسها

تشعر بالمزيد من الوحدة ..

بالمزيد من الضياع دونه !!

لا تفهم ..

المصيبة أنها لا تفهم كل هذا التذبذب الذي تعيشه !!
لكنها وجدت نفسها بكل خوف تبدل ملابسها بسرعة
لتلحق به فوجدته يسير في الطريق راکلاً الحصى ..
تعمدت وقتها أن تبطئ خطواتها كي تسمح له
بمساحة من الخصوصية ظنته يحتاجها مع انفعاله
الذي بدا لها واضحاً لكنها لم تحسب حساب سقوطه !!

_إيهاب!

صوت خديجة الجزع على الباب يقاطع أفكارهما
ليلتفتا نحوها لكن المفاجأة أنها لم تكن وحدها ..

إياد كان معها !!

لم تحتج عزة إلا لنظرة واحدة قبل أن تطرق برأسها

متحاشية النظر نحوه ..

وكيف لا وهو يفجر داخلها مخاوف غامضة وشعوراً

عارماً بعدم الارتياح!؟!

بينما تشرق ملامح إيهاب للحظة وهو يتفرس ملامح

أخيه لكنها بدت له موصدة بألف مغلاق!!

_ ماذا حدث!؟!

تهتف بها خديجة بقلق وهي تقترب لتتفحص ابنها

ببصرها لتسأل فتطمئننها عزة بكلمات موجزة لكن

المرأة تهتف بانفعال:

_ أين الطبيب!؟! تعال يا إِيَاد لنطمئن منه أكثر!!

تقولها ثم تلتفت نحو إيهاب لتقول بنبرة ذات مغزى:

_ اتصلت بأخيك عندما أبلغتني عزة بما حدث .. لأجده

أمامي في دقائق معدودة .. لم يتأخر عليك .

تقولها ليرفع إيهاب عينيه نحو إياد الذي أطرق

بوجهه محافظاً على جمود ملامحه .. لكن إيهاب

لمحها ..

لمح تلك النظرة القلقة الغارقة بعاطفته والتي رمقه

بها أول ما دخل الغرفة قبل أن يعود وجهه ليستتر

خلف أبوابه الموصدة .

تسحب خديجة إياد من كفه لتخرج به وقد أصرت أن

تقحه في الصورة ..

_ لنبحث عن الطبيب .. هذا هو ..

_ "مس خديجة" !

تهتف بها الفتاة التي اصطدمت بها عفويًا للتو فتقطع
عبارتها لتتفرس في ملامحها قبل أن تقول بإدراك :
_ هبة! هذه أنت! اعذريني يا ابنتي ..ابني هنا في هذه
الغرفة ..صدمته سيارة وكنت أريد الاطمئنان عليه !
_ شفاه الله !

تتمتع بها هبة بنبرة معتمة وهي تطرق برأسها
لتسألها خديجة باهتمام:

_ كيف حالك؟! وكيف حال "مستر ربيع"؟! ماذا
تفعلين هنا؟!!

_ نحن هنا لأجله ..أنا أيضاً أريد الطبيب ..خالي
مريض .

تقولها هبة ولا تزال مطرقة الرأس لتهتف خديجة
بأسى:

_ لا حول ولا قوة إلا بالله .. سأطمئن على إيهاب
وبعدها سآتي إليك .. في أي غرفة هو ؟!
تمنحها هبة رقم الغرفة دون أن ترفع عينيها قبل أن
تتحرك بسرعة هاربة بعذر مناسب وهي تشعر بوخزة
في قلبها ..

لقد رأته من جديد ..

إياد .. هنا !!

وكانه لم يكبر .. وكان السنين لم تمر ..

نفس النظرة لا تزال في عينيه ..

نظرة طفل منبوذ سلبوه حقه ومنعوه حق

الاعتراض ..

لكنها لا تدري لماذا شعرت وكأنها اكتست ببعض

القسوة !!

_ياالله!! بنظرة واحدة صرت "فرويد" وحللت
شخصيته؟! استحي ..خالك مريض وأنت تفكرين في
هذه التفاهات!!

تتهر بها نفسها بحدة وهي تعدل وضع نظارتها
ساحبة حجابها للأمام أكثر كي يداري المزيد من
وجهها متجاهلة خفقة خاصة في قلبها كانت تهتف :
_ (كنت على حق ..فرقتنا الأيام إنما نحن على
موعد)!

وفي غرفة إيهاب كانت عزة تجلس محتضنة كفيه ..
عيناها تناظران عينيه لكن كليهما يبدو وكأنه لا يرى
من الآخر سوى انعكاس روحه هو ..
قلبها يخفق بين ضلوعها والقرار داخلها يتشكل
كأنشوطة تشد الوثاق حول عنقها أكثر ..

وتدفعها للمزيد من الهبوط على درج التنازل ..

ستبقى معه كما يريد هو ..

ستوافق على عرض المخرج ..

وستنتقل معه للسكنى في بيت أخيه !

=====

لحن أجنبي صاخب يسمح له باختراق رأسه في

سيارته التي يقودها نحو وجهته "الخطرة" بعد

مغادرته للمشفى ..

الجهاز الصغير الذي صمم بشكل ساعة يد بريئة

يومض وميضاً متتابعاً بشفرة يحفظها ..

لتشتعل عيناه ببريق متحفز وهو يراقب الطريق الذي

يسير فيه جيداً بخبرة علموه إياها منذ انضم لهم منذ

سنوات ..

يدور في طرق مدروسة حتى يتأكد من أنه خارج
نطاق أي مراقبة أو تتبع في إجراء أمان وقائي قبل
أن يتخذ طريقه الحقيقي نحو البيت المنشود ..
الحن الأجنبي يستمر في هديره العاصف الذي يشبه
صخب روحه ..

لكن نسمة باردة من الماضي تمر ..

(أسمر يا أسمراني ..

مين قساك عليا ..

لو ترضى بهواني ..

برضه انت اللي ليا)

"دقة قديمة جداً!"

بصوت إيهاب المرح منذ سنوات يسمعها ليتها

بقوله الساخر :

لم يعد أحد في جيلنا يستمع لـ "حليم" و"
الست" ..ستفضحنا ! خذ ..هذا شريط "عمرو دياب
" ..مطرب جديد تحبه البنات ..لا يمكنك مداعبة قلب
إحداهن إلا عن طريق خط الهجوم هذا ..
فيضحك ضحكة ساخرة وهو يلقي الشريط باستهانة
مجارياً إياه بقوله:

ولو فشل خط الهجوم هذا !؟!

إذن عليك بالثاني الذي لا يخيب أبداً .."كاظم

الساھر"!! "من الآخر"!!

يقولها إيهاب محلقاً سبابته مع إبهامه ليتبعها بصفير

ماكر قصير لكن إياد يطرق برأسه ليقول بشرود :

وما لي والبنات !؟! لا تعنيني سوى ورد فحسب !

_حسناً ..لن أعب دور "الشيطان الصغير" في
الحكاية! لكن ..لماذا لا تحب الألحان الحديثة ولا حتى
الغربية؟! لماذا "حليم" بالذات؟!

_ "حليم" صوت مصر في أذني ..عندما سافر بي أبي
للعراق رغماً عني بعيداً عن أمي كنت أشعر بالغربة
في كل ما ومن حولي ..يالله! لن تعرف هذا الشعور
مالم تجربيه ..لكنني عندما كنت أسمع صوت "حليم"
أو "أم كلثوم" ينبعث من مذياع هنا أو قناة تلفاز
هناك كنت أتتفس صوتهما لا أسمعهم فحسب ..وحليم
بالذات ..ربما لأنه كان صدى صوت مصر في كل
مراحله .

_تحدث كضابط جيش حقيقي .. صدقت نفسك؟! فترة
قصيرة تنهيا في الخدمة وتعود بعدها لعملك
الأصلي.

يقولها إيهاب مماًزحاً لكنه يرد بجدية :

_وهل حب مصر قاصر على ضباط الجيش فحسب؟!
أنا أحب هذا البلد وأحب انتمائي لكل ما يخصه .. أنت
وأمي وورد .

صوت صرير سيارته التي أوقفها على بعد خطوات
بسيطة من السيارة التي كاد يصطدم بها ينتزعه من
شروذ ذكرياته ..

يستمتع لتوبيخ السائق بوجه جامد قبل أن يراه يرحل
بسيارته لكنه يبقى واقفاً مكانه ..

عبر مرآة السيارة يرى وجهه وقد حفرت طريقها
فوقه دمة حنين قهرتها ابتسامة ساخرة غارقة في
مرارتها ..

ليقوم بتعليق الصوت "الأجنبي" الصاخب قبل أن
يمضي في طريقه من جديد ..

يتوقف أمام البوابة حيث أشار له حارس الأمن إشارة
تعارف ردها قبل أن يفتح له الباب ليتقدم فيركن
سيارته ..

ولم يكد يترجل منها حتى شم عطرها الأنثوي الذي
يجده دوماً مستفزاً رغم علمه أنه -العجب- صمم
ليكون مثيراً !

_إياد ! تغيرت كثيراً عن آخر مرة رأيتك فيها !

تقولها بتول بغنج وهي تقترب منه باستعراض مثير
لثهم بتقبيل وجنتيه في تحية تقليدية لكنه يعود برأسه
للوراء بنظرة رادعة لتكتم حرجها متظاهرة بالمرح :
_ "الراهب" إياد لا يزال يحرم النساء على نفسه!
ظننتك غيرت عاداتك مع ما غيرته .

_ هناك أشياء لا تتغير !

نظرته الصارمة تكاد تصفعها فتهز كتفها قائلة:

_ هو ينتظرك بالداخل .. تبدو مهمة عاجلة .

_ لكنني هنا في إجازة .. أخبرتك أنني لن أعمل هنا .

يقولها بضيق لكنها تعاود هز كتفها بلا مبالاة تثير

المزيد من حنقه فيتجاوزها بسرعة ليعبر ما تبقى من

الحديقة قبل أن يدلف لداخل البيت فيراه هناك جالساً

يعطيه ظهره وقد ارتدى "تي-شيرت" أسود دون

أكمام أظهر الوشم الذي راقه من أول مرة رآه فيها
حتى أنه استنسخ لنفسه واحداً مثله ..

وشم "كوبرا"!

_ تعال .

يقولها "الكوبرا" دون أن يلتفت إليه ليتحرك إياد
نحوه مقترباً .. يميز ما يفعله فيغمغم بنبرة متناقلة :

_ لا تزال تحب لعب الشطرنج مع نفسك !؟

_ لم أجد خصماً أذكى ! أظنك جربت .

يقولها الكوبرا بشبح ابتسامة وهو يرفع إليه عينين

ماكرتين ليسبل إياد جفنيه وهو يشيح بوجهه ..

_ اجلس .

يستجيب إياد لأمره الذي اختلط بود عجيب لم يعد

يتعجبه منه ..

هذا الشخص شديد الخطورة حقاً .. رآه يوماً يقتل بدم بارد ويعلم أن ما خفي قد يكون أعظم .. لكنه دون سبب يعامله هو بلطف زائد واهتمام حقيقي .. ليس الآن فقط بل منذ زلت قدمه لينضم لهذا التنظيم .. يراقبه بتفحص شاعراً بالغرابة وهو يراه يعقد حاجبيه بتركيز شديد ليحرك قطعة من الفريق "الأبيض" قبل أن تلتوي شفتاه بابتسامة رضا وهو يشير لرقعة الشطرنج قائلاً بفخر :

عندما تتحدى نفسك .. عندما تملك القدرة على التجرد من كل قناعاتك وثوابتك .. تتعامل مع نفسك وكأنك "آخر" .. "آخر" تدرك مواطن ضعفه وقوته .. ساعتها فقط ستشعر أنك تتسامى فوق كل

شيء .. ترى ما لا يراه غيرك .. لو هزمت نفسك فأنت

على هزيمة غيرك أقدر !

_ لماذا طلبتني!؟

يسأله إيد ليرفع عينيه إليه بنظرة متفحصة ثم يقول

ببروده العملي:

_ وصلتك صورة على بريدك الالكتروني مع

التفاصيل .

_ لكنني طلبت إجازة و ...

يقولها بضيق لكن "الكوبرا" يقاطعه:

_ الأمر شخصي .. يخصني أنا .. لو لم يكن كذلك لما

طلبتك أنت بالذات .

يهياً إليه أن نبرته الباردة حملت شيئاً من انسانية

نادرة ليطرق إيد برأسه للحظات ثم يهز رأسه

بحسم :

_ لن أخذك .

يبتسم له الرجل برضا قبل أن يعد على أصابعه قائلاً:

_ بذكاء..بمهارة..بنظافة ..لا أريد نقطة دم تثير "القييل

والقال" لهذا اخترتك أنت في هذا الأمر بالذات..ما

عدا ذلك افعل ما شئت .

_ من سيعمل معي!؟!

يسأله بنبرة عملية لكن الرجل يعود لتركيزه في اللعب

قائلاً :

_ التفاصيل وصلتك .. أنتظر منك نتيجة سريعة

كالعادة .

تبدو له كإشارة انصراف فيقف ليتحرك مغادراً لكنه
يستوقفه بنداؤه قبل أن ينهض ليتحرك نحوه ..
يتملك كتفيه بقبضتيه ليقول بنبرته المسيطرة التي
شابتها عاطفة طفيفة :

_أعرف شعورك وقد عدت لهما بعد طول
سفرك ..تماماً كما أعرف أي حرب توشك على
خوضها مع أخويك خاصة وقد التقيت أنت بأخيك
العراقي منذ بضعة أيام ..

لم يتعجب إياد معرفته بالأمر بهذه السرعة خاصة
وهو الذي أخبره بعودة نزار لمصر وأعلمه بمكانه
ظناً منه أنه قد ينضم للعمل معهم بسهولة مع ما
عرفه عن ماضيه ..

_ لكنني لا أريد لكل هذا أن يشوشك .. الأمر هذه المرة

يمسني شخصياً لهذا لا أريد أي خطأ .

من جديد يتعجب هذا الطيف الشحيح من عاطفة

تسربت عبر نبرة الرجل الباردة ..

لكنه يهز رأسه بتقدير كأنما يمنحه وعده قبل أن

يغادر بخطوات حاسمة نحو سيارته التي يستقلها

لينهب بها الطريق نحو بيته ..

وبعداً بساعات كان يجلس أمام حاسوبه المحمول

وقد اتخذ اجراءات أمانه المعتادة ليفتح البريد

الالكتروني ..

قبل أن تضيق عيناه بتفحص وهو يميز صورة المرأة

الصهباء التي تصدرته مع بياناتها ..

لينعقد حاجباه وهو يقرأ اسمها :

"ديمة ضرغام"



في حديقة قصر الرفاعي تجلس حسناء شاردة الذهن

تفكر في زهرة ومصيرها ..

لو كانت مكانها لما سمحت أبداً لكل هذا أن يحدث ..

حتى لو كان يومها الأخير .. حتى لو كانت لحظتها

الأخيرة ..

كانت ستقضيها مع "من تحب" لتأس وتؤنسه بآخر

أنفاسها ..

لكن ما أدراها هي عن الحب !؟

هي عاشت هذا العمر تبحث عن "الزواج" فحسب ..

الزواج ممن يكفيها شر الغربة وقسوة الوحدة ..

زهرة عاشت الحب كما يكون ..طوال هذه السنوات
وهي تعشق جهاد من طرف واحد راضية بأن يكون
"فرحة عالمها الموازي" التي يحرمها منها الواقع ..
ربما لهذا تقبلت صاغرة أن يعود الآن وضعهما لما
كان عليه !!
_ غبية .. غبية ..

تهتف بها بضيق وهي تتناول هاتفها وشعورها
بالمسئولية نحو زهرة يدفعها للاتصال بجهاد وإخباره
الحقيقة ..

_ كيف صدقت أنها تخلت عنك أيها الغبي الآخر !؟
تعاود الهاتف بها بصوت مسموع لكنها تتنهد بحرارة
وهي تجد له العذر ..

إذا كان صديقه المقرب طوال هذه السنوات قد خانه
فلماذا لا يصدق أن زهرة هي الأخرى قد فعلتها ..!؟!

مسكين جهاد .. الطعنات المتتالية لظهره العاري

جعلته يسقط على وجهه ..

أما زهرة .. فتحاول أن تتلقى ضربتها بصدر

مفتوح .. بشجاعة امرأة عاشت وستموت

مقاتلة .. تمنح أكثر مما تأخذ ..

"نيلية" كما كان يسميها جهاد .. نهر عطائها لا

يتوقف !

صوت رنين هاتفها يقاطع أفكارها ..

جهاد !!

يا لله !! كأنه شعر بحيرتها !!

تفتح الاتصال ليأتيها صوته مرهقاً .. مرهقاً كما لم
تسمعه من قبل .. وغاضباً .. غاضباً كما لم تسمعه من
قبل ..

زهرة سافرت حقاً؟!!

تزدرد ريقها بتوتر وهي تضغط زر تسجيل المكالمات
بينما تتذكر ما فعله زهرة كل يوم .. تشارك بتلك
المنشورات على حسابها الشخصي الذي توقن أنه
يقتبعه لتتحدث عن سحر البدايات الجديدة .. وعن
رغبتها في الغد الأفضل مع صور عديدة قديمة لها لم
تسبق له رؤيتها كي توهمه أنها تجاوزته وتعيش
بصورة طبيعية ..

لتختم هذا بمنشور الأمس عن سفرها !

زهرة ستسافر حقاً إنما للعلاج لا للعمل أو النزهة !!

_ ردي يا حسناء .. مادامت صاحبك لا ترد .. هاتفها

دوماً مغلق .. هل غيرت الرقم؟!!

تصمت بما منحه الرد بالإيجاب ليهتف بانفعال أكبر :

_ وطبعاً طلبت منك ألا تعطيني الرقم الجديد ! أين

ذهبت؟! أنا سألت عنها في المشفى الذي كانت تعمل

فيه هنا وأخبروني أنها هي من طلبت فسخ العقد .. هل

وجدت مكاناً آخر؟!!

صوته لا يزال يصب العذاب في أذنيها وهي لا تدري

بماذا ترد ..

قلبها يناشدها أن تخبره بالحقيقة .. لكنها تتذكر قسمها

لزهرة فتدمع عيناها بعجز وهي تجد نفسها تردد ما

لقتها إياه صاحبها:

_ سافرت لبلد آخر بعقد أفضل .

_ومتى عثرت عليه هذا ؟!

يسألها بشك -بعث بعض الأمل في نفسه في براءتها

من ظنونه - لكن حسناء كانت قد أعدت الرد :

_منذ وقت طويل قبل إجازتها الأخيرة لكنها لم

تخبرك ..كانت تعدها لك مفاجأة .

_مفاجأة ؟!

المرارة المشتعلة بغضبه تخدش أذننها وهي تميز

صوته العالي بانفعاله :

_مفاجآت صاحبك كثرت! أخبريها أنني زاهد في

المزيد ..أخبريها أنني أحببتها لأنها كانت كتاباً مفتوحاً

أمامي بلا مفاجآت ..ذكرتها بعهدتها معي في آخر لقاء

بيننا قبل السجن عندما وعدتني ألا تخفي عني شيئاً ..

تتكس الدموع في عينيها وهي تسمع الرجل الذي
كان الجميع في المشفى يتندرون بالحديث عن
كبريائه الآن يرتجف صوته بما يشبه البكاء :
_ أخبريها أنني اعتدت تلقي الضربات صابراً لكن
ضربتها هي قصمت ظهري .. أنني تعلمت منها كيف لا
آمن بعد اليوم لمخلوق .. أنني كنت مستعداً لأن
أشترئها بروحي لكنها باعني دون ثمن .. أخبريها
أنها ما عادت وطني .. أنني وإن عشت عمري في
جهاد فلن تكون هي رفيقتي فيه .. أنني لن أنتظر
عودتها نادمة معذرة بل لن أنتظر عودتها
أبدأ .. أبدأ .. أبدأ ..

تسيل دموعها على وجنتيها وهي تشعر بكل "أبدأ"
يكررها تكذب كل ما يقول !!

تتفرج شفتاها وهي ترفع عينيها للسماء بعجز ..
هل من العقل فعلاً أن يتجاوز جهاد كل هذا ليمضي في
طريقه دون وزر زهرة على كاهله ؟!
_ جهاد ؟! لماذا تأخرت ؟!

تعقد حاجبها بضيق وهي تميز الصوت الأنثوي الذي
أتى من بعيد وقد بدا دخيلاً على المكالمة لتسمع رد
جهاد عليها وقد عاد صوته لخشونته الجارحة:
_ اطمئني .. لن أتأخر بعد الآن .

يغلق الاتصال بعدها دون المزيد لتهتف حسناء بحنق:
_ لاريب أنها الغيبة الأخرى يولاتد .. مثلث من
الأغبياء .. وأنا الأغبي منهم جميعاً لأنني واقفة هكذا
أتفرج دون تدخل .

تكلمين نفسك !؟

صوت ضياء الصغير يقطعها فتتنحج بحرج وهي
تضع هاتفها جانباً لتمسح دموعها قائلة :

لا .. لا ..

لا تخجلي من الاعتراف بهذا .. أبي قال يوماً إنها
علامة صحية .. وعلامة ذكاء أيضاً .. وأنتِ تبدين في
غاية الذكاء .

يقولها الصغير بفصاحته المعهودة لتبتسم رغماً عنها
وهي تربت على رأسه باستحسان فيرفع الشطيرة
التي يمسكها قائلاً بلطف:

أمي أرسلت لكِ هذه .. تقول إنك لم تتناول شيئاً منذ
الأمس .

تتسع ابتسامتها الممتنة رغم تعجبها للتصرف
نفسه .. لكنها تتناولها منه شاعرة فعلاً
بالجوع .. تقضم منها قضة مجاملة له لتهتف :
_ مممم...مربي الفراولة ..أعشقها ..حلوة مثلك .
فتلتمع عينا الصغير وهو يرد بلهجة تشبه لهجة أبيه:
_ "حلوة مثلك" هذه تقال للفتيات! ..ضياء الرفاعي
يمدح بذكائه لا بجماله .

تضحك رغماً عنها وهي تراه يبتعد بنظرة ظافرة لم
تفهمها إلا عندما ظهرت نور -شقيقته- في الصورة
تهتف بعتاب:

_ هو خدعك ..الشطيرة تخصه هو ..أمي قالت لو لم
يأكلها فلن تسمح له برؤية الخيل وهو تحايل عليك
ليتخلص منها .

تشهق حسناء بدهشة وهي ترمق الصغير بنظرة

مغتاظة لكنه ركض هاتفاً :

_ سأراجع أبي بشأن علاقة الذكاء بالكلام مع النفس

هذا .

يحمر وجهها بخرج وهي تتمم بسخط:

_ ماسة لم تحسن التربية .

لكن نور تقترب منها لتقبل وجنتها قائلة ببراءتها

الطفولية :

_ لا تغضبي منه .. هو هكذا يجيد التحايل كي يحصل

على ما يريد .. وهو متعلق بالخيل بشدة .. سامحيه

أرجوكِ ولا تخبري ماما .

تتهد حسناء بعاطفة وهي تضع الشطيرة جانباً

لتعانق الصغيرة بقوة قائلة :

_ كم أنت طيبة القلب كأملك..

لكنها تعود لتبتعد برأسها وتعدد حاجبيها مردفة:

_ ماذا لو كانت هذه حيلة منك أنت الأخرى!؟

ضحكة نور الملائكية تجهض ظنونها وهي تقبل

وجنتها من جديد قبل أن تركض هي الأخرى لتلحق

بشقيقتها ..

فتزفر حسناء بقوة ثم تتناول الشطيرة لتقضم منها

قضمة أخرى بغيظ قبل أن تهتف لنفسها بصوت

مسموع :

_ طفل غبي !

تقولها ثم تضع الشطيرة جانباً وهي تهم بتناول

هاتفها لكن الصوت المرح يقطعها:

_ هل توزعين "ميداليات الغباء" هكذا دوماً على

الآخرين!؟!

تلتفت نحو نزار لتلتمع عيناها بدهشة فيما يتقدم هو

ليجلس جوارها بأريحية ويعد على أصابع يده :

_ أولاً قلتِ : (غبية.. غبية) ..ثم (كيف صدقت أنها

تخلت عنك أيها الغبي الآخر) ..ثم فتحت الاتصال

وأغلقتِه لتهتفي : (لا ريب أنها الغبية

الأخرى) ..وأخيراً (طفل غبي)!

كان يقلد صوتها الرفيع الحاد في كل مرة يقتبس من

حواراتها وهو يلوح بكفيه في حركات مضحكة لتكتم

ضحكتها بصعوبة وهي تشيح بوجهها هاتفة:

_ من الواضح إذن أنك كنت تراقبني خلسة! لطيف!

يمكنني حجز واحدة من الميداليات لأجلك أنت الآخر !

_ لا ! لا ! إلا ذكائي ! لا يختلف عليه اثنان يا

"آنسة"!

يقولها باعتراض ليميل عليها بنبرة رخيمة :

_ ألسـتِ آنسة ؟! أم أخير اللقب ؟!

_ جرأتك مبالغ فيها على امرأة تلتقيها لأول مرة !

تهتف بها بضيق مصطنع وهي تهب واقفة وقد

تعمدت ما قالته ليقف بدوره قائلاً بسرعة:

_ ليست أول مرة ..التقينا من قبل في "أبو ظبي" .

كانت تذكره جيداً خاصة أنه ذاك اليوم تعمد الخروج

بمجد كي يلحقها هي في المشفى زاعماً أنه يبحث عن

مثلجات !

لكنها تعمدت التجاهل وهي تقول بالمزيد من التصنع:

_ لا أذكر ! لكن حتى لو كان هذا صحيحاً فلا يمنحك
الحق في مراقبتي والسخرية مني بهذه الطريقة .
_ من هذا الذي يسخر ؟! أنا ؟! لا عشت ولا كنت !
يقولها بنفس النبرة الرخيمة وهو يواجهها بعينه
مردفاً:

_ أنا رجل أقدر الجمال وحاشاي أن أسخر من فاتنة
مثلك !

ترفع له حاجباً مستهيناً بمغازلته لتعقد ساعديها
هاتفة:

_ سيد نزار ! أنت تتحدث مع واحدة عاشت طوال هذه
السنوات في الغربة وحدها .. تعلمت كي تحافظ على
نفسها بنفسها وسمعت من الأسطوانات الرخيصة هذه
ما سمعت .. لهذا أرجوك .. حرصاً على سمعة

"ذكائك" الذي كنت تفخر به منذ قليل .. "ما تباعش

المية في حارة السقاين".

تقول المثل الشعبي الأخير بنبرة ذات مغزى وهي

ترفع ذقتها بكبرياء لكنه يرفع أحد حاجبيه ليقول

بمكر :

_ (اللهم صلّ ع النبي) ! هاهي الذاكرة قد عادت إليك

فجأة وتذكرت اسمي !

يحمر وجهها بمزيج من خجل وغيظ من غبائها هي

هذه المرة لتزم شفيتها بقوة فينطلق ضاحكاً

باستطراذه الشامت:

_ لا تنسي وأنت توزعين الميداليات إذن نصيبك

فيها !

تزفر بسخط غير حقيقي وهي تشعر بانجذابها
الفطري له لكنها كعهدا في هذه الأمور ..توصد
الأبواب بسرعة ولا تفتحها إلا بمفتاح
واحد .. "الزواج"!

ونزار هذا لو كان صديق يحيى العراقي المقرب
فلاريب أنه ثري وجيه مثله !

(عريس لقطة!)

(باضت لك في القفص يا "سونة"!)

المزيد والمزيد من الأمثال الشعبية المناسبة لحالتها
تتردد داخلها الآن وتكتمها ملامحها المتجهمة وهي
تتحرك مبتعدة لكنه يتناول الشطيرة التي كانت تأكلها
بسرعة ليركض نحوها فيقف قبالتها ليرفعها أمام
وجهها فتهتف بسخط مصطنع:

_ لم أعد أريدها .

لكنه يشير لموضع أسنانها فوق الشطيرة هامساً

بخفوت :

_ هذا أثر شفّتيك..

ثم يقضم منها قضة صغيرة ليهمهم باستمتاع وهو

يغمض عينيه للحظة ثم يفتحهما هامسة بوقاحة :

_ هكذا ..كلما تذوقت مربى الفراولة سأذكر مذاق

شفّتيك معها.

تشهق متفاجئة من وقاحتها التي احمر لها وجهها

للحظة قبل أن تهوي صفتها على وجنته مع قولها :

_ يمكنك تذكّر مذاق هذا أيضاً !

تقولها لتندفع راکضة نحو الداخل فيتسمر مكانه

مندهشاً من ردة فعلها المغالية قبل أن يتحسس

موضع صفتها ليهتف مخاطباً نفسه بصوت

مسموع :

_ هل تماديتُ هذه المرة؟!؟

_ أنت الآخر تكلم نفسك؟! أبي يقول إنها ..

_ ولد!! ولد!! أنا كنت حاضراً للمشهد من أوله فلا

تتذاك علي!

يهتف بها بحنق وهو يجذب ضياء من قميصه ليرفعه

نحوه فيهتف به الصغير بنبرة متسلطة تشبه نبرة

أبيه:

_ أنزلني .. ألا تعرف من أنا؟!.. أنت مجرد ضيف هنا

وهذا بيتي وبيت أبي .

يكظم نزار غيظه وهو يعيده أرضاً ليرتب له ملابسه

فيرمقه الصغير بنظرة متعالية وهو يركض مبتعداً ..

_سامحك الله يا يحيى! كنا نعيش ملوك زماننا ..كلمتنا
من رأسنا ..حتي حلت عليك "لعنة السيدة
عنكبوتة" ..وهاهم الأطفال يسخرون منا!
يقولها لنفسه بسخط حقيقي وهو يجلس على الأريكة
حيث كانت حناء تجلس منذ قليل قبل أن ينتبه
لهاتفها الذي نسيته فيتناوله بسرعة ليتصل منه على
هاتفه فيسجل الرقم ثم يمسح رقمه هو من قائمة
اتصالاتها ..

_ضياء ..ضياء ..

ينادي الصغير الذي عاد يركض إليه فيردف بنبرة
مغرية:

_تحب الخيل؟! أعلمك لعبة تلعبها معها!؟!

تلتع عينا الصغير بلهفة ليردف نزار وهو يناوله

الهاتف:

_عد بهذا للآنسة حسناء .. أخبرها أنك وجدته ولا

تذكرني أنا .. وتعال بعدها لأعلمك إياها!

_سهلة!

يقولها ضياء وهو يركض بالهاتف نحو الداخل

فيبتسم نزار بمكر وهو يعاود الجلوس ليستمر في

تناول الشطيرة بتلذذ ..

جذابة حسناء هذه !

أو ربما هو عقله يهرب لأي متسع بعيداً عن كل هذه

الضغوط !

وكانما أعاده الخاطر الأخير للفوضى التي تكتنف

عالمه مؤخراً ..

هو ربط مصيره بحيى ومجد منذ زمن بعيد لكن هاهو

ذا يحيى يعود بقدميه لجحيمه ..

فماذا عساه يصنع خاصة وباب "أخيه" -الذي ظهر

من العدم فجأة هكذا - يعده بعد فتحه بخير وفير ..

خير جرب بعضه عندما التقاه المرة السابقة ..

كان قد استأجر غرفة صغيرة في أحد الفنادق

الرخيصة بثمن ساعته التي باعها بعدما أطلق عاصي

الرفاعي سراحه وقد علم بقرب زواج يحيى

"القسري" من طيف لكنه لم يكن يملك وقتها ما

يمكن أن يساعده به ..حتى ظهر إياد فجأة وبطريقة

درامية تناسب حياتهما الغريبة كأخين :

_ أنت نزار !؟

الهدف الذي بادره به وهو يفتح له باب غرفته في

الفندق لا يزال طازجاً في أذنيه حتى الآن ..

كيف يمكن أن يصف شعوره وقتها أمام رجل غريب

الملاحح يُفترض أن يكون أقرب أهل الأرض إليه !؟!

لم يعرف كيف وصل إليه إياد فقد كان الموقف كله

غامضاً ..حتى عاطفة أخيه التي بدت له واضحة

كالشمس في عينيه المعبرتين كانت ملطخة ببعض

القسوة التي لم يفهما ..

طالما أشفق عليه في صغره عندما علم أن أباهما

أخذه قسراً من أمه ليستقر به في العراق فيعيش

بينهم كضيف غير مرغوب فيه للجميع ..فقط وسيلة

ضغط على امه خديجة ..حتى مل الأب أخيراً وملت

أمه هو منه فأعاداه لخديجة ..

من وقتها وهو لا يعلم عنه شيئاً ..
بل إنه كان يتعجب نفسه عندما يتذكر أن له أخاً في
مكان ما لا يكاد يعرف أحدهما الآخر ..
لكن هل هذا هو العجيب في قصته فحسب؟!
تدمع عيناه بقهر وهو يتذكر السبب الحقيقي الذي
جعله هو الآخر يهرب من البيت دون رجعة ليجرب
حياة الشوارع في ذاك السن الصغير ليبتلع مرارته
وهو يتخطف الأمر ليعاود التفكير في إياد ..
لقد منحه وقتها الكثير من المال وأخبره أنه يعرف
عنه الكثير لكنه بدا له غامضاً خاصة برحيله دون أن
يمنحه أي معلومات عن نفسه ..
تراه جاء فقط ليؤدي واجباً إنسانياً نحوه؟!
ألن يفكر في أن يلتقيه من جديد؟!!

وهل يريد هو نفسه هذا !؟

هل يمكن بعد كل هذا العمر الذي عاشه -كصاحبه-

كسندباد يجوب الأرض دون توقف أن يعرف أخيراً

مذاق وطن !؟

وكأنما جاءت أفكاره كنبوءة ليرن هاتفه برقم غريب

ولم يكذ يفتح الاتصال حتى تعرف على هوية

المتصل ..

إياد !!

=====

بنفسجي

مرآة جديدة في بيت عاصي الرفاعي لكن أشباحها هي
هي لم تغادرها ..

أبيض عاتب معرض جاف ..

أسود متربص ساخر محتقر ..

وأرجواني يعدها وسط كل هذا بالمدد ..

تمد أناملها المرتجفة نحو وجهها الذي شوهته جروح
الليلة الأخيرة ..

لم تعد رؤية وجهها مصابا تدهشها منذ عهد

غازي .. بل إن الغريب صار العكس !

لم تعد تتبين ملامحها دون جروح !!

وماذا عن ملامحه هو ؟!

حسام !

لماذا تعجز عن تذكر ملامحه هو الآخر دون جروح

كما كان في ليلتهما الأخيرة !؟

ليلتهما الأخيرة !!

آهة تلو آهة تطلقها روحها قبل شفيتها وهي لا

يمكنها تذكر ما حدث أو فصل الخيال عن الواقع ..

هي فقط تذكر نفسها بين ذراعيه وقد حماها بجسده ..

تذكر نزيف جرحه ..

تذكر استلقاءها فوق أريكة بيته وغطاءاً رفعه

عليها ..

تذكر حيرة أسئلته ..

تذكر دمعته التي خدشت كبرياء عينيه وهو يلبسها

قرط هالة.. آه .. هالة ! هالة !

تغمض عينيها بوجع ما عادت قادرة على كتم آهاته
فتذكر لمسة أنامله على وجنتها ..

(أنا معك) ..

بكل قوة الدنيا قالها ! كأنه لا يمكن ألا يكون إلا معها!

(وداعاً) ..

بأقسى هزيمة نطقها ! كأنه لا يمكن أبداً أن يكون
معها!

تدوران في أذنها تباعاً في حلقات تدوخها وتسحبها
لهاوية بلا قاع ..

أسوأ ما يمكن أن يحدث لأحدهم ألا يفهم نفسه .. كما
هي الآن!

تسمع صوت طرقات خافتة على باب غرفتها لتنتفض
مكانها بذعر قبل أن تتوجه هناك لتفتحه فتخبرها

الخدمة أن (السيد) ينتظرها بالحديقة ثم تغادر

مسرعة دون تفاصيل !

أي سيد تقصد ؟

عاصي !؟

لماذا يريد لها !؟

هل علم بما حدث !؟

المزيد من الرعب يعرقل خطواتها نحو الأسفل ..

لعله فهد !

يريد المزيد من الاطمئنان عليها بعدما ذهب بها إلى

المشفى بالأمس بناء على توصية صاحبه ..

بعض الأمان يدفع خطواتها لتغادر القصر ..

او .. لعله .. هو .. حسام ..

جاء كفارس عنيد كي يختطفها من هنا ؟



تبتسم ساخرة لهذه (المراهقة المختلة) التي لا تزال

تحتل جنباتها ..

أي فارس يا حمقاء !

المجرم لا يكون فارساً أبدا !

تنتهي خطواتها وهي تميز ظل الرجل الذي وقف في

الحديقة يعطيها ظهره ليرتجف جسدها بخوف وهي لا

تعرف له هيئة تشبهه ..

لكنه يلتفت نحوها أخيراً فتأخذها زرقة عينيه

الغريبتين للحظة وكأنها شعرت بهما تسبر أغوارها

قبل أن تتذكر ..

لقد رأته من قبل !

_دكتور "كنان" .. طبيب سند .. ألا تذكريني؟!!

يقولها بود ظاهر فتهز له رأسها بارتباك ليقول

بهذوء:

_السيد عاصي كان قد دعاني لزفاف أخته .. ووجدتها

فرصة في البقاء لأجل متابعة سند في بيئة محايدة

بعيداً عن جو العيادة المغلق .. أريد التحدث معك

قليلاً .

يقولها مشيراً لها بالجلوس على أحد الكراسي في

الحديقة ثم يجلس قبالتها ليتفحص ملامحها بدقة بدت

لها مزعجة وجعلتها تفرك كفيها وهي تعض شفثها

ليغمغم هو أخيراً مشيراً لجروح وجهها:

_سلامتك!

وقعت .. بالأمس ..كنت أزور المقابر ..تعرف الظلمة
ليلاً .. أنت تعرف هذه الأشياء ..وقعت ..تعرف صعوبة
الطرق هنا ..تعثرت ..أنت تعرف هذه الأشياء ..
حروفها المتلعثمة تصيبه بالشفقة نحوها فتضيق
عيناه بذكاء وهو يلتقط أكثر ما كررته في عباراتها :
_ أجل ..أنا أعرف هذه الأشياء .

يقولها بنبرة ذات مغزى فيها إليها أنها تحمل ما
يفوق معناها لتشعب ملامحها وهي تكتف ساعديها
بقوة مشيخة بوجهها ..

ماذا يعني؟!!

هل يعرف عن أشباحها؟!!

هل سيصفها بالجنون؟!!

سيحرمها من سند؟!!

سند!

تشهق بخوف وهي تسمعها منه لكنه يردف بهدوء:
أريد منك جواب بعض الأسئلة بشأنه .. أعترف أنه
أكثر هدوءاً معك .. لكن لأكون صريحاً معك .. توقعت
نتيجة أفضل من هذه ..

يزداد شحوب ملامحها لكنه يستطرد بابتسامة
مطمئنة :

لا أزعم أنك مقصرة .. انا فقط أريد فهم الخلل .. لهذا
اسمحي لي ببعض الأسئلة عن علاقتك بالصغير
وبعض تصرفاته معك .

تهزله رأسها فيشرع في طرح أسئلته التي تجيبها
بصراحة وهي تشعر بابتسامته الودود تزيد ثقتها
لتختفي رجفتها رويداً رويداً ..

حتى تسمع سؤاله:

_ متى كان آخر تواصل بشري جيد له مع أحد

الغرباء؟! وكيف كان فيه؟!

فتبتسم بشحوب للذكرى وهي تتذكر موقفه مع حسام
وسلطانة ..

كيف أمسك يد حسام ليربت به ومعه على الكلبة !

_ عظيم ! هذا الرجل تلتقونه كثيراً؟!

_ بل لن نلتقيه بعد اليوم .. أبداً .

تقولها بين حسم وخيبة وهي تطرق برأسها لكنه

يعاود سؤالها بالحاح :

_ معي صلاحية من السيد عاصي بالاستماع لكل

التفاصيل .. لا أسرار هنا .

فتتهد بحرارة وهي تروي له القصة باختصار لينعقد
حاجباه للحظات ثم يطلق هممة خافتة ليقول بعدها
بابتسامة هادئة:

_ حسناً .. سأضع كل ما ذكرت في ملاحظاتي حول
البرنامج الجديد في التعامل معه .. هكذا انتهى
حديثنا ..

تهم بالوقوف كي تغادر لكنه يردف ببطء حذر :
_ عن سند .. بقي حديثنا عنك أنت .

تعود ملامحها للشحوب فيقول بنبرته الودود :
_ اسمحي لي .. أنا لا أتدخل في حياتك الشخصية .. لكن
وضعك حساس جداً مع الصغير .. لهذا يجب أن تعلمي
أن اهتمامي بك هو اهتمام به إنما من جانب
آخر .. وليس من باب التطفل أو الفضول .

تهز رأسها وقد بدأت تشعر بالخطر ليرقب هو نظرة
عينيها بخبرة ثم يردف بنفس النبرة:
_عرفت بعض المعلومات عن ظروف حياتك .. عزلتك
وانطواؤك بعد وفاة زوجك .. خوفك المغالي من
الآخرين .. كما أن السيدة ماسة أخبرتني بشأن المرايا
المكسورة .

وجهها يزداد شحوباً حتى يحاكي الموتى لكنه يهز
رأسه مطمئناً ليستطرد :
_هل تعانيين بعض الهواجس أو الهلوسة؟! لا أعني
بهذا كوابيس النوم إنما رؤى اليقظة .
_ لا .. لا .. أبداً .. أنا بخير حال .

تقولها بابتسامة مرتجفة وأناملها المرتعشة تتحرك
في وضع حمائي حول وجهها لتتأكد بعض ظنونه ..

فيستخرج هاتفه ليفتحه مبرزاً إحدى الصور ..

ترين هذه؟!!

ينعقد حاجباها وهي تميز الفتاة التي بدت لها ملائكية

الجمال بعينيها العسليتين وشعرها الكستنائي

وملامحها الطفولية كأنها لم تذق من قبل هم

الكبار .. ترمقه بنظرة متسائلة ليرد ببساطة :

حبيبتى .

تبتسم رغماً عنها للعفوية البسيطة التي عرفها بها ..

عهدها أن الرجال لا يصرحون بالحب بهذه

الصراحة !

اسمها (مُزن) .. تزوجت مثلك وهي في الثامنة عشرة

تقريباً من رجل يكبرها بعشرين عاماً .. كان لها الدنيا

وما فيها .. هو الذي رباها بعد وفاة أبيها - عمه - كما

كانت تعلم ..كان أباهما وصديقها وحبیبها قبل أن يكون زوجها ..وكانت مدلتة التي لا يرد لها طلب .. كانت أنفاسها تتلاحق مع التفاصيل التي يذكرها وهي تشعر بالمزيد من الفضول ليردف :

_وبين عشية وضحاها اكتشفت أن عمرها كله كذبة ..أبوها ليس أباهما ..وحبیبها الحامي طعنها في ظهرها ..حرمها من أن تكون أما بعدما عرف أنه غير قادر على الإنجاب خشية أن تتركه ..اكتشفت أن حياتها كلها كانت فقاعة كاذبة راحت بلمسة إصبع ..فجأة وجدت نفسها وحدها ..دون أهل ..دون صديق ..ملأها اليأس من كل شيء حتى أنها حاولت الانتحار لولا أن أنقذوها في الوقت المناسب . تدمع عيناها دون وعي لتغمغم بصوت متحشرج:

وماذا فعلت بعدها!؟

تعلمت ..

يقولها بحسم ليردف بمزيج من حماس وفخر :

تعلمت الدرس ..فهمت أنها لا يمكنها أبداً أن تغير

الماضي ..لكنها تستطيع تغيير الحاضر

والمستقبل ..فهمت أنها قد تكون ذاقت هم الفقد في

سن صغيرة لكن ربما كان هذا تمهيداً لعطايا الغد في

سن أكبر ..فهمت أن الحزن يعطل عجلات قطار الحياة

لكن الأمل دوماً موجود ليدفعها ..وأنه مهما بلغ حجم

الجرح في القلب فالدواء دوماً موجود في اليقين

بالغد ..وأن أي خسارة يمكن تعويضها مادامت لم

تخسر نفسها بعد .

تبتسم رغماً عنها وكلامه يزرع بعض الأمل في

روحها هي لتعاود سؤاله:

زوجتك؟!

ليس بعد ..

يقولها ببعض الأسى الذي لم تفهمه مردفاً :

_بقي بيننا حاجز أخير لم تستطع هي تجاوزه ..لكنني

أنتظرها أن تفعل ..

محظوظة هي بك ..

تقولها بابتسامة مرتاحة كأنما تبدلت في بضع دقائق

ليتيقن من ظنه بشأنها فيقول برضا وهو يقف متأهباً

للمغادرة :

_ سأكتفي بهذا القدر اليوم .. لو شعرتِ بحاجتك
للحديث عن أي شيء يخصك أو يخص سند فلا
تترددي في الاتصال بي .

تقف بدورها وهي تشعر بالتردد ..
هل يمكنه حقاً المساعدة !؟

_ أنا .. أنا ..

تتفرج شفاتها كأنما ستهم بالبوح لكنها تعود لتسجن
نفسها داخل شرنقتها من جديد مكتفية بقولها
المتحشرج :

_ أنا بخير .

ومع هذا لم يبذُ يائساً منها وهو يهز رأسه ليقول
بابتسامته الودود :

_ يارب دوماً! أراكِ على خير .

يقولها ليغادرها بخطوات ثابتة ولم يكد يخرج من

القصر حتى رفع هاتفه ليجري اتصالاً :

_السيدة طيف ..لقد تحدثت معها كما طلبتِ ..لا

تقلقي ..لن أخبر السيد عاصي ..سيبقى أمر ديمة بيننا

وحدنا .

=====

أحمر



_ لا تتركوه يتألم هكذا ! افعلوا شيئاً!
تصرخ بها يسرا بهياج مخاطبة الطبيب والمرضات
بينما صيحات ربيع المتألّمة تكاد تصيبها بالجنون ..
ينهرها إبراهيم لعلو صوتها لكنه يعود ليدرك أنها
صارت خارج حدود السيطرة فيكتفي بمحاولة
تهديتها .. لكنه لا يستطيع!

وكانها عادت في لحظة يسرا الصباحي !
صوتها الجهوري يستعيد نبرة تسلطه وهي تعود
لتصرخ فيهم :

_ أنتم لا تعرفون مع من تتعاملون .. لا تعلمون من
أنا .. سأخرب بيوتكم كلها بيتاً بيتاً لو لم يصبح بخير
في أقرب وقت .



تتبادل هبة مع الحرافيش نظرة قلقة وهم يفكرون أنها
صارت تهذي بحالة الهياج غير المسبوقة التي
يرونها عليها بينما يقترب إبراهيم منها ليطوقها
بذراعيه وسط اعتراضات الطبيب وهيئة التمريض بل
وبعض المرضى على صراخها هذا وأمرهم لها
بالخروج من الغرفة ..

_ لن يخرجني أحد من هنا ! فليتجرأ أحدكم ويفعلها
وسأرميه وراء الشمس ! دعني .. دعني يا
إبراهيم .. لن أخرج من هنا حتى يجدوا حلاً .. لن ..
صوتها يخف وقد بح صوتها من فرط الصراخ لكن
إبراهيم لا يزال يطوقها ليخرجها قسراً من الغرفة
ويسندها على الحائط المقابل هاتفاً بصراصة :
_ يكفي هذا يا سمرا .. اهديني ..

_ لا تقل لي: (اهدئي!) .. أنت السبب ! لماذا أخفيت

عني الأمر؟! لماذا لم تخبرني أنه مريض لهذه

الدرجة من البداية؟! فشل كلوي!! وكما سألتك

تخبرني أن الأمر بسيط!؟

صراخها ينتهي بخبطة ذراعها القوية للجدار خلفها

لتصيبها أحد المسامير الناتئة .

كفها ينزف بغزارة ليهتف هو بجزع محاولاً إيقاف

نزيفها أو حتى السيطرة على جنون انفعالها:

_ يا ربي! رأيت ماذا فعلتِ بنفسك؟! اهدئي .. بالله

عليك اهدئي !

يشعر بنفورها الغاضب منه كأنها تتهمه بإخفاء الأمر

عنها فيردف بزفرة قوية اجتاحت صوته المرتجف

بانفعاله:

_والله لم أخفِ عنك شيئاً .. الأمر تدهور فجأة .. أنا

فوجئت مثلك .

تستمر في هتافها بصوتها المبحوح بما يشبه الهديان

للحظات وهي تحاول التفلت من بين ذراعيه

المطوقين لها ..

حتى يفاجأ بها تنخرط في بكاء حاد وهي تنزلق

بظهرها على الحائط حتى تسقط جالسة على الأرض

تتاوه بخفوت وسط بكائها كأنما شعرت الآن فقط

بإصابة كفها الذي احتضنه هو بين كفيه بقوة وهو

ينحني ليجلس قبالتها غير آبه بالمكان فتلقي رأسها

على كتفه مستسلمة لبكائها للحظات بينما يكتم هو

دمعة عجزه بين قلقه على أبيه وعليها هي ..

لقد ظن أنه يفهم هستيريته المنفعة في كل ما يتعلق
بعاطفتها نحوهم لكنها أول مرة يراها تكاد تؤدي بها
نفسها ..

_ اهدئي حبيبي .. اهدئي .. ربنا كريم .. (ومن يتق الله
يجعل له مخرجاً) .. وأبي رجل عاش بالتقوى .. أحسبه
كذلك ولا أزيه على الله .. وظني أن الله لن يضيعنا .
يقولها وهو يشعر بها تنتفض بين ذراعيه كطير ذبيح
لتهمس بتشتت :

_ لن نتركه يتألم أكثر .. لن أحتمل أن أراه في جلسات
الغسيل الكلوي هذه بكل وجعها .. هناك حل .. بالتأكيد
هناك حل .. متبرع !

تقول كلمتها الأخيرة وقد أشرق الأمل في عينيها
لتعاود النظر لوجهه تكرر هاهاه بانفعال:

_متبرع ! هذا هو الحل ..كيف غاب عنا؟!
يتنهد وقد كره إحباط أملها لكنها فهمت هذه النظرة
في عينيه لتتهافت به وقد عاد صوتها لجنونه :

_ستخفي عني شيئاً آخر؟!!

تقولها وهي تتشنج في جلستها بتحفز عصبى فيطلق
زفرة حارة وهو يتلفت حوله مدركاً ترصد العيون
بهما ..

يقف أخيراً ليوقفها معه فتترنح في وقفها ليضمها
إليه قائلاً بمهادنة :

_تعالى نوقف نزيه جرحك أولاً وسأخبرك بكل
شيء .

_لا ..لا ..لن أتركه ..

_ لا أحد منا سيتركه يا سمرا .. فقط دعينا نظهر
الجرح في هذه الغرفة .. لا يبدو بسيطاً .
يهتف بها بحدة فجرها انفعاله هو الآخر وهو يكاد
يجرها جراً نحو الغرفة المجاورة حيث تولت إحدى
الممرضات تطهير الجرح الذي احتاج لتقطيب لكن
يسرا بدت غافلة عن الشعور بالألم وعيناها شاردتان

في الفراغ ..

المشفى ..

من جديد المشفى!

الجدران البيضاء التي تشاء الأيام دوماً أن تكون

محطات فاصلة في قدرها ..

حادث سيارتها مع فهد ..

الحادث في لبنان ولقاؤها بفادي ..

ابنها المحمول بين ذراعيها كجثة يشهد لها الجميع
بالموت عداها هي وهي تركض به في المشفى
ببيروت ..

الحادث الذي أصابها فيه ذاك المجرم بمديته في
بطنها عندما أنقذها إبراهيم ..

والآن .. ربيع !!

وكأنما أعاد لها الخاطر بعض الحياة لتنتفض مكانها
فجأة فتتهف الممرضة بحرج:

_ أمتك؟! عموماً .. أنا انتهيت !

تقولها لتتصرف عنهما فيشكرها إبراهيم بكلمات
مقتضبة ثم يجذب يسرا نحوه لترمقه بنظرة عاتبة
متسائلة فيستغفر الله بصوت مسموع ثم يغمغم بأسى:

_فكرة التبرع بالكلية جيدة .. عرضتها على الطبيب
وأجريت أنا التحاليل لكن نسبة التطابق في الأنسجة
غير كافية .

تعقد حاجبها بجهل وهي تستمع منه للمزيد من
التفاصيل الطبية التي لا تفهم منها شيئاً .. لكنها فقط
كانت تعي أنه لا يمكن لإبراهيم التبرع
لأبيه .. ليستطرد هو بأمل:

_لكن بقي أولاد عمي .. سيجرون التحاليل اليوم .. لو
ثبتت مطابقة الأنسجة مع أحد منهم فيمكننا إجراء
الجراحة مع وجود المخاطرة .

تصمت للحظات شاردة وأناملها تتحسس هاتفها في
جيب تنورتها ..

هكذا إذن !؟

الأمر بسيط !

اتصال واحد بأحد معارفها ذوي النفوذ يمكنه توفير

متبرع لها خاصة وهي مستعدة لدفع أي ثمن ..

لن تخسر ربيع .. لن تخسره ..

ستبذل كل ما تستطيع ..

لكن ..

مهلاً !

ولماذا لا تكون هي؟!!

هي من تمنحه جزءاً منها يربط بينهما العمر كله

وترد له صنيعه معها!!!

لكن .. هل تضمن أن تكون أنسجتها هي مطابقة؟!!

هل تضمن نتيجة المخاطرة؟!!

لا .. ليست لعبة هذه المرة .. ليست مقامرة ستحتمل

نتيجة خسارتها ..

فمن الضامن !؟

من الضامن !؟

_ سمرا .. سمرا ..

يناديها إبراهيم بقلق من شرودها المغالي بعد طول

عصبيتها لتلتفت نحوه بتشتت ثم تقول فجأة :

_ خذني لمكان يمكنني الصلاة فيه .

وكأنما جرى جواب سؤالها على لسانها كجري الماء

دون إرادة أو توقف ..

المعنى الذي اجتاحتها في هذه اللحظة كان كإعصار

هائج ..

كأنما هو "التطبيق العملي" لدرس طالما تباهت

بحفظه غيباً والآن حان وقت التجربة !

_ (الله لا يُجرب!..حاشاه حاشاه ..اليقين فيه هو أول

الطريق وآخره ..متى عرفتِ بأن كل أمرك لك

خير ..إن أصابتك سراء شكرتِ فكان خيراً ..أو ضراء

صبرتِ فكان أيضاً خيراً ..المقياس في الحالين هو

حال قلبك وحسن ظنه في خالقه أنه وقد سلمه أمره

فلن يضيعه.)

تذكرها كما سمعتها يوماً من هبة فتدمع عيناها برهبة

تزلزل كيائها ..

لا تدري كيف صارت فجأة في (مصلى النساء) الذي

ذهب بها إليه إبراهيم ..

ولا كيف توضأت لتقف أمام القبلة ..

هي تشعر ببرد الماء على بشرتها يطفى المزيد من

حرائق روحها ..

وبهذه الكلمات التي ظنتها محفوظة تلقائية في

صلاتها كأنما الآن تفهم كل معنى فيها أكثر ..

حتى إذا ما خرت ساجدة وجدت نفسها تدعو بحرقه ..

لم تتكلف دعاء مسجوعاً .. إنما كانت كلماتها عفوية

متلعثمة حارة .. وصادقة ..:

_يارب .. لا تفجني بفقد جديد .. اشفه يا رب .. اشفه

واجعلني سبباً .. ربما يخفف هذا وزري .. ربما يفي

بديني .. ربما عندما تحين ساعة الحقيقة أجد لي نقطة

بيضاء وسط كل سواد الماضي .. ربما وقتها تكون بعد

الرماد حياة !

=====

_ سمرا .. سمرا .. استيقظي!

تهتف بها كوثر مديرة منزل يسرا مخاطبة سمرا
"الحقيقية" والتي نهضت من نومها مذعورة لتهتف

بصوت ناعس:

_ ماذا حدث؟! أمي بخير!؟!

تتنهد كوثر بحرارة مع كلمة (أمي) التي تنطقها الفتاة
بهذه العفوية ..

لعل عاطفتها البريئة هذه هي ما تصبرها على هذه
المهزلة!

_ يسرا هانم اتصلت .. هي في طريقها إلى هنا الآن .

تقولها بقلق لترد سمرا بدهشة وهي تنظر للساعة

التي تجاوزت الواحدة صباحاً :

_ الآن!؟! في هذه الساعة!؟!

_ أليس أفضل من أن تزورنا في وسط النهار مثلاً

فتزداد فرصة كشف مسرحيتكما !؟

تهتف بها كوثر بسخط عاجز فتتهض سمرا من

الفراش لتغمغم بحيرة :

_ لكنها تخبرنا قبل مجيئها بزمن كافٍ .. لماذا تزورنا

فجأة هكذا هذه المرة !؟ وبعد طول انقطاعها ؟؟

_ بيتها وهي حرة فيه!

تهتف بها كوثر بالمزيد من السخط لتطرق سمرا

برأسها في خنوع فتتهد المرأة بقوة ثم تضمها إليها

لتغمغم بنبرة أرق:

_ اسمعيني يا ابنتي .. الحياة علمتني أن أزن الناس

بموازينهم .. وعشرتي لك طوال هذه الأيام كشفت

طيب معدنك ولعل هذا من حسن حظ يسرا

هانم ..واحدة غيرك كان يمكنها أن تستغل الوضع
أسوأ استغلال ..لكني امرأة وأم لفتاة في مثل
عمرك ..كما أني لا أبالغ لو قلت أني أحب يسرا هانم
كابنتي ..لهذا أنصحك بصدق ..لا تبالغي في التعلق
بحياتك هنا لأنها مجرد حالة مؤقتة ..أنا ربيت يسرا
هانم تقريباً من صغرها ومع هذا لا يمكنني فهمها أو
التكهن بتصرفاتها ..وأشك أن أمها نفسها تفعل! لهذا
توقعي دوماً أن تكوني خارج هذا البيت في أي وقت .
تزدرد سمرا ريقها بتوتر وهي ترمق المرأة بنظرة
ممتنة لترد بابتسامة وديعة:

_ لا تلوميني لو تعلقت بالمكان ..لم أحلم يوماً بعيشة
كهذه ..ليس المال فقط ..بل الأمان .

تربت كوثر على كتفها بتفهم وهي تهم بالرد لولا أن
رن هاتفها برقم يسرا لتهتف مخاطبة سمرا بسرعة:
_تعلمين ما ينبغي عليك فعله لإلهاء الحرس ..وبعدها

اختفي تماماً حتى تقرر هي الرحيل .

ترد بطاعتها المعهودة وهي تتحرك لتبديل ملابسها
بسرعة بينما تتحرك كوثر نحو غرفة الأم شبه
الواعية لتتبين حالها ..

تعلم أن يسرا ستقصدتها أولاً !

تتنهد بإشفاق وهي تعدل للمرأة الشاردة وسادتها
فترفع الأخيرة رأسها إليها مغمغة :

_ابنتي ..أين ابنتي؟! غائبة منذ أيام .

تهم بالكذب عليها كل مرة محاولة إقناعها أن ابنتها
معها دائماً ..

لكنها رضت بيقينها أن قلب الأم لن يخلط بين الأرواح

ولو تشابهت الوجوه !

لهذا صمتت دون رد حتى شعرت بالباب يفتح خلفها ..

_ابنتي .. يسرا ..

تدمع عينا كوثر وهي تشعر باللقاء بينهما أشد حرارة

هذه المرة رغم أن الأم عادت بعد دقيقة واحدة فقط

لتغيب في شرودها غير الواعي كأنها لم تعد تعرفها ..

يسرا كذلك بدت لها مختلفة كثيراً عن آخر مرة رأتها

فيها ..

ليس فقط ثيابها شديدة الاحتشام لكنه شيء ما في

روحها بدا لها أكثر هشاشة .. إنما أكثر قوة .. ولا

تدري كيف يجتمعان!

_تعالى ..أريدك .

تغمغم بها يسرا بخفوت بعدما منحت أمها عناقاً آخر
قبل أن تتسحب مع كوثر نحو غرفة الأولى ..
تقف يسرا وسط غرفتها تدور فيها ببصرها للحظات
قبل أن تتحرك نحو خزانة ملابسها ..
وبالذات نحو الدرج السفلى الذي فتحته لتستخرج منه
"منامة رضيع" ..

منامة "شادي" ..ابنها الراحل..

وعلقت على أطراف الوادي

شادي ركض يتفرج

خفت وصرت اندهله

وينك رايح يا شادي

اندهله وما يسمعي

ويبعد يبعد بالوادي
و من يومتها ما عدت شفت
ضاع شادي
والتلج اجى و راح التلج
عشرين مرة اجى و راح التلج
وانا صرت اكبر
و شادي بعد صغير

لا تزال غنوة فيروز تجتاحها كلما أمسكت منامته ..

(أنا صرت أكبر .. وشادي بعد صغير)!

لم تشعر بدموعها التي أغرقت وجهها إلا عندما

أحست بكف كوثر على كتفها تهتف بحنان قلق:

_يسرا هانم ..ماذا حدث؟!

_الكثير .

تقولها باقتضاب وهي تمسح دموعها ثم تقبل منامة
الصغير قبل أن تعيدها مكانها ثم تلتفت نحو المرأة
لتبتسم لها ابتسامة واهنة ثم تغغم بصوت مرتجف:
_تعلمين كم أثق فيكِ ! أنت الوحيدة التي ائتمنتها على
سري .. على أمي وبيتي ومالي .

_عسى الله أن يجعلني قدر الأمانة يا يسرا
هانم .. أخبريني فقط كيف تعيشين .. مع من؟! هل
تعجبك الحياة ك"سمرا" إلى هذا الحد؟! ظننتك
ستملين بعد بضعة أيام وتعودين !

_أعود لماذا؟!!

_لحياتك يا ابنتي .. لا أحد يعيش في جسد غيره زاعماً
أنه استبدل حياته بحياته ..

_ولو كنت أحب حياتها ألف مرة أكثر مما أحب حياتي

!؟

_إذن عيشيها ..إنما باسمك أنتِ ..عودي يسرا

وافعلي ما تشائين ولن يمنعك أحد .

_ولو كانت يسرا نفسها هي من ستمنعني؟! هي بكل

لعناتها ..بداية من لعنة أبيها ومروراً بكل لعنات

ماضيها!؟

تتمتم بها بمرارة وهي تطرق برأسها لتهز المرأة

رأسها بجهل عما تقصده ..

لكن يسرا تعاود رفع رأسها إليها قائلة :

_أنا ..أنا بصدد إجراء عملية جراحية .

_ماذا؟!!

تهتف بها كوثر بجزع وهي تخبط بكفها على صدرها
لكن يسرا تبتسم وهي تحيط جسدها بذراعيها قائلة:
_ لا تخافي هكذا ..ربما كان هذا أجمل ما حدث لي في

حياتي .

تقولها وهي تستعيد الأحداث السابقة ..

لا تكاد تصدق أن الله استجاب دعائها وأنها في

طريقها لتجري الجراحة ..

كانت تخشى اعتراض إبراهيم ..كانت تخشى أن يكون

إيمانها السابق قد أثر على حالة الكلى ..وكانت تخشى

قبل كل هذا ألا تكون نسبة التطابق في الأنسجة

كافية ..

لكن السرعة السلسة التي تم بها الأمر جعلتها تشعر

بالمزيد من الارتياح ..

بالمزيد من اليقين في ما عند عليم خير سبقت

رحمته غضبه !

_ ما الذي يحدث يا ابنتي؟! صارحيني وأقسم لك أنني

لن أبوح بسر كالعادة .. لكنني أريد أن أطمئن .

تهتف بها كوثر برجاء حانٍ لكن يسرا تهتف بعجلة

وهي تتذكر أنها لا تملك المزيد من الوقت ..

هي بالكاد استغلت انشغال إبراهيم مع أبيه في

المشفى وغافت هبة لتأتي خلسة إلى هنا .. لماذا؟!!

_ لو أصابني مكروه ولم أتصل بك في خلال يومين فلا

تخبري أحداً عن شيء .. دعي سمرا تبقى هنا كي

تعنتي بأمي واعتني أنتِ بكلتيهما ..

تقولها بصوت متحشرج لتبكي كوثر بخوف وهي

تهتف بها بجزع:

_ ماذا ستفعلين بنفسك هذه المرة؟! بالله عليك

أخبريني .

لكنها تهز رأسها قائلة :

_ لا وقت لدي ..ربما لو كتب لي عمر جديد أخبرك بكل

شيء ..لكن الآن عديني ..عديني أن تعتنى بأمي .

تمنحها المرأة إيماءة رأس تشبه الوعد لترفع كفيها

للأعلى هاتفة بلوغة:

_ أنتِ من ستعتنين بها بنفسك ..أنجاءك الله من كل

كرب .

تقولها وقد يأسست من عناد يسرا أن تخبرها بشيء

الآن فتبتسم لها الأخيرة ..لتقول بتردد :

_ وهناك شيء آخر .

ترمقها المرأة بنظرة مشجعة فترتجف أناملها هي
وهي تستخرج من جيبها هذا المظروف البلاستيكي
المغلق بإحكام والذي يحوي الشيء الوحيد الذي
احتفظت به عند خروجها من بيت الصباحي .. هذا
الذي كانت تخفيه تحت البلاطة القديمة ببيت سمرا
وأخذته معها فلم يفارقها ..

_ ما هذا؟!!

تسألها كوثر بتوجس لترد يسرا وهي ترفع المظروف
أمام عينيها :

_ هذا المظروف يحوي شيئاً هاماً جداً .. لو أصابني
مكروه فاذهبي للعنوان الذي كتبتك عليه .. وأعطيه
يداً بيد للرجل الذي كتبت اسمه كذلك .

ينعقد حاجبا كوثر وهي تقرأ اسم الرجل لتتسع عيناها

بذهول وهي تميز هويته ..

_حسام القاضي؟! ظليقك!؟!

تتمتم بها كوثر بصدمة لكن يسرا ترمقها بنظرة مغلقة

تخبرها أنها لن تبوح بالمزيد قبل أن تتحرك لتغادر

المكان بسرعة ..

خطواتها شبه راکضة وهي تشعر بالنفور من كل ما

يربطها بهذا البيت الذي لم تكذ تغادره حتى عادت

تلتفت بوجهها نحو الاسم الذي كتب بماء الذهب على

بابه .

(رفعت الصباحي)

فتلتوي شفتاها بشبه ابتسامة كأنها تودعه مع ما

ودعته ..

الآن يمكنها أن ترحل عن الحياة كلها بهدوء واثقة
أنها تركت خلفها أثر خير ..

تتنهد بحرارة وهي تتذكر الظروف الذي تركته مع
كوثر ..

لتهمس لنفسها بخفوت :

_ربما لن أعيش لأشهد ضحكك من جديد يا "مستر

ربيع" .. وربما لن أكون أبداً (أم حسن) يا

إبراهيم .. لكنني على الأقل قد أكون سبباً في رجوع

حق حسن .. عجباً للموت كيف أحياناً يمنحنا الحياة!



الطيب السادس والعشرون



_ لا تزال تشرب القهوة قبل نومك مباشرة؟! أتمنى
ألا تكون قد غيرت عادتك !

يقولها يحيى وقد لحق بالياس إلى حديقة قصر
الرفاعي بينما يشير للخادمة كي تترك صينية القهوة
وتغادر ..

ليلتفت نحوه إلياس بنظرة طويلة مشتتة قبل أن يتخذ
مجلسه ليدفن رأسه بين كفيه ..

يجلس يحيى بدوره جواره محترماً صمته لدقائق
طالت ..

قبل أن يرفع إليه إلياس عينيه قائلاً بخفوت :



_ كيف احتملت الأمر طوال هذه السنوات؟!؟

_ هذا يعني أنك صدقتني؟!؟

يقولها يحيى ليتهد إلياس وهو يشيح بوجهه قائلاً:

_ كل شيء داخلي يتمنى أن يكذبك .. لكنني أعرفك

وأعرف استبرق .. أحفظها كخطوط كفي .. وما فعلته

اليوم رغم ظاهره البريء يدينها .. استبرق التي

أعرفها لم تكن لتقطع كل هذه المسافة بهذه السرعة

الخاطفة بعد مراقبتي إلا لو كانت تترقب حدثاً جليلاً .

_ أنا زرت غيث في السجن .. أخبرته أنني

أعرف .. لا بد أنه أخبرها .

_ ولماذا تظنها إذن تتصرف بهذا البرود كأنها لا

تعرف شيئاً متشبهة بكلامها أن هروبك لم يكن سوى

لأجل سراب؟!؟

يسأله إلياس بحيرة ليرد يحيى بشرود :
_ من المؤكد أن لديها خطة بديلة ..عهدي بها أنها لن
تترك شيئاً للصدفة .

يرمقه إلياس بنظرة قلقة وهو يغمغم بانفعال خافت:
_ أنا تحكمت في انفعالاتي جيداً ..لا أظنها شكت أنك قد
أخبرتني بشيء ..هي فقط سألتني عن علاقتك بطيف
وكيف تعرفت إليها وعاتبتي في عدم

إبلاغها ..شعرت أنها مختلفة ..كأنها تريد استجوابي
لآخر لحظة ومع ذلك تريد الهروب من أمامي في
أقرب فرصة ..لا أظنني رأيتها بهذا الحال من
قبل ..لكن السؤال هنا ..ما الذي تنتويه أنت!؟!

كان هذا دور يحيى ليشيح بوجهه بابتسامة سخرية

مريرة:

_ ما رأيك أنت؟!!

تتفرج شفتا إياس وهو يهم بقول شيء ما لكنه يعاود
إطباقهما بعجز ..

_ رأيي؟! رأيي في أي شيء؟! يا لله!! مخي يكاد
ينفجر!!

يقولها باستنكار قانط وهو يتناول فنجان القهوة
ليرتشف منه رشفة ثم يعيده مكانه قائلاً:

_ فضح الأمر لن يفيد أحداً .. ولا أظنك أنت نفسك
ترتضيه .. لو كنت تريد الاستمرار في الهروب فلن
ألومك .. أجل .. الآن لن ألوّمك .. لكن .. العائلة! العائلة
تحتاجك الآن خاصة بعد سجن غيث .. الأمور تفلت من
بين أيدينا ولا أستطيع السيطرة على كل شيء
وحدي .. خاصة أنني لم أعد أثق في استبرق

كالسابق ..مؤسسة الأمين ميراث العائلة على مدار
أكثر من ثلاثين عاماً ولن أَرْضَى أن نكون الجيل الذي
ضيعها .

لكن يحيى يستدير بجسده نحوه قائلاً بحسم:
_وأنا كذلك سأمت الهروب يا إياس ..ليس فقط أنني
اشتقت لبلدي وأهلي ..إنما ..اشتقت لنفسي ..لنفسي
القديمة..لصورة مرآة أحترمها كما يحترمها
غيري ..لا ألعن ضعفها وقلة حيلتها .

تدمع عينا إياس وهو يقترب منه بجذعه ليربت على
ركبته قائلاً بصوت متهدج :

_إذن عد معي يا يحيى ..لن أستطيع أن أعدك
بالكثير ..حتى ولو بتصور بسيط مُرضٍ لحياتك في
ظل وجود إستبرق وسراب أو حتى الغائب الحاضر

غيث .. لكن ما يمكنني وعدك به أنني معك .. كما كنت
طوال عمري .

يبتسم له يحيى ليطلق تهيدة ارتياح وهو يسند جبينه
على كتفه هامساً :

أه ! طوال هذه السنوات وأنا أنتظر رقدة جبريني على
كتفك أنت بالذات هكذا .. لم تخذلني يوماً ولن تفعل .
لكنك فعلت .

يهمس بها إلياس عاتباً وهو يخبطه بقبضته على
ظهره بخفة ليرفع إليه يحيى عينين معتذرتين ثم يقول
بروح عادت إليها (بعض) حيويتها القديمة :

أعرف أن بيننا دين ثقيل من الحكايات لكن لا
بأس .. لا يزال الليل يتسع للمزيد .

يبتسم إلياس أخيراً مغالباً ألمه وهو يعاود تناول

قهوته ليستمع قائلاً بمكر :

_ ابدأ السداد إذن بحكايتك مع طيف ..ظني أنها حكاية

مثيرة

ليبتسم يحيى بدوره وهو يعيد خصلات شعره للوراء

بزفرة قصيرة هامساً :

_ وأي إثارة!

=====

برتقالي

=====

_ نامت؟! كنت قد أحضرت لها المثلجات التي تحبها!

يهمس بها يحيى بأسف وهو يتقدم من فراش مجد

التي استلقت ساكنة بأنفاس منتظمة لتلوح طيف



بسبابتها على شفيتها في إشارة له بالصمت قبل أن
تتحرك لتشير له كي يتبعها نحو شرفة الغرفة ..
تجلس على الأريكة التي صممت كأرجوحة هناك
ليتقدم فيضع ما بيده جانباً ثم يجلس جوارها فتبادره
بقولها الجاف :

_ ماذا حدث بينك وبين عمك!؟!

_ هو يصدقني .. وعدني بدعمه لكنه يريد مني العودة
للعراق ..

_ وأنت ماذا تريد!؟!

تسأله بنفس الخشونة الفظة ليتفحص ملامحها قائلاً:

_ لو سافرت .. ستأتين معنا!؟!

فتطلق شهقتها الساخرة المميزة لتقول بنفس النبرة

الفضة :

معنا؟! يبدو أنك لا تزال لا تفهم وضعنا جيداً.. اذهب
حيث شئت لكن موقفي أنا مرتبط بمجد.. لن أتركها
لحظة واحدة.. ربما كان من مصلحتها أن أسافر
للعراق كي أبحث بشأن تبنيتها الرسمي لا بأوراقك
المزورة.. سأرى ما ينبغي فعله كي يكون وجودها
معي حقاً لي.. ولن أهدأ حتى أفلها.

تزداد لمعة عينيه وشفاهه تتشاحن بابتسامة واهنة
ناسبت قوله الماكر :

تعنين أن هذا سبب رغبتك في السفر فحسب؟!
حسناً.. سأدعي أنني أصدقك.. لكن اعلمي أنه لا يمكنك
السعي في إجراءات تبنّي مجد دوني.
يمكنني فعل كل ما أشاء دونك.

_ وماذا ستفعلين يا مبهرة الذكاء مع أخيك الذي ينتظر

طفلا؟!!

يسألها لترمقه بنفس العينين الثلجيتين وان منحته

رجفة شفيتها وشاية ببعض قلقها ..

فيرفع حاجبه هامسا بمكر رغم تحدي نبرته :

_ الوقت ليس في صالحنا .. امنحيني الفرصة إذن

لنمنحه واحدا حقيقيا ..

يقولها وهو يمس بطنها بأنامله ولم يكذب يفعل حتى ..

_ "إيدك .. لا توحشك!"

تهتف بها وهي تخبطه على كفه بقوة فلم يستطع كتم

ضحكته وهو يشيح بوجهه ..

من يرى هذا الوجه الهمجي المتشرد منها لا يصدق

هذا الوجه الحكيم الذي تخط به كتاباتها ..

من يرى وجه حنانها مع مجد لا يستوعب وجه

ففاظتها الآخر ..

من يرى وجه خشونتها سيفقد عقله حتما أمام وجه

أنوثتها الذي يكاد يقسم أنه أول من ذاق شهده ..

لكنه يستوعب كل هذه الوجوه .. بل .. يعشقها كلها !

وجواره كانت هي غارقة في فوضاها الخاصة وهي

تقاوم شعورها الجارف به ..

تعرف أي جرح مراوغ يختفي خلف ابتسامته

وتلميحاته الوقحة ..

تعرف أي قلق يخفيه .. أي صراع يندلع بين

ضلوعه ..

تعرفه وتود لو تطمئنه أنها معه ولن تتركه ..

لكن منذ متى تمنح وعداها في كلمات !؟

والأهم ..منذ متى تنسى ثأر قلبها!؟

_ناولني هذه المثلجات قبل أن تنصهر تماماً .

تهتف بها بخشونة مشيرة لما كان يحمله فيبتسم

وعيناه تعودان للمعة قديمة ..

تدوران فوق ملامحها بتمهل شغوف ..ليهمس أخيراً:

_ "تدلي!"!

تغمض عينيها بقوة و"الكلمة السحرية" لا تزال

تضيء داخلها ذات القنديل القديم ..

لقد ظنت أنها شفيت من لعنتها لكن هاهي ذي تفجر

داخلها كل ألغام احتياجها ..

وعبر عينيها المغمضتين تراه كما سمعتها منه أول

مرة ..

و-للمفارقة- في "شرفة" تشبه هذه ..

في "ظلمة" تشبه هذه ..
إنما ..كم بينهما!!
هل يمكن ل"الفلامنجو" أن يريح ساقه المرفوعة
هذه المرة فيخفها ..
ولو لثوان ..لثوان فقط؟!
تشعر بذراعيه القويتين يطوقان خصرها فجأة
ليجلسها فوق ساقيه لكنها لا تقاوم ..
الشعور ببرودة الثلجات فوق شفيتها يجبرها أن
تفتح فمها فلا تقاوم ..
والشعور بدفء أنفاسه هو يغلفها فلا تقاوم ..
فقط تبقي عينيها مغمضتين لتظل اللحظة في ذهنها
محاطة بغلاف الحلم ..
هكذا -بالضبط- رأت هذا المشهد في خيالها لمرات ..

والآن يتحقق !

أما هو فكان غارقاً في الشعور بكل تناقضاتها
المذهلة..

كان يدرك بحدسه تأثير كلمته على امرأة
بتاريخها .. لكنه وهو يراها هكذا شبه ذائبة بين
ذراعيه بهذا الاستسلام المناقض لجبروتها المعهود
فلا يكاد يملك إلا أن يغرق فيها أكثر وأكثر ..
_ افتحي عينيكِ .

همسه الحار يأتيها من بعيد ..

من بعيد ..

فتكاد ترجوه صمتاً !

هدنة !

فقط هدنة لثوانٍ .. تبقى فيها مغمضة العينين .. وحده
القلب يفتح عيونه كلها .. يحلق بين ضلوعها نحو
أعالي سموات النور ..

تغمض عينيها أكثر بما يبدو كعناد ..

لكن كليهما كان يشعر أنه مزيد من الاستسلام ..

المزيد من مذاق الثلجات في فمها ..

ثم المزيد من مذاق شفثيه ..

ثلج .. ونار !!

تأوهات الخافطة تمنحها أعذب لحن يمكن أن تسمعه

امرأة في هذه اللحظة فتصير المقاومة صعبة .. بل

مستحيلة ..!

لكن لو تكن هي لها .. فمن ؟!

أناملها المرتجفة تدفعه عنها أخيراً لتنهض واقفة
على ساقين مرتعشتين ..

تبتعد وهي تعطيه ظهرها لكنه يلحق بها ليواجهها
رافعاً ذقنها نحوه فيلمح هذه الدموع المتجمدة في
عينها ..

طيف!

يهمس بها بعذاب وهو يحتضن وجنتيها براحتيه
ليستعيد صوتها بعض قوته رغم خفوته :
تعرف بماذا شعرت تلك الليلة عندما قرأت رسالتك
اللعينة التي تركتها لي؟! لن تعرف حتى
أخبرك .. ولن أخبرك حتى أقرر أن أعاتبك .. ولن
أعاتبك حتى أعزم على الصفح .. ولن أصفح حتى
تعود لي يحيى .. يحيى الذي .. الذي ..

"أحببته"!

لم تنطقها بشفتيها إنما دوت كالرعد بين جدران
قلبه ..

تتلقفها شفتاه من بين شفتيها بشوق هائم للحظات
قبل أن يرفع إليها عينيه من جديد ليمسح دمعة
حبيسة تراقصت بين جفنيها ..

وبرغم كل البراكين التي يشعلها قربها داخله لكنه
أجبر نفسه أن يخمدها وهو يداعب ذقتها بإبهامه
ببعض القوة التي ناسبت همسه :

_ اعلمي فقط أن ما شعرتِ به ليلتها كنت أكابد مثله
وأقسى .. أنتِ كنتِ تواجهين ذكرى حبيب غادر - كما
ظننتِ - لكنني كنت أواجهكِ وأواجه نفسي قبلكِ .. كنتِ
تحملين هم قلبكِ وكنت أحمل هم قلبينا معاً .. كنتِ

تخططين للانتقام مني وكنت -دون إرادة- أنتقم لكِ

مني ..

تسبل جفنيها دون رد ليردف بحرارة أكبر :

_أنا أكثر شوقاً منك لأن يعود يحيى ..يحيى الذي

ضاع وسط موج البحر منذ سنوات فلم يجد له شاطئاً

إلا أمام عينيك ..لو عاد يحيى فسيعود بكِ ..ولكِ.

_أمك !

تقولها فجأة فيجفل مبتعداً برأسه وقد وصلتته كلمتها

ك"سبة" لكنها تهتف متداركة بغلظة :

_والدتك! استبرق هانم ! هل تحدثت إليها!؟!

يزفر بقوة وهو يراها تغير مجرى الحديث -عامدة-

بما لم يتوقعه ..

هذه المرأة تستحق بجدارة "جائزة الفصلان الكبرى"

لو كان هناك جائزة بهذا الاسم ..

معضلة من التناقضات التي لا يدري كيف تجتمع هكذا

في امرأة !!

لهذا يشيح بوجهه قائلاً بضيق:

_ لا .. ليس بعد ..

_ لن أقلق عليك بهذا الشأن فأنت أدري بها مني .. لكن

من واقع ما رأيته .. هي ليست ساذجة أو حتى

نادمة .. ومادام الأمر خرج عن النطاقين فهي لن

تجروء علي المخاطرة بالقدوم إلى هنا وفضح الأمر إلا

لو كانت تجهز خط دفاع خفي .

كان يوافقها فيما تقول لكنه أمال رأسه ليسألها :

_ مثل ماذا!؟!



_ سأكون حسنة النية وأزعم أن الأمر قد يقتصر على
التشكيك فيما سمعته أنت منذ سنوات ..خاصة مع
يقينها أنك لن تفضح العائلة كلها بإجراء اختبار يثبت
صحة كلامك ..قد تزعم أنك كنت مخموراً أو ما
شابه ..وقد تبتزك عاطفياً بشوقك الفطري لها ..لكن
ظني أن امرأة بذكائها لن تترك الأمر لهذا فحسب!
_ حسناً ..امرأة بذكائها ماذا تظنيتها تعد كذلك؟!
يسألها بمراوغة لتتأفف هاتفة بضجر:
_ وهل أخبروك أنني أقرأ الغيب؟! ..أحاول فقط التفكير
معك بصوت عالٍ .

يبتسم وهو يدرك هروبها من الطريق الذي كان قد
اتخذه حديثهما الأخير ليربت على رأسها قائلاً
بشروء :

_ أخوك قال لي شيئاً ما في مضمار الرماية قبل
قدومها .. (إذا أجدت تحديد الهدف دون أن تشوشك
الألوان حوله فقد قطعت نصف الطريق) .. هدفي
الحقيقي ليس فضح الحقيقة .. هدفي الحقيقي هو
يحيى .. يحيى الأمين رجل العائلة .. الابن الضال الذي
لا بد أن يعود كي يعيد الأمور لنصابها .



كل شرفات الحب كانت تطل عليك ..

كل شرفات الحلم كانت تطل عليك ..
وكل شرفات اليأس كانت -كذلك- تطل عليك ..
فلا تعجبي من سجين أغلق على نفسه الشرفات !..
يهمس بها حسام لنفسه وهو يقف في شرفة منزله
المطلّة على حديقة بيته في العاصمة ..
يأخذ نفساً عميقاً من سيجارته ليزفره ببطء ..
الدخان المتصاعد هذه المرة يرسم له صورتها هي ..
بين ذراعيه ..تهمس "أحبك" ..له هو ..
لكن .."فردة قرط" تقف بينهما !
نفس آخر ..يزفره ببطء أكثر هذه المرة ..
والدخان المتصاعد يرسم له ملامح سند ..
يفتح فمه يحاول الكلام فلا يستطيع ..
المزيد من الحطب ..فوق الحطب!

لقد قرأ يوماً مقولة عن أفضل ما قيل في "الود المتأخر" : (مات جاري جوعاً فذبحت في عزائه كل خرافي)

فماذا يحكي إذن عن الندم المتأخر ؟!
عن الذنب الذي ينخر عظام عصا الروح فلا يعود
الجسد بقادر أن يتكى عليها ..
تسقط العصا ويسقط معها !
يكز على أسنانه بقوة وهو يطفئ السيجارة في
معصمه بهذه الحركة التي أدمن الشعور
بألمها .. وراحتها !
لقد أخبره فهد أنها صارت أفضل .. جروح وجهها
وجسدها ليست بالخطيرة .. لكنه يوقن أن جرح روحها
هو الأخطر !

يا الله .. كم تشبهه!

كم من القوة امتلك لينتزع نفسه عنها بكل حاجته

إليها وبكل حاجتها إليه؟!!

قوة؟!!

هل هي حقاً قوة؟! أم استسلام؟!!

يزفر بقوة وهو يرفع عينيه للسماء التي بدت له

مظلمة ساخطة ..

فيعود لبصره نحو بيت سلطنة البعيد .. الذي خلا منها

لأول مرة منذ عهد بعيد .. عساها تكون بخير!

صوت رنين هاتفه يقاطع أفكاره فينعدد حاجباه وهو

يميز هوية المتصل ..

يفتح الاتصال ليستمع قليلاً ثم يقول بصرامته

القاسية :

_ أربعة أيام حبس إضافية ..يراعى فيها التجديد يا
"باشا" ..وبعدها تخبرهم بالرسالة المطلوبة ..ديمة
ضرغام -موكلتي- خط أحمر !
يقولها لصديقه الذي ألقى القبض على زوجة غازي
الأولى وشقيقها في إحدى التهم "المعلّبة" الجاهزة
دوماً للتأديب .

يضغط حروف "موكلتي" بنبرة ذات مغزى كأنه يمنح
صديقه مبرراً لما يفعله فيرد الرجل بتفهم :
_ لا تقلق ..المدينة كلها تتكلم عن هذه المرأة
المستضعفة التي آذاها غازي في حياته ويبدو أن
زوجته تصر أن تستكمل طريقه ..لكن ليس
بعد ..اطمنن ..ستصل الرسالة كما ينبغي .

يشكر صديقه بكلمات مقتضبة ثم يغلق الاتصال وهو

عاجز عن الشعور بالارتياح ..

كيف وهي بكل هذا البعد!؟

كيف وهي بكل هذا القرب!؟

يمسد صدره بقوة كأنه يحاول طمس أثرها بين

ضلوعه ليهتف بصوت مسموع :

_أفق يا حسام من هذا الوهم ..هي أبداً لن تكون

لك ..تجاوزها كما تعودت أن تتجاوز كل ما لن تطاله

يدك .

ولم يكد ينتهي منها حتى تناول هاتفه ليبحث عن رقم

إحداهن ممن اعتاد قضاء لياليه "العابرة" معها ..

صوتها العايب يمنحه بعض النشوة المؤقتة فيعد
نفسه بسلوان سريع وهو يحدد لها موعد لقاء في
شقة أخرى يملكها ..

يبدل ملابسه على عجل وهو يتحاشى حديث قلبه
وعقله معاً ..

فليتجاوز .. فليتجاوز فحسب ولا ينظر خلفه أبداً !
يصل لشقته قبلها فيجهز المكان كعادته مستعداً لتلقي
متعته كما تعود ..

لكنه دون سبب يتذكر دينا ولقاءه بها هنا ذات مرة
فتغيم عيناه بنظرة كسيرة ..
طيف .. يسرا .. دعاء .. دينا ..

الدائرة لا تتوقف .. المزيد من الحطب فوق الحطب !

رنين الجرس يبدو له كرحمة مؤقتة من جحيم أفكاره
فيتحرك ليفتح الباب للمرأة التي بدت له أكثر من
مرضية ليغيب معها في عالم آخر ..

لكنها ما كادت تمارس عليه طقوس دلالها لتسقيه
أعذب كئوس أنوثتها حتى وجد صورتها في عينيه
تتبدل ..

شفتان مضمومتان كبر عم خجول ينتظر أن يفتح
تحت شمس هو ..

أنف صغير منمنم وسط وجنتين مرتفعتين تحتلها
نجوم متناثرة من نمش وردي ..

عينان زرقاوان تتألق داخلهما حلقة زعفران ذهبية
تتوهج لتجذبه كمأسور بلا حول ولا قوة ..

وشعر أحمر يشعل الدنيا أمام عينيه ويعدده أن يطفئها

فقط.. لو صار على كتفه هو !

_ ديمة ..

لم يدرك مرة نطقها بعاطفة محمومة وهو يشعر

لأول مرة بفقدانه السيطرة على حرائق روحه ..

لكن الصوت المغناج يخرج من فورة عاطفته :

_ هل نسيت اسمي !؟

يبتعد عنها مجفلاً وهو يشعر برهبة حقيقية أسرت

القشعريرة بين جنباته لتحيل نيران جسده لصقيع

ثلجي وهو يميز ملامح المرأة الحقيقية التي لم تكذب

تشعر بابتعاده حتى عاودت جذبه نحوها هامسة

بدلال :

حسناً .. مادمت ستكون بهذا الشغف .. فاعتبر اسمي
الحقيقي "ديمة".

تغمزه بها بحركة لعوب وأناملها الخبيرة تعاود قصف
حصونه لكنه يبتعد عنها ليعطيها ظهره قبل أن يتحرك
نحو النافذة القريبة فيفتحها سامحاً لنفسه أن ينهل
من الهواء البارد ما عساه يطفى حرائق روحه ..
ماذا يحدث له !؟

إنها المرة الأولى التي تبسط فيها روحه سلطانه على
جسده ..

أو لعله قلبه .. بسط سلطانه على كليهما !!

الويل لك يا قذاف الحطب .. الويل لك !

ماذا حدث؟! ضايقتك؟!

صوت المرأة يثير المزيد من غضبه فيلتفت نحوها
بحدة ليخرج من جيبه حفنة من النقود لم يتكلف حتى
مشقة عدها ،يلقيها في وجهها ثم يأمرها بالمغادرة
دون أن ينتظر منها رداً ..

ولم يكد يسمع صوت الباب يغلق خلفها حتى تنهد بما
لم يعلم هو ارتياح .. أم ..استسلام لكل هذا الوهن الذي
لم يعتده ..

يشعر بالبرد كما لم يفعل من قبل فيغلق أزرار قميصه
وهو ينظر للسماء ..

كعدها مظلمة في وجهه كأنما تفر نجومها هاربة من
أمام عينيه !

لماذا جاء إلى هنا مادام سيرحل بنفس القلب ؟!
القلب الذي فاض حباً ..ويأساً!!

صوت رنين هاتفه يقاطع أفكاره فيفتح الاتصال بلهفة
هذه المرة وصوت الطبيب البيطري الذي ترك لديه
سلطانة يحمل له البشرى :

_سلطانة تلد ..أخبرتني أن أعلمك كي تحضر بنفسك .



_هل يمكنني الاقتراب أكثر!؟

يسأل حسام بصوت مرتجف وهو يراقب سلطانة من
بعيد وقد أعد البيطري لها مكاناً مخصصاً كي تلد فيه
ليرد الرجل بتفهم :

_يفضل للكلاب أن تترك لهم مساحة من الخصوصية
هاهنا كي يتم الأمر بسلام ..

فيهز رأسه بانفعال وهو يرفع هاتفه في وضع مناسب
كي يصورها من بعيد قائلاً بصوت متهدج:

_ قلت إنهم خمس جراء .. هي وضعت واحداً ولا يزال
أربعة ..

_ نعم .. لا تقلق .. الأمور تسير بصورة طبيعية .. هل
اخترت أسماءهم !؟

يسأله الرجل بود شاعراً ببعض الغرابة من عاطفته
المغالية وقد دمعت عيناه ليرد بتحسرج :

_ نعم !؟ سأمنح كل واحد اسمه عندما أضمه بين
ذراعي .

يهز الرجل رأسه شاعراً بالمزيد من الاستغراب وهو
يتذكر مهنة حسام القديمة التي تناقض انفعاله غير

الطبيعي هنا .. ثم يهز كتفيه وهو يبتعد قليلاً ليقول

بنبرة عملية :

_ سأعود بعد دقائق .

لكن حسام لا يسمعه وهو غارق بكليته في شعوره
الذي لم يمكنه وصفه ..

الهاتف يرتجف في يده فيسنده بكفه الآخر وهو يرى
الجرى الصغير الذي ولد لتوه يلتصق بأمه التي بدت
وكأنها تكابد المزيد من الانقباضات كي تضع المزيد
من صغارها ..

يمنع نفسه بالكاد من أن يهرع إليها ليمسد عنقها
كعهده ويخبرها أنه يشاظرها فرحتها ..

_تماسكي يا سلطنة .. تماسكي .. استعيدي عافيتك
بسرعة كي تخبريني عن فرحة هذا الشعور .. لو كان
بوسعك أن تنطقي لقلت أنك الآن تشعرين

بالكمال .. صحيح ؟؟

(نصف رجل .. نصف رجل)

بصوت يسرا يسمعها تلهب بسوطها ظهر كبريائه

فيغمض عينيه بقوة على دمة غادرة ..

لكنه وسط الظلما يرى!

يرى كف سند الصغير يمك كفه ليمسد به عنق

سلطانة !

ترتجف شفتاه بشبه ابتسامة والظلما في عينيه

تستحيل نوراً .. وناراً ..!

قلبه يكاد يتمزق وهو يشعر برجفة جسده تتحول

لرعدة أقوى ..

يقاوم انفعالاً أكبر بكثير من أن يحتمله ..

كيف يمكن أن تجتمع كل هذه الفرحة وكل هذا اليأس

إلا في قلب كقلبه؟!

ورغماً عنه تناديه حلقة الزعفران وقد استعمرت

خياله من جديد ..

قريبة قرب أنفاسه .. وبعيدة .. ببعيدة حد السماء!

لم يدركم ظل على حاله لكنه عندما فتح عينيه لم

يملك هذا الخيط الرفيع من الدموع الذي سال على

وجنته وهو يرى الخمس جراء وقد تراصت ملتصقة

بسلطانة ..

خطواته تقترب منها حتى يصل جوارها فتستقبله

بنباحها الخافت ..

أنامله المرتجفة تمسد عنقها قبل أن تعرف طريقها

للصغار ..

يضحك ضحكة منفعلة امتزجت بخيط الدموع قبل أن

يطرق برأسه أخيراً ليهمس بحروف متقطعة:

_ فرحة كهذه يا سلطنة؟!.. فرحة كهذه!.. لن
أعيشها.. لن أعرفها.. لا أستحقها.

=====

بنفسجي

=====

_ تعالي يا ديمة.. لماذا تقفين هكذا!؟
تقولها ماسة بود وهي تلمح ديمة واقفة بتردد أمام
باب غرفتها لتتقدم الأخيرة نحوها قائلة بارتباك:
_ علمت أن السيد عاصي سافر للعاصمة لأجل شأن
ما.

تومئ لها ماسة برأسها بحذر تنتظر المزيد لتزدرد
ديمة ريقها بالمزيد من الارتباك ثم تطرق برأسها
قائلة :

_ كنت أريد .. أريد ..

حروفها تزداد ارتباكاً لترفع رأسها فجأة قائلة :

_ لا شيء .. لم أكن أريد شيئاً ..

تقولها لتركض خارج الغرفة فتلحق بها ماسة

بخطواتها المتثاقلة هاتفة :

_ ديمة .. انتظري ..

تتوقف مكانها بخوف وهي تلعن نفسها على ما جاءت

لأجلها لكن ماسة تتقدم منها لتربت على كتفها قائلة :

_ تكلمي ولا تخافي ..

ترمقها ديمة بنظرة مترددة لكن ماسة تهز رأسها

لتهمس لها بخفوت:

_ مادمت بهذا الارتباك وتسألين عن عاصي فظني أن

الأمر يتعلق بحسام .

_ لا .. لا .. ليس هو .. بل .. أمه .

تقولها ديمة مدافعة بعينين زائغتين وهي لا تدري أي
جنون يدفعها لما تريد أن تفعله ..

بل تعرف !

هذا الحلم الغريب الذي رآته الليلة لتلك المرأة ..

أم حسام !

كان وجهها يتشكل في صورة أمها تتاديهما فاتحة لها
ذراعيها !!

تباً لها من حمقاء!

لماذا تصر على الدخول وسط حلقة النار كلما خرجت

منها ؟!

لماذا ؟!

لهذا يأتي جوابها مهزوزاً مثلها :

_أردت فقط أن أشكرها ..هي أجادت الاعتناء بي

بعدما حدث .

_عين العقل!

تهتف بها طيف التي ظهرت فجأة لتلتفت نحوها ماسة

هاتفة ببعض الضيق:

_عين العقل؟! تتحدثان هكذا ببساطة وأنا الواقفة في

وجه المدفع لو عرف عاصي بما يحدث!

_لا ..لا ..معك حق ..كانت فكرة حمقاء ..لن

أذهب ..لن أذهب .

تهتف بها ديمة مخاطبة ماسة بنبرة مذعورة عاد

يحتلها طيفها الأزرق لترمقها ماسة بنظرة مشفقة

فيما تهتف بها طيف بغلظتها المعهودة :

_ ها قد عاد "الكتكوت المبتل" ! تماسكي يا بنت!

عاصي هذا اشتراكٍ مثلاً؟!

_ طيف!

تهتف بها ماسة باستنكار لكن طيف تتجاهلها مستمرة

في مخاطبة ديمة بقولها :

_ هو الذي يحتاجك أكثر مما تحتاجينه .. عقدة ذنبه

نحو سند ستجبره دوماً أن يميل عنقه المتعجرف

أمامك .

_ طيف!

تهتف بها ماسة من جديد لكن طيف تتجاهلها أيضاً

مخاطبة ديمة:

_ هل خرجت من سجن غازي لتدخلي سجن عاصي

الرفاعي؟! افعلي ما ترينه صواباً .. تريدن رؤية أم

حسام؟! افعلني.. تريدن رؤية حسام نفسه؟! لا

بأس.. أنتِ حرة.. حرة..

طيف!

تهتف بها ماسة بنبرة أكثر استنكاراً لتلتفت نحوها

طيف هاتفة بغلظة:

طيف! طيف! طيف! هل أنساك الحمل الكلام فلم

تعودي تذكيرن سوى اسمي؟! اتقي الله في البنت

وكفاها تعسف زوجك .

هو أخوكِ كذلك لو كنتِ تذكيرن .

تجفل ماسة للحظات قبل أن تقولها بعتاب فتلتوي

شفتا طيف بابتسامة غير محسوسة وهي تشعر بوخز

الكلمة اللذيذ يداعب روحها ..



رغم ما تبدو عليه المحادثة من حرارة مشاجرة لكنها
تشعر بهذا الدفاء المحبب لعائلة افتقدت الشعور
بوجودها ..

لهذا تخلصت في وقفها لتهتف بعنفوانها المعهود :
_أخي على عيني ورأسي لكن الحق حق ..دعوا البنت
لحالتها ..هل سيسركم سجنها وسط أربعة حيطان حتى
تجن !؟

_ لا أريد مشاكل ..لا أريد مشاكل ..أنا سأعود
لغرفتي .

تهتف بها ديمة باضطراب وهي تعود بظهرها للخلف
فتتبادل ماسة مع طيف نظرات نارية قبل أن تلحق
الأولى بديمة لتزفر بقوة وهي تبسط راحتها على
كتفها قائلة بضيق لم يخلُ من إشفاق:

_ لا يحق لي ولا لأي أحد منعك مما تريد
فعله .. لكنك أنت التي منحتِ عاصي وعدك .
_ وعدته أن تقطع علاقتها بحسام لا بأمه !
تهتف بها طيف مدافعة لتلتفت نحوها ماسة بسخط
فترفع طيف حاجبها بتحدٍ وهي تكف ساعديها ..
تنقل ماسة بصرها بينهما للحظات ثم تطرق ببصرها
وهي تتذكر وصية فهد ..

يا الله!

ما هذه الحيرة !؟

_ اذهبي يا بنت ! لكن لا تتأخري .
تهتف بها طيف وكأنها اتخذت القرار عنها فترفع
ماسة عينيها نحو ديمة التي وقفت دامعة العينين

ليزداد شعورها بالشفقة نحوها فتتهد لتقول

باستسلام :

حسناً ..يمكنك الذهاب .

تقف ديمة بتردد لكن طيف تدفعها لتتحرك هاتفة :

هيا بسرعة كي لا تتأخري ..لا تخافي.

تتحرك ديمة لتغادر فيما تجذب ماسة طيف من كفيها

نحو غرفتها لتغلق بابها خلفها ثم تهتف بها بانفعال:

ما الذي يحدث بالضبط؟! لماذا أنتِ بالذات تصرين

أن تدفعيها نحو حسام القاضي؟! تظنين نفسك بهذا

تكفرين عن ذنبك معه ؟!

ترمقها طيف بنظرة طويلة صامتة ثم تطرق برأسها

لترد بخفوت :

_ ليس هو فحسب .. بل سند كذلك .. وعاصي
نفسه .. صدقيني لن يهنأ أحدنا مادامت دفاتر الماضي
لا تزال مفتوحة .

_ وديمة من ستغلقها!؟!

تهتف بها ماسة باستتكار لتهز طيف كتفيها بقولها:
_ يضع سره في أضعف خلقه كما يقولون .
تتأفف ماسة بضجر وهي تمسد بطنها شاعرة بالم
حقيقي يجعلها تهتف بعصبية:

_ هي نفسها لا تعلم ماذا تريد .. لا يعجبني هذا كله .
_ وهذا دورنا لنقف جوارها .. ديمة ليست
متزنة .. وظني أنها تعاني خلاً نفسياً بعد موت
زوجها .. لهذا استشرت دكتور كنان بشأنها وقد أكد
لي صدق ظني .

دكتور كنان؟!

تهتف بها ماسة بدهشة وقد تقلص وجهها بالمزيد

من الألم لكن طيف لم تنتبه وهي تستطرد :

_ليبقَ هذا بيننا ..دعي عاصي خارج الموضوع ولا

تتصرفي كزوجة أصيلة ثرثارة فمها في أذن زوجها .

تتأوه ماسة فجأة فترمقها طيف بنظرة شك قائلة :

ماذا؟! هل جرحت كلماتي شعورك إلى هذا الحد؟!

تطلق ماسة صرخة أخرى أقوى فترفع طيف راحتها

هاتفة بتحفز :

_هل ستفترين عليّ؟! أنا لم ألمسك !

لكن صرخات ماسة تتوالى وهي تمسك بطنها لتنتبه

طيف أخيراً فتشهق هاتفة بجزع:

_إياك أن يكون ما في بالي صحيحاً !

تعصر ماسة كفها بقوة وهي تشعر بتقلصات بطنها
تزداد ضراوة لتهتف بألم أنبت العرق الغزير على
جبينها :

_ هاتفي أمي بسرعة وعاصي كذلك .. ليت فهد بقي
قليلاً .. أنا .. أنا .. ألد !

=====

_ ديمة !

تهتف بها أم حسام بدهشة وهي تفتح لها الباب
لترمقها ديمة بنظرة مترددة وهي تتلفت حولها ..
لم تكن المرة الأولى التي تأتي فيها إلى هنا .. لكنه كان
معها في السابقتين ..

لماذا تصر أن تذكر نفسها أنها ليست هنا لأجله ؟!
هي هنا لأجل والدته فحسب ؟!

_تفضلي يا ابنتي .. أهلاً وسهلاً ..

ترمقها المرأة بنظرة عطفوف وهي تفسح لها الطريق

فتتردد ديمة للحظات ثم تلج للداخل ..

_جروحك صارت أفضل!؟!

تسألها المرأة بود مشفق وهي تميز الأثر الباقي

لجروحها على وجهها بينما تجلسها برفق على أحد

كراسي الصالون القريب لتهز ديمة رأسها لتجد أخيراً

كلماتها فتغمغم بصوت متحشرج :

_جئت لأشكرك على ما فعلته لأجلي .

_حسام من يستحق الشكر وليس أنا .

تقولها المرأة بحنان شابه بعض المكر وهي تميز

حمرة وجنتيها عندما ذكرت اسمه لتغمغم ديمة

مطرقة الرأس وهي تتذكر وداعه إياها في آخر لقاء

بينهما هنا :

_صحيح.. لكنه قطع علاقته بي تماماً.. يمكنك أن

تبلغيه شكري .

_ولماذا فعل؟!!

تهتف بها المرأة بدهشة وقد تبينت بوضوح مشاعر

ابنها نحو ديمة بالذات لترد الأخيرة ولا تزال مطرقة

الرأس:

_كانت بيننا القضية وهو كسبها ..حقي عاد لي

وانتهى الأمر .. هذا أفضل .. أهل المدينة يتحدثون أنني

نذير شؤم على من يقترب مني .. عائلتي في سوريا ثم

صديقتي هالة وبعدها زوجي ..كنت أتضايق يوماً من

هذا الكلام لكنني صرت أصدقه .. لا مكان لي سوى
وسط أشبahi .

ترمقها المرأة بنظرة مشفقة لتحوقل بصوت مسموع
ثم تربت على ركبتيها لتقول بحنان :

_ استغفري الله يا ابنتي .. وهل لنا في قدرنا يد !?
تقولها ثم تتناول ألبوم صور فخم بإطارات مذهبة
تعزز به كثيراً وتضعه دوماً على مائدة الصالون ..
فتحته لتريها إحدى الصور :

_ هذا والد حسام رحمه الله .. توفي ولا يزال حسام
طفلاً صغيراً لم يشبع كلانا من حنانه فكانت أول
فاجعة عشتها ..

ثم تقلب الصور ..

_ وهذا عمه .. اعتنى بنا بعد وفاة شقيقه وأحب حسام كابنه .. ترين كيف يحتضنه وهو يجلسه فوق الحصان؟! فرحت باهتمامه ومعاملته لي كأخته .. أو هكذا كنت أظن حتى صرح لي برغبته في الزواج مني .. لكنني لم أشأ أن أخرب بيتاً .. أنا امرأة وما لا أرضاه لنفسي لم أرتضه لغيري .. رفضت الزواج منه ثم انقطعت علاقته بنا رويداً رويداً حتى فوجئنا بوفاته في حادث غامض غريب .. وقتها سمعت كلاماً كثيراً كالذي تقولينه عن "وجه الشؤم" التي حلت لعنتها على رجال العائلة .. لهذا أفهم كثيراً ما تتحدثين عنه .. ترمقها ديمة بعينين متسعيتين وهي تشعر بمزيج من تعاطف معها وارتياح لمن وجدته يشاركها ألمها .. لكن المرأة تتخذها فرصة لتقلب في صور الألبوم ..

_ وهذا أخي .. ترين كم يشبه حسام؟! هو الذي بقي لي وشاركني في تربيته .. لكنه كذلك رحل سريعاً مع من رحلوا .. بعده وسوس لي الشيطان بما تقولين .. ظننت أن الله ساخط عليّ لأنه يحرمني من كل من يساندني .. لكن الرسالة وصلتني بعدها .. أحياناً يقطع الله سبحانه وتعالى علينا كل السبل فلا يتبقى لنا سوى طريقه هو وحده .. كأنه يمنع عن قلوبنا أن تتعلق بالأسباب فلا يعود لنا غيره ..
تزدرد ديمة ريقها بتوتر وهي تتحسس شعرها وثوبها ببعض الخزي ..
حديث المرأة يطرق باباً بداخلها قد صدأت أقفاله من فرط إغلاقها!
منذ متى لم تلجأ لله في دعائها!؟

ياالله!

إنها حتى لا تذكر!

تدمع عيناها ولا تزال المرأة تستطرد:

_ عشت حياتي لابني.. وعوضني الله فيه

خيراً.. أعرف أنني دللته كثيراً بحكم ظروف

نشأته.. وأعرف أن ابتلاءه في زيجته الأولى أفسدت

عليه حياته كلها.. لكنني لازلت أطمع أن أراه يعيش

حياته سعيداً وراضياً.

ترمقها ديمة بنظرة متسائلة لتتردد قليلاً وهي تتذكر

دعاء -زوجة حسام الثانية- وقد أخفت هي عليها

حقيقة كونه غير قادر على الإنجاب وما ترتب على

ذلك من جراح للجميع.. فلم ترد تكرار الخطأ نفسه

خاصة وهي ترى بقلبها ميل ابنها لديمة..

لهذا حسمت أمرها لتقول بخفوت :

_ حسام لديه مشكلة صحية .. عاجز عن الإنجاب .

تكنم ديمة شهقة أطلقتها روحها قبل شفيتها !

تغمض عينيها بقوة وهي تتذكر يوم اصطحبت سند

معها إلى مكتبه ..

_ لا أحب الأطفال! وجودهم في أي مكان يربكني ..

تسمعها بصوته الحاد وقتها تناقض نظرتة فائضة

الحنان نحو سند ..

الآن تفهم !

تفهم سر هذا الشعور الغامض بالغرابة الذي ملأها

وقتها نحوه !!

_ هذا الأمر جعله يشعر بالنقص .. زوجته الأولى -

سامحها الله- عمقت هذا الشعور فيه .. لهذا عندما قرر

اختيار الثانية تعدد أن تكون مثله من أصحاب
الابتلاءات كي لا تعيره .. هكذا كان يفكر .. لكنه لم
يحسب حساب أن يؤذيها هو .. تشاجر معها ذات مرة
عندما صارحته بمعرفتها لهذا الأمر .. وللأسف عيرته
كالأولى .. تبادلا الإهانات ثم تركها وخرج .. كانت
مريضة بالصرع والانفعال الزائد جعلها تسقط على
عينها ففقدتها .. طلبت الطلاق وانفصلا .. ورغم أنها
تزوجت بعده وعاشت سعيدة لكنه لا يزال يحمل نفسه
ذنبها ..

تتسع عينا ديمة بصدمة وهي تقبض كفيها أمام
صدرها ..

وكأنها تتحدث عن واحد آخر !!

هي التي ظنت أنها عرفت حكاية "الذئب" كلها من

مراقبته طوال هذه الأيام ..

الآن تسمع الحكاية في عرين الذئب ذاته فيروعها

اختلاف النظرة رغم اتفاق التفاصيل !!

_ خذي يا ابنتي .. يمكنك مشاهدة بقية الصور حتى

أعد لك ما تشربينه ..

تقولها المرأة وهي تناولها الألبوم لتغادر نحو المطبخ

القريب فترتجف أنامل ديمة وهي تقلب الصور ..

صور كثيرة له في مراحل عمرية مختلفة ..

قبل دخوله كلية الشرطة وبعدها ..

تتلكاً أناملها قليلاً أمام صور زفافه مع يسرا والتي

احتلت وحدها نصف الألبوم تقريباً ..

يبدو أنها كانت مولعة بالصور !

تشعر ببعض الغيرة وهي تميز فتنتها الواضحة لكنها
لم تشأ الاعتراف بهذا وهي تقلب المزيد من الصور
لتلمح صور زفافه مع دعاء ..

كيف تغيرت نظرتة لهذه القسوة الحارقة في عينيه
الصقريتين !؟

صورهما قليلة معدودة تبدو فيها عروسه واجمة بما
يناسب فكرتها !!

تتنهد بحرارة وهي تغلق الألبوم لتضعه جانبا ..
تبتسم ساخرة بمرارة وهي تتذكر حديث هالة البريء
عنه ..

الغافلة ظنت وقتها أنه ترك فاتنة لأخرى لكن قلبها
العاشق كان يشعر أنه حقاً تغير بعد زيجته الأولى ..
هل يمنح الحب القلوب صفاء الرؤية إلى هذا الحد !؟

أم أنها كانت هبة خاصة لقلب نقي كقلب هالة؟!

_سلطانة ولدت !

تهتف بها أمه بفرحة وقد عادت حاملة العصير

لتضعه جانباً قبل أن تريها هاتفها قائلة بمرح :

_انظري ..حسام شارك هذا الفيديو على

حسابه ..ترين كم هو سعيد!؟

ترتجف شفاتها بابتسامة بائسة وهي تميز عبر غمام

دموعها فيديو ولادة سلطانة وصوره بعدها وهو

يحتضن الجراء الصغيرة ..

الآن تفهم ..تفهم معنى هذه الدمعة في عينيه !

دمعة لن تستر عريها ألف ضحكة كهذه !!

_سأنصرف !

تقولها وهي تشعر برجفة جسدها تفضحها ..

تريد الخروج ..تريد الخلوة لمكان يمكنها فيه البكاء

وحدها !!

تتشبت المرأة قليلاً ببقائها لكنها تتركها أخيراً

لتودعها عند الباب فتهمس لها ديمة برجاء :

_ لا تخبريه أنني جئت هنا اليوم .

فتتهد المرأة بتفهم وهي تمنحها وعدّها لتغلق الباب

خلفها برفق ..

هل أفسدت الأمر بينهما؟!!

تعاتب نفسها بشدة ..لكنها تعود لتهمس بصوت

مسموع :

_ هكذا أفضل ..كي تكون الأمور واضحة من البداية .

بينما تبقى ديمة أسيرة هذه الفوضى داخلها وهي لا

تدري كيف عادت لقصر عاصي الرفاعي ..

خطواتها الراكضة تنتهي بها داخل غرفتها التي
أغلقت بابها خلفها بسرعة لتستجيب أخيراً لدموعها
وهي تشعر بعجزها عن التفكير ..
تختلس نظرة خائفة نحو مرآتها كأنها تترقب عودة
أشباحها لكن عينيها تتسعان بصدمة وهي تميز
محتويات الغرفة التي انقلبت رأساً على عقب ..
الخزائن كلها مفتوحة !

عجباً!

كأن أحدهم كان يبحث عن شيء هنا !!
ينعقد حاجباها بشدة وحدث بداخلها يخبرها أن الأمر
يتعلق بحقيبة البروكار خاصتها وذاك المفتاح الغريب
الذي وجدته مدسوساً في بطانتها ..

تهرع نحو الخزانة الجانبية لتفتحها فيتأكد حدسها

وهي تراها فارغة ..

لقد اختفت الحقيبة !

لكن المفتاح !!

المفتاح لا يزال معها !!

=====

أزرق

=====

رأيتِ يا "لوكا"؟! هذه الجراء الصغيرة ! سأذهب

بك لزيارة "أنكل حسام" كي تلعبى معها هناك !

يهتف بها فهد بمرح وهو يشاهد الفيديو مع ملك

وجنة في رحلة عودتهما بالطائرة من الصعيد

للعاصمة ..



لتصفق ملك بكفيها وهي تأخذ منه الهاتف لتعيد

المشاهدة ..

فيما تميل عليه جنة قائلة باهتمام:

_ لا جديد بشأن الكوبرا!؟!

يتهد بضيق وهو يمسد شعره بأنامله قائلاً:

_ حسام أخبرني أنه استعان بأحد أصدقائه لفتح قضية

قديمة يظنها طرف خيط .. كان حماه السابق قد أمره

بإغلاقها في ظروف غامضة .

ينعقد حاجباها بشدة بهذه الطريقة التي تشعل وهج

البندق في عينيها فيبتسم وهو يبسط ذراعه فوق

كتفيها ليضمها نحوه هامساً بحب:

_ كم مرة سأقع في حب هاتين العينين!؟!

فتضحك وهي تدرك محاولته لتخفيف قلقها لتهمس

بدلال :

_ إلى كم تجيد العد ؟!

_ مممم .. يعجبني غرورك يا أستاذة .

يهمس بها رافعاً أحد حاجبيه بمشاكسة لتهمس

بدورها:

_ دلالك أفسدني يا قلب "الأستاذة"!

يضحك وهو يضمها إليه أكثر فتتحنح لترمقه بنظرة

مرتبكة تجعله يتحنح بدوره وهو يقول بترقب:

_ استر يا رب! أعرفها هذه النظرة! هاتي ما

عندك .. أبهريني !

لكنها تطرق برأسها قليلاً لترفعه نحوه قائلة :

_بمناسبة حديثك عن الزيارات بعد عودتنا ..هناك

زيارة ضرورية ..

يرمقها بنظرة متسائلة لترد باقتضاب:

_مستر ربيع!

_ هذه العائلة ثانية؟! ما الأمر يا جنة؟! أنتِ تتعمدين

استفزازي؟!!

يهتف بها بحدة حقيقية تجفل الصغيرة التي تلتفت

نحوهما بنظرة وجلة لتهدئها جنة وهي ترمقه بنظرة

عاتبة ..

لتقول أخيراً بخفوت :

_ اهدأ يا فهد ..لماذا تتصرف كالصبيان في هذه

المسألة بالذات؟! الرجل مريض ..أجرى جراحة

خطيرة ..زراعة كلى !



ينعقد حاجباه بشدة وهو يغمغم بتعاطف غزا نبرته

الضائقة:

شفاه الله!

تؤمن على دعائه فيسألها باستغراب:

لكن .. حالتهم المادية لا تبدو بهذا اليسر للعثور على

متبرع .. ابنه هو من تبرع له ؟!

تهز رأسها نفياً لترد :

بل زوجته !

تقولها لتستطرد بانفعال:

أحد معارفنا أخبرني بالأمر .. لن يمكنني تجاهل

زيارته .. والاطمئنان عليه وعلى زوجة ابنه

كذلك .. يكفي أننا لم نحضر العرس .

يشيح بوجهه في عدم ارتياح لتهمس له برجاء :

لن نعيد الكلام في نفس الأمر كل مرة .. أرجوك يا
فهد .. إنها مسألة انسانية .. لعله يحتاج شيئاً يمكننا أن
نساعد به .

يصمت قليلاً وهو يشعر بالمزيد من الضيق ..

هل هو المغالي في غيرته حقاً؟!

أم هي المفرطة في تعلقها بهذه العائلة؟!

لا بأس !

الأمر لا يحتاج الشجار هذه المرة فهو انساني حقاً كما
زعمت .

تعلمين شرطي من المرة السابقة ؟!

يقولها وهو يلتفت نحوها أخيراً لتبتسم بارتياح وهي

تحتضن كفه براحتها هامسة :

علم وينفذ يا "افندم" ! سنكون معاً خطوة بخطوة !

أَعْلِيكَ أَبْكَى أُمِّ عَلِيٍّ
فَلَسْتُ أَدْرِي يَا وَطَنُ
أَتْرَاكَ مِثْلِي حَائِرٌ
أَمْ أَنْتَ مِثْلِي مَفْتَنٌ
قَدْ جَارَتْ الدُّنْيَا عَلَيْكَ
وَأَبْنَاؤُكَ بِلَا كَفَنٍ
نَمْشِي بِرُكْبِ جَنَازَتَيْنِ
أَنَا وَإِيَّاكَ مَعاً

(كلمات الشاعر زياد علان العنبوسي)

يقرأها جهاد سراً وقد سجلها على هاتفه ليتههد
بحرارة وهو يتحسس موضع سلسلة "حنظلة" التي
صارت حبيسة جيبه كما هو حبيس يأسه !

يقلب في هاتفه يبحث عن أي معلومات على حساب
زهرة ليجد منشورات عادية تتحدث عن رغبتها في
بدايات جديدة تستحقها ..

فيغلق عينيه بألم وهو يزداد يقيناً في كل يوم أنه لم
يكن سوى مغفل كبير استباح الجميع حرمانه
كبريائه ..!

يفتح عينيه بما يبدو كمقاومة لكل هذا الوجد داخله
ليدور بهما في المكان حوله ..

مطعم أنيق تراحمت فيه الوجوه لكنه بدا وكأنه لا
يلمح وسطها إلا وجهي الخائنين .. ريان وزهرة !
يزدرد غصة حلقه مع خاطر الأخير وهو يلمحها
قادمة من بعيد ..

فدوى .. بل .. يولاند !

ينعقد حاجباه بضيق وهو يميز الثوب المكشوف الذي
ترتيبه كعدها مؤخراً ..

تتخذ مجلسها أمامه ليطلع عينيها " الزائغتين "
وتطالع هي عينيه " المهزومتين " وإن تشارك كلاهما
طيف " الخذلان " !

_ لن أسألك ماذا ستأكل .. أعرف ما تفضله .
تقولها بالفرنسية التي عادت إليها ليشرح بوجهه وهو
يسمعها تخبر النادل عن طلبهما قبل أن تصرفه لتعود
مخاطبة جهاد بنبرة عملية :

_ سأعود لباريس .
يلتفت نحوها بدهشة لتردف عبر ابتسامة باردة:
_ مجرد خطوة .. سأعود إلى هنا حتماً .. لكن لا بد أولاً
من الذهاب إلى هناك .

_ ماذا يدور برأسك !؟

يسألها بتوجس قلق لترد بنفس النبرة وهي تهز

كتفيها :

_ العودة .

_ أي عودة بالضبط !؟

يزداد انعقاد حاجبيه وهو يسمعها ترد بنفس البرود

القاسي :

_ لكل ما كنت عليه قبل صاحبك .. أو -الذي كان-

صاحبك .

يطلق زفرة قصيرة ثم ينحني بجذعه للأمام مقترباً

منها بقوله :

_ أنا أعرف ما تشعرين به .. لكن لا تدعي الأمور

تختلط .. لا تقلبي المائدة بكل ما عليها .. تشبثي

بالجذور على الأقل .

_ أي جذور تعني؟!!

_ الدين .. مثلاً .

_ أي دين؟!!

كان الحوار بينهما كأغرب ما يكون وهو يصر أن
يتحدث بالعربية فيما تصر هي على فرنسيتها .. ومع

هذا كان كليهما يفهم صاحبه بأقوى ما يكون ..

لهذا عاد يزأر بحمية انتمائيه:

_ الإسلام يا فدوى !

فتطلق ضحكة مريرة وهي تشبك كفيها لتسند ذقنها

فوقهما قائلة:

_ ألم تفهم بعد ؟! أنا لم أعتنق الإسلام .. أنا اعتنقت
"ريان" .. فلم يزدني إيماني به إلا ضلالاً ..
يستغفر الله بصوت مسموع وهو يرفع وجهه للسماء
لترد بنبرة أكثر تشتتاً :

_ أحياناً عندما أفكر .. أي دين كان عليّ التمسك
به .. أشعر أن الله يعاقبني على تركي لليهودية لهذا
خانني ريان و .. و .. مات أولادي .
تتسع عيناه بارتياح وهو يميز أكثر الهوة السحيقة
التي تجرفها إليها أفكارها بينما تستطرد هي بنفس
المرارة الضائعة :

_ أبي لم يخن أمي يوماً .. شقيقتي لارا فضلت الطرد
من عملها يوماً على أن تخون أسرار بعض
العملاء .. أنا عشت عمراً أهاجم الصهيونية لأنني

أراها احتلالاً دموياً .. هذا هو ما كان عليه ديني قبل
صاحبك الذي لم يكن أقل جرماً في عيني من
الصهاينة في عينك .. فعماداً تحكي أنت الآن ؟!
_ يا إلهي! ريان ! سامحك الله! ماذا فعلت ؟!
يتمتم بها بقتوط وهو يحاول البحث عن مدخل لها
ليهدف بانفعال:

_ لا تخلطي الأوراق .. الأديان كلها تدعو للأخلاق .. لا
تقنعيني أنك لم تلتقي بيهود سيئي الأخلاق!
_ وماذا رأيت في دينكم كي أتبعه ؟! ما رأيت إلا خائناً
كصاحبك أو مستضعفاً مثلك !
تقولها بحدة فجرها ألمها لتردف بصوت ارجفه
انفعاله :

_تدري ماذا قال صاحبك وهو يبزر لي خيانتة؟! قال
إن دينه يبيح التعدد!! هو الذي لم يكن يحافظ على
صلاته ولا صيامه لم يعرف من أمر دينه سوى هذا!
_ها أنتِ ذي قلتها!! العيب ليس في الدين بل في
التطبيق.. لا تتعجلي الحكم الآن فلستِ بمتزنة.. هل
تسمعييني؟! هل تسمعييني!؟

يكرر تساؤله الأخير بقلق وقد رأى شحوب وجهها
عقب سماعها إشعاراً من هاتفها الذي فتحته..
لكنها بدت كالموتى وهي متجمدة مكانها تناظر
الشاشة بصدمة.. لم تلبث أن تحولت لألم.. ثم
لغضب!!..

غضب احمر له وجهها بشدة وجعله ينتزع منها
الهاتف لتتسع عيناه بصدمة هو الآخر وهو يرى ما
رأته !!

الوغد ريان شارك منشوراً بصورة لاختبار حمل
بإشارة إيجابية وكتب فوقه ..(عوض الله ! أب من
جديد) !

_ لعنك الله يا ريان !!

يغمغم بها بانفعال دون وعي وهو يشعر بالدم يفور
في عروقه ..

إذا كان هذا شعوره هو ..فماذا عن شعورها هي ؟!
_ لا أعرف ماذا أقول لك ..فدوى ..هو لا يستحق أن ..
يغمغم بها بمزيج حارق من غضب وألم لكنها تقاطعه
وجسدها كله يرتجف برعدة ظاهرة :

_يولاند ..يولاند ..هو ما كان ليفعل هذا بيولاند
القوية ..لكنه استضعف فدوى ..فدوى التي ..
تنقطع كلماتها بفيض صامت من دموعها وهي تدفن
وجهها بين كفيها لتدمع عيناه بعجز وهو يطرق
بوجهه غير قادر على منحها أي مواساة ..
أي مواساة هاهنا؟!!!

الصمت الثقيل يظللها لدقيقة كاملة عجزت هي فيها
عن التحكم في انهيارها وهي تشعر بالنيران تلتهم
روحها ..

وصول النادل بالطعام يجبرها على بعض التماسك
فتتناول منديلاً قريباً لتمسح به دموعها بأنامل
مرتعشة ..

تتصنع البرود من جديد وهي تتناول الطعام الذي كاد
يغص به حلقها فيتهد بحرارة وهو يشعر بالاختناق
أكثر ..

متى صار العالم فجأة بكل هذه البشاعة !؟
أم هو المغيب الذي كان يحيا في جنة المثاليات !؟؟
يرفع عينيه إليها أخيراً ليلاحظ تعلق بصرها بشيء ما
خلف ظهره فيلتفت ..

ياالله!

ما هذه المصادفة القاتلة !؟!!
فعلى المائدة خلفه كان يجلس طفل مع أبيه يشبه
كثيراً ابنها الأصغر الراحل ..
لم يكن التشابه متطابقاً لكنه كان كافياً ليذبح كليهما
بسكين بارد ..

كافياً ليجعلها تنهض واقفة لتتحرك نحو الصغير الذي
تحفز والده في جلسته بمزيج من دهشة وتوجس
وهو يراها تقترب من ابنه لتتحني جالسة على
ركبتها أمامه ..

دموعها تسيل بصمت كالمغيبة .. فقط أنينها المتقطع
يزاحم هذا الصمت !!

_ عفوا سيدي .. دعني أشرح لك .

يقولها جهاد بحرج وقد نهض بدوره ليميل على أذن
الرجل شارحاً له الوضع باقتضاب فيهز الرجل رأسه
بتفهم مشفق ثم يطلب من صغيره أن يعانقها ..

آهة تلو آهة تطلقها بحرقة وهي تضمه إليها

بحرارة ..

دموعها تغرق كتف الصغير الذي يرفع عينيه إلى أبيه
ببعض الخوف لكن جهاد يبتلع غصة حلقه ليربت
على رأس الصغير بضحكة مصطنعة فضحتها دمة
ألم في عينيه ..

_ ما اسمك ؟!

تهمس بها أخيراً دون وعي .. ليتها جهاد ببعض
الارتياح وهو ينتبه أنها - عفويًا - نطقها بالعربية !
لأول مرة يسمعها تنطق العربية منذ ما كان !!

_ محمد .

يقولها الصغير بابتسامة مرتبكة لتقول بالعربية
كذلك :

_ أحبك يا محمد .

تتبع كلماتها بقبلة لرأس الصغير قبل أن تنهض واقفة

لتتحرك بخطوات سريعة مغادرة المكان ..

يناديها جهاد لكنها لا تتوقف فيترك ثمن الطعام

بسرعة على الطاولة قبل أن يهرول إليها ليلحق بها

هاتفاً بأنفاس لاهثة:

_ لم ننه حديثنا بعد .

_ أنا فعلت .

تقولها وقد بدت كقارورة مكسورة حادة الشظايا تهدد

كل من يقترب منها ليطلق زفرة حارقة وهو يسمعها

تردف بتصميم :

_ أنا سأعود لفرنسا .. لو أردت العودة معي فساكون

أكثر من مرحبة .. لا أظنك تملك فرصة هنا .. هناك

يمكننا العثور على فرصة مناسبة .. خطوة .. مجرد

خطوة ..سنعود بعدها إلى هنا ..لكن لو لم تكن راغباً

فسأذهب وحدي .

تقولها لتعطيه ظهرها وتتحرك مبتعدة بخطوات شبه

راكضة ..

يناديه من جديد لكنها لا تتوقف فيقف مكانه وهو

يتلفت حوله بعجز ..

فارداً ذراعيه كأنه يعانق سراباً لا يناله ..

ماذا عساه يصنع !؟

هو يشعر بمسئوليته نحوها !!

هو الذي عرفها إلى ريان !!

هو الذي دفعها في طريقه !

هو الذي عاملها كأخته طوال هذه السنوات !!

وهو أكثر من يدرك أي شتات تعيشه الآن
مغيبة .. مذهولة بصدمتها في كل ما حولها !!
هو احترامها كـ "يولاند" لكنه أرادها "فدوى" .. ولن
يهدأ حتى يراها قادرة على الموازنة بينهما .
تريد منه السفر معها؟!!

فليكن !!

كل البلاد له صارت غربة على أي حال !!
وفي غرفتها التي عادت إليها بذلك الفندق الذي تقيم
فيه وقفت هي أمام مرآتها ترفع ثوبها الـ "تايجر"
بنقشة جلد النمر لتهمس من بين أسنانها :
_ سيعود مقاسه ويلائمني .. وقتها سأديقك أسوأ
كوابيسك يا ريان .. سأسرد على مسامعك كل جرح

جرحته لي .. وعندما أنتهي من الحكاية سيكون الموت
أهون عليك من انتقامي .. وسترى!



أحمر



_ أرجوك يا إبراهيم .. دعني أراه .

تهتف بها يسرا برجاء فوق فراشها في غرفتها
بالمشفى ..صوتها لا يزال واهناً إنما غارقاً بانفعالاته
كعهدها كلما ذكرت "ربيع" ..

يبتسم إبراهيم بإشفاق وهو يتفحص ملامحها
المنهكة ..لا يزال يذكر أول كلماتها عندما أفاقت من
تأثير "البنج" :

_ هو بخير !؟

كان يعلم أنها تقصد أباه ولم يكذب يجيبها بالإيجاب حتى
شعر بعينيها تجوبان الغرفة بنظرة غريبة تمزج بين
خيبة وأمل وهي تهمس بخفوت :

_ أنا ..نجوت .

لا يدري لماذا شعر ساعتها أنها غير راضية كأنها
كانت تأمل العكس !

ولو قرأ خبيئتها لأدرك أنها -ربما- كانت تطمح في
خروج مشرف من "اللعبة" التي ما عادت لعبة !!

_إبراهيم !

همسها الخافت ينتزعه من شروده فيها لتتسع

ابتسامته المشفقة وهو يراها تردف بلهفة :

_خذني إليه ..أنا صرت بخير ..لماذا لم تضعونا معاً

في نفس الغرفة ؟!

تهتف بعبارتها الأخيرة بحدة منفعلة تجعل جرحها

يؤلّمها فتأوه بخفوت وهي تغمض عينيها ليمسك هو

كفها يقبله برقة مع قوله الراجي:

_اهدئي حبيبتني ..هو بخير ..لكن أنتِ لا يمكنك

الحركة الآن .

_إذن ..اذهب وصوره لي على هاتفك .

تهتف بها بصوت متهدج دمعت معه عيناها لتردد

بخفوت :

_أريد أن أراه ..أريد أن أراه ..

لم تعد هستيريتها المبالغة في مشاعرها نحوهم تثير

عجبه بل صار مدمنها كعهده بكل ما يخصها ..

ربما لهذا رضخ لرغبتها في التبرع لأبيه بعدما كان

رافضاً بشدة أول الأمر خوفاً عليها ..

جزء بداخله أخبره أنها تحتاج فعل هذا ..لا مجرد

امتنان ولا رد جميل ..بل ..مزيد من شعورها أنها

صارت حقاً تنتمي إليهم !

تنقطع أفكاره وهو يسمع رنين هاتفه ليمط شفثيه

بضيق وهو يميز اسم جنة بينما اتسعت عيناها هي

بذعر وهي تغمغم :

_ ماذا تريد !؟

يتحنح بحرج وهو يعيد خصلات شعره للوراء قائلاً:

_ اتصلت منذ قليل .. قالت إنها تريد القدوم للاطمئنان

على أبي.

_ لا .. لا .. لا تجعلها تأتي .. أنت وعدتني قبل زفافنا

أنها لن يكون لها مكان في حياتنا .. أنت قلت ..

_ اهدني حبيبتي .. بالله عليك اهدني .. انفعالك هذا

يضرك .

يهتف بها بجزع وهو يحاول تهدئتها لترمقه بنظرة

عاتبة اكتسحها خوف لم يستطع تفسيره سوى بغيرة

مفرطة ليزفر وهو يضغط كفها بين راحتيه مردفاً:

_ لا أعرف من الذي أخبرها .. أنا لم أفعل .. ولا يمكنني

منعها من زيارة أبي .

تتسع عيناها بالمزيد من الذعر وهي تسمع هاتفه

يعاود الرنين ..

تكاد ترجوه ألا يرد لكنه يرمقها بنظرة معذرة وهو

يقبل كفها البارد قبل أن يفتح الاتصال ..

خفقات قلبها تعوي بجنون وهي تشعر كفار وقع في

مصيدة ..

جنة ستأتي هنا !

ستتعرف إليها !

سيعرفون الحقيقة!

بهذه السرعة سيموت الحلم .. وتموت هي معه !!

دموعها تسيل على خديها بصمت وهي تشعر

بالوحدة ..

لا!

ليست وحدها !!

ترفع عينيها لأعلى في وضع الدعاء وهي تشعر أنها
أضعف ما تكون ..

_ يارب .. أنت تحبني .. لم تكن صدفة أن وضعتني على
أول هذا الطريق ثم يسرت لي بقية خطواته .. أعرف
أنني أفسدت الأمر بخداعي وكذبي .. لكنني لازلت
أطمع في بقايا رصيدي عندك من الستر .. أنا لم أرد
بهم سوءاً .. أنا فقط أردت لنفسي الخير .. يارب كما
يسرت لي كل أمري .. فأتمم عليّ سترك ..

لم يعد قلبها يتردد في الدعاء كالسابق بعدما اختبرت
حلاوة الجواب ..

_ لا تترددي في الدعاء مهما بلغت ذنوبك .. الله
سبحانه وتعالى يقول (أمن يجيب المضطر إذا

دعاه) ..لم يقل يجيب (الصالح) أو يجيب (المحسن)

إنما أطلقها سبحانه وتعالى لكل مضطر ..الشيطان

يدخل لنا من هذه الثغرة ..يجعلنا نغلب سوء ظننا

بنفسنا على حسن ظننا بالله كي يقنطنا من

رحمته ..لكن الله رحيم ودود ..هو الذي قال في كتابه

(فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) ..هو سبحانه يحب

تضرعنا وقت الشدة ..يجب أن يغمرنا حسن ظننا في

رحمته رغم ذنوبنا ..هو القائل في الحديث القدسي

(أنا عند ظن عبدي بي ..فليظن بي ما شاء) ..فاجعلي

ظنك به دوماً أنه الوكيل الذي لن يضيعك .

تذكرها كما سمعتها يوماً من هبة لتنتابها قشعريرة

تسري في جسدها فلا تدري هل تمنحها المزيد من

الرهبه أم من السكينه ؟!

هل يقبلها الله على ما فيها؟!
هل بقي لها المزيد من عطايا الستر؟!
والجواب يأتيها بعدما أغلق إبراهيم الاتصال ليتهد
بارتياح وهو يرفع إليها عينيه بابتسامة :
_تعذر عن الحضور ..أخت زوجها تضع مولودها
واضطرت للحاق بها في المشفى .
تغمض عينيها على نظرة ممتنة للأعلى قبل أن
يستجيب جسدها لإرهاق وجعه ..
لقد حُلّ الحبل قليلاً من حول عنقها هذه المرة لكنه لا
يزال موجوداً !
ماسة تلد !
شبح ابتسامة يطوف على شفقتها وهي تسترجع
ذكرياتها معها أيام زواجها هي من فهد الصاوي ..

يا لله ! كأنه عمر غير العمر !!

وشتان بينهما!

الخاطر الأخير يجعلها تتحسس عنقها لتتهف فجأة

بجزع غزا صوتها الواهن:

_السلسلة؟! أين هي!؟!

يبتسم مهدئاً وهو يعاود تقبيل كفها ليقول وهو

يستخرجها من جيبه :

_خلعوها عنك قبل إجراء الجراحة .

_ألبسني إياها ..لا تخلعوها عني ثانية ..لا تفعلوها

أبداً .

ربما كانت هستيريته المنفعلة لتثير حفيظة رجل

غيره ..لكنه كان يستوعب كل هذا الخوف الذي

تفضحه عيناها ولا يعرف سببه ..

"العندليب الأخرس" في عينيها لا يزال حبيس

غصنه !

لهذا يلبسها إياها ثم يقبل رأسها ليهم بالجلوس من

جديد لكنها تضم رأسه بوهن إلى كتفها لتبقيه هناك

للحظات تشم فيه عبق فردوسها المفقود ..

يكاد يسمعها منها رغم أنها لم تقلها:

(أحب رائحتك)!

_ أنت بخير؟!!

صوتها الذي تبذلت نبرته من انفعال هستيري يقارب

الجنون إلى هذا الحنان الصادق يداعب قلبه بهذه اليد

التي لا تملكها سواها ..

ليرفع إليها عينيها هامساً بصوت أرجفته عاطفته:

_ أنتِ التي تسألين؟!!

لكنها تسبل جفنيها لتقول بخفوت :

_ لست بأقل مني ألماً .. أدرك كم كنت قلقاً على أبيك
وعليّ .. تبدو مرهقاً .. لا بد أن تنام .. لكن هنا جوارى
على الفراش الآخر .. لا تتركني وحدي .

أنامله تمتد لتربت على وجنتها فتساب منها أنّة
طويلة تجعله يسأل ناظراً لمكان جرحها :

_ هل يؤلم !؟

سؤاله يبدو ساذجاً لكنه يفيض بكل هذا الحنان القلق
الذي يملأه لترد عبر عينيها المغمضتين :

_ تصدقني لو قلت لك : هو الجرح الوحيد في حياتي
الذي لم يكن ليؤلم .. بل يداوي .

يتفحص ملامحها بعمق عاطفته وهو يود في هذه
اللحظة لو يخبئها بين ضلوعه فيمحو عنها كل هذا

الخوف الذي لا يفهم سببه لكنه يشعر به يكتسحها

بضراوة ..

_ أعدك ..

يهمس بها بحروف ملؤها العشق لتتسع عيناها بلهفة

وهي تطارد الحروف عبر شفثيه ..

_ أعدك أن أسمع حينما يسد الجميع آذانهم .. أن أحنو

حين يقسون .. أن أرحم حين يترجمون .. أن أبقى .. أن

أبقى حين لا يبقى أحد .. وأن أحبك كما لم يحبك أحد .

يقولها ببطء مستشعراً لذتها في سماعها منه رغم

تكرارها كل مرة .. ليميل أخيراً على وجنتها بقبلة

ناعمة هامساً :

_ كنتِ غائبة عن الوعي بالأمس فلم تسمعها

مني .. وأنا وعدتك أن أجدد عهدنا كل يوم .

تميل برأسها على رأسه لتبقيه أسير كتفها للحظات
تتنشق فيها عبيره وهي تشعر أنها تزداد لتجديد
عهدهما هذا كل يوم أكثر وأكثر ..

_ من شادي؟! _

سؤاله رغم براءة نبرته يجعلها تفتح عينيها بذعر
لكنه يقول عبر ابتسامته :

_ كنت ترددديها كثيراً وأنت تحت تأثير "البنج" ..كنت
تتادين شادي هذا بكل لهفة ..كدت أقتلك غيراً خاصة
وقد ظن الجميع في غرفة العمليات أنني شادي
هذا ..لكن إحدى الممرضات أخبرتني أنك كنت تردددين
(أنا صرت أكبر ..وشادي بعد صغير) ..أخبرتني أنها

أغنية قديمة لفيروز عن طفل صغير ..احمدي

ربنا ..شهادة المرأة أنقذتك من يدي .

مرحه يمتزج بعنفوان رجولته الغيور لكنه يتراجع

أمام خيطي الدموع الذين سالا على وجنتيها بصمت

مع كلماتها عبر عينيها المغمضتين:

_تغار عليّ من مجرد "هلوسة بنج"؟!!

فيمسح دموعها بأنامله وقد كره أن يسبب لها المزيد

من الخوف ليقبل كفها بين راحتيه من جديد هامساً

بالمزيد من المرح :

_ولمّ لا؟! يقولون أن مواقف كهذه تفضح خبايا

النفس ! الطبيب ظل يتندر معي عن حوادث طريفة

حقيقية لأناس في نفس الموضع .

_هل قلت شيئاً آخر وقتها؟!!

تحاول السيطرة على الخوف في نبرتها فيخرج
صوتها مرتعشاً لكنه يربت على وجنتها ليرد عبر
حروفه المغرمة :

_ كنتِ تقولين أنكِ تحبيننا كثيراً ..أنا وأبي وهبة
وسندس وسامي ..حتى الحرافيش .

تبتسم بوهن وهي تعاود فتح عينيها لتقول فجأة وقد
تذكرت ما رآته تلك الليلة عندما خرجت معه في
سيارته :

_ سندس! أين هي!؟!

_ بالكاد أقنعتها أن تذهب مع هبة لتستريح ..واقفة
على قدميها منذ الأمس هنا ..نامي أنتِ واستريحي .
ينعقد حاجباها بالمزيد من القلق على تلك الفتاة ..تريد
التحدث إليها في أقرب وقت ..

كوثر كذلك .. يجب أن تحدثها وتطمئنها كي تستعيد

منها أمانتها ..

ياالله!

في كم جبهة عليها أن تحارب؟!!

رأسها يكاد ينفجر من الصداع وجسدها كله ينبض

بالألم لكنها تهتف به كاذبة:

لن يمكنني النوم قبل أن أرى "مستر ربيع" .. أشعر

أن المسكنات قد أحدثت أثرها وقد خف الألم .. أرجوك

يا إبراهيم .. خذني إليه ..

يظهر الرفض على ملامحه لكنها تعاود رجاءاتها

بضراعة ليقف أخيراً قائلاً بتردد :

سأسأل الطبيب .. إنما ستمتثلي لأمره أياً ما كان .

تومئ برأسها الذي ربت عليه برقة للحظات قبل أن
يتحرك ليغادر الغرفة .. ولم يكد يفعل حتى تحركت
بصعوبة كاتمة تأوهات وجعها لتتناول هاتفها القريب
كي تتصل بكوثر تطمئنها بكلمات موجزة ثم تغلق
بعدها الاتصال قبل أن تمسحه من سجل المكالمات ..
تطلق بعدها تهيدة تعب وهي تحاول النهوض من
الفراش متحاملة على نفسها لتكتم صرخات ألمها
وهي تحاول الجلوس ..

ماذا فعلت؟! لن يمكنك المشي الآن .

يهتف بها إبراهيم بجزع وهو يدخل الغرفة مع الطبيب
الذي هتفت هي به بنبرة عاد إليها تسلطها القديم رغم

وهنها :

_أريد رؤيته ..يمكنكم توفير كرسي متحرك لي أو ما شابه ..وسأتبع كل تعليمات التعقيم .

يعاتبها إبراهيم ببعض العنف الذي فجره قلقه لكن الطبيب يتفحص جرحها ليمنحها أخيراً الإذن بالذهاب إليه على كرسي متحرك بعد توسلاتها الضارعة تارة لك "سمرا" وأوامرها المتسلطة تارة أخرى ك"يسرا".

_أبي .

تهتف بها بلهفة وقد صارت أخيراً أمام ربيع الذي رمقها بنظرة ممتنة ..

الكلمة التي طالما كرهتها في عمرها "القديم" وهي تثير داخلها كل الرعب ..الآن تجري على لسانها طواعية مفجرةً داخلها كل ينابيع السكينة !!

_ كيف حالك الآن يا ابنتي؟! لماذا أتعبت نفسك لا

تزالين ..

يسألها ربيع بحنانه المعهود لكنها تقاطعه وهي تهتف

بانفعال:

_ "ابنتي"! كنت تقولها من قبل فأشعر أن حالي

كالجميع ..كلنا مغمورون بحنانك ..لكن الآن أحس

أنها لي ..لي وحدي ..ابنتك ..أنا الآن حقاً ابنتك ..أنا

ابنة ربيع .

تدمع عينا العجوز بتأثر وهو يرى كلماتها مخضبة

بمزيج غريب من ابتسامتها ودموعها ..

لا يزال حدس بداخله يخبره أن هذه المرأة جبل ثلجي

لا يبدو منه سوى قمة هزيلة فوق سطح الماء ..لكنه

صار يوقن أنها حقاً تحبه وتحب ابنه ربما أكثر من
حبها لنفسها ..

لم تكن مجبورة أن تفعل هذا الذي فعلته لأجله لكن
إبراهيم أخبره أنها تمادت في إلحاحها على الأمر
كأنها س "تأخذ" لا س "تعطي"!

لهذا يهز رأسه برفق ليبتسم قائلاً :

_ كيف نوفي دينك يا ابنتي ؟!

_ بل كيف أفعل أنا ؟!

تقولها وهي تهز رأسها لتشير بأحد كفيها نحو
العجوز دون أن تمسه.. ثم تحتوي كف إبراهيم بالآخر
لتردف :

_ أنا ولدت من جديد بينكم .. وسأعيش عمري فقط
لأجعلك تفخر بامرأة تليق بأن تكون ابنتك ..

تقولها لتصمت لحظة ثم تستطرد مغمضة العينين

كأنها تتلذذ بحروفها :

_ابنة ربيع .

=====

نيلى

=====

على متن الطائرة المسافرة لألمانيا حيث المصحة
العلاجية التي حجزت لها فيها طيف مكاناً تحتل زهرة

مكانها ..

وحدها !

لم تعد تكثر كثيراً لوضع كهذا عاشته تقريباً غالب
عمرها ..

عمرها القصير الذي لا تأمل له بطول إنما ترجو فقط
أن تنتهي رحلة عذابها سريعاً ولا تكلف من حولها
عبئاً كخالتها الراحلة ..

تفتح هاتفها حيث استوديو الصور ..

للتوقف عيناها أولاً أمام صورة أمها ..

أين عساها تكون !؟

ألا تزال هاربة من بطش أبيها !؟

تراها ستندم ذات يوم أنها لم تقض أيامها الأخيرة

معها !؟

صورة أخرى لحساء ..

تبتسم لها فيها وهي تلوح مودعة ..

تراه حقاً كان لقاءهما الأخير؟!!

تحملها الصورة لذكرى لقاءهما الأخير وهي تهتف لها

برجاء :

_ أخبرني جهاد يا زهرة .. أو دعيني أخبره أنا ..

_ افعليها وساقطع علاقتي بك تماماً ولن أكمل العلاج

واحملي ذنبي وقتها !

تقولها مهددة بضراوة غريبة على طبعها الخانع

لتعاود حسناء رجاءها اليأس :

_ كيف ستعيشين وحدك؟!!

_ تعودت .

_ على الأقل .. كنت أنا معك .. الآن سنفترق .

_ لا تقلقي .. لعل الوضع لن يطول ..

تقولها ب"منتهى اليأس" لكن حسناء تتلقاها
ب"منتهى الأمل" وهي تربت على كتفها قائلة :
_أجل ..لن يطول ..ستعودين قريباً وقد تماثلتِ
للشفاء ..ساعتها ستخبرين جهاد بنفسك ..لعله
يسامحك وتدركينه قبل فوات الأوان .

تبتسم بسخرية مريرة للخاطر الأخير وهي تنتقل

لصورة أخرى ..

صورة "طيف" ..

تنفث دخان سيجارتها بتحدّ وعيناها تتوهجان بقبس

من قوة ندر أن تحمله عينا امرأة ..

تحملها الصورة لذكرى لقائهما القريب قبل إقلاع

الطائرة ..

_كيف أشكرك !؟

تقولها لها بامتنان لترد طيف بفظاظتها المعهودة
والتي توقن زهرة الآن أنها تخفي خلفها أطيب قلوب
الأرض :

_ بنت ! بنت ! جو "الصعبانيات" هذا لا
يعجبني ..مرضٌ كغيره ستعالجين وتشفين منه
وتعودين لتصدعي رأسي بحديثك عن طبيبك أزرق
العينين شبيه الدمية هذا ..تطلبين مني النصيحة كي
نعیده إليك بعدما صدق كذبتك كأي حبة "مهروسة"
في فيلم قديم !

تبتسم لها وسط دموعها فتتنهد طيف بحرارة وهي
تتردد قليلاً قبل أن تضمها إليها بقوة هامسة في أذنها
بخفوت:

_ اسمعي .. لأول مرة أقولها لمخلوق وظني أنني لن
أفعلها ثانية .. أنا خسرت أمي لأنني لم أكن أملك ثمن
العلاج .. عشت طوال هذا العمر أخاف المرض ربما
بأكثر مما أخاف الموت .. لهذا أنا التي أحتاجك وليس
فقط أنتِ من تحتاجيني .. تحلي بالقوة وتشبثي
بالحياة حتى تعودني إليّ .. ربما وقتها أرى فيك وجه
راحلة افتقدتها .. هذا هو رد جميلي لو أردتِ أن
تفعلي!

فترمقها بنظرة متأثرة وهي تومئ لها برأسها تمنحها
وعدها .. لتستعيد طيف صلابة صوتها من جديد :
_ عاصي دبر لك الأمر هناك .. عندما تصلين ستلتقين
رجلاً يوصلك للمصحة هناك حيث ستقيمين .. كوني

دوماً على اتصال بي ولو احتجت شيئاً فلا تترددي في

طلبه .

تبتسم لها بامتنان وهي تتحسس سلسلة عنقها

لتهمس لها برجاء :

_لو..لو..لو لم أعد ..أرجعها لجهاد ..أخبريه أنني

لم أخلعها كما أوهمته ..قولي له أن القلب الذي تعلم

كيف يدق على يديه لم يكن ليلفظ آخر دقائقه إلا على

عهده .

فتدمع عينا طيف وهي تشيح بوجهها للحظات قبل أن

تعود إليها ببصرها قائلة باستنكار فظ تداري خلفه

تأثرها :

_تعشقين النكد كعينيك! نقول "ثور "

يقولون :احلبوه! ستعودين يا حمقاء ! ستعودين!

ستعودين سليمة معافاة بلسانين وعقل أكثر خواء من

جيب موظف بائس! فلا داعي لكل هذه الدراما !

أناملها تنتقل لصورة أخرى ..

صورة ماسة .. تبتسم بلامحها الملائكية .. لقد تمنيت

لو بقيت حتى تحضر ولادتها .. لكن لا بأس .. لن تكون

آخر مناسبة تفوتها !..

تدمع عيناها للخاطر الأخير لكن أناملها تتوقف أخيراً

أمام صورته هو .. جهاد !

فيعزف قلبها هذا اللحن الخاص الذي لم يعرفه إلا

له ..

أنتِ صرتِ مني ! غصنٌ لا يتمرد على

جذعه .. وجذعٌ لا يتخلى عن غصنه .. هكذا نحن .. كنا ..

وسنبقى يا نيلية !

تذكرها كما سمعتها بصوته يومها بعدما حكى له عن
مأساتها مع والدها وقد ظنتها وقتها آخر عذاباتها ..
فتغضب عينيها على حريق دموعها وهي تتذكر ما
روته لها حسناء عن احتمال زواجه بيولاند ..
تراه يفعلها!؟

حسناً سجلت لها مكالمته الأخيرة لتسمعها كلها ..
_ أخبريها أنني وإن عشت عمري في جهاد فلن تكون
هي رفيقتي فيه .. أنني لن أنتظر عودتها نادماً معذرة
بل لن أنتظر عودتها أبداً .. أبداً ..

يرتجف جسدها للوعيد في نبرته كأنما يسمعها قلبها
كل مرة بصوت لوعتهما معاً ..

آه لو يعلم!

لقد عاشت عمرها ترتضي الدور الذي منحه لها

القدر ..

"عروس نيل" تلقي نفسها في النهر قرباناً لفيضه ..

ويبدو أنها ستبقى كذلك حتى تلفظ آخر أنفاسها ..

ربما لو تحلت ببعض الأنانية لارتضت أن يشاركها

جهد مشوارها الثقيل ..

لكن الأنانية ثقيلة على كرماء القلوب كما هو العطاء

ثقيل على بخلائها !

تتنهد بحرارة وهي تغلق هاتفها أخيراً لتضمه

لصدرها بقوة ..

ترى هل سينتقم من ريان حقاً بزواجه من يولاند؟!؟

هل سيقوى على فعلها؟!؟

هل سيسقط الفارس المشهود من فوق جواده؟!؟

أناملها تمتد نحو حقيبتها حيث كراسة ورقية قررت
أن تكتب فيها رسائلها إليه ..ليقرأها فيما بعد حية
كانت أو ...!

تبتلع غصة حلقتها مع الخاطر الأخير وهي تتحسس
سلسلة عنقها لتكتب :

أخاف عليك من صباح لا تبدأه بدعاء قلبي لك..
من شروق شمس لا تمر عليّ قبلك فأوصيها عليك..
أخاف عليك من يوم لا يساوي أربعاً وعشرين ساعة
من سؤالي على تفاصيلك..

من عقارب ساعة تفتقد مكالماتي الطويلة.. ورسائي
الأطول..

أخاف عليك من عمر تعيشه دوني فتشبه أيامه
بعضها كتوائم مشوّهة!

أخاف عليك من امرأة لا تعرف كيف تضبط «وش»

قهوتك ولا مذاق «القرنفل» في كوب شايك..

لا يمكنها التنبؤ بمزاجك من حمرة أذنيك.. ودرجة

انعقاد جبينك.. وتمشيط شعث لحيتك!

أخاف عليك من فقدي وأنا الأعلم وقتها.. كم ستكون

خسارتك!

تمسح بقايا الدموع على وجنتيها وهي تعاود الكتابة :

_ أخاف عليك من نفسك ..ومن جرحي ..كنا وسنبقى

يا فارسي ..أنت بدربك في جهاد ..وأنا بحبك في

جهاد .

تسمع نداء الطائرة يعلن الوصول لمطار برلين فتأخذ

نفساً عميقاً وهي تعيد الأوراق لحقيبتها قبل أن ترتدي

نظارة كبيرة غطت نصف وجهها كأنها صارت زاهدة
حتى في مواجهة العالم ..

تتحرك وسط الحشد لتغادر الطائرة قبل أن تنهي
إجراءات المطار باعتيادية من تأقلمت على السفر ..
المطار الذي غادرته بعدها لتبحث بعينيها عن الرجل
الذي أخبرتها عنه طيف ..

_ أنسة زهرة !

تلتفت خلفها لصاحب اللهجة العربية الكسيرة الذي
واجهها لتصطم عيناها بزرقة عينيه فتذكرها بعيني
جهاد .. قبل أن تنفض عنها الخاطر لتتفحص ملامحه
التي بدت لها شديدة الدفاء على عكس ما يشاع عن
هذه الملامح الغربية ..

لكنه يفاجئها وهو يعرفها بنفسه بعربية سليمة إنما
غريبة اللفظة :

_صهيب ! السيد عاصي أوصاني بكِ .. لا تحملي
هماً ..أنا مرشدك هنا .

=====

الطيف السابع والعشرون



أبيض



الأرض تكاد تميد تحت قدميه وغابات الزيتون في
عينيه تشتعل بالمزيد من القلق وهما معلقتان بباب
الغرفة المغلق في المشفى ..
يستعيد رغباً عنه ذكريات مشابهة في مرة ولادتها
الأولى ..

لا .. لم يكن يراها رؤياً العين وقتها لكنه بملء روجه

كان يرى !!

_ ادع لنا يا عاصي .. ادع لنا ..

يسمعها بصوت ماسة كما كان وقتها فيغمض عينيه

بقوة وقلبه يلهج بدعاء صامت ..

لعله لا يزال لا يستحق .. لعله لم يوفّ دينه كاملاً

بعد ..

و"اليد السوداء" الصغيرة التي طالما أرقت نومه

في كوابيسه لا تزال تعصر عنقه ..

لكنه صار يوقن أن رحمة الله دوماً تسبق غضبه !

يشعر بهذه اليد القوية التي تقبض على كفه فيلتفت

نحو صاحبته التي تمتت بخفوت :

هل اخترت اسماً للمولود !؟

كفه القوي يرتجف في يدها فينقبض قلبها بلوعة

وهي تدرك أي جحيم يداريه صمته القلق ..

لكنها هي الأخرى تداري قلقها بفظاظتها الساخرة :

_ ماسة أخبرتني أنكما تنتظران فتاة .. لا تقل إنك
ستسميها طيف بدافع من ضميرك الأخوي الذي صحا
"على كبر" ! لا تعجبني هذه الأجواء القديمة .. كما
أنني لا أحب أن تتسمى طفلة باسمي فيسبها الراح
والغادي وهيبة اسمي تدوسها الأقدام !

_ شمس!

يتمتم بها عاصي بصوت مرتجف في جواب مقتضب
كأنه لم يلتفت لمزاحها المواسي .. شفتاه مرتجفتان
وعيناه لا تزالان معلقتين بالغرفة المغلقة .. رعشة
كفه في كفها تكاد تزلزلها مكانها وهي تميز كيانه
"الجبار" لأول مرة بهذا الوهن .. تحاول الاستعانة
بمزاحها الساخر من جديد :

_ نور وضياء وشمس ! لا أدري ما الذي يلهمك بهذه
الأسماء ! عساها لا تكون "شمعة" المرة القادمة ..
تقولها لتتظر للساعة المجاورة المعلقة على الحائط
فتشاطره القلق المذعور وهي تتبين الوقت ..لماذا
تأخروا بالداخل إلى هذا الحد !؟

_ سيكونان بخير ..لا أفهم في هذه الأمور لكن ..
تقطع قولها بزفرة قوية وأناملها تشتد قوة حول كفه
بدعم صامت لتردف بفظاظتها الفطرية :
_ تبا ! أحتاج بضراوة لشرب سيجارة الآن ! سأذهب
لمكان ما يمكنني فعلها فيه لعلنا نكون انتهينا من هذه
القصة عندما أعود .

يرمقها بنظرة متفهمة وهو يميز عبر خشونتها
الظاهرة هذا القلق العنيف الذي اكتسح ملامحها

فتطلق زفرة أخرى وهي تتحرك مبتعدة نحو إحدى

الزوايا ..

هذا الشعور بالانتماء المستحدث يربكها ..

لقد عاشت طوال هذا العمر تحمل هم نفسها

فقط ..نبته برية في صحراء قاحلة ..الآن تجرب معنى

أن تكون غصناً ينتمي لجذع ثابت في أرض

خصبة ..يتمايل يمناً ويسرة إنما أبداً لا يفارق

جذعه !!

تستخرج من حقيبتها إحدى سجائرهما لتشعلها ثم تأخذ

منها عدة أنفاس متتابعة كأنما تطفئ بها هذا اللهب

المستعر داخلها ثم تنفثها بتوتر وهي تطلق سراً

سباباً مكتوماً لم يلبث أن تحول لتمتمة مسموعة
وعيناها تشتعلان بالمزيد من القلق ..
تطلق شهقة خافتة وهي تفاجأ بوجود يحيى الذي
سحب السيجارة من أناملها بغتة ليلقيها في سلة
مهمات مجاورة فتهدف به بانفعال:
_إياك أن تفعلها ثانية ! لا شأن لك بسجائري ! لماذا
أتيت وتركت مجد؟! اذهب ولا ..
تنقطع كلماتها وهي تشعر به يدفن رأسها في كتفه
مقاطعاً سيل كلماتها الفظ !
جسدها يرتجف بين ذراعيه بحاجة ضارية تفضحها
كل خلجاتها ووحده لسانها يبخل بها ..
ضمته الحانية تزداد قوتها وهو يتفهم انفعالها
الصامت لدقائق قبل أن يصله همسها الفائر بعاطفته :

_ أنا من اصطحبت ماسة إلى هنا .. صرخاتها لا تزال
تدوي في أذني .. لن أحتمل أن يصيبها مكروه .. هي أو
الصغير .. لن أسمح لأحد أن يحمل هذا الطفل
قبلي .. إنه أول عهدي الحقيقي بـ "عائلة"!
عائلة !! أنت تفهم .. تبا ! أنت تفهم !!
قبضتها تهوي على كتفه بمزيج نادر صار أيقونتها
في عينيه بين "قوة وضعف" فيتهد بحرارة وهو
يربت على ظهرها هامساً باقتضاب:

_ ومن مثلي يفهم !؟

ترفع إليه عينيها الدامعتين لتهمس بالمزيد من القلق:
_ كل هذا الوقت بالداخل ليس طبيعياً .. صحيح !؟
يزدرد ريقه بتوتر وهو يخشى الجواب فيشبح بوجهه
محافظاً على تربيته الداعمة على ظهرها .. لتطلق

هي سبة أخرى عابرة وهي تتوجه ببصرها نحو باب
الغرفة المنشودة ولم تكد تفعل حتى فتح الباب أخيراً
ليخرج منه الطبيب ممتقع الوجه تزامناً مع وصول
فهد وجنة ورحمة وعزيز ..

الخبر الصادم يزلزل الجميع .. وعلى العكس يبدو
عاصي وحده الأهدأ -ظاهرياً- وكأنه كان يتوقع !



_ ماذا سيحدث لابنتنا يا عاصي!؟

تقولها ماسة بأقصى نبرة قلق سمح بها صوتها
الواهن لكنها تصطدم بزيغ نظراته التائهة والهاربة
من عينيها ..

جمود ملامحه مع هذه النظرة يذكرها بعهدة القديم
عندما فقد بصره ..!

رغم وقفته الشامخة التي تناسب هيئته الفطرية لكنها

وحدها كانت تستشعر تهدل كتفيه ..

تتحكم بصعوبة في شهقات بكائها وهي تدرك بماذا

يفكر الآن لترفع عينيها للأعلى في دعاء صامت .. قبل

أن تناديه ضارعة :

_ اقترِب .. امسك يدي .. نحن معاً .. نحن معاً !

تردد عبارتها الأخيرة وقد شعرت بحاجته لسماعها

قبل حاجتها هي ..

ملامحه تبقى على جمودها وهو يقترب ليجلس

جوارها على طرف الفراش معتصراً كفها بين

راحتيه ..

وأخيراً .. دمعة تالأأت في حدقتيه يغلق عليها جفناه

بسرعة !!

_ لن يحدث شيء بإذن الله يا ابنتي .. ستكون بخير ..
تهتف بها رحمة بصوت مرتجف والخبر يلقي غمامته
السوداء على الجميع ..

الطفلة ولدت بعيب خلقي ولا ينتظر أن تعيش !
_ كلام فارغ ! كنت معترضاً من البداية أن تلدي هنا
لكنه النصيب .. هذا المشفى لا يعجبني .. لقد أرسلت
في طلب أكبر طبيب متخصص في العاصمة وسيصل
بعد قليل ..

يقولها فهد بغضب مكتوم محاولاً السيطرة على
مشاعره وهو يندفع نحو ماسة ليضمها إليه برقة فيما
تهتف جنة تؤيد كلامه :

_ صحيح! لا أصدق هذا التهويل .. لعلمهم يدارون قلة
خبرتهم .. لن نصدق حتى ..

الطبيب وصل !

يهتف بها فهد وهو يطالع هاتفه لتشقق ماسة بلهفة
سبقت تأوها الخافت وهي تشعر بكف عاصي حول
كفها كجمرة من نار ..

لا تزال ملامحه علي جمودها وحده العرق الغزير
على جبينه يفضحه ..

شفتاها ترتجفان بقوة لكنها تعلم الآن أن الرجل
العظيم الذي يتندر الجميع بقوة بأسه هو أحوج ما
يكون إليها هي ..

ولن تخذله!

هي ليست قصة وليد مريض .. بل هي قصة توبة قُبِلت
، و غَدِ أبيض يتطهر من سواد الأمس !

لهذا تحرك كفيهما المضمومين نحو صدرها لتبقيهما

هناك بينما تتابع تحرك فهد الملهوف نحو

الخارج .. والذي هتف بعاصي :

_ أَلن تأتي معي؟!!

_ سَأبقى هنا .. معها !

صوته بالكاد يغادر شفثيه رغم قوته المعهودة لكن

عينيه الزائغتين المعلقتين بماسة تفضحان وهنا لا

يليق برجل مثله ..

_ أنا سَأتي معك ..

تهتف بها طيف بعنفوانها المعهود وهي تفتح الباب

لتلحق به لكن يحيى الذي كان واقفاً بالخارج يزيحها

جانباً ببعض الخشونة وبنظرة زاجرة انصاعت لها

رغماً عنها وهو يتحرك نحو فهد قائلاً :

_ إلى أين؟!_

يشرح له فهد الوضع باقتضاب وهو يهرول بسرعة
ليلحق به يحيى وإلياس الذي قدم لتوه في مؤازرة
لابن شقيقه ، ليلتقوا جميعاً بالطبيب حيث سيتم فحص
المولود ..

وفي مكانه وقف عزيز خارج غرفة ماسة وهو يشعر
بالقلق يخنقه .. لا يمكنه دخول الغرفة كي لا يثير
حفيظة عاصي .. ولا يمكنه احتمال مراقبة الطبيب
وهو يفحص المولودة ..

لكنه قرر أن يساعد بطريقته :

يتمتم بدعاء خفيض وهو يتناول هاتفه ليجري اتصالاً
قبل أن يسمع أخيراً صوت جهاد :

_ كيف حالك يا عزيز؟!_

نبرته المهزومة الواهنة غريبة على أذنه لكنه
يتجاهل الأمر مؤقتاً ليخبره عن الوضع باقتضاب ثم
يهتف به بسرعة :

_ أعرِف أنه ليس تخصصك لكنك ربما تعرف من
يساعدنا ..

يصمت جهاد قليلاً بما يشي بخطورة الأمر فيعاود
عزيز هتافه الوجل:

_ لا تسكت .. بالله عليك لا تسكت .. أخبرني أن هناك
أملاً .. أي أمل وسنسعى خلفه حتى لو لم يكن في
مصر .. عاصي سيكون مستعداً للسفر به في طائرة
معدة طبيياً لو اقتضى الأمر .

تنهيدة حارة من جهاد سبقت قوله بنبرة عملية :

_ لن أخفيك قولاً .. الأمل ضئيل .. أعرف أستاذاً فرنسياً
متخصصاً في هذا الشأن بالذات .. لكنني لا أعرف إن
كان في فرنسا الآن أم لا .. يمكنني التواصل معه
وإخبارك خلال ساعات .. أنا في طريقي لباريس على
أي حال .

_ باريس! لماذا!؟!

يسأل عزيز بعجب ليردف بدهشة أكبر :

_ لا تقل أنه "شهر عسل" مع زهرة ! دون أن

تخبرني عن زواجك!؟!

لم يرَ ابتسامة جهاد الساخرة مكانه لكنه شعر

بمرارتها تنضح في صوته وهو يرد :

_ حكايتي مع زهرة انتهت .. عهدٌ قديم مضى .. و عهدٌ

جديد آت !

ماذا تقصد؟!_

يسأله جهاد بحيرة لكن جهاد يعاود قوله بنبرة عملية
منهياً الاتصال :

عندما أصل للبروفيسور "....." سأخبرك بما
سيكون .. لا تقلق سأفعل ما بوسعي .. أرسل سلامي
ل"الست رحمة".

=====

بنفسجي

=====

سند ! ماذا تفعل؟!_

تسأله ديمة بعجب وقد دخلت غرفتها لتوها..

تراه يناظر هاتفها فلا ينطق سوى بكلمته اليتيمة
"ماما " ..

تتناول الهاتف من يده لتتسع عيناها بانفعال وهي
تميز ما الذي أثار انتباهه ..

فيديو ولادة سلطنة الذي كانت قد حفظته لديها بعد
ذاك اليوم العصيب!

تغمض عينيها بتشتت للحظات وهي تشعر بجسدها
يرتجف ..

لم تخبر أحداً بما حدث في غرفتها يومها ..
لم يكن الظرف لائقاً خاصة وقد انشغل الجميع بولادة
ماسة وطفلها المريضة وترتيبات سفرهم المعقدة
لفرنسا لعلهم يجدون أملاً هناك بعدما تأكدوا من
تشخيص الطبيب الأولي ..

كما أنها خافت أن يسألها عاصي أين كانت وقتما

حدث هذا !!

لهذا اكتفت بصمتها المترقب وهي تحاول فهم ما

يجري حولها ..

إنما عبثاً!

تراها تتوهم !؟

هل فقدت عقلها حقاً؟!

دكتور كنان سألها يوم التقاها عما إذا كانت تري

بعض الهلوس ..

هل يكون كل هذا من فعل أشباحها !؟

تفتح عينيها لترمق سند الذي كان مستغرقاً بكليته في

مراقبة الفيديو بنظرة متحسرة طويلة وهي تراه يمد

إصبعه الصغير ليتلمس الشاشة حيث يظهر حسام في

الصورة ضاحكاً يمكك جرواً صغيراً ..

_ هل تذكره ؟!

تسأله ولا تنتظر الجواب .. فقط قلبها يخفق بجنون

وهي تتذكر ما روته لها أمه عنه ..

_ هل تشتاق لرؤيته ؟!

سؤال آخر لا تنتظر جوابه وعيناها تزيغان في

الفراغ ..

والمزيد من خفقاتها الملتاعة يصرخ بالجواب كأنما

السؤال لها هي ..

_ هل تحبه ؟!

تنتفض مكانها مع السؤال الأخير كأنما لدغتها أفعى !

تكتم شفيتها براحتها تلعن نفسها على السؤال ..

وربما .. على الجواب .. أو ما تظنه الجواب !!
صوت طرقات على باب غرفتها يقاطع أفكارها لتظهر
الخادمة تخبرها أن السيد عاصي يريد رؤيتها قبل
سفره ..

تترك سند معها لتتحرك نحو الأسفل بوجه ممتقع
كعهدا كلما أشرفت على لقاء عاصي ..
لكنه يلتفت نحوها فيهباً إليها أنها أمام شخص آخر !!
عيناه منطفتان .. كتفاه متهدلان .. وجهه شاحب ..
لا يزال يملك هذه الهيبة الفطرية المخيفة لكنها الآن
متشحة بوجع هدقواه !

_ أنا في طريقي للسفر مع ماسة و "شمس" ..
يهياً إليها أن صوته يتهدج مع ذكر اسم الصغيرة كأنه
لم يألّفه بعد ..

أو ربما ..يحاول منحها كينونة تعطيه هو بعض الأمل
في بقائها ..

لندمع عيناها بتأثر لم تستطع مداراته وهي تسمعه

يردف :

_ نور وضياء سيبقيان مع جدتهما في العاصمة ..سند

سيبقى معك فلا أئتمن عليه أحداً غيرك لكنه يحتاج

لجلسات الطبيب النفسية ..يمكنكما البقاء هنا لو أردتِ

وأنا سأرتب الأمر مع دكتور كنان ..أو يمكنكما العودة

لبيت العاصمة ..كما تريدان .

_ لا أريد البقاء هنا .

تهتف بها برجاء مخفية خوفها الحقيقي مما حدث ..

هذه المدينة صارت تخنقها بشبح غازي ..وشبح

هالة ..و..شبحها هي !!

بتجبر الجميع عليها واستضعافهم لها !!
حديثها يوافق هوى في نفس عاصي الذي هز رأسه
ليقول بحسم:

_إذن ..تغادران لبیت العاصمة ..لا تقلقي ..كل شيء
سيكون في غيابي كما هو في حضوري .
لا تدري لماذا تلقف خوفها كلماته كأنها رسالة تهديد
مبطنة ..

هل يحذرها من لقاء حسام ؟!

هل يعرف ؟!

أم هي ك"المريية تكاد تقول خذوني"!!?
تهز رأسها مطيعة على أي حال وهي تشعر
بالتشتت ..

رغم شعورها بالارتياح لقرب تخلصها من تسلط هذا

الرجل ..-عاصي الرفاعي-

لكنها لا تنكر الأمان الذي كان يغشاها في وجوده ..

فلتخبره!

فلتخبره عما حدث في غرفتها ذاك اليوم لعله يعرف

الفاعل ويعاقبه !!

_ سيد عاصي!

تناديه وقد أعطاه ظهره تأهباً للانصراف فيلتفت

نحوها لكنها ما كادت تصطمم بهيبة عينيه الكاسحتين

حتى عاد "أزرق" الخوف يغشاها لتراجع خطوة

للخلف مغممة :

_ أبلغ ماسة سلامي .. عساكما تعودان

بخير .. مع .. "شمس"!

تتطق الاسم عامدة كأنما أرادت أن يخفف لطف وقعه

عليه شعورها هي بالذنب ..وبالخوف !

فيهز رأسه برفق ليصلهما صوت فهد الذي قدم لتوه :

_ لا تقلق على ديمة وسند ..هما في أمانتي حتي

تعود .

يربت عاصي على كتف صهره بكف مرتجف ..

يود لو يودع سند كذلك قبل رحيله لكنه يعلم أن

الصغير لا يزال ينفر منه ..

اليد السوداء الصغيرة لا تزال تتوعده بثمار فقد

مُرّة ..

وهو الذي أغراه من قبل حلو المذاق !!

لا يدري ماذا أصابه منذ علم بالخبر ..

وكأنه عاد لنقطة الصفر من جديد ..

وكأنه عاد ليرتشف كأس عقابه إنما ببصر مفتوح

هذه المرة !

_ تريد صبياً أم فتاة ؟!

_ أريد دليلاً .. دليلاً على عفو السماء ..

يذكرها بصوت ماسة عندما منحته بشارة حملها ذاك
اليوم فيرتعد جسده بخوف لم يملكه وهو يسرع الخطا
خارجاً من القصر ..

ليكون آخر ما تتعلق به عيناه "الماسة" التي جددت
بها نافورة الماء في الحديقة !

=====

برتقالي



_ (الحياة عربية حلوة، وبنت برضه تبقى حلوة،
ولبس ماركة، وسكة سالكة، وحظ بمب بيضحك مش
لاوي بوزه)

يدندن بها نزار وهو يهز كتفيه بحركات متناسقة مع
الحن بينما يسير في حديقة قصر بيت عاصي
الرفاعي ..

القلق يعصف برأسه لكنه كعهده يجيد رمي حموله
خلف ظهره بما يبدو كاستهتار لكنه وحده يعلم ما
خلفه ..

لقد قرر منذ زمن بعيد أن يميت الخوف في قلبه ..

أن يعيش "اليوم بيومه" كما يقولون ولا يكثرث

بغد !

يرفع رأسه للسماء التي تلبدت بغيومها فيمط شفثيه

ببعض الاستياء وهو يتمتم :

_ لا أحب هذا الجو .. لا تتقصني الغيوم هنا .. يكفينا ما

نحن فيه!

يقولها وهو يشعر بالتخبط من بقائهم هنا الذي لا

يدري إلى متى سيستمر ..

_ زعطوط !

يغمغم بها يحيى بود رغم ثقل نبرته وهو يضع كفه

على كتف صاحبه ليلتفت نحوه الأخير قائلاً

باستهجان :

_ تعرف؟! الآن فقط أوقن أنني أستحق هذا اللقب لأنني
أرافق مجنوناً مثلك .

يبتسم له يحيى بما يشبه الاعتذار فيتأفف نزار وهو
يدور بعينه في المكان حوله يتأكد من ألا أحد يسمعه
ثم يميل عليه قائلاً بلووم :

_ هاهو السيد عاصي قد سافر ..أخبرتني أنه قد أسس
لك مشروعاً صغيراً هنا قبل زواجك من "السيدة
عنكبوت " ..آه !

يقطع عبارته متأوهاً وقبضة يحيى تهوي علي فكه
بخفة فيضحك معتذراً ليردف :

_ يمكننا التربح منه ..هكذا نكون قد ضمننا مستقبلنا
دون منغصات في هذا البلد ..من كان يحلم أن نقيم في
قصر كهذا !؟

لكن يحيى يتحنح بخشونة ليفجر قنبلته :

_ سأعود للعراق.

يتوقف نزار عن السير فجأة ليقف في مواجهته

محافظاً على نبرة صوته الخفيضة ..والغاضبة:

_ هل جنتت؟! عن أي عودة تتحدث؟! ولمن?!

يشيح يحيى بوجهه لكن نزار يردف بنفس النبرة :

_ هل أنساك حبك لتلك المرأة ما تركته خلفك في بغداد

؟! أم تراك أغرتك زيارة أمك وعمك يا "عريس"?!

يلتفت إليه يحيى بنظرة عاتبة حملت شرراً من جحيم

دواخله ليستطرد نزار ملوحاً بذراعيه :

_ تريد العودة لبغداد؟! لمن؟! لأبيك الحقيقي الذي

سجنته؟! لاسم أبيك المخدوع الراحل؟! لأختك التي

لا تعلم أنها كذلك؟! أم لأمك التي ..

_ نزار !!

يهتف بها يحيى بصرامة وهو يشد بقبضته فجأة على
ياقة قميصه فتتلاقى نظراتهما الغاضبة للحظات .. قبل

أن يهمس له يحيى بنبرة مشتعلة:

_ أعلم أن كل ما تقوله صحيح .. أعلم أنه ربما كان

بقائي هنا فرصة عظيمة بمنهجنا القديم .. لكنني

أحتاج للعودة .. تسألني أعود

لمن .. وأجيبك .. لنفسي .. لنفسي يا نزار .

_ تعرف أي جحيم ستفتح أبوابه بعودتك هذه ؟!

_ أعرف .. ولا أبالي .

_ لا تبالي بي .. ولا بمجد ؟!

يهمس بها نزار بنفس الخفوت المشتعل وعيناه

ترميان شرر غضبه ليرد يحيى بعنفوان :

_ ما بالكما أنت ومجد؟! سنبقى معنا كعهدنا!

_ عهدنا؟! عهدنا أنت نقضته يا صديقي!

يهتف بها نزار وهو يحرر نفسه من قبضة صاحبه

ليردف بغضب نادر علي طبيعته العابثة:

_ نحن اتخذنا عهدنا منذ زمن .. ثلاثتنا دوماً معاً .. أنا

وأنت ومجد ابنة يحيى رحمه الله .. غربتنا هي

وطننا .. هذا هو عهدنا الذي تريد الآن أن تخلفه .

ينعقد حاجبا يحيى وهو يرد بانفعال :

_ فكر قليلاً يا نزار .. ألم تسأم من حياتنا السابقة؟!!

الاحتيال والنصب والتزوير والكذب !!

_ وإلى أي حياة تريد العودة يا يحيى؟! تظنها

مختلفة؟!!

يقولها نزار بنبرة متحدية لتتلاقى عيناها للحظات

بمزيج من غضب .. عناد .. رجاء .. وتفهم ..

أجل ! كلاهما كان يفهم صاحبه لكنه كان يريد إدارة

الدفة لما يريد عقله ..

_ سأعود لبغداد .. هذا قراري الأخير .. أنا فقط سأنتظر

حتى يعود عاصي إلى هنا ونطمئن على ابنته .

يقولها يحيى بعزم ليعود نزار خطوة للخلف وهو

يطلق ضحكة غاضبة مستهجنة ليلوح بذراعيه قائلاً:

_ ومجد بالطبع ستكون معك .. أوراق بنوتها المزورة

تخصك .. أنا إذن العضو غير المرغوب فيه !

_ اخرس يا غبي ! لا تقلها ! أنت أخي ! أخي شئت أم

أبيت ! لن ينكسر ضلع من مثلثنا مهما حدث .



_ بل انكسر .. انكسر منذ تلك اللحظة التي ما عدت

فيها السندباد ..

يقولها نزار وهو يعطيه ظهره ليتحرك في الاتجاه
المقابل بخطوات سريعة ليلحق به يحيى راكضاً فيقف
قبالته ممسكاً كتفيه بهتافه:

_ ابق هنا واسمعي .. تعرف أنني لا أستغني عنك .

لكن نزار يزيح قبضتيه عن كتفيه قائلاً :

_ ليس هذه المرة يا يحيى! لن أطيعك هذه المرة .. لن

أعود لأستقر في بغداد .. تعلم أنني أبداً لن أفعلها .

يزداد انعقاد حاجبي يحيى وهو يرمق ملامح صاحبه

برجاء يائس لكن نزار يشيخ بوجهه ليغادر القصر

كله ..

يطلق يحيى زفرة ساخطة وهو يطرق برأسه غافلاً
عن هذه التي كانت واقفة خلف شجرة قريبة ..
وقد استمعت للحوار من أوله ..

استبرق!

تلتمع عيناها بمزيج غريب من لوعة وظفر ..
احتيال ونصب وتزوير .. وأوراق بنوة مزيفة لمجد !!
متى صارت الأيام كريمة معها إلى هذا الحد كي
تؤازرها في كل ما تبتغيه حتى تكمل الطريق لآخره
!??

_ يحيى!

تأديه بلهفة أمومية لا تدعيها وهي تتظاهر بقدمها
لتوها من طريق آخر ليلتفت نحوها بمزيج من ارتباك
وضيق ..

كعهده منذ وصولها إلى هنا يتحاشى الحديث معها
تماماً..

_ ألم تشتق إليّ؟! طوال هذه السنوات لم تفتقدني؟!
ماذا تظنني أفعل هنا في هذا البيت الغريب لو لم يكن
لأجلك؟! إلى متى ستظل تهرب من الحديث معي؟!
ماذا جنيت لتفعل بي هذا؟! كل هذا لأنني لم أقف معك
وقتها وأقنع عمك بتزويجك من سراب؟!
يكز على أسنانه بغضب مكتوم وهو يسمعها تتحدث
بهذه البراعة الخادعة ..

ربما لو لم يكن واثقاً من الحقيقة لصدق هذا التمثيل

البارع !!

خاصة وهي تتحسس سلسلة عنقها باسمه مردفة :

_ أنا كبرت يا يحيى وأحتاج ابني وحيدي

جواني ..انس ما فات وكن معي.

كفها يحط على كتفه لكنه يشمئز منه نافراً بحركة

غير إرادية تخز ضميرها لكنها ترسم الغضب على

ملامحها ..

_ لا تتحدثي معي ..دعي النيران خامدة تحت

الرماد ..سأعود لبغداد إنما لأجل إلياس

والعائلة ..لأجل الرجل الذي حملت اسمه وعاش

ومات مخدوعاً ..لأجل ..

_ بماذا تهذي أنت؟! هل جنتت!؟!

تهتف بها بصرامة قاسية قاطعة عليه إكمال عبارته
لكنه يبتسم بمرارة وهو يشيح بوجهه عنها بقوله:
_أظن السيد غيث أخبرك عن زيارتي له في السجن!
ألم أقل لك : دعي النيران خامدة فليس من مصلحة
أحدهم أن نشعلها !

_ يبدو أنك عدت لجنونك القديم ! لا أفهم عما تتحدث
أنت !

تهتف بها باستتكار مصطنع فيهم بالرد عليها لكنه
يؤثر الصمت فيتحرك ليدخل القصر لكنها تلحق به
هاتفة :

_ يحيى .. انتظر .. أنا أكلمك ..

تقطع عبارتها بشهقة خوف مفاجئة وهي لا تدري
من أين ظهرت طيف لتقف أمامها عاقدة ساعديها
بتحدّ تمنعها اللحاق به ..!!

_ عفواً يا حماتي! يحيى ينام مبكراً وإلا يتعكر
مزاجه .. وأنا كأي زوجة مصرية أصيلة يهمني في
المقام الأول مزاج زوجي !

لهجة طيف التي مزجت فظاظتها الفطرية بسخريتها
اللاذعة تشعل المزيد من غضب استبرق لكنها تسيطر
عليه باقتدار وهي تتحكم في نبرة صوتها لتقول
بمسكنة مصطنعة :

_ نعم الزوجة ! أنا أشعر أن يحيى أحسن الاختيار هذه
المرّة .. لعلك تنسينه هوسه القديم بابنة عمه ! ابقِي

جواره يا ابنتي مهما شعرتِ بغرابة تصرفاته أو

أقواله .. يحيى مر بظروف صعبة !

_ خرب بيتك ..

تقولها طيف كأنها تبصقها فترتد المرأة مجفلة

لتستطرد طيف ببراءة مصطنعة كأنما ترد لها

بضاعتها :

_ خرب بيتك يا ظروف يا صعبة ! لم تبقِ أحداً على

حاله !

تقولها وهي تمصمص شفيتها باستياء مصطنع لتكز

استبرق على أسنانها بصمت فيما تحل طيف ارتباط

ساعديها لتربت على عضدي المرأة ببعض العنف

مستطردة بنبرة أقوى:

_ لا تخافي على زوجي .. هو كان قوياً دوني .. ووبي هو

أقوى .. يجدر بك أن تخافي على نفسك .

_ مَآذا !؟!

تضييق استبرق عينيها لتختفي براءة ملامحها في

لحظات كأن لم تكن .. لتطلق طيف صوتها الساخر

المميز ثم تجيب ببرود متهمك :

_ من البرد يا حماتي! الجو صار بارداً .. حقاً!

تقولها لتعطيها ظهرها دون استئذان لتدخل القصر

بدورها فتضييق عينا استبرق بتوعد للحظات ..

طيف شاحب من أسي يحلق فوق عين " أم " تشتاق

ابنها ..

لكن "طموح امرأة" يقهره !

لهذا تعود نظراتها لتتوهج ببريق مخيف وهي تتناول
هاتفها من جيبها لتتلاعب أناملها بشاشته مجرية
الاتصال الذي ما كاد يفتح حتى قالت باقتضاب :

نفذ اتفاقنا!

وبعدها بساعات انتفض يحيى من نومته بجزع وهو
يسمع هذه الطرقات العنيفة على باب غرفته لتستيقظ
طيف بدورها وهي تحاول ألا تقلق مجد النائمة بينهما
هاتفة :

من الذي يطرق الباب بهذه الطريقة في هذا الوقت
!؟

لكن يحيى يتحرك بسرعة ليفتح الباب فيصطدم بوجه
إلياس الممتقع وكلماته المتلعثمة :

_ يجب أن نعود لبغداد غداً .. أنا سأدير أمر التأشيرات

وجوازات السفر .

_ لماذا؟! ماذا حدث؟!!

يسأله يحيى وقد وقع قلبه تحت قدميه ليرد إلياس

بصوت متحرج:

_ غيث .. أخي .. مات في السجن !

=====

في القطار المغادر للصعيد يحتل نزار مكانه وملامحه

التي طالما اتسمت بعبثها تتشح بمزيج من غضب

ووجع !



لقد رحل!

رحل حتى دون أن يودع مجد !!

لكنه آثر مصلحتها وقد أدرك أن ارتباطها بحيي أقوى

واحتياجها له أشد !

هاقد عاد وحيداً من جديد كذاك اليوم الذي هرب فيه

من بيته ليؤثر برد الأرصفة على دفء سكن كان

أقرب للنار !!

تدمع عيناه بوجع لا يزال يحرق روحه لكنه يهز

رأسه بقوة هامساً لنفسه :

ستمر ! كل مر سيمر كما يقولون !

يطلق بها زفرة حارة ثم يتناول هاتفه ليتصل بإياد

الذي بادره بقوله :

أنت وحدك !؟

_ نعم .. أنا في طريقي للعاصمة .. أنا اتخذت

قراري .. اعتبرني معكم .

صمتُ قصير يسودهما لم يدرك فيه نزار كم كان أخوه

يتحكم في انفعالاته كي لا يسبه بعدما ناله هو من

تقريع "الكوبرا" الغاضب ..!

_ نزار ! الحقيقية التي أتيت بها كانت خالية من

بغيتنا !

_ وما شأني أنا ؟! أنت طلبت مني إحضارها ففعلت !

أنا حتى لم أفتحها !

يقولها نزار بتحفز ليزفر إياد قائلاً بهدوء مصطنع:

_ لا بأس ! لكنني ربما أحتاج منك أن تعيد البحث.

_ اسمع ! أنا فعلتها مرة واحدة وانتهى الأمر ! كانت

فرصة نادرة عندما غادرت تلك المرأة غرفتها

بالمصادفة ..أنا حتى لم أتمكن من إعادة وضع الغرفة
لحاله وقد فاجأتني عودتها فخرجت من الغرفة دون
أن تراني بأعجوبة..ولا أعرف لماذا لم تبلغ هي أحداً
بما حدث ..لعل هذا من حسن حظي أن انشغل السيد
عاصي بالسفر مع وليدته المريضة وإلا لما مر الأمر
بسلام !

_نزار ..أنت لا تعرف أهمية ما كان في الحقيبة .
_ولا يهمني أن أعرف ! ولعلمك المرأة سافرت إلى
العاصمة حيث بيت عاصي هناك ولن تكون لي أي
فرصة قادمة في دخوله خاصة وقد تشاجرت مع
يحيى ..وقرر كل منا أن يمضي في طريقه .
يقولها نزار بمزيج من ضيق ونفور ..

لم يكن سعيداً بهذا الذي فعله تمام الرضا لكنه -ربما-
كان بداخله يرغب أن يرضي أخاه .. وليس المال
فقط ..!

لهذا عاد يسأل إياد بحذر :

_ هل سيؤثر هذا على علاقتنا وعلى عملي معكم ؟!
_ لا!

كعهده صوت إياد المقتضب لا يشي بانفعالاته فيتهد
نزار بارتياح وهو يسمعه يردف:
_ أنا سأصرف.

يقولها ليمنحه عنوان لقائهما عقب وصول نزار
للعاصمة ثم يغلق الاتصال ليسمح لغضبه ان يتحرر
وهو يقذف المرأة أمامه بأقرب ما طالته يداه ..

هل هو غضب الكوبرا فقط ما يثير براكينه وقد فشل

في مهمته حتى الآن ؟!

أم هو شعوره بقرب وصول خديجة وإيهاب وزوجته

لبيته كي يقيموا معه كما طلب ؟!

_ اهدأ يا إياد .. لا تشتت أفكارك ..

يأخذ نفساً عميقاً وهو يحاول ترتيب أفكاره قامعاً

عواطفه كما اعتاد في سنواته الأخيرة ..

لتضييق عيناه بتفكير قبل أن يعاود تناول هاتفه ليجري

اتصالاً آخر ..!

=====

بنفسجي



تربت ديمة علي رأس سند النائم علي فراشها لتشرد
ببصرها في الفراغ ..

_ لا تظني أنك وحدك .. انا اضطرت للسفر مع يحيى
لبغداد لكنني سألقي على اتصال بك ..كفي عن أداء
دور "الكتكوت المبتل" هذا ..أنا أثق ان داخلك امرأة
قوية تنتظر الفرصة لتنتفض ..

تسمعها بصوت طيف كما ودعتها ذاك اليوم فتشعر
بقبس من قوة يضخ الدماء في عروقهها ..
لكن نظرة واحدة لمرآتها تتسف كل هذا !!



الخوف اللعين يعاود قصف حصونها وهي تشعر

بالوحدة ..

شبح غازي لا يزال متربصاً ساخراً ..

شبح هالة لا يزال عاتباً معرضاً ..

والشبح الأرجواني صار باهتاً منزوياً كأنه يعلن

عجزه عن منحها المدد!!

تسمع صوتاً غريباً بالخارج فتنزوي على نفسها

بالمزيد من الخوف وهي تستعيد مرأي غرفتها

مبعثرة الأشياء في قصر عاصي الرفاعي ..

لقد سرقوا حقيبتها !

ماذا كانوا يريدون منها؟!

المفتاح !

لعله ذاك المفتاح غريب الشكل الذي كادت ترميه فور

عثورها عليه لولا أنها تراجع في اللحظة الأخيرة!!

المصيبة انها نسيت مكانه !

أجل ..نسيت!

ذاكرتها محووة تماماً بشأنه !!

هل أصيبت بالجنون حقاً؟!

هل صارت ترى الهواجس وتكر الحقائق؟!؟

المزيد من الخوف يضخ البرد في عروقها أكثر

فتتحاشي النظر للمرأة ..

قلبها صار يرتعد بين ضلوعها وهي تميز صوتاً

غريباً آخر بالخارج !

هل تتخيل؟!؟

المزيد من الرعب الذي تشتد وتيرته وهي لا تعرف

حقيقة من خيال !

صرخة خافتة تطلقها وهي تشعر بصفعة غازي على

وجهها !

ثم ابتسامة آمنة وهي تشعر بهالة تربت على رأسها !

المزيد من الأصوات الغريبة بالخارج كدق الطبول

تجعلها ترتعد مكانها بالمزيد من الرعب ..

تتناول هاتفها لتبحث عن اسمه ..

(حسام)

_أنا..خائفة..

تكتبها لتبقى تطالعها بعينين زائغتين !!

لن ترسلها !!

لكنها فقط تشعر بالأمان وهي تتأمل حروفها جوار

حروف اسمه !

حتى وهي تثق أنه لن يعود له مكان في حياتها !!

قلبها ينتفض بالمزيد من الخوف والأصوات في ذهنها

تتداخل فلا تميز واقعاً من خيال ..

صراخ غازي .. صراخ هالة .. وصراخها هي!

فتحلق أناملها فوق اسمه تلطخ حروف رسالتها وهي

تحاول طرد كل هذه الصرخات ..

أنا معك ..

صوته الغريب يطغى على كل هذه الصرخات ..

فتغمض عينيها بقوة وهي تحاول بث الأمان لروحها

إنما دون جدوى!

المزيد من الأصوات الغريبة بالخارج لكنها تقنع

نفسها ..

_ ليس حقيقياً .. أنا .. أتوهم !

تشهق بعنف وهي تسمع الباب الخارجي يفتح فلا

تنتبه أن سبابتها ضغطت زر الإرسال مع هذا الرعب

الذي ملأها وهي تطوق سند بذراعيها تحميه من

مجهول لا تعرفه ..

_ ليس حقيقياً .. ليس حقيقياً ..

تتمتم بها بما يبدو كالهذيان وهي تميز المزيد من

الأشباح السوداء ..

عاد غازي !

لكنه لم يعد وحده !!

تشعر بأحدها يجذبها من ذراعها ليجبرها على
الوقوف فتطلق صرخة خافتة وهي تنقل بصرها بينهم
برعب ..

وفي بيته كان حسام يجلس على مكتبه يحاول إلهاء
نفسه بالمزيد من العمل ..
يتأوه أخيراً بإرهاق وهو يعود برأسه للوراء لينتبه
فجأة على صوت إشعار من هاتفه ..
ينعقد حاجباه بشدة وهو يقرأ رسالتها ..
_ أنا ..خ ..

يحاول استنباط ما تعنيه لكنه لا يفهم معنى الرسالة
التي تبعثت حروفها ..

يضغط زر الاتصال بها لكنه يغلق الاتصال دون أن
يتمه وهو يطلق زفرة ساخطة ..
لن يعود لهذه الحلقة من جديد !!
هو اتخذ قراره ولن يرجع عنه !!

يشعل سيجارة ينفث دخانها بقوة وهو يشعر بقلبه
يعانده ..

لكنه كعهده كان أقدر ما يكون على قمع نداءاته ..
يطفى سيجارته أخيراً لتتلاعب أنامله من جديد
بشاشة هاتفه كي يجري اتصالاً ..

لا .. ليست هي!
_فهد .. ديمة بخير !؟

ضحكة فهد الساخرة تتبعها سبة عابرة ليقول بصوت

ناعس:

_تتصل بي في هذا الوقت لتوقظني من النوم على هذا

السؤال؟! نعم..ديمة هانم بخير..عادت لبيت

العاصمة مع سند بعد سفر عاصي.

_وحدها؟!!

صوته القلق يجعل فهد يخفف لهجة مزاحه ليرد :

_ليس بالضبط..هناك حارس على باب البيت..وغداً

أرسل لها خادمة تقيم معها إقامة كاملة..لا أظنها

تحتاج لأكثر من هذا..لماذا تسأل؟!!

ترتجف شفتا حسام رغماً عنه وهو يعيد قراءة

رسالتها المبهمة ليهتف به :

_اجعل جنة تكلمها الآن..الآن يا فهد ولا تتأخر!

_مجنون أنت؟! تريدني أن أوقف الأستاذة في هذا الوقت كي تهاتف حبيبتي؟! أنا أحتملك لأنك صاحبي

وآخر صبري .. لكن ..

_فهد! أنا جاد! الآن ..

_لا تكن مجنوناً .. بالطبع لن ترد .. الناس نائمة الآن ..

_ليست نائمة .. لقد أرسلت لي رسالة لتوها ..

_ماذا قالت؟! ..

يتردد حسام قليلاً وهو يستعيد رسالتها فيزفر بقوة

وهو يشعر بالحماقة ليعاود قوله:

_لا شيء! أغلق الاتصال وعد للنوم!

يقولها ليغلق الاتصال ثم يتوجه لغرفة نومه ..

يعرف أنه لن ينام قبل الفجر كالمعتاد لكنه يحتاج أن

يخدع نفسه بالعكس .. ولو لهذه الليلة فقط!

يرفع غطاءه على رأسه ليعاود مطالعة رسالتها

بضيق ..

ما الذي كانت تريد كتابته ؟!

هل كانت تريده حقاً ؟!

أم أنها أرسلت الرسالة بالخطأ ؟!

هل يتصل بها ؟!

هل يعاود فتح هذا الباب ؟!

تساؤلاته تبقى جحيماً يستعر برأسه حتى تشرق

الشمس أخيراً فيستسلم لتثاقل جفنيه لكنها تبقى بطلّة

أحلامه ..

رفقاً صغيرتي رفقاً ..

رفقاً برجل قد ألف سيادة القلوب حتى أتيتِ.. فتسيدات

عيناك !

=====

بعد يومين

=====

_ هل نام سند ؟!

يسأل فهد بصوت مهموم لترد جنة وهي تجلس
جواره على الأريكة في شقتها قائلة بإشفاق:

**_ بصعوبة ! ظننت أن وجود ملك قد يهدئه لكن
المسكين شديد الارتباط بديمة ..متى ستخرج من**

الشفى؟!

**_ لا أعرف .. لا أحد يعرف ما بها .. كما تعلمين منذ
وجدناها تلك الليلة فاقدة الوعي في بيتها .. الحارس
يقول أنه استسلم لغفوة قصيرة ليفيق بعدها فيجد
الباب مفتوحاً .. لا آثار لعنف أو اقتحام أو بصمات**

غريبة..كل شيء مكانه ..هي فقط كانت فاقدة الوعي
وعندما استعادته في المشفى بقيت صامته ..لا تزال
ترفض الحديث مع الجميع .

يقولها بتعجب لتهمز رأسها قائلة :

_أنا أخبرت طيف اليوم ..هي كانت أقرب الجميع
لها ..طلبت مني أن أستدعي دكتور كنان .

_طبيب سند !؟

تهمز رأسها موافقة لتردف:

_يبدو أن له تاريخاً معها هي الأخرى ..طيف رفضت
الإفصاح عن تفاصيل لكنها أكدت على ضرورة
إخباره .

يتنهد فهد بحرارة وهو يغمغم ضائقاً:

_ أشعر ببعض الذنب ..حسام هاتفني ليلتها وطلب
مني أن أكلمها ..قال إنها أرسلت إليه رسالة ..ليتني
استمعت إليه !

_ هل أخبرته بما حدث!؟!

_ بالطبع لا! حسام مجنون بها رغم محاولته تجاهل
هذا الحب! لو علم فلن يهدأ حتى يتحدث إليها وهي
ترفض الحديث مع الجميع !

_ لعلها ترضى أن تحدثه هو !

تقولها جنة ببعض الأمل فيرمقها بنظرة مترددة ليزفر
قائلاً:

_ لا أعرف! أنا كذلك لم أخبر عاصي بالطبع ..يكفيه ما
هو فيه ! لم أرد أن أزيد همه خاصة ونحن لم نفهم ما
الأمر بعد .

تهز رأسها موافقة لتعقد حاجبها قائلة بعد تفكير

قصير :

_ دعنا نربط بعض الخيوط ..ديمة كانت زوجة
غازي ..والأخير كان يعمل مع الكوبرا ..تظنه خلف
هذا الأمر !؟

_ لا أظن ! لماذا تركها إذن كل هذه الشهور !؟
تهز كتفيها بجهل وهي تحاول التفكير في اتجاه آخر
لكن صوت رنين هاتفه يقاطعها ..

يفتح الاتصال لتتسع عيناه بارتياح وهو يستمع
للمتصل قبل أن ينتفض مكانه هاتفاً بغضب:
_ ماذا تقول!؟ خرجت من المشفى!؟ كيف سمحتم لها

!؟

_ لم تكن تشكو من شيء يا سيدي .. هي فقط كانت

عازفة عن الكلام

_ كيف خرجت؟! وإلى أين؟!

_ لا أدري .. أحدهم طلب زيارتها ثم وافقت على

الخروج معه !

_ ماذا؟! ماذا تقول؟! سأخرب بيوتكم! سأغلق لكم

هذا المشفى المتسبب !

يهتف بها فهد بحدة وقد احمر وجهه انفعلاً ليتحرك

نحو باب البيت فتهتف به جنة بقلق وقد فهمت ما

جرى :

_ اهدأ يا فهد .. إلى أين ستذهب؟!

_ ديمة لا تعرف أحداً هنا .. هذا يعني أنها اختطفت !

يهتف بها وهو يرتدي سترته ليتناول مفاتيحه فتهتف

به بانفعال:

_ لو كان هذا صحيحاً فهو يؤيد كلامي ..ربما كان
حادث تلك الليلة اقتحاماً فعلاً لكن الحارس خشي على
نفسه فكذب ..

_ لا أعرف ..الحقيقة ستظهر أياً ما كانت ..أنا سأذهب
إلى ..

يقطع عبارته بعجلة وهو يفتح الباب ليتجمد مكانه
وكذلك جنة وهما يميزان وجه ديمة الشاحب وقد
وقفت زائغة العينين أمام الباب ..

لينتبهها أخيراً لحسام الذي لم تكن ملامحه أفضل حالاً
منها وقد وقف ممسكاً كفها ..
_ حسام ! كيف عرفت !؟!

يقولها فهد بارتباك ليرمقه حسام بنظرة عاتبة ظلت

قوله المقتضب:

_ طيف أخبرتني .

يتبادل فهد وجنة نظرة ذات مغزى قبل أن يعود الأول

ببصره نحو صاحبه قائلاً بنبرة معتذرة :

_ كنت سأخبرك في الوقت المناسب .

_ لا بأس ..ديمة الآن صارت تخصني ..تخصني أنا .

يقولها حسام بنبرة غامضة فيتبادل فهد مع جنة نظرة

متسائلة قبل أن يفجر حسام قنبلته :

_ أنا ..تزوجتها .

=====

الطيب الثامن والعشرون

=====

أخضر

=====

_ هل انتهيتِ ؟!

يسألها إيهاب وهو يراها تحضر حقيبتها استعداداً
للانتقال لبیت إیاد لترد بابتسامة مصطنعة :

_ كدت !

تعود لتتهمك فيما تفعله وهي تهرب بعينيها منه
شاعرة بالاختناق ..

فمن تلوم إلا نفسها ؟!

هي التي عادت تلقي نفسها في بئر التنازلات هذه

المرّة لكنها لم تكن تملك خياراً آخر ..

هي خسرت عملها ونفسها وقبلهما شقيقتها ..

فهل تخسره هو الآخر!؟

فيما يراقبها هو بنظرة أسفة وهو يشعر بالحزن الذي

تخفيه ابتسامتها المصطنعة ..

يعرف أنها لم تكن لتوافق على وضع كهذا إلا لأجله ..

هو منحها حرية الاختيار للمرة الثانية .. فاختارته

أيضاً!

لماذا إذن يشعر بكل هذا الذنب نحوها!؟

تقطع أفكاره وهو يراها تتناول ملابسها من الخزانة

فتقع عيناه على قمصان نومها التي لم ترتدها منذ

زواجهما ..

وكذلك فعلت هي وأناملها تتلكأ عليها للحظة ..
لحظة واحدة لكنها كانت كافية لتطعنها هي بنصل
الشك في أنوثتها وهي تحمل نفسها مسئولية فشله ..
وتطعنه هو بنصل شعوره بالنقص والذي يزداد
تضخماً بينهما كلما مرت الأيام ..

صحيح أنه لم يحاول أن يعيد الكرة من يومها مخافة
أن يفشل من جديد - فلا تزال ذكري ليلة الزفاف بينهما
- لكنه يوقن أن السد بينهما يزداد ضخامة خاصة
وهي الأخرى لا تحاول الاقتراب مكتفية بصدائتهما
المزعومة .

كلاهما واقف مكانه ينتظر خطوة الآخر فلا يجد أيهما
بغيته !!

يزفر بضيق وهو يراها تتجاوز قمصان نومها دون

أن تمسها فتلتفت نحوه تسأله بقلق:

_ ماذا حدث؟! لماذا تزفر هكذا!؟!

لكنه هو الآخر يتصنع ابتسامة وهو يتشاغل بالنظر

في هاتفه قائلاً:

_ لا شيء .

لكنها تغلق الحقيبة علي ما فيها لتتوجه نحوه قائلة :

_ أنت تخشى الإقامة مع إياد في بيت واحد!؟!

_ لا ! طريق الصفح معه لا يزال طويلاً لكنني مستعد

للمضي فيه لآخره .. يجب أن يشعر برغبتنا الصادقة

في وجوده معنا .. هذا أقل حقوقه .

يقولها ببساطة خادعة مرتدياً قناع "الفاجومي"
ليردف وهو يرفع الهاتف ليلتقط لهما صورة مع
حقيبة سفرها :

_ستفيدنا لقطة كهذه عندما نتحدث عن "دعم
العائلة" لي.. "خوخة" تقول إن بيت إباد شديد
الفخامة ..يمكننا التصوير فيه كذلك ..لقطات كهذه
ستكون عالية المشاهدات ..رأيت عدد المشاركات
للفيديو القصير الذي شاركته على صفحتك بالأمس
ونحن معاً في صالة الألعاب الرياضية؟! تعلمين أن
صاحب الصالة بعدها طلب مني إعلاناً ممولاً؟!
تبتسم بحسرة لم يشعر به سواها ..

حسرة على نفسها ..وعلي " الفاجومي " القديم الذي
صار يرى قيمته في مجرد " أرقام " تضغطها أصابع
الناس !

الناس الذين طالما ادعى عدم اكترائه بهم !!
تسمع صوت خديجة تتاديهم من الخارج فيخرج
إيهاب من الغرفة بسرعة حاملاً الحقيبة فيما تبقى هي
تتاظر الغرفة بنظرات خاوية ..
هل تدعي أنها ستفتقد هذا المكان !?
لا تدري ..

هي حقاً لم تعد تدري ..
هي تسير في طريقها مغمضة العينين تنتظر
الاصطدام الوشيك الذي ستسقط بعده دون قيام !

تغادر الغرفة والبيت كله معها لتستقل معها
سيارتها نحو بيت إيد بعدما منحها خديجة العنوان ..
تركها لحديثهما لتشغل أغنية عاطفية حارة المعاني
قبل أن تتساب خواطرها بعيداً نحو "جنة خيالها" ..
حيلة جديدة ابتكرها عقلها الباطن كأنه يحميها المزيد
من الغرق في أسى واقعها ..

تتخيل إيهاب في صورته "الكاملة" التي
تتمناها .. يهمس لها بكلمات الغنوة .. ترتدي له أحد
هذه القمصان التي تركتها خلفها في البيت المهجور
فيسمعها أروع عبارات الغزل .. يخبرها كم هي
رائعة .. مثيرة .. يتندر عن حمق زوجها السابق الذي
استطاع مقاومة فتنة كهذه .. يعانقها بهذه القوة التي
تثير حواسها .. يحاول تقبيلها فتتمنع دلالاً لكنه

يضمها ببعض العنف فارضاً عليها سحر
رجولته ..يمزق قميصها ويمزق معه كل أثواب
النقص التي ارتدتها قبله ..فتبقى عارية إلا من حبه
يلقي عليها سدل ستر و.. "كمال"!

تدمع عيناها دون وعي وهي تعود لواقعها بعد انتهاء
الغنوة لتختلس نظرة جانبية نحوه فتراه منشغلاً
بهاتفه كعادته مؤخراً يراقب عدد مشاهدات قناتها
علي "اليوتيوب" والتي صارا يشاركان فيها
فيديوهات قصيرة يومية لهما بتوصيات من ذوي
الخبرة ..

تعترف أنها طريقة ناجحة لتستعيد شعبيتها وعدد
المشاهدات يزداد يومياً خاصة مع خفة ظل إيهاب

المعهودة وتعمره الحديث ببساطة عن تجاوز

عاهته ..

لكنها لا تشعر بالفخر .. بل بالخزي !!

كل ما حولها يصيبها بالاختناق ..

فتعود لـ "جنة خيالها " هاربة من جديد بغنوة أخرى!

_ انتبهي!

تصرخ بها خديجة بجزع فتنبئه للسيارة التي كادت

تصطدم بها لتتدارك الأمر في الوقت المناسب

فتتفادها ..

تسمع خديجة تلهج بالحمد بينما يهتف بها إيهاب

بلهفة حقيقية افتقدتها في صوته منذ زمن :

_ أوقفي السيارة .

تستجيب لأمره دون أن تفهم السبب لكنها ما كادت
تلتفت نحوه حتى شعرت به يجذبها نحوه ليضمها إليه
بقوة ..

تغمض عينيها بقوة وهي تشعر بتلاحق أنفاسه
اللاهثة يفضح عاطفته نحوها فتزداد كثافة الدموع في
عينيها وهي ترفع وجهها إليه قائلة :
_ أنا بخير .. لا تقلق ..

لكنه يبدو غافلاً عنها وهو يشعر أنه يفرغ كل توتره
في عناق كهذا !

خوفه من فقدانها صار يقارب الهوس !!
قلبه يرفع راية عشقها ..

وعقله يرفع راية فخره بامرأة مثلها ترقع قميصه
المثقوب بعاهته!

فلا يفكر أيهما تعلو رايته أكثر !!

كل ما يعرفه أنها صارت في حياته أعلى من هواء

يتنفسه !!

وفي مكانها تراقبهما خديجة بقلق وهي تقرأ بخبرتها

إشارات البركان الخامد الذي يوشك على الانفجار ..

مرح إيهاب المصطنع رغم قرب مواجهته الدائمة مع

أخيه ..

ابتسامة عزة الباهتة واستجابتها للتخلي عن مبادئها

القديمة ..

وهي ..

هي التي تجد نفسها في هذا العمر مجبورة أن تدفع

فواتير الماضي القديمة مع ابنيها فلا يمكنها التمييز

بين ظلم وعدل وقد اختلطت الرؤى!

ترى إيهاب يفلت عزة من بين ذراعيه أخيراً كأنما
ساعته ردة فعله "المنفلتة" والبعيدة عن الاصطناع
الدائم الذي صار يفرضه قناعه فتتهد بحرارة وهي
ترى عزة هي الأخرى تعود للقيادة متشبثة بابتسامتها
الباهتة ..

يصلون أخيراً للبيت فتتسع عينا عزة بانبهار وهي
تميز فخامة الفيلا أمامها ..

رغم اعتيادها هذه المظاهر في وسط عملها لكنها
بدت لها شديدة الأناقة بذوق مميز ..

ورغم هذا كان قلبها يختض بصدرها بعنف وهي
تشعر بالاختناق من تصور حياتها هنا ..

بينما كان إيهاب في وادٍ آخر وهو يتذكر قول إِياد ..

صار لدي بيت !

فلا يدري هل يفرح لأخيه الذي حقق حلمه بأروع ما
يكون هكذا ..

أم يتساءل بمرارة ماذا دفع في مقابل هذا؟!؟

هل يفخر بنجاح أخيه؟!؟

أم يشعر بالخزي من نفسه أكثر؟!؟

هاقد انقلبت الأدوار يا إياد!!

كنت أنا المدلل الذي يخطف الأبصار وكنت أنت نبتة
الظل المنزوية ..

فقال القدر كلمته ليرفع أهدنا ويخفض الآخر!!

يترجل من السيارة ليقف مع عزة وخديجة أمام البيت

الذي فتحت بوابته أوتوماتيكياً ليبدو خلفها إياد مع

هذا الشاب الغريب الذي يراه إيهاب لأول مرة ..

يتقدم إيداد نحوهم بنظرة مغلقة وملامح مبهمة أخفت
بجدارة ما يعتمل بصدرة وهو يقول بنبرة محايدة :
_ لا يصح أن يرحب بالناس في بيتهم .. وهذا صار
بيتكم .. صحيح !؟

ورغم ظاهر الود في عبارته لكن خديجة شعرت
بنصل بارد يخز صدرها وهي تترقب خطراً مجهولاً
يستشعره حدسها ولا تعرف سببه ..

يمد إيهاب يده ليصافح أخاه فيرمق إيداد كفه الممدود
للحظات بنفس النظرة المغلقة قبل أن يصافحه بصمت
قهر كليهما وكلاهما يتحاشى النظر للآخر ..

يتحرك إيداد ليواجه عزة أخيراً بنفس النظرة القاتمة
لتطرق ببصرها وهي تشعر بنفس الضيق الذي يملأها

كلما تراه.. يمد لها يده مصافحاً ليزداد شعورها

بالاختناق وهي تسمعه :

_ دعيني أعترف أن موافقتك على الإقامة هنا في بيتي

أدهشتني .. يبدو أنك تحبين إيهاب كثيراً .. هو جيد

زرع حبه في قلوب النساء .

نبرته الباردة تفضحها أخيراً هذه المرارة التي نضحت

بها حروفه الأخيرة ..

مرارة لو نطقت لصرخت .. "ورد"!

_ أنا أعرفك ! صحيح أنني غير مهتم بالطبخ .. لكنني

شديد الاهتمام بأي امرأة تجيده !

يقولها نزار مصافحاً إياها بنبرته العابثة التي لا تثير

الضيق بقدر ما تبعث المرح فيرفع الجميع إليه عيوناً

متسائلة ليعرفه إياهم :

_ نزار ..أخي العراقي!

تشحب ملامح خديجة فجأة فكأنها رأت على وجه نزار
شبح أبيه ..

ولم يكن نزار أفضل منها حالاً وهو الآخر يكره نفس
الرجل !

_ عاد من العراق ليقيم هنا معي في مصر ..كأنما هو

قدرنا أن يجتمع الإخوة في بيت واحد ..بيتي !

يقولها بنفس النبرة المغلقة لتتشح كلمته الأخيرة

بمزيج غريب من مرارة وشماتة لم يقرأها سوى

إيهاب الذي حدجه بنظرة طويلة صامتة قبل أن

يتحرك ليصافح نزار بعبارة ودود ..

يتحركون لداخل البيت الذي أشار إياد لحارسه أن

يغلقه و عيناه تتقدان بوهج مخيف ..

هل أن الأوان أن يسدد الجميع فواتير الماضي؟!
يصطحبهم نحو غرفة خديجة التي خصصها لها في
الطابق الأرضي ليفتحها لها فتدور بعينها على أثاثها
الفخم ليقول هو بنفس النبرة :

_ اخترتها لك تطل على الحديقة وحمام السباحة ..أذكر
أنك كنت تحلمين يوماً بغرفة نوم كهذه ..الأثاث أبيض
اللون كما تحبينه ..لا تحبين المرآة في مواجهة
الفراش ..بل جواره ..لا تحبين شماعات الملابس
فالثياب مكانها الدولاب كما كنتِ دوماً تقولين ..تحبين
الكومود بلا خزانة متعدد الأدراج..فالخزانة تضيع
المساحة دون فائدة ..تحبين السجاد بلون واحد كي
تبدو عليه النظافة ..هل أخطأت في تذكر شيء؟!
تدمع عيناها وهي ترمقه بنظرة طويلة صامتة ..

بقدر ما يحمل صوته من ظاهر ود .. لكنها تشعر بكل
ما يخفيه من عتاب ..

تود لو تعانقه في هذه اللحظة لكنها تتخشب مكانها
شاعرة بالحاجز اللامرئي بينهما ..

حاجز لا تظن نفسها ستتجاوزه بهذه البساطة ..
وقد صدق ظنها عندما وجدته يميل على أذنها هامساً
بخفوت كي لا يسمعه سواها:

__واخترتها قريبة من باب البيت .. أعرف أنك تحبين
الخروج السريع .

تشعر بهذه الغصة في حلقها وهي تدرك مغزى
عبارته لترفع إليه عينين عاتبتين .. ومعتذرتين !
لكنه يتجاوزها وهو يتحرك نحو الغرفة المجاورة التي
فتحها ليخاطب عزة بقوله :

_ وهذه اخترتها لكما.. استنتجت ذوقك من ديكور

البرنامج الذي يقولون أنك صاحبه ..

تتسع عينا عزة بدهشة لم تملكها وهي تتفحص أثاث

الغرفة الذي جمع اللونين البندي والأخضر في مزيج

فخم ..

لو كانت ستختار غرفة فلم تكن لتصير أفضل من

هذه !

هذا الرجل يعرف ما يفعله حقاً ولعل هذا ما يزيد

شعورها بالاختناق !!

_ أما أنا فاختر لي غرفتي بالدور العلوي ..لأنني أحب

الانزلاق على "درايزين" السلم ..يزعم أنه يفهم

ذوقي ولو كان صادقاً لمألي الغرفة بصور الفتيات

مادام عاجزاً عن إحضار مجسمات حية !

يقولها نزار بنبرته العابثة محاولاً تخفيف الجو
المتوتر بينهم لتمط خديجة شفيتها باستياء فيضحك
هو باستهانة قائلاً لنفسه :

أراهن أن "أبلة الناظرة" تريد تربيتي من جديد !مع
هذا الثلاثي الكئيب ومع إياد الغامض ستكون أيامي
هنا الفترة القادمة أشبه بفيلم ممل سأشاهده قسراً!
يمكنكم الاستراحة حتى يعدوا الغداء .

يقولها إياد وهو ينسحب مع نزار مبتعداً لتبتعد خديجة
بدورها نحو غرفتها وهي تشعر باللقاء الأول لهم هنا
لا يبشر بالخير ..

فيما يغلق إيهاب باب غرفتهما خلفه وهو يطرق
برأسه ..

لن تكون الإقامة هنا سهلة كما كان يظن ..

ليس وأخوه - على ما يبدو - يصر أن يغرس في

الصدور نفس النصل القديم !!

لكن .. لماذا لا يقترب هو منه ؟!

لماذا لا يزال بهذا الوهن من أن يفعلها ؟!

تنقطع أفكاره وهو يسمع صوت هاتف عزة يرن لتفتح

الأخيرة الاتصال ..

يحاول قراءة ملامحها فلا يستطيع ..

ياللخسارة !

هي التي كانت يوماً أمامه كتاباً مفتوحاً .. الآن لا

يمكنه تمييز رضاها من ضيقها !!

يتنهد بضيق وهو يتحسس ساقه الصناعية تحت

سرواله بحركة صارت هوساً ..

لتلتفت نحوه عزة أخيراً بعدما أنهت الاتصال لتقول

بابتسامتها المصطنعة :

يبدو أن فكرة المخرج كانت نافعة حقاً ..تعرف من

التي تكلمني؟! "بتول الراعي"! صاحبة أشهر

برنامج على القناة ..تريد استضافتي في حلقة

برنامجها القادمة معك لنتحدث عن قصة زواجنا

واحتفالاً بعودتي لبرنامجي ..أجل ..بعد بضعة أيام

سأعود لتصوير برنامجي من جديد .



=====

بنفسجي

=====

ادخلا ..

يقولها حسام بصوته القوي الذي غزته حشرة خفيفة وهو يفتح باب بيته لديمة وسند الذي وقف يناظر الحديقة بفرحة نطقت بها عيناه وهما تبحثان عن سلطانة التي علا صوت نباحها وسط جرائها ..
لا تزال ديمة زائغة البصر كأنها لا تعي ما حولها .. فقط كفها يتشبث بكف سند الذي أشار بكفه الحر نحو الكلبة لترتجف شفتا حسام بابتسامة واهنة وهو يتحرك بهما نحو سلطانة مخاطباً سند بقوله:

_هم أولادها ..أنا اخترت لهم

أسماءهم ..كيدار ..أميليا..كليلة ..فيجا ..زادة! غداً
أخبرك بمعاني أسمائهم .

يقولها حسام وهو يشير للجراء واحداً واحداً وقد
علق في رقبة كل منها شريطاً جليداً تتدلى منه حلية
نحاسية حفر عليها اسمها ..فيترك سند كف ديمة
ليرفع عينيه نحو حسام بنظرة وجلة لكن الأخير
ينحني ليجلس على ركبة واحدة أمامه قائلاً :
_ لا تخف ..سلطانة تثق بأصدقائي ..وأنت صرت
منهم .

لا تزال بحة صوته المتحشجة تثير عجب من يعرفه
بينما يبدو التردد على وجه سند للحظات قبل أن يأتي

بنفس الفعل المزلزل وهو يمسك كف حسام ليمسد
بالكفين معاً عنق سلطنة ..وجرائها هذه المرة !
فيما تقف ديمة دامعة العينين وهي تراقبهما بشرود ..
ما الذي تفعله هنا !؟

وماذا سيكون مصيرها مع الصغير عندما يعلم عاصي
بزواجها من حسام !؟

هل سيصدق وقتها أنها لم تفعلها إلا لغرض الحماية
!؟

لن يفعل!

لا أحد سيصدقها !

واحد فقط وعدها أن يفعل ..

حسام!

نظراتها تتركز على حسام لتتذكر ما كان بينهما في

المشفى ببعض العسر ..

لا تزال مشوشة بين الخيال والواقع لكنها تذكر وعده

جيداً ..

سأصدقك .. دوماً سأصدقك ..

ديمة ..

لم تنتبه لنداءاته المتكررة حتى علا صوته في الأخير

ليرتجف جسدها بخوف غير إرادي وهي تتلفت حولها

فيتهاهد بتفهم وهو يغمغم عبر صوته المثلث:

سند يبدو متعباً .. نحن نلعب منذ ما يقارب

الساعة .. ألا تشعرين بالتعب أنتِ أيضاً؟!

ساعة!!

هل تقف هكذا منذ ساعة؟!

هل فقدت الشعور بالزمن كما فقدت الشعور بالألم
الذي عاد إليها الآن وهي تحرك قدميها ببعض العسر
لتشعر بالوجع فيهما !؟

تشعر بكفه على ظهرها فيرتجف جسدها بالمزيد من
الخوف وهي تطرق برأسها للأسفل مكتفية بضم سند
إليها وهم يتحركون نحو البيت الذي فتح حسام بابه
وما كاد يغلق بابه خلفهم حتى التفتت إليه بنظرة
مرتعبة كأنها أدركت -لتوها- ما فعلته !

_ لا املك سوى غرفة نوم واحدة ..لم أكن أتوقع وأنا
أشتري هذا البيت أنه سيكون هناك من سيشاركني
سكناه .

يقولها بخشونة نجحت في إخفاء هذا الوجع داخله
وهو يفكر في عبارته ..

هاقد اقتحمت ساحرته الصغيرة أسوار قلعته لكن

يقينه أنها لن تبقى هنا طويلاً ..

مجرد عابرة سبيل غيرها ..

لا مكان للبراعم وسط جذب صحرائه ..

بل شوك صبار فحسب!

_ ستكون هذه غرفتنا معاً .. ثلاثتنا!

يقولها وهو يدفعهما برفق نحو غرفة نومه التي

فتحها ليرفع إليه سند عينين واسعتين متشحتين

بمشاعر عدة ..

فينحني نحوه حسام لينظر لعمق عينيه قائلاً:

_ تخاف النوم معي!؟!

يبقى سند يناظره للحظات وقد تكور كفه الصغير في

جيب سترته لينتبه حسام وهو يمد يده ليخرج كف

الصغير من جيبه ليراه قابضاً على "بطته" الصفراء

الصغيرة .. فيهمس له بين حزم ولين :

_ أبقها في جيبك وأعطني كفك ..

يبدو التردد علي وجه سند للحظات لكنه يستجيب

أخيراً فيقبض حسام على كفه بقوة رفيقة قائلاً:

_ نحن نستمد القوة من داخلنا لا من خارجنا .. إذا لم

تقوّ أنت قلبك فلن يمنحه القوة أي شيء .. أي

شيء .. هل تفهم !؟

تنفرج شفّتا الصغير كأنه على وشك الكلام لكن شفّتيه

لا تسعفانه سوى بكلمته الواحدة :

_ ماما .

هذه التي تخز قلب حسام وهي تذكره بذنبه فيشيخ
بوجهه لكن سند يمد كفه الحر ليدير وجهه هو نحوه
فيجبره على النظر إليه ..

تتسع عينا حسام رويداً رويداً وهو يقرأ نظرة الصغير
بتفرس نهم ..

لم يكن نافراً .. لم يكن خائفاً .. بل كان يرمقه بهذه
اللهفة الطفولية التي اتسعت لها حدقاته كأنه يريد
المزيد منه ..

الحقيقة أن كليهما كان يريد المزيد من الآخر!
حسام الذي ارتعد جسده وهو يرفع ذراعيه نحو
الصغير بخوف لم يشعر به سواه ..
يريد معانقته .. يريد به حاجة ضارية ..
لكنه يخشاه !

هو اعتاد الظماً طوال هذه السنوات فلم يعد يؤذيه

طول صيام ..

ويخشى أن تفسد "قطرة ماء" زهده فلا يعود بعدها

قادراً على المزيد من الحرمان .

_ افعلها .

كأنها خرجت لتوها من كهوف غياباتها لتهمس بها

ديمة بخفوت وهي تشعر بما يكابده مستعيدةً ما روته

لها أمه عنه فيرفع إليها بصره بحدة لكنها تكرر

بنفس الخفوت المرتجف :

_ افعلها .. يمكنك معانقته ..

حلقة الزعفران في عينيها تتوهج ببريق باهت لكنه

كان يكفيه !

يعانق سند !

يغمض عينيّن ويفتح عالماً!!

عالمًا يبدو هو فيه غريباً ملفوظاً لكنه -العجب-

يتشبث بموطئ قدمه فيه كأنه لو فعل فسيقبلون به

لاجئاً!!

آهة عالية تطلقها روحه ..

كل ندبة تركتها سجائره المطفية تكاد تصرخ مكانها

فيقشعر بدنه كله !!

كيف يمكن هكذا أن يجتمع في موضع واحد أقصى

شعور ب"النقص" مع أقصى شعور ب"الكمال"؟!!

مرارة اليأس مع حلاوة أمل؟!!

طول "خذلان" مع استشعار "سند"!!

أيهم منح الصغير هذا الاسم؟!!

كأنه كان يعلم أنه سيكون له منه كل النصيب؟!!

قطعة "البازل" الناقصة تبدو وكأنها تطابق هذا

الفراغ الناقص بلوحة روحه ..

لكن هل يطمع مثله في كمال؟!!

دمعة حارقة تكوي حدقته فلا يكثرث إن كانت لا تزال

أسيرة جفنيه أم فضحها السيل فوق وجنته ..

لا يهم !

هاهنا فقط لا يهم !

يبعد الصغير بأنامل لا تزال مرتجفة ثم يتحرك به نحو

الفراش ملاحظاً تتأقل جفنيه ورغبته في النوم لتلحق

بهما ديمة ببطء وهي تشعر أنها في حلم غريب ..

تستلقي شبه جالسة وهي تضم سند إليها محدقة في

الفراغ أمامها ليرقب هو جانب وجهها بتفحص

لدقائق طالت ..

هذه الوسادة التي طالما شهدت حلمه "المستحيل"

بها ..

الآن وقد صارت واقعاً ..تبقى مجرد حلم أشد

استحالة!!

_ نام .

يهمس بها أخيراً بخفوت وهو ينهض برفق من مكانه

فتنهض بدورها وهي تتلفت حولها بنفس النظرات

الزائغة ..

_ تشعرين بالغربة هنا؟!!

يسألها بالنبرة العجيبة التي مزجت قوة صوته

بحشرجته لترتجف شفتاها بالرد :

_ منذ فقدت بيتي في سوريا ..كل البيوت صارت

غريبة ..

ردها يعيده لعبارة قديمة قالتها له فيغمم :
_ يوماً ما سأحقق لك هذا الحلم ..بيت تملكينه ..لك
معه !

يقولها مشيراً لسند ثم يعود ببصره إليها مردفاً بنبرة
أكثر حسماً :
_ وحدكما .

هنا تشيح بوجهها فيزداد الحسم في كلماته :
_ كما وعدتك ..زواجنا لأجل حمايتكما فحسب ..عندما
تنتهي قصة ذاك ال "كوبرا" ..فستنتهي قصتنا معها .
لم تكن أقل شتاتاً منه وهي تشعر بكلماته تؤرجحها
بين أمان وخوف ..

هل تريد لقصتهما حقاً أن تنتهي ؟!
وهل لها ألا تنتهي ؟!

ترفع إليه عينين زائغتين كأنها لا تراه ليرفع ذراعيه
حولها بأنامل مرتجفة فكأنه هو لا يصدق وجودها من
الأساس ..

صوته القوي يرتعد .. يأمر .. يرجو .. يقسو .. يحنو ..

يخفت .. يخفت حد الهمس مع استطراده :

فقط .. دعيني أعانقك متى شئت .. دون مقاومة منك

أو تفسير مني .. فلو كنت تملكين الأولى فأنا لا أملك

الثاني .. أجل .. في كل ما يخصك صدقيني لا أملك أي

تفاسير .

تعود للخلف خطوة دون وعي كأنها عاجزة عن منحه

وعدها فيتراخي ذراعاها جواره وهو يغمض عينيه

بقوة عن ارتعادة جسدها التي يود لو يحتويها في

صدره مقاوماً هذا الإعصار الجارف بداخله ..

_ هل .. يمكنك .. تركي .. ووحدي .. لبعض الوقت؟!
همساتها بالكاد تغادر شفيتها متقطعة ذابلة تشبهها
فيرد بهمسه الحاسم :

_ لن أترك دقيقة واحدة .. أظن هذا كان اتفاقنا .. غداً
سأحول قضايا المكتب لمحامي زميل حتي يمكنني
التفرغ لقضية ذاك الوغد .

_ أرجوك .. بضع دقائق فقط ..

رجاؤها يمس هذه البقعة الخاصة جداً في قلبه ..
والتي تبدو وكأنها خلقت لها وحدها من بين كل
النساء اللاتي عرفهن !!

لهذا يطلق زفرة قوية وهو يشيح بوجهه :
_ سأخرج لأحضر حقائبكما من السيارة كي تتمكني
من تبديل ملابسك .. تريدين شيئاً آخر؟!

تهز رأسها نفيًا بسرعة فيرمقها بنظرة أخرى

متفحصة قبل أن يعطيها ظهره ليغادر ..

انتظر .

همستها الملهوفة تصيب قلبه قبل أذنيه فيلتفت إليها

لتشير بسبابة مرتجفة نحو مرآة الغرفة دون أن تنظر

إليها :

أعرف أنه ليس لائقاً .. لكن .. أرجوك .. لا أريد

رؤيتها .. يمكنك أن تغطيها بشيء ما ..

همساتها تغادر شفيتها مختنقة وهي تشعر بهذه

القبضة المشتعلة التي تصهر قلبها بين ضلوعها ..

لن تحتل رؤية أشباحها من جديد .. ليس ثانية ..

وليس هنا !!

ليس وهي في بيت قاتل هالة - كما تظن - !

يرمقها بنظرة مشفقة لم ترها ثم يتحرك لينفذ لها ما
أرادت قبل أن يطلق زفرة مشتعلة وهو يراها تجلس
على طرف الأريكة القريبة محتضنة جسدها بساعديها
وقد دفنت رأسها بينهما ..

_بضع دقائق .. فقط !

يشك أنها قد سمعته لكنه يتحرك ليغادر الغرفة نحو
الشرفة المجاورة لها ..

من مميزات هذه الشرفة أنها تحوي نافذة صغيرة
تفصلها عن غرفته ..

هذه التي يبقياها هو دوماً نصف مغلقة وقد حركها
الآن بحذر ليراقبها عبر ستارتها وقد خشي أن تؤذي
نفسها ..

لكنها بقيت ساكنة مكانها لدقائق فتهد ببعض
الارتياح وهو يستخرج من جيبه سيجارة أشعلها
لينفت دخانها ببطء وهو يتطلع للسماء المظلمة
حواله ..

نجم وحيد تراءى له هناك نابضاً بوميض متصل جعله
يشرد في تفاصيل لقائه بها صبيحة هذا اليوم بعدما
أخبرته طيف بما حدث :

سترفضين الحديث معي أنا الآخر؟!!
صوته لم يخرج منه متسائلاً أو مستنكراً بقدر ما
خرج منه حاسماً وهو يفاجئها بدخول غرفتها فتفاجئه
هي الأخرى بردة فعلها الأولى وهي تلتفت إليه
بصدمة لا تصدق وجوده ..



ترفع ذراعيها نحوه لثانية ..

ثانية واحدة قبل أن يعود ذراعاها ليحتضنا جسدها

الذي ارتجف بكائه ..

فيها إليه أن ذراعيها لم يعودا خاليين بل عادا بقلبه

معهما !

لا يدري كيف قطع الخطوات بينهما .. كيف صار

يجلس على طرف فراشها .. كيف صارت فجأة على

صدره .. كيف صار شعرها بين أنامله .. كيف امتزجت

أنفاسه بشهقات بكائها ..

كيف ..

كيف صارت بحجم الكون .. وأكبر !!

ارتجافتها تنتقل إليه فتستحيل لجمرة نار يرتعد بها

جسده :

_ أنا اسف .. اسف .. اسف ..

لا يدري كم مرة قالها بهذه الحرقه الغاضبه هادماً كل
أسوار كبريائه وهو يضغطها بين ذراعيه أكثر كأنما
يريد تخبئتها بين ضلوعه ..

لم تسأله عن سبب اعتذاره بل لم تبدُ واعية وبكاؤها
يصرخ بالمزيد من الخوف والحاجة ..

لكنه عاد يردف بنفس الحرقه الملتاعة :

_ أنا قرأت الرسالة ليلتها .. لو كنت اتبعت حدسي .. لو
كنت ..

زمجرة عنيفة يطلقها بحجم غضبه من نفسه وهو

يغرسها بين ضلوعه أكثر .. ليستمر لفح همسه

اللاهب في أذنيها :

_ تبا! ماذا لو كان قد أصابك مكروه .. ماذا لو ..

من جديد يقطع همسه المنفعل الذي يخرج منه
ارتجالياً عفويًا على غير عادة رجل مثله وهو يضغط
رأسها ببعض العنف على صدره ولا يزال عاجزاً عن
السيطرة على كلماته :

_شكراً..لأنك لا تزالين بخير هنا..شكراً لأنك لم
تمنحيني وجهاً أسود ملطخاً بذنوب آخر..أنا آسف..
شكراً..آسف..شكراً..

شكره يمتزج بأسفه في مزيج متوال غريب بدا
كالهذيان وجسده يشاطر جسدها رعدته لدقائق لم
يشعر بها كلاهما لم تبدِ هي فيها أي رد فعل يزيد عن
دموعها كأنها لم تسمعه..

ذراعها لا يزالان يحولان بينهما رغم ضمته القوية
لها لكنه يشعر بها تتحرك أخيراً..

أناملها ترتفع ببطء دون أن ترفع إليه بصرها ل..
تخمش أظافرها رقبتها بما بدا واهناً في بدايته قبل أن
يشد !!

يكتم تأوهات ألمه ضاعطاً أسنانه وهو يضطر لإبعادها
قليلاً بما يناسب فقط أن ينظر لوجهها لكنها تبقى على
بكائها مغمضة العينين فيناديها بقلق :

_ ديمة .. ديمة ..

لا يتلقى جواباً فيرفع أنامله ليحتضن وجنتيها بقوة
رفيقة يهز وجهها هامساً بحسم راج:

_ لن ترفضني الحديث معي كالجميع .. لن أسمح لك
ولو بقينا هكذا حتى ينال الموت من أحدنا .. أخبريني
بما حدث ليلتها .. أخبريني .. قولي .. قولي ..

لا تزال نبرته تتأرجح بين صرامة فطرية جبل عليها
ورقة مستحدثة بدت وكأنها تولد على يديها ..
صمتها الطويل لم يستجلب يأسه لكنها توقفت عن
خمشه أخيراً وهي تفتح عينيها ..

حلقة الزعفران فيهما منطفئة ذابلة وزرقتها غائمة
داكنة كأنها تسبح في ليل طويل ..
ليخرج صوتها أخيراً بشهقات متتابعة :

_ لن تصدقني .. لا أحد سيصدقني .. أنا نفسي لا أصدق
نفسي .. لم أعد أستطيع تمييز الواقع من الخيال .
_ سأصدقك .. دوماً سأصدقك ..

يهمس بها بحسم ليردف :

_ في كل مرة تتحدثين فيها إليّ تذكري .. كلامك لا
يخرج من "هنا" إلى "هنا" ..

يشير ب" هنا" الأولى إلى شفيتها وبالثانية إلى أذنيه

ليردف بنبرة أكثر حسماً :

_بل إلى " هنا"!

يشير بها لقلبه فلا يدري أي باب فتحته هذه الحركة

بينهما !

حلقة الزعفران في عينيها تعود للتوهج ببطء كأنما

يستعيد جسدها معها الحياة ..فتفتلت من بين شفتيه

تنهيدة حارة وهو يعاود همسه بأمل :

_ماذا حدث!؟!

_لا اذكر .. لا اذكر .. انا اخبرتهم كذلك انني لا اذكر .

همسها الشارد يبدو كالهذيان لكنه يعود ليهمس

: بصبر :

_من هم !؟!

_ لا ادري .. لا ادري .. غازي جاء بهم .. أشباح سوداء
مثله ..

يعقد حاجبيه وهو يحاول استنباط الحقيقة من الخيال
في روايتها ليقول مهانداً :

_ ماذا كانوا يريدون !؟

_ المفتاح !

_ أي مفتاح !؟

_ حقيبة البروكار .. التي أعدتها أنت لي .. كان ..

تحكي له بكلمات متلعثمة ليزداد انعقاد حاجبيه وهي

تروي له ما حدث في بيت عاصي لتختم بقولها :

_ أخبرتهم انني لا اذكر مكانه .. توعدوني انهم

سيعودون .. قالوا انهم لن يؤذوني هذه المرة لكنهم

سيفعلون المرة القادمة .. لو اخبرت احدا عنهم .. لا

أذكر شيئاً بعدها .. لا أذكر أي شيء .. ربما ضربني
غازي .. ربما أنقذتني هالة .. ربما فقدت وعيي .. لا
أذكر .. والله العظيم لا أذكر !

تنتهي همساتها المتحشجة ببكائها من جديد فيعود
ليضم رأسها برفق إلى كتفه مرتباً على ظهرها وهو
يفكر فيما قالت له طيف عن ضرورة اتصاله بدكتور
كنان ..

قد تكون تتوهم بعض التفاصيل لكن المؤكد أن هناك
بعضاً من الصحة فيما تروييه ..

_ أنا جننت؟! أنا أتخيل وجودهم .. كلامهم أكد لي
هذا .. كلهم قالوا أن البيت لم يقتحم .. وأنني فقط
سقطت فاقدة لوعيي .. لو علم السيد عاصي بهذا

فسيتهمني بالجنون ويحرمني من سند .. لو علم عن

سرقة غرفتي في بيته فسيغضب من...

_ أين كنتِ عندما سرقت الغرفة ؟!

يقاطعها بها باهتمام لتتردد قليلاً ثم ترد مضطرة :

_ عند والدتك .

_ والدتي أنا؟!!

_ يمكنك سؤالها لو لم تكن تصدقني .. ذهبت لأشكرها

على اعتنائها بي تلك الليلة .. طلبت منها يوماً ألا

تخبرك لكن الآن ..

يعقد حاجبيه مفكراً وهو يراها تقطع همسها

المرتجف :

أنا خائفة أن أخبر السيد عاصي .. وخائفة أن يعودوا

ليؤذوني .. لا أعرف ماذا أفعل .. ولا أذكر مكان

المفتاح .. والله لا أذكر مكانه ..

يعود ليربت على ظهرها بشرود وهو يحاول ربط

الخيوط ببعضها ..

من ذا الذي يجروني علي اقتحام قصر عاصي

الرفاعي؟!!

على حد علمه لا أحد يجروني علي فعلها فضلاً عن

استطاعته!!!

لو صدقت روايتها - وهو اختار أن يصدقها - فالمقتحم

كان من داخل البيت الذي يعلم هو أنه قد زخر

بالضيوف مؤخراً ..

أهل زوج طيف وبعض صديقات ماسة ..

صديق يحيى .. بل ودكتور كنان نفسه !
لن يستثني أحداً من شكوكه !!
لن يغامر بأي مجازفة مادام الأمر يتعلق بها
هي .. وسند !!

_ أنا مجنونة؟! انا اتخيل !! هل أقنع نفسي بهذا كي
أستريح!؟

همسها المختق يثير المزيد من حميته نحوها فيرفع
ذقنها نحوه هامساً بحسم :

_ لا تقنعي نفسك سوى بشأن واحد ... أنني لن اسمح
لاحد بعد اليوم بايذائك.. ولا حتى أنت نفسك!

_ ماذا ستفعل!؟

_ قومي واغسلي وجهك أولاً .

يقولها برفق أمراً فتتحرك لتتفد بينما يستغل هو
ابتعادها ليجري مكالمة سريعة مع أمه تيقن فيها من
صحة ما قالتة ..

إذن هي لا تهذي ..

كلامها يحوي جزءاً من الحقيقة على أي حال !
مكالمة أخرى سريعة لضابط كان من زملائه طلب منه
أن يعيد استجواب الحارس بطريقته ليفهم حقيقة ما
حدث ليلتها ..

ثم مكالمة أخيرة لدكتور كنان أخذ رأيه فيها فيما
"ينتويه" ليمنحه الرجل استحسانه !

تعود إليه أخيراً فيقف مكانه في مواجهتها لينظر
لعمق عينيها قائلاً:

_تثقين بي؟!!

لا تتطق بالجواب لكن كل خلجة من خلجاتها تفضحه

فيكتنف ذراعها بقبضتيه برفق مكرراً سؤاله :

_تثقين بي يا ديمة ؟؟

تهز رأسها أولاً بالإيجاب ثم تعود لتهزه بالنفي قبل أن

تعود الدموع لعينيها الزائغتين فيقترب منها خطوة

وقد ألهمه حدسه أن يهمس بها جوار أذنها كأنه يعيد

إليها ذكرى كل مرة نطقها فيها :

_أنا معك ..

زرقة عينيها تصفو رويداً رويداً وهي ترفعهما نحوه

فيحسم أمره لينطقها :

_سنتزوج !

لا يدري من أين أتته الفكرة المجنونة !

حتى وهو يستشير كنان بشأنها لم يكن يصدق أنه

سيفعلها !!

هو ..حسام القاضي يتزوج من جديد بهذه الطريقة

ولهذا الغرض!

وممن ؟!

من امرأة بظروفها كانت متهمة بقتل زوجها ؟!

وهي ؟!

ماذا عنها هي ؟!

هل يظلمها من جديد كما فعل بدعاء ؟!

هل يحرمها قدرتها على أن تحظى بطفل وهي التي

ذاقت ما ذاقته من ويلات وحدثها ولا يزال العمر

ينتظرها لتعوض خسارتها ؟!

أي عقل يدفعه لفعل هذا ؟!

فيما تشهق هي بارتياح وهي تحاول التملص من بين

ذراعيه لكنه يتشبث بها ليعاود احتكار نظراتها ..

وكأنه يجيب نفسه قبل أن يجيبها :

_ليس زواجاً بالمعنى المفهوم ..أنا فقط أجد لنفسي

حقاً في حمايتك أنت وسند ..في البقاء جواركما دون

البحث عن صفة ..وعندما تزول هذه الغمة فسأمنحك

حريتك فوراً .

تهز رأسها رفضاً وذكرى الثوب الأبيض الملطخ بالدم

تعاود اكتساح ذاكرتها ..

زواج ؟!

ثانية ؟!!

تكتم صرخاتها بصعوبة ومشاهد متفرقة من حياتها
مع غازي تكتسحها لكنه يخرجها قسراً من جحيم
خيالاتها وهو يهزها بين ذراعيه هاتفاً :
_ لن أمسك لو كان هذا ما يخيفك هكذا ! قولي نعم يا
ديمة .. أنا أعرف أنك تثقين بي .

شروذ ذكراه ينقطع وهو يشعر بلسع سيجارته
لأصابعه فيطفئها بسرعة وهو يعود لواقعه ..
هاهي ذي قد وافقت ليتم الزواج !!
صحيح أنه لا يدري كيف تم الأمر بهذه السرعة لكنه
ليس بنادم !
يكفيه أن يقتنص فرصة قربها مع سند ..

يكفيه أنه يشعر أنه يحميها لعله يسدد بعضاً من ذنبه

القديم!

"وجه أبيض" آخر نادر قد يكون محظوظاً بأن يناله

وسط سواد وجوهه!

يشرد ببصره وهو يتخيل أنه أنقذها مما هي فيه ..وقد

ساعدتها لتحسن حالتها ..

يمعن في الخيال فيتصور سند وقد شفي واستعاد

قدرته على النطق ..

ثم يمعن فيه أكثر فيتصور نفسه معهما هنا وقد

صاروا عائلة كما وصفت طيف النهاية السعيدة كما

ترتئياً ..

لكن النهاية السعيدة تكون في الروايات ..فقط!

_تهربين من جحيم الخيال يا صغيرتي ..ولا تعلمين

أنه لأحدهم جنته !

يخاطبها بها سرّاً قبل أن يعود ببصره للنافذة فينعد

حاجباه وهو يميز اختفاءها من الغرفة ..

يطمئن لوجود سند لا يزال نائماً مكانه فيهرع ليبحث

عنها ..

يطرق باب الحمام المرفق للغرفة برفق ليشرع بالمزيد

من القلق وهو لا يسمع رداً ..

يكرر طرقاته الخافتة محاذراً إيقاظ الصغير فيستعر

القلق بصدرة أكثر والصمت المطبق جوابه فلا يجد

بدأً من فتح الباب لتشعب ملامحه بصدمة وهو يميز

ما يراه أمامه ..

=====

الطيب التاسع والعشرون

أبيض

_ ماذا تقول؟! ماذا تعني بأنه تزوجها؟!!

يهدر بها عاصي بغضب عارم عبر الهاتف ليرد فهد

محاولاً تهدئته :

_ أنا تفاجأت بالأمر مثلك تماماً.. صدقني هو لا يريد

تحديك ولا إهانتك.. يمكنك أن تفهم منه الأمر أكثر لو

تحدثتما بصورة ودية.

لكن عاصي يقول ببرود صارم :

_ أغلق الاتصال الآن وسأفهم بطريقتي ما حدث.. لن

أنسى لك أنك لم تكن على قدر ثقتي.

_ عاصي!

تهتف بها ماسة بعتاب وهي تراه يغلق الاتصال لكنه

لا ينظر إليها وهو يجري اتصالاً آخر..

_ ماذا حدث عندك؟!!

يهتف بها لمحدثه بصرامة ثم يستمع قليلاً ليهتف

بعدها بثورة عارمة اشتعلت لها غابات الزيتون في

عينيه :

_ ولماذا لم تخبرني؟! لا! ليس عادياً! .. لست أنت من

تحكم على ذلك.. دبة النملة عندك يجب أن تصلني

هنا.. أثق أن الأمر لن يتكرر فأنت تعرف العاقبة!

يغلق الاتصال بعنف ليلقي الهاتف جانباً ثم يتوجه نحو نافذة غرفتهما في الفندق القريب من المركز الصحي الذي تحتجز فيه الرضيفة لمتابعة حالتها.. فتتهد بحرارة وهي تتوجه نحوه لتحتضن ظهره بساعديها فتشعر بتوتر جسده المشدود كالقوس.. ترفع راحتها ببطء تتلمس موضع خافقه ثم تقبل ظهره المقابل لها في نفس الموضع كأنما تمنحه شعوراً أنها تحيط بقلبه من كل اتجاه.. هذا الشعور الذي وصله تماماً ليسترخي جسده رويداً رويداً..

كعهدا ماسته تجيد امتصاص هذا الغضب الذي
يقتات على روحه كمارد أسود!

تبقى على صمتها لدقائق مكتفية بعناقها إياه وهي

تدرك ما تشعر به الآن..

مرض شمس..

سفرهما المفاجئ..

غيابهما الطويل لأول مرة عن طفليهما..

وأخيراً.. زواج حسام الغريب من ديمة بمجرد

سفرهما كأنه انتهز فرصة غياب عاصي ليتحداه!!

كل هذا كثيرٌ علي احتمال رجل بماضيه خاصة وهي

تدرك كيف يفكر..

عاصي لا يزال يجلد نفسه بذنبه القديم!!

لهذا ما كادت تشعر بهدوء خفقاته حتى أدارت كتفيه

نحوها لتحيط وجنتيه براحتيها قائلة :

_ قبل أن تأخذ أي قرار.. دعني أخبرك أن دكتور كنان

هاتفك اليوم.

يعقد حاجبيه بشدة لتردف :

_ كنت مشغولاً مع الطبيب بخصوص شمس.. وأنا

فتحت الاتصال لأنه كرره كثيراً.

يزداد انعقاد حاجبيه لتزدرد ريقها ببطء قائلة :

_ يريد الحديث معك بشأن سند.. وديمة كذلك!

_ ماذا عنهما؟!!

_ أفضل أن تسمع له بنفسك!

تقولها برفق فيتحرك ليتناول هاتفه من جديد لكنها

تجذبه برفق لتجلس معه علي الأريكة القريبة..

تحتوي رأسه فوق صدرها فيشدد ضمة ذراعيه حول

خصرها لتهمس له بعمق عاطفتها :

_ هذا الرجل الذي هو بين ذراعيّ الآن.. هذا العناق
بهذه الطريقة بالضبط.. هذه النظرة في عينيك بين
غضب وانكسار.. كل هذا عشته معك من قبل.. عشت
مع عاصي الذي اکتوى بذنب طيف.. ثم بذنب
حورية.. ثم بذنب هالة.. ثم بذنب سند.. أنا أكثر من
عايشت ألمك.. انكسرت مع حزنك.. وأينعت مع
فرحك.. لا أحد مثلي شهد كم هو كبير هذا الصدع
داخلك.. لكنني كنت أراهن نفسي كل مرة أنني قادرة
على ترميمه.. كل مرة رغم كوني أشاركك الجرح
لكنني كنت أسعى لمداواتنا معاً.. لأنني كنت أوقن
دوماً أن سقوط أحدا هو سقوط الآخر.. ويعز عليّ
الآن أن أعود معك لنقطة البداية.. أن أراك تمحو

تاريخاً دفعنا الكثير ثمناً له.. ان أشهدك تخبط رأسك
في حائط الذنب غافلاً عن عطايا النور حولنا..
يرفع رأسه إليها ببطء لتلتمع بحار فضتها مع
استطرادها الحار :

_مرض شمس ليس عقاباً.. لعله ابتلاء آخر في
رحلتنا.. لعله الاختبار الذي سنجتازه شاكرين.. أعرف
أنك لا تزال تشعر بالذنب نحو سند وتربط هذا بذاك..
لكن.. حتى لو فكرت معك بهذه الطريقة.. فالفرصة لم
تفت بعد.. نحن لم نقصر في حق سند.. ولن نفعل..
يشيح بوجهه دون رد.. فتدرف بانفعال :

_يمكنك أن تتصرف كعاصي الرفاعي القديم.. تقيم
الدنيا ولا تقعدها لأن ديمة تجرات وعصت أمرك..
تحرمها من سند وتقصّيها بعيداً وتنتصر لنفسك..

يلتفت نحوها بحركة حادة وغابات الزيتون في عينيه

تشتعل بغضب لكنها تردف بنبرة أرق :

ويمكنك أن تتصرف كعاصي الجديد.. عاصي الذي

لم يبال وهو يجهر أمام الدنيا كلها بحق أخته في

نسبها.. عاصي الذي رفع رأسها ووقف جوارها

وجوار زوجها.. و.. عاصي الذي لن يفكر في عقاب

ديمة أو حسام قبل أن يفكر في مصلحة سند.. والذي

سيغلب انسانيته على كرامته متى تعارضت إحداهما

مع الأخرى!

يزداد اشتعال غابات الزيتون في عينيه وهو يطبق

شفتيه بقوة ضاغطاً فكية بهذه الحركة التي تفضح

غضبه لكنها تلقي رأسها على صدره لتقبل موضع

قلبه هامسة :

_أثق أن هذا القلب لن يخذلني.. أو من به.. كما أو من

بنفسي.

صمت قصير يسودهما في جلستهما هذه لتسمع
زفرته القصيرة بعدها ثم تشعر به يقبل جبينها بعمق
قبل أن يبعدها ليتحرك فيتناول هاتفه..

تبتسم مكانها ببعض الأمل وهي تراه يجري الاتصال
بدكتور كنان..

ثم ترفع عينيها للسماء بدعاء خافت..
قلبها يخبرها أن "المحنة" تخفي داخلها "منحة"..
إنما هو القدر جيد تشابك الخيوط.. كما جيد فكها!

=====
بنفسجي
=====

يهياً إليه أن الدم قد غادر عروقه كلها للحظة قبل أن
يعود ليضخ "النار" داخله وهو يراها أمامه بهذا
الوضع ..

جسدها العاري الذي لا يزال الماء يقطر منه مكوم
على الأرض وقد أحاط شعرها بوجهها فلم يتبين ما
بها ..

يستعين بأقصى قدر من ثباته الانفعالي وهو ينظر
خلفه ليطمئن لنوم الصغير قبل أن يندفع نحوها هامساً
باسمها عدة مرات ليفاجأ بشظايا الزجاج تحت قدميه
وقد جرحت أحد أصابعه لكنه لم يبال وهو يلتفت جانباً
نحو المرأة المكسورة ...

تبا!

ما حكايتها مع المرايا!؟

أهذا طلبت منه تغطية مرآة غرفته!؟

الخوف يملك منه أكثر وهو يراها لا تحرك ساكناً ..

ينحني وأنامله المرتجفة تمتد لترفع شعرها عن

وجهها ولا يزال نداؤه باسمها يغادر قلبه قبل لسانه

ليوقن بعد عدة صفعات خفيفة لوجنتها أنها فاقدة

الوعي!

يلعن نفسه على تركه وحدها وهو يجذب منشفة
قريبة ليلف بها جسدها لتتوقف عيناه أمام هذه
الندوب التي تفرقت على طولها في مواضع عدة
ليشعر ببركان تائر يجتاحه من مشاعر متباينة ..
غضب .. لأجل رقتها التي دهستها قسوة ذاك الوغد ..
شفقة .. على هذه الطفلة التي لا تزال تختبئ في ثوب
أنثى وتخيفها صورة مرآة ..

خوف .. لا يليق برجل مثله وهو يخشى أن يؤذيها
غروره فيكون جرحها أكبر من أن يداويه ..
وأخيراً .. هذه الشظايا التي تتفجر داخل روحه واحدة
واحدة موجهة شغف رجولته أمام امرأة بهذه الفتنة
وبهذا الوضع !!

لكنه ينحي كل مشاعره جانباً بقوة يحسد عليها وهو
يحملها ليخرج بها من الحمام ليغادر بها الغرفة نحو
غرفة مكتبه فيضعها على الأريكة برفق ..

يتحرك بسرعة ليحضر عطراً نفاذاً قريباً من أنفها ولم
يكد يطمئن لاستجابة حواسها حتى قام بسرعة ليغلق
باب الغرفة بالمفتاح مخافة أن يستيقظ سند فيراها
هكذا ..

يشغل المدفأة هناك ثم يعود إليها مهرولاً ليجلس علي
ركبتيه جوارها على الأرض .. يربت على وجنتيها
تارة محاولاً جعلها تفتح عينيها .. ومدلكاً أطرافها
الباردة تارة أخرى محاولاً بث الدفء لشحوبها
المخيف ..

ووسط كل هذه كانت همساته باسمها تخرج كجمرات

من نار تكوي جنباته !

تفتح عينيها أخيراً فيعود برأسه للوراء وهو يشعر

برفرقة أهدابها تدوي بين ضلوعه هو كالرعد ..

زرقة عينيها تبدو له أشد قتامة كليل دامس الظلام

فيبحث عن ضالته في حلقة الزعفران خاصتها ..

هذه التي خفت بريقها حد الانطفاء لكنها بقيت تدعوه

أن يقترب ..

فهل يلبي؟!!

حلقة يجف وهو ينحني بوجهه أمام وجهها .. أنامله

المرتجفة تلم خصلات شعرها المبتلة لتبعدها عن

وجهها ..

صوته القوي الآن يغادر سجون شفثيه بصعوبة

ليخرج مبوحاً أجشاً:

_ أنت بخير .

يقولها كخبر لا كسؤال فلا يدري هل يطمئنها أم

يطمئن نفسه ..

لتنفرج شفثاها عن أنين خافت وعيناها تزيغان في

الفراغ للحظات كأنها لا تراه ..

قبل أن تمتد أناملها ببطء ليشعر بها تتشبث بكفه

بوهن "لا توازيه قوة" !!

هنا يشعر أنه يفقد سيطرته تماماً على كل شيء وهو

ينحني فوقها ليغمرها بكل جسده كأنه يحميها بكل ما

فيه ..

يفتديها بكل ما فيه ..

ويشتهيها بكل ما فيه !

أنامله الحرة تمتد تهم لتتزع عنها المنشفة وشفته
على بعد عدة أنفاس لاهثة منها وهذا الجوع التائر
لها داخله يحيل جسده لبركان على وشك الانفجار ..
لكن قبضته تتجمد مرتجفة على قماش منشفتها الذي
بدا له رغم نعومة قطنيته كآخر حاجز شوكي يفصله
عن آدميته!

يسمعها تهمس باسمه بتشتت وكفها الواهن يتخلى
عن تشبثه بكفه ليخمش عنقه بأظافر كالمرة
السابقة لكنها كانت أشد ضعفاً هذه المرة كأنما
استنفذت ما بقي لها من قوة ..

ينتزع نفسه عنها انتزاعاً وهو يشعر بهذه الرعدة في

جسده تكاد تزلزلهما معاً ..

هو لم يمنع نفسه يوماً عن امرأة مرتدعاً بسيف

الحرام فكيف يمنعها الآن ومعه رخصة حلال؟!!

ينتفض عنها ليهب واقفاً فتتلقفه عيناها التائهتان

ليشير لها براحتيه المرتجفتين قائلاً بصوت اجش:

_ لا تتحركي حتى أعود ..

يركض خارج الغرفة كأنه يهرب من شيطان نفسه

ليهرع نحو الحمام القريب فلا يشعر إلا والماء البارد

يغرق رأسه الذي نكسه في الحوض ..

ولا تزال فتنتها تشعل النار عبر عينيه المغمضتين

حتى شعر أخيراً أنه تمالك بعض قوته فرفع عينيه

ليغلق الصنبور ..

_ الحمد لله.. الحمد لله..

لا يدري متى كانت آخر مرة لهج قلبه هكذا بالحمد
قبل لسانه ..

ربما كان ذاك اليوم الذي انقذ فيه دعاء من السقوط
من فوق السطح..

اليوم – ربما من السقوط كذلك- أنقذ نفسه!
وفي مكانها كانت هي لا تزال عاجزة عن تمييز
وضعها..

عينها تجولان في المكان حولها..
الرؤى تتداخل فلا تكاد من سرعة إيقاعها تتبين
صحتها من زيفها..

حسام كاد ينتهكها كغازي.. فخمشته بأظافرها..
تماماً كما فعلت بالمشفى..

هي تملك القدرة على دفع الضر عن نفسها إذن؟!
ضحكة غازي الساخرة تدوي في أذنيها كما سمعتها
في مرآة الحمام منذ قليل..
_ أنت أجبن من أن تؤذي نملة.. تزوجته لأنك رخيصة
بلا ثمن..

تضغط شفيتها المرتجفتين وهي تتذكر كم صارت
المرايا مخيفة دون شبح هالة!!
أجل.. شبح هالة اختفى تماماً هنا..
لم يعد معرضاً أو عاتباً.. بل رحلت تماماً لتفقد
برحيلها بوصلة اتزانها بين شبح غازي الأسود
وشبحها هي الأرجواني الذي يدعوها للانتقام من كل
من آذاها..

لماذا قبلت الزواج من حسام؟!

هل أسلمها خوفها لهذا الوهن؟!
أم أنها في داخلها أرادت الاقتراب أكثر من عرين
الذئب كي تعرف عنه أكثر؟!
أم أنها فقط أغمضت عينيها واستسلمت لحدسها
يسير بخطاها نحو الأمان?!

آهة خلف آهة تطلقها روحها دون شفيتها وما أقسى
هذه الآهات التي تصمت عنها الشفاه ليعود صداها
شظايا تتفجر في الصدور المغلقة!

تشهق شهقة خافتة وهي تراه قادماً من جديد يحمل
بعض الشطائر وكوباً من العصير فتزدرد ريقها بتوتر
وجسدها يستعيد تحفزه..

ترفع عينيها إليه فلا تجد ملامحه أقل توتراً منها..

يجلس جوارها ليصلها صوته القوي مشبعاً بحنان

يبدو وكأنه خلق لها :

_تُشعرين بالدفء!؟!

تهز رأسها بالإيجاب دون شعور حقيقي فيردف

بتفهم :

_يمكنك ارتداء ملابسك متى تستعدين عافيتك.

_ماذا حدث لي!؟!

_وجدتك فاقدة لوعيك في حمام غرفت "نا" .

ضمير الجمع الذي ألصقه بغرفته يدهشهما معاً بهذه

السلسلة التي جرى بها على لسانه..

لكنه يتمالك نفسه ليقرب كأس العصير من فمها

هامساً :

_ اربع ملاعق من السكر.

_ لازلت تذكر!؟!

تهمس بها بشرود وهي تتذكر يوم كانا معاً عند

والدته ليرد بشجن لم تفهمه :

_ ربما كانت هذه لعنتي دوماً! أنني لا أنسى!

ترمقه بنظرة مشوشة لكنه يداعب شفيتها بحافة

الكأس ليجيرها أن تفتحهما..

_ لا تفكري في شيء.. اشربي ثم كلي فحسب.

صوته الصارم يرق بحنان يجعل من معارضته درباً

من الاستحالة..

أو لعلها هي التي كانت في أو هن حالاتها وهي تشعر

أنها في أقصى أراضيها غربة ووحشة..

بينما يرمقها هو بنظرات شغوف كأنه لم ير امرأة من

قبل..

هذه الطريقة التي ترفرف بها أهدابها كأنها تسجن

خلفها ألف سرب حمام..

هذا النهم الطفولي الذي تشرب به العصير دون

تحفظ..

هذه الضمة الرقيقة التي تتكور بها شفتاها بينما

تأكل..

وهذا الألق الخاطف لحلقة الزعفران في عينين صارتا

هوسه..

ياالله..

كيف يقاوم كل هذا السحر!؟

تنتهي من تناول طعامها فيتناول هو منديلاً ورقياً
يمسح به شفيتها.. لترفع إليه عينيها بترقب وجل..
ربما لو كانت امرأة أخرى سواها لاعتبر حركته مجرد
سبيل غواية..

لكنه معها هي يشعر أنها فقط دليل انتماء..

انتماؤها إليه.. وانتماؤها إليها!

_ ماذا حدث قبل أن تفقدي وعيك؟!

سؤاله يخرج كليهما من هذه الهالة المشعة حولهما

ليعود الخوف لسكنى عينيها من جديد..

يشعر كأنها فجأة خرجت من نفسها لتهم روحها في

الفراغ حولهما..

لكنه لم يكن يسمح لها بالمزيد من الضياع وهو

يقترّب منها أكثر حد الملاصقة..

يحتضن وجنتيها براحتيه بهذا الطغيان الحاني

ليجبرها على النظر إليه..

_ ماذا حدث؟! ... ستقولين.

لكنها تهز رأسها نفيًا والدموع تتدفق من عينيها فيهبز

وجهاها ببعض القوة وهو يغرس نظراته في حدقتيها

لتهمس بضراعة :

_ أرجوك.. اتركني.. آسفة لأنني أفزعتك.. لن أسقط

ثانية.. لن أفقد وعيي ثانية.. فقط اتركني.. آسفة...

آسفة.. لن أفعلها ثانية.

ينعقد حاجباه بشدة والشفقة داخله تتحول لغضب

هادر وهو يسمعها تعتذر بهذه الحرارة الخائفة..

أي وغد كان ذاك الرجل الذي ذبح آدميتها بهذه

الطريقة؟!!!

وهل كان هو على وشك التحول لهذه النهاية مع دعاء

لولا أن أنقذها القدر؟!!!

الخاطر الأخير يزيد غضبه فتهم أنامله بالضغط أكثر

على وجنتيها لكنه يشعر بحاجته لترويض انفعالاته

معها..

لو كان هذا ما تحتاجه منه فلن يخذلها!

لهذا يأخذ عدة أنفاس متتابعة يتمالك بها نفسه

مغمضاً عينيه عن هذه النظرة الضارعة المختنقة

بالخوف في عينيها..

ليكرر سؤاله مرة تلو مرة بصبر دون ملل..

فتهز رأسها كل مرة رافضة الجواب حتى تنفض

وجهها أخيراً بعيداً عن كفيه لتصرخ بحدة عالية

كأنما تلبستها روح أخرى:

_ لن أقول.. لن أقول.. لم أقل لأحد ولن أقول..
ستقولون عني مجنونة.. قولوها إذن ودعوني
لشأني..

ورغم صدع قلبه بما قالت له لكنه عاد يكتنف وجهها
بين راحتيه ليهمس بإصرار :

_ فليكن.. لنجنّ معاً.. أخبريني ماذا رأيت ودعيني
أشاركك الجنون!

تتسع عيناها بصدمة كأنها لم تتوقع رده فينتهز
الفرصة ليقترّب منها أكثر حد امتزاج أنفاسهما كأنه
يبرهن على كلامه مع همسه:

_ كان هذا اتفاق زواجنا ومضى زمن التراجع.. القيد
الذي يربطنا لم يعد لينكسر حتى أقرر أنا.. ولن أفعّلها
حتى أشعر أنني قد وصلت بك مع سند لبر الأمان..

وحتى ذلك الوقت لن أتركك لشيء دوني.. حتى

أنفاسك تنتشاركها.. مفهوم !؟

ترتجف شفتاها بمزيج من رهبة ودهشة إزاء

صرامته الحانية..

هي عرفت كيف يكون الرجل حانياً كما كان أبوها

وجدها..

وكيف يكون طاغية كغازي وعاصي الرفاعي..

لكن هذا المزيج من الطغيان الحاني لم تعرفه من قبل!

هل تبوح له بسر مراياها؟!

هل تخبره؟!

_ أطيلي صمتك إلى ما شئت.. صبري أطول!

يهمس بها بنفس النبرة لتتفقت منها تهيدة أخيرة

كانت أشبه بانهيال السد!

لم تدرِ كيف صار رأسها فجأة على صدره..
لم تدرِ كيف خرجت منها الكلمات.. كيف كان
الوصف..

هي فقط.. تكلمت!!

تكلمت كما لم تفعل منذ وفاة غازي!!

بل.. كما لم تفعل منذ تزوجته!!

وأمامها كان هو يحتضنها بقوة من يخشى أن تضيع
منه في سجون صمتها من جديد..

كلماتها تخرج مندفعة سريعة غير مرتبة كهذيان
مجنون فلا يكاد يفهم منها شيئاً..

لكن يكفيه أنها تكلمت.. معه هو!!

يغمض عينيه بأسى وهو يحاول استخراج بعض
المنطق من جملها المنقوصة..

_البحر.. القارب.. أمي.. غازي.. هالة.. هم هناك في
المرآة.. غازي عاد.. هالة كانت غاضبة ثم تركتني..
يجب أن أوذي كي لا أوذى.. شبح أسود.. شبح
أبيض.. شبح أرجواني..

يحاول حفظ ما تقول كي ينقله لدكتور كنان كما اتفق
معه بينما يشعر بقلبه يتفتت من هول شعوره..
لو كانت هذه الفوضى الخائفة هي ما استطاعت البوح
به.. فماذا عن ذاك الخراب بداخلها!
يسمعها تصمت فجأة كما تكلمت فجأة فيبعد وجهه
قليلاً لكنه يعود ليغمض عينيه بقوة وهو يشعر
بخمش أظافرها لعنقه من جديد..

يوقن أنها لا تعي ما تفعله لكنه لا يملك هذه الغصة في
حلقه وهو يشعر بالألم منها ولأجلها..

يكتم تأوهات ألمه بعجز وهو لا يدري أيهما أفضل..
أن يطلقها فيشعرها أنها قادرة فعلاً على أن تؤذيه..
أو يكتمها كي لا تفيق من نوبة مصارحته فتعود

لشرنقتها المغلقة!

لكنه اختار الأول مؤثراً دفء قربها ولو للحظات قبل
أن يشعر بها تدفعه فجأة ببعض العنف لتتنظر إليه
بتشتت..

ثم تتلفت حولها لتشهق فجأة هاتفة:

_سند! أين سند؟! لم يكن ينبغي أن أتركه وحده.

تقولها لتهب واقفة ثم تركض نحو باب الغرفة تحاول

فتحها ليلحق بها فتتهافت بخوف مرضي:

_الباب! الباب مغلق!

يهز لها رأسه مطمئناً وهو يرفع المفتاح في وجهها
فتهم بأخذه لكنه يقبض عليه كفه.. ثم يتناول راحتها
بكفه الحر ليبسطها على صدره فتشحب ملامحها
وهي تتحسس حدود المنشفة على جسدها كأنها
استعادت لتوها وعيها بما يجري..

_ أنا أصدقك.. دوماً أصدقك.. في كل مرة تحتاجين
لأحدهم كي يشاركك جنونك فلتكن هذه الغرفة ملتقانا..
دعيني أر ما ترين.. أسمع ما تسمعين.. دعيني درعك
أمام أشباحك.. ارمي كل أوزارك على كتفي أنا ولا
تبالي.. لكن حاولي عندما تخرجين من هذه الغرفة أن
تعودي لنفسك.. لا لأجلك ولا لأجلي.. بل لأجل سند..
تتسع عيناها بقوة مع كلماته فيهبأ إليه أن حلقة
الزعفران تشتعل كما لم تكن من قبل..

خفقات قلبها الصارخة تكاد تلقيه من صدرها لصدره..

شفتاها ترتجفان بهذه الطريقة المهلكة كأنها تهذي

بما لم يسمعه..

ربما تكون مجنونة حقاً..

لكنه الآن يوقن أنه أشد جنوناً منها و-بها-!

يفتح لها الباب أخيراً وهو يشعر بقرب فقدان سيطرته

على هذا المارد الثائر بجسده ليسمح لها بالخروج

فتركض نحو غرفة سند ليهم بالحاق بها لكنه يسمع

رنين هاتفه..

ينعقد حاجباه وهو يميز الرقم الدولي الغريب الذي

يتصل به في هذه الساعة..

من؟!!

تراه هو؟!!!!

يطلق زفرة مشتعلة وهو يفتح الاتصال ليصله صوت
عاصي الذي لم يكن يحتاج أن يعرفه بنفسه :
_عرفت ما حدث.

يكز حسام علي أسنانه بقوة وهو يغلق الباب خلفه
مخافة أن تسمع ديمة المكالمة.. المسكينة لا ينقصها
المزيد من الخوف..

ليقول ببرود صارم:

_قبل أن تمارس هوايتك القديمة في التسلط على
رقاب الخلق اعلم أولاً ما حدث..

صمت عاصي الرفاعي في موقف كهذا كان بمثابة
إذن نادر!

ليطلق حسام زفرة أخرى وهو يعاود فتح الباب
ليطمئن من بعيد لرقود ديمة الساكن جوار سند قبل

أن يعود بحذر للغرفة ليحكي لعاصي الأمر باقتضاب

محافظةً لنفسه على أغلب التفاصيل..

صمت قصير يسود بعدها يخفق فيه قلب حسام

بترقب..

قبل أن يصله صوت عاصي المهيب يكاد يشعل الدنيا

حوله رغم بروده:

_تريدهما في أمانتك إذن؟! فليكن! لكن لو أصاب

أيهما خدش إصبع فلن يكفيني أن أقطعك إرباً إرباً

وألقيك من فوق الجبل الذي ماتت عليه أم سند..

واعلم أنكم جميعاً تحت عيني حتى لو كنت مسافراً..

وعندما أعود سيكون لنا كلام آخر..

يهم حسام برد مستفز يخرس فيه غروره- رغم شكره
الخفي لتمريره الأمر مؤقتاً - فديمة لا تنقصها المزيد
من الضغوط..

لكن عاصي ينهي الاتصال فجأة دون كلمة إضافية!

=====

تزوجها؟!

يهدر بها "الكوبرا" وهو يواجه إياد الذي أشاح
بوجهه بينما الأول يردف ملوحاً بذراعيه في غضب
نادر لم يره إياد على وجهه بهذه الحدة من قبل :
وأين كنتم أنتم؟! أين كنتم?!

الأمر كله جاء مفاجئاً.. الرجال يقولون إن ديمة هذه
مختلة نفسياً فعلاً.. لم يكادوا يقتربون منها بعد تخدير
الحارس حتى شرعت في الصراخ باسم غازي.. لم
يحصلوا منها على حق ولا باطل كما يقولون.. ولم
تحتمل دقائق بعد مجرد تهديد شفهي حتى سقطت
فاقدة للوعي.. وعندما ذهبت للمشفى رفضت الحديث
مع الجميع ليفاجأ الكل بخبر زواجها من ذاك الرجل
الذي لا أفهم كيف تحرك بهذه السرعة.
يقولها إياد مبرراً ليلتفت نحوه الرجل بنظرة طويلة
غامضة قبل أن يتحرك ليعطي ظهره له مواجهاً
الحائط القريب لدقائق طالت في صمت تام..
وجعلت إياد يهمس بحذر مقاطعاً هذا الصمت أخيراً :
بماذا تفكر!؟

لكن الرجل يبقى على وضعه لدقائق أخرى ليقول دون
أن يلتفت إليه :

تعودت عندما تتعقد الأمور أن أفكر أمام حائط
خالٍ .. ذهني يستعيد أصفى حالاته عندما أستفزه
هكذا.. الجدران المغلقة تفتح الأبواب للأفكار.. جربها
يوماً ربما اكتشفت أنك مثلي.

يرمقه إياد بهذه النظرة المتفرسة وهو يشعر أن هذا
الرجل لغز كبير مغرٍ بالاستكشاف.. لو لم يكن مجرمًا
يحترف القتل لكان فيلسوفاً أو صوفياً من هؤلاء الذين
يجيدون وصف الروح.. ربما لهذا يخدع من لا يعرف
حقيقته بهذا الوجه منه!

لهذا يعاود قوله بترقب:

_ ماذا ترى؟! حسام هذا لا يمكنه أن يبقى جوارها

للأبد.. يمكننا أن..

_ انس.. انس الأمر تماماً.

يقاطعه بها بحزم وهو يلتفت إليه ليقول إياك بدهشة:

_ والمفتاح؟! ظننته على قدر أقصى من الأهمية لديك!

_ لم أعد أريده.. جمّد الأمور تماماً يا إياك؟! هل تفهم؟!!

جمدها تماماً!

يقولها ببرود صارم فيهز إياك رأسه ليردّف الرجل

بنفس النبرة :

_ وأنا الآخر سأجمد نشاطنا لبعض الوقت.

_ إلى هذا الحد تخشى هذا الرجل؟!!

يسأله إياد بحذر متعجباً فلا يظن أن محامياً كحسام
القاضي هذا قد ينال من رجل كالكوبرا حتى ولو كان
الأول ضابطاً سابقاً..

فالكوبرا نفسه له أتباع مخلصون من رجال الشرطة
والجيش بل والقضاء عرف كيف يؤمن ولاءهم له
منذ سنوات!

حسام القاضي خط أحمر.

يقولها الكوبرا بنبرة غريبة صارمة فيهب إياد رأسه
قائلاً:

أعتبر نفسي إذن قد فشلت في خدمتك هذه المرة!

لا بأس.. أعرف أنك بذلت ما في وسعك.

يقولها وهو يربت على كتفه بود ليرمقه إياد بنظرة

حذرة وهو يعاود سؤاله:

_ونزار!؟!

_أخبرتكَ أن نجمد نشاطنا تماماً لفترة.. ظننت كلامي

واضحاً!

القسوة الصارمة في كلماته لا تحتمل المزيد فيتحرك

إياد ليغادر البيت بخطوات سريعة لكن بتول تستوقفه

في الحديقة فيرمقها بنظرة صارمة وهو يسألها :

_ما قصة اللقاء التلفزيوني الذي ستجرينه مع عزة

الأنصاري هذا!؟!

فتهز كتفها لتقول بغموض ماكر :

_وهل تدخلت في عملك كي تتدخل في عملي!؟!

_أي عمل بالضبط!؟!

_عملي كمذبة! ألا تذكر!؟!

تقولها ببراءة مصطنعة فيرمقها بنظرة متفحصة

ليعاود سؤالها:

_ إلى ماذا تخططين بالضبط؟!

_ ولماذا يجب أن يكون هناك مخطط؟! زوجة أخيك

مذيعه شهيرة وعودتها لبرنامجها خبر يستحق

السعي خلفه.. لا أرى هناك غرابة!

يبقى يناظرها للحظات ببرود قبل أن تمتد قبضته فجأة

ليعتصر معصمها بقوة آلتها وجعلتها تصرخ بألم

مستنكر ليهمس أمام عينيها مهدداً :

_ قد لا أعرف ما يدور داخل رأسك الملتوي هذا لكنني

أعرف شيئاً آخر.. عائلتي أول وآخر أسواري.. وأنا لا

أتسامح مع من يقتحمون أسواري.. تعرفين أنني لا

أحب العنف.. فلا تكوني أول استثناء لقاعدتي!

ترتجف حدقتها رغباً عنها بخوف لم تملكه أمام
نظراته الحادة لتغمغم وهي تحاول تخليص معصمها
منه :

_ لماذا تبالغ في تقدير الأمور؟! أخبرتك أنه مجرد
روتين عمل.

يبقى يناظرها للحظات غير مكترث بمحاولاتها
لتخليص يدها منه قبل أن يحررها أخيراً وهو يودعها
بنظرة رادعة دون كلمة إضافية فتطلق سبة في
نفسها وهي تراقب ظهره المنصرف بنظرات
مشتعلة.. قبل أن تتحرك نحو الداخل لكنها تفاجأ
بالكوبرا في طريقه للخروج..

تهم بالحديث إليه لكنه يبسط راحته في وجهها بإشارة
تعرفها وجعلتها تتوقف صامتة مكانها تراقب رحيله
هو الآخر..

يستقل سيارته بحراسة مناسبة نحو مكان ما ولم يكذب
يتوقف هناك حتى استقل سيارة أخرى بطاقم حراسة
آخر..

يغير نفس الإجراء لعدة مرات في أماكن متفاوتة
ضمن خطة تأمينه قبل أن يستقر به المقام في سيارة
أخيرة دون حراسة هذه المرة..

هذه التي قادها نحو ذاك البيت الغريب هناك في ذاك
المكان الساحلي المنعزل والذي بدا واقفاً وحده وسط
فراغ المكان كنغمة شاذة وسط صمت الطبيعة حوله
بين بحر وسماء وفجر..

فجر!

يليق بها الاسم والزمان.. والمكان!
يبتسم لنفسه بشجن وهو يوقف السيارة ليستقبله
حارسا البيت بتوقير وقد اعتادا زيارته المفاجئة في
نفس الوقت رغم تباعد أوقاتها..
دوماً وقت الفجر!

_ نائمة؟! _

يسأل عنها خادمتها التي استقبلته ناعسة النظرات
لترد بسرعة :

_ لا.. استيقظت لتوها في نفس الموعد.
يهز رأسه برضا وهو يصرف المرأة ليتوجه نحو
غرفة الجلوس حيث يلتقيها دوماً..
ينتظرها كما يفعل كل مرة..

ليراها أخيراً وقد دخلت تتحسس خطاها..

ترفع أنفها كأنما تشم رائحته ثم ترتجف شفاتها

بابتسامة واهنة :

_ أتيت.

يأخذ نفساً عميقاً وهو يملأ ناظريه منها ليخرج صوته

معبقاً بشجن لا يسمح له بالخروج إلا معها..

_ أحتاج سماعك الليلة.. أكثر من أي وقت مضى.

تهز رأسها بطاعة وهي تتحسس خطاها من جديد

نحو آلة عود تلقفتها أناملها بخبرة من اعتادت فعل

هذا لسنوات..

تجلس على الأريكة القريبة لتبدأ في عزف لحن قديم

دون غناء..

لحن بدا له - ككل مرة يسمع فيها عزفها- كأنه سحر
يقتلعه من كل جذوره ليرميه في وادٍ غير واديه..
يخلع نعليه ليفترش الأرض أمامها محتضناً ساقيه..
مغمضاً عينيه..

تاركاً نفسه لهذا الشغف الذي يحلق بروحه..
بين شعوره بوجودها.. وعزفها!
تستمر في العزف لدقائق قبل أن ينتهي اللحن فتتوقف
متوقعة أن ينصرف كعهده كل مرة..
لكنه يطلب منها أن تعيد.. فتمتثل..

يكررها ثلاثاً فتتنحج قبل الرابعة لتسأله بتردد :

__ تبدو مشغول البال هذه الليلة.

__ تشعرين بي رغم أنك لا ترينني.

صوته ذو الشجن يثير المزيد من تساؤلاتها التي

اعتادت كتمها طوال هذه السنوات..

من هو؟!

ولماذا يحتجزها هنا؟!

وهل يحتجزها حقاً أم يحميها؟!

دور "السجان" امتزج مع دور "الحارس" فلم تعد

تدري في أي خانة تضعه!!

هي استعادت وعيها بعد حادث قديم تعرضت له لتجد

نفسها فاقدة للبصر..

لا تذكر شيئاً عن ماضيها ولا عائلتها..

لا تذكر سوي اسمها الأول.. فجر!

فقط وجدته هو يصطحبها لهذا البيت..

ومن حينها وهي تقيم هنا تنتظر زيارته من آن

لآخر..

في البداية كانت ترجوه أن يخبرها شيئاً عن نفسها..

او عنه.. أي شيء.. لكنه بقي متشبهاً بصمته حتى

تعلمت كتم أسئلتها..

تراه!

تراه بقلبها!!

روحاً سوداء مختنقة لكنها لا تدري من أين يأتيها

اليقين أنه لن يؤذيها..

أنها تعني الكثير لديه..

رغم أنه لم يحاول لمسها ولا حتى بمصافحة!

لكنها تشعر برابط غريب يشدها إليه..

هل كانا متحابين قبل أن تفقد ذاكرتها؟!!

لماذا إذن لا يبوح لها؟!

_ أعيدي العزف يا فجر.. أعيدي حتى أمرك بالتوقف!
ترتجف ابتسامتها الطيبة فوق شفيتها الحائرتين وهي
تعاود العزف مرة تلو مرة..

تحاول تغيير اللحن لكنه يعيدها للحن القديم كأنما مس
شيئاً بداخله..

تشعر أنه هذه المرة مختلف فتجد الجرأة أخيراً بعدما
توقف العزف لتسأله :

_ لن تبوح لي بشيء؟!

تتوقع صمته ككل مرة لكنه يرد بنفس الصوت ذي
الشجن :

_ ما الذي تريدني معرفته؟! أخبرتك أنني وجدتتك بعد
الحادث وأتيت بك إلى هنا كي أعتني بك.

_ لماذا أشعر إذن أن الأمر يفوق صنيع معروف!

_ ربما.

_ هل ستسمح لي بالخروج لو رغبت.

_ ولماذا ترغبين؟!!

_ أريد البحث عن نفسي.. عن عائلتي.. أنا لا أذكر أي

شيء.

_ وما أدراك لعل النسيان نعمة لا تدركين فضلها!

_ لا أحد يحب العيش هكذا مثلي بلا ماضٍ.

_ أعرف الكثيرين ممن يتمنون العيش مثلك بلا ماضٍ!

_ على الأقل.. أخبرني.. من أنت؟! ما اسمك؟!!

_ لن يشكل هذا فارقاً! اعتبري أنك نسيت اسمي مع ما

نسيته!

_ لكن..

تقطع كلماتها بقنوط وهي توقن من عقم المحاولة
ككل مرة لتصلها تهيدته الحارة وهو يغمغم بشرود :
_ من يدري؟! ربما تعلمين كل شيء يوماً ما.. يابى
القدر إلا أن يطرق أبواب الماضي مهما أحكمتنا
إغلاقها.. واليوم خير دليل.

_ ماذا حدث اليوم؟!!

تسأله ببراءتها المهلكة فينهل من وجهها نظرة
طويلة عميقة قبل أن تشعر به يتحرك ليقف كي
يرتدي حذاءه من جديد يهم بالمغادرة..

تقف بدورها وهي تضع العود جانباً لتسأله :

_ سترحل؟!!

_ تريدين شيئاً؟!!

تصمت قليلاً ثم تتحسس خطاها نحوه فتلامس أناملها
قميصه رغماً عنها ليرتد بضع خطوات للخلف هاتفاً :
_ لا تلمسيني.

تجفل وهي تعود للخلف خطوة فيطلق زفرة قصيرة
وهو يتحرك ليغادر..

لكنه ما كاد يصل للباب حتي سمع صوتها البريء
خلفه :

_ لا يمكنني فعل ما أرد به صنيع معروفك معي.. لكنني
أشعر أنك مهموم اليوم.. هذه ساعة إجابة.. يمكنك
الدعاء.

يبتسم لبراءتها وهو يعود لينهل من نقاء ملامحها ثم
يرد بخفوت قبل أن يغلق الباب بينهما :

ليس لمثلي أن يدعو.. لكن لو كانت لي أمنية.. فهي
أن أموت هنا.. هنا بين يديك.. ساعتها فقط.. سأسمح
لك بلمسي.



أحمر



أنا سمعت ضحكاتنا الرقيقة بأذني جوارك!!
سمعتها!!



تصرخ بها يسرا بهياج غيرة جنوني ليهتف إبراهيم
محاولاً تهدئتها بحنان وهو يبسط راحتيه على
كتفيها :

_ اهدئي حبيبتي.. لا يزال جرحك لم يلتئم.. تلك المرأة
لم تكن تضحك لي.. كانت تحدث إحداهن على
الهاتف..

_ وكيف عرفت أنت أنها "إحداهن" وليس "أحدهم"
!؟ كنت تتابع مكالماتها؟!؟! كنت مهتماً بالحوار
وبها?!?!

الغيرة الغاضبة ترجف حروفها أكثر فتكاد تنتفض
مكانها ليزفر إبراهيم بضيق وهو لا يرى مبرراً
لغيرتها هذه من إحدى الزبائن التي كانت تستقل معه
سيارته.. إنها حتى لم ترها ولم تعرف لها سناً ولا

هيئة.. كل ما سمعته هو ضحكاتها عبر الهاتف ولم

يكذ يصل للبيت حتى فوجئ بهذا الموشح!!

_ سمرا! لا تجعليني أندم أنني أرد على مكالماتك أثناء

ممارسة عملي.. يفترض بي أصلاً ألا أفلها كي أكون

منتبهاً أكثر للطريق!

ورغم حيادية نبرته الضائقة لكنها عادت تهتف بهياج

وهي تتملص من بين ذراعيه :

_ هذا ما ينقصني! أن تتجاهل اتصالاتي!! افعلها مرة

يا إبراهيم.. افعلها وسأ..!

تقطع تهديدها الثائر دون أن تكمله فيعقد حاجبيه وهو

يسألها بحدة :

_ وماذا؟! أكملني!

الغضب الثائر في عينيها يتحول فجأة لعجز لم تشعر
به في حياتها من قبل وهي ترمقه بنظرة طويلة قبل
أن تتحرك بسرعة نحو غرفتهما لتغلق بابها خلفها
بعنف فيطلق زفرة مشتعلة وهو يتحرك بدوره ليغادر
شقتهما نحو شقة أبيه السفلية..

_ تعال يا إبراهيم! لماذا تصرخ سمرا!؟!

يقولها ربيع بصوته الواهن الذي لا يزال يعاني
إعياءه وهو يعتدل فوق فراشه ليتقدم إبراهيم نحوه
بتوقير ثم يجلس أمامه ليسأله محاولاً تغيير

الموضوع :

_ تفقدتك عند عودتي قبل صعودي للأعلى وكنت

نائماً.. كيف حالك اليوم!؟!

_ الحمد لله.

يقولها الرجل برضا ليهم إبراهيم بالنهوض قائلاً :

_ سأحضر لك الطعام.

لكن ربيع يهتف قائلاً :

_ لا تتعب نفسك.. سمرا أعدته لي وأعطتني الدواء

كذلك قبل نومي.

تتسع عينا إبراهيم بدهشة لم تلبث أن تحولت لضيق

وهو يغمغم :

_ أخبرتها ألا تتحرك كثيراً.. ألم يكن من المفترض أن

تحضر هبة اليوم لتتفقدك في غيابي؟!!

لكن الرجل يهز رأسه ليرد بسماحة :

_ هبة جاءت فعلاً.. لكن سمرا منعتها من الدخول

زاعمة أن الأطباء منعوا زيارتي خوفاً على ضعف

مناعتي بعد العملية.. أقسمت ألا يعتني بي أحد

سواها.. جنة اتصلت كذلك تريد زيارتنا لكنني اعتذرت
لها كذلك لنفس السبب.

يطرق إبراهيم برأسه وهو لا يدري بماذا يرد..

ليتفرس العجوز ملامحه وهو يسأله بحذر :

_ لماذا كانت تصرخ؟! أغضبتها؟!

_ غيرتها خانقة!

_ وكان غيرتك أنت أقل حدة!! أنت تكاد تشتري لها

أي "قمقم" تحبسها فيه العمر كله!

يقولها العجوز بضحكة مكتومة ليرفع إليه إبراهيم

عينيه بابتسامة واهنة وقد سره أن يستعيد أبوه

مزاحه..

ليته فعلاً يكون قادراً أن يحبس عفريت فتنتها في

قمقم أبد الدهر فلا يطلقه غيره ولا يراه بعده أحد!!

_زوجتك خائفة.

ينتزعها بها أبوه من شروده ليهز إبراهيم رأسه بينما

يردف ربيع :

_لم أشعر بالشفقة على أحدهم كما أشعر بالشفقة

عليها هي الآن.. كلما رأيته تبدو لي كقط خائف

مقوس الظهر يرتجف منتظراً مصيبة.. نظرتها

خائفة.. كلماتها خائفة.. حتى ابتسامتها خائفة.

_أعرف..أعرف.. والأسوأ أن خوفها انتقل لي أنا

الأخر.. صرت عاجزاً عن احتواء هذا الخوف.

يقولها إبراهيم بقتوط ليبتسم له العجوز قائلاً :

_لا أظنها تحتاج منك إلا لأن تبقي جوارها.. اصعد

إليها.. أسوأ ما يمكن أن تفعله بامرأة غاضبة أن

تتركها وحدها حتى تهدأ.. لو لم تحتمل نارها فلا حق

لك في جنتها.. اصعد إليها يا ابني.. واسترضها..
المسكينة محبوسة بين الجدران طوال اليوم وجرح
جسدها لم يبرأ بعد.

يبتسم له إبراهيم براحة وهو يهز رأسه فيدعو له
أبوه بالبركة ليغادر الأول شقة أبيه وقد خطرت له
فكرة شرع في تنفيذها..

وفي غرفتهما جلست يسرا مشدودة الجسد علي
طرف الفراش لا تستطيع حتى الاستلقاء علي
ظهرها..

كل ثانية تمر عليها هنا تزيد ثقل الجبل على كتفيها..
كوابيس نومها لا ترحمها..

وأوهام يقظتها تحاصرها وهي تتخيل نفسها فجأة
دونهم!

والأسوأ.. أنها صارت تخجل من الدعاء وهي تشعر

بإثمها يقف حائلاً بينها وبين القبول!

ابراهيم!

تعرف أنها صارت مغالية متطلبة في مشاعره نحوها

كأنها تريد أن تنهل منها قدر الري قبل أن يجف النبع!

ويا ويلها يوم يجف!!

تقطع أفكارها الشاردة وهي تشعر به يدخل الغرفة

فترفع عينيها إليه بتحفز متوقعة أن يكمل الشجار..

لكن ملامحه بقيت هادئة وهو يقترب أكثر حتي صار

قبالتها فأنحني نحوها ليلبسها وشاحاً قريباً غطى به

شعرها ثم نظر لعمق عينيها قائلاً بنبرة آمرة :

_ أغمضي عينيك ولا تفتحيها أبداً حتى أخبرك.

تشيح بوجهها في عناد لم تملكه بطبيعتها الجموح..

لكنه ينحني أكثر ليخفي وجهه في تجويف عنقها

فتتسلل رائحته لحناياها قبل أنفها..

_أعرف أنك لا تقاومين حركتي هذه.. وكل شيء مباح

في الحب والحرب كما يقولون.. لهذا أنتظر بغرور

طامع أن تعانقيني أولاً.. تعتذرين ثانياً.. ثم تغمضين

عينيك كما أمرتك.

همسه يتأرجح بين حزمه الخشن ومرح لا ينقصه فلا

تشعر بنفسها وهي تمد ذراعيها لتعانق فيه العالم

كله!!

تعتذر مرة تلو مرة بانطلاق فلا تدري عن أي شيء

تعتذر..

تغمض عينيها ليس فقط كما أمر.. بل كما أرادت هي

في هذه اللحظة..

لماذا يدور الزمان؟! لماذا لا تتوقف عقارب الساعة
هاهنا؟! فتبقى هكذا بين ذراعي.. رائحتك تملأ أنفاسي

فلا يعنيني لو خرج آخرها بعدها؟!!

تهمس بها بحرارة أشعلت جوارحه وجعلته يتعجب
هذا الحب الغريب الذي تحمله له..

يعرف عن طبع النساء - كما يسمع- الدلال والتمنع

لكنه معها هي يشعر أنها ترضى منه بكلمة!

يقبل جبينها بعمق فتتشبث به وقد شعرت بقرب

ابتعاده لكنه يهمس لها أمراً :

لماذا قلنا؟!!

تغمض عينيها بقوة امتثالاً لأمره فتشعر به يحملها

بين ذراعيه، لا تعرف أين يذهب بها لكنها تتشبث به

أكثر باستسلام وهي تشعر به يتحرك بها فتخفي

وجهها في صدره وقد قنعت بلحظات هدنة وسط كل

هذه الحروب التي تشتعل بصدرها..

تتنفس الدنيا عبر رائحته من جديد فتود لو تبقى هذه

الدقائق للأبد!

لكنها تشعر به يتوقف أخيراً ليهمس عبر أنفاسه

المتلاحقة:

يمكنك أن تفتحي عينيك الآن.

تفتح عينيها لتتسعا بدهشة وهي تميز صعوده بها إلى

السطح..

لكن الغريب هو هذه الخيمة التي استقرت فوقه والتي

دخل إليها بها ليرقدها برفق فوق عدد من الوسائد

الصغيرة التي بسطها هناك..

تتسع عيناها أكثر وهي تميز الشموع الصغيرة التي
أضاءت ظلمة الليل حولهما مع بعض الزهور التي
نثرها متفرقة..

_ مادمتِ لا تستطيعين الخروج.. يمكننا فقط تغيير
الجو.

يقولها بمرح وهو يقرص وجنتها بخفة مشيراً للقمر
الذي بدا من باب الخيمة المفتوح مردفاً :

_ اعتبري نفسك في رحلة "سافاري"! عاشقان تحت
خيمة أمام القمر! أخيراً وجدت فائدة ل"كرايب"
الحرافيش في الغرفة السفلية.. ما رأيك فيها؟!
تلتمع عيناها بعمق عاطفتها في هذه اللحظة وهي
تنظر إليه بغرابة..

كيف تخبره أنها عاشت عمراً قبله تظن السعادة تقاس

بمدى البذخ والترف؟!

حمقاء كانت لم تعرف أنها يمكن أن تكون الأروع

بهذه البساطة!

مجرد خيمة قديمة وبضع وسائد يحملها إليها ذراعا

عاشق فيفتح لها باباً للقمر.. وكفى!

_ تشرابين الشاي بالنعناع؟!

يقولها بنفس المرح الذي اكتسب نبرة مغوية وهو

ينحني نحوها فتجد نفسها تغمغم بقلق أمومي لم

تتكلفه:

_ أنت لم تأكل! لا تشرب الشاي على معدة خالية!

ضحكته العالية تداعب قلبها بهذا اللحن الذي يخصه
وحده وهو يعاود الاستقامة بظهره فيبدو لها في
وقفته هذه شديد البعد..

ليرد بمرح :

_ ألم أخبرك أنك تذكريني بأمي؟! لم يبق سوى ان
تلفي صدري بورق جرائد خشية البرد!
تبتسم فتشرق عيناها ليردف وهو يعطيها ظهره كي
يعد الشاي بالخارج :

_ اطمئني.. أكلت وجبة خفيفة في الطريق قبل عودتي.
_ إبراهيم..

تتأديه فيلتفت نحوها لتهم بالنهوض قائلة:

_ دعني أعده معك.

_ لا.. ابقِ مكانك ولا تتحركي..

يقولها أمراً فتعود لرقادها مستسلمة لتهتف به :
_ لا تضع النعناع إلا أمامي.. أحب رؤية الورقة وهي
تسقط في الكوب.

_ أعرف.

يغمزها بها بمرح فتبتسم بارتياح وهي تستسلم
لشعورها بالراحة..

رائحة الهواء البارد التي تأتيها من الخارج تمتزج
برائحة الزهور حولها لتصنع مع ضوء القمر وسط
سكون الليل حولها جواً غريباً يشبه الخيال..
تراه يعود أخيراً بما يحمله ليضعه أمامه ثم يمضي
ليطفئ الشموع فترمقه بنظرة متسائلة ليرد ببساطة :
_ ظننت قماش الخيمة حاجباً للضوء.. أخشى أن يرى
أحدهم ظلالنا داخل الخيمة من الخارج..

يقولها ليضطجع جوارها مستنداً على ذراعها يرقبها
من علو ثم يزيح عنها وشاحها ليهمس أمام عينيها :
_ ثم ما حاجتنا للإسراف وأمام عيناى قمران لا قمر

واحد!

تتسع ابتسامتها مع هذه الدموع التي تكدست فجأة في
عينيها وهي ترفع إليها ذراعيها إليه هامسة:

_ ارفعني إليك!

تضيّق عيناه بتفحص وهو يشعر أن "كلمتيها"
تحملان ما يفوق بكثير معناهما الظاهر.. خاصة مع
رجفة جسدها التي استشعرها وهو يجذبها نحوه
برفق ليريح رأسها على صدره.. يرفع ساقه قليلاً
ليحتوي جسدها الممدد بين ذراعيه لكنها تسند رأسها

على ركبته المرفوعة لتمد أناملها نحو وجنته

فتحتضنها هامة :

_تصدقني لو أخبرتك أن هذه الخيمة - على ضيقها-

معك تكفيني.. بل تكاد تساوي حلمي بالضبط.. ليت

العالم يبقى هكذا.. أنا وأنت فقط.. دون خوف!

فيقبل راحتها المحتضنة لوجنته ليداعب جبينها

وشفتيها بأنامله هامساً بجدية :

_ "دون خوف"! هذا بالضبط ما أريد التحدث معك

بشأنه!

يهياً إليه أن ملامحها قد شحبت فجأة رغم خفوت

الإضاءة حولهما وقد همت بالنهوض متسائلة بقلق:

_ ماذا تقصد!؟

لكنه يبقيها مكانه وهو يميل عليها بقبلة ناعمة

لوجنتها قبل أن يهمس لها برقة رجولية :

_كلنا نستشعر خوفك.. لست أنا وحدي.. هوني عليكِ

حبيبتي.. لا داعي لكل هذا القلق الذي يفسد حياتك..

أعرف أنك مررتِ بظروف صعبة على فتاة عاشت

وحيدة وسط الناس.. لكننا الآن معاً.. وسنبقى كذلك

إن شاء الله.

_لا تلمني في خوفي.. فقط ابق معي.. ارفعني اليك

دوما كما الان.. ازرعني بين ذراعيك وصدرك فلا

يقتلني منك إلا الموت..

تهمس بها بخفوت مغمضة العينين فلا يكاد يسمعها

بأذنيه بل بقلبه..

يرفع ساقه أكثر ليشدد ضمته إليها في جلستها هذه
كأنه يمنحها ويمنح نفسه - قبلها- الأمان وقد تسرب
الخوف منها إليه..

فقط لو تبوح أكثر بما يورقها..

هل يقتصر الأمر على مجرد غيرة نساء؟!
_ أحياناً أتمنى لو أخترق رأسك لأدرك ما يخيفك هكذا
كي أتمكن من منحك الأمان..

يهمس لها بها بعتاب رقيق وأنامله تجيد عزفها
الحاني فوق ملامحها كأنه يرسم صورة لها..
لترد ولا تزال مغمضة العينين كأنها تخاف فتحهما
فيتبدد الحلم.. :

_ لو كنت قابلتني في عالم آخر وزمان آخر .. باسم
غير اسمي.. وشكل غير شكلي.. وحياة غير حياتي..

هل كنت ستحبني؟! هل كنت ستكتفي بهذا العشق
الذي أحمله لك بداخلي؟! بهذه الروح التي وصلت
أنت لأعمق أراضيتها وأعلى سماواتها؟! بهذا الإيمان
الذي غرسته أنت داخلي وتعهدت أنا أن أرويه ما بقي
من عمري؟! كنت ستكتفي بكل هذا؟! كنت ستكتفي!!?
لا تزال تكررهما بانفعال حار عبر خيطين من الدموع
ليرتعد قلبه بين ضلوعه بعنف شعوره بها في هذه
اللحظة..

ورغم تعجبه من حديثها بهذا الشكل لكن خياله -
البريء لم يحمله سوى لأنها تخجل من نشأتها الأكثر
بساطة منه وكونها بلا أهل..

كنت سأكتفي.

يهمس بها بحسم وشفته تخرسان سؤالها المتكرر
بقبلة عميقة جعلت أنفاس كل منهما تدوي في صدر
صاحبه..

كان يتشبث بها تشبته بالحياة التي لم يعرفها قبلها..
وكانت تتشبث به تشبثها بالحياة التي تخاف فقدها
بعده..

عاطفتها كعهدا تشتعل بجنون يذويه مرضياً شغف
رجولته لكنه يبعدها ليهمس عاتباً :

_لم تستعيدي بعد عافيتك.. أنا أيضاً افتقدتك حد
الجنون لكن دعينا نصبر قليلاً.

تبتسم له بين امتنان وخيبة وهي تضم كفه لصدرها
بحب فيتنهد بحرارة وهو ينحني ليضع لها ورقة
النعناع الخضراء في كوب الشاي الذي رفعه نحو

شفتيها لتمتد أناملها الحرة فتحتضن أصابعه على

الكوب ثم ترتشفه بهناء هامسة:

_ أحب رؤيتك وأنت تضعها لي هكذا.. لون الشاي

القاتم يشبه حياتي قبلك وورقة النعناع هذه هي أنت..

أنت هزمت لون العمر الداكن بخضرة قلبك ومنحته

مذاقاً ورائحة!

_ من أين تأتين بهذا الكلام يا ساحرة!؟

يهمس بها بافتتان وهو يربت على وجنتها برقة لترد

بحرارة عبر شرودها القصير:

_ حبك علمني.. كما علمني كل شيء بعده.

يبتسم وهو يداعب خصلات شعرها الناعمة ليقترب

بوجهه من عينيها هامساً:

_ أفهم من هذا أنني صالحتك؟! نسيت الزبونة

وضحكاتها وغيورتك!؟

ضحكتها تمتزج بضحكته للحظات قبل أن تعاود ضم

كفه لصدرها لتقول بنبرة عاد إليها دلالتها :

_ سامحتك هذه المرة.. لكن إياك ألا ترد على اتصالي

كما زعمت.. إياك أن تفعلها يوماً يا إبراهيم!

_ أعدك..

يهمس بها بحرارة فتتوقع أن يعدها بما قالت له لتوها..

لكنه يردف مكرراً عهد عشقهما اليومي.. لينهيه

بقوله :

_ أن أبقى حين لا يبقى أحد.. وأن أحبك كما لم يحبك

أحد..

فتتهد بحرارة وهي تحيد ببصرها نحو القمر الذي بدا
لها من باب الخيمة.. شديد القرب.. إنما شديد البعد..
ترمقه بعينين ضارعتين كأنما ترجوه أن يبقى هكذا..
تعلم أنه مستحيل.. لكنه قدرها.. أن تعشق المستحيل!!

_ سندس زارتك اليوم؟!

سؤاله يخرجها لدائرة أخرى من دوائر اهتماماتها
فترمقه بنظرة مترددة ليسألها بقلق :

_ ما الأمر؟!

_ لا شيء.. فقط.. مجرد شكوك..!

_ أنا أستمع.

نبرته تزداد اهتماماً وهو يدفعها لشرب المزيد من
كوبها فتتنحج وهي تطرق ببصرها تتخير كلماتها..
لكنه يستحثها بالقول :

_ سمر! بماذا تفكرين!؟!

_ الفتاة تبدو لي مختلفة..

_ أنا الآخر شعرت بغرابة بعض تصرفاتها.. ارتباكها

العام صار مريباً..

_ تذكر تلك الليلة التي خرجت فيها معك بسيارتك ليلة

ذهاب أبي للمشفى!؟ رأيتها ليلتها تقف مع أحدهم في

أحد الشوارع الخلفية.. وعندما واجهتها بعد العملية

أنكرت أول الأمر.. ثم.. ادعت كونه مجرد صبي لتاجر

ممن تشتري منهم بضاعة للكشك.

تقولها بتردد لينعقد حاجباه بغضب هاتفاً:

_ ماذا؟! يا المصيبة!! تظنينها تورطت معه!؟!

تظنينها..

_ لا أظن الأمر هكذا.. أنا أخشى شيئاً آخر!

تقولها بتوجس ليهتف بها بانفعال :

_قولي ولا تترددي هكذا.. تعلمين أنني لن أفشي

سرها.

_مخدرات!

تقولها لتتبعها بزفرة حارقة وهي تشيح بوجهها
ليطلق شهقة مستنكرة وتشنج جسده يفضح توتره..

_لاحظت عليها بعض الأعراض.. ويها إليّ أنني

لمحت بعض الأقراص معها.

_وكيف عرفتِ أنتِ الأعراض وشكل الأقراص!؟!

يسألها بدهشة مستنكرة لكن عين شعورها بالذنب

تؤولها لشكه فيها فترد كاذبة بسرعة :

_إحدى زميلاتي في محل عملي كانت كذلك قبل أن

يطردها صاحب المحل.

يحمر وجهه بانفعال غاضب هاتفاً:

لا حول ولا قوة إلا بالله! الفتاة كانت تحضر معنا

دروس المسجد وتؤدي صلواتها بانتظام.. كيف

انجرفت لهذا الطريق!؟!

سن خطر! وانعدام رقابة وإغواء شيطان! لا تلمها..

أنت لا تعرف شعور من يلقون أنفسهم لتجربة كهذه!

تغمغم بها منكسة الرأس وهي تشعر بثقل ماضيها

يجثم على صدرها..

لكنه يبدو غافلاً عن كل هذا ولا تزال لغة جسده

تصرخ بالجزع:

سنفكر معاً في حل لمساعدتها.. لكنني لن أسمح لها

بدخول البيت بعد اليوم.

ماذا تقول يا إبراهيم!؟!

تهتف بها باستنكار وهي تعتدل في جلستها ليهتف

بانفعال :

لن آمنها عليك ولا على أبي المريض.. ما يدريني

أي شيء ستفعله وهي مغيبة العقل تحت تأثير تلك

العقاقير! الواحد من هؤلاء قد يقتل أحدهم للحصول

عليه!

قتلت ابنك يا مجرمة!

تدوي في أذنيها - من ماضيها- كالرعد فتشقق بحدة

كأنما تلقت طعنة في صدرها ليربت على ظهرها

بحنان هاتفاً :

لا تخافي هكذا! سنجد لها حلاً بإذن الله.

لكن عينيها تبقيان شاردتين في الفراغ للحظات كأنما

اختطفها ألم الماضي وخوف الحاضر معاً..

تشعر به يعانقها من جديد صامتاً فتستسلم لدفء
عناقه للحظات قبل أن تجد صوتها الشاحب فتتلقف
كفيه بين راحتها لتتنظر إليه هامسة بضراعة :
_ أرجوك يا إبراهيم.. الإقصاء ليس حلاً.. ثق بي..
أنت اعتيت بي حتى انتشلتني مما كنت فيه.. دعني
أحذو حذوك لعكك تفتخر بي يوماً ما.. دعني أساعدها
هي وسامي..

_ وكيف ستفعلين!؟

_ الفتاة تثق بي.. تعتبرني صديقة وأختاً.. دعني
أقترب منها أكثر وأفهم منها ما يحدث.. لعلني أقنعها
بالاعتراف بالأسباب وسرعة العلاج.. أرجوك.

يبدو عدم الاقتناع على ملامحه وقد غلبه الخوف على
سمرا وعلى أبيه لكنها تستمر في تضرعاتها الباكية
ليتهد أخيراً قائلاً باستسلام :

_حسناً.. لكنك ستأخذين حذرك وستخبريني بأدق
التفاصيل.

_أعدك.. لكن عدني أنت أيضاً ألا تخبر أحداً حتى نري
ما سيمكننا فعله معها.. الفتاة لا تزال صغيرة وأخبار
كهذه تنتشر كالنار في الهشيم لتسوي سمعتها.
تلتوي شفتاه بشبه ابتسامة حوت الكثير من الفخر
وهو يميز خوفها الصادق على الفتاة ليهز رأسه
موافقاً ثم يضم رأسها لصدره هامساً بشرود :
_أبي كان يقول دوماً أنني وهبة كالعصا.. صلبة غير
مرنة.. لهذا كان يثني كثيراً على حسن رحمه الله..

كان يشبهه بالغصن الذي يتمايل مع الريح دون أن
ينكسر.. الآن أفهم قيمة وجودك في حياتي.. لعلك
توازنين بلين طباعك هذا العيب فيّ.

_ أنت بلا عيوب.

تهمس بها بهيام وهي تقبل ذقنه فيضحك وهو يشير
للشاي جواره :

_ برُد الشاي.

_ لا بأس.. لا أبالي بشربه بارداً مادام من يدك.
تهمس بها بدلال وهي تراه يسقيها المزيد فتستسلم
لسكينة مؤقتة للحظات قبل أن تنتبه فجأة لتهتف :

_ موعد دواء أبي!

تنتفض واقفة لتتاوه بألم مع عنف حركتها لتتحسس

جرح جسدها فيهدف بها إبراهيم عاتباً وهو يقف

بدوره :

_ انتبهي لنفسك.. تهورك هذا سيودي بك للتهلكة يوماً

ما.

تبتسم له عيناها كأنها تخبره بحسرة كم هو صادق!

قبل أن تقول بتماسك:

_ سأنزل لأعطيه الدواء وأتفقدته والحق أنت بي بعدما

تلملم هذه الخيمة..

فيضحك وهو يحك مؤخرة رأسه ببعض الخجل قائلاً:

_ معك حق.. الحرافيش لا يرحمون! ستكون مضغة

في أفواههم العمر كله!

تبتسم وهي تبسط راحتها على صدره لتتقل بصرها
بين عينيه وبين القمر الذي بدا لها مشعاً كهذا
الشعور في صدرها لتهمس له برجاء :
_ عدني بأمسيات كثيرة كهذه.. أحببتها..
_ تطلبين الكثير من الوعود هذه الأيام!
يهمس بها مشاكساً وهو يعيد ضبط وشاحها علي
رأسها كي يمكنها الخروج لتتنهد بحرارة وهي تطرق
برأسها هامسة:
_ لعلك تفي بها كلها.. لعلك تفي!

=====

الطيب الثلاثون

=====

برتقالي

=====

مدي بساطي واملئي أكوابي
وانسي العتاب فقد نسيت عتابي
عيناك يا بغداد منذ طفولتي
شمسان نائمتان في أهدابي
يغمض يحيى عينيه أمام قبر الرجل والكلمات تقفز
لرأسه لا يدري من أين طفت.. إنما تكتسحه بعمق
معانيها..
لا تنكري وجهي فأنت حبيبتي

وورود مائدتي وكأس شرابي
بغداد.. جئتكَ كالسفينه متعباً..
أخفي جراحاتي وراء ثيابي..
أنا ذلك البحار ينفق عمره
في البحث عن حب وعن أحباب
ماذا سأكتب عنك يا فيروزتي
فهواك لا يكفيه ألف كتاب!

تلتوي شفتاه بابتسامة مريرة مع نهاية كلمات
(قباني) في رأسه فيشعر وكأنه هو من كتبها!!
هاقد عاد السندباد لأرضه وكم ود لو عاد منتصراً
بقوة نفسه لا مرغماً بوجع فقد!!
عيناه تحيدان نحو قبر الرجل من جديد فيود لو كان
يملك القوة لينتزعه منه..

ليخبره أنه عاد.. أنه أخيراً تملك القوة ليواجه..

لكنه هو لم يعد موجوداً!

_ لماذا الآن بالذات؟! كنت أريد أن أفهم!!

يصرخ بها داخله فتحتجز شفتاه صرخاته وهو يمد

كفيه بعجز نحو شاهد القبر..

قبل أن يحيد ببصره نحو القبر المجاور للرجل الذي

عاش عمره يحمل اسمه زوراً..

فلا يعرف حقاً أيهما أبوه!

من ألقى النطفة الحرام.. أم من رباه وكبره ومنحه

اسمه!?!

أي جحيم هذا!?!

أي جحيم!!!

يشعر بكف إلياس على كتفه فيرفع إليه عينيه
الغاضبتين.. والدامعتين ليغمغم بخفوت عاجز :
_ كنت أحتاج أن أفهم.. لعلني كنت أسامح ولو أن
الخيانة لا تغتفر.. لعلني كنت أتفهم ولو أن الغدر لا
يُبرر.. أو على الأقل لعلني كنت أعرف ولو أن العلم
هنا لن ينفع.. لماذا؟! لماذا?! لماذا رحل وآخر عهدي
به هو انتقامي منه؟! لماذا غادر بهذه الطريقة كأنه
لآخر لحظة يصر أن يحرمني حقي في هويتي؟! أنا
عدت يا إلياس.. عدت لوطني وبيتي في معجزة
ظننتني لن أشهدها ما حييت.. عدت.. عدت لكنه هو..
هو لن يعود!

تدمع عينا إلياس بفيض شعوره في هذه اللحظة بين
حزنه الطبيعي على شقيقه وتعاطفه مع يحيى الذي
يكاد يفقد عقله منذ سمع الخبر..

لكنه يتمالك نفسه بقوة تليق به ليشد على عضدي
يحيى بقوة غارساً نظراته القوية في عينيه :
_ يعلم الله كم يشق عليّ قولها.. لكن.. لعلها شارة
القدر كي تطوي هذه الصفحة بأسرها.. هو - سامحه
الله- قد رحل حاملاً وزر خطيئته فلماذا تعيش أنت
تحملها؟! انس يا يحيى.. انس!

فبيتسم يحيى لمرارة المفارقة وهو يسمعه يكرر
العبرة التي كان هو يردد لها لنفسه طوال هذه
السنوات كي يبقى أسير غربته..

والآن يكررها إنما.. ليعود لوطنه.. لهويته!!

كيف؟!؟

_ كيف أنسى وهي أمامي؟! استبرق! تذكرني عيناها
كل لحظة بمرارة الماضي؟! كيف ظننت الأمر بهذه
السهولة أن أعود لهذا الجحيم الذي تركته خلفي؟!
_ ومن تحدث عن السهولة؟! ومن لها إن لم يكن
أنت؟! أفق يا يحيى! ترف معيشتنا لم يחדش جدار
رجولتنا.. ما يصبرني عليك أنني أنتظر منك أن تمحو
عن نفسك عار سنوات غربتك التي قضيتها بعيداً
عنا! أعلم أنك ستفعلها! أثق أنك ستقدر.. أنك
ستبهرني كربان سفينة أنقذ حمولته على آخر لحظة
قبل أن يأكلها البحر.. بيننا عهد قديم قدم عمرينا ألا
يخذل أحداً صاحبه.. وأنا لم أخذلك يوماً ولن أفعل..
فماذا عنك؟!؟

آهة حارة تنفلت من بين شفتي يحيى وهو يفلت من
بين قبضتيه ليعطيه ظهره ثم يشد شعره ببعض القوة
كأنما ينفس عن هذا البركان الثائر بداخله للحظات..
قبل أن يعود للقبر بنظرة أخيرة سبقت التفاتته لعمه
وهو يحط بقبضته على كتفه بخفة كأنما يمنحه
وعده..

يتهد بعدها إلياس بحرارة وهو الآخر يلقي علي القبر
نظرة وداع أخيرة قبل أن يسير مع يحيى ليغادرا نحو
سيارة الأول التي استقلها ليشغلها منطلقاً بها..

لماذا تأخر دفنه كل هذا الوقت!؟

يسأله يحيى بنبرة متعبة ليرد إلياس باقتضاب:

كانوا يشكون في سبب الوفاة.

يلتفت نحوه يحيى بكامل جسده لينعقد حاجباه بشدة

هاتفاً:

_ لا أحب اقتضابك هذا! أخبرني ماذا هنالك؟!!

فيزفر إلياس بقوة قائلاً:

_ لا أريدك أن تملأ رأسك بالوساوس.. كانوا يشكون

في انتحاره.. لكن تقرير الطب الشرعي أثبت أن

الوفاة طبيعية.

يزداد انعقاد حاجبي يحيى متمماً :

_ ولماذا يشكون في انتحاره؟!!

_ رأيت؟! لهذا لم أكن أريد إخبارك! عقلك المشتعل

لن يكف عن اختلاق القصص.. الطب قال كلمته

وانتهي الأمر.. أخي مات بأزمة قلبية.

يتهدج بها صوت إلياس بانفعال طبيعي ليشفق يحيى
على هذه الواجهة الصلبة التي يصر عمه أن يواجه
بها الجميع منذ سمع الخبر فيما يدرك هو أي عاطفة
تختفي خلفها..

لهذا يربت على ركبته بدعم ليكتم قسراً فيض
تساؤلاته فيسودهما صمت قصير يعقبه قول إلياس
الذي غير مجرى الحديث عامداً :

_ لن تعود لبيتك!؟

_ لم يعد بيتي.. هو بيت استبرق.

يقولها بحسرة ملتاوعة ليزفر إلياس وهو يلتفت نحوه
قائلاً:

_ اتفقتا على طي هذه الصفحة لمصلحة الجميع.. أنت
محط نظر العائلة كلها الآن خاصة بعد عودتك.. بماذا
ستبرر لهم إقامتك في غير بيت أبيك؟!
يبتسم يحيى بمرارة ساخرة مع وقع الكلمة الأخيرة
على قلبه فيرمقه إلياس بنظرة صارمة كأنما يذكره
باتفاقهما..

لكن الأول يهتف بحسم :

_ لا تحملني ما لا أطيق! لن أستطيع العودة لذاك
البيت.. اخلق لهم أي عذر.. أخبرهم مثلاً أن طيف
تريد الاستقلال ببيت يخصها.. ولا أظنهم سيتعجبون
ذلك عندما يرونها ويتعاملون معها!

يصمت إلياس مفكراً للحظات ثم يهز رأسه :

_ إذن ستبقون معي في بيتي؟!!

_ لا.. كي يبدو الأمر أكثر منطقية أريدك أن تساعدني
في توفير بيت صغير لنا يناسب ظروف مجد.. بحديقة
وطابق واحد.

_ وماذا عن استبرق؟! تظنها لن تضغط عليك لتعود
لبيتها؟! أتعجب صبرها عليك منذ عودتنا وصمتها
عن بقائك معي في بيتي!

يقولها إلياس محذراً ليرد يحيى مشيحاً بوجهه :
_ فلتبقِ إذن صامتة! لا أظن ذكاءها يوجهها

لاستفزازي هذه الأيام بالذات!

يقولها ليصمت طويلاً وهو يراقب الشوارع التي
تنهبها السيارة بسرعتها فيشعر بالحنين يجتاح قلبه

معها..

_ افتقدت بغداد.. معك.

يتمم بها يحيى أخيراً وهو يشعر بصحبة إياس تعيده
لعهدهما القديم.. فتلتوي شفتا إياس بشبه ابتسامة
وهو يتمم بنبرة شبيهة :

_وأنا الآخر.. افتقدتك.. معها.

يمران بأحد البيوت الذي بدا قديم الطراز لحد كبير
مقارنة بالحدائثة حوله وقد أحاطه سور قصير تكس
فوقه الصداً والأتربة وقد ميزه هذا التمثال في مدخله
لرجل عظيم الهيئة يرتدي بدلة قديمة الطراز ويضع
يده في جيبها بينما يمسك بالأخرى عصا رفيعة..

ليلتفت يحيى نحو إياس كأنه تذكر شيئاً ما وهو يشير
نحو البيت المميز قائلاً :

_ هذا هو...!

يهز إلیاس رأسه ببطء و عیناه تغیمان بشرود بئس
لیبطئ سرعة السیارة عفویاً كأنه لا یرید المرور
السریع هاهنا فیرمقه یحیی بنظرة مشفقة وهو
یستعید هذه الذکری من ماضیهما المشترک فیسأله
ویکاد من نظرتہ یعرف الجواب:

_ لماذا لم تتزوج طوال هذه السنوات؟! توقعت أن
أعود لأجد أولادك يتقافزون حولك.

والجواب یمنحه إلیاس فی اقتضابه المعهود الذی
زخر بمشاعره هذه المرة وهو یرمق یحیی بنظرة
عاتبة كأنه لا یصدق أنه حقاً توقع هذا :

_ أنتظرها.

يزم يحيى شفثيه بتفهم لماضيه وهو يهز رأسه ليعود
يشرد في الطريق فتجذبه دوامات الحنين من جديد
لتغرقه في صمت طويل..

وأخيراً يختلس إلياس نظرة لجانب وجهه ثم يقول
بحذر :

_نحن في طريقنا لبیت شجون.. أعرف أنك تتحاشى
رؤية سراب منذ عدت.. لكن الأمور يجب أن تسير
بصورة طبيعية.. يجب أن تقدم واجب العزاء وتقف
في ظهر شجون وابنتها.

فيتهد يحيى بحرارة وهو يشعر بالدماء الحارة تفور
في عروقه..

أن يلتقي سراب بعد كل هذه السنوات لهو الجحيم

بعينه!

لكنه يستدعي كل ذرة من قوته وهو يرد بصلافة :

_ معك حق.. لنذهب!

يتنهد إلياس ببعض الرضا وهو يزيد سرعة السيارة

تلقائياً نحو بيت شقيقه الراحل الذي توقف أمامه

أخيراً ليترجل من السيارة فيلحق به يحيى الذي عاد

يغرق في فيض الحنين وهو يراقب البيت الذي قضى

فيه سنوات عمره الأولى..

لقد أعادوا طلاءه ليمنحوه مظهراً أكثر حداثة..

بعض التحديث جريمة في حق الذكريات!

يغمض عينيه بوجع وطوفان الذكرى يجتاحه من

جديد..

كأن السنين لم تمر..

كأنه هو الطفل الذي كان يعدو هنا في حديقة البيت

خلف سراب وسط عائلتيهما ليكبر فيتسلل نحو نفس

الحديقة كي يلتقيها فيبيثها أشواقه ويرسم معها خرائط

غد..

قبل أن يلطخ الحرام بحمرته وردية الصورة!!

_إذن.. فقد عدت حقاً!

الصوت العنيف الذي حمل نبرة عدائية لم يتكلف

صاحبها مشقة إخفائها يجبره أن يلتفت فينعقد حاجباه

وهو يناظره..

البحر..!

القارب..!

زهور التبوليب تلقيها عروس ترتدي ثوبها الأبيض
في الماء فيقفز عريسها بكامل ثيابه خلفها ليعيد لها
زهورها كأنه يخبرها أنه سيدرك لها دوماً ما أضاعته
من أحلامها..

المشهد الذي طالما حلما به.. ليحققه غيره!!
رعدة خفيفة تسري في جسده وهو يستعيد مرارة
الذكرى..

ربما محا الزمن عنها جرح التعلق بحب قديم فقد
شرعيته لكنه لا يزال يجد في حلقه نفس الغصة..
ربما لأن مرارة الفقد لا تزال ترتبط بوجع الغدر
وتصمه بالخطيئة دون ذنب!!

الغريب أنه بعد كل هذه السنوات لا يمكنه أن يمنع
نفسه عن تخيل سراب كاستبرق في صورة امرأة
خائنة..

لا يزال جزء داخله يلومها أنها تجاوزته لغيره بتلك
البساطة رغم أنها لم تعرف الحقيقة..

رغم وجود جزء آخر يحمدها هذا ويتمنى لها فرحة
تستحقها!

تناقض!!

وماذا كانت حياته سوى مجموعة من التناقضات!!؟

وهاهو ذا زوجها (عُدِّي) يبدو أنه هو الآخر لم

ينس!!

_مرحباً عُدِّي! شجون وسراب بالداخل!؟

يقولها إلياس مخاطباً الرجل الذي بدا متحفظاً وهو

يرمق يحيى بنظرات نارية ليرد :

_يمكنكما رؤية شجون.. لكن سراب لا.

يرمقه إلياس بنظرة زاجرة ليردف بنفس النبرة

العدائية :

_زوجتي منهارة ولن تحتل رؤية أحد!

يشيح يحيى بوجهه شاعراً ببعض الرضا وهو يكاد

يشكر الرجل رغم سماجته على ما يفعله..

لن يحتل مواجهة سراب..

الآن على الأقل..

فليلتقط بعض أنفاسه أولاً بعد كل هذه المفاجآت!!

_حمداً لله على سلامتك يا يحيى..

كانت هذه شجون التي ظهرت لتوها بملامح باكية

لتردف بانھیار :

_ليتك بگرت عودتك قليلاً.. عمك كان يود رؤيتك

قبل.. قبل..

تتخرط بعدها في بكاء خافت ليربت إلياس على كتفها

مردداً كلمات مواسية فيما يبقى يحيى متصلباً مكانه

وشعوره بالذنب يمنعه حتى مجرد الحديث..

كيف يخبر هذه المكلومة أنه هو ثمرة خيانة زوجها

لها؟!!!

بل كيف يضع عينه في عينها وهو الذي تسبب في

سجنه مدفوعاً بشهوة انتقامه؟!!!

ياالله!!

لماذا عدت بقديمك لهذا الجحيم يا يحيى؟!!

لماذا عدت!!؟

يشعر بالدماء تنسحب فجأة من عروقه ليترنح مكانه
ترنحاً خفيفاً..

لكن هاتين العينين تكتسحان خياله فيمنحانه المدد
الذي يحتاجه..

عينان يكفي سديهما ليخلق وسط ظلام فوضاه ألف
نجمة..

عينان لامرأة علمته كيف تكون ملكته مرة.. وجيشه
مرة.. ومعركته مرة.. إنما يكفيها أنها تكون (الغنيمة)
كل مرة!!

طيف!

مجرد ذكراها يحيي هذه القوة الكامنة داخله فينتصب
فجأة في وقفته ليرمق عدي بنظرة صلبة قبل أن يأخذ
نفساً عميقاً وهو يذكر نفسه..

لا لوم على العودة بعد الآن.. يحيى الأمين رجع لأنه
كان يجب أن يرجع..!!

تدعوها شجون للدخول فيتحرك يحيى بخطوات
متثاقلة نحو الداخل مجاهداً طوفان الذكري بكل
طاقته..

ولم يكادوا يستقرون في مجالسهم ليعاود إلياس
مواساة زوجة شقيقه بكلمات داعمة حتى تنح عدي
ليقول بنفس النبرة المتحفزة :

اعذروني لو كان الوقت غير مناسب لكنني أحتاج
للتحرك بسرعة.

يعقد إلياس حاجبيه بصبر من اعتاد حماقاته فيما
يرمقه يحيى بنظرة محايدة ليردف الرجل :
_ العائلة تحتاج للاجتماع في أقرب وقت لنرى كيف
ستسير الأمور بعد موت عمي رحمه الله.. أريد نصيب
سراب في إرثها بأسرع وقت لأننا في سبيلنا للهجرة.
تشحب ملامح إلياس بمفاجأة فيما تهتف شجون بين
دموعها مخاطبة زوج ابنتها :

_ لم أمنحك موافقتي بعد! سراب ابنتي هي من تبقت
لي الآن بعد وفاة غيث.. بأي قلب تريد حرمانني
منها!؟

_ عذراً يا سيدة شجون! كنتِ تعلمين من قبل بسعيي
في إجراءات الهجرة ولم تمنعي.

يقولها عدي بسماجة لتهتف المرأة بقهر :

_ظننت أمامك الكثير من الوقت.. وكان هذا قبل رحيل

غيث..

لكنه يهتف ببعض الحدة :

_السيدة استبرق حلت لي بعض الأمور بعلاقتها

وساعدتني على توفير مسكن وعمل مناسب في كندا..

فلماذا العطلة !!؟

_استبرق! فعلتها!!

تهتف بها شجون بصدمة ليتبادل يحيى وإلياس نظرة

ذات مغزى فيما يردف عدي بانفعال:

_أجل.. فعلتها.. صنيعها هذا سيبقى طوقاً في عنقي

العمر كله.. والآن حقي أن أذهب لبلد يقدر دراستي

وعملي مع زوجتي التي يجب أن تشاركني الطريق..

صحيح!!؟



_ هي ابنتي قبل أن تكون زوجتك! يا الله!! لا أصدق أن

تتحدث بهذه الجراءة في موقف كهذا!!

تهتف بها شجون وسط دموعها ليرد عدي بنفس

الحدة المنفصلة:

_ تتحدثين وكأني سأحرمك منها! يمكنك أن تلحقي بنا

هناك عندما تستقر الأمور! ماذا بقي لك هنا؟!!!

تهم المرأة برد عنيف لكن إلياس يسكتها بإشارة من

كفه ليلتفت نحو عدي قائلاً بصبر :

_ ما الذي تريده يا عدي؟!!

_ نصيب زوجتي من إرث أبيها كاملاً.. سأبيع حصتها

في الشركة وفي هذا البيت.. وفي كل شيء.

يقولها الرجل بنبرة عملية لترد شجون بانفعال:

_ هذا البيت باسمي أنا.. المرحوم كتبه لي كاملاً قبل

وفاته.

تبدو المفاجأة على وجه عدي لكنه يعود ليقول

بإصرار :

_ حسناً.. يبقى إذن نصيبها في الشركة.

_ أسمعها من سراب بنفسي.. وبعدها لك ما شئت!

كان هذا يحيى الذي نطق أخيراً بصرامة لتلتفت نحوه

شجون ببعض الدهشة فيما يطرق إلياس برأسه برضا

وهو يقرر مختاراً أن يترك الأمر له..

ليحمر وجه عدي بانفعال صارخ وهو يهتف بعدائية:

_ لماذا تتكلم أنت معي!؟!

_ من اليوم.. بل من الساعة.. كلامك لن يكون سوى

معي أنا!

يقولها يحيى بنفس الصرامة ليهب عدي واقفاً وهو

يلوح بقبضته نحو يحيى هاتفاً :

_بأي صفة! ها! بأي صفة؟! بصفتك الحبيب القديم

الذي عاد بعد زواج حبيبته ليفسد حياتها!

_عدي!!

يهتف بها كل من إلياس وشجون في نفس اللحظة

وهما ينتفضان مكانهما بانفعال لكن يحيى يبقى رابط

الجأش وهو يقف بدوره ليرد ببرود صارم :

_بل بصفتي رئيس مجلس الإدارة الجديد.

_ماذا؟! السيدة استبرق هي..

_كل هذا سيتغير! أنا عدت.. وعودتي ستقلب الكثير

من الموازين لو تعلم!

يقاطعه بها يحيى بنفس الحسم ليهتف عدي من بين
أسنانه :

_حتى لو صرت كذلك! حق زوجتي قانوني وستناله!
_لن أمنعها حقها! لكن.. على حد علمي أنا تركتها
تملك لساناً يمكنها التحدث به ولا أظنها أقرضتك
إياه!

يقولها يحيى بسخرية صارمة وقد شق عليه أن
يتعامل عدي بهذا الصلف مع شجون..
ليفقد عدي أعصابه فيندفع ليمسك بتلابيب يحيى هاتفاً
بعصبية:

_هذا ما تريده إذن؟! فتح مجال للحديث معها؟! لن
أسمح لك بالتحدث مع زوجتي! بل لن أسمح لك حتى
بأن تراها ولو للحظة!

لكنه يقطع عبارته بحشجة قوية وهو يفاجأ بقبضة
يحيى تعتصر عنقه بسرعة خاطفة مع قول الأخير
وعيناه تتوهجان بتهديد مخيف:

_تحدث بهذه الطريقة عنها أو عني مرة أخرى او
حتى لمح تلميحا وساقطع لك لسانك! لو لم تكن تعرف
بعد عنن تتحدث فلا يزال بإمكانني أن أعرفك!

_يحيى!

يهتف بها إلياس مهدئاً وهو يجذب يحيى نحوه لكن
الأخير بقي يناظر عدي بنظرات صارمة للحظات قبل
ان يطلقه ليهتف الأخير وهو يتراجع ليصعد للأعلى :
_همجي! متخلف! سأترك لكم هذا البلد بأسره لأرحل
بزوجتي وأروني من سيمنعني!

هنا تنهار شجون جالسة مكانها لتدفن وجهها بين
كفيها فينحني يحيى ليقبل رأسها بتوقير قائلاً:
_ لا تبكي! أنا لم أعد كي أثير المشاكل.. لن أفعل إلا ما
يرضيكما أنتِ وسراب.. لا تحملي هما!
ترفع إليه المرأة عينين ذابلتين لتغمغم بنبرة عاتبة:
_ فعلتها استبرق! هي تعمدت توفير هذه الفرصة له
كي تحرمني من ابنتي.. تريد مثلاً أن تردها لي واحدة
بواحدة؟! تظنني كنت السبب في غيابك عنها طوال
هذه السنوات!!؟

شبح ابتسامة ساخرة يطوق شفتا يحيى وهو يدرك
الغرض الحقيقي لاستبرق من إبعاد سراب..
ولا يتعجب أن تسعى لإبعاد إلياس كذلك!

لهذا يستقيم بجسده ليتبادل مع إلياس نظرة ذات

مغزى قبل أن يقول بحسم :

__ كما أخبرتك! عودتي ستغير الكثير هنا.. الكثير!

=====

__ بابا!

تهتف بها مجد ببراءتها الطفولية وهي تفتح له

ذراعيها عقب عودته..

كان إلياس قد خصص للصغيرة غرفة منفصلة تجاور

الغرفة الأخرى التي جعلها ليحيى وطيف لكن الأخيرة

بقيت تشارك مجد غرفتها غير مبالية بما يثيره هذا

من ظنون..

ينحني يحيى ليعانقها بقوة ملاعباً شعرها بأنامله

لتهتف به بحزن:

__ افتقدت "أنكل نزار" ! لماذا تركني؟! لماذا تتركونني

تباعاً؟! ألا يمكن أن نعود كلنا للعيش معاً؟!!

تمط طيف شفيتها باستياء وهي تشيح بوجهها

ليغمض يحيي عينيه بحزن مماثل وهو الآخر يشعر

بافتقاد صديقه!!!

لقد حاول الاتصال به مراراً لكنه يرفض الرد عليه!!!

يعرف أنه قد يكون قد نقض اتفاهه معه بالأى يعودا

لبغداد لكن ما حيلته؟!!

عودته كانت حتمية وليت نزار يفهم!!!

يشعر بقرب بكاء الصغيرة وهي تغمغم ولا تزال

تتشبث بعناقه كأنها تخشى أن تفقده هو الآخر :

_ هو يهاتفني كل يوم.. يضحكني كما كان يفعل

دوماً.. يقسم لي أنه لم ينسني.. لكنني أريد رؤيته..

افتقدت رؤية أسنانه وهو يضحك.

يبتسم لبراءة تعبيرها الطفولي فيعود برأسه للوراء

وهو يربت على رأسها قائلاً:

_ سنراه قريباً.. أعدك!

_ لماذا عدنا إلى بغداد؟! كنت تقول لي أنها كالشمس..

تدفئنا من بعيد لكننا لو اقتربنا منها نحترق.

فيرفع عينيه نحو طيف بنظرة موصدة ليعود ببصره

نحو مجد قائلاً:

_ كنت مخطئاً! بل هي كالأرض التي كلما عاندنا

جاذبيتها شقّ علينا التنفس.. وكلما اقتربنا منها

أدركنا راحة السلام.

تبتسم له الصغيرة ببعض الحيرة فيعود ليداعب

شعرها هامساً بحنان:

_ طال شعرك.

_ ستسمح لي أن أطيله أكثر!؟!

تسأله بحذر ليرد وهو يختلس النظر نحو نارите التي

وقفت مكانها مكتفة ساعديها بوجوم :

_ في هذه أيضاً كنت مخطئاً.. دعي شعرك يطول ما

شئت.

تتسع ابتسامة الصغيرة وهي تشير حولها قائلة :

_ كنا نلعب "مونوبولي" .. طيف علمتني كيف أصنعه

بنفسي.. كل هذا أعدناه معاً.

يبالغ في ثنائه وهو يللم الأوراق لتعلو ضحكة
الصغيرة برضا حتى يحملها ليضعها فوق الفراش
فتلحق بهما طيف..

_أريد أن تحكي لي أنت الحكاية اليوم.
تقولها مجد مخاطبة إياه فيهرز رأسه موافقاً لتعاود
طيف مط شفتيها باستياء وهي تكتفي باستلقاءها
الصامت جوارهما حتى استسلمت مجد للنوم أخيراً
فشعرت به ينهض من جوارها ليرمقها هي بنفس
النظرة الموصدة قبل أن يتحرك ليغادر الغرفة نحو
غرفتهما المجاورة..

_أين هاتفي!؟

تقتحم بها غرفتهما بفضافة وقد وجدته واقفاً أمام
النافذة ليرد دون أن يلتفت إليها :

_أغلق الباب وأخفي صوتك.. الصغيرة نائمة

والبيت ليس لنا.

تغلق الباب ببعض العنف لتتقدم نحوه هاتفة بفظاظتها

المعهودة :

_أريد بيتاً لنا إذن يمكنني فيه الصراخ كما أشاء.

_أوصيت إلياس بتدبير الأمر.

يقولها ببرود دون أن يلتفت إليها كذلك فيستفزها هذا

أكثر لتتقرب منه وقبضتها تحط على كتفه لتجبره

على النظر إليها هاتفة :

_أعتذر لإزعاجك بروئيتي.. أخبرني أين هاتفني

وسأرحل من هنا.

_كسرتة!

يقولها بنفس النظرة الموصدة فتطلق صيحة مستكرة
وهي تهم بعبارة فظة أخرى لكنها تشهق بعنف وهي
تجد نفسها قد التصقت بالحائط المجاور وقبضته
تعتصر معصمها بينما جسده يضغطها إليه مكبلاً
حركتها..

_ تباً لهذه الحركة!! ألا تجيد سواها لفرد عضلاتك!

اترك يدي! أين هاتفك!؟

تهتف بها بغضب وسط محاولاتها العنيفة للتخلص
من أسره لتتحول نظرتة الموصدة لأخرى مشتعلة
وهو يقترب بوجهه منها هامساً بصرامة :

_ كسرتة! كما سأكسر رأسك هذا لو تجرأتِ وهاتفِ

حسام ذاك ثانية!!

تتسع عيناها بصدمة لأول وهلة من مفاجأتها أنه قد

علم لتهتف به بحدة:

_ هل كل الرجال بهذا الغباء؟! أخي ملطم في بلاد

الغربة يبحث عن علاج لابنته الرضيعة.. وإحدى

صديقاتي مسافرة وحدها لتتلقى علاج السرطان في

بلد غريب والأخرى تكاد تفقد عقلها بين هلاوسها بعد

وفاة زوجها الوغد الذي كان يذيقها الويل.. وأنت

وسط كل هذا تكسر هاتفك الذي أطمئن به عليهم كلهم

لأجل غيرتك الحمقاء من مجرد ماضٍ قديم!

_ لا تعبثي في هذه المنطقة يا طيف! أخبرتك من قبل

أنني فاقد العقل تماماً فيما يتعلق بهذا الأمر! فاقد

العقل تماماً!

صوته يقسو أكثر فتدمع عيناها رغماً عنها ثم
تغمضهما بقوة وهي تشعر بشفتيه على عنقها بعزف
بدأ ناعماً شهياً قبل أن يكتسب المزيد من العنف..
تكتم تأوها بصعوبة ولا تزال تحاول التخلص من
قبضته ليزداد اعتصاره لمعصميهما بينما همسه يصلها
متوعداً بصرامة لم تخلُ من بعض العبث وهو يشير
بعينيه لعنقها:

_ سيترك هذا أثراً فاضحاً هاهنا.. لعله يذكركِ ألا
تعديها.. أحترم طبيعتك الجموح في كل شيء.. إلا
هنا!

تزداد كثافة الدموع في عينيها رغماً عنها وهي تشعر
بالعجز من تحرير نفسها منه.. تكتم سيلاً من الأسباب
تود لو تطلقه..

وفيضاً من الحب تود لو تسمح له بالجريان كذلك!!
لكن صوته يرق بعض الشيء وهي تفاعاً به يقبل
جبينها بنعومة ليهمس أمام عينيها بتوقير وهو يدور
بسبابته فوق موضع قلبها :

_وسيترك هذا أثراً ناعماً هاهنا.. لعله يذكرك كم أنا
فخور بامرأة مثلك قد تحمل هموم الدنيا كلها على
كتفيها دون أن تشكو!

هنا لم تستطع المقاومة ليسيل خيط من الدموع على
وجنتها مع شهقة باكية تجعله يحررها للحظة.. إنما
ليزرعها بأكملها بين ضلوعه!!

يحنى رأسه فوق رأسها فلا يدري أيهما يحتاج لهذا
العناق أكثر الآن!!

لم يتصور يوماً ان يسمعها تبكي بهذه الحرقرة!!

لم يكن الموقف يستحق كل هذا لكنها كانت تبدو كأنها

ادخرت دموع سنوات للحظة كهذه!!

كأنما انهار السد فجأة لينهمر من بعده الفيضان!

هل هو شعورها بالغبطة هنا؟!

هل هو خوفها عليه؟!

هل هو افتقادها لعاصي ووولديه؟!

للعائلة التي بالكاد حصلت عليها؟!

قلقها علي زهرة؟! علي ديمة؟!

علي سند؟!!

أم لعله كل هذا؟!!

إلا دموعك! إلا دموعك!! لا تبكي!!

صوته القوي بلكنته الثقيلة يمتزج بعمق عاطفته في

هذه اللحظة وهو يعتصرها بين ذراعيه ليصله همسها

المتقطع بين فظاظتها المعهودة ورقة غريبة بدت

وكأنها مزيج خاص بها وحدها :

_ ماذا فعلت بي؟! ماذا فعلت بي؟! أنا عشت قبلك لا

أبالي بأحد ولا أخاف علي أحد.. أنت زرعت هذا

الوهن داخلي.. صرت أخاف على هذا الشعور الذي

يملؤني نحوكم كلكم.. بعد طول ادعاء للاستغناء

صرت أخشى الفقد.. أخاف عليك.. علي مجد.. علي

عاصي.. علي ماسة.. علي زهرة.. علي ديمة.. وعلي

نفسي لو أصابكم ما يسوءني.. أنت السبب في هذا

الوهن! أنت السبب!!

لكنه يرفع وجهها ليمسح دموعها بأنامله قبل شفثيه

هامساً أمام سديم عينيها الملهم :

_ في هذا الشأن ليس أحدنا بأفضل من صاحبه.. ربما ليس وهنا.. ربما كلانا يولد من جديد بين يدي صاحبه ليستقبل حياة جديدة.. خوفي ليس أقل من خوفك لو تعلمين.. لكنني أثق أنني معك قادر على مواجهة الدنيا كلها.. أنت جيشي وملكتي وحربي.. وكل غنيمة قد يرتجئها قلبي!

تسبل جفنيها دون رد فيعيد رأسها لصدرة وهو يلاعب شعرها بأنامله مردفاً :

_ جيداً أنك قد قصصتِ شعرك ليطول هذه المرة في عهدي فلا يقصر بعدها أبداً.. كنت أكره الشعر الطويل لكنني معك تعلمت كيف يمكن أن يساوي شعر امرأة تاريخاً بأكمله.. دعيه يطول ويطول ليشهد كل يوم غزوة من غزوات عشقنا.. أجل.. لا أظن حبنا ذاك

النوع الذي خلق للشموع والزهور.. بل للحرب.. كلانا

لصاحبه لغازٍ.. كلانا من صاحبه مهزوم.. وبصاحبه

منتصر!

تبتسم رغماً عنها وسط دموعها لتبدو له ابتسامتها

كأنقى مرة رآها فيها.. رغم كلماتها التي تعمدت

ففاظتها وهي تبعده ببعض العنف هامسة :

_ من بنا الأديب أنا ام أنت؟!

_ ممم.. تحبين أن أذكرك بالبدايات؟! الندوة مثلاً؟!!

يقولها متعمداً إغاظتها لتمط شفيتها باستياء مصطنع

فيعاود تحريك سبابته فوق (موضع قلبها) هامساً

بعمق عاطفته :

_ عديني أن تحافظي لي على هذا كما أحببته.. أنا به..

وله!

_ لا أحب هذه الحركة! لا تمسني هاهنا!
تهتف بها بفضافة تداري خجلها وهي تخبطه بخفة
على كفه فيرفع أحد حاجبيه ليرد بجرأة لا تتقصه :
_ لماذا؟! تشعرين بالنقص مثلاً؟! لهذا تتعمدين أن
تصفي بطلاتك دوماً بأنهن يحملن منحنيات بارزة!
شهقتها الحادة تسبق سيل السباب الذي أطلقته حراً
هذه المرة وعيناها تعودان لجذوتها البرية فيكتم
ابتسامته وهو يكتم فمها بحركة سريعة قبل أن
يحملها قسراً ليجلس بها فوق الأريكة القريبة..
يطلق آهة عالية وهو يشعر بعضتها لكفه المكتم
لشفتيها فيحررها ليبتم ابتساماً راضية وهو يتشبث
بها فوق ساقيه مستمتعاً بحمرة وجهها الغاضبة :

_ هذه هي البرية الجموح التي أحببتها.. هذه التي لا

يليق بها الوهن.. أي وهن.. سوى وهنها بين

ذراعي!

تشيخ بوجهها محافظة على ملامحها الغاضبة فيميل

على أذنها هامساً برقة أذابتها:

_ يوماً ما - ليس ببعيد- سأسمح للحرب أن تعرف

طريقها لجسدنا كما عرفها قلبانا.. ساعتها ستأرين

مني لما قلته منذ قليل.. وسأرفع رايتي البيضاء

مستسلماً لفتنة أوقن ألا تحملها في الكون امرأة

سواك!

تسبل جفنيها للحظات لتهرب من طوفان مشاعرها

الذي اجتاحتها في هذه اللحظة لتعاود رفع وجهها إليه

مغيرة الموضوع بسؤالها :

ماذا فعلت اليوم؟!

يعود وجهه لعبوسه القانط كأن ما بينهما لم يكن
سوى هدنة رائقة قصيرة وسط الحرب التي يحياها..
يحكي لها ما حدث فينعدد حاجباها وهي تفعل الشيء
الوحيد الذي تجيده بطلاقة..

تسب عدي!

المسألة ليست طمعه في إرثها.. الوضع يفوق هذا..
هو شديد الغيرة.. وعودتي إلى هنا مع ما يعرفه عن
ماضينا يجعله على صفيح ساخن.. أنا أتفهم نوعاً ما
غيرته لكن لا أحب تجاهله لمشاعر شجون.. لعله
يعرف! لعله يفهم إلا أساس لما يخشاه!
يقولها بضيق وهو يخفي وجهه في كتفها فتهم بالرد
لكن رنين هاتفه يقاطعها..

هذا الذي تناوله ليجيب اتصال إلياس فيستمع قليلاً
قبل أن يغلقه ليلتفت نحوها مغمماً بشرود حذر :
_ العائلة ستجتمع غداً في بيت استبرق.. عدي طلب
الاحتكام لهم.

_ ما هذه الصفاقة؟! الرجل دمه لم يبرد في قبره بعد
وهذا السمج يطالب بارت زوجته!! فقط عندما أراه
غداً سأسمعه ما..

تكتم وعيها الساخط وهي تشعر بسبابته تحط على
شفتيها تمنعها المزيد مع نظرتة التي عادت إليها
صرامتها وهو يرد باقتضاب لا يحتمل المناقشة:
_ لن تأتي معي . لا أريد أن تكون بداية تعارفك مع
عائتي في موقف كهذا.. عندما نعد بيتنا سادعوهم

جميعاً للقائك.. تستقبلينهم في بيتك كما يليق بك ..
وحتى هذا الحين ستبقين هنا مع مجد معززة مكرمة.



تتلكأ قدماه أمام البيت الذي عاد إليه بعد كل هذه
السنوات فلا يعود في صدره موطأ قدم للمزيد من
الحنين..

للمزيد من الوجد!

كف إلياس الداعم خلف ظهره يجعله يلتفت نحوه
ليمنحه شبه ابتسامة قبل أن يلج معه للداخل..
الوجوه الحبيبة للعائلة التي افتقدتها تعانق قلبه قبل
عينيه..

لسانه لا يخذله بأجوبة ذكية عن أسئلتهم ليتحاشوا

بدورهم الحديث عن سراب وسبب هروبه - كما

يظنون !-

تهبط استبرق الدرج نحوهم بثوبها الأسود وعيناها

تتوهجان ببريق قاسٍ يناقض ملائكية ملامحها

المعهودة..

تتوجه نحو شجون لتعانقها بقوة مانحة إياها أحر

عبارات العزاء فتتلقاها شجون بصمت مقهور قبل أن

تعاود الجلوس واضعة رأسها بين كفيها..

لن أضيع وقتكم.. أعرف أن الظرف غير مناسب

لكنني أحتاج لتدبير أموري قبل السفر..

يبادر بها عدي بتوتر فترمقه العيون بنظرات ساخطة

بين عتاب وازدراء لكنه يردف غير مبالٍ:

_ السيدة استبرق عرضت شراء نصيب سراب.. وأنا

وافقت!

_ ماذا؟! ماذا تقول؟! ابنتي تبيع نصيبها لاستبرق!!?

ما هذا العبث!?

تهتف بها شجون باستنكار لترد استبرق برباطة

جأش:

_ لو تملكين أنت ثمن شرائها.. فمبارك لك!

تدمع عينا شجون بعجز لتهتف ذاهلة:

_ ولماذا تبيعها من الأساس؟! لماذا تنزع نفسها من

جذور مؤسسة الأمين وتخرج من حدود العائلة!?

_ زوجها هو من يريد هذا!

تهز بها استبرق كتفيها ببراعة مصطنعة مشيرة لعدي

لتردف :

_ لا أخفيك قولاً.. أنا الأخرى لم أكن أملك سيولة
كافية.. لكنني فقط أردت تدبير الأمر لهما. . تعرفين
معزة سراب عندي...سفرهما لكندا فرصة كبيرة
نادرة.. مستقبل عدي هناك سيفوق التوقعات خاصة
بمجال عمله النادر!

_ أنتِ إذن من كبرتِ الأمر في رأسه!!?
تهتف بها شجون بغيظ لترد استبرق بنفس البراءة
الخادعة :

_ كلهم أولادي يا شجون.. مصلحتهما عندي من
مصلحة يحيى.
يتهدج صوتها رغماً عنها مع نطقها باسمه دون أن
تنظر إليه..
فيلتفت عدي نحو إلياس قائلاً بنفاد صبر :

_ هاقد حضر الجميع واتفقنا.. حصة سراب تخص

السيدة استبرق.

يتبادل بقية أفراد العائلة من أخوات استبرق وأقارب

شجون النظرات لتتعلق عيونهم بإلياس منتظرين

قراره..

لكن صوت يحيى يقطع الصمت بهدوئه المسيطر :

_ لماذا تصرون على الحديث عن سراب كأنها قاصر

مثلاً!! كل هذه الجلسة لا تساوي شيئاً دون

حضورها.

_ اسكت انت ولا تتكلم! بأي صفة تشاركنا الحديث!

يهدر بها عدي بغضب ليردف ملوحاً بكفيه:

_ سراب سافرت منذ قليل للمزرعة كي تريح أعصابها

المنهارة ووكلتني في كل ما يخصها!



ترمقه شجون بنظرة مغتظة لكنه لا يبالي وهو

يستطرد مخاطباً استبرق:

_مبارك لك سيدتي.. أريد فقط أن ننهي الأمر بسرعة

قبل..

_أنا أرفض هذا البيع! لو أرادت سراب البيع فلتبلغني

بنفسها وأنا من سيشتري!

يقولها يحيى بنفس الهدوء الصارم ليهب عدي واقفاً

مكانه بهتافه:

_وما شأنك أنت لترفض أو تقبل!؟!

يبتسم يحيى ابتسامة متحدية وهو يشير بكفه نحو

إلياس الذي تنحج ليقول بهدوء:

_حسب قوانين المؤسسة التي وضعها أخي والد

يحيى رحمه الله بحكم كونه الشريك الأكبر.. يحيى

صاحب الحق الأول في شراء أي حصة للشركاء
يرغب أحدهم في بيعها.. ولو رفض الشراء فقط في
هذه الحالة يمكن لمن يرغب في البيع أن يحيل الأمر
لغيره.

تشحب ملامح عدي للحظة قبل أن يحمر وجهه
بانفعال وهو يرمق استبرق بنظرة مستغيثة لكن
الأخيرة تتمالك نفسها بسرعة لترد بدبلوماسية:
_ أنا وابني واحد! لن يشكل الأمر فارقاً.

لكن عدي يهدر بغضب :

_ لا! لم نتفق على هذا! لن أبيع نصيب سراب لذلك

الرجل!

_ إذن لن تبيعه أبداً!

يقولها يحيى بحسم وهو يقف قبالة ليردف بنبرة
قوية:

_ خذ ما شئت من أموال مني على سبيل القرض
وسافر مع زوجتك.. لكن لتبق لسراب حصتها في
المؤسسة.. اسمها يجب أن يبقى موجوداً بيننا.. لن
ينفرط عقد العائلة ما دمت علي قيد الحياة!
يرمقه إلياس بنظرة فخر راضية ليقف جواره داعماً
فيندفع عدي صارخاً بالمزيد من عبارات الغضب حتى
كاد يتهجم على يحيى لولا تدخل الجالسين.. لتندفع
شجون كذلك فتتهجم بالقول علي استبرق..
_ اصعد لغرفتك الآن يا يحيى! أنا الأدرى بهم..
سأعرف كيف أهدئ الأمور.. ابتعد أنت الآن حتى
أستدعيك.

يهمس بها إلياس في أذنه وهو يبعده عن عدي الذي
تقافزت شياطين الغضب على وجهه ولا يزال يطلق
صيحاته الغاضبة ليردد يحيى للحظات قبل أن يتخذ
قراره بطاعة عمه..

يزفر زفرة مشتعلة وهو يصعد الدرج بتثاقل نحو
غرفته القديمة

لا يريد الاستسلام لهذا الشعور داخله بالهروب من
جديد..

فليواجه.. بل فليقتحم!

يفتح الغرفة ببعض العنف لتندفع ذكرياته كالسيل وهو
يغلق الباب خلفه..

يشعر بالاختناق فيحل بعض أزرار قميصه وهو
يستشعر هذه الغصة في حلقه..

يتحسس الفراش.. المكتب.. خزانة الملابس التي لا

تزال على حالها..

يفتح بعض الادراج لتدمع عيناه بالمزيد من الحنين

وهو يتفقد محتوياتها..

كيف مر هذا العمر؟!!

كيف؟!!

_ يحيى!

يتخشب جسده برهبة وهو يميز الصوت خلفه..

مستحيل!

هو يتخيل!!

لا يمكن أن تكون هي!!

مستحيل!!

يهز رأسه برفض دون أن ينظر لكنه يشعر بها تقترب
من جهة النافذة لتهمس باسمه من جديد فيجد الجراءة
أخيراً ليلتفت..

ملامحها التي يعرفها تشع حزناً وخيبة!

_ سراب! كيف وصلتِ إلى هنا؟!

يسألها بصوت متحشرج لترد وهي تشير نحو

النافذة :

_ عبر النافذة.. تسلقت الشجرة.. كالأيام الخوالي.

يكز على أسنانه بعمق انفعاله في هذه اللحظة وهو

يتذكر ما تحكي عنه ليهمس بها بانفعال عبر صوته

المرتجف:

_ هل فقدتِ عقلك؟ ! زوجك المجنون بالأسفل يقيم

الدنيا ولا يقعداها لأجل بيع حصتك.. ماذا سيفعل لو

عرف بوجودك هنا؟! لن تكفي عن تهورك المعهود

هذا؟! لم نعد أطفالاً كالسابق!

_ أعراف أن كل شيء لم يعد كالسابق!

تهمس بها بين دموعها وهي تطرق ببصرها مكتفة

ساعديها فيشيخ بوجهه عنها لتردف بنبرة باكية :

_ أنا أخبرته أنني سأذهب للمزرعة وكنت فعلاً في

طريقي إلى هناك.. لكنني أردت رؤيتك.

_ لماذا؟!!

يسألها دون أن ينظر إليها لتجيب منكسة الرأس:

_ أمي أخبرتني بما فعلته مع عدي.. أعراف أنك

تكرهني بعدما كان.. وأنت ربما لا تطيق النظر إليّ وقد

كنت السبب في غربتك طوال هذه السنوات.. لكنني

أردت أن نطوي هذه الصفحة.. أنا راضية عن
زواجي.. وأنت الآخر قد تزوجت.

_ هي فعلاً قد طويت!

يقولها بحسم لترفع عينيها إليه هامسة :

_ إذن.. انصحي.. أنا أثق بك.. أنا حائرة ولا أعرف

ماذا أفعل.. لا أريد إفساد زواجي فعدّي زوج لا

يعوض.. لكنني أخاف الهجرة معه وحدي.. أنا وافقته

على بيع حصتي في الشركة لكن أمي.. أمي سيغضبها

هذا القرار.. ولا أعرف كيف أرضيهما معاً.

_ لم تغيرك السنوات! لا تزالين نفس الطفلة التي

تركتها خلفي.. قرارك دوماً ليس من رأسك!

يهمس بها بعتاب غاضب ليلتفت نحوها مردفاً :

_ لكنني كفيتك مشقة اتخاذ القرار هذه المرة.. حصتك

في الشركة لن تباع.. لن..

يقطع عبارته وهو يرى باب الغرفة يفتح فجأة ليطل

خلفه عدي وقد جحظت عيناه بغضب مهول مع

صراخه:

_ إذن أنت هنا!! أنت هنا!!

تشهق سراب بصدمة وهي تتراجع للخلف فيما يهتف

به يحيى بغضب:

_ افهم أولاً!

_ ماذا أفهم؟! كنت محقاً عندما بعثت خلفها من

يراقبها! كنت أعلم أنها ستستغل أول فرصة لتلتقيك!

يصرخ بها عدي وهو يمد يده ليصفعها لكن يحيى
يحكم قبضته على معصمه ليمنعه فيلكمه عدي في
وجهه صارخاً :

_ ماذا تفعل زوجتي الشريفة في غرفتك وقميصك
محلول الأزرار؟!!

_ أخفض صوتك أيها الحقير! العائلة كلها بالأسفل!
يغمغم بها يحيى بنفاد صبر وهو يحاول تكبيل الرجل
الذي بدا كالثور الهائج لكن الأخير تفلت منه ليصرخ
بجنون :

_ أنا أريدكم أن يسمعوا.. ان يشهدوا.. ان يعرفوا
لماذا عدت بعد كل هذه السنوات! تريد ان تستغل موت
عمك لتختطف مني زوجتي!!!

_ اسكت يا عدي! ستفضحني! أقسم لك أن الأمر ليس

كما تظن..

تتوجه بها سراب نحوه وهي تكاد تنهار بدموعها
لتشعب ملامحها بصدمة وهي ترى الجمع قد سعدوا

ليتوجهوا نحوهم وقد وصلهم صراخ عدي الهائج..

_ انظروا ماذا رأيتم! انظروا!! زوجتي في غرفته!!

لا يزال عدي يصرخ بها ليتبادل الجميع نظرات

مصدومة فيكون إلياس أول من يتمالك نفسه وهو

يحاول السيطرة على غضب عدي الذي بدا كشيطان

يهم بالفتك بأحدهم..

يحاول تهدئته لكن عدي يدفعه ليستخرج من جيبه

مسدساً صوبه نحو يحيى وسراب هاتفاً بجنون :

_إياكم أن يتحرك أحد من مكانه.. سأقتلك.. سأقتلكما

معاً.

يتجمد الجميع في أماكنهم وقد بدا اشتعال الموقف

المفاجئ كأنه أجم العقول قبل الألسنة..!!!

ليهدف يحيى بانفعال وهو يحرك كفيه مهدئاً :

_لا تتهور.. ما يدور في رأسك ليس صحيحاً..

لكن عدي يرفع مسدسه أمامه ليصوبه لسراب هاتفاً

بعينين دامعتين :

_إلى هذا الحد تحببته؟! لم تحتلمي أن تؤخري لقاءه

أكثر؟!!

تهز سراب رأسها بنفي عاجزة عن النطق لترتفع

الصيحات من الجميع مطالبة الرجل بخفض سلاحه

لكنه يصرخ بالمزيد من الجنون :

_ولا كلمة! سأغسل عاري بيدي!

يقولها ليهمّ بإطلاق النار لكن يحيى يصرخ فجأة :

_هي أختي!

تشحب ملامح استبرق لتترنح مكانها..

فيما يكرز إلياس على أسنانه وهو يخفي وجهه بين

كفيه..

وقد أدرك كلاهما الصاعقة المنتظرة..

لكن يحيى لم يكن يملك سوى أن يصرخ بها هادراً :

_لا يمكن أن يكون ما ببالك صحيحاً.. لا يمكن أن

يكون بيني وبين سراب ما يشين.. لأنها أختي..

محرمة عليّ.. هذه هي الحقيقة التي سمعتها بأذني..

هذا هو سبب سفري وهروبي بعيداً عن العائلة طوال

هذه السنوات.. غيث الأمين رفض زواجي من ابنته

لأنها لا تحل لي.. لأنه.. لأنه.. لأنه كان يخون شقيقه

مع زوجته.

تسقط شجون مغشياً عليها فيما تبقى استبرق مكانها

تناظره بصلافة خادعة ليتبادل الجميع صيحات

الاستنكار..

فيما تلتفت سراب نحو يحيى بصدمة.. يحيى الذي

رمق إلياس بنظرة عجز معتذرة ليشيح الأخير

بوجهه..

لكن صوت رصاصة يدوي في المكان أخيراً..

رصاصة.. أصابت هدفها!

=====

الطيف الحادي والثلاثون

=====

برتقالي

=====

طيف!

يهتف بها يحيى بمزيج غريب من ارتياح وغضب وقد
أصابت رصاصة طيف مسدس عدي لتسقطه أرضاً
وتخدش كفه فيطلق صرخة ألم وهو يلتفت نحوها..
ليس وحده!

العيون كلها تلتفت إليها فتلتوي شفتاها بشبه ابتسامة
وهي تطلق شهقتها الساخرة المكتومة المميزة مع
قولها :

_ لا حاجة للقول أنني قد جئت في الوقت المناسب! سأعتبرها طلقة صائبة فلم يكن الوقت كافياً كي أكمل دروس الرماية مع أخي في الصعيد. يرمقها يحيى بنظرة ساخطة متوعدة وقد زار وجهه بانفعالاته قبل أن يتحول اهتمامه إلى شجون فاقدة الوعي.. لكن استبرق كانت أول من تحكم في دفعة الأمور كالعادة وهي تتحني لتجلس على ركبتيها أمام شجون تضمها لصدرها بحنان زائف وهي تربت على وجنتها برفق هاتفة بين دموعها :

_ أفيقي حبيبتي! يا لله!! كأنما تنقصنا المصائب!!
تندفع سراب كذلك لتجلس مثلها وهي تمسد كف أمها البارد بين صرخاتها الملتاعة.. تهرع لتحضر زجاجة

عطر قريبة تعود بها لتعاود محاولتها مع أمها
فتتململ الأخيرة في رقدتها لتبدو على وشك الإفاقة..
هنا تنطلق الصيحات المستنكرة التي تتحرر أخيراً من
الحضور وقد اطمأنوا نوعاً ما على المرأة ليستعيدوا
صدمتهم بما صرح به يحيى لتوه..

والذي وقف لاهت الأنفاس محمر الوجه أمام هجومهم
الناري يناظرهم بعينين ضائعتين لا يصدق أنه أخيراً
فتح باب الجحيم!!

_ كفى!

صيحة استبرق العالية توقف اللغظ فتتطلع إليها
العيون بما فيها عينا شجون التي استعادت وعيها..
فتقف الأولى مكانها لتتوجه نحو يحيى فتناظره
بعينين جامدتين تناقضان الحرارة المشتعلة المنبعثة

من آدائها التمثيلي وهي ترجه بين ذراعيها هاتفة

بصوت متحشرج:

_ منذ زمن وأنا أكذب ظني فيك.. أخفي عن نفسي قبل

الجميع مصيبي في وحيدي.. لم أتوقع أبداً أن يصل

مرضك هذا الحد.. حد أن تقذفني في شرفي!!

يتعالى اللفظ من جديد لتتهف سراب بدهشة:

_ أي مرض!؟!

_ يحيى.. ياالله!! كيف أقولها!؟! كيف أجبرتني أن

أعترف بها!؟! كيف وقد عشت العمر أستر عورة

مرضك لتأتي اليوم وتفضحني!!

انهيارها العاطفي في هذه اللحظة وهي ترجه بين

ذراعيها كان حقيقياً وإن اختلفت أسبابه المعلنة..

هي فقدت ابنها!

فقدته بلا رجعة!

فلتمض في خطتها إذن للنهاية.. فقط لتتنعم بعناق

أخير!!

تضمه لصدرها بقوة مستغلة صدمته لتردف بين

دموعها الصاخبة :

_الأطباء صارحوني منذ زمن بعيد .. منذ تلك الفترة

التي أصبت فيها باكتئاب حاد عقب وفاة والدك.. أو -

بالأدق- ما أعلنت أنا عنه أنه مجرد اكتئاب ..

أخبروني أنك قد تنتكس في أي لحظة تحت أي ضغط

ليتحول الأمر لما هو أكثر خطورة.. لكنني لم

أصدقهم..كتمتها في صدري وأنا أدعو الله أن تخب

ظنونهم ويخطئ تشخيصهم.. هذا هو السبب الحقيقي

لرفض عمك تزويجك بابنته.. خاف أن يكون الأمر له

سبب وراثي فيزيد زواجكما من فرصة ظهوره في
الأبناء بحكم كونكما أقارب.. عرفت لماذا رفض عمك

تزويجك بابنته؟!!

_ كذب.. كذب!

يتمتع بها يحيى مبهوتاً وهو يبعتها عنه ببعض العنف
لتردف بنبرة أكثر انهياراً :

_ هل تتصور حالتي إذن طوال هذه السنوات التي
ابتعدت فيها عني؟! تظنني كنت غافلة عنك؟! عن
متابعة حالتك؟! هذه الهلاوس التي كانت تنتابك من
آن لآخر فتجعلك تأتي بأغرب الأفعال!! وأولها هذه
الطفلة مجد التي تعلن أنها ابنتك!

_ بماذا تهذين أنت؟! لماذا تخلطين الأمور؟!!

يهتف بها يحيى بغضب أرعش صوته لتهتف هي
بحرقة وهي تتناول هاتفها لتستخرج صورة لامرأة
شابة رفعتها في وجوه الجميع:

_ هذه جاءتني بالأمس.. أخبرتني أنك عشت معها
قصة حب باسم آخر.. وتفاصيل أخرى.. أخبرتني أنها
التقتك في "أبو ظبي" وأنها أنكرت معرفتها..
أخبرتني أنك أخذت منها الكثير من المال ثم اختفيت
لتظهر في بلد آخر باسم آخر وحياة أخرى..
تشحب ملامح يحيى وهو يشعر بالحصار متذكراً تلك
المرأة من ضحاياه لتستطرد استبرق بنفس اللوعة :
_ لكنني أخبرتها أن ابني ليس نصاباً.. ابني فقط
مريض.. مريض ويرفض الاعتراف والعلاج.. هل
أكذب في هذا يا يحيى؟! هل كانت هذه المرأة آخر

حكاياتك؟! ألم تعيش في هلاوسك هذه طوال تلك
السنوات التي عشتها بعيداً عنا؟! كم اسما مزيفا
حملت؟! كم حياة مصطنعة عشت؟! كنت أراقبك من
بعيد وأنا أحاول حمايتك من نفسك لأن البديل كان أن
أعترف أمام الجميع باختلال عقلك.. وربما كان هذا
خطئي الأعظم الذي أدفع الآن ثمنه!!
يشعر يحيى بالأرض تميد تحت قدميه في هذه اللحظة
حتى أنه..

أنه هو.. كاد يصدقها!!

ينتقل ببصره بين العيون فلا يحتاج للمزيد كي يدرك

أنهم صدقوها!!

حتى إلياس!

اهتزت نظرتة لثوان كأنه يقلب حديثها في رأسه!!

كلهم صدقوها!!

هو نفسه كاد يصدق!!

زوج واحد من العيون بقي..

عينا طيف!!

تراها هي الأخرى صدقتها!!؟

والجواب تمنحه إياه في حركة عملية وهي تتقدم نحو

استبرق بحركة خاطفة لتنتزع منها قلادة عنقها باسم

يحيى فتكسر لتتاوه استبرق بمزيج من غضب وألم

وهي ترمقها بنظرة مصدومة لكن طيف تلقي القلادة

في وجهها لتهتف بازدراء:

قد تصلحين هذه يوماً.. لكن علاقتك بابنك كيف

ستصلحينها بعد كل هذا الكذب والخداع؟! مثلك لا

تستحق لقب أم!

يشعر يحيى وكأن حركتها أعادت ثبات الأرض تحت

قدميه..!

لم يخطئ يوم وصفها يوماً أنها "كل جنده"!!

يتعالى اللفظ من جديد ليهتف عدي بصوت عاد إليه

زئير غضبه:

_المجنون يُعالج في مصحة نفسية لا يترك ليعيش في

الأرض فساداً بل وتجعلونه رئيس مجلس إدارة!

_يحيى ليس مجنوناً!

يهتف بها إلياس بصرامة وهو يفقد حلمه المعهود

ليتقدم نحو عدي فيدفعه نحو الحائط يلصقه به

ليناظره بعينين ناريتين:

_أنا تحملتك كثيراً لكن لو تفوهت بكلمة واحدة عن

يحيى فسأقطع لسانك غير نادم!

_ عمي!

تهتف بها سراب بلوعة ليلتفت نحوها هادراً بعنف:

_ اخرسي أنت الأخرى! لم تعودى طفلة لتصرفي

بهذه الحماقة وتأتين لغرفته هكذا!

_ أنا أتيت لأستشيره بعيداً عن غيرة عدي الخانقة.. لم

أكن..

تهتف بها سراب بنبرة دفاع مذنبه لكن استبرق

تخطاها لتقاطعها بقولها مخاطبة إلياس:

_ هل يعني هذا أنك تكذبني أنا؟!!

تهتف بها بحرقة مصطنعة بين دموعها وهي تتقدم

منه لتدير كتفيه نحوها مردفة بألم :

_ تشكك في شرفي أنا؟! أنا دخلت بيت شقيقك وأنت

مجرد طفل.. ربيتك مع يحيى كأنكما شقيقان! أنا لست

أم يحيى وحده.. أنا أكاد أكون أمك أنت الآخر!! يا الله!!

هل صار شرفي مضغة في الأفواه؟! هل هنت في

عيونكم إلى هذا الحد؟!

تتهي عبارتها لتترنح مكانها في انهيار غير مصطنع

يجعل سراب تشفق عليها لتترك أمها وتهرع إليها كي

تسندها..

فيتبادل الجمع نظرات مكفهرة قبل أن تعود عيونهم

ليحيى فيشعر بنظراتهم تعريه مكانه..

_ خذ زوجتك وارجلا من هنا!

يقولها إلياس بنفس الصرامة وقبضته الداعمة تحط

على كتف يحيى ليصرخ عدي بانفعال:

_ إلى أين؟! لن يغادر هنا إلا إلى مصحة عقلية!

_والله لا أحد يستحق الذهاب إلى مصحة عقلية

سواك!

تهتف بها طيف بحميتها المعهودة وهي ترفع

مسدسها في وجه عدي الذي تراجع للخلف عفويًا

بخوف لكنها تعاود خفضه مردفة بتهكم فظ:

_أفكر جدياً في تزيين رأسك هذا برصاصة.. وقتها

سأكون ممتنة كثيراً للسيدة استبرق لو لفقت لي تهمة

الجنون كما فعلت بابنها كي تكفيني شر العقوبة!

تقولها لتتراشق استبرق نظرات نارية ثم تقترب منها

لتردف بازدراء :

_أسفة لأنني وصفته ب"ابنك"! شرف لا تستحقينه!

تتبع عبارتها ببصقة فظة على الأرض فيكاد الموقف

يشتعل من جديد لولا هتاف إلياس الصارم:

_ ارحل بزوجتك يا يحيى!

هنا يجول يحيى ببصره في الغرفة للحظات ودقات
قلبه تشبه المطارق..

عجباً لحكم القدر أن تكون هذه المواجهة هنا!!
هنا في غرفته القديمة!!

هذا الفراش الذي كانت تنام فيه "أمه" جواره لتحكي
له القصص صغيراً وتناقش معه أحلامه مرهقاً
وترسم له الخطط شاباً..

تحت هذا الفراش ترقد كراتين ألعابه التي كانت
تشاركه بها اللهو..

هذا المكتب هناك كانت تسهر معه عليه تساعده في
المذاكرة..

هذه الحوائط الأربع لو نطقت لحكت آلاف الذكريات

الطبيعية بين "ام" وابنها!

ما الذي حدث؟!!

المرارة التي في صدره الآن تجعله يغمض عينيه على

دمعة خاشعة متضرعة تتمني لو كان ما تقوله

حقيقيا..

لو كان حقا مجنوناً فيرحم من كل هذا العذاب!!!

يفتح عينيه أخيراً ليمنح استبرق نظرة واحدة..

نظرة واحدة صرخت أن أمه الآن ماتت!

نظرة زلزلت استبرق مكانها وهي تدرك ما خسرت

لتبكي بانهيار لم تتصنعه..

يشعر بكف طيف القوي يعانق كفه فيطبق شفثيه على
آهة مكتومة وهو يلقي نظرة أخيرة على الغرفة قبل
أن يغادر..

_ لن تسألني من أين أحضرت المسدس!
تقولها طيف وهي تستقل السيارة جواره عائدين لبيت
إلياس تحاول إخراجة من صمته الذي طال لكنه لا يرد
وقد بدا لها كأنما اختطفته أفكاره..
فتستمر في محاولتها بإصرار :

_ عاصي أرسله لي هنا مع أحدهم منذ يومين.. أرسل
لي برسالة معه أنني قد أحتاجه هنا.. يخيفني هذا
الرجل ليس فقط بيده الطويلة في أي مكان إنما
باستقرائه الفطن للواقع.. الآن أشكر له حرصه على
تعليمي الرماية عندما كنا في قصر الرفاعي.. صحيح

أنني لم أجد الوقت الكافي للتمرين لكنني سأعتبر ما حدث اليوم إنجازاً يستحق الفخر.. لا أتعجب إرساله لي بالمسدس بعد وفاة عمك بالسجن.. أظنه خمن مثلي أن الوفاة ليست طبيعية خاصة في هذه الظروف! لا يصلها منه رد لكنها لم تستسلم وهي تستطرد :
_ أظن أن عنادي كان خصلة حميدة هذه المرة.. أشعر بالامتنان كثيراً لحدسي الذي جعلني أخالف أمرك و أترك مجد مع الخادمة فور استسلامها للنوم كي ألحق بك.. شيء ما في تصرفات عدي المخبول هذا أشعرتني بالرغبة.. الحقيقة ليس هو وحده المخبول.. سراب هذه كذلك!! امرأة برأس قرد!! كظمت غيظي كثيراً كي لا أمنحها تذكراً آخر بمسدسي.. لماذا دخلت غرفتك بهذه الطريقة!؟

لا يزال صمته يبتلعه فتطلق سبة عابرة وهي تستطرد
بنفس الفظاظاة الساخرة التي اعتادت بها مواجهة
همومها :

_ "أوسكار أحسن تمثيل" ! تستحقها أمك اليوم! لا
تتعجب أنها عرفت عن ماضيك.. تلك الليلة رأيتها في
حديقة قصر الرفاعي واستنتجت أنها سمعت حديثك
مع " فرقع لوز " ذاك! أشهد لها بالذكاء وسرعة
التصرف.. خصم قوي سيروقتي كثيراً التعامل معه
الأيام القادمة.

تتوقف السيارة أخيراً أمام باب بيت إلياس فترمقه
بنظرة مترقبة وهي تنتظر منه رداً أو حتى مغادرة
السيارة لكنه يبقى جامداً مكانه..

فقط ينطق أخيراً دون أن ينظر إليها :

_انزلي لمجد.. واتركيني.

لكنها لا تحرك ساكناً كأنها لم تسمعه لدقائق طالت..

ليلتفت نحوها فتلتقي عيناها لأول مرة منذ ذاك

الصدام في بيت الأمين..

يجذبها فجأة بين ذراعيه فتكتم شهقة دهشتها وهي

تراه يعتصرها بين ضلوعه..

صمت قصير يغزل خيوطه بينهما قبل أن يتقطع

همسه الحار في أذنيها مناقضاً قوله السابق:

_لا.. لا.. لا تتركيني.

_لم أكن سأفعل!

همسها يمزج فظاظتها الفطرية بشعورها الأمومي

نحوه.. فلا تتردد لحظة وذراعاها يطوقان خاصرته

بكل قوتها..

تشعر بأنامله تعبت بخصلات شعرها بعزف اشتدت
وتيرته حد شعورها بالألم لكنها كانت تشعر بما يكابده
فتشدد ضميتها لخصره ليصلها همسه:

_ لن أنسى اليوم أنك.. أنك وحدك من صدقتني عندما
كذبتني الجميع.. أنا نفسي كدت.. كدت أكذب نفسي!
_ أنا أستعيدك.. أستعيد الرجل الوحيد الذي استباح
نوره ظلمة كهوفي.. لا أزال أحاول فعلها.. لن أسامح
نفسي ولن أسامحك لو لم نفعلها.

لا تزال اعترافاتها غير المنطوقة بالحب تذهله!!
تشد الوثاق بين روحيهما أكثر فيزداد يقينه أنها حقاً
"توأم روحه"!

شفتاه تحطان فوق جبينها كطير شريد وجد أخيراً
ملجأ أمان..

وشفتاها تحطان فوق شفتيه كشمس تكافئ الدنيا بعد

ليل طويل!!

العناق تزداد قوته كأن كليهما يتشبث في صاحبه بما

بقي من الدنيا..

لا يزال جموحها البري ينتزع كل فتيل لمقاومته

للتفجر ألغام عشقه لها هادرة مدوية..

وكأنها منحته في قبلة ألف مدد من قوة!!

_ أنا أفسدت الأمر! أنا جلبت العار للجميع!! لكنني لم

أكن أملك خياراً آخر وذاك المخبول يرفع مسدسه في

وجهينا.. اللحظة شعرت أن حمل هذه السنوات

ثقيل.. ثقيل.. ثقيل حقاً.. وأن الألوان لوضعه عن

كتفي.. لكنني الآن أتساءل.. ألم تكن رصاصة الموت

أهون من كل هذا الذي صار!؟

همسه الملتاع يكاد يكوي أذنيها وهو يعيد رأسها
لصدره فترفع عينيها القويتين نحوه هامسة :
_ علمتي الحياة أن كل شيء ليس كما يبدو.. نحن من
نجيد خلط المعطيات لنصنع النتائج.. من يدري؟! ربما
في هذه الحالة الستر هو الفضيحة والعكس صحيح!
لا تلم نفسك كثيراً.. وادخر قوتك للأيام القادمة.. انت
ألقيت القنبلة فانتظر ما بعد زوال الدخان.

=====

أخضر

=====

_ سأنتظرك هنا ريثما تنتهين من زينتك.
يقولها إيهاب مشيراً لغرفتها الخاصة في الاستوديو
فتمنحه ابتسامة مرتعشة وهي ترد :

لن أتأخر.. لم يبقَ على الموعد الكثير.. تبدو رائعاً.
يبتسم ببعض الحسرة وهو يميز هروب عينيها من
عنيه بينما تردف بنبرة آلية :

أعرف أنها مرتك الأولى أمام الكاميرا لكنك لا
ينقصك الحضور.. تملك "كاريزما" عالية كما
تعرف.. يمكنك فقط مراجعة الأسئلة التي جهزها فريق
"الإعداد" وحفظ إجاباتها..

ثم تصمت لحظة لتردف بصوت مختنق:
لا تتصرف بطبيعتك ولا تترك نفسك للارتجال مادماً
اخترنا الطريق المضمون.

ينعقد حاجباه وهو يشعر بعبارتها الأخيرة تصفعه!
لو كان لـ "الفاجومي" القديم أن ينصحها فما كان أبداً
ليقبل كل هذا!!

كيف يمكن للأيام أن تغيرنا هكذا من النقيض

للنقيض!؟

هل هو حكم القدر أم ضعف نفوسنا!؟

_ اهرب.. اهرب..

"صوته الداخلي" يصرخ بها داخله فيمتثل وهو

يدلف إلى الغرفة ليغلق بابها خلفه..

يتوجه نحو المرآة الضخمة التي شعت حولها أضواء

شديدة السطوع فتحيد عيناه دون وعي لطرف

سرواله السفلي ..

هل ثمة شيء ما غير طبيعي!؟

يزدرد غصة حلقه وهو يقاوم أفكاره..

منظره شديد الأناقة.. شديد الوسامة.. شديد الجاذبية..

خاصة وقد فقد الكثير من وزنه ليبدو امتلاء جسده

مقبولاً وإن لم يصل للرشاقة الكاملة بعد..

يبتسم ببعض الثقة وهو يجلس على الكرسي الجانبي

ليتناول هاتفه ليتفقد حسابه عبر مواقع التواصل..

تصطدم عيناه بإعلان من مشهد ما شديد الإثارة من

فيلم حديث..

فيزدرد ريقه بتوتر وهو يشعر بتفاعل جسده معه

يزداد لحظة بلحظة..

هل يعني هذا أنه طبيعي؟!!

_ اهرب.. اهرب..

يستغفر الله سراً وأنامله المرتجفة تتجاوز المنشور
كي يكمل التصفح لكنه يصطدم بإعلان ممول عن
طبيب متخصص في أمراض الذكورة..

تباً!!

لماذا هذا الآن؟!!

هل هو الحل؟!!

لماذا يترك نفسه هكذا؟! لماذا يظلمها معه؟!!

يرتعد جسده بانفعاله وهو يردد لنفسه..

لست مريضاً.. لست ناقصاً.. أنا فقط.. أحتاج

لوقت..

اهرب.. اهرب..

"الصوت الداخلي" إياه لا يزال يحكم سيطرته عليه

فيتجاوز المنشور بنفس الأنامل المرتجفة..

منشور آخر بأغنية عاطفية.. تجعل خفقات قلبه تهدأ

نوعاً ما ليتملكه شعور بالشجن..

أنا عمري ما قلت أن أنا خايف

غير بعد ما قلبي اتماك..

محتاج أظمن مش عارف

الخوف جوايا وجواكي..

ضميني وقولي إنك ليا..

علشان أتحمل ليا ليا..

وتعيشي.. وأعيش..

خايف أو عدك.. ماوفيش!

تدمع عيناه بفيض انفعاله وهو يشعر بالكلمات تكوي

روحه كياً..

لا يزال يشعر بالأنانية وهو يحتجزها في سجنه..

يحبها.. بل يعشقها.. لكن.. هل وحده الحب يكفيها..

ويكفيه؟!

_ سننجح معاً.. لست أنانياً.. أنا فقط.. أحتاج لوقت..

_ اهرب.. اهرب..

يستجيب صاغراً لنفس الصوت من جديد وهو يمرر

المنشور لتقع عيناه على منشور آخر لصورة طفل

يذود عن أخيه الأصغر أمام أقرانه ويخفيه خلف

ظهره كي لا يضربوه.. فتزداد ارتجافة جسده وهو

يقرأ المكتوب..

(الأخ لا يُعوّض.. هو درعك الذي لا يصدأ وجيشك

الذي لا يخون)

فتجرفه الأفكار بعيداً لإياد الذي يهرب هو منه منذ

انتقل للسكن

معه.. لماذا لا يتحدث إليه؟! لماذا لا يواجهه بحقيقة
الماضي؟! لماذا لا يعتذر؟! ببساطة يعتذر ويطلب منه
الصفح؟! لماذا لا يخبره أنه ما جاء للسكن معه إلا
ليسترضيه.. ليستعيده.. لماذا تبقى الكلمات حبيسة
صدره فلم يعد حتى يرددها في شرائط الكاسيت
الصوتية؟! بل إنه يهرب من لقائه فيتحاشى تواجده
في البيت طوال اليوم متحججاً بأي ذريعة؟!
_لست جباناً.. لست جاحداً.. أنا فقط أحتاج لوقت..
أحتاج لوقت..

_اهرب.. اهرب..

يشعر باختناق أنفاسه فلا يجد ملاذة إلا في المنشور
الخاص بحلقة الليلة لهما مع بتول الراعي.. والتي
اختارت لها مقدمة مناسبة قفزت بمشاهدات الإعلان

لأرقام عالية.. فيكتفي بهذه الشهوة الكاذبة لبريق

نجاح زائف!

تنقطع أفكاره وهو يراها تدخل أخيراً للتحاشى النظر

نحوه مكتفية بتفحص مرآتها..

نظراته تتلأ فوق ملامحها عبر المرآة وقد جلس

خلفها على كرسيه ..تلك المرأة أتقنت تزيينها حقا

لتمنحها طلة أكثر حيوية وأشد فتنة ..

أما هي فتبتلع ريقها بتوتر وهي تغمض عينيها على

صورة مرآتها ..

تراه ب"عين خيالها" وقد ترك مجلسه ليهرع

إليها ..يحتضن خصرها من الخلف بساعده ..يزيح

عنها غطاء شعرها ليمنحها قبلات بعدد

شعراته ..تتمنع دلالة فيزداد تشبثا.. يهمس لها أنه

غير قادر على المزيد من الابتعاد .. هاهنا فقط لا ترى
ساقه الصناعية .. لا ترى وشاحها الأخضر وقد سقط
تحت قدميهما .. لا تسمع إشعارات الهاتف بأصوات
التطبيقات التي صارت أرقامها مؤشرا لنجاح
زائف .. لا تسمع ولا تشعر ولا ترى .. ولا تريد أن
تفعل !

هي فقط تكتفي بنشوة هذا الشعور !

لكن العينين المغلقتين تفتحان أخيرا لتغلقا بوابة
الحلم ..

فتراه جالسا مكانه يناظر هاتفه بهوس ما عادت
تتعجبه ..

لتلتوي شفتاها بابتسامة بمذاق الدموع ..

_ لا تريد ان تقول شيئا؟!_

همسها ينتزعه من شروده ليرفع إليها عينيه بنظرة
خاوية متسائلة ..

فتردف بصوت أرادته مرحا ليخرج منها رغما عنها
مرتجفا باصطناعه:

_ انني ابدو جميلة مثلا !

نظرته الخاوية تتبدل شيئاً فشيئاً كأنما ينهض من

ركام عينيه شبح من كيانه القديم !!..

الألم الذي يهرب منه بكل طاقته يتجسد الآن كمارد

هائج على ملامحه ليذوب بعدها وسط هدير عاطفة

سطعت في عينيه كشمس حقيقية بعيدة عن كل تلك

(الأضواء الاصطناعية) التي اعتادها كلاهما ..

لا تدري كيف غادر مجلسه إليها وكذلك هو ..

هاتفه يسقط جواره فلا يبدو منتبها وهو يقترب منها
أكثر ..

أنامله تدير كتفها نحوه لينظر لعمق عينيها فتشعر
وكانها الآن ترى فيه (الفاجومي) القديم الذي لا تدري
هل افتقدته أم افتقدت نفسها معه أكثر ..

تترقب حواسها لارتجاف شفثيه .. ليصلها همسه
أخيرا:

_تبدين وكأنيك .. وكأنيك .. أنت!

الخيبة تظل ملامحها وقد أساءت تأويل عبارته
لتطرق بوجهها مخفية شعورها لكنه يرفع ذقنها نحوه
مردفا بما بدا صادقا لأبعد حد كما لم تسمع منه منذ

عهد بعيد :

_ألا تفهمين؟! منذ سنوات وانت في عيني انت..ما
حاجتي للقول انك جميلة وكل الجمال انت؟!..ما
حاجتي للقول انك انيقة وكل البهاء انت؟! بل ما
حاجتي لوصفك وكل النساء بعيني انت؟!
تدمع عيناها وهي تكتم آهة خافتة كادت تغادر شفيتها
اشتياقا لهذا الوجه (الحقيقي) منه ..

ليقترب بوجهه منها أكثر وأنامله تتشبث بكتفها
ككلابتين من فولاذ مردفا بانفعال يكاد يزلزل كليهما
مكانه :

_اغفري لي انانيتي ..ضعفي ..خذلاني ..لكن لا
تغفري لي يوما لو من يدي ضيعتك وأنت التي في
عيني "أنت"!!

تكتم شهقة بكاء كادت تخونها في هذه اللحظة وهي

تشعر بوحش الحنين يكاد يمزق أوصالها..

الحنين ليس فقط له.. بل لصورتها القديمة في

عينيه!

شهقة وجدت ملاذها فوق شفثيه وعناقه هذه المرة

يبدو لها كأنما سرق مدداً من خيالها..

هذه القوة الشغوف التي تمزج رقة العاطفة بعنفوان

الجسد!

ستعتبر هذه حقاً قبلتهما الأولى التي حلت رباط

عذريتها!

ما حاجتها لـ "جنة خيالها" وبين ذراعيه فردوس

يمنيها بالخلود؟!!

وأمامها كان هو يشعر لأول مرة منذ عهد بعيد أنه
خرج من قيود نفسه..

كسر الصنم الجامد الذي حُبست فيه روحه لتتطلق
الآن معها كما يحب..

هو الآن الفاجومي الحقيقي الذي لا يعنيه شيء ولا
شخص..

فقط يترك نفسه لما يحب.. ومن يحب..
هذه هي بين ذراعيه..

"جنيته" التي تمنحه السكينة!!

أنفاسهما تنصهر بوهج هذا الشعور الفريد الذي
يجرباه معاً لأول مرة عندما تحرر كلاهما من كل قيد
وتركا الزمام لعاطفتها فقط.. فقط دون تعقيد

تفاسير..

"هدية مفاجئة" منحها كل منهما لصاحبه كأنه اقتطع

هدنة من حربه مع نفسه..

لكنها تبقى فقط مجرد هدنة!

هدنة قطعها هذا الصوت المعدني!

كان قد شدد ضمته لها ليرفع ساقها حول خصره في

غمرة جموح عاطفته لكن كعب حذاءها المعدني احتك

بساقه الصناعية ليحدث هذا الصوت الخافت المميز

والذي بدا في أذني كل منهما كقذيفة ردت كل منهما

لحربه مع نفسه!

هو الذي شعر ببركان جسده يستحيل لصقيع ثلجي

وهو يتذكر مشهد تقيؤها ليلة زفافهما فيذبحه شعوره

بالنقص الرجولي من جديد..

وهي التي تراءت أمام عينيها مشاهد متتابعة لمشوار

تنازلات طويل ختمته بهذه الزيجة..

فيعود كلاهما لنقطة الصفر كأن الجذوة التي أشعلت

الدنيا الآن حولهما انطفأت.. ليعود كل منهما لظلمة

جوره!

_ أفسدت زينتك!

_ لا بأس.. يمكنني إصلاحها..

ضحكاتها "المصطنعة" تشبه البكاء الغاضب

وكلاهما يبتعد.. يهرب.. يتجاهل.. ليعود للتشبث

بمنطقته الآمنة في جنته "الزائفة"!

=====

_ صاحبة أشهر وشاح أخضر وأكثر ليلة زفاف أثارت

الجدل الفترة الماضية.. عزة الأنصاري!

تقولها بتول بأداء مبالغ فيه شديد الاستعراضية وهي
ترحب بهما أمام الكاميرا فتبتسم عزة ابتسامتها الآلية
وهي تعدل وضع "وشاحها الأخضر" على كتفيها..
وكذلك إيهاب الذي يحرك جسده في جلسة ما منحته
جاذبية متعمدة.. وجعلت بتول تمنحه نظرة تقييمية
لتردف بدلال تجيده :

_والباشمهندس إيهاب.. صاحب مدونة الفاجومي..
والعاشق الفارس الذي صار حلم فتيات مصر بعدما
فعله لأجل حبيبته.

يشعر إيهاب ببعض الثقة تتسرب إليه من نظراتها
المغناجة فتتسع ابتسامته وهو يجيب تساؤلاتها التي
حفظ أجوبتها كما اتفق..

بعض الأجوبة تبدو شديدة الاصطناع كقوالب جاهزة لكنها فعالة على ما يبدو فالمدخلات التليفونية تتوالى بغزارة لتمنحه بغيته في المزيد من الشعور بالعبوس الزائف..

_عظيم.. تبدو ان كعصفوري حب.. لكن اسمحي لي بالسؤال يا عزة.. مادمتما متحابين هكذا.. ماسبب ما فعلته شقيقتك ليلة الزفاف!؟

ضربة تحت الحزام!

هذا السؤال لم يكن ضمن الأسئلة المطروحة!
تعمدتها بتول لتخرجها.. أم لتزيد الصخب حول الحلقة!؟

تباً.. لماذا تشعر بكل هذا التعرق!؟

فلتكذب..!!

ترفع لإيهاب عينين دامعتين رغم يقينها أنه لن
يساندها في موقف كهذا.. فجرحه فيه أكبر!
لكنه يخيب ظنها وابتسامه "الفاجومي" الذكية
تمنحها قبساً من المدد القديم الذي اشتاقته مع جوابه
بابتسامته التي لم تتأثر وهو يخاطب بتول:
_ظننتنا لن نتطرق للحديث حول أمور عائلية تخص
عزة وحدها.. أخبريني أنتِ ألا تشعرين أن هذا اللون
لا يناسب بشرتك الداكنة!
قلبها يخفق بين ضلوعها بعنف وهي تشعر بالمزيد
من الحرج بينما ضحكت بتول وهي ترفع أحد
حاجبيها برضا غامض وكأنما أعجبها رده لتميل
بجسدها للأمام مستعرضة تفاصيل أنوثتها لتغرس
نظراتها القوية في عينيه:

_تعجبنى فكرة أن الهجوم خير وسيلة للدفاع.. أنا
الأخرى يمكنني قلب المائدة وتوجيه اتهام العنصرية
إليك فتخسر كل معجباتك من ذوات البشرة الداكنة..
لكنى سأنظر للوجه الآخر للعملة وأعتبرك رجل كهف
يرفع حربته ليدافع عن أنثاه بكل طريقة.. تستحق
هذه!

تقولها لتصفق له للحظات فتتسع ابتسامته وهو يربت
على كف عزة بدعم صامت.. لتعاود بتول سؤاله :
_إنما.. أخبرني الصدق دون تفكير.. ألا تشعر بالندم
للحظة على تضحيتك لأجلها.. أن تفقد ساقك لهو ثمن
باهظ حقاً تدفعه كي..

_أحبها!

الحسم الحار في حروفه كان وسيبقى أفضل

"ارتجال" سمعته!!

لم تشعر به عزة في هذه اللحظة وكأنه يقاطع سخافة

بتول فحسب..

بل يقاطع كل المتاهات التي تتشعب فيها طرقهما

ليصل بكليهما لمنتهى الطريق الذي يجب أن يبلغاه.

الصدق المشع الذي كان ينطقها به بدا وكأنه يهزم كل

أشباح الزيف التي ترفرف جناحاتها حولهما!

لهذا وجدت نفسها هي الأخرى تخرج عن النصّ

لتلقي نفسها بين ذراعيه مخفية وجهها في كتفه في

مشهد لم يعنها كثيراً بكم مشاهدة سيحظى ولا كيف

ستقبله العيون..!

يا سلام! العرض الساخن هذا يوشك أن يشعل
الاستوديو.. نكتفي بهذا القدر من الحلقة وأتمنى لك
عودة ناجحة في الموسم الجديد من برنامجك.
تتهي بها بتول الحلقة ولم يكد المخرج يمنحها شارة
النهاية حتى تقدم الأخير من عزة ليهتف باستحسان :
رائع.. أفضل بكثير مما تمنينا.. الحلقة فوق الممتازة
وسيحرص فريق الدعاية أن تكون ال "تريند" الأول
على منصات مواقع التواصل في الغد.. عودة قوية
لحورية المطبخ الخضراء.
تبتسم عزة بتحفظ وقد عاد وجهها لجمودها الآلي
كأن ما كان لم يكن..

خاصة وهي ترى إيهاب وقد جذبه مدير التصوير
ليلتقط له بعض الصور وحده فتغادر الاستوديو كي
تنتظره في سيارتها بالخارج..

يلحق بها بعد قليل لكن بتول تستوقفه على باب
الاستوديو لتتقدم نحوه بمشيتها المغرية قائلة :
_ لا تغضب مما حدث في الحلقة.. الاستفزاز هذا هو
ما يميز برنامجي لأنه يستخرج من الضيف بواطنه..
وبصراحة..

تقطع عبارتها متعمدة ليعقد حاجبيه منتظراً
استطرادها فتبتسم بدلال وهي تهز كتفها :
_ أنت أبهرتني.

تتعلق عيناه رغماً عنه بتضاريس أنوثتها في افئتان
رجولي غريزي لكنه يشيح بوجهه قائلاً :

_ شكراً.. كانت حلقة جيدة للجميع.

فتتناول هاتفه من كفه بجرأة لا تنقصها لتسجل رقمها

ثم تتصل على هاتفها لتعيد إليه خاصته قائلة بنفس

الغنج المثير :

_ هكذا صرنا صديقين.. يمكنك محادثتي متى شئت.

فتنتها تصيب سهماً ما في قلبه يشعر به كلاهما

فتبتسم بظفر وهي تعطيه ظهرها شاعرة أنها تقترب

كثيراً من هدفها..

فيما يعود هو إلى عزة بخطوات سريعة كأنه يهرب

من شر نفسه غافلاً عن عيني إياد المشتعلتين اللتين

كانتا تراقبان الموقف من بعيد..

لقد جاء إلى هنا كي يعاود تحذير بتول من الاقتراب
منه لكنه وقد رأى نظرتة المفتتنة نحوها فقد قرر
التراجع والبقاء كما هو..

لا يزال أخوه أنانياً كما عرفه.. يرسب في كل
اختبارات القدر..

لهذا سيكتفي بمراقبته للنهاية هذه المرة كي يكون
شاهداً معه على الرسوب الأخير!



في غرفتهما بيت إياد تقف عزة تبديل ملابسها أمام
المرآة مستغلة كونه يبديل ملابسه وحده في الحمام
المجاور..

تبتسم ابتسامة خجلى وهي تتذكر "أحبها" الحارة
التي نطقها على مسمع من الجميع..

تشتاق لشعورها بتفتح براعم أنوثتها بين ذراعيه..
هذا الذي جربته اليوم لأول مرة في قبلتهما الجامعة
بالاستوديو..

تراه يكرر المحاولة؟!!

وهل تريده حقاً أن يفعل؟!!

الجواب كعهده يتأرجح على حبال ترددها الدائمة..
فتجد نفسها تفتح خزانة ملابسها.. تستخرج منامة
حريرية قصيرة عارية الكتفين بلون ذهبي مثير.. تحل
أزرارها كي ترتديها..

وفي مكانه خلف باب الحمام المجاور وعبر الشق
الضييق لفتحته كان هو يراقبها بترقب وهو يشعر
بالدماء في عروقه جمرات من نار..

تري هل تفعلها؟!!

هل تتزين له؟!

هل تلاشى اشمزازها منه والذي رأى دلالاته بنفسه

ليلة زفافهما؟!

ليتها تفعل!

لكنها في مكانها توقفت عما تفعله لتعيد إغلاق أزرار

المنامة ثم تعيدها مكانها من جديد..

لن ترخص نفسها أكثر!

هو لا يرغبها كأنثى!

لو كان يفعل لما كان هذا حاله في تباعده وانشغاله!!

فلتحفظ ما بقي من ماء وجهها.. ولتكتفِ بما هبطته

من سلم التنازلات!

قدرها أن تبقى زهيدة في عيون الرجال من اختارها

بعقله كـ"راغب" أو اختارها بقلبه كـ"إيهاب"!!

ترتدي منامة واسعة طويلة الأكمام ثم تتجه للفراش
لتغطي جسدها.. تراه وقد قدم بابتسامة كسيرة لم
تفهمها ليلقي عليها "تصبحين على خير" باردة
تردها ثم تغمض عينيها لتجد نفسها تستسلم لجنة
خيالها ترسم لها مشاهد أكثر دفئاً.. هو بطلها!
هو بصورته "الكاملة" التي ترمم شروخ جدارها
دون أي نقص!

بينما يعطيها هو ظهره وهو يشعر بمزيج من غضب
وخيبة..

فليواجهها!

فليصرخ فيها بكل ما يريد قوله ولو كان الفراق هو

النهاية!

اهرب.. اهرب..

لكن الصوت الداخلي أكثر هيمنة على عقله الآن وهو يدفعه لتفقد هاتفه بهوس..

عدد المتابعين.. عدد المشاهدات لفيدوهاتهما اليومية.. عدد التعليقات.. عدد المشاركات.. منصات التواصل.. واحدة خلف الأخرى.. يفتح برنامجاً خلف الآخر.. مشاركة خلف مشاركة.. المزيد من البريق الزائف الذي يسكن ألم رجولته وإن كان لا يزيل السبب.

صورة بتول تقفز فجأة لذهنه فتتحرك أنامله ليجد رقمها أمام عينيه.. ليس رقمها فحسب.. جمالها الجذاب.. غمزتها الساحرة.. والأدهى.. محاولتها الواضحة لاجتذابه.. هل تشعر حقاً بالانجذاب نحوه؟! ألا تشمئز منه؟!!

شيطان خياله يرسم له أكثر صور الخيال جموحاً
فتتلاحق أنفاسه بجنون لكنه يفيق لنفسه فيلقي
الهاتف بعيداً على الكومود..

يستغفر الله سراً وهو يستدير ليجد نفسه يعانق ظهر
عزة بقوة.. ساقه السليمة تلتف حول ساقها كأنه
يتشبث بها بكل ما فيه محارباً بهذا وساوس نفسه
ومحتجزاً إياها بكل ما يملك..!

فيما تتصنع هي النوم وهي تشعر بهذه الحرب الغريبة
بينهما تنهكها..

فتغلق عينيها على خيال بعيد..
وحقيقة أبعد..

وخطين من الدموع!

=====

فرنسا

في القطار المغادر من باريس لمدينة آنسي الفرنسية
يحتل جهاد مقعده جوار النافذة هارباً من ثقل
شعوره..

شعوره بأنه يُسلخ من جلده!
يعاقب بذنب لم يقترفه.. على عقيدة طالما آمن بها!
وطنه لا يزال يتلقى الطعنات وهو لا يعرف كيف
يوقف نزيفه!

المنظمة التي كان يتطوع لها بماله اكتشف أنها كانت

مجرد غطاء لنشاط إرهابي سري!

قلبه ذبحوه مرتين.. مرة بطعنة حبيبة.. ومرة بطعنة

أقرب صديق!

عمله الذي طالما أفرغ فيه همه لم يعد متاحاً بهذه

السهولة بعد تشوه سمعته لطرده من عمله بالمشفى

في "أبو ظبي" إثر وشاية ريان بحبسه هو على ذمة

قضية إرهاب!

ما أشبهه الآن بحنظلة!

لكنه لا يجد القوة ليقف معطياً العالم ظهره مثله بل

يشعر وكأنه سقط جاثياً على ركبتيه رافعاً ذراعيه

باستسلام لا يليق برجل مثله!

متى صار بهذه الانهزامية؟!!

متى سقطت عن فمه كل أنياب مقاومته ليجد نفسه

مجبوراً أن يبتلع كل هذا القهر؟!؟!

هل كسره الظلم؟! السجن؟! الخذلان؟! الغدر؟!

كل هذا فعل!

_ ستعجبك "أنسي" .. لكن لعلها ستثير شجونك ..

يسمونها أحياناً - كـ "فينيسيا" - مدينة العشاق .. لكن

ما جدوى الاسم هاهنا لمن كفر بالعشق مثلي

ومثلك؟!

صوت يولاند جواره ينتزعه من شرود أفكاره لكنه لا

يلتفت نحوها .. لا يحب مظهرها الجديد الذي هو

توأمة في انكساراته ..

يكره انتكاستها وإن كان يعذرها فيها .. ويكره نفسه

أكثر لأنه غير قادر على منع كل هذا! !

لكن عزاءه أنه سيبقى معها يحاول أن ينقذ ما يمكنه
إنقاذه منها.. ومن نفسه!

_ لا أعرف هل ستقبلني عائلتي من جديد أم لا..
أرسلت لارا شقيقتي أخبرها بقدومي لكنها لم ترد.. لا
أعرف عنهم سوى ان أبي لم يقوَ على البقاء في
باريس بعد رحيلي.. صفى تجارته هناك وقدم للعيش
هنا.

تقولها بالفرنسية وقد اكتسى صوتها بشجن قاتل تبدل
لحشرة صوت مفعمة بالحماسة :

_ لكنني سأعرف كيف أشق طريقي من جديد.. لو
رحبوا بي هنا فسأعود للعمل.. سأستأنف كل خطوات
الطريق الذي تعطل.. وسأستكمل دراستي.. لكنني مع

هذا كله.. سأنتقم.. سأنتقم لكل ما أخذه مني صاحبك..

وسأذيقه أبشع عقاب.

يطرق برأسه وهو يشعر داخله بأنه يشاطرها رغبته

في الانتقام كذلك!

في أن يذيق "صديق العمر" الخائن ويلات عقابه..

هو عاش كل هذا العمر متشبثاً بمثاليات الفارس..

وهاهو ذا الفارس المشهود فوق جواده وقع!

فليزلزل الأرض تحت الخائن كذلك كي يقع معه..

أليس هذا بالعدل!؟

_وددت لو يحضر أطفالي معي إلى هنا..

صوتها الذي اختنق بكائه يعاود غزو أفكاره فيشعر

بهذه القبضة اللاهبة تعتصر قلبه بينما هي تردف بما

بدا كالهذيان :

_ لكنني تركتهم نائمين.. لن يشعروا بغيابي.. سأعود إليهم بحكاياتي عن مغامراتي هنا.. سيفتخرون بي.. سيعلمون أن أمهم لم تعد ضعيفة مهزومة.. بل أخذت ثأرها وثأرهم.

يتهد بحرارة وهو يعاود النظر للنافذة بمزيد من الهروب من ثقل الحديث على قلب كقلبه.. المناظر الطبيعية حوله ساحرة تفتن البصر لكنه لا يزال يشعر أنه في سجن مظلم يخصه وحده.. أنامله تتحسس ميدالية حنظلة التي صارت تختفي في جيب سرواله كأنه يطارد فيها بقية هويته.. لكنه يعود ليقبض كفه بقوة واهنة وهو يشعر بها تراه انعكاس صورته الواهنة المخدولة!
_ وصل القطار.



حماسها يمتزج برهبة المجهول وهي تقف مكانها
فيقف بدوره وهو يشعر بنفس الرهبة..
إلى أين تمضي بهما هذه الزيارة!؟



نيلي



ألمانيا

ترفقي بالثوب بينما تخلعينه هذه المرة وسأتولى أنا
شأن المرة القادمة.

تذكرها زهرة بصوت جهاد كذاك اليوم الذي فاجأها
فيه بروئيته في المتجر ليقدم لها أفضل عرض زواج
تمنته وهو يضع شاله على كتفيها..

**_ لا تعرفين معنى أن يضع رجل مثلي شاله الذي
يقدمه على كتفي امرأة؟! امرأة ترتدي الأبيض له
وحده!!**

تتحسس ثوب الزفاف الأبيض الذي تزين بأحجار
الفيروز الصغيرة والذي استقر - غريباً - في خزانة
ملابسها هنا في المصحة.. تماماً كما باتت تشعر
بغربة كل شيء حولها!

تبتسم خلف غلالة من الدموع وهي تتذكر إصرارها
أن تحمله معها في كل مكان سافرت إليه..
لو كان لها أن تختار كفنّاً لاختارته هو دون تفكير..!

تبتسم ساخرة بمرارة وهي تتعجب من حالها كيف
منحتها الدنيا نجمة السماء بكفيها.. ثم عرقلت قدميها
لتسقط على ظهرها دون أمل في حراك!
تتهد بحرارة وهي تغلق الخزانة متجاهلة شعور الألم
في جسدها والذي تحاول اعتياده هنا..
تراقب صورتها في المرآة وقد بدأ شعرها في التساقط
فتقفز لذهنها صورة خالتها الراحلة عندما كانت في
نفس الموضع..
تري بروز وجنتيها الواشي بفقدانها للوزن.. ذبول
ملامحها المنهكة..
فتشعر أنها لم تخطئ في قرارها عندما اختارت أن
ترحل عن جهاد بحملها الثقيل!

تغطي شعرها بوشاح باهت الألوان ثم تجلس على
طرف فراشها لتفتح هاتفها.. تمنع نفسها بصعوبة من
أن ترسل حسناء أو طيف أو أي من صديقاتها..

فليعتدن غيابها كي لا يؤلمهن رحيلها..

أمها؟! كيف هي الآن؟! لا تظن نفسها ستلقاها من
جديد في هذه الدنيا.. لعل الله يجمعهما في جنة الآخرة
حيث لا فقد ولا خذلان..

لعلها تموت هنا في صمت دون ضجيج فلا تفتقد أحداً
ولا يفتقدها أحد!

ورغم حسم قرارها الأخير لكنها لا تستطيع منع
نفسها من تفقد أخباره.. هو بالذات.. فلتمت وصورته
محفورة على حدقتها..

حتى وهي تعلم أنه يلعبها.. كفاها أنها تعلم أن كل

خفقاتها تباركه!

جهاد!

تراه قد شارك صورة - لتوه- مع يولاند الضاحكة
باصطناع هي خير من يفهمه وخلفهما منظر طبيعي
ساحر وقد كتب فوقها..

_ أول زيارتي للريف الفرنسي.. ولن تكون الأخيرة.

تتفحص ملامحه باهتمام لأول وهلة بعيني عاشقة
تحفظ كل تفاصيله قبل أن تغمضهما بوجع وهي تشعر
بأثر فعلتها عليه..

جهاد تغير حقاً!

صحبتة ليولاند بمظهرها السافر هذا ونشره للصور
بهذه الطريقة لا تعني سوى رغبته في الانتقام من
ريان..

تفاخره بهذا المنظر ليس من شيمه..
هو ليس "محدث نعمة" كي يتباهى بسفر او
سياحة..

قصة شعره تبدو غريبة على تلك القديمة التي عشقته
فيها..

حتي عيناه الغارقتان الآن في بحر هائج من ألم
ووعيد تبدوان غريبتين عما عرفته فيهما من ثورة
لحق لا انتقام بباطل!

حنظلة!

أين ميدالية حنظلة !!؟

تعاود فتح عينيها وهي تبحث عنها معلقة في جيب

سرواله كما اعتادت لكنها.. لا تجدها!!

تهز رأسها بمزيج شعورها بالأسف والذنب..

هل كفر جهاد بكل ما اعتنقه يوماً؟!

هل زهد الجهاد واستسلم لليأس؟!

هل هي السبب؟!

هل تلومه وقد فعلت مثله واستسهلت اليأس كذلك؟!

أناملها تعصر دبلته الملونة في عنقها فتتلاحق

أنفاسها بالمزيد من الألم..

شهقاتها المتوجعة تنتهي بين سطور دفترها الذي

تكتب فيه له..

طالما تعايشت مع هذا الحزن "اللطيف" الذي

يسمح لي بذرف الدموع.. بتلطix كلماتي

بالألم.. بانتزاع الصدق عن ضحكتي ليجعلها مجرد

انفراجة شفاه!

أما هذا الحزن "السادى" الذي يحرمني

دموعي... يسرق مني كلماتي ليدعني سجيناً

صمتي... يجفف حتى ضحكة كاذبة كنت أتوارى

خلفها... فغريبٌ عني حقاً!

تستجدي راحة دموعها لكن عينيها الجافتين تعاندانها

فتعاود الكتابة كأنها تستجديه المغفرة :

_ أن تهجرني موت أصغر.. أن تبقيني موت أكبر..

فأي عدل كان أن أختار بين موت وموت؟!!

طرقات خافتة على باب غرفتها تقاطع أفكارها لتأخذ
نفساً عميقاً وهي تخفي دفترها في درج قريب ثم تفتح
الباب لتواجهها الممرضة (أليسا) بابتسامة عملية
وهي تقول بالألمانية :

_بروفيسور "روبرت" ينتظرك في غرفته.
تهز رأسها لها بتحية لطيفة رغم شعورها - غير
المبرر- بعدم الارتياح نحوها.. لو أرادت الصدق هي
لم تعد تشعر بالارتياح نحو أي شيء في هذا العالم!
تغلق باب غرفتها خلفها متوقعة ما يريد
بروفيسور روبرت بشأنه..

سترفض.. حتماً سترفض!

تطرق الباب برقة لتدخل مهياًة نفسها لما تريد قوله
لكنها تصطدم بالابتسامة الودود والملامح الرجولية

الطيبة واللغة العربية التي اشتاقت سماعها هنا..
والأدهى "زرقة العينين" التي تذكرها بفارسها
البعيد..

_ كيف حالك آنستي؟! جئت أطمئن عليك!
=====

_ شكراً لأنك قبلت دعوتي بالخروج.. أخبروني في
المصحة أنك ترفضين ذلك منذ قدومك رغم سماح
الأطباء به.

يقولها صهيب بنبرته الودود التي تشعرها بارتياح جم
خاصة وهو يغض بصره عنها بحياء احترمته فيه..
كان قد عرض عليها ذلك في غرفة البروفيسور لتجد
نفسها توافق دون تفكير..

هل هو خوفها من عزلتها مع صورة جهاد ويولاند

التي ذبحتها حية؟!!

أم رغبة في الهروب من إلحاح البروفيسور عليها

بالشأن الذي ترفضه؟!!

أم هو فقط مجرد رغبته في الشعور أنها لا تزال

حية.. أن خارج جدران المشفى البيضاء الشاحبة لا

يزال هناك متسع لـ "قوس قزح"؟!!

تغمض عينيها بوجع دون رد لكنه يبدو متفهماً

فيردف بانطلاق مشيراً للمقهى الذي يجلسان فيه :

_ هنا شارع العرب.. من أشهر الشوارع في برلين..

بمجرد دخولك لهذا الشارع المفعم بالحياة والحركة

يمكنك التمتع بالأجواء العربية كأنك في بلدتك؟!!

تشعرين بألفة الوجوه؟! تسمعين صوت "أم

كلثوم"؟!

تبتسم رغماً عنها وهي تميز غرابة نطقه بالاسم

الأخير.. رغم تمكنه من اللغة العربية إنما لا تزال

عربيته غريبة اللمنة فتسأله باهتمام :

_ لماذا تتحدث العربية؟! وكيف عرفت السيد

عاصي؟!

_ أوووه.. قصة طويلة آنستي!

ينفقت بها لسانه بالألمانية عفويًا فيعيد تكرارها

بالعربية لكنها تلوح بكفها قائلة:

_ لا عليك.. أفهم بعض الألمانية.. طبيعة عملي في

المشفى الدولي ب"أبو ظبي" حيث كنت أقيم كانت

تتطلب مثل هذا.

_ لكنك بالطبع تفضلين حديثي بالعربية.. لا ريب أنك
افتقدت وطنك.

يقولها بحنان بدا وكأنه يفيض فيضاً من طبيعته ولا
يتكلفه فتمتد أناملها للدبلة الملونة بألوان علم
فلسطين في عنقها لترد بشرود مقتبسة روح جهاد :
_ لا يليق بالوطن أن نفتقده.. كيف وهو يهاجر معنا
أينما رحلنا..؟! أوطاننا محلها قلوبنا وإن غابت عن
عيوننا.. وما وقر في القلب لا يصيبه أبداً صداً
الوَحشة.. تشتاق العيون إنما يبقى القلب مؤنساً
بعقيدته.

يرفع حاجبيه ببعض الدهشة متسائلاً :

_ لكن هذا ليس علم مصر.

_ فلسطين.

تقولها باقتضاب فيبتسم بحرج وهو يلتفت حوله

قائلاً:

تعلمين حساسية الحديث عن فلسطين واليهود في

ألمانيا بالذات.

فزاعة "الهولوكوست"!

تقولها مفسرة ليهز رأسه بالمزيد من الحرج وهو

يستطرد بنبرة حيادية:

لا تزال الأمور ضبابية بين إصرار اليهود علي أنهم

مضطهدين هنا.. ورغبة البلد الحقيقية في نفي هذا

الاتهام عنها.. كمواطن لا أستطيع نفي شيء أو

إثباته.. لكنني أشعر بمبالغة اليهود في استجداء

تعاطف العالم بتاريخ هتلر القديم.. لا يزال بعضهم يقيم

هنا ورأيت الكثير منهم يحظون بحقوقهم كاملة..

لكنهم لا يزالون يتشبثون بدعوى اضطهادهم كي

يبرروا مجازر احتلالهم لفلسطين.

_ تتعاطف مع القضية الفلسطينية؟!_

تسأله ببعض الدهشة ليرد بابتسامة آسفة:

_ التعاطف مع القضية الفلسطينية ليس شأنًا دينياً أو

عرقياً أو حتى وطنياً.. هو شأن انساني بحت..

الحقيقة أوضح من أن يتم نكرانها أو تدليسها.

_ سعيدة لسماع ذلك منك حقاً.. منذ زمن بعيد لم

يفرحني حديث كهذا.. ومن شخص مثلك.

تقولها ببشاشة باهتة نالت منها مظاهر إعيائها

فيرمقها بنظرة مشفقة ليحاول اصطناع المرح :

_ لن أكون وقحاً فأسألك عن سر السلسلة.. لكنني

سأسمح لنفسني بالقليل من الوقاحة فأطلب الطعام

لأنني جائع.. تشمين رائحة "الفلافل" الساخنة؟! لن نطلبها اليوم لأنها من الممنوعات وسنكتفي بالطعام الصحي الذي وصفه البروفيسور.. لكن تذكرني رائحتها جيداً لعلها تكون حافظاً لك لسرعة الشفاء. تطرق برأسها في بؤس رافضة محاولته المصطنعة للمرح فيردف بجدية هذه المرة :

_بروفيسور روبرت أخبرني برفضك لتقنية العلاج الجديدة التي اقترحها.. يمكنني معرفة السبب؟! فترد عبر إطرافها البائسة :

_لن أخفي عنك.. هذه التقنية الحديثة التي يتحدث عنها باهظة الثمن.. وصديقتي من تتولى شأن علاجي.. لا أريد أن أثقل عليها خاصة وأنا أعرف أن كل هذا بلا طائل..

لماذا تقولين هذا؟! الأمل..

يقولها لتقاطعه وهي ترفع رأسها إليه هاتفة ببعض

الحدة الساخرة:

الأمل! الأمل!! لا تتسأنك تتحدث مع امرأة تعمل

في مجال الطب وأعرف جيداً حالتى.. أنا خير من

كانت تبيع الأمل هذا للمرضى على الأسرة البيضاء

لكنني اليوم لن أشتريه.. ولولا خوفي من حرمة

استسلامي للموت لبقيت في بلدي أنتظر النهاية

راضية.

يصدر هممة طويلة وهو يشبك أصابعه منتظراً بقية

انفجارها الذي بدا يتوقعه لتردف:

_ أنا عشت كل هذا من قبل.. عشته كله.. خالتي كانت مريضة بهذا المرض.. كنت جوارها حتى آخر لحظة.. أكاد الآن أرى كيف سينتهي بي الحال.. مجرد وقت.
_ اعذرني أنستي! خبرتك في العمل في مجال الطب يجب أن توجهك للاتجاه المضاد من تفكيرك اليأس هذا تماماً.. ألم تلحظي طوال فترة عملك أن الحالات قد تتشابه عضوياً لكن مصيرها يختلف؟! .. أما قرأت قول الله تعالى (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت)؟!!

_ أنت مسلم؟!!

تسأله مصدومة ليرد بنبرة غامضة وقد شردت عيناه في فراغ قصير :

_ الحمد لله.

_ لم أتوقع هذا.. عفواً..

تقولها بحرج وقد عادت إليها بعض عفويتها ليرد

بابتسامته بنفس النبرة الشاردة :

_ عندما فكرت في اعتناق الإسلام في البداية فعلتها

كي يمكنني الاقتران بزوجتي.. زوجتي مصرية من

الصعيد ولعل هذا يزيل عجبك بشأن معرفتي بالسيد

عاصي.. التقيتها هنا منذ سنوات.. دعيني أخبرك أن

الدراما التلفزيونية خاصتكم تظلم الصعيد كثيراً..

زوجتي مثال يحتذى لامرأة مثقفة أنيقة عالمة بأصول

دينها ودنياها.. كانت تكمل دراستها هنا عندما تقابلنا

أول مرة.. أحببتها إنما بقي حاجز الدين بيننا.. لكنني

سافرت إلى مصر وأشهرت إسلامي في الأزهر

الشريف بل وغيرت اسمي لاسم صحابي جليل أحببته

هو صهيب بن سنان او "صهيب الرومي" كما
تعلمين.. عشت معها في الصعيد بضع سنوات تعلمت
فيها العربية والكثير من شئون الدين لكنني.. لكنني
اضطرت للعودة معها إلى هنا.

تبتسم للمفارقة وهي تتذكر يولاند..!
كلاهما كان الحب سببا كي يعتنق الإسلام لكن أي
اختلاف في المصير!!

معرفتها أنه متزوج ويحب زوجته إلى هذا الحد
أزاحت حملاً ثقيلاً من على كاهلها ربما لأنها كانت
تشعر بالذنب لجلوسها هكذا معه!
الخاطر الأخير يخزها فتكاد تطلب منه المغادرة لكن
الطعام يصل فتضطر للبقاء كي تتناول بعضه..

العلاج الذي تتناوله يجعلها تشعر بفقدان الشهية كما

أن الطعام افتقد نكهته!

_تُشعرين بأن الطعام بلا مذاق؟! أحياناً شديد السكرية

وأحياناً شديد الملوحة مثلاً؟!!

يسألها بدراية من يعرف ما يتحدث عنه لتهز رأسها

إيجاباً فيتناول ما يضيفه إلى طعامها مردفاً :

_جربي إذن إضافة " صوص الصويا" كي يحسن

من شعورك بنكهة الطعام.. وهذا عصير فواكه مركز

بدون سكر للتقليل من إحساسك بالملح الزائد.

تبتسم له بامتنان وهي تشعر بالطعام بعدها أفضل

فتسأله بتردد:

_تبدو وكأنك تملك بعض الخبرة.

لستِ وحدك من مرّ بنفس التجربة من قبل.. أنا مثلك
قد فعلت... نفس التشخيص لنفس المرض. لهذا
أنصحك بالأمل.

يقولها بابتسامته المطمئنة فترفع حاجبيها بدهشة
لتسأله بوجل:

المريض الذي تعرفه عاش؟!!

فيصمت للحظات يبتلعه فيها شرود قصير قبل أن يرد
باقتضاب:

أنا كنت المريض.

ترمقه بنظرة مصعوقة فيردف بابتسامته واهنة :

بروفيسور روبرت يحبني كثيراً لهذا السبب..

يستشهد بي دوماً على براعته.. والحقيقة أنني أشهد

له بذلك.. لا تتعجبي لو رأيتني كثيراً في المصحة..

يطلبون مني أحياناً جلسات علاج نفسية جماعية
أقدمها تطوعياً بحكم مجال دراستي.
ترمقه بنظرة مترددة وهي تخشى التصديق..
لعله يكذب ليمنحها الأمل.. هو مجال دراسته وعمله
كما يبدو!

يبدو الوجوم على ملامحها وهي تنتظر صامتة أن
يكمل طعامه..

_ تريدن شرب شيء ما؟!!

_ شاي.. أخضر!

تقولها مختنقة بعاطفتها لكنه يبدو غافلاً وهو يطلب
لها إياه فترتشفه على مهل مغمضة عينيها على
فيوض الذكرى..

جهد أخبرها يوماً أنه حرم شربه على نفسه إلا وهي
معه..

وقتها أخبرته أنها على العكس تشربه كثيراً في غيابه
لتشعر وكأنه معها..

تماماً كما الآن!

ورغم أن العلاج الكيماوي يغير مذاق الأطعمة في
فمها لكنها تشعر بهذا بالذات يبقى مذاقه هو هو..

كأنما ترتشفه روحها قبل لسانها!

_ أشعر بالبرد.. يمكننا الرحيل الآن.

تقولها بنبرة فضحت إعيائها وهي تقف أخيراً ببعض
التثاقل فيرمقها بنظرة مشفقة وهو يقف بدوره ليغادر

معها المقهى.. يسير معها في الشارع الذي ازدحم

برواده ليشير لواجهات المحلات حولهما قائلاً:

_ هنا يمكنك التسوق وشراء التذكارات لصديقاتك قبل
عودتك لبلدك.

تلتوي شفتاها بابتسامة سخرية يائسة وهي تشرح
بوجهها لتكتفي بصمتها طوال الطريق..

تقف أخيراً لتودعه أمام باب المصحة.. تشكره على
صحبته القصيرة باقتضاب يفصح رغبته في غلق
باب الأمل الذي يحاول فتحه في وجهها..
لكنه يبتسم لها قائلاً بثقة:

_ غداً سيتصل بي بروفيسور روبرت ليشكرني كثيراً
على إقناعك بتغيير رأيك وموافقتك على تقنية العلاج
الجديدة.

ترمقه بنظرة مندهشة لكنه يهز رأسه مشيراً لسلسلة
عنقها ليقول قبل أن يعطيها ظهره منصرفاً:

_الإيمان لا يجتمع مع اليأس في قلب كقلبك.. أحدهما
سيهزم الآخر ويقيني أنه الأول.



_رأيت صورة صاحبك!؟!

تهاتف بها زوجته الجديدة بتشفّ وهي تريه على
هاتفها صورة جهاد مع يولاند لينعقد حاجبا ريان
بشدة..

فيما تردف هي بخبث :

_المسكينة! يبدو عليها الحزن لوفاة أولادها حقاً!

رأيت ماذا ترتدي!؟ وكيف تنظر إليه!؟!

يشعر ريان بالدم يضرب رأسه فجأة وهو يميز ما

كتبه جهاد..

إذن فقد عاد معها إلى فرنسا!

هل ارتد كيدته في نحره؟

كذبتة التي ظن أنه يكيد لهما بها عندما صرخ للجميع
أنهما متحابان وكانا يخونانه..

هل تصير حقيقة؟!!

الخاطر الأخير يبدو كالرمح ينغرس في خصره!
_ يبدو ان منسجمين حقاً! ماذا يمكننا أن نسمي هذه
الرحلة؟! شهر عسل مثلاً؟!!

_ اسكتي يا رفيذة!

يهتف بها بحدة وهو يقذف الهاتف في وجهها لتهتف
بحدة مشابهة وهي تلوح بذراعيها في وجهه:

_ لماذا تصرخ في وجهي هكذا؟! لا تقل أنك تشعر
بالغيرة على "جوال القطن" تلك! أنا أريتك الصورة

لتشهد بنفسك على مدى حقارتها.. كي لا تأخذك بها
شفقة يوماً وتفكر في ردها لعصمتك من جديد.
_ولماذا لا تقولين أنها ردة فعل طبيعية لذلك المنشور
السخيف الذي نشرته أنت على حسابي ودون إذني
من أيام؟! ذاك الذي يخص "عوض الله بطفل
جديد"!! معارفي كلهم عاتبوني فيه.. وخجلت من
الاعتراف أنك فعلتها دون علمي!
_فعلتها لأجلك! كي تكف عن جلد نفسك وتفرح معي
بابننا.. تلومني لأجل هذا؟! أنا وددت لو فعلها أنت
فتتشر فرحتك بعوضك للدنيا كلها.
تهتف بها بمسكنة وهي تمسد بطنها ليهتف بها
بضجر :
_تحدثي بلسانك إذن.. ولا تكتبها كأنها بلساني!

_وما أنا وما أنت؟! ألسنا واحداً؟!

تهمس بها بدلال وهي تسكب أنفاسها الساخنة على
عنقه فيزفر بانفعال وهو يبعدها برفق قائلاً :

_اتركيني الآن.. لدي موعد عمل.

_ليس لديك أي مواعيد عمل قبل ساعتين.

تقولها بشراسة مكثفة ذراعيها فيلتفت نحوها بضيق
لتردف بنفس النبرة :

_تظني زوجتك الأولى الغبية التي كانت تصدق أعداء

غيابك؟! لا! أنت لن تتحرك خطوة واحدة دون أن

أعرفها.. جدول أعمالك كله عندي.

_سترأقبييني؟!!

_وأعد أنفاسك لو لزم الأمر!

_ماذا؟! ستحبسيني في البيت دون رغبتني؟!!

_ لا يا حبيبي! زواجنا كان برغبتك.. اتعب نفسك قليلاً
وتذكر السبب.. وبعدها ستجيب معذراً تطلب رضاي!
تهتف بها بتسلط وهي تتخصر بهيئة متحدية فيحمر
وجهه بانفعاله قبل أن يعطيها ظهره شاعراً
بالاختناق..

يعلم أنه استجاب لطمعه في الزواج منها رغبة في
مالها ونفوذ علاقاتها هنا.. بسذاجة ظن أنه يمكنه
بهذه الزيجة توفير الأمان لعائلته الأولى..
عائلته التي صارت الآن مجرد سراب..
وعليه أن يدفع الثمن!

بينما تشعر هي ببعض الخوف من تمرده فتعود
لطبيعتها المغناج وهي تحتضن ظهره بذراعيها
لتهمس بخنوع مصطنع:

_ اعذرنى.. تعلم كيف يؤثر الحمل على مزاج المرأة..
وهذا أول طفل لي.. وبقدر تعبي لأجله بقدر سعادتي
لأنه منك أنت.

_ هذا يجعلني أسألك.. لماذا لم تتجبي من زوجيك
السابقين؟!!

يقولها بخشونة ضائقة دون أن يلتفت نحوها فتهمس
بنفس النبرة :

_ هذا من حسن حظي.. كي يحمل ابني اسمك وحدك.
لا يستطيع الاستجابة لفنون دلالها هذه المرة..

ليس وهو يشعر بكل هذا الاختناق..

ربما لو اعترف بشعوره بالذنب لاستراح.. لكنه لا

يزال يكابر..

هو لم يخطئ في شيء.. على العكس هو ضحى كي
ينقذ القارب بحمولته كأي ربان محترف.. ولم يكن
الطوفان ذنبه!

لكنها هي الأخرى كانت تجيد إدارة دفة القارب
لصالحها.. فتتحرك لتواجهه بابتسامة ناسبت قولها:
_كلمت أحد معارفي هنا.. حزر ماذا سيكون منصبك
الجديد في المشفى!

تلتمع عيناه بطمع ينسيه كل ما يموج في صدره من
أفكار فتضحك بميوعة وهي تتحرك نحو غرفة
نومهما قائلة:

_لن أخبرك حتى تصالحني.. أظنك ستجيد مراضاتي.
يركض خلفها بلهفة ليغلق باب غرفتهما وراءه فيعلو
صوت ضحكاتها أكثر.

ويخفت صوت ضميره أكثر وأكثر..

بنفسجي



من كان يخبره يوماً وهو يشتري هذا الفراش الواسع

بغرفة النوم الوحيدة في بيته أنه سيكون هناك من

يشاركه فيها يوماً ما؟!!

إنه حتى لا يقبل أن تبیت أمه هاهنا!

هو سجنه الفردي الذي ارتضاه لجحيم عقابه منذ

سنوات.. فلماذا أتى بهما إلى هنا؟!

لماذا لم يذهب بهما لشقته الأخرى حيث يلتقي عادة

بنساء متعته الوقتية؟!

والجواب تفضحه هذه النظرة في عينيه وهو يجلس

على طرف الفراش يراقب وجهيهما النائمين بسلام..

حمائم البراءة تطوف فوقهما طاردة بجناحاتها

الناعمة وطاويط أفكاره السوداء..

ها هنا لا يرى وجهيهما فحسب.. بل وجهه هو الآخر..

"وجه أبيض" نادر جديد له يتمنى لو يشفع رصيده

لبقية وجوهه السوداء!

لم يذق طعم النوم منذ وصولهما لبيته.. هو اعتاد ألا

ينام قبل الفجر وها هو ذا الظهر قد حان وقته ولا يزال

عاجزاً عن إغماض عينيه عنهما.. يخشى أن يقلق
نومهما وبالذات هي التي يبدو أنها تعاني مشاكل في
نومها كذلك..

يتهد بحرقة وهو يراقب ملامح سند الجميلة.. تراه
يشبه أمه؟!!

الغريب أنه لا يذكر ملامحها رغم أن صرخاتها يوم
وفاتها طالما أرقّت كوابيسه..

آه من سيف الندم عندما ينغرس نصله في القلب بعد
فوات الأوان!

المزيد من الحطب فوق الحطب!

يميل فوق جبين الطفل بقبلة منحتها شفاه مرتجفة
بين عاطفة وذنب..

يمد كفه ليعانق كفه الصغير فتلتوي شفتاه بابتسامة
تأثر وهو يشعر بأنامله تتشبث بكفه في نومه دون
وعي..

يبتلع غصة حلقة وهو يجبر نفسه أن يدير وجهه
المذنب عنه لوجهها هي..

لا تزال حبيبات النمش على وجهها تثيره دون
حدود..

كقمم جبال تغريه أن يتسلقها واحداً واحداً..
أنامله الحرة تمتد برهبة لا تليق برجل مثله.. تتلمس
حرير شعرها الأحمر.. نعومة وجنتيها الممتلئتين..
تلملم شعناً خفيفاً بدا له محبباً في حاجبيها.. تمر
بنعومة فوق عينيها المغضتين ليستمتع بدغدغة

رموشها الكثيفة لأنامله.. تتحدر نحو أنفها المنمنم
بأرنبته المرتفعة..

خفقات قلبه تعوي بجنون وهو يشعر بها تميل وجهها
فجأة في نومها لتستقر شفتاها على راحة كفه كجمرة
نار...!!

قبلة واحدة.. لا يريد سوى قبلة واحدة فقط يطفئ بها
هذا السعير داخله!

هو.. هو - بتاريخه القديم- يستجدي قبلة من امرأة
نائمة!

وهل كبك على وجهك في جحيم خسرانك سوى
تاريخك القديم هذا؟!!

يحدث بها نفسه بسخرية سوداء وهو يكبح جماح
نفسه ليسحب كفه بصعوبة بعيداً عنها..

يرى الصغير يفتح عينيه وقد استيقظ من نومه
فيبتسم له دون تكلف ثم يقترب بوجهه منه هامساً
بخفوت مشيراً لديمة النائمة :

_ لا نريد أن نوقظها.. دعنا نتناول فطورنا ثم نخرج
للعب مع سلطانة.

يبدو البشر علي وجه الصغير الذي غادر الفراش
بحماس ليرفع باطن كفيه نحو حسام بهذه الحركة
المميزة.. كأنه يستقي من السماء المطر!
فيخفق قلب حسام بعنف أكبر وهو يحمله ليضمه
لصدره بعنفوان حانٍ قبل أن يخرج به من الغرفة
ليتولى شأن طقوس الصغير كاملة فيذهب به للحمام
الآخر.. يحممه ثم يلبسه منامة نظيفة مريحة.. يمشط

له شعره ثم يعد له بعض الشطائر ليخرجها معها بعدها

للعب مع سلطنة في حديقة البيت..

صارت تحبك.. اعتادت عليك.. لا تحتاج أن تمسك

كفي كي تمسك عنقها..

يقولها بعفوية افتقدها في نفسه منذ عهد بعيد وهو

يدرس ملامح الصغير الذي بدا متفاعلاً مع كلماته

باهتمام..

لكنه مد كفه الصغير ليمسك كف حسام كما يفعل دوماً

كي يمسد به عنق سلطنة..

يحاول حسام سحب كفه هاتفاً ببعض الحزم :

لا تخف.. افعها وحدك.. لا.. لا تمسك كفي.. افعها

وحداك.

يظل يكررها بحزم حنون وهو يغرس نظراته في
عيني الصغير الذي بدا متردداً لأول مرة وهو يحرك
كفه بارتجاف نحو سلطنة..

يسمع صوت نباحها فيرتد كفه جواره بخوف لكن
حسام يمنحه نظرة مطمئنة تجعله يعيد الكرة بتردد
لتستقر أنامله فوق عنق الكلبة أخيراً..

يبتسم حسام بحنان وهو يربت على رأسه بكلمات
مشجعة فيضحك الصغير بفخر وهو يتجرأ أكثر
ليداعب الكلبة بكلا كفيه..

قبل أن ينتقل للعب مع صغارها..

يستمر لعبهما لبعض الوقت قبل أن تلتقي عينا حسام
بعيني الصغير الذي فتح فمه كأنه يريد الكلام..
فيخفق قلب حسام بترقب وهو يهتف مشجعاً :

_ تريد قول شيء؟! أي شيء؟! تريد مناداة سلطنة؟!

قل أي حرف! أي حرف!

لكن الصغير يطبق شفتيه بقوة على أنات غير
مفهومة ثم يمد كفه من جديد ليعانق كف حسام الذي
يسأله بدهشة:

_ لماذا تعاود إمساك كفي؟! تستطيع فعلها وحدك
الآن.

لكن سند يبسط كفيهما المتعانقان علي صدره هو
ليسمعها حسام منه دون كلمات.. "أحبك"!
هنا لم يملك نفسه وهو ينحني نحو الصغير ليضمه
لصدره بقوة دافئاً وجهه في عنقه.. مخبئاً في رحابه
الصغير شعوراً بحجم الكون كله!

لا يدري كم مر من الوقت لكنه رأى خيالها عبر نافذة
المطبخ المظلة على الحديقة فترك سند للعبه مع
سلطانة قبل أن يهرع للداخل..

_ انتبهي!

يهتف بها بجزع وهو يميز احتراق الطعام على
الموقد لتلتفت نحوه بفزع..

يمد يده ليغلق الموقد لكنها تسيئ فهم حركته وهي
تستعيد رغماً عنها مشهداً مشابه مع غازي لترفع
ذراعيها كي تغطي وجهها بهذه الحركة التي تثير
سخطه بقدر ما تثير شفقتة..

فلا يملك وحش غضبه لأول وهلة وهو يمد قبضتيه
قسراً ليفك تشابك ذراعيها حول وجهها هاتفاً باندفاع:

لماذا عدتِ تأتين بهذه الحركة؟! كنتِ قد نسيتها

معي! لماذا!؟!

أسفة.. أسفة.. لن أفلها ثانية.. سأرتب هذه

الفوضى.. سأنظفها لتعود كما كانت.. أسفة..

تكرر اعتذاراتها بفرع عبر شهقاتها المتلاحقة فيسب

نفسه سراً وهو يلعن طبعه الذي تخلى عن حذره

معها..

يأخذ عدة أنفاس عميقة يتمالك بها نفسه ثم يشدها

إليه برفق ليناجي زرقة عينيها القاتمة :

أسوأ ما يمكن أن تفعله بي أن تشعريني أنك

تخافيني! هذه الحركة تثير جنوني.. أعرف أنك تأتين

بها دون وعي.. لكنني..

يقطع عبارته بزفرة قصيرة وهو يشيح بوجهه مخففاً

ضغط قبضتيه علي ذراعيها ليردف بخفوت:

_ لا بأس.. لا بأس..

يقولها ليبعد نحو النافذة كي يطمئن على سند الذي

بدا منسجماً في لعبه فيتهد ببعض الارتياح وهو يعود

ببصره نحوها ليلفت نظره عدد أكواب القهوة التي

استقرت خالية على المائدة.. هل شربت هذا كله؟!!

ينطق تساؤله الأخير بصوت مسموع لتشرذ ببصرها

عبر النافذة مراقبة سند بدورها وكلماتها تتشعث :

_ لا أريد النوم.. لماذا تركتني أنام كل هذا الوقت؟!!

أريد التركيز.. التركيز.. المفتاح.. أين وضعته.. يجب

ان أتذكر.. كي نحل كل شيء.. كي تساعدني في

القبض عليهم كما وعدت.. او كي يأخذوه هم

ويتركونني لشأني.. كي نغادر هذا البيت.. كي أعود..
أعود.. لمن أعود؟! لماذا أعود؟! سند!! هل سيأخذه
مني السيد عاصي؟! التركيز!! التركيز!! التركيز يا
ديمة!!

تخطب صدغيها براحتها فجأة عدة مرات وهي تصرخ
بعباراتها الأخيرة فيتحرك نحوها وقلبه يخفق بالأسى
لكل هذا التشتت الذي تفضحه كلماتها..

يبسط راحتيه على كفيها فوق صدغيها ليهبط بهما
برفق فتهمس عبر دموع عينيها المغمضتين :

_ لماذا أتذكر ما ينبغي نسيانه وأنسى ما ينبغي أن
أذكره؟! لماذا يعاندني عقلي كما تعاندني الدنيا كلها!؟

يمسح دموعها بأنامله فيشعر بارتعادتها النافرة وهي
تبتعد عنه لترمقه بنظرة متوجسة لكنه يتمالك ضيقه
ليقول بأكثر نبراته هدوءاً:

_ لا أحد سيضغط عليك كي تتذكري أي شيء.. دعي
كل شيء لوقته.

ترمقه بنظرة مندهشة لتتمتم :

_ ظننتك تريد القبض على ذلك الرجل بسرعة.

_ أنا كذلك.. لكن ما تفعلينه لا يفيد.. اهدي تماماً كي

يمكننا التقدم في طريقنا.

تهز له رأسها بطاعة خائفة فيلقي علي سند نظرة

مطمئنة أخرى ثم يقول برفق:

_ سنضطر لخدمة أنفسنا ليومين أو ثلاثة على الأكثر
حتى أحضر خادمة أثق بها وطاقم حراسة كذلك.. لا
أريد المخاطرة بقدوم أناس لا أؤمنهم بما يكفي!
_ تريدني أن أكون خادمك؟! قلها بصراحة ولا داعي
للمراوغة!

تهتف بها فجأة بحدة غير مبررة تثير دهشته لأول
وهلة قبل أن يتدارك نفسه متحكماً في انفعالاته..
يقترّب منها أكثر فيختفي "أحمرها" ليسيطر
"الأزرق" من جديد فتراجع بخوف قائلة :
_ آسفة.. آسفة.. لم أقصد.. فقط..

_ ديمة.. أنا قلت سنخدم أنفسنا.. سنخدم أنفسنا.. هيا
لنعد الإفطار معاً!

يقولها بصوت خنقه عجزه وهو يقاوم بشدة أن يضم
جسدها المرتجف لصدره مخرساً كل هذا الخوف الذي
تصرخ به ملامحها لكنه كان يشعر بذبذبات نفورها
تتصاعد بينهما..

ليدرك أن ما يكون بينهما من لحظات تقارب تكون
هي فيها غير واعية!

يعطيها ظهره ليبعد الوعاء الذي احترق بطعامه ثم
يحضر آخر ليشرع في تجهيز الطعام وهو يراقب سند
عبر نافذة المطبخ..

يشعر بها تقترب ببطء كي تساعد به بجزر اختفى
تدرجياً لتهدأ حركتها جواره..

يعدان المائدة فيقول وهو يمسح كفيه في منشفة
قريبة :

_ سأحضر سند من الخارج.

_ أنت من بدل له ملابسه؟!!

تسأله بتردد وهي تتحاشى النظر نحوه فيمنحها

همهمة إيجاب لتعاود سؤاله :

_ سمح لك بفعالها?!!

_ ألا يفعل في العادة?!!

تهز رأسها في جواب بالنفي لتجد الجرأة أخيراً فترفع

عينها نحوه قائلة:

_ لا يسمح لأحد من الغرباء في العادة بالاقتراب منه..

يبدو أنه.. أنه يشعر بالأمان معك.

_ وأنت?!!

ترمقه بنظرة مشتتة ليردف بأنفاس هائجة :

_ تشعرين بالأمان معي?!!

تبتعد خطوة .. اثنتين .. ثلاث ..

يقتر بهم هو جميعا بخطوة واحدة ليهمس أمام حلقة
الزعفران التي صار وجهها هوسه :

_ أشعر بها .. أوقن فيها .. لكنني أريد
سماعها .. قولها ..

شفتاها ترتجفان بهذه الطريقة المهلكة وأناملها
المرتجفة تتشبث بظهر المقعد خلفها فيبدو صدرها
في سرعة حركته كأنما سيقذف قلبها خارجا !
هنا يعتقل كفاه خصرها بطغيانه الحاني الذي لا تملك
لسلطانه دفعا وهو يميل بوجهه على وجهها هامسا
بأغرب نبرة سمعتها بين غرور ورجاء:

لم أفعّلها يوماً أن أطلب من أحدهم نفس الطلب

مرتين .. لكنني سأبقى أطلبها منك عشراً ومائة

وألفاً .. لن أمل .. ولن تخذّليني!

تترنح في وقفّتها بهذه النظرة المذعورة لكنه يدير

جسدها قسراً ليُجعل وجهها في مواجهة باب البيت

بينما هو خلفها ولا يزال كفاه يعتقلان خصرها :

لا تخافي من قولها فلن أسيء التأويل .. ترين هذا

الباب؟! يوماً ما ستخرجين منه مغادرة حياتي بلا

رجعة .. ستدفنين كل ذكرى لك معي هنا كما ستفعلين

بكل أوجاعك قبلي .. ستبدئين من جديد حياة تقودينها

أنت ولا يفعلها سواك ..

تلتفت برأسها نحوه لتلتقي عيناها بهذا القرب فتقرأ
في نظرات "الذئب الجريح" سطوراً من عذاباته وهو
يغمض عينيه أخيراً على همسه شديد الخفوت :
_ فقط عديني أن تقوليها قبل أن تغلق الباب خلفك.. لا
تعلمين أي أبواب ستُفتح لي بها!



أحمر



تسكب عبراتها في السجود في جوف الليل كعهدا
وهي تشعر بقيد ذنبها يلتف حول عنقها أكثر..

بائسة هي في منتصف الطريق فلا هي قادرة على

الرجوع.. ولا هي تستطيع التقدم!

_ يارب.. لا أعرف كيف سينتهي بي الحال.. كذبتني

كبيرة.. وذنبي عظيم.. لكن عفوك أعظم..

تتهي صلواتها بالتسليم فتشعر بكفه علي كتفها لتلتفت

نحوه بنظرات مذعورة تجعله يرمقها بنظرة مشفقة

وهو يضمها لصدره بحنان هامساً بعتاب:

_ تبكين ككل ليلة!؟!

تستجيب للأمان المؤقت بين ذراعيه حتى تهدأ رجفة

جسدها فيرفع ذقنها نحوه هامساً :

_ قولي لي سبباً واحداً لهذا الخوف في عينيك.

لكنها تهرب من السؤال وهي تربت على رأسه

بابتسامة:

_ ما الذي أيقظك؟!

_ افتقدتك جوارى.

يقولها وهو يقف ليوقفها معه مردفاً :

_ قلت لنفسي.. تبكي وحدها في صلاتها كالعادة.

تهرب بوجهها منه كأنها تشعر بلامحها كلها تفضح

كذبها.. لكنه يدير وجهها نحوه قائلاً :

_ لا يزال أمر الإنجاب يقلقك؟! لم يمر سوى شهرين

على العملية.. الطبيب ينصح بشهرين آخرين كي

نطمئن تماماً عليك.

_ اثنين كاملين؟!

تهتف بها بارتياح فيهز رأسه ليقول بصدق :

_ صحتك عندي أهم من أي طفل.

_ والطفل عندي أهم من نفسي!

تهتف بها باندفاع عصبي وهي تتجاوزها كاتمة
دموعها فيتهد بيأس من مجادلتها ليتقدم نحوها
مكتنفاً ذراعيها بقبضتيه مع قوله مغيراً الموضوع:
_ لا بأس.. عندي خبر مفرح.

ترمقه بنظرة مترقبة ليرد ببشاشة:

_ مصحة علاج الإدمان التي قلت لي أن واحدة من
معارفك تلقت علاجها فيها.. ذهبت إليهم بخصوص
سندس.. الغريب أنهم عندما عرفوا ظروفها عرضوا
علاجها كاملاً بالمجان وفي أرقى مكان لديهم.. طيب
جداً مديرها ذاك!

_ أنت الطيب!

تنطقها بلسان قلبها دون شفيتها وهي تغض عينيها
على كذبتها..

هي التي كلمت صاحب المصحة وتكفلت بعلاج سندس
كاملاً على نفقتها ك"يسرا" لكنها اشترطت السرية
التامة!

_ سامي سيقم معنا حتى تنتهي فترة علاجها.. أظنك
سترحبين كثيراً بهذا.

تلتمع عيناها برضا يسره لكنها تهتف باستدراك:

_ سنخبر أهل الحي أنك وجدت لها عملاً لدي قريب
لديك في محافظة أخرى كي نبرر لهم غيابها.. هم
يثقون بك ولن يكذبوك!

_ يشق عليّ الكذب ولو في شأن كهذا!

يقولها بضيق يخز قلبها وهو يذكرها بمصيبتها فتضم
قبضتها في وضع الرجاء قائلة:

_ لأجل سمعة الفتاة يا إبراهيم.. أنا بالكاد أقنعتها
بالعلاج.. المسكينة مرعوبة حد الموت وقد تؤذي
نفسها.. بماذا سنبرر للناس غيابها كل هذا الوقت
دون شقيقتها!؟

يصمت للحظات مفكراً ثم يقول بعناد:

_ لا.. لا.. لا أستسيغ الكذب.. سأسأل (مستر ربيع)
لعل لديه حل يكفيننا وزر الكذب.. من يكذب مرة يكذب
ألف مرة.

تغمض عينيها بالمزيد من الوجع وكلماته ترش الملح
على جرحها..

تسمع صوت الأذان فتردده معه لتقول وهي تراه
يتأهب للنزول لصلاة الفجر :

_ سأذهب لهبة.. خذني معك في طريقك.. أريد أن أفهم

لماذا رفضت الخاطب الجديد.

فيضحك وهو يرد بمرح :

_ لم نعد نسألها هذا السؤال. أظنها هي الأخرى تجهل

الجواب.. ستكونين ماهرة حقاً لو عرفت السر.

تبتسم له وهي تبدل ملابسها بدورها لتخرج معه

فيوصلها لبيت هبة ثم يغادر..

تنتهيان من صلاتهما فتتهف هبة ببشاشة وهي تشد

علي ساعدها :

_ تناولني معي الإفطار.. خبزت بعض المعجنات بالتمر

كما تحبين.

تبتسم لها بامتنان وهي تشاركها إعداد الفطور

لتتناولاه سوياً علي أرض السطح..

_ يا سلام! لم أذق مثلها يوماً! يالخط من ستعدينها

له!

تغمزها بها يسرا بمكر لتهمز هبة رأسها متصنعة

السخط:

_ بنت! لا تتذكري عليّ.. أعرف ما الذي أتى بك مبكرة

هكذا.. خالي ربيع أخبركم أنني قد رفضت العريس..

صحيح؟

تضحك يسرا وهي ترتشف رشفة من كوب الشاي

لتغمزها بمكر فتبتسم هبة بخجل يناقض نبرتها

الخشنة :

_ لا أحب هذه الحركات.. قللي ما عندك.

_ ممممم.. سأقول مثلاً.. أن السبب مجهول..

_ أحسنت! السبب مجهول.. مجرد عدم ارتياح.

_ مممم.. مجهول مثلاً طويل القامة.. عريض المنكبين.. مجهول التقية في حياتك ثلاث مرات..
آخرهما كانت في المشفى.. مجهول اسمه..
تقطع هبة عبارتها وهي تكتم فمها براحتها لتطلق يسرا ضحكات مكتومة بينما الأولى تهمس لها بغیظ:
_ لا تجعليني أندم أنني أخبرتك.. أنا لست بهذه الحماسة التي تصورينها.. وليس الأمر كله بهذه الضخامة كما تظنين.

تدمع عينا هبة بعدها فترفع يسرا حاجبها لتضمها إليها هاتفة بنبرة اعتذار :

_ كنت أمازحك.. لا تغضبي.. تعرفين طبعي!
لكن هبة تبتعد بضيق وهي تقف مكانها لتتحرك نحو سور السطح تراقب شروق الشمس :

_ أنا لست غاضبة منك.. أنا حائرة في شأن نفسي..

المصيبة أنني منذ رأيتك آخر مرة .. وأنا.. أنا..

أستغفر الله.. أستغفر الله

تقطع عبارتها بخجل لتقترب منها يسرا متسائلة

بترقب:

_ وأنتِ ماذا!؟!

تتلقت هبة حولها كمنذبة لتقترب من يسرا هامسة

كمن تشي بسر خطير :

_ أنا أفكر فيه.

تكتم يسرا ابتسامتها مصطنعة الصدمة لتردف هبة

بحياء عذري نادر :

_ المصيبة الأكبر.. أنني.. أتذكر ملامحه رغم أنني والله

العظيم لم أنظر إليه إلا مرة واحدة.

تكتم يسرا المزيد من ضحكاتنا بينما البائسة الحيّة
تردف بالمزيد من الحيرة وهي تخفي حمرة وجهها
الخبول بين كفيها :

_والأدهى.. عريس الأمس ذاك.. عندما حدثني خالي

ربيع عنه تمنيت لو.. لو كان هو.. بل.. يالمصيبة!

رأيت ملامح إياد علي وجهه لأول مرة عندما دخلت

عليه قبل أن أعود لصوابي وأدرك ماذا دهاني!

_يالمصيبة! يالمصيبة!! وصلت لقمة الانحراف!! لا

ينقصنا سوي أن تحلمي به كذلك!

تهتف بها يسرا بتهكم بين ضحكاتنا التي أطلققتها

لتشقق هبة بخجل ثم تلتكزها في كتفها قائلة:

_أستغفر الله.. أستغفر الله.. ماذا تقولين أنت؟

تضحك يسرا للحظات ثم ترمقها بنظرة حانية وهي

تضمها لصدرها لتسألها بعدها بجدية :

ما اسمك الكامل؟!!

لماذا؟! ستسحرين له كي تأتيني به؟!!

تهتف بها هبة باستنكار فتضحك يسرا بانطلاق لتخبط

كفيها ببعضهما قائلة:

يا لسوء الظن! ربما أدعو لك في صلاتي بالليل لعنها

توافق ساعة إجابة..

تعاود هبة لكزها في كتفها باستنكار فتضحك للحظات

ثم تتنهد لتقول بحنان :

لن يخذل الله قلبك الطيب.. أنا أثق بذلك.

ترمقها هبة بنظرة امتنان لترد :

_ لو كانت لدي أخت لما أحببتها مثلما أحبك.. الجميع

يشتكون من تحفظي.. لكن معك أنت.. تفتح كل

صناديقي المغلقة.

عبارتها تخز ضميرها وهي تشعر بوزرها يزداد

ثقلًا..

ليتها تستطيع فعل المثل..

ليتها تستطيع فتح صناديقها المغلقة معها كذلك!

الوجوم يكسو ملامحها فجأة فتبتسم هبة لترد ببراعة

عفوية:

_ لا أعرف اسمه الكامل.. أظن الدعوة ستقبل على أي

حال.

تخرطان سوياً في الضحك والمسامرة بعدها حتى
وقت الضحى.. يعود إبراهيم ليصطحب يسرا لبيتهما
ولم يكادا يصلان حتى تتأب قائللاً بأرهاق :
_ لم أنم جيداً ليلة أمس.. ولدي مشوار عمل مهم
سيتطلب السهر ليلاً دعيني أنام ولا توقظيني.
_ هات هذا كي لا يقلقك رنينه.
تقولها وهي تنتزع منه هاتفه فيضحك قائلاً
بمشاكسة:

_ كي لا يقلقني رنينه أم كي تفتشي فيه؟!
ترفع أحد حاجبيها بحركة تهديد مرحة فيقبل وجنتيها
ورأسها ضاحكاً قبل أن يتوجه لغرفة النوم تلاحقه
عبارتها :
_ عندما تستيقظ ستجدني أعددت لك الكعك الذي تحبه.

يرسل لها قبلة طائرة تردها له ثم تتوجه نحو المطبخ
كي تعد الكعك.. صارت لا تحتاج هاتفها بفيديوهات
الطهي فقد حفظت الطريقة!!

تتخرط فيما تفعله لوقت لا تعلمه ثم تنتهد بإعياء وهي
تجلس أخيراً منتظرة تمام نضجه..

تسمع رنين هاتفه فتتناوله لتتسع عيناها تدريجياً
بصدمة تتحول لرعب وهي تميز الرقم المتصل..
يخفق قلبها بجنون وحروف الاسم الملحقة بالرقم
تهدها بالفضيحة..

هل هو تشابه أسماء!؟

ووظائف أيضاً!؟

_(حسام القاضي.. المحامي)

=====

الطيف الثاني والثلاثون



أحمر



_سمر! لماذا تبكين هكذا يا ابنتي؟! ولماذا تجلسين

هكذا؟!

يهتف بها ربيع بجزع حنون وقد خرج من شفته

ليجدها جالسة على إحدى درجات السلم.. تدفن

وجهها بين ذراعيها المعقوين وتجهش في البكاء..

وقد تدلى هاتف إبراهيم من إحدى كفيها!

ترفع وجهها إليه بذعر وهي تهز رأسها دون جواب
فيستغفر الله بصوت مسموع وهو يجلس جوارها
ليبسط ذراعه على كتفيها قائلاً بحنانه المعهود :
_ وحدي الله يا ابنتي.. ماذا حدث؟! أغضبك إبراهيم؟!
أشد لك أذنيه؟!

أناملها المرتجفة تمسح دموعها وهي تهز رأسها نفيماً
بينما تتلفت حولها ببعض الدهشة..

كيف وصلت إلى هنا؟!

هل أسلمها خوفها للهروب من شقة إبراهيم؟! كادت

تعدو هاربة لكنها لم تعلم.. إلى أين؟!

لم يعد لها بيت إلا هنا!

ربما لهذا جلست هنا تبكي كقطة ضالة بلا مأوى!

يسرا الصباحي التي- بكلمة واحدة- تُفتح لها القصور

تجلس هكذا تستجدي الأمان على سلم بيت قديم!!؟!

لكن.. مالها ويسرا!؟!

ألم تنسها منذ زمن!؟!

نسيتها.. يشهد الله أنها نسيتها بكل سواد ماضيها..

فهل ينسون هم!؟!

دموعها تغرق كتف ربيع الذي ما عاد يستغرب نوبات

خوفها وبكائها.. ربما يتجاهل حدسه الذي يخبره أنها

تخفي عنهم شيئاً.. لكنه لا يتجاهل شعوره بصدق

محبتها لهم.. ومحبته هو لها..

لن تقولي!؟! ستخفين عن أبيك!؟!

الكلمات على بساطتها تزلزلها وهي ترفع إليه وجهاً

صارخاً بمشاعره إنما عاجزاً بصمته..

ليتها تملك الجرأة لتهتف بالحقيقة..
لكن.. هل سيبقى وقتها يقول أنه.. "أبوها"؟!!!
وزرها الثقيل يجعلها تتمادى في الكذب هاربة من
عيني العجوز المتفحصتين لتغمغم بصوت مختنق :
_ لا شيء.. إبراهيم نائم وجاءه اتصال من.. من..
محامٍ ما.. خفت عليه.. هل تخفون عني شيئاً؟!
يعقد ربيع حاجبيه وهو يتناول منها هاتف إبراهيم
ليميز الاسم فيقول محاولاً طمأنتها :

_ إنه المحامي من طرف جنة الذي ساعدنا في
الخروج من السجن تلك المرة.. وهو الذي يتولى الآن
قضية الأرض التي اغتصبها ذاك المستشار.. لعله
يتصل ليبشرنا بجديد في القضية.. لا تقلقي يا

ابنتي.. سأذهب للصلاة لم يبق الكثير على صلاة

الظهر.

تتهد بارتياح حقيقي فتبدو تهديتها كأنها ردت إليها
روحها لكن.. يبقى القلق موجوداً من وجود حسام في
حيز حياتها.. بينما يقف ربيع مكانه لتهتف به

باعتراض:

_لا.. لن تخرج.. لم يسمح الطبيب بعد.. مناعتك لا

تزال ضعيفة.

_يا ابنتي.. يشق عليّ أن أسمع نداء الله ولا ألبيه في

هذا العمر.. بعد كل هذه السنوات التي ابيض فيها

شعري شعرة شعرة لم أخلف فيها موعد صلاة في

المسجد في حر أو برد.. في سراء أو ضراء.. الآن

أفعل؟! أخشى أن تكون شارة سوء خاتمة!

يقولها العجوز بتورع تقيّ لتصيب كلماته صدرها
كعهدا مذكرةً إياها بثقل الوزر المتزايد على كتفها..
لكنها تهتف بحمية حقيقية :

_إبراهيم كان يقول إن الله يحب أن نستغل رخصه كما
يحب أن نوذي الفرائض.. شيئاً كهذا.

_إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى فرائضه.
يقولها مصححاً لتهتف بانفعال :

_أجل.. أجل.. هو ذا.. وهبة كذلك.. سمعتها تقول تلك
الآية (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة).. صحيح؟! ليست

شارة سوء خاتمة.. حاشاك.. هو ابتلاء.. والله أعلم
بما قلبك.. أليس الله يعاملنا بما في قلوبنا؟! أليس

كذلك؟! أليس كذلك يا أبي؟!!

يراقبها بتفحص وهو يستمع لكلماتها اللاهثة التي
تتطلق تعدو بين أنفاسها المتلاحقة فتبدو له كطفل
يعتز بحفظ درسه أمام أستاذه.. يشعر أنها ستعود
للبراءة في عباراتها الأخيرة فيفكر قليلاً ثم يتهد
باستسلام لحسن منطقتها فيربت على كتفها برفق
قائلاً :

_أصبتِ! سأستمع لكلامك.

_حقاً!؟!

تشرق بها ملامحها فيبتسم بحنان وهو يشير للأعلى
قائلاً :

_ اذهبي وأيقظي إبراهيم كي يتناول فطوره قبل
الصلاة.

تحنى لتقبل كفه باحترام قبل أن تصعد للأعلى
فيراقتها باسماء بعض القلق وهو يتجاهل المزيد من
شارات حدسه التي لا تخيب..
بينما تدخل هي غرفة إبراهيم ولا تزال تمسك هاتفه..
تستلقي جواره وهي تتفحص ملامحه في نومه..
أناملها تطوف بتبتل فوق ملامحه الحبيبة..
أنفها يجد ضالته هناك في تجويف رقبته.. حيث
رائحته التي تذكرها بابنها.. رائحة البراءة..

شفتاها تحلقان فوق بشرته بقبلات ليست كالقبلات..

هي لتضرع فقير أقرب!

ستبقى هذه أفضل طريقة إيقاظ أحبها! أجمل

"منبه" في الدنيا!

يتمم بها عبر صوته الناعس وهو ينتبه لها بينما أحد

ذراعيه يطوقها بقوة عاطفته والأخر يمسح بقايا

دموع على رموشها ليهمس بقلق :

كنت تبكين؟!

تهز رأسها نفيًا كاذبة وهي تضم وجهه لصدرها بعمق

عاطفتها هامسة:

تعرف كم أحبك؟! قل إنك تعلم.. قلها!

لم تعد هستيريتها المنفعة تدهشه بل صار يدمنها كما

كل فيها.. لهذا تناثرت قبلاته على جيدها وذقنها

للحظات قبل أن يرفع إليها عينيه هامساً بصدق:

أعرف.. وأعرف أيضاً كم أحبك أنا.

مهما حدث بيننا لا تشك أبداً في هذا الحب.. أنت لم

تمنحني عاطفة او مالاً أو بيتاً فحسب.. أنت منحنتني

هوية جديدة.. حياة بأكملها وددت لو أعيش ما بقي
منها لك.

ربما كانت هذه أصدق كلمات قالتها له منذ عرفته..
الحرارة اللاهبة التي ذابت فيها حروفها صهرت قلبه
بالمزيد من نيران عشقه لها..

شفتاه تحطان على راحة كفها يقبل أصابعها واحداً
واحداً ليهمس :

_"الدرويش" معك صار قيساً.. قيساً انت ليلاه! معك
تعلمت كيف يكون حميم العشق سقياً لظمان!
تبتسم وهي تعاود الالتحاف بدثار عاطفته مستسلمة
لنفحات الأمان..

لكن رنين هاتفه يقاطع الصمت المشتعل بينهما
فتشعب ملامحها وهي تميز رقم المتصل.. حسام من
جديد!

تتوقف خفقاتها ترقباً وهي تستمع للحوار..
_ السلام عليكم.. أهلاً بك.. نعم.. نعم.. لا حول ولا قوة
إلا بالله.. لا.. لا بأس.. أشكرك كثيراً لاهتمامك.. بشرك
الله بالخير.

يقولها لينهي الاتصال ملتفتاً نحوها بقوله :
_ رجل محترم جداً! يريد إبلاغي أنه حوّل القضية
لمحامٍ آخر ويبرر ذلك بظروف قاهرة.. يعتذر كثيراً و
يخشى أن أتضايق.. لا أظنه فعلها مع جميع موكلية..
لكنه يفعلها لأجل علاقتي بجنة على ما أظن!

ورغم ارتياحها الشديد بما قاله لكن عبارته الأخيرة

جعلتها تتوحش في غيرتها لتتهف بانفعال:

_علاقته هو بجنة لا علاقتك أنت! والحمد لله أن

علاقتك بالاثين انقطعت!

يضحك بانطلاق وهو يقبل شفيتها بخفة لينهض من

الفراش قائلاً :

_لن أتجادل معك بعد هذا الصباح الجميل! خاصة وأنا

أعد لك مفاجأة.

_أي مفاجأة!؟!

تسأله باهتمام فيرد وهو يفتح خزانة ملابسه ليسحب

منها بعض الثياب :

_سأخبرك عندما أعود من الصلاة..

يقولها وهو يتقدم منها ليردف بنبرة أمره :

_ولا تنسي مواعيد الأقراص.. لا تهاون في أوامر

الطبيب

يقولها لي قبل وجنتها برقة ثم يغمزها بخفة هامساً:

_ ضروري! كي لا نكدر صفو المفاجأة!

تبتسم له مهدنة لتراقبه وهو يغادر قبل أن تتجه نحو

درج الكومود حيث الأقراص التي يقصدها..

(أقراص منع الحمل)!

تتكدر ملامحها قليلاً وهي ترفعها أمام وجهها تتذكر

كذبتها الجديدة..

لا.. لا تتناولها بل تخدعه بادعاء العكس!

تعرف أنها قد تغامر بصحتها وأنه لا يأمرها بها إلا

خوفاً عليها لكنها لن تتردد..

ستسعى بكل ما تملك لأن يكون لها طفل منه.. ولو
كان في ذلك موتها!



_ هه؟! غيرت رأيك؟! زعمت أنك لا تحبين السفر
معي!؟!

يقولها إبراهيم وهو يقف بها أمام شاطئ البحر
وخلفهما واحد من تلك الشاليهات معتدلة الحال في
مصيف شهير يرتاده أصحاب الطبقة المتوسطة..
لترد وهي تتحسس نظارتها الشمسية على وجهها
تنظر للشاطئ الذي تباعدت كراسيه مع قلة رواده في
هذا الوقت من العام..

_ لا أحب الزحام.. لكن الأمر يبدو معقولاً هنا مع
برودة الجو.

تقولها وهي تجلس حيث أشار لها على أحد كراسي

الشاطي ليجلس جوارها قائلاً ببساطة :

إنه اقتراح مستر ربيع.. يشعر بالذنب نحونا لأننا لم

نسافر بعد زواجنا.. وبصراحة.. هو يخاف عليك

أكثر!

علي أنا؟!!

تسأله بدهشة ليرد وهو يمسك كفها باحتواء فاض في

نظراته :

كلنا صرنا نخاف عليك.. نوبات خوفك الباكية هذه لم

تعد تخفي على أحد.

صرت مجنونة مثلاً؟!!

تقولها بمرح مستنكر وهي تشيح بوجهها لكنه يمسك

ذقنها ليعيد احتكار نظراتها قائلاً :

هل تستهونين بما فعلته؟! لقد خرجت لتوك من
عملية جراحية كبيرة.. النساء يخفن كالعادة من
المرض والمستشفيات بصورة مغالية.. وأظنك لست
استثناء لكنك تخفين هذا عنا لهذا يؤثر عليك هذا
الضغط.. صحيح؟!

تكنم ابتسامتها المريرة وهي تود في هذه اللحظة لو
تكشف له كل شيء..

لو تسند رأسها على صدره فتروي له حكاياتها مع
"الجدران البيضاء"!

لو تخبره أنها ما عادت تخشى شيئاً ولا حتى
الموت..

لكنها تخاف أن تنكشف الحقيقة فتحرم منهم!

تزدرد ريقها مبتلعة غصة حلقها وهي تكتفي بالصمت

فيردف بحنان :

_تعلمين أنك منذ تزوجنا لم تثقلي عليّ في الطلبات

كعادة النساء؟! هل تحتاجين شيئاً وتخجلين من

الطلب؟!!

تسبل جفنيها شاعرة بالمزيد من ثقل الوزر على

كتفيها وهي تراه - على براءته- يحاول فهم ما

يخيفها..

آه!

لو كانت يسرا الصباحي مكانها هنا لجعلت من حكايته

نوادير سذاجة و عدة نكات ساخرة تتلوها على

رفيقاتها في النادي..

لكنها الآن وهي سمرا تود لو تتكب على كفيه تقبلهما

لعلها تقتبس من نور براءته هذه ما يزيل ظلمة ليها

الطويل!

_حبيبتى!

يهمس بها بحنان فترفع وجهها إليه ليحاول نزع

نظارتها مردفاً :

_أريد النظر لعينيك..

_لا!

تهتف بها بخوف عفوي مخافة أن يراها أحدهم هنا

فيتعرف إليها.. خوف لم يكن له ما يبرره فمعارفها

من الطبقة المخملية لن يرتادوا مكاناً بسيطاً كهذا..

لكنها لم تكن تحب المغامرة..

يعقد حاجبيه ببعض الدهشة فترد بكذبة :

_ لا أدعي الغرور لكن جمالي ملفت كما تقولون.. لو
نظر لي أحدهم فستتشاجر معه وأنا لن أخاطر بإفساد
رحلتنا.. دعني هكذا أفضل.

تقولها وهو تسحب مقدمة وشاح رأسها ليداري
وجهها أكثر فيبتسم وهو يربت علي رأسها
بإستحسان قائلاً :

_ معك حق.. هكذا أفضل.

_ أم الخلول.. أم الخلول..

تصيح بها المرأة التي تحمل صحيفة كبيرة حوت تلك
الصدقات شاحبة اللون.. ليقوم إبراهيم من مكانه
فيشتري منها بعضها..

يعود إليها لتهتف به بدهشة :

_ ما هذه؟!!

_ لا تعرفينها؟!

**يقولها باستتكار لتهمز رأسها بجهل فيهتف بحمية
مرحة:**

**_ نهار أبيض! ألا يوجد من لا يعرف "أم الخلول"
بجلالة قدرها؟!**

_ تؤكل؟!

**تقولها بتوجس فيضحك وهو يفتح إحدى الصدقات
ليقربها منها هاتفاً :**

**_ لو سمعك مستر ربيع فسيغضب منك كثيراً! الحاجة
"أم الخلول" هذه الراعي الرسمي للمصايف والبديل
الرخيص للجمبري والكابوريا.. فوائدها لا تحصى..
كفى أنها.. تعالي تعالي.. هذا كلام لا يقال هكذا..**

يقولها ليقترب منها فيسر في أذنها حديثاً تحمر له
وجنتاها بخجل حقيقي يخصها ك"سمرا" بعيداً جداً
عن وقاحة ماضيها كيسرا.. تكتم ابتسامتها لتلكزه في
كتفه هامة :

_ لم أعلم أنك تقول مثل هذه الأشياء!

_ (الشقاوة فينا بس ربنا هادينا)

يقولها ضاحكاً ووجنتاه تشاركان وجنتيها حمرة خجل
تعشقه فيه ليشاركها تناول ما يأكلانه بتلذذ فتكاد
تقسم أنه أروع ما ذاقته معه..

_ نتمشى قليلاً!؟!

يقولها وهو يقف ليعانق كفها فتسير جواره على
رمال الشاطئ الذي بدا لها بلا نهاية..

_ أخلع نعليّ مثلك!؟!

تقولها برجاء وهي تراه يسير حافي القدمين لكنه يهز

رأسه معترضاً :

_ لا! لا يري أحد قدميك!

فتشير حولها قائلة بالمزيد من الرجاء :

_ صار الشاطئ شبه خالٍ.. لأجل خاطري يا إبراهيم..

أريد التجربة..

يبدو التردد على ملامحه فتقف عن السير لتقول

باندفاع:

_ هبة قالت لي أن بعض الفقهاء أفتوا أن قدم المرأة

ليست بعورة!

_ الله! الله! (علمناهم الشحاتة سبقونا ع البيان)!

يهتف بها باستنكار مرح وهو يجذبها لتعاود السير

فتضحك وهي تعاود رجاءاتها :

_ لأجل خاطري.. أنا.. حبيبتك!

يتهد بحرارة وهو ينظر حوله فيرى أقرب
الموجودين على مسافة بعيدة منهما فيهب لها رأسه
موافقاً على مضمض..

تخلع نعليها فينحني ليحملها عنها في حركة خفت
قلبها.. تتأبط ذراعاه وهي تشعر بدغدغة رمال
الشاطئ لبطن قدميها..

ورغم البرودة المتوسطة التي حملتها لها الرياح
لكنها كانت تأنس بهذا الدفء جواره..

_ تشعرين بالبرد؟

يسألها بقلق حنون وهو يضمها إليه أكثر لتهدز رأسها
نفيماً وهي تنظر للشمس البعيدة :
_ معك حق.. كنت أحتاج فعلاً نزهة كهذه.

تحبين رائحة البحر مثلي؟!!

يسألها وهو يميل رأسه على رأسها في سيرهما
لتخفي وجهها في كتفه بنفس عميق يليق بقولها :
تصدقني لو قلتك : لا رائحة تطفى على رائحتك
وأنت معي.

فيضحك بانطلاق وهو يمازحها بقوله:

رائحتي هذه صارت هوسك! صرت مدمنة!
"مدمنة"!

قتلت ابنك يا مجرمة!

تقف عن السير فجأة وهي تشعر من جديد بألم
الصفعة يدوي طازجاً على بشرتها كذاك اليوم..
حبيبتي! لماذا توقفت؟! هل ضايقت مزاحي?!!

صوته الحنون يعيدها لواقعها فتتكلف ابتسامة وهي
تعود لتدفن وجهها في كتفه ليستأنفا السير..
يتوقف أخيراً عندما يلمح غصناً جافاً قريباً يتناوله
ليرسم شكل قلب على الرمال فتضحك وهي تتوقع ما
سيكتبه..

_ ابراهيم و.. سمرا..

سمرا!؟

سمرا!!

تشرذ ببصرها قليلاً ثم تتناول منه الغصن ليفاجأ بها
تطمس أثر اسمها فلا تبقي منه سوى..

_ را..! أحبها كما يقولها سامي! أقرب لقلبي!

تقولها مفسرة وهي تعود لتعانق ذراعاه بكلا ذراعيها
فيبتسم وهو يهمس لها بصدق حار :

_ لا تهم الأسماء.. ما يعني أنك أنت!

_ حقاً؟!

تهمس بها بشرود فيهز رأسه بتساؤل لتردف بضحكة

مختنقة:

_ أخاف أن أطلب منك وعداً بهذا فتقول أنني شديدة

التطلب!

يضحك وهو لا يفهم مغزى ما تقول لتتهد وهي

تردف مغيرة الموضوع:

_ على ذكر سامي.. متى ستبدأ سندس علاجها؟!

_ بعد غد.

_ سامي سيبقى معنا.

_ أعرف كم سيسعدك هذا.. حتي أنني أشك أنك

ستعيدينه لشقيقته بعد أن تتم علاجها.

يقولها بمرح لتغمغم بتردد :

_سامح سندس يا إبراهيم وعد للحديث معها.. هي
تشعر بالذنب أمامك أنت بالذات .. أعرف أنك حانق
على تصرفها لكن.. المسامح كريم كما يقولون! الفتاة
صغيرة السن و...

_كانت تخدعني يا سمرا! تكذب عليّ وعيناها في
عيني.. تدعي أنها تخرج لشراء أشياء للكشك وهي
ذاهبة لتبتاع ذلك السم.. كانت تترك سامي معنا أحيانا
في الفرن بدعوى مرضها وهي تريد فقط الانفراد
بنفسها كي تحظى بانتشائها المحرم.. أنا للآن لا
أصدق أنها خدعتني وخدعت أبي.. كيف أثق فيها بعد

الآن؟!!

كلماته تخرج منفعة فتبدو لها كسياط تصيب جسدها

هي..

لتهمس بشحوب عبر نبرتها المختنقة:

_ لن يشفع لها شيء عندك؟! أي شيء؟!!

_ دعي الأمر للزمن..

يقولها باقتضاب كارهاً مضايقتها.. قبل ان يشير فجأة

نحو عربة مثلجات مارة على الشاطئ قائلاً :

_ أحب هذا! أي مذاق تفضلين؟!!

_ اختر لي!

تقولها بدلال وهي تستأنف السير معه.. لا تحب تناول

مثل هذه الأطعمة المكشوفة لكنها معه تغامر بأي

شيء.. تتلذذ بكل ما كانت تأنف منه من قبل.. تتعلم

كيف يكون العالم أفضل بعيون من نحب..

يعودان للشاليه أخيراً ولم يكد يغلق الباب خلفهما
حتى جلس بها علي المقعد القريب ليستقر بها فوق
ساقيه.. يمد يده ينتزع عنها نظارتها الشمسية قائلاً :

افتقدت عينيك.

تبتسم بعمق عاطفتها وهي تشعر بقبلاته على
عينها..

كل قبلة كضامة.. تهون جرحاً من ماضٍ قديم..
تعانق وجنتيه براحتيها لتهمس له برجاء:

تذكر دفترك القديم؟! ذاك الخاص بالحروف؟!!
يبتسم وهو يزيح عن شعرها وشاحه مستمتعاً

بإسداله على كتفيها قائلاً بمرح :

ذاك الذي سرقتَه من غرفتي وفضحك زرك

الأحمر؟!!

تبتسم وهي تشعر بحلاوة الذكرى لتهمس له

بضراعة :

_حرف الياء.. أكمله.

_لا.. طبعاً.. ولماذا أفعل!؟!

يقولها باستنكار لتتهف وهي تنثر المزيد من قبلات

الرجاء على وجهه :

_أخبرتكَ أنه لا يليق بك نقصان.. لأجل خاطري يا

إبراهيم.

لكنه يبسط سبابته على شفيتها ليهمس بحسم :

_لو رأيتِ هذا الدفتر ثانية مزقيه.. أنا الآن أعرف

حبيبتى بأي حرف تبدأ.

_حقاً!؟!

_حقاً.

خببتها المريرة الساخرة تقابل حسمه العاشق وهو
يحملها بين ذراعيه ليذهب بها لغرفة نومهما فتبتلع
كل هواجسها مكتفية بنعيم قربه ولو كان شعورها به
مؤقتاً..

تبتسم وهي تتشبث بذراعيها في عنقه مناجيةً عينيه
بكل هذا الفيض من الحب الذي لم تعرفه إلا له..
"العندليب الأخرس" في عينيها لا يزال حبيس
غصنه لكنه لا يزال يقسم لنفسه أنه يوماً سيحرره..
تشعر به يرقدها فوق الفراش فتهمس باسمه بنبرة
عاشقة لا تتعمد إغواءها ليميل على أذنها
هامساً بمرح عابث:

ـ ذكريني ماذا كنت أقول لك عن "أم الخلول"!



=====

بنفسجي

=====

_ أرسلت في طلب هذا لك كي تمام عليه .. وهناك
بعض الهدايا الأخرى ستصل في الصباح.. ما رأيك!؟
يهتف بها حسام مخاطباً سند الذي وقف مبهوراً
يتطلع للفراش الجديد أمامه على شكل سيارة كرتونية
شهيرة وقد تشكل أحد جانبيه بشكل يتيح إمكانية
ترحلته عليه..

هذا الذي فعله الصغير وهو يعيدها مراراً ليعطو صوت
ضحكته وهو ينزلق من فوق الفراش لأسفله فتبتسم
ديمة برضا حقيقي قلما يكسو ملامحها وهي تتقدم من
الصغير لتعانقه فيجلس بها على طرف الفراش ثم
يرفع باطن كفيه بهذه الحركة المميزة نحو حسام
الذي ترتجف ابتسامته كرجفة قلبه وهو يقترب
بدوره..

يجلس جوار سند ليبسط ذراعه فوق كتفيه فينتبه
لنفور ديمة العفوي وهي تبتعد بكتفها قبل أن تبتلعها
دوامة شرودها..

أعجبك؟! _

يسأل سند متجاهلاً غصته بالخاطر الأخير فيرفع إليه
الصغير عينين ناطقتين.. وشففتين عاجزتين!

هذا العجز الذي يغرس نصله في قلب حسام وهو

يتذكر أنه كان السبب فيه..

هل يكفيه ندم العمر على شيء كهذا؟!!

المزيد من الحطب فوق الحطب!!

ذراعه يشتد ضغطاً برفق حول كتفي الصغير قبل أن

يتخاذل ببطء ليسقط جواره..

وجواره كانت هي تضم سند لصدرها وهي تختلس

نظرات جانبية نحوه..

_ لا تخافي من قولها فلن أسيء التأويل.. ترين هذا

الباب؟! يوماً ما ستخرجين منه مغادرة حياتي بلا

رجعة.. ستدفنين كل ذكرى لك معي هنا كما ستفعلين

بكل أوجاعك قبلي.. ستبدئين من جديد حياة تقودينها
أنت ولا يفعلها سواك..

تتذكرها كما سمعتها منه نهاراً فيعود الوخز لخصرها
كأنها لا تزال تشهد اعتصار كفيه لهما..

كيف هربت منه بعدها!؟!

كيف احتمت بسند رافضة أي خلوة لها معه!؟!

كيف رفضت بعدها أن تمنحه ولو كلمة واحدة!؟!

كأنها بخلت أن تمنحه ما يرضيه.. اعترافها بالأمان

معه..

بخلت.. وربما.. خافت.. لا تدري!

لم تعد تدري!

تشعر بتثاقل رأس الصغير علي صدرها فتعدل وضع
جسده لتفاجأ بحسام يحمله عنها برفق ليرقده فوق
الفراش ثم يرفع عليه الغطاء فيتخشب جسدها مع
السؤال بصوتها المذعور :

_ هل سأنام وحدي معك على الفراش الآخر؟!
تشتعل عيناه بنظرة لم تفهمها وإن أسالت النيران
جحيماً بين عروقها لكن صوته بدا شديد البرود وهو
يقول باقتضاب صارم :

_ نعم.

_ يمكنني أن أترك لك فراشك وأنام على الأريكة في
الصالة بعد أن..

_ لا!

يقاطع بها عبارتها بنفس الاقتضاب الصارم فتقف
مكانها وقد غلب "أحمرها" "أزرقها" لتتهف بحدة :
_ هل سيظهر وجهك الحقيقي الآن؟! هل كنت
تدعي..؟!!

تتكم بقية كلماتها وهي تشعر بقبضته تكمم فاها
فتتسع عيناها بذعر والأزرق الجبان يعاود
اكتساحها.. يجمد مقاومتها.. يزيغ نظراتها.. فلا تشعر
إلا وهي خارج الغرفة وقد احتكر جسدها بينه وبين
الباب المغلق..

دموعها الملتهبة تبلل كفه على فمها فتشتعل أنفاسه
وهو يكظم مشاعره بشق الأنفاس ليهمس بصوت
قوي لم يضعفه سوى احتياج عاطفته :
_ صراخك كان ليوقظ الولد مذعوراً.



يقولها مبرراً وهو يزيح أصابعه ببطء من على
شفتيها فيكاد استسلامها يقتله وهو يرى عبر
حاجبيها المنعدين جحيماً يوقن ألا يعيش به سواها..

وصدق ظنه!

_ ديمة..

يهمس بها باسمها مراراً وهو يربت على وجنتها بلط
وجل لكنها كانت غارقة في ضلالاتها بين وهم

وحقيقة..

_ أنا.. معك..

لا تزال الكلمة السحرية لا تفقد تعويذتها وسط كل هذا

التيه..

تفتح عينيها أخيراً بإرادتها فيزدرد ريقه بانفعال وهو

يقترّب بعينه من عينيها هامساً بـ"طغيانه

الحاني":

_تعلمين أني لن أوذيك.. اتفقنا ألا أترك لحظة

واحدة.. أما تزوجنا لهذا الغرض!؟!

ترتجف شفاتها بهذه الطريقة المهلكة فلم تكن سبابته

أقل ارتجافاً وهي تدور حولهما بينما يستطرد:

_دعيني جوارك.. ولن أخذك.

حلقة الزعفران في عينيها تعود للتوهج ببطء

وزرقتها القاتمة تكاد تبتلعه بين طيات موجهها فيجف

حلقة وهو يشعر بمقاومته للمزيد من الاقتراب الآن

ضرباً من المستحيل..

لكنه يتذكر عبارته الأخيرة فيكز على أسنانه وهو
يفرغ انفعالاته في زفرة قوية ليعطيها ظهره مبتعداً..
_ لو كنتِ تريدين النوم الآن فاذهبي للفراش.. لا أنام
قبل الفجر على أي حال.
صوته يبدو لها منهكاً مهزوماً غاضباً وعاجزاً كما لم
تسمعه من قبل..

فلا تدري بأي نبرة خرج صوتها المبحوح :

_ لم تتم منذ أمس.

_ اعتدت هذا كثيراً.

تهم بسؤال ما لكن رنين هاتفها يصدح فتشقق برعب
وهي تراه يقفز ليتناولها من الجوار بخطوة واحدة..

_ رقم غريب.. دولي..

تتسع عيناها بالمزيد من الرعب وأناملها رغماً عنها
تقبض على معصمه باستغاثة فيفتح الاتصال دون أن
يرد ليصله الصوت الأنثوي..

يتهد أخيراً وهو يمنحها الهاتف :

_أظنها ماسة.

_هل عرفت عن زواجنا؟!

صوتها المكتوم بشهقات خوفها يكاد يصيبه بالجنون
وهو يسمعها تحدث ماسة..

أناملها تزداد اعتصاراً لمعصمه بقوة تصل حد الألم
وأظافرها تنغرس فيه فيضمها إليه بذراعه باحتواء

مطمئن لكنها تبدو غافلة عن كل هذا وهي تسمع

صوت ماسة المطمئن:

_لا تخافي.. كلنا معك.. لست وحدك.. اطمئني.

_ السيد عاصي عرف؟!_

شحوب صوتها يزداد والجواب يأتيها عملياً في
الصوات المهيب الذي وصلها بعد صوت ماسة :
_ لم يعد لي حديث معك.. صرت في عصمة رجل
وحسابي سيكون معه هو.. أمانك عندي من أمان
سند.. وكلاهما مسئوليتي.

لأول مرة يحمل لها صوت عاصي الرفاعي المهيب
قبساً من السكينة فلا تجد رداً وأناملها أخيراً تتهاوى
عن معصم حسام الذي ما كاد يميز صوت عاصي
حتى جذب منها الهاتف بعنف وهو يهم بالرد لكنها
تشبثت به لتمنحه نظرة راجية وهي تجد كلماتها لترد

منهية الاتصال :

_ شكراً سيد عاصي.

لم تكذ تقولها حتى تهاوى جسدها على الباب خلفها
ببطء وهي تشعر بحمل ثقيل انزاح من فوق كاهلها..
على الأقل هو ليس ساخطاً منها.. لن يجرمها من

سند!

لكن حسام يرفعها من ذراعيها ليوقفها بحسم قائلاً:
_ أظنك الآن تستطيعين النوم.

تهز له رأسها بحركة مضطربة وهي تبتعد عنه بنفور
كأنها لم تنشأ أمانها في رحابه من لحظات!
لكنه بدا متفهماً لكل هذه الفوضى وهو يفتح باب
الغرفة ليهمس بخفوت:

_ اتركي الباب مفتوحاً كي أطمئن عليك.. سأكون في
غرفة مكتبي.

تطيعه دون جدال فيتهد بحرارة وهو يتوجه نحو
غرفة مكتبه المقابلة.. يراها عبر الباب المفتوح وقد
استلقت على الفراش رافعة غطاءها على جسدها
تتظاهر بالنوم.. يعلم أنها تتظاهر.. هذه ليست رجفة
نائم!

يزفر بانفعال وهو يجلس على مكتبه.. يفتح حاسوبه
المحمول وقد أدخل إليه فلاشة ما أعطاها له أحد
أصدقائه في جهاز الشرطة على مسئوليته الخاصة
تتعلق بالقضية القديمة التي منعه رفعت الصباحي من
استكمال التحقيق فيها حتى أغلقت.. ينعقد حاجباه
بتركيز وهو يتتبع الأسماء والبيانات والتفاصيل..
رفعت الصباحي كان يعمل لحساب ذاك الرجل.. ليس
وحده - فكما يبدو - الكوبرا له غطاء داخلي بجهاز

الشرطة نفسه.. لكن كيف أصل؟! أين طرف الخيط
وقد مات رفعت الصباحي نفسه؟!
يزفر بقتوط وذكرى رفعت الصباحي تتشابك مع ذكرى
ابنته فتصفعه العبارة إياها من جديد..

نصف رجل.. نصف رجل..

ينتفض واقفاً كأنه يهرب من الانزلاق لهذه الهوة..
هو يحتاج لكامل تركيزه الآن..
تركيزه!!؟

رغماً عنه يختلس نظرة لجسدها النائم من بعيد وقد
بدأ له تحت غطائها كجنة واعدة.. وجحيم متوعد..
نيران المدفأة المشتعلة أمامه تذكره بتلك الليلة التي
كانت فيها هنا.. على هذه الأريكة بهذه الغرفة.. بين

ذراعيه.. تخفي وجهها في صدره وتشاركه بوحها

الملتهب بضلالاتها..

فأين المفر؟!!

يقبض كفه بقوة مغالباً طوفان مشاعره وهو يتحرك

بسرعة خاطفة نحو الحمام القريب ليغلق بابه خلفه

وقد ضبط نفسه متلبساً بتهمة.. الهرب!

لكن عينيه تحيدان لحامل فرش الأسنان الذي طالما

حمل فرشاة واحدة.. والآن يبدو له غريب الشكل وقد

حمل اثنتين إضافيتين إحداهما صغيرة تكسوها رسمة

كرتونية..

بطة سند البلاستيكية الصفراء ملقاة على حوض

الاستحمام..

جوربه الملون الصغير..

ياالله!

كيف يمكن أن تكون هذه التفاصيل الصغيرة مهلكة

لقلب كقلبه؟!!

كيف دخل النور هكذا فجأة لجوره المظلمة..

وكيف سيقتع بعدها أن يعود لعتمته بعد رحيلهما؟!!

=====

تفتح ديمة عينيها على نور الصباح الذي دخل

الغرفة.. الهواء البارد ينعش بشرتها لكنه كعهد كل

الأشياء حولها ينذرها بالخوف..

سند!

تهتف بها بلهفة وهي تغادر فراشها لتتطلع عبر نافذة

الغرفة فتسمع صوت ضحكاته بالخارج مع نباح

سلطانة.. وصوته هو..

حسام!

رجفة خاصة يبعثها اسمه في أوصالها ولا تريد

التفكير في معناها..

_ لا مرايا هنا.. لا مرايا!

تتمتم بها لنفسها برضا وهي تحتضن جسدها كأنها

تمنح نفسها الأمان.. تدور بعينيها في المكان حولها..

قبل أن تتحرك لتؤدي طقوسها الصباحية.. تبدل

ملابسها.. تمشط شعرها الذي طال قليلاً لكنها لا

تعرف كيف صار يبدو ولا تهتم.. تعود لتتظر للحديقة

عبر النافذة لكن عينيها تصطدمان بانعكاس صورتها

في زجاج النافذة فتشهب بذعر وهي تميز عودة

أشباحها..

أسود شامت محتقر.. وأرجواني غاضب يلعنها على

هذا الوهن.. وأبيض مختفٍ.. مختفٍ تماماً!

فلا تشعر بنفسها وهي تتناول أقرب ما طالته يداها

لتقذفه.. فتكسر الزجاج بدوي مرتفع!

_ أنتِ بخير؟! ماذا حدث؟!_

لا تدري كيف ظهر بهذه السرعة ولا كيف صارت

فجأة خلف ظهره لصيقة جسده يطوقها ذراعه وهو

يتلفت حوله بحذر وقد شك في حدوث اقتحام للبيت..

_ أنتِ من كسرتِه؟!_

يهتف بها بانفعال وهو يلتفت أخيراً نحوها لتسييء

فهم عبارته فتغطي وجهها بذراعيها بحركتها المهلكة

هاتفة :

_ آسفة.. آسفة.. سادفؑ ثمنه.. صرت أملك المال..

يمكنك.. يمكنني..

تنقطع عبارتها وهي تشعر به يجذبها لصدره فتصرخ

وهي تشعر بذراعيه حولها كحبلين من نار..

الرؤى تتداخل.. تتشوش..

صفعات غير حقيقية يتلقاها وجهها.. ركلات خيالية

تدفع جسدها.. ثيابها تُنزع عن جسدها بيد مجهول..

فتصرخ.. وتصرخ.. وتصرخ..

_ أنا معك!

متى ستفقد هذه العبارة أثرها؟!!

كيف وفي كل مرة تسمعها تعيد لها أثر سابقاتها

فيمطر الأمان على واديها المقفر بوحشته؟!!

تتخرط أخيراً في بكاء حارق فتشعر بتربيت أنامله
الحاني على ظهرها بصمت صبور فيما كان هو يرتعد
ارتعادة واهنة لا تليق بقوة رجل مثله..

عندما سمع صوت دوي انكسار الزجاج توقف قلبه
عن النبض خوفاً عليها..

والآن يكاد يتوقف كذلك إنما بأثر قربها الرهيب هذا!
يوماً ما سيفخر بكل هذا الصبر.. سيرى فيها صورة
لنفسه يحبها.. وجهاً أبيض نادراً له..

خاصة وهو يتمالك الآن كل انفعالاته ليصلها صوته
بين رفق وحزم :

أخبرتك أنني أكره هذه الحركة عندما تغطين وجهك
خوفاً.. وأعرف أنك - غالباً- تكرهين عناقي هذا..

توقفي إذن عن فعلها وسأتوقف.. وإلا فسأعتبرها في

كل مرة دعوة صامته منك كي أعانقك.

لم يتصور يوماً في أقصى خيالاته أن يسمح له

غروره بقولها لأي امرأة.. أي امرأة!

لكن هاهي ذي تغادر شفثيه بنفس البساطة التي

تغلغت هي فيها إلى قلبه!

يشعر بها تدفعه بوهن وعيناها الزائغتان تناظران

عينيه بتشتت فيبتلع كل مشاعره وهو يسألها

باهتمام :

لماذا كسرتها؟!

ثم يتهد بخفوت وهو يميز أنها ارتدت ثوبها مقلوباً

فلم تنتبه كأنها لم تنظر في مرآة.. ليلهمه ذكاؤه

فيجيب نفسه بنفسه :

_ رأيت أشباحك هنا؟!!

تتسع عيناها كثيراً كأنما سرها أن يشاركها أحدهم

هذا الجحيم الذي تعيشه لتتمتم بخفوت :

_ أنت تصدقني.. لا تتهمني بالجنون!

_ ألم نتفق أن أشاركك جنونك؟!!

يهمس بها بحسم فترفع عينيها إليه لتتوهج حلقة

الزعفران فيهما حد الاشتعال..

يجف حلقة تأثراً لكنه يتنحج وهو يسألها :

_ نمت جيداً؟!!

تهز رأسها وهي تكتف ساعديها مبتعدة فيركز في

ملامحها باهتمام وهو يستعيد ما قالته من لحظات

قائلاً:

_إنها المرة الأولى التي أسمعك تتحدثين فيها عن

المال.

_أنا.. فعلت!؟!

تتمم بها بتشتت فيطرق برأسه ثم يرفعه نحوها

ليقول وقد حسم أمره :

_ما رأيك في دكتور كنان!؟!

وكانما لدغتها أفعى!

تقفز نحوه لتشد قميصه بعنف ووجهها ينافس شعرها

في حماره..

الكلمات ترقص رقصة ذبيحة على شفثيها الصارختين

بحدة :

_ كنت تكذب! كنت تكذب! كنت تدعي تصديقي.. تظنني

مجنونة؟! تريد إثبات ذلك؟! ستبلغ السيد عاصي!؟!

كلكم تريدون حرمانى من سند!؟!

_ ديمة!

يصرخ بها بحدة مشابهة وقد غلبه طبعه فبتعد

لتنثني على نفسها بذعر وقد عاد الأزرق الجبان

يحتلها:

_ آسفة.. لن أعود لأزعجك.. لا تصدقني.. أنا لا أرى

شيئاً.. كسرت النافذة حيث اصطدمت بها مصادفة.. أنا

بخير..

يقطع هذيانها المجنون وهو يتقدم نحوها فتراجع

لكنه يجذب ذراعها نحوه فتشقق بخوف..

يمد أنامله ليعتصر أذنها حيث فردة القرط البنفسجية
بقوة رفيقة فترتجف بالمزيد من الرعب لكنه يهمس
أمام عينيها :

_ لو كنتِ تحبين صديقتك كما تزعمين ففكري في
ابنها.. سند يحتاجك ولن يمكنكِ مساعدته وأنتِ بهذا
الحال.. لن يحرمك أحد من سند.. لا أنا ولا عاصي
الرفاعي.. أنتِ من ستفعلين هذا بنفسك لو لم تخرجي
من متاهات الماضي..

يشعر بجسدها يسكن بين ذراعيه وعيناها تزيغان في
الفراغ فيتهد بحرارة وهو يحتضن وجنتيها براحتيه
ليجبرها على النظر إليه مردفاً :

_ لن يعلم أحد سوانا.. أنتِ تثقين بي.. وأنا أثق بهذا
الرجل.. هو سيساعدك.. وأنا سأبقى دوماً معك.

_ سيدي.

تشهق ديمة بخوف وهي تلتفت للصوت الأنثوي الذي
صدح فجأة في الغرفة لتقف خلف ظهر حسام بحركة
عفوية هاتفة بذهول يثير الشفقة:

_ هل تراها مثلي؟! هل أتخيلها أيضاً؟!!

يتهد حسام الذي بدا مستوعباً لكل هذه الانفعالات
وهو يستدير ليضم كتفيها بقبضتيه فيجبرها على
التحرك للأمام قائلاً :

_ الخادمة الجديدة.. أخبرتك أنني سأرسل في طلب
واحدة كي تساعدك.. طاقم الحراسة كذلك سيصل بعد
قليل.

تتمالك ديمة بعض شتاتها وهي تهز رأسها للمرأة
التي قالت مخاطبة حسام :

_ هناك مندوب بالخارج يزعم أن معه بعض الأشياء

التي طلبتها.

فيصرفها ليلتفت نحو ديمة.. يربت وجنتها برفق

ليهمس لها بنبرة ذات مغزى:

_ ارتدي ثوبك بطريقة صحيحة.. ثم اتبعيني.

=====

تقف في الحديقة تراقبهما وهو يعلم سند كيف يركب

دراجته الجديدة التي وصلت لتوها..

الصغير يشعر بالرهبة أول وهلة فيتشبث بكفيها لكن

حسام يعرف كيف يجتذبه بأسلوبه الغريب بين حزمه

وحنانه..

هل هي نفس الطريقة التي يتبعها معها؟!!

تستند على جذع شجرة قريبة وهي تكثف ساعديها
تراقبهما بشروء..

السماء..خضرة الزرع..النسيم البارد الذي يمتزج
بحرارة الشمس.. نباح سلطنة الخافت وهي تدور
حول صغارها.. صوت ضحكات سند الذي صار يعلو
أكثر من ذي قبل..

وأخيراً.. عينيه هو.. حسام!

عيناه تراقباتها من بعيد باهتمام رغم انتباهه لما
يفعله كأنه خصها بإحداهما وترك الكون كله للعين
الأخرى!

فلماذا إذن لا تغمض عينيه مستسلمة لهذا الشعور
بالأمان الذي صار غريباً على دنياها؟!

هدنة مؤقتة.. فقط للحظات من كل هذه الفوضى

داخلها!

لن تخاف.. لن تتذكر.. بل.. لن تفكر!!

تفتح عينيها بعد دقائق لا تدري عددها لتصطم ب..

هذه!

دراجة كبيرة بلون أرجواني فاتح.. زُين ذراع مقودها

وصندوقها الأمامي بالياسمين الذي أعادها عقبه

للعزيزة الغائبة.. سوريا!

تدمع عيناها فجأة وقد فقدت كلماتها لكن ابتسامته

الغريبة - مثله- تبدو وكأنها تربت على ظهرها..

وصوته ذو الطغيان الحاني يكتسب بعض المرح:

تجيدين قيادتها؟! أم أعلمك مثل سند؟!

تعتدل في وقفها كأنها لم تفهم ما يقول فيدفعها برفق
نحو الدراجة لتركبها ولا تزال جامدة الملامح كأنها لا
تعي.. لكنه يجذب كفيها برفق ليضعهما فوق المقود
قائلاً بمزيج غريب من غرور قديم وحسرة
مستحدثة:

_لم يخب ظني يوماً في ذوق امرأة.. أظن هديتي
ستعجبك.

_لي.. أنا!؟!

صوتها يرتجف وهي تتحسس هديته بأنامل
ضائعة.. لكن هذا لم يكن شيئاً وهي تميز هذه
الفراشات المبهرة بألوان قوس قزح بين يديه..

حقيقية؟! تشعر وكأن ألوانها تصرخ تنادياها

أو...لعلها هي من تفعل!

تغمض عينيها على ماض أتاها يركض كجواد

طليق ..

هواء يعانق!

ياسمين يعبق!

فراشات تحلق!

تشعر به يقترب أكثر فتمتزج رائحته بعبير الحلم

البعيد ..

تفتح عينيها ساعتها ببطء لتمييز الطرف المعدني

الذي انتهت به كل فراشة .. ليست حقيقية .. إنما

شعورها هي حقيقي!

يرفع جانبي شعرها ليثبت "فراشات الحلم " هناك ..

ياالله!

منذ متى لم يفعلها أحدهم فيلملم هذا "الشعث" في

شعرها ..و..روحها !

حتى هي نفسها لم تملك لهذا سبيلا!

كيف يمكنه بهذه البساطة أن يعيد لها هذا الشعور

ب.. "الآدمية"؟!!

كيف يمكن أن تتحول الكلمات لبساط سحري يطوف

بها مبتعدا عن كل بلاد الوحشة والقهر؟!!

كيف يمكن أن يحمل صوته كل هذا الطغيان ..وكل هذا

الحنان ..وهو يهمس عبر الهواء الدافئ بينهما :

_كي لا يطير شعرك ..الآن ..يمكنك فعلها !

تلتفت نحوه بنظرة لم يميزها في عينيها من قبل..

حاجباها يرتفعان ببطء.. ببطء شديد.. كأنهما
يتحرران من ثقل لا قبل لها به..

زرقة عينيها لم تعد قاتمة.. بل صارت أقرب لصفو
سماء دون سحب..

حلقة الزعفران - حبيبته- لم تعد فقط تتوهج بل
صارت أقرب لشمس أسرة تتوهه في جمالها
كمجنوب..

أهدابها التي طالما أسرته رفرفتها.. الآن يحلق سرب
حمامها حاملاً النور من عينيها لعينيها..

ياالله!

هل يمكن أن يعشقها أكثر؟! أن يجن بها أكثر؟!

خاصة وشفاتها ترتجفان بهذه الطريقة التي تبدو
وكأنها تتحدى قلبه وحده أن يفك شفرتها!
رغبته فيها تكاد تصل حد الوجد الآن لكنه يتشبث بكل
مكابح قوته وهو يقول بصوت مبحوح حشرجته
عاطفته :

_ حدثتني يوماً عن هوسك بالعطور؟!
ترمقه بنظرة متسائلة وهي تتذكر ما يحكي عنه.. :
_ تسأل عن سر هوسي بالعطور؟! لو عشت حياة
كالتى عشتها لأدركت قيمة أن تسجن بعض العمر في
زخة عطر.. أن تحبس بعض الذكرى في رائحة
تستعيدها متى شئت.. أن تلبث يوماً أو بعض يوم في
عبير يخطفك لثانية واحدة أو أقل.. لو عشت حزناً
كالذي عرفته لأيقنت أن بعضهم -مثلي- قد يقنع

شفتيه بتزييف ابتسامه ويقتع عينيه بأخفاء دمة
لكنه يقف راجيا أمام أنفه يستجديه عبق ذكرى يوقن
أنها حتما لن تعود .

لكنه يقاطع شرودها وهو يستخرج من جيبه قنينة
عطر صغيرة رش بعضاً منها على عنقها هامساً :
_أغمضي عينيك.

تطيع دون مقاومة وعبق العطر يتسلل لمسامها مع
كلماته :

_ليكن هذا عطر الأمان.. في أي وقت.. في أي مكان..
معي أو بدوني.. تذكرني هذه الرائحة جيداً واجعليها
تتصافر مع قوة روحك.. لا خوف بعد الآن يا ديمة.. لا
خوف.

تنتفش فتحتاً أنفها المنمنم مع كلماته كأنما تطيع..

تطيع عن رغبة.. لا عن استسلام!
عطر "الأمان".. ليكن هذا اسمه.. وكفى!
لا تشعر بنفسها وكفاها يشندان على المقود.. تفتح
عينها وهي تنظر أمامها فلا ترى سوى فضاء واسع
يعدها أن يحتضن خطواتها..
ترفع قدميها ببطء لتقود الدراجة عبر الممر الممهّد
في الحديقة والذي يلتف حول البيت كله..
دورة.. اثنتان.. ثلاثة.. لم تعد تحسب..
أسرع.. أسرع.. أسرع.. لم تعد تخاف..
تعتدل واقفة أخيراً ولا تزال تقود رافعة رأسها كأنما
تريد أن تحلق..
أن تطال السماء..
لكنها للأسف تسقط وقد تعثرت الدراجة!

الرؤي تختلط من جديد..

تتشوش..

الألم في كفيها وركبتيها يذكرها بألم الماضي..

عبر الإطار المعدني اللامع للدراجة تميز انعكاس

صورتها.. وأشباحها!

صرخاتها تتوالى وهي تشعر بالصفعات غير الحقيقية

من جديد لكنها تحس بذراعي حسام يرفعانها إليه..

بين واقع وخيال لم تعد تميز صوته.. تشعر به يظهر

جرح كفيها وركبتيها بين عبارات مبهما لا تسمعها..

أين اختفت السماء!؟

أين هربت الفراشات!؟

أين ضاع عبق العطر!؟

المزيد من "أنا معك" الساحرة تداوي أذنيها لتعود
للواقع من جديد..

لكنها عندما أفاقت هذه المرة كانت تقول بحسم عبر
حروفها الواهنة :

_أوافق على الحديث معه.. دكتور كنان.

=====

يسحبها حسام من كفها برفق نحو غرفة مكتبه قائلاً :

_لن يمكننا الخروج الآن لدواعي أمننا.. يمكنك

الحديث معه عبر الحاسوب.. سأدير لك الأمر.

يقولها وهو يتحرك لينفذ ما قاله فتكتف ساعديها

تنتظره.. ينتهي أخيراً ليجلسها فوق كرسي مكتبه

فتميز عبر الشاشة وجه كنان المبتسم لتعاودها

الرغبة فترفع عينيها لحسام قائلة :

_وحدي.

تبال "وحش الغيرة" الذي لم يذق جرح مخالفته إلا
معها هي!

كيف يشعر بكل هذه الصعوبة أن يتركها وحدها مع
رجل.. ولو على مجرد شاشة!؟

هو الذي لم يكن يجد غضاضة في غنج يسرا
الصباحي أمام الناس!

هو الذي كان يحرص أن يبرز جمال دعاء للآخرين!
وهو الذي يريد الآن لو يخفي ديمة عن العيون ولو
بين ضلوعه!

هل هذا هو الحب!؟

وهل يملك تفسيراً آخر!؟

ينفض خواطره العاصفة عن رأسه وهو يتحرك
ليغادر الغرفة لكنه يخرج من البيت ليلف حوله حتى
يصل لنافذة غرفة مكتبه فيقف خلفها متلصصاً
يستمع..

لا تعنيه أخلاقية الفعل بقدر ما يعنيه أن يعرف كل
تفاصيلها..

يكز على أسنانه بقوة وهو يسمعها ترجوه أن
يخلصها من أشباحها.. تحكي له عن علاقتها
بغازي..

دموعها تمتزج بصرخات مكتومة وهي تروي
تفاصيل متفرقة عن انتهاكاته لها..

كان يتوقع شيئاً مما تقول.. لكن التفاصيل الرهيبة
كانت شيئاً آخر!

ما كل هذا القهر؟!

أي وحش كان ذاك الرجل؟؟

تدمع عيناه بغضب فلا ينتبه إلا وهو يخبط قبضته في
الجدار جواره فيدميها.. يكتم صرخة ألمه وهو يعاود
الاستماع شاعراً بروحه تتزف معها..

رغم طبيعة عمله التي فرضت عليه التعامل مع أغلظ
أنواع البشر لكن ما سمعه كان يفوق ما عرفه في
حياته كلها بشاعة!

يستند بظهره على الجدار شاعراً بالاستنزاف فلا
يملك حتى القوة ليذهب إليها وهو يحمد الله أن
استسلم سند للنوم بعد إرهاق اللعب كي لا يشعر
بغياهما..

يبقى مكانه متخسباً حتى تنتهي من كلامها فيصغي

سمعه لما يقول كنان..

تراها ستمتلل لما يطلبه!؟

يكنم تهيدة ألمه وهو يراها عبر النافذة تقف مكتفة

ساعديها تتلفت حولها بذعر قبل أن تهرع نحو غرفته

فيندفع بدوره نحو الداخل..

يراها وقد رفعت الغطاء على جسدها شاردة في

الفراغ فيختبئ خلف باب الغرفة مكتفياً بمراقبتها حتى

يتناقل جفناها فوق بركة من الدموع فتمتلل أخيراً

للنوم..

يقترب بخفة ليستلقي جوارها على الفراش.. يمسح

بقايا دموعها بأنامل مرتجفة وهو يرى شفيتها

ترتجفان حتى في نومها بهذه الطريقة الآسرة..

يعد أنامله كي يزيل الفراشات الاصطناعية من على
شعرها كي لا تؤذيها في نومها لكنه يشعر بكفها على
كفه يمنعها وبهمسها في نومها :

_دعها.. لعلني أطير يوماً معها.

يغص حلقه بعمق عاطفته وهو يميل بوجهه ليلثم
كفها على كفه بخفة كي لا يوقظها قبل أن يستسلم
لرغبة عارمة لم يملكها وهو يمد ذراعه الحر تحت
عنقها ليضمها إليه مستشقاً عبيرها ومسنداً وهنأها
على صلابة صدره!

بما يصف الآن شعوره وهو يرى "الكمال" أخيراً بين
أربعة جدران تخصه؟!!

هو.. وهي.. وسند!

يغمض عينيه على دمة فرح عاجزة يعلم أن زمنها
لن يطول لتصله - عبر الساعات الطويلة التي قضاها
مسهداً جوارها بعدها- تمتات نومها كالهذيان :
_ مللت السقوط.. مللت.. لعلني أطيرو.. أطيرو..

=====

ليلة طويلة!

يقف على حافة سور شرفته يراقب السماء كعهده
منتظراً الفجر..

يشعل إحدى سجائره ليأخذ منها نفساً عميقاً ثم ينفثه
ببطء..

تغافله نفسه بعبادته القديمة ليهم بإطفائها في معصمه
لكنه يتوقف على بُعد لقطة..

لقطة واحدة بزغت في ذهنه لصورتها بين ذراعيه

جوار سند!

لعله بعد كل هذه السنوات يصفح عن نفسه!

لعله وسط بياض وسواد وجوهه يستقر على واحد

يرضيه!

لكنه يعود ليتذكر..

_أفق يا أحرق ولا تغرينك هدنة القدر.. ذنبك ستراه

كل يوم على وجه سند.. غداً يرحلان وتعود وحدك

لليك الطويل.

عندها يغرس سيجارته في معصمه متلذذاً بهذا الألم

الذي اعتاده ليتصعب جبينه بعرق خفيف وهو يغمض

عينيه..

يعاود فتحهما بعد دقائق ليتفقد هاتفه..

كيف غفل عن عالمه الافتراضي طيلة هذه الأيام

لانشغاله بهما؟!!

خاطر مزعج يراوده وهو يفكر ماذا لو علم الناس عن

زواجه بامرأة مثلها؟!!

_ لن يعلم أحد.. وضعنا مؤقت على أي حال.

يهمس بها لنفسه بحسم معطلاً رجاءات روحه ليلتقط

لنفسه صورة في وضع إضاءة ما يكسبه مظهراً

جاذباً.. يهم بمشاركتها مع أحد التعليقات التي اعتادها

لكنه يتوقف فجأة عما يفعله ليغلق الهاتف كله ثم

يلقيه جانباً بزفرة مشتعلة..

ما هذا العبث؟!!

_ لم تتم بعد؟!!

صوتها الوجل الذي لا يزال يعاني أثر نعاسه يجذبه
ليلتفت نحوها لكنها تهرب من عينيه وهي تتراجع
خطوة لا إرادية هامسة :

_ لا أقصد التدخل في شأنك.. فقط.. أعرف أنك لم تتم
منذ يومين.. وربما.. أكثر.

_ سأنام.. بعد الفجر.

_ قلت لي أنك لا تنام قبل الفجر.. لماذا؟!!

_ توقفت عن السؤال منذ زمن بعيد.

يقولها باقتضاب وهو يعاود النظر للسماء المظلمة
فيظللها الصمت للحظات قبل أن يلتفت نحوها من

جديد بتساؤل:

_ نمت جيداً؟!!

هزة رأسها الخافتة تمنحه جواباً مرضياً فيعاود

السؤال:

_ ماذا قال لك دكتور كنان؟!!

ينعقد حاجباها للحظة كأنها لا تفهم.. قبل أن تتسع

عيناها بارتياح كأنها تذكرت لتوها ما كان..

_ كان حقيقياً.. لم أكن أتوهم!

تبتعد خطوة للخلف تتلوها خطوة فيتهد بتعب حقيقي

وهو يقترب منها ليقول بصوت منك :

_ هذه هي الحقيقة التي أريدك أن تتعايشي معها

الفترة القادمة.. دور هذا الرجل في حياتنا كلنا مهم

الآن.. والآن أخبريني.. ماذا قال لك؟!!

تزيغ عيناها قليلاً في الفراغ لتهمس بعد صمت

قصير :

_ ذكر شيئاً عن صلاتي.. علاقتي بالله.. أشياء كهذه..

والدتك كذلك كلمتي عن هذا عندما زرتها..

بالمناسبة.. هل.. هل.. هل تعلم عن زواجنا؟!!

_ ولماذا تعلم؟!!

اقتضابه يمتزج بشيء من مرارة وهو يردف

بخفوت :

_ لا داعي لأن أشغلها بأمر كهذا.. وضع مؤقت لن

يطول على أي حال.

لا يدري هل قالها ليطمئنها أم ليقطع الطريق على

نفسه؟!!

على أي حال يبدو أن عبارته آتت ثمارها وملامحها

تهداً رويداً رويداً بينما تنظر للسماء..

شرودها يتمخض عن همسها الخافت :

_ رأيت جدي في حلمي.. هل يشعر بنا الموتى!؟!

يهز كتفيه بجهل لكنها تردف كأنها لا تراه :

_ كان يربت على رأسي.. يعتذر لي لأن حقيبتة هي ما

دفعت بي لكل هذا.. لكنني قبلت جبينه وكفيه كما

اعتدت.. . وأطعمته بيدي.. فضحك.. تدري ماذا يعني

لي أن يضحك جدي!؟!

تضحك بعدها للحظات فيشل جسده وهو يراقبها

مفتوناً!

سحرها الطبيعي لا يساوي شيئاً أمام ضحكة خلابة

كهذه!؟!

كانت المرة الأولى التي يراها فيها تضحك بهذا

الصفاء بعيداً عن خوفها المعهود..

ورغم ما بدا به تصرفها كتطرف هو للاختلال أقرب

لكنه كاد يرجوها أن تعيدها..

هذه الضحكة.. هذه..

ستكون يوماً ما هاجساً يؤرق نومه.. وأسطورة

سيعيش العمر يحلم أن تتكرر.

_ السماء ابيضت.. أظنه قد طلع الفجر.

تقولها وهي تشير للسماء خلفه فيهب رأسه وهو

ينتبه لما تحكي عنه..

تعب جسده وقلبه يجتمعان عليه فيطرق ببصره قائلاً

بنبرة منهكة :

_ سأنام.. لا تخافي.. طاقم الحراسة بالخارج يعلم ما

ينبغي عمله..

يقولها ليتجاوزها بخطوات متثاقلة تلاحقها نظراتها

الوجلة وهي لا تزال تعاني شتاتها..

قبل أن ترفع عينيها للسماء تفكر في الحلم..

مسبحة جدها.. جلبابه الأبيض.. صوت تلاوته

للقرآن.. سجادة صلاته..

كنان!

تغمض عينيها للحظات ثم تفتحهما أخيراً لتتحرك نحو

الداخل وقد شعرت بالنداء داخلها أقوى من ألا تلبيه..

تتوضأ لأول مرة منذ زمن طويل ثم تستقبل القبلة..

لتصلي!



(شو امرت ..سيد راسي)

يختلج قلبه بأضلعه بعنف شعوره بها وهو يسمعها
تخاطب بها الصغير بلهجتها السورية فيمعن في
اختبائه خلف هذه الكومة الملتفة من الشجيرات في
حديقة بيته كأنه يخشى أن تغافله قدماه كما غافله
قلبه فتركضان إليها ..

عيناه تغيمان بفيض عاطفته وهو يراها من مكمته
تعدو خلف الصغير بحيوية ..تمسكه أخيرا لتسقط
به ..تنحني فوقه لتدغدغ بطنه بأنفها فتنتطلق
ضحكاتها معا كما لم يسمعها من قبل ..

ضحكاتها التي كانت تخترق قلبه قبل أذنيه فيجد
نفسه دون وعي يغمض عينيه وهو يرفع كفيه ليسد

أذنيه بقوة كأنه يريد حبس هذا الصوت داخله للأبد

فلا يطغى بعده عليه ما يشوشه ..

ابتسامة عذراء تولد على شفثيه هذه اللحظة فيكاد

يقسم أنه لم يعرف قبلها معنى التبسم ..

ابتسامة يوقن أنه لا يستحقها فيفتح عينيه بعدها

بحدة كأنه قد الأوان أن ينتهي الحلم !

يزدرد ريقه بعدها بتوتر لم يملكه وهو يهم بالابتعاد

لكن نباح سلطنة التي تعرفت إلى وجوده لتركض

نحوه يجبره أن يعود إليهما ..

يمد الصغير باطن كفيه إليه بهذه الحركة المميزة التي

صار يخصه بها فيجد نفسه يتناولهما ليقبل باطنهما

بتثاقل قبل أن ينحني ليجلس على ركبتيه فيعانقه بقوة

شعوره ليهمس إليه بهذه الكلمات التي لم تسمعها

ديمة مكانها وهي ترمقهما بنظرة وجلة كأنما ذاب
مرحها السابق مع الصغير في لحظات ..
رغما عنها تتراجع للخلف عدة خطوات بهذه الحركة
المعهودة التي صار يحفظها هو كلما اقترب منها ..
تكتف ساعديها وهي تراهما يتسابقان للركض واللعب
بالكرة مع سلطنة لتعلو ضحكات سند في أذنيها
فتغمض عينيها ببعض الرضا وهي تعجز عن
مشاركتهما كأنهما تيبست قدماها في الأرض ..
كيف تتخلص من هذا الصراع داخلها في وجوده ؟!
كيف تعيش كل هذا الأمان بقربه ..
وكل هذا الرفض لما تحياه هنا ؟!!
لكنه كان يفهم حقيقة شعورها لهذا بقي يناظرها
خلسة من بعيد بنظرة ضائقة لم تخل من حسرة ..

قبل أن يقرر الانسحاب لعلها تستعيد مرحها الذي

قاطعه وجوده ..

لهذا يربت على كتف سند ثم يتوجه نحوها ليقول

بنبرة محايدة :

_ سأخرج لبعض الوقت ..

تصرخ عيناها بخوف لم تملكه فترق نبرته نوعا ما

ليردف وهو يشيح بوجهه :

_ لن أبقى طويلا.. لا تخافي .. كل الاحتياطات هنا كافية

لتأمينكما حتى أعود .

يقولها ليعطيها ظهره فيسمع هسيسها خلفه كأنها

تتأديه ..

يكتم تنهيدة لوعته وهو يعود ببصره نحوها ليراها

تقترب خطوة لم تلبث أن عادت بعدها ثلاثا للوراء ..



فينعقد حاجباه بقوة ضيقه لكنه يجبر نفسه كعهده
معها أن يروض غضبه ليقترب هو منها محنيا رأسه
نحوها بسؤاله:

_ تريد شيئا؟!_

_ أريد .. الخروج .. لشراء .. بعض .. الأشياء.

صوتها الوجل بالكاد يغادر شفتيها كطفلة مذعورة

تخشى التعنيف فيأخذ نفسا عميقا ليرد :

_ من المفترض أن أرفض .. أن أذكرك بحقيقة وضعنا
وأن بقاءنا هنا أكثر أمنا .. لكن .. لأسألك أولا .. ما الذي
تودين شراءه؟!_

ترتجف شفتاها بهذه الطريقة المهلكة وهي تتذكر ما
عزمت عليه لكن خوفها الأزرق يعاود السيطرة عليها
فتطبقهما بقوة وهي تطرق برأسها ..

فلا يجد بدا من أن يقترب أكثر حتى تكاد أنفاسهما

تمتزج ليهمس لها بطغيانه الحاني:

_قولي .

_ثياب ..ساترة ..سأعود ..ارتداء ..حجابي .

ابتسامة حانية تكتسح ملامحه كلها في هذه اللحظة

وهو يشعر بفخر أب تخبره ابنته أنها سترتدي

الحجاب لأول مرة !

يوما ما سيتذكر هذه اللحظة طويلا ..سيحتفظ بها في

كنزه المغلق الذي سيبقى أسير كهوفه بعد رحيل

شمسها عن عالمه !

الصمت يظللها للحظات فترفع إليه عينيها بوجل

ليصلها همسه شديد الخفوت ..بالكاد يسمع كأنه لا

يريدها أن تسمعه ..

فتتسع عيناها بصدمة كأنما تتيقن مما سمعته لكنه لا
يمنحها الفرصة وهو يعطيها ظهره ليغادر بخطوات
واسعة ..

هل قال ما هيئ اليها انها سمعته حقاً أم أنها عادت
للهديان ..

هل كان ما همس به وزلزل الخفقات في حناياها حقاً
هذه الكلمات :

(شو امرت ..ست راسي)!!!!

=====

اطرد تلك المرأة!

تهتف بها ديمة بحدة وهي تدخل عليه غرفة مكتبه
مندفعة ليقف مكانه عاقداً حاجبيه بقلق:

ماذا فعلت؟!

تؤلب سند عليّ.

تهتف بها بالمزيد من الحدة التي يحمر لها وجهها

مردفة وهي تلوح بذراعيها :

ليست مجرد خادمة! اعترف! هي تجيد معاملته ربما

أفضل مني.. تحفظ الكثير من الحكايات التي تدير بها

عقله.. وهذه الألعاب التي..

تقطع عبارتها لتزفر بسخط مردفة بلهجتها السورية

المميزة :

(العمى بعيونا)

يكتم ابتسامة إدراكه وهو يميز أن ما تقوله لا يزيد

عن كونه مجرد غيرة.. هل تخاف عن مكانتها هي في

قلب سند؟! كنان أخبره عن توقعاته بشأن تصرفاتها

للفترة القادمة بالذات في بداية استجابتها للعلاج خاصة وهي لا تزال ترفض الكثير من البوح.. لكنه سعيد بهذا الوجه "الأحمر" منها والذي يرضيه أكثر من "أزرقها" على أي حال!

لن تتكلم؟! ستبقى تحرق في هكذا؟! أنت تعمدت هذا؟! تريد أن يتعلق بها سند أكثر مني؟! هل هي توجيهات السيد عاصي؟! هل هي الخطة؟! هتافها يتحول لصرخات وهي تخبط بكفيها على صدغيها فيقترب منها.. لكنها لم ترفع ذراعيها تحمي وجهها هذه المرة.. وهو ما منحه بعض الارتياح وهو يتبع تعليمات كنان فيغير الموضوع عامداً:

كنتِ تريدين الخروج للتسوق!؟

تتشبت نظراتها للحظات ثم تشيح ببصرها دون رد..

فيردف بنبرة محايدة :

يمكننا فعلها الآن.. لكننا سنترك سند هنا فهو آمن

له.

لننتظر حتى ينام إذن! لن أتركه مع تلك المرأة

مستيقظاً وحده!

هي حقاً ليست مجرد خادمة.. أنا اخترتها مؤهلة

للتعامل مع حالته.. ألا تحبين أنه صار أكثر تكيفاً مع

الناس!؟ ألا تدركين أنها إشارة جيدة!؟ ألا يعني هذا

أنه في طريقه للتحسن وربما يستعيد قدرته على

النطق قريباً!؟

تتسع عيناها ببطء مع كلماته كأنها تحاول فهم ما
يقول.. لكن طبيعتها المشتتة التي صارت أكثر تشككاً
تدفعها للمزيد من الصراخ :

_ أنت تنصرها عليّ!

قبل أن تسحب أقرب ما قابلها.. تلك المزهرية
الزجاجية على المنضدة القريبة فتقذفها على الأرض
لتتكسر بدوي هائل!

_ ديمة داخلها طاقة غضب رهيبه.. كتمتها طوال هذه
السنوات فصارت تحترق بها وحدها.. هذه الطاقة
يجب أن تفرغها.. يجب أن تشعر انها قوية قادرة على
البطش قبل أن نطلب منها التسامح والتعايش.. لا
أعرف الكثير عن حالتها حتي الآن لكنني أوقن أن

داخلها وحشاً لا يهدأ.. وحشا يطالبها بالثأر ولا
ترضيه سوى قرابين الإيذاء.. هذا الوحش لن يروض
إلا لو آمنت هي بوجوده.. بقدراته.. وبقدرتها هي على
قهره بنفسها.. هذا أول طريق علاجها.

يذكرها بصوت كنان فيكظم غضبه بشق الأنفس وهو
يقبض كفيه جواره إلا من زمجرة عنيفة لم يملكها
وهو يتقدم نحوها أكثر..

_أسفة.. أسفة.. سادف ثمنها..

الأزرق اللعين يعاود سيطرته على ملامحها المذعورة
وهي تنحني لتلم شظايا الزجاج لكنه يقبض على
معصمها ليرفعها إليه فترتجف نظراتها الزائغة..
ليدرك أنها تواجه الآن صراع أشباحها..

حديثها عن دفع الثمن صحي جداً.. ليس فقط رغبته
في إصلاح خطئها.. لكنه إدراكها لما تملكه.. دعها
تدفع.. دعها تشعر أنها "تملك".. هذا الشعور مهم
جداً لامرأة بماضيها..

من جديد يسمعها بصوت كنان فيطلق زفرة قصيرة
وهو يحرر معصمها ليعطيها ظهره قائلاً :

أخبريني متى كنتِ جاهزة للخروج.

يقولها ثم ينادي الخادمة لتنظف المكان فتعاود
نظراتها هي الاشتعال قبل أن تغادر الغرفة كعاصفة..
لكن الكثير من الوقت لم يمر حتى وجدها واقفة أمامه
من جديد تغمغم بصوت مقتضب :

سند نام.. يمكننا الخروج

=====

_ لا تخافي.. أنا أوّمن وضعنا جيداً.. لكننا لن نطيل

فترة مكوثنا بالخارج.

يقولها مطمئناً وهو يستقل سيارته جوارها فترمقه

بنظرة عاتبة قبل ان تعرض بوجهها الذي أطرقت

به .. ليلاحظ تحاشيها النظر لمرآة السيارة

يكتم ابتسامته وقد بدت له في هذه اللحظة كطفلة

غاضبة راقته له مشاكستها..

كأنما أراد أن يأخذ معها هدنة من كل هذه الضغوط

حولهما فيشغل "الكاسيت" في السيارة وقد اختار

الكلمات :

لومي عليّ وزيدي جنونك ما بزعل والله..

انا عندي نظرات عيونك بالذني كآه..

كل الذني تزل على مني وتبقي رضيان

ريته يسلملي الزعلان اللي عامل حاله مش سألان

ريته يسلملي الزعلان اللي عامل حاله مش سألان

فيها إلية أن شبح ابتسامة طاف بثغرها المهلك وإن

بقي وجهها على إعراضه.. ابتسامة شعت في قلبه

كنور.. ونار!

وجواره كانت هي غارقة بإحساس افتقدته منذ

زمن..

الكلمات بلهجة بلادها.. اللحن المنعش.. المعنى الذي

طوقها بحنانه..

ريته يسلملي الزعلان اللي عامل حاله مش سألان..

هل تصدق!؟

كيف يمكن أن تصدق!؟

وكيف يمكن ألا تفعل!؟

يتوقف بالسيارة أمام أحد المولات الصغيرة التي
اعتاد التعامل معها.. ليشير للسيارة خلفه والتي حوت
حارسين اختارهما بعناية..

قبل أن تلتمع عيناه بنظرة خبيرة وهو يميز السيارة
التي تتبعه لتلتوي شفتاه بابتسامة ماهرة :

يبدو أن عيون عاصي الرفاعي تؤدي عملها جيداً.

يقولها ثم يفتح لها باب السيارة فيتشبث كفها

بمعصمه دون وعي وعيناها الخائفتان تطوفان

بالشارع حولها.. تكاد ترجوه أن يعودا..

لكنه يمنحها هذه النظرة الغامرة وهو يبسط ذراعه
على كتفيها بهيمنة فلا تنفر كعهدها.. بل تنكمش في
كنفه كعصفور بلله المطر..

يتوجه بها لذاك المحل الأنيق الذي تستقبله بأبعته
بترحاب وقد بدت على سابق معرفة به :

_ حسام باشا! تفضل!

تقولها وهي ترمق ديمة بنظرة فضولية لكن حسام
يجتذب الحديث بلباقته المعهودة لشأن عام فتضحك
المرأة وهي تشير حولها :

_ المكان تحت أمركما.

ترمقها ديمة بنظرة مشتتة وقد ازداد انكماشها تحت
ذراعه لكنه يشير لها برأسه مطمئناً فتختار بعض
الأثواب بعشوائية بدت له مثيرة للشفقة..

ذوقها يبدو شديد التناقض بين ألوان صارخة وأخرى

شاحبة..

بين تصاميم شديدة الأناقة وأخرى فظة غريبة..

حتى مقاسها!

بدت وكأنها لا تعرفه!!

لكن العجب يزول وهو يسمعها تتمم كأنها تكلم

نفسها:

_ أنا سأدفع ثمن كل هذا.. صرت أملك مالاً.. لم أشتري

لنفسي ملابس منذ سنوات طويلة لم أعد أذكر

عدها.. حتى بعد وفاة غازي أديم هو من ابتاع لي

الثياب.

مزيج ضارٍ من غيرة وإشفاق ينتابه في هذه اللحظة
وهو يميز حيرتها فيتحنح وهو يختار لها أحدها
بلون اللافندر الفاتح ليقول بصوت متحشرج :
_ هذا سيناسبك.

تتناوله منه لتذهب لغرفة القياس لكنها ما كادت تلمح
المرأة حتى التفتت لتدفن صرختها الطويلة في
صدره!

تهرع المرأة إليهما بجزع لكن حسام يلتفت نحوها
ليقول باقتضاب أمر :

_ أريد غرفة قياس بدون مرايا.

تهز المرأة كتفيها باستغراب لكنه يمنحها نظرة لا
تحتاج للشرح فتشير نحو ممر قريب قائلة ببعض
التفهم وقد أدركت أنها حالة خاصة :

_ هناك.. لا تقلق.. اجذب الستارة فحسب.

_ افتحي عينيك.. لا مرايا.. ديمة.. تسمعيني؟!

_ عد بي للبيت.. لا أريد ثياباً.. لا أريد.

_ لا! ستجربينها كلها! هنا والآن! لن تحبسي نفسك

خوفاً في قمقم من جديد.. لم تسألني نفسك لماذا

وافقت على الخروج معك رغم ما يحوطننا من

مخاطر؟! لأن خطر خوفك هذا أكبر!!

لا يزال طغيانه الحاني يوّتي ثماره في روح عطشى

كروحها..

ترفع وجهها إليه ببطء فيتناول أحد الثياب.. هذا بلون

اللافندر..

ليساعدها في ارتدائه فوق ثوبها الحالي..

يغلق لها أزراره ثم يشد حزام خصره..

يمشط شعرها بأنامله ملاحظاً أنها لم تخلع

"فراشاته" ..

يعدل شعث حاجبيها الذي يعجبه دون سبب واضح ..

ترفع عينيها إليه ..

فكأنه الآن وحده .. مرآتها!

مرآتها التي لا تخيف .. بل تضم وتحنو!

حلقة الزعفران في عينيها تشرق كألف شمس

صغيرة تضيء ظلمة ليله ..

كيف يمكن أن تراها إحدى عينيها طفلة .. طفلة التي

يشترى لها ثوبها فيلبسها إياه .. !؟

والأخرى تراها امرأته.. امرأته التي تذهب به فتنتها

لآخر حدود شمس العشق..؟!!

_جيد؟!!

تسأله فيرد بصوت متحشرج :

_جيد.. لكنني أنا من سيدفع ثمن هذا.. وادفعي أنت

ثمن الباقي.

تهم باعتراض لكنه يحرك سبابته المرتجفة على

شفتيها هامساً بحزمه الرفيق:

_يوماً ما عندما نفترق ستذكرين هذا الثوب جيداً..

أول ثوب ترتدينه في عهدك الجديد.. وأريد وقتها أن

تذكريني معه.

تبتلع غصة حلقها وهي لا تدري بماذا ترد..

كل ما فعله لا يساوي شيئاً وهو يذكرها كل مرة أنها

ليست أسيرة لديه..

لو يدري ما الذي تفعله بها كلماته بهذه الطريقة وهو

يمنحها شارة حرיתה..

هي حرة..

وجوده معها ليس سجنًا آخر..

هي تملك المفتاح!

المفتاح!!

ومضات خاطفة تجتاح ذاكرتها عن ذاك المفتاح الذي

وجدته في حقيبة البروكار فتتسع عيناها محاولة

التذكر..

لكن صوت البائعة في الخارج يشتتها فتتلاشى

الذكرى!

المزيد من الثياب تجربها واحداً تلو الآخر..
الشراهة التي كانت تسحب بها يدها كل ما تشتهييه من
الأشياء بعدها..

الأوشحة.. الأحذية.. الحقائب..
كأنها كانت تعوض بها حرمان السنوات التي
عاشتها!

_ أنا دفعت ثمن كل هذا من قبل.. دفعت أعلى ثمن..
دفعته من عمري.. من جسدي.. وربما.. من
عقلي.. يقولون عني غانية باعت نفسها لثري عجوز
كي تنتفع بماله.. ربما الآن أصدقهم.. هل كنت حقاً
بهذا السوء؟! يريحني هذا التصور أحياناً.. يخرجني
من شعور الضعف الذي يذبحني.. هو أفضل من

الاعتراف بالحقيقة.. الحقيقة أنني.. كنت أهون من

حشرة تدوسها الأقدام دون اهتمام..

تهمس بها بمنتهى الخفوت بين دموعها وهي

تتحسس حقائق مشترياتها كأنما تحدث نفسها..

لكنه سمع!

لم يصل جوابه في كلمات.. إنما في هذه الحركة وهو

يربت على رأسها برفق قبل أن يعود ذراعه ليبسط

سلطانه على كتفيها..

يخرج بها من المحل وقد انتوى العودة للبيت لكنه

يلحظ تعلق عينيها بتلك الملاهي هناك..

لعبة بسيطة ل "أحصنة" متحركة!

لم يفكر كثيراً وهو يجذبها من كفها ليذهب بها هناك

فينتهي بها المقام فوق أحدها..

تغمض عينيها بقوة وهي تعانق عصا اللعبة بذراعيها

فتختفي كل المرئيات حولها..

فقط هي فوق حصان تحلق..

لا قارب.. لا بحر.. لا دم.. لا مرايا.. لا أشباح..

فقط.. هي.. وسند..

وهو.. حارسها!

تفتح عينيها أخيراً ليخفق قلبه بجنون وهو يشعر

لأول مرة أن عينيها تبتسمان..

بسمة الشفاه خادعة..

وحدها بسمة العيون لا تكذب..

وعيناها الآن كانتا تصدقان الحديث بسعادة ربما لم

يعرفها قلبها منذ سنوات..

يوماً ما سيتذكر هذه اللحظة جيداً.. سيضيفها لكنوزها

العامرة معه..

ربما يكون هذا أكثر الوجوه - التي عرفها لنفسه-

بياضاً..

وأكثرها لوعة في قلبه!

=====

الطيب الثالث والثلاثون



العراق.. بغداد



السيارة الفخمة تتوقف أمام المقبرة حيث تترجل منها

السيدة بالغة الأناقة لتشير نحو السائق بالانصراف

فيطيعها صاغراً..

خطواتها المتثاقلة تسحبها نحو مقابر بدت متساوية

في مقامها وقد وحد الموت المقامات..

إنما.. هيهات!

أربعة موتى لا يزالون يحيون في رماد روحها!

ما في قلبها - بين هؤلاء الأربعة- يبني ويهدم.. يقيم
ويقعد.. يحيي ويميت..

الندم !؟

الندم لا يعرف طريقاً لقلب امرأة مثلها لم تعد سوى
أن تمد كفاً رابحاً وتقبض كفاً خاسراً فلا يخذلها غد..
وحده الماضي يهدم قصورها ليذرها شريدة في
العراء.. الماضي الذي لا تملك له رداً..

تتوقف استبرق أمام القبر الأول لأبيها.. فتبتسم

بشروء بائس لتهمس كأنه يسمعها :

_سلامٌ عليك يا (حبة القلب).. أدعوك بها كما كنت

تدعوني.. ابنتك استبرق لا تزال على عهدا.. عمرك

لم يضع هدراً.. الحق الذي نهبوه منك حياً أعدته لك

ميتاً.. الحق الذي يقول إن كل أموال عائلة الأمين

يجب أن تكون لنا وحدنا.. العدل الذي عشت
وسأعيش عمري لأنفذه.. هذا هو إرثك يا أبي
وسأحافظ عليه.. لي.. ولابني.

يتحشرج صوتها رغماً عنها بغصته وهي تشعر
بخنجر أمومتها يدمي قلبها من جديد..

كل دقة تساوي طعنة.. وما أقسى طعنات كهذه على
قلب كقلبها!

_وددت لو لم تنكشف الحقيقة.. ووددت لو يبقى يحيى
هو ابني.. ابني أنا فحسب.. دون اكتراث لمن يكون
أبوه.. لكن الزمن لا يزال يختبر صلابتي فأثبت له كل
مرة أنني الأقوى.. أنني الأذكى.. وأنتي من ستربح كل
شيء في النهاية..

تقولها بعينين متوهجتين بشراسة تناقضان براءة
ملامحها الظاهرة لكن بريق عينيها يخبو رويداً رويداً
وهي تردف بخفوت :

لست ساقطة يا أبي.. بالله لا تتعتي بها.. يقولون إن
الغاية تبرر الوسيلة وأنت كنت دوماً غايتي.. أنفاسك
التي زهقت بين ذراعي ذلك اليوم.. قلبك المريض
الذي لم يحتمل وزر أن يخونه صديق العمر.. عقلك
الطيب الذي رفض الاعتراف أنه كان عرضة
للاحتيال.. بيتنا الذي طردنا منه دون متاع.. كل ما
أقسمت أن أقتص له من عائلة الأمين.. وقصاصي
كان أن يصير كل مالهم لي.. أنا وحدي من تتحكم
به..

تقولها لتتوجه نحو المقبرة الأخرى حيث كتب عليها

(مقابر عائلة الأمين)..

فترى بعين خيالها (الأمين الأكبر).. صديق أبيها الذي
تربت في كنفه صغيرة قبل أن تكبر لتدرك الحقيقة..
فتعود لملامحها شرستها البرية وهي تهمس كأنه
يسمعها :

_ كيف حالك يا عمي؟! عساك تحترق كل يوم بذنب
أبي وذنبي.. تعرف كيف صار الحال الآن؟! استبرق
صارت من تملك حق التصرف في كل مالك.. مات
ولداك وبقيت أنا.. تظن نفسك وفيت دينك نحو أبي
الذي قتلته حسرة على ماله عندما زوجتني لابنك
الأكبر؟! هل هذه منتك علي؟! دم أبي لا يزال يقطر من
بين أصابعك.. لن يجف إلا بخروج روعي من
جسدي..

تقولها ثم تغض عينيها على صورة (الأمين الأصغر)
زوجها الذي يعرفه الناس فتتبدل ملامحها من جديد
لأخرى مذنبه وهي تهمس له :

_ لا تؤاخذني.. أنا أحببتك حقاً.. لكنني لم أكن لأترك
عجزك أنت يحرمني ثاري.. القدر الذي ظننته يمنحني
بغيتي عندما تزوجتك هو نفسه ما باغتني عندما
اكتشفت عجزك عن الإنجاب.. لم يكن أمامي سوى
حلين.. أن أتركك وأترك ثاري كي أنعم بأمومة.. أو
أبقى معك محرومة لأشهد أخاك وهو يحتكر مال
العائلة وحده.. لكنني ابتكرت الحل الثالث.. ومن مثلي
يمكنه فعلها؟! فليكن لي ولد من عائلة الأمين.. لن
أعيش محرومة من الأمومة ولن يخرجني أحد من
بيت الأمين الذي هو حق أبي.. أجل.. أبوك خدع أبي

وسرق ماله في تجارتهما المشتركة.. أظنك كنت تعلم.. كنت دوماً أراها في عينيك تلك النظرة المذنبية.. أظنك كذلك من أجبرت أباك أن يزوجك إياي شفقة عليّ.. لكن مثلي لا تخرج خاوية الكفين أبداً.. أنا أخفيت عنك نبأ عجزك.. عدلت التحاليل يومها فلم يكن هذا صعباً عليّ.. لكنني لم أكن لأقف أتفرج والخيوط تتسرب من يدي.. لم تكن خيانة.. كانت فقط استغلال فرص.. أحببتك صدقتي.. إنما.. لم أكن لأترك مالي وثأر أبي..

تقولها لتتبدل الصور في مخيلتها وهي تواجه القبر الرابع ل(غيث الأمين) فتعود لملامحها شراستها.. وهي تحدثه:

ما أشبهك أنت بأبيك! كنت تحقد على شقيقك.. كنت
أراها في عينيك تلك النظرة التي تحسده عليّ وأنت
تقارن بيني وبين شجون.. أبوك أجبرك أن تتزوجها
طمعاً في مال أبيها الذي أفلس بعد زواجك منها
لتتورط أنت فيها وأظن أنه لولا ابنتكما سراب لكنت
طلقتها.. أحمق وقعت في شركي من اللحظة الأولى..
لم تدرك سوى أنك كنت فقط وسيلتي للحصول على
طفل.. طفل يجعلني دوماً السيدة الأولى لعائلة الأمين..
طفل لا تستحق أنت أبوته.. هو ابني.. ابني وحدي..
تتبدل نظراتها بين شراسة وخزي وحب وازدراء
والصور تتوالى في ذهنها بين الأربعة رجال الذين
كتبوا تاريخها لتنتهي ذكرياتها أخيراً بسيل من
الدموع وهي تتحسس سلسلة يحيى التي أصلحتها

بعدها كسرتها طيف في لقائهما الأخير لتهمس بلوعة
أم حقيقية :

_ أنت ابني يا يحيى.. ابني أنا.. ما يعنيك من يكون
أبوك؟! لماذا أقحمت نفسك في حسابات الماضي؟!
لماذا لا تعيش حياتك التي رسمتها لك منذ صغرك؟!
مكانك الذي ربيتك طوال هذا العمر كي تليق به ويليق
بك.. مكانك الذي تستحقه.. وأستحقه معك بعد صبر
كل هذه السنوات.. تحدثني عن الفضيلة؟! أين كانت
الفضيلة وجدك الأكبر يخدع أبي ويستغل سذاجته
ليسرق ماله؟! أين كانت الفضيلة وأبي يموت
بحسرتة أمام عيني؟! أين كانت الفضيلة وأنا أجرب
مرارة الفقر والذل بعد طول عز دون جريرة مني؟!
أين كانت الفضيلة وجدك يمن علي بزواجي من ابنه

كانه التقط قطة ضالة من الشارع؟! العدل أهم من
الفضيلة.. ربما نسيت أن أعلمك هذا الدرس.. العدل يا
يحيى.. العدل الذي يحكم أن كل إرث عائلة الأمين هو
حقي وحق دم أبي.. لا تلمني يا صغيري.. فهذا طريق
لا يعود سالكه.. وأمك لم تعد صغيرة وقد أوشك العمر
أن ينتهي.. لماذا خيرتني بينك وبين حصاد حياتي
كلها.. لماذا؟! لكن.. لكن.. لعلني لم أخسرك بعد.. لعلك
يوماً ما تفهم.. لعلك يوماً ما تصفح.. أو.. لعلك يوماً
ما تتسى.

كانت تعلم أنها تخدع نفسها وليس أسهل على المذنب
من أن يخدع نفسه!

تمسح دموعها الحارة بأناملها وهي تلقي على
المقابر نظرة أخيرة قبل أن ترجع للسيارة التي عاد
سائقها فتستقلها لتغادر..
من قال إنها غادرت!؟
سيبقى داخلها دوماً أربعة مقابر تروي تاريخها
المخزي بكبرياء أجوف..
وياويلها يوم يكون قبرها هو الخامس!

=====

بنفسجي

=====

متى سيتوقف عن مراقبتها في نومها هكذا كأن
حبيبات النمش على وجهها دروب متاهة يأمل أن
توصله للكنز..؟!

وأي كنز!!

كم مر بها من أيام هنا معه في بيته؟!

أسبوع.. اثنان؟!

لا يريد أن يحسب.. هي هدنة اقتطعها من حربه مع
نفسه والزمن وكفى!

الدواء المهدئ الذي أوصى به كنان واشترط أن
تأخذه بكامل رغبته يوئي بعض ثماره يوماً بعد يوم..
نومها صار أهدأ لكنها لا تزال تعاني شتاتها الذي
تفضحه نظراتها الزائغة..

شفتاها ترتجفان في نومها وأاملها تشد الغطاء عليها
أكثر فيشعر بأثر كل حركة منها كجمرة نار يدوس
عليها حافي القدمين..

يقبض كفه وهو يجبر نفسه أن يعطيها ظهره محاولاً
شغل تفكيره بما سواها..

من سرق الحقيبة من بيت عاصي الرفاعي؟!
من جروء على فعلها?!

هو واثق أنه ليس واحداً من الخدم فتاريخ عائلة
الرفاعي مع عقاب الخائن لا يخفى على أحد..
البيت وقتها كان يعج بالغرباء.. لعله أحدهم!
زوج طيف مثلاً!

ينعقد حاجباه بقوة للخاطر الأخير كارهاً إياه بشدة..

رغم ماضيها العامر بخيباته وويلاته لكنه لا يتمنى
لها أن تفشل من جديد أو أن تكون قد أساءت
الاختيار..

تنقطع أفكاره وهو يسمع تململ ديمة جانبه فيستدير
بجسده نحوها ليراها تفتح عينيها ببطء شارد.. يكاد
يوقن أنها لم تع كل ما يدور حولها بعد.. لا تبدو في
نومها جواره كامرأة مترقبة تدرك قدر أنوثتها بل
كطفلة خائفة منكمشة تغلق عينيها ببراعة عن عالم
"الكبار"!

تيا لك يا غازي!

لو لم يقتلك أحدهم لقتلتك أنا ألف مرة!!

سند!

كعهدا يكون أول اسم تلفظه عقب استيقاظها!

يطمئنها بنظرة ذات مغزى وهو يشير للفراش
جوارها حيث الصغير النائم بعد يوم لعب طويل فتطلق
أنة خافتة وهي تمسد جانبي رأسها..

تبا!

كأنا تنقصها الفتنة!

يحاول تشتيت أفكاره عن هذا المارد الذي يعربد
داخله لكنه لا يمنع نفسه من ملامسة خصلة حمراء
ناعمة تدلت على وجنتها ليعيدها خلف أذنها بصمت
مكتفياً بعناق عينيها..

"حلقة الزعفران" تراوغه!

تارة تتوهج بجنون كأنها تمنحه العمر كله في
لحظة..

وتارة تخبو.. تبهت.. تتلاشى ذائبة في زرقة عينيها

كأنها تموت وتميته معها!

وسط كل حكاياته.. تبقى حكايته مع عينيها أغرب

حكاية.. وأروع حكاية!

بينما تبدو هي ساكنة النفس كأنما أرجوانيتها في

وضعها المثالي فلا أحمر غالب ولا أزرق..

فقط أحد كفيها يتشبث بالغطاء فوقها وهي تنتبه لما

يجعلها تتمم بما يبدو كالهذيان :

_ لا تغضب مني عندما اسحب منك الغطاء في نومي..

!؟

سؤالها بهذه الشفاه كارثية الارتجاف يلقي سهمه في

صدره وهو يسمع حفيف أناملها المعتصرة لقماش

الوسادة تحتها.. يروعه زيغ نظراتها كأنما اختطفها

نسر الذكري لسماء بعيدة وهي تردف بخفوت بدا

كالهذيان :

_أبي كذلك لم يكن يفعل.. كان يتسلل من جوار أمي

لينام جانبي ليلا.. كان يخبرني أنه يحميني من

كوابيسي.. كان يخاف علي.. دوما كان يخاف علي..

كان يقول أن جمالي يحتاج لألف حارس.. لكن أمي

كانت مطمئنه.. كانت تقول بعزة: (طُبّ القدرة على

تمها.. بتطلع البنت لأمها).. وأمي كانت قوية.. بمائة

رجل.. كن يعيرنها بأنها لم تنجب ذكراً لكنها كانت

ترفع أنفها بشهقة ساخرة لترد بفخر (هاتوا ألف

رجال وما بيسوا ظفر ديمة).. أما جدي! آه من جدي!

لدينا في سوريا عادة تسمى "قطش الردن" .. عادة

قديمة من الخمسينات لكنها لا تزال سارية المفعول

في بعض العائلات الكبيرة للآن.. تعني عندما يزور
أحدهم قريبه ليباركه على مولودته الأنثى وتعجبه
صحتها وجمالها ساعتها يقطع جزءاً من ثوبها ويقف
أمام الناس صائحاً (جيرانها لولدي فلان) أي أنها
أصبحت محرمة على الزواج إلا لابنه..وبالفعل
ينتظرون حتى تكبر الطفلة فيزوجونها لابنهم.. لكن
جدي حكى لي أنه ظل حارساً لي مانعاً أي أحد من
فعلها.. كان يقول لي أن (جمالي بيليق لملك) وأني
(شمس حمرا ما بيظفيها ليل)..

تتهي آخر حروفها لاهثة كأنها كانت تعدو مطاردة كل
هذا السيل من الذكريات.. لتختنق حروفها أخيراً

بحسرتها:

لكنني انطفأت.

تتكس الدموع في زرقة عينيها القاتمة منذرة بقرب

الهطول لكن أنامله تهدد رفرفة رموشها وهو

يهمس بـ "طغيانه الحاني" :

_الشمس لا تنطفئ.. قد يغدر بها كسوف إنما يعود

الكون كله لنصرتها.. فلا قاهر لشعاعها أبداً.

ترمقه بهذه النظرة التي تثير جنونه وحدقتها تتسعان

كأنها ترى الدنيا من جديد بعينه..

لكن حلقة الزعفران تعاود الانطفاء وهي تسبل جفنيها

هامسة :

_الكلام.. سهل.

_تعالى!

يقولها بنبرته الصلبة التي تثير "أزرقها" أحياناً

فتنكمش مكانها متشبثة بغطائها لكن شبح ابتسامة

يتأرجح على شفثيه بوهن وهو ينهض من مكانه ليمد
لها كفه صابراً لما يقارب دقيقة كاملة قضتها هي
متخسبة تماماً..

قبل أن تأخذ خطوة فترفع الغطاء عن جسدها لتنهض
لكنها تتجاهل كفه الممدود.. نفوراً.. وربما.. خوفاً!
يسير بها حتى غرفة مكتبه ثم يضغط زر الإضاءة
لتتسع عيناها بصدمة وهي تميز مفاجأته القابعة في
زاوية الغرفة..

نول يدوي خشبي لكنه يبدو حديث الطراز!
صيحة فرحة تطلقها وهي تكاد تقفز هناك بخطوات
طائرة.. تتحسسه بأنامل مرتعشة وهي تشعر بعمرها
المفقود يحلق بين خطوطه المشدودة..

دموعها تمزج بضحكاتها المختقة وهي تدور حوله

دون أن تتخلى أناملها عن تحسسه:

_حقيقي؟! حقيقي!!?

تكررها بهذه النبرة المتهدجة التي تثير إشفاقه

فيقترب منها ليبسط ذراعه على كتفيها بهذه الحركة

التي تمزج حنانه بهيمنتته :

_لعل هذا تفسير ضحكة جدك في منامك!

تلتفت نحوه بحدة لترفع عينيها إليه.. بل تلتصق

نظراتها به!

بضع ثوان هيئ إليه فيها أن خفقات قلبها المسموعة

تدوي كالطبل في أذنيه قبل أن تحط بكاملها على

صدره..

ذراعها يتعلقان بعنقه بقوة هستيرية تجبره أن يحيط
خصرها بكفيه عفويًا ليغمض عينيه بألم حقيقي وهو
يدرك أنها الآن لا تعي ما تفعله!
في وعيها هي تنفر من أي تقارب جسدي بينهما ولو
لمسة كف!

أي عذاب أن يشعر أن جنونها فقط هو ما يقرب
بينهما بهذه الطريقة؟!
وأنها ستعود لشرنقتها مختبئة عندما تفيق!!
يأخذ نفساً عميقاً بعمق شعوره الطاعني في هذه
اللحظة وهو يدفن وجهه بين طيات عنقها وفردوس
شعرها الأحمر بعبقه المميز..

لو كان ما يختلسه من لحظات قربها - غير الواعية-
هذه سرقة.. فهي أخطر جريمة ارتكبتها في حياته..
وأروع جريمة ارتكبتها في حياته!

النول اليدوي أصعب من الأوتوماتيكي لكنه أدق..
تبدین طفلة ذكية لهذا ستشربين مني أصول
الصنعة.. لتكن هذه هديتي لك حتى تذكروني ما بقي
من عمرك.. هذه الحرفة كادت تندثر فاجعلها ميراث
وطنك فيك..

تغمغم بها بسرعة غير معقولة كأنها تلقي نصاً
حفظته غيباً..

والحقيقة أنها كانت تطفو لذاكرتها الآن - بصوت
جدها- كسراب بعيد ودت لو تطارده فلا يفلت..

ذراعها يزدادان اعتصاراً لعنقه وهي تردف بحرارة

أكبر :

_أجل يا جدي! أذكر! رسمة(الوردة الدمشقية)..

أذكرها.. أذكرها..

يعقد حاجبيه ببعض القلق وهو يشعر بها تفصل عن

العالم لتحل ذراعيها عن عنقه بسرعة مندفعة

لتبتعد..

أناملها تتحرك حركة هوجاء وهي تحاول الغزل..

مرة.. اثنتان.. ثلاث..

_الوردة الدمشقية.. أنا أذكر.. أذكر يا جدي..

الموضوع يحتاج لوقت.. لكن.. لكن..

يزداد انعقاد حاجبيه القلق وهو يراها تخبط على
خيوط النول المشدودة بعنف كاد يقطعها وهي تصرخ
باكية :

_ هل نسيت؟! نسيت كيف يعمل هذا؟! لا.. لا... لن
يضيع مني هذا مع ما ضاع.. جدي! جدي! أنا لا أريد
أن أنسى هذا.. إلا هذا.. إلا هذا!!

صرخاتها تنقطع ببكائها المذعور الذي مزق قلبه
وهي تهبط على ركبتها تعانق القائم الخشبي للنول
بقوة كأنما تتشبث ببقايا ماضيها فيه..

فيخر على ركبتيه جوارها ليضمها إليه ببعض الشدة
قائلاً باستنكار صارم :

_ انهيارك هذا هو ما سيجعلك تتذكرين؟؟!! جدك كان
يقول أنك قوية كما تزعمين.. استعيدي قوتك فربما
تعود معها ذاكرتك.. أو افقديهما معاً واكتفي بالبكاء!.
يجاهد نفسه بقوة كي يحتفظ بهذا الوجه الصارم منه
كاتماً شفقتة نحوها..

أزرق خوفها يغلب للحظات وهي تتكمش على
نفسها..

أحمر غضبها يغلب للحظات تليها وهي تدفعه بعنف
لتعاود الوقوف مكانها..

وأخيراً تتوازن أرجوانيتها وهو يراها تمسح دموعها
بأنامل مرتجفة.. لتعاود المحاولة..

يتراجع عنها ليجلس على الأريكة مراقباً إياها بصبر
يحسد عليه محافظاً علي صمته..

يراها تفشل مرة تلو مرة فتصرخ تارة.. تبكي تارة..
لكنه لا يتدخل حتى يراها تعاود المحاولة من جديد..
_ (الله يرزقنا بركته ويصرف عنا سوءته)..

صوتها يصله مكانه بتمتة خافتة فيدرك أنها تستعيد
ذكراها بصوت جدها.. تجهر بها كأنها تحفز نفسها
على التذكر..

ساعة تمضي خلف ساعة لكنه يبتسم بانتصار وهو
يراها أخيراً تتجح في الغزل لتلتفت نحوه فتلتقي
عيناها لقاء يوثق هذه اللحظة بينهما..
قبل أن تهرب هي ببصرها لتعاود الانشغال بما
تفعله..

يرى سند من مكانه وقد استيقظ فينهض ليربت على
كتفها بحنو ناقض صرامة فعله قبلها قبل أن يتركها
ليغادر الغرفة مطمئناً لانغماسها التام فيما تفعله..



يقف مراقباً الخادمة التي بدت على قدر كبير من
الخبرة في معاملة سند وهي تنطق له اسم سلطنة
مراراً محاولة جعله يردده لكن الصغير بدا عاجزاً
وهو يحاول فعلها دون جدوى..
فيقترب حسام ليحاول بدوره دون ضغط منفذاً أوامر
كان بهذا الشأن..

وأخيراً!!

طا..

يبدو أن حرف الطاء بدأ أسهل الحروف التي خرجت
من فم الصغير وهو يستجيب للمحاولة أخيراً فتدمع
عينا حسام بفرح لم يعرفه من قبل وهو ينحني
ليعانقه.. يدور به وهو يشعر بهذا الانتصار الصغير
يساوي أثنى كنوزه..

يوماً ما سيتذكر هذه اللحظة جيداً.. سيضيفها لرصيد
وجوهه البيضاء النادر.

تتعلق عيناه بعينيها أخيراً وقد استقر بالصغير لينزله
أرضاً فترتجف شفتا ديمة وهي الأخرى تشعر بفرحة
طاغية لم تعرفها منذ زمن بعيد..

سند في طريقه للتحسن.. ربما يستعيد قدرته على
النطق.. يا لله! هل تسمعه ينطق باسمه؟! حسام؟!!

باسمها؟! هي؟!!

قلبا يخزها وخزة غادرة وهي تتبين أنها فكرت فيه

هو أولاً!!

لكن.. لماذا تضخم الأمر!؟

أو لا يستحقها بعدما كل فعله للصغير خاصة وهي

تعرف علتة بعد ما عرفته من أمه عن عجزه عن

الإنجاب!؟

بل أنتِ الشرهة للرجال يا فاسقة! غانية مثلك لن

تصبر دون زوج!

الشبح الأسود يعاود صفعها بها.. تراه عبر الانعكاس

الذي حملته إحدى لعب سند الملقاة أمامها.. فتصرخ

صرخة قصيرة وهي تغطي وجهها بكفيها ليهرع إليها

كل من حسام وسند الذي تشبث بطرف ثوبها هاتفاً

بكلمته الوحيدة :

_ماما.

ترفع كفيها عن وجهها ببطء وهي تتمنى لو يعود

شبح هالة للظهور.. لماذا اختفى هاهنا؟!

هل تسأل كنان؟!

لا! إنها تخجل من البوح بقصة هالة معه.. تكتفي

بذكر تفاصيل حياتها مع غازي فقط.. لماذا؟!

هل تكتفي بذكر ما يجعلها فقط ضحية؟!

هل تخشى الاعتراف بذنوبها؟!

_ليست ذنوباً! أنتِ كنتِ تدافعين عن نفسك.. لو لم

تؤذِ أنتِ فسينالك أذاهم.. لا بد أن يذوقوا نصل جرحك

كي تأمني مكرهم.. اجرحي يا ديمة.. أشعلي نارك كي

تهرب الذئاب.

لا تدري من أين ظهر شبحها الأرجواني.. حتى
صرختها انكمت في حلقها هذه المرة وهي تحمل سند
لتدفن وجهها في قميصه كأنما تختبئ هناك من
أشباحها.. جسدها يرتجف بقوة فلا تملك انتفاضته
وهي تشعر بكف حسام على كتفها :
_ أنتِ بخير.

هزة رأسها لا تساوي شيئاً وهي تبتعد بخطوات نافرة
لتنزل الصغير أرضاً فيكز حسام على أسنانه بقوة
وهو يشيح بوجهه..

لماذا كلما اقتربت منه خطوة تعود للابتعاد؟!
لكن هل يريد لها حقاً أن تقترب؟!
فليكن صادقاً مع نفسه.. البعد أفضل لها.. وله!
_ تشاهد "الكارتون"؟! تعرف "نيمو"؟!!

يسأله حسام محاولاً لفت نظره ليلتفت إليه سند بعينين
متسعيتين فيجذبه حسام من كفه نحو الداخل..
ثلاثتهم يجلسون على الأريكة في صالة البيت أمام
التلفاز وقد انتصفهم سند.. ليبسط حسام ذراعه
فوقهما فلا تمنع ديمة وقد بدت وكأنما اختطفتهما
نسور شرودها من جديد..

يحاول حسام تبسيط القصة للطفل عن هذه السمكة
الصغيرة "نيمو" ذات الإعاقة حيث أحد زعنفتيه
أقصر من الأخرى لهذا يخاف عليه أبوه حد تقييد
حريته خاصة وقد فقد كل صغاره قبله.. لكن "نيمو"
الذكي رغم إعاقته يستطيع تكوين صداقات جديدة
وينجح في الهروب من حوض السمك الذي سجن فيه
ليعود للمحيط - وطنه - بمساعدة أصدقائه..

الفيلم اختاره كنان ليغرس عقيدة ما في سند.. لكن
حسام كان يجرب معه شعوراً جديداً لم يعرفه من
قبل..

هذا العالم الخطير الذي ظن أنه محرم عليه بفعل
عجزه.. لكن هاهو ذا الآن مضطر أن يخوض في
تفاصيله الممتعة.. والمهلكة!

يتابع خلجات الصغير وهو يراقب الأحداث فيدرك أنه
يفهم.. يبتسم أحياناً.. يضحك أحياناً.. يعبس أحياناً
ويدمع أخرى..

لكنه في ذاك المشهد الذي وجدت فيه السمكة (الأب)
ابنها ليتعانقا بقوة يلتفت بوجهه نحو حسام ثم
يستدير بجسده كله ليعانقه بدوره!
زلزال!

زلزال يرج الأرض تحت قدميه وهو لا يدري كيف

يصف شعوره الآ!

طوفان يجرف سيله كل ما أمامه فلا يشعر بنفسه

وهو يعتصر الصغير بين ذراعيه بنهم محروم!

العيان الصقريتان اللتان طالما كابرتا شعورهما

بالعجز باعتناق الغرور الآن تدمعان باعتراف

صارخ..

كم يساوي عناق كهذا!؟!

كم يساوي!؟؟!

=====

تفيق ديمة من نوبة شرودها التي خطفتها لتمييز

أحداث الفيلم الذي ضبطه حسام ليعيد نفسه..

تلتفت جوارها لترى سند وقد استسلم للنوم ليسقط
رأسه على صدر حسام الذي - للعجب- نام بدوره!
الساعة تقارب منتصف الليل..

تتنهد بتعب وهي تنهض لتحمل سند فينهض حسام
فجأة بفرع وهو يتحفز مكانه لكنها تشير له برأسها
ثم تتحرك لتذهب بالصغير إلى فراشه.. قبل أن تعود
إلى حسام لتجلس جواره على الأريكة وقد احتفظت
بمسافة مناسبة..

_ أنت نمت.. قلت أنك لا تنام أبداً قبل الفجر.
يلتفت نحوها بحدة كأنه لم ينتبه لما تعنيه مقولتها قبل
أن يأتي دوره في الشرود..
منذ متى لم يعرف النوم ليلاً؟!
مهما كان تعب جسده لكنه لم يكن ليستطيع فعلها..

هل يمكنه الآن أن ينحي غروره جانباً فيعترف أنه

كان.. يخاف!

ظلمة الليل كانت تقذف المزيد من الحطب فوق نيران

ذنبه فيخشى أن يغفل عنها لتهلكه..

هل يمكنه الاعتراف أن هذا الشعور الغريب الذي

اجتاحه وسط سند وديمة منحه هو النور ليهزم

خوفه؟!!

كيف وهما بهذا الوهن يمنحانه هذا القبس من

القوة؟!!

كيف؟!!

وكيف سيحتمل بعدما ذاق حلاوة قربهما أن يعود

لصيامه الطويل؟!!

العين التي عرفت أخيراً نكهة النوم ليلاً مطمئنة كيف

ستعود بعدها لمذاق السهر اللاذع؟!

لكن خاطراً آخر يجتاحه بنفس القوة..

هو الذي طالما صرخت روحه أن (لا أحد يراه)..

الآن رغم شتات روحها هي بين وديان ضلالتها لكنه

يثق أنها تفعل..

هي الآن تراه!

تراه هو.. هو بكل نتوءات جذعه الخرب.. بعيداً عن

خداع أوراق غصونه الزاهية!

فما أقربها!

وما أبعداها!

تنقطع أفكاره وهو يراها ترفع أمامه قطعة قماش
مربعة بحجم صغير لم يفهم ماهيتها في البداية.. إلا
عندما ارتجفت شفتاها بهمسها :

_(الوردة الدمشقية).. صنعت واحدة.. كما علمني

جدي.

ابتسامة غريبة تطوف على شفتيه تبدو وكأنما

تخصها هي وحدها..

في عهدا ولدت وبرحيلها.. تموت!

طوفان مشاعره الطاعي في هذه اللحظة يخرس

لسانه لكنه يفيض في عينيه اللتين طوقتها هي

بعاطفة غامرة بينما تردف بشرود عاد يختطفها :

_ كان يقول إن هذه الحرفة كادت تندثر بعد انتشار

الصناعات الحديثة.. لهذا كان يدعوني أن أحافظ

عليها لأنها ميراث وطني.. كان يعلم أن الأمر مرهق
فصناعة متر واحد من البروكار قد يستغرق قرابة
الثلاثة أيام لكنه كان يقول إن الأمر يستحق.. واليوم
أصدقه..

ثم تلتفت نحوه من شرودها لتردف ببسمة عينيه
الأصدق من بسمة شفيتها :

بعض الأشياء الصغيرة قد تعيد لنا هويتنا المفقودة
وتردنا بعد طول ضياع للطريق الذي فقدناه.
يطرق برأسه دون رد.. ليته مثلها يجد من يعيد له
هويته المفقودة ويرده للطريق الذي قطعه عليه
ذنوبه..

من أين حصلت على النول؟!

تسأله ليرد ولا يزال مطرقاً برأسه :

_ لم يكن الأمر سهلاً لكنني أوصيت أحد معارفي عليه

منذ مدة.. منذ أخبرتني عن قصتك مع الحقيبة

واعتزازك بها.

_ سادفَع ثمنه.

_ لقد فعلتِ..

يقولها باقتضاب حاسم ليرفع عينيه إليها وهو يشير

بسبابته حول وجهها مردفاً بنبرة منهكة - كقلبه-:

_ فقط كوني بخير مع سند.. لا أريد ثمناً أكثر.

لم تكذبه روحها للحظة وهي توقن أنه يعني ما يقول

فترفع قطعة القماش الحريريّة التي تمتزج بخيوطها

الفضية نحوه كأنها تهديه إياها..

لم أمنح أحدهم هدية منذ زمن بعيد لم أعد أستطيع
حسابه.. لم أكن أملك ما يمكنني منحه لأحدهم.. الآن
يمكنني فعلها.

رفرفة رموشها الآسرة تحمل سرب حمام نوراني بين
عينيها..

يدرك أنها تعي الآن ما تفعله لكن.. ربما هو الآن الذي
يتوه بين سراديب هيامه المفتون بها..

أنامله ترتفع لتحتضن هديتها مع كفها فتحط فوق
كليهما شفتاه بما بدا كقبلة.. لكنه في الحقيقة كان
صك غفران!

صك غفران ود لو يمنحه له القدر ولو أنه لا
يستحقه!

لمس الحرير الناعم على شفثيه يثر جنونه لمعرفة
مذاق بشرتها هي.. لكنها تسحب كفاها منه بسرعة
تاركة له هديتها لتعود نظراتها لزيغها وهي تشيح
بوجهها قائلة :

_ لماذا تفعل هذا معي؟! قد أتفهم شعورك بالذنب نحو
سند.. لكن.. أنا.. لماذا تساعدني؟! لماذا تحتمل
صحبة امرأة مثلي!؟

_ أخبرتك من قبل أنه معك أنتِ بالذات لا أملك أجوبة.
يرد بنفس النبرة المنهكة فتعاود الالتفات نحوه لتسأله
بخوف عاد يغلب أزرقها :

_ إلى متى سنظل هكذا؟! الأيام تمر ولا جديد.
_ حتى نطمئن لزوال خطر ذاك الكوبرا.. ولن يحدث
هذا حتى نصل إليه.

_ سأذكر مكان المفتاح.. كما تذكرت كيفية الغزل..

صحيح!؟

تسأله وحروفها غارقة في شعورها بالذنب لكنه

يحاول سحبها لاتجاه آخر :

_ الأهم من العثور على المفتاح معرفة ماهيته.. ماذا

تظنيه أنت!؟ كيف يبدو!؟ تعلمين من مثلاً يمكنه..

يقطع عبارته وهو يلاحظ تعلق عينيها الشديد بعنقه

وقد عادت نظراتها لزيغها فيعقد حاجبيه متسائلاً :

_ ديمة.. تسمعيني!؟

_ لديك "تفاحة آدم" بارزة.. مثل أبي وجدي.. جدي

كان يتفاخر بخاصته وقد برزت كثيراً.. لكن أبي كان

يخجل منها.. سألت أمي مرة لماذا لا أملك - أنا أو

هي- مثلها!؟ فراوغتني بحكاية وهمية عن أنها تخص

الرجال فحسب توارثوها منذ ابتلع سيدنا آدم التفاحة
المحرمة.. لكن جدي سمعها ونهرها ثم جذبني من
كفي ليجلسني جواره.. ربت على شعري وقال بلهجته
الحكيمة: (لا تدعيهم يعاملونك كالصغار فيسلونك
بالخرافات.. عقلك كبير فغذيه بالعلم) .. هل سيغضب
مني كثيراً لو علم أنني فرطت في دراستي؟! هل
سيدرك أنه كان رغماً عني!؟

يزداد انعقاد حاجبيه وهو يتذكر ما قاله كنان بشأن
عودة ذكريات ماضيها بهذه الدقة وصحية دلالة هذا..
فيما يخفق قلبه بلوعة وهو يدرك أنها كانت تعيش
أميرة مدللة رفيعة القدر وسط أهلها رغم بساطة
حالتها لتجبرها الظروف أن يتخذها وغد كغازي

جارية له.. ربما هذا ما يفسر تناقض طباعها

الغريب.. أرجوانيتها بين أحمر وأزرق!

لكنها تردف وكأنها لا تنتظر الجواب :

قال إن "تفاحة آدم" هذه بروز طبيعي في غضروف

لا أذكر اسمه.. قال إن شدة بروزها شارة جيدة

للرجل.. غازي لم يكن يملك واحدة.. لغده السمين كان

يتدلى كجراب ساحر يخفي أفاعيه.. أديم كان يخفيها

خلف كوفية الحارس الخادعة.. وعندما خلعها بدت

خاصته شديدة السواد كليل مظلم لا أعرف ما يخفيه..

عاصي الرفاعي كذلك يملك واحدة شديدة البروز

لكنها مخيفة مثله تبدو لي كجبل يوشك أن يقع على

صدري..

"العاشق" داخله يكتم شعوره بوحش غيرته قسراً

وهذه المقارنة تكاد تذهب بعقله..

لكن "الأب" المستحدث يرى في الأمر ما يفوق

ظاهره.. وهو يميز كونها مجرد طفلة كانت تبحث عن

الأمان في "مظهر رجولة" لكل الذكور الذين مروا

عليها..

لهذا بح صوته حد الهمس وسؤاله يذبح غروره

ذبحاً :

وَأنا؟!!

يقترّب منها حد الخطر فتمتزج أنفاسهما باشتعال

وعيناها تتعلقان بعنقه من جديد قبل أن ترفعهما

نحوه..

حلقة الزعفران تتوهج حد الفتنة فيعتصر حرير
قماشتها في يده بشدة مقاوماً هذا الإعصار داخله..
شفتاها ترتجفان تلك الرجفة المهلكة ونمش بشرتها
يكاد يذوب وسط حمرة وجنتيها كأنه يمنحه أبلغ أثر
على قربه..

تلك الفتاة تحبك حتى لو لم تكن هي نفسها تعلم!

يذكرها بصوت طيف كما قالتها فيزداد اقترابه الخطر
وأنامله الحرة تمتد ببطء لتمسك بأناملها فتضعها
هناك.. على رقبته حيث عقدة حنجرته أو تفاحة آدم
كما تدعوها.. يتركها هناك ليلامس خصلات شعرها
برهبة كأنما يخشى أن يباغته رد فعلها في أي
لحظة..

يمس شفتيها مساً خفيفاً يوقظ البراكين داخله لكن..

دموعها تطفئها!

ديمة!

يهمس بها بعذاب وهو ينتزع نفسه عنها انتزاعاً
ليقف مكانه ويوقفها معه.. دموعها تجتاح نظراتها
الزائغة بأنين خافت فيهبزها بين ذراعيه بقوة لكنها
تفر منه هاربة نحو الغرفة لتختفي تحت غطاءها..
بالكاد يمنع نفسه من اللحاق بها لتحمله قدماه نحو
شرفته الباردة..

فيعود إليه إدراكه..

هل نام بعض الليل حقاً؟!

هل يعرف جسده العليل يوماً أن ينام ليلة كاملة؟!

ماذا لو تذكرت مكان المفتاح؟!

ماذا لو أوصله هذا لذاك الكوبرا؟!!

ماذا لو ذهب الخطر وذهبت هي بعده؟!!

ستفعل..حتما ستفعل!

حرير قماشتها يبدو كالشوك الآن بين أنامله لكن

خاطراً ما يجتاحه..

لماذا تذكرت صنعة جدها ولم تذكر المفتاح؟!!

تراها هي التي لا تريد أن تتذكر مكانه؟!!

هل يجبرها عقلها الباطن ألا تفعل؟!!

هل تريد البقاء جواره لأطول وقت؟!!

ابتسامة أخري تذبح عنق غروره وتمنحه أملاً لا يريد

تصديقه..

لكنها تنسفه الآن بقسوة لا تتعمدها وهو يفاجأ بها

خلفه تتمم بما سيفتح أبواب الجحيم :

تذكرت.. تذكرت مكان المفتاح.

=====

الطيف الرابع والثلاثون

=====

أبيض

=====

*فرنسا..

_دكتور جهاد الريحاني أوصاني بكم.. يتواصل معي

كثيراً للاطمئنان على الحالة.

يقولها البروفيسور الفرنسي المختص بعلاج الصغيرة

شمس في غرفة مكتبه لتتطلع ماسة نحو عاصي

ببعض القلق لكن الأخير يبدو رابط الجأش وهو يرد

باقتضاب صارم لتتولى الممرضة الترجمة :

_ألا يجدر بك أن تطمئنا أولاً؟!!



تتنح ماسة بحرج وهي ترمق الممرضة بنظرة

معتذرة ليسري الحوار بينهما عبرها :

_الصبر يا سيد عاصي.. الحالة نادرة ونسبة علاجها

ضعيفة.. كنت صريحاً معكم من البداية.. أقدر

مشاعرك كأب لكن أنا أيضاً أفعل كل ما بوسعي.

_أريد أن أراها!

يهتف بها عاصي بنبرته المهيمنة التي لم تفقد قوتها

رغم بريق نادر للدموع في عينيه ليهز الطبيب رأسه

نفياً..

لكن عاصي ينهض بسرعة ليخبط المكتب بقبضتيه

هاتفاً بصوته المهيب :

_سأراها.. لا عبر زجاج ولا حواجز.. ستتفد هذا.. خذ

كل احتياطاتك.

تحاول الممرضة ترجمة قوله بصورة أكثر لطفاً فيما تنهض ماسة بسرعة لتهدئته وقد تشبثت قبضتها بعضده لكن غابات الزيتون بدت أكثر اشتعالاً وهو يميز رفض الطبيب الواضح قبل حتى أن تترجمه المرأة..

_ لا داعي للعصبية يا سيد عاصي.. هذا لمصلحة الصغيرة قبل أي شيء.

يقولها الطبيب بنفاد صبر فيهم عاصي بالصياح من جديد لكن ماسة تزيد من قوة قبضتها على عضده لتهمس في أذنه :

_ اهدأ! بالله عليك يا عاصي.. بحق من رزقنا نور وضياء وهو القادر على أن تكتمل فرحتنا بشمس.

يكز على أسنانه بقوة تكاد تحطمها وهو يلتفت نحو
ماسة بعنف جعل الممرضة تتصور أنه سيهم بالبطش
بها لكنه يفاجئهم وهم يرونه يجذبها ليخفي وجهها
في كتفه فلا يعلم الرائي من منهما الذي يمنح القوة
لصاحبه!!

_الصغيرة ستحتاج لجراحة خطيرة لا يمكننا إجراؤها
الآن قبل علاج تمهيدي.. لن أجمل الحقائق يا سيد
عاصي فسياستي هي الصراحة.. لو لم تستجب ابنتك
للعلاج - وهو الاحتمال الغالب- فلن تحتاج للجراحة..
ولا لغيرها.

يقولها بنبرة ذات مغزى لترفع ماسة فضيتها
المكدستين بدموعها لكنها تهتف رغم هذا بابتسامة
صابرة :

لن يخذلنا الله فيها أبداً.. هذا يقيني فيه سبحانه.
يرمقها عاصي بنظرة مذنبه هي خير من يفهمها
فتتسع ابتسامتها القوية في موقف كهذا وهي تبدو له
كزهرة جبلية تشق طريقها وسط الجبال بصبر حتى
تعانق الشمس..

زهرة لا يذبل رحيقها أبداً!

ينتهي بهما المقام أمام "شمسهما الصغيرة" وقد
فصل بينهما حاجز زجاجي بدا له كحائط سد ارتطم به
رأس ماضيه..

تحدث إليها يا عاصي.. افعل مثلي.. قل لها كل ما
تود قوله كما كنت تفعل وهي لا تزال في بطني..
ستسمعك.. ستشعر بك.. ستتشبث بنا كما نتشبث بها..

يتحرج بها صوت ماسة الخفيض وهي تمزج وهنها
بوهنه.. قوتها بقوته.. فييدوان معاً ككيان واحد..
_ ما أجملك! وما أقبح شعوري بقرب فقدانك! ما
أصغرك! وما أكبر همي بك! تعرفين كم أحببتك؟!
كيف أحببتك؟! منذ متى أحببتك؟! أحببتك قدر حبي لما
بقي من العمر.. أحببتك كقارب نجاة أخير نحو شط
الأمان.. أحببتك منذ سنوات تقارب سنوات عمري
الأربعين.. أجل.. أحببتك في كل جميل رأيته وتمنيته
وظننت أنني لا أستحقه.. لكنني الآن أوقن في رحمة
ربي.. لبيتك تكونين صك الغفران الأخير.. والجميل
الذي يغمرنى بهاؤه وإن كنت لا أستحقه!
صوته يبدو شديد الخفوت حد الهمس لكن ماسة كانت
تسمعه إن لم يكن بأذنيها فبقلبها..

تدعو الله سرّاً بخشوع وهي تشعر بالسكينة تحوطها
رغم البلاء..

غمة وستزول.. هكذا علمتها رحمة.. أن الله سبحانه
وتعالى عند ظن عبده به.. وهي لا تظن بالكريم إلا
خيراً.

_ ماسة! هل ترين ما أرى!؟!

تنتبه لسؤاله بعينيه المتسعيتين فتتسارع خفقاتها
وهي تنظر للصغيرة بحدة..

_ فتحت عينيها!

يقولها كلاهما في نفس اللحظة وهما يميزان عيني
الصغيرة لأول مرة منذ ولدت وقد فتحتهما للحظات..
لحظات فقط..

لكنها كانت كافية ليشرق الأمل في قلب كليهما حد

التبسم الذي لوّن ثغريهما بنفس الطيف..

_ عيناها زيتونيتان مثلك.. تدري خطورة أن تحمل

امراة عيني عاصي الرفاعي!؟!

تهمس بها بين غمار عاطفتيها لابنتها وله قبلها..

فيختلج قلبه في صدره وهو يتهد بتعب ليضمها في

كنفه هامساً :

_ الخطورة كل الخطورة كانت يوم رأتك عينا عاصي

الرفاعي هاتين فزلزلت عرش جبروته للأبد.

تبتسم بمزيج من فخر ورضا وهي ترفع وجهها

للأعلى في حمد لله..

لعلها بشرى.. تظنها كذلك!!

تعود ببصرها إليه فتلمح فضاء شروده الذي عاد
يجتذب زيتونيتيه لتحاول صرفه عن طوفان مشاعره
فتتنح قائلة :

_جنة هاتفتي صباحاً.. ديمة تذكرت مكان
المفتاح.. لكنهم لا يزالون لا يعرفون أي مفتاح هو..
يقولون أنه يبدو كمفتاح باب مصفح.. أنت قلت لي
من قبل أنك تعرف عن غازي ذاك الكثير.. ألا يمكنك
التخمين!؟

تعود غابات الزيتون لاشتعالها ال قديم للحظات وقد
بدا لها غارقاً في شروده للحظات قبل أن يعود ببصره
للصغيرة مغمضة العينين متمماً :

_أظني أعرف!

=====

_"الحب بهدلة يا (حُس)!!"

يهمس بها فهد بمرح محاولاً تخطي توتر الموقف
وهو يربت على كتف حسام حيث وقفا في حديقة بيت
الأخير الذي رمقه بنظرة موعدة قبل أن يتطلع لديمة
وسند اللذين جلسا على العشب بعيداً ليتهد تهيدة
طويلة هامساً بحسم :

_"الحب ليس لمثلي."

يقولها ليهتف فهد ملوحاً بكفيه باستنكار مشفق:

_"لماذا؟! لماذا تصر أن تفكر بهذه الطريقة؟! لماذا

تصر أن كل أبوابك معها مغلقة؟!"

_"لأنها كذلك!"

يقولها بنفس الحسم المقتضب الغارق في لوعته

ليزفر فهد وهو يحاول إقناعه :

لماذا لا تمنح نفسك وتمنحها الوقت؟! الوقت قد
يمنحكما معاً الرصيد الكافي لتجاوز الماضي!
لكن حسام يبدو - رغم جفاف نبرة حديثه- وكأن
عينيه المعلقتين بهما-هي وسند - تفيض بعاطفته :
_الرصيد؟! تعني أن تبقى هي معي "رد جميل"؟!
تريدني أن أكون لديها عبئاً كسند.. أحد كتفيها مثقل
برد معروف صاحبها والآخر تريده أن يكون مثقلاً
برد معروف أنا؟! أليس لهذه البائسة أن تختار
حياتها دون قيود؟!!

ولماذا لا تفترض احتمال أن تختارك أنت بملء
إرادتها؟!!

يهمس بها فهد بنفس الاستنكار المشفق ليطرق حسام
برأسه بخفوت :

_ هل من العدل أن يحرّمها القدر أهلها ووطنها فأجيب

أنا الآن وأحرّمها فرصتها أن تكون لها عائلة

حقيقية؟! أطفال يمنحونها ما حرمت منه؟! هل من

العدل أن تخرج من سجن رجل كغازي خاوية الكفين

إلا من جراحها.. فأدخلها لسجني الذي لا توقن منذ

البداية أنه سيخرجها خاوية الكفين كذلك؟!!

عباراته تخز قلب صديقه بمدلولها خاصة وهي تخرج

من رجل مثله لكن فهد يعاود قوله بإصرار :

_ ماذا لو كانت راضية؟! لو كانت تحبك؟!!

_ لا أراني أستحق هذا الحب..

يتمتم بها بخفوت كأنها تعاند كل غروره ليردّف وهو

يشيح بوجهه :

_ ذنب صاحبها سيبقى بيننا.. ليس بيني وبينها
فحسب.. بل بيني وبين سند ذلك.. لست أحمق
لأصدق أن الحكاية قد تنتهي بهذه المثالية.. وجودهما
في حياتي مجرد محطة توقف قصيرة يعود بعدها
قطاري للسير بعيداً.

_ لكن..

يهتف بها فهد بمكابرة لكن حسام يقاطعه بالتفاته
وهو يغير الموضوع منهيًا النقاش:

_ هل أحضرت المفتاح!؟!

يمط فهد شفثيه وهو يتفهم طبيعة صاحبه الموصدة
ليستخرج المفتاح من جيب قميصه قائلاً :

_ الحمد لله أنني احتفظت به.. منذ بضعة أيام أعطاه
لي صاحب المغسلة بعد غسل سيارتي.. ظننته

للأستاذة أو ربما من ألعاب "لوكا" فقد كنت واثقاً

أنني لا أملك مفتاحاً كهذا!

يتناوله منه حسام ليتفحصه قائلاً :

كنت أشك أن الأمر يتعلق بليلة زفاف طيف.. تلك

الليلة التي هاجمها فيها الصبية قرب المقابر.. حالتها

ليلتها لم تكن طبيعية أبداً وأظنها انتكست بعدها

كثيراً.. دكتور كان أخبرني أن العقل الباطن أحياناً

يلجأ للنسيان كي يحمي صاحبه من التمادي في

القلق.. لكنها تذكرت أخيراً أنها أسقطته في سيارتك

عندما ذهبت بها للمشفى ليلة زفاف طيف وأن رعبها

جعلها تتخلص من كل ما كان في جيوبها وقتها..

الغريب أنها بقيت بعدها تتذكر أنه معها لكنها لا تتذكر

مكانه.

يطلق فهد زفرة قصيرة وهو يتفحص المفتاح بدوره
قائلاً:

_ يبدو كمفتاح باب مصفح.. لكن لماذا يحرص الرجل
عليه كل هذا الحرص؟! حتى الأبواب المصفحة يمكن
اقتحامها دون مفتاح!

يصمت حسام قليلاً ليفكر قبل أن تلتهم عيناه بقوة مع
قوله :

_ إلا إذا...

يرمقه فهد بنظرة متسائلة ليردف حسام وقد ضاقت
عيناه الصقريتان محاولاً ربط بعض الخيوط :

_ إلا إذا كان الباب في مكان مأهول وتخشى أن يثير
اقتحامه جلبه تفضح ما بداخله!

يعقد فهد حاجبيه وهو يهم بسؤال آخر لكن حسام
يندفع بخطوات راکضة نحو ديمة ليسألها بصوت
لاهت:

_ هل يحتوي بيت غازي على مخزن أو ما شابه؟!
تهز كتفها بجهل يثير شفقتة على امرأة عاشت هذه
السنوات في بيت لا تعرف تفاصيله لكنه ينحي
مشاعره جانباً وهو يلتفت نحو فهد الذي لحق به وقد
فهم ما يدور بخلد صديقه ليهتف حسام بحدقتين
مشتعلتين:

_ مقتل غازي.. المفتاح.. مهاجمة ديمة.. كلها خيوط
متصلة.. لكن كيف..!؟

يقطع سؤاله وهو يسمع رنين هاتفه فينعدد حاجباه
بشدة وهو يميز الرقم الدولي المتصل.. ثم الصوت
المهيب الذي يمنحه الجواب الذي ينشده :
_ ابحث في قبو بيت غازي..ربما يكون المفتاح
يخصه!

يغلق الاتصال مع عاصي دون أن يتبادلا المزيد من
الكلمات كأن بينهما ميثاق على التعاون لأجل مسمى
دون فتح دفاتر الماضي..

_ يبدو أن عاصي الرفاعي يعرف الكثير عن ذاك
الوغد غازي.. يزعم أن هذا ربما يكون مفتاح قبو في
بيته.

_تعني أن غازي يخفي شيئاً في هذا القبو؟! وما دام الكوبرا ذاك يعرف هذا فلماذا لم يسرق المفتاح يوم قتله؟!

_ربما خافوا وجود أديم وقد كشفوا حقيقته! انتظروا حتى يتخلصوا منه.

ترمقه ديمة بنظرة خائفة كعهدا فيما يبسط فهد كفه علي كتفه بدعم صامت.. ليهتف بقلق:

_وماذا يمكن أن يحتوي هذا القبو ليكون بهذه الخطورة؟! مخدرات مثلاً؟!

لكن حسام يهز رأسه وهو يرد :

_تبعاً لنشاط الكوبرا.. إما متفجرات.. أو أسلحة مثلاً..

تشهق ديمة بخوف احتل ملامحها خاصة وهو يردف
رافعاً المفتاح بنبرة متحدية:

أظنها فرصة مناسبة لزيارة قصيرة للصعيد.. هاقد
وجدنا خيطاً يمكننا من فتح قضية جديدة تقود لذاك
الوعد!

=====

في بيت غازي بالصعيد يقف حسام في حديقة المنزل
منتظراً أرملة المتسلطة وشقيقها..

عيناه تدوران في المكان باختناق وهو يشعر بدموع
"حبيبته" تلوث كل شبر فيه!

"حبيبته"!!

كل حرف من كلمة كهذه ينفجر داخله كألف شظية..
ويمطر فوقه ألف غيث..

يشعل حوله ألف جحيم..

وينبت تحته ألف جنة!

لكن لماذا العجب.. وهذا - بالضبط- ما بينهما!!

_تفضل يا حسام "باشا"! خيراً إن شاء الله!

يقولها شقيق المرأة بترحاب قلق فيما ترمقه المرأة
نفسها بنظرة حاقدة لم تخلُ من رهبة وقد عجزت عن
كتمان غلها :

_عساك لن تطردنا من بيتنا لأجل تلك المرأة!

_أريد النزول لقبو البيت.

يقولها حسام بنبرته الحاسمة التي امتزجت بهيبته
الفطرية ليتبادل الرجل مع المرأة نظرات حائرة لكن
حسام يردف باقتضاب:

_وحي!

_ ماذا؟! وماذا يدفعنا لفعلها؟! وما يدرينا في قبو

البيت ذاك؟! ألا يحتمل أنه ثروة أخفاها غازي

وتخصنا كلنا؟! أم..

_ اخرسي يا امرأة!

يقولها الرجل زاجراً وهو يرمقها بنظرة محذرة تبتلع

معها بقية كلماتها قبل أن يلتفت نحو حسام ليردف

بمداهنة :

_ اعذرننا يا "باشا"! لكن ما تطلبه غريب! القبو

مهجور منذ زمن وأخاف أن يكون مليئاً بالأفاعي!

دعني أنزل معك وحدي على الأقل!

لكن حسام ينتصب في وقفته قائلاً:

_ ولو أخبرتك أن الأمر يتعلق بضرورة أمنية!

_ وأي ضرورة أمنية في قبو مهجور؟!!



يسأل الرجل بغباء ليزفر حسام وهو يكاد يفقد صبره..
لاريب أن الكوبرا زرع أحد رجاله هنا وقد علم عن
قدومه.. ولا يمكنه التنبؤ بتصرفه.. كما لا يمكنه
التنبؤ بما في القبو..

ماذا لو كانت متفجرات؟!؟!

ماذا لو كان فتح الباب قد يؤدي لكارثة؟!؟!

_ أهلاً.. كنت أنتظرك! يمكنك أمرهم الآن بإخلاء

المكان تحسباً للقادم!

يقولها حسام مخاطباً صديقه الضابط المختص الذي

قدم لتوه والذي صافح حسام بقلق ثم أعطي أوامره

للمرأة وزوجها بإخلاء المكان قبل أن يتتحى بحسام

جانباً ليقول بتوتر :

_ معي قوة بالخارج وخبير مفرقات.. أنت تفهم أكثر
مني في هذه الأمور بفضل خبرتك.. لكن وجودك هنا
غير رسمي كما تعلم...ولو عرف أحد بوجودك
فستكون..

_ أفهم كل ما تريد قوله.. لكنني في هذه القضية
بالذات لن أثق في أصابع كفي.. دعني أدخل معك وإلا
انس أمر المفتاح.
يقولها حسام بصرامة غاضبة رغم يقينه من سلامة
منطق صاحبه..

منذ ترك جهاز الشرطة وهو لم يفتقد عمله كما هو
الآن!!

شعوره بالعجز يكبله وهو يلمح الرفض في عيني
صاحبه الذي هز كتفيه قائلاً بحرج :

لن أعرفك الأوامر في هذا الشأن! أنت..
لكن حسام لا يمهل الفرصة وهو يركض بكل قوته
بصورة مفاجئة نحو الداخل حيث القبو كما وصف
مكانه شقيق المرأة منذ لحظات..

يسمع نداءات الرجل المعترضة خلفه لكنه لا يبالي..
الطاقة الجبارة لمزيج العجز والغضب والخوف من
قرب فقد جنته معها ومع سند تشعل كل خلية في
جسده فيتخلى عن حرصه المعهود واهتمامه
بالمظاهر فلا يعنيه إلا أن يقهر أنين ذاك العاجز
داخلة!!

يمد أنامله بالمفتاح في الباب بحرص وسط أنفاسه
اللاهثة ليشعر بكف صاحبه على ظهره مع همسه
العائب :

_ لم أعهدك متهوراً هكذا! ابتعد ودع الخبير يؤدي عمله.. لا ندري ما خلف هذا الباب.

يكاد يستجيب لفورة جموحه من جديد لكن صاحبه يطوقه بذراعيه ببعض العنف ليعده مغمماً بغضب مكتوم :

_ حسام! كل هذا على مسئوليتي! اهدأ وتعقل ولا

تجبرني على فعل نكرهه معاً!!

ينفض عنه ذراعي صاحبه بمزيج من غضب وعجز ليقف مراقباً بعض عناصر الشرطة وقد دلفوا إلى الداخل..

الدقائق تمر به ثقيلة في انتظار النتيجة لتتسع عيناه

بصدمة وهو يميز ما خرجوا به...!!

=====

آثار!!

يهتف بها فهد بدهشة مخاطباً حسام وهو يستقبله
بلهفة أمام بيت الأخير الذي قدم لتوه من رحلته..
فيزفر حسام ليقول بانفعال غلب تعب ملامحه :
القصة هكذا تبدو منطقية.. غازي غدر بالكوبرا
واستولي علي صفقة الآثار المهربة.. الغبي ظن
نفسه نداً لنزال وحش كهذا..الكوبرا بعث من يقتله
وانتظر حتى تهدا الأجواء ويبعد (المدعو) أديم من
الصورة كي يحصل علي أشياءه.. لم يحسب حساب ما
حدث.

هل قتل المدعو أديم هذا؟!

يسأله فهد بتوتر ليهز حسام رأسه بجهل :

_ لا أعرف عنه شيئاً من حينها سوي أن اختفاه
لدواع أمنية مشددة.. لو كان معنا الآن لاستبشر بهذه
التطورات.

_ تظننا سنصل لشيء؟!!

_ قضية آثار بهذا الحجم لن يكون السكوت عنها سهلاً
خاصة ونحن نملك طرف خيط جديد..

_ من الذي سرق حقيبة ديمة.

يكملها فهد بتفهم ليرد حسام وهو يسير جواره نحو

الداخل :

_ بالضبط! لو استثنينا أهل العراق وخدم عاصي

الرفاعي.. فلا يبقى أمامنا سوى ثلاث. . زهرة تلك

المرمضة صديقة ماسة ورفيقتها حسناء ونزار ذاك

الوافد الغامض.. جاء للقصر برفقة يحيى الأمين

زاعماً انه صديقه منذ سنوات ولم يفترقا.. فلماذا
يفعلها فجأة هكذا ويبقى في مصر بعد رحيل
صاحبه!؟

_ اترك لي شأنه.. أعرف من يمكنه الوصول
لتفاصيله.

يقولها فهد ليردف بعينين مظلمتين:
_ تأركم مع الكوبرا شيء.. وتأره معي أنا شيء
آخر..

يرمقه حسام بنظرة متفهمة بينما الأول يستطرد
بحروف من نار :
_ كل تفاصيل تلك ال..

يقطع عبارته بخزي أحرق بقية حروفه وامتزج
بغضبه في مزيج قاتل وهو يشيح بوجهه..

لكن حسام يربت على كتفه داعماً بقوله :
_أعدك أن نصل إليه.. لن يهدأ لي بال حتى..
يقطع عبارته وهو يرى سند يندفع نحوه راكضاً مع
سلطانة وجرائها الصغيرة فيزدرد حسام ريقه
بصعوبة وهو يستعيد ما كان يفكر فيه طوال
الطريق..

هل اقتربت نهاية الحلم؟!
البوابة السحرية للفردوس المفقود أوشكت أن تغلق
في وجه شيطان مثله!

وهو ليس غيباً للتظاهر بأنه يمكنه منعها!!
يعانق سند بقوة فتلتمع عينا الصغير بكل اشتياق كأنه
يعاتبه على رحيله فيتنهد بحرقة ثم يجلس به أرضاً
مخاطباً إياه بقوله :

_ربما لن أستطيع البقاء معك كثيراً.. يوماً ما قريباً قد

ترحل من هنا..

يبدو الحزن على وجه سند الذي يطرق برأسه لكن

حسام يرفع ذقنه نحوه ليهتف بحزمه الحاني:

_أنا لست "بطتك الصفراء" التي تظنها أنت تمنحك

الأمان.. يجب أن تفهم أن الناس قد يرحلون رغماً

عنهم لكنهم يتركون أثرهم الجيد لك.. تماماً كماك

وخالتك و.. أنا..

تدمع عينا سند فيرمق فهد حسام بنظرة عاتبة لكن

الأخير يهز الطفل بين ذراعيه قائلاً بنبرة أقوى.. وإن

كانت أكثر عاطفية :

_يقولون إنك لا تفهم ما حولك لكنني أثق أنك تفعل..

يقولون أنك ضعيف يخافون عليك لكنني أثق أنك

أقوى من كل هذا لهذا لا أشاركهم ذاك الخوف.. قد
أضطر لأن أرحل عنك لكنني سأترك لك ما يذكرك
بي.. اختر واحداً من هؤلاء وسيكون لك.

يشير نحو جراء سلطنة فتلتمع عينا سند ببريق
دموع غائم يجعل حسام يقبل جبينه بشفاه مرتجفة
ليردف :

_ سنكون صديقين رغم كل شيء..حتى تقرر أنت
العكس.

عبارته الأخيرة المبهمة لم تبد مفهومة لسند بطبيعة
الحال فكانت وكأنه يحدث بها نفسه!

لن يبقى الصغير صغيراً!

يوماً ما قد يعرف الحقيقة.. تراه وقتها سيعفو!؟

_ لا داعي لاستباق الأمور.. انظر يا سند.. هذه الكرة تبدو غريبة.. ابنتي تحب ملاعبة سلطانة بها.. ترى صورتها هنا؟!!

يجتذب بها فهد مجرى الحديث وهو يحاول تلطيف الموقف فيجلس بدوره قبالة الصغير ليريه هاتفه.. يرمقه سند بنظرة لم تفقد رهبتها من الغرباء وإن خفت حديثها كثيراً عن ذي قبل.. فيستغل فهد الفرصة وهو يستمر في اجتذاب الصغير ببعض الفيديوهات لملك الصغيرة مع سلطانة ثم بالمزيد من الأغاني التي اندمج معها الصغير لتعود له ابتسامته..

_ أين ديمة؟!!

يسأل حسام بقلق وقد انتبه لغيابها ليميل فهد على أذنه هامساً :

_ مع جنة بالداخل.. حالتها غريبة منذ رحلت.. دعني

أنا مع سند واذهب إليها.

_ ماذا بها؟!!

يهتف بها حسام بجزع وهو يستقيم واقفاً لكنه لا

ينتظر جواباً وهو يركض نحو الداخل لتستقبله جنة

قائلة :

_ متكورة على نفسها في زاوية الغرفة جوار النول

منذ غادرت وترفض الكلام معي ومع أي أحد.. حاولت

الاتصال بدكتور كنان لكن..

لم ينتظر أن تكمل عبارتها وهو يتركها خلفه ليهرع

إلى غرفة مكتبه فتتقافز خفقاته بجنون وهو يراها

جالسة على الأرض رافعة ركبتيها تحتضنهما

بذراعين متخشبين أخفيا وجهها بينهما لكنهما لم
يخفيا رجفة جسدها الواضحة..

ديمة!

لا يدري كيف غادر صوته شفثيه لكنه يعرف كيف
غادر قلبه كأنه سكب في همسته روحه..
كل ما فيه كان يركض نحوها لكنه - للعجب- نجح في
أن يبقي جسده واقفاً مكانه..

لو كان نجح في بداية مسعاه مع سند منذ قليل ..
فسينجح معها هي الأخرى..
فلتعد فراقه.. كما سيعتاده!

عدت!؟

تصرخ بها بلهفة وهي ترفع وجهها نحوه..



حلقة الزعفران في عينيها تستحيل لشمس كبيرة

تسرق عينيه دون أمل في رجوع..

خاصة وهي تمد له ذراعيها بهذه الحركة العفوية

التي استقبلته بها كذاك اليوم في المشفى..

_ أنت بخير؟! أنت بخير!؟!

تردها مراراً سريعة متتابعة كالهذيان فتصيبه لهفتها

كألف سهم من نار يكوي صدره..

تنهض من جلستها لتترنح مكانها لكنه يجبر نفسه أن

يعطيها ظهره وهو يشدد قبضتيه جواره كأنه يمنع

نفسه النظر إليها..

_ لا داعي للقلق.. اكتشفنا ما بداخل القبو..

_ أنت بخير!؟!

همسها الملهوف خلفه يقاطع كلماته لكن صوته
القوي لا يخذله وهو يتجاهله ليردف دون أن ينظر
إليها :

_ القضية ستفتح من جديد.. هذه المرة لدينا..

_ أنت بخير!؟

من جديد يتجاهل همسها الذي يقاطعه بلهفة كأنها لا
تسمع.. لا تعي.. لا تفهم..

_ لدينا خيط جديد سيقودنا لذاك الوغد.. أظنك الآن
صرت في أمان فلم يعد لديك ما يثير حفيظته.. لو كان
لديه حرب الآن فهي معي أنا.

يقطع عبارته وهو يشعر بلمستها على كتفه فيكز على
أسنانه بقوة وهو يتشبث بكل حبال مقاومته لكنه
يشعر بذراعيها من الخلف يطوقان خاصرته بقوة

ورأسها مزروع على ظهره.. لا يراها إنما يشعر أن
صورتها هذه احتلت عينيه للأبد!
يشعر بانتفاضة بكائها وذراعاها يشندان حوله كطوق
من نار..

لم تقل شيئاً لكنه سمع في صمتها كل الكلام!!
يعلم أنها لا تعي ما تفعله.. لو وعت لابتعدت..

لكنه هو يعي.. وسيبتعد!

ذراعاها يزيحان ذراعيها عنه بقوة سيحسد نفسه
عليها فيما بعد خاصة وهو يلتفت نحوها أخيراً..
أنامله تهم بمسح دموعها لكنه يتراجع ليقول بصوت

متحرج:

_ اطمئني.. لم يعد هناك داع للخوف..

يرى عينيها معلقتين بـ "تفاحة آدم" خاصة فيزدرد
ريقه بصعوبة مدركاً ما تفكر فيه لكنه يستمر في
حربه مع نفسه وهو يبتعد بعينه عنها ليتشاغل
بالنول هناك فيردف ببروده المشتعل:
_جيد! أرى أنك أنجزت شيئاً معقولاً..
ثم ينظر في ساعته مردفاً:

_موعد جلستك مع دكتور كنان.. سأتركك وحدك
كالعادة.

يقولها ثم يتحرك ليفتح حاسوبه المحمول على
المكتب متصلاً بكنان ولم يكديراها تتحرك مقتربة
باستسلام حتى خرج من الغرفة هارباً منها.. ومن

نفسه قبلها!

=====

أصفر



تتهي روى التصميم الدعائي على حاسوبها المحمول
ثم تتهد بمزيج من فخر وتعب وهي تتفحصه من
جديد..

تنتظر حتى يعود راغب كي تشاركه رأيه..
تبتسم وهي تنهض من مكانها لتتوجه نحو الدرج
القريب فتستخرج منه دفتر مذكراتها القديم..
**_ (أحبك) .. كتبتها لك في كل صفحة منه فلا تكتبي
شيئاً فيه إلا وترينها قبله!**

تذكرها كما سمعتها بصوته ذاك اليوم منذ سنوات
فتبتسم لحلاوة الذكرى ثم تتناول قلماً لتكتب في
الصفحة التالية..



_ربما لن أستطيع أن أترك هذا لابنتا كي تراه.. لكنني سأحدثها كل يوم عنك.. عن هذا الرجل الأسطورة الذي عرف كيف يجمع كل فخامة الدنيا في بساطته.. وكل أمانها في عينيه.. وكل رصيدها في حنانه.. وكل نجومها في عشق بسعة السماء والأرض. تسمع صوت مفتاحه في الباب فتتسع ابتسامتها وهي تراه يتقدم نحوها بلامحه التي مهما بلغ إنهاكها لا تملك سوى أن تجد راحتها في عينها..

_ماذا تفعلين!؟!

يسألها ببعض الدهشة فترفع له الدفتر القديم..
يقرأ ما كتبه لتلتمع عيناه بوهج عاطفته لكنه يمت
شفتيه ليرد بنبرته الخشنة :

_وما الذي ذكركِ بالذي مضى؟! هل قصرت في
الحاضر كي تلجئي للماضي؟! على حد علمي أنا شديد
الالتزام لأبعد حد وأستحق جائزة الزوج المثالي..
ثم يميل عليها ليردف وسط ضحكاتها :
_أم تراني أحتاج أن أزود مجهودي قليلاً؟!
يقولها مع قرصة لخصرها تجعلها تنتفض لتتهف
وسط ضحكاتها بينما تبتعد :
_ لا فائدة! دماغك دوماً يحيد نحو الشمال! لن..
تقطع عبارتها وصوت هتاف هيام العالي من شقتها
يصلها مكانها بوضوح فتعقد حاجبها بضيق وهي
تستمع للصراخ الذي صار لا ينقطع علي مدار
اليوم..

_ يا لله! البيت لم يعد يحتمل! فضيحتنا وسط الجيران

صارت حديث الكل!

يقولها راغب بضيق وهو يتخذ مجلسه بارهاق

ولا يزال صوت صراخ هيام الغاضب بأحد أطفالها

يصلهما مكانهما..

لتردد رؤى ببعض الإشفاق:

_ عصبيتها ازدادت سوءاً بعد حلقة عزة الأخيرة في

التلفاز.. الموقف يبدو وكأن عزة تقريباً تبرأت

منها.. لا ألوم عزة بعد ما حدث لكن.. هيام أيضاً..

تقطع عبارتها بزفرة قصيرة لتتوجه نحوه قائلة

بتردد :

_ اسمح لي أن أقول شيئاً.. فهمي أخوك يحتمل بعضاً

من ذنبها؟!!

_ ماذا؟! أخي؟! أخي هذا له الجنة بصبره عليها!!
يهتف بها راغب باستتكار لترد رؤي بسرعة:
_ وهذه قد تكون المشكلة! فهمي ليس مثلك.. هي لا
تحسب له حساباً.. دوماً تشعر بضعفه أمامها.. ربما
لو وقف لها وقفة شدة ساعتها قد تعود لرشدها.. لا
أقصد أن يقسو عليها لكن.. المرأة تحتاج لشدة الرجل
كما تحتاج لحنانه.. القوة التي تقوم لا تكسر..
احساسها أنه دوماً يلقي لها حمول كل شيء يجعلها
تشعر بالخوف من ذاك اليوم الذي لا تعود فيه قادرة
على الحمل ولا تثق فيه هو أن يفعل!
فيزفر بقوة وهو يمسح وجهه بكفيه قائلاً:
_ معك حق! لكن هذا هو فهمي طوال عمره.. رغم
كوني الأصغر لكنني كنت دوماً من يتحمل المسؤولية..

وزواجه من هيام زاد الطين بلة.. حبه لها مع ضعف
شخصيته رسم لهما دوماً هذا الإطار.. لكن هذه المرة
تختلف.. هو لم يعد يحتمل.. واليوم جاء إلى الورشة
ليصارحني أنه..

يقطع عبارته فجأة لتسأله بقلق :

__ أنه... ماذا؟!!

__ يفكر في تطبيقها!

__ ماذا؟! لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! لهذه

الدرجة!! وماذا قلت أنت؟!!

يطلق راغب زفرة أخرى ليرد :

__ نصحته ألا يفعلها بالطبع! أعرف أنها سليطة اللسان

وقد تكون مؤذية أحياناً.. لكنها ليس لها سوانا.. حد

الله بيننا وبين ظلم "بنات الناس" .. هي أولاً وأخيراً
أم أولادنا!

تبتسم بالمزيد من الإجلال لهذه الحمية الرجولية في
طبعه لتقول بتردد :

_ لو تأذن لي.. أفكر في أن أصلح بينها وبين عزة..
هيام تزداد سوءاً بسبب هذا.

_ عزة صارت ترفض أي اتصال من ناحيتنا.. ولا
ألومها كثيراً.. دعيها في حالها تهناً بزواجها.. أنا
تقصيت عن زوجها كي أطمئن والجميع يشهدون له
بحسن السيرة.. كما أن أهله ميسوروا الحال.. يقولون
إنه يعيش مع عزة في بيت أخيه الذي يشبه
القصور.. ربنا سبحانه وتعالى عوضها.. هي تستحق
كل خير.

يقولها منهيًا الحوار في هذا الشأن فتطرق برأسها
بعدم اقتناع..

لكنه يدير شاشة الحاسوب نحوه ليرى تصميمها
الأخير فيبالغ في مدحه قائلاً:

_ (عاش يا وحش!!)!

تبتسم فيهمّ بالمزيد لكن ظهور إشعار على الحاسوب
يقاطعه ليلتفت نحوها قائلاً ببساطة :

_رسالة من واحدة اسمها جنة.. هذه صديقتك

القديمة.. صحيح!!

تكتم شعورها ببعض العسر ولايزال ذكر جنة أمامه
يصيب منها رغم مرور كل هذه السنوات.. فتتحرك

نحو الحاسوب لتغلق شاشته قائلة:

_ لن أرد عليها الآن.. سأحضر لك الطعام لأريب أنك

جائع.

فيتشاءب بارهاق وهو يقف مكانه قائلاً:

_ جداً.. سأغتسل ريثما تحضرين الطعام.

تمنحه ابتسامة واسعة وهي تتوجه نحو المطبخ

القريب لتختفي ابتسامتها ببعض القلق وهي تفكر..

علاقتها بجنة شبه متجمدة منذ عهد بعيد تكاد تقتصر

على تهنئات المناسبات وكلاهما تظمن على صاحبتهما

من وقت لآخر فلم يعد الماضي يسمح بالمزيد بطبيعة

الحال..

فما الذي تريده جنة منها الآن؟!!

وهل يقضي القدر الذي ستر خطيئتها يوماً أن تفتح

أبواب الماضي من جديد؟!!

=====

بنفسجي

=====

(صباح الورد)

تفتح ديمة عينيها وهي تسمعها بصوت أمها كما
كانت في نومها فتبتسم بهناءة والذكرى الطازجة
تطفو لذهنها..

مربي الورد بطريقة أمك.. لا أحد ينافسني فيها..
تعالى أعلمك.

تتسع ابتسامتها وهي تتذكر المزيد فتلتع عيناها
وهي تتذكر شجرة الورد هنا في الحديقة.. هل تفي
بالغرض!؟

تنتبه لوجوده جوارها حين تشعر بكفها الذي يضمه
على صدره فترمقه ببعض الدهشة..
كأنها الآن تراه بنظرة أخرى..

هل هو تأثير الدواء الذي يجعل ذهنها أكثر صفاء!؟!!
خفقاتها تتسارع بارتباك وهي تتفحص ملامحه في
نومه شاعرة بالخجل..

كيف لم تنتبه أنها كانت تشاركه الفراش طيلة هذه
الأيام!؟

كيف تبدو لها كحلم بعيد لا تفهمه!؟
كيف لا تخاف أن يؤذيها كغازي!؟

تكتم شهقة رعبها مع خاطر الأخير وهي تتلفت
حولها لكنها تستعيد نصائح كنان..

أفكارك ملكك.. لاعبي عقلك كما يلاعبك.. هو يلاعبك

بأشباحه فاهزميهم بحلاوة ذكرياتك.. اكسري كل
المرايا في رأسك وستجدينها انكسرت خارجه.

تأخذ نفساً عميقاً وهي تستعيد بالله سرّاً.. تستعيد

بعض الآيات القرآنية التي تحفظها.. تعود لذكرى

(صباح الورد) الحلوة فتتشبث بابتسامه تبدأ واهنة

قبل أن تتسع..

تعود الالتفات نحوه لتلمح حاجبيه المنعقدين في

نومه فتمد سبابتها ببطء لتفك انعقادهما..

تفرح لانتصارها الصغير فتتسع ابتسامتها أكثر

كطفلة..

هو نام هذه الليلة أيضاً!

صار ينام ليلاً..

تستيقظ لتجده يحتضن كفها على صدره..

تراه هذا هو السبب!؟

ملامحه تختلط في عينيها بألف صورة.. ألف وجه..

صورته المبهمة كحبيب هالة الخيالي الذي عرفته قبل

أن تراه..

صورته المجرمة التي تبنتها هي بعدها..

صورته القديرة كمحام جيد عمله..

صورته المحرومة لرجل عاجز ذاق مرارة النقص

والمعايرة..

صورته البائسة المنهكة في سهره الطويل..

صورته الحنون الحازمة مع سند..

وأخيراً.. صورته معها هي..

بماذا تصفها ؟!

حب؟!

هل ستعودين تؤمنين بالحب يا غافلة؟!

وهل أوردك المهالك مثله؟!

تغمض عينيها على خاطرها الأخير لكن يعز عليها أن

تختفي ابتسامتها فتعود لترسمها على شفيتها وهي

تفتحهما من جديد لترمقه بنظرة حائرة..

كيف يجمع رجل واحد كل هذه الصور؟!

لن تفكر..

لا تريد أن تفكر..

فلتكسر كل المرايا داخل رأسها فحسب!

تنفض عنها خواطرها وهي تسحب كفها بحذر منه
لتشعر بالارتياح وهي تراه لا يزال غارقاً في نومه..
تسير على أطراف أصابعها نحو فراش سند المجاور
فتقبل جبينه في نومه ثم تغادر الغرفة ركضاً نحو
الحديقة..

حيوية غريبة لم يعرفها جسدها من زمن..
هل هو الدواء؟!؟

عودتها لصلاتها وشعورها بالقرب من الله؟!؟
شعورها بالأمان - المؤقت- بعد طول قلق الأيام
السابقة؟!؟

وربما.. كل هذا!!

رئته يسلمني الزعلان.. اللي عامل حاله مش
سألان!

تضبط نفسها متلبسة بدندنتها وهي تقطف الورد
فتبتسم ببعض الخجل الذي لا تريد تفسيره وهي تتذكر
يوم شغلها لها في السيارة..

تنتهي من قطف كمية مناسبة تعود بها للداخل..
تستقبلها الخادمة بحذر وهي تعرض مساعدتها لكنها
تتجنبها بعناد طفولي وهي تخرجها من المطبخ لتبدأ
في إعداد المربي كما علمتها أمها بطريقتها
المميزة..

تنتهي من تحضيرها فتضع الإناء في طبق معدني
كبير يحتوي الكثير من الثلج تلفه داخله بسرعة عدة
مرات..

ماذا تفعلين!؟

ترتّبك قليلاً مع صوته الناعس الذي لم يستعد طبيعته
بعد وقد بدا القلق على ملامحه.. القلق الذي تفهمته
وهي تتشبث بنفس الابتسامة لترد :

_صنعت مربى الورد بطريقة أُمي السورية.. نلفها
هكذا بسرعة كي تبرد ولا يتغير لونها.

ابتسامتها بدت له غريبة نقية بسيطة.. وكالعادة

أسرة!

هذه التي وخزت قلبه بشدة وهو يتمنى في هذه
اللحظة لو يدلل ابتسامة كهذه بما يليق لكنه يكبح
جماح نفسه معها مؤخراً فينعقد حاجباه دون وعي
لتسيئ هي تأويل حركته فتغمغم بارتباك خائف:

_أسفة! تسرعت بقطف الورد.. سادفَع ثمنه!

لم تعد تزعجه عبارتها الأخيرة وقد بدت له وكأنها
تكررها عفويًا لكنه لا يزال ينزعج برودة فعلها
المتطرفة في الخوف ليرد بنبرة خشنة تهرب من
فيض عاطفته:

_لم أكن أعرف أنهم يصنعون المربي من الورد
أيضاً.

فتجيب بعفويتها المنطلقة التي تشعره أنها عادت
لعالمها القديم خاصة وقد عادت لها ابتسامتها :
_نحن مشهورون بها.. أمي كانت شديدة المهارة في
صنعها.. رائحتها تعيدني لشارع بيتنا القديم.. للسلم
القصير بدرجاته القليلة.. المطبخ الضيق الذي كنت
أراه وقتها بسعة العالم.. والساحرة الطيبة أمي التي

كانت تحيل الدنيا بعصاها السحرية لجنة حولي..

ياالله! ما كان أحلى ذاك العمر!

ابتسامتها تنتقل إليه رغماً عنه وهو يراها تتحول

لضحكة قصيرة بينما تردف عبر شرودها :

_ كان يوم صنع المربي ذاك يوم الشجار العالمي لي

مع أمي.. كنت أخفي منها البرطمانات الزجاجية

لأحتفظ بها كبيوت لعرائسي الصغيرة فيما كانت هي

تهتف زاجرة أنها تحتاجها لحفظ المربي لكن أبي كان

يفض النزاع بيننا وهو يعدها بالمزيد من البرطمانات

في المساء عند عودته..

تنقطع عبارتها فجأة لتتحول ابتسامتها لدمعة كبيرة ثم

تردف بخفوت:

_وذات ليلة لم يعد أبي.. عرفت وقتها ألا مزيد من
الشجار مع أمي على البرطمانات فقد أدرك القلب لأول
مرة معنى الفقد الحقيقي.

يقرب منها دون وعي وقد خشي عليها نداها
ذكرياتها القاسية لكنها عادت تتشبث بابتسامتها وهي
تتناول ملعقة من المربي لتذوقها بتلذذ لكنها تطلق
آهة خافتة وهي تتبين أنها لا تزال ساخنة..
تسقط بعضها على ذقتها وثيابها فترتبك أكثر لتتعثر
خطوتها بإحدى سيارات سند البلاستيكية التي يبدو
أنه نسيها على الأرض.. تنزلق قدمها رغماً عنها
فيتشبث حسام بها لتسقط بكامل ثقلها فوقه.. ويسقط
كلاهما على الكرسي المجاور لتجد نفسها فوق
ساقيه..

تتلاحق أنفاسها بارتباك يمتزج بشعور غريب وهي
تميز لون عينيه اللتين غزاها ضوء الشمس من
النافذة في هذه اللحظة فتكاد ترى فيهما مرآة..

إنما مرآة لا تبصر فيها سوى صورتها هي!
وجهاها يقترب أكثر كأنها فقط تطارد هذه الصورة..
الخوف.. الخجل.. الارتباك.. كلها تتضاءل أمام هذا

الشعور القاهر الذي يعصف بجوارحها الآن..
رائحته تمتزج برائحة الورد.. السكر.. الليمون..

والماضي الحلو!

لا قارب.. لا بحر.. لا دم..

فقط "أنا معك" الرائعة تلفها بثوب من أمان فتردد

اسمه هو بما بدا لها كتعويذة تقيها شر العودة!

وأمامها كان هو يشعر أن ذراعيه لا يتشبثان بمجرد

جسد بل بما بقي له من الدنيا!

كل الأسوار التي ظن أنه بناها وسيبنيها بينهما الآن

لا يبقى منها سوي واحد يفتح بابه لها..

نفس الباب الذي تفتحه الآن حلقة الزعفران في

عينيها وهي تتوهج بذاك البريق الذي بدا هذه المرة

مختلفاً وهو يميز همس شفاهاها باسمه..شديد

الخفوت إنما صاحب الدوي في روح هائمة بها

كروحه!

لكن هذا لا يساوي شيئاً أمام هذا الإعصار الذي

ضرب جوارحه كلها وهو يشعر بأناملها تتلمس عقدة

حنجرته.. ببطء.. ببطء مهلك يشبهها.. ولا تزال

تهمس باسمه دون صوت تقريباً..

الآن يوقن أنها في وعيها.. تقترب بإرادتها..
عيناه تطاردان بقايا مربى الورد العالقة بذقتها فتلحق
بها شفتاه.. وقلبه!

تبا! سأموت لو لم أفعها الآن! لن تبكي.. لن تبكي.
نفيه يمتزج بالطلب في مزيج غريب لا يليق بسواهما
فلا يدري هل يقولها كرجاء أم كأمر أم كنبوءة!!
لا يهم بأي لسان نطقها فالسباق الحار يبدأ!
السباق الذي كان يعدو فيه كلاهما بكل طاقته هارباً
من أمس.. ومحاولاً اللحاق بسراب الغد..
فبين ذراعيه كانت هي تجرب لأول مرة نشوة
قبلات..

الخوف البدائي الذي لم تملكه لأول وهلة..

الدهشة من هذا "الطغيان الحاني" الذي امتد حتى

هاهنا..

الاستكشاف لهذا الشغف الدافئ الذي بدا وكأنه منقار

عصفور يخز كل خلية داخلها برقة مشاكسة..

وأخيراً.. السكرّة التي غيبتها فاستسلمت لها حد

الثمالة!



فاسقة! غانية لا تجيد سوى بيع جسدها!
يصفعها بها شبح غازي الأسود في انعكاس صورتها
على زجاج الموقد بينما تقف في المطبخ وحدها
فتطلق صرخة خافتة وهي تتلقى صفعاته واحدة تلو
الأخري..

حشرة ضعيفة تدوسها الأقدام.. عاهرة لا يعني
الناس فيها سوى جسدها.. خائنة نسيت ثأر صاحبك
وعشقت حبيبها.. وحدي من كنت تستحقينه فلا
ترتدي ثوب الضحية..
صرخاتها الخافتة تتكتم في حلقها وتتفجر داخلها
كالشظايا..

تستغيث بالشبح الأبيض لكنها لا تراه..
هجرها ورحل مع من رحلوا..

تغطي وجهها بكفيها وهي تستعيد ما حدث منذ قليل..
كيف انقلبت وردية الصورة لحمرة الدم.. وزرقة
الخوف..

كانت ذائبة بين ذراعيه وهي تجرب معه لأول مرة
تلك النشوة..

لكنه ما إن تجرأ ليرفع عنها طرف ثوبها فتمس أنامله
بشرتها العارية حتى شعرت بالانفجار!!
كل ندبة قديمة في جسدها بدت وكأنها بعثت من جديد
لتصرخ كل خلاياها بالألم!!
جنة ذراعيه فجأة استحالت لجحيم مستعر ووجهه
يتبدل في عينيها..

تارة بلون الدم على ثوب زفافها الأبيض..

وتارة بلون الموج الأزرق الذي ابتلع قاربها ليقذفها
بعيداً عن الوطن..

حتى "تفاحة آدم" رمز أمانها استحالت وقتها لجمرة
نار تلسع راحتها فلم تشعر بنفسها إلا وأظافرها
تتغرس في رقبتة لثوانٍ قبل أن تدفعه بقوة لتتزوي
في زاوية المطبخ هاهنا..

رأته يرمقها بنظرة غاضبة أرجفتها بالمزيد من
الخوف وهي تضم ثوبها إليها تنتظر أن يفعل بها
كغازي لكنه يغادر المطبخ بل والبيت كله بعدها ليذرها
وحدها..

ترفع وجهها من جديد نحو الزجاج العاكس للموقد..
تحاول المقاومة لكنها لا تستطيع..

جسدها يخزها بألم وهي تستعيد شعورها بلمسته

فوق بشرتها العارية..

تحاول تذكر نصائح كنان لكنها تعجز هاهنا..

تحاول الاستعانة بما تحفظه من آيات القرآن لكن

الحروف تعاندها..

تتلعثم.. تتساهها.. ذهنها كله مشتت..

الدواء!

الدواء هو الحل!!

تتحرك لتنتزع علبة الدواء من مكانها فتفتحها لتهم

بتناول القرص لكن وجهها يصطدم من جديد بانعكاس

صورتها..

هذه المرة شبحتها الأرجواني يتدخل ليأتيها بالمدد :

_ لا تأخذه! ما يدريك ما الذي يحتويه هذا الدواء؟! لا
تزالين تثقين بهذا الرجل؟! هاقد ظهرت نواياه! هو
كغيره.. لا يريد منك سوى جسدك.. صبر طويلاً وجاء
الوقت لينال غنيمته منك.. لكنك لم تعودي ضعيفة
كالسابق.. أريهم أي قوة تملكينها..

شفتاها ترتجفان بقوة وهي تشعر بجسدها بارداً
كالثج للحظات قبل أن يشتعل فجأة كأنما أضرمت فيه
النيران..

_ هم لا يعترفون إلا بشريعة الغاب.. مبدأ القوة.. يجب
أن تؤذيهم أنتِ قبل أن يؤذوك.. اقذفي جمراتك في
عيونهم قبل أن تحترقي أنتِ بها.. القسوة هي
سلاحك.. اجرحي يا ديمة.. اجرحي.. دمري.. اكسري
ولا تبالي.. هكذا تضمنين ألا يبادروك هم بالإيذاء..

جسدها يشتعل أكثر وأناملها تكاد تعتصر علبة الدواء
في كفها..

أناملها الحرة تمتد لسكين المطبخ الكبير فتعدو به
للخارج..

لا أحد..

الخادمة مع سند في الغرفة المغلقة..

تتحرك مندفعة نحو الستائر فتمزقها جميعها بالسكين
الكبير..

مزقي.. اكسري.. اجرحي..

غرفة مكتبه تفتحها لتمزق جلد الأريكة.. كرسي

المكتب.. الستائر..

كل ما تطاله يداها..

المزيد.. المزيد..

مزقي.. اكسري.. اجرحي..

تغادر غرفة المكتب نحو الحديقة فلا تجد ما تفعله..
أناملها تلوح بالسكين يمناً ويسرة كأنها تمزق ما لا
تعرفه..

وأخيراً..

تقع عيناها على سلطنة وجرائها!!
_ اجرحيه في كل ما يحبه كي لا يجرؤ على إيدائك من
جديد .. هو ذا الهدف!!

تركض نحوها بسرعة تتلاحق معها أنفاسها..
تتبع الكلبة بود وهي تلتق طرف قدمها فيزداد اشتعال
جسدها بالوخز القديم..

أناملها لا تزال تعتصر علبة الدواء في كفها..
والأخرى ترتفع بالسكين..

لا..

لا مزيد من حمرة الدم!

السكين يسقط من يدها فيها إليها أنها تسمع صوت

ضحكة غازي الساخرة من ضعفها..

صفعته تهوي على وجهها من جديد..

مزقي..

كسري..

اجرحي..

اقتلي..

اقتلي..

اقتلي..

بوابات الجحيم كلها تنفتح على مصراعيها أمام

عينيها بما لا قبل لها به..

فلا تشعر بنفسها إلا وهي تسكب الأقراص كلها في
إناء شرب سلطنة لتهوي بعدها جالسة أمامها
تراقبها بشرود زائغ وهي تراها تشرب السم..
نباحها يتعالى في أذنيها بما يشبه الأنين.. لكن
الأصوات الأخرى تقهره..

صوت غازي يختفي مع شبحة الأسود فتشعر ببعض
الانتصار..

صوت تصفيق الشبح الأرجواني يزيد من نشوة
انتصارها..

لكنه كذلك يختفي وهي ترى سلطنة أخيراً تسقط على
جنبها فتشقق برعب وهي تنتبه أخيراً لما فعلته..
هي قتلتها.. وانتهى الأمر!

=====

أحمر



_را... را..

اسمها كما ينطقه الصغير سامي يمتزج بضحكات
الأخير وهي تدغدغ باطن قدميه بأنفها وقد جلست
قبالته على الأرض فيراقبهما إبراهيم من بعيد
بابتسامة عاشقة تزداد هياماً بها يوماً بعد يوم..
يبسط ربيع كفه على كتفه وقد وقف جواره على
سطح بيت هبة ليقول العجوز بنبرة راضية :
_زوجتك هذه نعمة! في البداية صنيعها معي.. ثم مع
سندس.. وأخيراً سامي.. من يقول إن حنانها هذا
لطفل ليس من صلبها؟!
_بركة دعائك يا "مستر ربيع"!

يقولها إبراهيم بمزيج من عاطفة وفخر وهو ينكب

على كف أبيه يقبله ليرد الرجل بسماحة:

_ بل هو قلبك الطيب المتوكل كقلوب الطير.. استحق

قلباً مثله يؤنسه ويكمل معه الطريق.

فيتهد إبراهيم ليقول ببعض الضيق:

_ فقط لو تصارحني بما يؤرقها! كل ليلة تصحو من

النوم مذعورة.. كل صلاة أراها تختتمها بالبكاء.. كل

مرة تودعني فيها عند خروجي من البيت تشعرني

أنها تودعني للأبد!

_ محسودة!

تقولها هبة من خلفهم بصوت خافت وهي تشاركهم

مراقبتها من بعيد ليلتفتا نحوها فتقول بما يشبه

الاعتذار:

_ لم أقصد التصنت لكنني سمعتكما..

تقولها وهي ترفع كفها لتردف بتعاطف:

_ سمرا محسودة..! أنا أيضاً لاحظت ما يقوله

إبراهيم.. أظنها تحتاج للرقية.. هي فائقة الجمال

والناس لا تترك أحداً وشأنه!

فبيتسم ربيع وهو يقول بشرود :

_ أظنها فقط خائفة مما لا يمكنها الإفصاح عنه!

_ ماذا تقصد يا أبي؟!!

يسأله إبراهيم بتوجس لكن وصول الحرافيش يقاطع

حديثه وأكبرهم قيس يرفع ما بيده قائلاً:

_ أحضرت الذرة طازجة.. عنتر سيشعل النار كي

نشويها..

_ ذرة من جديد؟! لا!! تشاءمت من المرة السابقة!!!

تقولها هبة ببعض الضيق وهي ترفع كفيها فيهتف

روميو بمرح مشاكس:

_ لا طير ولا طيرة يا شيخة هبة!

ترمقه بنظرة ساخطة فيتضحك مع إخوته وهم

يتقدمون نحو يسرا التي نبها إبراهيم لتقف مكانها

وهي تحمل سامي هاتفة بمرح :

_ متى جئتم؟!!

_ منذ زمن.. يبدو أنني سأبدأ في الغيرة من ذاك

الصغير!!

يهمس بها إبراهيم في أذنها لترمقه بنظرة معتذرة

لكنه يردف ببعض العتاب:

_ كنتِ تميزين حضوري من رائحتي التي تزعمين

إدمانها والآن.. فسد أنفك!

تطلق ضحكة صافية وهمسه الخافت لا يسمعه سواها

فتميل على أذنه بدورها هامسة:

_تستحق اعتذاراً مناسباً لكن ليس الآن!

تغمزه بها بدلال يجيد قرع أبواب رجولته فيضمها

إليه بذراعه ليهتف قيس مشاكساً:

_نحن هنا!

_ومن أحضرك إلى هنا؟! ارحل لو لا يعجبك الحال!

يقولها إبراهيم مشاكساً بدوره وهو يرفع قبضته في

وجه ابن عمه الذي يضحك وهو يبتعد لتبدأ حفلة

الشواء.

_كيف حال سندس؟!!

تسأل يسرا وهي تتنحي بإبراهيم جانباً بعدما تركت
سامي مع هبة التي دخلت به للشقة كي تغسل له
وجهه فيرد مطمئناً :

_بخير.. تتحسن.

لم تكن تحتاج جوابه المقتضب فهي تطمئن عليها
بنفسها من صاحب المصحة يومياً.. لكنها كانت تعيد
طرق نفس الباب :

_ستسامحها بعد عودتها؟!!

_الله من يسامح.

يقولها باقتضاب فتعاود الطرق:

_ألا شيء سيشفع لها؟!!

_نقطة خمر واحدة كافية لتدنيس نهر من لبن! هكذا

هو الكذب عندما يطعن ظهر الثقة!

قاسِ أنت!

بل واقعي! المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين!
يقولها بحسم يخرسها للحظات ويكدس هذه الدموع
في عينيها فيستغفر الله بصوت مسموع ثم يضمها
إليه بذراعه هامساً بحنان :

لا تخافي.. لن أمنعك عنها ولا عن سامي.
تخفي وجهها في كتفه تتهل من رائحته بعض المدد..
تتحسس بطنها بدعاء خافت وهي تتمنى لو تتحقق
أمنيتهما بأسرع ما يكون.. حتي لو لم يشفع لها هذا
وقتها فيكفيها أنها قد نالت منه هدية العمر التي
ستعيش عمرها لأجلها..

لا أغاني! لا موسيقا! شغلوا قناة إخبارية!

يا لطيف! هل ينقصنا النكد!؟!

تفتح عينيها على صوت مشاكسة الحرافيش لهبة
وهم يصرون أن يشغلوا التلفاز على قناة منوعات
فيما تصر هي أن تكون قناة إخبارية فيفض ربيع
النزاع وهو يتخير قناة مناسبة تذيع برنامجاً حوارياً
شهيراً لمذيع خفيف الظل تتقبله هبة على مضض..
يتحرك إبراهيم ليتناول "كوز ذرة" ساخناً يعود بها
إليها فتهم بأخذه منه لكنه يقول بحنانه العفوي:
_ قد يؤذي يدك.. لا يزال ساخناً.. اتركه معي حتى
يبرد قليلاً..

تبتسم وهي تشعر بسامي الذي عاد ليتشبث بطرف
ثوبها فتجلس على الأرض بتحفظ جواره ليجلس
إبراهيم جوارها..

ابتسامتها تتسع وعيناها تنتقل بين وجوههم جميعاً
كانهم أعلى ما حظت به من كنوز الدنيا..

لكن ابتسامتها تتجمد على شفيتها وهي تتابع الحدث
المصور الذي كان ينقله البرنامج في التلفاز :

_حريق كبير في أوتيل (...). بشرم الشيخ يسفر عن
وفاة بعض نزلائه وإصابة الآخرين.. من ضمن
المتوفين ابنة الوزير الحالي (...). وزوجته.. شقيقة
..(...)

عيناها تزيغان بارتباك فتصم أذناها عن ضحكات
الجميع حولها وهم منشغلون بالمشاكسة بينما تميز
معرفتها ل"شلة النادي" في الأسماء المذكورة لتربط
هذا مع ما ذكرته لها كوثر بالأمس من ذهاب سمرا
معهم لقضاء بضعة أيام هناك باسمها هي..

فيجف حلقها بقوة وهي تتوقع المصيبة القادمة مع

تتابع الصور علي الشاشة..

لتأتيها الصدمة المتوقعة مع استطراد المذيع :

_ وإصابة (يسرا الصباحي) ابنة اللواء الأسبق رفعت

الصباحي بجروح بالغة..

فيرتعد جسدها كله مع مرأى صورتها وهي تملأ

الشاشة!

=====

في غرفتها بالمشفى تتأوه سمرا "الحقيقية" بألم

وهي تتحسس ذراعها المضمد وجانب وجهها الذي

نالته الحريق..

يقولون إن جروحها ليست بالخطيرة لكنها تشعر أن

هذا الحادث بالذات سيترك ندبته في حياتها كلها..

هل يعاقبها الله لأنها أخذت حياة غير حياتها؟!
وهل كانت تملك مع امرأة بتسلط يسرا الصباحي
خياراً آخر؟!
لا..

لن تكذب فتدعي أنها فعلتها فقط بدافع الخوف..
إنما هو الطمع كذلك..

رغبتها في أن تعيش حياة كهذه..
ليس فقط مالها وجاهها ورفاهيتها..
بل.. أمانها!

الأمان الذي افتقدته في عمرها كله!
صوت طرقات على الباب يقاطع أفكارها فتلتفت
ليطالعها وجه كوثر الممتقع وهي تغلق الباب لتقترب
منها هامسة بذعر :

_ مصيبة! مصيبة!

_ مصيبة أكثر من هذا؟!؟!!

تهتف بها باستنكار لترد كوثر وهي تشير نحو الباب

قائلة بصوت مرتجف:

_ فادي بيه.. طليق يسرا هانم.. يبدو أنه علم عن

الحادث وجاء فوراً إلى هنا..

_ هنا؟! أي هنا تقصدين بالضبط؟! هنا مصر؟!!

تسأل سمرا برعب وهي تتكلمش مكانها لترد كوثر

وهي تلطم خدّها بخوف:

_ بل هنا في المشفى.. هو في الخارج يريد رؤيتك!

=====

الطيف الخامس والثلاثون



*فرنسا.. أنسي..

_ لن أكف عن الطرق هذه المرة يا "لارا" .. لن
أمضي كالمرّة السابقة .. افتحني .. افتحني .. سأكسر

الباب ..

تصرخ بها يولاند بالفرنسية وهي تطرق الباب بكل
قوتها حتى أدمت قبضتها لكنها لم تكن تشعر بالألم ..
لقد صارت تعلم معنى ان يفيض الوجد من الداخل فلا
يترك منفذاً لوجد من الخارج ..

_ اهدئي بالله عليك! الجيران سيطلبون لنا الشرطة.

يقولها جهاد محاولاً تهدئتها والحزن يعتصر قلبه
على حالها.. المسكينة فوجئت عقب عودتها بوفاة
والديها.. أخبرتها بها لارا المرة السابقة بحقدتها
الغاضب وهي تغلق الباب في وجهها.. أخبرتها أن
والدها لم يقوَ على نسيانها حتى بعدما صفى تجارته
وترك باريس إلى هنا.. أنه رغم ردوده الباردة وقطعه
علاقته بها كان ينتظر عودتها.. أنه مات وهي آخر
اسم تلفظ به.. قبل أن تلحق به أمها بعد عام..

كل هذا حدث وهي لا تعلم!

كأنما توقعت أن يتوقف العالم هنا كما توقف عالمها
هي بعشقها لرجل بادرها من ظهرها بطعنة غدر!
رجل منحته أقصى ما يمكنها منحه فأبى منحها أقل ما
تستحق!

إشفاقه نحوها يفوق رثاءه لذاته وهو لا يعرف كيف

يواسيها..

لقد عاشت طوال هذه السنوات تمنى نفسها أن

يقبلوها من جديد..

_أرجوك يا لارا افتحي.. لم أكن أعلم.. أقسم أنني لم

أكن أعلم.. طوال هذه السنوات وأنا أمني نفسي بأنه

قد تحدث المعجزة يوماً وتقبلونني لو عدت .. غدر بي

قطار العمر فلم أنتبه.. غدر بي بعدما منحني ثلاث

معجزات لا واحدة.. كل طفل من أطفالي كان بمثابة

معجزة وددت لو تعاود مد الجسور بيننا.. والآن ذهب

كل هذا.. كل هذا صار مجرد رماد..

تنتهي كلماتها مع طرقاتها وهي تنهار بجسدها فوق
الباب الذي بقي مغلقاً لتدمع عينا جهاد وهو يشهد
انهيارها غير قادر على مد يد عون..

_ عودي من حيث أتيت! يولاند ماتت.. ماتت!

تصرخ بها لارا بصوت باكٍ من خلف الباب المغلق

فتطلق يولاند ضحكة ساخرة بدت غريبة وسط

دموعها وهي ترفع عينيها نحو جهاد قائلة

بالفرنسية :

_ سمعتها؟! يولاند ماتت.. وفدوى ماتت قبلها.. فمن

بقي لي؟! من بقي لي!؟!

يبتلع غصة حلقه وهو يشيح بوجهه للحظات قبل أن

يعود ليمد لها كفه فتتعلق به لتقف مترنحة للحظات..

_ دعينا نغادر الآن..

لا!

تصرخ بها بفزع من يخشى المزيد من فقد آخر
خيوطه وهي تهم بطرق الباب لكنه يهتف بحسم :
_ سنعود في وقت لاحق.. اتركها الآن حتى تهدأ.
ترمقه بنظرة مشتتة شع فيها بعض الأمل وهي تعاود
النظر للباب المغلق قبل أن تتخذ قرارها وتسير جواره
عائدين للفندق الذي اختاراه للإقامة هنا..
ورغم جمال الطبيعة حولها لكنها لم تكن تبصر في
هذا العالم كله إلا القبح..
قبح الغدر.. الخذلان.. والأسوأ قبح "الشتات"..
لهذا ما كادت تستقر معه في المطعم المطل على
بحيرة أنسي في الفندق حتى بادرت بهسؤالها الشارد :

تظن الله يعاقبني لأنني غيرت ديني؟! أخذ مني ريان
ثم أولادي وأخيراً أبي وأمي ولارا.. تظنني كنت على
خطأ عندما..

يولاند!

يقاطعها بها بصرامة فجرتها حميته لدينه لأول وهلة
قبل أن يتمالك نفسه ليردف بنبرة أرق:

تعلمين أن مثلي لن يمنحك الجواب الذي ترضينه..

السؤال داخلك يصرخ باستغاثة وأنت وحدك من

ستسكتينه بالجواب الصحيح.. أعذرك في شتاتك.. في

حيرتك.. في كل هذه الفوضى التي وجدت عالمك

يغرق فيها فجأة.. لكن أرجوك أن تتمهلي في الحكم..

"الدين ليس لعبة" و"الله لا يُختبر".. حاشاه! لو

كنت تريدين خوض الطريق من أوله فأنا معك ولن

أتركك حتى تهدأ كل وساوسك.. لكن لا تخلطي

الأوراق وتلبسي الحق بالباطل.

لكنها تبدو في وادٍ غير واديه وهي تشرد ببصرها

نحو ماء البحيرة لتغمغم بخفوت:

لم أتوقع هذه الضربة على رأسي هنا أيضاً.. كنت

أنتظر دعم عائلتي لأعود.. لماذا تخذلني الدنيا كلها

بهذه الطريقة؟! لماذا؟!

يغمض عينيه بوجع يشاظرها فيه والسؤال الأخير

يفرض نفسه عليه هو الآخر..

لماذا؟!

لماذا؟!

يستغفر الله بصوت مسموع وأنامله دون وعي
تتحسس ميدالية حنظلة التي صارت حبيسة جيبه..كما
صار هو حبيس خذلانه!

عيناه تحيدان نحو ماء البحيرة بدوره فيرى عليها
صورتها..

زهرة..

تبتسم له هذه الابتسامة التي عرفها منذ سنوات..
ترتدي شاله الفلسطيني فوق ثوب زفاف أبيض..
وترفع كفها بدبالتها بألوان علم بلاده لتلوح له من
بعيد..

لكن الصورة تنقلب فجأة..

ابتسامتها تتحول لضحكة ساخرة تتهم علي ضعفه..
الشال تطيره الريح ليسقط تحت قدميها..

الثوب الأبيض يتسخ..

والدبلة تهوي من الإصبع المتورم بها لتغرق في بئر

بلا قرار..

_ هل وصلت رد بشأن المشفى الذي راسلته؟! زعمت

أن مديره يعرفك شخصياً.

ينتزعه صوت يولاند من شروده فيتنحج وهو

يتجاوز مرارته ليفتح حاسوبه المحمول باحثاً عن

رسالة..

_ إنه أمني الأخير.. انتظري.. يبدو.. يبدو أنه قد

وصل.

يقولها ببعض الأمل وهو يفتح الرسالة لتتسع عيناه

بلهفة لأول وهلة قبل أن يخذلها الرد من جديد..

_صديقي العزيز.. تعرف كم أعتز بصداقتنا وكم
يشرفني العمل معك.. وتعرف أن ثقتي فيك بلا حدود..
شهادتك العلمية وخبراتك العملية تجعلك كنزاً لأي
مكان تنتمي إليه لكن.. اعذرني يا صديقي.. ما حدث
في مصر لن يمر بسهولة.. أعرف أنه قد تمت تبرئتك
من التهمة.. لكن.. هذه الأشياء تترك خلفها رماداً لا
يمحى أثره خاصة مع جنسيتك الفلسطينية.. لا تفقد
الأمل.. ربما يمكنني لاحقاً أن..
يغمض عينيه عن قراءة بقية الرسالة وقد بدت له بلا
معنى..

المعنى الحقيقي وصله ولا مجال للمزيد..

تماماً كما قالت يولاندا..

الدنيا كله تخذله!

يولاند!

يلتفت كلاهما للصوت الغريب الذي صدح جوارهما
بالفرنسية ليعقد جهاد حاجبيه باستغراب بينما تشحب
ملامح يولاند لوهلة وهي تميز ملامح الرجل..

أخبروهم أن طيور قلوبنا عزيزة.. لا تطارد الفتيات
ولا شربة الماء العكرة في كوب منكسر.. طيور قلوبنا
حرة.. تعرف طريقها نحو حبوب العشق الطازجة
وجداول الكبرياء الرقراق.. لكم هزيل عطاياكم ولنا
جزيل ما نستحق.

كانت هذه آخر رسائلها له قبل أن تهجره منذ سنوات
فلماذا يعود الآن؟!

هل ينقصها المزيد من رؤية خساراتها؟!

إيلان؟!

تغمغم بها بصوت مبحوح وهي تناظر الغريب الذي
بدا شديد الوسامة شديد الأناقة وشديد التهذيب وهو
يستأذن بالجلوس قبل أن يلتفت نحو جهاد ليقول
بالعربية :

_ تشرفت بلقائك دكتور جهاد.

_ تتحدث العربية؟!!

يسأله جهاد بحذر وقد بدا له من رد فعل يولاند انهما
على سابق معرفة ليبتسم إيلان قائلاً :

_ والفرنسية بطبيعة الحال.. والانجليزية.. و..
العبرية.

ينعقد حاجبا جهاد بقوة مع الإضافة الأخيرة قبل أن
يشيح بوجهه في نفور لم يملكه..

لتهتف يولاند بعصبية فجرتها انفعالاتها:

_ ما الذي أتى بك يا إيلان؟! لارا من أخبرتك؟! جئت
تشتت بي وتلعني مثلهم؟! لا أظن بيننا ما يستحق
وجودك هنا.

_ تسمحين لي بأن أحدثك وحدنا؟!!

يقولها إيلان بنفس النبرة بالغة التهذيب فيتحفز جهاد
في جلسته وشعوره بالحمية نحو يولاند يدفعه للهتاف

بحدة :

_ السيدة لا تبدو مرحبة بوجودك يا هذا فارحل دون
مشاكل.

_ لم أت لأجل المشاكل يولاند.. علي العكس.. جئت بكل
الحلول.. بداية ب"لارا" وانتهاء بكل شيء آخر.

نبرته بالغة التهذيب تثير حفيظة جهاد دون سبب وهو
يشعر بانقباض صدره فيهم بالانفجار فيه من جديد
لكن يولاند - للغرابة- تهتف بجهاد بنبرتها المشتتة :
_حسناً يا جهاد.. يمكنني فقط الاستماع لما يريد
قوله.. ابق قريباً من فضلك.

يحمر وجه جهاد بغضب للحظات لكنه يعود ليمنحها
بعض العذر وهو يدرك أن شقيقتها آخر ما بقي لها
كي يتعلق بها قلبها..

ويبدو أن هذا الرجل يعرف جيداً ما يحكي عنه..
لهذا وقف ليزيح كرسيه بحركة عصبية قبل أن يتحرك
مبتعداً ليجلس علي مائدة أخرى مراقباً بتحفظ..

_ماذا تريد يا إيلان!؟!

تسأل يولاند بمزيج من ضيق وأمل ليتفحصها الرجل

بعينه ثم تجيب ابتسامته قبل حروفه:

_ قديماً كنتِ تعرفين وحدك جواب هذا السؤال..

تدمع عيناها بالمزيد من الشتات وهي تتذكر ما يحكي

عنه..

الجواب القديم نفسه يجري الآن علي شفثيه..

_ اريدك أنت.

تطرق برأسها للحظات وهي تشعر بالمزيد من علقم

الخسارة..

كم تتمنى الآن لو ترفع رأسها بكبريائها القديم..

لو تخبره أنها تجاوزته وعرفت من هو أفضل منه..

لو تصرخ بانتصار أنها أجادت اختيار من يصونها ولا

يقلل من قدرها كما فعل هو..

لكنها - وهي في هذا الوضع- لم تملك سوي قولها

الباهت:

_ هذه العبارة - كغيرها- فقدت صلاحيتها.. أظن أن ما

بيننا قد انتهى منذ سنوات.. قبلت الجلوس معك فقط

لأنني أدرك كم تقدرك لارا وتعتر برأيك.. ما الذي

يمكنك فعله معها!؟!

_ يولاند التي أعرفها لم تكن لتحني رأسها أبداً في

موقف كهذا.. ارفعي رأسك حبيبتي.

الكلمة الأخيرة تغشاها بدغدة لطيفة لم تعرفها

عرائس أنوثتها منذ سنوات..

هل هو الرجل الذي أعاد لها سحر الماضي القديم!؟!

أم هو شعورها بأنه لا تزال هناك قشة قد يتعلق بها

الغريق!؟!

أم هي فقط مجرد رغبته في الشعور أنها لا تزال
مرغوبة.. ولو من حبيب سابق!؟

ترفع رأسها ببطء متحاشية نظراته كأنها تخشى أن
ترى فيهما المزيد من توثيق خيبتها..
ليصلها صوته متخماً بعاطفة :

لم أصدق لارا عندما أخبرتني أنك عدت.. طوال هذه
السنوات وأنا أنتظرك.. كل ما فيّ ينتظرك.. أعرف
أنني قد خذلتك يوماً لكن ها هو ذا العمر يخبرنا أنه لم
يفت الوقت بعد.

إيلان.. أرجوك.. لست في حال يسمح لي بقبول كلام
كهذا.. قلت أنك تملك ما يمكنك فعله بشأن لارا..

تقولها مقاطعة ببعض العصبية وهي تغطي جسدها
بذراعيها كأنها تخفي آثار "بدانتها" و "خذلانها"..
ليصلها رده الداعم مطمئناً.. وغامضاً :
_ أخبرتك أنني أملك حلول كل شيء.. بداية بـ "لارا"
وانتهاء بكل شيء آخر.



_ تفضل يا "فادي بيه" .
تغمغم بها كوثر بصوت متحشرج لترفع سمرا عينيها
بفضول غلب خوفها وهي تميز ملامح الرجل..

رجفة خافتة انتابت جسدها مع هذه " النبضة

الغادرة " التي أفلتت من قلبها..

هل هو خوف فقط..

أم شيء آخر؟!

تزدرد ريقها الجاف بصعوبة وهي تميز هذه النظرة

القاسية في عينيه اللامعتين..

لم تر يوماً عيني رجل تتوهجان بهذه الطريقة

الأسرة..

بشرته الحليبية الحليقة إلا من شارب أسود أنيق

كشعره الناعم تمنحه وسامة مفرطة..

أناقته بسيطة بقميصه الأسود كسرواله..

لا يبدو لها كرجال عالم يسرا الصباحي المخملي.. بل

يبدو لها ببساطته أقرب لعالمها هي..!

نظرته تزداد قسوة بينما يقترب منها دون حديث
فتنتبه من خواطرها لمصيباتها الحقيقية معه..
لو كانت قد نجحت في خداع معارف يسرا بتمثيلها
المتقن فكيف ستخدعه هو؟!
صوتها أول ما سيفضحها!!
الرجل كان زوجها!!
لهذا أطبقت شفيتها بقوة وعيناها تتعلقان رغماً عنها
بعينيه بخوف لم تملكه..
خوف ازداد حد الرعب وهي تسمعه يخاطب كوثر
بقوله دون أن تحيد عيناه عنها هي:
_ اتركينا وحدنا.

ترمق كوثر بنظرة مستغيثة فتتهف الأولى بسرعة:

_ عفوا يا فادي بيه.. يسرا هانم لا تزال متأثرة
بالحادث.. الصدمة أفقدتها الرغبة في الكلام..
يمكنك..

_ قلت : اتركينا وحدنا.

نبرته الشامية تمزج صرامته بهيبته الفطرية فتجبر
كوثر على الامتثال وهي تلطم وجهها خفية لتخرج
وتغلق الباب خلفها داعية أن تفلح سمرا في
التظاهر..

فيما تتكمش سمرا مكانها رغماً عنها وهي ترمقه
بنفس النظرة الوجلة..

كل ما فيها يستصرخها أن تتصرف ك"يسرا
الصباحي" في موقف كهذا..

أن ترفع وجهها بغرور.. تسترخي في جلستها بأنفة
كما علمتها..

تتظر له بطرف عينها دون أن تمنحه نظرة كاملة..

بل.. ربما تتجراً فتشير له بسبابتها بالطرء..

لكنها تجد نفسها كأنما قيدتها هذه النظرة في عينيه..

نظرة مزجت قسوته بحزن غامر أضفى ظلاله على

ملامحه كلها..

خاصة وهو يتقدم أكثر ليجلس على الكرسي جوار

فراشها دون أن يفارق عينيه..

يميل بجذعه للأمام نحوها فترتد رغباً عنها للخلف

حتى تكاد تلتصق بظهر الفراش مع شهقة خافتة..

_ خائفة؟! غريب! لم ألمح هذه النظرة في عينيك
يوماً.. بل فعلت.. مرة واحدة.. تلك الليلة التي قتلتِ
فيها ابناً.

حروفه التي كانت تقطر كراهية تبذر المزيد من
الخوف في أعماقها فتزداد انكماشاً وهي عالقة بأسر
عينيه بينما يردف هو بمزيج من حقد وأسى:
_ ظننت أني قد نسيت.. ظننت أنني قد تجاوزت
محطتك وعاودت حياتي السير دونك.. ظننت أن الأيام
كفيلة بجعلي أنسى.. لكن ماذا أنسى؟! زواجنا؟!
خديعتك؟! استهتارك؟! أم قتلك لابني؟!
تزداد خفقاتها جنوناً وهي تطبق شفيتها كأنها تخاف
ان تنفلت منها مجرد كلمة..

لكنها تشهق بذعر وهي ترى قبضته تمتد فجأة لتطبق
على فكها فتأوه دون وعي لاعنة قسوته سراً..
أي رجل يفعل هذا بامرأة في وضعها الآن..
لكنه يبدو مغيباً وهو يضغط فكها أكثر هامساً بقسوة
احترق رمادها حزناً :

_توجعي.. تألمي.. احترقي.. احترقي كما أفعل أنا كل
يوم وأنا أحمل نفسي ذنب ابني معك.. أنا من اخترت
له أمّاً مثلك.. أنا من أدخلتك حياتي.. أنا من خدعتني
هذه الملامح الملائكية لأدرك بعدها أي شيطانة تختفي
خلفها.. تفهمين إذن لماذا عدت بهذه السرعة عندما
علمت بالحادث؟! فقط لأراك تتألمين.. ليت ملامحك
هذه تتشوه كما تشوهت روحك.. ليتك تفقدين أغلى
من أحببت كما فعلت بي..

تسيل دموعها بصمت فتتسع عيناه كأنما أفاق لتوه

مما يفعله ليحرر وجهها ببعض العنف..

يرمقها بنظرة عميقة طويلة قبل أن تضيق عيناه

بتساؤل لم تفضحه شفتاه..

نظراته تحيد لكتفيها وما ظهر من جسدها تحت

غطائه قبل أن تستقر على كفيها فتفرج شفتاه كأنه

على وشك قول شيء ما..

لكنه يعاود إطباقهما وهو يرفع عينيه لعينيها فتغمض

عينيها بقوة كأنها تخشى أن تفضحانها..

_ أنت.. !!?

يغمغم بها بنبرة شاحبة فقدت الكثير من قسوتها

فتزدرد ريقها الجاف بصعوبة وهي تجد القوة أخيراً

لترفع سبابتها المرتجفة تشير بها نحو الباب في

إشارة واضحة ولا تزال مغمضة عينيها..

تشعر به يقترب..

يقترب حد امتزاج أنفاسهما فتفتح عينيها فجأة بهلع

تدفعه في كتفه بذراعها السليم وهي تعاود الإشارة

بسبابتها المرتعدة نحو الباب فيزداد انعقاد حاجبيه

وهو يرمقها بنظرة طويلة غامضة..

قبل أن تلتوي شفتاه بما لم تفهمه..

سخرية.. أم ازدراء..

فقط شعرت ببعض الارتياح عندما وقف مكانه ينظر

إليها من علوّ لتشيح بوجهها عنه..

فيصلها صوته بالمزيد من الغموض:

_ظننتها مجرد زيارة قصيرة تمنحني مرادي.. لكن..

يبدو أنني سأعيدها.

يرتجف جسدها بالمزيد من الخوف خاصة وهو يميل

عليها ليحتكر نظراتها قسراً..

حدقتاه الواسعتان تبدوان لها كبر عميق تسقط فيه

أكثر وهو يردف :

_يوماً ما كنت صديقك.. فتحت لي باباً من أبواب

جنونك ولا يصعب عليّ الآن التكهن بالمزيد.. تذكرين

عندما كنت أقول لك : (ليت هذا الوجه الجميل لروح

أخرى غير روحك الخربة!)

يمتع وجهها واشياً بالخوف رغم الضمادة التي

تغطي جانبه فتزداد النظرة في عينيه غموضاً وهو

يعاود الاستقامة بجسده قائلاً:

_افتقدت والدتك.. أفكر في زيارتها.. امرأة طيبة لا
تستحقينها.. تماماً كابننا.. عساك لا تقتلينها هي
الأخرى.

يخفق قلبها بالمزيد من الخوف الذي امتزج بالإشفاق
وهي تميز اللوعة في حروفه..

تراقب ظهره مبتعداً بمزيج من ارتياح ورهبة..
لكنه يتوقف أخيراً عند الباب قائلاً قبل أن يغلقه
خلفه :

_يبدو أنني لن أشفى منك حتى أذيقك ما ذقته بسببك..

النسيان صار بضاعة عزيزة في هذا الزمن.
تطلق زفرة قوية خيل إليها أنها أفرغت معها معدتها
وهي ترى نفسها أخيراً وحدها بعد خروجه..

ماذا فعلت بهذا الرجل يا يسرا!؟!

هل حقاً قتلت ابنكما؟!!

ولماذا لم تخبريني أنك تركت إرثاً من الانتقام خلفك؟!!

تنقطع تساؤلاتها بدخول كوثر المندفع فتحكي لها

بسرعة مضطربة عما كان..

لتلطم كوثر وجهها وهي تردد بشحوب :

_ لا بد أن تعرف يسرا هانم.. هذه التمثيلية السخيفة

لا بد أن تتوقف.

=====

بنفسجي

ماذا فعلت؟! ماذا فعلت؟! سلطانة! سلطانة!!!
صرخة ديمة الأخيرة تمتزج بصرخة هذا الذي عاد
لتوه من الخارج ليفاجأ بجسد سلطانة المسجي على
الأرض..

يجثو علي ركبتيه جوارهما يتفحص الكلبة التي
فارقت الحياة..

جراؤها الصغيرة تتمسح في جسدها بنباح مذعور
فتراجع ديمة في جلستها للخلف غير قادرة على
الوقوف..

صرخاتها لا تنقطع وهي تردد بذهول مرتعب:
_ قتلتها! أنا.. قتلتها!!

يلتفت نحوها حسام بحدة وقد احمر وجهه لينقل
بصره بينها وبين سلطنة للحظات في عدم
تصديق..!!

عيناه تقعان على الخنجر الساقط أرضاً جوارهما..
علبة الدواء الفارغة جوار الطبق فينتفض قلبه بهلع
وهو يقف مكانه ليقبض علي معصم ديمة المرتعبة
فيوقفها معه..

يرى الخادمة عبر النافذة تراقبهما من بعيد بذعر
فيشير لها أن تختفي بسند الذي بدا غير مدرك لما
حدث..

_ قتلتها.. قتلتها.. أنا فعلتها.. أنا فعلتها..

تصرخ بها ديمة دون وعي..

تضحك تارة وهي تنفض عنها ذراعيه بعينين غائبتين
تسمعان تصفيق الشبح الأرجواني وتحتفلان برحيل
الأسود..

ثم تعود لوعيتها فتبكي بحرقة وهي تخفي وجهها بين
كفيها مستمرة في الصراخ:

_ صرت قاتلة؟! ما ذنبها؟! ماذا سأقول لجدي؟!!

لأبي؟! لأمي؟! لهالة؟! ولسند؟! كلهم سيكرهونني كما

صرت أكره نفسي!!

جسده ينتفض كأنه يتلقى ألف صاعقة وعلى العكس
تتجمد حروفه على شفثيه فلا يشعر بخيط الدموع
الذي سال على وجهه وهو يناظر جسد سلطانة

الميت..

الصدمة..

الحزن..

الغضب..

الرغبة في الانتقام..

كلها تجعل قبضته تتكور في لكمة قوية وذراعه الحر

يجذب ديمة نحوه لتشهق بالمزيد من الرعب وهي

ترى قبضته تهوي نحو فكها..!!

لكنه يتوقف في اللحظة الأخيرة لتتجه قبضته نحو

فخذه هو بصرخة هائلة يطلقها وذراعه يحرر ديمة

قبل أن يجثو على ركبتيه مطرقاً بوجهه كأنه تلقى

صاعقة فوق رأسه!!

صوت صرخاتها المذعور فوقه يجلده..

المزيد من الحطب فوق الحطب!

صورة سلطنة التي فارقتها الحياة ملتصقة بعينيه

المغمضتين..

المزيد من الحطب فوق الحطب!

صورة سند الذي يتخيل كيف سيكون وقع هذا عليه..

المزيد من الحطب فوق الحطب!

لن يلوم في هذا كله إلا نفسه!!

لماذا تركها وهو يعلم علتها بعدما كان بينهما؟!!

لماذا تركها تصارع أشباحها وحدها حتى وصل بها

الحال لهذا؟!!



هل هو خوفه عليها من نفسه؟!؟

أن يفقد آخر قيود سيطرته فيلقي بها في جحيم جديد
يحترقا به معاً؟!؟

هل هو غضبه من نفسه أن أخلف وعده لها أن يبقيا

بعيداً في منطقة آمنة خارج حدود أسواره؟!؟

أم هو غروره الذي شق عليه أن ترفض امرأة - أي

امرأة- عطاء رجولته؟!؟

تياً!

المزيد من الحطب فوق الحطب!!

هل يمكن أن يحترق رماده أكثر؟!؟

أيهم يستحق الآن البكاء عليه أكثر؟!؟

سلطانة..؟!؟

وجهه الأبيض النادر.. رفيقة طريقه وخلّه الوفي الذي

طالما استغنى به عن الناس!

ديمة..!!؟

حبيبته.. ابنة قلبه التي اختارها بعد طول زهد عن

نساء العالمين والتي ترك لها السكين لتجرح نفسها

وتجرحه به !

أم.. هو!!؟

هو الذي ما عاد قادراً على التلطي بالمزيد من

نيرانه!!؟

يقولون إن الرماد لا يحترق مرتين فمتى تنال الرحمة

رماده لتعفيه من المزيد!!؟

لماذا اختار دور "البطولة" هذه المرة وهو يعلم أنه

لا يليق به سوى أغلال شيطان!!؟

نشيجه الخافت يدوي في أذنيه كالرعد وهو يغطي

أذنيه بكفيه حاجباً عنهما صرخات ضميره..

وصرخاتها هي قبله..

فلا يدري كم مر من الوقت قبل أن يشعر برأسه أخيراً

فوق صدرها!

كفاها الباردتان تزيحان كفيه عن أذنيه.. ذراعها

الضعيفتان تطوقانه بقوة وهي تخفي وهن دموعه

على كتفيها..

جسدها يشاركه انتفاضته وصوتها الذي بح من فرط

الصراخ يسكب عذابها في أذنيه :

_يا ويلي! هل ستصدقني هذه المرة أيضاً؟! هل

ستفعلها كما تفعل كل مرة؟! ألا يزال هناك المزيد من

"أنا معك"؟! هل ستفهم أنني لم أكن في وعيي؟! بل..

ربما كنت! يا لله!! كيف أدفع "الثلث" هذه المرة!!؟!

كيف أفعها!!؟!

حروفها تختق بنحيبها المرتفع فيرفع عينيه

الدامعتين إليها..

نظراتها المذعورة منه تناقض تشبث ذراعيها به

فيقبض على كتفيها بكفيه ليرجها بعنف لم يتعمده

صارخاً بين غضب وحنن :

لماذا فعلت هذا؟! لماذا؟!!

وكان صراخه الهادر أيقظ "شبحها الأرجواني" وهي

تراه في انعكاس صورتها في عينيه..

فتصرخ بدورها وهي تتفض ذراعيه عنها لتهب

واقفة تشرف عليه من علو :

_تسأل لماذا؟! تريد أن تعرف الجواب حقاً؟! لأنني

أردت أن أوذيك

تشتعل حدقتاه بالمزيد من مزيج حزنه وغضبه وهو

يرى بوحها النازف:

_أنت.. أنت بالذات.. أردت أن أوذيك.. أن أنتقم فيك

من كل من جرحوني.. ليس اليوم فقط ولا منذ أيام..

بل منذ عرفتك.. منذ دخلت مكتبك أول مرة

سبابتها المرتجفة ترتعش حد الرعب بما يناقض

كلماتها لكن شبحتها الأرجواني لا يزال يمدّها بالدعم..

فيما تضيق عينا حسام بقوة وهو يدرك أنها لحظة

الحقيقة..

قطعة "البازل" الناقصة التي طالما بحث عنها في

حكايتهما..

ورغم أن كل كيانه كان يتفتت بشظايا كلماتها لكن
بقايا من غروره منحته القوة ليقف في مواجهتها
بوجه جامد صرخت كل ملامحه إلا لسانه..
ولا يزال نرف بوحها يقطع شرايينهما معاً:
_ أنا دخلت حياتك كي أنتقم.. أنت في عيني كنت قاتل
هالة.. هالة التي عشقتك طوال عمرها القصير فلم
ينلها منك سوى الخذلان..

تتسع عيناه بصدمة وهو يتمنى لو كان ما تقوله
مجرد هلاوس لكنها تستمر كقطار لن يحيد عن
قضبانه :

_ عشقتك سراً وخذلتها علناً.. كل تفاصيلك عرفت
منها.. قلبها النقي رأى فيك حلمه الصامت.. قلبها
الذي وقفت أنت تتفرج عليه وهو يلفظ آخر دقائقه..

عرفت الآن لماذا اخترتك أنت لتتولى قضيتي؟! كنت
أراقبك في كل مكان تذهب إليه؟! أتتبع خطواتك
وأتعمد لقاءك؟! تذكر ذاك اليوم الذي لقيتك فيه مع
والدتك في المشفى؟! ليلتها كدت أقتلها.. كدت أفعل
بها ما فعلت بسلطانة اليوم لولا أن منعي أديم..
تزداد خفقات قلبه بجنون وهو يتذكر ما تحكي عنه
للتشوش صورتها في عينيه فلا يدري هل بأثر
دموعه أم بأثر ما تروييه..

هل كانت هالة عاشقته حقاً؟!!

وهل سيصنع هذا الآن فارقاً إلا أن يضيف المزيد من

الحطب فوق الحطب؟!!

هل كان مغفلاً إلى هذا الحد وهو الذي طالما تباهى

بذكائه؟!!

هل خدعته حلقة الزعفران في عينيها هذا القدر؟!!

كل هذا كان مجرد خداع؟!!

تصفو الصورة في عينيه أخيراً فيدرك أن المزيد من

حرمة الدمع قد أريقت على وجهه..

ليراها وقد انحنت تلتقط السكين لترفعه أمامه هاتفة

بين دموعها :

_خطوة واحدة بقيت وأثبت لكم جميعاً أنني لست بهذا

الوهن.. أنني لست مجرد جسد تشتهي عيونكم

وتدنسه أيديكم لكنه يبقى بعيداً عن شعوركم بعد

السماء عن الأرض.. خطوة واحدة.. خطوة واحدة..

_وماذا تنتظرين؟! افعليها!

لا يدري بأي نبرة خرج صوته المهزوم وهو يقترب
منها فاتحاً ذراعيه بمزيج غريب من استسلام
ووعيد..

فترفع السكين بكل قوتها لتهوي به..
لكن عينيها تسقطان معه على جسد سلطنة الممدد
وقد طاف حوله شبح الموت..

فتعصر قلبها قبضة باردة وهي ترى انعكاس
صورتها على نصل السكين..

الشبح الأسود اختفى..

الشبح الأرجواني كذلك اختفى كأنه اكتفى بما أنجزه..
وها هو ذا..

الشبح الأبيض يعود..

هالة..

هالة عادت..!

تتقدم منها فاتحة ذراعيها لتهمس لها بطيبتها

المعهودة :

_استفتي قلبك يا ديمة.. لن يخذلك..

صرختها الخافتة تتزامن مع سقوط السكين من يدها

لكن صرخة أخرى تعلو من عند باب البيت تهتف

بلوعة:

_توقفي!

تشهق ديمة بذعر وهي تلتفت مع حسام نحو أم

الأخير التي بدت وكأنها سمعت الحوار كله ليركض

حسام نحوها وقد رآها تمسك صدرها بتعب ليهتف

بها بجزع:

_ ما الذي جاء بك فجأة هكذا يا أمي؟! لماذا لم

تخبريني كي آتي بك إلى هنا؟!!

_ آسف يا سيدي.. حاولت إخبارك لكن الموقف كما

تري..

يقولها الحارس الذي وقف مرتبكاً وهو يرى تفاقم

الأمر رغماً عنه لترد المرأة بصوت متقطع وهي

تمسك صدرها:

_ جئت لأطمئن عليك.. قلبي شعر أنك تخفي عني شيئاً

في الآونة الأخيرة خاصة عندما علمت أنك كنت في

الصعيد ولم تزرني.. تأكدت ساعتها أنك لا تريد

مواجهتي وأنت تخبئ عني شيئاً يخصك.. لم أكن أعلم

أني سأشهدك في موقف كهذا.. آه!

حروفها تنقطع بصرختها القصيرة وهي تكاد تعتصر

قماش ثوبها فتختلط بصرخة ديمة وقد..

سقط جسداهما معاً!

=====

أحمر

=====

_ لن يفعل شيئاً! هذا هو فادي دوماً.. مجرد لسان..

دعي سمرا فقط تتمالك نفسها وسأخبرها كيف

تتصرف معه..

تهمس بها يسرا بخفوت عبر الهاتف ثم تغلق الاتصال

لتمسح الرقم بسرعة وهي تخفي الهاتف في جيبها..

تتهد بحرقة وهي تخفي وجهها بين كفيها ثم ترفع
عينيها تراقب السماء عبر شرفة شقة إبراهيم وقد
بدت لها أكثر ظلمة عما كانت من قبل..

لا قمر..

لا نجوم..

فقط ليل أسود يعدها بالمزيد من الوجع!!

_يارب.. أنت تراني.. أنت تحيط بي علماً.. تعلم أنني

لا أريد من المزيد من الكذب لكن.. ماذا أصنع؟! لا

أستطيع التراجع الآن.. هل ينفذ يوماً رصيدي من

الستر؟! هل يعني هذا وقتها أنك لم تقبل توبتي؟! هل

يمكن أن أعود وقتها لكل ما كرهته في نفسي؟! أعود

بك من يوم كهذا فلتقبض روعي إليك قبله!

همساتها لا تغادر شفيتها بل تبقى جمرات تلهب

صدرها..

كيف تصف شعورها في الساعات السابقة عندما رأت

صورتها على الشاشة؟!!

صحيح أنها تصرفت بدهاء يليق ببسرا القديمة

لتصرخ فجأة جاذبة أنظار الجميع إليها كي تصرفهم

عن النظر للتلفاز متعلقة بألم في بطنها..

صحيح أنها تفحصت ردود أفعالهم جميعاً لتتيقن أن

أياً منهم لم ينتبه لما كان يعرض..

لكن..

ما يدرىها أن أحداً من أهل الحي قد يتبين الشبه رغم

كونها بحجابها؟!!

هل سيتصور أحدهم وقتها غرابة الحكاية؟!!

أم سيكذب عينيه ويعتبره مجرد تشابه؟!؟

تبا!!

ستموت رعباً لو بقي الحال هكذا!!

لكن..

لماذا كل هذا الخوف؟!؟

سمرا مكانها هناك..

وهي هنا..

حتى لو أدرك أحدهم الشبه فستهتف ببساطة (يخلق

من الشبه أربعين!)

ببساطة؟!؟

هل يمكن أن يمر الأمر حقاً بهذه البساطة؟!؟

_ أنت بخير الآن يا ابنتي؟!؟

تشهق بخوف لم تملكه وهي تشعر بكف ربيع على
كتفها..

هو الذي أصر أن يبيت الليلة معها كي يطمئن عليها
بعد ادعائها المرض..

تلتفت نحوه لتهرب من عينيه بكذبتها قائلة بخفوت:
_ الحمد لله.

_ لماذا آلمتك بطنك هكذا؟! أشعر بالذنب.. لعله من أثر
العملية!

يقولها بنبرة مذنبه تشق عليها لتتهف بلهفة بعدما
انكبت على كفه تقبله :

_ أبدأ.. بالله لا تقل شيئاً كهذا.. لا علاقة لهذا بالأمر
أبدأ.. كان مجرد مغص مفاجئ.. اعتدت نوباته منذ
زمن بعيد.

يرمقها بنظرة متفحصة وهو يسألها باهتمام :

ولماذا تسهرين وحدك حتى هذه الساعة؟!

_قلقت من النوم ولم يبقَ الكثير على صلاة الفجر.

تقولها وهي تتكلف ابتسامة فيبتسم بدوره وهو يدعو

لها بالبركة قبل أن تغم عيناه بنظرة داكنة وهو

يسألها بشرود:

_تذكرين أول لقاء لي بك في المشفى قبل أن يقرر

إبراهيم الحضور بكِ إلى هنا؟!_

تبتسم بشجن للذكرى وهي تستعيد ما يحكي عنه..

فينظر في عمق عينيها ليردف بنبرة محايدة:

_تذكرين ما وعدتني به وما وعدتك به عندما

أخبرتني بحكايتك؟!_

ترتجف حدقتهاها بمزيج من خوف وذنوب قبل أن

تتكس الدموع في عينيها دون رد..

لكنه يمنحها الجواب بنفسه وهو يضغط حروف

كلماته:

_يومها قلت لك: أنني لن أحاسبك على ما كان

ماضيك لكن لو أخفيت عني شيئاً بعدها فلا عهد لك

عندي ولا وعد.. صحيح!؟

تشعب ملامحها حد الموت وهي تشعر أنها ستسقط

في أي لحظة فيتشبث كفها بسور الشرفة دون وعي..

الصمت يسودهما لدقيقة كاملة فسرها خوفها أنه

يمنحها الفرصة للاعتراف..

تستمد من نظرتة الحنون شجاعته للحظة تهم فيها

بفتح كل أبواب خباياها..

لكنها تعود لتجبن وهي تتذكر أي أسوار بينهما..
فتسقط دموعها حارقة على وجنتيها وهي تغمغم
بحروف من وجع:

_ هل خذتك للحظة منذ جئت بي إلى هنا؟! هل رأيت
مني ما يسوؤك؟! هل فعلت شيئاً جعلك تندم على
صنيعك معي!؟

يتهد العجوز بحرارة وهو يرفع وجهه للسماء
للحظات قبل أن يربت على كتفها ليقول بحنانه
المعهد :

_ لا يا ابنتي.. يشهد الله أنك لم تفعلي.

_ ولن أفعل.

تهتف بها بانفعال وهي تطوق كفيه بقبضتيها مردفة:

_ أنا "ابنة ربيع" التي لن تخذله.. أقسم لك.. بحق من

كتب لي حياة جديدة معكم هنا.

يعود العجوز ليرمقها بنظرة طويلة قبل أن يطرق

برأسه قائلاً:

_ أصدقك.

_ قلها.. أصدقك يا ابنتي.

تهمس بها برجاء وسط دموعها فترتجف ابتسامته

وهو يربت علي كفها فوق كتفه قائلاً :

_ أصدقك يا ابنتي.

تبتسم أخيراً وهي تمسح دموعها لتعاود الهروب من

عينيه قائلة :

_ أعد لك شيئاً؟!!

_جزاك الله خيراً.. سأقرأ بعضاً من القرآن حتى يحين

وقت الصلاة.

يقولها وهو يتحرك مبتعداً نحو الغرفة المجاورة

فتتهد بحرقة وهي تنظر للسماء..

لا تزال مظلمة!

تتحرك للداخل فتتوضأ لتصلي كعهدها شاعرة بثقل

الوزر على كتفيها..

خاصة بعد عودة فادي..

تراه سيكشف سمرا!؟!

لا..

لا تظن..

الفتاة تجيد دورها جيداً!

أو هذا ما أقنعت به نفسها كي تصرف عنها قلق

الساعات التالية..

توقظ إبراهيم لصلاة الفجر ثم تستسلم لنوم متقطع

تستيقظ منه أكثر تعباً..

تودعه وهو يتركها للذهاب لعمله فتستغل بقاءها

وحدها لتستطلع نبوءتها اليومية التي صارت

هاجسها..

"شريط اختبار الحمل!"

_ عسى الأمر يختلف اليوم.. عساها تكون البشارة..

تهمس بها لنفسها بأمل وهي تناظر الخط الأحمر على

الشريط بلهفة..

لتتسع عيناها بفرحة وهي ترقب الخط الأحمر

الشاحب الذي بدأ يظهر جواره..

_أخيراً.. أخيراً.. أنا أحمل طفله..

والفرحة تترجمها" يسرا الجديدة " لسجدة شكر

هوى بها قلبها قبل جسدها..

من يدري لعلها بشارة القبول..

أو.. بداية النهاية!

=====

هل سقطت بين ذراعيه حقاً؟!

حملها للمشفى لتبثه وصيتها قبل أن ترحل؟!

سمع كلماتها الأخيرة؟!

وعاها؟!

تركهم يحملونها بعيداً عنه نحو مئاها الأخير؟!

دفنها حقاً؟!

وقف بين الجموع يتلقى واجب العزاء بجمود؟!

عاد لبيتها الذي خلا منها لأول مرة منذ سنوات

تساوي عمره؟!!

رائحتها تملأ كل شبر في المكان لكنها هي غير

موجودة؟!!

كل الأشياء هنا تحمل بصمتها.. تكذب زعمهم

برحيلها.. كل ما حوله دافئ فكيف ينسبون له برودة

الموت؟!!

ماتت؟!!

هذه الكلمة الغريبة الآن تبدو مألوفة؟!!

لن يذكر اسمها بعد الآن إلا ويقول بعدها "رحمها

الله"؟!!

يجلس الآن على كرسيها الأثير في صالون البيت ..

يفتح ألبوم الصور الذي كانت تقدسه وقد بدا له

وكأنها تخلد فيه تاريخه؟!

عبر غشاوة من الدموع يقلب الصور..

هل هذا هو؟!

يمر بالصور بشرود غافل..

حتى تتوقف عيناه أمام صورته مع يسرا في حفل

زفافهما..

هل كانت لعنته الأولى؟!

خطيئته الأولى يوم فرط في حبه قرباناً لطمعه؟!

كرة الثلج التي هبطت من علٍ لتتضخم حتى تجرف في

تيارها كل ما في طريقها فلا تبقي ولا تذر..!!؟

وحد الله يا حسام.. لا تقسُ على نفسك أكثر.. هو

قدرها على أي حال.

صوت فهد بالغ الحزن يأتيه من بعيد كأنه يقف وحده

في هوة بئر سحيق..

يحاول تذكر كلمات أمه الأخيرة في المشفى لكن يبدو

وكان عقله يعاقبه بنسيانها..

المزيد من الحطب فوق الحطب!

يرمقه فهد بنظرة طويلة بأسة وهو يتعجب سرعة

جريان الأحداث..

لا يفهم كيف ساءت حالة ديمة بهذه الخطورة حتي

فعلت فعلتها بسلطانة..

وما سبب هذه المواجهة الحامية مع حسام!؟

ولا كيف انتشر الخبر بهذه السرعة بين الناس ليشيع

الخبر أنها كانت السبب في وفاة أمه بصدمتها وأنها

ما تزوجته إلا لتتقم منه على فعلته القديمة مع

هالة؟!

لعلها ثرثرة الخادمة أو الحارس التي تناقلتها الألسنة

دون رادع!

يا لله!

أي تعقيد قد تحمله قصة هذين أكثر؟!

وهل ينقص صاحبه المزيد من جلد الذات؟!

_ أين هي؟!

صوت حسام الجامد الذي عادت له قسوته القديمة

ينتزعه من أفكاره ليرد فهد بحذر وقد فهم من يعنيها

بسؤاله:

_ مع جنة في شقتنا.. تعرف كيف انهارت تماماً بعد
ما حدث.. لهذا آثرت إبعادها مع سند عن بيتك.. كان
ينبغي أن نكلم دكتور كنان بسرعة لكننا انشغلنا ب..
يقطع عبارته عاجزاً عن إكمالها كي لا ينكأ الجرح
الطازج لكن حسام يتناول هاتفه ليقول بنفس البرود
القاسي:

_ أنا سأكلمه.

_ ماذا ستفعل بالضبط!؟!

يسأله فهد بصرامة حذرة وهو يتوجس شراً من نبرة
صاحبه التي يعرفها ليرد حسام :

_ سأفعل ما كان ينبغي فعله من البداية.. لن يتحدث
الناس أن امرأة دخلت بيت حسام القاضي وخذعته
كفر ساذج لتكون سبباً في وفاة أمه.

تتسع عينا فهد بارتياح وهو ينتزع منه الهاتف ليهتف

بحنق:

_ ما الذي ستفعله؟! تعرف أنها لم تكن في وعيها؟!!

_ مجنونة! قلها بصراحة! مجنونة!! والمجنون مكانه

المصحة العقلية كي لا يؤدي غيره؟!!

يصرخ بها حسام بانفعال بدا وكأنه أخرجه عن

شعوره وهو يقف مكانه ليضع ما بيده جانباً وهو

يحاول انتزاع هاتفه من فهد لكن الأخير يبتعد به هاتفاً

بحدة مماثلة:

_ انت الذي تقول هذا؟! أنت؟!!

_ نعم! أنا الذي أقولها!! دور الملاك العاشق الذي

ينتظر فرصة أخرى لا يليق بي.. أنا كنت الشيطان من

البداية ولن تختلف النهاية.. لن أو من بالعكس من
جديد.. كفاني ما خسرتة.. كفاني..
صرخاته العاصفة تكاد تصدع السقف فوقهما وهي
تبدو كجمرات يقذفها أكثر براكينه اشتعالاً..
لكن فهد يبدو متوقفاً لهذا الانفجار بعد برود الساعات
السابقة ليرد بتماسك:

_وأنا لن أسمح لك أن تتخذ أي قرار الآن.
_بأي صفة؟! أنا زوجها وأنا من يحق لي التصرف
بشأنها.

_وأنا صاحبك لكنني من سيقف لك لو فعلتها.. دكتور
كنان هو من سيقدر في شأنها إن كان الأفضل لها أن
تبقى في المشفى أو معك.

_ لن تبقى معي.. افهم.. لن تبقى معي بعد اليوم ساعة

واحدة.

_ إذن دعها عندي مع جنة.

_ لا.. لا بد أن يعلم الناس أنها مختلة.. لن أتركهم

يتحدثون أن امرأة خدعتني بعد كل هذا العمر.

_ الناس.. الناس.. الناس.. كل ما يعنيك هو كلام

الناس.. ظننتك وعيت الدرس هذه المرة.. ظننتك

اكتفيت من ضلالك القديم.. ظننتك ستعود لنفسك..

ماذا تنتظر أكثر؟! ماذا تنتظر!!?

صرخاتهما تتناطح بقوة تليق بكليهما فلا يقطعها

أخيراً إلا صوت لهاتهما الصامت ونظراتهما المشتعلة

تفضح غضباً وعتباً..

الصمت الذي قطعه أخيراً حسام وهو ينهار جالساً
على كرسيه ليدفن وجهه بين كفيه بضحكة ساخرة
مكتومة وسط خيطين من الدموع سالا علي وجنتيه:
_ تخيل! أنا تخدعني فتاة مثلها؟! أنا! أنا الذي طالما

تباهيت بقدرتي على قراءة ضمائر الناس!

_ أنت لم تستمع منها للتفاصيل كلها.. أنا واثق أن
الحكاية ليست كما روتها.

لكن حسام يبدو غافلاً عنه وهو يردف بوجع عزيز
على مثله:

_ أنا صدقتها.. فتحت لها الباب الذي أغلقته في وجه
سواها.. كيف كنت بهذه الحماسة وأنا أتبين لنفسي
وجهاً أبيض في عينيها لتفاجئني بأشد وجوهي
بشاعة.. صاحبته كانت تحبني.. صاحبته التي عشت

أحمل وزرها كل هذه السنوات.. وهي.. هي دخلت

حياتي فقط لتنتقم.. وحقاً فعلت!

يطلق فهد زفرة قصيرة أودعها كل انفعالاته وهو

يعاود الجلوس جواره ليقول بنبرة رفيقة :

_ لا تتخذ الآن أي قرار.. حزنك عظيم يشوش على

تفكيرك.. لو..

تنقطع كلماته وهو يسمع صوت رنين جرس الباب

ليتنهد قائلاً:

_ إنه إبراهيم ربيع.. هاتفني منذ قليل يسألني عن

العنوان بالضبط ويخبرني أنه في طريقه إلي هنا

ليعزيك.. حاولت إقناعه بانتظار عودتك للعاصمة لكنه

أصر على الحضور.

يقولها فهد وهو يتوجه نحو الباب ليفتحه فيطالعه
وجه إبراهيم..

يتبادل كلاهما نظرة عدم ارتياح منطقية تليق بماضي
كليهما لكن فهد يشير له بالدخول أخيراً..

يتقدم إبراهيم ليصافح حسام بحرارة بكلمات معزية
قبل أن يجلس جواره ليقول بحزن مواس:

لله ما أعطى وما أخذ.. رحمها الله وأدخلها فسيح
جناته.. وددت لو استطعت حضور الجنازة لكن جنة
أخبرتني في وقت متأخر.. أبي كان يود الحضور معي
لكن صحته..

يقطع عبارته رغماً عنه وعيناه تتسعان بصدمة وهو
يميز الصورة في الألبوم المفتوح على المنضدة..

سمرا!

إنها سمرا!!

هي!!

معقول!!؟

هل سيخطئ في التعرف على زوجته!!؟!!

ما الذي فعله صورته هنا!!؟

صورة زفاف!

العريس.. حسام القاضي!!

ما هذا العبث!!؟

ينتبه فهد لتحديقه المصدوم في الصورة فيتبادل مع

حسام نظرة عجب..

لكن إبراهيم الذي أغرق العرق جبينه وهو يتبين

الصورة أكثر بوضوح يتمم بصوت مرتجف:

_ عفواً.. لا تؤاخذني لو بدا سؤالي عديم اللياقة.. من..

من هذه؟!!

سبابته المرتجفة تشارك عينيه ارتعادتها وهو يحاول

تكذيب ما يراه..

ليرد حسام غافلاً عما به:

_ لا بأس.. إنها يسرا الصباحي.. زوجتي الأولى التي

طلقتها لكن لماذا تهتم؟! آه.. هي ابنة رفعت الصباحي

المتورط في قضية قتل المتظاهرين.. أهدا تهتم

بالصورة؟!!

=====

أحمر

=====

تنتهي من تعليق آخر صف بالونات في صالة البيت
لتبتسم بسعادة وهي تراقب الحفل الصغير الذي أعدته
له كي تحتفل معه بخبر الحمل..

انتظرت يوماً كاملاً أخفت فيها سعادتها بالكاد حتى
تتأكد..

الخبر صار يقيناً..

هي الآن تحمل طفله!!

هدية القدر لها والتي ستبقى ممتنة لها العمر كله!!
تتفحص شكلها في مرآة قريبة لتطمئن على زينتها..
لقد أخبرها أنه على وصول بعد سفره صباحاً ليؤدي
واجب عزاء ما لم يهتم بذكر تفاصيله..

تمشط شعرها باهتمام لتلقي على نفسها نظرة راضية
قبل أن تسمع صوت مفطاحه في الباب الذي أغلقه
خلفه بسرعة..

ملامحه تبدو لها غريبة عما اعتادته..
عيناه حمراوين بشدة ووجهه كأنه قطعة من نار..
تهرع إليه لتعانقه متنشقة رائحته قائلة بدلال:
_ أنا أعد لك مفاجأة.

تقولها لتصدمها هذه النظرة الزائغة في عينيه وهو
يتفرس ملامحها ليصلها صوته المبحوح :
_ أنا الآخر.. أعد لك مفاجأة.

تروعها هيئته لكنها تعزوها لتعب السفر فتربت على
وجنتيه برقة قائلة:

_ تعال استرح أولاً من تعب الطريق.. تبدو مرهقاً

بشدة.

_ انظري لمفاجأتي أولاً.. وبعدها سنستريح جميعاً..

نبرته الباردة التي مزجت غضباً بحزن تخر قلبها

فتسأله بتوجس:

_ ما الأمر!؟!

يتفحص ملامحها بنظرة طويلة بدت لها غريبة كأنه

يراها لأول مرة..

بل.. كأنه يودعها..

تنفي خاطر الأخير عن ذهنها بسرعة وهي تراه

يتحرك ليفتح الباب قائلاً بنفس النبرة الميتة:

_ معي ضيفة لست واثقاً أنك ستفرحين برويتها..

تتعجب قوله قبل نبرته لكن قلبها يسقط بين قدميها
وهي تميز هذه الواقعة خلف الباب كنسخة منها
ممتعة الوجه مرتجفة الجسد..

سمرا!

=====

الطيب السادس والثلاثون

=====

أحمر

=====

هل جربت أن تلتقي أبشع كوابيسك وجهاً لوجه؟!
أن ترى الخنجر يهوي داخلك لينهش روحك.. فتوقن
أنه لن يخرج إلا بكليهما!
هكذا كانت تشعر وهي ترى سمرا وجهاً لوجه..
نظرة واحدة قصيرة لسمرا تلتها نظرة طويلة
لعينيه..

سؤال.. رجاء.. خوف يفضح المزيد من التماذي في
الكذب.. استكشاف لعله لا يزال هناك المزيد من
الأمل..

يتحشرج صوتها حد الهمس:

_من.. من هذه!؟!

صوته لم يكن أفضل منها حالاً وجمود وجهه يبدو

قشرة زائفة لبركان خامد يوشك أن يقذف حممه :

_ هذا ما قضيت الساعات السابقة أحاول معرفته..

يقولها بنفس النبرة وهو - بالكاد - يستعيد تفاصيل

الساعات الماضية بعدما رأى صورتها عند حسام:

_يسرا الصباحي!؟! ابنة رفعت الصباحي!؟!

سأل إبراهيم حسام بعينين زائغتين وهو يستعيد ذكرى
تلك المرة التي اصطحب فيها سمرا "كما عرفها"
لبيت الصباحي ليجيب حسام وهو يتبادل مع فهد نظرة
حائرة:

_ لماذا تتعجب هكذا؟! هل تعرفها؟!

ارتجف جسد إبراهيم وهو يهز رأسه نفيًا برفض
للحظات قبل أن تمتد أنامله بسرعة ليختطف الألبوم
فيطالع الصورة بتفحص..

هي..

هي..

لن يخطئ التعرف إليها...
عيناها.. أنفها.. ذقنها.. عنقها..

بل.. هذه التفاصيل الدقيقة لجسدها التي لن يخطئها
رجل في زوجته خاصة وهي مكشوفة الجسد هكذا
في ثوبها عاري الكتفين..

ينتزع الصورة من مكانها بعنف ليهتف بجنون تائر
وهو يخفي الصورة في صدره كأن وحش غيرته غلب
صدمته وهو يردد بما بدا كالهذيان:

مستحيل! مستحيل! هذه زوجتي أنا!

النظرات المصدومة تعرف طريقها بين حسام وفهد
ليتردد الأخير قليلاً قبل أن يقول محاولاً تهدئة هذا
التائر أمامه:

عفواً! حسام محق! لعله مجرد تشابه! "يخلق من
الشبه أربعين" كما يقولون.. هذه في الصورة يسرا

الصباحي.. يمكنني تأكيد هذا لأنها كانت زوجتي أنا

الآخر!

تكاد عينيه تخرجان من محجريهما وهو ينقل بصره

بينهما بذهول ليتحنح فهد مردفاً :

_ أعرِف أنها قصة غريبة فحسام صديقي المقرب منذ

سنوات وقد تزوجتها بعد طلاقها منه.. لكن لا أظن

هذا كله يعنك فالحكاية تبدو مجرد تشابه.

_ مجنونان.. أنتما مجنونان.. هذه زوجتي.. زوجتي..

سمرا زوجتي..

يصرخ بها إبراهيم بفرع صار من الغضب أقرب وهو

يهرع نحو الباب كي يخرج متجاهلاً نداءات حسام

الذي هتف بفهد وهو يلحق به :

_ أوقف ذاك المجنون.. لا تدعه يغادر هكذا!

يركض كلاهما خلفه لكن إبراهيم المصدوم يتعثر في
خطواته على الدرج فيسقط مكانه..
يرعبه شعوره بأنه يسقط.. ويرعبه خوفه من الحقيقة
أكثر..

يتشبث بسور الدرج بأنامله المرتجفة يتحسس
الأرض تحته كأنه يبحث عن التوازن..
وأنى له هذا؟!!

خفقاته تتسارع بعث وهو يخشى تصديق الإشارات
التي كان يرسلها إليه..

شعوره بل شعور الجميع طوال الأيام السابقة أنها
تخفي عنهم شيئاً..

ذهابها ذاك اليوم لبيت الصباحي..

فهمها وقتها أنها مجرد طلب مساعدة من صديقة كما

أخبرته..

والآن ؟!

رعبها من رؤية جنة.. بل من مجرد ذكر سيرتها..

كان يفهمها غيرة.. والآن ؟!

اختباؤها في غرفة هبة ذاك اليوم الذي خرج فيه مع

ربيع من السجن وقد صحبه فهد وجنة للحي وتعجب

الجميع من غيابها وقتها..

كان يبزر هذا وقتها بخجلها.. والآن ؟!

اتصال حسام القريب وكيف كانت مرعوبة بين

ذراعيه..

كان يبزره وقتها بخوفها عليه.. والآن ؟!

الآن !!

الآن!!

الدم يضرب في رأسه وهو يعيد تقريب الصورة التي
يحملها لوجهه..

أي ثغرة..

أي ثغرة تمنحه بذرة شك أنها ليست هي..
أنه مجرد تشابه!

لا توجد!!

_قم معي ووحيد الله.. لا أدري ماذا أصابك.
يهتف بها فهد وهو يساعده في النهوض ليرفع إليه
إبراهيم عيين زائغتين..

بينما يهتف حسام بدوره بضيق:

_لعن الله سيرتها.. مؤذية أينما حلت.

يلتفت نحوه إبراهيم بحدة فيردف باستدراك:

_ أتحدث عن طليقتي.. لا عن زوجتك.

يظل إبراهيم يرمقه بنظرة مشتتة للحظات قبل أن يشده فهد من ذراعه ليقول مهدئاً وقد صار مظهر إبراهيم منذراً حقاً بكارثة:

_ ادخل واهدأ.. لن ترحل هكذا.

يتخشب إبراهيم مكانه للحظات ثم يستجيب له فيعاود صعود الدرج نحو بيت حسام الذي عاد يقول بنبرة فظة فجرها انفعاله وهو يجلس جواره:

_ أنت غريب جداً! هل يعجز الرجل عن تمييز زوجته؟! بالتأكيد طليقتي ليست زوجتك.

لكن إبراهيم يستعيد صوته المبحوح وهو يسأله

بشحوب:

_ حدثني عن طليقتك هذه.. ماذا عنها؟!!

يهم حسام بالرفض وهو يرى في كل هذا عدم لياقة..
الرجل جاء معزياً فلماذا يصدع رأسه بالحديث عن
ماضٍ..!!؟

لكن فهد يربت على كتفه مهدئاً فيزفر بقوة ليمسح
وجهه بكفيه قائلاً :

_تزوجتها عندما كنت في الخدمة.. أبوها كان رئيسي
في العمل.. طلبت الطلاق.. فطلقتها.
_لماذا؟!!

لم يكن حسام ليجيب سؤالاً كهذا في أي موضع لكنه
الآن وهو في أشد حالاته هشاشة لم يجد غضاضة في
البوح بنقصه:

_عيرتني لأنني.. غير قادر على الإنجاب.
ينعقد حاجبا إبراهيم فيردف حسام بانفعال:

لكن الأيام دارت وأذاقتها نفس الكأس.. ابنها من زوجها الثالث بعد فهد مات بسبب إهمالها.. لا شماتة في الموت لكنني رغباً عني شعرت وقتها أنه قصاص عادل على..

تالث!؟

يقاطعه بها إبراهيم بتشتت وقد بدت كل هذه المعلومات كمطارق ثقيلة تهوي على رأسه.. ليقول فهد بتردد وهو يتفحص ملامح إبراهيم بحذر :
بالتأكيد ليست زوجتك.. تلك المرأة تزوجت مرتين بعد حسام.. زواجي أنا منها كان مجرد حبر على ورق.. أبي رحمه الله كان له مصالح مشتركة مع أبيها.. في البداية حافظت أنا على زواجنا لأساعدها في التخلص من الإدمان.. طلقتها لما يأست من

علاجها خاصة وقد كادت تقتل جنة زوجتي.. لكنني
علمت بعدها أنها سافرت مع أمها..

إدمان؟!

لا يزال إبراهيم بها يقاطع حديثهما بتشتت وأغلب
الكلام تسقطه أذناه سهواً..

لكنه يستعيد موقفها مع سندس..

كيف فهمت حالتها بسرعة..

صدقها وقتها عندما بررت ذلك بأنها كانت تعرف

واحدة زميلتها في المحل بنفس الأعراض..

والآن؟!_

ابنها.. ماذا كان يدعى ابنها؟!

يتمتم بها إبراهيم مخاطباً فهد الذي تبادل مع حسام

نظرات قلقة..

ليردف إبراهيم برعب وقد تذكر ما جعله يخشى جواب

سؤاله:

_شادي؟! كان اسمه شادي؟!!

يقولها وهو يتذكر هذيانها تحت تأثير المخدر في

عمليتها الجراحية..

الاسم الذي ما لبثت تكرر..

(أنا صرت أكبر.. وشادي بعده صغير)

صدقها وقتها عندما زعمت أنها مجرد أغنية..

والآن؟!!

الآن يسقط الجواب على قلبه كالسيف يشطره نصفين

وحسام يرد بدهشة :

_نعم.. كيف عرفت؟!!

لم يجد الوقت للرد وهو يركض مغادراً هذه المرة فلم

يتمكن أحدهما من اللحاق به..

لا يدري كيف مر الوقت حتى وجد نفسه أمام بيت

الصباحي..

عيناه تشتعلان كالجمر وهو يميز وقفته بها هنا أول

ما عرفها..

رغم كل ما عرفه..

لا يزال يطمع أن يكون ما يدور بباله مجرد صدف!

أن تكون فقط شبيهتها إلى هذا الحد!

يطلب من الحارس الإذن بالدخول..

_ أريد مقابلة السيدة.. يسرا..

يتردد الرجل قليلاً ليقول :

_السيدة عادت صباحاً فقط من المشفى.. لا أظنها

مستعدة لاستقبال أحدهم.. من أنت؟!!

_قريبها.

يوماً ما سيلعنها لأنها اضطرته للكذب في موقف

كهذا..

لكن هل هذا فقط هو ما سيلعنها عليه؟!!

يتفرس الرجل ملامحه وهو يهم بالاتصال الداخلي

لكنهما يفاجان بسمرًا تخرج من البيت نحو الحديقة..

_سمرال..

يهتف بها إبراهيم بحرقه وهو يميز التشابه الواضح

من بعيد فتلتفت الأخيرة نحوه برعب وقد بدا الهمس

لها كارثياً في موقف كهذا..

تتجمد ملامحها للحظات قبل أن تتقدم نحوه ليسأله

الحارس بغلظة:

_ أي سمرا؟! من تنادي!؟!

لكنها تقترب والخوف يغزو ملامحها أكثر بينما

تتفحص ملامح إبراهيم..

تصرف الحارس بإشارة من كفها ليتفرس هو في

ملامحها بلهفة تقارب الجنون..

_ سمرا.. سمرا..!!

الشك يبذر داخله بعض الأمل وهو يردد الاسم

كالهذيان لكنها تنده في مهده وهي تلطم خدها بينما

تتلفت حولها قائلة بصدمة تشبه صدمته:

_ كيف عرفتني!؟ من أنت!؟!

يرتد بوجهه عنها مبهوراً وهو يرى ملامح زوجته

كما عرفها يخرج منها صوت آخر!!

لو كانت هذه هي سمرا الحقيقية.. فهذا يعني أن

زوجته هي...

ابنة الصباحي!

تحاول البائسة تجاوز الأمر.. تعاود ارتداء قناع يسرا

الصباحي لكن صوتها الخانع يخذلها لتبدو مثيرة

للسخرية بل للشفقة وهي ترتد للخلف قائلة كأنها

تتملص مما قالتها:

_أنا يسرا الصباحي.. من.. من سمرا كهذه!؟!

اعترافها غير الصريح يغمد نصله في صدره وهو

يغمض عينيه بقوة للحظات..

يشعر أنه سيفقد وعيه في أي لحظة لكن الحريق
المستعر بصدرة يرسم على ملامحه أسوأ وجوهه
وهو يقترب منها ليهدر بانفعال أخافها:

_ اسمعي! أنا أعرف من أنت.. اسمك الحقيقي.. بلدتك..
عنوانك.. محل ملابس الأطفال الذي كنتِ تعملين فيه..
يقولها ليعدد لها ما يعرفه من معلومات عن سمرا
التي عرفها لتتسع عيناها بصدمة مع كل كلمة
يقولها..

صدمة جعلت النصل ينغرس في صدره أكثر وهو
مجبر أن يصدق هذه المهزلة..

ليلقي سهمه الأخير :

_ وأعرف أنك تتحلين شخصية صاحبة هذا البيت.. لو
لم تخبريني بالحقيقة فسأخرج بك من هنا على قسم

الشرطة وأوجه لك تهمة الاحتيال.. وربما.. قتل يسرا

تلك كي تحتلي مكانها.

_ لا.. لا.. يسرا هانم بخير.. أقسم لك.. ياالله.. ماذا

أفعل؟! كوثر!!

تهم البائسة بנדاء الأخيرة لكنه يقاطعها وهو يهدر

فيها بنفس العنف:

_ لن ينقذك أحد من يدي.. ستعترفان الآن لي

بالحقيقة.. ما الذي يحدث هنا؟!!

_ من أنت؟!!

تسأله برعب وهي تتلفت حولها كأنها فأر وقع في

مصيدة ليصرخ فيها بغضب أخافها أكثر:

_ انطقي.. أخبريني ماذا يحدث!! وإلا سأرميك في

السجن حالياً

تشير له نحو فمها بالصمت وهي تتخرط في البكاء

قائلة :

_أخفض صوتك بالله عليك..من أين طلعت لي؟! لو

علم أحدهم فلن ترحمني يسرا هانم!

يكز على أسنانه بقوة وهو يراها تطرق برأسها قائلة

وكانها ضاقت بهذا الوزر الذي تحمله :

_أنا لا ذنب لي.. يسرا هانم هي من طلبت مني هذا..

لاحظت الشبه الكبير بيننا عندما رأتي مرة في

المحل.. طلبت مني أن نتبادل الأدوار.. أن أعيش هنا

حياتها وتعيش هي مكاني..

يهز رأسه بعدم تصديق ليرد :

_بهذه البساطة؟! فيلم عربي هو؟!!

لكنها ترد بين دموعها:

_ هي دربتني لأكون مكانها.. معارفها لم ينتبهوا
للاختلاف بيننا ربما بسبب سفرها الطويل للبنان قبل
سنوات.. أمها مريضة بالزهايمر.. ولا تكاد تتذكر أي
شيء أو أي شخص.. أما أنا فلا أحد لي.. معارفي لا
يتجاوزون عدد أصابع اليد.. هي أقنعتهم أن صوتي
تغير بعد حادث تعرضت له.

_ ولماذا فعلت هي هذا؟! لماذا؟!!

يصرخ بها ليرتجف جسدها كله ببكائها مع جوابها:

_ لا أعرف.. لا أعرف.. أنا قبلت عرضها خوفاً
وظمعاً.. خوفاً من أن تؤذيني وطمعاً في هذه الحياة
التي تراها.. لكنها هي.. لا أعرف أسبابها.. أظنها
ذكرت أمامي يوماً.. أنها.. أنها مجرد "العبة"! لا

أعرف الكثير عن أولاد الأكابر هؤلاء لكن يبدو أن

هذه حياتهم!

_ لعبة!! لعبة!!

يتمتع بها مصعوقاً وهو يغلق عينيه على دمة كبيرة

بحجم الكون كله..!!

عقله يفتح له ألف ستار يوضح له ما وارته عنه

الأيام السابقة..

يرسم لها أبشع الصور..

واحدة أخرى من بنات السلطة والمال اللائي طالما

كرههن..

وجدت "لعبتها" هذه المرة في حياة كاملة!!

حياة كاملة خدعته فيها كطفل أحمق!!

تركت والدتها المريضة خلفها لتهرب من مسئولياتها

وتلهو بقتاع شخصية أخرى!!

وهو.. هو.. هو كان اللعبة!!

هو وأبوه وأهله و حياته كلها!!

_ كاذبة! كاذبة!

يجريها قلبه "المخدول" على لسانه متحدياً بما بقي

له من رمق..

فترتد البائسة للخلف بخوف كان له ما يببره وهما

يسمعان الصوت من خلفه بلكنته الشامية:

_ بل صدقها.. هذا هو المبرر الوحيد لفعلة يسرا

الصباحي كما عرفتھا!

_ يالمصيبة! سمع!؟!

تغمغم بها سمرا بانهيار وهي تلطم وجهها عندما
ميزت وجود فادي الذي التمعت عيناه وهو يقترب
منهما ليخاطبها بقوله:

_تظنين أنكما قد خدعتماي بتمثيلية كهذه؟! أنا عرفت

منذ زرتك في المشفى أنك لست هي!.

_وما شأنك أنت؟! لا تتدخل .

يهتف بها إبراهيم بغضب أحرق حروفه وهو يلتفت

نحو فادي الذي رفع حاجبيه ليرد :

_ما شأني؟! شأني بسيط يا هذا ! أنا فقط

كنت ..زوجها !

لم يكن لمامح "الدرويش المصدوم" أن تتفحم

أكثر ..

فقط خفقات قلبه كانت تدوي كقرع الطبول وسط

الصمت الذي ساد للحظات مرت كدهور ..

قبل أن تخرج حروفه ذبيحة بسخرية سوداء:

_ أنت أيضا؟! هل بقي في هذه الدنيا رجل لم يكن يوماً

زوجها!؟!

يعقد فادي حاجبيه وهو يشعر بمرارة إبراهيم تقطر

من حروفه ليرد بحذر مشفقاً على حاله:

_ أظنني الأحق بالحديث عنها من بين كل أزواجها فأنا

الوحيد الذي أنجبت منه.. أنا أعظم خطاياها وقد فقدت

ابني بسبب استهتارها.. كما أنني أنا آخر أزواجها.

ضحكة إبراهيم الذبيحة بسخريتها تقطر وجعاً وهو

يتمتم كأنما أصابه مس من جنون :

_ آخر؟! لا أظنك الأخير.. أنت الثالث إذن.. لا يهم

الرقم.. أرهقتي العد خلفها.

ينهي آخر حروفه بصرخة عالية أودعها كل غضبه

أخيراً ثم لم يدر ماذا حدث بعدها..!!

هو سمع صرخات سمرا..

شعر بأذرع الحراس تطوقه..

سمع فادي ينهرهم ويأمرهم بأن يتركوه..

قبل أن يشعر بهذا النزف في قبضته ويميز هذا

التمثال المكسور في جانب الحديقة تحته ليميز أخيراً

أنه هو من فعلها..

_ اهدا يا رجل.. أخبرني عن قصتك معها ولماذا أنت

حانق إلى هذا الحد؟!

يتجاهل هتاف فادي وقد بدا كمجنون حقيقي وهو

يتوجه نحو سمرا صارخاً :

ستأتين معي.. لعبتكما الحقيرة انكشفت.. ال "هانم"

تزوجتني على كونها أنت! تدركين أي مصيبة وقعت

فيها!!

تتسع عينا فادي بصدمة لم تكن سمرا أقل منه فيها

لكن الدرويش المغدور لم يكن ليلاحظ أكثر..

الزمن تجمد.. ليقف عند لحظة رؤيته لصورة زفافها

علي آخر..

المكان تجمد.. ليقف عند بيت رفعت الصباحي..

الشعور تجمد.. ليقف عند ذبحة صدره بخنجر الغدر..

والآن ينصهر كل هذا وهو يقف أمام "النسختين"

وجهاً لوجه..

فيعود لحاضره كمن قذفوه فجأة في جحيم مستعر..

ليرد أخيراً وهو يشير نحو سمرا المرتعدة :

_تسألين من هذه؟! هذه هي سمرا الحقيقية يا.. يسرا

هانم.

تترنح يسرا مكانها وهي تنقل بصرها بينهما برعب..

تتشبث بحافة الكرسي جوارها لكنه يهتز بها هو

الآخر فيكادان يسقطان معاً..

ولأول وهلة تغلبها رغبته في التشبث ببقايا اللحم

فتغمغم كـ"سمرا الخانعة" بتحشرج مثير للشفقة:

_ماذا تعني يا إبراهيم؟! أنا.. أنا هي سمرا.

لكنه يمسكها من كتفيها ليهزها بقوة صارخاً :

_لا تزالين تكذبين! هي اعترفت لي بالحقيقة كلها.

ستموت..

ستموت..

لا..

لا..

لو خذتها قناع سمرا الخانع فلتتشبت بقناع يسرا

المتسلط..

لعله المنجي!!

تتملص من بين ذراعيه لتهرع نحو سمرا المرتعدة

ببكائها فتزهزها بقوة مرهبة إياها بنظراتها:

ماذا قلت له؟! ماذا فعلت!؟!

سامحيني يا يسرا هانم.. لم أعد أحتمل.. اتفاننا لم

يشتمل على كل هذا القدر.. الحريق رد لي صوابي..

ولقاء فادي "بيه" .. وبعدها هذا الرجل.. أنا قبلت

عرضك لأنني ظننته مأمناً لي من الخوف في حياتي..

لكن..

_ اخرسي.. اخرسي.. لا تنطقي بالمزيد..

تصرخ بها يسرا بيأس ترجمه خوفها لتهديد صريح:

_ أنت أفسدت كل شيء! حياتك كلها لن تكفيني!

_ هكذا يظهر وجهك الحقيقي يا ابنة أبيك!

هتاف إبراهيم خلفها يجبرها على النظر إليه..

تتطلع لملامحه التي عشقتها برجاء ما عرفت مثله

يوماً..

نبرتها تتحشرج وهي تضم كفيها في وضع الرجاء

قائلة:

_ أرجوك يا إبراهيم.. اسمعني..

_ وهل بقي ما أسمعاه؟!!

_ ما الذي يحدث؟!_

هتاف ربيع الذي ظهر عند الباب يمنحها بعض الأمل
لتلتفت نحوه هاتفة برجاء:

_ أبي!_

لكن الأمل يجهض في حينه وهي ترى العجوز ينقل
بصره بينها وبين سمرا بصدمة للحظات..

_ ليست سمرا.. الهانم هي يسرا الصباحي.. الهانم
كانت تلعب.. كانت تخذعنا كلنا..

صراخ إبراهيم يبدو وكأنه أحاله لمارد لن يهدأ فيما
يحمر وجه ربيع بغضبه ليلتفت نحوها هي قائلاً بحدة
لم ترها فيه يوماً:

_إذن.. كانت أنتِ! أنا كذبت عيني عندما رأيت
الصورة في التلفاز تلك الليلة.. صدقت كلامك عندما
ذكرتك يوماً بعهدي معك.. صدقت كلامك وكذبت
حدسي! بعد كل هذا العمر تخدعين شبية رأسي
هذه؟!!

تتكب على كفه تقبله لكنه يسحبه منها بعنف فترفع
وجهها المخذول بين دمه وصدمته هاتفة:
_ لا يا أبي! أنا لازلت ابنتك.. ربما كذبت لكنني كنت
خائفة.. كنت..

_ اخرسي! لعبتك انكشفت يا هانم.. ابتعدي عن أبي..
ابتعدي عن بيتي.. بل حياتي كلها!
يصرخ بها إبراهيم بهياج وهو يجذبها من شعرها
بقوة والدمع الغاضب في عيني أبيه يثيره أكثر..

تصرخ بألم وهي تحاول تخلص نفسها منه..

تناديه..

ترجوه..

تتوسله..

أناملها تمسد بطنها في أمل أخير وهي تكاد تصرخ له

بحقيقة حملها..

لكنه لا يمهلها الفرصة وهو يجرها خلفه على سلم

البيت..

تتشبث بكل قوتها في الجدار لكن قوته تغلبها..

درجات السلم التي يهوي فوقها جسدها تساوي ما

بقي لها من الحياة..

تتعثر خطواتها لكنه لا يبالي وهو يجذبها خلفه كشاة

حان وقت ذبحها..

شعرها يكاد ينخلع بين أصابعه..

كدمات جسدها الذي أدمته درجات السلم تعوي

داخلها..

تسمع صوت ربيع اللاهث خلفها يأمر ابنه بالتريث

لكن الأخير لا يسمع..

لا يشعر..

وكيف يفعل وهذا الحريق داخله يلتهمه حياً؟!!!

يصل بها أخيراً للشارع وسط صرخاتها التي لم تنقطع

ليجتمع الناس حولهم فيصرخ فيهم بصوته

المبحوح :

تجمعوا كلكم هنا!

يحتشد الناس مصدومين بصخب من منظر الدرويش

الثائر الذي لم يروه هكذا من قبل..

يجذب زوجته هكذا من شعرها ليدفعها بعنف فتسقط
تحت قدميه في الشارع..

_ هذه المرأة خدعتنا.. انتحلت اسم أخرى كي تغشنا
أنا وأبي.. عاشت معي بغير حقيقتها.. لا أعرف إن كان
زواجي منها صحيحاً أو لا.. لو كان صحيحاً فهي
طالق مني.. طالق.. لو شئتم ارجموها كالعاهرات أو
اكتفوا بطردها من حيكم.. أنا وأبي وعائلي منها
براء.

_ إبراهيم!

يهتف بها ربيع ناهراً بحدة لكن صوته يضيع وسط
الغط اللي ساد والفوضى تعم المكان..
فيما تتسع عينا يسرا الموجوعتين وهي مستلقية
على الأرض تحاول الوقوف لكنها لا تستطيع..

تكذب أذنيها فيما سمعته لكن النظرات فوقها

تصفعها..

تجلدها..

ترجمها..

عيناها تدوران بين الجميع من أسفل فلا ترى سوى

معاني الاحتقار والهوان..

يسرا الصباحي أيقونة مجتمعها المخملي الآن ملقاة

كنفاية على الطريق تحت أقدام الناس!

لقد ظنت نفسها أعدت نفسها لهذا الموقف يوماً ما..

ظنت أنها وقتها ستموت فحسب.. وتنتهي الحكاية..

لكنها.. لا تزال حية..

الألم الذي ينبض داخلها أكثر افتراساً من آلام

جسدها..

كل ذرة فيها يطحنها الوجع.. اليأس.. الخذلان..
لكن هذا لم يكن شيئاً مقارنة بهذا الشعور الذي انتابها
الآن وجعلها تتحسس بطنها بجزع.. والذي منحها
بعض القوة لتنهض بجذعها من رقتها لتصرخ
صرخة عالية تردد صداها في جوفها الخرب وهي
تميز بقعة الدم التي أغرقت الأرض تحتها..



يقولون إن من في القاع لا يخشى السقوط..

فما الذي تخشاه مثلي؟!
نارية.. عاصفة.. متفجرة..
فلا تلمني سيدي..
أنا لست إلا تائهة..
وجدت على جسر كسير طريقها..
فامدد إليّ يدك أو دعني أقع..
فليس أسوأ من الموت إلا انتظار الحياة!



شادي!

تناديه بصرخاتها وهي تراه يسقط..
تسقط خلفه وهي تمد ذراعيها كي تتلقفه..
لا يزال يسقط وهي خلفه تناديه..
تصطدم أخيراً بالقاع لكنها لا تجده..



فقط منامته ملوثة بالدم..

لا..

ليست منامة واحدة.. بل اثنتين!!

تشهق بذعر وهي تفتح عينيها هاربة من ثقل

الكابوس..

أين هي؟!!

المزيد من الجدران البيضاء لا يزال لها بعض الأقلام

في حكايتها!!!

_ابني! ابني! ماذا حدث لابني?!!

صوتها المبحوح بالكاد يغادر حلقها ليرد الطبيب

أمامها بأسى مشفق:

_للأسف لم نتمكن من الحفاظ عليه.. لا تزالين صغيرة

السن ويمكنك..

_ ماذا؟! ماذا؟! بماذا تهذي أنت؟! بماذا تهذي؟!
تصرخ بها بأعلي ما سمح به صوتها المبحوح وهي
تحاول النهوض لكن الألم يقدها..

الألم والقهر اللذان يصبان الدمع في عينيها وهي
تحتضن بطنها هاتفة :

_ كاذب! كاذب! ابني هنا! أنا أشعر به.. أنا أسمع
نبضه.. افتح هذا الجهاز اللعين.. دعني أر ابني..
دعني أراه.

يحاول الرجل تهدئتها دون جدوى فتهتف به بشراسة
وهي تقاومه :

_ أنت لا تعرف من أنا وماذا يمكنني فعله بك.. أنا..
أنا.. أنا..

صرخاتها تنقطع بقهر وهي لا تعرف كيف تكمل

عبارتها..

من هي!؟

من!؟

ينفتح الباب ليطل خلفه أحب وجهين في الدنيا إليها

لكن نظراتهما كانت أشد سواداً من شعورها الآن..

_أبي! إبراهيم! ابنا حي.. لا تصدقوا هذا الرجل! ابنا

داخلي.. هو من سيربط بيننا للأبد.. هو من سيجعلكم

تسامحونني.. لا تجعلوهم يقتلوه.. صدقوني..

صدقوني هو حي.. هو هنا..

تخبط بقبضتها على بطنها بانفعال ثم تحتضنه

باحتواء رفيق كأنها تهدد طفلها فيغمغم ربيع بأسى:

_ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. اللهم لطفك

فيما جرت به المقادير.

يقولها فیربت الطيب علي كتفه ليغادر فتحاول يسرا

النهوض هاتفة بانفعال:

_إلي أين يرحل؟! دعه يعد بابننا.. أو هات طبيباً آخر

مكانه.. آخر يفهم ويصدقني.. ابناحي.. لا يمكن أن

يموت.. لا يمكن.

_بل مات.. ككل شيء بيننا.

يهتف بها إبراهيم بأقسى صوت سمعته منه يوماً

لتلتفت نحوه بصدمة..

فيردف بنبرة سوادء :

_ولا تقولي "ابننا" هذه.. هو ابنك وحدك.. ما

يدريني من أبوه؟! مثلك تكذب في أي شيء!

صرختها توازي صيحة ربيع الهادرة وهو يخاطب

ابنه :

_إبراهيم! اتق الله! لسنا نحن من نقذف النساء

بالباطل.. كفاك ما صنعت.. لو لم تملك كلمة حسنة

لتقولها فاخرج.

تتعلق عينا يسرا بوجه إبراهيم بصدمة وصرخاتها لا

تتقطع..

رغم قسوة ما فعله وما قاله لكنها الآن لا تبصر سوى

هذه الدموع المتجمدة في عينيه..

حمرة وجهه.. لهاث أنفاسه.. نظرة قهر في عينيه

تشبه هذه الذبيحة في عينها..

سيسقط..

سيسقط مثلها..

لا..

فداه عمرها كله!!

فلينتقم منها..

أو حتى فليقتلها..

لكن..

لا يسقط مثلها..!

_إبراهيم.. لا ترحل.. أنتم تعاقبونني بهذه الكذبة..

ابننا حي.. أنت فقط تريد أن تذيبني نفس الكأس..

تكذب علي كما فعلت.. ابننا..

_نحن لا نعرف الكذب مثلك.. ابنك مات.. مات..

افهمي.. مات.. أنت لطختِ عنقي بذنبه كما لطختِ

عمرى كله.

يصرخ بها إبراهيم بانفعال وهو يقترب منها..

فتصرخ بحدة وهي تهرب من قسوة نظراته.. تلتفت
نحو ربيع لتهتف بضراعة والدموع تخنق صوتها:
_أبي.. بالله عليك قل الحقيقة.. أنا دوماً أصدقك.. هل

مات ابننا حقاً؟!

يمسح ربيع طرف عينه بأسى وهو يشيح بوجهه
عنها ليغمغم بإيمان لم يفقده في هذه اللحظات :

_لله ما أعطى.. وما أخذ!!!

تنقل بصرها بينهما للحظات ثم تعاود النظر لبطنها
لتتمتم بصدمة:

_مات! مات! أنا قتلت ابني للمرة الثانية.. قتلته كمن
سبقه.. قتلته..

_قتلتِ ابنك يا مجرمة!

صفعة فادي غير المرئية تهوي على قلبها من

جديد..

إنما بصوت ضميرها هي هذه المرة..

هل خسرت ابنها حقاً؟!!

ليس ابنها فحسب..

بل كل شيء؟!!

صرخاتها تمتزج بدموعها وهي لا تميز ما تقول

بعدها..

ترفع وجهها للأعلى كأنها تحدث خالقها هاتفة:

لماذا لم تعد تحبني؟! لماذا كشفت سترك عني؟!!

لماذا أخذت ابني؟! بل لماذا منحتة لي مادمت

ستحرمني منه؟! هل تعاقبني؟! أنا فعلت كل ما

بوسعي.. أنا.. أنا..

_أستغفر الله العظيم..لا يجوز هذا الكلام.. أستغفر الله

العظيم..

يغمغم بها ربيع بين إشفاق وأسى ليهتف إبراهيم

بنفس القسوة السوداء:

_من تحدث يا أبي ب"يجوز" و "لا يجوز"؟! هذه
المرأة أبعد ما تكون عن هذا.. مثلها لا يستحق سوى

اللعن..

يقولها لينكب بجسده مقترباً من وجه يسرا محيطاً

جسدها بذراعيه دون أن يمسه فيردف من بين

أسنانه :

_كيف وجدتك عذراء ليلة زفافنا؟! أجريت تلك العملية

المشبوهة؟! ماذا كان غرضك من كل هذا؟! هل بلغ

الفراغ بك هذا الحد؟! كنت تتسلين بنا ونحن نعاملك

كمحتاجة أويناها؟! كنت تسخرين من حزننا ونحن
نشكو موت أخي الذي قتله أبوك؟! كنت تنامين
جوارى كل ليلة؟! وأنت تخفين الخنجر الذي طعنت به
ظهري؟! تستيقظين أمامي كل يوم وأنت تفكرين أي
كذبة جديدة ستقتينها.. (لا أريد مغادرة الحي يا
إبراهيم.. أنت تغار.. لا أريد رؤية جنة.. أنا أغار..
أنت أول حب في حياتي.. لم أعشق رجلاً قبلك).. تباً
لك؟! لماذا كنتِ تريدين مني ابناً؟! هل ليكون هو
الآخر مجرد لعبة؟! أعود بالله منك.. أعود بالله.
ينهي آخر حروفه وهو ينتزع سلسلته من عنقها بقوة
أدمته ليلقيها تحت قدمه فيدهسها مردفاً :
_تظنيني غراً ساذجاً خدعتة؟! لعبة ظريفة
ستقصينها على رفيقات النادي؟! الدرويش المغفل

الذي سيتلقى صفعتك على مؤخرة رأسه؟! قسماً بربي
لأرينك وجهي الآخر.. لأذيقك العذاب الذي ذقته معك..
ولو كان هذا آخر ما أفعله في حياتي.

يقولها وهو يستقيم بجسده لكنها تتشبث بقبضتيها في
كفيه صارخة :

_ لا.. لا.. اسمعني.. أرجوك.. أنت وعدتني.. كل ليلة
كنت تعدني أن تسمع.. ألا تذكر..
لكنه يقاطعها هاتفاً بازدياء:

_ سمرا التي منحتها وعدي ماتت اليوم.. والموتى لا
يطالبون بالوعود.

يقولها لينفض كفيه عنها وانها مظهره البائس
يناقض هذه القسوة التي يتحدث بها ليلقي عليها
نظرة أخيرة..

كيف يمكن هكذا أن ينظر إليها فلا يعرفها..

من هذه أمامه؟!!

من؟!!

كل ذرة داخل كيانه تنهار واحدة تلو الأخرى لكنه

يتشبث بوقفته الصامدة مردفاً:

_ يوماً ما قلت عنك أنك كنت كل نصيبي في الهوى..

لم أكن أعلم أنك كل نصيب خسائري كذلك.. أنا أعليتك

فوق أنقى قممي واليوم أسكنك السفح الذي

تستحقينه.. اهبطي بذنبك من عليائك ما عدت قيساً

أنت ليلاه.

يقولها ليغادر الغرفة وسط صرخاتها الخافتة الملتاعة

فتهم بالنهوض من جديد لكنها لا تستطيع..

تلتفت نحو ربيع برجاء هامسة:

_أبي! اسمعني أنت.. أنت..

_أنا منحتك عشرات الفرص لكنك تجاهلتها كلها.. ما

عاد يعينني لماذا فعلتِ فعلتك.. أنا آمنتك على ابني

لأنني ظننتك ستعيدينه للحياة.. والآن..

يقطع عبارته بأسف وهو يطرق برأسه للحظات..

قبل أن يرفعه نحوها مردفاً بنبرة متحشجة:

_ألم تكتفِ أن دم ابني حسن معلق برقبة أبيك!؟!

تقتلين الآخر حياً!؟!

تهز رأسها بقنوط والدمع يخنق صوتها قبل روحها

فتهمس بعجز مقهور :

_رغماً عني..

_امض لحال سبيلك.. سهل الله أمرك بعيداً عنا..

_لا.. لا.. لا تفلها يا أبي.. أنا ابنتك.. ابنتك.. لا ترحل..

أبي.. أبي.. لا ترحل.. لا..

تصرخ بها دون جدوى وهي تراقب ظهره

المنصرف..

تنزع الأسلاك المثبتة في ذراعها دون اكتراث وهي

تتحامل على نفسها لتغادر الفراش..

تسقط على الأرض فلا يعينها سوى أن تلتقط سلسلتها

التي دهسها..

ثلاث قلوب انفصلت..

الرامية القرمزية..

حبيبة إبراهيم..

أم حسن..

انفصلت عن بعضها ليطيش كل منهما في اتجاه..

تماماً.. مثلها!

تجمعها بأنامل مرتعدة وهي تستند على طرف الفراش

لتنهض من جديد بصعوبة غير كاتمة صرخاتها..

تتوجه نحو الباب..

قلبها يركض.. وخطواتها يخنقها العجز..

تفتح الباب تراقب ظهر العجوز وابنه يرحلان من

بعيد..

_أبي.. إبراهيم.. عودا.. عودا..

يهرع إليها الطبيب والمرضات ليمنعها المزيد..

تطالع وجوههم بصدمة لتكرر سؤالها برجاء باك في

كل وجه تتلقفه:

_هما رحلا حقاً؟! تركاني حقاً؟! ابني مات حقاً؟!

ولما وجدت الجواب الحتمي في عيونهم واحداً تلو
الآخر انهارت ساقطة بين أيديهم.. أحد كفيها يعتصر
السلسلة المكسورة والآخر يتحسس بطنها هامسة

بصوت ميت :

_ أنا قتلته.. قتلت ابني من جديد.

=====

أخضر

=====

افتقدتك يا "زعطوط"!

يسمعه نزار عبر رسالة صوتية بعثها يحيى له على هاتفه ليبتلع غصة حلقة وهو يستمع لبقية الرسالة حيث يحكي له يحيى بصوت ذبيح ما كان مع العائلة لينهي الحديث بقوله :

_ انفجر البركان يا صاحبي.. البركان الذي بقي خامداً طوال هذه السنوات.. ظننت أن حممه ستال الجميع لهذا أتعجب هذا البرود حولي.. لم يخاطبني أحدهم منذ ذاك اليوم.. تراهم صدقوا زعمها بجنوني؟!.. فقط إلياس يدعمني لكنني أشعر أنه يخفي عني شيئاً.. جبل من الجليد حولي أشعر أنه يخفي تحته ناراً لن ترحم.. أحتاجك يا صاحبي.. أحتاجك.. متى تعود؟!!

قلبه يختلج بصدرة بحمية حقيقية نحو صديقه الذي لم يفارقه هكذا منذ سنوات لكنه يتهد بعجز ليعتد هو الآخر برسالته الصوتية :

_تعلم أني لن أعود يا يحيى فلا تثقل على بالرجاء..
أنت خنت عهدنا فدعني وشأني.

يقولها ليزفر بغضب مكتوم وهو يسير في حديقة بيت إياد الواسعة يدور حول حمام السباحة الكبير..

بغداد!

جرحه الحي!

كيف استطاع يحيى فعلها؟!

كيف هان في عينيه الماضي وهل يهون في عينيه هو

يوماً؟!

مستحيل!

لا ينكر أنه يشواق لمجد.. يشواقها حد الألم رغم أنه
يهاتفها كل يوم.. لكنه لا يستطيع العودة.. ولماذا

يفعل!؟

إياد أخوه هنا لا يحرمه شيئاً!

صحيح أنه شديد التحفظ في حديثه عن كل شيء..
لكنه لا يمنع عنه أي شيء يطلبه.. فما الذي يريده

أكثر!؟

يهز رأسه بضيق وهو لا يدري بماذا يصف شعوره..
هو جرب غربة البلدان كثيراً إنما.. هي المرة الأولى
التي يجرب فيها غربة روحه..

أجل.. يحيى ومجد كانوا وطن قلبه.. فكيف هاجر!؟
يطلق زفرة ساخطة وهو يتجاهل حزنه كما اعتاد..
يقلب في هاتفه من تطبيق لآخر..

لتتسع عيناه ببعض العبت وهو يشاهد صورة
"برطمان مربى الفراولة" فيطلق ضحكة قصيرة
وهو يبحث عن رقم حسناء الذي كان قد سجله ليرسل
الصورة ثم يكتب تحتها :

_أظنك تعرفين فيما أفكر الآن.

يرسلها مع "وجه" يغمز بعينه وهو ينتظر ردة
فعلها..

تتسع ابتسامته وهو يميز أنها قرأت الرسالة لكن لا
رد يصل..

فيمعن في استفزازها :

_ (ايدك و"البلوك!")

لكنها كذلك لا ترد للحظات قبل أن ترسل له :

_ حقاً ما أشبهك ب"طابع بريد"

يرسل لها علامة استفهام فترسل الرد الجارح الذي

اقتبسته من طيف يوماً:

كلما بصقت عليه يزداد التصاقاً!

ترسلها مع صورة امرأة تصفع رجلاً فيكتم ابتسامته

وهو يرسل :

مقبولة منك.

العـب بعيداً.. بيتنا لا يدخلوه إلا من بابه.

سـلم البيت وصاحبة البيت والباب ومن خلف الباب..

بـالمناسبة.. ماذا ترتدين خلف الباب هذا؟!!

يـنتظر ردها للحظات فيصله أخيراً ليتمتم بغیظ:

"بلوك"! سريعة جداً! لكن..لن أعدم طريقة أحاول

معها من جديد..

يزفر ببعض الملل بعدها وهو يلف حول البيت من
جديد لتداعب أنفه هذه الرائحة الشهية من المطبخ
فيقترب من زجاج نافذته لتلتوي شفتاه بابتسامة
بائسة وهو يميز خديجة تعد الطعام في مظهر يبدو
مثالياً لأم..

فيتراجع بظهره للخلف مغلقاً قلبه على ما اندفع إليه
من ذكريات طفولته..

لماذا لا يتركنا الماضي وشأننا؟!

لماذا لا يدعنا نعيش اليوم والغد دون أن يبقى شوكة
في حلقنا؟؟

وفي المطبخ وقفت خديجة تعد الطعام باهتمام مبالغ
فيه..

لا تزال خطواتها للتأليف بين ابنيها مكللة بالفشل..

لا يزال إيهاب يهرب.. بينما إياد يتربص..!

_ صباح الخير.. لماذا تعدينه بنفسك؟!_

تسمع صوت إياد خلفها فتلتفت نحوه بابتسامة حنون

وهي تقترب منه :

_ أنا طلبت هذا من الطباخ.. اشتقت لأيامنا القديمة

عندما كنا نتناول طعامنا معاً.. أنا وأنت وإيهاب وأبوه

- رحمه الله.. لم نكن نتخلف عن هذا الإفطار أبداً

بالذات صباح الجمعة.. أقراص "الطعمية" الساخنة

بالسمسم لإيهاب.. "البطاطس المهروسة" لأبيه..

البيض المسلوق لك.

تغيم عيناه بشرود قصير فضح عاطفة يجاهد لإخفائها

وصوته يخرج مختنقاً بشجن :

_لطالما كان ظلي دائماً هو الأسهل.. ربما لهذا لم
تكوني تمنحينه اهتمامك.

تتهد بحرارة وهي تدرك مغزى عبارته الذي وخز
قلبها لكنها تغير الموضوع بقولها متظاهرة بالمرح :
_رائحة البخور كذلك أساسية.. تشمها!؟

_صار أنفي يتحسس منها!

يقولها وهو يتحرك نحو عود البخور الذي أشعلته
بالجوار ليطفئه فينعدد حاجباها لتقول بين لوم
وأسف:

_كنت تحب رائحته.

_السنون تغير الكثير!

يقولها باقتضاب وهو يهرب بدوره من شلال الحنين
الذي يوشك أن يجرفه..

كيف يخبرها أي شعور اجتاحه وهو يدخل المطبخ

ليراها تعد له الفطور..

رائحة الطعام التي امتزجت برائحة البخور..

ورائحة الماضي بكل حرمانه ووجعه!!

_بيتك ليس فيه مذياع.. لكن هاتفك يحوي برنامجا

لإذاعة القرآن الكريم.. إيهاب قام بتحميله لي.. كنا

نحب سماعها كذلك مع الإفطار.

تقولها بعفوية وأاملها تتلاعب على شاشة هاتفها

لينطلق صوت الشيخ بآيات الذكر الحكيم فتلتوي

شفتاه بابتسامة مريرة لم تترها..

كالعادة لا يمر لسانها بحوار إلا وإيهاب فيه!

يطرق برأسه وهو يشعر بكل هذه الطقوس حوله

تجذبه لدوامه..

حنين.. وجع.. قهر.. ذنب.. وغضب..

غضب لا يزال يقات على روحه مطالباً بالقربان!

_ لم تخبرني ماذا تعمل؟! تبدو ميسور الحال كثيراً!

تقولها محاولة مد جسور الحديث بينهما لكنه لا يزال

متشبثاً بأسوار كتمانته :

_ البرمجة! مجال دراستي.

_ وهل العمل بها مجزٍ إلى هذا الحد؟

تسأله وحدث أمومتها يدق بعض نواقيس القلق لكنه

يرد بنفس الاقتضاب الذي شابته مرارة خفية:

_ ربما كنت محظوظاً في عملي أكثر من حظي في

أشياء أخرى.

_ أين كنت تعمل؟! وكيف عدت؟! أشياء كثيرة أود لو

تحكيها لي.. لو تفتح لي قلبك ك"السابق"!

تقولها ببعض الرجاء فيتحص تجاعيد وجهها.. شيب

شعرها.. تهدل كتفيها.. كيف يمكن أن يكون الهرم

جريمة؟!

أن تكون للشيخوخة عقوبة؟!

فقط.. في حالتها هي..

عندما تعجز عن منحه جواب السؤال (أين حقي في

عمرك الذي ضاع بعيداً عني يا أمي؟!)

لهذا تختق حروفه مع قسوة جوابه:

_ أي سابق؟! لا أذكر أنه كان بيننا ذات يوم "سابق"

تحكين عنه!

_ يا صباح الروائح الحلوة.. و"خوخة" الأظلى!

صوت إيهاب المرح خلفه يثير المزيد من مشاعره
وهو يشعر بالأخير خلفه يعانقها قبل أن ينتبه إيهاب
لوجوده فترتجف نبرته نوعاً ما :

_صباح الخير يا إياد.. عفواً لم أرك.

يلتفت نحوه بوجه جامد ليرد تحيته قبل أن تقول
خديجة :

_أين عزة لتشاركنا الإفطار!؟

_لن تفعل.. تسير على حمية خاصة تتطلب صياماً
طويلاً.. هناك شركة أزياء شهيرة للمحجبات تريد
التعاقد معها للإعلان عن بعض منتجاتها لكنها تشترط
مواصفات خاصة.. لا أراها تحتاج لهذا فهي محبوبة
ومشهورة ومجرد اسمها كاف لنجاح الإعلان لكنها
مصرية.

ترمقه خديجة بنظرة عاتبة وهي تميز النظرة
المختلسة التي منحها لإياد بينما يتحدث..
الرسالة الخفية المبطنة التي تمنحها كلماته..
الفخر الذي يرقع ثوب النقص المقطوع..
خاصة أمام إياد!

إياد الذي بدا وكأنه فهم بدوره ما يود أخوه الإيحاء به
لتلتوي شفتاه بابتسامة ساخرة كللها صمته وهو
يتحرك ليرص الأطباق على المنضدة..
يحاول إيهاب المساعدة لكنه يوقفه بقوله ببعض
الفضاظة الباردة:

_ استرح أنت.. لي نظام في "بيتي" لا أحب تغييره.
تتسع عينا خديجة ببعض الضيق الذي هزمه
تفهمها..

بينما ينعقد حاجبا إيهاب قليلاً وقد شعر بالإهانة التي

سولت له عنف الرد..

لكنه عاد يذكر سبب وجوده هنا من الأساس..

إياد يريد الشعور بهذا.. فليمنحه بغيته!

لا يزال يتحاشى لقاء عينيه مشفقاً من ذنبه القديم..

لا يزال "يهرب" من المواجهة.. يكتفي بالمواربة..

بالتخفي خلف قناع "الفاجومي" المهترئ..

لن أغير شيئاً.. فقط سأصب الماء لعمل الشاي.

يقولها ببعض المرح وهو يتحرك بسرعة ليتناول

الغلاية الكهربائية التي امتلأت بالماء المغلي لكن قدمه

الصناعية تصطدم بحافة منضدة قريبة فيختل توازنه

لتسقط الغلاية بمائها المغلي..

إيهاب! أنت بخير؟!!!

صرخة خديجة وهي تهرع إليه تتفقدته تهوي
ك"خنجر" جديد على قلب "هذا الذي اعتاد مثل هذه
النصال" ..

ليرد إياد كاتماً ألمه بسخريته المريرة :

_ اطمئني هو بخير! الماء المغلي وقع فوق يدي أنا!

تشهق خديجة بجزع وهي تعود له ببصرها..

تحاول تدارك خطئها فتزدرد ريقها بتوتر وهي تمسك
كفه تتفقدته هاتفة:

_ اعذرنني.. ظننت فقط عندما تعثر أنه..

تقطع عبارتها خوفاً على شعور إيهاب فلا تعرف كيف
تفسر..

عاطفة أمومتها رغماً عنها تميل كفتها للأضعف..

وإيهاب الآن هو الأضعف..

لكن إياد لا يرى هذا وهو ينفذ كفه منها ببعض
العنف..

تسعي خلفه من جديد هاتفة :

_ سأحضر شيئاً مجمداً من الثلجة نضعه عليها..

لكنه يفتح أحد الأدراج ليستخرج مرهم حروق وضعه

لنفسه قائلاً وهو يغرس نظراته العاتبة في عينيها :

_ لا تحملي همي.. تعودت منذ زمن طويل أن أتولى

أموري بنفسي.

ينعقد حاجبا إيهاب بألم وهو يتبادل مع خديجة نظرة

ذات مغزى..

يود لو يطيب خاطر أخيه بأي كلمة..

لو يخبره أن جرحهما واحد..

لو يصهر هذا الجليد الذي يجمد علاقتهما..

لكن هذا الصوت داخله لا يزال يحكم سيطرته عليه..

(اهرب.. اهرب)

_تناولا أنتما الطعام.. فقدت شهيتي.

يقولها إياد وهو يتحرك خارج المطبخ ليردف مخاطباً

خديجة :

_ولا تتعبي نفسك من جديد.. اعتدت طعام الطباخ.

يقولها ليغادر المطبخ بخطوات عاصفة نحو

الحديقة..

يقع بصره على حمام السباحة القريب فلا يفكر وهو
يخلع قميصه ليلقي بجسده فيه لعله يطفئ هذه النيران

المستعرة داخله..

لن تتغير!

خديجة لن تتغير!

ستبقى عين أمومتها عوراء!!
لا تبصر سوى إيهاب فحسب!!
وفي مكانها في شرفة غرفتها المظلة على حمام
السباحة خرجت عزة لتفاجأ به يغادر حمام السباحة..
عيناها تخونانها بنظرة واحدة هزمها فيها شيطانها
وهي تميز قوامه الممشوق ..

جسده المثالي..

وجهه الذي يشبه إيهاب..

"صورته المثالية"!

يرتجف جسدها فجأة وهي تتذكر قبلة إيهاب لها منذ
أيام..

كيف أيقظت عرائس أنوثتها فجأة قبل أن يعود هو
بعدها لهروبها المقتنع..

لماذا فعل بها هذا؟!

لماذا جعلها تنام جواره كل ليلة وهي تكاد ترجوه أن

يمنحها نفس الشعور الذي غشيها ساعتها؟!

شعورها بأنها امرأة مرغوبة.. بل معشوقة توجهها

رجلها ملكة..!

لكنها تعود بخيبتها كل ليلة تدثر نفسها بصمتها

المخزي..

لا تزال تنزل درج التنازلات الذي يبدو بلا آخر!

تفريق من شرودها على تحديقه هو الصامت فيها

فتلتقي عيناها للحظة شعرت بها وكأنها ألف عام من

خطيئة..

ربما لأن السؤال الأول الذي بادر ذهنها..

كيف يراها (إياد) وهو صورة إيهاب المثالية؟!

هل يراها مثله (غير مرغوبة)؟! (غير كافية)؟!

تبا!

هل وصلت إلى هذا الحد؟!

هل صارت تستجدي صورتها في عيون الرجال؟!

إلى أين تقذفك أفكارك يا بئسة؟!!

تلعن نفسها وهي تعود لغرفتها لتغلق باب شرفتها

بأنامل مرتجفة وهي تستغفر الله سراً..

تمسح وجهها بكفيها وهي تشعر بخطورة الهاوية

التي قذفتها إليها أفكارها..

تقع عيناها على فراشهما فتشعر أنها تكرهه..

تبغضه كما لم تبغض شيئاً في حياتها من قبل!!

ينفتح الباب ليطل خلفه وجه إيهاب بابتسامته
المصطنعة كعهده الجديد فتلتفت نحوه بذعر فجره
شعورها بالذنب لأول وهلة..

قبل أن يتحول لسخط..

منه.. ومن نفسها.. ومن كل شيء؟!!

_ ماذا بك يا جنيتي؟!!

تبا!

حتى لفظة تدليله التي كانت تعشقها في عهد
صداقتها القديم صارت تصيبها بالنفور وهي تشعرها
بأي ثمن بخس باعت حريتها..

هي حقاً صارت جنيته "حبيسة القمقم"!

قمقم امتنانها لصنيعه.. قمقم رهبتها من فراقه.. قمقم

شعورها بالنقص..

قمقم لا تدري من سيحكّه فيحرر روحها التي ملت

السجن؟!

أنت بخير؟!

قلقه الحنون يمسها بنفحة "صادقة" بعيدة عن زيف

ظاهرهما المعهود..

واحدة من "قُبَل الحياة" التي تحاول بها منع

علاقتهما من الاختناق!!

لهذا تتكلف ابتسامة وهي تعدل وضع حجابها على

شعرها لتتناول وشاحها الأخضر القريب من الجوار

قائلة بمرح مصطنع:

اكتئاب "الدايت" كالعادة.. لا تقلق.. قطعة شيكولاتة

تفي بالغرض.. سأغادر فلدي موعد تصوير.. أراك

مساء.

تقولها لتغادر الغرفة فيهم بالحاق بها لكن هاتفه يرن

بالرقم الذي لا يدعي أنه فاجأه..

بل سيكون صريحاً ليعترف..

(جزء من رجولته) كان ينتظر اتصاله..

يتردد قليلاً وهو يشيح بوجهه عن الهاتف لتحيد

عيناه نحو الفراش القريب..

ربما هي خيبات كل ليلة تلك التي دفعته ليحسم أمره

ويفتح الاتصال قائلاً :

_ أهلاً بتول.. كيف حالك؟!_

=====

=====

كما تحب..

يقولها كنان ببعض الأسف مخاطباً حسام عبر الهاتف

لتعود نبرته لطبيعتها العملية مردفاً :

كنت أفضل أن تبقى ديمة معك ومع سند.. دعمك

أنت بالذات - خاصة بعد ما رويت لي من تطوراتها

الأخيرة - كان ليفيدها أكثر.. لكنني أتفهم موقفك بعدما

حدث.. سأذهب لها في المساء في بيت السيد فهد

وأقنعها بالقدوم معي للمصحة.

_بل.. ستكون في بيتي عند حضورك.

يقولها حسام بحاجبين منعدين بقسوة مضمرأ ما

ينتويه ليتنح كنان قائلاً:

_لا أثق بعواقب وجودها في بيتك من جديد بعد ما

حدث.. لماذا تريد أن يكون خروجها للمصحة من

بيتك؟!!

يصمت حسام للحظات مستحضراً كذبة منطقية :

_ستبقى ترهب ذكرياتها فيه مالم تواجهها من جديد..

درسنا شيئاً كهذا في كلية الشرطة.

يهمهم كنان للحظات سبقت تفكيره قبل أن يقول :

_ في حالتها كل الاحتمالات وارده.. ساكون مرناً أكثر
مع اقتراحك.. معك حق.. ربما كانت المواجهة أفضل
من الهروب.. هل ستكون متواجداً حينها؟!

_ بالطبع!

يقولها حسام بنبرة ازدادت قسوتها وكفه يعتصر
"حرير" قماشتها التي نسجتها له يوماً..
عجباً لها من امرأة علمته كيف يمكن أن تنسج
الحرير شوكاً..

كما تحيل الشوك حريراً!

فلترحل.. فلترحل مع من رحلوا لكن.. ليس قبل أن
يستعيد ما فقدته من نفسه معها أولاً.

_ اتفقنا.

يقولها كنان وهو يكاد ينهي الاتصال لكن لسان حسام

يغدر به في لهفة لعنها :

_ هي ستكون بخير!؟!

_ ظننتك لم تعد تهتم.

المكر يخالط الأسف في نبرة كنان ليشتمل صمت

حسام دون رد للحظات..

قبل أن يغلق الاتصال بقوله:

_ لم أعد.

يزداد كفه اعتصاراً للقماش الحريري بين يديه فلا

يدري هل هي رغبته في تمزيقه.. أم في التشبث به!!

لماذا يحترق قلبه هذا الحد!؟!

ألم يكن يفترض أن تكون هذه نهاية حكايتهما!؟!

هو كان يعلم أنها سترحل..

كل ما كان يطلبه فقط أن تمنحه "وجهاً أبيض" قبل

رحيلها..

لكنها بدلاً من هذا أعادته لأكثر وجوهه سواداً..

تباً لها ولقلبه الذي خانه كل هذا القدر!!

يخفي قماشتها الحريريّة في جيب قميصه وهو يجري

اتصاله السريع بفهد..

يكذب زاعماً أن دكتور كنان هو من اقترح خروجها

للمصحة من بيته..

فيرد فهد بخيبة :

_ خيبت أملي فيك.

لكنه يتجاهل رده قائلاً:

_ دكتور كنان قال أن هذا هو الأفضل لحالتها.

_ بل قال إنه هو الخيار الثاني بعد بقائك أنت معها.

يقولها فهد بمزيج من إصرار ورجاء ليتجاهل حسام

قوله من جديد قائلاً :

_سند سيبقى معي حتى تخرج هي من المصحة أو

يعود عاصي الرفاعي ويرى ما يريد فعله.. الصغير

ارتبط بالخادمة الجديدة وهذا من حسن حظنا..هي

ستؤدي دورها.

يزفر فهد بسخط قائلاً باستنكار :

_خادمة ستؤدي دورها؟! حجر صوان! رأسك حجر

صوان! ظننت الحب سيهذبك هذه المرة لكن..

_أعدها لبيتي في الساعة (...).. اتفقت مع الطبيب

على هذا.

يقاطعه بها بحسم قبل أن يغلق الاتصال مغلقاً معه

المزيد سبل من الجدال..

يقود سيارته دون وعي في شوارع العاصمة لعل

الزحام يبتلع أفكاره..

يحاول التلهي بحكاية إبراهيم ويسرا كما عرفها

مؤخراً..

الهائم وجدت لعبتها الجديدة في ضحية بريئة

كإبراهيم..

لم يتعجب فعلتها بحكم معرفته القديمة بها..

لكن ما تعجبه حقاً هو أنها تمادت إلى هذا الحد!

حد إنجاب طفل منه!!

لماذا ورطت نفسها في هذا العالم البعيد جداً عن

عالمها؟!!

لماذا لم تكتف من عبثها الملعون ببضعة أيام أو

أسابيع؟!!

والأعجب..

لماذا تبرعت للعجوز بكليتها؟!!

هل تقمصت الدور إلى هذا الحد؟!!

أم..

تنقطع أفكاره وهو يسمع رنين هاتفه فيزفر متمتماً

بتهكم ساخط:

_ لييتي تذكرت "ربع جنيه"!

يفتح الاتصال ليصله صوت إبراهيم على غير عادته

فظاً متشحاً بقسوة مستحدثة على طبعه الخلق:

_ أعرف أنك قد عطلت عمالك لبعض الوقت.. لكنني

أريد رفع قضية ولا أعرف غيرك ليساعدني.

_ أي قضية؟!!

_ قضية تزوير.. نصب واحتيال.. سمها كما تحب.

قسوة صوت إبراهيم تزداد ليرد حسام ببعض

السخرية :

_وعلى من تريد رفع هذه القضية؟! على يسرا رفعت

الصباحي؟! بالله لا تقل إنك بهذه السذاجة! أنت لا

تعرف مع من تتعامل.

_بل صرت أعرف.. صرت أعرف..

يصرخ بها إبراهيم بحرقة تقذف لهيبها في صدر

حسام الذي أوقف سيارته ليرد بنبرة أهدأ :

_أتفهم ما أنت فيه لكنك لن تصل لشيء بهذا.. هي

ستعرف كيف تخرج من قضية كهذه كالشعرة من

العجين.. لن ينالك سوى التعب.

_ولو كانت آخر لحظة في عمري.. لن أهدأ حتى أراها

خلف القضبان ولو لساعة واحدة.

الوعيد المحترق بلوعته في صوت إبراهيم يخبره أنه
قد حسم أمره فيخبط بقبضته على مقود السيارة
للحظات قبل أن يرد :

_لو كنت كلمتني في هذا قبل أيام فقط لرفضت طلبك
دون تفكير.. لكنني حقاً أريد تبديد شحناتي هذه..
فليكن.. دعنا نرفع القضية.

=====

لماذا جاء إلى هنا الآن؟!

بل لماذا كف عن زيارتها منذ اكتسحت ديمة حياته؟!

الجواب واحد..

هو - ظنها- ستكون وجهه الأبيض الجديد فخاب
ظنه..

والآن بعد رحيل أمه وسلطانة..

لم يعد يرى لنفسه وجوه بيضاء سوى البقايا هنا..
دينا!

يجذب كرسيه ليجلس جوار فراشها..

ملاحها كعادتها مسكينة.. مستسلمة.. هاربة..

ليته يملك مثلها رفاهية الفرار لعالم اللاوعي..

ليته!

يطرق برأسه وهو يشعر بالمكان حوله يذكره بلقائه

الأخير بأمه..

لعلها الرائحة.. الجدران البيضاء.. نكهة الفقد..

الحرمان..

ذكرى وجه أبيض لنفسه يفتقده..

لعله كل هذا!

يرفع عينيه لتتسعاً ببعض الدهشة وهو يميز على

ملاحح دينا المستكينة وجه أمه..

هل أرهقته قلة النوم هذا الحد؟!!

يتأوه بخفوت لتصفعه الذكرى هاهنا..

الذكرى التي نسيها.. أو حاول تناسيها منذ تلك

اللحظة التي غادرت فيها روح أمه لخالقها..

وصية أمه..!

الآن يسمعها من جديد بصوتها اللاهث.. بملاححها

الراجية على وجه دينا.. :

**_ ديمة.. ديمة ليست صادقة.. وليست كاذبة.. ربما
دخلت حياتك حقاً كي تنتقم لصاحبته لكنها أحبتك.. أنا
رأيتها في عينيها.. وليس أصدق من "رؤيا أم"!
تدمع عيناها..**

**يختلج جسده كله ببياء ذرفته روحه قبل جفنيه وهو
يسمعها كأنه الآن فقط استعاد ذاكرته :**

**_ لا تستهن برؤيا الأم يا ابني.. نفس الرؤيا التي
غشيتك رغم ما تظنه من سواد روحك لترى
"وجهك" على حقيقته.. لا ملاكاً ولا شيطاناً.. بل بشر
خذلته الدنيا وخذلته نفسه ولا نجاة له على الأولى إلا
بالثانية..**

**يغمض عينيه بقوة وهو يعتصر كفيه ليصله الصوت
هادراً.. مهدداً.. منذراً.. وناصحاً..**

لو خسرت هذه المرة فلن تريح ابدا.. بالله عليك يا
ابني.. أعد لي "ابني" .. ابني الذي افتقدته منذ
سنوات تعبت من عدها.. تعلم لماذا كنت أحتفظ
بصورك دوماً في ذاك الألبوم؟! لماذا كنت أحرص
عليها كمن يدافع عن كنزه؟! لأتني كنت أنتظر رجاء
ربي فيك.. أن أضع الصورة الأخيرة لك فيه فتشبه
الأولى.. صورتك وأنت تضحك من قلبك بعدما
تجاوزت جروح العمر.. أمانة عليك يا ابني.. لو
خاني الموت قبلها فلا تحرمني صورتك هذه.. ضعها
بنفسك واجعلها هديتك لروحي.. لا تؤذ ديمة.. لا تتخل
عن سند.. لا تعد لضالك القديم.. كفاك جلدًا لنفسك..
الطريق أمام عينيك فلا تغلقهما عامداً.. عدني يا
ابني.. عدني..

يفتح عينيه فجأة ليختفي وجه أمه فجأة كما ظهر..

لم يمنحها وعده كما كان ليلة وفاتها..

رحلت قبل أن يفعل..

تراها إشارته أنه لن يقوى أبداً على فعلها؟

أنه سيكون دوماً شيطان الحكاية؟!

يطرق برأسه بيأس وهو يتلفت حوله كأنه يبحث

عنها..

كيف يكون لـ "طيف" ميت كل هذا الحضور؟!

هل أصابته العدوى من ديمة؟!

هل صار مثلها أسير أشباحه؟!

يبتسم ساخراً بمرارة للخاطر الأخير وهو يشعر

بحاجته الضارية لسيجارتته..

لن يمكنه فعلها هنا فليرحل..

لم يجد بغيته هنا على أي حال!!
يلقي على دينا نظرة أخيرة مشتتة غير منطقية كأنما
يلومها على ما لم تفعله..
ظهور طيف أمه.. أم اختفاؤه؟!
تذكره لوصيتها.. أم نسيانها من الأساس؟!
عجزه عن منحها وعده.. أم عن الوفاء به؟!
تبا!

لماذا سمح لنفسه أن تتصدع جدران قلعه الآمنة
هكذا؟!

لماذا سمح للحب بدخول حياته؟!
لماذا داعب بالأمل قوس قزح في سماء حارقة لا
تعترف بمطر؟!
لماذا؟!

يغادر الغرفة مشتعلًا كأنما تلبسه ألف شيطان!!

كيف ظن أنه سيجد لنفسه سلواناً هنا؟!

عن أي وجه أبيض كان يتحدث؟

لم يحتمل أكثر ليشعل سيجارة أخذ منها نفساً عميقاً
لينفثه بقوة..

الدخان يتشكل في صورة أنشودة تلتف حول رقبته
فيعود برأسه للخلف..

الأنشودة تتحول لخنجر.. خنجر تخفيه خلف ظهرها
حلقة زعفران خادعة ولا تدري أنه يخفي خلف ظهره
مثله..

متى تعانقا حتماً يموتان!

يطفى سيجارته في معصمه أخيراً كما اعتاد كاتماً
صرخة ألمه..

جبينه يبخل عليه بعرقه الغزير كالعادة كأنما رضي له

كامل الاحتراق..

لكنه يصطدم بنظرة حارس المكان..

امراة وطفلها..

فتاة وأبوها..

كلهم ينظرون إليه نظرتهم لمختل!!

هذه النظرة التي أصابته في مقتل!!

هو..

هو حسام القاضي الذي طالما أجاد ارتداء قناع

جاذبيته يأتي اليوم الذي يفقد فيه سيطرته حتى يظهر

هكذا جرحه للناس حياً؟!!!!

لا..

لا..

يلقي سيجارته أرضاً كأنما يلقي معها ما بقي من
ضعف قلبه ثم يغادر المشفى بخطوات راكضة كأنه
يهرب..

يتوقف أخيراً أمام مرآة المدخل يضبط هندامه..
يمشط شعره بأنامله..

يرمق نفسه بنظرة راضية ثم يتحرك نحو سيارته وقد
دفعه الموقف الأخير للثبات على قراره..
تلتمع عيناه بنظرة حاسمة وهو ينظر في ساعته..
لم يبق الكثير على موعد كنان..
دقائق.. وتنتهي الحكاية..

تنتهي ويعود هو ل"أمانه السابق"..

ل"كنزه" في عيون الناس..

هو سيضع النهاية كما يريد هذه المرة أيضاً!



أصفر *أزرق *بنفسجي



_ كيف حالك يا رؤى!؟

تخاطبها بها جنة عبر الهاتف بود صادق لا تزال تأمل

أن تزيل الأيام شوائبه لترد رؤى بود مماثل:

_ بخير حال.. افتقدتك جداً.

يتبادلان عبارات مودة دافئة يتبعها صمت ثقيل كانت

رؤى أول من تقطعه بسؤالها القلق:

_ ماذا هناك؟! أشعر أنك تترددين في السؤال عن

شيء ما يخصني!

تتنحج جنة بخرج لتحسم أمرها قائلة :

_ لا حاجة بي لقول كم تثق كل منا بالأخرى.. حتى بعد

مرور هذه السنوات.. وما أريدك بشأنه سري للغاية..

لا أريد أن يخرج بيننا ولا حتى لزوجك.

يرتعد قلب رؤى بخوف فطري لكنها تعاود قولها

بحسم:

_ معك حق.. ما بيننا من ثقة لن تغيره السنوات..

عساني لا أخيب ظنك.. تكلمي بصراحة.. أنا أسمعك.

_ عزة الأنصاري.

تقولها جنة مباشرة لتغمغم رؤى بدهشة:

_ طليقة راغب! ماذا عنها!؟!

_ ليس عنها هي.. علمت أنها انتقلت للعيش في بيت

أخ زوجها..

_ أجل.. اسمه إياد..

_ صحيح.. أخو إياد هذا من الأب يقيم معهم.. اسمه

نزار.. تعلمين عنه شيئاً؟!

تسألها جنة باهتمام لكن رؤى ترد بجهل:

_ أنا بالكاد أعرف شيئاً عن عزة نفسها.. علاقتها بنا

شبه مقطوعة بعد ما فعلته هيام معها ليلة زفافها.

_ ألا يمكنك مساعدتي قليلاً؟!

تقولها جنة برجاء لتزرد رؤى ريقها بتوتر قائلة :

_ ما الأمر بالضبط؟! أهو شأن يخصك كمحامية؟!

_ شيء كهذا! لدي شكوكي بشأن ذاك الرجل لكن لا

شيء رسمي يمكنني من تتبع مساره.. لهذا أرجو

منك أن تقتربي من عزة هذه الأيام لكن لا تخبريها
بشيء مباشرة.. لو قبلت فسأخبرك بما ستفعلينه
وأكون معك خطوة بخطوة.

تتردد رؤى قليلاً وهي تتذكر آخر محادثة لها مع
راغب..

ياحظك يا عزة!

تخلصين من خطيبك المجرم الأول لتقعي مع عائلة
مشبوهة!!

الخوف يكاد يجعلها ترد بالرفض لكنها تعود لتتذكر
فضل جنة عليها..

هي كادت تضحى بنفسها يوماً لتجلب لها مجرد ورقة
زواج عرفي تثبت حقها مما فعله معها فهد الصاوي..

حتى لو شاء الله بعدها أن تصير الأمور لغير ما بدأت

به..

دين ثقيل سيبقى في عنق صداقتهما للأبد..

كما أنها لا تخفي رغبتها الحقيقية في التأليف بين

عزة وهيام..

البيت صار لا يطاق وعصيبة الأخيرة تحيله جحيماً

بسبب هذا الشقاق بينهما..

لهذا حسمت أمرها لترد :

_ سأتدبر الأمر بإذن الله.. لا تقلقي.

_ أثق بك.. خذي الخطوة الأولى وأبلغيني.. سأخبرك

بعدها بما سنفعله.

تقولها جنة بامتنان وهي تغلق معها الاتصال لتشعر

بكفه على كتفها مع صوته العاتب:

فعلت ما برأسك يا أستاذة؟!!

تلتفت نحوه بابتسامة وهي تعانق وجهه بكفيها

لتهمس ببعض المرح :

تهمة تجسس واضحة! منذ متى تتصنت على

مكالماتي؟! أطالب بأقصى عقوبة على المتهم.

لكنه لا يستجيب لمرحها وهو يضمها إليه لا شعورياً

بخوف لم يملكه مع رده :

لا فائدة في عنادك! مصرّة أن تسلكي هذا الطريق

منذ أخبرنا حسام عن هوية نزار ذاك.. قلت لك أنني

سأتصرف بطريقتي.

تقبل وجنته بعمق محاولة امتصاص غضبه لترد

بتعقل :

وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ! أَوَّلًا.. طَرِيقَتِكَ هَذِهِ سَتَشْمَلُ الْإِسْتِعَانَةَ
بِأَنْوَاعٍ لَا نَضْمَانَ وَلَا عَهْمَ وَلَا انْتِمَاعَاتِهِمْ.. مَا يَدْرِيكَ أَنْ
الْكُوبِرَا الَّذِي أَوْصَلَ إِلَيْكَ ذَاكَ الْفِيدِيُو فِي بَيْتِكَ لَنْ
تَكُونَ لَهُ يَدٌ عَلَى أَوْلَادِكَ الَّذِينَ سَتَتَّصِلُ بِهِمْ؟! نَحْنُ نُرِيدُ
السَّرِيَّةَ وَالثِّقَةَ وَهَذَانِ تَضْمِنُهُمَا لَنَا رُؤْيَا لَوْ نَجَحْتَ
فِي مَسْعَاهَا مَعَ عِزَّةٍ.. ثَانِيًا.. الْكُوبِرَا لَيْسَ بِهَذَا الْغِبَاءِ
لِيَتْرَكَ خِيطًا وَاهِيًا خَلْفَهُ.. بَلْ أَكَادُ أَجْزَمُ أَنَّهُ أَلْقَى لَنَا
طَعْمًا خَادِعًا لَنْ يُوصلَنَا لشيءٍ.. دَعَاهُ يَظُنُّ أَنَّهُ يَسْبِقُنَا
بِخَطْوَةٍ بَيْنَمَا نَلْتَفُّ مِنْ خَلْفِهِ لِنَدَاهُمَهُ.. عِلَاقَتِي بِرُؤْيَا
لَا يَعْرِفُهَا أَحَدٌ.. رَبَّمَا نَصَلُ مِنْ خِلَالِ عِزَّةٍ لشيءٍ..
شيءٍ أَبْعَدَ مِنْ نِزَارِ نَفْسِهِ الَّذِي أَظْنَهُ مَجْرَدَ تَمْوِيهِ.
يَرْمِقُهَا فَيَهْدِي بِنَظَرَةٍ طَوِيلَةٍ مَفْكَرًا..

رغم يقينه في صحة ما تقوله لكن مجرد طرق باب

رؤى بالذات يزعجه..

أخطاؤنا القديمة - غير القابلة للإصلاح- تبقى ندوبها

في القلب حية مالم يمنحها العوض بعض القربان..

فأي عوض قد يمنحه من هو في مكانه؟!!

لهذا يطرق بوجهه دون رد فتضم رأسه لصدرها

هامسة بحنان رغم انفعال نبراتها المرتعشة:

_أعرف أنك مثقل بالهموم.. عدت لتوك من الصعيد..

تحمل هم حسام وديمة وسند وماسة وعاصي

وابنتهما.. الماضي الذي فتح أبوابه ليس فقط من

خلال الكوبرا.. بل حكاية إبراهيم الغريبة التي عرفناها

مع يسرا الصباحي.. أنا نفسي غير قادرة على

التصديق حتى الآن رغم حديثي مع مستر ربيع

والصور التي أرسلها لي عبر الهاتف.. لكنني أثق
بك.. بنا.. سنعبر كل هذا معاً.. كما عبرنا غيره من
قبل.

يتهد بحرارة وهو يرفع عينيه نحوها ليقول بضيق لم
يكتمه:

أكبر همومي حالياً البائسان حسام وديمة.. . على
الأقل سند يجد بعض سلوانه في اللعب مع صغار
سلطانة ومهارة الخادمة الجديدة في جذب
انتباهه.. لكن حسام الذي تلقى أقسى ضربة عرفها في
حياته.. ضربة كفيلة بأن ترده لضلالة القديم دون
رجعة.. وديمة هي الأخرى انقطعت كل خيوطها..
حسام كان أعظم من يمنحها دعمه.. والآن لا أظنه
قادراً على تجاوز ما كان.. حتى وهو يتفهم حالتها..

عاصي هاتفني منذ قليل بعدما علم ما حدث وتواصل
مع كنان بشأن ديمة.. يرجح ذهابها للمصحة بطبيعة
الحال خوفاً على سند خاصة وهو يتوقع تخلي حسام
عنها بعد ما كان منها.

_ربما كان ذهاب ديمة للمصحة هو الحل الأفضل
لها. . مادام صاحبك أخلف وعده ولم يكن على قدر
كلمته!

_تبدلين متحاملة على حسام كالعادة! ألا يكفيك ما
كان؟!!

_ما أعرفه أن الرجل الذي لا يقدر على عبء فلا
يتطوع بحمله من البداية! صاحبك لم يتزوجها سليمة
معافاة.. هو عرف علتها من البداية ورضي بالزواج
منها.. فلماذا يتركها الآن في منتصف الطريق؟! هل

فاجأته حالتها مثلاً؟! غشته؟! كذبت عليه؟! لن أنسى
منظره وهو يزورنا هنا رافعاً كفها في كفه ليفاجئنا
أنه تزوجها كي يحميها.. اعذرنى.. ربما كنت متعصبة
لبنات جنسي لكنني لا أعذره حتى بعد كل ما كان
منها.. هو لا يتعلم من أخطائه.. لو كان الأمر بيدي
لطلبت من ديمة بعد أن تتحسن حالتها أن أرفع لها
بنفسي قضية طلاق منه زاعمة أن زواجهما غير
صحيح لأنها لم تكن سليمة العقل تماماً عندما
تزوجته.. ليست قضية طلاق فحسب بل قضية عنف
زوجي و..

كفى.. كفى.. لهذه الدرجة؟! صحيح.. "إن كيدكن
عظيم!"

يقولها فهد مقاطعاً بيأس من مجادلتها ليردف بحمية

لصاحبه:

_تحدثين وكأنها داست على إصبعه مثلاً كي ينسى
في يوم وليلة!! أنت تعرفين ماذا كانت سلطنة تعني
له.. والأدهى وفاة أمه هكذا فجأة بسببها.. حتى لو لم
تكن تقصد.. ثم تختمها باعترافها أنها كانت تخرجه..
أنها ما دخلت حياته إلا لتنتقم.. هي زلزلت الأرض
تحتة.. هو يحبها.. بل مهووس بها.. وليس أقدر مني
على إدراك شيء كهذا لكنه مثلها الآن مصدوم..
كلاهما يترجم صدمته بطريقته.

تطرق برأسها قليلاً بتفهم صادق لما يقوله فيزفر

بعدها مردفاً :

_ اذهبي إليها وكوني معها.. أعرف أنها ترفض
الحديث مع الجميع.. لكن.. على الأقل حاولي.. لعل
الدواء الذي كتبه الطبيب آتى ثماره.. أقنعها بالعودة
لبيت حسام الليلة فقط.. لعل المواجهة تفيدها حقاً كما
يقول الطبيب.

تطيعه وهي تخرج من غرفتهما نحو صالة البيت
حيث جلست ديمة هناك في الزاوية متكورة على
نفسها كعادتها منذ حادث وفاة أم حسام..
لا تتكلم.. لا تتواصل.. بل ولا تبكي..
عيناها شاردتان في فراغ سحيق بدا وكأنه ابتلعهما..
الرؤى تختلط فلا تميز حقيقة من خيال..
رائحة مربى الورد..
مذاق قبلته..

أنامله ترفع طرف ثوبها..

الأقراص..

السكين..

سقوط سلطنة..

سقوطه هو..

سقوط أمه..

سقوطها هي..

هاهي ذي حققت انتقامها..

أدت من آذاها..

اختفى احتقار شبح غازي الأسود..

ولم تعد بحاجة لدعم الأرجواني..

وحده شبح هالة بقي..

يربت على كتفها عاتباً تارة..ومشفقاً تارة..

لكنه لا يفتأ يذكرها..

(استفتي قلبك يا ديمة.. هو يعرف خريطة كنز

سكينته!)

_تريدين شيئاً؟!

صوت جنة يخترقها لتنتفض مكانها برعب يوتر

الأولى التي تحاول تهدئتها قائلة :

_لم أقصد إخافتك! اهدئي حبيبتى.. كنت فقط أريد

سؤالك.. هل تريدين شيئاً؟!

ترمقها ديمة بنظرة خائفة للحظات قبل أن تعود

لجلستها الأولى مستسلمة لصمتها فتتنهد جنة يائسة

من ردها كالعادة..

لكنها تمنحها إياه أخيراً :

_أريد أن أبكي.

ورغم سوداوية الجواب لكن جنة تتشبت به فتجلس

جوارها من جديد قائلة :

ولماذا لا تفعلين!؟!

لا أستطيع.. الدموع راحة.. راحة لا أستحقها.

صوتها بالكاد يغادر شفيتها المتشققتين فتتهد جنة

بإشفاق ثم تحاول أن تضم رأسها لكتفها..

ترفض ديمة أول الأمر وقد بدت مستسلمة لتخشب

جسدها لكن عناد جنة الحنون ينتصر في النهاية..

ليستقر رأس الأولى على كتفها فتضمها بذراعيها

قائلة :

تعلمين أن قصتنا تتشابه في جزء منها!؟! أنا الأخرى

اقتربت من فهد في البداية انتقاماً لصديقة لي.. دون

تفاصيل كنت أراه شيطان الحكاية.. لكن القدر كتب لنا

حكاية أخرى.. لهذا أشعر بك.. أشعر بالذنب الذي يكبل
قلبك ولا أخفيك قولاً أنني شعرت يوماً بمثله.. لكنني
أحمل بنفسي شيئاً يختلف عنك.. أنا أوقن أنني خلقت
محاربة لا ضحية.. والمحارب لا يترك سيفه أبداً مهما
كانت خسائر المعركة.. يوماً ما حاربت وحدي..
صمدت في وجه الغربة.. الوحدة.. الخوف.. بل
والشوق لحبيب حملت ابنته في أحشائي.. لكنني عدت
منتصرة.. كسبت رهاني على قلبي وقلبه.. فهمت أن
للقدر حكمة.. أن الله سبحانه وتعالى يؤلف القلوب
كيفما شاء.. أن عقولنا القاصرة قد لا تبصر المغزى
في حينه لكن الزمن دوماً يحمل الجواب في طياته..
يقولون أن "كلٌ ميسرٌ لما خُلق له" .. فلا تحملي

نفسك ما لا تطيقين.. النسيان عطية القدر لمن
يستحقها..

_ عن أي نسيان تتحدثين؟

تصرخ بها ديمة فجأة لتنتفض واقفة مكانها وهي
تشير لعنقها :

_ أنا صرت أحمل ذنبين في عنقي.. ذنبين..

تزدرد جنة ريقها بتوتر ومظهر ديمة التائر بعد
استسلام يربكها لكنها تقف مكانها قائلة :

_ أحدهما لم تكوني واعية فيه.. والثاني كان رغماً
عنك..

لكن ديمة بدت وكأنها عادت لشرودها من جديد فلم
تسمعها..

فقط تردد بنبرة من يذبحونه حياً:

_ أنا جربت دور الضحية فلم أسترح.. جربت دور
الجاني فلم أسترح كذلك.. كلاهما يمزقني بطريقته..
أنا ملعونة كما كانوا يقولون.

_ تسمعين عن ألم المخاض؟! الوجع الذي يكاد يفتت
الجسد ذرة ذرة قبل أن يأتي الخلاص ممتزجاً بسحر
الميلاد؟! لست ملعونة.. بل مبتلاة.. لعله عنق
الزجاجة الذي ستخرج منه روحك قريباً كي تحلق
دون قيود.

ترمقها ديمة بنظرة توهجت للحظة..

قبل أن تعود لسابق انطفائها..

أي خلاص؟!!

أي ميلاد؟!!

أي تحليق؟!!

إنها حتى لا تجرؤ على الحلم..!
قيود ذنبها تثبتها في قاع جحيم من نوع جديد..
كانت ضحية.. فصارت جانية..

والنيران واحدة!

_ اسمعي نصيحتي ولا تستلمي لأفكارك.. واجهي
مخاوفك ولا تهربي.. دعينا نعد لبیت حسام.
تقولها جنة برفق لترتد ديمة للخلف بشهقة
مفروعة..

تلتصق بالجدار خلفها وهي تردد دون وعي:
_ مستحيل.. مستحيل..

تقولها ثم لا تلبث أن تكرر اسم حسام.. اسم أمه.. اسم
سلطانة.. كأنها تواجه ذنوبها دون ساتر..!

لكن جنة تعانق كتفيها بقبضتيها محاولة أن تثبت فيها
قبساً من قوتها:

كفاك اختباء خلف الجدران.. واجهي.. اعترفي..
انتفضي لحق كما انتفضت بالباطل.. لو لم يكن لأجل
نفسك فلأجل سند.. لا تفجعيه بك كما فجع بأمه.
وكانما كان لكلماتها مفعول السحر!
ربما لو كانت ديمة "القديمة" لما مرت بها هذه
الكلمات إلا كما يمر النسيم على شاطئ فيلطف دون
مزيد أثر..

لكنها الآن وهي تتنفس قوتها بعد طول خنوع تشعر
وكان كلماتها عاصفة تجتاحها..

فلتواجه..

فلتواجه الماضي والحاضر بل والغد..

_ استفتي قلبك يا ديمة.. هو يعرف خريطة كنز

سكينته!

من جديد تسمعها بصوت شبح هالة الأبيض الذي

يبدو وكأنه تسلّم شراع مركبها في هذه المرحلة..

فيرتخي جسدها لتبدو وكأنها تزفر جحيم روحها كاملاً

بكلمتها :

_ سأواجه.

=====

يتوقف أمام بيته أخيراً..

لم يزره منذ وفاة أمه و.. سلطنة!

لن يستقبله نباحها الوفي بعد اليوم..

لن يلقي في رحابها هموم يومه الثقيل..
لن يجد المزيد من الوقت ليلعب صغارها معها
متسائلاً :

_ هل تشعرين الآن بالكمال؟!
يغمض عينيه على دمعة جافة كسيف مسموم..
لا وقت للمزيد من الحطب..
غداً سيترك نفسه لاحتراقه الكامل لكن الآن..
الآن سيعود لـ "حصنه القديم"..
يختبئ خلف سور الحديقة يراقب ديمة من بعيد وقد
بدت شاردة شاحبة الوجه مرتجفة الجسد جوار جنة
وفهد اللذين انخرطا في الحديث..
فيقاوم نداء قلبه الواهن أمام اشتعال جوارحه..
لن يضعف من جديد..

سيمضي فيما انتواه للنهاية..

يسمع صوت توقف سيارة كنان خلفه ليهبط منها
رجلان ضخما البنية رمقهما هو بنظرة متسائلة ليرد
كنان مطمئناً :

_ لا تخف.. وجودهما مجرد احتياط.. لا أظنها
سترفض القدوم معي.

يكز على أسنانه بقوة وهو يقاوم هذا الشعور الجامح
داخله..

تتلاحق أنفاسه وهو يشير لهم بالدخول ثم يفتح الباب
بنفسه قاطعاً عليها طريق الرجوع..

يقف مكانه في ركن خفي مراقباً ثم يستخرج هاتفه
لينفذ ما عزم عليه..

لن يتحدث الناس أن امرأة دخلت بيت حسام القاضي

لتخدعه وتكون سبباً في مقتل أمه..

ليصور كل ما سيحدث في "فيديو لايف" على

صفحته..

ليشهد الجميع أن حسام القاضي لا يزال كعهده.. لا

يترك ثأراً ولا يخذع بوجه..

ليشهد الجميع أن "المختلة" غادرت للمكان الذي

يجب أن تنتمي إليه.. غادرت من "بيته" هو.. للأبد!

لهذا حرص أن يكون خروجها من هنا..

هو من أدخلها.. وهو من سيخرجها!

يضبط الهاتف بوضع مناسب ثم يتحرك به مقترباً

ليضعه على ارتفاع ملائم فوق البيت الخشبي الذي

كان يوماً ما لـ "سلطانة" فيشعر بنوع من العدالة..

يبدو أن ديمة لم تنتبه لحضوره وهي تصرخ في وجه

كنان بفرع:

_ لا.. لن أذهب لأي مكان.. لن تحرموني من سند..

يحاول كنان إقناعها :

_ لن يحرمك أحد منه.. سيحضر لزيارتك كل يوم..

ستكونين تحت رعايتي.. ألا تستريحين بالحديث

معي؟!!

لا يزال يكرر عبارات مشابهة لكنها تهز رأسها

برفض وهي تتراجع بجسدها للخلف صارخة في وجه

فهد وجنة :

_ لهذا جئتم بي وحدي إلى هنا؟! كنتم تنتوون فعل هذا

بي؟! أعيدوني لسند.. أعيدوني..

هياجها التائر يشعل الموقف وجنة تحاول تهدئتها
لكنها لا تشعر بذراعيها وهي تدفع الجميع عنها
باستماتة صارخة :

_ لن أذهب.. لن أذهب.. لست مجنونة.. لن أذهب..
لن..

يكاد كنان يشير للرجلين معه كي يسيطر على هياجها
وعنف حركاتها لكن صرخاتها تنقطع وهي تتجمد
مكانها أخيراً عندما ميزت وجود حسام..
بعيد..

بعيد جداً..

كأنه يقف في السماء!

تتخفق صرخاتها في حلقها وجسدها كله يرتجف
بشوق..

برهبة..

ياالقسوة هذين عندما يجتمعان معاً!

لا تشعر بنفسها وهي تنفلت من بينهم لتهرع إليه..

تقف أمامه لتتشبث بقبضتيها في عضديه.. تغرسهما

داخلهما غرساً..

تعاود الصراخ من جديد :

_ لا تدعهم يأخذوني.. لا تدعهم يأخذوني..

صرخاتها التي انهمرت حوله تتكرر دون أي صدى

على ملامحه التي بدت وكأنها قدت من صخر وعيناه

معلقتان بفردة قرطها البنفسجي..

فتروعها هذه القسوة في نظراته..

تذكرها بجريمته.. بجريمته..

المشاهد تتوالى.. قاصفة.. كالبرق.. كالرعد..

سقوط سلطنة..

سقوط أمه..

سقوطه هو..

ثم سقوطها هي..

فيخف ضغط قبضتها على عضديه..

يختنق صوتها..

_ ستتركني لهم؟!!

نظرته تزداد قسوة.. جسده يزداد ارتجافاً..

ضغط قبضتها يخف أكثر..

صوتها يختنق أكثر..

_ ستحرمني من سند؟!!

قسوة نظراته تزداد أكثر.. وارتجافة جسده تتحول

لرعدة واضحة كأنه يحارب الكون كله الآن وحده!

ضغط قبضتها يخف أكثر وأكثر..

صوتها يختق أكثر وأكثر..

_ لا مزيد من "أنا معك"؟!.. هل.. هل هذا هو

"الثلث" الذي سادفعه هذه المرة!؟

المزيد من قسوة نظراته تبذر الخذلان في روحها..

لكن.. ماذا كانت تنتظر!؟

اختفى شبهاها المزعجان لكن ذنبها بقي معلقاً

بروحها..

ذنب لا تذكر متى ولا كيف اقترفته..

تماماً كالعمر الذي مر ولا تدري كيف مر!

حلقة الزعفران في عينيها تذوب.. تختفي.. تموت فلا

يبقى سوى زرقة داكنة أسدلت عليها جفنيها

وذراعها يعودان جوارها خائبين..

لم تبكِ عيناها.. لا تزالان تعاقبانها بجفاف يشبه

جفاف العمر..

لكن روحها كلها كانت تبكي!

هو الآخر خذلها كالآخرين..

فهل تلومه؟!!

لكل شيء ثمن كما علمتها الحياة.. وهي دوما تفي

بالثمن!

تعطيه ظهرها لتتحرك نحو كنان..

صوتها المبحوح من فرط الصراخ يغادر شفثيها

باستسلام ميت :

أنا قادمة معك.

ينقل كنان بصره بحذر شابه بعض الضيق بينها وبين
حسام قبل أن يتحرك جوارها محاولاً طمأنتها ببعض
الكلمات..

لكنها لم تكن تسمع..

تكتف ساعديها كأنما تضم "رفات" روحها الميتة
بالمزيد من الاستسلام..

لا يهم أين يذهبون ب"الرفات" ..

ستذروه الرياح على أي حال!

"قارب" جديد سيرسم زرقة بحر مجهول.. وحمرة دم
أمس مفقود..

الأرجوانية ستلون حياتها ثانية..

لعلها تحمل راحة الموت هذه المرة.

وفي مكانه كان يشعر هو أنه يتفتت..

هاهو ذا من جديد يذبح حبه قرباناً لغروره..
هو ارتضى أن يكون شيطان الحكاية.. فليكن!
ما أشبهه الآن بحسام الذي وضع الأغلال المعدنية
يوماً في معصمي دعاء كي يجبرها على الاعتراف
بحبها لزميلها..

بحسام الذي تخلى عنها بعد ما فقدت عينها..
بحسام الذي باع حبه لـ "طيف" لأجل شهوة طموحه
بالزواج من ابنة الصباحي!
هو نفس الدور.. فلماذا العجب!؟

يرمق هاتفه من بعيد بشرود شابه بعض الانتصار..
لكن صوت أمه الشاحب يحول بينه وبين الصورة..
لو خسرت هذه المرة فلن تريح ابدا..

يعطي ظهره له في مزيج غريب من عناد ويأس.. ثم

يغمض عينيه بقوة كأنه يتلقى ألف طعنة..

كأنما نفرت كل ندوب سجائره المنطفئة لتذكره

بخطاياها..

شيطان لا يستحق سوى المزيد من الحطب فوق

الحطب..

بالله عليك يا ابني.. أعد لي "ابني" .. ابني الذي

افتقدته منذ سنوات تعبت من عداها.

طيف أمه يبدو وكأنه لا هروب منه..

يود الآن لو يعوض كل دقيقة غابها عنها..

لو ينكب على كفها يقبله راجياً أن تعود.. تعود ساعة

واحدة يضع فيها رأسه على صدرها.. يشكو لها نفسه

فتطيه.. تعطره بدعواتها.. بيقينها في وجوه بيضاء

كثيرة يمكن أن تتسع لها ملامحه..

لا تؤذ ديمة.. لا تتخل عن سند.. لا تعد لضالك

القديم.. كفاك جلدًا لنفسك..

لا يزال صوتها يقصف روحه كأنما تهزم نورانيتها

وساوس شيطانه لكنه لا يزال مكبلاً..

سند!

أين هو من حساباته؟!!

هل سيحرمه من ديمة كما حرمه من أمه؟!!

ديمة!

”ابنة قلبه“!

من ذا يترك ابنته للغرباء؟!!

هل طمست صورتها حقاً خلف مذبح الانتقام؟!!

_. الطريق أمام عينيك فلا تغلقهما عامداً.. عدني يا

ابني.. عدني..

لا تغلقهما عامداً..

لا تغلقهما عامداً..

عدني..

عدني..

عدني..

_. ديمة!

يصرخ بها بأعلى صوته وهو يعاود الالتفات نحوها..

لا يكثرث بالبت المباشر الدائر..

الناس.. ماذا سيقولون عنه؟!!

الناس.. سيشهدون ضعفه!!!

الناس..

ماله والناس!!؟

فلينكسر هذا الحاجز..

فلينكسر..

كفاه ما خسره..

كفاه!

لا يرى.. لا يسمع.. لا يشعر سوى بثقل الوعد الذي

منحه لتوه ل"طيف" الغالية الراحلة!

يركض نحوها قلبه قبل قدميه فلا يدري كيف صارت

فجأة بين ذراعيه..

يسقط بها جاثياً على ركبتيه..

يدفن وجهه بين طيات عنقها..

الدمع الذي جف في عينيه..

الدمع الذي جف في عينيها..
الآن ينهران معاً.. يمتزجان معاً..
ذراعها يتشبثان بعنقه تشبث الغريق بطوق نجاته..
قلبها يخفق في صدره.. وقلبه يخفق في صدرها..
_ أنا معك..

هل غادرت شفثيه حقاً؟!
أم سمعها قلبها دون صوت!
_ لن تذهب معك.. زوجتي ليست مجنونة.. لن تغادر
بيتي.. سنتجاوز هذا معاً.

حسمه الممتزج بوهن غريب على غروره المعهود
يكتسح كلماته التي خاطب بها كنان فيرمقه الأخير
بنظرة راضية لا يراها وهو غارق بكليته في شعوره
ب"وجهه" الجديد معها..

لا مزيد من الوجوه..

هو وجه واحد سيعيش لأجله..

وجه أبيض لن يبالي لو سودته الخطايا يوماً مادام

يعرف كيف يزيل دنسها..



الطيف السابع والثلاثون

=====

برتقالي

=====

تراقب طيف ملامحه في نومه جوار مجد بعاطفة
هادرة يتخللها قلق عميق لا تسمح له بالظهور في
يقظته..

أين أثر القنبلة التي ألقاها؟!

وما سر هذا السكون الغريب حولهما؟!

أنثى العقرب تلك الاستبرق لن تسكت.. بالتأكيد لن

تسكت.. شجون الموتورة لن تسكت.. سراب الحمقاء

لن تسكت.. عدي المجنون لن يسكت.. العائلة كلها لن

تسكت!

هذا البرود مريب.. مريب حد الخطر!

_أراهن أنك تشتمين أحدهم سراً!

يتمتم بها بصوت ناعس وقد فتح عينيه لتوه ملاحظاً

شرودها لتلتفت نحوه بشبه ابتسامتها هامسة

بعنفوانها الجذاب:

_ولماذا أضطر لأشتمه سراً.. لا مانع لديّ في دس

إصبعي في "عين التخين" كما يقولون عندنا في

مصر.. مادمت على حق!

يضحك ضحكة قصيرة وهو يعقد ذراعيه خلف رأسه

متأملاً سديمه الحبيب في عينيها قائلاً بتهكم:

_ حوار شاعري جداً يصلح كبديل لـ "صباح

الخير"!

ثم يضحك ضحكة مبتورة باستطراذه الساخر:

_ ويحسدون من يتزوج أديبة!!

فترفع أحد حاجبيها وهي تميل فوقه هامسة بنفس

النبرة الجافة المستفزة :

_ لولا خوفي من استيقاظ مجد لأريتك المزيد.

_ المزيد من ماذا بالضبط!؟!

يهمس بها بمكر فلا تدري كيف صار ذراعاها فجأة

حول خصرها يضمنانها فوقه بهذه القوة لتهمس من

بين أسنانها :

_ لا تستغل الموقف.. البنت..

ينقطع همسها بين شفثيه وأنامله تثبت رأسها على
رأسه في قبلة جامحة بدت كأنها تقاومها للحظات قبل
أن تستجيب لها أخيراً بنفس الجموح الذي يحبه..
_ هكذا يكون "صباح الخير" حقاً.. صحيح أنه ينقصه
الكثير.. وعندما أقول "الكثير" فأنا أعني "الكثير"
حقاً.. لكن يكفيني هذا ك"تصيرة"!

يهمس بها في أذنها وهو يحرر وجهها إنما ليثبته
على صدره متجاهلاً مقاومتها ومردفاً ببطء :
_ يوماً ما سأخبرك كم تبدو "لا" منك في وضع كهذا
أكثر استسلاماً من "نعم" .. أكثر استسلاماً وأكثر..
إثارة!

يقولها وهو يضغطها إليه أكثر في ضمة قوية ثم
يحررها أخيراً لترمقه بنظرة برية يعشقها وهي

تهمس له بنبرة محذرة متحدية كأنما ساءها شعورها
بضعفها بين ذراعيه:

لست رجلي بعد! أظنك تذكر شرطي القديم.

فيرمقها بنظرة ضائقة وكلامها يعيده لحقيقة وضعه

هنا ليشيح بوجهه دون رد..

لكنها تتحنح وقد غلبها شعورها بأمومتها نحوه

لتهمس بخشونة ظاهرة :

وماذا بعد؟! هل سنبقى هكذا نعيش في بيت إلياس؟!!

ألم تخبرني أنه بصدد توفير بيت خاص لنا؟!!

سيفعل.

يقولها باقتضاب وهو يزيحها عنه برفق ليقبل جبين

مجد النائمة بحنان قبل أن يغادر الفراش ليتحرك نحو

النافذة القريبة..

فتلحق به وهي تخشى مصارحته بهواجسها.. لتهمس

بحذر مخافة إيقاظ مجد :

_ لن تذهب للمؤسسة؟!!

_ أي مؤسسة؟!!

_ مؤسسة الأمين؟! هل تملكون سواها؟!!

تقولها ببعض الغلظة ليرد بزفرة قصيرة فتدرف

بعنفوان :

_ اسمع! أنا أفهم الأشكال التي تشبه "استبرق" هذه

جيداً.. لو شعرت بضعفنا فلن نرحمنا.. اذهب وخذ

مكانك.. أنت المجني عليه لا الجاني!

_ كيف تتحدثين بهذه البساطة؟! ألا تدركين أي كارثة

نحن فيها؟!!

بل أدرك.. لهذا لا يعجبني هذا البرود الذي نعيشه
بينما لا نعرف ما الذي تدبره هي لنا سرّاً! لهذا
أنصحك ألا تستمع لنصيحة عمك بالاختفاء عن
الجميع حتى تهدأ الأمور.. الأمور لن تهدأ حتى يتضح
الصادق من الكاذب.

تقولها بحمية يعذرنا فيها.. بل إن عقله يؤيدها فيما
تقول.. إنما.. يبقى التنفيذ صعباً..!

هو لا يعرف ما الذي يدور برأس استبرق لكنه يثق
أن الجسور بينهما كلها تهدمت.. وأن غريزتها للبقاء
ستهزم غريزة أمومتها..

ماذا يفعل؟!!

هل يعاود تفجير الوضع من جديد؟!
هل يعاود الجهر بفضيحة للعائلة كلها?!!

_بابا.. ماما..

صوت مجد يصدح خلفه فيندفع نحوها ليعانقها مدلاً

إياها وكذلك تفعل طيف قبل أن تهتف مجد برجاء:

_مللت الجلوس في المنزل.. ألا توجد هنا أماكن

للنزهة!؟

_أين تريدان الذهاب!؟

يسألها بحنان لتهتف بلهفة:

_سمعت أن هناك شلالاً هنا في العراق.. لم تسبق لي

رؤية شلالات من قبل.. أريد رؤيته.

فيبتسم وهو يربت على رأسها بكلمته التي تبدو

وكأنها تحتكر حنان الكون كله :

_تدلي!

=====

ما هذا المكان؟!

تسأله طيف بانهار طفا على طبيعتها الملول وهي

تتفحص المكان حولها ليرد يحيى بفخر :

شلالات "بيخال" .. أجمل الأماكن في كردستان..

رغم أنها ينقصها بعض الاهتمام لكن تبقى بعيني من

أجمل ما رأيت.

رائعة يا "بابا"!

تهتف بها مجد بافتتان وهي تتابع شلالات المياه التي

انهمرت من وسط الصخور الجبلية..

زرقة السماء تعانق خضرة الزروع على الجانبين

وبينهما يهدر الماء حراً جموحاً بقوة تشبه أهل

العراق..

يحيط يحيى خصر طيف بذراعه يضمها إليه ثم يميل

على أذنها هامساً بلكنته العراقية القوية :

كنت أحبها قبلك.. والآن وقد أتيتها معك أشعر أنني

أحبها أكثر لأنها تشبهك.. ماؤها المعطاء الجموح

الثائر بحرية.. صخورها الجبلية القوية.. نعومة

خضرتها البهية.. أنت امرأة كالشلال.. كأنك ولدت

لتعلمي الدنيا كيف يكون الجمال برياً.. وكيف تكون

الفتنة بقوة الصخر ونعومة الزهر معاً!

تلتفت نحوه بعينين متوهجتين دون رد.. فقط أحد

كفيها يضغط كفه الحر بقوة حانية تشبهها..

والآخر يستند على كتف مجد باحتواء..

كيف تخبره أنه هو الآخر علمها..

علمها كيف يكون الاستسلام أذ من الانتصار.. كيف
يكون العطاء أمتع من الأخذ.. وكيف تكون الغربة آمن
من الوطن.. فقط.. مادام هو طرف المعادلة الثاني!
تسند جبينها على كتفه في رد غير منطوق وهي
تشعر أنها تود لو تدوم هذه اللحظة للأبد..؟!
هل هو جمال المكان..؟!
أم هو الخوف الذي تكره ألا تواجهه وهي تتوقع
زلزال استبرق؟؟
أم هي حاجتها لهدنة قصيرة لها معه ومع مجد..؟!
هدنة تحتاجها حقاً!
تنقطع أفكارها وهي تميز تعلق بصر مجد بأحد
الصبية الذي يتسلق الصخور الجبلية المحيطة
بالشلال مع أبيه..

قبل أن تطرق ببصرها في عجز ناظرة لكرسيها!
تظن أنها وحدها من لاحظت لكنه يثبت لها للمرة التي
لا تعرف عددها أنه "أب" بالفطرة!
فهاهو ذا ينحني ليحمل مجد فجأة هاتفاً بحنانه
المعهد :

_ "حبيبة بابا"! ما رأيك لو نتسلق الصخور؟!
تتفرج أسارير الصغيرة وصيحاتها المرححة تحلق
حولهما بينما يتحرك ثلاثتهم ليتسلقوا الصخور..
تمد مجد أناملها لتلمس زخات الماء المنهمرة بينما
يصعد يحيى بها الصخور تلحقهما طيف وهي تشعر
بلذة تجربة كهذه..

يكاد يحيى يتعثر بثقل جسد مجد الذي يحمله لكن
طيف تتشبت بصخرتها لتسندهما معاً.. فيغمزها يحيى
بمكر هامساً في أذنيها بمواربة:

كنت أعرف أن هذا الجسد النحيل يخفي أكثر مما
يبيدي!

ترمقه بنظرة مغتظة رغم احمرار وجهها خجلاً
ليتحول الأمر لسباق فتتقدمها طيف لتتظر إليه من
أعلى قائلة بعنفوانها المعهود :

سبقتك! هذه إحدى ميزات " الشقا " يا "ابن العز"!
لا تستهن بالجسد النحيل!

لكن دورها يأتي لتتعثر هذه المرة فيسندها هو بذراعه
الحر بينما الآخر يحمل مجد.. ضحكاتهم تمتزج ليميل
على أذنها هامساً بعشق:

_ من ذا الذي يستهين بجسد يتلون بين الفصول
الأربعة؟! .. يثيرني كالصيف.. يبعثني كالخريف..
يزينني كالربيع.. وكالشتاء ينبت داخلي الزهر
والشجر.. لا أمانع لو تسبقيني دوماً ما دمت ستأوين
في النهاية بين ذراعي!

الخبز "البري" على ملامحها يسفك دم مقاومته!
ثمرة شوكية تثير الشهية وتهدد من يقترب بسنونها!
_ بماذا تسرّ لها في أذنها؟! ولماذا لا تفعل المثل لي؟!
تهتف بها مجد بغيره طفولية فتكتم طيف ضحكتها
بينما يميل يحيى على أذن الطفلة كأنه يلبي رغبته..
لكن مجد تبعد برأسها هاتفة:

_ الاهتمام لا يُطلب!

_ بنت! بنت! بدأت "حركات النساء" مبكراً!

تهتف بها طيف بمرح حنون رغم خشونة لهجتها
الفطرية ليضحك يحيى وهو يضم كليهما لصدره
بارتياح..

ارتياح لم يدم كثيراً وهو يسمع رنين هاتفه..
يهبط معهما الصخور من جديد ولم يكد يعيد بمجد
فوق كرسيها حتى تناول هاتفه..

إلياس!

يتصل به ليصله صوت عمه الملتاع هادراً بغضب:

_ أين أنت؟!!

_ مع مجد وطيف قرب أربيل.. ما الأمر؟!!

يهتف بها بقلق وهو يتبادل النظرات مع طيف التي
مدت كفها بحركة تلقائية يعانق كفه بقوة داعمة..

ليصلها هتاف إلياس:

_ استبرق تحركت بأسرع مما توقعت.. لقد.. لقد..

يقطع عبارته بتوتر أشعل يحيى ليهدف به بحدة :

_ ماذا فعلت؟!!

يصمت إلياس قليلاً ليرد بصوت متحشرج:

_ قدمت طلباً لمجلس إدارة المؤسسة اليوم كي يعفوك

من أي منصب هنا.. وأرفقت معه صورة من أوراق

قضية..

_ أي قضية؟!!

يسأل يحيى بشحوب ليرد إلياس بانفعال كأنه ما عاد

يحتمل المزيد:

_ قضية حجر عليك بدعوى الجنون.

يشعر يحيى بالأرض تميد تحت قدميه فيما تعقد طيف

حاجبيها وهي تطلق سبة خافتة..



تختطف الهاتف من يحيى لتهتف بشراسة:
_ هي المجنونة وأهلها! هباء تلك المرأة؟! كيف
تأتي بفعل كهذا؟! أبسط تحليل DNA سيثبت صحة

كلام يحيى!

لكن إلياس يهتف بغضب عاجز كاد يشعل الهاتف في
يدها:

_ هي معها صورة من التحليل بالفعل.. صورة تثبت
أن يحيى ليس أختا سراب!

_ "بنت ال..!"

تتمتم بها طيف ممتعة الملامح لتتبادل مع يحيى
نظرات صدومة لكن إلياس يلقي قبلته الأقوى:

ليست هذه هي المصيبة فحسب.. الكارثة أنهم
يطلبون إيداع يحيى مصحة نفسية للحكم على قواه
العقلية!



شكراً يا سيد (...).. ما فعلته سيبقى معروفاً لن
أنساه.

تقولها استبرق بامتنان عبر الهاتف مخاطبة الرجل
المهيب الغامض الذي يرد بمكر :

تعلمين أنني لا أعترف بما يسمى "المعروف"! هو
دين! وأظنك تعرفين كيف تردينه.

أعرف.

تقولها بصوت متحشرج وكفها يتشبث بمقعد رئاستها
الخاص في مؤسسة الأمين ليرد الرجل :

_ تزوير نتيجة تحليل كهذا مع الاحتفاظ بالسرية ليس
أمرأ سهلاً.. وكذلك ما تنتظرينه من نتيجة فحص
"ابنك" بعد اجتازه في المصحة.. لكنني - كعهدي -
أعدك أن تسير الأمور كما ترغبن.. عسى أن تسير
الأمور عندك كذلك كما أرغب!

يزداد ارتباك جسدها على "الكرسي" للحظات قبل أن
ترد بسرعة خشية إغضابه:

_ بالطبع.

_ بقي حجر عشرة واحد نحتاج إزاحته.

_ إلياس.

_ بالضبط! ساعتها تكونين أنت صاحبة الكلمة

الأولى.. بما يعني أن نكون "نحن" كذلك.. صحيح؟!

_ صحيح.

تقولها بآلية مهادنة عبر شرودها ليغلق معها الاتصال
بكلمات راضية.. بينما يزداد اعتصارها لكرسيها
للحظات قبل أن تمتد أناملها لتتحسس قلاذتها في
عنقها باسم يحيى..

"ابنها"!

تبتسم بمرارة لم تشأ الاعتراف بها وهي تهمس له
كأنها تكلمه:

لم أخسرك بعد! لا تزال هناك فرصة أن تصدق.. أن
تكذب نفسك وتصدقني.. أنا عشت هذا العمر أتعلم
كيف أجعل الناس يكذبون أنفسهم.. ويصدقونني أنا!
تنقطع أفكارها وهي ترى باب غرفة مكتبها يفتح
بغلظة لتلتفت نحوه بدهشة فيطل منه وجه شجون..

مفعماً بكراهية شرسة وهي تغلق الباب خلفها لتتقدم
منها هاتفة:

_تتهمين ابنك بالجنون!؟!

تتفحصها استبرق بنظراتها قبل أن تتخير رد الفعل
المناسب.. فتخرط في نحيب مرتفع متممة بين
دموعها:

_ياالله! ماذا فعلت في حياتي كي أستحق عقاباً كهذا!؟!
كي أضطر للاختيار بين ابني وشرفي!؟! رحمتك بنا
ياالله! رحمتك بنا!!!

تضطرب شجون في وقفاتها وهي تتفحصها بدورها
قبل أن تندفع نحوها لتتحني فوقها بجسدها متممة
من بين أسنانها:

_ لا تتلوني كالأفعى.. الآن أفهم سر نظرتك التي كانت
مشبعة بالذنب كلما رأيتني.. أفهم سر نظرات غيث
الغريبة نحوك.. أفهم لماذا رفض زواج يحيى
بسراب.. بل ولا أستبعد أن تكوني أنت من تسبب في
قتله في السجن!

نظرة عقرب شرس تلتهم في عيني استبرق للحظة..
لحظة واحدة وقرت في قلب شجون..
قبل أن تكفكف استبرق دمعها وهي تتلفت حولها قائلة
بحسرة :

_ معك حق! معك حق أن تطعنيني مادام كل الأحبة قد
رحلوا وخذلوني.. يحيى وأبوه.. وحتى إلياس.. صرت
لقمة سائغة للرائح والغادي.. لن أدعو عليك أن
يضعك القدر مكاني فتهجرك سراپ وتجربي مرارة

فقد الأحبة على الكبر.. بل سأتفهم وضعك.. سامحك

الله!

تعود بعدها لتخرط في البكاء لدقيقة كاملة دافئة
وجهاها بين كفيها حتى تشعر بعناق شجون المواسي
لها فتبتسم داخلها سراً وهي تسمع الأخيرة تهتف
بحرقة:

_أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم.. اعذريني!
الوضع كله يفوق احتمالي.. سامحيني.. سامحيني..
ترفع عينيها إليه وهي تهز رأسها بمعنى الصبح
لتردف شجون برحاء :

_قدري موقفي.. عدي المجنون يرفض الصلح مع
سراب إلا لو هاجر بها لكندا كما يريد.. هو يقتنع
برأيك.. أقنعيه أن يصرف نظره عن الفكرة.. أو على

الأقل.. لا تشتري منه نصيب سراب.. لو طلق سراب
فسيفضحها بزعمه أنه وجدها في غرفة يحيى..
استري ابنتي يسترك الله.

تتهاد استبرق بحزن مصطنع لترد :

ليست ابنتك وحدك.. يشهد الله أنها عندي في مقام
ابنتي كذلك.. لا تحملي هما.. أنا الآن من سيدير كل
شيء بعد مصابنا في يحيى.. أنا.. أنا وحدي..
تخونها لهجتها ليطفو شبح الانتصار على كلماتها
الأخيرة فتدرف بسرعة:

لمصلحة العائلة بالطبع.

تبتسم لها شجون بامتنان ثم تعانقها بقوة لتتبدل
نظرتها لأخرى غامضة وأناملها تحوم حول رقبة

استبرق من الخلف بما بدا كمن يمسك خنجراً يستعد

لغرسه!



أصفر



_ ما الذي أيقظك مبكرة هكذا؟!

**يسألها راغب بدهشة وهو يراها جالسة على سجادة
صلاتها التي طوتها لتقف رؤى مكانها وهي تخلع
عنها إسدال صلاتها قائلة:**

**_ صراخ هيام كالعادة.. لم يعد الأمر يطاق.. حاولت
العودة للنوم بعد صلاة الفجر لكن صوتها وهي
تصرخ في أولادها أقلق رُبي.. فلم أستطع النوم.. قلت
في نفسي أنيم ربي وأصلى الضحى وأنتظر استيقاظك
كي أعد لك الفطور.**

يقبل وجنتها برقته الخشنة المميزة قائلاً بما يشبه

الاعتذار :

_لولا أُمي لانتقلت بك من هذا البيت.

لكنها تبسم وهي تربت على كتفه قائلة بوداعة:

_أنت من علمني أن الهروب ليس حلاً.. لست ضائعة

من هيام.. على العكس.. أريد مساعدتها هي وفهمي

خاصة بعدما أخبرتني عن تفكيره في تطليقها.. حرام

أن يتشرد أطفالهما.

تقولها وهي تتذكر ما أخبرتها به جنة فتعقد العزم عن

إخفاء الأمر عليه لكنها..

تتذكر موقفه الأخير مع عملها فتأخذ نفساً عميقاً ثم

تقبض بكفها على كفه لتبسط كليهما على صدرها

قائلة وهي تنظر في عمق عينيه :

_ هل تثق بي بما يكفي!؟!

فيرفع أحد حاجبيه بمزيج من مكر ومشاكسة :

_ يا فتاح يا عليم! ظننتنا تجاوزنا هذه المرحلة من

زمن! هذه المقدمة غير مريحة!

فتتسع ابتسامتها وهي ترفع كفيهما المتعانقين إلى

شفتيها فتقبل كفه بقوة هامسة :

_ لا تبخل بقولها أبدأ.. أحتاج سماعها منك دوماً.

فيضم رأسها لصدره يقبل جبينها بعمق قائلاً:

_ لا تشكي بهذا أبدأ.. ما بيننا يفوق الثقة بكثير..

ثم يرفع ذقنها نحوه ليقبل "شقه الأثير" مردفاً:

_ قولي ما عندك ولا تخافي.

_ جنة..

يرمقها بنظرة متسائلة قائلاً:

صاحبتك القديمة.. ماذا عنها؟!

تشيخ بوجهها لتخبره بما طلبته منها جنة آخر مرة
لينعقد حاجباه بشدة مع خاتمة كلماتها:

_بالله عليك لا ترفض.. هذا الأمر يعني لي الكثير..
ليس فقط بشأن عزة وهيام.. إنما.. هو دين قديم في
رقبتي نحو جنة.. دين يستحق الوفاء.

يطلق زفرة مشتعلة وقبضتاه تشتدان بقوة على
كتفيها ليهتف بحدة :

_معنى هذا أن عائلة إيهاب ذاك تخفي ما يشين؟!
أخوه ذاك يؤوي رجلاً مخالفاً للقانون مثلاً؟! وإلا ما
سعت صاحبتك خلفه؟!_

_هي مجرد شكوك.. أنا أثق في نزاهة جنة قبل
ذكائها.. ستصل للحقيقة حتماً.. ويسرني لو

ساعتها.. ليس هي فحسب.. فكر في عزة.. هل
ستحتمل جرحاً جديداً من رجل ثالث؟! سيدمرها
الأمر هذه المرة ما لم ننقذها في الوقت المناسب.
تقولها بهدوء حاسم يجعله يشدد ضغط قبضتيه على
كتفيها فتدرف بابتسامة :

_ لا تخف عليّ.. سأكون بعيدة عن الصورة.. أنا حتى
لن أقابل عزة.. مجرد مكالمات تليفونية.. كنت أريد
فعلها على أي حال كي أصلح بينها وبين هيام.. ما
يضيرنا لو استزدنا بمنفعة إضافية؟!

_ لا!

يكاد يهتف بها حاسمة مدفوعاً بقوة خوفه عليها لكنه
يكتمها في حلقه!!

لو كانت هي حاربت "نفسها القديمة" لتكون بهذه
القوة والرغبة في المواجهة ومد يد العون للجميع..
فهو الأولى بأن يحارب نفسه كذلك ويمنحها شعور
الثقة الذي تحتاجه..

لهذا يطرق بوجهه دون رد في إشارة تفهمها هي
دوماً منه بالموافقة..

فتضحك ضحكة قصيرة وهي تمد ذراعيها لتعانقه
بقوة هامسة :

_شكراً لأطيب رجل في الدنيا!

يرفع سبابته في وجهها بوضع تحذير وهو يهم
بالحديث لكنها تسبقه وهي تخشن صوتها مقلدة
لهجته:

_ لن تفعل شيئاً دون علمي.. ستخبريني بكل

التفاصيل أولاً بأول.

فابتسم وهو يخطبها بخفة على رأسها هاتفاً بخشونة:

_ بالضبط! هكذا تعجبيني!

تبتسم بدورها لكن ابتسامتها تتجمد على شفيتها

وصراخ هيام من الخارج يعلو من جديد ليتمتم راغب

وهو يخطب كفيه ببعضهما:

_ كان الله في عونك يا فهمي! حظه أن عمله يستدعي

غيابه عنها أغلب الوقت وإلا كان قد جن.

_ سأصعد إليها بعد قليل.. ربما أفلح في تهدئتها..

وبعدها سأهاتف عزة كما اتفقنا..

تقولها بوداعتها العذبة فيقبل جبينها باعتزاز هامساً:

_تأسرين القلب بطيبتك يا "ليمونية"! لا حرمني الله

منك يا "ست البنات"!



أخضر



_حبيبي..

تهمس بها بأكثر نبراتھا إغواء لتراه يفتح لها

ذراعيه..



تركض نحوه بلهفة ليعدو إليها بدوره..
يرتدي سروال بحر قصير تبدو منه ساقاه
الرياضيتان..

يصل إليها ليحملها فتقفز متعلقة بعنقه قبل أن يركض
بها نحو الموج القريب الذي تبتلعهما أمواجه..
تعانق عينيه..أنفه.. شفثيه الضارعتين باعتراف
حب..

تلامس خصلات شعره الناعمة فيضمها إليه أكثر
لينساب غزله الدافئ نهرًا من عسل في أذنيها..
فخرها يغلب خجلها وهي تلصق نفسها به أكثر
تهمس باسمه في هيام:

_إيهاب..

_لست إيهاب..

تتسع عيناها بذعر وهي تميز هذا الوشم على أعلى
ذراعه.. وشم الكوبرا.. لتشهق بهلع وهي تدفعه عنها
بقوة قبل أن تشعر بالموج يجرفها لتصارع الغرق
وحدها..

_ عزة.. عزة.. استيقظي!

صوته القلق بحنانه المعهود يخترق أذنها لتفتح
عينيها وهي تنتفض مكانها..
الجدران الخائفة.. الفراش الذي يزف خيبتها كل
ليلة..

ورائحته هو..

رائحته التي ما عادت تميز فيها عبق "كريم الحلاقة"
القديم.. اندثر تحت عطر نفاذ آخر صار يزكم أنفها..
_ لا بأس. لا بأس أنا بخير.. مجرد حلم..

_ حلم أم كابوس؟!_

_ لا فارق الآن بينهما.. لا فارق!

تغمغم بها بكآبة وهي تخفي وجهها بين كفيها فيعاود

سؤالها بقلق وهو يزيح شعرها عن وجهها :

_ ماذا بك؟! ألن تخبريني؟!_

فترفع إليه عينين صارختين بالحسرة والعتاب..

_ لو لم تكن لي حبيباً.. فعلى الأقل أعد لي صديقي.

ودت لو تصرخ بها في وجهه..

لو تهز بها جسده الذي فقد "سمنة" كانت تكرها

واكتسب بدلاً منها هذا الزيف الذي تمقته..

لو تهتف به أنها تموت..

تموت اشتياًقاً للبوح.. للكلام.. للصراخ.. للبكاء على

كتف توفن أنه لن يردها خائبة..

لكنها بطبيعتها الخضراء تستسلم لجبن تردها ف..

تسكت!

تغادر الفراش بحركة آلية وهي تتوجه نحو خزانة
ملابسها القريبة فتنتقي أحد ثيابها لتشعر به خلفها..

ذبذبات تردهه تصلها..

تلتفت فجأة ليلتقي وجهها عبر هذا القرب..

ألف سؤال وأكثر تتراشقه نظراتهما..

وألف جواب وأكثر يعجز عنه اللسان!

_ أنت رجل مثير جداً! أي سر تملكه خلف عينين

خطيرتين كهاتين؟! وأي جاذبية تخفي.. هذه.. الثياب

!؟

يتذكرها كما سمعها من بتول في أولى لقاءاتهما التي

لا يدري كيف استجاب لها.. ولا كيف تكررت بعدها..

تستعيدها "أذن رجولته المنقوصة" كما سمعها منها
وقتها.. حارة.. متباطئة.. مغناجة.. شغوف.. راغبة..
ورغم أنها حاولت وقتها إضفاء المهنية على لقائهما
تارة زاعمة أنه مجرد اجتماع عمل رغبة في حلقة
جديدة.. أو البساطة تارة أخرى زاعمة أن شخصية
بشهرتها تفتقد لصداقة رجل بعقليته..

لكن "الرادار" العاطفي له كرجل لم يخطئ تأويل
نظراتها ولا الوعود غير المنطوقة التي منحتها
حركات جسدها المدروسة.

لماذا يتذكر هذا الآن؟!

"طفل كبير" داخله يشعر الآن بالذنب.. يود لو يرتمي
بين ذراعي حبيبته فيخبرها أنه نادم على تلك
اللقاءات..

لكن.. هل هو حقاً نادماً؟!

كيف و" ريش رجولته" ينتفش كطاووس متبختر

بينما يتذكر تفاصيل مقابلاته معها؟!

كيف وهو وقتها كان لاهثاً خلف نظرات الناس حوله

تحسده على صحبتها؟!

كيف يعجز الآن عن فهم نفسه وهو لا يدري..

هل يخون عزة حقاً؟!

أم أنه فقط يستعيد بعض قوته وثقته في نفسه

لأجلها؟!

_ عيناك دامعتان!

همسها الجزع ينتزعه من شرود أفكاره فينتبه لحاله

وهو يغتصب ضحكة مختنقة.. أنامله المرتجفة تضم

جسدها إليه برفق مع قوله:

حساسية الجيوب الأنفية مع تشغيل التكييف مأساة!

يكذب!

تعرف أنه يكذب!

تود لو تصرخ به أنها تفتقده!

أنها لم تشعر في حياتها بالوحدة كما هي الآن!

بالخسارة كما هي الآن!

والأدهى أنها صارت خائنة!

ولو في حلم!!

لماذا لا تهرب!؟

لماذا لا تترك كل هذا خلفها وتمضي!؟

ألا تزال تتشبث بـ"بقايا" ما تظنه مكسباً!؟

برودتها بين ذراعيه تروعه!

يمكنه وصف نفسه بالاستقامة فيما يتعلق بشأن
النساء عدا بعض العلاقات العابرة التي زلت فيها
قدمه في فترة شبابه الأولى..
وعندما التقاها لأول مرة منذ ما يزيد علي ثلاث
سنوات شعر أنه يتوق لعناق مثل هذا الآن!
جاذبيتها كأنثى في عينيه كانت أقوى من أن يتجاهلها
لكنه اضطر لطمسها خلف جدران "صداقتهما"
المزعومة..

فأي حرقه تكوي ضلوعه الآن وهو يشعر بصقيع
جسدها يجمده؟؟!

ترى لو كانت بتول مكانها..

هل؟!

_ اهرب.. اهرب..

نفس الصوت الداخلي اللعين يجتاحه بقوة قاهرة
مغالباً قلبه وضميره..

يجبره أن يدفعها عنه برفق ليقول بمرح مرتجف:
_عندي "مشوار" مع خوخة.. نريد شراء هدية
لإياد.. عيد ميلاده اقترب.. تعلمين أهمية الموضوع..
جهزي أنت الأخرى هدية!

ينعقد حاجباها بشدة قبل أن يتغضن أنفها وهي تميز
عطراً غريباً يضخه قميصه على استحياء..

عطر منفر تثق أنها شمته من قبل..

تكاد تهتف بتساؤلها لكنه لا يمنحها الفرصة وهو
يتحرك ليغادر..

عيناها تزوغان في الفراغ للحظات قبل أن تتعلقا
بظهره المغادر..

تهبطان لموضع ساقه المبتورة خلف سرواله..

قبل أن تغمضهما برفض..

تتوجه نحو الحمام القريب لتغتسل..

تنزع عنها ثيابها أمام المرأة الكبيرة التي احتلت جدرأ

بأكمله..

كالعادة تشعر بالخجل من رؤية جسدها عارياً - حتى

ولو كانت وحدها- كنتيجة طبيعية لأنثى تربت في بيئة

متحفظة..

لكنها الآن تجد بعض الجرأة الاستثنائية تمتلكها

لتتفحص جسدها بعينيها في المرأة..

هذا الذي يزهد الرجال سواء من اختارها بعقله

كراغب أو بقلبه كإيهاب..!

تراه حقاً بخساً إلى هذا الحد؟!!

تفرد ذراعيها في وضع استعراضى وهي تتمايل

راقصة ببطء..

لا تجيد الرقص كما لا تجيد الإغواء..

ثقيلة كـ"برميل" ممتلئ بماء كدر ملقى على قارعة

الطريق..

"جهزي أنت الأخرى هدية"

تغزو فكرها فجأة كأنما سمعتها لتوها لتشهق بذعر

مع هذا الخاطر الشيطاني الذي ضربها كسوط على

ظهر انسانيته..

(ماذا لو وجد هذا الجسد المنبوذ من يشتهيهِ؟! ماذا

لو كانت هي "الهدية"؟!)

=====

تأخرت!

تهتف بها بتول بدلال وهي تفتح له ذراعيها أمام باب بيتها ليزدرد ريقه بارتباك كرهه وهو يميز ما ترتديه قبل أن يدلف إلي الداخل لتغلق هي الباب خلفه..

هل وصل المخرج!؟!

طققة شفيتها ذات الدلال تمنحه معنى الرفض وهي تقترب منه أكثر ليشعر بتفاعل جسده معها ثم يقول بنبرة مرتجفة حاول بها مداراة تأثره :

لماذا تقولين إذن أنني تأخرت!؟!

ضحكتها العالية تصيب سهامها في جدار رجولته وهي تقترب منه أكثر.. تغرس نظراتها في عينيه.. تجازيه عن ابتعاد خطواته المزيد من الاقتراب لتهمس أخيراً وهي تبسط راحتها على صدره:

_ لا تدعي الغباء! تعرف أن المخرج لن يحضر..
تعرف أنها كانت مجرد عذر لتأتي إلى هنا..
يشعر بجفاف حلقه وهو يرى كل ما فيها يحاصره..
عندما هاتفته منذ قليل تطلب منه لقاء المخرج لأجل
حلقة جديدة كان يشك أنها كاذبة..
لكنه كان يود التأكد..

المزيد من انتفاش ريش طاووس رجولته..
وهاهو ذا يتأكد!

_ تعرف أنني كنت أشتاق للقاء كهذا وحدنا.. وتعرف..
تعرف.. تعرف ماذا أيضاً؟!!

سؤالها بهذه الحرارة الشغوف يجعله يشعر بكفيها
كجمرتين مشتعلتين فوق صدره..

خفقاته تتعالى كهدير صاحب وأنامله المرتجفة تزيح

كفيها عن صدره ليرد ببرود مصطنع:

_ لا.. لا أعرف.

_ إذن.. نعرف سوياً.

تهمس بها بذات الدلال المثير وهي تجذبه من كفه

نحو الأريكة القريبة لكنه ينفذ كفه منها برفض

واهن..

لتبتسم وهي تكتف ساعديها قائلة بمكر زاد مع دلال

غوايتها:

_ تريد لعب هذه اللعبة إذن؟! ظننتك من النوع الذي لا

يحب تضييع الوقت في مقدمات.. لكن لا بأس.. أنت

تعجبني.. من أول مرة رأيتك فيها وأنا أتوق للقاء مثل

هذا.. وأنا امرأة لا تعنيها مسميات بل يعنيها هدفها

فحسب..

ينعقد حاجباه بقوة وزئير خفقاته يزداد مع

استطرادها :

_وأنا أعجبك.. أكثر بكثير من الإعجاب في الحقيقة..

للمرأة حدس لا يخيب في هذا الشأن.. لهذا.. وبمنتهى

العملية.. لو كنت تشاركني رغبتني فدعنا نقض ليلة

سعيدة يستكشف كل منا صاحبه..

تتبع عبارتها بغمزة ماجنة يتفاعل معها جسده

بضراوة لم يعرفها من قبل ليرتجف مكانه رغم

الغضب الذي صرخت به ملامحه..

لتردف وهي تشير بعينيها نحو الباب :

_ أو لتعتبرني أهذي فتتسى كل ما قلته وتغادر وتغلق

الباب خلفك!

تقولها لتتحرك فتستلقي على الأريكة رافعة أحد

ساقها فوق الأخرى لينحسر قميصها أكثر..

وتنحسر مقاومته أكثر وأكثر..

_ لن أخون عزة.. لن أخون..

تصرخ بها حناياه دون صوت وهو يعطيها ظهره

ليتحرك نحو الباب..

خطوة..

اثنتان..

قبل أن يتوقف مكانه..

_ ليست خيانة.. هو مجرد اختبار.. لعلك حين تجتازه
تعود بنصر يعوض خيبات كل ليلة معها.. لا تبالغ في
التفكير.. اهرب.. اهرب..

_ سأنظر طويلاً؟!!

هتاف بتول المغناج يمتزج بتهديد خفي يزيد أثر
فتنتها ليلتفت نحوها..

وتكون الغلبة ل"الصوت اللعين"!

لا يعرف كيف استقر جوارها على الأريكة.. كيف
امتدت أناملها الخبيرة تغزو حصونه باقتدار..

ريش الطاووس يزهو أكثر..

يشعر بحرارة الهواء حوله تلفح أنفاسه وحركاتها

تزداد جرأة..

ريش الطاووس يزهو أكثر وأكثر..

اللحظة التي يخشاها تصفع عقله وهو يختبر أثر
رؤيتها لساقه الصناعية ليرفع عينين مترقبتين نحوها
لكنها تبدو خبيرة بما تفعله وهي تغمره بخفة قبل أن
تجتو جالسة أمام الأريكة لتقبل ركبتيه العاريتين
بشغف حار..

تنكسر نظراته للحظة وهو يتذكر عزة ليلة زفافهما
ليغشاه الصقيع فجأة..

لكنها أجادت إشعال حرائقه من جديد وهي تعاود
غزوها الخبير..

ليزهو ريش الطاووس أكثر..
ويسقط هو أكثر وأكثر..

==
_ لا تزال مصراً على السفر؟!!

يسأله إياد بنبرته الجافة التي طالما تتجح في إخفاء

مشاعره لكنها الآن تعجز!

حروفه ترتجف كأنها تتشبث بما بقي له من "وتد"

أخوة.. ليرد نزار وهو يغلق حقيبة سفره دون أن

يلتفت نحوه:

_ لا بد أن أسافر.. يحيى يحتاجني بعد كل ما حدث.. لا

يمكنني أن أترك مجد وحدها بعد ما صار.

يقولها ثم يلتفت نحوه لتلتمع عيناه ببريق دموع

حقيقي :

_ لن أغيب طويلاً.. من الصعب أن أفارقك بعدما

التقينا..

ثم تغلبه طبيعته المرحة فيردف بلكنته العراقية وهو

يفتح له ذراعيه :

يقولونها بالعراقية (الظفر ما يتبرى من اللحم)
وتقولونها في مصر (الظفر ما يطلعش من اللحم)..
لا تبتئس هكذا.. سأعود.. حتماً سأعود.
فيبتلع إيد غصة حلقة وهو يشعر ببعض الذنب
يحاول إحياء رماد روحه..
هل من مصلحة نزار حقاً أن يعود لعالمه هو
الأسود!؟!

صحيح أنه لم يكن قديساً عندما التقيا من جديد.. لكن
عالم "الكوبرا" أشد سواداً.. أشد بكثير!
أحد ذراعيه يود لو يدفعه.. بعيداً جداً عن ظلمة دنياه
القاسية..

والآخر يود لو يستبقيه كي يكون له داعماً وسط
حرب أمواجه..

وبينهما يقف هو صامتاً بعجز يناظر ذراعي نزار

المفتوحتين..

والذي تقدم منه أخيراً ليعانقه بقوة مردفاً:

_اعتن بحالك..ولو احتجت شيئاً أنت تعرف كيف

تحضرني إلى هنا بسرعة البرق .. كلمة السر "ح ر

ي م"!

يقولها مبتسماً متقطعة الأحرف وهو يرسم بكفيه في

الهواء ما يشبه منحنيات أنثى فتلتوي شفتا إياد بشبه

ابتسامة وهو يربت على كتفه ثم يودعه ببصره حتى

يغادر البيت..

يخرج إياد إلى الحديقة بعدها وهو يشعر بالاختناق..

يرفع عينيه لشرفة غرفة خديجة..

بالتأكيد مفتوحة الأنوار.. لن تنام حتي يعود إيهاب كي

تطمئن عليه..

لا يزال يسأل نفسه ذات السؤال كلما رآها على هذا

الحال كل ليلة..

كيف استطابت عيناها النوم وهو بعيد عنها طوال هذه

السنوات!؟!

أليس ابنها مثله!؟!

كيف يمكن أن تكون عين أمومتها عوراء إلى هذا

الحد!؟!

يفتح هاتفه لينعقد حاجباه وهو يميز الصور التي

وصلته لتوها من رجله الذي كلفه بمراقبة بتول..

قلبه يخفق بسرعة وهو يقلبها بسرعة حتى يصل

للفيديو الأخير الذي يظهرها وهي تفتح باب شقتها..

ترتدي ثوباً يشبه قميص نوم قصير لا يستره ولو
مئزر.. وتفتح معه ذراعيها بترحاب حميمي يفضح

أنها ليست المرة الأولى للرجل الذي لم يحتج

استدارته كي يميز من هو..

قبل أن يدخل ليغلق الباب خلفه!

_رسبت في اختبارك الأخير يا "حبيب أمك" إذن.. لا

تلمني إذن على ما سأفعله!

يتمتم بها من بين أسنانه وهو يعاود النظر للغرفة

مضاءة الأنوار قبل أن يلفت نظره صوت غريب من

خلف الشجيرات الملتفة أمامه..

يتقدم بخطوات حذرة ليراها مستقرة على الأريكة

الرخامية المعدة للجلوس أمام المسبح..

عيناه تلتقطان هاتفها المهشم تحت كعب حذاءها قبل
أن يميز بكاءها الخفيض وهي تدفن وجهها بين
كفيها..

عزة!

وفي مكانها كانت هي قد عادت لتوها من جلسة
تصوير لأحد حلقات برنامجها..

لم تعد تطيق ثقل هذا البيت على نفسها بين جحيم
خيالاتها الذي تحترق به كل يوم أكثر.. لهذا استجابت
لإرهاق جسدها لتجلس على أحد الأرائك في
الحديقة..

تفتح هاتفها بهوس صار ملازمها.. وقد صارت
الشاشة الصغيرة مرادفًا لـ"حصاد" العمر!
الحلقة الجديدة ناجحة..

واحدة أخرى تجاوزت مشاهداتها الحد المرضي

بكثير..

لكنها وجدت نفسها فجأة.. تكسر هاتفها!

تدهسه بقدمها مرة تلو مرة!!

هل أصابها الجنون!؟

أم الزهد!؟

أم تراه شعورها أنها حقاً لا تملك أي شيء!

إيهاب.. لم يعد الفاجومي.. لم يعد عاشقها.. لم يعد

صديقها.. لم يعد أكثر من "واجهة إعلامية براقية على

الشاشات.. ومجرد ظل باهت يأوي جوارها ليلاً على

الفراش!

لقد ظنت أنها تهبط درج التنازلات كي تحتفظ به..

ويحتفظ هو بنفسه لكن الآن.. يخسر كلاهما!

_ ماذا تفعلين هنا وحدك؟!_

تشهق للمفاجأة وهي تلتفت نحوه لتراه بعينين
متسعين لم يخفهما " شبه الظلام " حولهما بينما يتقدم
هو ليجلس جوارها مردفاً بنبرته المحايدة التي
تصيبها بالحيرة :

**_ سؤالي يبدو غريباً خاصة وأنت دوماً وحدك.. وحدك
حتى وأنت أمام الكاميرات.. حتى وأنت تراضين
حماتك بأحاديث تافهة..**

ثم يلتفت نحوها مردفاً ببطء :

_ ووحدي وأنت مع زوجك.

تزدرد ريقها بتوتر وهي تهز رأسها متظاهرة
بالاستنكار لكنه يردف وهو يغرس نظراته القوية في
عينيها :

_ لا داعي للإنكار.. أنا أفهم هذا الشعور جيداً.. عندما
تكونين وحدك تتنفسين غربتك حتى وسط الجموع.
تطرق برأسها دون رد وهي تشعر بالوهن يغزوها..
فلتصعد لغرفتها.. فلتختبئ بفراشها.. فلتحتم
بخيالاتها..

فلتهرب لجنتها كعدها..

لكن حديثه يبدو لها أكثر جاذبية من أن تتجاوزه..
ربما لأنه نوعاً ما يذكرها ب"الفاجومي" القديم

وعهد صداقتهما!

_ لماذا تزوجته؟!_

يسألها مباشرة لترفع عينيها نحوه..

_ لأنني أحبه.

تكاد تهتف بها لكنه يخرسها قبل أن تغادر شفيتها

وهو يرفع سبابته في وجهها قائلاً:

_ ولا تدعي أنك تحبينه! التعاسة على ملامحك ليست

أبداً لعاشقة تزوجت حبيبها! أظن أنه مجرد شعورك

بالذنب نحوه.. صحيح!؟

يتحشرج صوتها في حلقها وهي تشعر بالتيه..

الكلمات تتعثر فلا يتبقى منها سوى همسها الخفيض:

_ هو يحبني.

فيصدر همهمة خافتة وهو يعود ببصره للأمام قائلاً:

_ أشهد! أعرف أنه يحبك.. لكن هل وحده حبك

يكفيك!؟

ينعقد حاجباها بضيق وهي تشعر به يعري دواخلها..

لتهتف بحدة :

يكفيني.

فيلتفت نحوها بنظرة غاضبة مشتعلة كأنها ميزت
فيها حريق روحه القديم .. لكنها لم تلبث أن لانت
لنظرة أخري مشفقة لم تفهمها وهو يعاود سؤاله:

وهو؟! هل يكفيه!؟!

ما الذي تحاول فعله؟! ها؟!!

تهتف بها بحدة وهي تقف مكانها لتلوح بسبابتها في
وجهه.. الأصفر الحيوي يغلب زرققتها :

لا تظنني غبية لا أفهم سبب إصرارك على قدومنا
للعيش معك.. أنت تريد جلد أمك وأخيك.. تريد قتلها
قتلاً بطيئاً بذنبيهما معك.. تريد الإيقاع بيني وبين
إيهاب كي..

ولماذا وافقتِ إذن على القدوم معه لبيتي!؟!

يسألها بنفس النبرة المحايدة وهو يقاطع حديثها..
شيء بنظرته يخيفها لكنها لا تزال تحتفظ باشتعال
أصفرها :

_ لأن "الست الأصيلة" مكانها دوماً جوار زوجها.
_ والرجل الأصيل.. أين يكون مكانه؟!
نبرته تزداد سخرية.. تزداد مرارة.. تزداد إرهاباً..
وتزداد إشفاقاً..

كل هذا يهزم أصفرها لتعود لزرقة خوفها وهي
تتمتم :

_ ماذا تريد أن تقول؟!
_ أنا لا أريد أن أقول.. أنا أريدك أن تشاهدي..
يهز بها كتفيه وهو يرفع لها شاشة هاتفه..

تتسع عيناها بعدم استيعاب أولاً قبل أن تتحول
نظراتها لخوف.. ثم لغضب..
كيف تحولت هذه الظلمة حولها لنور.. بل نار!!
هو إيهاب.. يدخل شقة بتول!
ربما هو عمل..

حلقة جديدة يعدها لها مفاجأة!!
لكنها تجذب منه الهاتف بعنف.. تعيد تشغيله..
مرة تلو مرة..
رائحة العطر الغريبة التي شمتهما على قميصه..
الآن تتذكر..

كانت لبتول!
يسقط الهاتف من يدها.. وتسقط معه!

تنهار مكانها جالسة من جديد تخفي وجهها بين

كفيها..

خانها!

ترجم زهده في جسدها لخيانة!

كيف وقد كان يزعم حبها؟!!

ألم يشفع لها عنده شيء؟!!

لهذه الدرجة زهيدة هي في عينيه؟!!

تحرشات خطيبها السابق!

ليلة زواجها الأولى براغب وقد تركها ليهرع إلى

رؤى!

خيبات فراشها مع إيهاب كل ليلة!!!

كلها تدور في حلقات وتدور هي معها!!!

سلم التنازلات وصل لنهايته!!!



وها هي ذي في القاع!!

كرامتها!

هل تبكي كرامتها فحسب!!؟

الغريب أنها وسط كل هذا تشعر بهذه الوخزة في

قلبها!!

وخزة لم تجربها معه من قبل..

وخزة غيرة!!

_ أعذرك في صدمتك فيه.. عرفت يوماً ما مثلها.. هذا

هو إيهاب دوماً! أناني! لا يعرف سوى مصلحته.. لا

يهمه أي قلب سيطعنه في طريقه.. ما يعنيه هو نفسه

فحسب!

بكاؤها يتحول لنحيب مرتفع وهي تشعر بروحها

تتمزق..

خيالها يرسم لها آلاف الصور لخيانته..
فلا تدري هل تلعن غدره.. أم تنزوي خجلاً من نفسها
هي..!!

_ اطلبي منه الطلاق..

ترفع عينيها المحمرتين بالدمع نحوه ليردف بنفس
النبرة الجامدة التي تفضح قوة لا يدعيها :

_ وتزوجيني!

شهقتها المصدومة تبدو كنصل غائر انغرس غدرًا في
صدرها..

ليست هي فحسب بل ذاك الذي وصل لتوه ليستمع
للجملة الأخيرة من الحديث..

إيهاب!

إيهاب الذي توارى خلف أحد الشجيرات والغضب

يشعل نيران صدره..

روحه ممزقة بين صراع الدقائق السابقة.. وصدمة ما

يسمعه!!

هو ترك بتول في اللحظة الأخيرة!

تركها قبل أن يسبل رداء الخيانة فوقه كاملاً!!

أي قوة احتاجها كي ينتزع نفسه عنها بعدما كاد يصل

معها للمحطة الأخيرة!!

ربما هي روح "الفاجومي" الحقيقية التي طغت علي

أي قناع!!

لم تعنه صورته في عيني بتول التي أطلقت وصفاً

بذنباً وهي تراه ينتزع نفسه عنها دون أسباب!

لم يهتم بحقيقة إدراكه أنه ليس معتلاً.. أنها فقط أزمة
نفسية تخص عزة..

لم يغره المزيد من زهو بريش طاووس مادام قد لطح
بدم الخيانة!!

_ اهرب.. اهرب..

لأول مرة منذ الحادث يعصي الصوت اللعين فيهرب

حقاً إنما في الاتجاه الصحيح!

لم يدر في خلده أبداً أن يعود ليجد أخاه وزوجته

هكذا!

_ لا تتصني الصدمة.. لا تظنني كنت غافلاً عن

نظراتك المختلسة نحوي.. أنا صورته المثالية في

عينيك المتطلعيتين دوماً للأفضل.. الصورة الأكثر

ثراء.. الأكثر وسامة.. الأكثر كمالاً.. أراهنك أنك كنت

تتمنين لو قابلتني قبله..

كلمات إياد تهوي كالمطارق علي رأسه.. تشعل

الأرض تحت قدميه..

يترقب ردها..

لكنه يراها تطرق برأسها في صمت..

لتحترق الدنيا في عينيه أكثر..

بينما يرى إياد يقترب منها خطوة مردفاً بنبرته

الجامدة التي زينها شبح انتصار :

_ لا حاجة لأن أذكر لك مزايا الزواج برجل مثلي..

نظرة واحدة حولك تكفي.. لكنني لا أعدك بأن أحبك..

فما أظنني سأحب امرأة بعد ورد.. لكنني لا أظن هذا

سيشكل فارقاً لديك.. أنت تزوجته دون أن تحبيه.. لن

يختلف الوضع كثيراً.

ترفع وجهها أخيراً نحوه وهي تشعر بكلماته

كصفعة..

صفعة ترمي بها ذليلة في قاع سلم التنازلات!!

ليردف هو بحقد أسود طغا على جموده المعهود :

ستوافقين! حتى لو رفضت الآن متصنعة الاستنكار..

ستوافقين.. سأرد له ضربته.. سأخذ امرأته كما أخذ

امرأتي!

لكنه لم يكد ينه عبارته حتى شعر بالصفعة على

وجهه لتتسع عيناه بصدمة وهو يميز صاحبها!!

=====

يحمر وجهه بغضب وهو يرى عزة تصفه بهذه القوة

التي جعلته يترنح مكانه!

لم يتصور أن القالب الهش الخانع الذي طالما رآها

فيه لم يكن يناسب مقاسها الحقيقي!

كيف تجرؤ على طلب مثل هذا؟! ماذا تظني؟! ها؟!!

ماذا تظني؟! كرة تتقاذفونها بأقدامكم؟! لو كان أخوك

ملوثاً بذنب حبيبك وكانت أمك ملوثة بذنبك وتريد

أنت أن تكون ملوثاً بالذنب معهما فلا تجروني معكم

في هذه الحلقة.. لا شأن لي بكم.

صرخاتها الهادرة تشعل سكون الليل حولهما ليفاجأ

كلاهما بخديجة تتقدم منهما هاتفة بجزع:

ماذا يحدث؟! ماذا تفعلان هنا؟!!

_ يعرض عليها الزواج بعد طلاقها مني.

يقولها إيهاب الذي خرج من مكنه لتشبه خديجة

وهي تكلم شفها بكفها مصدومة..

فيما يتقابل الأخوان بوجهيهما كأنما قد خلا المكان إلا

منهما.. ليهتف إياها بجموده الخادع:

_ عظيم جداً أنك قد سمعت!

لكن إيهاب يبدو فاقداً لوعيه تماماً وهو يلتمس إياها في

وجهه صارخاً :

_ تضع عينك علي زوجتي أيها الحقير!

يرد له إياها لكمة بقوة أكبر صارخاً بدوره :

_ هلا أخبرت "ست الناظرة" أولاً أين كان ابنها البار

الخلوق؟!!!

يقولها ليلتفت نحو خديجة المذعورة مردفاً:

_ كان بين ذراعي المذيعة الفاتنة يمارس هوايته
القديمة في تقمص دور الضحية كي يحصل على

مراده!

تلطم خديجة وجهها وهي تنقل بصرها بين إيهاب

المشتعل وعزة التي بدت كتمثال صخر..

فيمسك إيهاب بتلابيب قميصه بقوة وهو يرجه بين

ذراعيه صارخاً :

_ وكيف عرفت أنت؟! كيف عرفت؟! إلا إذا كنت أنت

من دفعتها في طريقي لتغويني!؟!

يدفعه إياد فجأة بعنف فيترنح إيهاب ليتراجع للخلف

عدة خطوات بينما يهتف إياد باحتقار :

_ كعهدك يا "حبيب أمك"! تجيد ارتداء ثوب البراءة

وإلقاء التهم على الآخرين.. لكن ليس هذه المرة.. أنا

لم أفعل شيئاً سوى مراقبتك.. لم أفعل شيئاً سوى أن
أطلعت زوجتك على حقيقتك.. كنت أعلم أن طبيعتك
الأنانية ستخذلك كل مرة.. كنت أنتظر سقوطك كي
أرقص على جثتك.

يهز إيهاب رأسه بعدم تصديق ليرد بذهول:
_ ما كل هذا الغل؟! ما كل هذا الحقد؟! لم أتوقع أن
يبلغ سواد روحك هذا الحد!

_ أنا أيضاً لم أتوقع أن تبلغ أنانيتك هذا الحد! الحياة
منحتك فرصة لم تمنحها لمن مثلك.. منحتك العمل
الجديد.. والمرأة التي تقبلك على وضعك.. فماذا فعلت
!؟ خنتها!

يقولها إياد بازدرء ليلتفت إيهاب نحو عزة التي لا
تزال تحتفظ بجمودها كتمثال صخري..

حتى دموعها جفت على وجهها..
فقط عيناها كانتا صارختين بالألم!
يندفع نحوها إيهاب ليمسك كتفها بقوة هاتفاً بين
انفعال ورجاء :

_ اسمعيني.. افهمي أولاً.. أنا كنت..
لكنها تقاطعه وهي تزيح قبضتيه عن كتفها قائلة
بصوت متحشرج :

_ أنت.. "كنت" .. فعلاً!
تشحب ملامحه وهو يتفحص ملامحها ليغمغم :
_ ماذا تقصدين!؟

طبيعتها الخضراء تكاد تغلبها..
تكاد تبقىها على حافة المنتصف السخيفة من جديد..
لكنها تقاوم.. تتمرد.. تنتفض..

لو لم يكن الآن فمتى!!؟
ماذا بقي كي تخسره أكثر!!؟

_ "كنت" .. و "لم تعد"!

تهز بها كتفيها وصوتها - رغم حسمه- يختنق بدمع

لم تسمح له بالانهيار.. لتردف بصوت ذبيح:

_ كنت صديقي.. ولم تعد.. كنت الكتف الذي لم

أستكف أن تبلله دموعي.. ولم تعد.. كنت تعرف كيف

تضمني بذراعين لا يخنقاني.. كنت تعرف كيف

تفهمني عندما تخذلني كلماتي ويخذلني قبلها صمتي..

كنت آخر حافة تشبث بها كفي قبل السقوط في

الهاوية.. آخر شربة ماء تسربت من بين أناملي

الظمانة.. كنت.. كنت.. ولم تعد..

تقولها ثم ترفع كفها بسرعة نحو وجهه كأنها تهم
بصفعه هو الآخر لكنها تتوقف في اللحظة الأخيرة

لتقول :

_تستحق هذه "الصفعة" .. لكنني لن أفعلها.. أنا كنت

سبباً في بتر ساقك.. وأنت كنت سبباً في بتر هذا

الجزء المشع من روعي.. ذاك الذي جعلني أصمد

قبلك.. وربما خسرتَه للأبد بعدك.. هذه بتلك إذن! ..

واحدة بواحدة كما يقولون.. ما عاد أحدنا مديناً

لصاحبه..!

تدمع عيناه بعجز وهو يعاود حصار كتفها بقبضتيه

هاتفاً بانفعال:

_وهل كان ما بيننا مجرد دين؟! أنا أحبك.

_ربما.

تغمغم بها بصوت متحشرج وهي تغرس وجعها في

نظراته ليعاود هزها من جديد هاتفاً:

وَأنتِ تحبينني.

يقولها كأنه يستجديها الجواب لكنها تزيح كفيه عن

كتفيه قائلة :

ربما..

يزداد انعقاد حاجبيه اليأس وهو يراها تنزع وشاحها

الأخضر بنفسها عن كتفيها لتلقيه في المسبح القريب

مردفة:

لكن الأكيد أن كلينا.. كان.. ولم يعد! ستطلقني دون

مماثلة.. هذه المرة أنا التي أطلب.. وأنت ستنفذ.

عزة.. عزة..

يصرخ بها بانفعال وهو يراها تركض مغادرة البيت
ليركض خلفها لكن إيد يجذبه من كتفه ليقف قبالته
هاتفاً بعينين ضاقتا بحقد هما القديم :

_دعني أنظر في عينيك الآن.. دعني أرى خسارتك..
تألم.. توجع.. اصرخ.. ابك.. اندم..

_ومن قال لك أنني لم أفعل يا غبي!!؟

يصرخ بها إيهاب وهو يخبطه على كتفيه بقوة مردفاً:

_كيف تظن تلك السنوات مرت علي إذن؟! ولماذا

تظنني وافقت على القدوم للعيش معك في بيتك؟!!

_كي تتباهى ببراء أخيك أمام الشاشات.

يهتف بها إيد فاتحاً ذراعيه باستعراض قاسٍ لكنه

فضح ألمه ليصرخ إيهاب بدوره :

_ بل لأكون جوارك.. لأجعلك تشعر بندمي.. باحتياجي
أن تسمعي.. برغبتي في التكفير عن ذنبي.
_ لم يكن ذنباً بل جريمة.. أنت مجرم.. مجرم..
حرمتي منها في آخر أيامها.. أنا كنت الأولى
بصحبتها..

يهتف بها إياد وهو يهوي بطرف راحته علي عنق
إيهاب الذي كتم ألمه وهو يبتعد بظهره هاتفاً :
_ وتتحدث عن الأنانية؟! من بنا الأناني الآن؟! لو كنت
تحبها حقاً كما تزعم لفضلتها علي نفسك.. لرأيت أن
تتركها لسعادتها مع الرجل الذي اختارته.. لم يكن
ذنبي أنها اختارتي.. تماماً كما لم يكن ذنبي أن أباك
نذل هجرته أمي..
_ اخرس.. اخرس..

يصرخ بها إياد وهو يندفع نحوه ليكيل له عدة لكلمات
على وجهه قبل أن يركله إيهاب بقوة بقدمه السليمة
في بطنه وسط صرخات خديجة التي وقفت عاجزة لا
تصدق هذا الانفجار الحي أمام عينيها..

صرخاتها الملتاعة تدعوها للتوقف وهي تحاول
التدخل لكن كليهما لم يكن يستمع وشيطان كل منهما
يرسم للآخر أبشع صورته..

يتبادلان اللكمات للحظات قبل أن تتعثر قدم إيهاب
السليمة لتزل فيسقط في المسبح.. ليلقي إياد بنفسه
خلفه..

إياد! المسبح عميق.. إيهاب ساقه..

تصرخ بها خديجة وهي تركض نحوهما لتقف على
حافة المسبح بعجز وذراعاها يخفقان حولها برعب
تفضحه أنفاسها اللاهثة..

_ اسكتي أنتِ!

يصرخ بها إياد بحقد ولهفتها على إيهاب تلقي المزيد
من الوقود على نيرانه..

قبضته تمتد ليقبض على شعر إيهاب فيدفن رأسه
تحت الماء مكبلاً حركته بذراعه الحر ومستغلاً عجز
ساقه..

لا يرى الآن سوى شعور حرمانه..

الماء حوله يذكره بموج طالما صارعه وحده..
هو المنبوذ الذي أجبروه أن يلتقم دوماً فتات المائدة!
وعندما تجراً ليعطن عن رغبة قلبه في الحب..



اختطفوا عروسه ليلقوها علي حصان أخيه!!
المزيد من الغضب يجعله يفرس رأس إيهاب تحت
الماء أكثر..

فليختنق كما اختنق..

فليتالم كما تألم..

فليمت..

فليمت..

_ أخوك يا إياد.. أخوك.. أخوك.. أخوك..

الكلمة تبدو وكأنها تلقي الماء على نيرانه..!!

شيطان حقه يسول له المزيد وهو يشعر بعجز إيهاب

في موقف كهذا قرباناً له..

إنما..

"أخوك"!

الكلمة الموجهة.. والشافية.. تبالها!

يجد نفسه فجأة يرفع رأس إيهاب من الماء ليسعل

الأخير بقوة وهو يبدو على وشك الاختناق..

تلتقي عيناها الدامعتان بغضب.. وعيد.. عتاب..

ألم..

ألم يغلق كلاهما عليه عينيه كأنه فقط ما بقي له!!

قبل أن يدفع إيد جسد أخيه نحو حافة المسبح

ليساعده على الصعود..

ولم يكد إيهاب يضع قدميه على الأرض لتحاول

خديجة ضمه حتى دفعها برفق ليمشي بخطوات

مترنحة غير مكترث ببلى ثيابه كي يغادر البيت دون

كلمة واحدة تلاحقه نظرات خديجة الملتاعة..

ابناها.. كاد أحدهما يقتل أخاه!

ماذا تنتظرين!؟

هتاف إِيَادِ الذي خرج لتوه من الماء خلفها يجعلها
تلتفت نحوه ليردف وقطرات الماء على وجهه المبتل
تشبه بكاءه بين ذراعيها عندما كان صغيراً :

اركضي خلفه كعادتك واطرکيني.

يقولها ليعطيها ظهره كأنه لا ينتظر منها الجواب قبل
أن يركض إلى داخل البيت تاركاً إياها واقفة بعجز..
تسأل نفسها السؤال الذي كان ينبغي أن تعرف جوابه
من البداية..

(ما الذي يمكنها أن تفعله!؟)

=====

تصعد بتول درج بيته المؤدي للسطح بالكثير من
الدهشة..

ما الذي يفعله رجل مثله على سطح البيت؟!
تصل لباب مدخل السطح لتلتوي شفتاها بابتسامة
إعجاب وهي تميز وقفته الشامخة بينما يعطيها ظهره
ويرفع بندقيته للأعلى..

وشم الكوبرا يمنح ذراعه العضلي المزيد من
الإثارة..

يبدو لها كواحد من رعاة البقر الذين كانت تحبهم في
صغرها..

لماذا هي مفتونة به إلى هذا الحد؟!!

يقولون أنه يجيد غسل الأدمغة!

يقولون أن له فلسفة في الشر تقلبه لسحر غامض

يخلب العقول!

يقولون أنه أستاذ في التدبير والسيطرة على النفس..

وتقول هي أنه.. هوسها؟!
منذ نجاح في استقطابها للمنظمة التي يعمل معها وهي
تتمنى لو تصل لقلبه..

أخبرها مرة أن القلب الذي تحبسه ضلوعه لا يخفق
إلا كي يضح الدم..

وأن المشاعر عنده لا تتجاوز نعل حذائه..
لكنه أخبرها كذلك أن له نقطة ضعف واحدة..

فماذا عساها تكون؟!
تعرف أن اللحظة التي ستعلم عنها فيها ستكون
لحظتها الأخيرة..

لهذا تخاف المغامرة.. قدر ما تخافه.. وقدر ما هي
مهووسة به!

صوت الطلق الناري الذي أطلقه ينتزعها من شرودها
ويكاد يخلع قلبها من مكانه فتشهب مكانها بذعر..
ذعر انقلب للكثير من الاشمئزاز وهي تميز الطائر
الذي سقط مضرجاً بالدم على الأرض أمامها وقد
انفجرت أشلاؤه!

يلتفت نحوها باسماء ليختلج قلبها برهبة..
كيف يمكن أن تجتمع ابتسامة ساحرة كهذه مع فعل
بهذه البشاعة؟!

ربما لهذا أسموه ب"الكوبرا"!!

_ تخافين من منظر الدم؟!

رقته النادرة هذه تسرق خفقاتها لكنها تخيفها أحياناً!
يتقدم نحوها ليمسك كفها برقعة.. يرفعه لشفته يلثمه
ببطء ونظراته تحتكر نظراتها.. لتهمز رأسها بالإيجاب

فيعود لثم كفها ثم يغطي عينيها بكفه فيما بدت لها
كحركة بالغة الرقة تستجلب ابتسامتها ثم يتحرك بها
حتى ظنت نفسها تجاوزت جثة الطائر..

لكنها تشهق متفاجئة وهي تشعر به يجذب كفها
لأسفل حتى تكاد تسقط..

تشعر بالشيء اللزج على باطن كفها تزامناً مع
إزاحته لكفه عن عينيها وهو يجبرها أن تغمس كفها
في الدم أكثر..

تصرخ باشمئزاز وهي تتلوى مكانها محاولة تخليص
كفها منه دون جدوى..

يدهس به بقايا الطير المذبوح لتستمر صرخاتها
ورجاءاتها أن يتركها..

يفعل أخيراً لتكتم سباباً ودت لو تطلقه إنما دفنه
خوفها بينما تنظر إليه وهو يشرف عليها من علو
بنظرة ظافرة..

تمسح كفها الملطخ بالدم في الأرض لتقف تناظره
هاتفة بصوت لاهت :

لماذا؟!!

هكذا كانوا يعلموننا.. اقهر خوفك بالمواجهة.. يبقى
الإنسان يخاف الدم حتى يخضب به يده فتحوله
النشوة لزينة.. القتل.. السرقة.. التعذيب.. كلها مفاهيم
لا أخلاقية على الورق.. لكن في الحقيقة هي شريعة
الغاب الذي نحيا فيه.. افهمي هذا جيداً كي تصعدي
السلم بسرعة.. هذا هو ما جعلني أتمتع بهذه المكانة
رغم كوني لست الأكبر سنأ.. مهنتنا هذه مهنة قلب

ميت.. لا تزالين لا تعرفين كيف تقتلين قلبك.. ولا

أمانع أن أعطيك المزيد من الدروس.

الحكمة الهادئة التي يتحدث بها تناقض فحوى ما

يتحدث عنه..

ربما هذا ما يميزه..

أنه يجيد التعايش مع تناقضاته..

لهذا ينجح في "العالمين" اللذين ينخرط في كل واحد

منهما بكل ما فيه فلا يكاد يصدق أحدهم أن هذا الرجل

هو ذاك!

خفقات قلبها تهدأ رويداً رويداً وهي تشعر به يضمها

إليه برفق فتسند جبينها على صدره..

_إيهاب.. رفضني!

تهمس بها ببعض الخزي وهي تخشى رفع وجهها
إليه ليرد بنبرة هادئة :

_ التفاصيل يا عزيزتي.. تعلمين كم يضايقني هذا
الاقتضاب!

تتاوه بخفوت وضمته تعصرها فجأة بقوة آلمتها
لكنها تبدو معتادة على شذوذه القاسي فينسب لسانها
بذكر تفاصيل ما كان بينها وبين إيهاب..
تنتهي أخيراً لتطلق آهة عالية وضمته تعصرها حد
طققة ظهرها..

يتلذذ بإيلامها.. والأسوأ أنه علمها أن تتلذذ به مثله!
يحررها أخيراً فترفع عينيها إليه بترقب هامسة :
_ أنا فعلت ما بوسعي.

_ لا بأس.. سنجد حلاً آخر.

يتمم بها بشرود وهو يعطيها ظهره ليعاود تناول

بندقيته فتتنحج لتسأله بتردد :

_ لماذا طلبت مني فعل هذا؟!_

_ إياد لا يزال يحمل بذرة الخير داخله.. ودوري أن

أعرف متى أستغلها لتتبت.. ومتى.. أدفنها!

يقولها ببرودة الجامد لتغمغم بوجل:

_ لا أفهم..

يصمت قليلاً وهو يبحث عن صيد مناسب في السماء

ليرد بعدها :

_ إياد له نقطتا ضعف.. أخوه إيهاب وأمه.. صحيح أنه

ينكر عاطفته نحوهما.. لكنني أعرف عماذا أتحدث..

لو استطعنا ليّ عنق أخيه فسندضمن أن نلوي عنقه

هو كذلك.

_عجباً.. ظننتك.. تحبه!

تتمتم بها ببعض الخوف ليلتفت نحوها بابتسامته

القاسية :

_أنا حقاً.. أفعل.. هو يذكرني بنفسي في الماضي..

_لماذا إذن..!؟

تقطع سؤالها برهبة ليقرب منها قائلاً :

_ماذا قلنا منذ قليل عن المشاعر و شئون القلب!؟!

يقولها وهو يداعب ذقنها بطرف بندقيته فتزرد ريقها

بتوتر وهي تبتعد بوجهها ليردف هو :

_أنا ألقىت الطعم الزائف لحسام القاضي.. رميت له

اللعبة التي تلهيه.. ذاك الفتى نزار.. لكن ماذا لو

سبقتني بخطوة!؟! ماذا لو أوصله نزار لإياد!؟! حينها

سأكون أنا سابقه بخطوتين.. الخيط يجب أن ينقطع

عند إياد.. يجب أن يكون محطتهم الأخيرة.. لهذا يجب
أن أملك دوماً الحبل الذي ألفه حول عنقه كي أحكم
وثاقه في الوقت المناسب!

يقطع حديثه وهو يصوب بندقيته فجأة للسماء فيكاد
قلبها ينخلع وهي تسمع صوت الطلق الناري..
طائر آخر يسقط..

يرمقها بنظرة آمرة فتدمع عيناها بقهر وهي تجبر
نفسها أن تتحني لتلطخ يدها بالدم..

الرهبة تقل حقاً.. يبدو أنه خير كما زعم!

_ ما هي خطوتنا التالية؟!

تغمغم بها بصوت مرتجف وهي تتفحص ملامح
وجهه الغامضة لعلها تستبين شيئاً لكنه يربت على
رأسها برقة هامساً:

_ لا تتعبي نفسك بالتفكير.. سأخبرك في الوقت

المناسب...والآن ارحلي.

_ ألا تريدني أن أبقى.. قليلاً؟!

بعض الإغواء يصارع الخوف في نبرتها رغم يقينها

أنه لن يفيد معه..

ليبتسم لها هامساً ببرود قاس:

_ لو كنت أريد بقاءك لما أمرتك بالرحيل.. يزعجني

الغباء عزيزتي ويزعجني دلال النساء أكثر.

تبتلع حرجها وهي تهز رأسها لتعطيه ظهرها متسائلة

عن هذه الفوضى التي يزرعها فيها رجل مثله..

والسؤال يفرض نفسه عليها..

هل يعرف عن نقطة ضعفها هي الأخرى؟!

هل يعد لها كذلك الحبل الذي يعرف متى يحكمه حول

عنقها؟!!!

بينما يراقب هو خطواتها بحذر حتى تختفي عن
ناظريه فيرفع عينيه نحو السماء التي مالت شمسها

للغروب..

قبل أن ينظر لجثتي الطائرين على الأرض..
ينحني جالساً على ركبة واحدة أمامهما ليهمس

كأنهما يسمعانه:

ـ كنتما تعثمان نفسيكما بالعودة للدار.. الوطن هو
الوهم الأعظم.. ربما لهذا تستحقان العقاب.. لن تشهدا

بعد الغروب فجر.

يتهدج صوته بالاسم الأخير رغماً عنه ليغمض عينيه

بقوة..

قبل أن ينهض واقفاً مكانه..

يريد رؤيتها الآن بشدة..

رغبته فيها هي الوحيدة التي عجز عن كبح جماح

نفسه عنها!

صحيح أنه حماها أن يلوثها بجسده..

لكنه لا يزال عاجزاً عن إطلاق سراحها..

فلتبقَ لوحته النادرة المحفوظة في متحفها البعيد عن

العيون.. عدا عينيه فحسب!

يقضي الساعات بعدها في مهامه المكلف بها باهتمام

لا ينسيه مواعده معها..

دوماً عند الفجر!

تستقبله الخادمة في البيت المنعزل كالعادة ليسألها

باهتمام :

_ أعطيتها الدواء!؟!

تهز المرأة رأسها بالإيجاب ليروح بسبابته في وجهها

بنبرته المخيفة:

_ لو نسيت مرة واحدة فسيكون عمرك الثمن!

تهز المرأة رأسها من جديد موقنة من صدق تهديده..

لا تعرف طبيعة الدواء الذي يصر أن تعطيه دوماً

لها..

لكنها تطيعه على أي حال!

_ لا تزال نائمة.. هل أوقظها!؟!

لا يمنحها الجواب وهو يصرفها بصرامة قبل أن يخلع
نعليه كالعادة أمام باب غرفتها الذي يدفعه برفق
ليدخل ويغلقه خلفه..

يتقدم نحوها ليراقب ملامحها المستكينة بنظرات
فقدت صرامتها لتتلون بعاطفة هادئة..

يقترّب أكثر ليميز ثيابها البيضاء.. كل ثيابها بيضاء..
هو يأمرهم دوماً بهذا..

غطاؤها منحسر عنها يكشف عن ساقها فيغمض
عينيه عنهما بسرعة وهو يرفع عليها غطاءها
محاذراً أن يمسها..

يجلس على الأرض جوار الفراش يراقب ملامحها
بسكون..

تراكِ تغفرين يوماً لو عرفتِ الحقيقةَ كاملةً؟! لن
تتذكري شيئاً مادمتِ تتناولين الدواء بانتظام. . أنا
أفعل ما بوسعي كي أحميكِ من الذكرى.. أنتِ فجري..
فجري الذي أطمع كل يوم أن أعيش لأراه يبدد
ظلمتي.. حتى وأنا أوقن أنها ستغلبه وتعود..
يهمس بها دون صوت وهو يشعر بحدسه تجاه الخطر
يخبره أنه يقترب..

حسام القاضي!

هل يلتقيان من جديد؟!!

فيوض الذكرى تجتاحه لكنه رجل جيد التحكم حتى

في ذهنه!

لتبقى حضرتها مقدسة.. مثلها.. خاصة بها وحدها!

لهذا يعاود النظر إليها من جديد يراها تتلململ في نومتها.. يتغضن أنفها بهذه الطريقة الساحرة.. تبدو وكأنها تعرفت إلى رائحته..

تفتح عينيها دون جدوى لتهمس:

_ أنت.. هنا؟!!

_ عودي لنومك.. ولا تبالي.. كنت راحلاً على أي حال.

_ لن تنتظر لأعزف لك كل مرة؟!!

تهتف بها بلهفة وهي تنهض من رقتها.. لهفة من لا تجد سواه أملاً في وحدتها ليرد بخفوت :

_ ليس هذه المرة.

_ لماذا؟!!

_ أعاقب نفسي بالحرمان أحياناً.

_ علام؟!_

_ الذنوب كثيرة وأحمق من يسعى خلف عدها.

إجابته مواربة لكنها تشعر أنها تفهم.. رغم يقينها من

أنها لا تعرفه!

غريب!

غريب!

تشعر به يبتعد فتهدف بلهفة:

_ لا تتأخر كثيراً.. ستعود؟!_

_ ولمن سواك أعود؟!_

يهمس بها بخفوت لكنها تسمعها مكانها فيخفق قلبها

بقوة..

هذا الصوت..

هل تتذكر!!?

تياً!

ذهنها كله مشوش خرب!

يغادر بيتها ليستقل سيارته التي يقودها نحو مكان

بعينه يقصده كعهده كلما أراد العودة لحياته

"الأخرى"!

يبدل ثيابه لأخرى مناسبة لشخصيته الأخرى.. يغير

تصفيفة شعره..

يتحكم حتى في ملامحه ليلبسها القناع المنشود..

يغادر ليستقل أحد المواصلات العامة.. واحدة.. خلف

واحدة.. خلف واحدة..

كعهده يجيد التخفي والمراوغة تحسباً للمراقبة!

يصل أخيراً لوجهته حيث ما يفترض أن يكون بيته..

يستقبله أهل الحي بالسلام فيجيب بخنوع اعتاده قبل

أن يقصد الورشة المقابلة..

ليتلقيه هتاف راغب المرحب:

_عدت مبكراً هذا الأسبوع.. أجازة مفاجئة أم رFDوك

يا.. فهمي!

=====

الطيف الثامن والثلاثون



_ لماذا لم تخبرني أنك ستعود مبكراً من عملك؟! لم
أعد طعاماً كافياً!

تهتف بها هيام بسخط لا تبالي بفظاظتها المعهودة
وكلماتها تكون أول ما تستقبله به ليرد بخنوعه

الظاهر:

_ لا بأس.. سأتناول أي شيء.

يركض أولاده نحوه تباعاً فيعانقهم ب"ما بدا" حاراً
ملهوفاً قبل أن يتوجه نحو غرفة نومه لتلحق به

هيام..

تغلق باب الغرفة خلفها فيبدأ في تبديل ملابسه

لتهتف به بنفس النبرة الساخطة :

_كم مرة أخبرتك ألا تبديل ملابسك أمامي؟! هذا الوشم

"المهيب" على ذراعك يكاد يجعلني أتقيأ! يركبني

ألف عفريت عندما أراه!

ابتسامته الخائعة تنجح في اصطناع الخزي وهو

يرتدي قميص منامته بسرعة قائلاً :

_لا تنسين الأمر أبداً! كان هذا منذ سنوات! خطيئة

استغفرت عليها الله ولن أكررها! أخبرتك أنها كانت

ليلة غريبة.. بعض زملائي في العمل من صحبة

السوء - سامحهم الله- ذهبوا بي لذاك المكان بعدما

تناولنا مشروباً عرفت بعدها أنه كان نوعاً من

الخمور.. عندما أفقت لنفسي وجدتنا جميعاً قد رسمنا
الوشوم على أذرعنا.

لو كانت واحدة غيري لشكت في سلوكك لكن هكذا
أنت طوال عمرك! أهبل! كلمة تذهبك وكلمة تأتي
بك؟! ضحكوا عليك؟! سقوك "شيئاً أصفر"؟! ماذا
تركت للفتيات!؟!

تقولها بتهكم فظ شابه الكثير من الاستهانة وهي
تتناول قميصه الذي خلعه.. تعترف سراً أنها تخاف
هذا الوشم منذ رآته على ذراعه أول مرة.. حتى أنها
كانت تتحاشى لمسسه في لحظاتها الحميمة لكنها أبدأً
لن تجهر بها.. لهذا تردف بسخرية :

ثعبان؟! لا أصدق أن واحداً مثلك يخاف من خياله
يرسم على ذراعه ثعباناً؟! لكن يبدو أنهم عندما

غيبوك عن وعيك أو هموك أن رسماً كهذا قد يزرع
القوة فيك وأنت من خيبتك صدقتهم! مؤكداً أنهم
جعلوك تدفع فيه "الشيء الفلاني"! ألم نكن أنا
وأولادك أولى بتلك النقود؟!
فيبتسم بسماحة ظاهرة وهو يجلس على طرف
الفراش قائلاً:

المسامح كريم يا هيام! مرت سنوات على هذا الأمر
وعجزت عن إزالته.. لماذا تتذكرينه الآن؟! أم تراك
تشعرين بالغيرة كلما ابتعدت عنك؟! تخافين أن أعيد
الكرة فتجذبني صحبة سوء من جديد للنساء مثلاً؟!
فتصدر ضحكة مكتومة ساخرة وهي تهز شفيتها
المضمومتين يمناً ويسرة بحركة ذات مغزى هاتفة:
_ "اللي خدته القرعة"! بلا حسرة!

ثم تلطم وجهها بخفة مردفة:

_ من يصدق أنك أخو راغب الأكبر؟! راغب الذي تهز
خطوته الحي كله! وأنت الذي لا يكاد أحدهم يراك! بلا

خيبة!

يصمت دون رد كعهده معها لتتناول سرواله الذي

خلعه هاتفة :

_ هات جوربك كي أغسلهم كلهم..

يناولها خاصته فتشممه لتتمتم بامتعاض :

_ جوربك رائحته نظيفة كأنك ارتديته لتوك.. كذلك

ثيابك تخلو من رائحة العرق رغم طول ساعات

عملك..

تلتمع عيناه لمعة مفاجئة كأنما ساءته ملاحظتها لكنها
تبدو غافلة عن هذا وهي تردف بنفس الاستهانة
الفضة :

_ يبدو أن جسدك مثلك حامل كسول حتى عن العرق.
لم تلاحظ حركة أنامله خلف ظهره وأظافره تخدم
الملاءة حتى مزقتها في موضعها بينما هي تردف
وهي تتحسس ظهرها:

_ لا.. لا.. أنا اليوم متعبة لن أغسل شيئاً.. سأنام..
ربما ينسيني النوم شقائي معكم..

تقولها لتلقي الملابس جانباً بإهمال بينما تتأوه
بخفوت وهي تتحرك نحو الفراش هاتفة بتذمر :
_ عيشة تقصر العمر! كأنك اشتريتني خادمة لك
ولأولادك! صحتي راحت.. منكم لله!

تستلقي على الفراش لتلتفت نحو زجاجة ماء قريبة
تصب منها كوباً لتشرب نصفه ثم تترك بقيته مردفة:

_ لا تشرب من زجاجتي.. أشعر بالقرف! مررتها لك

المرّة السابقة ولن أفعل ثانية. . أستيقظ عطشى

وتثور براكيني لو لم أجد الماء جوارى.. اجعل الأيام

التي تقضيها هنا تمر على خير.

يبقى على حاله لدقائق طويلة ينتظرها حتى تستسلم

للنوم ليصله أخيراً صوتها الناعس وهي ترفع

الغطاء عليها أكثر :

_ أطفئ النور وابتح عن شيء تأكله ولا تحدث صوتاً

عالياً مع أولادك.. لو قلقت من نومي فساً..

ينقطع تهديدها بشخير قصير فيلتفت نحوها لتعود

لنظراته شرستها في لحظة!



لحظة واحدة استعاد بها روح الكوبرا داخله!
ينهض بحذر ليستخرج من حقيبته زجاجة صغيرة
حوت سائلاً شفافاً تحرك بها نحو كوب الماء
جوارها..

يرفع الزجاجة ليسقط منها بعض النقاط في كوب
الماء لتلتمع عيناه أكثر وهو يعيد إغلاقها..
يأخذ نفساً عميقاً وهو ينحني نحوها في نومها..
قبضته تتحرك نحو عنقها لتتوقف على بعد
سنتيمترات قليلة..

تعلمين ما الذي يمكن أن تفعله هذه القطرات
الصغيرة التي وضعتها لك في الكوب؟! إنه سم شديد
الخطورة صعب أن يكتشف في تحليل الدم بعد الوفاة..
لا يقتل مباشرة.. يكفي أثره ليجعلك تشعرين في

البداية بأن جوفك يحترق.. أطرافك تشل فلا
تستطيعين الحركة.. حتى لسانك القذر لن يعود قادراً
على مجرد الهمس.. ستتمنين الموت في الدقائق
التالية التي سأحرص أن تطول كي أشفي غليلي
منك..

يقولها سراً دون صوت ليعلو صوت شخيرها
المستسلم وتزداد معه شراسة نظراته..
يتناول الكوب ليقربه من شفيتها ببطء كأنه يتلذذ
بخيالاته وقبضته تزداد قرباً من عنقها..
لكنه يتوقف أخيراً لينهض من مكانه.. يتحرك بالكوب
نحو الشرفة القريبة.. يتقدم نحو السور حيث بعض
أصص النباتات التي يلقي في أحدها الماء..

_ ليس بعد.. ليس بعد.. من يدري؟! ربما أعد لك
انتقاماً أسوأ.

يخفيها في نفسه وعيناه تشتعلان بهذه الشراسة
الفتية.. يعود للغرفة ليلقي على جسدها النائم نظرة
متوعدة قبل أن يغادر الغرفة نحو المطبخ حيث تجمع
الصغار يتناولون بعض الطعام على مائدة المطبخ.
يبدون وكأنهم ورثوا طبع أمهم في تهميش حضوره
أو ربما هو اعتيادهم طول غيابه.. أو ربما هي
فطرتهم النقية تبينت حقيقة شعوره "المائع"
نحوهم.. فتتحول فرحتهم المؤقتة بحضوره لإهمال
وهم ينشغلون بشجاراتهم الجانبية واللعب..

يصطدم به أحدهم وهو يحاول ضرب شقيقه فينهره
برفق مصطنع لا يكثرث له الصغير وهو يستمر فيما
يفعله كأنه لا يبالي بوجوده..

كلهم لا يبالون بوجوده..!

هو دوما "النكرة" التي لا يشعر بها أحد في "هذا
العالم" !

"الفيروس" الذي ينبغي ألا يحس بوجوده حتى
تفترسك أعراضه!

هكذا يوقن أنه قد نجح!

لماذا كسرت لعبتي؟! تستغل أن ماما نائمة؟! بابا
سيضربك!

بابا لا يضرب أحداً.. ماما هي من تفعل.

اضربه يا بابا كما ضربني.

_ أخبرتك أنه لن يضربني.

_ إذن سأشكوك لعمي راغب.

يهتف بها الصغير المعتدى عليه وهو يهم بالخروج
من المطبخ لكن شقيقه المعتدي يعدو خلفه ليشده من
ملابسه قائلاً :

_ لا.. لا.. عمو راغب لا.. أنا آسف.

_ وتدفع لي ثمن اللعبة التي كسرتها من مصروفك.

_ أَدفع.

يعود الصغيران للعب مع الثالث ببراءة وقد افترشوا

أرضية المطبخ غافلين عما أيقظه حوارهم العفوي

داخله..

يلتفتون نحوه بابتسامات بريئة يقابلها بسماحة
ظاهرة قبل أن ينشغلوا باللعب من جديد غير متبهين
لاشتعال عينيه بهذه الوحشية المخيفة!
يعطيهم ظهره ليتحرك نحو نافذة المطبخ فيغلقها قبل
أن يفتح جميع أزرار الموقد خلصة عن أعينهم ليتدفق
الغاز..

يأخذ نفساً عميقاً مغمضاً عينيه لتتسرب المزيد من
رائحة الغاز لأنفه فيشعر بانتشاء غريب..
هكذا يشعر دوماً عندما يدرك أنه "يد للموت" في هذا
العالم..

القوة القاهرة التي تنتزع الروح من الجسد لتذره بلا
حول ولا قوة..

الشعور الذي يدغدغ حواسه كما لا يفعل به أي شعور

سواه!

يتحرك ليغادر المطبخ الذي يغلق بابه خلفه بإحكام

قبل أن يستند على ظهره..

لماذا لا أحمل لكم أي عاطفة؟! لأنكم أولادها هي؟!!

أم لأنني تعودت منذ زمن بعيد أن أدهس قلبي تحت

قدمي؟! .. يقولون إن الأبوة هي أسمى المشاعر..

أغبياء! الحماسة كلها ألا يكتفي المرء بتعاسته في هذه

الدنيا فيسعى لإنجاب من يورثهم شقاءه بعده.. اهربوا

من هذا العالم بسرعة قدر استطاعتكم.. دعوني

أساعدكم على فعلها..

يتحرك بعدها ليفتح الباب ببطء.. يراهم يسعلون

مكانهم وقد احمرت وجوههم لا يفهمون ماذا يحدث..

يبدو الاختناق على ملامحهم البريئة لكن هذا لا يحرك
فيه ساكناً..

_بابا!

يهتفون بها عبر أصواتهم المختنقة فيخشب مكانه
للحظات كأنما يزن القرار.. أو يستمتع بنشوة
اللحظة..

يتحرك بخطوات رتيبة نحو الموقد يغلق أزراره خلسة
ثم يفتح النافذة..

يدفعهم للخروج نحو شرفة الصالة مراقباً ملامحهم
وهي تعود لطبيعتها..

_ليس بعد.. ليس بعد.. ربما قريباً.. قريباً جداً..

يهمس بها لنفسه وهو ينقل بصره بينهم وبين الغرفة
القريبة حيث هيام النائمة..

لماذا لا يتخلص منهم جميعاً ماداموا يسببون له كل

هذا الإزعاج!؟

_لأنكم غطائي الخادع.. من يصدق أن فهمي المسكين

الذي يستهين به صغاره قبل زوجته يعيش حياة

أخرى بوجه الكوبرا!؟!.. لأنكم اختباري.. اختباري

الذي أحرص أن أنجح فيه كل مرة وأنا أتبين قدرتي

على سحقكم جميعاً دون رحمة ودون تردد.. ولأنكم

مذاق آخر لبراعتي.. لعبقريتي.. كان يمكن أن أختفي

من الحي كله دون زوجة وأبناء.. لكنني اخترت

الأصعب.. التحدي الذي كسبته.. أن أقوم بالدورين معاً

بنفس البراعة وبنفس الإتيقان.. فهمي الساذج خيال

المائة الذي "لا يهش ولا ينش".. والكوبرا القادر

على بخ سمه في عين أي أحد.. أي أحد.. أي أحد..

يكرر عبارته الأخيرة سرّاً بقسوة امتزجت بالفخر في

مزيج مرعب لكن..

يقتحم طيفها الصورة!

فجر!

يزدرد ريقه بتوتر وهو يقبض كفيه بقوة جواره..

يكره قلبه عندما يعانده بشأنها هي وحدها..

يكرهه بقدر ما عشقها.. ويعشقها.. وسيعشقها حتى

يهلك كلاهما معاً..

أجل.. هي ملكه وستبقى ملكه حتى يستأثر القبر

بأحدهما..

فيستحضر طيفها كأنه يناجيه :

_تبقين أنتِ نقطة ضعفي الوحيدة..رقصة الروح
الغادرة التي تعود بعدها لركودها.. مهد قلبي ولحده
الذي سأسعى ألا يغادر هذه الدنيا إلا بين يديه.

=====

أصفر

=====

_عزة طلبت الطلاق من إيهاب.. أخبرتني أن الأمر
نهائي لا يقبل النقاش.

تقولها رؤى بأسى امتزج بخيبتها ليعقد راغب
حاجبيه بقوة مغمماً:

_لا حول ولا قوة إلا بالله.. مسكينة هذه المرأة.. لم

تخبرك بالسبب!؟

تهز رأسها نفيًا لترد بأسف:



_ رفضت ذكر أسباب وأنا لم أشأ الضغط عليها أكثر..
هي تقبلت محاولتي للتقرب منها على استحياء
واعتبرت هذا في حد ذاته انتصاراً.. لكنها طلبت مني
ألا أخبر هيام بشيء.

_ كوني جوارها هذه الأيام.. لا لأجل جنة ولا لأجل
هيام.. بل لأجلها هي.. لا أدري لماذا هذه "البنيت"
منكوبة هكذا؟! أستغفر الله العظيم.. اللهم لا
اعتراض.

يقولها بضيق حقيقي أبرز معدنه الطيب لتبتسم له
وهي تربت على كتفه قائلة:

_ كنت سأفعلها على أي حال.. ولو أنني شعرت أنها
مختلفة هذه المرة.

يرمقها بنظرة قلق متسائلة لتردف بشرود :

_ذكرتني بنفسي عندما أنقذتها من خطيبتها الأول
الذي كاد يعتدي عليها في غيابكم.. لازلت أذكر هذا
اليوم.. خوفي من الظلام والذي قهرته بصعود السلم
يومها درجة درجة.. خوفي من الوحدة والذي قاومته
باندفاعي نحوهما.. وخوفي من خطيئتي والذي داويته
بصدق توبتي.. وخوفي منك.. ألا تسامحني أبداً..
والذي حاربته أنت معي عندما صارحتني بحبك فور
ما أفقت من إصابتي.. لازلت أذكر لحظة طعني
بالسكين.. كأنما تخلصت وقتها من روح وارتديت
روحاً ثانية.. كذلك شعرت بها هي اليوم عندما
كلمتها.. عزة تمردت.. ليس تمرد العنيد الغاشم بل
صحوۃ الغافل..

تقطع عبارتها وهي تنتبه للابتسامة الكبيرة التي

ملأت وجهه..

كشمس ثانية!

شمس غشيتها بدفئها وهو يغمرها بين ذراعيه..

يغمر وجهها بقبلاته لتستقر شفثاه على موضعه

الأثير عند شق ذقنها مع همسه:

_ هو حظي أنا يا ليمونية.. أن أحب روحك الأولى

وأعشق الثانية وأهيم بالثالثة لو وجدت.. لا مانع لدي

أن أحبك كل مرة كأنها أول مرة.

فتضحك بدلال وهي تزيحه ببعض الرفق هامسة

باستنكار مصطنع:

_ لا فائدة فيك! أنا أحدثك عن البائسة تلك وأنت تتغزل

فيّ!؟!

_ ما حيلتي في "ست الحسن" التي تكفيني نظرة في
عينها لأكتفي بها من الدنيا؟! وأنسى بها كل الدنيا؟!
يهمس بها بعاطفة مشتعلة لم تتطفئ جذوتها رغم كل
هذه السنوات لتستطيل على أطراف أصابعها تقبل
رأسه بمزيد من توقير وحب..

ثم تتذكر ما كانت تحكي عنه لتتهد قائلة:
_ لن أخبر هيام فقد وعدت عزة.. لكن أمراً كهذا لن
يخفى خاصة مع شهرة عزة الإعلامية ومتابعة
الملايين لها مع زوجها مؤخراً.
_ دعيتها لوقتها.. فهمي عاد اليوم من عمله.. مر عليّ
في الورشة.

يقولها بعفوية وهو يستلقي على الأريكة القريبة
فتجلس جواره قائلة :

_أعرف.. رأيتُه منذ قليل في الشرفة يسقي الزرع..

طيب فهمي.

يصدر هممة موافقة وهو يسترخي في تمدده لتردف

بتردد :

_طيب حد استضعافه من الناس.. لا أصدق أن الحاجة

عفاف ربتكما معاً! هي أخبرتني أنها كانت تتعمد أن

تقسو علي في أول أيام زواجنا لأنها كانت تخشى أن

"أكل عقلك" مثلما فعلت هيام معه.. لكنني أثق أن

الأمر لا يتعلق بالحب.. بل بالضعف.. حلمه الغريب

على فظاظة هيام المنفرة يبدو لي مبالغاً فيه.. كيف

يكون هذا شقيقك؟

_تقصدين أنني جبار ومفتري؟!!

يرفع بها أحد حاجبيه بتهديد مصطنع فتضحك وهي

تقبل وجنته بنعومة قائلة :

__ " فشر! " أنت أفضل رجل في الدنيا.. أنا فقط

أعني أنه دوماً خانع.. يده في المياه الباردة.. لا يأخذ

قراراً ولا يحمل مسؤولية.. حتى عندما صارحك

برغبته في تطبيقها تراجع عندما أمرته بهذا.. لازلت

عند رأيي.. هو يحمل جزءاً من مسؤولية ما يحدث مع

هيام.

فيتهد بحرارة وهو يبسط كفها علي صدره.. عيناه

تزوجان في الفراغ كأنه يستعيد ماضياً سحيقاً :

__ أحياناً أحمد الله أنه صار كهذا.. لا تتعجبي.. أنت لا

تعرفين كيف كان فهمي في صغرنا.. أمي أنجبتني

بعده بما يقارب العشر سنوات فقدت فيها الأمل في

الإجاب.. دللته بأقصى ما استطاعت حتى إذا ما أتيت
أنا انشغلت بي بطبيعة الحال.. تحكي لي أنه كان شديد
العدوانية منذ طفولته.. عدوانية زادت غيرته مني
عندما ولدت وصار اهتمامها بي أكثر بطبيعة الحال..
حتى أنها دخلت الغرفة يوماً وأنا رضيع لتجده يضع
الوسادة فوقى ويجلس فوق كلينا..

تشهق بدهشة مستنكرة :

_ فهمي؟!_

يبتسم لدهشتها وهو يقبل كفها بخفة مردفاً :

_ آه! لا تعرفين كم كان يذيقني الويلات في صغرنا..

من أول كراتي التي كان يمزقها.. مروراً بخنق

الكتاكيت التي كنت أربيها.. وانتهاءً بإحراق كتبي في

المدرسة..

_ فهمي؟!_

تكررها من جديد باستتكار ليضحك لدهشتها قليلاً
وهو يردف بشرود عاد يبتلعه :

_ طبعه كان شديد الحدة.. لكنه كان شديد الذكاء وافر
الطموح.. كان شديد الهوس برغبته في الالتحاق
بكلية الشرطة.. بل كان يأمرني أنا ورفقائي في
صغرنا أن "نضرب له تعظيم سلام" في ذهابه
ومجيئه.. أمي تقول أنه كان يجبرها في صغره أن
تكون ثياب العيد له هي "بدلة ضابط".. وكان يرسم
لنفسه دوماً صوراً بها.. هو بالفعل قدم في كلية
الشرطة لكن رفضوا أوراقه لأسباب لا داعي لذكرها
كما تعلمين.. ولأنه كان شديد العناد رفض الالتحاق
بأي كلية أخرى واكتفى بشهادته الثانوية يتنقل بين

مهن مختلفة لكنه كان - بالكاد- يبقى في مهنة واحدة
سنة كاملة علي الأكثر! إما كان يتشاجر مع صاحب
العمل أو يرفضه الأخير لسوء طباعه.. فشل خلف
فشل جعل منه أسوأ صورة قد تتخيلونها.. لازلت أذكر
بكاء أمي كل ليلة وهي تسمع النساء يعيرنها به
وبخبيتها فيه.. الخيبة التي كانت تترجمها لمزيد من
تعنيفه ويترجمها هو للمزيد من العدوانية وكرهية
الجميع.. أذكر أنني عدت يوماً للبيت لأجد الشقة
غارقة بأكملها في الماء بعدما ترك الصنبور مفتوحاً
على آخره وسد منافذ الصرف مستغلاً خروج أمي..
زعم أنه لم يقصد لكن ملامح وجهه الظافرة وقتها
كانت تفضح فعلته!
_ فهمي؟!!! كأنك تتحدث عن واحد آخر؟!!

لا تزال تكررهما باستنكار لتتحول ضحكته لابتسامة

بأسة وقد كسا الحزن وجهه مع استطراده:

هو فعلاً تحول لآخر! سبحان مغير الأحوال!

ماذا تعني!؟

تسأله برهبة غلبت فضولها والدمع يتسرب لعينيها

الرقیقتین رغباً عنها لیرد بشرود :

ياالله! يبدو هذا بعيداً جداً.. كأن لم يكن.. أخبرتك أنه

تنقل في المهن بفشل رغم ذكائه الشديد الذي كانوا

يشيدون به لكن عدوانيته كانت تفسد كل شيء في

النهاية.. حتى استقر به الحال أخيراً في العمل في

حسابات سلسلة محلات كبرى يمتلكها رجل مرموق..

أظنك تعرفين اسمها.. (...)!

تهز رأسها بفضول ليردف :

_ العمل الوحيد الذي استمر فيه.. العمل الوحيد الذي لم يشتك منه صاحبه.. العمل الوحيد الذي شعرت أنه لمع فيه حقاً.. لمع بوضوح كأنه تحول لآخر أكثر هدوءاً.. أكثر تفهماً. . كلنا انتابتنا الدهشة حتى علمنا السبب..

ترمقه بنظرة متسائلة والفضول يشعلها أكثر مع استطراده:

_ الحب! ابنة الرجل الكبير صاحب سلسلة المحلات نفسه! أحبها فهمي حد الهوس وكذلك هي.. لكن تعرفين كيف تسير الأمور في مثل هذه الحالات.. رفضها أبوه رغم أن فهمي أرغم أمي وقتها أن تبيع كل مصاغها بل وتمنحه نصيبي في إرث أبي كي يقرب المسافات بينهما.. بالطبع شقيقي المجنون

وقتها لم يعترف بالخسارة.. أخبرنا أنه سيهرب معها.. أمي رفضت مساعدته بالطبع واستعانت بأقاربنا ليقفوا في وجهه.. لكن.. الأحمق فعلها بعيداً

عنا

تشهق بحدة مستكرة متسائلة :

_وماذا بعد!؟!

يلتفت نحوها من شروده ليزفر قائلاً:

_ هذا ما لا يعرفه أحد! ظهر فجأة كما اختفى فجأة.. بعد شهور من غيابه.. أرجح أن أقارب الفتاة عرفوا بمكانهما وأعادوها قسراً.. لم يتحدث أبداً عن الأمر.. عاد كأنه أسد جريح ينتظر الفرصة لينهش لحم أحدهم.. عدوانيته عادت أقسى.. شراسته صارت لا تطاق.. بعضهم أشاع أنه كان في السجن لكنه لم يقل

شيئاً عن هذا.. بقي صامتاً كبركان خامد ينتظر
اللحظة المناسبة كي ينفجر.. لكن هذه اللحظة لم تأتِ
أبداً.. والحمد لله.. ربنا دبرها من عنده.. رزقه بفرصة
للسفر ل (...) كما تعلمين.. قضى هناك ما يقارب
الخمس سنوات عاد بعدها شخصاً آخر.. فهمي الذي
تعرفينه الآن.. شخص منطقي مستسلم.. يمشي "جنب
الحيط" كما يقولون ولو استطاع لاختبأ خلف
"الحيط" نفسه!

_ غريب! الآن أتذكر.. عبد الله أخبرني شيئاً كهذا
عندما تقدمت أنت لخطبتي.. أخبرني أن لك أماً كانت
له طباع صعبة لكن ربنا هداه..
تتمم بها بإشفاق ليتها قائلًا:

فعلًا غريب.. لكن "الغربة تربي" كما يقولون! لعل شعوره بالفارق الطبقي مع تلك الفتاة التي أحبها قد كسره.. لعله وجد بعض النجاح في عمله هناك.. لعله كبر وازداد تعقلًا.. أو لعلها دعوات أمي له بالهداية كما تقول!

وكيف تزوج هيام؟!

عادي! أمي رشحتها وذهب لرؤيتها عقب استقراره هنا.. قوة شخصيتها وتسلطها كانت واضحة بعض الشيء من البداية حتى أننا توجسنا أن يعود معها لطبعه القديم.. لكنه بدا متسامحاً مع هذا.. لا أدري لماذا شعرت أنه يرى في قوتها بقايا نفسه القديمة.. لكن الأيام مرت وتحول تسلطها لفظاظتها المنفرة التي تعرفينها.. كما تحولت رغبته للتعايش لخنوعه

الآن.. المسكين.. كأنه يأس من كثرة ما خبط رأسه
في الحائط! اسأليني عن قهر الرجال عندما يشعرون
بعجزهم.. يبدو أنه أحب تلك الفتاة الثرية حقاً وفقد
روحه بعدها.. ربما كان هذا أفضل في حالته لأن
الحزن روض شراسته.. لكن التوازن حلو.. وهو
صار النقيض الخانع المثير للشفقة!

_ سبحان الله! صرت أشفق عليه فعلاً.

تقولها رؤى ليزفر مغمغماً ببعض الأسي:

_ ماذا لو عرفت أن الفتاة التي أحبها توفيت بعد

زواجه من هيام بفترة؟! حادث سيارة كانت تستقلها

مع عائلتها وانقلبت بهم في الماء.. أظن هذا أيضاً

كانت القشة الأخيرة التي قصمت ظهره وجعلت منه

هذا الرجل المستسلم الذي تعرفينه الآن .. لهذا لا

نقسو عليه أنا وأمي كثيراً.. هو في النهاية رجل
خاسر.. خسر حلمه في كلية الشرطة التي كان
مهووساً بالالتحاق بها.. وخسر حلمه في الفتاة التي
أحبها بجنون.. والحمد لله أنه لم يخسر أكثر.
تهز رؤى رأسها بإشفاق لتسأله:

هل تعلم هيام كل هذا؟!

لا أحد منا أخبرها.. ولا أظنه هو الآخر قد فعل! أظنه
نسي الماضي وتعايش مع خسارته كما ترين.
يقولها راغب ليسمع كلاهما صراخ هيام من جديد
يأتي من شقتها فيتبادلان نظرة مختلفة هذه المرة..
ليزداد إشفاق رؤى على.. "الرجل الخاسر"!



بنفسجي



_ ما هذا المكان؟! لماذا أتيت بنا إلى هنا؟!
تهتف بها ديمة بخوف وقد غلبها "أزرقها" بينما هي
جالسة في سيارته التي أوقفها أمام أحد البيوت على
شاطئ ساحلي منعزل..

ورغم رضاه عن خروجها عن صمتها الذي تتشبث به
منذ تلك الليلة التي كاد يتركها فيها لكنان.. لكن حسام
يتجاهل سؤاها للحظات وهو يلتفت نحو سند الذي
استكان في حضنها ليسأله باهتمام :

_ تحب البحر؟!!

لا يبدو الصغير مهتماً سوى بالصندوق الصغير الذي
جلبه حسام معهم والذي انبعث منه صوت مواء قوي
فيكتفي بابتسامة راضية..

يترجل حسام من السيارة ليفتح البيت أولاً ثم يعود
إليهما..

تتشبث ديمة بمكانها في السيارة ونظراتها الزائغة
تفضح المزيد من خوفها..

لماذا جعلها يتركان بيته في العاصمة؟!!

ولماذا أتى بهما لهذا المكان وحدهم؟!!

تراه يفكر في طريقة لعقابها؟!!

تراه يؤذيها؟!!

لهذا منع كنان من اصطحابها معه تلك الليلة؟!!

يريد أن ينتقم منها بطريقته بعدما انتقمت منه

بطريقتها؟!!

الخوف يحتكر خفقات قلبها حد الجنون.. لكن..

كفاك تفكيراً في "الانتقام" يا ديمة.. دعي عنك

وزره فليس لكف مثل كتفك.. استفتي قلبك.. هو

يعرف خريطة كنز سكينته.

لا يزال شبح هالة الأبيض باقياً معها.. يعرف متى

يتدخل!

تشعر بكفه يمتد نحوها فترفع إليه عينيّن حائرتين

قبل أن تجد نفسها تمد كفيها كليهما لتتشبث به..!

تبدو وكأنها حركة بسيطة كأنه يساعدها في الترتل

من السيارة لكنها كانت عظيمة الأثر لكليهما!

يتحرك بها نحو الداخل لتتوقف خطواتها رغماً عنها
أمام البيت..

هدير البحر حولها.. رائحته التي تمتزج في أنفها
برائحة الموت.. باب البيت الذي لا تدري ماذا يخفي
خلفه..

كم بيت دخلت منذ غادرت سوريا؟!
لا تحسب.. كيف يمكنها أن تحسب؟!
غربة خلف غربة تقطع المزيد من جذور شجرتها
وتنذرها بالسقوط!

لكنه يبسط ذراعه الحر على كتفيها هامساً:

خائفة؟!!

اكتفيت من البحر.. اكتفيت من البيوت الغريبة..

كفى.. كفى..

تكررها عدة مرات بصوت يعلو تدريجياً مع خفقات قلبها لتصل عبارتها حد الصراخ في المرة الأخيرة رغماً عنها وكفاها يتركان كفه لتدفن فيهما وجهها وقد بدت على شفا انهيار جديد..

لكنه يفهمها حقاً هذه المرة.. ليس فقط بتأثير توجيهات كنان إنما بحدس قلبه الذي صار عالماً بأدق تفاصيلها..

لهذا ينزع كفيها عن وجهها ببطء.. يربت على وجنتيها اللتين اشتعل النمش فيهما كشهود على ندوب الماضي..

_جربي هذه المرة.. ثقي بي.
لا يزال "طغيانه الحاني" يلقي أثره في روحها..

خاصة وقد تخلص من غروره القديم ليلتحف بهذا

الوجع الذي تدرك أنها سببه!

هل سامحها؟!!

هل سامحته؟!!

لا تريد التفكير.. فلتلقي له زمام روحها يوجهه كيف

شاء!

تلقى أولاً نظرة متفحصة علي سند الذي انزوى في

ركن بعيد داخل صالة البيت يلاعب القطة الجديدة التي

أحضرها حسام معه..

_ أين..؟!!

تكاد تسأله عن جراء سلطانة لكن.. يذبحها السؤال

فتعض شفتها قاطعة عبارتها!

لكنه من جديد يقرأ صمتها..

_أبقيتهم لدى فهد حتى نعود..خشيت أن يسأل سند
عن وجودهم وخدمهم دون سلطنة.
كلماته تذبحها أكثر فتجهش في البكاء وهي تتذكر ما
فعلته دون وعي!

لكنها تشعر به يقربها نحوه.. قبضتاه تعصران
ذراعيها.. يشير بعينيه نحو ندوب ذراعه حيث كان
يطفئ سجائره وهمسه شديد الخفوت بالكاد تسمعه
لكنه يدوي داخلها هادراً كالرعد :

_ترين هذه الندوب؟! أنا من أحدثتها.. كل ندبة
تساوي جلدة من ضميري عقاباً على ذنب قد اقترفته..
كل هذه السنوات.. كل هذا الذكاء الذي ظننتني أملكه..
كل خبرتي في التعامل مع البشر.. كلها لم تكن كافية
لأدرك أي أحمق كنت عندما تركت الندم يسيرني

للطريق الخطأ.. ولن أسمح أن أراكِ نسخة أخرى
مني..

_ أنا.. أنا أريد أن أتكلم.. أن تسمعني.. الكثير هنا..
وهنا.. الكثير.. الكثير.. الكثير..

كلماتها المتحشجة بانفعالها متخبطة حارة تائهة
وهي تشير لرأسها ثم لصدرها بعجز أدمى قلبه
مردفة:

_ لكن.. كل الكلام يذوب على شفتي.. يخنقتي وهو
محبوس داخلي.. ويهددني لو خرج من فمي.. إلى
متى سأصبر أنا؟! إلى متى ستصبر أنت؟!
تقولها لترفع إليه عينيها الدامعتين اللتين تتسعان
ببطء..

عقدة حنجرته تبدو لها كصخرة تصلح للاختباء

خلفها..

لإسناد ظهرها المتعب عليها..

ولنقش رسم من رسومها الطفولية فوقها.. رسم

لطائر يفرد جناحيه كي.. يحلق!

لكنه يهزها من جديد بين ذراعيه بقوة وهمسه

الخافت يزلزل كيائها :

_ لا تتكلمي.. ابقِي حبيسة صمتك كما شئت.. أو

اصرخي.. املئي الدنيا صخباً لو أردت.. لكن لا

تستسلمي مثلي.. لا تضيعي المزيد من العمر.. كنتِ

تريدين الشعور بقوتك؟! الآن أظنك تفعلين.. كفي عن

رثاء ذاتك إذن وأدركي ما بقي من أيامك.. أظنك الآن

تفهمين كم تشابهت خطايا ماضينا.. أظنك الآن

تفهمين كيف يمكن أن نرتكب ذنباً لم نتعمده.. كيف
هو شعور من يفيق ليجد ذنبه يحاصره وهو عاجز
عن إصلاح ما اقترفته يداه.. ليجد الندم قاسياً.. قاسياً
جداً.. لكنه لا يجدي..

يتحشرج صوته في هذه اللحظة كأنه يكتم بكاء يخنق
روحه فلا تشعر بنفسها وكفاها يرتفعان ليتشبثان
بذراعيه كما يفعل هو..

ترى انعكاس صورتها في عينيه فتود لو بقيت هذه
فقط.. مرآتها الجديدة!

نقمت عليه يوماً لأجل ذنبه القديم واليوم يجيد القدر
تبديل الكراسي لتجد نفسها قاعدة مكانه!!
وأمامها كان هو يشعر هو برجفة جسده..
هذه الرجفة التي تبدو وكأنها تخصها وحدها!

رجفة رجاء أن تقترب.. تلتصق.. بل تخرق.. تسكن
روحه فلا تغادر..

وأن تبتعد.. تحلق.. تتلاشى.. تختفي في سماء حرة لا
يقيدها عجز رجل مثله..

فيالسخرية! بل يالصرع!

حلقة الزعفران في عينيها تعود لو هجها الباهت لكنه
يكفيه ليشعر أنها.. تراه!

فيعود ليغرس همسه في كيانها :

لو كنتِ تنتظرين مني أن أعاملك كضحية تستحق
الشفقة فلن أفعل.. ولو كنتِ تنتظرين مني أن أقتص
منك كجانية تستحق العقاب فلن أفعل كذلك.. أنتِ في
عيني صورة مرآتي.. المزيج الرمادي الذي ضل
طريق الأبيض ونفر من طريق الأسود.. لهذا سأبذل

كل جهدي لأعيدك لذاتك.. قلتها وأقولها وسأبقى

أقولها حتى يسدل الفراق القادم ستره بيننا: (أنا

معك)

"أنا معك" الساحرة!

كيف تخبره ما الذي تصنعه فيها هذه العبارة؟!

تحيتها بعد عدم!!

_ لماذا تفعل معي هذا؟! لماذا تساعدني؟! لماذا

تدعمني كل هذا القدر؟!

أسئلتها تتوالى تباعاً وعيناها تبحثان في عينيه على

الإجابة التي تكاد توقن فيها..

عقدة حنجرتة تتحرك بارتباك فتبدو لها كسرب

فراشات يغريها بمطاردته حتى حدود السماء..

رجفة جسده بين كفيها تزداد وشفثاه تنفرجان كأنه

على وشك الإجابة..

لكنه يزمهما بقوة للحظات وهو ينظر من بعيد لسند

المنشغل بملاعبة قطته..

قبل أن تصلها كلماته وهو يشير بعينه للصغير :

_ لأجل هذا! أريده ألا يحنق عليّ عندما يكبر.. لو

عرف الحقيقة يوماً وأدرك أنني كنت سبباً في فقدته

لأمه ليدرك كذلك أنني كنت سبباً في بقاء أخرى..

أجل.. أنت أمه الثانية التي سأفعل أي شيء كي تبقى

له.. ومعه.

_ فقط؟!!

عيناها ضارعتان بالسؤال.. وعيناها فائضتان

بالجواب..

لسانها زاخر بالأسئلة.. ولسانه عاجز عن الرد..
فتبقى القلوب موصدة على ما فيها!
لا تزال مشتتة.. لا تفهم ماذا تريد.. كل هذه الفوضى
داخلها تربكها..

فتترك نفسها للاستسلام لعقيدة واحدة..
أنها "تحتاج" البقاء معه.. بل.. "تريد" البقاء معه..
الآن.. على الأقل!

_أحضرت لك هذا هنا.. أظنك تحتاجينه.
يهرب بها من رغبته العارمة في هذه اللحظة أن
يضمها لصدره وهو يزيح كفيها عن ذراعيه برفق
مشيراً للنول الخشبي هناك الذي ترمقه هي بلهفة قبل
أن تتحرك نحوه..

تتحسسه بأناملها بحنين شارد لتشعر بكفه على
كتفها..

وبهمسه يراقص خفقات قلبها :

لن تخافي من البحر بعد الآن.. لن تخافي من البيوت
الجديدة.. لن تخافي من أشباح الماضي.. لن تخافي
من ذنوبك.. أناملك ستتعلم كيف تغزل ثوب تعافيتها
كما تعلمت غزل الحرير.

ابتسامتها شديدة الوهن تكاد لا تراها عيناه.. إنما بكل
اللهفة رآها قلبه.. بل تلقفها!

يعلم أن طريق شفائها لا يزال طويلاً.. لكنه يثق أنه
سيكملها معه حتى آخره..

ساعتها فقط سيفتح لها باب الخروج من حياته..
حريتها التي تستحقها بعد كل ما ذاقته من ويلات..

حتى لو كان قلبه هو القربان!

ربما لهذا وجد على شفثيه ابتسامة تشبهها وهو

يلتفت نحو سند ليسألها :

_لم أسم له القطة الجديدة.. اختاري أنتِ اسمها.

يفاجئها السؤال فتهز كتفيها بتردد لكنه يعود ليهمس

بحسم :

_اختاري.. اختاري اسمها.

عيناها تشردان في الفراغ للحظات قبل أن تهمس

بخفوت :

_وعد..أمل..أو..ربما فجر.

ينعقد حاجباه بشدة مع وقع الاسم الأخير عليه ليتمتم

بشروء :

_فجر؟! ياله من اسم!

_ لماذا هو بالذات ما جذب انتباهك؟!

يتهد بحرارة وهو يطرق برأسه قائلاً :

_ تعلمين أنه كان اسم أختي الراحلة؟!

_ كان لك أخت؟!

تسأل ببعض الدهشة وقد ظنت أنها عرفت تفاصيل

حياته كلها فيرد ولا يزال مطرقاً برأسه :

_ ابنة عمي وأختي في الرضاعة.. ماتت في حادث منذ

سنوات طويلة مع عائلتها.. لو كانت هناك امرأة في

الدنيا أحببتي كأمي لكانت هي بلا منازع.

كفها يعانق كفه في مواساة صامتة لكنه يتحنح

متجاوزاً مشاعره وهو يسمع هاتفها.. صوته يعلو

بالأذان حسب تطبيق الصلاة..

يعرف أنها لم تعد تؤخرها.. توجيهات كنان من ناحية
ورغبتها هي في استعادة روحها المفقودة من ناحية
أخرى..

لهذا لم يتعجب سلوكها وهو يراها تتسحب نحو ركن
قريب تستقبل القبلة لتصلي كأنها لا تشعر بأحد..
يراقبها من بعيد برضا لكنه يشعر بكف سند يمسك
كفه فيخفض بصره نحوه ليشير الصغير برأسه نحو
ديمة..

ينحني إليه حسام ليسأله بصبر :

ماذا تريد؟! تريدها؟! هي تصلي.. عندما تنتهي

ستعود إليك.

لكن الصغير يهز رأسه وهو يعاود الإشارة نحوها
متشبهاً بكفه هو أكثر فيحاول حسام فهمه:

_ تريد الصلاة مثلها؟!!

يهز سند رأسه ثم يشير بسبابته لصدر حسام فيرتفع

حاجبا حسام بهمسه:

_ تريد الصلاة معي؟!!

يبتسم الصغير وهو يهز رأسه لتتجمد ملامح اللحظات

وهو يشعر بانتفاضة قلبه داخله..

يصلي!

هو لم يفعلها منذ عهد بعيد يكاد لا يذكره!

ذنوبه قيدته وهو انساق خلفها راضياً بقناع

شيطانه!!!

حتى عندما أدى صلاة الجنازة على أمه فعلها بقلب

غائب مراعاة للناس..

والآن؟!!

هل له من عودة؟!؟

هل هي الخطوة الأولى لـ "وجهه الأبيض"؟!؟

يشده الصغير من طرف قميصه ليجذبه من شروده

فيلتفت نحوه بتشتت مغمماً :

_ انتظر.. فقط.. قليلاً.. كي..

يقولها شاعراً بوزره يثقل كتفيه لكن الصغير يشده

أكثر بإصرار ليرمقه بتردد لم يدم سوى للحظات قبل

أن يحسم قراره بسرعة بما يناسب شخصاً مثله.. :

_ دعني أعلمك كيف تتوضأ أولاً.

يخاطب بها الصغير وهو يتحرك معه نحو الحمام

القريب.. يفتح صنوبر الماء لتدمع عيناه وهو يشعر

لأول وهلة بلمسه البارد على جرح قلب ملتهب

كقلبه!

يقشع بدنه وهو يعلم الصغير الوضوء فيقلده الأخير
في حركاته بحماس قبل أن يركض بلهفة طفولية نحو
المنشفة القريبة فيعود بها إليه.. يشير سند له أن
ينحني فيستجيب حسام بتأثر وهو يرى الصغير يقلب
الأدوار فيجفف له وجهه وذراعيه!

لا يشعر بنفسه إلا وهو يضمه إليه بقوة دافئاً تأوّهه
في كتفه الصغير الذي يشعر الآن أنه يسع العالم!
يحمل الصغير ليتحرك به نحو الخارج من جديد..
يضعه أرضاً ثم يوجهه نحو القبلة.. يقف أمامه وهو
يأمره أن يقلد حركاته فيهز سند رأسه بطاعة..

يبدأ في الصلاة..

(الله أكبر)

يشعر برهبتها تشطر قلبه نصفين في موضع كهذا!

هل يقبله (الملك المهيمن القهار العزيز المنتقم) بعد

طول إعراضه؟!!

نعم.. يقبله (الرحمن التواب الغفور الرحيم الودود)!

يغمض جفنيه على دمعة خاشعة وهو يستمر في

صلاته شاعراً بحركات الصغير خلفه يقلده..

حتى إذا ما استوى جبينه "الذي طال غروره"

بالأرض شعر ساعتها أنه حقاً قد بلغ غايته..

أنه أبدأً لن يعود لطغيانه القديم.. أبدأً!

قلبه يلهج بدعاء لا يفقهه لسانه إنما يوقن أنه لن

يخفى عن خالقه..

(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)؟!!

ينهي صلاته ليسلم شاعراً أنه مع إيماءة رأسه نحو

كل من كتفيه قد أزاح معها وزراً طالما أنهكهما..

ليته عرف الطريق من زمن.. ليته!

_ الحمد لله.. الحمد لله..

للمرة "الثالثة" في حياته يشعر بها بمذاق مختلف..
المرّة الأولى كانت عندما أنقذ دعاء من الانتحار فوق

السطح..

والثانية عندما نجح في كبح جماح نفسه عن ديمة

وهي حلاله..

والآن.. لا تقل أثراً عن كليهما..

كانها المطر الذي تنتظره أرضه الجذباء.. لتتبت!

_ إنها أول مرة يطلب فيها أن يصلي.

تهمس بها ديمة وهي تراقبهما من علّو وقد كانت قد

فرغت من صلاتها.. فيسبل حسام جفنيه على دمعة

تأثر!

يهرع الصغير إليه ليحتضنه فيضمه بقوة وهو يهمس
في أذنه بينما أصابعه تتخلل شعره بصوت خنقه
تأثره:

_ يوماً ما ستذكر أنني أول من علمتك الصلاة؟!
يرفع سند عينيه إليه بابتسامة بريئة تشبهه..
ابتسامة يغمض هو عينيه عليها كأنه يحتفظ بها كنزاً
بين جفنيه وهو يهمس لنفسه سراً :
_ أما أنا فلن أنسى أبداً أنك من أعادني إليها.

=====

_ هو بالداخل!؟

يسأل الكوبرا بما يوازي "تحصيل حاصل"!
فهو يعلم أن الرجل الذي طلب إحضاره قد أتى به
رجاله مقيداً داخل الغرفة..

يرد رجله غليظ الهيئة بتوقير مبالغ فيه:

_ كما أمرت سيدي.. أحضرناه حياً.. هذا لو لم يكن
الرعب قد قتله في هذه اللحظات.

يبتسم برضا وهو يصرف الرجل ليدخل الغرفة وحده
ويغلق بابها الحديدي خلفه..

تطالعه عينا الرجل المقيد بذعر ليهتف بهلع:

_ أعتذر يا سيدي.. أعرف أنني قد أخطأت.. لكنهم

أجبروني.. أرجوك يا سيدي.. أنا رجلك منذ زمن

بعيد.. أنا خدمتك كثيراً.. أنا..

_ أنت خائن.

يقاطعه بها ببرود وهو يتناول "مشرطاً" حاداً من
على مائدة قريبة يتقدم به نحوه.. هذا الذي جعل عيني
الرجل تجحطان برعب وهو يحاول تحرير قيود جسده
شبه العاري على مقعده إنما.. دون جدوى!
بينما يسحب الكوبرا كرسيه ليجلس قبالة مردفاً
بنفس البرود :

_ أحب الخائنين في العادة.. هم وقود مهنتنا يا
صاحبي.. الخائن لدينه.. لوطنه.. لأهله.. لمبادئه.. بمن
سوى هؤلاء تظن كياننا يكبر؟! لكن المشكلة عندما
ينقلب النصل ليصوب نحو صدري.. ساعتها أغضب..
أغضب كثيراً.. فلا أراني أستحق الخيانة.. أنا أمنحكم

بسّءاء كل ما تريدونه ولا أطلب في المقابل سوى
القليل.. أحب الخيانة يا صاحبي لكن.. أكره الجحود!
يصرخ الرجل صرخة مباحثة والمشرط الغادر يجرحه
في ذراعه فجأة ليعود لرجاءاته ومنظر الدم النازف
يثير هلعه أكثر :

_ أرجوك.. أنا مستعد لإخبارك بكل شيء.. كل شيء
عن..

يصرخ من جديد قاطعاً عبارته والمشرط يصيب فخذه
هذه المرة بينما يقول الكوبرا بنفس البرود :
_ أنا أعرف ما أريده بالفعل.. ما رأيك أن أخبرك أنا
بقصة لطيفة!؟

يرمقه الرجل بنظرة مرتعبة تبعثها صرخة أخرى
والنصل ينال من صدره هذه المرة..

بينما يبدو الكوبرا غير مكترث كأنه لا يفعل شيئاً وهو
يغمغم بنفس النبرة الباردة :

_ كان يمكن أن أمرهم بقتلك.. أو أن أقتلك أنا
مباشرة.. لكنني فضلت هذه الطريقة.. سأصفي دمك
حتى الموت.. لماذا؟! أولاً.. كي تكون عبرة لمن
خلفك.. وثانياً.. لأنني في أحيان قليلة.. قليلة جداً..
أرغب في الكلام مع من مثلك.. في سرد حكايتي وأنا
مطمئن ألا يفشي السامع سري.. هذه اللحظات التي
تفصل بين الموت والحياة مقدسة.. مقدسة جداً يا
صاحبي.. ولن أجد أفضل منها كي أشاركك فيها حكاية
رجل عظيم مثلي.

_ أنت مجنون.. مجنون..

يصرخ بها الرجل وقد غلب ألمه خوفه ليبتسم الكوبرا
وهو يصفعه صفة قوية زلزلت وعيه للحظات قبل أن
يطلق الرجل صرخة مكتومة وهو يكتشف ما أصابه
النصل هذه المرة..

لسانه!

هكذا أضمن.. مادمت سأحكي لك حكايتي.. لا أحب
المفاجآت ولا أثق دوماً باللحظة القادمة.

الدم يختلط بالدموع المقهورة علي وجه الخائن لكن
الكوبرا يرتخي في جلسته عاقداً ساعديه أمام صدره
مغمضاً عينيه ليقول بنفس البرود الذي شابته أخيراً
لمحة مشاعر :

من أين أبدأ؟! من الطفولة؟! هل يمكن أن تصنع
طفولة عادية رجلاً عظيماً مثلي؟! أشك! أذكر أنهم

كانوا يعاملونني جيداً كما أستحق حتى جاء ذاك
المزعج الصغير الذي جذب انتباههم كله.. كانوا
يظنونني أبله.. يشترون لي الألعاب ويخبرونني أنه
هو من اشتراها.. كبر الصغير المزعج وكبرت معه
المقارنة.. هو دوماً الطيب وأنا الشرير.. هو الصالح
وأنا الفاسد.. لهذا كنت أسعى دوماً لتحقيق العدالة
معه.. كنت أفسد أشياءه.. أقلب عليه أصحابه.. أشي
به عند أبوي.. وعندما كبرت قليلاً علمت أن العدالة
التي أريدها تحتاج لسلطة.. لنفوذ.. لهذا اجتهدت قدر
استطاعتي في الدراسة حتى أحقق هدفاً لن يقدر هو
على تحقيقه.. كنت أعلم أنه غبي.. أنا الأذكي..
الأمهر.. حصلت على مجموع عالٍ وقدمت في كلية
الشرطة كي أحقق ما أريد.. لكن.. تعلم كيف تسير

الأمر في العادة.. ركلوني ككلب أجرب والسبب

"غير لائق اجتماعياً" ..

يقولها وهو يتحرك فجأة ليصيب نصله ذراع الرجل

الأخر فيطلق الأخير صرخة مكتومة وقد بدأ الوهن

يغزوه بأثر النزف..

لكن الكوبرا يعود لمكانه من جديد بنفس البرود..

ليكمل :

_ أغياء! ظنوني تخليت عن حلمي ب"العدالة"

لمجرد أن حرموني من كلية الشرطة.. ظنوني قد أقنع

ب"الأقل" .. هراء! كنت أعرف أنني سأصل.. أنا دوماً

الأذكي والأمهر.. صحيح أنني تنقلت بين المهن

الحقيرة التي لا تلائم طموحي.. لكن كفاني منها أنها

أوصلتني في النهاية.. إليها هي.. فجر!

يسقط المشرط من يده أرضاً فتتسع ابتسامته وهو
يتأمله مكانه..

كأنما يليق بها أن يفقد كل سيطرته على جسده ولو
بأثر اسمها فحسب..

لن أصفها لك.. فأنا نفسي أعجز أحياناً عن تذكر
ملامحها الحقيقية.. هي في عيني شمس.. شمس
يبهرك شعاعها فلا يمكنك تبين تفاصيل حدودها..
عندما رأيته لأول مرة شعرت أنها يجب أن تكون
لي.. ملكي.. رغم كل الفوارق بيننا فقد كانت ابنة
صاحب العمل الأخير الذي استقررت فيه.. هي
أحبتي.. أحبتي كما أستحق.. أحبتي بكل البراءة
التي عرفها قلبها الطيب.. رأته في العبقرى الذي أراه
في مرآتي ولم يكن يؤمن به وقتها سوانا أنا وهي..

رسمت معي الغد الذي أحببته لأجلها.. آمنت بي وكانت
مستعدة للوقوف في وجه الجميع لأجلي.. لأجلها
احتملت سخافاتهم وأنا الذي لم أحافظ علي عمل واحد
لأكثر من بضعة أشهر.. لأجلها هادنت أمي وأهلي كي
يزللا العقبات بيننا.. لأجلها عرفت معنى التضرع
والتذلل لأهلها كي يوافقوا على زواجنا.. لكن الأوغاد
كلهم رفضوا.. كلهم.. هي الحسيبة النسبية وأنا من
جديد "غير لائق اجتماعياً".. كلهم حالوا بيننا.. واحد
فقط من أهلها هو من دعمنا.. "حسام القاضي"..
كان ابن عمها وأخاها في الرضاعة.. لماذا فعلها؟!
ربما لأنه كان يحبها حقاً وقد شعر بحبها لي؟! وربما
لأنه كان واقعاً هو الآخر في حب خادمة؟! وربما لأنه
- كما قال لي وقتها- كان يرى في إمكانيات تفوق

أصلي المتواضع؟!.. لكن دعمه لنا لم يفد شيئاً أمام
جبروت أهله.. فلم يكن أمامي إلا أن أهرب بها..
تختفي ابتسامته.. ويختفي معها بروده وهو ينحني
ليتناول المشرط من جديد ليرتجف جسد الرجل
ارتجافة واهنة مرتعبة وهو يلوح به في وجهه وإن
بدا وكأنه لا يراه..

_أخذتها سراً لمكان بعيد في محافظة أخرى نائية.. لم
أفعل ما أستحق العقاب عليه.. هي ملكي.. كانت
وستبقى ملكي.. لم أخبر أحداً من أهلي فقد وقفوا
جميعهم وقتها ضدي.. تزوجتها.. عشت معها خمسة
عشر يوماً يساوون عمري كله.. حتى كان ذلك اليوم
المشئوم.. اضطررت لتركها وحدها في البيت البسيط
المنعزل الذي استأجرناه كي أحضر بعض الأشياء..

عدت لأجدها ممتعة الوجه تخبرني أن صاحب البيت
طرق بابها وهي وحدها يسأل عني وأن نظراته لها
كانت مخيفة.. فار الدم في عروقي وكدت أذهب إليه
كي أتشاجر معه لكنه فاجأني بحضوره في نفس
الساعة.. فتحت الباب لأراه أمامي.. ليس وحده بل
خلفه أربعة رجال أشداء لا يبدو الخير على
وجوههم.. لأول مرة في حياتي شعرت بالخوف..
ليس على نفسي بل عليها.. كنت أحلم دوماً أن أحتفظ
بسلاح لأجل لحظات كهذه.. لكن الواقع دوماً يأتيك
بالأسوأ مهما توقعت السيء.. هل أحكي لك ماذا
فعلوا؟!!

لم يكد ينتهي منها حتى فاجأ الرجل بضربة من نصل
المشرط نحو فخذة السليم.. ثم بطنه.. ثم صدره..

لتطيش بعدها ضرباته فلا يفكر أين تكون..
كما طاش عقله في فيوض الذكرى وهي تلهبه
بقسوتها.. فيزداد صوته انفعالاً حتى يصل حد

الهاث :

_أسوأ ما في الماضي أنه لا يموت.. يزورك كضيف
ثقل تزداد قسوته مرة خلف مرة.. أراهم الآن كما
فعلوا ليلتها.. يهتفون بسخرية حقيرة أنهم يعرفون
أنها ليست زوجتي.. أو أنها هاربة معي على أفضل
تقدير.. أصرخ بهم ألا شأن لهم لكن أحدهم يدفعني
هاتفاً ألا سبيل لسترنا إلا لو تقاسمناها.. ألعنه وأنا
أندفع لألكمه في وجهه لكن ثلاثة منهم يتقاتلون
معي.. والاثنتان الباقيان يقيدانها هي.. تصرخ هي
فأشعر أن الدماء نيران في عروقي.. ضربت اثنين

منهما لكن الثالث غافلني بضربة على عنقي.. لا.. لم
تفقدني وعيي وليتها فعلت.. أنا فقط سقطت.. سقطت
لأراهم مكاني وقد أغلقوا الباب.. كمموا فمها
بوشاحها.. مزقوا ثيابها.. عروها أمامي ليتناوبوا
انتهاكها أمام عيني.. كنت أحاول النهوض لكنهم كانوا
قد كسروا ساقي وذراعي.. كنت أحاول حتى الاستغاثة
لكن صوتي لم يغادر حلقى.. جاهدت ألمي بكل طاقتي
وزحفت نحوهم.. لكنهم كانوا يبتعدون بها في كل مرة
كأنهم يتلذذون بمحاولتي البائسة.. أحدهم يهتف
بصاحبه أن يضربني ضربة تخلصهم مني لكنه يرد
عليه أن يتركني أرى ما يفعلون حتى أعرف
مقامي.. حتى أعرف مقامي.. أبكي.. أبكي.. لأول مرة
في حياتي أبكي.. الألم الذي زرعه في جسدي

المطحون لم يكن يساوي شيئاً أمام شعوري بعجزي
عن حمايتها.. ينتهون منها.. ينتهون منها وأنتهي أنا
من كل شيء..

يقطع حديثه فجأة بعبارته التي بدت وكأنها تخرج من
أعمق أعماق روحه.. لتتوقف معه حركة نصله
الغاشم فوق جسد الرجل الذي يسقط رأسه فوق
جسده فلا يبالي إن كان حياً أو ميتاً..
دمعة حارة في عينيه لا يسمح لها أن تسقط فيبقيها
حبيسة جفنيه بينما تعود نبرته لبرودها وهو يسترخي
في مقعده مردفاً:

— ذاك الوقت الذي تدرك فيه أن حياتك لن تعود أبداً
كما كانت.. وأنت ستعيش بوجه آخر جديد غير الذي

كان لك من قبله.. وأنت ستفعل أي شيء.. أي شيء.. كي لا تعيش هذا القهر من جديد.. كي ترى الخوف في عيون أعدائك.. ماذا حدث لها؟! أهلها علموا بما حدث بعد دخولها للمشفى واتهموني بأنني أنا السبب.. أجبروني على تطبيقها وأخذوها معهم للصعيد وحبسوها هناك كي يداروا الفضيحة.. أما أنا فلفقوا لي تهمة ما وألقوني في السجن.. بضعة أشهر فقط عرفوا كيف يجعلونها جحيماً آخر عشته.. هناك عرفت كيف تمتهن كرامة الرجل.. كيف يدهس عرضه.. كيف يبتلع الظلم كحذاء قديم.. والذنب الوحيد أنني تطلعت لما ليس لي.. لما ليس من مقامي.. وأني كنت "غير لائق"..

يقولها ليتحرك فيهز رأس الرجل الذي يصدر أنيناً
خافتاً منبئاً بكونه لا يزال على قيد الحياة..

فيبتسم بقسوة باردة وهو ينظر لبركة الدماء تحته

مردفاً :

_مثابر أنت يا صاحبي.. تذكرني بنفسي.. آخر من

فعلتها معه فقد وعيه بعد عشر دقائق فحسب..

تستحق سماع بقية الحكاية..

يقولها ليعود ويسترخي في مقعده مردفاً :

_حسام القاضي زارني في السجن.. أخبرني بانفعال

ساخط أنني قد خذلت بهروبي بها وأنه نادم على

دعمه لي في السابق لكنني رأيت في عينيه هذه

النظرة التي سألقي ممتناً لها ما حييت.. نظرة

أشعرتني أنه - رغم غضبه-يقدر هذا الجرح الذي

مزق روعي.. أنه يعذر عجزي وقلة حيلتي.. أنه يرى
مثلي أن العيب لم يكن في الحلم بل في قسوة العالم
الذي أجهضه.. كانت هذه آخر مرة رأيته فيها قبل أن
أخرج من السجن واعدأ نفسي بالتأر.. لم أكن أعرف
بداية الطريق حتى سافرت.. التقيت هناك بصحبة ما
ظننتهم مجرد رفقاء عمل.. كراهيتي للبلد وأوضاعها
لم تخفَ على أحد.. وقد كان هذا هو مفتاح دخولي
للمنظمة.. السلم الذي صعده من أسفل درجاته وحتى
قرب أعلاها.. الباب السحري الذي تدفقت معه
مواهبى الكامنة.. هم علموني كيف أقتل قلبي.. كيف
أذبح مشاعري.. كيف أروض خوفي.. لا ولاء لأي
شيء.. لا دين ولا وطن ولا عواطف.. أول اختبار لي
كان بقتل صديقي الوحيد هناك.. ونجحت فيه.. تلقيت

تدريبات كثيرة وسافرت بلاداً عدة بأغطية مختلفة..
حتى قرروا أن أعود لمصر لأكون تحت رئاسة الزعيم
الذي سبقني.. (جاسم الصاوي) لو كنت قد سمعت
عنه.. عدت لمصر.. بوجهي الجديد.. بل بوجهي
الجديدين.. فهمي الخانع المستكين الذي هداه الله
بعدهما تلطم في بلاد الغربية.. و"الكوبرا" الذي صمم
أن يأخذ مكان رئيسه.. غلطات جاسم كانت كثيرة.. لم
يكن من الصعب عليّ أن أزيحه من مكانه.. والدرس
الذي تعلمته أن أعرف دوماً نقطة ضعف خصمي كي
أجيد منازلته.. ونقطة ضعفه كانت زوجته.. لم يكن
إغواؤها صعباً خاصة والرجل يسافر كثيراً ويتركها
لوحدها.. وفي الليلة التي قررت فيها تدنيس فراشه
أعددت كاميرا خفية لتصوير الفيديو.. لم أحسب

حساب ابنه الذي عاد فجأة ليطاردني ويقتل المرأة..
القدر حالفني ومات جاسم الصاوي دون أن يفيدني
ذاك الفيديو لكن السنوات مرت وكان هذا مفيداً بشأن
ابنه.. صرت بعده الزعيم.. يد المنظمة هنا..
فجر؟! تريد أن تعرف ماذا فعلت معها؟!
يقطع حديثه ليمسك معصم الرجل متفقداً نبضه
المحتضر..

ليردف ببروده القاسي:

_أول ما فعلته عند عودتي أن انتقم من مقتصبيها..
قتلتهم وقطعت أوصالهم ورميتها لكلاّب الطريق..
دبرت ذاك الحادث لقتل أهلها لكنني لم أعلم أنها كانت
معهم فقد كانوا يحبسونها في العادة ولا يخرجون
بها.. جن جنوني عندما علمت بما حدث لها.. ظننتها

قد ماتت لكن القدر كان يدخر لي الجائزة الأكبر..
ظنوها قد ماتت وتكفلت أنا بإقناعهم بهذا.. ثم أخذتها
لبيتي حيث ستبقى معي لآخر يوم في عمر أجدنا..
صحيح أنها لا تذكر شيئاً.. لكن ما يعني؟! على
العكس لا أريدها أن تذكر قسوة الماضي من جديد..
صحيح أنها لا ترى.. لكن ما يضيرني؟! لا أريدها أن
تعرفني ولا أن تراني.. كفاني أنني أفعل.. أنها صارت
كما كان ينبغي أن تكون من البداية.. معي. ملكي..
فجري الذي قد لا أستحق براءته لكنه يجب أن يكون
لي..

يسكن جسد الرجل تماماً فيتفقد نبضه من جديد ليبتهد
بحرارة وهو يلقي المشرط جانباً..

يلقي نظرة عابرة علي بركة الدم تحته ليربت على

رأسه قائلاً ببرود :

_وداعاً.. وشكراً يا صاحبي.. كنت مستمعاً جيداً..

خشيت أن تموت قبل أن أنهي كلامي.. رأيت كم هو

عظيم الحديث مع من مثلك؟! هؤلاء الذين أضمن ألا

يفشوا الأسرار!

=====

الطيف التاسع والثلاثون

=====

بنفسجي

=====

في صالة البيت الساحلي تقف ديمة مكانها تغزل على
النول بحماس منفعل كأنها تقاوم هذا الصراع داخلها
بكل قوتها..

صوت هدير البحر من الخارج يثير خوفها فتكتم
شهقات بكائها وهي تترك ما بيدها لتغلق النافذة ثم
تشد ستارها بقوة كي لا تسمع..

لكن الصوت يدوي في أذنيها أكثر كأنه ينبعث من
داخلها..



البحر.. القارب.. الدم..

يرتجف جسدها بدموع تكتمها وهي تعود للنول تحاول

أن تعيد الغزل لكن طوفان الماضي يجرفها من

جديد..

أناملها ترتجف بعصبية وهي تقاوم بكل طاقتها

لتخذلها دموع خوفها في النهاية!

لكن..

زخة عطر!

زخة عطر تفوح جوار عنقها مع شعورها بكفه على

كتفها لتلتفت نحوه بلهفة..

الرائحة المميزة تداعب أنفها فتتذكر ما قاله لها يوماً

عن هذا العطر بالذات..

ابتسامة يعرفها قلبها ولا تصل لشفتيها وهي تستعيد
كلماته عن هذا العطر الذي سماه (عطر الأمان)..
لا تعرف من أين أتته الفكرة وهل هي من نصائح
كنان أم لا..

لكن ما تثق به أنه كل مرة يجد أثره في روحها كلما
تشبعت به حناياها.. ليكون لها حقاً عطر الأمان!
تأخذ نفساً عميقاً مغمضة عينيها كأنما تتخذ منه درعاً
تقاوم به هواجسها!

لماذا أغلقت النافذة؟!

يسألها بحنان قلق وهو يمسح بقايا دموعها لكن
جرحها النازف يجعلها ترد بتحفز مفاجئ لم تملكه:
كنت تدعي النوم؟! كنت تراقبني خلسة؟! تخاف أن
تؤذيك المجنونة من جديد؟!

تقولها وهي تبتعد بعصبية لتعطيه ظهرها لكنه يدير

كتفها نحوه وقد بدا متفهماً لهذه الانفعالات ليرد

بهذوء:

_ لا أراقبك خوفاً منك بل عليك.. ظننتنا تجاوزنا هذا

منذ زمن!

_ لا.. لم نتجاوزه.. ليس قبل أن تسمع.. قبل أن

أحكي.. أصرخ بكل هذا الذي يشتعل في قلبي..

تهتف بها بانفعال ولا تزال تبتعد بحركاتها العصبية..

لكنه يجزيها عن البعد قريباً وهو يتحكم في انفعالاته

بقوة يحسد عليها قائلاً:

_ وما يمنعك!؟

تتوقف مكانها فجأة لتشتعل حلقة الزعفران في

عينها كأنما أضرمت في روحها النيران..

_ ما يمنعني؟! ما يمنعني!؟!

تتمتع بها مراراً بشرود بدا وكأنه عاد يلتهم كيائها
كله قبل أن تتلفت حولها لتشير بسبابة مرتجفة نحو
مرآة بعيدة..

_ تريدان أن أبعدا من هنا؟!!

يسألها بقلق حذر لتهز رأسها نفيًا وهي تتمتع بخفوت
كأنما تكلم نفسها :

_ سأفعلها! .. أنا قوية كما كان يقول جدي.. قلبي

يعرف خريطة كنز سكينته كما تقول هالة.. الشمس لا
تنطفئ كما تقول أنت.. سأفعلها.. سأفعلها..

يقترّب منها أكثر بقلق ليراها تتحرك نحو المرآة
للتوقف على بعد خطوة منها كأنها تخشى أن تواجه
صورتها فيها..

يقف مكانه بتردد بين أن يدعمها أو يتركها لتتخذ
قرارها وحدها..

لكنها تلتفت نحوه لتمد كفها إليه!

تغمض عينيها بانفعال وهي تشعر بعناق كفه يمنحها
ما تنشده من القوة لتأخذ الخطوة و.. تواجه المرأة!
صرخة قصيرة تطلقها وهي تغطي وجهها لأول وهلة
لكنها تشعر به حولها.. يغمرها..

ظهرها يستند لصدره.. ذراعاها يطوقانها ككهف دافئ
في ليلة باردة..

خفقات قلبه الداعمة توأزر خفقات قلبها الملتاعة..

رائحة (عطر الأمان) لا تزال تهدد خوفها..

أنامله تلملم شعث شعرها.. وروحها..

وهمسه القوي مثله.. الحنون مثله.. يسري في أذنيها

كنهر من عسل :

_ أنا معك.

أناملها تتزاح عن وجهها ببطء لتميز عيناها

صورتها..

صورتها وحدها منذ زمن بعيد..

لا.. ليست وحدها.. هو معها.. خلفها.. أمامها..

داخلها..

حولها!

هل هكذا صار يبدو شكلها!!?

منذ متي لم تتميز ملامحها بهذا الوضوح!!?

_ أنا!

تشير نحو صورة المرأة بسبابة مرتجفة ليرتجف قلبه

بتأثر من دلالة كلمتها فيضمها إليه أكثر..

_ هذه أنا.. أنا.. وحدي.. دون أشباح..

يسند رأسه على كتفها من الخلف مكتفياً بضمته

القوية لها فلا يدري هل يمنحها حرية البوح دون

تدخل صورته..

أم يخفي شعوره هو بالذنب.. وبالغضب..

المزيج الغريب الذي لم يعرفه إلا معها!

_ أنا.. أنا ديمة ضرغام.. سورية.. اثنان وعشرون

عاماً.. ولدت في (...).. أبي هو (...).. وجدتي..

يرتعد قلبه في ضلوعه بقوة وهو يسمعها تتمم بها

بهذه الطريقة كأنها طفلة تستعيد هويتها..

تذكر عنوانها بالتفصيل.. اسم مدرستها.. أسماء
صديقاتها.. هواياتها.. يختلج صوتها أكثر وهي تحكي
عن موت أبيها.. الظروف التي دعته لترك بلدها..
يختلج صوتها أكثر وأكثر وهي تحكي عن البحر..
موت أمها..

رحلة القارب..

وصولها لمصر..

السجن.. تشردها في الشارع.. هالة.. الصعيد..
غازي.. زواجها منه.. محاولتها قتله.. أديم.. السجن
من جديد.. حريتها التي زعموا أنهم منحوها إياها..
_ كانوا كاذبين.. لم يمنحوني حريتي.. القضبان كانت
دوماً حولي.. البحر لم يكن يوماً ببعيد.. زرقاة موجه
كانت دوماً تغرقني.. الدم لم يكن يوماً ببعيد.. حمرة

ألمه كانت دوماً تلوث روعي.. ظننت نجاتي وقتها أن
أشبههم.. أن أؤذي كما أؤذيت.. أن أجرح كما
جُرحت.. وكنت أنت.. أنت الصورة التي غرست فيها
كل سنان وجعي.. لهذا.. لهذا..

كلماتها تنقطع بدموعها وأظافرها تنغرس في لحم
ذراعيه حولها..

ليشعر بروحه تتفتت مع بقايا اعترافها الذي لم يحتج
لسماعه..

لكنني عندما اقتربت.. وجدت معك هذا الشيء الذي
كان ينقصني.. وجدتهني أستعيد معك نفسي التي فقدتها
هناك.. لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة.. تلك المرة
عندما تجرات أناملك لتمسني.. تمسني بتلك
الطريقة.. شعرت وقتها أن غازي عاد.. عاد بكل..

يكز علي أسنانه بقوة وهو يكمم شفيتها بسرعة كي لا
تكمل عبارتها..

بركان انفعالاته الآن يوشك أن يطيح بهما معاً وهو
يستعيد ما حدث بينهما ذاك اليوم وما تلاه..

فلا يدري هل يلعنها أم يلعن نفسه؟!!

لكنها تزيح كفه عن شفيتها لتتهف بانفعال ولا تزال
تواجه صورة المرأة:

_لا.. لن تمنعني.. لن يمنعي أحدهم الكلام بعد الآن..

سأتكلم.. سأقول كل ما بداخلي ولن أخاف.. لن

أسكت.. لن أخاف..

يرفع وجهه أخيراً ليواجه صورتها عبر المرأة فلا

يدري أيهما أكثر انتفاضاً بين ذراعي صاحبه..

كأنهما الآن كتلتان من نار ينذر لقاؤهما بجحيم

قريب!!

كل ذرة من كيانه القديم تناديه بالهرب من جديد..

الهرب من كل هذا الذي يجبر نفسه أن يعيشه معها..

لكنه يتذكر وعده لأمه.. ولنفسه..

لا مزيد من الوجوه..

هو وجه واحد.. لها ولسند!!

لهذا يعود ليشدد ضمته الرفيقة لها حتى يشعر

بإستكانة جسدها من جديد وهي تعود لتحكي..

تحكي عن شعورها العظيم بالذنب الذي يجرمها

النوم.. عن إحساسها المتخبط به.. عن حاجتها إليه..

عن خوفها من انتقامه.. من فقدته.. خوفها على

سند.. وخوفها من نفسها..

تنتهي أخيراً لتطلق تهيدة حارقة كأنما نزلت معها

بقايا جرحها..

قبل أن تهمس بضحكة مختنقة كأنما حققت أعظم

انتصاراتها:

_ أنا.. تكلمت.. حقاً.

شبح ابتسامة يطوف بشفتيه وهو يديرها نحوه..

آلاف القبلات ترسلها روحه لعينيها وإن بقيت شفتاه

عاجزتين عن منحها..

فقط أنامله تمتد ليستخرج من جيبه سلسلة بحجر

كريم ليلكي لفها حول عنقها ليلبسها إياها هامساً

بهدوء خادع لا يفصح كل هذه الفوضى داخله:

_ كنت أدخر هذا لهذه اللحظة بالذات.. لحظة تكوني

قادرة على البوح.. لا تكتمي وجعك بعد الآن أبداً.. لا

تخني به روحك.. الآن أعرف أنك وجدت أول

الطريق..

أناملها تتلمس الحجر لتقلبه في راحة كفها لتجده

يتلون بين الوردى والبنفسجي في إضاءة الغرفة

الخافتة ليردف هو :

_اسمه حجر الكونزيت.. تزداد قيمته كلما ازدادت

قتامة لونه البنفسجي.. لا ينصح بارتدائه في الشمس

كي لا يفقد لونه.. الليل يظهر جماله.. هكذا تدركين أن

الظلمة قد تحمل جمالاً تخفيه الشمس.. قد تحمل

الأشياء عكس ظاهرها كثيراً.

تبتسم لطرافة التشبيه ولمغزاه وهي تتأمل الحجر

الكريم في راحتها للحظات قبل أن تعود لتواجه

صورتها في المرآة..

لماذا تشعر بنفسها أجمل؟!

أغلى؟!

أقوى؟!

هل منحها "الكونزيت" المزيد من السحر حقاً أم أن

السحر يخصه هو؟!

نظراتها تحيد نحو ذراعيه اللذين عادا يطوقانها من

الخلف فترفع أحدهما نحو وجهها..

تراقب هذه الندوب التي ذكرها لها يوماً بدالاتها فلا

تشعر بنفسها إلا وشفتها تنسابان فوق كل ندبة على

حدة..

لا لم تكن قبلات..

بل وكأنها تتمنى لو كان لـ "مسّة شفّتها" نفس أثر

السحر الذي أحدثه فيها هذا الرجل!

نفس الأثر الذي يشفي ندوبه كما يسعى هو في شفاء

ندوبها!

وفي مكانه كان يشعر هو بمس شفتيها كجمر وثلج!

لو كان أحدهم أخبره أن رجلاً تشعله قبلة.. وتطفئه

قبلة لاتهمه بالجنون..

وهاهو ذا الآن اول من يعتنق الجنون!

_دِيمة!

بالكاد تغادر شفتيه بعذاب يخنق حروفه وهو يجبر

نفسه على سحب ذراعه منها لترفع إليه عينيها..

ياالله..

كيف يمكن أن تكون عيان هكذا متخمتين بكل هذه

البراءة.. وبكل هذه الغواية؟!!

لكنه ينتزع نفسه من فيض شعوره بها وهو يشيح

بوجهه في صمت قصير لفهما..

قبل أن يصله همسها :

_ كيف أجعلك تعود لتحب صورتك في المرأة مثلي؟!!

فيلوح طيف ابتسامة علي شفثيه وهو يعود ببصره

نحو صورتها في المرأة هامساً دون وعي:

_ الآن أفعل.

_ حقاً؟!!

تسأله بعينين متسعيتين وزرقة عينيها تعده بفيض

يغدق ولا يغرق..

حلقة الزعفران تتسع..تنتفش.. تزهو.. حتى تكاد

تحتل زرقة عينيها كاملة..



لكنه من جديد ينتزع نفسه من طوفان مشاعره وهو
يتجاوز الحديث لآخر بينما يجذبها من كفها نحو
الخارج..

_تعالى.. لا تخافى.. انظري لوجهي ولا تبالي لشيء
آخر!

الرمال الناعمة تداعب قدميها الحافيتين فلا تمنحها
الشعور بالأمان بل بالخوف ..
الخوف من جديد..

كم من مظاهر ناعمة أخفت وخر الشوك في ماضيها !
تعطي ظهرها للبحر فلا تزال عاجزة عن مواجهة
طوفانه ..

تنظر لوجهه كما أمرها ..

ورغم شعورها بقوة قبضتيه المحكمتين بأمان على

خصرها لكنها تتشبث بقميصه بكل قوتها ..

_تقدمي .. لا تخافي ..تقدمي حتى تشعري بلمس

الموج .

طغيانه الحاني لا يزال يجد أثره في روحها ..

تبدو مثيرة للشفقة بكل هذا الرعب الذي يغشى

ملامحها وهي تتحرك بظهرها للخلف مستجيبة

لدفعاته الرفيعة ..

المزيد من الخوف يشعله ماضيها ..

والمزيد والمزيد من الأمان تمطر به نظراته ..

وأخيرا

تخبو النار ..وينتصر المطر !

تراجع بظهرها أكثر ولا تزال تنظر في عينيه ..

يوما ما قد تخبره أنها في هذه اللحظة بالذات لم تر

سماء ولا شمساً ولا شاطئاً ..

فقط حدقتاه تسعان الدنيا بأسرها !

يمكنك الآن الاستدارة ؟! يمكنك مواجهة البحر ؟!

همسه الحذر يقابل إغماضة عينيها الخائفتين ..

لكنه يمنحها من الصبر ما يكفيها للحظات .. قبل أن

تفاجئه بفعلتها وهي تتحني لتحمل في كفيها بعضاً من

ماء البحر ألقته برفق على رأسه قبل أن تمسد أناملها

وجهه ببطء كأنما ترسمه !

يزدرد ريقه بارتباك وهو يشعر بلمساتها تزكي نيرانه

فيرمقها بنظرة متسائلة لتهمس بخفوت ولا يزال

خوفها الطفولي يخنق حروفها :

_ربما ..ربما ..لن أرى البحر بعد الآن إلا وأتذكر رسم
وجهك عليه ..ساعتها ..ربما ..ربما ..لن أخاف .
يغلق جفنيه على دمعة تأثر ترهب كبرياء رجل مثله
ليعاود فتحهما بعد لحظات قائلاً بصوت متحشرج:
_ربما .

تتلاقى عيونهما بفيض من حديث تكتمه الشفاه ليكون
هو أول من يقطعه وهو يديرها ببطء حذر لتواجه
البحر ..

شهقتها الوجلة توازي تشبث أناملها بذراعيه وهي
تلفهما بخوف حول خصرها رغم يقينها أنه هو الآخر
يتشبث بها ..

مشهد الموج الأزرق يغزوها بعنف ليمتزج بحمرة
الدم والماضي يعود ليقصف حصون تماسكها ...

البحر .. الدم .. القارب ..!

شهقاتها المكتومة تفضح بكاءها المكبوت فيزيد من

قوة ضمها له حتى يكاد يلصقها به...

خفقاتها تعوي في صدره فيهم بالتراجع ..

يمكنه الآن العودة بها لكنه يريد لها أن تقاوم ..

أن تواجه ..

أن تنسى ..!

تشعر بضغط ذراعيه على خصرها يخف تدريجيا

فتلتفت نحوه بجزع لكنه يقبل رأسها قبلة مطمئنة قبل

أن يدفعها برفق ..

قدماها تتشبثان بموضعهما لأول وهلة قبل أن تتجرأ

لخطوة !

دفعة منه خلف دفعة ..

وخطوة منها خلف خطوة ..
يحل ذراعيه عن خصرها أخيرا بحذر لتستمر هي في
تقدمها البطيء ..
الشمس البعيدة تبتسم لها ..
تخبرها أنها أخيرا ستظهر في الصورة ..ربما هذا ما
سيغير المشهد!
سيبقى البحر أزرق إنما دون غدر ..
دون دم ..
دون قارب يتوعدها بغربة!
يخفق قلبها بقوة تدفعها للتقدم أكثر وابتسامة دامعة
تطوف فوق ملامحها ..
ابتسامة تطرد خوفها وأناملها لا تزال تذكر مذاق
ملاحه هو كتميمة أمان كفيلة بطرد كل هواجسها ..

فلتتقدم أكثر .. وأكثر ..

وفي مكانه ظل هو واقفا يتنازعه شعوران

متناقضان ..

أحدهما فرحته ب"ابنة قلبه" التي هزمت "صورة

الماضي" وتمكنت من تقدمها دونه ..

والآخر .. لوعته وهو يدرك أنها قريبا لن تعود

بحاجته .. وأن "صورة الغد" يقينا ستخلو منه .

لكنها تلتفت نحوه من مكانها لترمقه بنظرة طويلة قبل

أن تندفع نحوه من جديد لتهوي على صدره كعصفور

عاد بعد طول رحلته ل"عشه"!



نيلي

عظيم! تقدم ملحوظ.. نشكر صهيب لأنه من أقنعتك
بالاستجابة للتقنية الجديدة في العلاج.
يقولها بروفيسور "روبرت" وهو يستقبل زهرة في
غرفته لترد الأخيرة بصوت منهك :
لا تبالغ سيدي.. لا تنسَ ماذا كانت مهنتي..مجرد
تقدم بسيط لا يذكر.

_ بسيط لكنه يكفي كبداية.. لا تفقدي الأمل..

يقولها الرجل بسماحة ليردف وهو يشير للخارج

قائلاً :

_ صهيب بالخارج يمارس إحدي جلساته النفسية مع

المرضى.. يمكنك مشاركتهم.. تجربة العلاج الجماعي

هذه مثمرة جداً كي لا تستسلمي للعزلة وتدركي أن

هناك من يشاركك ظروفك وألمك.

_ عفواً.. لا أحب هذا.. سأعود لغرفتي.

تقولها لتغادر الغرفة هاربة وهي تشعر أن مجرد

"الأمل" صار يمزقها..

لماذا لا يأتي الموت سريعاً فحسب!؟

_ علمت أن لن تأتي كل مرة.. فجئتك أنا.

صوته المميز خلفها يستدعي ابتسامة ممتة علي
شفتيها رغماً عنها فتلتفت نحوه بنظرة ودود ناسبت
مرحها الشاحب:

_ تتحدث وكأنني أهرب منك!

_ أنت تهربين من الدنيا كلها!

يقولها بعتاب متفهم فتسبل جفنيها ليردف:

_ لا أريد الإلحاح لكن صدقيني.. ستكون جلسة جيدة.

تتردد قليلاً لكنها تجد نفسها مدفوعة للسير جواره..

شعورها بالوحدة قاتل.. لقد ظنت أنها ستحب وحدتها

مرحبة بالموت.. لكن لحظات الألم التي تقضيها

بمفردها أقسى بكثير مما توقعت..

لكن.. ليس هذا هو السبب الوحيد.. ربما رغبته

الأخري في شكره بعدما كان بينهما في آخر لقاء..

لهذا تتحننت لتقول بخفوت :

_ شكراً لأنك نصحتني بالتجربة.

_ بل شكراً لك أنت لأنك منحتني فرصة لمساعدتك.

تطرق برأسها دون رد وأسلوبه المهذب يؤتي ثماره
في قلبها..

تسير جواره في الرواق المؤدي للحديقة الكبيرة حيث
علمت أنهم يجلسون كالعادة يتشاركون أحاديثهم
الجماعية..

_ هل ستكتفين بالاستماع في الجلسة أم ستشاركيننا
الحديث؟!!

يسألها باهتمام لترد بفتور :

_ لن أكذبك قولاً.. أنا لست متحمسة لأي شيء.. ولولا
بداية شعوري بالوحشة من غرفتي لما قبلت المجيء.

_ لماذا كل هذا اليأس؟! بروفيسور روبرت أخبرني

أنك تستجيبين لتقنية العلاج الحديثة!

_ اليأس أرحم بنا من الأمل.. الأمل مخدر قوي ينتزع

منا حذرنا حتى تصطم أعناقنا بصخور الحقيقة

فتتكسر..

يحدق فيها بإشفاق ونظراته معلقة بأناملها التي

تتلاعب بسلسلة عنقها الملونة بألوان علم فلسطين..

لتنساب كلماتها دون وعي وشرودها يختطفها

لذكرياتها العامرة مع جهاد فتشعر وكأنها عاشت

عمرًا بأسره بعده :

_ يوماً ما اعتنقت "الأمل" هذا الذي تتكلم

عنه.. سلمت له أمري وأنا أجتهد في دراستي رغم

قسوة ظروف.. وأنا أترك أهلي وبلدي لأسافر لبلد

غريب كي أكسب رزقي وأبني - ما ظننته مستقبلي..
وأنا أمنح قلبي لرجل أحببته بكل جوارحي دون أن
أنتظر منه المقابل.. وأنا أتلقى هدايا القدر واحدة تلو
الأخرى.. حتى وصلت لقمة ما تدعوه "الأمل"
هذا..وأنا أسمع عرض الزواج الذي طالما انتظرته
بأفضل طريقة قد تتمناها امرأة. . وأنا أمتلك أروع
ثوب زفاف قد تراه عيني..
تقطع عبارتها بضحكة ساخرة مكتومة تشبه البكاء
وهي تكتف ساعديها مردفة:

تعلم أين يستقر ثوب الزفاف هذا الآن؟! يرقد هنا في
خزانة ملابسك " كفن " يعد نفسه لعناق الموت
معي.. ترى أين أوصلني الأمل يا سيدي؟!
لكنه يصدر هممة متفهمة وهو يسألها بحذر :

_ هو كان ندلاً؟! تخلى عنك بعد علمه بمرضك؟!!

_ لا! حاشاه!

اللهفة الحمائية التي تتحدث بها عنه ترسم ابتسامة

على شفثيه لتزدرد هي ريقها بارتباك مردفة:

_ هو لا يعلم.. أنا من أعفيته من مشاق طريقي.. هو

يستحق الأفضل.

_ ولماذا قررت الاختيار عنه؟! هل هو قاصر؟! لماذا

حرمته حق البقاء معك ولو كانت أيامك الأخيرة كما

تظنين؟!!

_ أنا عشت كل هذه المراحل من قبل مع خالتي رحمها

الله.. رأيتها كيف تذوي وتذبل.. كيف احترق قلبي

معها لحظة بلحظة حتى واراها التراب.. وهو رجل

عانى الفقد طوال حياته.. هل من العدل أن أترك له

جرحاً جديداً!؟!

_وهل من العدل أن تحرميه حتى حق المعرفة.. حق

القرار.. حق الاختيار!؟!

تسبل جفنيها دون رد وهي تكتف ساعديها النحيلين..

ليردف هو بأسف:

_لو كنت مكانه لما سامحتك على إخفاء الأمر أبداً..

لحظة واحدة مع حبيبتى تساوي عمراً بأكمله.. من

يدري ما الذي يخفيه الغد ومن سيسبق الآخر

للموت!؟!

يهياً إليها أن صوته يختنق رغماً عنه في عبارته

الأخيرة فترفع إليه عينيها بترقب لكنها تبتسم عفويّاً

وهي تميز الطفل الصغير الذي ظهر فجأة عند الممر
المؤدي للحديقة والذي ركض نحو صهيب..

_بابا!

_ابنك؟!!

تهتف بها بود وهي تتفحص ملامح الصغير التي بدت
لها عربية مختلفة عن ملامح أبيه ليرد صهيب
بإيماءة رأس فيما يتناول الصغير كف زهرة ليقبله
بخفة قائلاً:

_شفاك الله وعافاك.

تحنى زهرة كي تقبل وجنته لكنها تترنح مكانها
فتستقيم واقفة وهي تخفي شعورها بالدوار.. هذا
الذي يتفهمه صهيب وهو يحمل صغيره بنفسه ليرفعه

إليها.. فتربت على رأسه بحب وأناملها ترتجف

برهبة..

إلى هذه الدرجة افتقدت تواصلها مع البشر؟!!

لماذا لا تعود لغرفتها الآمنة فحسب؟!!

لكن صهيب يقرأها في نظراتها فيصرف الصغير نحو

الحديقة بكلمات مرحة.. ثم يلتفت نحوها قائلاً:

_ معاذ.. ابني.. أحضره معي هنا أحياناً.

_ لا تخاف عليه؟!!

تسأله ببعض الدهشة ليلمع حزن غامض في عينيه

وهو يرد بخفوت:

_ ماذا؟! هو معتاد على هذا من وقت طويل.. على

العكس هو يحب المكان والنزلاء وبالذات الأطفال

منهم.

_ لو كنت مكان أمه لما وافقت على حضوره هنا..

لماذا تصفع طفولته بقسوة الواقع هنا!

تقولها باستتكار رقيق ليرد بابتسامته المتفهمة:

_ هي لا تعترض.. على العكس تعرف قيمة دورنا هنا..

هي فهمت منذ زمن بعيد غاية العيش.. هي التي

علمتني أن دورة الحياة لا تكتمل إلا بالأخذ والعطاء..

لولاها هي لما كنت أنا وهو هنا.

_ هل تأتي معك إلى هنا هي الأخرى!؟!

_ كانت تفعل.. لكن ظروفها تمنعها الآن.

يقولها ببساطة وقد وصل بها للحديقة حيث ارتصت

بعض الكراسي في شكل دائرة حول منضدة صغيرة

زينها معاذ الصغير بالزهور الملونة وبعض الصناديق

المغلقة التي بدت كهدايا..

تتوقف زهرة مكانها وهي تراقب زملاءها من النزلاء
في حالات تشبهها وربما أشد قسوة..

بعضهم تساقط شعر رأسه كله.. وبعضهم لم يعد يقوى
على المشي إلا بصعوبة.. لكنهم بدوا في ابتسامتهم و
صيحات مرحهم مع صهيب والصغير كأنهم قد نسوا
معاناتهم..

يبدأ معاذ في توزيع زهوره و هداياه البسيطة عليهم
قبل أن يركض إليها بصندوق صغير مغلق ليسألها:

لن تجلسي!؟

تكاد تجيبه بالنفي وهي تشعر بالخوف أكثر!
الجو حولها يثير الأمل.. الأمل الذي صارت تخافه!
هي بالكاد تكيفت مع فكرة النهاية فلماذا تعود لنقطة

الصفرة!؟

فلترجع لغرفتها فحسب تنتظر الموت دون تذمر!
لكن الصغير يجذب كفها ليشدها برفق نحو الجمع
هناك فتستجيب خطواتها مرغمة..

تجلس مكانها بتردد وهي تتحاشى نظرات الجميع
مطرقة برأسها..

كم تحب هذا الوقت من النهار.. عند العصر قبل
الغروب بساعة أو ما يزيد..

تحب هذا الشعور براحة "منتصف الطريق" بين أمل
سعي الشروق وحزن نهاية الغروب..

ربما لهذا رفعت عينيها للسماء حولها بشجن..
من رحمة الله أن السماء لا تغيرها غربة.. ولا تعترف
بحدود وطن..

تظللنا جميعاً دون تمييز!

تسمع صهيب يعرفها بهم فتعرف الدماء طريقها
لبشرتها الشاحبة وهي تشعر بالخجل الذي أذابته
عباراتهم المرحة ببساطتها..

تراه يتخذ مجلسه بينهم لبدأوا جلستهم التي ظنتها
في البداية مجرد محاضرة مملة..

لكنها وجدت نفسها تنجذب لحواراتهم.. أحزانهم التي
يسردونها دون محاذير.. آلامهم.. مخاوفهم..
آمالهم..

ورغم معرفتها المحدودة بالألمانية لكنها كانت
تسعفها قليلاً ها هنا فتتسع عيناها مع حكاياتهم التي
يسردونها بانطلاق لتشعر بالمزيد من الاندماج
معهم..

تستمع لنصائحه إليهم فتبتسم ابتسامة باهتة لهذه
الحكمة التي يتحدث بها والتي يمزجها بمرحه فتجد
طريقها لقلوبهم..

ابتسامة اتسعت رويداً رويداً مع شرودها وأناملها
تتسحب رغماً عنها لتتخسس سلسلة عنقها بدبلته..
(أنت بدربك في جهاد.. وأنا بحبك في جهاد)
تراه لا يزال على دربه كما هي على حبه في جهاد!؟

_ابتسامتك جميلة.

تسمعها بصوت معاذ الذي يقولها بالألمانية ثم يكررها
بالعربية فتلتفت نحوه لتعانق ملامحه بعينيها دون
كلام..

لو كانت بطبيعتها لعانقته وأشبعت وجهه تقبيلاً لكنها
لا تزال تخشى هذا الاختلاط الذي يفتح باب الأمل..
تغمض عينيها بقوة لكنها تشعر بالصغير يلف شيئاً ما
حول معصمها فتفتحهما بسرعة لتتسع عيناها وهي
تميز ما يفعله..

_ سمعت أمي تقول أن النساء يعشقن اللؤلؤ.. وأبي
أخبرني أنك تحبين علم فلسطين.. فصنعت لك هذا.
تملاً الدموع عينيها وهي تميز هذا السوار المطاطي
البسيط من اللؤلؤ والذي تضافر مع شريط قماشي
بألوان علم فلسطين..

فتتخلى عن كل حذرهما وهي تجد نفسها تعانق الصغير
بقوة ليبادلها العناق بدوره وهو يردف بابتسامة تشبه
ابتسامة أبيه:

_ هكذا أعرف أن الهدية أعجبتك.

ابتسامتها تمتزج بدموعها وهي ترفع عينيها نحو
صهيب الذي رمقها بنظرة راضية وهو يشير لها بكفه
قائلاً بمزيج حنانه وحزمه المدهش:

_ دورك يا زهرة.. ما الذي تحبين الحديث عنه؟!!

أنياب اليأس الباردة توشك أن تقضم روحها من جديد
فتقف مكانها بوهن وهي تهم بالعودة لغرفتها لكن
الصغير يربت على كفها برفق فتحين منها التفاتة
لمعصمها حيث تستقر هديته تلوح لقلبها براية من
أمل..

راية حركها بعض النسيم لتتفرج شفتاها بتردد قبل أن
تتخذ قرارها لتعاود الجلوس و تشاركهم الحديث عن
أكثر ما صارت تحتاجه بقدر ما تخشاه..

الأمل!

=====

=====

فرنسا.. أنسي

=====

_ هاهي ذي.. لارا!

تهتف بها يولاند بلهفة وهي تنتفض واقفة مكانها في
المطعم وقد لمحتها من بعيد قادمة مع إيلان.. ليزرد
جهد ريقه بتوتر لا يعرف سببه..



بل يعرفه وينكره!

هل هو ضيقه من إيلان ذاك الذي عرف أنه حبيب
يولاند القديم وأنه يريد منها العودة إليه.. ليس إليه
هو فحسب بل ل"كل ما كانت عليه قبل ريان"؟!
هل هو شعوره باليأس الذي يزداد كل يوم هنا وهو
يرى الدنيا كلها تتآمر عليه وتضطهده بغير ذنب
جناه؟!!

هل هي رغبته في الانتقام من ريان؟؟ من كل ما يمثله
له من خيانة وغدر وحقارة؟!!

هل هو افتقاده لزهرة؟!!

الشوق الذي يهلكه قلبه فيه رغماً عنه وهو يشعر

بالتيه دونها؟؟!

الشوق الذي لم تحرقه لعنات غضبه ولا اتهاماته لها

بالخدلان؟!!

أم هو افتقاده لجهاد.. لنفسه؟!!

ل"راية حقيقية" يرفعها ويدافع عنها بكل يقين حتى

يموت دونها..

راية سقطت منه.. أسقطها الخدلان واليأس.. وما عاد

يتبين ألوانها وسط كل هذا الزحام؟!!

_شكراً إيلان.. وفيت بوعدك..

صوت يولاند الغارق بفرحته ينتزعه من شروده

ليلتفت نحوها بشبح ابتسامة..

هذه هي المرة الأولى التي يراها فيها بهذه السعادة
منذ وقت طويل لكنه يقدر تشبثها بما بقي لها في هذا
العالم.. شقيقتها..

_ لارا!

تقولها لارا نفسها وهي تمد يدها بمصافحة نحو جهاد
ليستجيب لها الأخير وعيناه شاردتان في وادٍ غير
واديها..

لكنها تضغط كفه قليلاً مردفة:

_ التقينا من قبل منذ سنوات.. ألا تذكر!؟

يلتفت نحوها من شروده ليتفحص ملامحها رغماً

عنه.. جمالها الغربي يشبه جمال يولاند.. يولاند

القديمة بعنفوانها وقوة عزماتها.. لكنه يمتزج بلمحة

طفولية محببة.. خاصة مع ابتسامتها العصبية التي
تظهر غمازتيها العميقتين وهي تهز كتفيها قائلة:
_ لا تقل إنك نسيت فأنا سريعة الغضب ولا أتسامح مع
إهانة كهذه!

يبتسم بمجاملة فيما تبدو ضحكة يولاند مبالغة فيها
وهي تعاود عناق شقيقتها هاتفة بمرح :
_ وأنا أشهد على طبيعتك النارية.. تماماً كما أشهد..
على طيبة قلبك.

تبادلها لارا عناقها بعاطفة ليرمقهما جهاد بنظرة
راضية..

يعرف أن انفعالات يولاند لا تزال غير متزنة.. كمن
تحاول أن تبحث لقدميها المتعثرتين على أرض تستقر
فوقها..

تماماً مثله هو!

فيما تعود لارا لمخاطبة جهاد بقولها الذي حمل انفعالاً
ظاهراً :

_التقيتك مرة مع يولاند في باريس.. كنا لا نزال
أصغر سنأ.. يولاند كانت مبهورة بك ويبدو أنها نقلت
انبهارها لي.. تعلم كم كانت يولاند شخصية قوية
ملهمة.. قبل أن يطفئها صاحبك.

تقول عبارتها الأخيرة بغضب مكتوم رغم المرح الذي
حاولت صبغ نبرتها به منذ بداية اللقاء فيتوتر الوضع
وقد بدت كلماتها كحفنة تراب ألقيت على شعلة
عاطفتها الأخوية منذ قليل..

لكن إيلان يتدخل في الحوار ليبدو أثره القوي على
لارا وهو يغمغم ببطء عاتب:

_لارا.. اتفقتا ألا نتحدث في الماضي.

تزم لارا شفيتها بطاعة وهي تهز رأسها ليجلس

أربعتهم على المائدة..

يرمقهم جهاد بنظرة ضائعة وهو يشعر بالمزيد من

الغربة..

ثلاثتهم يتحدثون الفرنسية ويضطر هو لمجاراتهم

فيشعر أنه ينسلخ من هويته أكثر..

لماذا لا يترك كل هذا خلفه؟!

لماذا يصبر على البقاء مع يولاندا؟!

هل هو مجرد شعوره بالمسئولية نحوها؟! خوفه

عليها أن ترتد؟!

إشفاقه على حالها الذي تزيده الضغوط صعوبة؟!

قلقه من إيلان وماذا يريد منها بالضبط؟!

أو لعله..

إحساسه أنها آخر ما بقي له من حياته السابقة التي

تبدو له الآن كحلم بعيد؟!!

يطرق برأسه وهو يتحسس ميدالية حنظلة التي

صارت حبيسة جيبه.. مثلما صار هو حبيس رأسه

وخذلانه..

الفارس المشهود فوق جواده.. لا يزال يقع!

_ ماذا تشرب؟!!

يسأله إيلان بنبرته الودود ليلتفت نحوه من شروده

فيردف الأخير بما بدا عفويًا:

_ أنا ولارا سنأخذ (...).. أظن يولاند ستحب مشاركتنا..

ماذا عنك؟!!

يقولها ذاكراً اسم نوع شهير من الخمور ليلتفت جهاد
نحو يولاند بنظرة زاجرة أربكتها وهي تنقل بصرها
بينهم ليبدو التردد جلياً على ملامحها..

فتهتف لارا بانفعالها الذي بدا جزءاً من شخصيتها:
_ لا تكوني سخيفة.. أعرف أنك تحبين (...) مثلي.. ألا
تزعمين أنك تودين العودة بعلاقتنا كما كنا في
الماضي؟!!

_ العودة بعلاقتكما لا تعني العودة ل(أشياء أخرى)..
أرجو أن تتفهمي هذا أنستي.

يقولها جهاد بنبرة قوية وهو يكاد يعتصر ميدالية
حنظلة في جيبه فتتعلق عيونهم جميعاً بيولاند التي
تغتصب ضحكة تبدو شديدة الافتعال قائلة:

_أعتذر.. ليس اليوم على الأقل.. أنا ممتعة عن
الخمور منذ وقت طويل ومعدتي ليست على ما يرام
منذ الصباح.

تشيخ لارا بوجهها فيما يتبادل إيلان وجهاد نظرة
عدائية ناقضت قول إيلان المداهن:
_ لا بأس حبيبتي.. غداً تعادين الرجوع لكل ما افتقدته
هنا.

لكن يولاند تعاود اصطناع المرح كأنها تتشبث بما
تظنه حبل نجاتها الأخير لتقول:

_ جهاد يحب الشاي الأخضر.. وأظنني سأشاركه..
بدأت منذ فترة حمية غذائية سيناسبها.

يعود جهاد ليطرق برأسه وهو يشعر ببعض
الانتصار.. ربما لم يستطع دعم يولاند كلياً في موقفها

المتذبذب من دينها بعد ما كان.. لكنه لن يتركها
لتغرق كلية من جديد خاصة بعد ظهور شقيقتها وذاك
الزوج الذي لا يفهم ماذا يريد منها بالضبط!
لقد دعاها "حبيبتي".. تراه يفكر في الزواج منها؟!
وهل تقبل؟!!

ولو قبلت.. كيف سيمنعها هو؟!!

وهل له السلطة ليفعل؟!!

المزيد من الأسئلة تجذبه في دواماتها حتى يصل
"المشروب الساحر"!

فتتحول كل فوضاه لسكينة.. كانت يوماً ما تشبهها!
لحن قديم لفيروز يداعب حواسه فلا يدري هل
يسمعه حقاً بأذنيه أم تعزفه روحه اشتياقاً لها..
كيف نسيته بهذه السهولة؟!!

كيف تبخر حبها المزعوم له في لحظات؟!
كيف خدعه قلبه في "وطنه الثاني" بعدما حرموه "
وطنه الأول"؟!؟

_ هل أنت دوماً كثير الشرود هكذا؟!
نبرة لارا المنفصلة تجبره على النظر إليها لينتبه
لوجوده معها على المائدة وحدهما بعدما انفرد إيلان
بيولاند على المائدة المجاورة فيرمقهما من بعيد
بنظرة متحفزة ضائقة تجعل لارا تقول بعينين ضيقتين
تتفرسان ملامحه:

_ هل تحب يولاند؟! هل تغار عليها من إيلان؟!
يلتفت نحوها بحدة ليرد بعفوية تامة :
_ بماذا تهذين؟! يولاند زوجة صديقي.
_ كانت..

تقولها لتضغط على حروفها مردفة:

_ "كانت" زوجة" من كان " صديقك!

ينعقد حاجباه بالمزيد من الضيق لتهد كتفيها ثم

تقترب منه عبر حدود المائدة الفاصلة بينهما قائلة:

_ إيلان أخبرني بكل شيء.. لماذا تظني سامحتها

وقررت فتح صفحة جديدة معها إذن؟! والآن أخبرني

بصراحة.. ماذا تريد من شقيقتي؟!!

يشيح بوجهه دون رد فترق نبرتها نوعاً ما قائلة:

_ تبدو من هؤلاء العاطفيين الذين يفعلون بسهولة

ولا يتحكمون في مشاعرهم.. تشبهني في هذا.. وبقدر

ما تكون هذه ميزة رائعة لأن طبيعتنا هذه تجعلنا

نعيش مشاعرنا بكل عنفواننا لكنها عيب خطير لأننا

لا نقف بسهولة عندما تسقط قلوبنا فنسقط خلفها..

أعتذر لو بدوت لك عدائية بعض الشيء.. لكن.. هل

تعلم أنني كنت أتتبعك طوال هذه السنوات!؟

يعاود التفاته لها بدهشة حذرة لتزم شفتيها ثم تقول

بشروء :

نحن هنا نعرف عن "علاء الدين" أسطورة

الشرق.. اللص اللطيف الذي خطف أميرته على بساط

سحري.. أنت كنت في عيني "علاء الدين" اللص

الذي اختطف شقيقتي.. ليس لنفسه إنما لصديقه..

عندما التقيتك أول مرة منذ سنوات كنت مبهورة بك

مثل يولاندا.. حتى أنني كنت أتعجب لماذا أحببت ريان

وتركتك أنت!؟ كنت شبه واثقة أنها أحبته لأنها ظنته

نسخة منك.. لهذا لا تتعجب لو أخبرتك أنني طوال هذه

السنوات لا أحقد على ريان بل عليك أنت.. لا تتعجب

لو علمت أنني كنت أتتبع أخبارك بل و حسابك
الالكتروني باهتمام.. أنت الساحر الغريب الذي
حرمني من شقيقتي كل هذه السنوات وتمنيت لو
أعرف أين يكمن هذا السحر الذي جعلها تنقلب على
كل شيء و تتركنا خلفها..

يزداد انعقاد حاجبيه وهو يشعر بنبرتها العاطفية
تناقض الحقد الظاهر في حروفها خاصة عندما التفتت
نحوه من شرودها لتردف:

_ لهذا أسألك وأرجوك أن تجيبي بصراحة.. ما الذي
تريده من شقيقتي؟! لماذا لا تتركها وشأنها؟!
_ لأنها تحتاجني.. لأنني أشعر بمسئوليتي عما حدث
لها.. لأنني أخاف عليها .. ولأنني حقاً أعتبرها أختي..

ليست لدي عائلة.. وعائلة يولاند كانت ما بقي لي..
لهذا لن أتخلى عنها أبداً.. هل تكفيك هذه كإجابات؟!
يقولها بانفعال عاطفي اكتسب حرارة بركانه الداخلي
لتكتسي ملامحها شبه العدائية بالإعجاب رويداً رويداً
حتى ينتهي من كلماته فتميل رأسها لتقول بابتسامة
رقيقة:

هكذا أنت كما رأيته من سنوات.. وعذرت يولاند في
تأثرها بك.

يطرق برأسه دون رد وهو يكذب حدسه بالإعجاب
الظاهر في عينيها اللتين رغم فتنتهما لا يكاد
يميزهما..

كل عيون النساء بعد حبيبته متشابهاً..
وحدهما عيناها جنته وناره!

وعلى المائدة القريبة كان إيلان يخاطب يولاند بصوته
الداقي:

_ هاهي ذي لارا تقبلت أن تسامحك وتطويا معاً
صفحة الماضي.. أنا وفيت بو عدي.. ولا أزال مستعداً
للوفاء بالمزيد.. يولاند.. هل تسمعيني؟!
يكرر عبارته الأخيرة ببعض القلق وهو يميز شرودها
حتى يتبين وجهة عينيها..
ثلاثة أطفال يجلسون جوار أمهم على مائدة قريبة
يتشاكسون ويتضحكون..

تشير نحوهم بسبابتها المرتجفة لتهمس بخفوت
والألم يحفر أخايدده فوق ملامحها:

_ أولادي نائمون الآن.. ينتظرونني لأوقفهم.. عندما
يستيقظون سنشبه هؤلاء.. بل سنكون أكثر سعادة.

لكنه يتناول كفاها بين راحتيه ليهمس بحزم :

_ لا أريد أن أكون فظاً لكن ليس هكذا تعالج الأمور

حبيبتي.. انسي هذا الماضي وعودي لي.. عودي

يولاند التي أحببتها.. أعلم أنني خذلتك يوماً لكنني

مستعد للتكفير عن ذنبي بأي طريقة.

تسحب كفاها منه وهي تجبر عينيها على تجاوز النظر

للأطفال لتحقق بهما في الفراغ..

(عودي يولاند التي أحببتها.. أعلم أنني خذلتك يوماً

لكنني مستعد للتكفير عن ذنبي بأي طريقة)

هذه هي الكلمات التي تود سماعها بالضبط!

ليس من إيلان.. بل من ريان!!

ستسمعها!

ستجبره أن يقولها قبل أن تسحق قلبه وتجعله يخسر

كل شيء!

ولو دفعت عمرها كله في المقابل!!

لهذا عادت تنظر لإيلان قائلة بحزم:

لن أعود قبل أن آخذ من ذاك الرجل حقي.. ثأر

أولادي.. ثمن عمري الذي ضاع معه.

ستعودين يولاند.. ستعودين لكل شيء..

يقولها ضاغطاً حروفه ثم يرمقها بنظرة طويلة

غامضة لم تفهمها للحظات قبل أن يتناول هاتفه

ليريها بعض الصور:

_ انظري لهذه الصور..

تمط شفيتها باستياء وهي تتوقع ما سيقوله كعهده
القديم منذ سنوات :

_ انظري ما الذي وصلت إليه اسرائيل.. انظري كيف
صرنا مبدعين وملهمين.. انظري كيف صارت جنة الله
على الأرض.. هذا رائد فضاء اسرائيلي سيحمل في
رحلته للفضاء عملة نقدية يهودية يعود تاريخها
لاكثر من ألف وتسعمائة عام.. وهذه صورة لباحثين
اسرائيليين تمكنوا من طباعة ورم قاتل بثلاثة أبعاد
يحاكي سلوك الخلايا السرطانية في بيئتها الطبيعية
كي يتمكنوا من التغلب عليه بتطوير علاجات
ضده.. انظري.. ثلاث جامعات اسرائيلية من بين أفضل
مائة جامعة في العالم.. وانظري لهذه الصور التي..

إيلان!

تقاطعها بها بصرامة قائلة:

تعلم كم نختلف في هذا الأمر منذ سنوات بعيدة.. ما

حدث لم يغير من مبادئنا ضد الصهيونية شيئاً..

أعرف أنك اخترت المعسكر الآخر فلا تحاول إقناعي

لأنني لن أحيّد عن رأيي.. لو كانت مساعدتك لي

مرهونة بقبول السفر معك لاسرائيل فأعذر.. لن

أفعل.

تقولها وهي تهتم بالوقوف لكنه يمسك كفها بقسوة

آلمتها للحظة قبل أن تلين ملامحه وهو يقول :

لا تزالين متسرعة تلهثين خلف قلبك.. تمهلي

حبيبتي.. واسمعي.

تزفر بنفاد صبر ليردف بحماس :

_ الأمور لم تعد كالسابق.. صدقيني.. مستقبنا
الحقيقي معهم.. هي أرض الميعاد والحلم.. تعلمين
مدى الصلاحيات التي أملكها أنا كطبيب اسرائيلي؟!
تعلمين كم باباً مفتوحاً لي؟!
_ وما الثمن يا ايلان؟! ما الثمن؟! دم أبرياء اغتصبنا
أرضهم كي نلهث خلف حلمنا المزعوم بوعده
الأرض؟!!

تقولها بانفعال ليربت على كفها مهدناً بقوله :
_ كان هذا في الماضي.. مضت عهود الدم والحرب
حبيبتني.. والآن وقت التعايش.. وقت السلام..
ترمقه بنظرة غير مقتنعة ليتهاهد قائلاً بابتسامة
كبيرة :

لن أقنعك بالسفر لاسرائيل..لم نعد نحتاج لهذا..
اسرائيل لم تعد لدى العالم - بل و العرب- العدو قبيح
الوجه الذي ينبذونه في بقعة بعيدة يزعمون أنها
ليست من حقتا.. اسرائيل صارت كياناً قاهراً رغم
أنوفهم..العرب هم من صاروا يخطبون ودنا.. حلم
السلام الجميل الذي طالما تمنيناه الآن يتحقق ..
انظري لهذه الصورة.. انها لأحد أصدقائي وزوجته..
أصرا أن يلدا ابنتهما في بلد (...) العربية لتكون أول
اسرائيلية تولد في بلد عربي كشاهدة على عودة
السلام بيننا.. انظري لهذه الصور للسياحة
الاسرائيلية في هذه الدول العربية.. انظري كيف
صارت الأمور طبيعية بين الحكومات العربية وبيننا..
انظري كم هي جميلة جناحات السلام التي صارت

ترفرف بنا معا دون تفريق.. العالم يتغير حبيبتى
فلماذا تصرين أن تبقى أسيرة الماضي!
يقولها وهو يستعرض لها المزيد من الصور والأخبار
عن المزيد من تطبيع الدول العربية للعلاقات مع
دولته لتزوغ نظراتها بحيرة وهي تلاحظ الونام
الظاهر لها فتزدرد ريقها بتوتر وهي تختلس نظرة
جانبية نحو جهاد الجالس مكانه على مائدته ثم تعود
ببصرها نحو إيلان قائلة :

_ ما الذي تريده بالضبط؟! ألق أوراقك كاملة.
فتتسع ابتسامته أكثر وهو يلقي عرضه:
_ تريدين الثأر من ذاك الوغد.. وأنا أريد أن أقنعك
بالكيان الصهيوني الذي أفخر بالانتماء إليه.. فلماذا
لا نضرب العصفورين بحجر واحد؟!

تضيق عيناها بتساؤل ثم تتسعان بانفعال وهي تستمع
منه لتفاصيل عرضه الذي جعل قلبها يخفق بجنون
قبل أن تلتمع عيناها بظفر..

فقط.. لو يوافق جهاد.. ساعتها ستكون الضربة
قاصمة بحق لتنال انتقامها من ريان على طبق بارد!

=====

نمت يا ريان!؟

تهتف بها رفيدة زوجته بتذمر وهي تلكزه في كتفه
فوق الفراش ليرد بصوت منهك وهو يدفن وجهه في
وسادته:

_ساعة واحدة يا رفيدة.. لدي عملية جراحية بعد

ساعتين وأريد أن أذهب صافي الذهن.

لكنها تسحب وسادته منه لتهتف بضيق:

_ أنا أنتظر عودتك من عمك بفارغ الصبر كي تهتم

بي وأنت لا تتحدث إلا عن النوم.

_ حرام عليك! أنا بالكاد انام!

يهتف بها بانفعال وهو ينتزع الوسادة منها لتهتف

بحدة :

_ كنت متفرغاً لي أكثر عندما كنت متزوجاً ب"جوال

القطن" تلك! والآن لا تجد وقتاً لتهتم بي!!

_ فكري قليلاً أبعد من حدود نفسك! أنت لا تتصورين

كم الضغط النفسي عليّ في المشفى.. كلهم يتحدثون

أنني حصلت على صلاحيات منسوبي الجديد بسبب

وساطة زوجتي بعدما خنت صديقي وكنت سبباً في

تركه العمل.. وأريد أن أثبت للجميع صلاحيتي وأنني

فعلاً أستحق المنصب الجديد.. لهذا أبحث خلف كل

صغيرة وكبيرة في إداريات المشفى بالإضافة لعملية
كطبيب.. ومع هذا أحاول مجاراة أسلوب حياتك
ومشاوير تسوقك وحضور حفلاتك التي لا تنتهي.. لا
أنام سوى ثلاث ساعات في اليوم ومتفرقة أيضاً..
وتحدثين عن إهمالي لك!؟!

_ هذا هو دورك الطبيعي كزوج.. وليس ذنبي أن
"جوال القطن" التي تزوجتها قبلي كانت حمقاء تترك
لك الحبل على الغارب كما يقولون.. أنا لم أتزوجك
لأدفن نفسي معك حية.. أنت..

تصرخ بها بعصبية فيتأفف بضجر مقاطعاً سيلها
الغاضب وهو يضع الوسادة على رأسه مانعاً نفسه
من سماع المزيد..

البيت صار قطعة من الجحيم!

وهج خافت من ضميره يتدخل في الصورة.. يجلده
بصورة من الماضي لامرأة ضحت بكل ما تملكه
لأجله.. خفقة غادرة من قلبه يشعر بها كطعنة نافذة
وهو يستعيد مشهد عودته لبيته ليجد يولاند تنتظره
مع أولاده وقد أعدت لهم طعاماً دافئاً..

هل كان الطعام وحده هو الدافئ؟!!

تلتحق به للفراش لتغمره بفيض أنوثتها بعدما تستمع
منه لحكايا يوم عمله الطويل.. اليوم الذي ينتهي
بقبلاتها وابتسامتها الحلوة..

هل كانت ابتسامتها فقط هي الحلوة؟!!

جلدة أخرى من ضميره وهو يتجاوز المشهد
لآخر.. مشهده وهو يجلس مع جهاد في الحديقة

القريبة للمشفى.. يتضحكان وهما يتشاركان ذكريات
الماضي.. هموم الحاضر.. وأحلام الغد..
يواسيه جهاد بمروءته وحماسه الذي كان يبدو خالداً
لا ينضب.. كفه الذي كان يرتكز دوماً على كتفه بتلك
الحركة الداعمة..

هل كانت حركته وحدها هي الداعمة؟!
يغلق عينيه على دمعة خنقها شعوره بالذنب وهو
يشعر بالوحشة!
لا يزال يشعر بذبذبات جسدها الغاضبة حوله حتى
وهو يسد أذنه بوسادته..

تماماً كما لا يزال يشعر بوخز ضميره حتى وهو يكاد
يقتل نفسه في العمل هرباً من التفكير في
خسارته..!!

لا!

لن يخسر!!

لقد سأم تسلط رفيذة عليه!

حتى وليدهما الذي ينتظره يشعر بتجمد قلبه نحوه..

ربما لأنه يذكره بذنب يولاند وأولادهما الذي - رغم

إنكاره- لا يزال يجد ثقله في عنقه!!

ماذا يصنع!؟

زفرة حانقة يكتمها في وسادته وهو يتذكر العرض

الذي وصله صباحاً من أحد معارفه..

العرض الذي لا يمكن رفضه كما يقولون..

والذي لا يمكنه قبوله بما تبقى له من أعمدة هويته!!

العمل في مركز طبي شهير في العاصمة بمرتبة يفوق

أحلامه بكثير..

مشفى كبير يعمل بالتعاون مع مركز طبي اسرائيلي!

كاد يرفض في البداية بصورة قاطعة وقد انتابت

جسده قشعريرة رهبة بمجرد ذكر الأمر..

لكنه.. تراجع ليطلب مهلة للتفكير في الأمر!

الطمع الذي لا يريد الاعتراف به مبرراً إياه بالتعقل

والطموح!

ربما هي فرصته ليتخلص من تسلط رفيذة!

يعلم أنها ستصرخ في وجهه رافضة الأمر ليس

بوازع من أخلاقيات أو دين إنما لتبقى محكمة طوقها

على عنقه..

لهذا يفكر أن يخفي الأمر عنها حتى..

مهلاً..!

هل يعني هذا أنه سيوافق؟!!!

اسرائيل!!

العدو الذي تربي من صغره على كراهيته!!

الآن يضع يده في يده!!

_ليس في يده!.. هو مشفى يعالج البشر من جميع
الجنسيات والأديان.. ما يعنيه هو بجنسية مالكيه أو
ديانتهم؟! أنت تقدم عملاً نبيلاً ورسالة سامية.. تؤدي
دورك كطبيب دون تمييز.. علام يحاسبك ضميرك؟!
أنت لا تخالف قانوناً ولا تفعل منكراً!
صوته الداخلي يطغى على ما سواه..
يزيح كل المشاهد التي يجلد بها ضميره فلا يبقى له
سوى مشهد واحد..

مشهده وهو ناجح.. متفوق.. له اليد العليا فوق رفيدة
التي تتعلم كيف تبتلع لسانها في حضرتها وتتنظر له
باحترام!

ويبدو أن المشهد الأخير منحه بعض الراحة ليرخي
الستار على ما تبقى من وعيه وهو يغرق في النوم..
وفي مكانها هبت رفيدة واقفة وقد سمعت صوت
شخير الخافت بعدما انتزعت الوسادة من فوقه لتزفر
بحنق وهي تلقيها جانباً..

تتحرك نحو الخارج لتصفق باب الغرفة بعنف غير
آبهة بأنه قد يوقظه..

تطالع صورتها في المرآة المقابلة لتلتمع عيناها
بتحسر وهي تتحسس جسدها بأناملها..

نظرات إعجاب بفتتها الظاهرة عبر قميص نومها
المغوي.. ثم حنق على تجاهل ذاك النائم له.. حنق
يزداد وهي تمسد بطنها بأناملها..

_ ما الذي فعلته بنفسي!؟!

تخاطب بها نفسها وأناملها تكاد تعتصر حرير قميص
نومها بغیظ له في نفسها ما يبرره!!

ريان لم يكن الرجل الأول في حياتها!!

تزوجت قبله مرتين وفي كل مرة كان الأمر يبدو لها
ك"ميدالية ذهبية" ستضيفها لدولاب انتصاراتها!
سباق ممتع ينتهي بمكسبها وتجاوزها الشريط

الأحمر!

في كل مرة كانت تنجح في طمس صورة النساء
اللائي سبقنها لقلوبهم..

لكن.. لماذا تورطت في الحمل هذه المرة؟!
لماذا تركت لنفسها الفرصة؟!
الأنها كانت ترى في الحمل كذلك سباقاً آخر تريد
كسبه أمام يولاند؟!؟!
غريمتها الحمقاء التي تشعر أنها لا تزال تنافسها
على قلب ريان الأكثر حماقة!!
تطلق زفرة ساخطة تحمل في طياتها الجواب وهي
تشعر بالمزيد من الغضب..
متى صار ريان الطبيب الوسيم الجذاب الناجح مجرد
صورة باردة باهتة من كل الرجال الذين سبقوه؟!
تطلق زفرة أخرى وهي تتحرك قريباً نحو أحد الأدرج
لتفتحه ثم تستخرج منه علبة قטיפية فتحتها ليغشي
عينها بريق الخاتم الذي حواه..

الهدية نفسها لا تعني امرأة بثرائها وعلاقاتها.. إنما

هي نشوة المغامرة!

أجل.. الهدية وصلتها صباحاً من مرسل مجهول مع

باقة من زهورها المفضلة ونوع الشيكولاتة الذي

تحبه.. ترافقها بطاقة تقول :

(إلى ملكة النساء)

تفتقد الغزل!

الشرارة الأولى التي تنذر باشتعال النار!

رجفة جسدها الملهوفة وهي تترقب "السباق"

الجديد!!

تباً لك يا ريان!

بل تباً لي أنا!!

لماذا تسرعت!!؟

تخاطب بها نفسها من جديد وهي تخبط بطنها

بقبضتها بخفة قبل أن تجلس على الأريكة..

تشعر بغثيان الحمل المعهود يكدر صفو مزاجها فتلعن

نفسها من جديد قبل أن تفتح حاسوبها المحمول بحثاً

عن رسالة..

حدسها يخبرها أن "صاحب السباق" الذي أرسل

هديته سيحاول الاتصال..

صحيح أنها تحب أن تكون دوماً المبادرة باختيار

حلبة السباق لكن..

لماذا لا تجرب الجديد هذه المرة!؟

تبحث في صندوق رسائلها فلا تجد بغيتها للحظات

وهي تحاول التفكير في هوية "صاحب السباق"

الجديد..

مجموعة من الصور تجول بذهنها فتبتسم ابتسامة

عابثة وأناملها تتلاعب بطرف قميصها..

تغمض عينيها على خيالات أعجبته قبل أن تعاود

فتحهما بجذل!

لو لم يظهر بنفسه فستثيره ليفعل!

ترمق باب الغرفة المغلق بنظرة استخفاف قبل أن

تعود لحاسوبها..

تشغل الكاميرا لتلتقط لنفسها صورة حرصت ألا يظهر

فيها سوى وجهها وكتفيها مع تعليق بمقطع من

أغنية شهيرة تصف شعورها بالحزن!

تعلم أن ريان سيغضب لو رآها.. لكنها ستمسحها قبل

استيقاظه..

ولو علم فستخبره أنها كانت مجرد "خطأ"!

تضع الصورة على حسابها الشخصي.. تنتظر لدقائق
بدت لها طويلة قبل أن تطلق ضحكة انتصار وهي
تميز وصول رسالة..

_سلامة قلبك من الحزن.. يا ملكة النساء!
تعاود أناملها تلمس طرف قميصها بعثت وهي تدير
الشاشة لتقربها منها أكثر..
كي تبدأ.. (السباق الجديد)!



_سأوقع العقد اليوم.. هل تسمعينني؟!
يقولها ريان بحذر مخاطباً رفيدة المنشغلة بحاسوبها
المحمول كعهدها منذ أيام لتصدر هممة شاردة..
فيخبط شاشة الحاسوب بحدة هاتفاً :
_انتبهي لما أقول!



تطلق صيحة غاضبة وهي تقف مكانها هاتفة :
_ومن قال لك أنني لا أسمع؟! أنا نصحتك بالحفاظ
على منصبك في مشفأك وأنت تصر على هذا العمل
الجديد.. إذن افعل ما تشاء!
يرمقها بنظرة متشككة وهو يشعر بغرابة تصرفها..
شخصيتها العنيدة المتسلطة لا تتسق وهذه اللامبالاة
التي تعامله بها مؤخراً!
لقد ظن أنه سيحتاج الكثير من الوقت ليقتنعها
بالموافقة!!
_ لماذا تنظر إلي هكذا؟!
تسأله بضيق وعيناها تتشغلان بما ينشغل به عقلها..
وقلبها..
"شاشة الحاسوب"!

ليرد وهو يمك كنفها بقبضته :

_ اسمعني يا رفيدة.. أعرف أنا نتشاجر كثيراً هذه

الأيام.. وأعرف أنا نمر بالكثير من الضغوط.. لكن

آخر ما أفكر فيه أن تفشل زيجتنا هذه.. أنا متمسك

بهذا الزواج وسأفعل أي شيء كي ننجح معاً..

يقولها بعزم حقيقي وهو يمسد بطنها الذي انتفخ قليلاً

ليلمح هذه النظرة الغريبة في عينيها..

لقد توقع أن تسعدها كلماته لكنه يشعر بها باردة بين

ذراعيه..

لهذا مال علي شفتيها بقبلة خفيفة ليردف بنبرة أكثر

عاطفية:

_ أنا أفعل كل ما بوسعي كي تفخري بي.. أنت.. وابننا

القادم!

هل مطت شفيتها باستخفاف أم أنه فقط يهياً إليه؟!
يزداد انعقاد حاجبيه وهو يميز صمتها المريب لكن
عينيها تلتمعان فجأة بالسبب الذي لم يعرفه..

اشعار برسالة جديدة على الشاشة!

هذا الذي جعلها تبتسم بافتعال وهي تعانقه قائلة
بعاطفة مصطنعة:

_دوماً فخورة بك.. فقط لو تهتم بي قليلاً.

يبتسم لدلالها المعهود وهي تجيد العزف علي أوتار
رجولته بأدائها الخبير..

لكنه يبعدها وهو يقبل وجنتها بخفة قائلاً:

_أعرف أنني مدين لك بالكثير.. لكنني أعدك ان أفي
بديوني كلها عندما أعود.

يغمرها بها بخفة لتطلق ضحكة دلال مصطنعة وهي
تلوح له بكفها مودعة..

تطمئن لإغلاقه الباب خلفه قبل أن تعود بلهفة للشاشة
تراقب نتيجة (السباق)!

بينما يستقل هو سيارته ليتوجه نحو المقر المختار
للمشفي الجديد والذي هو تعاون مشترك بين
مجموعة طبية عربية مع أحد المراكز الطبية
الاسرائيلية بهدف تقديم خدمات طبية وعلاجات
استشارية في المكان أو عن بعد..

المكان الذي يلقي اهتماماً كبيراً بحكم كونه أول تعاون
مع اسرائيل في مظهر معن صريح للتطبيع.
يقف بالسيارة أمام المبنى الذي بدا شديد الأناقة كما
توقع..

ينقبض قلبه بنفور لم يملكه وهو يميز الحروف

العبرية التي كتبت بها اليافتة..

لكنه يجبر نفسه على التبسم بسخرية..

مادام الجميع يقبلون الوضع.. فمن هو ليرفض!؟

يترجل من السيارة ليدلف إلى داخل المكان..

عيناه تتسعان بانبهار وهو يميز ضخامة المبنى من

الداخل مع كل هذه الشاشات التي تعرض امكانيات

أقسامه الداخلية..!

فرصة ثمينة لا يدري كيف سقطت هكذا في حجره

دون حول منه ولا قوة!

تراه القدر يكافئه بعد مصابه في أولاده!!

الخاطر الأخير المدلس يطفئ المزيد من وهج ضميره
وهو يعود لمراقبة الشاشات بانبهار يتزايد لحظة
بلحظة..

_ (عيرف توف)!

ومن جديد لا يملك انقباضة النفور وهو يميز التحية
باللغة العبرية والتي تعني (مساء الخير)..

يلتفت نحو صاحبها ليهدأ نوعاً وهو يميز ملامح
الرجل الودود الذي صافحه بتوقير مرحباً ليرد
بالعربية :

_ مرحباً بك دكتور ريان.. سعيد للتعاون بيننا.. هل
تفضل المرور في جولة في أقسام المركز أولاً.. أم
توقيع العقد قبل هذا؟!

شعوره بالانبهار بما يراه حوله مع علمه المسبق
بقيمة العقد تجعله يرد بلياقة لم تخف لهفته:
_ اتفقنا على التفاصيل خلال الأيام السابقة.. لا أظني
بحاجة للمزيد.. التعاون معكم شرف لي.
يهز الرجل رأسه برضا وهو يتحرك به نحو المصعد
القريب.. يصلان لمكتب الرجل لتصطم عينا ريان
بالراية البيضاء ذات النجمة السداسية الزرقاء والتي
استوت مفتخرة بشكل مغيظ على سارية ذهبية جوار
مكتب الرجل..

ومن جديد يقاوم شعوره بالنفور وهو يستمع للرجل
الذي يجلس أمامه علي مكتبه ليقول ببشاشة ظاهرة :
_ فخور جداً بالعقليات المتفتحة مثلك.. نحن عانينا
كثيراً من الفكر الارهابي المتطرف الذي نشر الحروب

بين اسرائيل وجيرانها من البلاد العربية.. لكن أن
الأوان أن يتغير كل هذا..

يقولها ليردف وهو يشير لإحدى الشاشات التي تبث
صوراً متقطعة :

هذه مجموعة صور للتعاون المثمر بين حكومتنا
وبعض الحكومات العربية.. والبقية في الطريق..
السلام بيننا لم يعد خياراً بل ضرورة تفرضها أصول
التعايش.. هذا الذي فهمته حكومتنا الرشيدة منذ زمن
بعيد.. ونسعى إليه بكل طاقتنا..

يمط ريان شفثيه بابتسامة مجاملة مصطنعة وهو
يشعر أن كلام الرجل لا يزيد عما يسمعه من
اسطوانات متكررة من أحاديث الساسة..

لكن الرجل يبدو مبرمجا كآلة وهو يشير للمزيد من
الصور التي تتابع علي الشاشة :

_ هذا مثلا مسجد حسن بك.. واحد من أكثر من
اربعمائة مسجد في اسرائيل.. يقع بارتفاعه الشاهق
في مدينة تل أبيب-يافا على ساحل البحر الأبيض
المتوسط.. لا نزال نأمل أن يكون الجيل القادم أكثر
تسامحاً مع الأديان.. وهذه صورة لواجهة أحد
المحلات الاسرائيلية في رمضان وقد علقت الزينة
المميزة للشهر المقدس علي زجاجها.. وهذه صورة
من مشهد من عطلة عيد الأضحى المبارك حيث تمتع
الفلستينيون من يهودا والسامرة بنسيم البحر
ومياهه الدافئة علي شواطئ تل أبيب.. أما هذا الخبر

مثلاً فلن تقرأه في الإعلام العربي عن اسرائيل

الانسانية..

يقولها مشيراً لمشهد ما لما يبدو كقافلة إنقاذ وهو

يستطرد بتأثر :

_ هذان شابان من رام الله وبيت لحم.. جرفتهم مياه

البحر الميت المالحة مسافة كيلومترين ولمدة ثماني

ساعات ونجحت طواقم الإنقاذ الاسرائيلية بمساعدة

أفراد الجيش والشرطة والمتطوعين والهلوكبتر في

إسعافهما ونقلهما للمشفى..

يعقد ريان حاجبيه بشك ليكن الرجل يردف بحرارة:

_ جاء في الكتاب المقدس من أنقذ نفساً واحدة كمن

أنقذ الناس جميعاً.

يزدرد ريان ريقه باضطراب وهو يحاول السيطرة

على الصراع بين رهبة نفوره ووهج طمعه..

بينما الرجل يغلق الشاشة أخيراً علي صورة لطفلة

منكبة على ما ترسمه ليقول بفخر :

_ هذه صورة فتاة عربية ترسم علم بلادها جوار العلم

الاسرائيلي لتعكس أجزاء السلام والحب والتعايش

الذي تحلم به.. هذه الفتاة تم علاجها في اسرائيل بعد

اصابتها في بلدها في اطار مشروع حسن الجوار

الاسرائيلي الذي يستهدف مساعدة اهل البلدان

العربية المجاورة وانقاذهم في مستشفيات الدولة..

وهذا ما جعل الفتاة تعترف بفضل اسرائيل عليها وهو

الذي تعبر عنه في هذه الصورة بكل براءة وحب.

يبتسم له ريان بمداهنة ليردف الرجل وهو يفتح

ذراعيه بمودة :

_ هذا هو السلام الذي نرجوه والذي سنسعى أن نكمل

مسيرته في البلاد المجاورة كلها.. لهذا لك أن تفخر

أن تكون جزءاً من هذه المنظومة.. الحرب لا تجلب إلا

الدمار.. التعايش هو توأم السلام في المنطقة.. أعتذر

لهذه المقدمة الطويلة لكنني أدرك المخاوف التي

تنتاب من هو مثلك بفعل الأفكار المتخلفة القديمة لهذا

وددت لو أطمئنك.

يقولها ليتناول الأوراق من الجوار ليقرّبها من ريان

بابتسامة واسعة..

أنامل الأخير ترتجف ببعض التردد وهو يشعر رغباً

عنه بالخيانة..

تباً لهذه الأفلام والمسلسلات القديمة التي أفسدت

عقله..

هل سيخرج رأفت الهجان أو جمعة الشوان من

الجوار مثلاً يتهمونهم بالتواطؤ؟!!

أم سيسمع موسيقا وطنية لجنود يعبرون خط بارليف

ويستعيدون أرضهم المفقودة؟!!

الرجل محق!

مضى هذا الزمن وولى..

السلام الآن هو خيار العقل.. وهو عاقل.. جداً!

يخرس بها ما بقي من تردده وهو يوقع العقد ليناوله

للرجل الذي قال بالعبرية :

_(ما زال توف) .. (كل هاكافود).

(مبارك.. كل الاحترام)

يفهمها من تعاملاته السابقة معه ليرد الرجل بغرور

بدأ يطفو على السطح:

من الأفضل أن تتعلم العبرية.. ستفيدك كثيراً الفترة

القادمة.. قيمة اللغة من قيمة وطنها.. وأظنك تعلم

قيمة اسرائيل الآن!

يهز رأسه باستسلام ليقف الرجل وهو يلوح بكفه

قائلاً:

من شروط العقد أنك ملزم بالعمل معنا لعشر سنوات

قابلة للتجديد ولا يسمح لك بالعمل في مكان آخر..

أخبرتني أنك تركت عملك السابق؟

يومئ ريان برأسه بالإيجاب وهو يقف بدوره ليهز

الرجل رأسه برضا قائلاً:

_ لنذهب للقسم الخاص بك كي نتعرف على طبيعة
عملك.

يسير جوار الرجل والمزيد من الانبهار بما حوله
يطغى على ما تبقى من نفور..

الباب الداخلي للقسم يفتح أوتوماتيكياً ليتم تعقيمهما
ألياً قبل أن يتقدما للداخل لتتسع عينا ريان بصدمة
وهو يميز المعطفين الأبيضين اللذين يتقدمان منه
عبر هذه الملامح الحاقدة..

_ يولاند! جهاد!

يتمتم بها مصعوقاً وهو يحدق فيهما بذهول لينقل
بصره بينهما وبين الرجل الذي بدا هادئ الملامح..
ليهدف بعدها بانفعال حاد وهو يوجه بصره لجهاد:

_ أنت! أنت بالذات هنا!!



يهياً إليه أن وجه جهاد قد استحال لجمرة من نار..
عيناه الزرقاوان تشتعلان بوعيد ترجمته سخريته
المريرة بحسرتها وبعبارته التي كانت تظل صداقتهما
القديمة :

_ "روق يا ضاوي"! ها نحن ذا التقينا من جديد!

=====

الطيب الاربعون



_إبراهيم! ماذا فعلت؟! لا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم!

يهتف بها ربيع بجزع وهو يميز شقة ابنه الخالية من
أثاثها الذي باعه كله منذ أيام بئس بئس، لكن ما أثار
حفيظته هو رائحة الدخان التي انبعثت خانقة من تلك
الكومة على الأرض والتي احترقت عن آخرها..
_ثيابها، وساداتها، ملاءاتها، كلها أحرقتها، ولو
استطعت لأحرقتها هاهنا.. هاهنا..

يصرخ بها إبراهيم بحرقه دمعت لها عيناه الحمر او ان
وهو يخبط بقبضته المضمومة على صدره ليختلج



قلب أبيه بلوعة وهو يسمعه يتمم بشرود بدا وكأنه

ابتلعه عن آخره:

_ كيف أحرقها هنا؟! كيف!؟!

_ انسها يا ابني.. انسها واكتف بما كان.

يقولها بصوت متهدج وهو الآخر يشعر بالحيرة بين

(لوعة فراق من كان يعتبرها ابنته) و(بين غضبه

منها) ، ليصرخ إبراهيم بحدة :

_ ليس قبل أن آخذ منها حقي.. ليس قبل أن تدفع ثمن

خديعتها.. هي جعلتني مغفلاً.. مخدوعاً.. أحمق في

عيون الجميع.. وبالنهاية جعلتني قاتلاً.. جعلتني..

جعلتني.. أقتل نفساً.. أقتل.. أقتل ابني.

ينهار بها جاثياً على ركبتيه وهو يخفي رأسه بين

ذراعيه كأنما استنزف اعترافه الأخير كل قواه..

طوال الأيام السابقة وهو كمن يعدو في طريق طويل
بكل قوته لا يريد التوقف لأنه يدرك أنه سيسقط لو
فعلها!

لا يريد التفكير.. لا يريد حتى مجرد التذكر.. كأنما
مضى تاريخهما كله كي لا تجلده الذكرى.. صار يعيش
لأجل أن ينتقم منها فحسب.. وهاهو ذا يفعل فقد ألقى
القبض عليها بالأمس بتهمة التزوير في القضية التي
رفعها حسام وصارت أخيراً خلف القضبان كما أراد!
متى ستبرد هذه النيران داخله؟! ربما لو نالت حكماً
بالسجن.. لو فضحت أمام الجميع كما فضحته.. لو
خدعها ذكاؤها وجاهاها كما خدعته.. لو قتلت نفسها
ندماً..!

الخاطر المتطرف الأخير يقبض قلبه بلوعة خوفه

عليها..!!

لوعة يكرها فيطلق صرخة هائلة وهو ينحني على

نفسه ليخبط رأسه بالأرض لعل الدوار الذي يدوخ

روحه يصيب عقله كذلك قليلاً فيرحمه من كل هذا

الشتات..

يصرخ ويصرخ ويصرخ ولا يزال يخبط رأسه

بالأرض فلا يوقفه سوى صوت نحيب أبيه!

يقف رغماً عنه مترنحاً والدنيا في عينيه تتلون بلون

الدم، يضم أباه إليه معتذراً ومطمئناً بكلمات متلعثمة،

يقبل رأسه وهو يشعر بجسده يتذبذب بين صقيع

ونار..

_ سنكون بخير.. سنكون بخير.. كلنا.. بإذن الله سنكون

بخير.

تقولها هبة التي وقفت تراقب المشهد بعينين دامعتين

وهي الأخرى تشعر أنها فقدت جزءاً من روحها..

لقد ماتت سمرا..!

ماتت في عينيها وعيون الجميع..!

ماتت صديقتها التي ائتمنتها على بيتها وأدق

أسرارها..

ماتت أسوأ ميتة وقد حُرمت حتى حق إكرام الميت

بدفنه، فقد تركت جثتها في العراء تنهشها ذئاب الظن

ويلعنها نعيق الغربان المحلقة فوقها..

قد تجد لها عذراً في إخفاء حقيقتها عن ربيع، بل

وعن إبراهيم نفسه، لكن أي عذر في أن تخذعها

هي.. هي التي فتحت لها قلبها قبل بيتها واعتبرتها

أختها التي لم تلدها أمها؟!!

لهذا رفضت وسترفض أي تواصل معها بعد ما

حدث!

_ تعال معي يا خالي كي تستريح في شقتك.

تقولها وهي تجذب ذراع ربيع بحنوها الصارم كعهدا

ليعرض العجوز وهو يكفكف دمه قائلًا بصوت

مرتجف:

_ لن أترك إبراهيم وحده.

_ نحن معه.

يقولها قيس وأخواه بجدية غريبة على هزلهم

المعهود كأنما الأزمة الأخيرة أنضجت الجميع،

فيرجوه إبراهيم أن يعود لشقته واعداء إياه بالحق به
بعد (كنس القمامة) كما وصفها بنبرة ذات مغزى!
يغادر ربيع بخطوات متثاقلة وهو يشعر لأول مرة في
حياته أنه خالي الكفين مع فلذة كبده.. لا يملك ما
يفعله له بل ويخشى أن يزيد حمله بحمله هو الآخر!
يتحرك إبراهيم ليجمع (الرماد) المتبقي من حرق
أشياءها في كيس كبير، يتحرك أبناء عمه ليساعدوه
لكنه يصرخ فيهم بفظاظة غريبة على طبعه الحلیم أنه
سيفعلها وحده..

يحمل الكيس الضخم على ظهره ليهبط به الدرج
فتجتاحه ذكرى ذاك اليوم وهو يجرها خلفه،
تحترق روحه وهو يواصل الهبوط بالحمل الذي بدا له
كجبل فوق ظهره..

يتحرك بالكيس نحو مقلب القمامة القريب تلاحقه
نظرات أهل الحي المشفقة فيشعر بكل نظرة كانها
نصل ينغرس في صدره..

يلقي الكيس أخيراً بعنف ليقف لاهثاً وهو يتخيل
صورتها مكانه.. ليته يستطيع أن يلقيها هكذا خلفه
ويرحل..!

_ النعناع يا إبراهيم.

تهتف بها العجوز وهي تلوح له بالحزمة الخضراء
بطيبة..

جاهلةً عن مكنون صدره فيلتفت نحوها بحدة كأنما
صفعته على مؤخرة رأسه..

يركض إليها لينتزع منها ما بيدها يرفعه أمام عينيه
الحمراوين كبركتين من الدم..

يتذكر عينيها الخضراوين الكاذبتين مثلها، هوسها
باوراق النعناع وهي تسقط في كوبها، كيف لم يفهم
وقتها أنه كان حقاً (ورقة نعناع) تضيف المذاق
لمشروبها ولا ينالها في النهاية سوى الاحتراق
بحرارته!!؟

وبنفس القداحة التي أشعل بها حاجياتها وجد نفسه
يشعل النار في حزمة النعناع.. الأوراق الخضراء
شبيهة عينيها تتوهج كخداعها.. كجرحها.. كعشقها..
ثم تتفحم.. كقلبه!

يشعر بهذا الكف على كتفه فيلتفت لصاحبه الذي
يرمق ما بيده بنظرة خبيرة كأنه يعرف مذاق هذا
الجرح، ليرمقه إبراهيم بدوره بنظرة غريبة وهو
يشعر نحوه بمزيج من امتنان ونفور..

لماذا كلفت نفسك مشقة الحضور؟! كان يمكنك أن

تخبرني بتطورات الأمر عبر الهاتف!

فذاظته تبدو مثيرة للشفقة في قلب حسام الذي تلين

نظراته وهو يراه يلقي الحزمة المتفحمة بعيداً بحدة

لينقد المرأة ثمنها متجاهلاً نظرات أهل الحي، فيطلق

تهيدة حارقة وهو يتبعه نحو بيته قائلاً :

لدي الكثير مما أريد إخبارك به.. فضلت إخبارك به

وجهاً لوجه.

دعنا نصعد للسطح.. لا أريد أن يسمع أبي كفاه ما

هو فيه.. وشقتي خاوية من الأثاث.. بل.. من كل

شيء.

يقولها إبراهيم بحدة قانطة صارت مرادفة لكلماته لكن

حسام يعذره وهو يراه يصرف أبناء عمه الذين

استقبلوهما على الدرج بعنف طالباً منهم تركه وحده

مع ضيفه وأخيراً يختلي به فوق سطح البيت..

يتوجه إبراهيم عفويّاً نحو الصبة الإسمنتية حيث

موضع قدم شقيقه الراحل،

عبر غشاوة من دموع - لا تسقط- يراها يوم كانت

معه هنا ليلة زفافهما..

تباً لها!! بل ألف تباً!! الرامية القرمزية لوثت كل

حياته بصبغتها القانية فلم تذر له بعدها سوى بقايا

حياة.. بقايا حقيقة.. وبقايا وهم.. كلها ملطخة

بخديعتها!!

زرت يسرا في السجن اليوم.

لوهلة ظن الاسم غريباً على أذنيه قبل أن تصفحه

الحقيقة بقسوة ككل مرة يسمعه فيها!

يكز على أسنانه بقوة وهو يشعر بقلبه تمزقه مشاعر
شتى.. أهونها شعوره بالغيرة من هذا الرجل خلفه
والذي كان يوماً زوجها!

_ محاميتها هاتفني بالأمس، أخبرني أنه سيبدل كل
جهده كي يخرجها من السجن رغم رفضها هي الدفاع
عن نفسها والذي أثار دهشتي أنا الآخر، هدد بأنه
سيقدم تقريراً طبياً بما فعلته أنت بها هنا وقد ضربتها
وكنت سبباً في إجهاض حملها.. كما أنه سيقدم تقريراً
آخر يفيد أنها غير متزنة نفسياً بعد موت ابنها الأول
كي يعفيها من مسئولية التزوير.

كل كلمة يقولها حسام كانت تساوي جلدة على ظهر
ابراهيم الذي كانت تتخبطه مشاعره كموج ثائر..

إذن ابنة الصباحي ستخرج من القضية كالشعرة من
العجين بدعوى كونها مختلة نفسياً بعد وفاة ابنها
فتكسب تعاطف الناس وشفقاتهم وتترك اللعنات
لسمرا المسكينة التي - لا ريب - ستجبرها أن تحمل
الوزر كاملاً!!

يقولها من بين أسنانه ليرد حسام وهو يقترب منه :
فكرت مثلك، لكنني فوجئت بها تطلب زيارتي لها في
السجن اليوم.

يلتفت إبراهيم نحوه بحدة وكل خلجة من خلجاته
تفضح لهفته لما سيقال ليصمت حسام قليلاً ثم يغرس
نظراته في عينيه ليقول أخيراً :
ليست هي.

ينعقد حاجبا إبراهيم بشدة وهو لا يفهم ما يريد قوله

ليردف حسام بنفس النبوة القوية :

__ هذه المرأة التي رأيتها اليوم في السجن ليست يسرا

الصباحي التي كانت يوماً زوجتي!

__ بديلة الثالثة؟!!

يهتف بها إبراهيم باستنكار لترتجف شفتا حسام

بابتسامة واهنة لطرافة الموقف ولو كان لا يلومه في

جموح خياله بعدما عرفه من غرابة قصتهما!

يهز رأسه نافياً وهو يقول بشرود مسترجعاً تفاصيل

لقائه بيسرا :

__ أقصد أنها تغيرت تماماً لأخرى ، ظننتني سأقف أمام

القديمة المتعطسة المتعالية التي ستتشب مخالبتها

في وجهي، لكنني وجدتي أمام أخرى واهنة ذابلة
معرفة بذنبها وتطلب العفو.

هل غشتك أنت الآخر؟!

يصرخ بها إبراهيم بحدة ليهتف حسام بصرامة :
_ أنا آخر من يمكنها خداعه بهذا الشأن.. عندما أقول
لك أنني كنت واقفاً أمام امرأة جديدة كأنها تغيرت
لأخرى فأنا أعني ما أقول.

صوت ساخر يشبه احتضار ذبيح يطلقه إبراهيم وهو
يشيح بوجهه ليكتنف حسام كتفيه بقبضتيه ليجبره
على النظر إليه قائلاً بانفعال:

_ عندما طلبت مني رفع القضية كنت أكثر من مرحب
وأنا أظنني سأرد لها صفتها القديمة، ظننت مثلك أن
الحكاية مجرد لعبة رغبت هي في تجربتها هنا

بالعيش في وسط جديد عليها.. لكن بقيت القصة في
عقلي تنقصها المنطقية.. لو كانت مجرد لعبة فلماذا
ورطت نفسها في الحمل، بل والتبرع لأبيك بكليتها،
يسرا الصباحي كان يمكنها ببساطة شراء أي متبرع
والدفع له فلماذا حرصت أن تكون هي!!
يزداد انعقاد حاجبي إبراهيم والمشهد يطفو لذاكرته..
عندما أفاقت من تأثير البنج يوم العملية وهو
يسألها :

يؤلمك الجرح!؟

تصدقني لو قلتلك أنه الجرح الوحيد في حياتي الذي

لم يكن ليؤلم بل يداوي!!

ريشة بيضاء تسقط ناعمة على بقاياها الملطخة

بصبغ خديعتها!

لكنها وحدها لا تكفي!!

فقط تشعل المزيد من النيران في صدر إبراهيم الذي
يغمض عينيه بشدة كأنه يخشى أن تصرخ حدقاته كما

تصرخ روحه بالوجع!

تذكر تلك القضية التي حبست فيها مع أبيك وأولاد

عمك وذاك الفلسطيني؟! كنت محاميك فيها كذلك

وتعجبت وقتها من خروجكم بتلك البساطة لكنني

عرفت بمصادري الخاصة أن يسرا الصباحي كانت

من خلف هذا أيضاً!

ريشة بيضاء أخرى لكنها لا تزال لا تكفي وسط كل

لطخات الأحمر!!

بماذا تريد إقناعي؟! ها؟ بماذا تريد إقناعي؟! أنها
روضت شياطينها واستحالت لملاك كريم بمجرد
مقامها معنا؟! هل تصدق نفسك؟! هل يتحول الإنسان
بين النقيضين بهذه البساطة؟!

لو كنت سألتني هذا السؤال منذ أسابيع فقط لأقسمت
لك على العكس غير حانث.. لكنني وأنا أنا فلا أملك
سوى أن أقول لك بمنتهى الصدق.. نعم.. يتحول بين
النقيضين لو وجد يداً من ضميره تصافح يداً من
أيادي الحب، ساعتها يقهر شيطانه مهما ظن في
استحالة هذا!

يقولها بيقين هو خير من يعيشه هذه الأيام ليعاود
إبراهيم الإشاحة بوجهه دون رد، فيتهدد حسام بيأس
قائلاً :

_ لو لم تسحب انت القضية فيقيني أن محاميها
سيكسبها من أول جلسة، تلك الفتاة سمرا هي التي قد
تتأذى في هذا كله.

_ أبدأ! لن أسحب القضية أبدأ! يكفيني أن أختصمها
أمام الجميع وأراها خلف القضبان.

يهتف بها إبراهيم بعناد فيطلق حسام زفرة أخرى ثم
يلقي آخر بطاقاته:

_ لم أخبرك بعد لماذا طلبتني يسرا.. قالت أنها تملك ما
قد يعيد حق حسن.

يقولها وهو يتذكر حالة يسرا الغريبة عندما التقته..

"ميتة تتنفس"! لو كان يصح التعبير!

لم يصدق نفسه وهو يراها تبتره باعتذارها عن
إساءاتها له أيام زواجهما بنبرة مرتعدة شاحبة، ظنّها

أول الأمر تستعطفه لتخرج من مأزقها لكنه - بعيداً عن إدراكه بعدها أنها لا تحتاج دعماً كي تخرج من مشكلة كهذه مع نفوذها وعلاقاتها - لمح في عينيها ندماً صادقاً هو خير من يمكنه تبينه..

أخبرته بين دموع انكسارها أنها تركت له شيئاً مع خادماتها، هذا المظروف الورقي الذي يلوح به الآن في وجه إبراهيم المتشنج في وقفته صارخاً بهياج :
_ أما اكتفت من الكذب؟! أي حق ستعيده هي؟! أي حق؟! حق؟! حق!؟

يفتح حسام المظروف لتبدو لهما هذه (الفاشنة) التي تتعلق بها عينا إبراهيم بينما حسام يقول بنبرة تشي بخطورة ما تحمله :

رفعت الصباحي كان من الأسماء المتورطة في قتل
المتظاهرين، ليس هذا فحسب، بل يبدو أنه موصوم
بما هو أكبر، هي أخبرتني أن القائمة الكاملة هاهنا،
الرجل كان يؤمن نفسه وعندما مات وجدت على
حاسوبه هذا الملف الخطير، الغطاء الداخلي الفاسد
لمن خلفه ولو صدق ظني فالقضية لن تكون حق
حسن فقط بل حق كل واحد في هذه البلد!
يرمقه إبراهيم بنظرة موعدة كأنه يخشى منحها
ريشة بيضاء أخرى، فيما يشرده حسام ببصره وهو
يتذكر أن رفعت الصباحي هو من أمره بإغلاق قضيته
التي كانت ستوصل ل(الكوبرا)، ماذا لو كان الباب
الذي فتحته يسرا لتوها هو الذي سيقودهم لمغارة
الأسرار كلها!!

_ افعل بها ما شئت.. أنا لن أتنازل عن القضية.. لا
تعينني ألاعيبها الملتوية ولن تؤثر فيّ مثقال ذرة.
يهتف بها إبراهيم بحدة ليرد حسام :

_ هي أخبرتني أنها لا تنتظر صفحك فهي خير من
تفهم طبعك.. وأنها لا تفعلها لأجلك إنما لتتخلص من
بعض وزرها.. صدقها أو لا.. لكنني أنا أفعل.
_ هل أرهبتك؟! هددتك بنفوذها كي تتخلى عن
القضية؟!!

_ افهم يا "بني آدم"! لا قضية!! ألف تقرير سيكتب
ليثبت عدم اتزانها النفسي، ألف محام سيتبرع للدفاع
عنها في قضية مضمونة، ألف قناة تلفزيونية ستوجه
الرأي العام للتعاطف مع منصات التواصل لتصير في
غمضة عين أول تريند! (ماذا حدث للأم المسكينة

التي فقدت طفلها؟! فقدت عقلها خلفه!) قصة مثيرة

تصلح دوماً لأدوار البطولة ويصدقها الناس

بسهولة!

_كنت تعلم هذا من البداية فلماذا وافقت على

مساعدتي؟!!

يصرخ بها إبراهيم بيأس عاجز وهو يلوح بذراعيه

ليزفر حسام قائلاً بصدق:

_كنت مستعداً لخوض هذه الحرب الخاسرة لأنني كنت

أراها بعيني يسرا القديمة لكنني أعود لأؤكد لك.. من

رأيته اليوم ليست يسرا الصباحي التي كنت أعرفها.

يطلق إبراهيم عدة صرخات غاضبة متتابة وهو

يتوجه نحو سور السطح القريب الذي نالته قبضاته

يفرغ فيها غضبه، لكن حسام كان يتفهم موقفه

فتحرك ليربت على كتفه بدوره قائلاً :

_لو كنت تفعل هذا للانتقام منها فصدقني أنت لا

تحتاج المزيد.. هي صارت مجرد جثة ولولا تقديري

لغيرتك لأفرطت في الشرح لكنك لاريب تفهم.. أو على

الأقل تشعر.. أي مكسب كانت ترجوه من معيشتها

هنا.. وأي خسارة نالتها.. اسأل نفسك أو امنحها هي

فرصة التفسير.. حتى لو سددت أذنيك هذه أشياء

يسمعها القلب أولاً.

تشتعل ملامح إبراهيم و كلمات حسام الحارة على

عقلانيته تصطدم بأقصى صخوره ،

لا.. لن يصدق.. لن يسمع.. بل لن يسمح لنفسه سوى

بأن يعيش لينال عدل قصاصه منها.. مهما كان

الثمن!!

_ لو جد جديد فسأخبرك.

يقولها حسام أخيراً وهو يلوح ب"الفاشة" في يده

لتقسو ملامح إبراهيم أكثر وهو يشيح بوجهه قائلاً:

_ أنا قلت ما عندي.

يرمقه حسام بنظرة طويلة بين غيظ وإشفاق ليغادره

بخطوات سريعة فيراقب إبراهيم ظهره المنصرف

بعينين مشتعلتين..

جحيم هائل يستعر بين ضلوعه وينذر بأن يحرق دون

رادع!

صوت بكاء خفيض يجذب انتباهه ليلتفت نحو زاوية
الجدار القريب فتتسع عيناه وهو يميز الصغير
"سامي" يجلس متكوراً على نفسه يبكي وقد أعطي
وجهه للحائط..

يبتلع غصة حلقة وهو يقترب من الصغير، ينحني
ليربت على كتفه فيلتفت نحوه هاتفاً بعينين
ضارعتين :

_را.. را..

يشعر بها كجلدة أخرى على صدره الملتاع!

ماذا عساه يخبره الصغير؟!

أن المجرمة كانت تلعب!!

حياتها هنا كانت مجرد "ماكيت" ملون، عالم موازٍ

أرادت تجربته من باب الطرافة!!

لم تكثرث بقلوب "الكبار" التي تعلقت بها، لكن ماذا

عن هذا الصغير البريء؟!

هو الآخر كان مجرد "العبء"؟!

لن تعود.. انسها.. شقيقتك ستعود قريباً لتعتني هي

بك.. أما الأخرى فقد ماتت.. ماتت!

يعتصر بها ذراعي الصغير الذي ينخرط في البكاء

فيضمه لصدره بقوة وهو يخفي وجهه في عنقه..

تبا! لقد علقت رائحتها به!! بالصغير فحسب؟! بل بكل

شيء حوله!!

كيف يعترف أنه يغبط الصغير لأنه يبكيها؟!

كيف صار مجرد البكاء عليها ترفاً لا يملكه قلبه

المكلوم بين عقله المتربص وروحه الحاقدة؟!

كيف؟! كيف؟!

يرفع وجهه للسماء بدعاء لم يعد يردد غيره أن
ينزعها الله من قلبه ولأول مرة يشعر أن الإجابة
بعيدة.. بعيدة.. كما بين المشرق والمغرب.



_ هل أنهما جلساتهما!؟

يسأل حسام بصوت متحشرج ليرد كنان عبر الهاتف :

_ نعم.. حالة سند تتطور كثيراً.. صار هو من يرغب

في التعبير.. لكنه لا يزال يشعر ببعض الخوف الذي

يخلق هذه الرغبة.. لا تقلق.. أظنه سيكون قريباً قادراً

على النطق بصورة طبيعية.

_ وهي!؟

يتهدج صوته أكثر وقبضته تشد حول مقود سيارته

ليرد كنان :

_ ديمة واجهت أقسى مخاوفها.. هي صارت تدرك قدر

نفسها.. توقن أنها ليست بهذا الوهن الذي كانت

تتخيله.. صارت قادرة على مواجهة مرآتها دون

أشباح.. وأظن أنها ليست سوى خطوات قليلة تفصلها

عن العيش بصورة طبيعية.. أعرف أن التجربة التي

عشتها معها كانت قاسية لكنها كانت مفيدة لها حقاً.

_ كانت.

يتمتم بها حسام بخفوت عبر شروده وهو يغمض

عينيه كأنه يسدل الستر على الحكاية.. ليفهم كنان ما

بنفسه فيقول بنبرة عملية:

_ أعرّف أنها صارت شديدة التعلق بك.. لا يمكنني

الجزم إن كانت مشاعر حقيقية أو مجرد..

_ لا يهم.. النتيجة واحدة.

يقاطعه بها بحسم ليتحنح كنان مستفسراً فيرد حسام

بنفس النبرة الصلدة :

_ هذا هو ما أريده منك بالضبط للفترة القادمة.. أن

تخبرني بما أفعله لأمهد لها ولسند فراقي عنهما..

بقاء ثلاثتنا معاً مجرد مرحلة مؤقتة ستنتهي بانتفاء

حاجتهما إليّ.

_ حسناً.. أنا أتفهم.

يقولها كنان ببعض الأسف الذي طغا على نبرته

العملية ليردف :

_ هما في طريقهما إليك الآن.. غادرا المركز.

يغلق حسام الاتصال معه ليراقب مدخل المكان
بترقب.. يلمحها وقد اقتربا متعانقي الكفين فيغادر
السيارة نحوهما..

عيناه تتلقفان نظرة الصغير وقلبه يتلقف نظرتها

هي..

يالله!

متى سيتوقف قلبه عن النبض بهذه الطريقة كلما
رأهما معاً؟!

كأنه يدخر بهذا القرب زاداً لساعات الفراق التي يوقن
أن ميقاتها قد بدأ عده التنازلي!

يهرع إليه سند ليعانقه فيرفعه إليه فيما يشعر بها هي
تتعلق بذراعيها كليهما في ذراعه..

يشعر بنظرتها تخترقه رغم أنه يتعمد ألا ينظر إليها..

ـ افتقدتنا؟!!

تسأله وقد استقروا معاً في سيارته بمزيج غريب من
دلال وكبرياء بدأ يتسرب رويداً رويداً لشخصيتها
مؤخراً كأنما تستعيد به بقايا طبعها القديم قبل هجرتها
من وطنها..

مزيج يكاد يفقده عقله وهو يقاوم نفسه أن ينظر
لعينها كي يقسم أمام "حلقة الزعفران" أنه عشقها
في كل حالاتها..

منطفئة ذابلة.. ومشعة متوهجة..

أنه أحبها ألف مرة.. كل مرة كأول مرة!

ـ كيف سارت الجلسة اليوم؟!!

يغير بها الموضوع عامداً وهو ينظر للطريق أمامه
فتبتسم وهي ترفع له ورقة سحبتها من حقيبة

"البروكار" خاصتها والتي صارت تصطحبها معها
لكل مكان..

_جلسة اليوم كانت عن الأولويات.. طلب مني دكتور
كنان أن أكتب أهم عشر أشياء في حياتي.. كتبت
"سند" في أول سطر..

تقول عبارتها الأخيرة وهي تلتفت نحو الصغير بقبلة
طائرة في الهواء منحت مظهرها المزيد من الحيوية
المستحدثة على طبيعتها..

فتختلج عضلة فكه وهو يرى أناملها المترددة تتسحب
ببطء لتحط على كفه مع همسها الوجل :

_لا تريد أن تعرف البقية؟!

_المهم أن تعرفي أنتِ.

يقولها ببرود خادع وهو يسحب كفه بعيداً لتتكمش
هي في مقعدها وهي تراقب جانب وجهه بحيرة..
لا تزال تحبو في طريقها الجديد.. لا تفهم حقيقة
مشاعرها نحوه بالذات.. لا تعرف سوى أنها تشعر
قربه بالأمان دون مسمى آخر.. عناقه يغرستها فوق
أرض تمنحها الوطن.. لكنها تخشى التفكير في
المزيد!

صورته وهو يرفع طرف ثوبها تجتاح ذهنها في هذه
اللحظة بالذات فتغمض عينيها نفوراً وهي تكاد
تجرف للبرر القديم..

لكنها صارت تملك القوة لتستعيد توازنها!
تماماً كما الآن وهي تقول بسرعة كأنما تنتقم من كل
تلك المرات التي كتمت فيها حديث نفسها :

كتبت الكثير.. كتبت (مشغولات ديمة ضرغام
السورية).. صفحة على الفيسبوك أعرض فيها
أعمالي اليدوية، ستكبر يوماً بعد يوم، يزيد العمل
فأطلب فتيات للمساعدة، أعلمهن كما علمني جدي فلا
يندثر هذا الفن اليدوي، تكبر الصفحة وأكبر أنا معها،
لا.. لا.. لماذا أفكر بهذه الطريقة البدائية؟! صرت
أملك الكثير من المال.. يمكنني الاستعانة بدعاية
قوية، بل يمكنني فتح مشغل كبير، يمكنني الاستعانة
بالخبراء والتصدير للخارج، كتبت كذلك التعليم، أريد
استكمال تعليمي، الذهاب للجامعة، أريد أن أحمل
شهادة جامعية..

تتوقف للحظة كي تلتقط أنفاسها اللاهثة بعد حديثها
المتواصل فتلمح ابتسامة جانبية على شفثيه ولا يزال

لا ينظر إليها ليصلها صوته بنفس (الطغيان الحاني)
الذي يبدو وكأنه لا يتقنه في الدنيا رجل سواه :
_ أكاد أقسم أنني أعرف كل ما كتبته.. وسأساعدك
لتتالي كل ما تريد.

_ حقاً؟!

همسها لا يحمل استكراً بل يكاد يقسم مثله على
تصديقه.. عيناها تتعلقان رغماً عنها ب(عقدة
حنجرته) التي بدت لها كعهدا صخرة كبيرة تصلح
دوماً للاختباء الآمن خلفها حين تخاف.. أو لنقش
أحلامها عليها حين تطمح.. أو لرفع راية حريتها
فوقها حين تتمرد.. أو للركض بانتشاء حولها حين
تتحرر.. صخرة لن تخذلها يوماً قسوة صلابتها لأنها
توقن أنها لها لا عليها!

_ كتبتِ كذلك بيتاً.. بيتاً يضمك مع سند.. تحملين

أوراق ملكيته وتدفعين ثمنه.. صحيح؟!

تدمع عيناها مع قوله وهي تشعر بهذه الغصة في قلبها، فلا تعرف هل تفرح لأنه يفهمها إلى هذا الحد، أم تحزن للمعنى المبطن في كلماته.. وهي تسمعه يردف بنفس البرود الخادع :

_ أرسلت لك بعض الصور على الهاتف لبيوت مناسبة كلها قريبة من بيتي في العاصمة كي يمكنني حينها زيارة سند على فترات متقاربة، اختاري الذي يعجبك وأنا سأتولى شأن أوراقه.

تزدرد ريقها بصعوبة وهي تخشى تصديق ما توحى به عبارته..

وهذه المرة تشبثت أناملها بكفه فلم تسمح له

بالابتعاد!

_ كتبت أيضاً..

تهمس بها بانفعال لكنه يقطعها عامداً وهو يتوقف

بالسيارة أمام باب البيت الساحلي الذي يقيمون فيه

حاليا :

_ وصلنا.. لا ريب أن سند افتقد قطته.

يضحك سند ضحكة رائقة فتضطر ديمة لابتلاع بقية

كلماتها التي ودت لو يسمعها.. تراه يغادر السيارة مع

سند الذي تعلق كفه بكفه، تغادر السيارة بدورها

لتراقب سند بدورها وهي تراه يركض معه يبحثان

عن قطته بالداخل، يجدانها فيلاعبانها بمرح ينتزع

ضحكاتها ودمعتها هي!

هي التي صارت تدرك أي بكاء يختفي خلف ضحكة

(الذئب) الذي ظننته يوماً!

يرجع إليها وقد انشغل سند بالركض خلف قطته حول

البيت ليسألها باهتمام قلق :

_ لماذا تبقين هنا؟! لماذا لم تدخليني؟!!

_ أسمع صوت البحر.

_ لم تعودني تخشيني؟!!

تهز رأسها نفيماً وهي تغرس نظراتها في عينيه، حلقة

الزعفران تمطره سيلاً من عاطفة يخشى تصديقها :

_ منذ ذلك اليوم صرت أرى فيه صورتك.

يشيح بوجهه دون رد وهو يتذكر ما تحكي عنه، يكاد

يشعر بلمسة أناملها طازجة على وجهه بعدما قبضت

من ماء البحر لتلقيه على وجهه كما فعلت يوماً،

ليته يستطيع أن يخبرها أنها من وقتها منحته وجهاً
جديداً.. وجهاً رسمته أناملها على صفحة روحه
فصار يعشقه لأنه بلمستها هي.. وجهاً سيبقى آخر
وجوهه التي مل تأرجحها بين بياضها وسوادها.. لو
كان هو خلصها من خوفها من البحر فهي منحته
الوجه الذي - أخيراً- صالح به مرآته، حتى وهو
يوقن أن فراقهما قادم لا ريب!

يراها تتناول راحة يده لتبسطها.. سبابتها تتحرك
فوقها فيرتجف جسده بين تأثر وترقب.. حركة أناملها
تكتب اسمها تكاد تلحمه بخطوط كفه، ثم تفرد راحتها
لتكتب اسمه على خطوط كفها..

تشبكهما معاً لتهمس له بخفوت :

_ كتبتُها هكذا اليوم عندما كاد عقلي يجرفني للسؤال
القاتل.. هل يموت الماضي؟! هل يمكننا أن نهزم
جيوشه متى غزتنا أوجاعها؟! هل تكون يوماً للرماد
حياة؟!!

_ وهل وجدت الجواب؟!!

يقولها وهو ينتزع كفه منها ببطء كأنه ينتزع معه
روحه فتفرج شفتاها باندفاع كأنها ستطلق في
الكلام لكنه يضغط بسبابته عليهما ليردف ببرود
صارم :

_ خذي مني ما تشائين حتى تنهضي من عثرتك، لكنك
ستعطيني ظهرك فور ما تفعلينها، لم ولن أكون في
حياتك سوى عابر سبيل، لا تصدقي إلا هذا.

تعض شفثها السفلى وهي تسبل جفنيها على نظرة
حائرة، قديماً كانت كلماته هذه تريحها، تمنحها
الشعور بالحرية الذي طالما افتقدته، فلماذا تخزها
الآن بنصل الفقد؟!

بينما يعطيها ظهره كأنه يهرب من كل هذا ليندفع نحو
الداخل بخطوات متثاقلة، يطلب من الخادمة الاعتناء
بسند وبها ريثما ينهي بعض أعماله..
يدخل غرفته ليغلقها خلفه، فليشغل نفسه بشأن آخر
لعله يتجاوز هذه الغصة في حلقه، يستخرج الفلاشة
التي منحته إياها يسرا ليضعها في حاسوبه
المحمول..

تضييق عيناه وهو يتابع البيانات التي ظهرت له على
الشاشة ليبتسم بظفر وهو يراجع الأسماء التي علوها

صور أصحابها مع بياناتهم ونقاطهم السوداء التي
يبدو أن رفعت الصباحي كان يستغلها ضدهم، هذا إذن
هو الغطاء الداخلي للكوبرا داخل جهاز الشرطة
والأجهزة الأمنية العليا والذي يعينه على التوغل
بتنظيمه داخل الدولة!

ضربة قاصمة ستمكنه من تجاوز خطوات كثيرة
لمعرفة هوية ذاك الرجل ومن خلفه ولو أنه يظن أن
الأمر سيفوق أكثر توقعاته خطورة!

تضييق عيناه أكثر وهو يتابع المزيد من الأسماء
والصور لكنهما تتسعان بصدمة وهو يميز الاسم
الأخير الذي لحقته صورة صاحبه بلامحه المميزة
كما عرفها وإن اختلف الاسم المذكور..

أنت؟! معقول؟!!!

يتمتع بها مذهباً ففد كانت الصورة أمامه لضابط من

جهة أمنية عليا يعرفه جيداً.. وإن كان باسم آخر..

أديم!!



_ صديقك لا يزال يماطل في توقيع العقد.

يقولها إيلان مخاطباً يولاند وقد جلس معها في أحد

المولات التجارية الضخمة القريبة من المركز الطبي

الذي يتولى هو إدارته، لتشرّد يولاند ببصرها وهي

تختلس نظرة نحو ذاك المشتعل هناك والذي كان

يراقبهما من بعيد بنظرة حائقة كادت تحرقها مكانها..

ريان!!



لقد شعرت أنه سيتتبعها عقب خروجها من المركز مع

إيلان، وها هو ذا يفعل!!

تشعر بذبذبات جسده المتشنج مكانه على منضدة تبعد

عنها قليلاً رغم تعمدها التظاهر أنها لا تراه..

لقد نجحت بداية خطتها.. ولا يزال هناك المزيد..

لن تهناً حتى تسقيه سم انتقامها كاملاً وقد جعله

طمعه يبتلع أول طُعم!

عيناها تتعلقان بمحل طعام ذي علامة تجارية شهيرة

يبيع وجباته مع ألعاب مميزة فترتجف شفاتها رغماً

عنها وهي تتذكر أصغر أبنائها، كيف كان يحب شراء

هذه الوجبة بالذات كي ينال اللعبة!

نائم!

ابنها لا يزال نائماً بعدما غنت له غنوتها!

ينتظرها كي تعود وتحكي له حكاية يولاند.. يولاند
التي عادت لتنتقم وتأخذ بثأرها لنفسها ولهم.. يولاند
التي لم تحترق وسط الرماد بل عادت منه عنقاء
فاردة جناحيها وستبشش بهما بكل قوتها..
ساعتها فقط.. ستزور قبورهم من جديد.. ستصدق
أنهم ماتوا.. كما ماتت فدوى!

يولاند.. أنا أحدثك من دقيقة كاملة.

يهتف بها إيلان بعتاب فتتكلف ضحكة تعمدتها عالية
وهي تهز كتفيها العاريين مستعرضةً أنوثتها بعدما
فقدت الكثير من وزنها، تشعر بأنظار الحضور تلتفت
نحوها لكنها لم تكن تكثرث سوى بنظرات ذاك

المشتعل هناك!

_جائعة.. تعرف طبيعي.. لا أجيد الكلام ومعدتي

خالية.

تقولها بدلال مرح فيمسك كفها بحركة بدت شديدة

الرقّة لولا هذا اللوم في نظراته بهمسه شديد

الخفوت:

_لا تلعبى معى هذه اللعبة.. أعرف أن ريان تتبعنا إلى

هنا.. وأعرف أنك تعرفين كذلك.. دعيه يحترق بغيرته

وانتبهى لما أقول.

تعود لتتصنع ابتسامة خفيفة وهي تهز رأسها ليعاود

قوله :

_كنت أحدثك عن صديقك جهاد.. لماذا لم يوقع عقد

عمله معنا بعد؟! أنا أتحمّل عمله معنا فى المركز على

مسئوليتي الخاصة لكن ملاحظته في التوقيع على

العقد لا تريحني.. أفعها لأجلك.

_ لا يا عزيزي.. أنت لا تفعلها لأجلي.. أنت تدرك جيداً

قيمة أن يكون جهاد بالذات معكم في المركز.. سمعت

عن المؤتمر الطبي الذي ستقيمونه قريباً والذي

ستذيعه كل قنوات العالم.. وجود طبيب فلسطيني في

طاقم العمل بالمركز سيمنحكم دعاية شرعية والمزيد

من القبول لدى الشعوب المعترضة.

تقولها بذكاء لا ينقصها ليطلق زفرة قصيرة وهو

يقترب بجذعه منها عبر المائدة قائلاً بحماس:

_ لن أناقشك فذكاؤك كعهده لا يخذلني.. أنا حقاً أريده

هو بالذات واجهة لمركزنا الطبي هنا.

إذن.. اصبر.. مجرد وجوده هناك في المركز شططاً
لم أكن أنا نفسي أتوقعه.. ولولا شعوره بعدم الاتزان
بعد كل الضربات التي تعرض لها لما كان وافقتي على
ما أردته.

لا أعرف سبباً لهذا سوى تعنت العرب المتشدد
كالعادة.. يرفضون الشيء لأجل الشيء فحسب دون
تفكير.. رباهم آباؤهم أن إسرائيل هي العدو فلم
يعودوا يصدقون سوى هذا.. العصر تغير.. المفاهيم
تغيرت.. نحن نفسنا تغيرنا.. إسرائيل لم تعد مرادفاً
للدبابات والمدافع التي تقصف الأرض.. بل صارت
واجهه حضارية للتعايش والتكيف مع جميع
الشعوب.. أنا أريتكما كيف صارت الحياة هناك.. ثم
إنني احترمت عقيدته الدينية فأحضرت له فتوى من

المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية بجواز عمله
معنا لعلاج المسلمين وغير المسلمين.. فماذا يريد
أكثر؟!

تتنهد بحرقة حقيقية وهي تشعر بالأسى نحو جهاد..
تعرف كم يعاني منذ وصلا إلى هنا.. تعرف كم يكتف
غضبه مما يراه.. تشعر بهذا التيه الذي تتخبط فيه
روحه.. والذي تكاد تشاركه فيه..
لكن.. اقتربت لحظة الخلاص..

جهاد يظنها مجرد خطة لتوريث ريان في العمل
بالمركز تاركاً عمله في المشفى القديم ثم يفاجئوه
بالطرد من المركز في الوقت المناسب ليخسر كل
شيء.

لكنها وحدها تعلم أنها لن تقنع بمجرد خسارته لعمله..
هو حرمها كل شيء ولن تهدأ حتى تفعل المثل!
عينها تشتعلان بمزيج غريب من حقد ووجع لا يليق
بامرأة سواها.. فيما تختلس نظرة خفية نحو ريان
الذي بدا كأنه يتقافز على مقعده من فرط
توتره.. لتتكلف من جديد ضحكة عالية وهي تقترب
من إيلان هامسة :

_ لا تقلق بشأن جهاد.. أخبرني ماذا فعلت بشأن
رفيدة؟!!

تلتوي شفتاه بابتسامة ماهرة وهو يتناول كفاها بين
راحتيه قائلاً بنبرة موحية :

_ دخلت المصيدة بسهولة.. لم تتبق سوى الخطوة
الأخيرة.

_بل الخطوة الأهم.

تهمس بها من بين أسنانها وهي تكور مندبل المنضدة
بكفها الحر حتى يتجدد في قبضتها تماماً، فيتناول
هاتفه ليطلع شاشته للحظات.. قبل أن يرفع حاجبيه
بقوله :

_هي نفذت بأسرع مما توقعت.

تختطف منه الهاتف لتطلع رسالة رفيدة الأخيرة التي
أرسلتها له منذ لحظات..

(أجهضت الجنين كما اتفقنا، لنكون معاً دون ذيول
للماضي)

تقف مكانها دون وعي لتوجه بصرها نحو المحل
إياه.. تتعلق عيناها باللعبة التي تصاحب الوجبة
فتطلق ضحكة عالية أقرب لصرخة!!
صرخة قصيرة بدت كأنها صيحة انتصار.. وربما
عويل هزيمة..

بعض الحروب مغنمها كمغرمها.. كلاهما تملأ مرارته
الحلق العمر كله!!
هو قتل أولادها.. وهي جعلت زوجته تقتل ابنه!
أليس هذا بالعدل؟!

يقف ريان بدوره مكانه وهو يراقبها بنظرة غريبة
وقد بدا له تصرفها متطرفاً.. ماذا سمعت من ذاك
الرجل لتصدر رد فعل كهذا؟!

يسمع بعض التعليقات من الرجال حوله اجتذبتهم
حركتها الأخيرة فمضوا يمتدحون جمالها الغربي
وأناقته فيلتفت نحوهم بنظرة حادة وهو يتوجه
نحوهم لينهرهم وقد تاهب للشجار..

_وما شأنك أنت؟! زوجها؟! أم حارسها الشخصي!؟!

يتهمون بها وسط صيحاتهم فيلكم أقربهم إليه
باندفاع مجنون فجرته انفعالاته ليتكالب بقيتهم عليه
فيتحول الأمر لمشاجرة يفضها رجال الأمن ليجبروا
الجميع على مغادرة المكان..

ولم يكد ريان يغادر "المول" بخطوات مترنحة حتى
سمع رنين هاتفه برقم رفيده..

_ لا تنقصني حماقاتك.

يتمتم بها سرّاً وهو يغلق الاتصال دون رد لكنها تبدو

مصرة فيفتحه أخيراً ليصله صوتها المنهك :

_فقدت الجنين.. أدركني.. أنا في المشفى.



أمام مرآته يقف جهاد عاري الجذع يهذب ذقنه ،
عيناه الزرقاوان تتوهجان بقسوة جريح.. وليس أشد

من قسوة جريح لو تعلمون!

هل يتوه المرء عن صورة مرآته !؟

والجواب ..كثيراً!

عندما يجبرك الغدر أن تغمض إحدى عينيك لتبقى

الأخرى قاصرة تستجدي كمال الصورة !

عندما يجبرك العجز أن تغلق إحدى فتحتي أنفك فتبقى

الأخرى تشنق لعبق الماضي !



عندما يجبرك الوجد أن تسد إحدى أذنيك فتبقى
الأخرى تتلهف لسماع اسمك من شخص يقسم أنه
يعرفك !

وعندما تجبرك بقايا الكبرياء أن تتجاهل هذا كله
فترضى بنصف صورة .. بنصف عطر .. بنصف
صوت .. بنصف شخص كان يوماً ما "أنت" !

_ روق يا "ضاوي" !

لا يزال يذكرها كما قالها لريان آخر مرة عندما فوجئ
به الأخير في المركز الطبي هنا..

هل يكذب زاعماً أن تلك النظرة المذهولة في عيني
ريان بين ذنب واتهام أرضت كبرياءه المخدوع؟!
هل أراحه الانتقام وهو يرى نفسه قد رد لصاحبه
الخائن بضاعته فوقف يشاهده وهم يخدعونه بهذا

العمل المزعوم في المركز كي يترك عمله الآخر ثم
يركلونه خارجاً بعدها ليحرب شعوره الذي عاشه
طوال الشهور السابقة؟!

هل أراحته صحبة يولاند؟! هل منحها الدعم الذي
كانت تحتاجه كي لا تنكص على عقبيها؟!
هل أراحه ذاك الإعجاب الأنثوي الذي تغمره به لارا
مرضيةً جوعه العاطفي؟!

هل أراحه عمله الجديد المرموق - بعدما أغلقت في
وجهه سابقاً كل الفرص - في المركز الطبي الذي ينال
اهتماماً خاصاً من جميع الجهات بحكم كونه أول مثال
نموذجي للتطبيع مع إسرائيل رغم كونه مؤقتاً وأنه لم
يجد الجرأة ليوقع معهم عقداً بعد؟!!

لا.. لا.. لا..!!

إذا كانت "لا" هي الجواب الصحيح لكل هذه الأسئلة

فأين يجد راحته؟!

يجرح ذقنه فيطلق تأوهاً خافتاً وهو يظهر الجرح

البسيط ليرمق وجهه في المرآة بنظرة تائهة قبل أن

يغسل وجهه ليتحرك فيرتدي ملابسه استعداداً

للنزول..

يتناول سرواله فتسقط منه ميدالية "حنظلة" ليرمقها

بنظرة مصدومة وهو يشعر بقلبه ينخلع من صدره

بسقوطها..

ينحني ليلتقطها بسرعة، يرفعها لعينيه،

لا يزال حنظلة الأبّي يعطي العالم ظهره.. أما هو

فيشعر أن العالم كله هو ما أعطاه ظهره..

كلاهما خاصم الدنيا.. وخصمته الدنيا!

يضم الميدالية لصدرة شاعراً بيراناً من الغضب

والعجز يترجمه لـ "تية" رهيب..

طالما اعتنق أن اليهود من بني اسرائيل قد عوقبوا

على خطاياهم بالتية.. فهل هو عقابه الآن؟!!

أن يدور خلف الطائفين حول صنم الوهم مدعياً

خشوعه؟!!

أين حقيقته؟! أين؟!!

تتردد أنامله وهو يتم ارتداء ملابس ليخفي ميدالية

حنظلة في جيبه كما اعتاد.. تصطدم عيناه بـ "شاله

الفالسطيني" الذي علق على مشجبه في خزانة

ملابسه فينتفض قلبه بمزيج موجه من حنين

وغضب.. عجباً! كيف صار بياض "فطرتة" يمتزج

بسواد "حقدته" تماماً كما في لوني القماش!

عندما يمزق الخذلان خيوط هويتنا.. فما الذي يبقى لنا

من أنفسنا؟!!

يسمع هذه الطرقات علي باب غرفته فيرمق شاله

اللسطيني بنظرة زائغة.. لكنه يغلق باب الخزانة

أخيراً كأنه يغلق معه المزيد من خواطره..

_لارا!

يقولها ببعض الضيق الذي لا يفهمه كلما استبان

عاطفتها الجلية في عينيها.. خاصة وهي تضحك هذه

الضحكة التي تزيد أنوثتها وهي تقترب منه قائلة:

_يولاند وإيلان ينتظرانك في حديقة الفندق كي تناقشا

بعض الأمور.. لكنني اردت أن تبدأ صباحك بي أنا..

ما رأيك؟!!

يبتعد عدة خطوات متعمداً وهو يغمض عينيه قائلاً

ببرود :

_ في ماذا؟!!

_ في صباح يبدأ بي؟!!

تقولها بدلال ولا تزال تقترب لكنه يبسط راحته بينهما

يمنعها المزيد من الدنو ليقول بنبرة جادة متجاهلاً

تلميحها:

_ دعينا لا نتأخر عليهما.

_ لا تزال تحبها?!!

تهتف بها بانفعال وهي تراه يتجاوزها ليغادر الغرفة

فيتوقف مكانه للحظات قبل أن يفهم مغزى سؤالها..

فتتحرك لتقف قبالة مردفة ببعض الحدة :

طالما سمعت أن الرجال يولعون بالمرأة التي
يخسرونها.. لكنني ظننتك مختلفاً.. قلبك ليس بهذا
الكبرياء الذي تبدو عليه أفعالك.. كم طعنة تنتظرها
منها كي ترضى أن تنتزع خنجرها من صدرك للأبد؟!
هل يرضع الفلسطينيون الذل كما نسمع إذن؟!

تشحب ملامح وجهه كثيراً لدقيقة كاملة حتى تشعر
أن جسده كله قد غادرتة الدماء فتهمّ باعتذار مناسب
لكن الدماء تعود لتتدفق كالحمم في عروقه رويداً
رويداً حتى يصير وجهه كجمرة من نار فتشهب
بخوف وهي ترى كفه يندفع نحو خدّها بصفعة!
صفعة توقفت على بعد سنتيمتر واحد من بشرتها فلم
تتلها!

_جهد!

كانت هذه يولاند التي ظهرت فجأة في المشهد لتجذب لارا نحوها، توبخها بحدة وقد سمعت الحوار من أوله فتسحب لارا باكية بخطوات راکضة..

_أعتذر.. أعتذر نيابة عنها.. لارا شديدة العاطفية وعندما تتفعل لا تكاد تميز ما تقول.. أرجوك يا جهد لا تغضب منها.

تقولها بالعربية كأنها تسترضيه بها فتبقى ملامحه الهادرة على عهدا للحظات، تدمع عيناها بلوعة حقيقية وهي تدرك طبعه عندما يزداد غضبه إلى هذا الحد الذي يفقد فيه قدرته على الكلام..

تكرر اعتذاراتها الراجية لمرات لم تدرِ عددها حتى
تراه يتجاوزها ليهبط الدرج دون انتظار المصعد..
درجة تلو درجة يهبطها فلا يشعر أن روحه أفضل
حالا.. كلاهما يهبط!!

_ صباح الخير دكتور جهاد.

يقولها إيلان بالعربية مهادناً وهو يستقبله في حديقة
الفندق فيتخذ جهاد مقعده لتلحق به يولاند فتجلس
جواره..

_ ماذا تريد؟!

لم يستطع التحكم في نبرة العدائية التي فاحت من
حروفه في هذه اللحظة، ليتبادل إيلان ويولاند نظرة
ضائقة قبل أن يقول إيلان بنبرته الودود :

لم توقع معنا عقد العمل بعد.. كنت أفكر في طريقة غير تقليدية نعيد لك فيها اعتبارك.. يولاند أخبرتني عن قضية الإرهاب التي زج فيها اسمك زوراً والتي كانت سبباً في رفض العديد من المؤسسات التعامل معك.. لكننا نختلف عن غيرنا.. وهذا ما أريدك حقاً أن تؤمن به.. نحن ننظر دوماً ل(الإنسان) دون تمييز بين جنس ودين او دين ودين..

تلتوي شفتا جهاد بشبه ابتسامة ساخرة بينما يردف
إيلان بتفهم :

أعرف كيف نشأ جيلك وسائر الأجيال العربية على كراهيتنا.. أعرف كيف غرسوا فيكم أننا العدو منزوع القلب الذي لا هم له سوى إبادتكم.. بل وأعترف ببعض الأخطاء التي ارتكبتها قومي في بلدكم.. لكن

صدقني. كل هذا صار ماضياً.. الجيل الجديد منا صار يدرك قيمة التعايش والاعتراف بالآخر.. نحن نريد السلام أكثر منكم.. نكره الحرب بأكثر مما تكرهونها..
_ دعك من الحديث عن شعبي وشعبك وتكلم فيما يخصنا كأفراد.

يقولها جهاد بخشونة باردة وهو يشعر بعقم الحديث الذي يكاد يجثم على صدره.. فيقول إيلان بابتسامة لا تقل برودة :

_ حسناً.. كما تريد.. فكرنا في أن نقيم مؤتمراً صحفياً بمناسبة التعاون المشترك الذي أثمر عن المركز الطبي لنا هنا.. وكي نثبت لك أننا نقدرك حق قدرك ولن نظلمك كما فعل غيرنا فسنقدمك بصورة تليق بتاريخك ومهارتك المشهودة في عملك.. شيء كهذا

سيفيدك كثيراً حتى لو تركت العمل معنا.. سيمحو

النقطة السوداء في ملفك كما يقولون.

ينعقد حاجبا جهاد وكلمات إيلان ترده لأقصى مشاهد

ماضيه ظلمة..

السجن.. الظلم.. الخوف.. الإقصاء.. النبذ.. والغدر!!

يتذكر كل الأبواب التي أغلقت في وجهه.. لا في العمل

فحسب بل في العيش..

فيشعر بهذه الغشاوة تسدل على ناظريه..

هو حقاً يحتاج لرد اعتبار!

_المؤتمر الصحفي سيتم بثه على الهواء محلياً

وعالمياً.. سيحضره ممثلون من دول عربية وأجنبية..

سنقدم فيه لخطتنا البحثية وخدماتنا وطاقم العمل معنا

بما فيهم أنت.. اسمك سيعود ليظهر على الشاشات

كإثبات لتفوقك.. لا أظنك تحتاج لأكثر من هذا كي

تتجاوز عثرات ماضيك وتجد معنا مستقبلك.

كيف هز جهاد رأسه بالموافقة؟!

هل هو طيف زهرة يعيره بضعفه؟!

طيف ريان يطعنه بالغدر؟!

طيف يولاند يستصرخه بالدعم؟!

كلها.. كلها فعلت!!

_حسناً.. ساعد العدة للأمر.. سيتم توقيع العقد على

الهواء مباشرة كما اتفقنا.

يقولها إيلان برضا وهو يقف ليغادر، ينتظر يولاند

لكنها تبقى جالسة بقولها:

_سأبقى مع جهاد قليلاً.. أريد التحدث معه بشأن

يخصنا.

تبدو بعض الغيرة على ملامح إيلان لكنه يتحكم فيها
وهو يبتسم لها قبل أن يتركهما وحدهما..
يلتفت لها جهاد بتساؤل فدمع عيناها وهي ترفع لها
شاشة هاتفها..

_ هذه.. هذه ظهرت لي اليوم على تطبيق
"الفيسبوك".. ذكرى منذ عامين.. عامين فقط..
يبتلع غصة حلقة وعيناها تدمعان هو الآخر.. فعلى
الشاشة كانت صورتهم جميعا في احتفال بيوم مولد
أحد أبنائها وقد وقف هو ضاحكاً امام كعكة عيد
الميلاد التي اشتعلت شموعها يحوطه أولادها
بحركاتهم المشاكسة وفي خلفية الصورة كان ريان
يبسط أحد ذراعيه فوق كتفها والآخر فوق كتفه هو..
_ ياالله.. أين كنا.. وأين صرنا !؟

يتمم بها بكاء ديس ضلوعه وأبت أن تظهره

ملامحه،

فاختنقت به حروفه..

ليسمعها تهتف بين شهقاتها الباكية :

_ أنا أعرف أين كنت وأين صرت.. أنا.. أنا قتلت ابنه

كما قتل أولادي.

_ ماذا؟!!

يصرخ بها بفرع وهو ينتفض مكانه مردفاً :

_ ماذا فعلت؟! ماذا فعلت؟!!

_ هما من فعلا.. هي وهو.. هما من سرقا عمري

وأولادي.. أليس العدل أن أنتقم بالمثل؟! ألم يرضَ أن

يخونني؟! أنا جعلتها تخونه! ألم يحرمني من

أولادي؟! أنا حرمة من ابنه! ألم يرتضها زوجة تعلي

مكانته وقدره؟! أنا جعلتها تلطخ شرفه!

تصرخ بها بانفعال وهي تقف بدورها فيهبز رأسه

مصدوماً، لتحكي له عبر دموعها تفاصيل خطتها مع

إيلان.. كيف أوقع برفيدة مستغلاً حقارتها وما عرفه

عن سوء خصالها وكيف دفعها بايعاز من يولاند

للتخلص من الجنين كي تطلب الطلاق من ريان دون

وجود روابط بينهما.

أنت؟! أنت فعلتِ هذا؟!!

لماذا تبدو مستاء هكذا؟! ألم يكن اتفاقنا أن ننتقم

منه؟!!

الأعراض شيء آخر! الأعراض! أنت انتهكتِ

حرمة!

_ وهو؟! ألم ينتهك حرمتي؟! ألم يمص دمي وعمري

وهويتي؟!!

_ لا أصدق! لا أصدق! ظننت الأمر مجرد حرمانه من

عمله! أنتِ دبّرتِ كل هذا؟!!

_ عدت قوية كما تركني.

_ بل صرت مجرمة مثله!

كان الحوار أغرب ما يكون بين العربية والفرنسية

وكلاهما يصر أن يتحدث بلغته رغم فهمه للآخر..

كأنه يتشبث بما بقي من هويته..

كلاهما يصرخ بحدة وداخله يبكي بانهيار..

كلاهما يرى في وجه الآخر بشاعة صورة الخذلان..

مسخ!

كلاهما صار مسخاً مشوهاً لضحية صارت جانية.. فلا
أراحها انتقام ولا عاد يفيدها ندم.



نيلي



_من الجيد أنك حضرت.. أنت الوحيد الذي يمكنه
إقناعها بالعدول عما تريد فعله.
يقولها بروفيسور "روبرت" مخاطباً صهيب الذي بدا
عليه القلق وهو لا يحتاج لسؤاله عن الأمر فالمشفي
كله يتحدث عما ترغب زهرة في فعله بعد تداعيات
الوضع التي تضخمت اليوم في فلسطين..



إذ قامت القوات الإسرائيلية بقصف حي شهير إجباراً
لأهله على التهجير القسري في تصرف مفاجئ
همجي هز أوساط العالم كله..

_زهرة تريد الخروج بجميع المرضى هنا في تظاهر
سلمي لأشهر الشوارع هنا في برلين.. تحدثهم عن
الأمر منذ الصباح بحماس بدا وكأنه هزم فجأة بأسها
السابق.. في البداية سعدت بهذه اللفتة التي بدت منها
مقارنةً بحالتها الأيام السابقة، لكنني أخشى عليها
مغبة أمر كهذا.. صحتها لن تحتمل وأخشى أن تنتكس
حالتها بعد التقدم الطفيف الذي حققناه.

يقولها روبرت بضيق ليهز صهيب رأسه بتفهم وهو
يعده بالحديث معها..

يغادر غرفته ليحاول طلب لقائها لكنه يفاجأ بها واقفة
في حديقة المشفى وسط بقية النزلاء، جسدها الذي
ازداد نحوله كثيراً حتى كادت تبدو كشبح يناقض هذه
القوة التي كانت تتحدث بها وسطهم..

ولم تكذ تلمحه حتى نادته بلهفة ليقرب منها فتهتف
له برجاء:

_ لغتي الألمانية لا تسعفني كثيراً.. أرجوك.. قم
بالترجمة..

_ زهرة.. اهدئي بالله عليك.. تعالي نتحدث وحدنا
أولاً..

_ لن أهدأ.. غزة تحت القصف.. الناس هناك
يموتون.. رجال ونساء وأطفال.. يهدون بيوتهم

فوقهم.. أي ظلمٍ هذا؟! يسرقون أوطانهم ويدفنونهم

فيها!!

يهز رأسه بأسف وهو الآخر يشعر بالأسى مع

المشاهد الحية التي تتناقلها وكالات الأنباء منذ

الأمس..

لتردف وهي ترفع معصمها حيث سوار ابنه الذي

صنعه لها بالشريط القماشي لعلم فلسطين مضفراً

باللؤلؤ :

كنت تطلب مني أن أعيش بالأمل.. لو بقي من عمري

القليل فهذا هو ما أريد العيش لأجله.. من يدري!؟

ربما قضى الله بحكمته أن أمرض كي آتي إلى هنا

فيكون لصوتي قيمة مع كل هؤلاء.. كلمهم يا صهيب..

احك لهم الحكاية.. الحكاية التي يدلسها الإعلام

المضاد ليطمس معالم الحقيقة .. أرجوك .. أرجوك ..
على الأقل يسمعون القضية من الطرف الآخر ..
_ أتفهم شعورك لكن صحتك لن تسعفك فيما تريد ..
_ ولو بقي في صدري نفس واحد .. ليكن لها .
تقولها بحسم فيتردد قليلاً وهو ينقل بصره بينها وبين
غرفة روبرت ..

ليحسم أمره أخيراً فينفذ لها ما أرادت .. يسمعها تتكلم
بحماسة فيترجم لهم :

_ إنها حكاية شعب لم يُقهر .. لم تطمس هويته
الظروف .. شعب يعيش ليعلم الناس كلها معنى
الصمود .. الانتفاضة .. معنى الموت لأجل
الحياة .. أوقفوا مجازر الجيش الاسرائيلي .. أوقفوا قتل
الأطفال والنساء والعزل .

كلماته مع إحساس زهرة الجارف يلهب صدورهم
خاصة مع المشاهد الحية التي تنقلها الشاشات..
ليطور الأمر بسرعة في خلال ساعات..
تظاهرٌ سلمي كبير بدأ بمجموعتهم الصغيرة في
المشفى وانضم له العديد من غيرهم وقد رفعوا
اللافتات المُدِينة بالعدوان الغاشم على المدنيين..
المتظاهرون الذين قادهم صهيب وزهرة يتجمعون في
ميدان كبير ببرلين لينال اجتماعهم شهرة كبيرة بحكم
طبيعة مرضهم..

(لن يهزم أجسادنا السرطان.. ولن تهزم إسرائيل

صمود غزة)

الهاشاج باللغة الألمانية يتصدر منصات التواصل
الاجتماعي لينضم المزيد والمزيد من المتظاهرين
بعدها شغلت القضية الرأي العام تعاطفاً مع
المرضى..

_زهرة.. يكفيك هذا.. الآخرون سيقون هنا.
يقولها صهيب بقلق بعد ساعات وهو يلاحظ تسارع
خفقاتها وشحوب نظراتها فتبتسم ابتسامة واهنة
وهي تنظر للجموع حولها..
نظراتها تتعلق باللافتات البيضاء التي بدت لها
كشموس صغيرة وسط الظلمة..
كلها تحمل اسم فلسطين وتندد بالاحتلال الاسرائيلي..
(أنت بدربك في جهاد.. وأنا بحبك في جهاد)

تتمم بها بخفوت وأناملها تعصر دبلته المعلقة في

عنقها..

تترنح مكانها لتشعر بالأيدي تتلقفها..

تغمض عينيها على صورته بابتسامة تتسع بحجم

القلب الذي أحبه يوماً حبه للحياة نفسها..

هل تسقط!؟

أم تحلق!؟

لا يهم..

"النيلية" لا تزال تمنح قرابينها لنهر العطاء حتى

ولو كان باب الموت ينتظرها لتفتحه و.. تغادر!

=====

_ ألعِ هذا المؤتمر يا إيلان أو أجله على الأقل ..

الوضع محتقن بعدما حدث في غزة.

تقولها يولاند بتوتر وهي تجلس جواره في غرفته

بالمركز الطبي تتابع تداعيات الأمر على شاشة

حاسوبها المحمول، ليرد إيلان بانفعال :

_ على العكس.. هذا هو التوقيت المناسب بالضبط.. لو

تراجعنا الآن فسنثبت ضعف موقفنا.. يجب أن يفهم

الجميع أننا ندافع عن أنفسنا ضد إرهاب الفلسطينيين

الذين يترصدوننا بصواريخ مقاومتهم.. ماذا ينتظرون

منا؟! أن نقف مكتوفي الأيدي وهم ينقضون عهدهم

بالسلام معنا؟! القضاء الدولي سيثبت أحقيتنا بهذه

الأرض محل النزاع.. نحن لا نهاجم.. نحن ندافع عن

حقنا.

_ من تخدع يا رجل؟! الصور تتوالى حية من هناك
على جميع القنوات والمنصات الإعلامية!
تهتف بها باستنكار ليرد بحمية مؤكداً :

_ ندافع عن حقنا ضد الإرهاب.. انتِ لا تعرفين ماذا
يدور في الكواليس.. هم الذين يقطعون سبل السلام
بيننا.

تعقد حاجبها بعدم اقتناع لتقول بتردد وهي تستعيد
شجارها الأخير مع جهاد والذي تركها بعده غاضباً :

_ تظن جهاد سيستمر في الأمر بعدما حدث؟!!

_ لا خيار لديه.. يبدو أنك لا تفهمين هؤلاء الناس

جيداً.. أبناء عروبتة لفظوه لمجرد شبهة في تهمة

وصار مع كل كفاءته المشهود بها مجرد عاطل.. نحن

فقط من نفتح ذراعنا لهؤلاء.. تظنينه جاء إلى هنا

لدعمك فحسب مراعاة لحق صداقتكما القديم؟! هراء!

هو يوقن كغيره أن الغد لنا والمستقبل معنا.

يقولها بيقين لتتشتت نظرتها وهي تشعر بالحيرة..

لا تزال تشعر ان الأرض تحتها رخوة.. خطواتها

مترنحة تفتقد الثبات!!

_ ماذا فعلت مع رفيدة؟!_

تسأله لتغير الموضوع وهي تشعر أن ترياق الحقد

هو ما بقي ليشفيها من سم الوجع.. ليرد مطمئناً:

_ أخبرتني أنها طلبت الطلاق من ريان.. وبعدها

نمضي نحن في اتفاقنا بخصوص عمله هنا.. نلفق له

خطأ نطرده بعده ويبقى وصمة في ملفه.

تبتسم برضا فيقترب منها ليحيط كتفها بقبضتيه قائلاً

بنبرة قوية:

أظنك الآن صرتِ توقنين.. أن مفاتيح اللعبة معنا..
وما فعلته معك ليس سوى نقطة في بحر.. نحن من
نعرف لحن القوة.. بل نحن من نسخر الآذان لتسمعه..
هذا ما اختلفنا عليه أنا وأنتِ في الماضي.. والآن
أظنك صرتِ تؤمنين به معي.. إسرائيل ليست دولة..
إسرائيل كيان نتشرف بالانضمام تحت جناحه القوي.
تزدرد ريقها بتوتر وهي تشعر باختناق لا تملكه.. هي
عاشت عمرها السابق كله ضد الصهيونية رغم كونها
يهودية.. عاشت ترى اسرائيل وحشاً مغتصباً يسيئ
لدينها قبل أي دين آخر.. فكيف الآن يريدونها أن تراها
كياناً تعترف به وتعمل لأجله؟!

كلامه مقنع.. وأفعاله أكثر إقناعاً.. إنما..!!

_ سيدي.. القاعة جاهزة لعقد المؤتمر.. حضر الطاقم

الطبي للمركز كله.

يقولها أحدهم وهو يذلف إلى الداخل.. فتسأله بلهفة :

_ هل حضر دكتور جهاد؟!

_ لا.. هو الوحيد المتغيب.

يقولها الرجل بأسف لتلتفت هي نحو إيلان بنظرة ذات

مغزى لكنه يبتسم بثقة قائلاً :

_ سيحضر.. ثقي بي.. أنا أعرفهم جيداً.

يتحرك ليغادر معها الغرفة نحو القاعة الفخمة حيث

سيعقد المؤتمر..

تدخل معه لتصطدم بعيني ريان الحمر اوين والذي

جلس أول الصف..

هذه المرة لا تختلس نظرة خفية نحوه.. بل تقذفه
بسهام نظراتها..

تقترب ومع هذا تشعر أنه يبتعد.. يصغر.. يصغر..
حتى يصير في عينيها كما صار في قلبها بحجم
الحصاة!

فدوى!

يستوقفها بها هامساً بوهن فضحته كل خلجة من
خلجاته ليردف وهو يميل على أذنها :

أرجوك.. اريد التحدث معك بعد المؤتمر.. أرجوك.

مسكين! طالما لا تزال تناديني "فدوى" .. طالما لا

تزال تظن بيننا حديثاً.. طالما لا تزال تطمع أن تؤثر

في رجاءاتك.. فأنت مسكين حقاً.

تهمس بها بالفرنسية لترفع رأسها بكبرياء ناسب
خطواتها بعدها وهي تعاود السير جوار إيلان لتعتلي
معه منصة كبيرة صممت بشكل فخم وقد وضع على
أحد جانبيها علم اسرائيل وعلى الآخر علم البلد..
يشير إيلان لأحدهم فيبدأ البث المباشر الذي يذاع عبر
قنوات عديدة..

يفتتحه إيلان بحديثه عن ضرورة التعايش السلمي
وتقبل الآخر.. عن فخره بالعقول المتفتحة التي جنحت
للسلم "متعمداً ذكرها بالعربية كما وردت في
القرآن" .. ومعرباً عن أسفه لما يحدث الآن في غزة
لينهيها بقوله :

_اسرائيل ستعيش ترعى السلام وتحفظ حق الجوار..
لكننا لن نتسامح مع الإرهاب الذي ينخر كالسوس في

عصا تقدمنا.. كلنا مستاءون للدماء البريئة التي

تراق.. لكننا لن نقف مكتوفي الأيدي أمام من..

يهاجمون أمننا.

يتلثم في عبارته الأخيرة قليلاً وهو يلوح جهاد الذي

دخل أخيراً من باب القاعة، ليلتفت نحو يولاند

بابتسامة ذات مغزى فتتهد كأنما استسلمت لسلامة

منطقه..

_ هنا خير مثال.. في هذا المركز الطبي الذي ضم

جميع التخصصات ومن جميع الجنسيات بالتعاون مع

مركزنا الاسرائيلي الذي أبدى استعداداه لتقديم

الخدمات لجميع المرضى دون تفرقة بين جنس

وجنس او دين ودين.. مضى عهد العنصرية البغيضة

وحان الأوان لفتح آفاق جديدة نحو رؤية مشتركة
وعالم آمن يتسع للجميع.

يصفق الحضور من الأطباء الذين حملوا جنسيات
مختلفة، ليبدأ أحدهم في التعريف بالطاقم الطبي بينما
يتنحى إيلان ليتقدم نحو جهاد الذي بدا على عهده من
الحيرة..

_ من الجيد أنك ارتديت شالك الفلسطيني فوق
المعطف الأبيض.. ستكون هذه شارة جيدة وبرهاناً
لما كنت أحكي عنه.

يقولها إيلان باستحسان ليهز جهاد رأسه فيردف
الأخير وهو يربت على كتفه:

_ خشيت أن تؤثر أحداث أمس على قرارك.

_وما الجديد؟! ما حدث بالأمس يحدث منذ زمن
طويل.. ولن يتوقف قبل زمن طويل.
_بالضبط.. دع السياسة للسياسة.. لسنا محكومين
سوى بمصالحنا فحسب.. لن أناقشك في عقيدتك كما
لست مستعداً لمناقشة عقيدتي.. لم تخب ظني في
ذكائك يا دكتور جهاد.. تقدم وخذ مكانك الذي
تستحقه.. حان أوان رد الاعتبار.. حان أوان العودة.
_أجل.. حان أوان العودة.
يقولها جهاد بحسم وهو يتحرك ليلحق بدوره في
الموكب الذي يتم التعريف به..
تصطدم عيناه بنظرة ريان الذي رمقه بنظرة غريبة..
كأنه يتهمه بما فعله هو قبله.. فيطرق جهاد برأسه
ليتخذ مكانه..



_دكتور جهاد الريحاني.. طبيب فلسطيني.. حاصل
على دكتوراة في (...) من جامعة (...) بالإضافة ل..
يقولها المسئول وهو يستعرض كفاءات جهاد العديدة
وشهاداته العلمية لينهي حديثه بقوله :

_دكتور جهاد بالذات إضافة كبيرة لهذا المركز..
ودليل على أننا تجاوزنا مرحلة وتخطيناها
لأخرى.. لهذا فضلنا أن يوقع هو بالذات عقد عمله
معنا على الهواء مباشرة في رسالة واضحة
للعالم.. تفضل بالقدوم يا دكتور.

يتقدم جهاد منكس الرأس وأنامله تتحسس ميدالية
حنظلة في جيبه..

يصعد الدرجات القليلة نحو المنصة، يتناول القلم
ليشعر بنظرات الحضور تكاد تخترقه.. ليس

الحاضرون فحسب.. بل كل هذه الكاميرات التي تبث
الحدث باعتبارها من أول واطخم مشاريع التطبيع..
_ حدث عظيم يستوجب التأريخ.. لهذا أريد التحدث
قبل توقيع العقد وأرجو ألا ينقطع البث لأي سبب..
يبتسم إيلان بثقة فيما تشعر يولاند ببعض القلق من
ملاحم جهاد التي تعرفها.. أما ريان فيكاد يقسم على
ما سيفعله جهاد بحكم صداقتهما القديمة..
جهاد الذي رفع ميدالية حنظلة أمام الحضور ليقول
بنبرة قوية :

_ هذا حنظلة.. رمز المقاومة الفلسطينية الذي جعله
صاحبه طفلاً يعطي العالم ظهره.. أما أنا فلن أعطي
العالم ظهري.. أنا سأواجهه.. سأطالب بحق وطني
وعيني في عيون الجميع.

يبدأ إيلان في الشعور بالتوتر مع قراءته للغة جسد
جهاد الذي ضم شاله الفلسطيني على كتفيه مردفاً:
_ لا مجال للعداوة مع اسرائيل.. التعايش هو الحل..
السلام هو الخيار الوحيد الذي يضمن الأمن للجميع..
يرتخي جسد إيلان بارتياح وهو يستمع لكلماته لكن
ما بقي من حديث جهاد كان كصفعة على وجهه:
_ هذا ما يحاولون إقناعنا به.. هذا ما حاولوا جعلنا
نصدقه طوال فترة سابقة ليأتي حادث الأمس ويفضح
ادعاءاتهم.. وصواريخهم تنهمر على رؤوس العزل
والضعفاء من النساء والأطفال تكذب كل ما أرادوا
التشدد به وتكشف اللثام عن وجههم المخادع.
يشير إيلان للرجل كي يوقف البث لكن جهاد يهتف
بجسارة :

هناك كاميرا أخرى تبت مباشرة تابعة لأحد
معارفي.. ليبقَ هذا هو المشهد الأخير الذي يراه
الناس..

يقولها ليرفع العقد فيمزقه هاتفاً بأعلى صوته :
_ لا تطبيع.. ستبقى اسرائيل عدواً نحاربه بكل سبيل..
لسنا إرهابيين بل أصحاب حق.. نحن الشعب الذي
تزرع نساؤه الورد في فوارغ القنابل كي تعلم أبناءها
كيف تنمو الحياة من قلب الموت.. سأبقى ومن مثلي
حنظلة الذي لا يعطي العالم ظهره بل يواجهه بالحقيقة
حتى ينال حقه أو يهلك دونه.

تضج القاعة باللغظ والهتافات متباينة الشدة والرأي،
يندفع الحرس نحو جهاد ليكبلوا حركته باحثين عن
الكاميرا التي تبت المشهد كي يتم إيقافها، تندفع

يولاند نحوه لكن إيلان يجذبها إليه مكبلاً حركتها

بقوله الصارم المشتعل بغيظه :

كان ينبغي ان أعرف أنك غبية وكل أصدقائك أغبياء

مثلك.. أفسدتم الحدث.. لا.. لا.. لم يفسد.. ألف واحد

سيشغلون وظيفته.. ألف واحد سيرضون أن يوقعوا

مكانه.. ألف واحد سيصرخون بعكس ما تفوه به..

كلامه سيُنسى .. سيندثر.. وكلامنا سيحتل الصدارة..

نحن من نحدد من يعلو صوته ليسمعه الناس ومن

يخفت صوته للأبد.

يهز بها جسدها بعنف فترمقه بنظرة مرتعبة وهي

ترى الحرس يسحبون جهاد الثائر إلى خارج

القاعة..

تتملص من بين ذراعي إيلان لتركض خلف جهاد
الذي اندفع خارج المكان..

_ جهاد.. انتظر..

تناديه بها بلهفة وهي تحاول اللحاق به لتدركه
بصعوبة فتسأله من بين أنفاسها اللاهثة:

_ لماذا؟!!

_ تسألين لماذا؟! أنا الذي أسأل لماذا؟! كيف في لحظة
ضعفت؟! كيف سقطت؟! كيف كدت أسقط في الشراك
الذي لم أكن لأقوم منه أبداً؟! كدت أصدق ضلالات
صديقك.. كدت أنسى من أنا ولمن أعيش.. وجاء حدث
الأمس ليصفعني على وجه غفلي.. ليذكرني بمن هو
العدو.. ليعيرني بسقطتي.. أنا جئت هنا لأجلك ظننت

نفسى قويا لأعصمك من الزلزل.. لكنني لن أبقى لأسقط
من جديد معك.. هي معركتك وحدك يا يولاند..
خوضيها والحقي بي أو انسيني مع ما نسيته.
يقولها ثائراً فتشعر أنه حقاً عاد جهاد القديم.. خلع
عنه قناع الحقد الذي لم يكن يليق به لتعود له طبيعته
التي طالما عرفتها.. فهل تسعد بعودته لذاته طامحة
لنفسها بنهاية شبيهة؟! أم تتقم عليه لأنه يتركها
وحدها تتأرجح على حافة حيرتها?!
ترمقه بنظرة مشتتة وهي تراه يبتعد، شيء بداخلها
يكاد يجبرها قسراً أن تلحق به.. أن تدرك معه الطريق
الذي ترى فيه الحق..
لكنها تلمح ريان يغادر المركز بدوره فتشتعل نظراتها
من جديد كأنما تلبسها ألف شيطان!!

لا..!

لن تترك المباراة قبل الشوط الأخير..
ليس قبل أن تشهد النهاية التي ترتضيها.. لتسدل
الستار بعدها للأبد على ما بقي من "فدوى"!

يجوب جهاد الشوارع شاردًا وهو يشعر بالقهر وقد
استنزفت الأحداث الأخيرة ما بقي من طاقته..
لا يريد العودة للفندق الذي يقيم فيه.. لا يريد رؤية
أي أحد ولا أي شيء..
هو عاد لنفسه بعد طول تيه ولن يسمح بالمزيد من
الضلال..

لكن.. أين يذهب؟! لمن يلتجئ!؟!

يرفع وجهه للسماء بدعاء خفي وهو يشعر بالأبواب
كلها مغلقة في وجهه..

يصادف أحد " الكافيات " فيشعر بحاجته للراحة بعد
ساعات لا يذكر عددها من المشي..

_ شاي أخضر.

يطلبها من النادل الذي يرمقه بنظرة طويلة كأنه
تعرف عليه وقد شاع ما فعله عبر القنوات فيشيخ
بوجهه بضيق ليشرد ببصره وهو يستعيد الساعات
السابقة..

يستغفر الله بخشوع ثم يحمده أن عاد لرشده في
الوقت المناسب فلم يدنس نفسه بخيانة!

ورغماً عنه تزوره عيناها الحبيبتان فيتأوه بخفوت
وهو يتشبث بشاله على كتفيه.. زهرته الغادرة!
إذا كانت هي قد وجدت القوة لتنسى حبه فلماذا لم
ينسَ هو؟!!

يتناول هاتفه ليطالع آخر الأخبار فيختلج قلبه بلوعة
وهو يميز مشاهد الدمار في بلاده.. يبتسم ساخراً
بمرارة وهو يقرأ عن تعهد اسرائيل بوقف إطلاق
النار..

منذ متى يوفي هؤلاء بعهد؟!
يتجاوز الأخبار مجبوراً وهو يطالع الشاشة الكبيرة
التي كانت تعرض بعض الأخبار العالمية في المقهى
لتنسَع عيناها بصدمة وهو يميز ملامحها..
هل يتوهم؟!!

هي! هي!

شحبت ملامحها وخف حاجباها وازدادت نحولاً لكن

هل يخطئ مثله مثلها؟!!

ينتفض واقفاً مكانه ليقترّب من الشاشة يريد التأكد

مما يراه ليقراً الخبر..

(تظاهرات سلمية في العديد من الدول تنديداً بما فعلته

قوات الاحتلال، أغربها ما قام به نزلاء أحد المراكز

الطبية لعلاج السرطان في برلين تزعمتهم الفتاة

العربية في الصورة لتسقط بعدها على مشارف

(الموت)

ينقبض قلبه بهلع والحقيقة تصفع رأسه!!!

يرى الشاشة شغلها صورتها وحدها وقد سقطت

على الأرض جوار لافتة بيضاء باسم فلسطين!

تزار روحه بجنون والكاميرا تقترب أكثر من ملامحها

ليميز سلسلة عنقها ب.. "دبلته الملونة"!

_ لا.. لا.. لا..

يصرخ بها هادراً وهو يكاد يحطم الشاشة ليعلو صوت

هاتفه باتصال في هذه اللحظة..

ترتجف أنامله وهو لا يعرف ولا يشعر كيف فتح

الاتصال ليصله الصوت المهيب معرفاً بنفسه :

_ أنا عاصي الرفاعي.

من عاصي الرفاعي!؟!

صدمته تلجم لسانه وهو يشعر أنه لم يعد يعي شيئاً

مما حوله، بل لا يكاد يذكر من عاصي الرفاعي هذا..

_ ابنتي تماثلت للشفاء تماماً.. رأيت أنه يجب أن

أشكرك لأنك نصحتنا بالطبيب المناسب..

لا يزال عاجزاً عن الرد وصورة زهرة الساقطة أرضاً
تحول بين دموعه والرؤية، لكن عاصي يقول أخيراً
بنبرة رجل لا يجيد الاعتذار إلا بطريقة عملية :
_أعرف أن بيننا تاريخاً ليس بجيد.. لكنني أريد أن
أرد لك صنيعك معي.. هناك ما كان يجب أن تعرفه منذ
زمن طويل بشأن الأنسة زهرة.



الطيف الحادي والأربعون

بغداد.. العراق..

تعب استبرق بوابة أشهر المصحات النفسية في بغداد
بخطوات واثقة ظاهرياً.. بينما تشعر أن روحها
داخلها ترتجف!

هاقد نجحت خطتها كاملة..

وهاهو ذا يحيى - بمساعدة السيد (...). - صار نزيلاً
بالمصحة بعدما أجري الكشف عليه ليكتب الأطباء
تقاريرهم بشأنه مفيدة بأن "قواه العقلية مختلة!"

هاهي ذي تمضي في قضية الحجر عليه بخطى
مضمونة بعد تزويرها تحليل DNA الخاص به
وبسراب..

وهاهي ذي سراب نفسها قد سافرت مع زوجها
(عدي) إلى كندا بعدما أقنعت هي الأخير أن يفعل
بسرعة إنقاذاً لزوجاه منها..

وهاهي ذي شجون تبدو أكثر من شاكرة لها بعدما
يبدو لها من مساعدتها لابنتها..

حتى إلياس - على جفوته المستحدثة لها يبدو وكأنه
صدقها واستسلم لصدمة في يحيى.. صحيح أنها لا
تزال تخشاه لكنها ستحرص أن تختفي عثرته من
طريقها قريباً لتكون مؤسسة الأمين كلها في يدها
هي..

من بقي ليحيى كي يدعمه؟!!

كلهم تركوه.. والآن دورها لتستغل الفرصة
وتستعيده..

أجل.. لن تسمح أن تخسره أبداً!

تتوقف خطواتها أمام غرفته التي تزوره فيها لأول
مرة فينقبض قلبها لأول وهلة وهي تشعر بوهن
أمومي فطري تقتله في مهده وهي ترى طبيبه
يقترب..

ترمقه بنظرة ذات مغزى فيهمس بخفوت :

_ لا تقلقي.. كل شيء على ما يرام.. صار أهدأ.. لم يعد

يثور كالسابق.. يبدو وكأنه تقبل الأمر.

تهز رأسها راضية فيردف بتردد :

_ تريدين زيارته؟!!

_ولماذا تظني جئت إذن؟!

تكاد تهتف بها بحدة لكنها تكتمها بين شفيتها وهي
تجد قدميها رغماً عنها تخوناتها بخطوة للخلف..
لا.. لن تستطيع الولوج للداخل.. لن تقوى على
مواجهته وحدهما..

لن تقدر!

تهز رأسها نفيًا للحظات فيسبل جفنيه متفهماً لكنها
تفاجئه وهي تدخل غرفة يحيى بغتة دون استئذان
كأنها تقطع على نفسها طريق التراجع بعدما كرهت
في نفسها هذا الضعف.

ترى يحيى واقفاً أمام نافذة غرفته يناظر الباب

بلهفة..

لهفة انطفأت وهو يميز ملامحها هي..!

يعطيها ظهره من جديد ليراقب عصفوراً صغيراً حطَّ
على سياج النافذة، يلاعبه بإصبعه بخفة فلا ينفر
العصفور بل يقترب ليمد منقاره نحو راحة يحيى التي
حوت كسرة خبز..

فيختلج قلبها بعمق عاطفتها وهي تراه الآن كما كان
منذ سنوات..

طفلها الذي يحب العصافير حبه للحرية.. للسماء..
للبحر.. لكل ما لا يعترف بحدود سجن!
هذا الذي كبر الآن.. فكم صار يكرهها وقد صارت
مرادفاً لأقسى سجونه؟!

كرهت رؤيتي؟! انطفأت لهفتك؟! كنت تظنني هي؟!
نبرتها القوية ترتعش رغماً عنها لكنه لا يحرك ساكناً
وهو يعاود ملاعبه عصفوره فتقترب أكثر لتشد كتفه

نحوها وهي تستخرج من حقيبتها ورقة فضتها أمامه

مردفة :

_ لا تنتظرها لأنها لن تعود.. هي طلقت نفسها منك

بحكم العقد الذي كان بينكما بعد قرار المحكمة

بإيداعك هنا.

_ كذب! كذب! طيف لا تفعلها أبداً ولو وضعوا السكين

على رقبتها!

الإنكار في عينيه ينقلب لصدمة وهو ينتزع منها

الورقة لتجري عيناه بسرعة على سطورها قبل أن

يغمضهما بقوة والخذلان يرسم سطوره على جبينه..

فتهزه بين ذراعيها قائلة :

_ تلك المرأة لا تحبك.. أنا علمت أنها بحثت عن أم

مجد حتى وجدتها.. منحتها الكثير من المال لتتنازل

لكما عن حضانة الصغيرة ونجحت في إتمام إجراءات
تبنيها بصورة رسمية.. ثم عادت بها إلى بلدها لترسل
لي صورة من وثيقة الطلاق بعدها.

لا يزال يهز رأسه بالمزيد من الاستنكار فتتناول
هاتفها لترى الصور..

تتسع عيناه بالمزيد من الذهول وهو يرى الصور
لمجد مع طيف في المطار.. ثم صورهما معاً أمام بيت
عاصي في الصعيد..

ما يدريني أن هذه الصور حقيقية؟! أنك لم تزورها
كما زورت كل شيء؟!!

يهتف بها بانفعال والهاتف يكاد يسقط من بين أنامله
المرتجفة لترد بعينين متوهجتين:

_ (الفلانجو عاد يقف على قدم واحدة ولم يعد في حاجتك.. خدعتني مرة واليوم جاء دوري لأرد لك صنيعك).. هذه رسالتها التي بعثتها إليك مع الوثيقة.. لا أفهمها لكنني أظنك تفعل! هل أزور هذا أيضاً؟! يهز رأسه بصدمة وهو يتفقت من بين قبضتيها ليجلس على طرف فراشه.. فتراقب انهياره الصامت بلوعة حقيقية لتجلس جواره.. تربت على ركبته قائلة :

_ أفهم كيف تشعر الآن.. طيف عادت لبلدها.. سراب هاجرت مع زوجها.. إلياس اضطر لتقبل الأمر وعاد لينهمك في عمله.. كلهم خذوك..

يرفع إليها عينين غاضبتين مشتعلتين بثورة وشيكة
وهو يكاد يحطم أسنانه من فرط انفعاله لكنها تردف
بنبرتها القوية :

_ وحدي أنا من بقيت لك.. أمك التي لن تتخلى عنك
أبداً.

ضحكة ساخرة مكتومة تبدأ قصيرة لتطول بعدها
بمرارة لطخت وجهه كله وهو يدور ببصره في
المكان حوله كأنه يذكرها بفعلتها..

ضحكة طعنتها في صدر أمومتها وهي تعاود ضم
كتفيه بقبضتها مردفة بانفعال :

_ أنت من اضطرتتني لفعل هذا.. كان هو الحل الوحيد
أمامي.. لكن لا يزال كل هذا قابلاً للإصلاح.

تضيّق عيناه بتساؤل فتأخذ نفساً عميقاً لتلقي أوراقها

كاملة :

_دع الماضي وشأنه.. وعد لي ابني.. ابني فحسب..

ساعتها أفتح لك أبواب الدنيا كلها.. تعود لمؤسسة

الأمين لتكون رئيسها.. تعود لبيت الأمين وأزواجك

خير نساء البلد.. تعود لحياتك الرغدة القديمة وأكثر!

_ولو رفضت!؟

يقولها بعينين داكنتين ليشد ضغط قبضتها على

كتفيه كجمرتين من نار اللحظات ثم تشيح بوجهها

بجوابها :

_لا يرفض كل هذا إلا مجنون.. والمجنون مكانه حيث

أنت الآن!

يخفق قلبها بجنون وهي ترى أنامله تمتد لسلسلة
عنقها باسمه ببطء..

ببطء شديد كأنه يذكرها بفطرة دفتها تحت رماد
الطمع.. فتبسط أناملها هي فوقها هاتفة برجاء
انصهر مع شهقاتها الباكية :

_ عد لي يا يحيى.. دع الماضي يموت مع من ماتوا..
والغد كله سيكون لي ولك.

_ مستحيل.

يقولها بحسم رافض فتتهض واقفة لتهتف بغضب:
_ إذن اقض ما بقي من عمرك هنا أسير الجدران
بعدها تخلق الجميع عنك.

يظهر بعض التردد على ملامحه لكنه يشيح بوجهه
فترفعه من كتفيه إليها مردفة :

_ستوافق يا يحيى.. ربما ليس هذه المرة.. لكنني
سأزورك كثيراً.. وفي واحدة من زياراتي ستخبرني
بموافقتك.. ستدرك أنني أكثر من يهمله مصلحتك في
الدنيا كلها.. أنا من أدخلتك هنا وأنا وحدي القادرة
على إخراجك.. فكر جيداً فلم يخذلني ذكاؤك يوماً.
يرمقها بنظرة طويلة يجتاحها غضب هادر تكاد
تقتلعها من مكانها لكنها تتحول لأخرى عاتبة ثم
منكسرة ذابلة ثم يطرق ببصره دون رد فتطلق زفرة
قصيرة ومشهد (أربعة مقابر) يحول بين عين
أمومتها وبينه..

قبر أبيها.. الأمين الكبير.. الأمين الصغير.. وغيث..
المشهد الذي يضعها دوماً في خانة واحدة لا تقبل
التغيير حتى لو دفعت أمومتها في المقابل!

تقبل رأسه بعناق لم يقبله ولم يرفضه.. كأنما استسلم
بكل ما فيه..

عندما يجتاح طوفان الخذلان فلا عاصم للقلوب من
الغرق!

تتحرك لتغادر الغرفة وتغلق بابها خلفها فيسير
بخطوات متثاقلة نحو النافذة من جديد..

يراقب بعض نزلاء المصحة عبر النافذة الألم..

هل هو عقابك يا يحيى؟! هل هو جزاؤك من جنس

عملك كما خدعت الكثيرات متباهياً بذكاء عقلك أن

يأتي اليوم الذي تُلقى فيه هنا.. هنا بالذات!؟!

يخاطب نفسه بها بمزيج من ندم وأسف قبل أن ينحني

ليلتقط وثيقة طلاقه من طيف وعيناه تلتمعان بنظرة

غامضة..

فيما تغادر استبرق المصحة لتستقل سيارتها مخفية

فيض دموعها..

تتحرك بها نحو موعدها مع السيد (...) الذي نفذ

نصيبه من الاتفاق وحن وقت تنفيذها هي..

غافلة عن تلك السيارة التي تراقبها والتي بدا من

نظرات صاحبها أنه لن يفلتها أبداً.

=====

برتقالي

=====

_ لن تأكلي اليوم أيضاً؟!!

تخاطب بها طيف مجد التي تهز رأسها وقد امتلأ

وجهها بالدموع فتطلق طيف زفرة حارقة وهي تتلفت

حولها حيث حديقة قصر عاصي الرفاعي..



تتحني على ركبتيها أمام الصغيرة لتهتف بعتاب:

_ألن تخبريني بما يضايقك إلى هذا الحد؟!

تهز مجد رأسها نفيًا بإصرار بين دموعها فتضمها

طيف لصدرها، تداعب شعرها بأناملها مردفة:

_بيننا أسرار؟! هل هناك خبايا بين الأم وابنتها؟!

هنا تنهار الصغيرة في البكاء لتهتف بقهر:

_أنا رأيت أمي.. رأيت وسمعت..

تشحب ملامح طيف للحظات وهي تستعيد لقاءها بتلك

المرأة في بغداد في بيت إلياس..

لتردف مجد بنفس النبرة:

_أعرف أنك أمرتني يوماً بالآأفتح باب غرفتي..

لكنني شعرت بالفضول.. رأيتها ورأيت كم تشبهني..

سمعتها وهي تقول أنها أمي.. فرحت وأنا أشكر الله

انها عادت.. كدت أندفع نحوها لكنني سمعتها تهتف

أنها لا تريدني.. رأيتك وأنت تدفعين لها المال.. هل

هذا هو ثمني؟! هل باعتي؟! أمي باعتي?!!

تدمع عينا طيف بتأثر وهي تضم الصغيرة إليها بقوة

للحظات تحتوي انهيارها الذي لا يناسب سنها..

قبل أن تحيط وجهها بكفيها لتغرس نظراتها القوية

في عينيها هاتفة بقوة :

لن أكذب ولن أجمل الحقائق.. لن أخدعك لأنك أذكى

من هذا.. الظروف تضعنا في بعض المواقف لا لعيبٍ

فيها إنما لأنه قدرنا الذي سنقبله راضين.. كنت مثلك

يوماً.. أبي أيضاً رماني.. على الأقل أمك طلبت المال..

هو باعني دون ثمن..

تتسع عينا مجد بانفعال وكفاها الصغيران يتشبثان
بطيف في تعاطف، لتردف الأخيرة وهي تتشبث بها
أكثر :

_ أنت ابنتي أنا ويحيى.. لا تصدقي إلا هذا.. نحن لن
نتخلى عنك أبداً.. أبداً.

_ وأين هو بابا؟!!

_ سيعود.. سيعود..

تقولها طيف بحسم وهي تربت على رأس مجد..

لتردف بنبرة أقوى:

_ قولها واشعري بها.. (أنا دوماً أقوى من الظروف..

أنا النجمة التي رسمت سماءها واختارت لجوارها

(القمر) .. هيا.. قولها..

تبتسم مجد وسط دموعها التي تمسحها بنفسها هذه
المرّة وهي تعيد العبارة خلف طيف التي تتهد بحرارة
وهي تضمها لصدرها بقوة..

تكاد تنطق بجملة أخرى لكن الصوت حولها يرجفها
رغم علمها..

_ عاد السيد عاصي.

تبتسم بعاطفة حقيقية وهي تقف مكانها تراقب الخدم
وهم يفتحون بوابة القصر..

تدمع عيناها وهي تراه يترجل من السيارة حاملاً
ابنته..

(شمسه)!

لم تشعر بنفسها كيف ركضت إليه.. أحد ذراعيها
يأنس فوق كتفه يضمه إليها والآخر يضم الصغيرة..
تخفي وجهها في كتفه وقد عدت كلماتها كالعادة..

لكنه سمع!

_ شمسي عادت.

لم تتعجب كلمتيه بقدر ما تعجبت هذه النبوة التي

نطقها بها!

نبوة سجين أطلق سراحه لتوه!

هكذا كان يشعر بالضبط وهو يعود بابنته لبيته!

كأنه تلقى أخيراً دلالة قبول توبته!

_ افتقدتك.

_ عمته طيف الحلوة.

الأولى بصوت ضياء والثانية بصوت نور تصدح
حولها فتضحك باشتياق حقيقي وهي تضمهما إليها
قبل أن يصلها صوت ماسة بعد ترحيب دافئ :
_يا إلهي.. أشعر أنني تركت القصر منذ سنوات.
تهم طيف بالرد لولا أن يصدح هاتفها برقم حسناء
فتبتعد لترد علي الاتصال..

فيما يهمس عاصي مخاطباً ابنته كأنها تسمعه :
_ترين البيت؟! تعجبك الحديقة؟! هذه النافورة بشكل
الماسة في وسطها.. يوماً ما سأحكي لك قصتها.
تبتسم ماسة بحنان وهي ترى الصغيرة تفتح عينيها
على اتساعهما كأنما حقاً تفهمه..

تضحك وهي تميز لونهما الفريد في ضوء الشمس
هاتفة :

ها قد قدمنا للدنيا المزيد من "غابات الزيتون"!
يضحك ضحكة قصيرة تأسرها كعادتها وهي تراقب
صغيريها ينخرطان باللعب مع مجد..
بينما تسمعه يهمس بارتياح لم تسمعه منه يوماً :
أريد أن أطوف بها القصر كله.. أريها كل قطعة فيه..
وأريه إياها.. لعله يشهد معي البداية بعد النهاية.
تبتسم وهي تطوق ذراعه بذراعيها هامسة بفرحة
طاغية :

أما أنا فأريد أن أصنع طائرة ورقية.. أعدو خلفها
على سطح القصر وأنسى كل القلق الذي عشناه.
يقبل جبينها بعمق وهو يهمس أمام ماسيتها
الفضيتين:

_دعها عند الشروق.. حيث يليق بقصتنا دوماً أن
تستمر.

_سأضطر للسفر لألمانيا..

تقولها طيف بعد عودتها دامعة العينين ليهز عاصي

رأسه بتفهم فيما تهتف ماسة بقلق حان:

_زهرة! ليتني أستطيع السفر معك.. لن أقدر مع

ظروف شمس.

_لا بأس.. لن أحتمل صحبة حسناء الثرثارة وماسة

العاطفية في رحلة واحدة.. تكفيني إحداكما.

تقولها طيف ملوحةً بكفها بفظاظتها المعهودة ليهتف

ضياء وهو ينتزع منها هاتفها قائلاً بنبرته الآمرة

شبيهة أبيه:

_هذه المناسبة تستحق صورة لنا كلنا..

_ ذراعك قصير.. سألتقطها انا.

تقولها طيف وهي تضبط الهاتف لتلتقط صورة

للجميع في وضع "السيلفي" الشهير..

تشعر بغصة في حلقها وهي تتجاهل قلقها على يحيى

في هذه اللحظة.. لكن عاصي يبدو وكأنه يفهم ما

يدور في خلدتها ليميل على أذنها هامساً بحنانه

المهيب :

_ خطتنا تسير على ما يرام.. لا تقلقي.. أعدك أن يكون

زوجك معنا في الصورة القادمة.

=====

نيلي

=====

هل رحمتها الغيبوبة أخيراً من شدة الألم؟!!

تسمع أصوات حولها لا تميزها.. تخشى أن تفتح

عينها فيعود الألم..

لتبقى كما هي.. لم يعد بها طاقة للمزيد!

_زهرة.. تسمعيني؟!

أبوها؟!!

هو صوت أبيها!!

خوفها العتيد منه يجبرها أن تفتح عينها رغماً عنها

لتغمرها الدهشة..

أبوها يجلس دامعاً على طرف فراشها!

ليس أباهاً فحسب ها هنا.. بل أمها على طرف الفراش

الآخر تخفي نصف وجهها الباكي في طرف

وشاحها..

طيف؟! أنت أيضاً؟! ترمقها بنظرها المميزة بين
فضاظة وعاطفة وهي تعقد ساعديها مستندة على
الجدار الأبيض القريب..

حسناً؟! هاهي ذي جوارها تبتسم لها وسط دموعها
بطبيعتها المزروجة كالعادة!

وهو!!

جهاد!!

هو هناك.. بعيداً.. يستند على الباب المغلق كأنه

يخشى أن يتركه فتغادره!

شاله الفلسطيني الحبيب على كتفيه وقميصه الأبيض

بلونه يشبه عالماً ودت لو تعيشه معه!

عيناه - حبيبتاها - ضائعتان بين زرقة لونهما وحمرة

تخفي اختناق دموعه!

شفتاه مزمومتان بهذه الطريقة التي تحفظها عندما
يكتم غضبه فتتجد ذقنه لتود تقبيلها كما كل مرة كي
تسترضيه فيخنق قبلتها الخجل المتحفظ كالعادة لتبقى

مجرد حلم على أهدابها المتراقصة!

حلم.. كهذا الحلم الذي تعيشه الآن!

لن يجتمع كل هؤلاء إلا في حلم!

أو.. لعلها ماتت.. وهي الجنة!!

_ حذرتك من المجهود المضاعف.. كنا قد وصلنا

لمرحلة جيدة في العلاج.

صوت البروفيسور روبرت العاتب ينفي كونه حلماً
فتلقت نحوه بحدة لتلمح صهيب جواره يقول بدعمه

المعهود لها :

_ لا بأس.. لقد أعدنا السيطرة على الحالة.

_ لا يزال الطريق طويلاً.

_ بصحبة الأحبة يقصر.

يقولها صهيب بنبرته العاطفية الداعمة فتلتفت زهرة

بعينيها عفويًا نحو طيف جهاد..

لا يزال واقفًا مكانه كالصنم يخفي كفيه خلف ظهره

لكن عينيه تتوهجان مع كلمات صهيب بنيران لافحة

من غيرة!

تتوهم!

تغمض عينيه من جديد بقوة وهي تشعر بوخز الألم

يعود لجسدها..

لن تفتحهما من جديد..

ربما هو حلم جميل لكنها ملت قسوة الأحلام عندما

تتبعها صفعات الواقع!

_ افتحي عينيك يا ابنتي.. أرجوك..

صوت أبيها من جديد يجبرها أن تفتحهما ليس خوفاً
هذه المرة..

إنما دهشة من هذا الندم الذي يخنق حروفه الباكية :

_ ابقِ معنا.. ابقِ وعيشي حياتك ولو بعيداً عني..
ولو ظلت تلعينني عمرك كله.. عرفت خطئي.. لم يكن
خطئاً بل جرماً.. لا تسامحيني.. بل تبرئي من اسمي
لو استطعت.. لكن لا ترحلي هكذا وتقتليني بذنبك.

يبكي؟!

أبوها يبكي؟!

إنها المرة الأولى التي تراه في وضع كهذا؟!
ينحني ليعانقها فتتفر عفوياً من رائحة طالما حملت
لها القسوة مع الجحود لكنها الآن تشم عبرها زخات

من ندمه الصادق.. فتأخذ نفساً عميقاً كأنما تود

التشبع منها..

لن تبالي لو كان كل هذا مجرد حلم.. تكفيها هذه

السعادة المحلقة بين ضلوعها..

تعانقها أمها بدورها فتبلل دموعها وجنتيها مع

كلماتها :

_فداك روعي وعمرى كله! كيف احتملتِ كل هذا

وحدك؟! سامحيني.. ظننت أنني أحميكِ بهروبي من

حياتك وأزِيل عن ظهرك حملي.. لم أكن أعرف أنني

أتركك وحدك في عز احتياجك إليّ.. طالما كنتِ

معطاءة طيبة القلب يا ابنتي فلا تعاقبينا الآن

بالحرمان منك.

دموعها تملأ عينيها فلا تدري هل هي دموع حزن أو
فرحة!

الألم لا يزال يخز جسدها لكن تربيت العوض أقوى!
_ ترى أبي يا جهاد؟! عاد نادماً مستغفراً.. عاد ومعه
أمي.. تراهما مثلي؟! حتى ولو تكن ترى سأكتبها لك
في أوراقى.. ستعيش معي كما كنا دوماً..

تشرذ بها عيناها تخاطبه سراً عبر طيفه المتجمد
الذي لا يزال واقفاً مستنداً على باب الغرفة..
تراه هو وحده الحلم؟! وما حولها فقط هي الحقيقة؟!
تشهق فجأة بدهشة وهي تنتبه لتوها لما ترتديه فتمتد
أناملها تتحسسها!!

فستان الزفاف الأبيض المطعم بالفيروز!
هذا الذي أتت به هنا!

من ألبسها إياه؟!

حلم! هو الآخر حلم!!

أنا فعلت! أنا ألبستك إياه! تذكرون عندما اشتريناه
معاً؟! أنا من اخترته لك؟! أردت أن يراك جهاد فيه
أول ما يصل.

تقولها حسناء عبر دموعها المنهمة لتتسع عينا
زهرة بذهول..

ليس حلماً!!

تتحامل على نفسها بشق الأنفس لتجد أخيراً بعض
الرمق فتلتصق نظراتها بالصنم الجامد على الباب
هامسة بشحوب:

عرف الحقيقة؟!

_بالطبع عرف يا "أذكى إخوتك"! كالعادة تبهريني
بعبقريتك! تتخفين من الرجل وتهربين منه سرّاً ثم
تنظمين تظاهراً سلمياً تصوره القنوات المحلية
والعالمية وتذيعه شاشات العالم! ليس هو فقط من
عرف.. قريباً نراك مع (منى الشاذلي) ويطبعون
صورك على بسكويات الأطفال وفوانيس رمضان مثل
(المفتش كرومبو) و (محمد صلاح)
كانت هذه طيف بفضاظتها الساخرة المعهودة والتي
جعلت زهرة تتيقن أكثر أنه ليس حلاً..

هم حقاً هنا؟!!!

_جهاد!

تهمس بها برهبة لكنه يبقى مكانه جامداً للحظات قبل
أن تشعر بجسده كله ينتفض وهو يبدو كأنما يجاهد
نفسه كي لا يقترب..

فقط يظهر كفيه أخيراً لتتسع عيناها وهي تميز
أوراقها التي كانت تكتبها له..

قرأها؟!!!

سبابته المرتجفة تحوم حولها وعيناها تمطرانها سيلاً
راعداً من عتاب وعشق..

تعاود إغماض عينيها هاربة وهي تشعر بمزيج من
الخزي والذنب..

هل رآها هكذا وقد سقط شعر حاجبيها وتحولت لما
يشبه المومياء؟!!

هل عرف أنها لا تزال تحارب في معركة لا تعرف

نتائجها؟!!

هل تغير في أمرهما شيء؟!!

لا!

لن ترضى بالمزيد من القرب.. فليرحل!

_دكتور جهاد طلب خطبتك مني وأنا وافقت.

يقولها أبوها بنبرته النادمة المستحدثة لترتسم على

شفتيها ابتسامة بائسة ساخرة.. كأن هذه هي

المشكلة!!!

المزيد من وخز الألم يعاود قصف جسدها فتود لو

يختفي كل هذا..

لو تدفن وجهها في وسادتها كما اعتادت لتبتلع

تأوهاتنا وحدها..

فلتخبرهم أن يرحلوا.. أن يتركوها دون المزيد من

الوجع..

لكن حتى هذه لم تعد تقوى عليها!

فقط لو يسمعها هو..

لو يمنحها الفرصة لتشرح له..

لو تمحو هذه النظرة العاتبة في عينيه والتي تذبحها

بخنجر تلم!

_جهد.

تهمس بها وهي تفتح عينيها أخيراً بصوت شقه

الألم، يتنازعها المزيد من الرجاء فتراه يتحرك..

أخيراً يقترب..

يقترب..

كأنه يطوي بكل خطوة عدة صفحات من كتاب الألم

الذي أجبرتهما الظروف أن يخطأ سطورهُ!

_ اسمعني..

تهمس بها بضراعة من تفهم طباعه.. تستعيد عبارته

التي قالها لحسناء قبل رحيله..

(أخبريها أنني لن أنتظر عودتها نادمة.. بل لن أنتظر

عودتها أبداً)

تتذكر كذلك مقولته ذاك اليوم :

(لن أسامحك أبداً لو أخفيت عني شيئاً بعد الآن.. أنتِ

صرتِ مني.. غصن لا يتمرد على جذعه.. وجذعٌ لا

يتخلى عن غصنه.. هكذا نحن.. كنا وسنبقى يا

نيلية!)

تكاد تقرأها الآن على شفثيه المرتعدتين برجفة غضب

هي خير من تدركها.. فلا تتعجب همسه الصارم :

لا.

تسبل جفنيها بتفهم وهي تراه يردف بنفس الغضب

المكتوم :

لن أسمع كلمة واحدة قبل العقد.

تهز رأسها جاهلة عما يقصد لكن الحسم العاتب في

عينيه يمنحها الجواب.. ويمنعها الرفض..!

زغرودة عالية تطلقها حسناء مدوية فينتفض لها

جسدها بوهن،

تهز رأسها رفضاً وهي تشعر أنها تعود بهما لنقطة

البداية..

فتتبعث زغرودة أخرى من أمها تتبعها أخرى

وأخرى..

لا تزال تهز رأسها رفضاً لكن طيف تميل على أذنها

هامسة :

_ لا تحاولي الرفض فالرجل "على آخره"! أنا نفسي

شعرت بالشفقة عليه طوال الأيام السابقة..أخي

عاصي أخبره بالحقيقة كلها فلا داعي لمزيد من

الكذب.. بعدها هو طلب مني أن أبحث عن والدك

وأتي بهما.. كنت مترددة لكن شعوري بندم والدك

جعلني أحسم الأمر.. قولي "نعم" أو لا تقوليها فهو

لن يسمح لك بالرفض على أي حال.. اختصري الوقت

فلحظات كهذه يبخل بها العمر كثيراً.

تقولها طيف وهي تتذكر (مأساتها الخاصة) الآن
فتشيع بوجهها وهي تعتدل واقفة..
لتعود عينا زهرة فتتعلق بعيني عاشقها ومعشوقها..
تسمع المزيد من الزغاريد فتسبل جفنيها باستسلام
تمنحهم الموافقة.

أويها لبستك الأبيض طيه على طيه
أويها طيه فرنجية و طيه عربية
أويها اطلعت من الدار وقلت يا خيي ويا بيبي
أويها وأنا العروس ديروا بالكوا عليا..
اويها يا وجه القمر
اويها والغايب من أهلك حضر
أويها وما غايب الا الشيطان

اويها وما حضر الا غالي القدر.

(المهااة الفلسطينية) بأصوات زملائها من النزلاء

يرددونها خلف حناء ويترجمها صهيب مع

تصفيقهم الحار..

تدوي في أذنيها وتعزف بروحها لحناً قديماً ظنته مات

للأبد..

وخز الألم في جسدها يتراجع كثيراً أمام هذه الزغاريد

التي لا تسمعها منهم بل تطلقها روحها قبلهم..

تبتسم رغماً عنها وسط دموعها وهي تراهم جميعاً قد

تحلقوا حول فراشها بعد العقد يغنون بحماسة..

قلبها يختلج بهذه المشاعر الصادقة التي حملتها

عيونهم في هذه اللحظة..

تلتفت نحوه لكنه بقي مغمضاً عينيه موصداً صدره
على فيض مشاعره..

كأنه يخشى أن يفتحهما فينطلق الطوفان دون رادع!
_يكفي هذا.. دعوها وحدهما.. لا بد أن لديهما الكثير
ليقال.

تقولها طيف بفظاظتها الفطرية وهي تصفق بكفيها
لتصرف الحضور..

تقبل الأم رأس ابنتها وكذلك يفعل أبوها قبل أن يغادرا
الغرفة فيما

تسبل حسناء جفنيها بهيام وهي تطالعهما رافضة
الانصراف لكن طيف تجذبها من كم قميصها، فتهمس
لها بخفوت راجية:

_دعيني أقرصها في ركبتها..

ثم تنتهد بحرارة مردفة :

_ رأيت كيف ينظر إليها؟!_

_ (شباب بقا ما احنا كنا شباب)

تهمس بها طيف بتهكم وهي مستمرة في سحب

حسناء نحو الخارج لتغلق الباب خلفهما..

ولم تكذ زهرة تشعر بانفرادهما حتى شعرت أن الدماء

كلها تجمعت في وجنتيها..

ترفع عينيها إليه بنظرة مترقبة لكنه لم يمهلها

الفرصة وهو يغمرها بين ذراعيه..!!

عناق؟!_

لا لم يكن عناقاً.. بل كان يغرسها بين ضلوعه كأنه

يستجديها بعد الوطن وطناً!

كأنه يمنحها "كل ما بقي منه" طامعاً في "كل ما بقي

منها" ليكونا معاً كل ما بقي من هذا العالم!!

قبلات!؟

لا لم تكن هباته الحارة على وجهها مجرد قبلات.. بل

كانت دفء شمس افتقدته كهوفهما الباردة.. وعسلاً

رائقاً سال دافقاً على شفاه تشقت بالمُرّ.. بل ركناً

حصيناً أوى إليه كلاهما بعد طول عري وبرد

وخوف.. وربما هوية! هوية جديدة صادقة منحها

كلاهما لصاحبه يحميه بها من هول الشتات!

عتاب!؟

ظنته سيحمله لها تقليدياً هادراً.. لكنه منحها لها

متفرداً في خيط من الدموع شق نهره بين وجنتيهما

المتلاصقتين مع همسه :

_ كيف أسامحك؟! وكيف أقسو عليك؟! آه... ماذا فعلتِ

بنا؟!!

_ لأجلك.. والله ما فعلتها إلا لأجلك! خفت عليك عذابك

معي.

_ عذابي دونك كان أشق! ضعت مني فضعت من

نفسي.

_ ظننتك تستحق الأفضل.. لا مجرد امرأة تنتظر

النهاية.

_ ياغبية! أنت البداية والنهاية.

يهدر بها عاصفاً وهو يعانق وجهها بكفيه مردفاً

بانفعال عاشق:

_ هل عهدتني جباناً يخشي المعارك؟! أنتِ أخذتِ

قرارك وحدك.. انتزعتِ سلاحِي ورميتني خارج

الساحة ووقفت وحدك تقاتلين! هل كان هذا عهدنا؟!
هل كان ظنك في؟! أنا فقدت إيماني بالدنيا كلها يوم
ظننتني فقدت إيماني بك.. كلانا وحده مجرد رقم في
تعداد الحياة.. لكن كلينا معاً نساوي كل الحياة.

_وأهديك جرح فقد آخر؟!

تهمس بها بين دموعها بقهر فيخفي رأسها بين
ضلوعه هاتفاً :

_كل لحظة معك كنز أسرقه من عالم بخيل.. حتى لو
رحلت كما تزعمين.. كفاني تكونين معركتي الفاصلة
التي أخوضها بكل قوتي حتى لو مت آخرها.. سلاحي
الذي يمنحني شرفي حتى لو كسر في يدي.. غصن
الزيتون الأخير الذي أزرعه حتى وأنا أوقن أنه لن
ينبت في أرضي.. يكفيني منك القرب.. تكفيني معك

الحرب.. تغني معك المقاومة.. الانتفاضة.. تعرفين

معنى كل هذا لرجل مثلي!؟!

_أسفة.

تقبل بها رأسه فيهتف وهو يغرس نظراته في

عينها :

_ليس هذا هو الاعتذار الذي أريده.. "أسفة" هذه

سأسمعها منك ألف مرة إنما في حرب.. حرب

سنخوضها معاً متشابكي الكفين.. تخرجين منها وقد

هزمتِ مرضك وأخرج منها منتصراً بك.. هذا فقط هو

الاعتذار الذي سيرضيني يا "نيلية"!

_آه!! آه لو تعرف كم افتقدت سماعها منك!

تقولها بين شهقات بكائها ولفظته الأخيرة تعيدها

لعمر بأسره افتقدته معه..

فيمسح دموعها بأنامل مرتجفة ليقبل وجنتيها

هامساً :

_وأنا افتقدت منك الكثير لا أظن العمر كله يكفيني

لأحكي لك عنه.

_حنظلة! عدت تظهره!

تقولها وهي تتبته لميداليته التي عادت تبرز من جيب

سرواله كعهده القديم، ليرد بتهدئة حارة وهو يعيد

رأسها لصدره :

_ومن أنا دونك ودونه!؟!

تبتسم له ابتسامة بحجم الدنيا كلها وهي تراه يفك

سلسلة عنقها ينتزع منها دبلته ليلبسها إياها، يقبل

أصابعها واحداً واحداً فتهمس له بحروف تقطر

عشقا :



_ أنت بدربك في جهاد.. وأنا بحبك في جهاد.

_ وجهاد كله لك.

يبتسم بها أخيراً لتلين نظراته العاتبة.. أنامله تطوف

فوق ملامحها كأنه يرسمها في صورتها الجديدة..

تهبط لعنقها.. كتفيها.. ليهمس بشرود :

_ تذكرين متى اشترينا هذا الثوب؟!!

_ أشياء كهذه لا تنسى.

_ تعرفين معنى أن يضع رجل مثلي شاله الذي يقدهه

على كتفي امرأة ترتدي له الأبيض.. له وحده؟!!

تدمع وهي تتذكرها بصوته كذاك اليوم خاصة وهو

يقرن قوله بفعله، فتضم الشال فوق كتفيها وهي تقبل

كفه بحب..

ستشفين يا زهرة.. حسن ظني برب العالمين أنه لن
يجمع عليّ غربة وطنين.. ستكونين أول وطن يعود
لي.. وعساني أعيش حتى أشهد عودة الثاني.
يقولها وهو يعاود ضمها إليه بقوة كأنه يتشبث بها
فترفع عينيها الدامعتين لأعلى بدعاء خاشع.. ولأول
مرة تتمني أن تشفى لأجله هو.. لأجل ألا تمنحه
هزيمة أخرى..

لدي الكثير من الحكايات تفتقد قلبك -حبيبي- كي
يسمعها!

يهمس بها بحب ذاب عتابه وهو يعيدها لرقدتها
المريحة، يتخذ مجلسه جوارها ليضم كفها بين
راحتيه، ورأسها على صدره، يحكي لها عما حدث في
غيابها فتستمع له كعهد صداقتهما القديم..

_بظلي لم يخذلني.

تهمس بها اخيرا بفخر وهي تقبل جبينه فيرد قبلتها
هامساً :

_وبظلتي لن تخذلني.

ابتسامتهما تتشابهان.. تتعانقان.. تجددان العهد
وترسمان الغد..

_هذا الثوب لا يبدو مريحاً.. هناك شيء آخر أذكره..
قلت لك ذاك اليوم ونحن نشترى هذا الثوب (ترفقي به
وأنت تخلعينه هذه المرة وأنا سأتولى شأن المرة
القادمة).. تراني وفيت بو عدي!؟

يقولها مشاكساً بنبرة عاد إليها مزاحه القديم وهو
يقرص وجنتها بخفة، لتضحك بخجل وهي تضم شاله

فوق كتفها فيضحك بدوره وهو يضمها إليه بتهيدة

طويلة هامساً :

_ اضحكي يا نيلية.. اضحكي واجعليني أضحك معك..

دعينا نعلم الدنيا كيف ينبت الزهر من قلب الصخر..

كيف يرسم الأمل بريشته وسط سواد اليأس.. فيعيد

للدنيا ألوان قوس قزح.

=====

*** أخضر ***

=====

_ أنا آسف لما حدث حقاً لكنني بشكل ما كنت أتوقعه..

لهذا أريدك ألا تتخرطي في الحزن بل يجب أن

تستفيدي من هذا الطلاق.

يهتف بها مخرج برنامجها عبر الهاتف الذي تضعه

على أذنها وهي تراقب صورتها عبر المرآة..

لقد أرسل لها إيهاب ورقة الطلاق غيابياً دون أن

يحاول المزيد من التبرير..

كأنه أيقن مثلها ألا فائدة من المزيد من المحاولة!

كلاهما فقد الآخر.. وفقد نفسه!!

_ لا اريدك أن تعودى لمؤشر الخسارة.. الناس تتعامل

معكما ك(ثنائي شعبي) يحق له معرفة جميع

تفاصيله.. هو أغلق كل حسابات التواصل خاصته..

وأنا أراها فرصتك..

لا يزال الرجل يهتف بها بحماسة لتسأله ببرود :

_ كيف!؟

_ فيديو (لايف) على صفحتك الآن.. تتحدثين فيه عن
(العلاقات السامة) وكيفية التعافي منها.. لا تذكرى
أسباباً صريحة للطلاق كي تسمحى بتداول الشائعات..
هكذا هي اللعبة دوماً.. هكذا تضمنين أن تكونى حديث
الناس للفترة القادمة.. يمكننى أن أنسق لك حلقة
جديدة مع أشهر المذيعين كي نستغل الأمر فى
ذروته.. العبيها بطريقة صحيحة كي تجيدى استثمار
الأمر.

_ وإن لم أفعلى!؟

تسأله بنفس البرود ليرد بزفرة ساخطة :

_ هل ستعودين للعناد؟! ظننتك تعلمتِ درسك من

المررة السابقة!

_ تعلمت.. صدقتى تعلمت.

تقولها بحسم ليهتف برضا :

عظيم! افعلني إذن ما نصحتك به.. وأنا سأشرع فيما
أخبرتكم به.. صدقيني حلقة برنامجك القادمة ستكون
تاريخية.. فقط تعمدني إظهار حزنك بصورة مغالية
لكن مع إظهار قوتك وقدرتك على تجاوز الأمر.
يغلق معها الاتصال فتعود لترمق صورتها في المرآة
بنظرة طويلة، تتحرك نحو حاسوبها المحمول، تفتحه
لتستعد لبث الفيديو المباشر..

مرحباً.. أعرف أنكم تريدون الاطمئنان عليّ بعد
الشائعات.

تقولها بابتسامة هادئة لتراقب التفاعل الرهيب
للمتابعين على الشاشة..

قديمًا كانت هذه الأرقام تمنحها رصيدها من القوة..

والآن!؟

_أنا بخير.. تعلمت الدرس جيداً.. تعلمت أن أحتفظ

بخصوصية حياتي ولا أشاركها.. تعلمت ألا أجعل

نفسي سلعة للعرض.. أعرف أنكم تنتظرون كالعادة

الكثير من التفاصيل.. لكن المفاجأة أن (لا

تفاصيل!).. حياتي ملكي وحدي لا تخص أحداً.

تتوالى التعليقات كالسيل بين مؤيد لما تقول داعٍ لها

بالبركة ومهاجم يتهمها بالغرور والفظاظة لكنها كانت

تقرأها كلها بنفس الانطباع..

انطباع الاستغناء!

تغلق الفيديو بحسم ليصلها اتصال المخرج هادراً

بعنف:

_ هل هذا هو اتفاقنا؟! لا تلومن إلا نفسك إذن..

البرنامج سيكون..

_ أنا من صنعت نجاح البرنامج.. ويمكنني إنجاز

عشرة غيره.. افعل ما شئت!

تهتف بها بحدة واثقة فيغلق الاتصال في وجهها

بعنف لتتلاحق أنفاسها وهي تشعر أنها كانت في

سباق..

سباق أنهته كما ينبغي!

لا.. ليس بعد!

تتناول هاتفها لتفتح ستوديو الصور فتمحو صورهما

(الزائفة) معاً..

تلك التي توقن أن ضحكاتهما فيها كانت مصطنعة

للعرض..

تحذفها واحدة واحدة كأنها تحذف معها هذا الشعور

بالزيف الذي عاصرتة الأيام السابقة..

تصطدم ببعض الصور لهما في بيت إيد الأنيق والتي

كان يستحسن إيهاب أن يظهره في الصور..

تدمع عيناها وهي تميز هذه الصورة بالذات لخديجة

تقف بين إيهاب وإيد أمام حمام السباحة وقد حملت

طبقاً من الطعام..

صورة تلخص حكايتهم كاملة!

إيد عاري الجذع بسر وال قصير يظهر مثالية قوامه

ونظرته التي تمزج القسوة بالحرمان وابتسامته

الكاذبة..

إيهاب بثيابه الكاملة شديدة الأناقة والتي يداري بها
شعوره بالنقص مع ضحكته التي بقيت رغم
اصطناعها طيبة جذابة..

خديجة التي لا تزال تريد الشعور بأمومتها الكاملة
ولو خلال صورة فتخذلها ابتسامتها البائسة..
ثلاثتهم يبدوون قريبين للغاية.. لكن المدقق في
الصورة يشعر بالهوة بينهم!

وهي؟!!

هي لم تكن في الصورة رغم استطاعتها وقتها أن
تفعل..

كأنها كانت تدخرها ليوم كهذا كي تكون قصة
مختصرة للحكاية..

لا مكان لها بينهم.. لا مكان!

تضع الهاتف جانباً وقد تكدست الدموع في عينيها،
تتناول حقيبتها لتستخرج الرسالة التي كتبها لها
إيهاب متعمداً وقد أرسلها لها مع ورقة الطلاق.. كأنه
شعر أن خط اليد سيكون أكثر حميمية..
(جنيتي..)

جنيتي التي ما عادت تمنحني السكنية!
ظننتك تحبين الأخضر لأنه مزيج من جنون الأصفر
وسكينة الأزرق.. لكنك لم تعودي كذلك.. الأخضر
خاصتك صار مزيجاً من شحوب الأصفر وخوف
الأزرق.. مزيج لن أبرئ نفسي من تحمل أسبابه..
أظني امتلكت قلبك حين كنا صديقين يفهم أحدهنا
الآخر دون كلام.. وخسرتك يوم خسرت صداقتك وظل

كل منا يدور حول الآخر برهبة ولا يجروء على

الاقتراب..

وأظنه حان الوقت ليبعد كل منا باحثاً عن نفسه من

جديد.. لعله حين يجد نفسه يتعثر في الآخر مصادفة

بنفس الطريقة التي تلاقت بها طرفنا أول مرة..

اعلمي فقط أنني لم أحنك.. يشهد قلبي الذي لم يعد

يرى من النساء غيرك أنني لم أفعل.. لا أعرف كيف

أشرح ولا إن كنتِ ستفهمين.. لكنني فقط كنت أبحث

داخلي عن صورة كاملة تليق بك.. صورة لا تثير

اشمئزازك ولا تذكرك بخسارات ماضيك..

أخطأت الطريقة والطريق.. لكنني لم أخطئ الهدف!

الهدف الذي ما كان وما ليكون إلا أنت!

أعدك ألا أهرب من نفسي من جديد.. أن أواجه
الحاضر بل والماضي.. أعدك أن أعود لنفسي.. رجلاً
أوقن أنكِ أحببته حتى ولو لم تعلمي أنتِ..
وعديني أنتِ الأخرى أن تفعلي المثل.. أن تعودني
الجنية الخضراء التي أحببتها بكل ما أوتي قلبي من
حب.. عودي لنفسك حتى ولو ضيعتك من يدي للأبد)
خيطان من الدموع يسيلان علي وجنتيها مع حروف
رسالته..

كيف يمكنها أن تشرح.. كم افتقدته.. وكيف لم تعد
تطبيقه!!

افتقدت إيهاب القديم.. وكرهت صورته الجديدة!
هو محق..

كلاهما يحتاج للعودة لنفسه أولاً قبل أن يبحث عن

الآخر!

_ رأيتَ ما فعلته أنا الآن على الشاشة؟! أنا التي
صرت (الفاجومي)! لم أعد أكثر لراي الناس مادمت
أحب ما أفعله.. لدي الكثير من الخطط للغد.. لم أكذب
حين قلت أنني من صنعت نجاح البرنامج ويمكنني
صنع العشرات مثله.. لكن ليس بتلك الطريقة
الرخيصة.. لدي طرق أشق.. لكنها أكثر شرفاً.. طرق
سأفتخر كثيراً عندما أصل لآخرها.. وسأفتخر أكثر لو
وجدتك حينها تستحق أن أحكي لك عنها.)
تكتبها بخط يدها كذلك لتضعها جانباً وهي تنتوي أن
ترسلها له كذلك..

تسمع رنين الجرس فتأهب حواسها وهي تفكر في
تجاهله..

جارتها الفضولية؟! هيام تريد الشماتة أو الصلح؟!
خديجة تريد الحديث؟! أم تراه إياد يريد إعادة عرضه
المخزي ولم يكتفِ بالصفعة؟!!

لا يهم!! ليكن من هو.. لن تفتح!!
كانت هذه فكرتها الأولية قبل أن تغير رأيها بسياستها
الجديدة..

لن تهرب.. بل ستواجه!
تتوجه نحو الباب لتفتحه بحدة ثم ترتخي ملامحها
ببعض الرفق وهي تميز ملامح رؤى مع تلك المرأة
التي لا تعرفها..

_جنة صديقتي.. حكيت لك عنها.

ينعقد حاجبا عزة وهي تتذكر ما أخبرتها به رؤى عن
بعض الشكوك في نزار.. هذا الأمر الذي كادت تتناساه
مع الأحداث السابقة..

تفضلا.

تفسح لهما الطريق لتدخل.. فتبادرها رؤى بقولها
المشفق:

علمنا ما حدث.. لا أحتاج لإخبارك بمكانتك عندي..
أرجوك اعتبريني صديقتك.

تبتسم لها عزة بود وهي تشعر بحاجتها حقاً لما تحكي
عنه رؤى.. ربما كانت هذه مشكلتها الحقيقية الآن..

انها تفتقد صديقة تثق بها!

لهذا تربت على كتف رؤى برفق شاكرة فتدرف

الأخيرة بوداعتها المعهودة :

_ هيام كانت تريد زيارتك بالطبع لكن راغب هو من وقف لها.. أعرف أنك لست مستعدة بعد للقاء كهذا.
تهز عزة رأسها ببعض الامتتان وهي تتوجه ببصرها نحو جنة التي تفهم الآن سبب زيارتها لها لتقول
بنبرة معتذرة :

_ وددت لو أفيدك لكن علاقتي بتلك العائلة انقطعت كما لأريب أنك قد علمت.. آخر ما كنت أفعله قبل حضوركما أن أمحو صورهم من علي هاتفي وهو ما أتمنى أن أفعله في حياتي كلها..
تقولها وهي تنظر لهااتفها القريب فترمقه جنة بنظرة عفوية لتقول بتفهم :

_ أعرف.. لكن نزار ذاك سافر فجأة دون أسباب وكنت أريد فقط أن أعرف..

تقطع عبارتها وهي تنتبه للصورة على هاتف عزة

للتسع عيناها بذهول وهي تشير نحوها هاتفة :

_ من هذا الرجل بوشم الكوبرا؟!!

تهز عزة كتفيها لتقول بتوجس :

_ إياد أخو إيهاب ونزار.

تبتسم جنة بظفر وهي تتذكر الفيديو الذي أرسلته

بتول الراعي لفهد.. الرجل الذي كان مع أمه.. إنه

نفس الوشم!

الآن تظن أنها لا تحتاج للسؤال عن المزيد عن نزار..

فقد عرفت الكوبرا!



_ لماذا أتيت بنا إلى هنا؟! لا تقولي أن ابنك بالأعلى

ينتظر مني الاعتذار له؟!!

يقولها إياد بجفاء وهو يتوقف بسيارته أمام بيت

خديجة بكل ما يحمله له من ذكريات..

لترد وهي تبسط راحتها على كتفه :

_ لا أعرف أين إيهاب منذ تلك الليلة التي تشاجرتما

فيها.. لكنني لا أظنه هنا.. أعرف طبيعته في ظروف

كهذه يعتزل الدنيا كلها ويهرب بعيداً.

_ غريب! ألا تشعرين بالقلق عليه؟!!

يقولها بتهكم مرير وهو لا يزال يشعر بغرابة موقفها

بعد تلك الليلة..

لقد بقيت معه هو في بيته كأنها تحاول استرضاءه

وتعويضه..

_إنها المرة الأولى التي اشعر فيها أنك اخترتني أنا..

يقولها بنفس التهكم الذي خالطه حزن حقيقي لترد

بشروء غامض :

_أنا اخترتكما معاً..

يرمقها بنظرة متسائلة فتقول بحسم :

_هناك ما كان يجب أن تسمعه منذ زمن بعيد.. تعال!

يطيعها بعد تردد وهو يغادر سيارته ليصعد معها

البنائة..

كل درجة للسلم تفوح برائحة الماضي حلوه ومره..

نفس السلم الذي تشارك فيه اللعب والجلوس مع

إيهاب وورد..

نفس السلم الذي صعد عبره درجات حبه لها..

ونفس السلم الذي انحدر عبره حلمه بها..

يدخل خلفها البيت الذي روعته ظلمته للحظات قبل أن

تضغط هي الزر لتضيئه..

يدور ببصره في المكان حوله وهو يشعر بنزيف

الذكريات يرهق روحه..

آخر مرة كان فيها هنا شغلته مواجهته مع إيهاب عن

تفحص المكان الحبيب الذي فاض بالذكريات حلوها

ومرها!

_ لا تقولي أنك اتيت بي إلي هنا لتتقمصي دور (ست

الناظرة) من جديد بعيداً عن بيتي فتعاقبيني على ما

فعلته مع زوجة إيهاب.

يهتف بها بنفس التهكم المرير وهو يلاحظ انها لم

تأت على ذكر الأمر من ليلتها.. لكنها تتنهد لتقول

بحسم:

_ كلام فارغ! ما قلته لعزة يومها كان مجرد كلام
فارغ! حتى ولو لم تصفك هي.. لا هي كانت سترضى
بعرضك ولا أنت كنت ستنفذه! لا تزال داخلك نقطة
مضيئة اراهن عليها.

يبتسم ساخراً دون رد، لكنها تجذبه من كفه نحو
غرفته القديمة، تفتحها لتضيئها.. تشير له نحو
الكاسيت القديم والشرائط الكثيرة المتراسة، لينعقد
حاجباه برهبة حقيقية وهو يسمعها تقول بصوت
متهدج رغم نبرتها القوية :

_ هذا ما كان يجب أن تسمعه.. لا.. بل ما كان يجب أن
تعيشه.. هذا ما كان أخوك يدخره لك طوال تلك
السنوات.

يزداد انعقاد حاجبيه وهو يتناول أحد الشرائط ليميز

تاريخها..

يا لله!!

كل هذه السنوات!!

يرتجف جسده بقدسية الذكرى وهو يتذكر تلك العادة

القديمة بينه وبين إيهاب..

بدأت عندما التحق هو بالجيش ليصر إيهاب وقتها أن

يسجل له هذه الشرائط ليحكي له أخبارهم هنا..

ألم ينسَ؟!!

والسؤال قرأته خديجة رغم صمته لتجيبه بقولها :

_ لا.. لم ينسَ.. اجلس واستمع.. ربما كسبت رهاني

على ما بقي لنا منك.

تقولها لتخرج مغلقة الباب خلفها فلا يعرف كيف اتخذ

مجلسه ليستمع للشرائط مرتبة بتواريخها..

ساعة خلف ساعة لا يعرف كيف يمر به الوقت..

لا يشعر بشيء سوى بصوت إيهاب الدافئ بين ندمه

واشتياقه إليه..

يحكي له عن ورد كما رأى الأمر وقتها.. يعترف

بخطئه ويطلب عفو..

يروى له تفاصيل كل شيء في حياته كأنه لا يزال

يفتقد صداقتهم القديمة..

يطلب منه الصفح..

يناشده العودة..

ياالله!

هل كان أخوه يذكره بهذه الحميمية طوال تلك الأيام!؟

كيف لخص وجع سنوات في كلام ساعات..؟!
كيف احتفظت مشاعره بهذا الوجع الحارق عبر
برودة مجرد شرائط؟!
يصل لتلك الشرائط بعد الحادث فتدمع عيناه وهو
يسمعه يصف له شعوره..

عجزه..

خوفه..

ويرجوه ألا يعود شامتاً..!

دموع تسيل حارقة علي وجهه وهو يشعر أنه يسمع
"إيهاب" آخر غير هذا الذي رسمته مخيلته منذ
سنوات..

"إيهاب حقيقي" يعترف بزلاته ويندم عليها..

لا ذاك المدلل الذي بقي هو حاقداً عليه طوال هذا

الوقت!!

أخوه.. أخوه الذي ظن نفسه فقدّه وقد أبدلته الأيام

بواحد آخر صار عدوه..

الآن يظنه قد عاد!!

وفي مكانها خارج الغرفة بقيت خديجة الليلة بأكملها

تراقب الغرفة كعهدها..

كأنما تشعر أن سر الأخوين سيبقى دوماً بين جدرانها

الأربعة..

تمهله وقته كاملاً وهي تشعر بأهمية هذه الساعات

التي تمر..

ليتها فعلتها منذ زمن بعيد!

تسمع صوت أذان الفجر فتصلي لتدعو الله في
سجودها أن يؤلف بين قلوبهما.. وأن يعود كل منهما
لنفسه..

تتهي صلاتها لتسمع باب الغرفة يفتح..
تتوجه نحوه فلا تحتاج كثيراً من الذكاء لتفهم أنه
خرج بقلب غير الذي دخل به..
تعانقه ولأول مرة منذ عودته تشعر أنه حقاً عاد!!
ما أشبه عناقته الآن بذاك الذي كان عندما عاد لها
صغيراً من العراق!!

سامحني يا ابني.. أحياناً نظلم أقرب الناس لقلوبنا
دون قصد.. أعترف أنني قصرت في حقك لكن يشهد
الله على لوعتي لأجلك طوال هذه السنوات.. لو كان
هناك ما بقي كي أعيش لأجله فهو أن أعوضك عما

فات.. هاقد سمعت (إيهاب) الحقيقي بعيداً عن قناعه
الزائف.. طوال هذه السنوات وهو لا يآتمن على
ضعفه سواك ولو في مجرد شريط لا يثق حتى أنك
ستسمعه.. لكنك بقيت ما أراد ان يشد به عضده.
تقولها بحرقة وهي تتلمس وجهه بأناملها ولأول مرة
يشعر أنه يجد لنفسه مكاناً فوق تجاعيد وجهها..
لأول مرة!

يغمض عينيه بقوة وهو يقبل رأسها فتربت على
ظهره لكنها تنتفض مكانها وهي تسمع رنين
الجرس..

_ من الذي سيطرق الباب في هذه الساعة؟!
تقولها بجزع ونفس الخاطر يجتاحهما معاً!
إيهاب في خطر!!

ولأول مرة لا يشعر بالضيق من قلقها وهتافها باسم

أخيه بل يشاركها إياه..

يتحرك ليفتح الباب فتطالعه الوجوه الغريبة التي

يراها لأول مرة.. يتقدم أوسطهم ليهتف بصرامة وهو

يذكر اسمه هو ثم يريه أمر الضبط مردفاً :

مطلوب القبض عليك.

=====

=====

أحمر

=====

الجلسة سرية!

يقولها المحامي الخاص بها وهو يقف في قاعة
المحكمة حيث استقرت يسرا مع سمرا خلف
القضبان..

ليردف بخفوت وهو يلوح بسبابته في وجهها :
_ لا تتكلمي نهائياً.. التزمي الصمت ولا تردي على أي
أسئلة يوجهها القاضي .. الأوراق معي أكثر من كافية
لتبرئتك تماماً.

"تبرئتها" !!؟

كم تبدو الكلمة بعيدة.. بعيدة.. كما بين غيم السماء
وحصى الأرض!

مثيرة للضحك.. وهي تدرك أنها ستبقى خلف القضبان
طوال عمرها.. حتى ولو غادرت هذه المعدنية فستبقى
بصدرها أخرى غير مرئية تحبسها دون أمل في

خروج!

_وهي!؟!

تشير بها نحو سمرا الشاحبة المرتعدة جوارها ليقول

بضيق :

_لا يمكنني الجزم.

_في هذه الحالة سأتكلم.. سأبرئها مهما كان الثمن.

تقولها بحسم ليمط الرجل شفثيه بقوله:

_لا تصعبى الأمر سيدتي.. مهمتي هي الدفاع عنك

أنت فحسب.

_وأنا لن أتركها خلفي.. بل ولن أسكت.. سأعترف

بكل شيء وليكن ما يكون.

_في هذه الحالة أعلن عجزتي.. أنا فعلت كل ما

بوسعي.

يقولها الرجل وهو يتركها ليتخذ مقعده في انتظار

القاضي لترفع يسرا رأسها شاعرة بالدوار..

المزيد من الدوار الذي ما عاد يفارق روحها..

لن تبرئ نفسها.. بل ستعترف بكل شيء.. ليس فقط

كي تنقذ سمرا إنما.. لأجلهم هم!

ربيع وابراهيم وهبة والحرافيش..

لعلهم يجدون في سجنها قصاصاً تستحقه ويمحو من

صدورهم بعض الكراهية!

لعلها تتطهر من ذنوبها التي تخنقها حد الموت!

لعلها تجد وسط تيهها بين يسرا وسمرا أخرى تريد

العيش بها ما بقي لها من عمر!

_يسرا هانم.

كانت هذه كوثر التي اقتربت لتتشبث بالقضبان دامعة

العينين هامسة برجاء :

_اسمعي كلام المحامي.. والدتك تزداد حالتها سوءاً..

تسأل عنك كل يوم عندما تفيق.. تبقى تصرخ باسمك

ولا أعرف ماذا أفعل.. لن تحتلمي ذنبها لو.. لو..

تقطع عبارتها مجهشة بالبكاء لتسيل دموع يسرا

بعجز عبر عينيها المغمضتين..

(اللعبة) صارت (لعنة)!

لعنة أصابت كل من اقترب من محيطها دون تمييز!!

هي أشعلت ما تظنه شرر اللهو ليتحول الأمر لجحيم
يلتهم كل ما في طريقه وتقف هي وسطه عاجزة عن
فعل شيء..

اهه ده اللي صار وادي اللي كان..

مالكش حق تلوم عليا..

لا تدري من أين انبعثت داخلها باكية.. راجية..

شاكية..

لكنها عرفت عندما رفعت عينيها لتراه يدخل مع ربيع

وهبة وأبناء عمه من باب القاعة..

كأنما رآته بعين قلبها أولاً.. وليته - كما كان يزعم -

رآها مثلها بعين قلبه!

تراقبهم بلهفة فضحتها عيناها..

الحرافيش يرمقونها بنظرات مختلسة ملؤها الإشفاق
العاتب..

ربيع يحدجها بنظرة لوم صريحة يخالطها الوجد وهو
لا يكاد يحيد ببصره عنها..

هبة تتحاشى النظر إليها تماماً مثله هو..

هو إبراهيم الذي بقي ينظر أمامه بشرود كأنه في
عالم غير عالمهم!

كل منهم يقيد معصميا بحبل غليظ لا تراه لكنه

سيبقى أبد الدهر يدميها بجرح الفقد.

يسرا هانم الصباحي خلف القضبان.. ياله من خبر!

كان هذا فادي الذي فوجئت به يتقدم، ينقل بصره

بينها وبين سمرا للحظات قبل أن يقول بحقد امتزج

بالألم في مزيج مدهش :

_ لو كان الأمر بيدي لحكمت بقتلك ألف مرة.. لكنني

أعرف أنك ستخرجين منها..

ترمقه بنظرة خاوية وهي تشعر بصفعته في خيالها

تدوي على وجهها من جديد بسوط الذكرى :

_ قتلتي ابنك يا مجرمة؟!!

لكنه لم يكن وحده هذه المرة..

إبراهيم كذلك كان يصفع خدها الآخر بنفس العبارة..

صفعة خلف صفعة تسقط بعدها..

تسقط رغم أنها لا تزال واقفة!

_ أنا (...) المحامي.. حاضر عن الأنسة سمرا.. وكلني

السيد فادي.

يقولها الرجل جوار فادي فتلتفت نحوه سمرا بلهفة
كغريق يتعلق بقشة..

لا تفهم لماذا يفعلها فادي ألا لو كان الأمر مجرد نكاية
في يسرا كما هو الواضح!

تلتفت نحو يسرا بتساؤل كأنها تستفتيها ماذا تفعل
لكن الأخيرة كانت غافلة في عالم آخر..
فراشة!

فراشة مرت من أمام ناظريها الآن فلم تعرف هل هي
حقيقية أم نسجها خيالها..

فراشة ودت لو تصير مثلها فتحلق إليهم..
تقبل وجنتي هبة.. تشاكس الحرافيش.. تلقي نفسها
على صدر ربيع.. تقبل رأسه باعتذار..
لكنها لن تجرؤ أن تمس إبراهيم..

فقط ستبقى تحلق حوله حتى تتعب.. وتسقط!

هل حقاً أنكروها بهذه البساطة؟!

أم أن جرمها كان كبيراً إلى هذا الحد؟!

إنهم حتى لم يمنحوها فرصة التبرير!

نبذوها ككلب أجرب ركلته أقدامهم الطاهرة..

ألم يشفع لها شيء؟! أي شيء؟!

محكمة!

الصيحة الهادرة تجبر الجميع أن يتخذوا مقاعدهم

فتجلس هي مكانها..

أحد كفيها يربت على الآخر!

هذه الحركة القديمة التي كانت قد نسيتهما وقد أغناها

حبهم عنها..

والآن تعود إليها خائبة.. كعهدها مع كل شيء!

ترى حسام يقف مكانه ممثلاً إبراهيم فلا تلومه.. لقد

رأت في عينيه نظرة منحتها صك غفران عن

تاريخهما القديم وهذا يكفيها..

نظرة أشعرتها أنه يصدق ندمها.. وهذا وحده يشعرها

بالامتنان وسط إنكار الباقيين..

المزيد من الدوار يغلف روحها فلا تسمع..

لا ترى سوى جانب وجه إبراهيم الذي بقي عازفاً عن

مجرد النظر إليها..

فتطرق أخيراً بوجهها وقد غمرها اليأس من كل

شيء!

وفي مكانه كان إبراهيم يشتعل بالمزيد من نيرانها..

عيناه تقاومان النظر إليها بكل طاقته كأنه سيرى على
ملامحها أفاعي خداعها تشهر ألسنتها السامة في
وجهه..

فقط عينا قلبه بقيتا عاندتين.. مشتاقتين.. دامتين

باللهفة لحبيبة لم يعد يدري أين تركها..

ضاعت وضاع معها فلم يبق منها سوى مسخ

بصورتها يدعي أنه هي!!

حرب ضارية تخوضها روحه وهو لا يزال يقاوم

النظر..

لكنه ينهزم أخيراً!

نظرة مختلسة لها تبدو وكأنها فتحت الباب لشوق

بحجم السماء..

لغضب بعرض الأرض..

ولجرح بطول العمر!

يراها مطرقة الرأس أحد كفيها يربت على الآخر بتلك
الطريقة التي كانت تدهشه أيام لقاءاتهما الأولى
لتصفعه ذكرى ذاك اليوم عندما كانت معه في سيارته
قبل زواجهما عقب رجوعه بها من بيت الصباحي أيام
كان يظنها سمرا.. :

**أعرف منهم واحدة.. كان الناس يسمونها
"كاملة"**

الأوصاف" ..الجمال ..المال ..النسب ..النفوذ ..لكن
أباها لم يكن يتعامل معها إلا كسلعة رائجة ..اختار لها
المرّة الأولى الرجل المناسب الذي ظنّه سيكون
خليفته في عمله ..لم تكن راضية عن هذه الزيجة
لهذا لم تكذ تعلم أن زوجها لا يمكنه

الإنجاب حتى انتزعت حررتها منه .. المرة الثانية
اختار لها أيضاً ما يتوافق مع طموحه .. الغريب أنها
كانت راضية تماماً بالأمر وقد ظنت الدنيا ستضحك
لها أخيراً .. لكنها فوجئت أن الزوج الثاني لا يراها
لأنه يحب غيرها .. واستردت حررتها من جديد .. إنما
عادت لتتغمس في ظلماتها .. ظلمة خلف
ظلمة .. أسلمتها للإدمان .. حتى قتلت ابنها!

ماذا ؟!

كاد يصطدم بالسيارة أمامه لولا أن سيطر على
سيارته هو في اللحظة الأخيرة لكنها بدت غافلة تماماً
عن كل هذا ولا يزال أحد كفيها يربت بهذه الحركة
الرتيبة فوق الآخر:

_ابنها من زوجها الثالث ..تركته يوماً وحده لتذهب
كي تحضر ذاك المخدر ..لم تكن تميز شيئاً وقتها
سوى المادة السحرية التي كانت تبقيها فوق غمام
سعادة الوهم ..كان بالكاد قد تجاوز عامه الأول ..لعله
افتقدها ..لعله ناداها فلم ترد ..لعله ذهب للشرفة
يبحث عنها ..لعله صعد لذاك الكرسي كي يلوح
لها ..لعله أسقط أحد ألعابه فرمى نفسه خلفها ..لا
تعلم ..ولن تعلم أبداً ..هي عادت لتجد جسده الساكن
ملطخاً بدمه ..حملته لتجري به نحو المشفى القريب
رغم يقينها من موته ..لكنها كانت تطارد بقايا
أمل ..مات الصغير .

استغفر الله بصوت مسموع وهو يعاود النظر نحوها
متسائلاً:

_ وهي؟!_

فتحت عينيها المغمضتين لتلتقي عيناها أخيراً

بجوابها :

_ ماتت بعده !

**يفيق من صفة الذكرى وهو ممزق بين شعورين
متناقضين..**

**أحدهما قاهر مكتسح يجلده بقسوة.. يعيره بكم كان
مغفلاً ساذجاً..**

**والآخر واهن مخذول لا يملك سوى أن يتلقى ريشة
بيضاء أخرى لا تزال لا تكفي وحدها وسط حمرة**

الصورة!!

تراها كانت صادقة وقتها أم كانت مجرد رتوش لتكمل

اللعبة؟!!

يطلب القاضي إفادته فيرمقه حسام بنظرة ذات مغزى
لكنه يقف مكانه وهو يشعر بالعيون كلها تعيره
بسذاجته.. الدرويش الأحمق غرته فتنة امرأة خدعته
لترك سمعته مجرد سيرة على الأفواه..
فلا يملك نفسه وهو يصر على أقواله طالباً أقصى
عقوبة عليها!

وفي مكانه كان ربيع يشعر أن قلبه يتمزق بينهما..
إبراهيم ابنه الحقيقي لكنها كذلك ابنته..
منحته جزءاً منها ليبقى أسير صنيعها للأبد..
لا يزال يلوم إبراهيم على قسوته معها ولم يكن يوافقه
الرأي بشأن القضية لكنه يجرب عصيان ابنه له لأول
مرة في حياته..

لا يلومه وهو يدرك أن شعوره بها لم يكن مجرد

عشق رجل لامرأة..

بل بعث ميت أعادته هي للحياة ثم سلبتها منه بأقسي

طريقة!

يغفر لها!؟!

لا يمكنه الغفران الآن!

ليس وكف أبيها ملوث بدم أحد ابيه وكفها هي ملوث

بالآخر!!

جزء داخله يصدق أنها أحببتهم حقاً.. لم تخذعهم في

عاطفتها..

لكن جزءاً آخر لا يمكنه التجاوز عن خداعها..

هو منحها كل الفرص لتعترف.. وهي رفضتها

كاملة..

والآن لا يملك سوي أن يشاهد السفينة تغرق بكل من

فيها!!

يستمتع لمحامي سمرا الذي بدا هجومياً وهو يتهم

يسرا بقهرها للفتاة مستغلة مالها ومكانتها، يطلب

القاضي شهادة سمرا فترتجف الأخيرة رعباً وهي لا

تدري ماذا تقول لتكتفي بصمتها المرتعد..

فيتجاوزها القاضي ليتقدم محامي يسرا وقد بدا واثقاً

من موقفه وهو يقدم الأوراق لهيئة المحكمة قائلاً:

_موكلتي تعاني أزمة نفسية منذ فقدت ابنها..

تصرفاتها متخبطة وهذا سبب ما اقترفته.. مجرد

وسيلة للهروب من أحزانها.. وهذه التقارير الطبية

تفيد هذا.

تطلب المحكمة شهادة يسرا فتقف مكانها لتتعلق بها
العيون..

لكن عينيها بقيت معلقة بعينيه اللتين عادتتا تعزفان
عنها وقد أطرق برأسه الذي ضمه بين كفيه كأنه يسد
أذنيه لا يريد المزيد من الاستماع لأكاذيبها..
تحين منها نظرة لسمر الخائفة جوارها.. ولفادي
الذي تصارع الغضب مع الوجد على ملامحه..
فتقول بصوت متحشرج:

_ أنا أجبرتها.. هي لا ذنب لها.

هنا تلتفت هبة نحوها كأنما وجدت في تبرئتها للفتاة
قبساً من نور يشفع لها.. تلتقي عيناها للحظات بين
عتاب ورجاء قبل أن تشيح هبة بوجهها فما أشبهها
بإبراهيم.. عصا لا تلين!

وحده ربيع بدا متوقعا لفلتها.. كفه منقبض على

صدره بقوة..

يخشى عواقب اعترافها.. يخاف عليها كما يخاف على

ابنه!

_تعرفين بالتزوير!؟

يسألها القاضي فتتفرج شفتاها ولا يزال أحد كفيها

يربت على الآخر..

فلتعترف أنها فعلتها عامدة..

لعل عقابها يريحهم!

لكن نظرة ل(كوثر) التي ضمت كفيها في وضع

الرجاء يصفعها بوضع أمها..

يذكرها بما تركته خلف ظهرها..

هل تؤذي أمها بفراقها كما آذتهم كلهم!؟

تضم شفيتها بقوة وسيل الدموع الصامت على وجهها

يشبه مطر الفقد الأسود في روحها..

لم تشعر في حياتها بالوحدة كما هي الآن!

بالوهن كما هي الآن!

بالحيرة كما هي الآن!

ثمرة كانت يوماً ناضجة فوق شجرتها والآن سقطت

متعفنة تعافها الأنفوس وتركلها الأقدام!

دموعها التي تحولت لنحيب مرتفع وهي ترفع وجهها

للأعلى بنفس الحيرة وهي تشعر أنها قد.. رُفضت!

أغلقت في وجهها أبواب السماء والأرض!

دموعها التي وجدت صداها في قلب ربيع الذي دمعت

عيناه بدوره وقبضته تزداد ارتجافاً على صدره..

في قلب هبة التي خلعت نظارتها لتمسح دمعة خائنة

تسربت من طرف عينها..

في قلوب الحرافيش الذين تبادلوا نظرات متألّمة..

وحده إبراهيم لم يكن يسمع..

كان يسد أذنيه مطرق الرأس بنفس القوة التي يود لو

يسد بها نزيف قلبه..

قلبه الذي كان يسمع نحيبها رغم كل شيء.. يسمعه

ويشاركها إياه!!

_موكلتي لا تقوى على الحديث.. أرجو مراعاة

حالتها.

يقولها محاميتها وقد بدا للحضور أنها ستسقط مكانها

من فرط انهيارها الباكي فيتبادل القضاة نظرات

قصيرة..

قبل أن يهز كبيرهم رأسه ليعلن الحكم..

=====



الطيف الثاني والأربعون



لماذا خاطرت اليوم بالقدوم إليك؟! لماذا وأنا أعرف
أن الموت قد يصيب سهمه هذه المرة فلا يخطئ
كالسابقة؟! لماذا وجدتك أول وجه يطفو لذاكرتي
عندما أفقت بعد الحادث فلم يفارقني طيلة الأسابيع
السابقة؟!!

يقولها أديم وهو يجلس جوار فراش دينا التي لا تزال
مستسلمة لغيوبتها في المشفى.. يشبك كفيه مطرق
الرأس وهو يردف بخفوت :

أسألك وأنا أعرف الجواب يا "قلبية الثغر" .. لأنك
شبيهتي في الإثم.. تظنين العهر للنساء فقط؟! الرجل

كذلك قد يبيع شرفه.. قد يبيعه مجبوراً.. مقهوراً..
لأجل قطعة من قلبه.. تعرفين ما الأسوأ من العهر
وقتها؟! الشعور بالقهر.. بالعجز.. بالمهانة.. وأنت
تجد نفسك مخيراً أن تلوث يدك النظيفة بأحد الاثنين
إما دنس الخيانة أو دماء من هو أقرب إليك من
نفسك..

يقولها ليغص حلقة بمرارة ذاك اليوم البعيد.. :
من سنوات عديدة لكن الألم الطازج لا يزال يجد
حرقته في قلبه..

الكف الصغير بسمرة تشبه سمرة.. بطلاء أظافر
أحمر كانت تعشقه.. بخاتم ذهبي صغير ذي فص أحمر
يتصل بسوار له فص بنفس اللون عبر سلسال رقيق

كتب عليه اسمها.. بل اسميهما معاً وقد صمته أمها
بنفسها بذاك التصميم..

_أعرف كم تحب ابنتنا..لم أعد أتعجب هذه الرابطة
الخفية بينكما منذ ولادتها فلا يكاد يمسه ألم إلا
وتشعر أنت به.. لعلها طبيعة عملك التي تجعلك
تستشعر الخطر عن بُعد.. أو شعورك أننا - أنا
وهي- عائلتك التي حظيت بها من هذه الدنيا.. أو هو
شبهها الشديد بك كأنها نسخة مصغرة منك.. لا
أعرف.. لكن ما أوقن به أنك استودعت جزءاً من
روحك فيها.. ولا أبالغ لو قلت روحك كلها.
يتذكرها بصوت (زوجته الأولى) فتجتمع في عينيه
دمعة كبيرة بلون أحمر..

أحمر الغضب.. أحمر الوجد.. أحمر الموت!

أحمر ك(فص خاتم) ابنته.. كدمائها التي سألت على
قارعة الطريق.. ولطخت كل ركن في قلبه!
يغمض عينيه بقوة كأنه يحاول التناسي كعهده.. ربما
لو استطاع القبض على ذاك (الكوبرا) تعود يده نظيفة
كما كانت..

ربما..

لكن تلك الحمرة التي تلطخ قلبه من سيمحوها؟!
_سمحوا لي بالخروج فلم أشعر بنفسي إلا وأنا آتي
إليك.. صرت هوسي اللذيذ يا "قلبية الثغر" .. صديقي
الذي أوقن أنه لن يخون ولن يفضح السر.. بقدر ما
أتمنى أن تفيقي كي لا تكوني ذنباً آخر يثقب كيسي
الثقيل.. بقدر ما أخشى أن أفقد شعوري براحة البوح

إليك.. أنت.. أنتِ بالذات.. ربما يمكنني أن أخبرك يوماً

ما..

_وماذا عني أنا؟! أظنك ستخبرني أنا الآن.

يلتفت أديم بحدة وهو ينتفض واقفاً مكانه ليشهر

سلاحه بحركة عفوية نحو حسام الذي أظهر نفسه من

خلف ستار الغرفة لتتواجه نظراتهما الصارمة..

يقترب حسام منه يتفحصه بعينيه الصقريتين قائلاً:

_لا تتعجب.. أعرف أنك اتخذت احتياطاتك لزيارتها

بما يناسب شخصاً في وضعك.. لكنني لست هين

الشان أنا الآخر.

_ماذا سمعت؟!!

يسأله أديم منعقد الحاجبين عبر أنفاسه المتلاحقة ولا
يزال سلاحه مرفوعاً.. ليتفحصه حسام ببصره قارئاً
لغة جسده..

هذا الرجل ليس فاسداً.. لعلمهم أجبروه على فعلها.. لا
يستبعد الأمر فقد رأى منه الكثير.. لكن ما يثير
فضوله هو سبب تراجع أديم عن المزيد.. هل صحا
ضميره فجأة!؟

لا يهم.. سيجبره أن يعترف بكل ما يعلمه..!
لهذا يزيح سلاح أديم جانباً بحركة مسيطرة ليتجاهل
سؤاله قائلاً ببرود :

لا يهم ما الذي سمعته الآن.. الخطير فعلاً هو ما
عرفته منذ أيام فقط.. عن كونك كنت تعمل سابقاً مع..
الكوبرا.

يهمس بالكلمة الأخيرة في أذنه وهو يميل عليه
لتشعب ملامح أديم وهو يتراجع خطوة للخلف..
لحظة واحدة اختلت فيها موازينه لكنه أجاد السيطرة
عليها وهو يبتسم ساخراً بقوله:

_ سلامة عقلك! من فينا الذي أثر الحادث على رأسه
أنا أم أنت!؟

لكن حسام يبدو متوقفاً لردة فعله وهو يبتسم ساخراً
بدوره ليهمس له بخفوت :

_ لست وحدك.. معي القائمة كلها لغطائه الداخلي
بجهاز الشرطة منذ أيام رفعت الصباحي.. ليست
الأسماء فحسب.. بل والدلائل التي تدينها.
_ كاذب! لو كنت تملك شيئاً كهذا لسلمته للشرطة ولم
تكن في حاجة لتبلغني به.



يقولها أديم بثبات وهو يتحرك ليعطيه ظهره.. لكن
حسام يتحرك بدوره ليووجهه بنظراته النافذة..
لم يخبر أحداً عن الفلاشة التي أعطتها له يسرا..
ربما لأنه لم يعد يثق بأحدهم بعدما عرفه ويخشى أن
يصل الأمر للكوبرا فيعيد ترتيب أوراقه قبل أن يتمكن
هو من استغلال عامل المفاجأة..

وربما لأن حدساً بداخلة يكاد يوقن من نزاهة أديم
رغم ما عرفه..

لعله هو الآخر يملك "ندوب سجائر" غير مرئية
تشبه خاصته!!

تعرف أنني لا أكذب.. سأسلم ما معي للشرطة فعلاً
لكن في الوقت المناسب.

يقولها بحسم لتهتز عينا أديم للحظة قبل أن يغمضهما
بقوة..

هل حانت لحظة الحقيقة؟!!

غلطة واحدة ستقضي على تاريخه كله!!!

لكن.. لا تزال هناك فرصة!!!

لعل القدر منحه بعض الرحمة أن يكون حسام القاضي

بالذات هو من بيده الزمام الآن..

_ هل يعرف أحد عن هذا الأمر غيرك?!!

يسأله ولا يزال مغمض العينين ليتردد حسام قليلاً ثم

يقول بحسم:

_ لا.

لم يكد ينتهي منها حتى شعر بفوهة سلاح أديم

تلتصق بصدغه مع قول الأول :

_ولن يعرف أحد.



أحمر



_ظلم.. ظلم.. هذا ظلم.. أريد حقي.. أريد حقي..
لا يزال إبراهيم يصرخ بها بانفعال بعد صدور حكم
المحكمة الذي صدر كما توقعه حسام تماماً..
براءتها بدعوى عدم اتزانها نفسياً مع الحكم بإيداعها
مصحة نفسية يعلم أنها لن تمكث فيها إلا صورياً!!



يحاول من حوله تهدئته لكنه يندفع نحوها عبر

القضبان..

هذه المرة لا يختلس النظر بل يمطرها بوابل من

نظراته الحاقدة..

وابل يصيب هدفه فتترنح مكانها..

تشعر بكل نظرة من هاتين العينين اللتين طالما هطلتا

بالعشق في واديهما الآن تطعنها في صدرها!

تكاد تسقط فيتلقفها ذراعاه بلهفة!

لهفة أحييت الأمل بقلبها ونثرت الشظايا بقلبه!

كيف يكرهها كل هذا الحد؟! ويعشقها كل هذا الحد؟!!

كيف يود الثأر منها بجعلها تتنفس آهات لوعتها..

وكيف يغار عليها أن تسقط فيضمها ذراعان غير

ذراعيه؟!!

كيف يود لو يصفعها.. لو يجلدّها.. لو يزهق أنفاسها
واحداً واحداً بقدر ما خدعته..

وكيف يريد أن يخفيها بين ضلوعه.. يشكو إليها
منها.. هي وحدها.. وهو يدرك أنها - كعدها -
ستجيد ترويض وجعه؟!!

لهفة كرهها حد الموت وبالذات عندما رأى دبلته لا
تزال في إصبعها..

هذه التي انتزعها بقوة ليطيح بها في الهواء هاتفاً
بقسوة :

انعمي بنفوذك يا ابنة أبيك.. لكن اعلمي أنني سأدعو
عليك في كل صلاة.. أعرف أن مثلك لن تكثر بهذا..
لكنني أرجو أن تلاحقك اللعنة أينما حلت.. أن
تحترقي بي كما احترقت بك.

ترم شفيتها بقوة وهي تتشبث بالقضبان بينهما مخافة
أن تسقط وهي تدرك ان ذراعيه لن تتلقاها هذه
المرة..

تراه يغادر القاعة راكضاً كعاصفة فتتقل بصرها لربيع
الذي رمقها بنظرة ملتاعة قبل أن يلحق به هو وأبناء
عمه..

نظرة هبة الطويلة العاتبة كانت كل ما نالته منها قبل
أن تغادر بدورها..

ترمق سمرا التي وقفت مرتعدة مكانها بنظرة خاوية
وقد صدر لها حكم مخفف مع إيقاف التنفيذ..

فتسمح لنفسها أخيراً بالتهادي موقنة أن الستار قد
أسدل على نهاية اللعبة في سابقة غريبة..

وقد خسر كل اللاعبين فلم يربح أحد!



وما المقابل؟!؟

يقولها حسام باستهانة وقبضته تطيح بسلاح أديم
بخفة من يدرك أن صاحبه ليس بهذا الغباء كي
يؤذيه..

فيرمقه أديم بنظرة طويلة صامتة ثم يطرق برأسه..
يقترب من فراش دينا حتى يكاد يلاصقه.. يتشبع من
ملامحها بنظرة أخيرة قبل أن يغادر الغرفة بخطوات
بطيئة ليلحق به حسام فيقول بترقب:

أظنها ساعة الحقيقة يا أديم.. أم أناديك باسمك
الحقيقي.. يا (بشر).

يلتفت نحوه بشر ببعض الحدة ليردف حسام

بصرامة :

_ نحتاج لحديث طويل ليس هذا مكانه.

يهز له بشر رأسه وهو يتحرك ليغادرا معاً المشفى
بعد تأمين مناسب ضمنه الأول، يستقلا سيارة كانت
تنتظر تحت المشفى قادها بشر لمكان بعيد منعزل
توقف فيه.. عيناه الخبيرتان تطوقان التفاصيل حوله
باهتمام..

أصابعه السمرء القوية تنقر على مقود السيارة ببطء
ليقول أخيراً :

_ أيامها كنت لا أزال أعمل في جهاز الشرطة قبل أن
أنتدب لعملي في جهتي الأمنية الحالية.. لم أعرف
(الكوبرا) مباشرة.. لكن رسالته وصلتني عبر بعض

رجاله.. التعاون لمرة واحدة فقط.. والعرض لا يمكن
رفضه..

_ يمكنني التخمين بأن الأمر يتعلق بابنتك..
يقولها حسام بحذر فيلتفت نحوه بشر بعينين
ملتفتين ليرد حسام بنبرة عملية لم تخل من
تعاطف وقد مس الأمر (عقدته الخاصة) :
_ جمعت بعض المعلومات عنك وتبينت حادثة اختفاء
انتهت بعودتها سالمة.

يهز بشر رأسه ليقول بشرود :
_ لن أهين ذكائك بذكر تفاصيل.. الأمر كان واضحاً..
الطفلة مقابل تنفيذ أمره..

ثم تلتوي شفتاه بابتسامة بمذاق الدموع وهو يردف
عبر شروده :

_ اختارني لأنني كنت مشهوراً بين زملائي بشدة
نراحتي فلن يشك أحد في أمري.. اختطف الطفلة
وجعلني أسمع صرخاتها المتوسلة.. الوغد أجاد
اختيار نقطة ضعفي.. لم يكن اي شيء أو أي شخص
في هذا العالم يجعلني أرضخ له سواها.. تعرف ما
الذي يثير السخرية؟! ما الذي ينغرس كخنجر مسموم
في صدري طوال هذه السنوات؟! أنه أعادها لي
سالمة لتموت اليوم التالي في حادث طريق؟! تخيل!
أتوبيس المدرسة يصطدم بآخر فتموت ابنتي! هكذا
ببساطة بعدما تلطخت يدي! شعرت وقتها أنه عقاب
القدر لي على فعلتي.. ومن حينها وأنا أسعى خلفه
بكل طاقتي..

يتهد حسام بأسف حقيقي وهو يشعر بلوعته تنتقل إليه، لكنه يتجاوز عن هذا ليسأله بصوت متحرج:

وماذا كان هذا الأمر الذي احتاجك لأجله؟!

هذا بالضبط ما قصدته بـ "المقابل" .. "الفاشة"

معك مقابل ما أعرفه عن الكوبرا.

يقولها بشر باختناق بدا وكأنه زاد من ظلمة ملامحه

ليقول حسام بانفعال:

أنا من أملك حق المقايضة وليس أنت!

ما أعرفه يهيك أنت بالخصوص ولا أظن غيرك

سيكون أكثر اهتماما به.

ماذا تقصد؟!

هذا يعني أننا اتفقنا؟!

لم نتفق على شيء.. أنت في نظري حتى الآن مجرد خائن.. حتى لو تعاطفت معك وسلمت جدلاً أنه كانت لك دوافعك فما يجبرني على تصديقك!؟

لو فكرت قليلاً فستدرك أنني أسعى خلفه مثلك تماماً.. لا كمجرم فحسب.. لي معه حساب آخر.. هو أجبرني أن يكون النقطة السوداء الوحيدة في طريقي ولهذا لاحقتك أنت أول الأمر عندما رأيت في ملفك ما يشبه ما حدث معي.. ظننتنا سنصل لنفس النقطة لكنني وجدت طريقك مسدوداً.

يهتف بها بانفعال ليشيح حسام بوجهه مفكراً فيما يردف بشر :

الفلاشة معك لا تساوي شيئاً.. لن توصلك لشيء وأظنك لست بهذه السذاجة لتدرك أن رجلاً بخطورته

سيعلم عن الأمر بمجرد وصولها إلى الشرطة.. لكنها
معي ستساوي الكثير.. أنا يمكنني الاستفادة من
صلاحيات منسوبي وتدبر الأمر على أكبر قدر من
السرية.

يعود له حسام ببصره وقد بدا التوتر على ملامحه..
هل يخاطر بالأمر!؟

لن يخسر شيئاً على أي حال فالبيانات كلها منسوخة
معه ولو أراد أديم إيذاءه فلن يمنعه شيء..
كما أنه لن يستفيد شيئاً من فضح أديم خاصة وهو
يوقن أنه حقاً كان مجبوراً على فعلته..
_ ما الذي تعنيه بالأمر الذي يخصني!؟

يبدو سؤاله وكأنه قد حسم الاتفاق بينهما ليرد أديم
وهو يشيح بوجهه :

_ الأمر الذي طلبه مني وقتها لم يكن هيناً.. كان يتعلق
بتلفيق موت امرأة تعرضت لحادث مع أهلها منذ
سنوات..

_ أي امرأة؟! وماذا يخصني أنا؟! وماذا تعني بتلفيق
موتها؟! ألا تزال على قيد ال..

يقطع حسام عبارته لتتسع عيناه رويداً رويداً وذكاؤه
يلهمه الحقيقة قبل أن ينطق بشر بكلمة واحدة..
فيرتعد صوته وهو لا يدري كيف جذب بشر من
ملابسه نحوه ليهدر بعنف :

_ من هي؟!!

ورغم توقعه لكن الإجابة تصفعه :

_ فجر.

=====

أحمر

_ انتهت اللعبة يا أمي.. ورجعت.. رجعت كما كنت.
تقولها يسراً وهي تجلس على فراش أمها، تحتضن
كفها براحتيها، تحدثها رغم يقينها أنها شاردة عنها
في عالم آخر، الأطباء يتحدثون عن تدهور حالتها
المتوقع.. هل تتركها هي الأخرى!؟

_ لا تتركيني يا أمي.. لا يكن هذا مزيداً من جزاء
ذنوبي.. أنا أفلتت هذه المرة أيضاً من العقاب.. أفلتت
بنفوذ الصباحي كالعادة.. تعلمين أنها المرة الأولى
التي تمنيت فيها لو أعاقب أشد عقوبة.. لو ينحرون

عنقي لعلني ألمح في العيون نظرة واحدة.. نظرة
واحدة تشعرني أن أحدهم فقط رحمني.. كلهم
رجموني بلغاتهم.. كلهم رفضوا أن يسمعوا.. حتى
الذي كان يقضي لياليه بين ذراعيّ يعدني كل مرة أنه
سيسمع.. أخلف وعده وهو الذي لم يخلف وعداً أبداً..
ظلمني وهو الذي لم يظلم أبداً.. بخل عليّ بالشيء
الوحيد الذي كنت أتسوله منه وهو الذي عهدته كريماً
لا يرد سائلاً أبداً..

تقطع كلماتها بنحيبها وهي تلقي نفسها على صدر
أمها..

هي تعرف رائحة هذا العناق بالذات.. في هذا الموضع
بالذات..

رائحة تزكم أنفها بمذاق الخيبة.. الفشل..

جربته طفلة وهي تعود مثقلة بشهادة دراسية..

ومراهقة تعود بسجل خساراتها..

جربته بعد طلاقها الأول من حسام..

والثاني من فهد..

والثالث من فادي..

وها هي ذي تجربته الآن من جديد..

كأنه المحطة التي يلف قطارها كل مرة ليعود إليها..

وقد تكسرت قضبانه وتآكلت عجلاته لكنه يصر كل

مرة على رحلة جديدة لعل النهاية تختلف..

ولا تختلف.. لا تختلف!

ابنتي.. يسرا.. هل رجعتِ؟!

تتمتم بها المرأة بما يبدو كالهذيان لكن حنانها

الصادق كان نسمة باردة وسط الجحيم الذي تصطلي

بها روحها فتمرغ وجهها في صدرها وهي تشدد من

قوة عناقها هاتفة وسط شهقات بكائها :

_رجعت.. رجعت.. سامحيني اني قد تركتك.. لم تكن

قسوة أو جحوداً كان خوفاً وأنتِ تعلمين.. رجعت..

رجعت خائبة ككل مرة.. ابنتك التي طرق رأسها كل

جدران اليأس.. ظننت هذه المرة مختلفة.. ظننتهم

أحبوني أنا.. أنا دون اسم.. لا يهم الاسم.. ماذا يهم

الاسم؟! لكن.. لكن لعنة الاسم بقيت تلاحقتي.. عدت

يسرا وعادوا يجلدونني..

_من هم؟!!

تسألها المرأة بحنان قلق في انتباه نادر لمثل حالتها

لتبتسم يسرا وسط دموعها وهي تقبل كف أمها هاتفة

بانفعال :

_وددت لو أحكي لك عنهم.. عن رجل تمنيته أبي..
عن فتاة تمنيتها أختي.. عن أهل تمنيتهم أهلي.. وعن
رجل.. عن رجل صار أقرب إليّ من نفسي وصرتُ
أبغض أهل الأرض لنفسه.

تنهار بعدها في بكاء طويل فتضمها الأم بحنو قبل أن
تعود لشرودها..

تتمتم بين فينة وأخرى :

_ابنتي رجعت.. يسرا رجعت.. رجعت..

لترفع يسرا رأسها أخيراً كأنما تلقت الكلمة بمعنى
آخر..

تتجمد دموعها فجأة على وجهها..

تتوقف رعشة جسدها..

تقسو نظراتها وهي تردد بضحكة ساخرة :

_أجل.. رجعت.. لماذا لا ترجع؟! لماذا لا يرجع كل شيء؟! يرجع كل شيء ككل مرة؟!
تهض لتغادر غرفة أمها نحو غرفتها..
تفحص صورتها في مرآتها.. تمسح بقايا دموعها لتعتني ببشرتها وهي تدندن بلحن مبهج..
تتوجه نحو خزانة ملابسها تفتحها على مصراعها..
تنتقي ثوباً عاري الذراعين والظهر بلون أحمر مثير تبسم له كأنها تحدثه بلهجتها القديمة :
_يسرا الصباحي رجعت.. أرني مهارتك الليلة.. أريد أن أخطف الأبصار كلها..
ترتديه لتفحص شكلها.. تضع المزيد من مساحيق التجميل تداري إرهاق ملامحها..



ترفع شعرها في عقصة ناعمة لتبدو استدارة كتفيها

مثالية..

ترتدي حذاء بكعب عالٍ.. عالٍ جداً.. كأنها تعوض

شعورها بالدونية..

تتزين ببعض الحلبي الفاخرة حتى تصطم عينها

بإصبعها الخالي من دبلته..

تتذكر مشهدها وهو يطيح بها لتطير في الهواء..

تراها تجدها يوماً؟!!

لا.. ضاعت.. ضاعت مثلها تماماً.

تنتقي أفخم خاتم ماسي تملكه لتضعه في ذاك الإصبع

لكن قلبها الخائن يخذلها في اللحظة الأخيرة فتطيح به

بملء ذراعها كما فعل هو بدبلتها..

لا يليق بإصبع حمل خاتم ملكيته أن يحمل بعده آخر!

ترمق صورتها في المرآة بنظرة طويلة..

من هذه؟!!

هذه يسرا.. يسرا التي يعرفها الجميع..

والتي ظنت أنها ستهرب منها!

تشعر ببعض الذنب وهي ترفع وجهها لأعلى لكن

شيطانها يجعلها تصرخ بانفعال:

_ كانوا أول الكاذبين.. كانوا أول المنافقين.. كانوا

يتحدثون عن التوبة وهم أول من أنكروها علي.. كانوا

يتحدثون عن العفو وهم أول من أغلقوا الباب في

وجهي.. كلهم رفضوني.. كل صلواتي لم تشفع.. ما

دامت النهاية هي هي فلماذا كان كل هذا العذاب؟!!

حسناً.. أنا سلمت.. سلمت أنني لن أتغير مهما دفعت
من ثمن .. يسرا رجعت.. رجعت.. رجعت لكل شيء.
صراخها يتحول لضحكة هستيرية وهي تمنح
صورتها في المرآة قبلة طائرة قبل أن تغادر غرفتها
نحو الدرج المؤدي للأسفل في طريقها للخروج نحو
النادي..

ستعود للشلة القديمة.. هذه المرة لديها أكثر الحكايات
إثارة..

فمرحباً بالعودة للضلال القديم..!
ترمق الدرج من أعلى بخيلاء وهي تنظر لمرآة
قريبة..

ستكون صورتها هذه حديث الناس لأيام..

ستعود لتكون مركز الحكايا.. ومن يدري ربما عثرت
على لعبة أخرى أكثر إمتاعاً.. وأكثر فلاحاً!

(أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا

يُفتنون)

رعدة!

رعدة تسري في جسدها و عنقها يلتفت بحدة كادت
تخلعه من مكانه مع الصوت العذب الذي انساب
بالتلاوة..

يكررها مرة تلو مرة..

نفس الصوت الذي كان ينبعث من إذاعة القرآن
الكريم بذاك المذياع القديم ببیت هبة..

خطواتها تتسحب مسحورة نحو مصدر الصوت الذي

يتكرر كأنه رسالة لها وحدها..

تتوجه نحو المطبخ القريب حيث يزداد الصوت

علواً..

ن

_أسفة يا (هانم).. الخادمة الجديدة هي من تعلي

الصوت هكذا.. سأجعلها..

لا تسمع المزيد من صوت كوثر ولا تزال خطواتها

تتسحب نحو المذيع الموضوع على طاولة قريبة..

تتلمسه أناملها كأن قدميها الملطختين بالوحل

تطاردان وسط المطر أطياف (قوس قزح)!

ورغم أن الشيخ ينتقل بالتلاوة لآية تالية لكنها تبقى

وحدها تدوي في أذنها.. بل في روحها..

تراها أخطأت الفهم؟!

لم تكن عقوبة.. بل ابتلاء!

مرآة جديدة.. بصورة جديدة..!!

لا تدري كيف صارت فجأة في الحمام المجاور..

قطرات الماء النقية تغسل وجهها وتزيح عنه أثر

مساحيقه..

برودة الماء تطفئ الكثير من هذا اللهب المستعر

داخلها..

تتوضأ..

تتوضأ..

تتوضأ..

تعيد الوضوء كل مرة كأنها تريد المزيد من التطهر..

هذه المرة لم تكثرث بالإصبع الذي خلا من دبلته..

بالبطن الذي خلا من ابنه..

بالجسد الذي أضاع حقه فيه..

كفاها أنه ترك لها هذا القبس بروحها..

قبساً ستحرص ألا ينطفئ.. كي لا تنطفئ..

قبساً من الإيمان هو وحده ما يصلها بالسماء!

ترتدي حجابها كاملاً وهي تستقبل القبلة لتصلي

الصلاة التي هجرتها بعد الحادث..

ربما لم تفهم الحكمة بعد.. لكنها فهمت الغاية..

ربما خسرتهم هم.. لكنها لن تخسر نفسها..

ربما لن يعودوا.. لكنها هي ستعود.. لن تعود يسرا
ولن تعود سمرا.. بل ستعود لتعيش في (يسرا) كل
الذي أحبته في (سمرا).

هذه المرة كان للسجود طعم آخر..

لم تعد تراه طريقاً للستر.. بل لصاحب الستر..
الستير..

لم تعد تراه طريقاً للود.. بل لصاحب الود.. الودود..
لم تعد تراه طريقاً للمغفرة.. بل لصاحب المغفرة..
الغفور..

لم تعد ترى نفسها.. ولا الناس.. بل رب الناس.
_ اجعلها خالصة لك.. لله.. لله رب العالمين.. توبة لا
ترد.. تكون لي نوراً في الدنيا والآخرة.. ثبتني كي لا
أعود..

تتمتم بها في سجودها فتعود!
تعود نفس القناديل المضيئة التي تلتمع وسط دموعها
فيرتجف لها جسدها..

تختم صلاتها وهي ترفع رأسها لأعلى بابتسامة..
ابتسامة حقيقية هذه المرة..

هاقد تحرر كتفها من وزر الكذب.. الغش.. الخداع..

الآن تعود حيث يجب أن تعود..

تعود لأنها تريد أن تعود..

_ سيدتي.. أحدهم يطلب رؤيتك.

تقولها كوثر وهي تتطلع إليها مشفقة من حالها

الغريب فتهمز رأسها وهي تنهض..

فتتنحج كوثر لتسألها بتردد :

_ ستقابلينه هكذا!؟!

تقولها مشيرة لجلباب يسرا الواسع وحجابها بشكله

المناقض لهيئتها المعهودة هنا..

فتبتسم يسرا دون رد وهي تتجاوزها لتتحرك نحو

بهو الفيلا..

ولم تكد تميز هيئة الزائر حتى شعرت بالدماء تضخ

حارة بين عروقها..

تندفع راكضة نحوه لتلقي نفسها بين ذراعيه كمن

ردت إليها الحياة هاتفة بلهفة :

_أبي.

=====

_أبي.. أبي..

تهتف بها بين شهقات دموعها التي سقطت على
كتفيه وهي تتشبث به.. تخفي وجهها في صدره
مردفة :

_أرجوك دعني قليلاً هكذا.. حتى لو كنت جئت غاضباً
أو شامتاً.

ينعقد حاجباه بتأثر حقيقي وهو يربت على ظهرها
ليقول بحنان لم يخلُ من عتاب :

_ معاذ الله.. هل عهدتني هكذا يا "ابنت.."

يقطع الكلمة الأخيرة دون أن يكملها فترفع رأسها إليه

لتهتف بهستيريتها المعهودة :

_ لماذا لم تكملها؟! أنا ابنتك.. ابنتك.. أنا ابنة ربيع..

تقولها لترفع وجهها لأعلى وهي تغطي وجهها

بكفيها..

ماذا لو كان قد أتى قبل دقائق.. دقائق فقط ليراها

بمنظرها السابق!؟!

تحمد الله سرّاً وهي تشعر بجمال العطية يمنحها بعض

القوة لتردف بدموعها الحارة :

_ والله العظيم ما سعيت لشيء منذ سمعتها منك إلا

لكيف أستحق شرف كلمة مثلها.. قد أكون كذبت في

كل شيء إلا مشاعري نحوكم.. والله العظيم..

تكرر قسمها برجاء يأس ولا تزال تغطي وجهها
بكفيها فيزيحهما عن وجهها ليقول بجمود :
_وأنا جئت لأسمع منك.. لم يعد هناك داعٍ لتكذبي
عليّ هذه المرة.

لا يزال عتابه يكسو حنان كلماته لتمنحه ابتسامة
اعتذار مرتجفة وهي تشير له بالجلوس لكنه يرفض
قائلاً ببعض الضيق:

_اعذريني.. لن أستطيع الجلوس.. بل لن أستطيع
البقاء طويلاً.. شعوري بدخول هذا البيت يجثم على
أنفاسي.. أعلم أنه لا تزر وازرة وزر أخرى لكن..
يقطع عبارته التي أدركت فحواها لتهز رأسها بتفهم
وهي تتناول حقيبتها من الجوار.. ثم تدعوه للخروج..

يغادران قصر الصباحي ليلتفت نحوها ملاحظاً
تمسكها بحشمة حجابها.. لقد توقع وهو يدخل هذا
القصر أن يجد من يدعونها "يسرا".. لكنه وجد

سمر!

سمر ابنته!

فما يعني خلاف الأسماء!؟

يتنفس الصعداء وهو يسير معها مبتعدين عن المكان
لتلف ذراعها حول ذراعه فلا تدري أيهما يسند
صاحبه..

أعترف! القصة بدأت لعبة.. خرجت قبلها من ماضٍ
أسود لا أريد أن ألوث أذنك بسماعه.. أنت فقدت ابناً
وتدرك كيف يكون شعور المرء وقتها.. ما بالك لو
كنت أنا السبب!؟

يحوقل بصوت مسموع وهو يشعر أن دموعها تزداد

حرارة وصدقاََ بينما تردف بألم :

_ كان الحل الوحيد أمامي أن أنسلخ من جلدي.. ربما

أخفف بعض الوجع أو على الأقل أتأساه.. ووجدتكم..

وجدتكم دنيا تفتح لي ذراعيها.. عالماً نقياً يعدني

بهوية جديدة.. لم أكن أكذب يا أبي.. كنت أتأسى كي

أعيش..

تقولها ثم تبدأ في الحكاية عن ماضيها.. عن زيجاتها

الثلاث..

عن وفاة ابنها.. عن مرض أمها.. عن خوفها وقتها

من أن يتكرر مسلسل الفقد.. عن شعورها بالحرية

بعد وفاة رفعت الصباحي.. عن قسوته ومعاملته لها

كسلعة يبيعها لمن يدفع أكثر.. عن ملابسات لقائها

الأول بإبراهيم وظنها بوجود علاقة بينه وبين جنة..
وعن كل ما تلا ذلك بعدها.. حتى تنهيه بقولها:
_ لم أكن مخادعة.. كنت خائفة.. في كل لحظة كانت
تمر ليزداد تعلقي بكم كنت أخشى لحظة الفضيحة
والفقد من جديد..

_ لكنني منحتك أكثر من فرصة.. كنت أشعر أنك
تخبئين سراً.

يقولها عاتباً بانفعال لترد بانفعال مشابه :
_ أجل.. منحتني أكثر من فرصة لكنك كنت دوماً تذكر
عداءك لهؤلاء الذين يشبهون رفعت الصباحي..
هؤلاء الذين تلوثت أيديهم بدم ابنك وترغب في
القصاص منهم.. طوال هذه الأيام وأنا أخاف حين
تظهر الحقيقة ألا ترى فيّ سوى المزيد من إرث

الصباحي القبيح.. القصاص الذي أتك بارداً لترد له
صنيعه في ابنته فتقتلها كما قتل ابنك..
تتسع عيناه باستنكار وهو يتوقف عن المشي لتتوقف
مثله مردفة بنفس الانفعال:

_أجل.. إقصاؤكم لي بعيداً ليس قتلاً؟! .. نفيي بعيداً
دون أن تمنحوني حق الدفاع ليس قتلاً؟! رفضكم حتى
للتواصل معي ليس قتلاً؟! .. لست وحدك.. بل كلكم..
كلمت هبة مئات المرات وترفض الرد على اتصالاتي..
ذهبت إلى مكتبها في الجامعة ليمنعني العامل من
الدخول قائلاً انها لا تريد مقابلي.. أنت أغلقت
هاتفك.. أبناء أخيك كذلك..

تقولها ليغص حلقها وهي تردف :

_ وهو؟! إبراهيم! لست حمقاء لأطمع في صفحه.. كل ما رجوته فقط أن ينفذ وعده حتى لو اختار بعدها أن يعطيني ظهره .. ان يسمع.. أن يفهم.. أن يصدق أن ما بيننا لم يكن كذباً.. كما صدقتي أنت.
يرمقها بنظرة عميقة عبر عينيه الدامعتين لتتشبث بذراعيه قائلة :

_ أجل.. أنت تصدقتي.. أنت تصدقتي يا أبي.
تعود لتدمع بها عيناها فلا تدري هل تقولها كسؤال أم كرجاء لكنه يتهد بحرارة وهو يحاول استيعاب كل هذا الذي ذكرته..

ذنبها عظيم.. لكن لو كان الرب يعفو فمن نحن كي لا نصفح؟!!

الكلمات تبدو سهلة..

إنما ندبة القلب تبدو صعبة الشفاء!

_أصدقك.

يقولها أخيراً لتطلق صيحة مكتومة يخفيها كفاها
وهي ترفع رأسها للسماء كأنها تلقت لتوها بشارة

قبولها..

خاصة وهو يردف بصوت متهدج :

_أصدقك يا ابنتي.

تبتسم وسط دموعها وجسدها يختض بقوة انفعاله..
ترتجف أناملها وهي تفتح حقيبتها لتتناول منها بعض
الأوراق التي ناولتها له.. يسألها عن ماهيتها لتجيب

بخفوت :

_أرضكم.. جزء من حق حسن.

تتسع عيناه بانفعال وهو يميز التنازل المكتوب من
المستشار عن القضية المثارة عن الأرض محل
النزاع بينهما ليسألها بدهشة :

كيف فعلتها؟!

"ابنة الصباحي" أسدت خدمة ل" ابنة ربيع" ..
تقولها بمرارة ساخرة ليتفحص ملامحها الباكية
بعينين خبيرتين..

سبحان من يقلب القلوب كيف يشاء!
يطرق برأسه أخيراً وهو يشكرها بخفوت لكنها تعاود
التشبث بذراعيه قائلة :

لا شكر بيننا يا أبي.. قل فقط أنك سامحتني.. أنك
ستبقى جوارى.

يبدو التردد على ملامحه وهو يشعر أنه ممزق بينها

وبين إبراهيم..

إبراهيم الذي أقام الدنيا ولم يقعدا عندما علم فقط أنه

سيزورها اليوم..

لأول مرة يرفع صوته عليه محتداً ليهدده بترك البيت

لو فعلها..

صحيح أنه عاد بعدها يعتذر مقبلاً رأسه لكنه يدرك أن

الجحيم داخله لا يزال مستعراً ينذر بالخطر!

طالما عاتبه بأنه ليس كشقيقه غصناً تتجيه مرونته..

بل عصا يكسرها جمودها..

وهاهي ذي الأيام تثبت!

_ لا بأس.. أعرف أن ما أطلبه صعب.. أنا اكتفيت
بمجيئك اليوم.. كان منحة عظيمة لن أكون جاحدة
فأنكرها.

تقولها بتفهم نادر على طبيعتها وهي تكتف ساعديها
فيبتلع غصة حلقه ليربت على كتفها قائلاً :
_ انتبهي لحالك يا ابنتي.

_ لا تخف علي.. أنا وجدت الطريق ولن أضيعه.
تقولها وهي تعانق ملامحه بنظرة راضية..
لأول مرة لا تتخلل مشاعرها نحوه أي إحساس
بالذنب.

سيارة مسرعة تقترب منهما فيفاجأ بها تبعده بلهفة
حقيقية لم يتعجبها..

لقد كذبت في كل شيء عدا صدق شعورها معهم!

يودعها بعدما قبلت كفه ليربت على رأسها فترمقه
بنظرة أخيرة وهي تخشى أن تطلب المزيد..
يبقى طوال الطريق شاردًا فيما عرفه حتى يصل للحي
ليفاجأ بصياح الرجال :

_حمداً لله أنك جنّت! إبراهيم يتشاجر مع بعضهم
هناك.

_هم من بدأوا.. و "تعويرة الوش مفيهاش معلىش!"!
يقولها قيس مدافعاً عن إبراهيم بحمية وهو يظهر
جروح وجهه بعد انتهاء الشجار وقد سعدوا جميعاً
لشقة ربيع..

لتهتف هبة باستنكار :

_أنت يا إبراهيم تتشاجر بتلك الطريقة؟!!

_ ليس معهم فحسب..سمعت بعض الصبية ممن
يحضرون درس المسجد يقولون إنه وبخ أحدهم اليوم
وكاد يصفعه على وجهه.

يقولها روميو مندفعاً ليكم عنتر فاه وهو يرمقه
بنظرة زاجرة كأنه يحذره المزيد من غضب ربيع الذي
بقي صامتاً يرمق إبراهيم بنظرة طويلة..

لكن الأخير بدا في عالم آخر وهو يستعيد تفاصيل ما
حدث..

_ أمي تقول أنك طلقت زوجتك.

_ نعم.. فعلها لأنها "ضحكت عليه" .. كنا نظنك ذكياً

كألغازك التي تريد منا حلها .

قالها صبيان في درس المسجد فلم يشعر بنفسه وهو
يجذب الأخير من ملابسه ليهمّ بصفعه.. خاف بقية
الصبية وتركوا المسجد بينما بقي الصبي يعتذر
بخوف وهو يرجو منه العفو قائلاً إنه لا يكرر إلا ما
سمعه..

أفلته أخيراً ليركض الصبي هارباً فيما بقي هو وحده
في المسجد..

الدفق اللزج من الدماء الذي سال من أنفه بسبب
انفعاله لا يساوي شيئاً أمام نزيف قلبه في تلك
اللحظة..

نزيف قلبه وكبريائه!!

الصبية يسخرون منه.. فماذا إذن يقول الكبار؟!!

يشعر بجسده ينتفض فيسجد مكانه وهو يشعر

بالأرض تشتعل مثله وتحرق جبينه..

كأنما صار هناك حجاب بينه وبين دعائه!!

أين الخلل ؟!

تتوه منه فصاحته وهو يترك قلبه يدعو لكن شيطانه

يقذف المزيد من الصور في مخيلته..

كانت زوجة لثلاثة قبله!

خدعته بتلك العملية الحقيرة!

المزيد من الصور لها في أوضاع حميمية مع أزواجها

الذين رأهم تسحق رأسه وتفتت قلبه..

يسمع ضحكتها العالية مغوية ساخرة تعيره

بسذاجته..

تجبره أن يرفع رأسه وهو يكاد يصرخ بعجز!!

صعب! الابتلاء صعب يارب! الفقد هذه المرة أفسى
من سابقتها! اللهم لا اعتراض.. صبر قلبي ليصبر..
يارب.. يارب..

يكررها بحرقة وهو يخشى أن يعيد السجود فتعود
الصور!

يقف مترنحاً ليغادر المسجد كاتماً نزيفاً أنفه بكفه..
يهياً إليه أن نظرات الناس كلها نحوه تتهمه في
رجولته..

يفكر أن يلعب كرة القدم كعادته لكن يمنعه تعب..
وحزنه..

ليته بقي "الدرويش" الزاهد في كل شيء..

لا!

لن يسمح لها أن تعيده لذاك السجن..

لا تزال الدنيا تعده بالمزيد من الملذات المحللة..

لن تقف عليها..

لن تقف عليها!!

وبهذا الفكر يتوجه نحو إحدى محلات الملابس في

طريقه ليبتاع منها الكثير مما يفوق حاجته..

رمقه البائع بنظرة مشفقة تزيد تأجج النار في صدره

فغادر المكان بخطوات شبه راکضة..

_مغفل! مغفل في البداية عندما تزوجها.. وفي النهاية

عندما طلقها.. هل يفرط أحدهم في (صاروخ) كهذه!؟

هتف بها أحد الشباب الفاسدين الذين اشتهروا في

الحي بسوء أخلاقهم وهو يقف مع رففته مستندين

على إحدى السيارات وهم يتضحكون بوقاحة..

فألقي ما بيده جانباً ليتوجه نحوهم فيلکم المتحدث في

وجهه..

_وما أدراك اننا نتكلم عنك.. (اللي على راسه

بطحة)!

هتف بها الفتى بسماجة وهو يدفعه ليرد له لکمه
فرکله إبراهيم في بطنه ركلة قوية جعلت الأول ينحني

على نفسه بينما يهتف إبراهيم بانفعال :

_حرمة بيتي يا (...)

_وهل راعيت انت حرمة بيتك وانت ترميها في

الشارع دون حجاب!؟

يصرخ بها الشاب وهو يهوي بقبضتيه معاً علي رأس

إبراهيم الذي ترنح مكانه ليلتف حوله أبناء عمه

ويتحول الأمر لشجار كبير لم ينته إلا بتدخل ربيع.

ماذا فعلت هناك يا خالي!؟

تنتزعه بها هبة من شروده وهي توجه السؤال لربيع
الذي ما كاد يفتح فاه حتى انتفض إبراهيم هاتفاً

بانفعال جارف :

لا تقل شيئاً أمامي.. لا أريد سماع أي شيء عن تلك
المرأة.

يرمقه ربيع بنظرة عاتبة وهو يرفع الأوراق في يده
قائلاً :

الأرض عادت لنا.. المستشار تخلى عن القضية..
يهل الحرافيش بفرحة أعلنوها صارخة بعد عودة
الحق لكن هبة ترمقهم بنظرة عاتبة تخرسهم وهي
تشعر ببراكين إبراهيم تزداد اشتعالاً خاصة وربيع
يردف بانفعال:

_ لا أعرف ما الذي فعلته هي بالضبط.. لكنني اوقن

أنه لم يكن سهلاً!

_ هكذا إذن؟! لا تزال لعبتها القذرة كما هي! الهانم

اشترت رضاك بنقود أبيها!

يصرخ بها إبراهيم ملوحاً بكفيه وهو يرفض استقبال

المزيد من "ريشاتها البيضاء" ..

لكن صفقة ربيع المفاجئة تهوي على وجهه!

_ خالي!

تهتف بها هبة برجاء وهي تمسك كف العجوز الذي

احمر وجهه وقد دمعت عيناه بقوله المتحشرج :

_ وقد عهدت رضا أبيك يشتري بالمال؟!!

تدمع عينا إبراهيم وهو يتحسس وجهه حيث مكان

الصفعة ليعطيهم جميعاً ظهره مطرق الرأس..



ألا تزال (الرامية القرمزية) تجيد التصويب نحو

أهدافها؟!

هاهو ذا أبوه يصفعه لأجلها..

هو الذي لم يفعلها أبداً في حياته.. فعلها لأجلها هي!!

كيف يمكن أن يحقد عليها أكثر؟!

ترمقه هبة بنظرة بائسة مشفقة وهي خير من تفهم

ما يعانيه..

كيف لا وهي تكاد تكون شريكته فيه؟!

هي الأخرى لا تزال عاجزة عن العفو رغم كل

الشارات التي يلقيها في طريقها القدر!

(من يكذب مرة يكذب ألف مرة)

تقتنع بها نفسها كل يوم لكنها ساعة بعد ساعة تزداد

وهناً وطمعاً..

طمعاً أن تعود لها صديقتها وأختها..

وهل يمكن أن تعود؟!!

لماذا ذهبت إليها يا خالي؟!!

تقولها بنبرة مهذبة لكنها غارقة في حسرتها العاتبة

ليردف ربيع بانفعال وهو يشير لخاصرته :

ذهبت إليها لأن لها علينا حق الاستماع حتي ولو لم

نعفو.. لأن لها ديناً في رقبتني لن يكفي العمر كله

لسداده فهناك جزء من جسدها يضمه جسدي.. لأنني

وإن خُذتُ في ظاهرها فلم يخذعني باطنها.. باطن

امرأة أحببتنا حقاً رغم كل شيء.

كلماته تخرس الجميع وتجعل الحرافيش يتبادلون

النظرات بحيرة قبل أن تنتهد هبة بحرارة وهي تشير

لهم بالانصراف كي يتمكن ربيع من الخلوة

بإبراهيم..

إبراهيم الذي بقي واقفاً مكانه مطرق الرأس وهو

يتمنى لو طالت صفة أبيه قلبه كما طالت وجنته..

لعله يفيق من ثمالة عشقها التي تغيبه في

دواماتها..!

كلمات أبيه على عقلانيتها تمس جداراً صلباً بروحه

لا يحتوي أي فجوات..

لن يسمع المزيد.. لن يسمع!

يشعر بكف أبيه على كتفه فيلتفت نحوه ليقول بعتاب

ذبيح :

لم تصفني وأنا طفل صغير.. تفعلها الآن؟!

وأمامهم؟

ترتجف نظرة العجوز باعتذار متوجع وهو يقول

بحكمة:

_ من قال إن الصفعات للصغار فقط؟! الكبار يحتاجون

لصفعة إفاقة أحياناً.

_ صفعتني لأجلها؟!!

_ بل لأجلك أنت.. لأجل ان تعود لنفسك.. لو عدت

لنفسك فستكون أول من يذهب إليها لسمعها حتى

ولو اخترت في النهاية ألا تنظر في وجهها ثانية.

_ لن أسمعها.. لن اسمعها.. ما الذي تريدني ان

أسمعه؟! المزيد من الكذب؟! من الغش؟!!

يهتف بها بانفعال وهو يسد أذنيه بكفيه وقد احمر

وجهه ونفرت عروقه كاملة كأنه يحارب الدنيا كلها

الآن..

فيرد ربيع وهو يتحكم في انفعالاته قدر استطاعته :
_ عدم اتزان! لو سألتني عن حكمي فيها فسأقول أنها
كانت تعاني حالة (عدم اتزان) بعد وفاة ابنها.. حالة
دفعتها لما فعلته معنا.. حالة تشبه حالتك عندما
عرفت حقيقتها فسحبتهما للشارع بثياب البيت لتفضح
سترها على قارعة الطريق.. أنت.. أنت حافظ كتاب
الله.. الخلق المستقيم (ابن الأصول) فعلت هذا.. فهل
تعيب عليها هي وقد نشأت على غير ما نشأت أنت
عليه؟!!

يغمض إبراهيم عينيه بقوة وذراعه يتخاذلان جواره..
فيضمه ربيع إليه وهو يتهد بحرارة ليقول ابراهيم
بنبرة ذبيحة :

_ أرجوك يا أبي.. لا تكلمني عنها ثانية.. لا تفتح معي

هذا الموضوع أبداً.

يهز العجوز رأسه باستسلام ضائق ليفجر إبراهيم

قنبلته وهو يردف بحسم:

_ واستعد للذهاب معي الليلة.

_ أين؟!!

يسأله بتوجس ليجيب إبراهيم بنبرة حاسمة لا تقبل

الجدل :

_ ابنة جارنا التي كنت تلح عليّ من زمن بعيد أن

أتقدم لخطبتها.. قابلت أباهم الأمس ولمح لي بأنه لا

يزال يرحب بنسبنا.. لم أعد أحتمل حياتي دون

زوجة.. لنذهب لخطبتها.

=====

بنفسجي

يفتح حسام باب بيته في العاصمة والذي هجره ليقوم
في بيت الساحل منذ حادث وفاة أمه مراعاة لحالة
ديمة..

لكنه الآن - بعد عودته من لقاء بشر- يحتاج للاختلاء
بنفسه..

بل.. سيعترف أنه يحتاج لسُلطانة.. أو بالأدق.. لما
بقي منها..

صحيح أن جرائها الصغيرة في مكان آمن لدى أحد
معارفه يجيد الاعتناء بهم حتى يتمكن من
استعادتها..

لكن هاهو ذا بيتها الخشبي الصغير لا يزال قابلاً
مكانه..

شاهداً على كل شيء..

على وجوه ضعفه.. ذنبه.. انتقامه الذي لم يستطع
المضيّ فيه.. وعودته لأجمل وجوهه البيضاء..
يتقدم نحو البيت الخشبي ليجثو على ركبتيه أمامه
فارداً ذراعه بطوله ليستند عليه..

الغضب الهادر داخله يكاد يدفعه ليحطم كل شيء حتى
يعثر على ذاك الكوبرا ويستعيد أخته التي أخفاها كل
هذه السنوات..

لكنه يعلم أن الأمر بهذه البساطة..
الداهية الذي يجيد تشبيك كل هذه الخيوط بهذه
المهارة وله هذا العدد من الأزرع داخل البلد وخارجها
لن يكون القضاء عليه هيناً..
لكنه سيفعلها..

سيستعيدها ولو دفع عمره في المقابل!
فجر!

يبتسم بتأثر وهو يستعيد ملامحها البريئة.. صوتها
العذب.. مهارتها في العزف على العود..
ينقبض قلبه أكثر وهو يتذكر مصابها بعد هروبها
وزواجها من ذاك ال..!!

مهلاً!!

من له مصلحة في تليفق موتها بهذه الطريقة؟!

هو يذكر جيداً أنها لم تكن تنتوي السفر مع أهلها ذاك

اليوم وجاء ذلك مصادفة؟!!

هل كان الحادث مديراً؟!!

هل دبره صاحبه وهو لا يعرف بوجودها معهم؟!!

لماذا؟!!

هل فعلها منتقماً؟!!

من هو؟!!

يكز على أسنانه يكاد يسحقها والجواب المنطقي

الوحيد هنا يبدو غير منطقي.. بل مستحيل!!!

فهي؟!!

هل هو حقاً؟! وما سلطته ليفعلها؟!!

هو لم يعرف عنه شيئاً طوال هذه السنوات.. لكن.. هل

غيرته إلى هذا الحد؟!!

هل يملك الزمان سطوة التغيير هذه ليقطب حال المرء

من النقيض للنقيض!؟

هو الذي يسأل!؟

ابتسامة ساخرة تبدو حارقة وسط كل هذا الغضب

الذي يكويه..

_ اهدأ يا حسام.. اهدأ كي لا تفسد كل شيء..

يأخذ بها نفساً عميقاً وهو يحاول تصفية ذهنه لكن

هيهات..!

أمرٌ آخر يورقه!

لقد عاد عاصي الرفاعي وهو الشأن الذي كان

ينتظره.. ويخشاه.

كان أخبره أنه يتواصل معه دوماً بشأن سند وديمة

الذين قطعاً شوطاً طويلاً في رحلة تعافيهما..



لم يعد لوجوده مبرر إذن..

حان وقت الانسحاب!

دمعة كبيرة يذرفها قلبه دون عينية وهو يطرق

برأسه بينما أنامله تزداد تشبثاً ببيت سلطنة..

كأنه ينعي كل من فقدهم وسيفقدهم من أحبته!

يلتفت بحدة وهو يشعر بالكف على كتفه لتتسع عيناه

بمزيج من لهفة وقلق وهو يميز ملامحها هاتفاً :

ديمة! كيف جئتِ إلى هنا وحدك!؟

فهد أخبرني أنك تريد قضاء ليلتك هنا.. ألححت عليه

أن يوصلني.

تقولها بنبرتها التي عاد أحمر قوتها يغلب أزرق

خوفها ليلتفت نحو بوابة البيت الخارجية حيث وقف

فهد يرمقه بنظرة متفهمة من بعيد وقد أخبره حسام

قبلاً بتطورات الوضع قبل أن يهز له فهد رأسه بحركة
داعمة وهو يغلق البوابة خلفه تاركاً لهما مساحة من
الخصوصية..

يرفع رأسه للسماء المظلمة وهو يكاد يشعر بها
تهوي فوق رأسه..

لماذا جاءت الآن؟!!

هنا بالذات حيث لا يجب أن تكون مع كل تاريخهما
الأسود هنا؟!!

لهذا يزيح كفها عن كتفه برفق متحاشياً النظر إليها

بقوله البارد رغم إنهاك صوته:

_ عودي معه.. أنا بخير.. لا تقلقي.

_ أنا أريد البقاء هنا.

تقولها بنبرتها التي اكتسبت المزيد من القوة ليهتف
وهو يقف فيرجها بين ذراعيه ببعض العنف وقد غلبه
انفعاله :

_ لا ينبغي أن تكوني هنا.. هنا بالذات.. عودي معه
وساتيك صباحاً.. أريد البقاء وحدي.. تفهمين؟! أحتاج
البقاء وحدي.

يغلبها أزرق خوفها للحظات وهالة المكان حولها
تحملها لذكرى أيامها الأخيرة هنا.
السكين في يدها يمزق كل شيء..
موت سلطنة..
موت امه..

الرجال يقيدون حركتها ليذهبوا بها للمشفى..
قسوة نظراته وهي تتوعدّها بالتخلي..

فتغمض عينيها بذعر لم تسمح له أن يملكها أكثر

هذه المرة..

تحاربه بذكرى عناقه لها بعدها..

بمذاق (أنا معك) التي أذابت حلاوتها كل مرارة كانت

قبلها..

وبقوة هذا الشعور الذي لم تعرفه في عمرها كله إلا

معه..

لتهتف أخيراً بقوة :

_لن أرحل.

يرمقها بنظرة غريبة وهو يشعر بحلقة الزعفران في

عينيها تمده بقبس من نور يحتاجه هذه اللحظة..

يحتاجه ويخشاه!

كيف يخبرها أنه يعشق قوة نبرتها المستحدثة هذه

كأنها إنجازه الأعظم..

بل كأنها كل ما بقي له!؟!!

"بقي" ؟!

هل يمكن أن تقترن هذه الكلمة حقاً بما يخصهما!؟!

يبتعد عنها ليعطيها ظهره وهو يعود يرفع رأسه

للسماء، فتقترب هي لتواجهه بنفس القوة رغم

ارتعاش صوتها :

_أعرف أنك تخاف عليّ مواجهة المكان هنا..

وأعرف أنك محق.. وأخاف مثلك.. أخاف أن أعود

للرهبة من المرايا.. او للأقسى.. أن أعود للخوف من

نفسي.. لكن..

تقطع عبارتها وكفاها يتشبتان بكفه فيرتجف جسده
وهو يشعر ببرودتهما ليعود ببصره إليها مجبوراً
فتردف بخفوت :

_كفك دافئ.. تعرف معنى هذا لواحدة أشد ما خافته
في حياتها هو البرد!؟!

لوهلة هيئ إليه أنها نسيت ما كانت تتحدث عنه قبل
أن ينتبه للمعنى المبطن في عبارتها..
يحاول جذب كفه بعيداً لكنه - للعجب- لم يجد المزيد
من القوة ليفعل!

فقط يغمض عينيه بقوة وهو يكاد يرجوها الرحيل
بعدما يأس من عقم العنف معها..

ليصله صوتها المرتجف الغريب بالمزيد من قوتها
المستحدثة:

_ ماذا بك؟! أعرف ألا أحد عاقلاً يأتمن من هي مثلي

ليبوح لها بخفاياها.. لكن..

تقطع عبارتها وأناملها تتلمس عقدة حنجرتة لتهمس

بخفوت :

_ أنت لست مثلهم.. أنت تختلف.

هل امتد ذراعاها تعانقانا أولاً؟! أم فعلت هي؟!!

لا يهم!

كلاهما كان يحتاج هذا في نفس اللحظة!

هي التي كانت تشعر في كل مرة يبعدها فيها بهذا

الجفاء الظاهر أنها تعود لتتقسم اثنتين.. واحدة تخاف

فراقه وواحدة توقن أنه (برهان حريتها).. الثمن الذي

تعودت مؤخراً أن تدفعه!

ليأتي عناق كهذا ويصالحهما معاً ليعيدها واحدة..
واحدة فقط.. تتنفس بقربه هواء أرض جديدة هو من
فتح لها بوابتها!

وهو الذي يشعر أنه سأم من المكابرة!
فليسمح لنفسه بلحظة ضعف.. استراحة محارب
قصيرة يتنعم فيها بعناق طفلة رآها في واقعه - كما
رآها في حلمه- تكبر بين ذراعيه.
يزيح وشاح رأسها ليخفي بين خصلات شعرها
الأحمر أنفاسه الهادرة بالتوق..
لا يعرف هل تخرج تأوهات مسموعة أم أجاد إخفاءها
مع ما يخفي..

لا يهم.. في الحالين يحترق بها صدره!
_ أنا معك.

هي التي تقولها هذه المرة!

كانما تلقفتها روحها بقوتها المستحدثة لتتناول بها

مجداف قارب طالما قاده هو.. وأن لها أن تفعل!

فيرفع عينيه لعينيها بحدة.. بلهفة.. برفض.. بوجع..

زرقتها بحر يبتلعه.. وحلقتها الذهبية طوق نجاة!

_أجل.. أنا التي تقولها هذه المرة.. دعني أردها..

دعني أدفع الثمن كما عودتني.. دعني أشاركك.. ألا

تثق بي؟!!

تقولها بنبرة قوية فيرد رافضاً :

_لا علاقة للثقة بالأمر.. هو شأن سيؤدي كل من

يعرفه.. ابقي بعيدة كي تبقي آمنة.

يقولها وهو يكاد يبعتها لكنها تتشبث به هامسة

بنفس القوة كأنها تطلب ما صارت توفن أنه حقها :

_ لا أريد تفاصيل.. فقط فكرة.. مجرد فكرة.
يرمقها بنظرة طويلة وهو يشعر بالحاحها علامة
صحية كما يقول كنان.. لا تزال تخطو في طريقها نحو
استعادة شخصيتها القديمة الواثقة.. لا تزال تريد
الشعور أن من حولها يمنحونها أهمية لوجودها بعدما
عاشت مهمشة مقهورة..

فليمنحها وليمنح نفسه إذن نسمة باردة وسط هذا
القيظ!

لهذا أطلق زفرة قصيرة وهو يعود ليخفي وجهه في
حنايا عنقها، كأنما يخفي معه كل مشاعره المتضاربة
الآن :

_ فجر.. ابنة عمي وأختي التي حدثتك عنها.. لا تزال
على قيد الحياة.. عرفت اليوم فقط.

تصمت مذهولة للحظات ثم تطلق صيحة فرحة حقيقية

تتبعها بقبلتين عفويتين لوجنتيه أشعلتا الشوق

بصدره وبذرتا الخجل على وجنتيها،

لتحاول تجاوز حرجها بهتافها المرتبك بسعادة :

يا الله! أشعر بفرحتك الآن.. ليت لي فرحة كهذه.. ليت

كل الموتى يعودون ويعود معهم كل ما افتقدناه

برحيلهم.

ترتجف شفتاه بابتسامة حقيقية وهو يراها في هذه

اللحظة طفلة عفوية.. طفلة منحته بعض الأمل في

القادم..

ليت الأمور بهذه البساطة حبيبتني! .. ليتها بهذه

الفرحة البريئة التي تبرزغ في عينيك!

_ ما شكلها؟! تشبهك؟! أين كانت؟! متى ستعود؟!
ستعود لتعيش بيننا؟! سند سيحبها كثيراً.. سنكون معاً
ك..

ثرثرتها البريئة تقذف المزيد من الوجد في صدره،
وتجبره أن يبعدها ليقاطع بقية عبارتها قائلاً بحزم:
_ لا "بيننا" يا ديمة.. لا وجود لهذه الكلمة بعد الآن..
ولأنني أثق بك.. ولأنني لست كالأخرين.. ولأنني
أدرك أنك صرت أقوى.. فأقولها لك بصراحة..

_ ماذا تقصد؟!!

_ لقد عاد عاصي الرفاعي وأظنك تعرفين ما الذي
يعنيه هذا.. لم تعودا بحاجتي أنت وسند.
تشعب ملامحها وهي تتذكر وعدها القديم الذي منحته
لعاصي قبل سفره..

ماسة زارتها عقب عودتها مباشرة لتطمئن على سند
لكنها لم تخبرها عن شيء بخصوص نية زوجها..

وهي خافت أن تسألها!

_ لا زلت بحاجتك.. أنا وسند سنبقى دوماً بحاجتك.. لا
أتصور حياتي بعيدة عنك.. سأواجه عاصي.. سأواجه
الدنيا كلها لأجلك.

ودت لو استطاعت قولها لكنها بقيت حبيسة
حنجرتها!

عادت تنقسم اثنتين..

واحدة تريد أن تقترب منه.. تلتصق به.. تمزج
روحها بروحه.. تعيش معه الأمان الذي لم تعرفه إلا
معه.

والأخرى تريد أن تتحرر بعد طول سجن .. تخرج من
أي إطار قد يقيدها.. تجرب الركض بعيداً.. بعيداً عن
كل شيء وأي شيء..

تعدو وتعدو حتى تتعب فتجلس لتستريح..
ساعاتها فقط يمكنها النظر للخلف لتقيم ما تركته
وراءها!

هذا الذي قرأته عيناه بخبرته ليتهد بحرارة وهو
يرحمها من حيرتها فيجذب كفها ليقول بحسم :
_مادمتِ ترفضين العودة وحدك سأعود معك.
تمنحه ابتسامة امتنان مرتعشة وهي تخفي وجهها
في كتفه لتغادر معه البيت الذي ترمقه بنظرة أخيرة
وهي تشعر أنها تودعه بكل حلوه.. ومُره!



تجلس أمام المرأة في غرفتهما عقب عودتهما لبيت

الساحل تمشط شعرها بشرود..

تراه خلفها يناظرها بهذه النظرة التي تمنحها كل

شيء..

وتعدها بالفراق رغم كل شيء!

تبتلع غصة حلقها وهي تود لو تثرثر.. لو تتكلم كما

تحب..

لكن حروفها لا تزال تتعثر على لسان حائر..

فقط عندما وجدت كلماتها نطقها :

_أنا عرفت صورتي الجديدة هنا بك.. تذكرت بك من

أنا وما شكلي..

تقولها وهي تشير بسبابة مرتجفة نحو صورتها في

المرأة فيقول بجمود خادع :

المهم أنكِ عرفتِ.. وتذكرتِ!

تطرق برأسها دون رد فيردف بنفس النبرة :

تأخر الوقت ويجب أن ننام.. لديكما جلسة في

المركز بالغد انتِ وسند، وأنا أيضاً لدي الكثير من

الأمر المهمة لأنجزها.

يقولها لينسحب نحو الفراش القريب الذي يستلقي

عليه مغمضاً عينيه.. يسمع رنين هاتفه فينتفض بحدة

مبالغ فيها.. ينعقد حاجباه بشدة وهو يميز رقم

المتصل..

عاصي الرفاعي!

يرمق ديمة الواقفة بترقب وقد علت خفقاتها مع

تميزها هي الأخرى لاسم المتصل.. ثم يفتح الاتصال

ليرد.. تزداد خفقاتها جنوناً وهي تراه يستمع قليلاً

بملاح جامدة ثم يقول بنبرة محايدة :

_ اتفقتنا.

يغلق الاتصال لتسأله بلهفة :

_ ماذا كان يريد!؟!

_ يريد أن نلتقي.

_ أين!؟!

يبقى سؤاها معلقاً بينهما للحظات قبل أن يقول

بشروود غامض :

_ نفس المكان الذي توقعت أن يطلب لقائي فيه.

ترمقه بنظرة متسائلة لكنه يعاود الاستلقاء على

الفراش وملامحه الجامدة لا تظهر شيئاً من جحيم

دواخله..



يغطي وجهه بذراعه ليفاجأ بها تسحب ذراعه وقد

استلقت جوارحه لتضع رأسها عليه..

يلتفت نحوها ببعض الدهشة ليفاجأ بالدموع المتكدسة

في عينيها والتي مسحها بسرعة كأنها تداري

جرماً :

لست خائفة.. لست خائفة من عودة عاصي.. ولا من

احتمال فراقنا.. لست خائفة من أرجع وحدي اواجه

صورة مرآتي.. لست خائفة.. أنا لم أعد مريضة.. أنا

صرت بخير.. لست خائفة.. لست خائفة..

تقطع عبارتها بشهقة بكاء وهي تخفي وجهها في

ذراعه المفروود بينهما هاتفة بين دموعها :

أنا كاذبة.. أنا خائفة.. لن أكون بخير أبداً.

يبتلع غصة حلقة وهو يستدير بكامل جسده نحوها..
يزيح شعرها عن وجنتها التي تلامسها أنامله.. ليقول
ب(طغيانه الحاني) :

_ انظري إليّ..

ترفض للحظات وهي تمرغ وجهها في ذراعه لكنه
يصبر حتى ترفع عينيها إليه أخيراً فيشير بإصبعه
بحركة دائرية حول عينيها مردفاً بنفس النبرة :
_ منذ رأيك أول مرة وقد جذبتني رفرقة رموشك وأنا
أراها وقتها أغرب حركة رموش عرفتھا.. لم تكن
بطيئة مغوية متعمدة.. ولا سريعة حمقاء انفعالية.. بل
تبدو لي دوماً كأنما تحتجز داخلها سرباً من الفراشات
ينتظر الفرصة كي يحلق.. لا تخجلي من الاعتراف
أنك خائفة الآن.. بل دعي خوفك هذا يحرر فراشاتك..

عندما تتطلق كلها ستحمل خوفك معها بعيداً.. ساعتها
ستشعرين بالامتنان لكل لحظة خوف صنعت منك
روحاً حرة جديدة.. والبداية دوماً أن نعترف بالخوف
لا أن نخفيه.. بعدها يمكننا المواجهة ثم الانتصار.
تهز رأسها له وهي تشعر بالمزيد من السحر يلقي
ظلاله بينهما..

هاهو ذا من جديد يفعلها!

_ لن أنسى.. جدي علمني غزل النسيج .. وأنت

علمتني كيف أغزل قوتي.

تقولها وحلقة الزعفران في عينيها تزداد بهاء لتمنحه

أجمل صورها.. قبل أن تهمس بخفوت :

_ أضايقك لو نمت هكذا؟!!

تشير بها لذراعه تحت رأسها فيتهد بحرارة كادت
تذيبها وهو يغمض عينيه دون رد..

عذاب!

فراقها عذاب.. وقربها عذاب.. وبينهما هو يحترق!

لا بأس!

هاقد اقترب قطارهما من محطته الأخيرة.. ليمضي كل

منهما في طريقه بعيداً عن الآخر!

يبقى مغمضاً عينيه مدركاً أنه لن يذوق طعم النوم

الليلة..

سيبدأ من الصباح السعي خلف فهمي ذاك بحذر كي

يتيقن من شكوكه..

ويا ويله لو كان هو!

يشعر بتثاقل أنفاسها الدافئة على ذراعه فاضحة
استسلامها السريع للنوم بفعل أدويتها،
يفتح عينيه أخيراً.. ويفتح معها كل نوافذ قلبه!
لا تزال كل شرفات الحب تطل عليها.. كل شرفات
الحلم تطل عليها..

كل شرفات اليأس تطل عليها..
فلا عجب لو لا يزال هو الآخر يغلق على نفسه
الشرفات!

لعلها ليلتها الأخيرة هنا!
لعلها آخر مرة يمكنه فيها النظر إليها بهذا القرب!
حبيبات النمش على وجهها و التي طالما بدت له
كقمم جبال تتحداه أن يتسلقها كلها..

الآن يعلن أمامها هزيمته.. وما أقسى الهزيمة على

رجل مثله!

يقترّب منها مسحوراً.. مأسوراً.. لتحلق شفتاه فوقها

بقبلات ليست كالقبلات..

شفتاه لا تكادان تستقران على بشرة وجهها بل فقط

تمسانها بوجل من يخاف البعد ولا يجسر على

القرب.

شكراً لأنك كنت معي اليوم.. اليوم بالذات .. شكراً

لأنك منحنتني أجمل وجوهي البيضاء.. شكراً لأنك

قلتها اليوم: (أنا معك) حتى وهي الآن أكثر العبارات

بيننا كذباً.. وأشدّها حماقة..

يهمس بها بخفوت يكاد لا يُسمع.. لكنها سمعت!

خوفها البدائي يكاد يجعلها تتخلى عن تظاهرها بالنوم
وأناملها تتشبث بطرف قميصها في حركة (غير
محسوسة) ..تتذكر ما كان بينهما يوماً..

خوف تلاشي رويداً رويداً وهي تشعر به يسحب
ذراعه من تحتها برفق ليرفع فوقها غطاءها..
قبلة فوق جبينها تشبه فراشاته التي أهداها لها
يوماً..

وتشبه حديثه الذي لا يزال يهمس به بخفوت حار..
كأنه لا يتكلم بل يغافله نرف روحه دون وعي:
_ ما أجمل غدك دوني! أراك وقد عدت لنفسك..

لروحك القديمة التي تمزج دلالتها بالعنفوان.. لصورة
مرآة تعشقينها حتى ولو كنتِ وحدك.. لا.. لن تكوني
وحدك.. سيكون معك سند.. وستكون لك عائلة.. زوجاً

تختارينه دون قيود هذه المرة.. أطفالاً كثيرين
يعوضونك ما فقدته.. وعملاً تكمّلين به مسيرة جدودك
وتتنفسين فيه عطر بلادك.. ورجلاً يراقب كل هذا من
خلف جدار.. يراك وإن كنت لا ترينه.. يفرح بما بناه
فيك وقد سبق وهدمه في نفسه.. رجلاً لا يعرف كيف
يصفك.. (ابنة قلبه) التي رآها تكبر بين ذراعيه..
(معشوقته) التي أتته يانعة في ربيعها لكن خريفه
حال بينهما.. أعظم غنيمة رضي بعدها بترك ساحات
المعارك.. وأقسى هزيمة جلده بها سوط الحرمان..
تكتم دموعها مكملة تظاهرها بالنوم وهي تستدعي كل
ذرة من قوتها كي لا يتوقف سيل البوح النادر هذا
بينهما..

هي المرة الأولى التي تسمع فيها (اعتراف الحب)
منه بهذا الوضوح وإن كان قلبها سمعها مراراً..
طالما كان يحاول ظاهرياً صبغة ما بينهما بلون جاف
كأنه فقط يساعدها لأجل سند.. لكنها كانت ترى
بروحها خلف كل هذا الضباب أطياف قوس قزح..
اعترافه الآن يشبهه.. قوي.. هادر.. لكنه كسير!
لهذا كان له أثر المطر الراعد في نفسها وهو يردف
بنفس النبرة :

_ لم أحبك.. لا.. لم أحبك.. لم يكن حباً! لا يمكن أن
يكون مجرد حب! أنا عشت بك وفيك.. عشت بك
العمر القصير الذي كنت أدرك أنه لن يطول.. وعشت
فيك الحلم الجميل الذي كنت أوقن أنه لن يتحقق..

عشت بكِ وفيكِ.. آآه! تعرفين معنى أن يعرف رجل

مثلي (العيش) بعد طول موت!؟

تشعر به بعدها يخفي وجهه بين الوسادة وخصلات

شعرها فتكاد تحسدهما على هذا التماس..

أناملها المتشنجة التي تتشبث بطرف ثوبها تتحرر

ببطء.. ببطء..

تكاد ترتفع لتلمسه لكنها تتوقف مكانها وقد عادت..

للتقسم اثنتين!!

واحدة لا تجسر على الفراق.. والأخرى لا تريد -

الآن- سوى الحرية!

=====

يقف حسام بسيارته أسفل عيادة كنان ينتظر عودة

ديمة وسند شارد الذهن..

فهمي!

المعلومات التي عرفها لا تمنحه - ظاهرياً- أي شك

فيه!

هو مجرد موظف صغير في ميناء إحدى المحافظات

الساحلية يستوجب عمله الغياب طويلاً عن بيته في

العاصمة..

موظف صغير يشكو مديره من خموله لكن الجميع

يشيدون بحسن أخلاقه.

غريب!

فهمي الذي يعرفه كان شديد الذكاء شديد الطموح مع

لمحة من التمرد على واقعه.. فكيف انتهى به الحال

هكذا؟!

موظف صغير في ميناء!

غطاء مناسب!

لماذا ميناء بالذات؟!؟

كي يتاح له التواصل مع أعضاء التنظيم القادمين

والمغادرين للبلد خفية مثلاً!

وفجر!

أين هي وسط كل هذا؟!؟

ولماذا ترضى بالبقاء معه؟!؟

بِشْر أخبره أنها كانت مشوشة بعد الحادث وقد فقدت

بصرها قبل أن تختفي تماماً فلم يعرف عنها أحد

بعدها أي شيء!

هل عالجها ولهذا تشعر بالامتنان له؟!؟

الحمقاء! لا تزال تحبه؟!؟ هل نسيت ما أصابها

بسببه؟!؟

أم تراه يجبرها؟!

زمجرة غضب عنيفة يطلقها أخيراً وهو يشعر بنفسه

يكاد ينفجر..

لكنه يجبر نفسه على أخذ نفس عميق..

لابد أن يلتقي به.. نظرة واحدة في عينيه ستخبره

بالحقيقة..

لكن كيف يفعلها دون أن يثير شكوكه؟!

تلتمع عيناه فجأة وقد سطعت الفكرة في ذهنه..!!

بسيطة.. لكنها لعلا لن تثير الشكوك!

تنقطع أفكاره وهو يميز وصول سند وديمة لمدخل

البناية فتتحول مشاعره الصاخبة لأخرى بئسة..

ساعات قليلة تفصله عن لقائه بعاصي الرفاعي في

المكان الذي اختاره الأخير..

لا يعرف ما الذي سيفعله عاصي لكنه يعرف ما الذي

سيفعله هو!

يترجل من السيارة ليستقبل سند كالعادة فيركض

الأخير نحوه ليعانقه..

نفس العناق الذي يمنحه الأرض الثابتة وسط كل

دواماته..

إنما ما زاد هذه المرة هو...!!!

_بابا!

هل قالها؟!

هل قالها حقاً؟!

يرمقه بنظرة مصدومة وقد شعر أن الأرض كلها قد

توقفت عن الدوران الآن!!

حتى دقائق قلبه نفسها هيئاً إليه أنها توقفت كذلك..

قبل أن تعود لتضخ الدم مشتعلًا في شرايينه!
يهز رأسه نافيًا كأنه يقطع على نفسه فرصة
التصديق..

لكن سند يعيدها مراراً مع قبلاته :

_ أنت..بابا!!

يغمض عينيه بقوة وهو يشدد قوة ضمه له مخفياً
وجهه في حنايا عنقه الصغير الذي بدا له الآن وكأنه
يسع الدنيا كلها..

لم يكن يخفي وجهه فحسب.. بل كان يخفي مشاعره
التي تكاد تسحقه تحت شدة وطأتها الآن!!

_ دكتور كنان كان يريه اليوم بعض أفلام الكرتون..
توقف عند صورة واحدة بعينها لذاك الفيلم الذي

شاهده معك ليشير لها بإصبعه.. فشرح له معنى
الأب.. لم أكن أعرف أنه سينطقها بهذه السرعة.
تقولها ديمة وسط دموع تأثرها هي الأخرى وهي
تحيطهما بذراعيها فيرفع إليها عينيه بهذه النظرة
التي لن تنساها ما عاشت..

كل هذا الظفر كأنه لتوه قد أمسك "نجمة" من السماء
بين كفيه..

وكل هذا الوجع وكأن نفس النجمة تفلتت منه فجأة..
وكل هذا اليأس وكأنها ستسقط في أي لحظة فوق
رأسه لتدهسه تحتها قائلة "الجميع نوري.. ولك ثقل
عتمتي".

تشد على كتفه بقبضتها لكنه يتمالك نفسه ليتحنج
قائلاً بصوت أبح ذبحته مشاعره :

_ لا داعي للعطلة.. هيا.

كانت لتلوم جفاف رده في أي موقف سوى هذا وهي
تشعر أنه يداري به هذا الطوفان داخله..

تستقل السيارة التي تنطلق بثلاثتهم غافلة عن ذاك
الذي كان واقفاً يراقب المشهد كاملاً من إحدى نوافذ
عيادة كنان..

عاصي الرفاعي.

=====

أبيض

_ هذه اللوحة من جديد!؟

تقولها ماسة ببعض الدهشة وهي تراقبه يجلس أمام

لوحته في المرسم الذي خصصه لنفسه في قصر

الرفاعي الجديد..

نفس اللوحة التي رسمها ذات يوم للجسر.. والكف

الصغيرة السوداء..

تعلم ان طيف قد زادت عليها يوماً ما رسماً لطائر

فلامنجو زاد من غرابة اللوحة.. لكنه منحها نوعاً من

الحميمية الدافئة..

تقرب وجهها تتيقن مما تراه لتبتسم وهي تراه قد

أعاد تلوين الكف الصغيرة بالأبيض!!

_ الآن يمكنني فعلها.

يقولها عاصي بارتياح عارم غزا صوته المهيّب

لتلتفت نحوه قائلة بحذر :

_ لن تخبرني بما حدث اليوم عند دكتور كنان في

العاصمة!؟

يبتسم بغموض دون رد فتعقد ساعديها وهي تعاود

سؤاله:

_ ولا ماذا تنتوي فعله مع حسام القاضي!؟

تتشنج ابتسامته ببعض الحدة وقد شردت عيناه

بقسوة أخافتها قليلاً..

تراه يقف مكانه ليضع الفرشاة مكانها فتلطيخ الصبغة

البيضاء معصمه..

تحاول مسحها بسرعة لكنه يقول بحسم:

_ دعيتها.. لم يعد هناك وقت.. أريد الوصول قبله

للمكان.

تزدرد ريقها بتوتر وهي تراه يغادر المرسم فتركض

خلفه لتستوقفه هامسة برجاء:

_ فهد حدثني كثيراً أن حسام قد تغير.. هو حافظ على

ديمة وسند طوال تلك الأيام..

تقولها لتقبل صدره عند موضع قلبه في حركتها

الأثيرة مردفة:

_ أثق بقلب عاصي الذي لم يخذلني يوماً.

يبتسم ابتسامة واهنة وهو يعانق بحار الفضة في

عينها ليقول بخفوت غامض:

_قبلي شمس عندما تستيقظ نيابة عني.

تبتسم بارتياح وقد فهمت مغزى عبارته لتقبل جبينه

مودعة فيغادرها بخطوات واسعة..

يترك القصر متعمداً السير للمكان الذي سيلتقي به

بحسام القاضي..

يدرك صعوبة التواجد فيه بعد تاريخه الأسود هناك..

لكنه لم يجد مكاناً أفضل لتسوية الأمر بينهما..

البداية خير مكان للنهاية.. والنهاية خير مستقر

للبداية..

المستبصر من أدرك حكمة كهذه.. والأعمى من غفل
عنها ليبقى طوال عمره يدور في حلقة مفرغة لا
تعرف بداية ولا نهاية!

يصل أخيراً ليقف على أعلى المنحدر الجبلي..
ذاك الذي ترصده فيه يوماً شقيق عدنان ليقتل هالة
الحامل بطفله وقتها..

يراقب المكان من أعلى وهو يشعر بالذكري الخائفة
تعتصر ضلوعه..

صراخه العاجز والرجال يكبلون حركته يلقونه داخل
السيارة التي تهوي به من أعلى..

يغمض عينيه المشتعلتين بغضب هادر كأنه يستعيد
إحساسه بالأعمى وقتها..

كانت نهاية.. فصارت بداية!



_يومها كنت أقف مكانك هنا فعلاً.. بالضبط.
يسمعا بصوت حسام الذي وصل لتوه فيلتفت
نحوه..

ليرد حسام بنبرته الجامدة التي تسيطر على
انفعالاته :

_كنت أراهن نفسي أنك ستطلب لقاءنا هنا في هذا
المكان.. أظنها المحطة الأخيرة لتصفية حساباتنا.
يرمقه عاصي بنظرة متفحصة طويلة..
قبل أن يحيد ببصره نحو بقعة اللون البيضاء التي
لطخت معصمه منذ قليل..

هل كانت مصادفة؟!!

صوت الريح في العراء حولهما يبدو كقاضٍ طويل
النفس في جلسة سرية بلا شهود..

هكذا وقف حسام منذ سنوات يتفرج على ما حدث له
ولهالة.. يمنع رجاله من التدخل ظناً أنه يقتص منه
هو..

وهاهو ذا يقف نفس الوقفة الآن.. إنما.. تغير
الشخص.. وتغيرت الظروف..

أما أن الأوان أن تكون للرماد حياة؟!
_ لم آتِ لتصفية حسابات.. بل جئت لإغلاق الدفتر
كله..

يقولها عاصي بغموضه المهيب فيرمقه حسام بنظرة
حذرة ليوجه عاصي بصره نحو سفح المكان مردفاً:
_ هنا ماتت هالة.. هنا فاضت روحها دون ذنب.. هنا
لفظت آخر أنفاسها وهي تخشى على ابني.. أحدهما
راح معها.. والآخر بقي.. واليوم جئت في نفس

المكان لعلي أوصل لروحها الطاهرة رسالة.. رسالة
سكينة .. ابنها الآخر وجد أمانه.. وددت لو وجدته معي
أنا.. لكن كلمة القدر تعلو ولا يعلى عليها.. لعلها كانت
فرصتك لتكفّر أنت الآخر عن ذنبك.. تعجبني الحياة
عندما تغير مواقع القطع على رقعة الشطرنج فلا
يبقى الأبيض على حاله ولا الأسود على حاله..
يتبادلان المواقع والأدوار في لعبة لا نهائية تحسمها
لحظة السقوط.. في أي مربع كانت!
يشيح حسام ببصره نحو نفس المكان وكأنه هو الآخر
يصارع ماضيه..

يرى عاصي يقترب منه لتتحسر المسافة بينهما
والأول يقول برضا عبر النبرة المهيبة :

_سند اختار أن يدعوك أنت أباه.. لا أعرف ماذا فعلته

لتنالها لكنه يستحق التقدير على أي حال.

تتسع عينا حسام بصدمة فيما يردف عاصي مؤكداً:

_رأيتكما اليوم بعيني.

يطرق حسام برأسه وقد اختلجت عضلة فكه فاضحة

انفعاله..

أنفاسه تتلاحق رغماً عنه وهو يستعيد مشهد سند

بين ذراعيه اليوم..

منتهى الوهن.. منتهى القوة!

_لا أمانع لو بقي زواجك من ديمة كما هو.. ليبقى

الصغير بينكما.

يقولها عاصي وهو يعود ببصره نحو السفح.. شاعراً

أن الرياح تزأر راضية..

بينما تلتوي شفتا حسام بابتسامة مريرة..
صوته المبحوح يغادر شفتيه أخيراً ليقول بصلاية :
_ عرض شديد السخاء أقدر كثيراً مدى تسامحك فيه..
لكنني لن أستطيع قبوله.

ينعقد حاجبا عاصي بقوة وهو يشعر بالريح تعاود
زئيرها الغاضب..

فيما يتحرك حسام ليعطيه ظهره مبتعداً بقوله :
_ لن أتخلى عن سند لكن طلاقني من ديمة عاجل
وحتمي.. كانت تريد شراء بيت لنفسها ووفرتة لهما..
سأزور سند يومياً كي لا يشعر بغيابي.. لكنني أفضل
هذه الفترة أن يكونا بعيدين عني قدر الإمكان تحت
حمايتك.

يزداد انعقاد حاجبي عاصي بشدة وهو يحاول الفهم..

لو كان في موقف آخر لاتهمه بالندالة.. يعلق الصغير

به ثم يقفز من السفينة كلها لا يبالي بما خلفه!!؟!

لكنه يشعر أن الأمر يفوق ما يبدو عليه..

لهذا يفكر قليلاً ليسأله أخيراً :

_ من الذي انتهك حرمة بيتي وسرق حقيبة ديمة هنا

ثم هددها هناك في العاصمة!!؟!

يطرق حسام برأسه دون رد فيهمهم عاصي مفكراً ثم

يقترّب منه ليواجهه بقوله :

_ ما الذي يواجهنا بالضبط!!؟!

ينتبه حسام لاستخدامه ضمير الجمع في سؤاله فيرد

بضيق:

_ يواجهني وحدي.. لا شأن لك.

_ يبدو أنه سيكون شأننا كلنا!

يلتفت كلاهما للصوت الأنثوي المألوف الذي بدا
غريباً على مشهد كهذا..

لكن طيف تقدمت نحوهما وقد وضعت كفيها في جيبى
سروالها مردفة بسخريتها المعهودة :

_ اعذراني على التدخل.. لكن المكان مثالي للقتل وأنا
أعرف تاريخكما القديم وأعرف طبيعكما الناري
كذلك.. ظننت المكان سيحظى بجثة أو اثنتين.. لم
أستطع تفويت المشاهدة لكنكما خيبتما ظني بحديثكما
الودود هذا كأى سيدين متحضرين. . حتى أنني فكرت
أن أشعل العرض بنفسى بطلقتين ناريتين في
الهواء..

تقولها لتطلق صوتها الساخر المكتوم المميز مردفة
بنبرة أكثر جدية وهي تلتصق بعاصي:

_ كنت شبه واثقة من قرار (أخي) لكنني أردت
سماعه بنفسى.. أظنني أنا الأخرى أحتاج للتحرر من
ذنب سند.

يبسط عاصي ذراعه على كتفيها بحمية فتبتسم برضا
وهي ترمق حسام بنظرة ذات مغزى..
من كان يصدق أن يدور الزمان هكذا ليقف ثلاثتهم
هنا في هذا المكان..

ملقين سواد الماضي خلف ظهورهم وطامحين في لقيا
ذاك العنيد المراوغ.. قوس قزح!!

_ ماذا كنتِ تعنين بأنه شأننا كلنا؟!!

يسألها عاصي باهتمام ليلتفت نحوها حسام بدوره

فتقول بنبرة خطيرة :

_نزار يراقب استبرق ام يحيى في العراق بمساعدة
من إلياس.. ذاك الداهية تمكن من اختراق هاتفها
وحاسوبها ليكتشف أنها علي اتصال برجل ذي نفوذ
كبير هناك.. هو الذي سهل لها الأمور كي تتمكن من
إيداع يحيى في مصحة نفسية وتزوير أوراق
التحليل.. يبدو أن المقابل يتعلق بمؤسسة الأمين
كجزء من عملية غسل أموال منظمة.. لكن هذه
ليست الكارثة..

يزداد انعقاد حاجبي حسام فيما يشدد عاصي ضمته
لها فتأخذ نفساً عميقاً لتردف :

_نزار يعرف ذاك الرجل.. رأى صورته يوماً على
حاسوب أخوه إياد هنا..

هنا تشتعل عينا حسام وهو يربط الخيوط ببعضها

بسرعة قائلاً :

_ هذا يعني أنه نفس التنظيم.. ذراع هنا في مصر

بزعامه ذاك الكوبرا.. وآخر في العراق بزعامه رجل

استبرق ذاك.

_ (اسم الله عليك.. . فطين من يومك)!

تهتف بها طيف بعفويتها الفضة ليرمقها عاصي بنظرة

زاجرة فتمط شفيتها مشيحة بوجهها..

فيما يطلق عاصي زفرة مشتعلة وهو يواجه حسام

بقوله :

_ أظننا لم نعد نملك رفاهية الاختيار.. الأمر صار

أخطر مما ظننته.. أريد أن أعرف كل شيء حالاً..

تعاوننا معاً صار الحل الوحيد كي نتمكن من مواجهة

ذاك الأمر.

الطيف الثالث والأربعون



_ علمت ما حدث لإياد!؟!

تهتف بها بتول بانفعال وهي تدخل عليه بهو البيت
لتراه جالساً مكانه على منضدته.. يواجه الحائط
كعهده كلما أراد التفكير العميق.. وأمامه رقعة
شطرنج ارتصت فوقها القطع.. يلاعب نفسه كالعادة
لأنه لا يجد منافساً أذكى!

_ هذا سؤال!؟!

نبرته الباردة تبدو لها شديدة الخطورة.. ورغم أنه لم
ينظر إليها لكنها شعرت بعينيها تخترقان روحها
تغرسان داخلها جبلاً من جليد..



يحرك إحدى القطع ليبتسم بظفر وهو يتقمص
شخصية المنافس الوهمي فيزيح قطعة من فريقه
هو!

تبدو خسارة له..

"تبدو"!

لكنه وحده يعلم أنها ليست كذلك!

هو جيد دوماً تحويل الهزيمة لنصر!

_أرجوك.. دعني أفهم.

تقولها بصوت مرتجف وهي تقترب أكثر.. تبسط كفاً

بارداً على كتفه فيتأوه باستمتاع وهو يعيد رأسه

للوراء مغمضاً عينيه في دعوة صامتة لبتها بخبرتها

وهي تجلس على ساقيه لتدلك كتفيه..

يقولون أن أحدهم دس له بعض الأشياء في بيته..

قطع أثرية لا يعرفون إن كانت حقيقية أم مزيفة..

وبعض المواد المخدرة..

يقولها ببرود لتشقق هاتفه :

من فعلها؟!!

أنا!

يفتح بها عينيه فجأة لتصعقها نظرتة القاسية.. ترتد

للخلف دون إرادة وأناملها تتراجع عن كتفيه لكنه

يعيدها مكانها بغلظة وهو يردف بنفس البرود

المشتعل:

وجهه احترق! كنت أعلم منذ طلبت منه الاستعانة

بأخيه كي يسرق تلك السورية أن تحرياتهم قد تقود

إليه.. لهذا تعمدت أن أجعلك تغوين أخاه الآخر كي

أضبط علي نقطة ضعف تجعل الحلقة تنقطع عنده فلا

تعود للدوران أبداً.. أنا ألقيت لهم الطعم الزائف

بمهارة تليق بي وهم تلقفوه بحماقة تليق بهم..

تزدرد ريقها بتوتر وهي تهمس بخفوت:

_ لكنني.. لم أنجح.. أقصد.. مع أخيه..

يهياً إليها ان ملامحه قد حملت بعض الرقة وهو

يربت وجنتها برفق هامساً :

_ لا عليك عزيزتي.. أنتِ فعلتِ ما بوسعك.. وأنا دوماً

أمتلك الخطة البديلة.

تلتمع عيناه بعدها بشراسة قاسية تجفلها فتعود لتدلك

كتفيه برهبة جعلت جسدها يرتجف وهي تسأله:

_ وماذا بعد؟!!

يصدر هممة قصيرة وهو يعاود إغماض عينيه

قائلاً :

_ أنا سهلت عليهم الطريق ومنحتهم قضية سهلة

يفرحون بها.. ضحية مثالية يصوبون نحوها

سهامهم..

_ وماذا لو اعترف إياك بالحقيقة؟!!

تهمس بها بخفوت أكبر لتلتوي شفتاه بابتسامة واهنة

وهو يضمها إليه برفق ولا يزال مغمضاً عينيه:

_ ميزتي الكبرى أنني أجيد فهم رجالي.. أعرف من

اسود قلبه حد التفحم.. ومن لا يزال يحمل نقطة

بيضاء.. ودوري في الحالتين أن أجيد استغلال كل

منهما على حده.. إياك لا يزال يحمل بقعة بيضاء

كبيرة.. كبيرة جداً في الواقع على أن يحتملها رجل

في عالمنا.. نحن ضمناه إينا لبراعته غير المسبوقة
في هندسة الاتصالات والبرمجة.. شأنه كشأن شباب
كثيرين هنا لا يفتقرون للمهارة لكن ينقصهم
الانتماء.. لا أنكر أنني أشعر نحوه ببعض الحب..
يذكرني بصورة قديمة لنفسي.. قديمة جداً حتى أنني
كدت أنساها.. لهذا اعتبرها خدمة له.. أن أركله خارج
التنظيم بعدما اكتفينا من خدماته.. سيقضي بعض
عمره في السجن.. لكنه سيخرج حراً ذات يوم.. أجل..
أظنها خدمة له فعلاً أن أمنحه الفرصة ليعود للعالم
الذي يليق ببقعته البيضاء.

كلامك يبدو وكأنك.. وكأنك.. نادم على هذه الحياة؟!
تهمس بها بنفس الرهبة ليطلق ضحكة قصيرة
متهكمة ولا يزال مغمضاً عينيه بجوابه:

_ نادم؟! لا يا عزيزتي.. أنا فقط أعرف أي عالم يليق
بصاحبه.. لست ذاك الأحمق الذي يصارع طواحين
الهواء.. هناك نوع من البشر لن ينتموا أبداً لعالمنا..
حتى ولو دخلوه فلن يندمجوا فيه.. وهو منهم!
_ وكيف ستضغط عليه؟! بأي نقطة ضعف؟!!

تسأله بنفس الرهبة لكنه يتجاهل سؤالها وهو لا يزال
يربت على ظهرها برفق كادت تستسلم لما يوحي به
بينما يقول بخفوت:

_ أنا أتركهم يخططون.. يهياً إليهم أنهم اختاروا اللعبة
ولا يدركون أنني من اختار الملعب! تماماً كما فعلت
مع (بشر) ذاك.. لا أنكر أنني تفاجأت بحقيقة عمله
متخفياً مع غازي لوقت طويل كحارس شخصي..

لكنني كشفته بعد مقتل الأخير وأرسلت له هدية تليق بمقامه.. لا أظنه سيحيا ليعرف كيف ستنتهي اللعبة.

_ ما علاقتك ب(بشر) هذا؟! يبدو أن بينكما ماضياً

بعيداً عن التنظيم!

لم تكذ تتفوه بها حتى تأوهت بألم وهي تشعر به
يجذب شعرها بعنف فجأة وقد فتح عينيه بهمسه

المشتعل:

_ تعودني أن تقنعي بفتات ما ألقيه لك ولا تطمعي في

المزيد.

تكنم تأوهات ألمها وهي تراه يدفعها لتقف مكانها
مترنحة فيما يأخذ هو نفساً عميقاً يحاول به استعادة

صفائه..

يحرك إحدى القطع ليبتسم مغمغماً برضا :

_ لن تنتهي لعبة كهذه أبداً.. لن يموت ملك أنا أقف
خلفه.

ترمقه بنظرة مرتعبة وهي تشعر بعاطفتها الغريبة
نحوه تكاد تقذفها خلف أعلي جبال الجنون..
خاصة وهو يردف بنفس الشراسة الباردة:
_ أعظم إحساس أعيشه عندما أوهم من أمامي أنه
نجح في اللعب من وراء ظهري لأن اللحظة التي
ألتفت فيها نحوه..

يقطع عبارته وهو يزيح إحدى القطع لتسقط أرضاً
بدوي مرتفع مع قوله :
_ تكون لحظته الأخيرة.

=====
بنفسجي

تقف أمام مرآتها تتحسس أذنها بضيق وهي تميز
اختفاء قرط هالة.. أين ذهب؟! تبدو لها ملامحها
غريبة دونه كأنها قد خلقت به!

قلبها ينقبض بشعور رهيب بالذنب يدفعها للبحث عنه
من جديد في أرجاء الغرفة.. على الفراش.. تحته..
بين طيات الأغطية.. في كل الزوايا..
لا فائدة.. غير موجود!

تدمع عيناها بالمزيد من شعورها بالذنب والذي يكاد
يسلمها لصور أشباحها من جديد لكنها هذه المرة
كانت تملك القوة التي جعلتها تأخذ نفساً عميقاً وهي
تتمتم لنفسها:

_ سأجده.. أين عساه يذهب!؟

تشعر بكف سند الصغير على كتفها فتلتفت نحوه ولا
تزال جاثية علي ركبتيها على الأرض، تراه يمسح
دموعها بحنان فاض في ملامحه البريئة فتبتسم له
مدللة بلهجتها :

_ (على رمشي والله بتمشي).

تعانقه بعدها بقوة لتصطدم عيناها بهذا الذي وقف
على باب الغرفة..

لا.. لم يكن فقط ينظر إليهما..!

بل بدا وكأنه يدخر كل ما تقع عليه عيناه منهما
كمئونة لسنين فراق عجاف قادمة..

تزدرد ريقها بارتباك وهي تراه يتقدم بمشيته
الشامخة التي تناقض نظرة كسيرة بعينيه صارت
تدركها جيداً..

_ لم أسمع هذه العبارة من قبل.

يقولها مشيراً لعبارتها الأخيرة فتبتسم بشرود وهي
تنهض لتقف.. تختطفها طيور الذكرى لتجد نفسها

تقول بشرود :

_ لم أستخدمها منذ زمن طويل.. جرت على لساني

دون وعي.. جدي أخبرني يوماً أنها كانت عبارة غزل
اختص بها جدتي.. لكنني كنت أقولها لكل من أحبهم..

أمي.. أبي.. جاراتنا القريبات.. رفيقاتي في

المدرسة..

تصمت لحظة لتضحك ولا تزال أسيرة الذكرى فتدرف

بنفس الشرود :

_ أمي كانت تقول بتذمر : (ديمة نست كيف تقول

"شكراً" و "أحبك" كبقية الناس.. صارت تستخدمها

بدلاً منهما.. فيرد جدي باعتزاز: ومالها والناس؟!!

"يليق بها الدلال"!

تلتقي عيناها في هذه اللحظة فترتجف شفتاها وهي

تغمض عينيها بأهة خافتة سبقت استطرادها:

_ لا تعرف ما الذي يحدث لي مع كل ذكرى تعود..

تختفي ندبة وتولد مكانها نجمة.

_ يوماً ما ستختفي كل الندوب وتمتلئ سماؤك

بالنجوم.

همسه يخزها بين "نعومة وعد" و "قسوة وداع"

فتفتح عينيها على اتساعهما كأنها مثله أصابتها

عدوى (الادخار)!

_ أتمي ارتداء ملابسك كي لا نتأخر.

يقولها قاطعاً همس رويهما وهو ينحني ليداعب
سند.. فتهتف بتساؤل عن وجهتهما ليرد بغموض

التف بالشجن :

_دعيها مفاجأة.

تستقل معه سيارته التي انطلق بها ليختلس نظرة
جانبية نحوها.. يراها وقد ارتدت ثوبها الأرجواني

الذي اشتراه لها ذاك اليوم عندما ذهباً للتسوق..

_الثوب الوحيد الذي لم أذفع ثمنه بعد.. قلت لي يومها

أنك تريد أن يكون هو هديتك الأولى في عهدي

الجديد..

تتمتم بها بشرود وأناملها تتلمس الثوب قبل أن تلتفت

نحوه.. لتردف بنبرة غريبة :

_ لا أعرف كيف أشرح لك.. لكن هذا الثوب بالذات
وددت لو لا أَدفع ثمنه أبداً حتى لو عرفت كيف
أفعلها.. فليبقَ كهبة من السماء.. كغيمة ممطرة..
كشدو كروان.. كابتسامة قمر.. ككل تلك الأشياء التي
لا نملك ثمنها.. يزداد أمامها فقرنا مهما اشتد غنانا.
لا تزال ثرثرتها العفوية تأسر روحه في طياتها.. كيف
يقنع نفسه أنها لم تعد له؟! أنه اقتلع شجرة حبها من
صحرائه وإن بقي جذرها مكانه يسخر منه.. يتوعدده
بأن ينبت مكانها ألف شجرة عشق .. وألف ألف
شجرة حنين!؟

تشتد أنامله على مقود السيارة وهو ينتزع نفسه من
سحر عينيها ليهمس باقتضاب جاف يحرقه قبلها:
_ جميلٌ أن يبقى بيننا شيء ولو مجرد دين معلق.

تشحب ملامحها وهي تشعر بخفقات قلبها تتسارع..
منذ عاد من لقاء عاصي الرفاعي وهو يتباعد عنها
أكثر.. طيف أخبرتها أن اللقاء بينهما مر علي خير فلم
يعد هناك مبرر للخوف من عاصي ومع هذا لم تجد
هي الجرأة كي تسأله عما حدث.. الأزرق اللعين
هزمها ها هنا بالذات!

ربما لأن عدوها هذه المرة داخلها.. عدوها نفسها..
نفسها التي تنقسم اثنتين!

تنقطع أفكارها وهي تميز البيت الأنيق الذي توقفوا
أمامه..

إنه هو.. البيت الذي اختارته..

يا لله! المزيد من البيوت!!

_ لا مزيد من البيوت يا ديمة.. إنه بيتك أنت هذه
المرّة.. تملكينه ولا يملكه غيرك.. لن ينازعك أحد فيه
ولن يؤذيك فيه أحد.

يقولها كأنما قرأ أفكارها وهو يناولها المفاتيح ..
ترتجف أناملها وهي تقترب منه..

تنتزعها منه فجأة بقوة كادت تجرحها كأنها تختطف
معها كل حق لها في الحرية.. في العيش.. في الأمل..
تغادر السيارة لتهرع إليه بخطوات راقضة.. أناملها
المرتعشة تفتح بابه الخارجي بانفعال.. ليلحق بها
وهو يمسك كف سند..

الدراجة!

الدراجة الأرجوانية التي تزينت بالياسمين والتي
أحضرها لها في بيته القديم تنتظرها هنا في
الحديقة..

تطلق صيحة فرح وهي تندفع نحوها لتركبها.. تدور
بها في الممر الممهد فاردة ذراعيها..

هذه المرة لا تخاف السقوط!

تتوقف أخيراً لتفتح عينيها..

هذه الدمعة الجامدة في عينيه تعانق ابتسامة حقيقية
على شفثيه..

ابتسامة تبدو وكأنها خلقت لها وحدها!

والآن تولد على شفثيها ابتسامة تشبهها!

هي الأخرى تبدو وكأنها خلقت له وحده!

تراه ينحني ليخاطب سند بقوله:

_ هذا هو بيتك الجديد.. أحضرت لك في غرفتك ألعاباً
جديدة و سننقل فيه كذلك كل تلك القديمة.. لن أستطيع
المبيت فيه معك كالسابق لكنني سأتيك كل يوم..
تتغضن ملامح الصغير قليلاً لكن حسام يمسك كتفيه
بقوة ليردف بطغيانه الحاني:

_ ماذا؟! خفت؟! هل سيعود "ابني" بحاجة لـ"بطة

صفراء"؟!!

"ابني"!!!

الكلمة السحرية تغادر صدره بتحشرج كسيف ذي
نصلين.. أحدهما يجرح.. والآخر يداوي!
قالها؟! أخيراً قالها وهو الذي ظن أنه لن يفعل أبداً!!
قالها بهذه العفوية كأنها لصيقة لسانه طوال عمره..

وبهذه الرهبة كأنه يخاف أن يُحرم منها ما بقي من

عمره!!

من قال إن الصغار لا يفهمون!؟

هاهو ذا سند يبدو وكأن روحه قرأت كل مشاعره هو

بفطرتة..

يعانقه بقوة ثم يقبل وجنته وهو يهز رأسه نفيًا..

يريه جيبه الخالي كأنما يخبره دون كلمات أنه ما عاد

بحاجة للعبته البلاستيكية كي يشعر بالأمان..

يقبل حسام جبينه وهو يزرعه بين ضلوعه للحظات

ليعاود القول بنفس الصوت المتحشرج :

تعال إذن وشاهد البيت من الداخل.

يقولها وهو يحمله ليتحرك به نحو الداخل مستكشفاً
البيت فتتبعهما وهي تشعر بخفقاتها تدوي كقرع
الطبول..

أناقة البيت من الداخل لا تقل عن خارجه..
النول اليدوي خاصتها هناك.. نقله هنا.. متى فعلها؟!
_أردت أن يكون أول ما يستقبلك هنا كي لا تشعري
بالغربة في البيت الجديد.

من جديد يقرأ أفكارها فتلتفت نحوه بامتنان.. تراه
يصرف سند نحو غرفته القريبة فينشغل بأعباه بينما
يعود هو إليها ليستخرج من جيبه ورقتين منحها
إحداهما..

تتناولها بسرعة لتقرأها بعينين ملتمعتين..
عقد ملكية البيت.. باسمها..

دِيمة.. دِيمة ضرغام.. بيتي.. هذا بيتي.. أنا.
تتقطع حروفها بدموعها وهي تضم العقد لصدرها
بانفعال قبل أن تلقي نفسها بين ذراعيه كأنما أرادت
في هذه اللحظة أن تعانق أمانها كاملاً!
أحد كفيها يقبض على العقد بقوة والآخر يتلمس عقدة
حنجرته !

لكنه يبعدها بكف مرتجف وهو يشيح بوجهه فترفع
عينيها إليه.. تعانق وجنته براحتها لتجذب وجهه
إليها من جديد..

حلقة الزعفران في عينيها تبدو له كألف ذراع
يعانقه..

كيف تقول شكراً؟!

كيف تقول أحبك؟!

_ (على رمشي والله بتمشي)!

تخرج منها دون تفكير.. عفوية منطلقة جموح تشبه
روحها في هذه اللحظة..

فيبتسم وكأنه تلقى لتوه أعظم و-آخر - هداياه!
تكاد تندفع بالحديث من جديد لكنه يضع سبابته على
شفتيها هامساً بحزم :

_ لا تقولي شيئاً.. دعها آخر عبارة أسمعها بيننا
اليوم.

تتكس الدموع في عينيها ونظرة عينيها تفيض
بالسؤال الذي جف على شفاهها..

فيمد يده بالورقة الثانية!

تعض شفتها السفلى بقوة كادت تدميها وعيناها
تجريان على السطور..

طلاق!

ورقة طلاق!

ترفع عينيها إليه بصدمة فيشبح بوجهه وهو يقبض

كفيه جواره!

هو الذي أدرك أنه لن يتمكن من مواجهتها بها..

وما أقسى هذا الإدراك الفاضح لو هن رجل مثله!!

_حرة.. صرت حرة..

لم تنطقها شفتاها وكأنها تحافظ على عهدا السابق..

لكن كل جوارحها كانت تصرخ بها..

في ضحكات الهستيرية وهي تدور حول نفسها..

في حركة ذراعيها وهي تضم الورقة لصدرها بقوة..

وفي دموعها التي أغرقت وجهها كأنها أخيراً وجدت

شاطئاً تهذاً فوقه سفينتها التي طالما اختطفها

القراصنة وأن لها أن تتحرر لتقودها هي.. هي

فحسب..!

تشعر بأنامله تمسح دموعها لكنها تعجز عن مواجهة

عينيه فتغمض عينيها بقوة..

لكنها تفتحهما رغماً عنها من جديد وهي تشعر به

يلبسها شيئاً ما في أذنها..

القرط!

قرط هالة!

لا.. ليست فردة واحدة.. بل الاثنتين!!

كيف؟!!

لم يكن الأمر سهلاً.. تعلمين أنها كانت ترتديه عند

موتها.. كان في أحراز القضية التي أغلقت من

يومها.. تمكنت بطريقة ما من إحضاره.. ظليت

الفردتين بالذهب.. من اليوم سترتدينه كاملاً.. لامعاً

وليس صدناً كما كان.

ينعقد حاجباها برهبة وهي تتحرك كالمغيبة نحو

المرآة القريبة..

هل تتوهم ام أن القرط بشكل أروع؟؟

لمعته زاهية براقه متوهجة كروحها الجديدة..

مكتمل.. لا ناقص.. أضاف لوجهها هذا الوهج الجديد

الذي تود لو لا يختفي أبداً..

تكتم شهقة بكاء امتزجت بابتسامة.. وهي تميز دلالة

ما فعله..

تنظر إليه عبر المرآة فتراه بعيداً.. بعيداً جداً.. كأنها

مهما ركضت لن تصل إليه..

و-العجب- تراه قريباً.. قريباً جداً.. كأنها فقط لو

التفتت لوجدت نفسها بين ضلوعه!!

_ لا داعي لأن تشعرني بالذنب نحوها من جديد.. أنتِ

أخذتِ ثأرها مني كاملاً.. وأنا اقتصصت لها من نفسي

قبلك.. كفاني رحمة من القدر أن يغلق الدفتر عند هذا

الحد.. تفهمين؟!.. يغلق عند هذا الحد!

يكرر عبارته الأخيرة بنبرة غريبة اهتزت فيها

صرامته لتمتزوج بانكسار نادر على شخص مثله..

يعطيها ظهره ليغادر بخطوات سريعة حاسمة فتركض

إليه تكاد تعانق ظهره بذراعيها لكنه يهتف بصرامة

دون أن ينظر إليها :

_إياك!

يتجمد ذراعاها في الهواء وكل ذرة داخلها تدفعها
للتمرد على كل هذا..

لكنها تبقى مكانها تعتصر الورقتين في كفيها بقوة
وهي تراقب ظهره المغادر بمشيته الشامخة التي هي
خير من تدرك أي بركان يختفي تحت قشرتها
الكامنة.



نيلي



_زهرة! ما هذا الذي ترتدينه على رأسك؟!
يقولها جهاد باستنكار عاتب وهو يدخل عليها غرفتها
في المركز الطبي، فتشير أناملها المرتجفة لشعرها
الاصطناعي قائلة بنبرة شاحبة :
_ ألم تعجبك؟! حناء جلبتها لي.
يطلق تهيدة قصيرة وهو يقترب منها أكثر ليجلس
على طرف فراشها، يحتضن كفيها بين راحتيه فتدرف
بمزيج من حسرة وخزي :
_ سنوات طويلة مرت وأنا أحلم بك.. كيف ستراني بعد
أن أكون حليلتك.. أشعر بالغيرة من كل النساء اللاتي
سبقني جمالهن لعينيك وأنا أراني عادية الملامح..
شعري كان أجمل ما في.. طالما كنت أعتني به



وأتحيل كيف ستعانقه عيناك أول ما تراه.. كيف

ستداعبه أناملك راسمةً فوقه أمانى الغد..

يشدد ضغط كفيه علي راحتها فتدرف بابتسامة

مرتعشة وهي تشير لرأسها:

_ هذا أقرب ما يكون لشعري الطبيعي.. فكرت أنك

ربما تكون قد مللت من رؤيتي بوشاح رأسي.. حسناء

رسمت لي حاجبي أيضاً.. هل هكذا يبدو شكلي

عادياً؟!!

يرمقها بنظرة طويلة تتوه هي فيها عبر بحار عينيه

الصافية.. ولدهشتها لم تحمل عيناه أي نظرة شفقة

كعهده منذ التقت خطواتهما من جديد..

عيناه تحملان دوماً نظرات حب.. دعم.. أمل.. وأحياناً
قليلة جداً بعض الألم الذي يهزمه بسرعة كأنه يحاربه
بكل قوته..

كأنه يعرف أن أي نظرة شفقة منه ستكشفها عيناها
الخبيرتان به..

ستكشفها وتذبحها!

يطول صمته فتكرر سؤالها بوجل:

_ هل يبدو شكلي عادياً؟!

يهز رأسه نفيماً فتتسع عيناها بضيق وهي تتحسس
شعرها الاصطناعي لكنه يزيحه عنها برفق، ثم يتناول
محرمة ورقية قريبة مسح بها ما رسم ليبدو
كحاجبيها..

تهم بالاعتراض وهي تشعر بالمزيد من الخزي لكنه
يغمرها أخيراً بين ذراعيه ليمنحها أقوى وأرق
عناقته!

تخفي وجهها في صدره وهي تشعر بعطايا شفثيه
السخية على بشرتها فتعض شفثها بتأثر وهي تسمع
همسه الدافئ ينساب كنهر من عسل في أذنيها :
_ منذ متى كان شكلك في عيني عادياً يا "نيلية"؟! لا
شيء فيك من قمة رأسك وحتى أخمص قدميك يليق
به أن يوصف ب"العادي"! أنا لم أعشق فيك وجهاً
أو جسداً.. أنا عثرت فيك على روح سكنتها بعد طول
غربة.. عروة الزر التي بقيت مسدودة في صدر
قميصي تمنعه الغلق وتشعرنني بالبرد حتى أتيت
لتفتحيها وتغلقه بكل الدفء الذي يعنيه

حضورك.. مهما رأيت من نساء تبقيين بعينيّ الأجل

كيفما كنتِ.. كيفما كنتِ يا نيلية.

تدمع عيناها بفيض امتنانها فيمسح دموعها برقة

مردفاً :

_ نسيتِ أنني أنا الآخر أعرف عنك الكثير منذ زمن

بعيد.. وأعرف أن بشرتك تتحسس من أقل شيء.. لا

تثقلي على نفسك حبيبتي..

يقولها مشيراً لفروة رأسها التي كانت قد احمرت

متحسسة بالفعل من ذاك الشعر الاصطناعي.. ليبتسم

وهو يقبل عينيها بقوله:

_ غداً تشفين تماماً حبيبتي.. ويعود شعرك كما تحبين

أن أراه.. تعانقه عيني وتداعبه أناملي بل ويشهد معنا

ليالي عشق طويلة يفرد فيها على كتفي.. ننسى فيها

ألم هذه الأيام التي نعيشها الآن فلا نذكر منها سوى
تشبث كل منا بصاحبه.. وكيف كان ينتظر ليعيش
بالآخر عمراً.. عمراً لن يعاش دونه!

تنتقل ابتسامته إليها وهي تقبل رأسه باعتزاز قائلة :
_ بعد دقائق أخضع لجلسة علاج معتادة كنت أعتها
دوماً أصعب دقائق أعيشها.. لكن وجودك جوارى
هون كل شيء.

عاطفته تمتزج بعتاب قوي فاض في نظراته وهو
يتحسس معصمها حيث التف سوار اللؤلؤ المضفر مع
شريطة بألوان علم بلاده.. عتاب تجاوزه وهو يسألها
باهتمام :

_ من صنع هذا؟!
_ معاذ ابن صهيب.

تقولها بعفوية لتلمح طيفاً من غيرة في عينيه قبل أن

يشيح بوجهه.. . غيرة تشهدها لأول مرة في عمر

علاقتهما.. وتجعلها تتساءل بدهشة :

_ بالله عليك.. دعني أكذب حدسي أنك تغار من

صهيب!

_ كيف تتصورين شعوري تجاه رجل ظل طوال الأيام

السابقة في المكان الذي كان يفترض أن أكون فيه؟!!

المشفى كله يتحدث عن دوره معك وتأثيره عليك..

بروفيسور (روبرت) ذكرها أكثر من مرة دون حرج

أنه كان يستعين به عندما كان يريد إقناعك بما لم

تكوني راغبة فيه موقناً من أنك ستستجيبين له.. في

الوقت الذي أقصيتني أنت فيه بعيداً عن كل هذا..

وتتحدثين الآن عن الغيرة؟! الغيرة أبسط ما أشعر به

نحو ذاك الرجل لو تعلمين!

نبرة صوته تعلو تدريجياً حتى تتحول لما يشبه

الصراخ في عبارته الأخيرة،

لكنها تبسم برقة وهي تمد سبابتها لتفك انعقاد

حاجبيه.. ثم تهز رأسها بعجب مستنكر :

يا إلهي.. لا أصدق أن يأتي اليوم الذي تغار أنت فيه

من رجل.. أي رجل!! .. ليس أنت.. ليس وأنت تعلم

من تكون لي!

يشيح بوجهه دون رد وقد احمرت أذناه بانفعال

وجدته يزيد جاذبيته.. وكأنما تنقصه الجاذبية!

تقبل وجنته بما يشبه الاعتذار لتحضن وجنته

براحتها فتجبره على النظر إليها قائلة :

_الرجل مر بتجربة مشابهة لي.. كان يعاني نفس المرض وقد كتب له الشفاء منه لهذا كان يمنحني الدعم وهو..

يزمجر غاضباً فتقطع عبارتها لتتنح وهي تشعر أنها تزيد الطين بلة فتعاود البحث عن كلمات :
_كان يحاول مساعدتي بالتخفيف عني وهو..
من جديد يزمجر غاضباً فتزم شفيتها للحظات بشبه ابتسامة يائسة من استرضائه..

لتقول أخيراً :

_صدقني دوره معي لم يكن يختلف عن دوره مع النزلاء هنا.. كما أنه متزوج ويحب زوجته كثيراً.
_تمرحين؟! زوجته ماتت منذ زمن بعيد.

يقولها بانفعال لترتد برأسها للخلف وهي تشعر
بالصدمة التي ترسم واضحة على ملامحها فينعد
حاجباه وهو يردف :

_لم تكوني تعلمين؟! بروفيسور (روبرت) أخبرني
بنفسه!

تهز رأسها بجهل حقيقي وهي تهم بالرد لولا أن
سمعت صوت طرقات سريعة على الباب مميزة
لصاحبها التي دلفت للداخل بسرعة فور ما سمعت
إذنها بالدخول..

_صرتما أشهر زوج في ألمانيا.. انظرا.. (العاشقان
يهزمان الموت).. (هل نشهد قصة عصرية لسنوات
التي تعيدها قبلة الأمير للحياة؟!).. (فتاة الموت

العربية تقترن بالطبيب الفلسطيني الشهير الذي أعلن
رفضه للتطبيع مع إسرائيل)..

تهتف بها حسناء بمرحها المعهود وهي تشير لهااتفها
حيث عناوين أحد المواقع التي كتبت عن زهرة
وجهاد.. لتهز رأسها مردفة باستياء:

_لا.. لا.. لا يعجبني العنوان الأخير.. ما (فتاة الموت)
هذه.. كفى الله الشر! ثم كيف يذكرون كل هذا عنكما
ولا خبر واحد عني؟! كوني أنت سنوايت وليجعلوني
سندريللا مثلاً..(سندريللا التي تنتظر علي قارعة
الطريق تلوح بفردة حذائها وتنتظر الأمير)
تقول عبارتها الأخيرة مفخمة وهي تلوح بكفها في
استعراض ليقول جهاد مازحاً :

_ أشك أنه لو جاءك الأمير أنتِ بالذات فستضربينه

بالحذاء على رأسه!

تشهق باستنكار وسط ضحكات زهرة هاتفة :

_ هذا جزائي بعد كل الخدمات العظيمة التي أدتها

لتكتمل قصة حبكما؟!!

_ أنتِ محوتِ تاريخ خدماتك كله بإخفائك أمرها الأخير

عني.. لن أسامحك أبداً.. سأظل أدعو الله عليك ألا

تتزوجي أبداً.

_ (الشر بره وبعيد!)

تهتف بها مستنكرة مع شهقة عالية وهي تحلق كفها

في وضع دائرة ترسمها في الهواء حول رأسها

فتتعالى ضحكات زهرة من جديد تزامناً مع صوت

المرضة التي طرقت الباب لتطلب من الأخيرة

الاستعداد لجلستها التالية..

فترمقهما زهرة بنظرة امتنان جلية وهي تستسلم

لذراعي جهاد يساعدها في النهوض..

يلبسها وشاحاً قطنياً ناعماً دون أن ينسى دهن رأسها

ب"كريم مضاد للحساسية"..

حركة بسيطة من حركات كثيرة تشعرها أنها حقاً

صاراً واحداً..

أنها لا تحتاج لفتح شفيتها بالشكوى.. هو جوارها

يفهم ويشعر ويدعم.. وإن عجز عن فعل شيء كفاها

أنه فقط هنا!

لقد عاد أبوها لمصر مع أمها لثقل النفقات بعدما

اطمأنوا لوجودها في كنفه هو..

تبدل أحوال أبيها بعد مصابها كانت تراها معجزة..
معجزة تأمل في مثلها وهي ترفع رأسها لأعلى بدعاء
لهج به قلبها أن يمنحها الله الشفاء.. وظنها أن الكريم
لن يخيب رجاءها.



يرصف ريان سيارته أسفل بيت رفيذة بحنق وهو
يشعر أن الدنيا كلها تأمرت عليه..
كل يوم يمر عليه في المركز الطبي مع إيلان ويولاند
يبدو له كقطعة من جحيم!
هي التي تتعمد تجاهله تماماً وهي تكاد تلتصق بإيلان
كظله فيشعر بغيرة حارقة تكوي ضلوعه..
لقد عادت نمرة شرسة متوهجة كما عشقها أول
مرة.. لكنه فقد كل فرصه معها!

لقد بدأ يشعر بالندم على عمله في ذاك المركز وهو يدرك يوماً بعد يوم أن إيلان يتعمد تقليص مهامه..

تراه يفعلها بدافع من يولاند؟!!

بالتأكيد! هي تريد الانتقام منه!

_ لا تكن مبالغاً يا رجل.. هؤلاء الناس لا يكثرثون كثيراً بالمشاعر كالعرب.. هم لا يجيدون سوى لغة المصلحة فحسب.. والدليل أنه أوكل إليك اليوم إدارة القسم الجديد هناك بكل ما فيه.. افخر بإنجازاتك.. هيا..

آن الأوان أن تبلغ رفيدة البائسة لعلها تفرح بأي شيء ينسيها فقدانها طفلكما.. لا تدع شيئاً ينغص عليك حياتك.. هيا.

يخاطب بها نفسه وهو يغادر سيارته دون أن ينسى إحضار هدية رفيدة منها.. هدية غالية جداً لكن لا

بأس.. سينال مقابلها بالتأكيد يوماً ما.. لا بد أن
يسترضي مزاجها العكر هذه الأيام كي لا يخسر كل
شيء.

يمر أحدهم جواره وقد وضع العطر المفضل لجهاد
فيتوقف مكانه وهو يشعر بلفح من حنين..
كيف ينكر أنه اشتاق عهد صداقتها القديم؟!
ينعقد حاجباه بخزي وهو يتذكر أنه كان يريد الاتصال
به ليعيد الود القديم ويساتده بعدما علمه عن حالة
زهرة وسفره إليها.. لكنه لم يفعل!
خشي أن يعرف أحدهم في المركز أنه على اتصال به
وهو الذي أفسد كل شيء بتصريحه ذاك اليوم في
المؤتمر..

جزء بداخله معجب بـ "اللسطيني" الذي انتفضت

عزته أمام عدوه..

وجزاء آخر حائق.. غاضب.. حاقد.. لأنه رفض ما قبله

هو!

وللمرة التي لا يعرف عددها يختار عقله مصلحته

ويبررها لنفسه :

وما الذي يمكنني فعله له؟! ربما عندما تسنح لي

فرصة للسفر أذهب إليهما هناك.. زيارة مباشرة

أفضل من مكالمة هاتفية بالتأكد.

يخرس بها صوت ضميره وهو يعاود السير في

طريقه بخطوات ثابتة..

لا مكان للندم في الحياة لمن يريد العيش.. كل البشر

خطاءون فمن هو كي لا يخطئ؟!!

يهز بها كتفيه كأنها كافية وحدها لتسقط عنهما وزر

ذنبه ثم يستقل المصعد نحو الأعلى..

يفتح الباب بحرص.. يعرف أنه ليس موعد عودته

لكنه أراد أن يعد لها مفاجأة خاصة أنها صارت شديدة

العصبية بعد فقد طفلها..

تراها علمت عن ظهور يولاند الجديد في حياته؟!!

تراها تخاف شماتها بعد فقدانها لطفلها هي

الأخرى؟!!

يهم بمناداتها ليستوقفه صوتها كأنما تخاطب أحدهم

في غرفة نومهما..

صرت بخير.. خشيت أن يؤثر الأمر على جمال

جسدي لكنه لا يزال مثيراً كما تحبه..

يحمر وجهه بغضب والدماء تفور في عروقه بينما
يلقي ما بيده جانباً دون صوت..

يكذب أذنيه وهو يقترب بنفس الحرص من الغرفة
المفتوح بابها ليجدها مستلقية على بطنها فوق
فراشها تعطيه ظهرها..

يجول ببصره في الغرفة يمشطها بعينيه بسرعة لكنه
يجدها خالية!

هل كان يهياً إليه؟!

يكاد يتهد بارتياح ليعن عن وجوده لكن تصعقه
حركتها وهو يراها تنهض لتجتو علي ركبتيها فوق
الفراش.. تخلع عنها ثيابها بحركات مغوية مع كلمات
ساخنة أشعلت الحمم في عروقه وهو يميز أخيراً
شاشة حاسوبها المفتوحة أمامها في مكالمة مرئية..

_ أيتها ال (...)!_

يصرخ بها هادراً وهو يندفع نحوها فتتنفض مكانها
متفاجئة أول الأمر، تغلق الشاشة بسرعة قبل أن
تنالها صفعته المدوية علي وجنتها لتطلق صرخة
عالية..

يحاول فتح الشاشة ليتبين ملامح محدثها لكنها تمنعه
بكل قوتها فيصفعها من جديد وهو يصرخ بالسباب..
ينجح أخيراً في فتح الشاشة لكن الاتصال يكون قد
انقطع!

صفعة تلو صفعة نحو وجهها ونحو روجه هو
قبلها!!

_ لم أتصورك بهذه الحقارة.. لماذا؟! لماذا؟!_

يصرخ بها بجنون وهي تحاول التملص من بين
ذراعيه لتنتزع قميصها محاولة ستر عريها صارخة
بدورها :

_ لا تنتفض هكذا واعرف مقامك أولاً.. بكلمة واحدة
مني أليك وراء الشمس..

_ ابق هكذا حتى أراك علي حقيقتك.. عاهرة.
يصرخ بها وهو ينتزع قميصها منها ليلقيه أرضاً ثم
يجذبها من شعرها لتطلق صرخة أخرى وهي تتوعده
من جديد فيهتف وهو يرجها بين ذراعيه :

_ كيف تتبجحين وقد رأيتك هكذا؟! من ذاك السافل؟!
_ أحبه.. أحبه وسأتزوجه بعد ان تطلقني.. تدري لماذا
!؟ لأنك لم تكن رجلاً بما يكفي لتملأ عيني.. لهذا
أجهضت نفسي كي أقطع كل ما يمكن أن يصلني بك.

تصرخ بها بجنون وهي تستجمع كل قوتها لتدفعه
بقوة فيترنح مكانه وهو يشعر كأنما تلقى ضربة على
رأسه..

_ ماذا؟! ماذا فعلت؟! أنت.. أنت من أجهضتِ
الطفل؟!!

الصدمة على ملامحه ترضي غرورها لتتهافت
بغطرسة وهي تلهث من فرط الألم والانفعال:
_ لا داعي للمزيد من التمثيل.. أنت قبضت ثمن هذه
الزيجة جيداً.. ولا داعي لأذكرك بما فعلته لأجلك..
اكتفِ بهذا.. و... آه!

تنقطع كلماتها بصرختها وهي تراه يثب نحوها
ليعتصر عنقها بين قبضتيه صارخاً بعينين حمرأوين
أغشاهما الغضب والغدر :

_ ألا حد لحقارتك؟! سأقتلك.. سأقتلك!

_ لن تفعل لأنك جبان بلا شرف.. ستفضل قبض الثمن

المناسب لكل مرة.. لن.. لن..

صرخاتها تتحشرج لتعلو بالاستغاثة وهي تراهن على

طبعه الذي تعرفه لكنه كان في وادٍ آخر..

الآن يرى على ملامحها صور أولاده الثلاث تباعاً..

كل صورة تلومه.. تجلده.. تذكره بما فقده ولن يعود..

صورة يولاند..

عائبة تارة.. غاضبة تارة.. وشامته أخرى..

صورة دينا..

شقيقته التي تخلى عنها بزعم أنها لطخت شرفه..

رفض أن يحتويها ليتفهم أسباب ما فعلته واختار

الطريق الأيسر بأن يلفظها و عارها خلف ظهره..

والآن تأتيه صورتها ساخرة.. مشفقة.. تسأله (كيف

حال الشرف!؟)

وأخيراً صورة جهاد..

شامخة تذكره بنقيضه.. آسفة على حاله.. لكنها كبقية

الصور تصفعه.. تخنقه..

تخنقه كما يخنقها الآن!!

صوت جرس الباب يشق سمعه أخيراً فتختفي

الصور..

كل الصور!!

ولا تبقى سوى صورة وجه رفيدة الذي شحب تماماً

وقد فقد بريق الحياة!

ينتفض مكانه وهو ينتبه لتراخي جسدها بين ذراعيه

فيتركه دون وعي ليسقط تحت قدميه..

يشعر ببعضهم يقتحم المكان لتعلو الصرخات حوله
فيسقط مكانه على ركبتيه وهو يبكي بحرقة من كشف
له الستار كاملاً ليرى خلفه ظلمة ما ينتظره من ليل
طويل.

=====

=====

_ "فهمني" طلب الشاي بلبن..أنا الذي طلبت الشاي
(سادة).

يهتف بها راغب لصبي المقهى المجاورة لورشته
والذي جاء حاملاً صينية المشروبات لهما في ورشة
راغب..

ليقول فهمي بخنوعه المعهود :

_ لا بأس.. أشربه هكذا.

_ ولماذا تشربه على غير طلبك!؟

يهتف بها راغب باستتكار حمائي ليخاطب الصبي
بقوله:

_ خذ يا " ولد " هذا وأتِ بما طلبه!

يرمقه الصبي بنظرة إجلال تناقض هذه المستخفة

التي رفق بها فهمي وهو يكتم سخريته في

نفسه : (شاي بلبن! بالطبع هو يناسب طبيعته

" اللينة " أكثر! أتصور لو شرب يوماً (حجر معسل)

فلن تطلع عليه شمس يوم جديد.. خسارة هذا الجسد
مفتول العضلات في رجل مثله.. صحيح (من بره هلا
هلا ومن جوه يعلم الله)

ينصرف الصبي ليعود بسرعة بالمشروب الذي يضعه
أمامهما منتظراً "البقشيش" السخي الذي يمنحه إياه
راغب كعهده..

قبل أن يتخذ مجلسه أمام شقيقه على أحد الكراسي
الخشبية أمام الورشة.. يرتشف رشفة من الشاي
ليخاطب فهمي بقوله :

هذا هو المقصد يا أخي.. لماذا تقبل دوماً بالأقل
مادمت تستطيع أن تتال الأفضل؟! لماذا تفرط دوماً في

حقك؟!!

فيطرق فهمي برأسه وهو يرتشف رشفة من مشروبه

ليرد بنبرة مستسلمة :

_ الحمد لله.. رضا!

_ ونعم بالله! لكن الله لا يرضى عن أن نظلم أنفسنا..

أنت تعرف عما أتحدث.. أنا جلبت لك عملاً مريحاً

هنا.. فلماذا تتشبث بعملك البعيد الذي يحرمك من

بيتك واولادك لنصف الشهر!؟

يتهد فهمي بحرارة مصطنعة مطرقاً برأسه وهو

يتمتم مستكراً :

_ يحرمني!؟ أم يريحني!؟

فيطلق راغب زفرة قصيرة وهو يقول بضيق رغم

تفهمه :

_ أدرك أنك تهرب من طبع هيام.. وهي - صراحة -

تُترَك لأجلها بلاد وبلاد!

يبتسم فهمي ابتسامة واهنة تبدو مع ملامحه الخانعة

خير مثال ظاهر للطيبة فيردف راغب بإشفاق:

_ لكن أولادك يحتاجونك.. لم يعودوا صغاراً.. وأنت

يكبر عمرك ولن تعود تحتمل مشقة السفر وخدمة

نفسك هناك.

_ ربك كريم.. يدبرها!

يقولها فهمي بنفس النبرة فيرمقه راغب بنظرة

مغتاظة وهو يعود لاحتساء مشروبه هاتفاً :

_ كل واحد يريحه عقله! أنت حر.

يسمع راغب أحد الصبية يناديه من داخل الورشة

فينهض ليتقدم للداخل غافلاً عن نظرة فهمي التي

تبدلت لشراسة مخيفة في لحظة خاطفة وقد لمح عصا
قريبة ساقطة علي الأرض ذات نتوءات بارزة حادة..
هذه التي قربها بحرص بقدمه في حركة بطيئة غير
محسوسة ليحركها في الوقت المناسب فيتعثربها
راغب ليسقط على وجهه فتصيب إحدى نتوءاتها
ساقه فتدميها..

_أخي! انتبه! انت بخير!؟!

يهتف بها فهمي بجزع مصطنع وهو يقفز نحوه فيما
يكتم راغب صرخة توجعه حرجاً وهو يرى نفسه
ساقطاً على الأرض..

يكتم نزيف ساقه وهو يستند علي كف فهمي ليقف

قائلاً باستخفاف :

_بسيطة.

_ لا ليست بسيطة.. هذه العصا ملوثة بالتأكيد.. لنذهب
للمشفى القريب.

_ قلت لك "بسيطة" .. لا تضخم الموضوع.. دع عنك
قلبك (الخفيف) هذا!

يهتف بها راغب وهو يتناول من أحد الصبية ما ظهر
به الجرح ليلفه بقطعة قماش نظيفة..

صوت سيارة تقترب يجبره أن يرفع رأسه نحوها
وكذلك فعل فهمي الذي رمقها بنظرة عابرة وهو يكاد
يعود لجلسته لولا أن لمح وجه سائقها.. ومرافقه
الذين ترجلا منها!

كيف يمكن أن تتبدل المشاعر على وجه صاحبها بهذه
السرعة وبهذا التباين؟!

شراسة.. شراسة كادت تحيل وجهه لملاح وحش لا

يرحم..

ألم.. ألم يمتزج بالشر كأنه لشيطان يحتضر..

قوة.. قوة ترج الدماء رجاً في شرايينه وكأنه لو أطلق

العنان لقبضتيه لحطم الدنيا كلها الآن..

وخوف.. خوف يبدو غريباً.. ومؤذياً.. مؤذياً جداً

لرجل بتاريخه.. كأنه في لحظة واحدة عاد ذاك الرجل

العاجز الساقط أرضاً والذي انتهكوا امراته أمام عينيه

مرة تلو مرة..!!

خفقاته تشبه قرع الطبول وأنفاسه كنفث النار وعيناه

تدوران بتفحص ذكي على وجهي الزائرین وقد بدت

الصدمة جلية على وجه أحدهما وهو يرمقه بنظرة

دهشة كأنه قد فوجئ به!!

دهشة تحولت لغضب يليق بالتاريخ الأسود بينهما..

فقد كان.. حسام القاضي.



الطيب الرابع والاربعون

أنت؟!_

يهتف بها راغب بذهول وهو يميز ملامح حسام التي لم تغيرها السنوات.. رآه مرة أو مرتين عندما كان فهمي يريد الزواج من ابنة عمه تلك..

هو يذكر جيداً أن حسام هو الوحيد من أهلها الذي كان يناصر تلك الزيجة.. هذا بالطبع قبل أن يتهور شقيقه ويهرب بالفتاة ليتزوجها رغماً عنهم جميعاً..

ما الذي حدث بعدها؟! هو لا يعرف! لم يجروا من يومها أن يسأل أخاه عما حدث معها!

يلتفت راغب نحو أخيه لتروعه هذه النظرة على

وجهه..

مزيج من الشراسة - التي كاد ينساها على ملامحه

كانه عاد ذاك البغيض القديم قبل سفره وهداية حاله -

والخوف الذي يستجلب حميته الأخوية ليلتفت نحو

حسام الذي رمق فهمي بنظرة محتقرة فيتنحج ليقول

بخشونته التي لم تخل من تهذيب:

_ خيراً يا حسام "بيه"؟! ما سبب زيارتك؟!!

_ زيارة؟! ولماذا أزورك؟! هل كان بيننا سابق ود

وأنا لا أعرف؟!!

يهتف بها حسام بازدياء متعمد وعيناه الخبيرتان

تدرسان كل خلجات فهمي الذي أطرق بوجهه ضاماً

قبضتيه جواره..

فيما يردف حسام وهو يشير لسيارته :

_السيارة أصابها عطل ما في الطريق وقد أشاروا
عليّ بأقرب ورشة لتصليحها..لم أكن أعلم عن هذه
الفرصة "السعيدة".

يقول كلمته الأخيرة كأنه يبصقها بالمزيد من الازدراء
المتعمد ضاغطاً على أكبر نقطة ضعف ل(فهمي) كما
كان يراها.. غروره!!

لهذا التمعت عيناه بشدة وهو يرى الأخير ينكمش
على نفسه بخنوع متحاشياً النظر إليه..

_كرسيين لل(بهوات) يا ولد!

يقولها راغب مخاطباً أحد الصبية شاعراً بالخرج
والإشفاق على أخيه من مواجهة الماضي..

يتفرس في ملامح مرافق حسام الذي بدا له مألوفاً..

أين رأى هذه الوسامة الوجيئة من قبل؟!!

آه.. لقد تذكر!!

فهد الصاوي!!

زوج صديقة رؤى!!

رآه مرة من قبل مع زوجته في المطار.. ويظن أنه قد

رآه قبلها في التلفاز أيام مجد أبيه!!

سبحان من له الملك والدوام!

يتمتع بعبارته الأخيرة بمزيج من ضيق واستسلام

وهو يشعر بذبذبات التوتر بين حسام وأخيه وهذا

الزائر..

خاصة وحسام يهتف بانفعال وهو يتأهب للمغادرة :

_لن نبقى.. سنبحث عن ورشة أخرى!

_ اهدأ يا حسام.. السيارة بالكاد وصلت بنا إلى هنا..

ما الذي بينك وبين هؤلاء؟!!

يهتف بها فهد مؤدياً دوره ببراعة ليهتف حسام

بحرقة :

_ من كانت بيننا ذهبت لخالقها وارتاحت من شرور

خلقه.

هنا يرفع فهمي عينيه بنظرة واحدة خانه فيها "ثباته

الانفعالي" كأنه يبحث في عيني حسام عن الحقيقة..

هل هي مصادفة حقاً؟!!

هل كشف أحدهم حقيقته؟!!

والأهم - وما يعنيه حقاً أكثر من سواه - هل لا تزال

حبيبته آمنة في حضنه بعيدة عن عيون الجميع؟!!

سيقتل أي أحد يفكر في الاقتراب منها!

نظرة عاد لها المزيج الغريب من الشراسة والخوف
للحظة قبل أن يعود لخنوعه المصطنع ببراعة وهو
يكاد ينسحب بخطوات مهزومة ليغادر المكان نحو
بيته دون كلمة واحدة.. لكن..

_ فهمي.. فهمي.. انتظر..

يهتف بها راغب بحمية وهو يمسك ذراعه ليلتفت
نحو حسام هاتفاً :

_ لا حول ولا قوة إلا بالله! وما الداعي للتقليب في
الدفاتر القديمة؟! أنا لا أعفي أخي من المسؤولية
لكنها كانت "غلطة شباب" ..

يشيح حسام بوجهه دون رد متعمداً عدم النظر لفهمي
تاركاً هذه المهمة لفهد.. ولهذا اصطحبه معه هنا!

دقائق قليلة مرت تمكن فيها راغب من معالجة عيب
السيارة، ينقده حسام الثمن فيرفض راغب بحسم لكن
الأول يهتف ولا يزال يتعمد استفزاز فهمي:

_ بيننا ديون معلقة كثيرة.. لا تزودها!

يقولها وهو يلقي النقود - بحركة مهينة- في وجه
فهمي الذي حافظ بشق الأنفس على ثباته الظاهري
وهو يطرق برأسه دون رد منتظراً مغادرتهم..
تنطلق السيارة مبتعدة ولم تكد تخرج من الحي حتى
التفت حسام نحو فهد يسأله باهتمام :

_ ما رأيك!؟!

_ بالكاد كنت أمنع نفسي عن تمزيق قميصه لأبحث
عن الوشم اللعين.. لا يمكنني الجزم إن كان هو الذي
كان في الفيديو أم لا.. لقد مر على الأمر قرابة العشر

سنوات.. لا يوجد ما يمنع أن يكون هو.. لكن.. لا

يوجد كذلك ما يؤكد أنه كذلك!

يهتف بها فهد بانفعال احمر له وجهه وشيطان

الماضي يبسط ظلاله القاسية على ملامحه ليردف:

_ لا تعرف كم كنت أضغط علي أعصابي لأنني

مشاعري جانباً وأدرس ملامحه جيداً.. انفعاله كان

شديد الوهن.. شديد الخنوع.. إما أن هذا الرجل شديد

البرود.. أو انه يملك أقوى ثبات انفعالي رأيت في

حياتي.

_ بالضبط.. هو الأخير! .. ثبات انفعالي يليق بمجرم

تمرن كثيراً على المراوغة.. لكن خانتة عيناها! خانتة

لحظة ذكرت (فجر).

يقولها حسام وقد تلاحقت أنفاسه بمشاعر طاحنة تكاد
تدهسه بين عجالاتها وهو يتذكر مأساة ابنة عمه.
فيقول فهد بلهفة :

_ تماماً! أنا أيضاً لاحظت الأمر.. كل البرود الخانع
الذي تعمدته تلاشى في نفس اللحظة التي ذكرتها
منقلباً لشراسة كأنه سينقض علينا قبل أن يعود
لتمثيله..

_ هذه هي النظرة التي كنت أحتاجها.. وتأكدت منها
اليوم.. فهمي الذي أعرفه بشخصيته المتمردة القديمة
كان سيدفعه استفزازي للشجار أو الانتفاضة على
أبسط تقدير.. لم يكن ليسكت عن إهانتني له.. لكن هذا
الذي كان واقفاً أمامنا كان يدعي البرود.. كأنه
يصارع انكشاف حقيقته كي يحافظ على وجهه البليد

أمام الناس.. هو الكوبرا.. أكاد أقسم أنه هو.. تماماً

كما أكاد أقسم أن أول ما سيفعله أن يذهب إلى فجر

كي يرضي هوسه بامتلاكها.. ذاك الوغد!!

يهتف بها بعصبية وقبضته تهوي تباعاً على مقود

سيارته ليردف من بين أسنانه :

_مراقبة داهية مثله لن تكون سهلة..

_دع هذا لي.. لقد وقع في يدي بعد كل هذا العمر ولن

أتركه حتى يهلك أحداً.

يهتف بها فهد بحقد وهو يشعر أن خنجر الماضي

الذي ظنه قد انتزع من صدره.. الآن يخرس فيه من

جديد..

وفي مكانه كان فهمي يتجه لبيته بخطوات شبه

راكضة متجاهلاً نداءات راغب خلفه..

الغضب المستعر داخله يكاد يسلمه لحافة الجنون..

الجنون الذي لو استسلم له لترك كل شيء خلفه

ليهرع إليها هي..

هي فجره!!

يصعد الدرج نحو بيته.. يرى "ربي" ابنة راغب

تلعب مع أولاده في مدخل البيت فلا يملك نفسه وهو

يصرخ فيهم على غير عادته يأمرهم بالصعود للسطح

فيطيعونه بخوف وهم يرون هذه الهيئة منه لأول

مرة..

يستمر في الصعود ليرى قطاً بئساً اعتاد البقاء هنا

فلم يكثرث له..

هذا الذي اقترب منه ليدهس عنقه بحذائه مفرغاً فيه

بعض غضبه متلذذاً بصوت موائه المذعور..

يا أولاد.. لماذا يموء القط؟! قلت مائة مرة من قبل
لا تطعموا هذا القط كي لا يبقى رابضاً هنا في البيت..
هاهو ذا يموء كأنه في محطة إذاعة.. الصداع سيفلق
رأسي يا (...)..

يسمع صراخ هيام السابق الذي ينتهي بتوبيخها
لأولادها كالعادة من داخل بيتها الذي يدخله ليغلق
الباب خلفه بعنف لم يعد يتحكم فيه..
بينما هي واقفة في المطبخ تقوم بقلي بعض الطعام
ولا تزال تصرخ كعهدا مؤخراً :

ورثتم "الخيبة" و"خفة القلب" من أبيكم.. يا
"ميلة بختي" في زوجي وأولادي! كونوا مثله كي
ينتهي بكم الحال مجرد "خيال مائة لا يهش ولا
ينش!"

تنتهي عبارتها بصرخة قصيرة لها ما يبررها هذه

المرّة وهي تجد شعرها كله في قبضته!!

تلتفت نحوه بغضب هاتفة :

_ هل جننت!؟

لكن حروفها تختنق في حلقتها وهي تشعر بقبضته

التي تشد شعرها تخبط رأسها في الحائط خلفها بقوة

لم تتصور أنه يملكها..

والأدهى.. قبضته الأخرى تنتزع المقلاة بزيتها المغلي

من على النار ليرفعها فوق رأسها متأهبا لإلقائه

عليها!

الرعب الممتزج بالصدمة يشل جسدها وصوتها

معاً..

بضع قطرات من الزيت المغلي تتناثر فوق وجهها
ورقبتهما لكنها لا تجد القدرة حتى على الصراخ
وعيناها المذعورتان تعجزان حتى عن الرمش!!
تتسعان عن آخرهما برهبة من ترى شيطاناً لأول مرة
خاصة وهو يتمم من بين أسنانه وقبضته تزداد
اعتصاراً لشعرها :

_ حركة واحدة مني وتنايلن أسوأ مصير لم تريه حتى
في كوابيسك..

تشحب ملامحها حد الموت لتجد صوتها أخيراً وهي
تهمس برجاء ذليل بينما عيناها معلقتان بهلع بالمقلادة
في يده :

_ أسفة.. أسفة.. اخز الشيطان يا فهمي.. ماذا جرى
لك؟!!

يكاد يتوقف قلبها رعباً لدقيقة كاملة بعدها بدا هو
فيها كأنه يحارب شياطينه كلها قبل أن يلقي بالمقلاة
في الحوض القريب فتصدر صوتاً مخيفاً والزيت
المغلي يختلط بالماء..

تتصاعد نيران صغيرة هرعت هيام لتطفئها وهي
ترتجف بفزع تتخيل لو كانت الآن على وجهها هي..
لكنه يعاود شد شعرها لتطلق صرخة قصيرة كتمتها
وهو يقترب بوجهه منها هامساً بما بدا كفحيح
شيطان:

_لم أعد أحتمل لسانك هذا.. ابتلعيه وإلا انتزعته من
فمك لترئي بنفسك كم هو طويل.. وقذر!

تهز رأسها رغماً عنها بطاعة في مشهد مثير للشفقة
لكل العيون عدا عينيه هو اللتين ازدادت قسوتهما
وهو يردف :

_ وإياك أن تخبري أحداً بما كان الآن بيننا.. وإلا..
يقطع عبارته دون أن تكملها فتستمر في هزة رأسها
المرتعبة وهي تراه يفلتها أخيراً ليغادر المطبخ نحو
غرفتهما فتتنفس الصعداء أخيراً وهي تجري لتغلق
على نفسها باب المطبخ.. تهمس لنفسها لاهثة وهي
تلطم وجهها بكفيها :

_ الرجل "اتلبس"! هي "عين المضروبة أم (...)" ..
نظرت له مرة وقالت أنه لا يرد لي كلمة.. ماذا أفعل؟!
ماذا أفعل؟! لن أفعل شيئاً.. أنا لست مستغنية عن
عمري.. من اليوم لن أقول له إلا (حاضر) و(نعم)!

فيما بقي هو يدور حول نفسه في غرفتهما المغلقة

كوحش مقيد..

أنياب (الكوبرا) تكاد تبرز من فمه المفتوح تذكره بكل

ذكاء أنه يجب أن يتصرف ك(فهمي)..

يبقى هنا منزوياً مخذولاً كما ينبغي ل(فهمي) أن

يكون!

لكنه يشعر أنه لا يقوى على الصبر!!

طاقة هائلة تحرق ضلوعه وتجبره أن يتمرد على كل

هذا!!

هل كانت حقاً مجرد صدفة!؟

لقد كان أول سؤال سألته لراغب عقب انصراف حسام

وفهد عن حقيقة وجود عيب في السيارة ليجيبه

الأخير بعفوية أنه حقاً كان كذلك.. عيب حقيقي عطل

السيارة فعلاً ويصعب إحداثه عمداً!

يصعب..

لكن لا يستحيل!!

صدفة؟!

صدفة!!

هل يمكن أن تختل رقعة الشطرنج خاصته بمجرد

صدفة؟!!

أكثر ما يكرهه في حياته أن يباغته أحدهم بما لم

يتوقعه!!

كيف وهو المسيطر على كل الأمور.. تقهره صدفة!!

يطلق زمجرة عنيفة وهو يوجه غضبه كله لقبضة

عنيفة نحو الحائط..

قبل أن يأخذ نفساً عميقاً وهو يواجه الحائط نفسه

كعهده كلما أراد التركيز..

ماذا لو كان حسام القاضي قد شك فيك؟! ماذا لو كانت

(صدفته) الحمقاء مجرد وسيلة لاستفزازك؟!!

فكر كأنك هو.. ما الذي يبتغيه؟!!

بِشْر اختفى.. لا أحد يعرف مكانه.. ماذا لو..؟!!

يصدر همهمة خافتة وهو يحاول استعادة صفاء ذهنه

لتلتمع عيناه بإدراك..

قبل أن يفقد آخر خيوط سيطرته وهو يغادر البيت

كله..

لا بد أن يراها الآن مهما كان الثمن!!



قبيل الفجر كعده يجلس داخل سيارته أمام البيت
الذي جعله لها..

لقد تعد أن يزيد تعقيد المراوغة هذه المرة..
كان يمكنه ببساطة ألا يأتي لكنه اراد إثبات تفوقه
لنفسه!

لن يمنعه أحد عنها.. هي بالذات.. سيأتيها وقتما شاء
وكيفما شاء..

وسيلهثون هم خلفه دون جدوى!
وهاهي ذي ست ساعات كاملة مرت به هنا ينتظر
الخبر من رجاله..

صوت رنين هاتفه يمنحه رسالة مطمئنة..

(لا أحد يقترب!)

ورغم هذا لم يخفت الصوت الصارخ داخله..

لقد شعر اليوم بالخوف.. بالتهديد.. بالانتهاك..
الشعور الذي كان قد نسيه منذ صار (الكوبرا)!!
كيف يخرس هذا الغضب داخله؟!
كيف يقتع نفسه أنها كانت مجرد صدفة؟!
يغادر السيارة بحركة عصبية ليدخل البيت..
تستقبله الخادمة مرحبة فيدفعها بعنف دون مبرر
لتكتم صرختها وهي لا تفهم ماذا كان خطأها!!
يخلع نعليه بانفعال كعهده ليطرق الباب طرقات
سريعة متلهفة كأنه لا يحتمل انتظار إذنها بالدخول..
يدخل أخيراً ليراها تعطيه ظهرها وقد انسدل شعرها
الطويل عليه كستار أسود كثيف يشبه ظلمة
ماضيها..

ويناقض بياض ثوبها الشاهق الذي يغطي جسدها

كاملاً!!

_ عدت ؟!

تلتفت نحوه بلهفة وهي تفرد ذراعيها رغم يقينها أنه

لن يمسيها..

فيندفع إليها دون شعور فارداً ذراعيه كذلك..

فليعانقها الآن!

بل فليمتلكها كاملة!!

كم كان أحرق وهو يضع تلك الحدود السخيفة بينهما

رافضاً أن يمسيها!

هي له.. امرأته.. سكن قلبه الثائر الذي لن يهدأ إلا في

كنفها!!

عيناه تجريان على ملامحها بعشق مهووس وأنامله
تكاد تخونه لتجذبها بين ذراعيه.. لكنه يتوقف في
اللحظة الأخيرة..

تحول بينهما صورة!

صورة تجلد حدقتيه كلما أغلق جفنيه وفتح معهما
أبواب الذكرى...

صورة لها وهي تنتهك أمام عينيه..

يلوثون جسدها وهو عاجز عن حمايتها!

صورة تجمد أنامله ل تمنعه في آخر لحظة من مسها..
يتراخي ذراعاها حولها..

ولمن سواك أعود؟!!

الرد التقليدي هذه المرة يمتزج بغضب غير تقليدي..
بعجز غير تقليدي.. بانفعال غير تقليدي وهو يندفع

نحو الجوار ليلقي إليها بالعود هاتفاً بنبرة عصبية

غريبة علي هدوئه المعهود معها :

_ اعزفي. اعزفي.. لا تتوقفي حتى أقول.. بل لا

تتوقفي أبداً.. أبداً.. هيا.. اجلسي..

يبدو الخوف على ملامحها وهي تشعر به لأول مرة

غريباً عما اعتادته..

يرتجف جسدها وهي تطيعه مضطرة.. تجلس ليجلس

قبالتها..

الحن ينبعث رغماً عنها مضطرباً.. خائفاً مثلها..

فتزداد عصبيته وهو يأمرها بالإعادة..

مرة تلو مرة..

يزداد غضبه.. وخوفها..

للتوقف أناملها عن العزف أخيراً.. شهقتها العالية

توازي زخة بكاء وجسدها يرتجف بقولها :

_ أنا.. خائفة!

_ لا.. لا.. لا.. إياك ان تقوليها.. إياك..

كلمتها تلقي الثلج على لهيب غضبه - وربما تزيده-

وذراعاه العاجزان يطوفان حولها كطير قصير

الأجنحة..

_ طوال هذه السنوات وأنا أعيش كي لا تقولي كلمة

كهذه.. أبقىك هنا في مأمن عن كل العيون كي لا تعرفي

الخوف من جديد.. إياك أن تلفظيها ثانية.. إياك!

صراخه العاجز الغريب عن حلمه المعهود معها

يرجف روحها فتستمر دموعها دون توقف رغباً

عنها..

ليستحيل صراخه لآهة عالية..

أنامله المرتجفة تطوف برهبة حول ملامحها وعيناه

تشردان بالذكري :

_ يوماً ما كنت أستطيع مسح دموعك هذه بأناملي..

كنت أستطيع لمسك.. معانقتك.. تقبيلك بكل هذا الحب

الذي حملته لك.. تقولين انك خائفة؟! أنا أيضاً.. لأول

مرة منذ زمن بعيد شعرت أنني خائف.. لا يخيفني

شيء في هذه الدنيا قدر رهبتي من أن أفقدك.. كل

"خطوطي الحمراء" قد تختفي في هذه اللحظة فلا

يبقى أمام عيني سواك.

تمسح دموعها بنفسها وهي تسأله بتأثر :

_ ولماذا تفقدني!؟

_الناس! .. كعهدهم يستكثرون عليّ كل ما هو حقي..
كعهدهم يحرمونني كل ما أرغب فيه.. لكنني أنتصر
في النهاية.. أثبت لهم أنني دوماً الأذكى.. الأقوى..
لكن لكي أبقى كذلك يجب أن تبقي أنتِ معي.. أنتِ
وحدك من آمنت بي.. من نحتت معي هذا التمثال
العظيم بين ضلوعي.. غنيمتي التي نجوت بها بعد
احتراق كل شيء.. لهذا أرجوكِ ألا تخافي.. أرجوكِ..
أرجوكِ وأنا الذي ما عدت أرجو احداً.. تبا!! كيف
تفعلين بي هذا؟! كيف..!؟

همسه المنفعل يستجدي عاطفتها فتكاد تمد أناملها
لتلمسه لكنه يبتعد هاتفاً :

_ لا تلمسيني أبداً.. لا تطفئي هذه النار التي أعيش بها
ولها.. ابقي كما انت.. بيضاء الثوب والقلب والذاكرة..

طفلة لا تعرف عن الحياة سوى عزف عود يطرب
روحينا معاً..

_ كيف تبدو؟! صف لي شكلك..

_ أنتِ بالذات لا يعينك شكلي.. أنتِ الوحيدة في حياتي

التي رأيتني بقلبها لا بعينيها.. فابقي كذلك.

_ إذن قل لي المزيد عنك.. عني.. عن قصتنا.. أو حتى

أخبرني باسمك..

_ لو أخبرتك سيزيد خوفك.. ابقي جاهلة كي تبقي

آمنة..

يقولها وقد عادت نبراته تهدأ نوعاً لتسأله بخفوت :

_ وأنت؟! كيف سيهدأ خوفك?!

يطلق زفرة قصيرة وهو يتفحص ملامحها للحظات

قبل أن يناولها العود من جديد بقوله:

_ فقط.. كوني معي..

ترتجف شفتاها وهي تعاود العزف.. شيء غريب

ينتفض داخل روحها هذه الليلة..

هذه المرة بالذات..

شيء بدا وكأنه أيقظ مارداً لا تعرف مدى خطورته

إنما تستشعرها..

هل هو الخوف الذي تحس به لأول مرة هنا؟!!

هل هو شعورها أنه كاد يعانقها؟!!

هل هو كلامه عن خوفه هو؟!!

أين ومتى وكيف شعرت بكل هذا من قبل؟!!

أطياف غادرة تزور عقلها المشتت.. تفسد اللحن الذي

تعزفه وجبينها الوضاء يتعرق..

أناتها الخفيضة تثير هلعه وهو يتبين حالها الغريب

ليسألها بجزع:

_ أنتِ بخير!؟!

والجواب يجلده على ظهر غروره لتهتز رقعة

الشطرنج من جديد بخطوة طائشة غير متوقعة مع

جوابها المتقطع :

_ أنا.. تذكرت.. شيئاً ما..!!

=====

في زنزانته يجلس إيد مسنداً رأسه على الحائط وهو

يشعر بالضياع!

لا يفهم ما الذي يحدث له!

أي "ممنوعات" وجدوها في بيته؟!

من لفق له هذه التهمة؟! وكيف سمح الكوبرا أن

يحدث شيء كهذا؟!

لا.. لن يتركه أبداً..

هو طالما كان يخبره عن مودته الاستثنائية له هو

بالذات لأنه يذكره بشبابه!

_ سيدبر الأمر.. قريباً.. أنا واثق!

يقولها لنفسه بيقين يهتز كلما ازدادت مدة إقامته

هنا..

هل نسيه الجميع!؟

أين خديجة!؟

لم يرها منذ دخل هنا أول مرة!

هل منعوا عنه الزيارة أم أنها هي من رفضت زيارته

وقد عادت لتراه وزرها الثقيل!؟

وإيهاب!؟

آهة عالية تتفلت منه رغماً عنه حارة ملتهبة وهو

يتذكر ما سمعه منه عبر شرائط التسجيل القديمة التي

تركها..

لماذا لم يأت لزيارته هو الآخر!؟

هل قطع شجارهما الأخير ما بقي من الخيوط

بينهما؟!!

أم أن عاطفته المزعومة كانت شجاعة فقط أمام
شرائط التسجيل لكنها تراجعت بجبن أمام موقفه

الحالي؟!!

هاهو ذا عاد منبوذاً من أمه وأخيه من جديد..

والأسوأ أنه يعرف أنه منحهما بنفسه العذر!!!

لماذا تتأوه هكذا كالفتيات؟!!

يهتف بها أحد السجناء معه بتهكم ساخر يستجلب

الضحكات الخشنة من البقية فيرمقهم بنظرة زاجرة

وهو يكور قبضته أمامه..

لا مجال للوهن هاهنا.. لو أراهم نقطة ضعف واحدة

فسيحقونه..

لهذا افتعل ضحكة شرسة ليجذب الرجل من ياقة

قميصه هاتفاً :

_ تقصد الفتيات.. مثلك !؟

تتعالى همهمات السجناء بترقب وهم يرون الرجل
يستخرج من فمه شفرة حادة رفيعة بسرعة خاطفة
كاد يهوي بها فوق وجه إياد الذي تجاوزها بسرعة
من كان يتوقع شأناً كهذا..

ثم يعتصر ذراع الرجل الممسك بها بقبضته ليجبره
على التخلي عنها قبل أن يلويه خلف ظهره عدة
مرات بقوة جعلت الرجل يتأوه بألم مع هتاف إياد
الساخر :

_ أجل.. هكذا بالضبط.. أرني تأوه الفتيات كيف

يكون!

كان يكره العنف لكنه كذلك لم يكن غراً سانجاً ليدرك

أي جحيم ينتظره هنا لو شعروا بضعفه..

حسناً.. لن يطول مقامه هنا على أي حال!

أو هكذا يطمح!

يسمع صوت أحد الحراس يناديه فيترك الرجل ليهتف

مدافعاً :

_ هو من بدأ.

لكن الحارس الذي بدأ غريب الشكل عمن يراهم يومياً

يفتح الباب ليرمقه بنظرة طويلة متفحصة أثارت ريبة

إياد..

خاصة والرجل يمنحه لفافة ما قائلاً :

_ طعام لك.

_ من ارسله؟!!

_وما أدراني!؟!

يهتف بها بخشونة وهو يغمزه غمزة خفيفة فطن لها

إياد ليخفق قلبه ببعض الارتياح..

خاصة والحارس يردف قبل أن يغادر ويغلق الباب

خلفه:

_كل.. جيداً.. ولا تثر الشغب وإلا نقلناك حبساً

انفرادياً.

_أريد محامياً.. أو علي الأقل أريد مقابلة الضابط.

يهتف بها إياد لتبقى معلقة في الهواء قبل أن يعود

ليستقر مكانه..

لا ريب أنها رسالة من (الكوبرا).

يرى العيون ترمقه برهبة بعدما فعله بالرجل..
يتحاشونه لينخرطوا في مزاحهم الخشن فينزوي في
ركن الزنزانة ليفتح اللقافة..

بضع شطائر عادية المنظر لكن إحداها..!!

ياالله!!

الورقة المغلفة بها تبدو كأنها صورة مطبوعة

لامرأة.. امرأة يعرفها جيداً!!

خديجة!!

مقيدة لكرسي ما وعلي وجهها امارات رعب حاد

وتحت قدميها تزحف تلك الأفعى!!

تزداد خفقات قلبه جنوناً وهو يتلفت حوله يطمئن

لغفلتهم عنه..

قبل ان تمتد انامله المرتجفة تفض الورقة كاملة..

كتابة غريبة تحت الصورة تبدو كشخايط طفل لكنه
وحده يفهم شفرتها المعدة للطوارئ كما علموه في
التنظيم..

(انقطعت صلتك بالتنظيم.. بضع سنوات من السجن
لن تضر.. الحكاية تقف عندك.. وإلا..!)

تدمع عيناه بمزيج غريب من قهر وخذلان وهو
يعتصر الورقة بقبضته ثم يمزقها لقطع متناهية
الصغر كي لا تبدو ماهيتها قبل أن يشيح بوجهه
ليخفيه في الحائط بخذلان!

خذلان من أتته الضربة من موضع ما انتظر الغوث!!
الآن يفهم!!

هو صار كبش الفداء كي لا تصل الخطوات للكوبرا
الحقيقي..

هكذا إذن كان ينجح الكوبرا كل مرة أن يقطع كل

الخيوط التي تصل إليه!!

يلعنه سراً وهو يعاود النظر لبقايا الورقة في يده..

أمه!!

أمه في يد ذاك الوغد!!

ينتفض مكانه بفرع وهو يسمع حارساً آخر ينادي

اسمه فيلقي ما بيده جانباً ليركض إليه هاتفاً بانفعال

راج:

_ أين زميلك الذي أحضر الطعام منذ قليل؟!!

_ أي زميل؟! أنا وحدي من أؤدي نوبة الحراسة.

يقولها الرجل بدهشة فظة ليسبل إياد جفنيه باستسلام

عاجز..

لقد فهم!!

_ الضابط يريدك!

يستجيب للحارس الذي يسير به نحو مكتب الضابط..
لا يعرف عدد المرات التي أخذوا فيها أقواله ليصر كل
مرة على براءته..

لكنه هذه المرة يعرف أن الأقوال ستختلف!

_ ادخل.

يدفعه الحارس بخشونة زائدة لداخل الغرفة فيرمق
الضابط بنظرات زائغة ولا يزال تحت تأثير صدمته بما
عرفه!!

الصدمة التي زادت وهو يلمح مرافقه في الغرفة!

_ إيهاب!

يتمتع بها بنبرة تائهة وهو يلمح ملامح أخيه التي
حملت غموضاً لم يفهمه إلا عندما قال الضابط بنبرة

صارمة :

_ أخوك اعترف بالحقيقة.

_ أي حقيقة؟!!

تشعب بها ملامح إياد وهو يلتفت بحدة نحوه ليرد

الضابط:

_ اعترف على نفسه.. أنه هو من دس لك تلك الأشياء

في بيتك.. وأنها تخصه هو!

يكاد عنقه ينخلع مكانه وهو يلتفت نحو إيهاب من

جديد ليتقدم الأخير نحوه بنظرة عميقة هائلة..

كأنه منحها بها ألف اعتذار وألف عوض.. وألف ألف

صرخة ندم!!

نظرة حارة ناقضت برود اعترافه الكاذب:

_ شعرت بالغيرة منه عندما عاد من السفر ناجحاً
محملاً بكل ما حرمت أنا منه خاصة بعد الحادث.. لهذا
دفعني الحقد لتلفيق هذه التهمة له.. كل ما وجدتموه
في بيته يخصني أنا..

يقولها مخاطباً الضابط ليلتفت نحو إياد بقوله الذي
ارتعشت نبرته وارتعد معه جسده كله وهو يميل عليه
بعناق بطول افتقاده له :

_ سامحني يا أخي.

يكتم إياد آهة لوعته وهو يشعر لأول مرة أنه يشم
رائحة الماضي!

لا رائحة أخيه فحسب.. رائحة قميصه.. رائحة
مسحوق الغسيل الذي كانت خديجة لا تغيره.. يسمع

صوت الغسالة.. يرى نافذة الحمام المفتوحة تدخل
منها الشمس.. طبق الغسيل البلاستيكي يحوي ثيابهما
النظيفة بتلك الرائحة.. قبل أن يحملها أحد الحبال
لترى الشمس..

طوال هذه السنوات وهو يشواق قميصاً بتلك
الرائحة..

تغسله امه.. ويجاور قميص أخيه.. قبل أن يستقر
على جسده هو!!

لهذا تدمع عيناه لأول وهلة وهو يشعر بقبضتي
"أخيه" الداعمتين على ظهره..

لكنه ينتفض ليهتف مخاطباً الضابط بقوله:
_ لا تصدقه.. هو يكذب ليخلصني.. انا اعترف أنني
المدان.

_ بل هو الذي يكذب ليخلصني.. أنا المدان.

_ احرص انت الآن.. لن أقبل تضحية كهذه.

_ ليست تضحية أيها الغبي.. أنا ال..

_ احرصاً معاً!

يهتف بها الضابط بصوت مدوّ ليحبر كليهما على

الصمت مردفاً :

_ (بتتعارموا منك له؟! هي حفلة؟!)

يطرق كلاهما برأسه دون رد فيأمر الضابط الحارس

بأن يذهب بكليهما للزنزانة حتى ينظر في أمرهما..

ولم يكد إيهاب يدخل للزنزانة حتى تعثرت قدمه

الاصطناعية بساق أحد المساجين التي مدها عامداً

كرسالة ترحيب قاسية يقدمونها لأي وافد جديد..

يسقط أرضاً لتتكشف ساقه الصناعية فتنتطق
الضحكات المتهكمة مع التعليقات المتتمرة التي دفعت
أياد لينقض عليهم دون حذر مكيلاً لهم ضرباته..
وفي مكانه جلس إيهاب للحظات شاعراً بالوهن
الطبيعي الذي غزاه بعد الحادث يدفعه للبقاء كما هو
غارقاً في رثاء ذاته..

لكنه يعود ليتذكر عهده لعزة ولنفسه قبلها..
الفاجومي سيعود.. سيعود حقيقة لا قناعاً هذه
المررة!!

لهذا يتحامل على نفسه ليقف قبل أن يندفع بكل قوته
لينضم لأخيه في معركة قصيرة الأجل فضها الحرس
بعد دقائق..

يشعر بذراع إياد على ظهره يسنده حتي يصل به
للحائط القريب فيتكئ على ما يصلح للجلوس هناك..
يرى خيط الدم الذي يسيل على وجه إياد فيمسحه له
بخفة ليقول بشرود مشابه الشجن :

_ تماماً كالأيام الخوالي.

_ تماماً كالأيام الخوالي.

يكررها إياد بشرود مشابه قبل أن ينتبه لما يجعله
يساله بلهفة :

_ أين أمي؟! متى كانت آخر مرة رأيتها فيها؟!
يبتسم إيهاب ابتسامة واهنة وهو يميز استخدامه
العفوي لكلمة "أمي" كما لم يفعل منذ زمن بعيد..
ليتها كانت هنا وسمعتها كما سمعها.. دافئة ملتاعة
ومشتاقة! لهذا يتهد مجيباً :

_ في بيتها بالتأكيد.. لم أمر عليها فقد جئت إلى هنا
مباشرة عندما علمت.

يطرق إياد برأسه في جزع ملتاع قبل أن يحيطه
بقبضتيه مخفياً فورة مشاعره.. ليسأله بقتوط:

_ لماذا فعلت هذا؟!

_ أخبرني أولاً.. هل أنت متورط حقاً بهذا الأمر؟!
حنان إيهاب القلق الداعم الذي يمسه لأبعد عمق
يجعله يرفع وجهه إليه هامساً بانفعال عبر عينيه
المحمرتين :

_ بالطبع متورط.. وأكثر مما يمكنك تخيله.. هل تظنه
واحداً من شجاراتنا التي كنا نخوضها معاً أيام
مراهقتنا فيفتدي كل منا أخاه؟! تغيرت الأمور لقد
كبرنا.. كبرنا.. كبرنا وكبرت معنا تعقيدات حياتنا!

_ لكنك ستبقى أخي.. هذه هي الحقيقة التي لن تتغير
أبدأ.

يقولها إيهاب بعينين دامعتين وهو يضرب بقبضته
على ركلة أخيه ليردف بندم:

_ تسألني لماذا فعلتها؟! لأنني أنا المسئول عما جرى
لك.. حتى لو كنت متورطاً كما تقول.. أنا الذي سرقت
حلمك.. أنا الذي دفعتك للهرب لتسقط بين أولئك
المجرمين.. أنا الذي عجزت عن إدراك كل ما مررت
أنت به.. وأنا الذي صممت أذني عن الجواب المنطقي
للسؤال الذي كان ينبغي طرحه بعدما رأيت حالك عقب
عودتك: (من أين لك كل هذا؟!)..

يشيح إياد بوجهه دون رد ورعدة جسده تفضح بركانا

هائجا يثور بين ضلوعه ليردف إيهاب بصوت

متهدج :

_ ليس ادعاء بطولة زائفة.. لكن.. دعني أدفع ثمن

خطئي هذه المرة.. ألم تكن تعيرني دوماً بالهروب!؟

أنا سجنك كل هذا العمر في قفص من الخذلان.. من

الحرمان.. والعدل يقول أن أسجن اليوم مثلك.

يلتفت نحوه إياد وهو يشعر أنه الآن فقط يسمع كل

الشرائط إنما بصوت أخيه الحي.. لا المسجل..

تمر على قلبه لا أذنيه..

كيف أعماه الحقد طوال هذه السنوات ليذره غارقاً في

قاع ظلماته!؟

لم يعد يريد عوضاً ولا رد اعتبار..

لم يعد يريد سوى أن يكون أخوه وأمه بخير!!
دمعة كبيرة تقف عاجزة على طرف عينه.. تزلزل هذا
الجالس جواره ليهمس له بانفعال راج:

_سامحني.. سامحني.. آآه.. أخيراً وجدت القدرة على
ان أقولها وقد بقيت طوال هذه السنوات تحرق
صدري ولا أقوى على البوح بها.. أخيراً..
لكن إياد يشد على كتفه بقبضته مقاطعاً بهمسه:
_أنا سمعت الشرائط.

تتسع عينا إيهاب بصدمة لكن إياد يشدد من ضغط
قبضته على كتفه ليردف بانفعال:

_دعنا ننحي كل هذا الآن جانباً.. اسمعني جيداً فحياة
أمي الآن في خطر.

_ماذا؟!!

يهتف بها إيهاب بارتياح فيقترب أخوه منه بوجهه
ليردف بنبرة واثية بخطورة الموقف :
_ اقترَب واسمعي جيداً.. لن يمكنني الآن الوثوق
بأحد غيرك.. سأحكي لك كل شيء.. فلنفكر معاً كما
كنا في الماضي.. تذكر؟! عندما كنا صغاراً وتواجه
أحدنا لعبة ذكاء صعبة؟! كنا نفكر معاً كشخص واحد
فنكسب أي لعبة.. وهذه المرة ليست استثناء..
سنكسب معاً يا أخي.



أزرق

تراقبه جنة بنظرات قلقة وهي تراه يحتضن كف
(ملك) الصغيرة في نومها وقد انحنى بجسده فوقها
يراقب ملامحها بشروء..

تدرك كم كانت قاسية عليه مواجهة كتلك مع ذاك
الوعد..

تقترب لتسحبه من كفه برقة فيتهدد بحرارة وهو
يهمس بخفوت مخافة أن يوقظ الصغيرة بينما
يتحسس ندبة ذقنه التي أحدثتها جنة نفسها يوماً :

_اليوم خفت عليها.. خفت كما لم أفعل يوماً.. قد
أمنحها أروع حاضر وأفضل غد لكن ماذا عن
الماضي؟! عن ذنوب قصدها او لم أقصدها.. كيف
أحميها منها؟! كيف!؟!

تضغط كفه بين راحتيها وهي تغادر معه الغرفة
لتتوجه به نحو الأريكة القريبة..
تجلس لتسحب رأسه في حجرها ليمدد ساقيه في
جلستهما الأثيرة..

ينقل بصره بتعب بين عينيها البندقيتين وضوء القمر
الخافت الذي ينبعث من النافذة..

فتتخلل اناملها خصلات شعره وقبلاتها الناعمة تنثر
بتلاتها فوق ملامحه:

تسأل كيف تحميها من الماضي؟! بنفس الطريقة
التي ما عدت بها تخشى الليل؟! أذكر أول ما عرفتك
كنت تخاف الليل ونجومه.. لكن الحب والإيمان هما ما
أنارا لك ظلمته.. فهد الصاوي ليس فقط رهاني الذي
ربحته.. ومعركتي التي كسبت جميع جولاتها.. بل هو
بطلني الذي جاورت خطواته خطواتي وصرت أتعلم
منه كيف تقهر النفس ظلماً شياطينها وتجلي بريق
ماساتها..

يتنهد بعمق وهو يضم ساعديها لصدره بقوة كأنه
يخفي قلبه في كنفها هامساً بمزيج من غضب وألم :
يقولون أن (في حياة كل منا لحظة لا تعود بعدها
الحياة كما كانت أبداً).. ذاك الوغد كان شاهد تلك
اللحظة.. أحياناً أقف لأسأل نفسي كيف كانت حياتي

لتكون لو لم يكن هو فيها.. لو كنت عدت تلك الليلة
التي كان فيها في فراش أبي لأجده خالياً إلا من أمي..
لو كنت نمت جوارها في سكون لأكمل حياتي دون
ذنوب.. دون تشوه..

_ لم نكن لنتقي.. لم تكن لتخوض معركتك وتنتصر..
لم تكن لتصير فهد الصاوي الذي عشقته بكل ما فيه..
ولم تكن لتقف اليوم هذا الموقف بكل هذا الثبات
فتكون دعماً لصاحبك.. أحياناً تكون أخطاء الماضي
هي ما تشكل أحجار جدراننا.. نبنينا فتحميننا!
يبتسم لبلاغة التشبيه لكنه يعاود هز رأسه ليهتف
بضيق:

_ وددت لو ينتهي اليوم نهاية أفضل.. ذاك الوغد فر
من مراقبة رجالي.

_ انظر للجانب المضيئ من الأمر.. فراره هذا أكد
شكوكنا انه هو.. فهمي البسيط لم يكن ليراوغ كي
يهرب بهذه المهارة.. دعه يفرح ويطمئن بنجاحه
ودعنا نحن نعمل بصمت حذر.

تقولها بعينين ملتفتين فينهض من جلسته ليقول
بترقب:

_ أعرف وهج البندق عندما يتألق هكذا.. ماذا لديك؟!
_ طرف خيط آخر.. شكي في (إياد) لم يكن في محله..
الغريب أن إياد الذي كان مصراً على براءته من
تهمته عاد يغير أقواله ليدعي أنه هو.. حركة كهذه لم
تفتني.. خاصة وكل شكوكنا في نزار أخيه كانت لتقود
إليه هو.. لهذا شككت في أمر ما جعلني أزور بيت
والدته اليوم..

ولماذا والدته؟!

إياد ليس له من أحد سوي اخيه نزار في العراق..
وإيهاب الذي ظن بسذاجة انه يمكنه فداءه بالاعتراف
علي نفسه.. وأمه.. لو كان تغيير أقواله عن تهديد..

فلن يخرج الأمر عنها!

يتحفز في جلسته وهو يسألها باهتمام :

وماذا وجدتِ؟!

المرأة مختفية منذ ألقى القبض عليه.. لا أحد من

الجيران رآها من وقتها.

تقولها بنبرة ظافرة لينعقد حاجباه بتفكير قائلاً :

هذا يعني أنه لو أمكننا إنقاذ المرأة فيمكننا ببساطة

استنطاق إياد بالحقيقة كلها.

_ بالضبط.. خاصة أن الكوبرا لن يفعل شيئاً كهذا إلا
لو كان إياد يعرفه شخصياً أو على الأقل رآه من قبل.
_ ولماذا لم يلجأ لتصفيته؟!

_ لأن غروره يحب إليه المراوغة أكثر.. يلقيه لنا
ك(طعم زائف) كي ننشغل به.. يستمتع بلعبة شد
الحبل يرخيه ويسحبه كيف شاء.. لكن حدسي يخبرني
أن غروره هذا هو ما سيوقع به هذه المرة.
يتهد بحرارة لتردف هي بضيق مشفق:

_ ما يقبض قلبي حقاً هو رؤى.. لا ذنب لها ولا
لزوجها في كل هذا.. يا الله!! لا أصدق أنها تسكن بيتاً
واحداً مع وحش كهذا!

فيسبل جفنيه بخزي ليهمس بخفوت مرير :

_مهما وصفت لك فلن يمكنني شرح شعوري اليوم
وأنا أقف أمام الأخوين.. أحدهما نال من شرفي..
والآخر نلت أنا من شرفه..

تزدرد ريقها بتوتر وهي عاجزة عن منحه جواباً
يرضيه.. فتقول بضيق:

_رؤى وراغب لا يستحقان فضيحة كهذه.. أنت لا
تعرف كم يحترم الناس زوجها في حينهما.. لو
انكشفت الحقيقة فلن تسعهما تلك الأرض بعد الآن.
_لن يعرف أحد..

يقولها بحسم لتلتفت نحوه بدهشة فيردف بشرود :
_هذا ما سأحرص عليه.. أن ننال من ذاك الوغد دون
أن نكشف حقيقته لأهله.. فليكن هذا رد ديني

ل (رؤى).. لعل (ستر) اليوم يشفع ل (كشف ستر)

الأمس.

تدمع عيناها مع هذه الغصة في حلقها وهي ترى

القدر يدور دورته بهذه الطريقة..

ترفع كفه نحو شفيتها تقبله بإجلال هامة :

_كبرت يا حبيبي.

_ما (كبرت) هذه؟! لم تكن ثلاث سنوات فارق سن

بيننا تدفك دوماً للحديث بهذه الطريقة!!

يهتف بها بسخط مصطنع وهو يخطبها بخفة على

مؤخرة رأسها فتبتسم وهي تقبل جبينه تسترضيه

لتردف بنبرة جادة تقطر عشقاً :

_كبرت ولا تزال تكبر في عيني يوماً بعد يوم.. لا

تعرف كم أنا الآن فخورة بك.. ها هي ذي الأيام تمر

لأدرك أي رجل عظيم أحببته.. بالله لا تقل من جديد
أنك تخاف من الماضي مادام ضميرك يقظا هكذا فلا
خوف من أمس ولا غد.



_سمرا..! (عاش من شافك)!

تهتف بها زميلتها في محل ملابس الأطفال الذي
عادت للعمل فيه لترد بابتسامة واهنة مستجيبة
لعناقها..

يسرا الصباحي عرضت عليها وظيفة أفضل لكنها
اكتفت بقبول المسكن البسيط الذي وفرته لها..
اعتبرته تعويضاً عما فعلته بها خاصة وهي لا
تستطيع العودة لبيتها القديم كي لا يتعرض لها ذاك
البلطجي الذي زادت يسرا من مشاكلها معه..
فلتنته الحكاية عن هذا الحد.. وكفاها ما كان!
_ نسقي واجهة المحل.. اختاري لوناً ملفتاً بدرجاته
كي يجذب الانتباه.

تقولها زميلتها لتهمس هي بشرود :
_ أصفر.

تقولها وهي تتذكر آخر لقاءاتها بيسرا.. وقتها كانت
تحتضن منامة صفراء كانت لصغيرها الراحل.. لا
تزال تذكر رعشة صوتها وهي تخاطبها بنبرة أخرى
غير تلك المتطرسة التي طالما عرفتها به :
_سامحيني.. لم أكن أظن الأمر سيصل بنا إلى هذا
الحد؟! تذكرين كيف كان لقاءنا الأول؟! كنت عندك في
المحل.. أشتري منامة كهذه.. ابني كان يليق به كثيراً
هذا اللون.. كنت أحبه كثيراً عندما يرتديه فيبدو
كشمس صغيرة تعانق السماء ببطء.. ينافس شقرة
شعره ويصنع مع حمرة شفثيه مزيجاً رائعاً.. تعلمين
؟! لم أذق في حياتي دفناً كذاك الذي يغمرنى عندما
كنت أحتضن شمسه الصغيرة تلك.. شمساً أهملتها
فعاقبتني بظلمة أعيش فيها حتى هذا اليوم.. بل.. حتى

هذه اللحظة.. لا أريد إبقاءك لكنني فقط أريدك أن
تفهمي اجتياح شعوري وقتها.. الاجتياح الذي يدفع
امرأة لشراء منامة لطفل توقن أنه أبداً.. أبداً لن
يرتديها.. ومع هذا تصر على المزيد والمزيد من
الشراء حتى تتكدس الخزائن.. تتكدس الخزائن بقدر
فراغ حضانها منه.. وبقدر اشتياق قلبها له!
تمسح سمرا دموعها وهي تحاول نفض الذكرى عن
رأسها لتتحرك كي تمضي في عملها..
تنسق المنامات فوق بعضها بشكل جذاب لتستقبل
زبائن المحل محاولة العودة لحياتها السابقة..
لعلها تعلمت درسها أن حياة هؤلاء الأثرياء أكثر
تعقيداً مما كانت تظن!

تغمس في عملها كحلة دؤوب.. تعرض الملابس
وتساعد الأطفال في القياس.. تحتمل سخافات بعضهن
وخطرسة بعضهن وتردد أخريات..

لكنها تنتبه أخيراً على صوت قريب كصوت التقاط
صورة مع ذاك الضوء الذي شعرت به في وجهها
فتلتفت بدهشة لمصدره..

أنت؟! _

تتمتم بها بذهول وحمرة غريبة تخضب وجنتيها بينما
تميز ملامح فادي الذي أعاد هاتفه لجيبه وهو يقترب
منها ليقول بنبرة غامضة:

كان ينبغي أن أستاذن أولاً قبل أن ألتقطها.. لكنني
أردتها عفوية غير متكلفة.. تسمحين لي بالاحتفاظ
بها؟!!

تزداد حمرة وجنتيها لكنها تتحكم في نبرتها وهي

تشيخ بوجهها قائلة بتهكم :

_ولماذا تحتاج لصورة لي؟! ظننتك تملك الكثير من

الصور لامرأة بلامح متماثلة!

_أردتها صورة لك أنت.

يقولها بنفس النبرة الغامضة التي شابتها مرارة

لاهبة وهو يردف :

_صورة شبيهتك تخنقني.. لعل صورتك لا تفعل.

لا تجرؤ على سؤاله عما يعنيه مع هذا الجرح الذي

يبدو واضحاً في عينيه والذي صارت تدرك سببه..

لهذا تطرق برأسها لتغمغم بخفوت :

_هي أخبرتني بقصتكما.

_كذبت وادعت دور البراعة؟!!

يسألها ساخراً لتهز رأسها نفيًا بقولها :
_ على العكس.. حكمتها وكأنها تتطهر من ذنب آخر
اقترفته.. للحقيقة دوماً جانب آخر قد لا نراه لكنه يبقى
صادقاً.. مؤثراً.. ومظالمًا.

تقولها بعمق استغربه ليسألها باهتمام :

_ كم عمرك!؟!

تذكره فيتعجب.. قرابة العشر سنوات بينها وبين يسرا
ومع هذا تبدو ان نفس الشكل!
صوتها ليس رقيقاً مغناً كيسرا بل به بحة خشونة
واضحة..

كان لصوت كل منهما نصيباً من طبيعة حياتها!

_ فتاة في مثل عمرك كانت لتكون الآن مجرد طالبة
تدرس.. ما الذي دفعك لقبول عرض مشبوه كذاك
الذي عرضته هي عليك!؟

يسألها باهتمام استحوذ عليه وهو لا يزال يتعجب
الشبه بينهما لترد بخزي :

_ لو عشت حياة كالتى عشتها لأدركت أنه لم يكن
عرضاً مشبوهاً كما تظن.. بل طوق نجاة!

_ وهاهو ذا الطوق كاد يلتف حول رقبتك فيخنقك!
يتمتم بها بسخط فترفع عينيها إليه لتسأله بتردد :

_ لماذا ساعدتني ذاك اليوم في المحكمة!؟

_ شق عليّ أن أراها تسحب غيرها لمصائبها كما
اعتادت.. شق عليّ أن أراها تخرج دوماً كالشعرة من
العجين وتترك لغيرها تجرع مرارة خطاياها.. شق

عليّ أن أرى ابني يسقط أمام عيني ويموت من

جديد..

تدمع عيناها وهي تشعر بحرقة قلبه لتقول :

_ عندما قالت لي يسرا هانم أنها ستحكي لي حكايتكما

قلت لنفسي (القاضي العدل لا يصدق رواية واحدة

وينتظر حتى يسمع من الطرفين).. ظننتها ستتصف

نفسها.. لكنها أنصفتك أنت.. اعترفت بذنبها في

حقك.. لبيتك تسامحها.

تزيغ نظراته بشرود قبل أن يهز رأسه بقوله:

_ عندما أتيت إلى مصر تصورتني سأشمت في

مصايبها.. لكنني وجدتها كما هي.. لا تزال تجيد

الخداع.. ولا يزال القدر يمنحها فرصتها في الهروب

من العقاب.

_ صدقتي.. هي تغيرت.. ربما لو قابلتها وسمعت

منها.. ربما..

تهتف بها مدافعة بحماس ليقاطعها بشبه ابتسامه

وبنظرة تفحصتها كاملة :

_ أنتِ طيبة جداً.

حمرة وجنتيها تصل أقصاها فترفع أناملها تداريها

كجرم يستوجب العقاب وحروفها تتلثم :

_ حق الله! لا أجاملها.. أنا.. أقصد هي..

تتسع ابتسامته وهو يتعجب المقارنة بين بساطة فتاة

كهذه وتعقيد امرأة كيسرا.. والاثنتان بنفس الملامح!

لا يتعجب جنون إبراهيم طليق يسرا.. صدمته لاريب

كانت هائلة!!

_ أعتذر منك.. موعد طائرتي اقترب.. سأغادر.

يقولها وهو ينظر في ساعته فتضطرب خفقاتها وهي
تهز رأسها لترمقه بنظرة طويلة عجزت فيها عن
إغماض عينيها كأنها تحفر له داخل روحها خندقاً
بطول حلم مستحيل..

خندقاً يجعلها تسأله بمزيج من ترقب وخجل:

_ لماذا جئتني اليوم؟!!

سؤالها - على منطقيته- يصدمه!

لماذا جاءها هي؟!!

ربما لأنه لم يستطع زيارة يسرا كي لا يرى وجهها

المنتصر دوماً يسخر من وجعه؟!!

ربما لأنه لا يزال يجد طرافة في رؤية امرأة تشبهها

كل هذا الحد وتختلف عنها كل هذا الحد؟!!

وربما لأن جزءاً خفياً داخله لا يزال يعترف أنه عشق
هذه الملامح يوماً بكل عنفوانه.. ولا يزال عاجزاً عن
ربطها بروح صاحبها المشوّهة!

(ليت ملامحك هذه لامرأة أخرى غيرك)

يكاد يبتسم ساخراً وهو يتذكر كم كان يقولها ليسراً..
كأنها كانت نبوءة!!؟

لهذا يكتفي بزفرة قصيرة مع إشاحته بوجهه قائلاً بما
بدا صادقاً لأبعد حد :

لا أعرف.

يعطيها ظهره ليغادر بخطوات رصينة تشي بنبل
طبقتة لكنها تستوقفه..

انتظر.

يلتفت نحوها بترقب فتمتد أناملها نحو أحد المنامات
الصفراء.. تجذبها لتضعها في أحد أكياس المحل.. تمد
كفها به له لتقول بابتسامة مرتعشة :

_ربما لن أستطيع دفع أتعاب المحامي الذي أحضرته
لي وظني أنه حتى لو عرضتها فلن تقبلها.. لكن
يمكنك قبول هذه مني.

يرمق كفها الممدود بنظرة غريبة فتردف بخجل كأنما
تفسر حماقتها :

_الحياة تستمر.. يوماً ما سيعوضك الله بطفل آخر..
لعلك ساعتها تتذكر بشرى فتاة مصرية بسيطة كانت
أول من أهداك شيئاً له!

ابتسامة تشبه خاصتها تولد على شفثيه ببطء كشمس
صغيرة..

يمد كفه ليتناول منها الكيس فتلامس أطراف
أصابعهما عفويًا لتشعر هي برعدة جسدها كله..
لا..لا.. فات أوان حمرة الخدين.. تظنهما الآن قد
تفحما!

_ (يسلموا دياتك)

بلهفته اللبنانية يقولها فتقع في قلبها موقعاً يزيد
عمق (خندق الحلم) في روحها..
تسمح أخيراً لتنهيدة حارقة ان تغادر حلقها بعدما
اطمأنت لخروجه من المحل..

_ (دخيل قلبه أنا!)

تهتف بها زميلتها متهمكة بحرارة مصطنعة فترمقها
بنظرة عاتبة لتضحك الأولى قائلة :
_ الله يسهل له.

تبتسم رغماً عنها وهي تعود لترتيب صف المنامات

وعيناها تزوغان بنظرة شاردة..

بدأت قصتها مع يسرا بـ"منامة" .. وانتهت

بـ"منامة"!

لكن.. هل انتهت حقاً؟!
=====

أحمر
=====

خطبة إبراهيم الليلة!

لا تزال الكلمات المكتوبة تصنع أمام عينيها غشاوة

(حمرء) من زهول..

زهول يكاد يدفعها للجنون..!

هل رأى امرأة سواها؟!!

ولماذا تلومه؟! ألم يعلم أنها كانت لثلاث رجال قبله؟!!

الغشاوة الحمرء تتلون بزرقة الألم..

ألم يدفعها للحسرة.. هل ستكسب (الأخرى) المقارنة

أمامها؟!!

بالتأكيد.. أي امرأة الآن سترجح كفتها في ميزانه

مادامت الكفة الأخرى التي تخصها هي ملوثة

بخديعتها!!!

الغشاوة (الزرقاء) تتلون أخيراً بسواد الغضب..

غضب يدفعها للرغبة في تدمير كل شيء..

لن تتركه لغيرها.. لن تفعل أبداً.. حتى ولو استعانت

بخدمة أخرى من (ابنة الصباحي)!!

كوثر!

تصرخ بها بانفعال هادر وهي تلقي هاتفها جانباً حيث

الرسالة التي أرسلها لها قيس بحسرة بعدما يأس

الجميع من إقناع إبراهيم بالعدول عن هذه الخطبة!

تندفع كوثر إليها بخوف من صراخها الهستيري الذي

عادت له طبيعتها النارية والذي زادت حدته الآن :

أريد كل طاقم الأمن بالخارج.. بأسلحتهم.. كلها..

كلها.. قولي لهم أن يستعدوا بسياراتهم.. أريد موكباً

مخيفاً.. مخيفاً.. تفهمين؟!

اهدئي يا ابنتي.. اهدئي وأخبريني بما حدث!

تهتف بها كوثر محاولة تهدئة جسدها الذي يرتعد
بغضب هادر يليق بنبرتها وهي تخطب بقبضتها على
صدرها :

_ أهدأ؟!؟! أهدأ?!?! سيخطب الليلة!! سترى عيناه
امرأة غيري!! هكذا؟! هكذا انتهت الحكاية؟! هكذا
سيتجاوزني كشخبة قلم مسحها بممحاته لتعود
صفحته نظيفة دوني؟ هكذا كنت لديه بهذا الثمن
البخس!؟!

تهز المرأة رأسها لتقول بتعقل رغم تأثرها:
_ لم يكن أحدكما ليناسب الآخر.. عالمك غير عالمه..
انسيه يا ابنتي.. انسيه ودعيه ينسى.
_ أنسى!؟ أنسى!؟!

تصرخ بها بهياج مستتكر ولا تزال تخبط بقبضتها
على صدرها.. تصمت للحظات كأن عقلها التائر لا
يزال عاجزاً عن التصديق.. قبل أن تعاود صراخها :
_ نفذي ما قلته حالا..حالا..

تطيع المرأة صاغرة بعينين دامعتين لأجلها..
ما أشبهها بطير ذبيح يتخبط بين الجدران برقصة
صاخبة ظاهرها الجبروت وباطنها الوجد!!
الموكب المهيب الذي ارادته يعد كما ارادت..
سيارتها الفخمة معتمة النوافذ تتقدمه نحو المكان
الذي صار أحب الأماكن إليها..

دخلته كثيراً ك(سمرا) فلفظوها بعد طول ود..
والآن تدخله ك(يسرا) وليكن ما يكون!!
لن تتم هذه الخطبة ولو على جثتها!!

تتوقف السيارة في الحي أمام بيت العروس الذي بدا
واضحاً بأنوار الزينة التي علقت عليه..
تلقى على نفسها نظرة أخيرة في مرآة السيارة تزيد
هياجها التائر..

حجابها وثيابها المحتشمة ك(سمرا)..
سطوتها وجبروتها ك (يسرا)..

فمن هي الآن بينهما؟!!

مجرد راقصة على السلم يحتقرها من بأعلاه ويزهد
فيها من بأسفله!!!

نيران الثورة داخلها لا تزال تشوش على كل شيء..
لم تكن مجرد غيرة من امرأة ستأخذ مكانها..
بل كانت انتفاضة لكل ما بقي لها هنا!!!

تعطي أوامرها للرجال الذين أثاروا الخوف في نفوس
أهل الحي وهم يغادرون سياراتهم بأسلحتهم وهيئتهم
التي تمزج القوة بالنفوذ..

_ اتبعوني لأعلى.. عندما أمركم تبدأون التنفيذ.. لا
تؤذوا أحداً.. إياكم.. بضع طلقات في الهواء تخيفهم
لينفض الجمع ويفسد هذا الحفل..
يهزون رؤوسهم بطاعة كانت لتمنحها نشوة السيطرة
في أي موضع سوى هذا..

لا تزال الغشاوة السوداء على عينيها تمنعها رؤية أي
شيء عدا هذا الغضب الثائر الذي يحرق روحها..
فلتكن هذه رسالتها له.. ولأي امرأة تضع نفسها في
طريقها..

لن تسمح له ان يكون لسواها!!

يتزاحم الناس بفضول وهم يرون المرأة التي طالما
عاشت وسطهم بصورتها الجديدة التي أثارت مزيجاً
من رهبتهم وإجلالهم..

الموكب الغريب الذي تتقدمه هي نحو بيت العروس
يتسع أكثر وأكثر وكأن الحي كله الآن صار في طريقه
لشقة واحدة..!

وفي مكانه بصالون بيت العروس كان إبراهيم يجلس
مكانه مطرق الرأس..

يحاول تكلف ابتسامة على شفثيه ترضي العروس
وأهلها لكنهما بقيتا متحجرتين يابستين ك(ورقة
نعناع) جافة.. بل محترقة!

يختلس نظرة لجانب وجه العروس..

بارعة الجمال..شديدة التدين.. خجول.. تبدو سعيدة
جداً بهذه الزيجة.. يعرفها منذ كانت صبية صغيرة
تحضر معه دروس المسجد..

هكذا إذن يمتلئ العالم بالزوجات الصالحات اللاتي
يأتمنهن على بيته وعرضه و.. قلبه!
قلبه!؟

نظرة مختلصة أخرى تجعل عينيه تلتقيان بعيني
العروس في نظرة قصيرة..

سعيدة.. راضية.. تبدو معجبة به حقاً.. إنما..

أين تلك اللمعة في عينيها!؟

لمعة تخبره أن صاحبتهما ليست معجبة به فحسب.. لا

تحبه فحسب.. بل (تراه الدنيا وما فيها) !؟

لمعة لم يرها في حياته سوى في عينين فقط!؟

عينين كاذبتين.. لم يُرد في حياته تصديق كذب إلا

كذبهما!!

يغمض عينيه على دمعة كبيرة بحجم هذا الجرح

داخله وهو يشعر بالزغاريد حوله تستحيل لصراخ

داخل روحه..

هذا الذي شعر به ربيع وهو يشد بقبضته على كتفه

مسبلاً جفنيه بعجز..

كان بوسعه أن يمنعه من هذه الخطبة لكنه كان يعلم

متى يشد اللجام حول الفرس الجامح ومتى يطلقه..

لعل ابنه يحتاج لأن يجتاز هذه التجربة بنفسه..

لعلها تكون بوابته لأن يفهم نفسه.. لأن يمنحها فرصة

التوقف بعد العدو الطويل كي تستريح.. لعلها متى

استراحت استمعت.. لعلها إذا استمعت فهمت..

وأعدرت.. ولو لم تملك تمام الصفح!

يفتح إبراهيم عينيه كي ينظر لأبيه لكنه يصطدم بها

هي..

(الرامية القرمزية) عادت لتلقي سهماً آخر!!

اشتياق!

اشتياق هادر لم يتصوره بهذا الاجتياح يعصف بروحه

فلا يعرف أي قوة امتلكها كي لا يركض إليها..

وغضب!!

غضب لا يقل اجتياحاً وهو يراها زبانيته خلفها

بثيابهم السوداء وأسلحتهم في جيوبهم..

هل فوجئ بها؟!

الغريب أنه كان ينتظرها!!

لهذا كان أول من تمالك دهشته وصخب المكان حوله
يستحيل فجأة لصمت مهيب بمجرد دخولها..
يقف مكانه وقفة متحدية تناقض هذه النظرة الكسيرة
في عينيه وهو يراها تقترب حتى صارت قبالته
تماماً..

الغضب الهادر يوزع قسمته بالتساوي بينهما في هذه
اللحظة وهي ترمق عروسه بنظرة كادت تحرقها
مكانها..

تعرف هذه الفتاة..

تعرف كم هي شديدة التهذيب.. واضحة التدين.. بالغة
النقاء..

صورة تكفي لطمس صورتها هي تماماً في عينيه!!

الغشاوة (السوداء) تزداد قتامة والغيرة تفتت روحها

ألف قطعة..

تضم قبضتها بقوة وهي تكاد ترفعها لتمنح رجالها

أوامرها..

فلينفض هذا الجمع.. ولتصل الرسالة للجميع..

(هذا الرجل لي.. هذا المكان لي.. ولن أسمح لأحد

بأخذه مني)

تكاد تصرخ بها بجنون لكن نظرة لعينيه هو

تخرسها!!

نظرة رجل لا يزال ينزف بجرح هي من صنعه..

والآن يجد فرصته ليداويه.. حتى ولو بيد غيرها!!

الغشاوة السوداء تنزاح رويداً رويداً لتحل محلها
غشاوة من دموع وعيناها تدوران في المكان ككاميرا
سريعة الصور فقد صاحبها صوابه...!!!
العروس (المثالية).. أهلها (الطيبون).. المكان
(النظيف) على ضيق حاله.. ربيع.. أبوها الحقيقي
الذي يرمقها بنظرة طويلة صامته كأنه ينتظر المزيد
من نتائج اختباراتها..
و.. مصحف! ..

مصحف كبير موضوع على مائدة منزوية هناك جرت
إليه عيناها كأنه يذكرها ب(هويتها الجديدة)!
وأخيراً تنزاح الغشاوة تماماً..
لا تدري أي سيل أطفأ نيرانها تاركاً لها هذا الرماد
الخانق داخلها..

رماد يقتلع جذور جبروتها ف...!

تعطي أوامرها لرجالها بالانصراف!

يتبادل الحضور نظرات مندهشة.. فقط ربيع يرمقها

بنظرة داعمة لم ترها وهو يشعر أنها لم تخب ظنه

فيها..

نظرة لم ترها وعيناها معلقتان بعيني إبراهيم الذي

زاد غضبه حد الثورة وهو يصرخ بها بانفعال :

_لازلتِ تحبين الاستعراض يا ابنة أبيك.. لازلتِ

تتحينين الفرص لتتلاعبي بالناس..

هنا تتحرك عروسه لتقترب منه مهدئة بحركة عفوية

فضحت قلقها عليه..

حركة غرست هذا النصل الموجه في قلب يسرا..!!

لهذا وجدت نفسها تحيد ببصرها عنه نحو عروسه
قائلة بنبرة لم تعرف كيف غادرت شفيتها :
_ اعنتي به.. امنحيه ما عجزت أنا عن منحه.
ترمقها الفتاة بنظرة مرتبكة وهي لا تعرف بماذا
ترد..

فيما يتجمد إبراهيم مكانه وهو ينتبه للقلادة في
عنقها..

ثلاثة قلوب عادت تلتحم معاً على صدرها..
(حبيبة إبراهيم) (الرامية القرمزية) (أم حسن)!
متى أصلحت هذه؟! ولماذا ترتديها?!

تباً لها..

بل تباله هو ولهذا الوهن الذي يسري غادراً بين

اوردته!!

أنامله المرتعدة تمتد دون وعي تهم بخلعها عنها
ليمزقها كالمرّة السابقة لكن كفيها يمنعانه في اللحظة

الأخيرة..

لحظات سرى فيها دفء غريب بين الأكف

الباردة..!!

لحظات تسربت فيها (رائحته) التي اشتاقتها حد
الجنون لأنفها الذي تنشقها ك(نفس حقيقي) وسط كل
ما سبقه وما سيتبعه من (أنفاسها الخادعة)..

وقطعه همسها شديد الخفوت.. شديد الرجاء.. شديد

العُتب.. وشديد الصدق :

_دع لي بعضاً منك.. فبعضُ منك "كُلّي"!!

يوماً ما سيحسد نفسه على قوة امتلكها في هذه
اللحظة وهو ينتزع كفه من كفيها لكنه الآن سيستسلم
لقسوة شعوره بهذا البرد..

تماماً مثلها!

تغادر المكان بخطوات مهزومة رغم شعورها بهذا
الانتصار الصغير داخلها..

(ابنة ربيع) هزمت (ابنة الصباحي) هذه المرة في
جولة (الأناية)!

لو كانت سعادته مع سواها.. فليكن سعيداً و"كفى"!

تغادر بيت العروس لكنها تشعر بكف ربيع على
كتفها.. كعهده ممزق بينها وبين ابنه.. يهمس لها

بأسى :

_ هبة لم تحضر الخطبة تعبيراً عن اعتراضها.. اذهبي

إليها وسآتيكما بعد قليل.

ترتجف ابتسامتها الباكية وهي تشعر أن حزنها خنق

حروفها كلها الآن!

تطيعه لتغادر بيت العروس نحو بيت هبة القريب..

تصعد الدرج نحو السطح الذي استقبلها بغربة تشبه

غربة روحها..

حتى زهوره الملونة بألوان قوس قزح بدت لها

ذابلة.. أم أن عينيها صارتا الذابلتين!؟

خطواتها المهزومة تنتهي أمام (الباب العزيز) تطرقه

وصوتها المختنق أخيراً يغادر شفيتها..

_ افتحي يا هبة.. افتحي.. لا تفعلي مثلهم..

طرقاتها تلو مع صوتها الباكي والصمت الراض

يغرس نصل الوجع في صدرها أكثر..

فتردف وهي على شفا الانهيار :

_افتحي.. لم أشعر باحتياجي إليك كما أنا الآن.. هذا

الباب (لم) يُغلق في وجهي أبداً.. ظننته كذلك (لن)

يغلق في وجهي أبداً.. أبداً..

تنقطع كلماتها بشهقات بكائها وهي تشعر بهوان

نفسها..

لكن الباب يُفْتَح أخيراً ليطل منه وجه هبة العاتب..

عيناها الدامعتان بحزن تشفعان لهذه الصفة الواهنة

التي هوت بها على وجنة يسرا هاتفة:

_وهل جعلتِ خاطراً لأجل ما كان خلف هذا (الباب)؟!!

تتهار يسرا في بكاء خافت مذنب فتجذبها هبة بين
ذراعيها لتشاركها في بكاء قصير.. إنها المرة الأولى
التي تراها فيها يسرا تبكي هكذا..

_ ماذا فعلت بنا وبنفسك يا غبية؟! إبراهيم لن
يسامحك أبداً!

تهتف بها هبة أخيراً وهي تبعتها لتتفحص ملامحها
باهتمام كأنها تطمئن عليها فتعض يسرا شفقتها
هامسة بصوت مبجوح :

_ هذا يعني أنك أنتِ سامحتني؟!!

تعود هبة لتفرس ملامحها للحظات ثم تضمها
لصدرها من جديد وقد عادت لبكائها الفاضح لقلبها
الرقيق خلف خشونتها الظاهرة :

_ غاضبة منك.. غاضبة حد رغبتى فى فلق رأسك هذا
نصفين.. لكن.. لكن..

تقطع عبارتها دون أن تكملها لكن يسرا تفهم ما
خلفها فتربت على ظهرها لتهمس برجاء :

_ أنتِ بالذات وددت لو أخبرك بالحقيقة من اول يوم..
لكننى خفت.. ليس كل الناس محظوظين مثلك.. يرون

طرقهم الواضحة فيسيرون فيها دون عوج.

ترمقها هبة بنظرة عاتبة طويلة امتزجت بفيض

مشاعرها وهي تستعيد ما أخبرها به ربيع عن زيارته

لها..

تهم بقول آخر لكن عينيها تتسعان بذعر وهي تميز

المشهد خلف يسرا..

تلتفت يسرا بدورها لتشهق برعب وهي ترى

بدورها..

سامي (الصغير) كان واقفاً على سور السطح يرمقها

بنظرة عاتبة وحزنه الطفولي يجتاح كلماته :

_ (را.. را).. نسيّتي مثلهم.. وسندس تركّتي.. هي

كانت تقول لي لو وقعت من هنا فسألحق بأبي وأمي..

وأنا أريد اللحاق بهما..

_ لا.. لا.. لا..

تصرخ بها يسرا بجنون فلا تدري كيف ركضت

قدماها إليه كأنها تسابق القدر..

الصورة في عينيها تتبدل..

منامة تتلوث بلون الدم..

وصغير آخر يشبهه يسقط..

لم تره ساعتها.. لكنها الآن تراه!!

_ لا يا (شادي).. لا..

تصرخ بها وهي لا تميز واقعاً من خيال..

أكثر من منتصف جسدها يتدلى خارج سور السطح

تمسك بالصغير في آخر لحظة..

يختل توازنها وهي تكاد تسقط معه لكنها تجاهد بكل

ما اوتيت من قوة لتتقذه بمساعدة هبة بصعوبة..

تنجح.. إنما تسقط هي!

لم تعرف في حياتها (سقوطاً) يشبه (التحليق) كهذا!

هي أنقذت شادي!

منامته لن تعود ملوثة بالدم!

صوت الارتطام يصفع إدراكها لكنها لا تشعر بألم!

فقط ابتسامة شاحبة تغزو شفثيها وهي تغمض

عينيها..

تشعر برأحتة بين ذراعيها..

وبذاك اللحن القديم يدوي في أذنيها.. إنما مشبعاً

بارتياح غريب هذه المرة..

(انا صرت أكبر.. وشادي بعده صغير)

جفناها المثقلان بصعوبة يكشفان عن منظر لأهل

الحي الذين تجمعوا صارخين حولها..

_إسعاف.. بسرعة.. تنزف..

فتغمضهما باستسلام لدقائق لم تدرِ عددها حتى

وصلها صوته الحبيب يصرخ بلوعة :

_ لا أحد يمسيها.

هنا تجاهد بكل ما أوتيت من قوة لتفتح عينيها..

تراهم جميعاً وقد سقطت عند أرجلهم كذاك اليوم الذي
طردها فيه من بيته..

لكن شتان بين نظراتهم وقتها و.. اليوم...!!
بعدها صرخت فيهم هبة وقد حملت الصغير :
_ كانت تتقد سامي.. أدركته وسقطت هي!
نظراتهم تحمل تقديراً..

ونظراته حملت خوفاً أشفقت عليه منه..!
لا يزال يصرخ بالجميع ألا يمسه أحد حتى يخرق
الصفوف فيجتو على ركبتيه لينحني فوقها فتكاد
تحترق بلهب انفاسه المتلاحقة..
_ وصلت سيارة الإسعاف.. تماسكي..
الرعب في عينيه يخنقهما معاً...!!

لو كان الأمر بيدها لتحاملت على نفسها كي تقف
لأجله..

_ سامي.. بخير..

تتمتع بها بخفوت وقد عاد لها بعض الإدراك فيهب
رأسه وهو يحملها بين ذراعيه ليضعها برفق فوق
محفة الإسعاف..

تنهل من نظراته التي اختفت قسوتها لتحل محلها
رهبة حقيقية أشفقت عليه منها وهي خير من تدرك
عذابه بها..

لكن جفنيها ينغلقان رغماً عنها وأناملها تضغط على
بطنها كأنما تستعيد الماضي.. لتتمتع أخيراً بابتسامة
خلاص شاحبة:

_ لا بأس.. على الأقل.. أنقذت طفلاً لي هذه المرة.

=====

الطيف الخامس والأربعون

نيلي

*ألمانيا..

_ السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة
الله.

يختم بها جهاد صلاته بها في غرفتها بالمركز ثم
يلتفت خلفه ليلتقط أحد كفيها براحتيه، ثم يمسح على
رأسها بالآخر قائلاً بحنان :

_ أعود بالله العظيم الذي رزقني حبك من أن يسوءني
فيك.

تبتسم لتتورد وجنتاها اللتان عادتا لبعض رونقهما
فيضمها لصدره في جلسته.. يقبل جبينها ليهمس
بشروء :

تعرفين بماذا احلم؟!

تهمهم مستفسرة ليرد بتهيدة حارة :

_بعد أن تُشفي تماماً ونخرج من هنا.. نقيم حفل
زفافنا في فلسطين.. لم يتبق لي هناك من أهلي أحد..
لكن كلهم هناك أهلي.. تبدأ عائلتنا الصغيرة من
هناك.. فتكون دوماً فلسطين هي (النواة) التي يتبعها
كل مدار.

تتسع ابتسامتها للأمل الذي ظل حروفه وهي ترفع
عينيها إليه..

لم تعد تخاف (الأمل).. بل صارت تعتقه!

ربما لهذا ذهبت أحلامها أبعد وهي تشرد ببصرها
مثله هامة:

_وتكون لنا طفلة زرقاء العينين مثلك.. نسميها
(قدس) فتكبر أمام عيوننا حتى ترزق بطفلة تسميها
(قدس) أيضاً فتوصي بها ابنتها كذلك.. يبقى الاسم
في نسلنا فلا يندثر ولا ينسى.. حتى تعود لنا بإذن
الله.

تدمع عيناه بفخر وهو يضمها إليه برفق أكثر
هامساً :

_كيف يمكن أن تتشابه أحلامنا إلى هذا الحد؟!
_فقط عندما تمتزج القلوب.. تنصهر الأرواح.. تذوب
الفوارق.. يتحد المصير.. فما العجب لو تشابهت
الأحلام!؟

يقبل وجنتها بعمق عاطفته لينهض ويوقفها معه..

فتردف برضا:

_بروفيسور (روبرت) كان محقاً بشأن التقنية الجديدة

في العلاج.. ورغم أنني أتحسن لكن لا تزال هناك

نسبة كبيرة في الانتكاسة.. ومع هذا صرت أوقن أن

رحمة الله التي ظللتني طوال هذه الأيام لن يُكشَف

سترها عني.

_ونعم بالله.

يقولها بيقين وهو يهم بإكمال المزيد لولا سماعه

رنين هاتفه..

ينعقد حاجباه بشدة وهو يميز اسم المتصل..

"يولاند!"

يفتح الاتصال بسرعة ليصله صوتها.. مشتتاً كما لم

يسمعه من قبل..

يستمتع قليلاً لتتسع عيناه بصدمة قبل أن تغلق يولاند

الاتصال..

يحاول الاتصال بها لاحقاً تحت نظرات زهرة القلقة

لكنها كانت قد أغلقت الهاتف..

ماذا حدث!؟!

تسأله زهرة بجزع وهي تميز احمرار وجهه المنفعل

وأنامله المرتجفة بينما يتمم بذهول:

ريان! قتل زوجته! هو الآن في السجن!

تشهق متفاجئة بينما هو يحاول الاتصال بيولاند من

جديد دون جدوى فيلقي الهاتف جانباً هاتفاً بسخط:

تلك الحمقاء تظن نفسها ستهناً بالانتقام منه.. ريان
قتل زوجته لأنه ضبطها تخونه مع أحدهم.. لم تكن
علاقة مباشرة لكنها كانت عبر الانترنت.. المصيبة ان
لا أحد يعلم السبب.. الجيران سمعوا صراخها
ليستدعوا الشرطة التي ضبطته وقتها.. لا شيء يثبت
حديثه عن خيانتها.. تبا!! تبا!! لا أحد يمكنه تخفيف
العقوبة عنه الآن سوى يولاند.. هي وحدها من
يمكنها الشهادة بما حدث.. لكنها بالطبع لن تفعل..
صحيح أنها لم تتوقع ان يصل انتقامها منه إلى هذا
الحد.. لكنها كذلك لن تتحرك خطوة لتساعده.. يا لله!!
ماذا فعل هذان الغبيان بنفسيهما!!

يطلق عدة زفرات متتابعة وهو يحاول تماك انفعاله
فترمقه زهرة بنظرة قلقة غلبها الفخر أخيراً وهي
تربت على كتفه قائلة :

_حزين لأجله بعد كل ما فعله بك؟!!

سؤالها لم يحمل الاستنكار بقدر ما حمل اعتزازاً
برجل عشقته طوال هذه السنوات ليرد بانفعال:
_نعم. . انا الذي توعدته يوماً بانتقام يشفي غليلي
منه.. لكنني عندما كادت قدمي تزل شعرت بحقارة
الهدف.. وددت لو تفهم يولاند هي الأخرى هذا.. لكنها
معمية بغشاوة الانتقام تاركة نفسها ل(إيلان) هذا
ومن معه.. هل سأخسرهما معاً؟!!

_لا.. لن نتركها لهم.

يقولها كلاهما في نفس اللحظة مصادفةً دون ترتيب

فتبتسم وهي تعانق كفيه براحتيها قائلة :

_أجل.. لن نتركها لهم.. هو دورنا لنستعيدها ونعيدها

لنفسها.

_كيف؟!!

يسألها بعجز وهو يتلفت حوله فتأخذ نفساً عميقاً

لتقول بحسم :

_سافر إليهما.. قف جوار صاحبك.. وأنقذ تلك الغافلة

من نفسها.

_وأنتِ؟! أتركك وحدك؟!!

يهتف بها باستنكار وهو يتشبث بكتفيها لتتسع

ابتسامتها وهي ترد :

_ معي حسناء والجميع هنا.. ومعى قلبك يساند قلبي
في رحلته.. وفوق الجميع معى رب كريم لن أقنط أبداً
من رحمته..

تقولها وهي تتحسس دبلته في إصبعها كأنما تجدد
العهد الذي لا يبلى لتردف :

_ أنت بدربك في جهاد.. وأنا بحبك في جهاد.



أحمر

"الجدران البيضاء" من جديد!!

كانما قضى لها القدر دوماً أن يتوقف قطارها في
محطاتها تباعاً كي تودع خيبة وتستقبل أخرى!!
لا تزال تذكر ذاك الحادث الذي تسببت به مع فهد
الصاوي منذ سنوات..

ذاك الحادث الآخر الذي كان سبباً في لقاءها بفادي في
لبنان..

ذاك اليوم الذي ركضت فيه تحمل جثة ابنها شادي
للمشفى رغم يقينها من موته..

ذاك الحادث الذي طعنها فيه البلطجي لينقذها إبراهيم
في (رمية نرد) تعمدتها يوم ظنتها مجرد لعبة..
يوم العملية عندما أرادت منح جزء منها ل(ربيع)
لعلها تغرس نفسها في أرض لا ينقطع منها جذعها
أبدأ..

واليوم..

اليوم وهي تمنح الماضي (قرباناً) لعلها يوم تذكر
ذنبها في موت ابنها.. تذكر معها سعيها في إنقاذ
آخر..

أجل.. طالما اعتبرت سامي ابنها الذي لم تلده..!

تأوه رغباً عنها فتشعر بحركة هذا (الثائر) جوارها..

لا يمكنها الالتفات لتراه لكن "رائحته"!

هذه.. كيف تخطئها!!?

تغمض عينيها بقوة كأنها تخشى لو فتحتها أن

يهرب من جديد..

تسمع الأصوات الغريبة حولها.. تشعر بالطبيب

يتفحصها وبصوته العملي يأتيها مفعماً بارتياحه:

يبدو أن ارتفاع البيت لم يكن كبيراً.. كسر في الساق

والذراع مع بعض الإصابات.. (قدّر و لطف)!

(قدّر و لطف)!

قلبها يبتسم للعبارة وكأنه يسمعها لأول مرة..

الآن فقط يتذوقها بمعنى (الرضا)

ربما لو كانت (ابنة الصباحي) لمألت الدنيا صراخاً

ساخطاً على كل ما يحدث لها الآن..

لكن (ابنة ربيع) صارت تدرك أن خلف كل محنة..

منحة!

تشعر بالطيب يبتعد مع من معه..

ولا تزال (الرائحة الحبيبة) تغزل للقلب الجريح ثوباً

من أمل..!

الرائحة التي تقترب منها أكثر فيرتجف جسدها رغماً

عنها وهي حائرة بين أن تفتح عينيها لتراه وبين أن

تبقيهما على إغماضتهما كي لا يبتعد..

فتختار الأخيرة!

وجوار فراشها كان يقف هو قابضاً كفه على صدره

محاولاً تهدئة خفقاته..

كل ذرة في عقله تلقي له السؤال الغاضب (ما الذي

يفعله هنا؟!)

وكل ذرة في قلبه العاشق تلقي له الجواب الوحيد

الممكن (لا يمكن ألا يكون إلا هنا!)

تبأ لها!!

كيف أيقظت في لحظة مارد الخوف داخله؟!!

هذا المارد الذي لم يعرفه بهذا الطغيان إلا يوم وفاة

شقيقه!!

كيف يصف شعوره عندما سمعهم يصرخون أنها

سقطت من علي..؟!!

كيف ترك كل شيء خلفه فلم يشعر بنفسه إلا وهو

يقف أمامها آملاً في أن ينجو بها..؟!!

كيف مرت به الدقائق السابقة وعيناه معلقتان
بملاحها..

ملاحها هي دون تمييز (الاسم)!!

(وكان نصيبي في الهوى كان مدخراً بخزائلك..

منتظراً أن يقال له فوق جبينك : (كن) .. ليكون!)

يذكرها يوم قالها لها فتشتد قبضته على صدره وهو

يقاوم هذه الدمعة في عينيه..

دمعة حملت معها فيوضاً من الذكريات . وآه من

حربه مع الذكريات!!

طوال هذه الأيام وهو يمنع نفسه من هذا (الغزو

الغاشم) وقد كاد ينجح..

لكنه الآن يجتاحه بضراوة!!

ذكرى ذلك اليوم الذي قال فيه :

تعرفين القصة الشهيرة لذاك الرسام الذي رسم
لوحة وتركها على قارعة الطريق وقد كتب فوقها
(من رأى فيها عيباً فليضع عليه نقطة حمراء) .. عاد
مساءً ليجدها كلها ملطخة بالأحمر حتى أنهم أفسدوا
ملامحها كلها .. عاد لأستاذه فأشار عليه أن يعيد
رسمها ويتركها من جديد على قارعة الطريق ليكتب
عليها (من رأى فيها عيباً فليصلحه) .. فعل كما أمر
أستاذه ليعود ويجد لوحته كما هي .. أبي كان يحكي لنا
هذه القصة في صغرنا كي يعلمنا أن الناس
يستسهلون اصطيات الأخطاء لكنهم لا يسعون
لإصلاحها .. ربما لهذا نشأنا أنا وحسن على ما صرنا
عليه .

وَأنت تطبق هذا في حياتك كلها؟! لا تتعجل الحكم

على الخطأ وتسعى لإصلاحه؟!!

قدر استطاعتي! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها!

ينعقد حاجباه بشدة كأنما تمنحه الذكرى بعض العذر..

إنما يستمر الغزو..

ذكرى حديثهما معاً عن (سندس) :

ستسامحها بعد عودتها؟!!

الله من يسامح.

يقولها باقتضاب فتعاود الطرق:

ألا شيء سيشفع لها؟!!

نقطة خمر واحدة كافية لتدنيس نهر من لبن! هكذا

هو الكذب عندما يطعن ظهر الثقة!

قاس أنت!

بل واقعي! المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين!
تزداد قبضته شدة على صدره.. تزداد الدمعة مرارة..
ويستمر الغزو..

ذكرى أخرى لهما عند الشاطئ:

**يتوقف أخيراً عندما يلمح غصناً جافاً قريباً يتناوله
ليرسم شكل قلب على الرمال فتضحك وهي تتوقع ما
سيكتبه..**

_ابراهيم و.. سمرا..

سمرا!؟

سمرا!!

**تتناول منه الغصن ليفاجأ بها تطمس أثر اسمها فلا
تبقي منه سوى..**

_را..! أحبها كما يقولها سامي! أقرب لقلبي!

تقولها مفسرة وهي تعود لتعانق ذراعه بكلتا ذراعيها

فيبتسم وهو يهمس لها بصدق حار :

_لا تهم الأسماء.. ما يعني أنك أنت!

_حقاً؟!

تهمس بها بشرود فيهز رأسه بتساؤل لتردف بضحكة

مختنقة:

_أخاف أن أطلب منك وعداً بهذا فتقول أنني شديدة

التطلب!

تزداد شدة القبضة.. ومرارة الدمعة.. ويستمر

الغزو..

وذكرى أخرى.. :

ستبقى هذه أفضل طريقة إيقاظ أحبها! أجمل

"منبه" في الدنيا!

يتمتم بها عبر صوته الناعس وهو ينتبه لها بينما أحد

ذراعيه يطوقها بقوة عاطفته والآخر يمسح بقايا

دموع على رموشها ليهمس بقلق :

كنتِ تبكين!؟

تهز رأسها نفيًا كاذبة وهي تضم وجهه لصدرها بعمق

عاطفتها هامسة:

تعرف كم أحبك!؟ قل إنك تعلم.. قلها!

لم تعد هستيريبتها المنفصلة تدهشه بل صار يدمنها كما

كل فيها.. لهذا تناثرت قبلاته على جيدها وذقنها

للحظات قبل أن يرفع إليها عينيه هامساً بصدق:

_أعرف.. وأعرف أيضاً كم أحبك أنا.

_مهما حدث بيننا لا تشك أبداً في هذا الحب.. أنت لم

تمنحني عاطفة او مالاً أو بيتاً فحسب.. أنت منححتني

هوية جديدة.. حياة بأكملها وددت لو أعيش ما بقي

منها لك.

ينتفض جسده كله للذكرى الأخيرة مع تلاحق

أنفاسه..

تزداد قبضته شدة.. ودمعته مرارة.. ويستمر الغزو..

وذكرى أخرى :

_لو كنت قابلتني في عالم آخر وزمان آخر .. باسم

غير اسمي.. وشكل غير شكلي.. وحياة غير حياتي..

هل كنت ستحبني؟! هل كنت ستكتفي بهذا العشق

الذي أحمله لك بداخلي؟! بهذه الروح التي وصلت

أنت لأعمق أراضيتها وأعلى سماواتها؟! بهذا الإيمان
الذي غرسته أنت داخلي وتعهدت أنا أن أرويه ما بقي
من عمري؟! كنت ستكتفي بكل هذا؟! كنت

ستكتفي!!؟

لا تزال تكررهما بانفعال حار عبر خيطين من الدموع
ليرتعد قلبه بين ضلوعه بعنف شعوره بها في هذه
اللحظة..

ورغم تعجبه من حديثها بهذا الشكل لكن خياله -
البريء لم يحمله سوى لأنها تخجل من نشأتها الأكثر
بساطة منه وكونها بلا أهل..

كنت سأكتفي.

هنا يقهره الغزو فيجتو على ركبتيه جوار فراشها..

تخذله قبضته فتهاوى جوار كفها هي..

كجندي مهزوم سقط جوار عدوه..!

تهزمه دمعته لتسقط حارة لاهبة على بشرتها وهو

يهز رأسه نفيماً هامساً لنفسه بصرخة تفجرت شظاياها

في روحه..

_ لم أكن سأكتفي.. لم أكن سأكتفي.

ولم تكدهي تشعر بدمعته تكوي جلدها حتى عجزت

عن إغماض عينيها!!

_ لا.. لا.. لا.. بالله لا تبكي..

تهمس بها بأقصى انفعال سمح به صوتها الواهن..

لتردف بين شهقات دموعها :

_ لا تبكي بسببي.. لا تفعلها وأنا التي تفديك بعمرها
كله.. لا تفعلها وأنا عاجزة الآن عن عناقك.. عن جبر
هذا الكسر الذي أحدثته يدي رغماً عني..
دموع عينيه تموه صورتها.. تبني أسواراً من قسوة..
أسواراً يهدمها قلبه.. فيعاود عقله البناء..!!
كيف يصدقها؟! كيف؟!
وكيف يكذبها؟! كيف?!
_ وعدتني أن تسمع فكنت أول من سد أذنيه.. أن تحنو
فكنت أول من قسا.. أن ترحم فكنت أول من رجم.. أن
تبقى فكنت أول من رحل.. لكنك.. لكنك.. لكنك حقاً
أحببتني كما لم يحبني أحد..

عتابها الذي يمتزج بامتتان عاشقة يهزم قسوة
نظراته وكفها يتشبث بكفه فيكز على أسنانه بقوة تكاد
تحطمها..

يهتف باستنكار حارق يكويهما معاً وكفه الحر يلوح
بينهما كطير ذبيح:

_ تعاتبين؟! تملكين الجراءة وتعاتبين؟! بأي لسان
ستكلمين؟! وبأي أذن سأسمعك؟! حب؟! عن أي حب
تتحدثين؟! أنا حتى لا أعرف أي امرأة كنت أوويها في
بيتي.. تنام جوارى في فراشي.. تتحدث كذباً.. تتوجع
كذباً.. تتنفس كذباً.. أنتِ لم تخدعيني في "ثمن
حذاء" !! أنتِ سرقتِ مني روحي.. أثقلتني بذنوب لم
أظن نفسي يوماً سأفعلها.. والآن تعاتبين؟! تطالبيني
أن أتذكر بعض كلماتٍ وأنتِ التي زيفت كل الكلام؟!!

هذه المرة لم ينتزع كفه منها.. بل هي من فعلت!!
أجل.. هي التي نأت بكفها بعيداً.. تركته بعد تشبث
لتهمس بقوة غريبة وهي ترفع رأسها لأعلى كأنها
أخيراً وجدت المدد الذي لن يخذلها :

_بل انسني.. انس سمرا أو يسرا كيفما أردت
التسمية .. أسقطها من حساباتك كما تفعل بكل ما لا
يليق بنقائك.. املاً (اللوحة) بالبقع الحمراء واطمس
ملامحها كلها.. لكنني أنا من أعدك هذه المرة.. أعدك
أن تخرج من الصورة امرأة أخرى قادرة على رسم
نفسها بنفسها.. قادرة على إصلاح عيوبها وهي التي
كانت من قبل عاجزة حتى عن رؤيتها.. هذا الرسم
الذي ربما لن تراه أنت.. لكن يكفيها أنك كنت أول من
منحها القلم لترسم.. قد لا تلتقي طرفنا من جديد.. لكن

يكفيني أنني أنا - التي عاشت طوال عمرها تائهة- قد
وجدت طريقي.. لن أطلب منك الصبح فأنا خير من
تدرك كم هو الآن مستحيل بيننا.. لكنني فقط أريدك أن
تصدق أن المرأة التي آويتها في بيتك.. ونامت
جوارك في فراشك.. كانت تتحدث كذباً في كل شيء..
إلا هتافها بحبك.. تتوجع كذباً في كل شيء إلا عذابها
بخوفها من فقدك.. تتنفس كذباً في كل شيء إلا
عشقها لرائحتك.

يعجز عن النظر لعينيها في هذه اللحظة فيشير
بوجهه رغماً عن قلبٍ يناظرها بكل عيونه..
فتردف بصوت متحشرج وهي تشير بعينيها نحو
الباب المفتوح:

_ اخرج.. اخرج ولا تعد.. لا تعد إلا بقلب وعدني أن
يسمعي ويريد فقط أن يفي بوعد.. أو ابق بعيداً وأنا
التي أعدك ألا تراني بعد اليوم أبداً.
يعود ببصره إليها كأنما يستجدي (القلب) منها زاداً
يعينه على فراق طويل..
وكانما ينتزع (العقل) منها حجراً يربطه على "بطن"
اختياره..

لا مزيد.. لا مزيد!

ينهض أخيراً ليلقي علي سلسلة عنقها نظرة أخيرة
قبل أن يتحرك ليغادر الغرفة..

تلتقي عيناه بعيني أبيه الذي كان واقفاً عند الباب
يرمقهما معاً بنظرة ملتاعة فيربت على كتفه قائلاً

بصوت مختق:

_ ابقوا معها.

يتبادل أبناء عمومته النظرات لتسبقهم هبة وهي
تحمل سامي إلى الداخل قبل أن يلحق جميعهم بها..
يتحرك هو مبتعداً بخطوات حاسمة كأنما يقطع
الطريق على قلبه لكنه يلتفت أخيراً ليراهم عبر نافذة
غرفتها الزجاجية..

صورة رآها كثيراً في الماضي.. إنما اليوم تنقصه
هو..

وستبقى تنقصه!!

يستقل سيارته ليعود إلى الحي فيستقبله الناس
بأسئلتهم الملهوفة عنها..

يرى ذاك الرجل الذي تشاجر معه منذ أيام لأنه تحدث
عنها فيجده يشيح بوجهه بخزي كأنما ندم على ما
قاله..

لا تزال نظراتهم المشفقة تذب رجولته.. لكنها صارت
تمتزج ب(تقديرهم) لها هي!!
_إبراهيم.

تستوقفه بها خطيبته تحت بيته فيلتفت إليها بدهشة
كأنه نسي حقاً من تكون قبل أن يغص حلقه بمرارته
وهو يغمغم معتذراً :

_أسف لفساد الحفل.. و..

يقطع عبارته دون أن يكملها للحظات مطرقاً برأسه
قبل أن يرفعه إليها مردفاً بحسم رغم نبرته الذبيحة :

_ سأحدث اليوم إلى أبيك.. سامحيني.. لا يمكنني أن
أتم هذا الأمر.

تدمع عيناها بخيبة فيردف :

_ أنا ذقت مرارة التلاعب بالقلوب ولا يرضيني أن
أسقيك من نفس الكأس.. كنت جاداً في أمر الخطبة..
يشهد الله أنني كنت جاداً حقاً.. لكن..
من جديد يقطع كلامه مجبوراً بغصة مريرة في حلقه..
وقلبه..

لكنها تهز رأسها قائلة :

_ شعرت بها قبل أن تقولها.. رغم قسوة مواجهتكما
أمامي لكنني عندما رأيت لهفتك عليها ساعة الحادث
أدركت .. أدركت أنه لن تنافسها امرأة في قلبك.

تقولها لتسحب من أمامه فتغيم عيناه بنظرة ضبابية

تشبه صراع روحه وهو يصعد لبيت أبيه..

يحاول الاستراحة على فراشه بغرفته هناك لكن قلبه

يغافله ليجد نفسه يتوجه نحو مكتبه..

يفتح أحد أدراجة لتلتوي شفتاه بابتسامة مريرة وهو

يميز (زرّ قميصها الأحمر) الذي فضح يوماً سرقتها

لدفتره..

الدفتر الذي قلبه بين أنامله وهو يفهم الآن سبب

إصرارها أن يكمل حرف (الياء)..

فتتسع الابتسامة المريرة بسخرية وهو يعيده مكانه

موقناً أنه..

أبدأ.. أبدأ.. لن يكمله!!

=====

برتقالي



(علمتني الحياة أن كل شيء ليس كما يبدو.. نحن من

نجيد خلط المعطيات لنصنع النتائج.. من يدري !؟

ربما في هذه الحالة الستر هو الفضيحة والعكس

صحيح! لا تلم نفسك كثيراً وادخر قوتك للأيام

القادمة.. أنت ألقيت القنبلة فانتظر ما بعد زوال

(الدخان)

يتذكرها يحيى بصوت طيف وهو يقف أمام نافذة

غرفته في المصحة النفسية التي أودع فيها..

الأيام تمر عليه بطيئة متثاقلة لكنها تشد ذهنه
بالخطة كاملة..

الخطة التي بدأها هو منذ أقنع طيف أن تغادر العراق
وتستغل الشرط المكتوب في قسيمة زواجهما لتطلق
نفسها كي يمنح استبرق الشعور بالأمان الزائف..
_ الكارثة لم تكن في خيانة الشرف فحسب.. أنا تتبعت
حسابات الشركة منذ أيام غيث شقيقي.. كنت أظنك
سجنته ظلماً لكن الحقيقة انكشفت أمامي.. هو
واستبرق كانا يقومان بتزوير بعض الحسابات.. لا..
ليست سرقة.. الأمر يبدو وكأنه غسل أموال لصالح
مؤسسة ما.. ربما هذا ما يفسر قوة نفوذها حد تمكنها

من تزوير

تحاليل DNA والتقارير الخاصة بك في المشفى.

يتذكرها كما سمعها من إياس الذي يشاركه خطته
بصمت فينعدد حاجباه وهو يفكر..
لم يتوقع منذ شهور وهو يعمل ليوقع غيث الأمين
ويلقي به في السجن أن تكون استبرق كذلك متورطة
معه..

ولن يكون الإيقاع بها سهلاً مثله!!
_مؤسسة الأمين هي ميراث العائلة لأكثر من ثلاثين
عاماً ولن نكون الجيل الذي ضيعها..
يتذكرها كذلك بصوت إياس فتلتمع عيناه وهو يشعر
ببعض التشوش..

لكنه يتذكر عبارة عاصي الرفاعي..

(سر النجاح أن تحدد الهدف أولاً دون أن يشترك

صراخ الألوان حوله.. لو أجدت تحديد الهدف فقد

اختصرت نصف الطريق)

فيهمس لنفسه بخفوت :

_ يحيى.. ابن العائلة الضال.. عاد لأجلها.. العائلة..

العائلة هي الهدف يا يحيى.

يزداد بها انعقاد حاجبيه بحسم وعقله الدؤوب يحاول

استكمال خطته..

تلك الخطة التي تقتضي أن يخرج من هنا أولاً كي

يكتمل نسج الخيوط كلها..

تقطع أفكاره وهو يسمع الباب يُفتح..

زيارتها "السابعة" له!

كعادتها لا تمل ولا تكل حتى تصل لبغيتها..

وكعادته يجيد استغلال ثغرات خصمه..
وما أقسى أن تتحول (الأم) ل (خصم)!
يرسم على ملامحه أمارات انهيار بائس وهو يلتفت
نحوها فتتقدم نحوه لتتهد وهي تتأمل ملامحه
المنهكة.. ذقنه التي استطالت بعشوائية مع خصلات
شعره.. وعينيه الزائغتين بضياح لتلوح بكفيها هاتفة
بانفعال:

_ ما الذي ستجنيه مما تفعله؟! هل تظني سعيدة
برؤيتك هكذا تضيّع عمرك بيديك؟!
يرمقها بنظرة تردد (مصطنعة) ثم يشيح بوجهه دون
رد لكنها تعصر كتفيه بقبضتيها هاتفة :

_ لا.. لن ترفض كل مرة.. ستوافق هذه المرة يا
يحيى.. ستطيعني وأنت تعلم أنني أكثر من تحبك في

هذه الدنيا.. أكثر من تحبك وأكثر من ستعتني بأمرك..
كلهم تركوك.. كلهم باعوك.. وحدي أنا بقيت جوارك.
ينجح في كسو ملامحه بحسرة وهو يهز رأسه بألم
مصطنع فيعلو صوتها أكثر وهي تكاد ترجه بين
ذراعيها :

_انفض عنك هذا الوجع الذي لا يليق بك.. اخرج من
هنا ودع الجميع يرون من تكون وما الذي يمكنك
فعله.. أظني يا يحيى وأعدك أن تكون فوق الجميع..
فوق شجون وابنتها.. فوق إلياس الذي انشغل عنك
بالمؤسسة كأنه تنفس الصعداء بإزاحتك من
طريقه.. بل وفوق تلك السخيفة التي تزوجتها لتلقيك
خلف ظهرها عند اول مصيبة واجهتك.. أظني يا
يحيى.. أظني وأعدك أن تريح أضعاف أضعاف ما

خسرته.. عساك تعلمت أن لن ينفعك غيري.. أنا.. أنا
أمك يا يحيى.

كلماتها تتارجح بين (ترغيب) عاطفتها و(ترهيب)

سطوتها بخبرة قديرة لا تجيدها امرأة سواها..

فيسبل جفنيه بحركة قديمة كان يفعلها في صغره

عندما كانت تنجح في إقناعه بما يرفضه.

هنا يرتجف قلبها بأمل وهي تحتضن وجهه براحتها
قائلة بعاطفة حقيقية :

_ أنا أقرأها في عينيك.. أمك تفهمك كالعادة.. أنت

ستطيعني يا يحيى.. ستنسى الماضي ولا تلتفت إلا

للغد.

قلبه يكاد يبتسم بسخرية قاسية من هذه الثقة التي

تتحدث بها!

أمك تفهمك!؟

كبر الصغير يا (أم الصغير).. أنضجه الهم وغيرته
الصدمة..

فلا تثقي كثيراً بموازن الماضي الذي تريدن - أنت
نفسك منه - نسيانه!

لكنه يتحكم في انفعالاته بمهارة يجيدها وهو يقول
كأنما يملي شروطه:

لن نتحدث أبداً عن الماضي.. معك حق.. فلندسه
تحت أقدامنا.. ولننظر للغد

تكاد تطلق صيحة انتصار وهي تضمه لصدرها بقوة
هاتفة :

_ كنت أعرف أن ذكائك لن يخذلني.. هذا هو ابني
الذي أعدده ليكون سند العمر.. الآن فقط يمكنني
القول أنك عدت.. عدت يا يحيى.

يتعمد صبغ نظرتة بالتردد كي لا تشك في سرعة
موافقتة فيقرأ في لهفة عينيها نجاح خطته..
ربما كانت عبارتها الأخيرة هي أصدق عباراتها..
(عدت يا يحيى.. عدت)



_ نعم يا شجون.. الليلة.. الحفل في بيتي بمناسبة
رجوع يحيى.. لقد تعافى تماماً ونسي ضلالاته كلها.
تقولها استبرق عبر الهاتف ليصطبغ صوتها بنبرة
مسيطرة وبالذات عبارتها الأخيرة.. خاصة وهي
تتحرك نحو المرأة أمامها.. تتحسس سلسلة يحيى في

عنقها فتبدو لها صورتها أكثر هيمنة وهي تسمع
شجون تسألها عن قضية الحجر فترد :
_تنازلت عنها بالطبع.. وفي غضون أيام سيعود
يحيى لمقعد رئيس مجلس الإدارة.. لن يجرؤ أحد على
الاعتراض أو التشكيك فأنا أدعمه.. صحيح؟!
نبرتها تكتسب المزيد من التسلط خاصة مع رد
شجون المستسلم :

_بالطبع حبيبتى.. هو كان ينبغي أن يكون له منذ
البداية.

تبتسم استبرق بنبرة ظافرة وهي تغلق الاتصال
شاعرة بأقصى أمارات الانتصار..
الآن فقط تكون مؤسسة الأمين كما عاهدت نفسها
عند قبر أبيها..

لها ولابنها فقط!

إلياس؟!!

ستتخلص منه قريباً..

كيف؟!!

تقتله كغيث؟! سهل أن تفعلها بمعاونة السيد (...) لكن

تمنعها عاطفتها.. هي ربه منذ كان صغيراً.. لن

تجسر على فعلها!!!

تسجنه؟! من السهل تليفق تهمة له لكن هذا سيؤثر

على سمعة المؤسسة..

إذن.. كيف تبعده؟!!

تبتسم بظفر والفكرة الشيطانية تجتاح عقلها أكثر!!!

بضعة أقراص توضع له دون علمه يوماً في
الشراب.. وفي خلال أيام فقط تذيب عقله وتجعل
حضوره كغيابه تماماً!!
يتبقى فقط أن تجد من يضعها له..
تتسع ابتسامتها وهي تجد الجواب..
من سوى العجوز طيب الملامح الذي استعانت به من
قبل في مراقبة يحيى؟!
العم (مؤيد).
لكن كيف ستدخله بيت إلياس وبأي صفة؟!
تطلق زفرة قصيرة تبعثها ضحكة راضية وهي ترمق
صورتها في المرآة تحدث نفسها بقولها:
_ لا تقلقي بعد الآن أبداً.. كل شيء سيسير كما أردت..
تماماً.

وفي مكانها ببيتها أغلقت شجون معها الاتصال بنظرة

حاقدة ناقضت خنوع لهجتها السابقة معها..

وكعهدا كلما اشتد غيظها من استبرق تأخذ طريقها

للخزانة السرية التي كان غيث يحتفظ فيها بأوراقه

المهمة..

تحاول فتحها دون جدوى وقد أغلقها بكلمة سر لا

تعرفها..

تجرب استنتاج كل الأرقام..

تاريخ ميلاده.. تاريخ ميلاد ابنتهما سراب.. تاريخ

ميلاد يحيى..

تاريخ زواجه هو منها..

المزيد من الأرقام..

المزيد من الحروف.. لكن.. لا جدوى!!

تعجز كل مرة فتخبط الخزانة بقبضتها لتهتف

بغضب :

_ لن أعود هذه المرة خائبة.. لن تذبني بخيانتك حياً

وميتاً.. لن أقف مكتوفة اليدين أشاهد المرأة التي

أغوت زوجي وقد استحوذت على كل شيء.. قلبي

يخبرني أنك تخفي هنا شيئاً بل أشياء تخص علاقتك

بهذه الأفعى.. يحيى لم يسجنك ظلماً.. ماذا كنتما

تديران خلف ظهورنا أنت وهي؟! ماذا؟!!

لا تزال تخبط الخزانة بقوة حتى تؤلمها قبضتها

فتتهار في البكاء مردفة :

_ كيف كنت مغفلة إلى هذا الحد؟! كيف لم أفهم رجلاً

كان يلقي رأسه كل يوم على وسادتي؟! كيف?!!

كيف?!!

تستسلم للبكاء للحظات قبل أن تمسح دموعها بقوة

لتهز رأسها قائلة:

_لا.. لا.. لا مزيد من البكاء.. لا مزيد من الضعف..

اهدئي يا شجون.. وفكري.. ما الذي يمكن أن تكونه

كلمة السر؟!!

وفجأة تسطع في عقلها الفكرة..

بسيطة.. ومهلكة!!!

كيف غابت عنها؟!!

تاريخ ميلاد استبرق مع أول حروف اسمها واسم

غيث!

تكتبها بأنامل مرتجفة لتطلق صرخة طويلة عالية

وهي تجد الخزانة تنفتح!!!

تفرح لنجاح استنتاجها؟!!

أم تتوجع بنصل الخيانة الذي ينغرس في القلب

أكثر؟!

_لهذه الدرجة أحببتّها؟! لهذه الدرجة كنت أنا مغفلة

بينكما؟!

تصرخ بها بلوعة ودموعها تحول بينها وبين رؤية

محتويات الخزانة لكنها تمسحها أخيراً وعيناها

تلتمعان بنظرة وعيد..

قبل أن تمتد أناملها لتتناول ما بداخل الخزانة وقد

صدق ظنها..

الحبل يلتف حول عنق استبرق وستكون هي أكثر من

سعيدة بأن تشده للنهاية!



بيت الأمين يتلألاً بالأضواء احتفالاً بعودة يحيى بعد
تعافيه من (وعكة عابرة) كما أذاعت استبرق.
استبرق التي ارتدت ثوباً بنقش جلد الثعبان من
اللونين الأبيض والأسود بتصميم انيق منحها فتنة لا
تنقصها وهي تدور بين الحضور بفخر..
تتوهج عيناها ككقلبها وهي ترى الحضور من
الأقارب الذين كانوا حاضرين فضيحة إعلان يحيى
لنسبه وقد بدت ملامحهم مرتاحة بنظرات إجلال لها
كما عهدتها فتتسع ابتسامتها بظفر..
تصعد الدرج نحو غرفة يحيى الذي يرمقها بنظرة
مهادنة فتبتسم وهي تتحسس بدلته الأنيقة قائلة
بفخر :

_ هذا هو ابني.. وسيم.. متألق.. ذكي.. مسيطر.. كما
ربيته.

تقولها لتضمه إليها مردفة بعينين صارختين بالطمع:

_ تأخر قليلاً.. لا تنزل إليهم.. دعهم ينتظرونك.. وفي

النهاية اهبط بعظمة تليق بك.. تليق برئيس مجلس

إدارة مؤسسة الأمين وقريباً.. مالكاها الوحيد.

يرمقها بنظرة متسائلة فتبتسم وهي تهز رأسها

بقولها :

_ سنشتري حصص الجميع.

_ وإلياس!؟!

يسألها بتوجس لترد بابتسامة مرتبكة وهي تبخ

سمها :

_ كم أنت طيب القلب!! لو رأيت إلياس هذا الذي يهتك
أمره وهو يدور بين الحضور متجهماً كأنه يكره
عودتك.. أنت لا تعرف ما الذي كان يذيعه عنك وسط
الجميع في غيابك.. كان يريد أن يخلو الجو له..
يعقد حاجبيه متعمداً تضخيم رد فعله بالألم الغاضب
لتربت على وجنته قائلة :

_ لا تخف.. أمك في ظهرك.. لن أسمح لأحد أن يأخذ
مكانك..

تقولها لتشرذد ببصرها مردفة :

(مؤسسة الأمين كلها حق لنا.. أنا وأنت.. لو كان هناك
ما يجب أن تتذكره أنت من الماضي فهو أن (الأمين
الكبير) سرق أبي وكان سبباً في موته أمام عيني..

والعدل يحكم أن يصير كل هذا الآن لنا.. لي ولك
ولأولادك بعدنا.. هذا ما عشت وسأعيش لأجله)
تتسع عيناه بصدمة وهو يسمعها منها لأول مرة..

هذه إذن أسبابها؟!!!

تقرأ (الاستنكار) في عينيه لصالحها فتلتوي شفتاها
بمرارة وهي تهز رأسها لتمسح غباراً وهمياً على
سترته قائلة :

_ الآن يمكنك النزول.

_ لا تقلقي (ماما).. أنا عدت لأضع النقاط على

الحروف.

يقول (ماما) بلفظة تحببية كما كان يفعل في صغرها
ليخفق قلبها بفرحة حقيقية وهي تضمه إليها هاتفة :

_ عدت تقولها يا يحيى.. ياالله!!! كم اشتقت إليها.. كم

اشتقت!!

تدمع عيناه حقيقة وهو يحاول السيطرة على شعوره

في هذه اللحظة..

كيف يخبرها أنه هو الآخر اشتاق!!؟

في هذه الغرفة.. أمام هذه المرآة.. على هذه

السجادة..

اشتاق ل(من كانت.. ماما)

والأسوأ أنه يعرف انها أبدأ.. أبدأ لن تعود!!

لكنه يسيطر على انفعالاته بقدره خبيرة ليقبل رأسها

بعمق قبل أن يشير لها نحو الخارج..

تتأبط ذراعه بفخر لتهبط معه الدرج وهي تشعر

كمملكة متوجة

ترى إلياس يقترب فتضغط ذراع يحيى بحركة ذات مغزى لكنه يميل على أذنها هامساً بحسم مصطنع:
_ لا تخافي.. لن أنخدع بابتسامته فقد صرت أفهم ما خلفها.

تبتسم برضا وهي تحيي إلياس لتشير ليحيى هاتفة :
_ رأيت كم هو أنيق اليوم؟!
_ عساه قد شفي تماماً.

يقولها إلياس بضيق مصطنع وهو يعانق يحيى منفذاً
تفاصيل خطتهما لتقول استبرق من بين أسنانها :
_ تماماً.

هنا تتذكر ما تنتويه له فترسم على وجهها أبرع أقنعة
رقتها وهي تخبط جبينها بخفة قائلة :

_ آه.. تذكرت.. كنت قد أبديت إعجابك بتنسيق حديقة
الزهور الخاصة بي.. غداً سأرسل لك من ينسق لك
حديقتك مثلها.. رجوع يحيى يستحق أن تُملأ الدنيا
كلها بالزهور.

يكاد يرفض لكن حدساً ما يجعله يقبل وقد شعر أنها
ربما تكون مسماراً آخر في نعشها!
لهذا يبتسم لها شاكراً بقوله:

_ دوماً أعجز عن شكر اهتمامك الذي ينال الجميع.
تتسع ابتسامتها الظافرة وهي ترى السيد (...) قد
وصل لتوه فتتركهما لتتوجه نحوه..

ولم تكذ تغادر حتى اقتربت شجون من يحيى وإلياس
لتخبرهما بهمس خافت عما وجدته في خزانة غيث
السرية..

_جيد..سأرى ما يمكننا فعله.

يقولها إلياس باقتضاب لتستخرج شجون هاتفها من

حقيبتها..

تدمع عيناها وهي تخاطب يحيى بقولها :

_رسالة من سراب في كندا.. ياالله!! إلى الآن لا

أصدق.. لا أعرف كيف أقولها!!

يتبادل يحيى وإلياس نظرات قلقة قبل أن يقرأ كلاهما

الرسالة..

_نتيجة التحليل ظهرت.. هنا بعيداً عن نفوذ العمه

استبرق.. يحيى أخي يا أمي.. أخي.

يطلق كلاهما زفرة قصيرة وهما يحاولان تمالك

مشاعرهما في هذه اللحظة لتهمس لهما شجون

بانفعال:

_ لماذا لا تفضحها الآن؟! الآن وسط كل هؤلاء

الحضور.. الآن نكسر أنفها المتعجرف هذا و..

_ لا! لا يا عمتي.. لن يكون هذا أبداً.

يهمس بها يحيى بحسم فتلفت نحوه المرأة مستكرة

بهمسها :

_ سيقون يظنونك مختلفاً.. مهما تقلدت من مناصب

ستكون في عيونهم مجرد مجنون تتتابه الهلاوس.

ينقل إلياس بصره بينهما بحذر لكن يحيى يشرد

ببصره للحظات..

تختلج عضلة فكه وهو يهمس أخيراً :

_ لا بأس.. ليكن هذا قرباناً مني لشرف العائلة.. نحن

سننقذ (مؤسسة الأمين) من الفساد و(عائلة الأمين)

من الفضيحة.. الناس تنسى جرائم المال والسرقات..

لكن فضائح الشرف سيرتها أطول من أعمار

الجميع..

ثم تلتوي شفتاه بابتسامة مريرة ساخرة ليردف:

_ (مختل) أهون كثيراً من (ابن حرام).

يشد إلياس على كتفه بحركة داعمة فيما تتهد شجون

بحرقة مستسلمة لحسن منطقه.. قبل أن تبعد لتخرط

مع بعض الحضور في أحاديثهم.. وكذلك إلياس الذي

تعمد ألا يطيل الوقوف مع يحيى كي لا يثير حفيظة

استبرق.

_ يحيى.. أعرفك بالسيد (...).. أحد أهم شركائنا.

تقولها استبرق بتفخيم ليحاول يحيى تحييد نظرتة

وهو يصافح الرجل بود مصطنع..

الرجل الذي رمقه بنظرة متفحصة بدوره قائلاً:

_ طالما أشادت استبرق بذكائك.. الذكاء نصف النجاح
في عملنا.. لهذا أتوقع المزيد من النجاح في شراكتنا
الفترة المقبلة.

_ بالتأكيد.

يقولها يحيى بحماس مصطنع فتضحك استبرق برضا
وهي تتحرك مع السيد (...) لتعرفه بالمزيد من
الضيوف.

يدور يحيى بعينه في المكان بحذر قبل أن يشعر
بإحدى الخاديات تقترب منه لتهمس بخفوت :
_ سيدي.. هلا تبعثني للمطبخ!؟

يرمقها بنظرة مستكرة من فرط جرأتها لتعاود
همسها الحذر :

_ أحدهم يريد رؤيتك.

يكتم يحيى ضحكته وهو يستتج صاحب الرسالة حتى
قبل أن يصل للمطبخ الذي أغلق بابه خلفه ليفاجأ
بالوجه البشوش لنزار يهتف بمرح وهو يفتح
ذراعيه :

_حبيبي يا (سندباد).. افتقدت أيامك.

يضحك يحيى ضحكة صافية لم يعرفها منذ زمن بعيد
وهو يعانقه بود ليسأله:

_كيف وصلت إلى هنا!؟!

_عيب عليك.. أخوك تخصص خادما!

يغمزه بها بخفة فيضحك يحيى وهو يتلفت بحذر نحو
الباب المغلق قائلاً :

قل ما لديك بسرعة.. لا يجب أن تراك استبرق هنا..
يجب أن تظن دوماً أنني وحيد دونها.. وليس لي
سواها.

يهز نزار رأسه ليخبره بما عرفه عن علاقة ذاك
السيد (...) بالتنظيم المشبوه وغيرها من المعلومات
التي جمعها من مراقبة المرأة قبل أن يعطي يحيى
هاتفاً ما قائلًا :

خذ هذا كي يمكنك التحدث لمجد وطيف بحرية
تحسباً لكون هاتفك مراقباً.. نحن لا نعرف إلى أي
مدى يصل نفوذ هذا الرجل.

يربت يحيى على كتفه بامتنان لكن نزار يمسح دمعة
وهمية وهو يغمغم بحزن مصطنع:

_ولو أنني لن أنسى أنك رميت صاحبك لأجل تلك
(الحكمة).

_زعطوط.

يقولها يحيى وهو يخبطه على مؤخرة رأسه فيضحك

الأخير وهو يحك رأسه ليقول مشيراً ل(طيف) :

_ (حكمة) لكن (بنت أصول).. الشهادة لله.

يبتسم يحيى وهو يحيط كتفيه بقبضتيه قائلاً بامتنان :

_ لن أشكرك فما بيننا أكبر من هذا.. أنت أخي.. حقاً

أخي.

يبتسم له نزار بتسامح قبل أن يغطي وجهه من جديد

بمقدمة غطاء رأسه قائلاً :

_ لا تقلق سنكون دوماً على اتصال لكنني سأغادر

الآن من حيث جئت.. سلام يا صاحبي.

يربت يحيى على ظهره وهو يراه يقفز عبر نافذة
المطبخ نحو الحديقة حيث تنتظره الخادمة لتسهل له
الخروج فيتمتم ساخراً باستتكار :

_ (تخصص خادمت) فعلاً!! لكن.. لماذا كل هذا
الفخر!!؟

يطوي خاطر جانباً وهو يخفي الهاتف في جيبه
ليعاود الخروج والاندماج مع استبرق وضيوفها.
ينتهي الحفل ليداهن استبرق بحديثه ثم يتركها
ليتوجه نحو غرفته ولم يكذ يختلي بنفسه حتى
استخدم هاتف نزار ليتحدث إليها في مكالمة مرئية..

_ بابا.

تدمع عيناه باشتياقه وهو يميز وجه مجد!!
لم يضطر يوماً للابتعاد عنها كل هذا الوقت!!

_ حبيبة بابا.. افتقدتك.. افتقدتك جداً..

تشاركه الصغيرة دموعه لكنها تمسحها بسرعة

قائلة :

_ لست غاضبة منك.. طيف أخبرتي أنك ابتعدت هذه

المرّة كي نبقي معاً للأبد.

يهز لها رأسه موافقاً وهو ينتقل بعينين اغتالهما

الشوق ل(صاحبة السديم) التي بادلتها عيناها شوقاً

بشوق وإن حافظ لسانها على فظاظته الفطرية:

_ ألم نتفق على ألا نتكلم مخافة أن يكون هاتفك

مراقباً؟!

_ هذا هاتف آخر منحني إياه نزار.

_ هاقد ظهرت كراماته (فرقع لوز) هذا!!

تقولها بتهكم فيبتسم وهو يسمع مجد تهتف بسعادة :

_ انظر.. طال شعري.. قريباً يصل لمنتصف ظهري.
يمنحها قبلة طائرة ثم يلتفت ل (طيف) قائلاً بحروف
تقطر عشقاً وشوقاً :

_ وأنتِ أيضاً طال شعركِ.

تخفي ابتسامتها بتلك الطريقة المهلكة التي تجذبه
بأكثر مما تفعله ابتسامتها الكاملة..

تتركه لحديث قصير مع مجد يروي فيه كل منهما
بعض ظمئه لصاحبه قبل أن تصرف الطفلة نحو
الخارج لتتمكن من التحدث معه بحرية..

فيتهد بحرارة قائلاً:

_ لييتي لم أهاتفك.. ولم أرك.. كيف سأخمد هذه

النيران التي أشعلتها!؟

تسبل جفنيها لعلها تداري عمق عاطفتها هي الأخرى
وهي تود لو تخبره أنها كذلك مثله..

_ لن أحتمل البقاء بعيداً عنك أكثر من هذا.. ستعودين
إلى هنا.

ترمقه بنظرة متسائلة عما يقصده ليزفر مردفاً بين
عاطفة واحتياج:

_ تعرفين كم أذخر لك من أحاديث؟! من أحلام؟! إلى
الآن لا أفهم أي معجزة جعلتني أحتمل فراقك طيلة
الأيام السابقة.. أريدك معي عندما ينتهي كل هذا..
لعلي أتذكر وقتها أنك أنتِ البداية والميلاد.. لن يخرب
قلب عامر بحبك.. لن يفرغ كفّ يعانق كفك.. لن
تخسر روح أنتِ غنيمتها.

_ و"العقربة" التي عندك؟! ماذا سنصنع فيها؟!
تهتف بها بفضافة تناقض شاعرية حديثه فتبدو
الصدمة علي وجهه للحظة ثم يطرق بوجهه متمماً

بيأس:

_ من جديد.. جائزة (ملكة الفصلان الكبرى).

_ انطق.. لماذا تخطط؟!!

تهتف بها بخشونة وهي تلوح بكفها فيرفع إليها
وجهاً مبتسماً رغم كل شيء ليرد :

_ سأخبرك.

=====

_ العم مؤيد؟!!

يهتف بها يحيى مندهشاً وهو يرى العجوز يفتح له
باب بيت إلياس حيث قدم الأول لزيارته..

ليرد العجوز مبتسماً بنظرات عجز عن محو الذنب

فيها :

_ الدنيا ضيقة.. كيف حالك يا بني.

يتهد يحيى وهو يتذكر رغماً عنه لقاءه بهذا العجوز

عندما جاء لبغداد المرة السابقة مع مجد ونزار قبل

أن يختطفه رجال عاصي الرفاعي..

يالله! كم يبدو له الأمر بعيداً كأنما قد مرت عليه

سنوات!!

_ كيف حالك أنت أيها الطيب؟! وكيف حال العمّة

رياحين وأحفادك!؟

يقولها يحيى بمودة ليردف بضحكة رائقة :

_ وحفيدتك تلك التي تقرأ الكتب ومنحتنا كتاب (طيف

الرفاعي)؟!؟

يبتسم العجوز بشجن غامض وهو يحمد الله فيهتف

يحيى باعتزاز غمرته عاطفته رغماً عنه :

_ أخبرها أن طيف صارت زوجتي.

يرفع العجوز حاجبيه بدهشة لكن يحيى يحدق فيه

ليسأله بتعجب:

_ قل لي أولاً.. ما الذي فعله هنا؟!

_ دعني أنا أخبرك.

يقولها إلياس الذي وصل لتوه والذي يتبادل مع مؤيد

نظرات غامضة قبل أن يبتعد الأخير لكنه لا ينسى أن

يخاطب يحيى بقوله الذي فاح منه شعوره بالذنب :

_ اختفيت فجأة مع صاحبك نزار والصغيرة وتركتم

حاجياتكم.. لكنني أحتفظ بها عندي.. أظنها ذات قيمة

لك.. وبالذات تلك الحقيبة القטיפية المغلقة.. لا تقلق

لم أفتحها.. زرني في أي وقت واستعدها.

تغيم عينا يحيى بنظرة عميقة وهو يتذكر..

الحقيبة!!

قواريره الزجاجية.. أصدافه الملونة.. تذكارات النساء

اللائي خدعن في ماضيه قبل أن يكسر السندباد

سفينته!!

لهذا يتهد بحرارة وهو يراقب الرجل يبتعد بينما

يسحبه إلياس ليجلس قبالة على مائدة قريبة..

يرمقه يحيى بنظرة قلقة وهو يميز ملامحه المتجهمة

فيمسح إلياس وجهه بكفيه مغمماً :

لا أصدق أنها بهذه الحقارة.. بهذا الشر.. كيف عشنا

مخدوعين فيها إلى هذا الحد؟!!

ينعقد حاجبا يحيى بتوجس فيما يكز إلياس على

أسنانه وهو يقترب منه قائلاً :

_تذكر عندما كنا في الحفل وقالت إنها سترسل من

ينسق لي الحديقة؟! كان هو العم مؤيد.. تدري ماذا

كانت مهمته الحقيقية هنا؟!

يهز يحيى رأسه وهو يحاول إعمال عقله في كل

السيناريوهات الممكنة ليخرج إلياس من جيبه هذا

الشريط من الأقراص فتتسع عينا يحيى بذهول بينما

يردف عمه :

_أن يكسب ودي وثقتي حتى يتمكن من أن يدس لي

هذه يومياً في الشراب كل يوم.. تدري ما هذه؟!

يهز يحيى رأسه باستنكار وهو يفهم ما كانت تخطط

له..

هل هذا ما كانت ستعنيه بأنها ستزيح إلياس من

طريقها؟!!!

_العجوز الطيب لم يحتمل فعلها.. انهار أمامي معترفاً

بخطتها وقد طلب مني أن أكتم الأمر حتى أدبر له

وسيلة للفرار من بطشها هي وذاك السيد (...)..

_وما علاقة العم مؤيد بهما؟!!

_سأخبرك لكن لا تحدثه في الأمر.. أنا وعدته ألا تثقل

عليه بعتاب.. هو رجل متوسط الحال كان يعمل حارساً

لإحدى بنايات السيد (...).. استغل حاجته وأرسله

ليسكن معك تلك الفترة التي قدمت فيها إلى بغداد منذ

فترة حتى يراقبك وينقل لها أخبارك.. ويبدو أن عمله

القديم في زراعة الزهور ألهمها هي فكرة أن تجعله

سلاحها هذه المرة أيضاً.. الرجل فعلها من قبل خوفاً..

لكنه لم يستطع هذه المرة أن يؤذيني.. "الغريب"

أشفق عليّ من مصير كهذا وهي - التي ربّتي كما

تزعّم- لا تبالي.

يقولها إلياس وهو يخبط بقبضته على ركبته بانفعال

ساخط ليتمتم يحيى بغضب مكتوم :

_ كل مرة أقول لنفسي أنني رأيت أسوأ وجوها أجدها

تفاجئني بالأسوأ.

_ لم ترَ الأسوأ بعد..

يقولها إلياس بوجه محترق ليرفع إليه يحيى عينيه

بنظرة متسائلة فيشبح إلياس بوجهه وقد بدا في

جلسته المشدودة كبركان على وشك الانفجار.. قبل أن

يحسم أمره ليخبره :

_قلت لك أن وفاة غيث في السجن كان فيها شبهة

انتحار.. لكن..

تتجمد ملامح يحيى بذهول للحظات وهو يحاول تكذيب

ما يريد إلياس قوله لكنه يلقي سهمه الأخير :

_تعلم أنني منذ فترة أتواصل مع أحد معارفي بجهاز

الشرطة بسرية تامة حتى نتأكد من حقيقة ما يحدث

بمؤسسة الأمين خاصة بعد ما وجدته شجون في

خزانة غيث .. تحريات الرجل توصلت لشبهة جنائية

في مقتل غيث.. شبهة تمت مداراتها ببراعة كي تبدو

وفاته طبيعية.. ولا نحتاج كثيراً من الذكاء لنذكر من

فعلها!!

قتل؟! قتل!! هل وصل بها الأمر إلى هذا الحد؟!!

لماذا؟! ما الذي كان بينها وبينه كي تحاول إزاحته

من طريقها؟!!

يهتف بها يحيى باستنكار مصدوم ليتذكر حديثها معه

ليلة الحفل.. :

(مؤسسة الأمين كلها حق لنا.. أنا وأنت.. لو كان هناك

ما يجب أن تتذكره أنت من الماضي فهو أن (الأمين

الكبير) سرق أبي وكان سبباً في موته أمام عيني..

والعدل يحكم أن يصير كل هذا الآن لنا.. لي ولك

ولأولادك بعدنا.. هذا ما عشت وسأعيش لأجله)

الغلّ الذي صبغ حروفها وقتها يمنحه الجواب الصادم

لخواطره فيزيده إلياس وهو يلوح بكفيه قائلاً :

_ لعل غيث قد استيقظ ضميره بعد زيارتك له في
السجن وقتها.. لعله تبين قرب كشف حقيقة نسبك
فأراد أن يساندك.. لعله لم يوافقها على مخططاتها
بشأنك وشأن العائلة.. أو لعلها فقط أرادت الاستئثار
بكل شيء دونه.

_ ماذا بقي ليدهشني بشأنها؟! حقاً.. التنازلات مجرد
حافة زلقة ما إن تضع قدميك على حافتها حتى
تفاجئك بسرعة الانحدار فلا تشعر إلا وأنت في القاع.
يقولها يحيى بلوعة مختنقة ليقول إلياس بضيق :
_ الأمر صار أخطر مما توقعنا.. لقد صدق صاحبك
نزار في توقعاته.. هذا السيد (...) علاقاته مشبوهة
بتنظيم إرهابي دولي ويريد أن يتخذ من شراكته مع
بعض المؤسسات الهامة كشركتنا غطاء لأعماله.. لا

ينقصنا الآن سوى دليل قوي يوقع بذاك الرجل وبعدها
سيسقط كل شيء خلفه.. يؤسفني أن أقول هذا لكن..

نهاية (استبرق) وشيكة حقاً.

لم يكد يتفوه بها حتى لفت انتباههما صوت جلبة
قريبة..

يهب كلاهما واقفاً ليتوجها نحو مصدر الصوت
القريب حيث كانت هناك فتاة في مقتبل العمر تتشبث
بجلباب مؤيد.. ترجوه وسط شهقات بكائها لكنه كان
يصفعها!!

_ اهدأ يا رجل.. ماذا تفعل؟! هل جننت!؟!

يهتف بها إلياس بحمية نحو الفتاة التي بدت متقبلة

لضربات العجوز قبل أن يبعد مؤيد عنها..

لينهار العجوز مثلها جالساً على الأرض وهو يهز
رأسه مخفياً وجهه بين ذراعيه..
فيما توجه يحيى نحو الفتاة المرتعدة التي لم ينقص
بكاؤها فتنتها ليقول مهدئاً:

_ أنا أعرفك.. ألسـتِ (ناي) حفيدة العم مؤيد؟!
تهز رأسها بتشتت وهي ترمق جدها الجالس أرضاً
بخزي قبل تتراجع للخلف متممة :
_ أعتذر لأنني جئت إلى هنا.. كنت فقط أريد أن أخبر
جدي شيئاً..

يرمقهما يحيى بنظرة مشفقة توزعت عليهما
بالتساوي وهو يشعر من انهيار العجوز أن صفعته
لها تخفي خطأ جلاً..

قبل أن تصطدم عيناه بهذه القلادة في عنقها..

شريط عريض من الفضة انتهت حافته بزهرتين
معدنيتين تحاكيان الأقحوان بلون بتلاته الأبيض وقلبه
الأصفر.. وقد نقشت عليه بخط عربي أنيق :

(لو بيّا يندار العمر.. مو مرة أحبّك عشر)

عبارة غزل عراقية شهيرة تعني بالفصحى (لو عاد
بي العمر فلن أحبك مرة بل عشرًا)!

فينعقد حاجباه بشدة وهو يدعو الله ألا يكون إلياس قد
انتبه مثله إليها..

يلتفت نحوه بترقب ليدرك أنه قد فعل!!

وفي مكانه كانت عينا إلياس معلقتين بقلادة الفتاة

ونقشها المعدني المميز..

ياالله!!

كيف يمكن أن تبض قطعة معدن بكل هذا الفيض من
المشاعر الذي اكتسحه وهو ينظر إليها؟؟!
هذه القلادة انتشرت كثيراً ك"موضة" للفتيات منذ ما
يقرب من عشر سنوات هنا..
كانت أول هدية منحها لـ "حبيبته الغائبة" أول مرة..
وآخر ما تعلقت به عيناه يوم فراقهما!!
يعرف أن الكثيرات وقتها كنّ يرتدين مثلها.. لكن
موضتها اندثرت مع ما اندثر!
لهذا كانت دهشته بالغة وهو يراها في عنق فتاة
حديثّة السن مثلها!!
يتحنج يحيى محاولاً تلطيف الموقف بين الجد
وحفيدته دون التدخل في شئونهما..

يمد يده للعجوز ليعينه على النهوض مرتباً على كتفه
ومهدئاً ببعض العبارات المعتادة فيقف مؤيد مترنحاً
ليخاطب إلياس بقوله :

_ أعتذر عما حدث.. سنغادر الآن.

كلماته تفك السحر عن إلياس الذي يرفع عينيه عن
قلادة الفتاة ليشرح بوجهه قائلاً بتلعثم:

_ لا بأس.

يود لو يسأل الفتاة عن القلادة لكنه لا يجد الجرأة
ليفعل..

فيلتقط يحيى بغيته ليلطف الفتاة بقوله :

_ قلادة جميلة لكنها قديمة بعض الشيء.. من أين

اتيتِ بها؟!!

_ كانت لأمها.. رحمها الله.

يقولها العجوز بشجن غلب غضبه وجعل الدموع

تتكسد في عينيه الهرمتين..

فيتمتم يحيى بتأثر وهو يختلس نظرة جانبية نحو

إلياس الذي أغمض عينيه دون أن يفضح وجهه

الجامد نحيب قلبه في هذه اللحظة :

_رحمها الله.. دعني أوصلكما للبيت.. لا تبدو بخير.

يرفض العجوز شاكراً لكن يحيى يصر بقوله :

_أنا أيضاً أريد استعادة حاجياتي.

يتحرك ثلاثتهم ليغادروا المكان تظلمهم سحابة توتر

خائفة رغم محاولة يحيى تخفيف الأمر..

وتلاحقهم نظرة إلياس التي فاضت بالحنين..

والعبارة تدوي داخله.. تارة كعزف ناي رقيق..

وأخرى كقرع طبل هادر..

(لو بيا يندار العمر.. مو مرة أحبّك عشر)



تراقبه بتول وهو يتحرك في مسبح بيته الكبير

بإعجاب صار يغلبه الخوف..

وشم (الكوبرا) يلتمع بوهج مخيف مع الأضواء

الساطعة في الحديقة وهو يضرب الماء بذراعيه يمناً

ويسرة فيهباً إليها أن أنيابه تستعد لتغرس في

صدرها هي..

ورغم أن مهمتها في (التنظيم) - الذي يدير هو ذراعه

في مصر - تقتصر على دورها كمذيعة في أحد أكبر

البرامج الحوارية لبث فكر معين يريدون انتشاره..

أو حجب القول عن فكر آخر يريدون طمسه..

لكنها تتمنى لو تصير ندأ له هو!

لو تحل نظرة (إكبار) في عينيه محل تلك النظرة
المستهينة التي طالما يرمقها بها!
تخلع ملابسها بعرض مثير وهي تراه ينظر إليها من
بعيد..

حسناً.. في هذا الجانب بالذات ترضيها نظرتة!!
تتضم إليه في الماء بحركات رشيقة وهي تلاحظ
تعمده أن يبتعد كلما اقتربت هي، حتى يلتصق ظهره
بحائط المسبح القصير فيسند ذراعيه عليه بحركة
مهيمنة لتقترب هي بسرعة أكبر..

تبسط كفيها على صدره مستمتعة بهذه النظرة
الراضية في عينيه قبل ان تشرع في تدليل رجولته
كما علمها..

لكن نظرتة الراضية تتحول لأخرى شاردة.. تائهة..
غريبة عن عينين مسيطرتين كعينية..

لقد تذكرت شيئاً!

يذكرها بصوت فجر مع ذاك الأنين الموجه الذي جلد
صدره..

قطرات العرق على جبينها تشبه نرف قلبه وهو

يسألها بوجل :

ماذا تذكرتِ؟!!

تأوهاتة الخافطة تسبق احتضانها لجسدها وهي

تغمض عينيها بقوة كأنما سيشكل هذا فارقاً!!

قدمها تحتكان بالأرض بقوة بحفيف بدا لكليهما

مرعباً وهي تتراجع بظهرها للخلف كأنما تقاوم خوفاً

غير مرئي..

قولي.. ماذا تذكرتِ !؟

يصرخ بها بخوف غاضب وذراعاه يهلطان حولها
بعجز بينما يقترب منها.. ليختنق صوتها بجوابها :
_رجال.. غرباء.. يقتربون.. ثيابي.. أيديهم تمزق
ثيابي.. أصرخ.. بحر.. سيارة تغرق.. الباب ينفتح
لأصارع الموج.. أنفاسي تختنق.. أصرخ.. اصرخ..
صرخاتها تتوالى بعدها فيعجز عن فعل أي شيء!!
العجز يخيفه.. يخنقه.. يمحو وشم (الكوبرا) من على
ذراعاه ويعيده (فهمني) الضعيف الذي تدوسه

الأقدام!!

لهذا لم يفكر كثيراً وهو يزيد لها جرعة الدواء الذي

يشوش ذاكرتها..

النسيان لها نعمة.. وله غطاء!!

غطاء يكفيه عري عجزه معها.. هي.. هي بالذات!!

_ فيم أنت شارد؟!

صوت بتول الضائق ينتزعه من شروده فيلتفت إليها
بنظرة حادة جعلتها تنكمش مكانها بخوف ليلقي إليها
بعبارة المزدرية :

_ عندما تكونين مجرد دمية باردة لا تجيد ما تفعله،
فلا تلومي شرودي.

كلماته تسقط فوقها كالثلج تطفئ وهج عاطفتها وهي
تشعر أنه حتى (النظرة الراضية) هاهنا.. اختفت!
تشيخ بوجهها دون رد وهي تفكر في ما سيرضيه
لكن صوت رنين هاتفه يقاطع ما تنتويه.. فيما ينتفض
هو مكانه بخوف بدا غريباً علي عينيها وهو يسمع

النعمة المخصصة لحارس بيت (فجر) والذي لا

يهاتفه إلا لضرورة قصوى حسب أوامره.

لا يعرف كيف غادر المسبح..

تنزلق قدماه بفعل خطواته الهوجاء لكنه يستعيد

توازنه سريعاً..

يفتح الاتصال ليرتجف صوته رغماً عنه وهو يسأل

المتحدث عن الأمر..

يختفي الزمان والمكان حوله فلا يسمع سوى صوت

الطنين في أذنيه والرجل يلقي بسهمه..

(السيدة فاقدة للوعي ولا تفيق)

أنامله المتخبطة تتناول ملابسه ليرتديها بعشوائية

وهو يغلق الاتصال ليغادر البيت بسرعة..

يطلب خمسة من أمهر الأطباء الذين يثق في مهارتهم
- والأهم تكتّمهم- ليطلب منهم اللحاق به للبيت

المنعزل حيث فجر..

هذه المرة لا يفكر في تعقيد مراوغته كالعادة وعقله
كله مغيب ب(هوسه) بالخوف من فقدها..

يصل للبيت فيندفع نحو غرفتها ليجدها ممددة علي
فراشها بلا حراك..

الخادمة تحاول إفاقتها وهو.. هو عاجز حتى عن
لمس وجنتها!!

هل آذاها من جديد!؟

هل طعنها مرة أخرى بالنصل الذي ظنه طوق ورد!؟
يخلع نعليه كعهده قبل ان يجثو على ركبتيه جوار
فراشها..

_فجر.. فجر.. أفيقي واسمعي.. أنا عدت.. عدت ككل

مرة.. قومي كي نتكلم..

صوته يرتعد رعدة واضحة وخفقات قلبه تصل حد

الجنون وهو يراقب شفثيها الجافتين وبشرتها

الشاحبة..

لأول مرة لا تستجيب لحضوره!

تبا!

هل تفعها!؟

هل يغدر به (فجره) فلا يعود للشروق!؟

_لا.. لا.. لا..

صرخاته الهادرة تتزامن مع وصول الأطباء الذين

يطلبون منه الابتعاد لفحصها فيصرخ فيهم بجنون :

_ لو أصابها مكروه فسأقتلكم كلكم.. لن يغادر أحدكم

حتى تفيق هي.

يتبادلون نظرات وجلة وهم يحاولون تهدئته قبل ان

يشرعوا في فحصها فيما يبقى هو مكانه يراقبهم

بعينين زائغتين..

كلهم يستطيعون لمسها.. عداه هو!!

ماذا يساوي كل ما صنعه في حياته أمام لحظة..

لحظة واحدة يعانقها فيها..

يعتذر منها طالباً الصفح.. الصفح الذي يوقن أنه..

أنه لا يستحقه منها!

يخبرها وهي تراه بعينيها..

تتذكره بقلبها..

انه صار قوياً مهيمناً لا ترد له كلمة..

أنه لم يعد ذاك الضعيف الذي استباحوها امامه..

لكنه يعرف أن وشم (الكوبرا) سيخيفها..

طالما كانت تخاف الأفاعي.. وهو صار منها!

أفاقت.

يقولها أحدهم فلا يدري من فعل!

كل ما يشعر به هو هذه الشهقة التي غادرت حلقه

كأنه ينتقم لكل هذه الدقائق السابقة التي انكمت فيها

أنفاسه..!!

يسمعهم يلقون إليه بالتشخيص.. يكتبون الدواء..

يحذرونه من زيادة الجرعة مرة أخرى..

لكن عقله كان مغيباً وعيناه معلقتان بها..

من أنتم؟! لمن هذه الأصوات؟! أين أنا؟!

يسمعها تهتف بها بوهن وهي تحيط جسدها بذراعيها
عاجزة عن رؤية أو فهم ما يحدث..

فيقترب بسرعة وهو يشير لهم بالانصراف كي يجثو
على ركبتيه جوار فراشها من جديد قائلاً بصوت لا
يزال يشكو رجفته:

_ لا تخافي.. أنا هنا.. أنا وحدي.. اطمئني.. انتِ بخير.
تتنهد بارتياح وهي تبتم فور ما سمعت صوته..
تتحسس رأسها بتأوه خافت لكنها تكتم ألمها لتسأله
برقة شاحبة:

_ وأنت!؟

فيتأوه بصوت مرتفع وهو يسند جبينه على طرف
الفراش ليهمس بوهن وهو يحاول السيطرة على
جنون خفقاته:

_صرت بخير.. الآن صرت بخير.

يقولها غافلاً عن هذه التي وقفت خارج النافذة نصف

المفتوحة وقد كانت تراقب المشهد من أوله بعدما

أثارها مشهده وهو يغادر البيت بسرعة ناسياً حتى

وجودها هي..

بتول!

تتبعته إلى هنا بسيارتها بفضول لم تستطع كبحه

لكنها لم تتصور في أقصى خيالاتها جموحاً أن تراه

في مشهد كهذا..

تضيّق عيناها بتفحص وكأنها تملأ عينيها من

صورته الغريبة تماماً مع تلك المرأة لتبتسم بخبث

وهي تقول في نفسها :

هذه إذن نقطة ضعفك الوحيدة.. أظنه قد آن الأوان
أن يتفوق التلميذ على أستاذه!



الطيف السادس والأربعون



_ لا تتحركي!

تشهق بتول بفزع وهي تسمع صوت الحارس القاسي
الذي رفع سلاحه في وجهها.. قبل أن تنتبه للآخر
الذي أطلق النار على إطارات سيارتها - كما تعلم-
ليمنعها فرصة الفرار - إن وجدت-!!

_ من أين ظهر هذان!؟

تهمس بها لنفسها بذعر وهي تشعر بهم يكممون
فمها ويطوقون جسدها ليدفعوها داخل البيت..

الرعب يجمد أوصالها وهي تراه هو يغادر غرفة
المرأة كعاصفة مغلقةً بابه بحرص لا يتعارض وسرعة
تقدمه نحوهم كشيطان أطلقوا أسره لتوه..
نظراته مصدومة كأنه لا يصدق كيف وصلت هذه إلى
هنا!!

لكن الدهشة تتحول لغضب هادر وهو يصرخ
بالحارسين :

_ أين كنتما عندما اقتربت؟!
يرتعد الرجلان ليردا في نفس الوقت وبنفس الجواب
تقريباً :

_ انشغلنا مع تعب السيدة وخروج الأطباء و..

لكنه لا يمنحها فرصة المزيد من الكلام ورصاص
مسدسه يرديهما مكانهما في رد فعل متطرف إنما
يناسب شخصاً بهوسه!

تكتم الخادمة صرختها وهي تلتصق بالجدار خلفها
ولم تكن بتول أفضل منها حالاً وهي تشعر أنها ستري
أسوأ وجوهه..

لكن توقعها لم يعصمها من سطوة الدهشة من وحشية
هجومه وهي تراه دون أن ينتظر أي رد منها يتقدم
ليعتصر رقبتها بين كفيه بقسوة وهو يدفعها للخارج
كي يبعتها قدر استطاعته متمتماً بخفوت وعيناه
تكتبان شهادة إعدامها:

_إذن فقد تبعتي إلى هنا.. لا بأس.. خطأ يمكن
تداركه.. أجل.. كما أقرأها في عينيك تماماً.. أنتِ

فهمت أنها هي نقطة ضعفي التي حدثتك عنها من
قبل.. تراك تذكرين بقية حديثي وقتها.. هه.. ماذا
كان!؟

تتضرع إليه وسط شهقات بكائها وهي تشعر بقرب
اختناقها.. تتراجع للخلف خارج البيت رغماً عنها
مدفوعة بقوة خطواته لكنه يبدو وكأنه لا يسمع..
بل كأنه صار مجرد آلة للقتل!!

حتى همسه الخافت بدا لها كنصل حاد وهو يردف
بينما تضغط أصابعه على رقبتها أكثر فتصير روحها
على بعد أنفاس :

_ لا زلت أذكر ماذا قلت لك يومها.. (الموت يسبق

الوصول إليها) .

_ (فهمني!)

الهتاف المفاجئ بالصوت الحبيب يجمده مكانه!!

الهتاف الرقيق..

الخائف..

المندهش..

القلق..

العاتب..

المحترق بلوعتيهما معاً!!

اسمه الذي كاد ينسى وقعه على روحه عندما يخرج

من شفتيها!!

كانها هي الوحيدة التي تجيد تهجئة حروفه في الدنيا

كلها!!

هل تذكرت اسمه وصوته حقاً؟!

فقط؟!

أم..!؟

الإدراك الأخير يصفه فيترك بتول فيما يشبه الخارقة
ليلتفت نحو فجر التي بدت في أقصى حالات تشوشها
ووهنها..

تمد ذراعيها حولها تتحسس طريقها إليه ولا تزال
تهتف باسمه وسط سيل من الدموع..
لا يزال تحت تأثير الصدمة لكنها تكرر اسمه مرة تلو
مرة..

كل مرة تزرع زهرة.. وتحفر قبراً!
يرى بتول تعدو هاربة بكل قوتها فيتحرك نحوها
خطوة وهو يشعر أنه عالق في المنتصف بينهما..
خطوة واحدة يهم بالحاق بها لكن نداء فجر من جديد
يجعله يتخلى عن لعنة المنتصف دون تفكير وهو

يندفع نحوها هي صارخاً بغضب بدا وكأنه زلزل

الأرض تحت الجميع..

لماذا الآن؟! لماذا؟!!

لكن فجر تهتف بضياح مشتت بين شهقات دموعها

وهي تبدو كمن تعاني الغرق بين شلال الذكريات

المباغت:

فهمي! أنا تذكرت.. تذكرت كل شيء.. الحادث..

السيارة.. الماء.. المشفى..! ماذا هناك؟! من أطلق

النار منذ قليل؟! هل هي عائلتي؟! هل عرفوا؟! كم

مر من وقت؟! يا الله!! ماذا حدث؟! بل.. ماذا يحدث؟!!

تنهار جالسة على ركبتيها وقد عجزت عن نيل رد

منه..

لأول مرة تقف خارج البيت لا داخله..

تشعر بصوت البحر أقرب.. بنسماته أكثر برداً

وقسوة..!

بحبيبات رمل خشنة تخدش قدميها الناعمتين..

تسمع صوت الموج هادراً بوحشية تشبه ماضيها

معه..

تشم رائحة الحرية لكنها تزكم أنفها بالخوف!

منذ دقائق فقط كانت في غرفتها المعتادة لا تزال تتنعم

في برزخ النسيان..

لا تعرف عن نفسها سوى غريقة تعلقت بقشة

حضوره..

ولا تعرف عنه سوى الغامض الذي يتأرجح دوره بين

(الحامي) و(السجان) ..

حتى سمعت صوت الحارسين ثم شعرت بخروجه هو

من غرفتها بخوف..

أجل.. رائحة خوفه بالذات تشعر بها تكتسحها كأنه

يدخر خوفه كله في حضرتها هي فقط!!

رائحة الخوف الذي شاركته إياه عندما سمعت صوت

إطلاق النار!!

الخوف..

الخوف من جديد!!

الخوف أطلق مارذ ذكرياتها حراً هذه المرة أيضاً

لتستعيد أبشع لحظات حياتها..

خاصة عندما بحثت عنه حولها فلم تجده كذاك اليوم

الذي انتهكوها فيه..

هنا فقط تفجرت ألغام الماضي فجأة!

والخوف يفتح أقفال الذكريات المغلقة واحدة تلو

الأخر..

لينتهي بآخرها يوم عايشت الموت مع أهلها عندما

كانت السيارة تغرق..

حينها فقط تدفق السيل كاملاً دون رادع محطماً كل

سدود النسيان!!

_قل شيئاً.. أي شيء.. أرجوك.. لماذا أنا هنا؟!

لا يزال صمته يروعها فتصرخ بسؤالها الأخير مرة

تلو مرة وهي تشعر بطوافه العاجز حولها..

لهذا كان يقول دوماً أنه لا يستطيع لمسها!!

منذ يوم الحادث وهي كانت تقرأ الاعتذار الصارخ في

عينيه!

عندما..

عندما كانت تجيد قراءة العيون!!
الآن لم تعد تجيد حتى قراءة صمته!!
و(حولها) كان هو يدور كطائف حول نار مقدسة
يخشى الاقتراب خشية أن تحرقه.. ويطفئها!
غاضب.. غاضب حد الجنون وهو يشعر أن رقعة
الشطرنج لم تهتز فحسب بل ركلتها قدم عابثة لتطيح
بكل ما فوقها..

وأولهم.. الملك!!

لماذا أنا هنا؟!

لا تزال تصرخ بها بانها ليصرخ فجأة وهو يجثو

على ركبتيه أمامها :

لأنك لا يمكن أن تكوني إلا هنا.. هنا.. هنا معي..

ولي.. وملك.

_ ملكك؟! لك؟! لم أعد لك.. أين أهلي؟! ماذا حدث؟!
تتمتع بها بهذيان ولا تزال مشتتة تحتضن جسدها
بذراعيها وهدير الموج يصلها كأياب وحش يستعد
لالتها مها..

فيصلها صوته خائفاً مثلها وربما أكثر لكنه يلتحف
بقسوة عاتية:

_ انسيهم.. انسي كل شيء.. عودي كما كنت بيضاء
القلب والثوب والذاكرة.

_ بيضاء القلب والثوب والذاكرة؟!
تتمتع بها ذاهلة باستنكار لتردف متوجعة بتهكم مرير
وهي تتحسس طرف ثوبها على الأرض:
_ لم أعد بيضاء الثوب.. أظنه الآن اتسخ..
ثم تتحسس رأسها:

_ ولا بيضاء الذاكرة.. عاد كل شيء بسواده

وخذلانه..

ثم تتحسس صدرها بأهة عالية هاتفة :

_ القلب؟! ولا حتى هذا صرت أثق ببياضه!! أخبرني

ماذا يحدث هنا!

_ ما يحدث هنا هو ما كان ينبغي ان يحدث من

البداية.. أنتِ لي.. في حماي.. لم أعد ذاك الضعيف

(غير اللائق) الذي ينبذه الجميع.. صرت أملك القوة

لفعل ما اشاء وقت ما اشاء وكيفما اشاء.

_ كيف؟!!

_ لا تلوثي أذنيك بسماع الطريقة.. (كنتُ.. فصرْتُ)..

خذيها هكذا ببساطة دون تفسير.

_بساطة؟! وأنا؟! انا ما وضعي هنا؟! كم مر من

زمن؟! أخبرني بكل شيء الآن.

صراخها الملتاع يشعل المزيج الملتهب من غضبه

وعجزه ليقف مكانه هاتفاً :

_لا وقت لنضيعه.. لا بد أن نغادر هذا البيت بسرعة.

تصرخ باعتراض وهي تتشبث بجلستها على الأرض

لكنه يصرخ بالخادمة أمراً إياها ان تجذبها قسراً نحو

سيارته القريبة..

_فهمي.. لا تفعل بي هذا.. لا تسقتي هكذا كذبيحة لا

تملك قرارها.. لا تجعلني أكره نفسي عندما منحتك

قلبي من البداية.

عبارتها الاخيرة تقصف قلبه كقذيفة نارية فيصرخ

بها بجنون وهو يشعر بذراعيه حولها قصيرين..

قصيرين للغاية.. لم يشعر أبداً بأنهما قصيرين هكذا

سوى معها هي :

_إياك أن تقوليها ثانية.. حبك لي - كحبي لك- حقيقة

لا جدال فيها.. أنتِ لي.. هل تفهمين؟! لي حتى يموت

أحدنا.

_ لا.. لا.. لا.. ليس قبل أن أفهم.. لا..

لا تزال تصرخ باعتراض وهي تشعر بذراعي الخادمة

القويتين تكبلانها.. لا تراها إنما تشعر بها تفوقها

طولاً وحجماً بكثير.. أو ربما هي هشاشة وهنها

وعجزها ما جعلها تشعر انها غير قادرة على

المقاومة..

ظلام.. ظلام.. ظلام..

والم!

ألم يخز كل ذرة في جسدها وهي تشعر بالمرأة تجرّها
جراً فوق الرمال حتى تتوقف بها ثم تجبرها علي
الركوب قبل أن تسمع صوت انطلاق سيارته فتخفت
صرخاتها تدريجياً حتى يبح صوتها فتخرس أخيراً
مكتفية بفيض من الدموع..

وليل الذكريات الأسود يلقي سدله على ذهنها دون
رحمة!

وفي مكانها كانت بتول تركض في الاتجاه المضاد
مبتعدة عن البيت بكل قوتها..

تحاول التقاط أنفاسها وهي تنظر للخلف كل بضعة
ثوانٍ فيروعها الصمت المخيف حولها..

هل يلحق بها؟!

هل سيتركها تهرب؟!

حتى لو فعلت الآن.. سيمكنه إيجادها في أي مكان!!
تلعن فضولها الذي دفعها للقدوم.. وتلعنه هو أكثر..
تتوقف مكانها أخيراً عندما أدركت أنها ابتعدت عن
البيت بما يكفي وهي تشعر انها صارت عاجزة عن
التقاط أنفاسها فتتوقف لاهثة تتلفت حولها..

ألا تمر أي سيارات هنا؟!

أي معجزة قد تتقدها الآن؟!

والمعجزة تأتيها فعلاً في سيارة صغيرة ظهرت من
خلف تبة رملية قريبة كأنها كانت متوارية في الظلام
خلفها..

تندفع إليها بسرعة وقد منحها الأدرينالين بعض القوة

الإضافية..

تشير لها بالتوقف فتوقف فعلاً لتقترب وهي لا تميز
ملاحح الراكبين الأماميين في الظلام فتهتف بين
أنفاسها المتلاحقة :

_ أرجوكما.. خذاني معكما قريباً لأي..

تنقطع كلماتها وهي تميز بصدمة ملامحهما فقد كان
هذان بالذات آخر من تتوقع رؤيتهما الآن معاً..

إيهاب.. وعزة!



_ لا تقلق.. تأكدنا جيداً أنك لست مراقباً.

يقولها بشر بنبرة عملية مطمئنة مخاطباً حسام الذي تلفت حوله في المكان المؤمن حيث اتفقا على اللقاء

ليردف بشر :

_ الكوبرا لم يخنه ذكاءه.. لم يكن ليضع زيارتك له في

ورشة شقيقه محل صدفة.. لهذا شغل عقله بسرعة

وربط بينك وبينني بما أن الأمر يتعلق بفجر.. لهذا

أرسل من يبحث خلفي لكنني أجدت تضليله..

المعلومات التي أرسلتها (يسرا الصباحي) في تلك

الفاشنة أفادتنا كثيراً بمعرفة غطاءه الداخلي في جهاز

الشرطة فصار بإمكاننا تسريب المعلومات التي

نريدها فحسب.

من الجيد أنكم لم تلقوا القبض عليهم.. هناك فرصة للاستفادة من بقاء الوضع كما هو عليه حتى نحكم سيطرتنا على كل الخيوط.. وفي الوقت المناسب نسحبها كلها.

يقولها حسام بحنكة ضابط سابق لبيتسم بشر قائلاً :

خسارة انك تركت جهاز الشرطة.

لست نادما..دفعتها ثمن خطأ قديم.

يتمتم بها حسام باقتضاب ليغير الموضوع بقوله :

ما الجديد؟! أهم ما يعنيني الآن هو مكان فجر.. هل

وصلتم إليها!؟!

ليس بعد.. لكنني أعدك أن نعمل قريباً.. فقط أريد أن

نتشارك التفاصيل والخطة القادمة كما وعدتك.

يقولها ليتبادل كلاهما ما صارا يعرفانه من معلومات
وبالذات تلك التي تلتقي عند إياد..

_ لن يعترف.. مادامت امه بين يدي ذاك الوغد.

_ بالضبط.. لهذا يجب أن نعمل لنحررها اولاً.. عرفت

أن أخاه إيهاب خرج من السجن بعد محاولة فاشلة

لتبرئته بزج نفسه مكانه.. تظن هذا سيوصلنا

لشيء!؟!

يسأله بشر ليهز حسام رأسه قائلاً :

_ عزة ظليقته معنا.. لو جد في الأمور شيء

ستخبرنا.

_ الدائرة تتسع.. تثق بتلك المرأة!؟!

_ أثق بجنة.. وجنة تثق بها.. الدائرة تتسع حقاً لكنها

ستضيق في الوقت المناسب لتسحق عنقه دون

رحمة.. كل فرد من هذه الدائرة يدين لذاك الوغد بثأر

قديم.

يقولها حسام بغضب مكتوم وقد تذكر شيئاً جعله

يسأله بلهفة:

_وذاك الخيط في العراق؟! هل أوصلكم لشيء؟!!

_بمساعدة صديقكم يحيى وعمه وبتعاون مشترك مع

السلطات العراقية تمكنا من رصد عدة مكالمات عبر

شبكة بالغة التعقيد من ذاك السيد (...). لرقم معين في

دولة عربية شقيقة.. رقم يخص مدير أول مشفى من

نوعه يوثق التطبيع بين البلدين.

_عربية؟! لا أصدق ان يكون هذا التنظيم الإرهابي

تابعاً لدولة عربية!!

يهتف بها حسام باستتكار فيرمقه بشر بنظرة معتمة

للحظات قبل ان يلقي قنبلته :

_ لا.. ليس عربياً.. بل صهيونياً.

تبدو الدهشة على وجه حسام للحظات قبل أن يهز

رأسه ليتمتم :

_ كان يجب أن أتوقع هذا.. هكذا يبدو الأمر منطقياً..

ثم يطلق صوتاً ساخراً مردفاً :

_ يخدعوننا بمظاهر التطبيع المزركشة في الظاهر

وهم يهدمون أعمدتنا من الباطن.. يضعون أيديهم في

أيدينا نهاراً ويطلقون علينا وطاويط ظلامهم ليلاً.

_ أجل.. كل هذا يتم تحت غطاء صهيوني.. ليس في

مصر والعراق فقط.. هذا ما اكتشفناه.. التنظيم له عدة

أذرع في دول أخرى بالتأكيد.. تفجيرات وتهريب آثار

وتجارة سلاح واغتيالات لشخصيات مهمة لزرع
الفتن..

_ ولا تنسَ بتول ومن شابهها ومحاولة لفرض
سطوتهم على أفكار الإعلام المرئي والمسموع بل
والمقروء كذلك.. بغرض زرع فكر معين يمهد
لمعاملتهم كأقلية مضطهدة يجب التعاطف معها
واستيعاب اختلافها.

يتمتم بها حسام بانفعال وهو يشعر أن الأمر يتضخم
لما يفوق توقعاته..

لكن بشر يربت على كتفه قائلاً :

_ الأمر صار يحظى بأهمية قصوى لدى نظم الشرطة
والمخابرات بالبلدين.. لا تقلق.. حتى ولو لم نسقط
التنظيم كاملاً فيكفينا سحق رموزه هنا وعرقله

خطواته بعض الشيء.. اعذرنى لو احتفظت ببعض
المعلومات فائقة السرية.. لا علاقة للأمر بالثقة فأنا
أثق بك.. لكن..

_أعرف.

يقاطعه بها حسام بتفهم وهو يشيح بوجهه ليسودهما
صمت قصير للحظات قبل أن يتخذ حسام طريقه
ليغادر لكن بشر يستوقفه بندائه ليسأله بتردد :
_كنت أريد أن أسألك.. عنها.

يرمقه حسام بنظرة متسائلة ليقول بشر مفسراً :
_ديمة.

تشتعل عينا حسام بغيرة هادرة للحظة وهو يتذكر
مشاعر الآخر نحوها..

لكن بشر يتقدم نحوه ليقول بحرج:

_ لم أكن لأتحدث عن الأمر لولا أنني عرفت أنك

تزوجتها وطلقتها.

يعطيه حسام ظهره وهو يشعر بغضبه العاجز يخز

كل ذرة في جسده..

لكن بشر يسأله بصراحة عملية:

_ لا أريد إفساد علاقتي بك لهذا أسألك بوضوح..

تحبها!؟

يقبض حسام كفه بقوة وهو يدرك خطورة الجواب قبل

السؤال!

تعلو خفقاته بجنون هادر لكنه يحافظ على ثبات هيئته

ولا يزال يعطيه ظهره ليقول بصلافة خادعة :

_ تزوجتها فقط لأحميها.. أظنك عرفت التفاصيل.. ولما

انتهت حاجتها إليّ ذهب كل منا في طريقه.

تهيدة ارتياح تغادر صدر بشر وتبدو كنصل سام

يتجه لصدره هو وهو يسمعه يسأله مباشرة :

_ هذا يعني أنك لن تمنع لو فكرت أنا في..؟!!

_ وما شأني أنا كي أمانع أو أوافق؟!!

يقاطعه بها حسام هادراً بعصبية وهو يلتفت نحوه

فجأة ليرمقه بشر بنظرة متفحصة تجعله يزفر ليردف

بنبرة عاد إليها برودها وهو يسأله :

_ تحبها؟!!

فيطرق بشر برأسه ليرد بخفوت :

_ منذ سنوات عملي الخفي مع غازي وأنا لا أقترب

منها إلا لأحميها.. تارة من الآخرين.. وأحياناً من

نفسها.. عندما عرفت ما فعلته أنت لأجلها - وقتما

كنت في الغيبوبة- شعرت أنني أحسدك.. هذا بالضبط

ما كنت لأفعله معها.. ولن أتوقف عن فعله مادمت
أشعر بحاجتها إليّ.. لو لم يكن هذا حباً فلا أعرف ما
يكون.

ساعتها ينشطر (قذاف الحطب) نصفين..

شطر بوجه حبيب..!

يود لو يلکم هذا المنافس أمامه.. لو يجثم فوق صدره

فيقتلع من بين ضلوعه قلباً يريد مشاركته فيها..

وشطر بوجه أب..!

أب تجرد من ثوب أنانيته معها ولا يريد لها سوى

حياة آمنة طبيعية مع رجل يحبها.. يحميها و.. الأهم

يمنحها عائلة.

صراع هائل يفتت روحه ألف قطعة بينهما لكن..

الغلبة تكون ل(شطر الأب)!

لهذا يتحسّر صوته القوي رغم بروده بغصة وهو

يرد :

_ لا مشكلة لدي.. لكن الأمر سابق لأوانه ويحتاج
لوقت.. ليست فقط شهور عدتها كما اتفق.. لكن..
استعدادها هي.. يمكنك التحدث لطبيبها النفسي.. لا..
لا.. بل سأفعل أنا.. وأخبرك.. لكن.. ماذا عن الطفل؟!
_ سأتكفل به معها.. لا مانع لدي أن يعيش معنا.
_ تتحدث وكأنها وافقت؟! اسمع.. لن أسمح بأي
إجبار لها من أي نوع.

عصبية المنفصلة تثير المزيد من حيرة بشر الذي
يعاود تفحص ملامحه بخبرته لكن حسام يمسح وجهه
بكفيه ليغمغم بما يشبه الاعتذار :

_ لا بأس.. كان اليوم عصيباً والأجواء موترة..

انفعالي لا علاقة له بها على أي حال.

ترتخي ملامح بشر بارتياح كأنه ازاح عن كاهله حملاً

ثقيلاً وهو يهم برد مناسب لكن رنين هاتف حسام

يقاطعه..

حسام الذي يتعجب عن يتصل به في هذه الساعة

المتأخرة من الليل لتتسع عيناه بقلق وهو يميز رقم

المتصل..

يستمع قليلاً قبل أن تدمع عيناه بفرحة حقيقية لم

يعرفها منذ زمن بعيد وهو يغلق الاتصال ليهدف

ببشر :

_ دينا أفاقت.

=====

أخضر



_ انطلقى.. انطلقى بسرعة أكبر.

تهتف بها بتول وهي تتلفت خلفها بذعر لا تصدق

نجاتها..

لكن هل نجت حقاً؟!!



وهل سيعجز الكوبرا عن إيجادها لو اراد؟!
الرعب يمنحها الجواب الوحيد الصحيح لكنها تسألها
بعدها استفاقت نسبياً من صدمتها :

_ كيف وصلتما إلى هنا؟!

لتتبادل عزة - التي تقود السيارة - وإيهاب نظرة
غامضة وكلاهما يستعيد في نفس اللحظة ما حدث
صباحاً..:

توجه إيهاب لبيته بعد إخلاء سبيله ليفتح بابه بأنامل
مرتجفة..

بيته الذي خلا لأول مرة تقريباً من رائحة أمه!!
ورغم يقينه من غيابها لكنه مضى يبحث عنها في كل
مكان كأنه يتوقع معجزة عودتها.. أو خطأ تقدير
إياد..

لكنه ينهار أخيراً في غرفة نومها وهو يجلس على فراشها.. يراقب أشياءها الصغيرة التي تملأ المكان بغصة مريرة استحكت حلقه..

هل سيفقد ما فقد كل شيء؟!؟!

ساقه.. عمله.. أخاه.. وحبيبته؟!؟!

_لا.. لا وقت للانهايار.. اهرب!

(الصوت الداخلي) هذه المرة أيضاً يدفعه للهرب لكن

في الاتجاه الصحيح!

لهذا ينتفض مكانه ليتوجه نحو الحمام القريب فيغتسل

ليبدل ملابسه بأخرى مريحة..

اتصل برقم ما ليطلب سيارة بسائقها ثم غادر البيت

بسرعة ينتظرها أسفله..

(ذاك الوغد يعرف أن نقطة ضعفي أمي.. لو تحررت
أمي فلن أتورع عن إخبار الشرطة بكل شيء
أعرفه.. لا أعرف خيلاً يمكن أن يوصلنا لمكانها سوى
بتول.. تلك المرأة تتبعه كظله وتجيد إلقاء أذنها
الفضولية تتدخل فيما لا يعنيه لتعرف كل شيء.. لا
يمكنني الآن سوى الوثوق بك أنت.. اتبعها دون أن
تسهر لعلنا نتوصل من خلالها لأي شيء)
يذكرها كما سمعها من إيراد قبل خروجه هو من
السجن لتدمع عيناه وهو يتذكر شدة قبضة أخيه على
كتفه وهو يهمس له :
(لو عادت دعها تسامحني على كل شيء)

(لو عادت - وستعود.. سأخبرها أنها وإن كانت سبب

خلافنا فقد كانت أيضاً سبب عودتنا.. حبها جمعنا كما

فرقنا)

قالها لنفسه وهو يراقب الطريق منتظراً السيارة التي

طلبها لتتعلق عيناه بأخرى توقفت أمامه..

أخرى يعرفها ويعرف صاحبته جيداً..

عزة!!

_ ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟!!

فضاظته التي لها ما يبررها هذه المرة تغلف كلماته

وهو ينحني نحوها عبر نافذة السيارة لتقول

باقتضاب:

_ اركب.

يستقل السيارة جوارها وعيناه العاشقتان تغافلانه
رغماً عنه بتفحص ملامحها التي بدت له باردة صلبة
وهي تسأله :

_ ماذا تنتظر تحت بيتك هكذا !؟

_ لا شأن لك بي.. ظننت هذا واضحاً منذ آخر رسالة
تركتها لك.

لا يزال يجيد تغليف عاطفته بفضافة جافة لكنها تلتفت
نحوه لتقول ببرود :

_ أنا أعرف كل شيء.

_ ماذا تعرفين !؟

_ تورط إياد.. الكوبرا.. واختطاف خديجة.

تشحب ملامحه بخوف يتحول لغضب هادر وهو يهتف
بها بانفعال:

_ منذ متى تعرفين؟! ما الذي يحدث بالضبط؟!
أخذت نفساً عميقاً ثم مضت تحكي له عما تعرفه عن
طريق جنة وروى.. لكن غضبه لم يقل وهو يهتف بها
بانفعال:

_ ولماذا تقحمين نفسك في كل هذا؟! ألم ينته كل ما
بيننا؟!

يقولها ليغادر السيارة صافقاً بابها خلفه ليردف وهو
يخبط مقدمة سيارته بكفه :

_ ليست لعبة.. غادري.. أو كلما قطعت انا الحبل بيننا
عدتِ بمنتهى الحماسة تصلينه؟! غادري.. غادري
واختاري مرة واحدة صحيحة في حياتك.
يتجمع حولهما بعض المارة ممن تعرفوا عليهما بحكم
شهرتهما..

فلاش بعض الكاميرات يسطع مع الصوت المميز
لالتقاط الصور..

بعضهم يرفع هواتفه في وضع التقاط فيديو كامل لكن
الغريب أنه هو وهي لم يكونا يهتمان...!!
وكان كل منهما في هذه اللحظة لم يكن يرى سوى
صاحبه..!

بواب البناية يفرق الجموع ثم يحاول تهدئة الوضع
بينهما لكن إيهاب يصرفه بخشونة وهو يعاود الطرق
على مقدمة سيارتها فتتحرك بها أخيراً لتبتعد..
يأخذ نفساً عميقاً وهو يمسد صدره بألم..

لماذا عادت تلك الحمقاء ؟!

هل ينقصه خوفه عليها هي الأخرى ؟!

طوال الأيام الماضية وهو يجلد نفسه بذنبها!!

يدرك أن كليهما قد ضاع من الآخر وضاع من نفسه
قبلها..

لكنه يحاول الآن استعادة ذاته.. فلماذا تسعى هي

للدوران في نفس الحلقة القديمة؟!!

يقطع أفكاره صوت توقف سيارة فيرفع عينيه ليجدها
هي..

هي من جديد!!!

_ اخترت الصواب هذه المرة.. ولن أغير قراري.

تقولها وهي تغادر سيارتها لتتوجه إليه..

(أخضرها) الخنوع المتردد يختفي خلف نبرة واثقة

جديدة وهي تقف أمامه مباشرة قائلة :

_ اركب معي ودعني أنا أوصلك حيث تريد.. أو

سأتبعك أينما كانت وجهتك.

يعقد حاجبيه بخوف حقيقي عليها لتردف :

_أيا كانت خطتك.. دعني أساعدك في العثور على

خديجة.

_لا.

يهتف بها بحدة وهو يبتعد عنها لكنها تحاصره لتقول

بنفس القوة :

_بل نعم..! أولاً.. أنت لن تثق بأحدهم كما يمكنك الثقة

بي.. ثانياً.. لا داعي للخوف عليّ لأني متورطة

بوجودي معك أو بدونه.. ثالثاً.. وأنا أعلم انه أكثر ما

يهمك الآن.. أنا لا أفعل هذا لأجل أن نستعيد علاقتنا..

على العكس.. أفعّلها لأقطعها تماماً دون بقايا تورق

ضميري.. لعلي يوم أذكر أنك ضحيت يوماً لأجلي أذكر

كذلك انني ضحيت لأجلك.. رابعاً.. وأرجو أن تصدق

هذا بالذات.. أنا حقاً أحببت أمك.. ربما لأنني رأيتها
بعدسة أخرى.. امرأة معذبة باختيارها مثلي.. تماماً..
لعلي يوم أساعدها أصدق أنني سأساعد نفسي.
لا يعرف كيف هزمه منطقتها في لحظات!!
قد يظن أحدهم أنها حاجته إليها..
لكن الغريب أن أكثر ما كان يمتلكه في هذه اللحظة هو
شعوره بحاجتها هي لما تفعله!
أجل..

فعلها لأجلها.. لا لأجله!!
_ لن تخبري أحداً بما سنفعله.
يقولها وقد عاود ركوب سيارتها جوارها محذراً
بصرامة لتتهتف باعتراض:
_ لكن جنة يجب أن..

_ شششش! لو كان للأمر ان يصل للشرطة لما قصر
إياد في فعلها.. خطأ واحد قد تكون عاقبته حياة أمي..

تفهمين!؟

تهز رأسها موافقة لتسأله باهتمام :

_ ما خطكما!؟

فيبسط كفيه في قلة حيلة ظاهرة تناسب قوله:

_ الذكاء لا يسعفنا هاهنا مع قلة المعطيات.. ليس

أمامنا سوى بتول.. فكرنا في مراقبتها.

تصمت مفكرة للحظات قبل ان تشغل سيارتها بقولها :

_ مراقبة مباشرة لن تجدي.. لدي فكرة أفضل.. نحتاج

لجلب شيء ما أولاً والباقي عليّ أنا.. أظنني سأحتاج

لزيارة الاستوديو الخاص بنا.

بعد ساعة كانت تنفذ خطتها البسيطة وهي تدخل
للاستوديو بحجة مقابلة المخرج للتفاوض..
تستغل انشغال الجميع بالتصوير لتتسلل نحو غرفة
بتول.. تستخرج من جيبها جهاز تتبع حديث خاص
صغير الحجم كان قد أهدها لها أحد معجبيها تحسباً
لسرقة سيارتها.. تخفيه بمهارة في بطانة حقيبتها
لتغادر الغرفة بعدها..

_ ماذا لو غيرت الحقيبة؟!

يسألها إيهاب لترد بنبرة واثقة :

_ لن تغيرها قبل شهر على الأقل.. الحقيبة من ماركة
عالمية شهيرة أهدها إياها ملياردير عربي قريباً
باسمها وحدها وصارت تتباهى بها في كل مكان.
يطلق زفرة ساخطة وهو يقول بضيق:

_ أعرّف أن كل هذا ليس كافياً.. مراقبتها لن توصلنا
إلا لمكان الكوبرا على احسن تقدير.. وليس هذا سرّاً
فإياد يعرفه.. نحتاج لمعجزة كي يمكننا التوصل من
خلال كل هذا لشيء.. أي شيء!!
لم يكن يعلم وهو يقولها أن المعجزة ستأتيه في نفس
الليلة..

ومن بتول نفسها!!

_ توقفي هنا.

قالها وهو يراقب عبر المنظار المقرب بتول تتسلل
في الظلّة للبيت الساحلي..

فتبتعد عزة بسيارتها مسافة مناسبة كي لا تكون

مكشوفة للحارسين هناك قائلة:

_ تظنهم يخفون خديجة هنا؟!

_احتمال ضعيف

_إذن ماذا نضع؟! نخبر جنة وفريقها ليهاجموا

المكان؟!!

_لا.. لا.. لن نخاطر الآن لمجرد احتمال ونضيع

فرصتنا بتعقب بتول.. لعل كل هذا مجرد فخ نصبوه

لنا.

تشعر بمنطقية حديثه فتسند ظهرها للخلف وهي تراه

يراقب عبر المنظار المقرب :

_سننتظر قليلاً.

لم يكذ يتم عبارته حتى رأى الحارسين يثبتان بتول

مكانها ليدوي صوت الرصاص في المكان وقد فجروا

إطارات سياراتها..

هنا لم يشعر بنفسه وهو يطوق جسد عزة بذراعيه
حامياً بينما يهبط بها في دواسة السيارة..
أنفاسهما اللاهثة تمتزج للحظات وعيونهما وحدها
تلمع وسط ظلمة الليل حولهما..
ورغماً عنها استعادت لحظة إنقاذه لها يوم فقد
ساقه!

الامتان.. الحيرة.. الاشتياق.. الغضب.. الكثير جداً
من الغضب.. من نفسها ومنه!!

نفس المشاعر الفوضوية نحوه تنتابها لكنها وسط كل
هذا الزخم يصدح داخلها نفس الصوت القوي أن
(كليهما ينتمي لصاحبه!)

تسمعه يتأوه بعدم ارتياح وساقه الصناعية لا تسعفه
مرونتها في وضع كهذا فتتحسسها أناملها بشرود

لكنه يستعيد نفسه من سكرة تقاربهما لينهض بحذر

مستكشفاً الوضع.. قبل أن يقول بترقب:

_ ابقِ مكانك.. آمن لك.. حتى يستقر الوضع وتخرج

هذه من..

_ لماذا يا إيهاب!؟

سؤالها يقطع عبارته فيخفض بصره إليها بنظرة

متسائلة عما تقصده وقد بدت له في وضعها كقطة

منكمشة في الزاوية..قطة أنشبت مخالبها في وجهه

وهي تسأله بجرأة غريبة على طبعها الخانع السلبي:

_ لماذا لم تمسني بعد أول ليلة في زواجنا!؟

تشحب ملامحه للحظات قبل ان يطلق صوتاً ساخراً

قصيراً يليق بهتافه المستنكر :

_ والله؟! حقاً؟! تسألين عن هذا حقاً الآن؟! كل هذه الأيام التي قضيناها معاً لم يتفتق ذهنك العبقري عن سؤال كهذا كان لينقذ زواجنا كله.. وتتذكرين الآن؟! لم أعهدك هكذا مبهرة في اختيار مواعيد أسئلتك!! في بالي لفظ قبيح جداً لا يكاد يصلح سواه كرد على موقفك هذا لكنني سأعفيك من بذاعته!!

لكنها تبدو شديدة الجدية وهي تعاود سؤالها بإصرار ولا يزال جسدها يرتجف بأثر نظرته الحامية عليها :
_ أخبرني.. أخبرني كي لا أمضي بقية عمري أسأل نفسي عن الدافع الذي يجعل رجلاً يزهد جسده امرأة أحبها! هل تراني عيناك غير ما يراني قلبك؟! هل كنت حقاً بتلك البشاعة؟! هل..

_ بماذا تهذين ؟! من ذا الذي..؟! تبا!! هل فهمتها

هكذا ؟!

_ وهل لها مجال فهم آخر؟!

_ نعم.. نعم أيتها الذكية!! أيتها المرأة التي تقيأت ليلة

زفافنا اشمئزاً مني.. تلك الصورة التي بقيت حائلاً

بيننا طوال تلك الأيام.. من بنا الذي كان زاهداً في

الآخر؟! يا لله!! لا أصدق أنك كنتِ تقلبين الأمور بهذا

الشكل!!

يغمغم بها بانفعال ساخط وهو يشيح بوجهه عنها لكن

بكاءها المفاجئ يدهشه فيعود ليخفض بصره إليها

وقد رقت نبرته قليلاً بقوله :

_ ما بالك اليوم؟! انفعالاتك كلها متطرفة!! كأنك امرأة

أخرى غير التي عرفتتها!!

_ وهل عرفتني حقاً؟!

تهتف بها بين دموعها ولا تزال منكشئة على نفسها
بدواسة السيارة فيطلق زفرة أخرى وهو يراقب
المكان بنظرة أخرى جاءت مطمئنة قبل أن يرفعها من
ذراعيها لتعود تجلس مكانها فتدرف بانفعال:

_ تذكر أحاديثنا القديمة؟! تذكر حديثك عن

(بروكرست).. ذاك الذي كان ينيم ضيوفه على مقاس
سرير واحد فيقص ساق الطويل ويدق جسد القصير
كي يناسب طول الفراش؟! كنت تنعتني انا بهذا
وتحذرنني من سوء فهم الناس ووضعهم داخل قوالب
مسبقة صاغتها قناعاتي الخاصة؟! كنت تتصحني
ونسيت نفسك؟! ها؟! نسيت نفسك?!
انفعالها الباكي يمنحها أقوى صورها في نظره..

بالكاد يمنع نفسه من أن يضمها لصدره مكتفياً

بتنهيدة حارقة :

_ نعم.. نسيت نفسي.

تمسح دموعها بأنامل مرتجفة وهي تشعر كم كانت

تحتاج هذه المواجهة التي تأخرت كثيراً.. كثيراً جداً

في الواقع..

لتقول بخفوت:

_ عندما أخبروني بما فعلته مع أخيك لم أتعجب.. قلت

لنفسي عاد (الفاجومي) الذي عرفته.. الذي يفعل ما

تمليه عليه مشاعره دون اعتبار لرأي الناس.

يرمقها بنظرة طويلة حارة وهو يشعر أنه لم يرها

هكذا منذ دهور..

وكذلك شعرت هي وكأنها تجلس جوار (صديقها

القديم)..

لا تقيدها أشرطة ذنب أو امتنان أو حيرة..

بل ينبض قلبها بهدوء..

هدوء سكونة وراحة.. لا رتابة وملل!

_ آخر سؤال.. واعدني فيه.. فلا أضمن أن يكتب لنا

القدر جلسة مصارحة كهذه!

يهز رأسه لتلتمع عيناها كأنما او قد فيهما الشرر

بسؤالها:

_ هل سعدت بخيانتتي؟! هل نلت ما يكفي من مقابل

لخسارة ما بيننا؟!!

يشيح بوجهه دون رد وهو يشعر أن أي إجابة هاهنا

لن تكون صحيحة.. أبداً!!

_ قل نعم.. قل نعم أرجوك ودع لكل ما فقدناه ثمناً

قبضه أحدنا.

تهتف بها بحرقة فيلتفت نحوها وهو يزم شفثيه،

ذكاؤه يمنعه أي رد قد يساء فهمه هنا..

لكنه يفاجأ ببتول تندفع نحو الطريق تعدو هاربة كمن

يطاردها شيطان..

فيهتف مشيراً نحوها :

_ يبدو أنها تهرب من أحدهم.

تلتفت حيث يشير لتقول بحيرة قلقة :

_ ماذا نفعل!؟!

يهز رأسه بحيرة مماثلة مغمماً :

_ لا يمكننا المخاطرة بالظهور الآن.. ماذا لو..!؟!

يقطع عبارته وهو يراها تشغل السيارة لتغادر

مكمنها مندفة نحوها فيهدف انفعال:

_ ماذا تفعلين؟!_

_ لا أعرف.. دعني أنا أتصرف ك(فاجومي) هذه

المررة! حدسي يخبرني أنها اللحظة المناسبة لنضمها

لمسكنا نحن.

_ انتظري..!_

يهتف بها بتردد لكنها كانت قد اتخذت طريقها بالفعل

فيبتلع بقية عبارته وهو يشعر أنه يشاركها حدساً

داخله..

كلاهما الآن.. (فاجومي)!

_ سألتكما كيف وصلتما إلى هنا؟! هل يحتاج الجواب

كل هذا الوقت؟!

تعاود بتول سؤاها بعصبية لتتزع كليهما من شروده

فيلتفت نحوها إيهاب ليقول بصرامة ساخرة:

_ دعينا نلقي أوراقنا كاملة.. نحن نعلم أنك تتبع

(الكوبرا) إلى هنا خلصة لكن الحرس كشفوك.. لا

أعرف ما حدث بالداخل لكنني أشاهد الكثير من أفلام

المغامرات هذه الأيام.. وأعرف النهاية المنطقية لمن

مثلك.

تشحب ملامح بتول وهي تفكر للحظات قبل أن

تسأله :

_ مادمننا نلقي الأوراق بصراحة.. هل لكما اتصال

بجهاز الشرطة؟!

يتبادل إيهاب وعزة نظرة قلقة وهما لا يعرفان
الجواب المناسب هاهنا.. لكن إيهاب يفكر للحظات قبل
ان يقول بحسم:

_ اعتبري الإجابة نعم.

تكاد عزة تصفق لجوابه الصحيح وهي تسمع بتول
تهتف بانتهيار :

_ سأخبركم بمكان خديجة.. حرروها بسرعة.. ساعتها
سيعترف إياد بكل ما لديه دون ابتزاز.. لكن شرطي
الوحيد أن تؤمنني السلطات.. وأن أبقى بعدها بعيدة
عن كل ما يخص هذا الأمر.



_ أنتما معا؟!!

تهمس بها دينا بوهن مستنكر وهي ترى حسام جوار
بشر أمامها لتردف بشبح ابتسامة :

_ هل فاتني الكثير؟!!

_ جداً.

يتمتم بها حسام بسخرية مريرة وهو يشيح بوجهه
للتأوه بخفوت وهي تلتفت نحو بشر بسؤالها الوجل :

_ هل فشلت مهمتي؟! هل سيظهر الملف إياه؟!!

يلتفت حسام نحو بشر بنظرة عاتبة جدت التاريخ

القديم ليطرق الأخير برأسه دون رد..

لماذا يشعر أنها الآن واحدة أخرى؟!
لم تعد "قلبية الثغر" التي كان يبوح لها بنزف
روحه..

تلاشت هالتها وعادت مجرد "عمل" أداه يوماً كما
يجب.. و"ذنباً" ندم على ما آل إليه..
لكن هل تلاشت هالتها حقاً؟!

لماذا لا ترد؟! هل سأغادر المشفى إلى النيابة؟!
اتركني معها قليلاً.. ولا تغادر المشفى لأي سبب
لأغراض أمنية.

يقولها بشر بحزم رفيق مخاطباً حسام الذي يرمق دينا
بنظرة داعمة ذكرتها بعهدهما القديم قبل أن يخرج
ليغلق الباب خلفه..

تنكمش دينا على نفسها بخوف وهي تسأله :

_ ماذا حدث؟! هل تأكدت من براءته من ظنونك؟! أم هي مجرد خدعة ولا تزال تظنه متورطاً؟!
تقولها وهي تتذكر مهمتها التي أوكّلها إليها يوماً
بزرع جهاز تصنت في بيت حسام عندما كان يشك في
انتمائه..

لكن ملامحه المظلمة لا تمنحها جواباً للحظات قبل أن
يرد ببرود عملي وهو يرد نفسه لطبيعة علاقته -
المفترضة- معها:

_ لم يعد لك شأن بهذا كله.. قريباً تستعيدين كامل
عافيتك.. عودي لحياتك بطريقة طبيعية.

_ والملف؟!!

تهمس بها بين خوف وخزي ليرد بنفس النبرة
المهيبية:

_أظن كلامي كان واضحاً.. (عودي لحياتك بصورة طبيعية).

يضغط حروف كلماته ليمنحها الطمأنينة المطلوبة
فتسبل جفنيها ببعض الارتياح..

يرفع نظراته إليها وقد أغمضت عينيها لتعود له
صورة (قلبية الثغر) التي عرفها!

هل من الأنانية أن يشعر أنه يضيق بها مفتوحة
العينين بقدر ما تمنحه إغماضتها كل هذا الارتياح؟!
عودتها أزاحت عن كاهله (ذنباً).. لكنها منعت قلبه
(مخيم راحة) كان يحتاجه وسط صحاري كتمانته!

_ (سيلويت)!

يغمغم بها بنبرة غريبة فترفع عينيها إليه بسؤالها

ليردف بشرود:

_ أليس هذا اسم الفن الذي تجيدين تصويره؟! الظل
الأسود على خلفية ملونة أو بيضاء بتضادّ يظهر فقط
هيكله الخارجي دون الاهتمام بتفاصيل.. تعلمين؟!
التفاصيل ليست دوماً مريحة.. كثيراً نود لو نبقى
مجرد ظل أسود بهيكل خارجي أنيق أمام خلفية
مزرکشة أو بيضاء دون أن تؤذينا تفاصيل الاقتراب.

هل يتحدث عنها هي؟!!

أم عنه هو؟!!

لم تستطع التمييز وهي لا تزال تشعر بالتشوش..

تماماً كما لم تفهم مغزى عبارته..

لكنه ينتبه من شروده لتعود لصوته نبرته العملية:

_ حمداً لله على سلامتك.. لا أظننا سنلتقي من

جديد.. وداعاً.

ترمقه بنظرة غريبة وهي تشعر أنها تعرفه..
لا.. لا.. ليس مجرد معرفتها السابقة به كضابط..
لكن..

ألفة غريبة يفرضها صوته..

صوته بنبرة أخرى غير هذه الباردة الصارمة!!
كيف؟! ولماذا؟!

تجهض أسئلتها قسراً داخلها وكل ذرة في عقلها
تناشدها الآن الارتياح..

لكن كيف وهي تراه يرمق شفيتها بنظرة طويلة فتكاد
تتحسسهما بفضول لكنها تتجمد مكانها رهبة من
حضوره الطاغي..

ولو قرأت حديث روحه لسمعت وداعه ل(قلبية الثغر)
التي أن الأوان أن يغادر قطاره محطتها للأبد.

_أمر مهم.. يجب أن نغادر الآن!
يقتحم بها حسام الغرفة فجأة ممسكاً بهاتفه ليلحق به
بشر.. لكن الأول يلتفت نحو دينا ليقول بنبرة داعمة :
_سأعود قريباً.. لا تقلقي.

يغلق الباب خلفه و عبارته تفتح باباً آخر لابتسامه
على شفيتها..

إذن فقد سامحها..

وهاهي ذي فرصتها عادت بعد تمام تعافيتها لتستأنف
عملها في الاستوديو دون تهديد..

تنظر جوارها عبر النافذة لترى الفجر يستأذن الليل
في استعارة مكانه فيسمح له على مضض..

تحب السماء عندما تتلون بهذا اللون.. كأنها تعلن
للدنيا أنه دوماً سيكون بعد ظلمة الليل فجر!



_ هذه عاقبة من يثق في النساء! أ
يهتف بها حسام بثورة عارمة وهو يلقي أقرب كرسي
نالتة أصابعه ليحطمه وهو يلتفت نحو إيهاب الواقف
أمامه في قبو مبنى أمني خاص قادهم إليه بشر..
ليردف ملوحاً بكفيه:

_ أنا وثقت في عزة تلك بشرط ألا تفعل شيئاً دون
علمنا.. وهاهي ذي النتيجة!! لا أصدق أنكما كنتما



على بعد امتار من فجر!! لو كنتما أتعبتما نفسيكما

قليلاً وأخبرتمانا لكانت فجر الآن معنا!

_ولكانت أُمي في عداد الأموات!!

يهتف بها إيهاب بحدة مشابهة فيزفر حسام دون رد

بينما الأول يردف بحمية :

_ولا تتحدث عن عزة بتلك الطريقة.. انا الذي..

_كفى!

يهتف بها فهد بتوتر وهو يحاول تهدئة الأمور،

يخاطب إيهاب بقوله:

_قوات الشرطة تصرفت بسرعة قياسية وأنقذت

السيدة خديجة في الوقت المناسب وهي الآن تخضع

لفحص طبي شامل وبصحة جيدة تماماً وقد رأيتها

بنفسك.. هلا هدأت إذن؟!

ثم يلتفت نحو حسام بقوله:

وَأنت أيضاً.. انظر للجانب المشرق.. معنا الآن إِياد
وبتول.. سنجد خيطاً آخر قريباً يوصلنا لفجر.. الحلقة
صارت تضيق حول عنقه أكثر وأكثر.. جنة ستحاول
الاتصال بيسرا لعلها تصل لخبايا أخرى كان يخفيها
رفعت الصباحي عن الكوبرا بالذات.. ونحن علي
تواصل مع طيف ويحيي بالعراق.. لو سقط أحد أذرع
التنظيم هناك قد يمنحنا هذا معلومات تفيدنا هنا.. كما
أن ذاك المشفي الذي يشكون في أحد أفرادهِ ب(أبو
ظبي) ليس عنا ببعيد.. أحد أصدقائنا يدعى دكتور
جهاد هناك الآن.. لا أعرف إن كان بوسعه أن يفعل
شيئاً لكن..
_ عظيم.. عظيم.. عظيم..

يقاطعه بها بشر وهو يصفق بكفيه فيلتفتون إليه

جميعاً ليعد على أصابعه قائلاً ببرود :

_إيهاب وإياد وعزة وبتول ويسرا الصباحي ويحيي

وطيف ودكتور.. ماذا قلت اسمه؟! آه جهاد! والسيد

فهد وجنة بالطبع..

_أضف عاصي الرفاعي هو أيضاً معنا.

يقولها فهد باستدراك ليهتف بشر فجأة بسخرية

قاسية:

_أتمرح؟! هذه لم تعد قضية أمن وطني سرية.. لقد

صارت حلقة (سيرك) يشاهدها الجميع!

ينفجرون فجأة في الضحك كأنما يفرغون توتر

الساعات السابقة في رد فعل كهذا..

لكن بشر يعاود هتافه بجدية صارمة هذه المرة :

_ لو علم رؤسائي بما يحدث فسيخربون بيتي! لم يعد

هناك مجال للعبث..

يقولها ليضع كفه على كتف حسام مردفاً :

_ هو فقط معي.. ومن الآن لا علاقة لأحدكم بالأمر

ليس فقط حفاظاً على السرية بل وعلى حياتكم أيضاً.

يبدو فهد اكثرهم عناداً بطبيعة الحال وهو يرمق

حسام بنظرة خاصة لكن الأخير يهز رأسه له بإشارة

ذات مغزى..

فيعطي الجو العام مذاق الامتثال لأوامر بشر الذي رن

هاتفه لتتسع عيناه بصدمة وهو يستمع قليلاً قبل ان

يغلق الاتصال ليقول لحسام بسرعة:

_ تعال معي.

_ ماذا حدث!؟!

يهتف بها فهد وإيهاب في نفس اللحظة فيلتفت إليهما

بشر بنظرة زاجرة كأنه يذكرهما بما قاله منذ قليل..

يغادر بشر مع حسام ليستقلا سيارة الأول فيبادره

حسام بسؤاله :

_ سنتحرك معاً هكذا؟! أليس هذا خطراً؟!

_ يبدو أننا لن نعود بحاجة لهذا!

يقولها بشر بغضب غامض وهو يقود سيارته بسرعة

فيساله حسام بقلب منقبض:

_ ماذا تعني؟! ماذا حدث؟!

_ ستعرف عندما نصل.

يكتف حسام خوفاً وهو يهم بسؤاله من جديد لكن

التعبير الذي ارتسم على وجه بشر كان ينذره

بالصمت!!

يصلان أخيراً للبيت المقصود فتتسع عينا حسام
بإدراك وهو يميز ما حدث حتى قبل ان يدلفا إلى
الداخل ليبصرا جثة بتول على الأرض وقد نحر
عنقها!

كيف حدث هذا؟! من المفترض أن هذا بيت آمن! لقد
وعدناها بالحماية!!

يهتف بها حسام بثورة وهو يميز جثث الحراس التي
تتأثرت على الأرض كذلك.. ليصله صوت بشر من
بين أسنانه:

ذاك الوغد صعد المعركة للمستوى الأعلى.. غروره
صار يتحدى الجميع.

يكاد حسام يلکم الجدار بقبضته في ثورة لكنه يتراجع

للخلف وهو يحاول قراءة ما كتب على الحائط

ب(الدم) :

_ أنتما معاً! إذن صار اللعب مكشوفاً.. يروقتني هذا

أكثر.

يطلق حسام عدة صرخات غاضبة وهو يدور حول

نفسه بعجز ليهتف ببشر :

_ هذا ما كنت تعنيه بقولك أننا لن نعود بحاجة

للمداراة؟! ذاك الوغد يتحدانا.

يطلق بشر زفرة ساخطة وهو يشيح بوجهه لكن

عيني حسام تتسعان بذعر وهو يتقدم نحوه هاتفاً :

_ إياد!! هو الخيط الأخير لدينا.. هل وفرت له حماية

مناسبة في السجن؟!!

يرمقه بشر بنظرة معتمة وهو يتناول هاتفه ليجري

اتصالاً ما..

يستمتع قليلاً ليتهدل كتفاه ويرتخي ذراعاها جوارها وهو

يغلق عينيه بقوله :

_تحرك بأسرع مما توقعنا.. قتل إباد هو الآخر.

=====

=====

نيلي

=====

ألمانيا..برلين

=====

كيف حالك يا (عناء)!!

يهتف بها معاذ بن صهيب بالألمانية بمرح وهو يندفع
إلى زهرة التي جلست وسط رفقتها في حديقة المشفى
فتعانقه زهرة بلهفة حقيقية زادتها معرفتها لحقيقة
موت أمه..

لم تفهم ما يعنيه لكن صهيب يتقدم بدوره منها ليتولى
شأن الترجمة :

_العنقاء هي التي تنهض من الرماد.. بعض القنوتات
وصفتك بهذا بعدما حدث.. لقد صرت رمزاً! الكثيرون
صاروا يعتبرونك ملهمة.. ألف خطبة عن فلسطين لن
تساوي الأثر الذي أحدثه موقفك هنا ولهذا تعاطف
معه الكثيرون و صاروا يتابعون أخبارك بشغف..
يقطع عبارته ليضحك بعدوبة مردفاً :

_لابد أن تتفقي مع "بروفيسور روبرت" على نسبة
من الأرباح.. لقد ازدادت شهرة المشفى هنا بسببك.
فتبتسم وهي تغمغم بطيبة :

_هو مشكوراً أخبر جهاد أنه أعفانا من بقية تكاليف
العلاج بالفعل.

_صرت أفضل حالاً.. سواري جلب لك الحظ.

يقولها معاذ بفخر طفولي وهو يقلب معصمها برقة
بين راحتيه الصغيرتين حيث استقرت هديته التي
تضافر فيها اللؤلؤ مع علم فلسطين لتضحك له زهرة
وهي تضمه لصدرها بحنان قائلة :

_ فعلاً.. صحيح.

_ أحضرت لكنّ المزيد من الهدايا.

يهتف بها معاذ وهو يبتعد ليحضر صندوقه فتلحق به
رفيقاتها ليتبعن الصغير بمرح، فتبقى وحدها مع
صهيب الذي يبارها بسؤاله الودود :

_ حضور جهاد كان في توقيته المناسب تماماً.. سعيد
لأجلكما.

_ أما أنا.. فعاتبة عليك!

تقولها برقتها الواهنة ليرمقها بنظرة متسائلة فتجيبه

بمزيج من إشفاق وعتب:

_ لماذا أخفيت عني أمر أم معاذ؟!_

يغمض جفنيه على ألم حقيقي جعلها تندم على إلقاء

السؤال لكنه يتمالك نفسه بسرعة ليرد بابتسامة

رقيقة سبقت تهيدة وجع:

_ أخبرتك جزءاً من الحقيقة.. أخبرتك أنني كنت يوماً

ما مريضاً مثلك بنفس المرض وشفيت منه.. لكن ما

لم أشأ ان أخبرك به أنها هي الأخرى كانت تعاني

نفس المرض..

تعض زهرة شفتها السفلى بقوة تغالب بكاءها وهي

تلمح الدموع المتجمدة في عينيه باستطراذه بابتسامة

باكية وهو يومئ برأسه:



_أجل.. كما تشاركنا الحياة.. الدين.. الحب.. الابن..
تشاركنا المرض كذلك في مصادفة عجيبة.. وليتها
شاركنتي الشفاء لكنها رحلت تاركة لي كل شيء منها
عدا جسدها.

تسيل دموع زهرة على خديها رغماً عنها وهي تغمغم
بتفهم:

_لهذا لم تشأ أن تخبرني عنها.. رويت لي عن النصف
المشرق للحكاية كي تمنحني الأمل.
_وأظنني نجحت.

يقولها باعتزاز من أدى مهمته على خير حال فتهز
رأسها بامتنان قائلة:

_لن أنسى صنيعك ما حييت.

دَعِكِ من هذا.. أظنك الآن تفهمين لماذا فعلتها
وسأبقى أفعالها ما حييت.. ليس معكِ فقط بل مع كل
من يمر بظروف تشبه ظروفها هي.. هي منحتني
(يداً).. يداً انتشلتنى من ضلالي ودلتنى لسبيل
الرشاد.. يداً رسمت ابتسامتي وأعدت تشكيل
كياني.. نفس (اليد) التي أمدّها الآن لكل من يحتاجها
ليقتبس من نورها لعلها تكون لها صدقة جارية..
ونفس اليد التي أورها لابننا.. كي يحيا على ما كانت
هي عليه.

يتهدج صوته في كلماته الأخيرة رغباً عنه وأشياء
بتأثره ليدحض كل معتقداتها عن برود الرجل
الغربي..

لكنه يتحنح ليتمالك نفسه وهو يراقب من بعيد مزاح

ابنه مع النزلاء ليغير الموضوع بسؤاله:

_ أين دكتور جهاد؟! كنت أريده في شأن مهم.

ترمقه بنظرة متسائلة ليردف :

_ أظنني وجدت له عملاً مناسباً هنا في برلين.. أعرف

عما تعرض له في عمله السابق وملابساته الصعبة..

لكنني عرضت الأمر على صديق لي هنا يمتلك مركزاً

طبيعياً.. أبدى موافقة مبدئية لكنه طلب مقابلته ليتعرف

عليه.

يتهلل وجه زهرة بأمل صار حليف روحها وهي ترفع

رأسها للسماء بالحمد قبل أن تلتفت إليه لتتهف

بالمزيد من الامتنان :

_ كيف أشكرك؟!!

_ فقط كوني بخير.. ودعي معاذ يكتب لأمه قصة
جديدة عن بطلة كافحت حتى عبرت الحاجز بين
الموت والحياة.. أنا عودته أن يكتب لأمه قصص
الأبطال الذين يقاومون أنياب هذا المرض.. هو سعيد
بلقب (العنقاء) الذي أطلقوه عليك أنت بالذات.. فكوني
عنقاءه التي تكون لها بعد الرماد حياة.
يقولها بود ظاهر فتمسح دموعها وهي تهز رأسها
بما يشبه الوعد ليعاود سؤالها بحذر :
_ لم تخبريني بعد أين دكتور جهاد؟!
_ سافر.

تقولها باقتضاب ليردف ببعض القلق:
_ غريب! من لهفته عليك والتي يتندر بها الجميع هنا
ظننته لن يتركك أبداً.

_ أنا من طلبت منه.. ذهب لنجدة صديقين لنا.
تقولها بشرود لتجتاح ذهنها فكرة مفاجئة تجعلها
تبتسم وهي تهز رأسها لتقول بتعجب:
_ صديق له وزوجته.. أقصد من كانت زوجته.. تعرف
أنها تشبهك كثيراً.
_ تشبهني أنا!؟

يقولها باستنكار لتتسع ابتسامتها التي يكسوها الأسى
وهي ترد :

_ يهودية فرنسية ممن يقاوم الصهيونية.. تركت
دينها لأجل أن تتزوج صديقه المسلم.. تركت بلدها
وأهلها وسافرت معه.. تخلت عن كل شيء لأجله حتى
عملها.. سنوات وسنوات عاشتها له ولأولادهما..



تقطع عبارتها فجأة والدموع تتكدس في عينيها بينما

تتذكر مأساة يولاند فيهتف بفضول :

وبعد؟! ماذا حدث؟!

تتنهد أخيراً بحرارة وهي تشعر بحاجتها لمن يتحمل

معها ثقل قلقها على الجميع هناك لتغمغم :

سأحكي لك.

=====

برتقالي

يبدو أن كذبتك بشأن الطفل ستكون مزدوجة الأثر.
تذكرها طيف بصوت يحيى فتتهد بحرارة وهي تقف
أمام النافورة بشكل الماسة التي صنعها عاصي في
حديقة قصر الرفاعي.

حسناً فعل بقراره أن يعيدها إلى العراق فلا يمكنها أبداً
أن تتصور أن تبقى هنا وتتركه هناك وحده..!
تشعر بكف عاصي على كتفها فتلتفت إليه لتقول
بفضافة لم تتعمدها :

سأسافر ليحيى.

ينعقد حاجبا عاصي برفض قائلاً :

_ لا.. لن أكون مطمئناً عليكِ هناك بظروفه الراهنة
ومع وجود أمه بتطرف إجرامها الذي عرفناه.. أتفهم
شعورك بالقلق عليه لكنه ليس وحده.. معه عمه
وأقاربه وصديقه.

فتحتد نبرتها وهي تهتف بانفعال:

_ لكنني أنا لست معه.. أنا التي أحتاج وجودي جواره
الآن.

يطلق زفرة ساخطة وهو يهتف بانفعال مشابه:

_ تبا! ألن تغيري طبيعتك المجادلة هذه أبداً؟! تعرفين
أنني لا أسعى إلا لمصلحتك.

_ مصلحتي ومصلحته في بقائنا معاً.. قد نصنع

ذكريات سعيدة مع أناس كثيرين يتقبلوننا في ساعات
فرحنا واستقرارنا.. لكننا لا ننسى أبداً هؤلاء الذين

شاركونا أسوأ لحظاتها وشهدوا انطفاءة سراجنا فلم
يروعهم الظلام.. بل بقوا جوارنا يشدون بأكفهم على
أكفنا.. هؤلاء من يستحقون أن نمنحهم العمر كله..
يزداد انعقاد حاجبيه بتردد لتدمع عيناها وهي تشد
على كفه بقبضتيها مردفة:

_ لا أريد المجادلة.. ولا أريد عصيانك.. لكنني فقط
أريدك أن تفهم.. أنا أريد مشاركة رجلي في حزنه قبل
فرحه.. أي أمانٍ تظنني أعيشه هاهنا وأنا أموت كل
لحظة خوفاً عليه هو!؟

يشيح بوجهه دون رد للحظات ليعاود سؤالها بحذر :
_ لا أظنك تتحدثين هكذا من رأسك!؟ هل خطتما

لشيء!؟!

تزدرد ريقها بارتباك تكرهه وهي تدرك أنها لحظة

الحقيقة..

لتغمغم وهي تبتعد عنه بضع خطوات :

_ أنا كذبت.. بشأن يحيى.. عندما أخبرتك قبل زواجنا

أنه..

_ أعرف.. أعرف كل شيء..

يقطع بها حديثها لتلتفت إليه بحدة متسائلة فيردف :

_ عندما قابلته لأول مرة بعدما أحضره رجالي من

العراق لم تكونا وحدكما.. كنت في سيارتي أسمع

وأرى كل حديثكما.. لا داعي للخوض في هذا الأمر..

فأنا أعرف أي رجل وضعت يدي في يده لأتضمنه على

أختي.. لكن.. ما الذي ذكرك بهذه الكذبة الآن؟!!

تحاول ابتلاع حرجها وهي تطرق بوجهها للحظات

تستوعب الأمر لتزفر أخيراً قائلة :

_ سيستعير كذبتى.. سيوحى لأمه أنه مضطر ليردني

لعصمته لأجل الطفل.

يهز رأسه بعدم رضا لكنها تقترب منه لتتظر في عمق

عينيه قائلة :

_ لم أضطر يوماً لتبرير أفعالي.. ويمكنني بمنتهى

اليسر أن أفلها دون موافقتك لكن..

تقطع عبارتها وهي تضع كفها على كتفه مردفة

بانفعال :

_ لا أريد أن أفقد جذوري من جديد.. لا أريد أن أخالف

مشورتك.. لا أريد أن يعود ظهري عارياً للرياح..

وافق.. وافق وثق بي.

تشتعل غابات الزيتون في عينيه للحظات وهو يشعر
أنها تلقيه بين نار خوفه عليها ونار خسارتها..
لكنه يختار ترويض جياذ تمردها الفطرية فتتعلق
عيناه بماسة النافورة للحظات أخرى حسم فيها قراره
ليمنحها إيماءة موافقة فلا تملك نفسها وهي تسند
جبينها على كتفه بما يشبه الشكر..
قبل أن ترفع إليه عينيه الممتنتين بقولها :
_ سأترك مجد هنا.. هو آمن لها.. بعد كل ما عرفناه لا
أعرف ما الذي سيواجهنا هناك.
_ لا تخافي.. قد لا يمكنني - بطبيعة الحال- فعل شيء
بخصوص تلك المرأة وذاك التنظيم هناك.. لكن ما
أوقن به أنني لن أسمح لأحدهم أن يمسك أنت وزوجك
بسوء.

يقولها داعماً وهو يربت على ظهرها فتبتسم له

قائلة :

_ أنت أعظم ما نلته من إرث الرفاعي.

يبتسم بدوره وهو يرى مجد تقترب منهما على

كرسيها المتحرك فيقول مخاطباً طيف :

_ مهدي لها أنت الأمر.. وأنا سأذهب كي أعد العدة

لنسافر للعاصمة.

_ أنت بخير؟! عيناك منزعجتان!

تسألها مجد بقلق حنون فتبتسم وهي تتحني على

ركبتها أمامها قائلة :

_ يبدو أنني أحسنت التربية.. صرت ابنتي وأمي.

تبتسم مجد باعتزاز وكلمات طيف تؤتي ثمارها

بروحها..

بينما تأخذ الأخيرة نفساً عميقاً لتقول بحسم:

_ سأسافر ليحيى وحدي.. وستبقين هنا.

تتسع عينا مجد بارتياح لأول وهلة لكن طيف تعانق

وجها لتتظر في عمق عينيها هامسة بيقين :

_ لو كان هذا الموقف منذ شهور فقط لما أخذت

قراري بالابتعاد عنك أبدأ.. كنت سأخاف على الطفلة

القعيدة مرهفة الحس التي ترهب الغرباء وتخاف أن

تفقد من تحبهم.. لكنني الآن أثق في ابنتي.. ابنتي التي

تتبع قوتها من داخلها والقادرة على رسم السماء

ومجاورة القمر.. ابنتي التي لا تحتاج سماع "قيمر"

كي يطمئن قلبها.. لن تخاف الجار المزعج ولن ترى

كلبه السخيف في حلمها.. لن يرهبها الاشتياق لأنها

تفهم أنه بوابة للفرحة بلقاء قريب.

فتدمع عينا مجد بعمق عاطفتها لتهمس :

_ نسيت شيئاً!

ترمقها طيف بنظرة متسائلة لتردف وهي تعانقها

بحرارة :

_ ولن تبكي أما حقيقية تخلت عنها لأنها صارت تملك

أعظم أم في هذه الدنيا.

تمسح طيف دمعة فرت من عيناها وهي تسمع

الصغيرة تهتف بقوة :

_ لن أزيد حملك.. أعرف انك لن تتركيني إلا مضطرة..

لن أخاف.

_ وما الداعي للخوف؟! أنا سأحميها! سافري ولا

تخافي.

يهتف بها ضياء - الذي ظهر فجأة - بحمية تسبق

سنه فتنهض طيف لتشده من أذنه هاتفة :

_ كالعادة تتصنت على الكبار يا عقلة الإصبع.

لكنه يتقلت منها.. يفرد جسده في وقفة مسيطرة

ليهتف بما يشبه أسلوب أبيه :

_ ليس تصنتاً.. ضياء الرفاعي لا يخفى عليه شيء

يدور في بيته.

تتبادل طيف ومجد ضحكات صافية قبل أن تتحني

الأولى لتضمهما معاً وحدث غريب يخبرها - رغم أن

ضياء يصغر مجد عمراً- أن قد تكون لهما في الغد

عندما يكبران.. حكاية!

=====

_لولاك ما وصلت إلى هنا.

يقولها يحيى بامتان مصطنع وهو يقف أمام كرسي
رئيس مجلس الإدارة في مؤسسة الأمين فتبتسم له
استبرق بفخر وهي تجلسه مكانه لتستقيم واقفة
تأمله ..

تحلق سبابتها وإبهامها في اعتزاز قائلة:

_ هذا هو مكانك بالضبط..

ثم تشرذ ببصرها مردفة :

_حقنا.. حقك وحقى وحق جدك.. أن تصير مؤسسة

الأمين كلها لنا.. لنا وحدنا.

يرن هاتفه برقم طيف فيتجاهله متعمداً ليغلق الاتصال

دون رد فتسأله استبرق بتوجس وقد لمحت الاسم :

_ ما الذي تريده منك؟!!

_ لا أعرف.. ولا أريد أن أعرف..

يقولها بسخط مصطنع لترمقه بنظرة راضية لكنها

تتجمد مكانها وهي تسمعه يردف باستهانة ظاهرة :

_ الحمقاء! تظني سأنسى تخليها عني في محنتي

لمجرد أنها تحمل طفلي.

_ طفل؟! هل قلت : (طفل؟!!!)

تهتف بها استبرق بمزيج متوازن من لهفة واستنكار

ليلوح يحيى بكفه في لا مبالاة مصطنعة وهو يوقن

أنه قد ألقى (ورقته الراحبة)!

يهتف برجاء وهو يتشبث بقبضتي كرسية مغمضاً

عينيه :

_ماما! لا تفسدي فرحة اليوم بحديث عن تلك المرأة..

حتى ولو كانت تحمل طفلي لن أعود لها.

_هل تأكدت أنت من الأمر!؟!

تسأله بنفس اللفظة ليرد بزفرة قصيرة :

_نعم.. ولا أهتم.

_أنا أهتم.

هتافها يكاد يبلغ حد الصراخ فيكتم ابتسامته وهو

يشيح بوجهه معتداً بذكائه..

كان يعلم أنها نقطة ضعف "أمه"!

منذ صغره وهي كانت تكرر لها بلهفة مبالغ فيها حتى

أنها كانت مثار تندر العائلة كلها..

(أجمل يوم في عمري يوم أحمل ولداً ليحيى)

نفس العبارة التي كررتها الآن وعيناها تدمعان

بعاطفة حقيقية وسط زيف المشهد كله..

لتردف بنبرة أمرة :

_ردها يا يحيى.. ردها وأعدّها إلى هنا.

_ماذا تقولين؟! هذه المرأة باعنتي وقت شدتي والآن

عادت عندما علمت باستعادتي لمنصبي وحياتي!!

يهتف بها باستنكار مصطنع وهو يشعر من فرط

توقعه لردود أفعال أمه أنه يرى فيلماً قديماً شاهده من

قبل!!

خاصة وهي تنحني لتثبت كفيها على كفيه فوق

(الكرسي) قائلة :

_لن أترك لها ابنك.

_ لا حاجة لي في طفل هي أمه.. أتزوج من هي أفضل
منها وأنجب غيره.

يقولها بعناد متعمد وهو يعلم أنه يزكي بذلك نيرانها
أكثر فتتهف بإصرار :

_ أنا لا اترك حقي لغيري.. ابدا.. وابنك هذا حقي..
حقنا انا وانت.. ياالله! أخيراً سأحمل طفلك يا يحيى!
يشعر ببعض الذنب وهو يستغل ثغرات أمومتها
خاصة مع الفرحة الطاغية التي كست عبارتها
الأخيرة لكنه يخنق هذا الصوت داخله كما خنقت هي
صوت أمومتها معه..

فيغمغم بضيق مصطنع:

_ ماما.. لا تضغطي عليّ.. لن أطيق عشرتها بعد
الآن.

_ولا أنا أطيقها.. اسمع خطتنا.. ستردها لعصمتك
حتى تضع الطفل وبعدها سأجعلك ترى كيف ستنتقم
لك أمك منها.. سننتزع منها الطفل وندير لها فضيحة
تجعلها تعود لبلدها كخرقة بالية لا تجرؤ أن تفكر في
العودة لها مرة أخرى.

يظهر امتعاضاً حقيقياً وهو يشيح بوجهه لكنها تسيئ
تأويل حركته فتتهف بحرارة :

_صدقني.. أنا قادرة على فعلها.. أنت لا تعرف ما
الذي يمكن لنفوذ السيد (...) فعله!

_بمناسبة ذكر السيد (...).. أراكِ تولينه اهتماماً
خاصاً هل هو مشروع زواج؟!!

تطلق ضحكة عالية وهي تتحرك لتجلس قبالة على
المكتب، تضع ساقاً فوق أخرى لتقول بدلال واثق:

_لا.. لا تقلق.. ليس الأمر بهذا الصدد إطلاقاً.. قريباً
أخبرك بخبايا علاقتي معه.. إن أئتمن سواك عليها وقد
صرت رئيس الشركة.

_قريباً جداً!

يقولها ملوحاً بسبابته فتبتسم بما يشبه الوعد لتناوله
هاتفه بنفسها هاتفه بلهفة :

_والآن كلمها.. دعها تصدق أنها سامحتها وتفاوض
معها على ردها لعصمتك وعودتها هنا ودع الباقي
لي.

يمط شفثيه بعدم رضا فتهتف امرأة :

_أطع أمك وستربح كل شيء.

يتنهد باستسلام مصطنع وهو يسألها عما سيقوله
ل(طيف) فتخبره ليظهر طاعتها وهو يتناول هاتفه
مدركاً أنه ألقى الطعم المناسب هذه المرة أيضاً!



_ها هي ذي.. اضغط على نفسك وتظاهر بالاشتياق
لها كأي زوج عادت إليه زوجته.
تقولها استبرق مشيرةً ل(طيف) وهي تقف معه حيث
يخرج المسافرون من المطار لتكمل له - ما تظنه-
خطتها..

لكنه في هذه اللحظة لم يكن يشعر بشيء سوى

طوفان اشتياقه ل(صاحبة السديم)..

هذا الهدير العاصف بقلبه يورثه طيناً خافتاً في أذنيه

فلا يبالي بركض خطواته المندفعة نحوها والتي

تناقض رسائله المعهودة حتى يصل إليها أخيراً

ف"يغتتمها" بين ذراعيه..

يخفيها بين ضلوعه..

أصابعه حائرة بين مس شعرها "حبيبه" الذي طالت

خصلاته بما يوازي قطع طريق عشق بألف خطوة..

وبين ضغط جسدها إليه بهيمنة تشبه الاحتياج..

كيف تشبه الهيمنة الاحتياج!!؟

يعانقها كأنها كل من وما بقي له!

كأنه يحتمي بها ويحميها!

كأنه يودع بها عمراً.. ويستقبل آخر!
وبكل الحنين الفائض بين جنباته تحط قبلاته على
وجهها بجنون.. بحرارة تذيبهما معاً..
وهمسه المرتجف رغم قوته يصب الحميم في
عروقتها :

_ غريبٌ في وطني.. حتى أتيت!
السديم في عينيها ينبت ألف نجمة بضِيّ يشبه ضي
قلبها في هذه اللحظة..
الخصلة الحبيبة في مقدمة شعره عادت لبياضها
تتحسسها اناملها رغماً عنها بارتعاش وهي تشعر
أنها تعيش معه كل عصورها المفقودة..

طفلة تحتمي بشيبة شعره.. وامرأة تعشق كتفيه
بعرض كل أحلام الهوى .. وعجوزا تستند على كفيه
موقنة أنه لن يخذلها.

وكعادتها كلما عجزت عن استيعاب عاطفتها تتجمع
الدموع في عينيها.. فيقبلهما بنفس الحرارة هامساً
بجملته المعهودة:

_إلا دموعك.. إلا دموعك حبيبتني.

_رفقاً بها يا يحيى.. لا ريب أنها متعبة من السفر.
صوت استبرق الودود - ظاهراً - يتشح بغيرة واضحة
ورغم يقينها أنه يتظاهر بكل هذا وفقاً لخطتهما لكنها
لم تستطع منع نفسها من قطع هذه اللحظة..

هل تخاف طيف هذه!!؟

نعم.. لا تزال تشعر بخطورة امرأة مثلها عليها!

لهذا لن تهذا حتى تسحقها تماماً ثم تزيحها من
طريقها للأبد.

صوتها الذي ينتزع العاشقين قسراً من جنتهما ليعود
كل منهما لدوره المرسوم..

لكن طيف لم تتكلف وداً وهي ترمق استبرق بنظرة
متحدية بادلتها الأخيرة إياها رغم مصافحتها لها
بعبارات ترحيب باردة..

_ طيبٌ يحيى! رغم تخليك عنه في محنته لكنه تجاوز
عن الأمر.. واحدٌ غيره لم يكن ليقبلك في بيته أبداً..
تقولها استبرق في سيارة يحيى التي قادها الأخير
نحو بيت الأمين وقد تعمدت الجلوس جوار يحيى فيما
تركت طيف بالخلف كأنما تعطيها إشارة عن مكانها في
الأيام المقبلة..

لتردف بتهيدة قصيرة وهي تريح رأسها للوراء
بطيبة مصطنعة :

_ آه.. لا داعي للخوض في الماضي.

فتطلق طيف ضحكتها الساخرة المكتومة وهي تربت
على كتفها من الخلف هاتفة :

_ فعلاً! طيبٌ يحيى! واحد غيره لم يكن ليقبلك أنت في
حياته أبدأً بعد ما فعلته!

ثم ترد لها بضاعتها بتهيدة كتتهيدتها وهي تعود
برأسها للوراء مردفة :

_ آه.. لا داعي للخوض في الماضي.

يكتم يحيى ابتسامته لكنها تتراقص في عينيه رغم
صرامة قوله المصطنعة وهو يوقف السيارة فجأة :

_ لن نبدأها هكذا.. لو كانت كل منكما لا تطيق الأخرى
فليس طريق المطار ببعيد.. تعود طيف من حيث أتت
ولا داعي للمشاكل.

_ لا!

تهتف بها استبرق باندفاع وهي تفهم عصبية يحيى
كحميته لأمه فتربت على كتفه هاتفة برجاء :
_ لست غاضبة منها.. لأجلك حبيبي ولأجل طفلك
وسعادتك أحتمل.

_ لن أعتذر! تعرف أن هذا "الاختيار" ليس في
إعداداتي!! لو كنت ستطلبها مني فأعدني للمطار
وأرح دماغك.

تهتف بها طيف بفظاظتها المعهودة فيزفر يحيى
بغضب مصطنع لكن استبرق تعاود التربيت على كتفه

كانما تذكره باتفاقهما فيعاود قيادة السيارة ليسود
ثلاثتهم الصمت طوال الطريق حتى يصلوا للبيت..

_تفضلين تناول الطعام أولاً؟!

تسألها استبرق ببرود وهي تشير للمائدة الضخمة
التي أعدها الخدم والتي امتلأت بأصناف الطعام
فتبتسم طيف بسماجة وهي تعقد ساعديها أمام
صدرها قائلة :

_ساعد الطعام بنفسني لي وليحيى.. بعد طول مدة
فراقنا أريده أن يأكل معي من صنيع يدي.. وحدنا في
غرفتنا.

_آه.. صحيح.. نسيت أنك اعتدت الخدمة في البيوت
مع أمك منذ صغرك كما عرفت.. يبدو أن المال لا يغير
عادات التربية .

ضربة تحت الحزام تلقيها استبرق بدناءة وتجعل وجه
يحيى يحمر بغضب، يكاد يلقي الخطة وكل شيء جانباً
وهو يهم بردّ انفعالي وليكن ما يكون..

لكن طيف تسبقه بذكاء كأنما كانت تتوقع عبارتها
فتقطع عليه الطريق بسرعة بديتها الحاضرة دوماً :
_ معك حق.. أنت الأدرى بالمال الذي لا يغير عادات
التربية.. انظري لنفسك مثلاً.

يحترق وجه استبرق بالغيط ولولا بقية من تعقل
لركلتها خارج البيت.. لكن عزاءها انها ستستمتع
بسحقها تماماً.. فقط عندما تضع الطفل!

بينما التفتت طيف نحو يحيى قائلة :

_ يمكنك الاستراحة في غرفتنا حتى أعد الطعام.. لا
تخبرني عن مكان المطبخ.. سأستكشف بيتي بنفسي.

تقولها دون انتظار رده لتتحرك مبتعدة فتجز استبرق
على أسنانها بغيظ وهي تميل على يحيى هامسة
باستنكار :

_بيتها؟! بيتها!! لم أرَ في حياتي صفاقة كهذه!! انظر
كيف تتحرك في المكان كأنها صاحبتة!! أوف!! من
أي مستنقع جئت لنا بهذه المرأة؟! لم تجد سوى
هذه!!?

_أخبرتك أنني غير راضٍ عن كل هذا وأنتِ من
خططتِ لعودتها.. اطرديها لو شئتِ.. أنا لا أهتم.
يقولها بلا مبالاة مصطنعة فتهمس باستنكار خافت:
_أبدأ.. ليس قبل أن أنتقم من كل بذاعاتها هذه وأحرق
قلبها على ابنها يوم نأخذه منها.

يسبل يحيى جفنيه بألم حقيقي يجتاحه كلما يرى جانباً
آخر من وجهها الأسود.. لهذا تأتي كلماته مواربة :
_ معك حق.. ليس هناك انتقام يحرق القلب أكثر من
فرقة أم وابنها.

يقولها ليتصنع التثاؤب وهو يبتعد نحو غرفته
بالأعلى قائلاً :

_ لا شهية لي لطعام.. سأذهب للنوم.
تراقبه حتى يصعد لغرفته ثم تتوجه نحو المطبخ حيث
وقفت الخاديمات يراقبن طيف بعجب لكن الأخيرة بدت
واثقة وهي تعد بعض الطعام البسيط كأنها حقاً في
بيتها..

_ يبدو أنك لا تعرفين ذوق زوجك جيداً.. يحيى لا يحب
الدجاج.

تقولها استبرق ببرود مغيظ لترد طيف بابتسامة

سمجة :

_ يبدو أنك أنت من لم تعودى تعرفين ابنك جيداً..

سيحبه "من يدي" !

تكظم استبرق غيظها وهي تصرف الخاديات

المتغامزات نحو الخارج بحدة لتقف مكانها وهي

تراقب طيف بنظرات كادت تثقبها مكانها لكنها تعمدت

تجاهلها وهي تستمر فيما تفعله قبل أن تحمل صينية

الطعام لتتوجه نحو غرفة يحيى ببساطة..

تضع الصينية على الأرض أمام باب غرفة المغلق

لتفك رابطة شعرها القصير نسبياً فتمشطه بأصابعها

بدلال وهي تشعر بخطوات استبرق خلفها..

استبرق التي وقفت تراقبها بحقد وهي تراها تعدل
ثيابها ومظهرها استعداداً لدخول الغرفة..
الدهاء قبل الحكمة يقتضيان أن تبتعد عن تلك المرأة
الداهية لكن رؤيتها لعيني يحيى الهائمين وهو
يحدثها جعلتها تشعر بالخطورة ..
لهذا ضربت بخطتهما عرض الحائط وهي تقترب من
طيف التي رمقتها بنظرة مستهينة لتقول لها استبرق
بنبرة مستفزة رغم لطفها الظاهر :
_أنا من أقنعت يحيى بأن يستمر زواجكما ..لأجل
الطفل .

فتطلق طيف ضحكتها الساخرة المكتومة التي تميزها
وهي تميل على أذنها ،تشير لغرفة نومها مع يحيى
قائلة بجرأة واثقة :

_ وأنا -خلف باب هذه الغرفة - أجيد وسائل أكثر
إقناعا ب(كثير) تجعله يتمسك بي أكثر وأكثر..وأظنك
-بخبرتك- تعلمين كم تجدي هذه الوسائل مع الرجال يا
حماتي .

فيحمر وجه استبرق لا من وقاحة تلميحها فحسب بل
من الثقة التي تتحدث بها فتتمم من بين أسنانها وهي
تنظر إليها من أعلى لأسفل قائلة :

_ لا أعرف أين كان عقله وهو يختار واحدة مثلك .
_ عقله كان خلف قلبه ..كلاهما كانا وسيبقيان معي
أنا .

تقولها طيف باعتداد وهي تعقد ساعديها لتهتف
استبرق بغيظ:

_ حقا ..مرآة الحب عمياء كما يقولون .

فتطلق طيف ضحكة قصيرة وهي تربت على كتفها

قائلة بنبرة مستفزة:

_تركنا لك النظارات يا "خبرة"!

تقولها لتدخل بصينية الطعام ثم تصفق الباب خلفها

بعنف لتتعمد غلقه بالمفتاح خلفها فتزفر استبرق

زفرة مشتعلة وهي تضم قبضتها متممة بغيظ:

_صبراً أيتها الحرباء.. صبراً.. لأسحقن غرورك هذا

تحت قدمي.

وفي الغرفة لم تكذ طيف تضع الصينية جانباً حتى

جذبها يحيى من ذراعها مبتعداً عن الباب لمسافة

آمنة وابتسامته تتراقص في عينيه قبل شفثيه :

_ أخفضي صوتك فهي تظني نائماً.. والآن قبل أي شيء.. أريد موجزاً قصيراً عما كنتِ تقصدينه بحديثك

معها عن "الوسائل" المقنعة للرجال تلك!!

فتكنم ابتسامتها وهي ترد بهمس خافت:

_ كيف سمعت؟! ظننت صوتي كان منخفضاً!

_ لا تهربي من الأمر.. الموجز!!.. . الموجز وبعده

الأنباء بالتفصيل من فضلك!

يهمس بها بمكر وهو يطوق خصرها بقبضتيه فتميل

على أذنيه ببطء ألهب حواسه لتهمس بمكر مشابه :

_ سأخبرك عندما تكبر.

يصدر همهمة ماكرة وأنامله تنتقل لوجنتيها تعانقهما

بحنو فائض يشبه عناق نظراته للامحها فتسبل

جفنيها بوهن يجعلها تحاول الهروب بسؤاله عن

تطورات الوضع لكنه يخرس تساؤلها بشفتيه قبل أن

يهمس في أذنها :

_ فيما بعد.. دعيني الآن فقط أصدق أنك هنا.. معي.

تهيدة قصيرة تغادر شفتيها واشية بشوق يشبه

شوقه وإن عجزت شفتاها عن البوح به..

فتنتقل شفتاه لعنقها بهمسه:

_ دعيني أنسى بقربك كل شيء.. أخبرتك من قبل عن

أول وثاني أجمل ما فيك.. دعيني أخبرك بالثالث..

عنقك! تعرفين كم يبدو لي عنقك جميلاً.. كم يبدو لي

طويلاً!! .. تعرفين كم يساوي طوله!؟!

وكأنما تمنحها شفتاه الجواب بطوافهما من أعلاه

لأسفله ليهمس أخيراً وهو ينظر لعينيها:

_ عشرين قبلة!

_ وهل يقاس الطول بالقبلات!؟!

تهمس بها بدلال مستنكر فيرد بغرور ماكر :

_ أنا أجيد اختراع وحدات القياس!

تكنم ابتسامتها بهذه الطريقة التي تثير جنونه أكثر

من ابتسامتها الكاملة وهي تتفحص ملامحه بعاطفة

أقرب لحنان أم منها لشوق أنثى..

متى زادت هذه الخطوط الدقيقة حول عينيه!؟ متى

حمل جبينه كل هذا الوجع!؟!

متعب! مُتعبٌ حد الاستنزاف!

ومن مثلها يمكنها الشعور به!؟!

لهذا يحلق ذراعها حول خصره لتضمه إليها بقوة

تنافس قوته..

همسها يتأرجح بين دلال خجول ومكر عابث في مزيج

شهي يشبهها :

_وأنا أحب تجربة الاختراعات الجديدة.. لنرَ كم يكون

طول عنقك أنت!

لا يكاد يصدق أذنيه وهو يشعر بمنحة عاطفتها تجزيه

خيراً عن كل ما لاقاه الأيام السابقة..

يغمض عينيه على فيض عاطفته وهو يشعر بقبلاتها

لا تشبهها قبلات..

خطوات شفيتها كأنما كل خطوة منها تضمد جرحاً،

تمحو وجعاً، وتشفى سقماً..

_خمسة عشر قبلة!

_مستحيل.. لا تجيدين العد.. أعيدي القياس.

يهمس بها مبتسماً بعث لتبتسم بدورها..

عناقهما يشتد للحظات قبل أن يهمس لها بالمزيد من

العبث الماكر :

تعرفين فيما أفكر الآن؟!

_وهل يفكر الرجال فيما سواها؟! بالطبع تفكر في

تصعيد "مسابقة القياس" للتصفيات النهائية!

تهمس بها بخفوت مع مطة شفيتها فيخفي ضحكته

في كتفها مع همسته :

عنصرية كالعادة!

قبضتها تهوي على ظهره بخفة مستنكرة قبل أن

تتحول لتربيطة برقة داعمة..

تعرف عادته عندما يداري ألمه بمرحه العابث لهذا

تهمس بصلاية:

_أعرف ما الذي تشعر به.. أعرف صعوبة الحرب
التي تخوضها.. لكنني أثق بك.. و.. أنتظر انتصارك.
يريح رأسه على صدرها للحظات قبل أن يرفع إليها
عينين ذابت كل قضبانها القديمة..

فلم يبقَ سوى فضاء عريض من بوح ووجع :
_أي انتصار في حرب كهذه سيكون صورة باهتة
لهزيمة!!

تسبل جفنيها على جرحيهما معاً لكنه يجذبها من كفها
نحو خزانة ملابسه..

يفتحها ليستخرج الحقيبة السوداء القطيفية حيث
ارتصت قواريره الزجاجية بصدفاتها الملونة..
فلا تحتاج كثيراً من الذكاء كي تفهم قبل أن يهمس
هو :

_وجدتها مصادفة كما فقدتها مصادفة.. كل قارورة
من هذه تساوي جرحاً وذنباً.. وعمراً.. عمراً ظننتني
كنت أعيشه فاكتشفت أنني كنت أضيعه.. فقط هذه..
يقولها مشيراً للقارورة الأخيرة مردفاً :

_ هذه شعرة منك لا تقل قوة عن صاحبها.. شعرة
ظننتني ألفها حول إصبعي لكنها هي التفت على
قلبي.. لهذا أعدت لك صدفتك ليس فقط لأنها لا تشبه
سواها بل لأن كل ما يخصك لا يليق به أن يُحبس ولو
في تذكارات العمر.

ترمقه بنظرة طويلة لم يفهمها قبل أن تمتد أناملها
بحركة سريعة لتقلب الحقيبة فتسقطها لتتحطم
محتوياتها مختلطة بفوضى تشبه فوضى روحه في

هذه اللحظة وهو لا يقدر على تمييز شعوره بما

فعلته!!

تهيدة حارقة تفلت من شفثيه فيقبض على كتفها

بكفيه هامساً :

_ هذا بالضبط ما أردتك أنت.. أنتِ بالذات ان تفعليه..

أنتِ لم تكسريها فحسب أنتِ أصلحتِ كسري أنا.. أنتِ

حررتي يوم ظننت أنا بغروري أنني قد أحبسك.. لهذا

مهما حدث بيننا لن أنسى أبداً أنني يوم أعددت كفني

وحفرت قبري بيدي كنتِ أنتِ واقفة على رأسي

تكتبين شهادة ميلاد جديدة لكلينا معاً.

_ تعرف فيما أفكر الآن؟!!

تقولها فيرد لها سابق بضاعتها :

وَهَلْ تَفَكِّرِينَ فِي سِوَاهَا؟! كَيْفَ تَفْسِدِينَ هَذِهِ اللَّحْظَةَ
الْعَاطْفِيَّةَ بِعِبَارَةٍ فَجَاءَ مَا تَجِيدِينَهَا كَيْ تَسْتَحْقِيَ جَائِزَةَ
مَلِكَةِ (الْفَصْلَانِ) الْكَبِيرَى!

هَذِهِ الْمَرَّةَ تَطْلُقُ ضَحْكَتَهَا الْقَصِيرَةَ وَهِيَ تَلْكُمَهُ فِي
كَتْفِهِ بِخَفَةِ هَامِسَةٍ:

كَيْفَ عَرَفْتِ؟! كُنْتَ لِتَوِي سَأْسَأُكَ مَاذَا سَتَفْعَلُ أُمُّكَ
الْآنَ؟!!

يَبْتَسِمُ لِيَطْرُقَ بِرَأْسِهِ قَلِيلًا ثُمَّ يَرْفَعُهُ بِجَوَابٍ مَقْتَضِبٍ:

لَنْ تَدْعَنَا مَعًا اللَّيْلَةَ.. رُبَّمَا تَتَذَرَعُ أَنَّهَا مَرِيضَةٌ
وَتَطْلُبُ مِنِّي الْمَبِيتَ مَعَهَا فِي غُرْفَتِهَا.. وَرُبَّمَا ادْعَتْ
وَجُودَ مَشْكَلَةٍ فِي الشَّرِكَةِ تَتَطْلُبُ..

يَقْطَعُ عِبَارَتَهُ وَهُوَ يَسْمَعُ طَرَقَاتٍ سَرِيعَةً عَلَيَّ بَابِ
غُرْفَتِهِ مَعَ صَوْتِ الْخَادِمَةِ تَهْتَفُ بِهِلَعٍ:

_سيدي.. أدرك السيدة استبرق.

تبتسم طيف لذكائه لكنها تصطم بنظرة الحسرة
المتوجعة في عينيه فتفهم كم هو قاسٍ عليه أن يفهم
أمه كل هذا الحد..

ويستغل هذا في إسقاطها!!

لهذا تشد على كفه بقوة داعمة وهي تراه يرد على
الخدمة بما يليق قبل أن يتكلف ابتسامة واهنة وهو
يميل على وجنتها بقبلة حارة سبقت همسه العابث:
_كنتِ محقة.. من الآن لن أعود أفكر سوى في
(مسابقة قياس) أخرى نصل فيها لتصفيات النهائي.



_ لماذا تنظر إلي هكذا؟!_

تسأله استبرق وهي تجلس أمام مرآتها في غرفة نومها بينما يجلس يحيى على طرف فراشها مستمراً

في تمثيله:

_ أطمئن عليك.. منذ عودة طيف منذ أيام وأنت

مريضة.

تتهد بإعياء مصطنع وهي تمسك جانب رأسها

قائلة :

_ بشعة تلك المرأة.. صفاقتها بلا حدود.. رفعت ضغط

دمي.. ساعد الأيام حتى تضع طفلها وبعدها أقسم

بأغلى ما لدي أن أمرغ رأسها في التراب.

_ ما هو؟!_

ترمقه بنظرة متسائلة ليرد بابتسامة واهنة :

ما هو أعلى ما لديك (ماما)؟!

يبدو سؤاله البسيط وكأنه فاجأها فتضطرب نظراتها

وهو يردف بينما أنامله تتحسس طرف الفراش

الخشبي بنقوشه القديمة الفخمة :

طالما كان يشغل بالي هذا السؤال منذ صغري..

تعرفين كم كانت غرفتك هذه محببة إليّ.. طفلاً.. أصحو

من نومي أتعمد الصراخ والبكاء كي تأتي وتحمليني

لأنام بين ذراعيك هنا على هذا الفراش.. تعانقيني

فأرجوك ألا تنامي قبل أن أنام أنا أولاً.. كنت تبدين

متعبة لكنك لم تخذليني أبداً.. ساعتها كنت أقول

لنفسي: أنا أعلى ما لديك..

تدمع عيناها بحنين حقيقي لتلك الأيام وبتأثر لما

استمر يرويّه:

_ومراهقاً.. تكثر نزواتي وأخطائي.. يعنفني المعلمون
ويهددني البعض بالشكوى لأبي.. لكنك كنت تسحبيني
من كفي نحو نفس الغرفة.. وفوق نفس الفراش كنتِ
تجلسيني.. تتصحين بلين مرة وتعنفين بعتاب أخرى
لكنك دوماً كنتِ تحمينني من عقاب أبي.. ساعتها
أيضاً كنت أقول لنفسي: (أنا أعلى ما لديك)..
ثم يغادر الفراش ليتوجه نحوها.. ينظر إليها عبر
صورة المرأة..

ليستطرد بابتسامة واهنة :

_وكبرت ليصير فراشك بعيداً.. صغيراً.. صغيراً جداً
كانه لم يكن يسع الدنيا في عيني.. لا تزالين
تسحبيني إليك.. ولا أزال أسأل نفسي.. ما هو أعلى
ما لديك؟!!

_ أنت.. أنت يا يحيى.

تقولها بصوت متهدج فضح أمومتها الهشة في هذه
اللحظة التي طغا فيها عليها شعور نادر بالذنب..
نظراتها تزوغ وطيف عابر لشواهد (أربعة قبور) يمر
بناظرها..

لتصطدم بنظرته الصلدة وهو يشير بسبابته نحو
صورة مرآتها قائلاً :

_ بل هذه.. هذه كانت دوماً أعلى ما لديك.. أعلى مني
ومن أي أحد.

غضب عاتب يسطع في عينيها وهي تنتفض مكانها
بعنف فيبسط راحتيه في وجهها مهدئاً باعتذار
خادع :

_ اعذريني (ماما)..لم أقصد إساءة.. يبدو أن الضغوط

حولي أفسدت أعصابي.

_ أي ضغوط!؟

تسأله بقلق ليرد :

_ العمل.. عودة طيف.. الطفل المنتظر.. و.. إلياس.

يضغط حروف اسمه متعمداً وهو يتفحص ملامحها..

للعجب يبحث عن بقايا من شعورها بالذنب نحو - ما

تظن- أنها فعلته به لكن تمثيلها كان متقناً وهي تهتف

بجزع:

_ ما به!؟

فيطلق زفرة قصيرة وهو يشيح بوجهه عن ملامحها

بنفور قائلاً بمواربة:

_مشوش.. غير متزن. . كأنه فقد تركيزه.. سأقترح

عليه الذهاب لطبيب.

_لا!

تهتف بها بسرعة فيلتفت إليها لتردف مرتدية قناع

براءتها:

_الأطباء يهولون الأمور.. لعله فقط حاقد عليك بعد

توليك كل أمور الشركة.

يهز رأسه بحركة غامضة لم تفهمها فتغير الموضوع

عامدة بسؤالها :

_كيف حال العمل؟! لم أذهب منذ أيام.

_لا تقلقي.. أنا استغللت الأمر بأحسن صورة.

يقولها وهو يدرك أنها تعمدت التمارض كي تبعده عن

طيف في تلك الساعات التي كان يعود فيها للبيت..



لكن الغافلة لا تعلم أنها كانت فرصته ليعيد الأمور

لنصابها..

_ ماذا تعني؟!_

تسأله بدهشة ليرد وهو يربت على كتفها :

_ لا تشغلي بالك.. العمة شجون وإيأس بالأسفل..

يريدان الاطمئنان على صحتك.

تشعر بغرابة لهجته لكن ذكر شجون يجعلها تشد

ذهنها في اتجاه آخر..

تبالغ في زينتها بتبجح كأنها تستكف أن تزورها

الأولى بدعوى مرضها..

تلقى على نفسها نظرة راضية وهي تشعر أن الخيوط

كلها في يدها..

حتى بعد عودة تلك السخيفة طيف.. لا يزال ابنها
طوع يدها هي..

تتحرك لتغادر الغرفة لكن أصابعها تتجمد على مقبض
الباب وهي تسمع يحيى خلفها يقول ببساطة مغيظة :
_ آه.. نسيت ان أخبرك.. أنا فسخت كل عقود تعاملات
مؤسسة الأمين مع ذاك السيد (...).. وتقبلت دفع كل
الشروط الجزائية.

تشعر أن أطرافها شلت فجأة وهي تلتفت إليه
مصدومة الملامح فيقترب منها مردفاً :

_ هل يضايقك الأمر!؟

_ هل جننت!؟

تصرخ بها بهياج وهي ترجه بين كفيها مردفة
بثورة :

_ هل تعاندني؟! أخبرك انه أهم شركائنا فتفسخ

عقودنا معه؟؟!

يرن هاتفها القريب فتشتعل عيناها أكثر وهي ترى

اسم المتصل..

السيد (...)!

فتدفع يحيى خارج الغرفة بعنف لتغلق الباب خلفه..

تفتح الاتصال بأنامل مرتجفة وهي تستعد لتقريع

الرجل..

لكنه بروده أخافها أكثر :

_ ابنك فسخ عقودنا مع مؤسسة الأمين.. ورفع

شكاوى خاصة بنا تتهمنا بغسل أموال.

تشحب ملامحها وصوتها المتحشرج يرجوه :

_خطأ يمكن تداركه.. غداً أعود للشركة.. بل الآن..

وأصح كل شيء.

_فات الأوان يا عزيزتي.. لا تشغلي بالك.. نحن

سنتولى كل شيء.

بروده يحمل تهديداً خفياً تعرفه فتهمّ برجاء آخر لكنه

يغلق الاتصال بعنف..

تحاول الاتصال به مرة أخرى لكنه كان قد أغلق

هاتفه!

_يحيى!

تصرخ بها بهياج وهي تغادر غرفتها نحو الأسفل..

نظرات شجون الشامته..

إلياس العاتبة..

طيف المزدرية..

وأخيراً يحيى التي تلونت بهذا كله مع عاطفة واهنة

لم يستطع كبحها رغم كل شيء..

ماذا فعلت؟! ماذا فعلت؟! انت أفسدت كل شيء!!

بل أصلحته.. أصلحت ما أفسدته انت لسنوات..

وبأقل خسائر.

ماذا تعني؟!!

صوتها المتحشرج يفضح خوفها فيشيع يحيى بوجهه

لكنها تجذبه من ياقة قميصه صارخة بانفعال:

عدت لجنونك؟! كان خطئي انا ان أخرجتك من

المصحة!! غداً تعود إليها ولن أخرجك أبداً.. أبداً..

بل أنت من ستدخلين السجن ولن تخرجي منه أبداً.

تهتف بها شجون بحرقة وهي تتقدم نحوها فتلتفت

نحوها استبرق بحدة هاتفة:

ماذا تقولين؟! جنتِ أنتِ الأخرى؟!

بل استعدت عقلي الذي غيبته انت وغيث طوال كل
هذه السنوات! لو كان الأمر بيدي لقتلتك ألف مرة
جزاء فعلتك!

تهتف بها شجون بلوعة لتهوي صفتها على وجهها
باستطرادها الصارخ:

تسرقين زوجي في الحرام ثم تقتلينه.. يا جبروتك!
تتحسس استبرق وجنتها غير مصدقة وهي تتفحص
ملامحهم بصدمة..

لا تجد أمامها سوى إلياس فتقترب منه هاتفة بين
دموعها:

_ يبدو انهم كلهم فقدوا عقولهم ما عدا أنت! ماذا يحدث يا إلياس؟! أنت من سيقف جوارى.. أنا رببتك في هذا البيت من صغرك مع يحيى لتكون..
_ وفري اسطواناتك المشروخة وكلامك الحامض هذا! صرنا نعرف ما أردت من العم مؤيد فعله في بيت إلياس.. وكل ما فعلناه الفترة السابقة كان مجرد خطة لإيقاعك.. ف(لمي الدور)!

تهتف بها طيف بسخريتها الفظة تختصر الطريق وهي تكور أصابعها بما يناسب عبارتها الأخيرة فتصرخ بهم استبرق :
_ جننتم جميعاً؟! كلكم تهذون!!
لكن إلياس يقترب منها ليقول بحزم لم يخل من أسف :

_ بدون مقاومة أو صخب.. أنا استعنت كثير بالكثير
من الوساطات كي أقنعهم أنك ستسلمين نفسك مقابل
شهادتك ضد السيد (...). ذاك ومن خلفه.. الأمر لم يعد
يتعلق بفساد مالي.. الرجل ينتمي لتنظيم دولي أرهابي
خطير وأظنك تعرفين الكثير عنهم.

_ ماذا؟! هل انكشف الأمر؟!!

تهتف بها بارتياح لتتحول نبرته لحدة رغماً عنه:
_ هذا أفضل حلوك الآن.. فكري في أمر العائلة ولو
لمرة واحدة.. نحن لا نريد المزيد من التورط مع
السلطات.. سلمني نفسك أفضل.

_ هل أنت حقاً بهذه الحماسة؟! تظنونهم سينتظرونني
كي أسلم نفسي؟! أنت ضيعتني.. ضيعتنا كلنا!

تصرخ بها بثورة وهي تعدو هاربة خارج البيت لا
تبالي انها لا تزال ترتدي ثياب المنزل..
تركض نحو سيارتها القابعة أمام البيت وهي لا تدري
أين تذهب..

اي مكان قد يعصمها الآن من سطوة السيد (...)!?
لا مكان!

إذن لتذهب إليه هو.. لعله...!!

صوت رصاصة غادرة يחדش أذنها قبل صدرها!
رصاصة تلتها أخرى وأخرى تصيبها جميعها من
مصدر مجهول فتسقط مكانها على رصيف البيت!
_ هكذا إذن؟! وصلت رسالة السيد (...).

تتمتم بها لنفسها بسخرية سوداء وهي تتحسس
صدرها النازف..

ماذا كانت تتوقع؟!

لم يكن ليتركها تفشي أسرارها!!

أناملها الحرة تتحسس الأرض تحتها وهي تنظر

للافتة بيت الأمين الذي سقطت خارجه..

هل هذه هي النهاية؟!

بعد كل هذا العمر؟!

تسقط ميتة خارج بيت الأمين كأنما لفظتها جدرانها

قبل أهله!!

(ماما)

هذه المرة كانت صرخته حقيقية وهو يركض

نحوها..

هذه المرة يميز قلبها أن شبيهاتها طوال الأيام

السابقة كانت مجرد خدعة كي يصل لبغيته..

هذه المرة تتلقفها روحها بصدق.. للمرة الأخيرة!
ينحني فوقها بجزع وهو يصرخ بالياس طالباً نجدة
قريبة..

فيما تندفع شجون وطيف كذلك نحوها وملامحهما
المصدومة تغلب سخطهما عليها..
_ معك حق.. ربما.. ربما لو كنت جعلتك حقاً أغلى ما
لدي لاختلف المصير.

تتمتم بها بوهن بين شهقاتها لتردف بما بدا
كالهذيان :

_ حان لقائي بجدك.. هذا اللقاء الذي طالما عشت
أرجوه وأخشاه.. أنا انتقمته له.. أخذت حقه.. أعدت
تقسيم الأنصبة على الأربع قبور.. وياويلي.. ياويلي
وقد صار قبوري الخامس.

لم يكن يفهم كلياً ما تعنيه وهو غارق في شعوره

الحقيقي بالخوف عليها..

فلتكن قاتلة.. فلتكن مجرمة.. فلتكن سارقة..

لكنها لا تزال أمه!!

أمه!!

لهذا تتوالى صرخاته ملهوفة مرتعبة وهو يضمها

لصدره فتجلس طيف على ركبتيها تضمه هو إليها

بقوة..

تلتفت إليها استبرق وقد نزعت عن عنقها سلسلتها

باسم (يحيى) لتناولها إياها..

ترمقها طيف بنظرة دهشة متسائلة فتهمس بخفوت

واهن:

لعك تستحقينها أكثر.

وكأنا غادرت حلقها بحسرة أخذت روحها معها

للأبد..

ولا يزال كفها الخاوي على رصيف الشارع يحكي

نهاية قصة طمع!



الطيف السابع والأربعون



بنفسجي



تراقبه ديمة من خلف زجاج شرفة البيت المظلة على
حديقته بعينين ملهوفتين.. ومسجونتين بقيود غير
مرئية!

تراه يلاعب سند وقد أحضر له أحد جراء سلطنة
ليعلمه كيف يعتني به فتشعر وكأنه هو..

هو هو لم يتغير..!

لكنها تتذكر انه لم يسأل الخادمة عنها هي ولم يطلب
رؤيتها..



كأنه سيكتفي بزيارة سند ككل مرة منذ طلاقهما
ويرحل دون أن يتحدث إليها فتهمس لنفسها بحسرة
هي للخوف أقرب :

_لم يعد هو!

تتحرك نحو مرآة قريبة لترى صورتها..
سلسلته التي أهداها لها بجبر الكونزيت الذي يبدو
جماله في الظلام أكثر..

تتحسسها اناملها ببطء وهي تراها تصنع مع قرط
هالة بوجهه "الجديد" مزيجاً صار لا يمنحها جمالاً
او أناقة فحسب.. بل هوية!!

لا تزال تنقسم في حضرتة اثنتين!
واحدة تريد أن تهرع إليه معترفة بعشق لم تعرفه إلا
معه..

وواحدة تريد أن تهرب منه ومن كل شيء راضية

بركضها الحر دون قيود.. أي قيود!!

ولا تزال عاجزة عن الاختيار!!

وبهذه الحيرة الخائفة تتحرك نحو المطبخ القريب

لتحضر له ما يشربه..

لو كان هو زاهداً في رؤيتها فهي أبداً ليست بزاهدة!

(موز باللبن دون سكر)

تبتسم دامعة العينين للذكرى وهي تستعيد ما سمحت

به ذاكرتها (المشوشة) من تفاصيل..

كيف أخرجها من السجن يومها .. كيف قاد بها

سيارته لبيت أمه.. كيف أطعمها بيديه.. وكيف أعاد

لها حقيبة البروكار..

الذكرى تتخضب بحمرة ذنب وهي تستعيد طيبة أمه..

ذنب يكاد يودي بها في دوامات تكرها لكنها تتذكر
نصائح دكتور كنان فتهاز رأسها بقوة كأنها تمنع
نفسها من المزيد من الانزلاق في هذا الجرف
المهلك..

_ سيدتي.

نداء الخادمة ينتزعها من شرودها فتصب العصير
بسرعة وهي تسألها عما تريد لتخبرها وهي تحتضن
سند الذي بدا ضائق الملامح أن حسام يبلغها
برسالته :

(لن يستطيع زيارتهم قريباً).

لم تشعر بنفسها وهي تحمل الكأس لتركض نحو
الخارج.. يسقط قرابة نصفه منها كما تسقط دموعها

وهي تستوقفه عند باب البيت بنداء اخترق قلبه قبل

أذنيه..

(حسام)

يتجمد مكانه وهو يعد نفسه لمعركته القادمة التي ود

لو استطاع تأجيلها..

لكن لا بأس.. جرح قريب أرحم من جحيم الانتظار!

يلتفت نحوها متحاشياً النظر لعينيها.. تتعلق عيناه

بأناملها المرتجفة التي احتضنت الكأس وهو يسمعها

تهتف عبر انفاسها اللاهثة :

_ أعددته لك.. اجلس فقط.. حتى تشربه.. أعتذر لو

سقط مني بعضه.. خشيت ان ترحل قبل ..قبل.. قبل..

تكررها عدة مرات بدوي مرتفع وجد صداه في

روحيهما معاً.. حروفها تتلعثم بين حيرة واحتياج

لتهدج حروفها ويتراخى كتفاها باستسلام وهي

تلفظها حارقة.. ومحرقة :

_خشيت أن ترحل فحسب!

يتناوله منها محاذراً أن يستجيب لرغبة قلبه

الصارخة في أن يمس كفها.. في ان يطوف فوق

بشرته بشفتيه ساكباً فوقه أنهار عاطفته..

تشير له نحو مائدة قريبة في الحديقة يجلسان

امامها.. تلاحظ هروب نظراته منها وهو يرتشف

مشروبه ببطء فتبادره بسؤالها :

_ماذا قلت لسند؟! يبدو ضائقاً!

_لن أتمكن من زيارتكما لوقت ما.. لا يمكنني تحديده

بالضبط.

_لماذا؟!!

لهفتها المستنكرة تروع قلبه لكن نبرته الجامدة لا

تتأثر :

_ بدون أسباب.. أنا تكلمت مع سند وأظنه سيتفهم

الأمر.

_ وأنا!؟!

تتمتم بها بخشية لكنه كان يعد كل الأجوبة مسبقاً :

_ بالنسبة إليك أنا رحلت فعلاً منذ تم طلاقنا.. ما الجديد

!؟!

_ ما الجديد!؟! ما الجديد!؟! الجديد أنني.. أنني..

استنكارها الصارخ ينقطع بفيض من دموعها وهي

تخفي وجهها بين كفيها.. فتتلفت منه زفرة مشتعلة

وهو ينحني بجذعه نحوها وقد غلبه شعورها ب(ابنة

قلبه) ليهمس بها بنبرة لانت قليلاً:

لماذا تبكين الآن؟!

وهل تهتم؟! أنت حتى لم تسألني (كيف حالك)!

لا تزال تخفي وجهها بين كفيها لتبدو له كطفلة

غاضبة يتعلق قلبه في شباكها أكثر وأكثر..

هدنة!

فقط مجرد هدنة!

هدنة يستريح فيها من كل هذه الحروب التي وجد

نفسه وسطها..

هدنة لن يجد أفضل منها في حضرتها هي..

هي (ابنة قلبه.. وسيدته)!

كيف حالك؟!

ارادها فقط أن تخرج مهادنة لنبرتها البائسة لكنها

غادرت شفثيه حارة ملهوفة هادرة..



كقافلة عشق ضخمة ضلت الطريق في واديهها هي..!
ربما لهذا مسحت دموعها وهي ترفع عينيها إليه
هامسة بانفعال حار :

_أي (حال) تقصد؟! حالي الذي أحكيه لدكتور كنان؟!
حالي الذي أطمئن به طيف وماسة والسيد عاصي؟!
حالي الذي أخدع بمرحه سند؟! أم حالي وأنا أقف
وحددي - دونك- أمام مرآتي؟!

حلقة الزعفران في عينيها تلقي لقلبه الغريق ألف
طوق نجاة لكنه يرفضها جميعاً مغمضاً عينيه بقوة
كأنه اكتفى ب(هدنته القصيرة)..

ليخرج صوته متحسراً مختنقاً بعاطفته:

_كما تريد.. قولي ما تريد.

_انا بخير..

تهتف بها بانفعال وقد استفزتها عبارته لتنتفض

مكانها تلوح بذراعيها هاتفة :

_بالف خير.. سأقيم مشروعى الخاص.. مصنع صغير

للمشغولات اليدوية الحريرية.. ستكون لي علامة

تجارية خاصة باسمي (ديمة ضرغام).. سأنجح ولن

أكون بحاجة لأحد.. اي أحد.

_جيد.

بروده يستفزها أكثر..!

تود لو تقتلعه من فوق هذا الكرسي الذي يجلس فوقه

او تلقي بنفسها هي بين ذراعيه..!

تكاد تصرخ به من جديد أن يرحل وأنها لا تهتم..!

لكن نظرة لهذا الألم الغائر في حدقتيه تخرسها!

هو يحتاجها.. حتى ولو لم يعترف!

حتى وهو يتظاهر بالهرب بعيداً متشحاً بجفاف

قسوته!

تجلس على ركبتيها أمامه لتجبره على النظر إليها
فيشعر بالدم يفور في عروقه وهو يكاد يقسم ان هذه

أقسى معركة يخوضها!!

يقبض كفيه جواره وهو يخشى عاقبة إطلاقهما
خاصة وحالها المشتعل يتبدل من أحمر انفعال لأزرق
سكينة..

(أنا معك) تغزل غزلاً رقيقاً بين العيون وإن لم ينطقها
لسانها أو لسانه..

فقط عندما وجدت حروفها تمتت :

وَأنت كيف حالك!؟

لا تجلسي هكذا أمام أي أحد.. ولا حتى أنا!

جفاف رده وهو يقف ليوقفها معه يقطع سحر اللحظة
بينهما عامداً خاصة وهو يتجاوزها ليعطيها ظهره..
لكنها لا تستسلم بل تدير كتفيه نحوها لتتهف بحرارة
عبر خيطين من الدموع عادا يشقان وجنتيها :

_ لا تزال لا تنام حتى يطلع الفجر؟!!

يشيح بوجهه دون رد ولما عجزت عن جعله يبوح
بمكنون صدره صارت تهتف بانفعال هادر :

_ يبدو أنني أنا الأخرى أصابتنى العدوى.. صرت مثلك
لا أنام قبل الفجر.. أشعر بالخوف فأرش - ما أسمىته
أنت- عطر الأمان على وسادتي.. .. أنظر لمرآتي
بصورتها الجديدة.. سلسلة الكونزيت.. قرط هالة..
وفراشاتك التي تزين شعري.. أتخيل ذراعك الدافئ

تحت رأسي.. ساعتها فقط أشعر أنني مطمئنة.. لكنني

عندما أستيقظ نهاراً ..

تلعين حماقاتك!!

يكملها لها مقاطعاً بوحها العاطفي ليرد ف بانفعال

مشابه وذراعاه يلوحان حولهما بمزيج من عجز

وغضب:

عندما تستيقظين نهاراً تدركين أن شعورك بالحرية

الان اهم من اي شيء.. . تخافين قيود سجن قديم

وأخر جديد.. تفهمين انني كنت على صواب عندما

اخترت فراقنا وأن العمر ليس بخسا قدر أن نلقي به

قربانا لشعورنا نحو أحدهم بالامتنان.

ليس امتنانا فحسب.. ليس..

تهتف بها باستنكار لكنه يقاطع عبارتها بحزم يمنعها

إكمالها وهو يلقي سهمه الأخير :

بشر كلمني بشأنك.

ترمقه بنظرة متسائلة عنمن هو بشر هذا الذي يقصده

فيردف باستدراك ساخر أخفى مرارته:

كنت تعرفينه باسم اديم..أظنه لديه حكاية طريفة

تصلح لك بعد انتهاء عدتك..حكاية قد تجعلك تنسين

خوفك الليلي هذا وتأملين في بداية جديدة وحياة

كاملة معه.

صفعة!!

عباراته تصلها كصفعة.. بل عدة صفعات فتتجمد

مكانها مصدومة للحظات تحاول استيعاب ما خلف

كلماته...!!

لتتمم بما بدا كالهديان :

_ ما الذي تحدثني عنه؟! ماذا تعني بأنه كلمك
بشائي؟! كأنه خطبني مثلاً؟! خطبني منك؟! خطبني
منك؟! انت؟!!!

استنكارها الغارق بصدمتها يرضي جانباً من غرور
قديم برجولته.. غرور يسحقه هو الآن سحفاً في
سابقة لم يفعلها في حياته سوى لأجلها هي.. وهو
يعود ليعطيها ظهره مردفاً بتماسك خادع :

_ نصيحتي لك فقط ان تترثي.. الرجل مؤتمن ومستعد
ان يمنحك وقتك كاملاً.. وأنا أراه مناسباً لكِ.

_ ماذا تقول؟!!

استنكارها يتحول لتشتت ضائع كأنها طفلة فقدت
لتوها أبويها في الزحام..

هذا الذي طعن روحه في مقتل لهذا أشارت سبابته
المرتجفة نحو ما بقي من كأس العصير ليردف بحدة
من يكتم مشاعر لا طاقة له بكتمانها.. وبنبرة ذات

مغزى:

_ هذا العصير سيسودّ لونه قريباً.. قصير العمر
كأشياء كثيرة يفقدها الزمن صلاحيتها بأسرع مما

نتوقع.. تفهمين!؟

كفها يطيح بالكأس بعصبية ليتهشم محدثاً دويماً مرتفعاً
يشبه الصخب داخل روجيهما لتقترب منه صارخة:

_ وأنت ستحتمل!؟ ستحتمل أن يضمني صدر آخر!؟!

أن ياوي رأسي آخر الليل على ذراع آخر!؟ أن..

قبضته تكمم شفيتها بانفعال هادر بدا وكأنه قد تحرر

من كل قيود سيطرته..

أنفاسه المشتعلة تكاد تحرقهما معاً للحظات فتحدر
دمعاتها على وجنتيها لتلهب بشرة كفه وعيناها
تتعلقان ب(عقدة حنجرته) في نظرة قتلته وأحيطه في
لحظة ألف مرة!!

ولو هلة كاد يلقي كل حساباته جانباً فيعتصرها بين
ذراعيه مفرغاً في رحابها فيض مشاعره كلها.. فيضاً
يكفي ليغرقهما معاً للأبد!

لكنه يتمالك نفسه بقوة يحسد عليها..

النظرة القاسية في العينين الصقريتين تخفي دموع
عجزه وهو يتمتم ولا يزال يكتم فمها بقبضته:
_ منذ أول يوم في زواجنا وأنا وضحت لك أسبابي
التي دفعتني إليه.. منذ أول يوم وأنا أشرت لك نحو

الباب الذي كنتِ ستخرجين منه كما فعلتِ.. لم أقل
يوماً أنني أحببتك.. وليس ذنبي أنكِ كنتِ تتوهمين!
أتوهم؟!

تصفع بها كفه وهي تزيحه عن شفيتها بقوة نمره
شرسة..

(أحمرها) يبدو له هذه المرة أكثر هياجاً وإثارة حدّ
استحالة مقاومته..

لكنه يفعل المستحيل!

يهرب منها ومن نفسه وهو ينطلق بخطوات مندفعة
نحو الخارج لیسع صراخها الهادر خلفه والذي لم
يعد يوقن هل تعنيه حقاً أم هو نوبة انفعال عابرة :
_من أنت لتقرر لي مصيري؟! من أنت لتحدد إن كان
مناسباً لي أم لا؟! كن شجاعاً وأخبرني : هل ستحتمل

حقاً؟! أنا لن احتمل.. ولن ارضى .. لا لي ولا لك..
ألست مجنونة؟!!! اذن معي رخصة لسحق أي رجل
يحاول الاقتراب من محيطي غيرك.. ولسحق اي
امرأة كذلك تقترب من حدودك سواي .. ولنر ما
سيهزم الآخر جنوني ام عقلك!
يغلق الباب بينهما بعنف ليستند على ظهره وهو
يسمع صرخاتها تنتهي ببكائها على نفس الباب..
_أهلكتي يا صغيرتي..أهلكتي ككل ما ومن يقف
بيننا.. ليس هذا الباب أولها ولا آخرها.. لا بأس.. غداً
تتسبين وتُشفين مني.. ومن كل شيء..
يهمس بها دون صوت وهو يشعر بدقات قلبه تخزه
حد الوجد..

كم من قوة امتلكها في هذه اللحظة وهو يقتلع قدميه
اقتلاعاً ليتوجه نحو سيارته القريبة فينطلق بها
مبتعداً.. مدركاً أنه لن يعود إلى هنا قريباً على أي
حال..

ليس قبل أن يقضي على الكوبرا أو يقضي هو عليه!

=====

_وماذا بعد؟! هل ستبقين هكذا تنقسمين في حضرتك
لاثنين!؟

يسألها كنان بنبرة محايدة غير عاتب ولا ضائق بعدما
سمع منها ما حدث بينها وبين حسام.. فتتهدد ديمة
بحرارة وهي ترفع كفيها بقلّة حيلة..

فيردف بنبرة واثقة :

_ لم تعودى تحتاجينه.. أظنك شفتِ من هلاوسك
تماماً.. صرتِ امرأة حرة.. آمنة.. مستقلة.. لديك من
المال الكثير.. لديك مشروع للمستقبل.. فلماذا -

برأيك- هذه الحيرة التي تعيشينها!؟!

ترمقه بنظرة مترددة ليبتم بقوله :

_ عن نفسي.. لا أعرف لحيرتك سوى سبب واحد..

أنك حقاً تحبينه.

تسبل جفنيها وهي تضم قبضتيها على صدرها كأنها

تخفي هدير خفقاته..

تود لو تصرخ بنعم.. لكن (لا) حائرة لا تزال عالقة في

المنتصف!

_ ألم أقل لك منذ زمن بعيد أنك تذكرينني بالمرأة التي

أحببتها!؟!

مزن؟!

تقولها محاولة تذكر ما حكاها لها عن حبيبته التي
تقاربها في عمرها وظروفها فتتسع ابتسامته وهو
ينهض من أمام مكتبه ليتوجه نحو النافذة القريبة..
يفتحها وهو يردف :

_صدفة سعيدة.. هي تنتظرنى بعد الانتهاء من جلستك
كي نخرج سوياً.. هاهي ذي في الحديقة تلاعب ابنتها
(روح).

ابنتها؟!

تسأله ببعض الدهشة وهي تقترب منه لتتظر حيث
يشير فترى الشابة الفاتنة بشعرها الكستنائي الفاتح
وعينيها العسليتين تركض بحيوية مرحة في حديقة

الألعاب المقابلة لبناية كنان خلف طفلة لا تشبهها
إطلاقاً في ملامحها..

_ ليست ابنتها بالضبط.. ربما في هذه النقطة أيضاً
تشبهك.. (روح) عندها ك(سند) عندك.

ترمقها ديمة من بعيد بنظرة فضولية لتسأله بتردد :
_ يمكنني التحدث معها؟

_ يمكنني أن أدعوكما للتعارف ولا بأس بتأجيل
موعدي أنا معها.

يقولها مرحباً باقتراحها وهو يغادر معها مكتبه نحو
الحديقة حيث جلست مزن شاردة تراقب روح التي
انشغلت في ركوب إحدى الألعاب..

يعرفها كنان إلى مزن لتقرأ ديمة تفاعلات وجهها
بدقة فضولية..

والعجب.. ترى في عيني مزن نحو كنان نظرة غريبة

تشبه نظرتها هي نحو حسام..

تبدأ متلهفة.. ثم تتحول لمرتنة.. لتنتهي حائرة!

_ لم يُعرفني كنان من قبل لأحد مرتادي عيادته.

تبادرها بها مزن ببعض الدهشة وقد جلست جوارها

على أريكة الحديقة بعدما آثر كنان تركهما وحدهما..

لترد ديمة بتحفظ :

_ أظنه يعتبر لقاءنا خطوة أخرى في علاجي.

_ لا تبدين لي مريضة.

تقولها مزن مبتسمة بطيبة تليق بلامحها الطفولية

لتردف وكأنها تذكرت شيئاً ما جعلها تستطرد :

_ آه.. تذكرت.. أنتِ ديمة.. لقد ذكركِ لي كنان ذات

مرة.. كلمني عن مشروعك الخاص بالمشغولات

الحريرية اليدوية على الطريقة السورية.. وجعلني
أتابع صفحتك على مواقع التواصل.. الأمر لي بدا
مثيراً خاصة و (كليو) تدير مشروعاً مشابهاً لكن
لتصميم الأزياء بالنكهة الفرعونية.. هي الأخرى أبدت
إعجابها بمشغولاتك.

_ من (كليو)؟!_

تسألها ديمة لتكتسي ملامح مزن بشجن مؤقت غلبته
بسرعة وهي تضحك بارتباك متصنعة البساطة :
_ هي.. كنت أظنها ابنة عمي.. لكن.. لا أعرف ماذا
أقول.. حسناً.. فلأعتبرها الآن جارتي ورفيقة طفولتي
فحسب.

ترتبك ديمة قليلاً وهي لا تعرف كيف تبدأ معها
حواراً.. هل تخبرها ان كنان حدثها عنها؟! لا.. لعلها
ستحرجه لو فعلت!!

يكاد يدفعها ارتباكها لتركها والرحيل.. لكن فضولها
يغلبها فتتعرض عبارة (طيف) في موقف مشابه..
_تقايضيني؟! قصتك بقصتي!؟

ترمقها مزن بدهشة للحظة قبل أن تطلق ضحكة
طفولية لم تفقد براءتها رغم قسوة ما عانته..
لتنتهد أخيراً قائلة :

_تبددين عملية جداً ولا تضيعين وقتك.. لا بأس.. قبلت
المقايضة.. لكن ابدئي أنتِ.

تلوح بسبابتها في عبارتها الأخيرة فتتردد ديمة وهي
تشعر برهبة البوح.. لكنها تعود لتتذكر قول كنان عن
كونها تشبهها في ظروفها..

تراها قد تضع حداً لحيرتها؟!!

فضولها يغلب رهبتها فتبدأ في سرد قصتها لها من
البداية.. من أول عهدا بسوريا الحبيبة وانتهاء
بطلاقها من حسام وحيرتها بشأنه..

تلاحظ تغير ملامح مزن التي غاب عنها مرحها
ليجتاحها حزن شارد وكأنها تاهت في دوامات
ماضيها هي الأخرى..

لنتتمم أخيراً وهي تهز رأسها بإدراك :

_ فهمت.. لماذا أراد كنان أن نلتقي.

ترمقها ديمة بنظرة متسائلة لترد :

_ انا مثلك فقدت وطناً.. لكن وطني كان رجلاً.. رجلاً
رباني منذ كنت طفلة.. كبرت بين يديه واول ما وعيته
أنني سأكون عروسه.. كان أبي ومعلمي وصديقي
وحبيبي..

_ وكيف فقدته؟!!

_ هو الذي ضيعني.. هوسه بامتلاكي جعله يخسرنى
ويخسر نفسه.. عندما علم بعدم قدرته على الإنجاب
خاف أن يكون هذا سبب فرقتنا.. فحرمني من الإنجاب
طيلة عمري!

تتسع عينا ديمة بارتياح من التفاصيل التي مضت
تحكيها مزن باقتضاب.. لتسألها باستنكار :

_ وسامحتة؟!!

هذا هو السؤال الذي أسأله لنفسي كل يوم عندما أفيق من نومي.. كل شهر قبل زيارتي له في المشفى حيث لا يزال غارقاً في غيبوبة لم أعد أثق انه سيخرج منها.. وكل دقيقة أراني فيها أجاهد الماضي بكل قوتي.. فيهزمني مرة.. وأهزمه مرات! تقطع عبارتها وهي ترى (روح) تلوح لها من بعيد فترسل لها قبلة طائرة من مكانها لتلتفت نحو ديمة مردفة :

تعرفين معنى أن تعيشي العمر كله محرومة من طفل يحمله رحمك؟! قد أمضي في طريقي كما فعلت.. أنجح وأجد عملاً أفرغ فيه طاقتي.. أحصل على العديد من الصداقات بل وربما أقابل رجلاً يحبني فتحدث - المعجزة - وأوافق على الزواج منه.. لكن.. سيبقى

داخلي مكان شاغر.. اشتياق لقطعة مني أثق أنها لن
تخون ولن تغدر ولن تتخلي.. عطش لعائلة لا تربطني
معها مصالح ولا مشاعر مؤقتة بل دم ونسب.. أنا
أعيش هذا الحرمان مضطرة فليس لي إلا الصبر..
لكن.. أنت.. ما الذي يجبرك؟!
ينقبض قلب ديمة بوجع وهي تتخيل ما تحكي عنه
مزن..

فتسألها بصوت مرتعش وهي تتذكر سند :
_و(روح)؟! ألا تكفيك؟! ألا تشعرين معها
بالعوض؟!!

تبتسم مزن بعمق عاطفتها وهي تهز رأسها إيجاباً
لكن الجرح لا يزال يصبغ نبرة صوتها :

_تسد جزءا من الفراغ بروحي لكن لا يزال ما بقي

منه يوجعني.. لن أكون يوماً كاملة.

تطرق ديمة برأسها وهي تشعر بألم مزن الصادق

يخز روحها..

لا تزال تنقسم (اثنتين).. الأولى التي تختار كفة القلب

تنزوي جانباً لتفسح المجال للعقل..

تحتاجين أطفالاً وعائلة!

_كلامي أثر فيك!؟

تسألها مزن بإشفاق وهي ترى رجفة جسدها جوارها

فتردف وهي تربت على كتفها:

_لم أقل هذا لأدفعك بعيداً عن رجل تحبينه.. لكنني

فقط اردتك ان تفهمي أي أرض ستطوؤها قدمك بعيداً

عن المثاليات والرومنسيات الخادعة.. لا أخاف عليك

بقدر ما أشفق عليه هو لو قررت أنت يوماً ان
تراجعى بعدما تمنحينه بعض الأمل..
ترفع ديمة عينيها إليها بحذر فتدرف مزن بضحكتها
القصيرة الطفولية :

_ يبدو أن صداقتي ل(كنان) أثرت عليّ.. أحاول دوماً
تحديد مشاعري عندما أتحدث مع الآخرين مكتفية
بطرح الأمر بموضوعية وتاركة الخيار الأخير لهم
بعد سرد العيوب والميزات.

ترتجف ابتسامة ديمة على شفيتها وهي ترى روح
قادمة إليهم وقد انتهت من لعبتها فتنهض مزن
لتصافح ديمة بقولها بنبرة ذات مغزى:

_ أغبطك كثيراً على رجل آثركِ على نفسه.. تركك
خلفه كي يمنحك حياة أفضل.. كتم ألمه كي يعصمك

انت من الوجد.. رفض أن تعاني انتِ الحرمان حتى
ولو كان المقابل أن يكتوي هو به.. قليلٌ من العشاق
يفعلونها.. يجيدون التفرقة بين الحب و (هوس
الامتلاك).

كلماتها تصيب سهماً خاصاً في قلب ديمة التي تعود
كذلك تنقسم (اثنتين).. لكن الغلبة هذه المرة تكون
لهذه التي تختار كفة (القلب)!

لا تزال ابتسامتها مرتجفة وهي تنهض بدورها لتبادل
مزن مصافحتها فتميل الأخيرة على أذنها قائلة :

السؤال الذي ينبغي ان يشغل بالك الآن بعد كلامنا
والذي لن يمنحك أحد إجابته هو.. (هل يستحق؟!)

_____ماما.

تهتف بها روح وهي تعانق مزن لترمقهما ديمة
بنظرة عميقة وهي ترى في عناقهما شيئاً مألوفاً..
يشبه تعلقها بسند..

هل يكفي!؟

هل يستحق!؟

السؤالان يبقيان يورقان خاطرهما منذ رأت كنان يعود
إليهم ليصطحب مزن بابتسامة عشق - بدا واضحاً
تماماً أنها لا تزال عاجزة عن مبادلتة إياه- وحتى
عادت لمنزلها ليستقبلها سند الذي بدا مندمجاً تماماً
مع خادمته لكن هذا لم يمنع عناقه الملهوف لها وهو
يهتف بالكلمة السحرية :

_ماما.

قبل تساؤله الملهوف :

بابا؟!

_سيعود قريباً.

تتمتع بها بشرود وهي تريه ما جلبته له من ثياب

والعاب..

صار الشراء لديها هوساً وكأنها تعوض حرمان العمر

القديم!

ينام الصغير على ذراعها هائناً بعد حكاية قصيرة

روتها له فتمنحها ابتسامته عناقاً بحجم القلب..

(هل يكفي؟!)

(هل يستحق?!)

يعود السؤالان يجتاحان عقلها فتتوجه نحو مرآتها

التي صارت تأنس لصورتها فيها..

نظراتها تتأرجح بين (قرط هالة) و (سلسلة الكونزيت) هديته هو!

تعرفين معنى أن تعيشي العمر كله محرومة من طفل
يحملة رحكك؟! قد أمضي في طريقي كما فعلت..
أنجح وأجد عملاً أفرغ فيه طاقتي.. أحصل على العديد
من الصداقات بل وربما أقابل رجلاً يحبني فتحدث -
المعجزة - وأوافق على الزواج منه.. لكن.. سيبقى
داخلي مكان شاغر.. اشتياق لقطعة مني أثق أنها لن
تخون ولن تغدر ولن تتخلى.. عطش لعائلة لا تربطني
معها مصالح ولا مشاعر مؤقتة بل دم ونسب.. أنا
أعيش هذا الحرمان مضطرة فليس لي إلا الصبر..
لكن.. أنت.. ما الذي يجبرك!؟!

تذكرها بصوت مزن فترتجف أناملها على سلسلته..

لتجد نفسها تخلعها لتضعها أمامها كأنما تفك عنها

آخر قيوده!!

ما الذي يجبرك!؟

ما الذي يجبرك!؟

دمعة خلف دمعة تسقط على جدار القلب قبل وجنتيها

وهي تشعر أنها قطعت آخر خيوط قيدها..

لكن هل كان (قيداً) .. أم (هوية)!؟

(هل يكفي!؟)

(هل يستحق!؟)

تتكشف الحجب عن ذهنها مع كل ذكرى لها معه
تأتيها الآن طازجة حميمية دافئة دفء العمر القصير
الذي عاشته معه..

فتأخذ نفساً طويلاً وهي ترمق سلسلته من مكانها
فتراها بعيدة بُعد السماء..

الآن فقط يمكنها أن تستريح من الركن..
أن تجلس هادئة تحت شجرتها تفكر فيما تركته
خلفها..

تعاود الاستلقاء جوار الصغير لتضمه إليها ولا تزال
منقسمة لاثنتين..

كلتاها ترددان نفس السؤالين..

(هل يكفي؟!)

(هل يستحق?!)

والجواب يبدو واضحاً في ظلمة الغرفة كلمعة حجر
الكونزيت الذي تزيد العتمة جماله!



_ لا تزال ترفض تناول الطعام!؟

يسأل فهمي بغضب بدا كارثياً مخاطباً الخادمة التي
تنكمش على نفسها بذعر وهي تلوح بكفيها قائلة
بضراعة :



_ليس ذنبي.. والله حاولت معها بكل طريقة لكنها ترفض.

يدفعها بعنف وهو يدخل غرفة فجر في محبسها

الجديد الذي اختاره كذلك جوار البحر..

الفجر.. البحر.. السكون.. المثلث الذي لا يليق بسواها
وبقصتها معه..

يخلع نعليه على عتبتها كعهده وهو يغلق الباب
خلفه..

يراهم متكورة على نفسها في زاوية الغرفة على
الأرض ترفع رأسها عندما تميز حضوره لكنها لا

تسأله السؤال الاعتيادي (عدت!؟)

ربما لأنها عندما استردت ذاكرتها صارت توقن

حتمية الجواب..

لكنه مع هذا يتقدم منها ليقولها بنبرة لا يدري كيف

خرجت منه لينة طائفة :

(ولمن سواك أعود؟!)

ملامحها تبدو شاحبة واهنة بعد يومين تقريباً بلا

طعام رفضته عامدة..

فيرتجف صوته وهو ينحني ليجلس قبالتها على

الأرض.. يشير لوشم الكوبرا على ذراعه :

_تعرفين ماذا وشممت هنا أعلى ذراعي؟! رسم

(كوبرا).

تتكمش مكانها أكثر وهي تزم شفيتها وعيناها

المفتوحتان لا (تبصران) شيئاً.. إنما (تريان) كل

شيء..

_ للجميع هو رمز القوة.. الدهاء.. البطش.. ولك أنتِ..
هو رمز الخضوع.. أجل.. طالما شعرت معكِ كما
تشعر الأفعى وهي ترقص لينة طائعة أمام عزف ناي
ساحرها.. كنتِ وستبقين ساحرتي التي لن أتمرد يوماً
عن إيقاع عزفها.

تسبل جفنيها على فيض من الدموع وهي تنن أنيناً
خافتاً يقرع ضلوعه كمطرقة ثقيلة..
فيهدف بها بعجز :

_ لماذا لا تتناولين طعامك؟! تريدن قتل نفسك؟!
_ وهل أنا حية حقاً؟!!

تتمتم بها دون أن ترفع رأسها إليه فيهدف بحدة :
_ نعم.. هذه هي الحياة التي تليق بكِ.. بعيداً عن كل ما
ومن يؤذيكِ..

ثم يتحسّر ج صوته وهو يردف كأنه يكتوي مثلها

بماضيها:

_ ألم يكن هذا ما خططنا له من البداية عندما بعث

الدنيا كلها لأجلي؟! .. عندما هربنا معاً من ظلم

الناس؟! .. لكنني وقتها كنت مستضعفاً غير قادر على

حمايتك.. اليوم صرت قادراً على البطش بكل من يفكر

حتى في مس شعرة منك.. فماذا تغير؟!!

_ ماذا تغير؟!!

تقولها باستنكار وهي ترفع عينيها المظلمتين إليه

لتردف وهي تتحسس الفراغ حولها بعجز :

_ أنا التي أريد منك ان تخبرني ما الذي تغير؟! كيف

وصلنا إلى هنا؟!؟! أريد أن أعرف! حقي أن أعرف!

_ ما الذي تريدين معرفته؟!!

يهتف بها بنفس الانفعال مردفاً :

_ كم مر من عمر؟! وما يعينك من الوقت والسنوات
ما دمنا معاً؟! كيف صار شكك؟! لا يزال شعرك اسود
كليل تجيدين السطوع فيه كقمر لا تخفيه غيوم.. لا
تزال عيناك كما عشقتهما تفيضان ببراءة لم يلوثها
الوجع.. لا يزال جسدك..

يرتعد صوته رغماً عنه فتصل رعدته إليها وهو يكمل
عبارته كأنه يرجوها السماح :

_ لا يزال جسدك أرضاً طاهرة لا يضيرها ما وطأها
من أقدام موحلة ما دامت لا تزال تزهر.
تنشج نشيجاً خافتاً و هي تتذكر رغماً عنها أحداث
ذلك اليوم الذي انتهكت فيه أمامه فيتأوه بخفوت هاتفاً
بها :

_ لا تبكي.. لا تجعليني أشعر أن كل ما فعلته في حياتي
يساوي صفراً وأنا عاجز عن منحك ما يضمد جرحك..
طوال هذه السنوات وأنا أحميك من الذكرى.. من
الناس.. كل الناس.. حتى من نفسي.
يخفق قلبها بعاطفة لا تنكرها نحوه وهي تتمنى لو
تراه..

لا تزال تذكر ملامحه الوسيمة بخشونة وعرة أخافتها
عندما رآته اول مرة في محل أبيها.. لكنها ألفتها
بعدها لتغزو قلبها في كل مرة كانت تلتقاه حتى تجرأ
ليحدثها..

رأت فيه وقتها شاباً مكافحاً ذكياً - بل عبقرياً - لا
يحتاج سوى فرصة لتفتح له الدنيا أبوابها..

لم يكن فقره عيباً.. بل زاد من هالة فخرها به وهي
تستمع منه يوماً بعد يوم فينتقل طموحه إليها..
كانت تعلم أنه ليس على وفاق مع أهله.. يشعر
بالغربة بينهم.. فتهيات لتكون له كل داره وأهله..
أمنت به حد أنها تركت كل شيء خلفها ورضيت
بالهروب معه..

لا.. لم تكن تراه هروباً.. بل استعادة حقها المشروع
في اختيار من خفق له قلبها..

عاشت معه أياماً من جنة قصيرة في بيتها المنعزل
رغم بساطة حاله.. قبل أن تخترق العزلة وحوش
البشر..

فتجد نفسها بين عشية وضحاها موصومة به..
موجوعة به وله..

أهلها أجبروه ان يطلقها وسجنوها هي حتى ينسى
الناس عارها..

عاشت بعدها سنوات تتخبط بين جدران غرفتها كفرخ
ذبيح ينتظر راحة الموت.. منبوذة بين الجميع بعار
صارت تدرك ثقل وزره على كتفها قبل أكتافهم!
كانت ترجوهم مراراً ان يقتلوها كي يستريح الجميع
لكنهم بقوا يرمقونها بنظراتهم مشفقة تارة..
ومحتقرة تارة.. لكنها دوماً كانت تلسعها بسياط
الغضب!

حتى كان ذاك اليوم الذي سافرت فيه معهم دون
ترتيب ليمنحها الحادث راحة من كل تلك الذكريات..
كم مر من سنوات!؟

تشعر به وقد قرب الطعام من فمها.. تشم رائحته قبل
أن يصلها صوته يغمرها بذكرى لطيفة من أيام
زواجهما الأولى..

_ (كباب الروبيان).. صحيح أنه ليس جيداً كما تعدينه
أنتِ.. لكنني أعرف أنك تحبين طعمه.

صوته المتحشرج يفضح لوعة حقيقية بصدرة وكأنه
هو الآخر يشاركها الذكرى.. آهة عنيدة تجاهد لتغادر
صدرها وقلبها يترنح بين ألفة.. ونفور!!

_ أخبرني بما حدث أولاً.. وإلا فلن أقرب الطعام.
عنادها يمتزج برقة فطرية وجد طريقه لقلبه لكنه
يهتف بخشونة فجرها خوفه عليها :

_ بل كلي أولاً.. ستفقدين وعيك ضعفاً.
تهز رأسها رفضاً فيزفر قائلاً :

_كلي.. وأعدك أن أخبرك.

تطيع أخيراً وهي تشعر بالطعام رغم لذته - المتوقعة-

مر المذاق في حلقها..

تكاد تلفظه وهي تشعر بأمعائها تشارك عقلها فوضاه

لكنها تتمسك بوعدہ..

لن يخلفها وعده.. هذا ظنها فيه!!

تكتفي ببضع لقيمات ثم تشير له بكفها رافضة فلا

يرغمها على المزيد..

يسقيها بعضاً من عصير يعرف أنها تحبه كذلك

فتتلقفه بنهم يثير المزيد من غضبه العاجز وهو يميز

كم كانت تضغط على نفسها..

يكاد يصب لها المزيد لكنها تهتف بقوة ضارعة :

_تكلم الآن.. أنا اكتفيت!

يضع ما بيده جانباً وهو يشعر في هذه اللحظة بالذات

بحاجته لأن يمسخها..

يحتضن كفها بين راحتيه.. يخفي رأسها بين

ضلوعه..

يلقي بثقل جسده فوق جسدها..

أي شيء يؤكد له انها هنا.. وستبقى هنا!

لكنه يتمالك نفسه بقوة لم تخنه وهو يحافظ على

مسافة مناسبة بينهما ثم يبدأ في الحكي..

لا.. لم يكذب!

أخبرها بكل شيء فعله.. ولا يزال يفعله!!

بداية من انضمامه للتنظيم.. مروراً بالحادث الذي كان

هو مديره دون علمه بأنها معهم.. وانتهاء بتلفيق

موتها وجلبها لبيته السابق!

لم يكذب.. ولم يتكلف تجميل حقائق!
هل هو غروره النرجسي الذي جعله يظن أن
ماضيها سيشفع له عندها؟!
هل هي رغبته في الفخر بما آل إليه حاله من منتهى
الضعف لمنتهى القوة؟!
أم هي بقايا عهد قديم قطعه على نفسه ألا يكذب في
حضرتها؟!
نعم.. هي ملاكه الذي يستكف أن يخدعه رغم كل
شيء..

النقطة البيضاء الشاحبة الوحيدة وسط سواد
صحيفته!!
تستمع إليه مفتوحة العينين وقد انفغر فاهها بمزيج من
دهشة وارتياح..

تتكم أنفاسها فلا تشعر إلا وهي تشهق أخيراً شهقة
عالية كأنما نسيت في غمرة انغماسها كيف تتنفس!!
دموعها تتحجر على وجنتيها لدقائق طالت كأنما
تحاول فقط استيعاب كل ما سمعته..

قبل أن يغادر سؤاها شفيتها مترنحاً :

_ أين فهمي!؟!

هاهنا فقط تعاود دموعها الفيضان من جديد فيغمض
عينيه على عجزه للحظات وهو يود لو يخبرها أنه..
قتله!

قتله ودفنه في ركن مظلم من ذاكرته منذ سنوات ولم
يبقَ منه شيئاً حياً سواها هي..!!

هي وحدها من تقف على الحافة الرفيعة بين (فهمي)
و (الكوبرا)!

_ أين الرجل الذي ائتمنته يوماً على نفسي؟! دعه يعد

ويحكي لي عما كان وأنا سأصدقه.. أما أنت فلا

تقربني .. أنت شيطان.. دعني.

هذيانها يتحول لصراخ هائج وهي تقف مكانها..

تترنج وهي تحاول التثبيت بأي شيء يحفظ لها

توازنها..

قدمها تتعثران بصينية الطعام تحتها فتكاد تسقط..

لكنه يقف مكانه محاذراً أن يمسها..

تكاد تسقط لكنها تتشبث بحافة الفراش صارخة :

_ دعني أغادر هذا المكان.. دعني أخرج..

_ افعلي لو استطعت.

كانت هذه أغرب نبرة سمعتها بين وعيد.. وخوف!

تطلق صرخاتها تباعاً وهي تمد ذراعيها أمامها بعجز

تحاول تحسس الطريق..

تتعثر في طرف السجادة تارة.. وفي قطعة أثاث

أخرى..

تدور حول نفسها بالمزيد من العجز وهي تشعر أن

ظلام عينيها يتمخض عن المزيد من العتمة..

تتلاحق أنفاسها وهي تشعر بالوهن يملك منها أخيراً

فتسقط مكانها مستسلمة وهي تصب عليه لعناتها :

ما دمت أنا عاجزة عن المغادرة فارحل انت.. ارحل

انت.. ارحل ولا تعد.. لا تعد..

تصرخ بها مراراً وهي تكتف جسدها فيصرخ فيها

بدوره :

إلا هذه! دوماً سأعود.. دوماً سأعود..

ثم يتهدج صوته باستطراده :

لمن سواك أعود؟!!

تهز رأسها بنفور ولا تزال عاجزة عن تصديق

الجحيم الذي زلت فيه قدماها دون إرادة..

هو صار مجرماً!

هو قتل عائلتها وكان سبباً في فقدانها لبصرها!!!

هو لفق موتها ليحتجزها سجيناً طوال هذه

السنوات!!!

يا الله! كابوس! هذا كابوس!

تصرخ بها بهياج لتردف وهي تلوح بذراعيها :

لولا خوفاً من أن أخسر آخرتي كما خسرت دنياي

لقتلت نفسي.. أنا أكرهك.. أكرهك وأكره اليوم الذي

صادفتني فيه لتكون لعنة عمري كله!

وكأنما طعنته في مقتل!

زمجرته الغاضبة تصلها كوحش يوشك على
الانقراض عليها وصراخه يكاد يرج جدران الغرفة

حولها:

_أبدأ.. لا تكرريها أبداً.. أنتِ تحبينني.. حتى في عز
غضبك ستصفحين.. ستفهمين وتتفهمين.. ستعودين
امراتي التي تزوجتها منذ سنوات وحافظت عليها كي
لا يعتني بها غيري.. أنتِ لي.. وستبقين لي.. اغضبي
واصرخي كيف شئتِ لكن روحك توقن أن امانك
معي.. أنا فقط.

_حسام!

تهتف بها كمن وجدت طوق نجاة وهو الوحيد الذي
تذكرته من عائلتها.. ربما لطبيعة عمله.. وربما لأنه

الوحيد الذي كان شاهداً وداعماً لقصتهما قبل فعلتها

الرهيبه بالهروب..

لتردف بين صرخاتها :

_ أين هو؟! كيف تركني؟! هل صدق موتي هو

الآخر؟! أم أنك آذيته!؟

ينعقد حاجباه بغضب عارم فيبدو كشيطان مسلسل

ينتظر الفرصة للفكاك من الأسر..

يتركها لنوبة صراخها ليخرج ويغلق الباب خلفه

صارخاً بالخادمة أن تدخل إليها وتحاول تهدئتها..

يبقى واقفاً خلف الباب كتلميذ مذنب يؤدي طقوس

عقابه وهو يوقن أنه قد حرم عذوبة عزفها لوقت

ليس بقريب..

ينتظر حتى يهادن الصمت أذنيه فيطمئن

لاستسلامها..

يتحرك ليغادر البيت بخطوات مهزومة تناقض

التحصين القوي للمكان برجاله فكانه قلعة غير قابلة

للاقتحام أو الهروب..

لن يجازف كالمرّة السابقة بأن يصل إليها أحد..

يعرف أنه بقتله ل(بتول) وبرسالته التي تركها لأديم

وحسام قد صار مكشوفاً فلا مجال للعودة لحياته

ك(فهمي)!

وكم يثير هذا غيظه!!

(لعبة التحدي) التي كان يمارسها طوال هذه السنوات

ببراعة يثبتها لنفسه وهو يرى تمكنه الرهيب من

الفصل بين الدورين المتناقضين ل(فهمي)

و(الكوبرا)

الآن يجد نفسه مضطراً لتركها!

لكن لا بأس.. مادامت هي غنيمته من حرب كهذه فلا

مانع!

يصل لسيارته فيستقلها لتضييق عيناه وهو يخاطب

صورته في المرآة بقوله:

لم تعد هناك خطوط حمراء.. سأسحق كل ما ومن

يقف بيني وبينها.

=====

_ عادت.. ماما عادت يا اولادي.

تهتف بها يولاند أمام قبور أولادها الثلاث ب(اللغة العربية) دون وعي.. كأنما وعت فطرتها أنها اللغة التي ربطت وستبقى تربط بينها وبينهم..
تبدأ في الغناء..

تلك الغنوة الفرنسية التي كانت تنيمهم بها والتي بقيت تذكرها طوال تلك السنوات بالفجوة بين (يولاند) و(فدوى)..

الآن فقط يمكنها الصراخ أنها أخذت بثأرها لهم..
الآن وقد عادت لتوها من زيارة ريان في السجن..
رأت سواد الخسارة على ملامحه..

تبينت كفيه اللذين صاروا خاويين من كل شيء..
ميزت في عينيه ذاك الاعتذار النادم الذي طالما سعت
لتسمعه منه..

صفته!

صفته تلك الصفة التي أرادتها تماماً وهي تقف
أمامه بكامل زينتها واناقتها وبهائها..
وصلت له الرسالة..

(يولاند عادت لنفسها.. وأنت خسرت نفسك)

لكن هل عادت لنفسها حقاً؟

لماذا تشعر إذن بهذه الفجوة بين ضلوعها؟!
لم يمنحها الانتقام لذة العوض التي طالما اشتهدت

مذاقها..

لماذا؟!!

تشعر بالكف الداعم على كتفها فتلتفت نحو إيلان

الذي بادرها بابتسامة هادئة :

_حان وقت الرحيل حبيبتى.. أظنك الآن مرتاحة.

(مرتاحة) !؟

المعنى يبدو بعيداً جداً عن لسعات الجمر الذي

تضطرم حرائقه في روحها..

لكنها أجبن من أن تعترف بهذا!!

لهذا ترتجف ابتسامتها وهي تسير جواره حتى يستقلا

معاً سيارته نحو شقتها حيث تقيم مع لارا..

_ألم يحن الوقت لنكون معاً؟!

هممته تبدو لها رومنسية مشتاقة لولا نبرة الظفر

التي فاحت من حروفه وضخمها شعورها بالخسارة

الذي لا تفهم سره..

خاصة وهو يرفع كفا ليقبله بقوله :

_ أنتِ أعظم انتصاراتي.

تغمض عينيها على صورتها..

طبيبة فاتنة أنيقة رشيقة ناجحة تحمل مركزاً مرموقاً

في مشفى مميز..

وطبيب لا يقل عنها نجاحاً ووسامة بل يزيد..

ما الذي ينقص صورة كهذه ليمنحها الكمال؟!

لماذا لا تستطيع إذن الشرب نخب النصر؟!

_ حبيبتي..

يهمس بها وهو يتوقف بالسيارة أمام بيتها.. يستقل

معها المصعد نحو شقتها..

تحاول التخلص من رففته فتغمغم بنبرة مرهقة :

_ أنا متعبة.. هي فرصتي أن لارا ذهبت للتسوق من

اول اليوم.. اريد النوم دون صخب.

لكنه يتناول منها مفتاح شقتها ليفتح الباب بنفسه

يجذبها ليدخل معها ويغلقه خلفه في شارة واضحة

للملكية..

تشعر بمزيد من الوهن والخوف من سيطرته التي

يحكم طوقها حول عنقها يوماً بعد يوم..

تماماً كما يفعل الآن وهو يتحرك بها نحو الأريكة

القريبة، ينزع عنها سترتها غير مبالٍ باعتراضها

الواهي.. يجلس جوارها ليضمها إليه مرتباً على

رأسها بحركات هادئة تناسب قوله:

_ ارتاحي حبيبتي.. انا معك.. لن يؤذيك شيء.

يتشج جسدها رغماً عنها وهي ترفع إليه رأسها
بنظرات وجلة نافرة..

عيناه الذكيتان تسبران أغوارها بمهارة فيسألها :

_ لماذا لا تبدين سعيدة!؟!

تغضب ابتسامة مصطنعة وهي تشيح بوجهها :

_ امرأة عادت لتوها من زيارة قبور أولادها! أي

امرئ ذي شعور سيتفهم حالتي الآن.

لا تعجبه طريققتها في الرد فيصدر هممة قصيرة

وهو يدير ذقنها نحوه ليغرس نظراته في عينيها

قائلاً :

_ أي امرئ ذي شعور سيقدر قيمة ما فعلته أنا لك..

لولاي لكان قبرك هو الرابع.. لا أتحدث هنا عن

حرفية التعبير لكن عن حقيقة وضعك عندما التقينا

من جديد.. مجرد جثة ساكنة بخواء تنتظر من يكرمها
بالدفن..

تتكسد الدموع في عينيها وهي تشعر كأنها قارب
تتقاذفه أمواج حيرتها..

لكنه يمسح طرف عينيها بإبهامه مردفاً :
_ حبيبتى العنيدة التى طالما أرهقتى عنادها.. حان
الوقت لتأخذى هدنة من كل حروب الماضى..
تئن بألم يسيء فهمه فيقترب منها أكثر وهمسه يصير
أكثر إغواء :

_ استسلمى.. استسلامك الآن بين ذراعى هو الأمان
الأخير.. اشتقتك حبيبتى.. اشتقتك حد الألم.. لكننى ما
كنت لأسمح لنفسى بتذوق ثمارك حتى أفي بوعودى
كلها.. وها قد فعلت!

لا تدري كيف غابت عن وعيها بين ذراعيه.. كدمية

انقطعت خيوطها كلها فجأة!

هل هو مجرد احتياج جسدي لامرأة مهجورة؟!!

هل هي آخر خطواتها للانتقام من ريان؟! لتلوين

جسدها بغيره كما خضب هو جسده بغيرها؟!!

أم هو (ضلال التيه) الذي تعرف أنه قد عوقب به

قومها يوماً والآن تجربه بأقسى صورته؟!!

لمساته تبدو شديدة النعومة لكنها تخزها كالشوك..

انينها الخافت لم يكن عن نشوة بل عن وجع..

تريد الصراخ ب(لا) لكنها تبدو بعيدة تماماً عن لسان

خنقته مأساته؟!!

تشعر به يحملها نحو الفراش في الغرفة القريبة..

يلقيها ببعض العنف المثير لكنه يبدو لها الآن..

الآن فقط..

على حقيقته!

على ملامحه يتراقص مكر الغاصب وغواية

السحرة..

وبين ذراعيه هذا الفخ الذي لن ينجو المار على

حافته!

لا!

تجدها أخيراً على طرف لسانها الذي انحلت عقدته

وذراعاها يقفان حائلاً بينهما لكنه ينحني فوقها وكأنه

غير مصدق..

أو غير مبالٍ!

لا

لا

لا

لا تصرخ بسواها وكأنها فقط راضية انها تحررت من
قيود (تبعيتها)..

تحاول التملص منه بكل قوتها لكنه يخضعها بطريقته
الملتوية..

بالرفق مرة..

وبالغضب مرات..!!

حتى إذا ما انتهى منها قبضت أنامله على شعرها
ليرفع وجهها إليه هامساً بعينين متقدتين كالجمر :
_ هذه - تماماً- هي الطريقة التي تمنيت بها نيلك منذ
سنوات قطيعتنا.. حتى (لا) هذه التي تصرخين بها
بدت لي مثيرة.. هذا الألم على ملامحك ثمن لرفضك
القديم.. وهذه النشوة المكتملة في عينيك برهان رضا

عن العهد الجديد .. أحب دوماً ان انال (حقي) بهذه
الطريقة.. بين مهادنة وقهر.. وأنتِ حقي.. حقي الذي
نلته - وسأناله- دوماً كما أريد.

تمد كفها لتصفعه لكنها تشعر بوهن جسدها يخذلها
بعد معركة (غير متكافئة القوة) .. معركة قهرها فيها
لينال ما يريد..

يترك شعرها أخيراً ليربت على وجنتها برفق :
_الآن يمكنك ان تستريح حبيبتى.. لا يستريح إلا
من يعرف أين تودي به خطواته.. وخطواتك حتماً
ستقودك دوماً إليّ!

تشعر به يغادر وصدى عبارته يتردد في أذنها..
(لا يستريح إلا من يعرف أين تودي به خطواته)
فهل تعرف هي؟!!

تكتم أناتها في وسادتها بقهر وقبضتها الواهنة تهوي

على جسدها كأنها تعاقبه!

علامَ تعاقبه؟!!

على ضعفه في الرفض؟!!

أم على متعته في القبول؟!!

هل اغتصبها إيلان؟!!

أم نالها راضية؟!!

هل هذه طريقته التي يتحدث عنها؟!!

(سياسته) التي يتبجح بأنه يحب نيل (ما يراه حقه)

بها؟!!

لم تكن سياسته وحده..

بل دين كل من ينتمي لهم!

زعزعة الثوابت وفرض الوهم!!!

هو اغتصبها!!

اغتصبها (بالقوة) ويريد أن تصدق وهمه انها هي

من (سلمت جسدها)!

يهدا بكاؤها اخيراً بعد وقت لا تعلمه فتنهض بصعوبة

وهي تشعر رغم وهنها بحاجتها لتطهير جسدها..

شلالات الماء التي تتعمد جعلها شديدة السخونة حد

احمرار جلدها لا تمنحها (الظهر) المطلوب..

لكنها تخرج من تحت الماء تحاول التقاط أنفاسها

وهي تشعر بالمزيد من (ضلال التيه) يشوش حتى

صورة مرآتها!!

لن تبقى هنا!

لو بقيت ساعة واحدة اخري هنا فستصاب بالجنون!!

لمن تشكو!؟

لارا!!

لارا لن تفهم!

ستحسبه فقط عاشقاً مجنوناً أغرقها في عاطفة مثيرة

وهي فقط التي اعتادت برودة الشرقيين كريان!

يزداد إحساسها بالوحدة فتتحرك خاوية الخطوات نحو

خزانة ملابسها..

تفتحها لتختار ثوباً ساتراً بأكمام طويلة.. لا تدري هل

تفعلها لأنها تكره رؤية جسدها بعد ما حدث..

أم لتدري أثر احمرار جلدها المتورم بفعل الماء شديد

السخونة الذي ارغمت نفسها علي البقاء تحته!!

ستخرج!

إلى أين؟!

هذا البلد الذي عاشت فيه سنواتها الأخيرة كلها..

والآن لا تجد مكاناً واحداً يمكنها الذهاب إليه.. لعلها

تجد فيه راحتها!!

تكاد تغادر شقتها بخطوات بطيئة وقد غطت رأسها

بوشاح قديم.. لم تفعلها بدافع الستر.. إنما كرهت

تكرر المشهد امام عينيها وقبضة إيلان تعتصره

بتملك!!

_أريد التحدث إليك.

الهدف امامها بالصوت المألوف!

كانت تفتح باب الشقة في نفس التوقيت الذي كان هو

فيه يهم بضغط الجرس..

_جهاد!!

=====

_جهاد!!

كانت رؤيته الآن صاعقة بعد ما كان منه في المؤتمر
خاصة وهي تعلم انه قد سافر لزهرة منذ زمن كي
يعتني بها في مرضها!

تدعوه للدخول لكن نظراته النافرة تمنحها اعتذاراً
حاسماً وهو يشيح بوجهه مكرراً طلبه:

_أريد التحدث معك.. لكن بالتأكيد ليس هنا.

لهفتها لا تبدو خافية عليه وهي تغلق الباب خلفها
لتسير جواره..

ولولا خوفها من سوء تفسيره لتعلقت بذراعه!!
دموعها الصامته تغرق وجهها وهي تستقر قبالة
أخيراً في أحد المطاعم القريبة..

لكنه يبقى صابراً حتى تقرر هي الكلام من نفسها..

وهاقد فعلت أخيراً بعدما مسحت دموعها لتسأله

بصوت مبحوح :

لماذا عدت؟! _

لأجلك.. ولأجل صديقي.

لا يدهشها الجزء الأول من عبارته بطبيعة الحال فقد

كانت تعلم مكانتها لديه..

لكن الجزء الثاني من كلامه يجعلها تهتف باستنكار :

تقصد من كان صديقك؟! السبب الوحيد الذي أتقبله

ان تكون قد عدت شامتاً في مصابه..

يهز رأسه نفيماً بحسم ونظراته ذات المروءة تمنحها

الجواب الصحيح..

فتردف باستنكار :

_عجباً!! لا تقل انك بهذه الدرجة من المثالية حد أنك

عدت لتساعده في محنته!؟!

_ليست مثالية.. لكنها تعلمت بالطريقة الأقسى أن

أحافظ على (هويتي).. على (انسانيتي).. لو جازيت

كل مسيء بإساءته فماذا سيتبقى لي من حسن خصال

نفسي!؟!

تتسع عيناها كانها تتشرب كلماته بكل ما فيها وهي

تراه يردف بنفس الحرارة :

_أسوأ ما يدفعنا إليه الانتقام ان يجعلنا صورة

منسوخة ممن آذونا! أن نصير انذال جبناء انتهازيين

مثلهم.. فتسودّ قلوبنا كما اسودت قلوبهم ونصير في

الظلم سواء!

تطرق برأسها في خزي يقرأه جلياً فيطرق الحديد

وهو ساخن :

_راضية أنتِ؟! مرتاحة لما سيؤول إليه مصيره؟! هل

منحك الانتقام شفاء سقمك؟! زال أثر ظلمه من قلبك

عندما ظلمته أنت الأخرى!؟!

_كفى! كفى!

تتمتم بها بين دموعها وهي تخفي وجهها بين كفيها

فيهتف باسمها :

_يولاندا.. كنت مخطئاً عندما اخترت لك اسم

(فدوى).. واحدة مثلك لم يكن مناسباً لها أن ترتدي

عباءة غيرها بدافع الحب فحسب.. كنتِ على صواب

عندما قلتِ أنكِ لم تعتنقي الإسلام بل اعتنقتِ ريان..

وعندما كفرتِ به عدت تكفيرين بكل شيء.. لكنني لم

أعد لأنافشك في عقيدتك.. بل في (انسانيتك).. أنتِ
وحدك من يمكنه مساعدة ريان الآن.. أنتِ التي
تعلمين لماذا قتل زوجته.. أنتِ الشاهدة على ما كان.
يحمر وجهها بغضب وهي تعود لتتذكر خيانة ريان
لها مع تلك المرأة..
فتهتف بمكابرة :

هو جزاؤه.. ثمن دم اولادي.. ثمن عمري الذي ضاع
معه!

بل دليل ما بقي من (انسانيتك) بغض النظر عن أي
اعتبارات أخرى!

يقولها ببعض الصرامة محاولاً منعها من رثاء الذات
لنتجمد ملامحها كأنما فتحت لها كلماته نفقاً آخر..
فيردف بنبرة أرق:



_ احياناً نحتاج الصفح عن الآخرين لا لأجلهم بل لأجل
السلام لأنفسنا نحن.. السلام يا يولاند..السلام!.. راحة
قلبك..كم تدفعين ثمناً لها؟!!

تتردد ملامحها بين رفض وقبول ولا يزال (ضلال
التيه) يشوش على عيون قلبها..

تقف مكانها بانفعال لتتحرك نحو نافذة المطعم المطلة
على حديقته.. تشبك ساعديها بشرود وبصرها معلق
بالمنظر حيث مضى بعض الأطفال يلعبون..

ضحكاتهم تقصف قلبها بمزيج من اشتياق ووجع!
ورغماً عنها ترسم ملامح أطفالها فوق وجوههم..
ملامح تدعوها براءتها للصفح.. لا للانتقام!

(لا يستريح إلا من يعرف أين تؤدي به خطواته)

تذكرها كما سمعتها منذ قليل بصوت إيلان فيرتجف

جسدها نفوراً لكن قلبها يتلقفها ك(شارة طريق)..

السلام يا يولاند.. السلام!

_أسوأ ما يدفعنا إليه الانتقام ان يجعلنا صورة

منسوخة ممن آذونا! أن نصير انذال جبناء انتهازيين

مثلهم.. فتسودّ قلوبنا كما اسودت قلوبهم ونصير في

الظلم سواء!

تذكرها بصوت جهاد الجالس خلفها فتتلون روحها

بين غضب وخزي..

السلام يا يولاند.. السلام!

_احياناً نحتاج الصفح عن الآخرين لا لأجلهم بل لأجل

السلام لأنفسنا نحن..

يختم بها قلبها رحلته ولا تزال قدماه تقفوان الأثر

الطيب..

السلام يا يولاند..السلام..

راحة قلبك..كم تدفعين ثمناً لها!؟!

لم يكن الخيار سهلاً وهي تدرك علامَ تقامر!!

شهادتها مع ريان ستكون (إعلان حرب) على إيلان

بكل ما يعنيه لها من دعم!!

تري أحد الاطفال يتقدم نحوها وقد قطف زهرة

ليمنحها إياها..

تبتسم وهي تتنبه أخيراً لبكائها المرتفع فتمسح

دموعها وهي تتناولها منه..

تأخذ نفساً عميقاً كأنما تريد للعبير المؤقت أن يزيل

أثر وجع القلب المكثوم..

(ضلال التيه) تذروه (رياح السلام) التي ودت لو
تجرف أثر الجروح في ماضيها لتتركه بعدها تربة
خصيبة لزرع وثمر..!

الآن صارت تدرك أين تؤدي بها خطواتها!!

ولن تندم على الاختيار!

لهذا تعود بخطوات واثقة نحو جهاد لتقول بحسم :
_لم يفت الوقت بعد.. دعنا نرى ما يمكننا فعله لأجل
(صديقك).. انا سأشهد بكل ما أعرفه.



أحمر

_____ ماذا تعني بأنك تركت لها سامي!؟
يهتف بها إبراهيم باستنكار مخاطباً ربيع الذي يتهد
بحرارة محاولاً احتواء غضب ابنه بقوله الهادئ:
_____ هي تحتاجه يا ابني كما يحتاجها.

_____ كلام فارغ!!

يهتف بها إبراهيم بنفس الاستنكار العاصف ليصطدم
بنظرة عاتبة من أبيه تجعله يطرق برأسه مغمماً
بنبرة اعتذار مرتبكة :

_ لا أقصد يا أبي.. لكن.. سامي شأنه يخص شقيقته..

هي التي تحكم فيه.

_ شقيقته لا تزال تعالج في مصحة الإدمان.. يسرا هي

من تتولى نفقات علاجها من البداية كما أخبرني مدير

المصحة لكنها طلبت منه أن يخبرك أنها مجانية.

_ هذه أيضاً كذبت فيها!!

يتمتم بها إبراهيم بحسرة غاضبة وهو يتذكر ما كان

من (سمرا القديمة) ليقبض كفه بقوة كأنه يمسك به

قلبه مسلسلاً إياه بقيود من نار كي لا يركض خلف

سراب الحنين لها..

_ لا تزال صلباً كعصا يسهل كسرها.. لا تزال لا تفهم

طغيان الرمادي عندما يراوغ بين الأسود والأبيض..

لن أدافع عنها ولن أصف ما فعلته ب(الصحيح) لكنني

فقط أذكرك بما فعلته أنت عندما تملك وحش الغضب
منها..

يحمر وجه إبراهيم بمزيج من غضب وندم وهو يتذكر
ما فعله بها أمام أهل الحي.. إلى الآن لا يصدق أي
شيطان تملكه وقتها..

يوماً ما ظنها أعظم (نعمه).. فصارت أعظم
(خطاياها)!

يقراها أبوه في عينيه دون أن يتفوه بها فيربت على
كتفه مردفاً برفق حازم :

_ في حياة كل منا لحظات يتوه فيها عن نفسه.. يفقد
السيطرة على أفعاله.. يغيب عقله.. تجذبه الدوامات
فلا يبالي أي صرخة يطلقها ولا أي ذراع يتلقفه..
وليس عدلاً أبداً أن نحاسب غريقاً يصارع الموت

وسط الموج.. بل ننتظره حتى يرسو على شط النجاة
فيقيم هو اختياره في ساعة اختيار حرة دون قيود.
يشيح إبراهيم بوجهه فيما بدا كمكابرة لكنه كان يدرك
أنها حرب!

حرب يخوضها كل يوم منذ يفتح عينيه صباحاً على
فراشه الخالي منها وحتى يغلقهما آخر الليل على حلم
خائن بها!!

_وكيف ستعتني بسامي وهي في حالتها هذه؟!
صحيح أنها فكت جبيرة ساقها لكن ذراعها لا يزال
على حاله.. وكدمات ظهرها وكتفها تمنعها مغادرة
الفراش!

_وكيف عرفت انت كل هذا؟! ظننتك لست مهتماً!!

يغمغم بها ربيع ببعض المكر ليطرق إبراهيم بوجهه
وقد احمرت أذناه بانفعاله المكتوم..

لن يخبر أحداً أنه يذهب للمشفى كل يوم يسأل الأطباء
عن حالتها خلسة دون أن يراها!
لكن أباه الذي بدا خبيراً ببواطنه لم يضغط عليه أكثر
وهو يردف بنبرته الحانية :

_ ستغادر المشفى اليوم لبيتها.. لهذا تريد سامي
معها.. أنت لا تعرف كيف يكون شعور المرأة عندما
تفقد طفلاً.. وهي لم تفقد واحداً بل اثنين..
يغمض إبراهيم جفنيه المثقلين بشعوره بالذنب نحوها
فيتجاوز ربيع الحديث عن الأمر ليغير الموضوع
لآخر :

_ هناك مشوار ضروري أحتاجك معي فيه.. واجب

عزاء

يمط إبراهيم شفتيه باستياء ولو استطاع نطقها

لفعل..

(اللجنة على مشاوير العزاء وما يأتي من خلفها)

يتذكر كيف فتحت عليه زيارته لحسام القاضي معزياً

كل أبواب الجحيم!!

لكن ربيع يبدو غافلاً عن هذا وهو يردف بأسى:

_ إياد ابن السيدة خديجة مديرة المدرسة التي كنت..

صوت تكسر زجاج يقطع حديثه فيلتفت جانباً نحو

المطبخ القريب حيث هبة التي بدت في غاية الارتباك

وهي تتحني لتجمع الشظايا المكسورة قائلة بتلعثم :

_ اعذرني يا خالي.. سيرة الموت هذه مقبضة.

_ لا عليك يا ابنتي.. الخبر كان مفاجئاً حقاً.

_ كيف مات؟!!

حروفها المتحشجة تحاول ان تداري خبيئتها ليرد

ربيع وهو يبسط كفيه بجهل..

_ لا أحد يعرف.

_ سأذهب معكما.. أريد تعزيتها انا الأخرى.

يمنحها إيماءة موافقة فتكتم دموعها وهي تترك ما

بيدها لتعود لشقتها كي تبذل ملابسها و.. تؤدي واجب

العزاء!

=====

_ ابني لم يموت.. لم يموت.. في من تعزونني؟! ابني

حي.. حي..

تصرخ بها خديجة وسط جموع المعزين في بيتها..

يحاولون تهدئتها لكنها تطردهم حرفياً وهي تصرخ
فيهم كأنها فقدت عقلها..

تحتضنها عزة بقوة وهي تحاول التسرية عنها فيما
يقترب منها إيهاب وقد بدا بلامحه البائسة كأنه زاد
عمرأ فوق عمره..

_ قل لهم يا إيهاب.. أخوك لم يمت.. هو بالكاد رجع
لحضني.. قل لهم..

لا تزال تصرخ بها بوجع فيمسك كتفيها بقوة راجياً :
_ أرجوك يا امي.. لأجل صحتك.. اهدئي.

يغادر الحضور وهم يدعون لها بالصبر تزامناً مع
دخول ربيع وابنه وهبة التي بدت مرتجفة على عكس
طبيعتها الصلبة بينما تتأمل المكان حولها..

_ كان هنا.. هنا معي.. منذ أيام فقط.. كنت أريه غرفته
حيث الشرائط التي سجلتها انت له.. خرج منها
سعيداً.. لا.. لم يكن سعيداً بل راضياً.. لم أره يوماً
سعيداً.. تخيلوا! منذ ولدته لم أره يوماً سعيداً!!
تتمم بها بما بدا كالهذيان لكنها تلمح ربيع فيدور بين
عينيها حديث طويل غامض كأن بينهما تاريخاً
قديماً..

ربما لهذا بدت عبارتها أكثر حميمية مما يفترض
وهي تقترب منه قائلة بين فيض دموعها :

_ هل ضيعت ابني حقاً يا ربيع!؟

يمنحها ربيع نظرة غامضة بدت وكأن كليهما فقط
يفهمان مغزاها قبل أن يطرق برأسه قائلاً :
_ لله ما أعطى وما أخذ.. هوني عليك.

تراقبهما هبة بقدر الدهشة التي سمح بها إدراكها
الواهن لما حولها وهي تراهما ينسحبان لركن قريب
فتجلس جواره لتسرّ له بما عجزت هي عن سماعه..
فيما جلس إيهاب جوار إبراهيم يتبادلان العبارات
التقليدية في مثل هذه المناسبات!

مثل هذه المناسبات!!؟

تكاد تبتسم بمرارة ساخرة وعيناها تدوران في الشقة
دون تحفظ..

تقعان على صورة مؤطرة قديمة لكنها هي تعرفها..
بل حفرت في قلبها منذ سنوات..

صورته صغيراً جوار أخيه وفي عينيه هذه النظرة
التي لن تنساها أبداً..

(نظرة من يرغب لكنه يعرف أنه لا يستحق!)

نفس النظرة التي لم تغادر عينيه حتى عندما كبر!!

مات؟!!

حقاً مات!!!

ما هذا العبث؟!!

تستغفر الله كثيراً للخاطر الشيطاني الأخير وهي تشبك

كفيها بقوة غير قادرة على منع ارتباكها..

ارتباك هو أقرب منه للحزن!!!

لا تصدق.. لا تفهم.. لا تفهم نفسها وما أقساه من

شعور على فتاة ببساطتها!!!

لهذا ما كاد ربيع يقف بعد ما أنهى حديثه الجانبي مع

خديجة ليتقدم نحوهم حتى وقفت بدورها بسرعة

تهرب من هذا الشعور الغامض الذي لا تفهمه..

يغادرون بيت خديجة فتبقى شاردة للحظات وهي

تشعر أنها تفتقد سمرا..

من سواها ستفهمها!!

تبا! لقد صارت يسرا الآن.. لكن.. هل يشكل هذا

فارقاً؟!

_ عفواً يا خالي.. اذهب انت مع إبراهيم.. سأتوجه

للمشفى.. يسرا ستغادره اليوم ويجب أن اكون معها.

تختلس نظرة خاطفة ببعض الذنب نحو إبراهيم الذي

اشتعلت عيناه كجمرتين من نار.. فيما يهز ربيع رأسه

قائلاً :

_ سأذهب معك.. توصلنا يا إبراهيم؟!

(هذا كثير.. كثير حقاً!)

يكاد يصرخ بها بحدة لكنه يكتمها داخله موقناً أن

طلب أبيه أمر!!

لهذا يبقى صامتاً طوال الطريق مشتعللاً بأفكاره حتى
يصل بهم للمشفى ولم يكادا يترجلان من سيارته حتى
انطلق بها بسرعة شديدة كأنه يهرب من شيطان!!

*** أخضر ***

تراقب عزة خديجة بإشفاق بعد انصراف المعزين وقد
استسلمت أخيراً للنوم بعد قرص من الأدوية
المهدئة..

ترى إيهاب يرفع عليها غطاءها برفق ثم ينحني ليقبل
جبينها قبل أن يخرج من الغرفة وكأنه لا يراها هي..

يتجاهلها؟!!

هل يفعل حقاً؟!!

تخرج من الغرفة خلفه لتراه يتوجه نحو غرفة إياد
فلا يضغط زر إضاءتها بل يبقيها شبه مظلمة إلا من
ضوء خافت يصل عبر النافذة المفتوحة لقمر بئس
يختبئ خلف غيومه..

.. تقف مكانها حائرة لا تعرف ماذا تفعل..

هل ستعود ل(حافة التردد السخيفة) من جديد؟!!

صوت قاهر داخلها يخبرها انها أدت واجبها نحو هذه

العائلة كما ينبغي..

فما الذي يبقيها هنا حتى الآن؟!!

فلترحل وتغلق هذه الصفحة كما كان ينبغي لها قبل
ان تجد الأمور الخطيرة الأخيرة فتضطر للتراجع...!!
هل تذهب وتغلق الباب خلفها بهدوء أم تذهب وتخبره
أولاً؟!

عديمة الإحساس؟!

على العكس ربما هي.. (فأضته)!!

تكتم نزيف مشاعرها بصلافة لا تدري من اين أتتها!

هل هي كثرة الفقد ما تمنحنا زهد الامتلاك؟!

أم هو فرط الحزن عندما يحفر في القلب أخدوداً يقيه

عبور المزيد من الألم؟!

هل تخاف مواجهته؟!

هل ترهب أن يؤثر حزنه على أخيه في عاطفتها؟!

هل تخشى الوهن من جديد أمامه؟!

هل تخاف أن تصرح بخسارته؟!
لن أخاف بعد الآن..لن أخاف!
تهمس بها لنفسها بحسم قاهرة (ترددتها) لتتوجه نحو
الغرفة التي كانت نصف مفتوحة..
تهم بطرق الباب لكنها تتجمد وهي تراه من مكانها
جالساً على كرسيه جوار الكاسيت القديم وشرائطه
المسجلة التي عرفت حكايتها من قبل..
يعطيها ظهره مسنداً رأسه بإرهاق على ظهر كرسيه
وقد استقرت ساقه الصناعية جواره فينقبض قلبها
بإشفاق وهي تدرك أنه اضطر لارتدائها فترة طويلة
حقاً.. لا بد أنه يشعر الآن بالتعب!
ظله في الظلام يبدو لها غريباً غرابة شعورها نحوه..
تخشى الظلام.. لكنها تأمنه هو!!

تقترب أكثر وهي تشعر بالحزن العنيد يغافلها ليمزق

قناع تماسكها!

مات إياد حقاً؟!!

الغريب أنها تسخر من نفسها الآن وهي تتذكر كيف

كانت تراه صورة (إيهاب) المثالية!!!

الآن وقد انكشف المستور لم تعد تراه سوى (صورة

باهتة).. ممسوخة لرجل تمنته كاملاً.. ومن فينا

الكامل؟!!

السؤال الأخير يصفها ببساطته كأنما يذكرها أي

طفلة حمقاء كانت وهي تعقد مقارنة كهذه؟!!

تقترب أكثر وأكثر لتتعلق عيناها ب (ساقه

الصناعية).. أول درجة - ظنتها- في سلم التنازلات!!!

ولأول مرة تراها بعين أخرى..

ليست (دليل نقص) و لا (درجة تنازل) بل (برهان

عشق)!

برهان عشق رجل لم يتردد لحظة وهو يفتديها كل

مرة بنفسه ليحميها من الخطر!!

تهز رأسها بذهول والحقائق - على بساطتها- تجلو

أمام قلبها فتعجب أي غشاوة كانت تضلل عينها؟!!

لم تشك يوماً في حبه لها.. إنما شكت في (كمال

صورتها) في عينيه..

كانت تنتظره ليخطو الخطوة الأولى.. وكذلك هو - كما

اعترف لها- فبقي كلاهما مكانه يعطي الآخر ظهره!!!

تقترب أكثر وأكثر وهي لا تعرف ماذا تقول أو تفعل..

فقط تكتفي بأن تضع كفها على كتفه فتشعر برجفة

جسده تكاد تصعقها مكانها!!!

وفي مكانه كان هو لا يزال عاجزاً عن تصديق ما

حدث..

طفل بليد تأخر في أداء واجبه فلما فعل فوجئ بالمعلم

قد رحل!

جندي كسول تأخر في حمل سلاحه فلما فعل فوجئ

بالجيش قد أبيع!

قمر بطيء تلكأ في الصعود حتى سبقته شمس

الفجر!

مات إياد!!

مات ولم يشبع من حزن غفرانه بعد!!

لماذا لا تزالين هنا؟!

يسألها دون أن يرفع عينيه إليها مردفاً بنفس النبرة

الخاوية :

كنتِ مدينة لي بمعروف (ساق) فقدتها وصرت مديناً
لك بمعروف (عودة أُمي).. تساوت الكفتان إذن..
وحققتِ ما كنتِ تريدينه.

لا تحرك ساكناً وكفها لا يزال على كتفه فيكتسب
صوته نبرة ساخرة ذكرتها ب(الفاجومي) القديم رغم
مرارتها :

خذيها نصيحة من صديق قديم خبير بتفاصيلك.. هو
أنسب وقت للرحيل دون تأنيب ضمير.. كأس خسارتي
مملوء لآخره حتى فاض بالفعل ولن يشكلك فارقاً
أكبر!

كلماته تصدع قلبها نصفين فتهتف به بانفعال مرير
يشبه سخريته:

_ هل هذا ما يفتي به (الصديق القديم) الخبير
بتفاصيلي؟! أن ما بيننا فقط كان بدافع من ضمير؟!
_ بل أحببتي..

لا يزال بروده الموجه يقصف صدرها وهو يردف
بنفس النبرة :

_ أحببتي حتى ولو لم تعرفي أنت.. أحببتي وأنا خير
من يقرأها في صفحة مشوشة كصفحتك.. لكن منذ
متى كان الحب وحده يكفي؟!
منذ متى كان الحب وحده يكفي؟!
تتردد داخلها صارخة وهي تشعر بقربه أنها تشرب
من بحر..

لا يرويها ولا يكفيها أي مزيد!!
صوت رنين هاتفه يقاطع أفكارها..

تراه يتناوله من جيبه يستمع قليلاً..
شهقته تشق صدره تثير فضولها وخوفها فتهم
بسؤاله لكنه يغلق الاتصال فجأة وزئير انفاسه يوحى
بالخطر !!

ينتفض واقفاً بانفعال بدا صارخاً ناسفاً لكل بروده
السابق كأنه سيغادر الغرفة ككذيفة، لكن المفاجأة كما
يبدو أنسته حقيقة وضعه ليترنح مكانه..
يكاد يسقط فتسنده عفويًا لكنه يسقط بثقل جسده
فوقها على الفراش المجاور لتتلاحق أنفاسهما معاً
فتفاجأ به يجذبها لصدره متشبثاً بها بقوة كأنه يحتمي
بها.. أو.. يحميها!!

(إياد حي.. ليبق هذا سرأ.. لا تحتاج لأن أخبرك عن
خطورة إفشاء سر كهذا ولا عن ضرورة ما فعلناه
لحمايته.. قابلني في المكان السابق)

يتذكرها كما سمعها بنبرة أديم المقتضبة لتوه على
الهاتف فيكاد يعتصرها بين ذراعيه ورجفة جسده
تشي ببياء خافت دفنه بين حنايا عنقها!!
يود لو يخبرها..

لو يصرخ بها أن أخاه لا يزال حياً..
لو يشرح لها كيف رد له الخبر روحه..
وكيف صار يخشى فقداً جديداً لا عودة بعده!!
لكنه يكتم كل هذا مكتفياً بضمته القوية غير الواعية
لها!!

يرتجف جسدها بانفعال مشابه وهي تسأله بقلق :

_ ماذا حدث؟! من كان على الهاتف؟! إيهاب..

أخبرني..

ولما يأست من نيل جوابه وجدت نفسها تضمه إليها

عفوياً وهي تشعر ببكائه - كالطفل هكذا - يفقدها

صوابها..

لا يمكن لذراعيها أن تكونا أشد قوة من الآن وهي

تتعجب إحساسها به!

ربما هو محق في أن الحب وحده لا يكفي.. لكنها الآن

تشعر أنه يسند.. يطبب.. يضمد.. يمحو أثراً وينقش

آخر!

وتد يكفي وجوده لتتشبث به الكفوف فيمنعها الانزلاق

على منحدر الألم!

لحظات مرت بهما في غفلة من الزمن وكلاهما غائب

عن الدنيا إلا من شعوره بصاحبه..

لحظات قطعها هو وهو يرفع رأسه أخيراً ليشراف

على وجهها بعينين لم تجدهما يوماً أكثر لمعانا من

الآن..

_إيهاب..

تهمس باسمه بغرابة وكأنها لأول مرة تنطقه.. كأنها

برغم كل الانتماء الذي يمنحه وجوده لها تحس أنها

تستكشفه لأول مرة..

وربما.. تستكشف نفسها هي الضائعة!

أما هو فكان في وادٍ آحر وهو يشعر بخبر أخيه

يزلزه!

يذكره بمذاق الاسترداد بعد الفقد!

يبال شفّتيه بقطرة الماء التي ظن - قبلها- أنه سيبقى

ظماناً للأبد!

ويحذره من أن ينال مصيراً مشابهاً معها هي!!

لكن.. ماذا عساه يصنع؟!

هل يعيدها للطوق القديم الذي كسره؟!

كيف يخسرها؟! وكيف يبقيها؟!

لا تزال تكرر اسمه بمزيج من رهبة وقلق ليصلها

صوته المرتجف يناقض قوة ذراعيه حولها :

_ (لأنّي أحبك..!)

ترمقه بنظرة متسائلة عما يقصده فيردف بحروف من

نار :

(لأني لم أخشَ شيئاً في حياتي كخشيتي من
فقدك..لأنني ظننت أنني قد أغفر لنفسي أي خطيئة إلا
أن أضيعك من يدي)
همساته الحارة بهذا الإحساس الهادر تكاد تشعلها
مكانها..

لكنها ترمقه بنظرة متسائلة وهي لا تفهم..

أي سؤال يستحق إجابة كهذه؟؟؟!

تهز رأسها بعدم فهم فيشدد ضغط ذراعيه حولها

هامساً :

_أعرف أن لديك الكثير من الأسئلة عما كان بيننا..

ضعي ما قلته جواباً لها كلها.. هي وحدها ولا أفهم

سواها.. (لأنني أحبك وأخاف فقدك).

تدمع عيناها شارحة أنها الآن فقط تفهم فيخفف ضغط
ذراعيه حولها وهو ينهض كأنما أفاق لتوه من غفوة
عقله..

لحظة ضعف لن يتوقف أمامها طويلاً وقد منحها

جواب السؤال الذي كان يشغل رأسها.

أي قوة امتلكها كي يمضي في طريقه ويمنع نفسه

عنها الآن؟!!

يتحرك ليرتدي ساقه الصناعية فتتهض بدورها وهي

تشعر كمن كانت في حلم غريب..

لا يزال لديها الكثير من الأسئلة..

لا تزال تحتاج للمزيد من المواجهة..

لا تزال تحتاج أن..!

_ تجدي نفسك أولاً..

كأنه يقرأ أفكارها.. بل ويكملها لها!!

ترتجف وهي تسمعه يردف بنفس النبرة:

لَسْنَا حَمَقِي لِنَعُودَ لِلوَرَاءِ مُتَجَاهِلِينَ ذَاكَ الشَّرِخَ الَّذِي

حَدَثَ بَيْنَنَا.. لَمْ أَقْلَهَا لِكِي أَطْلُبَ الصَّفْحَ لَكِن لَأَمْنَحِكَ

السَّلَامَ الَّذِي تَسْتَحْقِينَهُ.. لَوْ كَانَ هُنَاكَ مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ

تُذَكِّرِيهِ مِنْ مَاضِينَا فَهُوَ أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ يَوْمًا زَاهِدًا فَيْكَ

لَكِنِّي فَقَطْ تَخْبَطْتُ عِنْدَمَا كَرِهْتَ صُورَتِي - وَقْتَهَا- فِي

عَيْنِيكَ.. لَنْ تَفْهَمِي كَم كَانَ هَذَا قَاسِيًا عَلَى رَجُلٍ

مِثْلِي.. رَجُلٌ أَكْثَرَ مَا كَانَ يَعِشْقُهُ فَيْكَ مِنْ الْبَدَايَةِ هُوَ

صُورَتِهِ فِي عَيْنِيكَ تِلْكَ!

تفهم!

تفهم!!

الآن تفهم!!

لكنه محق!

ليست ساذجة لتدرك أن الأمور بينهما قد تعود بهذه

السهولة!

فلتجد نفسها أولاً كما قال.. لكن وهي توقن أن (الوئد)

الذي تركه هو خلفه لن يخذل كفاها متى انزلت

قدمها!

_تأخر الوقت.. هيا لتعودي إلى بيتك فلي مشوار

مهم.

عبارته تعود لتضع الحدود بينهما فتهز رأسها وهي

تتحرك معه ليغادرا البيت..

يستقل معها سيارتها ليسودها صمت قصير قطعه

بقوله :

_ ارسلت في طلب (ساق صناعية) بمواصفات خاصة
ستمكنني بعد انتهاء تمارين العلاج الطبيعي من قيادة
سيارتي.. وبدأت أشعر بالرضا -حقيقةً - عن عملي
الجديد.. ربما هو ليس برونق عملي السابق لكنه أكثر
هدوءاً بما يجعلني أتفرغ أكثر للعناية بأمي.. الحمد
لله.. الآن أقولها وأنا أشعر بها حقاً.. لم أعد ساخطاً
على قدرتي.. لعل هذه بداية الطريق.
تبتسم بفخر حقيقي وهي توقف سيارتها أمام بيتها
لترمقه بنظرة اعتزاز طويلة لم تمد جسورها بينهما
منذ عهد طويل..

هذا هو (الفاجومي) الذي تستحق عودته كل الصبر!
نظرة وجدت أثرها في قلبه وهو يغادر السيارة
معها.. لكنها لم تمنع قوله الحاسم :

_وداعاً.. جنيتي!

رسالته تصلها كوداع واجب لا تعارضه بل تثق

بجتميته الآن!

تتحرك لتصعد نحو شقتها فيقف مكانه منتظراً أن

يطمئن عليها..

تلتفت لتمنحه نظرة أخيرة تغزل ثوباً واهياً من أمل

قبل أن يمضي كل منهما في طريقه وقد تعلم

الدرس..

فليجد نفسه أولاً.. قبل أن يبحث عن الآخر!

أحمر



_ كنت أشعر دوماً أنني أنتظره.. حدس داخلي كان
يخبرني أنه.. انه ليس كغيره.. أنه.. سيكون لي..
تغمغم بها هبة بين دموعها مخاطبة يسرا التي
استلقت على أريكة مريحة في حديقة قصر الصباحي
الذي عادت إليه بعد خروجها من المشفى..
لتربت الأخيرة بكفها السليم على كفها قائلة بإشفاق:
_ أعرّف كيف تشعرين!

تبتسم هبة بصعوبة وسط دموعها وهي تقترب منها
كانما تخشى ان يسمعها أحد :

_ عندما عرفت بالأمر شعرت بحاجتي للحديث معك..
ماذا كنت سأفعل لو لم تكوني معي؟! أي أحد يسمع
كلامي ويرى بكائي الآن سيصفني بالجنون ولن



أومه.. لا أعرف ما الذي أصابني.. لماذا هو.. هو
بالذات؟! هو حتى لم يكن يعرفني!!
تتهد يسرا بأسى وهي تتحامل على نفسها لتضمها
إليها بذراعها غير المجرر.. تربت على رأسها لتهمس
بشروء :

_ أحاديث القلوب - مهما بلغت غرابتها - صادقة..
لحن عفوي لا يهم مدى نشار نغماته..
_ هل يمكنني ان اطلب منك شيئاً؟!
تسالها هبة بتردد لتمنحها نظرة عاتبة كأنها تستنكر
ان تستأذن قبل الطلب فتدرف هبة وهي تمسح
دموعها :

_ سمعت أنه كان في السجن عندما مات.. أريد أن
أعرف السبب.. وأظنك تعرفين من يمكنه الإفادة.

لماذا؟!!

تسألها يسراً بإشفاق وهي لا ترى جدوى من الأمر
لترد هبة بانفعال:

لا أعرف سبباً.. أنا فقط اشعر.. أشعر انه من حقي
ان أعرف.. هل مات مظلوماً؟! كان مذنباً ام ضحية؟!!

ياالله!!!

تغلبها دموعها من جديد فاضحة رقة قلبها الطيب
وهي تهز رأسها مردفة:

نظرته لا تفارق عيني.. أحاول إبعادها من رأسي
بكل الطرق دون جدوى.. نظرة من يرغب لكنه دوماً
يرى انه لا يستحق!.. ربما لو أيقنت أنه مجرم.. أنه
حقاً كان يستحق مصيره.. لاستطعت نزعته من قلبي..
آآآ.. أقصد من رأسي..

ارتباكها الأخير يشي بعمق معاناتها فتمنحها يسرا

ابتسامة داعمة ناسبت قولها :

_ سأرى ما يمكنني فعله.. لا أظنها قصة صعبة.

تبتسم لها هبة بامتنان وهي تربت على كفها لتتهض

مكانها قائلة :

_ قومي انتِ لتستريحى في غرفتك.

_ سأبقى هنا.. مللت الجدران المغلقة.

تقولها يسرا وهي تعيد رأسها للخلف بينما تأخذ نفساً

عميقاً..

فتقول هبة بتردد :

_ سأتصل بإبراهيم ليأتي ويأخذني.. لن أخاطر بركوب

المواصلات وحدي في وقت كهذا.

_ وهل سيرضى؟!!

استنكارها الساخر يوازي تهيدة هبة وهي ترسل
رسالة لإبراهيم قبل ان تتحني لتقول امام عينيها
بصدق:

_ هو من وصلنا أنا وخالي ربيع منذ قليل.. لم يكف
عن الاهتمام بأمرك طوال الأيام السابقة ولو بسؤال
في الخفاء..

_ لن يسامحني أبداً.

تقولها يسرا بقتوط فلا تقوى هبة على الإنكار لكن
الأولى تردف بابتسامة هادئة :

_ سأكف عن السعي إليه.. انا وجدت طريقي يا هبة..
سأعيش كما اردت ل(سمرا) لكن وأنا يسرا.. سأعود
لأحب اسمي وأفتخر به.. يكفيني مكسب كهذا وسط
كل خساراتي.

_را... را..

يهتف بها سامي الصغير وهو يخرج من باب البيت
الداخلي ليركض إليها فتفتح له يسرا ذراعها لتعانقه

هاتفة بحنان :

_لماذا استيقظت الآن؟! ظننتك ستنام للصباح!؟

_خفت عندما صحيت ولم اجدك جوارى!

يقولها الصغير ببراءة فتضمه يسرا إليها بذراعها

السليم وهي تتنشق رائحته بعمق..

ثم تقبل رأسه لترفع وجهها إلى هبة قائلة بنبرة ذات

مغزى :

_وهذا مكسب آخر.

_كف عن الشقاوة يا سامي.. يسرا لا تزال مريضة

ولن تحتل الإرهاق.

_أعرف ولن اضايقها أبداً.

يقولها الصغير بتعلق طفولي وهو يخفي وجهه في
صدر يسرا التي رفعت عينيها للسماء بنظرة حامدة..
سبحان من منعه عطاء وابتلاؤه رحمة!

_إبراهيم وصل.. سأذهب إليه.

تقولها هبة بحرج فيخفق قلب يسرا بجنون وهي تكاد
تركض إليه..

وصوله السريع هذا.. هل يعني شيئاً؟!!

تبتسم ساخرة من الأمل الذي بدا لها مستحيلاً في هذه
اللحظة وهي تتجاهل فيض مشاعرها لتغير الموضوع

بقولها :

_لن أنسى ما تحدثنا بشأنه.. غداً أخبرك لو عرفت

شيئاً عنه.

ترمقها هبة بنظرة ممتنة وهي تمسح بقايا دموعها
قبل ان تتحرك لتغادر الحديقة..

وفي سيارته كان إبراهيم يشتعل بين نيران غضب..

واشتياق!!

هذا البيت!

اليافطة باسم صاحبه!

الحديقة التي شهدت معرفته بالحقيقة..

سمرا.. فادي.. دوامة الخديعة التي قذفته وقتها

لأقصى حواف جنونه..

تمثالان هنا انكسرا وقتها كما انكسر قلبه!

لا يصدق انه عاد إليه!

مرة ليوصل أباه إليها ومرة ليستعيد قريبتة!!

كأنه صار الوحيد الغريب بينهم..

و(الرامية القرمزية) كعهدا تجيد تصويب سهامها

نحو القلوب!!

يسمع صدى ضحكات سامي العالية القريبة فتشتعل

المزيد من الحرائق بصدرة.. والخيال يطعنه بألف

رمح!!

هل تلاعبه ؟!

تدغدغ بطنه بأنفها بهذه الطريقة التي تكاد تذهب

بعقله؟!

تضحك له هذه الضحكة التي تتراقص على إيقاعها

القلوب؟؟

تضمه لصدرها وهي تتنشق رائحته فكأن الكون كله

صار بسعة عناقها وسحر أنفاسها؟!

يرى هبة قادمة من بعيد فيختلج قلبه وعيناه
الخائنتان تغافلانه بالبحث عنها خلفها..
الأمل الذي خاب أخيراً وأنكر الاعتراف بمرارته..
هي وعدته أنها لن تجعله يراها ويبدو أنها ستفي
بالوعد!

ملامحه الجامدة تناقض ذوبان روحه فيشغل السيارة
بسرعة وينطلق بها بسرعة هارباً من نفسه ومن كل
شيء!!

وفي مكانها خلف أسوار القصر كانت هي تراقبه من
ركن مظلم وهي تضم سامي إليها مشيرة له
بالصمت..

عيناها تتفحصانه من بعيد بشوق عاشقة.. وحنان
أم..

بعتاب مظلومة.. واعتذار ظالمة..
بقهر مهجورة.. وحسم هاجرة!
حتى إذا ما رحل بعيداً تنهدت بحرارة وهي تسير مع
سامي نحو الداخل..
تصعد لغرفة أمها التي ساءت حالتها أكثر فلم تعد
تميز حضورها كثيراً..
لكنها تجلس على طرف فراشها.. تقبل كفها قائلة :
_سامحيني على كل الوقت الذي أضعته أركض في
الاتجاه الخاطئ.. سأكون دوماً معك يا أمي.. سأكون
يسرا التي تفتخرين بها.. لن أهرب من نفسي بعد
اليوم.. لن أهرب.. بل سأواجه.. سأختار وأدافع عن
اختياري.. سأحب نفسي.. سأفعل ما بوسعي كي
أستحق الحب.

حرارة كلماتها تبدو وكأنها وصلت المرأة التي رفعت

إليها عينين شبه واعيتين بابتسامة كأنها الجائزة..

فتقبل يسرا رأسها وهي تشير لسامي قائلة :

_ابني.. ابني يا أمي.. أنقذته هذه المرة.. أنقذته

وأنقذت نفسي من السقوط.

دموعها تختلط بحروفها فتتسع ابتسامة المرأة وهي

ترمقها بنظرة غريبة طويلة..

_سانيم سامي وأعود إليك.. أريد ان أنام الليلة في

حضانك.

لم تكن تثق في أنها تعي ما تقول لكنها تفي بوعداها

وهي تعود إليها بعد وقت قصير..

تدثر نفسها معها بالغطاء ثم تلقي رأسها على صدرها

هامسة :

افتقدت هذا الشعور يا امي.. شعوري أنني هائلة في
حضنك دون إحساس بالذنب.. طوال عمري وأنا
أعرف أنني (مسنودة).. مسنودة باسم الصباحي
ونفوذه ووماله وعلاقاته.. لكنني الآن أشعر أنني
مسنودة سناً آخر.. سند لن يميل بي ولن يخذلني..
تقولها وهي ترفع رأسها لأعلى بدعاء قصير قبل أن
تقبل وجنة أمها لتستسلم لنوم هادئ لم تعرفه منذ
زمن بعيد..



يقف ربيع في شرفة بيته وقت الضحى شارداً
بأفكاره..
خديجة!

منذ رآها في العزاء وهو يشعر أن ما بينهما عاد

لعهد القديم..

وكان العمر لم يمر!

وكانها لا تزال المدرسة الشابة التي دق لها قلبه فور

ما رآها..

والتي رفضت طلب خطبته بأدب زاعمة وقتها أنها

مرتبطة بآخر!

آخر انفصلت عنه بعد سنوات أذاقها فيها صنوف

العذاب حتى أخذ ابنها منها وسافر للعراق..

وعندما كاد يكرر عرضه بالزواج وجد غيره يسبقه

من جديد ليفقد أمله فيها للأبد ويقنع نفسه انها مجرد

زميلة عمل..

رضي بنصيبه الذي دفعة لخطبة أم حسن رحمها الله
بعدها ليكمل معها الطريق.

يشهد الله أنه لم يخنها ولو في خياله..كفاه ما ناله
منها من نصيب المودة والرحمة وقد حفظته وحفظت
بيته وانجبت له اثنين من البنين..

ومضى العمر ليلقي ركاه على ما كان من ماضٍ..
لكنه عندما رآها في أشد حالاتها وهنا يوم العزاء
شعر بأن مارداً داخله ينتفض..

مارداً لا يليق بسنه ولا شيبة شعره!

ضيعت ابني يا ربيع؟! ابني ضاع!؟!

هل هي عبارتها تلك التي قالتها وقتها بكل تلك

الحسرة!؟!

هل هو شعوره أنه يشاركها وجعه في ابنه الوحيد
الذي يكاد يضيع في دوامات نفسه هو الآخر؟!
أم هو شعوره الخاص أنها الآن تحتاجه وهو الذي لم
يستطع يوماً أن يكون جوارها عندما كانت تحتاجه؟!
يلوم نفسه على خواطره بعجزه وهو يخشى أن يكون
يحمل الأمور فوق ما تحتمله..

العمر صار أقصر من المخاطرة في ولوج متاهات
كهذه!!

_ خيراً يا أبي.. فيما كنت تريدني؟!
ينتزعها بها إبراهيم من شروده فيلتفت إليه ليقول
بنبرة غامضة :

_ هات هذه وتعال.

_ ما هذه؟!!

يقولها إبراهيم ببعض الدهشة وهو يميز الشيء
الغامض الذي بدا مسطحاً ومغطيّاً بأكمله بارتفاع
يقارب طولهِ..

ليرد ربيع بنفس الغموض :

_ ستعرف عندما نصل.

يحمل إبراهيم بغيته ليتحرك خلف أبيه الذي هبط

الدرج نحو الأسفل..

لم يكن يلمح أحداً من اهل الحي حتى يطلب منه أن

يتبعهما فيطيعون مندهشين..

وأخيراً يصل!!

_ ألقى ما في يدك.. وانزع هذه يا إبراهيم!

تتسع عينا إبراهيم بصدمة وهو الآن يفهم ماهية ما

كان يحمله!



_أيها الناس..تجمعوا هنا.. اشهدوا أن جزءاً من حق

حسن قد عاد..

تدمع عيناه رغباً عنه وهو يرى أهل الحي يتجمعون

في تلك الأرض التي علقت عليها يافطة تثبت ملكية

(المستشار)..

أحدهم يناول إبراهيم مطرقة تساعد على خلعه من

مكانها..

ضربة خلف ضربة خلف ضربة..!!

تسقط اليافطة أخيراً ليهل الناس وهم يرون ربيع

يزيح الغطاء عن اليافطة الجديدة..

_ضعها مكانها يا ابني.. الحق رجع لأصحابه!

يرتجف جسد إبراهيم برهبة لم يملكها وهو يميز ما

كُتب عليها..

(هذه الأرض ملك لحسن وإبراهيم ربيع)

كتب اسم حسن قبله كأنه يعلنها للناس انه لا يزال حياً
بينهم وقد مات لأجلهم..

يكتم دموعاً تحرق قلبه قبل عينيه بصلافة وهو يكاد
يكتم أنفاسه..

يغرسها بقوة في الأرض ليساعده الجميع وهم
يمدونه بالمواد اللازمة..

كان يعلم أن الأرض قد عادت إليهم..

لكن أن يعيش الآن هذا الموقف!

ان ينتزع بيديه لافتة الظلم ويغرس لافتة الحق..

أن يرى اسم أخيه هنا.. كأنه يهتف في وجوه الناس

أنه لم يموت.. فمثله أبداً لا يموت..

كل هذا كان يزلزل روحه وهو يشعر بجسده كله

ينتفض..!!

ينتهي أخيراً ليشر بكف ربيع على كتفه..

ربيع الذي لم يكن أقل منه تأثراً لكنه يهمس له بنبرة

ذات مغزى :

كلما تذكرت جلال لحظة كهذه.. تذكر أيضاً أنها كانت

- بعد الله- سبباً فيها!

يغض إبراهيم عينيه بقوة وهو يشعر بالغصة

الحارقة تستحکم حلقه..

(ريشة بيضاء) أخرى لها.. لا يستطيع تجاهل نعومتها

على خشونة جرحه!

يترك الناس الذين تحلقوا حول أبيه مهالين وداعين

ل(الشهيد) بالرحمة.. ويركض نحو البيت من جديد..

يصعد طابقاً خلف طابق بخطوات متعثرة حتى يصل
للسطح..

يقف متهدل الكتفين امام التبة الأسمنتية التي لا تزال
تحمل أثر (قدم حسن)!

هنا تنهار كل مقاومته وهو يخر علي ركبتيه بنشيج
خافت..

_لو كنت هنا بماذا كنت ستتصحني يا حسن؟! أبوها
قتلك لكنها هي من أعادت ارضك.. هي مزقت قلبي
لكنها منحت جزءاً منها لأبي.. خدعتني بأبشع طريقة
لكنها أعادت الدرويش الزاهد للتعلق بالحياة.. طالما
كنت وستبقى بيننا يا حسن.. زرتني في منامي ليلة
زفافي منها وببيدك طفل لي يحمل اسمك.. ماذا كنت
تقصد!؟!

يضحك وسط بكائه بمنظر يثير الشفقة وهو يتلفت

حواله قائلاً :

_لم يعد لي إلا الحديث إليك.. كلهم يلومونني لأجلها..

تظني متمادياً حقاً؟! تظني ظلمتها؟!

_نعم.

يلتفت بحدة للصوت الغريب الذي صدح خلفه لتتقدم

صاحبه منه..

ملاحها شاحبة تناسب موقفها وهي تقترب منه أكثر

قائلة :

_عذراً لأنني اقتحمت خلوتك يا (شيخ إبراهيم)..

لكنني أردتك أن تسمعها مني.. مني انا قبل أن أغادر

الحي.

سندس!

متى خرجت من المصحة!؟

_خرجت اليوم.. وعرفت ما كان بينكما.. أعرف أنك
انت بالذات لم تسامحني على ما كان.. وأنا أيضاً لن
أسامحك.

_علامَ تسامحيني!؟

يسألها باستنكار لتقترب منه كاشفة عن معصمها
حيث ندبة واضحة..

لتغمغم بنبرة واهنة :

_عشت أسوأ أيامي في المصحة.. رغم انهم كانوا
يعاملونني جيداً لكن صورتك أنت بقيت أمامي.. كنت
أقول لنفسي أنني حتى لو تعافيت فلن يسامحني أحد..
إذا كان (الشيخ) الذي كان يؤثر فينا بخطبه عن العفو
والإحسان رفض حتى أن يسمعي دون أن يفهم

عذري.. أتفهم أن يكون العفو عن مقدرة.. أتفهم أن بعض القلوب لا يناسبها التسامح في بعض الأشياء.. لكن ما لم أفهمه حقاً أنك حتى لم تحاول أن تسألني عن الدافع.. عن الظروف.. لفظتني ككلب اجرب ورفضت الكلام معي قبل زهابي للمصحة.. تعرف منذ متى أحضر دروسك في المسجد؟! أراك القدوة والمعلم والضمير؟! هو اجسي في المصحة لم تتركني.. كنت أقول لنفسي أنني سأخرج لسجن كبير لن يتفهمني فيه أحد.. صورتك أنت بالذات كانت تجلدني كل ليلة.. حتى ضقت ذرعاً بكل هذا يوماً وقررت أن أتخلص من الحياة كلها لكنهم أنقذوني.. يعطيها ظهره وهو يشعر أن كتفيه ثقيلين بالوزر.. هل أنقذته رحمة السماء ان يحمل ذنباً كهذا!؟!

_تعرف من زارني وقتها؟! يسرا التي عرفتھا أنت
كسمرًا.. عناقھا الدافئ كان أبلغ من ألف خطبة تلقيھا
عن العفو.. عن الأمل.. عن الطمع في رحمة الله.
يتهدل كتفاه أكثر وقد فقد كلماته لتردف هي :
_سأغادر الحي كله مع أخي.. أشكرك لأنك سترت
ذنبي .. لكن يبدو أن العفو أبعد من الستر كثيرًا..
تماماً كما هو الكلام أيسر من الفعل كثيرًا.
تقولها لتغادر المكان بخطوات يتردد صداها في قلبه
قبل أذنيه..

هل كان ينقصه المزيد؟!

ماذا كان خطأه؟!

هو مجرد رجل أحب امرأة وأراد ان يعيش معها

عيشة بسيطة..

كيف يظنون العفو بهذه السهولة؟!

لكن..

لو كان العفو بتلك الاستحالة.. فماذا عن السماع؟!

لماذا لا يعتبرها شارة القدر؟!

الآن بالذات..

فليستمع إليها ولو لم يصفح.. ولو لم يعد..

فقط يعرف عذرها فيما كان!!

يرمق تذكار حسن بنظرة أخيرة قبل ان يهبط الدرج

نحو الأسفل ولم يكد يصل لباب شقة ربيع حتى وجد

هبة تلحقه لتخاطب ربيع بقولها الباكي :

إنا لله وإنا إليه راجعون.. أم يسرا ماتت.

=====

بنفسجي



يفتح حسام باب بيته الساحلي حيث يقيم مؤخراً وقد
عجز عن العودة لبيته القديم الذي يحمل إليه ذكرى
وفاة أمه وسلطانة..

تصطدم عيناه بالنول اليدوي الذي بقي من أثر ديمة
هنا..

ببعض ألعاب سند التي تركها..

ببعض القطع من ملابسها والتي أصر أن يتركها
ملقاة بعشوائية على الأريكة في مواجهة الباب كي
تستقبله - عوضاً عنهما - فور دخوله!!

ياالله!!

يوماً ما ستقتله هذه التفاصيل اشتياقاً.. لو لم يقتله

الكوبرا أولاً!!

يكز على أسنانه بغضب وهو يغلق الباب خلفه..

ذاك الوغد تبخر!!

لم تفدهم معرفة هويته وقد اختفى من حياته ك

(فهمي) تماماً!!

لكنه سيعثر عليه ولو كان هذا آخر ما سيفعله في

حياته كلها!!

يزيح ستائر نافذة الشرفة ليقف أمام البحر الذي تلون

بين حمرة الغروب وزرقة الموج بأرجوانية تشبه

حبيبته..

افتقدها!

كيف يفتقدها وصورتها عالقة بين رمشه وحدقتيه؟!!

كيف ودقات صدره ذات الصدى الهائل تذكره كل

لحظة أن ضلوعه خاوية من قلب هجره إليها؟!!

كيف وهي الحلم العنيد البعيد المراوغ الذي يعيره

دوماً بفقر خطواته هو!

كناز يخبره انها تتحسن.. عادت لحالتها الطبيعية..

فتحت مصنعها الصغير منذ أيام والذي توقع أن تطلب

منه مساعدة لتتال بعض تراخيصه واوراقه لكنها لم

تفعل..

يبدو أن عاصي الرفاعي أغناها عن خدماته!!

نسيته في غمرة انشغالاتها؟!

ليتها تفعل!

بشر؟!

لا يعرف ما الذي يدور بينهما وقد صرح هو نفسه له

مراراً أنه.. (لم يعد يهتم)!

ينقطع شروده فجأة وهو يرى ذاك الخيال أمامه!

ظل امرأة ترتدي ثوباً طويلاً بنفسجياً فاتح اللون
ووشاحاً بنفس اللون يتطاير خلفها وهي تمشي على
الشاطئ أمامه..

لم تكن تسير حذاء البحر كما يفترض بل كانت تتوجه
نحوه فاردة ذراعيها كأنه يناديها.. وهي فقط تلمي
النداء!

(ديمة)

يتمتم بها بمزيج من دهشة وخوف.. خوف ضربه في
مقتل وهو يخشى أن تكون خيالاً..
ويخشى أكثر أن تكون حقيقة!!
يغادر البيت ركضاً ليتوجه نحوها..

يقترب من ظهرها لتلفحه رائحة العطر الذي أهداها
إياه يوماً!

يناديها بصوت مرتجف بين اشتياق و غضب من
حضورها المفاجئ هذا فتلفت إليه بنظرة عاتبة
يتجاهلها وهو يهتف بها بخشونة :

_ ما الذي جاء بك إلى هنا؟!

تطيل النظر إليه بغموض لم يفهمه لتغمغم باقتضاب:

_ أحدهم تحرش بي اليوم.

_ ماذا؟! من فعلها؟!

يصرخ بها بهياج بين غضب وغيرة وهو يجذبها من

مرفقها مردفاً بحمية مشتعلة:

_ هيا.. احكي لي في الطريق.. سنذهب إليه وأقتلع

عينيه أمامك.

يجذبها لتتحرك معه كي يغادرا وقد أساء فهم قدومها

لكنها تنزع مرفقها منه تتشبث بمكانها..

تعاود النظر للبحر وهي تعود للتوغل فيه سامحة
للموج أن يبلى طرف ثوبها الطويل قائلة :
_ أنا أخذت حقي بيدي.. هو أحد رجال الأعمال طلب
مني شراكتي في المصنع الجديد.. قابلته بحسن نية
عدة مرات في مكثي هناك.. لكنه اليوم تجراً للتطاول
يده على جسدي.. لا أعرف بماذا قذفته يدي لكنه
خرج من مكثي ووجهه مغطى بالدم.
تشتعل عروقه بغيره لم يستطع التحكم فيها..
وإشفاق يستصرخه أن يضمها إليه.. أن يعتذر لأنه
لم يكن هناك كي يحميها..
ورفض كاد يعلنه قاطعاً لعملها مادام سيجعلها عرضة
للرائح والغادي..
لكنه يعود ليتذكر أن لم يعد له حق في كل هذا..

يكنم صرخة وجعه في قلب اعتاد مثلها ليرتعش

صوته القوي رغماً عنه وهو يهتف :

_ ما اسمه ذاك ال (...)؟! وسأتكفل بالباقي.

لكنها تتجاهل قوله وهي تمضي في خطواتها البطيئة

نحو عمق البحر أكثر قائلة :

_ كنت محقاً.. لم أعد أحتاجك لتحميني.. صرت قادرة

على حماية نفسي.

يغمض عينيه على فيض شعوره وهو لا يدري هل

يشعر بإهانة من تصریح (أنثى) تعلن استغناءها عن

خدماته..

أم بفخر (ابنة) عبر هو بها الموج حتى تعلمت السير

على الشط دونه؟!!

_ لم أعد (أحتاج) نومتك جوارى فقد غادرتني
كوابيسي.. لم أعد (أحتاج) بيتك يؤويني فقد صار لي
بيتي.. لم أعد (أحتاج) نظرة الفخر في عينيك وقد
صار حولي الكثيرون يمنحونني إياها.. لم أعد
أحتاجك..

تبتعد المسافة بينهما نسبياً وهي لا تزال تتقدم نحو
البحر كأنما تمنحه برهاناً على قوتها الجديدة..
لم تعد تخاف البحر.. لم تعد تخاف الناس.. لم تعد
تخاف الوحدة..

هي استردت نفسها التي تركتها فوق ذاك القارب في
وطنها..

استردتها هنا!
_ لم أعد أحتاجك..

تكررها بضع مرات فتبدو له كل مرة كتلويحة وداع..

لكنها تلتفت نحوه من مكانها لتقطع كل المسافة

بينهما بحجم خطوة قلب مشتاق..

وما أسرع خطوة قلب مشتاق!!

لمعة حجر (الكونزيت) في سلسلتها التي قررت ألا
تخلعها من جديد أبداً تزداد وهجاً مع غروب الشمس

حولها..

أخيراً..

لم تعد تنقسم اثنتين!!

صارت داخلها روح واحدة أقسمت أنها ستبقى له

العمر كله!

واحدة صارت تعرف الجواب الحاسم للسؤالين اللذين

سيحددان مصيرها..

(هل يكفي!?)

وما الدنيا سواه!??

(هل يستحق!?)

ومن غيره يستحق!??

تلقي نفسها بين ذراعيه لتهمس وعيناها سراجان

معلقين في ظلمة عينيه :

(لم أعد أحتاجك.. لكنني أحبك!

قلبه يسقط بين قدميه للحظات يفقد فيها شعوره بكل

شيء عدا إحساسه بها بين ذراعيه..

متى صار قلبها بهذا القرب حد أنه يسمع صوت

خفقاته بين ضلوعه هو!??

متى صار جسدها بهذه الخفة التي يشعر معها أنه

قادر على حملها والركض بها لآخر العالم!??

ومتى صار ذراعها هي بكل هذه القوة التي تسندهما
معاً؟!

_تعرف ما الفارق بين الاحتياج والحب؟! بين

(العربة) و(رفيق السفر).. بين (العطر) و

(الأنفاس).. هو ذا الفارق.. أنا.. لا.. أحتاجك.. أنا..

أحبك.

تهمس بها بطيئة.. متقطعة.. واثقة.. كأنما تنفي بها

أي شبهة أو شك..

لكنه يبقي ذراعيه بمعجزة جواره وهو يبتعد عنها

قائلاً بقسوة يجيد صنعها:

_لماذا لا تفهمين؟! لماذا تصرين على هذه

التخاريف؟! تظنين نفسك في فيلم قديم.. تدخلين حياة

البطل لتنتقمي منه فتقعين في غرامه؟! أفيقي يا

صغيرة.. فليس..

_ رأيت هالة في حلمي اليوم..

تقاطعها بها بحسم وعيناها تلتمعان بقوة كأنهما

تنافسان الشمس التي أخذت طريقها للغروب

حولهما..

_ لم تكن ذاك الشبح الأبيض الذي يثير ذعري.. بل

طيفاً أبيض ضمتني هالة سكينته.. ضحكت لي كما لم

تفعل من قبل.. أوصتني بسند.. وبك.. تدري ماذا قالت

لي عنك..

يرتجف جسده لا يدري ببرودة الجو حوله..

أم بأثر شعوره الرهيب بعظم الذنب..

لتردف دون ان تنتظر رده :

_ (أعيدي له النظرة التي أحببتها في عينيه والتي لا

أدري أين اضعها.. أحبيه الحب الذي لم أستطع

البوح به له.. أحبيه لأنه يستحق الحب)

_ كفى!

كفه الكبير يلوح بينهما بقسوة تناقض هشيماً بقلبه

وهو يصرخ بها بانفعال..

يهرب منها ومن نفسه:

_ لا أحبك.. لا..

_ تحبني.. تحبني.. أنت تحبني.. سمعتها منك تلك

الليلة بينما كنت أظاهر بالنوم.. تحبني ولا تريد ان

تظلمني لأنك ترى نفسك لا تستحق.. لأنك تريد لي

عائلة وأطفالاً لن تستطيع منحي إياها..

_ اسكتي.. اسكتي..

غضبه المهول يمتزج بخوف في مزيج غريب وهو

يتراجع بظهره عنها..

كيف تعريه هكذا بهذه البساطة؟!!

كيف تكسر التمثال الذي عاش عمره يصقله؟!!

_ أمك أخبرتني بكل شيء.. أررتي ألجوم الصور الذي

يخصك.. فهمت لماذا تغيرت نظرتك كما كانت تصفك

هالة.. عرفت ماذا فعل بك الماضي وماذا فعلت أنت

بنفسك.. كلانا كان يكره صورة مرآته لكنك جعلتني

أحبها.. فلماذا لا تمنحني الفرصة لأفعل المثل؟!!

تقترب منه بقدر ما يبتعد..

يشعر برغبة عارمة في صفعها!

في إخراس هذيانها هذا!

(نصف رجل) بصوت يسرا تكاد تقف بينهما كجبل

عظيم يكفي كي لا يرى أحدهما صاحبه..

لكن عبارتها التالية تنسف هذا الجبل..

لن أكتمل إلا بقربك.. أنت.. أنت بالذات.. لا أقولها

احتياجاً ولا مثالية ولا سذاجة.. بل عشقاً.. عشقاً ما

عرفت معناه إلا معك.

يتوقف مكانه فجأة وقد تلاحقت انفاسه كأنه كان

يركض في سباق..!!

كيف يرفض عطاء كهذا؟!

وكيف يقبله؟!

كيف وقد رأى معها أنقى (وجوهه البيضاء) يلطخها

بسواد أنانيته؟!

فلترحل..

فلترحل ولتجد من هو أفضل!!

_ لا أهتم بكل ما تقولينه.. اذهبي ولا تعودي.

يهتف بها لتتسع عيناها بخوف فينتبه لتوه لما أثار

ذعرها..!!

ثلاثة رجال أشداء يحملون أسلحتهم بدوا وكانهم

نبتوا فجأة من ظلمة الليل الذي أسدل أستاره فجأة

حولهم..

_ ابتعدي..

يصرخ بها بقوة وهو يتحرك ليقف أمامها مفتدياً

جسدها بجسده لكنها تسبقه لفعل المثل في نفس

الوقت الذي ينطلق فيه وابل الرصاص..

_ ديمة!

يصرخ بها برعب وهو يرى الدماء تتفجر من إصابة
بطنها بينما تسقط أمامه..

لا يبالي برصاصة تصيب كتفه وهو يستخرج سلاحه
من جيبه..

يرى رجال بشر الذين ظهروا فجأة كذلك يشتبكون مع
المعتدين فيحمل جسد ديمة بسرعة لمنطقة آمنة عن
محل الصراع..

يتصل بنجدة قريبة وهو يتفحص إصابته متجاهلاً
إصابته هو.. ليصرخ بها برعب ترجمته طبيعته
لهذا :

لأنك غبية.. غبية.. كانت لتصيبني أنا! لماذا افتديتني

؟! بل لماذا أتيت من الأساس!؟

كلماته تناقض ضمة ذراعيه الحنون لها فتبتسم وسط

دموع ألمها هامسة بين انفاسها المتلاحقة :

_ هل يكفي هذا كبرهان مناسب أنني لا أتوهم.. أنني ..

حقاً.. أحبك !؟!

تتكسد الدموع في عينيه وهو يشدد ضمته الحانية

لها مع صرخة عالية يطلقها وهو لا يكاد يميز ما

يقول :

_ لن يصيبك مكروه بسببي .. لن أحتمل ذنباً جديداً..

لن أحتمل فقداً جديداً.. ليس أنتِ..! فليعاقبني القدر في

أي شيء إلا أنتِ!!!

يتثاقل جفناها رغماً عنها فيصرخ بها بين عجز

وخوف:

_ لا تغمضي عينيك.. إياك! ابقيني معي.

_قلها.. قلها ليس همساً مستتراً كما سمعتها تلك

الليلة.. بل واضحة عالية.. قلها..

همساتها واهنة بين شهقات ألمها لكنها راجية بقوة

عاطفتها فيزم شفثيه بقوة وهو يكاد يعتصرها بين

ذراعيه كأنه يفر بها من معركة لا يعرف مصيرها..

(أحبك.. أحبك كما لم أظني قد أفعل يوماً.. أحبك ولم

أحب نفسي إلا عندما أحبيتك)

لا يعرف كيف خرجت مصطبغة بلون عزيز لدمعه..

فتشقق عدة شهقات متتالية وابتسامتها تقاقل دموع

الألم على وجهها..

أحد كفيها يتشبث بساعده والآخر يربت على وجنته

بينما تجتاحها ذكرى " غنوة قديمة" جمعت بينهما

ذكراها يوماً..

فتتمت وهي تشعر أنها تجاهد كي تبقى على وعيها:
_ (ريته يسلمني الزعلان.. اللي عامل حاله مو
سالان).

ابتسامتها الواهنة تنتقل إليه وسط زخات الدمع
الحارق ونفس الذكرى تراوده..
لكن جفنيها ينسدلان فجأة بعدها فيصرخ باسمها
بجنون وهو ينتبه لوقف إطلاق النار بالخارج تزامناً
مع صوت سارينة سيارة الإسعاف..



أحمر

لم يبق أحد!

تتكرر هادرة في روحها بعد انتهاء مراسم العزاء
لليوم الأول..

انفضت الجموع وصارت وحدها..

تتأمل جدران القصر الخاوية والتي شعرت بها تجثم
على أنفاسها فتحركت دون تمييز لتغادره..

تقف على بوابة البيت كطفلة ضالة ترمق السيارات

الرائحة والغادية بشرود قبل ان تدور حوله لتجلس

على الرصيف الخلفي الذي يطل على أرض خالية..

تكتف ساعديها وهي تنظر للسماء بشرود..

لو كانت يسرا القديمة لتذمرت ساخطة من مصيبة
تتلوها مصيبة..

لكنها الآن صارت تتقن فهم الابتلاء..

لا يبتيك ليعذبك.. بل ليصطفيك.. ليظهرك.. لتوقن

أن ليس لك سواه فتتضرع وتخشع.. ومتى وصلت

هاهنا يطمئن القلب وتتكشف الحجب وتتهمر العطايا.

تتذكرها من درس قديم لإبراهيم فيقشعر جسدها وهي

تشعر أنها رسالتها..

تحمد الله أنها عادت للبيت تلك الليلة التي قضتها

نائمة في حضن أمها ليكون وداعهما الأخير..

ان أمها ماتت دون ان تتألم..

أنها هي رأت ابتسامتها آخر مرة..

الآن فقط تفهم سر نظرتها الطويلة الغريبة لها

ليلتها!!

تنتحب عند خاطر الأخير وهي تشدد ضمة ذراعيها

لجسدها..

تشعر بالبرد ينخر عظامها لكن هذا لم يكن شيئاً

مقارنة برجفة جسدها وهي تسمع الصوت الحبيب

شديد الخفوت حد الهمس خلفها..

(أعدك أن أسمع حين يسد الجميع آذانهم.. أن أحنو

عندما يقسون.. أن أرحم عندما يرمون.. أن أبقى..

أن أبقى حين لا يبقى أحد)

تلتفت خلفها بحدة وهي تراه يقترب..

لا ينظر إليها.. يكتفي بالجلوس جوارها على مسافة

مناسبة..

تلعن الظلمة التي لا تمكنها من تبين ملامحه..
ينعقد لسانها وهي تراه يطرق برأسه مكتفاً ساعديه
مثلها ليردف بصوت خافت بالكاد يُسمع..
وبنبرة ذابلة لم تستطع فهم مغزاها لكنها اخترقت
صدرها كنار.. ونور :
_ وأن أحبك كما لم يحبك أحد.

=====

الطيف الثامن والأربعون

أحمر

أنت حقا هنا؟! أخاف أن ألمسك فتختفي كما يختفي

كل شيء جميل تظن أناملي أنها يمكنها عناقه.

كانت هذه أول كلمات وجدتها تترنح على شفيتها

وكفها الحر يتحرك بالفعل كأنه يهم بلمسه قبل أن

يتوقف في الهواء..!

يضطرب قلبه بين ضلوعه وهو يشاركها (اللهفة)

لكنه يبقى على حاله مكتفاً جسده بذراعيه فتعود

لتفعل المثل..

كان كليهما الآن مقيد بقيد غير مرئي لكنه يكفي ليمنع

كل منهما عن صاحبه!

_ لماذا عدت تكرر الوعد القديم؟! هذه ليست هيئة

رجل يجدد عهده إنما يريد أن يتحلل منه..

لا تزال نبرتها الحنون (الخبيرة بتفاصيله) تقصف

حصونه فلا يملك لها ردعاً..

يكتفي بالاستماع لها وقد سقطت على وجهها إضاءة

عمود الكهرباء القريب ليبدو وجهها واضحاً منيراً

فيما جعله وضعه في وضع معتم لا يبدو من وجهه

سوى مجرد ظل!

_ تشعر بالذنب؟! الوعد الوحيد الذي قطعتَه في

حياتك وتعجز عن الوفاء به؟! تشعر بالغرابة؟! أبي

ربيع وهبة والحرافيش ولا أبالغ لو قلت الجميع

صاروا يتفهمونني.. يقتربون مني.. فيما تبقى أنت
بعيداً لا تفهم كيف فعلوها ولازلت انت واقفاً مكانك؟!
كلماتها تزلزله مكانه..
كل حرف في موضعه يملأ خاة.. يفتح جرحاً.. يعري
ذنباً..

فلا يملك سوى الصمت!

بينما يراها لا تزال تنظر أمامها متحاشية النظر إليه
لتردف بنبرة مجروحة لكنها لم تفقد قوتها:
_ لو كنت جئت لأحلك من هذا الوعد الصعب فأنا
أفعل.. أرخ ضميرك المثقل.. أعرف كيف يفكر من
مثلك.. كيف تبدو أتفه الخطايا جرائم في نظره.. فما
بالك بما فعلته انا؟!
تقولها لتلتفت نحوه غارسة نظراتها في عينيه :

_ كنت محقاً يوم قلت أنك منحت وعدك ل(سمرا)..

سمرا أخرى قد ماتت.

_ يوماً ما ظننته أسهل وعد أمنحه.. لم أكن أعرف أن

الوفاء به يساوي كل هذا الثمن.

نبرته الجامدة غارقة في مرارة جرحه فتدمع عيناها

وهي ترد بنفس النبرة القوية وهي تشير حولها :

_ الأمر بسيط.. لو كنت تجد هنا الآن بقايا من (سمرا)

التي منحتها وعدك.. فابقَ ونفذ ما تيسر من وعدك..

ولو لا تجد فارحل غير نادم ولا مُلام!

ينظر خلفهما لأسوار البيت التي بدت في الظلمة

النسبية للمكان كأنها وحوش تغرس مخالبتها في

أنيابه..

لقد قضى الساعة السابقة كلها يدور حول البيت يريد

الدخول لكنه عجز عن فعلها!!

لهذا لم يصدق عينيه وهو يراها هي تغادره لتجلس

هنا!

تماماً كما ظن.. لن يجمعهما أبداً بيت الصباحي!

الصراع داخله يجعل الدماء تفور في عروقه وهو

متردد بين أن يرحل أو أن يبقى..

كيف يسمع؟!!

كيف يلج هذا الباب الخادع؟!!

هل يمنحها فرصة الكذب من جديد؟!!

حركة جسده تفضح رغبته في الهروب لكنه يبقى

مكانه مطلقاً آهة عالية مع هتافه الذي ذبحها بصدق

لوعته وعجزه الحارق:

ماذا فعلتِ بي؟! أعيدي لي حبيبتي.. زوجتي.. أم
ابني..! لييتي أعرف أنها ماتت فأسترجع وأحتسبها
عند الله.. لكن أن يكون الأمر هكذا.. أن تكون أمام
عيني إنما.. مشوهة.. غريبة.. بل عدوة..!! ماذا
تظنيني قد أفعل؟!!

خيطان من الدموع على وجنتيها يبدوان له كذراعين
يعانقان قلبه!

يعتذران.. يربتان.. ويرجوان!!

كل (ريشة بيضاء) تركتها خلفها الأيام السابقة

تناقض (سواد) ثوبها الحالي..

تغزل لها (جناحاً) يجاهد كي تحلق به من جديد نحو

(علياء) هبطت منها بذنبها!!

تسأله إن كان يجد هنا بقايا من (سمرا)؟!!

قلبه يصرخ انها كلها.. كلها هنا!
فليزح عقله بعيداً الآن اذن .. وليمض فيما جاء
لأجله!

_جئت.. أسمع!

يلفظها وكأنه يطلق معها روحه فيشعر أن (العندليب
الأخرس) الذي طالما أرقه في عينيها.. يتحرر..
يخلق..

يصدح.. أخيراً يجد فرصته ليصدح..!!
تنهيدتها الحارقة تلهبهما معاً وهي تعود تنظر
أمامها..

_أعدت كلاماً كثيراً لهذه اللحظة.. دفاعاً طويلاً يجعل
مني ضحية في عينيك.. لكنني الآن أشعر أن لساني -

كقلمي- يتحرران من قيودي أمامك.. اسمعهما يا
إبراهيم .. اسمعهما حرّين دون مبالغة أو زيف..
ينعقد حاجباه بشدة وهو يراها دون وعي قد عادت
لحركتها القديمة..

أحد كفيها يربت على الآخر كأنها تعي أن لن يفعلها
سواها..!

فيتحرك كفه دون وعي ليتوقف على بعد عدة
سنتيمترات من كفها.. ويتجمد مكانه هناك!
حركة بسيطة لكنها منحتها الدعم الكافي لتحكي..!
_ لا أعرف إن كنت ستفهمني أم لا فمن لديه والد
كأبيك يصعب عليه تخيل والدك (رفعت الصباحي)..
لكن.. دعني أحاول.. ترى هذا القصر خلفك؟! ولدت
فيه طفلة لرجل متجبر وامرأة مستسلمة.. طفلة

تعلمت من صغرها أن كلمة (الأب) لا تساوي سوى
(ألف الألم) و(باء البطش).. أجمل الألعاب.. أفخم
الثياب.. أرقى المدارس.. أفضل النوادي.. أروع
الأسفار.. كل هذا لم يمخُ قسوة الشعور في داخلها
وهي تشعر أن ثمة فجوة ما بين ضلوعها.. لا يمكنها
شرحها لكنها تتسع يوماً بعد يوم.. من يراها من بعيد
يظنها أسعد بنات الأرض.. هي نفسها كانت تحاول
إقناع صورة مرآتها بهذا.. لكنها كانت تزداد يقيناً
بالحقيقة يوماً بعد يوم.. أنها ليست سوى رسمة
خرقاء على هامش الحياة.. (عروس ماريونيت)
أدركت أن خيوطها كلها في يد القائد الذي تموهت
صورته كأب.. كبرت (العروس) واختار القائد لها
حسام القاضي كعريس مناسب.. ضابط ذكي له أصول

عريقة في الصعيد وله من الثراء ما يصلح لنسب
عائلة الصباحي.. (عروس الماريونيت) لم تعترض..
لم يكن لها ان تعترض.. لكنها عندما عرفت أنه عقيم
أدركت أنها فرصتها لتقطع الخيوط.. استغلت الأمر
كما تعلمت بكل أنانية.. قذفتها في وجهه صريحة أنه
ليس سوى (نصف رجل) وأنها تستحق الأفضل..
صوت زفيره الملتهب جوارها يتلاحق بسرعة واثياً
بجحيم تكتوي به ضلوعه..

فتلتفت نحوه قائلة بإشفاق غريب :

_ كرهتني أكثر؟؟ أتوقف عن الحكي!؟!

يكاد يقول (نعم)!

لكنه يتذكر وعده.. على الأقل فليف بما استطاعه

منه..

فليسمع!

_أكملي.

جموده البارد لا يخدعها وكفه المعلق بينهما يعود

جواره مانحاً المعنى المفهوم..

فتعود للنظر أمامها قائلة :

_عروس الماريونيت كانت مخطئة.. الخيوط لم تنقطع

كما ظنت.. هي فقط ارتخت.. لهذا بحثت عن طريقة

أخرى تقطعها بها.. زوج جديد تختاره هي تلك المرة..

اختارته أصغر منها كأنها تلغي سنواتها السابقة

وتفتح باب عمر جديد.. (فهد الصاوي).. شاب حديث

التخرج.. ناجح طموح ويصلح كواجهة اجتماعية

ممتازة أرضت غرور (القائد) للمرة الثانية.. لكن

المفاجأة أنه كان يحب غيرها.. هنا جن جنونها وهي

تشعر بالنبذ.. ربما كانت تلك أول خطواتها للإدمان
وربما بدأت ذاك المشوار قبلها.. لم تعد تذكر.. تلك
الأقراص الساحرة كانت تمنحها (العالم الموازي)
الذي كانت تحلم به.. العالم الذي ينسيها قسوة أبيها
وسفر أمها هرباً منه.. العالم البعيد عن رفقة السوء
وزيف التصنع.. العالم الذي تضحك فيه وتنسى.. وكم
كانت تحتاج لأن تنسى.. ورغم أن فهد ساعدها كي
تقلع عن الإدمان لكن العروس بقيت تطمح في قطع
الخيوط.. بقيت تطمح في أمل الحب الذي ظنت قلبها
يحملة له.. وبدلاً من أن تحفظ له معروفه بمساعدتها
على العلاج من الإدمان خطت لتقتل زوجته.. لكن
القدر كان أرحم بالجميع من أن يتأذى أحد.. لفظها

فهد من حياته وعادت لأمها.. (مرتخية الخيوط) أيضاً
تلك المرة.. لكنها صارت تكره نفسها أكثر وأكثر..
تصمت قليلاً مطرقة الرأس تلتقط أنفاسها وكأنها
تمنحه فرصة المغادرة لو أراد.. وتمنح نفسها فرصة
التماسك للحديث عن الأصعب..

لكنه لم يبرح مكانه فقط أنفاسه تزداد اشتعالاً جوارها
فيزداد تربيت أحد كفيها على الآخر تمنح نفسها
المزيد من الدعم..

_سافرت العروس بعدها لأمها التي كانت قد استقرت
في بيروت.. التقت بالطبيب اللبناني اللمع في لبنان
(فادي).. اسم عائلته وحده كان كفيلاً بأن يسيل لعاب
(القائد) من جديد خاصة وقد ساءت الأوضاع في
مصر وقد كان يخطط أن يصفى أعماله بعد تقاعده

ويهرب تاركاً تاريخه الأسود خلفه.. لم تحاول
(العروس) التملص من الخيوط تلك المرة.. تركتها
تلتف حول عنقها بصبر لعلها تجد الأمل.. تزوجت
الطبيب الحالم الذي أحبها لكن بقيت هناك فجوة
بينهما زادت الأيام اتساعاً.. ربما هي غيرته
الخانقة.. ربما هي رغبته المبالغ فيها في الانفلات..
في التحرر من كل القيود التي تركتها خلفها في
مصر.. وربما هو خوفها الذي ازداد بمجرد حملها
منه.. خوف غريب اكتسى بالأمل وهي تشعر أنها
تنتظر معجزة.. توقفت عن تناول الأقراص وقد
عاهدت نفسها أن تتغير.. أن تصلح العطب بروحها..
وضعت طفلها الذي أحبته كما لم تحب شيئاً في
حياتها.. لكنها وبعد شهور من وضعه علمت عن

مرض أمها الذي بدأت أماراته في نسيان الأشياء
والأشخاص والذي صارحها الأطباء أن نهايته
محسومة.. لا أحتاج لأن أخبرك الكثير عن (فوبيا
الفقد) فأظنك خير من تعلمها.. وقتها تأزمت الأمور
بينها وبين فادي الذي زادت أسفاره ومشاغله..
فوجدت نفسها تتحدر من جديد نحو الدرك المعتاد..
(الأقراص السحرية).. عرف زوجها فتار أول الأمر
ثورة عارمة وهددها بالحرمان من طفلها وتطبيقها..
لكنه عاد يهادنها محتملاً لأجل ابنه.. خدعته وهي
توهمه أنها ستتوقف عن تناول الأقراص.. لم تستطع
أن تشرح له أنها تخاف العودة للواقع.. تخاف أن
تواجه مرض أمها الذي بدا لها مخيفاً أكثر مما كانت
تحتمل.. تخاف أن يفشل زواجها فتعود خيوط الدمية

للقائد من جديد.. وتخاف أن تصارحه أنها ليست
راضية.. شيء ما ينقصها لكنها لا تعرفه.. صدقها
ومنحها فرصتها الأخيرة حتى كان ذاك اليوم الذي
خرجت فيه تسعى خلف تلك الأقراص تاركة ابنها
الصغير وحده.. وأظنك تعرف الباقي..

يرتعش صوتها رغماً عنها ليعلو صوت نشيجها
بعدها هاتفة بين دموعها :

_كرهتني أكثر؟! ليس أكثر من كرهني لنفسي وقتها!!
والمثير للسخرية أن (القائد) مات بعدها بقليل..
انقطعت الخيوط أخيراً وصارت العروس حرة.. حرة
لتفعل ما تشاء.. كيف تشاء.. لكن المفاجأة أنها
اكتشفت أن الخيوط لم تنقطع كما ظنت.. بقي حول
عنقها طوق غليظ من خوف.. من جرح.. من ذنب..

ابنها خلفها وأما أمامها وبينهما جسر طويل ممزق
لن يحتمل ثقل خطواتها.. فقررت أن تهرب.. ماذا
ينقصها كي تفعل؟! البديلة موجودة والمال والنفوذ
إرث (القائد) يسهلان كل الأمور.. كانت هذه خطتها
وهي تستبدل حياتها بحياة سمر.. البنت البسيطة
التي تعمل في محل ملابس أطفال.. حيث ظنت نفسها
ستعيش الحياة السهلة وسط من يشبهون ابنها
الراحل فحسب.. تشم فيهم رائحته.. تاركة خلفها إرث
الصباحي القبيح.. كادت تسير الأمور هكذا لولا أن
قابلتُك.

يلاحظ أنها كانت تتحدث بضمير الغائب طوال الوقت
كأنها تتحدث عن أخرى حتى جاء ذكره فصارت
تتحدث بضمير المتكلم كأنها حقاً وجدت نفسها :

صدفة! صدفة غريبة جمعتنا أول مرة وجعلتني أرى
صورة جنة على هاتفك.. ظني السيء وقتها جعلني
أتصور أن هناك علاقة بينكما فدفعني الفضول
لملاحقتك.. وبدأت الحكاية..

يتحسرج صوتها وهي تلتفت نحوه أخيراً..
تغرس نظراتها في عينيه مشعة بصدق إحساسها:
_ أولاً أحببت أباك وتمنيته أبي.. (قائد) حقيقي ماهر
حنون لا أمانع لو كان هو من يمسك خيوطي.. أحببت
حبه لك وفهمت معنى (الأب) الحقيقية هذه المرة
(ألف الأمان) و(باء البر).. كثيرون يفهمون معنى أن
يبر الواحد أباه لكنني - وأنا المكتوية بها- معكم
فهمت كيف يبر الواحد ابنه.. وبعدها أحببتك أنت..
أحببت العالم الطاهر الذي جذبتني إليه يداك.. وجدت

نفسي يوم وجدتك.. تلك الفجوة التي طالما شكوت
وجودها بين ضلوعي ملاًها حبك.. أعرف أنني
ظلمتك.. خدعتك.. قد ترى أنك تستحق من هي أفضل
مني.. لكن من هي من أفضل مني؟! أي امرأة قد
تمنحك جسداً وقلباً وبيتاً وأطفالاً لكنني أنا.. أنا
ولدت بك ومعك ولأجلك من جديد! أي امرأة قد تضع
خاتمك في إصبعها لكنني أنا وضعت قلبي خاتماً في
إصبعك.. أي امرأة قد تجد فيك دنيا تعيشها.. لكنني أنا
ربحت بك دنياي وآخرتي؟! من مثلي تستحقك؟!
أقولها ليست غروراً ولا أنانية بل يقيناً.. ألا أخرى
ستجد فيك ما وجدته.. وتعشق فيك ما عشقته.. لم
تكن لي رجلاً.. بل كنت عالماً بأسره.. عالماً دخلته
بروح أخرى غير التي عشت بها طوال عمري.. لا

تحاسبني على ماضٍ ندمت عليه وتبت منه.. حاسبني
على أيامي معك أنت.. هل قصرت يوماً في حقك؟! هل
مضت عليّ ساعة، دقيقة، ثانية واحدة أشعرتك فيها
أنك أقل من دنياي كلها؟! هل تجرؤ الآن وبعد كل ما
سمعتة وعرفته أن تنكر أنني.. أنني أحببتك بكل ما
فيّ؟!!

تنقطع أنفاسها أخيراً بتحسّرٍ كأنما أفرغت روحها
الكلام قبل لسانها فتدمع عيناها هو وهو يشعر بهذه
الغصة في حلقه!

تحرر الغنديل في عينيها ولم يعد أخرس!
صدحه الصادق سيبقى صداه مدوياً في صدره ما
عاش!
يصدقها؟!!

نعم.. يصدقها!

لكنه لا يزال عاجزاً عن الصفح!

الصمت الطويل بينهما يغزل ألف ثوب من حيرة

والم..

الآن يفهم وهو يمرر شريط ذكرياتهما الطويل سر

تصرفاتها معه..!

_يسرا..

تتسع عيناها بصدمة وهي تسمع اسمها من شفثيه

لأول مرة!

كأنه الآن فقط يراها دون عباءة (ابنة أبيها) التي كان

يلقيها دوماً فوقها بعدما سقطت عنها غلالة (سمرا)

الخادعة!



ينهض مكانه ليتحرك قليلاً فيقف قبالتها..

كلاهما الآن في (النور) وقد تخلص وجهه من (ظلال

العتمة)!

خلفهما أسوار القصر المظلمة التي صار هو يدرك أن

كليهما يكرهها!!

_ ارفعني إليك!

تكاد تقولها وهي ترفع كفها نحوه كما كانت تقولها

قديماً لكنها الآن صارت توقن أنه دورها هي.. أنها

هي من سترفع نفسها لتحلق!

تقف مكانها ببطء لتتواجه نظراتهما فيقول بصوت

مرتعش وعيناه معلقتان بسلسلة عنقها ذات القلوب

الثلاث :

_ سامحيني..

ترمقه بنظرة تساؤل مترقبة فيردف :

_سامحيني على ما فعلته يوم عرفت الحقيقة..

سامحيني على أنني تأخرت كثيراً في سماع أذارك..

وسامحيني.. لأنني..

يطلق زفرة قصيرة ورأسه يتحرك يمناً ويسرة كأنما

يتجاذبه الصراع بين جانبيين متضادين وقد ضجّ

بحيرته..

صوته يتقطع أخيراً بمرارة شقت قلبيهما معاً :

_لأنني - ورغم تصديقي لك - لا أزال عاجزاً عن

المزج بينكما.. أنا عشقت سمرا التي كانت أول امرأة

دق لها قلبي وظننتني كذلك أول رجل دق له قلبها..

قد أتفهم يسرا.. قد أذرهما.. قد أسامحها يوماً على ما

فعلته.. لكنني.. لكنني لن أحبها.

تدمع عيناه في عبارته الأخيرة وجسده كله يرتعد
رعدة هائلة وصلتها مكانها كأنه استنزف بها طاقته
كلها..

فتبتسم ابتسامة واهنة وهي تهز رأسها وكتفها
بقولها:

_ لا ألومك.. يكفيني أنك سمعت.. وصدقته!
يلقي عليها نظرة أخيرة وهو يشعر بصدع عظيم
داخله..

لقد ظن أنه سينهي الصراع داخله يوم يستمع إليها
فيصدق أو يكذب!

لكنه الآن حتى وهو يصدقها يشعر بالغربة عنها!
تتحرك قدماه بتثاقل ليعطيها ظهره مبتعداً بخطوات
بطيئة فيشعر بخطواتها خلفه بطيئة مثله..

يوقن أنها لن تلاحقه بعد الآن مهما بدا طريقهما

واحدًا..

فهل يشعر بالارتياح أم بمزيد من الغربة؟!

ستحبها!

صوتها يقطع الصمت بينهما بعد لحظات فيلتفت

نحوها بدهشة لتلتمع عيناها بقولها الواثق:

ستحب يسرا كما أحببت سمرا وربما أكثر.. فقط

عدني وقتها ألا تكابر كثيراً قبل أن تقرر الاعتراف.

تقولها دون ان تنتظر رداً كأنما وصلها وعده وهي

تتجاوزه لتمضي في طريقها نحو البيت الذي ابتلعتها

ظلمته فينعد حاجباه بشدة وقد تسمر مكانه للحظات

قبل أن يتخذ طريقه هو الآخر نحو سيارته التي

استقلها وهو غارق بكليته في كلماتها الأخيرة..

لا تزال (الرامية القرمزية) تصوّب سهامها نحو

أهدافها..

فهل تحكم التصويب هذه المرة أيضاً؟!

والجواب يتوه بين قلب حائر وعقل رافض وروح

بينهما ممزقة!

=====

بنفسجي

=====

ديمة..!؟

تسمع الهتاف باسمها من الصوت المألوف فتحرك
رأسها محاولة فتح عينيها..

حلقها جاف وجسدها كله مخدر لكنها تسمع الطبيب
يطمئنه بارتياح على حالتها..

نجت!

نجت بعدما سمعت منه اعتراف الحب!

لقد ظنت أنها آخر كلمات ستسمعها قبل أن تفارق
الحياة لكن ها هو ذا القدر كان أكثر كرماً مما ظنت!

ديمة.. تستطيعين فتح عينيك!؟

نفس الصوت المألوف يصلها من جديد فتحاول فتح
عينيها بقوة أكبر..

ليس حسام..

هذا ليس صوته!

إنه..!

_بشر!

تتمم بها بوهن وجفناها يعانقان المرئيات أخيراً..
تميز ما حولها بصعوبة تبحث عن فارسها لكنه.. غير

موجود!

_أين حسام؟!!

صوتها الشاحب بالكاد يغادر حلقها بجزع فيتهد بشر
مغمغماً بارتياح :

_الحمد لله.. أنتِ بخير.. ستكونين بألف خير.

لم تسعدها لهفة ارتياحه ولا اليقين بنجاتها فكيانها
كله محتل بغيابه..

أين هو؟! هل آذوه؟!

_حسام.

تتمم بها عدة مرات متتالية برجاء جزوع تتلمس
عنه خيراً وملامحها تضج بلهفتها فيشير لها مهدئاً :
_لقد تلقى رصاصة في كتفه ورفض بعناد مكابر أن
يستريح بعد إسعافه.. طوال الساعات السابقة وهو
واقف على قدميه أمام غرفة العمليات ينتظر
الاطمئنان عليك.. ولم يكديراك تخرجين بعد نجاح
إنقاذك حتى انهارت قوته فجأة كأنه كان يدخر ما بقي
منها فقط.. لأجلك!

يرتعش صوته في كلمته الأخيرة فاضحاً مشاعره هو

الآخر!!

لم يكن سهلاً عليه أن يتقبل خسارته لها من جديد وقد

صار يوقن أنها.. أبداً لن تكون له.

لكنه يتمالك نفسه بقوة تليق به وهو يردف مطمئناً

إياها :

_ لا تقلقي.. كلاكما تجاوز مرحلة الخطر.

ترتخي ملامحها رويداً رويداً وهي تسبل جفنيها

شاعرة أنها تستعيد وعيها تدريجياً..

تشعر ببعض الحرج من وجوده معها مع ماضيها -

العامر- معه.. خاصة وقد رفضت عرض زواجه عن

قريب..

وكانه قرأ أفكارها ليغمغم بين حسم وأسف :

_ ما بيننا بابٌ قد أغلق للأبد! لا أظنني أحتاج المزيد
لأعرف عن حقيقة مشاعرك.. لن تضحي امرأة
بحياتها لأجل رجل إلا لأنها تحبه.. بل تذوب فيه حباً.
_ ليته يصدق!

تتمم بها بحسرة ليرد بابتسامة واهنة :

_ أظنه الآن يفعل.

ترمقه بنظرة طويلة وكأنها تراه ب(عينها الجديدة)..
غازي كان يسميه (طائر الظلام) وكم يليق عليه
الاسم!

من مجرد خادم داعم يساندها ويسمعها.. مروراً
بصدمتها بحقيقته كضابط مهم يفهم خبيثتها ويجيد
تعرية ذنوبها.. وانتهاء بموقفه الحالي كرجل يتنحى

بكبرياء عن "موقع" في حياتها يوقن أنه لم - ولن-

يكون له!

رحلة طويلة لكنها منحتها حقيقة واحدة أنها..

(يمكنها الوثوق به)

لهذا ترددت قليلاً و (فكرة ما) تكتسح كيائها بقوة..

تجعلها تسأله بصوتها الشاحب:

_ اصدقني القول.. هل أثرت إصابتي على شيء؟! أي

شيء؟!!

يرمقها بنظرة متسائلة عما تعنيه بالضبط ليرد

مطمئناً :

_ أبدأ.. الإسعاف جاء في الوقت المناسب.. ولا

تحتاجين أن أخبركِ أن الأمر تم بأقصى ما استطعناه

من كفاءة.

ترتجف شفتاها و(الفكرة الغريبة) لا تزال تجتاحها..

لعلها طوق النجاة الذي ترتجيه..!

_ هل يمكنني أن أطلب منك شيئاً.. أنت الوحيد الذي قد

تمكنه سلطته من فعل شيء كهذا..

يهز رأسه بترقب لتستجمع المزيد من قوتها

وشجاعته قائلة برجاء :

_ دع الطبيب يخبر حسام أن الإصابة أثرت على

الرحم.. دعه يقنعه أنني لن أكون قادرة على

الإنجاب.

_ ماذا!؟!

يهتف بها باستنكار لأول وهلة ثم تتسع عيناه بإدراك

وقد تفهم أسبابها حتى قبل أن تصله كلماتها مفعمة

بعاطفتها الحارة :

_ كذبة بيضاء! أرجوك.. لا أريد لشيء أن يقف بيني
وبينه بعد الآن.. حسام شديد الحساسية لهذا الأمر..
يريد أن يهجرني كي لا يحرمني أطفالاً وعائلة ولا
يفهم أنني اكتفيت به هو وسند كل عائلتي.. يرى نفسه
ناقصاً وأنا والله لن أكتمل إلا به.. أرجوك .. اعتبره
المعروف الأخير بيني وبينك قبل أن يغلق ذاك الباب
الذي قلتَ عليه.

يصمت قليلاً يفكر في كلماتها بحيرة..

إلى هذه الدرجة تعشقه؟!

ربما كانت محقة.. ربما كان هذا هو ما تحتاجه علاقة

كهذه كي تنجح!

_ لا تحتاجين لهذا.

الصوت الحازم عند باب الغرفة ينقذه من حيرته
ليلتفت بحدة نحو حسام الذي بدا في أشد حالاته
إرهاقاً لكن عينيه الصقريتين لم تفقدا بريقهما النافذ
وهو يتقدم نحوهما..

يقف بشر مكانه وقد أدرك أن ليس لوجوده معنى الآن
خاصة وقد بدا من ملامح حسام الهادرة أنه قد سمع
حديثهما..

لهذا يربت على كتفه برفق ليغادر الغرفة تاركاً لهما
مساحة الخصوصية..

ولم يكد يفعل حتى تهاوى حسام على طرف فراشها
بانهاك جعلها تقول بجزع وعيناها معلقتان بضمادة

كتفه :

أنت بخير!؟

لكنه يتجاهل سؤالها و(فوضى مشاعره) أمامها الآن

تكاد تقتله!

لا يصدق أنها كانت تخطط لأن تكذب كذبة كهذه فقط

لتبقى جواره!

هل بقي له من عذر في الهجر؟!

هل بقيت له أسباب؟!

هل بقيت له طاقة وهي تصر كل يوم أن تزيد (بياض)

وجهه معها هي..

أن تصرخ بكل طريقة.. (أنا أراك.. كل عيون قلبي

تراك)؟!

لا.. لم يبق!

لهذا يتنهد أخيراً ليقولها بحسم عاتب:

_إياك أن تفعلها ثانية.. إياك أن تفكري في الكذب

عليّ من جديد.

تسبل جفنيها شاعرة بالذنب فيتناول راحتها في كفه

مردفاً بحرارة :

_أولاً.. لأتني سأعرف! (حلقة الزعفران) في عينيك

هذه لن تخدعني.. لن تضلني وأنا المسترشد بها..

ترتجف ابتسامتها بخزي وهي ترفع عينيها إليه

ليردف بنبرة أكثر اشتعالاً :

_وثانياً.. لاتني قد أحرق الدنيا كلها لو عرفت ان

هناك ما تخفينه أو أن هناك من هو أقرب اليك مني

حتى نفسك ..

تشد بأناملها الواهنة على يده كأنها تستغفره فيتهد

بحرارة قائلاً :

_ وثالثاً لأنك حمقاء..

تتسع عيناها وهي تراه يرفع راحتها نحو وجهه يكاد يخفيه بين خيوط يدها مردفاً بهمس عزيز على رجل مثله:

_ حمقاء لو ظننتِ اني بعد الرعب الذي عشته الساعات السابقة ساسمح لك بان تغيبني عن عيني يوماً واحداً .. وأنا أكثر حماقة منك لو تركت اي شيء يفصل بيننا بعد الآن.

آهة عميقة تغادر حلقه وهو يمرغ وجهه في راحتها بين قبلاته التي طالما بدت لها كدغدة الفراشات.. فتبتسم بارتياح وهي تتحسس ملامح وجهه لتتحدث أناملها نحو (عقدة حنجرته) تستقر هناك مع نظرة عاشقة من عينيها صار هو خير من يفهمها..

يمد إبهامه يمسح دمعة فرت من طرف عينها لينحني

مقترباً منها بوجهه بهمسه:

_ ستعودين لتخافي من البحر؟! غدر بك من جديد هذه

المرّة!؟!

لكن نعومة أناملها تصنع حول عنقه طوقاً من ورد

ولا تزال تتحسس (عقدة حنجرته) هامسة بقوتها

المستحدثة :

_ مستحيل! .. مهما حدث لن أعود للخوف منه أبداً..

سيبقى دوماً بعيني مزينا بصورتك .. هادراً بنكهة

الحياة .. وغامضاً بهيبة الموت .. لكنه دوماً شهى

بمذاق الحب .. آمنٌ بسكينة عناقك.

_ لم أكن أعرف أنك تجيدين (الغزل) .. كما تجيدين

(الغزل).

_ لأجلك أفعل.

تهمس بها بعمق عاطفتها مردفة :

_ كنت محقاً.. (الكونزيت) يزهو في العتمة أكثر..

كحبنا.

_ ك"حبنا".

يهمس بها مؤكداً وهو يهز رأسه ليقبل كفها من جديد

فتتأوه بخفوت هامسة:

_ "حبنا! ".. أخيراً تجمعا هذه الكلمة! أخيراً تقولها

بهذه السلسلة يا (مغرور)!

_ كوني بخير ولن أتوقف أبداً عن قولها.

يقولها وهو يقترب بوجهه أكثر منها..

يرتعش صوته حد الزلزلة وأنفاسه تعانق أنفاسها:

_تعرفين كم أشتاق الآن لأن أعانقك؟! .. لأن أنثر
شعرك على كتفي مطارداً رحيقه الذي طالما أرقنتني
رائحته.. أفرش صدرك العاشق.. الخافق بنبضات
شوق أجد صداها في صدري.. أمطركِ وابلًا من قبلات
تدق وشم عشقي أدياً على بشرتك .. أحملكِ.. وآخذك
بعيداً.. بعيداً عن كل شيء.. فلا سماء إلا جبينك.. ولا
أرض إلا شفتيك.. ولا شمس إلا شعرك.. ولا قمر إلا
بين عينيك.. أنت.. أنتِ فقط.

تدمع عيناها بعمق فرحة شعورها في هذه اللحظة
وهي تشعر أنها تشاركه إحساسه..
الآن فقط توقن أن كل السدود بينهما تهاوت فلا مكان
إلا ل(حب) و(حب) و(حب).

تشعر بوهن جسدها يعاودها فتأوه بألم يجعله يقبل

راحتها هامساً :

_ نامي واستريحي.

_ وستبقى معي!؟!

تسأله بلهفة لكن عينيه تغيمان بغموض يجعلها تردف

بقلق راجية:

_ لا تعرض نفسك للخطر.. أرجوك.. لأجلي.. لأجل

سند.. (ابننا).

ورغم رجفة خفيفة بعثتها كلمة (ابننا) - هذه التي

نطقتها بعفوية - لكنه همس بحسم :

_ الخطر موجود على أي حال.. أنا فقط أحاول منعه.

يزداد القلق على ملامحها لكنه يميل على وجنتها
بقبلة ناعمة هامساً بحنان يبدو وكأنه قد ولد في قلبه
لأجلها هي فحسب:

_ لا تخافي.. لا يزال بيننا عمر طويل أشتاق لأن
أعيشه بين ذراعيك.

ترتخي ملامحها بارتياح مؤقت لوعده فيتحرك ليطلب
المرضة التي أعطتها دواءها والذي استجاب له
جسدها بالمزيد من الاسترخاء..

تنتظر خروجها لتتشبث هي بكفه هذه المرة هامسة
بصوت واهن:

_ النوم يغلبني.. دعني أر ابتهامتك.. أغمض عليها
عيني.. يحضنها جفناي كما يحضنها قلبي.

يكاد يرتج مكانه بأثر هذه العاطفة التي تشع من بين

حروفها..

يبتسم!

يبتسم أخيراً!!

يبتسم ملء شفثيه بل.. ملء قلبه!

يبتسم كأنه ما عرف الفرحة قبلها..

كأنه كان يدخر ابتسامه كهذه لفرحة عمره بعدها!

يبتسم فتشرق الشمس في قلبيهما عن فجر طويل لن

يقطعه غروب ولن يهدده ليل!

يقبل جبينها قبله عميقة تهزها بعمق عاطفتها معاً

فتبدو شفثاه مترنحتين في محرابها بطواف خاشع

تتسع معه ابتسامته بهمسه:

_ (شو أمرت ست راسي)!

تضحك فتؤلمها إصابتها لكنها تتجاهل ألمها وهي
تهمس أمام عينيه بحروف تقطر عشقاً:
_قبلاتك مثل غزلي.. كلاهما من حرير.
يضحك عفويًا وأحد حاجبيه يرتفع بغرور أصيل فيه..
غرور يناقض تهديته الأخيرة وهو يقبل وجنتها
هامساً أمام حلقة زعفران اتسعت لتكون أكبر ساحة
عشق وسعتها معاً.. :
_وأنا مفتونٌ بك.. يا أسرة (الغزل) و(الغزل).



أصفر

==
_ ما الأخبار؟! عرفت عنه شيئاً؟!
تسأله رؤى بقلق وهي تفتح له الباب..
كان الجميع يجلسون في شقة والدته يترقبون عودته
من تلك المدينة البعيدة التي يعمل فيها فهمي..
ليرد راغب وقد بدا متعباً بعد رحلة السفر :
_ لا أحد يعلم عنه شيئاً.. منقطع عن العمل دون

أسباب!

تلطم أمه خديها منهارة في بكاء مرتفع شاركها فيه
أولاده..

يحاول راغب تهدئتها لكنه لا يعرف ماذا يفعل!
أخوه اختفى تماماً دون سابق إنذار..

هاتفه مغلق ولا أحد يعرف عنه أي خبر..

وهاهو ذا قد ذهب لمقر عمله لما يأس ليجد النتيجة

واحدة!

_ أنا أعرف أين هو!

تهتف بها هيام محمرة الوجه زائغة العينين ليهتف

بها راغب بلهفة :

_ أين؟!!

تتردد قليلا ثم تخرج من طيات ثيابها ما يشبه ورقة

مطوية طياً صغيراً مربوطة بخيوط متشابكة رفعتها

في وجوههم قائلة :

_ خطفته جنية سفلية! بسم الله الرحمن الرحيم.. يجعل

كلامنا خفيف عليهم!

يزفر راغب بسخط وهو يخبط وجهه بكفيه فيما تردف
هيام بحرارة منفعلة:

كنت أعرف! ذاك الرسم الغريب الذي ظهر فجأة
على ذراعه لثعبان كبير! تخيل! أخوك الذي يخاف من
خياله يظهر له رسم كهذا! وعندما سألته أخبرني
وهو يكاد يبлл ثيابه خوفاً أنه لا يذكر وأنهم رفقة
السوء! ومؤخراً تغيرت تصرفاته معي.. تصور أنه
كاد يلقي مقلاة الزيت المغلي على وجهي ذاك اليوم!
عيناه كانتا حراوين كأنهما مسكونان بشيطان!
لكنني لم أسكت..

تقولها ملوحة ب(الشيئ) في يدها مردفة :

_ ذهبت للشيخ المبروك وطلبت منه الحجاب.. أخبرني
أن هناك جنية سفلية تريده لأنه يعجبها.. يبدو أنها
خطفته!

_ أمي! أنا ذاهب لغرفتي لأنني متعب ولا ينقصني
سماع هذا الهراء!

يهتف بها راغب بنفاد صبر وهو يغادر الشقة مع
رؤى التي تبعته يلاحقه صوت هيام المنفعل:

_ لا تستهزئ بهم كي لا يؤذوك.. سامحوه يا أسيادنا..
غداً أذهب للشيخ من جديد يدلنا أين خطفته عاشقته
من الجن.

يتمتم راغب بعبارات ساخطة وهو يصعد الدرج نحو
شقيقته ولم يكذب يغلق بابها خلفه حتى ضمته رؤى
لصدرها قائلة بمزيج من قلق وحنان :

_ أعرِف أنك متعب.. كل ونام.. وغداً يدبرها الله..

سنجده بإذن الله.

تدمع عيناه بحزن حقيقي وهو يرد :

_ من يدري ماذا حل به؟! أصيب في حادث أو آذاه

أحدهم مستغلاً طبيعته المستسلمة!! في أوقات كهذه

أتمنى لو لم يتغير لطبيعته الخائعة هذه! أتمنى لو كان

بقي كما هو جيد أخذ حقه ممن يظلمه! غداً سأذهب

لأقدم بلاغاً عن اختفائه في قسم الشرطة.

تهز رأسها باستحسان للفكرة وهي تتحرك معه نحو

غرفتهما حيث استقر جسده المكدود على الفراش

ليستسلم للنوم بمجرد ملامسة رأسه للوسادة وشاية

بمدى إرهابه..

تراقبه رؤى بقلق حنون لتشرد ببصرها وهي تتذكر
ما أخبرها به راغب عن قدوم حسام وفهد له في
الورشة وتغيّر فهمي المضطرب بعدها!
تحاول تصديق أنها كانت مجرد صدفة لكن ظهور فهد
في مشهد واحد مع راغب يكاد يوقف قلبها رعباً من
أن ينكشف المستور!

لهذا تستغل استغراقه في النوم لتخرج نحو الغرفة
الأخرى، تغلق بابها خلفها لتتصل برقم جنة ولم تكد
ترد بعد تحية تقليدية حتى بادرتها بسؤالها :
_اسألك بالله أن تصدقيني القول.. هل كانت زيارة
زوجك لورشة زوجي حقاً مجرد مصادفة! ؟

تصمت جنة قليلاً وهي تلاحظ تخرج رؤى من ذكر
اسم فهد مع ماضيها القديم فيخزها ضميرها بينما
تردف رؤى بنبرة متحشجة :

_ لا تكذبي عليّ.. أنا أشعر بشيء غريب يجري.. في
البداية كان يخص عزة وطيقتها.. ثم يجيء زوجك إلى
هنا.. تعرفين كم أنا مرعوبة من مجرد التفكير أنهما
كانا معاً!

تتهد جنة بحرارة وهي تتردد بين إخفاء الحقيقة أو
إخبار رؤى على الأقل لعلها تأخذ حذرهما من ذاك
الوغد..

لتعاود رؤى رجاءها :

_ أرجوك يا جنة.. أنا لا أحتمل المزيد من القلق..
البيت كله في حالة طوارئ بسبب اختفاء شقيق راغب
المفاجئ.. ولا ينقصني المزيد من الخوف!

_ لعنه الله أينما ذهب!

تهتف بها جنة بسخط فينعدد حاجبا رؤى بدهشة وهي
تسألها عما تقصده..

دهشة تحولت لصدمة ذهول وهي تستمع من جنة
لحقيقة فهمي!

تستعيد ما أخبرها به راغب عن ماضيه لتتضح
الحقيقة في رأسها تدريجياً..

هي أيضاً تعجبت كيف لم يبحث الجميع عن حقيقة
تغيره هكذا من النقيض للنقيض!!

كيف دفعتم رغبتم في التخلص من سوء خصاله
لتصديق الوجه الخانع الجديد الذي أجاد التظاهر

به!!

المجرم!!

هذا المجرم كان يعيش بينهم!!

الرعب يملأها من جديد وهي تسمع جنة تخبرها عن

سبب اختفائه بعدما انكشفت حقيقته لتغمغم رؤى

بتشتت:

_ ماذا سيفعل راغب لو عرف؟! وأمه وزوجته

وأولاده؟! مجرم!! يا لله!! هل من الممكن أن يؤذينا؟!!

حتى لو لم يفعل سنوصم به العمر كله!!

_ لا تخبري زوجك.

تقولها جنة برفق مردفة :

الأمر حتى الآن في غاية السرية ولا نعرف إلى أين
ستمضي الأمور.. فهد وعدني أنه سيبدل قصارى
جهده كي تبقوا أنتم بعيداً عن كل هذا.. فدعي الأمر لله
يدبره كيف شاء.. ومن جديد أنصحك ألا تخبري
زوجك.. الجهل نعمة أحياناً!

يوافق قولها هوى في نفس رؤى التي أشفت على
زوجها من خبر كهذا..

تغلق معها الاتصال لتتوجه من جديد نحو غرفة
راغب النائم لتتفحص ملامحه بإشفاق..

يخفق قلبها بلوعة وهي تشعر ببعض الذنب لأنها
تخفي عنه شيئاً..

لكنها تتذكر قول جنة..

(الجهل أحياناً نعمة.. ورحمة)

ربما هو من لطف الله الخفي أن يحجب عنه ما يؤذيه

فلا يسوؤه فيما يحب.. ومن يحب!

تسكن روحها للخاطر الأخير فتحنى لتقبل جبينه

بإجلال ولو استطاعت لقبلت هذا القلب النابض بين

عروقه والذي تزداد له عشقاً واحتراماً يوماً بعد

يوم..

وكعهدا كلما همّها أمر فزعت للصلاة!

تتاجي الله أن يكشف هذه الغمة عنهم ويحفظهم من

شر المستور..

لتختم صلاتها بدعائها

(اللهم أتم علينا سترك وكفى بها نعمة)

=====

برتقالي*

وقد صار قبرها هو (الخامس)!
يقف أمامه يحيى وهو ينقل بصره بينها جميعاً بينما
يستعيد ما أخبرته استبرق به ويربط بذكائه الخيوط
لتجتمع أحداث القصة كلها في عقله..
قبر أبيها (جده) على بعض المسافة ، قبر الأمين
الكبير ، الأمين الصغير ، قبر غيث ، ثم قبرها هي!

طالت القصة كثيراً لكنها انتهت بعدالة!
دمعة كبيرة تشوش الرؤية في عينيه ولا يزال مذاق
عناقها الأخير له طازجاً بين ذراعيه..
بقعة الدم الكبيرة التي تركتها له ليس فقط على
ثيابه.. بل على قلبه!

_ كفاك يا يحيى!

كف (إلياس) الداعم - دائماً- يحط على كتفه فيلتفت
نحوه بنظرة زائغة :

_ تظنني أحمل ذنبها؟! ربما لو..

_ هي من تحمل ذنب نفسها..

يقاطعه بها إلياس بحسم وهو يشد بقبضته على كتفه

مردفاً :

_ هي اختارت الطريق المعروفة نهايته! هي من
وضعت يدها في يد الشيطان فخنقتها قبضته آخر
الأمر.. أنت تعرف كم كنت أحبها.. هي لم تكن أمك
أنت فحسب كانت كذلك بالنسبة لي أنا الآخر.. لكنها -
ولا أدري كيف استساغت نفسها فعلها - محت
تاريخها القديم كله.. سرقت الشركة وقتلت شقيقي
وفعلت الفاحشة ونسبت ولدًا لغير أبيه وكادت تضيع
مستقبلك ومستقبلي أنا الآخر.. هي لم تفسد الطبخة
التي عاشت تصنعها طوال عمرها فحسب بل وضعت
فيها السم كذلك.. فمن الذي يتحدث عن الذنب هاهنا؟!
يومئٍ يحيى برأسه بأسف موافقاً فيجذبه إلياس نحو
سيارته القريبة..

يلقي نظرة أخيرة على القبور الخمسة قبل أن يتهد
بحرقة وهو يستقل السيارة جوار عمه الذي انطلق
بها ليقول بنبرة عملية كأنه يحاول إخراج يحيى من
حزنه بكل طريقة:

_ لو كان يسعدك أن تعلم أننا أخذنا ثأرها فاعلم أن
السيد (...) سقط في قبضة السلطات هو وكل من
خلفه.. سينال عقابه.

يلتفت نحوه يحيى باهتمام ليردف إلياس بانفعال:
_ الوغد ظن أنه بقتل استبرق سيطمس كل أثر خلفه
لكن تلك الوثائق التي وجدتها شجون في خزانة غيث
قامت بالمطلوب على أكمل وجه.

_ والمؤسسة؟! وسمعنا?!!

يهتف بها يحيى بلهفة قلقة ليرد إلياس بزفرة ارتياح

قصيرة :

أنت تصرفت في الوقت المناسب تماماً عندما فسخت

عقود شراكتنا مع ذاك الرجل.. وأنا سعت عبر شبكة

من العلاقات لعمل تسوية مناسبة مقابل عدم النباش

في الدفاتر القديمة..

يقولها ليلتفت نحوه مردفاً بحسم لم يخلُ من أسي:

راحت استبرق وراحت معها نقطة سوداء كبيرة

كانت لتلوث تاريخ مؤسسة الأمين للأبد.. لكننا أنقذنا

"العائلة" بأقل خسائر ممكنة و-الأهم- دون فضائح!

آهة عميقة تشق صدر يحيى وهو يغمض عينيه

مسنداً رأسه للخلف..

الذكريات تتقاذفه بجنون كما البحر الهادر..

(سندباد) طالت رحلته كثيراً لكنه استقر أخيراً

بسفينته فوق شاطئ الأمان!

يرن هاتفه باسم مألوف لرقم أجنبي فتتغير ملامحه

وهو يفتح الاتصال :

_ يحيى!؟

صوت (سراب) الذي دار معه في متاهات عدة الآن

يستقر في أذنيه بالنبرة (المضبوطة) تماماً وهو

يسمعها تردف بصوت متهدج :

_ (أخي)!

يغمض عينيه بتأثر فيصله صوتها المتهدج فاضحاً

بكاءها :

لا تخف! انا أتذكر اتفاقنا.. لن أقولها من جديد كي لا
يفتضح السر الذي اخترنا ستره.. فقط دعني أقلها
اليوم وأنا أعزيك في مصابك.. دعني أقلها كما أشعر
بها.. وسأبقى أشعر بها.. (أخي)..

تلتوي شفتاه بشبه ابتسامة وهو يرد :

هذا ما يعينني.. أن تبقى تشعرين دوماً بها.. أنا في
ظهرك دوماً مهما ابتعدت.. مكانك هنا حاضر مهما
غبت.

صوت بكائها العالي وسط آهات عالية يفضح تأثرها
هي الأخرى فيردف بحنان :

لم تكبري يا (بنت)! لا تزالين تبكين بهذه الطريقة
المثيرة للضحك كما كنتِ طفلة.

يقولها وهو يشعر لأول مرة أن (الحنين) توظفه
(الفطرة) في الاتجاه الصحيح..

الآن يشعر أن ذكرياته معها صارت مجرد عهد طفولة
وصبا قديم ولن ينغص - بعد اليوم- العهد الجديد!
نفس الشعور الذي وصلها وضحكتها القصيرة
المختنقة تصله بقولها :

_ لم أستطع السفر لأكون جواركم..اعتن بأمي يا
يحيى.. هي أمانتك وأنا أثق أنك خير من يؤدي
الأمانة.

_ في عيني وعلى رأسي.
يغلق بها الاتصال ليعاود إلياس التربيت على كتفه
قائلاً بارتياح:

_أظنك الآن أغلقت كل دفاترك القديمة.. ارتح إذن يا

يحيي.. ارتح..

وبمجرد ذكر (الراحة) يجد اسماً واحداً يلح على

ذهنه..

اسم صارت صاحبتة تشكل كل واحات الراحة التي

ترتجيبها قوافل قلبه الضالة..

(طيف)

تستقبله على باب بيت الأمين الداخلي بعد انصراف

إلياس لشأنه فيعانقها بقوة وهو يخفي وجهه في

حنايا عنقها ويخفي معه كل أوجاعه..

أناملها التي تمزج خشونة الشقاء القديم بنعومة

الترف المستحدث تجيد التربييت على وجهه الذي

رفعته إليها..

لم تقل (كيف حالك)..

فقلبها العاشق كان أعلم بكل حاله!

لم تقل (شد حيلك)..

فقد وهبته من قوتها (ألف حيل)!

لم تقل (لا تحزن)..

فمثلها تفهم كيف يمكن أن يكون الحزن توأم القلب

الالصيق الذي يهادن أحياناً لكنه لا يختفي أبداً!

لكنها قالتها أخيراً :

_ أنت.. رجلي!

بضعة حروف كهذه من امرأة (مثلها) كانت كافية

لزلزله مكانه!

يتذكر يوم صفعته بها قاسية لكنها كانت

مُسْتَحَقَّة: (لست رجلي!)

والآن تشد بقبضتيها على كتفه هامسة :

_ هذا هو الكتف الذي أثق انه لن يخذل رأسي أين

ومتى وكيف احتاج اللجوء إليه..

تهبط أناملها نحو صدره مردفة :

_ هذا هو القلب الذي أوقن أنه لن تخونني دقاته.

تقبل جبينه باعتزاز لتهمس أمام عينين طالما

عشقتهما والآن تعشقهما أكثر وقد تهاوت قضبانهما

كاملة.. لتردف:

_ هذا هو الجبين الذي يستحق أن أعيش لأراه أبداً

مرفوعاً..

ترتفع أناملها نحو (خصلة الشعر البيضاء) التي

تعشقتها في شعره بابتسامة رقيقة:

_هنا.. هنا ركض حلم طفلة رأت فيك طيف (أب)

رحيم..

تتصدر نحو وجنتيه..

_وهنا.. استقر حلم أم رأت فيك طيف (ابن) ضال..

ثم تحيد نحو أنفه بنبرة أكثر انفعالاً..

_وهنا.. تلاعب حلم عاشقة بين أن تكسر أنفاً مغيظاً

كهذا.. أو تجبره ألا يشم عبير امرأة أخرى سواها

فاختارت الثانية!

يبتسم رغماً عنه وهو يضمها إليه بقوة وقد غلبته

طبيعته المشاكسة رغماً عنه :

_وبالنسبة لشفتي؟! "هواء" مثلاً؟! ليس لهما أي

نصيب من الرحلة هذه؟!!

تحمر وجنتاها بخجل نادر وهي تلكزه في كتفه قائلة

بنبرة عادت لها فظاظتها الفطرية :

_وتتهمني بأني (ملكة الفصلان)؟!!

تتسع ابتسامته وهو يلصقها به، يعانق سديم عينيها

الذي يعد بألف ألف نجمة وليدة تنهياً لترسم لهما

سماء عشق جديدة لم يعرفها قبلهما ولا بعدهما

أحد..

ليهمس بصوت متهدج:

_كان هذا أعظم اعتراف بالعشق سمعته.. ولم أكن

أنتظر منك الأقل.

شفتاها تشاركانه ابتسامته للحظات لكنه يرفع أحد

حاجبيه مردفاً :

_لكني لن أعتبرك امرأتي قبل ان أفعلها..

ترمقه بنظرة متسائلة ليردف باعتزاز :

فقط عندما تنتهي أيام الحداد.. سأقيم لك أجمل
عرس تحكي عنه العراق كلها! عرس حقيقي هذه
المرّة.

تملاً الدموع عينيها بتأثر وهي تتذكر عرسهما القديم
في قصر الرفاعي..

ذاك الذي رد لها (كرامتها)..

لكن العرس الذي يحكي عنه الآن هو حقاً ما
تحتاجه..

كي يرد لها (قلبها)..

إلا دموعك حبيبتي!

يقبل بها عينيها فتشعر بها أكثر دفناً من كل مرة..

وكأنه كل مرة يقولها يودعها بعضاً من حرارة

عشقه!

قبل أن تتعلق عيناه بسلسلة (يحيى) التي كانت

لاستبرق على صدرها!

ارتديتها؟!

يهمس بها مصدوماً وهو ينتبه لها لأول مرة تطل من

خلف ياقة قميصها المفتوح فتلمسها أناملها قائلة

بقوة تليق بها :

_أنا أحق بها.. لا تقلق.. أنا أعرف قدر أن تكون هذه

في عنقي.

يضطرب قلبه بحزن غادر يجاهد كي يتجاوزه فتعانق
كفيه بكفيها بصلاية داعمة ليحتويهما صمت قصير
صاخب بالمشاعر..

قبل أن يهز رأسه مغمضاً عينيه بهمسه :
_ وأنا أيضاً أعرف.

تشد بقبضتيها على كفيه لتتهف بحرارة :
_ عندي لك مفاجأة.

تقولها وهي تشده من كفه نحو الطابق العلوي فيخفق
قلبه بترقب وهو يراها تفتح باب إحدى الغرف ليطل
من خلفه الوجه الحبيب :

_ بابا.. افتقدتك كثيراً!

_ مجد!

يصرخ بها بفرحة ملهوفة وهو يندفع نحوها ليعانقها
بقوة مغرقاً وجهها بقبلاته ثم يرفع عينيه نحو نزار
الواقف خلفها بقوله:

_ أنت من أحضرتها؟! وأنا الذي قلت أنك تركتني في
هذه الظروف!!

_ عيب عليك! أخوك رجل عملي وليس له في جو
(المواساة) الثقيل هذا! (السيدة عنكبوت) اقترحت
الفكرة وأنا طرت إلى مصر كي أنفذها!

_ سيدة عنكبوت!؟

تتمتم بها طيف بسخط لتتنظر إليه شذراً مردفة:

_ ومن الذي يتكلم؟! فرقع لوز نفسه!

يبتسم لها نزار ابتسامة صفراء مغيظة فتجذب كرسي
مجد للخارج قائلة :

_ تعالي حبيبي كي نبدل ملابسك ونتناول (ثلاثتنا)
الطعام.

_ (أربعتنا) يا سيدة عنكبوت من فضلك.. أعرف انك
كريمة وترحبين بوجودي لكن لا تتعبي نفسك في
الضيافة كثيراً.. هذا بيت أخي يعني بيتي.
يهتف بها بسماجة فتصفق الباب في وجهه بعنف
مقاطعة عبارته لتعيد له ذكرى (صفع الأبواب) في
البناية أيام (ابو ظبي) ليبتسم وهو يهز رأسه بقوله :
_ لو كنت تفكر جدياً في ان تعيش مع تلك المرأة فوفر
مخزوناً كافياً من الأبواب.. أو اجعلها مصفحة.
يبتسم يحيى وهو يعانقه بامتنان ليجذبه نحو أريكة
قريبة يجلسان فوقها..
_ كيف حالك يا صاحبي؟!!

يسأله نزار بجدية ودود وهو يربت على كتفه ليرد

يحيى بامتنان حقيقي:

_ بعض المعروف لا يمكننا رده مهما فعلنا.. دينك في

رقبتي أبد الدهر.

_ منذ متى يدور كلام كهذا بيننا؟!!

بمزيج من استتكار وود يقولها نزار ليردف مغيراً

الموضوع بقوله:

_ ماذا تنتوي للفترة القادمة؟!!

_ سأغير سياسة المؤسسة.. أريد دراسة السوق

الحديث هنا كي أصل بها لأعلى مستوى..

يقولها يحيى بحماسة ليردف وهو يربت على رغبة

صديقه:

_ وأنت ستكون معي.. كالعادة.

يبتسم له نزار بما يشبه الوعد لكنه يقول بحسم :

_ لا مانع لكن بقيت لي مهمة واحدة في مصر..

يرمقه يحيى بنظرة متسائلة ليرد باقتضاب:

_ أخي إياك يحتاجني.

=====

صرخاته الغاضبة تتوالى هادرة وهو يقف في صالة

بيته يدور حول نفسه كوحش جريح!!

وشم (الكوبرا) على ذراعه يبدو له وكأنه (مقطوع

الأنياب)!

بل وكأنه فقد عقله فصار ينفث السم داخل عروقه

هو!!

جلدات السوط تهوي على ظهره تباعاً فلا يعرف كيف

يوقفها!

سقط ذراع (التنظيم) في العراق بسقوط السيد (...)

مما دفعهم لتجميد الأمور في بقية الدول مؤقتاً!

حسام القاضي نجا من محاولة اغتياله ولا ريب أنه

يترصده مع بشر!

فهد الصاوي لا بد أنه صار يعرف أنه هو من كان مع

أمه منذ سنوات ويتوعدده بالثأر مع صديقه حسام!

وهو صار مقيد الحركة والنفوذ بعد ما حدث!

وهي..

هي..

أكرهك..

لا تزال تدوي في أذنه بصوتها منذ آخر مرة زارها
فيها في بيتها فتلهبه ب(أقسى) جلداته وهو يرى
نفسه عاجزاً عن رؤيتها من جديد!
صار يخافها كما صارت تخافه وربما أكثر!!
وكيف لا وهو يرى في صراخها النافر آخر انهيار
لحصونه!؟!

أجل..

بعد كل ما عاشه في حياته نجح بأعجوبة في أن يبقى
على الحافة الرفيعة محافظاً على توازنه..
والآن.. صارت هي اليد الناعمة - التي برغم
هشاشتها- هي الوحيدة القادرة على دفعه للسقوط!

_ لا! لن يحدث أبداً! سأنتصر في النهاية كعهدي..
ستعود كل الخيوط في يدي.. الأمر فقط يحتاج لصبر
وتخطيط.. ولا ينقصني أحدهما.
يقولها لنفسه بصوت مسموع وهو يتوقف لاهث
الأنفاس ليتحرك نحو الجدار القريب..
يسحب كرسيّاً ليجلس أمامه محاولاً استعادة صفاء
ذهنه كعادته أمام الجدران المصمتة..
يفرد رقعة الشطرنج ليرص القطع ملاحظاً نفسه
كعهده لكن..

_ **أكرهك!**

تدوي برأسه من جديد بصوتها كقذيفة تمنعه التركيز
وتجعله يطيح ب(الملكين) معاً يسقطهما أرضاً قبل أن

تطيح قبضته بعدها بالرقعة كلها وهو ينتفض واقفاً
مكانه..

لكنه ما كاد يلتفت حتى فوجئ (بهما) أمامه!
تشحب ملامحه حد الموت وهو يميز ملامح الرجلين
الذين وقفا أمام الباب الداخلي للبيت..
كلاهما يحمل عنده ثأراً.. وعمراً.. وقصاص شرف!
_ كيف عرفت بيتي!؟

ذكاؤه يدفعه للمماطلة بهذا السؤال وهو يحاول
الاقتراب من مكان سلاحه الذي يخفيه..
يقولها ببرود متعمد كأنه يفسد عليه فرحته بمفاجأته
في عقر بيته..

لكن حسام يتقدم منه بحذر مع فهد الذي بقي صامتاً
وإن وشت ملامحه المشتعلة بما يعانيه من جحيم
ماضيه..

قسوته الساخرة تلقي بالرد :

_إياد يبلغك السلام.

تتسع عينا (الكوبرا) بصدمة تحولت لغضب هادر
وهو يشعر بالمزيد من الصدمة تكاد تورده للجنون..
خدعوه!!

إياد لا يزال حياً!!

متى أفلتت من يده كل الخيوط هكذا؟؟!

_بشر كذلك يرسل لك تحياته مؤقتاً حتى يأتي ويبلغك
إياها بنفسه.. أظنه هكذا رد لك الدين القديم.. هاهو ذا

يفعلها مع إيراد كما أجبرته على فعلها قديماً مع

(فجر)..

الاسم الأخير يشعل ما بقي من فتيل الأمان الظاهر

للتفجر القنبلة أخيراً في وجوه الجميع..

(فهمني) الذي ما كاد يسمع اسمها حتى انقض فوق

حسام بحركة مفاجئة أفقدته توازنه ليسقط كلاهما

أرضاً لكنه صرخ بألم وهو يشعر بذراع فهد خلفه

تطوق عنقه وهو يسحبه من فوق حسام بصرخة

غاضبة طويلة، يقلبه على ظهره جاثماً فوقه فيوجه

له (الكوبرا) لكمة عنيفة تجعله يتحرك رغماً عنه

للوراء لكن فهد يحافظ على توازنه وهو يكبل ذراعيه

بقوة لا تنقصه..

صراع قوة يثبت فيه كلاهما لدقائق وكل ما يحاول
فهد فعله أن يبقيه هكذا تحته مكبلاً ذراعيه بكل
قوته..

يطلق (الكوبرا) عدة صرخات متوعدة وهو يحاول
التخلص منه.. لكن فهد يقيد ساقيه برجليه بنفس
القوة..

يفكر في مناداة رجاله لكن ذكائه يجعله يدرك أنها لن
تزيده إلا ذلاً في موضعه هذا فما كان حسام وفهد
ليصلا هنا إلا وقد تخلصا من الجميع بالخارج..
_تعرف كم انتظرت هذه اللحظة منذ سنوات أيها
ال (...)!؟

يهمس بها فهد من بين أسنانه وهو ينحني فوقه
بوجهه غارساً نظراته الحاقدة المشتعلة في عينيه..

لكن الكوبرا يتعمد استفزازه ليجد له نقطة ضعف
تصلح لاختراقها فيهمس بابتسامة مستفزة ناسبت
فجاجة عبارته الوقحة:

_وما ذنبي لو كانت الست (الوالدة) متفجرة الطاقات

ولم يكن أبوك يكفيها؟! هي التي ..؟!!

تنقطع عبارته بقبضة فهد التي هوت على فكه ورغم

عنف الضربة لكنها كانت فرصة الكوبرا ليباغته

فيحرر إحدى ذراعيه ليصفعه بطرف يده على عنقه..

يصرخ فهد بألم لكنه يتجاوزه بسرعة وهو يعيد

السيطرة على الوضع بسرعة فيكيل للكوبرا عدة

لكمات متتابعة أفقدته توازنه ليسقط رأسه ارضاً

شاعراً بالتشوش..

هنا يستخرج فهد من جيبه زجاجة من سائل حارق،
نزع فوهتها ليلقي بعضاً منها علي سجادة الأرض
القريبة فينصهر نسيجها بفوران مرعب..!!

تتصاعد رائحتها نفاذة بالمزيد من سحب الخوف
فتتسع عينا الكوبرا ولا يزال عاجزاً عن الحركة وهو
يرى فهد يقربها ببطء من ذراعه حيث وشمه القبيح
متمتماً بصوت مرتجف:

لولا بقية من عقل لقتلتك كما تستحق.. لكن أظن هذا
يكفي ليشفي غليلي منك.

يطلق الكوبرا صرخة وجع رهيبة والسائل الحارق
يسقط على أعلى ذراعه..

الألم الرهيب يكاد يذيب مخه وهو يشعر بمزيج من
العجز والهوان.. يتلوى مكانه وهو يحاول كتمان
صرخاته دون جدوى..

(الكوبرا) التي طالما تراقصت على ذراعه باذرة
الخوف في العيون الآن تتلاشى.. تذوب.. كأنها تختفي
داخله هو.. تنهشه هو.. تغرس نابيها السامين في
جوفه صارخة.. (نق ما طبخته!)

ينهض فهد أخيراً وهو يلقي ما بيده، يبصق على
وجهه وهو يمسح الدم النازف من أنفه هاتفاً بسخرية
حادة :

نسيت ان أخبرك أن بتول قبل وفاتها - أقصد قتلها-
أعطتنا الشريط الذي كنت تهددني به.. لو..

تنقطع عبارته وقد استغل الكوبرا الفرصة ليعرقل
ساقه فيسقطه أرضاً بمهارة مقاتل خبير.. يغالب
الأول ألمه بقوة وهو يحاول لكمة بذراعه السليم
فيهوي فهد على رأسه بكلا قبضتيه بضربة عنيفة
تفقدته توازنه من جديد قبل أن يشعر بحسام يجذبه
هاتفاً :

_يكفيك هذا.. دع ما بقي من حسابيه لي!
يقولها وقد تمالك نفسه بأعجوبة منذ بدأ الصراع كي
يمنح فهد فرصته في نيل بعض ثأره من هذا الوغد..
_أين فجر؟!!

يصرخ بها حسام هادراً كأنه ضج بفرط صبره وهو
يجذب (فهمي) نحوه ليووقفه أمامه فيترنح الأخير وهو

يتجاهل الألم الرهيب في ذراعه بل وكل جسده متمتماً

بابتسامة باردة :

_ لن تعرف أبداً.. حتى لو قتلتني!

يقولها وهو يستغل إصابة كتف حسام ليهوي بقبضته

العنيفة فوقها فيصرخ حسام بألم وهو يشعر بالدم

يتفجر من جديد من إصابته الطازجة.. يكاد فهد يتدخل

لكن حسام يصرخ به وهو يعاود انقضاضه على

الكوبرا :

_ لا تقترب.. دعه لي.

كلاهما الآن يدور حول الآخر بحذر مدركاً نقطة

ضعفه..

يستغل الكوبرا ذكائه كعهده وهو يعتمد جذب حسام

لنقطة بعينها محافظاً على مسافة بعيدة نسبياً..

هذا الذي نجح في فعله وهو يتظاهر بالتعثر ليسقط

لكنه يقف بسرعة مذهشة وهو يحمل سلاحاً

استخرجه بسرعة من مخبئه..

هذا الذي رفعه في وجه حسام هاتفاً بين انفاسه

اللاهثة:

_تظني فهمي القديم الذي يمكنكم حرمانه منها؟!!

الذي سيتركها لكم فقط لأنكم تريدون هذا؟! فجر لي..

لي أنا.. رغماً عن أنفك وأنف الجميع.. وسأسحق كل

ما ومن يقف بيني وبينها!

يطلق رصاصة واحدة يتفادها حسام بخبرة تليق به

وهو ينحني برأسه قبل ان يندفع بمنتهى السرعة نحو

الكوبرا في مخاطرة جريئة لينازعه على سلاحه..

عدة رصاصات طائشة تصيب السقف والجدران قبل

أن ينجح حسام أخيراً في السيطرة على السلاح الذي
هوى بكعبه على فك الكوبرا قبل أن يلقيه بعيداً،
ليطلق الأخير صرخة ألم وهو يتراجع للخلف فيدفعه
حسام نحو الحائط القريب يلصقه به..

كلاهما يلهث بقوة وهو يتحمل ألماً يفوق قدرة البشر
في هذه اللحظة..

يستخرج حسام من جيبه مديّة حادة يرفعها في وجهه
متمتماً بين أنفاسه اللاهثة:

_ ستعترف أيها الحقيير.. ستعترف بكل شيء..

يطلق الكوبرا صوتاً مستهزئاً يناقض هيئته

المستنزفة وهو يكاد يسقط مكانه متمتماً ببرود :

_ ولو قطعتني ألف قطعة لن أعترف لك بمكانها..

مادامت لن تكون لي فلن تعود إليكم..

ثم تقسو نظراته وهو يردف بنبرة تشتعل رويداً

رويداً :

_ أنا التقطتها بعد الحادث الذي دبرته كي أنتقم منكم..

لم اكن أعرف أنها معهم.. لكن النتيجة واحدة.. أنها

معي! حافظت عليها طوال هذه السنوات أشوش

عقلها كي لا تتذكر ما فعلتوه بنا..

_ نحن من فعلنا يا (...)!؟

يطلق حسام سبة بذيئة مع هتافه المستنكر وهو يخبط

دماغ الرجل في الحائط خلفه بقوة فيطلق الكوبرا

صرخة متوجعة وهو يشعر أنه يكاد يفقد وعيه ألماً

عندما هوى حسام بالمديّة نحو بطنه هامساً :

_ هذه لأجل ديمة!

تتسع عينا الكوبرا من فرط الألم لكنه يكتم صرخاته
وحسام يهوي من جديد بالمديّة على وجهه مشوهاً
ملامحه :

_ وهذه لأجل عائتي..

ثم يرفعها من جديد لأعلى باستطراده الشرس:

_ وهذه لأجل فجر.. حرفياً (العين بالعين)!

يقولها وهو يهوي بالمديّة نحو..

عينيّه!!

_ حسام!

الصرخة الهادرة توقفه في اللحظة الأخيرة وهو
يسمعها بصوت بشر الذي ظهر وبرفقتة مجموعة من
رجاله ليترجع حسام وهو يرى رجال بشر يطوقون
الكوبرا ليحكموا السيطرة عليه فيتفحصه بشر مميّزاً

حرق ذراعه والجروح التي نالتها مما جعله يسحب
حسام الذي لم يكن أفضل حالاً والدماء تتزف من
جرح كتفه لينزوي به جانباً متمتماً بغضب لم يعرفه

من قبل:

_ ماذا فعلت؟! هل تظننا في غابة؟!!

_ الجواب إجباري؟!!

يتمتم بها حسام ساخراً بمرارة منحت كلامه المغزي

المطلوب ليلوح بشر بكفه قائلاً:

_ ماذا تركنا لهم إذن؟!!

يشيح حسام بوجهه فيردف بشر وهو يتطلع نحو فهد

الذي انضم إليهما بقوله الغاضب:

_ لماذا تسرعتما؟! كدتما تفسدان كل شيء!! كان

سيسقط في أيدينا لا محالة!!!

كنت تظنني سأقف متفرجاً على ذاك الوغد بعد كل مافعله.. خذوا منه حقكم كيف شئتم.. لكن تأري معه

شان آخر!

يتمتم بها حسام بحدة ناقضت وهن جسده بعد الدماء التي فقدتها ليسنده فهد داعماً وهو يواجه بشر

بقوله :

لم نكن سنقتله ولو أنه يستحق.. كنا فقط..

كفى!

يقاطعه بها بشر بصرامة وهو يرى رجاله يحملون الكوبرا الذي فقد وعيه في سيارة الإسعاف التي

وصلت لتوها مردفاً بحسم :

انقطعت صلتكما بالقضية من هذه اللحظة..! هو

الآن لنا.

مستحيل! ليس قبل أن أعرف مكان فجر!
يتمم بها حسام بما بدا كالهذيان وهو يكاد يسقط
مكانه فيهم بشر برد عنيف عليه لولا مراعاة حالته
فيكتفي بزفرة مشتعلة وهو يتابع سيارة الإسعاف التي
تحركت بالكوبرا تحت حراسة مشددة..

والسؤال يفرض نفسه..

هل انتهى الأمر حقاً؟!

هل انتهى خطر ذاك الوغد؟!

أم لا تزال هناك جولة أخيرة؟!

=====

_ هرب؟!_

يصرخ بها حسام بغضب وهو يواجه بشر الذي وقف
جامد الملامح في مكان لقائهما ليردف وهو يقترب
منه بانفعال:

_ كيف تركته يهرب من المشفى؟! كيف؟! كيف?!_

_ اهدأ!_

يشير له بشر ملوحاً بكفيه قبل ان يقول توتر :

_ أنا احتملت المخاطرة.. لأجل ابنة عمك.

ينعقد حاجبا حسام وهو يحاول الفهم ليردف صاحبه

بانفعال:

_ الوغد مهووس بها.. لم يكذب حين قال إنه لن يخبر

أحداً عن مكانها حتى لو قطعناه إرباً إرباً.. لو كان

الأمر يخص قضيتي فقط لاكتفيت بما سألته منه من
معلومات عن ذاك التنظيم هائلاً بنجاح مهمني وإسقاط
ذراع تلك الشبكة في مصر.. لكنني فعلتها لأجل فجر.
يزم حسام شفتيه محاولاً تماك غضبه وهو يسأله
بصوت ارجفه انفعاله:

_ تعني أنك أرخيت له الحبل كي يهرب فلتبعه؟!!

يومئ بشر برأسه موافقاً بقوله:

_ هو يظن أنه قد خدعنا بالتواصل مع أحد رجاله
خارج المشفى.. نحن يسرنا له الأمور حتى هرب
بخطة - أعترف- انها كانت شديدة الذكاء والتعقيد..
وهو الآن تحت سيطرة مراقبتنا.

لم يكد يتم عبارته حتى صدح رنين جهاز اتصال
خاص في جيبه..

هذا الذي فتحه ليستمع قليلاً قبل أن يحمر وجهه حد

الاشتعال وهو يغلق الاتصال بصرخته:

اللعنة!

قل إنه هرب منكم.. قلها وسأقتلك وأقتلكم كلكم!

يصرخ بها حسام بنفاد صبر وهو يمسكه من ياقة

قميصه ليدفعه بشر بعصية مماثلة وهو يصرخ فيه

بدوره :

تظننا كنا نلعب؟! أنا لم أدق النوم من ثلاثة أيام..

هذه القضية تساوي عمري كله.. أنت تسعى خلف

قريبتك.. وأنا في رقبتك عدد من الأرواح لا يمكنني

عدها سيزهقها ذاك الوغد لو أفلت من يدي!

يدور حسام حول نفسه بمزيج من غضب وعجز وهو
لا يستطيع التصور أنه سيعود لنقطة الصفر من

جديد!!

كيف سيجد ذاك المجرم!؟

كيف وقد صار كإبرة في كوم قش!؟

اليأس يلبي غمامه فوق كليهما وهما يطرقان

بوجهيهما في أسى بينما يخبره بشر كيف تمكن

الكوبرا بذكاء من الإفلات من مراقبة رجاله، بل كيف

اكتشف جهاز التتبع الصغير الذي زرعه بين

ضماداته واثقين أنه لن ينتبه له.. لكنه فعل!

هل سنستسلم!؟ هكذا!؟ هكذا انتهى كل شيء!؟!

يهتف بها حسام بحدة وهو يشعر برغبة عارمة في

تحطيم كل ما حوله..

ليردف بشر بحدة مشابهة:

الوغد لن يعود أبداً لعائلته ولن يمكننا الضغط عليه
بأي منهم فمن الواضح انه لا يهتم.. ليس له أي نقاط
ضعف.. ولم يبقَ لنا خيط آخر نتبعه منه.. فقط لو
حاول الهرب جواً أو بحراً أو حتى براً يمكننا ساعتها
أن نوزع نشرة بأوصافه ونمنعه من السفر.. لكن متى
سيلجأ لهذا الحل؟! وحتى وقتها ما الذي يمكن
لمجنون مثله أن يفعله؟!

يزداد انعقاد حاجبي حسام محاولاً تجلية ذهنه..
لا يمكنه الإفراط كثيراً في لوم بشر فما فعلها إلا لأجل
فجر!

لكن.. ماذا بوسعه الآن ان يصنع؟!

صوت رنين هاتفه يقاطعه فتأهب حواسه وهو يميز

رقم المتصل..

(عاصي الرفاعي)

لماذا يتصل عاصي الآن؟!؟

_ اطمئن.. لم نفقد أثره..

كعهده كلماته مقتضبة.. مسيطرة.. واثقة.. لكنه لم

يكرها في هذه اللحظة وهو يسمعه يردف :

_ كنت أراقب الوضع من بعيد كما وعدتك.. لم يقصر

رجال السيد بشر لكن خبرة رجل كهذا لا تضاهيها إلا

خبرة واحد دخل هذا العالم من قبل ويعرف مسالكه..

لا يفلّ الحديد إلا الحديد والحقيقة ان نزار - أبا إباد -

ساعدني كثيراً..

_ تعرف مكانه؟!؟

يرتجف بها صوت حسام بنفاد صبر وقد صار عاجزاً

عن سماع المزيد ليرد عاصي بحسم :

هو لك.

=====

عدت؟! _

لسانها يغافلها بها وهي تنتفض مكانها عندما شعرت

بوجوده..

فيصلها صوته مهزوماً كما لم تسمعه من قبل :

للمرة الأخيرة أقولها.. (لمن سواك أعود)!

يرتجف قلبها بشعور كرهته وهي تميز رائحة الخوف
الحزين في صوته..

ألا يزال هناك متسع لشفقة على من هو مثله؟!
ربما ليست مجرد شفقة.. لعلها لا تزال تحبه؟!
_ لماذا؟!_

تهز رأسها بسؤالها عبر بركتين من الدموع وهي لا
تعرف عن أي شيء تسأل..
فتردف بزفرة حارقة:

_ لماذا صرت هكذا؟!_

لكنه يقترب منها أكثر بجوابه :

_ لأنني فهمت الدنيا بأكثر مما فعلتِ أنتِ.. لأنني
اخترت الطريق الذي يناسبني.. لأنني أردت أن أثبت

لك وللجميع ولنفسي أنني جدير بالسطوة وأنهم كلهم

كانوا مخطئين عندما همشوا دوري.

صوته يزداد انفعالاً مع كل خطوة يقتربها منها فتزداد

هي خوفاً وهي تسمع صراخه :

_ لماذا كسرتِ العود؟!_

تتكمش على نفسها وهي تتذكر ما فعلته بالعود الذي

تركه لها قبل رحيله..

مجنون هذا؟!_

أي عزف يريد لها أن تؤديه وسط هذه المأساة؟!_

ألا تزال تسأل عن جنونه؟!_

تسمعه يحطم الأشياء في غرفتها مع صرخاته

الغاضبة فتزداد انكماشاً على نفسها وهي تكتم

شهقات بكائها..

تشعر به يقترب فتبتعد عفويًا رغم يقينها انه لن

يؤذيها!

_ لماذا قلتِ أنك تخافين مني؟! لماذا جعلتني أشعر

بالخوف؟! أنتِ من هزمتني قبل أن يفعلوا هم! أنتِ

من غرستِ الضعفِ بقلبي!

_ بل أنتِ من كتبتِ نهايتنا معاً عندما اخترت هذا

الطريق.. كنت مستعدة أن أحارب الدنيا كلها معك.. أن

أنتظرك حتى آخر العمر.. أن أراهن على ما بقي مني

ومنك بكل ما أملك.. لكنك أنت.. أنت قتلتنا معاً!

شهقات بكائها تقذفه بالمزيد من الحمم ولأول مرة في

حياته يشعر بكل هذا العجز!

هل مات الكوبرا حقاً بعدما طمسوا وشمه على

ذراعه؟!!

هل عاد فهمي الضعيف الذي لا يعرف ماذا يصنع

معها؟!

هل يحملها على كتفيه ويركض بها بعيداً.. يهرب بها

من كل من يريدون حرمانه منها؟!

أم يبقى هنا معها حتى يموت أحدهما في كنف صاحبه

فيرضى بها هي وحدها النهاية كما كانت البداية؟!

والقدر يعصمه شقاء الاختيار فيمنحه الخلاص

والهلاك في آن واحد!!

أجل.. الآن وهو يسمع صوت سارينة الشرطة

بالخارج مع أصوات تبادل إطلاق النار بالخارج يدرك

أنها حقاً.. النهاية!!

عثروا عليه إذن!!

ماذا يحدث؟!

تصرخ بها فجر برعب وهي تسمع صوت إطلاق النار

لا تعرف من يفعلها!

فيتحرك نحو النافذة القريبة يفتحها لينعقد حاجباه

بشدة وهو يميز المعركة الدائرة بالخارج..

لن يصمد رجاله مع كثرة عددهم..

هو الخاسر!

يضحك ضحكة طويلة جعلته يبدو كمجنون حقيقي

وهو يعاود الاقتراب منها قائلاً :

تسمعين؟! جاءوا ليأخذوك مني؟! جاءوا ليعيدوا

التاريخ؟! لينتزعوك من بين ذراعيّ وأنا أقف

متفرباً عاجزاً أرى قلبي يتمزق وأنا عاجز حتى عن

الصراخ!! لكن هيهات.. لن أعيش هذه اللحظة من

جديد أبدأ.. أبدأ.. أبدأ..

صرخاته تلو تباعاً فتنتفض مكانها مرتعبة وهي تراه

يجذب كفها!!

مجرد تلامس زلزلهما معاً!!

لأول مرة منذ سنوات تشعر هي بهذه " النار " التي

تسري على جلده..

ويشعر هو بهذا " النعيم " الذي حرمه على نفسه..

_ الآن أسمح لك بلمسي.. الآن وقد حانت النهاية!

نهاية عظيم مثلي لن يكتبها غيري! أنا.. وأنت!

ترتجف وهي تشعر بالجسم المعدني البارد الذي لا

تفهم ماهيته يلامس كفها فتصرخ محاولة نفضه لكنه

يصرخ بها أمراً :

_ اضغطي الزناد.

_ لا!

_اقتليني! أليس هذا تأرك!؟!

_وأصير مجرمة!؟ لا.. لا..

_ولماذا صرت أنا مجرماً!؟ افعليها.. افعليها..

_لا.. لا..

لا تزال تصرخ بها رافضة وجسدها كله ينتفض لكنه

يحكم السيطرة عليها.. يضغط كفه على كفها..

يجبرها أن تضغط الزناد لتتطلق الرصاصة كما أراد

نحو صدره!!

_لا.. لا.. فهمي.. لا..

تصرخ بها بانهايار وهي تشعر به يسقط فتسقط

معه..

_لم يهزموني.. أنا من انتصرت.. أنا من كتبت
نهايتي.. بيدك أنت.. أنت لا غيرك... أنت وأنا..دوما
انت..وانا..

شهقاته قوية لكنها تفضح وهن روحه في هذه اللحظة
وهو يشعر بها تضمه لصدرها هاتفة بين دموعها:

_ لا تفعل بي هذا.. لا تجعل النهاية تأتي هكذا.
_ هكذا أكون قد أخذت لكِ بئارك من كل من أدوك..
كلهم.. وآخرهم أنا!...راضية!؟!

تنهار باكية وهي تشعر به يتشبث بها بين ذراعيه
فتهتف باسمه دون وعي وهي تهز رأسها بعجز..
فيردف بين أنفاسه المتقطعة:

_اليوم بالذات لم أخلع نعلي علي بابك.. جنّتك بكل
دنسي معترفاً مستغفراً.. اليوم لا أبالي لو تلطخ ثوبك
بدمي بعدما حرصت على بياضه طوال هذه السنوات..

_فهمي!

لا تزال تكرر اسمه بعاطفة لا تعرف لها مسمى!
طوال هذه السنوات وقد تموه دوره بين (الحارس)
و(السجان) فلما عادت إليها ذاكرتها وجدت القلب
يتوه بين ماضيه وحاضره..!!

فيبتسم وسط أناته المتألّمة.. يتكلم بسرعة كأنه
يخشى ان يباغته الموت قبل أن يبوح بها :

_بعد كل هذا العمر أنتِ الوحيدة التي تمكنت من هجاء
اسمي بطريقة صحيحة .. هذا التمثال العظيم الذي
بنيتّه انت داخلي لم اكن لاسمح ان يكسره احد

غيرك.. لم يعد هناك وشم كوبرا على ذراعي يرهبك
فعانقيني ولا تخافي.. وجهي مليئ بالندوب لكن لن
تراها عيناك.. قولي أنك راضية! أنك أحببت هذه
النهاية.. فلا غيرها يليق برجل أحبك كل هذا الحب
وأذواق كل هذا العذاب.. لا غيرها يليق.

تنقطع كلماته مع أنفاسه ورأسه يسقط على صدرها
فتصرخ بلوعة وهي تشعر أنها الآن تراه وسط كل
هذه الظلمة..

قاربٌ بعيدٌ غرها بالسفر فلم يزد لها العوم خلفه إلا
غرقاً!!

فجر!

تسمع صوت حسام الذي اقتحم الغرفة لتوه..

صوته الذي لم تغيره السنوات يمنحها من الأمان ما

يعيد الخفقات لصدرها..

يقترب منها بسرعة ليستكشف الجثمان الغارق في

دمه بين ذراعيها..

يخلصها منه ليتفحصها بعينه بسرعة يتأكد من

سلامتها..

تغيرت ملامحها قليلاً بفعل السنين إنما لا تزال براءة

هالتها حاضرة كما عهدا..

يجذبها بين ذراعيه بقوة حانية وهو يشعر أنه يشهد

معجزة عودتها للحياة هامساً :

_ أنا حسام يا حبيبي.. لا تخافي.. لا تخافي.. انتهي

الكابوس.. أنتِ الآن آمنة.

فتغمض عينيها وكأنها ستشكل فارقاً!!

وكأنها لو فعلت فلن ترى الظلّمة حولها ملطخة

بالدم!

تسمع صوت سارينة الإسعاف لكن الصوت يتوه..

يتشوش في عقلها ويختلط بصوت عود قديم.. مات

صاحبه بعدما كسره في قلبها!

هو صوت المأساة عندما تبدأ ب(أمل) وتنتهي

ب(ألم)

صوت العمر عندما يترنح بين (حبو رضيع) و (بوح

عجوز)..

صوت القلب عندما يوصد الأبواب كلها آمناً فيأتيه

الغدر من تحت أعتابها..

صوت بنكهة الحب والكراهية والحياة والموت والأمن

والخوف لو كان لكل هؤلاء أن يجتمعوا يوماً معاً!

=====

الطيب التاسع والأربعون

أحمر

_لا زال حياً!

تهتف بها هبة بفرحة وهي تستمع ليسرا التي جلست
معها في حديقة قصر الصباحي.. والتي قالت
بصراحة:

_ كان متهماً بالانضمام لتنظيم إرهابي.. لفقوا موته
كي يخدعهم ويمنعهم من إيذائه خاصة وقد أعلن
استعداده للاعتراف بكل ما يعلمه وهو ما سيحسن

وضعه كثيراً في القضية.. لكنه سيبقى في السجن

فترة على أي حال.

تتلون ملامح هبة بين ارتياح لكونه لا يزال حياً

وضيق مما عرفته تتمم :

_تنظيم إرهابي؟! لهذه الدرجة؟!!

فتربت يسرا على كتفها قائلة :

_ربما لو كنت أنا واحدة أخرى لشاركتك الحكم السيئ

عليه لكنني صرت أوقن أن الواقف على البر لا يمكنه

أبدأ الحكم على من يصارع الموج.

_ابن (أبلة خديجة) الست الناظرة مجرم؟!!

تتمم بها هبة ولا تزال تحت تأثير صدمتها فتزد يسرا

بشروود وهي تراقب العمال الذين يعملون على قدم

وساق في واجهة البيت :

_ بالله لا تحمي بهذه الطريقة.. تعلمي شيئاً من

قصتي.

_ أمركِ مختلف!

تقولها هبة بعناد وهي تعدل وضع نظارتها فوق

أنفها..

تهز كتفيها لتنفض عنها مشاعرهما المختلطة قائلة

بصوت مرتجف:

_ أظني هكذا قد انتهيت من قصته.. هداه الله لأمه

وفك سجنه!

_ تذكريني بإبراهيم!

تتمم بها يسرا بابتسامة عاتبة فتجاوز هبة الحديث

متعمدة وهي تشير للعمال حولهما قائلة :

_ هل تجرين تعديلات في البيت!؟!

_نعم.. تعديلات.. بسيطة.

تقولها يسرا بغموض وابتسامة هادئة تعرف طريقها
لشفتيها..

ابتسامة تبدو وكأنها تتبع من قلبها حقاً!
هاهي ذي لم تجد الطريق فحسب بل صارت تركض
فيه ركضاً مسترشدة بضئ قلبها..

ضئ يبرز من إيمان.. ويقين.. ورغبة عارمة في
السعي!

_سامي!

تفتح له ذراعيها وهي تراه قادماً من بعيد مع سندس
حيث يقيمان في الملحق الخارجي للبيت مؤقتاً حتى
ينتهي العمال من عملهم..

_ شفيت ذراعك..صرتِ قادرة على ان تحتضيني بكلتا

ذراعيك!

يقولها الصغير بمرح وهو يعانقها فتضحك وهي تقبل

وجنتيه قائلة:

_ بل بقلبي.. دوماً أعانقك بقلبي!

_ ياللدلال!!

تقولها سندس بضحكة رائقة وهي تقبل رأس يسرا

التي جذبت ذراعها برفق لتجلسها جوارها قائلة :

_ تعالي وخذي نصيبك من الدلال يا طويلة اللسان!

ترمقهم هبة بنظرة راضية وهي تشعر أن يسرا

وجدت عائلة حقيقية.. وكذلك سندس وشقيقها!!

سبحان من يدبر الأمر فقضى بحكمه أن يجعل لكل

منهما حاجة عند الآخر..

_ آه كدت أنسى! خالي ربيع يرسل لك هذه..

تقولها هبة وهي تستخرج من حقيبتها الكبيرة حزمة

نعناع خضراء.. فتضحك سندس وهي تشير حولها

قائلة :

_ وهل تحتاج وسط الجنة هذه لحزمة نعناع!؟!

تخطبها يسرا على مؤخرة رأسها بخفة زاجرة لتهتف

بحرارة :

_ هدية ابي تساوي الدنيا كلها!

_ طيب! ساعد أنا الشاي.. لا.. لا.. بل أجلس مستريحة

وأنظر الخادمة.

تهتف بها سندس باسترخاء وهي تعود بظهرها

للخلف في كرسيها لتهتف هبة مستنكرة :

_ قومي يا بنت! صدقتِ نفسك!؟!

_ من يجد الدلال ولا يتدلل يكون سفيهاً..

تقولها سندس بنفس المرح وهي تتمطأ مكانها فيقفز

سامي ليقف على قدميه قائلاً :

_ انا سأعد الشاي.

يركض نحو الداخل فتركض سندس خلفه هاتفة :

_ تعال يا ولد.. قد تكسر شيئاً.

تراقبهما يسرا مبتسمة وهي تشعر أن القدر كان

كريماً معها إلى أبعد حد..

سعيدة بل شديدة السعادة بهذه الحياة الجديدة التي

تفتح لها ذراعيها..!

قد تكون قد خسرت (قلباً عاشقاً) لإبراهيم لكنها

كسبت قلوباً كثيرة تبادلها الود..

قلوب ترجو أن يرزقها الله نعمة الإخلاص فتزداد

حولها يوماً بعد يوم!

_ لو رأيت كيف كان إبراهيم ينظر إليها عندما أعطاني

إياها خالي!

تقاطع بها هبة أفكارها لتلتفت نحوها بلهفة فتبتسم

هبة بإشفاق مردفة:

_ كأنه كان يحسدها!

تضم يسرا جسدها بذراعيها كأنما تحتوي رجفة

قلبها..

كل ذرة فيها تفضح اشتياقاً كاسحاً رغم يأسها من

عودته!

فتتنهد هبة قائلة :

_ هو يسألني عنك في كل مرة أعود فيها من عندك..
لا يفعلها مباشرة بل يتعمد اللف والدوران حتى تأتي
سيرتك.. تعرفين أنه أغلق شقتكما التي كنتما تسكنان
فيها بعد ما حدث؟! بالأمس رأيتَه يفتحها خلسة.. لو
رأيتَ نظرة عينيه وهما تطوقان المكان قبل أن يغلق
الباب خلفه؟! توجع القلب!

فتدمع عينا يسرا وهي تطرق برأسها قائلة:
_ هو ألقاها في وجهي صريحة.. قد يتفهم (يسرا).. قد
يسامحها.. لكنه أبداً لن يحبها!

فتهز هبة رأسها نافية لتقول بيقين:
_ بل هو أحب يسرا.. أحبها في (وجه) واحد رآه باسم
(سمرا).. وبقي فقط أن يرى بقية وجوها.
_ أخبرك سراً؟!!

تتمتم بها يسرا بلوعة ولا تزال تحتضن جسدها

لتردف مغمضة عينيها:

_تعرفين كم ليلة مرت عليّ تمنيت فيها عودته؟! كم

ليلة انتظرتة؟! كم ليلة منعت فيها نفسي بصعوبة من

الذهاب إليه؟! ومنذ ليلتين فقط كففت عن فعلها!

تقولها لتفتح عينيها الدامعتين باستطرادها :

_يأسي منه فجر داخلي طاقة جديدة.. صرت أثق أنه

لن يعود ل(يسرا).. لكن يكفيني أن يسرا عادت

لنفسها.. لا أخفيك أنني كثيراً أخاف خاصة بعد وفاة

أمي.. أخاف أن أنتكس.. ان تغلبنى نفسي.. أن تغرر

بي زيارة إحداهن من الرفيقات القديمات.. أو تزيغ

عيني بخبر أعرفه.. أو أحن للهروب من كل هذا

ببضعة أقراص!! أخاف حتى أنني أحياناً كنت أغلق

عليّ باب غرفتي وألقي مفتاحها من النافذة كي أقطع
على نفسي طريق الخروج! لكنني أعود لأتذكر عطايا
الله في كل ما حولي.. أدرك أن السلوى الحقيقية في
الأنس به.. أستشعر معيته.. أتمس رضاه.. أوقن انه
يحبني لهذا هداني لما صرت إليه.. وأثق أنه أبدأ لن
يضيعني.

تدمع عينا هبة بفخر وهي تنهض من مكانها لتقبل
رأسها باعتزاز قائلة :

_إياك أن تظني أنك وحدك.. كلنا معك.. أنا وخالي
ربيع.. وسندس وسامي والحرافيش.. بل وكل أهل
الحي الذين ما عادوا يذكرون اسمك إلا بكل خير.
تبتسم يسرا برضا وهي ترى سندس قد عادت بالشاي
لتضع لها الكوب أمامها..

فتتسع ابتسامتها بشرود وهي تتناول - بنفسها- ورقة
نعناع خضراء تضيفها للشاي وقد أدركت أنه أحياناً
قد نمنح نحن السعادة لأنفسنا عندما نملك القدرة على
التغيير..

عطايا الآخرين لذيذة المذاق بنكهة التلقي والدلال..
لكن عطايانا لأنفسنا أذ بنكهة القوة.. الاستغناء..
وفرض الكينونة!



أزرق

_توأم!!؟!

تهتف بها جنة باستنكار وهي تستلقي على فراش
الكشف بغرفة الطيبة التي فحصتها لتوها فتبتسم
الطيبة قائلة:

_نعم.. واضح جداً.. مبارك!

**_لا.. لا.. لا.. هناك خطأ! أعيدي الكشف! حمل!!؟!!
وتوأم أيضاً!!؟!! كيف!!؟!! أنا أستخدم وسيلة لمنع**

الحمل!

تهتف بها بانفعال احمر له وجهها فتتنحج الطيبة
بحرج قائلة :

_ عادي! هذه الأشياء تحدث!

تعديل ثيابها وهي تنهض مكانها فيطلق فهد ضحكة

شامته وهو يهتف بها :

_ دعوة واستجاب لها ربي! منذ رأيت توام ماسة وأنا

تمنيتها!

_ وأنا مالي!!?

تهتف بها مصدومة بنفس الانفعال المستنكر لتردف

وهي تتوجه نحوه بحدة :

_ أنت تتمنى وأنا أحمل وألد اثنين!! اثنين!! أنا بالكاد

أقدر على ابنتك!!

يضحك مستمتعاً بثورتها لتقترب منه أكثر مردفة :

_ انت تعمدت هذا!! اعترف!!

_ وهل هناك تعمد في اشياء كهذه!?



يتراقص بها حاجباه بمكر فتطلق صيحة مغازاة وهي

تلكمه بخفة في كتفه صارخة :

_ نعم.. تذكر تلك الليالي السابقة عندما كنت..

يكنم بقية حديثها بكفه ويكنم معها ضحكته وقد بدت

وكأنها بعصبيتها المعهودة نست الزمان والمكان..

بينما عادت الطيبة تتحنح من جديد لتقول بحرج :

_ ساكتب لكِ بعض الفيتامينات.. وتعاودين زيارتي بعد

أسبوعين لنطمئن على (الجنين).. أقصد.. الاثنين!

تكز جنة على اسنانها بقوة وهي تنتزع منها الورقة

التي كتبتها ببعض العنف.. تسمعها تلقي لها بالمزيد

من النصائح كأنها المرة الأولى!!

لتغادر الغرفة كقذيفة يلحقها فهد الذي بدا عاجزاً عن
التحكم في ضحكاته وهو يهبط خلفها السلم ركضاً
بقوله :

_تمهلي يا أم (الاثنين)!

تلتفت نحوه بنظرة مغتظة فيلف ذراعه على كتفيها
وهو يسير بها نحو سيارته، يفتح لها الباب لتجلس
مكانها مصدومة قبل أن ينطلق هو بالسيارة..
يضحك فجأة ضحكة طويلة تستفزها أكثر فتلتفت
نحوه هاتفة :

_تعرف لو..

_تعرفين أنتِ كم افتقدت وهج البندق هذا في

عينيك!؟

يقاطع بها عبارتها فتطلق زفرة قصيرة وهي تحيط
وجهاً بكفيها..

يتهدل كتفاها واشيين بكاء خافت فيوقف السيارة
ليضمها إليه برقة، يزيح كفيها عن وجهها ليقبل
وجنتها برقة قائلاً :

_ أعرّف فيما تفكرين..(الأستاذة) مدمنة التخطيط
ترهبها المفاجآت.

_ أنا لست مستعدة..

تهتف بها بين دموعها وهي تتحسس بطنها مردفة:

_ أنا بالكاد التقطت أنفاسي بعدما خضعت (لوكا)

للعلاج وصارت تتكلم بطريقة طبيعية.. المكتب مزدحم

بالقضايا.. وكلانا لا يزال مرهقاً بعد قضية الكوبرا

الأخيرة وضغط الأعصاب الذي عشناه.. كيف أجد

نفسي فجأة هكذا أستعد لحمل جديد؟؟

_ اثنين!!

يشير بها بسبابته ووسطاه مغيظاً لتطلق صيحة

غاضبة تحولت رغماً عنها لابتسامة وهي تراه يقبل

وجنتيها من جديد قائلاً :

_ ولماذا تحسبنيها هكذا؟! لماذا لا تقولين انها هدية

الله لنا بعد توتر الأيام السابقة؟؟ ومنذ متى تركتك انا

تعانين وحدك؟! لا تحملي هما.. نحن معاً سنتدبر كل

شيء!

حنانه المرح يهزمها فتتهد بحرارة وهي تعاود تلمس

بطنها فيبسط راحته على كفها مردفاً بعاطفة هادرة :

لم أستطع عيش هذه المرحلة معك أيام حملك في
(ملك).. الآن أشهدا معك من البداية.. تعرفين قيمة

هذا عندي!؟

تدمع عيناها وهي تفاجئه بان تضم رأسه لصدرها

هامسة :

أنا أسفة.. بالغت في انفعالي.

فيضحك وهو يقرص وجنتها بخفة قائلاً :

لا.. لا.. أبداً.. تعرفين كيف أتلقى اعتذاراك.. أنتظر

اعتذاراً خاصاً بطريقتنا.

يغمزها بها عابثاً لتمط شفثيها وهي ترد له بضاعته

تقول ببراءة مصطنعة:

كنت أتمنى! لكنك سمعت نصائح الطيبة!
(اعتذاراتي الخاصة) قد تشكل خطراً على الجنين..

أقصد.. الاثنين!

تقلد حركته وهي ترفع سبابتها ووسطاها في وجهه
فيطلق ضحكة عالية وهو يغمزها بقوله:

لا بأس.. أنا (أب) مُضحٍ.. شمعة تحترق لأجل

اطفالي!

تلكزه في خاصرته وهي تتناول هاتفه ليطلق زفرة
مصطنعة بقوله:

وهاقد بدأنا حملة التفتيش! استر يارب!

ششش! هاتفي فرغ شحنه.. أحتاج الاتصال ب..

تقطع عبارتها وهي تميز الرقم أمامها على سجل
الاتصالات لإحدى الشخصيات المهمة ذات النفوذ
الكبير من أصدقاء أبيه السابقين.. لتغمغم بتوجس:

_ظننتك قطعت علاقتك بكل هؤلاء!

فيرد فهد بزفرة قصيرة وهو يتناول منها الهاتف
ليعيده لجيبه قائلاً :

**_لعلها آخر مرة ألجأ لهذا! كما وعدتك وعاهدت
نفسي.. سيبقى أمر ذاك الكوبرا بيننا ولن يصل الخبر
لعائلته.. سيعتقدون أنه مات في حادث على الطريق..**

القضية ستغلق بشكل نهائي هكذا خاصة بعد
اعترافات إياد التي ساعدت كثيراً في الإيقاع ببقية
أفراد التنظيم في مصر.

_دعني أنا أخبر رؤى أولاً قبل أن يصلهم الأمر.. أثق
أنها ستحفظ السر.

يهز لها رأسه موافقاً ليغمغم بشرود :

_لا تعرفين قدر ارتياحي ان انتهى الأمر هكذا.. لعل

فعلتي هذه تشفع للذنب القديم!

تربت على كفه بمزيج من عاطفة وفخر..

لتغمغم بتردد:

_بمناسبة (التوأم).. أفكر في شيء أظنك ستوافقني

عليه!

فيبتسم وقد قرأ أفكارها ليلتفت نحوها مردفاً بمزيج

من غموض ومكر :

_أظنني أعرفه! وأفكر منذ فترة كيف أسعى إليه!

=====

يقود إبراهيم سيارته شارداً وقد انتهى لتوه من
توصيل (الزبون) الأخير، يتابع شاشة هاتفه منتظراً
تلقي الأمر الجديد بخصوص المشوار القادم..
يتوجه نحو المكان المطلوب وهو يتبين أن وجهة
صاحبه في تلك المنطقة حيث قصر الصباحي!
متى صارت هكذا كل مشاوير عمله تذهب به حول

ذاك المكان؟!

أم أنه هو الذي صار متحسناً من كل ما يذكره بها؟!

يتوقف حيث يفترض ان يلتقط (الزبون).. يتصل به

ليخبره عن مكانه فتتجمد ملامحه وهو يرى فهد

أمامه!

_ أنت!؟!

يتمتم بها مصدوماً وهو يرى فهد يستقل السيارة

جواره مبتسماً بقوله :

_ فرصة سعيدة!

يحمر وجهه بانفعاله وهو يتذكر آخر مرة رآه فيها في

بيت حسام..

تشتعل الدماء في عروقه وهو يميز الوجهة التي

أشارت لها الشاشة حيث موقع بيت الصباحي ليهدف

به بحدة فضحت غيرة لم يملكها:

_ لماذا تريد الذهاب هناك؟! هل عاودت اتصالك بها?!!

لكن فهد يراعي غيرته وهو يرد بهدوء :

_ لن أذهب وحدي.. سنذهب معاً.. أريد أن أريك شيئاً.

يفتح إبراهيم الباب المجاور لفهد هاتفاً بحدة :

_ انزل.

_ لهذا بالضبط تعمدت أن أقابلك هكذا.. اعتبرني مجرد

(زبون) ستحملة لوجهته كما تمارس عمك العادي!

يهمّ إبراهيم بالصراخ في وجهه من جديد لكن شيئاً

بداخله يمنعه!

هل هي رغبته في معرفة سبب زيارة فهد لها؟!!

الا يزال يغار عليها؟!!

أم هو فضوله ليعرف ما الذي يريد أن يريه إياه

هناك؟!!

أم هو وحش الحنين الغادر الذي ينشب مخالفه في
روحه يوماً بعد يوم..

والذي يتلهف لمعرفة أي خبر عنها؟؟

يرى فهد يعاود إغلاق باب به بحركة ذات مغزى فيطلق
زفرة حانقة وهو ينطلق بالسيارة بأقصى سرعته كأنه
يريد الطيران لهنالك..

_ منذ متى أعرف (يسرا الصباحي)؟!_

يقولها فهد بصوت خفيض كأنه يخاطب نفسه فيلتفت
نحوه إبراهيم بحدة لكن فهد يردف بهدوء:

_ أعرف كم هو صعب أن تدور محادثة كهذه بيننا..

لكنني أطلب منك أن تستمع فقط.. اسمع ولا ترد.

ربما لو كانت دار حوار كهذا أول ما عرف الحقيقة

لكان رفض بأقصى طريقة..

لكنه الآن وهو يشعر بوهن روحه يوماً بعد يوم
خاصة بعد ما سمع منها قصتها يجد نفسه يستسلم
للاستماع..

وهل بقي له سوى الاستماع!؟

_ لنعد للسؤال.. منذ متى أعرف يسرا الصباحي!؟ منذ
كانت زوجة لحسام وربما قبلها.. أبوها كان صديق
أبي.. كلاهما للأسف كان يحمل نفس الصفات تقريباً..
أعترف أنني رأيت أسوأ وجوهها.. ليس فقط وجهها
الأناني مع حسام صديقي.. لكن وجهها معي أنا وقد
كادت تؤذي جنة.. لكنني كذلك أعترف أنني رأيت منها
وجهاً يشبهني وقتها.. كلانا كان يصارع شيطاناً
بداخله.. كلانا كان يريد التمرد على عبادة أبيه التي

ألقاها على كتفيه قسراً.. كلانا كان يواجه ماضياً
أسود ويجاهد كي لا يبقى مستقبلاً أيضاً كذلك..
ثم يتهدد ليردف بحسم وقد اقترباً للوصول لبيت
الصباحي:

_وأظن أن كلينا قد نجح.

يسكت إبراهيم دون رد لكن عينيه تتسعان بصدمة
بمجرد ما وقف أمام البيت المنشود..
ما كان (بيت الصباحي)..
والآن صار..

(جمعية ربيع الخيرية)

تتسارع خفقاته وهو يميز في ظلمة الليل حوله ما
يشبه تلك الليلة التي قابلها فيها هنا!!

لكنه - على العكس- يجد كل ما دون ذلك مختلفاً.. بل

متناقضاً!!

هل كان هذا ما تعنيه بأنها وجدت الطريق ووجدت

نفسها؟!!

يضغط على قبضتيه بقوة وهو يسمع فهد جواره :

_يسرا تغيرت حقاً.. حولت أغلب إرث الصباحي

لمشاريع خيرية.. اختارت حياتها الجديدة كما فعلت

أنا.. أعرف أنك طالما كنت ناقماً على جنة لزوجها

مني.. لكن جنة كانت معجزتي.. عصاي التي توكأت

عليها حتى نجوت بي وبها.. لهذا وقد رأيت يسرا

تسلك نفس الطريق وجدت من الواجب عليّ أن

أخبرك.. أظنها لم تعد تحتاجك لتجد الطريق.. لكن

ربما كنت انت جائزتها في آخره.

يلتفت نحوه إبراهيم بنظرة زائغة وقد بدت روحه

الواهنة طافية في حدقتيه..

ليربت فهد على كتفه بقوله :

_أعذر لو كنت اقتحمت خصوصيتك بهذه الطريقة..

لكنني وجدته واجبي نحوك ونحوها.. ونصيحتي

الأخيرة لك لو كان ما ألمحه في عينيك صحيحاً

أن : (استفت قلبك)!

_ (استفت قلبك)

تبقى تدوي في أذنيه بعدما تركه فهد ليجد نفسه يعود

لبيته بسرعة..

هدير عاصف من مشاعر متباينة تكتسحه..

لو كان حقاً غير قادر على العفو والتجاوز..

فلماذا لا يرتاح وقد تركته وانتهى كل شيء؟!!

_ لماذا لم تخبرني أنها حولت قصر أبيها لجمعية

خيرية؟!

يبادر بها اباه بانفعالٍ طاغٍ بمجرد ما استقبله ليرفع

العجوز حاجبيه بمكر وقد فهم ما يقصده:

_ ظننتك لا تهتم.

يزم إبراهيم شفتيه وهو يشيح بوجهه هارباً من

نظرات أبيه التي تفضح خبيئته..

لكنه يستسلم لوهنه فيجلس جوار أبيه مطرق الرأس

بقوله :

_ فعلتها لأجلك؟! يبدو أنها تحبك حقاً.

_ لا لأجلي ولا لأجلك.. (ابنتي) فعلتها (لله).. أحسبها

كذلك ولا أزيها عند الله.. فعلتها لأنها وجدت أول

الطريق وتجدّ السعي لتصل لآخره.

لا تزال (ابنتي) التي ينطقها أبوه بهذا الفخر الحميمي
تخز قلبه فينتفض واقفاً مكانه يهم بالذهاب لغرفته
لكن ربيع يستوقفه بقوله:

_لو أخبرتك أن لك عندي عروساً اسمها (يسرا
الصباحي).. تختلف كثيراً عن زوجتك السابقة..
شكلها أنت تعرفه.. ماضيها أظنك كذلك صرت تعرفه..
أذنبت لكنها صدقت في توبتها.. تحبك كما أظنك
توقن.. توافق عليها؟!!

يلتفت نحوه إبراهيم ببعض الدهشة وهو يراه يصوغ
الأمر بهذه الطريقة..

ينقله ببراعة خبيرة بين مقارنته (سمرا) ب(يسرا)..
إلى إزاحة سمرا نفسها من المعادلة والتفكير في
(يسرا) فحسب!

يسرا!

كيف هو شعوره نحوها؟!

الآن.. بعد كل ما عرفه!!

يهز رأسه بحيرة وهو يذلف إلى غرفته بخطوات

متناقلة..

متجاهلاً الجواب ربما لأنه إلى الآن حقاً لا يعرفه!!

ليلة طويلة قضاها يستخير الله في أمرها وهو يشعر

أن حجراً ثقيلاً بقلبه.. قد انزاح!

ساعة واحدة نامها قبل الفجر ليرى فيها هذه الرؤيا
ببزوغ الشمس..

(وليعفوا وليصفحوا.. ألا تحبون أن يغفر الله لكم)
يتردد صداها في جوفه تبعاً فيستيقظ من نومه ليجد
هذه العبارة معلقة على طرف لسانه بحلاوة افتقدتها
مرارة أيامه منذ زمن بعيد..

_(بلى يارب أحب) .



أحمر

(جمعية ربيع الخيرية)!

يقف إبراهيم أمام اللافتة يتأمل وهجها الذهبي الذي
سطع في نور الصباح أكثر لكن بريقه الذي وقع بقلبه
منذ رآه مع فهد ليلة أمس لا يفرق بين ظلمة ونور..
كلاهما له نفس الأثر على روحه!

_ستحبها!

يذكرها كما سمعها بصوتها تلك الليلة فيدور حول
القصر ليجلس على نفس الرصيف..

الآن تغمر الشمس المرئيات فتبدو له واضحة جلية
عكس ليلتها التي آواهما فيه الظلام مع إضاءة خافتة
بالكاد لمح فيها ملامحها صادقة.. إنما بعيدة!

ا

لكنه لا يزال يجد في صدره رهبة لا يملكها..
رهبة نفور..

وربما.. رهبة اشتياق!

**_ لا لأجلي ولا لأجلك.. (ابنتي) فعلتها (لله).. أحسبها
كذلك ولا أزيها عند الله.. فعلتها لأنها وجدت أول
الطريق وتجدّ السعي لتصل لآخره.**

لا يزال الفخر الذي نطق بيه أبوه كلمة (ابنتي) يدوي
في أذنيه هادراً..

يزيد زلزلة قلبه بنفس الرهبة..

بين اشتياق ونفور!

يرفع يديه أمام وجهه يتأمل (الشيء الذي تحملانه)

ببعض الدهشة..

لماذا جاء ب"هذا" إلى هنا؟!

أو ربما "هذا" ما جاء به؟!

ترتجف أنامله المحتضنة ل(الكيان المهيب) وهو

يشعر في جلسته هذه أنه محاصرٌ بها..

وعدته أن ترحل من حياته..

تظن نفسها قد فعلت؟!

كيف وقد تركت خلفها كل تلك الخيوط غير المرئية

التي تجره إليها كلما ظن أنه ابتعد؟!

ستحبها! ستحب يسرا كما أحببت سمرا وربما

أكثر!

يذكرها بصوتها فتلتوي شفتاه بابتسامة تعجب..
(سمرا).. كم تبدو له الآن أشبه بطيف رائع لكنه غير

حقيقي!

(يسرا).. الآن كيف تبدو له!؟!

تنكشف كل الحجب التي طالما حاول بها ستر عقله
طوال الأيام السابقة فيستعيد ما أخبرته به هنا..
(عروس الماريونيت) التي تعلمت بعد مشوار طويل
ألا تتحرك مثقلة تجر بقايا خيوطها المقطوعة..
بل توقفت لتجيد قصّها كلها قبل أن تسرع الخطى حرة

دون أذيال!

(اهه ده اللي صار

وادي اللي كان

مالكش حق تلوم عليا)

ينتفض مكانه غير مصدق وهو يسمع الكلمات تنبعث

من داخل القصر نفسه!!

أغنية حسن!!

هنا؟!!!

من بيت (قاتله)!!

من هنا بالذات ينبعث صوت حسن كأنه هو من

يغنيها!

كأنه يبلغ الدنيا رسالته أن التراب لم يساو بين

الرؤوس..

مات (قاتله) تلاحقه اللعنات وبقي هو رمزاً حياً لا

يموت!

يتحرك كالمجنوب يعاود الدوران حول القصر من
جديد في الاتجاه المعاكس هذه المرة فلا يشعر أنه قد

دخل فعلاً إلا وهو يرى انعكاس صورته في إحدى

النوافذ الداخلية التي تطل على إحدى القاعات..

تتجمد أنفاسه وهو يراها تغنيها مع الأطفال

(مصر يا أم العجايب..)

شعبك أصيل والخصم عايب

خلي بالك من الحبايب

دولا أنصار القضية)

لم تكن هناك موسيقا سوى صوت خفقات قلبه وهو

يسمعا بصوتها مع الأطفال..

صورتها بهيئتها الجديدة تخطف قلبه من جديد.. كأنه

يراها لأول مرة!!

ستحبها!

من جديد تدوي في روحه بصوتها كذاك اليوم فيرفع

(ما يحمله) أمام عينيه وقد بدا أنه أخيراً..

قد حسم أمره!

=====

كوثر! هل دخل أحد هنا؟!

تهتف بها يسرا وهي تذف لغرفتها الخاصة بإدارة

الجمعية في الطابق الأرضي من القصر فتهز المرأة

كتفيها بابتسامة غامضة:

الباب كان مغلقاً.. لماذا تسألين؟!

ينعقد حاجبا يسرا مع رجفة خفيفة في جسدها وهي

تشعر أنها تشم رائحته هنا..

هل ستخطئها بعد كل هذا؟!!

تدور بعينيها في المكان بلهفة لكن نظراتها تعود

خائبة فتتنهد بحرارة قائلة :

_ لا بأس.. لعلني أتوهم كالعادة.

ترمقها المرأة بنظرة مشفقة غامضة وهي تتطلع

لشيء ما في الجوار قبل أن تتحرك لتغادر الغرفة

مغلقة بابها خلفها فتتوجه يسرا نحو مكتبها بشرود..

لكنها ما كادت تجلس حتى أطلقت صيحة خافتة وهي

تري ما وضع فوقه..

(بأي حرف تبدئين؟!)

_ إبراهيم! دفتر إبراهيم!!

تتمتم بها بلهفة جعلتها تضم الدفتر لصدرها بقوة قبل
أن تنتفض مكانها من جديد لتركض نحو الباب تفتحه
لتسأل الحارس عن دخول أحدهم لكنه يهز رأسه
بجهل فتعود مكانها حائرة ببعض الخيبة لتجلس على
مكتبها من جديد وهي تفتح الدفتر بأنامل مرتعشة..
تحفظ كل كلمة "مكتوبة" فيه..

بل "كانت مكتوبة" فيه!!

الدفتر مزقت أوراقه كلها!!

تزدرد ريقها الجاف بصعوبة وهي تقلب الصفحة
الوحيدة المتبقية..

(حبيبتي ياء..)

الآن فقط أوقن بأي حرف تبدئين!

كيف أخذك وقد أنصفتك الأبدية ذاتها؟!

فلا حرف بعد جلال (يائك) .. ولا نطق بعد تمام

بهائك!

حبيبتى (ياء)

ياؤك خاتمة.. تغلق أبواب العين والقلب عما سواك..

و(نقطتها) قمران يلهوان وسط ظلمة الليل بضياك.

حبيبتى (ياء)

(ياقة) ذهبية الخيوط أحيت ما بلا من قميص العمر..

(ياقوتة) منسية طوتها الرقائق في حنايا الصدر..

(ياسمين) أبيض غازل جبيني وفضح بين خيوطه

السر..

حبيبتى (ياء)

(يد) من مخمل صافحت جرحاً قد عاش عمراً غريباً

بشكواه..

و(يمامة) بيضاء حطت على بابي فوجد فيها القلب

سلواه..

هاك قلبي حلقى بجناحيه.. لا خير في عشق لست

(ليلاه)

شهقات تأثرها تسابق دموعها على وجنتيها لا تصدق

أن هذا مكتوبٌ هنا..

لها.. لها هي!!

فتسمع الصوت الحبيب أخيراً..

_ لا تبكي.

تنتفض مكانها مرتعدة وهي تراه يغادر مكمناه خلف

الجدار القريب يبتسم أروع ابتسامة رأتها تزين

شفتيه..

نظراته العاشقة ملهوفة تشبه جيداً جموحاً تركض
نحوها دون توقف وتناقض رسوخ قدميه مكانه..
تدفع نحوه هاتفة باسمه في اشتياق جارف وحروفها
المرتعشة تتراقص بجنون مشتت يشبه الهديان على
صدى خطواتها:

_ أنت هنا! كنت أعلم! رائحتك! رائحتك لن يخطئها
قلبي أبداً!

_ لا تقتربي خطوة واحدة أخرى ..إياك! ..أنا بالكاد
أمنع نفسي من عناقك.

صوته المتهدج يفضح لوعته أشهر فضيحة وهو
يفرد ذراعيه بينهماً ..لكنها تبتمس وسط دموعها
لتفتح له ذراعيها دون أن تقترب هامسة بعمق
عاطفتها :

_ ومنذ متى يحتاج حضنك أنت بالذات للمس؟! طالما

ضمتني روحك دون عناق.

يرتفع حاجباه مع دمعة تأثر وكل ذرة في جسده تضج

بعاطفة تشبه عاطفتها وأكثر..

خاصة وهو يراها ترتجف ببكائها تشير بسبابتها نحو

دفتره النائم على صدرها كأنه وليد وجدته أمه بعد

طول تيه..

_ هذا لي؟! كتبت له لي؟! لي أنا؟!!

فيأخذ نفساً عميقاً وعيناه معلقتان بسلسلة (الثلاثة

قلوب) على جيدها.. تتراقص بجنون مع هدير صدرها

المنفعل فيبدو له طرف كل (قلب) منها واشياً بمكان

صار يوقن أنه لم ولن يملأه سواها..

هي (الرامية القرمزية)

هي (حبيبة إبراهيم)

وهي من يرجو أن تكون (أم حسن)

_ (الرامية القرمزية) أقت سهماً صائباً جديداً هذه

المرّة.. قالت لي آخر مرة التقينا فيها: (ستحبها)..

وهأنذا!

تكنم صيحة شفيتها بكفها الحر ولا تزال أناملها

المحتضنة لدفتره متشنجة على صدرها..

عيناها متسعان معلقتان بشفتيه في كلمته الأخيرة

كأنها تناشده المزيد..

ذراعاه يحولان بينهما - كما يظن - لكن كليهما يشعر

أنهما فقط جسر تمر عليه خفقات القلوب تسابق

الأنفاس في هديرها المشتعل..

لا تزال عاجزة عن استيعاب أية معجزة تحدث هنا

الآن!!

هو.. هنا..

بهذه النظرة..!!؟

بهذا الشعور..!!؟

بهذا الكلام!!؟

_سامحتني!؟

تخرج من شفيتها مرتجفة فيعيد ذراعاها جواره كأنه لا

يريد أن يفصل بينهما الآن شيء.. أي شيء..

والجواب تمنحه عيناه وهما تعانقان (العندليب) في

عينها..

العندليب الذي ما عاد أخرس..

تشاركانه تغريده على نفس النغم..

يسرا الصباحي ..

ينعقد حاجباها بتوجس وهي تسمعه يردد اسمها كاملاً

كأنه يؤكد لها أنه يعي أي امرأة الآن تقف أمامه..

ليطلق قلبها زغرودة فرح وهي تسمعه يردد بمزيج

طالما اشتاقته منه هو بالذات.. مزيج من (عشق)

و(احترام) :

تزوجيني؟!!

=====

الطيب الخمسون (الأخير)

تمت أطيف قوس قزح

=====

أخضر

=====

_الآن فقط تذكرتني؟! جئت كي تشمتي في؟!!

تصرخ بها هيام على فراشها في غرفتها بشقتها

مخاطبةً عزة التي قدمت لزيارتها..

صوتها المثير للشفقة -بنبرته غير الواضحة وقد

التوى فكها مع الشلل الذي أصاب ذراعها بعد علمها

بوفاة فهمي- يوخز قلب عزة التي تكتم دموعها وهي

تتقدم نحوها ليهتف راغب بصوت لم يفقده الحزن

هيئته:

_ اهدئي.. الطبيب حذر من انفعالك.. شقيقتك تتفقدك

منذ يوم وفاة المرحوم فهمي وأنت التي ترفضين

رؤيتها!

_ أخرجها من هنا أو سأخرج أنا! تظنونني صرت

عاجزة؟! لا كلمة لي هنا؟! صرت أسيرة إحسانك

عليّ وعلى أولادي بعد موت أبيهم؟! اخرجنا معاً لا

أحتاج لإحسان أحد!!

تخرج كلمات هيام منفرة كعهدا لكن راغب لا يشعر

نحوها سوى بالمزيد من الشفقة بعد مصابها..

فيما تقف عزة مكانها تكاد تحترق بكتمان السر الذي تخفيه عن حقيقة زوج شقيقتها المخزية.. وبمصاب شقيقتها التي صارت مثيرة للشفقة أكثر

تحاول الاقتراب منها لكن هيام تدفعها بذراعها السليم هاتفة :

_لو كنتِ جنّت تؤدين واجباً فها أنتِ قد فعلتِ! لا أريد رؤيتك.. اذهبي.. اذهبي..

لا تزال تهتف بها حتى تشنج وجهها أكثر لتتحول كلماتها لنشيج خافت وهي تحاول رفع ذراعها العاجز دون جدوى فتداري وجهها في طرف وشاحها الأسود بقهر يوجع القلب ويجبر راغب أن يشير لعزة بقوله :
_إذن دعيها الآن حتى تهدأ!

يغادران غرفة هيام لتتوجه نحوهما أم راغب بملامح

باكية.. العجوز التي فقدت ابنها الأكبر الطيب -

بظنها- في غمضة عين لكنها تبدو صابرة على

مصابها وهي تخاطب عزة بقولها :

_ لا تؤاخذني يا ابنتي.. الخبر صدمنا كلنا..

تهز عزة رأسها بكلمات مبهمة فيما تبدو المرأة

عاجزة عن التماسك أكثر لتتهار فجأة في البكاء

بقولها :

_ يا حسرة قلبي عليك يا ابني.. من لأولادك بعدك!؟!

لكن راغب يضم المرأة لصدره بحنان محاولاً تهدئتها

وهو يقاوم غصة حلقه هاتفاً بصوته الرجولي

الخشن :

_ لا تقولي هذا يا أمي.. أولاد أخي في عنقي لآخر يوم
في عمري.. يتربون مع (رُبي) كإخوتها ويشهد ربي
أنني لن أفرق بينهم ما حييت.

_ خذني لغرفته يا ابني لعل فيها بعض رائحته..
(المسكين) عاش حياته غريباً ساعياً وراء لقمة
العيش.. عاش علي الهامش ومات علي الهامش!
تكاد عزة تتفجر غيظاً و غضباً وهي تحترق بالمزيد
من الكتمان.. ترى راغب ينسحب بأمه نحو غرفة
فهمي وكلمات المرأة تنعي الفقيد (المسكين) ومن
داخل غرفة هيام خلفها تنطلق صرخات الأخيرة تارة
تنعي حظها وتارة تسبها هي وتطردها..

_ تعالي.

كانت هذه رؤى التي جذبتها من كفها وكأنما تشعر
بلوعتها لتسحب بها مبتعدة نحو المطبخ حيث
يمكنهما التحدث بحرية، أغلقت بابها خلفهما ولم تكد
تفعل حتى قالت عزة بانفعال:

_ سأجن! جنازة حارة والميت كلب! لا أصدق أنني
عشت مخدوعة في طبيعته الظاهرة طوال هذه
السنوات.. لست وحدي بل كلنا! ليس عدلاً أن يموت
وغد مثله هكذا! هكذا؟! دون أن يفتضح أمره للجميع
فيلعنه الغادي والرائح!!

_ لم يكن وحده من سيفتضح!
تقولها رؤى بتعقل وهي تربت على كتفها مهدئة.. ثم
تتنهد لتردف بشرود :

_فكرت مثلك كثيراً.. فكرت حتى أن أصارح راغب
على الأقل بحقيقة أخيه المخادع الذي كان يعيش بيننا
بوجه غير وجهه المجرم.. فكرت كثيراً وأنا أراه
يعطيني ظهره كل ليلة على فراشنا لتبيل دموعه
وسادته حزناً على أخيه (المسكين) الذي قتل ظلماً-
كما يظن- أن أخبره بجرائمه.. أن أعلمه ان الرجل
الذي عاش يحترف القتل والإرهاب طوال هذه
السنوات لم يكن يستحق ميتة رحيمة كهذه بل كان
يستحق السلخ حياً لولا رحمة الله بنا.. بنا كلنا.. كلنا
لا نستحق فضيحة كهذه.. لكنني أعود لأفكر.. بعض
الجهل رحمة من الله..خير له ان يظن أخاه مات في
حادث عن أن يعرف انه كان مجرماً مات مطارداً..

فليمت فهمي كما اختار العيش بيننا.. ظللاً مهماً

منسياً!

تهز عزة رأسها باستسلام وهي تحاول التفكير في
سلامة منطقتها لتطلق أخيراً تهيدة حارة وهي تسمع

صراخ هيام من الخارج من جديد :

_أخرجوها.. لا أريد تلك الجاحدة الشامتة هنا.

_لا بأس.. هي لا تعي ما تقول.

تقولها رؤى بإشفاق مواسية عزة التي هتفت بنفاد

صبر :

_لن أستطيع البقاء أطول.. سأنفجر..

تقولها لتغادر المطبخ راضية فتلحق بها رؤى

غافلتين عن زوج من العيون كان صاحبهما يقف

مختبئاً في شرفة المطبخ ليستمع مصادفة للحديث..

والآن يترنح بالحقيقة التي تصفه بقسوتها رغم

صغر سنه..

ابن فهمي الأكبر!

=====

تعود عزة لشقتها التي تصفع بابها خلفها بانفعال يرج

جسدها..

كم هي مؤذية دوماً عودتها للحي القديم..

تجلدها ذكريات الماضي فكيف وقد خذلها الحاضر

وتوعدها الغد!!

حالة هيام تثير المزيد من غضبها.. وشفقتها!!

تماماً كحالها هي الآن وهي تشعر أنها تفقد توازنها

من جديد!!

تلقي حقيبتها جانباً بعنف وهي تكتم بكاءها ثم تتوجه

نحو غرفتها وهي تخشى الاعتراف بالسبب الأكبر

لغضبها هذا..

إيهاب!

لقد اختفى من حياتها تماماً بعد لقائهما الأخير في

غرفة إياد الذي علمت بأنه لا يزال على قيد الحياة..

لماذا لم يباررها باتصال واحد يطمئن فيه عليها؟!!

وهي؟! لماذا لم تفعل؟!!

تخلع ملابسها بالمزيد من العنف وهي تكتم بكاءها

أكثر..

تطالع شاشة التلفاز المفتوحة..

لم تعد تتابع قناتها القديمة كي لا يخذلها شعورها
بأنها سهلة الاستبدال وقد ضاع منها برنامجها..
لكن يبدو أن الظروف تكالبت عليها لتكررها بالمزيد
وهي ترى المذبة التي أخذت مكانها في لقاء على
قناة أخرى تتباهى بالنجاح المتزايد للبرنامج
مؤخراً..

تطلق هتافاً ساخطاً وهي تشعر بدموعها المكتومة
كحجر يثقل على صدرها..

تتحرك نحو الحمام القريب لعلها تنعم بماء استحمام
بارد يخفف عنها لكنها ما كادت تفعل حتى وجدت
المياه مقطوعة!!

هنا تتفجر في البكاء لسبب قد يبدو بسيطاً لكن هاهو

ذا الكتمان يبحث عن أضعف قشرة في براكين

تماسكنا ليكتسحها منفجراً بضراوة..

_ لن أبكي.. لن أبكي.. أنا تغيرت.. تغيرت.. لم أعد

ضعيفة كالسابق.

تصرخ بها وكأنها وحدها الحل قبل أن تمسح دموعها

لتخرج ثم تتوجه نحو حاسوبها المحمول..

تفتحه لتتاظر إحدى منصاتها الالكترونية الدعائية

بنظرات مشتعلة..

ثم تتحرك أناملها على الأزرار تخط شيئاً ما هو أكثر

أفعالها حماقة حتى الآن!!

=====

_ ابني!

تصرخ بها خديجة بعمق لوعتها التي اختلطت
بفرحتها في هذه اللحظة بالذات وهي ترى إيد لأول
مرة بعد ما سمحوا بزيارته في السجن..
عناقها الحار يطوقه فيترك نفسه له للحظات وهو
يراها تحتضن وجهه بكفيها.. تملأ عينيها من ملامحه
كأنها لا تصدق معجزة حياته لتتهافت بين دموعها :
_ أنت حي! أنت هنا.. معي.

تخفي وجهه بين ضلوعها فيشعر بلذة ضمته تعيد
سنوات عمره المفقودة كأنه عاد بين ذراعيها طفلاً لم
تخفه مصيبة ولم يروعه حرمان..

_ سامحيني.

صوته المتحشرج يحاول إخفاء عاطفته بمزيج من
خزي وندم..

يرفع وجهه نحو إيهاب الذي ضجت ملامحه بمشاعره
هو الآخر ثم يبتعد قليلاً عن حضن أمه ليشيح بوجهه
قائلاً :

_طوال عمري وأنا ألومك لأنك تتبذيني.. أظنه حان
الوقت لأكون أنا من يطلبها منكم الآن.. انسوني
وعودوا لحياتكم.. أظنه هو الأولى الآن! لتكن هذه
زيارتكما الأخيرة.

ينعقد حاجبا إيهاب بانفعال وهو يكرز علي أسنانه
بصمت كأنه كان يتوقع منه هذا الرد..
بينما لا تسمح له خديجة له بالابتعاد..
تعاود ضمه لصدرها هاتفة بلوعة أم :

_بماذا تهذي؟! لو تعرف كيف شعرت عندما أخبروني
أنك على قيد الحياة!! شعرت كأن روعي التي سلبها

خبر موتك قد ردت إليّ! شعرت أن القدر يمنحني
فرصة لأعوضك عن الماضي.. كنت سأموت بذنبك يا
ابني.. لو كان لأحد أن يشعر بالخزي فلعله أنا!
تنهار باكية في كلماتها الأخيرة فيقترب إيهاب
ليضمهما معاً للحظات قبل أن ترفع خديجة عينها
نحو إيد بقولها :

لن ننكر أنك أخطأت الطريق.. من منا لا يفعل؟! لكنك
كنت بطلاً في النهاية.. أنت صاحب الفضل في أن
يُسلم ذاك المجرم للعدالة وساعدتهم في القبض عليه
قبل أن تقضي عدالة السماء له بالجزاء الحكيم.
وتقولين للناس أن ابنك مجرم مسجون؟! ستجرو
(أبلة الناظرة) على فعلها!؟!

يغمغم بها إياد بلوعة ساخرة وهو ينتزع نفسه
انتزاعاً من دفء عناقها ليبعد مولياً إياها ظهره..
لكنها تجذبه نحوها من جديد بكل قوتها لتهد كتفيه
بقولها :

_ سأقول للناس أن ابني اختار الصواب العصيب
عندما كان يمكنه اختيار الخطأ السهل.. سأقول لهم
أنه خاطر بحياته لأجل أن ينقذني وينقذ البلد كلها من
شر مجرم كذاك الوغد.. سأقول لهم أن الشيطان قد
يغري أحداً بحلاوة مذاق الخطيئة لكن العاقل من
ينتبه لمرارتها في الوقت المناسب.. سأقول لهم أنني
أحسنت التربية فلم أربّ ملائكة لا تخطئ.. بل بشراً
مهما حاد عن طريق الصواب تعيده فطرته إليه!

تدمع عينا إيد وهو يلقي برأسه على كتفيها طواعية
هذه المرة..

ذراعاه يطوقانها بكل قوته فتربت على رأسه قائلة :
_ أنت لم تكن أبداً (العربة الأخيرة) في القطار كما كنت
تظن.. بل كنت صف عجلاته المفقود الذي منعه
الحركة طوال هذا العمر.. والآن فقط يمكنه الانطلاق.
تقولها مذكرة إياه بعبارته القديمة وهي تبسط كفه
على صدرها فيبتسم ابتسامة شاحبة وهو ينحني
ليقبل كفها..

يرفع عينيه لوجهها وكأنه أخيراً..
أخيراً.. صالح "تجاعيد وجهها" التي خاصمها طوال
هذا العمر!

يشد إيهاب على كتفه وهو يقول مؤازراً :

_موعد الجلسة اقترب.. أثق أن الحكم سيكون مخففاً

كثيراً بعد شهادة (بشر) بدورك معه في القضية..

ستمر بإذن الله.. ستمر ونحن معاً.

_ونحن معاً.

تكررها خديجة بحزم حنون وهي تشد على كتفه

الآخر فترتجف ابتسامته أكثر لكن صوت الحارس

يقاطع المشهد وهو يعلن انتهاء موعد الزيارة.

يغادران المكان ليعود إيهاب أمه للبيت وهو يشعر

رغم كل شيء أنهم جميعاً في سبيلهم للتعافي..

_إلى أين ستذهب!؟!

تسأله بفضول وهي تراه يحلق ذقنه باهتمام ليرد

بابتسامة مطمئنة:

_لدي موعد مع أحد أصدقائي.

تبتسم ببعض الرضا وهي تشعر أنه عاد يتواءم مع
أصدقائه القدامى الذين هجرهم بعد الحادث..
قلبها يخبرها أنه لتوه بدأ يستوعب صدمته.. وقد أخذ
طريقه ليستعيد ذاته!

(الفاجومي) عاد ليتقبل قدره دون سخط ظاهر.. او
باطن!

_ سأختار لك قميصاً مناسباً.. أعرف أنك تفضل
الأبيض.

تقولها بحنان وهي تتحرك لتحضره له.. تساعده في
ارتدائه لتتحسس كتفيه قائلة بشرود وهي تستعيد
ذكرى محادثة سابقة بينهما :

_ لم يعد جسدك بديناً.. ما عاد لبس الأبيض مشكلة!
_ ومتى اعترفتُ أنا أنها مشكلة؟!

يهز بها كتفيه باعتزاز (الفاجومي) القديم مع ابتسامة
واهنة على شفثيه لتتنهد بارتياح وهي تربت على
كتفه.

يغادر البيت ليتحرك بسيارته الجديدة المجهزة
للمعاقين والتي صار يجيد استخدامها ببراعة زادها
الرضا..

يتوقف في المكان المنشود انتظاراً لصديقه الذي تأخر
فيتناول هاتفه..

وكعادته كلما خلا بنفسه يتفحص رسائله القديمة مع
عزة..

فيبتسم تارة.. ويعبس أخرى..

لكن خفقة القلب لا تتغير..

دوماً مضبوطة على نعمة خاصة تخصها هي

فحسب!!

تتسع عيناه بدهشة وهو يرى أحد الأشعارات ينبؤه

عن نشاط بأحد حساباتها على مواقع التواصل وهو

ما لم تفعله منذ عهد بعيد..

أنامله تتحرك بسرعة مترقبة وهو يفتح الإشعار

لتستحيل الدنيا ناراً في عينيه وهو يميز الخبر الذي

بثته هي بنفسها وانتشر بعدها في مواقع التواصل :

عزة الأنصاري تخرج عن صمتها بعد طلاقها لتعلن

الخبر.. أنها تنتظر مولوداً وتناشد الجمهور مشاركتها

اختيار اسمه!

=====

_ ماذا فعلت؟! يا ويلي! ماذا فعلت؟

تتمتع بها عزة لنفسها وهي تتنبه لتوها لما فعلته!!
كانت قد غفت غفوة يسيرة بعد ما بثته على مواقع
التواصل بفعل تأثير إرهاقها لليومين الماضيين لتفريق
فتتسع عيناها بصدمة وهي تميز التعليقات المتتابعة
على الخبر!!

_ هل جننت؟! لماذا؟! لماذا؟!

تلوم بها نفسها وهي تتكب على شاشة الحاسوب من
جديد تكاد بتهور تكذب الخبر لكن أناملها تتجمد وهي
تسمع الرنين المتواصل لجرس الباب والذي يوحى
بأن صاحبه لا يرفع إصبعه من عليه!!

_ لا تكن أنت.. لا تكن أنت..

تتمتع بها برهبة وهي تشعر بسخونة خديها بل
جسدها كله..

لكنها تعود لتهمز رأسها بقولها بتماسك مصطنع :

_ بل كن أنت.. لن أهتم..

ترتدي ملابس مناسبة لتتوجه نحو الباب بخطوات

تتعمد اصطناع قوتها رغم ارتجاف ساقيها..

تنظر في العين السحرية ليروعها مشهد إيهاب الذي

بدا غاضباً كما لم يكن من قبل..

تخونها قوتها للحظات فتسند ظهرها للباب وقد اتخذت

قرارها ألا تفتح..

لكنه يكاد يحطم الباب بقبضته قبل صرخته :

_ افتحي.. أعرف أنك هنا!

تزدرد ريقها بارتباك وهي تأخذ نفساً عميقاً تتصنع به

قوتها قبل ان تفتح الباب لتتلقى إعصاره!!

_ ما هذا؟! ردي.. ما هذا !!؟

يغلق الباب خلفه بعنف وصرخاته الغاضبة كما لم

تعهدا من قبل ترجها مكانها وهي تراه يشير لشاشة

هاتفه حيث الخبر فتراجع عفويّاً للخلف حتى تصطم

بأحد المقاعد..

تكاد تسقط فتأخذها العزة بالإثم لتتهف بانفعال:

_ وما شأنك أنت بي؟!!

_ أنت حامل..حقاً؟! كيف؟! من من؟!!

صرخته تكاد تشق صدرها فتلعن غباءها الذي دفعها

لفعلتها..

لماذا تعمدت الكذب بهذه الطريقة؟!!

هل هي رغبته في لفت الأنظار من جديد؟

لا.. لم تعد تهتم بشيء كهذا!!

إذن هي رغبته في الانتقام منه.. في وخز قلبه بهذا
النصل الذي يوجعها والذي ينغرس أكثر في صدرها
كلما شعرت بتعمده الابتعاد عنها كما فعل طوال الأيام
السابقة..

في قول هذا الذي جرى على لسانها الآن :

وماذا لو؟! ماذا لو كنت خنتك كما خنتني ذاك ال...

آآه؟!!

تقطع حروفها وقبضته تكمم شفيتها تمنعها إكمال

عبارتها مع تمتته المصعوقة :

لا.. لا.. مستحيل.. لا تفعلها أبداً.. أشك في نفسي

ولا أشك فيك!

لكنها تزيح قبضته بكفيها بقوة هاتفة بين دموع سالت
رغماً عنها :

_هل جربت شعوري الآن؟! يوجعك قلبك؟! يحترق?!
يسألك بحرقة فيما أخطأت كي تعاقب بالخيانة?! ينكر
ما يحدث ويقول كما قلت (أشك في نفسي ولا أشك
فيك).. فتصفعك الحقيقة على صدرك لتجبرك على
التصديق?!!

أصابعه تشتد على كتفيها وهو يرجها رجاً كجمرات
من نار تلهبهما معاً وهو يبحث في عينيها عن
الحقيقة..

لكنها تسبل جفنيها أخيراً بقولها :

هذا بالضبط ما حاولت أنا التكيف معه الأيام
السابقة.. وللأسف فشلت.. على العموم أعتذر عما
فعلته.. كان جنوناً حقاً! لا أعرف ما أصابني!
تهيدة حارقة تغادر صدره بين ارتياح وغضب وهو
يدفعها ببعض العنف فتكاد تسقط مكانها بينما يسقط
هو فعلاً متهاكاً على المقعد وهو يبسط راحته
مفرودة على صدره :

الحمد لله.

تشعر بالذنب وهي ترى تلاحق أنفاسه مع تصبب
العرق الغزير على جبينه فتلعن غباءها أكثر وهي
تتحرك لتحضر له كوباً من الماء ناولته إياه لتجلس
جواره على الأريكة وهي تراقب ارتعاش أنامله

الممسكة بالكوب وهو يشرب مع إغماضة عينيه
المنفعله..

تود لو كان يمكنها احتضانه في هذه اللحظة باعتذار
مناسب لكن تمنعها الكثير من السدود التي صارت
بينهما..

فتكتفي بتربيت أناملها التي ترددت بين ركبته
"السليمة" و"المصابة" .. فاختارت "الأخيرة" !
كأنما صار يعي قلبها قبل عقلها أن ما يجمعهما يفوق
كثيراً ما ظنته يوماً مجرد امتنان...!!
يرتجف للمستها وهو يرفع عينيه إليها بنظرة غريبة
مزجت عتابه باعتذاره وكأنه رغم جنون فعلتها..
يتفهم!

لهذا يخرج صوته متهدجاً بجفاف ولّده شعوره بالكبت
في هذه اللحظة بالذات والتي يتمنى فيها اعتصارها
بين ذراعيه اشتياقاً وعتباً :

_ سأخبرك بحقيقة ما حدث كي تغلق هذا الباب
للأبد .. أجل.. أنا ذهبت لبتول ذلك اليوم لأنها خدعتني
بأن المخرج سيكون موجوداً للاتفاق على حلقة
تجمعنا كتلك التي شاركنا فيها أنا وانتِ من
قبل.. ستسألين لماذا لم أنسحب عندما عرفت بخدعتها
والجواب لأنني ضعفت.. ضعفت أمام إغوائها وقد كان
كل همي أن أرضي كبرياء رجولتي الذي كانت تمزقه
صورتك وأنت تتقيئين نفوراً مني ليلة زفافنا..
تغمض عينيها على خيطين من الدموع ليصلها صوته
أكثر حدة.. :

_ سألتني يوماً هل سعدت بخيانتك.. والآن أجيبك.. لم
أخنك.. أو على الأقل لم أكمل الطريق لآخره.. انتزعت
نفسي في اللحظة الأخيرة وعدت لصوابي وتركتها
وأتيت إليك.. لو كانت ترضيك إجابة كهذه وتمنعك من
الإتيان بأفعال جنونية كهذه التي اقترفتها منذ قليل!
تفتح عينيها بألف عاطفة تتراقص في حدقتها بين
ثلج ونار.. أناملها تشد على ركبته فيشعر باشتعال
جوارحه وهو يشيح بوجهه عنها قائلاً :

_ صدقي أو لا تصدقي.. لم يعد هناك مبرر للكذب في
شأن كهذا.

_ هل حلقت ذقنك لتوك؟! .. أشم رائحة معجون
الحلاقة!

عبارتها العفوية تصدمه لكنها تمنحه شارة بتصديقها

إياه.. وإن لم تسامحه كليةً بعد!

تعيده لذكرى قديمة بينهما..

معجون الحلاقة!

"كان أبي يستعمل واحداً رائحته شبيهة بهذه

كثيراً.. لا أذكر عنه أشياء كثيرة لكنني أتذكر هذه

الرائحة.. ربما لأنها مثلت عندي رائحة الأمان الذي

فقدته بعده.. عندما رسبت لأول مرة في دراستي

واضطرت لتركها لأعرف معنى أول فشل في

حياتي.. عندما فُسخت خطبتي الأولى.. عندما شهر

بي ذاك الوغد أيامها ملطخاً سمعتي.. في كل مرة من

هذه كنت أشتري أنبوبة كهذه.. أفتح غطاءها وأتشم

رائحتها كأنني أطارِد سراب الأمان المفقود.. تعلم؟!

عندما تزوجت راغب كان أحياناً يقوم بحلاقة ذقنه في شقتنا .. لكن الغريب أنني لم أشم هذه الرائحة أبداً في "معجون حلاقته" ! لا أدري هل كانت مختلفة حقاً أم

أنني كنت أذكي من مطاردة سراب لن يكون لي!"
يتذكرها بصوتها كما باحت له بها ذات يوم فيلنتفت إليها وهو يشعر بأنه يبذل ما يفوق طاقة البشر كي لا يضمها إلى صدره الآن..

عيناه تمطرانها شوقاً!

الآن فقط يسأل نفسه.. كيف احتمال فراقها طوال هذه الأيام!

تزداد خفقاته جنوناً وعيناه تتعلقان بأناملها على ركبته..

تطفئ نيران وتشعل أخرى..

فينتفض مكانه فجأة وقد تذكر عهدهما..

تقف بدورها بنظرة مندهشة متسائلة ليرد قائلاً :

_ لو لم أخرج الآن فلست مسئولاً عما سأفعله!

وسأضطر بكل سرور لأن أمنحك جواباً مثالياً -

وعملياً - لسؤالك السابق!

عبارته - التي مزجت مرح الفاجومي القديم بطيف

من وقاحة أحببتها في موقفهما هذا - تدغدغ أنوثتها

برفق..

تعيدها لأحلام يقظتها التي كان هو - رغم كل شيء -

بطلها الوحيد!

فتتراقص ابتسامه خجول على شفثيها.. ناقضت جفاء

عبارتها الظاهر :

_ اخرج.. ومن منعك؟! من أتى بك من الأساس؟!!

ابتسامة حقيقية لم تعرفها شفتاه منذ عهد بعيد تولد
الآن على شفثيه وعيناه تعانقان كل تفصييلة من
ملامحها بعشق هادر ناقض جفاء عبارته هو الآخر
كأنه فقط يرد لها بضاعتها :

_ ولن تعودى لحماقات أخرى توقف قلبى؟!
تهز كتفيها بدلال واثق افتقده فى طبيعتها القديمة..
بعيد تماماً عن تردها الذى كرهه..

لهذا تنهد أخيراً وهو يميل بوجهه ليقترب من وجهها
أكثر يقول بجدية شابها حنانه :

_ (ما لك؟!)

الحروف على بساطتها تفخمها عاطفة طالما توجت
تاريخهما القديم!

وكأنها عندما تخرج من شفثيه هو بالذات لا تشبه

مثيلتها ممن سواه!

تفتح كل أبواب البوح المغلقة لتستلقي خباياها آمنة

على شطآنه!

لهذا دمعت عيناها بعمق احتياجها إليه وهي ترفعهما

نحوه ليردف بنبرة خبير بتفاصيلها :

_ لم يكن ليدفكك لجنون كهذا إلا أمر جل.. ماذا

حدث؟!!

ترتجف شفثاها واشيئين بقرب البكاء فيرتفع ذراعاه

دون وعي نحوها لكنه يمنع نفسه من عناقها ليهز

رأسه وهو يغمض عينيه بقوله:

_تعرفين؟! سأحفظ هذه كإجابة لو سألوني عن أكبر
عقاب نلته في حياتي.. ألا أتمكن من عنائك في موقف
كهذا!

تطرق برأسها دون رد للحظات لتشعر به يبتعد بقوله
الذي عادت له نبرة الفاجومي القديم :

_كنت على موعد مع صديق أظنه الآن يفكر في
أفضل طريقة لسلخ جلدي وكسر عظمي دون عقاب
قانوني، فهو الموعد الرابع الذي أخلفه معه.. لكن لا
يهم.. فداك! المهم.. سأتوجه الآن - مصادفة- للمطعم
الذي التقينا فيه أنا وأنتِ أول مرة.. فلو فكرتِ أن
تذهبي أنتِ الأخرى هناك - مصادفة- فنلتقي هناك -
مصادفة- فستكون حقاً أجمل مصادفة!

تبتسم وهي تراه يصفق الباب خلفه دون انتظار ردها

شاعرة أن قلبها يتضخم!

روحها تحلق براحة.. تغلفها سكينه لم تعد تنكر انه

هو مصدرها!

كعهده لا يزال يمنحها - ما يظنه - حرية اختيار..

وكعهدها تجد نفسها مجذوبة لتقترب كل مرة!

ربما لهذا لم تفكر كثيراً قبل أن تتخذ قرارها لتلحق

به..



على نفس الطاولة التي ظلت تجمعهما لسنوات كان
ينتظرها في المطعم الذي اعتادا اللقاء فيه قبل
زواجهما..

وقف فور ما رآها قادمة بلهفة كأنه لم يكن يصدق أن
تأتي..

لهفة أجاد مداراتها خلف ابتسامة هادئة وهو يراها
مترددة أن تجلس في المقعد المقابل له "كعهد
صداقتهما القديم" أو المقعد المجاور له "كما يحب
أن تعنيه رمزية المعنى" ..

لكنها اختارت الأول!

يخفي خيبته باقتدار يجيده مكتفياً بفرحة حضورها

ليجلس قائلاً بعتاب مرح :

كعادة تتعمدين الحضور متأخرة.

تدمع عيناها وهي تتذكر كم كانت تتعمد حقاً التأخر
عليه في مواعيدهما القديمة.. لتجد نفسها تقول دون

وعى :

_ربما لأتني أثق أنك دوماً ستنتظر.

_لا تعولي كثيراً على هذا.. أخشى أن يصيبني الملل

يوماً فتأتين لتجدي الطاولة خالية.

لم يدرك قسوة عبارته على امرأة - بتاريخها- إلا

عندما رأى الدموع تتكدس في عينيها المصدومتين

بمقولته وكأنه قد صفعها!

_لا تصدقي.. بل دوماً سأنتظر حضورك مهما اختطفك

الغياب.

يكاد يهتف بها وهو يشعر بروئيتها بعد طول غياب

تشعل ما ظن أنه قد أخمده من براكينه..

يكاد يصرخ بها أن "الانتظار" هذا هو ما يمنح عمره

الباهت (الأمل) لا (الملل)..

بل يكاد يحطم هذه الطاولة اللعينة بكل ما تعنيه من

رمزية ما يقف بينهما..

لكنه يحافظ على وعده لها..

فلتجد نفسها أولاً.. قبل أن تبحث عنه!

لهذا يبتلعها صاغراً وهو يلتزم الصمت القصير قبل

أن يتحنح ليسألها باهتمام :

ما الذي حدث اليوم وأوصلك لهذا الحال؟!!

تأخذ نفساً عميقاً تتمالك به رغبته في البكاء الآن

وهي تظن أنها لن تستطيع الكلام..

لكنها تفاجئ نفسها قبل أن تفاجئه بسيل البوح الذي

لم تعرفه هادراً هكذا إلا معه..

تحكي له عن كل ما عانتها الأيام السابقة فيستمع إليها صامتاً وعيناه تتسعان بتفهم مدركاً نقطة ضعفها في صراعها مع ماضيها..

وبالذات مع هيام في بيت راغب وحيهما القديم حيث ذكرياتها البشعة مع خطيبها الأول..

لهذا لم يتعجب قولها وهي تلوح بكفيها أخيراً قائلة بانفعال:

_الأمر شديد التعقيد.. أنا ساخطة على هيام لما فعلته بي لكنني مشفقة عليها مما حدث.. أريد البقاء جوارها كي أسندها وأولادها في مصيبتهم لكنني لا أطيق الذهاب هناك حيث أشعر بنظرات الناس تعيرني بالفشل مرة تلو مرة.. أريد الصراخ بحقيقة ذاك المجرم زوجها كي أشفي غليلي مما عانيناه جميعاً

بسببه لكنني أحفظ نعمة الله للجميع بالستر.. لا أريد
العودة لتردي القديم البغيض.. لكن رغباً عني تقيدني
خيوط الماضي.

_ اقطعها كلها..

يقولها بحزم رفيق وهو يحتوي كفها بين راحتيه
ناظراً لعمق عينيها باستطراده :

_ اذهبي لشقيقتك وكوني جوارها ولو طردتك الف
مرة.. ليس هذا خياراً بل واجباً.. أما عن نظرات
الناس تلك فليست سوى في خيالك أنت.. ستوقنين من
هذا عندما تصنعين نجاحك الحقيقي لتدركي أن قيمتنا
الحقيقية تتبع من داخلنا وتنعكس على نظرات
الآخرين على العكس.. أنا عايشة هذا بنفسه طوال

الأيام السابقة ولازلت أعيشه لكنني أثق أنني

سأتجاوزه كما أثق بأنك ستفعلين.

تبتسم وقد صادفت كلماته هوى في نفسها!

ربما كانت ستتخذ وحدها هذا القرار لكن مؤازرته

شكلت لديها فارقاً لن تنكره!

خاصة وهي تراه يسألها باهتمام :

_ هل فكرت فيما ستفعلينه الأيام القادمة بعد ضياع

فرصة البرنامج!؟!

_ البرنامج لم يضع.. أنا من صنعت نجاحه ويمكنني

صنع غيره.. لكنني أحتاج وقت..

يرمقها بنظرة متسائلة لتردف بحماس تصاعد رويداً

رويداً في كلماتها :

سأذكر! سأحصل على دبلومة في التغذية وأعود
اقتحام المجال على علم.. وفي هذه الفترة سأدرس
اهتمامات الناس على وسائل التواصل كي أفهم
احتياجاتهم الحقيقية وعوامل الجذب لهم.. سأعود
على أرض ثابتة هذه المرة بمحتوى جذاب لكنه
هادف.. أنا تعلمت الدرس.. النجاح الرخيص سهل..
لكن النجاح الصعب أبقى.

ابتسامته "الفخورة" وهو يضغط كفها بين راحتيه
تبدو لها كشمس أشرقت لها الدنيا حولها من جديد..
لهذا تهمس دون تفكير :

شكرا..

ثم تسبل جفنيها بخجل مردفة:

_ كنت أحتاج ابتسامة كهذه.. (أحياناً) يهياً إليّ أن لا
أحد يمكنه الابتسام بهذه الطريقة إلا أنت.
ورغم ان قلبه كان يخلق بفرحته بعفوية عبارتها التي
تقطر صدقاً لكن (الفاجومي) يرفع أحد حاجبيه ليقول
بتهمك واثق:

_ (أحياناً)؟! الأصبوب ان تقولي (دائماً).
تضحك مرتاحة كأنما أعادت ثقته في نفسه ثقته هي
في نفسها!

أناملها ترتفع نحو عنقها كأنها تتحسس وشاحها
الأخضر الذي ما عاد موجوداً.. لكنها - الآن فقط -
تشعر برمزيته في روحها..

الحركة التي مسته وجعلته يهمس :

_ وأنا أيضاً أقول.. شكراً..

ترفع إليه عينين متسائلتين ليردف وأنامله تتراقص
رقصة عاشقة على كفها رغم عتاب نبرته :
_ شكراً لجنونك اليوم مادام أوصلنا - بكرمه - لجلسة
كهذه!

حديث طويل تثرثر به العيون بصدق ويجف على
شفاههما..

لا يزال بينهما حاجز خفي..

لكن كليهما صار يدرك أنه مهما تقاذفتها أمواج بحر
هادرة فسيجد سكينته أخيراً على شاطئ الآخر!
_ والدتك بخير!؟

تهرب بها من فيض مشاعرهما المرتبكة وهي ترى
النادل قد أتى له بما طلبه من قهوة لكليهما معاً..

فیرتشف من فنجانه ببطء وهو یخبرها عن الأخبار
الجديدة لإیاد وقضيته وقلق أمه.. لینهیها بقوله الذي
حوت نبرته الكثير من الخزي :

_ أشعر بالذنب نحوه.. وكأني أنا السبب في كل ما
وصل إليه.

ترتشف من فنجانها هي الأخرى حتى تنتهي فتضعه
جانباً لیكون دورها فتربت على كفيه هذه المرة
بقولها :

_ دعني أستعير نصيحتك.. اقطع خيوط الماضي
واستمع بفرصة القدر الثانية.. لست وحدك.. بل
والدتك وإیاد أيضاً.. محنة صعبة لكنكم لو
تجاوزتموها فستكون الجائزة الحقيقية للجميع..

يبتسم وقد عادت عيناه تفيضان بعاطفته ليتناول
فنجانها قائلاً بمرح كأنه يتجاوز معها معاناة اللحظات
السابقة:

_ تعالي نر ما يقوله فنجانك .. مممم .. مممممم ..
أمامك طريق طويل .. لا .. لا .. بل قصير .. قصير جداً ..
آخره كعك وبسكويت.

_ كعك وبسكويت؟! الا تفكر إلا في الأكل؟ أنا اراها
زهوراً!!

تقولها باستنكار وهي تختطف منه الفنجان لتتنظر لما
يشير إليه فيضحك ضحكة رائقة وهو يراها تتناول
فنجانه بدورها هاتفة بمرح عفوي :

_ دعني أقرأ فنجانك أيضاً.

لكنه يتشبث به هاتفاً :

_ لا أحتاج.. أعرف ما فيه..

يقولها وهو يتناول "خلة أسنان" من العلبة القريبة
نقش بها على بقايا البن في الفنجان شيئاً ما.. أراه
إياها أخيراً..

_ جنية.. تمنحني.. السكينة..

تقرأها بصوت مسموع بطيء لترفع إليه عينين
متخمتين بعاطفة لا يمكن نكرانها..
يوماً ما ستخبره أنها دوماً تحتاجه لتصل لهذا التوازن
في روحها..

لو لم يكن هذا هو الحب.. فما هو!؟

_ أريد أن أعترف بشيء..

تهمس بها بتردد فيمنحها نظرة داعمة لتردف بالمزيد
من التردد :

_شيء.. (قليل الأدب).

ضحكته العالية الرنانة تجذب إليهم أنظار الحضور
وتستجلب حمرة خجل قانية لخدّيتها لكن (الفاجومي)
لا يهتم وهو يقترب بوجهه منها هامساً بخفوت

مرح :

_ربما لم تواتني فرصة مناسبة من قبل لأخبرك أنني
أحب الاعترافات (قليلة الأدب) جداً.. جداً.. لكن لم يفت
الوقت بعد.. تفضلي.. اعترفي واشجيني!

_انت لا تشجيني (هكذا) بالمناسبة!

_حاليا لا يمكنني التشجيع إلا (هكذا) بالمناسبة!
يرتفع بها حاجباه بمشاكسة وقحة فتكتم ضحكتها
وهي تحس - رغم انتباهها لنظرات الحضور حولهم -
انها مثله لا توليها اهتماماً..

تتمالك شجاعته لتعترف بما ظنت أنها مدينة له به :

_ليلة زافنا..

_ (الله يقطعها)

يقاطعها بها بمرح متعمداً كسر حاجز حرجها فتبتسم

عفوياً وهي تسمعه يردف :

_ وهل كانت هذه (ليلة زفاف)؟! (الليلة السوداء) إذن

ماذا يكون شكلها؟! لولا الملامة كنت اقتبست منها

قصة رعب وكتبتها على مدونتي..! المهم.. مالها

(ليلة الهنا)؟!!

يحمر خذاها أكثر وهي تطرق برأسها تحاول البحث

عن كلمات مناسبة :

_ عندما تقيأت.. كان هذا بفعل التعب..وبعدها كنت
أتمنى مثلك أن ينجح الأمر.. الفشل كان يشعرني أنني
أنا المعيبة.. خاصة وقد كنت انا.. أنا..

_ هه.. هه..يا مسهل! الأمل في الجملة القادمة!
يقولها مترقباً بتحفز فتغطي وجهها بكفيها ليصله
صوتها بالكاد وهي تلفظها بسرعة تكاد لا تبين.. تكاد
تقضمها قضمًا :

_ احب.. ما كنت تفعله.

_ حسبي الله ونعم الوكيل!

تشهق وهي ترفع كفيها عن وجهها لتسمعه يردف
بغیظ وهو يعتصر يديها بين قبضتيه :

_ هل اخبرتك يوماً عن (توقيتاتك المبهرة)؟! أظنني
قد فعلت يوماً!! يا (بنت الحلال) كنا منذ أقل من

ساعة - والله أقل من ساعة فقط- في شقة طويلة
عريضة مقفولة علينا فكنتِ تحدثيني عن (معجون
الحلاقة)! والآن ونحن في وسط العاصمة.. في مطعم
لا يقل رواده عن مائة نسمة.. تعترفين بهذه الأمور
فوق ١٨ + !!!?

تحرر ضحكتها منطلقة وهي تحاول سحب كفيها منه
بينما تسمعه يردف بنفس النبرة المغتظة :
_حالة مستعصية من التخلف الزماني والمكاني! أقسم
بالله! عموماً لعله خير! اعتراف كهذا كان كفيلاً ألا
أخرج من شقتك إلا وانت غير مضطرة فعلاً لتكذيب
خبر الحمل!

يتشارك الضحك للحظات والمكاشفة الأخيرة تزيل
المزيد من الحواجز بينهما..

ورغم السخرية التي كانت تقطر من حروفه لكن
كليهما كان يدرك أهمية اعتراف كهذا في (مكان)
كهذا..

بل لعل قيمة المكان هي التي منحها الجرأة لتعترف
وهي تشعر بتاريخهما هنا!

_ لا اريد ان أحببك.. لكنني.. لازلت أحتاج لوقت.
تقولها أخيراً بترقب بعد صمت صاحب بالمشاعر
وهي تخشى ان يسيئ فهمها لكنه لا يخذلها وهو
يربت على كفها قائلاً بجدية تامة وتفهم نادر :
_ خذي وقتك.

تبتسم بامتنان ليردف بتهكم ساخر كأنه لم يطق
الجدية طويلاً:

_ لكن استعجلي قليلاً بالله عليك.. أدركي اللعب في

شعري قبل أن يقع!

ضحكتها الرائقة تعزف اجمل الحانها على اوتار قلبه

فيتهد وهو يميل عليها بهمس المشاكس:

_ انا أيضاً لدي اعترافات كثيرة (قليلة الادب) لكنني

أذكي منك.. أدخرها لوقت (عوزة).. سأبتزك كثيراً

حتى تصلي لأحدها.. (وأنا في (الابتزاز) معنديش

عُزاز)

_ افتقدت الفاجومي.. افتقدته بهذه الصورة جدا.

تقولها ضاحكة وهي تشعر أنها قبل لقائه "واحدة" ..

وبعده "أخرى" !!

_ وهو افتقدك جداً.. جداً.. جداً..

يقولها بعمق عاطفته وهو يراها تقف تأهباً للمغادرة
بعد ما رن هاتفها برقم رؤى ليردف وهو يقف بدوره
مشيراً للطاولة :

_ لا تصدقي ما قلته منذ قليل عن الطاولة الخالية ..
دوماً سأكون هنا.. دوماً.

=====

_ فيصل! ما الذي تفعله هنا؟!
يسأل حسام بدهشة وهو يرى الضابط فيصل في
المركز الطبي حيث تحتجز فجر - مؤقتاً - على ذمة
قضية الكوبرا..

ليصافحه الأخير بقوله المقتضب :

_ احد معارفي هنا.

يرمقه حسام بنظرة امتنان مقدراً لتحفظه وهو يتذكر كيف ساعده منذ عهد طويل عندما احتجرت ديمة في السجن في الصعيد.. بل إنه هو من عاونه في استعادة حقيبة (البروكار) وقتها.. ليس هذا فحسب.. وهو أيضاً الذي خاطر معه ذاك اليوم الذي اقتحما فيه قبو غازي ليعثرا وقتها على الآثار ويعاد فتح القضية.. بل هو الذي ساعده مؤخراً في استعادة (قرط هالة) من أحرار القضية كي يهديه هو لديمة.

يتنهد حسام بحرقه لم يستطع إخفاءها وهو يشير

لغرفة فجر القريبة قائلاً :

_ غداً ستخرج فجر بعد انتهاء الاجراءات واكتمال
التقرير الطبي .. لو كان بيدي أن أقتل ذاك الوغد الف
مرة لما ترددت في فعلها.

تبقى ملامح فيصل جامدة لكن هذا لم يخدع حسام
الذي تبين في زمة شفثيه ولغة جسده شعوراً أنه
يخفي شيئاً ما..

لهذا عاد يسأله باهتمام :

_ أنت تتذكر فجر؟! أظنك كنت معها في المدرسة
الابتدائية في مدينتنا!

_ للأسف لا أتذكرها! كان هذا منذ زمن بعيد.
يقولها فيصل بنفس النبرة الجامدة والتي كانت لتشي
بقلة ذوق في موضع كهذا لولا شعور حسام أنه يخفي
الكثير خلف الواجهة المتماسكة هذه..

لكنه نفض الأمر عن رأسه مؤقتاً وهو يرى فيصل

يمد له يده مصافحاً بقوله:

_ازمة وتمر يا (حسام باشا)! لو احتجت شيئاً

كلمني.. فرصة سعيدة!

يصافحه حسام بدوره وهو يرد بدبلوماسية ليراقبه

حتى يغيب عن بصره داخل اروقة المركز..

يطلق زفرة حارقة وهو يعد نفسه للأصعب..

زيارة فجر التي تخز قلبه كل مرة بنصل من نار!

لقد حمل على عاتقه الجانب الأكبر من الأمر وقد أقنع

رجال عائلته - بعد تصريحه الصادم انها لا تزال علي

قيد الحياة بعد كل هذه السنوات - أن يكون هو

المسئول عنها هنا..

أسرّ رغبته الحقيقية التي دفعته لهذا وهي يقينه انها
تحتاج حتماً لعلاج نفسي بعد الذي تعرضت له..
اجل.. ليس مثالياً لينكر أن العلاج النفسي لا يزال
الناس لا يتقبلونه بسهولة ويفضلون استسهال
الأمر ووصف صاحبه بالجنون او الانطوائية..
والمسكينة لا ينقصها المزيد من الوجد!
يغلق صدره على ما فيه كما يجيد فعلها دوماً وهو
يتخذ طريقه لغرفتها..

وعلى فراشها كانت هي جالسة في عمق ظلمتها!
لا تزال تشعر بثقل رأسه على صدرها كما كان يوم
وفاته..

لا تزال أناملها تحس باللمس المعدني البارد

للمسدس..

لا تزال تسمع صوته الذي لم يؤنسها غيره طوال هذه

السنوات..

(راضية!؟)

تسمعها بصوته!

هل ظننا حقاً سترضى بهذه النهاية!؟

أم انه ظن أن فطرتها تشوهت مثله فأراد لها

القصاص الذي كان سيرضيه!؟

هل أرضاها هي أم أرضى نفسه!؟

تسمع صوت الباب يفتح..

ورغماً عنها يبادر لسانها بالكلمة التي اعتادتها طوال

هذه السنوات كانها (مبرمجة)!

عدت؟! _

لكن الجواب يأتيها مخالفاً لما عهدته وهي تسمع
صوت حسام يرد بمودة :

_ نعم حبيبتى.. كيف حالك اليوم؟!!

ورغم العاطفة التي تدرك انه يكنها لها لكن قلبها
(المعطوب) كان يترنح بين ضلوعها باشتياق
ل(قاتله)..

كل الأصوات تبدو غريبة عليها حتى لهؤلاء الذين
يفترض ان يكونوا اولي قربي!

(ولمن سواك أعود؟!)

حقاً لن تسمعها بعد اليوم وقد عاشت طوال السنوات
السابقة تنتظرها لتفتح لها نوافذ الأمان..
قبل أن تدرك أنها كانت أبواب جحيم!!

غربة!!

قد نتعايش مع غربة نسكنها.. لكن ماذا عن غربة

تسكننا؟!!

_ فجر! سمعتِ ما كنت أقول؟!!

صوت حسام الأسف ينتزعها من شرودها فتهد
رأسها بما يشبه الاعتذار ليعيد ما كان يقوله ولم

تسمعه:

_ غداً يمكنك الخروج من هنا.. سنذهب إلى

بيتي.. عندي خبر سيسعدك.. أنا أعد العدة للزواج في

خلال بضعة أسابيع فور ما أطمئن عليك.. اسمها

ديمة.. ستحبينها كثيراً.. لي معها قصة طويلة

سأحكيها لك فيما بعد.

لكنها تبدو له غافلة عن كل ما يقول..

تحرك كفيها ببطء.. تفرق بين اصابعها.. تئن انيناً

خافتاً يوجع قلبه وهي تسأله :

_ نظيفتان؟!_

_ نعم حبيبتى.. جداً.

_ عليهما دم؟!_

_ لا.. طبعاً.

لكنها تبدو وكأنها لم تسمع الجواب تكرر الطلب الذي

دأبت عليه منذ الحادث.. كل ساعتين تقريباً أو ما

يقل.. تطلب نفس الطلب..

_ أريد غسلهما!

يتمزق قلبه بين شعوره بالإشفاق عليها وسخطه على

ذاك المجرم الذي رحل تاركاً لها هذا الجحيم خلفه..

يساعدها لتقف ثم يتوجه بها نحو الحمام القريب
فيساعدها في غسل يديها جداً كما يفعل كل مرة..
فيرتجف سؤالها بخفوت.. يكاد لا يسمع :

_ هل مات حقاً؟!

هنا لم يتمالك نفسه وهو يرجها بين ذراعيه هاتفاً
بانفعال :

_ نعم.. مات.. مات ميتة رحيمة وأنا الذي وددت لو
أقطعه بيدي ألف قطعة.. انسي كل هذا.. انسيه.
تهز رأسها نافية برفض..

ثم تعيد الإطراق به باستسلام!
دموعها تسيل على خديها وابتسامة ذبيحة تترنح
على شفثيها :

_ حاضر! انسيه.. حاضر! .. ارمي الماضي وراء
ظهرك.. حاضر! انظري لمستقبلك.. حاضر! أنتِ
المخطئة من البداية.. فعلاً! انتِ من أسأت الاختيار..
معك حق! كل الأجوبة جاهزة.. هل يمكن الآن فقط أن
تتركوني لحالي!؟!

وجهها يتفاعل مع كلماتها بألم يذبح المزيد من
حروفها فيحاول تهدئتها لكنها تنفض ذراعيه عنها
هاتفة بخوف :

_ هل أرتدي ثياباً بيضاء!؟!
_ لا.. منذ طلبتِ مني ألا نلبسك الأبيض وأنا تكفلت
بالأمر.. لا تقلقي.

يقولها كاظماً غضبه والخوف الذبيح على ملامحها
يثيره أكثر..

خاصة والمسكينة مستمرة في أسئلتها بنبرة تقطع

القلب:

والغرفة؟! بابها مغلق!؟!

هذه لم أتمكن من التصرف فيها.. يجب ان يغلق باب

الغرفة كي..

لا.. لا.. افتحه.. لا أريد أبواب مغلقة بعد اليوم.. لا

ثياب بيضاء.. لا عزف ولا عود.. يداي نظيفتان..

نظيفتان جداً.. جداً..

صرخاتها خافتة واهنة تفتقر للحدة كأنها لا تريد إيذاء

أحد بها سوى نفسها..

أناملها تتحسس موضع علبة الصابون بانفعال تبحث

عنها فتسقط رغماً عنها ليناولها إياها وهو يشعر

بأنه مكبل..

لولا أن دكتور كنان طمانه بشأنها لطار عقله حزناً

عليها!

يحاول التسرية عنها بعدها بحكايات كثيرة بعدما خرج

بها لحديقة المركز فتجاوب معه تارة.. ويختطفها

شرودها تارات..

يعود بها لغرفتها وقد حان موعد انصرافه ليعدها

بالقدوم في الغد..

فترجوه بلهفة :

_ لا تغلق الباب.

_ سأتدبر الأمر قدر المستطاع هنا.. وعندما تكونين

في بيتي لك ما تشائين.

يقولها مهادناً وهو يؤمل نفسه ان تكون حالتها هذه

مؤقتة..

باستثناء إصابتها بالعمى والتي حسم الأطباء أمرها
بأنها دائمة!

يقبل رأسها مودعاً فتمنحه ابتسامة باهتة لينسحب
ذهنها رغماً عنها لمتاهات (آمنة) رغم تشابكها..
متاهات ترى نفسها تركض فيها وهي تحمل على
ظهرها عوداً.. عوداً ثقيل الحجم تسقط به في
النهاية.. تلتف أوتاره على عنقها فتخنقها.. لكنها لا
تمنحها راحة الموت..

وقتٌ ثقيل يمر عليها قبل أن تشعر بأحدهم يدخل
الغرفة..

عطره غريب عن عطر حسام أو الممرضة التي
اعتادتها هنا..

بل هو عطر قديم..!

(قديم) كأنها شمت مثله منذ سنوات طويلة..

كأنه اختطفها فجأة لسنوات مراهقتها!

_من!؟!

هتافها واهن وجل يختض معه جسدها وهي تفرد

ذراعيها أمامها بعجز..

عجز يوخز صدر هذا الذي وقف أمامها على مسافة

مناسبة وقلبه يكاد يقفز بين ضلوعه..

هي حية إذن!

لم تمت كما زعموا!

كل هذه السنوات كان قلبه محقاً وهو يبحث بين

النساء عن طيف يشبهها فلا يجد..

وهاهي ذي بنفسها عادت!

تغيرت ملامحها قليلاً بأثر هذه السنوات..

اتسعت عيناها بسعة الجرح الذي تركه مصابها في
قلبه..

ضاق جبينها بضيق السرداب الطويل الذي اضطر أن
يدفن فيه حبا حتى قبل أن يختطفها ذاك المجرم..
لكن لا تزال شفاتها نديتين كالأمل الذي عاد ينثر
بذوره في روحه..

_ من ؟!

من جديد تسأل فيكاد يبقى على صمته كما اعتزم قبل
حضوره..

لكن رؤيته للدموع التي تكدست في عينيها مع رجفة
جسدها التي انتقلت إليه تجعله يتمتم دون وعي :

_ أنا.

_ من أنت؟!

_ أنا الذي لا أحد أسعد منه اليوم بعودتك.. ولا أحد

أشقى منه اليوم بمصائبك.

صوته كان شديد الخفوت كأنه لا يريد أن تسمعه

رغم أن قلبه كان يتمنى بكل طاقته لو تفعل..

حتى لو رفضته مرة أخرى!

_ من؟!!

نبرتها هذه المرة أكثر سكينه كأنما تذكرت بالصوت

شيئاً من زمن بعيد..

فيود (فيصل) لو يقترب أكثر..

_ آسف لأتني لم اكن موجوداً عندما أصابك كل هذا

وأنا الذي عاهدت نفسي يوماً ألا يصيبك أذى إلا

ويصيبني قبلك.

تنفرج شفتاها ولا تزال عاجزة عن تمييز الصوت

فتهز رأسها بعجز وهي تحيطه بكفيها..

ليصلها صوته أكثر قوة :

_ سارحل الآن لكنني سأعود.. يوماً ما سأخبرك عن

قصة أنت بطلتها.

تشعر به يبتعد فتنادي وهي عاجزة عن معرفة من

تنادي..

دقائق تمر بها متثاقلة حتى تشعر بالمرضة تقترب

فتسألها بلهفة :

_ من كان هنا؟!!

_ لا أحد.

_ واثقة؟!!

_الباب مفتوح كما طلبتِ.. لكن لا أحد يمكنه الدخول

هنا.

تقولها الفتاة مدافعة فتتكمش هي على نفسها وهي

تستعيد ما سمعته..

هل كانت تتوهم؟!!

هل أصابها الجنون حقاً؟!!

تغمض عينيها وهي تستلقي على الفراش تتوسل

النوم الذي يرحمها أخيراً من دوامات أفكارها..

لكن كلماته الأخيرة تبقى عالقة في غياهب اللاوعي..

(يوماً ما سأخبرك عن قصة أنت بطلتها)



أحمر

=====

_إبراهيم..

يناديه بها ربيع مراراً وقد انتهى المأذون لتوه من
عقد القران لكنه لا يلتفت..

بل يبدو وكأنه لا يسمع!

فقط قدماه تركضان ركضاً مغادراً شقة أبيه حيث
تجمع أهله ورجال الحي بينما تجمعت نساؤه هناك
فوق سطح البيت مع العروس حيث يتوجه هو الآن..

عرضت هبة بحرارة أن يكون الزفاف هذه المرة -

كسابقتها- على سطح بيتها هي..

لكنه أصر بحرارة أكبر أن يكون الزفاف هذه المرة

هنا.. في بيته..

كأنه يعلنها للعالم كلها أنها.. تنتمي له!

أنفاسه اللاهثة تتوقف على بعد خطوات منها وهو

يرأها في ثوب زفافها الذي اختاره بنفسه هذه

المرة..

عجبا لها من امرأة تشكل من الثياب - مهما تباسطت-

كارثة!!

أي ثوب قد يخفي فتنة كهذه؟!

هاهو ذا الثوب زادها جمالاً.. وزادته هي جاذبية

وصلت حد السحر !

فيا ويل عينين تكحلتا بروياها..
ويا نعيم قلب ارتضت سكناه!
يراهما تقف ويقف معها الزمن!
بل يقف كل شيء عدا قلبه الذي تتقاذف دقاته
بجنون..

وذراعاه اللتان تضمانها إليه بلهفة..
لهفة لا يشبهها سوى لهفتها هي!!
أخيراً.. عادت لصدره.. كطير وجد موطنه بعد طول
سفر!

كم قالت أنها تعشق رائحته والآن يكاد يقسم أنه
تجاوز هذا بكثير..
كيف لا؟! وهو يشعر انه الآن فقط بقربها عاد..
يتنفس!!

هل مرت دقيقة..

اثنتان..

عشر!؟

هل حقاً تضمها ذراعاه أم يضمه قلبها هي!؟

لم يشعر بنفسه إلا وصوت الزغاريد من بعيد.. من

بعيد جداً كأنه من عالم آخر - ينتزعه من سكرته..

يبعدها قليلاً.. قليلاً جداً.. قدر ما سمح به شوقه في

هذه اللحظة ليقبل رأسها..

تعلو الزغاريد أكثر مع صدى خفقاته وهو يرفع كفها

ليلبسها "دبلته" هذه المرة على مرأى من الجميع..

لكنه قبل أن يفعلها أدارها أمام عينيها يريها ما حفر

داخلها ليخرج صوته مثقلاً بعاطفته :

يسرا.. يسرا و ابراهيم.. ليس بتاريخ اليوم ولا
الأمس القريب.. بل بتاريخ أول مرة رأيتك فيها.. قد
يدعي عقلي أنه أحب نسختك الجديدة لكن قلبي لن
ينكر الحقيقة.. يشهد أنه أحبك وتمناك له من أول
يوم.. لم أعد أكره "سواد" ماضينا فلولا ما وصلنا
ل "قوس قزح".

يقبل ظاهر كفها فتفعل المثل..

تحاول البحث عن كلماتها لكنها تذوب على طرف
شفتيها..

ترفع إليه عينين.. وقلبا.. وروحاً..

العندليب في عينيها ما عاد أخرس بل صار يشدو
على لحن خفقاته..

غمامة من دمع فرح وردي تحول بينهما فيقبل رأسها
من جديد قبل أن يفقد ما بقي له من صبر فيتحرك
معها نحو شقتها بالأسفل..

صوت الزغاريد يعلو أكثر لكن كليهما لا يسمع الآن
سوى صوت الآخر..

يتوقف بها أمام "الصبة الأسمنتية" بأثر "قدم
حسن" وقد تسمرت قدماه رغماً عنه كما تسمر قلبه
أمام ذكرى الغالي الراحل..

ابتسامة دامعة تتراقص على شفثيهما معاً وكأن
كليهما في هذه اللحظة قرأ ما في قلب صاحبه..
يرفع إبراهيم عينيه فجأة ليصطدم بوجه (جنة) التي
جاءت لتحضر الزفاف وقد تكدست الدموع في عينيها
وهي الأخرى تشاركها قدسية الماضي..

تكتف ساعديها وهي تهز له رأسها بحركة ذات مغزى

كأنما تذكره بحديثهما معاً ذات يوم..

(حسن) لم ولن يكون مجرد صورة مخفية في درج

مكتبها هي..

او أثر قدم مطبوع على أرض صلبة هنا..

حسن سيبقى صوت (الحق) الذي لن يموت.. ابدأ لن

يموت!

يغص حلقة وهو يهز لها رأسه بدوره فتتهد بارتياح

وهي ترمق يسرا هي الأخرى بنظرة عميقة أغلقت كل

دفاتر الماضي وفتحت الباب للعمر الجديد..

ومن بعيد يراقبهم ربيع جميعاً بنظرة متفحصة راضية

وقد دمعت عيناه هو الآخر..

يرفع عينيه للسماء بدعاء صامت وهو يتحسس
موضع قلبه طالباً الصبر والعوض قبل أن ترسم
ابتسامة راضية على شفثيه وهو يتقدم من
العروسين..

ابتسامته تتسع ل(جنة) التي صافحته بحرارة وهي
تدعو لهما للبركة.. قبل أن تتراجع لتفسح له
الطريق..

يضم ابراهيم بأحد ذراعيه ليقول مخاطباً يسراً بصوت
متحشرج بعمق عاطفته وهو ينظر لأثر قدم حسن :
_الآن أقولها راضياً ولله الحمد.. قضى الله بحكمته ان
أحرم ابناً.. لكنه أنعم عليّ بكرمه ومنحني ابنة.
هنا تعجز يسراً عن منع دموعها وهي تخفي وجهها
في رحاب صدره..

تسمع من خلفها أصداء الزغاريد لأناس رفع الله
مقامها في قلوبكم بعد ذل وخزي..
وأمامها حزن ربيع يعوضها عن سابق عمر قبيح..
وتحت قدميها تشعر بالأرض الثابتة التي لن تخاف
بعد الآن أن تتعثر فيها خطواتها..
وفوقها سماء رحبة لم تعد تخشى ظلمة تحول
بينهما..

وحولها.. حب..

حب يكفي لتخلق به ما بقي لها من حياة!
لا تزال كلماتها مفقودة وهي تشعر بصدر إبراهيم
يضمها من جديد..

من بعيد يلوح لها سامي بفرحة طفولية مع سندس
وهبة التي تندفع نحوها الآن لتعانقها بقوة هامسة في
أذنيها:

_ افرحي وأبشري بعوض الله وكرمه.. تعبت كثيراً
وجاء وقت الراحة.

تقولها لتمسح لها بقايا دموعها على وجهها.. دموع
شاركتها إياها وهي تردف بابتسامة واسعة:
_ اكتفينا من الدموع يا (عروس).

تهز لها يسرا رأسها بضحكة قصيرة عانقت غصة
دموع الفرح وهي تشعر بإبراهيم قد نفذ صبره وهو
يجذبها ليقربها إليه أكثر..

يهبط بها الدرج نحو شقتها تلاحقها المزيد من
الزغاريد..

كل درجة تهبطها تساوي درجة ترفعها في سلم آخر

نحو حياة اختارتها بنفسها..

أجل.. هي خرجت من إطار الصورة القديمة لترسم

نفسها بنفسها هذه المرة..

فكافأها القدر بإطار آخر أكثر جمالاً ورونقاً!

يغلق الباب خلفهما فينتفض قلبها انتفاضة ترجفها

كاملة وعيناها تطوقان المكان حولها..

كان إبراهيم قد رفض أن تراه قبل أن يعده ثانية بأثاث

جديد

أثاث ربما هو أبسط كثيراً من سابقه لكنها لا تزال

تشعر بأثر المكان عليها..

أخبرتها هبة أن كل أهل الحي كانوا يتنافسون لإهداء
إبراهيم ما يلزمه من إعادة تجهيز البيت.. كل حسب
مقدرته..

فكان البيت الجديد لم يقم على حب إبراهيم وأهله
فحسب..

بل ومودة وتقدير أهل الحي كلهم!

_بيتي يا إبراهيم.. بيتي..

أخيراً تجد كلماتها منذ بدأت الليلة ودموع فرحتها
تسابق نظراتها الرکض حول أرجاء البيت..

ضحكاتها تمتزج بدموعها في مزيج غريب يجعله
يضمها بين ذراعيه بتأثر محاولاً احتواء انفعالها..

_بل هنا.. هنا بيتك..

يشير بهال "صدره" في ثانية خاطفة قبل أن تجد
نفسها كلية مغمورة بين ذراعيه طافية على صدره
بل.. غارقة فيه!

أحد كفيه يثبت رأسها على صدره والآخر يضغط
ظهرها إليه كأنه يزرعها بين ضلوعه..
قبلاته طائرة على ملامحها ممتزجة بأنين اشتياقه
وأنامله المرتجفة تعانق وجنتيها عناقاً يشبه ضم
نظراته فلا تدري أيهما يمسح دموعها.. أصابعه ام
شفتيه..

قبلاتها لا تقل حرارة وهي تشعر أن عناقهما هذه
المررة مختلف!

أخيراً تسبح عاطفتها حرة دون قيود ذنب تجرها
للقاع!!

_رائحتك.. آه. كم افتقدتها بهذا القرب! أخشى أن

يكون كل هذا وهماً.

تهمس بها بعمق اشتياقها وأظافرها تكاد تنغرس في

ظهره بتشبث من تخشى الفقد..

لكن شفثيه تعانقان شفثيها بقبلة ناعمة سبقت همسه

الحر :

_بل أنتِ الحقيقة وكل ما دونك وهم.

آهة عميقة تسبق فيضاً من دموعها التي حاولت

كبحها دون جدوى لتهز رأسها تتمتم بانفعال :

_سامحني لو بكيت الليلة.. عاهدت نفسي ألا أفعل

لكن.. لا أستطيع.

فيشدد قوة ضمته لها وهو يسمعها تردف بين طوفان

دموعها :

_ اعذرنى.. كم بكيت وحدي كثيراً.. دموع حزن.. فقد..
خوف.. وحتى فرحة.. والآن أريد أن أبكي كل شيء
هنا.. في بيتي الحقيقي.. على صدرك.

تدمع عيناه هو الآخر وهو أكثر من يفهم ما تعنيه
وكيف لا؟! وقد شاطرها نفس الجرح.. نفس الوجع..
لكنه يرفع ذقنها إليه مناجياً (العندليب الصادح) في
عينها بهمسه :

_ ابكي كما تشائين لكن بشرط.. أن يكون هذا آخر
عهدنا بالماضي وجرحه.

تستسلم لدقائق لنوبة بكاء عاطفية أخرى وهي تكاد
تذوب في حنان عناقه..

لتنتفض مكانها فجأة وهي تسمع صوت طلقات نارية
بالخارج مع بعض الصخب..

لكنه يربت على ظهرها ضاحكاً بقوله :

_ لا تخافي.. إنهم (الحرافيش).. نذروا أن يحيوا الليلة

هكذا طوال الليل مع الرقص للصباح..

فتطلق أخيراً ضحكة قصيرة وهي تمسح وجهها

هاتفة بحرارة :

_ ياالله! كم افتقدت كل هذا.. افتقدتكم كلكم!

_ صدقيني لو نطقت هذه الجدران لأخبرتك أن كل ما

هنا هو الذي افتقدك.

يهمس بها بحرارة بين اشتياق ولوعة لتسأله بتردد :

_ منذ عرضت عليّ الزواج ك(يسرا) وأنا أوّجل هذا

السؤال للحظة كهذه أكون فيها على صدرك.. لماذا

سامحتني!؟

فترتجف ابتسامة رائقة على شفثيه وهو يجذبها من

كفها ليتحرك بها نحو بقعة معينة في الشقة..

هذه التي وقف بها فيها مشيراً لأرضيتها قائلاً :

_ طالما عرفت ان الأرض تشفع للمرء عند موته

فتشهد على سجوده وعبادته.. لكنها شفعت لك عندي

في حياتك.. تلك الليلة التي سبقت عودتي إليك قادتني

قدماي إلى هنا.. ظننتي وقتها سأستعيد عهد هناءتنا

وحبنا فحسب.. لكنني وجدتي أستعيد ذكرى صلاتك

وبكائك هنا في سجودك.. تذكرت تلك الليالي الكثيرة

التي كنت أستيقظ فيها من نومي لأجدك هنا وحدك

تبكين ولا أعرف السبب.. ساعتها حدثتني نفسي كم

تعذبت كثيراً بكتمانك.. نمت ليلتها ورأيت رؤيا خير

فأيقنت أن المسألة محسومة..

تبتسم بدورها وهي تسمعه يكرر عبارته القديمة :

_ وكان نصيبي في الهوى كان مدخراً بخزائنك..

منتظراً أن يقال له فوق جبينك (كن).. ليكون!

لكنها تشيح بوجهها لائمة :

_ ومع هذا طابت نفسك أن تتزوج غيري!؟!

يضحك ضحكة طويلة فتلتفت نحوه لتتهف

بهستيريتها المعهودة وهي تلکم كتفيه بقبضتيها :

_ وتضحك أيضاً!؟!

فيقبض بكفيه على كفيها فوق صدره ليهمس أمام

عينيها :

_ أضحك لأتني كسبت الرهان.. راهنت نفسي أن تمر

هذه الليلة إلا وتعاتبيني على هذا!

تدمع عيناها من جديد وذكرى تلك الليلة تجلدها
بسياط من نار..

لكنها تتذكر فجيعة بها هو الآخر وقد اكتشف زيجاتها
قبله فتسبل جفניה على حرقها لتسأله بصوت
متقطع :

_ فقط اصدقني القول ولن أناقشك.. هل كانت تعجبك
تلك الفتاة؟! دق لها قلبك؟!

قبلتاه الناعمتان على جفניה تجفف الدمع في عينيها
وهي تشعر به يلصقها لصدره هامساً بحرارة :

_ أي قلب هذا الذي يدق لسواك؟!
ثم يتهد بحرارة تجبرها أن تفتح عينيها لتسمع بقية

بوحه:

_ والله لم أحب ولن أحب غيرك.

تنتهي بقية حروفه بين شفيتها.. لم تكن تحتاج لأكثر

من هذا لتغرقه بموج عاطفتها الهادر الذي اشتاقه..

هل تنجب النيران موجاً؟!

هل ينبت الموج ناراً؟!

الجواب يصهرهما معاً فلا يعرف أحدهما فارقاً بين

موج ونار..

كلاهما في الحب تهلكة.. كلاهما في الحب نجاة!

=====

تستيقظ صباحاً على قبلاته الناعمة التي دغدغت

بشرتها لتمطأ بدلال وهي تحيط عنقه بذراعيها..

تستعير عبارته :

_أجمل منبه في الدنيا.

ضحكته العذبة ترن في أذنيها فتئن باستمتاع

هامسة :

_ اعذرنى لو نمت طويلاً.. لم أنم هكذا منذ عهد طويل.

_ انا أيضاً أعاني الأرق منذ عهد طويل.. لكن

إحساسي أنك عدتِ بين ذراعي يمنعني النوم.. لا أريد

أن أضيع لحظة واحدة أضمك فيها لصدري.

همساته حارة شغوف ربما بأكثر مما عرفته في أيام

زواجهما الأولى..

(أنامله) حائرة بين ترتيب خصلات شعرها المتناثرة

حولها على وسادتهما وبين تلمس سلسلة عنقها ذات

القلوب الثلاث حتى تنقذها (شفتيه) من حيرتها

فتشاركها المهمة!

رنين الجرس يقطع سحر اللحظة فيفكر كلاهما جدياً
في تجاهله لولا علو صوت سندس من الخارج يكاد
يسمع أهل الحي كلهم :

_ (أجمد) إفطار للعروسين.. هيا افتحوا.. هل ستتمان
للظهر؟!!

_ تجاهليها حتى تمل وتغادر.

يقولها إبراهيم وهو يشدد ضمة عناقه لها فتضحك
يسرا قائلة :

_ من هذه التي تمل وتغادر؟! سندس؟!!! طيب أنت
جداً!! هي على استعداد لان تبقى هكذا طوال النهار
دون أن تخبو عزيמתها لحظة واحدة!!!

وكأنما سمعتها سندس لتزداد قوة طرقها على الباب
مع رنّها للجرس في نفس الوقت ليزفر إبراهيم وهو
يقوم قائلاً :

_أخذ منها الطعام وترحل.

يغادر الفراش لخطوتين..

خطوتين فقط بدا بعدهما غير صابر وهو يعود إليها

ليقبلها بلهفة هامساً :

_واثقة أنتِ أنها لن تغادر!؟

تضحك يسراً ضحكة رنانة وسندس تمنح الجواب

العملي وهتافها يعلو من جديد :

_ستتأمان للظهر!؟ حتى لو للظهر.. هو قد أوشك أن

يأتي وقته!

يتأفف إبراهيم وهو يترك عناقها مرغماً ليرتدي
ملابس مناسبة..

يفتح الباب لسندس بملامح مغتظة وهو يهم بتناول
الصينية منها وطردها شر طردة لكنها تتشبث بها
هاتفة :

_ أين يسرا؟! اريد أن أصبح عليها.. اعتدت ذلك.
_ عودي عصراً.. بل ليلاً.. أقول لك.. عودي غداً!
يقولها بخشونة وهو يهم بتناول الصينية منها من
جديد لكن الفتاة تبتعد بها هاتفة :
_ لن أرحل حتى أراها.. افتقدتها!
_ وأنا أيضاً افتقدتك.

يرمق إبراهيم يسرا بنظرة مغتظة وهو يراها خلفه قد
ارتدت عباؤها وحجابها وكأنها لن تعود للفراش
قريبا..

فتتقدم سندس لتضع الصينية على المائدة المجاورة
ثم تعانق يسرا بقوة هاتفة بصخب:

_ ما شاء الله.. قلت لهم الجواز (يحلّي) ولم

يصدقوني.. قمر صاح من النوم يا ناس!

ثم تميل على أذنها بهمسة مأكرة :

_ كانت ليلة ولا ألف ليلة.. صحيح!؟!

تضحك يسرا بخجل وهي تلكزها في خاصرتها زاجرة

لتعود الفتاة لثرثرتها غافلة عن تملل إبراهيم:

_ هبة أعدت الفطور لكنها استحت من أن تحضر.

_ وأنتِ الا تستحين!؟!

يهتف بها إبراهيم بخشونة لم تخلُ من مرح لتلوح

سندس بكفها وهي تنادي :

_ تعال يا سامي.. أعرف أنك وراء الباب..

ثم تلتفت ليسرا مردفة:

_ طوال الليل يسأل عنك.. اعتاد النوم في حضنك.

_ هذا ما ينقصني!

يتمتم بها إبراهيم بغیظ وهو يرى الصغير يدخل من

الباب يندفع كقذيفة نحو يسرا التي تلقفته لتحمله

مغرقة وجهه بقبلاتها ومغرقة إياه بدلالها المعهود..

_ درویشنا استيقظ مبكراً..

بصوت قيس الذي وقف عند الباب يسمعها إبراهيم

فيدفعه للخارج قائلاً :

_ لا لم أستيقظ بعد.. أنت يهيا إليك!

لكن عنتر وروميو يظهران بصخبهما المعهود ليتمتم

إبراهيم بسخط:

_كملت!

_اطمئن يا عريس.. لسنا قليلي الذوق لننغص عليك

صبيحة يوم كهذا.. مبروك.

يقولها قيس وهو يختطف (دجاجة) من على صينية

الطعام ركض بها نحو الخارج..

_لماذا تبدو شاحباً هكذا يا إبراهيم!؟!

يقولها عنتر بقلق مصطنع ليردف وهو ينظر

للصينية :

_ (حمام) هذا!؟! كدت أنسى شكله!!

يختطف واحدة ليركض بها للخارج هو الآخر فيكاد

إبراهيم يمسكه من تلايبه لولا انتباهه لروميو الذي

تسلل ليختطف طاجن (الارز المعمر) بخفة لص

فيتشتت انتباهه بينهما..

_حفنة لصوص! لست مسامحاً في طعامي عساكم

تغصون به!

يهتف بها إبراهيم بغیظ وهو يلحقهم على السلم لكنهم

يختفون بغنائمهم في ثوانٍ..

فيعود ليجد سندس قد تكدس فمها بالطعام وهي تحمل

طبقةً كبيراً من الحلوى.. يرمقها بنظرة مستنكرة

فترد:

_ليس لي ميل ل(الحوادق) صباحاً.. هذه البسبوسة

رائعة!

يشير لها إبراهيم بسبابته نحو الخارج وقد بدا من

احمرار وجهه المغتاض أنه قد نفذ صبره فتخرج

بسرعة.. لكنها لم تنس أن تأخذ قبلها بعض الفاكهة
من على الصينية..

_وأنت؟! لن تخطف شيئاً؟!!

يخاطب بها إبراهيم الصغير بغضب فيبتسم سامي وهو
يظهر كفيه اللذين كان قد أخفاهما خلف ظهره بغنيمته
من بعض أصابع الكفتة!!!

_والله؟!!

يدفعها بها إبراهيم نحو الباب فتمتزج ضحكات
الصغير بضحكات يسرا الهاتفة :

_رفقاً به يا إبراهيم.

يصفق الباب خلف الجميع ليقترب منها زافراً بقوله
وهو يناظر الصينية التي اختفى قرابة نصف

محتوياتها :

_ الأوغاد سرقوا الأكل!

_ (ألف هنا على قلوبهم.. مطرح ما يسري يمري)

تقولها بمودة لا تدعيها فيرمقها بنظرة طويلة

متفحصة تجعلها تتساءل وهي تحيط عنقه بذراعيها:

_ لماذا تنظر إلي هكذا؟

_ صرتِ تتحدثين بكلامنا يا (يسرا هانم)!

يرفع بها احد حاجبيه فتضحك وهي تسمعه يردف :

_ قالها لي (مستر ربيع فاهم كل المواضيع) منذ

البداية ولم أنتبه.. قال لي أن شكك وطريقة كلامك

غريبتان عنا فلم أفهم.. هل الحب يعمي القلب حقاً

هكذا؟!

تغميم بها عيناه بنظرة دافئة وهو يكاد يلصقها به

لتجيب بدلال وهي تداعب أنفه بأنفها :

_وأكثر من (هكذا)!

يكاد ينصهر بلهب فتنتها لكنها تتفلت من بين ذراعيه
وهي تشير للطعام قائلة :

_ لا مزاج لي لهذا.. تعرف لماذا أشتاق كفتور؟!!

_ ممممم.. نقول كوب شاي بالنعناع وبسكويت

(بيمبو) مثلاً؟!!

يقولها بمكر فتصفق بكفيها بدلال وهي تقبل وجنته
لكنه يقرص أذنها بخفة قائلاً :

_ لا يا حبيبتى.. (الرومنسية) حلوة لا جدال لكنني

عريس وأحتاج لتغذية.. ننتهي من هذه الصينية كاملة

اولاً.. ثم نفكر في الباقي!

تضحك وهي تراه يسحب الكرسي ليجلس شارعاً في تناول الطعام فتسحب كرسيها بدورها لتجلس جواره
قائلة بدلال :

_ لن تطعمني بيدك!؟

_ وأنا آكل (بأيه)!؟

يتراقص بها حاجباه بمشاكسة مستعيداً مشهداً من مسرحية شهيرة فتضحك ضحكة عالية رنانة تلقي سهامها في قلبه وتجعله يعبس فجأة قائلاً :

_ أستغفر الله العظيم.

_ ما الأمر!؟

تسأله بدهشة ليهز رأسه وهو يقف قائلاً :

_ الأكل لذيق فعلاً.. لكن..

ثم يجذبها من ذراعها ليخلع عنها حجابها ويفك ازرار
عباءتها بلهفة تتذر عن قرب اندلاع بركان وشيك..

مردفاً :

أنت الذ.

=====

نيلى

=====

*ألمانيا.. برلين..

_جهد!

تهتف بها زهرة باشتياق جارف سبق دهشتها وهي
تستقبله في غرفتها في المركز الطبي ليجذبها لصدرة
بأنين حارق هامساً :

_افتقدتك يا نيلية! كيف أقنع العمر أن أيامي دونك
غير محسوبة!؟

تضمه بقوة افتقادها له طوال الأيام السابقة والتي
تحملتها صابرة موقنة من نبل هدفه..

لهذا رفعت إليه عينيها بسؤالها الملهوف :

_ لماذا لم تخبرني بموعد عودتك؟! وماذا حدث بين

ريان ويولاند؟!

يبتسم لها برضا وهو يبتعد قليلاً ليشير للخارج

بقوله :

_ اسألها بنفسك.

تطلق زهرة صيحة دهشة فرحة وهي ترى يولاند

تقف مكانها بتردد..

لكنها تفتح لها ذراعيها على طولهما فتدفع الأخيرة

لتعانقها بقوة..

طوال طريقها إلى هنا وهي تخشى رؤية زهرة من

جديد!

ربما لأنها لم ترها منذ تركت الأخيرة أبو ظبي.. وقتها

كانت يولاند لا تزال تحتفظ ب(عائلتها)..



أو - ما كانت عائلتها -!

لهذا كانت تخشى أن ترى أطياف خسارتها من جديد
على وجه زهرة.. لكن عناقها لها أعاد لها دعماً قديماً

كانت تفتقده!!

خاصة وهي تشعر بالذنب لأنها كانت توغر صدر
جهاد عليها عندما كان كلاهما يظن ان زهرة خانتها!
لهذا وجدت نفسها تحدثها ب(العربية) وبنفس
الطريقة التي كانتا تتحدثان بها في الماضي:
_حزنت كثيراً لمرضك.. لكنك حقاً بطلة.. غداً تشفين
وأعد عرسكما بنفسني.

تبتسم لها زهرة قائلة بترحاب حقيقي :

_حمداً لله على سلامتك..

لكن عينيها تدمعان وكلماتها الأخيرة تمس أعظم

هو اجسها..

فتلقت نحو جهاد بقولها :

_ سأخبرك بشيء وباللّٰه عليك لا تغضب مني.

يشتل القلق في عينيه وهو يضمها إليه عفويا

فتتنحج لتردف بارتباك :

_ لم أقصد أن أخفي الأمر عنك.. لكن..

_ قولي يا زهرة بدون مقدمات.. قلبي يكاد يتوقف عن

النبض!

يهتف بها بانفعال وهو يتشبث بها أكثر بين ذراعيه

فتسبل جفنيها بقولها :

_ نحن ننتظر نتيجة التحاليل النهائية اليوم.. واللّٰه لم

أتمد عدم إخبارك لكنني..

تشعب ملامحه رغماً عنه وهو يخفي وجهها في
صدره مقاطعاً بقية عبارتها كأنه يتشبث بها من
مصير مجهول..

ليرفع عينيه لأعلى بتضرع صامت وخفقات قلبه تحت
كفيها تكاد تعوي قلقاً..

لكن زهرة تحاول طمأنته بابتسامة واهنة :

_بروفيسور روبرت مستبشر كثيراً.

_خيراً.. بإذن الله خير.

يتمتم بها جهاد بأمل رغم القلق الذي ينهش روحه

فتراقبهما يولاند بلوغة امتزجت بتقديرها لهما..

جهاد ترك زهرة في هذه الظروف فقط لينقذ ريان

رغم كل ما فعله الأخير به..

ليس ريان فحسب!

هي أيضاً!!

هي التي كادت تضل في طريق إيلان ومن معه!
_ دعونا نكمل حديثنا في الحديقة.. الجو جميل اليوم.
تقولها زهرة بمرح مصطنع محاولة التغلب على قلقها
وقلق جهاد الذي بدا وكأنه يحمل الدنيا كلها على
كتفيه الآن..

يغادرون معاً نحو حديقة المركز حيث يجلس ثلاثتهم
لتبادرهم زهرة بالسؤال عما حدث..
فتتكفل يولاند بالرد بنبرة هادئة لكنها فضحت هشاشة
روحها :

_ أنا شهدت بما أعلمه عن علاقة إيلان بتلك المرأة..
وبأن قتل ريان لها كان نتيجة لما رآه بعينه من

تواصلهما البذئى عبر الانترنت.. شهادتي خفت
الحكم عليه لكنه نال حكماً بالسجن لبضع سنوات..
_ أتمنى لو استطاع محاميه تخفيف الحكم أكثر.
يقولها جهاد بنبرة منهكة وهو يتشبث بكف زهرة في
يده محاولاً التغلب على قلقه بقوله :
_ أنا زرتة قبل عودتي إلى هنا.. هو منهارٌ تماماً مع
شعوره أنه خسر كل شيء لكن شهادة يولاند مع
وجودي معه أثراً كثيراً في تحسين حالته
النفسية.. لعله خير! كل قضاء الله خير.
_ دكتور جهاد.. حمداً لله على سلامتكم.
يقولها صهيب مرحباً بعربيته ذات اللكنة الألمانية
وهو يقترب منه مصافحاً ليصافحه جهاد بدوره..
فيما تشير زهرة نحو يولاند تعرفها بقولها :

_ يولاند.. صديقة قديمة.

تقولها بإشارة خاصة فهمها صهيب وقد حكى له من

قبل قصتها لتتسع عيناه قليلاً وهو يرى يولاند

تصافحه بعبارة ترحيب تقليدية متحدثة بالفرنسية

فبيتسم لها قائلاً :

_ لا أتحدث الفرنسية.

_ وأنا لا أتحدث الألمانية.

_ إذن نتحدث بالعربية.. أظن علينا يجيدها!

يقولها بنبرة جذابة تجعل يولاند ترمقه بنظرة

مدهشة وهي تشعر أنه يعرف عنها أكثر مما تظن!

يعاودون الجلوس لتتدفع زهرة تعرف صهيب

ليولاند..

تحكي لها قصته وكيف اعتنق الإسلام حباً في زوجته

قبل أن يسعى لفهمه فهماً صحيحاً..

فينعقد حاجبا يولاند بضيق وهي تشعر بتشابه قصته

مع قصتها يزعجها..

يعيد إليها صراعا مع هويتها!

الصراع الذي تعهدت لنفسها أن تعيش ما بقي من

عمرها كي تحسمه!

_زهرة..

يهتف بها الصغير معاذ بلهفة عدة مرات وهو يركض

نحوهم من داخل المركز فيختلج قلب يولاند كعهدا

كلما رأت طفلاً..

تبتسم له بعاطفة أشرق لها وجهها وانتبه لها صهيب

وهو يتفحص ملامحها باهتمام يمتزج بإشفاق..

_ابني.

يقولها باعتزاز وهو يضم الصغير الذي تملص من
ذراعيه بشقاوة محببة هاتفاً :

_ظهرت نتيجة التحاليل.. بروفيسور روبرت يريد
التحدث إليك.

يتجمد الجميع في أماكنهم ليشعر جهاد وكأن الدم
غادر عروقه كلها فجأة..

تحاول زهرة الوقوف فتترنح مكانها ليقف هو يضمها
بين ذراعيه ولسانه يلهج بالدعاء..

يتجمع بعض المرضى وقد سمعوا هتاف معاذ
ليتحلقوا حولهم داعمين زهرة بكلماتهم..

لكن معاذ يصرخ بفرحة وهو يضم قبضته الصغيرة
يرفعها لأعلى :

_ انتصرنا على السرطان!

يتوقف الكون كله في صمت قصير احتبست له
أنفاسهم كلهم قبل أن تتحرر صيحات الفرح هادرة!
يبتسم صهيب برضا وهو يعانق ابنه فيما تختلط
ضحكة يولاند بدموعها وهي ترى جهاد يصرخ
بسعادة جارفة وهو يعانق زهرة بقوة :

_ الله أكبر.

تطلق إحداهن (زغرودة) عالية تهتف معها
بالألمانية :

_ تعلمتها لأجلك.. كلنا كنا ننتظر لحظة كهذه!

صيحات الفرحة تمتزج بالهتافات بينما تعلو خفقات
زهرة وهي عاجزة عن فعل اي شيء سوى تلقي

قبلات جهاد الناعمة التي طافت بلامحها كلها
وصوته المرتجف يدوي بصدريهما معاً :
_ عاد وطني (الأصغر) .. لعلها بشرى بقرب عودة
(الأكبر).



=====

أحمر

=====

_صباح الرضا.

بعمق عاطفته يقولها إبراهيم وهو يضع لها ورقة
النعناع الطازجة في كوب الشاي صباحاً كعهده منذ
عادت إليه..

لتبتسم بهناءة وهي تفعل المثل بكوبه ثم تلقي رأسها
على صدره مستريحة في جلستها جواره في شقتهما،
وبالتحديد- أمام النافذة الكبيرة المظلة على الأرض
التي انتزعت منهم قسراً في السابق قبل أن تزينها
الآن اللافتة الكبيرة التي غرسها هو بنفسه بعدما
ساعدتهم على استعادتها..

(ارض حسن و ابراهيم ربيع)..

_ ماذا ستفعل في هذه الأرض؟! لديك تصور معين؟!!

تسأله باهتمام وهي ترتشف من كوبها ليرد وهو

يربت على رأسها بحنان :

_ لا.. سأدخرها ل(حسن) الصغير عندما يأتي

بالسلامة.

تضحك بأمل جارف وهي تتحسس بطنها.. تتذكر كيف

كانت هي - في زواجهما الأول- الحريصة على سرعة

الحمل كي تجد خيطاً ولو واهياً يربطها به.. لكن ها هو

ذا صار أكثر لهفة منها على الأمر بعد عودتهما..

هذا الذي أكده حديثه بعدها :

_ أدعو الله بها في كل صلاة.. كنت أفعلها قديماً

لأجلك.. لكنني ومنذ تزوجت (يسرا) ادعو بها لأجلي

قبلك.. بشرني بها (حسن) في رؤياه ولازلت أنتظرها
بفارغ الصبر.. وظني ان ربي لن يخيب رجائي.
يرتجف جسدها بين ذراعيه بمرارة ماضٍ قاسية
اجتاحتها لثوانٍ..حتى كاد الكوب يسقط من يدها لكنه
يضمها بكل ذراعيه محتوياً انفعالاتها.. يغمر وجهها
بقبلاته الناعمة دون كلمات كأنه يريد أن تسمع
اعتذاره بروحها قبل أذنيها..

وها هي ذي تفعل!

صوت المنبه المنبعث من هاتفه يوقظهما من
سكرتهما فيتهد بأسف يشبه أسفها وهو يضطر
لتحريرها من بين ذراعيه بقوله :

_حان وقت العمل..للأسف.

_وأنا أيضاً.. سأذهب.

تقولها بعفوية وهي تقف قبالة ليرمقها بنظرة

متسائلة فتدرف بحماس:

_مؤسسة ربيع! أنا مكثفية بمتابعة العمل منذ زواجنا

عبر الهاتف.

_وستبقين كذلك.

يقولها بحسم وقد عبست ملامحه لتهز رأسها

بسؤالها :

_ماذا تقصد؟!!

_ما فهمته بالضبط!

يقولها بحسم لم يخلُ من لين كأنه يخشى إفساد

مزاجها لكنها تهتف باستياء :

_بالله لا تقل إنك ستمنعني من ممارسة عملي هناك!

بل سأفعل! وأظنك صرتِ تفهمين طبعي جيداً
وتعرفين أنني لن أتركك عرضة للتعامل مع هذا
وذاك.. أحدهم يملئ عينيه من جمالك سرّاً والآخر لا
يتورع عن إعلانها!

ترمقه بنظرة مستنكرة وهي تراه يتحرك ليغادر
مردفاً :

أنا لا أَرْضَى أن تذهبي مع أبي للفرن رغم حاجته
لذلك.. تراني أسمح لك بما تزعمين؟!
لكنه ليس مجرد عمل يا إبراهيم.. إنه صار غاية
حياتي كلها.. وأنا لست امرأة ضعيفة.. أظنك أنت
الآخر صرت تعرف أنني قادرة على أن أوقف أي أحد
عند حده بل سيجد كعب حذائي مغروساً في رأسه لو
تطاول!

تهتف بها بحدة تحولت حد الصراخ بطبيعتها
الهستيرية المعهودة وهي تندفع نحوه لينعقد حاجباه
ب قوله :

_ لا ترفعي صوتك!

يحمر وجهها بانفعاله وهي تهم بالهتاف من جديد
لكنها صارت تجيد (ترويض) جياذ غضبها فتتكس
دموع عجز في عينيها وهي تشيح بوجهها..
يطلق زفرة قصيرة كارهاً إفساد الصباح بشجار
فيتحرك ليداعب وجنتها برفق مهدناً بقوله:
_ هذا الأمر غير قابل للنقاش..

_ لكن..

تهتف بها باعتراض لكنه يقطعها بقوله بنبرة
صارمة رغم هدوئها :

لن نتكلم فيه مرة أخرى.

تكاد تناقشه من جديد لكنه يقبل وجنتها بخفة فترمقه

بنظرة حانقة تجعله يطم شفتيه باستياء ليغادر مغلقاً

الباب خلفه تاركاً إياها خلفه تغلي غضباً..

صحيح أنها تتفهم طبعه الغيور لكنها لم تتوقع أن

يصل الأمر إلى هذا الحد..!

تجري اتصالاً بالمؤسسة - قصر الصباحي سابقاً -

لتطمئن من كوتر على سير الأمور فتطمئنها الأخيرة

لكنها تتلعثم بقولها :

إحداهن زارتنا منذ قليل.. كانت تريد رؤيتك.

من التي كانت تريد رؤيتي بعد أيام من زواجي وفي

هذا الوقت من الصباح؟ !

تسألها يسرا بدهشة امتزجت باستيائها مما حدث منذ
قليل لتمنحها كوثر الجواب الذي زاد استيائها..

إنها إحدى رفيقاتها من النادي والتي سقط والدها في
قبضة الشرطة بعدما سلمت يسرا (الفلاشة) لحسام إذ

كان من رجال الكوبرا!

_ ما الذي كانت تريده؟!

تهتف بها يسرا بترقب منفعل فهي تدرك سوء خصال
تلك المرأة لترد كوثر بارتباك :

_ قالت بعض الكلام الفارغ!

_ كوثر! عفاريت الدنيا تتقافز الآن أمام وجهي!

أخبريني ماذا قالت تلك المرأة دون مراوغة!

تهتف بها بحدة تجعل كوثر تزدرد ريقها بصوت

مسموع قائلة:

_ ما على الرسول إلا البلاغ! قالت إنها تعلم أنك خلف

سجن أبيها وأنها سترد لك المعروف بطريقتها!

_ أعلى ما في خيلها تركبه!

تغلق بها يسرا الاتصال بعنف ثم تستغفر الله بصوت

مسموع..

تنظر لكوب الشاي الذي برد مكانه وقد استقرت ورقة

النعناع في قاعه فينقبض قلبها بجزع لم تملكه..

بداية سيئة لصباح ظنته سيكون أجمل!

تؤدي صلاة الضحى بخشوع لتهدأ خفقاتها الثائرة

نسبياً ثم تبدل ثيابها قاصدة النزول ل(ربيع)..

تفكر ان تخبره بما كان بينها وبين إبراهيم لعله يقنعه

لكنها تتراجع..

فليبق ما بينهما حكراً عليهما هما وحدهما!

تتوجه نحو الباب لتفتحه وما كادت تفعل حتى وجدت

ربيع نفسه أمامها..

تبتسم وقد تهال وجهها لرؤيته كعهدها :

_أبي! كنت لتوي في طريقي إليك..

تنقطع حروفها وهي تميز وجه العجوز الممتقع أولاً

قبل أن تتبين من خلفه..

_ من هؤلاء!؟!

تسأل بارتياب وهي تطالع الوجوه المتربصة بها ليرد

من بدا كبيرهم بنبرة جافة :

_مطلوبُ القبض عليك!

_عليّ أنا؟! لماذا؟!!

تهتف بها بانفعال وهي تتشبث عفويّاً بكفي ربيع الذي

أطرق برأسه وكأنه علم الجواب قبلها :

بعض الفتيات لديك في المؤسسة قدّمن بلاغات أنهن
يتعرضن للتحرش عندك.. ليس تحرشاً فحسب بل.. ما
هو أكثر!

تشعب ملامحها بارتياح وهي تتذكر كلام كوثر بينما
الرجل يردف بنبرة مزدرية :

وأنك تستغلين نشاط المؤسسة الخيري كغطاء بينما
أنتِ في الحقيقة تتاجرين بأجسادهن لخدمة أغراض
مشبوهة.



تجلس مكانها خارج غرفة النيابة تنتظر مصيرها

وجسدها كله يرتعد!

المصيدة أعدت جيداً لتسقط هي فيها دون أمل في

نجاة!

الفتيات يشهدن بنفس الكلام أنها كانت تستغل

مساعدها لهن كي تجبرهن على الالتقاء برجال هتكن

عرضهن!

وها هي ذي وحدها من جديد بعدما سقط ربيع مغشياً

عليه بصدمته في ما يحدث.. ويبدو أن هبة

والحرافيش قد انشغلوا به عن اللحاق بها..

وإبراهيم!؟

هل علم!؟

هل سيصدق هذا الافتراء!؟

هل ستعود معه لنقطة الصفر؟!

تشعر به قادماً وقد شم قلبها رائحته قبل أنفها فترفع

إليه عينين زاخمتين بالهفة والخوف..

ملامحه تصرخ بغضب مكتوم يورثها المزيد من

الرعدة فتغمض عينيها بقوة وهي تتذكر أسوأ

مواقفها معه!

تشعر به يجلس جوارها صامتاً في ظاهره لكنها تشعر

بأنفاسه اللاهثة تجلدها..

تستسلم للصمت مثله وكأنها خشيت أن تتكلم فلا

يسمع من جديد!

ورغم قوتها المستحدثة التي صارت تتبع من داخلها

لكنها كانت تخشى أن تُظلم من جديد!

هنا فقط..



تعود لحركتها القديمة التي كادت تنساها!
أحد كفيها يربت على الآخر!
لكنه يقاطع حركتها بلهفة وكفاه يعانقان كفيها معاً!
تتكس دموع القهر من عينيها ولا تزال تشعر
بعجزها عن الكلام فيضمها إليه بقوة!
ذراعاه سماء.. و صدره أرض!
شفتاها جافتان بخوف لكن أذنيها نديتان ب (الوعد
الأثير) الذي انساب يهدد روحها :
(أعدك أن أسمعك حينما يسد الجميع آذانهم.. أن أحنو
حين يقسون.. أن أرحم حين يترجمون.. أن أبقى حين
لا يبقى أحد.. وأن أحبك كما لم يحبك أحد)
تنهمر دموعها على صدره براحة وكأنها بسماعه
فقط انزاح عن كاهلها الوزر!

ترفع عينيها إليه بكلماتها العصبية :

_ اصدقني القول.. هل تشك فيّ؟! تحدثك نفسك عن
السبب الذي كان يدفعني للإصرار على الذهاب هناك
بنفسي بعد مشاجرتنا في الصباح؟! لو كنت تبحث عن
دليل براءتي مما يزعمون فأنا نفسي لا أجده..

_ أنا أجده!

يقولها بحسم وسبابته تحط على شفيتها تمنعها
المزيد من التبرير قبل أن تنتقل لصدره مردفاً بتهيدة
واثقة :

_ هنا أجد دليل براءتك.. هنا أجده.

يقولها بيقين لا يدعيه وعقله قبل قلبه يصدقها!

لا ينكر أن الشيطان ظل يوسوس إليه طوال طريقه
إليها لكنه صار يملك من الثقة فيها ما يمكنه من ردع
أي ظنون!

أنه خافتة تشق حلقها وقبضتها الواهنة تخبط صدره
بقوة انفعالها قبل أن تقف مكانها هاتفة :
_ بمكالمة واحدة.. فقط مكالمة واحدة.. تخرج (ابنة
الصباحي) من هنا بمنتهى السهولة.. لكن (ابنة ربيع)
لا تريد فعلها بهذه الطريقة.. ليس وأنا أثق أن الله
معي.. هو قادر أن يظهر الحق.. لا أريد أن يسندني
نفوذ الصباحي بإرثه القبيح.. بل سندي هو الله الذي
أوقن أنه لن يضيعني.

يبتسم لها بفخر رغم صعوبة الموقف وقبله اعتزاز
منه تتوج جبينها فتهدأ رعدة جسدها أخيراً وهي تراه
يمسح دموعها بأنامله قائلاً :

_ونعم بالله! هو حسبنا ونعم الوكيل.

تتسع عيناها ببعض الدهشة وهي تنظر خلف ظهره
ليلتفت بدوره فيميز حضور حسام..

ورغم شبح غيرة واهن.. واهن جداً لا يزال ينقص
الجو بطبيعة الحال..

لكن إبراهيم- الذي صار يجيد تخطي الماضي بعدما
صقلته التجربة - يضافه بقوله:

_شكراً لقدمك بهذه السرعة.. آسف لإزعاجك لكنني
لا أعرف غيرك أثق فيه.

يصفحه حسام بدوره وهو يتحاشى النظر ليسرا
مراعاة لغيرته ليسأله بنبرة عملية عما حدث..
تخبره يسرا عما كان من مكالمة كوثر صباحاً فينعد
حاجبا إبراهيم بضيق وهو يسمع الأمر لأول مرة فيما
يهز حسام رأسه للحظات والسؤال المنطقي يفرض
نفسه داخله..

يسرا الصباحي قادرة على أن تخرج من كل هذا
كالشعرة من العجين.. فلماذا لا تفعلها كما فعلتها من
قبل؟!!

لكن الجواب تجده روحه قبل عينيه ويقينه (يزداد) أنه
أمام (أخرى) غير التي عرفها من قبل!
لهذا يتخطى دهشته وهو يسألها بعض الأسئلة عن
هؤلاء البنات لتجيبه بما تعلمه..

فيتنهد أخيراً ليقول بنبرة مطمئنة :
_بسيطة! سأطالع تقارير النيابة أولاً وشهادة
الشهود.. وبعدها نرى ما يمكننا فعله!



_مبروك!

يقولها حسام بارتياح أمام سراي النيابة بعد إخلاء
سبيل يسرا التي دمعت عيناها وهي ترفع عينيها
للسماء بحمد خافت..

أيام عجاف مرت عليها وهي ترفض - عامدة- إرث
الصباحي القديم مكتفية بالدعاء أن تظهر براءتها في
أكمل صورة..

واستجاب (الودود التواب الرحيم).

نحمد الله أن الأمر تم بهذه السرعة دون شوشرة
كبيرة كي لا يؤثر على سمعة المؤسسة.. لكن.. كيف
فعلتها؟!

يقولها إبراهيم مخاطباً حسام الذي هز كتفيه بقوله :
الكذاب جبان.. هؤلاء الفتيات لم يحتجن سوى
ل(قرصة اذن) كي يعترفن بالحقيقة.. لا أحب الأساليب
الملتوية في المعتاد لكن هذه كانت واحدة من المرات
التي احتجتها لإظهار الحق.. هنّ اعترفن بالحقيقة
كاملة.. تلك المرأة التي هددت يسرا هي من دستهنّ
في المؤسسة ودفعت لهن ما أغراهن من المال كي
يفعلوا فعلتهم.. وهاهو ذا السحر انقلب على الساحر
وتورطت هي!

قَدَّر و لطف.. الحمد لله يا ابنتي

يقولها ربيع وهو يربت على كتفها فتتسع ابتسامتها
والعبارة من جديد تجري على جروح روحها كبلم
سحري..

(قَدْر و لطف)!

لم تعد ترى في البلايا عقوبات بل صارت تجيد التفكير
في لطف الله فيما خلفها..

لهذا ما كاد إبراهيم يغادر مؤقتاً ليكمل الإجراءات وقد
انشغل ربيع بمكالمة هاتفية حتى وجدت لها فرصة
لتخاطب حسام بقولها :

لن أشكرك.. فما فعلته أنت يستحق ما فوق الشكر..
ولن أعتذر.. فما فعلته أنا معك في زيجتنا السابقة لا
يجبره ألف اعتذار.. لكنني أحتاج لأعترف بها بكل
امتنان..

ثم تأخذ نفساً عميقاً لتطلقها :

_ أنت رجل.. رجل حقيقي في زمن قلّ فيه الرجال.
تتسع عيناه اتساعاً طفيفاً يكاد لا يرى وعبارتها تعيده
لجرح قديم بالكاد تجاوزه..

(نصف رجل)..!

من بعيد يسمع صداها الآن باهتة خافتة تفتقد الدوي
القديم كأنها دُفنت فعلاً تحت ركام الماضي فلم يعد لها
في روحه أثر!

لهذا تبدو ابتسامته رائقة تماماً وهو يرد بنبرة هادئة
توجتها الثقة.. ثقة حقيقية لا مجرد غرور زائف :
_ لم أفعل سوى واجبي.. إبراهيم (ابن حلال) ويستحق
كل خير.. كما أنني لا أنسى مساعدتك لنا في قضية

(الكوبرا).. لولاك لما قضينا عليه ولما وجدت ابنة

عمي.

كلاهما يأخذ الآن نفساً عميقاً وهو ينظر للسماء في

نفس اللحظة..

الجو الممطر يمنح السماء عطيته في (قوس قزح)

كبير يشبه هذا الذي صار مرسوماً بروحيهما بعد ما

نجح كلاهما في تجاوز سوءات الماضي وقد أدرك

كيف يكون الطريق وكيف تكون النجاة..

كيف تكون للرماد حياة!

=====

بين ذراعيه ليلاً تتهياً يسرا للنوم وهي تشعر بأمان

جارف بعد تجاوزهما للأزمة الأخيرة..

عناقه الملهوف يجبر كسور روحها كلها فتأخذ نفساً

عميقاً تتنشق فيه رائحته ليصلها همسه الخافت :

_تعرفين فيم أفكر!؟!

تهمهم بخفوت وهي تبسط راحتها على صدره..

فيرفع ذقتها نحوه هامساً :

_صلابة العصا.. ومرونة الغصن.

ترفع إليه عينيها بتساؤل فيبتسم وهو يقبل وجنتها

مفسراً :

_أبي دوماً كان يصف حسن انه من كالعصن لهذا لا

تكسره الظروف.. بينما كان يصفني أنني كالعصا لا

تلين لهذا يسهل كسرها.

_أتذكر أنك قلت لي هذا من قبل.. لكن.. لماذا تتذكره

الآن!؟!

تهمس بها بدهشة فيتنهد بحرارة وهو يضم رأسها

لصدره بقوله :

_ بعد تفكير طويل رأيت.. أني.. لا أمانع في عمك في

المؤسسة.

_ حقا؟!

صيححتها الفرحة تسبق قبلاتها الحارة العشوائية على

وجهه كله فيضحك وهو يتلقف سيل عاطفتها الهادر

قبل أن يعانق وجنتها براحته يثبت رأسها مكانه :

_ تمهلي.. تمهلي.. جنونك هذا قد يدفعني للرفض من

جديد!

تضحك بدورها وهي تمرغ انفها في صدره وسبابتها

تمسد موضع قلبه هاتفة بشقاوتها العذبة :

_ لا.. انس.. الرجل يُربط من لسانه.. وأنا ربطتك من

لسانك.. وقلبك!

يضحك وهو يعاود رفع ذقنها إليه ليقول بهدوئه

الحاني:

_ ليس عدلاً ان أحرمك عملاً نذرتَه انت لله.

_ لن تغار عليّ!؟!

تساله بترقب لا يخلو من دلال ليتهاوه بخفوت وهو

يعتصرها بين ذراعيه بهمسه:

_ لا يمكنني إلا أغار عليكِ حتى وأنتِ بين ذراعيّ..

لكنني سأحاول التكيف مع الأمر وأنا أوقن أنك تؤدين

الدور الذي يسره الله لك.

تشرذ ببصرها قليلاً حتى يشعر انها غابت عنه في

عالم آخر فيسألها بقلق :

ما الأمر؟!

يبدو التردد على ملامحها لوهلة قبل أن تحسمه

بقولها :

أريد ارتداء النقاب!

يرقبها مشدوها لتردف بحرارة :

ليس فقط احتراماً لغيرتك.. لكنني أفكر فيه منذ زمن

بعيد.. لن أبحث في كونه فرضاً او سنة.. أريد ارتدائه

قربى لله.. أريد أن يكون خطوة أخرى في طريق

توبتي.

تنقطع عبارتها وهي تشعر به يضمها إليه أكثر يقبل

رأسها باعتزاز هامساً بصدق :

لا يمكنني وصف شعوري بك هذه اللحظة.. كل ما

فيّ فخور بك.

_ وكل ما فيّ عاشق لك.

تقولها بهيام وهي تتوسد صدره لتردف بدلال :

_ أريد ان أنام الليلة علي (وعدك) لي كما كنت تفعل

من قبل.

فيداعب شعرها بأنامله هامساً :

_ تعلمين؟! منذ عودتك إليّ وأنا كنت أجد غصة في

حلقي كلما تذكرت هذا الوعد.. وكيف أخلفته أول

مرة.. لهذا - ومع قسوة ما مررنا به في الأزمة

الأخيرة - أشعر بالامتنان لها لأنها ستجعلني أسامح

نفسي.. أردده من جديد وأنا اوقن أنني لن أخلفه هذه

المرة.. كل ليلة كالسابق..

تدمع عيناها بتأثر وهي تقبل ذقنه فيشدد ضمته لها

والوعد الأثير يعاود إحكام الغزل المتين بينهما..

(أعدك أن أسمع حين يسد الجميع آذانهم.. أن احنو
حين يقسون.. أن أرحم حين يترجمون.. أن أبقى حين
لا يبقى أحد.. وأن أحبك كما لم يحبك أحد)



بنفسجي

هذه غرفتك.. أعدتها بنفسى.. لا أعرف إن كانت
ستعجبك لكن يمكنك تغيير كل ما تحبين وقت ما
تحبين.

تقولها ديمة مخاطبة فجر بعاطفة حارة مشعة صارت
تميز نبرتها واستعادت بها نمط طبعها القديم قبل
حادث القارب..

كانت قد عرضت على حسام أن ينتقلوا جميعاً للعيش
في بيتها هي الجديد وقد وافق هو ليس فقط خوفاً
عليها من ذكرياتهما المظلمة في بيته هو بعد ما حدث
لأمه وسلطانة..

لكن مراعاة لعقدتها القديمة من (تغيير البيوت)
خاصة وقد وعدا عندما سلمها هذا البيت ألا يكون

هناك المزيد من الاغتراب وقد صار لها بيتها الذي

تملكه هذه المرة..

ترد فجر بخفوت شارد:

_ كل الأشياء.. كل الأماكن.. في الظلمة سواسية.

تتبادل ديمة مع حسام - الذي ربت على كتف فجر

داعماً - نظرة مشفقة خاصة وفجر تردف بحرج :

_ زفافكما غداً.. لا أريد أن ازعجكما أكثر.. سأعود

لبيت ابي في الصعيد أو حتى لبيت حسام حتى..

_ انسي!

يقاطعها بها حسام بحزم رفيق وهو يشد على كتفيها

بقبضتيه قائلاً :

_ ستبقين معنا هنا.. دوماً سنكون معاً.

تزم فجر شفيتها بانكسار جعلها تطرق برأسها لكن
ديمة تنقذ الموقف بمرح كلماتها وهي تشير نحو
حسام بقولها :

_ أعطني فقط فرصة وأعدك انك ستحبيني اكثر من
أخيك هذا!

تبتسم لها فجر بامتنان وهي تشعر - رغم انها لا
تراها - بعاطفتها الصادقة نحوها..
فيما يقبل حسام كف ديمة برقة ممتة وهو الآخر
يقدر كل جهودها لاحتواء أزمة فجر.. فتزم ديمة
شفيتها فيما يشبه قبله قبلة طائرة له في الهواء قبل
أن تصب اهتمامها كاملاً نحو فجر فتتقدم بها داخل
الغرفة تطلعها على محتوياتها الجديدة..
_ لا تقلق.. ستكون بخير.

تخاطب بها ديمة حسام بعد خروجها من غرفة فجر

لتردف بحماس عاطفي:

لقد جعلت لها خادمة غير خادمة سند متخصصة في

حالات مشابهة ستعاونها كثيراً.. وسأبقى على اتصال

مع دكتور كنان كي يخبرني على ما يجب فعله

بشأنها.. يقولون أن فاقد الشيء لا يعطيه.. وقد

تتعجب أنت أنه قد دار الزمان لأكون أنا من تمنح

المساعدة وليس العكس.. لكنني صرت أوقن أننا كلنا

مجرد محطات في حياة بعضنا البعض.. وأن القدر

يجيد الاختيار لكل منا محطاته المناسبة في الوقت

المناسب وبعد التمهيد المناسب..

تنتهد لتزرد ريقها أخيراً فتبدو - رغم عقلانية

كلماتها - كطفلة أجهدها الكلام لكنها تردف بسرعة :

_ يمكنك الاعتماد عليّ.. ثق بي.

فيحتضن وجنتيها بأنامله وهو يقبل جبينها باعتزاز
هامساً بعمق عاطفته :

_ أنا أفعل.

_ دوماً يستفزني اقتضاب حديثك هذا.. يشعرني انا
ثرثارة..

تقولها بحنق مصطنع ثم تصمت قليلاً مردفة بترقب
متوجس:

_ أنا ثرثارة !؟

نبرتها المتشككة تنتزع منه ضحكة قصيرة رائقة وهو
يضمها إليه بحنان مدلاً بهمسه :

_ ولماذا لا تقولين أنني أحب الاستماع إليك وأنت
تتحدثين هكذا بهذه السرعة وبهذه الحيوية كأنك

تسكين كل ما في قلبك (الحلو) على لسانك

(الأحلى)؟!!

كان دورها لتضحك وهي تدفعه عنها بدلال رفيق

هامسة :

_ علامَ اتفقنا؟! ممنوع اللمس قبل الزفاف غداً كي

تبقى أشواقك إليّ طازجة.

_ دوماً اشواقى إليك طازجة.

يقولها بتهيدة حارة احمرت لها وجنتاها وهي تشعر

بذبذبات جسدها تستجيب لدفء غزله فيما تراه دوماً

- مع ماضيها هي بالذات - معجزة!

لكنها تتجاوز هذا وهي تجذبه من كفه هاتفة وقد

عادت إليها ثرثرتها الحماسية:

تعال وانظر لما فعلته .. غيرت نظام البيت كله..
اشتريت بعض الأثاث.. لا تخف لم ارهق نفسي
بالتسوق ولم أخرج دون علمك.. اشتريته عبر
الانترنت.. جاء أجمل مما تخيلت..
تتحرك معه بفخر طفولي وهي تريه لمساتها الجديدة
في البيت..

تشير للنول اليدوي الذي أبقتة مكانه في الصالة
مفسرة :

لن أغير مكانه هنا أبداً.. أريد دوماً ان يكون اول ما
تراه عيني وأنا ادخل من الباب..مع زجاجة العطر
هذه.. (عطر الأمان) كما أسميته..

يبتسم برضا وهي مستمرة في جذبه نحو الصالون ثم
غرفة السفارة ثم غرفة المعيشة الكبيرة التي جعلتها
بلون أرجواني هادئ..

فتتسع ابتسامته وهو يميز أن ذوقها لم يعد فوضوياً
كالسابق وإن بقيت شراحتها للشراء ملحوظة فيعذرها
مع كل ما يعرفه من ماضيها..

كل هذا دفعت ثمنه.. وأكثر!

وهذه غرفة سند! هو اختارها بنفسه.

تشير بها لغرفة الصغير فيرد حسام بفخر :

لا.. يبدو أنك آخر من يعلم. . عفواً يا سيدتي.. هو

جعلني أختارها معه.

ترمقه بنظرة متسائلة فيضحك مردفاً باعتزاز :

_ (ابني) لا يخفي عني شيئاً.. أراني الصور ساعتها
وأخبرني بكلماته المتقطعة عن الأمر فاخترنا سوياً
هذه.

تضحك بهنائة وهي تميز الدفاء الحار الذي انسابت
به (ابني) السابقة على لسانه ثم تقول برضا:
_ صار جيد تركيب بعض الجمل.. وقريباً يتكلم
بصورة طبيعية بإذن الله.

يهز رأسه هو الآخر برضا لينتبه لغرفة النوم
الرئيسية في آخر الممر والتي كانت مغلقة فيغمزها
بمكر هامساً :

_ نسيت أن تريني هذه!

لكنها تكثف ساعديها قائلة بمكر مشابه :
_ هذه لن تراها إلا غداً.. ليلاً.. بعد العرس.

فيمسك أصابعها ليعد عليها قائلاً :

_ غداً.. ليلاً.. بعد العرس.. لن ترى عيناى شيئاً.. أي
شيء.. سوى خمسة وخمسين كيلو جراماً من الجمال
سأكون أكثر من مشغول بتفقدتها جراماً.. جراماً.

ضحكتها ذات الدلال الفطري تلقي سهمها في قلبه

وهي تسحب كفها لتكتف ساعديها قائلة :

_ كيف عرفت وزني بهذه الدقة؟!

فيهمهم ليرد بغروره الفطري :

_ يمكنني القول أن لديّ خبرة جيدة في شأن كهذا! لا

أظنني أخطئ في وزن امرأة.

تختفي ابتسامتها رويداً رويداً بينما تبدو عيناها

وكأنما اختطفتهما غمامة رمادية أظلمتهما فجأة مع

صمت قصير ابتلعها وجعله يسألها بقلق شابه بعض

الندم :

_ ما الأمر؟! ضايقك مزاحي!؟!

تغتصب ضحكة باهتة وهي تهز كتفيها لتعطيه ظهرها

ملوحة بكفها في لا مبالاة مصطنعة ناسبت كلماتها :

_ لا.. عادي! تعال اريك الباقي.

لكنه يطلق زفرة قصيرة وهو الذي يجذبها من كفها

هذه المرة.. يتحرك بها نحو النول اليدوي.. وبالتحديد

نحو زجاجة العطر التي يرش منها على عنقها بخفة..

ثم يعانق وجهها بكفيه لينظر لعمق عينيها هامساً

ب(طغيانه الحاني) الذي لا يكاد يجيده رجل غيره :

_ تقتلني كلمة (عادي) هذه عندما تخرج منك

مصطنعة هكذا.. ما الأمر؟! فيما تفكرين!؟!

ليست كل الأفكار قابلة للطرح.

تغمض بها عينيها لكنه يقبلها بحرارة أذابتها
وأجبرتها ان تفتحها من جديد ليصلها همسه العاتب:

ليس بيننا أنا وأنتِ.. بيننا كل السدود تنهار.. وكل
الكلام يُقال.

غمامة رقيقة من دمع تحجب عنه حلقة الزعفران في
عينيها اللتين تعلقتا بعقدة حنجرته.. فيشجعها بقوله
ببعض المرح :

حسدتك؟! أين الثرثرة التي كانت هنا منذ قليل؟!
تتراقص ابتسامتها بتردد لكنها تهمس أخيراً بصوت
عادت له ارتجافة خوفها :

طالما كنت أفكر أنك عرفت قبلي الكثيرات من
النساء.. كلهنّ منحك أفضل ما عندهن.. بينما أنا لا

خبرة لي في الأمر سوى ماضٍ أسود لازالت آثاره

على روحي قبل جسدي ..

تقطع عبارتها عاجزة عن إكمالها للحظات فتتسع

عيناه بصدمة للحظة مما آل إليه تفكيرها ليلعن سراً

غروره الذي دفعه لما قاله منذ دقائق.. خاصة وهي

تردف بعد صمت قصير :

_ حتماً ستقارن بيننا.

_ طبعاً سأقارن..

يقولها بحسم ليردف وهو يضم رأسها لصدره

بهمسه :

_ سأقارن وأنا أدرك قبلها أنك ستكسبين أي مقارنة..

أجل عرفت الكثيرات.. كلهن عبرن جسدي إنما وحدك

أنتِ اخترقتِ قلبي.. كلهن لطخن روحي بأحذيتهم

الموحلة ووحده أنت خطوتِ حافية القادمين بعفوية
امرأة لا ينجبها العمر سوى مرة واحدة.. أجل
سأقارن.. في كل مرة أمسك فيها سأقارن.. حتى أشكر
القدر الذي جعلني أتعثر بك فأسقط معك السقوط اللذيذ
الذي لا يشبهه سوى التحليق في أعلى سموات
عينيك..

ثم يأخذ نفساً عميقاً ليمنحها أصدق وعوده :
_ لن أكون أنا لو لم أجعلك تشعرين في كل مرة
تكونين فيها بين ذراعيّ أنك أجمل نساء الدنيا.. بل كل
نساء الدنيا.

ترفع إليه عينيها بعاطفة مشعة تنافس ابتسامة
شفتيها وأناملها تتحسس عقدة حنجرته هامسة :

_ كيف تفعل هذا في كل مرة؟! كيف تحيل الخوف في

روحي لكل هذا الأمان؟!

_ بل كيف تفعليها أنت؟! كيف تجعلين مني هذا الوجه

الذي لم ترسم سواك ملامحه؟! أنا لم أغير لأجلك.. بل

أبدو وكأنني خلقت من جديد لأجلك.

يرتجف جسدها للصدق الهادر بين حروفه لتنساب

كلماتها من جديد دون تفكير :

_ تعرف لماذا أصرت أن أشتري أنا ثوب الزفاف

بمالي؟! اشتريت أعلى ثوب في المحل؟!

يهز رأسه بتفهم وكأنه لا يحتاج جواباً للسؤال..

وكيف لا يفعل وهي تقولها بعفوية "طفلة" وحسرة"

امرأة" أدركت بأقصى طريقة كيف يكون دفع الثمن!

لكنها تردف بابتسامة أشرفت فوق قلبيهما معاً :

_ أنت وحدك علمتني أن هناك أشياء لا يمكننا دفع
ثمنها أبداً.

تقولها لتقبل جبينه مردفة :

_ عادةً ما يمنح الرجل امراته مهراً.. وأنت منحتي
أغلى مهر..

تصمت قليلاً كأنها تستعيد ماضيها العامر لتطلقها
حارة :

_ نفسي!

ثم تقبل جبينه من جديد هامسة بها بكل ما اوتيت من
عشق:

_ ربما أن الأوان أن أعترف أنني وجدت نفسي أخيراً
يوم ضعتُ فيك).

_ ثانية واحدة! ماذا عن تعهد عدم التلامس؟؟

يقولها بمرح ماكر لتضحك بخجل وهي تبتعد عنه
بشهقة قصيرة لكنه يعاود جذبها نحوه مردفاً بنفس
النبرة :

_ لست معترضاً.. أنا مستعد لخرقه في اي لحظة..

أخبريني فحسب!

لكنه تدفعه بدلال قائلة :

_ لا.. لا.. أبدأ.. كانت هذه حالة طوارئ.. التعهد سارٍ

حتى الغد.

_ أمرنا لله!

يقولها باستسلام لتسأله بفضول ملهوف:

_ لم تخبرني عن برنامج الزفاف.. أين سيكون؟!!

وماذا تعد له؟!!

فيهز رأسه بعناد قائلاً بغموض لذيذ:

_أحلى مما في خيالك.

_أنت تزيد فضولي هكذا.

باعتراض تقولها وهي تدب الأرض بقدميها فيضحك

وهو يرفع حاجبه بغرور :

_وهو المطلوب حبيبتى.

=====

_في البحر؟!!

تهتف بها ديمة بدهشة امتزجت بفرحتها وهي ترى
سيارة العرس التي يقودها فهد تتوقف أمام المرسى



حيث اليخت الكبير الذي اختاره حسام ليقيم فوقه

العرس..

فيلتفت نحوها حسام هاتفاً بغمزة ماهرة :

_ هذه اول المفاجآت.

تطلق ديمة صيحة فرحة وهي تراه يترجل من

السيارة ليفتح لها باب السيارة فتترجل منها

بدورها..

يندفع نحوهما سند بسعادة طاغية ليسير بينهما يمسك

كف كلاً منهما فيما يبدو غريباً على مراسم العرس

لكن كليهما كان يراه مكانه الطبيعي..

يصعدان نحو اليخت الكبير لتستقبلهما موسيقا من

(الفلكلور السوري) جعلت قلب ديمة يرقص بين

حنين وطرب..

فيصلها صوته الحبيب في أذنها بلكنة (بلادها) :

_ زفاف على الطريقة السورية (كرمالك).

تدمع عيناها بالمزيد من الحنين والفخر وهي ترى

بعض الشباب بزي سوري قديم يستقبلونهم على

مدخل اليخت..

لتغمغم بفخر أصيل :

_ (فرقة عراضة) سورية!

تقولها وكلمات الأهازيج التي اندفعت فرقة العراضة

الشامية تغنيها تحملها لعهد بعيد..

خبر وجانا بنص الليل..

جيناكون يا وجه الخير..

جيناكون ع ضهور الخيل..

جيناكون ع جناح الطير..

لتبارك لأحلى طير..

طير غالي علينا..

نحن جينا وهنينا..

مبارك يا عيني مبارك..

بنت العز بدارك..

جزء عم وتبارك)

تتكسد الدموع في عينيها أكثر وهي تكاد تعتصر

ذراع حسام..

قلبا يخفق بجنون وهي تشعر وكأن أهلها هنا!!

_ لماذا تتلفتين حولك هكذا!؟

يسألها حسام بدهشة فتجيبه بصوت متحشرج

ولازالت كلمات الأهازيج تتردد حولهما :

كيف أصف لك؟! أشعر أنني وسط أهلي!! لم أعرف
هذا الشعور منذ زمن بعيد.. كأن جدي سيخرج من
مكان ما يشاركهم رقصة السيوف.. كأن أبي يغني
معهم.. كأن أمي طهت الطعام وتوزعه الآن على
الحضور.. كلهم.. كلهم أشعر وكأنهم هنا.

يرتعش بها صوتها أكثر وهي تخفي وجهها في كتفه
تكاد تتخرط في البكاء فيضمها إليه بتفهم هامساً :
إياك ان تبكي وتفسدي العرس من اوله.. هو خطئي
أنا لأتني لم أمهد لك الأمر.

لكنها تفاجئه بقبلتين مندفعتين لوجنتيه وعناق
عاطفي مشتعل استجلب تصفيق الحضور وتهيج
الفرقة أكثر ليزداد صخب العزف، ورغم سعادته
بمشاعرها الحرة كطير طليق لكن شعوراً بالغيرة لم

يعرفه من قبل سوى معها هي يجعله يهمس في أذنها
بمكر مرح :

عظيمة! هذه هي الروح المطلوبة هذه الليلة! لتبقي
فقط هكذا حتى آخر الليلة.. أو فلندعُ أن أبقى أنا سالماً
بعد نظرات الحسد التي تكاد تفلقتني نصفين من كل
هؤلاء!

تضحك بخجل وهي تخفي وجهها بين كفيها ليردف
بعتاب رقيق:

لا تنقصك الفتنة ولا تنقصني الغيرة.. انتبه
لحركاتك.

تهز كتفيها بدلال فطري لا تتعمده فيكاد يلقي لها
عبارة عاتبة أخرى لولا أن جذبه أحد رجال الفرقة
ليقوم معهم بالرقصة التالية..

يحملة أحدهم على كتفه ليتحلق الباقي حوله
يتراقصون بسيوفهم ويدخلون به تحت ضرب
الدفوف.. يستعرضونه حول الحضور

يستقر أخيراً على منصة العرس معها يراقبان رقصة
(الترس والسيف) الشهيرة بالفلكلور السوري والتي
أدتها الفرقة بتمرس وهم ينخرطون في قتال وهمي
بالسيوف والتروس في حركات منظمة على الأنغام
الشامية المحببة..

ترفع ديمة عينيها للسماء حولها وقد ازدان فضاؤها
بأرجوانية الغروب المميزة حيث اختار حسام أن
يكون الحفل بعد العصر..

أرجوانية تمتزج بتوأمها في مياه البحر حولها وتبذر
في قلبها ألف بذرة من فرح.. وأمان.

لازلتِ تخافين البحر؟!

يهمس بها في أذنها بالسؤال المعهود وكأنه يقرأ

أفكارها لترد بحرارة أذابتها معاً :

بل سابقى عمري أعشقه كما أعشقتِ..

يبتسم لها وهو يقبل جبينها بعمق..

كيف يخبرها أنه هو.. هو الذي عاش عمراً قبلها لا

يرى سوى (الناس)

الآن يراها هي (كل الناس)!!

لا يبالي بفخامة العرس أو أناقة مظهره بقدر ما

تطربه هذه النظرة الراضية في عينيها..!!

هي كانت (اختباره)..(قاضيته وجلاده).. والآن صارت

(جائزته) و (معجزته)!

_مبارك.

يلتفت رغباً عنه والصوت المهيب أمامه يلقي عليه
بظلال ماضٍ يظن أنه ودع سواده للأبد فلم يبقَ منه
سوى بياض التوبة والعوض..

يبتسم وهو يقف مكانه ل(عاصي) الذي مد له يده
مصافحاً ليصافحه بدوره والعيون تتبادل حديثاً طويلاً
ينتهي بنظرتيها الأخيرة نحو سند الذي مضى يتقافز
على منصة العرس مصفقاً يحاول تكرار ما يسمعه
من أغانٍ في أنها صورة رأها كلاهما عليها يوماً!

_طيف ترسل لك تحياتها

تقولها ماسة لديمة وهي تميل على أذننها بعدما باركت
لها.. تناولها هاتفها ليصلها صوت طيف الساخر
دوماً :

_مبارك أيتها الكئيبة! .. عساك تكوني قد فردت
وجهك المكرمش ذاك! وددت لو أحضر هذه الزيجة
الميمونة فأرى كيف (اتلم المتعوس على خايب الرجا)
لكنني لم أستطع.. ..افرحي يا (بنت) وأفرحي (سبع
البرومبة) جوارك كفاكما ما عشتماه من نكد.. ولو
اشتقت لنصاحي القديمة فلن أبخل عليك.
تطلق ديمة ضحكة عالية وهي تستعيد تاريخهما
العامر معاً رغم قصره..

تاريخ بدأ بشجار وانتهى بصداقة!
ضحكة شاركتها إياها طيف رائقة قبل أن تقول بجدية
حنون :

_قبلي سند حتى أعود وأقبله بنفسي..ارسلت لك هدية
مع ماسة.

تناولها ماسة صندوق هدايا صغير تفتحه لتفاجأ بخاتم
أنيق يحوي خاتماً بفص يتناسق تماماً مع سلسلتها
بحجر (الكونزيت)..

تريه لحسام ببعض الدهشة فيهز رأسه بتعجب لأول
وهلة قبل أن يبتسم لها..

_ لا تتعجبي.. هذه هي طيف!

يكاد يقولها متأثراً بماضيها القديم.. لكنه يراعي
الموقف فيصمت مكتفياً بابتسامة شاردة..

قد تكون طيف رأت سلسلة ديمة في صورة ما فرأت
ان تهديها خاتماً يشبهها..

قد تكون ديمة بثرثرتها المعهودة أخبرتها عن قصتها
فأرادت لها ما يكملها..

وقد يكون فقط هو حدسها الذي لا يخطئ.. والذي رأى

في (الكونزيت) بدالاته ما رآه هو نفسه قبلها!

_مبروك يا عريس.. هل ستبقى جالساً هكذا؟! انتهت

الفقرة السورية.. دعنا نريهم شغل المصريين!

يهتف بها (فهد) بحماسة وهو ينتزعه من مكانه

ليتقدم به نحو منتصف القاعة حيث بدأت الألحان

الصاخبة ليشاركهم الشباب الرقص..

فيما تقدمت جنة ببطنها الذي بدأ في البروز لتضحك

لديمة بمباركة حارة ناسبت قولها :

_فهد نذرها منذ زمن.. لو هدى الله حسام للزواج

فسيرقص في زفافه حتى الصباح.. بصراحة الوضع

كان ميئوساً منه وأنتِ حققتِ المستحيل.

فتضحك ديمة بدورها قبل أن ترى حسام يشير لها
بعينه نحو فجر الجالسة في مكانها في ركن قصي
نسبياً في زاوية اليخت فتقوم من مكانها لتتوجه
نحوها..

تدعوها للوقوف جوارها ومشاركتهن طقوس الحفل
لكن فجر تعتذر لها برقة قائلة بابتسامة عذبة لا تخلو
من شجن :

_أفضل البقاء هنا.. اعذريني.

تربت ديمة على كتفها وهي تضطر لتركها فيما تعود
فجر لشرودها وخيالها يرسم المشهد وسط الظلمة..
وبقدر سعادتها لحسام وديمة اللذين لا يدخرا جهداً في
احتوائها بصدق خالٍ تماماً من الافتعال.. لكنها تشعر
أن صوت الزغاريد حولها يجلدتها..

يذكرها بكل..

كل ما خسرتة..!!

من أول تلك الليلة التي هربت فيها معه..

مروراً بزيجتها التي رغم سعادة أيامها الأولى كانت

تشعر فيها أنها ملطخة بالخزي والعار..

وذاك الحادث الذي انتهكها فيه بكل تفاصيله

الوحشية..

والآخر الذي فقدت فيه بصرها وعائلتها..

وانتهاء ب(عمر آخر) قضته معه بلا هوية حتى

استعادتها أخيراً..

استعادتها.. لتفقدته هو..

فقدته؟!!

هل مصطلح (الفقد) هنا هو المناسب؟!!

أم (الإنقاذ)؟!

لا تزال صورته مموهة بين (الحارس) و(السجان)
فلا عجب أن قلبها لا يزال حائراً بين أن ينعيه.. أو

يلعنه!

تشعر بأحدهم يقترب فتأهب حواسها..
رائحة (العطر القديم) التي ميزتها في لقائهما السابق
تعيد لها كلامه..

(يوماً ما سأخبرك عن قصة أنتِ بطلتها)

_ عدت ؟!

يسبقها بها لسانها بعفوية صارت تكرهها وإن بدت
الكلمة نفسها مناسبة في موقف كهذا..

_ أخبرتك أنني سأعود.

قلبها (المريض) يحورها رغماً عنها فتسمعها

أخرى..

(لمن سواك أعود)؟!

لهذا ترسم ابتسامة واهنة على شفثيها وهي ترسم

له وسط الظلمة المحيطة بها رسماً يشبه ماضيها..

رائحة (العطر القديم) تزداد اقتراباً فتأهب حواسها

أكثر..

_ لا تزال ابتسامتك كما هي.. متحفظة لا تبدي

أسنانك.. لكنها كافية لتبرز هذه الغمازة اليتيمة على

أحد خديك.. تعلمين؟! كم بدا لي يوماً خدك

مزدهماً..!

ينكمش جسدها فطرياً وهي تشعر بخوف طفيف

يتملكها..

هل تصرخ مثلاً وتطلب مساعدة!؟

لا!

لا يبدو وكأنه يغازلها بل وكأنه..

وكانه بطريقة ما يشكو إليها.. منها!!

كلماته غريبة.. تربت عليها.. تستأذنها.. تضمها.. ثم

تتفد عبر مسامها..

_ على خدك "غمزة" عشت العمر أريد ان أفهم سرها

الذي يجعلها لا تشبه سواها .. على خدك "دمعة"

ضاع العمر وأنا لا أراها لكن لن يضيع الباقي قبل أن

أمسحها.. على خدك (حمره) صبغتها حلاوة (خجل)

ومرارة (حسرة) واشتعال (غضب) ووخز (ندم)

وأمنيته ألا يترك الخجل الرائق - وسط كل هذا - في

حمرته مكاناً لسواه .. وعلى خدك "قُبلة" شوق

أرسلها قلب عاشق فتاهت في طريق العمر.. ليثها إذ

تصلكِ تشعين!

تتفرج شفاتها وهي تشعر بحمرة خديها التي يتحدث

عنها تكاد تحرقها مكانها!

من أين أتى بهذه الكلمات؟!

ومن هذا؟!

_قل من انت.. او ابتعد.

جفاف كلماتها يفتقد لخشونة حقيقية وسط الدوامة

التي قذفها فيها حضور ذاك الرجل المهيّب..

والمطمئن!

_ليس الآن.. أردتك فقط أن تشعري أنني معك.. خذي

وقتك كاملاً.. ما بيننا يستحق الانتظار..

_ما بيننا؟!



تتمتم بها باستتكار فيأخذ فيصل نفساً عميقاً وهو يملأ
عينيه من ملامحها قبل أن يرحل مغادراً كالمرّة
السابقة بقوله :

_ سأرحل لكنني سأعود.. حتماً سأعود!

ترتجف مكانها شاعرة بالبرد..

برد ينبع من داخلها لا من الخارج..

ولازال القلب (المريض) يجيد تمويه عبارته لأخرى..
(لمن سواك أعود)!

وعند مدخل قاعة العرس على اليخت وقفت إحداهن

تراقب العروسين من بعيد قدر ما سمحت به المسافة

بنظرة ملتاعة..

لكنها ليست حاقدة!

كانت تعلم من البداية أنه ليس لها..
كانت تكتفي بحضوره الداعم حولها..
وحتى بعدما اضطرت لخيانته سامحها ليقف جوارها
حتى خرجت من المشفى قريباً..

بل وساندها حتى أعادت فتح ستوديو ال (سيلويت)!
لم يدعها للزفاف بطبيعة الحال لكنها لم تستطع منع
نفسها من الحضور..

فلتودعه لآخر مرة!

معك دعوة؟! _

يستوقفها بها أحد الحراس على مدخل القاعة فتتهز
رأسها وهي تكاد تغادر لكن الصوت الصارم الذي
انبعث جوارها يصيبها برجفة خفيفة وهو يوجه
حديثه للحارس :

_دعها تدخل.

ترمق دينا بشر بنظرة وجلة وهي تستعيد ذكرياتها
القصيرة معه بنفور لم تملكه..

تتسمر قدماها في الأرض بخوف لكنه يمنحها نظرة
مطمئنة ناقضت النبرة الأمرة في صوته :

_ادخلي.

تستجيب صاغرة وهي تلعن تهورها الذي دفعها
للحضور..

ترمق حسام الذي بدا سعيداً - كما لم تره من قبل-
بنظرة راضية حفرت صورته داخل قلبها لتغلقه

عليها..

قبل أن ترفع عينيها بوجل نحو بشر الذي كان مشيحاً
بوجهه عنها يحافظ على مسافة مناسبة بينهما كأنه

يأنف أن يتعرف لماضيها المشين أحدهم فيسيء هذا
لمكانته..

لماذا ساعدها في الدخول إذن؟!

ربما لأن النظرة الملتاعة في عينيها نحو حسام

صادفت شبيبتها في عينيه هو نحو ديمة..

حسرة فقد لكنها تخلو تماماً من حقد..

وكانما أدرك القلب المكلوم مكانه في رقعة معشوقه..

فلزمها صاغراً.. وراضياً!

وربما لأنه لا يزال يشعر بالذنب نحوها رغم عدم

اعترافه الظاهر بالأمر.. وقد استغل ماضيها القديم

لتوريثها في خيانة حسام من قبل!

وربما.. وهو السبب الذي خشي حقاً الاعتراف به

أنه..

اشتاق (صورتها النائمة)!

اشتاق الفضفضة ل(سنو وايت) الممددة على فراشها

دون أمل في (قُبلة أمير) تعيدها للحياة!!

تزدرد ريقها الجاف بصعوبة وهي تشعر بغرابة

وقفتهما هذه..

لا تستطيع الانصراف كأنها تنتظر منه شيئاً..

ولا يمكنها الكلام!

لكنه يلتفت نحوها أخيراً ليقول بجدية :

_حسام أخبرني عما حدث لشقيقك في (أبو ظبي)

وأنك تريد زيارته في السجن هناك.

تومئ برأسها ببعض الخزي فتكتسب جديته بعض

الاهتمام وهو يسألها :

_لماذا؟! معلوماتي أنه تخلى عنك منذ زمن بعيد..

ثم ينعقد حاجباه باستطراده :

تريدين الشماتة فيه مثلاً؟!

تتسع عيناها باستنكار لسواد فكرته فتتهف ناسية

الفارق بين مكانته ومكانتها :

_وهل أسافر تاركة بلدي وعملي الذي بالكاد وقف

على قدميه لأجل الشماتة؟! ألا يفترض أن أكون قد

افتقدته مثلاً؟! أن أريد أن أسانده في محنته مثلاً؟! أن

أرمم الشرخ الذي تركه الزمن بيننا مثلاً..

ثم تطرق برأسها مردفة بألم حقيقي وهي تكتف

ساعديها :

_لكن لماذا ألومك وهذا الإطار (الأسود) جاهز دوماً

لتغليف صورة من هي مثلي مهما تغير وضعها!!_

كلماتها تخزه بالمزيد من الذنب الذي يذوب على

واجهته الصلبة وإن احترقت به روحه..

عيناه تتجذبان رغماً عنه لشفتيها..

لا تزال (قلبية الثغر) تدهشه كلما تكلمت كأنه يريد

دوماً مغلقة الشفتين!

لهذا خرجت كلماته رغم جمود نبرتها الظاهر مشوبة

بطيف باهت من لين :

سأساعدك في السفر إليه وزيارته..

ترفع إليه عينيها بترقب فيردف ولا تزال عيناه

معلقتين بشفتيها:

لست مجبوراً على التفسير.. لكن اعتبريه مقابل

إقحامي لك في ما بيني وبين حسام في الماضي وما

كان سبباً في تعرضك لذاك الحادث.

ترمقه بنظرة مرتابة وهي تشعر بغرابة حديثه..

نظراته..

بل وصوته!

لماذا تشعر ب(دفاع) هذا الصوت الجامد!!؟

كأنها سمعته من قبل بنبرة أكثر.. (حميمية)!!؟

أين!!؟ ومتى!!؟

هل تهذي!!؟

حتى نظراته التي بدت ملتصقة بشفتيها لا تمنحها

الشعور المقرز بالمغازلة أو التحرش..

بل إنها - بخبرة امرأة مثلها - تشعر بها بصورة ما..

وكأنها نقية تماماً من الغريزة!

شكراً.

تقولها بصوت مبجوح خافت فترتفع نظراته اخيراً
لملامحها التي بدت له من اول لقاء ملائكية طفولية لا
تليق بامرأة بتاريخها..

شعرها الأشقر الخفيف الذي تعمدت قصه كي يبدو
أكثر كثافة يحيط بوجهها ك(سياج ضعيف) سهل
كسره واقتحامه لكنه مع هذا يعافر ليستقيم!
تماماً كروحها!

تنتظر منه رداً أو المزيد من التفاصيل لكنه يعطيها
ظهره ليبعد بقوله المقتضب:
_وداعاً.

فلا تدري لماذا بدت لها كلمته أبعد ما تكون عما تشعر
أنه سيكون بينهما!

=====

في بيتها يجتمع العاشقان أخيراً!
يصلي ركعتين فوق ذيل ثوب زفافها في (عادة
سورية) قديمة أصر ان يحييها في قلبها مع ما أحياه
من تراث بلادها!
ولم يكد ينتهي ليقف ويوقفها معه حتى تلالأت دموع
الفرحة في عينيها ليرى فيها جواب سؤاله :
_ أعجبك العرس!؟

_ على رمشي والله بتمشي .. في أجمل أحلامي لم أكن

أتخيل زفافاً كهذا!

يرتعث بها صوتها قبل جسدها في فرحة طاغية

لتردف بمرح :

_ خشيت فقط أن تحيي عادات سورية أخرى في

الزفاف كان جدي يحكي عنها كأن تذبح لي قطة كي

ترهبني.. أو تضربني بصفحة السيف على راسي

ثلاث مرات لإثبات الهيمنة..

ضحكته العالية ترقص على لحن قلبها وهو يرد

بمكر :

_ فكرت! لكن أشفقت عليك!

تضحك بدورها وهي تستعيد ذكريات أخرى حكاها لها

جدها عن طقوس الزفاف في بلادهم..

لكنه ينتزعها من شرودها وهو يحيط وجهها بكفيه..
حلقة الزعفران في عينيها تتوهج ببريق يكاد يخطف
روحه قبل بصره..

وعقدة حنجرته تبدو لها ك (آمن) مكان يمكنها
الاستناد عليه!

وكانما يمر تاريخهما كاملاً أمام ناظريهما الآن.. حلوه
ومُرّه..!
_ أنا معك.

يهمس بها كلاهما دون ترتيب في نفس اللحظة
وكانها (أيقونة) ما كان.. وسيكون بينهما..
قالتها ب(الحروف)..
وقالها ب(ضمة)..

ضمة منحتها أمان الدنيا كلها في لحظة واحدة

وجعلتها تردف بنبرة أكثر حرارة :

دوماً معك.

فتدمع عيناه وهو يعتصرها أكثر بين ذراعيه.. يقترب

بوجهه منها حتى يكاد يلاصقه بهمسه الحار :

يوماً ما كنت أقول لنفسي أن (لا أحد يراني).. حتى

أتيت لتحققي ما ظننته معجزة.. لتصرخي داخلي

بأقوى وأجمل صوت.. (أنا أراك.. كل عيون قلبي

تراك)!

يحرر شعرها من حجابها لتسبح أنامله في نعومة

شعرها الأحمر الذي طال كثيراً حتى صار عند

منتصف ظهرها..

تشتعل الثورات داخله أكثر وعيناه تغيمان بهمسه :

_ الآن اراكِ كما رأيتك في حلمي أول مرة.. طفلة

حمراء الشعر تكبر بين ذراعي..

ترفرف رموشها بهذه الحركة التي تثير جنونه عندما

يشعر أن جفنيها يحتجزان سرباً من الفراشات..

والآن يتوق لتحريرها ثم تقبيلها واحدة واحدة!

يرتعد جسدها مع عشرات القبلات التي طافت بعينيها

قبل ان تنتقل لوجنتيها.. قبل أن تتوقف خاشعة عند

شفتيها بهمسه :

_ لازلت أذكر مذاق أول قبلة بيننا.. بطعم الورد.. تراه

تغير المذاق!؟!

تتعجب لهفتها وهي التي تبادره بالجواب!

ذراعاها يطوقان عنقه بكل قوتها ولقاء الشفاه يقسم

أنه سيكون دوماً بمذاق الورد.. وأحلى!



يشعر بانكماشها فجأة وهي تبتعد بوجهها لتخفيه في صدره الذي كاد يضح بخفقاته.. لكنه كان يتوقع ردة فعل كهذه مع ما يعرفه عن ماضيها..

لهذا يتناول أناملها ليلامس بها عقدة حنجرته هامساً بأرق نبراته :

خائفة ؟!

صمتها يبتلعها في أصعب لحظة ودت لو تتجاوزها فتمتد أنامله الحرة تجذب سحب ثوبها برفق..

فقط بضع دقائق من الآن وسيختفي إحساسك بالخوف بل وبأي شيء سوى إحساسك بين ذراعي..
فقط دقائق وستدركين أي شوق حبسته لك داخلي
طوال تلك الشهور.. فقط دقائق وسيختفي كل حاجز -

تظنيه بيننا - لأذوب فيك وتذوبين فيّ فلا يقربك أي

هاجس..

همساته تتشارك مع لمسات خبيرة تهيوها لما هو آتٍ

مدركا صعوبة لحظات كهذه على امرأة بتاريخها..

حتى رفعت عينيها إليه أخيراً ليقراً فيهما ما أرضاه

ليهمس لها بنبرة أكثر حرارة :

_ هل قلت دقائق؟! ومن سيصبر لدقائق؟!!

ضحكتها يخنقها خجلها و هي تشعر به يحملها فجأة

ليتوجه بها نحو غرفتهما..

همساته تدلها بين حنان طاغ و غرور معهود وهو

يغمزها بقوله:

_ إحداهن قالت لي يوماً أن (قبلاتي من حرير).. وأنا

اليوم أريد أن أكسوها - كاملةً - ب(الحرير) !

=====

الخاتمة



يمكنك الدخول..

الصوت الصارم يرهبها بعض الشيء فتجمد قدماها
للحظات قبل أن تستجمع قوتها لتدخل..

هل يمكن أن يطوف العمر كله في عينيك في لحظة؟!
هكذا كانت تشعر دينا الآن وهي تستعد للقاء شقيقها
ريان..

جزء بداخلها يلومها على القدوم..
لماذا تعود لجدار ماضٍ لن يسترها.. بل ربما سينقض
فوقها من جديد؟!!

لكن جزءاً آخر كان يقاتل ليتشبث بما بقي لها من

هوية!

ترفع عينيها إليه ببطء من تخشى الخذلان من جديد..

لا زالت تذكر آخر مرة رآها فيها بعدما ثبت جرمها

المشهود ليعلن تبرأه منها قبل أن يهددها بالقتل لو

ظهرت في حياته مرة أخرى..

تعذره!

والله تعذره!

لكنها تمنى فقط لو كان قد سمعها!

لو كان قد علم أنها كانت أجبن من أن تقول: (لا!)

أول مرة لخطأ بسيط فانقلب الأمر لجرم تلو جرم!

كم تكره نفسها في كل مرة تتذكر كيف كانت تستسهل

الحرام بخوف استغله شيطانها..

والآن تحمد الله أن تاب عليها..

فإن كان الله يعفو.. فهل يعفو الناس؟!!

_من؟!!

سؤاله يصفعها فتمدع عيناها وهي تتحسس

ملامحها..

هل تغير شكلها إلى هذا الحد؟!!

أم أنه هو من نسي؟!!

نسي شقيقته؟!!

تتفرج شفتاها بجواب لم تعرفه بعد..

لتتسع عيناها بصدمة وهو يتعرف إليها ليتمتم

مشدوها :

_دينا؟!!

الخوف يجمد جسدها كعهدا معه!

تكاد تفر لاعنة نفسها أن عادت لهذه الدوامة!
لماذا لم تقنع بحياتها الجديدة قاطعة كل جذور
ماضيها؟!!

هل ظنت أن مثلها قد يكون له رجوع؟!
تراجع خطوة للخلف وهي ترى كفه يرتفع نحوها
فتكتم صرخة خوفها..

لكنها تراه يضمها إليه بلهفة فيرتخي جسدها فجأة
كأنها نسيت معنى (عناق أخ)؟!
جسده يرتجف وأشيأً بنشيج خافت دفنه على كتفه
فتتهمر دموعها غزيرة وهي تجد الطاقة أخيراً لتشد
قوة عناقها له..

_أي معجزة جاءت بكِ إلى هنا؟!!

يتمتع بها بذهول وكأنه لا يصدق أنها حقاً هنا فيجف

حلقها وهي ترد بين دموعها:

_ أعراف أنه لا يشرفك حضوري لكن..

_ يشرفني !؟

يقاطع بها عبارتها ضاحكاً بهستيرية كالمخابيل

فتراجع للخلف بالمزيد من الخوف لتتحول ضحكته

لبكاء وهو يشير بذراعيه حوله مردفاً :

_ ما عاد لي أن أتحدث عن الشرف! ليس وأنا أحمل

على رأسي عاراً فوق عار.. ليس فقط عار زوجة

خائنة قتلتها.. ولا عار مبادئتي التي خنتها يوم وضعت

كفي في أكف الصهاينة.. بل عار أولادي الذين سيبقى

ذنبهم في عنقي.. عار يولاند التي ضلت طريقها

مذبوحة بخيانتتي.. وعار صديق العمر الذي بعته
بأبخس ثمن.. شرف؟! أين هو مني؟؟
ينقبض قلبها بجزع فطري على شقيقها الذي لم تره
من قبل في حال كهذا!
طالما بدا لها طموحاً معتزلاً بنفسه يعرف من أين
تؤكل الكتف كما يقولون..
ويشق عليها الآن أن تراه في هذه الذلة!!
_ هون عليك يا أخي! شدة وتزول!
_ تصدقين نفسك؟! أي شدة هذه التي ستزول؟! انا
خسرت كل شيء! كل شيء!
يهتف بها بانهايار فتشاركه لوعته ببكائها للحظات
لكنه يرفع وجهه إليها أخيراً وقد بدا وكأنه قد أفاق
من طغيان أنانيته ليسألها باهتمام :

دَعِكِ مِنِّي الْآنَ.. احكِ لِي بِسُرْعَةٍ عَنِ أَحْوَالِكَ.
تتردد قليلاً وهي تشعر بالمزيد من الخزي والعار
لكنها تعود لتتذكر أن (التائب من الذنب كمن لا ذنب
له)..

فتتشجع لتخبره عما آل إليه حالها..
عن حياتها الجديدة (النظيفة) و(الاستوديو) الذي
تريد العمل فيه.
يرمقها بنظرة شاردة وهو يشعر بالذنب نحوها يكبل
كلماته..

أين كان منها طوال هذه السنوات؟!
كيف استسهل التبرأ منها ليتخلص من وزرها!؟

كيف لم يكن لها سناً حتى وأن اعوجت خطواتها
فيقومها.. بدلاً من ان يلقيها بطول ذراعه على قارعة

الطريق!؟

كيف يمكن أن يكره نفسه أكثر وقد ضيع بأنانيته كل

من كان يعولهم!؟

لهذا تشبث بكتفيها ليقول بحسم :

_ اسمعيني.. لن أتخلى عنك بعد الآن.. لو أردتِ حقاً
بداية جديدة فلن تستطيعي فعل هذا في مصر.. ابتعدي
عن كل ما يمكن أن يذكرك بالماضي في بلد جديد
بهوية جديدة لا يعيرك بها أحد.

_ الفكرة تبدو منطقية لكن من أين لي بهذا!؟!

تتلعثم بها حروفها ولا تزال حائرة بين خوفها القديم
منه وشعورها المستحدث أنه حقاً تغير بعد مصابه..

ليتأكد شعورها الأخير وهو يرد :

_ سأحدث للمحامي الخاص بي كي يحول بعض

مدخراتي باسمك!

ترتجف ابتسامة امتنان على شفيتها لتعاود سؤاله :

_ وأي بلد يمكنني السفر إليها؟!

يشرد ببصره قليلاً وهو يرى الجواب الوحيد يقفز

لذهنه!

يجلده بسوط الذنب من جديد!

تسأله أي بلد؟!

ألمانيا بالطبع!!

كيف يعترف أنه بمجرد ما وقع في أزمة لم يخطر

بباله سوى الصديق الحق الذي يوقن أنه أبداً لن

يخذله!!

جهاد!

هو وحده من يمكنه ائتمانه عليها حتى يخرج من

سجنه!!

_ أي بلد!؟

تكرر سؤاها بفضول فيخبرها عن نيته لتشعر برهبة

المغامرة لأول وهلة حتى تكاد ترفض الأمر..

لكنه يتشبث بكتفيها قائلاً برجاء ملئنا :

_ لا تترددي.. دعيني أنقذ ما بقي مني ومنك.

تبتلع تردها مرغمة وهي تومئ برأسها موافقة..

ما الذي بقي لها في مصر كي تفتقده!؟

لقد جاءت زيارتها هذه بأفضل مما تمننت..

كفاها أنها استعادت شقيقها الذي فرقت بينهما

السبل..

وهاهو ذا القدر يمد لها يده ببداية جديدة.. في بلد

جديد..

لعله تكون هناك يوماً للرماد حياة!



نيلي



***ألمانيا.. برلين ***

_ الآن افتح عينيك!

يقولها جهاد بنبرته الحماسية وهو يزيح أنامله عن
عينها بعدما دخلوا شقته الجديدة التي ساعده صهيب
على استئجارها في برلين..

لتشقق زهرة بانبهار وهي تميز المكان حولها..
والذي بدا لها - على ضيقه- كأنه يسع الدنيا وما

فيها..

تتقدم نحو الصالة المستطيلة التي جعل تصميمها
الحجري بمقاعدھا التي تتخذ شكلاً حجرياً كذلك والتي
تخرج من الجدار مع وسائد اتخذت شكل الشال
الفلسطيني بلونيه الأبيض والأسود مع فرش أحمر
وإضاءة دافئة منحتها شعوراً أنها دخلت أحد البيوت
الفلسطينية القديمة..

خاصة مع زجاج الشرفة الذي جعله من الفسيفساء
الملونة والتي توجهت هي نحوھا لتفتحھا فتتسع
عينھا وهي تميز أصص الزرع التي رصت متجاورة
فيھا..

يحتضن خصرھا براحتيه وهو يشير لها نحو الزهور
البيضاء ذات العبق المسكي قائلاً :
_ هذه أشهر زهور فلسطين.. هذه (ليلة القدر)..

تضحك لطرافة الاسم.. فيردف بين شجن وفخر :
_يسمونها كذلك (الكولونيا) او (مسك الليل).. جدي
كان يزرعها في حديقة بيته..
ثم يشير لأخري قرمزية :

_وهذه الوردة (الجهنمية)..أو (المجنونة) كما كانت
تحلو لأمي تسميتها.. سأصنع لها دعامة خشبية على
شكل (قلب) تعرش عليها كما كانت أمي تفعل.. عندما
تكبر سيعجبك شكلها كثيراً..

ثم يشير للبقية مردفاً بنفس الحماسة الملهوفة كأنه
يطارد مع ألوان الزهور بقايا الحنين لبلاده :
_هذا زنبق.. وهذا جيرانيوم.. هذه تسمى (وردة
المحكمة).. لا تضحكي هم يسمونها كذلك.. ماذا لو

عرفت اسم هذه!! اسمها (فم السمكة)! لي معها كلها

ذكريات طريفة سأحكيها لك فيما بعد.

تضحك بانتشاء وهي تملأ عينيها من الوان الزهور

البيدة بين الأبيض والأصفر والأرجواني لتلتفت

نحوه.. تعانق ملامحه الحبيبة بعينيها قائلة :

_ رأيت الكثير من الزهور من قبل.. بل وربما رأيت

هذه نفسها.. لكنها هنا.. في بيتنا.. تبدو بشكل آخر..

كأنما خلقت لنا وحدنا!

يقبل وجنتيها برقة وهو يضمها إليه بتهيدة

مرتاحة :

_ ياالله! لا أزال لا أصدق أن الكابوس انتهى! أنك هنا

معي.. بين ذراعي.. عدت للحياة وأعدتني معك..



ثم يصمت لحظة مسترجعاً قسوة الشهور السابقة
ليردف بأهة مشتعلة وهو يعاود النظر لعينيها :
_ الفارس المشهود قام بعد وقوعه.. عاد يركب جواده
لكنه ليس وحده هذه المرة.. بين ذراعيه أجمل فتاة
في الدنيا.. أحد ذراعيه يمسك لجام فرسه الذي أقسم
ألا يحيد به عن الحق.. والآخر حول خصرها يقسم ألا
تغيب عن حضن قلبه لحظة واحدة.
تتورد وجنتاها بخجل تهرب منه بقولها :

_ لن تريني باقي الشقة؟!!

يضحك بهناءة وهو يعاود الدخول بها ليريه المطبخ
الصغير الذي تباستت محتوياته كثيراً.. وغرفة النوم
الوحيدة في الشقة والتي دخلتها بترقب خجول لتجدها
خالية..

إلا من شال فلسطيني قد عُلق على جدارها..
هذا الذي توجه هو نحوه ليرفعه أمام وجهها فتميز
(علامة خاصة) ميزت هذا الشال بالذات ليقول هو
بابتسامة واسعة :

تذكرين هذا؟!

تبتسم لحلاوة الذكرى وهي تستعيد ذاك اليوم الذي
فاجأها فيه في غرفة القياس بمحل الثياب وهي
ترتدي ثوب العرس..

قبل أن يضع عليها (شاله) هذا قائلاً نفس العبارة التي
يكررها الآن :

_تعرفين معني أن يضع رجل مثلي شاله الذي يقدهه
علي كتفي امرأة ترتدي الأبيض له.. له وحده؟!_

فتدمع عيناها وهي تراه يضعها علي كتفها من جديد

مردفاً :

_ لم أشتري هذه الغرفة.. تركتها لذوقك أنت.. فقط

وضعت هذا هنا ليكون أول ما نراه فيها.. وسيبقى

معلقاً في مكانه هنا على الجدار حتى نحكي قصتنا

لابنتنا.. (قدس)!

تمرغ وجهها في صدره وهي عاجزة عن الكلام..

تشعر انها ولدت من جديد بعمر جديد وروح جديدة

وعشق جديد..

أجل.. جديد!

_ عجباً لحبك لا يبلى أبداً.. سنوات وسنوات وهو

داخلي لا يهرم.. دوماً قديم كجذر يشدني نحو أرض لا

تخون.. ودوماً جديد كثوب عيد لم تمسه قبلي يد بشر..

دوماً بعيد كنجم يغمرني ضياؤه.. ودوماً كقريب
كغطاء يقيني برد أيامي.. دوماً هادر متدفق كشلال لا
يعرف فتوراً أو مللاً.. ودوماً ساكن بوداعة رضيع نام
شبعاً.. مهما غامت السماء ورعدت وابرقت هو دوماً
ملون بألوان قوس قزح.

تقولها بهيام ليرفع ذقتها نحوه هامساً :

_كلامك دوماً لا يشبهه كلام.. يدخل قلبي دون
استئذان..

قبلاته الناعمة تتسابق على وجهها فتهرب من خجلها
وهي تدفعه برقة متسائلة :

_أين سنقيم الزفاف.

تخبو الفرحة على وجهه فجأة وهو يطرق برأسه
قائلاً :

_كم حلمت لو كان عرسنا في القدس لكن هذا
مستحيل.. لا يمكنني الدخول لفلسطين.
تدمع عيناها للأسى الذي يقطر من حروفه وهي تشعر
بالغبن..

كيف يكون وطنه ويهجرونه منه قسراً ثم يحرّمونه
دخوله طوال عمره؟!
لكنه يبتسم ابتسامة شاحبة وهو يحاول ابتلاع غصته
بقوله :

أين تحبينه أنتِ؟! هنا أم في مصر؟!

تفكر قليلاً قبل أن تحسم قرارها :

هنا..

يرمقها بنظرة متسائلة لتشد على كفيه باستطرادها :

_اشتقت لبلدي لكنني أريد أن نصنع بداية جديدة هنا..
الغربة صعبة ويقيني أن حياتنا هنا لن تكون ممهدة
بالحرير لكن دعنا نهونها بحلاوة الذكريات.. ذكريات
تكفي لغلق صفح الأمس وفتح أخرى للغد.. ليكن كلانا
لصاحبه وطنه حتى يأذن الله بعودتنا لأوطاننا.
يبتسم للدفء العاطفي الذي طالما عشقه في حروفها
ثم يقبل جبينها باعتزاز لينظر لساعته بأسف قائلاً :
_موعدي مع صهيب ومدير المركز الطبي كي نوقع
عقد العمل.

_مبارك حبيبي! هل يعني هذا أنك رضيت عن صهيب
أخيراً؟!

تقولها بحنان وهي تصطحبه لباب البيت فيرد :

_رجل محترم.. وخدم.. لكنني لن أنسى أنه يوماً ما
أخذ مكاني جوارك.

يقولها عاتباً فتسترضيه بقبلة لكتفه قائلة :

_ لا أحد يمكنه أبداً أخذ مكانك.

يمط شفثيه باستياء ليتجاوز الأمر بقوله :

_ظني أنه يريد مساعدة يولاند كذلك فقد تحدث مع

صديقه مدير المركز بشأن عملها معي هي الأخرى.

_وماذا عني؟! سيكون من الرائع حقاً أن أعود للعمل

معك!

تقولها بحماس ليربت على كتفيها بقوله المشفق :

_ليس بعد.. تحتاجين لراحة طويلة تستعيدين فيها

عافيتك..

ثم يقرص وجنتها بخفة مردفاً :

_ ثم إن لك مهمة خاصة تنتظرك هنا بعد الزفاف..

تحمر وجنتاها بخجل مع غمزة رافقت استطراده :

_ "تدليلي"!

_ ما أحبها على قلبي من مهمة!

تقولها بضحكة رائقة ثم تدعو له بالبركة فيقبل

جبينها بحب وهو يهم بالخروج معها لكنها تقول

بسعادة :

_ دعني هنا.. أريد ترتيب بعض الأشياء..

يهز رأسه موافقاً ليغادر فتأخذ نفساً عميقاً وهي

تتلفت حولها بفرحة..

تعيد ترتيب بعض الأشياء البسيطة في المكان وتكتب

قائمة بما تريد شراءه..

تتوجه للشرفة فيبهجها من جديد منظر الورد
البيدع..

تأخذ لها معه صورة ثم تنشرها على حسابها الذي
صار بعد موقفها الأخير من القضية الفلسطينية يتابعه
عشرات الآلاف ممن كانوا يسمونها (فتاة الموت)..
والآن يتناقلون قصة شفائها بمزيج من السعادة
والأمل.. لتصير (فتاة الحياة)!
تنشر الصورة لتكتب تحتها..

_ أول زيارة لبيتي.. اقترب موعد الزفاف.. زوجي كان
يود لو كان في القدس.. وهكذا كنت أتمنى أنا
الأخرى.. لكنهم سلبونا فرحة أحلامنا كما سلبونا
أوطاننا في الحقيقة.



أبدو جميلة؟!

تهتف بها زهرة بارتباك أمام المرآة وقد ارتدت ثوب زفاف جديد أصر جهاد أن يشتريه لها وقد صار قياس الثوب القديم غير مناسب لها بعد فقدتها الكثير من وزنها..

الثوب الجديد لا يقل أناقة عن السابق بل يزيد..
ناصع البياض بتطريز رقيق (فلسطيني) وطريحة شديدة الطول تكاد تمتد خلفها لما يقارب متراً كاملاً..

رائعة!

تهتف بها حسناء التي جاءت خصيصاً لتحضر العرس وهي تعدل لها بعض التفاصيل في الثوب مردفة

بمرحها المعهود :

ينقصك جناحين وتحلقين كملاك.. العقبى لي!

تضحك زهرة وهي تشعر بالمزيد من الارتباك لكن
ضحكتها تمتزج بدموع ارتباكها وهي تكاد لا تصدق
الفرحة التي تعيشها منذ انزاح عنها كابوس
المرض..

_ بنت! ستفسدين زينتك! كالعادة تعشقين النكد
كعينيك!

تلتفت كلتاهما للصوت الخشن المحبب عند باب
الغرفة والذي يليق بملامح صاحبتة التي تقدمت
نحوهما مردفة بتهكمهما الفظ :

_ سبحان الله! (حلة والتقت غطاها)! أنت تبكين هنا
و(الحزين) بالخارج يكاد يبكي هو الآخر!
_ طيف!

تهتف بها زهرة بمزيج من فرحة وامتنان وهي تفاجأ
بحضورها..

تدفع نحوها للتبادل عناقاً قوياً ثم تقول زهرة
بحرارة :

جئتِ بنفسك من جديد! لا أعرف ماذا أقول لك.. أنتِ
بالذات.. لولاكِ لَمَا..

ششششش! سترجعين ل(جو الصعبانيات) هذا؟!
قلت لك لا أحبه!!

تقاطع طيف عبارتها بمرح خشن فتنتلق ضحكاتهن
جميعاً قبل أن تضمها لصدرها برقة تناقض ظاهرها
هامسة في أذنها بحنان جاد :

شكراً لأنك لم تخذليني.. رأيت فيكِ نجاة كل من لم
أستطع منعهم من الرحيل.

تبتسم زهرة بتأثر وهي تتذكر لقاءهما الأخير قبل
سفرها إلى هنا عندما أخبرتها طيف أن أمها ماتت
مريضة لأنها لم تجد ثمن الدواء لهذا كان المرض
دوماً أقسى هو اجسها!

هذا ليس عدلاً! تجمّعنا سوياً على منضدة واحدة من
سنوات في (أبو ظبي)!.. كلكنّ عدتن بعريس وأنا لا..
واحدة أخذت (العراقي) وأخرى أخذت (الفلسطيني)..
وأخرى عادت ب(المصري)..
تهتف بها حسناء بسخط مصطنع لتمصص شفيتها
بقولها :

على رأي المثل.. (طلعت فوق السطوح هز الهوا
كُمّي.. كل البنات اتجوزت وأنا قاعدة جنب أمي)!

تتعالى ضحكات زهرة بمرح فيما تخبط طيف حسناء

على رأسها هاتفة :

_لهفتك هذه هي التي تضيعك!

ثم ترفع حاجبها باستطرادها وهي تبسط كفها على

صدرها :

_قلبي يخبرني ان (فرقع لوز) يضع عينه عليك!

وبصرف النظر عن أنه يستحق خلع عينه تلك لكنه لا

بأس به! هو نصف مصري ونصف عراقي.. خذيه

كعرض (اثنين في واحد)!

_ليته كان ينفع! ليس جاداً.. مجرد (أراجوز) يريد

التراقص دون التزام.. بحكم خبرتك تعرفين نصيحة

كي أوقعه بالحلال!؟

تقولها حسناء بحسرة مرحة لتضحك طيف قائلة

بغرور مصطنع:

_ ماذا كنتن ستفعلن بدوني؟! أنتن تجعلنني أفكر جدياً

في هذه المهنة.. ممم.. تعلمين أوحيت لي بفكرة

كتاب.. عنوانه (نصائح إبليس في تدبيس عريس)..

تضحك زهرة باستمتاع من الحوار الدائر بينهما

ليقطع ضحكاتها صوت طرقات على باب غرفتها

الصغيرة التي ستنتقل منها لقاعة العرس..

تتحرك حسناء بسرعة لتفتح الباب ثم تعود إليها

قائلة :

_ جهاد بالخارج.. يريد أن يلبسك التاج بنفسه! هيا..

أعطيه ظهرك وأنا سأقوم بتصوير لحظة رؤيته لك..

هذه هي الموضة هذه الأيام.

تبتسم زهرة بترقب وهي تفعل كما أمرتها..
يدخل ليشعر بخفقات قلبه تتعالى وهو يرى ظهرها
المواجه له كأنها تريد مفاجأته..
لكنها ما كادت تشعر به خلفها حتى التفتت له بسرعة
تغطي وجهها بكفيها قائلة :

_ لن أستطيع أن أعطيك ظهري ولو لثوان!
يضحك وهو يقطع المسافة بينهما بخطوة واحدة..
يزيح كفيها عن وجهها ليملاً عينيه من جمال امرأة
لن تشبهها في الدنيا سواها.. يلبسها تاجاً رقيقاً من
الفضة تخللته زهور بيضاء صغيرة ناسبت رقة
ثوبها..

يقول بكل ما اوتي قلبه من حب :

_ لا يخذلني قلبك أبداً .. دوماً كنيل بلادك .. عطاياه لا

تعرف حدوداً.

_ كيف أبداً؟!!

تساله بارتباك خجل ليهمس في أذنيها بعاطفة

مشتعلة :

_ أجمل من أجمل حلم رأيتك فيه .. وأحلى من أحلى

حقيقة شاهدتك عليها.

_ ارفع صوتك بما تقول .. حتى أحسد بضمير ..

تهتف بها حسناء بمرح وهي تحاول التلصص فتشدها

طيف من ظهر ثوبها لتقول بتهكم ساخر :

_ العروسة للعريس .. والجري للمتاعيس.

الفرحة تغزل أثوابها بين الجميع ..



تتثر عبقها بين الوجوه والعروس تتأبط ذراعه لتغادر
معه القاعة..

يصل والداها في هذه اللحظة بحضور (هامشي) كما
تعودت طوال عمرها لكنها كانت أكثر من راضية
بتعويض القدر..

يعانقها أبوها بنظرة كسيرة كأنه أدرك في هذه اللحظة
أن ابنته التي طالما تعامل معها كدجاجة تبيض له
الذهب الآن وجدت من يعاملها كأميرة تلبس الذهب!
يعتذر منها بعينين طالما تلطختا بالقسوة والآن
بالذنب!

لكنها تواجهه بابتسامة صافية لامرأة واجهت الموت
بشجاعة ففهمت سر الحياة..
(العطاء)!

تغرقها أمها بقبلاها الباكية وهي تحمد الله على نعمه
لتتطلق زغاريدها من جديد في القاعة التي تنوع
الحضور فيها بين بعض النزلاء من المركز الطبي
الذي كانت تعالج هي فيه..

والكثير من زملاء جهاد في المشفى الجديد الذي
ساعده صهيب في العمل فيه..

يتقدم معاذ الصغير بباقة ورد بيضاء لفها بمزج لطيف
بين علمي مصر و فلسطين ومنحها للعروسين
فتضحك زهرة بفرحة وهي تتلقفه منه لتقبل رأسه
باعتزاز..

فيما يبتسم صهيب وهو يتقدم مصافحاً جهاد بمباركته
الدافئة قبل ان يلتفت نحو زهرة بقوله :

_ قصة كفاح رائعة سأكون سعيداً جداً بالاحتفاظ بها
في دفتر معاذ.. كي يوقن أن امه لم تمت.. وأن روحها
تحلق حوله في كل من ينتصر في معركة مثلك!
تدمع عينا زهرة وهي تهزله راسها بامتنان حقيقي
جفت معه كلماتها..

بينما تقترب منها يولاند تعانقها لتهتف بالعربية
بفرحة حقيقية :

_ مبروك..

ثم تميل علي أذنها هامسة بنصيحة لم تجد أفضل منها
في هذه اللحظة وكأنها تحدث نفسها قبل ان تحدثها
هي:

_ عيشي الفرح بكل طاقتك كما انتهك الحزن بكل
طاقته.. هكذا تستمر الحياة.

_عزيز!!

يهتف بها جهاد بترحاب وهو يفتح ذراعيه لعزيز

الذي ظهر لتوه والذي عانقه بقوة هاتفياً بمرح :

_تظن أنك لو أقمت فرحك في ألمانيا فلن أحضر؟! أم

تراك تكبرت علينا لأنك صرت مشهوراً؟!!

يضحك جهاد بود وهو يعانقه ليلتفت عزيز نحو زهرة

بقوله :

_ماسة ترسل إليك تحياتها.. للأسف عجزت عن

الحضور مع صعوبة السفر بالأطفال.. لكنها تنتظر

مني فيديو مصور لكل أحداث الحفل.

تضحك زهرة بفرحة وهي تجده يسحب جهاد نحو

منتصف القاعة بعد إشارة خاصة لفرقة الموسيqa

سبق الاتفاق عليها هاتفياً :

_ (واجب مصري) لعريسننا.. دبكة فلسطينية!
تصفق زهرة بكفيها وهي ترى صهيب ومعاذ وبعض
الرجال ينضمون إليهم بحماس.. مع الموسيقى المميزة
للدبكة الفلسطينية..

حركاتهم تفتقد للدقة المطلوبة في الرقصة الشهيرة
لكن يكفيهم صدق النية في إسعاد العروسين بأي
طريقة!

تدور عينا زهرة بينهم وهي تشعر بفرحة جهاد
الحقيقية تجد توأمها في قلبها هي..

كم هي عظيمة عطايا القدر عندما يمسح بكف

(العوض) أثر الوجع الطويل!

وفي مكانها كانت يولاند تشعر بفرحة لا تدعيها

للعروسين..

فرحة لم تشبها سوى غصتها ويد الماضي تتشب
مخالبا في صدرها.. بأقصى صورة!
لم تشعر بقدميها وهما تسحبانها نحو زاوية القاعة
حيث إحدى النوافذ المظلة على النهر القريب..
دموعها تجري على وجنتيها دون توقف وصورة
المياه امامها تعكس لها حياة كانت قريباً لها..
والآن صارت غريبة.. غريبة عن كل شيء!

_ لماذا تبكين!؟

صوت صهيب الحنون بعربيته الكسيرة ذات اللكنة
الألمانية تصيب موضعاً خاصاً في قلبها وهي تشعر
وسط غربتها أنه - بصورة ما - يشبهها..

تعرف أنه يعرف قصتها كلها لهذا لا تكلف نفسها
مشقة التخفي وهي تمنع في النظر لصفحة الماء
أمامها :

_ لو جرت الأمور ب(عاديّة) لما حضرت هذا الزفاف
وحدّي أبدأ.. كنت لأحضره مع رجل تركت دنياي كلها
لأجله.. كنت لأكون فخورة به كما هو فخور بي .. مع
أجمل ثلاثة أطفال رأتهم عيناى.. صورة مجسدة
لعائلة سعيدة كانت يوماً ما كل حياتي.

تعجز عن التحكم في دموعها فيقول برفق حليم :
_ ومن قال إن (عاديّة) الصورة تعني المثالية دوماً؟!
أحيانا (عادية) الصورة تعني مجرد قشرة واهية
مؤقتة.. توّلّمتنا إزالتها لكننا نتعايش مع واقع حقيقي
بعدها.

_ لا أزال لا أستطيع التعايش.. حقيقة واحدة لا تزال
تسكنني.. أولادي (نائمون) ينتظرون أما (قوية)
توقظهم.. تنتقم لهم ولنفسها.. لكنني عاجزة ان أكون
هكذا!

_ أولادك ليسوا نائمين.. أولادك ماتوا.
تبدو لها عبارته رغم حنو نبرته قاسية كصفحة
فتلتفت نحوه بحدة لكنه يبدو متعمداً كجراح خبير
يدرك موضع مشرطه :

_ هذا أول ما يجب أن تواجهيه.. الفقد لن يغير حقيقته
إنكار! أولادك رحلوا للأبد.. لكنك لا تزالين باقية..
أولادك لا ينتظرون أما قوية تنتقم.. بل أنتِ من
تحتاجين أن تكوني أما قوية تنقذ نفسها من التخبط
والتيه.. أنتِ أخذت اول خطوة في الطريق الصحيح

عندما انتصرت لإنسانيتك وساندت الرجل الذي خانك

بعد كل ما فعله.. لكن يبقى الطريق طويلاً.. بطول

هوية تحتاجين لإجادهها..

ترمقه بنظرة طويلة وهي تشعر بكلماته تصيب

سهامها في صدرها..

لتسأله بتردد :

_زهرة أخبرتني عن قصتك.. تشبه قصتي كثيراً.. أنت

الآخر غيرت دينك لأجل زوجتك..

لكنه يقاطعها بقوله :

_لم أغيره لأجلها.. بل هي أشارت لي للطريق وأنا

حكمت عقلي.

_تعني أنك توقن أنه الدين الحق!؟!

_وماذا لو قلت لك أنني أراه كذلك؟! ستتبعيني متأثرة

بكلامي؟!

تهز رأسها بتردد قائلة:

_ربما.

_إذن لم تتعلمي شيئاً!

يقولها بأسف ليقترّب منها مردفاً :

_كفاك اعتناقاً للأفراد! الحق لا يُعرف بالرجال إنما

يُعرف الرجال بالحق..

لا تزال تهز رأسها بتردد فيبتسم مردفاً :

_كم درستِ من سنوات في الطب كي تنقذي (جسد)

أحدهم؟! ألا تظنين ان الدراسة لأجل إنقاذ (الروح)

أولى؟!

تبتسم بغرابة وقد بدا لها كلامه أكثر منطقية خاصة

مع استطراده :

_تسمعين عن (علم مقارنة الأديان)؟! أظنك ستكونين

مهتمة كثيراً به خاصة لو درستِه من جوانب حيادية..

أنتِ لم تعرفي (الإسلام) بعد.. أنتِ اصطدمتِ فقط

ببعض أتباعه.. خذي وقتك حتى تتخذي قراراً يؤيده

عقلك قبل قلبك دون تأثير من احد.. أي أحد.. الله خلق

الإنسان وميزه بالعقل.. وأنا أثق ان عقلك سيلهمك

الصواب.

تتسع ابتهاماتها وهي تشعر لأول مرة منذ عهد بعيد

انها تقف على ارض صلبة..

ليس فقط أنها تسامحت مع جرح ريان..

ولا اختيارها الحر أن تبتعد عن إيلان ومن معه..

ولا حتى عملها الجديد هنا في المشفى

لكن..

هذه الروح (القديمة) في نفسها والتي تشعر أنها

تتجدد!

روح حرة لا تجد غضاضة في التمرد في سبيل البحث

عن الحقيقة!

لهذا أحببت حيادية كلماته السابقة وهي تضعها على

اول الطريق الذي أرضاها..

(العلم) و (الدراسة).. كي تصل للحقيقة التي لا ترتد

بعدها أبداً.

لهذا اكتسب صوتها رنة رقيقة محببة وهي تمسح

بقايا دموعها بنفسها قائلة :

_لم تتح لي فرصة لشكرك على مساعدتي في العمل

هنا..

يهز رأسه بتسامح وهو يلح معاذ الذي اقترب منهما

بابتسامة تشبه ابتسامة أبيه..

ابتسامة خطفت قلبها وهي تمسح بكفها على رأسه

بينما أبوه يقول لها بنبرة رجولية داعمة ذات مغزى:

_قريباً تشكريني على شيء آخر.

ترفع إليه عينيها بامتنان وقد فهمت ما يريد قوله

لترد :

_يوماً ما سأصل للحقيقة التي ترضي عقلي قبل

روحي.. ساعتها سأشكرك كثيراً.

تقطع عبارتها وهي تنتبه للجلبة التي كانت قادمة من
وسط القاعة حيث تحلق الحضور فجأة حول شاشة
عرض كبيرة بدت وكأنها تعرض فيديو مباشرا..
من القدس..

وبالتحديد من امام المسجد الأقصى..
تقترب مع صهيب الذي كان يراقب بدهشة ليصله
الجواب في صيحات الحضور الفرحة..

_ من ساحة المسجد الأقصى نقولها لكما.. كلنا
أهلكما.. كأنكما هنا!

تتعلق عيون الحضور بالشاشة التي انبعث منها
الهتاف السابق بحرارة وهي تنقل الحدث مباشرة وقد
قررت مجموعة من أهل القدس ممن تعلقوا بحكاية

(جهاد) و(زهرة) بعدما عرفوا من منشور زهرة
الأخير على صفحتها كم الحسرة التي يعيشانها لأنهما
لم يقيما زفافهما هناك..

تدمع عينا جهاد بتأثر وهو يضم زهرة التي سألت
دموعها على وجنتيها وهي تتابع الفيديو لهؤلاء
الجمع من أهل القدس وقد صنعوا ما يشبه (ماكيت)
مجسماً لزهرة في زي العرس الفلسطيني وجوارها
جهاد..

هذا الماكيت المجسم الذي حملوه في المقدمة ليسيروا
خلفه كأنهم يدخلون بهما للمسجد..

الهدوء الخاشع يفرض نفسه على المشهد قبل أن
يخرج الجمع من المسجد من جديد بعد ثوانٍ كأنما
تمت مراسم عقد القران..

يدفعون (الماكيت) المجسم أمامهما فيخفق قلب جهاد

بعنف وهو يشعر انها حقاً هناك!

يتقدم الجمع من أهل القدس ليجولا حول المكان..

يرفعون صوراً أخرى للعروسين بلقطات مع مسجد

قبة الصخرة بلونه المميز مع لافتات كبيرة..

(كلنا أهلكما)

(كأنكما هنا)

(فرحتكما فرحتنا)

وأخيراً هذه اللافتة الكبيرة التي توقف عندها البث..

(يخدعون أنفسهم بفرض الحدود.. أوطاننا في قلوبنا

لن ينتزعا منا أحد)

وأخيراً يتوقف الفيديو الذي أرسلته المجموعة على
صفحة زهرة الشهيرة على أحد مواقع التواصل وقد
وسموه باسمها واسم جهاد..!!

يسود القاعة صمت مهيب لا يقطعه سوى صوت
نشيج زهرة الخافت متأثرة بجلال وحميمية الحدث..
قبل أن تتعالى الصيحات بتعاطف كبير حتى من دون
العرب مع جهاد وقضيته..

_ رأيت ما رأيته؟! كان هذا حقيقياً؟! هل نحلم؟!
تتمتم بها زهرة بين دموعها وهي تتشبث بحضنه..
تشعر بانتفاضته الثائرة بين ذراعيها.. عيناه
جاحظتان معلقتان بالشاشة التي ابيضت تماماً بعد
انتهاء العرض لكنه لا يزال يشعر بالمشاهد حية في
عينيهِ.. وقلبه!

قلبه الذي ضج بخفقاته وهو يتناول (ميدالية حنظلة)
التي عادت معلقة في جيبه ظاهرة لكل من يراه..
يرفعها عالياً كأنما يود لو تطال ذراعه السماء في
هذه اللحظة يجد كلماته أخيراً هاتفاً بين عزة
وحماسة :

_ لا تعجبوا.. هؤلاء هم الفلسطينيون..نسب واحد..

دم واحد.. مهما فرقتنا الغربة!

تضحك زهرة بسعادة تسع الدنيا وهي ترى العزة في
عينيه تكاد ترفعه فوق منبر غير مرئي..

تدور عيناها حول الحضور فتلمح فرحة حقيقية
تترجمها حركاتهم الراقصة وهم يدورون حولهما لا
يتركون لهما فرصة للجلوس على منصة العرس..
وهو..

هو الذي لم تره سعيداً كما اليوم!
لهذا ما كادت تخلو به في غرفتهما التي ضمتهما
أخيراً ليتلقفها عناقه الملهوف..
حتى ضمت رأسه لصدرها هامسة بحرارة عاطفتها :
_ آه! كم من سنوات حلمت فيها بهذه الفرحة التي
تسكن عينيك.. فرحة لم أرها ساطعة كما اليوم!
يبتسم وقد دمعت عيناه مستكيناً لدفء عناقها
للحظات..

قبل أن يرفع وجهه إليها.. يعانق خديها براحتيه
هامساً :

_ صدقت! وكأن الله الكريم أراد أن يمنّ عليّ الليلة
بالذات بهذا الشعور.. وكأني.. وكأني عدتُ لوطنيّ
معاً!

تبتسم و عيناها تتوهجان بفرحة :

_ قلبي رفرف عندما رايت الفيديو.. كأننا فعلاً كنا

هناك.. هكذا تهون في عيني وعينك كل غربة!

_ دمت لي بشرى الخير في كل ساعة! وكأنك خلقت

لتكوني زغرودة فرح يطلقها قلبي كل حين!

يقولها و ابتسامته تتسع بينما تشتبك أنامله بأناملها..

يرفع إصبعها المزردان بدبلته الملونة بألوان علم بلاده

أمام عينيها فتكررها للمرة التي لا تعرف عددها في

عمر حبهما :

_ أعدك أن نعيش دوماً كهذا.. أنت بدربك في جهاد

وأنا بحبك في جهاد..

يقبل إصبعها الذي صار بعينه يساوي وطناً بأسره..

شفتيه تتسابق على ملامحها بهمسه :

وَأَنَا أَعِدُّكَ أَنْ تَكُونَ (قَدْس) قَلْبِي كَوْطَنِي.. عَهْدِكَ
مِنْ عَهْدِهِ.. لَا تَهُونِينَ أَبَدًا كَمَا لَا يَهُونَ.. وَأَمَامَ عَيْنَيْكَ
يُرَخِّصُ كُلَّ غَالٍ.



أخضر



_لم تطرديني هذه المرة!

تقولها عزة بصبر امتزج بالرضا وهي تدخل غرفة
هيام في شقة الأخيرة والتي تحسست طرف فراشها
بذراعها السليم ببطء بينما تشيح بوجهها عن
شقيقتها كأنها لا تزال لا تتقبل حضورها..
أسابيع طويلة مضت وعزة مثابرة في الحضور رغم
عنف هيام الذي أخذ في الفتور يوماً بعد يوم..
فالتقطت عزة طرف الخيط كما نصحتها إيهاب لتأخذ
دورها في الاقتراب.. في الاحتواء..

تماماً كما الآن وهي تتقدم من فراش شقيقتها لتجلس

جوارها قائلة :

_أعددت لك صينية البطاطس كما تحبينها..رشة

بسيطة من القرفة تعطيهما الطعم المميز كما علمتني

في صغري.. تذكرين!؟!

تدمع عينا هيام كأن الكلام مسّ جانباً هشاً في طبيعتها

الصخرية لكن عزة كانت تفهم نقطة ضعف شقيقتها

فيما يخص طفولتهما..

لهذا استمرت في الطرق على نفس الباب :

_أنت من جعلتني أحب الطهي.. في صغرنا كنت أراك

كالمساحرة.. تدخلين المطبخ بأشياء بسيطة في يدك ثم

تشعلين النار فتخرجين بالطعام الشهي الذي أحبه..

تعلمين!؟! بعد كل هذه السنوات.. وبعد شهرتي



بمهارتي في الطبخ التي يحكون عنها لازلت لا أجد
غضاضة أن أعترف.. أن طعامك وقتها كان أذ طعام
أكلته في حياتي.. لم ينافس في قلبي مذاق أي أكل.
خيطان رفيعان من الدموع يسيلان فوق وجنتي هيام
وهي تسمع شقيقتها تردف بحرارة أكبر :

لازلت اذكر في صغرنا عندما كانت تشتد برودة الجو
فتتركيني في الفراش لتركضي نحو الموقد تحضرين
لي الفطائر الساخنة.. أو عندما كانت تشتد حرارته
فتجمدين لي عصير الليمون لتقنعيني أنه نوع من
المثلجات.. طالما كنتِ تجيدين الاعتناء بي..

ثم تصمت لحظة لتردف ببعض العتب الذي امتزج

بامتنانها :

في صغرنا.

هنا تلتفت نحوها هيام.. ملامحها تصرخ بغضب ظاهر
لم يلبث أن استحال لحزن هادر أظلمت معه ملامحها
تماماً وجعل عزة تشعر بالإشفاق نحوها أكثر لتضم
كفها بين راحتيها هي مردفة :

_ لا ازال اذكر عندما كنت طفلة وكنت تصرين ان انام
في حضنك.. في عز الحر.. اقول لك اني اختنق.. لكنك
كنت تحتلمين.. كنت اتضايق لكنني لم اكن ادرك وقتها
انك كنت تحمينني.. حتي لو اختنقنا معا.. تماما كما
فعلت حين تعمدتِ دفعي للزواج من راغب.. طالما
كانت هذه طريقتك في التعبير عن حبك لي.. طالما
رغبتِ في حمايتي حتى ولو آذيتنا معا.. تخونك
الطريقة كثيراً لكن..

تصمت بعدها محاولة ابتلاع ما بقي من عتابها

لتردف بما تظنه الآن الأهم :

_ أنا شقيقتك.. مهما فرقت بيننا الأيام والظروف

والمشاكل لن تتغير هذه الحقيقة أبداً.. أنتِ آذيتني

كثيراً.. ضربتني من حيث لم أتوقع الضربة أبداً..

لكنني أثق أنك لم تكوني تريدين لي إلا الخير كما

صوره لك عقلك.

هنا تتخرط هيام في البكاء فجأة بمشهد يدمي القلب

وهي تضمها إليها بذراعها السليم.. لتسعث كلماتها

كما بقية مشاعرها الآن :

_ والله هو كذلك! هل شككت لحظة في هذا؟!!

(اليتيمتان)! هكذا كانوا يصفوننا انا وأنتِ عندما

وجدت نفسي فجأة طفلة مسئولة عن طفلة!

اضطرت أن أكبر كي تكبري أنت! كل ما كنت أتمناه
أن تكوني في خير حال جواري..جواري.. جواري..
تكرر كلمتها الأخيرة مراراً كأنها مربوط الفرس لتبتعد
بوجهها قليلاً ما يمكنها من التقاط نظرات عزة العاتبة
رغم امتنانها فتدفع بسخط امتزج بأسى نبراتها :
_ لكن (الفرخ الصغير) الذي آوئته هجر عشي اول ما
قوي جناحه!

تتهده عزة موقنة من عقم جدالها.. في ظروف أخرى
ربما كانت لتحاول دحض حجتها لتواجهها بعيوبها
لكن الآن لا مجال سوى لموازرتها في محنتها..
خاصة وهيام - التي بدت كأنها في كل يوم يمر تزداد
يقيناً بمصيبتها في فقد زوجها وعائلها الوحيد- تردف
بين دموع حسرتها :

_أختك عادت مكسورة الجناح كيوم فقدنا أبويننا..
لكنني الآن محملة بوزر أكبر.. ثلاثة أولاد! يا ويلي!
يا ويلي!

تهز عزة رأسها وهي تدرك كيف تفكر شقيقتها التي
لا تزال تؤمن ان (ظل رجل أفضل من ظل الحائط)..
ربما لهذا أفقدها حزنها قدرتها على تحريك ذراعها..
ولنفس السبب كانت تسعى بكل طاقتها لتزويجها هي
وقد كانت ترى أن كل نجاحها لا يساوي شيئاً دون
(رجل)!

لكنها لم تجادلها كاظمة غيظها من جديد وهي تربت
على كتفها قائلة :

_وزر ثقيل لكننا نحمله معك.. أنا وعمهم وجدتهم..
لن نتركك أبداً.

يرتجف جسد هيام بوهن وعيناها الدامعتان ترمقان
عزة بنظرة راجية معذرة.. ليأتي صوتها الخافت
مكماً الصورة وهي تشير بعينيها نحو ذراعها
الساكن الذي فقد قدرته على الحركة :

_تشمطين في؟! هو ذنب زوجك السابق الذي غيرته
ليلة زفافكما؟؟

فتتهد عزة بحرارة وهي تتذكر ما تحكي عنه لكنها
تتحاشى الحديث عن الأمر بقولها :

_ما عدت أريد عتاباً ولا نبشاً في الماضي..أريد فقط
ان اكون جوارك كما كنت طوال عمرك جوارى.. حتى
لو كنتِ أخطأتِ لا يزال في العمر متسع للغفران.
تتعانق الشقيقتان أخيراً وقد بدا وكأن القدر يمنحهما
فرصة للتعافي من جروح الماضي..

تلوح منهما نظرة لأولاد هيام الذين وقفوا على الباب
وقد علت وجوههم البائسة نظرة متعجبة من هذا الود
الذي خيم أخيراً على الأختين..

فتفتح عزة لهم ذراعها في دعوة لعناق..

_ نديم.. مأمون.. أو اب.. تعالوا..

تناديهم تباعاً فيتقدم الأوسط والأصغر فيما يبقى
الأكبر نديم واقفاً مكانه يرمقها بنظرة غريبة لم
تفهمها..

تعانق شقيقه بحنان ليأتيهم صوت نحنة راغب
المستأذنة من الخارج..

قبل أن يدخل ليسأل هيام عن حالها فترد باقتضاب
عادت معه فظاظتها المعهودة..

_أحضرت لكم دراجات جديدة.. تعالوا معي لمدخل

البيت كي نراها..

يهتف بها راغب بحنان مخاطباً اولاد شقيقه ليهل

مأمون وأواب بفرحة وهما يركضان خلفه فيما تتناقل

خطوات نديم وهو يلحق بهم..

فترمقه عزة بنظرة مستغربة وهي تلاحظ أنه صار

أكثر كآبة وأكثر عزلة..

_مسكين.. حمل الهم مبكراً..

تقولها لنفسها غافلة عن حال الصبي الذي وقف من

بعيد يراقب عمه وهو يوزع الدراجات على أخويه

بعينين مشتعلتين بالغضب وشفقتين مكتويتين

بالصمت..

_تعال يا نديم.. خذ دراجتك.

يهتف بها راغب باحنو وقد اختار له الدراجة الأكبر
فيتقدم بخطوات بطيئة ليتناولها منه برأس مطرقة
دون شكر..

_ أعجبتك؟! تراها جيدة أم أبدلها لك!؟!

يسأله راغب باهتمام لكن الصبي يشرح بوجهه قائلاً
بما بدا غامضاً :

_ اسأل زوجتك.. هي دوماً تعلم ما لا نعلمه.

يتعجب راغب غرابة رده لكنه يخبطه على رأسه
بخفة قائلاً بحنانه الخشن :

_ تكلم جيداً يا ولد.. أعجبتك أم لا!؟!

لكن رد فعل الصبي يأتي متطرفاً وهو يبتعد صارخاً
بانفعال:

_ لا تضربني! من كان له حق ضربي مات.

يتخشب راغب مكانه وقد راعته ردة فعل الصبي
خاصة وكلماته تسكب الملح على جرح الصغيرين
شقيقيه فتخبو فرحتهما بالدراجات..

وكذلك رُبي الصغيرة التي سالت دموعها بصمت وهي
تراقب الموقف..

لكن راغب يتقدم ليشد بقبضتيه على كتفي نديم قائلاً
بحزم رفيق:

_ ألا ترتضيني أباً بعد أبيك؟! أتظنني أقسو عليك يوماً
أو أقصر في حقك!؟

يبدو الصبي وكأنه يقاوم صراعاً أكبر من سنوات
عمره..

تتكس الدموع في عينيه لكن الرجال لا يكون كما
علمته أمه.

يعتذر بخفوت وهو يطأ رأسه فيربت راغب على
كتفه ثم يعانقه لكن الموقف لم ينته عند هذا الحد..
ففي الليل وعندما نام الجميع كان الصبي يتسحب
لمدخل البيت..

يفسد الدراجات كلها ويشوه طلاءها الأنيق..
تتلاحق أنفاسه وهو يشعر ببعض المتعة من فعلته
التي لا يدري لماذا فعلها..

هل هي رغبته أن يتألم الجميع كما يتألم هو؟!
لماذا إذن لا يفضح السر ويعن عما سمعه؟!
ربما هو شعوره أنه يخدعهم كما يخدعونه!
أنه - مع صغره - يعرف حقيقة لا يعرفها الكبار!
وربما هو خزيه من أن تتكشف حقيقة أبيه المجرم
فيعير بها!

يجلس قريباً ليعطي ظهره للجدار يراقب الدراجات
التي أفسدها بنظرة منتشية لم تخلُ من الذنب..
يتصور شعورهم بالضيق عندما يرونها هكذا فينتفخ
صدره بشعور السيطرة المهيمنة..
سيغضب العم راغب وتدهش زوجته ويتضايق
مأمون ويصرخ أو اب.. وتبكي ربي!
ينعقد حاجباه للخاطر الأخير..

إلا ربي!

وكأنما قفزت من خاطره!!

يشهق مندهشاً وهو يجد كف الصغيرة يربت على
كتفه وبراعة عينيها الجميلتين تؤمنان خوفه :
أنا رأيت ما فعلته.. لا تخف لن أخبر أحداً.. لكن..

لماذا فعلت هذا؟!

يشيح بوجهه دون رد فتردف ببراءة :

لست غاضبة منك.. لو فقدت أبي مثلك أظني سأفعل
أشياء غريبة.

لن تكوني مثلي أبداً.

يقولها بأسى وهو يطرق بوجهه لكنها تربت من جديد
على كتفه قائلة :

ربما لن أكون مثلك.. لكنني لن أغضب منك أبداً.

يرفع وجهه إليها بابتسامة شاحبة تنتقل إليها فتعاود
همسها :

لا تفعل هذه الأشياء ثانية .. لا تليق بك أفعال

السيئين.. أنا أحبك ولا أريد أن أخاف منك.

يهز رأسه لها فيما يشبه الوعد..

وعد بدا وكأنه بطول العمر كله!

ليهمس لها أخيراً بنبرة أمرة :

_اصعدي الآن ونامي.. ولا تخرجي ليلاً من شقتكم

ثانيةً لأي سبب.. مفهوم!؟!

تطيعه بهزة من رأسها ثم تلوح له مودعة وهي تصعد

لأعلى حتى تختفي عن ناظريه فيسبل جفنيه ببعض

الندم..

غداً عندما يشرق الصباح سيكون اول ما يفعله أن

يدعي المرض ويلزم الفراش كي يبعد الشكوك عن

نفسه أنه من أفسد الدراجات.. لكنه سيفتح حصالة

نقوده حيث يدخر.. ليشتري لها لعبة تعوضها عن

دراجتها التي أفسدها..

=====

في المطعم الذي التقاها فيه اول مرة والذي صار
أيقونة خاصة في عمر حبهما يجلس إيهاب شارداً
يراقب الطريق عبر النافذة الزجاجية العريضة
للمكان..

لا زال يطمح كل مرة يأتي فيها هنا وحده أن يجدها
صدفة..

وكانما كان قدر حبهما أن تداعبه الصدف ويجلده
التخطيط!

حبهما (فاجومي) مثله.. ومثل ما صارت هي!
يبتسم باشتياق وهو يتذكر لقاءه بها هنا منذ ما يزيد
عن خمسة أشهر..

جلستها الغريبة أمامه كأقرب ما تكون لقلبه..
الحمقاء لا تزال لا تدرك كم تحبه..

لكنه هو يثق كما يفعل دوماً أنها في حبه غارقة!
ومع هذا لا يبادرها بأي اتصال تاركاً لها حرية اتخاذ
قرارها بالوقت المناسب..

لماذا جاء اليوم بالذات وهو شديد التوتر بشأن إياد
الذي سيحكم في قضيته - نهائياً - في صباح الغد؟!
هل ينقصه القلق؟!

لكن.. ربما كان هذا هو الجواب..

لا تزال جنيته - رغم غيابها - تمنحه السكينة!
صوت هاتفه يقطع شروده فيبتسم برضا وهو يراقب
الإشعارات الجديدة على مدونته (الفاجومي) التي عاد
يكتب فيها خواطره والتي ازداد عدد متابعيها بعد
عودته..

عودته لنفسه وروحه القديمة..

لا يدري لماذا رفع عينيه في هذه اللحظة بالذات نحو

الباب..

هل رآها قلبه قبل عينيه؟!!

قلبه الذي كان يخفق الآن بجنون وهو يراها تتجاهل

الأنظار التي تسلطت عليها فور تعرفهم إليها لتتقدم

نحوه..

مشيتها الواثقة بمظهرها شديد الأناقة تناقض هذه

النظرة الخاصة جداً في عينيه..

نظرة طفلة تائهة تنتظر كفه هو بالذات كي يعبر بها

الطريق!

لا يعرف أيهما بادر الآخر بمصافحة لكن ما كان يوقن

به أن كليهما منح الآخر في "الحظة" دفناً يكفي

ليحميه برد "العمر" كله!

ينتظر جلستها أمامه - كعادتها- لكنها تقترب أكثر

لتجلس.. جواره!

_ أخيراً!

يهمس بها مغمض العينين محاولاً احتواء رجفة

جسده في هذه اللحظة..

يطبق راحتيه على كفها بتثبيت كأنها في هذه اللحظة

أغلى كنوزه!

بينما تبتسم وهي تشعر أن داخلها فوضى لذيدة!

لم تفكر وهي تتخذ مجلسها اليوم جواره.. كأنها القت

عن كتفيها عباءة أخرى من عباءات تردها..

_ أوحشتني.

تهمس بها حرة دون قيود وهي تعتدل في جلستها..

تسحب منه (كفاً) وتمنحه (أملاً)..

فيتهد بحرارة وهو يراقب كفها الذي أعادته جوارها

ليرمقها بنظرة عاتبة ناسبت قوله :

_خمسة أشهر يا (بخيلة)؟! مائة وخمسون يوماً؟! لم

تفكري في واحد منها أن ترسلي لي حتى رسالة!?!

_مائة وسبعة وخمسون يوماً..

تقولها مصححة باشتياق يشبه اشتياقه لتردف

وعيناها معلقتان بحدقتيه :

_كتبت لك فيها ما يزيد عن ألف رسالة لكنني لم

أرسلها..

_لماذا!?!

كان هذا هو التساؤل المنطقي الذي يفترض ان

يسأله..

لكن ليس وهو.. هو.. وهي.. هي!!

لهذا تغير الرد بما يناسب رجلاً يحفظ كل تفاصيلها :

_ اعتبريها وصلت.. كلها!

يهمس بها بعاطفة واثقة فتدمع عيناها وهي تشعر

أنها تود في هذه اللحظة لو..!

_ تعرف ماذا أريد الآن؟!

تسأله بخجل احمرت له وجنتاها فيبتسم بهذه الطريقة

التي طالما أحببتها منذ سنوات ليرد بجرأة واثقة :

_ تعانقيني مثلاً؟!

تهز رأسها كأنها تتعجب قراءته أفكارها بهذا

الوضوح لتشيع بوجهها دون رد..

فيضحك ضحكة قصيرة راضية ثم يتهد قائلاً بأسف:

_ أخاف أن أقول لك أنك تضيعين عمرينا معاً فتقولين

أنني أضغط عليك.

_ وأنا أخاف أن أظلمك واطلم نفسي من جديد..
تقولها وهي تشرد ببصرها نحو النافذة مردفة :
_ لا أريد أن أعود إليك وأنا أشعر أنني ضعيفة
وخاسرة.

يطلق زفرة ساخطة رغم تفهمه.. لكنه يتجاوز
استيائه ليسألها باهتمام :

_ لماذا جئتِ هنا اليوم؟!!

_ من حسن حظي كي أراك!

تقولها بعفوية تصيب سهمها في قلبه فيضحك هاتفاً
بغيط :

_ ولماذا تتركين الأمر للحظوظ؟! هل قصرت معك؟!..

ما علينا! أخبريني بصدق لماذا أتيت؟!!

_ محتارة في قرار ما!

تقولها بقلق فيهبز رأسه منتظراً سماع تفاصيلها

لتردف :

_لم أكن أريد ان أخبرك.. كنت أريد أن آخذ القرار
وحددي.. لكن.. عندما رأيته الآن مصادفة أيقنت أنه

قدري أن أجده يوماً جوارى في كل مفترق طرق..

حتى دون تخطيط.

يصمت طويلاً دون رد فترفع عينيها إليه بترقب لتجد

في عينيه لمعة آسرة خطفت من دقاتها.. دقة!

_تعرفين؟! أنتِ لذيذة جداً اليوم!

لم تكن أفضل عبارة غزل تقال في موقفهما هذا لكنه

لم يقصد مغازلتها..

بل هذا بالضبط ما وقع في صدره وجرى على

لسانه..

لكنه تتحنح ليتجاوز الأمر بقوله :

_قولي يا جنيتي.. ما الذي يحيرك!؟!

_منذ فترة أتاني عرض لبرنامج جديد في قناة أخرى

أكثر شهرة من قناتي القديمة يناسب مجال دراستي

في علاقة التغذية بالأمراض.. لكن تلك القناة كانت

تريد مني إعلانات لشركات مشكوك في مصادر

تمويلها.. أظنك سمعت عن الشائعات بشأن (...)..

تقولها وهي تذكر له ما كان يعرفه مسبقاً عن سوء

سمعة تلك الشركات التي تحكي عنها..

فيرد بحسم :

_لا.. لا تنازلات.

تبتسم وهي تتذكر للمفارقة موقفاً مشابهاً في

علاقتها القديمة كان له فيها رأي مختلف..

لتهز رأسها قائلة :

_ هذا ما قلته وقتها بالضبط.. لو لم أفعل هذا فما

تعلمت شيئاً من أخطاء الماضي.

_ إذن.. ما الجديد !؟

_ من فترة وأنا أعمل - بعد دراستي- على تركيب

(مشروب) جديد بمكونات طبيعية خاصة للتخسيس..

نتأجه مبهرة ومضمونة ومع حملة دعاية مناسبة

سيكون حديث الوسط الفترة القادمة.. عرض عليّ

مدير قناة فضائية أن يتبنى تمويل حملة الدعاية بل

والتصنيع مقابل عقد احتكار لبرنامج في قناته.. القناة

نفسها جيدة لكنها ليست بحجم قناتي السابقة.. وأنا

كنت أريد عودة قوية أنسى بها الفشل السابق.

تقولها بحيرة ليرد كأنه يغرس ثقته فيها :

_ أنت من صنعت نجاح البرنامج السابق..وانت من

يمكنها إنجاز ألف برنامج مهما اختلف المكان.

_ تعرف أنني قلت هذه العبارة من قبل لمخرج

برنامجي القديم!؟

تقولها بابتسامة ممتنة ليhez كتفيه بقوله المرح :

_ وما الجديد!؟ طوال عمرك تسرقين كلامي!؟!

تضحك رافعة حاجبها باستتكار ليضحك بدوره ثم

يقول بجدية :

_ أري ان توافقي.. حجم القناة ليس عائقاً.. غداً

تكبرين وتكبر معك.. مشروعك مهم ويحتاج لتوثيق

عاجل قبل أن يسبقك أحد للفكرة.

تهز رأسها باستحسان لتبتسم قائلة :

_ شكراً.

_ أنا ايضاً أشكرك.. قبل حضورك كنت أفكر أن (جنيتي

لا تزال تمنحني السكنينة حتى في غيابها).. مجرد

وجودي في هذا المكان يخفف توترتي.

كلماته تفضح قلقه الذي يحاول مداراته منذ بدأت

الجلسة لتسأله بتوتر :

_ ما الأمر؟! لا تبدو لي بخير!

_ غداً موعد جلسة إيداء للحكم النهائي.

تتسع عيناها بارتياح مع رده لتتهف باستتكار :

_ لماذا لم تخبرني والدتك؟! أنا أهايتها أسبوعياً

لأطمئن عليها.

_ "خوخة" متكئة كثيراً علي هذا الأمر بالذات..

تشعر بالذنب لأنه وصل لهذه المرحلة بسببها..

يقولها بابتسامة شاحبة ليردف محاولاً ابتلاع غصة

حلقه :

_بسببنا.

تربت على كفه لتقول بلهفة :

_متى ستكون الجلسة؟! سأتيكم هناك.. لا.. لا.. سامر

عليكما صباحاً لنذهب معاً.

يهز رأسه معترضاً بقوله :

_قدري حساسية موقفك.. شهرتك تقيد وضعك.. أنت

على وشك صنع بداية جديدة ولا تنقصك الشائعات

والفضائح..

لكنها تقاطعه هاتفة باستنكار :

_ماذا تقول؟! والله لو انطبقت السماء على الأرض لا

أترككم في موقف كهذا أبداً!

يطلق زفرة ساخطة وهو يهم بإقناعها من جديد لكنها
تهتف بحسم وهي تشد على كفيه بقبضتها :
_ لا تتعب نفسك! على منهج (الفاجومي) صرت
أعيش.. لا يعنيني كلام أحد مادمت أفعل ما يمليه عليّ
قلبي.. هي حياتي أعيشها مرة واحدة بطريقتي مادمت
أحتمل النتيجة وحدي.



أحمر



يفتح الباب عقب عودته من عمله ليجث عنها
فيجدها واقفة في المطبخ تعد الطعام..
يضم ظهرها لصدره بقوة فتشقق متفاجئة بهتاف
ضاحك :

_إبراهيم! لماذا عدت مبكراً!؟!

_افتقدتك!

يقولها حارة مشبعة بعاطفته لكنها تستدير نحوه..

تشد أذنه برقة هاتفة بمكر :

_افتقدتني أم أنه موعد المباراة المنتظرة على

التلفاز!؟!



تفوح ضحكته بذنبه فتهاز رأسها بأسف مصطنع قائلة

بمبالغة :

_ تكذب يا إبراهيم؟! تكذب!؟!

لكنه يشدها لصدره بقوة هامساً في أذنيها :

_ عندما أقول أنني افتقدتك في أي وقت فلست أبداً

بكاذب.. يشهد الله أنني أفتقدك حتى وأنت معي..

كأنني لا أروي عطشي منك أبداً.

تقبل ذقنه بدلال يليق بها وبهمسها :

_ اعرف! اعرف جيداً

يرفع حاجبه بمكر لتهاز كتفيها بالمزيد من الدلال وهي

تعاود الاستدارة نحو الموقد :

لكن هذا لا يمنع أنني أحتاج سماعها منك كل وقت.. بقيت خمس دقائق فقط على بدء المباراة.. بدل ملابسك.

يبدو أنني لست وحدي من سيبدلها!
تلفت نحوه باستغراب لتمييز الكيس الصغير الذي جاء به والذي أخرج محتواه ليرفعه أمام عينيها قائلاً :
هذه المباراة مهمة جداً.. سأتفاعل لو شاهدتها معي وأنتِ ترتدين (فائزة الفريق)!

تنطلق منها عدة ضحكات رائقة وهي تداعبه قائلة :
تدخل على زوجتك ب(فائزة) الفريق بعد يوم عمل طويل وتقول أنك افتقدتها؟! رحم الله زمن الرومنسية الجميل عندما كان الرجل يدخل على زوجته بثوب قصير أو قميص نوم.

_ألا أفعل هذا!؟!

يقولها باستنكار ليردف وهو يخلع عنها قميص

منامتها بسرعة فائقة ليلبسها ما بيده وسط

اعتراضاتها الواهنة هاتفاً :

_لكن لكل مقام مقال.. واليوم يوم مصيري في تاريخ

الفريق.. هيا هيا بسرعة.. لو بدأت المباراة دون ان

ترتديه وخسرنا فستكونين أنت السبب!

تنطلق ضحكاتها وهي تري لهفته بينما يعدل لها

ملابسها..

يقبل وجنتيها بحرارة قائلاً :

_راااااعة! هيا لنشاهد المباراة معاً.

_والأكل!؟!

تهتف بها متذمرة لكنه يغلق الموقد ليشدها من كفها

هاتفاً :

_ فيما بعد.. فيما بعد..

يشغل التلفاز ثم يجلس على الأريكة ليجذبها هي على

ساقيه مريحاً رأسها على كتفه فتضحك هاتفه

باستنكار :

_ ستشاهد المباراة هكذا؟!!

_ شششششش! ما ادراك انتِ عن اصول مشاهدة كرة

القدم؟!!

يغمزها بها بانفعال قبل ان تشغله الأحداث فيلتفت

عنها نحو شاشة التلفاز مكتفياً بضمته القوية لها..

تكتم ضحكتها وهي تتركه يشاهد المباراة بينما تكفي

هي بمشاهدته هو..

تأمل وجهه بعشق جارف يزداد يوماً بعد يوم..
تسعدنا مشاركته هذه التفاصيل الصغيرة التي
يعشقها كما صار هو يشاركها اهتماماتها..
تري ملامحه تتشنج بعصبية مع انهماكه في
المشاهدة فيرق له قلبها.. شاعرة بغيرة طفيفة من
التفاتة عنها..

تقبل وجنته برقة لتأخذ نفساً عميقاً يحمل عبارتها
التي صار يسمعها حتى قبل ان تقولها :
_ أحب رائحتك.

يلتفت نحوها بتشتت ليلتقط شيئاً ما في نظراتها
يجعله يسألها بترقب غامض:

_ أعرف هذه اللمعة في عينيك.. هل تخفين عني
شيئاً؟!!

يتراقص حاجباها بمشاكسة وهي تخفي ضحكتها في
كتفه فيهمّ بقول آخر لولا..

_جووووول!

تنطلق صاحبة من التلفاز فيطلق صيحة مستنكرة

وهو يقف ليوقفها معه هاتفاً بانفعال :

_لا.. لا.. فوتتِ عليّ الهدف.

ضحكاتها المنطلقة تغيظه مع هتافها :

_المهم انه هدف لفريقك.. فيهز كتفيها مردفاً بغيظ:

_تعمدتِ هذا؟! تعمدت أن انشغل بك!؟!

_بدلاً من ان تشكرني علي الفال الحسن!؟! اسكت وإلا

خلعت فائزة الفريق وارتديت لون الفريق المنافس!

تقولها وهي تمسك طرف الفائزة كأنها تهم بتنفيذ

تهديدها فيقبل جبينها بسرعة هاتفاً :

_ لا.. لا.. أنا آسف.. اجلسي نكمل المباراة يا وجه

الخير!

تطلق ضحكة راضية وهي تستسلم لعودتهما

لجلستهما..

تراقبه بالمزيد من الترقب وهي محتارة في اختيار

الطريقة المناسبة لتخبره عن المفاجأة..

بعد المباراة!!

نعم.. عندما يفوز فريقه!!

_ يارب!

تدعو بالفوز من قلبها وقد بدأت تتحمس مثله للمباراة

وإن اختلفت النوايا..

لهذا ما كادت تنتهي المباراة بفوز فريقه ليصبح هو

مهلاً وهو يقف بها ليقفز بفرحة طفولية تناقض

جديته المعهودة حتى تتحننت لتقول بتردد :

_ كنت تسال عما أخفيه؟!

فيقبل وجنتيها بحرارة هاتفاً :

_ قولي ما بدا لك!

_ سامي..

_ ماذا به؟!

يسألها بقلق لترد بابتسامة واسعة :

_ يبدو أنه سيحظى بأخ قريباً!

فيهز رأسه قائلاً بتغابٍ :

_ ماذا؟! كيف وأبواه ميتان؟!

_ إبراهيم! ألا تفهم حقاً؟!

تهتف بها باستنكار وهي تمسد بطنها فيضحك ضحكة
عالية وهو يقرص وجنتها قبل أن يعانقها بقوة وهو
يحملها..

يدور بها عدة دورات وكلاهما يشعر بفرحة لا يسعها
الكون كله!

يجذبها قريباً حيث الكيس الذي كان قد عاد به.. والذي
تنتبه هي الآن لما أخرجته منه..

قميص رضيع بلون سماوي!

تشهق بلهفة وهي تقلبه بين أناملها بلهفة قبل ان
تضمه لصدرها هاتفة :

كيف عرفت؟!_

أعرف منذ الصباح! سندس لا تبتل في فمها فولة!

_ لكتني لم أخبرها! أنا حتى لم أخبر أبي كي تكون انت

اول من يعلم!

فيطلق ضحكة قصيرة متهكمة :

_ أول من يعلم! حبيبتي أنا كنت أخشى ونحن نشاهد

المباراة ان نجد الخبر على شريط الأخبار السفلي..

هي رأت اختبار الحمل ذا الشرطتين الحمراءين منذ

ثلاث ساعات تقريباً.. احسبي أنتِ كم مخلوقاً عرف

من ساعتها بمعدل كلمة في الثانية!

تنطلق ضحكاتها وهي تسمع طرقات الباب بهتاف

الحرافيش من الخارج :

_ افتح يا أبا الولد.

_ مبروك يا هيما.

_ توأم بإذن الله.. واحد لك وواحد تتركه لنا نُربّه على

طريقتنا!

_ أرايتِ؟! وأنتِ المسكينة تظنين نفسك

ستفاجئيني!؟

يشير بها لسبابته نحو الخارج قبل ان يلقي إليها
عباءتها ونقابها لترتديهما فيتمكن هو من فتح الباب

هاتفاً بصخب يخلو من ضيق حقيقي وقد احتلت

الفرحة قلبه فلم تترك مكاناً لسواه :

_ كفى يا عجز! فضحتونا!

يتعالى صخبهم بالمزيد من المشاكسات لكنهم يسكتون

جميعاً عندما يصل ربيع الذي تركض نحوه يسرا

لتعانقه بقوة هاتفة :

_ بركة دعاك يا أبي!

_مبروك يا ابنتي.. مبروك يا ابراهيم.

يقولها العجوز بصوت متهدج فضح فرحته الغامرة
وهو يضم ابنه إليه..

ليلاحظ ابراهيم عينيه الدامعتين فيشاكسه بقوله :

_ هكذا إذن؟! تبارك لها قبلي؟! يسرا هانم أكلت
الجو؟!!

تضحك يسرا وهي تتنعم بدفء الرجل الذي طالما
تمنته أبا لتقول بدلال :

_ طبعاً! عندك اعتراض؟!!

_ مبروك يا حبيبتي!

تقولها هبة التي وصلت لتوها فتعانقها يسرا بقوة
هاتفه بصوت يكاد يبكي من الفرحة :

_ أظنك الآن استرحتِ من إلحاحي عليكِ في الدعاء..

الله استجاب.

لكن هبة تربت على رأسها قائلة بود :

_ ومن قال إني سأكف عن الدعاء لك؟! دوماً في

دعائي حبيبتي.. دوماً.

ينفض جمع الحرافيش بصخبهم المعهود ليدخل ربيع

مع إبراهيم ويسرا وهبة..

ولم يكد يستقر في مجلسه حتى خاطب إبراهيم

بقوله :

_ محاكمة إياد ابن السيدة خديجة غداً.. سأذهب معهم

لقاعة المحكمة.

تضطرب هبة مكانها فيما يتبادل إبراهيم مع يسرا

نظرات ذات مغزى وقد كان قد صرح لها من قبل انه

يشعر ان اهتمام ابيه بتلك المرأة يفوق مجرد زمالة

عمل..

لكنه يتحنح ليقول بهدوء :

_عندي مشوار عمل مهم غداً لن يمكنني تأجيله..

ولن أستطيع ان اتركك تذهب وحدك.

_ولماذا لا أذهب وحدي!؟!

يقولها ربيع مكابراً ليرد إبراهيم بقلق :

_أرجوك يا أبي لا تجادلني في هذا الأمر.. صحتك

ليست على ما يرام هذه الأيام.. لا أرى ضرورة ملحة

في ذهابك.

_وهل صرت أنت من يقرر الضرورات الملحة!؟!

يقولها ربيع بضيق لتهتف يسرا بسرعة :

_أنا سأذهب مع ابي.. سأوصله بنفسه ولن اتركه..

يتبادل ربيع وابنه نظرات ضائقة فتهتف يسرا بمرح

وهي تغمز هبة خلسة :

_ لا تفتعلا مشكلة في يوم كهذا.. الأمر لا يستحق.. هيا

يا هبة كي نكمل إعداد الطعام كي نتناوله معاً.

تقولها وهي تربت بأحد كفيها على كتف إبراهيم

وبالآخر على كتف ربيع قبل أن تجذب هبة من كفها

ناحية المطبخ..

ولم تكذ تغلقه خلفها حتى همست مخاطبة هبة بمكر :

_ اسمعي.. غداً صباحاً وبعد مغادرة إبراهيم لعمله

سينتابني تعب مفاجئ..

_ ماذا !؟

تهتف بها هبة بدهشة فتطلق يسرا صيحة مكتومة

وهي تقرص وجنتها مردفة بغیظ:

_ لا تتغابي كإبراهيم! سأتعب فجأة تعب بسيط يليق
بامرأة حامل.. ولن يجد ابي من يذهب معه للمحاكمة
غيرك.. فهمت!؟!

يرتفع حاجبا هبة باستنكار هامة :

_ سنكذب!؟!

_ لا.. ليس كذبا.. أنا حقاً أعاني من نوبات غثيان..
وعندما أقول أنني مريضة فلن اكون كاذبة.. لا تريدين
الذهاب!؟! لا تريدين معرفة الحكم!؟! لا تريدين

رؤيته!؟!

تهز هبة رأسها نفيًا مع كل سؤال من الثلاث فتضحك
يسرا بتهكم وهي تربت على وجنتها بخفة قائلة

بمكر :

_ من بنا الذي يكذب الآن!؟!

تحمر وجنتا هبة بخجل بدا وكأنه يتشعب من قلبها

لخديها..

تود لو تصرخ بكل تعقل أنها لا تهتم.. لا شأن لها

به..

حكايته انتهت لديها بمجرد ما عرفت ماضيه..

لكنها.. لا تستطيع!

لست سهلة أبداً! كان الله في عونك يا إبراهيم!

تقولها هبة بغیظ وهي تلكز يسرا في كتفها فتتاوه

الأخيرة بمبالغة هاتفة بمرح :

من الآن انتبهي لحركاتك معي.. أنا حامل ووضعني

استثنائي!

تبتسم هبة رغماً عنها وهي تشعر بفرحة صديقتها

تكاد تنثر حولهما حقولاً من ورد..

فلا تعرف هل تشكرها ام تلومها؟!
تقضي هبة ليلتها مؤرقة وهي تفكر جدياً في عدم
الذهاب..

لن تورط نفسها معه أكثر..

ستكتفي بالدعاء له!

ركعات طويلة من قيام الليل أدتها وهي تدعو له..

والغريب أنها ساعتها لم تكن تشعر بالخزي..

بل وكأنها فقط تستسلم لقدرٍ هو لها!

حتى إذا جاء الصباح لتنفذ يسراً خطتها بعد مغادرة

إبراهيم وجدت هبة نفسها تقول كأنها مبرمجة :

_ أنا سأذهب معك يا خالي.



في قاعة المحكمة يقف إيد خلف القضبان وهو يشعر
بخوف فطري..

لكنه يشعر بنزار الذي بقي في مصر خصيصاً
لأجله..والذي ربت على كفه عبر القضبان بموازرة
ليقول بمرح مصطنع :

_ اجمد يا ولد! (السجن للجدعان)!

يبتسم له إيد وهو يتذكر كيف كان دور نزار في
مساعدة عاصي الرفاعي للإيقاع بالكوبرا بعدما فقدت
السلطات أثره.. وكيف أجاد أخوه تتبع فهمي عقب
هروبه من المشفى رغم تعقيدات الأمر والاحتياطات
التي اتخذها مجرم خبير مثله..

ليقول إيد بامتنان :

_ لن أنسى صنيعك ما حييت.

_ هذا الكلام يقال للغرباء.. نحن أخوان.

يقولها نزار بجدية نادرة على طبعه المرح ثم يتراجع

مفسحاً المجال لإيهاب وخديجة التي يشعر أنها لا

تحبه.. ولا يلومها كثيراً في هذا..

خديجة التي تقدمت لتشد بقبضتيها على كفي ابنها

وهي تهمس له بيقين كاتمة دموعها وخفقات قلبها

الملتاعة :

_ أياً ما كان الحكم.. نحن معك.

_ المحامي مطمئن.. سيكون الحكم مخففاً بإذن الله.

يقولها إيهاب بهدوء لم يُخفِ قلقه وهو يمد كفه هو

الآخر ليربت على كف أخيه..

فيبتسم إيراد ابتسامة واهنة قائلاً:

_ لا تخافا..صرت أعرف معنى السجن الحقيقي..
السجن الحقيقي الذي عشته طوال تلك السنوات دون
قضبان.. لكن الآن.. الآن وأنا أشعر انكم معي.. كلكم
معي.. أشعر أنني حر.. حر رغم وجود هذه
القضبان..

ثم يأخذ نفساً عميقاً كأنه يستشعر حقاً ما يقول :

_ انا حر.. حر يا أمي.

تدمع عينا عزة بتأثر وهي تراقب الموقف من بعيد..
لم تكن وحدها من تأثرت بهذا اللقاء..

بل هذه التي جلست جوار ربيع.. ورغم أنها كانت
تطرق برأسها طوال الوقت لكنها لم تستطع منع
نفسها من النظر عند وصول خديجة إلى إياد.. ورغم
أنها لم تسمع ما دار بينهما لكن قلبها النقي كان

سعيداً لأجل (الطفل المحروم) الذي شهدت قصته من

البداية..

لعلها تلمح هذه النظرة التي رأتها في عينيه من اول

مرة..

(نظرة من يرغب لكنه يرى انه لا يستحق)

النظرة التي تغيرت الآن أخيراً لأخرى..

(نظرة من يرغب.. وسيسعى لينال ما يستحق.. لأنه

يرى أنه يستحق)

محكمة.

الصوت الهادر يلقي أثره المهيب في قلوب الجميع

الذين لزموا مقاعدهم..

يطلب القاضي سماع الشهود فيكون حسام في

المقدمة..

قبل أن تستكمل الجلسة أركانها..

يجلس حسام مكانه ليربت بشر على ركبته فيقول

مطمئناً :

_ لن يغفل القاضي ان إياد هو من ساعدنا في كشف

طرف الخيط لحل ذراع ذاك التنظيم في مصر.. وبعد

وفاة ذاك المجرم فهمي أظنهم سيأخذون وقتاً طويلاً

قبل ان يتمكنوا من دس ذراع جديد لهم هنا.

_ وماذا عن رأس التنظيم الذي توصلتم إليه في

المركز الطبي الذي يديره الصهاينة بغطاء كاذب في

البلد العربي الذي أخبرتني به !؟

يسأله حسام بترقب ليرد بشر بأسف :

_ مجرد معلومة انقطع خيطها.. تعرف كيف تتجمد

الأمور أحياناً فلا تصل لشيء.

ينعد حاجبا حسام بغضب هادر ليرد بشر بحسم :
_ سيبقون كعهدهم يخططون بدناءة.. وسنبقى كعهدنا
نقاوم ببسالة.

_ تعني أن الأمر سيتوقف هاهنا؟! هكذا فقط؟! لن
ينالوا عقاباً أولئك ال...!!؟!

يطلق سبة بذئئة وسؤاله لا يحمل استنكاراً بقدر ما
يحمل من غضب ليرد بشر بغضب مشابه شابهته
مرارة حقيقية :

_ النهايات السعيدة بقتل الأشرار في الأفلام فقط يا
صديقي.. شرهم باقٍ لكن مقاومتنا أبقى.. قدرنا أن
نبقى نحاربهم حتى قيام الساعة كما قال ربنا في
كتابه.

يهز حسام رأسه محاولاً تمالك غضبه ليعتدل في
جلسته وهو يرى القضاة يتشاورون في الحكم قبل أن
يعلنوه..

_ حكمت المحكمة حضورياً على المتهم بالسجن ثلاث
سنوات.

يرفع إيداء رأسه بالحمد وهو يري الحكم أخف كثيراً
مما توقع..

بينما كتمت خديجة دموعها وهي تعود إليه قائلة
بانفعال :

_ ما أسرع ما ستمر المدة يا ابني! انتظرتك لسنوات
لن يضيرني لو زادت قليلاً.. لعلي بعدها أعوضك.
يربت إيهاب على كتف امه وهو يبتسم لأخيه قائلاً :
_ لا تخف لو افتقدتك فسادخل إليك.. فعلتها من قبل!

يغمزه بها يذكره ليبتسم إياك بدوره وهو يرى ربيع

يتقدم منهم بملاحم ودود..

هو يعرف ذاك الرجل..

زارته خديجة يوماً معه في المشفى عندما أصيب

إيهاب في حادث!

قالت له يومها انه كان زميلها في المدرسة..

تجذب عيناه لتلك الفتاة مع العجوز..

تخلع نظارتها لتمسح عينيها كأنها تزيل بقايا دموعها

فتسقط نظارتها لتتحني فتلتقطها بأنامل مرتجفة دون

أن ترتديها كأنما تخشى أن تبللها دموعها من جديد..

حجابها المتحفظ الساتر.. أدبها الواضح..

هل بقيت فتيات بهذا الطراز في هذا الزمان!؟

يقولها لنفسه وهو يتذكر أنها هي الأخرى كانت
موجودة ذاك اليوم في المشفى بل هي من اخبرت
خديجة بمرض العجوز..

ما الصلة القريبة التي تجعلهما يتواجدان اليوم؟!
يتوارى السؤال الأخير في ذهنه وهو يميز حمرة
الخجل القانية التي خضبت وجه الفتاة ولا يجد داعياً
لها..

لعله ليس خجلاً.. لعلها فقط..

تقطع أفكاره عندما ترفع هبة عينيها إليه في نظرة
خاطفة لم تستغرق سوي ثانية فتشبح بوجهها في رد

فعل مبالغ فيه كأنها فعلت جرماً!

ربما هذا ما جعله ينتبه لرجفة يديها اللتين تشبكهما
وصدرها يعلو ويهبط في انفعال..

لولا أنه يوقن انها لا تعرفه لظن أنها.. متأثرة لأجله!
لا يدري لماذا تركزت نظراته عليها بفضول بينما
ترتدي نظارتها أخيراً لتغادر..
فتلتصق بعينه صورة لعينين طبيبتين خجولتين
غامضتين تخفيان الكثير خلف زجاج نظارة سميك.



أخضر

أهلاً بكم أعزائي المشاهدين مع الحلقة الأولى من
برنامجنا الجديد.. (عشها بلذة.. مع عزة).
تقولها عزة بثقة شعت من داخلها لتمنح وجهها بريقاً
خاصاً توهج أمام الكاميرات وهي تستعرض (اللوجو)
الجديد لبرنامجها..
بلونه الأخضر الذي تحبه لكن بتصميم جديد وبصورة
جديدة لها..
وشاحها الأخضر الذي اعتادت ارتدائه عاد يزين
كتفها إنما بروح مختلفة هذه المرة..

هذه المرة ليست فقط حلقة جديدة في برنامج جديد
في قناة جديدة.. لكنها خطوتي الاولى لتجاوز أخطاء
كثيرة فعلتها في الماضي.. يعني.. دعونا نقول إنها
بداية جديدة في كل شيء.. معنا اليوم فقرات كثيرة
لكن قبل ان نتلقى اتصالاتكم دعونا نبدأ ب.. هذا!
ضحكتها الرائقة تبدو صديقة للكاميرا وهي تتلقى
شارات الاستحسان من فريق العمل خلف الكواليس
فتزداد ثقتها وهي تبدأ البرنامج بالإعلان عن منتجها
الجديد الذي نالت براءة اختراعه..

مشروب طبيعي للتخسيس.. بدأت في الإعلان عن
مكوناته ومميزاته والفارق بينه وبين المنتجات
الحالية في السوق..

والآن نبدأ استقبال الاتصالات..

يختلج قلبها قليلاً وهي تشعر برهبة التواصل مع

الجمهور من جديد بعد انقطاع..

وبعد معاناتها السابقة..

لكن الاتصالات تتوالى مبهجة ومرحبة بعودتها فتزداد

انتعاشاً وهي تقدم وصفاتها بمهارة لا تنقصها..

توشك الحلقة علي الانتهاء والمخرج يشير لها

بإبهامه في رضا...

فتتوهج عيناها بالمزيد من الفخر لتتلقى الاتصال

الأخير.. :

_ هو ليس سوءاً.. هو اعتراف.. أنا فخور بك.. فخور

بك جداً.

تدمع عيناها وهي تميز صوته الحبيب رغم البيانات
المختصرة التي ادلى بها للكنترول.. (الف.. هاء من
القاهرة)

فتأخذ نفساً عميقاً لتقول :

_ السيد (الف.. هاء) من القاهرة.. أنا الفخورة بك..
ولولاك أنت ما كنت أنا هنا الآن!

يشير لها المخرج باستفهام ضاحك من خلف
الكاميرات فتضحك بخجل.. لتردف مواجهة الكاميرا
كأنها تراه هو خلفها :

_ لا أعرف إن كان مناسباً أن أقولها الآن لكنني اشعر
انني تأخرت في قولها كثيراً..

ثم تصمت لحظة لتقولها كما تشبهها الآن قوية..
دافئة.. حاسمة دون تردد :

_أحبك يا إيهاب.

تتلاشى صورة المخرج والكاميرات أمامها.. فلا تعود

تري سوى صورته هو..

صورة لم تعد تبالي بأنافتها او وسامتها..

بقدر ما يعنياها انها له هو..

_أحبك كما أنت.. بكل الميزات التي استطاع قلبي أن

يحصيها.. وبكل العيوب التي أصر عقلي على

الاعتراف بها.. أحبك وأنا أثق ألا أحد قادر علي ملء

هذا الفراغ بين ضلوعي إلا أنت.. أحبك ولا يعنيني أن

يسمعها غيرك.. لكن لعلني أقولها لك الآن في موضع

كهذا لأتني أدين لك بفضل.. واعتذار..

لا يصلها رد لكنها تردف وهي تثق انه يسمعها :

_ شكراً لأنك لم تمل من انتظار جنيتك كي تمنحك
السكينة.. وآسفة لأنني تأخرت كثيراً في اللحاق
بالقطار الوحيد الذي أثق انه سيوصلني لوجهتي..
أنت..

_ إيهاب..

تقولها بحذر فلا يصلها رد لكنها تستجمع شجاعته
لتواجه الكاميرا مردفة :

_ تتزوجني!؟

ينقطع الاتصال فتشعر بالحرج وهي تخرج أخيراً من
فورة مشاعرها لتصطدم بنظرات المخرج بين حرج
وضيق..

ولمزات العاملين خلف الكاميرات فتشعب ملامحها
وهي تشعر أنها أفسدت أول حلقات البرنامج
بتهورها..

هل خدعها منهج (الفاجومي) هذه المرة؟!
لكنها تطلق صيحة خافتة وهي تراه يظهر أمامها!
يبدو وكأنه يستأذن المخرج الذي يضحك وهو يشير
له بالدخول في الكادر فيندفع نحوها ليتناول كفيها في
راحته فتسأله بتعجب :

_ كيف وصلت بهذه السرعة؟!
_ كنت.. أنتظر.

عبارته تبدو مزدوجة المعنى فقد كان حقاً خارج
المبنى ينتظرها كي يفاجئها باحتفال بهذه الحلقة..
لكنها هي من فاجأته هذه المرة!

_والآن ماذا يفترض بي أن أرد على عرضك الكريم؟!
أقول مثلاً (فاجئتي! أعطني فرصة ان أفكر!)؟!
يقولها بمرحة الجذاب فتمتزج ضحكتها الخجلى
بضحكته الواثقة وهو يقبل كفها قائلاً بحروف تقطر
عشقا :

_شكراً لأنك دوماً تدخرين لي أجمل مما أتمنى.. شكراً
لأنك رددت إليّ روعي.



كالقارب الورقي في يد طفل..
فُقدت لديك إرادتي!
ما عدت اعرف فاصلاً في هواك
ما بين عقلي وحماسي!
لكن قلبي لازال يدرك أنني

وجدت معك سعادتي..

وبأن عرائس الأحلام بعدك

لن تفارق جنتي..



_ من هنا كانت البداية.. لهذا كان يجب أن نقيم حفل

زفافنا هنا.

تقولها عزة بعمق عاطفتها التي ما عادت تعرف ترددا

وهي تجلس جواره في منصة عرس شديدة البساطة

في القاعة الداخلية للمطعم الذي اعتادا اللقاء فيه..

فيبتسم وهو يشعر أنه يكاد يطير فرحاً هذه المرة..

شتان بين هذا الحفل.. وسابقه!

هذا الحفل البسيط الذي اقتصر حضوره من ناحيته

على خديجة وإياد الذي نال تصريحا من السجن

بالخروج استثنائياً لحضور زفاف أخيه.. ومن ناحيتها

هي علي هيام وأولادها وراغب ورؤى!

فقط!

وكان كليهما صار زاهداً في المزيد من الشهرة

والأضواء مكتفياً بصاحبه عن سواه!

_مبروك.

يقولها إياد بعاطفة حقيقية صفت من شوائب الماضي

وكيف لا؟!!

وفي كل مرة يوسوس له شيطانه بما فعل إيهاب في

الماضي يعود ليتذكر سيل اعترافاته على شرائط

التسجيل فيدرك أنه طوال هذا العمر كان يتعذب مثله!

ربما كان هو الآخر أنانياً!

الآن فقط يفكر انه لو كان أحب ورد حقاً لرضي لها
بما رضي أخوه أن تعيش أيامها القليلة مع الرجل
الذي اختارته!

يقف إيهاب ليعانقه فتبتسم خديجة من قلبها وهي
تضمهما معاً لصدرها..

لأول مرة تشعر أنها تسير في الاتجاه الصحيح.. وأن
الوقت المناسب لإصلاح الخطأ لا يفوت أبداً!
_ هنا كما الله وجعلها زيجة العمر كله.

تقولها هيام بصوت مرتجف انكسر جبروته وهي
تتقدم منهما شاعرة بالخزي من إيهاب وعائلته بعد
فعلتها القديمة..

لكن إيهاب يبتسم لها بتسامح وهو يرد تهنئتها..

تعانق عزة بذراعها السليم لتهمس في أذنها بعاطفة

صادقة وإن كانت ضلت طريقها يوماً :

_ أخيراً عشت ورأيتك سعيدة في كنف رجل يحبك

وتحبينه!

تبتسم لها عزة وهي تقبل رأسها بينما يتقدم راغب
ليصافح إيهاب في موقف غريب لولا أن كليهما يعرف

حقيقة الماضي..

راغب الذي أصر أن يتصدر المشهد هذه المرة كي
يعرف نساء عزة أن لها من يدافع عن حقوقها وأنها

ليست وحدها!

تنساب الموسيقى الناعمة حولهم فيدعوها إيهاب

لرقصة تشبه رقصتهما ليلة زفافهما الأول..

لكن الفارق أن كليهما الآن كان يتشبث بصاحبه
تشبثه بالحياة نفسها..

العيون تمنح من الوعود ما يساوي ألف عمر..
والشفاه الصامته تكفي بابتسامات الرضا..
والقلوب التي طالما كانت موصدة على ما فيها الآن
تنفتح كل نوافذها لتعانق نسيم ليل منعش..
تنتهي الرقصة فيحملها ليدور بها عدة دورات كما
كان في ليلة زفافهما الأولى لكنها هذه المرة تملك ما
يكفيهما من الثقة لتستسلم له آمنة حتى يستقر بها
على الأرض الصلبة من جديد!



بيت جديد يضمهما لهما وحدهما اختارا معاً كل شيء
فيه..

وهذه الغرفة بالذات التي اختارها هو لها بتصميم
عصري حديث يناسب ذوقها مع لمحات من اللون
الأخضر أضفت بهجة أحببتها هي.. وأحبها هو
لأجلها..

ينزع عنها حجابها برفق ليحل شعرها من رابطته
تتخلله أنامله برفق ليقرب وجهها منه فتشيع بوجهها
في خجل لكنه يهتف بمرح ليتجاوز بها الخجل
كالمعتاد :

_ لا يا حبيبتى.. ليس هذا وقت خجل وتمنع إطلاقاً! انا
رجل سمعتي على المحك من المرة الأولى ولا بد ان
اتصرف! تهون عليكِ سمعتي!؟!

تنفلت منها ضحكة عالية تذيب المزيد من السدود
بينهما فيعاود تقريب وجهها منه هامساً بجدية تامة

هذه المرة وبابتسامة ناقضت دمة حقيقية في

عينيه :

_أظني الرجل الوحيد في هذا العالم العاجز عن
مغازلة امرأته.. كلما أردت أن أصف صورتك في
عيني أجدني لا أجد وصفاً..ربما لأنك الأصل الذي
يُقاس عليه أي تقليد.. الهواء الذي لا تحتاج كثير كلام
لتصف كم تحتاجه كفاك أنك تختنق دونه.. وربما
لأنني سلمت منذ عهد طويل أنك رفيقة الطريق..
المرأة الواحدة والوحيدة.. حواء التي خلقت لي
وحدي.

فتبتسم وذراعاها يحيطان بعنقه هامسة بحرية انطلق

معها بوحها :

_وأظني الأنتى الوحيدة في هذا العالم الغنية عن
غزل تقليدي.. كفاني أنظر لعينيك فأدرك أن اول دقائق
قلبك عندي وآخرها عندي.

يلصق جبينه بجبينها بهممة راضية وشفته تدلان
ملامحها الحبيبة بما يليق..

لكنها تبعد برفق هامة :

_أريد أن أتزين لك أولاً.

تلتمع عيناه بوهج خدير وهو يشعر بكلماتها البسيطة
ترمم شرخاً كبيراً طالما اتسع بينهما..

ابتسامة راضية تولد على شفثيه وهو يقبل جبينها
ليغمزها هامساً :

_أبهريني!

تضحك بخجل وهي تبتعد لتبدل ثيابها في الحمام

القريب فيفعل المثل..

تحين منه نظرة لساقه الاصطناعية فيرتجف قلبه

ببقايا من الهاجس القديم..

لكنه يتجاوزها بثقة رجل أدرك بالطريقة الصعبة كيف

يكون كمال الرجولة الحقيقي..

وكيف تكون العاهة الحقيقية في الروح لا في الجسد!

يشعر بعطرها يداعب حواسه فيلتفت لتغيم عيناه

بنظرة طالما اشتاقتها في عينيه هو بالذات..

يقترّب أكثر لتعانق عيناه شكلها في قميصها الفستقي

الذي احتضن جسدها بنعومة..

والذي طالما حلم أن ترتديه له هو!

كفاه يعانقان خصرها وهو يهمس لها بمكر امتزج

بمرحه المعهود :

_ ادخرت الكثير من الاعترافات (قليلة الأدب) لليلة

كهذه.. لكن.. لا شيء بلا ثمن..

ثم يردف بغمزة لذيذة :

_ قلت لك (في الابتزاز معنديش عزاز)!

تخفي ضحكتها في كتفه وهي تشعر بدوار مشاعرها

في هذه اللحظة يدوخها بمذاق مسكر..

تتذكر أحلام يقظتها التي بقي هو رغم كل شيء بطلها

الوحيد..

يكاد خجلها يذيبها لكنها تتذكر أنها مدينة له ب..

الحرية!

حرية أفعالها قبل أقوالها!

لهذا تطلق عاطفتها حرة في عطاء سخي ألهب

حواسه وجعله يهمس لها بمزيج مرحة الماكر :

_حسناً.. قبلنا اول دفعة! اسمعي يا ستي..

_أحب (ستي) هذه عندما تقولها أنت بالذات.. أشعر

أنني صديقتك وحبيبتك وابنتك.

تهمس بها بالمزيد من العفوية اللذيذة فيضحك وهو

يقرص وجنتها بخفة هامساً :

_من فضلك التزمي ب(الدور).. إنه دور اعترافاتي

انا!

تضحك وهي تعانق وجنتيه براحتيها فيتهد ليهمس

بحرارة :

_الاعتراف الأول.. لا أحب اللون الأخضر..

تطلق شهقة متفاجئة وهي تبتعد عنه بجسدها لكنه

يعاود ضمها إليه مردفاً بعاطفة ذائبة :

_إلا عندما ترتدينه أنتِ! يبدو لي ساعتها كجنة تفتح

ذراعيها وتتحداني أن أقاوم سحرها.

تتعالى خفقاتها بين عاطفة هادرة وفرحة حقيقية

وهي تشعر حقاً كم كانت غيبة!!

كيف ظنت يوماً أنه زاهد فيها؟!

كيف وهي تشعر الآن بحرارة عاطفته تكاد تلهبها

مكانها!!

لكنها تجاوزت خجلها لتسأله بابتسامة متراقصة :

_والثاني..

يبتسم وهو يدفعها نحو مرآة الغرفة فيدير ظهرها لها.. يحضر لها مرآة أخرى صغيرة يضعها امام عينيها كي تتمكن من رؤية ظهرها بوضوح..
ترمقه بنظرة متعجبة فيشير نحو شامة بعينها في منتصف ظهرها تكاد تكون في موضع القلب تماماً..
هذه التي أشار نحوها ليقول كمن اكتشف سراً
حربياً :

_ أي حرف هذا؟!_

تتعجب سؤاله بل وتتعجب انها لم تنتبه لهذه الشامة في جسدها من قبل.. ربما لمكانها الغريب..
تقرب المرآة أكثر لتتسع عيناها وهي ترى ما أراد هو ان يجعلها تراه..

هل تتحول الشامة حقاً في عينيها لشكل أول حروف

اسمه بالإنجليزية؟!!

_ عندما رأيتها اول مرة تشبه أول حروف اسمي قرب

قلبك تماماً استبشرت أنك حقاً لي مهما طال فراقنا..

لهذا كنت أحب أن أترك عليها أثر شفتي لعلهما

توصلان قلبي لقلبك.

يقرن قوله بفعله مع عناق دافئ يصهرهما معاً حد

الذوبان..

ليلة طويلة يقصرها لقاء عاشقين تخبطت دروبهما

كثيراً حتى التقت في النهاية..

المزيد من الاعترافات التي طالما حلت بمثلها فأتتها

بأجمل مما تمننت..

والمزيد من عطايا عشقها التي طالما بخلت بها والآن
تنهمر حوله كشموس صغيرة تفلتت من مجراتها
لتسقط بين كفيه..

(الأخضر) الذي طالما ترنح بين جنون الأصفر وجُبن
الأزرق..

الآن ينتفش منتعشاً بحيوية الأصفر وسكينة
الأزرق..

للتحقق نبوءة.. وحلماً.. وواقعاً أجمل..
عاشق.. وجنية تمنحه السكينة.



برتقالي



نسمع احلى هلهوله * للغالي الحلو طوله
الف مبروك كولوله * الف مبروك يالغالي
الليله ايدك محنايه * جبيره فرحتك هايه
هيل وطش بالولايه * هيبه ووجهك يلالي
العبك جوله وما اقصر * اله اركصك ركص يعور
ركص عمارة اركصك حالف * يل كاعد بالكوشه

منور

هيبه والنبي يحرسك * فرح ما ينوصف عرسك

منور يا بعد كلبي * هلا بيك وهلا بحسك
فرحنا وكلمن يودنه * يجينا ويكعد بسدنا
غير الفرحة ما عدنا * الليله زفت الغالي
اوكلك يالزين معزب * ما خايف من واحد يعتب
الكلمات الشهيرة للأغنية العراقية تصدح في المكان
الذي تهباً لاستقبال العدد الضخم من الحضور في حفل
استثنائي بمكانه.. وروعه!
_ لأجلك كسر السندباد سفينته.. فصرت مرفأه و
شاطئه وكل وطنه.
يقولها يحيى الذي ارتدى بدلة عرسه البيضاء
وذراعاه يطوقان جسدها على شاطئ المكان الساحر
الذي ضمهما بدفاء غريب في ذاك الوقت من
العصر..

فتلثفت نحوه مبهورة بقولها :

_لم أصدق وأنت تقول أنك ستقيم لي عرسي في

(فينسيا الشرق) أن المكان حقاً بهذا الجمال!

كانت ترتدي ثوب عرسها الذي أصر يحيى أن يكون

مختلفاً تماماً في تصميمه عن ذاك الذي حضرت به

عرسهما في قصر الرفاعي..

بطراز شديد البساطة دون اتساع مبالغ فيه.. بلون

كريميّ تموج تطريزه الهاديّ بخيوط رفيعة من أفتح

درجات البرتقالي بشكل متعرج مائل فيما بدا لكليهما

فقط - وكأنهما يريان بنفس العين - كموج بحر ساعة

غروب.

الأهوار العراقية.. فينيسيا الشرق كما يسمونها.. جزر

من القرى العائمة والممرات المائية..

_ (لو يعطوني مليار ما أترك الأهوار)! كنت أسمعها
صغيراً من هؤلاء الذين يعودون من هذا المكان
يتندرون بجماله فلم أفهمها سوى الآن.. المكان كما
ترين هو مجموعة من المسطحات المائية التي التي
تغطي الأراضي المنخفضة الواقعة جنوب السهل
الرسوبي العراقي.. قديماً أسموها (البطائح) لأن
المياه تبطحت فيها أي سالت واتسعت..
يقولها يحيى ثم يشير حوله قائلاً :

_ الناس هنا يبنون بيوتهم عائمة فوق الماء.. البيت
العائم يسمونه (الصريفة) يبنونه من باقات القصب
يغرز بعضها حتى تتكون المساحة المطلوبة دون
استعمال مسمار أو اي مادة حديدية .. ثم يحيطونها
بسياج قوي من القصب للحفاظ عليها من الانجراف..

الأجمل أنهم يجعلونها باتجاه القبلة حتى تصبح بيوت
القرية كلها ذات نسق واحد.. وعلى مر السنين تتحول
الجزر العائمة لأخرى ثابتة وينتقل الأهالي من بيت
لبيت عبر زوارق كهذه التي ترينها يسمونها
(المشاحيف)..

تلتفت حولها بالمزيد من الإعجاب من سحر المكان
الدافئ الذي جمع البساطة بالفخامة.. دفء الريف مع
حسن تنسيق المدن..

كانت تقف أمام واحدة من (المضايف) التي أعدها
يحيى للعرس..

والتي تضافر بناؤها من القصب المتين مع زهور
الياسمين التي أصر هو أن يزين بها الفراغات.. لتبدو
في غاية الجمال والحميمية..

خمس مضايف كاملة امتلأت على آخرها بالحضور

كأنه دعا العراق كله!!

عام كامل تقريباً مر على زواجهما في قصر الرفاعي

لهذا يحسب الأقربون أنه مجرد احتفال بعيد زواجهما

لكنهما وحدهما يعلمان أنه عرسهما الحقيقي!

_ هيا.. موعد الموكب!

صوت نزار العابث بمرحه مع تصفيقه وصفيره يجذب

نظرها فتلتفت نحو يحيى بتساؤل :

_ أي موكب؟!

_ أظنه سيكون أغرب وأجمل موكب زفاف ترينه في

حياتك!

يقولها يحيى بمكر واثق وهو يقبل جبينها بفخر
فيرتجف قلبها برهبة الترقب وهي ترى الزوارق
الكثيرة التي تكدست حولهما..

والتي صار نزار مع بعضهم ينظمون ركوب
المدعوين لها..

وأخيراً تجد نفسها معه وحدهما واقفة فوق أحد
الزوارق الطويلة التي تتميز بها (الأهوار العراقية)
والتي يسمونها (مشحوف).. والتي يقودونها
باستخدام عود طويل من القصب..

تضحك باستمتاع وهي تراه يتقدم الموكب الذي نال
أصحابه زوارق مشابهة وهم يتبعونهم بينما يشق
يحيى الماء ليتوغل بها أكثر في المكان في أغرب
وأجمل رحلة تمنتها..



المياه تزخر بالعديد من أنواع الأسماك والقشريات
والسلاحف، ورغم أن القصب يعد النبات السائد لكن
معه البردي وزنايق الماء وعروس النهر..
ترفع وجهها بعينين متخمتين بالجمال والرضا نحو
يحيى الذي بدالها حقاً وهو يشق الماء الآن بما في
يده ك(سندباد) حقيقي..

لعله لم يكسر سفينته كما يظن..

لعله فقط وجد السفينة الصحيحة والبحر الذي لا

يخون!

المزيد من صوت خرير الماء وخوار الجواميس التي
يتميز بها المكان بل يتفرد بها كما يتفرد البدو بالإبل
إذ تعتمد عليه معيشة الناس هنا اعتماداً كبيراً..

مع هذا الصوت حولها لخفقان أجنحة البجع والبط

البري وأخيراً..

هذا ال (فلامنجو)!

فلامنجو!

تهتف بها بفرحة طفولية نزعته عن وجهها قناع
فظاظته المعهود وهي تصفق بكفيها فيضحك وهو

يقول بنفس المكر الواثق :

لهذا السبب بالذات تعمدت تأخير الحفل لهذا الموعد
من العام.. حيث تهاجر طيور الفلامنجو لهذا باحثة
عن الدفاع!

تدمع عيناها بتأثر مع هدير خفقاتها وهي تميز سرباً
صغيراً من طيور الفلامنجو بلونها المميز بين الأبيض
والبرتقالي والوردي..

كلها وقفت على ساق واحدة كعادتها..

فقط واحد منها وقف على ساقيه معاً بدا لها وكأنه

يخصها هي!

لم تشعر بنفسها وهي تستدير نحوه لتخفي رأسها في

كتفه وقد ابتلعها صمت تأثرها بهذه اللوحة الفنية

حولها..

_مهما تخيلت.. مهما حلمت.. لم أكن أتوقع موكب

زفاف كهذا!

تبدو له الآن كطفلة مبهجة بعيدة تماماً عن قناع

قوتها المعهود فيتوقف عن التجديف ليعانق خصرها

بساعده..

(سديم عينيها) الآن يشع بالآف النجوم التي بدت

وكانها ولدت لأجله هو.. فقط!

_ أن الأوان أن يريح (الفلانجو) ساقه المتعبة ويقف

على الاثنتين معاً واثقاً ان كليهما لن

تخذله. صحيح!؟

يهمس بها بما يشبه الوعد فتبتسم وأاملها تعانق

وجنته.. تتلمس أهدابه هامسة :

_ أخبرتني يوماً عن أجمل ما في.. لكنني لم أخبرك

عن أجمل ما فيك.

يبتسم بعمق عاطفته وهو يضمها إليه أكثر فتدلف

بخجل نادر بدا وكأنه يتوهج فقط في حضرته هو :

_ عيناك.. دون قضبان من كتمان.. كأنهما ولدا من

رحم قلبي.. فلا هما أبداً يجهلان حديثه ولا هو أبداً

يخطئ تأويلهما!

يفقد عقله تماماً في هذه اللحظة وشفتهاه تعانقان

شفتيها في لقاء عاصف لكنها دفعته برفق هاتفه

باستنكار :

_الناس!

_ عفواً! هل أصاب أذناي عطب ما؟!!! منذ متى يحوي

قاموس طيف الرفاعي كلمة (الناس) هذه؟!!

يقولها مشاكساً وهو يشدد ضمة ذراعه لها لكنها

تشير لما خلف ظهره فينتبه للزورق الأقرب لهما..

والذي كان فيه عاصي الرفاعي مع ماسة وأولادهما

ومجد..

الأخيرة التي لوحت لهما بذراعيها هاتفه بصوت عال

من بعيد.

_بابا.. ماما.. رحلة رائعة.. أحلى حفل رأيته.

_ أخفضي صوتك.. البنات لا ترفع صوتها هكذا!

كان هذا ضياء الرفاعي الذي بدا وكأنه ورث هيمنة أبيه..

لكن مجد هي الأخرى بدت وكأنها تطبعت بطباع أمها
طيف:

_ أخفض أنت صوتك.. لا أحد يرفع صوته عليّ.

يحمر وجه ضياء بغضب طفولي ليهتف بها :

_ انزلي إذن من زورقنا.. لا تركبي معنا.

تهم مجد بمناداة نزار كي يحملها معه لزورقه فعلا

لكن ضياء يهتف بها بغیظ وهو يمنعها :

_ افعليها وانزلي من القارب.. وسألقك بيدي في الماء

كي يأكلك السمك.

تخرج له لسانها مغيظة إياه بقولها:

_أست انت من طلبت ان انزل!؟!

_ هذه فقط ما أطعتني فيها!؟!!

يهتف بها باستتكار لتضحك طيف ضحكة عالية وهي

تراقب المشهد من بعيد لتغمز يحيى بقولها :

_ يبدو ان قصة حب تولد هنا.

_ لا.. لا.. لا.. لا تقوليها..

يقولها يحيى بغيرة واضحة على ابنته لتستمر هي في

الضحك قائلة :

_ الأيام بيننا.. ستري!

يصل زورق عاصي جوارهما تماماً في هذه اللحظة

ليتوقف بالرجل المهيب الذي بدت غابات زيتونه الآن

في أشد حالاتها صفاء وهو يمد ذراعه لطيف التي

تقدمت لتشبك كفيها في كفه الممدود لها..

_ لم يخذلني كفك الممدود هذا أبداً..
تقولها بامتنان ارتعش معه صوتها ليبتسم وهو
يرمقها بنظرة راضية قائلاً :

_ ولن يخذلك.

تبتسم ماسة بسعادة وهي تراقبهما بينما تهدد
(شمس) الصغيرة على ذراعيها شاعرة ان الله يمن
عليهم بالمزيد من بشریات الرضا..
فيما تهتف نور ببراعتها المعهودة :
_ هذا الحفل اجمل من حفل الزفاف الذي كان في قصر
أبي.

_ اسكتي! لا مكان اجمل من قصر الرفاعي.
يقولها ضياء بكبريائه الذي سبق سنوات عمره
ليلتفت نحو مجد كأنه ينشد تأكيدها..

فتَهز كتفها لتغيظه قائلة :

_ قصر الأمين أجمل طبعاً.

_ هذا يعني أنك لن تعودى إلينا؟!!

يسألها لتشيع بوجهها دون رد فيجلس مكانه عاقداً

ساعديه في حجره مطرقاً برأسه بينهما..

لكن مجد بدت وكأنها لم تحتمل ضيقه لتقول بدلال :

_ سأعود.. بالطبع سأعود.. هو بيت أمي أيضاً وليس

بيت أبيك وحده.

يرفع إليها ضياء عينيه بنظرة متناقضة بين رضا

شديد عن وعدّها وضيق من طريقة كلامها فتبتسم

ماسة هذه المرة وهي تميل على أذن عاصي هامية :

_ يبدو ان لدينا (سيد أزداد) صغير ينتظر الفرصة

ليكبر فياسر القلوب كأبيه.

يبتسم عاصي برصانة وهو يضمها إليه بأحد ذراعيه

بينما يضم اولاده بالأخر هامساً بما لم يسمعه

سواها :

_ليته يكون بحظ أبيه فيجد (معجزته) كما وجدت فيك

معجزتي.

وفي زورق آخر خلفهم كانت شجون تقف جوار سراب

وزوجها يراقبون يحيى وطيف بنظرات راضية..

تختلس الأولى نظرة جانبية نحو ابنتها تطمئن منها

على حالها ليرضيها ما وجدته في عينيها..

تبتسم بارتياح رغم ثقل الجرح على القلب المضرج

بدماء الغدر..

سعيدة لأجل يحيى الذي أنقذ العائلة في الوقت

المناسب..

سراب خسرت أبا لكنها كسبت أبا كحيى هي الآن

خير من توقن أنه سيكون أكبر داعم لها..

لن تخشى عليها بعد الآن..

طيف بعيد يجتاحها ملون بحمرة الغدر.. والقصاص!

غيث الذي خانها لتقتله استبرق فيغدر بهما الموت

معاً!

كم كانت تحسد استبرق على جمالها وقوة شخصيتها

وذكائها القادر على إدارة العقول..

والآن.. تشكر للقدر ان اختار لها هي دور الضحية..

قهرة المظلوم أرحم من عذاب الظالم!

يصل زورقهم لزورق يحيى فيتوقف به عدي ليصافح

يحيى بود وقد مزقت الحقيقة المخفية ما كان من

ستائر الشك..

فابتسم يحيى له ولسراب قائلاً :

_ شكراً لمجيئكما رغم مشقة السفر.

_ لا تقل هذا.. أنت أخي.

تقولها سراب بعاطفيتها المندفعة فيرمقها يحيى

بنظرة طويلة كأنه يذكرها ب(عهد الستر)..

قبل ان يلتفت لعدي بقوله :

_ اعتن بها.. هي أمانة في رقبتك.

يهز له عدي رأسه وهو يضم زوجته إليه فابتسم

شجون وهي تتأكد يوماً بعد يوم أنها لن تخاف علي

ابنتها مادام يحيى في ظهرها.

زورق آخر ضم إلياس مع العجوز مؤيد الذي صارت

مكانته لديه غريبة بين الخادم والصديق..

لعلها الحسنة الوحيدة التي تركتها له استبرق قبل
موتها أن عرفته بهذا الرجل الذي فطن لطيب معدنه
فصار يأنس به في وحدته في تلك الساعات التي يعود
فيها لبيته..

_العقبى لك يا سيدي.

يقولها مؤيد بحنانه المعهود وهو يتولى التجديف
بالزورق ليبتسم إلياس بشرود وهو يتحسس موضع
قلبه..

ربما لو عادت حبيبته..

ربما لو علمت أنه لا يزال على عهدهما..

ربما لو..

تقطع أفكاره وهو يرى العجوز يشير بحماسة نحو
مجموعة الصيادين من أهل الأهوار اوقدوا النار أمام
بيوتهم.. ليهتف به بفرحة راجية :

_إنهم يعدون خبز (الطابك) و(المسموطة).. اشتقت
لأكلات الجنوب هذه.. تسمح لي بشراء بعضها؟! ..

زوجتي (رياحين) ستفرح كثيراً بها..

ثم يكتسي صوته ببعض الحزن مردفاً :

_و (ناي) كذلك!

ينتبه إلياس على ذكره لاسم حفيدته التي رآه من قبل
يضربها في حديقة بيته.. لكنه لم يرها بعد ذلك..

فيهم بسؤاله عن الأمر لكنه يقتل فضوله في مهده..

ماله هو؟!!

يعطيه الإذن بالذهاب ليتوقف بالزورق فيسحب

العجوز حافظة نقوده من جيبه مهرولاً نحو

الصيادين..

يبتسم إلياس لسعادة يحيى وهو يلوح له من بعيد
بقبضته مؤازراً قبل أن ينتبه لتلك الصورة التي يبدو

أنها سقطت من جيب العجوز..

ناي!

هذه هي!

العجيب أن عينيه لم تنسجبا لملامحها الفاتنة كما

يفترض خاصة مع هذه الابتسامة الساحرة التي

منحتها للكاميرا بل بقيت معلقة بهذه السلسلة في

عنقها..

(لو بيا يندار العمر.. مو مرة أحبك عشر!)

فيخفق قلبه بجنون وهو يتلمس موضع القلادة في

الصورة..

نفس القلادة التي كانت ترتديها حبيبته..

يعلم أنها كانت موضة شهيرة.. كثيرات ارتدينها

وقتها..

لكن.. لماذا تصر فتاة في هذا العمر أن ترتدي قلادة

قديمة الطراز كهذه!؟

مؤيد أخبره انها كانت لأمها ترتديها كذكرى منها..

لكنه يبتسم ساخراً..

لعله قدره أن يلتقي أخيراً بشيء محسوس من بقايا

الماضي..

ولو مجرد قلادة قديمة!

لهذا لم يشعر بنفسه وهو يأتي بأغرب فعل قد يفعله
أحدهم!

يمزق الصورة!!

أجل يمزقها بهذا القدر الذي يسمح له بالاحتفاظ فقط
بصورة القلادة دون ملامح صاحبته..

هذا الذي وضعه الآن في حافظته بارتباك غريب على

رجل مثله قبل ان تتردد أنامله وهو لا يعرف ماذا

يفعل ببقية الصورة التي حملت وجه الفتاة..

ولا يدري لماذا بادر ساعتها بإلقائه في الماء لعل

التيار الجارف يداري جريمته الصغيرة!!

يفيق أخيراً على شعوره ببعض الذنب والعجب!

هل صار مجنوناً حقاً بكل ما يتعلق بالماضي؟!

كيف وهو الرصين يأتي بفعلة هوجاء كهذه؟!

ما ذنب الفتاة التي قطع صورتها ليلقيها في الماء في

فأل يراه سيئاً؟!!

وما ذنب العجوز الذي هو تقريباً سرق صورته؟!!

يلعن نفسه سراً وهو يعاود التجديف بالقارب نحو

الصورة لعله ينقذها..

لكنها تبدو وكأنها تراوغه..

فتتعلق عيناه أكثر باللامح الفاتنة المتراقصة على

سطح الماء كعفريت مشاكس قبل أن يمر زورق آخر

جواره يشغله فينتظر مروره كي يلتقط الصورة..

لكنها تختفي تماماً!

يبحث عنها من جديد بكل طاقته لكنه يبدو انه فقد

للأبد!

فقدھا.. إنما بقيت معلقة بعينيه وهو الذي ما عادت

عيناه تحفظان ملامح امرأة أبدأ!

فيطلق زفرة قصيرة وهو يعود بالزورق نحو العجوز

الذي بدا خافلاً تماماً عن كل هذا وهو يحدث

الصيادين بود..

فيتحسس حافظته في جيبه مكتفياً بغنيمته الآثمة..

صورة من قلادة!

وفي زورق آخر كانت حسناء تتولى التجديف وحدها

وهي تحاول اللحاق بزورق طيف لتشاكسها كالعادة..

لكنها تشعر بشيء ما يسير على قدميها فتقفز بهلع

يكاد يسقط بها الزورق وهي تميز هذا الكائن الزاحف

أمامها..

تصرخ صرخة عالية تجفل (الكائن) الذي يبتعد
بسرعة فتتهد بارتياح لكنها تسمع تلك الضحكة
العالية لأحدهم خلفها فتلتفت لتراه يقفز من زورقه
لزورها..

_ نزار!

تهتف بها باستتكار ليبتسم وهو يحاول التماسك بعد
قفزته فيبدو كبهلوان حقيقي وهو يفرد ذراعيه
حولهما هاتفاً بنبرته العابثة :

_ الحمد لله أنك تعترفين أنك تذكرين اسمي هذه
المرّة!

_ ما الذي فعله هنا؟!

تهتف بها بغیظ وهي ترفع المجداف في وجهه فيهبز
كتفيه ببراعة مصطنعة :

_ خيراً تعمل شراً تلقى..جئت أنقذك عندما سمعت

صرختك.

_ وما شأنك أنت؟!!

لكنه يتجاهل سؤاها ليميل عليها بقوله وهو يمتط

شفتيه باستياء مصطنع :

_ صرختك شنيعة! صوتك سيء جداً! هل أخبرك

أحدهم من قبل انك تصرخين كذكر الخرتيت في موسم

التزاوج؟!!

_ خرتيت؟!!

يتدلى بها فكها ببلاهة للحظة وهي تشعر بالخرج

لكنها تعود لتفرغ فيه غيظها وهي تسمع ضحكته

الطويلة بعدها هاتفة وهي تضربه بالمجداف على

كتفه :

_ انزل. انزل.. بدلاً من أن أريكِ عضة الخرتيت بعدما

أسمعتك صوته.. انزل!!

لا يزال يضحك بانطلاق وهو يبتعد بظهره هاتفاً بغمزة

عابثة :

_ حلو تهديد العض هذا! أعجبنى!

تكز على أسنانها بغيظ أكبر وهي تضربه بالمجداف

على رأسه هذه المرة فيتاوه هاتفاً بالم وسط

ضحكاته :

_ ستصيبيني بارتجاج في المخ

_ لعل هذا ما يحتاجه مخك حقاً كي ينضبط!

تعاود بها ضربه على رأسه لكنه يجذب منها المجداف

ليسيطر هو على الموقف فتهتف وهي تشير حولها :

_ غادر الزورق وإلا ستفضحنا.. بدأ الناس ينتبهون

لنا.

لكنه يطيل النظر لعينيها بنظرة دافئة تناقض عبثه

المعهود ليقول ببعض الجدية :

_ سأغادر.. لكن.. أريد أولاً أن أعتذر.

_ عن أي شيء؟! بلاويك كثيرة!

تهتف بها بغیظ فيبتسم ليقول بنفس النبرة :

_ عن سوء ظني فيك.. ظننتك كالأخريات.. ممن

اعتدت مرافقتهن.

تنظر له من طرف عينا لتشبح بوجهها قائلة :

_ قبلت اعتذارك.. امض لحال سبيلك وانتهيئا.

لكنه يستخرج من جيبه علبة مربعة صغيرة منحها

إياها قائلاً :

_ تقبلي هديتي وسأغادر فوراً.

تتأفف بضيق وهي تنتزعها منه هاتفة :

_ فقط لأفرغ حجتك.. انتظر.. لا تغادر حتى أفتحها.. لو

كانت مجرد مقلب منك فسألقيك في الماء بنفسي.

يبتسم وهو يرفع راحتيه ببراءة :

_ هدية بريئة.

تتسع عيناها بخجل شديد احمرت له وجنتاها بقوة

وهي تفتح العلبة لتمييز زجاجة العطر الشهيرة

داخلها..

الهدية فعلاً كانت بريئة لولا غطاء الزجاج الذي كان

على هيئة ساقين عاريتين متلاعبتين لامرأة!

_ هداياك تشبهك! وقحة!

تلقيا في وجهه فيتأوه وهو يعود بظهره للخلف
لتنساب شتائمها له وسط ضحكاته.. لكنه يهتف فجأة
وهو يشير بذراعه نحو شيء ما :

_ انظري! انظري!

تلتفت حيث يشير لتتسع عيناها بارتياح وهي ترى
طيف فيما يبدو قد تعثرت في ثوب زفافها الذي علق
بطرف الزورق.. تصرخ طيف وهي تشتم كالعادة
محاولة استعادة توازنها وسط محاولات يحيى
السيطرة على الزورق لكن توازنها يختل لتسقط في
الماء وينقلب الزورق بهما معاً!!

_ بومة!! بومة تزوج قنقذ! ماذا ننتظر من زيجة

كهذه!

يهتف بها نزار وسط ضحكاته التي انطلقت عاجزاً
عن إيقافها فتكم حسناء ضحكاتها وهي ترى وجه
طيف ويحيى يظهر أخيراً فوق الماء وهما يسعلان!
_ هكذا بالضبط يليق بك المكان يا برية!

يهمس بها يحيى ضاحكاً بانطلاق وهو يضم جسدها
المبتل إليه فترتجف بشعورها ببرودة الماء وهي
تتلفت حولها بحرج وهي ترى زوارق المدعوين
تقترب منهم لتطمئن عليهم..

حرج تحول لضحكة عالية وهي ترى ثوبها وبدلته قد
تلطختا بالوحل فتنتلق منها عبارتها الساخرة
عفوياً :

_ خرب بيتك! هل هذه ليلة الزفاف التي لن تُنسى
والتي وعدتني بها!؟!

لكنه يضحك ضحكة أخرى طويلة وساعده يشتد حول
خصرها لتتوهج عيناه ببريق خاطف ناسب همسه
المشتعل:

_ليلتنا لم تبدأ بعد! انتظري معركة تأخرت لشهور
وحان وقت بدأها!

تشهق متفاجئة وهي تراه يحملها فجأة بين ذراعيه
ليركض بها ما سمح به ارتفاع الماء البسيط حولهما
ليتوجه بها نحو اليابسة..

توقعت ان ينزلها ارضاً لكنه بقي يركض كأنه يهرب
بها من الجميع!

أصوات الزغاريد تدوي في أذنيها فلا تدري هل هي
حقيقية أم من وحي خيالها..

يتوقف بها أخيراً لاهت الأنفاس أمام (المضيضة) التي
بدت مختلفة عن البقية بزيتها من الزهور البرتقالية
الصغيرة والتي فتح لها بابها ليدخلها ويغلقها خلفه..
تتلاحق أنفاسها وعيناها تتسعان بانبهار مع رؤيتها
للمكان شديد البساطة والذي تخله الضوء عبر
الثقوب متناهية الصغر في جدرانه ليبدو لها كأنه فعلاً
مقطع من الدنيا كلها..

كأنه جنتهما الصغيرة البدائية البعيدة تماماً عن كل ما
بعالمهما الفخم المنعم!

الفرش متناهي البساطة الذي لا يكاد يرتفع عن
الأرض إلا قليلاً..

الأرض الطينية التي فرشت جميعها بالأصداف والتي
لونها لها كلها بالبرتقالي.. عدا ممر ضيق يسمح لهما
فقط بالمرور..

تغمض عينيها على دمعة كبيرة والمكان بتفاصيله
يعيد لها ذكرى الريف مع أمها..
لكنها هذه المرة لم تكن ملطخة بالمرارة والخذلان
كعهدا..

بل بحلاوة الحنين المشبعة بالعودة للجنور!
لهذا تأخذ نفساً عميقاً وهي تشعر به يطوقها بذراعيه
من الخلف لتهمس له :

هذه الرائحة.. لن تغادر أنفي أبداً.. بل لن تغادر قلبي
أبداً.

فيبتسم وهو يديرها إليه.. بعض خصلات من شعرها
المبتل تلتصق بجبينها ووجهها.. ثوبها ملتصق
بجسدها يقطر الماء منه فيعانق وجنتيها براحتيه
هامساً :

_ كأنك حورية خرجت لتوها من الماء لتسكن على
صدري.. لا أحتاج لسؤالك عما إذا كان أعجبك
الحفل.. عيناك تتبضان بفرحة لم أرها من قبل بهذا
الوضوح..

ثم يتلمس شفتيها بأنامله مردفاً بعينين غائمتين
بعاطفته :

_ ابتسمي حبيبتي.. ابتسامتك أجمل جائزة عن صبر
العمر الطويل.

ابتسامتها تبدو كشمس صغيرة أضاعت دنيهاً معاً

وهي تقبل جبينه هامسة باعتزاز :

_ هذا هو الجبين الذي يستحق أن أعيش ليبقى العمر

مرفوعاً.

فتمتد أنامله نحو شعرها المعقوص فوق رأسها

تحرره لتسدله على كتفيها..

يلفه حول قبضته بحنوٍ بالغ مرة تلو مرة حتى يحكم

سيطرته الرفيقة على رأسها فيلصق وجهها بوجهه

هامساً باشتعال عاطفته :

_ هكذا طال شعرك في عهدي أنا كما اردت فلن يقصر

بعد الآن أبداً.. كل شعرة فيه تشهد كم أحبك.. كم

أحبك..

لا يدري كم مرة كررها بين لقاء الشفاه الصاخب

ليهمس أخيراً عبر أنفاسه اللاهبة :

_ أخبرتك عن (أول) و(ثاني) و(ثالث) أجمل شيء

فيك صحيح؟!!

تبتسم لعذوبة الذكرى وبينما كان قلبها يسترجع

حديثه عن (قلبها) و(ضحكتها) و(عنقها) كانت

عيناها الجريئتان تلقيان بالسؤال عن (الرابع) ليرد

وهو يذيبها بين ذراعيه :

_ شفّتك! شفّتك عندما تجزلان العطاء فتحتكران

الدنيا كلها.. تصرخان بتحدّ ان لا قبلك ولا بعدك امرأة..

كأنك خلقت من نسيج وحدك.. لا تشبهين فيه أحداً ولا

يشبهك فيه أحد.

كان لا يزال يتحدث وهو يقبض بنعومة مسيطرة على
شعرها فتأوه بالم لذيذ وهي تطلق العنان أخيراً لكل
ما قيدته من جياذ عاطفتها الجموح..

تغلق عينيها على صورة ل(فلامنجو) صار يأمن
أخيراً أن يستند على قدميه الاثنتين..

تغلق أذنيها على صوت زغاريد تطلقها روحها بكل
جوارحها..

وتغلق قلبها على حبه الذي صار أغلى كنوز العمر.



بعد بضعة أشهر

نيلى



أنا لحيبي و حبيبي إلي

يا عصفورة بيضا لا بقى تسألني

لا يعتب حدا ولا يزعل حدا

أنا لحيبي وحيبي إلي

بصوت فيروز تسمعها زهرة في غرفة جهاد بالمركز

الطبي في برلين فتستعيد عهدهما القديم عندما كانت

تعمل معه في مشفى (أبو ظبي)..

تبتسم وهي تدخل عليه مستغلة انه وقت راحته..
حاملة كوباً من الشاي الأخضر فيضحك وهو يراها
بزي العمل..

يفتح لها ذراعيه.. وقلبه.. فلا يدري أيهما يسابق
لعناقها!

_فيروز كالعادة.

تقولها وهي تستند على حافة المكتب أمامه فيعلو
صوته هو بالغناء الرخيم يكرر معها..

وندهلي حبيبي جيت بلا سوال

من نومي سرقتني من راحة البال

فتضحك وهي تدندن بدورها بينما تتحسس دبلته (أنت

بدربك في جهاد.. وانا بحبك في جهاد) كأن كلمات

الغنوة صممت لهما خصيصاً.. :

أنا على دربه ودربه عالجمال
يا شمس المحبة حكايتنا أغزلي
أنا لحيبي و حبيبي إلي
_ أنا لحيبي.. وحيبي إلي.

يهمس بها كلاهما معاً متعانقي الأكف ليضحكا معاً
كأنما ردت لهما الغنوة كل سنوات الماضي بحلوها..
وحتى مرها الذي استحال حلواً!

_ سعيد لأننا عدنا نعمل معاً.
يقولها وهو يرفع كفيها لشفثيه بقبلة حانية فتمدع
عيناها لترد بسعادة منقوصة :
_ وأنا أيضاً.. ولو أنني..

تقطع عبارتها دون أن تكملها وهي تتحسس بطنها
ليتهد بحرارة وهو يدرك ما يؤرق ذهنها..

فقد نصحتها بروفيسور روبرت بتأخير الحمل لعام قادم

على الأقل قابل للزيادة حتى تتعافى تماماً..

يقف ليضمها لصدره محتوياً حزنها كعهده بقوله

الحاني :

_ (قدس) ستصل بإذن ربي في الوقت المناسب..

ستصل عندما نكون أنا وأنت مستعدين لاستقبالها

جيداً.. ومن يدري؟! ربما تصل لتجد القدس الحقيقي

قد تحرر فتكون نبوءة وبشرى!

تبتسم وهي ترفع عينيها إليه بعشق لم يتغير طوال

هذه السنوات..

_ كيف تفلحها دوماً بهذه البساطة؟! كيف تحيل الحزن

أملاً؟!!

فيرد بابتسامة شاردة :

_ تعلمت الدرس قاسياً يا نيلية.. مثلنا لا يسقط لأن
سقطته تساوي زلزالاً.. مثلنا خلق ليكون كالنخيل
يموت واقفاً مكانه حتى إذا مال لا يؤذي أحداً.

_ فخورة بك.

_ أنا الأشد فخراً.

يقبل بها جبينها باعتزاز ليري عبر نافذة غرفته معاذ
ابن صهيب يدخل من باب المركز عبر الحديقة فيهتف
وهو يمط شفثيه بغيره مصطنعة:

_ هاقد وصل صديقك الصغير ليشغلك عني.

فتضحك وهي تنتبه لمن يحكي عنه هاتفة :

_ لم يعد صديقي وحدي.. أراهنك أن يولاند تنتظر

لتتلقفه في الحديقة.

_ تعالي نذهب إليهما.. لم أتحدث إليها منذ وقت

طويل.

تطيعه لتخرج من غرفته نحو حديقة المركز فتكسب
رهانها وهما يريان يولاند تعانق معاذ بعاطفة حارة..
لكن هذا لم يكن وحده ما أثار دهشتها..

بل.. شكلها!

حجابها الذي عادت ترتديه بعد كل هذه الشهور
الطويلة في إشارة واضحة لما خلفه!!

_ ترين ما أراه؟!!

يهتف بها جهاد بلهفة فرحة لتضحك زهرة بارتياح
حقيقي وهي تتدفع نحو يولاند التي اعتدلت واقفة
عندما رأتهما..

تبتسم ببعض الخجل وهي تعدل وضع حجابها فوق
رأسها بحركة عفوية..

تعانقها زهرة دون سؤال كأنما تخرجت لكن جهاد
يقترب منهما ليتمتم بحذر وهو خائف حقاً من نكأ
الجرح الذي - بالكاد- تجاوزوه :

_ فدوى!؟

_ بل يولاند..

تقولها بحسم لتردف بيقين أثلج صدره :

_ يولاند صارت تعرف ما تسعى إليه.. صارت تعتنق
ما هي حقاً مؤمنة به..

يتبادل مع زهرة نظرات متسائلة لتردف يولاند
بابتسامة وهي تستعيد شهورا سابقة قضتها في
دراسة علم مقارنة الأديان.. في الإمام بتفاصيل الدين

الإسلامي الصحيح دون تهوين مخل أو تهويل
متشدد.. شهوراً كانت بمثابة عمر كامل ليكون
حصادها :

_ أشهد أن لا إله إلا الله.. وأن محمداً رسول الله.
تدمع عينا زهرة بتأثر فيما يقشعر جسد جهاد برهبة
حقيقية وهو يسمعها تردف بصوت أثقله إيمانه
وارجفته عاطفته :

_ من صميم قلبي هذه المرة.. بل من صميم عقلي
كذلك.

يشعر بجلال الموقف ليتمتم بخفوت:

_ سبحان الله..

ثم يتلو قوله تعالى: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله
يهدي من يشاء)

فيشعر وكأنما قُذفت في صدره ليفهمها الآن بعمق..

_ السلام عليكم.

صوت صهيب الذي وصل لتوه يصدح حولهم

بابتسامة راضية..

وعلى عكسهم لم يبدو هو متفاجئاً بشكلها الجديد..

ربما لأنه - بحدس ما - كان يتوقع لها الهداية!

يصادفه جهاد بود وقد أثبتت له الأيام طيب معدنه..

فيما تكتفي زهرة بابتسامة.. وتكتفي يولاند بنظرة

امتنان أخرسها عجز الكلمات..

_ أبي.

يهتف بها معاذ متذمراً بقوله :

_ لماذا جئت مبكراً؟! لا أريد الذهاب الآن.. دعني قليلاً

مع يولاند..

رأيت شكلها الجديد بالحجاب؟! الا تشبه أُمي؟!
يكفهر الجو فجأة بينهم بعد كلمات الصغير العفوية
ليحمر وجه يولاند بخجل بينما يتبادل جهاد وزهرة
نظرة ذات مغزى كأن نفس الخاطر راودهما في نفس
اللحظة..

لكن صهيب يقول برفق خالطه الكثير من الأسى :

_ أمك لن تشبهها امرأة أبداً.

يسود الصمت فجأة بعد عبارته فينتبه لما قاله ليغمغم

بحرج وهو يفيق من شروده :

_ عفواً.. لم اقصد إساءة.

لكن يولاند تبتسم بتفهم وهي عاجزة عن إخفاء

إعجابها بهذا الوفاء النادر..

هي التي جربت قسوة ان يخون رجل منحته امرأته

كل شيء فغدر بها وهي على قيد الحياة..

فكيف برجل يبقى على وفائه لامرأته بعدما حال

بينهما الموت!!؟

لهذا ربت على راس الصغير قائلة برفق حان:

والدك يبدو متعجلاً اليوم.. اذهب معه الآن وأعدك

بتعويض في الغد.

يبتسم لها معاذ ابتسامة تشبه ابتسامة أبيه الذي هز

رأسه لها ليقول بتقدير مقتضب :

_تهاني.

فتهز له رأسها بما يشبه الشكر لتراقبهما ينصرفان

قبل ان تسمع صوت إشعار من هاتفها بصوت الأذان

جعلها تلتفت نحو جهاد وزهرة قائلة :

_موعد الصلاة.. سأذهب.

يبتسم جهاد لزهرة وهما يعودان للداخل كي يؤديا

الصلاة بدوريهما..

لتغمغم زهرة بأسف :

_خسارة! وددت لو كان صهيب ليولاند.. كلاهما يليق

بصاحبه.

لكن جهاد يبتسم ليرد بحكمة :

_أما أنا فكنت متوجساً بشدة من هذا.. لو كانت يولاند

قد عادت للدين لأجل صهيب فما كنت لأثق انها تعلمت

شيئاً من درسها السابق.. دعي القدر يدور دورته

فيرسم أماكن العوض الصحيحة في الوقت الصحيح.



بنفسجي

في بيته بالصعيد يقف حسام يدخن سيجارته في
شرفة غرفته..

ينفت دخانها ببطء ليبتسم وهو يراه يتشكل أمامه في
صورة سحابة واعدة تعده بكرم الغيث..

كان قد عاد إلى هنا في زيارة قصيرة لأجل فجر التي
رغبت في زيارة أهلها في محاولة أخرى منها للتعافي
من أثر الماضي..

كم هو فخور بصمودها ورغبتها الحقيقية في التجاوز
رغم صعوبة الأمر عليها!

يطفئ سيجارته في مظافة قريبة ليشعر بكفي ديمة

على خصرها مع صوتها المغناج :

_ لماذا تركتني؟! قلقت عندما استيقظت ولم أجدك

جواني.

فيبتسم ابتسامة دافئة وهو يلتفت نحوها ليضمها

لصدره هامساً :

_ كنت أدخن.

تبتسم وهي تتذكر أنه لا يدخن داخل البيت أبداً لأجل

صحة سند ولأجلها هي التي تذكرها رائحة التبغ

بماضيها المومع..

بينما يجذبها هو ولا يزال يعانقها نحو الداخل ليغلق

باب الشرفة خلفه قائلاً :

_ عودي للنوم.. أنا قادم معك.

تهز كتفيها بدلال في إشارة لرفض فيضحك وهو

يداعب وجنتها برقة قائلاً بمكر عابث:

إذن ماذا تريدان؟!_

نسهر سوياً.. أحب هذا البيت.. أحبه.. و..

تتلثم حروفها واشية بهذه الغصة التي تجدها في

حلقها كلما تعثرت بحجر من أحجار الماضي..

هنا كانت تسكن امه الطيبة التي تسببت هي دون قصد

في موتها..

هنا أدخلها اول مرة بعدما انقذها من السجن وأعاد

لها حقيبة البروكار..

هنا أجلسها على المائدة ليطعمها بيده اول مرة..

هنا أحضرها ليداوي جروحها عندما قذفها الأطفال

بالحجارة لييلة زفاف طيف الأول..

هنا زارت هي امه لتكتشف المزيد عن ماضيه..
لهذا تبدو لها العودة لهذا البيت بالذات تحدياً جديداً..
ربما لهذا لم تستطع النوم ليغزوها الأرق مهدداً بفتح
دفاتر الماضي..

لكنها -معه وبه - تشعر انها قادرة على غلقها كلها!
_ تكرهين البلد؟! _

يهمس بها بإشفاق وهو يلاحظ تلعثها قارئاً في زرقة
عينيها خبايا روحها..

لكنها لا تتكلف مشقة الكذب في حضرته بل تعانق
خصره بذراعيها بكل قوتها لتقول بعفوية كعهدنا
معه :

_ لو كرهته لأجل اي شيء.. الآن أحبه لأجلك.

يهدي وجنتها قبلة دافئة تردها له ثلاثاً مشتعلات

لتهتف بلهفة :

_ ما رأيك لو نسهر معاً نشاهد أحد الأفلام؟! أعد لك

عصير الموز بلبن؟!!

_ هل هذه فكرتك عن السهر؟!!

يرفع بها حاجبه بمكر مشاكس وعيناه تفضحان

اشتياقاً لا يبرد ابداً.. فتضحك وهي تلكزه في كتفه

للتملص من بين ذراعيه هاتفة بلهفتها العفوية :

_ إنها فرصتي لأستفرد بك بينما فجر وسند نائمان..

اريد الثرثرة معك حتي الصباح.

ورغم ان عبارتها كانت عفوية تماماً لكنها ايقظت قلقاً

ما بصدرة جعله يسألها باهتمام :

_ أنتِ ضائقة بوجود فجر معنا?!!

فتشوق بعنف هاتفة بحرارة :

_أبدأ! إياك ان تكرر ها ثانية! يشهد الله أن حبي لها
من حبي لك.. أنا فقط أنانية..

يهز رأسه باستنكار لما تصف به نفسها خاصة وهو
يراها تعانق وجهها براحتيها لتغرقه بقبلاتها هامسة
بعاطفتها المشتعلة التي صار هائماً بحرارتها :

_أحياناً أود أن أختطفك من الدنيا كلها وأحتفظ بك
لي.. وحدي.

يكاد يعتصرها بذراعيه فاقداً كلماته كعهده في كل مرة
يراها تعبر فيها عن عاطفتها بكل هذا الجموح..
من كان يصدق انه هو.. حسام القاضي بسمعته
المعروفة.. يفقد كلماته في حضرتها..



وكيف لا؟! وهي ساحرته الصغيرة التي قلبت عالمه
رأساً على عقب لتمنحه بعد طول الظلام شمساً لا
تغيب!

_ لن اتأخر.. ثلاث دقائق بالضبط..

تتملص بها من بين ذراعيه من جديد بدلال لترفض
نحو المطبخ القريب فيبتسم وهو يجلس على الأريكة
القريبة..

تحيد منه نظرة لألبوم الصور فتعبس ملامحه وهو
يتذكر اي كارثة تسبب فيها يوماً مع إبراهيم ويسرا..
تسول له نفسه ان يفتحه ليتخلص من صورها متعجباً
كيف لم يفعلها من قبل..

ربما لانه رأى الأمر تافهاً!

لكنه يفتح الألبوم ليجدها قد اختفت بالفعل!

أحدهم قص صور يسرا ودعاء وأبقى فقط صوره

وحده..

_ أنا فعلتها!

تقولها ديمة بغيرة طفولية وهي تضع العصير أمامه

ببعض العنف ملاحظة الدهشة على وجهه لتردف

ببعض العدوانية :

_ لديك مانع!؟!

يكتم ضحكته وهو يضمها إليه بذراعه مسترضياً

لتثرثر هي كالعادة :

_ كان اول شيء فكرت فيه عندما وصلنا إلى

هنا.. ولولا يقيني أن هذا الألبوم كان غالياً جداً عند

والدتك - رحمها الله -.. وعندي انا الأخرى لأنه بمثابة

تاريخك كله لمزقت كل الصور التي كانت لك مع

أخرى قبلي.. لن نتركه هنا.. سأخذه معي لبيتي في
العاصمة.. أحب النظر إليه لأرى كم تزداد وسامتك
يوماً بعد يوم.. انظر.. انظر.. انظر..

تكرر لفظتها الأخيرة وهي تفتح الألبوم من اوله كانها
تستشهد على كلامها فيضحك وهو يقبلها بحرارة
هامساً :

ليس عندي أدنى شك أنني أزداد وسامة كلما ازددت
لك حياً ومنك قريباً.

ترمقه بنظرة دافئة مطمئنة وهي تستكين في حضنه..
لتقلب الألبوم حيث الصفحة الأخيرة هامسة :

انظر.. ماذا أضفت !؟

تتسع عيناه بصدمة تحولت لتأثر دمعت معه عيناه

وهو يرى الصورة الأخيرة التي أضافتها للألبوم..

صورة له معها هي وسند..

صورة له وهو.. يضحك!

ضحكة حقيقية بعيدة عن ضحكات الصور الزائفة التي

كان يطر بها حسابها الالكتروني ليصدرها للناس!

ليتذكر الآن فقط انها كانت وصية والدته!

بينما كانت هي غافلة عن هذا وهي مستمرة في

ثرثرتها العفوية :

_منتهى الفخامة.. منتهى الأناقة.. منتهى الوسامة..

(متلك ما جابوا.. لو شابوا).

يطلق ضحكة عالية وهو يكرر عبارتها هاتفاً بمرح :

_ (متلك ما جابوا.. لو شابوا!) جديدة هذه! متى

ستتوقفين عن إبهاري بعبارتك تلك!!؟!

فتضحك بدورها وهي ترفع سبابتها ملوحة بها مع

هزة كتفيها بدلالها الفخور :

_ لدي مخزون يكفي لإبهارك العمر كله!

ثم تشهق هاتفة :

_ العصير سيسودّ! اشربه!

تسقيه العصير بنفسها لتتهف بنفس الدلال الفخور :

_ لن تخبرني أنني لا أجوز ان اسقيك العصير لأنك

تحبه دون سكر ومجرد لمسي للكوب يجعله شديد

السكرية!!؟!

فيمط شفثيه باستهجان لتتهف بضحكة قصيرة :

_ قديمة جداً! صحيح!!؟!

_ تعالي اخبرك أنا بالجديد!

تشهق للمفاجأة وهي تجد نفسها فجأة أسيرة ذراعيه
وقد قلبها على ظهرها ليشرف عليها من علو
هامساً :

_ معك بالذات لا تسعني كلماتي.. أفضل التعبير بطرق
اخرى أكثر.. حرارة!
تكتم ضحكاتهما في كتفه مستعدة لاستقبال غزوه
الذي..

طغيانه الحاني الذي يكفي ليختطفها من الكون كله في
لحظات..

والغيمة الوردية التي طالما اشتاقتها سماؤها لتتلون
ب(قوس قزح).

ازرق

_ حمداً لله على سلامتك يا أستاذة.

صوت فهد الحبيب يصلها اول ما تفيق من اثر المخدر
في غرفة العمليات لتهمس بصوت مبحوح وهي تفتح
عينيها :

_ كيف هما؟!_

فيميل عليها ليقبل وجنتيها بقوة عاطفته هامساً :
_ الأولى أن تسالي عن حالي انا! كدت أموت قلقاً
عليك عندما تأخرت بغرفة العمليات.

_ هما بخير؟!_

تربت على كفه بحنان أمومي لم تفقده نحوه حتى في
لحظات كهذه لتعاود سؤالها القلق :

_ أين هما؟!_

_ لا تقلقي.. هما بأحسن حال.

تقولها ماسة التي تقدمت نحوها بالصغيرين تحمل كل

واحد منهما على ذراع لتقول بمرح :

_ لا تخافي.. لديّ خبرة كافية للتعامل مع التوائم.

يتناولهما فهد تباعاً ليريها لجنة التي دمعت عيناها

وهي تميز جمال خلقتهما الطبيعي..

قبل ان تضمهما بوهن لصدرها لتقول بحنان :

_ يشبهان ملك كثيراً.

_ لا طبعاً.. ملك أجمل طفلة في الدنيا.. لن يشبهها

احد.. ولا حتى هذان الخنفسان.

يهتف بها فهد بمرح وهو يداعب الصغيرين لتسأله

جنة وقد بدأت تستعيد رشدها :

_ ماذا سنسميهما؟!!

_ ابنتك سمتهما! (أسر) و (أمر).

تقولها ماسة بحماس ليطلق فهد ضحكة مكتومة وهو

يقول مستكراً :

_لوكا من سمتهما؟! بذمتك؟! أم عقلة الإصبع ابنك

الذي وسوس لها بالاسمين وظل ينخر في دماغها

كالسوسة حتى صارت متشبثة بالاسمين اكثر من

اسمي انا أبيها!!

ثم يزفر وهو يلوح بكفه مردفاً :

_ابنك هذا مصيبة! ورث جينات أبيه ويظن نفسه

المتحكم في الكون!

_ومالها جينات أبيه؟! عاصي الرفاعي وفخامة الاسم

تكفي!

تقولها ماسة باعتزاز لتكتم جنة ضحكتها وهي تحاول

الفصل بينهما قائلة :

_ للراحة ذوقه رائع! اعجبني الاسمان.. أسر فهد

الصاوي.. وأمر فهد الصاوي.

تقولها كأنها تجربها باستحسان ليهتف فهد معترضاً :

_ كنت اريد تسميتهما ليث وجواد.

_ ليث وجواد وفهد؟! غابة هي!!?

تهتف بها ماسة مستكرة بمرح هذه المرة فيحك ذقنه

بحرج ليتحنح مستدركاً :

_ معك حق.. ممم.. إذن نسمي أحدهما حسام على

اسم صاحبي والثاني مهند.

_ ماذا؟! لا.. لا.. لا.. صاحبك على عيني ورأسي.. لكن

لا أسمى ابني على اسمه.. يكفيننا (حسام) واحد.. نحن

بالكاد حللنا عقده!

تقولها جنة باستنكار ليهمّ باقتراح جديد لكنها ترفع

كفها في وجهه قائلة بنبرة متعبة رغم صرامتها :

_هما (أسر) و (أمر).. انتهى!

تتوقع منه المزيد من الجدل لكنه يبتسم وهو يقبل

عينيها معانقاً وهج البندق الذي عاد يتراقص فيهما

هامساً بعمق عاطفته :

_أوامر الأستاذة.

فتبتسم وهي تتحسس ندبة ذقنه الأثيرة لتهمس بغرام

متقد يزداد رسوخاً يوماً بعد يوم :

_أنت الأستاذ.. يا قلب الأستاذة.

=====

أحمر

==
_ابنتك صارت سعيدة يا أمي.. سعيدة جداً.
تقولها يسرا آخر اليوم أمام صورة أمها المعلقة في
قصر الصباحي لتتهد بارتياح وهي تتحسس بطنها..
الطبيبة رجحت لهما انه سيكون ذكراً..

حسن!

أخيراً يتحقق الأمل من جديد!

_كل الأمور على ما يرام.. ستصرفين الآن!؟
تقولها كوثر بحنان وهي تدخل عليها غرفتها حيث
تباشر عملها الخيري لترد يسرا وهي تنهض من
مكانها بأهة تعب خافتة :

نعم.. إبراهيم ينتظرني بالخارج.

لماذا تتعبين نفسك؟! ابق في بيتك ونحن ندير

المكان كما تريد بالضبط.. كأنك موجودة.

تقولها المرأة بإشفاق وهي تلاحظ إصرار يسرا على

القدوم يومياً لكن الأخيرة تربت على كتفها قائلة :

أنا استريح هنا.

تدعو لها المرأة بالبركة بينما تسدل يسرا نقابها على

وجهها لتغادر نحو الخارج حيث ينتظرها إبراهيم في

سيارته..

تبادره بضغطة حانية لكفه وابتسامة لا تظهر سوى

في عينيها فيقبل رأسها هامساً بعشق لم تعد تفتقر

جذوته :

ابتسامتك مكافأة آخر اليوم.. لا حرمني الله منها!

يقولها ليتناول عقد فل من الجوار لفة حول رسغها
عدة لفات ليرفع كفها إليه بقبلة ناعمة هامساً :

_ الفل للفل.

تضحك ضحكة راضية وهي تربت على كفه قائلة :

_ لن استطيع البقاء به طويلاً فلن نذهب للبيت

مباشرة.

يرمقها بنظرة متسائلة فترد بفرحة اكتسحت

شرودها :

_ أريد شراء ملابس الصغير.. كنت أنتظر تأكيد

نوعه.. سأشتري له منامات كثيرة.. تعرف؟! عندي

خزانة ملابس مكدسة بالمنامات.. كنت أشتريها

لشادي رغم يقيني أنه أبداً لن يلبسها.. ابقيتها مكانها

لن يمسها أحد.. الأمر مختلف هذه المرة.. أريد له

منامات بيضاء.. ناصعة البياض.. لن اسمح لها أن
تتسخ أبداً.

تدمع عيناه بتأثر وهو يشعر بها في حالة من حالاتها
النادرة عندما تتفصل عن الواقع جزئياً كان الماضي
بدوامته لا يزال يجيد اجتذاب روحها نحوه..

لكنه لا يسمح لها بالاسترسال في المزيد وهو يتخلى
عن تحفظه معها في الطريق ليضمها إليه بحنان كي
ينتزعها من شرودها هامساً بنبرة ذات مغزى:

لن تتسخ منامة طفل انتِ امه.

يقولها مدركاً أن هذا بالضبط ما تحتاج سماعه الآن
لتبتسم وهي ترفع إليه عينين دامعتين..

لتضحك ضحكة قصيرة وهي تقول ببعض التردد :

اذهب بنا إذن للمحل الذي تعمل فيه سمرا.

_ ماذا؟! لماذا؟!

استنكاره له ما يبرره لكنها تفسر بنبرة فاح منها
شعورها بالذنب :

_ أريد الاطمئنان عليها من بعيد.. هي تأذت كثيراً
بسببي.. لهذا لا اريدك ان تدخل معي.. وهي لن
تعرفني بنقابي.

يتردد قليلاً وهو يؤثر الابتعاد عن الماضي بكل خباياه
المزعجة..

لكنه يستسلم لشعورها هي بالذنب والذي اراد مداواته
ليطيعها فيما ارادت..

ولم تكذ سيارته تتوقف بها أمام المحل حتى ابتسم لها
بقوله الذي يعلم انه سيثير دهشتها :

_ أظنها فرصة مناسبة كذلك لشراء هدية..

ترمقه بنظرة متسائلة ليرد :

_فهد الصاوي دعانا لحضور عقيقة توأمه..

_وسنحضر!؟

تسأله بتشكك من طبيعته الغيور لكنه يبتسم لها قائلاً

بحسم متجاهلاً الحديث عن الماضي :

_الرجل له فضل عليّ ولن يمكنني رفض دعوته.

_اي فضل!؟

تسأله بتعجب فيتذكر يوم تعمد فهد أن يلتقيه ليشرح

له ظروف يسرا طالباً منه أن يمنحها فرصة أخرى..

لكنه يتكتم عن هذا مشيراً للمحل الذي بدت سمرا من

واجهته كأفضل ما تكون..

ليقول ببعض الدهشة :

_ ربما يكون ما أقوله غريباً.. لكنني الآن لا اشعر انها

تشبهك.

فتضحك يسرا برضا وهي تربت على كفه قائلة :

_ هكذا هي القلوب عندما تعشق.. لا تقتنع من الأشباه

بأربعين.. هو واحد فقط لا تخطئ بصمته.

_ صرتِ حكيمة يا "ام حسن"!

يقولها مشاكساً بأحب القابها إليها فترد وهي تتنشق

عبير الفل حول معصمها بعينين متقدتين بعاطفتها :

_ منذ صرت (حبيبة أبراهيم).

=====

أخضر



(الأخضر على الأسد! اللهم لا حسد!)

يهتف بها إيهاب مشاكساً وهو يستقبلها في سيارته
عقب انتهائها من التصوير لتضحك عزة بانطلاق
وهي تتخذ مجلسها جواره تعدل وضع ثوبها الأخضر
لتقول بفخر أنثوي:

__ منذ قلت لي انك لا تحبه إلا عندما ارتديه.. وأنا أعده
واحداً من انتصاراتي.

فيضحك برضا وهو يقود السيارة لتسأله باهتمام :
__ كيف كانت زيارتك لإياد!؟!



تتجمد ضحكته ليشوب ملامحه حزن حقيقي وهو

يرد :

_ رغم إصراره انه بخير وأنه راضٍ عن هذا الحكم

المخفف..ورغم شعوري بفرحته الحقيقية عندما

نزوره أنا وامي.. لكن قلبي ينقبض كلما رأيته هناك

وسط أولئك المساجين.. أخاف أن يؤذيه أحدهم..

لكنه يبتسم بعدها مردفاً بشرود :

_ عندما أخبرته عن مخاوفي ذكرني بتلك المرة التي

دخلت فيها معه الزنزانة ورأيت بنفسي كيف

صار عهم.. لا أظنه تتقصه القوة ليمنع عن نفسه

الأذى لكنني لا استطيع منع نفسي من الخوف عليه.

_ دعها لله! هو يلفف به في قضائه.. تجربة قاسية
لكن يقيني أن قسوة التجارب هذه هي ما تصقل البشر
وتجعل منهم النسخة الأفضل.

تقولها مواسية ليلتفت نحوها بنظرة ممتنة وبقبلة
لكفها يهمس بعاطفة :

_ دمت لي جنيتي التي تمنحني السكينة.
تبتسم بعاطفة حرة صارت تتوج علاقتها الجديدة به
وهي تعيد رأسها للخلف براحة حقيقية صارت تحياها
في كنفه لتقول :

_ هيا نذهب للتسوق.. أريد شراء ثوب مناسب يصلح
لحضور عقيقة توأم جنة وفهد.
فيصدر همهمة مستدركة ليقول :
_ كدت أنسى.. هو دعاني فعلاً..

ثم يضحك ضحكة طويلة وهو يتذكر موقفاً ما لهما
أثناء قضية الكوبرا فتسأله عن السبب ليرد وسط
ضحكاته :

_ الضابط بشر كاد يصاب بازمة قلبية عندما قال له
فهد ذات مرة عن عدد الأشخاص الذين يعرفون عن
القضية.

فتضحك لترد بنفس المرح :

_ ماذا لو علم عن جروب (الواتس آب)؟!
تتسع عيناه بتساؤل لترد بين ضحكاتها هي الأخرى:
_ كانت فكرة جنة.. جروب لتحديث معلوماتنا نحن
النساء عن مستجدات القضية أولاً بأول.. انا وهي
وطيف ورؤى.

ما شاء الله! هكذا صار كرتون (فتيات القوة)! له
حق الرجل ان يصاب بازمة قلبية والله! لولا ستر الله
لكنا جميعاً خلف حدود الشمس الآن!
يضحك بها ساخراً لتضحك بدورها وهي تستكين في
مقعدا ليذهب بها للتسوق..
مضايقات كثيرة فرضتها شهرتها لكن كليهما تقبلها
راضياً وهما يسيران جنباً إلى جنب متعانقي الكفين..
بل.. متعانقي القلبين!



برتقالي

_وصل الطرد!

تقولها طيف بسعادة وهي تستقبله عقب عودته من
مؤسسة الأمين ليطلق يحيي صيحة استحسان وهو
يحرك سبابته هاتفاً :

_إياك ان تكوني قد فتحته بدوني.

تضحك بمعنى النفي وهي تجذب كفه نحو الصندوق
الكبير الذي فتحه هو بلهفة ليستخرج منه ما رفعه
أمام عينيها بفخر..

_بلا قضبان.

يقولها باعتزاز وهو يمسك أولى نسخ روايتها

الجديدة..

والتي جعلت إهداءها له مفاجأة..

(إلى من اختطفني من نفسي..

واختطفته من نفسه..

فصرنا سوياً في التيه غرباء.. ووحده (الهوى) صار

لنا (هوية).

_الله! ووحده الهوى صار لنا هوية.

يهتف بها بإعجاب وهو يضع ما بيده جانباً ليقبل

وجنتها بقوة مردفاً :

_اول رواية تكتبينها بعد زواجنا.. وبنهاية سعيدة!

ثم يتحنح مردفاً بمكر :

_ولو أنه ليس الإهداء الأول لي.

تضحك وهي تتذكر ما يحكي عنه لترفع حاجبها بتحدّ

لذيذ يحبه ويليق بقولها بعده :

_ لا تنكر أني نفذت كل ما وعدتك.. و (توعدتك) به!

فيتأوه بحرارة وهو يضمها إليه بقوة هاتفاً :

_ جبارة أنتِ..

ثم يردف وهو يغرق وجهها بقبلاته :

_ وكم أعشق جبروتك.

تضحك برضا وهي تبتعد بوجهها عنه فيبارك نجاح

روايتها ليسألها بعدها بترقب:

_ لا أخبار جديدة حلوة!؟!

كانت تعرف ما يقصده خاصة وقد أخبرته بتأخر موعد

دورتها الشهرية منذ بضعة أيام..

لكنها غمغت بخيبة لم تشأ الاعتراف بها :

لست حامل.

يشيح بوجهه ببعض الضيق فتبتسم وهي تسأله :

لماذا تتعجل هذا الأمر هكذا؟! لم يمضِ على زواجنا

الكثير.

فيحيط كتفها بقبضتيه قائلاً بعاطفته الهادرة :

يشهد ربي أنني ما تمنيت شيئاً في حياتي كما تمنيت

طفلاً منك.. ستكون أعظم بشارة في الكون.

تبتسم بأمل شع في محياها ليردف بنبرة أكثر مرحاً :

(الصيت ولا الغنى)! ألا تقولونها هكذا في مصر؟!!

لقد حملتِ كذباً مرتين من قبل لكنني أريد ان انال

واحداً حقيقياً هذه المرة!

تتطلق ضحكاتها صاخبة وهي تتذكر ما يحكي عنه
فيشاركها الضحك للحظات قبل ان يتلفت حوله
ليسألها عن مجد..

فترد ببشاشة:

_تساعدها الخادمة في تحضير حقيبتها استعداداً
للسفر كي نحضر عقيقة ابني فهد الصاوي.
فيهمهم بإدراك قائلاً :

_ولو أن السفر حالياً صعب لأن الشركة بالكاد تقف
على قدميها بعد الكبوة الأخيرة.. لكن لا بأس..
_يمكننا السفر وحدنا والاعتذار لفهد..

تقاطعها بها بتفهم لكنه يحرك سبابته علي شفيتها
هامساً بحسم:

لن أتركها لحظة واحدة.. أنا بالكاد أحتمل ساعات
عملي بعيداً عنكما.

تبتسم بحنان وهي تلاحظ ملامحه المرهقة بعد يوم
عمل طويل لتسأله عن رغبته في تناول الطعام لكنه
يخبرها انه تناول غداء خفيفاً في المكتب ثم يبسط
ساعده على كتفها ليتحرك بها نحو غرفتهما قائلاً
بنبرة مرهقة:

متعبٌ جداً.. لكن أجمل ما في اليوم أنك معي أخيراً.
فتبتسم وهي تشعر أنها تشاركه نفس الإحساس..
أجمل ما في اليوم انه معها أخيراً.

أطلب منك شيئاً وتعديني الا تعيريني به عندما
أستيقظ!?!!

يقولها بعدما بدل ملابسها ليستلقي جوارها على

الفرش فتضحك وهي ترد بمشاكسة:

_ لست قليلة الذوق لأعيرك اول ما تستيقظ.. أعدك ان

انتظر نصف ساعة.

يضحك وهو يستجيب لضميتها الحانية فيلقي رأسه

على صدرها هامساً :

_ حكايتك القديمة التي كنت تحكيها لمجد.. تعجبني.

فترفع حاجبيها لتقول بتهكم :

_ أظني سأبدأ المعاييرة من الآن.

يضحك للحظات ثم يشدد ضمة ذراعيه لخصرها

هامساً بعينين نصف مغلقتين:

_ لا.. طيف طيبة القلب ورحيمة بالمساكين امثالي
الذين يعودون متعبين من العمل ويريدون سماع
الحكايات قبل النوم.

ثم يفتح عينيه ليردف بنبرة أكثر جدية :

_ تذكرتها اليوم صباحاً ولا ادري لماذا شعرت أنني
افتقدت صوتك كما كنت تحكيها وقتها.. بماذا كنت
تبدئينها!؟

فتبتسم وهي تضم رأسه لصدرها بحنو هامسة :

_ كان ياما كان ولا يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه
الصلاة والسلام..

يصدر همهمة راضية وهو يمرغ وجهه في صدرها
لتبدأ في سرد حكايتها وهي تشعر معه من جديد
بنفس الشعور المزدوج..

عجبا له من رجل يجيد منحها الشعور بأمومتها له
تارة..

وبينوته لها تارة أخرى!

ربما لهذا عشقته بكل ما أوتي قلبها من حب!
بينما تعلقت عيناه بسلسلة عنقها التي حملت اسمه
ليكنتم تنهيدة صدره وهو يغلق عينيه عليها..
ربما حرمه القدر أمأ..

لكنه منحه امرأة برتبة أم وعاشقة وابنة وصديقة..
فأي قلب يكفيها كي يعشق كل وجوهها هذه؟!
وأي عمر يكفيه كي يتنعم بعطايا من هي مثلها؟!
=====

أبيض

في غرفة الرسم خاصته يجلس عاصي أمام لوحته
الجديدة..

يحاول وضع أول خطوطها..

يبتسم بترقب وهو يرى باب الغرفة يفتح فينظر
للأسفل ليجد شمس تحبو إليه وخلفها ماسة تضحك
هاتفة :

_ترفض النوم دون أن تقبلها!

يبدو وكأنه احتكر حنان الدنيا كلها في عينيه هذه
اللحظة وهو يترك ما بيده ليهرع نحو الصغيرة

فيحملها إليه لتعلو ضحكاتها البريئة وهو يلاعبها

قائلاً :

_ مادامت لا تريد النوم.. دعها.

يقولها ليمطر وجه الصغيرة بقبلاته ثم يضمها ل صدره

فتبتسم ماسة وهي تداعب شعرها هاتفة باستنكار

مصطنع:

_ هذه الصغيرة بالذات ستفسدها بدالك يا سيد

عاصي.. لم تكن هكذا مع نور وضياء.

فيبتسم وهو يدرك ضعفاً خاصاً في نفسه تجاه

(شمس) بالذات ربما لظروف ولادتها الاستثنائية

ومرضها الذي التهم شهور عمرها الأولى..

لهذا يبقى يلاعبها بصبر لوقت طويل بعدها حتى تتأقل

جفناها لتنام أخيراً على كتفه..

فهمست له ماسة وهي تتناول الصغيرة منه برفق

خشية إيقاظها :

_ ستعود للرسم!؟!

لكنه يهز رأسه نفيماً وهو يربت على ظهرها برفق

قائلاً :

_ ضعيتها في فراشها وتعالى.. أظن اليوم موعدنا

لرحلة تأخرت كثيراً.

ترمقه بنظرة متسائلة لكنها تطيعه لتعود إليه فيبتسم

لها هامساً بدفء زيتونيتيه:

_ لم تفتقدني نزهة المركب!؟!

تتسع عيناها بحنين جارف لما يحكي عنه..

منذ عادا معاً لهذا القصر وهي تفتقد نزهتهما على

المركب كما كانا في عهد حبهما الأول..

لهذا بدلت ثيابها سريعاً لتغادر معه القصر نحو
المركب القديم..

تخفي ابتسامة شوقها في كتفه وهي تشعر أن
خطواتهما الآن تطوي العمر طياً لتعود بها لنشوة حبه
الأولى..

وما كادت تستقر معه على سطح المركب لترمق
السماء التي بدت لها في هذه اللحظة..
وفي هذه البقعة بالذات..

كصديقة عزيزة طال غيابها..

حتى وجدته يقولها كتلك الليلة البعيدة..

(عيناك خطيرتان جداً في ليلة كهذه.. عندما يغيب

القمر فكأنهما يستودعهما كل نوره وسحره)

فتدمع عيناها بعمق اشتياقها وهي تبسط راحتها

على صدره هامسة :

_ شكراً على حب لم تزده قسوة الأيام إلا توهجاً.. يبدو

لي دوماً وكأنه أخذ من اسمي نصيباً.. لا يزيده

الخدش إلا صلابة.

_ كيف مر العمر بهذه السرعة؟! بل كأنك أنتِ منحتني

بعد العمر عمراً.

يقولها بنبرة راضية صار يسكبها قلبه قبل شفثيه

فتبتسم هي الأخرى برضا وهي تسند رأسها على

كتفيه..

لتسأله باهتمام :

_ ماذا سترسم في لوحتك الجديدة؟!!

_ فجر!

يقولها باقتضاب شكت معه أنه سيكمل لكنه عاد

يسترسل بحماسة فنان :

_ خيط مجنون يضرب بين ليل وصبح.. سهم مارق

يشق طريقاً بين ظلمة ونور.. لوحة مقسومة

نصفين.. نصفها في ليل خبت معه مرئياتها ونصفها

في نهار سطع فيه بهاؤها.

_ أعجبتني الفكرة.. أظنها ستكون رائعة.

تهمم بها باستحسان ليبتسم وهو يضمها بحنو

متسائلاً :

_ تشعرين بالبرد !؟

_ لا برد في حضرتك وأنت تحمل دفء الدنيا كلها بين

كفيك.

تهمس بها بصدق مستكينة بين ذراعيه ليبقى كلاهما
يسامر صاحبه في ليل طويل قصره همس العاشقين..

لكنها التفتت نحوه اخيراً لتهمس بنبرة آسفة:

_ لن نستطيع السهر أكثر.. يجب أن نسافر بالغد

لحضور عقيقة ابني فهد.

فيبتسم بتفهم وهو يقبل رأسها ليغادر معها نحو البيت

من جديد..

وهو يشعر أنه جدد عهد هواهما القديم بزيارتها

للمركب هذه..

يتركها لنومها وقد غلبه أرقه ليتوجه نحو المرسم

فيبدأ في رسم لوحته..

وهو لا يشعر بها كأنها مجرد لوحة..

بل نبوءة لعهد جديد تتفتح براعمه في كنفه..

فجر يولد بين ذراعيه ليفصل بين ظلمة ونور!



في حديقة أحد النوادي الهادئة حيث يقيم فهد عقيقة
طفليه تتبعث تلك النغمات لأغنيات طفولية شهيرة..
بينما رصت الموائد المتجاورة استعداداً لاستقبال
الضيوف الذين وصلوا تباعاً..

_الطباخ لم يجد تسوية اللحم..وما هذه الكمية في
الأطباق؟! هل سرق الباقي؟! هذا نصب! سأخرب
بيته!

تهتف بها جنة بثوريتها المعهودة وهي تتفقد الطعام
على الموائد ليضحك فهد وهو يضمها إليه محاولاً
تهديتها بقوله :

_اهدئي يا جنتي! الكمية مناسبة والطعام رائع.

_ لا.. ليس رائعا.. ذوقك في الطعام غير متطلب لهذا

تراه رائعا.

_ يا ستي احمدي ربنا أنني غير متطلب.. أرجوك يا

استاذة دعي اليوم يمر على خير وانسي ثورتك

قليلاً.

بالكاد يكتم بها ضحكاته وهو يحاول إثناءها عن

تقريع الطباخ ليهدف بها مشيراً للطفلين اللذين

استقرا قريباً فوق مهد أعد خصيصاً لهما بلون

سماوي هادئ..

_ أدركيهما.. يبكيان!

يهدف بها بمبالغة لينجح في جعلها تركض نحوهما

بشهقة أمومية حنون نسيت معها ما كانت تحكي

عنه..

لتتطلق ضحكات ملك الصغيرة وهي تسمع ضياء الذي

كان يراقب الموقف يقول :

_ أبوك ذكي جداً.. رأيت كيف خدعها!

_ ابي ليس خداعاً.. هو فقط أرشدها للصواب..

تهتف بها مدافعة ليضحك فهد وهو يربت على رأسها

هاتفاً :

_ حبيبة أبيك..

بينما يحمل ضياء من ياقة قميصه ليرفعه إليه مردفاً

بغیظ :

_ وأنت يا عقلة الإصبع.. لا شأن لك بي ولا بزواجتي.

يحاول ضياء التملص من ذراعه القوي ولما يعجز

يقبل رأسه هاتفاً بخنوع زائف:

_ حبيبي يا خالو.. كنت اعبر لها فقط عن إعجابي بك.

يهم فهد بتقريعه الساخر لكنه يلمح إبراهيم قادماً مع
يسرا بشكلها الجديد بنقابها الذي تعجبه ليهمس
سراً :

_ سبحان مقلب القلوب.

يضع ضياء ارضاً ليتقدم نحو إبراهيم مصافحاً
وشاكراً علي الحضور..

بينما تتحرك يسرا نحو جنة لتمنحها هديتها..
تبتسم جنة بتسامح وهي تصافحها لتتقدم بها نحو
مكانها هناك جوار ماسة حيث عرفتها لها جنة ليرتفع
حاجبا ماسة وهي تنهض لتعانقها هاتفة بود :

_ يسرا! لم نلتق منذ زمن بعيد!

فتبتسم يسرا ببعض الخزي وهي تستعيد تاريخها هذا
مع ماسة أيام زواجها من فهد..

خزي نفضته سريعاً وهي تربت علي كتف ماسة قائلة

برقة:

_صرت أجمل واروع.

فتضحك ماسة وهي ترد لها عبارتها :

_لا تجامليني.. بعد ثلاثة أطفال اشعر وكانني دهستني

حافلة.

_بشرك الله بالخير.. أنتم السابقون ونحن اللاحقون!

تقولها جنة بمرح وهي تبسط راحتها علي صدرها

فتضحك ثلاثهن وهن يتخذن مقاعدهن..

_خيراً.. اللهم اجعله خيراً..

تهتف بها طيف بفظاظتها المعهودة وهي تقترب

منهن لتشير لماسة بنظرة متسائلة عن هوية المنتقبة

للتتحنح ماسة قائلة :

_يسرا الصباحي.

يرتفع حاجبا طيف بدهشة لتكتم ضحكتها المتعجبة..

يوماً ما كانت هذه بالذات غريمتها الأولى!

لكنها تصافحها بهدوء لتقول بفخر لم تملك منعه في

موقف كهذا :

_أنا طيف الرفاعي.

تقولها وهي تتذكر يوم علمت بزواج حسام من ابنة

الحسب والنسب..

من كان يخبرها وقتها وهي تكاد تموت بحسرتها

وقهرها ان الأيام ستتبدل هكذا..

ويتغير معها كل شيء!!

_رؤى!

تهتف بها جنة بسعادة وهي تراها قادمة نحوهن من
بعيد بخجلها المعهود وقد تركها راغب ليقف مع
الرجال بعيداً..

للتقدم منها رؤى بخطوات مندفة فتعانقها بعاطفة
حقيقية لم تغيرها هذه السنوات هاتفة ببراءتها
المعهودة :

_ مبارك حبيبتى..رزقك الله برهم جميعاً وبارك لك
فيهم.

ترمقها جنة بنظرة طويلة شاردة وهي تستعيد عهد
صداقتهما القديم..

قصتهما العجيبة التي تداخل فيها قدراهما بهذه
الصورة المدهشة..

لكنها تحمد الله ان صداقتهما لم تتأثر..

لتبقى القلوب عامرة بحب صادق لم تزده الأيام إلا

نضجاً!

_نجمتنا وصلت!

تهتف بها جنة بترحاب وهي تفتح ذراعيها لعزة التي

تقدمت نحوهن بحركة سينمائية مرحة تؤرجح فيها

ساقها برشاقة..

ثم تضحك هاتفة بمرح :

_اسمعن! لا أحب الحديث عن شهرتي في تجمعات

الأصدقاء.. انا متواضعة جداً مع عامة الشعب.

تقول عبارتها الأخيرة بغرور مصطنع لتتطلق

ضحكاتهن جميعاً وهن يصافحنها تباعاً..

_هل بقي لي مكان!؟

تهتف بها زهرة التي تقدمت نحوهن بمرح لتضحك
طيف وهي تندفع نحوها لتكون أول من تعانقها :
_وسّع وسّع للوارد الألماني! زدتِ جمالاً يا بنت! هل
يزيد الزواج الجمال هكذا؟! أخيراً وجدنا فائدة لطبيبك
ازرق العينين شبيهة الدمية!

تلك زهرة في كتفها مداعبة لتضحك جنة وهي
تتقدم لتعانقها بدورها هاتفة بين ضحكاتهما :
_ لا فائدة! (قارشة ملحته) من أيام (أبو ظبي)!
تمصص طيف شفيتها بتهكم مرح وهي ترى زهرة
تتقدم لتعانق ماسة بدورها وتكمل تعارفها على البقية
فتعود لتتخذ مجلسها جوارهن..

وفي مكانها وقفت ديمة تراقبهن من بعيد جوار حسام

الذي حاول دفعها برفق نحوهن هامساً :

_ اذهبي إليهن.. كي أذهب انا مع الرجال.

لكنها بقيت ممتعة الوجه وهي تهمس له بنزقها

المعهود :

_ طيف ويسرا معاً!! لا ينقصني سوى حضور دعاء

أيضاً لتكتمل قائمة نسائك!

فيضحك مراعيًا غيرتها المغالية التي بقيت عيباً

فيها..

عيباً أحبه رغم كل شيء!!

لهذا يهتف مهدئاً وهو يحاول دفعها إليهن من جديد :

_ تعقلي يا مجنونة! كل منهن صارت لها حياتها

الآن.. وأنا صارت لي أجمل حياة أيضاً.

يقولها متودداً لكنها لا تتبته إلا لشطر عبارته الاول

فتهتف بنزق:

_مجنونة؟! بالطبع عدت تراني الآن مجنونة مادامت

هما هنا!!

يعجز عن كتم ضحكاته وهو يراها الآن كطفلة غيور

صعبة السيطرة خاصة وهي تلكزه في كتفه هاتفة :

_كف عن الضحك.. لا تتحرك من جوارى.. ابق هنا.

_حسام.

يناديه فهد من بعيد في هذه اللحظة مشيراً له ان

يقترّب منهم لكن ديمة تتشبث به بكلا ذراعيها

هامسة :

_لن تذهب لأي مكان.. ابق جوارى حتى ينتهي

اليوم.

_ ديمة..

يهمس بها مسترضياً فتشيع بوجهها بينما تزداد به
تشبهاً ليهمس بنبرة مدللة اكثر :

_ حبيبي.

تلتفت نحوه بنظرة لانت كثيراً ليتهد وهو يعانق
وجنتها براحته هامساً :

_ امرأة تملك هاتين العينين لا تحل لها الغيرة مطلقاً!
القلب الذي تدخلينه يغلق بعدك كل شرفات الحب كي
لا تطل على سواك!

تلتوي شفتاها بابتسامة بدت طفولية فيضحك وهو
يميل على أذنها مردفاً بطغيانه الحاني:
**_ كم اود الآن لو أدلل ابتسامتك هذه بما يليق.. لكنني
أعدك بتعويض مناسب في بيتنا.**

تتحول ابتسامتها لضحكة خجول وهي تخفي وجهها
في كتفه فيدفعها برفق ليتحرك معها قائلاً بمهادنة :
_والآن اذهبي إليهن.. وسأذهب أنا للرجال.

_لن تنظر نحونا ابداً.. ولا حتى لتبحث عني! انظر
للسماء.. لا لا.. ستوجعك رقبتك.. انظر للأرض إذن.
ترفع بها سبابتها بنبرة تهديد بدت مضحكة على
طبيعتها الطفولية لكنه يتقبلها صابراً وهو يشير
بسبابته نحو عينيه واحدة تلو الأخرى تباعاً ليهمس
باستسلام :

_حاضر! سأنظر للأرض.. أوامر أخرى!؟!
تهز كتفها نافية بحركتها ذات الدلال فيضحك وهو
يتركها أخيراً لتتقدم هي نحوهن بتردد لم يلبث ان

استحال لألفة وهي تتجذب تدريجياً لأحاديثهن.. فتجد

نفسها تشاركهن المرح تدريجياً..

ثمانية نساء بعدد ألوان قوس قزح جمعتهن قسوة

ظلام الماضي والآن تجمعهن حلاوة الحاضر..

_جاءتني فكرة صورة رائعة.. تليق بنا كلنا.. تعالين.

تقولها ماسة مخاطبة إياهن وهي تشرح فكرتها لهن

فيستحسنها جميعاً ليقمن لتنفيذها..

هناك على الجدار المقابل لمهد الطفلين وقد رسم

قوس قزح تمسك يسراً خيطاً من البالونات حمراء

اللون لتبدأ في تثبيتها تحته..

تليها طيف تثبت شبيبتها البرتقالية..

الصفراء تثبتها رؤى..

الخضراء لعزة..

الزرقاء لجنة..

النيلية لزهرة..

البنفسجية لديمة..

والبيضاء لماسة.

قوس قزح!

يهتف بها الأطفال فرحين وهم يشهدون الشكل
الجمالي الأخير للبالونات على الحائط فيركضون
نحوه بانبهار..

فيما يهتف فهد بمرح :

منذ ولادة ملك وأنا أصورها صورة كل يوم كي
تحتفظ بعمرها كله في اليوم.. عرفت فكرة صورة
اليوم.. هيا.. تجمعوا كلكم هنا.. أمام قوس قزح.

يقولها ليلحق كل رجل بزوجته يضمها إليه وأمامهما
الأطفال ليثبت فهد الكاميرا الواقفة في وضع التصوير
ثم يتحرك بسرعة ليدرك مكانه في الصورة!

يسرا وابراهيم

طيف ويحيى

روى وراغب

عزة وإيهاب

جنة وفهد

زهرة وجهاد

ديمة وحسام

وأخيراً ماسة وعاصي..

صورة ستبقى عالقة لوقت طويل بجمال روحها في

أذهانهم جميعاً..

ربما لأنها تجمع أول الرحلة بآخرها..

منذ صراع الماسة والشيطان..

وحتى عودة الألوان..

وكان كلاً منهم يبصر فيها الرسم الأجل.. والنهاية

الأروع.. فيهدف مشتاقاً بقوله :

عدت يا نورس الحب المهاجر

عدت يا قوس قزح.



تمت بحمد الله
لعلنا نلتقي يوماً ما لنكمل الحكايات
(على خذّ الفجر)..

بدأت كتابتها يوليو 2017

انتهت كتابتها يونيو 2022

نرمين نحمد الله

إهداء

إلى رجل يساوي كل العالم

إلى رجل دللني كابنته

وتعلق بي كأمه

واحترمني كمعلمته

وأحبني كامراته

إلى رجل يستحق أن يقال عليه : (رجل)